

فَتْحُ الْوَعْدِ الْمُسْتَعَرِّ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَأَلَّفَ

الإمام أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي

٥٠٨ - ٥٩٧ هـ

دار ابن حزم

المكتب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى الجديدة

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

الكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب. ١١/٢٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠ (٠٥)

دمشق : ص.ب. ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧

عمّان : ص.ب. ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

دار ابن خزيمة للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب. ١٤/٦٣٦٦ - تليفون : ٧٠١٩٧٤

فِزَالِ الْمُسَيَّرِ
عِلم التَّفْسِيرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثالثة

بقلم: زهير الشاويش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد، فهذه الطبعة الثالثة من «زاد المسير» للإمام العلامة ابن الجوزي، الذي شرفني الله منذ عشرين سنة بإخراجه إلى دنيا الطباعة والانتشار، بين محبي كتاب الله، ونفع به. فله سبحانه الفضل والمنة، وبنعمته تتم الصالحات. ثم يسر الله لي المتابعة في هذا الطريق، وتقديم العدد الكبير من تراثنا العظيم تفسيراً، وعقيدة، وحديثاً، وفقهاً، جعل ذلك ذخراً لي يوم الدين. يوم لا ينفع مال ولا بنون، يوم يلقي الناس جزءاً أعمالهم. ولا يظلمون شيئاً. ومن ذلك «جواهر الأفكار» للعلامة الشيخ عبد القادر بدران؛ و«التفسير العصري القديم» للشيخ عبد الفتاح الإمام؛ و«قرة العينين على تفسير الجلالين» للفاضل الشيخ محمد كنعان؛ و«البرهان على سلامة القرآن من الزيادة والنقصان» للعلامة الشيخ سعدي ياسين؛ و«تفسير جزئي عم وتبارك» للأستاذ أحمد مظهر العظمة؛ و«الفلم القرآني» للأستاذ عبد الرحمن الباني؛ و«لمحات في علوم القرآن» للدكتور الشيخ محمد بن لطفي الصباغ؛ و«علوم القرآن» للدكتور عدنان زرزور، و«التجويد وعلوم القرآن» للأستاذ عبد البديع السيد صقر؛ و«فوائد قرآنية» للعالم الجليل الشيخ عبد الرحمن بن سعدي؛ و«إقامة الدليل والبرهان» للعلامة الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع؛ و«تحفة الأرب بما في القرآن من الغريب» لأبي حيان الأندلسي بتحقيق الأستاذ سمير مجذوب، و«الدستور القرآني» للأستاذ عزة دروزة؛ و«قصص القرآن» للأستاذ هوفق سليمة؛ و«الناسخ والمنسوخ» للعلامة ابن سلامة، و«قبضة البيان في ناسخ ومنسوخ القرآن» للشيخ البذوري؛ وغيرها.

كما أن تحت الإعداد للطبع، عدد آخر أرجوه تعالى أن يكون لنا عوناً على الإتمام والإحسان؛ وأن يصرف عنا شر الأشرار، وحسد وكيد من لا خلاق لهم، إنه سميع مجيب.

وهذه الطبعة أقدمها بعد تصغير الكتاب من حجم ٢٨/٢١ إلى حجم ٢٥/١٨ بطريقة الأوفست، ليكون حجمه أصغر استجابة لرغبة الكثيرين من العلماء وطلاب العلم؛ وليبقى ثمنه ضمن الحدود المعقولة.

وقد قمت باستدراك الكثير مما قد نُدَّعنا سابقاً من الأخطاء ضمن الحدود التي تسمح بها طريقة الطبع؛ وأرجو الله سبحانه أن ينفع بها كما نفع بما سبقها، وأن يجعلنا من أهل طاعته، وخدام شريعته، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير؛ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مَقَدِّمَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلى الله وبارك على سيدنا ومولانا محمد، رسول الله وخيرته من خلقه، خاتم النبيين، وأشرف المرسلين.

أما بعد فهذا كتاب «زاد المسير في علم التفسير» للإمام المحقق أبي الفرج عبد الرحمن بن علي القرشي التيمي البكري المعروف بابن الجوزي (٥٠٨ - ٥٩٧هـ).

نضعه بين أيدي القراء لأول مرة بعد أن اضطلعنا بتحقيقه وضبطه على نحو نرجو أن نكون قد وفقنا فيه. ولعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا: إن هذا الكتاب من أجل ما انتهى إلينا من ثراث السلف في بابه، وأواها بالغاية من هذا العلم، مع تنقيح وتهذيب يسرّان الفائدة منه في أي غرض من أغراضه، وقد بعثه على تأليفه أنه نظر - كما يقول في مقدّمته - في كُتُب التفسير، فوجدها بين كبير قد ييسر الحافظ منه، وصغير لا يستفاد كل المقصود منه، والمتوسط منها قليل الفوائد، عديم الترتيب، ورُبّما أهمل فيه المشكل، وشرح غير الغريب؛ فأتى بهذا المختصر اليسير منظوياً على العلم الغزير. ومن ثمّ حاول في تفسيره هذا أن يتلافى ما ألمع إليه من عيوب التصنيف التي وقع فيها من تقدّمه، فترك ما لا فائدة في استقصائه، واستدرك ما فات السابقيين مما لا غنى عن ذكره، وحرص أن يجعله على اختصاره وافية بالغاية منه غير مُجَلّ بشيء مما يحتاج طالب التفسير إليه.

وكان معوّله في تفسير الآي على ما أثير عن رسول الله ﷺ من الأخبار، ثم على ما نُقِلَ عن الأفاضل من علماء الصحابة من أمثال علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عباس ؓ، ثم على ما روي عَنْهُمْ خَلَفَهُمْ من جُلّة التابعين، كسعيد بن جبيرة، وعكرمة بن عبد الله، وطاووس اليماني، وعطاء بن أبي رباح، وأبي العالية، والحسن البصري، وأضرابهم^(١) وقد أُلِمَ أيضاً بمشهور القراءات، وأطراف من شواذها، ونقل توجيهها في العربية عن أئمة هذا العلم، ولم يفته - وهو يفسر مفردات القرآن - أن يذكر اشتقاقها استكمالاً للمعنى، وزيادة في الفائدة، كما أنه استعرض آراء الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين في المسائل الفقهية المختلفة.

أما المصادر التي نقل عنها، ففي طليعتها تفسير ابن جرير، وكتب الحديث، وكتاب ابن قتيبة: «مشكل القرآن»، و«غريب القرآن»، وكتب معاني القرآن، ولا سيما كتابا القراء والزجاج، و«الحجة» لأبي علي الفارسي، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة، وكتب ابن الأنباري في القرآن، و«أسماء الله الحسنى» للخطابي، وغيرها.

(١) لقد انبرى إلى تفسير القرآن من الصحابة الكرام عدد غير قليل، قالوا في القرآن بما سمعوه من رسول الله ﷺ مباشرة أو بالواسطة، وبما شاهدوه من أسباب النزول، وبما فتح الله عليهم من طريق الفهم والتأويل. وأشهر من عرف بذلك عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وأبي بن كعب ؓ، وقد نثر المؤلف رحمه الله في تفسيره أقاويل هؤلاء الصحابة الأعلام في تأويل الآي. وأشهر تلاميذ ابن عباس من التابعين الذين أخذوا التفسير عنه سعيد بن جبيرة، ومجاهد، وعكرمة مولا، وطاووس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح. وأشهر تلاميذ عبد الله بن مسعود علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، ومرة الهمداني، وعامر، والشعبي، والحسن البصري، وقتادة بن دعامة الدوسي. وأشهر تلاميذ علي بن أبي طالب، عبيدة السلماني، وأبو الطفيل، والحسين ابنه. وأشهر تلاميذ أبي بن كعب، زيد بن أسلم، وأبو العالية، ومحمد بن كعب القرظي، وهؤلاء منهم من أخذ عنه مباشرة، ومنهم من أخذ عنه بالواسطة.

وكان أكثر ما ينقل عنهم بحكاية لفظهم نفسه، فإذا تجاوزَ ذلك إلى الحكاية بالمعنى لم يغفل في الغالب الإشارة إلى ذلك.

هذا ولم يخلُ تفسيرُهُ من الاستشهاد ببعض الأحاديث المنكرة التي لا تصحُّ، ومن إيراد طائفة غير قليلة من الأخبار الإسرائيلية الغريبة التي أغنانا الله عنها بما هو أصح منها وأنفع، وأوضح وأبلغ، وغالبه مما لا يتعلق به كبير فائدة، ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين^(١) وكذلك لم يحاول ترجيح رأي على رأي أو معنى على معنى، ولا ناقش ما يحكيه من أقوال إلا في مواضع قليلة، ولكن مثل هذه المآخذ اليسيرة التي لا يكاد يخلو منها كتاب لا تحط من قدر هذا التفسير الجليل الزاخر بالفوائد.



(١) يقول علماء الإسلام: إن الأخبار الإسرائيلية على ثلاثة أقسام: أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح، والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه، والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القليل، ولا من هذا القليل، فلا نؤمن به، ولا نكذبه، وتجوز حكايته، لما روى البخاري ٣٦١/٦ بشرح «الفتح» أن النبي ﷺ قال: «بلغوا عني ولو آية»، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» قال الحافظ ابن كثير: وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل أسماء أهل الكهف، ولون كليهم، وعدتهم، وعصا موسى من أي شجر كانت، وأسماء الطيور التي أحيها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله موسى عندها... إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم، لكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لَنَنصُرَهُ أَجْمَلُ صَدَقَ﴾ إلى آخر الآية. وقد علق الشيخ أحمد شاكر رحمه الله على كلمة ابن كثير هذه، فقال: إن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عندنا دليل على صدقه، ولا كذبه شيء، وذكر ذلك في تفسير القرآن وجعله قولاً أو رواية في معنى الآيات، أو في تعيين ما لم يبين فيها، أو في تفصيل ما أجمل فيها، شيء آخر، لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله، ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه، ومنفصل لما أجمل فيه، وحاشا لله ولكتابه من ذلك، وإن رسول الله ﷺ إذ أذن بالتحدث عنهم أمرنا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم، فأي تصديق لرواياتهم وأقوالهم أقوى من أن نقرنها بكتاب الله، ونضعها منه موضع التفسير أو البيان؟! اللهم غفرأ.

نسخ الكتاب

كان اعتمادنا في نشر هذا التفسير على أربع نسخ مصورة عن أصول مخطوطة.

النسخة الأولى:

مصورة عن مخطوطة الخزانة العامة بالرباط التابعة لوزارة الأوقاف هناك^(١)، وقد حُتِمَت كل نسخة بخاتم الخزانة. ونصه: مخطوطات الأوقاف - الخزانة العامة بالرباط. وفي وسط الخاتم كتب رقم النسخة المكتبي، وهو (١٨٣) وتحت حرف أبجدي يشير إلى رقم الجزء، وإلى جانبه خاتم آخر باسم مكتبة الزاوية الناصرية - تمكروت. وقد سجل على غلاف كل جزء من أجزاء النسخة اسم مالكيها الأصلي، وهو أحمد بن محمد بن ناصر، ولعل كتب مكتبة الزاوية الناصرية نسبت إليه، غير أن ما في غلاف الجزء الرابع من النسخة يبين أن ملك النسخة قد انتقل إلى أحمد بن ناصر هذا من شخص آخر، كتب اسمه تحت عنوان الجزء نفسه، ثم في هامش آخر صفحاته وهو: محمد بن محمد بري. وجميع أجزاء هذه النسخة منقولة عن أصل المصنف الذي كتبه بيده، ومقروء عليه، ومقابلة، كما يظهر من السماعات التي مثبتت صورتها.

أما مقياسها فهو كما يبدو من القياس (السانتيمتري) الموضوع على وجه الغلاف (١٣×٢٠) أوصاف أجزائها: الجزء الأول: (١٨٣/١): عدد صفحاته ٥٣٧ صفحة، في كل منها ٢١ سطراً في كل سطر ١٣ كلمة تقريباً، يبتدئ بسورة الفاتحة، وينتهي بسورة المائدة. خطه جميل ومقروء بوضوح، وصفحاته الأوائل أكثر حسناً من غيرها، وهي إلى ذلك مضبوطة بالشكل، ولم يذكر فيه اسم ناسخه، ولا متى نسخ.

الجزء الثاني: (١٨٣/٢): عدد صفحاته يزيد عن سابقه بثلاث صفحات، ويساويه في عدد أسطره وكلماته، يبتدئ بسورة الأنعام وينتهي بسورة الحجر، وشبه الجزء الأول من حيث جمال خطه ووضوحه، وهو مثله أغفل من ذكر اسم الناسخ، غير أن تاريخ النسخ ذكر فيه، وهو يوم السبت ثالث رمضان من سنة ست وتسعين وخمسمئة، وذكر في آخره بخط دقيق ما صورته: بلغ العرض بأصل الشيخ الذي بخطه العتيق، وصح حسب الإمكان والحمد لله والمنة. وكذلك أثبت بعدها السماعات والقراءات عن الأئمة والعلماء.

الجزء الثالث: (١٨٣/٣): عدد صفحاته وعدد الأسطر في كل صفحة يطابق ما في الجزء الثاني، وفي كل سطر ١٥ كلمة تقريباً، وعلى صفحة الغلاف كتبت أسماء السور المفسرة طيه، ويبتدئ بسورة (النحل)؛ وينتهي بسورة (يس). خطه واضح جميل متوسط الحجم وعُلق على هامش آخر صفحاته ما نصه: بلغ مقابلة حسب الإمكان.

الجزء الرابع: (١٨٣/٤): عدد صفحاته (٣٦٢) صفحة، في كل صفحة ٢٩ سطراً، أي بزيادة ثمانية أسطر عن صفحات الأجزاء السابقة، وفي كل سطر ١٤ كلمة. يبتدئ بسورة (يس) حتى آخر القرآن. خطه جميل مقروء وواضح، غير أنه ناعم دقيق الجسم متقارب الكلمات. ويبدو أن ناسخه غير ناسخ الأجزاء الثلاثة. ويظهر من التعليق على هامش الصفحة الأخيرة اسم الناسخ، إذ كتب ما نصه: وكتبه لي الشيخ إبراهيم بن الصارم القواس، أخذ أجره كاملة، وعلقه تعليقاً، سامحه الله. وفي خاتمة الجزء ما يلي:

قال الشيخ رحمه الله: فهذا آخر «زاد المسير»، والحمد لله على الإنعام الغزير. وإذ قد بلغنا بحمد الله مرادنا مما أملنا، فلا يعتدُّ من رأى اختصارنا أنا قلُّنا، فإننا قد أشرنا بما ذكرنا إلى ما تركنا ودلِّنا، فليكن الناظر كتابنا متيقظاً

(١) لا يفوتنا في هذه المناسبة أن نقدم خالص شكرنا، وجزيل امتناننا للسادة القلمين على الخزانة العامة بالرباط، لتقديمهم «فلماً» مصوراً عن المخطوطة هدية خاصة، وللمعلم الفاضل الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة الذي كان الواسطة في تيسير ذلك.

لما أغفلنا، فإننا ضَمَمْنَا للاختصار مع نيل المراد، وقد فعلنا. ومن أراد زيادة بسط في التفسير فعليه بكتابتنا «المغني» في التفسير، فإن أراد مختصراً فعليه بكتابتنا المسمى بـ «تذكرة الأريب في تفسير الغريب». والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آبيه آدم وذريته والصالحين، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

ثم يعقب ذلك فصل في ترتيب سور القرآن، ذكر في أوله أنه من صنع ابن الجوزي، وقد كتب عنوانه: «قصيدة» وليس كذلك، وإنما هو عبارة عن جمل مسجوعة تسهل حفظ أسماء سور القرآن الكريم مرتبة.

وفي هامش الصفحة التي قبل الأخيرة إلى جانب تفسير سورة (الناس) كُتِبَ بخط دقيق ما نصه: بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله كتب هذه البسملات من أوائل التفسير إلى آخره، وهو هذا الجزء الرابع مالكة العبد الفقير من الفقر إلى الفقر، الراجي رحمة ربه ذي الجود والبر، محمد بن محمد بري. بلغه الله ما أمله، وأم له، وكان له في حاله وماله بمحمد وآله.

كما كُتِبَ في الهامش اليساري من الصفحة الأخيرة، عند آخر التفسير ما نصه: «بلغ لله الحمد» وتحت بقليل: من كتب العبد الفقير من الفقر إلى الفقر محمد بن محمد بري لطف الله به وبالمسلمين بمنه.

النسخة الثانية:

وهي نسخة المكتبة الأحمدية في حلب تحت رقم (٧٠)، وهي مؤلفة من أجزاء أربعة، في صفحة كل جزء (٢٩) سطراً، في كل سطر (١٤) كلمة تقريباً.

الجزء الأول: وعدد صفحاته (٤٩٢) ويتبدئ من (الفاتحة) حتى نهاية سورة (الأنعام) خطه حسن وهو مغفل من التاريخ في أوله وآخره، ويبدو أنه قديم قريب من عهد المؤلف أو بعده بقليل.

الجزء الثاني: عدد صفحاته (٥٤٢) ويتبدئ من أول تفسير سورة (الأنعام) إلى آخر سورة (الحجر)، وخطه أكثر وضوحاً من الجزء الأول، كما أن كاتبه غير كاتبه، وطريقة خطه ووضوحه وبيانه وصحة رسمه تظهر أنه كتب في عصر المؤلف أو بعده بفترة قريبة. وقد كتب في آخر الورقة بخط حديث: تم بها النقص الواقع في هذا الجزء من الورقة الساقطة من المخطوط الأصل.

الجزء الثالث: غير موجود.

الجزء الرابع: وعدد صفحاته (٤٢٩) ويتبدئ بسورة (الأنبياء) وينتهي بانتهاء سورة (محمد) ﷺ. وخط هذا المجلد غير منقوط على عادة كتب القدماء، وفي آخره على هامش الصفحة: «الحمد لله، مر عليه مصلحاً الفقير الحنبلي لطف الله به» وفي آخره أيضاً بجانب الصفحة: تاريخ ولادة لابن متملك له سنة ٩٦٦.

وفي آخر الجزء ما صورته: «يتلوه الجزء الخامس من أول سورة (الفتح)، إلى آخر القرآن. ونقل... بعده من نسخة: تاريخ الفراغ من تعليقها يوم السبت حادي عشر من شعبان المكرم سنة اثنتين وسبعين وخمسمئة، وهو الجزء الرابع من كتاب «زاد المسير في علم التفسير» تأليف الشيخ الأجل الإمام العالم الأوحى جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي ابن الجوزي رحمه الله ونفعنا به ويعلموه في الدنيا والآخرة آمين.

النسخة الثالثة:

وهي نسخة العثمانية بحلب ورقمها (٤٦). وهي ناقصة لا يوجد منها إلا جزء واحد عدد صفحاته (٦٧١)، يتبدئ من أول القرآن إلى نهاية (سورة الكهف)، مكتوب بخط غير قديم لعنه من القرن التاسع، وليس في أوله أو آخره تاريخ لكتابه، وإنما كتب على وجه الورقة الأولى المذهبة فيه: «من نعمه سبحانه وتعالى على عبده الحقير عبد الكريم بن أحمد الشراباتي» وخطه واضح حسن صحيح ناعم غير قليل، وهو من بداية المجلد إلى آخره بخط واحد. وفي صفحته بعض الطول إذ تحتوي على (٣٣) سطراً. وعلى هامشه بعض تعليقات تدل على أن النسخة مقروءة من بعض العلماء.

النسخة الرابعة:

وردت إلينا من مكتبة صاحب السمو الشيخ علي آل ثاني حفظه الله في قطر، وقد صنورت عن النسخة الأصلية

الموجودة في مكتبة راغب باشا باستنبول، وهي كاملة تقع في ٦١٣ ورقة من القطع الكبير، احتوت كل صفحة من صفحاتها على خمسة وثلاثين سطراً، وفي كل سطر خمس عشرة كلمة، وخطها نسخي جميل واضح لم يذكر فيها تاريخ النسخ، وقد ذكر في آخرها اسم ناسخها، وهو محمد أمين بن المصطفى المذنب الخاطي الضعيف الأنكداري. إلا أنه وقع فيها تحريف وتصحيف وسقط غير قليل.

عملنا في التحقيق:

لقد اعتمدنا في التحقيق من هذه النسخ على النسخة المصورة عن مخطوطة الخزانة العامة بالرباط، لأنها أوثق النسخ، وأكملها، وأصحها، وأضبطها، ولأنها مقابلة ومقروءة على المؤلف، وتولينا تصحيح النص وضبطه، ومقابلته على ما بين أيدينا من الأصول، ومراجعته على أمهات المصادر التي استقى منها المؤلف، رحمه الله، مادة كتابه، وبذلنا الجهد في تفصيله وترقيمه، وشرح شواهد، وتخريج أحاديثه، والكلام عليها حسب ما تقتضيه القواعد الحديثية، مسترشدين في ذلك بأمهات المصادر، وأقاويل جهابذة علم الحديث وتقاده، وعلقنا عليه بما تدعو الحاجة إليه، وسنقوم - إن شاء الله - بوضع فهرس عامة للكتاب بعد تمامه، تُيسّر تمام الفائدة منه.

ونسأل الله المبتدئ لنا بنعمه قبل استحقاقها، المديمها علينا مع تقصيرنا في الإتيان على ما أوجب به من شكره بها، الجاعلنا في خير أمة أخرجت للناس: أن يرزقنا فهماً في كتابه، ثم سنة نبه، وقولاً وعملاً يؤدي بها عنا حقه، ويوجب لنا ناقله مزيداً^(١) ونسأله سبحانه السداد والتوفيق.

الخميس ٩ جمادى الآخرة ١٣٨٤ هـ

الموافق ١٥ تشرين الأول ١٩٦٤ م



(١) اقتباس من «الرسالة»: ١٩ للإمام الشافعي رحمه الله.

الحمد لله الذي شرفنا على الامير بالقران المحمود عانا بتوفيقه على المكارم والامور
 الرشيدة وقرره بنور سنا بين الوعد والوعده وحفظه من عبث الجهول
 ومخبره الغشيب كما يات به الباطل من بين يديه ولا من خلفه من قبل من ظلم حبه
 الله على التوفيق لمحمد واسكوه على الضمان في التوحيد واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة يسبق ذرعه على التأييد ان محمد عبده ورسوله
 له من فضله خيرا كثيرا وجعله مقدا على الظل كبريا ومفعلا له من ارادة حسنة
 بطيخة على ما يشاء به تعظما له ونورا وانزل عليه كلاما وقرصونا قوله
 بالقران كما تقرير افعال كل لما اجتمعت الاستدلال على ان باثنا غسل هذا
 القرآن لا ياتون بمثل ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا جعل الله عليه وعلى آله واصحابه
 واثنائه وارواحهم شفاعته وسلم تسليما كثيرا ما كان القرآن العبر لسائر العلوم
 كان النور ما هو في القلوب من نور العلم بنور العلم والى بطون في حله من
 كتب التفسير والحدود ما بين كبر محمد بن الحافظ منه وصغير لا يسع ادراك كل المقصود عنه
 والتمس سطوة على كل في الخوايد عبد غير الترتيب وربما اعمل فيه المشكل وشرح غير الغزالي
 فانك تكتشف في اختصار السبيل مستطابا على العلم الغزالي وسومته براد المسيرة في علمه
 الغزالي وقد بلغت في اختصار لفظه فاجتهد وفضل الله في حفظه والله العليم على ما يشاء
 ما زال جايذا بتوفيقه في فضيلة علم التفسير روي ابو عبد الرحمن الجليلي
 من عهده قال كنا نتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم الحشر فلا نعلمها والى الحشر الاخرة
 حتى نعلم ما فيها من العلم والعمل وروي قتادة عن الحسن انه قال ما انزل الله الا ما يحب ان يعلم
 لما نزل الله في قوله تعالى وما كان من دعاء به من قبل من هذا القرآن وهو يعلم نفسه وادراكه

قولنا احدثهم موسوس في صدور الناس فيهم ومناسهم فسمى اكلها
 اساسا كما سبهم وادخل في قوله يعوذون برجل من اهل بيته
 قوله استمع فخر من اكل هذا اكل العز او على هذا القول يكون السور
 موسوسا للعين كما موسوس للناس والاساس ان الاساس الذي
 موسوس في صدور الناس يعوذ من اكله وهم اكل المعنى من سائر
 الذي هو من اكل يد عطف قوله والناس على الوسواس والمعنى من
 ومن سائر الناس جاء ابرار يستعبدون اهل ولائهم هذا هو الراجح
 في النسخ رحمه الله مع هذا احسن ارباب المسببه واحسن على
 الارحام الغريزه وازيد لعلنا نجد الله مرادنا مما استلنا خلا
 يعنفون من راي محبنا راي الله ملائكتنا بعد اشتراكنا
 ذكرنا الى ما تركنا وذلك الناطق كانا استمعنا
 لما اعلينا نا احييت الله في كل نيل من الله
 وقد فعلنا كومن ارباب رماة بسيف في التفسير
 فعليه بكنا ما المعنى في التفسير فان انا محض
 فعليه بكنا ما المعنى في التفسير
 في تفسير الغريبين
 واحمد الله رب العالمين وصلي الله على محمد وعلى آله
 وذريته والصالحين وسلم تنسبنا الى يوم الدين
 رحمه الله

[illegible]

١٠٠
 ١٠١
 ١٠٢
 ١٠٣
 ١٠٤
 ١٠٥
 ١٠٦
 ١٠٧
 ١٠٨
 ١٠٩
 ١١٠
 ١١١
 ١١٢
 ١١٣
 ١١٤
 ١١٥
 ١١٦
 ١١٧
 ١١٨
 ١١٩
 ١٢٠
 ١٢١
 ١٢٢
 ١٢٣
 ١٢٤
 ١٢٥
 ١٢٦
 ١٢٧
 ١٢٨
 ١٢٩
 ١٣٠
 ١٣١
 ١٣٢
 ١٣٣
 ١٣٤
 ١٣٥
 ١٣٦
 ١٣٧
 ١٣٨
 ١٣٩
 ١٤٠
 ١٤١
 ١٤٢
 ١٤٣
 ١٤٤
 ١٤٥
 ١٤٦
 ١٤٧
 ١٤٨
 ١٤٩
 ١٥٠
 ١٥١
 ١٥٢
 ١٥٣
 ١٥٤
 ١٥٥
 ١٥٦
 ١٥٧
 ١٥٨
 ١٥٩
 ١٦٠
 ١٦١
 ١٦٢
 ١٦٣
 ١٦٤
 ١٦٥
 ١٦٦
 ١٦٧
 ١٦٨
 ١٦٩
 ١٧٠
 ١٧١
 ١٧٢
 ١٧٣
 ١٧٤
 ١٧٥
 ١٧٦
 ١٧٧
 ١٧٨
 ١٧٩
 ١٨٠
 ١٨١
 ١٨٢
 ١٨٣
 ١٨٤
 ١٨٥
 ١٨٦
 ١٨٧
 ١٨٨
 ١٨٩
 ١٩٠
 ١٩١
 ١٩٢
 ١٩٣
 ١٩٤
 ١٩٥
 ١٩٦
 ١٩٧
 ١٩٨
 ١٩٩
 ٢٠٠
 ٢٠١
 ٢٠٢
 ٢٠٣
 ٢٠٤
 ٢٠٥
 ٢٠٦
 ٢٠٧
 ٢٠٨
 ٢٠٩
 ٢١٠
 ٢١١
 ٢١٢
 ٢١٣
 ٢١٤
 ٢١٥
 ٢١٦
 ٢١٧
 ٢١٨
 ٢١٩
 ٢٢٠
 ٢٢١
 ٢٢٢
 ٢٢٣
 ٢٢٤
 ٢٢٥
 ٢٢٦
 ٢٢٧
 ٢٢٨
 ٢٢٩
 ٢٣٠
 ٢٣١
 ٢٣٢
 ٢٣٣
 ٢٣٤
 ٢٣٥
 ٢٣٦
 ٢٣٧
 ٢٣٨
 ٢٣٩
 ٢٤٠
 ٢٤١
 ٢٤٢
 ٢٤٣
 ٢٤٤
 ٢٤٥
 ٢٤٦
 ٢٤٧
 ٢٤٨
 ٢٤٩
 ٢٥٠
 ٢٥١
 ٢٥٢
 ٢٥٣
 ٢٥٤
 ٢٥٥
 ٢٥٦
 ٢٥٧
 ٢٥٨
 ٢٥٩
 ٢٦٠
 ٢٦١
 ٢٦٢
 ٢٦٣
 ٢٦٤
 ٢٦٥
 ٢٦٦
 ٢٦٧
 ٢٦٨
 ٢٦٩
 ٢٧٠
 ٢٧١
 ٢٧٢
 ٢٧٣
 ٢٧٤
 ٢٧٥
 ٢٧٦
 ٢٧٧
 ٢٧٨
 ٢٧٩
 ٢٨٠
 ٢٨١
 ٢٨٢
 ٢٨٣
 ٢٨٤
 ٢٨٥
 ٢٨٦
 ٢٨٧
 ٢٨٨
 ٢٨٩
 ٢٩٠
 ٢٩١
 ٢٩٢
 ٢٩٣
 ٢٩٤
 ٢٩٥
 ٢٩٦
 ٢٩٧
 ٢٩٨
 ٢٩٩
 ٣٠٠
 ٣٠١
 ٣٠٢
 ٣٠٣
 ٣٠٤
 ٣٠٥
 ٣٠٦
 ٣٠٧
 ٣٠٨
 ٣٠٩
 ٣١٠
 ٣١١
 ٣١٢
 ٣١٣
 ٣١٤
 ٣١٥
 ٣١٦
 ٣١٧
 ٣١٨
 ٣١٩
 ٣٢٠
 ٣٢١
 ٣٢٢
 ٣٢٣
 ٣٢٤
 ٣٢٥
 ٣٢٦
 ٣٢٧
 ٣٢٨
 ٣٢٩
 ٣٣٠
 ٣٣١
 ٣٣٢
 ٣٣٣
 ٣٣٤
 ٣٣٥
 ٣٣٦
 ٣٣٧
 ٣٣٨
 ٣٣٩
 ٣٤٠
 ٣٤١
 ٣٤٢
 ٣٤٣
 ٣٤٤
 ٣٤٥
 ٣٤٦
 ٣٤٧
 ٣٤٨
 ٣٤٩
 ٣٥٠
 ٣٥١
 ٣٥٢
 ٣٥٣
 ٣٥٤
 ٣٥٥
 ٣٥٦
 ٣٥٧
 ٣٥٨
 ٣٥٩
 ٣٦٠
 ٣٦١
 ٣٦٢
 ٣٦٣
 ٣٦٤
 ٣٦٥
 ٣٦٦
 ٣٦٧
 ٣٦٨
 ٣٦٩
 ٣٧٠
 ٣٧١
 ٣٧٢
 ٣٧٣
 ٣٧٤
 ٣٧٥
 ٣٧٦
 ٣٧٧
 ٣٧٨
 ٣٧٩
 ٣٨٠
 ٣٨١
 ٣٨٢
 ٣٨٣
 ٣٨٤
 ٣٨٥
 ٣٨٦
 ٣٨٧
 ٣٨٨
 ٣٨٩
 ٣٩٠
 ٣٩١
 ٣٩٢
 ٣٩٣
 ٣٩٤
 ٣٩٥
 ٣٩٦
 ٣٩٧
 ٣٩٨
 ٣٩٩
 ٤٠٠
 ٤٠١
 ٤٠٢
 ٤٠٣
 ٤٠٤
 ٤٠٥
 ٤٠٦
 ٤٠٧
 ٤٠٨
 ٤٠٩
 ٤١٠
 ٤١١
 ٤١٢
 ٤١٣
 ٤١٤
 ٤١٥
 ٤١٦
 ٤١٧
 ٤١٨
 ٤١٩
 ٤٢٠
 ٤٢١
 ٤٢٢
 ٤٢٣
 ٤٢٤
 ٤٢٥
 ٤٢٦
 ٤٢٧
 ٤٢٨
 ٤٢٩
 ٤٣٠
 ٤٣١
 ٤٣٢
 ٤٣٣
 ٤٣٤
 ٤٣٥
 ٤٣٦
 ٤٣٧
 ٤٣٨
 ٤٣٩
 ٤٤٠
 ٤٤١
 ٤٤٢
 ٤٤٣
 ٤٤٤
 ٤٤٥
 ٤٤٦
 ٤٤٧
 ٤٤٨
 ٤٤٩
 ٤٥٠
 ٤٥١
 ٤٥٢
 ٤٥٣
 ٤٥٤
 ٤٥٥
 ٤٥٦
 ٤٥٧
 ٤٥٨
 ٤٥٩
 ٤٦٠
 ٤٦١
 ٤٦٢
 ٤٦٣
 ٤٦٤
 ٤٦٥
 ٤٦٦
 ٤٦٧
 ٤٦٨
 ٤٦٩
 ٤٧٠
 ٤٧١

[illegible]

سماعات الأجزاء الأربعة من زاد المسير^(١)

قرأت هذه المجلدة جميعها، وهي الثانية من كتاب «زاد المسير» على شيخنا الإمام العالم العامل زين الدين أبي العباس أحمد بن عبد الدايم بن نعمة المقدسي^(٢) فسمح الله في مدته بحق سماعه قراءة، فسمعها الفقيه الإمام الفاضل شمس الدين أبو عبد الله محمد بن غالب بن يوسف بن سعيد الأنصاري، والفقيه الإمام الحافظ عبد الحافظ بن عبد المنعم بن غازي المقدسي، وصح ذلك وثبت في مجلس الشيخ المسمع، شيخ جبل قاسيون ظاهر دمشق، في مجالس آخرها يوم الجمعة السادس عشر لشهر صفر سنة أربع وستين وستمئة، وكذلك قرأت المجلد الأول مثل هذا والثالث بعده والرابع وذلك جميع كتاب (زاد المسير في علم التفسير) فسمعه جميعه شمس الدين محمد بن غالب المذكور، وعبد الحافظ بن عبد المنعم المذكور، سمع بقراءتي المجلد الثاني والثالث والرابع، وسمع المجلد الأول بقراءة غيري، وسماع شيخنا زين الدين المذكور على مصنفه جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي المذكور من أول الكتاب العزيز إلى آخر سورة (القصص) ومن أول سورة (العنكبوت) إلى آخر الكتاب العزيز إجازة من المصنف، إن لم يكن سماعاً. وذكر الشيخ المسمع أن الكتاب جميعه سماعه من المؤلف، وكانت لديه نسخة وعليها سماعه، فذكرنا هذه الإجازة احتياطاً.

وأجاز الشيخ للجماعة السامعين جميع ما تجوز عنه روايته بشرطه.
وكتب أحمد بن فرج بن أحمد بن محمد^(٣) اللخمي الأندلسي عفا الله عنه وسامحه وغفر له ولوالديه ولمشايعه،
ولجميع المسلمين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.



(١) وهي مثبتة في آخر الجزء الثاني من مخطوطة الرباط. انظر لوحة رقم ٦ و٧.
(٢) هو أحمد بن عبد الدايم بن نعمة بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد بن بكر، المقدسي الصالحي، ولد سنة خمس وسبعين وخمسمئة بفندق الشيوخ من أرض نابلس، وسمع الكثير بدمشق من يحيى الثقفي، وأبي عبد الله بن صدقة، وأبي الحسن بن الموازيني، وعبد الرحمن الخرق، وإسماعيل الجنزوي وغيرهم، وانفرد بالرواية عنهم. ودخل بغداد، وسمع بها من أبي الفرج بن كليب، والمبارك بن المعطوش، وأبي الفرج بن الجوزي، وغيرهم. وقرأ بنفسه، وعني بالحديث، وتفقه على الشيخ موفق الدين، وخرج لنفسه مشيخة عن شيوخه، وجمع تاريخاً لنفسه، وكان فاضلاً متنبهاً وله نظم. ولي الخطابة بكفر بطنا بضع عشرة سنة. كان حسن الخط سريعاً فيه، مكثراً من نسخ الكتب له وبالأجرة. لازم الكتابة أكثر من ٥٠ سنة. وكان يكتب في اليوم إذا تفرغ تسعة كراريس، ويقال: إنه كتب بيده ألفي مجلدة، منها «تاريخ الشام» لابن عساكر مرتين. و«المغني» لموفق الدين مرات. وكف بصره في آخر عمره. روى عنه الأئمة الكبار، والحفاظ المتقدمون والمتأخرون، منهم: الشيخ محيي الدين النووي، والشيخ شمس الدين بن أبي عمرو، والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، والشيخ تقي الدين بن تيمية. وتوفي في رجب سنة ٦٦٨. ودفن بسفح قاسيون. انظر «ذيل طبقات الحنابلة» ٢/٢٧٨، و«نكت الهميان» ٩٩، و«فوات الوفيات» ١/٨٥.

(٣) قال ابن العماد في «الشنذرات» ٥/٤٤٣: هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فرج بن أحمد الإشبيلي الشافعي المحدث الحافظ تفقه على ابن عبد السلام. قال الذهبي: وحديثنا عن ابن عبد الدايم وطبقته، عاش خمساً وسبعين سنة، وكان ذا ورج وعبادة وصديق.

ترجمة ابن الجوزي^(١)

نسبه - مولده - نشأته - شيوخه:

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن بن علي بن محمد بن علي بن عبد الله بن حُمّادي بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي، القرشي التميمي البكري البغدادي، الفقيه الحنبلي، الواعظ الحافظ المفسر، الأديب الملقب: جمال الدين. وقد اختلف في نسبته، فقليل: إنَّ جدّه جعفر نُسِبَ إلى قُرَظَةٍ^(٢) من قُرَظِ البصرة يقال لها: جوزة. قال المنذري: هو نسبة إلى موضع يقال له: قُرَظَةُ الجَوْز. وذكر الشيخ عبد الصمد بن أبي الجيش أنه منسوب إلى محلة بالبصرة تسمى: محلة الجوز، وقيل: بل كانت بداره في واسط جوزة، لم يكن بواسط جوزة سواها. وكما اختلف في نسبته، اختلف كذلك في مولده، فقد وجد بخطه: لا أَحَقُّقُ مولدي، غير أنه مات والذي في سنة أربع عشرة، وقالت الوالدة: كان لك من العمر نحو ثلاث سنين، فعلى هذا يكون مولده: سنة إحدى عشرة، أو اثنتي عشرة وخمسمائة.

وكان مولده ببغداد بدرب حبيب، فلما توفي والده، وهو صغير، كفلته أمه وعمته، وكان أهله تجاراً في النحاس، ولهذا يوجد في بعض سماعاته القديمة: ابن الجوزي الصفار. والصفر هو: النحاس.

ولما ترعرع حملته عمته إلى مسجد أبي الفضل ابن ناصر الحافظ الثقة البغدادي فاعتنى به، وأسمعه الحديث، وقد قيل: إن أول سماعه كان سنة ٥١٦ هـ. وحفظ القرآن، وقرأه مجوداً على جماعة من أئمة القراءة وفي كبره قرأ بالروايات بواسط علي ابن الباقلاني، قال في أول مشيخته: حملني شيخنا ابن ناصر إلى الأشياخ في الصفر، وأسمعني العوالي، وأثبت سماعاتي كلها بخطه، وأخذ لي إجازات منهم، فلما فهمت الطلب، كنت أأزم من الشيوخ أعلمهم، وأؤثر من أرباب النقل أفهمهم، فكانت همتي تجويد العدد، لا تكثير العدد، ولما رأيت من أصحابي من يؤثر الاطلاع على كبار مشايخي، ذكرت عن كل واحد منهم حديثاً، ثم ذكر في هذه المشيخة له سبعة وثمانين شيخاً.

وسمع الكتب الكبار كالمسند للإمام أحمد^(٣)، وجامع الترمذي، وتاريخ الخطيب البغدادي، وسمع صحيح البخاري على أبي الوقت، وصحيح مسلم بنزول، وما لا يحصى من الأجزاء، وتصانيف ابن أبي الدنيا، وغيرها.

ثم صحب أبا الحسن ابن الزاغوني، ولأزمه، وعلق عنه الفقه والوعظ. قال ابن الجوزي: كان له في كل فن من العلم حظ وافر، ووعظ مدة طويلة، وصحبته زماناً، فسمعت منه الحديث، وعلقت عنه من الفقه والوعظ، وكانت له خلقة بجامع المنصور يناظر فيها يوم الجمعة قبل الصلاة، ثم يعظ فيها بعد الصلاة، ويجلس يوم السبت أيضاً.

وشهد ابن ناصر الدين للزاغوني أنه كان فقيه الوقت، وأنه كان مشهوراً بالصلاح والديانة والورع والصيانة. وتوفي ابن الزاغوني حين بلغ ابن الجوزي سن الحلم، فطلب ابن الجوزي خلفته^(٤) فلم يُعْطَ ذلك لصغره، وأعطيت الخلفة لأبي علي الرذائي، فذهب ابن الجوزي إلى الوزير، فالتقى بين يديه فصلاً في المواعظ، فأذن له بالوعظ في جامع المنصور، قال ابن الجوزي: فتكلمت فيه، فحضر مجلسي أول يوم جماعة من أصحابنا الكبار من الفقهاء، منهم

(١) أخذت ترجمة ابن الجوزي عن كتاب «الذيل على طبقات الحنابلة» ٣٩٩/١، «والبداية والنهاية» لابن كثير ٢٨/١٣، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان ٢/٣٢١. ومما ألفه ابن الجوزي نفسه. وانظر ترجمته في كتاب «القصاص والمذكرين» تحقيق الدكتور الشيخ محمد بن لطف الصباغ. وأصل هذه الترجمة كنت قد وضعتها في أول زاد المسير.

(٢) فرضة النهر: ثلثة التي يستقى منها، وفرضة البحر: محط السفن.

(٣) وهو من مطبوعات المكتب الإسلامي مع فهرس للصحابة من عمل المحدث الشيخ ناصر الدين الألباني.

(٤) أي: أن يحل محله في وظائفه.

عبد الواحد بن شعيب، وأبو علي ابن القاضي، وأبو بكر بن عيسى، وغيرهم.

ثم تكلمت في مسجد معروف^(١)، وفي باب البصرة، ونهر المعلى، فاتصلت المجالس، واشتد الزحام، وقري اشتغالي بفنون العلم، وانقطعت مجالس أبي علي الرذائي.

وقرأ الفقه والخلاف والجدل والأصول على أبي بكر الدينوري، والقاضي أبي يعلى، وتتبع مشايخ الحديث والفقه، فكان منهم القاضي أبو بكر الأنصاري، وأبو القاسم الحريري، وأبو السعادات المتوكلي، وأخوه يحيى، وأبو عبد الله البار، وأبو الحسن علي بن أحمد الموحّد، وأبو غالب الماوردي، وأبو منصور ابن خيرون، وأبو القاسم السمرقندي، وعبد الملك الكرخي، وأبو سعد الرّوزني، وأبو سعد البغدادي، ويحيى بن الطراح، وإسماعيل بن أبي صالح المؤذن، وأبو القاسم علي الهروي الواعظ، وأبو منصور القزاز، وعبد الجبار بن منده.

قال: ولم أقتع بفن واحد، بل كنت أسمع الفقه والحديث، وأتبع الزهاد، ثم قرأت اللغة، ولم أترك أحداً ممن يروي ويعظ، ولا غريباً يقدم، إلا وأحضره وأتخير الفضائل، ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث، فينقطع نفسي من العدو لثلاث أسبوع، وكنت أصبح وليس لي مأكّل. وأمسي وليس لي مأكّل، ما أذلني الله لمخلوق قط، ولو شرحت أحوالي لطال الشرح.

وقرأ الأدب على أبي منصور الجواليقي أستاذ عصره في علوم العربية. وكان مدرسها في المدرسة النظامية، وكان إمام الخليفة المقتفي. وكان [الجواليقي] متديناً ثقة ورعاً، غزير الفضل، كامل العقل، مليح الخط. كثير الضبط، له التصنيف الكثيرة. قال ابن الجوزي: قرأت عليه كتابه: «المعرب» وغيره من تصنيفه.

صفاته وأخلاقه - مجالسه - مذهبه ومحاربه البدع:

كان ابن الجوزي يكثر الكلام عن نفسه في كتابه «صيد الخاطر»^(٢) فيذكر أنه نشأ في النعيم، ورُبي على الدلال، وأنه قد حُبِبَ إليه العلم من زمن الطفولة، ولم يرغب في فن واحد من فنونه، بل رغب في كل فن، وأنه يتردد أبداً بين الزهد والعبادة، وبين العلم والبحث، وأن من لداته وأصحابه من أنفق عمره في اكتساب الدنيا، ثم لم ينل منها ما ناله هو، وأن عيشه ألين من عيشهم، وجاهه أعلى من جاههم، وتحدث كيف أنه كان في زمن الطلب يأخذ معه أرغفة يابسة، ويخرج في طلب الحديث، فيقعّد على نهر عيسى - غربي بغداد -، لا يقدر على أكل هذا الخبز اليابس إلا عند الماء كلما أكل لقمة شرب عليها شربة، وأنه وجد مع ذلك من لذة العلم وحلاوة الإيمان ما يخاف جعله على نفسه العجب إن شرّحه.

وقال عنه ابن العماد: وكان يراعي حفظ صحته، وتلطيف مزاجه، وما يفيد عقله قوة، وذهنه حدة، لباسه الناعم الأبيض المطيب، وله مداعبات حلوة، وما تناول مالا من جهة لا يتيقن حلها، ولا ذل لأحد، قال في «الفتة الكبد»^(٣) يخاطب ولده: «وما ذل أبوك في طلب العلم قط، ولا خرج يطوف في البلدان كغيره من الوعاظ، ولا بعث رقعة إلى أحد يطلب منه شيئاً».

وقال ابن كثير: وكان فيه بهاء، وترفع، وإعجاب بنفسه، وسمو بها، أكثر من مقامها، وذلك ظاهر في كلامه في ثمره ونظمه، ثم أورد له شعراً منه قوله:

لو كان هذا العلم شخصاً ناطقاً
وسألته هل زار مثلي؟ قال: لا
قال ابن رجب: مما عيب عليه ما يوجد في كلامه من الثناء على نفسه، والترفع والتعظيم، وكثرة الدعاوى، ولا ريب أنه كان عنده من ذلك طرف، سامحه الله.

قال ابن الجوزي في «الفتة الكبد»: ولقد وضع الله لي من القبول في قلوب الخلق فوق الحد، وأوقع كلامي في

(١) هو معروف الكرخي. ومسجده في محلة الكرخ غربي دجلة في بغداد.

(٢) طبع بتحقيق أستاذنا الكبير الشيخ علي الطنطاوي، وعلق على أحاديثه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

(٣) طبعتها المكتب الإسلامي بتحقيق الدكتور مروان القباني.

نفوسهم فلا يرتابون بصحته، وقد أسلم على يدي نحو مائتين من أهل الذمة... وقد قطعت أكثر من عشرين ألف سالف مما يتعانه الجهال^(١).

وقال سبطه أبو المظفر: أقل ما كان يحضر مجلسه عشرة آلاف، وكان زاهداً في الدنيا متقللاً منها، وسمعه يقول على المنبر في آخر عمره: «كتبت بأصبعي هاتين ألفي مجلدة، وتاب على يدي مئة ألف». وما خرج من بيته إلا إلى الجامع للجمعة والمجلس، وما مزاح أحداً قط، ولا أكل من جهة لا يتيقن حلها، وما زال على ذلك الأسلوب حتى توفاه الله تعالى.

وكان يتصف بقوة البديهة، وحضور الذهن، والأجوبة النادرة، مع كثرة الحفظ وسعة الرواية. ومن أندر أجوبته أنه وقع النزاع على عهده في المفاضلة بين أبي بكر وعلي، بين أهل السنة والشيعة، ورضوا فيما بينهم بما يجب به الشيخ أبو الفرج، فأقاموا له رجلاً وسط المجلس، فسأله عن ذلك، فقال على الفور: أفضلهما من كانت ابنته تحته، ونزل في الحال حتى لا يراجع في ذلك. فقال السنية: هو أبو بكر عليه السلام، لأن عائشة عليها السلام تحت رسول الله ﷺ، وقالت الشيعة: هو علي عليه السلام، لأن فاطمة بنت رسول الله ﷺ تحته^(٢).

قال ابن خلكان: وهذه من لطائف الأجوبة، ولو حصل بعد الفكر التام وإمعان النظر كان في غاية الحسن، فضلاً عن البديهة. ومن أجوبته أن رجلاً سأله: أيهما أفضل، أسبح، أو استغفر؟ فقال: الثوب الوسخ أحوج إلى الصابون منه إلى البخور.

ومنزلة في الوعظ لم يكن يدانيه فيها أحد، ولقد أوتي من قوة العارضة، وحسن التصرف في فنون القول، وشدة التأثير في الناس، ما لم يؤت الكثيرون.

قال ابن رجب: قرأت بخط الإمام ناصح الدين ابن الحنبلي الواعظ في حق الشيخ أبي الفرج: اجتمع فيه من العلوم ما لم يجتمع في غيره. وكانت مجالسه الوعظية جامعة للحسن والإحسان باجتماع ظراف بغداد، ونظام الناس، وحسن الكلمات المسجعة، والمعاني المودعة في الألفاظ الرائجة، وقراءة القرآن بالأصوات المرجعة، والنفحات المطربة، وصيحات الواجدين، ودمعات الخاشعين، وإنابة النادمين، وذل التائبين... ووعظ وهو ابن عشر سنين إلى أن مات. حضرت مجالسه الوعظية بباب بدر عند الخليفة المستضيء، ومجالسه بدرب دينار في مدرسته، ومجالسه بباب الأزج على شاطئ دجلة.

ويصف ابن الجوزي نفسه مجلساً من مجالسه فيقول: فسألني أهل الحرية أن أعقد عندهم مجلساً للوعظ ليلة، فوعدتهم ليلة الجمعة سادس ربيع الأول، وانقلبت بغداد، وعبر أهلها عبوراً زاد على نصف شعبان زيادة كبيرة، فعبرت إلى باب البصرة فدخلتها بعد المغرب، فتلقاني أهلها بالشموع الكثيرة، وصحبني منها خلق عظيم، فلما خرجت من باب البصرة، رأيت أهل الحرية قد أقبلوا بشموع لا يمكن إحصاؤها، فأضيفت إلى شموع أهل باب البصرة، فحزرت بألف شمعة، وما رأيت البرية إلا مملوءة بالأضواء، وخرج أهل المحال والنساء والصبيان ينظرون، وكان الزحام كالزحام بسوق الثلاثاء، فدخلت الحرية، وقد امتلأ الشارع، وأكرت الرواشين من وقت الضحى، ولو قيل: إن الذين خرجوا يطلبون المجلس، وسعوا في الصحراء بين باب البصرة والحرية مع المجتمعين في المجلس كانوا ثلاثمائة ألف ما أبعد القائل.

قال ابن الجوزي: وظهر أقوام يتكلمون بالبدع ويتعصبون في المذاهب، فأعاني الله سبحانه عليهم، وكانت كلمتنا العليا.

وكان الشيخ رحمه الله يظهر في مجالسه مدح السنة والإمام أحمد وأصحابه، ويذم من يخالفهم، ويصرح

(١) مثل ما يفعل اليوم السفهاء من إطالة الشعر والأظافر... إلخ.

(٢) الحق أنه أبو بكر، لأنه آخر مذكور، كما أن السؤال عن أفضلها لا عن فضل النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

بمذاهبهم في مسائل الأصول، لا سيما في مسألة القرآن^(١). وكلامه في كتبه الوعظية في ذلك كثير جداً. وقال يوماً على المنبر: أهل البدع يقولون: ما في السماء أحد، ولا في المصحف قرآن، ولا في القبر نبي، ثلاث عورات لكم.

وقيل له مرة: قلل من ذكر أهل البدع مخافة الفتن، فأنشد:

أتوب إليك يا رحمئ مما جنيت فقد تعاضمت الذنوب
وأما من هوى ليلى وحبي وقال له قائل: ما فيك عيب إلا أنك حنيلي، فأنشد:

وعبرني الواشون أني أحبها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها
ثم قال: أهذا عيبي؟! ولا عيب في وجه نقط صحنه بالخال.

علمه ومصنفاته:

ذكره الحافظ الديلمي في ذيله على تاريخ ابن السمعاني فقال: شيخنا الإمام جمال الدين ابن الجوزي صاحب التصانيف في فنون العلم: من التفسير، والفقه، والحديث، والوعظ، والرقائق، والتواريخ وغير ذلك. وإليه انتهت معرفة الحديث وعلومه، والوقوف على صحيحه من سقيمه، وله فيه المصنفات من المسانيد والأبواب والرجال، ومعرفة ما يحتاج به في أبواب الأحكام والفقه، وما لا يحتاج به من الأحاديث الواهية الموضوعة، والانقطاع والاتصال، وله في الوعظ العبارة الرائقة، والإشارات الفائقة، والمعاني الدقيقة، والاستعارة الرشيقة، وكان من أحسن الناس كلاماً، وأتمهم نظاماً، وأعذبهم لساناً، وأجودهم بياناً، وبورك له في عمره وعمله، فروى الكثير، وسمع الناس منه أكثر من أربعين سنة، وحدث بمصنفاته مراراً.

وقال الموفق عبد اللطيف: كان ابن الجوزي لا يضيع من زمانه شيئاً، يكتب في اليوم أربعة كرايس، ويرتفع له كل سنة من كتابته ما بين خمسين مجلداً إلى ستين. وله في كل علم مشاركة، لكنه كان في التفسير من الأعيان، وفي الحديث من الحفاظ، وفي التاريخ من المتوسعين ولديه فقه كافٍ...

وقد ذكر ابن القادسي في تاريخه ما أخذ على ابن الجوزي من كثرة أغلاطه في تصانيفه فقال: وعذره في هذا واضح، وهو أنه كان أكثر من التصانيف، فيصنف الكتاب ولا يعتبره^(٢)، بل يشتغل بغيره، وربما كتب في الوقت الواحد في تصانيف عديدة. ولولا ذلك لم يجتمع له هذه المصنفات الكثيرة. ومع هذا فكان تصنيفه في فنون من العلوم بمنزلة الاختصار من كتب في تلك العلوم، فينقل من التصانيف من غير أن يكون متقناً لذلك العلم من جهة الشيوخ والبحث، ولهذا نقل عنه أنه قال: أنا مرتب، ولست بمصنف.

قال ابن رجب: قرأ على الشيخ أبي الفرج جماعة؛ منهم طلحة العلي، ومنهم أبو عبد الله ابن تيمية خطيب حران. وذكر في أول تفسيره أنه قرأ عليه كتابه «زاد المسير» في التفسير قراءة بحث ومراجعة.

وروى عنه خلق، منهم ولده الصاحب محيي الدين، وسبطه أبو المظفر الواعظ^(٣)، والشيخ موفق الدين ابن قدامة، والحافظ عبد الغني المقدسي، وابن الديلمي، وابن القطيعي، وابن النجار، وابن الخليل، وابن عبد الدايم، والنجيب عبد اللطيف الحراني، وهو خاتمة أصحابه بالسماع.

قال ابن رجب: وكان رحمه الله تعالى إذا رأى تصنيفاً وأعجبه صنف مثله في الحال، وإن لم يكن قد تقدم له في ذلك الفن عمل، لقوة فهمه، وحدة ذهنه، فربما صنف لأجل ذلك الشيء ونقيضه بحسب ما يتفق له من الوقوف على

(١) أي قضية خلق القرآن التي فارق المعتزلة والجهمية وأتباعهم أهل السنة فيها. وكان ضلالهم فيها كبيراً. ومن زعم بأنها مسألة لفظية! فقد دلس وخدع.

(٢) أي: لا يراجع.

(٣) وهذا لم يكن ثقة وهو صاحب التاريخ المعروف.

تصانيف من تقدمه^(١).

قال ابن خلكان: وبالجملية فكتبه أكثر من أن تعد، وكتب بخطه شيئاً كثيراً، والناس يغالون في ذلك حتى يقولون: إنه جمعت الكرايس التي كتبها وحسبت مدة عمره، وقسمت الكرايس على المدة، فكان ما خص كل يوم تسع كرايس، وهذا شيء عظيم لا يكاد يقبله العقل، ويقال: إنه جمعت براية أقلامه التي كتب بها حديث رسول الله ﷺ فحصل منها شيء كثير، وأوصى أن يسخن بها الماء الذي يغسل به بعد موته، ففعل ذلك، فكفت وفضل منها.

وتصانيف ابن الجوزي كثيرة جداً بلغت - فيما يذكر الرواة - خمسين ومائتي كتاب، وقد نقل ابن رجب عن ابن القطيبي أن ابن الجوزي ناوله كتاباً بخطه سرد فيه تصانيفه.

قال أبو الفرج: أول ما صنف وألفت ولي من العمر نحو ثلاث عشرة سنة.

مصنفاته في القرآن وعلموه:

- ١ - «المغني» في التفسير ٨١ جزء. ٢ - «زاد المسير في علم التفسير» أربع مجلدات. ٣ - «تيسير البيان في تفسير القرآن» مجلد. ٤ - «تذكرة الأريب في تفسير الغريب» مجلد. ٥ - «غريب الغريب» جزء. ٦ - «نزهة العيون النواظر في الوجوه والنظائر» مجلد. ٧ - «الوجوه النواظر في الوجوه والنظائر» مجلد. ٨ - «الإشارة إلى القراءة المختارة» ٤ أجزاء. ٩ - «تذكرة المنتبه في عيون المشته» جزء. ١٠ - «فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» مجلد. ١١ - «ورد الأغصان في فنون الأفنان» جزء. ١٢ - «عمدة الراسخ في معرفة المنسوخ والناسخ» ٥ أجزاء. ١٣ - «المصنفى بأكف أهل الرسوخ في علم الناسخ والمنسوخ»^(٢) جزء.

مصنفاته في أصول الدين:

- ١٤ - «منتقد المعتقد» جزء. ١٥ - «منهاج الوصول إلى علم الأصول» ٥ أجزاء. ١٦ - «بيان غفلة القائل بقدوم أفعال العباد» جزء. ١٧ - «غوامض الإلهيات» جزء. ١٨ - «مسلك العقل» جزء. ١٩ - «منهاج أهل الإصابة». ٢٠ - «السر المصون» مجلد. ٢١ - «دفع شبه التشبيه» ٤ أجزاء. ٢٢ - «الرد على المتعصب العنيد».

مصنفاته في الحديث والزهديات:

- ٢٣ - «جامع المسانيد بالخص الأسانيد». ٢٤ - «الحداثق» ٣٤ جزء. ٢٥ - «نفي النقل» ٥ أجزاء. ٢٦ - «المجتبى» مجلد. ٢٧ - «النزهة» جزآن. ٢٨ - «عيون الحكايات» مجلد. ٢٩ - «ملتقط الحكايات» ١٣ جزء. ٣٠ - «إرشاد المريدين في حكايات السلف الصالحين» مجلد. ٣١ - «روضة الناقل» جزء. ٣٢ - «غرر الأثر». ٣٠ جزء. ٣٣ - «التحقيق في أحاديث التعليق» مجلدان. ٣٤ - «المديح» ٧ أجزاء. ٣٨ - «الموضوعات من الأحاديث المرفوعات» مجلدان. ٣٩ - «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» مجلدان. ٤٠ - «الكشف لمشكل الصحيحين» أربع مجلدات. ٤١ - «الضعفاء والمتروكين» مجلد. ٤٢ - «إعلام العالم بعد رسوخه بحقائق ناسخ الحديث ومنسوخه» مجلد. ٤٣ - «إخبار أهل الرسوخ في الفقه والتحديث بمقدار المنسوخ من الحديث»^(٣) جزء. ٤٤ - «السهم المصيب» جزآن. ٤٥ - «أخاير الذخائر» ٣ أجزاء. ٤٦ - «الفوائد عن الشيوخ» ٦٠ جزء. ٤٧ - «مناقب أصحاب الحديث» مجلد. ٤٨ - «موت الخضر» مجلد. ٤٩ - «مختصرة» جزء. ٥٠ - «المشيخة» جزء. ٥١ - «المسلسلات» جزء. ٥٢ - «المحتسب في النسب» مجلد. ٥٣ - «تحفة

(١) قلت: وقد ألف رحمه الله كتاباً حافلاً في الأحاديث الموضوعات ليحترز منها الفقهاء والوعاظ وغيرهم، ومع ذلك فقد أورد في كتبه الوعظية أحاديث موضوعية وأخبار واهية منكورة دون أن يشير إليها أو ينبه عليها، بل تراه يستشهد بها كأنها من الصحاح أو الحسن، كما تجد ذلك في كتابه «ذم الهوى» و«قرة العيون المبصرة بتلخيص كتاب التبصرة» و«رؤوس القوارير في الخطب والمحاضرات والوعظ والتذكير» قال الحافظ السخاوي في «شرح ألفية العراقي» ١٠٧: وقد أكثر ابن الجوزي في تصانيفه الوعظية وما أشبهها من إيراد الموضوع وشبهه.

(٢) وقد طبعته بالاشتراك في تحقيقه مع الأخ الفاضل الشيخ محمد كنعان.

(٣) طبع المكتب الإسلامي بتحقيق الشيخ محمد كنعان، وزهير الشاويش.

الطلاب» ٣ أجزاء. ٥٤ - «تنوير مدلهم الشرف» جزء. ٥٥ - «الألقاب» جزء. ٥٦ - «فضائل عمر بن الخطاب» مجلد. ٥٧ - «فضائل عمر بن عبد العزيز» مجلد. ٥٨ - «فضائل سعيد بن المسيب» مجلد. ٥٩ - «فضائل الحسن البصري» مجلد. ٦٠ - «مناقب الفضيل بن عياض» أربعة أجزاء. ٦١ - «مناقب بشر الحافي» سبعة أجزاء. ٦٢ - «مناقب إبراهيم بن أدهم» ستة أجزاء. ٦٣ - «مناقب سفيان الثوري» مجلد. ٦٤ - «مناقب أحمد بن حنبل» مجلد. ٦٥ - «مناقب معروف الكرخي» جزآن. ٦٦ - «مناقب رابعة العدوية» جزء. ٦٧ - «مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن» مجلد. ٦٨ - «صفوة الصفوة» ٥ مجلدات. ٦٩ - «منهاج القاصدين» أربع مجلدات^(١). ٧٠ - «المختار من أخبار الأخيار» مجلد. ٧١ - «القاطع لمحال اللجاج بمحال الحجاج» جزء. ٧٢ - «عجالة المنتظر لشرح حال الخضر» جزء. ٧٣ - «النساء وما يتعلق بأدابهن» مجلد. ٧٤ - «علم الحديث المنقول في أن أبا بكر أم الرسول». جزء ٧٥ - «الجوهر». ٧٦ - «المغلق».

مصنفاته في التاريخ:

٧٧ - «تلقيح فهم أهل الأثر في عيون التواريخ والسير» مجلد. ٧٨ - «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» ١٠ مجلدات. ٧٩ - «شذور العقود في تاريخ المعهود» مجلد. ٨٠ - «طرائف الطرائف في تاريخ السوالم» جزء. ٨١ - «مناقب بغداد» مجلد.

مصنفاته في الفقه:

٨٢ - «الإنصاف في مسائل الخلاف». ٨٣ - «جُنة النظر وجنة النظر» وهي التعليقة الوسطى. ٨٤ - «معاصر المختصر في مسائل النظر». ٨٥ - «عمد الدلائل في مشتهر المسائل» وهي التعليقة الصغرى. ٨٦ - «المذهب في المذهب»^(٢). ٨٧ - «مسبوك الذهب» مجلد. ٨٨ - «النبذة» جزء. ٨٩ - «العبادات الخمس» جزء. ٩٠ - «أسباب الهداية لأرباب البداية» مجلد. ٩١ - «كشف الظلمة عن الضياء في رد دعوى». ٩٢ - «رد اللوم والضيم في صوم يوم الغيم» جزء.

مصنفاته في علوم الوعظ:

٩٣ - «اليواقيت في الخطب» مجلد. ٩٤ - «المنتخب في النواب»^(٣) مجلد. ٩٥ - «منتخب المنتخب» مجلد. ٩٦ - «نسيم الرياض» مجلد. ٩٧ - «اللؤلؤ» مجلد. ٩٨ - «كنز المذكر» مجلد. ٩٩ - «الأرج» مجلد. ١٠٠ - «اللطائف» مجلد. ١٠١ - «كنوز الرموز» مجلد. ١٠٢ - «المقتبس» مجلد. ١٠٣ - «موافق المرافق» مجلد. ١٠٤ - «شاهد ومشهود» مجلد. ١٠٥ - «واسطات العقود من شاهد ومشهود» مجلد. ١٠٦ - «الذهب» جزآن. ١٠٧ - «المدحش» مجلدان. ١٠٨ - «صبا نجد» جزء. ١٠٩ - «محادثة العقل». ١١٠ - «لقط الجمال» جزء. ١١١ - «معاني المعاني» جزء. ١١٢ - «فتوح الفتوح» جزء. ١١٣ - «التعازي الملوكية» جزء. ١١٤ - «العقد المقيم» جزء. ١١٥ - «إيقاظ الومسان من الرقعات بأحوال الحيوان والنبات» جزآن. ١١٦ - «نكت المجالس البدوية» جزآن. ١١٧ - «نزهة الأديب» جزآن. ١١٨ - «منتهى المبتهى» مجلد. ١١٩ - «تبصرة المبتدئ» ٢٠ جزء. ١٢٠ - «اللياقوة» جزآن. ١٢١ - «تحفة الوعاظ» مجلد.

مصنفاته في فنون مختلفة:

١٢٢ - «ذم الهوى» مجلدان. ١٢٣ - «صيد الخاطر» ٦٥ جزء. ١٢٤ - «أحكام الأشعار بأحكام الإشعار» عشرون جزء. ١٢٥ - «القصاص والمذكرين»^(٤). ١٢٦ - «تقويم اللسان» مجلد. ١٢٧ - «الأذكياء» مجلد. ١٢٨ - «الحمقى» مجلد. ١٢٩ - «تلبيس إبليس» مجلدان. ١٣٠ - «لقط المنافع» في الطب مجلدان. ١٣١ - «الشيب والخضاب» مجلد.

(١) ومن مطبوعات المكتب الإسلامي لابن قدامة المقدسي، بتحقيق زهير الشاويش.

(٢) هو لابنه يوسف وقد طبعه المحسن الشيخ قاسم بن درويش فخره جزاء الله كل خير.

(٣) وهو تحت الطبع في المكتب الإسلامي، تحقيق الدكتور عبده الراجحي وزهير الشاويش.

(٤) وقد تم طبعه في المكتب الإسلامي بتحقيق الدكتور محمد الصباغ.

١٣٢ - «أعمار الأعيان»^(١) جزء. ١٣٣ - «الثبات عند الممات» جزآن. ١٣٤ - «تنوير الغيش في فضل السود والحيش» مجلد. ١٣٥ - «الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ» جزء. ١٣٦ - «إشراف الموالى» جزآن. ١٣٧ - «إعلام الأحياء بأغلاط الأحياء». ١٣٨ - «تحريم المحل المكروه» جزء. ١٣٩ - «المصباح لدعوة الإمام المستضيء» مجلد. ١٤٠ - «عطف العلماء على الأمراء والأمراء على العلماء» جزء. ١٤١ - «النصر على مصر» جزء. ١٤٢ - «المجد العضدي» مجلد. ١٤٣ - «الفجر النوري» مجلد. ١٤٤ - «مناقب الستر الرفيع» جزء. ١٤٥ - «ما قلته من الأشعار» جزء. ١٤٦ - «المقامات» مجلد. ١٤٧ - «من رسائل» جزء. ١٤٨ - «الطب الروحاني» جزء. ١٤٩ - «بيان الخطأ والصواب عن أحاديث الشهاب» ١٦ جزء. ١٥٠ - «الباز الأشهب المنقض على من خالف المذهب». ١٥١ - «الوفا بفضائل المصطفى ﷺ» مجلدان. ١٥٢ - «النور في فضائل الأيام والشهور» مجلد. ١٥٣ - «تقريب الطريق الأبعد في فضائل مقبرة أحمد». ١٥٤ - «مناقب الإمام الشافعي». ١٥٥ - «العزلة». ١٥٦ - «الرياضة». ١٥٧ - «منهاج الإصابة في محبة الصحابة». ١٥٨ - «فنون الألباب». ١٥٩ - «الظرفاء والمتحابين». ١٦٠ - «مناقب أبي بكر». ١٦١ - «مناقب علي» مجلد. ١٦٢ - «فضائل العرب» مجلد. ١٦٣ - «درة الإكليل في التاريخ» أربع مجلدات. ١٦٤ - «الأمثال» مجلد. ١٦٥ - «المنفعة في المذاهب الأربعة» مجلدان. ١٦٦ - «المختار من الأشعار» عشر مجلدات. ١٦٧ - «رؤوس القوارير» مجلدان. ١٦٨ - «المرتجل في الوعظ» مجلد كبير. ١٦٩ - «ذخيرة الراعظ؟ أجزاء». ١٧٠ - «الزجر المخوف». ١٧١ - «الأنس والمحبة». ١٧٢ - «المطرب الملهب». ١٧٣ - «الزند الوري في الوعظ الناصري» جزآن. ١٧٤ - «الفاخر في أيام الإمام الناصر» مجلد. ١٧٥ - «المجد الصلاحي» مجلد. ١٧٦ - «لغة الفقه» جزآن. ١٧٧ - «غريب الحديث» مجلد. ١٧٨ - «ملح الأحاديث» جزآن. ١٧٩ - «الفصول الوعظية على حروف المعجم». ١٨٠ - «سلوة الأحزان» عشر مجلدات. ١٨١ - «المعشوق في الوعظ». ١٨٢ - «المجالس اليوسفية في الوعظ». ١٨٣ - «الوعظ المقبري». ١٨٤ - «قيام الليل» ٣ أجزاء. ١٨٥ - «المحادثة». ١٨٦ - «المناجاة». ١٨٧ - «زاهر الجواهر في الوعظ» أربع أجزاء. ١٨٨ - «كنز المذكر». ١٨٩ - «النحاة الخواتيم» جزآن. ١٩٠ - «المرتقى لمن اتقى». ١٩١ - «زين القصص» مجلد. ١٩٢ - «نسيم الرياض». ١٩٣ - «لفتة الكبد في نصيحة الولد»^(٢). ١٩٤ - «القراطة»^(٣).

وفاته:

قال سبطه أبو المظفر: جلس جدي يوم السبت سابع شهر رمضان - يعني سنة سبع وتسعين وخمسائة - تحت تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف الكرخي، وكنت حاضراً، فأنشد أبياتاً قطع عليها المجلس، ثم نزل عن المنبر فمرض خمسة أيام، وتوفي ليلة الجمعة بين العشاءين في داره وعمره نحو التسعين، وغسل وقت السحر واجتمع أهل بغداد، وغلقت الأسواق، وحملت جنازته على رؤوس الناس، وكان الجمع كثيراً جداً، وكان في شهر تموز، فأفطر بعض من حضر لشدة الحر وكثرة الزحام^(٤)، وما وصل حفرته إلا وقت صلاة الجمعة والمؤذن يقول: الله أكبر. ودفن بباب حرب، بالقرب من مدفن أحمد بن حنبل رحمهما الله، وترك من الأولاد ثلاثة ذكور، وثلاث إناث. تغمده الله برحمته ونفع المسلمين بعلومه، وجعل أجر ذلك في صحيفة أعماله.



(١) وهو تحت الطبع بتحقيقي.

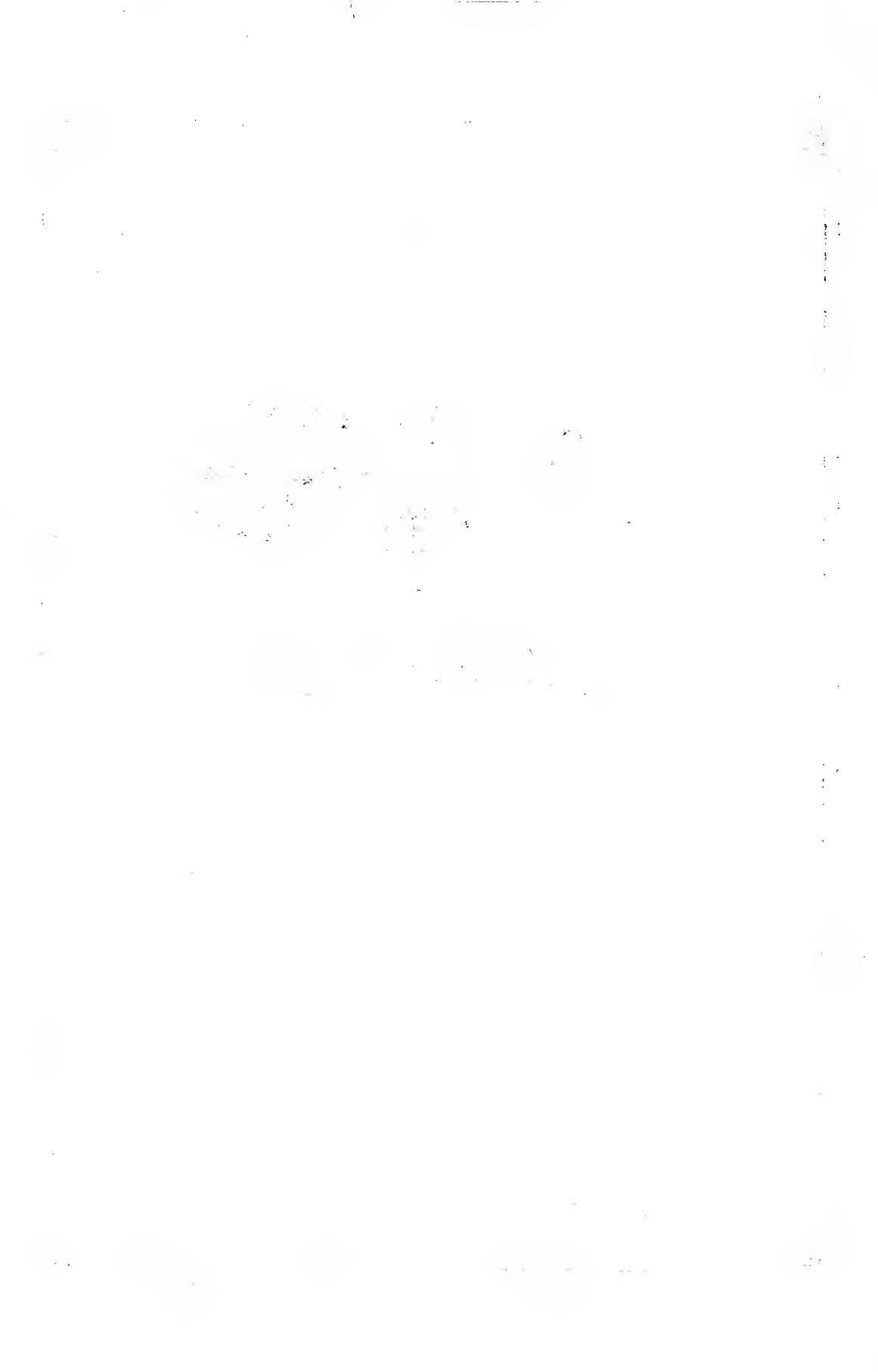
(٢) طبع المكتب الإسلامي بتحقيق الدكتور الشيخ مروان القباي.

(٣) طبع المكتب الإسلامي بتحقيق الدكتور محمد بن لطفي الصباغ.

(٤) هذا الحفيد غير ثقة وصاحب مبالغات، وهجيب أن يترك الناس الفريضة من أجل نافلة، لأن صلاة الجنازة إذا قام بها البعض كان للآخرين نافلة.



تَرْجُمَةُ الْمُسَيَّرِ
فِي
عِلْمِ التَّفْسِيرِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي شرفنا على الأمم بالقرآن المجيد، ودعانا بتوفيقه على الحكم إلى الأمر الرشيد، وقوم به نفوسنا بين الوعد والوعيد، وحفظه من تغيير الجهول وتحريف العنيد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

أحمده على التوفيق للتحמיד، وأشكره على التحقيق في التوحيد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة يبقى ذخرها على التأيد، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله إلى القريب والبعيد، بشيراً للخلائق ونذيراً، وسراجاً في الأكوان منيراً، ووهب له من فضله خيراً كثيراً، وجعله مقدماً على الكل كبيراً، ولم يجعل له من أزياب جنسه نظيراً، ونهى أن يدعى باسمه تعظيماً له وتوقيراً، وأنزل عليه كلاماً قرر صدق قوله بالتحدي بمثله تقريراً، فقال: ﴿قُلْ لِّينِ أَجْتَمَعَتِ آلَ اللَّهِ وَالنَّبِيُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِثَبَلْ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يَأْتُونَ بِثَبَلْ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِيَمْنُ ظَهيراً﴾ [الإسراء: ٨٨] فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأزواجه وأشياعه، وسلم تسليماً كثيراً.

لما كان القرآن العزيز أشرف العلوم، كان الفهم لمعانيه أوفى الفهوم، لأن شرف العلم بشرف المعلوم، وإني نظرت في جملة من كتب التفسير، فوجدتها بين كبير قد يش الحافظ منه، وصغير لا يستفاد كل المقصود منه^(١)، والمتوسط منها قليل الفوائد عديم الترتيب، وربما أهمل فيه المشكل، وشرح غير الغريب، فأتيك بهذا المختصر اليسير، منطقياً على العلم الغزير، ووسمته^(٢) بـ:

[زاد المسير في علم التفسير]

وقد بالغت في اختصار لفظه، فاجتهد وفقك الله في حفظه، والله المعين على تحقيقه، فما زال جائداً بتوفيقه.

فصل في فضيلة علم التفسير

روى أبو عبد الرحمن السلمي، عن ابن مسعود قال: كنا نتعلم من رسول الله ﷺ العشر، فلا نجاوزها إلى العشر الآخر حتى نعلم [ما]^(٣) فيها من العلم والعمل^(٤).

وروى قتادة عن الحسن أنه قال: ما أنزل الله آية إلا أحب أن أعلم فيم أنزلت، وماذا عني بها. وقال إياس بن معاوية: مثل من يقرأ القرآن ومن يعلم تفسيره أو لا يعلم، مثل قوم جاءهم كتاب من صاحب لهم ليلاً، وليس عندهم مصباح، فتدخلهم لمجيء الكتاب روعة لا يدرون ما فيه، فإذا جاءهم المصباح عرفوا ما فيه.

فصل

اختلف العلماء: هل التفسير والتأويل بمعنى، أم يختلفان؟ فذهب قوم يميلون إلى العربية إلى أنهما بمعنى، وهذا قول جمهور المفسرين المتقدمين. وذهب قوم يميلون إلى الفقه إلى اختلافهما، فقالوا: التفسير: إخراج الشيء من مقام الخفاء إلى مقام التجلي. والتأويل: نقل الكلام عن وضعه فيما يحتاج في إثباته إلى دليل [لولا]ه^(٥) ما ترك ظاهر اللفظ، فهو مأخوذ من قولك: آل الشيء إلى كذا، أي: صار إليه^(٦).

(١) في الأصل: عنه. (٢) في الأصل: ووسمه، والتصويب من نسخة (ب).

(٣) الزيادة من نسخة (ب). (٤) رواه الطبري، وإسناده صحيح.

(٥) الزيادة من «تاج العروس» للزبيدي. وفي نسخة (ب) «إلى دليل لولا ترك ظاهر اللفظ».

(٦) في الأصل: الأهل. والتصويب من نسخة (ب).

فصل في مدة نزول القرآن

روى عكرمة عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في ليلة القدر إلى بيت [العزة، ثم] ^(١) أنزل بعد ذلك في عشرين سنة ^(٢).

وقال الشعبي: فرق الله تنزيل القرآن، فكان بين أوله وآخره عشرون سنة.

وقال الحسن: ذكر لنا أنه كان بين أوله وآخره ثماني عشرة سنة، أنزل عليه بمكة ثماني سنين.

فصل

واختلفوا في أول ما نزل من القرآن، فأثبت المنقول أن أول ما نزل: ﴿أَفْرَأَ بِأَسْمَاءِ رَبِّكَ﴾ [الملق: ١]. رواه عروة عن عائشة ^(٣) وبه قال قتادة وأبو صالح.

وروي عن جابر بن عبد الله: أن أول ما نزل ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينَةُ﴾ [المدثر: ١].

والصحيح أنه لما نزل عليه ﴿أَفْرَأَ بِأَسْمَاءِ رَبِّكَ﴾ رجع فتدثر فنزل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينَةُ﴾ يدل عليه ما أخرج [في] ^(٤) [الصحيحين] من حديث جابر قال: سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجلست منه رهيباً، فرجعت فقلت: زملوني، زملوني، فذرني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينَةُ﴾ ومعنى جلست: فرقت. يقال: رجل مجووث [ومجوث] ^(٥) وقد صحفه بعض الرواة فقال: جئت من الجين، والصحيح الأول. وروي عن الحسن وعكرمة: أن أول ما نزل: ﴿يَسْمَعْ أَقْرَبُ الْكَلِمَةِ﴾.

فصل

واختلفوا في آخر ما نزل، فروى البخاري في أفراد من حديث ابن عباس، قال: آخر آية أنزلت على النبي ﷺ، آية الربا، وفي أفراد مسلم عنه: آخر سورة نزلت جميعاً ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: آخر آية أنزلت ﴿وَأَنقُضُ يَوْمًا مَّا يُتِمُّونَ فِئِدَ إِلَى اللَّهِ﴾ ^(٦) [البقرة: ٢٨١] وهذا مذهب سعيد بن جبير وأبي صالح. وروى أبو إسحاق عن البراء قال: آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْشِقُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَتَّبِعُكُمْ فِي الْكَلْبَةِ﴾ [النساء: ١٧٦] وآخر سورة نزلت [براءة] ^(٧). وروي عن أبي بن كعب: أن آخر آية نزلت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]. إلى آخر السورة ^(٨).

فصل

لما رأيت جمهور كتب المفسرين لا يكاد الكتاب منها يفي بالمقصود كشفه حتى ينظر للآية الواحدة في كتب، قرب تفسير أخل فيه بعلم الناسخ والمنسوخ، أو ببعضه، فإن وجد فيه لم يوجد أسباب النزول، أو أكثرها، فإن وجد لم يوجد بيان المكي من المدني، وإن وجد ذلك لم توجد الإشارة إلى حكم الآية، فإن وجد لم يوجد جواب إشكال يقع في الآية، إلى غير ذلك من الفنون المطلوبة.

وقد أدرجت ^(٩) في هذا الكتاب من هذه الفنون المذكورة مع ما لم أذكره، مما لا يستغني التفسير عنه، ما أرجو به وقوع الغناء بهذا الكتاب عن أكثر ما يجانسه.

(١) الزيادة من نسخة (ب).

(٢) رواه الحاكم ج ٢/ ٢٢٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه مسلم.

(٤) الزيادة من نسخة (ب).

(٥) الزيادة من «لسان العرب».

(٦) رواه الطبري وإسناده صحيح، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» وقال: رواه الطبراني بإسنادين، رجال أحدهما ثقات.

(٧) رواه البخاري في تفسير سورة [براءة].

(٨) رواه أحمد والحاكم.

(٩) وفي نسخة (ج): خرجت. وجواب لما «وقد أدرجت» وكان حقه أن يقال: «لقد أدرجت».

وقد حذرت من إعادة تفسير كلمة متقدمة إلا على وجه الإشارة، ولم أغادر من الأقوال التي أحطت بها إلا ما تبعه صحته مع الاختصار البالغ، فإذا رأيت في فرش الآيات ما لم يذكر تفسيره، فهو لا يخلو من أمرين؛ إما أن يكون قد سبق، وإما أن يكون ظاهراً لا يحتاج إلى تفسير.

وقد انتقي كتابنا هذا أنقى التفسير، فأخذ منها الأصح والأحسن والأصون، فنظمه في عبارة الاختصار. وهذا حين شروعتنا فيما ابتدأنا^(١) له، والله الموفق.

فصل في الاستعاذة

قد أمر الله ﷻ بالاستعاذة عند القراءة بقوله تعالى: ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] ومعناه: إذا أردت القراءة. ومعنى أعوذ: ألبأ والوذ.

فصل في بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال ابن عمر: نزلت في كل سورة. وقد اختلف العلماء: هل هي آية كاملة، أم لا؟ وفيه [عن] أحمد روايتان. واختلفوا: هل هي من الفاتحة، أم لا؟ فيه عن أحمد روايتان أيضاً. فأما من قال: إنها من الفاتحة، فإنه يوجب قراءتها في الصلاة إذا قال بوجوب الفاتحة، وأما من لم يرها من الفاتحة، فإنه يقول: قراءتها في الصلاة سنة. ما عدا مالكاً فإنه لا يستحب قراءتها في الصلاة.

واختلفوا في الجهر بها في الصلاة فيما يجهر به، فنقل جماعة عن أحمد: أنه لا يسن الجهر بها، وهو قول أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، وعمار بن ياسر، وابن مغفل، وابن الزبير، وابن عباس، وقال به من كبراء التابعين ومن بعدهم: الحسن، والشعبي، وسعيد بن جبيرة، وإبراهيم، وقتادة، وعمر بن عبد العزيز، والأعمش، وسفيان الثوري، ومالك، وأبو حنيفة، وأبو عبيد في آخرين.

وذهب الشافعي إلى أن الجهر مسنون، وهو مروي عن معاوية بن أبي سفيان، وعطاء، وطاوس، ومجاهد. فأما تفسيرها:

فقوله: «بِسْمِ اللَّهِ» اختصار، كأنه قال: أبدأ باسم الله. أو: بدأت باسم الله. وفي الاسم خمس لغات: «إِسْم» بكسر الالف، و«أَسْم» بضم الالف إذا ابتدأت بها، و«إِسْم» بكسر السين، و«سُم» بضمها، و«سُمَا». قال الشاعر:

والله أَسْمَاكَ سُمّاً مُبَارَكاً أَثَرَكَ اللهُ بِهِ إِشْثَارَكَ

وأنشدوا:

بِاسْمِ الَّذِي فِي كُلِّ سُورَةٍ سُمُّهُ

قال الفراء: بعض قيس [يقولون]:^(٢) سمه، يريدون: اسمه، وبعض قضاة يقولون: سُمُّه. أنشدني بعضهم:

وعامنا أعجبنا مقدّمه يدعى أبا السمح وقرضاب سُمُّه

والقرضاب: القطاع، يقال: سيف قرضاب^(٣).

واختلف العلماء في اسم الله الذي هو «الله»:

فقال قوم: إنه مشتق، وقال آخرون: إنه علم ليس بمشتق. وفيه عن الخليل روايتان. إحداهما: أنه ليس بمشتق، ولا يجوز حذف الالف واللام منه كما يجوز من الرحمن. والثانية: رواها عنه سيويه: أنه مشتق. وذكر أبو سليمان الخطابي عن بعض العلماء أن أصله في الكلام مشتق من: أله الرجل ياله: إذا فزع إليه من أمر نزل به. فآله، أي: أجاره وأمنه، فسمي إلهاً

(١) وفي نسخة (ج) ابتدأنا.

(٢) الزيادة من نسخة (ب).

(٣) جاء في القرطبي بعد إنشاء البيت: وقرضب الرجل: إذا أكل شيئاً يابساً فهو قرضاب. وفي «الصحاح» و«اللسان» و«القاموس» و«شرح»: قرضب الرجل: أكل شيئاً يابساً، حكوا ذلك عن ثعلب، وهو الأصح.

كما يسمّى الرجل إماماً. وقال غيره: أصله ولاء. فأبدلت الواو همزة فقليل: إله كما قالوا: وسادة وإسادة، ووشاح وإشاح. واشتق من الوله، لأن قلوب العباد توله نحوه. كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]. وكان القياس أن يقال: مألوه، كما قيل: معبود، إلا أنهم خالفوا به البناء ليكون علماً، كما قالوا للمكتوب: كتاب، وللمحسوب: حساب. وقال بعضهم: أصله من: أله الرجل ياله إذا تحرير، لأن القلوب تتحرير عند التفكير في عظمته. وحكي عن بعض اللغويين: أله الرجل ياله إلهة، بمعنى: عبد يعبد عبادة.

وروي عن ابن عباس أنه قال: ﴿وَيَذَرَكْهُمُ الْإِلَهَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] أي: عبادتك. قال: والتأله: التعبد. قال رؤية: لله در الغانيات الممدّه
سبحن واسترجعن من تألهي
فمعنى الإله: المعبود.

فأما «الرحمن»:

فذهب الجمهور إلى أنه مشتق من الرحمة، مبني على المبالغة، ومعناه: ذو الرحمة التي لا نظير له فيها. وبناء «فعلان» في كلامهم للمبالغة، فإنهم يقولون للشديد الامتلاء: ملآن، وللشديد الشيع: شعبان. قال الخطابي: فـ «الرحمن»: ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم، وعت المؤمن والكافر. و«الرحيم»: خاص للمؤمنين. قال ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]. والرحيم: بمعنى الراحم.



سورة الفاتحة

روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال قرأ عليه أبي بن كعب أم القرآن فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلاً، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(١). فمن أسماؤها: الفاتحة، لأنه يستفتح الكتاب بها تلاوة وكتابة. ومن أسماؤها: أم القرآن، وأم الكتاب، لأنها أمت الكتاب بالتقدم. ومن أسماؤها: السبع المثاني، وإنما سميت بذلك لما شترحه في (الحجر) إن شاء الله. واختلف العلماء في نزولها على قولين: أحدهما: أنها مكية، وهو مروي عن علي بن أبي طالب، والحسن، وأبي العالية، وقتادة، وأبي ميسرة. والثاني: أنها مدنية، وهو مروي عن أبي هريرة، ومجاهد، وعبيد بن عمير، وعطاء الخراساني. وعن ابن عباس كالقولين.

فصل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّاتِ الثَّلَاثِ

فأما تفسيرها: فـ ﴿الْحَمْدُ﴾ رفع بالابتداء، و ﴿لِلَّهِ﴾ الخبر والمعنى: الحمد ثابت لله، ومستقر له، والجمهور على كسر لام ﴿لِلَّهِ﴾ وضمها ابن أبي عبله، قال الفراء: هي لغة بعض بني ربيعة، وقرأ ابن السَّمِيعِ^(٢): «الحمد» بنصب الدال ﴿لِلَّهِ﴾ بكسر اللام. وقرأ أبو نهيك بكسر الدال واللام جميعاً. وأعلم أن الحمد: ثناء على المحمود، ويشاركه الشكر، إلا أن بينهما فرقاً، وهو: أن الحمد قد يقع ابتداء للثناء، والشكر لا يكون إلا في مقابلة النعمة، وقيل: لفظه لفظ الخبر، ومعناه الأمر، فتقديره: قولوا: الحمد لله. وقال ابن قتيبة: الحمد: الثناء على الرجل بما فيه من كرم أو حسب أو شجاعة، وأشباه ذلك. والشكر: الثناء عليه بمعروف أوالاه، وقد يوضع الحمد موضع الشكر. فيقال: حمدته على معروفه عندي، كما يقال: شكرت له على شجاعته. فأما «الرب» فهو المالك، ولا يذكر هذا الاسم في حق المخلوق إلا بالإضافة، فيقال: هذا رب الدار، ورب العبد. وقيل: هو مأخوذ من التربية. قال شيخنا أبو منصور اللغوي: يقال: رب فلان صنيعته يربها رباً: إذا أتمها وأصلحها، فهو رب ورباب. قال الشاعر:

يَرْبُ الَّذِي يَأْتِي مِنَ الْخَيْرِ إِنَّهُ إِذَا سَنَلَ الْمَعْرُوفَ زَادَ وَتَمَمَّا

قال: والرب يقال على ثلاثة أوجه: أحدها: المالك. يقال: رب الدار. والثاني: المصلح، يقال: رب الشيء. والثالث: السيد المطاع. قال تعالى: ﴿فَيَسْقِي رَبُّكَ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٤١]. والجمهور على خفض باء «رب». وقرأ أبو العالية، وابن السَّمِيعِ، وعيسى بن عمر بنصبها. وقرأ أبو رزين العقيلي، والربيع بن خيثم^(٣)، وأبو عمران الجوني برفعها. فأما «الْعَالَمِينَ» فجمع عالم، وهو عند أهل العربية: اسم للخلق من مبدئهم إلى منتهاهم، وقد سمو أهل الزمان الحاضر عالماً. فقال الحطية:

[تَنَحِّي فَاجْلِسْ مَنِي بَعِيداً] أَرَأَيْتَ أَنَّكَ الْعَالَمِينَ

فأما أهل النظر، فالعالم عندهم: اسم يقع على الكون الكلي المحدث من فلک، وسما، وأرض، وما بين ذلك. وفي اشتقاق العالم قولان: أحدهما: أنه من العلم، وهو يقوي قول أهل اللغة. والثاني: أنه من العلامة، وهو يقوي قول أهل النظر، فكانه إنما سمي عندهم بذلك، لأنه دالٌّ على خالقه. وللمفسرين في المراد بـ «العالمين» هاهنا خمسة أقوال: أحدها: الخلق كله، السموات والأرضون وما فيهن وما بينهن. رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: كل ذي

(١) رواه أحمد والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) كذا في الأصل. وفي «اللسان» و«شرح القاموس»: السميع بالقاف.

(٣) جاء في «التقريب» الربيع بن خيثم بضم المعجمة، وفتح المثناة، وفي «الخلاصة» بفتح المعجمة والمثناة بينهما تحتانية. أي: خيثم، كما في الأصول التي بين أيدينا.

روح دب على وجه الأرض. رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنهم الجن والإنس. روي أيضاً عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، ومقاتل. والرابع: أنهم الجن والإنس والملائكة، نقل عن ابن عباس أيضاً، واختاره ابن قتيبة. والخامس: أنهم الملائكة، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾. قرأ أبو العالية، وابن السميع، وعيسى بن عمر بالنصب فيهما، وقرأ أبو رزين العقيلي، والربيع بن خيثم، وأبو عمران الجوني بالرفع فيهما.

قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. قرأ عاصم والكسائي، وخلف، ويعقوب: «مالك» بآلف. وقرأ ابن السميع، وابن أبي عبله كذلك، إلا أنهما نصبوا الكاف. وقرأ أبو هريرة، وعاصم الجحدري: «مَلِكِ» بإسكان اللام من غير الألف مع كسر الكاف، وقرأ أبو عثمان النهدي، والشعبي «مَلِكِ» بكسر اللام ونصب الكاف من غير ألف. وقرأ سعد بن أبي وقاص، وعائشة، ومورق العجلي: «مَلِكِ» مثل ذلك إلا أنهم رفعوا الكاف. وقرأ أبي بن كعب، وأبو رجاء العطاردي «ملك» بياء بعد اللام مكسورة الكاف من غير ألف. وقرأ عمرو بن العاص كذلك، إلا أنه ضم الكاف. وقرأ أبو حنيفة^(٢)، وأبو حيوة «مَلِكِ» على الفعل الماضي، «ويوم» بالنصب. وروى عبد الوارث عن أبي عمرو: إسكان اللام، والمشهور عن أبي عمرو وجمهور القراء «مَلِكِ» بفتح الميم مع كسر اللام، وهو أظهر في المدح، لأن كل ملك مالك، وليس كل مالك ملكاً. وفي «الدين» هاهنا قولان: أحدهما: أنه الحساب، قاله ابن مسعود. والثاني: الجزء، قاله ابن عباس، ولما أقر الله ﷻ في قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أنه مالك الدنيا. دل بقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ على أنه مالك الأخرى. وقيل: إنما خصّ يوم الدين، لأنه يتفرد يومئذ بالحكم في خلقه.

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. وقرأ الحسن، وأبو المتوكل، وأبو مجلز «يُعْبُدُ» بضم الياء وفتح الباء. قال ابن الأنباري: المعنى: قل يا محمد: إياك يعبد، والعرب ترجع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ لِيَمِّ يَمِينٍ﴾ [يونس: ٢٢] وقوله: ﴿وَسَمِعْتُمْ رَبَّهُمْ شَرَّكَاءَ ظُهُورًا﴾ [إِنْ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً] [الدحر: ٢١، ٢٢]. وقال لييد:

باتت تشكى إلي النفس مجهشة وقد حملتك سبعاً بعد سبعينا

وفي المراد بهذه العبادة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها بمعنى التوحيد. روي عن علي، وابن عباس في آخرين. والثاني: أنها بمعنى الطاعة، كقوله: ﴿لَا تَقْبَلُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠]. والثالث: أنها بمعنى الدعاء، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠].

قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: ثبتنا. قاله علي، وأبي. والثاني: أرشدنا. والثالث: وفقنا. والرابع: ألهمنا. رويت هذه الثلاثة عن ابن عباس. و«أَصْرَطَ» الطريق. ويقال: إن أصله بالسين، لأنه من الاستراط وهو: الابتلاع، فالسراط كأنه يستطر المازين عليه، فمن قرأ بالسين، كمجاهد، وابن محيصن، ويعقوب، فعلى أصل الكلمة، ومن قرأ بالصاد، كأبي عمرو، والجمهور، فلأنها أخف على اللسان، ومن قرأ بالزاي، كرواية الأصمعي عن أبي عمرو، واحتج بقول العرب: سقر وزقر^(٣) وروي عن حمزة: إشمام السين زايًا، وروي عنه أنه تلفظ بالصراط بين الصاد والزاي. قال الفراء: اللغة الجيدة بالصاد، وهي لغة قريش الأولى، وعامة العرب يجعلونها سينًا، وبعض قيس يشمّن الصاد، فيقول: الصراط بين الصاد والسين، وكان حمزة يقرأ «الزراط» بالزاي، وهي لغة لعنزة وكلب وبني القين. يقولون في [أصدق]^(٤) أزدق. وفي المراد بالصراط هاهنا أربعة أقوال: أحدها: أنه كتاب الله، رواه علي عن

(١) قال أبو العلاء الواسطي: إن الخوازي وضع كتاباً في الحروف نسب إلى أبي حنيفة، فأخذت خط الدارقطني وجماعة؛ أن الكتاب موضوع لا أصل له. قال ابن الجزري: وقد رأيت الكتاب المذكور، ومنه «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ» برفع الهاء ونصب الهمزة، وقد راج ذلك على أكثر المفسرين ونسبها إليه، وتكلف توجيهها، وإن أبا حنيفة ليرى منها. انظر «النشر في القراءات العشر» لابن الجزري ١٦/١.

(٢) قال في «لسان العرب» الزقر: لغة في الصقر.

(٣) الزيادة من القرطبي.

النبي ﷺ. والثاني: أنه دين الإسلام. قاله ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وأبو العالية في آخرين. والثالث: أنه الطريق الهادي إلى دين الله، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والرابع: أنه طريق الجنة، نقل عن ابن عباس أيضاً. فإن قيل: ما معنى سؤال المسلمين الهداية وهم مهتدون؟ ففيه^(١) ثلاثة أجوبة^(٢): أحدها: أن المعنى: أهدنا لزوم الصراط، فحذف اللزوم. قاله ابن الأنباري. والثاني: أن المعنى: ثبتنا على الهدى، تقول العرب للقاء: قم حتى آتيك، أي: اثبت على حالك. والثالث: أن المعنى: زدنا هدى^(٣).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. قال ابن عباس: هم النبيون، والصديقون، والشهداء، والصالحون. وقرأ الأكثرون «عليهم» بكسر الهاء، وكذلك «لديهم» و«إليهم» وقرأه حمزة بضمها. وكان ابن كثير يصل [ضم] الميم بواو. وقال ابن الأنباري: حكى اللغويون في «عليهم» عشر لغات، قرئ بعامتها «عليهم» بضم الهاء وإسكان الميم «و«عليهم» بكسر الهاء وإسكان الميم، و«عليهم» بكسر الهاء والميم وإدخال واو بعد الكسرة، و«عليهم» بكسر الهاء وضم الميم وزيادة واو بعد الضمة، و«عليهم» بضم الهاء والميم وإدخال واو بعد الميم من غير زيادة واو، وهذه الأوجه الستة مأثورة عن القراء، وأوجه أربعة منقولة عن العرب «عليهم» بضم الهاء وكسر الميم وإدخال ياء، و«عليهم» بضم الهاء وكسر الميم من غير إدخال ياء، و«عليهم» بكسر الهاء والميم ولا ياء بعد الميم. فأما «المغضوب عليهم» فهم اليهود، «والضالون»: النصارى. رواه عدي بن حاتم عن النبي ﷺ^(٤). قال ابن قتيبة: والضلال: الحيرة والعدول عن الحق.

فصل

ومن السنة في حق قارئ الفاتحة أن يعقبها بـ «آمين». قال شيخنا أبو الحسن علي بن عبيد الله: وسواء كان خارج الصلاة أو فيها، لما روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فقال من خلفه: آمين، فوافق ذلك قول أهل السماء، غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٥). وفي معنى آمين: ثلاثة أقوال: أحدها: أن معنى آمين: كذلك يكون. حكاه ابن الأنباري عن ابن عباس، والحسن. والثاني: أنها بمعنى: اللهم استجب. قاله الحسن والزجاج. والثالث: أنه اسم من أسماء الله تعالى. قاله مجاهد، وهلال بن يساف، وجعفر بن محمد. وقال ابن قتيبة: معناها: يا آمين أجب دعاءنا، فسقطت ياء، كما سقطت في قوله: ﴿يُوشِعُ أَخْرَضَ عَنْ هَذَا﴾ (يسف: ٢٩) تأويله: يا يوسف. ومن طول الألف فقال: آمين، أدخل ألف النداء على ألف آمين، كما يقال: آزيد أقبل. ومعناه: يا زيد. قال ابن الأنباري: وهذا القول خطأ عند جميع النحويين، لأنه إذا أدخل «يا» على «آمين» كان منادئ مفرداً، فحكم آخره الرفع، فلما أجمعت العرب على فتح نونه، دل على أنه غير منادى، وإنما فتحت نون «آمين» لسكونها وسكون الياء التي قبلها، كما تقول العرب: ليت، ولعل. قال: وفي «آمين» لغتان: «آمين» بالقصر، و«آمين» بالمد، والنون فيهما مفتوحة. أنشدنا أبو العباس عن ابن الأعرابي:

سَقَى اللهُ حَيًّا بَيْنَ صَارَةٍ وَالْحِمَى
أَمِينَ وَأَدَى اللهُ رَكْبًا إِلَيْهِمْ
وَأَنشَدَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ أَيْضًا:
تَبَاعَدَ مِنِّي فَظَحُلَ وَابْنُ أُمِّهِ
(جَمَى)^(٦) فَيَذَّ صَوْبَ الْمُذْجَنَاتِ الْمَوَاطِرِ
بَخِيرٍ وَوَقَّاهُمْ جِمَامِ الْمَقَادِرِ^(٧)
أَمِينَ فَزَادَ اللهُ مَا بَيْنَنَا بُعْدًا^(٨)

(١) في الأصلين: فغنه، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) في نسخة (أ) أوجه. وكذلك كان كتبها ناسخ (ب) ثم أصلحها كما أثبتنا.

(٣) في نسخة (ب) هداية.

(٤) رواه أحمد والترمذي وحسنه.

(٥) رواه البخاري ومسلم بلفظ: «إذا أمن الإمام فأمنوا، فإن من وافق تأمينة تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه».

(٦) الزيادة من نسخة (ب).

(٨) البيتان في «اللسان» في مادة «أمن» ورواية الثاني فيه: ورد الله.

(٩) البيت سقط من نسخة (ب).

وأنشدنا أبو العباس أيضاً:

يا ربَّ لا تسلَبْني حُبَّها أبداً

وأنشدني أبي:

أَمِينَ وَمَنْ أَعْطَاكَ مِنِّْي هَوَاةً

وأنشدني أبي:

فَقُلْتُ لَهُ قَدْ هَجَتْ لِي بَارِحَ الْهَوَى

أَمِينَ وَأَضْنَاهُ الْهَوَى فَوْقَ مَا بِهِ

وَيَرْحَمُ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ آمِينَ

رمى الله في أطرافه فاقْفَعَلَتْ^(١)

أَصَابَ جِمَامُ الْمَوْتِ أَهْوَنًا وَجَدَا

[أَمِينَ]^(٢) وَلَا قَى مِنْ تَبَارِيحِهِ جَهْدَا

فصل

نقل الأكثرون عن أحمد أن الفاتحة شرط في صحة الصلاة، فمن تركها مع القدرة عليها لم تصح صلاته، وهو قول مالك، والشافعي. وقال أبو حنيفة رحمه الله: لا تتعين، وهي رواية عن أحمد، ويدل على الرواية الأولى ما روي في «الصحيحين» من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». والله تعالى أعلم بالصواب.



(١) الاقْفَعَال: تشنج الأصابع والكف من برد أو داء.

(٢) الزيادة من نسخة (ب).

سورة البقرة

فصل في فضيلتها^(١)

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان»^(٢). وروى أبو أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «اقرأوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف، اقرأوا البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة»^(٣). والمراد بالزهراوين: المنيرتين. يقال لكل منير^(٤): زاهر. والغاية: كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه، مثل السحابة والغبرة. يقال: غايا القوم فوق رأس فلان بالسيف، كأنهم أظلموه به. قال لييد:

فَتَدَلَّيْتُ عَلَيْهِ قَافِلًا
وعلى الأرض غيايات الطفل

ومعنى فرقان: قطعتان. والفرق: القطعة من الشيء. قال عز وجل: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَاطِبِينَ الْفَاطِمَةِ﴾ [الشعراء: ٦٣]. والصَّوْفُ: المصطفة المتضامة لتظل قارئها. والبطلة: السحرة.

فصل في نزولها

قال ابن عباس: هي أول ما نزل بالمدينة، وهذا قول الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وجابر بن زيد، وقتادة، ومقاتل. وذكر قوم أنها مدنية سوى آية، وهي قوله عز وجل: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُجْعَلُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]. فإنها أنزلت يوم النحر بمنى في حجة الوداع.

فصل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وأما التفسير. فقلوه: ﴿الْمَرْ﴾ اختلف العلماء فيها وفي سائر الحروف المقطعة في أوائل السور على ستة أقوال: أحدها: أنها من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله. قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «الله عز وجل في كل كتاب سر، وسر الله في القرآن أوائل السور، وإلى هذا المعنى ذهب الشعبي، وأبو صالح، وابن زيد. والثاني: أنها حروف من أسماء، فإذا ألقت ضرباً من التأليف كانت أسماء من أسماء الله عز وجل. قال علي بن أبي طالب: هي أسماء مقطعة لو علم الناس تأليفها علموا اسم الله الذي إذا دعي به أجاب. وسئل ابن عباس عن «آلر» و«حم» و«نون» فقال: اسم الرحمن على الهجاء، وإلى نحو هذا ذهب أبو العالية، والربيع بن أنس. والثالث: أنها حروف أقسم الله بها، قاله ابن عباس، وعكرمة. قال ابن قتبية: ويجوز أن يكون أقسم بالحروف المقطعة كلها، واقتصر على ذكر بعضها كما يقول القائل: تعلمت «أ ب ت ث» وهو يريد سائر الحروف، وكما يقال: قرأت الحمد، يريد فاتحة الكتاب، فيسميها بأول حرف منها، وإنما أقسم بحروف المعجم لشرفها ولأنها مباني كتبه المنزل، وبها يذكر ويوحد. قال ابن الأنباري: وجواب القسم محذوف، تقديره: وحروف المعجم لقد بين الله لكم السيل، وأنهجت لكم الدلالات بالكتاب المنزل، وإنما حذف لعلم المخاطبين به، ولأن في قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ دليلاً على الجواب. والرابع: أنه أشار بما ذكر من الحروف إلى سائرهما، والمعنى أنه لما كانت الحروف أصولاً للكلام المؤلف، أخبر أن هذا القرآن إنما هو مؤلف من هذه الحروف، قاله الفراء، وقطرب. فإن قيل: فقد علموا أنه حروف، فما الفائدة في إعلامهم بهذا؟

(٢) رواء مسلم والترمذي والنسائي.

(٤) في نسخة (أ): «استير».

(١) هذا العنوان ثابت في نسخة (ب).

(٣) رواء مسلم.

فالجواب: أنه نبه بذلك على إعجازه، فكأنه قال: هو من هذه الحروف التي تؤلفون منها كلامكم، فما بالكم تعجزون عن معارضته؟! فإذا عجزتم فاعلموا أنه ليس من قول محمد ﷺ. والخامس: أنها أسماء للسور. روي عن زيد بن أسلم، وابنه، وأبي فاختة سعيد بن علاقة مولى أم هانئ. والسادس: أنها من الرمز الذي تستعمله العرب في كلامها. يقول الرجل للرجل: هل تأ؟ فيقول له: بلى، يريد هل تأتي؟ فيكتفي بحرف من حروفه. وأنشدوا:

قلنا لها قفي [لنا] فقالت قاف
أراد قالت: أقف. ومثله:

نادوهم ألا الجموا ألا تا
يريد: ألا تركبون؟ قالوا: بلى فاركبوا. ومثله:

بالخير خيرات وإن شراً فا
معناه: وإن شراً فشر ولا أريد الشر إلا أن تشاء. وإلى هذا القول ذهب الأخفش، والزجاج، وابن الأنباري. وقال أبو روق عطية بن الحارث الهمداني: كان النبي ﷺ يجهر بالقراءة في الصلوات كلها، وكان المشركون يصفقون ويصفقون، فنزلت هذه الحروف المقطعة، فسمعوها فيقوا متحيرين. وقال غيره: إنما خاطبهم بما لا يفهمون ليقبلوا على سماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، أو يكون معلوماً عند المخاطبين، فهذا الكلام يعم جميع الحروف.

وقد خص المفسرون قوله ﴿آلَمْ﴾ بخمسة أقوال: أحدها: أنه من المتشابه الذي لا يعلم معناه إلا الله عز وجل، وقد سبق بيانه. والثاني: أن معناه: أنا الله أعلم. رواه أبو الضحى عن ابن عباس، وبه قال ابن مسعود، وسعيد بن جبير. والثالث: أنه قسم. رواه أبو صالح عن ابن عباس، وخالد الحذاء عن عكرمة. والرابع: أنها حروف من أسماء. ثم فيها قولان: أحدهما: أن الألف من «الله» واللام من «جبريل» والميم من «محمد» قاله ابن عباس. فإن قيل: إذا كان قد تنول من كل اسم حرفة الأول اكتفاءً به، فلم أخذت اللام من جبريل وهي آخر الاسم؟! فالجواب: أن مبتدأ القرآن من الله تعالى، فدل على ذلك بابتداء أول حرف من اسمه، وجبريل انختم به التنزيل والإقراء، فتنول من اسمه نهاية حروفه، و«محمد» مبتدأ في الإقراء، فتنول أول حرف فيه. والقول الثاني: أن الألف من «الله» تعالى، واللام من «لطيف» والميم من «مجيد» قاله أبو العالية. والخامس: أنه أسم من أسماء القرآن، قاله مجاهد، والشعبي، وقناة، وابن جريج.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكْ﴾. فيه قولان: أحدهما: أنه بمعنى هذا، وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والكسائي، وأبي عبيدة، والأخفش. واحتج بعضهم بقول خفاف بن ثدبة:

أقول له والرمح ياطر متنه
تأمل خفافاً إنسي أنا ذلكا

أي: أنا هذا. وقال ابن الأنباري. إنما أراد: أنا ذلك الذي تعرفه. والثاني: أنه إشارة إلى غائب. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أراد به ما تقدم إنزاله عليه من القرآن. والثاني: أنه أراد به ما وعده أن يوحيه إليه في قوله: ﴿سَتَلَقِيَّ عَلَيْكَ قَوْلًا تَلِيلًا﴾ [الزمل: ٥]. والثالث: أنه أراد بذلك ما وعده به أهل الكتب السالفة، لأنهم وعدوا بنبي وكتاب. و«الْكِتَابُ»: القرآن. وسمي كتاباً، لأنه جمع بعضه إلى بعض، ومنه الكتيبة، سميت بذلك لاجتماع بعضها إلى بعض. ومنه: كتبت البغلة^(١).

قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. الرِّيب: الشك. والهدى: الإرشاد. والمتقون: المحترزون مما اتقوه. وفرَّق شيخنا علي بن عبيد الله بين التقوى والورع، فقال: التقوى: أخذ^(٢) عدة، والورع: دفع شبهة، فالتقوى: متحقق السبب، والورع: مظنون المسبب. واختلف العلماء في معنى هذه الآية على ثلاثة أقوال: أحدها: أن ظاهرها النفي، ومعناها

(١) الرجز: للوليد بن عتبة.

(٢) قال في «اللسان»: وكتبت البغلة: إذا جمعت شُفري حياها بحلقة أو سير، لتلا يتزى عليها.

(٣) في نسخة (ب): «أشد».

النهي، وتقديرها: لا ينبغي أحد أن يرتاب به لإتقانه وإحكامه. ومثله: ﴿مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨]. أي: ما ينبغي لنا. ومثله: ﴿فَلَا رَفْكَ وَلَا فَسُوكَ﴾ [البقرة: ١٩٦]. وهذا مذهب الخليل، وابن الأنباري. والثاني: أن معناها: لا ريب فيه أنه هدى للمتقين. قاله الميرد. والثالث: أن معناها: لا ريب فيه أنه من عند الله، قاله مقاتل في آخرين. فإن قيل: فقد ارتاب به قوم. فالجواب: أنه حق في نفسه، فمن حقق النظر فيه علم. قال الشاعر:

ليس في الحق يا أمانة ريب [إنما الريب ما يقول الكذوب]^(١)

فإن قيل: فالمتقي مهتد، فما فائدة اختصاص الهداية به؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أنه أراد المتقين، والكافرين، فاكتمى بذكر أحد الفريقين، كقوله تعالى: ﴿سَرِيلَ تَقِيكُمْ الْآخَرُ﴾ [النحل: ٨١]. أراد: والبرد. والثاني: أنه خص المتقين لانتفاعهم به، كقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ بَخَشَنَكَ﴾ [التازعات: ٤٥]. وكان منذاراً لمن يخشى ولمن لا يخشى.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾. الإيمان في اللغة: التصديق، والشرع أقره على ذلك، وزاد فيه القول والعمل. وأصل الغيب: المكان المظمن الذي يستتر فيه لنزوله عما حوله، فسمي كل مستتر: غيباً. وفي المراد بالغيب هاهنا ستة أقوال: أحدها: أنه الوحي، قاله ابن عباس، وابن جريج. والثاني: القرآن، قاله أبو رزين العقيلي، وزر بن حبيش. والثالث: الله عز وجل، قاله عطاء، وسعيد بن جبيرة. والرابع: ما غاب عن العباد من أمر الجنة والنار، ونحو ذلك مما ذكر في القرآن. رواه السدي عن أشياخه، وإليه ذهب أبو العالية، وقتادة. والخامس: أنه قدر الله عز وجل، قاله الزهري. والسادس: أنه الإيمان بالرسول في حق من لم يره. قال عمرو بن مرة: قال أصحاب عبد الله له: طوبى لك، جاهدت مع رسول الله ﷺ، وجالسته. فقال: إن شأن رسول الله ﷺ كان مبيّناً لمن رآه، ولكن أعجب من ذلك: قوم يجدون كتاباً مكتوباً يؤمنون به ولم يروه، ثم قرأ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ﴾. الصلاة في اللغة: الدعاء. وفي الشريعة: أفعال وأقوال على صفات مخصوصة. وفي تسميتها بالصلاة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها سميت بذلك لرفع الصلّا، وهو مغرز الذنب من الفرس. والثاني: أنها من صليت العود إذا لبيت، فالمصلي يلين ويخشع. والثالث: أنها مبنية على السؤال والدعاء، والصلاة في اللغة: الدعاء، وهي في هذا المكان اسم جنس. قال مقاتل: أراد بها هاهنا: الصلوات الخمس. وفي معنى إقامتها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه تمام فعلها على الوجه المأمور به، روي عن ابن عباس، ومجاهد. والثاني: أنه المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها، قاله قتادة، ومقاتل. والثالث: إدامتها، والعرب تقول في الشيء الراتب: قائم، وفلان يقيم أرزاق الجند، قاله ابن كيسان.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾. أي: أعطيناهم ﴿يُفْقُونَ﴾ أي يخرجون. وأصل الإنفاق الإخراج. يقال: نفقت الدابة: إذا خرجت روحها. وفي المراد بهذه النفقة أربعة أقوال: أحدها: أنها النفقة على الأهل والعيال، قاله ابن مسعود، وحذيفة. والثاني: أنها الزكاة المفروضة، قاله ابن عباس، وقتادة. والثالث: أنها الصدقات النوافل، قاله مجاهد، والضحاك. والرابع: أنها النفقة التي كانت واجبة قبل وجوب الزكاة، ذكره بعض المفسرين، وقالوا: إنه كان فرض على الرجل أن يمسك مما في يده مقدار كفايته يومه وليته، ويفرق باقيه على الفقراء. فعلى قول هؤلاء، الآية منسوخة بآية الزكاة، وغير هذا القول أثبت. واعلم أن الحكمة في الجمع بين الإيمان بالغيب وهو عقد القلب، وبين الصلاة وهي فعل البدن، وبين الصدقة وهو تكليف يتعلق بالمال، أنه ليس في التكليف قسم رابع، إذ ما عدا هذه الأقسام فهو ممتزج بين اثنين منهما، كالحج والصوم ونحوهما.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾. اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه، رواه الضحاك عن ابن عباس، واختاره مقاتل. والثاني: أنها نزلت في العرب الذين آمنوا بالنبي وبما

أنزل من قبله... رواه أبو صالح عن ابن عباس، قال المفسرون: [الذي أنزل إليه، القرآن. وقال شيخنا علي بن عبيد الله: القرآن^(١)] وغيره مما أوحى إليه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾. يعني: الكتب المتقدمة والوحي، فأما «الآخرة» فهي اسم لما بعد الدنيا، وسميت آخرة، لأن الدنيا قد تقدمتها: وقيل: سميت آخرة لأنها نهاية الأمر.

قوله تعالى: ﴿يُوقِنُونَ﴾. اليقين: ما حصلت به الثقة، وثلج به الصدر، وهو أبلغ علم مكتسب.
قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ عَلَىٰ هَذِي﴾. أي: على رشاد. وقال ابن عباس: على نور واستقامة. قال ابن قتيبة: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: الفائزون ببقاء الأبد. وأصل الفلاح: البقاء. ويشهد لهذا قول لبيد:

نحل بلاداً كُلُّهَا حُلٌّ قَبْلَنَا ونرجو الفلاح بعد عادٍ وحمير

يريد: البقاء. وقال الزجاج: المفلح: الفائز بما فيه غاية صلاح حاله. قال ابن الأنباري: ومنه: حيي على الفلاح، معناه: هلموا إلى سبيل الفوز ودخول الجنة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. في نزولها أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في قادة الأحزاب، قاله أبو العالية. والثاني: أنها نزلت في أبي جهل وخمسة من أهل بيته، قاله الضحاك. والثالث: أنها نزلت في طائفة من اليهود، ومنهم حيي بن أخطب، قاله ابن السائب. والرابع: أنها نزلت في مشركي العرب، كأبي جهل وأبي طالب، وأبي لهب وغيرهم ممن لم يسلم. قال مقاتل: فأما تفسيرها، فالكفر في اللغة: التغطية. تقول: كفرت الشيء إذا غطيته، فسمي الكافر كافراً، لأنه يغطي الحق.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾. أي: متعادل عندهم الإنذار وتركه، والإنذار: إعلام مع تخويف، وتناذر بنو فلان هذا الأمر: إذا خوفه بعضهم بعضاً. قال شيخنا علي بن عبيد الله: هذه الآية وردت بلفظ العموم، والمراد به الخصوص، لأنها أذنت بأن الكافر حين إنذاره لا يؤمن، وقد آمن كثير من الكفار عند إنذارهم، ولو كانت على ظاهرها في العموم، لكان خبر الله لهم خلاف مخبره، ولذلك وجب نقلها إلى الخصوص.

قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾. الختم: الطبع، والقلب: قطعة من دم جامدة سوداء، وهو مستكن في الفؤاد، وهو بيت النفس، ومسكن العقل، وسمي قلباً لتقلبه، وقيل: لأنه خالص البدن، وإنما خصّه بالختم لأنه محل الفهم.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾. يريد: على أسماعهم، فذكره بلفظ التوحيد، ومعناه: الجمع، فاكتفى بالواحد عن الجميع، ونظيره قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [الحج: ٥]. وأنشدوا من ذلك:

كلوا في نصف بطونكم تعيشوا فلإن زمانكم زمن خميص

أي: في أنصاف بطونكم. ذكر هذا القول أبو عبيدة، والزجاج. وفيه وجه آخر، وهو أن العرب تذهب بالسمع مذهب المصدر، والمصدر يوحد، تقول: يعجبني حديثكم، ويعجبني ضربكم. فأما البصر والقلب فهما اسمان لا يجريان مجرى المصادر في مثل هذا المعنى. ذكره الزجاج، وابن القاسم. وقد قرأ عمرو بن العاص، وابن أبي عبله: (وعلى أسماعهم).

قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاةٌ﴾. الغشاوة: الغطاء. قال الفراء: أما قریش وعامة العرب، فيكسرون الغين من «غشاوة»، وعكل يضمون الغين، وبعض العرب يفتحها، وأظنها لربيعه. وروى الفضل عن عاصم «غشاوة» بالنصب على تقدير: جعل على أبصارهم غشاوة. فأما العذاب، فهو الألم المستمر، وماء عذب: إذا استمر في الحلق سائفاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾. اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها في المنافقين، ذكره السدي عن ابن مسعود، وابن عباس، وبه قال أبو العالية، وقتادة، وابن زيد. والثاني: أنها في منافقي أهل الكتاب.

رواه أبو صالح عن ابن عباس. وقال ابن سيرين: كانوا يتخوفون من هذه الآية. وقال قتادة: هذه الآية نعت المنافق، يعرف بلسانه، وينكر بقلبه، [و] يصدق بلسانه، ويخالف بعمله، ويصبح على حال ويمسي على غيرها، ويتكفأ تكفأ السفينة، كلما هبت ريح هب معها.

قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾. قال ابن عباس: كان عبد الله بن أبي، ومعتب بن قشير، والجد بن القيس؛ إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، ونشهد أن صاحبكم صادق، فإذا خلوا لم يكونوا كذلك، فنزلت هذه الآية. فأما التفسير، فالخديعة: الحيلة والمكر، وسميت خديعة، لأنها تكون في خفاء. والمخدع: بيت داخل البيت تختفي فيه المرأة، ورجل خادع: إذا فعل الخديعة، سواء حصل مقصوده أو لم يحصل، فإذا حصل مقصوده، قيل: قد خدع. وانخدع الرجل: استجاب للخداع، سواء تعمد الاستجابة أو لم يقصدها، والعرب تسمي الدهر خداعاً، لتلونه بما يخفيه من خير وشر. وفي معنى خداعهم الله؛ خمسة أقوال: أحدها: إنهم كانوا يخادعون المؤمنين، فكانهم خادعوا الله. روي عن ابن عباس؛ واختاره ابن قتيبة. والثاني: إنهم كانوا يخادعون نبي الله، فأقام الله نبيه مقامه، كما قال: ﴿إِنَّ أَلْيَمَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهَ﴾ [التغ: ١٠]. قاله الزجاج. والثالث: أن الخادع عند العرب: الفاسد. وأنشدوا:

[أبيض اللون لذيد طعمه] طيب السريق إذا السريق خدع^(١)

أي: فسد. رواه محمد بن القاسم عن ثعلب عن ابن الأعرابي. قال ابن القاسم: فتأويل: يخادعون الله: يفسدون ما يظهرون من الإيمان بما يضمرون من الكفر. والرابع: أنهم كانوا يفعلون في دين الله ما لو فعلوه بينهم كان خداعاً. والخامس: أنهم كانوا يخفون كفرهم، ويظهرون الإيمان به.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: (وما يخادعون) وقرأ الكوفيون، وابن عامر: (يخدعون)، والمعنى: أن وبال ذلك الخداع عائد عليهم. ومتى يعود وبال خداعهم عليهم؟ فيه قولان: أحدهما: في دار الدنيا، وذلك بطريقين. أحدهما: بالاستدراج والإمهال الذي يزيدهم عذاباً. والثاني: باطلاع النبي والمؤمنين على أحوالهم التي أسروها. والقول الثاني: أن عود الخداع عليهم في الآخرة. وفي ذلك قولان: أحدهما: أنه يعود عليهم عند ضرب الحجاب بينهم وبين المؤمنين، وذلك قوله: ﴿قِيلَ آجِبُوا رَبَّكُمْ قَالُوا نَحْنُ الْمُسْلِمُونَ﴾ [الحديد: ١٣]. والثاني: أنه يعود عليهم عند اطلاع أهل الجنة عليهم، فإذا رأوهم طمعوا في نيل راحة من قبلهم، فقالوا: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠] فيجيبونهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَزَنَةُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾. أي: وما يعلمون. وفي الذي لم يشعروا به قولان: أحدهما: أنه إطلاع الله نبيه على كذبهم، قاله ابن عباس. والثاني: أنه إسرارهم بأنفسهم بكفرهم، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾. المرض هاهنا: الشك، قاله عكرمة، وقتادة. ﴿فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ هذا الإخبار من الله تعالى أنه فعل بهم ذلك، و«الآليم» بمعنى المؤلم، والجمهور يقرؤون (يكذبون) بالتشديد، وقرأ الكوفيون سوى أبان، عن عاصم بالتخفيف مع فتح الياء.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾. اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، وهو قول الجمهور، منهم ابن عباس، ومجاهد. والثاني: أن المراد بها قوم لم يكونوا خلقوا حين نزولها، قاله سلمان الفارسي. وكان الكسائي يقرأ بضم القاف من «قيل» والحاء من «حيل» والغين من «غيض»، والجيم من «جبي»، والسين من «سي» و«سيئت». وكان ابن عامر يضم من ذلك ثلاثة «حيل» و«سيق» و«سي» و«سيئت». وكان نافع يضم «سي» و«سيئت»، ويكسر البواقي، والآخرين يكسرون جميع ذلك. وقال القراء: أهل الحجاز من قريش ومن جاورهم من بني كنانة يكسرون القاف في «قيل» و«جبي» و«غيض»، وكثير من عقيل ومن جاورهم وعامة أسد، يشمون^(٢) إلى الضم من «قيل» و«جبي». وفي المراد بالفساد هاهنا خمسة أقوال: أحدها:

(١) البيت نسيه في «اللسان» لسويد بن أبي كاهل الشكري، وهو من قصيدة جيدة، تجدها في «المفضليات».

(٢) في الأصول التي بين أيدينا «يشيرون» وما أثبتناه هو الصواب، كما هو في كتب القراءات.

أنه الكفر، قاله ابن عباس. والثاني: العمل بالمعاصي، قاله أبو العالية، ومقاتل. والثالث: أنه الكفر والمعاصي، قاله السدي عن أشياخه. والرابع: أنه ترك امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، قال مجاهد. والخامس: أنه النفاق الذي صادفوا به الكفار، وأطلعوهم على أسرار المؤمنين، ذكره شيخنا علي بن عبيد الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عَنْ مَثَلِكُمْ﴾. فيه خمسة أقوال: أحدها: أن معناه إنكار ما عرفوا به، وتقديره: ما فعلنا شيئاً يوجب الفساد. والثاني: أن معناه: إنا نقصد الإصلاح بين المسلمين والكافرين، والقولان عن ابن عباس. والثالث: أنهم أرادوا مضافة الكفار صلاح، لا فساد، قاله مجاهد، وقتادة. والرابع: أنهم أرادوا أن فعلنا هذا هو صلاح، وتصديق محمد هو الفساد، قاله السدي. والخامس: أنهم ظنوا أن مضافة الكفار صلاح في الدنيا لا في الدين، لأنهم اعتقدوا أن الدولة إن كانت للنبي ﷺ فقد أمته بمبايعته^(١) وإن كانت للكفار فقد آمنوهم بمصافاتهم، ذكره شيخنا.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾. قال الزجاج. ألا: كلمة يبتدأ بها ينبه بها المخاطب، تدل على صحة ما بعدها. و«هم»: تأكيد للكلام.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. قولان: أحدهما: لا يشعرون أن الله يطلع نبيه على فسادهم. والثاني: لا يشعرون أن ما فعلوه فساد، لا صلاح.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَايَتُوا﴾ في المقول لهم قولان: أحدهما: أنهم اليهود، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: المنافقون، قاله مجاهد، وابن زيد. وفي القائلين لهم قولان: أحدهما: أنهم أصحاب النبي ﷺ، قاله ابن عباس، ولم يعين أحداً من الصحابة. والثاني: أنهم معينون، وهم سعد بن معاذ، وأبو لبابة، وأسيد، ذكره مقاتل. وفي الإيمان الذي دعوا إليه قولان: أحدهما: أنه التصديق بالنبي، وهو قول من قال: هم اليهود. والثاني: أنه العمل بمقتضى ما أظهروه، وهو قول من قال: هم المنافقون. وفي المراد بالناس هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: جميع الصحابة، قاله ابن عباس. والثاني: عبد الله بن سلام، ومن أسلم معه من اليهود، قاله مقاتل. والثالث: معاذ بن جبل، وسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وجماعة من وجوه الأنصار، عدهم الكلبي. وفيمن عنوا بالسفهاء ثلاثة أقوال: أحدها: جميع الصحابة، قاله ابن عباس. والثاني: النساء والصبيان، قاله الحسن. والثالث: ابن سلام وأصحابه، قاله مقاتل. وفيما عنوه بالغيب من إيمان الذين زعموا أنهم السفهاء ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أرادوا دين الإسلام، قاله ابن عباس، والسدي. والثاني: أنهم أرادوا البعث والجزاء، قاله مجاهد. والثالث: أنهم عنوا مكاشفة الفريقين بالعداوة من غير نظر في عاقبة، وهذا الوجه الذي قبله يخرج على أنهم المنافقون، والأول يخرج على أنهم اليهود. قال ابن قتيبة: والسفهاء: الجهلة، يقال: سفه فلان رآه إذا جهله، ومنه قيل للبداء: سفه، لأنه جهل. قال الزجاج: وأصل السفه في اللغة: خفة الحلم، ويقال: ثوب سفه: إذا كان رقيقاً بالياً، وتسفت الرياح الشجر: إذا مالت به. قال الشاعر:

مشين كما اهتزت رماح تسفت
أعاليها مر الرياح النواسم^(٢)

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. قال مقاتل: لا يعلمون أنهم هم السفهاء. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَعَنُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَايَتُنَا وَإِذَا جَاءُوا إِلَيْنَا سَبَّحُنَا قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا عَنْ مُسْتَهْزِئَةٍ﴾. اختلوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في عبد الله بن أبي وأصحابه، قاله ابن عباس. والثاني: أنها نزلت في المنافقين وغيرهم من أهل الكتاب الذين كانوا يظهرون للنبي ﷺ من الإيمان ما يلقون رؤساءهم بضده، قاله الحسن. فأما التفسير: «إلى»: بمعنى «مع» كقوله تعالى: ﴿مَنْ أَضَارِكُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: مع الله. والشياطين: جمع شيطان، قال الخليل: كل متمرّد عند العرب شيطان. وفي هذا الاسم قولان: أحدهما: أنه من شطن، أي: بعد عن الخير، فعلى هذا تكون النون أصلية. قال أمية بن أبي الصلت في صفة سليمان عليه السلام:

(١) في نسخة (أ): «بمبايعته».

(٢) البيت لذي الرمة يصف النساء. يقول: إذا مشين اهتززن في مشين، وتشتين فكانهن رماح نصبت، فمرت عليها الرياح فاهتزت وتشتت. والنواسم: الرياح الضعيفة الهبوب.

أَيُّمَا شَاطِئِنِ عَصَاهُ عَكَاهُ
عَكَاهُ: أَوْثَقَهُ. وَقَالَ النَّابِغَةُ:

نَاتَ بِسَعَادٍ عَنْكَ نَوًى شَطُونِ

والثاني: أَنَّهُ مِنْ شَاطِئِ يَشِيطُ: إِذَا تَهَبَّ وَاحْتَرَقَ، فَتَكُونُ النَّوْنُ زَائِدَةً. وَأَنشَدُوا:

وَقَدْ يَشِيطُ عَلَى أَرْمَاحِنَا الْبِطْلُ^(١)

أَي: يَهْلِكُ. وَفِي الْمَرَادِ بِشِيَاطِينِهِمْ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ رُؤُوسُهُمْ فِي الْكُفْرِ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنُ، وَالسَّدي. وَالثَّانِي: إِخْوَانُهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ، وَمَجَاهِدٌ. وَالثَّالِثُ: كَهَيْئَتِهِمْ، قَالَ الضَّحَّاكُ، وَالْكَلْبِيُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا مَكِّمُكُمْ﴾. فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ أَرَادُوا: إِنَّا مَعَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ. وَالثَّانِي: إِنَّا مَعَكُمْ عَلَى النَّصْرَةِ وَالْمُعَاوَدَةِ. وَالْهَزْءُ: السَّخَرِيَّةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾. اختلف العلماء في المراد باستهزاء الله بهم على تسعة أقوال: أَحَدُهَا: أَنَّهُ يَفْتَحُ لَهُمْ بَابَ مِنَ الْجَنَّةِ وَهُمْ فِي النَّارِ، فَيَسْرِعُونَ إِلَيْهِ فَيُغْلَقُ، ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُمْ بَابَ آخَرَ، فَيَسْرِعُونَ فَيُغْلَقُ، فَيَضْحَكُ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ. رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَمَدَتِ النَّارُ لَهُمْ كَمَا تَجَمَّدُ الْإِهَالَةُ فِي الْقَدَرِ، فَيَمْشُونَ فَتَنْخَسِفُ بِهِمْ. رَوَى عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ. وَالثَّالِثُ: أَنَّ الْاسْتِهْزَاءَ بِهِمْ: إِذَا ضَرَبَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ، وَظَاهَرُهُ مِنَ الْقِلَّةِ الْعَذَابُ، فَيَقُولُونَ فِي الظُّلْمَةِ، يَقَالُ لَهُمْ: ﴿أَتَرْجِعُونَ رَدًّاكُمْ قَالَتُوا نَعَمْ﴾ [الحديد: ١٣]. قَالَ مَقَاتِلُ. وَالرَّابِعُ: أَنَّ الْمَرَادَ بِهِ: يَجَازِيهِمْ عَلَى اسْتِهْزَائِهِمْ، فَقَوْلُ الْفَرْقِ بِمَثَلِهِ لَفْظًا وَإِنْ خَالَفَهُ مَعْنَى، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ أَغْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَغْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] وَقَالَ عَمْرُو بْنُ كَثُومٍ:

أَلَا لَا يَجْهَلُنَ أَحَدٌ عَلَيْنَا

فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

أَرَادَ: فَتُعَاقِبُهُ بِأَغْلَظَ مِنْ عِقَابِهِ. وَالخَامِسُ: أَنَّ الْاسْتِهْزَاءَ مِنَ اللَّهِ التَّخَطُّطُ لَهُمْ وَالتَّجْهِيلُ، فَمَعْنَاهُ: اللَّهُ يَخْطِيهِمْ، فَعَلَهُمْ، وَيَجْهَلُهُمْ فِي الْإِقَامَةِ عَلَى كُفْرِهِمْ. وَالسَّادِسُ: أَنَّ اسْتِهْزَاءَهُ: اسْتِدْرَاجُهُ إِيَّاهُمْ. وَالسَّابِعُ: أَنَّهُ إِيقَاعُ اسْتِهْزَائِهِمْ بِهِمْ، وَرَدُّ خُدَاعِهِمْ وَمَكْرِهِمْ عَلَيْهِمْ. ذَكَرَ هَذِهِ الْأَقْوَالُ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ الْأَنْبَارِيُّ. وَالثَّامِنُ: أَنَّ الْاسْتِهْزَاءَ بِهِمْ أَنْ يَقَالَ لِأَحَدِهِمْ فِي النَّارِ وَهُوَ فِي غَايَةِ الذُّلِّ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] ذَكَرَهُ شَيْخُنَا فِي كِتَابِهِ. وَالثَّاسِعُ: أَنَّهُ لَمَّا أَظْهَرُوا مِنْ أَحْكَامِ إِسْلَامِهِمْ فِي الدُّنْيَا خِلَافَ مَا أَبْطَنَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، كَانَ كَالْاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَكْبِرُونَ فِي مُؤْمِنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: يُمْكِنُ لَهُمْ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ. وَالثَّانِي: يَمْلِي لَهُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَالثَّالِثُ: يَزِيدُهُمْ، قَالَ مَجَاهِدٌ. وَالرَّابِعُ: يَمْهَلُهُمْ، قَالَ الزَّجَاجُ. وَالطَّنْيَانُ: الزِّيَادَةُ عَلَى الْقَدَرِ، وَالْخُرُوجُ عَنْ حِيزِ الْإِعْتِدَالِ فِي الْكَثْرَةِ، يَقَالُ: طَنَى الْبَحْرُ: إِذَا هَاجَتْ أَمْوَاغُهُ، وَطَنَى السَّيْلُ: إِذَا جَاءَ بِمَاءٍ كَثِيرٍ. وَفِي الْمَرَادِ بِطَّنْيَانِهِمْ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ كَفَرَهُمْ، قَالَ الْجَمْهُورُ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ عَثَرَهُمْ وَتَكَبَّرَهُمْ، قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ. «وَالْيَعْمَهُونَ» بِمَعْنَى: يَتَحَيَّرُونَ، يَقَالُ: رَجُلٌ عَمَهُ وَعَامَهُ، أَيْ: مَتَحَيَّرَ. قَالَ الرَّاجِزُ:

وَمُخْفَقٍ مِنْ لُهْلُ وَلُهْلُ

مِنْ مَهْمٍ يَجْتَبِنُهُ فِي مَهْمٍ

أَعْمَى الْهَدَى بِالْجَاهِلِينَ السُّمَّةُ^(٢)

(١) هُوَ عَجْزُ بَيْتٍ لِلْأَعْمَى، وَصَدْرُهُ: (قَدْ نَخَسِبُ الْبَيْرَ مِنْ مَكُونٍ فَائِلَةً) وَالْفَائِلُ: عَرَقٌ فِي الْخُذِّ يَكُونُ فِي خَرِبَةِ الْوَرَكِ يَنْحَدِرُ فِي الرِّجْلَيْنِ. وَمَكُونٌ فَائِلَةٌ: دَمٌ الَّذِي كُنَ فِيهِ، أَرَادَ: إِنَّا حَقَاقٌ بِالطَّنِينِ.

(٢) الشَّعْرُ لِرُوبَةِ بَنِ الْعَجَاجِ يَصِفُ مُضِلَّةً مِنَ الْمَهَامَةِ. وَالْمُخْفَقُ: الْأَرْضُ الْوَاسِعَةُ الْمُسْتَوِيَّةُ الَّتِي يَضْطَرِبُ فِيهَا السَّرَابُ. وَلِهْلَهُ: أَرْضٌ وَاسِعَةٌ، وَالْجَمْعُ لِهَالِهِ. وَالْمَهْمَةُ: الْفَلَاةُ الْمُقْفَرَةُ الَّتِي لَيْسَ بِهَا أَنْبَسٌ وَلَا مَاءٌ. وَجَابُ الْمَفَازَةِ وَاجْتَابَهَا: قَطْعُهَا سِرًّا. وَقَوْلُهُ: فِي مَهْمَةٍ: أَيْ: يَقْطَعُهُ وَيَدْخُلُنَ فِي مَهْمَةٍ آخَرَ مُوْغِلِينَ فِي الصَّحَرَاءِ.

وقال ابن قتيبة: يعمهون: يركبون رؤوسهم، فلا يبصرون.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾. في نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في جميع الكفار، قاله ابن مسعود، وابن عباس. والثاني: أنها في أهل الكتاب، قاله قتادة والسدي ومقاتل. والثالث: أنها في المنافقين، قاله مجاهد. واشتروا: بمعنى استبدلوا، والعرب تجعل من أثر شيئاً على شيء مشتركاً له، وبائعاً للآخر. والضلالة والضلال بمعنى واحد. وفيهما للفسرين ثلاثة أقوال: أحدها: أن المراد هاهنا الكفر، والمراد بالهدى: الإيمان، روي عن الحسن وقتادة والسدي. والثاني: أنها الشك، والهدى: اليقين. والثالث: أنها الجهل، والهدى: العلم. وفي كيفية استبدالهم الضلالة بالهدى ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم آمنوا ثم كفروا، قاله مجاهد. والثاني: أن اليهود آمنوا بالنبي قبل مبعته، فلما بعث كفروا به، قاله مقاتل. والثالث: أن الكفار لما بلغهم ما جاء به النبي من الهدى فردوه واختاروا الضلال، كانوا كمن أبدل شيئاً بشيء، ذكره شيخنا علي بن عبيد الله.

قوله تعالى: ﴿فَمَا رَاحَتُ يَمَنَّتُهُمْ﴾. من مجاز الكلام، لأن التجارة لا تريح، وإنما يريح فيها، ومثله قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرٌ آلِيلٌ وَأَلْتَهَارٍ﴾ [سبا: ٣٣] يريد: بل مكروهم في الليل والنهار. ومثله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ [محمد: ٢١] أي: عزم عليه. وأنشدوا:

حَارَتْ قَدْ فَرَّجَتْ عَنِّي هَمِي
فَنَامَ لَيْلِي وَتَجَلَّى غَمِّي^(١)
والليل لا ينام، بل ينام فيه، وإنما يستعمل مثل هذا فيما يزول فيه الإشكال، ويعلم مقصود قائله، فأما إذا أضيف إلي ما يصلح أن يوصف به، وأريد به ما سواه، لم يجوز، مثل أن تقول: ربح عبدك، وتريد: ربحت في عبدك. وإلى هذا المعنى ذهب الفراء وابن قتيبة والزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾. فيه خمسة أقوال: أحدها: وما كانوا في العلم بالله مهتدين. والثاني: وما كانوا مهتدين من الضلالة. والثالث: وما كانوا مهتدين إلى تجارة المؤمنين. والرابع: وما كانوا مهتدين في اشتراء الضلالة. والخامس: أنه قد لا يربح التاجر، ويكون على هدى من تجارته، غير مستحق للذم فيما اعتمده، فنفى الله عز وجل عنهم الأمرين، مبالغة في ذمهم.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾. هذه الآية نزلت في المنافقين. والمثل بتحريك الشاء: ما يضرب ويوضع ليبان النظائر في الأحوال. وفي قوله تعالى: ﴿اسْتَوْقَدَ﴾ قولان: أحدهما: أن السين زائدة، وأنشدوا:
وداع دعا يا من يجيب إلى الندى
فلم يستجبه عند ذلك مجيب^(٢)
أراد: فلم يجبه، وهذا قول الجمهور، منهم الأخفش وابن قتيبة. والثاني: أن السين داخله للطلب، أراد: كمن طلب من غيره نارا.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُمْ دَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَكَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾. وفي «أضاءت» قولان: أحدهما: أنه من الفعل المتعدي، قال الشاعر:

أضياءت لهم أحسابهم ووجوههم
وقال آخر:

أضياءت لنا النار وجهاً أغرَّ
والثاني: أنه من الفعل اللازم. قال أبو عبيد: يقال أضياءت النار، وأضياءها غيرها. وقال الزجاج: يقال: ضاء القمر، وأضياء. وفي «ما» قولان: أحدهما: أنها زائدة، تقديره: أضياءت حوله. والثاني: أنها بمعنى الذي. وحول

(١) الشعر لروية بن المعراج يمدح الحارث بن سليم من آل عمرو بن سعد بن زيد مناة.

(٢) البيت لكعب بن سعد الغنوي من قصيدة يرثي بها أخاه أبا المغوار، وهي في «الأصعيات».

(٣) الجزع: ضرب من الغرز. وقيل: هو الغرز اليماني، وهو الذي فيه بياض وسواد، تشبه به العين.

(٤) البيت للجمدي كما في «اللسان».

الشيء: ما دار من جوانبه. والهاء: عائدة على المستوقد. فإن قيل: كيف وحد، فقال: ﴿كَثَلُ الَّذِي اسْتَوْقَدَ﴾، ثم جمع فقال: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ يَتُورِهِمْ؟﴾ فالجواب: أن ثعلباً حكى عن الفراء أنه قال: إنما ضرب المثل للفعل، لا لأعيان الرجال، وهو مثل للنفاق. وإنما قال: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ يَتُورِهِمْ﴾ لأن المعنى ذاهب إلى المنافقين، فجمع لذلك. قال ثعلب: وقال غير الفراء: معنى الذي: الجمع، وحد أولاً للفظه، وجمع بعد لمعناه، كما قال الشاعر:

فإن الذي حانت بفلج دماؤهم
هم القوم كل القوم يا أم خالداً^(١)
فجعل «الذي» جمعاً.

فصل

اختلف العلماء في الذي ضرب الله تعالى له هذا المثل من أحوال المنافقين على قولين: أحدهما: أنه ضرب بكلمة الإسلام التي يلفظون بها، ونورها صيانة النفوس وحقن الدماء، فإذا ماتوا سلبهم الله ذلك العز، كما سلب صاحب النار ضوءه. وهذا المعنى مروى عن ابن عباس. والثاني: أنه ضرب لإقبالهم على المؤمنين وسماهم ما جاء به الرسول، فذهاب نورهم: إقبالهم على الكافرين والضلال، وهذا قول مجاهد. وفي المراد بـ«الظلمات» هاهنا أربعة أقوال: أحدها: العذاب، قاله ابن عباس. والثاني: ظلمة الكفر، قاله مجاهد. والثالث: ظلمة يلقيها الله عليهم بعد الموت، قاله قتادة. والرابع: أنها نفاقهم، قاله السدي.

فصل

وفي ضرب المثل لهم بالنار ثلاث حكم: إحداها: أن المستضيء بالنار مستضيء بنور من جهة غيره، لا من قبل نفسه، فإذا ذهبت تلك النار بقي في ظلمة، فكانهم لما أقروا بالسنتهم من غير اعتقاد قلوبهم؛ كان نور إيمانهم كالمستعار. والثانية: أن ضياء النار يحتاج في دوامه إلى مادة الحطب، فهو له كغذاء الحيوان، فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادة الاعتقاد ليدوم. والثالثة: أن الظلمة الحادثة بعد الضوء أشد على الإنسان من ظلمة لم يجد معها ضياء، فشبّه حالهم بذلك.

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَوَّى﴾. الصمم: انسداد منافذ السمع، وهو أشد من الطرش. وفي البكم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الخرس، قاله مقاتل، وأبو عبيد، وابن فارس. والثاني: أنه عيب في اللسان لا يتمكن معه من النطق، وقيل: إن الخرس يحدث عنه. والثالث: أنه عيب في الفؤاد يمنعه أن يعي شيئاً فيفهمه، فيجمع بين الفساد في محل الفهم ومحل النطق، ذكر هذين القولين شيخنا.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾. فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا يرجعون عن ضلالتهم، قاله قتادة ومقاتل. والثاني: لا يرجعون إلى الإسلام، قاله السدي. والثالث: لا يرجعون عن الصمم والبكم والعمى، وإنما أضاف الرجوع إليهم، لأنهم انصرفوا باختيارهم، لغلبة أهوائهم عن تصفح الهدى بآلات التصفح، ولم يكن بهم صمم ولا بكم حقيقة، ولكنهم لما التفؤوا عن سماع الحق والنطق به؛ كانوا كالصم البكم. والعرب تسمي المعرض عن الشيء: أعمى، والملتفت عن سماعه: أصم، قال مسكين الدارمي:

ما ضرَّ جاراً لي أجاوره
أعمى إذا ما جارتني خرجت
وتصمُّ عما بينهم أذني
قوله تعالى: ﴿أَوْ كَمَتَّ بِرَيْنَ السَّمَاءِ﴾. «أو»: حرف مردود على قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ واختلف العلماء فيه على ستة أقوال: أحدها: أنه داخل هاهنا للتخيير، تقول العرب: جالس الفقهاء أو النحويين، ومعناه: أنت

(١) البيت للأشهب بن ربيعة. وفلج: واد بين البصرة وحمل ضربة، كانت فيه هذه الوقعة التي ذكرها.

مخير في مجالسة أي الفريقين شئت، فكانه خيرنا بين أن نضرب لهم المثل الأول أو الثاني. والثاني: أنه داخل للإبهام فيما قد علم الله تحصيله، فأبهم عليهم ما لا يطلبون تفصيله، فكانه قال: مثلهم كأحد هذين. ومثله قوله تعالى: ﴿فَبَيِّنْ كَالْجِبَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] والعرب تبهم ما لا فائدة في تفصيله. قال لبيد:

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما
وهل أنا إلا من ربعة أو مضر
أي: هل أنا إلا من أحد هذين الفريقين، وقد فنيا، فسبيلي أن أفنى كما فنيا. والثالث: أنه بمعنى: بل. وأنشد الفراء:

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى
وصورتها أو أنت في العين أملح
والرابع: أنه للتفصيل، ومعناه: بعضهم يشبه بالذي استوقد ناراً، وبعضهم بأصحاب الصيْب. ومثله قوله تعالى: ﴿كُونُوا مُؤْمِنًا أَوْ مُكَذِّبِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥] معناه: قال بعضهم، وهم اليهود: كونوا هوداً، وقال النصارى: كونوا نصارى. وكذا قوله: ﴿فَبَيِّنْ كَالْجِبَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ١٣٥] معناه: جاء بعضهم بأسنا بيئاتاً، وجاء بعضهم بأسنا وقت القائلة. والخامس: أنه بمعنى الواو. ومثله قوله تعالى: ﴿أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾ [النور: ٦١] قال جرير:

نال الخلافة أو كانت له قدراً
كما أتى ربّه موسى على قدر
والسادس: أنه للشك في حق المخاطبين، إذ الشك مرتفع عن الحق عز وجل، ومثله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْنِ﴾ [الروم: ٢٧] يريد: فالإعادة أهون من الابتداء فيما تظنون. فأما التفسير لمعنى الكلام: أو كأصحاب صيب، فأضمر الأصحاب، لأن في قوله: ﴿يَعْمَلُونَ أَسْمِعُكُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾، دليلاً عليه. والصيب: المطر. قال ابن قتيبة: هو فيعل^(١) من صاب يصوب: إذا نزل من السماء، وقال الزجاج: كل نازل من علو إلى استفال، فقد صاب يصوب، قال الشاعر:

كانهم صابت عليهم سحابة
صواعقها لطيرهن دبيب
وفي الرعد ثلاثة أقوال: أحدها: أنه صوت ملك يزجر السحاب، وقد روي هذا المعنى مرفوعاً إلى النبي ﷺ^(٢)، وبه قال ابن عباس ومجاهد. وفي رواية عن مجاهد: أنه صوت ملك يسبح. وقال عكرمة: هو ملك يسوق السحاب كما يسوق الحادي الإبل. والثاني: أنه ريح تختنق بين السماء والأرض. وقد روي عن أبي الجلد أنه قال: الرعد: الريح. واسم أبي الجلد: جيلان بن أبي فروة البصري، وقد روى عنه قتادة. والثالث: أنه اصطكاك أجرام السحاب، حكاه شيخنا علي بن عبيد الله. وفي البرق ثلاثة أقوال: أحدها: أنه مخاريق يسوق بها الملك السحاب، روي هذا المعنى مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وهو قول علي بن أبي طالب. وفي رواية عن علي قال: هو ضربة بمخراق من حديد. وعن ابن عباس: أنه ضربة بسوط من نور. قال ابن الأنباري: المخاريق: ثياب تلف، ويضرب بها الصبيان بعضهم بعضاً، فشبّه السوط الذي يضرب به السحاب بذلك المخراق. قال عمرو بن كلثوم:

كان سيوفنا فينا وفيهم
مخاريق بأيدي لاعبيننا
وقال مجاهد: البرق: مصع ملك، والمصع: الضرب والتحريك. والثاني: أن البرق: الماء، قاله أبو الجلد. وحكى ابن فارس أن البرق: تلالؤ الماء. والثالث: أنه نار تنفد من اصطكاك أجرام السحاب لسيره، وضرب بعضه لبعض، حكاه شيخنا. والصواعق: جمع صاعقة، وهي صوت شديد من صوت الرعد يقع معه قطعة من نار تحرق ما تصيبه. وروي عن شهر بن حوشب: أن الملك الذي يسوق السحاب، إذا اشتد غضبه، طار من فيه النار، فهي الصواعق. وقال غيره: هي نار تنفد من اصطكاك أجرام السحاب. قال ابن قتيبة: وإنما سميت صاعقة، لأنها إذا أصابت قتلت، يقال: صعقتهم أي: قتلتهم.

(١) ولما اجتمعت الياء والواو، وسبقت إحداهما بالسكون، قلبت الواو ياء، وأدغمت فصار «صيب» ونظيره: ميت وسيد وهين ولين.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند»، والنسائي، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب. وهو حديث طويل أجاب فيه الرسول ﷺ عن أسئلة يهود، انظر «مسند أحمد» (٢٤٨٣).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ حَيُّطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾. فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه لا يفوته أحد منهم، فهو جامعهم يوم القيامة. ومثله قوله تعالى: ﴿لَمَّا طَرَ يِغْلَى غَدَاةً﴾ [الطلاق: ١٢] قاله مجاهد. والثاني: أن الإحاطة: الإهلاك، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَيُحِيطَ بِشَرِّهِمْ﴾ [الكهف: ٤٢]. والثالث: أنه لا يخفى عليه ما يفعلون.

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْلِفُ أَبْصَرَهُمْ﴾. يكاد بمعنى: يقارب، وهي كلمة إذا أثبت انتفى العمل، وإذا نفيت ثبت الفعل. وسئل بعض المتأخرين فقيل له:

أنحوي هذا العصر ما هي كلمة
إذا نفيت والله يشهد أثبتت
جرت بلساني جرهم وثمود
وإن أثبتت قامت مقام جحود
ويشهد للإثبات عند النفي قوله تعالى: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] وقوله: ﴿إِذَا الْفَجَّ بَكَدُوا لَوْ يَكَادُ بَرْنَهَا﴾ [النور: ٤٠] ومثله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] ويشهد للنفي عند الإثبات قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ﴾ [البقرة: ٢٠] و﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ﴾ [النور: ٤٣] و﴿يَكَادُ زَيْتَانًا يَضِيءُ﴾ [النور: ٣٥]. وقال ابن قتيبة: كاد بمعنى: هم ولم يفعل. وقد جاءت بمعنى [الإثبات] قال ذو الرمة:

ولو أن لقمان الحكيم تعرضت
أي: لو تعرضت له لبرق، أي: دهش وتحير. قلت: وقد قال ذو الرمة في المنفية ما يدل على أنها تستعمل للإثبات، وهو قوله:

إذا غيّر النأي المحبين لم يكد
رسيس الهوى من حبٍّ مئة يبرح
أراد: لم يبرح.

قوله تعالى: ﴿يَخْلِفُ أَبْصَرَهُمْ﴾. قرأ الجمهور بفتح الباء، وسكون الخاء وفتح الطاء. وقرأ أبان بن تغلب، وأبان بن يزيد كلاهما عن عاصم، بفتح الباء وسكون الخاء، وكسر الطاء مخففاً. ورواه الجعفي عن أبي بكر عن عاصم، بفتح الباء وكسر الخاء، وتشديد الطاء، وهي قراءة الحسن كذلك، إلا أنه كسر الباء. وعنه: فتح الباء والخاء مع كسر الطاء المشددة. ومعنى ﴿يَخْلِفُ﴾: يستلب، وأصل الاختطاف: الاستلاب، ويقال لما يخرج به الدلو: خطاف، لأنه يختطف ما علق به. قال النابغة:

خطاطيف حجنٍ في حبالٍ متبينة
والحجن المتعققة^(١) وجمل خيطف: سريع المر، وتلك السرعة الخطفى.

قوله تعالى: ﴿كَلَّمَآ أَضَاءَ لَهُمْ﴾. قال الزجاج: يقال: ضاء الشيء يضيء، وأضاء يضيء، وهذه اللغة الثانية هي المختارة.

فصل

واختلف العلماء ما الذي يشبه الرعد مما يتعلق بأحوال المنافقين على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه التخويف الذي في القرآن، قاله ابن عباس. والثاني: أنه ما يخافون أن يصيبهم من المصائب إذا علم النبي والمؤمنون بنفاقهم، قاله مجاهد والسدي. والثالث: أنه ما يخافونه من الدعاء إلى الجهاد، وقتال من يبتغون مودته، ذكره شيخنا. واختلفوا: ما الذي يشبه البرق من أحوالهم على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ما يتبين لهم من مواظ القرآن وحكمه. والثاني: أنه ما يضيء لهم من نور إسلامهم الذي يظهرونه. والثالث: أنه مثل لما ينالونه بإظهار الإسلام من حقن دماهم، فإنه بالإضافة إلى ما ذخر لهم في الأجل كالبرق. واختلفوا في معنى قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَمْيَعَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ مِّنَ الظُّلُمَةِ﴾ على قولين: أحدهما: أنهم كانوا يفرون من سماع القرآن لثلا يأمرهم بالجهاد مخافة الموت، قاله الحسن والسدي. والثاني: أنه مثل لإعراضهم عن

(١) في الأصل: المتوقفة، وهو خطأ. وقال ابن قتيبة في «الشعر والشعراء»: رأيت علماءنا يستجدون معناه، ولست أرى ألفاظه جيداً، ولا مبينة لمعناه، لأنه أراد: أنت في قدرتك عليّ، كخطاطيف عقف يمد بها، وأنا كدلو تمد بلك الخطاطيف.

القرآن كراهية له، قاله مقاتل. واختلّفوا في معنى ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ نَشْوًا يَدٍ﴾ على أربعة أقوال: أحدها: أن معناه: كلما أتاهم القرآن بما يحبون تابعوه، قاله ابن عباس والسدي. والثاني: أن إضاءة البرق حصول ما يرجونه من سلامة نفوسهم وأموالهم، فيسرعون إلى متابعتها، قاله قتادة. والثالث: أنه تكلمهم بالإسلام، ومشيههم فيه، اهتداؤهم به، فإذا تركوا ذلك وقفوا في ضلالة، قاله مقاتل. والرابع: أن إضاءته لهم: تركهم بلا ابتلاء ولا امتحان، ومشيههم فيه: إقامتهم على المسالمة بإظهار ما يظهرهونه. ذكره شيخنا. فأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ فمن قال: إضاءته: إتيانه إياهم بما يحبون، قال: إظلامه: إتيانه إياهم بما يكرهون. وعلى هذا سائر الأقوال التي ذكرناها بالعكس. ومعنى ﴿قَامُوا﴾: وقفوا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَنْصَرِهِمْ﴾. قال مقاتل: معناه: لو شاء لأذهب أسمعهم وأبصارهم عقوبة لهم. قال مجاهد: من أول البقرة أربع آيات في نعت المؤمنين، وآيتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة في نعت المنافقين. قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ عَبْدُكُمْ رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. اختلف العلماء فيمن عنى بهذا الخطاب على أربعة أقوال: أحدها: أنه عام في جميع الناس، وهو قول ابن عباس. والثاني: أنه خطاب لليهود دون غيرهم، قاله الحسن ومجاهد. والثالث: أنه خطاب للكفار من مشركي العرب وغيرهم، قاله السدي. والرابع: أنه خطاب للمنافقين واليهود، قاله مقاتل. و﴿النَّاسِ﴾ اسم للحيوان الآدمي. وسموا بذلك لتحركهم في مراداتهم. والنوس: الحركة. وقيل: سمو أناساً لما يعتريهم من النسيان. وفي المراد بالعبادة هاهنا قولان: أحدهما: التوحيد. والثاني: الطاعة، روي عن ابن عباس. والخلق: الإيجاد. وإنما ذكر من قبلهم، لأنه أبلغ في التذكير، وأقطع للجدد، وأحوط في الحجة. وقيل: إنما ذكر من قبلهم، لينبههم على الاعتبار بأحوالهم من إثابة مطيع، ومعاقبة عاص. وفي «لعل» قولان: أحدهما: أنها بمعنى كي، وأنشدوا في ذلك:

وقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا

نكفث وثقتم لنا كل مَوْتُق

فلما كففنا الحرب كانت عهدكم

كلمع سراب في الملا متألّق^(١)

يريد: لكي نكف، وإلى هذا المعنى ذهب مقاتل وقطرب وابن كيسان. والثاني: أنها بمعنى الترجي، ومعناها: اعبدوا الله راجين للثقوى، ولأن تقوا أنفسكم بالعبادة عذاب ربكم. وهذا قول سيبويه. قال ابن عباس: لعلكم تتقون الشرك، وقال الضحاك: لعلكم تتقون النار. وقال مجاهد: لعلكم تطيعون.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَمَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ وَرَشَاءً﴾. إنما سميت الأرض أرضاً لسعتها، من قولهم: أرضت القرحة: إذا اتسعت. وقيل: لانحطاطها عن السماء، وكل ما سفل: أرض، وقيل: لأن الناس يرضونها بأقدامهم، وسميت السماء سماء لعلوها. قال الزجاج: وكل ما علا على الأرض فاسمه بناء، وقال ابن عباس: البناء هاهنا بمعنى السقف.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾. يعني: من السحاب. ﴿مَاءً﴾ يعني: المطر. ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ يعني: شركاء، أمثالاً. يقال: هذا ند هذا، ونديده. وفيما أريد بالأنداد هاهنا قولان: أحدهما: الأصنام، قاله ابن زيد، والثاني: رجال كانوا يطيعونهم في معصية الله، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ﴾. فيه ستة أقوال: أحدها: وأنتم تعلمون أنه خلق السماء، وأنزل الماء، وفعل ما شرحه في هذه الآيات، وهذا المعنى مروي عن ابن عباس وقتادة ومقاتل. الثاني: وأنتم تعلمون أنه ليس ذلك في كتابكم التوراة والإنجيل، روي عن ابن عباس أيضاً، وهو يخرج على قول من قال: الخطاب لأهل الكتاب. والثالث: وأنتم تعلمون أنه لا ند له، قاله مجاهد. والرابع: أن العلم هاهنا بمعنى العقل، قاله ابن قتيبة. والخامس: وأنتم تعلمون أنه لا يقدر على فعل ما ذكره أحد سواه. ذكره شيخنا علي بن عبيد الله. والسادس: وأنتم تعلمون أنها حجارة، سمعته من الشيخ أبي محمد بن الخشاب.

(١) لا يعرف قائلهما. والملا: الصحراء، والمنع من الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾. سبب نزولها أن اليهود قالوا: هذا الذي يأتينا به محمد لا يشبه الوحي، وإنما لفي شك منه، فنزلت هذه الآية. وهذا مروي عن ابن عباس ومقاتل. وإن هاهنا لغير شك، لأن الله تعالى علم أنهم مرتابون، ولكن هذا عادة العرب، يقول الرجل لابنه: إن كنت ابني فاطمني. وقيل: إنها هاهنا بمعنى إذ، قال أبو زيد: ومنه قوله تعالى: ﴿وَدُّوا مَا يَخَيَّرُ مِنَ الْجُنْدِ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

قوله تعالى: ﴿فَأَتُوا بِحَرْبٍ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾. قال ابن قتيبة: السورة تهمز ولا تهمز، فمن همزها جعلها من أسارت، يعني [أفضلت] لأنها قطعة من القرآن، ومن لم يهمزها جعلها من سورة البناء، أي منزلة بعد منزلة. قال النابغة في النعمان:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتنذب
والسورة في هذا البيت: سورة المجد، وهي مستعارة من سورة البناء. وقال ابن الأنباري: قال أبو عبيدة: إنما سميت السورة سورة لأنه يرتفع فيها من منزلة إلى منزلة، مثل سورة البناء. ومعنى: أعطاك سورة، أي: منزلة شرف ارتفعت إليها عن منازل الملوك. قال ابن القاسم: ويجوز أن تكون سميت سورة لشرفها، تقول العرب: له سورة في المجد، أي: شرف وارتفاع، أو لأنها قطعة من القرآن من قولك: أسارت سوراً، أي: أبقيت بقية، وفي هاء «مثله» قولان: أحدهما: أنها تعود على القرآن المنزل، قاله قتادة، والفراء ومقاتل. والثاني: أنها تعود على النبي ﷺ، فيكون التقدير: فاتوا بسورة من مثل هذا العبد الأمي، ذكره أبو عبيدة والزجاج وابن القاسم. فعلى هذا القول: تكون «من» لابتداء الغاية، وعلى الأول: تكون زائدة.

قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾. فيه قولان: أحدهما: أن معناه: استعينوا^(١) من المعونة، قاله السدي والفراء. والثاني: استغيثوا من الاستغاثة، وأنشدوا:

فلما التقت فرساننا^(٢) ورجالهم
دعوا يال كعب واعتزينا لعامر^(٣)
وهذا قول ابن قتيبة: وفي «شهادتهم» أقوال: أحدها: أنهم ألهمهم، قاله ابن عباس والسدي ومقاتل والفراء. قال ابن قتيبة: وسما شهداء، لأنهم يشهدونهم، ويحضرونهم. وقال غيره: لأنهم عبدوهم ليشهدوا لهم عند الله. والثاني: أنهم أعوانهم، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أن معناه: فاتوا بناس يشهدون أن ما تأتون به مثل القرآن، روي عن مجاهد.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. أي: في قولكم: إن هذا القرآن ليس من عند الله، قاله ابن عباس. قوله تعالى: ﴿إِنْ لَّمْ تَقْعَلُوا﴾. في هذه الآية مضمّر مقدّر، يقتضي الكلام تقديمه، وهو أنه لما تحداهم بما في الآية الماضية من التحدي، فسكتوا عن الإجابة؛ قال: ﴿إِنْ لَّمْ تَقْعَلُوا﴾. وفي قوله تعالى: ﴿وَكُنْ تَقْعَلُوا﴾ أعظم دلالة على صحة نبوة نبينا، لأنه أخبر أنهم لا يفعلون، ولم يفعلوا.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾. والوقود: بفتح الواو: الحطب، وبضمها: التوقد، كالوضوء بالفتح: الماء، وبالضم: المصدر، وهو: اسم حركات المتوضئ. وقرأ الحسن وقاتدة: وقودها، بضم الواو، والاختيار الفتح. والناس أوقدوا فيها بطريق العذاب، والحجارة، لبيان قوتها وشدها، إذ هي محرقة للحجارة. وفي هذه الحجارة قولان: أحدهما: أنها أصنامهم التي عبدوها، قاله الربيع بن أنس. والثاني: أنها حجارة الكبريت، وهي أشد الأشياء حرّاً إذا أحميت، يعذبون بها. ومعنى «أُعِدَّتْ»: هيئت. وإنما خوفهم بالنار إذا لم يأتوا بمثل القرآن، لأنهم إذا كذبوه، وعجزوا عن الإتيان بمثله؛ ثبتت عليهم الحجة، وصار الخلاف عناداً، وجزاء المعاندين النار.

(٢) في الأصل: مرساننا.

(١) في «معاني القرآن» للفراء: استغيثوا بهم.

(٣) هذا البيت للراعي النبطي. عزى واعتزى: انتسب، ودعا في الحرب بمثل قوله: يا لفلان أو يا للمهاجرين أو يا للأنصار، والاسم العزاء والعزوة، وهي دعوى المستنيث: «لسان العرب».

قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. البشارة: أول خبر يرد على الإنسان، وسمي بشارة، لأنه يؤثر في بشرته، فإن كان خيراً، أثر المسرة والانبساط، وإن شراً، أثر الانجماع والغم، والأغلب في عرف الاستعمال أن تكون البشارة بالخير، وقد تستعمل في الشر، ومنه قوله تعالى: ﴿يَبْقَى الْمُتَّقِينَ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ آيَمًا﴾ [النساء: ١٣٨].

قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. يشمل كل عمل صالح، وقد روي عن عثمان بن عفان أنه قال: أخلصوا الأعمال. وعن علي عليه السلام أنه قال: أقاموا الصلوات المفروضات. فأما الجنات، فجمع جنة. وسميت الجنة جنة، لاستار أرضها بأشجارها، وسمي الجن جنّاً، لاستارهم، والجنين من ذلك، والدّرع جنة، وجنّ الليل: إذا ستر، وذكر عن المفضل أن الجنة: كل بستان فيه نخل. وقال الزجاج: كل نبت كثف وكثر وستر بعضه بعضاً، فهو جنة. قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت شجرها لا من تحت أرضها.

قوله تعالى: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: هذا الذي طعمنا من قبل، فزرّق الغداة كرزق العشي، روي عن ابن عباس والضحاك ومقاتل. والثاني: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، قاله مجاهد وابن زيد. والثالث: أن ثمر الجنة إذا جُني خلفه مثله، فإذا رأوا ما خلف الجنى، اشتبه عليهم، فقالوا: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ قاله يحيى بن أبي كثير وأبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا بِهِمْ مَّتْنِبَهَا﴾. فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه متشابه في المنظر واللون، مختلف في الطعم، قاله مجاهد وأبو العالية والضحاك والسدي ومقاتل. والثاني: أنه متشابه في جودته، لا رديء فيه، قاله الحسن وابن جريج. والثالث: أنه يشبه ثمار الدنيا في الخلقة والاسم، غير أنه أحسن في المنظر والطعم، قاله قتادة وابن زيد. فإن قال قائل: ما وجه الامتنان بمتشابهه، وكلما تنوعت المطاعم واختلفت ألوانها كان أحسن؟! فالجواب: أنا إن قلنا: إنه متشابه المنظر مختلف الطعم، كان أغرب عند الخلق وأحسن، فإنك لو رأيت تفاحة فيها طعم سائر الفاكهة، كان نهاية في العجب. وإن قلنا: إنه متشابه في الجودة؛ جاز اختلافه في الألوان والطعوم. وإن قلنا: إنه يشبه صورة ثمار الدنيا مع اختلاف المعاني؛ كان أطرف وأعجب، وكل هذه مطالب مؤثرة.

قوله تعالى: ﴿وَالَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أي: في الخلق، فإنهن لا يحضن ولا يبطن، ولا يأتين الخلاء. وفي الخلق، فإنهن لا يحسدن، ولا يغرن، ولا ينظرن إلى غير أزواجهن. قال ابن عباس: نقية عن القذى والأذى. قال الزجاج: و«مطهرة» أبلغ من طاهرة، لأنه للكثير. والخلود: البقاء الدائم الذي لا انقطاع له.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لِلَّهِ إِنَّكَ الْوَكِيلُ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٢٣]. ونزول قوله: ﴿كَذَلِكِ الْمَنَكِبَرِ اتَّخَذَتْ يَتِيمًا﴾ [المكوت: ٤١]. قالت اليهود: وما هذا من الأمثال؟! فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس والحسن وقاتلدة ومقاتل والفراء. والثاني: أنه لما ضرب الله المثلين المتقدمين، وهما قوله تعالى: ﴿كَذَلِكِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] وقوله: ﴿أَوْ كَمَثَلِ الْيَتِيمِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٩] قال المنافقون: الله أجل وأعلى من أن يضرب هذه الأمثال، فنزلت هذه الآية، رواه السدي عن أشياخه. وروي عن الحسن ومجاهد نحوه. والحياء بالمد: الانقباض والاحتشام، غير أن صفات الحق لا يطلع لها على ماهية، وإنما تمر كما جاءت. وقد قال النبي ﷺ: «إن ريكم حيي كريم»^(١). وقيل: معنى لا يستحيي: لا يترك. وحكى ابن جرير الطبري عن بعض اللغويين أن معنى لا يستحيي: لا يخشى. ومثله: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] أي: تستحيي منه. فالاستحياء والخشية ينوب كل واحد منهما عن الآخر. وقرأ مجاهد وابن محيصن: لا يستحي بياء واحدة، وهي لغة.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾. قال ابن عباس: أن يذكر شيئاً. واعلم أن فائدة المثل أن يبين للمضروب له الأمر الذي ضرب لأجله، فينجلي عامضه.

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي عن سلمان عليه السلام وقال الترمذي: حديث حسن غريب، ولفظه «إن ريكم حيي كريم، يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً».

قوله تعالى: ﴿مَّا بَعُوضَةٌ﴾. ما زائدة، وهذا اختيار أبي عبيدة والزجاج والبصريين. وأنشدوا للناطقة:

[قالت]: ألا ليتما هذا الحمام لنا [إلى حمامتنا أو نصفه فقد]

وذكر أبو جعفر الطبري أن المعنى: ما بين بعوضة إلى ما فوقها، ثم حذف ذكر: «بين» و«إلى» إذ^(١) كان في نصب البعوضة، ودخول الفاء في «ما» الثانية؛ دلالة عليهما، كما قالت العرب: مطرنا ما زبالة فالثعلبية، وله عشرون ما ناقة فجملاً، وهي أحسن الناس ما قرناً قدماً [يعنون: ما بين قرنهما إلى قدمهما]^(٢). وقال غيره: نصب البعوضة على البذل من المثل. وروى الأصمعي عن نافع: «بعوضة» بالرفع، على إضمار هو. والبعوضة: صغيرة البق.

قوله تعالى: ﴿فَمَا قَوْهَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: فما فوقها في الكبر، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن جريج، والفراء. والثاني: فما فوقها في الصغر، فيكون معناه: فما دونها، قاله أبو عبيدة. قال ابن قتيبة: وقد يكون الفوق بمعنى: دون، وهو من الأضداد، ومثله: الجون؛ يقال للأسود والأبيض. والصريم: الصبح، والليل. والسدفة: الظلمة، والضوء. والجلل: الصغير، والكبير. والناهل: العطشان، والريان. والمائل: القائم، واللاطئ بالأرض. والصارخ: المغيث، والمستغيث. والهاجد: المصلي بالليل، والنائم. والرهوة: الارتفاع، والانحدار. والتلعة: ما ارتفع من الأرض، وما انهبط من الأرض. والظن: يقين، وشك. والأقراء: الحيض، والأطهار. والمفرع في الجبل: المصعد، والمنحدر. والوراء: خلفاً، وقذاً. وأسرت الشيء: أخفيته، وأعلتته. وأخفيت الشيء: أظهرته وكنتمته. ورتوت الشيء: شدته، وأرخته. وشعبت الشيء: جمعته، وقرقته. وبعث الشيء بمعنى: بعته، واشترته. وشريت الشيء: اشتريته، وبعته. والحي خلوف: غيب، ومتخلفون. واختلفوا في قوله: ﴿يُنْسَلُ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدَى بِهِ كَثِيرًا﴾ هل هو من تمام قول الذين قالوا: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أو هو مبتدأ من كلام الله ﷻ؟ على قولين: أحدهما: أنه تمام الكلام الذي قبله، قاله الفراء، وابن قتيبة. قال الفراء: كأنهم قالوا: ماذا أراد الله بمثل لا يعرفه كل أحد، يضل به هذا، ويهدي به هذا؟ [ثم استأنف الكلام والخبر عن الله] فقال الله: ﴿وَمَا يُنْسَلُ بِهِ إِلَّا الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]. والثاني: أنه مبتدأ من قول الله تعالى، قاله السدي ومقاتل. فأما النسق؛ فهو في اللغة: الخروج، يقال: فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرها. فالناسق: الخارج عن طاعة الله إلى معصيته. وفي المراد بالفاسقين هاهنا، ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود، قاله ابن عباس ومقاتل. والثاني: المنافقون، قاله أبو العالية والسدي. والثالث: جميع الكفار.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾. هذه صفة للفاسقين، وقد سبقت فيهم الأقوال الثلاثة. والنقض: ضد الإبرام، ومعناه: حل الشيء بعد عقده. وينصرف النقض إلى كل شيء بحسبه، فنقض البناء: تفريق جمعه بعد إحكامه. ونقض العهد: الإعراض عن المقام على أحكامه. وفي هذا العهد ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ما عهد إلى أهل الكتاب من صفة محمد ﷺ والوصية باتباعه، قاله ابن عباس ومقاتل. والثاني: أنه ما عهد إليهم في القرآن، فأقروا به ثم كفروا، قاله السدي. والثالث: أنه الذي أخذه عليهم حين استخرج ذرية آدم من ظهره، قاله الزجاج. ونحن وإن لم نذكر ذلك العهد، فقد ثبت بخبر الصادق، فيجب الإيمان به. وفي «من» قولان: أحدهما: أنها زائدة، والثاني: أنها لابتداء الغاية، كأنه قال: ابتداء نقض العهد من بعد ميثاقه. وفي هاء «ميثاقه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله تعالى، والثاني: أنها ترجع إلى العهد، فتقديره: بعد إحكام التوفيق فيه. وفي: الذي أمر الله أن يوصل: ثلاثة أقوال: أحدها: الرحم والقرابة، قاله ابن عباس وقتادة والسدي. والثاني: أنه رسول الله ﷺ قطعوه بالتكذيب، قاله الحسن. والثالث: الإيمان بالله، وأن لا يفرق بين أحد من رسله، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، قاله مقاتل. وفي فسادهم في الأرض ثلاثة أقوال: أحدها: أنه استدعاهم الناس إلى الكفر، قاله ابن عباس. والثاني: أنه العمل بالمعاصي، قاله السدي، ومقاتل. والثالث: أنه قطعهم الطريق على من جاء مهاجراً إلى النبي ﷺ ليمنعوا الناس من الإسلام. والخسران في اللغة: النقصان.

(٢) ما بين القوسين زيادة من الطبري.

(١) في الأصل: إذا.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ في كيف قولان: أحدهما: أنه استفهام في معنى التعجب، وهذا التعجب للمؤمنين، أي: اعجبوا من هؤلاء كيف يكفرون، وقد ثبتت حجة الله عليهم، قاله ابن قتيبة والزجاج. والثاني: أنه استفهام خارج مخرج التقرير والتوبيخ. تقديره: ويحكم! كيف تكفرون بالله؟! قال العجاج:

أطرباً وأنت قنـسـري
[والدهر بالإنسان دوازي]^(١)

أراد: أتعجب وأنت شيخ كبير؟!، قاله ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَشْوَكَاءَ﴾. قال الفراء: أي: وقد كنتم أمواتاً. ومثله: ﴿أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ مِّمَّنْهُمْ﴾ [النساء: ٩٠] أي: قد حصرت. ومثله: ﴿وَإِنْ كَانَ قِيَضُ قَدٍّ مِنْ ذُرٍّ فَكَذَّبَتْ﴾ [يوسف: ٢٧] أي: فقد كذبت، ولولا إضمار «قد» لم يجز مثله في الكلام. وفي الحياتين، والموتيتين أقوال: أصحها: أن الموتة الأولى، كونهم نطفاً وعلقاً ومضغاً، فأحياهم في الأرحام، ثم يميتهم بعد خروجهم إلى الدنيا، ثم يُحييهم للبعث يوم القيامة، وهذا قول ابن عباس وقتادة ومقاتل والفراء وثعلب، والزجاج، وابن قتيبة، وابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جِجِيماً﴾ أي: لأجلكم، فبعضه للانتفاع، وبعضه للاعتبار. ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾، أي: عمد إلى خلقها، والسما: لفظها لفظ الواحد، ومعناها، معنى الجمع، بدليل قوله: ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ﴾. وأيهما أسبق في الخلق: الأرض، أم السماء؟ فيه قولان: أحدهما، الأرض، قاله مجاهد. والثاني: السماء، قاله مقاتل. واختلفوا في كيفية تكميل خلق الأرض وما فيها، فقال ابن عباس: بدأ بخلق الأرض في يومين، ثم خلق السموات في يومين، وقدر فيها أقواتها في يومين. وقال الحسن ومجاهد: جمع خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام متوالية، ثم خلق السماء في يومين. والعليم: جاء على بناء: فعيل، للمبالغة في وصفه بكمال العلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾. كان أبو عبيدة يقول: «إذ» ملغاة، وتقدير الكلام: وقال ربك، وتابعه ابن قتيبة، وعاب ذلك عليهما الزجاج وابن القاسم. وقال الزجاج: إذ: معناها: الوقت، فكأنه قال: ابتداء خلقكم إذ قال ربك للملائكة. والملائكة: من الأولوك، وهي الرسالة، قال ليبد:

وغلام أرسلته أمه
بالوك فبذلنا ما سأل

وواحد الملائكة: ملك، والأصل فيه: ملاك. وأنشد سيبويه:

فلمست لإنسي ولكن لملاك
تنزل من جو السماء يصوب

قال أبو إسحاق: ومعنى ملاك: صاحب رسالة، يقال: مألكة ومألكة وملاكة. ومالك: جمع مألكة. قال الشاعر:

أبلغ النعمان عني مالكا
أنه قد طال حبسي وانتظاري

وفي هؤلاء الملائكة قولان: أحدهما: أنهم جميع الملائكة، قاله السدي عن أشياخه. والثاني: أنهم الذين كانوا مع إبليس حين أهبط إلى الأرض، ذكره أبو صالح عن ابن عباس. ونقل أنه كان في الأرض قبل آدم خلق، فأفسدوا، فبعث الله إبليس في جماعة من الملائكة فأهلكوهم. واختلفوا ما المقصود في إخبار الله ﷻ الملائكة بخلق آدم على ستة أقوال: أحدها: أن الله تعالى علم في نفس إبليس كبراً، فأحب أن يطلع الملائكة عليه، وأن يظهر ما سبق عليه في علمه، رواه الضحاك عن ابن عباس، والسدي عن أشياخه. والثاني: أنه أراد أن يبلو طاعة الملائكة، قاله الحسن، والثالث: أنه لما خلق النار خافت الملائكة، فقالوا: ربنا لمن خلقت هذه؟ قال: لمن عصاني، فخافوا وجود المعصية منهم، وهم لا يعلمون بوجود خلق سواهم، فقال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] قاله ابن زيد. والرابع: أنه أراد إظهار عجزهم عن الإحاطة بعلمه، فأخبرهم حتى قالوا: ﴿أَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُقْسِدُ فِيهَا؟﴾ فأجابهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ بِمَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. والخامس: أنه أراد تعظيم آدم بذكره بالخلافة قبل وجوده، ليكونوا معظمين له إن أوجده. والسادس: أنه أراد إعلامهم بأنه خلقه ليسكنه الأرض، وإن كان ابتداء خلقه في السماء. والخليفة: هو القائم مقام غيره، يقال: هذا

خلف فلان وخليفته. قال ابن الأنباري: والأصل في الخليفة خليفة، بغير هاء، فدخلت الهاء للمبالغة في مدحه بهذا الوصف، كما قالوا: علامة ونسابة وراوية. وفي معنى خلافة آدم قولان: أحدهما: أنه خليفة عن الله تعالى في إقامة شرعه، ودلائل توحيده، والحكم في خلقه، وهذا قول ابن مسعود ومجاهد. والثاني: أنه خلف من سلف في الأرض قبله، وهذا قول ابن عباس والحسن.

قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن ظاهر الألف الاستفهام، دخل على معنى العلم ليقع به تحقيق. قال جرير:

أستتم خير من ركب المطايا وأندي العالمين بطون راح
معناه: أنتم خير من ركب المطايا. والثاني: أنهم قالوه لاستعلام وجه الحكمة، لا على وجه الاعتراض. ذكره الزجاج. والثالث: أنهم سألوا عن حال أنفسهم، فتقديره: أتجعل فيها من يفسد فيها ونحن نسبح بحمدك، أم لا؟ وهل علمت الملائكة أنهم يفسدون بتوقيف من الله تعالى، أم قاسوا على حال من قبلهم؟ فيه قولان: أحدهما: أنه بتوقيف من الله تعالى، قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة، وابن زيد وابن قتيبة. وروى السدي عن أشياخه: أنهم قالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضاً، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا؟﴾ والثاني: أنهم قاسوه على أحوال من سلف قبل آدم، روي نحو هذا عن ابن عباس وأبي العالية ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَيُسْفِكُ الدَّمَ﴾ قرأ الجمهور بكسر الفاء، وضمها ابن مصرف وإبراهيم بن أبي عبلة، وهما لغتان، وروي عن طلحة وابن مقسم: ﴿وَيُسْفِكُ﴾ بضم الياء، وفتح السين، وتشديد الفاء مع كسرهما، وهي لتكثير الفعل وتكريره. وسفك الدم: صبه وإراقته وسفحه، وذلك مستعمل في كل مضيئ، إلا أن السفك يختص الدم، والصب والسفح والإراقة يقال في الدم وفي غيره. وفي معنى تسييحهم أربعة أقوال: أحدها: أنه الصلاة، قاله ابن مسعود وابن عباس. والثاني: أنه قول: سبحان الله، قاله قتادة. والثالث: أنه: التعظيم والحمد، قاله أبو صالح. والرابع: أنه الخضوع والذل، قاله محمد بن القاسم الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَيُقَدِّسُ لَكَ﴾. القدس: الطهارة، وفي معنى تقديسهم ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: نتطهر لك من أعمالهم، قاله ابن عباس. والثاني: نعظمك ونكبرك، قاله مجاهد. والثالث: نصلي لك، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن معناه: أعلم ما في نفس إبليس من البغي والمعصية، قاله ابن عباس، ومجاهد، والسدي عن أشياخه. والثاني: أعلم أنه سيكون من ذلك الخليفة أنبياء وصالحون، قاله قتادة. والثالث: أعلم أنني أملا جهنم من الجنة والناس، قاله ابن زيد. والرابع: أعلم عواقب الأمور، فإنا ابتلي من تظنون أنه مطيع، فيؤديه الابتلاء إلى المعصية كإبليس، ومن تظنون به المعصية فيطيع، قاله الزجاج.

الإشارة إلى خلق آدم ﷺ

روى أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ﷻ خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر [والأبيض] والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزن، وبين ذلك، والخبيث والطيب» قال الترمذي: هذا حديث صحيح^(١). وقد أخرج البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «خلق الله تعالى آدم طوله ستون ذراعاً». وأخرج مسلم في أفراداه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «خلق الله آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة، ما بين العصر إلى الليل». قال ابن عباس: لما نفخ فيه الروح، أتته النفخة من قبل رأسه، فجعلت لا تجري منه في شيء إلا صار لحماً ودماً.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. في تسمية آدم قولان: أحدهما: لأنه خلق من أديم الأرض، قاله ابن

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وصححه ابن حبان.

عباس وابن جبير والزجاج. والثاني: أنه من الأدمة في اللون، قاله الضحاك والنضر بن شميل وقطرب. وفي الأسماء التي علّمه قولان: أحدهما: أنه علّمه كل الأسماء، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة. والثاني: أنه علّمه أسماء معدودة لمسميات مخصوصة. ثم فيها أربعة أقوال: أحدها: أنه علّمه أسماء الملائكة، قاله أبو العالية. والثاني: أنه علّمه أسماء الأجناس دون أنواعها، كقولك: إنسان وملك وجني وطائر، قاله عكرمة. والثالث: أنه علّمه أسماء ما خلق من الأرض من الدواب والهوام والطير، قاله الكلبي ومقاتل وابن قتيبة. والرابع: أنه علّمه أسماء ذريته، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾. يريد: أعيان الخلق على الملائكة، قال ابن عباس: الملائكة هاهنا: هم الذين كانوا مع إبليس خاصة.

قوله تعالى: ﴿أَتُوبُونَ﴾: أخبروني.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: إن كنتم صادقين أني لا أخلق خلقاً هو أفضل منكم وأعلم، قاله الحسن. والثاني: أني أجعل فيها من يفسد فيها، قاله السدي عن أشياخه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾. قال الزجاج: لا اختلاف بين أهل اللغة أن التسبيح هو: التنزيه لله تعالى عن كل سوء. والعليم بمعنى: العالم، جاء على بناء «فعل» للمبالغة. وفي الحكيم قولان: أحدهما: أنه بمعنى الحاكم، قاله ابن قتيبة. والثاني: المحكم للأشياء، قاله الخطابي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَكْفُلُ أَفْئَتَهُمْ﴾ أي: أخبرهم، وروي عن ابن عباس: أنبئهم بكسر الهاء، قال أبو علي: قراءة الجمهور على الأصل، لأن أصل هذا الضمير أن تكون الهاء مضمومة فيه، ألا ترى أنك تقول: ضربهم وأبناءهم، وهذا لهم. ومن كسر أتبع كسر الهاء التي قبلها وهي كسرة الباء. والهاء والميم تعود على الملائكة. وفي الهاء والميم من «أسمائهم» قولان: أحدهما: أنها تعود على المخلوقات التي عرضها، قاله الآكثرون. والثاني: أنها تعود على الملائكة، قاله الربيع بن أنس. وفي الذي أبدوه قولان: أحدهما: أنه قولهم: ﴿أَتُوبُ فِيهَا مَنْ يُقْسِدُ فِيهَا﴾، ذكره السدي عن أشياخه. والثاني: أنه ما أظهروه من السمع والطاعة لله حين مروا على جسد آدم، فقال إبليس: إن فضل هذا عليكم ما تصنعون؟ فقالوا: نطيع ربنا، فقال إبليس في نفسه: لئن فضّلت عليه لأهلكه، ولئن فضل عليّ لأعصيه، قاله مقاتل. وفي الذي كتموه قولان: أحدهما: أنه اعتقاد الملائكة أن الله تعالى لا يخلق خلقاً أكرم منهم، قاله الحسن وأبو العالية وقتادة. والثاني: أنه ما أسره إبليس من الكبر والعصيان، رواه السدي عن أشياخه، وبه قال مجاهد وابن جبير ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنَّا لَبَلَّغْنَاكَ آسَجْدُوا﴾ عامة القراء على كسر التاء من الملائكة، وقرأ أبو جعفر والأعمش بضمها في الوصل، قال الكسائي: هي لغة أزد شنوءة. وفي هؤلاء الملائكة قولان: أحدهما: أنهم جميع الملائكة، قاله السدي عن أشياخه. والثاني: أنهم طائفة من الملائكة، روي عن ابن عباس، والأول أصح. والسجود في اللغة: التواضع والخضوع، وأنشدوا:

ساجد المنخر ما يرفعه خاشع الطرف أصم المستمع

وفي صفة سجودهم لآدم قولان: أحدهما: أنه على صفة سجود الصلاة، وهو الأظهر. والثاني: أنه الانحناء والميل المساري للركوع.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ في هذا الاستثناء قولان: أحدهما: أنه استثناء من الجنس، فهو على هذا القول من الملائكة، قاله ابن مسعود في رواية، وابن عباس. وقد روي عن ابن عباس أنه كان من الملائكة، ثم مسخه الله تعالى شيطاناً. والثاني: أنه من غير الجنس، فهو من الجن، قاله الحسن والزهري. قال ابن عباس: كان إبليس من خزان الجنة، وكان يدير أمر السماء الدنيا. فإن قيل: كيف استثنى وليس من الجنس؟ فالجواب: أنه أمر بالسجود معهم، فاستثنى منهم، لأنه لم يسجد، وهذا كما تقول: أمرت عبدي وإخوتي فأطاعوني إلا عبدي، هذا قول الزجاج. وفي إبليس قولان: أحدهما: اسم أعجمي ليس بمشتق، ولذلك لا يصرف، هذا قول أبي عبيدة، والزجاج وابن الأنباري.

والثاني: أنه مشتق من الإبلّاس، وهو: اليأس، روي عن أبي صالح، وذكره ابن قتيبة وقال: إنه لم يصرف، لأنه لا سمي له، فاستثقل. قال شيخنا أبو منصور اللغوي: والاول أصح، لأنه لو كان من الإبلّاس لصرف، ألا ترى أنك لو سميت رجلاً: بإخريط وإجفيل؛ لصرف في المعرفة.

قوله تعالى: ﴿إِن﴾ معناه: امتنع، ﴿وَأَسْتَغْبِذُ﴾ استغفل من: الكبر، وفي ﴿وَكَانَ﴾ قولان: أحدهما: أنها بمعنى: صار، قاله قتادة. والثاني: أنها بمعنى الماضي، فمعناه: كان في علم الله كافراً، قاله مقاتل وابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَكَادُمُ اسْمُكَ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةُ﴾ زوجة: حواء، قال الفراء: أهل الحجاز يقولون لامرأة الرجل: زوج، ويجمعونها: الأزواج. وتميم وكثير من قيس وأهل نجد يقولون: زوجة، ويجمعونها: زوجات. قال الشاعر:

فلن الذي يسعى يحترش زوجتي
وأشدني أبو الجراح

يا صاح بلغ ذوي الزوجات كلهم
أن ليس وصل إذا انحلت عرى الذنب

وفي الجنة التي أسكنها آدم قولان: أحدهما: جنة عدن. والثاني: جنة الخلد. والرغد: الرزق الواسع الكثير، يقال: أرغد فلان؛ إذا صار في خصب وسعة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أي: بالأكل، لا بالدنو منها. وفي الشجرة ستة أقوال: أحدها: أنها السنبلة، وهو قول ابن عباس، وعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، وهب بن منبه، وقاتدة، وعطية العوفي، ومحارب بن دثار، ومقاتل. والثاني: أنها الكرم، روي عن ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وجعدة بن هبيرة. والثالث: أنها التين، روي عن الحسن، وعطاء بن أبي رباح، وابن جريج. والرابع: أنها شجرة يقال لها: شجرة العلم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والخامس: أنها شجرة الكافور، نقل عن علي بن أبي طالب. والسادس: أنها النخلة، روي عن أبي مالك. وقد ذكروا وجهاً سابعاً عن وهب بن منبه أنه قال: هي شجرة الخلد، وإنما الكلام على جنسها.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. قال ابن الأنباري: الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، ويقال: ظلم الرجل سقاه إذا سقاه قبل أن يخرج زبده. وقال الشاعر:

وصاحب صدق لم تربني شكاته
ظلمت وفي ظلمي له عامداً أجزر

أراد بالصاحب: وطب اللبن، وظلمه إياه: أن يسقيه قبل أن يخرج زبده. والعرب تقول: هو أظلم من حية، لأنها تأتي الحفر الذي لم تحفره فتسكنه، ويقال: قد ظلم الماء الوادي: إذا وصل منه إلى مكان لم يكن يصل إليه فيما مضى. فإن قيل: ما وجه الحكمة في تخصيص تلك الشجرة بالنهي؟ فالجواب: أنه ابتلاء من الله تعالى بما أراد. وقال أبو العالية: كان لها ثفل من بين أشجار الجنة، فلما أكل منها، قيل: اخرج إلى الدار التي تصلح لما يكون منك.

قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَتَرَجَّهُمَا وَيَا كَانَا فِيهَا﴾. أزلهما بمعنى: استزلهما، وقرأ حمزة: (فأزلهما)، أراد: نحاها. قال أبو علي الفارسي: لما كان معنى ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ اثبتا فيها، فثبتا؛ قابل حمزة الثبات بالزوال الذي يخالفه، ويقوي قراءته: ﴿فَأَتَرَجَّهُمَا﴾. والشيطان: إبليس، وأضيف الفعل إليه، لأنه السبب. وفي هاء (عنها) ثلاثة أقوال: أحدها: أنها تعود إلى الجنة. والثاني: ترجع إلى الطاعة. والثالث: ترجع إلى الشجرة. فمعناه: فأزلهما بزلة صدرت عن الشجرة. وفي كيفية إزاله لهما، ثلاثة أقوال: أحدها: أنه احتال حتى دخل إليهما الجنة، وكان الذي أدخله الحية^(١)، قاله ابن عباس والسدي. والثاني: أنه وقف على باب الجنة، وناداهما، قاله الحسن. والثالث: أنه وسوس إليهما، وأوقع في نفوسهما من غير مخاطبة ولا مشاهدة، قاله ابن إسحاق، وفيه بعد. قال الزجاج: الأجود: أن يكون خاطبهما، لقوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢١]. واختلف العلماء في معصية آدم بالأكل، فقال قوم: إنه نهى عن شجرة بعينها، فأكل من جنسها. وقال آخرون: تأول الكراهة في النهي دون التحريم.

(١) البيت قاله الفرزدق. ومعنى يستبيلها: أي يأخذ بولها بيده، كما في اللسان.

(٢) هذا من الأخبار الإسرائيلية التي لا مستند لها من الكتاب والسنة.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا﴾ قال الزجاج: هذه «إن» التي للجزاء، ضمت إليها «ما» والأصل في اللفظ «إن ما» مفصولة، ولكنها مدغمة، وكتبت على الإدغام، فإذا ضمت «ما» إلى «إن» لزم الفعل النون الثقيلة أو الخفيفة. وإنما تلزمه النون لأن «ما» تدخل مؤكدة، ودخلت النون مؤكدة أيضاً، كما لزم التلام النون في القسم في قولك: والله لتفعلن، وجواب الجزاء الفاء. وفي المراد بـ «الهدى» هاهنا قولان: أحدهما: أنه الرسول، قاله ابن عباس ومقاتل. والثاني: الكتاب، حكاه بعض المفسرين.

قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾. وقرأ يعقوب: «فلا خوف»: بفتح الفاء من غير تنوين، وقرأ ابن محيصن بضم الفاء من غير تنوين. والمعنى: فلا خوف عليهم فيما يستقبلون من العذاب، ولا هم يحزنون عند الموت. والخوف لأمر مستقبل، والحزن لأمر ماضٍ.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ في معنى الآية: ثلاثة أقوال: أحدها: أنها العلامة، فمعنى آية: علامة لانقطاع الكلام الذي قبلها، والذي بعدها، قال الشاعر:

ألا أبلغ لديك بني تميم بآية ما يحبون الطعاما
وقال النابغة:

توهمت آيات لها فعرفت بها لستة أعوام وذا العام سابع
وهذا اختيار أبي عبيد. والثاني: أنها سميت آية، لأنها جماعة حروف من القرآن، وطائفة منه. قال أبو عمرو الشيباني: يقال: خرج القوم بآيتهم، أي: بجماعتهم. وأنشدوا:

خرجنا من النقبين لا حي مثلنا بآيتنا نزجي اللقاح المطافلا^(١)
والثالث: أنها سميت آية، لأنها عجب، وذلك أن قارئها يستدل إذا قرأها على مباينتها كلام المخلوقين، وهذا كما تقول: فلان آية من الآيات؛ أي: عجب من العجائب. ذكره ابن الأنباري. وفي المراد بهذه الآيات أربعة أقوال: أحدها: آيات الكتب التي تتلى. والثاني: معجزات الأنبياء. والثالث: القرآن. والرابع: دلائل الله في مصنوعاته. وأصحاب النار: سكانها، سماها أصحاباً، لصحبتهم إياها بالملازمة.

قوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ بُرْهَانٌ لِّكَ أَدْرَأُ نَفْسِي أَلَيْسَ أَتَمُّ عَلَيْكَ وَأَدْرَأُ بِهَدْيِ أَوْفٍ بِهَدْيِكُمْ وَلَئِنِّي قَدْ هَبْتُ لَكَ﴾ ﴿٤٠﴾. إسرائيل: هو يعقوب، وهو اسم أعجمي. قال ابن عباس: ومعناه: عبد الله. وقد لفظت به العرب على أوجه، فقالت: إسرائيل، وإسرال، وإسرائيل، وإسرايين. قال أمية:

إنني زارد الحديد على النسا س دروعاً سوابغ الأذيال
لا أرى من يعينني في حياتي غير نفسي إلا بني إسرال
وقال أعرابي صاد ضباً، فأتى به أهله:

يقول أهل السوق لما جينا: هذا ورب البيت إسرائيلينا.

أراد: هذا مما مسخ من بني إسرائيل. والنعمة: المنة، ومثلها: النعماء. والنعمة، بفتح النون: النعم، وأراد بالنعمة: النعم، فوحدها، لأنهم يكتفون بالواحد من الجميع، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ كُنْ بِمَدِّ ذَلِكَ ظَهِيرًا﴾ [التحریم: ٤]. أي: ظهراء. وفي المراد بهذه النعمة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ما استودعهم من التوراة التي فيها صفة رسول الله ﷺ قاله ابن عباس. والثاني: أنها ما أنعم به على آبائهم وأجدادهم إذ أنجاهم من آل فرعون، وأهلك عدوهم، وأعطاهم التوراة، ونحو ذلك، قاله الحسن والزجاج. وإنما منّ عليهم بما أعطى آباءهم، لأن فخر الآباء فخر للأبناء، وعار الآباء عار على الأبناء. والثالث: أنها جمع نعمة على تصريف الأحوال. والمراد من ذكرها: شكرها، إذ من لم يشكر فما ذكر.

(١) نزجي: نسوق. اللقاح: ذوات الألبان من النوق. المطائل: النوق معها أولادها.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا﴾. قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: أوفيت، وأهل نجد يقولون: وفيت، بغير ألف. قال الزجاج. يقال: وفى بالعهد، وأوفى به، وأنشد:

أما ابن طوق فقد أوفى بدمته كما وفى بقلاص النجم حاديهما^(١)

وقال ابن قتيبة: يقال: وفيت بالعهد، وأوفيت به، وأوفيت الكيل لا غير. وفي المراد بعهد: أربعة أقوال: أحدها: أنه ما عهده إليهم في التوراة من صفة محمد ﷺ، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنه امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أنه الإسلام، قاله أبو العالية. والرابع: أنه العهد المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٣] قاله قتادة. قوله تعالى: ﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾. قال ابن عباس: أدخلكم الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَرِئَيْنَا فَأَرْحَبِينَ﴾: أي: خافون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا آمَنُوا بِمَا أُنزِلَتْ﴾ يعني القرآن ﴿مِمَّا قَالَا لَنَا مَعَكُمْ﴾ يعني التوراة أو الإنجيل، فإن القرآن يصدقهما أنهما من عند الله، ويوافقهما في صفة النبي ﷺ. ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾. إنما قال: أول كافر، لأن المتقدم إلى الكفر أعظم من الكفر بعد ذلك، إذ المبادر لم يتأمل الحجة، وإنما بادر بالعناد، فحاله أشد. وقيل: ولا تكونوا أول كافر به بعد أن آمن، والخطاب لرؤساء اليهود. وفي هاتين قولان: أحدهما: أنها تعود إلى المنزل، قاله ابن مسعود وابن عباس. والثاني: أنها تعود على ما معهم، لأنهم إذا كنتموا وصف النبي ﷺ وهو معهم، فقد كفروا به، ذكره الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْيَهُودَ وَلَا نَصَارَةَ﴾. أي: لا تستبدلوا [بآياتي] ثمنًا قليلًا. وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ما كانوا يأخذون من عرض الدنيا. والثاني: بقاء رئاستهم عليهم. والثالث: أخذ الأجرة على تعليم الدين. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ وَالْبَاطِلِ كَاتِبِينَ﴾. تلبسوا: بمعنى تخلطوا. يقال: لبست الأمر عليهم، ألبسه: إذا عमितه عليهم، وتخليطهم أنهم قالوا: إن الله عهد إلينا أن نؤمن بالنبي الأمي، ولم يذكر أنه من العرب. وفي المراد بالحق قولان: أحدهما: أنه أمر النبي ﷺ، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وأبو العالية، والسدي ومقاتل. والثاني: أنه الإسلام، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾. يريد: الصلوات الخمس، وهي هاهنا اسم جنس، والزكاة: مأخوذة من الزكاء، وهو النماء، والزيادة. يقال: زكا الزرع يزكو زكاء. وقال ابن الأنباري: معنى الزكاة في كلام العرب: الزيادة والنماء، فسميت زكاة، لأنها تزيد في المال الذي تخرج منه، وتوفره، وتقيه من الآفات. ويقال: هذا أزكى من ذاك، أي: أزيد فضلًا منه.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْكَمُوا مَعَ الزَّكِيِّينَ﴾. أي: صلوا مع المصلين. قال ابن عباس: يريد محمداً ﷺ، والصحابه ﷺ. وقيل: إنما ذكر الركوع، لأنه ليس في صلاتهم ركوع، والخطاب لليهود. وفي هذه الآية دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع، وهي إحدى الروايتين عن أحمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُ النَّاسَ بِالْبَرِّ وَتَسْؤُونَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. قال ابن عباس: نزلت في اليهود، كان الرجل يقول لقربائه من المسلمين في السر: اثبت على ما أنت عليه فإنه حق. والألف في ﴿فَأَنذَرْتُ﴾ ألف الاستفهام، ومعناه التوبيخ. وفي «البر» هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه التمسك بكتابهم، كانوا يأمرون باتباعه ولا يقومون به. والثاني: اتباع محمد ﷺ، روي القولان عن ابن عباس. والثالث: الصدقة، كانوا يأمرون بها، ويبخلون. ذكره الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَتَسْؤُونَ﴾ أي: تتركون. وفي «الكتاب» قولان: أحدهما: أنه التوراة، قاله الجمهور. والثاني: أنه القرآن، فلا يكون الخطاب على هذا القول لليهود.

(١) قلاص النجم: هي المشرون نجماً التي ساقها الدهران في خطبة الثريا كما تزمع العرب. والبيت لطفي الغنوي.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَبِيهُوا بِالْعَصْبِ وَالْقَلْبِ وَإِنَّا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْفَاسِقِينَ﴾ (٤٥) الأصل في الصبر: الحبس، فالصابر حابس لنفسه عن الجزع. وسمي الصائم صابراً لحبسه نفسه عن الأكل والشرب والجماع، والمصبورة: البهيمة تتخذ غرضاً. وقال مجاهد: الصبر هاهنا: الصوم. وفيما أمروا بالصبر عليه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أداء الفرائض، قاله ابن عباس ومقاتل. والثاني: أنه ترك المعاصي، قاله قتادة. والثالث: عدم الرئاسة، وهو خطاب لأهل الكتابين، ووجه الاستعانة بالصلاة أنه يتلى فيها ما يرغب في الآخرة، ويزهد في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا﴾ في المكنى عنها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الصلاة، قاله ابن عباس والحسن، ومجاهد والجمهور. والثاني: أنها الكعبة والقبلة، لأنه لما ذكر الصلاة، دلت على القبلة، ذكره الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مقاتل. والثالث: أنها الاستعانة، لأنه لما قال: ﴿وَأَسْتَبِيهُوا﴾ دل على الاستعانة، ذكره محمد بن القاسم النحوي.

قوله تعالى: ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ قال الحسن والضحاك: الكبيرة: الثقيلة، مثل قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [التورى: ١٣] أي: ثقل، والخشوع في اللغة: التظامن والتواضع، وقيل: السكون.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ آيَاتَهُمْ مُتَّبِعُوا رَبَّهُمْ وَأَنبِئْهُمْ بِآيَةِ رَجُوعِهِمْ﴾ (٤٦). الظن هاهنا: بمعنى اليقين، وله وجوه قد ذكرناها في كتاب «الوجوه والنظائر».

قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُوا آيَاتَهُمْ أَكْثَرُوا بِشَيْءٍ آتَىٰ أَهْلَهُ عَلَىٰ عِلَّتِهِمْ وَأَيَّ فَسَلَّكُمْ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٤٧) يعني: على عالمي زمانهم، قاله ابن عباس وأبو العالية ومجاهد وابن زيد. قال ابن قتيبة: وهو من العام الذي أريد به الخاص.

قوله تعالى: ﴿وَأَنفُوا يَوْمًا لَا تَجْرَىٰ فَنَسْ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلَ مِنهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ (٤٨). قال الزجاج: كانت اليهود تزعم أن آباءهم الأنبياء شفع لهم يوم القيامة، فأيسهم الله بهذه الآية من ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَنفُوا يَوْمًا﴾ [فيه] إضمار، تقديره: اتقوا عذاب يوم، أو: ما في يوم. والمراد باليوم يوم القيامة و«تجري» بمعنى تقضي^(١). قال ابن قتيبة: يقال: جرى الأمر عني يجزي، بغير همز، أي: قضى عني، وأجزاني يجزئني، مهموز، أي: كفاني.

قوله تعالى: ﴿نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ﴾. قالوا: المراد بالنفس هاهنا: النفس الكافرة، فعلى هذا يكون من العام الذي أريد به الخاص.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنهَا شَفَعَةٌ﴾. قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتاء، وقرأ الباقون بالياء، إلا أن قتادة فتح الباء، ونصب الشفاعة، ليكون الفعل لله تعالى. قال أبو علي: من قرأ بالتاء، فلائ الاسم الذي أسند إليه هذا الفعل مؤنث، فيلزم أن يلحق المستند أيضاً علامة التأنيث، ومن قرأ بالياء، فلائ التأنيث في الاسم الذي أسند إليه الفعل ليس بحقيقي، فحمل على المعنى، كما أن الوعظ والموعظة بمعنى واحد. وفي الآية إضمار، تقديره: لا يقبل منها فيه شفاعاة. و«الشفاعة» مأخوذة من الشفع الذي يخالف الوتر، وذلك أن سؤال الشفع يشفع سؤال المشفوع له. فأما «العدل» فهو الفداء، وسمي عدلاً، لأنه يعادل المفدى. واختلف اللغويون: هل «العدل» و«العدل» بفتح العين وكسرها، يختلفان، أم لا؟ فقال الفراء: العدل بفتح العين: ما عادل الشيء من غير جنسه، والعدل بكسرها: ما عادل الشيء من جنسه، فهو المثل، تقول: عندي عدل غلامك، بفتح العين: إذا أردت قيمته من غير جنسه، وعندي عدل غلامك، بكسر العين: إذا كان غلام يعدل غلاماً. وحكى الزجاج عن البصريين أن العدل والعدل في معنى المثل، وأن المعنى واحد، سواء كان المثل من الجنس أو من غير الجنس.

قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ أي: يمنعون من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَاكُمْ بَيْنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَةَ الْعَذَابِ يُدَبِّقُونَ أَثْنَاءَكُمْ وَاسْتَخَيَّرُوا بِسَاءَتِهِمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءَةً مِن رَّبِّكُمْ عَظِيمًا﴾ (٤٩) تقديره: واذكروا إذ نجيتكم، وهذه النعم على آبائهم كانت. وفي «آل فرعون» ثلاثة أقوال: أحدها:

(١) في الأصل تقضي. وفي نسخة (ب) ولتجزي بمعنى تقضي. والصواب ما أثبتنا.

أنهم أهل مصر، قاله مقاتل. والثاني: أهل بيته خاصة، قاله أبو عبيدة. والثالث: أتباعه على دينه، قاله الزجاج. وهل الآل والأهل بمعنى، أو يختلفان؟ فيه قولان: وقد شرحت معنى الآل في كتاب «النظائر». وفرعون: اسم أعجمي، وقيل: هو لقبه. وفي اسمه أربعة أقوال: أحدها: الوليد بن مصعب، قاله الأكثرون. والثاني: فيطوس^(١)، قاله مقاتل. والثالث: مصعب بن الريان، حكاه ابن جرير الطبري. والرابع: مغيث، ذكره بعض المفسرين.

قوله تعالى: ﴿يَسْؤُونَكَ﴾ أي: يولونكم. يقال: فلان يسومك خسفاً، أي: يوليئك ذلاً واستخفافاً. وسوء العذاب: شديده. وكان الزجاج يرى أن قوله: ﴿يَذْهَبُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ تفسير لقوله: ﴿يَسْؤُونَكَ سَوَاءَ الْكَلْبِ﴾، وأبى هذا بعض أهل العلم، فقال: قد فرق الله بينهما في موضع آخر، فقال: ﴿يَسْؤُونَكَ سَوَاءَ الْكَلْبِ وَيَذْهَبُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦] وإنما سوء العذاب: استخدامهم في أصعب الأعمال، وقال الفراء: الموضع الذي طرحت فيه الواو، تفسير لصفات العذاب، والموضع الذي فيه الواو، يبين أنه قد مسهم من العذاب غير الذبح، فكانه قال: يعذبونكم بغير الذبح وبالذبح.

قوله تعالى: ﴿وَسَتَعْبِرُونَ نَسَاءَكُمْ﴾ أي: يستبقون نساءكم، أي: بناتكم. وإنما استبقوا نساءهم للاستدلال والخدمة. وفي البلاء هاهنا قولان: أحدهما: أنه بمعنى النعمة، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو مالك وابن قتيبة والزجاج. والثاني: أنه النعمة، رواه السدي عن أشياخه. فعلى هذا القول يكون «ذا» في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾: عائداً على سؤمهم سوء العذاب، وذبح أبنائهم واستحياء نساءهم، وعلى القول الأول يعود على النجاة من آل فرعون. قال أبو العالية: وكان السبب في ذبح الأبناء، أن الكهنة قالت لفرعون: سيولد العام بمصر غلام يكون هلاكك على يديه، فقتل الأبناء. قال الزجاج: فالعجب من حمق فرعون، إن كان الكاهن عنده صادقاً، فما ينفع القتل؟ وإن كان كاذباً، فما معنى القتل؟!

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ الفرق: الفصل بين الشيئين، و«بكم» بمعنى «لكم». وإنما ذكر آل فرعون دونه، لأنه قد علم كونه فيهم. وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ قولان: أحدهما: أنه من نظر العين، معناه: وأنتم ترونهم يغرقون. والثاني: أنه بمعنى العلم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الْأَطْلَالَ﴾ [الفرقان: ٤٥]. قاله الفراء.

الإشارة إلى قصتهم

روى السدي عن أشياخه: أن الله تعالى أمر موسى أن يخرج بني إسرائيل، وألقى على القبط الموت، فمات بكر كل رجل منهم، فأصبحوا يدفنونه، فشغلوا عن طلبهم حتى طلعت الشمس. قال عمر بن ميمون: فلما خرج موسى بلغ ذلك فرعون، فقال: لا تتبعوهم حتى يصبح الديك، فما صاح ديك ليلتذ. قال أبو السليل: لما انتهى موسى إلى البحر قال: هيه^(٢) أبا خالد، فأخذه أكل، يعني: رعدة، قال مقاتل: تفرق الماء يميناً وشمالاً كالجليلين المتقابلين، وفيهما كوى ينظر كل سبط إلى الآخر. قال السدي: فلما رآه فرعون متفرقاً قال: ألا ترون البحر فرق مني، فافتتح لي؟ فأتت خيل فرعون فأبت أن تقتحم، فنزل جبريل على ماذيانه، فتشامت الحصن ريح الماذيانه، فافتحمت في إثرها، حتى إذا هم أولهم أن يخرج، ودخل آخرهم، أمر البحر أن يأخذهم، فالتطم عليهم.

قوله تعالى: ﴿رَبُّهُ وَكَذَلِكَ مَوْتُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾. قرأ أبو جعفر وأبو عمرو: «وعدنا» بغير ألف هاهنا وفي (الأعراف) و(طه) ووافقهما أبان عن عاصم في (البقرة) خاصة. وقرأ الباقون «واعدنا» بآلف. ووجه القراءة الأولى: أفراد الوعد من الله تعالى، ووجه الثانية: أنه لما قبل موسى وعد الله ﷻ، صار ذلك مواعدة بين الله تعالى وبين موسى. ومثله: ﴿لَا تَوَاعِدُوهُمْ يَوْمَ يَوْمِ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. ومعنى الآية: وعدنا موسى تسمة أربعين ليلة، أو انقضاء أربعين ليلة. وموسى: اسم أعجمي، أصله بالعبرانية: موشا، فمو: هو الماء، وشا: هو الشجر، لأنه وجد عند الماء والشجر، فعرب بالسين. ولماذا كان هذا الوعد؟ فيه قولان: أحدهما: لأخذ التوراة. والثاني: للتكليم. وفي هذه المدة قولان: أحدهما: أنها ذو

(١) في «البحر المحيط» فطوس.

في الأصل: هي، و«أبو خالد» كنى به البحر.

وَسَيَرْيَدُ الْمُتَحَيِّينَ ﴿٥٩﴾. في القائل لهم قولان: أحدهما: أنه موسى بعد مضي أربعين سنة. والثاني: أنه يوشع بن نون بعد موت موسى. والقرية: مأخوذة من الجمع، ومنه: قريت الماء في الحوض. والمقارة: الحوض يجمع فيه الماء. وفي المراد بـ: ﴿هَذِهِ الْقَرْيَةُ﴾ قولان: أحدهما: أنها بيت المقدس، قاله ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسدي. وروي عن ابن عباس أنها أريحا. قال السدي: وأريحا: هي أرض بيت المقدس. والثاني: أنها قرية من أداني قرى الشام، قاله وهب.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَوْا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ قال ابن عباس: وهو أحد أبواب بيت المقدس، وهو يدعى: باب حطة. وقوله: (سجداً) أي: ركعاً. قال وهب: أمروا بالسجود شكراً لله تعالى إذ ردهم إليها.

قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ وقرأ ابن السمين وابن أبي عبة (حطة) بالنصب. وفي معنى حطة ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: استغفروا، قاله ابن عباس ووهب. قال ابن قتيبة: وهي كلمة [أمروا أن يقولوها] في معنى الاستغفار، من: حططت، أي: حط عنا ذنوبنا. والثاني: أن معناها: قولوا: هذا الأمر حق كما قيل لكم، ذكره الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أن معناها: لا إله إلا الله، قاله عكرمة. قال ابن جرير الطبري: فيكون المعنى: قولوا الذي يحط عنكم خطاياكم. [وهو قول: «لا إله إلا الله»]. ولماذا أمروا بدخول القرية؟ فيه قولان: أحدهما: أن ذلك للذنوب ركبوها فقبل: ﴿أَعْلَوْا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، ﴿وَأَعْلَوْا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَنْزِلَ لَكُمْ حَطَّتُكُمْ﴾ قاله وهب. والثاني: أنهم ملوا المن والسلوى، فقبل: ﴿أَقِطُوا مِصْرًا﴾ فكان أول ما لقيهم أريحا، فأمرؤا بدخولها.

قوله تعالى: ﴿نَنْزِلَ لَكُمْ حَطَّتُكُمْ﴾. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي: (نغفر لكم) بالنون مع كسر الفاء. وقرأ نافع وأبان عن عاصم (ينغفر) بياء مضمومة وفتح الفاء. وقرأ ابن عامر ببناء مضمومة مع فتح الفاء. قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿٦٠﴾. اعلم أن الله ﷻ أمرهم في دخولهم بفعل وقول، فالفعل السجود، والقول: حطة، فغير القوم الفعل والقول. فأما تغيير الفعل؛ ففيه خمسة أقوال: أحدها: أنهم دخلوا متزحفين على أوراكهم. رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ^(١) والثاني: أنهم دخلوا من قبل أستاذهم، قاله ابن عباس وعكرمة. والثالث: أنهم دخلوا مقتعي رؤوسهم، قاله ابن مسعود^(٢). والرابع: أنهم دخلوا على حروف عيونهم، قاله مجاهد. والخامس: أنهم دخلوا مستلقين، قاله مقاتل. وأما تغيير القول؛ ففيه خمسة أقوال: أحدها: أنهم قالوا مكان «حطة»: حبة في شعرة، رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ. والثاني: أنهم قالوا: حنطة، قاله ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، ووهب، وابن زيد. والثالث: أنهم قالوا: حنطة حمراء فيها شعرة، قاله ابن مسعود. والرابع: أنهم قالوا: حبة حنطة مثقوبة فيها شعيرة سوداء، قاله السدي عن أشياخه. والخامس: أنهم قالوا: سنبلانا، قاله أبو صالح. فأما الرجز؛ فهو العذاب، قاله الكسائي وأبو عبيدة والزجاج. وأنشدوا لرؤبة:

حتى وقمنا كيده بالرجز

وفي ماهية هذا العذاب ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ظلمة وموت، مات منهم في ساعة واحدة، أربعة وعشرون ألفاً، وهلك سبعون ألفاً عقوبة، قاله ابن عباس. والثاني: أنه أصابهم الطاعون، عذبوا به أربعين ليلة ثم ماتوا، قاله وهب بن منبه. والثالث: أنه الثلج، هلك به منهم سبعون ألفاً، قاله سعيد بن جبيرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَايَهُ فَقُلْنَا امْكُتْ بِمِصْبَاكَ فَالْمُجْرَتْ مِنَّا اثْنَا عَشَرَ نَبِئًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِيقَهُمْ كُتُّوا وَآثَرُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُسَيِّرينَ ﴿٦١﴾﴾. استسقى بمعنى: استدعى ذلك، كقولك: استنصر. وفي الحجر قولان: أحدهما: أنه حجر معروف عين لموسى، قاله ابن عباس، وابن جبيرة، وقتادة، وعطية،

(١) الثابت عن رسول الله ﷺ من طريق أبي هريرة بلفظ «فدخلوا يزحفون على أستاذهم» رواه البخاري في التفسير. أما لفظ «متزحفين على أوراكهم» فلم يرو عن أبي هريرة، وإنما هو من قول الحسن وقتادة كما في «تفسير الطبري».

(٢) وأسند هذا القول الطبري أيضاً إلى ابن عباس وعكرمة.

وابن زيد، ومقاتل. واختلفوا في صفته على ثلاثة أقوال. أحدها: أنه كان حجراً مربعاً، قاله ابن عباس. والثاني: كان مثل رأس الثور، قاله عطية. والثالث: مثل رأس الشاة، قاله ابن زيد. وقال سعيد بن جبير: هو الذي ذهب بشباب موسى. فجاءه جبريل فقال: إن الله تعالى يقول لك: ارفع هذا الحجر، فلي فيه قدرة، ولك فيه معجزة، فكان إذا احتاج إلى الماء ضربه. والقول الثاني: أنه أمر بضرب أي حجر كان، والأول أثبت.

قوله تعالى: ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ﴾ تقدير معناه: فضرب فانفجرت، فلما عرف بقوله: «فانفجرت» أنه قد ضرب، اكتفى بذلك عن ذكر الضرب. ومثله: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِصَالِكِ الْبَحْرِ فَانْقَلَبَ﴾ [الشعراء: ٦٣] قاله الفراء. ولما كان القوم اثني عشر سبطاً، أخرج الله لهم اثني عشرة عيناً، ولأنه كان فيهم تشاحن فسلموا بذلك منه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ العنق: أشد الفساد، يقال: عني، وعثا، وعاث. قال ابن الرقاع:

لولا الحياء وأن رأسي قد عشا

فيه المشيب لزرت أم القاسم
قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ يَنْصُوحِينَ لَنْ نَمْدَكَ عَلَىٰ ظَنٍّ وَلَكِنْ نَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [البقرة: ١٢٨] قاله ابن عباس. وفي قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ أي لا يحزن في أكله إلى طبخ، وليس كذلك، إنما البقل: العشب، وما ينبت الربيع مما يأكله الناس والبهائم، يقال: بقلت الأرض، وأبقلت، لغتان فصيحتان: إذا أنبت البقل. وأبقلت الإبل: إذا رعت. قال أبو النجم يصف الإبل:

تبقلت في أول السبق
بين رماحي مالك ونهشل

وفي «الثناء» لغتان: كسر القاف وضمها، والكسر أجود، وبه قرأ الجمهور. وقرأ ابن مسعود، وأبو رجاء، وقتادة، وطلحة بن مصرف، والأعمش: بضم القاف. قال الفراء: الكسر لغة أهل الحجاز، والضم لغة تميم، وبعض بني أسد. وفي «القوم» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحنطة، قاله ابن عباس، والسدي عن أشياخه، والحسن وأبو مالك، قال الفراء: هي لغة قديمة، يقول أهلها: قوموا لنا، أي: اختيروا لنا. والثاني: أنه التوم، وهو قراءة عبد الله وأبي: «وثومها» واختاره الفراء، وعلل بأنه ذكر مع ما يشاكله، والفاء تبدل من الثاء، كما تقول العرب: الجدث، والجذف: للقبر، والأثافي والأثاني: للحجارة التي توضع تحت القدر. والمغافير، والمغاثير: لضرب من الصمغ. وهذا قول مجاهد، والربيع بن أنس، ومقاتل، والكسائي، والضرب بن شميل، وابن قتيبة. والثالث: أنه الجوب، ذكره ابن قتيبة والزجاج.

قوله تعالى: ﴿أَشْتَبِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾: أي: أردأ ﴿وَالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾: أي: أعلى، يريد: أن المن والسلوى أعلى ما طلبتم.

قوله تعالى: ﴿أَقْبَطُوا مِصْرًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه اسم لمصر من الأمصار غير معين، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وقتادة، وابن زيد، وإنما أمروا بالمصر، لأن الذي طلبوه في الأمصار. والثاني: أنه أراد البلد المسمى بمصر. وفي قراءة عبد الله والحسن وطلحة بن مصرف والأعمش «مصر» بغير تنوين، قال أبو صالح عن ابن عباس: أراد مصر فرعون، وهذا قول أبي العالقة والضحاك، واختاره الفراء، واحتج بقراءة عبد الله. قال: وسئل عنها الأعمش، فقال: هي مصر التي عليها صالح^(١) بن علي. وقال مفضل الضبي: سميت مصرأ، لأنها آخر حدود المشرق، وأول حدود المغرب، فهي حد بينهما. والمصر: الحد. وأهل هجر يكتبون في عهدهم: اشترى فلان الدار بمصورها، أي: بحدودها. وقال عدي:

(١) في الأصل: سليمان، وهو خطأ. وصالح هذا: هو ابن علي بن عبد الله بن العباس، أول من ولي مصر من قبل أبي العباس السفاح سنة ١٣٣هـ.

وتوفي بقنسرين وهو عامل على حمص سنة ١٥٤هـ.

فصل

وهل هذه الآية محكمة أم منسوخة؟. فيه قولان: أحدهما: أنها محكمة، قاله مجاهد والضحاك في آخرين، وقدرها فيها: إن الذين آمنوا، ومن آمن من الذين هادوا. والثاني: أنها منسوخة بقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، ذكره جماعة من المفسرين.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾. الخطاب بهذه الآية لليهود. والميثاق: مفعال من التوثق بيمين أو عهد أو نحو ذلك من الأمور التي تؤكد القول. وفي هذا الميثاق ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أخذ ميثاقهم أن يعملوا بما في التوراة، فكروها الإقرار بما فيها، فرفع عليهم الجبل، قاله مقاتل. قال أبو سليمان الدمشقي: أعطوا الله عهداً ليعملن بما في التوراة، فلما جاء بها موسى فرأوا ما فيها من التشديد، امتنعوا من أخذها، فرفع الطور عليهم. والثاني: أنه ما أخذ الله تعالى على الرسل وتابعيهم من الإيمان بمحمد ﷺ، ذكره الزجاج. والثالث: ذكره الزجاج أيضاً، فقال: يجوز أن يكون الميثاق يوم أخذ الذرية من ظهر آدم.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ قال أبو عبيدة: الطور في كلام العرب: الجبل. وقال ابن قتيبة: الطور: الجبل بالسرانية. وقال ابن عباس: ما أنبت من الجبال فهو طور، وما لم ينبت فليس بطور. وأي الجبال هو؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: جبل من جبال فلسطين، قاله ابن عباس. والثاني: جبل نزلوا بأصله، قاله قتادة. والثالث: الجبل الذي تجلى له ربه، قاله مجاهد. وجمهور العلماء على أنه إنما رفع الجبل عليهم لإبائهم التوراة. وقال السدي: لإبائهم دخول الأرض المقدسة.

قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾. وفي المراد بالقوة أربعة أقوال: أحدها: الجِد والاجتهاد، قاله ابن عباس وقاتدة والسدي. والثاني: الطاعة، قاله أبو العالية. والثالث: العمل بما فيه، قاله مجاهد. والرابع: الصدق، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: اذكروا ما تضمنه من الثواب والعقاب، قاله ابن عباس. والثاني: معناه: ادرسوا ما فيه، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال ابن عباس: تتقون العقوبة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم عن العمل بما فيه من بعد إعطاء المواثيق لتأخذنه بجد، فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين بالعقوبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْكُمْ فِي الْحَبَشَةِ فَعَلْنَا لَهُمْ كُفُورًا قَرْدَةً خَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ السبت: اليوم المعروف، قاله ابن الأنباري: ومعنى السبت في كلام العرب: القطع، يقال: قد سبت رأسه: إذا حلقه وقطع الشعر منه، ويقال: نعل سبتية: إذا كانت مدبوغة بالقرظ مخلوقة الشعر، فسمي السبت سبتاً، لأن الله تعالى ابتدأ الخلق فيه، وقطع فيه بعض خلق الأرض، أو: لأن الله تعالى أمر بني إسرائيل فيه بقطع الأعمال وتركها. قال: وقال بعضهم: سمي سبتاً، لأن الله تعالى أمرهم بالاستراحة فيه من الأعمال، وهذا خطأ، لأنه لا يعرف في كلام العرب سبت بمعنى: استراح. وفي صفة اعتدائهم في السبت قولان: أحدهما: أنهم أخذوا الحيتان يوم السبت، قاله الحسن ومقاتل. والثاني: أنهم حبسوها يوم السبت وأخذوها يوم الأحد، وذلك أن الرجل كان يحفر الحفيرة؛ ويجعل لها نهراً إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتح النهر، وقد حرم الله عليه العمل يوم السبت، فيقبل الموج بالحيتان حتى يلقيها في الحفيرة، فيريد الحوت الخروج فلا يطيق، فيأخذها يوم الأحد، قاله السدي.

الإشارة إلى قصة مسخهم

روى عثمان بن عطاء عن أبيه قال: نودي الذين اعتدوا في السبت ثلاثة أصوات. نودوا: يا أهل القرية، فانتبهت طائفة، ثم نودوا: يا أهل القرية، فانتبهت طائفة أكثر من الأولى، ثم نودوا: يا أهل القرية، فانتبه الرجال والنساء والصبيان، فقال الله لهم: ﴿كُونُوا قَرَدَةً خَاسِيَةً﴾ فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان ألم ننهكم؟ فيقولون برؤوسهم: بلى. قال قتادة: فصار القوم قردة تعاوي، لها أذنان بعدما كانوا رجالاً ونساء. وفي رواية عن قتادة: صار الشبان قردة، والشيخ خنازير، وما نجا إلا الذين نهوا، وهلك سائرهم. وقال غيره: كانوا نحواً من سبعين ألفاً، وعلى هذا القول العلماء، غير ما روي عن مجاهد أنه قال: مسخت قلوبهم ولم تمسخ أبدانهم، وهو قول بعيد، قال ابن عباس: لم يحيا على الأرض إلا ثلاثة أيام، ولم يحيا مسخ في الأرض فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل. وزعم مقاتل أنهم عاشوا سبعة أيام، وماتوا في اليوم الثامن، وهذا كان في زمان داود عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿خَاسِيَةً﴾: الخاسي في اللغة: المبعد، يقال للكلب: خاساً، أي: تباعد.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ في المكنى عنها أربعة أقوال: أحدها: أنها الخطيئة، رواه عطية عن ابن عباس. والثاني: العقوبة، رواه الضحاك عن ابن عباس. وقال الفراء: الهاء: كناية عن المسخة التي مسخوها. والثالث: أنها القرية، والمراد أهلها، قاله قتادة وابن قتيبة. والرابع: أنها الأمة التي مسخت، قاله الكسائي، والزجاج. وفي النكال قولان: أحدهما: أنه العقوبة، قاله مقاتل. والثاني: العبرة، قاله ابن قتيبة والزجاج.

قوله تعالى: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لما بين يديها من القرى وما خلفها، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: لما بين يديها من الذنوب، وما خلفها: ما عملوا بعدها، رواه عطية عن ابن عباس. والثالث: لما بين يديها من السنين التي عملوا فيها بالمعاصي، وما خلفها: ما كان بعدهم في بني إسرائيل لثلا يعملوا بمثل أعمالهم، قاله عطية. وفي المتقين قولان: أحدهما: أنه عام في كل متق إلى يوم القيامة، قاله ابن عباس. والثاني: أن المراد بهم أمة محمد ﷺ، قاله السدي عن أشياخه، وذكره عطية وسفيان.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْتِيكُمْ أَن تُدْعُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَلْبِثُونَ هَذِهِ الْأَهْوَاءَ الْفُتُورَةَ قَالَ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَوْيَاكُمْ وَأَبِيتُوا بِهِنَّ وَأَكُلْنَ مِنْهُنَّ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ﴾. ﴿وَقَالَ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَوْيَاكُمْ وَأَبِيتُوا بِهِنَّ وَأَكُلْنَ مِنْهُنَّ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ﴾. ﴿وَقَالَ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَوْيَاكُمْ وَأَبِيتُوا بِهِنَّ وَأَكُلْنَ مِنْهُنَّ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ﴾.

ذكر السبب في أمرهم بذبح البقرة

روى ابن سيرين عن عبيدة قال: كان في بني إسرائيل رجل عقيم لا يولد له، وله مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله واحتمله ليلاً، فأتى به حياً آخر، فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه حتى تسلموا، وركب بعضهم إلى بعض، فأتوا موسى فذكروا له ذلك، فأمرهم بذبح البقرة. وروى السدي عن أشياخه أن رجلاً من بني إسرائيل كانت له بنت وابن أخ فقير، فخطب إليه ابنته، فأبى، فغضب وقال: والله لأقتلن عمي، ولأخذن ماله ولأنكحن ابنته، ولأكلن ديتة، فأتاه فقال: قد قدم تجار في بعض أسباط بني إسرائيل، فانطلق معي فخذ لي من تجارتهم لمعلي أصيب فيها ربحاً، فخرج معه، فلما بلغا ذلك السبط، قتله الفتى، ثم رجع، فلما أصبح، جاء كأنه يطلب عمه لا يدري أين هو، فإذا بذلك السبط قد اجتمعوا عليه، فأمسكهم وقال: قتلتم عمي، وجعل يبكي وينادي: واعماه. قال أبو العالية: والذي سأل موسى أن يسأل الله البيان: القاتل. وقال غيره: بل القوم اجتمعوا فسألوا موسى، فلما أمرهم بذبح بقرة، قالوا: ﴿أَتَلْبِثُونَ هَذِهِ الْأَهْوَاءَ الْفُتُورَةَ﴾. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: «هزوا»، بضم الهاء والزاي والهمزة، وقرأ حمزة، وإسماعيل، وخلف في اختياره، والفراء عن عبد الوارث، والمفضل: «هزءاً»، بإسكان الزاي. ورواه حفص بالضم من غير همز، وحكى أبو علي الفارسي أن كل اسم على ثلاثة أحرف أوله مضموم، فمن العرب من يثقله، ومنهم من يخففه، نحو العسر واليسر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾. وإنما انتفى من الهزء، لأن الهازئ جاهل لاجب، فلما تبين لهم أن الأمر من عند الله، قالوا: ﴿أَوَعِ لَكَ رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ﴾. قال الزجاج: وإنما سألوا: ما هي، لأنهم لا يعلمون أن بقرة يحيا بضرب بعضها ميت. فأما الفارض فهي: المسنة، يقال: فرضت البقرة فهي فارض: إذا أسنت. والبكر: الصغيرة التي لم تلد، والعوان: دون المسنة، وفوق الصغيرة. يقال: حرب عوان: إذا لم تكن أول حرب، وكانت ثانية.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَوَعِ لَكَ رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾. قالوا أَوَعِ لَكَ رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَّهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾. في الصفراء قولان: أحدهما: أنه من الصفرة، وهو: اللون المعروف، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، وابن قتيبة، والزجاج. والثاني: أنها السوداء، قاله الحسن البصري، ورده جماعة، فقال ابن قتيبة: هذا غلط في نعوت البقر، وإنما يكون ذلك في نعوت الإبل، يقال: بعير أصفر، أي: أسود، لأن السوداء من الإبل يشوب سوادها صفرة، ويدل على ذلك: قوله تعالى: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ والعرب لا تقول: أسود فاقع، وإنما تقول: أسود حالك، وأصفر فاقع. قال الزجاج: وفاقع نعت للأصفر الشديد الصفرة، يقال: أصفر فاقع، وأحمر قاني، وأخضر ناضر، وأبيض يقق، وأسود حالك، وحلكوك ودجوجي، فهذه صفات المبالغة في الألوان. ومعنى ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ تعجبهم، قال ابن عباس: شدد القوم فشدد الله عليهم. وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لولا أن بني إسرائيل استثنوا لم يعطوا الذي أعطوا» يعني بذلك قولهم: ﴿وَلَوْ أَنَّ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾. وفي المراد باهتدائهم قولان: أحدهما: أنهم أرادوا: المهتدون إلى البقرة، وهو قول الأكثرين، والثاني: إلى القاتل، ذكره أبو صالح عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْمَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْكَفَىٰ بِالْحَقِّ فَدَجَّبُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٧١﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ﴾ قال قتادة: لم يذلها العمل فتثير الأرض. قال ابن قتيبة: يقال في الدواب: دابة ذلول: بينة الذل بكسر الذال، وفي الناس: رجل ذليل بين الذل بضم الذال. ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾: تقلبها للزراعة، ويقال للبقرة: المثيرة. قال الفراء: لا تقفن على ذلول، لأن المعنى: ليست بذلول فتثير الأرض، وحكى ابن القاسم أن أبا حاتم السجستاني أجاز الوقف على ذلول، ثم أنكره عليه جداً، وعلل بأن التي تثير الأرض لا يعدم منها سقي الحرت، ومتى أثارت الأرض كانت ذلولاً. ومعنى: ﴿وَلَا تَسْقِي الْمَرْثَ﴾: لا يستقى عليها الماء لسقي الزرع.

قوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: مسلمة من العيوب، قاله ابن عباس، وأبو العالية، وقتادة، ومقاتل. والثاني: مسلمة من العمل، قاله الحسن وابن قتيبة. والثالث: مسلمة من الشية، قاله مجاهد وابن زيد، والرابع: مسلمة القوائم والخلق، قاله عطاء الخراساني. فأما الشية، فقال الزجاج: الوشي في اللغة: خلط لون بلون. ويقال: وشيت الثوب أشبه شية وشياً، كقولك: وديت فلاناً أدبه دية. ونصب: لا شية فيها، على النفي. ومعنى الكلام: ليس فيها لون يفارق سائر لونها. وقال عطاء الخراساني: لونها لون واحد.

قوله تعالى: ﴿الْكَفَىٰ بِالْحَقِّ﴾ قال ابن قتيبة: الآن: هو الوقت الذي أنت فيه، وهو حد الزمانين، حد الماضي من آخره، وحد المستقبل من أوله، ومعنى ﴿جَنَّتْ وَالْحَقُّ﴾: بينت لنا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: لغلاء ثمنها، قاله ابن كعب القرظي. والثاني: لخوف الفضيحة على أنفسهم في معرفة القاتل منهم، قاله وهب. قال ابن عباس: مكثوا يطلبون البقرة أربعين سنة حتى وجدوها عند رجل، فأبى أن يبيعها إلا بملء مسكها ذهباً، وهذا قول مجاهد وعكرمة، وعبيدة، وهب، وابن زيد، والكلبي، ومقاتل في مقدار الثمن. فأما السبب الذي لأجله غلا ثمنها، فيحتمل وجهين: أحدهما: أنهم شددوا فشدد الله عليهم. والثاني: لإكرام الله ﷻ صاحبها، فإنه كان برأً بوالديه. فذكر بعض المفسرين أنه كان شاب من بني إسرائيل برأً بأبيه، فجاء رجل يطلب سلعة هي عنده، فانطلق لبيعه إياها، فإذا مفاتيح حانوته مع أبيه، وأبوه نائم، فلم يوقظه، ورد

المشتري، فأضعف له المشتري الثمن، فرجع إلى أبيه، فوجده نائماً، فعاد إلى المشتري فردّه، فأضعف له الثمن، فلم يزل ذلك دأبهما حتى ذهب المشتري، فثأبه الله على بره بأبيه أن نتجت له بقرة من بقره تلك البقرة. وروي عن وهب بن منبه في حديث طويل أن فتى كان برأ بوالديه، وكان يحتطب على ظهره، فإذا باعه تصدق بثله، وأعطى أمه ثلثه، وأبقى لنفسه ثلثه، قالت له أمه يوماً: إني ورثت من أبيك بقرة، فتركها في البقر على اسم الله، فإذا أتيت البقر، فادعها باسم إله إبراهيم، فذهب فصاح بها، فأقبلت، فأنطقها الله، فقالت: اركبني يا فتى، فقال [الفتى: إن أمي] لم تأمرني بهذا. فقالت: أيها البر بأمه! لو ركبتني لم تقدر عليّ، فانطلق، فلو أمرت الجبل أن ينقلع من أصله [وينطلق معك] لانقلع لبرك بأمك. فلما جاء بها قالت أمه: بعها بثلاثة دنانير على رضى مني، فبعث الله ملكاً فقال: بكم هذه؟ قال: بثلاثة دنانير على رضى من أمي. قال: لك ستة ولا تستأمرها، فأبى، وعاد إلى أمه فأخبرها، فقالت: بعها بستة على رضى مني، فجاء الملك فقال: خذ اثني عشر ولا تستأمرها، فأبى، وعاد إلى أمه فأخبرها، فقالت: يا بني! ذاك ملكك، فقل له: بكم تأمرني أن أبيعها؟ فجاء إليه فقال له ذلك، فقال: يا فتى يشتري بقرتك هذه موسى بن عمران لقتل يقتل في بني إسرائيل.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَآذَرْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ خَرَجَ نَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٧٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَآذَرْتُمْ فِيهَا﴾ هذه الآية مؤخرة في التلاوة، مقدمة في المعنى، لأن السبب في الأمر بذبح البقرة قتل النفس، فتقدير الكلام: وإذ قتلتم نفساً فآذارتكم فيها، فسألتم موسى فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾. ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَوَاقِبَ﴾ [الكهف: ١، ٢] أراد: أنزل الكتاب قيماً، ولم يجعل له عوجاً، فأخر المقدم وقدم المؤخر، لأنه من عادة العرب. قال الفرزدق:

إن الفرزدق صخرة ملمومة

طالت فليس تنالها الأوعالا

أراد: طالت الأوعال. وقال جرير:

طاف الخيال وأين منك لماما

فارجع لزورك بالسلام سلاما

أراد: طاف الخيال لماماً، وأين هو منك؟ وقال الآخر:

خير من القوم العصاة أميرهم

- يا قوم فاستحيوا - النساء الجلس

أراد: خير من القوم العصاة النساء، فاستحيوا من هذا. ومعنى قوله: ﴿فَآذَرْتُمْ﴾: اختلفتم، قاله ابن عباس ومجاهد. وقال الزجاج: آذارتكم، بمعنى: تدارأتم، أي: تدافعتم، وألقى بعضكم على بعض، تقول: درأت فلاناً: إذا دفعته، وداريته: إذا لاينته، ودريته إذا ختلته، فأدغمت التاء في الدال، لأنها من مخرج واحد، فأما الذي كتّموه؟ فهو أمر القتل.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٧٣﴾. من قال: أقاموا في طلبها أربعين سنة؟ قال: ضربوا قبره، ومن لم يقل ذلك، قال: ضربوا جسمه قبل دفنه. وفي الذي ضرب به ستة أقوال: أحدها: أنه ضرب بالعظم الذي يلي الغضروف، رواه عكرمة عن ابن عباس. قال أبو سليمان الدمشقي: وذلك العظم هو أصل الأذن، وزعم قوم أنه لا يكسر ذلك العظم من أحد فيعيش. قال الزجاج: الغضروف في الأذن، وهو: ما أشبه العظم الرقيق من فوق الشحمة، وجميع أعلى صدفة الأذن، وهو معلق الشنوف، فأما العظامان اللذان خلف الأذن الناتان من مؤخر الأذن، فيقال لهما: الخشّاوان، والخششاوان، واحدهما: خُشَاء، وخُشْشَاء. والثاني: أنه ضرب بالفخذ، روي عن ابن عباس أيضاً، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وذكر عكرمة ومجاهد أنه الفخذ الأيمن. والثالث: أنه البضعة التي بين الكتفين. رواه السدي عن أشياخه. والرابع: أنه الذنب، رواه ليث عن مجاهد. والخامس: أنه عجب الذنب، وهو عظم بني عليه البدن، روي عن سعيد بن جبير. والسادس: أنه اللسان، قاله الضحاك. وفي الكلام اختصار تقديره: فقلنا اضربوه ببعضها ليحيى، فضرّبوه فحيى، فقام فأخبر بقاتله. وفي قاتله أربعة أقوال: أحدها: بنو أخيه، رواه عطية عن ابن عباس. والثاني: ابنا عمه، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وهذان القولان

يدلان على أن قاتله أكثر من واحد. والثالث: ابن أخيه، قاله السدي عن أشياخه، وعبيدة. والرابع: أخوه، قاله عبد الرحمن بن زيد.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ الْآيَاتِ﴾: فيه قولان: أحدهما: أنه خطاب لقوم موسى. والثاني: لمشركي قريش، احتج عليهم إذ جحدوا البعث بما يوافق عليه أهل الكتاب، قال أبو عبيدة: وآياته: عجائبه.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَنَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٧٤)

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: قال إبراهيم بن السري: قست في اللغة: غلظت وبست وعست، فقسوة القلب: ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه. والقاسي والعاسي: الشديد الصلابة. وقال ابن قتيبة: قست وعست وعتت واحد، أي: يبست. وفي المشار إليهم بها قولان: أحدهما: جميع بني إسرائيل. والثاني: القاتل. قال ابن عباس: قال الذين قتلوه بعد أن سمى قاتله: والله ما قتلناه. وفي كاف «ذلك» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إشارة إلى إحياء الموتى، فيكون الخطاب لجميع بني إسرائيل. والثاني: إلى كلام القاتل، فيكون الخطاب للقاتل، ذكرهما المفسرون. والثالث: إلى ما شرح من الآيات من مسخ القردة والخنازير، ورفع الجبل وانجاس الماء، وإحياء القاتل، ذكره الزجاج. وفي «أو» أقوال: هي بعينها مذكورة في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ وقد تقدمت.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ قال مجاهد: كل حجر ينفجر منه الماء، وينشق عن ماء، أو يتردى من رأس جبل، فمن خشية الله.

قوله تعالى: ﴿أَفَتَعْمَلُونَ الْإِنشَاءَ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَلْعَنُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) في المخاطبين بهذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنه النبي ﷺ خاصة، قاله ابن عباس ومقاتل. والثاني: أنه المؤمنون، تقديره: أفطمعون أن تصدقوا بنبئكم، قاله أبو العالية وقتادة. والثالث: أنهم الأنصار، فإنهم لما أسلموا أحبوا إسلام اليهود للرضاعة التي كانت بينهم، ذكره النقاش. قال الزجاج: وألف «أَفَتَعْمَلُونَ» ألف استخبار، كأنه آيسهم من الطمع في إيمانهم. وفي سماعهم لكلام الله قولان: أحدهما: أنهم قرؤوا التوراة فحرفوها، هذا قول مجاهد والسدي في آخرين، فيكون سماعهم لكلام الله بتبليغ نبئهم، وتحريفهم: تغيير ما فيها. والثاني: أنهم السبعون الذين اختارهم موسى، فسمعوا كلام الله كفاً عند الجبل، فلما جاؤوا إلى قومهم قالوا: قال لنا: كذا وكذا، وقال في آخر قوله: إن لم تستطيعوا ترك ما أنهاكم عنه؛ فافعلوا ما تستطيعون. هذا قول مقاتل، والأول أصح. وقد أنكر بعض أهل العلم، منهم الترمذي^(١) صاحب «النوادر» هذا القول إنكاراً شديداً، وقال: إنما خص بالكلام موسى وحده، وإلا فأي ميزة؟! وجعل هذا من الأحاديث التي رواها الكلبي وكان كذاباً. ومعنى «عَقَلُوا»: سمعوه ووعوه. وفي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قولان: أحدهما: وهم يعلمون أنهم حرفوه. والثاني: وهم يعلمون عقاب تحريفه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِمَعْشُرِهِمْ مِنْ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧٦) أولاً يَسْمَعُونَ أَنَّ اللَّهَ يَتَكَلَّمُ مَا يُرِيدُ وَمَا يَقُولُونَ (٧٧) هذه الآية نزلت في نفر من اليهود، كانوا إذا لقوا النبي والمؤمنين قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض، قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم، هذا قول ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد، وقتادة، وعطاء الخراساني، وابن زيد، ومقاتل. وفي معنى «بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ» قولان: أحدهما: بما قضى الله عليكم، والفتح: القضاء، ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَتَخَشَّعُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْعَنِيِّ﴾ [الأعراف: ٨٩] قال السدي عن أشياخه: كان ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا، فكانوا يحدثون المؤمنين بما عذبوا به، فقال بعضهم لبعض: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم. [من العذاب، ليقولوا: نحن أحب إلى الله منكم، وأكرم على الله منكم] والثاني: أن معناه: بما علمكم الله. قال ابن عباس وأبو العالية وقتادة: الذي فتحه عليهم: ما أنزله من التوراة في صفة

(١) هو محمد بن علي، أبو عبد الله، عالم بالحديث وأصول الدين، توفي نحو ٣٢٠هـ، وقد تكلم عليه بعض أهل العلم، انظر «لسان الميزان» للحافظ ابن حجر (٢٠٨/٥).

محمد ﷺ وقال مقاتل: كان المسلم يلقى حليفه، أو أخاه من الرضاة من اليهود، فيسأله: أتجدون محمداً في كتابكم؟ فيقولون: نعم، إنه لحق. فسمع كعب بن الأشرف وغيره، فقال لليهود في السر: أتحدثون أصحاب محمد بما فتح الله عليكم، أي: بما بين لكم في التوراة من أمر محمد ليخاصموكم به عند ربكم باعترافكم أنه نبي، أفلا تعقلون أن هذا حجة عليكم؟!

قوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه بمعنى: في حكم ربكم، كقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النور: ١٣] والثاني: أنه أراد يوم القيامة.

﴿وَمِنْهُمْ أَتَيْنُكُمْ لَا يَمْلِكُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٌ وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَتْلُونَهُ﴾ (٧٨)

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أَتَيْنُكُمْ﴾ يعني: اليهود. والأمني: الذي لا يكتب ولا يقرأ، قاله مجاهد. وفي تسميته بالأمني قولان: أحدهما: لأنه على خلقة الأمة التي لم تتعلم الكتاب، فهو على جبلته، قاله الزجاج. والثاني: أنه ينسب إلى أمه، لأن الكتابة في الرجال كانت دون النساء. وقيل: لأنه على ما ولدته أمه.

قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الْكِتَابَ﴾ قال قتادة: لا يدرون ما فيه.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمَانٌ﴾ جمهور القراء على تشديد الياء، وقرأ الحسن، وأبو جعفر، بتخفيف الياء، وكذلك: ﴿تِلْكَ آيَاتُنَا﴾ [البقرة: ١١١] و﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٣] ﴿فِي أَتَيْنِيهِمْ﴾ [الحج: ٥٢] و﴿وَعَزَّزْنَاكُمْ﴾ [الحديد: ١٤] كله بتخفيف الياء وكسر الهاء من «أمانيهم». ولا خلاف في فتح ياء «الأمني». وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الأكاذيب. قال ابن عباس: ﴿إِلَّا أَمَانٌ﴾: يريد إلا قولاً يقولونه بأفواههم كذباً. وهذا قول مجاهد واختيار القراء. وذكر القراء أن بعض العرب قال لابن داب^(١) وهو يحدث: أهذا شيء رويته، أم شيء تمنيته؟ يريد: افعلته؟ والثاني: أن الأمانى: التلاوة، فمعناه: لا يعلمون فقه الكتاب، إنما يقتصرون على ما يسمعون به يتلى عليهم. قال الشاعر:

تمنى كتاب الله أول ليلة تمنى داود الزبور على رسل

وهذا قول الكسائي والزجاج. والثالث: أنها أمانيهم على الله، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَتْلُونَهُ﴾ قال مقاتل: ليسوا على يقين، فإن كذب الرؤساء أو صدقوا، تابعوهم.

قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْعُرُوا بِهِمْ وَنَا قِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ وَمَا كُنْتُمْ آيِدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ وَمَا يَكْسِبُونَ﴾ (٧٩) هذه الآية نزلت في أهل الكتاب [الذين] بدلوا التوراة وغيروا صفة النبي ﷺ فيها. وهذا قول ابن عباس وقاتدة وابن زيد وسفيان. فأما الويل: فروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «ويل: واد في جهنم، يهوي الكافر فيه أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره»^(٢) وقال الزجاج: الويل: كلمة تقولها العرب لكل من وقع في هلكة، ويستعملها هو أيضاً^(٣). وأصلها في اللغة: العذاب والهلاك. قال ابن الأنباري: ويقال: معنى الويل: المشقة من العذاب. ويقال: أصله: وي لفلان، أي: حزن لفلان، فكثر الاستعمال للحرفين، فوصلت اللام بهوي وجعلت حرفاً واحداً، ثم خبر عن «ويل» بلام أخرى، وهذا اختيار القراء. والكتاب هاهنا: التوراة. وذكر الأيدي توكيد، والشنم القليل: ما يفنى من الدنيا. وفيما يكسبون قولان: أحدهما: أنه عوض ما كتبوا. والثاني: إثم ما فعلوا.

﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّ الْكَافِرَ إِلَّا أَنْكَا مَقْدُونَهُ قُلْ أَخَذْتُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يَخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ سُلُوفٌ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٠)

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّ الْكَافِرَ إِلَّا أَنْكَا مَقْدُونَهُ﴾ وهم: اليهود. وفيما عنوا بهذه الأيام قولان: أحدهما: أنهم أرادوا أربعين يوماً، قاله ابن عباس، وعكرمة، وأبو العالية، وقاتدة، والسدي. ولماذا قدروها بأربعين؟ فيه ثلاثة

(١) هو أبو الوليد عيسى بن يزيد بن بكر بن داب المدني كان يضع الشعر، وأحاديث السمر، وكلاماً ينسب إلى العرب، فقط ودعت روايته.

(٢) رواه أحمد، والترمذي، من طريق دراج عن أبي الهيثم، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وأقره الذهبي.

(٣) أي: الذي يقع في الهلكة، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَبْهَتَا إِنْ كُنَّا مُطْلَبِينَ﴾.

أقوال: أحدها: أنهم قالوا: بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة، ونحن نقطع مسيرة كل سنة في يوم، ثم ينقضي العذاب وتهلك النار، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم قالوا: عتب علينا ربنا في أمر، فأقسم ليعذبنا أربعين ليلة، ثم يدخلنا الجنة، فلن تمسنا النار إلا أربعين يوماً تحلة القسم، وهذا قول الحسن وأبي العالية. والثالث: أنها عدد الأيام التي عبدوا فيها العجل، قاله مقاتل. والقول الثاني: أن الأيام المعدودة سبعة أيام، وذلك لأن عندهم أن الدنيا سبعة آلاف سنة، والناس يعذبون لكل ألف سنة يوماً من أيام الدنيا، ثم ينقطع العذاب، قاله ابن عباس: ﴿فَلْأَتَّخِذَنَّ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أي: عهد إليكم أنه لا يعذبكم إلا هذا المقدار؟!.

﴿يَكُنْ مِنْ كَسْبِ سَيِّئَةٍ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى: ﴿يَكُنْ مِنْ كَسْبِ سَيِّئَةٍ﴾: بلى؛ بمنزلة «نعم» إلا أن «بلى» جواب النفي، و«نعم» جواب الإيجاب، قال الفراء: إذا قال الرجل لصاحبه: مالك علي شيء، فقال الآخر: نعم، كان تصديقاً أن لا شيء له عليه. ولو قال: بلى؛ كان رداً لقوله. قال ابن الأنباري: وإنما صارت «بلى» تتصل بالجد، لأنها رجوع عن الجحد إلى التحقيق، فهي بمنزلة «بل» و«بل» سبيلها أن تأتي بعد الجحد، كقولهم: ما قام أخوك، بل أبوك. وإذا قال الرجل للرجل: ألا تقوم؟ فقال له: بلى؛ أراد: بل أقوم، فزاد الألف على «بل» ليحسن السكوت عليها، لأنه لو قال: بل؛ كان يتوقع كلاماً بعد بل، فزاد الألف ليزول هذا التوهم عن المخاطب. ومعنى: ﴿يَكُنْ مِنْ كَسْبِ سَيِّئَةٍ﴾: بل من كسب. قال الزجاج: بلى؛ رد لقولهم: ﴿هَلْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَقْدُودَةً﴾ والسبب هاهنا: الشرك في قول ابن عباس، وعكرمة، وأبي وائل، وأبي العالية، ومجاهد، وقتادة، ومقاتل. ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ أي: أحاطت به خطيئته. وقرأ نافع «خطيئته» بالجمع. قال عكرمة: مات ولم يتب منها، وقال أبو وائل: الخطيئة: صفة للشرك. قال أبو علي: إما أن يكون المعنى: أحاطت بحسنه خطيئته، أي: أحبطتها، من حيث أن المحيط أكثر من المحاط به، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩] وقوله: ﴿عَلَّمَ يَوْمَئِذٍ سُرُودَهُمْ﴾ [الكهف: ٢٩] أو يكون معنى أحاطت به: أهلكته، كقوله: ﴿لَا أَنْ يَحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٨٢)

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ هذا الميثاق مأخوذ عليهم في التوراة.

قوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ قرأ عاصم ونافع وأبو عمرو، وابن عامر: بالياء على الإخبار عنهم.

قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: ووصيتهم بآبائهم وأمهاتهم خيراً. قال الفراء: والعرب تقول: أوصيك به خيراً، وأمرك به خيراً والمعنى: أمرك أن تفعل به، ثم تحذف «أن» فيوصل الخير بالوصية والأمر. قال الشاعر:

عجبت من دهماء إذ تشكرونا ومن أبي دهماء إذ يوصينا

خيراً بها كأننا جافونا

وأما الإحسان إلى الوالدين؛ فهو برهماً. قال ابن عباس: لا تنفض ثوبك فيصيبهما الغبار. وقالت عائشة: ما بر والده من شد النظر إليه. وقال عروة: لا تمتنع عن شيء أحبَّاه.

قوله تعالى: ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: ووصيتهم بذوي القربى أن يصلوا أرحامهم. وأما اليتامى؛ فجمع: يتيم. قال الأصمعي: اليتيم في الناس، من قبل الأب، وفي غير الناس: من قبل الأم. قال ابن الأنباري: قال ثعلب: اليتيم معناه في كلام العرب: الانفراد. فمعنى صبي يتيم: مفرد عن أبيه. وأنشدنا:

أفاطم إنني هالك فتبيئني^(١) ولا تجزعي كل النساء يتيم

(١) في «اللسان»: فتبيئ، وكلا الروايتين معناهما واحد.

قال: يروى: يتيم ويثيم. فمن روى يتيم بالتاء؛ أراد: كل النساء ضعيف منفرد. ومن روى بالياء أراد: كل النساء يموت عنهن أزواجهن. وقال: أنشدنا ابن الأعرابي:

ثلاثة أحباب: فحب علاقة وحب تملّاق وحب هو القتل

قال: فقلنا له: زدنا، فقال: البيت يتيم: أي: منفرد. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي، قال: إذا بلغ الصبي، زال عنه اسمه اليتيم. يقال منه: يتم يتيماً ويَتِمّا. وجمع اليتيم: يتامى، وأيتام. وكل منفرد عند العرب يتيم ويتيمة. قال: وقيل: أصل اليتيم: الغفلة، وبه سمي اليتيم، لأنه يتغافل عن بره. والمرأة تدعى: يتيمة ما لم تزوج، فإذا تزوجت زال عنها اسم اليتيم، وقيل: لا يزول عنها اسم اليتيم أبداً. وقال أبو عمرو: اليتيم: الإبطاء، ومنه أخذ اليتيم، لأن البر يبطئ عنه. «والمساكين»: جمع مسكين، وهو اسم مأخوذ من السكون، كأن المسكين قد أسكنه الفقر.

قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وعاصم، وابن عامر: (حُسناً) بضم الحاء والتخفيف، وقرأ حمزة والكسائي: (حَسَنًا) بفتح الحاء والتثنية. قال أبو علي: من قرأ «حُسَنًا» فجاز أن يكون الحسن لغة في الحسن، كالبُخل، والبَحْل، والرُّشد والرَّشد. وجاء ذلك في الصفة كما جاء في الاسم، ألا تراهم قالوا: العُرب والعَرَب ويجوز أن يكون الحسن مصدرًا كالكفر والشكر والشغل، وحذف المضاف معه، كأنه قال: قولوا قولاً ذا حسن. ومن قرأ (حَسَنًا) جعله صفة، والتقدير عنده: قولوا للناس قولاً حسناً، فحذف الموصوف. واختلفوا في المخاطب بهذا على قولين: أحدهما: أنهم اليهود، قاله ابن عباس، وابن جبير، وابن جريج. ومعناه: اصدقوا وبيّنوا صفة النبي. والثاني: أنهم أمة محمد ﷺ. قال أبو العالية: قولوا للناس معروفاً. وقال محمد بن علي بن الحسين: كلموهم بما تحبون أن يقولوا لكم. وزعم قوم أن المراد بذلك مساهلة الكفار في دعائهم إلى الإسلام. فعلى هذا؛ تكون منسوخة بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَوَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم إلا قليلاً منكم. وفيهم قولان: أحدهما: أنهم أولوهم الذين لم يبدلوا. والثاني: أنهم الذين آمنوا بالنبي محمد ﷺ في زمانه.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَوْنَ﴾ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ فَتُظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِآلِهَتِهِمْ وَالَّذِينَ لَئِنْ يَأْتَوْكُمُ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْكَ أَسْفَى الْأَسْفَى وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أي: لا يسفك بعضكم دم بعض، ولا يخرج بعضكم بعضاً من داره. قال ابن عباس: ثم أقررتهم يومئذ بالعهد، وأنتم اليوم تشهدون على ذلك، فالإقرار على هذا متوجه إلى سلفهم، والشهادة متوجهة إلى خلفهم. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: يقتل بعضكم بعضاً. روى السدي عن أشياخه قال: كانت قريظة حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج، فكانوا يقاتلون في حرب سمير^(١) فيقاتل بنو قريظة مع حلفائهم النضير وحلفاءها، وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها، فيغلبونهم ويخربون الديار ويخرجون منها، فإذا أسر الرجل من الفريقين كليهما، جمعوا له حتى يفدوه، فتعيرهم العرب بذلك، فتقول: كيف تقاتلونهم وتفدونهم؟! فيقولون: أمرنا أن نفديهم، وحرّم علينا قتلهم. فتقول العرب: فلم تقاتلونهم؟ فيقولون: نستحي أن يستذل حلفاؤنا، فعيرهم الله ﷻ فقال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ فكان إيمانهم ببعضه: فداءهم الأسارى، وكفرهم: قتل بعضهم بعضاً.

قوله تعالى: ﴿تُظَاهَرُونَ﴾: قرأ عاصم وحمزة والكسائي: (تظاهرون) وفي (التحريم) (تظاهروا) بتخفيف الظاء. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر بتشديد الظاء مع إثبات الألف. قال أبو علي: من قرأ (تظاهرون) بتشديد

(١) سمير: حرب كانت في الجاهلية بين الأوس والخزرج. وسمير: رجل من بني عمرو بن عوف، وخبر هذه الحرب تجدها في كتاب «الأغاني».

الظاء؛ أَدغم التاء في الظاء، لمقاربتها لها، فخفف بالإدغام. ومن قرأ (تظاهرون) خفيفة؛ حذف التاء التي أَدغمها أولئك من اللفظ، فخفف بالحذف. والتاء التي أَدغمها ابن كثير هي التي حذفها عاصم. وروي عن الحسن وأبي جعفر (تظاهرون) بتشديد الظاء من غير ألف، فالتظاهر: التعاون. قال ابن قتيبة: وأصله من الظهر، فكان التظاهر: أن يجعل كل واحد من الرجلين [أو من القوم] الآخر ظهراً له يتقوى به، ويستند إليه. قال مقاتل: والإثم: المعصية، والعُدوان: الظلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَأْتِوكُمُ اسْكِرَىٰ فَقُلْ لَكُمْ أَسْمُنُ وَاعْلَمُوا بِمَا لَكُمْ﴾ أصل الأسر: الشد. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (أسارى)، وقرأ الأعمش وحزمة (أسرى) قال الفراء: أهل الحجاز يجمعون الأسير: «أسارى» وأهل نجد أكثر كلامهم «أسرى» وهو أجود الوجهين في العربية، لأنه بمنزلة قولهم: جريح وجرحى، وصريع وصرعى. وروى الأصمعي عن أبي عمرو قال: الأسارى: ما شدوا، والأسرى: في أيديهم، إلا أنهم لم يشدوا. وقال الزجاج: «فعلَى» جمع لكل ما أصيب به الناس في أبدانهم وعقولهم. يقال: هالك وهلكى، ومريض ومرضى، وأحمق وحمقى، وسكران وسكرى. فمن قرأ: (أسارى)؛ فهي جمع الجمع. تقول: أسير وأسرى وأسارى جمع أسرى.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْ لَكُمْ أَسْمُنُ وَاعْلَمُوا بِمَا لَكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: (تفدوهم) وقرأ نافع وعاصم والكسائي: (تفادوهم) بآلف. والمفاداة: إعطاء شيء، وأخذ شيء مكانه. «أَفْتَرُونُ يَبْعُثُ الْكِتَابِ» وهو: فكاك الأسرى. «وَكَمْ كُنْتُمْ يَبْعُثُونَ» وهو: الإخراج والقتل. وقال مجاهد: تفديه في يد غيرك، وتقتله أنت بيدك! وفي المراد بالخزي قولان: أحدهما: أنه الجزية، قاله ابن عباس. والثاني: قتل قريظة ونفي النضير، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا الَّذِينَ آمَنُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ قال ابن عباس: هم اليهود. وقال مقاتل: باعوا الآخرة بما يصيبونه من الدنيا.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُّسِ أَفَلَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْتَكُمُ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِقًا كَذَبْتُمْ وَفَرِقًا تَقْتُلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يريد التوراة. وقَفَّيْنَا: أتبعنا. قال ابن قتيبة: وهو مأخوذ من القفا. يقال: قفوت الرجل: إذا سرت في أثره. والبيّنات: الآيات الواضحات كإبراء الأكهمه والأبرص، وإحياء الموتى. وأيدناه: قويناه. والأيد: القوة. وفي روح القدس ثلاثة أقوال: أحدها: أنه جبريل. والقدس: الطهارة، وهذا قول ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي في آخرين. وكان ابن كثير يقرأ: (بروح القدس) ساكنة الدال. قال أبو علي: التخفيف والتثقل فيه حسنان، نحو: العنق والعنق، والطنب والطنب. وفي تأييده به ثلاثة أقوال ذكرها الزجاج: أحدها: أنه أيد به لإظهار حاجته وأمر دينه. والثاني: لدفع بني إسرائيل عنه إذ أرادوا قتله. والثالث: أنه أيد به في جميع أحواله. والقول الثاني: أنه الاسم الذي كان يحيي به الموتى، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أنه الإنجيل، قاله ابن زيد.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَمَنَّا اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يَأْمُنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قرأ الجمهور بإسكان اللام، وقرأ قوم، منهم الحسن وابن محيصن بضمها. قال الزجاج: من قرأ: (غلف) بتسكين اللام، فمعناه: ذوات غلف، فكانهم قالوا: قلوبنا في أوعية. ومن قرأ (غلف) بضم اللام، فهو جمع (غلاف) فكانهم قالوا: قلوبنا أوعية للعلم، فما بالها لا تفهم وهي أوعية للعلم؟! فعلى الأول؛ يقصدون إعراضه عنهم، كأنهم يقولون: ما نفهم شيئاً. وعلى الثاني يقولون: لو كان قولك حقاً لقبلت قلوبنا.

قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يَأْمُنُونَ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: فقليل من يؤمن منهم، قاله ابن عباس وقتادة. والثاني: أن المعنى: قليل ما يؤمنون به. قال معمر: يؤمنون بقليل مما في أيديهم، ويكفرون بأكثره. والثالث: أن المعنى: فما يؤمنون قليلاً ولا كثيراً. ذكره ابن الأنباري، وقال: هذا على لغة قوم من العرب، يقولون: قلما رأيت مثل هذا الرجل، وهم يريدون: ما رأيت مثله. والرابع: فيؤمنون قليلاً من الزمان: كقوله تعالى: ﴿يَأْتُوا بِالَّذِي أُورِلَ عَلَى الْكُفْرِ مَأْمُونًا وَبَعَثَ الْكَلْبُ﴾ [آل عمران: ١٧٢] ذكره ابن الأنباري أيضاً. والخامس: أن المعنى: فإيمانهم قليل، ذكره ابن جرير الطبري. وحكى في «ما» قولين: أحدهما: أنها زائدة. والثاني: أن «ما» تجمع جميع الأشياء، ثم تخص بعض ما عمته بما يذكر بعدها.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ بِشَكِّينَ حَرَكٍ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَقْنَاهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِسْمَا أَشْرَفُوا بِهِ أَنْ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ يَبَاهُو بَآءَهُ يَضْحَكُ عَلَى عَصَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني: القرآن. و«يستفتحون»: يستنصرون. وكانت اليهود إذا قاتلت المشركين استنصروا باسم نبي الله محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿بِسْمَا أَشْرَفُوا بِهِ أَنْ أَنْفُسَهُمْ﴾ بش: كلمة مستوفية لجميع الدم، ونقيضها: «نِعْم» واشتروا، بمعنى: باعوا. والذي باعوا به قليل من الدنيا.

قوله تعالى: ﴿بَغْيًا﴾ قال قتادة: حسداً. ومعنى الكلام: كفروا بغياً، لأن نزل الله الفضل على النبي ﷺ. وفي قوله تعالى: ﴿يَضْحَكُ عَلَى عَصَبٍ﴾ خمسة أقوال: أحدها: أن الغضب الأول لاتخاذهم العجل. والثاني: لكفرهم بمحمد، حكاه السدي عن ابن مسعود وابن عباس. والثاني: أن الأول لتكذيبهم رسول الله. والثاني: لعداوتهم لجبريل. رواه شهر عن ابن عباس. والثالث: أن الأول حين قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَقْلُوبَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] والثاني: حين كذبوا نبي الله. رواه أبو صالح عن ابن عباس، واختاره الفراء. والرابع: أن الأول لتكذيبهم بعبسى والإنجيل. والثاني: لتكذيبهم بمحمد والقرآن. قاله الحسن، والشعبي، وعكرمة، وأبو العالية، وقتادة، ومقاتل. والخامس: أن الأول لتبديلهم التوراة. والثاني: لتكذيبهم محمداً ﷺ قاله مجاهد. والمهين: المذل.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَنْزِيلُ يَوْمِئِذٍ يَدُ اللَّهِ مَقْلُوبَةٌ وَمَا نَحْنُ بِمُصَدِّقٍ لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلَِمَ تَقُولُونَ ءَلَيْسَ اللَّهُ بِقَبْلَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يعني: القرآن؛ ﴿قَالُوا تَنْزِيلُ يَوْمِئِذٍ يَدُ اللَّهِ مَقْلُوبَةٌ﴾ يعنون: التوراة. وفي قوله: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَّاءَهُ﴾ قولان: أحدهما: أنه أراد بما سواه. ومثله: ﴿وَأَجَلٌ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ [النساء: ٢٤] قاله الفراء ومقاتل. والثاني: بما بعد الذي أنزل عليهم. قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ يعود على ما وراءه. ﴿فَلَمَ تَقُولُونَ ءَلَيْسَ اللَّهُ﴾ هذا جواب قولهم: ﴿تَنْزِيلُ يَوْمِئِذٍ يَدُ اللَّهِ مَقْلُوبَةٌ﴾ فإن الأنبياء، وتقتلون بمعنى: قتلتم، فوضع المستقبل في موضع الماضي، لأن الوهم لا يذهب إلى غيره. وأنشدوا في ذلك:

شهد الحطيثة حين يلقي ربه
أراد: يشهد.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَوَعَفْنَا نَقَضَكُمْ الْفُورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِغَيْرِ وَاسِعَةٍ وَأَنْسَمُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ثَلِ يَسْكَا بِأَمْرِكُمْ بِهِ لِمَنْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فيها قولان: أحدهما: ما في الألواح من الحلال والحرام، قاله ابن عباس. والثاني: الآيات التسع، قاله مقاتل. وفي هاء «بعده» قولان: أحدهما: أنها تعود إلى موسى، فمعناه: من بعد انطلاقه إلى الجبل، قاله ابن عباس ومقاتل. والثاني: أنها تعود إلى المجيء، لأن «جاءكم» يدل على المجيء. وفي ذكر عبادتهم العجل تكذيب لقولهم: ﴿تَنْزِيلُ يَوْمِئِذٍ يَدُ اللَّهِ مَقْلُوبَةٌ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ قال ابن عباس: كانوا إذا نظروا إلى الجبل، قالوا: سمعنا وأطعنا، وإذا نظروا إلى الكتاب؛ قالوا: سمعنا وعصينا.

قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي: سقوا حب العجل، فحذف المضاف، وهو الحب، وأقام المضاف إليه مقامه، ومثله قوله: ﴿الصَّحَّ أَشْهَرُ مَقْلُوبَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٧] [أي وقت الحج] وقوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ [النوبة: ١٩] [أي: أجعلتم صاحب سقاية الحاج]. وقوله: ﴿وَسَتِلَ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] [أي: أهلها] وقوله: ﴿إِذَا

لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَبْوَةِ [الإسراء: ١٧٥]. أي، ضعف عذاب الحياة. وقوله: ﴿لَمْ يَكُنْ صَوِّعٌ وَبِيعٌ وَصَلَوْتُ﴾ [الحج: ٤٠]. أي: بيوت صلوات. وقوله: ﴿بَلْ مَكْرٌ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ﴾ [سبا: ٣٠]. أي: مكرهم فيهما. وقوله: ﴿فَلْيَنْقُصْ نَادِيَهُ﴾ [العلق: ١٧] أي: أهله. ومن هذا قول الشاعر:

أنبتت أن النار بعدك أوقدت
أي: أهل المجلس. وقال الآخر:

وشر المنايا مئت بين أهله

أي: وشر المنايا مئة ميت بين أهله.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَكْفَايَاكُمْ بِهِ يَمْنَعُكُمْ﴾ أي: أن تكذبوا المرسلين، وتقتلوا النبيين بغير حق، وتكتموا الهدى.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ في «إن» قولان: أحدهما: أنها بمعنى: الجحد، فالمعنى: ما كنتم مؤمنين إذ عصيتم الله، وعبدتم العجل. والثاني: أن تكون «إن» شرطاً معلقاً بما قبله، فالمعنى: إن كنتم مؤمنين؛ فبفس الإيمان إيمان يأمركم بعبادة العجل، وقتل الأنبياء، ذكرهما ابن الأنباري.

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [١٥] وَلَنْ يَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ [١٦] وَلَنَجْذِثَنَّهُمْ أَشْرَكَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمَنْ أَلَيْكَ أَشْرَكُوا يَوْمَ أُحُدٍ هُمْ لَوْ يَسْمُرُ أَلْفَ سَكْرَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزَجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يَسْمُرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَسْمُرُونَ [١٧]

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ كانت اليهود تزعم أن الله تعالى لم يخلق الجنة إلا لإسرائيل وولده، فنزلت هذه الآية. ومن الدليل على علمهم بأن النبي ﷺ صادق، أنهم ما تمنوا الموت، وأكبر الدليل على صدقه أنه أخبر أنهم لا يتمنونه بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَمَنَّوْهُ﴾ فما تمناه أحد منهم. والذي قدمته أيديهم: قتل الأنبياء وتكذيبهم، وتبديل التوراة.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْذِثَنَّهُمْ﴾ اللام: لام القسم، والنون توكيد له، والمعنى: ولنجدن اليهود في حال دعائهم إلى تمني الموت أحرص الناس على حياة، وأحرص من الذين أشركوا. وفي «الذين أشركوا» قولان: أحدهما: أنهم: المجوس، قاله ابن عباس، وابن قتيبة والزجاج. والثاني: مشركو العرب، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ أُحُدْهُمْ﴾ في الهاء والميم من «أحدهم» قولان: أحدهما: أنها تعود على الذين أشركوا، قاله الفراء. والثاني: ترجع إلى اليهود، قاله مقاتل. قال الزجاج: وإنما ذكر «ألف سنة» لأنها نهاية ما كانت المجوس تدعو بها لملوكها، كان الملك يحيا بأن يقال له: عش ألف نيروز، وألف مهرجان.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ﴾ فيه قولان ذكرهما الزجاج: أحدهما: أنه كناية عن أحدهم الذي جرى ذكره، تقديره: وما أحدهم بمزحزحه من العذاب تعميره. والثاني: أن يكون هو كناية عما جرى من التعمير، فيكون المعنى: وما تعميره بمزحزحه من العذاب، ثم جعل «أن يعمر» مبيناً عنه، كأنه قال: ذلك الشيء الذي ليس بمزحزحه من العذاب.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ [١٨] مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ [١٩] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا بِتِسْتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ [٢٠]﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ قال ابن عباس: أقبلت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: من يأتيك من الملائكة؟ قال: جبريل. فقالوا: ذاك ينزل بالحرب والقتال، ذاك عدونا، فنزلت هذه الآية والتي تليها. وفي جبريل إحدى عشرة لغة: إحداها: جبريل، بكسر الجيم والراء من غير همز، وهي لغة أهل الحجاز، وبها قرأ ابن عامر، وأبو عمرو. قال ورقة بن نوفل:

من الله وحي يشرح الصدر منزل

وجبريل يأتيه وميكال معهما

وقال عمران بن حطان:

والروح جبريل فيهم لا كفاء له

وقال حسان:

وجبريل رسول الله فينا

واللغة الثانية: جبريل بفتح الجيم وكسر الراء، وبعدها ياء ساكنة من غير همز على وزن: فَعْلِيل، وبها قرأ الحسن البصري، وابن كثير، وابن محيصن. وقال الفراء: لا أشتبهها، لأنه ليس في الكلام فَعْلِيل، ولا أرى الحسن قرأها إلا وهو صواب، لأنه اسم أعجمي. والثالثة: جبرئيل: بفتح الجيم والراء، وبعدها همزة مكسورة على وزن: جَبْرِئِيل، وبها قرأ الأعمش، وحمزة، والكسائي. قال الفراء: وهي لغة تميم وقيس، وكثير من أهل نجد. وقال الزجاج: هي أجود اللغات، وقال جرير:

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد

وبجبرئيل وكذبوا ميكَالاً

والرابعة: جَبْرِئِل، بفتح الجيم والراء وهمزة بين الراء واللام، مكسورة من غير مد، على وزن جَبْرِئِيل، رواها أبو بكر عن عاصم. والخامسة: جَبْرِئِل، بفتح الجيم وكسر الهمزة وتشديد اللام، وهي قراءة أبان عن عاصم ويحيى بن يعمر. والسادسة: جبرائيل، بهمزة مكسورة بعدها ياء مع الألف. والسابعة: جبرائيل، بيائين بعد الألف أولاهما مكسورة. والثامنة: جَبْرِين، بفتح الجيم ونون مكان اللام. والتاسعة: جَبْرِين، بكسر الجيم وينون، قال الفراء: هي لغة بني أسد. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي عن ابن الأنباري قال: في جبريل تسع لغات، فذكرهن. وذكر ابن الأنباري في كتاب «الرد على من خالف مصحف عثمان»: جبرائيل، بفتح الجيم وإثبات الألف مع همزة مكسورة ليس بعدها ياء. وجبرئين، بفتح الجيم مع همزة مكسورة بعدها ياء ونون. فأما ميكائيل، ففيه خمس لغات: إحداها: ميكال، مثل: مِفعال بغير همز، وهي لغة أهل الحجاز، وبها قرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم. والثانية: ميكائيل بإثبات ياء ساكنة بعد الهمزة، مثل: ميكاعيل، وهي لغة تميم وقيس، وكثير من أهل نجد، وبها قرأ ابن عامر، وابن كثير، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم. والثالثة: ميكائل بهمزة مكسورة بعد الألف من غير ياء، مثل ميكاعيل، وبها قرأ نافع وابن شنبوذ وابن الصباح، جميعاً عن قنبل. والرابعة: ميكثل، على وزن ميكحل، وبها قرأ ابن محيصن. والخامسة: ميكائين بهمزة معها ياء ونون بعد الألف، ذكرها ابن الأنباري. قال الكسائي: جبريل وميكائيل، اسمان لم تكن العرب تعرفهما، فلما جاءا عربتهما. قال ابن عباس: جبريل وميكائيل، كقولك: عبد الله، وعبد الرحمن، ذهب إلى أن «إيل» اسم الله، واسم الملك «جير» و«ميكاء». وقال عكرمة: معنى جبريل: عبد الله، ومعنى ميكائيل: عبيد الله. وقد دخل جبريل وميكائيل في الملائكة، لكنه أعاد ذكرهما لشرفهما، كقوله تعالى: ﴿فِيهَا نَكَبٌ مَّقْطَرٌ وَمِكائِيلُ﴾ [الرحمن: ٦٨]. وإنما قال: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ ولم يقل: لهم، ليدل على أنهم كافرون بهذه العداوة.

﴿أَوَكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذُوا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُكُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٦٩] وَلَكَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَهُمْ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٧٠]

قوله تعالى: ﴿أَوَكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا﴾ الواو واو العطف، أدخلت عليها ألف الاستفهام. قال ابن عباس ومجاهد: والمشار إليهم اليهود. وقيل: العهد الذي عاهدوه، أنهم قالوا: والله لئن خرج محمد لنؤمنن به. وروي عن عطاء أنها العهد التي كانت بين رسول الله ﷺ وبينهم، فنقضوها، كفعل قريظة والنضير. ومعنى نبذه: رفضه.

قوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني اليهود. والكتاب: التوراة. وفي قوله تعالى: ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: القرآن. والثاني: أنه التوراة، لأن الكافرين بمحمد ﷺ قد نبذوا التوراة.

﴿وَأَنبِئُوا مَا تَنَلُوا الشَّيَاطِينَ عَلَىٰ مَالِكٍ سُلَيْمَنٌ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ النَّاسَ الْيَتَرُ وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ بِإِلَافٍ هَزَوَاتٍ وَمَوْزُونَ وَمَا يَدُلُّونَ مِنْ أَحَدٍ حَقَّ يَقُولًا إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ فَلَا تَكْفُرُ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَذَنُّوهُ وَتَعْلَمُونَ مَا يَشْرَهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ وَلَئِنَّكُم مَّا تَكْفُرُونَ﴾ [٧١]

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن اليهود كانوا لا يسألون النبي عن شيء من التوراة إلا أجابهم، فسألوه عن السحر وخاصموه به، فنزلت هذه الآية، قاله أبو العالية. والثاني: أنه لما ذكر سليمان في القرآن قالت يهود المدينة: ألا تعجبون لمحمد يزعم أن ابن داود كان نبياً؟ والله ما كان إلا ساحراً، فنزلت هذه الآية. قاله ابن إسحاق. وتتلوه، بمعنى: تلت، و«على» بمعنى: «في» قاله المبرد. قال الزجاج: وقوله: ﴿عَلَىٰ مَائِكَ سُلَيْمَانَ﴾ أي: على عهد ملك سليمان. وفي كيفية ما تلت الشياطين على ملك سليمان ستة أقوال: أحدها: أنه لما خرج سليمان عن ملكه؛ كتبت الشياطين السحر، ودفنته في مصلاه، فلما توفي استخرجوه، وقالوا: بهذا كان يملك الملك، ذكر هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس، وهو قول مقاتل. والثاني: أن آصف كان يكتب ما يأمر به سليمان، ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان، استخرجته الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكذباً، وأضافوه إلى سليمان، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثالث: أن الشياطين كتبت السحر بعد موت سليمان، ثم أضافته إليه، قاله عكرمة. والرابع: أن الشياطين ابتدعت السحر، فأخذ سليمان، فدفنه تحت كرسيه لئلا يتعلمه الناس، فلما قبض استخرجته، فعلمته الناس وقالوا: هذا علم سليمان، قاله قتادة. والخامس: أن سليمان أخذ عهد الدواب، فكانت الدابة إذا أصابت إنساناً طلب إليها بذلك العهد، فتخلي عنه، فزاد السحرة السجع والسحر، قاله أبو مجلز. والسادس: أن الشياطين كانت في عهد سليمان تسترق السمع، فتسمع من كلام الملائكة ما يكون في الأرض من موت أو غيث أو أمر، فيأتون الكهنة فيخبرونهم، فتحدث الكهنة الناس، فيجدونه كما قالوا، حتى إذا امتتهم الكهنة كذبوا لهم [وآدخلو فيه غيره]، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة، فاكتتب الناس ذلك الحديث في الكتب، وفشا في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب، فبعث سليمان في الناس، فجمع تلك الكتب في صندوق، ثم دفنها تحت كرسيه، ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلا احترق [وقال: لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه]، فلما مات سليمان؛ جاء شيطان إلى نفر من بني إسرائيل، فدلهم على تلك الكتب وقال: إنما كان سليمان يضبط أمر الخلق بهذا، ففشا في الناس أن سليمان كان ساحراً، واتخذ بنو إسرائيل تلك الكتب، فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها، هذا قول السدي. وسليمان: اسم عبراني، وقد تكلمت به العرب في الجاهلية، وقد جعله النابغة سليماً ضرورة، فقال:

ونسج سليمان كل قضاة ذائل

واضطر الحطية فجعله: سلاًماً، فقال:

فيه الرماح وفيه كل سابغة جدلاً محكمة من نسج سلاًم

وأرادا جميعاً: داود أبا سليمان، فلم يستقم لهما الشعر، فجعلاه: سليمان وغيره. كذلك قرأته على شيخنا أبي منصور اللغوي. وفي قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ شَيْئَنْ﴾ دليل على كفر الساحر، لأنهم نسبوا سليمان إلى السحر، لا إلى الكفر. قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم بتشديد نون (ولكن) ونصب نون (الشياطين). وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي بتخفيف النون من (لكن) ورفع نون (الشياطين).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ وقرأ ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، والزهري (الملكين) بكسر اللام، وقراءة الجمهور أصح. وفي «ما» قولان: أحدهما: أنها معطوفة على السحر، فتقديره: واتبعوا ما تتلو الشياطين وما أنزل على الملكين. والثاني: أنها معطوفة على السحر، فتقديره: يعلمون الناس السحر، ويعلمونهم ما أنزل على الملكين. فإن قيل: إذا كان السحر نزل على الملكين، فلماذا كُره؟ فالجواب من وجهين، ذكرهما، ابن السري، أحدهما: أنهما كانا يعلمان الناس: ما السحر، ويأمران باجتنابه، وفي ذلك حكمة؛ لأن سائلاً لو قال: ما الزنى؟ لوجب أن يوقف عليه، ويعلم أنه حرام. والثاني: أنه من الجائز أن يكون الله تعالى امتحن الناس بالملكين، فمن قبل التعلم كان كافراً، ومن لم يقبله فهو مؤمن، كما امتحن بنهر طالوت^(١). وفي الذي أنزل على الملكين قولان:

(١) وقال القرطبي في «تفسيره»: «ما» نفي، والواو للعطف على قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ شَيْئَنْ﴾ وذلك أن اليهود قالوا: إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر، فنفي الله ذلك، وفي الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: وما كفر سليمان، وما أنزل على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل =

أحدهما: أنه السحر، روي عن ابن مسعود والحسن، وابن زيد. والثاني: أنه التفرقة بين المرء وزوجه، لا السحر، روي عن مجاهد وقتادة. وعن ابن عباس كالقولين. قال الزجاج: وهذا من باب السحر أيضاً.

الإشارة إلى قصة الملكين

ذكر العلماء أن الملكين إنما أنزلا إلى الأرض لسبب، وهو أنه لما كثرت خطايا بني آدم؛ دعت عليهم الملائكة، فقال الله تعالى: لو أنزلت الشهوة والشياطين منكم منزلتهما من بني آدم، لفعلتم مثل ما فعلوا، فحدثوا أنفسهم أنهم إن ابتلوا، اعتصموا، فأوحى الله إليهم [أن] اختاروا من أفضلكم ملكين، فاختاروا هاروت وماروت. وهذا مروى عن ابن مسعود، وابن عباس. واختلف العلماء: ماذا فعلا من المعصية على ثلاثة أقوال: أحدها: أنهما زنيا، وقتلا، وشربا الخمر، قاله ابن عباس. والثاني: أنهما جازا في الحكم، قاله عبيد الله بن عتبة. والثالث: أنهما هتما بالمعصية فقط. ونقل عن علي عليه السلام أن الزهرة كانت امرأة جميلة، وأنها خاصمت إلى الملكين هاروت وماروت، فراودها كل واحد منهما على نفسها، ولم يعلم صاحبه، وكانا يصعدان السماء آخر النهار، فقالت لهما: بم تهبطان وتصعدان؟ قالاً: باسم الله الأعظم، فقالت: ما أنا بمواثيتكما إلى ما تريدان حتى تعلمانيه، فعلماهما إياه، فطارت إلى السماء، فمسخها الله كوكباً^(١). وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم: «لعن الزهرة، وقال: إنها فتنت ملكين»^(٢) إلا أن هذه الأشياء بعيدة عن الصحة^(٣). وتأول بعضهم، هذا فقال: إنه لما رأى الكوكب، ذكر تلك المرأة، لا أن المرأة مسخت نجماً. واختلف

هاروت وماروت. فهاروت وماروت بدل من الشياطين في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْكُفَّارَ كَثُرُوا وَلَيَكُونُنَّ أَقْصَى الْأَرْضِ﴾ هذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل، وأصح ما قيل فيها، ولا يلتفت إلى ما سواه. وقال القاسمي رحمه الله: اعلم أن للعلماء في هذه الآية وجوهاً كثيرة، وأقوالاً عديدة، فمنهم من ذهب فيها مذهب الإخباريين نقلة الغث والسمين، ومنهم من وقف مع ظاهرها البحث وتمحل لما اعترضه، بما المعنى الصحيح في غنى عنه. ومنهم من ادعى فيها التقديم والتأخير، ورد آخرها على أولها، بما جعلها أشبه بالإنغاز والمعميات، التي ينتزه عنها بيان أبلغ كلام. إلى غير ذلك مما يراه المتبحر لما كتب فيها. والذي ذهب إليه المحققون أن هاروت وماروت كانا رجلين متظاهرين بالصلاح والتقوى في بابل - وهي مدينة بالعراق على نهر الفرات - وكانا يعلمان الناس السحر. وبلغ حسن اعتقاد الناس بهما أن ظنوا أنهما ملكان من السماء، وما يعلمانه للناس هو بوحى من الله. وبلغ مكر مزين الرجلين، ومحافظتهما على اعتقاد الناس الحسن فيهما أنهما صارا يقولان لكل من أراد أن يتعلم منهما: إنما نحن فتنة فلا تكفر. أي: إنما نحن أولو فتنة، نبؤك ونختبرك، أشكر أم تكفر، ونصح لك أن لا تكفر، يقولان ذلك ليوهما الناس أن علومهما إلهية، وصناعتهما روحانية، وأنهما لا يقصدان إلا الخير. «وما هنا نافية على أصح الأقوال، ولفظ «الملكين» هنا وارد حسب العرف الجاري بين الناس في ذلك الوقت.

- (١) قال ابن كثير: غريب جداً.
- (٢) رواه أبو بكر بن مردويه، وابن راهويه عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لعن الله الزهرة فإنها هي التي فتنت الملكين هاروت وماروت». وقال ابن كثير في «تفسيره»: لا يصح، وهو منكر جداً.
- (٣) تنبيه: ما ورد من أن ابن عمر سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إن آدم لما أهبطه الله تعالى إلى الأرض، قالت الملائكة: أي رب، أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون. قالوا: ربنا نحن أطوع لك من بني آدم. قال الله تعالى للملائكة: هلموا ملكين من الملائكة، حتى يهبط بهما إلى الأرض، فننظر كيف يعملان. قالوا: ربنا هاروت وماروت، فأهبطا إلى الأرض ومثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر، فبجاءتهما، فسألاهما نفسيهما. فقالت: لا والله حتى تقتلا هذا الصبي. فقالا: والله لا تقتله أبداً، فلعبت ثم رجعت بقدر خمر تحمله، فسألاهما نفسها بصبي تحمله، فسألاهما نفسيهما. فقالت: لا والله حتى تشربا هذا الخمر، فشربا فسكرا، فوقعا عليها وقتلا الصبي، فلما أفاقا، قالت المرأة: والله ما تركتما شيئاً مما أبيتاه علي إلا قد فعلتما حين سكرتما، فخيرا بين عذاب الدنيا والآخرة، فاختارا عذاب الدنيا». فقد رواه أحمد في «المستند» وابن حبان، وهو حديث ضعيف جداً، ولم يصح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدث بهذا، ولعله من رواية ابن عمر عن كعب الأخبار عن بني إسرائيل. وقد ذكر ابن كثير في التفسير أن الحكاية خرافة إسرائيلية. وقال في «التاريخ»: وأما ما يذكره كثير من المفسرين في قصة هاروت وماروت من أن الزهرة كانت امرأة فراودها عن نفسها فأبت... فهذا أظنه من وضع الإسرائيليين، وإن كان قد أخرجه كعب الأخبار، وتلقاه عنه طائفة من السلف، فذكروه على سبيل الحكاية والتحديث عن بني إسرائيل. وكل هذا يرجع ما رجحه ابن كثير من أن الحديث من قصص كعب الأخبار الإسرائيلية، وأنه ليس مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأن من رفعه فقد أخطأ وهم. وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراد الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال. وقال القاضي عياض: وإن ما ذكره أهل الأخبار ونقله المفسرون في قصة هاروت وماروت، وما روي عن علي وابن عباس عليهما السلام في خبرهما وابتلائهما، فاعلم - أكرمك الله - أن هذه الأخبار لم يرو منها سقيم ولا صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس هو شيئاً يؤخذ بقياس، والذي منه في القرآن اختلف المفسرون في معناه، وأنكر ما قال بعضهم فيه كثير من السلف، وهذه الأخبار من كتب اليهود وافتراءهم، كما نصه الله تعالى أول الآيات.

والحكم. والثاني: تبديل الآية بغيرها. روى عن ابن عباس، والأول قول السدي، والثاني: قول مقاتل. والثالث: رفع الحكم مع بقاء اللفظ، رواه مجاهد عن أصحاب ابن مسعود، وبه قال أبو العالية. وقرأ ابن عامر: (ما تُنسخ) بضم النون، وكسر السين. قال أبو علي: أي: ما نجده منسوخاً كقولك: أحمدت فلاناً، أي: وجدته محموداً، وإنما يجده منسوخاً بنسخه إياه^(١).

قوله تعالى: ﴿أَوْ تُنْسَاهَا﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (ننساها) بفتح النون مع الهمزة، والمعنى: نؤخرها. قال أبو زيد: نسات الإبل عن الحوض، فأنا أنساها: إذا أخرتها، ومنه: النسيئة في البيع. وفي معنى نؤخرها ثلاثة أقوال: أحدها: نؤخرها عن النسخ فلا ننسخها، قاله الفراء. والثاني: نؤخر إنزالها، فلا ننزلها البتة. والثالث: نؤخرها عن العمل بها بنسخنا إياها، حكاهما أبو علي الفارسي. وقرأ سعد بن أبي وقاص: (تنسها) ببناء مفتوحة ونون. وقرأ سعيد بن المسيب والضحاك: (تُنْسَهَا) بضم التاء. وقرأ نافع: (أو ننسها) بنونين، الأولى مضمومة، والثانية ساكنة. أراد: أو تُنْسِكُهَا، من النسيان.

قوله تعالى: ﴿ثَأْنِي بِمَنْزِلَةِ﴾ قال ابن عباس: بالين منها، وأيسر على الناس.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُنْسَاهَا﴾ أي: في الثواب والمنفعة، فتكون الحكمة في تبديلها بمثلها الاختيار. ﴿أَلَمْ تَقَمَّ﴾ لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه التوقيف والتقرير. والملك في اللغة: تمام القدرة واستحكامها، فله ﷻ يحكم بما يشاء على عباده، ويغير ما يشاء من أحكام.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلْتُمْ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَكَانَ يُنَادِي الْمَلَأَ مِنْ قَوْمِ آلِ الْكَافِرِ فَقَدْ سَأَلُوا آلَ الْكَافِرِ﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها: أن رافع بن حريملة، ووهب بن زيد، قالوا لرسول الله: اثنتا بكتاب نقرؤه تنزله من السماء علينا، وفجر لنا أنهاراً حتى نتبعك، فنزلت الآية، قاله ابن عباس. والثاني: أن قريشاً سألت النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، فقال: «هو لكم كالمائدة لبني إسرائيل [إن كفرتم] فأبوا» قاله مجاهد. والثالث: أن رجلاً قال: يا رسول الله لو كانت كفاراتنا ككفارات بني إسرائيل، فقال النبي ﷺ: «اللهم لا نبغيها، ما أعطاكم الله خير مما أعطى بني إسرائيل، كانوا إذا أصاب أحدهم الخطيئة؛ وجدها مكتوبة على بابهِ وكفارتها، فإن كفرها كانت له خزيًا في الدنيا، وإن لم يكفرها كانت له خزيًا في الآخرة، فقد أعطاكم الله خيراً مما أعطى بني إسرائيل». فقال: «وَمَنْ يَمَلَّ سَوَاءً أَوْ يَطْلُمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرَ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا» [النساء: ١١٠]. وقال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن» فنزلت هذه الآية. قاله أبو العالية. والرابع: أن عبد الله ابن أبي أمية المخزومي أتى النبي ﷺ في رهط من قريش، فقال: يا محمد! والله لا أؤمن بك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً، فنزلت هذه الآية. ذكره ابن السائب. والخامس: أن جماعة من المشركين جاؤوا إلى النبي ﷺ فقال بعضهم: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً. وقال آخر: لن أؤمن لك حتى تسير لنا جبال مكة، وقال عبد الله ابن أبي أمية: لن أؤمن لك حتى تأتي بكتاب من السماء، فيه: من الله رب العالمين إلى ابن أبي أمية: اعلم أني قد أرسلت محمداً إلى الناس. وقال آخر: هلا جثت بكتابك مجتمعاً، كما جاء موسى بالتوراة. فنزلت هذه الآية. ذكره محمد بن القاسم الأنباري. وفي المخاطبين بهذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم قريش، قاله ابن عباس ومجاهد. والثاني: اليهود، قاله مقاتل. والثالث: جميع العرب، قاله أبو سليمان الدمشقي. وفي «أم» قولان: أحدهما: أنها بمعنى: بل، تقول العرب: هل لك عليّ حق، أم أنت معروف بالظلم. يريدون: بل أنت. وأنشدوا:

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى
وصورتها أم أنت في العين أملح

ذكره الفراء والزجاج. والثاني: بمعنى الاستفهام. فإن اعترض معترض، فقال: إنما تكون للاستفهام إذا كانت

(١) نص كلام أبي علي في القرطبي: قال أبو علي: ليست لغة، لأنه لا يقال: نسخ وأنسخ بمعنى، إلا أن يكون المعنى: ما نجده منسوخاً، كما تقول: أحمدت الرجل وأبخلته بمعنى: وجدته محموداً وبخيلاً. قال أبو علي: وليس نجده منسوخاً إلا بأن ننسخه، فتتفق القراءتان في المعنى وإن اختلفتا في اللفظ.

مردودة على استفهام قبلها، فأين الاستفهام الذي تقدمها؟ فتنه جوابان: أحدهما: أنه قد تقدمها استفهام، وهو قوله: ﴿أَلَمْ تَلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ذكره الفراء. وكذلك قال ابن الأنباري: هي مردودة على الألف في: ﴿أَلَمْ تَلَمْ﴾ فإن اعترض على هذا الجواب، فقيل: كيف يصح العطف ولفظ: ﴿أَلَمْ تَلَمْ﴾ ينشأ عن الواحد، (وتريدون) عن جماعة؟ فالجواب: أنه إنما رجع الخطاب من التوحيد إلى الجمع، لأن ما خاطب به النبي ﷺ فقد خاطبت به أمته، فاكتمى به من أمته في المخاطبة الأولى، ثم أظهر المعنى في المخاطبة الثانية. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَلْيَقْصِرُوا لِلْعَذِيبَةِ﴾ [الطلاق: ١]. ذكر هذا الجواب ابن الأنباري. فأما الجواب الثاني عن (أم)؛ فهو أنها للاستفهام، وليست مردودة على شيء. قال الفراء: إذا توسط الاستفهام الكلام؛ ابتدئ بالألف ويأم، وإذا لم يسبقه كلام؛ لم يكن إلا بالألف أو بهـ «هل». وقال ابن الأنباري: «أم» جارية مجرى «هل»، غير أن الفرق بينهما: أن «هل» استفهام مبتدأ، لا يتوسط ولا يتأخر، و«أم»: استفهام متوسط، لا يكون إلا بعد كلام. فأما الرسول هاهنا؛ فهو: محمد ﷺ، والذي سئل موسى من قبل قولهم: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٣]. وهل سألوا ذلك نبياً أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أنهم سألوا ذلك، فقالوا: ﴿كَانَ يُؤْمِنُ لَكَ حَتَّى... تَأْتِي بِآلِهَةٍ وَالْمَلَكُوتِ قَبْلًا﴾ [الاسراء: ٩٠-٩٢]. قاله ابن عباس. والثاني: أنهم بالغوا في المسائل، فقيل لهم بهذه الآية: لعلمكم تريدون أن تسألوا محمداً أن يريكم الله جهرة، قاله أبو سليمان الدمشقي. والكفر: الجحود. والإيمان: التصديق. وقال أبو العالية: المعنى: ومن يتبدل الشدة بالرخاء. وسواء السيل: وسطه.

﴿وَرَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَدَنِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَدَىٰ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا وَاصْتَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن حيي بن أخطب، وأبا ياسر كانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. والثاني: أن كعب بن الأشرف كان يهجو النبي، ويحرض عليه كفار قريش في شعره، وكان المشركون واليهود من أهل المدينة يؤذون رسول الله حين قدمها، فأمر النبي بالصفح عنهم، فنزلت هذه الآية، قاله عبد الله بن كعب بن مالك. والثالث: أن نفراً من اليهود دعوا حذيفة وعماراً إلى دينهم، فأبيا، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. ومعنى «ود»: أحب وتمنى. وأهل الكتاب: اليهود. قال الزجاج: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ﴾ موصول: (بـود كثير)، لا بقوله: (حسداً) لأن حسد الإنسان لا يكون إلا من عند نفسه. والمعنى: مودتهم لكفركم من عند أنفسهم، لا أنه عندهم الحق. فأما الحسد، فهو تمنى زوال النعمة عن المحسود، وإن لم يصير للحاسد مثلها، وتفرقة الغبطة، فإنها تمنى مثلها من غير حب زوالها عن المغبوط. وحد بعضهم الحسد فقال: هو أذى يلحق بسبب العلم بحسن حال الأختار، ولا يجوز أن يكون الفاضل حسوداً، لأن الفاضل يجري على ما هو الجميل. وقال بعض الحكماء: كل أحد يمكن أن يرضيه إلا الحاسد، فإنه لا يرضيه إلا زوال نعمتك. وقال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد، حزن لازم، ونفس دائم، وعقل هائم، وحسرة لا تقضي.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ قال ابن عباس: فجاء الله بأمره في النصير بالجلاء والنفي، وفي قريظة بالقتل والسبي.

فصل

وقد روي عن ابن مسعود، وابن عباس، وأبي العالية، وقتادة ﷺ: أن العفو والصفح منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَقِيلُوا أَلَيْسَ لَآ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا يَأْتِيهِ الْآخِرُ وَلَا يَحْمِلُونَ مَا حَكَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٢٩] وأبى هذا القول جماعة من المفسرين والفقهاء، واحتجوا بأن الله لم يأمر بالصفح والعفو مطلقاً، وإنما أمر به إلى غاية، وما بعد الغاية يخالف حكم ما قبلها، وما هذا سبيله لا يكون من باب المنسوخ، بل يكون الأول قد انقضت مدته بغايته، والآخر يحتاج إلى حكم آخر.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَقُولُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَبَرٍ نَّجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٠﴾
قوله تعالى: ﴿نَجِدُوهُ﴾ أي: تجدوا ثوابه.

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝١١١﴾ بَلَّغَ مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١١٣﴾
قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ﴾ قال ابن عباس: اختصم يهود المدينة ونصارى

نجران عند النبي ﷺ فقالت اليهود: ليست النصارى على شيء، ولا يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وكفروا بالإنجيل وعيسى. وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء، وكفروا بالتوراة وموسى؛ فقال الله تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾. واعلم أن الكلام في هذه الآية مجمل، ومعناه: قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً. والهود، جمع: هاند. ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أي: ذاك شيء يطمنون، وظن يظنونه، هذا معنى قول ابن عباس، ومجاهد. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حجتكم إن كنتم صادقين بأن الجنة لا يدخلها إلى من كان هوداً أو نصارى. ثم بين تعالى بأنه ليس كما زعموا فقال: ﴿بَلَّغَ مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ وأسلم، بمعنى: أخلص. وفي الوجه قولان: أحدهما: أنه الدين. والثاني: العمل.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في عمله؛ ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ قال الزجاج: يريد: فهو يدخل الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: كل منهم يتلو كتابه بتصديق ما كفر به، قاله السدي، وقناة. ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وفيهم قولان: أحدهما: أنهم مشركو العرب قالوا لمحمد وأصحابه: لستم على شيء، قاله السدي عن أشياخه. والثاني: أنهم أمم كانوا قبل اليهود والنصارى، كقوم نوح، وهود، وصالح، قاله عطاء.

قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال الزجاج: يريد حكم الفصل بينهم، فيريهم من يدخل الجنة عياناً [ومن يدخل النار عياناً] فأما الحكم بينهم في العقد فقد بينه لهم في الدنيا بما أقام على الصواب من الحجج.

﴿وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَن يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُؤُا وَسَمَىٰ فِي حُرَابَيْهَا أُوتُوكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في الروم، كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس من أجل أن بني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا، فخرّب وطرحوا الجيف فيه، قاله ابن عباس في آخرين. والثاني: أنها في المشركين الذين حالوا بين رسول الله وبين مكة يوم الحديبية، قاله ابن زيد. وفي المراد بخرابها قولان: أحدهما: أنه نقضها، والثاني: منع ذكر الله فيها.

قوله تعالى: ﴿أُوتُوكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه إخبار عن أحوالهم بعد ذلك. قال السدي: لا يدخل رومي بيت المقدس إلا وهو خائف أن يضرب عنقه، أو قد أخيف بأداء الجزية. والثاني: أنه خبر في معنى الأمر، تقديره: عليكم بالجد في جهادهم كي لا يدخلها أحد إلا وهو خائف. ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن خزيهم الجزية، قاله ابن عباس. والثاني: أنه فتح القسطنطينية، قاله السدي. والثالث: أنه طردهم عن المسجد الحرام، فلا يدخله مشرك أبداً ظاهراً، قاله ابن زيد.

﴿وَاللَّهُ أَشْرَقُ وَأَلْوَنُ فَأَمَّا يُؤْتُوا فَهُمْ وَلِلَّهِ اللَّهُ إِيَّاكَ اللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ ۝١١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَشْرَقُ وَأَلْوَنُ﴾ في نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن الصحابة كانوا مع رسول الله في غزوة في ليلة مظلمة، فلم يعرفوا القبلة، فجعل كل واحد منهم مسجداً بين يديه وصلى، فلما أصبحوا إذا هم على غير القبلة، فذكروا ذلك لرسول الله، فأنزل الله تعالى هذه الآية. رواه عامر بن ربيعة. والثاني: أنها نزلت في التطوع بالنافلة، قاله ابن عمر. والثالث: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿أَعِزُّوا نَفْسَ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦١]. قالوا: إلى أين: فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد. والرابع: أنه لما مات النجاشي، وأمرهم النبي ﷺ بالصلاة عليه؛ قالوا: إنه كان لا يصلي إلى القبلة؛ فنزلت هذه الآية، قاله قناة.

قوله تعالى: ﴿فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: فثم الله، يريد: علمه معكم أين كنتم، وهو قول ابن عباس، ومقاتل. والثاني: فثم قبله الله، قاله عكرمة، ومجاهد. والواسع: الذي وسع غناه مفاقر عباده، ورزقه جميع خلقه. والسعة في كلام العرب: الغنى.

فصل

وهذه الآية مستعملة الحكم في المجتهد إذا صلى إلى غير القبلة، وفي صلاة المتطوع على الراحلة، والخائف. وقد ذهب قوم إلى نسخها، فقالوا: إنها لما نزلت؛ توجه رسول الله إلى بيت المقدس، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وَيَكُنَّ مَا كُنْتُمْ قَوْلًا وَيُؤْمَرُكُمْ شَرْكًا﴾ [البقرة: ١٤٤]. وهذا مروى عن ابن عباس. قال شيخنا علي بن عبيد الله: وليس في القرآن أمر خاص بالصلاة إلى بيت المقدس، وقوله: ﴿فَأَيُّنَا قَوْلًا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ ليس صريحاً بالأمر بالتوجه إلى بيت المقدس، بل فيه ما يدل على أن الجهات كلها سواء في جواز التوجه إليها، فإذا ثبت هذا؛ دل على أنه وجب التوجه إلى بيت المقدس بالسنة، ثم نسخ بالقرآن.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَوْمَةٍ تَذِينُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ اختلفوا فمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في اليهود إذ جعلوا عزيراً ابن الله، قاله ابن عباس. والثاني: أنها نزلت في نصارى نجران حيث قالوا: عيسى ابن الله، قاله مقاتل. والثالث: أنها في النصارى ومشركي العرب، لأن النصارى قالت: عيسى ابن الله، والمشركين قالوا: الملائكة بنات الله، ذكره إبراهيم بن السري. والرابع: أنها في اليهود والنصارى ومشركي العرب، ذكره الثعلبي. فأما القنوت؛ فقال الزجاج: هو في اللغة بمعنيين: أحدهما: القيام. والثاني: الطاعة. والمشهور في اللغة والاستعمال أن القنوت: الدعاء في القيام، فالقانت: القائم بأمر الله. ويجوز أن يقع في جميع الطاعات، لأنه إن لم يكن قيام على الرجلين؛ فهو قيام بالنية. وقال ابن قتيبة: لا أرى أصل القنوت إلا الطاعة، لأن جميع الخلال من الصلاة، والقيام فيها والدعاء وغير ذلك يكون عنها. وللمفسرين في المراد بالقنوت هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الطاعة، قاله ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، وقتادة. والثاني: أنه الإقرار بالعبادة، قاله عكرمة، والسدي. والثالث: القيام، قاله الحسن، والربيع. وفي معنى القيام قولان: أحدهما: أنه القيام له بالشهادة بالعبودية. والثاني: أنه القيام بين يديه يوم القيامة. فإن قيل: كيف عم بهذا القول وكثير من الخلق ليس له بمطيع؟ فنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن يكون ظاهرها ظاهر العموم، ومعناها معنى الخصوص. والمعنى: كل أهل الطاعة له قانتون. والثاني: أن الكفار تسجد ظلالمهم لله بالغدوات والعشيات، فنسب القنوت إليهم بذلك. والثالث: أن كل مخلوق قانت له بأثر صنعه فيه، وجري أحكامه عليه، فذلك دليل على ذله للرب. ذكرهن ابن الأنباري.

﴿يُؤَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

قوله تعالى: ﴿يُؤَيِّمُ السَّمَوَاتِ﴾ البديع: المبدع، وكل من أنشأ شيئاً لم يسبق إليه قيل له: أبدعت. قال الخطابي: البديع، فعيل بمعنى: مفعول، ومعناه: أنه فطر الخلق مخترعاً له لا على مثال سبق.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ قال ابن عباس: معنى القضاء: الإرادة. وقال مقاتل: إذا قضى أمراً في علمه، فإنما يقول له: كن فيكون. والجمهور على ضم نون (فيكون)، بالرفع على القطع. والمعنى: فهو يكون. وقرأ ابن عامر بنصب النون. قال مكي ابن أبي طالب: النصب على الجواب، لكن فيه بعد.

فصل

وقد استدل أصحابنا على قدم القرآن بقوله: ﴿كُنْ﴾ فقالوا: لو كانت «كن» مخلوقة؛ لافتقرت إلى إيجادها بمثلها وتسلسل ذلك، والمتسلسل محال. فإن قيل: هذا خطاب لمعدوم؛ فالجواب أنه خطاب تكوين يُظهر أثر القدرة، ويستحيل أن يكون المخاطب موجوداً، لأنه بالخطاب كان، فامتنع وجوده قبله أو معه. ويحقق هذا أن ما سيكون متصور للعلم، فضاهى بذلك الموجود، فجاز خطابه لذلك.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشْتَكِبْتُمْ قُلُوبَهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ فيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود، قاله ابن عباس. والثاني: النصارى، قاله مجاهد. والثالث: مشركو العرب، قاله قتادة، والسدي عن أشياخه. (ولولا) بمعنى: هلا. وفي ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: اليهود والنصارى، قاله السدي عن أشياخه. والثالث: اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار، قاله قتادة. ﴿تَشْتَكِبْتُمْ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: في الكفر.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَحْصَاءِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾: في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن النبي ﷺ قال يوماً: «لست شعري ما فعل أبوي!»، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس^(١). والثاني: أن النبي ﷺ قال: «لو أنزل الله بأسه باليهود لأموتوا» فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. وفي المراد (بالحق) هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه القرآن. قاله ابن عباس. والثاني: الإسلام، قاله ابن كيسان. والثالث: الصدق.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْئَلُ عَنْ﴾: الأكثرون بضم التاء، على الخير، والمعنى: لست بمسؤول عن أعمالهم. وقرأ نافع ويعقوب، بفتح التاء وسكون اللام، على النهي عن السؤال عنهم. وجوز أبو الحسن الأخفش أن يكون معنى هذه القراءة: لا تسأل عنهم فإنهم في أمر عظيم. فيكون ذلك على وجه التعظيم لما هم فيه. فاما الجحيم؛ فقال الفراء: الجحيم: النار، والجحيم على الجمر. وقال أبو عبيدة: الجحيم: النار المستحكمة المتلظية. وقال الزجاج: الجحيم: النار الشديدة الوقود، وقد جحم فلان النار: إذا شدد وقودها، ويقال لعين الأسد: جحمة لشدة توقدها. ويقال لوقود الحرب، وهو شدة القتال فيها: جاحم. وقال ابن فارس: الجاحم: المكان الشديد الحر. قال الأعشى:

يُعدون للهيجاء قبل لقائها غداة احتضار البأس والموت جاحم

ولذلك سميت الجحيم. وقال ابن الأنباري: قال أحمد بن عبيد: إنما سميت النار جحيماً، لأنها أكثر وقودها، من قول العرب: جحمت النار أجحماً: إذا كثرت لها الوقود. قال عمران بن حطان:

يرى طاعة الله الهدى وخلافه الضلالة يصلى أهلها جاحم الجمر

﴿وَلَنْ رَضَى عَنْكَ أَهْلُوهُ وَلَا أَلْمَسُوا سَخَى تَلَعَّ بِلَتَهُمْ قَدْ لَكَ هُدًى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَلَكِنْ أَتَيْتُمْ أَهْوَاءَهُمْ بِبَدِ الْوَيْ جَاءَهُ مِنْ الْغُلِيِّ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ رَضَى عَنْكَ أَهْلُوهُ وَلَا أَلْمَسُوا﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلي النبي ﷺ إلى قبلتهم، فلما صرف إلى الكعبة يتسوا منه، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم دعوه إلى دينهم، فنزلت، قاله مقاتل. والثالث: أنهم كانوا يسألونه الهدنة، ويطمعونه في أنه إن هادنهم وافقوه؛ فنزلت، ذكر معناه الزجاج. قال الزجاج: والملة في اللغة: السنة والطريقة. قال ابن عباس: (وهدى الله) هاهنا: الإسلام. وفي الذي جاءه من العلم أربعة أقوال: أحدها: أنه التحول إلى الكعبة، قاله ابن عباس. والثاني: أنه البيان بأن دين الله الإسلام. والثالث: أنه القرآن. والرابع: العلم بضلالة القوم. ﴿مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يمنعك من عقوبته.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلَوْنَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ بَيِّنِي إِسْرَافِلُ أَذْكُرُوا يَمَعِيَ أَلَيْ آتَمَّتْ عَلَيْكَ وَأَتَى فَمَلَكُوا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَأَتُوا يَوْمًا لَا يَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَلَا إِشْرَافٌ لِزَيْدٍ رَمَى بِكَلْبَتِهِ فَأَتَتْهُمُ قَالَ إِي جَاءَكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمَنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَتَّالِ عَهْدِي الْفَالِيلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على قولين: أحدهما: أنها نزلت في الذين آمنوا

(١) رواه ابن جرير في التفسير من طريق موسى بن عبيدة الردي، وهو ضعيف جداً.

من اليهود، قاله ابن عباس. والثاني: في المؤمنين من أصحاب النبي ﷺ، قاله عكرمة، وقتادة. وفي الكتاب قولان: أحدهما: أنه القرآن، قاله قتادة. والثاني: أنه التوراة، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿يَتْلُوهُ حَقٌّ يَلَاوِيهِ﴾ أي: يعملون به حق عمله، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ في هاء «به» قولان: أحدهما: أنها تعود على الكتاب. والثاني: على النبي محمد ﷺ، وما بعد هذا قد سبق بيانه إلى قوله: ﴿وَلَا يَنْتَظِرُ إِلَّا وَعْدَ رَبِّهِمْ يَكُنَّ﴾ والابتلاء: الاختبار. وفي إبراهيم ست لغات: أحدها: إبراهيم، وهي اللغة الفاشية. والثانية: إبراهيم. والثالثة: إبراهيم. والرابعة: إبراهيم، ذكرهن الفراء. والخامسة: إبراهيم. والسادسة: إبراهيم. قال عبد المطلب:

عذت بما عاذ به إبراهيم
مستقبل الكعبة وهو قائم
وقال أيضاً:

نحن آل الله في كعبته
لم يزل ذاك على عهد إبراهيم

وفي الكلمات خمسة أقوال: أحدها: أنها خمس في الرأس، وخمس في الجسد. أما التي في الرأس؛ فالفرق، والمضمضة، والاستنشاق، وقص الشارب، والسواك. وفي الجسد: تقليم الأظافر، وحلق العانة، ونتف الإبط، والاستطابة بالماء، والختان، رواه طاووس عن ابن عباس. والثاني: أنها عشر، ست في الإنسان، وأربع في المشاعر. فالثي في الإنسان: حلق العانة، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر، وقص الشارب، والسواك، والغسل من الجنابة، والغسل يوم الجمعة. والتي في المشاعر: الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، والإفاضة. رواه حنبل بن عبد الله عن ابن عباس. والثالث: أنها المناسك، رواه قتادة عن ابن عباس. والرابع: أنه ابتلاء بالكوكب، والشمس، والقمر، والهجرة، والنار، وذبح ولده والختان، قاله الحسن. والخامس: أنها كل مسألة في القرآن، مثل قوله: ﴿رَبِّ أَجْمَلْ هَذَا الْبَلَدَ وَأَكْبَلْ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. ونحو ذلك، قاله مقاتل. فمن قال: هي أفعال فعلها؛ قال: معنى فاتهم: عمل بهن. ومن قال: هي دعوات ومسائل؛ قال: معنى فاتهم: أجابه الله إليهن. وقد روي عن أبي حنيفة أنه قرأ: (إبراهيم) برفع الميم (رَبِّ) بنصب الباء^(١)، على معنى: اختر ربه هل يستجيب دعاءه، ويتخذة خليلاً أم لا؟

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ في الذرية قولان: أحدهما: أنها فعلية من الذر، لأن الله أخرج الخلق من صلب آدم كالذر. والثاني: أن أصلها ذرورة، على وزن: فعולה، ولكن لما كثر التضعيف أبدل من الراء الأخيرة ياء، فصارت: ذروية، ثم أدغمت الواو في الياء، فصارت: ذرية، ذكرهما الزجاج، وصوب الأول. وفي العهد هاهنا سبعة أقوال: أحدها: أنه الإمامة، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبير. والثاني: أنه الطاعة، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: الرحمة، قاله عطاء وعكرمة. والرابع: الدين، قاله أبو العالية. والخامس: النبوة، قاله السدي عن أشياخه. والسادس: الأمان، قاله أبو عبيدة. والسابع: الميثاق، قاله ابن قتيبة. والأول أصح. وفي المراد بالظالمين هاهنا قولان: أحدهما: أنهم الكفار، قاله ابن جبير، والسدي. والثاني: العصاة، قاله عطاء.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَثَافٍ لَنَاسٍ وَأَنَّا وَاعِدُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَّا لَمَنَافٍ لَّنَا﴾
﴿وَلَوْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَثَافٍ لَنَاسٍ﴾ البيت هاهنا: الكعبة، والآف واللام تدخل للمعهود، أو للجنس، فلما علم المخاطبون أنه لم يرد الجنس؛ انصرف إلى المعهود، قال الزجاج: والمثاب والمثابة واحد، كالمقام والمقامة، قال ابن قتيبة: والمثابة: المعاد، من قولك: ثبت إلى كذا، أي: عدت إليه، وثاب إليه جسمه بعد العلة: إذا عاد، فأراد: أن الناس يعددون إليه مرة بعد مرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَثَافٍ لَنَاسٍ﴾ البيت هاهنا: الكعبة، والآف واللام تدخل للمعهود، أو للجنس، فلما علم المخاطبون أنه لم يرد الجنس؛ انصرف إلى المعهود، قال الزجاج: والمثاب والمثابة واحد، كالمقام والمقامة، قال ابن قتيبة: والمثابة: المعاد، من قولك: ثبت إلى كذا، أي: عدت إليه، وثاب إليه جسمه بعد العلة: إذا عاد، فأراد: أن الناس يعددون إليه مرة بعد مرة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا﴾ قال ابن عباس: يريد أن من أحدث حدثاً في غيره، ثم لجأ إليه؛ فهو آمن، ولكن ينبغي

(١) سبق أن أشرنا إلى عدم صحة نسبة هذه القراءة وأمثالها إلى أبي حنيفة أحد أئمة المذاهب الأربعة رحمه الله.

لأهل مكة أن لا يبايعوه، ولا يطعموه، ولا يسقوه، ولا يؤووه، ولا يكلم حتى يخرج، فإذا خرج؛ أقيم عليه الحد. قال القاضي أبو يعلى: وصف البيت بالأمن، والمراد جميع الحرم، كما قال: ﴿هَذَا بَلَدٌ بَلِغُ الْكِبَرِ﴾ [المائدة: ٩٥] والمراد: الحرم كله لأنه لا يذبح في الكعبة، ولا في المسجد الحرام، وهذا على طريق الحكم، لا على وجه الخبر فقط. وفي ﴿مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحرم كله، قاله ابن عباس. والثاني: عرفة والمزدلفة والجمار، قاله عطاء. وعن مجاهد كقولين. وقد روي عن ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، قالوا: الحج كله مقام إبراهيم. والثالث: الحجر، قاله سعيد بن جبير، وهو الأصح. قال عمر بن الخطاب: قلت: يا رسول الله! لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت. وفي سبب وقوف إبراهيم على الحجر قولان: أحدهما: أنه جاء يطلب ابنه إسماعيل، فلم يجده، فقالت له زوجته: انزل، فأبى، فقالت: فدعني أغسل رأسك، فأنته بحجر فوضع رجله عليه، وهو راكب، فغسلت شقه، ثم رفعتة وقد غابت رجله فيه، فوضعت تحت الشق الآخر وغسلته، فغابت رجله فيه، فجعله الله من شعاره، ذكره السدي عن ابن مسعود وابن عباس. والثاني: أنه قام على الحجر لبناء البيت، وإسماعيل يناوله الحجارة، قاله سعيد بن جبير. قرأ الجمهور، منهم: ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي: (وَاتَّخَذُوا) بكسر الخاء؛ على الأمر. وقرأ نافع، وابن عامر بفتح الخاء على الخبر. قال ابن زيد: قال النبي ﷺ: «أين ترون أن نصلي؟» فقال عمر: إلى المقام، فنزلت: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾^(١). وقال أبو علي: وجه فتح الخاء: أنه معطوف على ما أضيف إليه، كأنه قال: وإذا اتخذوا. ويؤكد الفتح في الخاء أن الذي بعده خبر، وهو قوله: وعهدنا. قوله تعالى: ﴿وَعَهَدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي: أمرناهما وأوصيناهما. وإسماعيل: اسم أعجمي، وفيه لغتان: إسماعيل، و: اسماعين. وأنشدوا:

قال جوارى الحي لما جينا هذا ورب البيت إسماعينا

قوله تعالى: ﴿أَنْ مَكْهَرًا يَبْقَى﴾ قال قتادة: يريد من عبادة الأوثان والشرك، وقول الزور. فإن قيل: لم يكن هناك بيت؛ فما معنى أمرهما بتطهيره؟ فغنه جوابان: أحدهما: أنه كانت هناك أصنام، فأمرًا بإخراجها، قاله عكرمة. والثاني: أن معناه: ابنياء مطهراً، قاله السدي. والعاكفون: المقيمون، يقال: عكف يعكف ويعكف عكوفاً؛ إذا أقام، ومنه: الاعتكاف. وقد روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ينزل في كل ليلة ويوم، عشرين ومائة رحمة ينزل على هذا البيت: ستون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين»^(٢).

﴿وَلَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آيَاتًا وَلَذِكْ أَهْلُهُ مِنَ الشُّرَكَاتِ مَنْ آمَنَ بِهِمْ يَبْتَغِ الْآخِرَ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَفِي السَّعِيرِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آيَاتًا﴾ البلد: صدر القرى، والبالد: المقيم بالبلد، والبلدة: الصدر، ووضعت الناقة بلدتها؛ إذا بركت، والمراد بالبلد هاهنا: مكة. ومعنى (آيَاتًا): ذا أمن. وأمن البلدة مجاز، والمراد: أمن من فيه. وفي المراد بهذا الأمن ثلاثة أقوال: أحدها: أنه سأل الله الأمن من القتل. والثاني: من الخسف والقذف. والثالث: من القحط والجذب. قال مجاهد: قال إبراهيم: لمن آمن، فقال الله ﷻ: ومن كفر فسأرزقه.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّتْهُمْ﴾ وقرأ ابن عامر: (فَأَمَّتْهُمْ) بالتخفيف، من أمتعت. وقرأ الباقر بالتشديد من: مَتَّعت. والإمتاع: إعطاء ما تحصل به المتعة. والمتعة: أخذ الحظ من لذة ما يشتهى. وبماذا يمتعه؟ فيه قولان: أحدهما: بالأمن. والثاني: بالرزق. والاضطرار: الإلجاء إلى الشيء، والمصير: ما ينتهي إليه الأمر.

﴿وَلَقَدْ يَمَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْنِ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَزَيِّجْهُمْ إِلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

(١) رواه أحمد والبخاري، ولفظ أحمد عن عمر: واقت ربّي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت.

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» والحاكم في «الكنى» والخطيب في «التاريخ» والبيهقي في «الشعب» عن ابن عباس. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» فيه يوسف بن السفر، وهو متروك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ القواعد: أساس البيت، واحدها: قاعدة. فأما قواعد النساء؛ فواحدتها: قاعدة، وهي العجوز. ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ أي: يقولان: ربنا، فحذف ذلك، كقوله: ﴿وَاللَّيْلُ يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٥]. أراد: يقولون. و(السميع) بمعنى: السامع، لكنه أبلغ، لأن بناء فعيل للمبالغة. قال الخطابي: ويكون السماع بمعنى القبول والإجابة، كقول النبي ﷺ: «أعوذ بك من دعاء لا يسمع»^(١) أي: لا يستجاب. وقول المصلي: سمع الله لمن حمده، أي: قبل الله حمد من حمده. وأنشدوا:

دعوت الله حتى خفت أن لا يكون الله يسمع ما أقول

الإشارة إلى بناء البيت

روى أنس عن النبي ﷺ قال: كانت الملائكة تحج إلى البيت قبل آدم. وقال ابن عباس: لما أهبط آدم؛ قال الله تعالى: يا آدم! اذهب فابن لي بيتاً فطف به، واذكرني حوله كما رأيت ملائكتي تصنع حول عرشي. فأقبل يسعى حتى انتهى إلى البيت الحرام، وبناء من خمسة أجبل: من لبنان، وطور سيناء، وطور زيتا، والجودي، وحراء، فكان آدم أول من أسس البيت، وطاف به، ولم يزل كذلك حتى بعث الله الطوفان، فدرس موضع البيت، فبعث الله إبراهيم وإسماعيل. وقال علي ابن أبي طالب ﷺ: لما أمر الله تعالى إبراهيم ببناء البيت؛ ضاق به ذرعاً، ولم يدر كيف يصنع، فأنزل الله عليه كهينة السحابة، فيها رأس يتكلم، فقال: يا إبراهيم! علم على ظلي، فلما علم ارتفعت. وفي رواية أنه كان يبني عليها كل يوم، قال: وحفر إبراهيم من تحت السكينة، فأبدى عن قواعد، ما تحرك القاعدة منها دون ثلاثين رجلاً. فلما بلغ موضع الحجر، قال لإسماعيل: التمس لي حجراً، فذهب يطلب حجراً، فجاء جبريل بالحجر الأسود، فوضعه، فلما جاء إسماعيل، قال: من جاءك بهذا الحجر؟ قال: جاء به من لم يتكل على بنائي وبنائك. وقال ابن عباس، وابن المسيب، وأبو العالية: رفعا القواعد التي كانت قواعد قبل ذلك. وقال السدي: لما أمره الله ببناء البيت؛ لم يدر أين يبني، فبعث الله له ريحاً، فكنست حول الكعبة عن الأساس الأول الذي كان البيت عليه قبل الطوفان.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ قال الزجاج: المسلم في اللغة: الذي قد استسلم لأمر الله، وخضع. والمناسك: المتعبدات. فكل متعبد منك ومنيك، ومنه قيل للعابد: ناسك. وتسمى الذبيحة المتقرب بها إلى الله ﷻ: النسكة. وكان الأصل في النسك إنما هو من الذبيحة لله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ﴾ أي: مذابحنا. قاله مجاهد. وقال غيره: هي جميع أفعال الحج. وقرأ ابن كثير: (وأرنا) بكسر الراء. و﴿رَبِّ أَرْسَلْنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]. و﴿أَرْسَلْنَا الَّذِينَ أَرْسَلْنَا﴾ [فصلت: ٢٩]. وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي (أرنا) بكسر الراء في جميع ذلك. وقرأ أبو بكر عن عاصم وابن عامر كذلك، إلا أنهما أسكنا الراء من (أرنا اللذين) وحدها. قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: (أرنا) وكثير من العرب يجزم الراء، فيقول: (أرنا مناسكنا) وقرأ بها بعض الثقات. وأنشد بعضهم:

قالت سليمة اشتر لنا دقيفاً واشتر فعجل خادماً لبيقاً
وأنشدني الكسائي:

ومن يتق فإن الله معه ورزق الله مسؤتاب وغادي

قال قتادة: أراهما الله مناسكهما: الموقف بعرفات، والإفاضة من جمع، ورمي الجمار، والطواف، والسعي. وقال أبو مجلز: لما فرغ إبراهيم من البيت أتاه جبريل، فأراه الطواف، ثم أتى به جمره العقبة، فعرض له الشيطان، فأخذ جبريل سبع حصيات، وأعطى إبراهيم سبعاً، وقال له: ارم وكبر، فرميا وكبرا مع كل رمية حتى غاب الشيطان. ثم أتى به جمره الوسطى، فعرض لهما الشيطان، فأخذ جبريل سبع حصيات، وأعطى إبراهيم سبع حصيات، فقال: ارم

(١) رواه مسلم عن زيد بن أرقم بلفظ: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشيع، ومن دعوة لا يستجاب لها».

وكبير، فرميا وكبرا مع كل رمية حتى غاب الشيطان. ثم أتى به الجمرة القصوى، فعرض لهما الشيطان، فأخذ جبريل سبع حصيات، وأعطى إبراهيم سبع حصيات. فقال له: ارم وكبر، فرميا وكبرا مع كل رمية حتى غاب الشيطان، ثم أتى به منى، فقال: هاهنا يحلق الناس رؤوسهم، ثم أتى به جمعاً، فقال: هاهنا يجمع الناس، ثم أتى به عرفة، فقال: أعرفت؟ قال: نعم. قال: فمن ثم سميت عرفات.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْتٌ فِيهِمْ رَسُولٌ لَّنَا فِي الْهَاءِ وَالْمِيمِ مِنْ (فيهم) قولان: أحدهما: أنها تعود على الذرية، قاله مقاتل والفراء. والثاني: على أهل مكة في قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا أَهْلَكَ﴾ والمراد بالرسول: محمد ﷺ. وقد روى أبو أمامة عن النبي ﷺ أنه قيل: يا رسول الله! ما كان بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام»^(١). والكتاب: القرآن. والحكمة: السنة، قاله ابن عباس. وروي عنه: الحكمة: الفقه والحلال والحرام، ونواظف القرآن. وسميت الحكمة حكمة، لأنها تمنع من الجهل.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَرْكَبُهُمْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: يأخذ الزكاة منهم فيطهرهم بها، قاله ابن عباس والفراء. والثاني: يطهرهم من الشرك والكفر، قاله مقاتل. والثالث: يدعوهم إلى ما يصيرون به أذكى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ قال الخطابي: العز في كلام العرب على ثلاثة أوجه: أحدها: بمعنى الغلبة، يقولون: من عز بـ. أي: من غلب سلب. يقال منه: عزَّ يعزُّ، بضم العين من يعز، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّزْنِي﴾ [خطاب] (ص: ٢٨). والثاني: بمعنى الشدة والقوة، يقال منه: عزَّ يعزُّ، بفتح العين من يعز. والثالث: أن يكون بمعنى نفاسة القدر، يقال منه: عزَّ يعزُّ بكسر العين من يعز. ويتناول معنى العزيز على أنه الذي لا يعادله شيء، ولا مثل له.

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الْفَائِلِينَ﴾ [٢٨] قَالَ أَتَيْنَاكَ مِنْ رَبِّكَ أَسْلِمًا قَالَ أَتَيْنَاكَ مِنْ رَبِّكَ أَسْلِمًا وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْبُودُ بَيْنِي إِنْ أَلَّهِ أَصْلَحَ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ سبب نزولها أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه مهاجراً ومسلمة إلى الإسلام، فأسلم سلمة، ورغب عن الإسلام مهاجر، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. قال الزجاج: «من» لفظها لفظ الاستفهام، ومعناها التقرير والتوبيخ. والمعنى: ما يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه. ويقال: رغبت في الشيء: إذا أردته. ورغبت عنه: إذا تركته. وملة إبراهيم: دينه.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن معناه: إلا من سفه نفسه، قاله الأخفش^(٢) ويونس. قال يونس: ولذلك تعدى إلى النفس فصبها، وقال الأخفش: نصبت النفس لإسقاط حرف الجر، لأن المعنى: إلا من سفه في نفسه. قال الشاعر:

نغالي اللحم للأضياف نيئاً ونرخصه إذا نضج القدور

والثاني: إلا من أهلك نفسه، قاله أبو عبيدة. والثالث: إلا من سفهت نفسه، كما يقال: غبن فلان رأيه، وهذا مذهب الفراء وابن قتيبة. قال الفراء: نقل الفعل عن النفس إلى ضمير «من»، ونصبت النفس على التشبيه بالتفسير، كما يقال: ضقت بالأمر ذرعاً، يريدون: ضاق ذرعي به، ومثله: ﴿وَأَسْتَعْلَ الْأَرْضَ مَكِينًا﴾ [مريم: ٤٤]. والرابع: إلا من جهل نفسه، فلم يفكر فيها، وهو اختيار الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُمْ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الْفَائِلِينَ﴾ قال ابن الأنباري: لمن الصالح في الحال عند الله تعالى. وقال الزجاج: الصالح في الآخرة: الفائز.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ﴾ وذلك حين وقوع الاصطفاء، قال ابن عباس: لما رأى الكوكب والقمر والشمس، قال له ربه: أسلم، أي: أخلص.

(١) رواه أبو داود الطيالسي وأحمد في «المسند» عن أبي أمامة، وفي سننه الفرج بن فضالة، وهو ضعيف، وجاء الحديث بمعناه في «مسند أحمد» عن العرياض بن سارية، وقد صححه الشيخ أحمد شاكر.

(٢) نقل القرطبي في «التفسير» عن الأخفش في معنى «سفه نفسه» أنه فعل بها من السفه ما صار به سفيهاً. وعنه أيضاً: هي لغة، بمعنى سفه.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى﴾ قرأ ابن عباس وأهل المدينة: (وأوصى) بآلف، مع تخفيف الصاد، والباقون بغير ألف مشددة الصاد، وهذا لاختلاف المصاحف. أخبرنا ابن ناصر، قال: أخبرنا ثابت، قال: أخبرنا ابن قشيش، قال: أخبرنا ابن حيويه، قال: حدثنا ابن الأنباري، قال: أخبرنا ثعلب، قال: أُملى عليّ خلف بن هشام البزار قال: اختلف مصحفا أهل المدينة وأهل العراق في اثني عشر حرفاً: كتب أهل المدينة: (وأوصى) وأهل العراق: (ووصى) وكتب أهل المدينة: ﴿سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. بغير واو، وأهل العراق: ﴿وَسَارِعُوا﴾ وكتب أهل المدينة: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [المائدة: ٥٦]. وأهل العراق: (ويقول) وكتب أهل المدينة: ﴿مَنْ يَرْتَدِّدْ﴾ [المائدة: ٥٧]. وأهل العراق: (من يرتد) وكتب أهل المدينة: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ [التوبة: ١٠٨]. وأهل العراق (والذين) وكتب أهل المدينة: ﴿خَيْرًا مِنْهُمَا مُّتَقَلِّبًا﴾ [الكهف: ٣٦]. وأهل العراق: (منها) وكتب أهل المدينة: ﴿فَيَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧]. وأهل العراق: (وتوكل) وكتب أهل المدينة: ﴿وَأَن يُظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادُ﴾ [الزمر: ٢٦]. وأهل العراق: (أو أن يظهر) وكتب أهل المدينة في (حم عسق): ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ بغير فاء، وأهل العراق: (فبما) وكتب أهل المدينة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ﴾ [الزخرف: ٧١]. وأهل العراق: (ما تشتهي) وكتب أهل المدينة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْكَافِرُ﴾ [الحديد: ٢٤]. وأهل العراق: (إن الله هو الغني الحميد) وكتب أهل المدينة: ﴿فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهُ﴾ [النسر: ١٥]. وأهل العراق (ولا يخاف). ووصى أبلغ من أوصى، لأنها تكون لمرات كثيرة، وهاء «بها» تعود على المسألة. قاله عكرمة والزجاج. قال مقاتل: وبنوه أربعة: إسماعيل، وإسحاق، ومدين، ومدائن. وذكر غير مقاتل أنهم ثمانية.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُّسْلِمُونَ﴾ يريد: الزموا الإسلام، فإذا أدركم الموت صادفكم عليه. ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ لِرَبِّهِمْ وَلِرَبِّعِيلَ وَلَاسِقَىٰ إِلَٰهًا وَجِدًا وَنَحْنُ لَكُمْ مُّسْلِمُونَ﴾ [يوسف: ٩٢]. تلك أمة قد حلت لها ما كسبت ولكم ما كسبت ولا تسئلون عنها كانوا يملكون ﴿قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ألسنت تعلم أن يعقوب أوصى بنه يوم مات باليهودية؟ فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت، يشير إلى إبراهيم وبنيه، ويعقوب وبنيه. ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَلِرَبِّعِيلَ وَلَاسِقَىٰ وَيَقُولُ الْكَافِرُ لَا يُغْنِي عَنْهُ قُرْآنُ بَيْنِ أَهْلِ بَيْتِهِمْ وَنَحْنُ لَكُمْ مُّسْلِمُونَ﴾ [١٦].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا﴾ معناه: قالت اليهود: كونوا هوداً، وقالت النصارى: كونوا نصارى، تهتدوا. ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ المعنى: بل تتبع ملة إبراهيم في حال حنيفيته. وفي الحنيف قولان: أحدهما: أنه المائل إلى العبادة. قال الزجاج: الحنيف في اللغة: المائل إلى الشيء، أخذ من قولهم: رجل أحنف، وهو الذي تميل قدماه كل واحدة منهما إلى أختها بأصابعها. قالت أم الأحنف ترقصه:

والله لولا حنفت برجله
ودقة في ساقه من هزله

ما كان في فتیانکم من مثله

والثاني: أنه المستقيم، ومنه قيل للأعرج: حنيف، نظراً له إلى السلامة، هذا قول ابن قتيبة. وقد وصف المفسرون الحنيف بأوصاف، فقال عطاء: هو المخلص، وقال ابن السائب: هو الذي يحج. وقال غيرهما: هو الذي يوحد ويحج، ويضحى ويختتن، ويستقبل الكعبة. فأما الأسباط: فهم بنو يعقوب، وكانوا اثني عشر رجلاً. قال الزجاج: السبط في اللغة: الجماعة الذين يرجعون إلى أب واحد. والسبط في اللغة: الشجرة لها قبايل، فالسبط: الذين هم من شجرة واحدة.

﴿فَإِن ءَامَنُوا بِبَيْتِي مَا ءَامَنُ بِهِمْ فَقَدِ افْتَدَوْا مِنَّا وَلَوْلَا فَلَئَمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ نَّبْتِئُهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّيِّئُ الْمَكِيدُ﴾ [١٧]

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ آتَيْنَا﴾ يعني: أهل الكتاب.

قوله تعالى: ﴿يُمِثِّلُ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: مثل إيمانكم، فزيدت الباء للتوكيد، كما زيدت في قوله: ﴿وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ يَجْمَعُ النَّخْلَةَ﴾ (مریم: ٢٤). قاله ابن الأنباري. والثاني: أن المراد بالمثل هاهنا: الكتاب، وتقديره: فإن آمنوا بكتابكم كما آمنت بكتابهم، قاله أبو معاذ النحوي. والثالث: أن المثل هاهنا: صلة، والمعنى: فإن آمنوا بما آمنت به. ومثله قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [التورى: ١١]. أي: ليس كهو شيء. وأنشدوا:

يا عادلي دعني من عدلكا مثلي لا يقبل من مثلكا

أي: أنا لا أقبل منك، فأما الشقاق؛ فهو المشاقة والعداوة، ومنه قولهم: فلان قد شق عصا المسلمين، يريدون: فارق ما اجتمعوا عليه من اتباع إمامهم، فكأنه صار في شق غير شقهم.

قوله تعالى: ﴿تَسْبِغُكُمْ اللَّهُ﴾ هذا ضمان لنصر النبي ﷺ.

﴿سِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ سِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَكِيدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿سِبْغَةَ اللَّهِ﴾ سبب نزولها أن النصارى كانوا إذا ولد لأحدهم ولد، فأتى عليه سبعة أيام، صبغوه في ماء لهم، يقال له: المعمودية، ليظهره بذلك، ويقولون: هذا طهور مكان الختان، فإذا فعلوا ذلك؛ قالوا: صار نصرانياً حقاً، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. قال ابن مسعود وابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والنخعي، وابن زيد: ﴿سِبْغَةَ اللَّهِ﴾: دينه. قال الفراء: ﴿سِبْغَةَ اللَّهِ﴾ [نصب] مردودة على الملة^(١). وقرأ ابن عبلة: (صبغة الله) بالرفع على معنى: هذه صبغة الله. وكذلك قرأ: (ملة إبراهيم) بالرفع أيضاً على معنى: هذه ملة إبراهيم. قال ابن قتيبة: المراد بصبغة الله: الختان، فسماه صبغة، لأن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في ماء [ويقولون: هذا طهرة لهم، كالختان للحنفاء] فقال الله تعالى: ﴿سِبْغَةَ اللَّهِ﴾ أي: الزموا صبغة الله، لا صبغة النصارى أولادهم، وأراد بها: ملة إبراهيم. وقال غيره: إنما سمي الدين صبغة لبيان أثره على الإنسان، كظهور الصبغ على الثوب.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَمَوْزِنُنَا وَبَيْنَكُمْ وَنَحْنُ أَقْمَلُنَا وَلَكُمْ أَغْلَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ خُلُوصُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يريد: يهود المدينة، ونصارى نجران. والمحاجة: المخاصمة في الدين، فإن اليهود قالت: نحن أهل الكتاب الأول. وقيل: ظهرت اليهود عبدة الأوثان، فقبل لهم: تزعمون أنكم موحدون، ونحن نوحدهم، فلم ظاهرتهم من لا يوحدها!

قوله تعالى: ﴿وَلَنَا أَغْلَلُكُمْ وَلَكُمْ أَغْلَلُكُمْ﴾ قال أكثر المفسرين: هذا الكلام اقتضى نوع مساهلة، ثم نسخ بآية السيف.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَغْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَبَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ أَنَّ اللَّهَ بَرِّئٌ مِمَّنْ يَدْعُونَ عَمَّا يَكْفُرُونَ ﴿١٣٨﴾ يَلِكُ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَتَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَتَبَتْ وَلَا تَتَّبِعُوا عَمَّا كَانُوا يَتَّبِعُونَ ﴿١٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ..﴾ الآية. سبب نزولها أن يهود المدينة، ونصارى نجران قالوا للمؤمنين: إن أنبياء الله كانوا منا من بني إسرائيل، وكانوا على ديننا، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. ومعنى الآية: إن الله قد أعلمنا بدين الأنبياء، ولا أحد أعلم به منه. قرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر، وأبو عمرو: (أم يقولون) بالياء على وجه الخبر عن اليهود. وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي وحفص عن عاصم: (تقولون) بالتاء لأن قبلها مخاطبة، وهي ﴿أَتُحَاجُّونَنَا﴾ وبعدها ﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَغْلَمُ﴾. وفي الشهادة التي كتبوها قولان: أحدهما: أن الله تعالى شهد عندهم بشهادة لإبراهيم ومن ذكر معه أنهم كانوا مسلمين، فكتبوها، قاله الحسن، وزيد بن أسلم. والثاني: أنهم كتبوا الإسلام، وأمر محمد وهم يعلمون أنه نبي دينه الإسلام، قاله أبو العالية، وقادة.

(١) يريد أنها بدل من (ملة إبراهيم).

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَدَهُمْ عَنْ قَتْلِهِمْ آلِي كَاؤُا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ فيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود، قاله البراء بن عازب، ومجاهد، وسعيد بن جبير. والثاني: أنهم أهل مكة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنهم المنافقون، ذكره السدي عن ابن مسعود، وابن عباس. وقد يمكن أن يكون الكل قالوا ذلك، والآية نزلت بعد تحويل القبلة. والسفهاء: الجهلة. ما ولاهم، أي: صرفهم عن قبلتهم: يريد: قبله المقدس. واختلف العلماء في مدة صلاة النبي ﷺ إلى بيت المقدس بعد قدومه إلى المدينة على ستة أقوال: أحدها: أنه ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر، قاله البراء بن عازب. والثاني: سبعة عشر شهراً، قاله ابن عباس. والثالث: ثلاثة عشر شهراً، قاله معاذ بن جبل. والرابع: تسعة أشهر، أو عشرة أشهر، قاله أنس بن مالك. والخامس: ستة عشر شهراً. والسادس: ثمانية عشر شهراً، روي القولان عن قتادة. وهل كان استقباله إلى بيت المقدس براه، أو عن وحي؟ فيه قولان: أحدهما: أنه كان بأمر الله تعالى ووحيه، قاله ابن عباس وابن جريج. والثاني: أنه كان باجتهاده ورأيه، قاله الحسن، وأبو العالية، وعكرمة، والربيع. وقال قتادة: كان الناس يتوجهون إلى أي جهة شاؤوا بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥]. ثم أمرهم باستقبال بيت المقدس. وفي سبب اختياره بيت المقدس قولان: أحدهما: ليتألف أهل الكتاب، ذكره بعض المفسرين. والثاني: لامتحان العرب بغير ما ألفوه، قاله الزجاج.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَكَانَ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرُّسُولَ وَمَنْ يَنْفَلِتْ عَلَى عِبَتِي وَإِنْ كُنْتُمْ لَكِبْرًا إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّكُمْ إِنَّا اللَّهُ الْكَاسِرُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ سبب نزولها أن اليهود قالوا: قبلتنا قبله الأنبياء، ونحن عدلٌ بين الناس، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. والأمة: الجماعة. والوسط: العدل، قاله ابن عباس، وأبو سعيد، ومجاهد، وقاتدة، وقال ابن قتيبة: الوسط: العدل، الخيار، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلم: ٢٨]. أي: أعدلهم، وخيرهم. قال الشاعر:

هُمُ وَسْطُ يَرْضَى الْأَنْبَاءَ بِحُكْمِهِمْ
إِذَا نَزَلَتْ إِحْدَى السَّيَالِي بِمُغْظَمِ

وأصل ذلك أن خير الأشياء أوساطها، والغلو والتقصير مذمومان. وذكر ابن جرير الطبري أنه من التوسط في الفعل، فإن المسلمين لم يقصروا في دينهم كاليهود، فإنهم قتلوا الأنبياء، وبدلوا كتاب الله، ولم يغفلوا كالنصارى، فإنهم زعموا أن عيسى ابن الله. وقال أبو سليمان الدمشقي: في هذا الكلام محذوف، ومعناه: جعلت قبلتكم وسطاً بين القبلتين، فإن اليهود يصلون نحو المغرب، والنصارى نحو المشرق، وأنتم بينهما.

قوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: لتشهدوا للأنبياء على أممهم. روى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، ويجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه أكثر من ذلك، فيقال لهم: أبلغتكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال للنبي: أبلغتكم؟ فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك؟ قال: محمد وأمته؛ فيشهدون أن الرسل قد بلغوا، فيقال: ما علمكم؟ فيقولون: أخبرنا نبينا أن الرسل قد بلغوا، فصدقناه، فذلك قوله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾»^(١) وهذا مذهب عكرمة، وقاتدة. والثاني: أن معناه: لتكونوا شهداء لمحمد ﷺ على الأمم: اليهود والنصارى والمجوس، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ يعني: محمداً ﷺ. وبماذا يشهد عليهم؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: بأعمالهم، قاله ابن عباس، وأبو سعيد الخدري، وابن زيد. والثاني: بتبليغهم الرسالة، قاله قتادة، ومقاتل. والثالث: بإيمانهم، قاله أبو العالية. فيكون على هذا «عليكم» بمعنى: لكم. قال عكرمة: لا يسأل عن هذه الأمة إلا نبيها.

(١) رواه أحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيَّاهَا﴾ يريد: قبلة بيت المقدس. ﴿إِلَّا لِنَمْلِكُ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: لنرى. والثاني: لنميز. رؤيا عن ابن عباس. والثالث: لتعلمه واقعاً، إذ علمه قديم، قاله جماعة من أهل التفسير. وهو يرجع إلى قول ابن عباس: «لنرى». والرابع: أن العلم راجع إلى المخاطبين، والمعنى: لتعلموا أنتم، قاله الفراء.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ أي: يرجع إلى الكفر، قاله ابن زيد، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ في المشار إليها قولان: أحدهما: أنه التولية إلى الكعبة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومقاتل. والثاني: أنها قبلة بيت المقدس قبل التحول عنها، قاله أبو العالية، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ نزل على سبب: وهو أن المسلمين قالوا: يا رسول الله! أرايت إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟! فانزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾^(١) والإيمان المذكور هاهنا أريد به: الصلاة في قول الجماعة. وقيل: إنما سمي الصلاة إيماناً، لاشتغالها على قول ونية وعمل. قال الفراء: وإنما أسند الإيمان إلى الأحياء [من المؤمنين] والمعنى: فيمن مات [من المسلمين] قبل أن تحول القبلة [لأنهم داخلون معهم في الملة].

قوله تعالى: ﴿لَرْؤُفٌ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: (لرؤوف) على وزن: لرعوف، في جميع القرآن، ووجهها: أن فعولاً أكثر في كلامهم من فعل، فباب ضروب وشكور، أوسع من باب حذر ويقظ. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر، عن عاصم: (لرؤف) على وزن: رَعْفٍ. ويقال: هو الغالب على أهل الحجاز. قال جرير:

ترى للمسلمين عليك حقاً كفعل الوالد الرؤف الرحيم

والرؤف بمعنى: الرحيم، هذا قول الزجاج. وذكر الخطابي عن بعض أهل العلم أن الرأفة أبلغ الرحمة وأرقها. قال: ويقال: الرأفة أخص، والرحمة أعم.

﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاوَاتِ فَلَمْ يَلْبَثْكَ قِبْلَةً رَضْنَهَا قَوْلٌ وَمَهْلَكٌ سَطَرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَبَيَّتَ مَا كُنْتُمْ قَوْلًا وَبُوءَكُمْ سَطْرًا وَلَئِنْ لَدَيْنَ أَوْلُوا الْكِتَابَ لَيَقْلَبُنَّ اللَّهُ الْحَقُّ مِنْ دِينِهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَمْكُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ سبب نزولها أن النبي ﷺ كان يحب أن يوجه إلى الكعبة، قاله البراء، وابن عباس، وابن المسيب، وأبو العالية، وقتادة. وذكر بعض المفسرين أن هذه الآية مقدمة في النزول على قوله تعالى: ﴿سَيَسْأَلُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ واختلفوا في سبب اختيار النبي الكعبة على بيت المقدس على قولين: أحدهما: أنها كانت قبلة إبراهيم، روي عن ابن عباس. والثاني: لمخالفة اليهود، قاله مجاهد. ومعنى ثقلب وجهه: نظره إليها يميناً وشمالاً. و«في» بمعنى «إلى»، و«ترضاها» بمعنى: «تحبها». و«السطر»: النحو من غير خلاف. قال ابن عمر: أتى الناس أت وهم في صلاة الصبح بقاء، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وأمر أن يستقبل الكعبة، ألا فاستقبلوها [وكانت وجوههم إلى الشام] فاستداروا وهم في صلاتهم^(٢).

فصل

اختلف العلماء أي وقت حولت القبلة؟ على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها حولت في صلاة الظهر يوم الاثنين للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله المدينة، قاله البراء بن عازب، ومعلق بن يسار. والثاني: أنها حولت يوم الثلاثاء للنصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدمه المدينة، قاله قتادة. والثالث: أنها حولت في جمادى الآخرة، حكاه ابن سلامة المفسر عن إبراهيم الحربي. وفي «الَّذِينَ أَوْلُوا الْكِتَابَ» قولان: أحدهما: اليهود، قاله مقاتل. والثاني: اليهود والنصارى، قاله أبو سليمان الدمشقي.

(١) رواه أحمد، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري ومسلم في «صحيحهما» ولقظه: عن ابن عمر قال: بينما الناس في صلاة الصبح بقاء، إذ جاءهم أت، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ﴾ في الناس قولان: أحدهما: أنهم أهل الكتاب، قاله ابن عباس، وأبو العالية، وقتادة، ومقاتل. والثاني: مشركو العرب، رواه السدي عن أشياخه. فمن قال بالأول؛ قال: احتجاج أهل الكتاب أنهم قالوا للنبي: مالك تركت قبلة بيت المقدس؟! إن كانت ضلالة؛ فقد دنت بها الله، وإن كانت هدى؛ فقد نقلت عنها. وقال قتادة: قالوا: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه. ومن قال بالثاني؛ قال: احتجاج المشركين أنهم قالوا: قد رجع إلى قبلكم، ويوشك أن يعود إلى دينكم. وتسمية باطلهم حجة على وجه الحكاية عن المحتج به، كقوله تعالى:

﴿جَنَّتُمْ كَأَحْسَنَ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ [النورى: ١٦]. وقوله: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ قال الزجاج: معناه: إلا من ظلم باحتجاجة فيما قد وضع له، كما تقول: ما لك عليّ حجة إلا الظلم، أي: إلا أن تظلمني. أي: ما لك عليّ البتة، ولكنك تظلمني. قال ابن عباس: ﴿فَلَا تَقْسُوهُمْ﴾ في انصرافكم إلى الكعبة ﴿وَافْتَنُوهُمْ﴾ في تركها.

﴿كَأَآرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَلِلَّهِ الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةُ وَهُوَ عَلِيمٌ﴾ قوله تعالى: ﴿كَأَآرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ﴾ قال الزجاج: «كما» لا تصلح أن تكون جواباً لما قبلها، والأجود أن تكون معلقة بقوله: ﴿فَافْتَنُوهُمْ﴾ وقد روي معناه عن عليّ، وابن عباس، ومجاهد، ومقاتل. والآية خطاب لمشركي العرب. وفي قوله: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ ثلاثة أقوال، قد سبق ذكرها في قصة إبراهيم. والكتاب: القرآن. والحكمة: السنة.

﴿فَافْتَنُوهُمْ أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا﴾

قوله تعالى: ﴿فَافْتَنُوهُمْ﴾ قال ابن عباس، وابن جبير: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي. وقال إبراهيم بن السري: كما أنعمت عليكم بالرسالة، فاذكروني بتوحيدي وتصديق نبيي. قال: فإن قيل: كيف يكون جواب: ﴿كَأَآرْسَلْنَا﴾: ﴿فَافْتَنُوهُمْ﴾؟ فإن قوله: ﴿فَافْتَنُوهُمْ﴾ أمر. وقوله: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ جزاء، فالجواب: أن المعنى: إن تذكروني أذكركم.

قوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ الشكر: الاعتراف بحق المنعم، مع الشاء عليه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ سبب نزولها أن المشركين قالوا: سيرجع محمد إلى ديننا، كما رجع إلى قبلتنا، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة. وقال ابن عباس: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على أداء الفرائض، وبالصلاة، وقد سبق الكلام في الصبر، وبيان الاستعانة به وبالصلاة.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَمِيَّةٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ﴾ سبب نزولها أنهم كانوا يقولون لقتلى بدر وأحد: مات فلان بيد، مات فلان بأحد، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. ورفع الأموات بإضمار مكني من أسمائهم، أي: لا تقولوا: هم أموات، ذكر نحوه الفراء. فإن قيل: فنحن نراهم موتى، فما وجه النهي؟ فالجواب أن المعنى: لا تقولوا: هم أموات لا تصل أرواحهم إلى الجنات، ولا تنال من تحف الله ما لا يناله الأحياء، بل هم أحياء، أرواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة^(١)، فهم أحياء من هذه الجهة، وإن كانوا أمواتاً من جهة خروج الأرواح، ذكره ابن الأنباري. فإن قيل: أليس جميع المؤمنين منعمين بعد موتهم؟ فلم خصصتم الشهداء؟ فالجواب: أن الشهداء فضلوا على غيرهم بأنهم مرزوقون من مطاعم الجنة ومأكلاها، وغيرهم منعم بما دون ذلك، ذكره ابن جرير الطبري.

﴿وَلَتَبْلُغُنَّكُمْ يَمِينُ مِّنَ الْغَوِيِّ وَالْجُوعِ وَنَقْصُ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّرَاتِ وَيَبْشُرُ الصَّادِقِينَ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَأَنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَتَبْلُغُنَّكُمْ يَمِينُ مِّنَ الْغَوِيِّ وَالْجُوعِ وَنَقْصُ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ قال الفراء: «من» تدل على أن لكل صنف منها شيئاً مضمراً، فتقديره: بشيء من الخوف، وشيء من الجوع، وشيء من نقص الأموال. وفيمن أريد في هذه الآية أربعة أقوال: أحدها: أنهم أصحاب النبي خاصة، قاله عطاء. والثاني: أنهم أهل مكة. والثالث: أن هذا يكون في آخر الزمان. قال كعب: يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة إلا تمرة. والرابع: أن الآية على عمومها. فأما الخوف؛ فقال ابن عباس: وهو الفرع في القتال. والجوع: المجاعة التي أصابت أهل مكة سبع سنين. ونقص من الأموال: ذهاب أموالهم، والأنفس بالموت والقتل الذي نزل بهم، والثمرات لم تخرج كما كانت تخرج. وحكى أبو سليمان الدمشقي عن بعض أهل العلم: أن الخوف في الجهاد، والجوع في فرض الصوم، ونقص الأموال: ما فرض فيها من

(١) جاء في صحيح مسلم «أن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت...» الحديث.

الزكاة والحج، ونحو ذلك. والأنفس: ما يستشهد منها في القتال، والثمرات: ما فرض فيها من الصدقات. ﴿وَكَيْفَ أَتَّبِعُونَ﴾ على هذه البلاوي بالجنة. واعلم أنه إنما أخبرهم بما سيصيبهم ليوطنوا أنفسهم على الصبر، فيكون ذلك أبعد لهم من الجزع. ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾ يريدون: نحن عبيده يفعل بنا ما يشاء ﴿وَلَيْلًا إِلَيْهِ رَكُوعُونَ﴾ يريدون: نحن مقرّون بالبعث والجزاء على أعمالنا، والثواب على صبرنا. قال سعيد بن جبير: لقد أعطيت هذه الأمة عند المصيبة شيئاً لم يعطه الأنبياء قبلهم ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِلَيْهِ رُكُوعُونَ﴾ ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾. ولو أعطيتها الأنبياء لأعطيتها يعقوب، ألم تسمع إلى قوله: ﴿يَأْتِسِرَ عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] قال الفراء: وللعرب في المصيبة ثلاث لغات: مصيبة، ومصابة، ومصوبة، زعم الكسائي أنه سمع أعرابياً يقول: جبر الله مصوبتك.

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قال سعيد بن جبير: الصلوات من الله: المغفرة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ بالاسترجاع. قال عمر بن الخطاب: نعم العدلان، ونعمت العلاوة: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١).

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [١٥٨] إِنَّا الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَتَوْا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِينَ يَرْتَدُّونَ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّيْلُوتُ (١٥٩)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن رجلاً من الأنصار ممن كان يهمل لمناة في الجاهلية - ومناة: صنم كان بين مكة والمدينة - قالوا: يا رسول الله! إنا كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيماً لمناة، فهل علينا من حرج أن نطوف بهما؟ فنزلت هذه الآية. رواه عروة عن عائشة (٢). والثاني: أن المسلمين كانوا لا يطوفون بين الصفا والمروة، لأنه كان على الصفا تماثيل وأصنام؛ فنزلت هذه الآية. رواه عكرمة عن ابن عباس. وقال الشعبي: كان وثن على الصفا يدعى: إساف، ووثن على المروة يدعى: نائلة، وكان أهل الجاهلية يسعون بينهما ويمسحونهما، فلما جاء الإسلام كفوا عن السعي بينهما، فنزلت هذه الآية. والثالث: أن الصحابة قالت للنبي ﷺ: إنا كنا نطوف في الجاهلية بين الصفا والمروة، وإن الله تعالى ذكر الطواف بالبيت، ولم يذكره بين الصفا والمروة، فهل علينا من حرج أن لا نطوف بهما؟ فنزلت هذه الآية. رواه الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن عن جماعة من أهل العلم. قال إبراهيم بن السري: الصفا في اللغة: الحجارة الصلبة الصلدة التي لا تنبت شيئاً، وهو جمع، واحده صفاة وصفاء، مثل: حصة وحصى. والمروة: الحجارة اللينة، وهذان الموضعان من شعائر الله، أي: من أعلام متعبداته. وواحد الشعائر: شعيرة. والشعائر: كل ما كان من موقف أو سعي أو ذبح. والشعائر: من شعرت بالشيء: إذا علمت به، فسميت الأعلام التي هي متعبدات الله: شعائر الله. والحج في اللغة: القصد، وكذلك كل قاصد شيئاً فقد اعتمره. والجنح: الإثم، أخذ من جنح: إذا مال وعدل، وأصله من جناح الطائر، وإنما اجتنب المسلمون الطواف بينهما، لمكان الأوثان، ف قيل لهم: إن نصب الأوثان بينهما قبل الإسلام لا يوجب اجتنابهما، فأعلم الله ﷻ أنه لا جناح في التطوف بهما، وأن من تطوع بذلك فإن الله شاكر عليم. والشكر من الله: المجازاة والثناء الجميل، والجمهور قرؤوا (ومن تطوَّع) بالثاء ونصب العين. منهم: ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر. وقرأ حمزة، والكسائي «يطوَّع» بالياء وجزم العين. وكذلك خلافهم في التي بعدها بآيات.

فصل

اختلفت الرواية عن إمامنا أحمد في السعي بين الصفا والمروة، فنقل الأثر من ترك السعي لم يجزه حجه.

(١) العدل بكسر العين: نصف الحمل يكون على أحد جنبي البعير. والعلاوة: هي ما يوضع بين العدلين، وهي زيادة في الحمل، وأراد بالعدلين: الصلاة، والرحمة. وبالعلاوة: الانتهاء، وقد أخرج هذا الأثر البخاري تعليقاً، ووصله الحاكم وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» وسنده صحيح، ورواه أحمد والبخاري ومسلم مطولاً.

ونقل أبو طالب: لا شيء في تركه عمداً أو سهواً، ولا ينبغي أن يتركه. ونقل الميموني أنه تطوع.
قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا آتَاكَ مِنْ الْبَيْنَتِ وَأَلْبَسْتِ بِكُلِّ وَجْهٍ دُخَانًا﴾ قال أبو صالح عن ابن عباس: نزلت في رؤساء اليهود، كتموا ما أنزل الله في التوراة من البينات والهدى، فالبينات: الحلال والحرام والحدود والفرائض. والهدى: نعت النبي وصفته ﴿مِنْ بَيْنِ مَا يَكْتُمُ لِلنَّاسِ﴾ قال مقاتل: لبني إسرائيل. وفي الكتاب قولان: أحدهما: أنه التوراة، وهو قول ابن عباس. والثاني: التوراة والإنجيل، قاله قتادة. ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الكاتمين ﴿يَكْتُمُونَ اللَّهَ﴾ قال ابن قتيبة: أصل اللعن في اللغة: الطرد، ولعن الله إبليس، أي: طرده، ثم انتقل ذلك فصار قولاً. قال الشماخ وذكر ماء:

ذعرت به القطا ونفيت عنه
مقام الذنب كالرجل اللعين^(١)
أي: الطريد. وفي اللاعنين أربعة أقوال: أحدها: أن المراد بهم: دواب الأرض، رواء البراء عن النبي ﷺ^(٢)
وهو قول مجاهد، وعكرمة. قال مجاهد: يقولون: إنما منعنا القطر بذنوبكم، فيلعنونه. والثاني: أنهم المؤمنون، قاله عبد الله بن مسعود. والثالث: أنهم الملائكة والمؤمنون، قاله أبو العالية، وقاتدة. والرابع: أنهم الجن والإنس وكل دابة، قاله عطاء.

فصل

وهذه الآية توجب إظهار علوم الدين، منصوبة كانت أو مستنبطة، وتدل على امتناع جواز أخذ الأجرة على ذلك، إذ غير جائز استحقاق الأجر على ما يجب فعله، وقد روى الأعرج عن أبي هريرة أنه قال: إنكم تقولون: أكثر أبو هريرة على النبي ﷺ، والله الموعود، وإيم الله: لولا آية في كتاب الله ما حدثت أحداً بشيء أبداً، ثم تلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا آتَاكَ مِنْ الْبَيْنَتِ﴾ إلى آخرها^(٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَئِكَ أُولُو الْإِيمَانِ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ قال ابن مسعود: إلا الذين تابوا من اليهود وأصلحوا أعمالهم، وبيّنوا صفة رسول الله في كتابهم.

فصل

وقد ذهب قوم إلى أن الآية التي قبل هذه منسوخة بالاستثناء في هذه، وهذا ليس بنسخ، لأن الاستثناء إخراج بعض ما شمله اللفظ، وذلك يقتضي التخصيص دون النسخ، وما يحقق هذا أن الناسخ والمنسوخ لا يمكن العمل بأحدهما إلا بترك العمل بالآخر، وهاتنا يمكن العمل بالمستثنى والمستثنى منه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا وَآمَنُوا وَكَفَرُوا أُولَئِكَ لَنْ يَكُنَّ لَهُمْ أَلْفَاظٌ وَلَا نَوَائِدُ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا وَآمَنُوا وَكَفَرُوا﴾ إنما شرط الموت على الكفر، لأن حكمه يستقر بالموت عليه، فإن قيل: كيف قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأهل دينه لا يلعنونه، فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنهم يلعنونه في الآخرة. قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لَّيْسَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [المنكحوت: ٢٥]. وقال: ﴿كُلَّمَا دَخَلْتَ أُمَّةً لَعَنْتَ أَخْبَارَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]. والثاني: أن المراد بالناس هاتنا: المؤمنون، قاله ابن مسعود، وقاتدة، ومقاتل. فيكون على هذا من العام الذي أريد به الخاص. والثالث: أن اللعنة من الأكثر يطلق عليها: لعنة جميع الناس تغليبا لحكم الأكثر على الأقل.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْقَرُونَ﴾

- (١) قال في «اللسان» أراد مقام الذنب الطريد، كالرجل. والرجل اللعين المطرود، لا يزال منتبذاً عن الناس، شبه الذنب به في ذله وشدة مخافته وذعره.
- (٢) رواء ابن ماجه، وابن أبي حاتم، وفي سننه لث بن أبي سليم، وهو ضعيف.
- (٣) رواء أحمد، والبخاري ومسلم، وغيرهم. وقوله: «فوالله الموعود» قال القاضي عياض في «المشارك»: أي؛ عند الله المجتمع، أو إليه. وقال الحافظ في «الفتح»: ومراده أن الله تعالى يحاسبني إن تمعدت كذباً، ويحاسب من يظن بي سوء.

قوله تعالى: ﴿خَلِّينَا فِيهَا﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها تعود إلى اللعنة، قاله ابن مسعود، ومقاتل. والثاني: أنها ترجع إلى النار، وإن لم يجر لها ذكر فقد علمت.

﴿وَاللَّهُكَ إِلَهٌ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُكَ إِلَهٌ وَحْدٌ﴾ قال ابن عباس: إن كفار قريش قالوا: يا محمد صف لنا ربك وانسبه، فنزلت هذه الآية، وسورة الإخلاص. والإله بمعنى: المعبود.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَتْمَتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَزَلَّ اللَّهُ مِنَ النَّسَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَلَأَنبَأَ بِذَلِكَ مَوْثِقًا يَدُ الْأَرْضِ بَدْرًا مَوْتًا وَبَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالشَّجَابِ الْمُسَحَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن المشركين قالوا للنبي: اجعل لنا الصفا ذهباً إن كنت صادقاً؛ فنزلت هذه الآية، حكاه السدي عن ابن مسعود، وابن عباس. والثاني: أنهم لما قالوا: انسب لنا ربك وصفه؛ فنزلت: ﴿وَاللَّهُكَ إِلَهٌ وَحْدٌ﴾ قالوا: فأرنا آية ذلك؛ فنزلت: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾ رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنه لما نزلت ﴿وَاللَّهُكَ إِلَهٌ وَحْدٌ﴾ قال كفار قريش: كيف يسع الناس إله واحد؟ فنزلت هذه الآية، قاله عطاء. فأما ﴿السَّمَكَاتِ﴾؛ فتدل على صانعها، إذ هي قائمة بغير عمد، وفيها من الآيات الظاهرة ما يدل يسره على مبدعه، وكذلك الأرض في ظهور ثمارها، وتمهيد سهولها، وإرساء جبالها، إلى غير ذلك. ﴿وَأَنفَتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ كل واحد منهما حادث بعد أن لم يكن، وزائل بعد أن كان ﴿وَالْفَلَكَ﴾: السفن. قال ابن قتيبة: الواحد والجمع بلفظ واحد. وقال البيهقي: واحدة فلكة، ويذكر ويؤنث. وقال الزجاج: الفلك: السفن، ويكون واحداً، ويكون جمعاً، لأن فَعَلَ، وفَعَّلَ جمعهما واحد، ويأتیان كثيراً بمعنى واحد. يقال: العجم والعُجم، والعرب والعُرب، والفلك والفُلك. والفلك: يقال لكل شيء مستدير، أو فيه استدارة. و﴿الْبَحْرِ﴾: الماء الغزير ﴿بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ من المعاش. ﴿وَمَا أَزَلَّ اللَّهُ مِنَ النَّسَاءِ مِنْ مَّاءٍ﴾ يعني: المطر، والمطر ينزل على معنى واحد، وأجزاء الأرض والهواء على معنى واحد، والأنواع تختلف في النبات والطعوم والألوان والأشكال المختلفة، وفي ذلك رد على من قال: إنه من فعل الطبيعة، لأنه لو كان كذلك لوجب أن يتفق موجها، إذ المتفق لا يوجب المختلف، وقد أشار سبحانه إلى هذا المعنى في قوله: ﴿يَسْئَلُ مَلَكُوتُ رَبِّهِ وَتَفْطِلُ بَقَعَهَا عَلَى تَقْوِيٍّ فِي الْأَكْصَى﴾ [الرعد: ٤].

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَ﴾ أي: فرق.

قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ قرأ ابن كثير (الرياح) على الجمع في خمسة مواضع: هاهنا. وفي الحجر: ٢٢. ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيْحَ لَوَاقِحَ﴾ وفي الكهف: ٤٦. ﴿تَذَرُهُ الرِّيْحُ﴾ وفي الروم: ٤٦. الحرف الأول (الرياح). وفي الجاثية: ٤ ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ وقرأ باقي القرآن (الريح). وقرأ أبو جعفر (الرياح) في خمسة عشر موضعاً؛ في البقرة، وفي الأعراف: ٥٦. ﴿رُسُلُ الرِّيْحِ﴾ وفي إبراهيم: ١٨. ﴿أَسْتَدْتُ بِهِ الرِّيْحَ﴾ وفي الحجر: ٢٢. ﴿الرِّيْحَ لَوَاقِحَ﴾ وفي سبحان: ١٩. وفي الكهف: ٤٥. ﴿تَذَرُهُ الرِّيْحُ﴾ وفي الأنبياء: ٨١. وفي الفرقان: ٤٨. ﴿أَرْسَلْنَا الرِّيْحَ﴾ وفي النمل. والثاني من الروم: ٤٨. وفي سبأ: ١٢. وفي ص: ٣٦. وفي عسق: ٣٣. ﴿يُسْكِنُ الرِّيْحَ﴾ وفي الجاثية: ٥. ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ تابعه نافع إلا في سبحان. ورياح سليمان: الأنبياء: ٨١. وتابع نافعاً أبو عمرو إلا في حرفين: (الريح) في إبراهيم، وعسق، ووافق أبا عمرو، وعاصم، وابن عامر. وقرأ حمزة (الرياح) جمعاً في موضعين: في الفرقان، والحرف الأول من الروم، ويقاين على التوحيد. وقرأ الكسائي مثل حمزة، إلا إنه زاد عليه في الحجر: ٢٢. ﴿الرِّيْحَ لَوَاقِحَ﴾ ولم يختلفوا فيما ليس فيه ألف ولام، فمن جمع؛ فكل ريح تساوي أختها في الدلالة على التوحيد والنفع، ومن وحد؛ أراد الجنس. ومعنى تصريف الرياح: تقلبها شمالاً مرة، وجنوباً مرة، ودبوراً أخرى، وصباً أخرى، وعذاباً ورحمة. ﴿وَالشَّجَابِ الْمُسَحَّرِ﴾: المذلّل. والآية فيه من أربعة أوجه، ابتداء كونه، وانتهاء تلاشيهِ، وقيامه بلا دعامة ولا علاقة، وإرساله إلى حيث شاء الله تعالى. ﴿لَآيَاتٍ﴾. الآية: العلامة. أخبرنا عبد الوهاب الحافظ قال: أخبرنا عاصم

قال: أخبرنا ابن بشران قال: أخبرنا ابن صفوان قال: حدثنا ابن أبي الدنيا قال: حدثني هارون قال: حدثني عفان عن مبارك بن فضالة قال: سمعت الحسن يقول: كانوا يقولون، يعني: أصحاب النبي ﷺ: الحمد لله الرفيق، الذي لو جعل هذا الخلق خلقاً دائماً لا يتصرف، لقال الشاك في الله: لو كان لهذا الخلق ربٌ لحادثه، وإن الله تعالى قد حادث بما ترون من الآيات، إنه جاء بضوء طَبَّق ما بين الخافقين، وجعل فيها معاشاً، وسراجاً وهاجاً، ثم إذا شاء ذهب بذلك الخلق، وجاء بظلمة طَبَّقَتْ ما بين الخافقين، وجعل فيه سكناً ونجوماً، وقمرًا منيرًا، وإذا شاء، بنى بناء، جعل فيه المطر، والبرق، والرعد، والصواعق، ما شاء، وإذا شاء صرف ذلك، وإذا شاء جاء ببرد يرقف الناس، وإذا شاء ذهب بذلك، وجاء بحرٌ يأخذ أنفاس الناس، ليعلم الناس أن لهذا الخلق رباً يحادثه بما ترون من الآيات، كذلك إذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ سَكِيدٌ الْعَذَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ في الأنداد قولان قد تقدما في أول السورة. وفي قوله: ﴿يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: أن معناه: يحبونهم كحب الذين آمنوا لله، هذا قول ابن عباس، وعكرمة، وأبي العالية، وابن زيد، ومقاتل، والفراء. والثاني: يحبونهم كمحبتهم لله، أي: يسوون بين الأوثان وبين الله تعالى في المحبة. هذا اختيار الزجاج، قال: والقول الأول ليس بشيء، والدليل على نقضه قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ قال المفسرون: أشد حباً لله من أهل الأوثان لا وثانهم.

قوله تعالى: ﴿لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قرأ أبو عمرو، وابن كثير، وعاصم، وحزمة والكسائي: (يرى) بالياء، ومعناه: لو يرون عذاب الآخرة؛ لعلموا أن القوة لله جميعاً. وقرأ نافع، وابن عامر، ويعقوب: ﴿وَلَوْ يَرَى﴾ بالياء، على الخطاب للنبي ﷺ، والمراد به جميع الناس. وجوابه محذوف، تقديره: لرأيتُم أمراً عظيماً، كما تقول: لو رأيت فلاناً والسياط تأخذ. وإنما حذف الجواب، لأن المعنى واضح بدونه. قال أبو علي: وإنما قال: «إذ» ولم يقل: «إذا» وإن كانت «إذ» لما مضى، لإرادة تقريب الأمر، فأتى بمثال الماضي، وإنما حذف جواب «لو» لأنه أفخم، لذهاب المتوعد إلى كل ضرب من الوعيد. وقرأ أبو جعفر، (إن القوة لله) و: (إن الله) بكسر الهمزة فيهما على الاستئناف، كأنه يقول: فلا يحزنك ما ترى من محبتهم أصنامهم إنَّ ﴿الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ قال ابن عباس: القوة: القدرة، والمنعة.

﴿إِذْ تَرَى الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَفَتْ فِيهِمُ الْآسَابُ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنك لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَفَعَتَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم القادة والرؤساء، قاله ابن عباس، وأبو العالية، وقتادة، ومقاتل، والزجاج. والثاني: أنهم الشياطين، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ يشمل الكل. ﴿وَتَقَفَتْ فِيهِمُ الْآسَابُ﴾ أي: عنهم، مثل قوله: ﴿فَتَنَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]. وفي (الأسباب) أربعة أقوال: أحدها: أنها المودات، وإلى نحوه ذهب ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. والثاني: أنها الأعمال، رواه السدي عن ابن مسعود، وابن عباس، وهو قول أبي صالح وابن زيد. والثالث: أنها الأرحام. رواه ابن جريج عن ابن عباس. والرابع: أنها تشمل جميع ذلك. قال ابن قتيبة: هي الأسباب التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا، فأما تسميتها بالأسباب، فالسبب في اللغة: الحبل، ثم قيل لكل ما يتوصل به إلى المقصود: سبب. والكُرَّة: الرجعة إلى الدنيا، قاله ابن عباس، وقتادة في آخرين ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ يريدون: من القادة ﴿كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ في الآخرة. ﴿كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَفَعَتَلَهُمْ﴾ قال الزجاج: أي: كتبوا بعضهم من بعض، يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم، لأن أعمال الكافر لا تنفعه. وقال ابن الأنباري: يريهم الله أعمالهم القبيحة حسرات عليهم إذا رأوا أحسن المجازاة للمؤمنين بأعمالهم، قال: ويجوز أن يكون: كذلك يريهم الله ثواب أعمالهم الصالحة وجزاءها، فحذف الجزاء وأقام الأعمال مقامه. قال ابن فارس: والحسرة: التلطف على الشيء الفائت. وقال غيره: الحسرة: أشد الندامة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُفُّوا رِئَاسَ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ طَلَبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الْكَافِرِينَ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُفُّوا رِئَاسَ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ طَلَبًا﴾ نزلت في ثقيف، وخزاعة، وبنو عامر بن صعصعة، فيما حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام، وحرموا البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الْكَافِرِينَ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، والكسائي، وحفص عن عاصم ﴿خُطُوتِ﴾ مشقة^(١). وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وحمزة (خُطُوت) ساكنة الطاء خفيفة. وقرأ الحسن، وأبو الجوزاء (خُطُوت) بفتح الخاء وسكون الطاء من غير همز. وقرأ أبو عمران الجوني بضم الخاء والطاء مع الهمز. قال ابن قتيبة: خطواته: سبيله ومسلكه، وهي جمع خُطوة، والخطوة بضم الخاء: ما بين القدمين، وبفتحتها: الفعلة الواحدة. واتباعهم خطواته: أنهم كانوا يحرمون أشياء قد أحلها الله، ويحلون أشياء قد حرمها الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي: بين. وقيل: أبان عداوته بما جرى له مع آدم.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالشُّوِّ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالشُّوِّ وَالْفَحْشَاءِ﴾ الشُّو: كل إثم وقبح. قال ابن عباس: وإنما سمي سوءاً، لأنه تسوء عواقبه، وقيل: لأنه يسوء إظهاره (والفحشاء) من: فحش الشيء: إذا جاز قدره. وفي المراد بها هاهنا خمسة أقوال: أحدها: أنها كل معصية لها حد في الدنيا. والثاني: أنها ما لا يعرف في شريعة ولا سنة. والثالث: أنها البخل، وهذه الأقوال الثلاثة متقولة عن ابن عباس. والرابع: أنها الزنى، قاله السدي. والخامس: المعاصي، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنه حرم عليكم ما لم يحرم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آتَيْنَا عَلَيْهِ آيَاتًا أَوَلَوْ كُنَّا عَنْ آبَائِكُمْ لَا يَتَّبِعُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها في الذين قبل لهم: ﴿كُفُّوا رِئَاسَ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ طَلَبًا﴾ فعلى هذا تكون الهاء والميم عائدة عليهم، وهذا قول مقاتل. والثاني: أنها نزلت في اليهود، وهي قصة مستأنفة، فتكون الهاء والميم كناية عن غير مذكور، ذكره ابن إسحاق عن ابن عباس. والثالث: في مشركي العرب وكفار قريش، فتكون الهاء والميم عائدة إلى قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْكَارًا﴾ فعلى القول الأول؛ يكون المراد بالذي أنزل الله: تحليل الحلال، وتحريم الحرام. وعلى الثاني يكون: الإسلام. وعلى الثالث: التوحيد والإسلام. و﴿آيَاتًا﴾ بمعنى: وجدنا.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا عَنْ آبَائِكُمْ لَا يَتَّبِعُونَ شَيْئًا﴾ من الدين، ولا يهتدون له، أيتبعونهم أيضاً في خطئهم

واقترائهم^{١٩}.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْآزِيِّ يَتَّبِعُ مَا لَا يَشْعُرُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ثُمَّ يَكْفُرُ عَنْهُمْ عَثَىٰ قَوْمٌ لَا يَقُولُونَ شَيْئًا﴾

﴿كُفُّوا رِئَاسَ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ طَلَبًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْآزِيِّ يَتَّبِعُ مَا لَا يَشْعُرُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ في معنى هذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناها: ومثل الذين كفروا كمثل البهائم التي يتبع ما بها الراعي، وهذا قول الفراء، وثعلب، قال جميعاً: أضاف المثل إلى الذين كفروا، ثم شبههم بالراعي، ولم يقل: كالغنم، والمعنى: ومثل الذين كفروا كمثل البهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من الصوت، فلو قال لها الراعي: ارعي، أو اشربي؛ لم تدر ما يقول لها، فكذلك الذين كفروا فيما يأتيهم من القرآن وإنذار الرسول، فأصيب التشبيه إلى الراعي، والمعنى في المرعي، وهو ظاهر في كلام العرب، يقولون: فلان يخافك كخوف الأسد، والمعنى: كخوف الأسد [لأن الأسد هو المعروف بأنه المخوف]. قال الشاعر:

كانت فريضة ما تقول كما كان الزناء فريضة الرجم

والمعنى: كما كان الرجم فريضة الزنى. والثاني: أن معناها: ومثل الذين كفروا، ومثلنا في وعظهم، كمثل الناق

والمنعوق به، فحذف: ومثلنا، اختصاراً، إذ كان في الكلام ما يدل عليه، وهذا قول ابن قتيبة، والزجاج. **والثالث:** ومثل الذين كفروا في دعائهم ألهمهم التي يعبدون، كمثل الذي ينطق، هذا قول ابن زيد، والذي ينطق هو الراعي، يقال: نطق بالغنم، ينطق نطقاً ونعيقاً ونعاقاً ونعقاً. قال ابن الأنباري: والفاسي في كلام العرب أنه لا يقال: نطق، إلا في الصياح بالغنم وحدها، فالغنم تسمع الصوت ولا تعقل المعنى. **﴿مُتَّ بِكُمْ﴾** إنما وصفهم بالصم والبكم، لأنهم في تركهم قبول ما يسمعون بمنزلة من لا يسمع، وكذلك في النطق والنظر، وقد سبق شرح هذا المعنى.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أُوْهِلَ بِهِ لَيْتِيَ اللَّهُ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾** قرأ أبو جعفر «الميتة» هاهنا، وفي المائدة، والنحل: **﴿بِلَذَّةٍ مَيْتَةٍ﴾** لق: [١١]. بالتشديد، حيث وقع. والميتة في عرف الشرع: اسم لكل حيوان خرجت روحه بغير ذكاة. وقيل: إن الحكمة في تحريم الميتة أن جمود الدم فيها بالموت يحدث أذى للأكل، وقد يسمى المذبوح في بعض الأحوال: ميتة حكماً، لأن حكمه حكم الميتة، كذبيحة المرتد. فأما الدم؛ فالمحرم منه: المسفوح، لقوله تعالى: **﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾** [الأنعام: ١٤٥]. قال القاضي أبو يعلى: فأما الدم الذي يبقى في خلل اللحم بعد الذبح، وما يبقى في العروق؛ فهو مباح. فأما لحم الخنزير؛ فالمراد: جملته، وإنما خص اللحم، لأنه معظم المقصود. قال الزجاج: الخنزير يشتمل على الذكر والأنثى. ومعنى **﴿وَمَا أُوْهِلَ بِهِ لَيْتِيَ اللَّهُ﴾**. ما رفع فيه الصوت بتسمية غير الله، ومثله الإهلال بالحج، إنما هو رفع الصوت بالتلبية.

قوله تعالى: **﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾** أي: ألجئ بضرورة. وقرأ أبو جعفر: **﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾** بكسر الطاء حيث كان. وأدغم ابن محيصن الضاد في الطاء.

قوله تعالى: **﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾** أربعة أقوال: أحدها: أن معناه غير باغ على الولاة، ولا عاد يقطع السبيل، هذا قول سعيد بن جبير ومجاهد. والثاني: غير باغ في أكله فوق حاجته، ولا متعد بأكلها وهو يجدها، هذا قول الحسن، وعكرمة، وقتادة، والربيع. والثالث: غير باغ، أي: مستحل، ولا عاد: غير مضطر، روي عن سعيد بن جبير، ومقاتل. والرابع: غير باغ شهوته بذلك، ولا عاد بالشبع منه، قاله السدي.

فصل

معنى الضرورة في إباحة الميتة: أن يخاف على نفسه أو بعض أعضائه. سئل أحمد رحمته الله عن المضطر إذا لم يأكل الميتة، فذكر عن مسروق أنه قال: من اضطر فلم يأكل فمات دخل النار. فأما مقدار ما يأكل؛ فنقل حنبل: يأكل مقدار ما يقيمه عن الموت. ونقل ابن منصور: يأكل بقدر ما يستغني. فظاهر الأولى: أنه لا يجوز له الشبع، وهو قول أبي حنيفة والشافعي، وظاهر الثانية: جواز الشبع، وهو قول مالك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيُسَدُّونَ بِهِ سَبِيلَ اللَّهِ وَلَيَأْكُلُنَّ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا أَنْشَارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾** قال ابن عباس: نزلت في اليهود، كنمو اسم النبي ﷺ وغيره في كتابهم. واليمن القليل: ما يصيبونه من أتباعهم من الدنيا. **﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا أَنْشَارَ﴾** قال الزجاج: معناه: إن الذين يأكلونه يعذبون به، فكانهم يأكلون النار. **﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمْ﴾** هذا دليل على أن الله لا يكلم الكفار ولا يحاسبهم.

قوله تعالى: **﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾** [فيه] ثلاثة أقوال: أحدها: لا يزكي أعمالهم، قاله مقاتل. والثاني: لا يشي عليهم، قاله الزجاج. والثالث: لا يطهرهم من دنس كفرهم وذنوبهم، قاله ابن جرير.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾^(١٧٥)
قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ﴾ أي: اختاروها على الهدى.

قوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن معناه: فما أصبرهم على عمل يؤذيهم إلى النار! قاله عكرمة، والربيع. والثاني: ما أجزأهم على النار؛ قاله الحسن، ومجاهد. وذكر الكسائي أن أعرابياً حلف له رجل كاذباً، فقال الأعرابي: ما أصبرك على الله، يريد: ما أجزأك. والثالث: ما أبقاهم في النار، كما تقول: ما أصبر فلاناً على الحبس، أي: ما أبقاه فيه، ذكره الزجاج. والرابع: أن المعنى: فأَي شيء صبرهم على النار؟! قاله ابن الأنباري. وفي «ما» قولان: أحدهما: أنها للاستفهام، تقديرها: ما الذي أصبرهم؟ قاله عطاء، والسدي، وابن زيد، وأبو بكر بن عياش. والثاني: أنها للتعجب، كقولك: ما أحسن زيداً، وما أعلم عمراً. وقال ابن الأنباري: معنى الآية التعجب، والله يعجبُ المخلوقين، ولا يعجب هو كعجبهم.

﴿وَلَا يَخَافُ أَنَّ اللَّهَ سَرَّكَ أَلَكُنَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِيُشَاقِقَ بَيْنَهُ﴾^(١٧٦)

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ أَنَّ اللَّهَ سَرَّكَ أَلَكُنَّ بِالْحَقِّ﴾ الإشارة بذلك إلى ما تقدم من الوعيد بالعذاب، فتقديره: ذلك العذاب بأن الله نزل الكتاب بالحق، فكفروا به واختلفوا فيه. وفي «الكتاب» قولان: أحدهما: أنه التوراة. والثاني: القرآن. وفي «الحق» قولان: أحدهما: أنه العدل، قاله ابن عباس. والثاني: أنه ضد الباطل، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ أَنَّ اللَّهَ سَرَّكَ أَلَكُنَّ بِالْحَقِّ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه التوراة. ثم في اختلافهم فيها ثلاثة أقوال: أحدها: أن اليهود والنصارى اختلفوا فيها، فادعى النصارى فيها صفة عيسى، وأنكر اليهود ذلك. والثاني: أنهم خالفوا ما في التوراة من صفة محمد ﷺ. والثالث: أنهم خالفوا سلفهم في التمسك بها. والثاني: أنه القرآن، فمنهم من قال: شعر، ومنهم من قال: إنما يعلمه بشر. والشقاق: معاداة بعضهم لبعض. وفي معنى «بعيد» قولان: أحدهما: أن بعضهم متباعد في مشاقة بعض، قاله الزجاج. والثاني: أنه بعيد من الهدى.

﴿لَيْسَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تُولُوا وَجُوهَكُمْ يَكُنَّ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مِنْ مَّامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَكُوتِ وَالنَّبِيِّينَ وَمَا أَتَى النَّبَا عَلَى حُجَّتِهِ ذَوَى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَنَّ السَّبِيلَ وَالْأَسْلَابَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ يَهْتَدُونَ إِذَا عَاهَدُوا وَالْعَبْدِينَ فِي الْبَاسَاءِ وَالْعُرَى وَبَيْنَ الْبَاسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(١٧٧)

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تُولُوا وَجُوهَكُمْ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً سأل عن «البر»، فأنزلت هذه الآية، فدعاه رسول الله فأتاها عليه. وفيمن حُوطب بها قولان: أحدهما: أنهم المسلمون. والثاني: أهل الكتابين. فعلى القول الأول؛ معناها: ليس البر كله في الصلاة، ولكن البر ما في هذه الآية. وهذا المعنى مروي عن ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، والضحاك، وسفيان. وعلى القول الثاني؛ معناها: ليس البر صلاة اليهود إلى المغرب، وصلاة النصارى إلى المشرق، ولكن البر ما في هذه الآية، وهذا قول قتادة، والربيع، وعوف الأعرابي، ومقاتل. وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: ﴿لَيْسَ إِلَهٌ إِلَّا بَنَصْبِ الرَّاءِ﴾. وقرأ الباقون برفعها، قال أبو علي: كلاهما حسن، لأن كل واحد من الاسمين؛ اسم «ليس» وخبرها، معرفة، فإذا اجتمعا في التعريف تكافأ في كون أحدهما اسماً، والآخر خبراً، كما تكافأ النكرتان. وفي المراد بالبر ثلاثة أقوال: أحدها: الإيمان. والثاني: التقوى. والثالث: العمل الذي يقرب إلى الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مِنْ مَّامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: ولكن البر بر من آمن بالله. والثاني: ولكن ذا البر من آمن بالله، حكاها الزجاج. وقرأ نافع، وابن عامر: (وَلَكِنَّ الْبِرَّ) بتخفيف نون «لكن» ورفع «البر». وإنما ذكر اليوم الآخر، لأن عبدة الأوثان لا يؤمنون بالبعث. وفي المراد بالكتاب هاهنا قولان: أحدهما: أنه القرآن. والثاني: أنه بمعنى الكتب، فيدخل في هذا اليهود، لتكذيبهم بعض النبيين وردهم القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَتَى النَّبَا عَلَى حُجَّتِهِ﴾ في هاء «حبه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى المال. والثاني: إلى الإيتاء. وكان الحسن إذا قرأها قال: سوى الزكاة المفروضة.

قوله تعالى: ﴿ذَوَى الْقُرْبَى﴾ يريد: قرابة المعطي. وقد شرحنا معنى: ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ﴾ عند رأس ثلاث

وثمانين آية من هذه السورة. فأما ﴿وَأَبَى السَّبِيلَ﴾ ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الضيف، قاله سعيد بن جبير، والضحاك، ومقاتل، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج. والثاني: أنه الذي يمر بك مسافراً، قاله الربيع بن أنس، وعن مجاهد، وقتادة كالقولين. وقد روي عن الإمام أحمد أنه قال: هو المنقطع به يريد بلداً آخر. وهذا اختيار ابن جرير الطبري، وأبي سليمان الدمشقي، والقاضي أبو يعلى، ويحققه: أن السبيل الطريق، وابنه: صاحبه الضارب فيه، فله حق على من يمر به إذا كان محتاجاً. ولعل أصحاب القول الأول أشاروا إلى هذا، لأنه إن كان مسافراً، فإنه ضيف لم ينزل. والقول الثالث: أنه الذي يريد سفيراً، ولا يجد نفقة، ذكره الماوردي وغيره عن الشافعي.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ الرِّقَابِ﴾ أي: في فك الرقاب. ثم فيه قولان: أحدهما: أنهم المكاتبون يعانون في كتابتهم بما يعتقون به، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وهو مروى عن علي بن أبي طالب، والحسن، وابن زيد، والشافعي. والثاني: أنهم عبيد يشترون بهذا السهم ويعتقون، رواه مجاهد عن ابن عباس، وبه قال مالك بن أنس، وأبو عبيد، وأبو ثور. وعن أحمد كالقولين. فأما البأساء؛ فهي: الفقراء. والضراء: المرضى. وحين البأس: القتال، قاله الضحاك. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ قال أبو العالية: تكلموا بالإيمان وحقوقه بالعمل.

﴿يَتْلُوا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْ وَالْعَبْدُ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُتِيَ لَمْ مِنْ أُخِيذْ شَيْءٌ فَاَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاةُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَكَفَّ عَذَابُ آيَةٍ ۝١٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ روى شيبان عن قتادة أن أهل الجاهلية كان فيهم بغي وطاعة للشيطان، وكان الحي منهم إذا كان فيهم عدة ومنعة، فقتل عيدهم عبد قوم آخرين؛ قالوا: لن نقتل به إلا حراً، تعزراً لفضلهم على غيرهم. وإذا قتلت امرأة منهم امرأة من آخرين؛ قالوا: لن نقتل بها إلا رجلاً؛ فنزلت هذه الآية. ومعنى «كتب»: فرض، قاله ابن عباس وغيره. والقصاص: مقابلة الفعل بمثله، مأخوذ من: قص الأثر. فإن قيل: كيف يكون فرضاً والولي مخير بينه وبين العفو؟ فالجواب: أنه فرض على القاتل للولي، لا على الولي.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُتِيَ لَمْ مِنْ أُخِيذْ شَيْءٌ﴾ أي: من دم أخيه، أي: ترك له القتل، ورضي منه بالدية. ودل قوله: ﴿وَمِنْ أُخِيذْ﴾ على أن القاتل لم يخرج عن الإسلام، ﴿فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: مطالبته بالمعروف، بأمر أخذ الدية بالمطالبة الجميلة التي لا يرهقه فيها: ﴿وَأَدَاةُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ يأمر المطالب بأن لا يبخس ولا يماطل ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قال سعيد بن جبير: كان حكم الله على أهل التوراة أن يقتل قاتل العمد، ولا يعفى عنه، ولا يؤخذ منه دية، فرخص الله لأمة محمد، فإن شاء ولي المقتول عمداً قتل، وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الدية.

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى﴾ أي: ظلم، فقتل قاتل صاحبه بعد أخذ الدية؛ ﴿فَكَفَّ عَذَابُ آيَةٍ﴾ قال قتادة: يقتل ولا تقبل منه الدية.

فصل

ذهب جماعة من المفسرين إلى أن دليل خطاب^(١) هذه الآية منسوخ، لأنه لما قال: ﴿الْحَرْ وَالْعَبْدُ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى﴾؛ اقتضى أن لا يقتل العبد بالحر، وكذلك لما قال: ﴿وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ اقتضى أن لا يقتل الذكر بالأنثى من جهة دليل الخطاب، وذلك منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ نُلَاقِيَ نَفْسًا بِنَفْسٍ﴾ قال شيخنا علي بن عبيد الله: وهذا عند الفقهاء ليس بنسخ، لأن الفقهاء يقولون: دليل الخطاب حجة ما لم يعارضه دليل أقوى منه.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتْلُوا أَلْأَنْبَى لَكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ قال الزجاج: إذا علم الرجل أنه إن قُتل قُتل؛ أمسك عن القتل، فكان في ذلك حياة للذي هم بقتله ولنفسه، لأنه من أجل القصاص أمسك. وأخذ هذا المعنى الشاعر فقال:

أبلغ أبا مالك عني مغلغلة وفي العتاب حياة بين أقوام

(١) دليل الخطاب عند الأصوليين هو مفهوم المخالفة، وهو ثبوت نفي حكم المنطوق للمسكوت.

يريد: أنهم إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب. والألباب: العقول، وإنما خصهم بهذا الخطاب وإن كان الخطاب عاماً، لأنهم المتفعون بالخطاب، لكونهم يأترون بأمره ويتبهون بنهيه.

قوله تعالى: ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال ابن عباس: لعلكم تتقون الدعاء. وقال ابن زيد: لعلك تتقي أن يقتله فتقتل به.

فصل

نقل ابن منصور عن أحمد: إذا قتل رجل رجلاً بعصى، أو خنقه، أو شدخ رأسه بحجر، يقتل بمثل الذي قتل به. فظاهر هذا: أن القصاص يكون بغير السيف، ويكون بمثل الآلة التي قتل بها، وهو قول مالك، والشافعي. ونقل عنه حرب: إذا قتله بخشبة قتل بالسيف. ونقل أبو طالب: إذا خنقه قتل بالسيف. فظاهر هذا: أنه لا يكون القصاص إلا بالسيف، وهو قول أبي حنيفة رحمه الله.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُنْقِينَ﴾^(١٨١)
قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ قال الزجاج: المعنى: وكتب عليكم، إلا أن الكلام إذا طال استغنى عن العطف بالواو. وعلم أن معناه معنى الواو، وليس المراد: كتب عليكم أن يوصي أحدكم عند الموت، لأنه في شغل حيث، وإنما المعنى: كتب عليكم أن توصوا وأنتم قادرون على الوصية، فيقول الرجل: إذا أنا مت، ففلان كذا. فأما الخير هاهنا؛ فهو المال في قول الجماعة. وفي مقدار المال الذي تقع هذه الوصية فيه ستة أقوال: أحدها: أنه ألف درهم فصاعداً، روي عن علي، وقناة. والثاني: أنه سبعمائة درهم فما فوقها، رواه طاووس عن ابن عباس. والثالث: ستون ديناراً فما فوقها، رواه عكرمة عن ابن عباس. والرابع: أنه المال الكثير الفاضل عن نفقة العيال. قالت عائشة لرجل سألها: إني أريد الوصية، فقالت: كم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف، قالت: كم عيالك؟ قال: أربعة. قالت: هذا شيء يسير، فدعه لعيالك. والخامس: أنه من ألف درهم إلى خمسمائة، قاله إبراهيم النخعي. والسادس: أنه القليل والكثير، رواه معمر عن الزهري. فأما المعروف؛ فهو الذي لا حيف فيه.

فصل

وهل كانت الوصية ندباً أو واجبة؟ فيه قولان: أحدهما: أنها كانت ندباً. والثاني: أنها كانت فرضاً، وهو أصح، لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ﴾ ومعناه: فرض. قال ابن عمر: نسخت هذه الآية بآية الميراث. وقال ابن عباس: نسختها: ﴿لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنَحْلِهِمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧]. والعلماء متفقون على نسخ الوصية للوالدين والأقربين الذين يرثون، وهم مختلفون في الأقربين الذين لا يرثون: هل تجب الوصية لهم؟ على قولين، أحدهما أنها لا تجب لأحد.

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١٨٢)
قوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ قال الزجاج: من بدل أمر الوصية بعد سماعه إياها، فإنما إثم على مبدله، لا على الموصي، ولا على الموصى له ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما قد قاله الموصي ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعله الموصى إليه.

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١٨٣)
قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم ﴿مَوْصٍ﴾ ساكنة الواو، وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم ﴿مَوْصٍ﴾ مفتوحة الواو مشددة الصاد. وفي المراد بالخوف هاهنا قولان: أحدهما: أنه العلم. والثاني: نفس الخوف. فعلى الأول؛ يكون الجور قد وجد. وعلى الثاني: يخشى وجوده. والجنف: الميل عن الحق. قال الزجاج: ﴿جَنَفًا﴾، أي: ميلاً، ﴿أَوْ إِثْمًا﴾، أي: قصد الإثم. وقال ابن عباس: الجنف: الخطأ، والإثم: العمد. قال أبو سليمان الدمشقي: الجنف: الخروج عن الحق، وقد يسمى به المخطئ والعامد، إلا أن المفسرين علّقوا الجنف على المخطئ، والإثم على العامد. وفي توجيه هذه الآية قولان: أحدهما: أن معناها: من حضر رجلاً يموت، فأسرف في وصيته، أو قصر عن حق؛ فليأمره بالعدل، هذا قول مجاهد.

والثاني: أن معناها: من أوصى بجور، فرد وليه وصيته، أو ردها إمام من أئمة المسلمين إلى كتاب الله وسنة نبيه؛ فلا إثم عليه، وهذا قول قتادة.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْلَحَ بَنِيهِمْ﴾ أي: بين الذين أوصى لهم، ولم يجز لهم ذكر، غير أنه لما ذكر الموصي أفاد مفهوم الخطاب أن هناك موصى له، وأنشد الفراء:

وما أدري إذا يمممت أرضاً أريد الخير أيهما يليني؟
الخير الذي أنا أبتغيه أم الشر الذي هو يبتغيني

فكفى في البيت الأول عن الشر بعد ذكره الخير وحده، لما في مفهوم اللفظ من الدلالة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَقْوَىٰ ﴿١٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ الصيام في اللغة: الإمساك في الجملة، يقال: صامت الخيل: إذا أسكت عن السير، وصامت الريح: إذا أسكت عن الهبوب. والصوم في الشرع: عبارة عن الإمساك عن الطعام والشراب والجماع مع انضمام النية إليه. وفي الذين من قبلنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أهل الكتاب، رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس، وهو قول مجاهد. والثاني: أنهم النصارى، قاله الشعبي، والربيع. والثالث: أنهم جميع أهل الملل، ذكره أبو صالح عن ابن عباس. وفي موضع التشبيه في كاف ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ قولان: أحدهما: أن التشبيه في حكم الصوم وصفته، لا في عدده. قال سعيد بن جبير: كتب عليهم إذا نام أحدهم قبل أن يطعم لم يحل له أن يطعم إلى القابلة، والنساء عليهم حرام ليلة الصيام، وهو عليهم ثابت. وقد أرخص لكم. فعلى هذا تكون هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصِيَارُ الرَّفَثِ﴾ [البقرة: ١٨٧]. فإنها فرقت بين صوم أهل الكتاب وبين صوم المسلمين. والثاني: أن التشبيه في عدد الأيام. ثم في ذلك قولان: أحدهما: أنه فرض على هذه الأمة صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وقد كان ذلك فرضاً على من قبلهم. قال عطية عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ قال: كان ثلاثة أيام من كل شهر، ثم نسخ بربضان. قال معمر عن قتادة: كان الله قد كتب على الناس قبل رمضان ثلاثة أيام من كل شهر، فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ والثاني: أنه فرض على من قبلنا صوم رمضان بعينه. قال ابن عباس: فقدم النصارى يوماً ثم يوماً، وأخروا يوماً، ثم قالوا: تقدم عشراً وتؤخر عشراً. وقال السدي عن أشياخه: اشتد على النصارى صوم رمضان، فجعل يتقلب عليهم في الشتاء والصيف، فلما رأوا ذلك اجتمعوا فجعلوا صياماً في الفصل بين الشتاء والصيف، وقالوا: نزيد عشرين يوماً نكفر بها ما صنعنا. فعلى هذا تكون الآية محكمة غير منسوخة.

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ تَقْوَىٰ﴾ لأن الصيام وصلة إلى التقى، إذ هو يكف النفس عن كثير مما تتطلع إليه من المعاصي، وقيل: لعلكم تقون محظورات الصوم.

﴿إِنَّمَا مَنَعْدُكُمْ مِّنْ كَانَتْ مِنكُمْ رَّيْبًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَمِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرٍ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَكَوَّنَ خَيْرٌ لَّهُمْ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَنَعْدُكُمْ﴾ قال الزجاج: نصب «أياماً» على الظرف، كأنه قال: كتب عليكم الصيام في هذه الأيام. والعامل فيه «الصيام»، كأن المعنى: كتب عليكم أن تصوموا أياماً معدودات. وفي هذه الأيام ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ثلاثة أيام من كل شهر. والثاني: أنها ثلاثة أيام من كل شهر ويوم عاشوراء. والثالث: أنها شهر رمضان، وهو الأصح. وتكون الآية محكمة في هذا القول، وفي القولين قبله تكون منسوخة، ﴿فَمَن كَانَتْ مِنكُمْ رَّيْبًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَمِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرٍ﴾ فيه إضمار: فافطر.

فصل

وليس المرض والسفر على الإطلاق، فإن المريض إذا لم يضر به الصوم؛ لم يجز له الإفطار، وإنما الرحمة

موقوفة على زيادة المرض بالصوم. واتفق العلماء أن السفر مقدر، واختلفوا في تقديره، فقال أحمد، ومالك، والشافعي: أقله مسيرة ستة عشر فرسخاً؛ يومان، وقال أبو حنيفة وأصحابه: أقله مسيرة ثلاثة أيام، مسيرة أربعة وعشرين فرسخاً. وقال الأوزاعي: أقله مرحلة يوم، مسيرة ثمانية فراسخ. وقيل: إن السفر مشتق من السفر الذي هو الكشف، يقال: سفرت المرأة عن وجهها، وأسفر الصبح: إذا أضاء، فسمي الخروج إلى المكان البعيد: سفراً، لأنه يكشف عن أخلاق المسافرين.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ نقل عن ابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وابن عمر، وابن عباس، وسلمة بن الأكوع، وعلقمة، والزهري في آخرين في هذه الآية أنهم قالوا: كان من شاء صام، ومن شاء أفطر واقتدى، يطعم عن كل يوم مسكيناً، حتى نزلت: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فعلى هذا يكون معنى الكلام: وعلى الذين يطيقونه ولا يصومونه فدية، ثم نسخت. وروي عن عكرمة أنه قال: نزلت في الحامل والمرضع. وقرأ أبو بكر الصديق، وابن عباس: (وعلى الذين يُطِيقُونَهُ) بضم الياء وفتح الطاء وتشديد الواو. قال ابن عباس: هو الشيخ والشيخة.

قوله تعالى: ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي ﴿فِدْيَةٌ﴾ منون ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ موحد. وقرأ نافع، وابن عامر: «فدية» بغير تنوين «طعام» بالخفض «مسكين» بالجمع. قال أبو علي: معنى القراءة الأولى: على كل واحد طعام مسكين. ومثله: ﴿تَقَابُلُوهُمْ تَنْتَبِهًا﴾ [النور: ٤]. أي: اجلدوا كل واحد ثمانين. قال أبو زيد: أتينا الأمير فكسانا كلنا حلة، وأعطانا كلنا مئة، أي: فعل ذلك بكل واحد منا. قال: فاما من أضاف الفدية إلى الطعام، فكإضافة البعض إلى ما هو بعض له، وذلك أنه سمي الطعام الذي يفدى به: فدية، ثم أضاف الفدية إلى الطعام الذي يعم الفدية وغيرها، فهو على هذا من باب: خاتم حديد.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: من أطعم مسكينين، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: أن التطوع إطعام مسكين، قاله طاووس. والثالث: أنه زيادة المسكين على قوته، وهو مروي عن مجاهد، وفعله أنس بن مالك لما كبر، ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ عائد إلى من تقدم ذكره من الأصحاء المقيمين المختارين بين الصوم والإطعام على ما حكينا في أول الآية عن السلف، ولم يرجع ذلك إلى المرضى والمسافرين، والحامل والمرضع، إذ الفطر في حق هؤلاء أفضل من الصوم، وقد نهوا عن تعريض أنفسهم للتلف، وهذا يقوي قول القائلين بنسخ الآية.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا آلِمَدَّةَ وَلِتُكْرَبُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ قال الأخفش: شهر رمضان بالرفع على تفسير الأيام، كأنه لما قال: ﴿أَيَّامًا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فسرهما فقال: هي شهر رمضان. قال أبو عبيد: وقرأ مجاهد: (شهر رمضان) بالنصب، وأراه نصبه على معنى الإغراء: عليكم شهر رمضان فصوموه، كقوله: ﴿يَوْمَ لَا يُكْرَمُ﴾ وقوله: ﴿وَيَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ﴾ قلت: ومن قرأ بالنصب معاوية، والحسن، وزيد بن علي، وعكرمة، ويحيى بن يعمر. قال ابن فارس: المرض: حر الحجارة من شدة حر الشمس، ويقال: شهر رمضان، من شدة الحر، لأنهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة، سموها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام مرض الحر، ويجمع على رمضانات، وأرمضاء، وأرمضة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أنزل القرآن فيه جملة واحدة، وذلك في ليلة القدر إلى بيت العزة من السماء الدنيا. قاله ابن عباس. والثاني: أن معناه: أنه أنزل القرآن بفرض صيامه، روي عن مجاهد، والضحاك. والثالث: أن معناه: إن القرآن ابتدئ بنزوله فيه على النبي ﷺ قاله ابن إسحاق، وأبو سليمان الدمشقي. قال مقاتل: والفرقان: المخرج في الدين من الشبهة والضلالة.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي: من كان حاضراً غير مسافر. فإن قيل: ما الفائدة في إعادة ذكر المرض والسفر في هذه الآية، وقد تقدم ذلك؟ قيل: لأن في الآية المتقدمة منسوخاً، فأعاده لئلا يكون مقروناً بالمنسوخ.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك: اليسر: الإفطار في السفر، والعسر: الصوم فيه. وقال عمر بن عبد العزيز: أي ذلك كان أيسر عليك فافعل: الصوم في السفر، أو الفطر. قوله تعالى: ﴿وَلْيُكْمِلُوا آيَاتَهُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿وَلْيُكْمِلُوا﴾ بإسكان الكاف خفيفة. وقرأ أبو بكر عن عاصم بتشديد الميم، وذلك مثل: «وَصَى» و«أَوْصَى» وقال ابن عباس: ولتكمّلوا عدة ما أفطرتم. وقال بعضهم: المراد به: لا تزيدوا على ما افترض، كما فعلت النصارى، ولا تنقلوه عن زمانه كما نقلته. ﴿وَلْيُكْمِلُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ﴾ قال ابن عباس: حق على المسلمين إذا نظروا إلى هلال شوال، أن يكبروا لله حتى يفرغوا من عيدهم. فإن قيل: ما وجه دخول الواو في قوله: ﴿وَلْيُكْمِلُوا آيَاتَهُ﴾ ولتكمّلوا الله ما يعطف عليه؟ فالجواب: أن هذه الواو عطفت اللام التي بعدها على لام محذوفة، والمعنى: ولا يريد بكم العسر، ليسعدكم، ولتكمّلوا العدة، فحذفت اللام الأولى لوضوح معناها، ذكره ابن الأنباري.

فصل

ومن السنة إظهار التكبير ليلة الفطر، وليلة النحر، وإذا غدوا إلى المصلّى. واختلفت الرواية عن أحمد رحمته الله متى يقطع في عيد الفطر، فنقل عنه حنبل: يقطع بعد فراغ الإمام من الخطبة. ونقل الأثرم. إذا جاء المصلّى قطع. قال القاضي أبو يعلى: يعني: إذا جاء المصلّى وخرج الإمام.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها: أن أعرابياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أقرب ربنا فتناجيه، أم بعيد فتناديه؟ فنزلت هذه الآية، رواه الصلت بن حكيم عن أبيه عن جده. والثاني: أن يهود المدينة قالوا: يا محمد! كيف يسمع ربنا دعاءنا، وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء مسيرة خمسمائة عام؟! فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنهم قالوا: يا رسول الله! لو نعلم أية ساعة أحب إلى الله أن ندعو فيها دعوانا، فنزلت هذه الآية، قاله عطاء. والرابع: أن أصحاب النبي قالوا له: أين الله؟ فنزلت هذه الآية، قاله الحسن. والخامس: أنه لما حرم في الصوم الأول على المسلمين بعد النوم الأكل والجماع؛ أكل رجل منهم بعد أن نام، ووطئ رجل بعد أن نام، فسألوا: كيف التوبة مما عملوا؟ فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. ومعنى الكلام: إذا سألوكم عني؛ فأعلمهم أنني قريب. وفي معنى «أجيب» قولان: أحدهما: أسمع، قاله الفراء، وابن القاسم. والثاني: أنه من الإجابة ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي: فليجيبوني. قال الشاعر:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى

فلم يستجبه عند ذاك مجيب

أراد: فلم يجبه. وهذا قول أبي عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ قال أبو العالية: يعني: يهتدون.

فصل

إن قال قائل: هذه الآية تدل على أن الله تعالى يجيب أدعية الداعين، وترى كثيراً من الداعين لا يستجاب لهم! فالجواب: أن أبا سعيد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من مسلم دعا الله تعالى بدعوة ليس فيها قطعة رحم ولا إثم؛ إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها»^(١). وجواب آخر: وهو أن الدعاء تفتقر إجابته إلى شروط أصلها الطاعة لله، ومنها أكل الحلال، فإن أكل الحرام

(١) رواه أحمد في «المستند» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ورواه البزار، وأبو يعلى بأسانيد جهاد، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾ قال عدي بن حاتم: لما نزلت هذه الآية، عمدت إلى عقالين، أبيض وأسود، فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلت أقوم في الليل ولا أستبين الأسود من الأبيض، فلما أصبحت؛ غدوت على رسول الله فأخبرته، فضحك وقال: «إن كان وسادك إذا لعريض، إنما ذاك بياض النهار من سواد الليل»^(١). وقال سهل بن سعد: نزلت هذه الآية: ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأسود والخيط الأبيض، فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له زيهما، فأنزل الله بعد ذلك ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فعملوا أنما يعني بذلك الليل والنهار.

فصل

إذا شك في الفجر، فهل يدع السحور أم لا؟ فظاهر كلام أحمد يدل على أنه لا يدع السحور، بل يأكل حتى يستيقظ طلوع الفجر. وقال مالك: أكره له أن يأكل إذا شك في طلوع الفجر، فإن أكل فعليه القضاء. وقال الشافعي: لا شيء عليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْتَغُوا مِنْهُ وَاسْتَرِ عَنْكُمُوهُ فِي السَّجْدِ﴾ في هذه المباشرة قولان: أحدهما: أنها المجامعة، وهو قول الأكثرين. والثاني: أنها ما دون الجماع من اللمس والقبلة، قاله ابن زيد. وقال قتادة: كان الرجل المعتكف إذا خرج من المسجد، فلقى امرأته باشرها إذا أراد ذلك، فوعظهم الله في ذلك.

فصل

الاعتكاف في اللغة: اللبث، يقال: فلان معتكف على كذا، وعاكف. وهو فعل مندوب إليه، إلا أن ينذره الإنسان، فيجب. ولا يجوز إلا في مسجد تقام فيه الجماعات، ولا يشترط في حق المرأة مسجد تقام فيه الجماعة، إذ الجماعة لا تجب عليها. وهل يصح بغير صوم؟ فيه عن أحمد روايتان.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَجِدُوا فِيهَا غَوْلًا﴾ قال ابن عباس: يعني: المباشرة ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ قال الزجاج: الحدود ما منع الله من مخالفتها، فلا يجوز مجاوزتها. وأصل الحد في اللغة: المنع، ومنه: حد الدار، وهو ما يمنع غيرها من الدخول فيها. والحداد في اللغة: الحاجب والبواب، وكل من منع شيئاً فهو حداد. قال الأعشى:

فقمنا ولما يصح ديكنا إلى جونة عند حدادها

أي: عند ربها الذي يمنعها إلا بما يريده. وأحدث المرأة على زوجها، وحديث، فهي حاد، ومحد: إذا قطعت الزينة، وامتنعت منها، وأحدثت النظر إلى فلان: إذا منعت نظرك من غيره. وسمي الحديد حديداً، لأنه يمتنع به الأعداء.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ﴾ أي: مثل هذا البيان الذي ذكر. ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْمُكَّارِ لَتَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ أَنْتُمْ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ سبب نزولها: أن امرأة القيس بن عابس^(٢)، وعبدان الحضرمي، اختصما في أرض، وكان عبدان هو الطالب ولا بيته له، فأراد امرؤ القيس أن يحلف، فقرأ عليه النبي ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧]. فكره أن يحلف، ولم يخاصم في الأرض، فنزلت هذه الآية. هذا قول جماعة، منهم سعيد بن جبيرة. ومعنى الآية: لا يأكل بعضكم أموال بعض، كقوله: ﴿فَأَقْضُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قال القاضي أبو يعلى: والباطل على وجهين: أحدهما: أن يأخذه بغير طيب نفس من مالكة، كالسرقة، والغصب، والخيانة. والثاني: أن يأخذه بطيب نفسه، كالقمار، والغناء، وثمر الخمر. وقال الزجاج: الباطل: الظلم. ﴿وَتُدْلُوا﴾ أصله في

(٢) في الأصل: ابن عباس.

(١) رواه أحمد في «المستند» وهو في «الصحيحين» من غير وجه.

اللغة من: أدليت الدلو: إذا أرسلتها لتملأها، ودلوتها: إذا أخرجتها. ومعنى أدلى فلان بحجته: أرسلها، وأتى بها على صحة. فمعنى الكلام: تعملون على ما يوجب إدلاء الحجة، وتخونون في الأمانة، وأنتم تعلمون أن الحجة عليكم في الباطن. وفي هاء «بها» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الأموال، كأنه قال: لا تصنعوا ببعضها جَوْرَةَ الحكام. والثاني: أنها ترجع إلى الخصومة، فإن قيل: كيف أعاد ذكر الأكل فقال: «ولا تاكلوا» و«لتاكلوا»؟ فالجواب: أنه وصل اللفظة الأولى بالباطل، والثانية بالإثم، فأعادها للزيادة في المعنى، ذكره ابن الأنباري.

﴿يَسْتَوِيكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتُوا اللَّهَ لِمَا كُنتُمْ تَخْلَعُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْتَوِيكَ عَنِ الْأَهْلَةِ﴾ هذه الآية من أولها إلى قوله: ﴿وَالْحَجُّ﴾ نزلت على سبب، وهو أن رجلين من الصحابة قالا: يا رسول الله! ما بال الهلال يبدو دقيقاً، ثم يزيد ويمتلئ حتى يستدير ويستوي، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان؟ فنزلت: ﴿يَسْتَوِيكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ﴾ هذا قول ابن عباس. ومن قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ إلى آخرها، يدل على سبب آخر، وهو أنهم كانوا إذا حجوا، ثم قدموا المدينة، لم يدخلوا من باب، ويأتون البيوت من ظهورها، فنسي رجل، فدخل من باب، فنزلت: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ هذا قول البراء بن عازب^(١). وفيما كانوا لا يدخلون البيوت من أبوابها لأجله أربعة أقوال: أحدها: أنهم كانوا يفعلون ذلك لأجل الإحرام، قاله ابن عباس، وأبو العالية، والنخعي، وقتادة، وقيس النهشلي. والثاني: لأجل دخول الشهر الحرام، قاله البراء بن عازب. والثالث: أن أهل الجاهلية كانوا إذا هم أحدهم بالشيء فاحتبس عنه؛ لم يأت بيته من بابه حتى يأتي الذي كان هم به، قاله الحسن. والرابع: أن أهل المدينة كانوا إذا رجعوا من عيدهم فعلوا ذلك، رواه عثمان بن عطاء عن أبيه. فاما التفسير؛ فإنما سألوه عن وجه الحكمة في زيادة الأهلة ونقصانها، فأخبرهم أنها مقادير لما يحتاج الناس إليه في صومهم وحجهم وغير ذلك. والأهلة: جمع هلال. وكم يبقى الهلال على هذه التسمية؟ فيه للعرب أربعة أقوال: أحدها: أنه يسمى هلالاً لليلتين من الشهر. والثاني: لثلاث ليال، ثم يسمى: قمراً. والثالث: إلى أن يحجر، وتحجيره: أن يسير بخطة دقيقة، وهو قول الأصمعي. والرابع: إلى أن يبهز ضوءه سواد الليل. حكى هذه الأقوال ابن السري، واختار الأول، قال: واشتقاق الهلال من قولهم: استهل الصبي: إذا بكى حين يولد. وأهل القوم بالحج: إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية، فسمي هلالاً، لأنه حين يُرى يُهل الناس بذكره.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ وقد سبق بيانه، واختلف القراء في البيوت وما أشبهها، فقرأ ابن كثير، وابن عامر، والكسائي بكسر باء «البيوت» وعين «العيون» وغين «الغُيوب» وروى عن نافع أنه ضم باء «البيوت» وعين «العيون» وغين «الغُيوب» وجيم «الجُيوب» وشين «الشيوخ» وروى عنه قالون أنه كسر باء «البيوت» وقرأ أبو عمر، وأبو جعفر بضم الأحرف الخمسة، وكسرها جميعاً حمزة، واختلف عن عاصم. قال الزجاج: من ضم «البيوت» فعلى أصل الجمع: بيت وبيوت، مثل: قلب وقلوب، وفلس وفلوس. ومن كسر؛ فإنما كسر للياء التي بعد الباء، وذلك عند البصريين رديء، لأنه ليس في الكلام فعول بكسر الفاء. وسمعت شيخنا أبا منصور اللغوي يقول: إذا كان الجمع على فعول، وثانيه ياء، جاز فيه الضم والكسر، تقول: بُيُوتٌ وبيوت، وشُيوخٌ وشيوخ، وقُيُودٌ وقُيود.

﴿وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ وَلَا تَسَدَّدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَسَدِّدِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ﴾ سبب نزولها أن رسول الله ﷺ لما صُدَّ عن البيت، ونحر هديه بالحديبية، وصالحه المشركون على أن يرجع من العام المقبل؛ رجع، فلما تجهز في العام المقبل؛ خاف أصحابه أن لا

(١) روى البخاري عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا أتوا البيت من ظهره، فانزل الله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ ورواه مسلم، وابن جرير قريباً من لفظ المؤلف.

تفي لهم قريش بذلك، وأن يصدوهم ويقاتلوهم، وكره أصحابه القتال في الشهر الحرام؛ فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَدُوا﴾ أي: ولا تظلموا. وفي المراد بهذا الاعتداء أربعة أقوال: أحدها: أنه قتل النساء والولدان، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: أن معناه: لا تقاتلوا من لم يقاتلكم، قاله سعيد بن جبیر، وأبو العالية، وابن زيد. والثالث: أنه إتيان ما نهوا عنه، قاله الحسن. والرابع: أنه ابتداءهم بالقتال في الحرم في الشهر الحرام، قاله مقاتل.

فصل

اختلف العلماء: هل هذه الآية منسوخة أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنها منسوخة. واختلف أرباب هذا القول في المنسوخ منها على قولين: أحدهما: أنه أولها، وهو قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ قالوا: وهذا يقتضي أن القتال يباح في حق من قاتل من الكفار، ولا يباح في حق من لم يقاتل، وهذا منسوخ بقوله: ﴿وَأَقْتُلُوا حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ﴾ والثاني: أن المنسوخ منها: ﴿وَلَا تَسْتَدُوا﴾ ولهؤلاء في هذا الاعتداء قولان: أحدهما: أنه قتل من لم يقاتل. والثاني: أنه ابتداء المشركين بالقتال، وهذا منسوخ بآية السيف. والقول الثاني: أنها محكمة، ومعناها عند أرباب هذا القول: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ وهم الذين أعدوا أنفسهم للقتال، فأما من ليس بمعدٍ نفسه للقتال، كالرهبان والشيخ الفناء، والزمنى، والمكافيف، والمجانين، فإن هؤلاء لا يقاتلون، وهذا حكم باقي غير منسوخ^(٢).

فصل

واختلف العلماء في أول آية نزلت في إباحة القتال على قولين: أحدهما: أنها قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٣٩]. قاله أبو بكر الصديق، وابن عباس، وسعيد بن جبیر، والزهري. والثاني: أنها هذه الآية: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قاله أبو العالية، وابن زيد. والثالث: أنها قوله: ﴿وَأَقْتُلُوا حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوا عَنِ الْكُفْرَانِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جِزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١].

قوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوا حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أي: وجدتموهم. يقال: ثقفته أثقفه: إذا وجدته. قال القاضي أبو يعلى: قوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوا حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ﴾ عام في جميع المشركين، إلا من كان بمكة، فإنهم أمروا بإخراجهم منها، إلا من قاتلهم، فإنهم أمروا بقتالهم، يدل على ذلك قوله في نسق الآية: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوا عَنِ الْكُفْرَانِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ﴾ وكانوا قد آذوا المسلمين بمكة حتى اضطروهم إلى الخروج، فكانهم أخرجوهم. فأما الفتنة، ففيها قولان: أحدهما: أنها الشرك، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وقتادة في آخرين. والثاني: أنها ارتداد المؤمن إلى عبادة الأوثان. قاله مجاهد. فيكون معنى الكلام على القول الأول: شرك القوم أعظم من قتلكم إياهم في الحرم. وعلى الثاني: ارتداد المؤمن إلى الأوثان أشد عليه من أن يقتل محققاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوا عَنِ الْكُفْرَانِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوا﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: (ولا تقتلوهم... حتى يقتلوكم... فإن قتلوكم) بحذف الألف فيهن. وقد اتفق الكل على قوله: ﴿فَأَقْتُلُوا﴾ واحتج من قرأ بالألف بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ واحتج من حذف الألف بقوله: ﴿فَأَقْتُلُوا﴾.

فصل

واختلف العلماء في قوله: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوا عَنِ الْكُفْرَانِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ﴾: هل هو منسوخ أم لا؟ فذهب مجاهد

(١) رواه الواحدي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي وأبو صالح لا يحتج بهما.

(٢) قال أبو جعفر: وهذا القول أولى بالصواب، لأن دعوى المدعي نسخ آية؛ يحتمل أن تكون غير منسوخة بغير دلالة على صحة دعواه، تحكم.

في جماعة من الفقهاء إلى أنه محكم، وأنه لا يقاتل فيه إلا من قاتل، ويدل على ذلك الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه خطب يوم فتح مكة، فقال: «يا أيها الناس! إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، ولم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي. وإنما أحلت لي ساعة من النهار، ثم عادت حراماً إلى يوم القيامة»^(١). فبين ﷺ أنه خص في تلك الساعة بالإباحة على سبيل التخصيص، لا على وجه النسخ، فثبت بذلك حظر القتال في الحرم، إلا أن يقاتلوا فيدفعون دفعاً، وهذا أمر مستمر، والحكم غير منسوخ، وقد ذهب قتادة إلى أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. فأمر بقتالهم في الحل والحرم وعلى كل حال. وذهب الربيع بن أنس، وابن زيد إلى أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ وزعم مقاتل أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾. والقول الأول أصح.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ قَاتَلْتُمُوهُمْ فَاتَّخِذُوا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيكُمْ دُفْعًا﴾ قال مقاتل: أي: فقاتلوهم.

﴿فَإِنْ أَنْتَبَهَا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَنْتَبَهَا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: فإن انتهوا عن شركهم وقاتلكم. والثاني: عن كفرهم. والثالث: عن قتالكم دون كفرهم. فعلى القولين الأولين تكون الآية محكمة، ويكون معنى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفور لشركهم وجرمهم، وعلى القول الأخير؛ يكون في معنى قوله: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قولان: أحدهما: غفور لكم حيث أسقط عنكم تكليف قتالهم. والثاني: أن معناه: يأمركم بالغفران والرحمة لهم. فعلى هذا تكون الآية منسوخة بآية السيف.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَبَهَا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقاتل في آخرين: الفتنة هاهنا: الشرك.

قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ قال ابن عباس: أي: يخلص له التوحيد. والعدوان: الظلم، وأريد به هاهنا: الجزاء، فسمي الجزاء عدواناً مقابلة للشيء بمثله، كقوله: ﴿فَمَنْ أَعَدَّكَ عَلَيْهِمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ﴾ والظالمون هاهنا: المشركون، قاله عكرمة، وقاتل في آخرين.

فصل

وقد روي عن جماعة من المفسرين، منهم قتادة؛ أن قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَنْتَبَهَا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ منسوخ بآية السيف، وإنما يستقيم هذا إذا قلنا: إن معنى الكلام: فإن انتهوا عن قتالكم مع إقامتهم على دينهم، فأما إذا قلنا: إن معناه: فإن انتهوا عن دينهم؛ فالآية محكمة.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَكَانَتْ هَلَاكُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هذه الآية نزلت على سبب، واختلفوا فيه على قولين: أحدهما: أن النبي ﷺ أقبل هو وأصحابه معتمرين في ذي القعدة ومعهم الهدى، فصلحهم المشركون، فصالحهم نبي الله على أن يرجع عنهم ثم يعود في العام المقبل، فيكون بمكة ثلاث ليال، ولا يدخلها بسلام، ولا يخرج بأحد من أهل مكة، فلما كان العام المقبل؛ أقبل هو وأصحابه فدخلوها، فافتخر المشركون عليه إذ رده يوم الحديبية، فأقصه الله منهم وأدخله مكة في الشهر الذي رده فيه، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَكَانَتْ هَلَاكُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وأبو العالية، وقاتل في آخرين. والثاني: أن مشركي العرب قالوا للنبي ﷺ: أنهيت عن قتالنا في الشهر الحرام؟ قال: «نعم» وأرادوا أن يفتروه في الشهر الحرام، فيقاتلوه فيه، فنزلت هذه الآية، يقول: إن استحلوا منكم شيئاً في الشهر الحرام، فاستحلوا منهم مثله، هذا قول الحسن، واختاره إبراهيم بن السري والزجاج. فأما أرباب القول

الأول؛ فيقولون: معنى الآية: الشهر الحرام الذي دخلتم فيه الحرم بالشهر الحرام الذي صدوكم فيه عام أول. ﴿وَالْمُؤْتَىٰ فِيمَا بَيْنَهُمَا﴾: اقتضت لكم منهم في ذي القعدة كما صدوكم في ذي القعدة. وقال الزجاج: الشهر الحرام، أي: قتال الشهر الحرام بالشهر الحرام، فأعلم الله تعالى أن أمر هذه الحرمات لا تجوز للمسلمين إلا قصاصاً، ثم نسخ ذلك بآية السيف، وقيل: إنما جمع الحرمات، لأنه أراد الشهر الحرام بالبلد الحرام، وحرمه الإحرام.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَغْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ قال ابن عباس: مَنْ قاتلكم في الحرم فقاتلوه. وإنما سمي المقابلة على الاعتداء اعتداءً، لأن صورة الفعليين واحدة، وإن كان أحدهما طاعة والآخر معصية. قال الزجاج: والعرب تقول: ظلمني فلان فظلمته، أي: جازيته بظلمه. وجهل فلان عليّ، فجهلت عليه. وقد سبق بيان هذا المعنى في أول السورة.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبُوا اللَّهَ﴾ قال سعيد بن جبيرة: واتقوا الله، ولا تيدؤوهم بقتال في الحرم. ﴿وَأَقْبُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٥) وَأَيُّوهُمُ الْمَخْرَجَ وَالْمَعْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِلُوا ذُرُوءَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَاءٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ مَقْلُوبًا فَمَا أَنْتُمْ مِنْ تَحْتِ الْمَعْرَةِ إِلَى الْمَخْرَجِ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَيْسَاءً فَلْيَقْرَأْ بِالْكَافِرِ فِي الْكَلْبِ وَسَمِعُو إِذَا رَجَعْتُمْ يَلَاكُ عَشْرَةَ كَاوِلَةً فَإِنَّ لَكُمْ يَكُنْ أَهْلَكُمْ حَاسِرِي السَّجْدِ الْحَرَامِ وَأَقْبُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذه الآية نزلت على سبب، وفيه قولان: أحدهما: أن النبي ﷺ لما أمر بالتجهز إلى مكة، قال ناسٌ من الأعراب: يا رسول الله! بماذا نتجهز؟ فوالله ما لنا زاد ولا مال! فنزلت، قاله ابن عباس^(١). والثاني: أن الأنصار كانوا ينفقون ويتصدقون، فأصابتهم سنة، فأمسكوا؛ فنزلت، قاله أبو جبير بن الضحاك^(٢). والسبيل في اللغة: الطريق. وإنما استعملت هذه الكلمة في الجهاد، لأنه السبيل الذي يقاتل فيه على عقد الدين. والتهلكة: بمعنى الهلاك، يقال: هلك الرجل يهلك هلاكاً وهلكاً وتهلكة. قال الميرد: وأراد بالأيدي: الأنفس؛ فعبر بالبعض عن الكل. وفي المراد بالتهلكة هاهنا أربعة أقوال: أحدها: أنها ترك النفقة في سبيل الله، قاله حذيفة، وابن عباس، والحسن، وابن جبير، وعكرمة. ومجاهد، وقتادة، والضحاك. والثاني: أنها القعود عن الغزو شغلاً بالمال، قاله أبو أيوب الأنصاري. والثالث: أنها القنوط من رحمة الله، قاله البراء، والنعمان بن بشير، وعبيدة. والرابع: أنها عذاب الله، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: أحسنوا الإنفاق، وهو قول أصحاب القول الأول. والثاني: أحسنوا الظن بالله، قاله عكرمة، وسفيان، وهو يخرّج على قول من قال: التهلكة: القنوط. والثالث: أن معناه: أدوا الفرائض، رواه سفيان عن أبي إسحاق.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوهُمُ الْمَخْرَجَ وَالْمَعْرَةَ لِلَّهِ﴾ قال ابن فارس: الحج في اللغة: القصد، والاعتمار في الحج أصله: الزيارة. قال ثعلب: الحج بفتح الحاء: المصدر، ويكسرهما: الاسم. قال: وربما قال الفراء: هما لغتان. وذكر ابن الأنباري في العمرة قولين: أحدهما: الزيارة. والثاني: القصد. وفي إتمامها أربعة أقوال: أحدها: أن معنى إتمامها: أن يفصل بينهما، فيأتي بالعمرة في غير أشهر الحج، قاله عمر بن الخطاب، والحسن، وعطاء. والثاني: أن يحرم الرجل من ديرة أهله^(٣)، قاله علي بن أبي طالب، وطاوس، وابن جبير. والثالث: أنه إذا شرع في أحدهما لم يفسخه حتى يتم. قاله ابن عباس. والرابع: أنه فعل ما أمر الله فيهما، قاله مجاهد. وجمهور القراء على نصب «العمرة» بإيقاع الفعل عليها. وقرأ الأصمعي عن نافع والقزاز عن أبي عمرو، والكسائي عن أبي جعفر يرفعها، وهي قراءة ابن مسعود، وأبي

(١) لم يرد هذا السبب بهذا اللفظ في كتب التفسير التي بين أيدينا، وإنما جاء فيها: عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال: لا يقول أحدكم إنني لا أجد شيئاً، إن لم يجد إلا مشقاً، فليجهز به في سبيل الله.

(٢) في الأصول التي بين أيدينا: الضحاك بن أبي جبير، وهو خطأ، وصوابه ما أثبتناه، فقد جاء في «تقريب التهذيب» أبو جبير - بفتح الجيم - ابن الضحاك الأنصاري المدني: صحابي، وقيل: لا صحة له. والحديث رواه الطبراني في «الكبير» والأوسط وزاد: (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح.

(٣) الديرة: تصغير الدار: كل موضع حل به قوم، فهو دارهم.

رزين، والحسن، والشعبي. وقراءة الجمهور تدل على وجوبها. وممن ذهب إلى أن العمرة واجبة: علي، وابن عمر، وابن عباس، والحسن، وابن سيرين، وعطاء، وطاووس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وأحمد، والشافعي. وروي عن ابن مسعود، وجابر، والشعبي، وإبراهيم، وأبي حنيفة، ومالك، أنها سنة وتطوع.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ قال ابن قتبية: يقال: أحصره المرض والعدو: إذا منعه من السفر، ومنه هذه الآية. وحصره العدو: إذا ضيق عليه. وقال الزجاج: يقال للرجل إذا حبس: قد حصر، فهو محصور. وللعلماء في هذا الإحصار قولان: أحدهما: أنه لا يكون إلا بالعدو، ولا يكون المريض محصراً. وهذا مذهب ابن عمر، وابن عباس، وأنس، ومالك، والشافعي، وأحمد. ويدل عليه قوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾. والثاني: أنه يكون بكل حابس من مرض أو عدو أو عذر، وهو قول عطاء، ومجاهد، وقتادة، وأبي حنيفة. وفي الكلام اختصار وحذف، والمعنى: فإن أحصرتم دون تمام الحج والعمرة فحللتهم؛ فعليكم ما استيسر من الهدى. ومثله: ﴿أَوْ يَدُ أَذَى يَنْ رَأْيِهِ فَيَذِيذُ﴾ تقديره: فحلقت، ففدية. والهدى: ما أهدي إلى البيت. وأصله: هديّ مشدد، فخفف، قاله ابن قتبية. وبالتشديد يقرأ الحسن، ومجاهد. وفي المراد ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه شاة، قاله علي بن أبي طالب، وابن عباس، والحسن، وعطاء، وابن جبير، وإبراهيم، وقتادة، والضحاك. والثاني: أنه ما تيسر من الإبل والبقر لا غير، قاله ابن عمر، وعائشة، والقاسم. والثالث: أنه على قدر الميسرة، رواه طاووس عن ابن عباس. وروي عن الحسن، وقتادة قالاً: أعلاه بدنة، وأوسطه بقرة، وأخسه شاة. وقال أحمد: الهدى من الأصناف الثلاثة، من الإبل والبقر والغنم، وهو قول أبي حنيفة رحمه الله، ومالك، والشافعي، رحمهما الله.

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَبْلُغِ الْهَدْيَ يَحْلُمُ﴾ قال ابن قتبية: المحل: الموضع الذي يحل به نحره، وهو من: حل يحل. وفي المحل قولان: أحدهما: أنه الحرم، قاله ابن مسعود، والحسن، وعطاء، وطاووس، ومجاهد، وابن سيرين، والثوري، وأبو حنيفة. والثاني: أنه الموضع الذي أحصر به فيذبحه ويحل، قاله مالك، والشافعي، وأحمد.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى يَنْ رَأْيِهِ فَيَذِيذُ﴾ هذا نزل على سبب، وهو أن كعب بن عجرة كثر قمل رأسه حتى تهافت على وجهه، فنزلت هذه الآية فيه، فكان يقول: في نزلت خاصة^(١).

فصل

قال شيخنا علي بن عبيد الله: اقتضى قوله: ﴿وَلَا تَحْلِلُوا دُورَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ يَحْلُمُ﴾ تحريم حلق الشعر، سواء وجد به الأذى، أو لم يجد، حتى نزل: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى يَنْ رَأْيِهِ فَيَذِيذُ﴾ فاقضى هذا إباحة حلق الشعر عند الأذى مع الفدية، فصار ناسخاً لتحريمه المتقدم. ومعنى الآية: فمن كان منكم - أي: من المحرمين، محصراً كان أو غير محصر - مريضاً، واحتاج إلى لبس أو شيء يحظره الإحرام، ففعله، أو به أذى من رأسه فحلقت؛ ففدية من صيام. وفي الصيام قولان: أحدهما: أنه ثلاثة أيام، روي في حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ^(٢) وهو قول الجمهور. والثاني: أنه صيام عشرة أيام، روي عن الحسن وعكرمة، ونافع. وفي الصدقة قولان: أحدهما: أنه إطعام ستة مساكين، روي في حديث كعب^(٣)، وهو قول من قال: الصوم ثلاثة أيام. والثاني: أنها إطعام عشرة مساكين، وهو قول من أوجب صوم عشرة أيام. والنسك: ذبح شاة، يقال: نسكت لله، أي: ذبحت له. وفي النسك لغتان: ضم النون والسين، وبها قرأ الجمهور، وضم النون مع تسكين السين، وهي قراءة الحسن.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾، أي: من العدو، إذ المرض لا تؤمن معاودته، وقال علقمة في آخرين: فإذا أمنتكم من الخوف والمرض. ﴿فَمَنْ تَنَحَّى بِالْعَمَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ معناه: من بدأ بالعمرة في أشهر الحج، وأقام الحج من عامه ذلك؛ فعليه ما استيسر من الهدى. وهذا قول ابن عمر، وابن المسيب، وعطاء، والضحاك. وقد سبق الكلام فيما استيسر من الهدى.

(١) رواه البخاري ومسلم، وغيرهما عن كعب بن عجرة رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَيَصِيَامْ فَلْيَصِيَامْ فِي الْيَوْمِ﴾ قال الحسن: هي قبل التروية بيوم، و[يوم] التروية، و[يوم] عرفة، وهذا قول عطاء، والشعبي، وأبي العالية، وابن جبير، وطاووس، وإبراهيم. وقد نقل عن علي عليه السلام. وقد روي عن الحسن، وعطاء، قالا: في أي العشر شاء صامهن. ونقل عن طاووس، ومجاهد، وعطاء، أنهم قالوا: في أي أشهر الحج شاء فليصمهن ونقل عن ابن عمر أنه قال: من حين يحرم إلى يوم عرفة.

فصل

فإن لم يجد الهدي، ولم يصم الثلاثة أيام قبل يوم النحر، فماذا يصنع؟ قال عمر بن الخطاب، وابن عباس، وابن جبير، وطاووس، وإبراهيم: لا يجزئه إلا الهدي ولا يصوم. وقال ابن عمر وعائشة: يصوم أيام منى. ورواه صالح عن أحمد، وهو قول مالك. وذهب آخرون إلى أنه لا يصوم أيام التشريق، بل يصوم بعدهن. روي عن علي. ورواه المزودي عن أحمد، وهو قول الشافعي.

فصل

فإن وجد الهدي بعد الدخول في صوم الثلاثة أيام، لم يلزمه الخروج منه، وهو قول مالك، والشافعي. وقال أبو حنيفة: يلزمه الخروج، وعليه الهدي. وقال عطاء: إن صام يومين ثم أيسر؛ فعليه الهدي. وإن صام ثلاثة ثم أيسر؛ فليصم السبعة، ولا هدي عليه. وفي معنى قوله: ﴿فِي الْيَوْمِ﴾ قولان: أحدهما: أن معناه: في أشهر الحج. والثاني: في زمان الإحرام بالحج. وفي قوله تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ قولان: أحدهما: إذا رجعتكم إلى أمصاركم، قاله ابن عباس، والحسن، وأبو العالية، والشعبي، وقتادة. والثاني: إذا رجعتكم من حجكم، وهو قول عطاء، وسعيد بن جبير، وأبي حنيفة، ومالك. قال الأثرم: قلت لأبي عبد الله، يعني أحمد بن حنبل: فصيام السبعة أيام إذا رجع متى يصومهن؟ أفي الطريق، أم في أهله؟ قال: كل ذلك قد تأوله الناس. قيل لأبي عبد الله: ففرق بينهن، فرخص في ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَذَكِّرُكَ عَشْرَةَ كَائِلَةٍ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أن معناه: كاملة في قيامها مقام الهدي، وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس، والحسن. قال القاضي أبو يعلى: وقد كان يجوز أن يظن ظان أن الثلاثة قد قامت مقام الهدي في باب استكمال الثواب، فأعلمنا الله تعالى أن العشرة بكاملها هي القائمة مقامه. والثاني: أن الواو قد تقوم مقام «أو» في مواضع، منها قوله: ﴿فَأَنكُودُ مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النَّسَاءِ مَثْنٍ وَتِلْكَ وَرَبِّكَ﴾ [النساء: ٣] فأزال الله تعالى احتمال التخيير في هذه الآية بقوله: ﴿يَذَكِّرُكَ عَشْرَةَ كَائِلَةٍ﴾ وإلى هذا المعنى ذهب الزجاج. والثالث: أن ذلك للتوكيد. وأنشدوا للفرزدق:

ثلاث واثنتان فهن خمس وسادة تميل إلى شامي

وقال آخر:

هلا سألت جموع كندة يوم ولوا أين أيننا

وقال آخر:

كم نعمة كانت له كم وكم

والقرآن نزل بلغة العرب، وهي تكرر الشيء لتوكيده. والرابع: أن معناه: تلك عشرة كاملة في الفصل، وإن كانت الثلاثة في الحج، والسبعة بعد، لثلاث يسبق إلى وهم أحد أن السبعة دون الثلاثة، قاله أبو سليمان الدمشقي. والخامس: أنها لفظة خبر، ومعناها الأمر، فتقديره: تلك عشرة فأكملوها.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ في المشار إليه بذلك قولان: أحدهما: أنه التمتع بالعمرة إلى الحج. والثاني: أنه الجزاء بالنسك والصيام. واللام من «لن» في هذا القول بمعنى: «على». فأما حاضروا المسجد الحرام؛ فقال ابن عباس، وطاووس، ومجاهد: هم أهل الحرم. وقال عطاء: من كان منزله دون المواقيت. قال ابن الأنباري: ومعنى الآية: إن هذا الفرض لمن كان من الغرباء، وإنما ذكر أهله، وهو المراد بالحضور، لأن الغالب على الرجل أن يسكن حيث أهله ساكنون.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ مِّنْ فَرَضٍ فِيهِكَ الْحَجُّ فَلَا رَفْعَ وَلَا سُوءَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَسَلِّمُهُ اللَّهُ وَكَسَّرُوا فَلَكَ خَيْرَ الزَّادِ الْقَتْلُ وَالْقَوَىٰ يُتَأَوَّلُ الْآلِيبُ﴾ ﴿١٩٧﴾

قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ في الحج لفتان. فتح الحاء، وهي لأهل الحجاز، وبها قرأ الجمهور. وكسرهما، وهي لتميم، وقيل: لأهل نجد، وبها قرأ الحسن. قال سيبويه: يقال: حج حجاً، كقولهم: ذكر ذكراً. وقالوا: حجة، يريدون: عمل سنة. قال الفراء: المعنى: وقت الحج هذه الأشهر. وقال الزجاج: معناه: أشهر الحج أشهر معلومات. وفي أشهر الحج قولان: أحدهما: أنها شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، قاله ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وابن الزبير، والحسن، وابن سيرين، وعطاء، والشعبي، وطاووس، والنخعي، وقتادة، ومكحول، والضحاك، والسدي، وأبو حنيفة، وأحمد بن حنبل، والشافعي رحمهم الله. والثاني: أنها شوال وذو القعدة وذو الحجة، وهو مروى عن ابن عمر أيضاً، وعطاء، وطاروس، ومجاهد، والزهري، والربيع، ومالك بن أنس. قال ابن جرير الطبري: إنما أراد هؤلاء أن هذه الأشهر ليست أشهر العمرة، إنما هي للحج، وإن كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء منى، وقد كانوا يستحبون أن يفعلوا العمرة في غيرها. قال ابن سيرين: ما أحد من أهل العلم شك في أن عمرة في غير أشهر الحج أفضل من عمرة في أشهر الحج، وإنما قال: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ﴾ وهي شهران وبعض الآخر على عادة العرب. قال الفراء: تقول العرب: له اليوم يومان لم أره، وإنما هو يوم، وبعض آخر. وتقول: زرتك العام، وأتيتك اليوم، وإنما وقع الفعل في ساعة. وذكر ابن الأباري في هذا قولين: أحدهما: أن العرب توقع الجمع على التثنية، كقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مِثْرُكَ مِثْرًا يَمُوتُونَ﴾ وإنما يريد عائشة وصفوان. وكذلك قوله: ﴿وَكُنَّا لِيَكْبِهِمْ شَهِيدُونَ﴾ يريد: داود وسليمان. والثاني: أن العرب توقع الوقت الطويل على الوقت القصير، فيقولون: قتل ابن الزبير أيام الحج، وإنما كان القتل في أقصر وقت.

فصل

اختلف العلماء فيمن أحرم بالحج قبل أشهر الحج، فقال عطاء، وطاروس، ومجاهد، والشافعي: لا يجزئه ذلك، وجعلوا فائدة قوله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ أنه لا ينعقد الحج إلا فيهن. وقال أبو حنيفة، ومالك، والثوري، والليث بن سعد، وأحمد بن حنبل: يصح الإحرام بالحج قبل أشهر، فعلى هذا يكون قوله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ أي: معظم الحج يقع في هذه الأشهر، كما قال النبي ﷺ: «الحج عرفة»^(١).

قوله تعالى: ﴿مَنْ وَصَّ فِيهِكَ الْحَجُّ﴾ قال ابن مسعود: هو الإهلال بالحج، والإحرام به. وقال طاووس، وعطاء: هو أن يلي. وروى عن علي، وابن عمر، ومجاهد، والشعبي في آخرين: أنه إذا قلّد بدنته فقد أحرم، وهذا محمول على أنه قلّدها نائياً للحج. ونص الإمام أحمد بن حنبل رحمهم الله في رواية الأثرم: أن الإحرام بالنية. قيل له: يكون محرماً بغير تلبية؟ قال: نعم إذا عزم على الإحرام، وهذا قول مالك، والشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يجوز الدخول في الإحرام إلا بالتلبية أو تقليد الهدي وسوقه.

قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفْعَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو، وأبو جعفر: «فلا رفْعٌ ولا سُوءٌ» بالضم والتثوين. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بغير تنوين، ولم يرفع أحد منهم لام «جدال» إلا أبو جعفر. قال أبو علي: حجة من فتح أنه أشد مطابقة للمعنى المقصود، لأنه بالفتح قد نفى جميع الرث والفسوق، كقوله: ﴿لَا رَبَّ فِئَةٍ﴾ فإذا رفع ونوّن؛ كان النفي لواحد منه، وإنما فتحوا لام الجدال، ليتناول النفي جميع جنسه، فكذلك ينبغي أن يكون جمع الاسمين قبله. وحجة من رفع أنه قد علم من فحوى الكلام نفى جميع الرث، وقد يكون اللفظ واحداً، والمراد بالمعنى: الجميع. وفي الرث ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الجماع، قاله ابن عمر، والحسن، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة في آخرين. والثاني: أنه الجماع، وما دونه من التعريض به، وهو مروى عن ابن عمر أيضاً، وابن عباس، وعمرو بن

(١) رواه أحمد في «المستد» وأصحاب «السنن» والحاكم، والبيهقي، كلهم عن عبد الرحمن بن يعمر الليثي رحمهم الله وسنده صحيح.

دينار في آخرين. والثالث: أنه اللغو من الكلام، قاله أبو عبد الرحمن اليزيدي. وفي الفسوق ثلاثة أقوال: أحدها: أنه السباب، قاله ابن عمر، وابن عباس، وإبراهيم في آخرين. والثاني: أنه التنازع بالألقاب، مثل أن تقول لأخيك: يا فاسق، يا ظالم، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أنه المعاصي، قاله الحسن، وعطاء، وطاووس، ومجاهد، وقتادة في آخرين، وهو الذي نختاره، لأن المعاصي تشمل الكل، ولأن الفاسق: الخارج من الطاعة إلى المعصية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنْدًا فِي الْحَيِّ﴾ الجدل: المراء. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: أن معناه: لا يمارين أحد أحداً، فيخرجه المراء إلى الغضب، وفعل ما لا يليق بالحج، وإلى هذا المعنى ذهب ابن عمر، وابن عباس، وطاووس، وعطاء، وعكرمة، والنخعي، وقتادة، والزهري، والضحاك في آخرين. والثاني: أن معناه: لا شك في الحج ولا مراء، فإنه قد استقام أمره وعرف وقته وزال النسيء عنه، قال مجاهد: كانوا يحجون في ذي الحجة عامين، وفي المحرم عامين، ثم حجوا في صفر عامين، وكانوا يحجون في كل سنة في كل شهر عامين حتى وافقت حجة أبي بكر الآخر من العامين في ذي القعدة قبل حجة النبي ﷺ بسنة، ثم حج النبي ﷺ من قابل في ذي الحجة، فذلك حين قال: «إن الزمان قد استدار كهيته يوم خلق الله السماوات والأرض»^(١) وإلى هذا المعنى ذهب السدي عن أشياخه، والقاسم بن محمد.

قوله تعالى: ﴿وَتَكَرَّوْا فَاِنَّكُمْ تَقْنُونَ﴾ قال ابن عباس: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون، فيسألون الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَكَرَّوْا فَاِنَّكُمْ تَقْنُونَ﴾^(٢) قال الزجاج: أمروا أن يتزودوا، وأعلموا أن خير ما تزودوا تقوى الله ﷻ.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَقْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْرِ الْحَرَامِ وَأَذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَوْ الصَّالِحِينَ﴾^(٣) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ وَأَسْتَنْفِزُوا إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٤)

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قال ابن عباس: كانوا يتفون البيوع والتجارة في الموسم، ويقولون: أيام ذكر، فنزلت هذه الآية. والابتغاء: الالتماس. والفضل هاهنا: التماس الرزق بالتجارة والكسب. قال ابن قتبية: ﴿أَقَضْتُمْ﴾، بمعنى: دفعتم. وقال الزجاج: معناه: دفعتم بكثرة، يقال: أفاض القوم في الحديث: إذا اندفعوا فيه، وأكثروا التصرف. وفي تسمية «عرفات» قولان: أحدهما: أن الله تعالى بعث جبريل إلى إبراهيم فحج به، فلما أتى عرفات قال: قد عرفت، فسميت «عرفة» قاله علي عليه السلام. والثاني: أنها سميت بذلك لاجتماع آدم وحواء، وتعارفهما بها، قاله الضحاك. قال الزجاج: والمشرع: المعلم، سمي بذلك، لأن الصلاة عنده. والمقام والمبيت والدعاء من معالم الحج، وهو مزدلفة، وهي جمع يسمى بالاسمين. قال ابن عمر، ومجاهد: المشعر الحرام: المزدلفة كلها.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُمْ﴾ أي: جزاء هدايته لكم، فإن قيل: ما فائدة تكرير الذكر؟ قيل: فيه أربعة أجوبة: أحدها: أنه كرره للمبالغة في الأمر به. والثاني: أنه وصل بالذكر الثاني ما لم يصل بالذكر الأول، فحسن تكريره. فالمعنى: اذكروه بتوحيده كما ذكركم بهدايته. والثالث: أنه كرره ليدل على مواصلته، والمعنى: اذكروه ذكراً بعد ذكر، ذكر هذه الأقوال محمد بن القاسم النحوي. والرابع: أن الذكر في قوله: ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْرِ الْحَرَامِ﴾ هو: صلاة المغرب والعشاء اللتان يجمع بينهما بالمزدلفة. والذكر في قوله: ﴿كَمَا هَدَيْتُمْ﴾ هو: الذكر المفعول عند الوقوف بمزدلفة غداة جمع، حكاه القاضي أبو يعلى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ في هاء الكناية ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الإسلام، قاله ابن

(١) متفق عليه من حديث أبي بكر نفع بن الحارث. قال العلماء في شرح هذا الحديث: إن العرب كانت تمسكت بملة إبراهيم عليه السلام في تحريم الأشهر الأربعة، إلا أنهم كانوا إذا احتاجوا للقتال في شهر منها، أخروا تحريمهم إلى الشهر الذي يليه، هكذا شهراً إلى شهر، حتى اختلط الأمر عليهم، فصادت حجة النبي ﷺ تحريمهم، لأنهم كانوا في تلك السنة حرموا ذا الحجة بمقتضى حسابهم، فأخبر ﷺ أن الاستدارة وافقت ما حكم الله سبحانه وتعالى به يوم خلق السموات والأرض.

(٢) رواه البخاري، وأبو داود، والنسائي.

عباس. والثاني: أنها ترجع إلى الهدى، قاله مقاتل، والزجاج. والثالث: أنها ترجع إلى القرآن، قاله سفيان الثوري. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَكَّأْتُمُ النَّكَاسُ﴾ قالت عائشة: كانت قريش ومن يدين بدينها، وهم الحمص، يقفون عشية عرفة بالمزدلفة، يقولون: نحن قطن البيت، وكان بقية العرب والناس يقفون بعرفات، فنزلت هذه الآية^(١). قال الزجاج: سماوا الحمص لأنهم تحمصوا في دينهم، أي: تشددوا. والحماسة: الشدة في كل شيء. وفي المراد بالناس هاهنا أربعة أقوال: أحدها: أنهم جميع العرب غير الخمس، ويدل عليه حديث عائشة، وهو قول عروة، ومجاهد، وقتادة. والثاني: أن المراد بالناس هاهنا: إبراهيم الخليل عليه السلام، قاله الضحاك بن مزاحم. والثالث: أن المراد بالناس آدم، قاله الزهري. وقد قرأ أبو المتوكل، وأبو نهيك، ومورق العجلي: «الناسي» بإثبات الياء. والرابع: أنهم أهل اليمن وربيعة، فإنهم كانوا يفيضون من عرفات، قاله مقاتل. وفي المخاطبين بذلك قولان: أحدهما: أنه خطاب لقريش، وهو قول الجمهور. والثاني: أنه خطاب لجميع المسلمين، وهو يخرج على قول من قال: الناس آدم، أو إبراهيم. والإفاضة هاهنا على ما يقتضيه ظاهر اللفظ: هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى صبيحة النحر، إلا أن جمهور المفسرين على أنها الإفاضة من عرفات، فظاهر الكلام لا يقتضي ذلك، كيف يقال: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ ثم أفيضوا من عرفات؟! غير أنني أقول: وجه الكلام على ما قال أهل التفسير: أن فيه تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله. و«الغفور»: من أسماء الله ﷻ، وهو من قولك: غفرت الشيء: إذا غطيته، فكان الغفور هو الساتر لعبده برحمته، أو الساتر لذنوب عباده. والغفور: هو الذي يكثر المغفرة، لأن بناء المفعول للمبالغة من الكثرة، كقولك: صبور، وضروب، وأكول.

﴿فَإِذَا فَضَيْتُمْ نَنَّاكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنْ النَّكَاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ۚ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّكَارِ ۚ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۚ﴾ واذكروا الله في آياتهم معدودات فمن سجل في يومئذ فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لئن أنكر وأنكر الله وأعلموا أنكم إلى الله تحشرون.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَضَيْتُمْ نَنَّاكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن أهل الجاهلية كانوا إذا اجتمعوا بالموسم، ذكروا أفعال آبائهم وأيامهم وأنسابهم في الجاهلية، فتفاخروا بذلك؛ فنزلت هذه الآية. وهذا المعنى مروي عن الحسن، وعطاء، ومجاهد. والثاني: أن العرب كانوا إذا حدثوا أو تكلموا يقولون: وأبيك إنهم لفعلوا كذا وكذا؛ فنزلت هذه الآية. وهذا مروي عن الحسن أيضاً. والثالث: أنهم كانوا إذا قضوا مناسكهم، قام الرجل بمنى فقال: اللهم إن أبي كان عظيم الجفنة، كثير المال، فأعطني مثل ذلك، فلا يذكر الله، إنما يذكر أباه، ويسأل أن يعطى في دنياه؛ فنزلت هذه الآية، هذا قول السدي. والمناسك: المتعبدات. وفي المراد بها هاهنا قولان: أحدهما: أنها جميع أفعال الحج، قاله الحسن. والثاني: أنها إراقة الدماء، قاله مجاهد. وفي ذكرهم آبائهم أربعة أقوال: أحدها: أنه إقرارهم بهم. والثاني: أنه حلفهم بهم. والثالث: أنه ذكر إحسان آبائهم إليهم، فإنهم كانوا يذكرونهم وينسون إحسان الله إليهم. والرابع: أنه ذكر الأطفال الآباء، لأنهم أول نطقهم بذكر آبائهم، روي هذا المعنى عن عطاء، والضحاك. وفي «أو» قولان: أحدهما: أنها بمعنى «بل». والثاني: بمعنى الزاوة. و«الخلاص»: قد تقدم ذكره. وفي حسنة الدنيا سبعة أقوال: أحدها: أنها المرأة الصالحة، قاله علي. والثاني: أنها العبادة، رواه سفيان بن حسين عن الحسن. والثالث: أنها العلم والعبادة، رواه هشام عن الحسن. والرابع: المال، قاله أبو وائل، والسدي، وابن زيد. والخامس: العافية، قاله قتادة. والسادس: الرزق الواسع، قاله مقاتل. والسابع: النعمة، قاله ابن قتيبة. وفي حسنة الآخرة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الحور العين، قاله علي عليه السلام. والثاني: الجنة، قاله الحسن، والسدي، ومقاتل. والثالث: العفو والمعافة، روي عن الحسن، والثوري.

(١) روى البخاري في «صحيحه» عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الحمص، وسائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه أن يأتي عرفات ثم يقف بها، ثم يفيض منها، فلذلك قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَكَّأْتُمُ النَّكَاسُ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَتُوبُكَ لَهُمْ صَبِيحًا وَمَا كَسَبُوا﴾ قال الزجاج: معناه: دعاؤهم مستجاب، لأن كسبهم هاهنا هو الدعاء، وهذه الآية متعلقة بما قبلها، إلا أنه قد روي أنها نزلت على سبب يخالف سبب أخواتها، فروى الضحاك عن ابن عباس أن رجلاً قال: يا رسول الله! مات أبي ولم يحج، أفأحج عنه؟ فقال: «لو كان على أبيك دين قضيته، أما كان ذلك يجزئ عنه؟» قال: نعم، قال: «فدين الله أحق أن يقضى!» قال: فهل لي من أجر؟ فنزلت هذه الآية^(١). وفي معنى سرعة الحساب خمسة أقوال: أحدها: أنه قُلْتُهُ، قاله ابن عباس. والثاني: أنه قرب مجيئه، قاله مقاتل. والثالث: أنه لما علم ما للمحاسب وما عليه قبل حسابه، كان سريع الحساب لذلك. والرابع: أن المعنى: والله سريع المجازاة، ذكر هذا القول والذي قبله الزجاج. والخامس: أنه لا يحتاج إلى فكر وروية كالعاجزين، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّسْذُورَاتٍ﴾ في هذا الذكر قولان: أحدهما: أنه التكبير عند الجمرات، وأديار الصلوات، وغير ذلك من أوقات الحج. والثاني: أنه التكبير عقب الصلوات المفروضة. واختلف أرباب هذا القول في الوقت الذي يبتدئ فيه بالتكبير ويقطع على ستة أقوال: أحدها: أنه يكبر من صلاة الفجر يوم عرفة، إلى [ما] بعد صلاة العصر من آخر أيام التشريق، قاله علي، وأبو يوسف، ومحمد. والثاني: أنه من صلاة الفجر يوم عرفة إلى صلاة العصر من يوم النحر، قاله ابن مسعود، وأبو حنيفة. والثالث: من بعد صلاة الظهر يوم النحر إلى [ما] بعد العصر من آخر أيام التشريق، قاله ابن عمر، وزيد بن ثابت، وابن عباس، وعطاء. والرابع: أنه يكبر من صلاة الظهر يوم النحر إلى [ما] بعد صلاة الظهر من يوم النفر، وهو الثاني من أيام التشريق، قاله الحسن. والخامس: أنه يكبر من الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق، قاله مالك بن أنس، وهو أحد قولي الشافعي. والسادس: أنه يكبر من صلاة المغرب ليلة النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق، وهذا قول للشافعي. ومذهب إمامنا أحمد أنه إن كان محلاً، كبير عقب ثلاث وعشرين صلاة؛ أولها الفجر يوم عرفة، وآخرها العصر من آخر أيام التشريق، وإن كان محراً كبير عقب سبعة عشر صلاة؛ أولها الظهر من يوم النحر، وآخرها العصر من آخر أيام التشريق. وهل يختص هذا التكبير عقب الفرائض بكونها في جماعة، أم لا؟ فيه عن أحمد روايتان: إحداهما: يختص بمن صلاها في جماعة، وهو قول أبي حنيفة رحمه الله. والثانية: يختص بالفريضة، وإن صلاها وحده، وهو قول الشافعي. وفي الأيام المعدودات ثلاثة أقوال: أحدها: أنها أيام التشريق، قاله ابن عمر، وابن عباس، والحسن، وعطاء، ومجاهد، وقتادة في آخرين. والثاني: أنها يوم النحر ويومان بعده، روي عن علي، وابن عمر. والثالث: أنها أيام العشر، قاله سعيد بن جبيرة، والنخعي. قال الزجاج: «ومعدودات» يستعمل كثيراً للشيء القليل، كما يقال: دريهمات وحمامات.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ سَعَلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: فمن تعجل النفر الأول في اليوم الثاني من أيام منى؛ فلا إثم عليه، ومن تأخر إلى النفر الثاني، وهو اليوم الثالث من أيام منى، فلا إثم عليه. فإن قيل: إنما يخاف الإثم المتعجل، فما بال المتأخر الحق به، والذي أتى به أفضل؟ فنعنه أربعة أجوبة: أحدها: أن المعنى: لا إثم على المتعجل، والمتأخر مأجور، فقال: لا إثم عليه، لتوافق اللفظة الثانية الأولى، كقوله: ﴿فَمَنْ أَقْدَرَ عَلَىكُمْ فَأَعْتَدُوا لَهُ﴾. والثاني: أن المعنى: فلا إثم على المتأخر في ترك استعمال الرخصة. والثالث: أن المعنى: قد زالت آثام المتعجل والمتأخر التي كانت عليهما قبل حجهما. والرابع: أن المعنى: طرح المأثم عن المتعجل والمتأخر إنما يكون بشرط التقوى. وفي معنى «لمن اتقى» ثلاثة أقوال: أحدها: لمن اتقى قتل الصيد، قاله ابن عباس. والثاني: لمن اتقى المعاصي في حجه، قاله قتادة. وقال ابن مسعود: إنما مغفرة الله لمن اتقى الله في حجه. والثالث: لمن اتقى فيما بقي من عمره، قاله أبو العالية وإبراهيم.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِلُ قَوْلَهُ فِي الْحَيْوَةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَهُوَ أَكْذَابٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِلُ قَوْلَهُ فِي الْحَيْوَةِ الدُّنْيَا﴾ اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على ثلاثة أقوال:

(١) لم يذكر هذا الحديث في شيء من كتب الحديث والتفسير التي بين أيدينا على أنه سبب لنزول الآية، والأحاديث في جواز الحج عن الغير وردت من طرق صحيحة عن ابن عباس وعلي وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم.

أحدهما: أنها نزلت في الأخنس بن شريق، كان لين الكلام، كافر القلب، يظهر للنبي الحسن، ويحلف له أنه يحبه، ويتبعه على دينه، وهو يضمر غير ذلك، هذا قول ابن عباس، والسدي، ومقاتل. والثاني: أنها نزلت فيمن نافع فأظهر بلسانه ما ليس في قلبه. وهذا قول الحسن، وقناة، وابن زيد. والثالث: أنها نزلت في سرية الرجيع^(١)، وذلك أن كفار قريش بعثوا إلى النبي ﷺ وهو بالمدينة: إنا قد أسلمنا، فابعث لنا نفرًا من أصحابك يعلمونا ديننا، فبعث ﷺ خبيب بن عدي، ومرثدًا الغنوي، وخالد بن بكير، وعبد الله بن طارق، وزيد بن الدثنة، وأمر عليهم عاصم بن ثابت، فساروا نحو مكة، فنزلوا بين مكة والمدينة ومعهم تمر، فأكلوا منه، فمرت عجوز فأبصرت النوى، فرجعت إلى قومها وقالت: قد سلك هذا الطريق أهل يثرب، فركب سبعون منهم حتى أحاطوا بهم، فحاربوهم، فقتلوا مرثدًا، وخالدًا، وابن طارق، ونثر عاصم كنانته وفيها سبعة أسهم، فقتل بكل سهم رجلاً من عظمائهم، ثم قال: اللهم إني حميت دينك صدر النهار، فاحم لحمي آخر النهار، ثم أحاطوا به فقتلوه، وأرادوا حَرْ رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد، وكان قتل بعض أهلها، فنذرت: لئن قدرت على رأسه لنشرين في قحفه الخمر، فأرسل الله تعالى رجلاً^(٢) من الدبر - وهي: الزناير - فحمته، فلم يقدروا عليه، فقال: دعوه حتى يمسي فتذهب عنه، فناخذه، فجاءت سحابة فأمطرت كالعزالي، فبعث الله الوادي، فاحتمله فذهب به، وأسروا خبيباً وزيداً، فابتاع بنو الحارث بن عامر خبيباً ليقتلوه، لأنه قتل آباءهم، فلما خرجوا به ليقتلوه قال: دعوني أصلي ركعتين، فتركوه فصلى ركعتين، ثم قال: لولا أن تقولوا: جزع خبيب؛ لزدت، وأنشأ يقول:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً
على أي شق كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أوصال شلو ممزَّع

فصلبوه حياً، فقال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد حولي يبلغ رسولك سلامي، فجاءه رجل منهم يقال له: أبو سروة، ومعه رمح، فوضعه بين يدي خبيب، فقال له خبيب: اتق الله، فما زاده ذلك إلا عتواً. وأما زيد، فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه، فجاءه سفيان بن حرب حين قدم ليقتله، فقال: يا زيدا! أنشدك الله، أتحب أن محمداً مكانك، وأنت في أهلِكَ؟ فقال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذي وأنا جالس في أهلي، ثم قتل^(٣). وبلغ النبي الخبر، فقال: «أيكم يحتمل خبيباً عن خشبته وله الجنة؟» فقال الزبير: أنا وصاحبي المقداد، فخرجا يمشيان بالليل ويمكثان بالنهار، حتى وافيا المكان، وإذا حول الخشب أربعون مشركاً نيام نشأوا، وإذا هو رطب يتثنى لم يتغير فيه شيء بعد أربعين يوماً، فحملة الزبير على فرسه، وسار فلحقه سبعون منهم، فقفز الزبير خبيباً فابتلعه الأرض، وقال الزبير: ما جرأكم علينا يا معشر قريش؟! ثم رفع العمامة عن رأسه وقال: أنا الزبير بن العوام، وأمي صفية بنت عبد المطلب، وصاحبي المقداد، أسدان رابضان يدفعان عن شبلهما، فإن شتمت ناضلتكم، وإن شتمت نازلتكم، وإن شتمت انصرفتم، فانصرفوا، وقدموا على رسول الله ﷺ وجبريل عنده، فقال: «يا محمد إن الملائكة لتباهي بهذين من أصحابك». وقال بعض المنافقين في أصحاب خبيب: ويح هؤلاء المقتولين، لا في بيوتهم قعدوا، ولا رسالة صاحبهم أدوا، فأنزل الله تعالى في الزبير والمقداد وخبيب وأصحابه والمنافقين هذه الآية، وثلاث آيات بعدها. وهذا الحديث بطوله مروي عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾. فيه قولان: أحدهما: أنه يقول: إن الله يشهد أن ما ينطق به لساني هو الذي في قلبي. والثاني: أنه يقول: اللهم أشهد علي بهذا القول. وقرأ ابن مسعود: «ويشهد الله» بزيادة سين وتاء. وقرأ الحسن، وطلحة بن مصرف، وابن محيصن وابن أبي عبة: «وَيَشْهَدُ» بفتح الياء «الله» بالرفع.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾. الخصام: جمع خصم، يقال: خصم وخصام وخصوم. قال الزجاج: والألد:

(١) الرجيع: ماء لهليل قرب الهداة بين عسفان ومكة، وهو الموضع الذي غدرت فيه عفل والقارة، بالنفر الذي بعثهم رسول الله ﷺ. انظر «سيرة ابن هشام» ١٦٩/٢.

(٢) الرجل: الكثير.

(٣) روى معنى هذا الحديث البخاري إلى هنا مطولاً في كتاب المغازي من «صحيحه» وفيه قصة مقتل خبيب وزيد وعاصم.

الشديد الخصومة، واشتقاقه من لذيدي العنق، وهما صفحتا العنق، ومعناه: أن خصمه في أي وجه أخذ من أبواب الخصومة، غلبه في ذلك.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ وَلَكُمْ عَلاَقٌ بِمَا نَصَرْتُمْ قَالُوا لَنْ نَقْبَلَهُ بِمَا نَفَعَنَا اللَّهُ بِآيَاتِهِ وَنَفَعْنَا بِنِعْمَتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا زَكَّاهُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ وَلَكُمْ عَلاَقٌ بِمَا نَصَرْتُمْ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه بمعنى: غضب، روي عن ابن عباس، وابن جريج. والثاني: أنه الانصراف عن القول الذي قاله، قاله الحسن. والثالث: أنه من الولاية، فتقديره: إذا صار والياً، قاله مجاهد والضحاك. والرابع: أنه الانصراف بالبدن، قاله مقاتل وابن قتيبة. وفي معنى «سعى» قولان: أحدهما: أنه بمعنى: عمل، قاله ابن عباس ومجاهد. والثاني: أنه من السعي بالقدم، قاله أبو سليمان الدمشقي. وفي الفساد قولان: أحدهما: أنه الكفر. والثاني: الظلم. والحديث: الزرع. والنسل: نسل كل شيء من الحيوان، هذا قول ابن عباس وعكرمة في آخرين. وحكى الزجاج عن قوم: أن الحرت: النساء، والنسل: الأولاد. قال: وليس هذا بمنكر، لأن المرأة تسمى حرتاً. وفي معنى إهلاكه للحرت والنسل ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إهلاك ذلك بالقتل والإحراق والإفساد، قاله الأكرتون. والثاني: أنه إذا ظلم كان الظلم سبباً لقطع القطر، فيهلك الحرت والنسل، قاله مجاهد. وهو يخرج على قول من قال: إنه من التولي. والثالث: أنه إهلاك ذلك بالضلال الذي يؤول إلى الهلاك، حكاه بعض المفسرين.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُبْغِي الْفَسَادَ﴾ قال ابن عباس: لا يرضى بالمعاصي. وقد احتجت المعتزلة بهذه الآية، فأجاب أصحابنا بأجوبة. منها: أنه لا يحبه ديناً، ولا يريده شرعاً، فأما أنه لم يره وجوداً؛ فلا. والثاني: أنه لا يحبه للمؤمنين دون الكافرين. والثالث: أن الإرادة معنى غير المحبة، فإن الإنسان قد يتناول المرء، ويريد بطل الجرح، ولا يحب شيئاً من ذلك. وإذا بان في المعقول الفرق بين الإرادة والمحبة؛ بطل ادعائهم التساوي بينهما، وهذا جواب معتمد. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِبِأَادُوهُ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ١٧].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ اتَّقَى اللَّهَ وَقَالَ أَغَايَرْتُمْ بِلِقَاءِ رَبِّي﴾

قوله تعالى: ﴿اتَّقَى اللَّهَ﴾ قال ابن عباس: هي الحمية. وأنشدوا:

أَخَذْتَهُ عِزَّةً مِنْ جَهْلِهِ فَتَوَلَّى مَغْضَباً فَعَلَّ الضَّجِجَ

ومعنى الكلام: حملته الحمية على الفعل بالإثم. وفي «جهنم» قولان، ذكرهما ابن الأنباري: أحدهما: أنها أعجمية لا تجر للتعريف والعجمة. والثاني: أنها اسم عربي، ولم يجز للتأنيث والتعريف. قال رؤية: رُكَّيَّة جهنم: بعيدة القعر. وقال الأعشى:

دَعَوْتُ خَلِيلِي مِسْحَلاً وَدَعَاؤُهُ جُهَنَامُ جَدْعاً لِلْهَجِينِ الْمَذْمُومِ^(١)

فترك صرفه يدل على أنه اسم أعجمي مُعَرَّب. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: فحسبه جهنم جزاء عن إثمه. والثاني: فحسبه جهنم ذلاً من عزه. والمهاد: الفراش، ومهدت لفلان: إذا وطأت له، ومنه: مهد الصبي.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ يَمُنُّونَ بِالْغَيْبِ أَشْرَاقُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ يَمُنُّونَ بِالْغَيْبِ أَشْرَاقُ﴾ اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على خمسة أقوال: أحدها: أنها نزلت في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهو معنى قول عمر وعلي رضي الله عنهما. والثاني: أنها نزلت في الزبير والمقداد حين ذهبوا لإنزال خبيب من خشبته، وقد شرحنا القصة. وهذا قول ابن عباس والضحاك. والثالث: أنها نزلت في صهيب الرومي، واختلفوا في قصته، فروي أنه أقبل مهاجراً نحو النبي ﷺ فاتبه نفر من قريش، فنزل، فانتشل كنانته، وقال: قد علمتم أنني من أركامكم بسهم، وإيم الله لا تصلون إليّ حتى أرميكم بكل سهم معي، ثم أضربكم بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، فإن شئتم دلتكم على مالي. قالوا: فدلنا على مالك نخلّ عنك، فعاهدكم على ذلك، فنزلت فيه هذه الآية، فلما رآه النبي ﷺ قال: «ريح البيع أبا يحيى؟» وقرأ عليه القرآن. هذا قول سعيد بن المسيب، وذكر نحوه أبو

(١) جهنم: لقب لشاعر كان يهاجي الأعشى اسمه «عمرو بن قطن» وقيل: هو اسم شيطان الشاعر على عقيدة بعض العرب في ذلك، كما أن «مسحلاً» اسم شيطان الأعشى.

صالح عن ابن عباس، وقال: إن الذي تلقاه فيشره بما نزل فيه أبو بكر الصديق. وذكر مقاتل أنه قال للمشركين: أنا شيخ كبير لا يضركم إن كنت معكم أو عليكم، ولي عليكم حق لجواري، فخذوا مالي غير راحلة، واتركوني وديني، فاشترط أن لا يمنع عن صلاة ولا هجرة، فأقام ما شاء الله، ثم ركب راحلته، فأتى المدينة مهاجراً، فلقاه أبو بكر، فيشره وقال: نزلت فيك هذه الآية. وقال عكرمة: نزلت في صهيب، وأبي ذر الغفاري، فأما صهيب، فأخذه أهله فافتدى بماله، وأما أبو ذر، فأخذه أهله فأفلت منهم حتى قدم مهاجراً. والرابع: أنها نزلت في المجاهدين في سبيل الله، قاله الحسن وابن زيد في آخرين. والخامس: أنها نزلت في المهاجرين والأنصار حين قاتلوا على دين الله حتى ظهوروا، هذا قول قتادة. و«يشري» كلمة من الأضداد، يقال: شري، بمعنى: باع، وبمعنى: اشترى. فمعناها على قول من قال: نزلت في صهيب؛ معنى: يشتري. وعلى بقية الأقوال بمعنى: يبيع.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْخُلُوا فِي الْيَسْرِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ رَكِبْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْفُكَاكِرِ أَلْوَنًا وَيُفْضِيَ الْأَمْرَ إِلَى اللَّهِ تُرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْخُلُوا فِي الْيَسْرِ كَافَّةً﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت فيمن أسلم من أهل الكتاب، كانوا بعد إسلامهم يتقون السبت ولحم الجمل، وأشياء يتيقها أهل الكتاب. رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنها نزلت في أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بالنبي محمد ﷺ، أمروا بالدخول في الإسلام. روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال الضحاك. والثالث: أنها نزلت في المسلمين، يأمرهم بالدخول في شرائع الإسلام كلها، قاله مجاهد وقاتدة. وفي «السلم» ثلاث لغات: كسر السين، وتسكين اللام؛ وبها قرأ أبو عمرو، وابن عامر في «البقرة» وفتح السين في «الأنفال» وسورة «محمد». وفتح السين مع تسكين اللام؛ وبها قرأ ابن كثير، ونافع، والكسائي في المواضع الثلاثة. وفتح السين واللام؛ وبها قرأ الأعمش في «البقرة» خاصة. وفي معنى «السلم» قولان: أحدهما: أنه الإسلام، قاله ابن عباس، وعكرمة، وقاتدة، والضحاك، والسدي، وابن قتيبة، والزجاج في آخرين. والثاني: أنها الطاعة، روي عن ابن عباس أيضاً، وهو قول أبي العالية، والربيع. وقال الزجاج: و«كافة» بمعنى الجميع، وهو في اشتقاق اللغة: ما يكف الشيء في آخره، من ذلك: كُفَّةُ القميص، وكل مستطيل فحرفه كُفَّةٌ: بضم الكاف. ويقال في كل مستدير: كُفَّةٌ بكسر الكاف، نحو: كُفَّةُ الميزان. ويقال: إنما سميت كُفَّةُ الثوب، لأنها تمنعه أن ينتشر، وأصل الكف: المنع، وقيل لطرف اليد: كف، لأنها تكف بها عن سائر البدن، ورجل مكفوف: قد كف بصره أن ينظر. واختلفوا: هل قوله: «كافة» يرجع إلى السلم، أو إلى الداخلين فيه؟ على قولين: أحدهما: أنه راجع إلى السلم، فتقديره: ادخلوا في جميع شرائع الإسلام. وهذا يخرج على القول الأول الذي ذكرناه في نزول الآية. والثاني: أنه يرجع إلى الداخلين فيه، فتقديره: ادخلوا كلكم في الإسلام، وبهذا يخرج على القول الثاني. وعلى القول الثالث يحتمل قوله: «كافة» ثلاثة أقوال: أحدها: أن يكون أمراً للمؤمنين بالاستسهم أن يؤمنوا بقلوبهم. والثاني: أن يكون أمراً للمؤمنين بالدخول في جميع شرائعه. والثالث: أن يكون أمراً لهم بالثبات عليه، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ [النساء: ١٣٦]. و: ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾: المعاصي. وقد سبق شرحها. و﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: الدلالات الواضحات. وقال ابن جريج: هي الإسلام والقرآن. و«ينظرون» بمعنى: يتظنون.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ كان جماعه من السلف يمسكون عن الكلام في مثل هذا. وقد ذكر القاضي أبو يعلى عن أحمد أنه قال: المراد به: قدرته وأمره. قال: وقد بينه في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيْ أَمْرٌ رَّيْبٌ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

قوله تعالى: ﴿فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْفُكَاكِرِ أَلْوَنًا﴾ أي: بظلل. والظلل: جمع ظلة. و«الغمام»: السحاب الذي لا ماء فيه. قال الضحاك: في قطع من السحاب. ومتى يكون مجيء الملائكة؟ فيه قولان: أحدهما: أنه يوم القيامة، وهو قول الجمهور. والثاني: أنه عند الموت. قاله قتادة. وقرأ الحسن بخفض «الملائكة». و«قُضِيَ الْأَمْرُ»: فُرج منه. ﴿وَرَأَى اللَّهُ تَرْجِعَ الْأُمُورَ﴾. أي: تصير. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم، «تُرْجَعُ» بضم التاء. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي بفتحها. فإن قيل: فكان الأمور كانت إلى غيره؟ فعنه أربعة أجوبة: أحدها: أن المراد به إعلام الخلق أنه

المجازي على الأعمال بالثواب والعقاب، قاله الزجاج. والثاني: أنه لما عبد قوم غيره، ونسبوا أفعاله إلى سواءه، ثم انكشف الغطاء يوم القيامة؛ ردوا إليه ما أضافوه إلى غيره. والثالث: أن العرب تقول: قد رجع علي من فلان مكروه: إذا صار إليه منه مكروه، وإن لم يكن سبق، قال الشاعر:

فإن تكن الأيام أحسن مرة
إلتي فقد عادت لهنّ ذنوب
ذكرهما ابن الأنباري. ومما يشبه هذا قول لبيد:

وما الممر إلا كالشهاب وضوئه
يحور رماداً بعد إذ هو ساطع
أراد: يصير رماداً؛ لا أنه كان رماداً. وقال أمية بن أبي الصلت:

تلك المكارم لا قعبان من لبن
شيبا بماء فعادا بعد أبوالا^(١)

أي: صار. والرابع: أنه لما كانت الأمور إليه قبل الخلق، ثم أوجدتهم فملكهم بعضها رجعت إليه بعد هلاكهم. فإن قيل: قد جرى ذكر اسمه تعالى في قوله: ﴿أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ فما الحكمة في أنه لم يقل: وإليه ترجع الأمور؟ فالجواب: أن إعادة اسمه أفخم وأعظم، والعرب إذا جرى ذكر شيء يفخم أعادوا لفظه، وأنشدوا:

لا أرى الموت يسبق الموت شيئاً
نغص الموت ذا الغنى والفقير
فأعادوا ذكر الموت لفخامته في صدورهم، ذكره الزجاج.

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِن ءَايَمِ يَبْتَنُونَ وَمَن يَدُلْ بِنَمَّةٍ عَلَى اللَّهِ فَإِنِّ لَهُ سَعِيدٌ آلْفَقَابِ ﴿٢١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمعنى له وللمؤمنين. قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: «سل» بغير همز، وبعض تميم يقول: «اسأل» بالهمز، وبعضهم يقول: «إسل» بالالف وطرح الهمز، والأولى أغربهن، وبها جاء الكتاب. وفي المراد بالسؤال قولان: أحدهما: أنه التقرير والإذكار بالنعم. والثاني: التوبيخ على ترك الشكر. والآية البينة: العلامة الواضحة، كالعصا، والغمام، والمن، والسلوى، والبحر. وفي المراد بنعمة الله قولان: أحدهما: أنها الآيات التي ذكرناها، قاله قتادة. والثاني: أنها حجج الله الدالة على أمر النبي ﷺ، قاله الزجاج. وفي معنى تبديلها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الكفر بها، قاله أبو العالية ومجاهد. والثاني: تغيير صفة النبي ﷺ، في التوراة. قاله أبو سليمان الدمشقي. والثالث: تعطيل حجج الله بالتأويلات الفاسدة.

﴿زَيْنَ لِلزَّيْنِ كَفَرُوا الْحَيَّةُ الذُّبَابُ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلزَّيْنِ كَفَرُوا﴾ في نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في أبي جهل وأصحابه، قاله ابن عباس. والثاني: نزلت في علماء اليهود، قاله عطاء. والثالث: في عبد الله بن أبي وأصحابه من المنافقين. قاله مقاتل. قال الزجاج: وإنما جاز في «زين» لفظ التذكير، لأن تأنيث الحياة ليس بحقيقي، إذ معنى الحياة ومعنى العيش واحد. وإلى من يضاف هذا التزيين؟ فيه قولان: أحدهما: أنه يضاف إلى الله. وقرأ أبي بن كعب، والحسن، ومجاهد، وابن محيصن، وابن أبي عتبة: ﴿زَيْنَ﴾ بفتح الزاي والياء، على معنى: زيتها الله لهم. والثاني: أنه يضاف إلى الشيطان، روي عن الحسن. قال شيخنا علي بن عبيد الله: والتزيين من الله تعالى: هو التركيب الطبيعي، فإنه وضع في الطباع محبة المحبوب، لصورة فيه تزيين للنفس، وذلك من صنعه، وتزيين الشيطان بإذكار ما وقع من إغفاله مما مثله يدعو إلى نفسه لزنيته، فالله تعالى يزِين بالوضع، والشيطان يزِين بالإذكار. وما السبب في سخرية الكفار من المؤمنين؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم سخروا منهم للفقر. والثاني: لتصديقهم بالآخرة. والثالث: لاتباعهم للنبي ﷺ. وقيل: إنهم كانوا يوهمونهم أنكم على الحق، سخرية منهم بهم. وفي معنى كونهم «فوقهم» ثلاثة أقوال: أحدها: أن ذلك على أصله، لأن المؤمنين في عليين، والكفار في سجين. والثاني: أن حجج المؤمنين فوق شبه الكافرين، فهم المنصورون. والثالث: في أن نعيم المؤمنين في الجنة فوق نعيم الكافرين في الدنيا.

(١) هو من قصيدة يمدح بها سيف بن ذي يزن إثر ظفره بالحبة. القعب: القدح الضخم. شيبا: خلطاً.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرِثُ مَن يَشَاءُ مِمَّا سِوَىٰ ذَٰلِكَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه يرزق من يشاء رزقاً واسعاً غير ضيق. والثاني: يرزق من يشاء بلا محاسبة في الآخرة.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفوا فيه وَمَا اختلف فيه إِلَّا الَّذِينَ أَوَّلُوهُ مِن بَدَلٍ مَا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ بَعِثْنَا بَيْنَهُمْ فُجْرًا فَقَدْىَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اختلفوا فيه مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ في المراد به الناس هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: جميع بني آدم، وهو قول الجمهور. والثاني: آدم وحده، قاله مجاهد. قال ابن الأنباري: وهذا الوجه جائز، لأن العرب توقع الجمع على الواحد. ومعنى الآية: كان آدم ذا دين واحد، فاختلف ولده من بعده. والثالث: آدم وأولاده كانوا على الحق، فاختلفوا حين قتل قابيل هابيل. ذكره ابن الأنباري. والأمة هاهنا: الصنف الواحد على مقصد واحد. وفي ذلك المقصد الذي كانوا عليه قولان: أحدهما: أنه الإسلام، قاله أبي بن كعب، وقتادة، والسدي، ومقاتل. والثاني: أنه الكفر. رواه عطية عن ابن عباس. ومتى كان ذلك؟ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنه حين عرضوا على آدم، وأقروا بالعبودية. قاله أبي بن كعب. والثاني: في عهد إبراهيم كانوا كفاراً. قاله ابن عباس. والثالث: بين آدم ونوح، وهو قول قتادة. والرابع: حين ركبوا السفينة، كانوا على الحق. قاله مقاتل. والخامس: في عهد آدم، ذكره ابن الأنباري. ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ بالنار. هذا قول الأكثرين. وقال بعض السلف: مبشرين لمن آمن بك يا محمد، ومنذرين لمن كذبك. ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ والكتاب: اسم جنس، كما نقول: كثر الدرهم في أيدي الناس. وذكر بعضهم أنه في التوراة. وفي المراد بالحق هاهنا قولان: أحدهما: أنه بمعنى الصدق والعدل. والثاني: أنه القضاء فيما اختلفوا فيه ﴿لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ في الحاكم هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الله تعالى. والثاني: أنه النبي الذي أنزل عليه الكتاب، والثالث: الكتاب، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يُطِئُ عَلَىٰكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وقرأ أبو جعفر: ﴿لِيُحْكَمَ﴾ بضم الياء وفتح الكاف. وقرأ مجاهد «لتحكم» بالتاء على الخطاب للنبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فِيمَا اختلفوا فيه﴾ يعني: الدين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا اختلف فيه﴾ في هذه الهاء ثلاثة أقوال: أحدها: أنها تعود إلى محمد ﷺ، قاله ابن مسعود. والثاني: إلى الدين. قاله مقاتل. والثالث: إلى الكتاب، قاله أبو سليمان الدمشقي. فأما هاء «أوتوه» فعائدة على الكتاب من غير خلاف. وقال الزجاج: ونصب «بغياً» على معنى المفعول له، فالمعنى: لم يوقعوا الاختلاف إلا للبغي، لأنهم عالمون بحقيقة الأمر في كتبهم. وقال الفراء: في اختلافهم وجهان: أحدهما: كفر بعضهم بكتاب بعض، والثاني: تبديل ما بدلوا.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْىَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اختلفوا فيه﴾ أي: لمعرفة ما اختلفوا فيه، أو تصحيح ما اختلفوا فيه. وفي الذي اختلفوا فيه ستة أقوال: أحدها: أنه الجمعة، جعلها اليهود السبت، والنصارى الأحد، فروى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة»^(١) بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناهم من بعدهم، فهذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له فاليوم لنا، وغدا لليهود، وبعد غد للنصارى^(٢). والثاني: أنه الصلاة، فمنهم من يصلي إلى المشرق، ومنهم من يصلي إلى المغرب. والثالث: أنه إبراهيم. قالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً. والرابع: أنه عيسى، جعلته اليهود لفرية، وجعلته النصارى إلهاً. والخامس: أنه الكتب، آمنوا ببعضها، وكفروا ببعضها. والسادس: أنه الدين، وهو الأصح، لأن جميع الأقوال داخلة في ذلك.

(١) أي: نحن الآخرون زماناً، السابقون منزلة، والمراد أن هذه الأمة وإن تأخر وجودها في الدنيا عن الأمم الماضية، فهي سابقة لهم في الآخرة، بأنهم أول من بشر، وأول من يحاسب، وأول من يقضى بينهم، وأول من يدخل الجنة.

(٢) متفق عليه، واللفظ الذي أورده المصنف لمسلم.

تكون «ذا» بمعنى الذي، و«ينفقون»: صلته، فيكون المعنى: يسألونك: أي شيء الذي ينفقون؟ والثاني أن تكون «ما» مع «ذا» اسماً واحداً، فيكون المعنى: يسألونك أي شيء ينفقون، قال: وكأنهم سألوا: على من ينبغي أن يفضلوا، وما وجه الذي ينفقون؟ لأنهم يعلمون ما المنفق، وأعلمهم الله أن أولى من أفضّل عليه الوالدان والأقربون. والخير: المال، قاله ابن عباس في آخرين. وقال: ومعنى: ﴿فَلْيَوْلَايَيْنِ﴾: فعلى الوالدين.

فصل

وأكثر علماء التفسير على أن هذه الآية منسوخة، قال ابن مسعود: نسختها آية الزكاة. وذهب الحسن إلى إحكامها، وقال ابن زيد: هي في التوافل. وهذا الظاهر من الآية، لأن ظاهرها يقتضي الندب، ولا يصح أن يقال: إنها منسوخة، إلا أن يقال: إنها اقتضت وجوب النفقة على المذكورين فيها.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ قال ابن عباس: لما فرض الله على المسلمين الجهاد شق عليهم وكرهوه، فنزلت هذه الآية. و«كتب» بمعنى: فرض في قول الجماعة. قال الزجاج: يقال: كرهت الشيء أكرهه كرهاً وكُرهماً، وكرامةً وكرامهيةً. وكل ما في كتاب الله من الكره، فالفتح فيه جائز، إلا أن أبا عبيد ذكر أن الناس مجتمعون على ضم هذا الحرف الذي في هذه الآية. وإنما كرهوه لمشقته على النفوس، لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى. وقال الفراء: الكره والكُره: لغتان. وكان النحويين يذهبون بالكُره إلى ما كان منك مما لم تُكره عليه، فإذا أكرهت على الشيء استحبوا «كُرهاً» بالفتح. وقال ابن قتيبة: الكره بالفتح، معناه: الإكراه والقهر، وبالضم معناه: المشقة. ومن نظائر هذا: الجُهد: الطاقة، والجُهد: المشقة، ومنهم من يجعلهما واحداً. وعُظم الشيء: أكبره، وعُظمه: نفسه. وعُرض الشيء: إحدى نواحيه. وعُرضه: خلاف طوله. والأكل: مصدر أكلت، والأكل: المأكول، وقال أبو علي: هما لغتان، كالفقر والفقر، والضَّعْف والضَّعْف، والدَّف والدَّف، والشَّهْد والشَّهْد.

قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ قال ابن عباس: يعني الجهاد. ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فتح وغنيمة أو شهادة. ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا﴾ وهو: القعود عنه. ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ لا تصيبون فتحاً ولا غنيمة ولا شهادة. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أن الجهاد خير لكم. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ حين أحببتم القعود عنه.

فصل

اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها من المحكم الناسخ للعفو عن المشركين. والثاني: أنها منسوخة، لأنها أوجبت الجهاد على الكل، فنسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَنْفِرُوا كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]. والثالث: أنها ناسخة من وجه، منسوخة من وجه. وقالوا: إن الحال في القتال كانت على ثلاث مراتب: الأولى: المنع من القتال، ومنه قوله تعالى: ﴿أَنْزَرْنَا إِلَى اللَّهِ فَمَنْ يَنْزِلْ إِلَيْهِ يَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [النساء: ٧٧]. والثانية: أمر الكل بالقتال، ومنه قوله تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]. ومثلها هذه الآية. والثالثة: كون القتال فرضاً على الكفاية، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَنْفِرُوا كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]. فيكون الناسخ منها إيجاب القتال بعد المنع منه، والمنسوخ منه وجوب القتال على الكل.

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ النَّهْرِ أَلْحَرَامٍ يُقَالُ فِيهِ قُلُوفُ فَتَالُ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَالْخُرَاجَ أَهْلِيهِ وَنَهْ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُعَذِّبُونَكَ حَتَّى يَرْضَوْكَ عَنْ دِينِهِمْ إِنَّ اسْتِغْلَافَكُمْ عَنْ دِينِهِمْ عَنْ دِينِهِمْ فَيَسْتَوْفُوا قُلُوبَهُمْ فَالْوَلَايَةُ حَبْلُكُمْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ النَّهْرِ أَلْحَرَامٍ يُقَالُ فِيهِ﴾ روى جندب بن عبد الله أن رسول الله ﷺ بعث رهطاً واستعمل عليهم أبا عبيدة، فلما انطلق ليتوجه بكى صباية إلى رسول الله ﷺ فبعث مكانه عبد الله بن جحش، وكتب له كتاباً،

وأمره ألا يقرأه إلا بمكان كذا وكذا، وقال: «لا تكرهن أحدًا من أصحابك على المسير معك» فلما صار إلى المكان، قرأ الكتاب واسترجع، وقال: سمعاً [وطاعة لأمر] الله ولرسوله [فخبرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب]، فرجع رجلاً من أصحابه، ومضى بقيتهم، فأتوا ابن الحضرمي فقتلوه، فلم يدروا ذلك اليوم، أمين رجب، أو من جمادى الآخرة؟ فقال المشركون [للمسلمين]: قتلتم في الشهر الحرام. [فأتوا النبي ﷺ فحدثوه الحديث] فنزلت هذه الآية، فقال بعض المسلمين: لئن كان أصابهم خير فما لهم أجر، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ إلى قوله: ﴿رَجِمَ﴾ [البقرة: ٢١٨]. قال الزهري: اسم ابن الحضرمي: عمرو، واسم الذي قتله: عبد الله بن واقد الليثي. قال ابن عباس: كان أصحاب النبي ﷺ يظنون تلك الليلة من جمادى، وكانت أول رجب. وقد روى عطية عن ابن عباس أنها نزلت في شيتين: أحدهما: هذا. والثاني: دخول النبي ﷺ مكة في شهر حرام يوم الفتح، حين عاب المشركون عليه القتال في شهر حرام. وفي السائلين النبي ﷺ عن ذلك قولان: أحدهما: أنهم المسلمون سألوه: هل أخطؤوا أم أصابوا؟ قاله ابن عباس وعكرمة ومقاتل. والثاني: أنهم المشركون سألوه على وجه العيب على المسلمين، قاله الحسن وعروة، ومجاهد. والشهر الحرام: شهر رجب، وكان يدعى الأصم، لأنه لم يكن يسمع فيه للسلاح قعقة تعظيماً له، ﴿وَنَالِ فِيهِ﴾ أي: يسألونك عن قتال فيه. ﴿فَقُلْ فِتْنًا فِيهِ كِبِيرٌ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس: لا يجل. قال القاضي أبو يعلى: كان أهل الجاهلية يعتقدون تحريم القتال في هذه الأشهر، فأعلمهم الله تعالى في هذه الآية ببقاء التحريم.

فصل

اختلف العلماء في تحريم القتال في الأشهر الحرم: هل هو باق أم نسخ؟ على قولين: أحدهما: أنه باق. روى ابن جريج أن عطاء كان يحلف بالله: ما يحل للناس الآن أن يغزوا في الحرم، ولا في الأشهر الحرم، إلا أن يقاتلوا فيه أو يغزوا، وما نسخت. والثاني: أنه منسوخ، قال سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار: القتال جائز في الشهر الحرام، هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. ويقول تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩]. وهذا قول فقهاء الأمصار.

قوله تعالى: ﴿وَسَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هو مرفوع بالابتداء، وخبر هذه الأشياء: ﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾. وفي المراد بـ ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هاهنا قولان: أحدهما: أنه الحج، لأنهم صدوا رسول الله ﷺ عن مكة. قاله ابن عباس والسدي عن أشياخه. والثاني: أنه الإسلام، قاله مقاتل. وفي هاء الكناية في قوله: ﴿وَكُفِّرْ بِهِ﴾ قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله تعالى، قاله السدي عن أشياخه، وقتادة، ومقاتل، وابن قتيبة. والثاني: أنها تعود إلى السبيل. قاله ابن عباس. قال ابن قتيبة: وخفف ﴿وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ نسقاً على قوله: ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كأنه قال: وصد عن سبيل الله، وعن المسجد الحرام.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَرْجِزَ أَفْئِدَةً﴾ لما آذوا رسول الله ﷺ وأصحابه؛ اضطروهم إلى الخروج فكانهم أخرجوهم، فأعلمهم الله أن هذه الأفعال أعظم من قتل كل كافر. «والفتنة» هاهنا بمعنى الشرك. قاله ابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وابن جبير، وقتادة، والجماعة. والفتنة في القرآن على وجه كثيرة، قد ذكرتها في كتاب «النظائر» ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ يعني: الكفار، ﴿يُقَاتِلُونَكَ﴾ يعني: المسلمين. و﴿حَيَّطَ﴾ بمعنى: بطلت:

﴿إِنَّ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَّهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَّهَدُوا﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنه لما نزل القرآن بالرخصة لأصحاب عبد الله بن جحش في قتل ابن الحضرمي، قال بعض المسلمين: ما لهم أجر، فنزلت هذه الآية: وقد ذكرنا هذا في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْهَرَجِ﴾ عن جندب بن عبد الله. والثاني: أنه لما نزلت لهم الرخصة قاموا، فقالوا: [يا رسول الله] أنطمع أن تكون لنا غزاة نعطى فيها أجر المجاهدين، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. وقال: ﴿هَاجَرُوا﴾ من مكة إلى المدينة، ﴿وَجَّهَدُوا﴾ في طاعة الله ابن الحضرمي وأصحابه. و﴿رَحِمَتَ اللَّهُ﴾: مغفرته

وجنته. قال ابن الأنباري: الهجرة عند العرب من هجران الوطن والأهل والولد. والمهاجرون معناهم: المهاجرون الأولاد والأهل، فعرف مكان المفعول فأسقط. قال الشعبي: أول لواء عقد في الإسلام لواء عبد الله بن جحش، وأول مغنم قسم في الإسلام: مغنمه.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ لِإِكْبَارِهِمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُحْفِظُونَ قُلِ الْمَوْفُ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (١)

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن عمر بن الخطاب، قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية (٢). والثاني: أن جماعة من الأنصار جاؤوا إلى النبي ﷺ وفيهم عمر، ومعاذ، فقالوا: أفتنا في الخمر، فإنها مذهب للعقل مسلبة للمال، فنزلت هذه الآية. وفي تسمية الخمر خمراً ثلاثة أقوال: أحدها: أنها سميت خمراً، لأنها تخامر العقل، أي: تخالطه. والثاني: لأنها تخمر العقل، أي: تستره. والثالث: لأنها تخمر، أي: تغطي. ذكر هذه الأقوال محمد بن القاسم. وقال الزجاج: الخمر في اللغة: ما ستر على العقل، يقال: دخل فلان في خمار الناس، أي: في الكثير الذي يستتر فيهم، وخمار المرأة قناعها، سمي خمراً لأنه يغطي. قال: والخمر هاهنا هي المجمع عليها، وقياس كل ما عمل عملها أن يقال له: خمر، وأن يكون في التحريم بمنزلتها، لأن العلماء أجمعوا على أن القمار كله حرام، وإنما ذكر الميسر من بينه، وجعل كله قياساً على الميسر، والميسر إنما يكون قماراً في الجزر خاصة. فأما الميسر؛ فقال ابن عباس، وابن عمر، والحسن، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، وقتادة في آخرين: هو القمار. قال ابن قتيبة: يقال: يسرت: إذا ضربت بالقداح، ويقال للضارب بالقداح: يأسر ويأسرون، ويُسَرُ وأيسار. وكان أصحاب الثروة والأجواد في الشتاء عند شدة الزمان وكلبه ينحرون جزوراً، ويجزئونها أجزاء، ثم يضربون عليها بالقداح، فإذا قمر القمار، جعل ذلك لذوي الحاجة والمسكنة، وهو النفع الذي ذكره الله، وكانوا يتمادحون بأخذ القداح، ويتسابون بتركها ويعيبون من لا يسر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ قرأ الأكثرون «كبير» بالباء، وقرأ حمزة والكسائي بالثاء. وفي إثم الخمر ثلاثة أقوال: أحدها: أن شربها ينقص الدين. قاله ابن عباس. والثاني: أنه إذا شرب سكر وأذى الناس، رواه السدي عن أشياخه. والثالث: أنه وقع العداوة والبغضاء وتغطية العقل الذي يقع به التمييز، قاله الزجاج. وفي إثم الميسر قولان: أحدهما: أنه يشغل عن ذكر الله وعن الصلاة، ويوقع العداوة، قاله ابن عباس. والثاني: أنه يدعو إلى الظلم ومنع الحق. رواه السدي عن أشياخه، وجائز أن يراد جميع ذلك. وأما منافع الخمر؛ فمن وجهين: أحدهما: الربح في بيعها. والثاني: انتفاع الأبدان (٣) مع التذاذ النفوس. وأما منافع الميسر: فإصابة الرجل المال من غير تعب.

قوله تعالى: ﴿وَأِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ قولان: أحدهما: أن معناه: وإثمه بعد التحريم أكبر من نفعهما قبل التحريم، قاله سعيد بن جبيرة والضحاك ومقاتل. والثاني: وإثمه قبل التحريم أكبر من نفعهما قبل التحريم أيضاً، لأن الإثم الذي يحدث في أسبابهما أكبر من نفعهما. وهذا منقول عن ابن جبيرة أيضاً. واختلفوا بماذا كانت الخمرة مباحة؟ على قولين: أحدهما: بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَفَلَّدُونَ مِنْهُ سَكْرًا﴾ [النحل: ٦٧]. قاله ابن جبيرة. والثاني: بالشرعية الأولى، وأقر المسلمون على ذلك حتى حرمت.

فصل

اختلف العلماء: هل لهذه الآية تأثير في تحريم الخمر أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنها تقتضي ذمها دون تحريمها، رواه السدي عن أشياخه، وبه قال سعيد بن جبيرة، ومجاهد وقتادة، ومقاتل. وعلى هذا القول تكون هذه

(١) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي واللفظ لأحمد، عن عمر رضي الله عنه قال: لما نزل تحريم الخمر، قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية... الحديث. وصححه علي بن المديني، والترمذي.

(٢) كلا! ليست الخمرة نافعة للبدن، وثبت في الطب الحديث أن الخمرة ضارة بالبدن والعقل، وقد ألف في بيان ضررها كثير من الأطباء، مسلمين وغير مسلمين، وهناك رسالة في هذا الموضوع للدكتور نبيل الطويل، وهي ضمن كتابه «أحاديث في الصحة» وقد قام المكتب الإسلامي بطبعه ونشره.

عليهم، فذكروه للنبي ﷺ، فنزلت هذه الآية^(١) هذا قول ابن عباس، وعطاء، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومقاتل. والثاني: أن العرب كانوا يشددون في أمر اليتيم حتى لا يأكلون منه في قصعته، ولا يستخدمون له خادماً. فسألو النبي ﷺ عن مخالطتهم، فنزلت هذه الآية، ذكره السدي عن أشياخه، وهو قول الضحاك. وفي السائلين للنبي ﷺ، عن ذلك قولان: أحدهما: أن الذي سأله ثابت بن رفاعه الأنصاري، قاله مقاتل. والثاني: عبد الله بن رواحة، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لِّمَنْ خَرَّ﴾ قال ابن قتيبة: معناه: تسمير أموالهم، والتنزه عن أكلها لمن وليها خير. ﴿وَأَنْ تَغْلِبُوهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم، حكمهم في ذلك حكم إخوانكم. قال ابن عباس: والمخالطة: أن يشرب من لبنك، وتشرب من لبنه، ويأكل في قصعتك، وتأكل في قصعته. ﴿وَأَلَّاهُ يَمْلِكُ الْمَقْصِدَ مِنَ الْمَصْلُوحِ﴾ يريد: المتعمد أكل مال اليتيم، من المتحرّج الذي لا يألو إلا الإصلاح. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكُمْ﴾ قال ابن عباس: أي لأخرجكم، ولضيق عليكم. وقال ابن الأنباري: أصل العنت: التشديد. تقول العرب: فلان يتعنت فلاناً ويعتته، أي: يشدد عليه، ويلزمه بما يصعب عليه أداؤه [قال: ثم نقلت إلى معنى الهلاك] واشتقاق الحرف، من قول العرب: أكمة عنوت: إذا كانت شديدة شاقة [المصعد]، فجعلت هذه اللفظة مستعملة في كل شدة.

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكِيْنَ حَتَّى يُوْفِيَ وَكَأَمَّةٌ مُّؤَمَّنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْبَبْتُمْ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِيْنَ حَتَّى يُوْفُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْبَبْتُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْبَيْتَةِ وَالْغَيْفَةِ بِأَذْنِهِ وَبَيْنَ أَيْتِيهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكِيْنَ حَتَّى يُوْفِيَ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن رجلاً يقال له: مرثد بن أبي مرثد بعثه النبي ﷺ إلى مكة ليخرج ناساً من المسلمين بها أسرى، فلما قدمها سمعت به امرأة يقال لها: عناق، وكانت خليفة له في الجاهلية، فلما أسلم أعرض عنها، فأتته فقالت: ويحك يا مرثد: ألا تخلو؟ فقال: إن الإسلام قد حال بيني وبينك، ولكن إن شئت تزوجتك، إذا رجعت إلى رسول الله ﷺ استأذنته في ذلك، فقالت له: أبي تبرأ؟ واستغاث عليه، فضربوه ضرباً شديداً، ثم خلوا سبيله، فلما قضى حاجته بمكة رجع إلى النبي ﷺ فسأله: أتحل لي أن أتزوجها؟ فنزلت هذه الآية. هذا قول ابن عباس^(٢). وذكر مقاتل بن سليمان أنه أبو مرثد الغنوي. والثاني: أن عبد الله بن رواحة كانت له أمة سوداء، وأنه غضب عليها فلطمها، ثم فرغ، فأتى النبي ﷺ فأخبره خبرها، [فقال له النبي ﷺ: «ما هي يا عبد الله؟»] فقال: يا رسول الله: هي تصوم وتصلي وتحسن الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله. فقال: «يا عبد الله: هذه مؤمنة». فقال: والذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجها، ففعل، فعابه ناس من المسلمين، وقالوا: أنكح أمة، وكانوا يرغبون في نكاح المشركات رغبة في أحسابهن، فنزلت هذه الآية. رواه السدي عن أشياخه. وقد ذكر بعض المفسرين أن قصة عناق وأبا مرثد كانت سبباً لنزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكِيْنَ حَتَّى يُوْفِيَ﴾ وقصة ابن رواحة كانت سبباً لنزول قوله تعالى: ﴿وَلَأَمَّةٌ مُّؤَمَّنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ﴾. فأما التفسير، فقال المفضل: أصل النكاح: الجماع، ثم كثرت ذلك حتى قيل للعقد: نكاح. وقد حرم الله ﷻ نكاح المشركات عقداً ووطأً. وفي «المشركات» هاهنا

(١) رواه أبو داود، والنسائي، والحاكم، وقال: صحيح ولم يخرجوا، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الواحدي في «أسباب النزول» عن ابن عباس، ورواه بسند حسن بغير هذا السياق وسبباً لآية أخرى، أبو داود والنسائي والترمذي من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، ولفظه: «أن مرثد بن أبي مرثد الغنوي كان يحمل الأسرى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، قال: وكانت امرأة بني بمكة يقال لها: عناق، وكانت صديقة له، وإنه كان وعد رجلاً من أسارى مكة بحمله. قال: فبحثت حتى انتهت إلى ظل حائط من حواط مكة في ليلة مقمرة. قال: فجمعت عناق، فأبصرت سواد ظلي فجنب الحائط، فلما انتهت إلي عرفته، فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد. فقالت: مرحباً وأهلاً. هلم فبت عندنا الليلة. قال: قلت: يا عناق حرم الله الزنى، قالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم، قال: فتعيني ثمانية وسلكت الخندمة، فأتته إلى غار أو كهف، فدخلت، فجاؤا حتى قاموا على رأسي، فبالوا، فظل بولهم على رأسي، وعمامهم الله عني، قال: ثم رجعوا، ورجعت إلى صاحبي، فحملته، وكان رجلاً بغيلاً، حتى انتهت إلى الإذخر، ففككت عنه أكبله، فجعلت أحمله، ويعينني حتى قدمت المدينة. فأتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً؟ فأمسك رسول الله ﷺ، ولم يرد علي شيئاً حتى نزلت ﴿أَلَا يَكُنْ لَّكَ ذُرِّيَّةٌ أَوْ مِثْرَةٌ أَوْ زَانٍ لَا يَكُنْهَا﴾. قال رسول الله ﷺ: «يا مرثد. الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك، فلا تنكحها». وقال الترمذي: حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

قولان: أحدهما: أنه يُعْم الكتابيات وغيرهن، وهو قول الأكثرين. والثاني أنه خاص في الوثنيات، وهو قول سعيد بن جبير، والنخعي، وقتادة. وفي المراد بالأمّة قولان: أحدهما: أنها المملوكة، وهو قول الأكثرين، فيكون المعنى: ولنكاح أمّة مؤمنة خير من نكاح حرة مشركة. والثاني: أنها المرأة، وإن لم تكن مملوكة، كما يقال: هذه أمّة الله، وهذا قول الضحاك، والأول أصح. وفي قوله: ﴿وَلَوْ أَغَبَّكُمْ﴾ قولان: أحدهما: بجمالها وحسنها. والثاني: بحسبها ونسبها.

فصل

اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية، فقال القائلون بأن المشركات الوثنيات: هي محكمة، وزعم بعض من نصر هذا القول أن اليهود والنصارى ليسوا بمشركين بالله، وإن جحدوا بنبوة نبينا. قال شيخنا: وهو قول فاسد من وجهين: أحدهما: أن حقيقة الشرك ثابتة في حقهم حيث قالوا: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله. والثاني: أن كفرهم بمحمد ﷺ، يوجب أن يقولوا: إن ما جاء به ليس من عند الله، وإضافة ذلك إلى غير الله شرك. فأما القائلون بأنها عامة في جميع المشركات، فلمهم في ذلك قولان: أحدهما: أن بعض حكمها منسوخ بقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وبقي الحكم في غير أهل الكتاب محكماً. والثاني: أنها ليست منسوخة، ولا ناسخة، بل هي عامة في جميع المشركات، وما أخرج عن عمومها من إباحة كافرة؛ فلذلك خاص، وهو قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٦]؛ فهذه خصصت عموم تلك من غير نسخ، وعلى هذا عامة الفقهاء. وقد روي معناه عن جماعة من الصحابة، منهم: عثمان، وطلحة، وحذيفة، وجابر، وابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لا تزوجوهم بمسلمة حتى يؤمنوا؛ والكلام في قوله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَغَبَّكُمْ﴾ مثل الكلام في أول الآية. قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْبَيْتَةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِأَذْنَيْهِ﴾؛ قرأ الجمهور بخفض «المغفرة»، وقرأ الحسن، والقزاز، عن أبي عمرو، برفعها.

﴿رَسُلُوكَ عَنِ الْمَجِيزِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْرِضُوا﴾ [النساء: ٢٤٦/١] روى ثابت عن أنس قال: كانت اليهود إذا حاضت المرأة منهن لم يؤاكلوها، ولم يشاربوها، ولم يجامعوها في البيوت، فسل النبي ﷺ عن ذلك، فنزلت هذه الآية، فأمرهم النبي ﷺ أن يؤاكلوها ويشاربوهم ويكونوا معهم في البيوت، وأن يقتلوا كل شيء ما عدا النكاح^(١). وقال ابن عباس: جاء رجل يقال له: ابن الدحاح^(٢)، من الأنصار، إلى النبي ﷺ فقال: كيف تصنع بالنساء إذا حضن؟ فنزلت هذه الآية. وفي المحيض قولان: أحدهما: أنه اسم للحيض، قال الزجاج: يقال: قد حاضت المرأة حيضاً ومحاضاً ومنحوضاً.

وقال ابن قتيبة: المحيض: الحيض. والثاني: أنه اسم لموضع الحيض، كالمقيل، فإنه موضع القيلولة، والمبيت موضع البيتوة. وذكر القاضي أبو يعلى أن هذا ظاهر كلام أحمد. فأما أرباب القول الأول؛ فأكدوه بأن في اللفظ ما يدل على قولهم، وهو أنه وصفه بالأذى، وذلك صفة لتفسير الحيض، لا لمكانه. وأما أرباب القول الثاني، فقالوا: لا يمتنع أن يكون المحيض صفة للموضع، ثم وصفه بما قاربه وجاوره، كالعقيقة، فإنها اسم لشعر الصبي، وسميت بها الشاة التي

(١) أخرجه أحمد في «المستد» ومسلم في «صحيحه» ٢٤٦/١ ولغظه عن أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿رَسُلُوكَ عَنِ الْمَجِيزِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْرِضُوا﴾ [النساء: ٢٤٦/١] إلى آخر الآية. فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود. فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه. فجاء أسيد بن حضير وعبد بن بشر، فقالا: يا رسول الله إن اليهود تقول كذا وكذا، أفلا نجتمعن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا، فاستقبلهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ، فأرسل في آثارهما فسقاها، ففرقا أن لم يجد عليهما.

(٢) ويقال له: ابن الدحاح كما جاء في «الإصابة». والأثر ذكره ابن جرير عن السدي.

تذبح عند حلق رأسه مجازاً والمراوية: اسم للجميل، وسميت المزايدة راوية مجازاً. والأذى يحصل للواطىء بالنجاسة، وتنن الرياح. وقيل: يورث جماع الحائض علة بالغة في الألم. ﴿فَاعْتَرِلُوا الْيَسَاءَ فِي الْمَجِيئِ﴾ المراد به اعتزال الوطء في الفرج، لأن المحيض نفس الدم أو نفس الفرج ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُ﴾ أي: لا تقربوا جماعهن، وهو تأكيد لقوله: ﴿فَاعْتَرِلُوا الْيَسَاءَ﴾.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص، عن عاصم ﴿حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ خفيفة. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وأبو بكر، عن عاصم (يَطْهَرْنَ) بتشديد الطاء والهاء وفتحهما. قال ابن قتيبة: يطهرون: ينقطع عنهن الدم، يقال: طهرت المرأة وطهرت: إذا رأت الطهر، وإن لم تغتسل بالماء. ومن قرأ: ﴿يَطْهَرْنَ﴾ بالتشديد أراد: يغتسلن بالماء. والأصل يطهرون، فأدغمت التاء في الطاء. قال ابن عباس ومجاهد: حتى يطهرون من الدم، فإذا تطهرون اغتسلن بالماء.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَوْهُنَّ﴾ إباحة من حظر، لا على الوجوب. قوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن معناه: من قبل الطهر، لا من قبل الحيض، قاله ابن عباس، وأبو رزين، وقتادة، والسدي في آخرين. والثاني: أن معناه: فأتوهن من حيث أمركم الله أن لا تقربوهن فيه، وهو محل الحيض، قاله مجاهد. وقال من نصر هذا القول: إنما قال: ﴿أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ والمعنى: نهاكم، لأن النهي أمر بترك المنهي عنه ومن بمعنى «في»: كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُودُوا إِلَى الصَّلَاةِ مِنْ بَيْنِ أَلْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩]. والثالث: فأتوهن من قبل التزويج الحلال، لا من قبل الفجور، قاله ابن الحنفية. والرابع: أن معناه: فأتوهن من الجهات التي يحل أن تقرب فيها المرأة، ولا تقربوهن من حيث لا ينبغي مثل أن كن صائمات أو معتكفات أو محرمات. وهذا قول الزجاج، وابن كيسان. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُخَيِّبُ الْكَافِرِينَ﴾ قولان: أحدهما: التوايبن من الذنوب، قاله عطاء، ومجاهد في آخرين. والثاني: التوايبن من إتيان الحيض، ذكره بعض المفسرين. وفي قوله: ﴿وَيُخَيِّبُ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: المتطهرين من الذنوب، قاله مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وأبو العالية. والثاني: المتطهرين بالماء، قاله عطاء. والثالث: المتطهرين من إتيان أديار النساء. روي عن مجاهد.

فصل

أقل الحيض يوم وليلة في إحدى الروايتين عن أحمد. والثانية: يوم. وقال أبو حنيفة: أقله ثلاثة أيام. وقال مالك وداود: ليس لأقله حد. وفي أكثره روايتان عن أحمد: إحداهما: خمسة عشر يوماً، وهو قول مالك والشافعي. والثانية: سبعة عشر يوماً. وقال أبو حنيفة: أكثره عشرة أيام. والحيض مانع من عشرة أشياء: فعل الصلاة، ووجوبها، وفعل الصوم دون وجوبه، والجلوس في المسجد، والاعتكاف، والطواف، وقراءة القرآن، وحمل المصحف، والاستمتاع في الفرج، وحصول نية الطلاق.

﴿يَسَاءَلُكُمْ رَبُّكُمْ أَنْ تَقْرَأُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا بِكُمْ مُلْكُوهُ وَيُخَيِّبُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَسَاءَلُكُمْ رَبُّكُمْ أَنْ تَقْرَأُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا بِكُمْ مُلْكُوهُ وَيُخَيِّبُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن اليهود أنكرت جواز إتيان المرأة إلا من بين يديها، وهابت من يأتيها على غير تلك الصفة، فنزلت هذه الآية. روي عن جابر^(١)، والحسن، وقتادة. والثاني: أن حياً من قريش كانوا يتزوجون النساء بمكة، ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات، فلما قدموا المدينة، تزوجوا من الأختار، فذهبوا ليفعلوا ذلك، فأنكره، وانتهى الحديث إلى النبي ﷺ فنزلت هذه الآية. رواه مجاهد عن ابن عباس. والثالث: أن عمر بن الخطاب جاء إلى النبي ﷺ فقال: هلك، حولت رحلي الليلة، فنزلت هذه الآية. رواه سعيد بن جبيرة عن

(١) روى الشيخان وأبو داود عن جابر، قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿يَسَاءَلُكُمْ رَبُّكُمْ أَنْ تَقْرَأُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا بِكُمْ مُلْكُوهُ وَيُخَيِّبُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ابن عباس^(١). والحرث: المزدرع، وكنتى به هاهنا عن الجماع، فسماهن حرثاً، لأنهن مزدرع الأولاد، كالأرض للزرع، فإن قيل: النساء جمع، فلم لم يقل: حروث؟ فغته ثلاثة أجوبة، ذكرها ابن القاسم الأنباري النحوي: أحدها: أن يكون الحرث مصدرأ في موضع الجمع، فلزمه التوحيد، كما تقول العرب: إخوتك صوم، وأولادك فطر، يريدون: صافمين ومفطرين، فيؤدى المصدر بتوحيده عن اللفظ المجموع. والثاني: أن يكون أراد: حروث لكم، فاكفى بالواحد من الجمع، كما قال الشاعر:

كلوا في نصف بطنكم تعيشوا

أي: في أنصاف بطونكم. والثالث: أنه إنما وُحِدَ الحرث، لأن النساء شبهن به، ولسن من جنسه، والمعنى: نساؤكم مثل حروث لكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَيْئًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه بمعنى: كيف شئتم، ثم فيه قولان: أحدهما: أن المعنى: كيف شئتم، مقبلة أو مدبرة، وعلى كل حال، إذا كان الإتيان في الفرج. وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وعطية، والسدي، وابن قتبية في آخرين. والثاني: أنها نزلت في العزل. قاله سعيد بن المسيب، فيكون المعنى: إن شئتم فاعزلوا، وإن شئتم فلا تعزلوا. والقول الثاني: أنه بمعنى: إن شئتم، ومتى شئتم، وهو قول ابن الحنفية والضحاك، وروى عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أنه بمعنى: حيث شئتم، وهذا محكي عن ابن عمر ومالك بن أنس^(٢)، وهو فاسد من وجوه: أحدها: أن سالم بن عبد الله لما بلغه أن نافعاً تحدث بذلك عن ابن عمر، قال: كذب العبد، إنما قال عبد الله: يؤتون في فروجهن من أubarهن. وأما أصحاب مالك، فإنهم ينكرون صحته عن مالك، والثاني: أن أبا هريرة روى عن النبي ﷺ أنه قال: «ملعون من أتى النساء في أubarهن»^(٣)، فدل على أن الآية لا يراد بها هذا. والثالث: أن الآية نبهت على أنه محل الولد بقوله: ﴿فَأُولَا حَرْثُكُمْ﴾ وموضع الزرع: هو مكان الولد. قال ابن الأنباري: لما نصّل الله على ذكر الحرث، والحرث به يكون النبات، والولد مشبّه بالنبات؛ لم يجز أن يقع الوطء في محل لا يكون منه ولد. والرابع: أن تحريم إتيان الحائض كان لعله الأدنى، والأذى ملازم لهذا المحل لا يفارقه.

قوله تعالى: ﴿وَقَدَّمُوا لَكُمْ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن معناه: وقدموا لأنفسكم من العمل الصالح، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: وقدموا التسمية عند الجماع، رواه عطاء عن ابن عباس. والثالث: وقدموا لأنفسكم في طلب الولد، قاله مقاتل. والرابع: وقدموا طاعة الله واتباع أمره، قاله الزجاج.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْشَكُمْ لَأَتُنَبِّئَكُمْ أَن تَزُولُوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلُّوا بَيْنَ الْأَيْمَانِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

(١) روى الإمام أحمد والنسائي وابن حبان والترمذي، وقال: حسن غريب، ولفظه عند أحمد «عن ابن عباس قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ملكتك. قال: «وما الذي أملكك؟» قال: حولت رحلي الباردة، قال: فلم يرد علي شيئاً، قال: فأوحى الله إلى رسوله هذه الآية: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَرَوْهُ لَكُمْ فَأُولَا حَرْثُكُمْ أَلَيْ شَيْئًا﴾ أقبل وأدبر، واتقوا الدبر والحيفة. قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح. وقوله: «حولت رحلي الباردة». قال ابن الأثير في «النهاية» كنى برحله عن زوجته، وأراد به غشيانها في قبلها من جهة ظهرها، لأن المجمع يعلو المرأة ويركبها مما يلي وجهها، فحيث ركبها من جهة ظهرها كنى عنه بتحويل رحله. (والرحل): إما أن يريد به المنزل والمأوى، وإما أن يريد به الرجل الذي تركب عليه الإبل وهو الكور.

(٢) ثبت عن رسول الله ﷺ أحاديث في نهى الرجل أن يأتي المرأة في دبرها، فمن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا إن الله لا يستحي من الحق، لا يحل أن تأتوا النساء في حشوشهن» (الحش: الدبر) روى الدارقطني، والطبراني ورجاله ثقات. وعن خزيمة بن ثابت الخطمي أن رسول الله ﷺ قال: «لا يستحي الله من الحق، لا يستحي الله من الحق، ثلاثاً، لا تأتوا النساء في أعجازهن» روى أحمد والنسائي وابن ماجه. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل أتى امرأة في الدبر» روى الترمذي والنسائي وابن حبان في «صحيحه»، وحسن الترمذي، وصححه ابن حزم. وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «الذي يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى». روى أحمد والبزار والطبراني في «الأوسط»، وصححه المنذري والهيثمي. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد». روى أحمد في «المستدرك» وأبو داود والترمذي وابن ماجه وسنده صحيح. فهذه الأحاديث الصحيحة تفسير قاطع للآية، فليس لمسلم أن يعدل عن تفسير رسول الله ﷺ إلى تفسير غيره مهما كان هذا الغير.

(٣) روى أحمد وأبو داود وابن ماجه، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح، لأن الحارث بن مخلد ذكره ابن حبان في «الثقات»، وباقي رجال الإسناد ثقات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْشَكُمْ لِكَيْنَتُمْ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في عبد الله بن رواحة، كان بينه وبين ختنته^(١) شيء، فحلف عبد الله أن لا يدخل عليه ولا يكلمه، وجعل يقول: قد حلفت بالله، فلا يحل لي، إلا أن تبرّ يميني، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. والثاني: أن الرجل كان يحلف بالله أن لا يصل رحمه، ولا يصلح بين الناس، فنزلت هذه الآية، قاله الربيع بن أنس. والثالث: أنها نزلت في أبي بكر حين حلف لا يتفق على مسطح، قاله ابن جريج. والرابع: نزلت في أبي بكر، حلف أن لا يصل ابنه عبد الرحمن حتى يسلم، قاله المقاتلان: ابن حيان، وابن سليمان. قال الفراء: والمعنى: ولا تجعلوا الله مُعْتَرِضاً لأيمانكم. وقال أبو عبيد: نصباً لأيمانكم، كأنه يعني: أنكم تعترضونه في كل شيء، فتحلفون به. وفي معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناها: لا تحلفوا بالله أن لا تبرؤ ولا تتقوا ولا تصلحوا بين الناس، هذا قول ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وابن جبير، وإبراهيم، والضحاك، وقتادة، والسدي، ومقاتل، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج في آخرين^(٢). والثاني: أن معناها: لا تحلفوا بالله كاذبين لتتقوا المخلوقين وتبرؤهم، وتصلحوا بينهم بالكذب، روى هذا المعنى عطية عن ابن عباس. والثالث: أن معناها: لا تكثرُوا الحلف بالله وإن كنتم بآزين مصلحين، فإن كثرة الحلف بالله ضرب من الجراءة عليه. هذا قول ابن زيد.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْثَبِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْثَبِكُمْ﴾ قال الزجاج: اللغو في كلام العرب: ما أطرّح ولم يعقد عليه أمر، ويسمى ما لا يعتد به، لغواً. وقال ابن فارس: اشتقاق ذلك من قولهم لما لا يعتد^(٣) [به] من أولاد الإبل في الدية وغيرها لغواً، يقال منه: لغا يلغو، وتقول: لغني بالامر: إذا لهج به. وقيل: إن اشتقاق اللغة منه [أي: يلهج صاحبها بها]. وفي المراد باللغو هاهنا خمسة أقوال: أحدها: أن يحلف على الشيء يظن أنه كما حلف، ثم يتبين له أنه بخلافه. وإلى هذا المعنى ذهب أبو هريرة، وابن عباس، والحسن، وعطاء، والشعبي، وابن جبير، ومجاهد، وقتادة، والسدي عن أشياخه، ومالك، ومقاتل. والثاني: أنه: لا والله، وبلى والله، من غير قصد لعقد اليمين، وهو قول عائشة، وطاووس، وعروة، والنخعي، والشافعي. واستدل أرباب هذا القول بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وكسب القلب: عقده وقصده، وهذان القولان منقولان عن الإمام أحمد، روى عنه ابنه عبد الله أنه قال: اللغو عندي أن يحلف على اليمين، يرى أنها كذلك، ولا كفارة. والرجل يحلف ولا يعقد قلبه على شيء، فلا كفارة. والثالث: أنه يمين الرجل وهو غضبان، رواه طاووس عن ابن عباس. والرابع: أنه حلف الرجل على معصية، فليحنت، وليكفر، ولا إثم عليه. قال سعيد بن جبير. والخامس: أن يحلف الرجل على شيء، ثم ينساه. قاله النخعي. وقول عائشة أصح الجميع. قال حنبل: سئل أحمد عن اللغو فقال: الرجل يحلف فيقول: لا والله، وبلى والله، لا يريد عقد اليمين، فإذا عقد على اليمين لزمته الكفارة.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ﴾ قال مجاهد: أي: ما عقدت عليه قلوبكم «والحليم»: ذو الصّبح الذي لا يستغره غضب، فيعجل، ولا يستخفه جهل جاهل مع قدرته على العقوبة. قال أبو سليمان الخطابي: ولا يستحق اسم الحليم من سامح مع العجز عن المجازاة، إنما الحليم الصفوح مع القدرة، المتأنّي الذي لا يعجل بالعقوبة. وقد أنعم بعض الشعراء أبياتاً في هذا المعنى فقال:

لا يدرك المجد أقوام وإن كرموا حتى يندلبوا وإن عزّوا لأقوام
وُبُشَّتَمُوا فترى الألوان مسفرة لأصفح ذلّ ولكن صفح أحلام

(١) هو يشير بن النعمان، وكان ختنته على أخته.

(٢) جاء في «غريب القرآن» لابن قتيبة في تفسير الآية: «لا تجعلوا الله بالحلف به؛ مانعاً لكم من أن تبرؤ وتتقوا، ولكن إذا حلفتم على أن لا تصلوا رحماً، ولا تتصدقوا، ولا تصلحوا، وعلى أشياء ذلك من أبواب البر؛ فكفروا وأتوا الذي هو خير».

(٣) في الأصل: يعد، والتصحيح من «معجم مقاييس اللغة».

قال، ويقال: حَلَمَ الرجل يحلُمُ حُلُمًا بضم اللام في الماضي والمستقبل. وحَلَمَ في النوم، بفتح اللام، يحلم حُلُمًا، اللام في المستقبل والحاء في المصدر مضموتان.

فصل

الأيمان على ضربين: ماضٍ ومستقبل، فالماضي على ضربين: يمين محرمة، وهي: اليمين الكاذبة، وهي أن يقول: والله ما فعلت، وقد فعل. أو: لقد فعلت، وما فعل. ويمين مباحة، وهي أن يكون صادقاً في قوله: ما فعلت. أو: لقد فعلت. والمستقبل على خمسة أقسام: أحدها: يمين عقدها طاعة، والمقام عليها طاعة، وحلها معصية، مثل أن يحلف: لأصليَ الخمس، ولأصومَ رمضان، أو: لا شربت الخمر. والثاني: عقدها معصية، والمقام عليها معصية، وحلها طاعة، وهي عكس الأولى. والثالث: يمين عقدها طاعة، والمقام عليها طاعة، وحلها مكروه، مثل أن يحلف: ليُفعلنَ التوافل من العبادات. والرابع: يمين عقدها مكروه، والمقام عليها مكروه، وحلها طاعة، وهي عكس التي قبلها. والخامس: يمين عقدها مباح، والمقام عليها مباح، وحلها مباح. مثل أن يحلف: لا دخلت بلدًا فيه من يظلم الناس، ولا سلكت طريقاً مخوفاً، ونحو ذلك.

﴿لَّذَيْنِ يُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثَرْثُصَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ إِنْ قَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿لَّذَيْنِ يُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثَرْثُصَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ إِنْ قَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية إذا طلب الرجل من امرأته شيئاً، فأبت أن تعطيه؛ حلف أن لا يقربها السنة، والستين، والثلاث، فيدعها لا أيماً، ولا ذات بعل، فلما كان الإسلام، جعل الله ذلك أربعة أشهر، فأنزل الله هذه الآية^(١). وقال سعيد بن المسيب: كان الإيلاء ضرار أهل الجاهلية، وكان الرجل لا يريد المرأة، ولا يحب أن يتزوجها غيره، فيحلف أن لا يقربها أبداً، فجعل الله تعالى الأجل الذي يعلم به ما عند الرجل في المرأة أربعة أشهر، وأنزل هذه الآية. قال ابن قتيبة: يُولُونَ، أي: يحلفون. يقال: أليت من امرأتي، أولي إيلاء: إذا حلف لا يجامعها. والاسم: الأليّة. وقال الزجاج: يقال من الإيلاء: أليت أولي إيلاء وأليّة وألوة وألوة وألوة، وهي بالكسر أقل اللغات، قال كثير:

قيل الألياء حافظ ليمينه

وإن بددت منه الأليّة برت

وحكى ابن الأنباري عن بعض اللغويين أنه قال: «من» بمعنى: «في» أو: «على» والتقدير: يحلفون على وطء نساءهم، فحذف الوطء، وأقام النساء مقامه، كقوله تعالى: ﴿مَا وَعَدْنَا عَلَىٰ رَسُولِكَ﴾ [آل عمران: ١١٩] أي: على السنة رسلك. وقيل: في الكلام حذف، تقديره: يُولُونَ يعتزلون من نساءهم. والترصص: الانتظار. ولا يكون مؤلياً إلا إذا حلف بالله أن لا يصيب زوجته أكثر من أربعة أشهر، فإن حلف على أربعة أشهر فما دون ذلك، لم يكن مؤلياً. وهذا قول مالك، وأحمد، والشافعي. وفاؤوا: رجعوا، ومعناه: رجعوا إلى الجماع، قاله عليّ، وابن عباس، وابن جبير، ومسروق، والشعبي. وإذا كان للمؤلي عذر لا يقدر معه على الجماع، فإنه يقول: متى قدرت جامعتها، فيكون ذلك من قوله فيئة؛ فمتى قدر فلم يفعل، أمر بالطلاق، فإن لم يطلق، طلق الحاكم عليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال عليّ، وابن عباس: غفور لإثم اليمين.

﴿وَإِنْ عَزَا الظَّلَاقُ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَا الظَّلَاقُ﴾ أي: حققوه. وفي عزم الطلاق قولان: أحدهما: أنه إذا مضت الأربعة الأشهر استحق عليه أن يفيء، أو يطلق، وهو مروى عن عمر وعثمان، وعليّ، وابن عمر، وسهل بن سعد، وعائشة، وطاووس، ومجاهد، والحكم، وأبي صالح. وحكاه أبو صالح عن اثني عشر رجلاً من الصحابة، وهو قول مالك، وأحمد، والشافعي. والثاني: أنه لا يفيء حتى يمضي أربعة أشهر، فتطلق بذلك من غير أن يتكلم بطلاق. واختلف أرباب هذا القول فيما يلحقها من الطلاق على قولين: أحدهما: طلقة بائنة. روي عن عثمان، وعليّ، وابن عمر،

(١) رواء الواحدي بمعناه في «أسباب النزول» بسنده إلى ابن عباس.

وزيد بن ثابت، وقبيصة بن ذؤيب. والثاني: طلاق رجعية، روي عن سعيد بن المسيب، وأبي بكر بن عبد الرحمن، وابن شبرمة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: سميع لطلاقة، عليم بنيته. والثاني: سميع ليمينه، عليم بها.

﴿وَالطَّلَاقُ يَرْتَضِعُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لِمَنْ أَنْ يَكْتَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَنْفُسِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَهُوَ لَهُنَّ أَحَقُّ بِرُؤُوسِهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادَا إِصْلَاحًا وَلَكِنْ شَرَّ الَّذِي عَلَيْكَ بِالْمَعْرِفَةِ وَالرَّجَالِ عَلَيْكَ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالطَّلَاقُ يَرْتَضِعُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ سبب نزولها: أن المرأة كانت إذا طلقت وهي رغبة في زوجها، قالت: أنا حبلى، وليست حبلى، لكي يراجعها، وإن كانت حبلى وهي كارهة، قالت: لست بحبلى، لكي لا يقدر على مراجعتها. فلما جاء الإسلام ثبتوا على هذا، فنزل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّسَاءَ إِذَا طَلَّقْتُنَّ النَّسَاءَ طَلْفُوهُنَّ لِيُذْهِبْنَ وَأَنْحَصِرَ الْأَيْدُ﴾ [الطلاق: ١] ثم نزلت: ﴿وَالطَّلَاقُ يَرْتَضِعُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾. رواه أبو صالح عن ابن عباس. فأما التفسير؛ فالطلاق: التخلية. قال ابن الأنباري: هي من قول العرب: أطلقت الناقة، فطلقت: إذا كانت مشدودة، فأزلت الشد عنها، وخليتها، فشبها ما يقع للمرأة بذلك، لأنها كانت متصلة الأسباب بالرجل، وكانت الأسباب كالشد لها، فلما طلقها قطع الأسباب. ويقال: طلقت المرأة، وطلقت. وقال غيره: الطلاق: من أطلقت الشيء من يدي، إلا أنهم لكثرة استعمالهم اللفظتين فرقوا بينهما، ليكون التطليق مقصوراً في الزوجات. وأما القروء: فيراد بها: الأطهار، ويراد بها الحيض. يقال: أقرأت المرأة إذا حاضت، وأقرأت: إذا طهرت. قال النبي ﷺ في المستحاضة: «تقعد أيام أقرائها»^(١) يريد: أيام حيضها. وقال الأعشى:

وفي كل عام أنت جاشم غزوة
مُورِثَةٌ مَالاً، وفي الحي رفعاً
تشد لأقصاها غريم عزائكا
لما ضاع فيها من قروء نساكنا^(٢)

أراد بالقروء: الأطهار، لأنه لما خرج عن نسائه أضاع أطهارهن. واختلف أهل اللغة في أصل القروء على قولين: أحدهما: أن أصله الوقت، يقال: رجع فلان لقروءه، أي: لوقته الذي كان يرجع فيه، [ورجع لقارئه أيضاً] قال الهذلي^(٣):

كرهت العقر عقر بني شليل
إذا هبت لقارئها الرياح^(٤)

فالحيض يأتي لوقت، والطهر يأتي لوقت، هذا قول ابن قتيبة. والثاني: أن أصله الجمع. وقولهم: قرأت القرآن، أي: لفظت به مجموعاً. والقروء: اجتماع الدم في البدن، وذلك إنما يكون في الطهر، وقد يجوز أن يكون اجتماعه في الرحم، وكلاهما حسن، هذا قول الزجاج. واختلف الفقهاء في الأقراء على قولين: أحدهما: أنها الحيض. روي عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وأبي موسى، وعبادة بن الصامت، وأبي الدرداء، وعكرمة، والضحاك، والسدي، وسفيان الثوري، والأوزاعي، والحسن بن صالح، وأبي حنيفة وأصحابه، وأحمد بن حنبل رضي الله عنه فإنه قال: قد كنت أقول: القروء: الأطهار، وأنا اليوم أذهب إلى أنها الحيض^(٥). والثاني: أنها الأطهار. روي عن زيد بن ثابت، وابن عمر، وعائشة، والزهري، وأبان بن عثمان، ومالك بن أنس، والشافعي، وأبو إله أحمد. ولفظ قوله تعالى: ﴿وَالطَّلَاقُ

(١) عن عائشة رضي الله عنها، قالت: مثل رسول الله ﷺ عن المستحاضة، فقال: «تدع الصلاة أيام أقرائها، ثم تغتسل غسلاً واحداً، ثم تتوضأ عند كل صلاة» رواه ابن حبان في «صحيحه» وقد رواه غير ابن حبان عن غير عائشة. انظر: «نصب الراية» ٢٠١/١.

(٢) هما من قصيدة يمدح بها هودبة بن علي الحنفي. جشم الأمر تجشمه جشماً وجشامة: تكلفه على جهد ومشقة. والغريمة والغرام: الجد وعقد القلب على أمرائك فاعله. المزاء: حسن الصبر عن فقد ما يفقد الإنسان. وقوله: مودة؛ صفة لقوله: غزوة. يقول: لك في كل عام غزوة أنت جاشمها، تجمع لها صبرك وجلدك، فتعود منها بالمال والمجد الذي يعرضك عما عانيت من هجر نساك في وقت طهرهن، فلم تقرين.

(٣) هو مالك بن الحارث الهذلي.

(٤) المقر: اسم مكان، كرهه لأنه قوتل فيه، وشليل: جد جرير بن عبد الله البجلي.

(٥) وقد نصر هذا القول ابن القيم في «زاد المعاد» والأحاديث الصحيحة تؤيده.

بَرِّصَتْ ﴿ لَفْظُ الْخَبْرِ، وَمَعْنَاهُ: الْأَمْرُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُرِيتَنَ أَزْوَاجَهُمْ حَوْلَهُمْ﴾. وَقَدْ يَأْتِي لَفْظُ الْأَمْرِ فِي مَعْنَى الْخَبْرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَنْدُبْ لَهُ الرَّجُلُ مَنْ﴾ [مریم: ٧٥]. وَالْمُرَادُ بِالْمُطْلَقَاتِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، الْبَالِغَاتِ، الْمَدْخُولِ بِهِنَ غَيْرِ الْحَوَامِلِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكُنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَزْوَاجِهِنَّ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ الْحَمْلُ، قَالَ عُمَرُ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَمِقَاتِلٌ، وَابْنُ قَتَيْبَةَ، وَالزَّجَّاجُ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ الْحَيْضُ، قَالَ عِكْرَمَةُ، وَعَطِيَّةُ، وَالنَّخْعِيُّ، وَالزَّهْرِيُّ. وَالثَّلَاثُ: الْحَمْلُ وَالْحَيْضُ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ، وَابْنُ زَيْدٍ.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ خَرَجَ مَخْرَجَ الرَّعِيدِ لِهِنَّ وَالتَّوَكُّيدِ، قَالَ الزَّجَّاجُ: وَهُوَ كَمَا تَقُولُ لِلرَّجُلِ: إِنْ كُنْتَ مُؤْمِنًا فَلَا تَظْلَمْ. وَفِي سَبَبٍ وَعَيْدِهِمْ بِذَلِكَ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ لِأَجْلِ مَا يَسْتَحِقُّهُ الزَّوْجُ مِنَ الرَّجْعَةِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: لِأَجْلِ الْحَاقِّ الْوَلَدَ بِغَيْرِ أَبِيهِ، قَالَ قَتَادَةُ. وَقِيلَ: كَانَتِ الْمَرْأَةُ إِذَا رَغِبَتْ فِي زَوْجِهَا، قَالَتْ: إِنِّي خَائِضٌ، وَقَدْ طَهَرْتُ. وَإِذَا زَهَدَتْ فِيهِ، كَتَمَتْ حَيْضُهَا حَتَّى تَغْتَسِلَ، فَتَفُوتَهُ. وَابْنُ عَبَّاسٍ: الْأَزْوَاجُ. وَذَلِكَ: إِشَارَةٌ إِلَى الْعِدَّةِ. قَالَ مُجَاهِدٌ، وَالنَّخْعِيُّ، وَقَتَادَةُ فِي آخَرِينَ. وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ خُصُوصَ آخِرِ اللَّفْظِ لَا يَمْنَعُ عُمُومَ أَوَّلِهِ، وَلَا يُوجِبُ تَخْصِيصَهُ، لِأَن قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَالطَّلَاقُ بَرِّصَتْ﴾ عَامٌ فِي الْمُبْتَوَاتِ وَالرَّجَعِيَّاتِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُسَوِّكُنَّ أَحَقُّ بِرَيْصَةٍ﴾ خَاصٌّ فِي الرَّجَعِيَّاتِ ^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَا إِصْلَاحًا﴾ قِيلَ: إِنْ الرَّجُلُ كَانَ إِذَا أَرَادَ الْإِصْرَارَ بِأَمْرَاتِهِ، طَلَّقَهَا وَاحِدَةً وَتَرَكَهَا، فَإِذَا قَارَبَ انْقِضَاءَ عِدَّتِهَا رَاجِعَهَا، ثُمَّ تَرَكَهَا مَدَّةً، ثُمَّ طَلَّقَهَا، فَتَهَا عَنْ ذَلِكَ. وَظَاهِرُ الْآيَةِ يَقْتَضِي أَنَّهُ إِنَّمَا يَمْلِكُ الرَّجْعَةَ عَلَى غَيْرِ وَجْهِ الْمَضَارَةِ بِطَوِيلِ الْعِدَّةِ عَلَيْهَا، غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ دَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُسَوِّكُنَّ فِرَارًا لِّلْمُنْكَرِ﴾ عَلَى صِحَّةِ الرَّجْعَةِ وَإِنْ قَصِدَ الضَّرَارَ، لِأَن الرَّجْعَةَ لَوْ لَمْ تَكُنْ صَحِيحَةً إِذَا وَقَعَتْ عَلَى وَجْهِ الضَّرَارِ؛ لَمَا كَانَ ظَالِمًا بِفَعْلِهَا.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَشَأْ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَرْءِ﴾ وَهُوَ: الْمَعَاشِرَةُ الْحَسَنَةُ، وَالصُّحْبَةُ الْجَمِيلَةُ. رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ سَأَلَ عَنْ حَقِّ الْمَرْأَةِ عَلَى الزَّوْجِ، فَقَالَ: «أَنْ يَطْعَمَهَا إِذَا طَعِمَ، وَيَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَى، وَلَا يَضْرِبُ الْوَجْهَ، وَلَا يَقْبِحَ، وَلَا يَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ» ^(٢) وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنِّي أَحَبُّ أَنْ أَتَزَيَّنَ لِلْمَرْأَةِ، كَمَا أَحَبُّ أَنْ تَتَزَيَّنَ لِي، لِهَذِهِ الْآيَةِ.

قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهُنَّ دَرَجَةٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِمَا سَاقَ إِلَيْهَا مِنَ الْمَهْرِ، وَأَنْفَقَ عَلَيْهَا مِنَ الْمَالِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بِالْجِهَادِ وَالْمِيرَاثِ. وَقَالَ أَبُو مَالِكٍ: يَطْلُقُهَا، وَلَيْسَ لَهَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: تَنَالَتْ مِنْهُ مِنَ اللَّذَّةِ كَمَا يَنَالُ مِنْهَا، وَلَهُ الْفَضْلُ بِتَفَقُّهِ. وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ أَمَرْتُ أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لِأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا» ^(٣). وَقَالَتْ ابْنَةُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: مَا كُنَّا نَكْلِمُ أَزْوَاجَنَا إِلَّا كَمَا تَكْلِمُونَ أَمْرَاءَكُمْ.

فصل

اختلف العلماء في هذه الآية: هل تدخل في الآيات المنسوخات أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنها تدخل في ذلك. واختلف هؤلاء في المنسوخ منها، فقال قوم: المنسوخ منها قوله تعالى: ﴿وَالطَّلَاقُ بَرِّصَتْ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَ قُرُوءٍ﴾ وقالوا: فكان يجب على كل مطلقة أن تعتد بثلاثة قُرُوءٍ، فنسخ حكم الحامل بقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْصَاءُ لِأَجْلِ أَنْ يَصْنَعَ حَمَلُهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]. وحكم المطلقة قبل الدخول بقوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتَ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتَهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّنَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩] وهذا مروى عن ابن عباس، والضحاك في آخرين. وقال قوم:

(١) قال المحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: أي: وزوجها الذي طلقها أحق بردها ما دامت في عهدها، إذا كان تزاده بردها الإصلاح والخير، وهذا في الرجعيات. فأما المطلقات البائت فلم يكن خال نزول هذه الآية مطلقة بائن، وإنما كان ذلك لما حصروا في الطلقات الثلاث. فأما حال نزول هذه الآية فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة، فلما قصروا في الآية التي بعدها على ثلاث تطلقات، صار للناس مطلقة بائن وغير بائن. وإذا تأملت هذا تبين لك ضعف ما سلكه بعض الأصوليين من استشهادهم على مسألة عود الضمير؛ هل يكون مخصصاً لما تقدمه من لفظ المعموم أم لا؟ بهذه الآية (الكريمة)، فإن التشبيل بها غير مطابق لما ذكره، والله أعلم.

(٢) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ مَاجَةَ وَاللَّفْظُ لَهُ، وَحَسَنَةُ النَّوَرِيِّ. (٣) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

أولها محكم، والمنسوخ قوله تعالى: ﴿وَيُؤَلِّهِنَّ أَحَقُّ بِرِّهِنَّ﴾ قالوا: كان الرجل إذا طلق امرأته كان أحق برجعتها، سواء كان الطلاق ثلاثاً، أو دون ذلك، فنسخ بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَدَلٍ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ والقول الثاني: أن الآية كلها محكمة، فأولها عام. والآيات الواردة في العدد، خصت ذلك من العموم، وليس بنسخ. وأما ما قيل في الارتجاع، فقد ذكرنا أن معنى قوله تعالى: ﴿وَيُؤَلِّهِنَّ أَحَقُّ بِرِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، أي: في العدة قبل انقضاء القروء الثلاثة، وهذا القول هو الصحيح.

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرِفٍ أَوْ تَسْرِيعٍ إِلَيْهِمْ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعْطَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ حِفْظُ أَلَّا يُعْطَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ سبب نزولها، أن الرجل كان يطلق امرأته، ثم يراجعها ليس لذلك شيء ينتهي إليه، فقال رجل من الأنصار لامرأته: والله لا أؤيك إليّ أبداً ولا أدعك تحلين مني. فقالت: كيف ذلك؟ قال: أطلقك، فإذا دنا أجلك، راجعتك، فذهب إلى النبي ﷺ تشكو إليه ذلك، فنزلت هذه الآية، فاستقبلها الناس [جديداً] من كان طلق، ومن لم يكن طلق. رواه هشام بن عروة عن أبيه^(١). فأما التفسير، ففي قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ قولان: أحدهما: أنه بيان لسنة الطلاق، وأن يوقع في كل قرء طلقة، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: أنه بيان للطلاق الذي يملك معه الرجعة، قاله عروة، وقتادة، وابن قتيبة، والزجاج في آخرين.

قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكُ بِمَعْرِفٍ﴾ معناه: فالواجب عليكم إمساك بمعروف، وهو ما يعرف من إقامة الحق في إمساك المرأة. وقال عطاء، ومجاهد، والضحاك، والسدي: المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكُ بِمَعْرِفٍ﴾: الرجعة بعد الثانية. وفي قوله تعالى: ﴿أَوْ تَسْرِيعٍ إِلَيْهِمْ﴾ قولان: أحدهما: أن المراد به: الطلقة الثالثة، قاله عطاء، ومجاهد، ومقاتل. والثاني: أنه الإمساك عن رجعتها حتى تنقضي عدتها، قاله الضحاك، والسدي. قال القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء: وهذا هو الصحيح، لأنه قال عقيب الآية: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَدَلٍ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ والمراد بهذه الطلقة: الثالثة بلا شك، فيجب إذن أن يحمل قوله تعالى: ﴿أَوْ تَسْرِيعٍ إِلَيْهِمْ﴾ على تركها حتى تنقضي عدتها، لأنه إن حمل على الثالثة، وجب أن يحمل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ على رابعة، وهذا لا يجوز.

فصل

الطلاق على أربعة أضرب: واجب، ومندوب إليه، ومحظور، ومكروه. فالواجب: طلاق المولي بعد التبرص، إذا لم يف، وطلاق الحكمين في شقاق الزوجين، إذا رأيا الفرقة. والمندوب: إذا لم يتفقا، واشتد الشقاق بينهما، ليخلصا من الإثم. والمحظور: في الحيض، إذا كانت مدخولاً بها، وفي طهر جامعها فيه قبل أن تطهر. والمكروه: إذا كانت حالهما مستقيمة، وكل واحد منهما قيم بحق صاحبه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً﴾ نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، أنت زوجته إلى النبي ﷺ فقالت: والله ما أعيب على ثابت في دين ولا خلق، ولكني [أكره الكفر في الإسلام] لا أطيقه بغضاً. فقال لها النبي ﷺ: «أتردين عليه حقيقته؟» قالت: نعم. فأمره النبي ﷺ أن يأخذها، ولا يزداد. رواه عكرمة عن ابن عباس^(٢) واختلفوا في اسم زوجته، فقال ابن عباس: جميلة. ونسبها يحيى بن أبي كثير، فقال: جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول، وكنها مقاتل، فقال: أم حبيبة بنت عبد الله بن أبي. وقال آخرون: إنما هي جميلة أخت عبد الله بن أبي. وروى يحيى بن سعيد عن عمرة روايتين: إحداهما: أنها حبيبة بنت سهل. والثانية: سهلة بنت حبيب^(٣). وهذا الخلع

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» والترمذي، وغيرهما رسلاً، لأن عروة بن الزبير تابعي. وقد جاء الحديث عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة بنحو متصل مرفوعاً، رواه الترمذي والحاكم والبيهقي.

(٢) رواه ابن ماجه عن ابن عباس، ورواه البخاري في «صحيحه» والسنائي بمعناه.

(٣) الذي في كتب التفسير حبيبة بنت سهل، ولم يذكر أحد منهم سهلة بنت حبيب، ولا وجدنا لها ترجمة في الصحاحيات. وقد اختلف العلماء فيمن اختلفت من ثابت بن قيس بن شماس، أمي جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول، أم حبيبة بنت سهل؟ والذي رجحه الحافظ ابن حجر وارتفضاه =

أول خلع كان في الإسلام. والخوف في الآية بمعنى: العلم: قال أبو عبيد: معنى قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾: يوقنا. والحدود قد سبق بيان معناها. ومعنى الآية: أن المرأة إذا خافت أن تعصي الله في أمر زوجها لبغضها إياه، وخاف الزوج أن يعتدي عليها لامتناعها عن طاعته؛ جاز له أن يأخذ منها الفدية، إذا طلبت ذلك. هذا على قراءة الجمهور في فتح «ياه» ﴿يَخَافَا﴾. وقرأ الحسن، ومجاهد، وأبو جعفر، وحزمة والأعمش: (يُخَافَا) بضم الياء.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ قال قتادة: هو خطاب للولاء ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا﴾ على المرأة ﴿فَإِنِ افْتَدَتْ بِدَى﴾ وعلى الزوج فيما أخذ، لأنه ثمن حقه. وقال الفراء: يجوز أن يراد الزوج وحده، وإن كانا قد ذكرا جميعاً، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ بَيْنَهُمَا التُّؤَالُ وَالْمِرْيَاطُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرج من أحدهما. وقوله: ﴿نِسَاءً حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: ٦١] وإنما نسي أحدهما.

فصل

وهل يجوز له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاهما؟ فيه قولان: أحدهما: يجوز، وبه قال عمر بن الخطاب، وعثمان، وعلي، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، والنخعي، والضحاك، ومالك، والشافعي. والثاني: لا يجوز، وبه قال سعيد بن المسيب، وعطاء، والشعبي، وطاووس، وابن جبير، والزهري، وأحمد بن حنبل، وقد نقل عن علي، والحسن أيضاً. وهل يجوز الخلع دون السلطان؟ قال عمر، وعثمان، وعلي، وابن عمر، وطاووس، وشريح، والزهري: يجوز، وهو قول جمهور العلماء. وقال الحسن، وابن سيرين، وقاتدة: لا يجوز إلا عند السلطان.

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَدُوِّ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ طَلَّ أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَدُوِّ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ ذكر مقاتل أن هذه الآية نزلت في تميمة بنت وهب بن عتيك النضيري، وفي زوجها رفاعة بن عبد الرحمن القرظي. وقال غير مقاتل: إنها عاتشة بنت عبد الرحمن بن عتيك، كانت تحت رفاعة بن وهب بن عتيك وهو ابن عمها، فطلقها ثلاثاً، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير، ثم طلقها، فأنت إلى النبي ﷺ، فقالت: إني كنت عند رفاعة، فطلقني، فأبى طلاقي، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير، وإنه طلقني قبل أن يمسنى، فأراجع إلى ابن عمي؟ فنسب رسول الله ﷺ وقال: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى تدوقي عسيلته ويدوق عسيلتك»^(١).

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ يعني: الزوج المطلق مرتين. قال ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة: هي الطلقة الثالثة. واعلم أن الله تعالى عاد بهذه الآية بعد الكلام في حكم الخلع إلى تمام الكلام في الطلاق.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ يعني: الثاني ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ يعني: المرأة، والزوج الأول ﴿إِنْ طَلَّ أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ قال طاووس: ما فرض الله على كل واحد منهما من حسن العشرة والصحبة.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا﴾ قراءة الجمهور ﴿يُبَيِّنُهَا﴾ بالياء. وقرأ الحسن، ومجاهد، والمفضل عن عاصم بالنون، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قال الزجاج: يعلمون أن أمر الله حق.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ يَحِلَّ لَكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ بِمَرْفُوفٍ أَوْ سَرِحُوهُنَّ بِمَرْفُوفٍ وَلَا تُنكِحُوهُنَّ مِنْ بَدُوِّ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْكُمْ فَكَيْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ولا تُنكِحُوا نِسَاءَ اللَّهِ هُنَّ وَأَزْوَاجُهُنَّ وَأَزْوَاجُهُنَّ فَهِنَّ أَكْبَاهُنَّ ﴿وَمَا أَرْزَلْ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِطُكُم بِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ يَحِلَّ لَكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ قال ابن عباس: كان الرجل يطلق امرأته، ثم يراجعها قبل انقضاء

= أنها كلتاها اختلعتا منه، فقد قال في «الفتح» ٢٥٠/٩: والذي يظهر أنهما قصتان وقعتا لامرأتين، لشهرة الخبرين، وصحة الطريقتين، واختلاف السائتين.

(١) أخرج الحديث بمعناه البخاري ومسلم وأصحاب السنن إلا أبا داود. وقوله: «حتى تدوقي عسيلته ويدوق عسيلتك» شبه لذة الجماع بلذة العسل، فاستعار لها ذوقاً، وإنما أنت، لأنه أراد قطعة من العسل، وقيل: على إعطائها معنى النطفة. وقيل: العسل في الأصل يلكر ويؤث، فمن صغره مؤثاً قال: عسيلة، وإنما صغره إشارة إلى القدر القليل الذي يحصل به الحل.

عدتها، ثم يطلقها [يفعل ذلك]، يضارّها [وبعضلها]^(١) بذلك، فنزلت هذه الآية. والأجل هاهنا: زمان العدة. ومعنى البلوغ هاهنا: مقاربة الأجل دون حقيقة الانتهاء إليه، يقال: بلغت المدينة: إذا قاربتها، وبلغتها: إذا دخلتها. وإنما حمل العلماء هذا البلوغ على المقاربة، لأنه ليس بعد انقضاء العدة رجعة.

قوله تعالى: ﴿فَأَنكِسْكُوهُنَّ مَثْرُوفًا﴾ قال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة: المراد به الرجعة قبل انقضاء العدة.

قوله تعالى: ﴿سَرَّحُوهُنَّ مَتَرًا﴾ وهو تركها حتى تنقضي عدتها. والمعروف في الإمساك: القيام بما يجب لها من حق. والمعروف في التسريح: أن لا يقصد إضرارها، بأن يطيل عدتها بالمراجعة، وهو معنى قوله: ﴿وَلَا تُنكِسْكُوهُنَّ مَثْرَارًا لِّئَلَّا تَعْلَمُوا﴾ قاله الحسن ومجاهد، وقتادة في آخرين. وقال الضحاك: إنما كانوا يضارّون المرأة لتفتدي. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ الاعتداء، ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بارتكاب الإثم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْحِذُوا بَاتِ اللَّهِ هَرْوًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الرجل يطلق أو يراجع، أو يعتق، ويقول: كنت لاعباً. روي عن عمر، وأبي الدرداء، والحسن. والثاني: أنه المضار بزوجه في تطويل عدتها بالمراجعة والطلاق. قاله مسروق، ومقاتل. ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَرْزَلْ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُبْطِرْكُم بِهَا﴾ قال ابن عباس: احفظوا منته عليكم بالإسلام. قال: والكتاب: القرآن. والحكمة: الفقه. ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الضرار ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ سِرَّهُمْ﴾ به وبغيره ﴿عَلِيمٌ﴾.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَمْسُوهُنَّ أَنْ يَكُنَّ أَرْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَائُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: ما روى الحسن أن معقل بن يسار زوج أخته من رجل من المسلمين، فكانت عنده ما كانت، فطلقها تطليقة [ثم تركها] ومضت العدة، فكانت أحق بنفسها، فخطبها مع الخطاب، فرضيت أن ترجع إليه، فخطبها إلى معقل، فغضب معقل، وقال: أكرمتك بها، فطلقتها؟! لا والله! لا ترجع إليك آخر ما عليك. قال الحسن: فعلم الله ﷻ حاجة الرجل إلى امرأته، وحاجة المرأة إلى بعلها، فنزلت هذه الآية، فسمعها معقل، فقال: سمعاً لربي وطاعة، فدعا زوجها، فقال: أزوجك، وأكرمك^(٢). ذكر عبد الغني الحافظ عن الكلبي أنه سمي هذه المرأة، فقال: جميلة بنت يسار. والثاني: أن جابر بن عبد الله الأنصاري كانت له ابنة عم، فطلقها زوجها تطليقة، فانقضت عدتها، ثم رجع يريد رجعتها، فأبى جابر، وقال: طلقت ابنة عمنا، ثم تريد أن تنكحها الثانية؟! وكانت المرأة تريد زوجها، قد راضته، فنزلت هذه الآية، قاله السدي^(٣). فأما بلوغ الأجل في هذه الآية، فهو انقضاء العدة، بخلاف التي قبلها. قال الشافعي ﷻ: دل اختلاف الكلامين على افتراق البلوغين.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمْسُوهُنَّ﴾ خطاب للأولياء. قال ابن عباس، وابن جبير، وابن قتيبة في آخرين: معناه: لا تحبسوهن. والعرب تقول للشدائد: معضلات. وداء عضال: قد أعيأ. قال أوس بن حجر:

وليس أخورك الدائم العهد بالذي يذمك إن ولّى ويرضيك مقبلاً
ولكنه النائي إذا كنت آمناً وصاحبك الأدنى إذا الأمر أعضلاً

وقالت ليلي الأخيلية:

(١) حفل المرأة، بعضلها: لم يحسن عشرتها ليضطرها بذلك إلى الافتداء منه بمهرها الذي أمهرها.

(٢) أخرجه بمعناه البخاري وأبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وقال الترمذي بعد روايته للحديث: وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا يجوز النكاح بغير ولي، لأن أخت معقل بن يسار كانت ثيباً، فلو كان الأمر إليها، لزوجت نفسها ولم تتج إلى وليها معقل بن يسار، وإنما خاطب الله في هذه الآية الأولياء فقال: ﴿فَلَا تَمْسُوهُنَّ أَنْ يَكُنَّ أَرْوَاجَهُنَّ﴾ فني هذه الآية دلالة على أن الأمر إلى الأولياء في التزوج مع رضاهن.

(٣) قال السيوطي في «لباب القول في أسباب النزول»: والأول أصح، وهو أقوى.

إذا نزل الحجاج أرضاً مريضة
شفاها من الداء العضال الذي بها
تتبع أقصى دائها فشفاها
غلام إذا هزّ القناة سقاها
قال الزجاج: وأصل العضل، من قولهم: عضلت الدجاجة، فهي مُعْضِلٌ: إذا احتبس بيضها ونشب^(١) فلم يخرج، وعضلت الناقة أيضاً: إذا احتبس ولدها في بطنها.
قوله تعالى: ﴿إِذَا تَرَمَّتْ بِبَنِيهِمُ بِالْمَرْوَةِ﴾ قال السدي، وابن قتيبة: معناه: إذا تراضى الزوجان بالنكاح الصحيح. قال الشافعي: وهذه الآية أبين آية في أنه ليس للمرأة أن تتزوج إلا بولي.
قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُعْظَى بِهِ﴾ قال مقاتل: الإشارة إلى نهى الولي عن المنع. قال الزجاج: إنما قال: «ذلك»، ولم يقل: «ذلكم» وهو يخاطب جماعة، لأن لفظ الجماعة لفظ الواحد، والمعنى: ذلك أيها القبيل.
قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْكَرَ لَكُمْ﴾ يعني ردة النساء إلى أزواجهن، أفضل من التفرقة بينهم ﴿وَأَلْهَمَهُمْ﴾ أي: أنقى لقلوبكم من الرية ثلثا يكون هناك نوع محبة، فيجتمعان على غير وجه صلاح.
قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْلَمُ وَاسْتَشْرَ لَا تَسْلُمُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: يعلم وذ كل واحد منهما لصاحبه، قاله ابن عباس، والضحاك، والثاني: يعلم مصالحكم عاجلاً وآجلاً، قاله الزجاج في آخرين.
﴿وَالَّذِينَ يُضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَى كَامِلَةٍ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَرْوَةِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعُهَا لَا تُضَاعَدُ وَلَدَةً يُولَدُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُولَدُ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَلَا إِنْ أَسْتَرْضِعُوا أَوْلَدَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَهُنَّ وَالْمَرْوَةَ وَاللَّهُ وَاعِلٌ أَلَّا اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾
قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ﴾ لفظه لفظ الخبر، ومعناه الأمر، كقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرَصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقال القاضي أبو يعلى: وهذا الأمر انصرف إلى الآباء، لأن عليهم الاسترضاع، لا إلى الوالدات، بدليل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَتَأْتِيَهُنَّ أُمُورُهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤] فلو كان متحتماً على الوالدة، لم تستحق الأجرة. وهل هذا عام في جميع الوالدات؟ فيه قولان: أحدهما: أنه خاص في المطلقات، قاله سعيد بن جبيرة، ومجاهد، والضحاك، والسدي، ومقاتل في آخرين. والثاني: أنه عام في الزوجات والمطلقات، ولهذا نقول: لها أن توجر نفسها لرضاع ولدها، سواء كانت مع الزوج، أو مطلقة، قاله القاضي أبو يعلى، وأبو سليمان الدمشقي في آخرين. والحوال: السنة، وفي قوله: ﴿كَامِلَةٍ﴾ قولان: أحدهما: أنه دخل للتوكيد، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]. والثاني: أنه لما جاز أن يقول: «حولين»، ويريد أقل منهما، كما قال: ﴿كَمَنْ تَجَبَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] ومعلوم أنه يتعجل في يوم، وبعض آخر. وتقول العرب: لم أر فلاناً منذ يومين، وإنما يريدون: يوماً وبعض آخر. قال: كاملين لتبيين أنه لا يجوز أن يُنقص منهما، وهذا قول الزجاج، والفراء.

فصل

اختلف علماء التاسخ والمنسوخ في هذا القدر من الآية، فقال بعضهم: هو محكم، والمقصود منه بيان مدة الرضاع، ويتعلق به أحكام، منها أنه كمال الرضاع، ومنها أنه يلزم الأب نفقة الرضاع مدة الحولين، ويجبره الحاكم على ذلك، ومنها أنه ثبت تحريم الرضاع في مدة الحولين، ولا يثبت فيما زاد، ونقل عن قتادة، والربيع بن أنس في آخرين أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا﴾ قال شيخنا علي بن عبيد الله: وهذا قول بعيد، لأن الله تعالى قال في أولها: ﴿لَمَّا أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ﴾ فلما قال في الثاني: ﴿إِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا﴾ خير بين الإرادتين، وذلك لا يعارض المدة المقدرة في التمام.

قوله تعالى: ﴿لَمَّا أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ﴾ أي: هذا التقدير بالحولين لغريدي إتمام الرضاعة. وقرأ مجاهد بتأني «أن تتم الرضاعة» وبالرفع، وهي رواية الحلبي عن عبد الوارث. وقد تبّه ذكر التمام على نفي حكم الرضاع بعد الحولين.

وأكثر القراء على فتح راء «الرضاعة»، وقرأ طلحة بن مصرف، وابن أبي عبيدة، وأبو رجاء، بكسرها، قال الزجاج: يقال: الرضاعة بفتح الراء وكسرها، والفتح أكثر، ويقال: ما حملة على ذلك إلا اللؤم، والرضاعة بالفتح هاهنا لا غير^(١).

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَلَدِ لَهُ﴾ يعني: الأب ﴿وَيُفْقَهُنَّ كَتَوَاتُرًا﴾ يعني: المرضعات. وفي قوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ دلالة على أن الواجب على قدر حال الرجل في إعساره ويساره، إذ ليس من المعروف إلزام المعسر ما لا يطيقه، ولا الموسر النزر الطفيف، وفي الآية دليل على تسويغ اجتهد الرأي في أحكام الحوادث، إذ لا يتوصل إلى تقدير النفقة بالمعروف إلا من جهة غالب الظن، إذ هو معتبر بالعادة.

قوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: إلا ما تطيقه ﴿لَا تُكَلَّفُ وَلَدًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبان عن عاصم (لا تضار) برفع الراء، وقرأ نافع، وعاصم، وخمزة، والكسائي بنصبها، قال أبو علي: من رفع، فلاجل المرفوع قبله، وهو ﴿لَا تُكَلَّفُ﴾، فأتبعه بما قبله ليقع تشابه اللفظ، ومن نصب جعله أمراً، وفتح الراء لتكون حركته موافقة لما قبلها وهو الألف، قال ابن قتيبة: معناه: لا تضار، فأدغمت الراء في الراء. وقال سعيد بن جبير: لا يحملن المطلقة مضارة الزوج أن تلقى إليه ولده. وقال مجاهد: لا تأبى أن ترضعه ضراراً بأبيه، ولا يضار الوالد بولده، فيمنع أمه أن ترضعه، ليحزنها بذلك. وقال عطاء، وقتادة، والزهري، وسفيان، والسدي في آخرين: إذا رضيت بما يرضى به غيرها، فهي أحق به. وقرأ أبو جعفر «لا تضار» بتخفيفها وإسكانها.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه وارث المولود، وهو قول عطاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وابن أبي ليلى، وقتادة، والسدي، والحسن بن صالح، ومقاتل في آخرين. واختلف أرباب هذا القول، فقال بعضهم: هو وارث المولود من عصيته، كائناً من كان، وهذا مروى عن عمر، وعطاء، والحسن، ومجاهد، وإبراهيم وسفيان. وقال بعضهم: هو وارث المولود على الإطلاق من الرجال والنساء، روي عن ابن أبي ليلى، وقتادة، والحسن بن صالح، وإسحاق، وأحمد بن حنبل. وقال آخرون: هو من كان ذا رحم محرم من ورثة المولود، روي عن أبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد. والقول الثاني: أن المراد بالوارث هاهنا، وارث الوالد، روي عن الحسن والسدي. والثالث: أن المراد بالوارث الباقي من الولد بعد وفاة الآخر، روي عن سفيان. والرابع: أنه أريد بالوارث الصبي نفسه، والنفقة عليه، فإن لم يملك شيئاً، فعلى عصيته، قاله الضحاک، وقبيصة بن ذؤيب، قال شيخنا علي بن عبيد الله: وهذا القول لا ينافي قول من قال: المراد بالوارث وارث الصبي، لأن النفقة تجب للموروث على الوارث إذا ثبت إعسار المتفق عليه. وفي قوله تعالى: ﴿يُثَلِّدُكُمْ﴾ ثلاثة أقوال. أحدها: أنه الإشارة إلى أجره الرضاع والنفقة، روي عن عمر، وزيد بن ثابت، والحسن، وعطاء، ومجاهد، وإبراهيم، وقتادة، وقبيصة بن ذؤيب، والسدي. واختاره ابن قتيبة، والثاني: أن الإشارة بذلك إلى النهي عن الضرار، روي عن ابن عباس، والشعبي، والزهري، واختاره الزجاج. والثالث: أنه إشارة إلى جميع ذلك، روي عن سعيد بن جبير، ومجاهد، ومقاتل، وأبي سليمان الدمشقي، واختاره القاضي أبو يعلى، ويشهد لهذا أنه معطوف على ما قبله، وقد ثبت أن على المولود له النفقة والكسوة، وأن لا يضار، فيجب أن يكون قوله: ﴿يُثَلِّدُكُمْ﴾ مشيراً إلى جميع ما على المولود له.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا آتَاكُمْ مِنْ تَرَائِصَ الْفِطَامِ﴾ الفصال: الفطام. قال ابن قتيبة: يقال: فصلت الصبي أمه: إذا فطمته. ومنه قيل للحوار إذا قطع عن الرضاع: فصل، لأنه فصل عن أمه، وأصل الفصل: الضريق. قال مجاهد: التشاور فيما دون الحولين إن أرادت أن تظلم وأبى، فليس لها، وإن أراد هو، ولم قرد، فليس له ذلك حتى يقع ذلك عن تراض منهما وتشاور، يقول: غير مسئين إلى أنفسهما وإلى صبيهما.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرَدْنَا أَنْ تَتَرَضَّعُوا أَزْوَاجَكُمْ﴾ قال الزجاج: أي: لأولادكم. قال مقاتل: إذا لم ترض الأم بما يرضى به غيرها، فلا حرج على الأب أن يسترضع لولده.

(١) قال في «اللسان»: الرضاعة بالفتح والكسر: الاسم من الإرضاع، فأما من الرضاعة اللؤم، فالفتح لا غير.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا سَأَلْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَرْوَةِ﴾ قولان. أحدهما: إذا سلمتم أيها الآباء إلى أمهات الأولاد أجور ما أرضعن قبل امتناعهن، قاله مجاهد، والسدي. والثاني: إذا سلمتم إلى الظئر أجرها بالمعروف، قاله سعيد بن جبير، ومقاتل. وقرأ ابن كثير (ما آتيتم) بالقصر، قال أبو علي: وجهه أن يقدر فيه: ما آتيتم نقده أو سوقه، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه [فكان التقدير: ما آتيتموه ثم حذف الضمير من الصلة] كما تقول: آتيت جميلاً، أي: فعلته. ﴿وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيُذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرْصَنَ أَنْفُسَهُنَّ أَشْهُرًا وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَرْوَةِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ﴾ أي: يقبضون بالموت. وقرأ المفضل عن عاصم «يتوفون» بفتح الياء في الموضوعين. قال ابن قتيبة: هو من استيفاء العدد، واستيفاء الشيء: أن نستقصيه كله، يقال: توفيته واستوفيته، كما يقال: تيفقت الخير واستيفتته، هذا الأصل، ثم قيل للموت: وفاة وتوفت و«يَرْصَنَ» ينتظرن، وقال الفراء: وإنما قال: «وَعَشْرًا» ولم يقل: عشرة، لأن العرب إذا أبهمت العدد من الليالي والأيام، غلبوا عليه الليالي، حتى إنهم يقولون: صمنا عشراً من شهر رمضان، لكثرة تغليبهم الليالي على الأيام، فإذا أظهروا مع العدد تفسيره، كانت الإناث بغير هاء، والذكور بالهاء^(١) كقوله تعالى: «سَرَّحْنَا عَلَيْهِم مَّحَاجِرَ بَالٍ وَكُنَّيْنِ آيَاتٍ حُسُومًا» [الحاقة: ٧] فإن قيل: ما وجه الحكمة في زيادة هذه العشرة؟ فالجواب: أنه يبين صحة الحمل بنفخ الروح فيه، قاله سعيد بن المسيب، وأبو العالية، ويشهد له الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «إن خلق أحدكم يجتمع في بطن أمه أربعين يوماً [نطفة]، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح»^(٢).

فصل

وهذه الآية ناسخة للتي تشابهها، وهي تأتي بعد آيات، وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيُذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مِمَّا تَرَكَوا﴾ [البقرة: ٢٤٠]. لأن تلك كانت تقتضي وجوب العدة سنة، وسنذكر ما يتعلق بها هنالك، إن شاء الله. فاما التي نحن في تفسيرها، فقد روي عن ابن عباس أنه قال: نسختها «وَأُولَئِكَ الْأَحْجَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» [الطلاق: ٤]. والصحيح: أنها عامة دخلها التخصيص، لأن ظاهرها يقتضي وجوب العدة على المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً، سواء كانت حاملاً، أو غير حامل، غير أن قوله تعالى: «وَأُولَئِكَ الْأَحْجَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» خص أولات الحمل، وهي خاصة أيضاً في الحرائر، فإن الأمة عدتها شهران وخمسة أيام، فبان أنها من العام الذي دخله التخصيص.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ﴾ يعني: انقضاء العدة. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّسْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرْنَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تَأْخُذُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرُضُوا عُقْدَةً الْيَكَاكِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فيه قولان. أحدهما: أن معناه: فلا جناح على الرجال في تزويجهن بعد ذلك،

(١) قال أبو حيان رحمه الله في «البحر المحيط»: الذي نقل أصحابنا أنه إذا كان الممدود مذكراً وحذفته، فلك فيه وجهان. أحدهما وهو الأصل: أن يبقى العدد على ما كان عليه ولو لم يحدف الممدود، فتقول: صمت خمسة، وتريد خمسة أيام. قالوا: وهو الفصح. قالوا: ويجوز أن تحذف منه كله تاء التأنيث. وحكى الكسائي عن أبي الجراح: صمنا من الشهر خمساً. ومعلوم أن الذي يصام من الشهر إنما هي الأيام واليوم مذكر. وكذلك قوله: ولا فسيخري مثل ما سار راكب ينم خيلاً ليس فني سيره اسم يريد: خمسة أيام. وعلى ذلك ما جاء في الحديث «من صام رمضان، وأتبعه بست من شوال». وإذا قرر هذا فجاء قوله تعالى: «وَعَشْرًا» على أحد الجائزين، وحسنه هنا، أنه مقطع كلام، فهو شبه بالفواصل، كما حسن قوله تعالى: «إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا شَرًّا» [طه: ١٠٣] كونه فاصلة، فلذلك اختير مجيء هذا على أحد الجائزين.

(٢) روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ورواه أبو عروبة في «مسنده» وزاد «نطفة» بين قوله: «إن أحدكم» وبين قوله: «أربعين».

والثاني: فلا جناح على الرجال في ترك الإنكار عليهن إذا تزين وتزوجن. قال أبو سليمان الدمشقي: وهو خطاب لأوليائهن.

قوله تعالى: ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرِفِ﴾ فيه قولان. أحدهما: أنه المتزين والشوف للنكاح، قاله الضحاك، ومقاتل. والثاني: أنه للنكاح، قاله الزهري، والسدي. والـ«الخبير» من أسماء الله تعالى، ومعناه: العالم بكنه الشيء، المطلع على حقيقته. والـ«خبير» في صفة المخلوقين، إنما يستعمل في نوع من العلم، وهو الذي يتوصل إليه بالاجتهاد دون النوع المعلوم بيداته العقول. وعلم الله تعالى سواء، فيما غمض وطف، وفيما تجلى وظهر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضَتْ بِهِ مِنْ خُلُقٍ الْيَسْرِ﴾ هذا خطاب لمن أراد تزويج معتدة. والتعريض: الإيماء والتلويح من غير كشف، فهو إشارة بالكلام إلى ما ليس له في الكلام ذكر. والخطبة بكسر الخاء: طلب النكاح، والخطبة بضم الخاء: مثل الرسالة التي لها أول وآخر. قال ابن عباس: التعريض أن يقول: إني أريد أن أتزوج. وقال مجاهد: أن يقول: إنك لجميلة، وإنك لحسنة، وإنك لإلى خير.

قوله تعالى: ﴿أَوْ أَكَنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ قال الفراء: فيه لغتان، كننت الشيء، وأكننته^(١) وقال ثعلب: أكننت الشيء: إذا أخفيت في نفسك، وكننته: إذا سترته بشيء. وقال ابن قتيبة: أكننت الشيء: إذا سترته، ومنه هذه الآية، وكننته: إذا صتمته. ومنه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مُكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩] قال بعضهم: يجعل كنته، وأكننته، بمعنى: قوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَرْتُمْ لَهُنَّ﴾ قال مجاهد: ذكره إياها في نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا تُؤْخِذُوهُنَّ بِرَأٍ﴾ فيه أربعة أقوال. أحدها: أن المراد بالسراهاة. النكاح، قاله ابن عباس. وأشد بيت امرئ القيس:

ألا زعمت بسبابة اليوم أنني
وفي رواية: يشهد اللهو^(٢). قال الفراء: ونرى أنه مما كنى الله عنه، كقوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِبِ﴾ [النساء: ٤٣]. وذكر الزجاج عن أبي عبيدة أن السر: الإفضاء بالنكاح [المحرم] وأشد:

ويخرم سر جارتهم عليهم
ويأكل جازهم أنف القصاص^(٣)
قال ابن قتيبة: استعير السر للنكاح، لأن النكاح يكون سرا، فالمعنى: لا تواعدوهن بالتزويج. [وهن في العدة] تصريحاً ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ لا تذكرن فيه رفثاً ولا نكاحاً. والثاني: أن المواعدة سرا؛ أن يقول لها: إني لك محب، وعاهديني أن لا تتزوجي غيري، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أن المراد بالسر الزنى^(٤). قاله الحسن، وجابر بن زيد، وأبو مجلز، وإبراهيم، وقتادة، والضحاك. والرابع: أن المعنى: لا تتكحوهن في عليتهن سرا، فإذا حلت أظهرتم ذلك، قاله ابن زيد. وفي القول المعروف قولان. أحدهما: أنه التعريض لها، وهو قول ابن عباس،

(١) ونص كلامه في «معاني القرآن»: للرب في «وأكننت الشيء»: إذا سترته، لغتان، كنته، وأكننته. وأنشدوني:
ثلاث من ثلاث قداميات
من الثلاثي تَكُنُّ من الصقبيع
وبعضهم يرويه: تَكُنُّ، من أكننت. وأما قوله: ﴿وَلَوْ تَكَرَّرَ﴾ [الطور: ٢٤] و﴿بَيْضٌ مُكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩] فكانه مذهب للشيء يبان؛ وإحداها قريبة من الأخرى.

(٢) رواية البيت في الديوان هكذا:

ألا زعمت بسبابة اليوم أنني
كبرت وألا يحسن اللهو أمثالي
وعلى هذه الرواية فلا شاهد في البيت

(٣) البيت للبحطية، وهو من قصيدة يمدح فيها بني رياح وبني كلب من بني يربوع، وأنف كل شيء: طرفه وأوله. والقصاص: جمع قصعة، وهي الجفنة الضخمة، يذكر عفتهم وحفاظهم وامتناعهم من انتهاك حرمة الجارة، واقتراب الإثم في حقها، ويصف كرمهم وإيثارهم جازهم بالطعام على أنفسهم، فلا يتقدمون إلى الطعام حتى يأخذ منه ما يشتهي وما يكتفي.

(٤) قال الأعشي:

ولا تسيبري ربي جنة إن سبرها
عليك حرام فانيك حن أو تايها
وقد فسروا السر في هذا البيت بالزنى، وهو ظاهر، وقد رجح هذا القول الطبري في «تفسيره».

وسعيد بن جبير، وعطاء، والقاسم بن محمد، والشعبي، ومجاهد، وإبراهيم، وقتادة، والسدي. والثاني: أنه إلام عليها برغبته فيها، وهو قول عبيدة^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِنُوا عِدَّةَ النِّكَاحِ﴾ قال الزجاج: معناه: لا تعزموا على عقدة النكاح، وجذفت «على» استخفافاً، كما قالوا: ضرب زيد الظهر والبطن، معناه: على الظهر والبطن ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ أي: حتى يبلغ فرض الكتاب أجله. قال: ويجوز أن يكون «الكتاب» بمعنى «الفرض» كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]. فيكون المعنى: حتى يبلغ الفرض أجله. قال ابن عباس، ومجاهد، والشعبي، وقتادة، والسدي: بلوغ الكتاب أجله: انقضاء العدة.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَلْكُم مَّا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ قال ابن عباس: من الوفاء، فاحذروه أن تخالفوه في أمره. والحليم قد سبق بيانه.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّوهُنَّ عَلَى الْكُوبِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْبَقَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِأَلْمُتَّوِّفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وأبو عمرو «تمسوهن» بغير ألف حيث كان، وبفتح التاء. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف «تماسوهن» بألف وضم التاء في الموضعين هنا وفي الأحزاب ثالث. قال أبو علي: وقد يراد بكل واحد من «فاعل» و«فعل» ما يراد بالآخر، تقول: طارقت النعل، وعاقبت اللص. قال مقاتل بن سليمان: نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار تزوج امرأة من بني حنيفة، ولم يسم لها مهراً، فطلقها قبل أن يمسه، فقال النبي ﷺ: «هل متعتها بشيء؟» قال: لا. قال: «متعتها ولو بقلنسوتك» ومعنى الآية: ما لم تمسوهن ولم تفرضوا لهن فريضة. وقد تكون «أو» بمعنى الواو. كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَهْلَكُمْ أَوْ كُفُورًا﴾ [الذمر: ٢٤].

والمس: النكاح، والفريضة: الصداق، وقد دلت الآية على جواز عقد النكاح بغير تسمية مهر. «وَمَتَّوهُنَّ» أي: أعطوهن ما يتمتعن به من أموالكم على قدر أحوالكم في الغنى والفقر. والمتاع: اسم لما يتنفع به، فذلك معنى قوله تعالى: ﴿عَلَى الْكُوبِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْبَقَرِ قَدَرُهُ﴾. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو «قدرة» بإسكان الدال في الحرفين، وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي بتحريك الحرفين، وعن عاصم: كالقراءتين، وهما لغتان.

فصل

وهل هذه المتعة واجبة، أم مستحبة؟ فيه قولان: أحدهما: واجبة، واختلف أرباب هذا القول، لأي المطلقات تجب، على ثلاثة أقوال. أحدها: أنها واجبة لكل مطلقة، روي عن علي، والحسن، وأبي العالية، والزهري. والثاني: أنها تجب لكل مطلقة إلا المطلقة التي فرض لها صداق، ولم يمسه، فإنه يجب لها نصف ما فرض، روي عن ابن عمر، والقاسم بن محمد، وشريح، وإبراهيم. والثالث: أنها تجب للمطلقة قبل الدخول إذا لم يسم لها مهراً، فإن دخل بها، فلا متعة، ولها مهر المثل، زوي عن الأوزاعي، والثوري، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، والثاني: أن المتعة مستحبة، ولا تجب على أحد، سواء سمى للمرأة، أو لم يسم، دخل بها، أو لم يدخل، وهو قول مالك، والليث بن سعد، والحكم، وابن أبي ليلى. واختلف العلماء في مقدار المتعة، فنقل عن ابن عباس، وسعيد بن المسيب: أعلاها خادم، وأدناها كسوة يجوز لها أن تصلي فيها، وروي عن حماد وأبي حنيفة: أنه قدر نصف صداق مثلها. وعن الشافعي وأحمد: أنه قدر يساره وإعساره، فيكون مقدراً باجتهاد الحاكم. ونقل عن أحمد: المتعة بقدر ما تجزئ فيه الصلاة من الكسوة، وهو درع وخمار.

(١) روى ابن أبي حاتم قال: قال محمد بن سيرين: قلت لعبيدة: ما معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَنُوعًا﴾؟ قال: يقول لوليتها: لا تسبقني بها، يعني: لا تزوجها حتى تملأني.

قوله تعالى: ﴿مَتَنَّمَا بِالْعَرَفِ﴾ أي: بقدر الإمكان، والحق: الواجب. وذكر المحسنين والمنفقين ضرب من التأكيد.

﴿وَلَنْ تَلْفُتُوهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسْؤَهُمْ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُمْ فَرِيضَةً فَيَصِفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا أَوْ يَمُوتُوا أَلَمْ يَكُنْ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَقُولُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَعِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَلْفُتُوهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسْؤَهُمْ﴾ أي: قبل الجماع ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُمْ﴾ أي: أوجبتم لهم شيئاً التزمتم به، وهو المهر ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا﴾ يعني: النساء، وخفو المرأة: ترك حقها من الصداق. وفي الذي بيده عقدة النكاح ثلاثة أقوال. أحدها: أنه الزوج، وهو قول علي، وابن عباس، وجبير بن مطعم، وابن المسيب، وابن جبير، ومجاهد، وشريح، وجابر بن زيد، والضحاك، ومحمد بن كعب القرظي، والربيع بن أنس، وابن شبرمة، والشافعي، وأحمد رحمهم الله في آخرين. والثاني: أنه الولي، روي عن ابن عباس، والحسن، وعلقمة، وطاوس، والشعبي، وإبراهيم في آخرين. والثالث: أنه أبو البكر. روي عن ابن عباس، والزهري، والسدي في آخرين. فعلى القول الأول عفو الزوج: أن يكمل لها الصداق، وعلى الثاني: عفو الولي: ترك حقها إذا أبت، روي عن ابن عباس، وأبي الشعثاء. وعلى الثالث يكون قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا﴾ يختص بالشابات. وقوله: ﴿أَوْ يَقُولُوا﴾ يختص أبا البكر، قاله الزهري، والأول أصح، لأن عقدة النكاح خرجت من يد الولي، فصاوت بيد الزوج، والعفو إنما يطلق على ملك الإنسان، وعفو الولي عفو عما لا يملك، ولأنه قال: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ والفضل في هبة الإنسان مال نفسه، لا مال غيره.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه خطاب للزوجين جميعاً، روي عن ابن عباس، ومقاتل: والثاني: أنه خطاب للزوج وحده، قاله الشعبي، وكان يقرأ: «وأن يعفو» بالياء.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ خطاب للزوجين. قال مجاهد: هو إتمام الرجل الصداق، وترك المرأة شطرها.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الَّتِي تَلْتَمِذُونَ وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَنِينِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ المحافظة: المواظبة والمداومة، والصلوات بالآلف واللام ينصرف إلى المعهود، والمراد: الصلوات الخمس.

قوله تعالى: ﴿وَالصَّلَاةِ الَّتِي تَلْتَمِذُونَ﴾ قال الزجاج: هذه الواو إذا جاءت مخصصة، فهي دالة على فضل الذي تخصصه، كقوله تعالى: ﴿وَيُزِيلُ وَيُكِنُّ﴾ [البقرة: ٩٧] قال سعيد بن المسيب: كان أصحاب رسول الله ﷺ، في الصلاة الوسطى هكذا، وشبك بين أصابعه^(١). ثم فيها خمسة أقوال. أحدها: أنها العصر، روى مسلم في «أفراده» من حديث علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ، أنه قال يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً»^(٢). وروى ابن مسعود، وسمرة، وعائشة عن النبي ﷺ، أنها صلاة العصر^(٣)، روى مسلم في «أفراده» من حديث البراء بن عازب قال: نزلت هذه الآية ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الَّتِي تَلْتَمِذُونَ﴾^(٤) وصلاة العصر فقرأناها ما شاء الله، ثم نسخها الله، فنزلت: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الَّتِي تَلْتَمِذُونَ﴾ وهذا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن مسعود، وأبي، وأبي أيوب، وابن عمر في رواية، وسمرة بن جندب، وأبي هريرة، وابن عباس في رواية عطية، وأبي سعيد

(١) يزيد أنهم كانوا يختلفون في تعيين الصلاة الوسطى.

(٢) وتماه عند مسلم «ثم صلاها بين العشاءين، بين المغرب والعشاء» ورواه الإمام أحمد والبخاري وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وغير واحد من أصحاب «المسانيد» و«السنن» و«الصالح».

(٣) حديث ابن مسعود هو في «صحيح مسلم» ٤٣٧/١، وحديث عائشة أيضاً في «صحيح مسلم» ٤٣٨/١. وأما حديث سمرة، فقد رواه الإمام أحمد في «مسنده»، والترمذي في «جامعه»، وقال: حديث حسن صحيح.

(٤) هذه الزيادة التي أوردها المؤلف هنا لم ترد في رواية البراء، وإنما وردت من طريق عائشة رضي الله عنها. انظر: «صحيح مسلم» ٤٣٨/١.

الخدري، وعائشة في رواية، وحفصة، والحسن، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وعطاء في رواية، وطاووس، والضحاك، والنخعي، وعبيد بن عمير، وزر بن حبيش، وقتادة، وأبي حنيفة، ومقاتل في آخرين، وهو مذهب أصحابنا^(١). والثاني: أنها الفجر، روي عن عمر، وعلي في رواية، وأبي موسى، ومعاذ، وجابر بن عبد الله، وأبي أمامة، وابن عمر في رواية مجاهد، وزيد بن أسلم، وابن عباس في رواية أبي رجاء العطاردي، وعكرمة، وجابر بن زيد، وأنس بن مالك، وعطاء، وعكرمة، وطاووس في رواية ابنه، وعبد الله بن شداد، ومجاهد، ومالك، والشافعي. وروى أبو العالية قال: صليت مع أصحاب رسول الله ﷺ الغداة فقلت لهم: أيما الصلاة الوسطى؟ فقالوا: التي صليت قبل. والثالث: أنها الظهر، روي عن ابن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، وأبي سعيد الخدري، وعائشة في رواية، وروى ضمرة عن علي رضي الله عنه قال: هي صلاة الجمعة، وهي سائر الأيام الظهر. والرابع: أنها المغرب، روي عن ابن عباس، وقبيصة بن ذؤيب. والخامس: أنها العشاء الأخيرة، ذكره علي بن أحمد النيسابوري في «تفسيره». وفي المراد بالوسطى ثلاثة أقوال. أحدها: أنها أوسط الصلوات محلاً. والثاني: أوسطها مقداراً. والثالث: أفضلها. وأوسط الشيء: خيره وأعدل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٢]، فإن قلنا: إن الوسطى بمعنى: الفضلى، جاز أن يدعى هذا كل ذي مذهب فيها. وإن قلنا: إنها أوسطها مقداراً، فهي المغرب، لأن أقل المفروضات ركعتان، وأكثرها أربعاً. وإن قلنا: إنها أوسطها محلاً، فللقائلين: إنها العصر أن يقولوا: قبلها صلاتان في النهار، وبعدها صلاتان في الليل، فهي الوسطى. ومن قال: هي الفجر، فقال عكرمة: هي وسط بين الليل والنهار، وكذلك قال ابن الأنباري: هي وسط بين الليل والنهار، وقال: وسمعت أبا العباس، يعني ثعلباً يقول: النهار عند العرب أوله: طلوع الشمس. قال ابن الأنباري: فعلى هذا صلاة الصبح من صلاة الليل، قال: وقال آخرون: بل هي من صلاة النهار، لأن أول وقتها أول وقت الصوم. قال: والصواب عندنا أن نقول: الليل المحض خاتمه طلوع الفجر، والنهار المحض، أوله: طلوع الشمس، والذي بين طلوع الفجر، وطلوع الشمس يجوز أن يسمى نهاراً، ويجوز أن يسمى ليلاً، لما يوجد فيه من الظلمة والضوء، فهذا قول يصح به المذهبان، قال ابن الأنباري: ومن قال: هي الظهر، قال: هي وسط النهار. فأما من قال: هي المغرب، فاحتج بأن أول صلاة فرضت، الظهر، فصارت المغرب وسطى، ومن قال: هي العشاء، فإنه قال: هي بين صلاتين لا تقصران.

قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ المراد بالقيام هاهنا: القيام في الصلاة، فأما القنوت، فقد شرحناه فيما تقدم. وفي المراد به هاهنا ثلاثة أقوال. أحدها: أنه الطاعة، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وابن جبير، والشعبي، وطاووس، والضحاك، وقتادة في آخرين. والثاني: أنه طول القيام في الصلاة، روي عن ابن عمر، والربيع بن أنس، وعن عطاء كالقولين. والثالث: أنه الإمساك عن الكلام في الصلاة. قال زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت الآية ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت [ونهيها عن الكلام]^(٢).

﴿إِن خِفْتُمْ رِجَالاً أَوْ رُكْبَاتًا فَلِإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِن خِفْتُمْ رِجَالاً أَوْ رُكْبَاتًا﴾ أي: خفتم عدواً، فصلوا رجلاً، وهو جمع راجل، والركبان جمع راكب، وهذا يدل على تأكيد أمر الصلاة، لأنه أمر بفعلها على كل حال. وقيل: إن هذه الآية أنزلت بعد التي في سورة النساء، لأن الله تعالى وصف لهم صلاة الخوف في قوله: ﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٠٢] ثم نزلت هذه الآية ﴿إِن خِفْتُمْ﴾ أي: خوفاً أشد من ذلك، فصلوا عند المسابقة كيف قدرتم. فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية، وبين ما روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه صلى يوم الخندق الظهر والعصر، والمغرب والعشاء بعد ما غاب الشفق^(٣)؟

(١) وهو الصحيح الذي تدل عليه الأحاديث الصحيحة الراجحة، وإليه ذهب الطبري والديلمي وابن كثير، وأكثر أهل الأثر.

(٢) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وغيره.

(٣) رواه الترمذي وأبو يعلى والبيهقي عن ابن مسعود، ورواه السائي وابن حبان عن أبي سعيد الخدري، ورواه البزار، في «مسنده» عن جابر بن عبد الله، ولم نجده من طريق ابن عباس كما ذكر المؤلف.

فالجواب: أن أبا سعيد روى أن ذلك كان قبل نزول قوله تعالى: ﴿إِن خِفْتُمْ فِرَاجَ أَوْ رِكَابًا﴾ قال أبو بكر الأثرم: فقد بين الله أن ذلك الفعل الذي كان يوم الخندق منسوخاً^(١).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَنْذِرُوا اللَّهَ﴾ في هذا الذكر قولان: أحدهما: أنه الصلاة، فتقديره: فصلوا كما كنتم تصلون آمين. والثاني: أنه الشاء على الله، والحمد له.

﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَصِيَّةَ الْأَزْوَاجِ فَإِنَّ جَنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا قُلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَّقْرُونٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ روى ابن حبان أن هذه الآية نزلت في رجل من أهل الطائف يقال له: حكيم بن الحارث، هاجر إلى المدينة ومعه أبواه وامراته، وله أولاد، فمات فرفع ذلك إلى النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية، فأعطى النبي ﷺ أبويه وأولاده من ميراثه، ولم يعط امرأته شيئاً، غير أنه أمرهم أن ينفقوا عليها من تركه زوجها حولا.

قوله تعالى: ﴿وَصِيَّةَ الْأَزْوَاجِ﴾ قرأ أبو عمرو، وحمزة، وابن عامر «وصية» بالنصب، وقرأ ابن كثير، ونافع، والكسائي «وصية» بالرفع. وعن عاصم كالفراءتين. قال أبو علي: من نصب حمله على الفعل، أي: ليوصوا وصية، ومن رفع، فمن وجهين. أحدهما: أن يجعل الوصية مبتدأ، والخبر لأزواجهم. والثاني: أن يضم له خبراً، تقديره: فعليهم وصية. والمراد منه من قارب الوفاة، فليوص، لأن المتوفى لا يؤمر ولا ينهى.

قوله تعالى: ﴿مَتَنَّا إِلَى الْحوْلِ﴾ أي: مشعوهن إلى الحول ولا تخرجوهن. والمراد بذلك نفقة السنة وكسوتها وسكنائها ﴿فَإِنَّ حَرَجَ﴾ أي: من قبل أنفسهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: أولياء الميت. ﴿فِي مَا قُلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَّقْرُونٍ﴾ يعني التشوف إلى النكاح، وفي ماذا رفع الجناح عن الرجال؟ فيه قولان: أحدهما: أنه في قطع النفقة عنهن إذا خرجن قبل انقضاء الحول. والثاني: في ترك منعهن من الخروج، لأنه لم يكن مقامها الحول واجباً عليها، بل كانت مخيرة في ذلك.

فصل

ذكر علماء التفسير أن أهل الجاهلية كانوا إذا مات أحدهم، مكثت زوجته في بيته حولا، ينفق عليها من ميراثه، فإذا تم الحول، خرجت إلى باب بيتها، ومعها بعة، فرمت بها كلباً، وخرجت بذلك من عدتها، وكان معنى رميها بالبعة أنها تقول: مكثي بعد وفاة زوجي أهون عندي من هذه البعة. ثم جاء الإسلام، فأقرهم علي ما كانوا عليه من مكث الحول بهذه الآية، ثم نسخ ذلك بالآية المتقدمة في نظم القرآن على هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَصِيَّةَ الْأَزْوَاجِ﴾. ونسخ الأمر بالوصية لها بما فرض لها من ميراثه.

(١) وقد ذهب البعض إلى عدم النسخ، وجعل صلاة الخوف قسمين، أحدهما: أن تكون في حال القتال - وهو المراد بهذه الآية - والثاني: في غير حال القتال، وهو المذكور في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقِمْ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَمْ تُصَلِّ لَهُمْ فَكُنْ مِنْهُمْ مُتَمَلِّكاً﴾ [النساء: ١٠٢]. وقد روى مالك في «الموطأ» عن نافع أن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف، وصفها، ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك، صلوا رجالاً على أقدامهم أو ركباً، مستقبلي القبلة أي غير مستقبليها.

(٢) وإليه ذهب الجمهور من أهل العلم سلفاً وخلفاً. وروى البخاري عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان بن عفان: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ قد نسخها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه. قال الحافظ ابن كثير: ومعنى هذا الإشكال الذي قال ابن الزبير لحسان: إذا كان حكمها قد تسخ بالآية الأشهر، فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يوم بقاء حكمها؟ فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقيفي، وأنا وجبتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها، حيث وجبتها. وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ج/١٤٤: وهذا الموضع مما وقع فيه النسخ مقدماً في ترتيب التلاوة على المنسوخ، ثم أشار إلى آيات أخر في مثل هذا. ومن السلف من ذهب إلى أنها ليست منسوخة، وإنما خص من الحول بعضه، وبقي البعض وصية لها، إن شئت أقامت، فقد روى البخاري عن مجاهد: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَصِيَّةَ الْأَزْوَاجِ﴾ متناً إلى الحول غير إخراج فإن حرجاً فلا جناح عليكم في ما قلتم في أنفسكم من مقرون، قال: جعل الله لها تمام السنة بسبعة أشهر وعشرين ليلة وصية، إن شئت سكنت في وصيتها، وإن شئت خرجت، وهو قول الله تعالى: ﴿مَتَرِ إِخْرَاجَ فَإِنَّ حَرَجَ فَإِنَّ حَرَجَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فالمدة كما هي واجب عليها.

﴿وَالْمُطْلَقَتِ مَنَعَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى التَّائِبِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْمُطْلَقَتِ مَنَعَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قد سبق الكلام في المتعة بما فيه كفاية.

﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ أي: كما بين الذي تقدم من الأحكام ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: يثبت لكم وصف العقلاء باستعمال ما بين لكم، وثمرة العقل استعمال الأشياء المستقيمة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّرُوءَ بِحَكْمٍ﴾ [النساء: ١٧] وإنما سموا جهالاً، لأنهم آثروا أهواءهم على ما علموا أنه الحق.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَخَذَهَا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْقِلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ معناه: ألم تعلم. قال ابن قتيبة: وهذا على جهة التعجب، كما تقول: ألا ترى إلى ما يصنع فلان؟

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: وهم مؤتلفون، قاله ابن زيد. والثاني: أنه من العدد، وعليه العلماء. واختلفوا في عددهم على سبعة أقوال. أحدها: أنهم كانوا أربعة آلاف. والثاني: أربعين ألفاً، والقولان عن ابن عباس. والثالث: تسعين ألفاً، قاله عطاء بن أبي رباح، والرابع: سبعة آلاف، قاله أبو صالح. والخامس: ثلاثين ألفاً، قاله أبو مالك، والسادس: بضعة وثلاثين ألفاً، قاله السدي، والسابع: ثمانية آلاف، قاله مقاتل. وفي معنى: حذرهم من الموت، قولان: أحدهما: أنهم فروا من الطاعون، وكان قد نزل بهم، قاله الحسن، والسدي. والثاني: أنهم أمروا بالجهاد، ففروا منه، قاله عكرمة، والضحاك، وعن ابن عباس كالقولين.

الإشارة إلى قصتهم

روى حصين بن عبد الرحمن عن هلال بن يساف قال: كانت أمة من بني إسرائيل إذا وقع فيهم الوجع، خرج أغنياؤهم، وأقام فقراؤهم، فمات الذين أقاموا، ونجا الذين خرجوا، فقال الأشراف: لو أقمنا كما أقام هؤلاء لهلكنا، وقال الفقراء: لو ظعننا كما ظعن هؤلاء سلمنا، فأجمع رأيهم في بعض السنين على أن يظعنوا جميعاً، فظعنوا فماتوا، وصاروا عظاماً تبرق، فكنسهم أهل البيوت والطرق عن بيوتهم، وطرقهم، فمر بهم نبي من الأنبياء، فقال: يا رب لو شئت أحيتهم، فعيدوك، وولدوا أولاداً يعيدونك، ويعمرون بلادك. [قال: أو أحب إليك أن أفعل؟ قال: نعم]. فقبل له: تكلم بكذا وكذا، فتكلم به، فنظر إلى العظام تخرج من عند العظام التي ليست منها إلى التي هي منها، ثم قيل له: تكلم بكذا وكذا، فتكلم به، فنظر إلى العظام تكسى لحماً وعصباً، ثم قيل له: تكلم بكذا وكذا، فنظر فإذا هم قعود يسبحون الله ويقدمونه، وأنزل الله فيهم هذه الآية. وهذا الحديث يدل على بعد المدة التي مكثوا فيها أمواتاً. وفي بعض الأحاديث: أنهم بقوا أمواتاً سبعة أيام، وقيل: ثمانية أيام. وفي النبي الذي دعا لهم قولان: أحدهما: أنه حزيل، والثاني: أنه شمعون. فإن قيل: كيف أميت هؤلاء مرتين وقد قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦] فالجواب أن موتهم بالعقوبة لم يفن أعمارهم، فكان كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي لَوْ تَشَاءُ فِي مَوَاتِهِمْ﴾ [الزمر: ٤٢] وقيل: كان إحيائهم آية من آيات نبيهم، وآيات الأنبياء نوارد لا يقاس عليها، فيكون تقدير قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ التي ليست من آيات الأنبياء، ولا لأمر نادر. وفي هذه القصة احتجاج على اليهود إذ أخبرهم النبي ﷺ بأمر لم يشاهدوه، وهم يعلمون صحته، واحتجاج على المنكرين للعبث، فدلهم عليه بإحياء الموتى في الدنيا، ذكر ذلك جميعه ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ نبه بذكر فضله على هؤلاء على فضله على سائر خلقه مع قلة شكرهم.

﴿وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في المخاطبين بهذا قولان. أحدهما: أنهم الذين أمانتهم الله، ثم أحياهم، قاله الضحاك. والثاني: خطاب لأمة محمد ﷺ. فمعناه: لا تهربوا من الموت، كما هرب هؤلاء، فما ينفعكم الهرب ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تنطوي عليه ضمائرکم.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُجْمَعُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ قال الزجاج: أصل القرض ما يعطيه الرجل أو يفعله ليجازى عليه، وأصله في اللغة القطع، ومنه أخذ المقرض. فمعنى أقرضته: قطعت له قطعة يجازيني عليها. فإن قيل: ما وجه تسمية الصدقة قرضاً؟ فالجواب من ثلاثة أوجه. أحدها: لأن هذا القرض يبذل بالجزاء، والثاني: لأنه يتأخر قضاؤه إلى يوم القيامة، والثالث: لتأكيد استحقاق الثواب به، إذ لا يكون قرض إلا والعوض مستحق به. فأما اليهود فإنهم جهلوا هذا، فقالوا: أيستقرض الله منا؟ وأما المسلمون فوثقوا بوعده الله، وبأدروا إلى معاملته. قال ابن مسعود: لما نزلت هذه الآية، قال أبو الدحداح: وإن الله ليريد منا القرض؟ فقال النبي ﷺ: نعم. قال: أرني يدك. قال: إني أقرضت ربي حائطي، قال: وحائطه فيه ستمائة نخلة، ثم جاء إلى الحائط، فقال: يا أم الدحداح اخرجي من الحائط. فقد أقرضته ربي^(١). وفي بعض الأنفاظ: فعمدت إلى صبيانها تخرج ما في أفواههم، وتنفض ما في أكمامهم، فقال النبي ﷺ: «كم من علق رواح في الجنة لأبي الدحداح». وفي معنى القرض الحسن ستة أقوال: أحدها: أنه الخالص لله، قاله الضحاك. والثاني: أن يخرج عن طيب نفس، قاله مقاتل. والثالث: أن يكون حلالاً، قاله ابن المبارك. والرابع: أن يحتسب عند الله ثوابه. والخامس: أن لا يتبعه من ولا أذى. والسادس: أن يكون من خيار المال.

قوله تعالى: ﴿فَيُضَاعِفُهُ لَهُ﴾ قرأ أبو عمرو «فيضاعفه» بآلف مع رفع الفاء، كذلك في جميع القرآن، إلا في سورة الأحزاب «يُضَعِّفُ لَهَا الْعَذَابَ ضِعْفَيْنِ» وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي، جميع ذلك بالآلف مع رفع الفاء، وقرأ ابن كثير (فيضعفه) برفع الفاء من غير آلف في جميع القرآن، وقرأ ابن عامر (فيضعفه) بغير آلف مشددة في جميع القرآن، ووافقه حاصم على نصب الفاء في «فيضاعفه» إلا أنه أثبت الآلف في جميع القرآن، قال أبو علي: للرفع وجهان: أحدهما: أن يعطفه على ما في الصلة، وهو يقرض. والثاني: أن يستأنفه. ومن نصب حمل الكلام على المعنى، لأن المعنى: أ يكون قرض؟ فحمل عليه «فيضاعفه» وقال: ومعنى ضاعف وضعف: واحد، والمضاعفة: الزيادة على الشيء حتى يصير مثليين أو أكثر. وفي الأضعاف الكثيرة قولان. أحدهما: أنها لا يحصى عددها، قاله ابن عباس والسدي. وروى أبو عثمان النهدي عن أبي هريرة أنه قال: إن الله يكتب للمؤمن بالحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة، وقرأ هذه الآية، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة»^(٢). والثاني: أنها معلومة المقدار، فالدرهم بسبعمائة، كما ذكر في الآية التي بعدها، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي «يبسط» وبسطة بالسين، وقراهما نافع بالصاد. وفي معنى الكلام قولان. أحدهما: أن معناه: يقتر على من يشاء في الرزق، ويبسطه على من يشاء، قاله ابن عباس، والحسن، وابن زيد. والثاني: يقبض يد من يشاء عن الإنفاق في سبيله، ويبسط يد من يشاء بالإنفاق، قاله أبو سليمان الدمشقي في آخرين.

(١) رواء ابن أبي حاتم بإسناد ضعيف، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٦/٣٢١ وقال: رواه البزار، رجاله ثقات. ثم ذكره أيضاً ٩/٣٢٤. وقال: رواء أبو يعلى، والطبراني، ورجالهما ثقات، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح.

(٢) رواء أحمد في «المسند» من طريق مبارك بن فضالة عن علي بن زيد بن جدعان عن أبي عثمان النهدي. وعلي بن زيد، وضعفه غير واحد. والحديث حسن. وقد قال الشيخ أحمد شاكر: رواء ابن أبي حاتم عن أبي خلد سليمان بن خلد المذنب عن محمد الرفاعي عن زياد بن الجصاص عن أبي عثمان النهدي، وزياد بن الجصاص، ذكره البخاري في «التاريخ الكبير» فلم يذكر فيه جرحاً، وهذا أمانة توثيق عنده، ثم لم يذكره في «الضعفاء»، وذكره ابن حبان في «الثقات» وقال: ربما وهم. وهذا الحديث لم ينفرد به كما ترى، فقد رواء كما رواء علي بن زيد بن جدعان بنحوه، فارتفعت شبهة الخطأ والوهم، وصح الحديث من الوجهين، والحمد لله.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى آلِ آلَمَلِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَجْوِ لَهْمُ أَهْمَتْ لَنَا مَلَائِكَةُ نَقُتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَاءَنَا قُلْنَا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى آلِ آلَمَلِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ قال الفراء: الملا: الرجال في كل القرآن لا يكون فيهم امرأة، وكذلك القوم والنفر والرهط. وقال الزجاج: الملا: هم الوجوه، وذوو الرأي، وإنما سَمَوْا مَلاَ، لأنهم مليئون بما يحتاج إليه منهم. وفي بنيهم ثلاثة أقوال. أحدها: أنه شمویل، قاله ابن عباس، وهب. والثاني: أنه يوشع بن نون، قاله قتادة. والثالث: أنه نبي، يقال له: سمعون بالسين المهملة^(١)، سمته أمه بذلك، لأنها دعت الله أن يرزقها غلاماً، فسمع دعاؤها فيه، فسمته، هذا قول السدي.

وسبب سؤالهم ملكاً أن عدوهم غلب عليهم.

قوله تعالى: ﴿نُقَاتِلُ﴾ قراءة الجمهور بالفتح والجزم، وقرأ ابن أبي عبله بالياء والرفع، كناية عن الملك.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا﴾ قراءة الجمهور بفتح السين، وقرأ نافع بكسرهما هاهنا وفي سورة «محمد»، وهي لغتان.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ أي: فرض ﴿أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ أي: لعلكم تجبنون.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا﴾ يعنون: أخرج بعضنا، وهم الذين سبوا منهم وقهروا، فظاھر العموم، ومعناه الخصوص.

قوله تعالى: ﴿تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن الجهاد. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهم الذين عبروا النهر، وسيأتي ذكرهم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ ذكر أهل التفسير أن نبي بني إسرائيل سأل الله أن يبعث لهم ملكاً، فأتي بعضاً وقرن فيه دهن، وقيل له: إن صاحبكم الذي يكون ملكاً يكون طوله طول هذه العصا، ومتى دخل عليك رجل، فنشق الدهن، فهو الملك، فادهن به رأسه، وملكه على بني إسرائيل، فقاس القوم أنفسهم بالعصا، فلم يكونوا على مقدارها. قال عكرمة، والسدي: كان طالوت سقاءً يسقي على حمار له، فضل حماره، فخرج يطلبه. وقال وهب: بل كان دباغاً يعمل الأدم، فضلت حماراً لأبيه، فأرسل مع غلام له في طلبها، فمرا بيت شمویل النبي ﷺ، فدخلا ليسألاه عن ضالتهما، فنشق الدهن، فقام شمویل، فقاس طالوت بالعصا، وكان على مقدارها، فدهنه، ثم قال له: أنت ملك بني إسرائيل، فقال طالوت: أما علمت أن وسطي أدنى أسباط بني إسرائيل، وييتي أدنى بيوتهم؟ قال: بلى. قال: فبأية آية؟ قال: بأية أنك ترجع وقد وجد أبوك حمراء، فكان كما قال.

قال الزجاج: طالوت، وجالوت، وداود، لا تصرف، لأنها أسماء أعجمية، وهي معارف، فاجتمع فيها التعريف والعجمة.

قوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ﴾ من أي جهة يكون له الملك علينا قال ابن عباس: إنما قالوا ذلك، لأنه كان في بني إسرائيل سبطان، في أحدهما النبوة، وفي الآخر الملك، فلم يكن هو من أحد السبطين. قال قتادة: كانت النبوة في سبط لاوي، والملك في سبط يهوذا.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ أي: لم يؤت ما يتملك به الملك. ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾

أي: اختاره، وهو «افتعل» من الصفوة. والبسطة: السعة، قال ابن قتيبة: هو من قولك: بسطت الشيء: إذا كان مجموعاً، ففتحته، ووسعته. قال ابن عباس: كان طالوت أعلم بني إسرائيل بالحرب، وكان يفوق الناس بمنكيه وعقته ورأسه. وهل كانت هذه الزيادة قبل الملك، أم أحدثت له بعد الملك؟ فيه قولان. أحدهما: قبل الملك، قاله وهب، والسدي. والثاني: بعد الملك، قاله ابن زيد. والمراد بتعظيم الجسم، فضل القوة، إذ العادة أن من كان أعظم جسماً، كان أكثر قوة، والواسع: الغني.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ الآية: العلامة، فمعناه: علامة تملكك الله إياه ﴿أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ وهذا من مجاز الكلام، لأن التابوت يؤتى به، ولا يأتي، ومثله: ﴿إِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ وإنما جاز مثل هذا، لزوال اللبس فيه، كما بينا في قوله تعالى: ﴿فَمَا رِيحَتْ عُثْرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦]. وروي عن ابن مسعود، وابن عباس: أنهم قالوا لنبيهم: إن كنت صادقاً، فأتنا بآية تدل على أنه ملك، فقال لهم ذلك. وقال وهب: خيرهم، أي آية يريدون؟ فقالوا: أن يرد علينا التابوت. قال ابن عباس: كان التابوت من عود الشمشار عليه صفائح الذهب، وكان يكون مع الأنبياء إذا حضروا قتالاً قدموه بين أيديهم يستنصرون به، وفيه السكينة. وقال وهب بن منبه: كان نحواً من ثلاث أذرع في ذراعين. قال مقاتل: فلما تفرقت بنو إسرائيل، وعصوا الأنبياء، سلط الله عليهم عدوهم، فغلبهم عليه. وفي السكينة سبعة أقوال. أحدها: أنها ريح هفافة لها وجه كوجه الإنسان، رواه أبو الأحوص عن علي عليه السلام. والثاني: أنها دابة بمقدار الهر، لها عينان لها شعاع، وكانوا إذا التقى الجمعان، أخرجت يدها، ونظرت إليهم، فيهزم الجيش من الرعب. رواه الضحاك عن ابن عباس. وقال مجاهد: السكينة لها رأس كراس الهر، وجناحان. والثالث: أنها طست من ذهب [من الجنة] تغسل فيه قلوب الأنبياء. رواه أبو مالك عن ابن عباس. والرابع: أنها روح من الله تتكلم، كانوا إذا اختلفوا في شيء كلمتهم وأخبرتهم ببيان ما يريدون، رواه عبد الصمد بن معقل عن وهب بن منبه. والخامس: أن السكينة ما يعرفون من الآيات فيسكنون إليها، رواه ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح، وذهب إلى نحوه الزجاج، فقال: السكينة، من السكون، فمعناه: فيه ما تسكنون إليه إذا أتاكم. والسادس: أن السكينة معناها هاهنا: الوقاء، رواه معمر عن قتادة. والسابع: أن السكينة: الرحمة. قاله الربيع بن أنس^(١).

وفي البقية تسعة أقوال: أحدها: أنها رضاض الألواح التي تكسرت حين ألغاه موسى وعصاه، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي. والثاني: أنها رضاض الألواح. قاله عكرمة، ولم يذكر العصا. وقيل: إنما اتخذ موسى التابوت ليجمع رضاض الألواح فيه. والثالث: أنها عصا موسى، والسكينة، قاله وهب. والرابع: عصا موسى وعصا هارون، وثيابهما، ولوحان من التوراة، والمن، قاله أبو صالح. والخامس: أن البقية؛ العلم والتوراة، قاله مجاهد، وعطاء بن أبي رباح. والسادس: أنها رضاض الألواح، وقفيز من من في طست من ذهب، وعصا موسى وعمامته، قاله مقاتل. والسابع: أنه قفيز من من ورضاض الألواح، حكاه سفيان الثوري عن بعض العلماء. والثامن: أنها عصا موسى

(١) قال ابن جرير الطبري: فأولى هذه الأقوال بالحق في معنى السكينة، ما قاله عطاء بن أبي رباح، أنها الشيء تسكن إليه النفوس من الآيات التي يعرفونها. وقال ابن عطية: والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأس به وتقوى. وقال الشوكاني رحمه الله في «تفسير»: وأقول: هذه التفسير المتناقضة لعلها وصلت إلى هؤلاء الأعلام من جهة اليهود أقامهم الله، فجاءوا بهذه الأمور لقصد التلاعب بالمسلمين عليهم السلام، والتشكيك عليهم، وانظر إلى جعلهم لها تارة حيواناً، وتارة جماداً، وتارة شيئاً لا يعقل، كقول مجاهد: كهيئة الريح، لها وجه كوجه الهر، وجناحان وذناب مثل ذنب الهر. وهكذا كل منقول عن بني إسرائيل يتناقض ويشتمل على ما لا يعقل في الغالب، ولا يصح أن يكون مثل هذه التفسير المتناقضة مروياً عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا رأياً له قاله، فهم أجل قدراً من الضعيف بالرأي، وبما لا مجال للاجتهاد فيه. إذا تقرر لك هذا، عرفت أن الواجب الرجوع في مثل ذلك إلى معنى السكينة لغة، وهو معروف، ولا حاجة إلى ركوب هذه الأمور المتصفة المتناقضة، فقد جعل الله عنها سعة.

روي عن النبي ﷺ أنه قال لأصحابه يوم بدر: «أنتم بعدة أصحاب طالوت يوم لقاء جالوت» وكانوا يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً^(١).

قوله تعالى: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا﴾ أي: لا قوة لنا، قال الزجاج: يقال: أطق الشيء إطاقة وطاقة، وطوقاً، مثل قولك: أطقته إطاعة وطاعة وطوعاً. واختلفوا في القائلين لهذا على ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم الذين شربوا أكثر من غرفة، فإنهم انصرفوا، ولم يشهدوا، وكانوا أهل شك ونفاق، قاله ابن عباس، والسدي. والثاني: أنهم الذين قلت بصائرهم من المؤمنين، قاله الحسن، وقتادة، وابن زيد. والثالث: أنه قول الذين جاوزوا معه، وإنما قال ذلك بعضهم لبعض، لما رأوا من قتلهم، وهذا اختيار الزجاج.

قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ في هذا الظن قولان: أحدهما: أنه بمعنى اليقين، قاله السدي في آخرين. والثاني: أنه الظن الذي هو التردد، فإن القوم توهموا لقلة عددهم أنهم سيقتلون فيلقون الله، قاله الزجاج في آخرين. وفي الظانين هذا الظن قولان: أحدهما: أنهم الثلاثمائة والثلاثة عشر، قالوا للرابعين: ﴿كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ فُلَيْسَ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ﴾، قاله السدي. والثاني: أنهم أولو العزم والفضل من الثلاثمائة والثلاثة عشر. والفتنة: الفرقة، قال الزجاج: وإنما قيل لهم: فتنة من قولهم: فأوت رأسه بالعصا، وفأيته: إذا شققته.

قوله تعالى: ﴿يَا ذِي الْأَلْوَابِ﴾ قال الحسن: بنصر الله. قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي بالنصر والإعانة. ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُوذِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَكَفِّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا﴾ أي: صاروا بالبراز من الأرض، وهو ما ظهر واستوى. و﴿أَخْرِجْ﴾ بمعنى أصب، ﴿وَكَفِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أي: قو قلوبنا لتثبيت أقدامنا، وإنما تثبت الأقدام عند قوة القلوب. قال مقاتل: كان جالوت وجنوده يعبدون الأوثان.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم﴾ أي: كسروهم وردوهم، قال الزجاج: أصل الهزم في اللغة: كسر الشيء، وثني بعضه على بعض، يقال: سقاء منهزم [ومهزم] إذا كان بعضه قد ثني على بعض مع جفاف، وقصب منهزم: قد كسر وشقق، والعرب تقول: هزمت على زيد، أي: عطفت عليه. قال الشاعر:

هزمت عليك اليوم يا ابنة مالك فجودي علينا بالنوال وأنعمي^(٢)

ويقال: سمعت هزمة الرعد، قال الأصمعي: كأنه صوت فيه تشقق. وداود: هو نبي الله أبو سليمان، وهو اسم أعجمي، وقيل: إن إخوة داود كانوا مع طالوت، فمضى داود لينظر إليهم، فتداته أحجار، خذني، فأخذها، وجاء إلى طالوت، فقال: مالي إن قتل جالوت؟ فقال: ثلث ملكي، وأنكحك ابنتي، فقتل جالوت.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ يعني أتى داود ملك طالوت. وفي المراد بالحكمة هاهنا قولان. أحدهما: أنها النبوة، قاله ابن عباس. والثاني: الزبور، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ فيه ثلاثة أقوال. أحدها: أنها صنعة الدروع، والثاني: الزبور، والثالث: منطق الطير.

(١) رواء ابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال لأصحابه يوم بدر، فذكره. وأخرج أحمد والبخاري وغيره عن البراء بن عازب قال: كنا أصحاب محمد نتحدث أن أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر - ولم يجاوز معه إلا مؤمن - بضعة عشرة وثلاثمائة.

(٢) البيت نسبة في «اللسان» لأبي بدر السلمي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ قرأ الجمهور ﴿دَفْعُ اللَّهِ﴾ بغير ألف هاهنا وفي «الحج»، وقرأ نافع، ويعقوب، وأبان (ولولا دفاع) بألف فيها. قال أبو علي: المعنيان متقاربان، قال الشاعر:

ولقد حرصتُ بأن أذافع عنهم فإذا المنية أقبلت لا تدفع^(١)

وفي معنى الكلام قولان. أحدهما: أن معناه: لولا أن الله يدفع بمن أطاعه عن عصاه، كما دفع عن المتخلفين عن طالوت بمن أطاعه، لهلك العصاة بسرعة العقوبة، قاله مجاهد. والثاني: أن معناه: لولا دفع الله المشركين بالمسلمين، لغلب المشركون على الأرض، فقتلوا المسلمين، وخربوا المساجد، قاله مقاتل. ومعنى: ﴿لَقَسَدَتْ الْأَرْضُ﴾ لهلك أهلها.

﴿إِنَّكَ أَنتَ اللَّهُ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ الْحَقُّ وَإِنَّكَ لَئِنْ الرُّسُلَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ اللَّهُ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ أي: نقص عليك من أخبار المتقدمين. ﴿وَإِنَّكَ لَئِنْ الرُّسُلَ﴾ حُكْمُكَ حَكْمَهُمْ، فمن صدقك، فسيبيله سبيل من صدقهم، ومن عصاك، فسيبيله سبيل من عصاهم.

الجزء الثالث: ﴿إِنَّكَ أَنتَ اللَّهُ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ وفي المراءى بَعْضُ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَكَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَيَهْمُ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَكَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَهْمُ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ يعني: موسى ﷺ. وقرأ أبو المتوكل، وأبو نهيك، وابن السميع: «منهم من كالم الله» بألف خفيفة اللام، ونصب اسم «الله». وفي المراءى بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ قولان: أحدهما: عنى بالمرقوع درجات، محمداً ﷺ، فإنه بعث إلى الناس كافة، وغيره بعث إلى أمته خاصة، هذا قول مجاهد. والثاني: أنه عنى تفضيل بعضهم على بعض فيما آتاه الله، هذا قول مقاتل. قال ابن جرير الطبري: والدرجات: جمع درجة، وهي المرتبة، وأصل ذلك: مراقي السلم ودرجه، ثم يستعمل في ارتفاع المنازل والمراتب. وقد تقدم تفسير «البيّنات» و«روح القدس».

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَكَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد الأنبياء. وقال قتادة: من بعد موسى وعيسى ﷺ. قال مقاتل: وكان بينهما ألف نبي.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا﴾ يعني: الأمم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ مَا رَفَعْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ مَا رَفَعْتُمْ﴾ هذه الآية تحت على الصدقات، والإنفاق في وجوه الطاعات. وقال الحسن: أراد الزكاة المفروضة.

قوله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ﴾ يعني، يوم القيامة ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو (لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) بالنصب من غير تنوين، ومثله في «إبراهيم» (لا بيع فيه) وفي الطور (لا لغو فيها ولا تأثيم). وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي، جميع ذلك بالرفع والتنوين. قال ابن عباس: لا فدية فيه، وقيل: إنما ذكر لفظ البيع لما فيه من المعاوضة، وأخذ البذل. والخلة: الصداقة. وقيل: إنما نفى هذه الأشياء، لأنه غني عن الكافرين، وهذه الأشياء لا تنفعهم، ولهذا قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ روى مسلم في «صحيحه» عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ قال له: «يا

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو من قصيدة جيدة، يرثي بها بنه الخمسة الذين هلكوا بالطاعون.

أبا المنذر! أتدري أي آية من كتاب الله أعظم؟ قال: قلت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. قال: ف ضرب صدرى، وقال: «ليهنك العلم يا أبا المنذر»^(١) قال أبو عبيدة: القيوم: الذي لا يزول، لاستقامة وصفه بالوجود، حتى لا يجوز عليه التغيير بوجه من الوجوه. وقال الزجاج: القيوم: القائم بتدبير أمر الخلق، وقال الخطابي: القيوم: هو القائم الدائم بلا زوال، وزنه: «فيعول» من القيام، وهو نعت للمبالغة للقيام على الشيء، ويقال: هو القائم على كل شيء بالرعاية، يقال: قمت بالشيء: إذا وليته بالرعاية والمصلحة. وفي «القيوم» ثلاث لغات: القَيِّوم، وبه قرأ الجمهور. والقيام، وبه قرأ عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وابن أبي عبيدة، والأعمش. والقَيِّم، وبه قرأ أبو رزين، وعلقمة. وذكر ابن الأنباري أنه كذلك في مصحف ابن مسعود، قال: وأصل القيوم: القيوم: فلما اجتمعت الياء والواو والسابق ساكن، جعلنا ياء مشددة. وأصل القيام: القوام، قال الفراء: وأهل الحجاز يصرفون الفعـال [إلى] الفيعال، فيقولون للصواغ: صياغ. فأما «السنة» فهي: النعاس من غير نوم، ومنه: الوسنان. قال ابن الرقاع:

وكانها بين النساء أعارها
وسنان أقصده النعاس فرنقت
عينيه أحور من جاذر جاسم
في عينه سنة وليس بنائم^(٢)

قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قال بعض العلماء: إنما لم يقل: والأرضين، لأنه قد سبق ذكر الجمع في السموات، فاستغنى بذلك عن إعادته، ومثله ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ ولم يقل: الأنوار.

قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فيه رد على من قال: ﴿مَنْ تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الزمر: ٢٣]. قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ظاهر الكلام يقتضي الإشارة إلى جميع الخلق، وقال مقاتل: المراد بهم الملائكة. وفي المراد بـ ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن الذي بين أيديهم أمر الآخرة، والذي خلفهم أمر الدنيا، روي عن ابن عباس، وقتادة. والثاني: أن الذي بين أيديهم الدنيا، والذي خلفهم الآخرة، قاله السدي عن أشياخه، ومجاهد وابن جريج، والحكم بن عتيبة. والثالث: ما بين أيديهم: ما قبل خلقهم، وما خلفهم: ما بعد خلقهم، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ﴾ قال الليث: يقال لكل من أحرز شيئاً، أو بلغ علمه أقصاه: قد أحاط به. والمراد بالعلم هاهنا المعلوم ﴿رُبَّ كَرِيسٍ﴾ أي: احتمال وأطاق. وفي المراد بالكُرسي ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كرسي فوق السماء السابعة دون العرش، قال النبي ﷺ: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة»^(٣) وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء. والثاني: أن المراد بالكرسي علم الله تعالى. رواه ابن جبير عن ابن عباس^(٤). والثالث: أن الكرسي هو العرش، قاله الحسن^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْرُونَ﴾ أي: لا يشقله، يقال: آده الشيء يؤوده أوداً وإياداً. والأود: الشقل، وهذا قول ابن عباس، وقتادة، والجماعة. والعلي: العالي القاهر، «فعل» بمعنى «فاعل»، وقال الخطابي: وقد يكون من العلو الذي هو مصدر: علا يعلو، فهو عال، كقوله تعالى: ﴿الْأَرْحَنُ عَلَى الْآرِثِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]. ويكون ذلك من علاء المجد

(١) ورواه الإمام أحمد، ولفظه عند مسلم عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر! أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «يا أبا المنذر! أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قال: ف ضرب في صدرى، وقال: «والله ليهنك العلم يا المنذر» معنى «ليهنك العلم»: ليكن العلم هيناً لك.

(٢) الجاذر: بقر الوحش، وهي حسان العيون. جاسم: موضع تكثر فيه الجاذر. الرسن: ثقل النوم وتجمعه. أقصده النعاس: قتله النعاس وأماته. رنقت: خالطت عينه. السنة: النوم الخفيف.

(٣) رواه ابن مردويه وابن جرير الطبري، والبيهقي في «الأسماء والصفات». وقال البيهقي بعد روايته: تفرد به يحيى بن سعيد السعدي. وهو منكر الحديث، لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد كما قال النقاد من المحدثين. وقد ساق البيهقي شاهداً له، وفي إسناده إبراهيم بن هشام، كذبه أبو زرعة وأبو حاتم، ووصفه الذهبي بأنه أحد المتروكين، ولم يصب ابن حبان في توثيقه. فليس يتقوى الحديث بهذا الشاهد.

(٤) قال الشيخ أحمد شاكر: هي رواية شاذة لا يقوم عليها دليل من كلام العرب. ولذلك رجح أبو منصور الأزهري الرواية الصحيحة عن ابن عباس التي تقول: إن الكرسي موضع القدمين، وقال: وهذه رواية اتفق أهل العلم على صحتها، ومن روى عنه في الكرسي، أنه العلم، فقد أبطل.

(٥) رواه ابن جرير، وفي سننه جوير بن سعيد الأزدي، وهو ضعيف جداً.

والشرف، يقال منه: علي يعلى علاء. ومعنى العظيم: ذو العظمة والجلال، والعظم في حقه تعالى، منصرف إلى عظم الشأن، وجلال القدر، دون العظم الذي هو من نعوت الأجسام.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن المرأة من نساء الأنصار كانت في الجاهلية إذا لم يعيش لها ولد، تحلف: لئن عاش لها ولد لتهودنه. فلما أجليت يهود بني النضير، كان فيهم ناس من أبناء الأنصار: فقال الأنصار: يا رسول الله أبناؤنا، فنزلت هذه الآية. هذا قول ابن عباس^(١). وقال الشعبي: قالت الأنصار: والله لنكرهن أولادنا على الإسلام، فإنا إنما جعلناهم في دين اليهود إذ لم نعلم ديناً أفضل منه، فنزلت هذه الآية. والثاني: أن رجلاً من الأنصار تنصّر له ولدان قبل أن يبعث النبي ﷺ، ثم قدما المدينة، فلزمهما أبوهما، وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما، فأبيا، فاخصموا إلى النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية. هذا قول مسروق. والثالث: أن ناساً كانوا مسترضعين في اليهود، فلما أجلى رسول الله ﷺ بني النضير، قالوا: والله لنذهبن معهم. ولندين بدينهم، فممنهم أهلوم، وأرادوا إكراههم على الإسلام، فنزلت هذه الآية. والرابع: أن رجلاً من الأنصار كان له غلام اسمه صبيح، كان يكرمه على الإسلام، فنزلت هذه الآية، والقولان عن مجاهد.

فصل

واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذا القدر من الآية، فذهب قوم إلى أنه محكم، وأنه من العام المخصوص، فإنه خص منه أهل الكتاب بأنهم لا يكرهون على الإسلام بل يختارون بينه وبين أداء الجزية، وهذا معنى ما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة^(٢). وقال ابن الأنباري: معنى الآية: ليس الدين ما تدين به في الظاهر على جهة الإكراه عليه، ولم يشهد به القلب، وتنطوي عليه الضمائر، إنما الدين هو المنعقد بالقلب. وذهب قوم إلى أنه منسوخ، وقالوا: هذه الآية نزلت قبل الأمر بالقتال، فعلى قولهم، يكون منسوخاً بآية السيف، وهذا مذهب الضحاك، والسدي، وابن زيد، والفيث هاهنا: أريد به الإسلام. والرشد: الحق. والغى: الباطل، وقيل: هو الإيمان والكفر. فأما الطاغوت؛ فهو اسم مأخوذ من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، قال ابن قتيبة: الطاغوت: واحد، وجمع، ومذكر، ومؤنث، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَفْكُوتُ﴾ وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَفْكُوتُ أَنْ يَمْدُودَهَا﴾ [الزمر: ١٧] والمراد بالطاغوت هاهنا خمسة أقوال: أحدها: أنه الشيطان، قاله عمر، وابن عباس، ومجاهد، والشعبي، والسدي، ومقاتل في آخرين. والثاني: أنه الكاهن، قاله سعيد بن جبير، وأبو العالية. والثالث: أنه الساحر، قاله محمد بن سيرين. والرابع: أنه الأصنام، قاله البيهقي، والزجاج. والخامس: أنه مردة أهل الكتاب، ذكره الزجاج أيضاً.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ هذا مثل للإيمان، شبه التمسك به بالتمسك بالعروة الوثيقة. وقال الزجاج: معنى الكلام: فقد عقد لنفسه عقداً وثيقاً. والانفصام: كسر الشيء من غير إبانة.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ أَهْمُ الظُّلُمَاتِ يَخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: متولي أمورهم، يهديهم، وينصرهم، ويعينهم. والظلمات: الضلالة. والنور: الهدى. والطاغوت: الشياطين، هذا قول ابن عباس، وعكرمة في آخرين. وقال مقاتل: الذين كفروا: هم

(١) أخرجه أبو داود والنسائي والبيهقي في «السنن» وابن حبان وابن أبي حاتم، والضياف في «المختارة» عن ابن عباس، ولفظه عند أبي داود: عن ابن عباس قال: كانت المرأة تكون مقلاتاً، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهودّه، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأذن الله ﷻ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾. والمقلات: المرأة التي لا يعيش لها ولد.

(٢) ورجعه ابن جرير الطبري في «تفسيره».

اليهود، والطاغوت: كعب بن الأشرف. قال الزجاج: والطاغوت هاهنا: واحد في معنى جماعة، وهذا جائز في اللغة إذا كان في الكلام دليل على الجماعة. قال الشاعر:

بها جيف الحسرى فأما عظامها

فبيض وأما جلدها فصليب^(١)

أراد جلودها. فإن قيل: متى كان المؤمنون في ظلمة؟ ومتى كان الكفار في نور؟ فعنه ثلاثة أجوبة. أحدها: أن عصمة الله للمؤمنين عن مواجهة الضلال، إخراج لهم من ظلام الكفر، وتزيين قرناء الكفار لهم الباطل الذي يحددون به عن الهدى إخراج لهم من نور الهدى، وإخراجهم من ظلمة هاهنا، وقد يقال للممتنع من الشيء: خرج منه، وإن لم يكن دخل فيه. قال تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٧]. وقال: ﴿وَيُنَكِّرُ مَنْ رَزَّ إِلَهُ أَتَى الْكُفْرَ﴾ [النحل: ٧٠]، وقد سبقت شواهد هذا في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأَمْوَالُ﴾ [البقرة: ٢١٠] والثاني: أن إيمان أهل الكتاب بالنبي قبل أن يظهر نور لهم، وكفرهم به بعد أن ظهر، خروج إلى الظلمات. والثالث: أنه لما ظهرت معجزات رسول الله ﷺ كان المخالف له خارجاً من نور قد علمه، والموافق له خارجاً من ظلمات الجهل إلى نور العلم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُؤْتِي قَالَ أَنَا أُخِي - وَأُيُوتِي قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ﴾ [٢٢٥]

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ قد سبق معنى «ألم تر». وحاج: بمعنى خاصم، وهو نمرود في قول الجماعة. قال ابن عباس: ملك الأرض شرقها وغربها؛ مؤمنان، وكافران؛ فالمؤمنان سليمان بن داود، وذو القرنين، والكافران: نمرود، ويختصر. قال ابن قتيبة: معنى الآية: حاجَّ إبراهيم، لأن الله آتاه الملك، فأعجب بنفسه [وملكه].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُؤْتِي﴾ قال بعضهم: هذا جواب سؤال سابق غير مذكور، تقديره: أنه قال له: من ربك؟ فقال: ربي الذي يحيي ويميت. قال نمرود: أنا أحيي وأميت. قال ابن عباس: يقول: أترك من شئت، وأقتل من شئت. فإن قيل: لم انتقل إبراهيم إلى حجة أخرى، وعدل عن نصرته الأولى؟ فالجواب: أن إبراهيم رأى من فساد معارضته أمراً يدل على ضعف فهمه، فإنه عارض اللفظ بمثله، ونسي اختلاف الفعلين، فانتقل إلى حجة أخرى، قصداً لقطع المحاج، لا عجزاً عن نصرته الأولى.

قوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي: انقطعت حجته، فتحير. وقرأ أبو رزين العقيلي، وابن السميع: «فَبُهِتَ»، بفتح الباء والهاء، وقرأ أبو الجوزاء، ويحيى بن يعمر، وأبو حية: «فَبُهِتَ»، بفتح الباء، وضم الهاء، قال الكسائي: ومن العرب من يقول: بهت، وبُهِت، بكسر الهاء وضمها. «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ» يعني: الكافرين. قال مقاتل: لا يهديهم إلى الحجة، وعنى بذلك نمرود.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَدَّ مَوَاقِفَهَا فَأَمَّا اللَّهُ فَمَآ تَاءَ اللَّهُ فَمَا تَاءَ عَامِرٌ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَلَئِمْتُ قَالَ لَيْسَتْ يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَيْسَتْ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَخْلَعَنَّهُ مِنْكَ لِلْكَارِثِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِطَارِ كَيْفَ تُنْشِئُهَا ثُمَّ تَكْسُوهُمَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمْتُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٢٢٦]

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ﴾ قال الزجاج: هذا معطوف على معنى الكلام الذي قبله، معناه: أرايت كالذي حاج إبراهيم، أو كالذي مر على قرية؟ وفي المراد بالقرية قولان. أحدهما: أنها بيت المقدس لما خربه بختنصر، قاله وهب، وقتادة، والربيع بن أنس. والثاني: أنها التي خرج منها الألوف حذر الموت، قاله ابن زيد: وفي الذي مر عليها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه عزيز، قاله علي بن أبي طالب، وأبو العالية، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وناجية بن كعب، وقتادة، والضحاك، والسدي، ومقاتل. والثاني: أنه أرمياء، قاله وهب، ومجاهد، وعبد الله بن

(١) البيت لعظمة بن عبدة بن النعمان بن قيس، من قصيدة مفضلية جيدة قالها يمدح الحارث بن جبلة ابن أبي شمر الغساني. الحسرى: الإبل المعية يتركها أصحابها فتموت. الصليب: الجلد اليابس. وقوله: عظامها فبيض؛ كنى بذلك عن استخراج ما فيها من الدوك. فصليب يريد: وأما جلودها فذوات صليب، وهو الصديد يسيل من الموتى، والأصل فيه صليب العظام، وهو ودكها.

عبيد بن عمير، والثالث: أنه رجل كافر شك في البعث، نقل عن مجاهد أيضاً. والخواية: الخالية، قاله الزجاج. وقال ابن قتيبة: الخاوية: الخراب، والعروش: السقوف، وأصل ذلك أن تسقط السقوف، ثم تسقط الشيطان عليها ﴿قَالَ أَنَّى يُعَيِّهِ هَٰذَا اللَّهُ﴾ أي: كيف يحييها. فإن قلنا: إن هذا الرجل نبي، فهو كلام من يؤثر أن يرى كيفية الإعادة، أو يستهولها، فيعظم قدرة الله، وإن قلنا: إنه كان رجلاً كافراً، فهو كلام شاك، والأول أصح.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا تِلْكَ الْأُمَّةُ الَّتِي كَانَتْ يُدْعَوْنَ إِلَيْهَا لْيَسْمَعُوا فَتَلَّهَا لُلَّهِ لُغْمٌ﴾

الإشارة إلى قصته

روى ناجية بن كعب عن علي رضي الله عنه قال: خرج عزيز نبي الله من مدينته، وهو رجل شاب، فمر على قرية، وهي خاوية على عروشها، فقال: أنى يحيي هذه الله بعد موتها، فأما تِلْكَ الْأُمَّةُ الَّتِي كَانَتْ يُدْعَوْنَ إِلَيْهَا لْيَسْمَعُوا فَتَلَّهَا لُلَّهِ لُغْمٌ، فأول ما خلق الله منه عيناه، فجعل ينظر إلى عظامه ينضم بعضها إلى بعض، ثم كسيت لحماً، ونفخ فيها الروح. قال الحسن: قبضه الله أول النهار، وبعثه الله آخر النهار بعد مائة سنة. قال مقاتل: ونودي من السماء: كم لبثت؟ قال قتادة: فقال: لبثت يوماً، ثم نظر فرأى بقية من الشمس فقال: أو بعض يوم. فهذا يدل على أنه عزيز. وقال وهب بن منبه: أقام أرميا بأرض مصر فأوحى الله إليه أن الحق بأرض إيلياء^(١)، فركب حماره، وأخذ معه سلة من عنب وتين، ومعه سقاء جديد فيه ماء، فلما بدا له شخص بيت المقدس وما حوله من القرى [والمساجد] نظر إلى خراب لا يوصف [فلما رأى هدم بيت المقدس كالجبل العظيم] قال: أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟ ثم نزل منها منزلاً، وربط حماره، [وعلق سقاه] فألقى الله عليه النوم، ونزع روحه مئة عام، فلما مر منها سبعون عاماً، أرسل الله ملكاً إلى ملك من ملوك فارس، عظيم، فقال: إن الله يأمرك أن تنفر بقومك، فتعمر بيت المقدس وإيلياء وأرضها حتى تعود أعمر ما كانت، [فقال الملك: أنظرني ثلاثة أيام حتى أتأهب لهذا العمل، ولما يصلحه من أداة العمل، فأنظره ثلاثة أيام] فانتدب ثلاثمائة قهرمان، ودفع إلى كل قهرمان ألف عامل، وما يصلحه من أداة العمل [فسار إليها قهارته ومعهم ثلاثمائة ألف عامل] فلما وقعوا في العمل، رد الله روح الحياة في عيني أرميا، وآخر جسده ميت، فنظر إليها تعمر، فلما تمت بعد ثلاثين سنة، رد الله إليه الروح، فنظر إلى طعامه وشرابه لم يتسنه [ونظر إلى حماره واقفاً كهيئته يوم ربطه لم يطعم ولم يشرب، ونظر إلى الرمة في عنق الحمار لم تتغير جديدة، وقد أتى على ذلك ريح مائة عام، وبرد مائة عام، وحر مائة عام، لم تتغير ولم تنتقص شيئاً، وقد نحل جسم أرميا من البلى، فأثبت الله له لحماً جديداً، ونشز عظامه وهو ينظر، فقال له الله: انظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير^(٢). وزعم مقاتل أن هذه القصة كانت بعد رفع عيسى عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم «لبثت» و«لبثتم» في كل القرآن بإظهار التاء، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي بالإدغام [لبثت]^(٣)، قال أبو علي الفارسي: من بين «لبثت»، فلتباين المخرجين، وذلك أن الطاء والذال والتاء من حيز، والطاء والذال من حيز، فلما تباين المخرجان، واختلفت الحيزان، لم يدغم. ومن أدغمها أجراها مجرى المثليين، لاتفاق الحرفين في أنهما من طرف اللسان، وأصول الثنايا، واتفاقهما في الهمس. ورأى الذي بينهما من الاختلاف يسيراً، فأجراها مجرى المثليين^(٤). فأما طعامه وشرابه، فقال وهب: كان معه مكتل فيه عنب وتين، وقلة فيها ماء. وقال السدي: كان معه تين وعنب، وشرابه من العصير، لم يحمض التين والعنب، ولم يختمر العصير.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: (يتسنه) و(اقتده) و(ما أغنى عني ماليه) و(سلطانيه) و(ماهيه) بإثبات الهاء في الوصل. وكان حمزة يحذفهن في الوصل، ووافقه الكسائي في حذف

(١) أي: بيت المقدس.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة من الطبري.

(٤) قال النحاس: والإظهار أحسن لتباين مخرج التاء من مخرج الناء.

(٣) أي: بإدغام التاء في الناء.

موضعين (يتسنه) و(اقتده) وكلهم يقف على الهاء. ولم يختلفوا في (كتابه) و(حسبه) أنها بالهاء وصلاً ووقفاً. فأما معنى: (لم يتسنه)، فقال ابن عباس، والحسن، وقتادة في آخرين: لم يتغير. وقال ابن قتيبة: لم يتغير بمر السنين عليه، واللفظ مأخوذ من السنه، يقال: سانهت النخلة: إذا حملت عاماً، وحالت عاماً.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَىٰ جِوَارِكِ﴾ قال مقاتل: انظر إليه، وقد ابيضت عظامه، وتفرقت أوصاله، فأعلاه الله. قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً﴾ اللام صلة لفعل مضمر تقديره: فعلنا بك ذلك لنريك قدرتنا، ولنجعلك آية للناس، أي: علماً على قدرتنا، فأضمر الفعل لبيان معناه. قال ابن عباس: مات وهو ابن أربعين سنة، وابنه ابن عشرين سنة، ثم بعث وهو ابن أربعين، وابنه ابن عشرين ومائة، ثم أقبل حتى أتى قومه في بيت المقدس، فقال لهم: أنا عزيز، فقالوا: حدثنا آباءنا أن عزيزاً مات بأرض بابل، فقال لهم: أنا هو أرسلني الله إليكم أجعد لكم توراتكم، وكانت قد ذهبت، وليس منهم أحد يقرؤها، فأملأها عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَىٰ أَلْفِطَامِ﴾ قيل: أراد عظام نفسه، وقيل: عظام حمارة، وقيل: هما جميعاً. قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تُنْشِرُهَا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو (تنشرها) بضم النون الأولى، وكسر الشين وراء مضمومة، ومعناه: نحيها، يقال: أنشر الله الميت، فنشروهم. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: تنشرها، بضم النون مع الزاي، وهو من النشر الذي هو الارتفاع. والمعنى: ترفع بعضها إلى بعض للأحياء. وقرأ الأعمش: تنشرها، بفتح النون، ورفع الشين مع الزاي، وقرأ الحسن، وأبان عن عاصم: تنشرها، بفتح النون مع الراء، كأنه من النشر عن الطي، فكان الموت طواها، والإحياء نشرها.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ أي: بان له إحياء الموتى ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «أعلم» مقطوعة الألف، مضمومة الميم، والمعنى: قد علمت ما كنت أعلمه غيباً مشاهدة. وقرأ حمزة والكسائي بوصل الألف، وسكون الميم على معنى الأمر، والابتداء على قراءتهما بكسر الهمزة، وظاهر الكلام أنه أمر من الله له، وقال أبو علي: نزل نفسه منزلة غيره، فأمرها وخاطبها. وقرأ الجعفي عن أبي بكر، قال: «أعلم» بكسر اللام على معنى الأمر بإعلام الغير.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ نَادٍ مُّذَكِّرٍ وَلَٰكِنْ يَلْمِزِينَ قُلُوبٍ﴾ قَالَ فَقَدْ أَرَيْتَهُ مِنَ الظُّلُمِ قَمَرُهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعَاهُنَّ فَآتَيْنَكَ سَمِيًّا وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ في سبب سؤاله هذا أربعة أقوال. أحدها: أنه رأى ميتة تمزقها الهوام والسباع، فسأل هذا السؤال، وهذا قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني، وابن جريج، ومقاتل. وما الذي كانت هذه الميتة؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: كان رجلاً ميتاً، قاله ابن عباس. والثاني: كان جيفة حمار، قاله ابن جريج، ومقاتل. والثالث: كان حوتاً ميتاً، قاله ابن زيد. والثاني: أنه لما بشر باتخاذ الله له خليلاً، سأل هذا السؤال ليعلم صحة البشارة، ذكره السدي عن ابن مسعود، وابن عباس. وروي عن سعيد بن جبيرة أنه لما بشر بذلك، قال: ما علامة ذلك؟ قال: أن يجيب الله دعاءك، ويحيي الموتى بسؤالك، فسأل هذا السؤال. والثالث: أنه سأل ذلك ليزيل عوارض الوسواس، وهو قول عطاء بن أبي رباح. والرابع: أنه لما نازعه نمروذ في إحياء الموتى، سأل ذلك ليرى ما أخبر به عن الله، وهذا قول محمد بن إسحاق.

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ نَادٍ مُّذَكِّرٍ﴾ أي: أولست قد آمنت أنني أحيي الموتى؟ وقال ابن جبيرة: ألم توفن بالخلة؟ قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَلَٰكِنْ لَّيَطْمِئِنَّ قُلُوبُكَ﴾ «اللام» متعلقة بفعل مضمر، تقديره: ولكن سألتك ليطمئن، أو أرني ليطمئن قلبي، ثم في المعنى أربعة أقوال: أحدها: لأعلم أنك تحييني إذا دعوتك، قاله ابن عباس. والثاني: ليزداد قلبي يقيناً، قاله سعيد بن جبيرة. وقال الحسن: كان إبراهيم موقناً، ولكن ليس الخبر كالمعاينة. والثالث: ليطمئن قلبي بالخلة، روي عن ابن جبيرة أيضاً. والرابع: أنه كان قلبه متعلقاً برؤية إحياء الموتى، فأراد: ليطمئن قلبه بالنظر، قاله ابن قتيبة. وقال غيره: كانت نفسه تائقة إلى رؤية ذلك، وطالب الشيء قلق إلى أن يظفر بطلبته، يدل على أنه لم يسأل لشك، أنه قال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ وما قال: هل تحيي الموتى.

قوله تعالى: ﴿فَعُدُّ أَرْبَعَةً مِّنَ النَّفَرِ﴾ في الذي أخذ سبعة أقوال: أحدها: أنها الحمامة، والديك، والكركي، والطاووس، رواه عبد الله بن هبيرة عن ابن عباس. والثاني: أنها الطاووس، والديك، والدجاجة السندية، والأوزة، رواه الضحاك عن ابن عباس. وفي لفظ آخر، رواه الضحاك مكان الدجاجة السندية الرأل، وهو فرخ النعام. والثالث: أنها الشعانين، وكانت قرباهم يومئذ، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: أنها الطاووس، والنسر، والغراب، والديك، نقل عن ابن عباس أيضاً، والخامس: أنها الديك، والطاووس والغراب، والحمام، قاله عكرمة، ومجاهد، وعطاء، وابن جريج، وابن زيد. والسادس: أنها ديك، وغراب، وبط، وطاووس، رواه ليث عن مجاهد. والسابع: أنها الديك، والبط، والغراب، والحمامة، قاله مقاتل. وقال عطاء الخراساني: أوحى الله إليه أن خذ بطة وغراباً أسود وحمامة بيضاء، وديكاً أحمر.

قوله تعالى: ﴿فَمَرَّزْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ قرأ الجمهور بضم الصاد، والمعنى: أملهن إليك، يقال: صرت الشيء فانصار، أي: أملتته فمال، وأنشدوا:

الله يعلم أنا في تلفتنا
يوم الفراق إلى جيراننا صور
فمعنى الكلام: أجمعهن إليك ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْأً﴾ فيه إضمار قطعهن. قال ابن قتيبة: أضمر «قطعهن» واكتفى بقوله: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْأً﴾ عن قوله «قطعهن»، لأنه يدل عليه، وهذا كما تقول: خذ هذا الثوب، واجعل على كل رمح عندك منه علماً. يريد: قطعه، وافعل ذلك. وقرأ أبو جعفر، وحمزة، وخلف والمفضل، عن عاصم «فَصَرَّهْزُ إِلَيْكَ» بكسر الصاد. قال اليزيدي: هما واحد، وقال ابن قتيبة: الكسر والضم لغتان. قال الفراء: أكثر العرب على ضم الصاد، وحدثني الكسائي أنه سمع بعض بني سليم يقول: صيرته، فأنا أصيره، وروي عن ابن عباس، ووهب، وأبي مالك، وأبي الأسود الدؤلي، والسدي، أن معنى المكسورة الصاد: قطعهن. وروي عن أبي عبيدة أنه قال: معناه بالضم: أجمعهن، وبالكسر: قطعهن.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْأً﴾ قال الزجاج: معناه: اجعل على كل جبل من كل واحد منهن جزءاً. وروى عوف عن الحسن قال: ادبحهن وتنهن، ثم قطعهن أعضاء، ثم خلط بينهن جميعاً، ثم جزئها أربعة أجزاء، وضع على كل جبل جزءاً. ثم تنحى عنهن، فداعهن، فجعل يدعو كل عضو إلى صاحبه حتى استوين كما كن، ثم أتيتهن يسمين. وقال قتادة: أمسك رؤوسها بيده، فجعل العظم يذهب إلى العظم، والريشة إلى الريشة، والبضعة إلى البضعة، وهو يرى ذلك، ثم داعهن، فاقبلن على أرجلهن يلقي لكل طائر رأسه. وفي عدد الجبال التي قسمن عليها قولان. أحدهما: أنه قسمهن على أربعة أجبل، قاله ابن عباس، والحسن، وقاتدة. وروي عن ابن عباس قال: جعلهن أربعة أجزاء في أربع الأرض، كأنه يعني جهات الإنسان الأربع. والثاني: أنه قسمهن سبعة أجزاء على سبعة أجبل، قاله ابن جريج، والسدي.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ قال ابن قتيبة: يقال: عدواً، ويقال: مشياً على أرجلهن، ولا يقال للطير إذا طار: سعى ﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: منيع لا يغلب ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يدبر، ويزعم مقاتل أن هذه القصة جرت لإبراهيم بالشام قبل أن يكون له ولد، وقبل نزول الصحف عليه، وهو ابن خمس وسبعين سنة. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَكْبَتْتَ سِتًّا سَبَاكِلَ فِي كُلِّ سُكْلَةٍ وَاقَّةٍ حَبًّا وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حدثنا عن ثعلب أنه قال: إنما المثل - والله أعلم - للنفقة، لا للرجال، ولكن العرب إذا دل المعنى على ما يريدون، حذفوا، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْوَجَلَ﴾

(١) لم يعرف قائله، وهو في «اللسان» و«الخرائفة» و«شرح شواهد المعنى» وبعد البيت:

وأنسني حوثماً بيثني الهوى بصري
من حوثماً سلكوا أدنو فأنظور

وهو من «الشواهد المستغنية».

فأضمر «الحب»، لأن المعنى معلوم، فكذلك هاهنا. أراد: مثل نفقة الذين يتفقون أموالهم، ونحو هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْتَاعُونَ بَيْعًا يَآتِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٠] يريد: بخل الباخلين، فحذف البخل. وفي المراد به سبيل الله، قولان. أحدهما: أنه الجهاد. والثاني: أنه جميع أبواب البر. قال أبو سليمان الدمشقي: والآية مردودة على قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا بَيْعًا رَزَقْتَهُمْ﴾. وقد أعلم الله ﷻ بضرب هذا المثل، أن الحسنة في النفقة في سبيله تضاعف بسبعمائة ضعف^(١).

وقال الشعبي: نفقة الرجل على نفسه وأهل بيته تضاعف سبعمائة ضعف. قال ابن زيد: «وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ» أي: يزيد على السبعمائة.

﴿الَّذِينَ يُتَّفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلَا أَدَّى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُتَّفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال ابن السائب ومقاتل: نزلت في عثمان بن عفان في نفقته في غزوة تبوك، وشرائه بئر رومة، ركية بالمدينة، تصدق بها على المسلمين، وفي عبد الرحمن بن عوف حين تصدق بأربعة آلاف درهم، وكانت نصف ماله^(٢). وأما المن ففيه قولان. أحدهما: أنه المن على الفقير، ومثل أن يقول: قد أحسنت إليك ونعشتك، وهو قول الجمهور^(٣). والثاني: أنه المن على الله بالصدقة، روي عن ابن عباس. فإن قيل: كيف مدحهم بترك المن، ووصف نفسه بالمتان؟ فالجواب: أنه يقال: من فلان على فلان: إذا أنعم عليه، فهذا الممدوح، قال الشاعر:

فمُنِّي علينا بالسلام فإنما
أراد بالمن الإنعام. وأما الوجه المذموم، فهو أن يقال: من فلان على فلان: إذا استعظم ما أعطاه، وافتخر بذلك، قال الشاعر في ذلك:

أنلت قليلاً ثم أسرعته
فنيك ممنون كذاك قليل
ذكر ذلك أبو بكر الأنباري. وفي الأذى قولان. أحدهما: أنه مواجهة الفقير بما يؤذيه، مثل أن يقول له: أنت أبدأ فقير، وقد بليت بك، وأراحني الله منك. والثاني: أن يخبر بإحسانه إلى الفقير، من يكره الفقير إطلاعه على ذلك، وكلا القولين يؤذي الفقير وليس من صفة المخلصين في الصدقة. ولقد حدثنا عن حسان بن أبي سنان أنه كان يشتري أهل بيت الرجل وعياله، ثم يعقهم جميعاً، ولا يتعرف إليهم، ولا يخبرهم من هو.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾
قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: قول جميل للفقير، مثل أن يقول له: يوسع الله عليك، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: يستر على

(١) أخرج مسلم عن ابن مسعود قال: جاء رجل بناقطة مخطومة، فقال: يا رسول الله هذه في سبيل الله، فقال ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة». وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف». قال ﷺ: «إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشهوته من أجلي. للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخولف فيه أطيب عند الله من ريح المسك».

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» عن الكلبي، وأخرج ابن المنذر عن ابن المسيب قال: الآية نزلت في عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان في نفقتهما في جيش العسرة. وأخرج البخاري تعليقاً عن أبي عبد الرحمن أن عثمان ﷺ حين حوصر أشرف عليهم، وقال: أنشدكم الله، ولا أنشد إلا أصحاب النبي ﷺ، أستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «من حفر رومة فله الجنة فحفرتها؟ أستم تعلمون أنه قال: «من جهز جيش العسرة فله الجنة فجهزه؟ قال: فصدقه بما قال. قال الحافظ ابن حجر: وقد وصله الدارقطني والإسماعيلي وغيرهما من طريق القاسم بن محمد المروزي عن عبدان بن عامر. ورواه مطولاً الترمذي والنسائي والدارقطني وقال الترمذي: حديث حسن. وذكر في «الإصابة» أنه قد جاء من طرق كثيرة شهيرة صحيحة عن عثمان لما أن حصروه أنشد الصحابة في أشياء... وعن عبد الرحمن بن مسعود قال: جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار في كفه حين جهز جيش العسرة، فشرها في حجره، فأرأى النبي ﷺ يقلبها في حجره، ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم» مرتين، رواه أحمد والترمذي وحسنه.

(٣) روى مسلم عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يزكهم، ولهم عذاب أليم: المتان بما أعطى، والمسيل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب».

المسلم خلته وفاقته، وقيل: أراد بالمغفرة التجاوز عن السائل إن استطال على المسؤول وقت رده ﴿خَيْرٌ مِنْ مَدَقَرٍ يَتَّبِعَهَا آذَى﴾ وقد سبق بيانه.

﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالَّذِينَ كَانُوا مَالَهُمْ رِقَاةَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَنْ لَهُ كَنْتَلٌ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَاتٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ مَسْكًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ﴾ أي: لا تبطلوا ثوابها، كما تبطل ثواب صدقة المرابي الذي لا يؤمن بالله، وهو المنافق ﴿فَمَنْ لَهُ كَنْتَلٌ﴾ أي: مثل نفقته، كمثل صفوان، قال ابن قتيبة: الصفوان: الحجر، والوابل: أشد المطر، والصلد: الأملس. وقال الزجاج: الصفوان: الحجر الأملس، وكذلك الصفا. وقال ثعلب: الصلد: النقي. وروي عن ابن عباس، وقتادة ﴿تَرَكَهُ مَسْكًا﴾ قالوا: ليس عليه شيء. وهذا مثل ضربه الله تعالى للمرابي بنفقته، لا يقدر يوم القيامة على ثواب شيء مما أنفق.

﴿وَمَنْ لَمْ يَمْسَسْ وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَمْسَسْ وَابِلٌ فَطُلَّ﴾ أي: طلباً لرضاه. وفي معنى التثبيت قولان. أحدهما: أنه الإنفاق على يقين وتصديق، وهذا قول الشعبي، وقتادة، والسدي، في آخرين والثاني: أنه التثبيت لارتداد محل الإنفاق، فهم ينظرون أين يضعونها، وهذا قول الحسن، ومجاهد، وأبي صالح.

قوله تعالى: ﴿كَنْتَلٌ جُكَمٌ﴾ الجنة: البستان. وقرأ مجاهد، وعاصم الجحدري «حبة» بالحاء. والربوة: ما ارتفع. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي «بربوة» بضم الراء. وقرأ عاصم، وابن عامر بفتح الراء، وقرأ الحسن والأعمش بكسر الراء، وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، «برباوة» بزيادة ألف، وفتح الراء، وقرأ أبي بن كعب، وعاصم الجحدري كذلك، إلا أنهما ضمما الراء، وكذلك خلافهم في «المؤمنين». قال الزجاج: يقال: ربوة وربوة وربوة وربوة. والموضع المرتفع من الأرض إذا كان له ما يرويه من الماء، فهو أكثر ريعاً من السفلى. وقال ابن قتيبة: الربوة الارتفاع، وكل شيء ارتفع وزاد، فقد ربا، ومنه الربا في البيع.

قوله تعالى: ﴿فَقَاتَتْ أَكْلَهَا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع: أكلها، والأكل بسكون الكاف حيث وقع، ووافقهما أبو عمرو، فيما أضيف إلى مؤنث، مثل: ﴿أَكْلَهَا دَابَّةٌ﴾ فأما ما أضيف إلى مذكر مثل: أكله؟ أو كان غير مضاف إلى مكنى مثل: ﴿أَكْلِي حَمَلٌ﴾ فنقله أبو عمرو. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي جميع ذلك مثقلاً. وأكلها، أي: ثمرها. ﴿يَضَعُوتٌ﴾ أي: مثلين. فأما «الطل» فقال ابن قتيبة: هو أضعف المطر، وقال الزجاج: هو المطر الدائم، الصغار القطر الذي لا تكاد تسيل منه الماعاب. قال ثعلب: وهذا لفظ مستقبل وهو لأمر ماض، فمعناه: فإن لم يكن أصابها وابل فطل^(١). ومعنى هذا المثل: أن صاحب هذه الجنة لا يخيب، فإنها إن أصابها الطل خسنت، وإن أصابها الرابل أضعفت، فكذاك نفقة المؤمن المخلص. والبصير من أسماء الله تعالى، معناه: المبصر. قال الخطابي: وهو فعيل بمعنى مفعول، كقولهم: أليم بمعنى مؤلم.

﴿أَيُّدٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِمَّنْ تَنْجِيهِ وَأَعْنَابٌ تَنْبَرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ مُتَعَلِّقَةٌ فَأَمَّا صَابَهُ فَأَصْبَحَ تَارَةً فَتَحَفَّتْ جَنْدَاكَ يَتَّبِعُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لِمَا كُنْتُمْ تَنْفَعُونَ ﴿٢٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَيُّدٌ أَحَدُكُمْ﴾ هذه الآية متصلة بقوله تعالى: ﴿لَا يَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ﴾ ومعنى: «أيود» أيحب، وإنما ذكر النخيل والأعناب، لأنهما من أنفس ما يكون في البساتين، وخص ذلك بالكبير، لأنه قد يش من سعي الشباب في أكسابهم.

(١) قال الفراء: كيف قال قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَمْسَسْ وَابِلٌ فَطُلَّ﴾ وهذا الأمر قد مضى؟ قيل: أخضرت «كان» فصلح الكلام، ومثله أن تقول: قد اعتقت عيلين، فإن لم اعتق اثنين، فواحدًا بقيتهما، والمعنى: إلا أكن، لأنه ماض، فلا بد من إضمار «كان» لأن الكلام جزاء. ومنه قول الشاعر:
إذا ما انتسبنا لم تلدني لشيعة
ولم تسجدي من أن تغري بها بدًا
والبيت لزائد بن صمصمة الفقمي يعرض بزوجه، وكانت أمها سرية.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَرَوْهُ كُمْفًا﴾ أي: ضعاف، وإذا ضعفت الذرية كان أحنى عليهم، وأكثر إشفاقاً ﴿فَأَصَابَهَا﴾ يعني: الجنة ﴿إِعْصَارٌ﴾ أي ريح شديدة، تهب بشدة، فترفع إلى السماء تراباً، كأنه عمود.
قال الشاعر:

إِنْ كُنْتُ رِيحاً فَقَدْ لَاقَيْتُ إِعْصَاراً^(١)

أي: لايت أشد منك. فإن قيل: كيف جاز في الكلام أن يكون له جنة فأصابها، ولم يقل: فَيُصِيبُهَا؟ أفيجوز أن يقال: أتود أن تصيب مالا، فضاع، والمراد: فيضيق؟ فالجواب: أن ذلك جائز في «وددت»، لأن العرب تلقاها مرة بـ«أن»، ومرة بـ«لو»، فيقولون: وددت لو ذهبت عنا، ووددت أن تذهب عنا^(٢)، قاله الفراء، وتعلب.

فصل

وهذه الآية مثل ضربيه الله تعالى في الحسرة بسلب النعمة عند شدة الحاجة. وفيمن قصّد به ثلاثة أقوال: أحدها: أنه مثل الذي يختم له بالفساد في آخر عمره، قاله ابن عباس. والثاني: أنه مثل للمفرط في طاعة الله تعالى حتى يموت، قاله مجاهد. والثالث: أنه مثل للمرائي في الثقة، ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليه، قاله السدي.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ مَّا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْسَلْنَاكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَسَّمُوا الْيَتِيمَ بِهِ تُنْفِقُوا وَلَكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ مِنْهُ حِسَابٌ عَظِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ مَّا كَسَبْتُمْ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن الأنصار كانوا إذا جدّوا النخل، جاء كل رجل بشيء من ذلك فعلقه في المسجد، فيأكل منه فقراء المهاجرين، وكان أناس ممن لا يرغب في الخير يجيء أحدهم بالقنق في الحشف والشيص^(٣) فيعلقه، فنزلت هذه الآية. هذا قول البراء بن عازب^(٤). والثاني: أن النبي ﷺ أمر بزكاة الفطر، فجاء رجل بتمر رديء، فنزلت هذه الآية. هذا قول جابر بن عبد الله^(٥). وفي المراد بهذه الثقة قولان: أحدهما: أنها الصدقة المفروضة، قاله عبيدة السلماني في آخرين. والثاني: أنها التطوع. وفي المراد بالطيب هاهنا قولان: أحدهما: أنه الجيد الأنفس، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الحلال، قاله أبو معقل في آخرين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَسَّمُوا﴾ أي: لا تقصدوا. والتيسم في اللغة: القصد. قال ميمون بن قيس الأعشى:

تَيَسَّمْتُ قَيْساً وَكَمْ دُونَهُ
مِنَ الْأَرْضِ مِنْ مَهْمٍ ذِي شَرٍّ^(٦)

وفي الخبيث قولان: أحدهما: أنه الرديء، قاله الأکثرون، وسبب الآية يدل عليه. والثاني: أنه الحرام، قاله ابن زيد.

(١) قال أبو صيلة: الإعصار: ريح تهب شديدة فيما بين السماء والأرض. يضرب مثلاً للعدل بنفسه إذا صلي بمن هو أدنى منه وأشد.

(٢) وتما كلام الفراء في معاني القرآن: فلما صلحت بـ«لو» وبـ«إن» ومعناها جميعاً الاستقبال، استجازوا أن يردوا «فعل» بتأويل «لو» على «فعل» مع «أن» فلذلك قال: (فأصابها) وهي في مذهبه بمنزلة «لو» إذا ضارعت «إن» بمعنى الجزاء، فوضعت في مواضعها، وأجيب «إن» بجواب «لو» و«لو» بجواب «إن» فكانه قيل: أيود أحدكم لو كانت له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبير.

(٣) القنق: الكباسة، وهي العلق التام بشماريخه ورطبه، هو في التمر بمنزلة المنقود من العنب وجمعه: أقاء. الحشف: هو التمر ما لم ينو، فإذا بيس صلب وقصد، لا طعم له ولا لحاء ولا حلاوة، والشيص: رديء التمر.

(٤) روى ابن أبي حاتم، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ولفظه عند الترمذي «عن البراء» «وَلَا تَيَسَّمُوا الْيَتِيمَ بِهِ تُنْفِقُوا» قال: نزلت فيها معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته، وكان الرجل يأتي بالقنق والقنوين، فيعلقه بالمسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاء، أتى القنق، فضره بعضاً، فيسقط البسر والتمر، فيأكل. وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجل بالقنق، فيه الشيص والحشف، وبالقنق قد انكسر، فيعلقه، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ مَّا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْسَلْنَاكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَسَّمُوا الْيَتِيمَ بِهِ تُنْفِقُوا وَلَكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ مِنْهُ حِسَابٌ عَظِيمٌ﴾. قال: لو أن أحدكم أهدي إليه مثل ما أعطى، لم يأخذه إلا على إغماض أو حياء. قال: فكان بعد ذلك يأتي أحداً يصلح ما عنده.

(٥) روى الحاكم في «المستدرک» ٢٨٣/٢ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٦) «ديوانه» ص ١٩ وهو من قصيدة يملح بها قيس بن معدى كرب الكندي. ذي شرن: غليظ، والشرن: الغلط. يصف وهرة الطريق الذي يسلكه ليصل منه إلى مدحوه.

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا حَيَاةٌ لَّئِلَّا أَنَّ تَتَّخِذُوا فِيهَا﴾ قال ابن عباس: لو كان بعضكم يطلب من بعض حقاً له، ثم قضاه ذلك، ولم يأخذه إلى أن يرى أنه قد أغمض عن بعض حقه. وقال ابن قتيبة: أصل هذا أن يصرف المرء بصره عن الشيء، ويغمضه، فسمي الترخص إغماضاً. ومنه قول الناس للبتاع: أغمض، أي: لا تشخص، وكن كأنك لا تبصر. وقال غيره: لما كان الرجل إذا رأى ما يكره، أغمض عينيه، لئلا يرى جميع ما يكره؛ جعل التجاوز والمساهلة في كل شيء إغماضاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ﴾ قال الزجاج: لم يأمركم بالتصدق عن عوز، لكنه بلا أخباركم، فهو حميد على ذلك. يقال: قد غني زيد، يغني غنى مقصوفاً: إذا استغنى، وقد غني القوم: إذا نزلوا في مكان يغنيهم، والمكان الذي يتنزلون فيه مغنى، والغواني: النساء، قيل: إنما سمين بذلك، لأنهن غنين بجمالهن، وقيل: بأزواجهن. فأما «الحميد» فقال الخطابي: هو بمعنى المحمود، فعيل بمعنى مفعول.

﴿الَّذِينَ يَدْعُونَكَ إِلَى الْفَقْرِ وَالْفَقْرُ بِالْفَقْرِ﴾ قال الزجاج: يقال: وعدته أعده وعداً وعدة وموعداً وموعدة وموعوداً، ويقال: الفقر، والفقر. ومعنى الكلام: يحملكم على أن تؤدوا في الصدقات الرديء، يخوفكم الفقر بإعطاء الجيد. ومعنى: يبعدكم الفقر، أي: بالفقر، وحذفت الباء. قال الشاعر:

أمرتك الخيرَ فبافعل ما أمرت به فقد تركتك ذا مال وذا نسب
وفي الفحشاء قولان، أحدهما: البخل. والثاني: المعاصي. قال ابن عباس: والله يعدكم مغفرة لفحشائكم،
وفضلاً في الرزق.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾
قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ في المراد بهذه الحكمة أحد عشر قولاً: أحدها: أنها القرآن، قاله ابن مسعود، ومجاهد، والضحاك، ومقاتل في آخرين. والثاني: معرفة ناسخ القرآن، ومنسوخه، ومحكمه، ومتشابهه، ومقدمه، ومؤخره، ونحو ذلك، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: النبوة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: الفهم في القرآن، قاله أبو العالية، وقتادة، وإبراهيم. والخامس: العلم والفقه، رواه ليث عن مجاهد. والسادس: الإصابة في القول، رواه ابن أبي نجيع عن مجاهد. والسابع: الورع في دين الله، قاله الحسن. والثامن: الخشية لله، قاله الربيع بن أنس. والتاسع: العقل في الدين، قاله ابن زيد. والعاشر: الفهم، قاله شريك. الحادي عشر: العلم والعمل، لا يسمى الرجل حكيماً إلا إذا جمعهما، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ قرأ يعقوب بكسر تاء «يؤت»، ووقف عليها بهاء. والمعنى: ومن يؤته الله الحكمة. وكذلك هي في قراءة ابن مسعود بهاء بعد التاء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ قال الزجاج: أي وما يتفكر فكراً يذكر به ما قص من آيات القرآن إلا ذؤو العقول.
قال ابن قتيبة: «أولو» بمعنى: ذؤو، وواحد «أولو» «ذؤو»، و«أولات»: «ذات».

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا﴾ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٧٧﴾
قوله تعالى: ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾ النذر: ما أوجبه الإنسان على نفسه، وقد يكون مطلقاً، ويكون معلقاً بشرط
﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا﴾ قال مجاهد: يُحصيه، وقال الزجاج: يجازي عليه. وفي المراد بالظالمين هاهنا، قولان: أحدهما:
أنهم المشركون، قاله مقاتل. والثاني: المتفقون باليمن والأذى والرياء، والمنذرون في المعصية، قاله أبو سليمان
الدمشقي. والأنصار: المانعون. فمعناه: ما لهم مانع يمنعهم من عذاب الله.

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَُا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوا الصَّدَاقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ قال ابن السائب: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾

قالوا: يا رسول الله، صدقة السر أفضل، أم العلانية؟ فنزلت هذه الآية. قال الزجاج، يقال: بدا الشيء يبدو: إذا ظهر، وأبديته إبداءً: إذا أظهرته، وبدا لي بدءاً: إذا تغير رأيي عما كان عليه.

قوله تعالى: ﴿فَتَنِمًا مِّنْ﴾ في «نعم» أربع لغات. «نَعِمَ» بفتح النون، وكسر العين، مثل: عِلِمَ. و«نَعِمَ» بكسرهما، و«نَعَمَ» بفتح النون، وتسكين العين، و«نَعَمَ» بكسر النون وتسكين العين. وأما قوله ﴿فَتَنِمًا مِّنْ﴾ فقرأ نافع في غير رواية «ورش»، وأبو عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر، والمفضل: «فَتَنِمًا»، بكسر النون، والعين ساكنة، وقرأ ابن كثير، وعاصم في رواية حفص، ونافع في رواية «ورش»، ويعقوب بكسر النون والعين. وقرأ ابن عامر، وحزمة والكسائي، وخلف: «فَتَنِمًا» بفتح النون، وكسر العين، وكلهم شددوا الميم. وكذلك خلافهم في سورة النساء. قال الزجاج: «ما» في تأويل الشيء، أي: فنعم الشيء هي. وقال أبو علي: نعم الشيء إبداءها. وقوله تعالى ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني الإخفاء. واتفق العلماء على أن إخفاء الصدقة النافلة أفضل من إظهارها^(١)، وفي الفريضة قولان: أحدهما: أن إظهارها أفضل، قاله ابن عباس في آخرين. واختاره القاضي أبو يعلى، وقال الزجاج: كان إخفاء الزكاة على عهد رسول الله ﷺ أحسن، فأما اليوم، فالناس يسيئون الظن، فإظهارها أحسن. والثاني: إخفاؤها أفضل، قاله الحسن، وقتادة ويزيد بن أبي حبيب. وقد حمل أرباب القول الأول الصدقات في الآية على الفريضة، وحملوا ﴿وَلَنْ تُغْنِيَهَا﴾ على النافلة، وهذا قول عجيب، وإنما فضلت صدقة السر لمعتنين: أحدهما: يرجع إلى المعطي، وهو بُعْدهُ عن الرياء، وقربه من الإخلاص، والإعراض عما تؤثر النفس من العلانية. والثاني: يرجع إلى المعطى، وهو دفع الذل عنه بإخفاء الحال، لأنه في العلانية يتكسر.

قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم (ونكفر عنكم) بالنون والرفع، والمعنى: ونحن نكفر عنكم، ويجوز أن يكون مستأنفاً، وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي: «ونكفر» بالنون وجزم الراء. قال أبو علي: وهذا على حمل الكلام على موضع قوله: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأن قوله: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في موضع جزم، ألا ترى أنه لو قال: وإن تخفوها يكون أعظم لأجركم لجزم، ومثله ﴿لَوْلَا تَرْفَعُونَ إِلَّا لَأَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَسَدَفُكُمْ وَأَكُنْ﴾ [المتفوقين: ١٠] حمل قوله: «وأكن»، على موضع «فأصدق». وقرأ ابن عامر: «ونكفر» بالياء والرفع، وكذلك حفص عن عاصم على الكناية عن الله ﷻ، وقرأ أبان عن عاصم، «ونكفر» بالياء المرفوعة، وفتح الفاء مع تسكين الراء.

قوله تعالى: ﴿مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ في «من» قولان: أحدهما: أنها زائدة. والثاني: أنها داخلية للتبعض. قال أبو سليمان الدمشقي: ووجه الحكمة في ذلك أن يكون العباد على خوف ووجل.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ مَذْهَبٌ وَلَا يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُغْفِرُ مَن خَيْرٌ لِّلْأَشْيِكُمْ وَمَا تُغْفِرُونَ إِلَّا آتِيَاكَ وَجَّوْهُ لِّلَّهِ وَمَا تُغْفِرُونَ مَن خَيْرٌ لِّلْأَشْيِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ مَذْهَبٌ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن المسلمين كرهوا أن يتصدقوا على أقربائهم من المشركين، فنزلت هذه الآية، هذا قول الجمهور. والثاني: أن النبي ﷺ، قال: «لا تصدقوا إلا على أهل دينكم» فنزلت هذه الآية، قاله سعيد بن جبيرة^(٢). والخير في الآية أريد به المال، قاله ابن عباس، ومقاتل: ومعنى: ﴿لِّلْأَشْيِكُمْ﴾، أي: فلکم ثوابه.

(١) روى الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي، من حديث عتبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «الجار بالقرآن كالجار بالصدقة، والمسر بالقرآن كالمر بالصدقة» وإسناده صحيح. وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه، وتفرقا عليه، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعه امرأة فأتى منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

(٢) روى الطبري بهذا اللفظ عن سعيد بن جبيرة. وروى النسائي. والحاكم، وابن أبي حاتم، وابن المنذر عن ابن عباس قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأسبابهم من المشركين، فسألوا، فرخص لهم، فنزلت هذه الآية. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. والرضخ: العطية القليلة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا أَنْفَكَاةً وَيَسِّرَ اللَّهُ لَكَ ذَٰلِكَ﴾ قال الزجاج: هذا خاص للمؤمنين، أعلمهم الله أنه قد علم أن مُرَادَهُم ما عنده، وإذا أعلمهم بصحة قصدهم، فقد أعلمهم بالجزاء عليه.

قوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْتُونَ أَجْرَهُ﴾ ومعنى الآية: ليس عليك أن يهتلوا، فتمنعهم الصدقة ليدخلوا في الإسلام، فإن تصدقتهم عليهم أثبتهم. والآية محمولة على صدقة التطوع، إذ لا يجوز أن يعطى الكافر من الصدقة المفروضة شيئاً.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَغْنُونَ مَتَرًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَمْرِقُهُمْ فِي سَبِيلِ النَّكَاسِ الْحَكَافُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لما حشهم على الصدقات والتنفقات، دلهم على خير من تُصَدَّقُ عليه. وقد تقدم تفسير الإحصار عند قوله: ﴿فَإِنْ أُخْبِرْتُمْ﴾ [البقرة: ١١] وفي المراد: بـ ﴿الَّذِينَ أُحْصُوا﴾ أربعة أقوال: أحدها: أنهم أهل الصفة حبسوا أنفسهم على طاعة الله، ولم يكن لهم شيء، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أنهم فقراء المهاجرين، قاله مجاهد. والثالث: أنهم قوم حبسوا أنفسهم على الغزو، فلا يقدرون على الاكتساب، قاله قتادة. والرابع: أنهم قوم أصابهم جراحات مع النبي ﷺ، فصاروا زمنى، قاله سعيد بن جبير، واختاره الكسائي، وقال: أحصروا من المرض، ولو أراد الحبس، لقال: حُصِرُوا، وإنما الإحصار من الخوف، أو المرض، والحصر: الحبس في غيرهما. وفي سبيل الله قولان: أحدهما: أنه الجهاد، والثاني: الطاعة. وفي الضرب في الأرض قولان: أحدهما: أنه الجهاد لم يمكنهم لفقرهم، نقل عن ابن عباس. والثاني: الكسب، قاله قتادة. وفي الذي منعهم من ذلك ثلاثة أقوال: أحدها: الفقر، قاله ابن عباس. والثاني: أمراضهم، قاله ابن جبير، وابن زيد. والثالث: التزامهم بالجهاد، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنَاءَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي «يحبسهم» و«يُخْسِبِينَ» بكسر الخين في جميع القرآن. وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحزمة، وأبو جعفر، بفتح السين في الكل. قال أبو علي: فتح السين أقيس، لأن الماضي إذا كان على «فَعِلَ»، نحو: حسب، كان المضارع على «يفعل»، مثل: فرق يفرق، وشرب يشرب، والكسر حسن لموضع السمع. قال ابن قتيبة: لم يرد الجهل الذي هو ضد العقل، إنما أراد الجهل الذي هو ضد الخبر، فكأنه قال: يحبسهم من لا يخبر أمرهم. والتعفف: ترك السؤال^(١)، يقال: عف عن الشيء وتعفف. والسيما: العلامة التي يعرف بها الشيء، وأصله من السمة، وفي المراد بسيماهم ثلاثة أقوال: أحدها: تجملهم، قاله ابن عباس. والثاني: خشوعهم، قاله مجاهد. والثالث: أثر الفقر عليهم، قاله السدي والربيع بن أنس، وهذا يدل على أن للسيما حكماً يتعلق بها، قال إمامنا أحمد في الميت يوجد في دار الحرب، ولا يعرف أمره: ينظر إلى سيماه، فإن كان عليه سيما الكفار من عدم الختان، حكم له بحكمهم، فلم يدفن في مقابر المسلمين، ولم يصل عليه، وإن كان عليه سيما المسلمين حكم له بحكمهم، وأما الإلحاف، فهو: الإلحاح، قال ابن قتيبة: يقال: ألحف في المسألة: إذا ألح، وقال الزجاج: معنى ألحف: شمل بالمسألة، ومنه اشتقاق اللحاف، لأنه يشمل الإنسان بالتغطية، فإن قيل: فهل كانوا يسألون غير ملحقين؟ فالجواب: أن لا، وإنما معنى الكلام: أنه لم يكن منهم سؤال، فيكون إلحاف.

قال الأعشى:

لا يغمز الساق من أين ولا وصب

ولا يعض على شرسوفه الصفر^(٢)

(١) جاء في «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرثان، ولا اللقمة ولا اللقمان، إنما المسكين الذي يتعفف، اقرؤوا إن شئتم، ويعني قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَغْنُونَ﴾ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْتُونَ أَجْرَهُ».

(٢) في «الأصمعيات» من أين ومن وصب، والبيت لأعشى باهلة، من قصيدة يرثي بها أخاه لأمه المنتشر بن وهب. الأين: الإعياء والتعب. والوصب: الوجع والمرض. والشرسوف: رأس الضلع مما يلي البطن. والصفر: يزعم العرب أنه دابة تعض الضلوع والشراسيف إذا جاع الإنسان. قال ابن السيد: وإنما أراد: لاصفر في جوفه، فيعض على شراسيفه. يصفه بشدة الخلقة، وصحة البنية.

قوله تعالى: ﴿وَيَرْبِي السَّكَنَاتِ﴾ قال ابن جبير: يضاعفها. والكفَّار: الذي يكثُر فعل ما يكفر به، والأثيم: المتماذي في ارتكاب الإثم المصر عليه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ في نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في بني عمرو بن عُمير بن عوف من ثقيف، وفي بني المغيرة من بني مخزوم، وكان بنو المغيرة يأخذون الربا من ثقيف، فلما وضع الله الربا، طالبت ثقيف بني المغيرة لما لهم عليهم، فنزلت هذه الآية، والتي بعدها، هذا قول ابن عباس^(١). والثاني: أنها نزلت في عثمان بن عفان، والعباس، كانا قد أسلفا في التمر، فلما حضر الجذاذ، قال صاحب التمر: إن أخذتما مالكما، لم يبق لي ولعالي ما يكفي، فهل لكما أن تأخذا النصف وأضعف لكما؟ فعلا، فلما حل الأجل، طلبا الزيادة، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فنهاهما، فنزلت هذه الآية، هذا قول عطاء وعكرمة. والثالث: أنها نزلت في العباس، وخالد بن الوليد، وكانا شريكين في الجاهلية، وكانا يسلفان في الربا، فجاء الإسلام، ولهما أموال عظيمة في الربا، فنزلت هذه الآية، فقال النبي ﷺ: «الآن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربا العباس»^(٢) هذا قول السدي. قال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك: إنما قال: «مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا» لأن كل ربا كان قد ترك، فلم يبق إلا ربا ثقيف. وقال قوم: الآية محمولة على من أرى قبل إسلامه، وقبض بعضه في كفره، ثم أسلم، فيجب عليه أن يترك ما بقي، ويعفى له عما مضى. فأما المراجعة بعد الإسلام، فمردودة فيما قبض، ويسقط ما بقي.

﴿وَإِن لَّمْ تَقْلُوا فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتَرُوا فَكَيْفَ يُدْرِكُ أَمْوَالَكُمْ لَا تَقْلُمُونَ وَلَا تَقْلُمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَقْلُوا فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر ﴿فَأَذْنُوا﴾ مقصورة، مفتوحة الذال. وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم: «فَأَذْنُوا» بمد الألف وكسر الذال. قال الزجاج: من قرأ: فأذنوا، بقصر الألف، وفتح الذال، فالمعنى: أيقنوا. ومن قرأ بمد الألف، وكسر الذال، فمعناه: أعلموا كل من لم يترك الربا أنه حرب. قال ابن عباس: يقال يوم القيامة لأكل الربا: خذ سلاحك للحرب^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْتَرُوا فَكَيْفَ يُدْرِكُ أَمْوَالَكُمْ لَا تَقْلُمُونَ وَلَا تَقْلُمُونَ﴾ أي: التي أقرضتموها، لا تظلمون، فتأخذون أكثر منها، ولا تظلمون فتقصون منها، والجمهور على فتح «تاء» تظلمون الأولى، وضم «تاء» تظلمون الثانية. وروى المفضل عن عاصم: ضم الأولى، وفتح الثانية.

﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ لَّكَ مِيسِرَةٌ وَإِنْ تَصَدَّقُوا خَيْرَ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ﴾ ذكر ابن السائب، ومقاتل أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾

(١) رواء الواحدي، من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس.
(٢) رواء الواحدي عن السدي بدون سند. وأخرج مسلم من حديث جابر في صفة حجة النبي ﷺ وفيه: فخطب الناس وقال: «إن معاكم وأموالكم حرام عليكم كحرمه يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعا في بني سعد، لقتله هذيل، وربا الجاهلية موضوعة، وأول ربا أضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله».

(٣) ثبت عن رسول الله ﷺ أحاديث في النهي عن الربا، والتشهير منه، وأنه من الكبائر، وأن عاقبة من يقع فيه وخيمة. من ذلك ما رواء البخاري ومسلم عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». وروى البخاري عن سمرة بن جندب ؓ قال: قال النبي ﷺ: «رأيت الليلة وجلين أتاني فلأخرجاني إلى أرض مقدسة، حتى أتيتا على نهر من دم فيه رجل قائم، وهلى شط النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد أن يخرج، رمى الرجل بحجر في فيه، فرده حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمي في فيه بحجر، فارجع كما كان. قلت: ما هذا الذي رأيته في النهر؟ قال: أكل الربا». وروى أحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن نخطلة غسيل الملائكة، قال: قال رسول الله ﷺ: «دعهم زينا يأكل الرجل وهو يعلم أشد من ستة وثلاثين زينة». وروى ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود ؓ، عن النبي ﷺ قال: «الربا ثلاثة ومبعوث يابأ» ورواه الحاكم وزاد فليسرهما مثل أن ينكح الرجل أمه، وإن أرى الربا عرض الرجل للمسلم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وروى الحاكم في «المستدرک» عن ابن عباس قال: نهى رسول الله ﷺ أن تشتري الثمرة حتى تطعم، وقال: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية، فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله». قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.

قال بنو عمرو بن عمير لبني المغيرة: هاتوا رؤوس أموالنا، وندع لكم الربا، فشكا بنو المغيرة العسرة، فنزلت هذه الآية، فأما العسرة، فهي الفقر، والضيقة. والجمهور على تسكين السين، وضمها أبو جعفر هاهنا وفي ﴿سَكَاةُ الْمُسْكِرِ﴾ وقرأ الجمهور بفتح سين «الميسرة»، وضمها نافع، وتابعه زيد عن يعقوب على ضم السين، إلا أنه زاد، فكسر الراء، وقلب التاء هاء، ووصلها بياء. قال الزجاج: ومعنى ﴿وَلَنْ كَانَتْ﴾: وإن وقع. والنظرة: التأخير، فأمرهم بتأخير رأس المال بعد إسقاط الربا إذا كان المطالب معسراً، وأعلمهم أن الصدقة عليه بذلك أفضل بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ والأكثرون على تشديد الصاد، وخففها عاصم مع تشديد الدال، وسكتها ابن أبي عبله مع ضم الدال فجعله من الصدق.

﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ تُجْمَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ تُجْمَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ قرأ أبو عمرو بفتح تاء «ترجعون» وضمها الباقون. قال ابن عباس، وأبو سعيد الخدري، وسعيد بن جبير، وعطية، ومقاتل في آخرين: هذه آخر آية نزلت من القرآن^(١). قال ابن عباس: وتوفي رسول الله ﷺ بعدها بأحد وثمانين يوماً، وقال ابن جريج: توفي بعدها بسبع ليال. وقال مقاتل: بسبع ليال.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: تعطى جزاء ما كسبت.

﴿يَأْتِيهَا الذِّكْرُ مَأْتُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّخِذِ اللَّهُ رِيبَهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمْلِئَ هُوَ فَلْيُمْلِلِ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَمَزُون مِنَ الشَّهَادَةِ أَوْ قَصِدٌ لِأَحَدِهِمَا فَمُكْتَرٍ إِحْدَاهُمَا الظَّاهِرَةُ وَلَا يَأْبُ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تُكْتَبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِمْ ذَلِكُمْ أَمْسَلُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدَقُّ أَلَّا تَرَايَا إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَيْنَهُمَا حَائِضَةٌ يُدِيرُوهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدَا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُصَاكِرْ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّحُوا فَإِنَّهُ شَوْفٌ بِكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَصَلُّوا لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الذِّكْرُ مَأْتُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ﴾ قال الزجاج: يقال: داينت الرجل إذا عاملته، فأخذت منه بدین، وأعطيته.

قال الشاعر:

داينت أروى والديون تقضى فمأطلت بعضاً وأدت بعضاً

والمعنى: إذا كان لبعضكم على بعض دين إلى أجل مسمى، فاكتبوه، فأمر الله تعالى بكتابة الدين، وبالإشهاد، حفظاً منه للأموال، وللناس من الظلم، لأن من كانت عليه البينة، قل تحدّثه لنفسه بالطمع في إذهابه. وقال ابن عباس: نزلت هذه الآية في السلم خاصة. فإن قيل: ما الفائدة في قوله: «بدین» و«تداينت» يكفي عنه؟ فالجواب: إن تداينت يقع على معنيين. أحدهما: المشاركة والمبايعة والإقراض. والثاني: المجازاة بالأفعال، فالأول يقال فيه: الدين بفتح الدال، والثاني: يقال منه: الدين بكسر الدال. قال تعالى: ﴿يَقْتَرُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الذِّكْرِ﴾ [الدريات: ١٢] أي: يوم الجزاء.

(١) رواء الطبري والنسائي في «السنن الكبرى» وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»، وقال: رواء الطبراني بإسنادين، رجال أحدهما ثقات. وظاهر هذه الرواية يعارض ما ثبت عن ابن عباس من أن آخر آية نزلت هي آية الربا، فقد روى البخاري في «صحيحه» عن ابن عباس ﷺ قال: آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا. وطريق الجمع بين الروايتين كما قال الحافظ ابن حجر أن هذه الآية - يريد آية الربا - ختام الآيات المنزل في الربا إذ هي معطوفة عليهن. وقال اللزركشي في «البرهان» ١/ ٢١٠ بعد أن ذكر الآثار الواردة عن الصحابة عن آخر آية نزلت من القرآن: قال القاضي أبو بكر في «الانتصار»: وهذه الأقوال ليس في شيء منها ما رفع إلى النبي ﷺ ويجوز أن يكون قاله قائله بضرب من الاجتهاد، وتغليب الظن، وليس العلم بذلك من فرائض الدين، حتى يلزم ما طعن به الطاعنون من عدم الضبط. ويحتمل أن كلّا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من رسول الله ﷺ في اليوم الذي مات فيه، أو قبل مرضه بقليل، وغيره سمع منه بعد ذلك، وإن لم يسمعه هو لمفارقة له، ونزول الوحي عليه بقرآن بعد. ويحتمل أيضاً أن تنزل الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول ﷺ مع آيات نزلت معها، فيؤمر برسم ما نزل منها، وتلاوتها عليهم بعد رسم ما نزل آخراً وتلاوته، فيظن سامع ذلك أنه آخر ما نزل من الترتيب.

وأنشدوا:

... دنأهم كما دانوا^(١)

فدل قوله: ﴿يَدِينُ﴾ على المزد بقله: ﴿تَدِينْتُمْ﴾ ذكره ابن الأنباري. فأما العدل فهو الحق. قال قتادة: لا تدعن حقاً، ولا تزيدن باطلاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ أي: لا يمتنع أن يكتب كما علمه الله، وفيه قولان. أحدهما: كما علمه الله الكتابة، قاله سعيد بن جبير. وقال الشعبي: الكتابة فرض على الكفاية كالجهاد. والثاني: كما أمره الله به من الحق، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيَّ الْحَقُّ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني المطلوب، يقول: ليمل ما عليه من حق الطالب على الكاتب، ﴿وَلَا يَخْشَى مِثْهُ شَيْئًا﴾ أي: لا ينقص عند الإملاء. قال شيخنا أبو منصور اللغوي: يقال: أملت أمل، وأملت أملتي لغتان، فأملت من الإملاء وأملت من الملل والملال، لأن الممل يطيل قوله على الكاتب ويكرره.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيَّ الْحَقُّ سَيفِيهَا﴾ في المراد بالسفيه هاهنا أربعة أقوال: أحدها: أنه الجاهل بالأموال، والجاهل بالإملاء. قاله مجاهد، وابن جبير. والثاني: أنه الصبي والمرأة، قاله الحسن. والثالث: أنه الصغير، قاله الضحاك، والسدي، والرابع: أنه المبذر، قاله القاضي أبو يعلى. وفي المراد بالضعيف ثلاثة أقوال: أحدها: أنه العاجز والأخسر، ومن به حمق، قاله ابن عباس، وابن جبير. والثاني: أنه الأحمق، قاله مجاهد، والسدي. والثالث: أنه الصغير، قاله القاضي أبو يعلى.

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾ قال ابن عباس: لا يستطيع لعينه. وقال ابن جبير: لا يحسن أن يمل ما عليه، وقال القاضي أبو يعلى: هو المجنون.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْلِكِ وَلِيُّهُ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها تعود إلى الحق، فتقديره: فليملل ولي الحق، هذا قول ابن عباس، وابن جبير، والربيع بن أنس، ومقاتل، واختاره ابن قتيبة. والثاني: أنها تعود إلى الذي عليه الحق، وهذا قول الضحاك، وابن زيد، واختاره الزجاج، وعاب قول الأولين، فقال: كيف يقبل قول المدعى؟! وما حاجته إلى الكتاب والإشهاد، والقول قوله؟! وهذا اختيار القاضي أبي يعلى أيضاً. والعدل: الإنصاف. وفي قوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِكُمْ﴾ قولان: أحدهما: أنه يعني الأحرار، قاله مجاهد، والثاني: أهل الإسلام، وهذا اختيار الزجاج، والقاضي أبي يعلى، ويدل عليه أنه خاطب المؤمنين في أول الآية.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ أراد: فإن لم يكن الشهيذان رجلين ﴿فَرَجُلٌ وَآخَرُكَانَ﴾ ولم يرد به: إن لم يوجد رجلا.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ رَضِيَ مِنَ الشَّهَادَةِ﴾ قال ابن عباس: من أهل الفضل والدين.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَهُمَا الْأُخْرَى﴾ ذكر الزجاج، أن الخليل، وسيبويه، وسائر النحويين الموثوق بعلمهم، قالوا: معناه: استشهدوا امرأتين، لأن تذكر إحداها الأخرى. ومن أجل أن تذكر إحداها الأخرى.

(١) هو عجز بيت من قصيدة للشهيد بن شيان الزماني، أولها:

صَفَحْنَا مِنْ بَنِي ذَهَلٍ
عَسَى الْإِيمَانُ أَنْ يَسْرِجَ
فَلَمَّا صَرَ الشَّرُّ
وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعَمَلِ

وَقَلَّلْنَا الْقُومَ إِخْوَانِ
نَقُومُ كَالَّذِي كَانُوا
وَأَمْسَى وَهُوَ عَرِيَانُ
نَدْنَاهُمْ كَمَا دَانُوا

قال المبرزوقي: الشُّدَّانِ والقَدَّاءُ والقُدُّو: الظلم. وأما قوله: دنأهم كما دانوا، والأول ليس بجزء، فهذا ليلهم إلى المطابقة والموافقة، وإخراج اللفظ في معرض صاحبه، ليعلم أنه جزاءه على حذو وقدره، أو ابتداءه. وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيْعُهُمْ﴾ و﴿اللَّهُ يَسْتَبْرِئُ نَفْسَهُ﴾ وما أشبهه. والدين: لفظة مشتركة في عدة معان: الجزاء والمعادة والطاعة والحساب، وهو هاهنا الجزاء، ويقولون: فكما تدن تدان أي: كما تصنع يصنع بك.

وقرأ حمزة: «إن تضل» بكسر الألف. والضلال هاهنا: النسيان، قاله ابن عباس والضحاك، والسدي، والربيع، ومقاتل، وأبو عبيدة، وابن قتيبة. وأما قوله: «فتذكر» فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، بالتخفيف مع نصب الراء، وقرأ حمزة بالرفع مع تشديد الكاف، وقرأ الباقون بالنصب، وتشديد الكاف. فمن شدد أراد الإذكار عند النسيان، وفي قراءة من خفف قولان: أحدهما: أنها بمعنى المشددة أيضاً، وهذا قول الجمهور. قال الضحاك، والربيع بن أنس، والسدي، ومعنى القراءتين واحد. والثاني: أنها بمعنى: تجعل شهادتهما بمنزلة شهادة ذكر، وهذا مذهب سفيان بن عيينة، وحكى الأصمعي عن أبي عمرو نحوه، واختاره القاضي أبو يعلى، وقد رده جماعة، منهم ابن قتيبة. قال أبو علي: ليس مذهب ابن عيينة بالقوي، لأنهم لو بلغن ما بلغن، لم تجز شهادتهن إلا أن يكون معهن رجل، ولأن الضلال هاهنا: النسيان، فينبغي أن يقابل بما يعادله، وهو التذكير.

قوله تعالى: «وَلَا يَأْتِ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا» قال قتادة: كان الرجل يطوف في الجواء العظيم^(١)، [فيه القوم، فيدعوه إلى الشهادة] فلا يتبعه منهم أحد، فنزلت هذه الآية. وإلى ماذا يكون هذا الدعاء؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: إلى تحمل الشهادة، وإثباتها في الكتاب، قاله ابن عباس، وعطية، وقتادة، والربيع. والثاني: إلى إقامتها وأدائها عند الحكام بعد أن تقدمت شهادتهم بها، قاله سعيد بن جبيرة، وطاووس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والشعبي، وأبو مجلز، والضحاك، وابن زيد. ورواه الميموني عن أحمد بن حنبل. والثالث: إلى تحملها وإلى أدائها، روي عن ابن عباس، والحسن، واختاره الزجاج، قال القاضي أبو يعلى: إنما يلزم الشاهد أن لا يأبى إذا دعي لإقامة الشهادة إذا لم يوجد من يشهد غيره، فأما إن كان قد تحملها جماعة، لم تتعين عليه، وكذلك في حال تحملها، لأنه فرض على الكفاية كالجهاد، فلا يجوز لجميع الناس الامتناع منه.

قوله تعالى: «وَلَا تَقْرَأُوا» أي: لا تملوا وتضجروا أن تكتبوا القليل والكثير الذي قد جرت العادة بتأجيله إلى أجله، أي: إلى محل أجله «وَلَكُمْ أَمْسٌ عِنْدَ اللَّهِ» أي: أعدل، «وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ» لأن الكتاب يذكر الشهود جميع ما شهدوا عليه «وَأَذَنٌ» أي: أقرب «أَلَا تَرَائُوا» أي: لا تشكوا «إِلَّا أَنْ تَكُونُوا» الأموال «بِعَبْرَةٍ» أي: إلا أن تقع تجارة. وقرأ عاصم «تجارة» بالنصب على معنى: إلا أن تكون الأموال تجارة حاضرة، وهي البيوع التي يستحق كل واحد منهما على صاحبه تسليم ما عقد عليه من جهة بلا تأجيل، فأباح ترك الكتاب فيها توسعة، لئلا يضيق عليهم أمر تباعهم في مأكول أو مشروب.

قوله تعالى: «وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ» الإشهاد مندوب إليه فيما جرت العادة بالإشهاد عليه.

فصل

وهذه الآية تتضمن الأمر بإثبات الدين في كتاب، وإثبات شهادة في البيع والدين. واختلف العلماء، هل هذا أمر وجوب، أم على وجه الاستحباب؟ فذهب الجمهور إلى أنه أمر ندب واستحباب^(٢) فعلى هذا هو محكم،

(١) قال في «اللسان»: الجواء بكسر الحاء: جماعة بيوت الناس إذا تمانت، والجمع: الأحياء.

(٢) قال ابن كثير: وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب، لا على الوجوب، والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصاري، وقد روى الإمام أحمد، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، حدثنا عمارة بن خزيمة الأنصاري أن عمه حدثه وهو من أصحاب النبي ﷺ، أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي، فاستبغه النبي ﷺ ليضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي ﷺ، وأبطأ الأعرابي فطلق رجال يعترضون الأعرابي، فيسأله بالفرس، ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي ﷺ، فنادى الأعرابي النبي ﷺ، فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه، ولا بعت. فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي. قال: «لو ليس قد ابتعته منك؟» قال الأعرابي: لا والله ما بعتك. فقال النبي ﷺ: قبل قد ابتعته منك، فطلق الناس يلوذون بالنبي ﷺ والأعرابي وهما يتراجعا، فطلق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أنني بابتعك، فمن جاء من المسلمين، قال الأعرابي: وملك، النبي ﷺ لم يكن يقول إلا حقاً، حتى جاء خزيمة، فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي. فطلق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أنني بابتعك. قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بابت. فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: «بم تشهد؟» فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة شهادة رجلين. ورواه أبو داود، والنسائي، والحاكم، وابن سعد في «الطبقات» والطبراني، ورجاله كلهم ثقات، وهو حديث صحيح.

وذهبت طائفة إلى أن الكتاب والإشهاد واجبان، روي عن ابن عمر، وأبي موسى، ومجاهد، وابن سيرين، وعطاء، والضحاك، وأبي قلابه، والحكم، وابن زيد. ثم اختلف هؤلاء، هل هذا الحكم باق، أم منسوخ؟ فذهب أكثرهم إلى أنه محكم غير منسوخ، وذهبت طائفة إلى أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿إِنْ آيَةٌ بِكُمْ بَعَثْنَا إِلَيْنَا رَسُولًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصْطَرِّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ قرأ أبو جعفر بتخفيف الراء من «يضار» وسكونها، وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: لا يضار بأن يدعى وهو مشغول، هذا قول ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والسدي، والربيع بن أنس، والفراء، ومقاتل. وقال الربيع: كان أحدهم يجيء إلى الكاتب فيقول: اكتب لي، فيقول: إني مشغول، فيلزمه، ويقول: إنك قد أمرت بالكاتب، فيضاره، ولا يدعه، وهو يجد غيره، وكذلك يفعل الشاهد، فنزلت: ﴿وَلَا يَصْطَرِّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾. والثاني: أن معناه: النهي للكاتب أن يضار من يكتب له، بأن يكتب غير ما يعمل عليه، وللشاهد أن يشهد بما لم يستشهد عليه، هذا قول الحسن، وطاوس، وقتادة، وابن زيد، واختاره ابن قتيبة، والزجاج. واحتج الزجاج على صحته بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَعْمَلُوا فِيهِ شَوْفًا بِكُمْ﴾ قال: ولا يسمى من دعا كاتباً ليكتب، وهو مشغول، أو شاهداً، فاسقاً، إنما يسمى من حرف الكتاب، أو كذب في الشهادة، فاسقاً. والثالث: أن معنى المضارة: امتناع الكاتب أن يكتب، والشاهد أن يشهد، وهذا قول عطاء في آخرين.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَعْمَلُوا﴾ يعني: المضارة.

﴿وَلَنْ تَعْمَلُوا عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقُومَتَهُ إِنْ آيَةٌ بِكُمْ بَعَثْنَا إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ الآية أَوْثِنَ أَمْنَتَهُ وَلَيْتَى اللَّهُ رَبُّهُ وَلَا تَنْكُرُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهَا فَإِنَّهُ يَكْفُرُ بِاللَّهِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْ قَوْمِهِ ﴿٢٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَعْمَلُوا عَلَى سَفَرٍ﴾ إنما خص السفر، لأن الأغلب عدم الكاتب والشاهد فيه. ومقصود الكلام: إذا عدتم التوثق بالكتاب، والإشهاد، فخذوا الرهن.

قوله تعالى: ﴿فَرِهْنَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعبد الوارث (فرهن) بضم الراء والهاء من غير ألف، وأسكن الهاء عبد الوارث. وجهه للتخفيف. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي (فرهان) بكسر الراء. وفتح الهاء، وإثبات الألف. قال ابن قتيبة: من قرأ (فرهان) أراد: جمع رهن، ومن قرأ: (فرهن) أراد: جمع رهان، فكانه جمع الجمع.

قوله تعالى: ﴿مَقُومَتَهُ﴾ يدل على أن من شرط لزوم الرهن القبض، وقبض الرهن أخذه من راحته منقولاً، فإن كان مما لا ي نقل، كالدر والأرضين، فقبضه تخلية راحته بينه وبين مرتهنه.

قوله تعالى: ﴿إِنْ آيَةٌ بِكُمْ بَعَثْنَا﴾ أي: فإن وثق رب الدين بأمانة الغريم، فدفعت ماله بغير كتاب، ولا شهود، ولا رهن، ﴿فَلْيَوِّزْ إِلَيْنَا أَوْثِينَ﴾ وهو المدين ﴿أَمْنَتَهُ وَلَيْتَى اللَّهُ رَبُّهُ﴾ أن يخون من اتتمته.

قوله تعالى: ﴿فَرِهْنَ﴾ قال السدي عن أشياخه: فإنه فاجر قلبه. قال القاضي أبو يعلى: إنما أضاف الإنم إلى القلب، لأن المأثم تتعلق بعقد القلب، وكتمان الشهادة إنما هو عقد النية لترك أداها.

﴿لَا يَكُونُ مَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا فِي أَيْدِيكُمْ أَوْ تَحْفُوهُ بِمَاسِكِكُمْ يَدِ اللَّهِ فَيَقْبِضُ بِمَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٨٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَجِدُوا مَا فِي أَيْدِيكُمْ أَوْ تَحْفُوهُ بِمَاسِكِكُمْ يَدِ اللَّهِ﴾ أما إيداء ما في النفس، فإنه العمل بما أضمره العبد، أو النطق، وهذا مما يحاسب عليه العبد، ويؤاخذ به، وأما ما يخفيه في نفسه، فاختلف العلماء في المراد بالمخفي في هذه الآية على قولين: أحدهما: أنه عام في جميع المخفيات، وهو قول الأكثرين. واختلفوا: هل هذا الحكم ثابت في المواخذة، أم منسوخ؟ على قولين. أحدهما: أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿لَا يَكُونُ مَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا فِي أَيْدِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] هذا قول ابن مسعود، وأبي هريرة، وابن عباس في رواية، والحسن، والشعبي، وابن سيرين

وسعد بن جبير، وقتادة، وعطاء الخراساني، والسدي، وابن زيد، ومقاتل^(١). والثاني: أنه ثابت في المواخذه على العموم، فيؤاخذ به من يشاء، ويغفره لمن يشاء، وهذا مروى عن ابن عمر، والحسن، واختاره أبو سليمان الدمشقي، والقاضي أبو يعلى. وروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: هذه الآية لم تنسخ، ولكن الله ﷻ إذا جمع الخلائق، يقول لهم: أني مخبركم بما أخفيتم في أنفسكم مما لم يطلع عليه ملائكتي، فأما المؤمنون فيخبرهم، ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم، وهو قوله تعالى: ﴿يُخَاسِبُكُمْ بِأَنفُسِكُمْ يَٰٓأَنفُسُكُمْ﴾ يقول: يخبركم به الله، وأما أهل الشرك والرب، فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب، وهو قوله تعالى: ﴿كَفَيُفَرُّ لِمَن يَشَاكُ وَيَعُذُّ مَن يَشَاكُ﴾^(٢). والأكثر على تسكين راء «يفغر» وباء «يعذب» منهم ابن كثير ونافع، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي، وإنما جزموا لإتيان هذا ما قبله، وهو «يخاسبكم» وقرأ أبو جعفر، وابن عامر، وعاصم ويعقوب: برفع الراء، والباء فيهما. فهؤلاء قطعوا الكلام عن الأول. قال ابن الأنباري: وقد ذهب قوم إلى أن المحاسبة هاهنا هي إطلاع الله العبد يوم القيامة على ما كان حدث به نفسه في الدنيا، ليعلم أنه لم يعزب عنه شيء. قال: والذي نختاره أن تكون الآية محكمة، لأن النسخ إنما يدخل على الأمر والنهي. وقد روي عن عائشة أنها قالت: أما ما أعلنت، فإله يحاسبك به، وأما ما أخفيت، فما عجلت لك به العقوبة في الدنيا. والقول الثاني: أنه أمر خاص في نوع من المخفيات، ولأرباب هذا القول فيه قولان: أحدهما: أنه كتمان الشهادة، قاله ابن عباس في رواية، وعكرمة، والشعبي، والثاني: أنه الشك واليقين، قاله مجاهد. فعلى هذا المذكور تكون الآية محكمة.

﴿أَمَّا الرَّسُولُ يَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَيْدِي رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانُكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّا الرَّسُولُ يَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾. روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» من حديث أبي مسعود البصري عن النبي ﷺ، أنه قال: «الآيتان من آخر سورة البقرة من قراءهما في ليلة كفتاه»^(٣) قال أبو بكر النقاش: معناه: كفتاه عن قيام الليل^(٤). وقيل: إنهما نزلتا على سبب، وهو ما روى العلاء عن أبيه عن أبي هريرة قال: لما أنزل الله

(١) نقل ابن كثير في «تفسيره» حديث ابن عباس المخرج في مسلم، وفيه: «فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل الله: ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ عَنَّا قَسَا إِلَّا رُسُلًا...﴾ ثم قال بعد أن ذكر له أكثر من طريق: فهذه طرق صحيحة عن ابن عباس. وقد ثبت عن ابن عمر كما ثبت عن ابن عباس، فروى البخاري عن مروان الأصغر، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ - أحسبه ابن عمر - «إِنَّ بُدُّنَا مَا يَدُ أَشْيُكُم أَوْ تُخْشَوْنَ» قال: نسخها الآية التي بعدها. وهكذا روي عن علي، وابن مسعود، والشعبي، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة: أنها منسوخة بالتي بعدها. وقد ثبت بما رواه الجماعة في كتبهم الستة عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تكلم أو تعمل». وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: إذا هم عبدي بسبئية فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكثبها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكثبها حسنة، فإن عملها فاكثبها حسنة».

(٢) وهو اختيار ابن جرير الطبري، واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة، وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر، وقد يحاسب ويعاقب، بالحديث الذي رواه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم عن صفوان بن محرز قال: «بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر وهو يطوف، إذ عرض له رجل فقال: يا ابن عمر، ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في التجوى؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يلتو المؤمن من ربه ﷻ حتى يضع عليه كفتاه، ليقرره بطنويه، فيقول له: هل تعرف كذا؟ فيقول: رب أعرف مرتين، حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني افترها لك اليوم، قال: فيعطى صحيفة حسناته أو كتابه بيمينه، وأما الكفار والمنافقون، فينادي بهم على رؤوس الأشهاد: ﴿كَذَّبُواكَ كَذَبًا عَنَّا رَبُّهُمْ أَلَا لَمَنَّةٌ أَوَّلَ لَمَنَّةٍ أَوَّلَ لَمَنَّةٍ﴾». ثم قال ابن جرير: فتأويل الآية إذا: وإن تبدوا ما في أنفسكم أيها الناس فظفروها، أو تخفوها فتتطوي عليه نفوسكم يحاسبكم به الله، فيعرف مؤمنكم تفضله بعفو عنه، ومغفرته له، فيغفره له، ويعذب منافقكم على الشك الذي انطوت عليه نفسه في وحدانية خالقه، ونبوة أنبيائه.

(٣) رواء مسلم بهذا اللفظ، ورواه البخاري بلفظ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه».

(٤) وقيل: كفتاه عما يكون من الآفات تلك الليلة، وقيل: من الشيطان وشرو، قيل: حسبهما أجراً وفضلاً، وروى مسلم في «صحيحه» عن عبد الله قال: لما أسري برسول الله ﷺ، انتهى به إلى سدة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يرجع به من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها، فيقبض، قال: ﴿إِذْ يَتَنَبَّأُ الْإِنْسَانُ مَا يَفْتَنُ﴾ قال: فراش من ذهب، قال: وأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطى الصلوات الخمس، وأعطى خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمة شيئاً المقحّمات. والمقحّمات، بكسر الحاء: الذنوب العظام التي تقحم أصحابها في النار، أي تلقيهم فيها.

تعالى: ﴿وَلَنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ بِمَا سَبَّحَكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾. اشتد ذلك على أصحاب النبي ﷺ [فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب] فقالوا: قد أنزل عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟» قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير». فلما قالوها وذلت بها ألستهم: أنزل الله في أثرها ﴿مَائِمَةُ الرَّسُولِ﴾^(١). قال الزجاج: لما ذكر ما تشتمل عليه هذه السورة من القصص والأحكام، ختمها بتصديق نبيه، والمؤمنين. وقرأ ابن عباس (وكتابه) فقيل له في ذلك، فقال: كتاب أكثر من كُتُب، ذهب به إلى اسم الجنس، كما تقول: كثر الدرهم في أيدي الناس. وقد وافق ابن عباس في قراءته حمزة، والكسائي، وخلف، وكذلك في (التحرير)، وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم في رواية أبي بكر، وابن عامر (وكتبه) هاهنا بالجمع، وفي (التحرير) بالتوحيد. وقرأ أبو عمرو بالجمع في الموضعين.

قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَأُ بَيْنَ يَدَيْ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾. قرأ أبو عمرو ما أضيف إلى مكني على حرفين، مثل «رسلنا» و«رسلكم» بإسكان السين، وثقل ما عدا ذلك. وعنه في قوله تعالى: ﴿عَلَى رُسُلِكَ﴾ روايتان، التخفيف والتثقل. وقرأ الباقر كل ما في القرآن من هذا الجنس بالتثقل. ومعنى قوله: ﴿لَا تَقْرَأُ بَيْنَ يَدَيْ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ أي: لا نفعل كما فعل أهل الكتاب، آمنوا ببعض، وكفروا ببعض. وقرأ يعقوب «لا يفرق» بالياء، وفتح الراء.

قوله تعالى: ﴿غُفْرَانِكَ﴾ أي: نسألك غفرانك. والمصير: المرجع.

﴿لَا يَكِلُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْمَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ كُنِينَا أَوْ أَخْلَانَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿لَا يَكِلُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْمَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾. الوسع: الطاعة. قاله ابن عباس، وقتادة. ومعناه: لا يكلفها ما لا قدرة لها عليه لاستحالاته، كتكليف الزمن السعي، والأعمى النظر. فأما تكليف ما يستحيل من المكلف، لا لفقد الآلات، فيجوز كتكليف الكافر الذي سبق في العلم القديم أنه لا يؤمن الإيمان، فالآية محمولة على القول الأول. ومن الدليل على ما قلناه قوله تعالى في سياق الآية: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ فلو كان تكليف ما لا يطاق ممتنعاً، كان السؤال عبثاً، وقد أمر الله تعالى نبيه بدعاء قوم قال فيهم: ﴿وَلَنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧] وقال ابن الأنباري: المعنى: لا تحملنا ما يثقل علينا أداؤه، وإن كنا مطيقين له على تجشم، وتحمل مكروهه، فخطاب العرب على حسب ما تعقل، فإن الرجل منهم يقول للرجل يبغيه: ما أطيق النظر إليك، وهو مطيق لذلك، لكنه يثقل عليه، ومثله قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَخِيمُونَ السَّمْعَ﴾ [هود: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ قال ابن عباس: لها ما كسبت من طاعة ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من معصية. قال أبو بكر النقاش: فقلوه: «لها» دليل على الخير، و«عليها» دليل على الشر. وقد ذهب قوم إلى أن «كسبت» لمرة ومرات، و«اكتسبت» لا يكون إلا لشيء بعد شيء، وهما عند آخرين لغتان بمعنى واحد، كقوله ﷻ: ﴿يَهْدِي الْكُفْرَيْنَ أَنفُسَهُمْ رُبُّهُ﴾ [الطارق: ١٧].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ هذا تعليم من الله للخلق أن يقولوا ذلك، قال ابن الأنباري: والمراد بالنسيان هاهنا: الترك مع العمد، لأن النسيان الذي هو بمعنى الغفلة قد أمنت الآثام من جهته. والخطأ أيضاً هاهنا من جهة العمد، لا من جهة السهو^(٢)، يقال: أخطأ الرجل: إذا تعمد، كما يقال: أخطأ إذا غفل. وفي «الإصر» قولان:

(١) رواه أحمد ومسلم وابن حبان بمعناه.

(٢) يؤيد هذا التفسير قوله ﷻ: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ مِنْ أَمْتِي الْخَطَا وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ». رواه ابن ماجه وابن حبان في «صحيحه» والطبراني عن ابن عباس. ورواه الحاكم ١٩٨/٢ ولفظه «تجاوز الله عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكروهوا عليه» وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وقال أبو جعفر الطبري: والنسيان على وجهين: أحدهما على وجه التضييع من العبد والتفريط، وهذا الذي يرغب العبد إلى الله ﷻ في تركه مواخذته به، وهو النسيان الذي عاقب الله ﷻ به آدم صلوات الله عليه، فأخرجه من الجنة، فقال في ذلك: ﴿وَلَقَدْ عَفُوناَ إِنَّكَ مَأْدَمٌ مِنْ قَبْلُ فَتَبَيَّنْ رَبِّكَ نَجْدَ لَمْ عَزَمْنَاكَ﴾ [طه: ١١٥]. والآخر: على وجه عجز الناسي عن حفظ ما استحفظ وركل به، وضعف عقله عن احتماله، فإن ذلك من

أحدهما: أنه العهد، قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والسدي. والثاني: النقل، أي: لا تثقل علينا من الفروض ما ثقلته على بني إسرائيل، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُحِيلَنَّ مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنه ما يصعب ويشق من الأعمال، قاله الضحاك، والسدي، وابن زيد، والجمهور، والثاني: أنه المحبة، رواه الثوري عن منصور عن إبراهيم. والثالث: الغلظة^(١) قاله مكحول. والرابع: حديث النفس ووساوسها. والخامس: عذاب النار.

قوله تعالى: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أي: أنت ولينا ﴿فَانصِرْنَا﴾ أي: أعنا. وكان معاذ إذا فرغ من هذه السورة قال: آمين.



= العبد غير معصية، وهو به غير أكتم، ولا وجه لمسألة العبد ربه أن يغفر له. وكذلك الخطأ وجهان: أحدهما من وجه ما نهى عنه، فيأتيه بقصد منه وإرادة، فذلك خطأ منه، وهو به مأخوذ، وهذا الوجه الذي يرغب العبد إلى ربه في صفح ما كان منه من إثم عنه إلا ما كان من ذلك كفراً. والآخر منهما: ما كان منه على وجه الجهل به، والظن منه بأن له فعله، كالذي يأكل في شهر رمضان ليلاً، وهو يحسب أن الفجر لم يطلع، أو يؤخر صلاة في يوم غيم، وهو ينتظر بتأخيره إياها دخول وقتها، فيخرج وقتها وهو يرى أن وقتها لم يدخل، فإن ذلك من الموضوع عن العبد الذي وضع الله ﷻ عن عباده الإثم فيه، فلا وجه لمسألة العبد ربه ألا يؤاخذ به. انتهى باختصار.

(١) الغلظة: غليان شهوة المواقفة من الرجل والمرأة.

سورة آل عمران

ذكر أهل التفسير أنها مدنية، وأن صدرأ من أولها نزل في وفد نجران، قدموا النبي ﷺ في ستين راكباً، فيهم العاقب، والسيد، فخاصموه في عيسى، فقالوا: إن لم يكن ولد الله، فمن أبوه؟ فنزلت فيهم صدر (آل عمران) إلى بضع وثمانين آية منها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ مِنْ قَبْلُ هَٰذَا لِقَائِ بْنِ إِدْرِيسَ وَأَنزَلَ الْقُرْآنَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني: القرآن ﴿بِالْحَقِّ﴾ يعني: العدل. ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب. وقيل: إنما قال في القرآن: «نزل» بالشديد، وفي التوراة والإنجيل: أنزل، لأن كل واحد منهما أنزل في مرة واحدة، وأنزل القرآن في مرات كثيرة. فأما التوراة، فذكر ابن قتيبة عن الفراء أنه يجعلها من: وري الزند يري: إذا خرجت ناره، وأورثته، يريد أنها ضياء. قال ابن قتيبة: وفيه لغة أخرى: وري يري، ويقال: وريت بك زنادي، والإنجيل، من نجلت الشيء: إذا أخرجه، وولد الرجل: نجله، كأنه هو استخرجه، يقال: قبح الله ناجليه، أي: والديه، وقيل للماء يقطر من البئر: نجل، يقال: قد استنجل الوادي: [إذا ظهر نزره]. وإنجيل: إفعيل من ذلك، كأن الله أظهر به عافياً من الحق دارساً. قال شيخنا أبو منصور اللغوي: والإنجيل: أعجمي معرب، قال: وقال بعضهم: إن كان عربياً، فاشتقاقه من النجل، وهو ظهور الماء على وجه الأرض، واتساعه، ونجلت الشيء: إذا استخرجه وأظهرته، فالإنجيل مستخرج به علوم وحكم، وقيل: هو إفعيل من النجل وهو الأصل: فالإنجيل أصل لعلوم وحكم^(١). وفي الفرقان هاهنا قولان: أحدهما: أنه القرآن، قاله قتادة، والجمهور. قال أبو عبيدة: سمي القرآن فرقاناً، لأنه فرق بين الحق والباطل، والمؤمن والكافر، والثاني: أنه الفصل بين الحق والباطل في أمر عيسى حين اختلفوا فيه، قاله أبو سليمان الدمشقي. وقال السدي: في الآية تقديم وتأخير، تقديره: وأنزل التوراة، والإنجيل، والفرقان، فيه هدى للناس.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يريد وفد نجران النصارى، كفروا بالقرآن، وبمحمد. والانتقام: المبالغة في العقوبة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ قال أبو سليمان الدمشقي: هذا تعريض بنصارى أهل نجران فيما كانوا ينطرون عليه من كيد النبي ﷺ، وذكر التصوير في الأرحام تنبيه على أمر عيسى.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَسَلِّمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ المحكم: المتقن المبين، وفي المراد به هاهنا ثمانية أقوال: أحدها: أنه الناسخ، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وقتادة، والسدي في آخرين. والثاني: أنه الحلال والحرام، روي عن ابن عباس،

(١) قال الشيخ أحمد شاعر في تعليقه على «المعرب» للجوابي: والصحيح أن الكلمة يونانية الأصل، أصلها «أونجيليون» مركبة من كلمتين معناهما: البشري الحسنة.

ومجاهد. والثالث: أنه ما علم العلماء تأويله. روي عن جابر بن عبد الله. والرابع: أنه الذي لم ينسخ، قاله الضحاك. والخامس: أنه ما لم تكرر ألفاظه، قاله ابن زيد. والسادس: أنه ما استقل بنفسه، ولم يحتج إلى بيان. ذكره القاضي أبو يعلى عن الإمام أحمد. وقال الشافعي، وابن الأنباري: هو ما لم يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً. والسابع: أنه جميع القرآن غير الحروف المقطعة. والثامن: أنه الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والحلال والحرام، ذكر هذا والذي قبله القاضي أبو يعلى^(١). وأم الكتاب أصله. قاله ابن عباس، وابن جبير، فكانه قال: هن أصل الكتاب اللواتي يعمل عليهن في الأحكام، ومجمع الحلال والحرام. وفي المتشابه سبعة أقوال: أحدها: أنه المنسوخ، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وقتادة، والسدي في آخرين. والثاني: أنه ما لم يكن للعلماء إلى معرفته سبيل، كقيام الساعة، روي عن جابر بن عبد الله. والثالث: أنه الحروف المقطعة كقوله: ﴿الْعَمَّ﴾ ونحو ذلك، قاله ابن عباس. والرابع: أنه ما اشتبهت معانيه، قاله مجاهد. الخامس: أنه ما تكررت ألفاظه، قاله ابن زيد. والسادس: أنه ما احتمل من التأويل وجوهاً. وقال ابن الأنباري: المحكم ما لا يحتمل التأويلات، ولا يخفي على مميّز، والمتشابه: الذي تعتوره تأويلات. والسابع: أنه القصص، والأمثال، ذكره القاضي أبو يعلى. فإن قيل: فما فائدة إنزال المتشابه، والمراد بالقرآن البيان والهدى؟ فنه أربعة أجوبة: أحدها: أنه لما كان كلام العرب على ضربين: أحدهما: الموجز الذي لا يخفي على سامعه، ولا يحتمل غير ظاهره. والثاني: المجاز، والكنايات، والإشارات، والتلويحات، وهذا الضرب الثاني هو المستحلى عند العرب، والبديع في كلامهم، أنزل الله تعالى القرآن على هذين الضربين، ليتحقق عجزهم عن الإتيان بمثله، فكانه قال: عارضوه بأي الضربين شئت، ولو نزل كله محكماً واضحاً، لقالوا: هلا نزل بالضرب المستحسن عندنا. ومتى وقع في الكلام إشارة أو كناية، أو تعريض أو تشبيه، كان أفصح وأغرب.

قال امرؤ القيس:

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي
بسهميك في أعشار قلب مقتل^(٢)
فجعل النظر بمنزلة السهم على جهة التشبيه، فحلا هذا عند كل سامع ومنشد، وزاد في بلاغته. وقال امرؤ القيس أيضاً:

رمتني بسهم أصاب الفؤاد
غداة الرحيل فلم أنتصر^(٣)
وقال أيضاً:

فقلت له لما تمطى بصلبه
وأردف أعجازاً وناء بكلكل^(٤)
فجعل الليل صلباً وصدرأ على جهة التشبيه، فحسن بذلك شعره. وقال غيره:

من كملت أجادها طابخاها
لم تمت كل موتها في القدور
أراد بالطابخين: الليل والنهار على جهة التشبيه. وقال آخر:
تبكي هاشماً في كل فجر
كما تبكي على الفنن الحمام

(١) قال القاسمي في «محاسن التأويل» ص ٧٥٢: للعلماء في المحكم والمتشابه أقوال كثيرة، ومباحث واسعة، وأبدع ما رأيته في تحرير هذا المقام مقالة ساذغة الذليل لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية عليه الرحمة والرضوان. ويعني بهذه المقالة الرسالة الموسومة بـ «الإكليل في المتشابه والتأويل» وقد أثبتها القاسمي رحمه الله في تفسيره بطوله.

(٢) شرح القصائد السبع ص ٤٧. ذرفت: سال دمعها. وأراد بالسهمين: العينين. الأعشار: القطع والكسور. المقتل: المذلل. يقول: ما بكيت إلا لتجرحي قلباً معشراً، أي: مكسراً، ولم تبكي، لأنك مظلومة. وكاذرفت عيناك إلا لتنهني بقلبي كله، كالرجل الذي يأخذ المعلّى والقريب، وهما من سهام القمار ولهما عشرة أنصباء، والجزور يقسم عشرة أعشار، وهذا مثل ضربه لذهابها بقلبه كله.

(٣) «ديوانه» ص ١٥٥. وقوله: رمتني بسهم، أي: نظرت إليّ نظرة فلم أنتصر، أي: لم يبلغ حبي من قلبها ما بلغ حبها من قلبي. وقال الطوسي: سهمها هاشماً: ميناها.

(٤) شرح القصائد السبع ص ٧٥. تمطى: تمدد. جوزه: وسطه. يقال: تمطى الرجل إذا تمدد، أي مد مطاء: أي ظهره. يقول: قلت لليل لما أفرط طولها، وناءت أوائله، وازدادت أواخره تطاولاً، وطول الليل ينهني عن مقاساة الأحزان والشدائد، والسهر المتولى منها، لأن المغموم يستطيل ليله، والمسور يستقر ليله.

وقال آخر:

عجبت لها أنى يكون غناؤها فصيحاً ولم تفتح بمنطقها فما

فجعل لها غناء وفماً على جهة الاستعارة. والجواب الثاني: أن الله تعالى أنزله مختبراً به عباده، ليقف المؤمن عنده، ويرده إلى عالمه، فيعظم بذلك ثوابه، ويرتاب به المنافق، فيداخله الزيف، فيستحق بذلك العقوبة، كما ابتلاه بنهر طالوت. والثالث: أن الله تعالى أراد أن يشغل أهل العلم بردهم المتشابه إلى المحكم، فيطول بذلك فكرهم، ويتصل بالبحث عنه اهتمامهم، فيثابون على تعبهم، كما يثابون على سائر عباداتهم، ولو جعل القرآن كله محكماً لاستوى فيه العالم والجاهل، ولم يفضل العالم على غيره، ولماتت الخواطر، وإنما تقع الفكرة والحيلة مع الحاجة إلى الفهم. وقد قال الحكماء: عيب الغنى: أنه يورث البلادة، وفضل الفقر: أنه يبعث على الحيلة، لأنه إذا احتاج احتال. والرابع: أن أهل كل صناعة يجعلون في علومهم معاني غامضة، ومسائل دقيقة ليخرجوا بها من يعلمون، ويمرتهم على انتزاع الجواب، لأنهم إذا قدروا على الغامض، كانوا على الواضح أقدر، فلما كان ذلك حسناً عند العلماء، جاز أن يكون ما أنزل الله تعالى من المتشابه على هذا النحو، وهذه الأجوبة معنى ما ذكره ابن قتيبة^(١)، وابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَيْنَا فِي قُلُوبِهِمْ زَيْجٌ﴾ في الزيج قولان: أحدهما: أنه الشك، قاله مجاهد، والسدي. والثاني: أنه الميل، قاله أبو مالك، وعن ابن عباس كالتولين. وقيل: هو الميل عن الهدى. وفي هؤلاء القوم أربعة أقوال: أحدها: أنهم الخوارج، قاله الحسن. والثاني: المنافقون، قاله ابن جريج. والثالث: وفد نجران من النصارى، قاله الربيع. والرابع: اليهود، طلبوا معرفة بقاء هذه الأمة من حساب الجمل، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ بِهِ﴾ قال ابن عباس: يُحِيلُونَ المحكم على المتشابه، والمتشابه على المحكم، ويلبسون. وقال السدي: يقولون: ما بال هذه الآية عمل بها كذا وكذا، ثم نسخت؟! وفي المراد بالفتنة هاهنا، ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الكفر، قاله السدي، والربيع، ومقاتل، وابن قتيبة. والثاني: الشبهات، قاله مجاهد. والثالث: إفساد ذات البين، قاله الزجاج. وفي التأويل وجهان: أحدهما: أنه التفسير. والثاني: العاقبة المنتظرة. والراسخ: الثابت، يقال: رسخ يرسخ رسوخاً. وهل يعلم الراسخون تأويله أم لا؟ في قولان: أحدهما: أنهم لا يعلمونه، وأنهم مستأنفون، وقد روى طائوس عن ابن عباس أنه قرأ: (ويقول الراسخون في العلم أمتاً به) وإلى هذا المعنى ذهب ابن مسعود، وأبي ابن كعب، وابن عباس، وعروة، وقتادة، وعمر بن عبد العزيز، والفراء، وأبو عبيدة، وثعلب، وابن الأنباري، والجمهور. قال ابن الأنباري: في قراءة عبد الله: (إن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم) وفي قراءة أبي، وابن عباس: (ويقول الراسخون) وقد أنزل الله تعالى في كتابه أشياء، استأثر بعلمها، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨] فأنزل الله تعالى المجمل، ليؤمن به المؤمن، فيسعد، ويكفر به الكافر، فيشقى. والثاني: أنهم يعلمون، فهم داخلون في الاستثناء. وقد روى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: أنا ممن يعلم تأويله، وهذا قول مجاهد، والربيع، واختاره ابن قتيبة، وأبو سليمان الدمشقي. قال ابن الأنباري: الذي روى هذا القول عن مجاهد ابن أبي نجيع، ولا تصح روايته التفسير عن مجاهد.

﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَبَّ فِيهِ إِلَّاكَ اللَّهُ لَا يَخْلُقُ إِلَّا سَكَنًا ﴿٩﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا﴾ أي يقولون: (ربنا لا تمل قلوبنا عن الهدى بعد إذ هديتنا) وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وابن يعمر، والجحدري «لا تُخِزْ» بفتح التاء «قُلُوبَنَا» برفع الباء. ولدنك: بمعنى عندك. والوهاب: الذي يجود بالعطاء من غير استئابة، والمخلوقون لا يملكون أن يهبوا شفاءً لسقيم، ولا ولدأ لعقيم، والله تعالى قادر على أن يهب جميع الأشياء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُنْفِكَ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَزْوَاجَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَيْئًا عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾ أي: لن تدفع، لأن المال يدفع عن صاحبه في الدنيا، وكذلك الأولاد، فاما في الآخرة، فلا ينفع الكافر ماله، ولا ولده. وقوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ أي: من عذابه.

﴿كَذَّابٍ مَالٍ فَرَعُونَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّابٍ مَالٍ فَرَعُونَ﴾ في الدأب قولان: أحدهما: أنه العادة، فمعناه: كعادة آل فرعون، يريد: كفر اليهود، ككفر من قبلهم، قاله ابن قتيبة، وقال ابن الأنباري: و«الكاف» في «كذاب» متعلقة بفعل مضمر، كأنه قال: كفرت اليهود، ككفر آل فرعون. والثاني: أنه الاجتهاد، فمعناه: أن دأب هؤلاء، وهو اجتهادهم في كفرهم، وتظاهرهم على النبي ﷺ كتظاهر آل فرعون على موسى ﷺ، قاله الزجاج.

﴿قُلْ لِلَّهِ كُفْرًا سَتُفْلِحُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَّا جَهَنَّمَ يَكْفُرُ بِهَا الْبَشَرُ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ كُفْرًا سَتُفْلِحُونَ وَتُخْشَرُونَ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر (ستفلبون وتحشرون) بالتاء (ويرونها) بالياء، وقرأ نافع ثلاثين بالتاء، وقرأه حمزة، والكسائي بالياء. وفي سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن يهود المدينة لما رأوا وقعة بدر، هتموا بالإسلام، وقالوا: هذا هو النبي الذي نجده في كتابنا، لا ترد له راية، ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى نظروا له وقعة أخرى، فلما كانت أحد، شكوا، وقالوا: ما هو به، ونقضوا عهداً كان بينهم وبين النبي، وانطلق كعب بن الأشرف في ستين راكباً إلى أهل مكة، فقالوا: تكون كلمتنا واحدة، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح، عن ابن عباس^(١). والثاني: أنها نزلت في قريش قبل وقعة بدر، فحقق الله وعده يوم بدر، روي عن ابن عباس، والضحاك. والثالث: أن أبا سفيان في جماعة من قومه، جمعوا الرسول الله ﷺ بعد وقعة بدر، فنزلت هذه الآية، قاله ابن السائب.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي يَسْتَبِقُوا الْقَتْلَ يَنْتَهِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجَ كَافِرٌ يَرَوْنَهُمْ وَيَتْلُوهُمُ الرَّأْيَ الْمَكِينُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ يَتَخِرُّوْنَ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَوَسْمَةٌ لِلَّذِينَ الَّتِي لَا يَفْقَهُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي يَسْتَبِقُوا الْقَتْلَ﴾ في المخاطبين بهذا ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم المؤمنون، روي عن ابن مسعود، والحسن. والثاني: الكفار، فيكون معطوفاً على الذي قبله، وهو يتخرج على قول ابن عباس الذي ذكرناه آنفاً. والثالث: أنهم اليهود، ذكره الفراء، وابن الأنباري، وابن جرير. فإن قيل: لم قال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ ولم يقل: قد كانت لكم؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أن ما ليس بمؤث حقوقي، يجوز تذكيره. والثاني: أنه رذ المعنى إلى البيان، فمعناه: قد كان لكم بيان، فذهب إلى المعنى، وترك اللفظ، وأنشدوا:

إن امرأ غره منكراً واحداً
بعدي وبعديك في الدنيا لمفرور

وقد سبق معنى «الآية» و«الفئة»، وكل مشكل تركت شرحه، فإنك تجده فيما سبق، والمراد بالفئتين: النبي ﷺ وأصحابه، ومشركو قريش يوم بدر. قاله قتادة والجماعة. وفي قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُمْ وَيَتْلُوهُمُ الرَّأْيَ الْمَكِينُ﴾ قولان: أحدهما: يرونهم ثلاثة أمثالهم، قاله الفراء، واحتج بأنك إذا قلت: عندي ألف دينار، وأحتاج إلى مثليه، فإنك تحتاج إلى ثلاثة آلاف^(٢). والثاني: أن معناه يرونهم ومثلهم، قال الزجاج: وهو الصحيح^(٣).

قوله تعالى: ﴿رَأَى الْمَكِينُ﴾ أي: في رأي العين. قال ابن جرير: جاء هذا على مصدر رأيته، يقال: رأيته رأياً،

(١) رواه الواحد في «أسباب النزول» عن الكلبي، عن أبي صالح.

(٢) نحن كلام الفراء في «معاني القرآن» ١/١٩٤. فإن قلت: فكيف جاز أن يقال: «مثلهم» يريد ثلاثة أمثالهم؟ قلت: كما تقول وعندك عبد: أحتاج إلى مثله، فأنت محتاج إليه، وإلى مثله، وتقول: أحتاج إلى مثلي عبدي، فأنت إلى ثلاثة محتاج. ويقول الرجل: مئ ألف وأحتاج إلى مثليه، فهو يحتاج إلى ثلاثة، فلما نوى أن يكون الألف داخل في معنى المثل صار المثل ثلاثين، والمثلان ثلاثة، ومثله في الكلام أن تقول: أراكم مثلكم، كأنك قلت: أراكم ضعفكم، وأراكم مثليكم، يريد ضعفكم، فهذا على معنى الثلاثة.

(٣) في القرطبي ٢٦/٤. قال الزجاج: وهذا باب الغلط - ما ذهب إليه الفراء - فيه غلط في جميع المقاييس، لأننا إنما نقل مثل الشيء مساوياً له، فنقل مثليه ما يساويه مرتين.

ورؤية. واختلفوا في الفئة الرائية على ثلاثة أقوال، هي التي ذكرناها في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾. فإن قلنا: إن الفئة الرائية المسلمون، فوجهه أن المشركين كانوا يضعفون على عدد المسلمين، فأروهم على ما هم عليه، ثم نصرهم الله، وكذلك إن قلنا: إنهم اليهود. وإن قلنا: إنهم المشركون، فتكثير المسلمين في أعينهم من أسباب النصر. وقد قرأ نافع: ﴿ترونها﴾ بالثاء. قال ابن الأنباري: ذهب إلى أن الخطاب لليهود. قال الفراء: ويجوز لمن قرأ «يرونهم» بالياء أن يجعل الفعل لليهود، وإن كان قد خاطبهم في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ لأن العرب ترجع من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى الخطاب. وقد شرحنا هذا في «الفاتحة» وغيرها. فإن قيل: كيف يقال: إن المشركين امتكثروا المسلمين. وإن المسلمين استكثروا المشركين، وقد بين قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُوهُمْ إِذِ التَّيَمُّنَ فِيْ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا مُّقْتَصِرًا فِيْ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤] أن الفئتين تساوتا في استقلال إحداهما للأخرى؟ فالجواب: أنهم استكثروهم في حال، واستقلوهم في حال، فإن قلنا: إن الفئة الرائية المسلمون، فإنهم رأوا عدد المشركين عند بداية القتال على ما هم عليه، ثم قلل الله المشركين في أعينهم حتى اجترؤوا عليهم، فنصرهم الله بذلك السبب. قال ابن مسعود: نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم، فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً. وقال في رواية أخرى: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مئة، فأسرنا منهم رجلاً، فقلت: كم كنتم؟ قال: ألفاً وإن قلنا: إن الفئة الرائية المشركون، فإنهم استقلوا المسلمين في حال، فاجترؤوا عليهم، واستكثروهم في حال، فكان ذلك سبب خذلانهم، وقد نقل أن المشركين لما أسروا يومئذ، قالوا للمسلمين: كم كنتم؟ قالوا: كنا ثلاثمائة وثلاثة عشر. قالوا: ما كنا نراكم إلا تضعفون علينا.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ﴾، أي: يقوي. ﴿إِنَّ فِيْ ذَلِكَ﴾ في الإشارة قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى النصر. والثاني: إلى رؤية الجيش مثليهم. والعبرة: الدلالة الموصلة إلى اليقين، المؤدية إلى العلم، وهي من العبور، كأنه طريق يُعبر به، ويتوصل به إلى المراد. وقيل: العبرة: الآية التي يعبر منها من منزلة الجهل إلى منزلة العلم. والأبصار: العقول والبصائر.

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْثَى وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَكُ الْحَبِزَةِ أَذًى وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ قرأ أبو رزين العقيلي، وأبو رجاء العطاردي، ومجاهد، وابن محيصن «زَيْنَ» بفتح الزاي «حُبُّ» بنصب الباء، وقد سبق في «البقرة» بيان التزيين. والقناطر: جمع قنطار، قال ابن دريد: ليست النون فيه أصلية، وأحسب أنه معرب. واختلف العلماء: هل هو محدود أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أنه محدود، ثم فيه أحد عشر قولاً: أحدها: أنه ألف ومثنا أوقية، رواه أبي بن كعب عن النبي ﷺ^(١) وبه قال معاذ بن جبل، وابن عمر، وعاصم بن أبي النجود، والحسن في رواية. والثاني: أنه اثنا عشر ألف أوقية، رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ^(٢). وعن أبي هريرة كالثقلين، وفي رواية عن أبي هريرة أيضاً: اثنا عشر أوقية. والثالث: أنه ألف ومثنا دينار، ذكره الحسن، ورواه العوفي عن ابن عباس. والرابع: أنه اثنا عشر ألف درهم، أو ألف دينار، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وروي عن الحسن، والضحاك، كهذا القول، والذي قبله. والخامس: أنه سبعون ألف دينار، روي عن ابن عمر، ومجاهد. والسادس: ثمانون ألف درهم، أو مئة رطل من الذهب، روي عن سعيد بن المسيب، وقتادة. والسابع: أنه سبعة آلاف دينار، قاله عطاء. والثامن: ثمانية آلاف مثقال، قاله السدي. والتاسع: أنه ألف مثقال ذهب أو فضة، قاله الكلبي. والعاشر: أنه ملء مسك ثور ذهباً، قاله أبو نضرة، وأبو عبيدة. والحادي عشر: رطل من الذهب، أو الفضة، حكاه ابن الأنباري. والقول الثاني: أن القنطار ليس بمحدود. وقال الربيع بن أنس: القنطار: المال الكثير، بعضه على بعض، وروي عن أبي عبيدة أنه ذكر عن العرب أن القنطار وزن لا يحد، وهذا اختيار ابن جرير الطبري.

(١) رواه الطبري في «التفسير» وذكره ابن كثير، وقال: وهذا حديث منكر أيضاً، والأقرب أن يكون موقوفاً على أبي بن كعب، كغيره من الصحابة.

(٢) رواه أحمد في «المستد» وابن ماجه مرفوعاً، ورواه ابن جرير ووكيع موقوفاً. قال ابن كثير: وهذا أصح.

قال ابن الأنباري: قال بعض اللغويين: القنطار: العقدة الوثيقة المحكمة من المال. وفي معنى المقنطرة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها المضغفة، قال ابن عباس: القناطير ثلاثة، والمقنطرة تسعة، وهذا قول الفراء. والثاني: أنها المكملة، كما تقول: بدرة مبدرة، وألف مؤلفة، وهذا قول ابن قتيبة. والثالث: أنها المضروبة حتى صارت ذنانير ودراهم، قاله السدي. وفي المسومة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الراعية، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، ومجاهد في رواية، والضحاك، والسدي، والربيع، ومقاتل. قال ابن قتيبة: يقال: سامت الخيل، وهي سائمة: إذا رعت، وأسمتها وهي مسامة، وسومتها فهي مسومة: إذا رعيها، والمسومة في غير هذا: المعلمة في الحرب بالسومة وبالسيماء، أي: بالعلامة. والثاني: أنها المعلمة، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال قتادة، واختاره الزجاج، وعن الحسن كالقولين. وفي معنى المعلمة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها معلمة بالشية، وهو اللون الذي يخالف سائر لونها، روي عن قتادة. والثاني: بالكس، روي عن المؤرج. والثالث: أنها البلق، قاله ابن كيسان. والثالث: أنها الحسان، قاله ابن عكرمة، ومجاهد. فأما الأنعام، فقال ابن قتيبة: هي: الإبل، والبقرة، والغنم، واحدها: نعم، وهو جمع لا واحد له من لفظه. والمآب: المرجع. وهذه الأشياء المذكورة قد تحسن نية العبد بالتلبس بها، فيثاب عليها، وإنما يتوجه الذم إلى سوء القصد فيها وبها.

﴿قُلْ أَزْيَنُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَزْيَنُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ﴾ روى عطاء بن السائب عن أبي بكر بن حفص قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ هُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾. قال عمر: يا رب الآن حين زيتها؟! فنزلت: ﴿قُلْ أَزْيَنُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ﴾ ووجه الآية أنه خير أن ما عنده خير مما في الدنيا، وإن كان محبوباً، لتركوا ما يحبون لما يرجون. فأما الرضوان، فقرأ عاصم، إلا حفصاً وأبان بن يزيد عنه، برفع الراء في جميع القرآن، واستثنى يحيى والعلمي كسر الراء في المائدة في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَكُمْ﴾ [المائدة: ١٦]. وقرأ الباقر بكسر الراء، والكسر لغة قريش. قال الزجاج: يقال: رضيت الشيء أرضاه رضى ومرضاه ورضواناً ورضواناً. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾. يعلم من يؤثر ما عنده ممن يؤثر شهوات الدنيا، فهو يجازيهم على أعمالهم.

﴿الَّذِينَ يَتْلُونَ رِيسًا إِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا قَدْ قَرَأْتَ دُورًا وَقَدْ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾﴾ الْفَكْرِيُّ وَالْمَكْرِيُّ وَالْقَنْيَنِيُّ وَالْمَكْرِيُّ وَالْمَكْرِيُّ وَالْمَكْرِيُّ بِالْأَسْمَاءِ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الْمَكْرِيُّ﴾ أي: على طاعة الله ﷻ، وعن محارمه ﴿وَالْمَكْرِيُّ﴾ في عقائدهم وأقوالهم ﴿وَالْقَنْيَنِيُّ﴾ بمعنى المطيعين لله ﴿وَالْمَكْرِيُّ﴾ في طاعته. وقال ابن قتيبة: يعني بالنفقة: الصدقة. وفي معنى استغفارهم قولان: أحدهما: أنه الاستغفار المعروف باللسان، قاله ابن مسعود، والحسن في آخرين^(١). والثاني: أنه الصلاة. قاله مجاهد، وقاتة، والضحاك، ومقاتل في آخرين. فعلى هذا إنما سميت الصلاة استغفاراً، لأنهم طلبوا بها المغفرة. فأما السحر، فقال إبراهيم بن السري: السر: الوقت الذي قبل طلوع الفجر، وهو أول إدبار الليل إلى طلوع الفجر، فوصفهم الله بهذه الطاعات، ثم وصفهم بأنهم لشدة خوفهم يستغفرون.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولَا أَلْيَمٍ قَالِمًا بِالْأَفْئِدَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ سبب نزول هذه الآية أن حبرين من أبحار الشام قدما النبي ﷺ، فلما أبصرا المدينة، قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي ﷺ الذي يخرج في آخر الزمان، فلما دخلا

(١) ثبت في الصحيح وغيرهما من المسانيد والسنن من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له». وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل، ثم يقول: يا نافع هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير الطبري.

على النبي ﷺ، عرفاه بالصفة، فقالا: أنت محمد؟ قال: «نعم». قالوا: وأحمد؟ قال: «نعم». قالوا: نسألك عن شهادة، فإن أخبرتنا بها، آمنا بك وصدقناك، فقال: «سلاني». فقال: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله، فنزلت هذه الآية، فأسلمنا، قاله ابن السائب^(١). وقال غيره: هذه الآية رد على نصارى نجران فيما ادعوا في عيسى ﷺ، وقد سبق ذكر خبرهم في أول السورة. وقال سعيد بن جبيرة: كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، وكان لكل حي من العرب صنم أو صنمان، فلما نزلت هذه الآية، خرت الأصنام سجداً. وفي معنى «شَهِدَ اللَّهُ» قولان: أحدهما: أنه بمعنى قضى وحكم، قاله مجاهد، والفراء، وأبو عبيدة. والثاني: بمعنى بين، قاله ثعلب والزجاج، قال ابن كيسان: شهد الله بتدبيره العجيب، وأموره المحكمات عند خلقه، أنه لا إله إلا هو. وسئل بعض الأعراب: ما الدليل على وجود الصانع؟ فقال: إن البعرة تدل على البعير، وآثار القدم تدل على المسير، فهيكلك علوي بهذه اللطافة، ومركز سفلي بهذه الكثافة، أما يدلان على الصانع الخبير؟ قرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، وابن السميع، وعاصم الجحدري (شهداء الله) بضم «الشين» وفتح «الهاء» والدال، وبهزمة مرفوعة بعد المد، وخفض «الهاء» من اسم الله تعالى: «قَالِمًا يَالْقُسُوطِ» أي: بالعدل. قال جعفر الصادق: وإنما كرر «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» لأن الأولى وصف وتوحيد، والثانية رسم وتعليم، أي: قولوا: لا إله إلا هو.

﴿إِنَّ إِلَٰهَ إِلَٰهِي﴾ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا إِلَٰهَ إِلَّا مِنْ بَدْوٍ مَا جَاءَهُمْ بِبَيِّنَاتٍ بَيْنَهُمْ وَمِنْ يَكْفُرُ بِبَيِّنَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ إِلَٰهَهُمْ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: «إِنَّ إِلَٰهَ إِلَٰهِي» الجمهور على كسر «إن» إلا الكسائي، فإنه فتح «الألف»، وهي قراءة ابن مسعود، وابن عباس، وأبي رزين، وأبي العالية، وقتادة. قال أبو سليمان الدمشقي: لما ادعت اليهود أنه لا دين أفضل من اليهودية، وادعت النصاري أنه لا دين أفضل من النصرانية، نزلت هذه الآية. قال الزجاج: الدين: اسم لجميع ما تعبد الله به خلقه، وأمرهم بالإقامة عليه، وأن يكون عاداتهم، وبه يجزيهم. وقال شيخنا علي بن عبيد الله: الدين: ما التزمه العبد لله ﷻ. قال ابن قتيبة: والإسلام الدخول في السلم، أي: في الانقياد والمتابعة، ومثله الاستسلام، يقال: سلم فلان لأمر، واستسلم، وأسلم، كما تقول: اشتى الرجل، أي: دخل في الشتاء، وأربع: دخل في الربيع. وفي الذين أوتوا الكتاب ثلاثة أقوال: أحدهما: أنهم اليهود، قاله الربيع. والثاني: أنهم النصاري، قاله محمد بن جعفر بن الزبير. والثالث: أنهم اليهود والنصارى، قاله ابن السائب. وقيل: الكتاب هاهنا: اسم جنس بمعنى الكتب. وفي الذين اختلفوا فيه أربعة أقوال: أحدها: دينهم. والثاني: أمر عيسى. والثالث: دين الإسلام، وقد عرفوا صحته. والرابع: نبوة محمد ﷺ، وقد عرفوا صفته.

قوله تعالى: «إِلَّا مِنْ بَدْوٍ مَا جَاءَهُمْ أَوْلَمُ» أي: الإيضاح لما اختلفوا فيه «بَيِّنَاتٍ بَيْنَهُمْ» قال الزجاج: معناه: اختلفوا للبني، لا لقصد البرهان، وقد ذكرنا في «البقرة» معنى: سريع الحساب.

﴿فَإِنَّ حَٰجِبَكُمْ فَفَلَّ أَسَلَتْ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ أَتَّبَعْنِي فَقُلْ لِلَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَاسَلْتُمْ إِنِ اسْتَلَمُوا فَقَدْ أَخْتَدُوا وَلَٰئِذَا تَوَلَّوْا قُلْ لَكُمْ عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِمِصْرٍ يَّالُودٍ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: «فَإِنَّ حَٰجِبَكُمْ» أي: جادلوك، وخاصموك. قال مقاتل: يعني اليهود، وقال ابن جرير: يعني نصارى نجران في أمر عيسى، وقال غيره: اليهود والنصارى. «فَقُلْ أَسَلَتْ وَجْهِي لِلَّهِ» قال الفراء: معناه: أخلصت عملي، وقال الزجاج: قصدت بعبادتي إلى الله.

قوله تعالى: «وَمَنْ أَتَّبَعْنِي» أثبت الياء في الوصل دون الوقف أهل المدينة والبصرة، وابن شنبوذ عن قبل، ووقف ابن شنبوذ ويعقوب بياء. قال الزجاج: والأحب إلي اتباع المصحف. وما حذف من الياءات في مثل قوله تعالى: «وَمَنْ أَتَّبَعْنِي» و«لَيْنَ أَعْرَتَيْنِ» و«رَبِّ أَعْرَتَيْنِ» و«رَبِّ أَعْنَتَيْنِ». فهو على ضربين: أحدهما: ما كان مع النون، فإن كان رأس آية، فأهل اللغة يجيزون حذف الياء، ويسمون أواخر الآي الفواصل كما أجازوا ذلك في الشعر.

(١) رواه الواحدي في «أسباب التزول» بدون سند عن ابن السائب الكلبي.

رخصة، فحكم عليهما بالرجم، فقالوا: جرّت علينا يا محمد، ليس علينا الرجم. فقال: بيني وبينكم التوراة، فجاء ابن صوريا، فقرأ من التوراة، فلما أتى على آية الرجم، وضع كفه عليها، وقرأ ما بعدها، فقال ابن سلام: قد جاوزها، ثم قام، فقرأها، فأمر رسول الله ﷺ باليهوديين، فرجما، فغضب اليهود. فنزلت هذه الآية. رواه أبو صالح عن ابن عباس^(١). والثالث: أن النبي ﷺ دعا اليهود إلى الإسلام، فقال نعمان بن أبي أوفى: هلم نحاكمك إلى الأحبار. فقال: بل إلى كتاب الله، فقال: بل إلى الأحبار، فنزلت هذه الآية، قاله السدي. والرابع: أنها نزلت في جماعة من اليهود، دعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: نحن أحق بالهدى منك، وما أرسل الله نبياً إلا من بني إسرائيل. قال: فأخرجوا التوراة، فإني مكتوب فيها أني نبي، فأبوا، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل بن سليمان. فأما التفسير، فالنصيب الذين أوتوه: العلم الذي علموه من التوراة. وفي الكتاب الذي دعوا إليه قولان: أحدهما: أنه التوراة، رواه عكرمة، عن ابن عباس، وهو قول الأكثرين. والثاني: أنه القرآن، رواه أبو صالح، عن ابن عباس، وهو قول الحسن، وقناة. وفي الذين أريد أن يحكم الكتاب بينهم فيه أربعة أقوال: أحدها: ملة إبراهيم. والثاني: أنه القرآن، رواه أبو صالح، عن ابن عباس، وهو قول الحسن، وقناة. وفي الذي أريد أن يحكم الكتاب بينهم فيه أربعة أقوال. أحدها: ملة إبراهيم. والثاني: حد الزنى. روي عن ابن عباس. والثالث: صحة دين الإسلام، قاله السدي. والرابع: صحة نبوة محمد ﷺ، قاله مقاتل. فإن قيل: التولي هو الإعراض، فما فائدة تكريره؟ فالجواب من أربعة أوجه: أحدها: التأكيد. والثاني: أن يكون المعنى: يتولون عن الداعي، ويعرضون عما دعا إليه. والثالث: يتولون بأبدانهم، ويعرضون عن الحق بقلوبهم. والرابع: أن يكون الذين تولوا علماءهم، والذين أعرضوا أتباعهم، قاله ابن الأنباري.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَرَغِمَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ يعني: الذي حملهم على التولي والإعراض أنهم قالوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾ وقد ذكرناها في «البقرة». و﴿يَفْعَلُونَ﴾: يختلقون. وفي الذي اختلقوه قولان: أحدهما: أنه قولهم: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات، قاله مجاهد، والزجاج. والثاني: قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، قاله قتادة، ومقاتل.

﴿لَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُعِدَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ﴾ معناه: كيف يكون حالهم إذا جمعناهم «ليوم» أي: لجزاء يوم، أو لحساب يوم. وقيل: «اللام» بمعنى: «في».

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْيَوْمِ وَاللَّيْلِ تَوْفِ الْمَلِكَ مَنْ كَفَّاهُ وَتَنْزِجِ الْمَلِكَ مَنْ كَفَّاهُ وَنُزِّلْ مَنْ كَفَّاهُ يَدُكَ الْعَزِيزُ إِنَّكَ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْيَوْمِ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن النبي ﷺ لما فتح مكة، ووعده أمته ملك فارس والروم، قال المنافقون واليهود: هيهات، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس، وأنس بن مالك. والثاني: أن النبي ﷺ سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم في أمته، فنزلت هذه الآية، حكاه قتادة^(٢). والثالث: أن اليهود قالوا: والله لا نطيع رجلاً جاء ينقل النبوة من بني إسرائيل إلى غيرهم، فنزلت هذه الآية، قاله أبو سليمان الدمشقي. فأما التفسير، فقال الزجاج: قال: الخليل، وسيبويه، وجميع النحويين الموثوق بعلمهم: «اللهم» بمعنى «يا الله»، و«الميم» المشددة

(١) جاء في «الصحيحين» وفي «سنن أبي داود» واللفظ له عن ابن عمر أنه قال: إن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ، فذكروا له أن رجلاً منهم وامراً زنياً، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الزنى؟» فقالوا: نفضحهم ويجلدون. فقال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم فأثروا بالتوراة، فنشروها، فجعل أحدهم يده على آية الرجم، ثم جعل يقرأ ما قبلها وما بعدها. فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفعها، فإذا فيها آية الرجم. فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما. فهذا الحديث الصحيح ليس فيه أن هذه القصة سبب لنزول الآية. وأثر المصنف رحمه الله إنما هو من رواية الكلبي عن أبي صالح. والكلبي هذا هو محمد بن السائب وقد اتفق العلماء على عدم الاحتجاج به، بل بعضهم نسب إلى الكذب، وقال البخاري: قال علي: حدثنا يحيى عن سفيان، قال لي الكلبي: كلما حدثتكم عن أبي صالح فهو كذب.

(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال: ذكر لنا ...

زيدت عوضاً من «يا»، لأنهم لم يجدوا «يا» مع هذه «الميم» في كلمة، ووجدوا اسم الله ﷻ مستعملاً بـ «يا» إذا لم تذكر الميم، فعلموا أن الميم في آخر الكلمة بمنزلة «يا» في أولها والضمّة التي في «الهاء» هي ضمة الاسم المنادى المفرد. قال أبو سليمان الخطابي: ومعنى «مالك الملك»: أنه بيده، يؤتبه من يشاء، قال: وقد يكون معناه: مالك الملوك، ويحتمل أن يكن معناه: وارث الملك يوم لا يدعيه مدّع، كقوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَبِيرُ﴾ [الفرقان: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ في هذا الملك قولان: أحدهما: أنه النبوة، قاله ابن جبير، ومجاهد. والثاني: أنه المال، والعبيد، والحفدة، ذكره الزجاج. وقال مقاتل: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾، يعني محمداً وأمه، وتنزع الملك ممن تشاء، يعني فارس والروم. ﴿وَتُعْزِّزُ مَنْ تَشَاءُ﴾ محمداً وأمه ﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ فارس والروم. وبماذا يكون هذا العز والذل؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: العز بالنصر، والذل بالقهر، والثاني: العز بالغنى، والذل بالفقر، والثالث: العز بالطاعة، والذل بالمعصية.

قوله تعالى: ﴿يَبْدَأُ الْخَيْرَ﴾ قال ابن عباس: يعني النصر والغنيمة، وقيل: معناه بيدك الخير والشر، فافتنى بأحدهما، لأنه المرغوب فيه.

﴿فُلْجُ الْكَيْدِ فِي أَنْهَارٍ وَفُلْجُ أَنْهَارٍ فِي الْبَلِّ وَتُخْرِجُ الْآلَمَ مِنَ الْآلَمِ وَتُخْرِجُ الْآلَمَ مِنَ الْآلَمِ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١) قوله تعالى: ﴿فُلْجُ الْكَيْدِ فِي أَنْهَارٍ﴾ أي: تدخل ما نقصت من هذا في هذا. وقال ابن عباس، ومجاهد: ما ينقص من أحدهما يدخل في الآخر. قال الزجاج: يقال: ولج الشيء يلج ولجاً ولوجاً وولجة.

قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ الْآلَمَ مِنَ الْآلَمِ وَتُخْرِجُ الْآلَمَ مِنَ الْآلَمِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ و«لَبَلْدُ مَيِّتٍ» [الأعراف: ٥٧]، و«أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا» [الأنعام: ١٢٢]، و«وَلَنْ يَكُنَّ مَيِّتَةً» [الأنعام: ١٣٩]، و«وَالْأَرْضُ أَلْيَتُهُ» [يس: ٣٣] كله بالتخفيف. وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي: ﴿وَتُخْرِجُ الْآلَمَ مِنَ الْآلَمِ وَتُخْرِجُ الْآلَمَ مِنَ الْآلَمِ﴾ و«لَبَلْدُ مَيِّتٍ» وخفف حمزة، والكسائي غير هذه الحروف. وقرأ نافع: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا» و«الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ» و«لَحْمٌ أَخِيهِ مَيِّتًا» [الحجرات: ١٢] وخفف في سائر القرآن ما لم يمت. وقال أبو علي: الأصل التشقيط، والمخفف محذوف منه، وما مات. وما لم يمت في هذا الباب مستويان في الاستعمال. وأنشدوا:

ومنهل فيه الغراب مَيِّتٌ فلهذا قد مات. وقال آخر:

ليسَ مِنْ مَاتَ فاستراحَ بِمَيِّتٍ إنما المَيِّتُ مَيِّتٌ الأحياء^(٢)

فخفف ما مات، وشدد ما لم يمت. وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(٣) [الزمر: ٣٠] ثم في معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إخراج الإنسان حياً من النطفة، وهي ميتة. وإخراج النطفة من الإنسان، وكذلك إخراج الفرج من البيضة، وإخراج البيضة من الطائر، هذا قول ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وابن جبير، والجمهور. والثاني: أنه إخراج المؤمن الحي بالإيمان من الكافر الميت بالكفر، وإخراج الكافر الميت بالكفر من المؤمن الحي بالإيمان، روى نحو هذا الضحّاك عن ابن عباس، وهو قول الحسن، وعطاء. والثالث: أنه إخراج السنبلة الحية من الحبة الميتة، والنخلة الحية من النواة الميتة، والنواة الميتة من النخلة الحية، قاله السدي. وقال الزجاج: يخرج النبات الغض من الحب اليابس، والحب اليابس من النبات الحي النامي.

قوله تعالى: ﴿يَغْيَرُ حِسَابٍ﴾ أي: بغير تقدير. قال الزجاج: يقال للذي ينفق موسعاً: فلان ينفق بغير حساب، كأنه لا يحسب ما أنفقه إنفاقاً.

(١) البيت نسبة في «اللسان» لعدي ابن الرعلاء وبعده:

إنما الميت من يعميش شقيلاً
فإناس يمسحون بماء

كاسفاً باله قليل الرجاء
وأناس حلسونهم في السماء

﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَسْتَقْبُوا مِنْهُمْ تَقَبُّلاً وَيُؤْمِرُكُمْ اللَّهُ تَعَالَى وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن عبادة بن الصامت كان له حلفاء من اليهود، فقال يوم الأحزاب: يا رسول الله إن معي خمسمائة من اليهود، وقد رأيت أن أستظهر بهم على العدو، فنزلت هذه الآية، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنها نزلت في عبد الله بن أبيّ، وأصحابه من المنافقين كانوا يتولون اليهود، ويأتونهم بالأخبار يرجون لهم الظفر من النبي ﷺ، فنهى الله المؤمنين عن مثل فعلهم، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أن قوماً من اليهود، كانوا يباطنون نفراً من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فنهاهم قوم من المسلمين عن ذلك، وقالوا: اجتنبوا هؤلاء اليهود، فأبوا، فنزلت هذه الآية. روي عن ابن عباس أيضاً. والرابع: أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره، كانوا يظهرون المودة لكفار مكة، فنهاهم الله ﷻ عن ذلك، هذا قول المقاتلين، ابن سليمان، وابن حيان. فأما التفسير، فقال الزجاج: معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا يجعل المؤمن ولايته لمن هو غير مؤمن، أي: لا يتناول الولاية من مكان دون مكان المؤمنين، وهذا كلام جرى على المثل في المكان، كما تقول: زيد دونك، ولست تريد المكان، ولكنك جعلت الشرف بمنزلة الارتفاع في المكان، والخسة كالاستفال في المكان. ومعنى ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي: فإله بريء منه.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَسْتَقْبُوا مِنْهُمْ تَقَبُّلاً﴾ قرأ يعقوب، والمفضل عن عاصم «تَقَبُّلاً» بفتح التاء من غير ألف، قال مجاهد: إلا مُصَانَعَةً في الدنيا. قال أبو العالية: التقاة باللسان، لا بالعمل.

فصل

والتقية رخصة، وليست بعزيمة. قال الإمام أحمد - وقد قيل: إن عرضت على السيف تجيب؟ - قال: لا. وقال: إذا أجاب العالم تقية، والجاهل بجهل، فمتى يبين الحق؟ وسنشرح هذا المعنى في «النحل» عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾ [النحل: ١٠٦]، إن شاء الله.

﴿قُلْ إِنْ تُحِبُّوا مَا فِي سُورَتِكُمْ أَوْ بُدُّوا بِهَا مِنْكُمْ وَمَا فِي السُّورَاتِ وَمَا فِي الْأَنْزِيلِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تُحِبُّوا مَا فِي سُورَتِكُمْ أَوْ بُدُّوا بِهَا مِنْكُمْ﴾ قال ابن عباس: يعني اتخاذ الكافرين أولياء.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُنْصَرًّا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ ثَوَدٌ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُؤْمِرُكُمْ اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُنْصَرًّا﴾ قال الزجاج: نصب «اليوم» بقوله: ﴿وَيُؤْمِرُكُمْ اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ﴾ في ذلك اليوم. قال ابن الأنباري: يجوز أن يكون متعلقاً بالمصير، والتقدير: وإلى الله المصير، يوم تجد. ويجوز أن يكون متعلقاً بفعل مضمر، والتقدير: اذكر يوم تجد. وفي كيفية وجود العمل وجهان: أحدهما: وجوده مكتوباً في الكتاب. والثاني: وجود الجزاء عليه. والأمد: الغاية.

قال الطرماح:

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ عِدَّةَ الْعَمَلِ
وَمُسَوِّدٌ إِذَا انْقَضَى أَمَلُهُ^(١)

يريد: غاية أجله.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣١﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن النبي ﷺ وقف

(١) «ديوانه» ١١٢ وروايته فيه:

ر ومُسَوِّدٌ إِذَا انْقَضَى عَمَلُهُ

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ عِدَّةَ الْعَمَلِ
يريد أن المرء هالك إذا انقضى عدد أيامه وأكله في هذه الحياة الدنيا.

على قريش، وقد نصبوا أصنامهم يسجدون لها، فقال: «يا معشر قريش: لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم». فقالوا: يا محمد إنما نعبد هذه حبا لله، ليقربونا إلى الله زلفى. فنزلت هذه الآية، رواه الضحاك عن ابن عباس^(١). والثاني: أن اليهود قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، فنزلت هذه الآية، فعرضها النبي ﷺ عليهم، فلم يقبلوها، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أن ناسا قالوا: إنا لنحب ربنا حبا شديدا، فأحب الله أن يجعل لحبه علما، فأنزل هذه الآية، قاله الحسن، وابن جريج. والرابع: أن نصارى نجران، قالوا: إنما نقول هذا في عيسى حبا لله، وتعظيما له، فنزلت هذه الآية، ذكره ابن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، واختاره أبو سليمان الدمشقي.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٢)

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن عبد الله بن أبي قال لأصحابه: إن محمداً يجعل طاعته كطاعة الله، ويأمرنا أن نعبه كما أحببت النصارى عيسى ابن مريم، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس. والثاني: أن النبي ﷺ دعا اليهود إلى الإسلام، فقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، ونحن أشد حبا لله مما تدهوننا إليه، فنزلت: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ ونزلت هذه الآية، هذا قول مقاتل. والثالث: أنها نزلت في نصارى نجران، قاله أبو سليمان الدمشقي.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ بِمُسْلِمٍ خَيْرًا مِنْكَ وَأَلَّٰهُنَّ أَفْكَهٌ﴾ (٣٣)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ بِمُسْلِمٍ خَيْرًا مِنْكَ وَأَلَّٰهُنَّ أَفْكَهٌ﴾ قال ابن عباس: قالت اليهود: نحن أبناء إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ونحن على دينهم، فنزلت هذه الآية. قال الزجاج: ومعنى اصطفاهم في اللغة: اختارهم، فجعلهم صفوة خلقه، وهذا تمثيل بما يرى، لأن العرب تمثل المعلوم بالشيء المرمي، فإذا سمع السامع ذلك المعلوم كان عنده بمنزلة ما يشاهد عيانا، فنحن نعين الشيء الصافي أنه النقي من الكدر، فكذلك صفوة الله من خلقه. وفيه ثلاث لغات: صفوة، وصفوة، وصفوة. وأما آدم فعربي، وقد ذكرنا اشتقاقه في «البقرة». وأما نوح، فأعجمي مُعرب، قال أبو سليمان الدمشقي: اسم نوح: السكن، وإنما سمي نوحا، لكثرة نوحه. وفي سبب نوحه خمسة أقوال: أحدها: أنه كان ينوح على نفسه، قاله يزيد الرقاشي. والثاني: أنه كان ينوح لمعاصي أهله، وقومه. والثالث: لمراجعته ربه في ولده. والرابع: لدعائه على قومه بالهلاك. والخامس: أنه مر بكلب مجذوم، فقال: اخسأ يا قبيح، فأوحى الله إليه: أعبتني يا نوح، أم عبت الكلب؟ وفي آل إبراهيم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه من كان على دينه، قاله ابن عباس، والحسن. والثاني: أنهم إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، قاله مقاتل. والثالث: أن المراد «آل إبراهيم» هو نفسه، كقوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، ذكره بعض أهل التفسير. وفي «عمران» قولان: أحدهما: أنه والد مريم، قاله الحسن، وهب. والثاني: أنه والد موسى، وهارون، قاله مقاتل. وفي «آله» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه عيسى ﷺ، قاله الحسن. والثاني: أن آل موسى وهارون، قاله مقاتل. والثالث: أن المراد بـ«آله» نفسه، ذكره بعض المفسرين، وإنما خص هؤلاء الذكر، لأن الأنبياء كلهم من نسلهم. وفي معنى اصطفاء هؤلاء المذكورين ثلاثة أقوال: أحدها: أن المراد اصطفي دينهم على سائر الأديان، قاله ابن عباس، واجتاراه الفراء، والدمشقي. والثاني: اصطفاهم بالنبوة، قاله الحسن، ومجاهد، ومقاتل. والثالث: اصطفاهم بتفضيلهم في الأمور التي ميزهم بها على أهل زمانهم. والمراد بـ«العالمين»: عالمو زمانهم، كما ذكرنا في «البقرة».

﴿ذُرِّيَّةٌ مِّمَّنْ لَدَىٰ اللَّهِ سَيِّغٌ لِّهِمْ﴾ (٣٤)

قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّمَّنْ لَدَىٰ اللَّهِ سَيِّغٌ لِّهِمْ﴾ قال الزجاج: نضبها على البذل، والمعنى: اصطفي ذرية بعضها من بعض. قال ابن الأنباري: وإنما قال: بعضها، لأن لفظ الذرية مؤنث، ولو قال: بعضهم، ذهب إلى معنى الذرية. وفي معنى هذه البعضية قولان: أحدهما: أن بعضهم من بعض في التناثر والدين، لا في التناسل، وهو معنى قول ابن عباس،

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» من طريق جوير، عن الضحاك، عن ابن عباس. وجوير، هو أبو القاسم البلخي، نزيل الكوفة، راوي التفسير، قال الحافظ في «التريب»: ضعيف جداً.

وقتادة. والثاني: أنه في التسلسل، لأن جميعهم ذرية آدم، ثم ذرية نوح، ثم ذرية إبراهيم، ذكره بعض أهل التفسير. قال أبو بكر النقاش: ومعنى قوله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ أن الأبناء ذرية للأبَاء، والآباء ذرية للأبْنَاء، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ لَيْسَ لَهُمْ رَاغِبٌ وَلَا رَاجِعٌ﴾ [يس: ٤١]، فجعل الآباء ذرية للأبناء، وإنما جاز ذلك، لأن الذرية مأخوذة من: ذرأ الله الخلق، فسمي الولد للوالد ذرية، لأنه ذرئ منه، وكذلك يجوز أن يقال للأب: ذرية للابن، لأن ابنه ذرئ منه، فالفاعل يتصل به من الوجهين، ومثله: ﴿يُحْيِيهِمْ كَضْبَ أَلْفٍ﴾ [البقرة: ١٦٥] فأضاف الحب إلى الله، والمعنى: كحب المؤمن لله، ومثله ﴿وَيُطِيعُونَ أَمْرًا عَلَىٰ حُيُوتٍ﴾ [الدبر: ٤٨]، فأضاف الحب للطعام.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٥)

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ في «إذ» قولان: أحدهما: أنها زائدة، واختاره أبو عبيدة، وابن قتيبة. والثاني: أنها أصل في الكلام. وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: أن المعنى: اذكر إذ قالت امرأة عمران، قاله المبرد، والأخفش. والثاني: أن العامل في «إِذْ قَالَتِ» معنى الاصطفاء، فيكون المعنى: اصطفى آل عمران، إذ قالت امرأة عمران، واصطفاهم إذا قالت الملائكة: يا مريم، هذا اختيار الزجاج. والثالث: أنها من صلة «سميع» تقديره: والله سميع إذ قالت، وهذا اختيار ابن جرير الطبري. قال ابن عباس: واسم امرأة عمران حنة، وهي أم مريم، وهذا عمران بن ماثان^(١)، وليس: «عمران أبي موسى» ولست هذه مريم أخت موسى. وبين عيسى وموسى ألف وثمانمائة سنة. والمُحَرَّرُ: العتيق. قال ابن قتيبة: يقال: اعتقت الغلام، وحررت: سواء. وأرادت: أي نذرت أن أجعل ما في بطني محرراً من التعبد للدنيا، ليعبدك. وقال الزجاج: كان على أولادهم فرضاً أن يطيعوهم في نذرهم، فكان الرجل ينذر في ولده أن يكون خادماً في متعبدهم. وقال ابن إسحاق: كان السبب في نذرها أنه أمسك عنها الولد حتى أسنت، فرأت طائراً يطعم فرخاً له، فدعت الله أن يهب لها ولداً، وقالت: اللهم لك عليّ إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس، فحملت بمريم، وهلك عمران. وهي حامل. قال القاضي أبو يعلى: والنذر في مثل ما نذرت صحيح في شريعتنا، فإنه إذا نذر الإنسان أن ينشئ ولده الصغير على عبادة الله وطاعته، وأن يعلمه القرآن، والفقه، وعلوم الدين، صح النذر.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنَّ الذَّكَرَ لَأَكْثَرُ ۖ وَلَئِنِّي سَنَتُّهَا مَرَّةً وَآخَرًا وَلَئِنِّي أَخِيفُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٣٦)

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ قرأ ابن عامر، وعاصم إلا حفصاً ويعقوب «بِمَا وَضَعْتَ» بإسكان العين، وضم التاء. وقرأ الباقون بفتح العين، وجزم التاء، قال ابن قتيبة: من قرأ بجزم التاء، وفتح العين، فيكون في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: إني وضعتها أنثى، وليس الذكر كالأنثى، والله أعلم بما وضعت. ومن قرأ بضم التاء، فهو كلام متصل من كلام أم مريم.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنَّ الذَّكَرَ لَأَكْثَرُ﴾ من تمام اعتذارها، ومعناه: لا تصلح الأنثى لما يصلح له الذكر، من خدمته المسجد، والإقامة فيه، لما يلحق الأنثى من الحيض والنفاس. قال السدي: ظنت أن ما في بطنها غلام، فلما وضعت جارية، اعتذرت. ومريم: اسم أعجمي. وفي الرجيم قولان: أحدهما: الملعون، قاله قتادة. والثاني: أنه المرجوم بالحجارة، كما تقول: قتيل بمعنى مقتول، قاله أبو عبيدة، فعلى هذا سني رجيماً، لأنه يرمى بالنجوم.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَلْبَسَهَا ثِيَابًا حَسَنًا وَكَلَّمَهَا وَكَوْنًا كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْوَحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُكَ أَنَّ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٧)

قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ قرأ مجاهد (فتقبلها) يسكون اللام (رَبُّهَا) بنصب الباء (وَأَلْبَسَهَا) بكسر الباء يسكون التاء على معنى الدعاء قال الزجاج: الأصل في العربية: فتقبلها بتقبل حسن، ولكن «قبول» محمول على قبلها

قبولاً يقال: قبلت الشيء قبُولاً، ويجوز قبُولاً: إذا رضيته. ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، أي: جعل نشوؤها نشوءاً حسناً، وجاء «نباتاً» على غير لفظ أنبت، على معنى: نبت نباتاً حسناً. وقال ابن الأنباري: لما كان «أنبت» يدل على «نبت» حمل الفعل على المعنى، فكانه قال: وأنبتها، فنبتت هي نباتاً حسناً. قال امرؤ القيس:

فصرنا إلى الحسنى ورقاً كلامنا ورضتُ فذلتُ صعبةً أيَّ إذلال^(١)

أراد: أي رياضة، فلما دل «رضت» على «أذلت» حمّله على المعنى. وللمفسرين في معنى النبات الحسن، قولان. أحدهما: أنه كمال النشوء، قال ابن عباس: كانت تنبت في اليوم ما ينبت المولود في عام، والثاني: أنه ترك الخطايا. قال قتادة: حدثنا أنها كانت لا تصيب الذنوب، كما يصيب بنو آدم.

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَهَا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «وكفلها» بفتح الفاء خفيفة، و«زكرياء» مرفوع ممدود. وروى أبو بكر عن عاصم: تشديد الفاء، ونصب «زكرياء»، وكان يمد «زكرياء» في كل القرآن في رواية أبي بكر. وروى حفص عن عاصم: تشديد الفاء و«زكريا» مقصورة في كل القرآن. وكان حمزة والكسائي يشددان و«كفلها»، ويقصران «زكريا» في كل القرآن. فأما «زكريا» فقال الفراء: فيه ثلاث لغات: أهل الحجاز يقولون: هذا زكريا قد جاء، مقصور، وزكرياء، ممدود، وأهل نجد يقولون: زكري، فيجرونه، ويلقون الألف. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي، عن ابن دريد، قال: زكري اسم أعجمي، يقال: زكري، وزكرياء ممدود، وزكريا مقصور. وقال غيره: وزكري بتخفيف الياء، فمن قال: زكرياء بالمد، قال في الثنية: زكرياوان، وفي الجمع زكرياؤون، ومن قال: زكريا بالقصر، قال في الثنية زكريان، كما تقول: مدنيان، ومن قال: زكري بتخفيف الياء، قال في الثنية: زكريان - الياء خفيفة، وفي الجمع: زكرون - بطرح الياء.

الإشارة إلى كفالة زكريا مريم

قال السدي: انطلقت بها أمها في خرقتها، وكانوا يقترحون على الذين يؤتون بهم، فقال زكريا وهو نبيهم يومئذ: أنا أحقكم بها، عندي أختها، فأبوا، وخرجوا إلى نهر الأردن، فألقوا أقلامهم التي يكتبون بها، فجرت الأقلام، وثبت قلم زكريا، فكفلها. قال ابن عباس: كانوا سبعة وعشرين رجلاً، فقالوا: نطرح أقلامنا، فمن سعد قلمه مغالباً للجرية فهو أحق بها، فصعد قلم زكريا، فعلى هذا القول كانت غلبة زكريا بمساعدة قلمه، وعلى قول السدي بوقوفه في جريان الماء. وقال مقاتل: كان يخلق عليه الباب، ومعه المفتاح، لا يأمن عليه أحداً، وكانت إذا حاضت، أخرجها إلى منزله تكون مع أختها أم يحيى، فإذا طهرت، ردها إلى بيت المقدس. والأكثر أن يكون على أنه كفلها منذ كانت طفلة بالقرعة. وقد ذهب قوم إلى أنه كفلها عند طفولتها بغير قرعة، لأجل أن أمها ماتت، وكانت خالتها عنده، فلما بلغت، أدخلوها الكنيسة لنذر أمها، وإنما كان الاقتراع بعد ذلك بمدة، لأجل سنة أصابتهم. فقال محمد بن إسحاق: كفلها زكريا إلى أن أصابت الناس سنة، فشكا زكريا إلى بني إسرائيل ضيق يده، فقالوا: ونحن أيضاً كذلك، فجعلوا يتدافعونها حتى اقترحوا، فخرج السهم على جريج النجار، وكان فقيراً، وكان يأتيها باليسير، فينمي، فدخل زكريا، فقال: ما هذا على قدر نفقة جريج؟ فمن أين هذا؟ قالت: هو من عند الله. والصحيح ما عليه الأكثر، وأن القوم تشاحوا على كفالتها، لأنها كانت بنت سيدهم وإمامهم عمران، كذلك قال قتادة في آخرين، وأن زكريا ظهر عليهم بالقرعة منذ طفولتها. فأما المحراب، فقال أبو عبيدة: المحراب سيد المجالس، ومقدمها، وأشرفها، وكذلك هو من المسجد. وقال الأصمعي: المحراب هاهنا: الغرفة. وقال الزجاج: المحراب في اللغة: الموضع العالي الشريف.

(١) «ديوانه» ص ٣٢. وصرنا إلى الحسنى. أي: لما نحب من الأمور. ورق كلامنا: أي: صرنا إلى الصبا وجد اللعب واللهو والغزل، فلم نرفع أصواتنا لتلا يشعر بنا. ورضت فذلت: بعد امتناع وصعوبة. والمعنى: ليتنا بالكلام والمداراة، كما يراض البعير بالسير حتى يذل. وقوله: أيَّ إذلال، محمول على: رضت، لأن معناه: أذلت.

قال الشاعر:

رَبُّهُ مُحَرَّابٌ إِذَا جُنَّتْهَا لَمْ أَلْقِهَا أَوْ أُرْتَقِي سَلْمًا^(١)
قوله تعالى: ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ قال ابن عباس: ثمار الجنة، فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، وهذا قول الجماعة.

قوله تعالى: ﴿أَنْ لَّيْ هَذَا﴾ أي: من أين؟ قال الربيع بن أنس: كان زكريا إذا خرج، أغلق عليها سبعة أبواب، فإذا دخل وجد عندها رزقاً. وقال الحسن: لم ترتضع ثدياً قط، وكان يأتيها رزقها من الجنة، فيقول زكريا: أنى لك هذا؟ فنقول: هو من عند الله، فتكلمت وهي صغيرة. وزعم مقاتل أن زكريا استأجر لها ظفراً، وعلى ما ذكرنا عن ابن إسحاق يكون قوله لها: أنى لك هذا؟ لاستكثار ما يرى عندها. وما عليه الجمهور أصح. والحساب في اللغة: التقدير والتضييق.

﴿هَٰذَاكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبِّهٖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاۥ﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَاكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبِّهٖ﴾ قال المفسرون: لما عاين زكريا هذه الآية العجيبة من رزق الله تعالى مريم الفاكهة في غير حينها، طمع في الولد على الكبر. و﴿وَمِنْ لَدُنْكَ﴾ بمعنى: من عندك. والذرية، تقال للجمع، وتقال للواحد، والمراد بها هاهنا: الواحد. قال الفراء: وإنما قال طيبة، لتأنيث الذرية، والمراد بالطيبة: النقية الصالحة. والسميع: بمعنى السامع. وقيل: أراد مجيب الدعاء.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بَيِّنٍ مُّصَدِّقًا لِّمَا كُنْتَ مِنَ اللَّهِ وَكَانَ وَدَّيْنًا مِنَ الصَّٰلِحِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمر، وابن عامر: «فنادته» بالتاء، وقرأ حمزة، والكسائي: «فناداه» بآلف مماله، قال أبو علي: هو كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَسُوۡفَ﴾ [يوسف: ٢٠]. وقرأ علي، وابن مسعود، وابن عباس: «فناداه» بآلف. وفي الملائكة قولان: أحدهما: جبريل وحده، قاله السدي، ومقاتل، ووجهه أن العرب تخبر عن الواحد بلفظ الجمع، تقول: ركبت في السفن، وسمعت هذا من الناس. والثاني: أنهم جماعة من الملائكة، وهو مذهب قوم، منهم ابن جرير الطبري. وفي المحراب قولان: أحدهما: أنه المسجد. والثاني: أنه قبلة المسجد. وفي تسمية محراب الصلاة محراباً، ثلاثة أقوال: أحدها: لانفراد الإمام فيه، وتبعده من الناس، ومنه قولهم: فلان حرب لفلان: إذا كان بينهما مباغضة، وتباعد، ذكره ابن الأنباري عن أبيه، عن أحمد بن عبيد. والثاني: أن المحراب في اللغة أشرف الأماكن، وأشرف المسجد مقام الإمام. والثالث: أنه من الحرب فالمصلي محارب للشيطان.

قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بَيِّنٍ﴾ قرأ الأكثرون بفتح الألف على معنى: فنادته الملائكة بأن الله، فلما حذف الجار منها، وصل الفعل إليها، فنصبها. وقرأ ابن عامر، وحمزة، بكسر «إِنَّ» فأضمر القول. والتقدير: فنادته، فقالت: إن الله يبشرك. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: يبشرك بضم الياء: وفتح الباء، والتشديد في جميع القرآن إلا في ﴿حَدَّثَ﴾ عَسَقَ ﴿﴾: ﴿يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ﴾ [الشورى: ٢٣] فإنهما فتحا الياء وضما الشين، وخففاها. فأما نافع، وابن عامر، وعاصم، فشددوا كل القرآن. وقرأ حمزة: «يبشر» خفيفاً في كل القرآن، إلا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤]. وقرأ الكسائي «يبشر» مخففة في خمسة مواضع، في (آل عمران) في قصة زكريا، وقصة مريم، في (بني إسرائيل)، وفي (الكهف) وفي (حم عسق) قال الزجاج: وفي «يبشرك» ثلاث لغات: أحدها: «يبشرك»، بفتح الباء وتشديد الشين. والثاني: «يبشرك» بإسكان الياء، وضم الشين. والثالثة: «يبشرك» بضم الياء وإسكان الباء، فمعنى «يبشرك» بالتشديد و«يبشرك» بضم الياء: البشارة. ومعنى «يبشرك» بفتح الياء: يَسْرُكُ ويفرحك، يقال: بَشَرْتُ الرجل أَبَشْرُهُ، : إذا أفرحته، وبشر الرجل يَبْشُرُ : إذا فرح.

وَأَنشُدِ الْأَخْفَشَ وَالْكَسَائِي:

وَإِذَا لَقِيتَ الْبَاهِشِينَ إِلَى الْعَلِيِّ
فَاعْنَهُمْ وَابْشُرْ بِمَا بَشُرُوا بِهِ

عُذْرًا أَكْفَهُمْ بِسِقَاعِ مُمَجَّلٍ
وَإِذَا هُمْ نَزَلُوا بِضَنْكَ فَاَنْزَلُ^(١)

فهذا على بشر يبشر: إذا فرح. وأصل هذا كله أن بشرة الإنسان تنبسط عند السرور، ومنه قولهم: يلقاني ببشر. أي: بوجه منبسط، وفي معنى تسميته «يحيى» خمسة أقوال: أحدها: لأن الله تعالى أحيا به عقر أمه، قاله ابن عباس. والثاني: لأن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان، قاله قتادة. والثالث: لأنه أحيا بين شيخ وعمجوز، قاله مقاتل. والرابع: لأنه حيي بالعلم والحكمة التي أوتيها، قاله الزجاج. والخامس: لأن الله أحيا بالطاعة، فلم يعص، ولم يهجم، قاله الحسن بن الفضل. وفي «الكلمة» قولان: أحدهما: أنها عيسى، وسمي كلمة، لأنه بالكلمة كان، وهي «كن» وهذا قول ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والسدي، ومقاتل. وقيل: إن يحيى كان أكبر من عيسى بستة أشهر، وقتل يحيى قبل رفع عيسى. والثاني: أن الكلمة كتاب الله وآياته، وهو قول أبي عبيدة في آخرين. ووجهه أن العرب تقول: أنشدني فلان كلمة، أي: قصيدة. وفي معنى السيد ثمانية أقوال: أحدها: أنه الكريم على ربه، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: أنه الحليم التقى، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال الضحاك. والثالث: أنه الحكيم، قاله الحسن، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، وعطاء، وأبو الشعثاء، والربيع، ومقاتل. والرابع: أنه الفقيه العالم، قاله سعيد بن المسيب. والخامس: أنه التقى، رواه سالم عن ابن جبيرة. والسادس: أنه الحسن الخلق، رواه أبو روق عن الضحاك. والسابع: أنه الشريف، قاله ابن زيد. والثامن: أنه الذي يفوق قومه في الخير، قاله الزجاج. وقال ابن الأنباري: السيد هاهنا الرئيس، والإمام في الخير. فأما «الحصور» فقال ابن قتيبة: هو الذي لا يأتي النساء، وهو فعول بمعنى مفعول، كأنه محصور عنهن، أي: محبوبس عنهن. وأصل الحصر: الحبس. ومما جاء على «فعول» بمعنى «مفعول»: ركوب بمعنى مركوب، وحلوب بمعنى محلوب، وهيوب بمعنى مهيب. واختلف المفسرون لماذا كان لا يأتي النساء؟ على أربعة أقوال: أحدها: أنه لم يكن له ما يأتي به النساء، فروى عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكريا» قال: ثم دلى رسول الله ﷺ يده إلى الأرض، فأخذ عوداً صغيراً، ثم قال: «وذلك أنه لم يكن له ما للرجال إلا مثل هذا العود، ولذلك سماه الله سيِّداً وحضوراً»^(٢) وقال سعيد بن المسيب: كان له كالنواة. والثاني: أنه كان لا ينزل الماء، قاله ابن عباس، والضحاك. والثالث: أنه كان لا يشتهي النساء، قاله الحسن، وقتادة، والسدي. والرابع: أنه كان يمنع نفسه من شهواتها، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئَا مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ قال ابن الأنباري: معناه: من الصالحين الحال عند الله.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي عَلَمٌ وَقَدْ بَلَّغَنِي الْعَكْبَرُ وَأَمْرًا قِيَّامًا قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَقَعْلُ مَا يَشَاءُ﴾^(٣)

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي عَلَمٌ﴾ أي: كيف يكون؟!.

قال الكمي:

أَتُسَى وَمِنْ أَيْسَنَ أَبْنَكِ الطَّرَبِ^(٤)

(١) البيتان لعبد قيس بن خفاف البرجمي من قصيدة حكيمية أثبتها صاحب «الأصمعيات» رقم ٨٧، و«المفضليات» رقم ١١٦. بهش إلى الشيء: فرح به فأسرع إليه. القاع: أرض سهلة مستوية تنفرج عنها الجبال والأكام، ولا حصى فيها ولا حجارة، ولا تنبت الشجر. الممحل: المجذب. يقول: إذا رأيت الكرام الأسخياء، قد أجهذتهم السنة، والقحط، والجذب، حتى اغبرت أيديهم من قلة ما يجدون، وكثرة ما بذلوا في معونة الناس فأعنتهم. وأبشر من: بشر على وزن فرح يبشر، يقال: أتاني أمر يبشر به، أي: سررت به. يقول: شاركهم في ارتياحهم، وفرحهم بالسخاء مع ما يلقون من جهد السنة. الضنك: الضيق. يقول: كن مع الكرام حيث كانوا، وأنزل معهم كل منزل أنزلهموه كرمهم، من ضنك، وحاجة.

(٢) رواه ابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم مرفوعاً وموقوفاً، ووصف ابن كثير المرفوع بأنه غريب جداً، وقال: الموقوف أصبح إسناداً من المرفوع، وكذلك ذكر السيوطي في «الدر المنثور» المرفوع والموقوف، وقال: الموقوف أقوى إسناداً من المرفوع.

(٣) تمامه: من حيث لا صبرة ولا ريب. وهو مطلع قصيدة له يمدح بها رسول الله ﷺ. أبك: جامك وغشيك، وهو فعل ماضٍ من الأوب. الطرب: خفة من فرح أو حزن، والمراد الأول. الصبا: الصبي والشرق. الرب: جمع ربية، وهي الشبهة. يقول: كيف طربت مع تير سنك من حيث لا يوجد الطرب ومواضعه؟ الصبرة للفرح، والرب للحنن.

قال العلماء، منهم الحسن، وابن الأنباري، وابن كيسان: كأنه قال: من أي وجه يكون لي الولد؟ أيكون بإزالة العقر عن زوجتي، ورثة شبابي؟ أم يأتي ونحن على حالنا؟ فكان ذلك على سبيل الاستعلام، لا على وجه الشك. قال الزجاج: يقال: غلام بين الغلوميّة، وبين الغلاميّة، وبين الغلومة. قال شيخنا أبو منصور اللغوي: الغلام: فعال، من الغلّمة، وهي شدة شهوة النكاح. ويقال للكهل: غلام.

قالت ليلي الأخيلية تمدح الحجاج:

غلام إذا هزّ القنّاة سقاها^(١)

وكان قولهم للكهل: غلام، أي: قد كان مرة غلاماً. وقولهم للطفل: غلام على معنى التناول، أي: سيصير غلاماً. قال: وقيل: الغلام الطار الشارب، ويقال للجارية غلامة. قال الشاعر:

يهان لها الغلام والغلام^(٢)

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَ الْكَبَرُ﴾ أي: وقد بلغت الكبر، قال الزجاج: كل شيء بلغته فقد بلغك. وفي سنة يؤمّد ستة أقوال: أحدها: أنه كان ابن مائة وعشرين سنة، امرأته بنت ثمان وتسعين سنة، قاله ابن عباس. والثاني: أنه كان ابن بضع وسبعين سنة، قاله قتادة. والثالث: ابن خمس وسبعين، قاله مقاتل. والرابع: ابن سبعين، حكاه فضيل بن غزوان. والخامس: ابن خمس وستين. والسادس: ابن ستين، حكاهما الزجاج. قال اللغويون: والعافر من الرجال والنساء: الذي لا يأتيه الولد، وإنما قال: «عافر»، ولم يقل: عاقرة، لأن الأصل في هذا الوصف للمؤنث، والمذكر فيه كالمستعار، فأجري مجرى «طالق» و«حائض» هذا قول الفراء.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادَّكَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالنَّسِيِّ وَالْإِنْكَارِ ﴿١١﴾ قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي: علامة على وجود الحمل. وفي علة سؤاله «آية» قولان: أحدهما: أن الشيطان جاءه، فقال: هذا الذي سمعت من صوت الشيطان، ولو كان من وحي الله، لأوحاه إليك، كما يوحى إليك غيره، فسأل الآية، قاله السدي عن أشياخه. والثاني: أنه إنما سأل الآية على وجود الحمل ليبادر بالشكر، ولتتعجل السرور، لأن شأن الحمل لا يتحقق بأوله، فجعل الله آية وجود الحمل حبس لسانه ثلاثة أيام. فأما «الرمز» فقال الفراء: الرمز بالشفقتين، والحاجبين، والعينين، وأكثره في الشفتين. قال ابن عباس: جعل يكلم الناس بيده. وإنما منع من مخاطبة الناس، ولم يحبس عن الذكر لله تعالى. وقال ابن زيد: كان يذكر الله، ويشير إلى الناس. وقال عطاء بن السائب: اعتُقل لسانه من غير مرض. وجمهور العلماء على أنه إنما اعتقل لسانه آيةً على وجود الحمل. وقال قتادة، والربيع بن أنس: كان ذلك عقوبة له إذ سأل الآية بعد مشافهة الملائكة بالبشارة.

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ﴾ قال مقاتل: صل. قال الزجاج: يقال: فرغت من سُبْحَتِي، أي: من صلاتي. وسمّيت الصلاة تسبيحاً، لأن التسبيح تعظيم الله، وتبرئته من سوء، فالصلاة يوصف فيها بكل ما يبرئه من سوء. قوله تعالى: ﴿بِالنَّسِيِّ﴾ العشي: من حين نزول الشمس إلى آخر النهار ﴿وَالْإِنْكَارِ﴾: ما بين طلوع الفجر إلى وقت الضحى: قال الشاعر:

فلا الظلّ في برد الضحى تستطيعه ولا الفبي من برد الشعبي يذوق^(٣)

قال الزجاج: يقال: أبكر الرجل يبكر إيكاراً، وبكر يبكر تبكيراً، وبكر يبكر؛ في كل شيء تقدم فيه.

(١) الأمالي ٨٦/١: وصدرة: شفاها من الداء العفّال الذي بها. وقوله:

إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة

(٢) هو عجز بيت من قصيدة لأوس بن خلفاء الهجيمي، وصدرة:

ومركضة صريح أبيوها

(٣) البيت لحمد بن ثور الهلالي: الدهوان ص ٣٣. وهو من قصيدته الغزلية الجيدة التي قالها لما تقدم عمر بن الخطاب ﷺ إلى الشعراء: ألا يشيب أحد بامرأة إلا جلده، فخرج من عقوبة عمر بأن ذكر «مرحة» وسماها سرحة ملك. ورواية البيت في الديوان:

فلا الظلّ منها بالضحى تستطيعه ولا الفبي منها بالشعبي تذوق

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَلَكَرِكِ وَأَمْطَلَكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْمَلَائِكَةِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ قال جماعة من المفسرين: المراد بالملائكة: جبريل وحده. وقد سبق معنى الاصطفاء. وفي المراد بالتطهير هاهنا أربعة أقوال. أحدها: أنه التطهير من الحيض، قاله ابن عباس. وقال السدي: كانت مريم لا تحيض. وقال قوم: من الحيض والنفس. والثاني: من مس الرجال، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: من الكفر، قاله الحسن، ومجاهد. والرابع: من الفاحشة والإثم، قاله مقاتل. وفي هذا الاصطفاء الثاني أربعة أقوال: أحدها: أنه تأكيد للأول. والثاني: أن الأول للعبادة، والثاني: لولادة عيسى عليه السلام. والثالث: أن الاصطفاء الأول اختيار مبهم، وعموم يدخل فيه صوالح من النساء، فأعاد الاصطفاء لتفضيلها على نساء العالمين. والرابع: أنه لما أطلق الاصطفاء الأول، أبان بالثاني أنها مصطفاة على النساء دون الرجال. قال ابن عباس، والحسن وابن جريج: اصطفاها على عالمي زمانها. قال ابن الأنباري: وهذا قول الأكثرين^(١).

﴿يَمْرُؤُا أَتَيْتِ رِبِّكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَمْرُؤُا أَتَيْتِ رِبِّكِ﴾ قد سبق شرح القنوت في «البقرة»، وفي المراد به هاهنا أربعة أقوال: أحدها: أنه العبادة، قاله الحسن. والثاني: طول القيام في الصلاة، قاله مجاهد. والثالث: الطاعة، قاله قتادة، والسدي، وابن زيد. والرابع: الإخلاص، قاله سعيد بن جبيرة. وفي تقديم السجود على الركوع أربعة أقوال: أحدها: أن الواو لا تقتضي الترتيب، وإنما تؤذن بالجمع، فالركوع مقدم، قاله الزجاج في آخرين. والثاني: أن المعنى استعملي السجود في حال، والركوع في حال، لا أنهما يجتمعان في ركعة، فكانه حث لها على فعل الخير. والثالث: أنه مقدم ومؤخر، والمعنى: اركعي واسجدي، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَكِّلٌ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ذكرهما ابن الأنباري. والرابع: أنه كذلك كان في شريعتهم تقديم السجود على الركوع، ذكره أبو سليمان الدمشقي. قال مقاتل: ومعناه: اركعي مع المصلين قراء بيت المقدس. قال مجاهد: سجدت حتى قرحت.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَبَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَيْتِكِ يَكْتُمُ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمَقَرَّبِينَ﴾^(٢) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ إشارة إلى ما تقدم من قصة زكرياء، ويحيى، وعيسى، ومريم. والأنباء: الأخبار. والغيب: ما غاب عنك. والوحي: كل شيء دللت به من كلام، أو كتاب، أو إشارة، أو رسالة، قاله ابن قتيبة. والوحي في القرآن على أوجه تراها في كتابنا الموسوم بـ «الوجوه والنظائر» موقفة. وفي الأقلام ثلاثة أقوال: أحدها: أنها التي يكتب بها، قاله ابن عباس، وابن جبر، والسدي. والثاني: أنها العصي، قاله الربيع بن أنس. والثالث: أنها القداح، وهو اختيار ابن قتيبة، وكذلك قال الزجاج: هي قداح جعلوا عليها علامات يعرفونها على جهة القرعة. وإنما قيل للسهم: القلم، لأنه يقلم، أي: يبرى. وكل ما قطعت منه شيئاً بعد شيء، فقد قلمته، ومنه القلم الذي يكتب به، لأنه قلم مرة بعد مرة، ومنه: قلمت لظفاري. قال: ومعنى: ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ لينظروا أيهم تجب له كفالة مريم، وهو الضمان للقيام بأمرها. ومعنى: ﴿لَدَيْهِمْ﴾ عندهم. وقد سبق شرح كفالتهم لها آنفاً. وفي المراد بالكلمة هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه قول الله له: «كن» فكان، قاله ابن عباس، وقاتدة. والثاني: أنها بشارة الملائكة مريم بعيسى، حكاه أبو سليمان. والثالث: أن الكلمة اسم لعيسى، وسمي كلمة، لأنه كان عن الكلمة. وقال القاضي أبو يعلى: لأنه يهتدى به كما يهتدى بالكلمة من الله تعالى. وفي تسميته بالمسيح ستة أقوال: أحدها: أنه لم يكن لقدمه أخمص، والأخمص: ما يتجافى عن الأرض من باطن القدم، رواه عطاء عن ابن عباس. والثاني: أنه كان لا يسمح

(١) قال الحافظ ابن حجر ٣٣٩/٦ في قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَلَكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْمَلَائِكَةِ﴾ وظهر أن مريم أفضل من جميع النساء، وهذا لا يمتنع عند من يقول: إنها نبيه، وأما من قال: ليست نبيه فيحمله على عالمي زمانها، وبالأول جزم الزجاج وجماعة، واختاره القرطبي، ويحتمل أيضاً أن يراد نساء بني إسرائيل أو نساء تلك الأمة.

بيده ذا عاهة إلا برا، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أنه مسح بالبركة، قاله الحسن، وسعيد. والرابع: أن معنى المسيح: الصديق، قاله مجاهد، وإبراهيم النخعي، وذكره اليزيدي. قال أبو سليمان الدمشقي: ومعنى هذا أن الله مسحه، فظهره من الذنوب. والخامس: أنه كان يمسح الأرض أي: يقطعها، ذكره ثعلب. وبيان: أنه كان كثير السياحة. والسادس: أنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن، قاله أبو سليمان الدمشقي، وحكاه ابن القاسم. وقال أبو عبيد: المسيح في كلام العرب على معنيين: أحدهما: المسيح الدجال، والأصل فيه: الممسوح، لأنه ممسوح أحد العينين. والمسيح عيسى، وأصله بالعبرانية «مسيحا» بالشين، فلما عربته العرب، أبدلت من شينه سيناً، كما قالوا: موسى، وأصله بالعبرانية موسى. قال ابن الأنباري: وإنما بدأ بلقبه، فقال: المسيح عيسى ابن مريم، لأن المسيح أشهر من عيسى، لأنه قل أن يقع على سمي يشبه به، وعيسى قد يقع على عدد كثير، فقدمه لشهرته، ألا ترى أن ألقاب الخلفاء أشهر من أسمائهم. فأما قوله: عيسى ابن مريم، فإِنما نُسبه إلى أمه، لينفي ما قال عنه الملحدون من النصارى، إذ أضافوه إلى الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَجِيهًا﴾ قال ابن زيد: الوجيه في كلام العرب: المحبب المقبول. وقال ابن قتيبة. الوجيه: ذو الجاه. وقال الزجاج: هو ذو المتزلة الرفيعة عند ذوي القدر والمعرفة، يقال: قد وجَّه الرجل يوجه وجهه، ولفلان جاء عند الناس، أي: منزلة رفيعة.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال قتادة: عند الله يوم القيامة. والمهد: مضجع الصبي في رضاعه، وهو مأخوذ من التمهيد، وهو التوطئة. وفي تكليمه للناس في تلك الحال قولان: أحدهما: لثبته أمه مما قذفت به. والثاني: لتحقيق معجزته الدالة على نبوته. قال ابن عباس: تكلم ساعة من مهده، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغ النطق. ﴿وَكَهَلًا﴾ قال: ابن ثلاثين سنة أرسله الله تعالى، فمكث في رسالته ثلاثين شهراً، ثم رفعه الله. وقال وهب بن منبه: جاءه الوحي على رأس ثلاثين سنة، فمكث في نبوته ثلاث سنين، ثم رفعه الله. قال ابن الأنباري كان ﷺ قد زاد على الثلاثين، ومن أربى عليها، فقد دخل في الكهولة. والكهول عند العرب: الذي قد جاوز الثلاثين، وإنما سمي الكهل كهلاً، لاجتماع قوته، وكمال شبابه، وهو من قولهم: قد اكتهل النبات. وقال ابن فارس: الكهل: الرجل حين وخطه الشيب. فإن قيل: قد علم أن الكهل يتكلم، فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن هذا الكلام خرج مخرج الإشارة بطول عمره، أي: أنه يبلغ الكهولة. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: ﴿وَكَهَلًا﴾ قال: ذلك بعد نزوله من السماء. والثاني: أنه أخبرهم أن الزمان يؤثر فيه، وأن الأيام تنقله من حال إلى حال، ولو كان إلهاً لم يدخل عليه هذا التغير، ذكره ابن جرير الطبري. والثالث: أن المراد بالكهول: الحليم، قاله مجاهد.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَلَيْسَ لِي بِذَلِكَ آيَةٌ أَنِّي خَلَقْتُ مِمَّا يَخْلُقُ اللَّهُ فَمَا يَتَّقُهُ إِذَا قُلْتُ لَهُمْ كُنْ فَيَكُونُ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَلَيْسَ لِي بِذَلِكَ آيَةٌ﴾ في علة قولها هذا قولان: أحدهما: أنها قالت هذا تعجباً واستفهاماً، لا شكاً وإنكاراً، على ما أشرنا إليه في قصة زكريا، وعلى هذا الجمهور. والثاني: أن الذي خاطبها كان جبريل، وكانت تظنه آدمياً يريد بها سوءاً، ولهذا قالت: ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَذِيرًا﴾ [مريم: ٤١٨]، فلما بشرها لم تتيقن صحة قوله، لأنها لم تعلم أنه ملك، فلذلك قالت: ﴿أَلَيْسَ لِي بِذَلِكَ آيَةٌ﴾ قاله ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَسْمَعْ يَمِينَ﴾ أي: ولم يقربني زوج. والمس: الجماع، قاله ابن فارس. وسمي البشر بشراً، لظهورهم، والبشرة: ظاهر جلد الإنسان، وأبشرت الأرض: أخرجت نباتها. وبشرت الأديم: إذا قشرت وجهه، وتباشير الصبح: أوائله. قال - يعني جبريل: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: بسبب، وبغير سبب. وباقي الآية مفسر في «البقرة».

﴿وَيُؤْتِيهِمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالزُّكْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِيهِمُ الْكِتَابَ﴾ قرأ الأكثرون «ونعلمه» بالنون. وقرأ نافع، وعاصم بالياء، فعطفاه على قوله: «يشرك». وفي الكتاب قولان: أحدهما: أنه كُتِبَ النبيين وعلمهم، قاله ابن عباس. والثاني: الكتابة: قاله ابن جريج، ومقاتل. قال ابن عباس: والحكمة: الفقه، وقضاء النبيين.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَنفَلْتُ لَكُم مِّنَ الطَّيْرِ كَيْفَ تَشَاءُونَ فَأُفْخِجُوهَا فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَرْبَعَهُ الْآكُمَةَ وَأَلْبَنِيكُمْ وَأُخِي الْمَوْتُ يَذُنُّ لَكُم مَّا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَكَيْدًا لَّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا﴾ قال الزجاج: ينتصب على وجهين: أحدهما: ونجعلهم رسولاً. والاختيار عندي: ويكلم الناس رسولاً.

قوله تعالى: ﴿أَنِّي أَنفَلْتُ﴾ قرأ الأكثرون «أني» بالفتح، فجعلوها بدلاً من آية، فكانه قال: قد جئتكم بأني أخلق لكم، وقرأ نافع بالكسر، قال أبو علي: يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون مستأنفاً. والثاني: أنه فسر الآية بقوله: إني أخلق، أي: أصور وأقدر. قال ابن عباس: أخذ طيناً، وصنع منه خفاشاً، ونفخ فيه، فإذا هو بطير، ويقال: لم يصنع غير الخفاش، ويقال: إن بني إسرائيل نعتوه بذلك، لأن الخفاش عجيب الخلق. وروي عن أبي سعيد الخدري أنه قال لهم: ماذا تريدون؟ قالوا: الخفاش. فسأله أشد الطير خلقاً، لأنه يطير بغير ريش. وقال وهب: كان الذي صنعه يطير ما دام الناس ينظرونه، فإذا غاب عن أعينهم، سقط ميتاً، ليميز فعل الخلق من فعل الخالق. والأكثرون قرؤوا ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ وقرأ نافع هاهنا وفي (المائدة) «طائراً». قال أبو علي: حجة الجمهور قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَشَاءُونَ﴾ ولم يقل: كهية الطائر. ووجه قراءة نافع: أنه أراد: يكون ما أنفخ فيه، أو ما أخلقه، طائراً. وفي «الأكمة» أربعة أقوال: أحدها: أنه الذي ولد أعمى، رواه الضحاك عن ابن عباس، وسعيد عن قتادة، وبه قال الليدي، وابن قتيبة، والزجاج. والثاني: أنه الأعمى، ذكره ابن جريج عن ابن عباس، ومعمار عن قتادة، وبه قال الحسن، والسدي. وحكى الزجاج عن الخليل أن الأكمة: هو الذي يولد أعمى، وهو الذي يعمى، وإن كان بصيراً. والثالث: أنه الأعمش، قاله عكرمة. والرابع: أنه الذي يبصر بالنهار، ولا يبصر بالليل، قاله مجاهد والضحاك. والأبرص: الذي به وضع. وكان الغالب على زمان عيسى عليه السلام، علم الطب، فأراههم المعجزة من جنس ذلك، إلا أنه ليس في الطب إبراء الأكمة والأبرص، وكان ذلك دليلاً على صدقه. قال وهب: ربما اجتمع على عيسى من المرضى في اليوم الواحد خمسون ألفاً، وإنما كان يداويهم بالدعاء. وذكر المفسرون أنه أحيأ أربعة أنفس من الموت، وعن ابن عباس: أن الأربعة كلهم بقي حتى ولد له، إلا سام بن نوح.

قوله تعالى: ﴿وَأَنبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ قال سعيد بن جبير: كان عيسى إذا كان في المكتب يخبرهم بما يأكلون، ويقول للغلام: يا غلام إن أهلك قد هيؤوا لك كذا وكذا من الطعام فتطعمني منه^(١)؟ وقال مجاهد: بما أكلتم البارحة، وبما خبأتم منه. وعلى هذا المفسرون، إلا أن قتادة كان يقول: وأنبئكم بما تأكلون من المائدة التي تنزل عليكم، وما تدخرون منها، وكان أخذ عليهم أن يأكلوا منها، ولا يدخروا، فلما خانوا، مُسَخُوا خنازير^(٢).

﴿وَمَصَدَقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُجِدَ لَكُم مِّنَ آيَاتِي حُرْمٌ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَنْذِرُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ۖ وَأَنبِئْكُمْ قَابِدُهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَصَدَقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال الزجاج: نصب «مصدقاً» على الحال، أي: وجئتكم مصدقاً ﴿وَلَأُجِدَ لَكُم مِّنَ آيَاتِي حُرْمٌ عَلَيْكُمْ﴾ قال قتادة: كان قد حرم عليهم موسى الإبل والثروب^(٣) وأشياء من الطير، فأحلها عيسى. قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ﴾ أي: بآيات تعلمون بها صدقي، وإنما وحد، لأن الكل من جنس واحد ﴿بَيْنَ رَبِّكُمْ﴾ أي: من عند ربكم.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْيَهُودُ يَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ عَمَّا بَلَغَ اللَّهُ وَأَشْهَدُ بَأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾

(١) أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عمار بن ياسر عليه السلام.

(٣) الثروب: جمع ثوب، وهي الشعم الرقيق الذي ينشئ الكرش والأعماق والمصارين من الذبائح والأنعام.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَصَابَ عِيسَى﴾ أي: علم. قال شيخنا أبو منصور اللغوي: يقال: أحسستُ بالشيء، وحسنت به، وقول الناس في المعلومات «محسوسات» خطأ، إنما الصواب «المحسبات» فأما المحسوسات، فهي المقتولات، يقال: حسه: إذا قتله. و«الأنصار»: الأعوان. و«إلى» بمعنى «مع» في قول الجماعة، قال الزجاج: وإنما حسنت في موضع «مع» لأن «إلى» غاية «مع» تضم الشيء بالشيء^(١). قال ابن الأنباري: ويجوز أن يكون المعنى: من أنصاري إلى أن أبين أمر الله. واختلفوا في سبب استنصاره بالحواريين، فقال مجاهد: لما كفر به قومه، وأرادوا قتله، استنصر الحواريين. وقال غيره: لما كفروا به، وأخرجوه من قريتهم، استنصر الحواريين. وقيل: استنصرهم، لإقامة الحق، وإظهار الحجة. والجمهور على تشديد «ياء» الحواريين. وقرأ الجوني، والجحدري، وأبو حيو: الحواريون يتخفيف الياء. وفي معنى الحواريين ستة أقوال: أحدها: أنهم الخواص الأصفياء، قال ابن عباس: الحواريون: أصفياء عيسى. وقال الفراء: كانوا خاصة عيسى. وقال الزجاج: الحواريون في اللغة: الذين أخلصوا، ونقوا من كل عيب، وكذلك الدقيق: الحواري، إنما سمي بذلك، لأنه ينقى من لباب البر وخالصة. قال حذاق اللغويين: الحواريون: صفوة الأنبياء الذين خلصوا وأخلصوا في تصديقهم ونصرتهم. ويقال: عين حوراء: إذا اشتد بياضها وخلص، واشتد سوادها، ولا يقال: امرأة حوراء، إلا أن تكون مع حور عينها بياضاً. والثاني: أنهم البيض الثياب، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنهم سمو بذلك، لبياض ثيابهم. والثالث: أنهم القصارون، سموا بذلك، لأنهم كانوا يحورون الثياب، أي: يبيضونها. قال الضحاك، ومقاتل: الحواريون: هم القصارون. قال اليزيدي: ويقال للقصارين: الحواريون، لأنهم يبيضون الثياب، ومنه سمي الدقيق: الحواري، والعين الحوراء: النقية المحاجر. والرابع: الحواريون: المجاهدون. وأنشدوا:

ونحن أناسٌ يملأ البَيْضُ هامنا ونحن حواريون حين نزاحف
جماجمنا يوم اللقاء ترأسنا إلى الموت نمشي ليس فينا تحائف

والخامس: الحواريون: الصيادون. والسادس: الحواريون: الملوك، حكى هذه الأقوال الثلاثة ابن الأنباري. قال ابن عباس: وعدد الحواريين اثنا عشر رجلاً. وفي صناعتهم قولان: أحدهما: أنهم كانوا يصطادون السمك، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثاني: أنهم كانوا يغسلون الثياب، قاله الضحاك، وأبو أرتاة.

﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنَّا مِثْلَ قَوْلِكَ﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنَّا مِثْلَ قَوْلِكَ﴾ هذا قول الحواريين. والذي أنزل: الأنجيل. والرسول: عيسى. وفي المراد بالشاهدين خمسة أقوال: أحدها: أنهم محمد ﷺ وأمه، لأنهم يشهدون للرسول بالتبليغ، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: أنهم من آمن قبلهم من المؤمنين، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنهم الأنبياء، لأن كل نبي شاهد أمته، قاله عطاء. والرابع: أن الشاهدين: الصادقون، قاله مقاتل. والخامس: أنهم الذين شهدوا للأنبياء بالتصديق. فمعنى الآية: صدقنا، واعترفنا، فاكتبنا مع من فعل فعلنا، هذا قول الزجاج.

﴿وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيْنَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ﴾ قال الزجاج: المكر من الخلق: خبث وخذاع، ومن الله ﷻ: المجازاة، نسبي باسم ذلك، لأنه مجازاة عليه، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِكُمْ﴾ [البقرة: ١٥]، ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيْنَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، لأن مكروه مجازاة، ونصر للمؤمنين. قال ابن عباس: ومكرهم، أن اليهود أرادوا قتل عيسى، فدخل خوخة، فدخل رجل منهم، فألقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى إلى السماء، فلما خرج إليهم، ظنوه عيسى، فقتلوه.

(١) قال الفراء في «معاني القرآن» ص ٢١٨: المفسرون يقولون: من أنصاري مع الله. وهو وجه حسن، وإنما يجوز أن تجعل «إلى» موضع «مع» إذا ضمنت إلى الشيء، مما لم يكن معه، كقول العرب: إن الذود إلى الذود إيل؛ أي: إذا إذا ضمنت الذود إلى الذود صارت إيلاً. فإذا كان الشيء مع الشيء لم تصلح مكان «مع» «إلى» ألا ترى أنك تقول: قدم فلان، ومعه مال كثير. ولا تقول في هذا الموضع: قدم فلان وإليه مال كثير. وكذلك تقول: قدم فلان إلى أهله، ولا تقول: مع أهله. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ معناه: ولا تضيفوا أموالهم إلى أموالكم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْصِي لِي مَوْفِقُكَ وَأَافِكُكَ إِنَّكَ وَمَطَهْرُكَ مِنْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ يَوْمَ الْفِتْنَةِ نَزَرٌ إِلَيْكَ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمْ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ٥٥﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْصِي لِي مَوْفِقُكَ﴾ قال ابن قتيبة: التوفي، من استيفاء العدد، يقال: توفيت، واستوفيت، كما يقال: تيقنت الخبر، واستيقنته، ثم قيل للموت: وفاة، وتوف. وأنشد أبو عبيدة:

إن بنسي الأردل ليسوا من أحدٍ ليسوا إلى قيس وليسوا من أسد
ولا توفاهم قريش في العدد^(١)

أي: لا تجعلهم وفاء لعددها، والوفاء: التمام. وفي هذا التوفي قولان: أحدهما: أنه الرفع إلى السماء^(٢). والثاني: أنه الموت. فعلى القول الأول يكون نظم الكلام مستقيماً من غير تقديم ولا تأخير، ويكون معنى «مؤفك» قابضك من الأرض وافيّاً تاماً من غير أن ينال منك اليهود شيئاً، هذا قول الحسن، وابن جريج، وابن قتيبة، واختاره الفراء، ومما يشهد لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الْغَرِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، أي: رفعتني إلى السماء من غير موت، لأنهم إنما بدلوا بعد رفعه، لا بعد موته. وعلى القول الثاني يكون في الآية تقديم وتأخير، وتقديره: إني رافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا، ومؤفك بعد ذلك، هذا قول الفراء، والزجاج في آخرين. فتكون الفائدة في إعلامه بالتوفي تعريفه أن رفعه إلى السماء لا يمنع من موته. قال سيعد بن المسيب: رُفِعَ عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. وقال مقاتل: رفع من بيت المقدس ليلة القدر في رمضان. وقيل: عاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين. ويقال: ماتت قبل رفعه.

قوله تعالى: ﴿وَمَطَهْرُكَ مِنْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه رفعه من بين أظهرهم. والثاني: منعهم من قبله. وفي الذين اتبعوه قولان: أحدهما: أنهم المسلمون من أمة محمد ﷺ، لأنهم صدقوا بنبوته، وأنه روح الله وكلمته، هذا قول قتادة، والربيع، وابن السائب. والثاني: أنهم النصارى، فهم فوق اليهود، واليهود متسذلون مهجورون، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ يعني الدين. ﴿فَلَمَّا الْوَيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الْغَرِيبَ عَلَيْهِمْ وَمَا لَهُمْ مِنْ تَعْمِينٍ ٥٦﴾ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا الْوَيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الْغَرِيبَ عَلَيْهِمْ وَمَا لَهُمْ مِنْ تَعْمِينٍ ٥٦﴾ قيل: هم اليهود والنصارى، وعذابهم في الدنيا بالسيف والجزية، وفي الآخرة بالنار.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَاسَتْوَا وَسَكَنُوا أَسْوَءَ الْمَكَاتِ فَيُؤَيِّدُهُمْ أَجْرُهُمْ وَاللَّهُ لَا يُبْغِي الْفَاسِقِينَ ٥٧﴾ قوله تعالى: ﴿يُؤَيِّدُهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ قرأ الأكثرون بالنون، وقرأ الحسن، وقاتدة، وحفص عن عاصم: «فيؤيدهم» بالياء معطوفاً على قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْصِي ٥٥﴾.

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ٥٨﴾ قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ يعني ما جرى من القصص. ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾، يعني الدلالات على صحة رسالتك، إذ كانت أخباراً لا يعلمها أمي. ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ قال ابن عباس: هو القرآن. قال الزجاج: معناه: ذو الحكمة في تأليفه ونظمه، وإبانة الفوائد منه.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٥٩﴾

(١) الرجز لمنظور الوري كما في «اللسان» ١٥/٤٠٠. يريد: أن قريشاً لا تجعلهم تمام عددهم، ولا تستوفي بهم عددهم.

(٢) وهو الصحيح المتعين، قال الطبري: وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا قول من قال: معنى ذلك إني قابضك من الأرض ورافعك، لتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ينزل عيسى ابن مريم، فيقتل الدجال، ثم يمكث في الأرض مدة - ذكرها - اختلقت الرواية في مبلغها - ثم يموت فيصلي عليه المسلمون ويدفنون». ثم قال: «ومعلوم أنه لو كان قد أماته الله ﷻ، لم يكن بالذي يمته مئة أخرى، فيجمع عليه مبتتين، لأن الله ﷻ إنما أخبر عباده أنه يخلقهم ثم يميتهم، ثم يحييهم، كما قال جل ثناؤه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يَرْجِعْكُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ إِنَّكُمْ بِنِعْمِهِ لَتَكُونُونَ﴾ [الروم: ٤٠]. فتأويل الآية إذاً: قال الله لعيسى: يا عيسى إني قابضك من الأرض ورافعك إليّ، ومطهرك من الذين كفروا فجددوا نبوتك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ قال أهل التفسير: سبب نزول هذه الآية، مخاصمة وفد نجران من النصارى للنبي ﷺ، في أمر عيسى، وقد ذكرناه في أول السورة. فأما تشبيه عيسى بآدم، فلأنهما جميعاً من غير أب.

قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا مِنْ تُرَابٍ﴾ يعني: آدم. قال ثعلب: وهذا تفسير لآمر آدم. وليس بحال^(١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لِلَّهِ﴾ يعني لآدم، وقيل لعيسى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: فكان: فأريد بالمستقبل الماضي، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا نُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: ما نزلت الشياطين.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ قال الزجاج: الحق مرفوع على خبر ابتداء محذوف، المعنى: الذي أنبأتك به في قصة عيسى الحق من ربك ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي: الشاكين. والخطاب للنبي خطاباً للخلق، لأنه لم يشك.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَحْيِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَكُمْشَ اللَّهُ عَلَى الْكَذِبِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ في هاء «فيه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى عيسى. والثاني: إلى الحق. والعلم: البيان والإيضاح.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا﴾ قال ابن قتيبة: تعالى: تفاعل، من علوت، ويقال للثنين من الرجال والنساء: تعاليا، وللنساء: تعالين. قال الفراء: أصلها من العلو، ثم إن العرب لكثرة استعمالهم إياها، صارت عندهم بمنزلة «هلم» حتى استجازوا أن يقولوا للرجل، وهو فوق شرف: تعال، أي: اهبط. وإنما أصلها: الصعود. قال المفسرون: أراد بأبنائنا: فاطمة والحسن، والحسين. وروى مسلم في «صحيحه» من حديث سعد بن أبي وقاص قال: لما نزلت هذه الآية ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: «اللهم هؤلاء أهلي»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَنْفُسَنَا﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أراد علي بن أبي طالب، قاله الشعبي. والعرب تخبر عن ابن العم بأنه نفس ابن عمه. والثاني: أراد الإخوان، قاله ابن قتيبة. والثالث: أراد أهل دينه، قاله أبو سليمان الدمشقي. والرابع: أراد الأزواج. والخامس: أراد القرابة القريبة، ذكرهما علي بن أبي أحمد النيسابوري. فأما الابتهال، فقال ابن قتيبة: هو التداعي باللعن، يقال: عليه بهلله الله. وبهله، أي: لعنته. وقال الزجاج: معنى الابتهال في اللغة: المبالغة في الدعاء، وأصله: الالتعان، يقال: بهله الله، أي: لعنه. وأمر بالمبالهة بعد إقامة الحجة. قال جابر بن عبد الله: قدم وفد نجران فيهم السيد والعاقب، فذكر الحديث... إلى أن قال: فدعاهما إلى الملاعة، فوعده أن يفادياه، فغدا رسول الله ﷺ فأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين، ثم أرسل إليهما، فأبيا أن يجيباه، فأقرا له بالخراج، فقال: «والذي يعني بالحق لو فعلا لأمطر الوادي عليهما ناراً»^(٣).

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ الْفِرْيَةِ الْوَحِيدِ الْحَكِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ قال الزجاج: دخلت «من» هاهنا تأكيداً ودليلاً على نفي جميع ما ادعى المشركون من الآلهة.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمُ الْمُسْمِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: عن الملاعة، قاله مقاتل. والثاني: أنه عن البيان الذي أتى به

(١) يريد أن جملة «خلقه» تفسيرية لمثل آدم، فلا موضع لها من الإعراب، ولا يصلح أن تكون حالاً، لأن «خلقه» فعل ماضٍ، ولا يكون الحال منه، وقيل: هي في موضع الحال، و«قد» مع «خلقه» مقدرة، والعامل فيها معنى التشبيه. انظر: «معاني القرآن» للفراء، و«البحر المحيط» ٤٧٨/٢.

(٢) روى مسلم في «فضائل الصحابة» مطولاً من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

(٣) قال الحافظ ابن كثير: روى ابن مردويه، ورواه الحاكم بمعناه، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، هكذا قال. وقد روى أبو داود الطيالسي عن الشعبي مرسلاً، وهو أصح، وقد روي عن ابن عباس، والبراء نحو ذلك.

النبي ﷺ، قاله الزجاج. والثالث: عن الإقرار بوحداية الله، وتنزيهه عن الصاحبة والولد، قاله أبو سليمان الدمشقي. وفي الفساد هاهنا قولان: أحدهما: أنه العمل بالمعاصي، قاله مقاتل، والثاني: الكفر، ذكره الدمشقي.

﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ تَمَآلَوْاْ إِلَآ كَلِمَةً سَوَآءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلَّآ تَعْبُدُ إِلَآ ٱللَّهُ وَلَا تُشْرِكُ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱنْهَكُواْ يَٰنَا سُلُوكُكُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود، قاله قتادة، وابن جريج، والربيع بن أنس. والثاني: وفد نجران الذين حاجوا في عيسى، قاله السدي ومقاتل. والثالث: أهل الكتابين جميعاً، قاله الحسن. وقال ابن عباس: نزلت في القسيسين والرهبان، فبعث بها النبي ﷺ إلى جعفر وأصحابه بالحبشة، فقرأها جعفر، والنجاشي جالس، وأشرف الحبشة. فأما «الكلمة» فقال المفسرون هي: لا إله إلا الله. فإن قيل: فهذه كلمات، فلم قال كلمة؟ فتنه جوابان: أحدهما: أن الكلمة تعبر عن ألفاظ وكلمات. قال اللغويون: ومعنى كلمة: كلام فيه شرح قصة وإن طال، تقول العرب: قال زهير في كلمته؛ يراد في قصيدته.

قالت الخنساء:

وقافيةٌ مثل حدِّ السِّنَا
تَقْدُ الذَّوَابَةَ مِنْ يَنْذِبِلِ
نَطَقْتُ ابْنَ عَمْرٍو فَسَهَّلْتُهَا

ن تبقى ويذهب من قالها
أبت أن تُزايِل أوعالها
ولم ينطق الناس أمثالها^(١)

فأوقعت القافية على القصيدة كلها، والغالب على القافية أن تكون في آخر كلمة من البيت، وإنما سميت قافية، لأن الكلمة تتبع البيت، وتقع آخره، فسميت قافية من قول العرب: قفوت فلاناً: إذا اتبعته، وإلى هذا الجواب يذهب الزجاج وغيره. والثاني: أن المراد بالكلمة: كلمات، فاكثف بالكلمة من كلمات، كما قال علقمة بن عبدة:

بها جيفُ الحسرى فأما عظامُها

فبيضُ وأما جلدُها فصليب

أراد: وأما جلودها، فاكثف بالواحد من الجمع، ذكره والذي قبله ابن الأباري.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ قال الزجاج: يعني بالسواء العدل، وهو من استواء الشيء، ويقال: للعدل سَوَاءٌ ويسواء وسواء.

قال زهير بن أبي سلمى:

أروني خُطَّةً لَا ضِيْمَ فِيهَا
فإِن تَدْعُوا السَّوَاءَ فَلَيْسَ بَيْنِي

يسوِّي بيننا فيها السَّوَاءَ
وبينكم بني حصن بقاء^(٢)

قال: وموضع «أن» في قوله تعالى: ﴿ٱلَّآ تَعْبُدُواْ إِلَآ ٱللَّهُ﴾ خفض على البدل من «كلمة». المعنى: تعالوا إلى أن لا نعبد إلا الله، وجائز أن يكون «أن» في موضع رفع، كأن قائله قال: ما الكلمة؟ فأجيب، فقيل: هي ألا نعبد إلا الله. قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ ٱللَّهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه سجدوا بعضهم لبعض، قاله عكرمة. والثاني: لا يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله، قاله ابن جريج. والثالث: أن نجعل غير الله رباً، كما قالت النصارى في المسيح، قاله مقاتل والزجاج.

﴿يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لِمَ تُحَآجِرُونَ فِي ٱلْإِيمَآءِ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَةُ وَٱلْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ مَّوَدَّةِ ٱللَّهِ قُلُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لِمَ تُحَآجِرُونَ فِي ٱلْإِيمَآءِ﴾ قال ابن عباس، والحسن، والسدي: اجتمع عند النبي ﷺ

(١) الأبيات من قصيدة ترثي بها أخاها معاوية. وفي الديوان: «يهلك» بدل «يذهب» و«تفارق» بدل «تزايِل». تقد: تشق. الذوابة: أعلى كل شيء. يذبل: جيل في أقصى أرض بني كلاب. تقول: إن هذه القصيدة التي ينطق بها ماضية، كيف قاطع تقد قمم الجبال. وقولها: أبت أن تزايِل أوعالها. أي: أن ذوابة جبل يذبل ألف الوعر، فكادت لا ترضى بأن لا تفارقها، تريد بذلك وصف علو الجبل، لأن الوعر لا تسكن سوى أعلى الجبال. وقولها: سهلها، أي: جنت بها سهلة.

(٢) الديوان ص ١٥ وفيه: أروني سنة لا عيب فيها. والسواء: العدل. يقول: أرونا سنة لا تعاب عليكم تسوي بيننا في الحق. وقوله: تدعو السواء. أي: تركوا العدل، فلا يبقى بعضنا على بعض.

نصارى نجران، وأخبار اليهود، فقال هؤلاء: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقال هؤلاء: ما كان إلا نصرانياً. فنزلت هذه الآية.

﴿هَكَانَتْ هَؤُلَاءِ حَاجَجَتْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلَمْ تُنَاجَوْا فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَسْكُرُ أَتَشْعُرُونَ﴾ (٦٦)

قوله تعالى: ﴿هَكَانَتْ﴾ قرأ ابن كثير «هأنتم» مثل: هعنتم، فأبدل من همزة الاستفهام «الهاء» أراد: أنتم. وقرأ نافع وأبو عمرو «هأنتم» ممدوداً، استفهام بلا همزة، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي «هأنتم» ممدوداً مهبوزاً، ولم يختلفوا في مد «هؤلاء» و«أولاء».

قوله تعالى: ﴿فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه ما رأوا وعابنوا، قاله قتادة. والثاني: ما أمروا به، ونهوا عنه، قاله السدي. فأما الذي ليس لهم به علم، فهو شأن إبراهيم عليه السلام. وقد روى أبو صالح عن ابن عباس أنه كان بين إبراهيم وموسى، خمسمائة وخمس وسبعون سنة. وبين موسى وعيسى ألف وستمائة واثنان وثلاثون سنة. وقال ابن إسحاق: كان بين إبراهيم وموسى خمسمائة وخمس وستون سنة، وبين موسى وعيسى ألف وتسعمائة وخمس وعشرون سنة. وقد سبق في (البقرة) معنى الحنيف.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٦٧) ﴿إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِلَّهِ أَتَّبِعُكَ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٨)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِلَّهِ أَتَّبِعُكَ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن رؤساء اليهود قالوا للنبي ﷺ: لقد علمت أننا أولى بدين إبراهيم منك، وأنه كان يهودياً، وما بك إلا الحسد، فنزلت هذه الآية. ومعناها: أحق الناس بدين إبراهيم، الذين اتبعوه على دينه، وهذا النبي ﷺ على دينه، قاله ابن عباس. والثاني: أن عمرو بن العاص أراد أن يغضب النجاشي على أصحاب النبي ﷺ، فقال النجاشي: إنهم ليشتمون عيسى فقال النجاشي: ما يقول صاحبكم في عيسى؟ فقالوا: يقول: إنه عبد الله وروحه، وكلمته ألهاها إلى مريم. فأخذ النجاشي من سواكه قدر ما يقضي العين، فقال: والله ما زاد على ما يقول صاحبكم ما يزن هذا القذى، ثم قال: أبشروا، فلا دهورة (١) اليوم على حزب إبراهيم. قال عمرو بن العاص: ومن حزب إبراهيم؟ قال: هؤلاء الرهط وصاحبهم. فأنزل الله يوم خصومتهم على النبي ﷺ هذه الآية، هذا قول عبد الرحمن بن غنم.

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُبُلُّوكُمُوعًا لَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٩)

قوله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُبُلُّوكُمُوعًا﴾ سبب نزولها أن اليهود قالوا لمعاذ بن جبل، وعمار بن ياسر: تركتما دينكما، واتبعتما دين محمد، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. والطائفة: اسم لجماعة مجتمعين على ما اجتمعوا عليه من دين، ورأي، ومذهب، وغير ذلك. وفي هذه الطائفة قولان: أحدهما: أنهم اليهود، قاله ابن عباس. والثاني: اليهود والنصارى، قاله أبو سليمان الدمشقي. والضلال: الحيرة. وفيه هاهنا قولان: أحدهما: أنه الاستنزال عن الحق إلى الباطل، وهو قول ابن عباس، ومقاتل. والثاني: الإهلاك، ومنه ﴿أَوْدَا ضَلَلَنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠]. قاله ابن جرير، والدمشقي. وفي قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ قولان: أحدهما: وما يشعرون أن الله يدل المؤمنين على حالهم، والثاني: وما يشعرون أنهم يضلون أنفسهم.

﴿يَتَأَمَّلُ الْكِتَابَ لِمَ تُكَفِّرُونَ بِكَايَاتِكُمْ وَاللَّهُ وَأَنْتُمْ تُنْهَدُونَ﴾ (٧٠)

قوله تعالى: ﴿لِمَ تُكَفِّرُونَ بِكَايَاتِكُمْ﴾ قال قتادة: يعني: محمداً والإسلام ﴿وَأَنْتُمْ تُنْهَدُونَ﴾ أن بعث محمد في كتابكم، ثم تكفرون به.

﴿يَتَأَمَّلُ الْكِتَابَ لِمَ تُلْسِئُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ (٧١)

قوله تعالى: ﴿لِمَ تُلْسِئُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ قال اليزيدي: معناه: لم تخلطون الحق بالباطل؟ قال ابن فارس: واللبس:

(١) قال في «اللسان» الدهورة: جمعك الشيء، وقلذك به في مهواة، ودهورت الشيء كذلك، وفي حديث النجاشي: «فلا دهورة اليوم على حزب إبراهيم» كأنه أراد: لا ضيعة عليهم، ولا يترك حفظهم وتمهدهم..

اختلاط الأمر، وفي الأمر لبسة، أي: ليس بواضح. وفي الحق والباطل أربعة أقوال: أحدها: أن الحق: إقرارهم ببعض أمر النبي ﷺ، والباطل: كتمانهم بعض أمره. والثاني: الحق: إيمانهم بالنبي ﷺ غدوة، والباطل: كفرهم به عشية، روي عن ابن عباس. والثالث: الحق: التوراة، والباطل: ما كتبوه فيها بأيديهم، قاله الحسن، وابن زيد. والرابع: الحق: الإسلام، والباطل: اليهودية والنصرانية، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ﴾ قال قتادة: كتموا الإسلام، وكتموا محمداً ﷺ.

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَأْمُرُوا بِذَلِكَ لَمَّا كَانُوا هَٰؤُلَاءِ مَوَدَّةَ بَيْنِهِمُ الْوَحْدَ وَالْغَدَاةَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن طائفة من اليهود قالوا: إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار، فآمنوا، وإذا كان آخره، فصلوا صلاتكم لعلهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب، وهم أعلم منا، فينقلبون عن دينهم، رواه عطية عن ابن عباس. وقال الحسن والسدي: توطأ اثنا عشر حبراً من اليهود، فقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد باللسان أول النهار، واكفروا آخره، وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا، وشاورنا علماءنا، فوجدنا محمداً ليس بذلك، فيشك أصحابه في دينهم، ويقولون: هم أهل الكتاب، وهم أعلم منا، فيرجعون إلى دينكم، فنزلت هذه الآية. وإلى هذا المعنى ذهب الجمهور. والثاني: أن الله تعالى صرف نبيه إلى الكعبة عند صلاة الظهر، فقال قوم من علماء اليهود: ﴿يَأْمُرُوا بِذَلِكَ لَمَّا كَانُوا هَٰؤُلَاءِ مَوَدَّةَ بَيْنِهِمُ الْوَحْدَ وَالْغَدَاةَ﴾ يقولون: آمنوا بالقبة التي صلوا إليه الصبح، واكفروا بالتي صلوا إليها آخر النهار، لعلهم يرجعون إلى قبلتكم، رواه أبو صالح عن ابن عباس، قال مجاهد، وقاتدة، والزجاج في آخرين. وجه النهار: أوله.

وأشد الزجاج:

من كان مسروراً بمقتل مالك
يجد النساء حواسراً يندبنه
فليأت نسوتنا بوجه نهار
قد ثمن قبل تبليج الأسحار^(١)

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكَ قُلْ إِنَّ الْهَدْيَ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يَكْفُرُوا عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَبِيعَ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكَ﴾ اختلف العلماء في توجيه هذه الآية على أربعة أقوال: أحدها: أن معناه: ولا تصدقوا إلا من تبع دينكم، ولا تصدقوا أن يؤتى أحد مما أوتيتم من العلم، وخلق البحر، والمن، والسلوى، وغير ذلك، ولا تصدقوا أن يجادلوكم عند ربكم، لأنكم أصبح ديناً منهم، فيكون هذا كله من كلام اليهود بينهم، وتكون اللام في «لمن» صلة، ويكون قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهَدْيَ هُدَى اللَّهِ﴾ كلاماً معترضاً بين كلامين، هذا معنى قول مجاهد، والأخفش. والثاني: أن كلام اليهود تام عند قوله: ﴿لِمَن تَبِعَ دِينَكَ﴾ والباقي من قول الله تعالى، لا يعترضه شيء من قولهم، وتقديره: قل يا محمد: إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا أمة محمد، إلا أن تجادلكم اليهود بالباطل، فيقولون: نحن أفضل منكم، هذا معنى قول الحسن، وسعيد بن جبيرة. قال الفراء: معنى: «أن يؤتى»: أن لا يؤتى. والثالث: أن في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، إلا من تبع دينكم، فأخرت «أن»، وهي مقدمة في النية على مذهب العرب في التقديم والتأخير، ودخلت اللام على جهة

(١) البيتان للربيع بن زياد العبسي، من أبيات قالها حين قتل حميمه مالك بن زهير، وحمي لفته، واستعد لطلب ثاره. وروايتها في «شرح الحماسة» للمرزوقي:

من كان مسروراً بمقتل مالك
يجد النساء حواسراً يندبنه
فليأت ساحتنا بوجه نهار
يلطمن أوجههن بالأسحار

قال المرزوقي في شرحهما: كانت العادة مستمرة مستحكمة فيهم، أنهم لا يندبون القتيل أو يدرك ثاره. فيقول: من كان فرحاً بمقتل مالك، شامتاً بأوليائه، فليتنع ملابس المسرة، وليطرح أردية الشماعة، فقد أدركت الأثار، وأريقت الدماء، وشفيت الأدواء، وليحضر ساحتنا في أول النهار، ليري أن ما كان محروماً من الرثاء قد حل، وأن الحظر الواقع ببيكاته قد رفع، ويجد النساء مكشوفات الرؤوس، يذكرن بما كان من فضائله، ويندبنه بأشهر أوصافه، وأعلى مراتبه ومحاله، فإن ذلك متصل من فعلهن، غير منقطع في أطراف الليل والنهار، والأصالة والأسحار.

التوكيد، كقوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدَفٌ لَكُمْ﴾ [النمل: ٧٢] أي: ردفكم. وقال الشاعر:

ما كنتُ أخدعُ للخليل بخلةً حتى يكون لي الخليلُ خدوعاً
أراد: ما كنت أخدع الخليل. وقال الآخر:

يذمون للدينيا وهم يحلبونها أفأويقن حتى ما يدير لها ثغلاً^(١)

أراد: يذمون الدنيا، ذكره ابن الأنباري، والرابع: أن اللام غير زائدة، والمعنى: لا تجعلوا تصديقكم النبي في شيء مما جاء به إلا لليهود، فإنكم إن قلتم ذلك للمشركين، كان عوناً لهم على تصديقه، قاله الزجاج. وقال ابن الأنباري: لا تؤمنوا أن محمداً وأصحابه على حق، إلا لمن تبع دينكم، مخافة أن يطلع على عنادكم الحق، ويحاجوكم به عند ربكم، فعلى هذا يكون معنى الكلام: لا تقولوا بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لمن تبع دينكم، وقد ذكر هذا المعنى مكي بن أبي طالب النحوي. وقرأ ابن كثير: أن يؤتى بهمتين، الأولى مخففة، والثانية ملينة على الاستفهام، مثل: أنتم أعلم، قال أبو علي: ووجهها أن «أن» في موضع رفع بالابتداء، وخبره: يصدقون به، أو يعترفون به، أو يذكرونه لغيركم، ويجوز أن يكون موضع «أن» نصباً، فيكون المعنى: أنشيعون، أو أتذكرون أن يؤتى أحد، ومثله في المعنى: ﴿أَتُحَدِّثُوهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٧٦]. وقرأ الأعمش، وطلحة بن مصرف: إن يؤتى، بكسر الهمزة، على معنى: ما يؤتى. وفي قوله تعالى: ﴿أَوْ يُمَارِجُوا عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ قولان: أحدهما: أن معناه: ولا تصدقوا أنهم يحاجوكم عند ربكم، لأنهم لا حجة لهم، قاله قتادة، والثاني: أن معناه: حتى يحاجوكم عند ربكم على طريق التعبد، كما يقال: لا يلقاه أو تقوم الساعة، قاله الكسائي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يعني النبوة، والكتاب، والهدى. ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ لا ما تمنيتموه أنتم يا معشر اليهود من أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم.

﴿يَخْصُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

قوله تعالى: ﴿يَخْصُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ في الرحمة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الإسلام، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: النبوة، قاله مجاهد. والثالث: القرآن والإسلام، قاله ابن جريج.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُوا بِقِنطَارٍ يُؤْذِيهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُوا بِذِينَارٍ لَا يُوْذِيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَوْلًا لَيْسَ عَلَيْكَ فِيهِ أَكْفَانٌ سَكِينٌ وَهُمْ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُوا بِقِنطَارٍ﴾ قال ابن عباس: أودع رجل ألفاً ومئتي أوقية من ذهب عبد الله بن سلام، فأداها إليه، فمدحه الله بهذه الآية، وأودع رجل فنحاص بن عازوراء ديناراً، فخانته. وأهل الكتاب: اليهود، وقد سبق الكلام في القنطار. وقيل: إن «الباء» في قوله: «بقنطار» بمعنى «على» فاما الدينار، فقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي، قال: الدينار فارسي معرب، وأصله: دينار، وهو وإن كان معرباً، فليس تعرف له العرب اسماً غير الدينار، فقد صار كالعربي، ولذلك ذكره الله تعالى في كتابه، لأنه خاطبهم بما عرفوا، واشتقوا منه فعلاً، فقالوا: رجل مُدَنَّر: كثير الدنانير. وبرذون مدنر: أشهب مستدير النقش بياض وسواد. فإن قيل: لم خص أهل الكتاب بأن فيهم خائناً وأميناً والخلق على ذلك، فالجواب: أنهم يخونون المسلمين استحلالاً لذلك، وقد بينه في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ فِي الْأَمَانَةِ سَكِينٌ﴾ فحذر منهم، وقال مقاتل: الأمانة ترجع إلى من أسلم منهم، والخيانة إلى من لم يسلم، وقيل: إن الذين يؤذون الأمانة: النصارى، والذين لا يؤذونها: اليهود.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: دُمْتُ ودُمتُ، ومُتْ ومُتْم، وتميم يقولون: مِتْ ومِمتْ بالكسر، ويجتمعون في «يفعل» يدم، ويموت. وفي هذا القيام قولان: أحدهما: أنه التقاضي، قاله مجاهد،

(١) نسبة في «اللسان» لابن همام السلولي، وروايته فيه: وفدوا لنا الدنيا وهم يرضعونها. الأفأويق: واحداً فيقة، وهي اسم للين الذي يجتمع بين الحلبتين. والنمل: زيادة في أخطاء الناقه، والبقرة، والشاة، وإنما ذكر النمل للبالغة في الارتضاع، لأن النمل لا يدر.

وقتادة، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج. قال ابن قتيبة: والمعنى: ما دمت مواظباً بالاقتضاء له والمطالبة. وأصل هذا أن المطالب بالشيء يقوم فيه ويتصرف، والتارك له يقعد عنه. [قال الأعشى:

يَقُومُ عَلَى الرَّغْمِ فِي قَوْمِهِ فَيَعْفُو إِذَا شَاءَ أَوْ يَنْتَقِمُ

أي: يطالب بالذحل^(١) ولا يقعد عنه. قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ [آل عمران: ١١٣] أي: عاملة غير تاركة، وقال تعالى: ﴿أَنَّمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] أي: أخذ لها بما كسبت^(٢). والثاني: أنه القيام حقيقة، فتقديره: إلا ما دمت قائماً على رأسه، فإنه يعترف بأمانته، فإذا ذهب، ثم جثت، جحدك، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ يعني: الخيانة. والسبيل: الإثم والجرم، ونظيره ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١] قال قتادة: إنما استحل اليهود أموال المسلمين، لأنهم عندهم ليسوا أهل كتاب.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ﴾ قال السدي: يقولون: قد أحل الله لنا أموال العرب.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ قولان: أحدهما: يعلمون أن الله قد أنزل في التوراة الوفاء، وأداء الأمانة. والثاني: يقولون الكذب، وهم يعلمون أنه كذب.

﴿يَا مَعْشَرَ الَّذِينَ آمَنُوا أَتَأْتُونَ اللَّهَ بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ﴾

قوله تعالى: ﴿بَلَى﴾ رد الله ﷻ عليهم قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُورِ سَبِيلٌ﴾ بقوله: ﴿بَلَى﴾ قال الزجاج: وهو عندي وقف التمام، ثم استأنف، فقال: ﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾ ويجوز أن يكون استأنف جملة الكلام بقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾. والعهد: ما عاهدكم الله ﷻ عليه في التوراة. وفي «هاء» «عَهْدُهُ» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله تعالى. والثاني: إلى الموفى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَأَيْمَانَهُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا عَاقِبَةُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ يُكَلِّمُهُ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَأَيْمَانَهُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن الأشعث بن قيس خاصم بعض اليهود في أرض، فجحد اليهودي، فقدمه إلى النبي ﷺ، فقال [له]: «ألك بينة؟» قال: لا. قال لليهودي: «أتحلف؟» فقال الأشعث: إذا يحلف فيذهب بمالي. فنزلت هذه الآية. أخرجه البخاري ومسلم^(٣).

والثاني: أنها نزلت في اليهود، عهد الله إليهم في التوراة بتبيين صفة النبي ﷺ، فجحدوا، وخالفوا لما كانوا يتلون من سفلتهم من الدنيا، هذا قول عكرمة، ومقاتل. والثالث: أن رجلاً أقام سلعته في السوق أول النهار، فلما كان آخره، جاء رجل يساومه، فحلف: لقد منعتها أول النهار من كذا، ولولا المساء لما باعها به، فنزلت هذه الآية، هذا قول الشعبي، ومجاهد. فعلى القول الأول، والثالث، العهد: لزوم الطاعة، وترك المعصية، وعلى الثاني: ما عهد به إلى اليهود في التوراة، واليمين: الحلف. وإن قلنا: إنها في اليهود، والكفار، فإن الله لا يكلمهم يوم القيامة أصلاً. وإن قلنا: إنها في العصاة، فقد روي عن ابن عباس أنه قال: لا يكلمهم الله كلام خير. ومعنى ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾، أي: لا يعطف عليهم بخير مقتاً لهم، قال الزجاج: تقول: فلان لا ينظر إلى فلان، ولا يكلمه، معناه: أنه غضبان عليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُرَكِّبُهُمْ﴾ أي: لا يطهرهم من دنس كفرهم وذنوبهم.

(١) الذحل: الثار، وطلب المكافأة بجنابة جنيت عليه، من قتل أو جرح أو نحو ذلك.

(٢) هذا نص كلام ابن قتيبة في «تأويل مشكل القرآن» ص ١٣٨ - ١٣٩، وما بين مقوفتين مزيد منه.

(٣) ونصه كما في البخاري ٥٣/٥ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقطع بها مال امرئ مسلم، لقي الله وهو عليه غضبان» قال: فقال الأشعث: في والله كان ذلك. كان بيني وبين رجل من اليهود أرض، فجحدني، فقدمته إلى النبي ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ: «ألك بينة؟» قلت: لا. قال، فقال لليهودي: «أتحلف؟» قال: قلت: يا رسول الله إذا يحلف ويذهب بمالي، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَأَيْمَانَهُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى آخر الآية.

﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقٌ يَلُونُ آلَيْسَتُمْ بِالْكَتَّابِ لِيَتَحَسَّبُوا مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَقُولُوا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُوا عَلَى اللَّهِ الْكِتَابُ وَمَنْ يَمْلِكُونَ﴾ (٧٨)

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقٌ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين، أحدهما: أنها نزلت في اليهود، رواه عطية، عن ابن عباس، والثاني: في اليهود والنصارى، رواه الضحاك عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ﴾ هي كلمة مؤكدة، واللام في قوله: «لَفَرِيقاً» وتوكيد زائد على توكيد «إِنْ». قال ابن قتيبة: ومعنى ﴿يَلُونُ آلَيْسَتُمْ﴾: يلقبونها بالتحريف والزيادة. والالسة: جمع لسان، قال أبو عمرو: اللسان يذكر ويؤنث، فمن ذكره جمعه: السنة، ومن أنثه، جمعه: السنأ، وقال الفراء: اللسان بعينه لم نسمعه من العرب إلا مذكراً. وتقول العرب: سبق من فلان لسان، يعنون به الكلام، فيذكرونه. وأنشد ابن الأعرابي:

لسانك معسولٌ ونفسك شحّة
وعند الشرياء من صديقك مالكا
وأنشد ثعلب:

نَدِمْتُ عَلَى لِسَانِ كُلِّ مَنِي
وَالْعَمَلُ: الْعَدْلُ. ودل بقوله: كان مني، على أن اللسان الكلام. وأنشد ثعلب:
أَتَنِي لِسَانُ بَنِي عَامِرٍ
فَأَنْتَ الْلسَانُ، لأنه عنى الكلمة والرسالة.

﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُكَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (٧٩)

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن قوماً من رؤساء اليهود والنصارى، قالوا: يا محمد أتريد أن نتخذك رباً؟ فقال: معاذ الله، ما بذلك بعثني، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. والثاني: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ألا نسجد لك؟ قال: «لا، فإنه لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله» فنزلت هذه الآية، قاله الحسن البصري. والثالث: أنها نزلت في نصارى نجران حيث عبدوا عيسى. قاله الضحاك، ومقاتل. وفيمن عنى به البشر قولان: أحدهما: محمد ﷺ. والكتاب: القرآن، قاله ابن عباس، وعطاء. والثاني: عيسى، والكتاب: الإنجيل، قاله الضحاك، ومقاتل. والحكم: الفقه والعلم، قاله قتادة في آخرين. قال الزجاج: ومعنى الآية: لا يجتمع لرجل نبوة، والقول للناس: كونوا عباداً لي من دون الله، لأن الله لا يصطفي الكذبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا﴾ أي: ولكن يقول لهم: كونوا، فحذف القول لدلالة الكلام عليه. فأما الريانيون، فروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: هم الذين يغذون الناس بالحكمة، ويربونهم عليها، وقال ابن عباس، وابن جبير: هم الفقهاء المعلمون. وقال قتادة، وعطاء: هم الفقهاء العلماء الحكماء. قال ابن قتيبة: واحدهم ريانى، وهم العلماء المعلمون. وقال أبو عبيد: أحسب الكلمة ليست بعربية، إنما هي عبرانية، أو سريانية، وذلك أن أبا عبيدة زعم أن العرب لا تعرف الريانيين. قال أبو عبيد: وإنما عرفها الفقهاء، وأهل العلم، قال: وسمعت رجلاً عالمياً بالكتب يقول: هم العلماء بالحلال والحرام، والأمر والنهي. وحكى ابن الأنباري عن بعض اللغويين: الرياني: منسوب إلى الرب، لأن العلم: مما يطاع الله به، فدخلت الألف والتون في النسبة للمبالغة، كما قالوا: رجل لحياني: إذا بالغوا في وصفه بكبر اللحية.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُكَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع وأبو عمرو: «تَعْلَمُونَ»، بإسكان العين، ونصب اللام. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «تَعْلَمُونَ» مثقلاً، وكلهم قرؤوا: «تدرسون» خفيفة. وقرأ ابن

(١) قائله الخطيئة؛ «ديوانه» ص ٣٤٧. اللسان هاتنا: الكلام، وأدخل الباء على «أن» مع «ليت» وهو قليل، وأراد: ليت أنه في جوف عكم، ففهم الباء على «أن» وهو حجة في العربية. ويروي: «قلت يان»، «وردت بانه». والعكم: داخل الجنب على المثل بالعكم، وهو النمط تجعله المرأة كالوعاء تدخر فيه متاعها.

مسعود، وابن عباس، وأبو رزين، وسعيد بن جبير، وطلحة بن مصرف، وأبو حيوة، «تُدْرَسُونَ»، بضم التاء مع التشديد، والدراسة: القراءة. قال الزجاج: ومعنى الكلام: ليكن هديكم ونيبكم في التعليم هدي العلماء والحكماء، لأن العالم إنما يستحق هذا الاسم إذا عمل بعلمه.

﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْكَفَالَةِ وَالْيَتِيمَ أَتْيَابًا أَبَاكُمْ بِالْكَفَرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٠)

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ﴾ قرأ ابن عامر، وحمزة، وخلف، ويعقوب، وعاصم في بعض الروايات عنه، وعبد الوارث عن أبي عمرو، واليزيدي في اختياره، بنصب الراء. وقرأ الباقون برفع الراء، فمن نصب كان المعنى: وما كان لبشر أن يأمركم، ومن رفع قطعه مما قبله. قال ابن جريج: ولا يأمركم محمد.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الْنَّبِيِّينَ لَمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ سَكَنٍ وَحَكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَفَرَأَيْنَا قَالُوا فَاتَّبَعُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨١)

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الْنَّبِيِّينَ﴾ قال الزجاج: موضع «إذ» نصب، المعنى: واذكر في أقاصيصك إذ أخذ الله، قال ابن عباس: الميثاق: العهد. وفي الذي أخذ ميثاقهم عليه قولان: أحدهما: أنه تصديق محمد ﷺ، روي عن علي، وابن عباس، وقتادة، والسدي. والثاني: أنه أخذ ميثاق الأول من الأنبياء ليؤمننَّ بما جاء به الآخر منهم، قاله طاووس. قال مجاهد، والربيع بن أنس: هذه الآية خطأ من الكتاب^(١)، وهي في قراءة ابن مسعود: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَاحْتَجَّ الرَّبِيعُ بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾^(٢)». وقال بعض أهل العلم: إنما أخذ الميثاق على النبيين، وأمهم، فاكفى بذكر الأنبياء عن ذكر الأمم، لأن في أخذ الميثاق على المتبوع دلالة على أخذه على التابع، وهذا معنى قول ابن عباس، والزجاج.

واختلف العلماء في لام «لما» فقرأ الأكثرون «لما» بفتح اللام والتخفيف، وقرأ حمزة مثلاً، إلا أنه كسر اللام، وقرأ سعيد بن جبير «لما» مشددة الميم، فقرأ ابن جبير، معناها: حين آتيتكم، وقال الفراء في قراءة حمزة: يريد أخذ الميثاق للذي آتاهم، ثم جعل قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ من الأخذ. قال الفراء: ومن نصب اللام جعلها زائدة. و«لما» هاهنا بمعنى الشرط والجزاء، فالمعنى: لئن آتيتكم ومهما آتيتكم شيئاً من كتاب وحكمة. قال ابن الأنباري: اللام في قوله تعالى: ﴿لَمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ على قراءة من شدد أو كسر: جواب لأخذ الميثاق. قال: لأن أخذ الميثاق يمين، وعلى قراءة من خففها، معناها: القسم، وجواب القسم اللام في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾. وإنما خاطب، فقال: آتيتكم، بعد أن ذكر النبيين وهم غيب، لأن في الكلام معنى قول وحكاية، فقال مخاطباً لهم: لما آتيتكم. وقرأ نافع «آتيناكم» بالنون والألف.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ قال علي ﷺ: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد، إن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وقال غيره: أخذ ميثاق الأنبياء أن يصدق بعضهم بعضاً، والإصر هاهنا: العهد في قول الجماعة. قال ابن قتيبة: أصل الإصر: الثقل، فسمي العهد إصرأ، لأنه منق من الأمر الذي أخذ له، وثقل وتشديد. وكلهم كسر ألف «إصري». وروى أبو بكر، عن عاصم؛ ضمّه. قال أبو علي: يشبه أن يكون الضم لغة.

(١) في الطبري «من الكتاب» قال الشيخ محمود شاكر: قلت: والقول الذي ذكره مجاهد إنه خطأ من الكاتب، إنما عنى به أن قراءة ابن مسعود هي مع القراءة التي كانت في العرصة الأخيرة، فأخطأ وكتب القراءة الأولى، ولم يرد بقوله: خطأ من الكاتب، أنه وضع ذلك من عند نفسه؟ كيف والقرآن كتاب متلقى بالرواية والورثة عن رسول الله ﷺ، لا بما هو مكتوب في المصحف.

(٢) قال أبو بكر الباقلاني في كتاب «الانتصار لفضل القرآن»: وأما نحن وإن كنا نوثق جميع من ذكرنا من السلف وأتباعهم، فأنا لا نعتقد تصديق جميع ما يروى عنهم، بل نعتقد أن فيه كذباً كثيراً، قد قامت الدلالة على أنه موضوع عليهم، وأن فيه ما يمكن أن يكون حقاً عنهم وما يمكن أن يكون باطلاً، ولا يثبت عليهم من طريق العلم النبات بأخبار الأحاد، وإذا كان ذلك كذلك، وكانت هذه الفراءات والكلمات المروية عن جماعة منهم المخالفة لما في مصحفنا، مما لا نعلم صحتها وثبوتها، وكنا مع ذلك نعلم اجتماعهم على تسليم مصحف عثمان وقراءتهم وإقراءتهم ما فيه، والمعمل به دون غيره، لم يجب أن نحفل بشيء من هذه الروايات عنهم لأجل ما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ قال ابن فارس: الشهادة: الإخبار بما شوهده. وفيمن خطوب بهذا قولان: أحدهما: أنه خطاب للنبيين، ثم فيه قولان. أحدهما: أن معناه: فاشهدوا على أممكم، قاله علي بن أبي طالب. والثاني: فاشهدوا على أنفسكم، قال مقاتل. والثاني: أنه خطاب للملائكة، قاله سعيد بن المسيب. فعلى هذا يكون كناية عن غير مذكور.

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٨٢) ﴿أَفَتَعِدُّوهُنَّ يَتِيمَاتٍ وَلَهُنَّ أَسْمَاءٌ مِّنَ الْتَمَكُونِ وَالْأَرْثَمِ طَوْعًا وَكَرِهًا وَإِنَّهُنَّ يُرْجَعُونَ﴾ (٨٣)

قوله تعالى: ﴿أَفَتَعِدُّوهُنَّ يَتِيمَاتٍ﴾ قرأ أبو عمرو: «يغنون» بالياء مفتوحة. ﴿وَالَّذِي تُرْجَعُونَ﴾: بالياء مضمونة، وقرأها الباقون بالياء في الحرفين. وروى حفص عن عاصم: «يغنون» و«يرجعون» بالياء فيهما، وفتح الياء وكسر الجيم يعقوب على أصله. قال ابن عباس: اختصم أهل الكتابين، فزعمت كل فرقة أنها أولى بدين إبراهيم، فقال النبي ﷺ: «كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم». فغضبوا، وقالوا: والله لا نرضى بقضائك، ولا نأخذ بدينك، فنزلت هذه الآية. والمراد بدين الله، دين محمد ﷺ ﴿وَلَهُنَّ أَسْمَاءٌ﴾: وكنى، وخضع ﴿طَوْعًا وَكَرِهًا﴾ الطوع: الانقياد بسهولة، والكره: الانقياد بمشقة وإباء من النفس. وفي معنى الطوع والكره ستة أقوال: أحدها: أن إسلام الكل كان يوم الميثاق طوعاً وكرهاً، رواه مجاهد عن ابن عباس، والأعمش عن مجاهد، وبه قال السدي. والثاني: أن المؤمن يسجد طائعاً، والكافر يسجد ظله وهو كاره، روي عن ابن عباس، ورواه ابن أبي نجيح، وليث عن مجاهد. والثالث: أن الكل أقروا له بأنه الخالق، وإن أشرك بعضهم، فإقراره بذلك حجة عليه في إشراكه، هذا قول أبي العالية، ورواه منصور عن مجاهد. والرابع: أن المؤمن أسلم طائعاً، والكافر أسلم مخافة السيف، هذا قول الحسن. والخامس: أن المؤمن أسلم طائعاً، والكافر أسلم حين رأى بأس الله، فلم ينفعه في ذلك الوقت، هذا قول قتادة. والسادس: أن إسلام الكل خضوعهم لنفاذ أمره في جبلتهم، لا يقدر أحد أن يمتنع من جبلت عليه، ولا على تغييرها، هذا قول الزجاج، وهو معنى قول الشعبي: انقاد كلهم له.

﴿قُلْ ءَأَمْسَا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤) ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥) ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦) ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّا عَلَيْنَاهُمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٧)

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن رجلاً من الأنصار ارتد، فلحق بالمشركين، فنزلت هذه الآية، إلى قوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ فكتب بها قومه إليه، فرجع تائباً [فقبل النبي ﷺ ذلك منه وخلقى عنه] رواه عكرمة عن ابن عباس^(١). وذكر مجاهد، والسدي أن اسم ذلك الرجل: الحارث بن سويد. والثاني: أنها نزلت في عشرة رهط ارتدوا، فيهم الحارث بن سويد، فندم، فرجع. رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مقاتل. والثالث: أنها في أهل الكتاب، عرفوا النبي ﷺ، ثم كفروا به، رواه عطية عن ابن عباس، وقال الحسن: هم اليهود والنصارى. وقيل: إن «كيف» هاهنا لفظها لفظ الاستفهام، ومعناها الجحد، أي: لا يهدي الله هؤلاء.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَجُفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٨٨) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنَّا بَعْدَ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٨٩) قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ قال الزجاج أي: في عذاب اللعنة ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي: يؤخرون عن الوقت. قال: ومعنى: ﴿وَأَسْلَمُوا﴾ أي: أظهروا أنهم كانوا على ضلال، وأصلحوا ما كانوا أفسدوه، وغزوا به من تبعهم ممن لا علم له.

(١) رواه النسائي وابن حبان وابن أبي حاتم والطبري والبيهقي والحاكم، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. ورواه أحمد أيضاً، وإسناده صحيح.

فصل

وهذه الآية استثنت من تاب ممن لم يتب، وقد زعم قوم أنها نسخت ما تضمنته الآيات قبلها من الوعيد، وليس بنسخ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمَسْأُولُونَ﴾^(١)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت فيمن لم يتب من أصحاب الحارث بن سويد، فإنهم قالوا: نقيم بمكة ونترى بمحمد ريب المنون، قاله ابن عباس، ومقاتل.

والثاني: أنها نزلت في اليهود كفروا بعبسى والإنجيل، ثم ازدادوا كفراً بمحمد والقرآن، قاله الحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني.

والثالث: أنها نزلت في اليهود والنصارى، كفروا بمحمد بعد إيمانهم بصفته، ثم ازدادوا كفراً بإقامتهم على كفرهم، قاله أبو العالية.

قال الحسن: كلما نزلت آية كفروا بها، فازدادوا كفراً، وفي علة امتناع قبول توبتهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم ارتدوا، وعزموا على إظهار التوبة لستر أحوالهم، والكفر في ضمايرهم، قاله ابن عباس.

والثاني: أنهم قوم تابوا من الذنوب في الشرك، ولم يتوبوا من الشرك، قاله أبو العالية.

والثالث: أن: معناه: لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت، وهو قول الحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني، والسدي.

والرابع: لن تقبل توبتهم بعد الموت إذا ماتوا على الكفر، قاله مجاهد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ

بِئْسَ صِغِيرٌ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ روى أبو صالح عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما فتح مكة، دخل من كان من أصحاب الحارث بن سويد حياً في الإسلام، فنزلت هذه الآية فيمن مات منهم كافراً. قال الزجاج: وملء الشيء: مقدار ما يملؤه. قال سيبويه، والخليل: والملء بفتح الميم: الفعل، تقول: ملأت الشيء أملؤه ملاء، المصدر بالفتح لا غير. والملاءة: التي تلبس ممدودة، والملاءة من الدهر: القطعة الطويلة منه، يقولون: ابل جديداً، وتمل حبباً، أي: عش معه دهرًا طويلاً. و﴿ذَهَبًا﴾ منصوب على التمييز. وقال ابن فارس: ربما أنث الذهب، فقيل: ذهبة، ويجمع على الأذهاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾^(١) قال الفراء: الواو هاهنا قد يستغنى عنها، ولو حذف كان صواباً، كقوله تعالى: ﴿وَلْيَكُونَنَّ مِنَ الْكُوفِينَ﴾^(٢) [النعام: ٧٥] قال الزجاج: هذا غلط، لأن فائدة الواو بيئة، فليست مما يلقى. قال النحاس: قال أهل النظر من النحويين في هذه الآية: الواو ليست مقحمة، وتقديره: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً تبرعاً ولو افتدى.

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبِبْتُمْ وَمَا يُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَ عِلْمٍ﴾^(٣)

قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ في البر أربعة أقوال: أحدها: أنه الجنة، قاله ابن عباس، ومجاهد، والسدي في آخرين. قال ابن جرير: فيكون المعنى: لن تنالوا بر الله بكم الذي تطلبونه بطاعتكم. والثاني: التقوى، قاله عطاء ومقاتل. والثالث: الطاعة، قاله عطية. والرابع: الخير الذي يستحق به الأجر، قاله أبو روق، قال القاضي أبو يعلى: لم يزد نفي الأصل، وإنما نفي وجود الكمال، فكانه قال: لن تنالوا البر الكامل.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبِبْتُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه نفقة العبد من ماله، وهو صحيح شحيح، رواه ابن عمر عن النبي ﷺ^(١). والثاني: أنه الإنفاق من محبوب المال، قاله قتادة، والضحاك. وفي المراد بهذه النفقة ثلاثة

(١) روى الإمام أحمد من أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر أهلك أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي، وأخرجه البخاري، ومسلم.

(٢) لم تنف على هذه الرواية التي ذكرها المؤلف من طريق ابن عمر في شيء من كتب السنة، وإنما الذي جاء فيها: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الفنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان» رواه البخاري ومسلم.

أقوال: أحدها: أنها الصدقة المفروضة، قاله ابن عباس، والحسن، والضحاك. والثاني: أنها جميع الصدقات، قاله ابن عمر. والثالث: أنها جميع النفقات التي يُبتغى بها وجه الله تعالى، سواء كانت صدقة، أو لم تكن، نُقل عن الحسن، واختاره القاضي أبو يعلى. وروى البخاري، ومسلم في «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس: فلما نزلت: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾ قام أبو طلحة، فقال: يا رسول الله إن الله يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾ وإن أحب أموالي إليَّ بيرحاء^(١)، وإنها صدقة لله، أرجو برّها وذخرها عند الله تعالى، فضعها حيث أراك الله، فقال ﷺ: «بيخ بىخ، ذاك مال رابع أو رائع [شك الراوي]^(٢) وقد سمعت ما قلت، وإنني أرى أن تجعلها في الأقربين» فقسمها أبو طلحة في أقاربه، وبني عمّه. وروي عن عبد الله بن عمر أنه قرأ هذه الآية فقال: لا أجد شيئاً أحب إليّ من جاريتي رميثة^(٣)، فهي حرة لوجه الله، ثم قال: لولا أنني أعود في شيء جعلته لله، لنكحتها، فأنكحها نافعاً، فهي أم ولده، وسئل أبو ذر: أي الأعمال أفضل؟ فقال: الصلاة: عماد الإسلام، والجهاد: ستام العمل، والصدقة: شيء عَجِب، ثم قال السائل: يا أبا ذر لقد تركت شيئاً هو أوثق عمل في نفسي لا أراك ذكرته. قال: ما هو؟ قال: الصيام. فقال: قربة وليس هناك، وتلا قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾^(٤). قال الزجاج: ومعنى قوله تعالى: ﴿فَأَنَّا لِلَّهِ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: يجازي عليه.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِلَّهِ إِذْ أُنزِلَ فِيهِ مِنْ قَبْلُ أَنْ نُنَزِّلَ الْتَوْرَةَ فَمَنْ فَاتَوْنَا بِالْتَوْرَةِ قَاتِلًا أَوْ فَاتُوا بِالْأَنْبِيَاءِ قَاتِلًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِلَّهِ إِذْ أُنزِلَ فِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ سبب نزولها أن النبي ﷺ قال: «أنا على ملة إبراهيم» فقالت اليهود: كيف وأنت تأكل لحوم الإبل. وتشرب البنانها؟ فقال: «كان ذلك حلالاً لإبراهيم». فقالوا: كل شيء نجس، فإنه كان محرماً على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا. فنزلت هذه الآية تكذيباً لهم. قاله أبو روق، وابن السائب^(٥): «والطعام»: اسم للمأكول. قال ابن قتيبة: والجل: الحلال، ومثله الحرم والحرام، واللبس واللباس. وفي الذي حرّمه على نفسه، ثلاثة أقوال: أحدها: لحوم الإبل والبنانها. روي عن النبي ﷺ^(٦)، ورواه أبو صالح، عن ابن عباس، وهو قول الحسن، وعطاء بن أبي رباح، وأبي العالية في آخرين. والثاني: أنه العروق، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس^(٧) وهو قول مجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي في آخرين. والثالث: أنه زائدتا الكبدة، والكليتان، والشحم إلا ما على الظهر، قاله عكرمة. وفي سبب تحريمه لذلك أربعة أقوال: أحدها: أنه طال به مرضٌ شديد، فنذر:

- (١) قوله: بيرحاء، قال الحافظ ابن حجر: بفتح الموحدة، وسكون التحتانية، وفتح الراء، وبالمهمل والمد، وجاء في ضبطه أوجه كثيرة، جمعها ابن الأثير في «النهاية»، فقال: يروى بفتح الباء، ويكسرهما، ويفتح الراء وضمها، وبالمد والقصر. فهذه ثمان لغات. وفي رواية حماد بن سلمة «بريحاء» بفتح أوله وكسر الراء وتقديمها على التحتانية. وفي «سنن أبي داود» «باريحاء» مثله لكن بزيادة ألف. وقال الباقى: أنصحتها بفتح الباء، وسكون الياء، وفتح الراء مقصور، وكذا جزم به الصغاني، وقال: إنه «فعل» من البراح. قال: ومن ذكره بكسر الموحدة، وظن أنها بئر من أبواب المدينة فقد صحف.
- (٢) جاء في البخاري: رابع أو رائع، شك ابن سلمة. قال الحافظ ابن حجر: أي القمني، والرواية الأولى واضحة من الريح، أي: ذو ريح. وقيل: هو فاعل بمعنى مفعول، أي: هو مال مربوح فيه. وأما الثانية فمعناها: رائع عليه أجره. قال ابن بطال: والمعنى أن مساقته قربة، وذلك أنفس الأموال. وقيل: معناه يروح بالأجر ويفتد به، واكتفى بالروح عن الغد.
- (٣) في «الدر المنثور»: مرجانة.

- (٤) رواه ابن جرير الطبري ٥٩١/٦، وهذا الخبر منقطع لأن ميمون بن مهران لم يذكر أبا ذر.

- (٥) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ولم يذكر له سنداً.

- (٦) روى الإمام أحمد بسند حسن عن ابن عباس قال: «حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا: حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي [فذكر الحديث، وفيه لأنهم قالوا: أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟] وأن رسول الله ﷺ قال لهم: [فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ﷺ هل تعلمون أن إسرائيل أي: يعقوب] مرض مرضاً شديداً، وطال سقمه، فنذر له نذراً، لئن شفاه الله من سقمه لبحرمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه. وكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل، وأحب الشراب إليه البنانها؟ فقالوا: اللهم نعم. فقال: اللهم شهد عليهم».

- (٧) رواه البيهقي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس.

لئن شفاه الله، ليحرّم من أحبّ الطعام والشراب إليه، روي عن النبي ﷺ. والثاني: أنه اشتكى عرق النساء^(١) فحرّم العروق، قاله ابن عباس في آخرين. والثالث: أن الأطباء وصفوا له حين أصابه النساء اجتناب ما حرّمه، فحرّمه، رواه الضحاك عن ابن عباس. والرابع: أنه كان إذا أكل ذلك الطعام، أصابه عرق النساء، فبييت وقيداً^(٢) فحرّمه، قاله أبو سليمان الدمشقي. واختلفوا: هل حرم ذلك بإذن الله أو باجتهاده؟ على قولين. واختلفوا: بماذا ثبت تحريم الطعام الذي حرّمه على اليهود، على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه حرم عليهم بتحريمه، ولم يكن محرماً في التوراة، قاله عطية. وقال ابن عباس: قال يعقوب: لئن عافاني الله لا يأكله لي ولد. والثاني: أنهم وافقوا أباهم يعقوب في تحريمه، لا أنه حرّم عليهم بالشرع، ثم أضافوا تحريمه إلى الله، فأكذبهم الله بقوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ هذا قول الضحاك. والثالث: أن الله حرّم عليهم بعد التوراة لا فيها. وكانوا إذا أصابوا ذنباً عظيماً، حرم عليهم به طعام طيب، أو صب عليهم عذاب، هذا قول ابن السائب. قال ابن عباس: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا﴾ هل تجدون فيها تحريم لحوم الإبل وألبانها!

﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَالِسُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى﴾ يقول: اختلق ﴿عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد البيان في كتبهم، وقيل: من بعد مجيئكم بالتوراة وتلاوتكم إياها.

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ الصدق: الإخبار بالشيء على ما هو به، وضده الكذب. واختلفوا أي خير عنى بهذه الآية؟ على قولين: أحدهما: أنه عنى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا﴾، قاله مقاتل، وأبو سليمان الدمشقي. والثاني: أنه عنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّمَاكِ كَانَ جِلًّا﴾ قاله ابن السائب.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ قال مجاهد: افتخر المسلمون واليهود، فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل من الكعبة. وقال المسلمون: الكعبة أفضل، فنزلت هذه الآية. وفي معنى كونه «أول» قولان: أحدهما: أنه أول بيت كان في الأرض، واختلف أرباب هذا القول، كيف كان أول بيت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ظهر على وجه الماء حين خلق الله الأرض، فخلقه قبلها بألفي عام، ودحاها من تحته، فروى سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: كانت الكعبة حشفة على وجه الماء، عليها ملكان يسبحان الليل والنهار قبل الأرض بألفي سنة، وقال ابن عباس: وضع البيت في الماء على أربعة أركان قبل أن تخلق الدنيا بألفي سنة، ثم دُحيت الأرض من تحت البيت، وبهذا القول يقول ابن عمر، وابن عمرو، وقتادة، ومجاهد، والسدي في آخرين. والثاني: أن آدم استوحش حين أهبط، فأوحى الله إليه، أن: ابن لي بيتاً في الأرض، فاصنع حوله نحو ما رأيت ملائكتي تصنع حول عرشي، فبناه، رواه أبو صالح، عن ابن عباس. والثالث: أنه أهبط مع آدم، فلما كان الطوفان، رُفع فصار معموراً في السماء، وبنى إبراهيم على أثره، رواه شيان عن قتادة. القول الثاني: أنه أول بيت وُضع للناس للعبادة^(٣)، وقد كانت قبله بيوت، هذا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه^(٤)، والحسن، وعطاء بن السائب في آخرين، فأما بكّة، فقال الزجاج: يصلح هذا الاسم أن يكون مشتقاً من البَكَّة. يقال: بكَّ الناس بعضهم بعضاً، أي: دفع. واختلفوا في تسميتها ببكة على ثلاثة أقوال: أحدها: لآزدحام

(١) النساء: هو العرق الذي يخرج من الورك، فيستعطن الفلّذين، ثم يمر حتى يبلغ الكب، وهو الذي يأخذه المرض المعروف.

(٢) قال في «اللسان»: الوئيد والموقوذ: الشدّيد المرض الذي قد أشرف على الموت. وفي «الطبري»: فكان بييت وله زقاء. والزقاء: صوت الباكي وصياحه.

(٣) يؤيده ما رواه أبو ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة». قلت: ثم أي؟ قال: «ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجداً». رواه أحمد في «المسند» والبخاري ومسلم.

(٤) أثر علي، رواه ابن أبي حاتم، وصححه الحافظ ابن حجر.

الناس بها، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة، والفراء، ومقاتل. والثاني: لأنها تَبَكَّ أعناق الجبابرة، أي: تَدَفَّعها، فلم يقصدها جبارٌ إلا قصمه الله، روي عن عبد الله بن الزبير، وذكره الزجاج. والثالث: لأنها تضع من نخوة المتجبرين، يقال: بككت الرجل، أي: وضعت منه، ورددت نخوته، قاله أبو عبد الرحمن البيهقي، وقُطِرَب. وانفقوا على أن مكة اسم لجميع البلدة. واختلفوا في بكة على أربعة أقوال: أحدها: أنه اسمٌ للبقعة التي فيها الكعبة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو مالك، وإبراهيم. وعطية. والثاني: أنها ما حول البيت، ومكة ما وراء ذلك، قاله عكرمة. والثالث: أنها المسجد، والبيت. ومكة: اسمٌ للحرم كله، قاله الزهري، وضمرة بن حبيب. والرابع: أن بكة هي مكة، قاله الضحاك، وابن قتيبة، واحتج ابن قتيبة بأن الباء تبدل من الميم؛ يقال: سمد رأسه، وسبد رأسه: إذا استأصله، وشر لازم، ولازب.

قوله تعالى: ﴿مَبَارَكًا﴾ قال الزجاج: هو منصوب على الحال. المعنى: الذي استقر بمكة في حال بركته.

قوله تعالى: ﴿وَهْدًى﴾ أي: وذا هدى. ويجوز أن يكون «هدى» في موضع رفع، المعنى: وهو هدى، فأما بركته، ففيه تغفر الذنوب، وتضاعف الحسنات، ويأمن مَنْ دخله. وروى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «من طاف بالبيت، لم يرفع قدماً، ولم يضع أخرى، إلا كتب الله له بها حسنة، وحط عنه بها خطيئة، ورفع له بها درجة»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَهْدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾، في الهدى هاهنا أربعة أقوال: أحدها: أنه بمعنى القبلة، فتقديره: وقبلة للعالمين. والثاني: أنه بمعنى: الرحمة. والثالث: أنه بمعنى: الصلاح، لأن من قصده، صلحت حاله عند ربه. والرابع: أنه بمعنى: البيان، والدلالة على الله تعالى بما فيه من الآيات التي لا يقدر عليها غيره، حيث يجتمع الكلب والظبي في الحرم، فلا الكلب يهيج الظبي، ولا الظبي يستوحش منه، قاله القاضي أبو يعلى.

﴿فِيهِ ءَايَاتٌ يَّبَيِّنُ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ يَّبَيِّنُ﴾، الجمهور يقرؤون: آيات. وروى عطاء عن ابن عباس أنه قرأ: «فيه آيةٌ بينةٌ مقام إبراهيم»، وبها قرأ مجاهد. والآية: مقام إبراهيم. فأما مَنْ قرأ: «آيات» فقال علي بن أبي طالب ؓ: الآيات: مقام إبراهيم، وأمن مَنْ دخله. فعلى هذا يكون الجمع معبراً عن التثنية، وذلك جائز في اللغة، كقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِكَيْبِهِمْ شُرَكَّاءَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]. وقال أبو رجاء: كان الحسن يعدهن، وأنا أنظر إلى أصابعه: مقام إبراهيم، ومَنْ دخله كان آمناً، والله على الناس حج البيت، وقال ابن جرير: في الكلام إضمار، تقديره: منهم مقام إبراهيم. قال المفسرون: الآيات فيه كثيرة، منها مقام إبراهيم، ومنها: أمن من دخله، ومنها: امتناع الطير من العلو عليه، واستشفاء المريض منها به، وتعجيل العقوبة لمن انتهك حرمة، وإهلاك أصحاب الفيل لما قصدوا إخراجه، إلى غير ذلك. قال القاضي أبو يعلى: والمراد بالبيت هاهنا: الحرم كله، لأن هذه الآيات موجودة فيه، ومقام إبراهيم ليست في البيت، والآية في مقام إبراهيم أنه قام على حجر، فأثرت قدماء فيه، فكان ذلك دليلاً على قدرة الله، وصدق إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾، قال القاضي أبو يعلى: لفظه لفظ الخبر، ومعناه: الأمر، وتقديره: ومَنْ دخله، فأمنه، وهو عام فيمن جنى جناية قبل دخوله، وفيمن جنى فيه بعد دخوله، إلا أن الإجماع اتفق على أن من جنى فيه لا يؤمن، لأنه هنك حرمة الحرم ورد الأمان، فبقي حكم الآية فيمن جنى خارجاً منه، ثم لجأ إلى الحرم، وقد اختلف الفقهاء في ذلك، فقال أحمد في رواية المروزي: إذا قتل، أو قطع يداً، أو أتى حداً في غير الحرم، ثم دخله، لم يقم عليه الحد، ولم يقتص منه، ولكن لا يبايع، ولا يشارى، ولا يؤاكل حتى يخرج، فإن فعل شيئاً من ذلك في

(١) رواه أحمد في «المستند» رقم ٤٤٦٢، والترمذي في «جامعه» والحاكم في «المستدرک» وابن خزيمة في «صحيحه» عن ابن عمر، ولفظ المصنف عند ابن خزيمة. قال الهيثمي في مجمع «الزوائد» ٣/ ٢٤٠: وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط. وهشيم الراوي عن عطاء سمع منه بعد اختلاطه. وقد حسن الشيخ أحمد شاكر هذا الحديث في تعليقه على «المستند» فانظره.

الحرم، استوفي منه. وقال أحمد في رواية حنبل: إذا قتل خارج الحرم، ثم دخله، لم يقتل. وإن كانت الجناية دون النفس، فإنه يقام عليه الحد، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه. وقال مالك والشافعي: يقام عليه جميع ذلك في النفس، وفيما دون النفس.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَ كَانَ مَآبِقًا﴾، دليل على أنه لا يقام عليه شيء من ذلك، وهو مذهب ابن عمر، وابن عباس، وعطاء، والشعبي، وسعيد بن جبير، وطاووس.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾، الأكثرون على فتح حاء «الحج»، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، بكسرهما. قال مجاهد: لما أنزل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] قال أهل الملل كلهم: نحن مسلمون، فنزلت هذه الآية، فحججه المسلمون، وتركه المشركون، وقالت اليهود: لا نَحْجُجُهُ أَبَدًا.

قوله تعالى: ﴿مَنْ أَسْطَلَعَ إِلَيْهِ سَيْلًا﴾، قال النحويون: من استطاع بدل من «الناس»، وهذا بدل البعض من الكل، كما تقول: ضربت زيداً رأسه. وقد روي عن ابن مسعود، وابن عمر، وأنس، وعائشة عن النبي ﷺ أنه سُئِلَ: ما السيل؟ فقال: «من وجد الزاد والراحلة»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾، فيه خمسة أقوال: أحدها: أن معناه: من كفر بالحج فاعتقده غير واجب، رواه مقسم عن ابن عباس، وابن جريج عن مجاهد، وبه قال الحسن، وعطاء، وعكرمة، والضحاك، ومقاتل: والثاني: من لم يرج ثواب حجه، ولم يخف عقاب تركه، فقد كفر به، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وابن أبي نجيح عن مجاهد. والثالث: أنه الكفر بالله، لا بالحج، وهذا المعنى مروي عن عكرمة، ومجاهد. والرابع: أنه إذا أمكنه الحج، فلم يحج حتى مات، وسم بين عينيه: كافر، هذا قول ابن عمر. والخامس: أنه أراد الكفر بالآيات التي أنزلت في ذكر البيت، لأن قوماً من المشركين قالوا: نحن نكفر بهذه الآيات، هذا قول ابن زيد.

﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن دَامَنَ تَبَوُّهُنَّ عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ﴾، قال الحسن: هم اليهود والنصارى، فأما آيات الله؛ فقال ابن عباس: هي القرآن ومحمد ﷺ. وأما الشهيد، فقال ابن قتبية: هو بمعنى الشاهد، وقال الخطابي: هو الذي لا يغيب عنه شيء، كأنه الحاضر الشاهد.

قوله تعالى: ﴿يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن دَامَنَ﴾. قال مقاتل: دعت اليهود حذيفة، وعمار بن ياسر، إلى دينهم، فنزلت هذه الآية، وفي المراد بأهل الكتاب هاهنا قولان: أحدهما: أنهم اليهود والنصارى، قاله الحسن. والثاني: اليهود. قاله زيد بن أسلم، ومقاتل. قال ابن عباس: لم تصدّون عن سبيل الله: الإسلام، والحج. وقال قتادة: لم تصدّون عن نبي الله، وعن الإسلام. قال السدي: كانوا إذا سئلوا: هل تجدون محمداً في كتبكم؟ قالوا: لا. فصدا عنه الناس.

(١) قال الحافظ في «التلخيص»: رواه الدارقطني ٢٥٤/١، والحاكم ٤٤٢/١ والبيهقي من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، عن أنس، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾، قال: قيل: يا رسول الله ما السيل؟ قال: «الزاد والراحلة». قال البيهقي: الصواب عن قتادة عن الحسن مرسلاً، يعني الذي خرج الدارقطني، وسنده صحيح إلى الحسن ولا أرى الموصول إلا وهماً. وقد رواه الحاكم من حديث حماد بن سلمة عن قتادة عن أنس أيضاً، إلا أن الراوي عن حماد هو أبو قتادة عبد الله بن واقد الحراني، وقد قال أبو حاتم: هو منكر الحديث. وقد رواه الشافعي في «المسنَد» ٢٨٤/١، والترمذي ص ١٠٠، وابن ماجه ص ٢١٤، والدارقطني ص ٢٥٥ من حديث ابن عمر، وقال الترمذي: حسن، وهو من رواية إبراهيم بن يزيد الخوزي، وقد قال فيه أحمد والنسائي: متروك الحديث، ورواه ابن ماجه ٢١٤/١، والدارقطني من حديث ابن عباس، وسنده ضعيف أيضاً، ورواه ابن المنذر من قول ابن عباس. ورواه الدارقطني من حديث جابر، ومن حديث علي بن أبي طالب، ومن حديث ابن مسعود، ومن حديث عائشة، ومن حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وطرقها كلها ضعيفة، وقد قال عبد الحق: إن طرقها كلها ضعيفة، وقال أبو بكر بن المنذر: لا يثبت الحديث في ذلك مسنداً، والصحيح من الروايات رواية الحسن مرسلة. وقال الشوكاني في «فيل الأوطار»: ولا يخفى أن هذه الطرق بقوي بعضها بعضاً فتصلح للاحتجاج بها. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: فهذه الأحاديث مستندة من طرق حسان مرسلة وموقوفة تدل على أن مناط الوجوب الزاد والراحلة، مع علم النبي ﷺ أن كثيراً من الناس يقدرون على المشي.

قوله تعالى: ﴿تَبٰغُوْهَا﴾ قال اللغويون: الهاء كناية عن السبيل، والسبيل يذكَر ويؤنَّث. وأنشدوا:

فَلَا تَبْعُدْ فَكُلُّ فِتْيِ أَنْسَاسٍ سَيُصْبِحُ سَالِكاً تِلْكَ السَّبِيلَا

ومعنى «تبغونها»: تبغون لها، تقول العرب: ابغني خادماً، يريدون: ابغته لي، فإذا أرادوا: ابغ معي، وأعني على طلبه، قالوا: أبغني، ففتحوا الألف، ويقولون: وهبتك درهماً، كما يقولون: وهبت لك. قال الشاعر:

فَتَوَلَّى غُلَامُهُمْ ثُمَّ نَادَى أَظْلِمَ أَصِيدُكُمْ أَمْ حِمَاراً؟

أراد: أصيدُ لكم. ومعنى الآية: يلتمسون لسبيل الله الزينغ والتحريف، ويريدون ردَّ الإيمان والاستقامة إلى الكفر والاعوجاج، ويطلبون العدول عن القصد، وهذا قول الفراء، والزجاج، واللغويين. قال ابن جرير: خرج هذا الكلام على السبيل، والمعنى: لأهله، كان المعنى: تبغون لأهل دين الله، ولمن هو على سبيل الحق، عوجاً، أي: ضلالاً، قال أبو عبيدة: العوج بكسر العين في الدين، والكلام، والعمل، والعوج بفتحها، في الحائط والجذع، وقال الزجاج: العوج بكسر العين: فيما لا ترى له شخصاً، وما كان له شخص قلت: عوج بفتحها، تقول: في أمره ودينه عوج، وفي العصا عوج. وروى ابن الأنباري عن ثعلب قال: العوج عند العرب بكسر العين: في كل ما لا يحاط به، والعوج بفتح العين في كل ما لا يحصل، فيقال: في الأرض عوج، وفي الدين عوج، لأن هذين يتسعان، ولا يدركان. وفي العصا عوج، وفي السن عوج، لأنهما يحاط بهما، ويبلغ كنههما، وقال ابن فارس: العوج بفتح العين: في كل متعصب، كالحائط. والعوج: ما كان في بساط أو أرض، أو دين، أو معاش.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه، وأنتم شاهدون بصحة ما صددتم عنه، ويُطلان ما أنتم فيه، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس، وقتادة، والأكثرين. والثاني: أن معنى الشهداء هاهنا: العقلاء، ذكره القاضي أبو يعلى في آخرين.

﴿يُنَازِلُكُمْ إِلَيْنَ فَمَا تَكُونُ فِي الْآيَةِ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بِدِينِكُمْ كَفِرًا﴾

سبب نزولها أن الأوس والخزرج كان بينهما حرب في الجاهلية، فلما جاء النبي ﷺ أطفأ تلك الحرب بالإسلام، فبينما رجلان أوسي وخزرجي يتحدثان، ومعهما يهودي، جعل اليهودي يذكرهما أيامهما، والعداوة التي كانت بينهما حتى اقتتلا، فنادى كل واحد منهما بقومه، فخرجوا بالسلاح، فجاء النبي ﷺ، فأصلح بينهم، فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد، وعكرمة، والجماعة. قال المفسرون: والخطاب بهذه الآية للأوس والخزرج. قال زيد بن أسلم: وعنى بذلك الفريق: شاس بن قيس اليهودي وأصحابه. قال الزجاج: ومعنى طاعتهم: تقليدهم.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَمِدِ بِاللَّهِ فَقَدِ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَمِدِ بِاللَّهِ﴾. قال ابن قتيبة: أي: يمتنع، وأصل العصمة: المنع، قال الزجاج: ويعتصم جزم بـ«من» والجواب «فَقَدِ هَدَىٰ».

﴿يُنَازِلُكُمْ إِلَيْنَ فَمَا تَكُونُ فِي الْآيَةِ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بِدِينِكُمْ كَفِرًا﴾

قال عكرمة: نزلت في الأوس والخزرج حين اقتتلوا، وأصلح النبي ﷺ بينهم. وفي «حق ثقاته» ثلاثة أقوال: أحدها: أن يُطاع الله فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يشكر فلا يكفر، رواه ابن مسعود عن النبي ﷺ^(١). وهو قول ابن مسعود، والحسن، وعكرمة، وقتادة، ومقاتل. والثاني: أن يجاهد في الله حق الجهاد وأن لا يأخذ العبد فيه لومة لائم، وأن يقوموا له بالقسط، ولو على أنفسهم، وأبائهم، وأبنائهم، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أن معناه: اتقوه فيما يحق عليكم أن تتقوه فيه، قاله الزجاج.

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» والحاكم في «المستدرک» ٢/ ٢٩٤ موقوفاً غير مرفوع، وإسناده صحيح. ورواه ابن مردويه مرفوعاً كما ذكر المصنف، قال ابن كثير. والأظهر أنه موقوف.

فصل

واختلف العلماء: هل هذا الكلام محكم أو منسوخ؟ على قولين: أحدهما: أنه منسوخ، وهو قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن زيد، والسدي، ومقاتل. قالوا: لما نزلت هذه الآية، شقت على المسلمين، فنسخها قوله تعالى: ﴿قَالُوا اللَّهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. والثاني: أنها محكمة، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وهو قول طاوس. قال شيخنا علي بن عبيد الله: والاختلاف في نسخها وإحكامها، يرجع إلى اختلاف المعنى المراد بها، فالمعتقد نسخها يرى أن «حق ثقاته» الوقوف مع جميع ما يجب له ويستحقه، وهذا يعجز الكل عن الوفاء به، فتحصيله من الواحد ممتنع، والمعتقد لإحكامها يرى أن «حق ثقاته» أداء ما يلزم العبد على قدر طاقته، فكان قوله تعالى: ﴿وَمَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ مفسراً لـ«حق ثقاته» لا ناسخاً ولا مخصصاً.

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ قال الزجاج: اعتصموا: استمسكوا. فأما الحبل، ففيه ستة أقوال: أحدها: أنه كتاب الله: القرآن: رواه شقيق عن ابن مسعود^(١) وبه قال قتادة، والضحاك، والسدي. والثاني: أنه الجماعة، رواه الشعبي عن ابن مسعود. والثالث: أنه دين الله، قاله ابن عباس، وابن زيد، ومقاتل، وابن قتيبة. وقال ابن زيد: هو الإسلام. والرابع: عهد الله، قاله مجاهد، وعطاء، وقتادة في رواية، وأبو عبيد، واحتج له الزجاج بقول الأعشى: وإذا تُجوزُها حبالُ قبيلة وأنشد ابن الأنباري:

فلو حبالاً تناول من سليمى لمدَّ بحبلها حبالاً متيناً

والخامس: أنه الإخلاص، قاله أبو العالية. والسادس: أنه أمر الله وطاعته، قاله مقاتل بن حيان. قال الزجاج: وقوله: «جميعاً» منصوب على الحال، أي: كونوا مجتمعين على الاعتصام به. وأصل «تفرَّقوا»: تفرَّقوا، إلا أن التاء حذفت لاجتماع حرفين من جنس واحد، والمحذوفة هي الثانية، لأن الأولى دليلة على الاستقبال، فلا يجوز حذف الحرف الذي يدل على الاستقبال، وهو مجزوم بالهني، والأصل: ولا تفرقون، فحذفت النون، لتدل على الجزم. قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ اختلفوا فيمن أريد بهذا الكلام على قولين: أحدهما: أنهم مشركو العرب، كان القوي يستبيح الضعيف، قاله الحسن، وقتادة. والثاني: الأوس والخزرج، كان بينهم حرب شديد، قاله ابن إسحاق. والأعداء: جمع عدو. قال ابن فارس: وهو من عدا: إذا ظلم.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ﴾ أي: صرتم، قال الزجاج: وأصل الأخ في اللغة أنه الذي مقصده مقصد أخيه، والعرب تقول: فلان يتوخى مسارَ فلان، أي: ما يسره. والشفا: الحرف. واعلم أن هذا مثل ضربه الله لإشرافهم على الهلاك، وقربهم من العذاب، كأنه قال: كنتم على حرف حفرة من النار، ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلا الموت على الكفر. قال السدي: فأنقذكم منها محمد ﷺ.

﴿وَلَتَكُنَّ بَيْنَكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفُسْكَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتْلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ بَيْنَكُمْ أُمَّةٌ﴾ قال الزجاج: معنى الكلام: ولتكونوا كلكم أمة تدعون إلى الخير، وتأمرون بالمعروف، ولكن «من» هاهنا تدخل لتحض المخاطبين من سائر الأجناس، وهي مؤكدة أن الأمر للمخاطبين، ومثله: ﴿فَلْيَجْزِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٢٠] معناه: اجتنبوا الأوثان، فإنها رجس. ومثله قول الشاعر:

(١) رواه الطبري وإسناده صحيح، ولفظه: «إن الصراط محض تحضره الشياطين، ينادون: يا عبد الله، هلم هذا الطريق، ليصدوا عن سبيل الله، فاعتصموا بحبل الله، فإن حبل الله هو كتاب الله».

(٢) من «ديوانه» ص ٢٧ من قصيدته في قيس بن معد يكرب، وهذا البيت في ذكر ناقته. يقول: إذا ما أخذت من قبيلة عهودها حتى اجتاز ديارها أمناً، أعطتها القبيلة التي تليها عهداً وفاماً أن تخرق ديارها أمناً لا ينالها أحد بسوء، وذلك أن القبائل كلها ترهب قيساً وتخافه، فكل قاصد إليه، واجد الأمان حيث سار.

أخو رغائب يعطيها ويسألها
 وهو النوفل الزفر. لأنه وصفه بإعطاء الرغائب. والنوفل: الكثير الإعطاء للنوافل، والزفر: الذي يحمل الأثقال. ويدل على أن الكل أمروا بالمعروف والنهي عن المنكر قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ قال: ويجوز أن يكون أمر منهم فرقة، لأن الدعاة ينبغي أن يكونوا علماء بما يدعون إليه، وليس الخلق كلهم علماء، والعلم ينوب بعض الناس فيه عن بعض، كالجهاد، فأما الخير، ففيه قولان: أحدهما: أنه الإسلام، قاله مقاتل. والثاني: العمل بطاعة الله، قاله أبو سليمان الدمشقي. وأما المعروف، فهو ما يعرف كل عاقل صوابه، وضده المنكر، وقيل: المعروف ما هنا: طاعة الله، والمنكر: معصيته.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَيْنِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٥)

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم اليهود والنصارى، قاله ابن عباس، والحسن في آخرين. والثاني: أنهم الحرورية^(٢)، قاله أبو أمامة.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ بَيِّنَاتٍ مِمَّا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١٦)

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قرأ أبو رزين العقيلي، وأبو عمران الجوني، وأبو نهيك: «تبيض» و«تسود»، بكسر التاء فيهما. وقرأ الحسن، والزهري، وابن محيصن، وأبو الجوزاء: «تبياض» و«تسواد» بالفتح، ومدة فيهما. وقرأ أبو الجوزاء، وابن يعمر: فأما الذين اسودت وُجُوهُهُمُ وَاخْتَلَفُوا، بالفتح، ومدة. قال الزجاج: أخبر الله بوقت ذلك العذاب، فقال: يوم تبيض وجوه. قال ابن عباس: تبيض وجوه أهل السنة، وتسود وجوه أهل البدعة. وفي الذين اسودت وجوههم، خمسة أقوال: أحدها: أنهم كل من كفر بالله بعد إيمانه يوم الميثاق، قاله أبي بن كعب. والثاني: أنهم الحرورية، قاله أبو أمامة، وأبو إسحاق الهمداني. والثالث: اليهود، قاله ابن عباس. والرابع: أنهم المنافقون، قاله الحسن. والخامس: أنهم أهل البدع، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿أَكْفَرْتُمْ﴾ قال الزجاج: معناه: يقال لهم: أكفرتم، فحذف القول لأن في الكلام دليلاً عليه، كقوله تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ لِرَبِّكَ لَبْلَبًا مِثْلًا﴾ [البقرة: ١٢٧]، أي: ويقولان: ربنا تقبل منا. ومثله: ﴿مَنْ كُلِّ بَابٍ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٥، ٢٦] والمعنى: يقولون: سلام عليكم. والالف لفظها لفظ الاستفهام، ومعناها التقرير والتوبيخ. فإن قلنا: إنهم جميع الكفار، فإنهم آمنوا يوم الميثاق، ثم كفروا، وإن قلنا: إنهم الحرورية، وأهل البدع، فكفرهم بعد إيمانهم: مفارقة الجماعة في الاعتقاد، وإن قلنا: اليهود، فإنهم آمنوا بالنبي قبل مبعثه، ثم كفروا بعد ظهوره، وإن قلنا: المنافقون، فإنهم قالوا بالاستتهم، وأنكروا بقلوبهم.

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أصل الذوق إنما يكون بالفم، وهذا استعارة منه، فكانهم جعلوا ما يُتَعَرَّفُ ويُعَرَّفُ مذوقاً على وجه التشبيه بالذي يعرف عند التطعم، تقول العرب: قد ذُقت من إكرام فلان ما يُرغبني في قصده، يعنون: عرفت، ويقولون: ذق الفرس، فاعرف ما عنده. قال تميم بن مقبل:

أَوْ كَاهِنَ زَزَارٍ رُدِينِي تُذَاوِقُهُ
 أيدي التجار فزادوا متنه لينا^(٣)

(١) هو لأعشى باهلة، من قصيدة جيدة يرثي بها المنتشر بن وهب الباهلي. والظلامة: ما أخذ ظملاً. النوفل: الكثير النوافل، وهي العطايا، وأحدثها: نافلة. الزافر: القوي على الحملات، وهي الغرامات التي تحملها عن القوم. قال في «اللسان» وقوله: «منه» مؤكدة للكلام، كما قال تعالى: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ بَيْنَ دُونِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١]. والمعنى: يأبى الظلامة، لأنه النوفل الزفر.

(٢) الحرورية: هم الخوارج الذين قاتلهم علي عليه السلام، نسبة إلى حروراء. قال ياقوت في «معجم البلدان»: وحروراء، بفتحين وسكون الواو، وراء أخرى وألف مدودة: قرية بظاهر الكوفة، وقيل: موضع على ميلين منها، نزل بها الخوارج الذين خالفوا علياً عليه السلام فنسبوا إليها.

(٣) «ديوانه» ص: ٣٢٨. وقد جاء فيه «تذاوله» مكان «تذاوقه» والرديني: الرمح، منسوب إلى ردينة، وهي امرأة كانت تنفث في زوجها سمها صنع الرماح بخط حجر. التجار: جمع تاجر، وهو الذي يتجر في الشيء، الحاذق بالأمر. شبه تنثي النساء في مشيهن باهتزاز الرمح اللدن. وقال الشماخ في وصف القوس:

وقال الآخر:

وإن الله ذاق حُلُومَ قيس

فلما رآه خِفْنَتْهَا قِلاها^(١)

يعنون بالدوق: العلم. وفي كتاب الخليل: كل ما نزل بإنسان من مكروه. فقد ذاقه.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنَتْ وَوُوِّعَهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١٧)

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنَتْ وَوُوِّعَهُمْ﴾ قال ابن عباس: هم المؤمنون. ورحمة الله: جنته، قال ابن قتيبة: وسُمي الجنة رحمة، لأن دخولهم إياها كان برحمته. وقال الزجاج: معناه: في ثواب رحمته، قال: وأعاد ذكر «فيها» تأكيداً.

﴿إِنَّكَ مَا كُنْتَ اللَّهُ تَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾^(١٨)

قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾ قال بعضهم: معناه: لا يعاقبهم بلا جرم. وقال الزجاج: أعلمنا أنه يعذب من عذبه باستحقاق.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^(١٩) كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ^(٢٠)

قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ سبب نزولها أن مالك بن الضيف ووهب بن يهودا اليهوديين، قالا لابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة [وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل]: ديننا خير مما تدعونا إليه، ونحن أفضل منكم، فنزلت هذه الآية، هذا قول عكرمة ومقاتل. وفيمن أريد بهذه الآية، أربعة أقوال: أحدها: أنهم أهل بدر. والثاني: أنهم المهاجرون^(٢١). والثالث: جميع الصحابة. والرابع: جميع أمة محمد ﷺ، نقلت هذه الأقوال كلها عن ابن عباس. وقد روى بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ، أنه قال: «إنكم توفون سبعين أمة أنتم خيرها، وأكرمها على الله تعالى»^(٢٢). قال الزجاج: وأصل الخطاب لأصحاب النبي ﷺ، وهو يعم سائر أمته^(٢٣). وفي قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ﴾ قولان: أحدهما: أنها على أصلها، والمراد بها الماضي، ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: كنتم في اللوح المحفوظ. والثاني: أن معناه: خلقتكم ووجدتم. ذكرهما المفسرون. والثالث: أن المعنى: كنتم مذ كنتم، ذكره ابن الأنباري. والثاني: أن معنى كنتم: أنتم، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفْوَراً رَحِيماً﴾ [النساء: ٩٦]. ذكره الفراء^(٢٤)، والزجاج. قال ابن قتيبة: وقد يأتي الفعل على بنية الماضي، وهو راهن، أو مستقبل، كقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ﴾ ومعناه: أنتم، ومثله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰيُوسَىٰ﴾ [المائدة: ١١٦]، أي: وإذا يقول. ومثله: ﴿أَلَمْ أُنْزِلْ إِلَيْكَ﴾ [النحل: ٢١]، أي: سيأتي، ومثله: ﴿كَيْفَ نُنَكِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْهَدْيِ سَيِّئاً﴾ [مریم: ٢٩]، أي: من هو في المهد، ومثله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَكِيماً بَعِيْراً﴾ [النساء: ١٣٤]. أي: والله مسميع بصير، ومثله: ﴿تَنْبِيْهُرٌ مَّحَابٍ مَّقْنَنَةً﴾ [فاطر: ١٩]، أي: فنسوقه. وفي قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾

(١) قال الجاحظ في «الحيوان» ٣٠/٥: قال يزيد بن الصعق لبني سليم حين صنعوا لسيدهم العباس بن أسن ما صنعوا، وقد كانوا توجهوا وملكوه، فلما خالفهم في بعض الأمر، وثبوا عليه وكان سبب ذلك قلة رعيه:

فلما ذاق خِفْنَتْهَا قِلاها

وإن الله ذاق حُلُومَ قيس

فخِلاها تَرَدُّدٌ فسي خِلاها

رأها لا تطيع لها أميراً

قلاها: أبغضها. وخلاها: تركها. والخلى، مقصورة: الرطب من النبات، واحلته: خلته، يقول: جعلها كالسوائم تتراد المرامي.

(٢) رواه أحمد، والنسائي، والحاكم بإسناد جيد عن ابن عباس. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٣) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: حديث حسن صحيح أخرجه الترمذي وحسنه، وابن ماجه، والحاكم وصححه، وله شاهد مرسل عن قتادة عند الطبري رجاله ثقات. وروى الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء، قلنا: يا رسول الله ما هو؟ قال نصرت بالرعب، وأعطيت مفتاح الأرض، وسميت أحمد، وجعل التراب لي طهوراً، وجعلت أمتي خير الأمم» وقد حسن هذا الحديث الحافظ ابن كثير، والحافظ ابن حجر.

(٤) قال الحافظ ابن كثير بعدما ساق الأحاديث الثابتة في فضل أمة محمد ﷺ: فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الملح، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَكَلَّمُونَ عَنْ شَيْءٍ قُلُوبُهُمْ لَيْسَ مَا كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ﴾.

(٥) جاء في «معاني القرآن»: وقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ في التأويل في اللوح المحفوظ، ومعناه: أنتم خير أمة، كقوله: ﴿وَأَنْتُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [النساء: ٢٦]. فإضمار «كان» في مثل هذا وإظهارها سواء.

عصيت إليها القلب إنني لأمره
ولم يقل: أم لا، ولا أم غي، لأن الكلام معروف المعنى. وقال آخر:
وما أدري إذا يئمت أرضاً
أريد الخير أيهما يليني
أألخير الذي أنا أبتغيه
أم الشر الذي هو يبتغيني^(١)

ومثله قوله تعالى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَتِيلٌ مَّاكَ أَلَيْلٍ سَالِجًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر: ٩] ولم يذكر ضده، لأن في قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمْكُونُ وَالَّذِينَ لَا يَمْكُونُ﴾ [الزمر: ٩]. دليلاً على ما أضمر من ذلك، وقد رد هذا القول الزجاج، فقال: قد جرى ذكر أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، فأعلم الله أن منهم أمة قائمة. فما الحاجة إلى أن يقال: وأمة غير قائمة؟ وإنما بدأ بذكر فعل الأكثر منهم، وهو الكفر والمشاقة، فذكر من كان منهم مابيناً لهؤلاء. قال: و﴿مَّاكَ أَلَيْلٍ﴾ ساعاته، وواحد الآناء: إنني. قال ابن فارس: يقال: مضى من الليل إنني، وإنيان، والجمع: الآناء. واختلف المفسرون: هل هذه الآناء معينة من الليل أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنها معينة، ثم فيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها صلاة العشاء، قاله ابن مسعود، ومجاهد. والثاني: أنها ما بين المغرب والعشاء، رواه سفيان عن منصور. والثالث: جوف الليل، قاله السدي. والثاني: أنها ساعات الليل من غير تعيين، قاله قتادة في آخرين.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَسْجُدْ﴾، قولان: أحدهما: أنه كناية عن الصلاة، قاله مقاتل، والفراء، والزجاج. والثاني: أنه السجود المعروف، وليس المراد أنهم يتلون في حال السجود، ولكنهم جمعوا الأمرين، التلاوة والسجود. ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَابْتَرَأُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَبَّهُوا عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ فِي الْحَيَاةِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوا وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوا﴾، قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر وأبو بكر عن عاصم: «تفعلوا»، وتكفروهم، بالتاء في الموضعين على الخطاب، لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾. قال قتادة: فلن تكفروهم: لن يضل عنكم. وقرأ قوم، منهم حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وعبد الوارث عن أبي عمرو: يفعلوا، ويكفروا، بالياء فيهما، إخباراً عن الأمة القائمة. وبقية أصحاب أبي عمرو يخيرون بين الباء والتاء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُنْفِقَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ مَرْجَ ظُلُمًا أَوْفَتْ ظُلْمًا وَأَمْلَكَهُمْ وَاللَّهُ لَهُمْ غَلَبَةٌ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ اختلفوا فيمن أنزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها في نفقات الكفار وصدقاتهم، قاله مجاهد. والثاني: في نفقة سفلة اليهود على علمائهم، قاله مقاتل. والثالث: في نفقة المشركين يوم بدر. والرابع: في نفقة المنافقين إذا خرجوا مع المسلمين لحرب المشركين، ذكر هذين القولين أبو الحسن الماوردي. وقال السدي: إنما ضرب الإنفاق مثلاً لأعمالهم في شركهم. وفي الصر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه البرد، قاله الأكثرون. والثاني: أنه النار، قاله ابن عباس، قال ابن الأنباري: وإنما وصفت النار بأنها صر لتصويتها عند الالتهاب. والثالث: أن الصر: التصويت، والحركة من الحصى والحجارة، ومنه: صرير النعل، ذكره ابن الأنباري. والحرث: الزرع. وفي معنى ﴿ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ قولان: أحدهما: ظلموها بالكفر والمعاصي، ومنع حق الله تعالى. والثاني: بأن زرعوا في غير وقت الزرع.

(١) ديوان الهذليين ٧١/١ قال الشيخ محمود شاكر في تعليقه على البيت: رواية البيت هكذا لا يستقيم بها معنى، ورواية «ديوانه»:

عصاني إليها القلب إنني لأمره

ويروي: دعاني إليها. وهما روايتان صحيحتان. وتام معنى البيت في الذي يليه:

فقلت لقلبي يا لك الخير إنما

يقول: عصاني القلب، وذهب إليها، فأتبع ما يأمرني به.

(٢) للمقطب العبد من قصيدة جيدة في «المفضليات» والبيتان تعبير صادق عن جهل الإنسان بما يخفى له القدر من الخير والشر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس: أي: ما نقصهم ذلك بغير جرم أصابوه، وإنما أنزل بهم ذلك لظلمهم أنفسهم بمنع حق الله منه، وهذا مثل ضربه الله لإبطال أعمالهم في الآخرة. وحدثنا عن ثعلب، قال: بدأ الله تعالى هذه الآية بالريح، والمعنى: على الحرث، كقوله تعالى: ﴿كَثَلِيَ الْآزَى يَتَّقِي مَا لَا يَسْمَعُ﴾ وإنما المعنى على المنعوق به. وقريب منه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَضَّنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ فخير عنه «الأزواج» وترك «الذين» كانه قال: أزواج الذين يتوفون منكم يترضن، فبدأ بالذين، ومراده: بعد الأزواج. وأنشد:

لعلِّي إن مالت بي الريح ميلاً
على ابن أبي ديان أن يتندماً

فخير عن ابن أبي ديان، وترك نفسه، وإنما أراد: لعل ابن أبي ديان أن يتندما إن مالت بي الريح ميلاً. وقد يبدأ بالشيء، والمراد التأخير، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠] والمعنى: ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة يوم القيامة.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد: نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يصافون المنافقين، ويواصلون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصداقة، والجوار، والرضاع، والحلف، فنهوا عن مبايحتهم. قال الزجاج: البطانة: الذخلاء الذين يستبطنون [أمره] وينسب إليهم، يقال: فلان بطانة لفلان، أي: مُداخل له، مؤانس. ومعنى ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ﴾: لا يتقون غاية في إلفانكم فيما يُفرضكم^(١).

قوله تعالى: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: ودُّوا عنتكم، وهو ما نزل بكم من مكروه وضُرٍّ، يقال: فلان يعنت فلاناً، أي: يقصد إدخال المشقة والأذى عليه، وأصل هذا من قولهم: أكمةٌ عنوت، إذا كانت طويلة، شاقة المسلك. قال ابن قتية: ومعنى ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ أي: من غير المسلمين. والخبال: الشر.

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أي: قد ظهر لكم منهم الكذب، والشتم، ومخالفة دينكم. قال القاضي أبو يعلى: وفي هذه الآية دلالة على أنه لا يجوز الاستعانة بأهل الذمة في أمور المسلمين من العملات والكتب، ولهذا قال أحمد: لا يستعين الإمام بأهل الذمة على قتال أهل الحرب. وروي عن عمر أنه بلغه أن أبا موسى استكتب رجلاً من أهل الذمة، فكتب إليه يعنه، وقال: لا تردوهم إلى العز بعد إذ أذلهم الله.

﴿هَآئِنْتُمْ أُولَآءِ حُجُوبُهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ يَّكْتُبُ كُؤُومًا وَإِذَا قُلُوبُهُمْ قَالُوا أَمَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَىٰ آلَائِكُمُ الْأَنَائِلَ مِنَ التَّيَظُّ قُلْ مُؤْتَا يَتَّخِذُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

قوله تعالى: ﴿هَآئِنْتُمْ أُولَآءِ حُجُوبُهُمْ﴾ قال ابن عباس: كان عامة الأنصار يواصلون اليهود ويواصلونهم، فلما أسلم الأنصار بغضهم اليهود، فنزلت هذه الآية. والخطاب بهذه الآية للمؤمنين. قال ابن قتية: ومعنى الكلام: ها أنتم يا هؤلاء. فأما «تحيونهم» فالهاء والميم عائدة إلى الذين نهوا عن مصافاتهم. وفي معنى محبة المؤمنين لهم أربعة أقوال: أحدها: أنها الميل إليهم بالطباع، لموضع القرابة، والرضاع، والحلف، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس. والثاني: أنها بمعنى الرحمة لهم، لما يفعلون من المعاصي التي يقابلها العذاب الشديد، وهذا المعنى منقول عن قتادة. والثالث: أنها لموضع إظهار المنافقين الإيمان، روي عن أبي العالية. والرابع: أنها بمعنى إرادة الإسلام لهم، وهم يريدون المسلمين على الكفر، وهذا قول المفضل، والزجاج. والكتاب: بمعنى الكتب، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلُوبُهُمْ قَالُوا أَمَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَىٰ آلَائِكُمُ الْأَنَائِلَ﴾ هذه حالة المنافقين، وقال مقاتل: هم اليهود. والأنامل: أطراف الأصابع. قال ابن عباس: والغيظ: الحنق عليكم، وقيل: هذا من مجاز الكلام، ضُرب مثل لما حلَّ بهم، وإن لم يكن هناك عض على أنملة، ومعنى ﴿مُؤْتَا يَتَّخِذُكُمْ﴾: ابقوا به حتى تموتوا، وإنما كان غيظهم من رؤية شمل المسلمين ملتثماً. قال

(١) قال القرطبي: معنى ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ لا يقصرون فيما فيه الفساد عليكم.

ابن جرير: هذا أمر من الله تعالى لنيه أن يدعو عليهم بأن يهلكهم الله كعداً من الغيظ.

﴿إِنْ تَسْتَكْبِرُوا تَبْغُوا وَيَكْمُرُوا فِيهَا وَإِنْ تَصِرُوا تَصْغُرُوا لَا يَكْبُرُ لَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يَمَّا يَمْلِكُ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَكْبِرُوا تَبْغُوا﴾ قال قتادة: وهي الألفة والجماعة. والسيئة: الفرقة والاختلاف، وإصابة طرف من المسلمين. وقال ابن قتيبة: الحسنة: النعمة. والسيئة: المصيبة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصِرُوا﴾ فيه قولان: أحدهما: على أذاهم، قاله ابن عباس. والثاني: على أمر الله، قاله مقاتل.

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَقَرَّبُوا﴾ قولان: أحدهما: الشرك، قاله ابن عباس. والثاني: المعاصي، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، «يَضُرُّكُمْ» بكسر الضاد، وتخفيف الراء. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «لَا يَضُرُّكُمْ» بضم الضاد وتشديد الراء. قال الزجاج: الضر والضرير بمعنى واحد. فاما الكيد فقال ابن قتيبة: هو المكر. قال أبو سليمان الخطابي: والمحيط: الذي أحاطت قدرته بجميع خلقه، وأحاط علمه بالأشياء كلها.

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ الْفِتْنَةِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ قال المفسرون: في هذا الكلام تقديم وتأخير، تقديره: ولقد نصركم الله ببدر، وإذ غدوت من أهلك. وقال ابن قتيبة: تبوئ، من قولك: بوأتك منزلاً: إذا أقدت لك إياه، أو أسكنته. ومعنى «مَقْعَدَ الْفِتْنَةِ»: المعسكر والمصايف. واختلفوا في أي يوم كان ذلك، على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يوم أحد، قاله عبد الرحمن بن عوف، وابن مسعود، وابن عباس، والزهري، وقتادة، والسدي، والربيع، وابن إسحاق، وذلك أنه خرج يوم أحد من بيت عائشة إلى أحد، فجعل يصف أصحابه للقتال. والثاني: أنه يوم الأحزاب، قاله الحسن، ومجاهد، ومقاتل. والثالث: يوم بدر، نقل عن الحسن أيضاً. قال ابن جرير: والأول أصح، لقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ فُتِنَا﴾ وقد اتفق العلماء أن ذلك كان يوم أحد.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قال أبو سليمان الدمشقي: سمع لمشاورتك إياهم في الخروج، ومرادهم للخروج، عليهم بما يخفون من حب الشهادة.

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ فُتِنَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ فُتِنَا﴾ قال الزجاج: كانت التوبة في ذلك الوقت. وتفشلا: تجبنا، وتخورا. «وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا»، أي: ناصرهما. قال جابر بن عبد الله: نحن هم بنو سلمة، وبنو حارثة، وما نحب أن لو لم يكن ذلك لقول الله: «وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا». وقال الحسن: [هما] طائفتان من الأنصار همتا بذلك، فعصهما الله. وقيل: لما رجع عبد الله بن أبي في أصحابه يوم أحد، همت الطائفتان باتباعه، فعصهما الله.

فصل

فأما التوكل، فقال ابن عباس: هو الثقة بالله. وقال ابن فارس: هو إظهار العجز [في الأمر]، والاعتماد على غيرك، ويقال: فلان وُكِّلَ تَكْلَةً، أي: عاجز، يكل أمره إلى غيره. وقال غيره: هو تفعل من الوكالة، يقال: وكلت أمري إلى فلان فتوكل به، أي: ضمنه، وقام به، وأنا متوكل عليه. وقال بعضهم: هو تفويض الأمر إلى الله ثقة بحسن تدبيره.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ بَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾ في تسمية بدر قولان: أحدهما: أنها بشر لرجل اسمه بدر، قاله الشعبي. والثاني: أنه اسم للمكان الذي التقوا عليه، ذكره الواقدي عن أشياخه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَوْلَىٰ﴾ أي: لفظة العدد والعدد. ﴿لَكُمْ تَكْرُرٌ﴾، أي: لتكونوا من الشاكرين.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَيْبَكُمْ بِتَلَفَةِ الْفَيْزِ مِنَ الْمَلَكَةِ مُزِيلٍ﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَيْبَكُمْ﴾ قال الشعبي: قال كُرْز بن جابر لمشركي مكة: إني أمدكم بقومي، فاشتد ذلك على المسلمين، فنزلت هذه الآية. وفي أي يوم كان ذلك؟ فيه قولان: أحدهما: يوم بدر، قاله ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والثاني: يوم أحد، وعدهم فيه بالمدد إن صبروا، فلما لم يصبروا، لم يُمدُّوا، روي عن عكرمة، والضحاك، ومقاتل، والأول أصح. والكفاية: مقدار سد الخلة. والاكتفاء: الاقتصار على ذلك. والإمداد: إعطاء الشيء بعد الشيء.

قوله تعالى: ﴿مُزِيلٍ﴾ قرأ الآكثرون بتخفيف الزاي، وشددها ابن عامر.

﴿بَلْ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يَتَذَكَّرْكُمْ رَبُّكُمْ غَفَسَةً الْفَيْزِ مِنَ الْمَلَكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: من وجههم وسفرهم هذا، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، ومقاتل، والزجاج. والثاني: من غضبهم هذا، قاله عكرمة، ومجاهد، والضحاك في آخرين. قال ابن جرير: من قال: من وجههم، أراد ابتداء مخرجهم يوم بدر، ومن قال: من غضبهم، أراد ابتداء غضبهم لقتالهم يوم بدر^(١). وأصل الفور: ابتداء الأمر يؤخذ فيه، يقال: فارت القدر: إذا ابتدأ ما فيها بالغلين، ثم اتصل. وقال ابن فارس: الفور: الغليان، يقال: فارت القدر تفور، وفار غضبه: إذا جاش، ويقولون: فعله من فوره، أي: قبل أن يسكن. وفي يوم فورهم قولان: أحدهما: أنه يوم بدر، قاله قتادة. والثاني: يوم أحد، قال مجاهد، والضحاك: كانوا غضبوا يوم أحد ليوم بدر مما لقوا.

قوله تعالى: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم بكسر الواو، والباقون بفتحها، فمن فتح الواو، أراد أن الله سَوَّمَهَا، ومن كسرها، أراد أن الملائكة سومت أنفسها. وقال الأخفش: سَوَّمَتْ خيلها، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال يوم بدر: «سوموا فإن الملائكة قد سومت»^(٢) ونسب الفعل إليها، فهذا دليل الكسر. قال ابن قتيبة: ومعنى مسومين: معلمين بعلامة الحرب، وهو من السيماء [مأخوذاً]، والسومة: العلامة التي يعلم بها الفارس نفسه. قال علي رضي الله عنه: وكان سيماء خيل الملائكة يوم بدر، الصوف الأبيض في أذنابها ونواصيها. وقال أبو هريرة: العهن الأحمر. وقال مجاهد: كانت أذناب خيولهم مجزوزة، وفيها العهن. وقال هشام بن عروة: كانت الملائكة على خيل بلق، وعليهم عمائم صفر. وروى ابن عباس عن رجل من بني غفار قال: حضرت أنا وابن عم لي بدرًا، ونحن على شركنا، فأقبلت سحابة، فلما دنت من الخيل سمعنا فيها حمحة الخيل، وسمعنا فارساً يقول: أقدم حيزوم، فأما صاحبي فمات مكانه، وأما أنا فكدت أهلك، ثم انتعشت^(٣). وقال أبو داود المازني: إني لأتبع يوم بدر رجلاً من

(١) نص كلام ابن جرير: «فالذي قال في هذه الآية معنى قوله تعالى: ﴿مِنْ فُورِهِمْ هَذَا﴾ من وجههم هذا، قصد إلى أن تأويله: ويأتيكم كرز بن جابر وأصحابه يوم بدر من ابتداء مخرجهم الذي خرجوا منه لنصرة أصحابهم من المشركين. وأما الذين قالوا: معنى ذلك: من غضبهم هذا، فإنما عتوا أن تأويل ذلك: ويأتيكم كفار قريش، ويأتوهم يوم أحد من ابتداء غضبهم الذي غضبوه لقتالهم الذين قتلوا يوم بدر بها.

(٢) رواه ابن جرير الطبري ١٨٦/٧ عن عمير بن إسحاق قال: إن أول ما كان الصوف ليومئذ - يعني ليوم بدر - قال رسول الله ﷺ: «سوموا فإن الملائكة قد سومت». قال الشيخ أحمد شاكر: وعمير بن إسحاق أبو محمد مولى بني هاشم، روى عن المقداد بن الأسود، وعمرو بن العاص، وكان قليل الحديث، وقال أبو حاتم والنسائي: لا تعلم روى عنه غير ابن عون، قال ابن معين: ثقة، وقال أيضاً: لا يساوي حديثه شيئاً، ولكن يكتب حديثه، فهذا الحديث كما ترى مرسل، وعن رجل يكتب حديثه ولا يحتج به.

(٣) رواه ابن هشام في «السير» ٦٣٣/١، ورواه ابن جرير في «التفسير»: حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق قال: حدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حدث عن ابن عباس قال: حدثني رجل من بني غفار، قال: أقبلت أنا وابن عم لي حتى أصعدنا في جبل يشرف بنا على بدر، ونحن مشرکان، ننظر الوقعة على من تكون اللبنة، فننتهب مع من ينتهب، قال: فبينما نحن في الجبل، إذ دنت منا سحابة، فسمعنا فيها حمحة الخيل، فسمعنا قائلاً يقول: أقدم حيزوم. قال: فأما ابن عمي فأنكشف قناع قلبه فمات مكانه، وأما أنا فكدت أهلك، ثم تماسكت. اللبنة: الهزيمة في القتال. أقدم: كلمة زجر تزجر بها الخيل، وأمر لها بالتقدم. حيزوم: اسم فرس من خيل الملائكة يومئذ، ويقال: هو فرس جبريل عليه السلام. وفنات القلب: غشاؤه. وجاء في الحديث الذي أخرجه «مسلم» ١٣٨٤، قال أبو زميل - هو سمك الحنفي - فحدثني ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر =

المشركين لأضره، فوقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أن غيري قد قتله^(١). وفي عدد الملائكة يوم بدر خمسة أقوال: أحدها: خمسة آلاف، قاله الحسن. وروى جبير بن مطعم عن علي عليه السلام، قال: بينا أنا أمتح من قلب بدر، جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها، ثم جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها إلا التي كانت قبلها، ثم جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها، فكانت الرياح الأولى جبريل نزل في ألفين من الملائكة، وكان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت الرياح الثانية ميكائيل نزل في ألفين من الملائكة عن يمين رسول الله، وكانت الرياح الثالثة إسرافيل نزل في ألف من الملائكة عن يسار رسول الله، وكنت عن يساره، وهزم الله أعداءه. والثاني: أربعة آلاف، قاله الشعبي. والثالث: ألف، قاله مجاهد. والرابع: تسعة آلاف، ذكره الزجاج. والخامس: ثمانية آلاف، ذكره بعض المفسرين.

﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۖ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَظِيمِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ يعني المدد ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، أي: إلا بشارة تطيب أنفسكم، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾، فتسكن في الحرب، ولا تنزع، والأكثر على أن هذا المدد يوم بدر. وقال مجاهد: يوم أحد، وروي عنه ما يدل على أن الله أمدهم في اليومين بالملائكة جميعاً، غير أن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر. قوله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: ليس بكثرة العدد والعدد.

﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُ غَلَبًا يِّنْهُمْ يَنْفِلُوا مِنَّا فَيَمْنَعُوا بِآيَاتِنَا﴾

قوله تعالى: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ معناه: نصركم بيدر ليقطع طرفاً. قال الزجاج: أي: ليقتل قطعة منهم. وفي أي يوم كان ذلك؟ فيه قولان: أحدهما: في يوم بدر، قاله الحسن، وقناة، والجمهور. والثاني: يوم أحد، قتل منهم ثمانية وعشرون، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكْتَسِبُ غَلَبًا﴾ فيه سبعة أقوال: أحدها: أن معناه: يهزمهم، قاله ابن عباس، والزجاج. والثاني: يخزيهم، قاله قتادة، ومقاتل. والثالث: يصرعهم، قاله أبو عبيد، واليزيدي. وقال الخليل: هو الصرع على الوجه. والرابع: يهلكهم، قاله أبو عبيدة. والخامس: يلعنهم، قاله السدي. والسادس: يُظْفَرُ عليهم، قاله المبرد. والسابع: يغيظهم، قاله النضر بن شميل، واختاره ابن قتيبة. وقال ابن قتيبة: أهل النظر يرون أن التاء فيه منقلبة عن دال، كان الأصل فيه: يكبدهم، أي: يصيبهم في أكبادهم بالحزن والغيط، وشدة العداوة، ومنه يقال: فلان قد أحرق الحزن كبده، وأحرق العداوة كبده، والعرب تقول: العدو أسود الكبد. قال الأعشى:

فَمَا أَجْشِمْتُ مِنْ إِيَّانِ قَوْمِ هُمُ الْأَعْدَاءُ وَالْأَكْبَادُ سَوْدُ^(٢)

كان الأكباد لما احترقت بشدة العداوة، أسودت، ومنه يقال للعدو: كاشح، لأنه يخبأ العداوة في كشحه. والكشح: الخاصرة، وإنما يريدون الكبد، لأن الكبد هناك. قال الشاعر:

وَأَضْمِرُ أَضْغَاناً عَلَيَّ كَشُوحَهَا^(٣)

والتاء والدال متقاربتا المخرج، والعرب تدغم إحداهما في الأخرى، وتبدل إحداهما من الأخرى، كقولهم: هرت الثوب وهرده: إذا خرقة، وكذلك: كبت العدو، وكبده، ومثله كثير.

= إلى المشرك أمامه. فخر مستقياً، فنظر إليه، فإذا هو قد نُحِلِمَ أنفه، وشق وجهه كضربة بالسوط، فاحضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة» فقتلوا يومئذ سبعين، وأسروا سبعين.

(١) ذكر هذا الأثر ابن هشام ٦٣٣/١ عن ابن إسحاق عن أبيه، عن رجال من بني مازن بن النجار عن أبي داود المازني. ومن طريقه أخرجه الطبري وغيره.

(٢) «ديوانه» ص ٣٣٢. وأجشمت: على البناء للمجهول من أجشمه الأمر: إذا كلفه إياه فتحمله بمشقة. إِيَّانِ قوم: يقصد قوم صاحبه التي انصرفت عنه. عدو أسود الكبد: أحرقت كبده العداوة.

(٣) هو للنمر بن تولب، وتامته:

وعَفْتُ إِذَا أَرْدَى النَّفْسُ شَحِيحَهَا

وَأَضْمِرُ أَضْغَاناً عَلَيَّ كَشُوحَهَا

أَفْأَرْضُ أَقْوَاماً فَأَوْفَى قُرُوضِهِمْ

تَنْفِذُ مِنْهُمْ نَافِذَاتِ تَسْؤُنْسِي

قوله تعالى: ﴿يَتَقَلَّبُوا عَلَىٰ﴾ قال الزجاج: الخائب: الذي لم ينل ما أُمِّل. وقال غيره: الفرق بين الخيبة واليأس، أن الخيبة لا تكون إلا بعد الأمل، واليأس قد يكون من غير أمل.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ ظِلْمُكَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها: أن النبي ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد، وشج في جبهته حتى سال الدم على وجهه، فقال: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل؟!». فنزلت هذه الآية. أخرجه مسلم في «أفراده» من حديث أنس^(١). وهو قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، والربيع. والثاني: أن النبي ﷺ، لعن قوماً من المنافقين، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عمر^(٢). والثالث: أن النبي ﷺ هم بسبب الذين انهزموا يوم أحد، فنزلت هذه الآية، فكف عن ذلك، نقل عن ابن مسعود، وابن عباس. والرابع: أن سبعين من أهل الصفة، خرجوا إلى قبيلتين من بني سليم، عصية وذكوان، فقتلوا جميعاً، فدعا النبي ﷺ عليهم أربعين يوماً، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل بن سليمان^(٣). والخامس: أن النبي ﷺ لما رأى حمزة ممثلاً به، قال: «لأمثلن بكذا وكذا منهم» فنزلت هذه الآية، قاله الواقدي. وفي معنى الآية قولان: أحدهما: ليس لك من استصلاحهم أو عذابهم شيء. والثاني: ليس لك من النصر والهزيمة شيء. وقيل: إن «لك» بمعنى «إليك».

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ قال الفراء: في نصبه وجهان، إن شئت جعلته معطوفاً على قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَبًا﴾ وإن شئت جعلت نصبه على مذهب «حتى» كما تقول: لا أزال معك حتى تعطيني، ولما نفى الأمر عن نبيه أثبت أن جميع الأمور إليه بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يتأياها الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ قال أهل التفسير: هذه الآية نزلت في ربا الجاهلية. قال سعيد بن جبير: كان الرجل يكون له على الرجل المال، فإذا حلَّ الأجل، فيقول: أخر عني، وأزيدك على مالك، فذلك الأضعاف المضاعفة^(٤).

(١) ورواه أحمد في «المسند» والترمذي وغيرهما، والرابعة على وزن ثمانية: الأسنان الأربعة التي تلي الشاي بين الشية والتاب.

(٢) رواه أحمد في «المسند» والترمذي عن ابن عمر. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح يستغرب من هذا الوجه، من حديث نافع عن ابن عمر، ولفظه عند أحمد: «كان رسول الله ﷺ يدعو على رجال من المشركين يسميهم بأسمائهم، حتى أنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ ظِلْمُكَ﴾ فترك ذلك.

(٣) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، ثم يقول وهو قائم: اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم كسي يوسف، اللهم العن لحيان ورعلاً وذكوان وعصية عصت الله ورسوله. ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ ظِلْمُكَ﴾ هذا لفظ مسلم. وقال الحافظ في «الفتح» ٢٧٣/٧: وهذا - يريد الحديث - إن كان محفوظاً احتمل أن يكون نزول الآية تراخي عن قصة أحد، لأن قصة رعل وذكوان كانت بعدها، كما سيأتي تلو هذه الغزوة - وفيه بعد. والصواب أنها نزلت في شأن الذين دعا عليهم بسبب قصة أحد، والله أعلم. ويؤيد ذلك ظاهر قوله تعالى في صدر الآية: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَبًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَي: يقتلهم﴾. ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يفرجهم. ثم قال: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيسلّموا ﴿أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾ أي: إن ماتوا كفاراً. وقال في ج/٧١: ثم ظهر لي علة الغبر، وأن فيه إدراجاً، وأن قوله: حتى أنزل الله، منقطع من رواية الزهري عن بلغة، بين ذلك مسلم في رواية يونس المذكورة.

(٤) قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في «عمدة التفسير» ٣٨/٣ تعليقاً على هذه الآية: والمتلاعبون بالدين من أهل عصرنا، وأولياؤهم من عابدي التشريع الوثني الأجنبي، بل التشريع اليهودي في الربا يلعبون بالقرآن، ويزعمون أن هذه الآية تدل على أن الربا المحرم هو الأضعاف المضاعفة، ليجيزوا ما بقي من أنواع الربا، على ما ترضى أهواؤهم وأهواء ساداتهم، ويتركوا الآية الصريحة: ﴿كَانَ ثُبُوتُ قَتْلِكُمْ دُونُ أَنْتَ كَلَمَ لَا تَقُولُوا وَلَا تَقُولُوا﴾ فكانوا في تلاعبهم يتأول هذه الآية الصريحة أسوأ حالاً ممن «يَقُولُونَ مَا فَكَّكَ بِهِ نَيْتَهُ الْبَشَرُ وَالْبَشَرُ قَالِيهِ»، «فأولئك الذين سعى الله فاحذروهم». وقال الشيخ محمود شلتوت في كتابه «تفسير القرآن الكريم» ص ١٥٨: بقي علينا أن ننبه في هذا الشأن لأمر خطير، هو أن بعض الباحثين المولعين بتصحيح التصرفات الحديثة، وتخريجها على أساس فقهي إسلامي، ليعرفوا بالتجديد، وعمق التفكير، يحاولون أن يجدوا تخريجها للمعاملات الربوية التي يقع التعامل بها في المصارف أو صناديق التوفير، أو السندات الحكومية أو نحوها، ويلتمسون السبيل إلى ذلك. فمنهم من يزعم أن القرآن إنما حرم الربا الفاحش بدليل قوله: ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ فهذا قيد في التحريم لا بدان يكون له فائدة، وإلا كان الإتيان به عبثاً، تعالى الله عن ذلك، وما =

﴿وَأَنفُثُوا نَارَ آتِيٍّ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنفُثُوا نَارَ آتِيٍّ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ قال ابن عباس: هذا تهديد للمؤمنين، لثلاث يستحلوا الربا. قال الزجاج: والمعنى: اتقوا أن تحلوا ما حرم الله فتكفروا.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كلهم أثبت الواو في «وسارعوا» إلا نافعاً، وابن عامر، فإنهما لم يذكرهما. وقال أبو علي: وكذلك هي في مصاحف أهل المدينة والشام، فمن قرأ بالواو، عطف «وسارعوا» على «وأطيعوا»، ومن حذفها، فلأن الجملة الثانية ملتزمة بالأولى، فاستغنت عن العطف. ومعنى الآية: بادروا إلى ما يوجب المغفرة. وفي المراد بموجب المغفرة هاهنا عشرة أقوال: أحدها: أنه الإخلاص، قاله عثمان بن عفان رضي الله عنه. والثاني: أداء الفرائض، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه. والثالث: الإسلام، قاله ابن عباس. والرابع: التكبير الأولى من الصلاة، قاله أنس بن مالك. والخامس: الطاعة، قاله سعيد بن جبير، والسادس: التوبة، قاله عكرمة. والسابع: الهجرة، قاله أبو العالية. والثامن: الجهاد، قاله الضحاك. والتاسع: الصلوات الخمس، قاله يمان. والعاشر: الأعمال الصالحة، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ﴾ قال ابن قتيبة: أراد بالعرض السعة، ولم يرد العرض الذي يخالف الطول، والعرب تقول: بلاد عريضة، أي: واسعة. وقال النبي ﷺ للمنهزمين يوم أحد: «لقد ذهبتم فيها عريضة». قال الشاعر:

كَانَ بِلَادِ اللَّهِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ
عَلَى الْخَائِفِ الْمَطْلُوبِ كِفَّةٌ حَابِلٌ^(١)

قال: وأصل هذا من العرض الذي هو خلاف الطول، وإذا عرض الشيء اتسع، وإذا لم يعرض ضاق ودق. وقال سعيد بن جبير: لو ألصق بعضهن إلى بعض كانت الجنة في عرضهن.

﴿الَّذِينَ يُبْفِثُونَ فِي الشَّرَاءِ وَالْبَيْعِ الْغَيْظَ وَالْفَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبْفِثُونَ فِي الشَّرَاءِ وَالْبَيْعِ﴾ قال ابن عباس: في العسر واليسر. ومعنى الآية: أنهم رغبوا في معاملة الله، فلم يطرهم الرخاء، فينسيهم، ولم تمنعهم الضراء فيخلوا.

قوله تعالى: ﴿وَالْكَاذِبِينَ الْغَيْظَ﴾ قال الزجاج: يقال: كظمت الغيظ: إذا أمسكت على ما في نفسك منه، وكظم البعير^(٢) على جزئته: إذا رددتها في حلقه. وقال ابن الأنباري: الأصل في الكظم: الإمساك على غيظ وغم. وروى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «ما تجرع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى»^(٣).

فأدلت في زعمهم إلا أن يؤخذ بمفهومه، وهو إياحه ما لم يكن أضغاثاً مضاعفة من الربا. وهذا قول باطل، فإن الله سبحانه وتعالى أتى بقوله: ﴿أَتَمَكَّنَّا أَنفُسَكُمْ﴾ توبيخاً لهم على ما كانوا يفعلون، وإبرازاً لفعلهم السيئ، وتشهيراً به، وقد جاء مثل هذا الأسلوب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَتَاكُمْ مَّتَنًا فَتَكَفَّرُوا بِهَا﴾ [النور: ٣٣] فليس الغرض أن يحرم عليهم إكراه الفتيات على البناء في حالة إرادتهن التحصن، وأن يبيعهن لمن إذا لم يردن التحصن، ولكنه يشع ما يفعلونه، ويشهر به، ويقول لهم: لقد بلغ بكم الأمر أنكم تكفرون بفتياتكم على البناء وهن يردن التحصن، وهذا أظلم ما يصل إليه مولى مع مولاته، فكذلك الأمر في آية الربا، يقول الله لهم: لقد بلغ بكم الأمر في استحلال أكل الربا أنكم تأكلونه أضغاثاً مضاعفة، فلا تفعلوا ذلك، وقد جاء النهي في غير هذه المواضع مطلقاً صريحاً، ووعد الله بمحق الربا قل أو كثر، ولعن أكله ومؤكله، وكتبه وشاهده، كما جاء في الآثار، وأذن من لم يدعه بحرب الله وحرب رسوله، واعتبره من الظلم المعقوت، وكل ذلك ذكر فيه في الربا على الإطلاق دون تقييد بقليل أو كثير. ومنهم من يميل إلى اعتباره ضرورة من الضرورات بالنسبة للأمة، ويقول: ما دام صلاح الأمة في الناحية الاقتصادية متوقفاً على أن تتعامل بالربا، وإلا اضطربت أحوالها بين الأمم، فقد دخلت بذلك في قاعدة «الضرورات تبيح المحظورات» وهذا أيضاً مغالطة، فقد بينا أن صلاح الأمة لا يتوقف على هذا التعامل، وأن الأمر فيه، إنما هو وهم من الأوهام، وضعف أمام النظم التي يسير عليها الغالبون الأقوياء. وخلاصة القول: إن كل محاولة يراد بها إياحه ما حرم الله، أو تبرير ارتكابه بأي نوع من أنواع التبرير، بدافع المجارة للأوضاع الحديثة أو الغربية، والانخلاع عن الشخصية الإسلامية، إنما هي جرأة على الله تعالى، وقول عليه بغير علم، وضعف في الدين، وتزلزل في اليقين.

(١) البيت غير منسوب في «الكامل» و«اللسان» وروايتهما: «كان فجاج الأرض». والحابل: الصائد. وكفته: حبالته التي يصيد بها.

(٢) الجرعة، بالكسر: ما يخرج به البعير من بطنه ليمضغه ثم يبلغه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» وابن ماجه عن ابن عمر، ونقل السدي عن «زوائد البصري» قال: إسناده صحيح، ورجاله ثقات. وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» وقال: رواه ابن ماجه، ورواه محتج بهم في الصحيح. الجرعة: يجوز فيها قسم الجيم، وهي الاسم من التجرع، أي: الشرب، ويجوز فتحها، وهي المرة الواحدة منه، والجرعة بالضم أيضاً: ملء الفم يتلعه، وتجرج الجرعة: شربها وابتلعها. قال في «اللسان»: وجرج الغيظ: كظمه على المثل بذلك. وفي «النهاية»: كظم الغيظ: تجرعه واحتمال سبه، والمصبر عليه.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَافِيهِ عَنِ النَّاسِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه العفو عن الممالك، قاله ابن عباس، والرابع. والثاني: أنه على إطلاقه، فهم يعفون عن ظلمهم، قاله زيد بن أسلم، ومقاتل.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَلَّمْ يُعْرِضْ عَنْ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَكْمُلُونَ﴾ أولئك جَزَأُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْ رَبِّهِمْ وَجَعَلْتُ تَجَرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِيكِ فِيهَا وَيَقَمَّ أَجْرُ الْمَكْمِلِينَ ﴿١٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن امرأة أتت إلى نبهان الثمار تشتري منه تمرًا فضمتها، وقبلها، ثم ندم، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك، فنزلت هذه الآية، رواه عطاء عن ابن عباس^(١). والثاني: أن أنصاريًا وثقيًا أخى النبي ﷺ بينهما، فخرج الثقي مع النبي ﷺ في بعض مغازيه، فكان الأنصاري يتعهد أهل الثقي، فجاء ذات يوم فأبصر المرأة قد اغتسلت وهي ناشرة شعرها، فدخل ولم يستأذن؛ فذهب ليلثما فوضعت كفها على وجهها، فقبله ثم ندم، فادبر راجعًا فقالت: سبحان الله خنت أمانتك، وعصيت ربك، ولم تصب حاجتك، قال: فخرج يسبح في الجبال، ويتوب إلى الله من ذنبه، فلما قدم الثقي أخبرته المرأة بفعله، فخرج يطلبه حتى دل عليه، فندم على صنيعه فوافقه ساجدًا يقول: ذنبي ذنبي، قد خنت أخى، فقال له: يا فلان انطلق إلى رسول الله ﷺ فأسأله عن ذنبك، لعل الله أن يجعل لك منه مخرجًا، فرجع إلى المدينة، فنزلت هذه الآية بتوبته، رواه أبو صالح، عن ابن عباس^(٢). وذكره مقاتل. والثالث: أن المسلمين قالوا للنبي ﷺ: بنو إسرائيل أكرم على الله منا! كان أحدهم إذا أذنب، أصبحت كفارة ذنوبه مكتوبة في عتبة بابه، فنزلت هذه الآية، فقال النبي ﷺ: «ألا أخبركم بخير من ذلك» فقرأ هذه الآية، والتي قبلها، هذا قول عطاء^(٣). واختلفوا هل هذه الآية نعت للمنفقين في السراء والضراء؟ أم لقوم آخرين؟ على قولين: أحدهما: أنها نعت لهم، قاله الحسن. والثاني: أنها لصنف آخر، قاله أبو سليمان الدمشقي. والفاحشة: القبيحة وكل شيء جاوز قدره، فهو فاحش. وفي المراد بها هاهنا قولان: أحدهما: أنها الزنى، قاله جابر بن زيد، والسدي، ومقاتل. والثاني: أنها كل كبيرة، قاله جماعة من المفسرين. واختلفوا في «الظلم» المذكور بعدها، فلم يفرق قوم بينه وبين الفاحشة، وقالوا: الظلم للنفس فاحشة أيضاً، وفرق آخرون، فقالوا: هو الصغائر. وفي قوله تعالى: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ قولان: أحدهما: أنه ذكر اللسان، وهو الاستغفار، قاله ابن مسعود، وعطاء في آخرين. والثاني: أنه ذكر القلب، ثم فيه خمسة أقوال: أحدها: أنه ذكر العرض على الله، قاله الضحاك. والثاني: أنه ذكر السؤال عنه يوم القيامة، قاله الواقدي. والثالث: ذكر وعيد الله لهم على ما أتوا، قاله ابن جرير. والرابع: ذكر نهي الله لهم عنه. والخامس: ذكر غفران الله: ذكر القولين أبو سليمان الدمشقي. فأما الإصرار، فقال الزجاج: هو الإقامة على الشيء. وقال ابن فارس: هو العزم على الشيء والثبات عليه^(٤). وللمفسرين في المراد بالإصرار ثلاثة أقوال: أحدها: أنه مواجهة الذنب عند الاهتمام به، وهذا مذهب مجاهد. والثاني: أنه الثبوت عليه من غير استغفار، وهذا مذهب قتادة^(٥)، وابن إسحاق. والثالث: أنه ترك الاستغفار منه، وهذا مذهب السدي^(٦). وفي معنى ﴿وَهُمْ يَكْمُلُونَ﴾ ثلاثة أقوال:

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون سند.

(٢) رواه الواحدي عن عطاء بن أبي رباح مرفوعاً.

(٣) جاء في معجم «مقاييس اللغة» ومن الباب: الإصرار: العزم على الشيء، وإنما جعلناه قياسه، لأن العزم على الشيء والإجماع عليه، وكذلك الإصرار: الثبات على الشيء.

(٤) روى الطبري عن قتادة قوله تعالى ﴿وَلَمْ يَعْزُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَكْمُلُونَ﴾ فإياكم والإصرار، فإنما هلك المصرون الماضون قدماً لا تنهاتهم مخافة الله عن حرام حرمه الله عليهم، ولا يتوبون من ذنب أصابوه حتى أتاهم الموت وهم على ذلك؟

(٥) قال أبو جعفر الطبري ٧/ ٢٢٥: وأولى الأقوال في ذلك بالضروب عندنا قول من قال: الإصرار: الإقامة على الذنب عامداً، وترك التوبة منه. ولا معنى لقول من قال: الإصرار على الذنب هو مواجهته، لأن الله ﷻ مدح بترك الإصرار على الذنب مواقع الذنب، فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَلَّمْ يُعْرِضْ عَنْ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَكْمُلُونَ﴾. ولو كان المواقع الذنب مصراً بمواجهته إياه، لم يكن للاستغفار وجه مفهوم، لأن الاستغفار من الذنب إنما هو التوبة منه والندم، ولا يعرف للاستغفار من ذنب لم يواجهه صاحبه وجه. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أصبر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة»، حدثني بذلك الحسين بن يزيد السبيعي قال: حدثنا عبد الحميد الحماني، عن عثمان بن واقد، عن أبي نصيرة، عن مولى لأبي بكر، عن أبي بكر، عن رسول الله ﷺ. فلو كان مواقع الذنب مضرراً لم يكن لقوله: «ما»

أحدهما: وهم يعلمون أن الإصرار يضر، وأن تركه أولى من التماذي، قاله ابن عباس، والحسن. والثاني: يعلمون أن الله يتوب على من تاب، قاله مجاهد، وأبو عمارة. والثالث: يعلمون أنهم قد أذنبوا، قاله السدي، ومقاتل.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَيَسِّرُوا فِي الْأَرْضِ فَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ السنن: جمع سنة، وهي الطريقة. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: قد مضى قبلكم أهل سنن وشرائع، فانظروا ماذا صنعنا بالمكذبين منهم، وهذا قول ابن عباس. والثاني: قد مضت قبلكم سنن الله في إهلاك من كذب من الأمم، فاعتبروا بهم، وهذا قول مجاهد. وفي معنى ﴿فَيَسِّرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قولان: أحدهما: أنه السير في السفر. قال الزجاج: إذا سرتهم في أسفاركم، عرفت أخبار الهالكين بتكذيبهم. والثاني: أنه التفكير. ومعنى: فانظروا: اعتبروا، والعاقبة: آخر الأمر.

﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ قال سعيد بن جبير: هذه الآية أول ما نزل من «آل عمران» وفي المشار إليه بهذا قولان: أحدهما: أنه القرآن، قاله الحسن، وقتادة، ومقاتل. والثاني: أنه شرح أخبار الأمم السالفة، قاله ابن إسحاق. والبيان: الكشف عن الشيء، وبيان الشيء: اتضح، وفلانٌ أبين من فلان، أي: أفصح. قال الشعبي: هذا بيان للناس من العمى، وهدى من الضلالة، وموعظة من الجهل.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ سبب نزولها أن أصحاب رسول الله ﷺ لما انهزموا يوم أحد، أقبل خالد بن الوليد ببخيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللهم لا يعلون علينا، اللهم لا قوة لنا إلا بك» فنزلت هذه الآيات، قاله ابن عباس^(١). قال ابن عباس، ومجاهد: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أي: ولا تضعفوا. وفيما نهوا عن الحزن عليه أربعة أقوال: أحدها: أنه قتل إخوانهم من المسلمين، قاله ابن عباس. والثاني: أنه هزيمتهم يوم أحد، وقتلهم، قاله مقاتل. والثالث: أنه ما أصاب النبي ﷺ من شجه، وكسر ربابته، ذكره الماوردي. والرابع: أنها ما فات من الغنيمة، ذكره علي بن أحمد النيسابوري.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ قال ابن عباس: يقول: أنتم الغالبون فآخرو الأمر لكم.

﴿إِن يَمَسُّكُمْ فَرَجٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَجٌ مِّثْلُهُ وَفَلكَ الْآيَاتُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُرَكَاءَ ۖ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِن يَمَسُّكُمْ فَرَجٌ﴾ قال ابن عباس: أصابهم يوم أحد فرح، فشكوا إلى النبي ﷺ ما لقوا، نزلت هذه الآية. فأما المس، فهو الإصابة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، ونافع «فرح» بفتح القاف وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر، عن عاصم «فَرَح» بضم القاف. واختلفوا هل معنى القراءتين واحد أم لا؟ فقال أبو سعيد: الفرح بالفتح: الجراح، والقتل. والفَرَح بالضم: ألم الجراح، وقال الزجاج: هما في اللغة بمعنى واحد، ومعناه: الجراح وألمها، قال: ومعنى نداولها، أي: نجعل الدولة في وقت للكفار على المؤمنين إذا عصى المؤمنون، فأما إذا أطاعوا، فهم منصورون، قال: ومعنى ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ أي: ليعلم واقعاً منهم، لأنه عالم قبل ذلك، وإنما يجازي على ما وقع. وقال ابن عباس: معنى العلم هاهنا: الرؤية.

- أمر من استغفر وإن عاد في البرم سبعين مرة، معنى، لأن واقعة الذنب إذا كانت هي الإصرار، فلا يزيل الاسم الذي لزمه معنى غيره، كما لا يزيل عن الزاني اسم زان، وعن القاتل اسم قاتل توبته منه، ولا معنى غيرها. وقد أبان هذا الخبر أن المستغفر من ذنبه غير مصر عليه، فمعلوم بذلك أن الإصرار غير الواقعة، وأنه المقام عليه، على ما قلنا قبل.

وقال ابن كثير بعد ذكره الحديث السابق الذي استدلل به الطبري: ورواه أبو داود، والترمذي، والبخاري في «مسند» من حديث عثمان بن أقد، وقد وثقه يحيى بن معين، وشيخه أبو نصيرة الواسطي، واسمه مسلم بن عبيد، وثقه الإمام أحمد، وابن حبان، وقول علي بن المديني، والترمذي: ليس إسناده هذا الحديث بذلك، فالظاهر أنه لأجل جهالة مولى أبي بكر، ولكن جهالة مثله لا تضر، لأنه تابعي كبير، ويكنيه نسبة إلى أبي بكر، فهو حديث حسن.

(١) رواه ابن جرير ٢٣٦/٧. عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَتَّخِذْ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ قال أبو الضحى: نزلت في قتلى أحد، قال ابن جريج: كان المسلمون يقولون: ربنا أرنا يوماً كيوم بدر، نلتبس فيه الشهادة، فاتخذ منهم شهداء يوم أحد. قال ابن عباس: والظالمون هاهنا: المنافقون: وقال غيره: هم الذين انصرفوا يوم أحد مع ابن أبي المنافق.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قال الزجاج: معنى الكلام: جعل الله الأيام مداولة بين الناس، ليمحص المؤمنين، ويمحق الكافرين. وفي التمحيص قولان: أحدهما: أنه الابتلاء والاختبار، وأنشدوا:

رأيت فضيلاً كان شيئاً ملففاً فكشّفه التمحيص حتى بدا لياً^(١)

وهو قول الحسن، ومجاهد، والسدي، ومقاتل، وابن قتبية في آخرين. والثاني: أنه التنقية، والتخليص، وهو قول الزجاج. وحكي عن المبرد، قال: يقال: محص الحبل محصاً: إذا ذهب منه الوبر حتى يتخلص، ومعنى قولهم: [اللهم] محص عنا ذنوبنا: أذهبها عنا^(٢). وذكر الزجاج عن الخليل أن التمحيص: التخليص، يقال: محصت الشيء أمحصه محصاً: إذا أخلصته. فعلى القول الأول التمحيص ابتلاء المؤمنين بما يجري عليهم، وعلى الثاني: هو تنقيتهم من الذنوب بذلك. قال الفراء: معنى الآية: وليمحص الله بالذنوب عن الذين آمنوا.

قوله تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ فيه أربعة أقوال. أحدهما: يهلكهم، قاله ابن عباس. والثاني: يذهب دعوتهم، قاله مقاتل. والثالث: ينقصهم ويقللهم^(٣)، قاله الفراء. والرابع: يحبط أعمالهم، ذكره الزجاج.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَلْمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الظَّالِمِينَ﴾ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون^(٤)

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ قال ابن عباس: لما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه ﷺ، بما فعل بشهداء يوم بدر من الكرامة، رغبوا في ذلك، فتمنوا قتلاً يستشهدون فيه، فيلحقون بإخوانهم، فأراهم الله يوم أحد، فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم، فنزل فيهم ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ يعني القتال ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ أي: من قبل أن تنظروا إليه يوم أحد ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ يومئذ، قال الفراء وابن قتبية: أي: رأيتم أسبابه، وهي السيف ونحوه من السلاح، وفي معنى ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: تنظرون إلى السيوف، قاله ابن عباس. والثاني: أنه ذكر للتوكيد، قاله الأخفش، وقال الزجاج: معناه: فقد رأيتموه، وأنتم بصراء، كما نقول: رأيت كذا وكذا، وليس في عينك علة، أي: رأيته رؤية حقيقة. والثالث: أن معناه: وأنتم تنظرون ما تمنيت. وفي الآية إضمار [أي: فقد رأيتموه وأنتم تنظرون] فلم انهزمتما؟

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ قال ابن عباس: صاح الشيطان يوم أحد: قتل محمد. فقال قوم: لئن كان قتل لعطينهم بأيدينا إنهم لعشارنا وإخواننا، ولو كان محمد حياً لم نهزم، فترخصوا في الفرار، فنزلت هذه الآية^(١). وقال الضحاك: قال قوم من المنافقين: قتل محمد، فالحقوا بدينكم الأول، فنزلت هذه الآية. وقال قتادة: قال أناس: لو كان نبياً ما قُتل، وقال ناسٌ من عليّة أصحاب رسول الله: قاتلوا على ما قاتل عليه نبيكم حتى تلحقوا به، فنزلت هذه الآية. ومعنى الآية: أنه يموت كما ماتت قبله الرُّسل، أفإن مات على فراشه، أو قتل كمن قتل قبله من الأنبياء، أنقلبوا على أعقابكم؟! أي: ترجعون إلى ما كنتم عليه من الكفر؟! وهذا على سبيل المثل، يقال لكل من رجع عما كان عليه: قد انقلب على عقبيه، وأصله: رجعة القهقري، والعقب: مؤخر القدم.

(١) البيت لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، وهو في «عيون الأخبار» ٧٥/٣ و«الكامل» ١٨٣/١، وفي «الأغانى» أنه قاله في صديقه قصي بن ذكوان، ثم قال في ص ٦٧ أنه قاله في صديقه الحسين بن عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب، بعد أن تهاجرا.

(٢) في القرطبي: أي: «خلصنا من عقوبتها».

(٣) في «معاني القرآن»: «يفنيهم» بدل من «يقللهم».

(٤) أخرجه ابن جرير: ٢٥٧/٧.

قوله تعالى: ﴿كَانَ يَعْزُرُ اللَّهُ شَيْئًا﴾ أي: لن ينقص الله شيئاً برجوعه، وإنما يضر نفسه. ﴿وَسَيَعِزِّي﴾ أي: يشيب الشاكرين، وفيهم ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم الثابتون على دينهم، قاله علي عليه السلام، وقال: كان أبو بكر أمير الشاكرين.

والثاني: أنهم الشاكرون على التوفيق والهداية. والثالث: على الدين.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يُرَدُّ قَرَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرَدُّ قَرَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَيَعِزِّي الشَّاكِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ في الإذن قولان:

أحدهما: أنه الأمر، قاله ابن عباس. والثاني: الإذن نفسه، قاله مقاتل.

قال الزجاج: ومعنى الآية: وما كانت نفس لتموت إلا بإذن الله.

قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا مُوَجَلًّا﴾ توكيد، والمعنى: كتب الله ذلك كتاباً موجلاً، أي: كتاباً ذا أجل. والأجل: الوقت

المعلوم، ومثله في التوكيد ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] لأنه لما قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَمْهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٢] دل

على أنه مفروض، فأكد بقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿مُنْعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٨٨] لأنه لما قال: ﴿وَرَوَى

الْجِبَالُ تَحْسِبَهَا جَانِدَةً﴾ [النمل: ٨٨] دل على أنه خلق الله فأكد بقوله: ﴿مُنْعَ اللَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرَدُّ قَرَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾ أي: من قصد بعمله الدنيا، أعطي منها، قليلاً كان أو كثيراً،

ومن قصد الآخرة بعمله، أعطي منها. وقال مقاتل: عنى بالآية: من ثبت يوم أحد، ومن طلب الغنيمة.

فصل

وأكثر العلماء على أن هذا الكلام محكم، وذهبت طائفة إلى نسخة بقوله تعالى: ﴿عَمَلْنَا لَهُمُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِنَبْلُوهُمْ﴾ [الإسراء: ١٨] والصحيح أنه محكم، لأنه لا يؤتى أحد شيئاً إلا بقدره الله ومشيئته.

ومعنى قوله تعالى: ﴿نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾ أي: ما نشاء، وما قدرنا له، ولم يقل: ما يشاء هو.

﴿وَكَايْنِ يَنْ تُحْيِي تَحْتَلِّ مَمَّ يَرْيُونُ كَيِّدًا وَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَأُوا وَاللَّهُ يُمْسِكُ الصَّدِيرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَايْنِ يَنْ تُحْيِي﴾ قرأ الجمهور «وكاين» في وزن «كعين». وقرأ ابن كثير «وكائن» في وزن «كاعن». قال

الفراء: أهل الحجاز يقولون: «كاين» مثل: «كعين» ينصبون الهمزة، ويشددون الياء. وتميم يقولون: «وكائن» كأنها

فاعل من كنت، وأنشدني الكسائي:

وكاين ترى يسعى من الناس جاهداً
على ابن غدا منه شجاع وعقرب
وقال آخر:

وكاين أصابت مؤمناً من مُصيبةٍ
على الله عُقباها ومنه ثوابها

وقال ابن قتيبة: كائن بمعنى «كم» مثل قوله: ﴿وَكَايْنِ يَنْ قَرِيْبَةً عَنَّتْ عَنْ أُمِّ رَيْحَانَ﴾ [الطلاق: ٨] وفيها لغتان: «كاين»

بالهمزة وتشديد الياء، و«كائن» على وزن «قالل»، [وبائع] وقد قرئ بهما [جميعاً في القرآن] والأكثر والأفصح تخفيفها.

قال الشاعر:

وكائن أرينا الموت من ذي تحيةٍ
إذا ما ازداننا أو أصرر لمائم^(١)

وقال الآخر:

وكاين ترى من صابيت لك مُعجِبٍ
زيادته أو نقصه في التَّكَلِّمِ^(٢)

قوله تعالى: ﴿تَحْتَلِّ مَمَّ يَرْيُونُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبان، والمفضل كلاهما عن عاصم: «قُتِلَ»

(١) أنشده ابن فارس في «الصاحي» ص ١٣٢، ولم ينسب لغائل.

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى من «معلته» في شرح الزوزني ص ٨٩، ونسبه الجاحظ في «البيان والبيان» ١/ ١٧٠ للأعور الشني، وذكر بعده بيتاً آخر وهو:

فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

لسان الفتى نصفت ونصفت فسواده

بضم القاف، وكسر التاء، من غير ألف، وقرأ الباقون: «قاتل» بألف. وقرأ ابن مسعود، وأبو رزين، وأبو رجاء، والحسن، وأبو يعمر، وابن جبير، وقتادة، وعكرمة، وأيوب: «رَبِّيون» بضم الراء، وقرأ ابن عباس، وأنس وأبو مجلز، وأبو العالية، والجحدري، بفتحها. فعلى حذف الألف يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون قتل للنبي وحده، ويكون المعنى: وكأين من نبي قتل، ومعه ربّيون، فما وهنوا بعد قتله. والثاني: أن يكون قتل للربيين، ويكون: «فَمَا وَهَنُوا» لمن بقي منهم. وعلى إثبات الألف يكون المعنى: أن القوم قاتلوا، فما وهنوا. وفي معنى الربيين خمسة أقوال: أحدهما: أنهم الألو، قاله ابن مسعود، وابن عباس في رواية، واختاره الفراء. والثاني: الجماعات الكثيرة، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، والسدي، والربيع، واختاره ابن قتيبة. والثالث: أنهم الفقهاء والعلماء، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال الحسن، واختاره اليزيدي، والزجاج. والرابع: أنهم الأتباع، قاله ابن زيد. والخامس: أنهم المتألهون العارفون بالله تعالى، قاله ابن فارس. قوله تعالى: «فَمَا وَهَنُوا» فيه قولان: أحدهما: أنه الضعف، قاله ابن عباس، وابن قتيبة. والثاني: أنه العجز، قاله قتادة. قال ابن قتيبة: والاستكانة: الخشوع، والذل، ومنه أخذ المسكين. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: فما وهنوا بالخوف، وما ضعفوا بنقصان القوة، ولا استكانوا بالخضوع. والثاني: فما وهنوا لقتل نبيهم، ولا ضعفوا عن عدوهم، ولا استكانوا لما أصابهم.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَنَجِّنَا أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قوله تعالى: «وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ» يعني الربيين. «إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا» أي: لم يكن قولهم غير الاستغفار. والإسراف: مجاوزة الحد، وقيل: أريد بالذنوب الصغائر، وبالإسراف: الكيثر. قوله تعالى: «وَنَجِّنَا أَقْدَامَنَا» قال ابن عباس: على القتال. وقال الزجاج: معناه: ثبتنا على دينك، فإن الثابت على دينه ثابت في حربه.

﴿فَقَالَتْهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الَّذِينَ وَحَسَنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ قوله تعالى: «فَقَالَتْهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الَّذِينَ» فيه قولان: أحدهما: أنه النصر، قاله قتادة. والثاني: الغنيمة، قاله ابن جريج، وروي عن ابن عباس، أنه قال: النصر والغنيمة. وفي حسن ثواب الآخرة قولان: أحدهما: أنه الجنة. والثاني: الأجر والمغفرة، وهذا تعليم من الله تعالى للمؤمنين ما يفعلون ويقولون عند لقاء العدو.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُلَاحِظُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُوا كَذِبًا كَبِيرًا﴾ قال ابن عباس: نزلت في قول ابن أبي للمسلمين لما رجعوا من أحد: لو كان نبياً ما أصابه الذي أصابه، وفي الذين كفروا هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم المنافقون على قول ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أنهم اليهود والنصارى، قاله ابن جريج. والثالث: أنهم عبدة الأوثان، قاله السدي. قالوا: وكانوا قد أمروا المسلمين بالرجوع عن دينهم. ومعنى «يَكْذِبُوا كَذِبًا كَبِيرًا»: يصرفوكم إلى الشرك. «فَتَنَقَّلُوا خَيْرِينَ» بالعقوبة.

﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ قوله تعالى: «بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ» أي: وليكم ينصركم عليهم، فاستغنوا عن موالة الكفار. «سَتُنْفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ يَمَّا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَتَوًى الْقَالِيلِينَ﴾

قوله تعالى: «سَتُنْفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ»^(١) قال السدي: لما ارتحل المشركون يوم أحد نحو مكة ندموا في بعض الطريق، وقالوا: قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشرذمة، تركتموهم؟! ارجعوا فاستأصلوهم، فقتل الله في قلوبهم الرعب، ونزلت هذه الآية. والإلقاء: القذف. والرعب: الخوف. قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو

(١) ثبت في «الصحيحين» من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحللت لي الغنائم، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة».

عمرو، وحمزة «الرُّعْب» ساكنة العين، خفيفة. وقرأ ابن عامر، والكسائي، ويعقوب، وأبو جعفر، مضمومة العين، مثقلة، أين وقعت. والسلطان هاهنا: الحجة في قول الجماعة. والماوى: المكان الذي يؤوي إليه. والمثوى: المقام، والثوى: الإقامة. قال ابن عباس: والظالمون هاهنا: الكافرون.

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ آلَٰهَ وَعَدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِأُذُنَيْهِمْ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مِمَّا تَحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْلِغَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ آلَٰهَ وَعَدَهُ﴾ قال محمد بن كعب القرظي: لما رجع النبي ﷺ وأصحابه من أحد، قال قوم منهم: من أين أصابنا هذا، وقد وعدنا الله النصر؟! فنزلت هذه الآية. وقال المفسرون: وعد الله تعالى المؤمنين النصر بأحد، فنصرهم، فلما خالفوا، وطلبوا الغنيمة، هُزموا. وقال ابن عباس: ما نُصر رسول الله ﷺ في موطن ما نُصر في أحد، فأنكر ذلك عليه، فقال: بيني وبينكم كتاب الله، إن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ آلَٰهَ وَعَدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِأُذُنَيْهِ﴾ فأما الحس، فهو القتل، قاله ابن عباس^(١)، والحسن، ومجاهد، والسدي، والجماعة. وقال ابن قتيبة: تحسونهم، أي: تستأصلونهم بالقتل، يقال: سَنَّهُ حَسُوسٌ: إذا أتت على كل شيء، وجراد محسوس: إذا قتله البرد. وفي قوله تعالى: ﴿بِأُذُنَيْهِ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: بأمره، قاله ابن عباس. والثاني: بعلمه، قاله الزجاج. والثالث: بقضائه، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ قال الزجاج: أي: جبنتم. ﴿وَتَنَزَّعْتُمْ﴾ أي: اختلفتم ﴿مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْسَلَكُمْ تَحِبُّونَ﴾ يعني: النصر. وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير، معناه: حتى إذا تنازعتم في الأمر، فشلتكم وعصيتكم، وهذه الواو زائدة، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَاكُمْ وَلَمْ نَجِدْ لَكُمْ يُوحَىٰ رَبِّكَ﴾ [الصافات: ١٥٣] معناه: ناديناكم. فأما تنازعهم، فإن بعض الرماة قال: قال انهزم المشركون، فما يمنعنا من الغنيمة؟ وقال بعضهم: بل ثبت مكاننا كما أمرنا رسول الله ﷺ، فترك المركز بعضهم، وطلب الغنيمة، وتركوا مكانهم، فذلك عصيانهم، وكان النبي ﷺ قد أوصاهم: «لو رأيتم الطير تحطفتنا فلا تبرحوا من مكانكم».

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ قال المفسرون: هم الذين طلبوا الغنيمة، وتركوا مكانهم. ﴿وَمَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وهم الذين ثبتوا. وقال ابن مسعود: ما كنت أظن أحداً من أصحاب محمد يريد الدنيا حتى نزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي: ردكم عن المشركين بقتلكم وهزيمتكم. ﴿لِيَبْلِغَكُمْ﴾ أي: ليختبركم، فيبين الصابر من الجازع.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: عفا عن عقوبتكم، قاله ابن عباس. والثاني: عفا عن استصالككم، قاله الحسن. وكان يقول: هؤلاء مع رسول الله، في سبيل الله غضاب الله، يقاتلون في سبيل الله، نهوا عن شيء فضيعوه، فما تركوا حتى غموا بهذا الغم، والفاسق اليوم يتجرم كل كبيرة، ويركب كل داهية، ويزعم أن لا بأس عليه، فسوف يعلم.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: إذ عفا عنهم، قاله ابن عباس. والثاني: إذ لم يقتلوا جميعاً، قاله مقاتل.

﴿إِذْ تُصِدُّونَ وَلَا تَكَوِّنُونَ عَلَىٰ أَهْلِ الرَّسُولِ يُدْعَوُكُمْ فِي أَخْرَجَكُمْ فَأَتَيْتُمْكُمْ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْكُمْ تَخَزَّنُوا فِي مَآفَئِكُمْ وَلَا مَأْصِبَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

(١) هو قطعة من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في «المسند» ٢٦٠٩ والحاكم ٢٩٦/٢ وصححه، ووافقه الذهبي، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «دلائل النبوة»، وذكره الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» ٢٤/٥، وقال: وهذا حديث غريب، وهو من مراسلات ابن عباس، وله شواهد من وجوه كثيرة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تُبَدِّلُ وَلَا تَكُونُ﴾ قال المفسرون: «إذ» متعلقة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ وأكثر القراء على ضم التاء، وكسر العين، من قوله: «تصعدون» وهو من الإصعاد. وروى أبان عن ثعلب، عن عاصم فتحها، وهي قراءة الحسن، ومجاهد، وهو من الصعود. قال الفراء: الإصعاد في ابتداء الأسفار، والمخارج، تقول: أصعدنا من بغداد إلى خراسان، فإذا صعدت على سلم أو درجة، قلت: صعدت، ولا تقول: أصعدت. وقال الزجاج: كل من ابتدا مسيراً من مكان، فقد أصعد، فأما الصعود، فهو من أسفل إلى فوق. ومن فتح التاء والعين، أراد الصعود في الجبل. وللمفسرين في معنى الآية قولان: أحدهما: أنه صعودهم في الجبل، قاله ابن عباس ومجاهد. والثاني: أنه الإبعاد في الهزيمة، قاله قتادة، وابن قتيبة، و«تلون» بمعنى: «تعرجون». وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَكْثَرِ﴾ عام، وقد روي عن ابن عباس أنه أريد به النبي ﷺ قال: والنبي ﷺ يناديهم من خلفهم: «إلي عباد الله، أنا رسول الله، وقرأت عائشة، وأبو مجلز، وأبو الجوزاء، وحמיד «على أحد» بضم الألف والحاء، يعنون الجبل.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْبِئْكُمْ﴾ أي: جازاكم. قال الفراء: الإثابة هاهنا بمعنى عقاب، ولكنه كما قال الشاعر:
أخاف زياداً أن يكونَ عطاؤه
أداهمَ سوداً أو محدرجةً سُفراً^(١)

المحدرجة: السياط. والسود فيما يقال: القيود.

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَمْسَرَ﴾ في هذه الباء أربعة أقوال: أحدها: أنها بمعنى «مع». والثاني: بمعنى «بعد». والثالث: بمعنى «على»، فعلى هذه الثلاثة الأقوال يتعلق الغمان بالصحابة. وللمفسرين في المراد بهذين الغمين خمسة أقوال: أحدها: أن الغم الأول ما أصابهم من الهزيمة والقتل. والثاني: إشراف خالد بن الوليد بخيل المشركين عليهم، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أن الأول فرارهم الأول، والثاني: فرارهم حين سمعوا أن محمداً قد قتل، قاله مجاهد. والثالث: أن الأول ما فاتهم من الغنيمة وأصابهم من القتل والجراح، والثاني: حين سمعوا أن النبي ﷺ قد قتل، قاله قتادة. والرابع: أن الأول ما فاتهم من الغنيمة، والفتح، والثاني: إشراف أبي سفيان عليهم، قاله السدي. والخامس: أن الأول إشراف خالد بن الوليد عليهم، والثاني: إشراف أبي سفيان عليهم، ذكره الثعلبي. والقول الرابع: أن الباء بمعنى الجزاء، فتقديره: غمكم كما غمتم غيركم، فيكون أحد الغمين للصحابة، وهو أحد غمومهم التي ذكرناها عن المفسرين، ويكون الغم الذي جُوزوا لأجله لغيرهم. وفي المراد بغيرهم قولان: أحدهما: أنهم المشركون غمومهم يوم بدر، قاله الحسن. والثاني: أنه النبي ﷺ غموه حيث خالفوه، فجوزوا على ذلك، بأن غموا بما أصابهم، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا﴾ في «لا» قولان: أحدهما: أنها باقية على أصلها، ومعناها النفي، فعلى هذا في معنى الكلام قولان: أحدهما: فأنابكم غماً أنسابكم الحزن على ما فاتكم وما أصابكم، وقد روي أنهم لما سمعوا أن النبي قد قتل، نسوا ما أصابهم وما فاتهم. والثاني: أنه متصل بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ فمعنى الكلام: عفا عنكم، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم وأصابكم، لأن عفوه يذهب كل غم. والقول الثاني: أنها صلة، ومعنى الكلام: لكي تحزنوا على ما فاتكم وأصابكم عقوبة لكم في خلافكم. ومثلها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَعَثَ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يُقَدِّرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن قَوْلِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٩] أي: ليعلم. هذا قول المفضل. قال ابن عباس: والذي فاتهم: الغنيمة، والذي أصابهم: القتل. والهزيمة.

﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاءِ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ وَعَدِّهِ أَنَّهُمْ لَن يُؤْتُوا هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَاتَلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

(١) قاتله الفرزدق، وزباد: هو ابن أبيه، كان قد تورع الفرزدق، ثم أظهر الرضى عنه، وأنه سيجبوا إن قصده، فلم يركن لذلك الفرزدق. والأداهم، جمع أدهم: وهو القيد. والمحدرجة: السياط، وهو وصف، من: محدرج السوط: إذا أحكم فتلته حتى استوى، وسوط محدرج: مغار محكم القتل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدُوِّ الْقَوْمِ أَمَنَةً﴾ قال ابن قتيبة: الأمنة: الأمن. يقال: وقعت الأمنة في الأرض. وقال الزجاج: معنى الآية: أعقبكم بما نالكم من الرعب أن أمنكم أمناً تتأمنون معه، لأن الشديد الخوف لا يكاد ينام. و«نعاساً» منصوب على البدل من «أمنة»، يقال: نعى الرجل ينعى نَعاساً، فهو ناعس. وبعضهم يقول: نعان. قال الفراء: قد سمعتها، ولكني لا أشتيها. قال العلماء: النعاس: أخف النوم. وفي وجه الامتنان عليهم بالنعاس قولان: أحدهما: أنه أمنهم بعد خوفهم حتى ناموا، فالمنة بزوال الخوف، لأن الخائف لا ينام. والثاني: قواهم بالاستراحة على القتال.

قوله تعالى: ﴿يَتَشَكَّى بِلَايِكُمْ يَنْكَمْ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «يغشى» بالياء مع التفعيم، وهو يعود إلى النعاس. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف «تغشى» بالتاء مع الإمالة، وهو يرجع إلى الأمنة. فأما الطائفة التي غشيها النوم، فهم المؤمنون، والطائفة الذين أهتمتهم أنفسهم: المنافقون، أهمهم خلاص أنفسهم، فذهب النوم عنهم. قال أبو طلحة: كان السيف يسقط من يدي، ثم آخذه، ثم يسقط، وآخذه من النعاس. وجعلت أنظر، وما منهم أحد يومئذ إلا يمد تحت حَجَفَتِهِ^(١) من النعاس^(٢). وقال الزبير: أرسل الله علينا النوم، فما مثلاً رجل إلا ذقته في صدره، فوالله إني لأسمع كالحلم قول معتب بن قشير: (لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا)، فحفظتها منه^(٣).

قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنهم ظنوا أن الله لا ينصر محمداً وأصحابه، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنهم كذبوا بالقدر، رواه الضحاك، عن ابن عباس. والثالث: أنهم ظنوا أن محمداً قد قتل، قاله مقاتل. والرابع: ظنوا أن أمر النبي ﷺ مضمحل، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةُ﴾ قال ابن عباس: أي: كظن الجاهلية.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه الجحد، تقديره: ما لنا من الأمر من شيء. قال الحسن: قالوا: لو كان الأمر إلينا ما خرجنا، وإنما أخرجنا كرهاً. وقال غيره: المراد بالأمر: النصر والظفر، قالوا: إنما النصر للمشركين ﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾، أي: النصر، والظفر، والقضاء والقدر ﴿لِلَّهِ﴾. والأكثرون قرؤوا ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ بنصب اللام، وقرأ أبو عمرو يرفعها، قال أبو علي: حجة من نصب، أن «كلمة» بمنزلة «أجمعين» في الإحاطة والعموم، فلو قال: إن الأمر أجمع، لم يكن إلا النصب، و«كلمة» بمنزلة «أجمعين». ومن رفع، فلأنه قد ابتدأ به، كما ابتدأ بقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُمْ بَيْنَهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَّقُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ في الذي أخفوه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه قولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾. والثاني: أنه إسرارهم الكفر، والشك في أمر الله. والثالث: الندم على حضورهم مع المسلمين بأحد. قال أبو سليمان الدمشقي: والذي قال: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ عبد الله بن أبي. والذي قال: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ معتب بن قشير.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي: لو تخلفتم، لخرج منكم من كُتِبَ عليه القتل، ولم ينجه القعود. والمضاجع: المصارع بالقتل. قال الزجاج: ومعنى (برزوا): صاروا إلى براز، وهو المكان المنكشف. ومعنى ﴿وَلِيَتَّبِعِ اللَّهُ مَا فِي مِذْرِبِكُمْ﴾ أي: ليختبره بأعمالكم، لأنه قد علمه غيباً، فيعلمه شهادة.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَتَّبِعْ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ قال قتادة: أراد ليظهرها من الشك والارتباب، بما يريكم من عجائب صنعه من الأمنة، وإظهار سرائر المنافقين. وهذا التمحيص خاص للمؤمنين. وقال غيره: أراد بالتمحيص: إبانة ما في القلوب من الاعتقاد لله، ولرسوله، وللمؤمنين، فهو خطاب للمنافقين.

(١) الحجة: ضرب من الترس، تتخذ من جلود الإبل مقورة، يطارق بعضها على بعض، ليس فيه خشب، وهي الحجة والذرة.

(٢) روى البخاري ج ١٧١/٨ عن أنس، أن أبا طلحة قال: غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه. وقد رواه الترمذي والنسائي والحاكم بنحو معناه. وروى ابن جرير ٣١٧/٧، والترمذي ١٢٥/٢، والحاكم ٢٩٧/٢ وصححه، ووافقه الذهبي، عن أنس عن أبي طلحة قال: رفعت رأسي يوم أحد، فجعلت أنظر، وما منهم يومئذ أحد إلا يمد تحت حجفته من النعاس، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدُوِّ الْقَوْمِ أَمَنَةً لَكُمْ﴾. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه ابن إسحاق، وابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الدلائل».

﴿وَلَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَلِإِلَهِ اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (١٥٨)

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ مُتُّمْ﴾ أي: في إقامتكم. ﴿أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ في جهادكم. ﴿لَلِإِلَهِ اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ وهذا تخويف من القيامة. والحشر: الجمع مع سوق.

﴿فِيمَا رَحِمَهُ يَنْ آتَى إِلَهُ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَعَلًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَخَذْنَا مِنْ حَوْلِكَ نَقْعَةً مِّنْ عَذَابِهِمْ وَاسْتَقْبَلْنَا لَهُمْ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَلَمَّا عَزَمْتَ طَفَوْا عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (١٥٩)

قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ يَنْ آتَى إِلَهُ لَيْتَ لَهُمْ﴾ قال الفراء وابن قتيبة، والزجاج: «ما» هاهنا صلة، ومثله: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ يَمْتَنِعُهُمْ﴾ قال ابن الأنباري: دخول «ما» هاهنا يحدث توكيداً. قال النابغة:

الممرء يهوى أن يعي — ش وطول عيش ما يضره^(١)

فأكد بذكر «ما» وفيمن تتعلق به هذه الرحمة قولان: أحدهما: أنها تتعلق بالنبى ﷺ. والثاني: بالمؤمنين. قال قتادة: ومعنى ﴿لَيْتَ لَهُمْ﴾ لأن جانبك، وحسن خلقك، وكثر احتمالك^(٢). قال الزجاج: والفظ: الغليظ الجانب، السيئ الخلق، يقال: فظظت فظاظه وفظظاً، والفظ: ماء الكرش والفرت، وإنما سمي فظاً لغلظ مشربه. فأما الغليظ القلب، فقيل: هو القاسي القلب، فيكون ذكر الفظاظه والغلظ - وإن كانا بمعنى واحد - توكيداً. وقال ابن عباس: الفظ: في القول، والغليظ القلب: في الفعل.

قوله تعالى: ﴿لَأَنْفُثُوا﴾ أي: تفرقوا. وتقول: فضضت عن الكتاب ختمه: إذا فرقته عنه. ﴿نَقْعَةً مِّنْ عَذَابِهِمْ﴾ أي: تجاوز عن هفواتهم، وسل الله المغفرة لذنوبهم ﴿وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^(٣) معناه: استخرج آراءهم، واعلم ما عندهم. ويقال: إنهم من شرت العسل. وأنشدوا:

وقاسمها بالله حقاً لأنتم — الذ من السلولى إذا ما نشورها^(٤)

قال الزجاج: يقال: شاورت الرجل مشاورة وشوراً، وما يكون عن ذلك اسمه المشورة. وبعضهم يقول: المشورة. ويقال: فلان حسن الصورة والشورة، أي: حسن الهيئة واللباس. ومعنى قولهم: شاورت فلاناً، أظهرت ما

(١) «أما لي المرتضى» ٢٦٦/١، و«حاشية البحري» ص ١٣٦، و«أما لي القالي» ٨/٢، و«الخزانة» ٥١٤/١ وفيهما «قد يضره» بدل «ما يضره».

(٢) روى الإمام أحمد رقم ٦٦٢٢، والبخاري ٢٨٧/٤ عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله في التوراة. فقال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَبَشِيراً وَنَذِيراً﴾ وحرراً للأمين، وأنت عبيد ورسولي، سميتك المتوكل، لست بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعياناً عبياً، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً.

(٣) قال الشيخ أحمد شاکر في «عمدة التفسير» تعليقاً على هذه الآية: وهذه الآية: ﴿وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ والآية الأخرى ﴿وَأَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بَيِّنَاتٍ﴾ اتخذهما اللاعيون بالدين في هذا العصر من العلماء وغيرهم حديثهم في التضييل بالتأويل ليواطئوا صنع الإفرنج في منهج النظام الدستوري الذي يزعمونه، والذي يخدعون الناس بتسميته النظام الديمقراطي، فاصطنع هؤلاء اللاعيون شعاراً من هاتين الآيتين يخدعون به الشعوب الإسلامية أو المنتسبة للإسلام، يقولون كلمة حق يراد بها الباطل، يقولون: الإسلام يأمر بالشورى، ونحو ذلك من الألفاظ. وحقاً إن الإسلام يأمر بالشورى، ولكن أي شورى يأمر بها الإسلام؟ إن الله سبحانه يقول لرسوله ﷺ: ﴿وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ فَمَا عَزَمْتَ لَمَّا تَرَكَ عَلَى اللَّهِ، ومعنى الآية واضح صريح لا يحتاج إلى تفسير، ولا يحتمل التأويل، فهو أمر للرسول ﷺ، ثم لمن يكون ولي الأمر من بعده أن يستعرض آراء أصحابه الذين يراهم موضع الرأي الذين هم أولو الأحلام والنهي في المسائل التي تكون موضع تبادل الآراء، وموضع الاجتهاد في التطبيق، ثم يختار من بينها ما يراه حقاً أو صواباً، أو مصلحة، فيعزم على إنفاذه غير متقيد برأي فريق معين، ولا برأي عدد محدود، لا برأي أكثرية، ولا برأي أقلية، فإذا عزم توكل على الله، وأنفذ العزم على ما ارتآه. ومن المفهوم البديهي الذي لا يحتاج إلى دليل أن الذين أمر الرسول بمشاررتهم - ويأتي به في من يلي الأمر من بعده - هم الرجال الصالحون القائمون على حدود الله، المتقون الله المقيمو الصلاة، المؤدو الزكاة، المجاهدون في سبيل الله، هم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «إلياني منكم أولو الأحلام والنهي» ليسوا هم الملحدين ولا المحاربين لدين الله، والفجار الذين لا يتورعون عن منكر، ولا الذين يزعمون أن لهم أن يضعوا شرائع وقوانين تخالف دين الله، وتهدم شريعة الإسلام، هؤلاء وأولئك من بين كافر وفاسق، موضعهم الصحيح تحت السيف أو السوط، لا موضع الاستشارة وتبادل الآراء.

(٤) البيت لخالد بن زهير، ديوان الهليلين ١٥٨/١ وشرح أشعار الهليلين ٢١٥/١. والسلولى: العسل. نشورها: تأخذها من خليتها. قال في «اللسان»: قال الزجاج: أخطأ خالد إنما السلولى طائر. وقال الفارسي: السلولى: كل ما سلاك، وقيل للسلولى: سلوى، لأنه يسليك بحلواته وتأثيه عن غيره مما تلحقك فيه مؤونة الطبخ وغيره من أنواع الصناعة، يرد بذلك على أبي إسحاق الزجاج.

عنده وما عندي. وشرت الدابة: إذا امتاحتها: فعرفت هيئتها في سيرها. وشرت العسل: إذا أخذته من مواضع النحل. وعسل مشار. قال الأعشى:

كَأَنَّ الْقُرْنِفَلَ وَالزَّنَجَبِيَّ
لِ بَاتَا بِفِيهَا وَأَرِياً مُشَاراً^(١)

والأري: العسل. واختلف العلماء لأي معنى أمر الله نبيه بمشاورة أصحابه مع كونه كامل الرأي، تام التدبير، على ثلاثة أقوال: أحدها: ليستن به من بعده، وهذا قول الحسن، وسفيان بن عيينة. والثاني: لتطيب قلوبهم، وهو قول قتادة، والربيع، وابن إسحاق. ومقاتل. قال الشافعي رحمه الله: نظير هذا قوله ﷺ: «البركر تستأمر في نفسها»^(٢)، إنما أراد استطابة نفسها، فإنها لو كرهت، كان للآب أن يزوجه^(٣)، وكذلك مشاورة إبراهيم عليه السلام لابنه حين أمر بذبحه. والثالث: للإعلام ببركة المشاورة، وهو قول الضحاك. ومن فوائد المشاورة أن المشاور إذا لم ينجح أمره، علم أن امتناع النجاح محض قدر، فلم يلم نفسه، ومنها أنه قد يعزم على أمر، فيبين له الصواب في قول غيره، فيعلم عجز نفسه عن الإحاطة بفنون المصالح. قال علي عليه السلام: الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه، والتدبير قبل العمل يؤمنك من الندم. وقال بعض الحكماء: ما استنبت الصواب بمثل المشاورة، ولا حُصِنَت النعم بمثل المواساة، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبر. واعلم أنه إنما أمر النبي ﷺ بمشاورة أصحابه فيما لم يأت فيه وحى، وعمهم بالذكر، والمقصود أرباب الفضل والتجارب منهم. وفي الذي أمر بمشاورتهم فيه قولان. حكاها القاضي أبو يعلى: أحدهما: أنه أمر الدنيا خاصة. والثاني: أمر الدين والدنيا، وهو أصح. وقد قرأ ابن مسعود، وابن عباس: «وشاورهم في بعض الأمر».

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ قال ابن فارس: العزم: عقد القلب على الشيء ويريد أن يفعله^(٤). وقد قرأ أبو رزين، وأبو مجلز، وأبو العالية، وعكرمة، والجحدري: (فإذا عزمْتُ) بضم التاء. فأما التوكل، فقد سبق شرحه. ومعنى الكلام: فإذا عزمْتَ على فعل شيء، فتوكل على الله، لا على المشاورة.

﴿إِنْ يَصْرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦١﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَصْرِكُمْ اللَّهُ﴾ قال ابن فارس: النصر: العون، والخذلان: ترك العون. وقيل: الكناية في قوله ﴿بَعْدِهِ﴾ تعود إلى خذلانه.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ وَمَنْ يَفْكُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ﴾ في سبب نزولها سبعة أقوال: أحدها: أن قطيفة من المغنم فقدت يوم بدر، فقال ناس: لعل النبي ﷺ أخذها، فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس^(٥). والثاني: أن رجلاً غلَّ من غنائم هوازن يوم حنين، فنزلت هذه الآية، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أن قوماً من أشراف الناس طلبوا من

(١) روايته في الديوان ص ٩٣:

كَأَنَّ جَنْبِيًّا مِنَ الزَّنَجَبِيِّ
لِ خَالِطَ فَاهَا وَأَرِياً مُشَوَّراً

جَنِيٍّ: فصيل من: جنى الثمر يجنيه. الزنجيل: نبات طيب الرائحة معروف. الأري: عسل النحل. شار العسل واشتاره: جمعه.

(٢) روى الجماعة إلا البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «البركر أحق بنفسها من وليها، والبركر تستأذن في نفسها، وإفنها صماتها» وفي رواية لأحمد ومسلم وأبي داود والنسائي «والبركر يستأمرها أبوها». وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، تستأمر النساء في أبيضاهن؟ قال: «نعم». قلت: إن البركر تستأمر فتسحق فتسكت؟ فقال: «سكاتها إذنها».(٣) قال النووي في «شرح مسلم». وأما قوله ﷺ في البركر: «ولا تنكح البركر حتى تستأمر» فاختلفوا في معناه، فقال الشافعي وابن أبي ليلى وأحمد وإسحاق وغيرهم: الاستئذان في البركر مأمور به، فإن كان الولي أباً أو جداً، كان الاستئذان مندوباً إليه، ولو تزوجه بغير استئذانه، صح، لكمال شفقتي، وإن كان غيرهما من الأولياء، وجب الاستئذان، ولم يصح إنكاحها قبله. وقال الأوزاعي وأبو حنيفة وغيرهما من الكوفيين: يجب الاستئذان في كل بكر بالغة.

(٤) في «معجم مقاييس اللغة» ٣٠٨/٤ قال الخليل: العزم: ما عقد عليه القلب من أمر أنت فاعله، أي: متيقنه. ويقال: ما لفلان عزيمة، أي: ما يعزم عليه، كأنه لا يمكنه أن يصمر أمره، بل يختلط فيه ويتردد.

(٥) رواه ابن أبي حاتم، وأبو داود، والترمذي، والطبري، وقال الترمذي: حسن غريب. وفي إسناده خصيف بن عبد الرحمن الجزري ضعفه أحمد، وقال ابن عدي: إذا حدث عن خصيف ثقة فلا بأس بحديثه، والراوي عنه في هذا الحديث عبد الواحد بن زياد العبدي، وهو ثقة، روى له الجماعة.

رسول الله ﷺ أن يخصهم بشيء من الغنائم، فنزلت هذه الآية، نقل عن ابن عباس أيضاً. والرابع: أن النبي ﷺ بعث طلائعاً، فغنم النبي ﷺ غنيمة، ولم يقسم للطلائع، فقالوا: قسم الفئء ولم يقسم لنا، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك^(١). والخامس: أن قوماً غلوا يوم بدر، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة. والسادس: أنها نزلت في الذين تركوا مركزهم يوم أحد طلباً للغنيمة، وقالوا: نخاف أن يقول النبي ﷺ: «من أخذ شيئاً، فهو له» فقال لهم النبي ﷺ: «ألم أعهد إليكم ألا تبرحوا؟! أظنتم أنا نغل؟!» فنزلت هذه الآية، قاله ابن السائب، ومقاتل. والسابع: أنها نزلت في غلول الرحي، قاله القرظي، وابن إسحاق. وذكر بعض المفسرين أنهم كانوا يكرهون ما في القرآن من عيب دينهم وأكثهم، فسألوه أن يطوي ذلك، فنزلت هذه الآية. واختلف القراء في «يغل» فقرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو: بفتح الياء وضم الغين، ومعناها: يخون. وفي هذه الخيانة قولان: أحدهما: خيانة المال على قول الأكثرين. والثاني: خيانة الرحي على قول القرظي، وابن إسحاق. وقرأ الباقر: بضم الياء وفتح الغين، ولها وجهان: أحدهما: أن يكون المعنى يُخَان، لوجوب أن يكون: يلفى خائناً، يقال: أغللت فلاناً، أي: وجدته غالاً، كما يقال: أحمقته: وجدته أحمق، وأحمدته: وجدته محموداً^(٢)، قاله الحسن، وابن قتيبة. والثاني: يُخَوِّن، قاله القراء، وأجازة الزجاج، ورده ابن قتيبة، فقال: لو أراد: يخوِّن، لقال: يغلل، كما يقال: يفسق، ويخون، ويفجر. وقيل: «اللام» في قوله «لنبي» منقولة، ومعنى الآية: وما كان النبي ليُغَلِّ، ومثله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ [سرم: ٣٦]، أي: ما كان الله ليتخذ ولداً. وهذه الآية من لطف التعريض، إذ قد ثبتت براءة ساحة النبي ﷺ من الغلول فدل على أن الغلول في غيره. ومثله: ﴿وَلَيْتَ أَوْ إِيَّاكُمْ لَمَلَكْتُ هُذًى أَوْ فِي سَكَلٍ تُحِيبُ﴾ [سبا: ٢٥] وقد ذكر عند السدي نحو هذا.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الغلول: أخذ شيء من المغنم خفية، ومنه الغلالة، وهي ثوب يلبس تحت الثياب، والغلل: وهو الماء الذي يجري بين الشجر، والغلل: وهو الحقد الكامن في الصدر، وأصل الباب الاختفاء. وفي إتيانه بما غل ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يأتي بما غله، يحمله، ويدل عليه ما روى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً فذكر الغلول، فعظمه، وعظم أمره، ثم قال: «لا ألقى أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بغير له رغاء، يقول: يا رسول الله اغنني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك، لا ألقى أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حممة، فيقول: يا رسول الله اغنني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك، لا ألقى أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها نغاء، يقول: يا رسول الله اغنني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك، لا ألقى أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح، فيقول: يا رسول الله اغنني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك. لا ألقى أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاغ تخفق، فيقول: يا رسول الله اغنني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك. لا ألقى أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله اغنني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك^(٣)». الرغاء: صوت البعير، والثغاء: صوت الشاة، والنفس: ما يُغَلُّ من السبي، والرقاع: الثياب، والصامت: المال. والقول الثاني: أنه يأتي حاملاً إثم ما غل. والثالث: أنه يرذ عوَض ما غل من حسناته، والقول الأول أصح لمكان الأثر الصحيح.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: تعطى جزاء ما كسبت.

﴿أَفَمَنْ أَتَّبِعْ يَتَوَلَّى اللَّهَ كَمَنْ بَاءَ يَسْخَطُ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَيْسَ الْكُفْرِ﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَتَّبِعْ يَتَوَلَّى اللَّهَ﴾ اختلفوا في معنى هذه الآية على قولين. أحدهما: أن معناها: أفمن اتبع

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن جرير من طريق سلمة بن نبط عن الضحاك.

(٢) الزيادة من «غريب القرآن» ص ١١٥ لابن قتيبة.

(٣) رواه الإمام أحمد رقم ٩٤٩٩، والبخاري ١٢٩/٦، ومسلم ١٤٦١/٣، واللفظ الذي ساقه المصنف لمسلم. وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم خيبر، أقبل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: فلان شهيد، فلان شهيد، حتى أتوا على رجل فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله ﷺ: «كلا إني رأيته في النار في بردة غلها، أو حياءه»، ثم قال رسول الله ﷺ: «الغيب فناد في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون». قال: فتأويت: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون. وكذا رواه مسلم، والترمذي، وقال: حديث صحيح.

رضوان الله، فلم يغفل، ﴿كَانَ بَاءٌ يَسْخَرُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ حين غل؟ ١؟ هذا قول سعيد بن جبير، والضحاك، والجمهور. والثاني: أن النبي ﷺ لما أمر المسلمين باتباعه يوم أحد، اتبعه المؤمنون، وتخلف جماعة من المنافقين، فأخبر الله بحال من تبعه، ومن تخلف عنه، هذا قول الزجاج.

﴿هُم دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصَوْرِكُمْ يَكْمُلُ﴾

قوله تعالى: ﴿هُم دَرَجَتٌ﴾ قال الزجاج: معناه: هم ذوو درجات. وفي معنى درجات قولان: أحدهما: أنها درجات الجنة، قاله الحسن. والثاني: أنها فضائلهم، فبعضهم أفضل من بعض، قاله الفراء، وابن قتبية. وفيمن غنى بهذا الكلام قولان: أحدهما: أنهم الذين اتبعوا رضوان الله، والذين باؤوا بسخط من الله، فلمن اتبع رضوان الله الثواب، ولمن باء بسخطه العذاب، هذا قول ابن عباس. والثاني: أنهم الذين اتبعوا رضوان الله فقط، فإنهم يتفاوتون في المنازل، هذا قول سعيد بن جبير، وأبي صالح، ومقاتل.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرَزَّاهُمْ وَبَيَّنَّ لَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْسَ ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أنعم عليهم. و«أنفسهم»: جماعتهم، وقيل: نسبهم. وقرأ الضحاك، وأبو الجوزاء: ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ بفتح الفاء. وفي وجه الامتنان عليهم بكونه من أنفسهم أربعة أقوال. أحدها: لكونه معروف النسب فيهم، قاله ابن عباس، وقتادة. والثاني: لكونهم قد خبروا أمره، وعلموا صدقه، قاله الزجاج. والثالث: ليسهل عليهم التعلم منه، لموافقة لسانه للسانهم، قاله أبو سليمان الدمشقي. والرابع: لأن شرفهم يتم بظهور نبي منهم، قاله الماوردي. وهل هذه الآية خاصة أم عامة؟ فيه قولان: أحدهما: أنها خاصة للعرب، روي عن عائشة^(١) والجمهور. والثاني: أنها عامة لسائر المؤمنين، فيكون المعنى أنه ليس بملك، ولا من غير بني آدم، وهذا اختيار الزجاج. وقد سبق في [البقرة] بيان باقي الآية^(٢).

﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مَعْصِيَةَ قَوْمٍ هَذَا قَوْلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مَعْصِيَةَ قَوْمٍ﴾ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لما كان يوم أحد، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر، من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب النبي ﷺ، وكسرت ربايعته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فنزلت هذه الآية [إلى قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ قال: بأخذكم الفداء]^(٣).

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَّا﴾ قال الزجاج: هذه واو النسق، دخلت عليها ألف الاستفهام، فبقيت مفتوحة على هبتها قبل دخولها، ومثل ذلك قول القائل: تكلم فلان بكذا وكذا فيقول المجيب له: أو هو ممن يقول ذلك؟ فأما «المعصية» فما أصابهم يوم أحد، وكانوا قد أصابوا مثليها من المشركين يوم بدر، لأنهم قتل منهم سبعون، فقتلوا يوم بدر سبعين، وأسروا سبعين، وهذا قول ابن عباس، والضحاك، وقتادة، والجماعة، إلا أن الزجاج قال: قد أصبتم يوم أحد مثلاً، ويوم بدر مثلاً، فجعل المثلين في اليومين.

قوله تعالى: ﴿أَنَّ هَذَا﴾ قال ابن عباس: من أين أصابنا هذا ونحن مسلمون.

(١) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» ومعنى قول عائشة هذا: أن هذا الامتنان خاص بالعرب المسلمين، لأنهم يفقهون عنه، ويفهمون كلامه، ولا يحتاجون إلى ترجمان، وليس كذلك الأعاجم.

(٢) قال أبو جعفر الطبري في تفسير الآية: يعني بذلك: لقد تلو الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً، حين أرسل فيهم رسولاً: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ نبياً من أهل لسانهم، ولم يجعله من غير أهل لسانهم فلا يفقهون عنه ما يقول: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ يقول: يقرأ عليهم أي كتابه وتنزيله، ﴿وَرَزَّاهُمْ﴾، يعني: يظهرهم من قلوبهم باتباعهم إياه، وطاعتهم له فيما أمرهم ونهاهم، ﴿وَبَيَّنَّ لَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، يعني: يعلمهم كتاب الله الذي أنزله عليه، ويبين تأويله ومعانيه، والحكمة: يعني بالحكمة، السنة التي سنّها الله جل ثناؤه للمؤمنين على لسان رسول الله ﷺ وبيانه لهم، ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَيْسَ بِمَثَلٍ هُدًى﴾ يعني: وإن كانوا قبل أن يمن الله عليهم بإرساله رسول الذي هذه صفته، لقي ضلالاً مبيناً، يقول في جهالة جهلاء، وفي حيرة من الهدى عمياء، لا يعرفون حقاً، ولا يطلون باطلاً.

(٣) رواه ابن أبي حاتم، وما بين معقنين منه، وزواه الإمام أحمد في «المسند» رقم ٢٠٨ بأطول وإسناده حسن.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: بأخذكم الغداء يوم بدر، قاله عمر بن الخطاب. وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: إن الله قد كره ما صنع قومك من أخذهم الغداء، وقد أمرك أن تخيرهم بين أن يضربوا أعناق الأسارى، وبين أن يأخذوا الغداء على أن يقتل منهم عدتهم، فذكر ذلك للناس، فقالوا: عاشرتنا وإخواننا، بل نأخذ منهم الغداء، ويستشهد منا عدتهم، فقتل منهم يوم أحد سبعون عدد أسارى بدر^(١) فعلى هذا يكون المعنى: قل هو بأخذكم الغداء، واختياركم القتل لأنفسكم. والثاني: أنه جرى ذلك بمعضية الرماة يوم أحد، وتركهم أمر رسول الله ﷺ، قاله ابن عباس، ومقاتل في آخرين. والثالث: أنه بمخالفتهم الرسول في الخروج من المدينة يوم أحد، فإنه أمرهم بالتحصن فيها، فقالوا: بل نخرج، قاله قتادة، والربيع. قال مقاتل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَهَّابٌ﴾ من النصر والهزيمة ﴿فَوَيْبٌ﴾.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنِيزِ لَئِمَّانَ فَيَاذَنَ اللَّهِ وَلَيْعَلَّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولَيْعَلَّ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَقَالُوا قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأْتَيْنَهُمْ هُمْ يَكْفُرُونَ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنِيزِ لَئِمَّانَ﴾ الجمعان: النبي وأصحابه، وأبو سفيان وأصحابه، وذلك في يوم أحد، وقد سبق ذكر ما أصابهم.

قوله تعالى: ﴿فَيَاذَنَ اللَّهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أمره، والثاني: قضاؤه، روي عن ابن عباس، والثالث: علمه، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْعَلَّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليظهر إيمان المؤمنين بشوئهم على ما نالهم، ويظهر نفاق المؤمنين بفشلهم وقلة صبرهم. قال ابن قتيبة: والنفاق مأخوذ من نفاقاء اليربوع، وهو جحر من جحرته يخرج منه إذا أخذ عليه الجحر الذي دخل فيه. قال الزبائدي عن الأصمعي: ولليربوع أربعة أوجه، النفاق: وهو الذي يخرج منه كثيراً، ويدخل منه كثيراً. والقاصعاء، سمي بذلك لأنه يخرج تراب الجحر، ثم يقصع ببعضه كأنه يسد به فم الجحر، ومنه يقال: جرح فلان قد قصع بالدم: إذا امتلأ ولم يسل. والدائم، سمي بذلك، لأنه يخرج التراب من فم الجحر، ثم يدم به فم الجحر، كأنه يطليه به، ومنه يقال: ادم قدرك بشحم، أي اطلها به. والزاهطاء، ولم يذكر اشتقاقه، وإنما يتخذ هذه الجحر عدداً، فإذا أخذ عليه بعضها، خرج من بعض. قال أبو زيد: فشب المنافق به، لأنه يدخل في الإسلام بلفظه، ويخرج منه بعقده، كما يدخل اليربوع من باب ويخرج من باب. قال ابن قتيبة. والنفاق: لفظ إسلامي لم تكن العرب تعرفه قبل الإسلام^(٢). قال ابن عباس: والمراد بالذين نافقوا عبد الله بن أبي، وأصحابه. قال موسى بن عقبة: خرج النبي ﷺ يوم أحد، ومعهم المسلمون، وهم ألف رجل، والمشركون ثلاثة آلاف، فرجع عنه ابن أبي في ثلاثمائة. فأما القتال، فمباشرة الحرب. وفي المراد بالدفع ثلاثة أقوال: أحدها: أنه التكثير بالعدد. رواه مجاهد عن ابن عباس وهو قول الحسن، وعكرمة، والضحاك، والسدي، وابن جريج في آخرين. والثاني: أن معناه: ادفعوا عن أنفسكم وحریمكم، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وهو قول مقاتل. والثالث: أنه بمعنى القتال أيضاً. قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: لو نعلم أن اليوم يجري قتال ما أسلمناكم، ذكره ابن إسحاق. والثاني: لو كنا نحسن القتال لاتبعناكم. والثالث: إنما معناه: أن هناك قتلاً وليس بقتال، ذكرهما الماوردي.

قوله تعالى: ﴿هُمُ لِلْكَفَرِ﴾ أي: إلى الكفر ﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي: إلى الإيمان، وإنما قال: يومئذ، لأنهم فيما قبل لم يظهروا مثل ما أظهروا، فكانوا بظاهر حالهم فيما قبل أقرب إلى الإيمان.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فيه وجهان ذكرهما الماوردي: أحدهما: ينطقون بالإيمان،

(١) ذكره ابن كثير ٣٢٦/٢، وقال: رواه الترمذي، والنسائي، وابن حبان في «صحيحه» من حديث الثوري به، وهذا حديث غريب جداً. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٩٣/٢، وعزا إلى ابن أبي شيبة، والترمذي، وابن جرير، وابن مردويه، ونقل تحسine عن الترمذي.

(٢) في «اللسان» وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو الذي يستر كفره، ويظهر إيمانه، وإن كان أصله في اللغة معروفاً.

وليس في قلوبهم إلا الكفر. والثاني: يقولون: نحن أنصار، وهم أعداء. وذكر في الذي يكتمون وجهين: أحدهما: أنه النفاق. والثاني: العداوة.

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ قال ابن عباس: نزلت في عبد الله بن أبي. وفي إخوانهم قولان: أحدهما: أنهم إخوانهم في النفاق، قاله ابن عباس. والثاني: إخوانهم في النسب، قاله مقاتل. فعلى الأول يكون المعنى: قالوا لإخوانهم المنافقين: لو أطاعونا الذين قتلوا مع محمد ما قتلوا، وعلى الثاني يكون المعنى: قالوا عن إخوانهم الذين استشهدوا بأحد: لو أطاعونا ما قتلوا.

قوله تعالى: ﴿وَقَعَدُوا﴾ يعني القائلين قعدوا عن الجهاد.

قوله تعالى: ﴿فَادْرَءُوا﴾ أي: فادفعوا ﴿عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن الحذر ينفع مع القدر.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ قرأ ابن عامر: قتلوا بالتشديد. واختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في شهداء أحد، روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتاكل من ثمارها، وتأري إلى قتاديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم، وحسن مقيلمهم، قالوا: ليت إخواننا يعلمون بما صنع الله لنا، لئلا يزهدوا في الجهاد [ولا ينكلوا^(١)] عن الحرب» قال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية^(٢). وهذا قول سعيد بن جبير، وأبي الضحى. والثاني: أنها نزلت في شهداء بدر لما أفضوا إلى كرامة الله تعالى وقالوا: ربنا أعلم إخواننا، فنزلت هذه الآية والتي بعدها، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهو قول مقاتل. والثالث: أنها نزلت في شهداء بئر معونة. روى محمد بن إسحاق عن أشياخ له، أن النبي ﷺ بعث المنذر بن عمرو في سبعين رجلاً من خيار المسلمين إلى أهل نجد، فلما نزلوا بئر معونة، خرج حرام بن ملحان إلى عامر بن الطفيل بكتاب رسول الله ﷺ، فلم ينظر فيه عامر، وخرج رجل من كسر البيت برمح، فضرب به في جنب حرام حتى خرج من الشق الآخر، فقال: الله أكبر، فزت ورب الكعبة، وقتل سائر أصحابه غير واحد منهم، قال أنس بن مالك: فأنزل الله تعالى فيهم: «بلغوا قومنا عنا أنا قد لقينا ربنا، فرضي عنا ورضينا عنه» ثم رفعت، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾^(٣). فهذا اختلاف الناس فيمن نزلت، واختلفوا في سبب نزولها على ثلاثة أقوال: أحدها: أن الشهداء بعد استشهدهم سألوا الله أن يخبر إخوانهم بمصيرهم، وقد ذكرناه عن ابن عباس. والثاني: أن رجلاً قال: يا ليتنا نعلم ما لقي إخواننا الذين استشهدوا، فنزلت، قاله مقاتل. والثالث: أن أولياء الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمة أو سرور، تحسروا، وقالوا: نحن

(١) نكل عن عدوه: جبن فنكص على عقبه، وانصرف عنه هية له وخوفاً.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المستدرك» رقم ٢٣٨٨، وأبو داود رقم ٢٣٨٩، والطبري ٢٨٥/٧، والحاكم ٢٩٧/٢ وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري ٣٩٣/٧ مطولاً وسنده حسن. ورواه الإمام أحمد ١٣٧/٣ و٢١٠ و٢٨٩ بأسانيد صحيحة، وليس فيه: «فنزلت هذه الآية» ولفظه عن أنس: أن رسول الله ﷺ لما بعث حراماً أخاه أم سليم في سبعين رجلاً، فقتلوا يوم بئر معونة، وكان رئيس المشركين يومئذ عامر بن الطفيل، وكان هو أذى النبي ﷺ فقال: اختر مني ثلاث خصال يكون لك أهل السهل، ويكون لي أهل الوبر، أو أكون خليفة من بعدك، أو أغزوك بغطفان ألف أشقر، وألف شقر، قال: فطعن في بيت امرأة من بيت فلان، فقال: غدة كغدة البعير في بيت امرأة من بني فلان، انتوني بفرسي، فأتي به، فركبه، فمات وهو على ظهره. فانتقلت حرام أخو أم سليم ورجلان معه، رجل من بني أمية، ورجل أعرج، فقال لهم: كونوا قريباً مني حتى آتيهم، فإن آمنوني وإلا كنتم قريباً، فإن قتلوني، أعلمتم أصحابكم. قال: فأتاهم حرام، فقال: أتومنونني، أبلغكم رسالة رسول الله ﷺ إليكم؟ قالوا: نعم. فجعل يحدثهم، وأومؤوا إلى رجل منهم من خلفه، فطعنته حتى أفضه بالرمح، قال: الله أكبر، فزت ورب الكعبة، قال: ثم قتلهم كلهم غير الأعرج، كان في رأس جبل، قال أنس: فأنزل علينا وكان مما يقرأ فنسخ «أن بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا، فرضي عنا وأرضانا» قال: فدعا النبي ﷺ عليهم أربعين صباحاً، على رعل وذكوان وبني لحيان وعصية الذين عصوا الله ورسوله. ورواه البخاري ٢٩٧/٧، وانظر تفصيل القصة في «البداية والنهاية» ٧١/٤ - ٧٤.

في النعمة والسرور، وآبائنا وأبنائنا وإخواننا في القبور، فنزلت هذه الآية، ذكره علي بن أحمد النيسابوري. فاما التفسير، فمعنى الآية: لا تحسبهم أمواتاً كالأموات الذين لم يقتلوا في سبيل الله، وقد بينا هذا المعنى في (البقرة) وذكرنا أن معنى حياتهم: أن أرواحهم في حواصل طير تأكل من ثمار الجنة، وتشرب من أنهارها^(١). قال مجاهد: يرزقون من ثمر الجنة.

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاسْتَشِيرُوا الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ﴾ قال ابن قتيبة: الفرح: المسرة، فاما الذي آتاهم الله، فما نالوا من كرامة الله ورزقه، والاستشارة: السرور بالبشارة، ﴿يَالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ إخوانهم من المسلمين. وفي سبب استشارهم بهم ثلاثة أقوال: أحدها: أن الله تعالى لما أخبر بكرامة الشهداء، أخبر الشهداء بأنني قد أنزلت على نبيكم، وأخبرته بأمركم، فاستبشروا، وعلموا أن إخوانهم سيحرسون على الشهادة، قاله سعيد بن جبير. والثاني: يستشرون بإخوانهم الذين يرجون لهم الشهادة، يقولون: إن قتلوا نالوا ما نلنا من الفضل، قاله قتادة. والثالث: أن الشهيد يؤتى بكتاب فيه ذكر من تقدم عليه من إخوانه وأهله، وفيه يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا، فيستبشر بقدمه، كما يستبشر أهل الغائب به، هذا قول السدي. والهاء والميم في قوله تعالى: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ تعود إلى الذين لم يلحقوا بهم. قال الفراء: معناه: يستبشرون لهم بأنهم لا خوف عليهم، ولا حزن. وفي ماذا يرتفع «الخوف» و«الحزن» عنهم؟ فيه قولان: أحدهما: لا خوف عليهم فيمن خلفوه من ذريتهم، ولا يحزنون على ما خلفوا من أموالهم. والثاني: لا خوف عليهم فيما يقدمون عليه، ولا يحزنون على مفارقة الدنيا فرحاً بالآخرة.

﴿يَسْتَشِيرُونَ يَتَمَعَّرُونَ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْتَشِيرُونَ يَتَمَعَّرُونَ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ قال مقاتل: برحمة ورزق.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ قرأ الجمهور بالفتح على معنى: ويستبشرون بأن الله، وقرأ الكسائي بالكسر على

الاستئناف.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن المشركين لما انصرفوا يوم أحد، نذب النبي ﷺ أصحابه لاتباعهم، ثم خرج بمن انتدب معه، فلقي أبو سفيان قوماً، فقال: إن لقيتم محمداً، فأخبروه أنني في جمع كثير، فلقبهم النبي ﷺ فسألهم عنه؟ فقالوا: لقيناه في جمع كثير، ونراك في قلة، فأبى إلا أن يطلبه، فسبقه أبو سفيان، فدخل مكة، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس^(٢)، والثاني: أن أبا سفيان لما أراد الانصراف عن أحد، قال: يا محمد، موعد بيننا وبينك موسم بدر، فلما كان العام المقبل، وخرج أبو سفيان، ثم ألقى الله في قلبه الرعب، فبدا له الرجوع، فلقي نعيم بن مسعود^(٣)، فقال: إني قد وعدت محمداً وأصحابه أن نلتقي بموسم بدر الصغرى، وهذا عام جدد، لا يصلح لنا، فنبطهم عنا، وأعلمهم أننا في جمع كثير، فلقبهم فخوفهم، فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، وخرج النبي ﷺ بأصحابه، حتى أقاموا ببدر ينتظرون أبا سفيان، فنزل قوله تعالى:

(١) روى الإمام مسلم في «صحيحه» عن مسروق قال: إنا سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْيَاهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأتي إلى تلك القناديل». وقال الحافظ ابن كثير في «التفسير»: ٤٢٦/١: وقد روينا في «مسند الإمام أحمد» حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح [وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً] أيضاً فيها، وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعد الله لها من الكرامة! وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة، أصحاب المذاهب المتبعة، فإن الإمام أحمد رواه عن محمد بن إدريس الشافعي، عن مالك بن أنس الأصبحي، عن الزهري عن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نسمة المؤمن طائر يلقى في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يمشه».

(٢) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ص ٧٥ بإسناده إلى عمرو بن دينار.

(٣) في رواية ابن إسحاق أن الرسول بذلك كان معبداً الخزاعي، وقال الحافظ ابن حجر: ويقال: إن الرسول بذلك كان نعيم بن مسعود الأشجعي.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآيات. وهذا المعنى مروى عن مجاهد، وعكرمة^(١). والاستجابة: الإجابة. وأنشدوا:

فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ^(٢)

أي: فلم يجبه. وفي مراد النبي ﷺ وخروجه وندب الناس للخروج ثلاثة أقوال: أحدها: ليرهب العدو باتباعهم. والثاني: لموعد أبي سفيان. والثالث: لأنه بلغه عن القوم أنهم قالوا: أصبتم شوكتهم، ثم تركتموهم. وقد سبق الكلام في القرح.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾ أي: أحسنوا بطاعة الرسول، واتقوا مخالفته.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ في المراد بالناس ثلاثة أقوال. أحدها: أنهم ركب لقيهم أبو سفيان، فضمن لهم ضماناً لتخويف النبي ﷺ وأصحابه، قاله ابن عباس، وابن إسحاق. والثاني: أنه نعيم بن مسعود الأشجعي، قاله مجاهد، وعكرمة، ومقاتل في آخرين. والثالث: أنهم المنافقون، لما رأوا النبي ﷺ يتجهز، نهوا المسلمين عن الخروج، وقالوا: إن أتيتهم في ديارهم، لم يرجع منكم أحد، هذا قول السدي. قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه.

قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ قال الزجاج: زادهم ذلك التخويف ثبوتاً في دينهم، وإقامة على نصرته نبهم، وقالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾^(٣) أي: هو الذي يكفيننا أمرهم. فأما «الوكيل»، فقال الفراء: الوكيل: الكافي، واختاره ابن القاسم. وقال ابن قتبية: هو الكفيل، قال: ووكيل الرجل في ماله: هو الذي كفله له، وقام به. وقال الخطابي: الوكيل: الكفيل بأرزاق العباد ومصالحهم، وحقيقته: أنه الذي يستقل بالأمر الموكل إليه. وحكى ابن الأنباري أن قوماً قالوا: الوكيل: الرب.

﴿فَاتَّقَلَّبُوا فِي نِجْمٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضِّلْ لَمْ يَمَسَّ سَمُومٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقَلَّبُوا فِي نِجْمٍ مِنْ اللَّهِ﴾ الانقلاب: الرجوع. وفي النعمة، ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الأجر، قاله مجاهد. والثاني: العافية، قاله السدي. والثالث: الإيمان والنصر، قاله الزجاج. وفي الفضل، ثلاثة أقوال: أحدها: ربح التجارة، قاله مجاهد، والسدي، وهذا قول من يرى أنهم خرجوا لموعد أبي سفيان. قال الزهري: لما استنفر النبي ﷺ المسلمين لموعد أبي سفيان بدر، خرجوا ببضائع لهم، وقالوا: إن لقينا أبا سفيان، فهو الذي خرجنا إليه، وإن لم نلقه ابتعنا ببضائعنا، وكانت بدر متجراً يوافي كل عام، فانطلقوا ففقدوا حوائجهم، وأخلف أبو سفيان الموعود. والثاني: أنهم أصابوا سرية بالصفراء، فرزقوا منها، قاله مقاتل. والثالث: أنه الثواب، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَمَسَّ سَمُومٌ﴾ قال ابن عباس: لم يؤذهم أحد. ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ في طلب القوم. ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ﴾ أي: ذو من يدفع المشركين عن المؤمنين.

(١) جاء في «الدر المتثور» ١٠١/٢: وأخرج النسائي، وابن أبي حاتم، والطبراني بسند صحيح من طريق عكرمة عن ابن عباس، قال: لما رجع المشركون عن أحد، قالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردقم، بشما صنعتهم، أرجعوا، فسمع رسول الله ﷺ بذلك، فندب المسلمين. فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد، أو بئر أبي عتبة - شك سفيان - فقال المشركون: نرجع قابل، فرجع رسول الله ﷺ فكانت تعد غزوة، فأنزل الله ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية. وقد كان أبو سفيان قال للنبي ﷺ: موعدكم موسم بدر حيث قتلتم أصحابنا، فأما الجبان فرجع، وأما الشجاع فأخذ أهبة القتال والتجارة، فأتوه فلم يجدوا به أحداً وتسوقوا، فأنزل الله تعالى: ﴿فَاتَّقَلَّبُوا فِي نِجْمٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضِّلْ﴾ الآية.

(٢) صدر البيت:

وداع دها يا من يُجيب إلى السُّلَى

والبيت لكعب بن سعد الغنوي، وهو من قصيدة أصمعية جيلة، يرثي بها أخاه أبا المغوار، قال الأصمعي: ليس في الدنيا مثلاً.

(٣) روى البخاري ج ٨/ ١٧٢ عن ابن عباس: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم عليه السلام حين أقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. وروى الإمام أحمد في «المسند» ٢٤/٦ بسند حسن عن عوف بن مالك أن النبي ﷺ قضى بين رجلين، فقال المفضي عليه لما أدير: حسبي الله ونعم الوكيل. فقال النبي ﷺ: «ودعا علي الرجل، فقال: ما قلت؟» قال: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل. فقال النبي ﷺ: «إن الله يلوم على المعجز، ولكن عليك بالكيس، فلما غلبك أمر قل: حسبي الله ونعم الوكيل». وكذا رواه أبو داود والنسائي بنحوه.

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ قال الزجاج: معناه: ذلك التخويف كان فعل الشيطان، سؤله للمخوفين. وفي قوله تعالى: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ قولان: أحدهما: أن معناه: يخوفكم بأوليائه، قاله الفراء، واستدل بقوله تعالى: ﴿يُنْذِرُ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ [الكهف: ٤٤]. أي: ببأس، ويقول تعالى: ﴿يُنْذِرُ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥]، أي: بيوم التلاق. وقال الزجاج: معناه: يخوفكم من أوليائه، بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي﴾. وهذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وإبراهيم، وابن قتيبة. وأنشد ابن الأنباري في ذلك:

وَأَيَقِنْتُ التَّفَرُّقَ يَوْمَ قَالُوا تُقَسِّمَ مَالِ أُرَيْدَ بِالسَّهَامِ^(١)

أراد: أيقنت بالتفرق. قال: فلما أسقط الباء أعمل الفعل فيما بعدها ونصبه. قال: والذي نختاره في الآية أن المعنى: يخوفكم أوليائه. تقول العرب: قد أعطيت الأموال، يريدون: أعطيت القوم الأموال، فيحذفون القوم، ويقتصرون على ذكر المفعول الثاني. فهذا أشبه من ادعاء «باء» ما عليها دليل، ولا تدعو إليها ضرورة. والثاني: أن معناه: يخوف أوليائه المنافقين، ليقعدوا عن قتال المشركين، قاله الحسن والسدي، وذكره الزجاج.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ يعني: أولياء الشيطان ﴿وَكَافُونَ﴾ في ترك أمري. وفي «إن» قولان: أحدهما: أنها بمعنى: «إذا» قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أنها للشرط، وهو قول الزجاج في آخرين.

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يُضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَقًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ قرأ نافع «يُحْزِنُكَ» «يُحْزِنُنِي» و«يُحْزِنُ» بضم الياء وكسر الزاي في جميع القرآن، إلا في (الأنبياء) ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، فإنه فتح الياء، وضم الزاي. وقرأ الباقون كل ما في القرآن بفتح الياء وضم الزاي. قال أبو علي: يشبه أن يكون نافع تبع في سورة (الأنبياء) أثراً، أو أحب أن يأخذ بالوجهين. وفي الذين يسارعون في الكفر أربعة أقوال: أحدها: أنهم المنافقون، ورؤساء اليهود، قاله ابن عباس. والثاني: المنافقون، قاله مجاهد. والثالث: كفار قريش، قاله الضحاك. والرابع: قوم ارتدوا عن الإسلام، ذكره الماوردي. وقيل: معنى مسارعهم في الكفر: مظاهرتهم للكفار، ونصرهم إياهم. فإن قيل: كيف لا يحزنه المسارعة في الكفر؟ فالجواب: لا يحزنك فعلهم، فإنك منصور عليهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ فيه قولان: أحدهما: لن: ينقصوا الله شيئاً بكفرهم، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: لن يضرروا أولياء الله شيئاً، قاله عطاء. قال ابن عباس: والحظ: النصيب، والآخرة: الجنة. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في النار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ قال مجاهد: المنافقون آمنوا ثم كفروا، وقد سبق في (البقرة) معنى الاشتراء.

﴿وَلَا يَحْزَنُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُكِّلَ لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُكِّلَ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِسْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُكِّلَ لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ﴾ اختلِفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال. أحدها: في اليهود والنصارى والمنافقين، قاله ابن عباس. والثاني: في قريظة والنضير، قاله عطاء. والثالث: في مشركي مكة، قاله مقاتل. والرابع: في كل كافر، قاله أبو سليمان الدمشقي^(٢). وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، ﴿وَلَا يَحْزَنُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ﴿وَلَا يَحْزَنُ الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، ﴿وَلَا يَحْزَنُ الَّذِينَ يَقْرَحُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٨] بالياء وكسر

(١) البيت للبيد بن ربيعة، من قصيدة يرثي بها أخاه أريد، ذكر بعضها صاحب «الأغاني» ١٥/١٣٣.

(٢) أخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: ما من نفس برة، ولا فاجرة، إلا والموت خير لها من الحياة. إن كان برّاً، فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْكَافِرِ﴾ وإن كان فاجراً، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُكِّلَ لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُكِّلَ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِسْمًا﴾ وإسناده صحيح.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في الذين يبخلون أن يودوا زكاة أموالهم، وهو قول ابن مسعود وأبي هريرة، وابن عباس في رواية أبي صالح، والشعبي، ومجاهد، وفي رواية السدي في آخرين. والثاني: أنها في الأبحار الذين كتموا صفة النبي ﷺ، ونبوته، رواه عطية عن ابن عباس، وابن جريج عن مجاهد، واختاره الزجاج. قال الفراء: ومعنى الكلام: لا يحسن الباخلون البخل هو خيراً لهم، فاكفى بذكر «يبخلون» من البخل، كما تقول: قدم فلان، فسررت به، أي: سررت بقدمه. قال الشاعر:

إِذَا نُهِيَ السَّفِيهُ جَرَى إِلَيْهِ
وَخَالَفَ وَالسَّفِيهِ إِلَى خِلَافٍ^(١)

يريد: جرى إلى السفه. والذي آتاهم الله على قول من قال: البخل بالزكاة: هو المال، وعلى قول من قال: البخل بذكر صفة النبي ﷺ هو العلم.

قوله تعالى: ﴿مَنْ﴾ إشارة إلى البخل وليس مذكوراً، ولكنه مدلول عليه بـ«يبخلون» وفي معنى تطويقهم به أربعة أقوال: أحدها: أنه يجعل كالحية يطوق بها الإنسان، روى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا مثّل له يوم القيامة شجاع أقرع يفر منه، وهو يتبعه حتى يطوق في عنقه» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿سَيَطَوَّؤُنَّ مَنَا بِحُلُومِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٢). وهذا مذهب ابن مسعود، ومقاتل. والثاني: أنه يجعل طوقاً من نار، رواه منصور عن مجاهد، وإبراهيم. والثالث: أن معنى تطويقهم به: تكليفهم أن يأتوا به، رواه ابن أبي نجیح، عن مجاهد. والرابع: أن معناه: يلزم أعناقهم إثم، قاله ابن قتية.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَبْرِئُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يموت أهل السموات وأهل الأرض، ويبقى رب العالمين. قال الزجاج: خوطب القوم بما يعقلون، لأنهم يجعلون ما رجع إلى الإنسان ميراثاً إذا كان ملكاً له، وقال ابن الأنباري: معنى الميراث: انفراد الرجل بما كان لا يتفرد به، فلما مات الخلق، وانفرد عز وجل، صار ذلك له وراثته.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «يعملون» بالياء إتياعاً لقوله تعالى: ﴿سَيَطَوَّؤُنَّ﴾ وقرأ الباقون بالتاء، لأن قبله ﴿وَلَنْ تَرْضَوْا وَتَنْتَوُوا﴾.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَعِيرٌ وَنَحْنُ أَفْنِيَاءُ سَتَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَلْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُونِ عَذَابِ الْخَوِيعِ﴾^(٣)

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَعِيرٌ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه دخل بيت مدراس اليهود، فوجدهم قد اجتمعوا على رجل منهم، اسمه فنحاص، فقال له أبو بكر: اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله. فقال: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، ولو كان غنياً عظم ما استقرض منا. فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والله لولا العهد الذي بيننا لضربت عنقك. فذهب فنحاص يشكو إلى النبي ﷺ، وأخبره أبو بكر بما قال، فوجد فنحاص، فنزلت هذه الآية، ونزل فيما بلغ من أبي بكر من الغضب ﴿وَلَقَدْ مَكُرْنَا مِنَ الَّذِينَ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا فَذَكَرُوا آيَاتِنَا﴾^(٤)

(١) أنشد الفراء في معاني القرآن ٢٤٨/١، وتعلب في «مجالسه» ٦٠/١، و«أمالي الشجري» ٦٨/١، والبغداد في «الخراتمة» ٢٨٣/٢، ولم ينسوه إلى قائل. وقوله: إذا نهى، متعلق النهي عام محذوف، أي: من أي شيء كان. وقوله: وخالف: مفعوله محذوف: أي: خالف زاجره. وقوله: والسفيه إلى خلاف: جملة تنذرية، أي: شأن السفيه الميل إلى مخالفة الناصح.

(٢) أخرجه أحمد في «المستدرج» رقم ٣٥٧٧، والترمذي، وابن خزيمة، وابن ماجه ٥٦٧/١، ولفظه: «ما من أحد لا يؤدي زكاة ماله، إلا مثّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع حتى يطوق عنقه»، ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الآية. وقال الترمذي: حسن صحيح. وروى البخاري ج ٢٧٣/٨، ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالا فلم يؤدي زكاته، مثل له ماله شجاعاً أقرع له زبيبان، يطوقه يوم القيامة، يأخذ بلهزمتيه - يعني شديقه - يقول: أنا مالك، أنا كنزك»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إلى آخر الآية. الشجاع: الحية الذكر، وهو ضرب من الحيات خبيث مارد. وأقرع: صفة من صفات الحياة الخبيثة، يزعمون أنه إذا طال عمر الحية، وكثر سمه، جمعه في رأسه حتى تتمتع منه فروة رأسه.

عمران: ١٨٦] هذا قول ابن عباس^(١) وإلى نحوه ذهب مجاهد، وعكرمة، والسدي، ومقاتل. والثاني: أنه لما نزل قوله ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالت اليهود: إنما يستقرض الفقير من الغني، فنزلت هذه الآية، هذا قول الحسن، ومقاتل. وفي الذين قالوا: إن الله فقير، أربعة أقوال: أحدها: أنه فحاص بن عازوراء اليهودي، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: حيي بن أخطب، قاله الحسن ومقاتل. والثالث: أن جماعة من اليهود قالوه. قال مجاهد: صلّ أبو بكر رجلاً من الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيْرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَا﴾ لم يستقرضنا وهو غني؟^(٢). والرابع: أنه النبّاش بن عمرو اليهودي، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ قرأ حمزة وحده: «سُكْتُبُ» بياء مضمومة و«قَتْلُهُم» بالرفع و«يقول» بالياء، وقرأ الباقون: «سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا» بالنون، و«قَتْلُهُم» بالنصب و«نقول» بالنون، وقرأ ابن مسعود و«يقال»، وقرأ الأعمش، وطلحة و«يقول». وفي معنى «سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا» قولان: أحدهما: سنحفظ عليهم ما قالوا، قاله ابن عباس. والثاني: سنأمر الحفظة بكتابته، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَقَتْلُهُمُ الْاَنْبِيَا﴾ أي: ونكتب ذلك. فإن قيل: هذا القائل لم يقتل نبياً قط، فالجواب أنه رضي بفعل متقدمه لذلك، كما بينا في قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيْنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾. قال الزجاج: ومعنى «عَذَابُ الْحَرِيْقِ» عذاب محرق، أي: عذاب بالنار، لأن العذاب قد يكون بغير النار.

﴿وَالَّذِي يَمَّا قَدَّمْتَ اَيْدِيَكُمْ وَاَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَضْلِيْكُمْ لِلْعَمِيْدِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي﴾ إشارة إلى العذاب، والذي قدمت أيديهم: الكفر والخطايا. ﴿وَالَّذِي قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ رِسُولًا حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ قل قد جاءكم رُسُلٌ مِن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ قَوْلًا فَتَكْفُرُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ قال ابن عباس: نزلت في كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وحيي بن أخطب، وجماعة من اليهود، أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: إن الله عهد إلينا، أي: أمرنا في التوراة: أن لا نؤمن لرسول، أي: لا نصدق رسولا يزعم أنه رسول، حتى يأتينا بقرآن تأكله النار^(٣). قال ابن قتبية: والقربان: ما تُقرب به إلى الله تعالى من ذبح وغيره. وإنما طلبوا القربان، لأنه كان من سنن الأنبياء المتقدمين، وكان نزول النار علامة القبول. قال ابن عباس: كان الرجل يتصدق، فإذا قبلت منه، نزلت نار من السماء، فأكلته، وكانت ناراً لها دوي، وحفيف. وقال عطاء: كان بنو إسرائيل يذبحون لله، فيأخذون أطياب اللحم، فيضعونها في وسط البيت تحت السماء، فيقوم النبي في البيت، ويناجي ربه، فتنزل نار، فتأخذ ذلك القربان، فيخر النبي ساجداً، فيوحى الله إليه ما يشاء. قال ابن عباس: قل يا محمد لليهود «قد جاءكم رُسُلٌ مِن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ» أي: بالآيات، «وَبِالَّذِي» سألتهم من القربان.

﴿إِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوْا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيْرِ﴾

قوله تعالى: ﴿إِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ معناه: لست بأول رسول كذب. قال أبو علي: وقرأ ابن عامر وحده «بالبينات وبالزبر» بزيادة باء، وكذلك في مصاحف أهل الشام، ووجهه أن إعادة الباء ضرب من التأكيد، ووجه قراءة الجمهور أن الواو قد أغنت عن تكرير العامل، تقول: مررت بزيد وعمرو، فتستغني عن تكرير الباء. وقال الزجاج: والزُّبر: جمع زبور، والزبور: كل كتاب ذي حكمة.

قوله تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيْرِ﴾ قال أبو سليمان: يعني به الكتب النيرة بالبراهين والحجج.

(١) أخرجه ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس، ورجال إسناده ثقات خلا محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت الأنصاري، فإنه مجهول ترد عن ابن إسحاق كما قال الحافظ في «التقريب» وقال الشيخ أحمد شاکر في «عمدة التفسير» ٨٢/٣: وإسناده جيد أو صحيح.

(٢) رواه عبد بن حميد، وابن جرير ٤٤٣/٧، وابن المنذر عن مجاهد. (٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص: ٧٧، عن الكلبي.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجْرُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَن دُخِيَ عَنِ الْكَافِرِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ قال ابن عباس: لما نزل قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ قالوا: يا رسول الله إنما نزل في بني آدم، فأين ذكر الموت في الجن، والطير، والأنعام، فنزلت هذه الآية. وفي ذكر الموت تهديد للمكذبين بالمصير، وتزهد في الدنيا، وتنبه على اغتنام الأجل.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجْرُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بشارة للمحسنين، وتهديد للمسيئين.

قوله تعالى: ﴿مَن دُخِيَ﴾ قال ابن قتيبة: سُجِّي وأبعد. ﴿فَقَدْ فَازَ﴾^(١) قال الزجاج: تأويل فاز: تباعد عن المكروه، ولقي ما يحب، يقال لمن نجا من هلكة، ولمن لقي ما يغتبط به: قد فاز.

قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ يريد أن العيش فيها يغر الإنسان بما يمتنيه من طول البقاء، وسيقطع عن قريب. قال سعيد بن جبير: هي متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة، فأما من يشتغل بطلب الآخرة، فهي له متاع بلاغ إلى ما هو خير منها.

﴿تَتَّبِعُونَ فِي أُمُورِكُمْ وَأَنْتُمْ وَلَسْتُمْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا وَلَئِنْ نَصَرُوا وَتَوَلَّوْا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَذَابِ الْأُمُورِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿تَتَّبِعُونَ فِي أُمُورِكُمْ وَأَنْتُمْ وَلَسْتُمْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا﴾ فيه عبد الله بن أبي، وعبد الله بن رواحة، فغشي المجلس عجاجة الدابة، فخرم ابن أبي أنه بردائه، وقال: لا تغبروا علينا، فنزل رسول الله ﷺ، ثم دعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال ابن أبي: إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقاً فلا تؤذنا في مجالسنا. وقال ابن رواحة: اغشنا به في مجالسنا يا رسول الله، فإننا نحب ذلك، فاستب المسلمون، والمشركون، واليهود، فنزلت هذه الآية، رواه عروة عن أسامة بن زيد^(٢). والثاني: أن المشركين واليهود كانوا يؤذون النبي ﷺ وأصحابه أشد الأذى، فنزلت هذه الآية، قاله كعب بن مالك الأنصاري^(٣). والثالث: أنها نزلت فيما جرى

(١) روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، اقروا إن شئتم: ﴿مَن دُخِيَ﴾ عَنِ الْكَافِرِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ» ورواه أحمد في «المستدرج»، والترمذي، والحاكم في «المستدرج» وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وروى الإمام أحمد في «المستدرج» رقم ٦٨٠٧، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتتركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، ويأتى إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه». ورواه الإمام مسلم بأطول منه.

(٢) أخرجه البخاري بأطول منه ج ١٧٣/٨، ولفظه: عن عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد رضي الله عنه أخبره أن رسول الله ﷺ ركب على حمار على قطيفة فدكية، وأردف أسامة بن زيد ورواه، يعود سعد بن عباد في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر. قال: حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبي أنه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا. فسلم رسول الله ﷺ عليهم ثم وقف، فنزل، فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن. فقال عبد الله بن أبي بن سلول: أيها المرء، إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه. فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله فاعشنا به في مجالسنا، فإننا نحب ذلك، فاستب المسلمين والمشركين واليهود، حتى كادوا يتثارون، فلم يزل النبي ﷺ يخففهم حتى سكنوا. ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عباد فقال له النبي ﷺ: «يا سعد، ألم تسمع ما قال أبو حباب - يريد عبد الله بن أبي - قال: كلا وكلا». قال سعد بن عباد: يا رسول الله، أعف عنه، واضمح عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب، لقد جاءه بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطاح أهل هذه البصرة على أن يتوجهوا، فيعصوه بالمصابق، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت. ففعا عنه النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ وأصحابه يفتنون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويمسرون عن الأذى. قال الله تعالى: ﴿وَلَسْتُمْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿وَرَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرَوْنَكُمْ بِأَنَّكُمْ تَبْدُونَ إِلَهُكُمْ بِمَا تَبَدَّلْتُمْ فِي الْأَلْبَانِ فَاصْبِرُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ وكان النبي ﷺ يتأول الغفو وما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا، فقتل الله به صناديد كفار قريش. قال ابن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه، فايما الرسول ﷺ على الإسلام فأسلموا. قوله: يتأورون، أي: يتأبون. والبحرة: رواية «البحيرة» هذا اللفظ يطلق على القرية وعلى البلد، والمراد به هنا: المدينة النبوية، ونقل ياقوت أن «البحيرة» من أسماء المدينة المنورة. شرق: غص، وهو كناية عن الحسد.

(٣) روى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، ولفظه: أنها نزلت في كعب بن الأشرف فيما كان يهجو به النبي ﷺ من الشمر.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْرَوْا بِهِ﴾ يعني: استبدلوا بما أخذ الله عليهم القيام به، ووعدهم عليه الجنة ﴿ثَبَّتًا قَلِيلًا﴾ أي: عرضاً يسيراً من الدنيا.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونَ أَنَّ يَحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾ وقرأ أهل الكوفة: «لا تحسبن» بالطاء. وفي سبب نزولها ثمانية أقوال: أحدها: أن النبي ﷺ، سأل اليهود عن شيء، فكتموه، وأخبروه بغيره، وأروه أنهم قد أخبروه به، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه، فنزلت هذه الآية. والثاني: أنها نزلت في قوم من اليهود، فرحوا بما يصيبون من الدنيا، وأحبوا أن يقول الناس: إنهم علماء، وهذا القول، والذي قبله عن ابن عباس. والثالث: أن اليهود قالوا: نحن على دين إبراهيم، وكتموا ذكر محمد ﷺ، فنزلت هذه الآية، قاله سعيد بن جبير^(١). والرابع: أن يهود المدينة كتبت إلى يهود العراق واليمن، ومن بلغهم كتابهم من اليهود في الأرض كلها: أن محمداً ليس بنبي، فاثبتوا على دينكم، فاجتمعت كلمتهم على الكفر به، وفرحوا بذلك، وقالوا: نحن أهل الصوم والصلاة، وأولياء الله، فنزلت هذه الآية، هذا قول الضحاك، والسدي. والخامس: أن يهود خيبر أتوا النبي ﷺ وأصحابه، فقالوا: نحن على رأيكم، ونحن لكم ردة، وهم مستمسكون بضلالتهم، فأرادوا أن يحمدهم نبي الله بما لم يفعلوا، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة. والسادس: أن ناساً من اليهود جهزوا جيشاً إلى النبي ﷺ، واتفقوا عليهم، فنزلت هذه الآية، قاله إبراهيم النخعي. والسابع: أن قوماً من أهل الكتاب دخلوا على النبي ﷺ، ثم خرجوا من عنده فذكروا للمسلمين أنهم قد أخبروا بأشياء قد عرفوها، فحمدوهم، وأبطنوا خلاف ما أظهروا، فنزلت هذه الآية، ذكره الزجاج. والثامن: أن رجلاً من المنافقين كانوا يتخلفون عن الغزو مع النبي ﷺ، فإذا قدم، اعتذروا إليه، وحلفوا، وأحبوا أن يحمداً بما لم يفعلوا، فنزلت هذه الآية، قاله أبو سعيد الخدري^(٢)، وهذا القول يدل على أنها نزلت في المنافقين، وما قبله من الأقوال يدل على أنها في اليهود. وفي الذي أتوا ثمانية أقوال: أحدها: أنه كتمانهم ما عرفوا من الحق. والثاني: تبديلهم التوراة. والثالث: إيثارهم الفاني من الدنيا على الثواب. والرابع: إضلالهم الناس. والخامس: اجتماعهم على تكذيب النبي. والسادس: نفاقهم بإظهار ما في قلوبهم ضده. والسابع: اتفاقهم على محاربة النبي ﷺ، وهذه أقوال من قال: هم اليهود. والثامن: تخلفهم في الغزوات، وهذا قول من قال: هم المنافقون. وفي قوله تعالى: ﴿وَيُجِبُونَ أَنَّ يَحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾^(٣) ستة أقوال: أحدها: أحبوا أن يحمداً على إجابة النبي ﷺ، عن شيء سألهم عنه وما أجابوه. والثاني: أحبوا أن يقول الناس: هم علماء، وليسوا كذلك. والثالث: أحبوا أن يحمداً بما لم يفعلوا من الصلاة، والصيام. وهذه الأقوال الثلاثة عن ابن عباس. والرابع: أحبوا أن يحمداً على قولهم: نحن على دين إبراهيم، وليسوا عليه، قاله سعيد بن

= استشهد به ابن كثير أخرجه أحمد وأبو داود، وابن ماجه، وأبو يعلى، والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، والبيهقي من حديث أبي هريرة به مرفوعاً، وهو عند الحاكم أيضاً وغيره عن ابن عمرو، وعند ابن ماجه عن أنس وأبي سعيد، وعند الطبراني من حديث ابن عباس وابن عمر وابن مسعود، وهو حديث صحيح.

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٢) رواه البخاري ج ٨/ ١٧٥، ومسلم، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان»، ولفظه عند البخاري: «عن أبي سعيد الخدري»، أن رجلاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو، وتخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ اعتلوا إليه، وحلفوا، وأحبوا أن يحمداً بما لم يفعلوا فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونَ أَنَّ يَحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾.

(٣) روى الإمام أحمد عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف: أن مروان قال: اذهب يا رافع - لبوابه - إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى، وأحب أن يحمداً بما لم يفعل معنياً، لنلعنن أجمعين؟ فقال ابن عباس: ما لكم وهذا؟ إنما نزلت هذه في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّ لِلنَّاسِ...﴾ الآية، وتلا ابن عباس: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونَ أَنَّ يَحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ وقال ابن عباس: سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه. وهكذا رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة، والحاكم، وابن مردويه.

جبير. والخامس: أحبوا أن يحمدا على قولهم: إنا راضون بما جاء به النبي، وليسوا كذلك، قاله قتادة. وهذه أقوال من قال: هم اليهود. والسادس: أنهم كانوا يحلفون للمسلمين إذ نصروا: إنا قد سررنا بنصركم، وليسوا كذلك، قاله أبو سعيد الخدري، وهو قول من قال: هم المنافقون.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «فلا يحسبهم»، بالياء وضم الباء. وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي: بالثاء، وفتح الباء. قال الزجاج: إنما كررت «تحسبهم» لطول القصة، والعرب تعيد إذا طالت القصة «حسبت» وما أشبهها، إعلماً أن الذي يجري متصل بالأول، وتوكيداً له، فتقول: لا تظننَّ زيداً إذا جاء وكلمك بكذا وكذا، فلا تظنَّه صادقاً.

قوله تعالى: ﴿يَمَّا نَزَّ﴾ قال ابن زيد، وابن قتيبة: بمنجاة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيه تكذيب القائلين: بأنه فقير. وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تهديد لهم، أي: لو شئت لعجلت عذابهم.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَافْتِرَاقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن قريشاً قالوا لليهود: ما الذي جاءكم به موسى؟ قالوا: عصاه ويده البيضاء. وقالوا للنصارى: ما الذي جاءكم به عيسى؟ قالوا: كان يبرئ الأكفم والأبرص، ويحيي الموتى. فأتوا النبي ﷺ، وقالوا: ادع ربك يجعل لنا الصفا ذهباً، فنزلت هذه الآية، رواه ابن جبير عن ابن عباس^(٢). والثاني: أن أهل مكة سألوه أن يأتيهم بآية، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ كُفْرُ الْإِلَهِ وَكَذَّبُوا﴾ [البقرة: ١٦٣]. قالت قريش: قد سوى بين آلهمنا، اثنتا بآية، فنزلت هذه الآية، قاله أبو الضحى، واسمه: مسلم بن ضبيح. فأما تفسير الآية فقد سبق.

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ هَيْمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ. وَتَتَنَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا تُسَبِّحُكَ فَقَتَا عَذَابَ النَّارِ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ هَيْمًا وَقُعُودًا﴾ في هذا الذكر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الذكر في الصلاة، يصلي قائماً، فإن لم يستطع، فقاعداً، فإن لم يستطع، فعلى جنب^(٣)، هذا قول علي، وابن مسعود، وابن عباس، وقتادة. والثاني: أنه الذكر في الصلاة وغيرها، وهو قول طائفة من المفسرين. والثالث: أنه الخوف، فالمعنى: يخافون الله قياماً في تصرفهم، وقعوداً في دعنهم، وعلى جنوبهم في منامهم.

قوله تعالى: ﴿وَتَتَنَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال ابن فارس: التفكر: تردد القلب في الشيء. قال ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكير، خير من قيام ليلة، والقلب ساه.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾ قال الزجاج: معناه: يقولون: ربنا ﴿مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا﴾، أي: خلقته دليلاً عليك، وعلى صدق ما أنت به أنبيأوك. ومعنى ﴿تُسَبِّحُكَ﴾: براءة لك من السوء، وتنزيهاً لك أن تكون خلقتكما باطلاً، ﴿فَقَتَا عَذَابَ النَّارِ﴾، فقد صدقنا أن لك جنة ونارا.

(١) ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر (آل عمران) إذا قام الليل للتهجد، فروى البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه عن ابن عباس، قال: بت عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة، ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد، فنظر إلى السماء، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَافْتِرَاقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ثم قام فتروأ واستن، فصلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى بالناس الصبح.

(٢) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، ورجاله ثقات إلا الحماني فإنه تكلم فيه. قال الحافظ: وقد خالفه الحسن بن موسى، فرواه عن يعقوب عن جعفر عن سعيد مرسلاً وهو أشبه، وعلى تقدير كونه محفوظاً وصله، ففيه إشكال من جهة أن هذه السورة مدنية، وقريش من أهل مكة، ويحتمل أن يكون سؤالهم لذلك بعد أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ولا سيما في زمن الهدنة.

(٣) جاء في «صحيح البخاري» عن عمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ قال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب».

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ﴾ قال الزجاج: المخزى في اللغة: المذل المحقور بأمرٍ قد لزمه، ويحجة. يقال: أخزيت، أي: ألزمته حجةً أدلته معها. وفيمن يتعلق به هذا الخزي قولان: أحدهما: أنه يتعلق بمن يدخلها مخلداً، قاله أنس بن مالك، وسعيد بن المسيب، وابن جبير، وقتادة، وابن جريج، ومقاتل. والثاني: أنه يتعلق بكل داخل إليها، وهذا المعنى مروى عن جابر بن عبد الله، واختاره ابن جرير الطبري، وأبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ قال ابن عباس: وما للمشركين من مانع يمنعهم عذاب الله تعالى. ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ في المتادي قولان: أحدهما: أنه النبي ﷺ، قاله ابن عباس، وابن جريج، وابن زيد، ومقاتل. والثاني: أنه القرآن، قاله محمد بن كعب القرظي، واختاره ابن جرير الطبري.

قوله تعالى: ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: ينادي إلى الإيمان، ومثله: ﴿الَّذِي هَدَيْنَا لِهَذَا﴾ [الأمراء: ٤٣]، ﴿بِأَنَّ رَّبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]، [يريد: هدانا إلى هذا، وأوحى إليها] قاله الفراء. والثاني: بأنه مقدم ومؤخر، والمعنى: سمعنا منادياً للإيمان ينادي، قاله أبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ قال مقاتل: امح عنا خطايانا. وقال غيره: غطها عنا، وقيل: إنما جمع بين غفران الذنوب، وتكفير السيئات، لأن الغفران بمجرد الفضل، والتكفير بفعل الخير ﴿وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي «الأبرار» و«الأشرار» وذات قرار» وما كان مثله بين الفتح والكسر، وقرأ ابن كثير، وعاصم بالفتح: ومعنى: ﴿مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ فيهم، قال ابن عباس: وهم الأنبياء والصالحون.

﴿رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا نَخْرُجُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْنَا﴾ قال ابن عباس: يعنون: الجنة ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي: على السنتهم. فإن قيل: ما وجه هذه المسألة والله لا يخلف الميعاد؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه خرج مخرج المسألة، ومعناه الخير، تقديره: فآمننا، فاغفر لنا لتوطيننا ما وعدتنا. والثاني: أنه سؤال له، أن يجعلهم ممن آتاه ما وعده، لا أنهم استحقوا ذلك، إذ لو كانوا قد قطعوا أنهم من الأبرار، لكانت تركية لأنفسهم. والثالث: أنه سؤال لتعجيل ما وعدهم من النصر على الأعداء، لأنه وعدهم نصراً غير مؤقت، فرغبوا في تعجيله، ذكر هذه الأجوبة ابن جرير، وقال: أولى الأقوال بالصواب، أن هذه صفة المهاجرين، رغبوا في تعجيل النصر على أعدائهم. فكانهم قال: لا صبر لنا على حلمك عن الأعداء، فعجل خزيهم، وظفرنا بهم.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَابِدٍ مِّنْكُمْ فَمَن ذَكَرَنِي أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَلَاحِقَ خَلْقٌ مِّنْكُمْ يَتَذَكَّرُ فَلَا أُجْحِقُ عَذَابَ خَلْقٍ مِّنْكُمْ بَلَىٰ ذَٰلِكُمْ أَتَىٰ عَمَلَ غَافِلِينَ ذَوُو أَلْبَاسٍ يُدْرِكُهُمُ الْعَذَابُ فَهُمْ لَهُمُ الْمَسَافِرُ وَالضُّلَّالُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ روي عن أم سلمة قالت: يا رسول الله، لا أسمع ذكر النساء في الهجرة بشيء؟! فنزلت هذه الآية^(١)، واستجاب: بمعنى أجاب. والمعنى: أجابهم بأن قال لهم: إني لا أضيع عمل عامل منكم، ذكراً كان أو أنثى. وفي معنى قوله تعالى: ﴿بِمَعْصُومٍ مِّنْ بَعْضٍ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: بعضكم من بعض في الدين، والنصرة والمواولة. والثاني: حكم جميعكم في الثواب واحد، لأن الذكور من الإناث، والإناث من الذكور. والثالث: كلكم من آدم وحواء.

قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ أي: تركوا الأوطان والأهل والعشائر ﴿وَأَخْرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ يعني: المؤمنين الذين

(١) روى ابن جرير الطبري ١٩٥/٧، والحاكم في «المستدرک» ٣٠٠/٢، وقال: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجناه، ووافقه الذهبي.

أخرجوا من مكة بأذى المشركين، فهاجروا، ﴿وَقَاتِلُوا﴾ المشركين ﴿وَقَاتِلُوا﴾. قرأ ابن كثير، وابن عامر: «وقاتلوا وقتلوا» مشددة التاء. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وعاصم: ﴿وَقَاتِلُوا وَقَاتِلُوا﴾ خفيفة. وقرأ حمزة، والكسائي: «وقتلوا وقاتلوا». قال أبو علي: تقديم «قتلوا» جائز، لأن المعطوف بالواو يجوز أن يكون أولاً في المعنى، مؤخراً في اللفظ. قوله تعالى: ﴿تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ قال الزجاج: هو مصدر مؤكد لما قبله، لأن معنى ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾: «لا تهنوا» لاثنين^(١).

﴿لَا يَرْفَعُ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْيَلْدِ﴾ مَنَعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَيَقْسُ إِلَهُاءُ ﴿١٩٧﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَرْفَعُ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْيَلْدِ﴾ ﴿١٩٧﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في اليهود، ثم في ذلك قولان: أحدهما: أن اليهود كانوا يضربون في الأرض، فيصيبون الأموال، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. والثاني: أن النبي ﷺ، أراد أن يستسلف من بعضهم شعيراً، فأبى إلا على رهن، فقال النبي ﷺ: «لو أعطاني لأوفيته، إني لأمين في السماء أمين في الأرض». فنزلت، ذكره أبو سليمان الدمشقي. والقول الثاني: أنها نزلت في مشركي العرب كانوا في رخاء، فقال بعض المؤمنين: قد أهلكنا الجهد، وأعداء الله فيما ترون، فنزلت هذه الآية، هذا قول مقاتل. قال قتادة: الخطاب للنبي ﷺ، والمراد غيره. وقال غيره: إنما خاطبه تأديباً وتحذيراً، وإن كان لا يغتر. وفي معنى «تقلبهم» ثلاثة أقوال: أحدها: تصرفهم في التجارات، قاله ابن عباس، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج. والثاني: تقلب ليلهم ونهارهم، وما يجري عليهم من النعم، قاله عكرمة، ومقاتل. والثالث: تقلبهم غير مأخوذ في بذنوبهم، ذكره بعض المفسرين. قال الزجاج: ذلك الكسب والربح متاع قليل. وقال ابن عباس: منفعة يسيرة في الدنيا. والمهاد: الفراش.

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْهُمْ كُفْرًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِفِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْهُمْ كُفْرًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِفِينَ﴾ قرأ أبو جعفر: «لكن» بالشدائد ها هنا، وفي (الزمر) قال مقاتل: وحدوا. قال ابن عباس: «النزل» الثواب. قال ابن فارس: النُزُل: ما يهيا للنزول، والنزول: الضيف.

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿١٩٨﴾ قرأ أبو جعفر: «لكن» بالشدائد ها هنا، وفي (الزمر) قال مقاتل: وحدوا. قال ابن عباس: «النزل» الثواب. قال ابن فارس: النُزُل: ما يهيا للنزول، والنزول: الضيف.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿١٩٨﴾ اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في النجاشي، لأنه لما مات صلى عليه النبي ﷺ، فقال قائل: يصلي على هذا العليج النصراني، وهو في أرضه؟! فنزلت هذه الآية، هذا قول جابر بن عبد الله^(٢)، وابن عباس، وأنس. وقال الحسن، وقاتادة: فيه وفي أصحابه. والثاني: أنها نزلت في مؤمني أهل الكتاب من اليهود والنصارى، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد.

(١) روى ابن جرير ٤٩١/٧ بإسناده صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ثلثة تدخل الجنة لفرقاء المهاجرين الذين تتقى بهم المكارة، إذا أمروا سمعوا وأطاعوا، وإن كان لرجل منهم حالة إلى السلطان، لم تقض حتى يموت وهي في صدره، وإن الله يدمو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول: أي عبادي الذين قاتلوا في سبيلي، وقتلوا، وأوفوا في سبيلي، وجاهدوا في سبيلي، ادخلوا الجنة، فدخلونها بغير عذاب ولا حساب، وتأتي الملائكة، فيسجدون ويقولون: ربنا نحن نسبح الليل والنهار، ونقدس لك، من هؤلاء الذين أقرتهم علينا؟ فيقول الرب جل ثناؤه: هؤلاء عبادي الذين قاتلوا في سبيلي، وأوفوا في سبيلي، فدخل الملائكة عليهم من كل باب ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فِيمَنْ عَنِ الْأَيَّ﴾ [الرعد: ٢٤]. ورواه الحاكم في «المستدرک» ٧١/٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. ورواه أحمد ١٠٣، ١٠٥، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢٥٩/١٠ من روايتي «المسندة». وذكر في الأولى أنه رواه أيضاً البزار، والطبراني، ورجالهم ثقات، وذكر في الثانية أنه رواه أيضاً الطبراني، ورجال الطبراني رجال الصحيح، غير أبي عثمان، وهو ثقة.

(٢) رواه ابن جرير ٤٩٧/٧ بإسناده ضعيف، وروى ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أنس بن مالك، قال: لما توفي النجاشي قال رسول الله ﷺ: «استغفروا لأخيكم». فقال بعض الناس: بأمرنا أن نستغفر لمج مات بأرض الحبشة؟! فنزلت: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿١٩٨﴾ ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿١٩٨﴾ روى البزار، والطبراني في «الأوسط» ورجال الطبراني ثقات كما قال الهيثمي ٣٨/٣: أن النبي ﷺ صلى على النجاشي حين نعي، فقيل: يا رسول الله، تصلي على عبد حبشي؟! فأقول الله ﷻ: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الآية. وصلاة النبي ﷺ على النجاشي صلاة الجنازة الغائبة، ثابتة صحيحة، رواها الشيخان من حديث جابر، ومن حديث أبي هريرة.

والثالث: في عبد الله بن سلام، وأصحابه، قاله ابن جريج، وابن زيد، ومقاتل. والرابع: في أربعين من أهل تجران، وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى، فأمنوا بالنبي ﷺ، قاله عطاء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ يعني: القرآن، ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يعني: كتابهم. والخاشع: الذليل. ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: عرضاً من الدنيا كما فعل رؤساء اليهود، وقد سلف بيان سرعة الحساب.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٦٥)

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا﴾ قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: نزلت في انتظار الصلاة بعد الصلاة^(١)، وليس يومئذ غزوٌ يربط. وفي الذي أمروا بالصبر عليه خمسة أقوال: أحدها: البلاء والجهاد، قاله ابن عباس. الثاني: الدين، قاله الحسن، والقرظي، والزجاج. الثالث: المصائب، روي عن الحسن أيضاً. والرابع: الفرائض، قاله سعيد بن جبيرة. والخامس: طاعة الله، قاله قتادة. وفي الذي أمروا بمصابرته قولان: أحدهما: العدو، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: الوعد الذي وعدهم الله، قاله عطاء، والقرظي. وفيما أمروا بالمراقبة عليه قولان: أحدهما: الجهاد للأعداء، قاله ابن عباس، والحسن، وقاتدة في آخرين. قال ابن قتيبة: وأصل المراقبة والرباط^(٢): أن يربط هؤلاء خيولهم، وهؤلاء خيولهم في الثغر، كلٌ يُعَدُّ لصاحبه. والثاني: أنه الصلاة، أمروا بالمراقبة عليها، قاله أبو سلمة بن عبد الرحمن، وقد ذكرنا في (البقرة) معنى «لعل»، ومعنى «الفلاح».



(١) روى مسلم ٢١٩/١، والنسائي ٨٩/١ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة، بعد الصلاة فلكم الرباط، فلكم الرباط، فلكم الرباط».

(٢) وردت أحاديث صحيحة عن الرسول ﷺ في فضل المراقبة، وحفظ ثغور المسلمين، وصيانة البلاد الإسلامية عن دخول الكفار إليها، فروى البخاري ٦٣/٦ عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها». روى مسلم ١٥٢٠/٣ عن سلمان الفارسي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه، وأمن الفتنة». روى الإمام أحمد ٢٠/٦ عن فضالة بن عبيد عن رسول الله ﷺ قال: «كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن فتنة القبر» ورواه أبو داود ١٤/٣، والترمذي ١٩٥/١، وقال الترمذي: حسن صحيح.

٤ - سورة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَرَجَعَكُمْ إِلَيْهَا إِنَّكُمْ إِلَيْهَا تَرْجَعُونَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(١)

اختلفوا في نزولها على قولين: أحدهما: أنها مكية، رواه عطية عن ابن عباس، وهو قول الحسن، ومجاهد، وجابر بن زيد، وقتادة. والثاني: أنها مدنية، رواه عطاء عن ابن عباس، وهو قول مقاتل. وقيل: إنها مدنية، إلا آية نزلت بمكة في عثمان بن طلحة حين أراد النبي ﷺ أن يأخذ منه مفاتيح الكعبة، فسلمها إلى العباس، وهي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه بمعنى الطاعة، قاله ابن عباس. والثاني: بمعنى الخشية. قاله مقاتل. والنفس الواحدة: آدم، وزوجها حواء «ومن» في قوله: ﴿وَرَجَعَكُمْ إِلَيْهَا﴾ للتبعيض في قول الجمهور. وقال ابن بحر: منها، أي: من جنسها^(٢). واختلفوا أي وقت خلقت له، على قولين: أحدهما: أنها خلقت بعد دخوله الجنة، قاله ابن مسعود، وابن عباس. والثاني: قبل دخوله الجنة، قاله كعب الأحبار، وهب، وابن إسحاق. قال ابن عباس: لما خلق الله آدم، ألقى عليه النوم، فخلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى^(٣)، فلم تؤذ به شيء، ولو وجد الأذى ما عطف عليها أبداً، فلما استيقظ؛ قيل: يا آدم ما هذه؟ قال: حواء.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكُمْ إِلَيْهَا﴾ قال الفراء: بث: نشر، ومن العرب من يقول: أثبت الله الخلق، ويقولون: بثتكم ما في نفسي، وأبثتكم.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والبرجمي، عن أبي بكر، عن عاصم. واليزيدي، وشجاع، والجعفي، وعبد الوارث، عن أبي عمرو: «تساءلون» بالتشديد. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي، وكثير من أصحاب أبي عمرو عنه بالتخفيف.

قال الزجاج: الأصل: تتساءلون، فمن قرأ بالتشديد. أدغم التاء في السين، لقرب مكان هذه من هذه، ومن قرأ بالتخفيف، حذف التاء الثانية لاجتماع التاءين. وفي معنى «تَسَاءَلُونَ بِهِ» ثلاثة أقوال: أحدها: تتعاطفون به، قاله ابن عباس. والثاني: تتعاقدون، وتتعاقدون به. قاله الضحاك، والربيع. والثالث: تطلبون حقوقكم به، قاله الزجاج. فأما قوله: «والأرحام» فالجمهور على نصب الميم على معنى: واتقوا الأرحام أن تقطعوها، وفسرها على هذا ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والشَّدي، وابن زيد. وقرأ الحسن، وقتادة، والأعمش، وحزمة بخفض الميم على معنى: تتساءلون به وبالأرحام، وفسرها على هذا الحسن، وعطاء، والنخعي. وقال الزجاج: الخفض في «الأرحام» خطأ في العربية لا يجوز إلا في اضطراب الشعر، وخطأ في الدين، لأن النبي ﷺ قال: «لا تحلفوا بأبائكم»^(٤)، وذهب إلى نحو هذا الفراء،

(١) في «البحر المحيط» ١٥٤/٣: وقيل: هو على حلف مضاف، التقدير: وخلق من جنسها زوجها، قاله ابن بحر، وأبو مسلم، لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَشْوَكَكُمْ أَنْزَلْنَا﴾ و«وَرَجَعَكُمْ إِلَيْهَا».

(٢) روى البخاري ٢٦١/٦ ومسلم ١٠٩١/٢ عن أبي هريرة ؓ، قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلا، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء» هذا لفظ البخاري. قال النووي في «شرح مسلم» ٥٧/١٠: وفي دليل لما يقوله الفقهاء أو بعضهم أن حواء خلقت من ضلع آدم.

(٣) روى الإمام مسلم ١٢٧٦/٣ عن عبد الله بن دينار أنه سمع ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله»، وكانت قريش تحلف بأبائهم، فقال: «لا تحلفوا بأبائكم» وروى أيضاً عن عبد الله بن مسرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحلفوا بالطواغي ولا بأبائكم» والطواغي: الأصنام، واحداثها: طاغية. وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من حلف بغير الله فقد أشرك» وفي رواية «فقد كفر» =

وقال ابن الأنباري: إنما أراد حمزة الخبر عن الأمر القديم الذي جرت عادتهم به، فالمعنى: الذي كنتم تساءلون به وبالأرحام في الجاهلية. قال أبو علي: من جر، عطف على الضمير المجرور بالباء، وهو ضعيف في القياس، قليل في الاستعمال، فترك الأخذ به أحسن^(١). فأما الرقيب، فقال ابن عباس، ومجاهد: الرقيب: الحافظ. وقال الخطابي: هو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء، وهو في نعوت الآدميين الموكل بحفظ الشيء، المترصد له، المتمحز عن الغفلة فيه، يقال منه: رَقِبْتُ الشيء أَرْقِبُهُ رَقِيبَةً^(٢).

﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدِلُوا كَلِمَتَ الْوَيْثِيقِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ الَّتِي آمَنَ بِكُمْ إِنَّكُمْ كَانُوا بِأَعْيُنٍ كَبِيرَةٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ سبب نزولها: أن رجلاً من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ، طلب ماله فمنعه، فخاصمه إلى النبي ﷺ فنزلت، قاله سعيد بن جبير^(٣). والخطاب بقوله: «وَأَتُوا» للأولياء والأوصياء. قال الزجاج: وإنما سماها يتامى بعد البلوغ، بالاسم الذي كان لهم، وقد كان يقال للنبي ﷺ: يتيم أبي طالب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْدِلُوا كَلِمَتَ الْوَيْثِيقِ﴾ قرأ ابن محيصة: «تبدلوا» بناء واحدة. ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: أنه إبدال حقيقة، ثم فيه قولان: أحدهما: أنه أخذ الجيد، وإعطاء الرديء مكانه، قاله سعيد بن المسيب، والضحاك، والنخعي، والزهري، والسدي قال السدي: كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم، ويجعل مكانها المهزولة، ويأخذ الدراهم الجياد، ويطرح مكانها الزيوف. والثاني: أنه الربح على اليتيم، واليتيم غر لا علم له، قاله عطاء. والقول الثاني: أنه ليس بإبدال حقيقة، وإنما هو أخذه مستهلكاً، ثم فيه قولان: أحدهما: أنهم كانوا لا يورثون النساء والصغار، وإنما يأخذ الميراث الأكابر من الرجال، فنصيب الرجل من الميراث طيب، وأما أخذه من حق اليتيم خبيث، هذا قول ابن زيد. والثاني: أنه أكل مال اليتيم بدلاً من أكل أموالهم، قاله الزجاج. «وإلى» بمعنى «مع» والحبوب: الإثم. وقرأ الحسن، وقتادة، والنخعي بفتح الحاء. قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: حُوب بالضم، وتميم يقولونه بالفتح. قال ابن الأنباري: وقال الفراء: المضموم الاسم، والمفتوح المصدر. قال ابن قتيبة: وفيه ثلاث لغات: حُوب، وحُوب، وحَاب.

﴿وَلَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ سِتْرُكُمْ أَفَلَا تَفْقَهُوا فَنَّ هَٰذَا مَا كَانَ لَكُمْ مِنَ الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ الْيَتَامَىٰ وَكُلُوا وَشَرُّوا فَإِنَّ خِفَتَكُمْ أَلَّا تَقُولُوا قَوْلَهُ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آذَنُ اللَّهِ أَلَّا تَقُولُوا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ سِتْرُكُمْ﴾ اختلَفوا في تنزيلها وتأويلها على ستة أقوال: أحدها: أن القوم كانوا يتزوجون عدداً كثيراً من النساء في الجاهلية، ولا يتحرجون من ترك العدل بينهن، وكانوا يتحرجون في شأن اليتامى، فقيل لهم بهذه الآية: احذروا من ترك العدل بين النساء، كما تحذرون من تركه في اليتامى، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس، وسعيد بن جبير^(٤) والضحاك، وقتادة، والسدي، ومقاتل. والثاني: أن أولياء اليتامى كانوا يتزوجون النساء

= رواه أحمد، والترمذي وقال: حديث حسن، والحاكم وصححه، وأقره الذهبي.

(١) قال ابن عطية: وهذه القراءة عند رؤساء نحويي البصرة لا تجوز، لأنه لا يجوز عندهم أن يعطف ظاهر على مضمير مخفوض. وانظر «الطبري» ١٩٧/٧ و«القرطبي» ٢/٥ و«البحر المحيط» ١٥٧/٣.

(٢) قال ابن كثير في «التفسير» ٤٤٨/١: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ نَبِيًّا» أي: هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم، كما قال: «وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» وفي الحديث الصحيح: «أبَدَّ اللَّهُ كَلِمَتَهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب، ولهذا ذكر تعالى: «أَنْ أَصِلَ الْخَلْقَ مِنْ أَبٍ وَاحِدٍ وَأُمٍّ وَاحِدَةٍ، لِيُعْطِفَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، وَيَحْتَمِلَهُمْ عَلَىٰ ضَعْفَانِهِمْ». وقد ثبت في «صحيح مسلم» ٧٠٤/٢ من حديث جرير بن عبد الله البجلي قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، فجاءه قوم حفاة عراة مجتاهبي النمار أو العباء. متقلدي السيوف، عامتهم من مُضَرٍّ، بل كلهم من مضر، فتعمر وجه رسول الله ﷺ، لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام، فقصي ثم خطب فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَخَوُّونَ وَتُحِبُّونَ» [النساء: ١] إلى آخر الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ نَبِيًّا». والآية التي في الحشر: «اتَّقُوا اللَّهَ وَتَعْلَمُوا أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» [الحشر: ١٨] تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمره. قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت. قال: ثم تابع الناس حتى رأيت كمين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتהלل كأنه مُذَقَّبَةٌ. ورواه الإمام أحمد وأصحاب «السنن».

(٣) قال السيوطي في «الدر المنثور» ١١٧/٢: أخرجه ابن أبي حاتم.

(٤) رواه بمعناه عن سعيد بن جبير الطبري ٣٦٧/٧ وإسناده صحيح، ونسبه السيوطي في «الدر» ١١٨/٢ إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

بأموال اليتامى، فلما كثر النساء، مالوا على أموال اليتامى، فقصّروا على الأربع حفظاً لأموال اليتامى. وهذا المعنى مروي عن ابن عباس أيضاً، وعكرمة^(١). والثالث: أن معناها: وإن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا في صدقات اليتامى إذا نكحتموهن، فانكحوا سواهن من الغرائب اللواتي أحلّ الله لكم، وهذا المعنى مروي عن عائشة^(٢). والرابع: أن معناها: وإن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا في نكاحهن، وحذرتن سوء الصحبة لهن، وقلة الرغبة فيهن، فانكحوا غيرهن، وهذا المعنى مروي عن عائشة أيضاً، والحسن. والخامس: أنهم كانوا يتحرّجون من ولاية اليتامى، فأمروا بالتحرّج من الزنى أيضاً، وتُدبوا إلى النكاح الحلال، وهذا المعنى مروي عن مجاهد. والسادس: أنهم تخرجوا من نكاح اليتامى، كما تخرجوا من أموالهم، فرخص الله لهم بهذه الآية، وقصرهم على عدد يمكن العدل فيه، فكانه قال: وإن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا فيهن، فانكحوهن، ولا تزيدوا على أربع لتعدلوا، فإن خفتم أن لا تعدلوا فيهن، فواحدة، وهذا المعنى مروي عن الحسن. قال ابن قتيبة: ومعنى قوله: وإن خفتم، أي: [فإن] علمتم أنكم لا تعدلون [بين اليتامى] يقال: أقسط الرجل: إذا عدل [ومنه قول النبي ﷺ «المقسطون في الدنيا على منابر من لؤلؤ يوم القيامة»] [ويقال: قسط الرجل: إذا جاز] [ومنه قول الله: «وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا»]^(٣) وفي معنى العدل في اليتامى قولان: أحدهما: في نكاح اليتامى، والثاني: في أموالهم.

قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: ما حل لكم. قال ابن جرير: وأراد بقوله: ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، الفعل دون أعيان النساء، ولذلك قال: «ما» ولم يقل: «من» واختلفوا: هل النكاح من اليتامى، أو من غيرهن؟ على قولين قد سبقا.

قوله تعالى: ﴿مَثْنً وَنَكَحْتَ وَنَكَحْتَ﴾. قال الزجاج: هو بدل من ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ومعناه: اثنتين اثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، وإنما خاطب الله العرب بأفصح اللغات، وليس في شأن البلغ أن يعبر في العدد عن التسعة باثنتين، وثلاث، وأربع، لأن التسعة قد وضعت لهذا العدد، فيكون عيًّا في الكلام. وقال ابن الأنباري: هذه الواو معناها التفرق، وليست جامعة، فالمعنى: فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى، وانكحوا ثلاث في غير الحال الأولى، وانكحوا رباع في غير الحاليين. وقال القاضي أبو يعلى: الواو هاهنا لإباحة أي الأعداد شاء، لا للجمع^(٤)، وهذا العدد إنما هو للأحرار، لا للعبيد، وهو قول أبي حنيفة والشافعي. وقال مالك: هم كالأحرار. ويدل على قولنا: أنه قال: فانكحوا، فهذا منصرف إلى من يملك النكاح، والعبد لا يملك ذلك بنفسه، وقال في سياقها: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَمْلِكُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، والعبد لا ملك له، فلا يباح له الجمع إلا بين اثنتين.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: علمتم، والثاني: خشيتن.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَمْلِكُوا﴾ قال القاضي أبو يعلى: أراد العدل في القسم بينهن.

(١) روى ابن جرير ٥٣٥/٧ وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس. ورواه ابن جرير ٥٣٥/٧ عن عكرمة بمعناه. ولفظ الطبري: عن ابن عباس قال: قصر الرجال على أربع من أجل أموال اليتامى.

(٢) روى البخاري ١٧٩/٨ ومسلم ٢٣١٣/٤ عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْبَيْنَاتِ﴾ فقالت: يا ابن أخي هذه البينة تكون في حجر ولها، تشركه في ماله، ويعبده ماله وجمالها، فيريد ولها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها، فيعطيه مثل ما يعطيها غيره، فتها عن ذلك إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا لهن أعلى ستهن في الصداق، فأمرنا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن.

(٣) «غريب القرآن» ١١٩، وما بين معنيين منه. وحديث «المقسطون على منابر من لؤلؤ». روى مسلم: ١٤٥٨/٣ ولفظه «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز جل - وكلنا بيده يمين - الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا».

(٤) روى الإمام أحمد رقم (٤٦٠٩) عن سالم عن أبيه أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحتة عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: «اختر منهن أربعة» ورواه الترمذي وصححه، وابن حبان، والحاكم، قال الحافظ ابن حجر: وأعله البخاري وأبو زرعة، وقال الحافظ ابن كثير في «الإرشاد»: روى الإمامان أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، وأحمد بن حنبل، والترمذي، وابن ماجه، وهذا الإسناد رجاله على شرط الشيخين، إلا أن الترمذي يقول: سمعت البخاري يقول: هذا حديث غير محفوظ، والصحيح ما روى شعيب وغيره عن الزهري، قال: حدثت عن محمد بن شعيب الثقفي أن غيلان... فذكره، قال البخاري: وإنما حديث الزهري، عن سالم عن أبيه أن رجلاً من ثقيف طلق نساءه، فقال له عمر: لتراجعن نساءك... الحديث. قال ابن كثير: قلت: قد جمع الإمام أحمد في روايته لهذا الحديث بين هذين الحديثين بهذا السند، فليس ما ذكره البخاري قادحاً، وساق رواية النسائي برجال ثقات. «سبل السلام» ١٨٠/٢. انظر كلام الشيخ أحمد شاكر على هذا الحديث في «المسند»، فإنه قد فصل الكلام فيه.

قوله تعالى: ﴿وَرَجَعْتُ﴾ أي: فأنكحوا واحدة، وقرأ الحسن، والأعمش، وحמיד: «فواحدة» بالرفع، المعنى، فواحدة تفتح.

قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يعني: السراي. قال ابن قتيبة: معنى الآية: فكما تخافون أن لا تعدلوا بين اليتامى إذا كفلتموهم، فخافوا [أيضاً] أن لا تعدلوا بين النساء إذا نكحتوهن، ففَضَّرَهُمْ على أربع، ليقدروا على العدل، ثم قال: فإن خفتن أن لا تعدلوا بين هؤلاء الأربع، فأنكحوا واحدة، واقتصروا على ملك اليمين^(١).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَذَى﴾ أي: أقرب. وفي معنى «تعولوا» ثلاثة أقوال: أحدها: تميلوا، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، وإبراهيم، وقتادة، والسدي، ومقاتل، والفراء. وقال أبو مالك، وأبو عبيد: تجوروا. قال ابن قتيبة، والزجاج: تجوروا وتميلوا بمعنى واحد. واحتكم رجلان من العرب إلى رجل، فحكم لأحدهما، فقال المحكوم عليه: إنك والله تعول علي، أي: تميل وتجور. والثاني: تضلوا، قاله مجاهد، والثالث: تكثر عيالكم، قال ابن زيد، ورواه أبو سليمان الدمشقي في «تفسيره» عن الشافعي، ورده الزجاج، فقال: جميع أهل اللغة يقولون: هذا القول خطأ، لأن الواحدة يعولها، وإباحة ملك اليمين أزيد في العيال من أربع^(٢).

﴿وَرَأَوْا النِّسَاءَ صَدَقْتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَكُلُّهُ هَبْطًا رَجِيًّا﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَأَوْا النِّسَاءَ صَدَقْتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ اختلفوا فيمن خوطب بهذا على قولين: أحدهما: أنهم الأزواج، وهو قول الجمهور، واحتجوا بأن الخطاب للناكحين قد تقدم، وهذا معطوف عليه، وقال مقاتل: كان الرجل يتزوج بلا مهر، فيقول: أرثك وترثيني، فنقول المرأة: نعم، فنزلت هذه الآية. والثاني: أنه متوجه إلى الأولياء^(٣) ثم فيه قولان: أحدهما: أن الرجل كان إذا زوج أئمة جاز صداقها دونها، فهذا بهذه الآية، هذا قول أبي صالح، واختاره الفراء، وابن قتيبة. والثاني: أن الرجل كان يعطي الرجل أخته ويأخذ أخته مكانها من غير مهر، فهذا عن هذا بهذه الآية، رواه أبو سليمان التيمي عن بعض أشياخه. قال ابن قتيبة: والصدقات: المهور، واحدها: صدقة. وفي قوله «نحلة» أربعة أقوال: أحدها: أنها بمعنى الفريضة، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن جريج، وابن زيد، ومقاتل. والثاني: أنها الهبة والعطية، قاله الفراء. قال ابن الأنباري: كانت العرب في الجاهلية لا تعطي النساء شيئاً من مهورهن، فلما فرض الله لهن المهر، كان نِحْلَةً من الله، أي: هبة للنساء، فرضاً على الرجال. وقال الزجاج: هو هبة من الله للنساء. قال القاضي أبو يعلى: وقيل: إنما سمي المهر: نحلة، لأن الزوج لا يملك بدله شيئاً، لأن البضع بعد النكاح في ملك المرأة، ألا ترى أنها لو وطئت بشبهة، كان المهر لها دون الزوج، وإنما الذي يستحقه الزوج الاستباحة، لا الملك. والثالث: أنها العطية بطيب نفس، فكانه قال: لا تعطوهن مهورهن وأنتم كارهون، قاله أبو عبيدة. والرابع: أن معنى «النحلة»: الديانة، فتقديره: وآتوهن صدقاتهن ديانة، يقال: فلان يتحل كذا، أي: يدين به، ذكره الزجاج عن بعض العلماء.

(١) نص كلام ابن قتيبة في «المشكل» ٥١: والمعنى أن الله تعالى قصر الرجال على أربع نسوة. وحرم عليهم أن ينكحوا أكثر منهن، لأنه لو أباح لهم أن ينكحوا من الحرائر ما أباح من ملك اليمين لم يستطيعوا العدل عليهن بالتسوية بينهن، فقال لنا: فكما تخافون ألا تعدلوا بين اليتامى إذا كفلتموهم، فخافوا أيضاً ألا تعدلوا بين النساء إذا نكحتوهن، فأنكحوا اثنين وثلاثاً وأربعاً، ولا تتجاوزوا ذلك فتعجزوا عن العدل.

(٢) قال ابن كثير ٤٥١/١: وقوله ﴿ذَلِكَ أَذَى﴾ أي: أقرب، قال بعضهم: ذلك أمضى ألا تكثر عيالكم، قاله زيد بن أسلم، وسفيان بن عيينة، والشافعي، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جُنْتُ عَيْلَةً﴾ أي: قرأ ﴿مَنْزُورٌ يَتَّبِعُكُمْ اللَّهُ مِنْ قَسْوَءٍ إِنْ شَاءَ﴾ وقال الشاعر:

فَمَا يَسْدِرِي السُّفْقِيرَ مَتَى غَنَاءُ وَمَا يَسْدِرِي السُّفْنِي مَتَى يَمِيلُ

وتقول العرب: عل الرجل يعيل عيلة: إذا افتقر، ولكن في هذا التفسير هاهنا نظر، فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تعدد الحرائر، كذلك يخشى من تعدد السراي أيضاً، والصحيح قول الجمهور ﴿ذَلِكَ أَذَى﴾ أي: لا تجوروا، يقال: عال في الحكم: إذا قسط وظلم وجار.

(٣) اختار ابن جرير ٥٥٤/٧ أن الخطاب للأزواج، قال: لأن الله تعالى ابتداءً ذكر هذه الآية بـ«خطاب الناكحين النساء»، ونهاهم عن ظلمهن والجور عليهن، وعرفهن سبيل النجاة من ظلمهن. ولا دلالة في الآية على أن الخطاب قد صرف عنهم إلى غيرهم، فإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أن الذين قيل لهم ﴿فَأَنْكِحُوا مَا كَتَبَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ هم الذين قيل لهم: ﴿وَرَأَوْا النِّسَاءَ صَدَقْتِهِنَّ﴾ وأن معناه: وآتوا من نكحتن من النساء صدقاتهن نحلة، لأنه قال في أول الآية: فأنكحوا ما طاب لكم من النساء، ولم يقل: ﴿فَأَنْكِحُوا﴾ فيكون قوله: ﴿وَرَأَوْا النِّسَاءَ صَدَقْتِهِنَّ﴾ مصروحاً إلى أنه مغني عن أولياء النساء دون أزواجهن.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَ لَكُمْ﴾ يعني النساء المنكوحات. وفي «لكم» قولان: أحدهما: أنه يعني الأزواج. والثاني: الأولياء. و«الهاء» في «منه» كناية عن الصداق، قال الزجاج: و«منه» هاهنا للجنس، كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] معناه: فاجتنبوا الرجس الذي هو وثن، فكانه قال: كلوا الشيء الذي هو مهر، فيجوز أن يسأل الرجل المهر كله. و«نفساً»: منصوب على التمييز. فالمعنى: فإن طابت أنفسهن لكم بذلك، فكلوه هنيئاً مريئاً. وفي الهنيء ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ما تؤمن عاقبته. والثاني: ما أعقب نفعاً وشفاء. والثالث: أنه الذي لا ينغصه شيء. وأما «المريء» فيقال: مريء الطعام: إذا انهضم، وحمدت عاقبته.

﴿وَلَا تُؤْثِرُوا أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْثِرُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ المراد بالسفهاء خمسة أقوال: أحدها: أنهم النساء، قاله ابن عمر. والثاني: النساء والصبيان، قاله سعيد بن جبير، وقتادة، والضحاك، ومقاتل، والفراء، وابن قتيبة. وعن الحسن ومجاهد كالقولين. والثالث: الأولاد، قاله أبو مالك. وهذه الأقوال الثلاثة مروية عن ابن عباس، وروي عن الحسن، قال: هم الأولاد الصغار. والرابع: اليتامى، قاله عكرمة، وسعيد بن جبيرة في رواية. قال الزجاج: ومعنى الآية: ولا تؤثروا السفهاء أموالهم، بدليل قوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ وإنما قال: «أموالكم» ذكرراً للجنس الذي جعله الله أموالاً للناس. وقال غيره: أضافها إلى الولاية، لأنهم قوامها. والخامس: أن القول على إطلاقه، والمراد به كل سفيه يستحق الحجر عليه، ذكره ابن جرير، وأبو سليمان الدمشقي، وغيرهما، وهو ظاهر الآية^(١). وفي قوله: ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ قولان: أحدهما: أنه أموال اليتامى. والثاني: أموال السفهاء.

قوله تعالى: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ قرأ الحسن: «اللاتي جعل الله لكم قواماً». وقرأ ابن كثير، وعاصم، وحزمة، والكسائي، وأبو عمرو: «قياماً» بالياء مع الألف هاهنا، وقرأ نافع، وابن عامر: «قيماً» بغير الف. قال ابن قتيبة: قياماً وقواماً بمنزلة واحدة، تقول: هذا قوام أمرك وقيامه، أي: ما يقوم به [أمرك]. وذكر أبو علي الفارسي أن «قواماً» و«قياماً» و«قيماً»، بمعنى القوام الذي يقيم الشأن، قال: وليس قول من قال: «القيم» هاهنا: جمع «قيمة» بشيء.

قوله تعالى: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ أي: منها. وفي «القول المعروف» ثلاثة أقوال: أحدها: العدة الحسنة، قاله ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، ومقاتل. والثاني: الرزء الجميل، قاله الضحاك. والثالث: الدعاء، كقولك: عافاك الله، قاله ابن زيد.

﴿وَأْتِلُوا إِلَيْتَنِي حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُنَّ رُوْحًا فَادْفِنُوهُنَّ إِلَىٰ هُنَّ أَمْوَالَهُنَّ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعِمْفَ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِنَّ أَمْوَالَهُنَّ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ وَكُنَّ بِأَلْفِ حَبِيبٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأْتِلُوا إِلَيْتَنِي﴾ سبب نزولها أن رجلاً، يقال له: زفاعة، مات وترك ولداً صغيراً، يقال له: ثابت، فوليه عمه، فجاء إلى النبي ﷺ، فقال: إن ابن أخي يتيم في حجري، فما يحل لي من ماله؟ ومتى أدفع إليه ماله؟ فنزلت هذه الآية، ذكر نحوه مقاتل^(٢). والابتلاء: الاختبار. وبماذا يختبرون؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم يختبرون في عقولهم، قاله ابن عباس، والسدي، وسفيان، ومقاتل. والثاني: يختبرون في عقولهم ودينهم، قاله الحسن، وقتادة. وعن مجاهد كالقولين. والثالث: في عقولهم ودينهم، وحفظهم أموالهم، ذكره الثعلبي. قال القاضي أبو يعلى: وهذا الابتلاء قبل البلوغ.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ قال ابن قتيبة: أي: بلغوا أن ينكحوا النساء ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ﴾ أي: علمتم،

(١) قال ابن كثير: ٤٥٢/١: ينهى سبحانه وتعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً، أي: تقوم بها معاشهم من التجارات وغيرها، ومن هاهنا يؤخذ الحجر على السفهاء، وهم أقسام؛ فتارة يكون الحجر للصغير، فإن الصغير مسلوب العبارة، وتارة يكون الحجر للجنون، وتارة لسوء التصرف، لتقص العقل أو الدين، وتارة للفلس، وهو إذا ما أحاطت الديون برجل، وضاق ماله عن وفائها، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه حجر عليه.

(٢) ذكره الواحدي ص ٨٢ بدون سند.

وتَبَيَّنْتُمْ. وأصل: أنست: أبصرت. وفي الرشد أربعة أقوال: أحدها: الصلاح في الدين، وحفظ المال، قاله ابن عباس، والحسن. والثاني: الصلاح في العقل، وحفظ المال، روي عن ابن عباس والسدي. والثالث: أنه العقل، قاله مجاهد، والنخعي. والرابع: العقل والصلاح في الدين، روي عن السدي.

فصل

واعلم أن الله تعالى علّق رفع الحجر عن اليتامى بأمرين؛ بالبلوغ والرشد، وأمر الأولياء باختبارهم، فإذا استبانوا رشدهم، وجب عليهم تسليم أموالهم إليهم. والبلوغ يكون بأحد خمسة أشياء، ثلاثة يشترك فيها الرجال والنساء؛ الاحتلام^(١)، واستكمال خمس عشرة سنة^(٢)، والإنبات^(٣)، وشيئان يختصان بالنساء: الحيض والحمل^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِنْ تَارَكُوا﴾ خطاب للأولياء، قال ابن عباس: لا تأكلوها بغير حق. و«بإدراك»: يُبَادِرُونَ أَكَلَ المال قبل بلوغ الصبي ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ بماله عن مال اليتيم. وفي الأكل بالمعروف أربعة أقوال: أحدها: أنه الأخذ على وجه القرض، وهذا مروي عن عمر، وابن عباس، وابن جبير، وأبي العالية، وعبيدة، وأبي وائل، ومجاهد، ومقاتل. والثاني: الأكل بمقدار الحاجة من غير إسراف، وهذا مروي عن ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وعطاء، والنخعي، وقتادة، والسدي. والثالث: أنه الأخذ بقدر الأجرة إذا عمل لليتيم عملاً، روي عن ابن عباس، وعائشة^(٥)، وهي رواية أبي طالب، وابن منصور، عن أحمد رحمهم الله. والرابع: أنه الأخذ عند الضرورة، فإن أيسر قضاء، وإن لم يوسر، فهو في حل، وهذا قول الشعبي.

فصل

واختلف العلماء هل هذه الآية محكمة أو منسوخة؟ على قولين. أحدهما محكمة، وهو قول عمر، وابن عباس، والحسن، والشعبي، وأبي العالية، ومجاهد، وابن جبير، والنخعي، وقتادة في آخرين. وحكمها عندهم أن الغني ليس له أن يأكل من مال اليتيم شيئاً، فأما الفقير الذي لا يجد ما يكفيه، وتشغله رعاية مال اليتيم عن تحصيل الكفاية، فله أن يأخذ قدر كفايته بالمعروف من غير إسراف. وهل عليه الضمان إذا أيسر؟ فيه قولان لهم: أحدهما: أنه لا ضمان عليه، بل يكون كالأجرة له على عمله، وهو قول الحسن، والشعبي، والنخعي، وقتادة، وأحمد بن حنبل. والثاني: إذا أيسر وجب عليه القضاء، روي عن عمر وغيره، وعن ابن عباس أيضاً كالقولين. والقول الثاني: أنها منسوخة بقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ﴾ [النساء: ٢٩] وهذا مروي عن ابن عباس، ولا يصح.

قوله تعالى: ﴿فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ قال القاضي أبو يعلى: هذا على طريق الاحتياط لليتيم، والولي، وليس بواجب،

(١) لقوله رحمهم الله: «رفع القلم عن ثلاثة، عن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفقه». رواه الترمذي ١٧٠/١ وأبو داود ٤/

١٩٧ عن علي رحمهم الله. ورواه الدارمي ١٧١/٢ عن عائشة، وابن ماجه ٦٥٨/١ عنهما، وهو حديث صحيح.

(٢) أعدل الفقهاء ذلك من الحديث الثابت في «الصحيحين» عن ابن عمر، قال: «عرضت على النبي ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة فلم يُجْزني، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني» قال نافع: قدمت على عمر بن عبد العزيز وهو خليفة فحدثه هذا الحديث؛ فقال: إن هذا لحدٌ بين الصغير والكبير، وكتب إلى عماله أن يفرضوا لمن بلغ خمس عشرة.

(٣) يدل لذلك ما روى الإمام أحمد ٣١٠/٤ عن عطية القرظي، قال: عرضنا على رسول الله ﷺ يوم قريظة، فكان من أنبت قتل، ومن لم ينبت خلي سبيله، فكتبت فيمن لم ينبت، فخلي سبيلي. وقد أخرجه أصحاب «السنن» بنحوه، وقال الترمذي: حسن صحيح. قال ابن كثير: وإنما كان كذلك، لأن سعد بن معاذ كان قد حكم فيهم بقتل المقاتلة، وسبي الذرية. وكون البلوغ يثبت باستكمال خمس عشرة سنة والإنبات: هو مذهب الشافعي، وأحمد، وابن وهب، وأصبغ، وعبد الملك بن الماجشون، وعمر بن عبد العزيز، واختاره ابن العربي.

(٤) قال القرطبي: ٣٥/٥: فأما الحيض والحبل فلم يختلف العلماء في أنه بلوغ، وأن القرائض والأحكام تجب بهما.

(٥) في البخاري ١٨١/٨: عن عائشة رحمهم الله في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أنها نزلت في مال اليتيم إذا كان فقيراً أنه يأكل منه مكان قيامه عليه بمعروف. وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: ليس لي مال، ولي يتييم، فقال: «كل من مال يتييمك غير مُشْرِفٍ ولا مُبْتَلٍ ولا مُتَأَتِّلٍ مَالاً، ومن غير أن تقي مالك» أو قال: «تفدي مالك بماله». ورواه أبو داود ١٥٦/٣، والنسائي ١٣١/٢، وابن ماجه ٨٣/٢ بنحوه، وهو حديث حسن. وقوله: «ولا متأتِّل» بتشديد التاء المثناة المكسورة. قال ابن الأثير: أي: غير جامع، يقال: مال مؤتِّل، ومجد مؤتِّل، بفتح التاء المشددة فيهما، أي: مجموع ذو أصل.

فأما اليتيم، فإنه إذا كانت عليه بئنة، كان أبعد من أن يدعي عدم القبض، وأما الولي، فإنه تظهر أمانته، ويسقط عنه اليمين عند إنكار اليتيم للدفع. وفي «الحسب» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الشهيد، قاله ابن عباس، والسدي، ومقاتل. والثاني: أنه الكافي، من قولك: أحسبني هذا الشيء [أي: كفاني، والله حسيبي وحسيبك، أي: كافينا، أي: يكون حكماً بيننا كافياً].

قال الشاعر:

وَنُقْضِي وَلِيدَ الْحَيِّ إِنْ كَانَ جَائِعاً وَنُحْسِبُهُ إِنْ كَانَ لَيْسَ بِجَائِعٍ^(١)
أي: نعطيه ما يكفيه حتى يقول: حسيبي^(٢) قاله ابن قتيبة والخطابي. والثالث: أنه المحاسب، فيكون في مذهب جليس، وأكيل، وشريب، حكاة ابن قتيبة والخطابي.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ٧﴾
قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ سبب نزولها أن أوس بن ثابت الأنصاري توفي وترك ثلاث بنات وامراً، فقام رجلان من بني عمه، يقال لهما: قتادة، وعرفطة^(٣) فأخذوا ماله، ولم يعطيا امرأته، ولا بناته شيئاً، فجاءت امرأته إلى النبي ﷺ، فذكرت له ذلك، وشكت الفقر، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. وقال قتادة: كانوا لا يورثون النساء، فنزلت هذه الآية^(٤). والمراد بالرجال: الذكور، وبالنساء: الإناث، صغاراً كانوا أو كباراً. و«النصيب»: الحظ من الشيء، وهو مجمل في هذه الآية، ومقداره معلوم من موضع آخر، وذلك مثل قوله: ﴿وَأَكْثَرُ حَقٍّ يَوْمَ حَصَاوَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٤١] وقوله: ﴿حُذِّ مِّنْ أَمْوَالِكُمْ صَدَقَةٌ﴾ [التوبة: ١٠٣] والمفروض: الذي فرضه الله، وهو أكد من الواجب.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةُ أُولُو الْقَرْبَى وَالْيَتَامَى وَالسَّكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ٨﴾
قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةُ أُولُو الْقَرْبَى﴾ في هذه القسمة قولان: أحدهما: قسمة الميراث بعد موت الموروث، فعلى هذا يكون الخطاب للوراثين، وبهذا قال الأكثرون، منهم ابن عباس، والحسن، والزهري. والثاني: أنها وصية الميت قبل موته، فيكون مأموراً بأن يعين لمن لا يرثه شيئاً، روي عن ابن عباس، وابن زيد. قال المفسرون: والمراد بأولي القربى: الذي لا يرثون، ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ أي: أعطوهم منه، وقيل: أطعموهم، وهذا على الاستحباب عند الأكثرين، وذهب قوم إلى أنه واجب في المال، فإن كان الورثة كباراً، تولوا إعطاءهم، وإن كانوا صغاراً، تولّى ذلك عنهم وليّ مالهم، فروي عن عبيدة أنه قسم مال أيتام، فأمر بشاة، فاشتريت من مالهم، وبطعام فصنع، وقال: لولا هذه الآية لأحببت أن يكون من مالي^(٥)، وكذلك فعل محمد بن سيرين في أيتام وليهم، وكذلك روي عن مجاهد: أن ما تضمنته هذه الآية واجب. وفي «القول المعروف» أربعة أقوال: أحدها: أن يقول لهم الولي حين يعطيهم: خذ بارك الله فيك، رواه سالم الأفتس، عن ابن جبير. والثاني: أن يقول الولي: إنه مال يتامى، ومالي فيه شيء، رواه أبو بشر عن ابن جبير. وفي رواية أخرى عن ابن جبير، قال: إن كان الميت أوصى لهم بشيء أنفذت لهم وصيتهم، وإن كان الورثة كباراً رضخوا لهم، وإن كانوا صغاراً، قال وليهم: إني ليست أملك هذا المال، إنما هو للصغار، فذلك القول المعروف. والثالث: أنه العدة الحسنة، وهو أن يقول لهم أولياء الورثة: إن هؤلاء الورثة صغار، فإذا بلغوا، أمرناهم أن يعرفوا حقوقكم. رواه عطاء بن دينار، عن ابن جبير. والرابع: أنهم يُعْطَوْنَ من المال، ويقال لهم عند قسمة الأرضين والرقى: بورك فيكم، وهذا القول المعروف. قال الحسن والنخعي: أدركنا الناس يفعلون هذا.

(١) البيت غير منسوب في «غريب القرآن» ١٧، و«الصحاح»: مادة: حسب، و«اللسان»: مادة: قفي، وفيه ٣١٢/١ لامراً من بني قشير، وقوله: «نقفيه» أي: نؤثره بالفقية، ويقال لها: القفاوة أيضاً، وهي ما يؤثر به الضيف والصبي.

(٢) ما بين معقفين من تمام كلام ابن قتيبة في «غريب القرآن» ص ١٧.

(٣) في ب «عكرمة وعرفطة» وفي «أسباب النزول» للواحدي ص: ٨٢ سويد وعرفطة، وفي «الدر المنثور» ١٢٢/٢: خالد وعرفطة، والخبر أخرجه أبو الشيخ وابن حبان في «كتاب الفرائض» من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي وأبو صالح، ضعيفان لا يحتج بهما.

(٤) أخرجه ابن جرير ٥٩٧/٧ من طريق عبد الرزاق عن معمر عن قتادة.

(٥) رواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج عن إسماعيل بن علي عن يونس بن عبيد عن ابن سيرين...

فصل

اختلف علماء النسخ والمنسوخ في هذه الآية على قولين: أحدهما: أنها محكمة، وهو قول أبي موسى الأشعري، وابن عباس^(١)، والحسن، وأبي العالية، والشعبي، وعطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والنخعي، والزهري، وقد ذكرنا أن ما تضمنته من الأمر مستحب عند الأكثرين، واجب عند بعضهم. والقول الثاني: أنها منسوخة؛ نسخها قوله: ﴿يُؤَيِّدُكُمُ اللَّهُ فِي أَزْوَاجِكُمْ﴾ رواه مجاهد عن ابن عباس، وهو قول سعيد بن المسيب، وعكرمة، والضحاك، وقتادة في آخرين.

﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ رَزَقُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَخْشُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَوِيدًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ رَزَقُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ضِعْفًا﴾ اختلفوا في المخاطب بهذه الآية على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه خطاب للحاضرين عند الموصي. وفي معنى الآية على هذا القول قولان: أحدهما: وليخش الذين يحضرون موصياً في ماله أن يأمره بتفريقه فيمن لا يرثه، فيفرقه، ويترك ورثته، كما لو كانوا هم الموصين، لسرهم أن يحثهم من حضرم على حفظ الأموال للأولاد، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي، ومقاتل. والثاني: على الضد من هذا القول، وهو أنه نهى لحاضري الموصي أن يمنعوه من الوصية لأقاربه، وأن يأمره بالاعتصار على ولده، وهذا قول مقسم، وسليمان التيمي في آخرين. والقول الثاني: أنه خطاب لأولياء اليتامى متعلق بقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِتْرًا وَلَا بِزَارٍ﴾ فمعنى الكلام: أحسنوا فيمن وليتم من اليتامى، كما تحببون أن يحسن ولاية أولادكم بعدكم، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس، وابن السائب. والثالث: أنه خطاب للأوصياء أمروا بأداء الوصية على ما رسم الموصي، وأن تكون الوجوه التي عينها مرعية بالمحافظة كرمعي الذرية الضعاف من غير تبديل، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَاحًا أَوْ إِمَّا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْرَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٨٢] فأمر الوصي بهذه الآية إذا وجد ميلاً عن الحق أن يستعمل قضية الشرع، ويصلح بين الورثة، ذكره شيخنا علي بن عبيد الله، وغيره، في «الناسخ والمنسوخ» فعلى هذا تكون الآية منسوخة، وعلى ما قبله تكون محكمة. و«الضعاف»: جمع ضعيف، وهم الأولاد الضغار. وقرأ حمزة: «ضعافاً» بإمالة العين. قال أبو علي: وجهها: أن ما كان على «فعال» وكان أوله حرفاً مستعلياً مكسوراً، نحو ضعاف، وقفاف، وخفاف؛ حسنت فيه الإمالة، لأنه قد يُصْعَدُ بالحرف المستعلي، ثم يُخَفَّرُ بالكسر، فيستحب أن لا يُصْعَدَ بالتخفيف بعد التصوُّب بالكسر، فيجعل الصوت على طريقة واحدة، وكذلك قرأ حمزة: ﴿خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ بإمالة الخاء، والإمالة هاهنا حسنة، وإن كانت «الخاء» حرفاً مستعلياً، لأنه يطلب الكسرة التي في «خُفَّت» فينحو نحوها بالإمالة. و«القول السديد»: الصواب.

(١) روى البخاري ١٨١/٨ عن ابن عباس في الآية قال: هي محكمة، وليست بمنسوخة. تابعه سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال الحافظ ابن حجر: وصله في الوصايا بلفظ «إن ناساً يزعمون أن هذه الآية نسخت، ولا والله ما نسخت، ولكنها مما تهان الناس بها، هما والبيان، والي يرث، وذلك الذي يروق، ووالي لا يرث، وذلك الذي يقال له بالمعروف، يقول: لا أملك لك أن أعطيك» وهذا الإسنادان الصحيحان هما المعتمدان، وجاءت عنه روايات من أوجه ضعيفة عند ابن أبي حاتم وابن مردويه أنها منسوخة نسختها آية الميراث، وصح ذلك عن سعيد بن المسيب، وهو قول القاسم بن محمد وعكرمة وغير واحد، وبه قال الأئمة الأربعة وأصحابهم. وجاء عن ابن عباس قول آخر، أخرجه عبد الرزاق بإسناد صحيح عن القاسم بن محمد أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر: قسم ميراث أبيه عبد الرحمن في حياة عائشة، فلم يلع في الدار ذا قرابة ولا مسكيناً إلا أعطاه من ميراث أبيه، وتلا الآية. قال القاسم: فذكرته لابن عباس، فقال: ما أصاب، وليس ذلك له، إنما ذلك إلى الوصي، وإنما ذلك في الوصية، أي: ندب للميت أن يوصي لهم. قلت: - أي: الحافظ ابن حجر - وهذا لا ينافي حديث الباب، وهو أن الآية محكمة، وليست بمنسوخة. وقيل: معنى الآية: وإذا حضر قسمة الميراث قرابة الميت ممن لا يرث، واليتامى والمساكين، فإن نفوسهم تشوف إلى أخذ شيء منه، ولا سيما إن كان جزيلاً، فأمر الله سبحانه أن يرشح لهم بشيء على سبيل البر والإحسان. واختلف من قال بذلك: هل الأمر فيه على الندب أو الوجوب؟ فقال مجاهد وطائفة: هي على الوجوب، وهو قول ابن حزم أن على الوارث أن يعطي هذه الأصناف ما طابت به نفسه، ونقل ابن الجوزي عن أكثر أهل العلم أن المراد بأولي القرابة: من لا يرث، وأن معنى «فأرزقوهم»: أعطوهم من المال. وقال آخرون: أطعموهم، وأن ذلك على سبيل الاستحباب، وهو المعتمد، لأنه لو كان على الوجوب لانتضى استحقاقاً في التركة، ومشاركة في الميراث بجهة مجهولة، فيضي إلى التنازع والتقاطع، وعلى القول بالندب فقد قيل: يفعل ذلك ولي المحجور، وقيل: لا يل يقول: ليس المال لي، وإنما هو لليتيم، وإن هذا هو المراد بقوله: ﴿وَرَزَقُوا كَثْرًا فَلَا تُؤْزَكُمْ﴾ وعلى هذا فتكون الواو في قوله ﴿وَرَزَقُوا﴾ للتزيم، وعن ابن سيرين وطائفة: المراد بقوله: ﴿فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ اصنعوا لهم طعاماً يأكلونه، وإنها على العموم في مال المحجور وغيره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (١٠)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن رجلاً من غطفان، يقال له: مرثد بن زيد، ولي مال ابن أخيه، فأكله، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل بن حيان. والثاني: أن حنظلة بن الشمر دل ولي يتيماً، فأكل ماله، فنزلت هذه الآية، ذكره بعض المفسرين. وإنما خص الأكل بالذكر لأنه معظم المقصود، وقيل: عبر به عن الأخذ. قال سعيد بن جبیر: ومعنى الظلم: أن يأخذه بغير حق. وأما ذكر «البطون» فللتوكيد، كما تقول: نظرت بعيني، وسمعت بأذني. وفي المراد بأكلهم النار قولان: أحدهما: أنهم سيأكلون يوم القيامة ناراً، فسمي الأكل بما يؤول إليه أمرهم، كقوله: ﴿أَقْمِرْ حَرَّكَ﴾ [يوسف: ٣٦] قال السدي: يبعث أكل مال اليتيم ظملاً، ولهب النار يخرج من فيه، ومن مسامحه، وأذنيه، وأنفه، وعينه، يعرفه من رآه يأكل مال اليتيم^(١). والثاني: أنه مثل. معناه: يأكلون ما يصيرون به إلى النار، كقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ [آل عمران: ١٤٣] أي: رأيتم أسبابه.

قوله تعالى: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي، «وسيصلون» بفتح الياء، وقرأ الحسن، وابن عامر، بضم الياء، ووافقهما ابن مقسم، إلا أنه شدد. والمعنى: سيحرقون بالنار، ويشتوون. والسعير: النار المستعرة، واستيعار النار: توفدها.

فصل

وقد توهم قوم لا علم لهم بالتفسير وفقهه، أن هذه الآية منسوخة، لأنهم سمعوا أنها لما نزلت، تحرّج القوم عن مخالطة اليتامى، فنزل قوله: ﴿وَلَا تَحْلِلُوا لَهُمْ فَاغْوَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] وهذا غلط، وإنما ارتفع عنهم الحرج بشرط قصد الإصلاح، لا على إباحة الظلم.

﴿يُؤْمِرُكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِي يَرْثُ حِطُّ الْأُنثَىٰ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يَوْسَىٰ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا مَلَكَتْكُمْ أَمْوَالٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَرِيضَةٌ مِنْ آلِكُمْ فَإِن كَانَ عَيْسًا حَكِيمًا﴾ (١١)

قوله تعالى: ﴿يُؤْمِرُكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن جابر بن عبد الله مرض، فعاده رسول الله ﷺ، فقال: كيف أصنع في مالي يا رسول الله، فنزلت هذه الآية، رواه البخاري ومسلم^(٢). والثاني: أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ بابتنتين لها، فقالت: يا رسول الله قُتِلَ أَبُو هَاتَيْنِ مَعَكَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَدْ اسْتَفَاءَ^(٣) عَمَهُمَا مَالَهُمَا، فنزلت، روي عن جابر بن عبد الله أيضاً^(٤). والثالث: أن عبد الرحمن أcha حسان بن ثابت مات، وترك امرأة، وخمس بنات، فأخذ ورثته ماله، ولم يعطوا أمراته ولا بناته شيئاً، فجاءت أمراته تشكو إلى النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية، هذا قول السدي. قال الزجاج: ومعنى يوصيكم: يفرض عليكم، لأن الوصية منه فرض، وقال غيره: إنما ذكره بلفظ الوصية لأمرين: أحدهما: أن الوصية تزيد على الأمر، فكانت أكد. والثاني: أن في الوصية حقاً للموصي، فدل على تأكيد الحال بإضافته إلى حقه. وقرأ الحسن، وابن أبي عبيدة: «يُوصِيكُمْ» بالتشديد.

(١) أخرجه ابن جرير ٢٦/٨ من طريق أسباط عن السدي.

(٢) البخاري: ١٨٢/٨، ومسلم: ١٢٣٥/٣ من طريق ابن جريج عن ابن المنكدر عن جابر، وقد وثق بعض المحدثين ابن جريج في هذا الحديث، وقالوا: الصواب أن الآية التي نزلت في قصة جابر هذه، الآية الأخيرة من (النساء) وهي: ﴿يَسْتَشْفَعُ فِي اللَّهِ لِيُخَيَّرَكُمْ فِي الْكَلْبَةِ﴾ وقد استوفى الحافظ ابن حجر الكلام حل هذا الحديث في «الفتح» فانظر.

(٣) قال ابن الأثير ٢٢٠/٣: أي: استرجع حقهما من الميراث وجعله ثيلاً له، وهو استعمل من الشيء.

(٤) أخرجه الإمام أحمد، وأبو داود ١٦٦/٣، والترمذي ٣٠/٢، وحسنه، وابن ماجه ٩٠٨/٢، وصححه الحاكم من طريق عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قتل أبوهما معك في أحد شهيداً، وإن عهدهما أخذ ماله، فلم يدع لهما مالاً، ولا تنكحان إلا ولهما مال، قال: فقال: «يقضي الله في ذلك»، قال: فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عهدهما، فقال: «أعطيت ابنتي سعد الثلثين وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك».

قوله تعالى: ﴿لِلَّذَرِيِّ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ يعني، للابن من الميراث مثل حظ الأنثيين، ثم ذكر نصيب الإناث من الأول، فقال: ﴿إِنْ كُنَّ﴾ يعني: البنات ﴿نِسَاءً فَوْقَ أُمَّتَيْنِ﴾ وفي قوله: «فوق» قولان: أحدهما: أنها زائدة، كقوله: ﴿فَأَصْرُهُمَا فَوْقَ الْأَخْتَيْنِ﴾ [الأنفال: ١٣]. والثاني: أنها بمعنى الزيادة. قال القاضي أبو يعلى: إنما نص على ما فوق الاثنين، والواحدة، ولم ينص على الاثنين، لأنه لما جعل لكل واحدة مع الذكر الثلث، كان لها مع الأنثى الثلث أولى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً﴾ قرأ الجمهور بالنصب، وقرأ نافع بالرفع، على معنى: وإن وقعت، أو وجدت واحدة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَوْرِيهِ﴾ قال الزجاج: أبواه تثنية أب وأبة، والأصل في الأم أن يقال لها: أبة، ولكن استغني عنها بأم، والكناية في قوله: «لأبويه» عن الميت وإن لم يجر له ذكر.

وقوله تعالى: ﴿فَلِأُولَئِكَ ثُلُثٌ﴾ أي: إذا لم يخلف غير أبوين، ثلث ماله لأمه، والباقي للأب، وإنما خص الأم بالذكر، لأنه لو اقتصر على قوله: ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾ ظن الظان أن المال يكون بينهما نصفين، فلما خصها بالثلث، دل على التفضيل. وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر ﴿فَلِأُولَئِكَ﴾ وفي بطنون أمهاتكم [الزمر: ٦] وفي أمهاتكم [القصص: ٥٩] وفي أمهاتكم [الزخرف: ٤] بالرفع^(١). وقرأ حمزة والكسائي كل ذلك بالكسر إذا وصلا، وحجتهما: أنهما أتبعوا الهمزة ما قبلها، من ياء أو كسرة.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ أي: مع الأبوين، فإنهم يحجبون الأم عن الثلث، فيردونها إلى السدس، واتفقوا على أنهم إذا كانوا ثلاثة إخوة، حجبوا، فإن كانا أخوين، فهل يحجبانها؟ فيه قولان: أحدهما: يحجبانها عن الثلث، قاله عمر، وعثمان، وعلي، وزيد، والجمهور^(٢). والثاني: لا يحجبها إلا ثلاثة، قاله ابن عباس^(٣)، واحتج بقوله: إخوة. والأخوة: اسم جمع، واختلفوا في أقل الجمع، فقال الجمهور: أقله ثلاثة، وقال قوم: اثنان، والأول: أصح. وإنما حجب العلماء الأم بأخوين لدليل اتفقوا عليه، وقد يسمى الاثنان بالجمع، قال الزجاج: جميع أهل اللغة يقولون: إن الأخوين جماعة، وحكى سيبويه أن العرب تقول: وضعا رجالهما، يريدون: رَحْلَيَا راحلتيهما^(٤).

قوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ بَقْدٍ وَصِيَّةٍ﴾ أي: هذه السهام إنما تقسم بعد الوصية والذين. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو بكر، عن عاصم «يوصى بها» بفتح الصاد في الحرفين. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «يوصى» فيهما بالكسر، وقرأ حفص، عن عاصم الأولى بالكسر، والثانية بالفتح. واعلم أن الذين مؤخر في اللفظ، مقدم في المعنى، لأن الدين حق عليه، والوصية حق له، وهما جميعاً مقدمان على حق الورثة إذا كانت الوصية في ثلث المال، و«أو» لا توجب الترتيب، إنما تدل على أن أحدهما إن كان، فالميراث بعده، وكذلك إن كانا^(٥).

(١) أي: برفع الهمزة.

(٢) قال الشوكاني في «فتح القدير» ٣٩٨/١: وقد أجمع أهل العلم على أن الاثنين من الأخوة يقومون مقام الثلاثة فصاعداً في حجب الأم إلى السدس، إلا ما يروى عن ابن عباس أنه جعل الاثنين كالواحد في عدم الحجب.

(٣) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» ٢٢٧/٦ من طريق إسحاق بن إبراهيم عن شابة عن ابن أبي ذئب عن شعبة مولى ابن عباس. قال ابن كثير ٤٥٩: وفي صحة هذا الأمر نظر، فإن شعبة هذا تكلم فيه مالك بن أنس، ولو كان هذا صحيحاً عن ابن عباس، لذهب إليه أصحابه الأخلاء به، والمنقول عنهم خلافه. وقد روى عبد الرحمن بن أبي الزناد عن خارجة بن زيد عن أبيه أنه قال: «الأخوان تسمى إخوة» وقد أفردت لهذه المسألة جزءاً على حدة. وفي «التقريب»: شعبة بن دينار الهاشمي مولى ابن عباس المدني: صدوق سيح الحفظ.

(٤) في «مجاز القرآن» ١١٨/١: «إفان كان له إخوة» أي: أخوان فصاعداً، لأن العرب تجعل لفظ الجمع على معنى الاثنين، قال الراعي: أخليد إن أباك ضاف وساده طرقتك همامي أقربهما...
هـُؤَانِ بَانَا جَنْبَةً وَخَيْلَا
قُلُوصاً لَوَاقِحَ كَالْقَسِي وَخُولَا

فجعل الاثنين في لفظ الجمع، وجعل الجميع في لفظ الاثنين. وقال المرتضى في «أماليه» ١٥٥/٢: فغير بالهامم، وهي جمع عن الهمين، وهما اثنان. وخليفة: ابنة الشاعر، والمعنى أن أحد الهمين بات جنبه، والآخر داخل جوفه.

(٥) أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وابن الجارود والدارقطني والبيهقي في =

الكلالة: من لا ولد له، رواه ابن عباس، عن عمر بن الخطاب، وهو قول طاووس. والثالث: أن الكلالة: ما عدا الوالد، قاله الحكم^(١). والرابع: أن الكلالة: بنو العم الأبعد، ذكره ابن فارس، عن ابن الأعرابي^(٢). واختلفوا على ما يقع اسم الكلالة على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اسم للحي الوارث، وهذا مذهب أبي بكر الصديق. وعامة العلماء الذين قالوا: إن الكلالة من دون الوالد والولد، فإنهم قالوا: الكلالة: اسم للورثة إذا لم يكن فيهم ولد ولا والد، قال بعض الأعراب: مالي كثير، ويرثني كلالة متراخ نسبهم^(٣). والثاني: أنه اسم للميت، قاله ابن عباس، والسدي، وأبو عبيدة في جماعة. قال القاضي أبو يعلى: الكلالة: اسم للميت، ولحاله، وصفته، ولذلك انتصب. والثالث: أنه اسم للميت والحي، قاله ابن زيد. وفيما أخذت منه الكلالة قولان: أحدهما: أنه اسم مأخوذ من الإحاطة، ومنه الإكليل، لإحاطته بالرأس. والثاني: أنه مأخوذ من الكلال، وهو التعب، كأنه يصل إلى الميراث من بُعد وإعياء. قال الأعشى:

فَالْكَيْتُ لَا أُرْسِي لَهَا مِنْ كِلَالَةٍ
وَلَا مِنْ حَفَى حَتَّى تَزُورَ مُحَمَّدًا^(٤)

قوله: ﴿لَا أُرْسِي لَهَا مِنْ كِلَالَةٍ﴾ يعني: من الأم بإجماعهم.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ﴾ قال قتادة: ذكرهم وأنثاهم فيه سواء.

قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَاكَرٍ﴾ قال الزجاج: «غير» منصوب على الحال، والمعنى: يوصي بها غير مضار، يعني: للورثة.

﴿وَلَكُمْ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾^(٥)

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ حُدُودُ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يريد ما حدَّ الله من فرائضه في الميراث ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في شأن الموارث ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ قرأ ابن عامر، ونافع: «ندخله» بالنون في الحرفين جميعاً، والباقون بالياء فيهما.

﴿وَمَنْ يَقِصَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَيَتَمَدَّدْ حُدُودُهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(٦)

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقِصَّ اللَّهُ﴾ فلم يرض بقسمه ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا﴾ فإن قيل: كيف قطع للعاصي بالخلود؟ فالجواب: أنه إذا رد حكم الله، وكفر به، كان كافراً مخلداً في النار.

﴿وَالَّذِينَ يَأْتِيكَ الْفِتْنَةُ مِنْ إِبْكَائِكُمْ فَأَتَشَبَّهُوا عَلَيْهِمْ أَزْوَاجٌ وَنُكْرًا لَكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأْصِقُوهُمْ فِي أَلْبُوتٍ حَتَّى يَتَوَقَّعَ الْمَوْتُ أَوْ يَجْمَلَ اللَّهُ لَهُمْ سَبِيلًا﴾^(٧)

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَأْتِيكَ الْفِتْنَةُ﴾ قال الزجاج: «التي» تجمع اللاتي واللواتي. قال الشاعر:

مِنْ اللَّوَاتِي وَالنَّسِي وَاللَّاتِي
زَعَمَنْ أَنِّي كَبِرْتُ لِإِدَاتِي^(٨)

وتجمع اللاتي بإثبات التاء وحذفها. قال الشاعر:

(١) ذكره ابن جرير ٥٨/٨ عنه.

(٢) ذكره في «معجم مقاييس اللغة» ١٢١/٥.

(٣) قوله: متراخ: أي بعيد نسبهم، من قولهم: تراخى فلان عني، أي: بعد عني. والخبر في الطبري ٦١/٨ عن العلاء بن زياد، قال: جاء شيخ إلى عمر رضي الله عنه، فقال: إني شيخ وليس لي وارث إلا كلالة أعراب متراخ نسبهم.

(٤) «ديوانه» ص ١٣٥ والبيت من قصيدة يمدح بها النبي ﷺ مطلعها:

أَلَمْ تَنْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا وَعَذَاكَ مَا عَادَ السُّلَيْمُ الْمُسْتَهْدَا

ولهذه القصيدة قصة مشهورة مودعها أن الأعشى خرج إلى النبي ﷺ يريد الإسلام، وقد أعدَّ له هذه القصيدة ليمدحه بها، وكان ذلك في المدة التي بين صلح الحديبية وفتح مكة، فلما بلغ مكة، وعرفت قريش ما قصد له، لم يزالوا ينفذون إليه الإسلام، ويحدثونه بأسوأ ما يقدرون عليه، ويغرونه بالمال حتى صدره عن وجهه بعد أن جمعوا له مائة ناقة حمراء، فقتل الأعشى راجعاً إلى البعثة، ثم لم يلبث أن مات من عامه. «الأغاني» ١٢٥/٩.

(٥) قال البغدادي في «خزانة الأدب» ٥٦٠/٢: لا أعرف ما قبله ولا قائله مع كثرة وجوده في كتب النحو، قلت: وهو في «الصحاح» و«اللسان» و«التاج» والقرطبي ٨٣/٥ وقوله: لداتي جمع: لدة، ولدة الرجل: تربيته الذي ولد معه قريباً.

من اللاتي لم يحججن يبغيين حِسبة
والفاحشة: الزنى في قول الجماعة. وفي قوله: ﴿فَاسْتَشِيرُوا عَلَيْهِنَّ﴾ قولان. أحدهما: أنه خطاب للأزواج.
والثاني: خطاب للحكام، فالمعنى: اسمعوا شهادة أربعة منكم، ذكرهما الماوردي. قال عمر بن الخطاب: إنما
جعل الله ﷻ الشهود أربعة سترًا مشتركاً به دون فواحشكم. ومعنى «منكم»: من المسلمين.
قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَكُمْ فِي الْبُيُوتِ﴾ قال ابن عباس: كانت المرأة إذا زنت، حبست في البيت حتى تموت،
فجعل الله ﷻ لها سبيلاً، وهو الجلد، أو الرجم^(١).

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنَّ كَذِبًا وَأَصْلَحًا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ نَوَّابًا حَكِيمًا﴾
قوله تعالى: ﴿وَالَّذَانِ﴾ قرأ ابن كثير: «واللذان» بتشديد النون، «وهذان» في (طه) و(الحج) و«هاتين» في
(القصاص): «إحدى ابنتي هاتين» و«فذانك» كله بتشديد النون. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي،
بتخفيف ذلك كله، وشدد أبو عمرو «فذانك» وحدهما. وقوله: «واللذان» يعني: الزانين. وهل هو عام، أم لا، فيه
قولان: أحدهما: أنه عام في الأيكار والثيب من الرجال والنساء، قاله الحسن، وعطاء. والثاني: أنه خاص في البكرين
إذا زنيا، قاله أبو صالح، والسدي، وابن زيد، وسفيان. قال القاضي أبو يعلى: والأول أصح، لأن هذا تخصيص بغير
دلالة.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَانِيَا﴾ يعني الفاحشة. قوله: ﴿فَأَذُوهُمَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الأذى بالكلام، والتعيير، رواه
أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والسدي، والضحاك، ومقاتل. والثاني: أنه التعيير، والضرب بالنعال، رواه
ابن أبي طلحة، عن ابن عباس. ﴿فَإِنَّ كَذِبًا﴾ من الفاحشة ﴿وَأَصْلَحًا﴾ العمل ﴿فَأَعْرِضُوا﴾ عن أذاهما. وهذا كله كان
قبل الحد.

فصل

كان حد الزانين، فيما تقدم، الأذى لهما، والحبس للمرأة خاصة، فنسخ الحكمان جميعاً، واختلفوا بماذا وقع
نسخهما، فقال قوم: بحديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال: «خلوا عني، خذوا عني، قد جعل الله ﷻ له
سبيلاً، الثيب بالثيب جلد مائة، ورجم بالحجارة، والبكر بالبكر جلد مائة، ونفي سنة^(٢)». وهذا على قول من يرى نسخ
القرآن بالسنة. وقال قوم: نسخ بقوله: ﴿أَرْأَيْتُمُ اللَّائِي يَأْتِيَانِيَا كُلٌّ مِنْهُمَا بِطَغْوَىٰ جَلْدٍ﴾ [النور: ٢] قالوا: وكان قوله: ﴿وَالَّذَانِ
يَأْتِيَانِيَا﴾ للبكرين، فنسخ حكمهما بالجلد، ونسخ حكم الثيب من النساء بالرجم^(٣). وقال قوم: يحتمل أن يكون النسخ
وقع بقرآن، ثم رفع رسمه، وبقي حكمه، لأن في حديث عبادة «قد جعل الله ﷻ له سبيلاً» والظاهر: أنه جعل بوحى لم
تستقر تلاوته. قال القاضي أبو يعلى: وهذا وجه صحيح، يخرج على قول من لم ينسخ القرآن بالسنة. قال: ويمتنع أن
يقع النسخ بحديث عبادة، لأنه من أخبار الآحاد، والنسخ لا يجوز بذلك.

(١) البيت في «مجاز القرآن» ١/ ١٢٥ منسوب إلى عمر بن أبي ربيعة، وليس في «ديوانه».

(٢) أخرجه ابن جرير ٧٤/ ٨، وابن المنذر، والنحاس في «ناسخه» ٩٨، والبيهقي في «سننه» من طريق علي بن طلحة عن ابن عباس. وعلي بن طلحة
- كما في «التهذيب» - روى عن ابن عباس، ولم يسمع منه، ورواه أبو داود ٢٠٢/ ٤ من طريق عكرمة عن ابن عباس، وفي سننه علي بن واقد، قال
المنذري: وفيه مقال.

(٣) روى الإمام أحمد في «المسند» ٣١٨/ ٥، والشافعي في «الرسالة» ١٢٩، ٢٤٧، ومسلم في «صحيحه» ١٣١٦/ ٣، وأبو داود ٢٠٢/ ٤ عن عبادة بن
الصامت ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ «خلوا عني، خلوا عني، قد جعل الله ﷻ له سبيلاً» البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة
والرجم» هذا لفظ مسلم.

(٤) قال الإمام الخطابي في «معالم السنن» ٢٤١/ ٦: واختلف العلماء في تنزيل هذا الكلام - يريد الحديث السابق - ووجه ترتبه على الآية، وهل هو ناسخ
للآية أم مبين لها؟ فذهب بعضهم إلى النسخ، وهذا على قول من يرى نسخ الكتاب بالسنة، وقال آخرون: بل هو مبين للحكم الموعود بيانه في الآية،
فكانه قال: عقوبتهن الحبس إلى أن يجعل الله ﷻ له سبيلاً، فوقع الأمر بحبسهن إلى غاية، فلما انتهت مدة الحبس، وحان وقت مجيء السبيل، قال
رسول الله ﷺ «خلوا عني تفسير السبيل وبيانه»، ولم يكن ذلك ابتداء حكم منه، وإنما هو بيان أمر كان ذكر السبيل منطوقاً عليه، فأبان المجهول منه،
وفصل المجهول من لفظه، فكان نسخ الكتاب بالكتاب لا بالسنة، وهذا أصوب القولين. والله أعلم.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يُبُوذُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٧)

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾ قال الحسن: «إنما التوبة التي يقبلها الله». فأما «السوء»، فهو المعاصي، سمي سوءاً لسوء عاقبته.

قوله تعالى: ﴿بِجَهْلَةٍ﴾ قال مجاهد: كل عاصٍ فهو جاهل حين معصيته^(١). وقال الحسن، وعطاء، وقتادة، والسدي في آخرين: إنما سُموا جهالاً لمعاصيهم، لا أنهم غير مُميزين. وقال الزجاج: ليس معنى الآية أنهم يجهلون أنه سوء، لأن المسلم لو أتى ما يجهله، كان كمن لم يوقع سوءاً، وإنما يحتمل أمرين: أحدهما: أنهم عملوه، وهم يجهلون المكروه فيه. والثاني: أنهم أقدموا على بصيرة وعلم بأن عاقبته مكروهه، وآثروا العاجل على الآجل، فسموا جهالاً، لإيثارهم القليل على الراحة الكثيرة، والعاقبة الدائمة. وفي «القريب» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه التوبة في الصحة، رواه أبو صالح، عن ابن عباس، وبه قال السدي، وابن السائب. والثاني: أنه التوبة قبل معاينة ملك الموت. رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه قال أبو مجلز. والثالث: أنه التوبة قبل الموت، وبه قال ابن زيد في آخرين^(٢).

﴿وَلَيْسَ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ أَتَى وَلَا الَّذِينَ يُمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ أَعْتَذَرُوا لَكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٨)

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ في السيئات ثلاثة أقوال: أحدها: الشرك، قاله ابن عباس، وعكرمة. والثاني: أنها النفاق، قاله أبو العالية، وسعيد بن جبيرة. والثالث: أنها سيئات المسلمين، قاله سفيان الثوري، واحتج بقوله: ﴿وَلَا الَّذِينَ يُمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا﴾.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ في الحضور قولان: أحدهما: أنه السوق^(٣)، قاله ابن عمر. والثاني: أنه معاينة الملائكة لقبض الروح، قاله أبو سليمان الدمشقي. وقد روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال: أنزل الله تعالى بعد هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية [النساء: ١١٦]. فحرم المغفرة على من مات مشركاً، وأرجأ أهل التوحيد إلى مشيئته [فلم يؤسهم من المغفرة]^(٤). فعلى هذا تكون منسوخة في حق المؤمنين.

﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْثُوا النِّسَاءَ كَرَّمًا وَلَا تَصْلُوهُنَّ لِيَتَذَكَّرْنَ مَّا ءَنذَرْتُهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِغَيْرِ مَبْنًى وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَ أَنْ تَكُونُوا سَيِّئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَبَرًا كَثِيرًا﴾ (١٩)

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْثُوا النِّسَاءَ كَرَّمًا﴾ سبب نزولها: أن الرجل كان إذا مات، كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شأوا زوجها، وإن شأوا لم يزوجوها، فنزلت هذه الآية. قاله ابن عباس^(٥). وقال في رواية أخرى: كانوا في أول الإسلام إذا مات الرجل، قام أقرب الناس منه، فيُلقي على امرأته ثوباً، فيرث نكاحها. وقال مجاهد: كان إذا توفي الرجل، فابنه الأكبر أحق بامرأته، فينكحها إن شاء، أو يُنكحها من شاء. وقال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: لما توفي أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوج امرأته من بعده، وكان ذلك لهم في الجاهلية، فنزلت

(١) في «الطبري» ٨٩/٨ من طريق عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر عن قتادة قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾ قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عصي به، فهو جهالة عمدًا كان أو غيره. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير ٨٩/٨ وابن المنذر عن أبي العالية، أنه كان يحدث أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو بجهالة. وسنده صحيح.

(٢) روى الإمام أحمد عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغ» ورواه الترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب، ورواه الحاكم ٢٥٧/٤، وصححه، ووافقه الذهبي. ورواه الإمام أحمد والحاكم مطولاً من حديث عبد الرحمن اليلماني، قال الهيثمي في «المجمع» ١٩٧/١٠: ورجال رجال الصحيح غير عبد الرحمن وهو ثقة.

(٣) يقال: حضرت فلاناً في السوق، وفي سياق الموت، أي: في النزح عند إقبال الموت.

(٤) الأثر أخرجه ابن جرير ١٠١/٨ والزبادة منه، وأبو داود في «ناسخه»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٥) الأثر رواه البيهقي في «صحيحه» ١٨٤/٨، ١٨٦ ولفظه: «كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شأوا زوجها، وإن شأوا لم يزوجوها، وهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك» ورواه ابن جرير ١٠٤/٨، وأبو داود في «سننه» ٣١٠/٢.

هذه الآية^(١). قال عكرمة: واسم هذه المرأة: كيشة بنت معن بن عاصم، وكان هذا في العرب. وقال أبو مجلز: كانت الأنصار تفعله. وقال ابن زيد: كان هذا في أهل المدينة. وقال السدي: إنما كان ذلك للأولياء ما لم تسبق المرأة، فتذهب إلى أهلها، فإن ذهبت، فهي أحق بنفسها. وفي معنى قوله: «أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا» قولان: أحدهما: أن ترثوا نكاح النساء، وهذا قول الجمهور. والثاني: أن ترثوا أموالهن كرهاً. روى ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، قال: كان يلقي حميم^(٢) الميت على الجارية ثوباً، فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت، فبرئها^(٣). واختلف القراء في فتح كاف «الكره» وضمها في أربعة مواضع: هاهنا، وفي (التوبة) وفي (الأحقاف) في موضعين، فقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو بفتح الكاف فيهن، وضمنهن حمزة. وقرأ عاصم، وابن عامر بالفتح في (النساء) و(التوبة)، وبالضم في (الأحقاف). وهما لغتان، قد ذكرناهما في (البقرة). وفيمن خوطب بقوله: «وَلَا تَقْرَبُوا» ثلاثة أقوال. أحدها: أنه خطاب للأزواج، ثم في العضل الذي نهى عنه ثلاثة أقوال: أحدها: أن الرجل كان يكره صحبة امرأته، ولها عليه مهر، فيحبسها، ويضربها لتفتدي، قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي. والثاني: أن الرجل كان ينكح المرأة الشريفة، فلعلها لا توافق، فيفارقها على أن لا تتزوج إلا بإذنه، ويشهد على ذلك، فإذا خطبت، فأرضته، أذن لها، وإلا عضلها، قاله ابن زيد. والثالث: أنهم كانوا بعد الطلاق يعضلون، كما كانت الجاهلية تفعل، فنهوا عن ذلك، روي عن ابن زيد أيضاً. وقد ذكرنا في (البقرة) أن الرجل كان يطلق المرأة، ثم يراجعها، ثم يطلقها كذلك أبداً إلى غير غاية يقصد إضرارها، حتى نزلت «أَطْلِقُوا مَرْأَتَكُمْ» [البقرة: ٢٢٩]. والقول الثاني: أنه خطاب للأولياء، ثم في ما نهوا عنه ثلاثة أقوال: أحدها: أن الرجل كان في الجاهلية إذا كانت له قرابة قريبة، ألقى عليها ثوبه، فلم تتزوج أبداً غيره إلا بإذنه، قاله ابن عباس. والثاني: أن اليتيمة كانت تكون عند الرجل، فيحبسها حتى تموت، أو تتزوج بابنه، قاله مجاهد. والثالث: أن الأولياء كانوا يمنعون النساء من التزويج، ليرثوهن، روي عن مجاهد أيضاً. والقول الثالث: أنه خطاب لورثة أزواج النساء الذين قيل لهم: لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً. كان الرجل يرث امرأة قريبة، فيعضلها حتى تموت، أو تردّ عليه صداقها. هذا قول ابن عباس في آخرين^(٤). وعلى هذا يكون الكلام متصلاً بالأول، وعلى الأقوال التي قبله يكون ذكر العضل منفصلاً عن قوله: «أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ». وفي الفاحشة قولان: أحدهما: أنها النشوز على الزوج، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وقتادة في جماعة. والثاني: الزنى، قاله الحسن، وعطاء، وعكرمة في جماعة. وقد روى معمر، عن عطاء الخراساني، قال: كانت المرأة إذا أصابت فاحشة، أخذ زوجها ما ساق إليها، وأخرجها، فنسخ ذلك بالحد. قال ابن جرير: وهذا القول ليس بصحيح، لأن الحد حق الله، والافتداء حق للزوج، وليس أحدهما مبطلاً للآخر، والصحيح: أنها إذا أتت بأي فاحشة كانت، من زنى الفرج، أو بذاة اللسان، جاز له أن يعضلها، ويضيق عليها حتى تفتدي^(٥). فأما قوله: «فَبِمَا نَسَنَ» فقرأ ابن كثير، وأبو بكر، عن عاصم: «مُيَبَّنة»، و«آيَات مَيِّنَات» بفتح الياء فيهما جميعاً. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص، عن عاصم: بكسر الياء فيهما، وقرأ نافع، وأبو عمرو «مبينة» كسراً و«آيات مبيّنات» فتحاً. وقد سبق ذكر «العشرة».

(١) أخرجه ابن جرير ١٠٥/٨ وابن مردويه، ورجال إسناده ثقات. (٢) الحميم: القريب الذي توده ويودك، وتهتم لأمره.

(٣) في الأصل «دميمة» وما أثبتناه هو الصواب، والخبر رواه ابن جرير ١٠٩/٨.

(٤) اختار الإمام أبو جعفر الطبري في «تفسيره» ١١٣/٨ القول الأول فقال بعد أن ذكر أقوال السلف في الآية: وأولى هذه الأقوال التي ذكرناها بالصحة في تأويل قوله: «وَلَا تَقْرَبُوا» يَتَّبِعُونَ مَا نَشَاءُ مِنْهُنَّ قول من قال: نهى الله جل ثناؤه زوج المرأة عن التضيق عليها، والإضرار بها، وهو لصحتها كاره ولزوها بالتضيق عليها، وحبسها على نفسه وهو لها كاره، مضارة منه لها بذلك، ليأخذ منها ما آتاها بافتدائها منه نفسها بذلك، أو لولائها الذي إليه إنكاحها، وإذا كان لا سبيل إلى عضلها لأحد غيرهما، وكان الولي معلوماً أنه ليس مما آتاها شيئاً، فيقال: إن عضلها عن النكاح: «عضلها» ليذهب ببعض ما آتاها، كان معلوماً أن الذي عنى الله تبارك وتعالى بنهيه عن عضلها، هو زوجها الذي له السبيل إلى عضلها ضراراً لتفتدي منه.

(٥) قال أبو جعفر: فمعنى الآية: ولا يحل لكم أيها الذين آمنوا أن تعضلوا نساءكم، فتضيّقوا عليهن، وتمنعوهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، لتهبوا ببعض ما آتيتهم من صدقاتكم، إلا أن آتين بفاحشة - من زنى، أو بذاة عليكم، وخلاف لكم فيما يجب عليهن لكم - مبينة ظاهرة، فيحل لكم حبسهن عضلهن والتضييق عليهن، لتهبوا ببعض ما آتيتهم من صدقات إن هن أفتدين منكم به.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يُعْمَضْ عَلَيْهِ عَنْ صَدِيقِهِ﴾ قال ابن عباس: ربما رزق الله منهما ولداً، فجعل الله في ولدها خيراً كثيراً. وقد نذبت الآية إلى إمساك المرأة مع الكراهة لها، وبُيِّت على معنيين: أحدهما: أن الإنسان لا يعلم وجوه الصلاح، فرب مكروه عاد محموداً، ومحمود عاد مذموماً. والثاني: أن الإنسان لا يكاد يجد محبوباً ليس فيه ما يكره، فليصبر على ما يكره لما يُجِبُّ^(١). وأنشدوا في هذا المعنى:

وَمَنْ لَمْ يُعْمَضْ عَلَيْهِ عَنْ صَدِيقِهِ وعن بعض ما فيه يُمُتْ وهو عاتِبُ
وَمَنْ يَتَّبِعْ جَاهِداً كُلَّ عَثْرَةٍ يجدها ولا يسلم له الدُّفْرَ صَاحِبُ
﴿إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْتَبِّدَالَ زَوْجٍ مَكَارٍ زَوْجٌ وَمَا تَنْتَبِهْنَ لِتَعْتَارَا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بِهَيْئَتِكُمْ وَإِنَّمَا كُنْتُمْ فِي آلِ عِمْرَانَ﴾ قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْتَبِّدَالَ زَوْجٍ﴾ هذا الخطاب للرجال. والزوج: المرأة. وقد سبق ذكر «الفنطار» في (آل عمران).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً﴾ إنما ذلك في حق من وطنها، أو خلا بها، وقد بيَّنت ذلك الآية التي بعدها. قال القاضي أبو يعلى: وإنما خصّ النهي عن أخذ شيء مما أعطى بحال الاستبدال، وإن كان المنع عاماً، لئلا يظن ظان أنه لما عاد البضع إلى ملكها، وجب أن يسقط حقها من المهر، أو يظن ظان أن الثانية^(٢) أولى بالمهر منها، لقيامها مقامها. وفي البهتان قولان: أحدهما: أنه الظلم، قاله ابن عباس، وابن قتيبة. والثاني: الباطل، قاله الزجاج. ومعنى الكلام: أناخذونه مباحتين آثمين.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾ أي: كيف تستجيزون أخذه. وفي «الإفضاء» قولان: أحدهما: أنه الجماع، قاله ابن عباس، ومجاهد، والسدي، ومقاتل، وابن قتيبة. والثاني: الخلوة بها، وإن لم يغشها، قاله الفراء. وفي المراد بالميثاق هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الذي أخذه الله للنساء على الرجال؛ الإمساك بمعروف، أو التسريح بإحسان. هذا قول ابن عباس، والحسن، وابن سيرين، وقتادة، والضحاك، والسدي، ومقاتل. والثاني: أنه عقد النكاح، قاله مجاهد، وابن زيد. والثالث: أنه أمانة الله، قاله الربيع.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ بَنَاتِكُمْ وَإِنَّكُمْ لَتَكُنَّ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ بَنَاتِكُمْ﴾ قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يحرّمون ما حرّم الله إلا امرأة الأب، والجمع بين الأخنتين، فنزلت هذه الآية^(٣): وقال بعض الأنصار: توفي أبو قيس بن الأسلت، فخطب ابنه قيس امرأته، فأنت النبي ﷺ تستأذنه، وقالت: إنما كنت أعده ولداً، فنزلت هذه الآية. قال أبو عمر غلام ثعلب: الذي حصلناه عن ثعلب، عن الكوفيين، والمبرد عن البصريين، أن «النكاح» في أصل اللغة: اسم للجمع بين الشيئين. وقد سماوا الوطء نفسه نكاحاً من غير عقد. قال الأعشى:

وَمِنْكَوْحَةٍ غَيْرِ مَمْهُورَةٍ^(٤)

يعني المسبية الموطوءة بغير مهر ولا عقد. قال القاضي أبو يعلى: قد يطلق النكاح على العقد، قال الله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثَرَ مَلَائِكَتُهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْكِحَهُنَّ﴾ [الاحزاب: ٤٩] وهو حقيقة في الوطء، مجاز في العقد، لأنه اسم للجمع، والجمع إنما يكون بالوطء، فسمي العقد نكاحاً، لأنه سبب إليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: أنها بمعنى: بعد ما قد سلف، فإن الله يغفره، قاله الضحاك، والمفضل. وقال الأخفش: المعنى: لا تنكحوا ما نكح آبائكم، فإنكم تعذبون به، إلا ما قد سلف، فقد وضعه الله عنكم. والثاني: أنها بمعنى: سوى ما قد سلف، قاله الفراء. والثالث: أنها بمعنى: لكن ما قد سلف فدعوه،

(١) في «صحيح مسلم» ١٠٩/٢ عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقت أو رضي منها آخر» أو قال: «غيره» والفرك: البغض.

(٢) في النسخة الأحمدية: «الباينة» وهو خطأ. (٣) أخرجه ابن جرير ١٣٣/٨ وسنده حسن.

(٤) «ديوانه» ص ٧٥ وعجزه: وأخرى يقال له: فادها. يقول: كم في بيته من مبيّة قد أحرزها لم يدفع فيها مهراً، وأخرى يطلب أهلها أن يفتدوها بالمال.

قوله تعالى: ﴿رَبِّبْتُكُمْ﴾ الربية: بنت امرأة الزوج من غيره. ومعنى الربية: مربوبة، لأن الرجل يربّيها، وخرج الكلام على الأعم من كون التربية في حجر الرجل، لا على الشرط^(١). قوله: ﴿وَكَلَّكُمُ آبَاكُمْ﴾ قال الزجاج: الحلائل: الأزواج. وحليلة: بمعنى مُحَلَّةٌ، وهي مشتقة من الحلال. وقال غيره: سُميت بذلك، لأنها تحل معه أينما كان. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي، قال: الحليل: الزوج، والحليلة: المرأة، وسُمّيَا بذلك، إما لأنهما يحلان في موضع واحد، أو لأن كل واحد منهما يحال صاحبه، أي: ينزله، أو لأن كل واحد منهما يحل^(٢) إزار صاحبه. قوله: ﴿الَّذِينَ مِنْ أُمَّكُمُ﴾ قال عطاء: إنما ذكر الأصلاب، لأجل الأديعاء. والكلام في قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ على نحو ما تقدم في الآية التي قبلها. وقد زادوا في هذا قولين آخرين: أحدهما: إلا ما قد سلف من أمر يعقوب عليه السلام، لأنه جمع بين أم يوسف وأختها، وهذا مروي عن عطاء، والسدي، وفيه ضعف لوجهين: أحدهما: أن هذا التحريم يتعلق بشريعتنا، وليس كل الشرائع تتفق، ولا وجه للعفو عنا فيما فعله غيرنا. والثاني: أنه لو طولب قائل هذا بتصحيح نقله، لعسر عليه. والقول الثاني: أن تكون فائدة هذا الاستثناء أن العقود المتقدمة على الأختين لا تنسخ، ويكون للإنسان أن يختار إحداهما، ومنه حديث فيروز الديلمي قال: أسلمت وعندي أختان، فاتيت النبي ﷺ فقال: «طلق إحداهما» ذكره القاضي أبو يعلى^(٣).

﴿وَالنَّصْنُكُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْتُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَزَّاهُ ذَلِكَ أَنْ تَتَّخِذُوا بِأَمْوَالِكُمْ تَحْمِيلِينَ عَيْرَ مُسْتَفِيدِينَ فَمَا اسْتَمْتَمْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَتَأْوَنُوا أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَالنَّصْنُكُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أما سبب نزولها، فروى أبو سعيد الخدري قال: أصبنا سبايا يوم أوطاس لهن أزواج، فكرهنا أن نقع عليهن، فسالنا النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية، فاستحللناهن^(٤). وأما خلاف الفراء، فقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحزمة بفتح الصاد في كل القرآن، وفتح الكسائي الصاد في هذه وحدها، وقرأ سائر القرآن بالكسر، والمحصنات: ومحصنات. قال ابن قتيبة: والإحصان: أن يحمي الشيء، ويمنع منه، فالمحصنات [من النساء]: ذوات الأزواج، لأن الأزواج أحصنوهن، ومنعوا منهن. [قال الله تعالى: ﴿وَالنَّصْنُكُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْتُكُمْ﴾] والمحصنات: الحرائر وإن لم يكن متزوجات، لأن الحرية تُحصَن وتُحصن، وليست كالامة، [قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾] [النساء: ٢٥] قال: ﴿فَمَلَّتَيْنِ يَصِفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] يعني: الحرائر والمحصنات: العفاف [قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْتُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾] [النور: ٤] يعني العفاف. وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَيْتُكُمْ عَمْرُنَ أَلَيْحَ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم: ١٢] أي: عفت^(٥). وفي المراد بالمحصنات هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: ذوات الأزواج، وهذا قول ابن عباس، وسعيد بن المسيب، والحسن، وابن جبير، والنخعي، وابن زيد، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج. والثاني: العفاف: فإنهن حرام على الرجال إلا بعقد نكاح، أو ملك يمين. هذا قول عمر بن الخطاب، وأبي العالية، وعطاء، وعبيدة، والسدي.

(١) قال الإمام الطحاوي: وإضافتهن إلى الحجور إنما ذلك على الأغلب مما يكون عليه الرقاب، لا أنهن لا يحرمن إذ لم يكن كذلك.

(٢) في نسخة الأحمدية «محل» وكذلك جاءت في «اللسان».

(٣) رواه الإمام أحمد ٢٣٢/٤ وأبو داود ١٥٨/٣ والترمذي ٤٣٦/٣ وابن ماجه ٦٢٧/١ عن الضحاك بن فيز عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، إني أسلمت وتحتي أختان! قال: «طلق أيتهما شئت» ولفظ الترمذي: «اختر أيتهما شئت» وقال الترمذي: حديث حسن. وقال الحافظ ابن حجر في «الإصابة» ٢٠٥/٣: وفي سنده مقال، فإنه من رواية ابن لهيعة عن أبي وهب. وقال ابن القيم في «تهذيب السنن» ١٥٨/٣: هذا الحديث يرويه أبو وهب الجيثاني عن الضحاك بن فيز عن أبيه، قال البخاري: في إسناده هذا الحديث نظر، وجه قوله: أن أبا وهب والضحاك مجهول حالهما، وفي يحيى بن أيوب: ضعيف. وقال الشوكاني: حديث الضحاك أخرجه أيضاً الشافعي، وصححه ابن حبان، والدارقطني، والبيهقي، وحسنه الترمذي، وأعله البخاري والمقبلي.

وفيز الديلمي روى هذا الحديث، كان من جملة الأمراء باليمن الذين ولوا قتل الأسود العنسي لعنه الله.

(٤) المسند ٧١/٣، ومسلم ١٠٧٩/٢، والترمذي ٨٦/٤، وأبو داود ٣٣٢/٢، والنسائي ١١٠/٦، والبيهقي ١٦٧/٧.

(٥) «مشكل القرآن» ٣٩١، وما بين معقنين منه.

والثالث: الحرائر، فالمعنى: أنهن حرام بعد الأربع اللواتي ذُكرن في أول السورة، روي عن ابن عباس، وعبيدة. فعلى القول الأول في معنى قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ قولان: أحدهما: أن معناه: إلا ما ملكت أيمانكم من السبايا في الحروب، وعلى هذا تأول الآية علي، وعبد الرحمن بن عوف، وابن عمر، وابن عباس، وكان هؤلاء لا يرون بيع الأمة طلاقاً. والثاني: إلا ما ملكت أيمانكم من الإماء ذوات الأزواج، بسبي أو غير سبي، وعلى هذا تأول الآية ابن مسعود، وأبي بن كعب، وجابر، وأنس، وكان هؤلاء يرون بيع الأمة طلاقاً. وقد ذكر ابن جرير، عن ابن عباس، وسعيد بن المسيب، والحسن أنهم قالوا: بيع الأمة طلاقها، والأول أصح، لأن النبي ﷺ خير بريرة إذ اعتقها عائشة، بين المقام مع زوجها الذي زوّجها منه سادتها في حال رقها، وبين فراقه، ولم يجعل النبي ﷺ عتق عائشة إياها طلاقاً، ولو كان طلاقاً لم يكن لتخييره إياها معنى. ويدل على صحة القول الأول ما ذكرناه من سبب نزول الآية^(١). وعلى القول الثاني: العفاف حرام إلا بملك، والملك يكون عقداً، ويكون ملك يمين. وعلى القول الثالث: الحرائر حرام بعد الأربع إلا ما ملكت أيمانكم من الإماء، فإنهن لم يُحصرن بعد.

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ قال الزجاج: هو منصوب على التوكيد، محمول على المعنى، لأن معنى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَمْهَاتُكُمْ﴾: كتب الله عليكم هذا كتاباً، قال: ويجوز أن ينتصب على جهة الأمر، ويكون «عليكم» مفسراً له، فيكون المعنى: الزموا كتاب الله. قال: ﴿وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَدَّاءَ ذَلِكَ﴾ أي: ما بعد هذه الأشياء، إلا أن السنة قد حرمت تزويج المرأة على عمتها، وتزويجها على خالتها^(٢) وقرأ ابن السميع، وأبو عمران: «كتب الله عليكم» بفتح الكاف، والتاء، والباء، من غير ألف، ورفع الهاء. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: وأحلّ بفتح الحاء، وقرأ حمزة، والكسائي: بضم الألف.

فصل

قال شيخنا علي بن عبيد الله: وعامة العلماء ذهبوا إلى أن قوله: ﴿وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَدَّاءَ ذَلِكَ﴾ تحليل ورد بلفظ العموم، وأنه عموم دخله التخصيص، والمخصص له نهى النبي ﷺ أن تنكح المرأة على عمتها، أو على خالتها. وليس هذا على سبيل النسخ. وذهب طائفة إلى أن التحليل المذكور في الآية منسوخ بهذا الحديث^(٣).

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ أي: تطلبوا إنا بصدقات في نكاح، أو ثمن في ملك «مُحْصِنِينَ» قال ابن قتيبة: متزوجين، وقال الزجاج: عاقدين التزويج، وقال غيرهما: متعقّفين غير زانين. والسفاح: الزنى، قال ابن قتيبة: أصله من سفحت القرية: إذا صببته، فسُمي الزنى سفاحاً، لأنه [يسافح] يصب النطفة، وتصب المرأة النطفة. وقال ابن فارس: السفاح: صب الماء بلا عقد، ولا نكاح، فهو كالشيء يسفح ضياعاً.

قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الاستمتاع في النكاح بالمهور، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والجمهور. والثاني: أنه الاستمتاع إلى أجل مُستَمّى من غير عقد نكاح. وقد روي عن

(١) قال ابن كثير: ٤٧٤/١: وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن بيع الأمة يكون طلاقاً من زوجها، أخذاً بعموم هذه الآية، وقد خالفهم الجمهور قديماً وحديثاً، فرأوا أن بيع الأمة ليس طلاقاً لها، لأن المشتري نائب عن البائع، والبائع كان قد أخرج عن ملكه هذه المنفعة، وباعها مسلوية عنها، واعتمدوا في ذلك على حديث بريرة المخرج في «الصحيحين» وغيرهما، فإن عائشة أم المؤمنين اشترتها واعتقها، ولم يفسخ نكاحها من زوجها مغيث، بل خيرها رسول الله ﷺ بين الفسخ والبقاء، فاختارت الفسخ، وقصتها مشهورة، فلو كان بيع الأمة طلاقاً كما قال هؤلاء، ما خيرها النبي ﷺ، فلما خيرها دل على بقاء النكاح، وأن المراد من الآية المبيعات فقط، والله أعلم.

(٢) حديث «نهى رسول الله ﷺ أن يجمع الرجل بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها» رواه البخاري ١٠٧/٢٠، بشرح العيني، ومسلم ١٠٢٩/٢ وغيرهما عن أبي هريرة.

(٣) والأول هو الصواب، لأن قوله تعالى: ﴿وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَدَّاءَ ذَلِكَ﴾ عام مخصوص بمحرمات دلت عليها دلائل أخر، فمن ذلك ما صح عن النبي ﷺ من النهي عن الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها. وقد حكى الترمذي المنع من ذلك عن كافة أهل العلم، وقال: لا تعلم بينهم اختلافاً في ذلك، ومن ذلك نكاح المعتدة، ومن ذلك أن من كان في نكاحه حرة لا يجوز له نكاح الأمة، ومن ذلك القادر على الحرة لا يجوز له نكاح الأمة، ومن ذلك من عنده أربع زوجات لا يجوز له نكاح الخامسة، ومن ذلك الملاعة فإنها محرمة على الملاعن أبداً. فالآية مما نزل عاماً، ودلت السنة ومواضع من التزيل على أنها مخصصة بغيرها.

ابن عباس: أنه كان يفتي بجواز المتعة، ثم رجع عن ذلك وقد تكلف قوم من مفسري القرآن، فقالوا: المراد بهذه الآية نكاح المتعة، ثم نسخت بما روي عن النبي ﷺ أنه نهى عن متعة النساء، وهذا تكلف لا يحتاج إليه، لأن النبي ﷺ أجاز المتعة، ثم منع منها، فكان قوله منسوخاً بقوله^(١). وأما الآية، فإنها لم تتضمن جواز المتعة. لأنه تعالى قال فيها: ﴿أَنْ تَسْتَوُوا بِأَمْوَالِكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَمْوَالِكُمْ﴾ فدل ذلك على النكاح الصحيح. قال الزجاج: ومعنى قوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ فما نكحتموهن على الشريطة التي جرت، وهو قوله: ﴿تَحْصِينَ عَيْرَ مَسْفِيحِينَ﴾ أي: عاقدين التزويج ﴿فَقَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن. ومن ذهب في الآية إلى غير هذا، فقد أخطأ، وجهل اللغة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا زَوَّجْتُمْ بِهِ مِنْ بَيْنِ الْفَرِيقَةِ﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: أن معناه: لا جناح عليكم فيما تركته المرأة من صداقتها، ووهبه لزوجها، هذا مروى عن ابن عباس، وابن زيد. والثاني: لا جناح عليكم فيما تراضيت به من مقام، أو فرقة بعد أداء الفريضة، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: لا جناح عليكم أيها الأزواج إذا أعسرتم بعد الفرض لنسائكم فيما تراضيت به من أن ينقصكم، أو يُبرئكم، قاله أبو سليمان التيمي. والرابع: لا جناح عليكم إذا انقضى أجل المتعة أن يزدنكم في الأجل، وتزيدونهن في الأجر من غير استبراء، قاله السدي، وهو يعود على قضة المتعة. والخامس: لا جناح عليكم أن تهب المرأة للرجل مهرها، أو يهب هو للتي لم يدخل بها نصف المهر الذي لا يجب عليه. قاله الزجاج. والسادس: أنه عام في الزيادة، والنقصان، والتأخير، والإبراء، قاله القاضي أبو يعلى^(٢).

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْحَصَنَ الْمُؤْمِنَةَ فِيمَنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَمِنْ فَتَنِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفَحَاتٍ وَلَا مُنْجَذَبَاتٍ أَذْنًا فَإِذَا أَحْبَبْنَ فَإِنْ أَتَيْتُمْ بِغَضَبٍ فَلْيَنْكِحْنَهُنَّ بِغَضَبٍ مَا عَلَى الْحَصَنَاتِ مِنَ الْمَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْمُنْتَنَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا﴾ «الطول» الغنى والسعة في قول الجماعة. و«المحصنات»: الحرائر. قال-

(١) عامة فقهاء الأمصار، وجماهير السلف والخلف على تحريم المتعة، وأنها منسوخة بعد الترخيص بها، وقد ثبت النسخ من حديث جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم، فقد أخرج مسلم ١٠٢٥/٢ من حديث سيرة الجني أنه كان مع رسول الله ﷺ، فقال: يا أيها الناس إني قد كنت أذنت في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة وفي لفظ له قال: أمرنا رسول الله ﷺ بالمتعة عام الفتح حين دخلنا مكة، ثم لم نخرج منها حتى نهانا عنها.

وفي البخاري ١١١/٢٠ بشرح العيني، ومسلم ١٠٢٧/٢ والترمذي ١٣٣/١، وابن ماجه ٦٣٠/١ عن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ نهى عن نكاح المتعة يوم خيبر، وعن لحوم الحمر الأهلية. قال الترمذي: والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، وإنما روي عن ابن عباس شيء من الرخصة في المتعة، ثم رجع عن قوله حيث أخبر عن النبي ﷺ، وأمر أكثر أهل العلم على تحريم المتعة، وهو قول الثوري وابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق. وروى مسلم ١٠٢٣/٢ عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: رخص رسول الله ﷺ عام أوطاس في المتعة ثلاثاً، ثم نهى عنها. وأخرج ابن ماجه ٦٣١/١ عن ابن عمر قال: لما ولي عمر بن الخطاب خطب الناس فقال: إن رسول الله ﷺ أذن لنا في المتعة ثلاثاً، ثم حرمها، والله لا أعلم أحداً يمنع ولا رجعت بالحجارة. قال الحافظ في «التلخيص» ٢/٢٩٤: إسناده صحيح.

وروى الطبراني في «الأوسط» بسند قوي كما قال الحافظ من طريق إسحاق بن راشد عن الزهري عن سالم قال: أتني ابن عمر فقيل له: إن ابن عباس يأمر بنكاح المتعة، قال: معاذ الله ما أظن ابن عباس يفعل هذا، فقيل: بلى! قال: وهل كان ابن عباس على عهد رسول الله ﷺ إلا غلاماً صغيراً، ثم قال ابن عمر: نهانا عنها رسول الله ﷺ وما كنا مسانحين. وذكره الهيثمي في «المجمع» ٤/٦٢٥، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله رجال الصحيح، خلا المعاني بن سليمان وهو ثقة.

وروى الدارقطني في «مسننه» ٢/٢٩٨ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: حرم أو هدم المتعة النكاح والطلاق والمعدة والميراث. قال الحافظ في «التلخيص»: وإسناده حسن، وله شاهد صحيح أخرجه البيهقي في «السنن» ٧/٢٠٧ عن سعيد بن المسيب. وقال الشوكاني في «نيل الأوطار» ٦/٢٧٤: ونحن متعبدون بما بلغنا عن الشارع، وقد صح لنا عنه التحريم المؤبد، ومخالفة طائفة من الصحابة له غير قاذحة في حجته، ولا قائمة لنا بالمعذرة عن العمل به، كيف والجمهور من الصحابة قد حفظوا التحريم، وعملوا به، ورووه لنا.

(٢) قال أبو جعفر الطبري بعد أن ذكر أقوال السلف والعلماء: ٨/١٨١: وأولى هذه الأقوال بالصواب، قول من قال: معنى ذلك: ولا حرج عليكم أيها الناس فيما تراضيت به أتم ونسأكم من بعد إصطائهم أجورهن على النكاح الذي جرى بينكم وبينهن من حطاً ما وجب لهن عليكم أو إبراء أو تأخير ووضع، وذلك نظير قوله جل ثناؤه: ﴿وَأُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُ اللَّهُ إِنَّ بَيْنَ لَكُمْ مِنْ نَحْنٍ إِنَّهُ لَكُلُّهُنَّ مَبْكِيَةً﴾ [النساء: ٤٤]. فاما الذي قاله السدي، فنقول لا معنى له، لفساد القول: بإحلال جماع امرأة بغير نكاح ولا ملك يمين.

الزجاج: والمعنى: من لم يقدر على مهر الحرّة، يقال: قد طال فلان طَولاً على فلان، أي: كان له فضل عليه في القدرة. والمراد بالفتيات هاهنا: المملوكات، يقال للأمة: فتاة، وللعبد: فتى، وقد سُمّي بهذا الاسم من ليس بمملوك. قرأت على شيخنا الإمام أبي منصور اللغوي قال: المتفتية: الفتاة والمراهقة، ويقال للجارية الحديثة: فتاة، وللغلام: فتى. قال القتيبي: وليس الفتى بمعنى الشاب والحدث، إنما هو بمعنى الكامل الجزل من الرجال^(١). فأما ذكر الإيمان، فشرط في إياحنته، ولا يجوز نكاح الأمة الكتابية، هذا قول الجمهور، وقال أبو حنيفة: يجوز.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ قال الزجاج: معناه: اعملوا على ظاهركم في الإيمان، فإنكم متعبدون بما ظهر من بعضكم لبعض^(٢). قال: وفي قوله: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ وجهان: أحدهما: أنه أراد النسب، أي: كلكم ولد آدم. ويجوز أن يكون معناه: دينكم واحد، لأنه ذكر هاهنا المؤمنات. وإنما قيل لهم ذلك، لأن العرب كانت تطلعن في الأنساب، وتفتخر بالأحساب، وتُسَمّي ابن الأمة: الهجين، فأعلم الله ﷻ أن أمر العبيد وغيرهم مستر في باب الإيمان، وإنما كره التزويج بالأمة، وحرم إذا وجد إلى الحرّة سيلاً، لأن ولد الأمة من الحرّ يصيرون رقيقاً، ولأن الأمة ممتهنة في عشرة الرجال، وذلك يشق على الزوج. قال ابن الأنباري: ومعنى الآية: كلكم بنو آدم، فلا يتداخلكم شُموخ وأنفه من تزويج الإمام عند الضرورة. وقال ابن جرير: في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات [المؤمنات]، فلينكح بعضكم من بعض، أي: لينكح هذا فتاة هذا.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوهُنَّ﴾ يعني: الإمام ﴿يَاذِنْ أَهْلَهُنَّ﴾، أي: سادتهن. والأجور: المهور. وفي قوله: ﴿وَالْمَرْءُ بِأَهْلِهِ﴾ قولان: أحدهما: أنه مقدم في المعنى، فتقديره: انكحوهن بإذن أهلهن بالمعروف، أي: بالنكاح الصحيح: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَجُورَ﴾. والثاني: أن المعنى: وآتوهن أجورهن بالمعروف، كمهور أمثالهن. قال ابن عباس: «محصنات»: عفاف غير زوانٍ ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ يعني: أخلاء، كان الجاهلية يحرمون ما ظهر من الزنى، ويستحلون ما خفي. وقال في رواية أخرى: «المسافحات»: المعلنات بالزنى. «والمُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ»: ذات الخليل الواحد. وقال غيره: كانت المرأة تتخذ صديقاً تزني معه، ولا تزني مع غيره.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ قُرْآنَ ابْنِ كَثِيرٍ، وَنَافِعٍ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَابْنُ عَامِرٍ: «أَحْصَيْنَ» مضمومة الألف. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر، والمفضل عن عاصم: بفتح الألف، والصاد. قال ابن جرير: من قرأ بالفتح، أراد: أسلمن، فصرن ممنوعات الفروج عن الحرام بالإسلام، ومن قرأ بالضم، أراد: فإذا تزوّجن، فصرن ممنوعات الفروج من الحرام بالأزواج. فأما «الفاحشة»، فهي الزنى، «والمحصنات»: الحرائر، «والعذاب»: الحد. قال القاضي أبو يعلى: وليس الإسلام والتزويج شرطاً في إيجاب الحد على الأمة، بل يجب وإن عُدما، وإنما شرط الإحصان في الحد، لئلا يتوهم متوهم أن عليها نصف ما على الحرة إذا لم تكن محصنة، وعليها مثل ما على الحرّة إذا كانت محصنة.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى إباحة تزويج الإمام. وفي «العنت» خمسة أقوال: أحدها: أنه الزنى، قاله ابن

(١) وتام كلام ابن قتيبة كما في «اللسان»: مادة: فتى: يدل على ذلك قول الشاعر:

إِنَّ الْفَتَى حُمَالٌ كُلُّ مَلَكَةٍ

وقال ابن مرة:

قَدْ يَدْرِكُ الشَّرَفَ الْفَتَى وَرَدَاوُهُ

وقال الأسود بن يعفر:

يَا بَعْدَ زَيْدٍ فِي فَتَاةٍ فَرَقُوا

فِي آلِ غَرْفٍ لَوْ بَنَيْتَ لِي الْأَسَى

فَتَخَيَّرُوا الْأَرْضَ الْفَضَاءَ لِمَرْهُمْ

لَيْسَ الْفَتَى بِمَنْعَمِ الشُّبَّانِ

غَلَّقْتُ وَجِيبَ قَمِيصِهِ مَرْقُوعٌ

قَتَلْتُ وَنَفْسِي بِمَعْدٍ حَسَنٍ تَأْدِي

لَوْ جَدْتُ فِيهِمْ أَسْمَةَ الشُّبَّانِ

وَيَزِيدُ وَإِفْدَهُمْ عَلَى الرَّقْدِ

(٢) في «البحر المحيط» ٣/ ٢٢١: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ لما خاطب المؤمنتين بالحكم الذي ذكره من تجويز نكاح عادم طول الحرّة المؤمنة للأمة المؤمنة، نبه على أن الإيمان هو وصف باطن، وأن المطلق عليه هو الله، فالمعنى: أنه لا يشترط في إيمان الفتيات أن يكونوا عالمين بذلك العلم اليقيني، لأن ذلك إنما هو لله تعالى، فيكفي من الإيمان منه إظهاره، فمن كانت مظهرة للإيمان فنكاحها صحيح.

عباس، والشعبي، وابن جبير، ومجاهد، والضحاك، وابن زيد، ومقاتل، وابن قتيبة. والثاني: أنه الهلاك، ذكره أبو عبيدة، والزجاج. والثالث: لقاء المشقة في محبة الأمة، حكاه الزجاج. والرابع: أن العنت هاهنا: الإثم. والخامس: أنه العقوبة التي تعنته، وهي الحد، ذكرهما ابن جرير الطبري^(١). قال القاضي أبو يعلى: وهذه الآية تدل على إباحة نكاح الإماء المؤمنات بشرطين: أحدهما: عدم طول الحرية. والثاني: خوف الزنى، وهذا قول ابن عباس، والشعبي، وابن جبير، ومسروق، ومكحول، وأحمد، ومالك، والشافعي. وقد روي عن علي، والحسن، وابن المسيب، ومجاهد، والزهري، قالوا: ينكح الأمة، وإن كان موسراً، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قال ابن عباس والجماعة: عن نكاح الإماء، وإنما ندب إلى الصبر عنه، لاسترقاق الأولاد.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ يَتَّبِعَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ يَتَّبِعَ لَكُمْ﴾ اللام بمعنى «أن» وهذا مذهب جماعة من أهل العربية، واختاره ابن جرير، ومثله ﴿وَأَمَرْتُ لَأَعَدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ [الشورى: ١٥] ﴿وَأَمَرْنَا لِنُسْلِمَ﴾ [الأنعام: ٧١] ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا﴾ [الصف: ٨]. والبيان من الله تعالى بالنص تارة، وبدلالة النص أخرى. قال الزجاج: «والسُنَنُ»: الطُّرُق، فالمعنى يدلکم على طاعته، كما دل الأنبياء وتابعهم. وقال غيره: معنى الكلام: يريد الله لِيُبينَ لکم سُنَنَ من قبلکم من أهل الحق والباطل، لتجتنبوا الباطل وتجيئوا الحق، ويهديکم إلى الحق.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُبْلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ قال الزجاج: يريد أن يدلکم على ما يكون سبباً لتوبتکم. وفي الذين اتبعوا الشهوات أربعة أقوال: أحدها: أنهم الزناة، قاله مجاهد، ومقاتل، والثاني: اليهود والنصارى، قاله السدي. والثالث: أنهم اليهود خاصة، ذكره ابن جرير. والرابع: أهل الباطل، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يُبْلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أي: عن الحق بالمعصية.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّضَ عَنْكُمْ وَخُلُقَ الْإِنْسَانِ صَوِيفًا﴾

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّضَ عَنْكُمْ﴾ التخفيف: تسهيل التكليف، أو إزالة بعضه. قال ابن جرير: والمعنى: يريد أن يُيسِّرَ لکم بإذنه في نكاح الفتيات المؤمنات لمن لم يستطع طولاً لحره. وفي المراد بضعف الإنسان ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الضعف في أصل الخلقة. قال الحسن: هو أنه خُلِقَ من ماء مهين. والثاني: أنه قلة الصبر عن النساء، قاله طاووس، ومقاتل. والثالث: أنه ضعف العزم عن قهر الهوى، وهذا قول الزجاج، وابن كيسان.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِحُكْمٍ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ الباطل: ما لا يحل في الشرع.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِحُكْمٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «تجارة» بالرفع. وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم بالنصب، وقد بينا العلة في آخر (البقرة).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنه على ظاهره، وأن الله حرم على العبد قتل نفسه، وهذا الظاهر^(٢). والثاني: أن معناه: لا يقتل بعضكم بعضاً، وهذا قول ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة، والسدي، ومقاتل، وابن قتيبة. والثالث: أن المعنى: لا تكلفوا أنفسكم عملاً ربما أدى إلى قتلها وإن

(١) قال الطبري: والصواب من القول في قوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَاشَى الْمَتَّ يَنْكُرُ﴾ ذلك لمن خاف منكم ضرراً في دينه وبدنه.

(٢) روى الإمام أحمد في «المسند» ١٣/١٨٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل نفسه بعد يده فحديده يده يجرأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بشم نفسه يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تردى من جبل فقتل نفسه، فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً» ورواه البخاري ٢١١/١٠ ومسلم ١٠٣/١ وغيرهما.

كان فرضاً، وعلى هذا تأولها عمرو بن العاص في غزاة ذات السلاسل حيث صلى بأصحابه جنباً في ليلة باردة، فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ، قال له: «يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟» فقال: يا رسول الله إني احتلمت في ليلة باردة، وأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فذكرت قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فضحك رسول الله ﷺ^(١). والرابع: أن المعنى: لا تغفلوا عن حظ أنفسكم، فمن غفل عن حفظها، فكأنما قتلها، هذا قول الفضيل بن عياض. والخامس: لا تقتلوا بارتكاب المعاصي.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدُوْنَا وظَلَمًا فَنُصَلِّهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدُوْنَا وظَلَمًا﴾ في المشار إليه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه قتل النفس، قاله ابن عباس، وعطاء. والثاني: أنه عائد إلى كل ما نهى الله عنه من أول السورة إلى هاهنا، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: قتل النفس، وأكل الأموال بالباطل، قاله مقاتل.

﴿إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَايَرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَايَرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ اجتناب الشيء: تركه جانباً. وفي الكبائر أحد عشر قولاً: أحدها: أنها سبع، فروى البخاري، ومسلم في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»^(٢). وقد روي هذا الحديث من طريق آخر عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «الكبائر سبع، الإشراك بالله أولهن، وقتل النفس بغير حقها، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم بداراً أن يكبروا، والفرار من الزحف، ورمي المحصنات، وانقلاب إلى أعرابية بعد هجرة»^(٣). وروي عن علي عليه السلام قال: هي سبع، فعذ هذه^(٤). وروي عن عطاء أنه قال: هي سبع، وعدّ هذه، إلا أنه ذكر مكان الإشراك

(١) رواه الإمام أحمد في «المستند» ٢٠٣/٤، وأبو داود ١٤١/١، ورواه البخاري تعليقاً ٣٨٥/١، قال الحافظ ابن حجر: هذا التعليق وصله أبو داود والحاكم من طريق يحيى بن أيوب عن يزيد بن أبي حبيب، عن عمران بن أبي أنس، عن عبد الرحمن بن جبير، عن عمرو بن العاص، قال: احتلمت في ليلة باردة في غزاة ذات السلاسل، فأشفقت أن أغتسل فأهلك فتيمنت، ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟» فأخبرته بالذي تمنعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً. ورواه أيضاً من طريق عمرو بن الحارث عن يزيد بن أبي حبيب، لكن زادا بين عبد الرحمن بن جبير وعمرو بن العاص رجلاً، وهو أبو قيس مولى عمرو بن العاص، وقال في القصة: «فغسل مغابنه وتوضأ» وقال فيه: «لو اغتسلت مت» وذكر أبو داود أن الأوزاعي روى عن حسان بن عطية هذه القصة فقال فيها: فتيتم. ورواه عبد الرزاق من وجه آخر عن عبد الله بن عمرو بن العاص، ولم يذكر التيمم. والساق الأول ألق بمراد المصنف - يعني البخاري - وإسناده قوي، لكنه علقه بصيغة التمرض، لكونه اختصروه. وقال البيهقي: يمكن الجمع بين الروايات بأنه توضأ، ثم تيمم عن الباقي، وقال النووي: وهو متعين.

وقال ابن القيم في «زاد المعاد» ١٥٨/٢: اختلفت الرواية عنه، فروي عنه فيها أنه غسل مغابنه، وتوضأ وضوءه للصلاة، ثم صلى بهم، ولم يذكر التيمم، وكان هذه الرواية أقوى من رواية التيمم. قال عبد الحق الإشبيلي - وقد ذكرها وذكر رواية التيمم قبلها - ثم قال: وهذا أوصل من الأول، لأنه عن عبد الرحمن بن جبير المصري عن أبي قيس مولى عمرو بن عمرو، والأولى التي فيها التيمم من رواية عبد الرحمن بن جبير عن عمرو بن العاص لم يذكر بينهما أبا قيس.

(٢) البخاري ٢٩٤/٥، ١٦٠/١٢، ومسلم ٩٢/١ والموبقات: المهلكات، قال المهلب: سميت بذلك، لأنها سبب لإهلاك مرتكبيها.

(٣) قال الحافظ ابن حجر ١٦٠/١٢: المراد بالموبقة - يريد حديث البخاري «اجتنبوا السبع الموبقات» - هنا الكبيرة، كما ثبت في حديث أبي هريرة من وجه آخر أخرجه البزار وابن المنذر من طريق عمر بن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رفعه: «الكبائر الشرك بالله وقتل النفس...» الحديث مثل رواية أبي النيث إلا أنه ذكر بدل «السحر» «الانتقال إلى الأعرابية بعد الهجرة». قلت: ومعنى هذه الجملة: الرجوع إلى سكنى البادية كالأعراب.

(٤) رواه ابن جرير ٢٣٥/٨، ولغظه: عن محمد بن سهل بن أبي حثمة عن أبيه قال: إني لفي هذا المسجد مسجد الكوفة، وعلي يخطب الناس على المنبر، فقال: يا أيها الناس إن الكبائر سبع، فأصاخ الناس فأعادها ثلاث مرات، ثم قال: ألا تسألوني عنها؟ قالوا: يا أمير المؤمنين ما هي؟ قال: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرم الله، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والفرار يوم الزحف، والتعرب بعد الهجرة. فقلت لأبي: يا أبا ما التعرب بعد الهجرة؟ كيف لحق هاهنا؟ فقال: يا بني وما أعظم من أن يهاجر الرجل حتى إذا وقع سهمه في النية، ووجب عليه الجهاد، خلع ذلك من عنقه، فرجع أعرابياً كما كان!! ورواه ابن مردويه مرفوعاً، قال ابن كثير: وفي إسناده نظر، ورفع غلط فاحش، والصواب ما رواه ابن جرير.

والتعرب شهادة الزور وعقوق الوالدين^(١). والثاني: أنها تسع، روى عبيد بن عمير، عن أبيه، وكان من الصحابة، عن النبي ﷺ أنه سئل ما الكبائر؟ فقال: «تسع، أعظمهن الإشراك بالله، وقتل نفس المؤمن بغير حق، والفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، والسحر، وأكل الربا، وقذف المحصنة، وعقوق الوالدين المسلمين، واستحلال البيت المحرم قبلتكم أحياء وأمواتاً^(٢)». والثالث: أنها أربع: روى البخاري، ومسلم في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: «الكبائر؛ الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»^(٣). وروى أنس بن مالك قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر، أو سئل عنها، فقال: «الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين» وقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قول الزور، أو شهادة الزور»^(٤). وروي عن ابن مسعود أنه قال: الكبائر أربع: الإشراك بالله، والأمن لمكر الله، والقنوط من رحمة الله، والإياس من روح الله^(٥). وعن عكرمة نحوه. والرابع: أنها ثلاث، فروى عمران بن حصين، عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الشرك بالله، وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فاحتفز - قال: «وَالزُّور»^(٦). وروى البخاري، ومسلم في «الصحيحين» من حديث أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، فقال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس - فقال: وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. وأخرجنا في «الصحيحين» من حديث ابن مسعود قال: سألت النبي ﷺ: أي الذنب أكبر؟ قال: «أن تجعل لله تعالى نداً وهو خلقك». قلت: ثم أي؟ قال: «ثم أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»^(٧). والخامس: أنها مذكورة من أول السورة إلى هذه الآية، قاله ابن مسعود، وابن عباس. والسادس: أنها إحدى عشرة: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، وقتل النفس، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والفرار من الزحف، وقذف المحصنات، وشهادة الزور، والسحر، والخيانة. روي عن ابن مسعود أيضاً. والسابع: أنها كل ذنب يختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب، رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس. والثامن: أنها كل ما أوجب الله عليه النار في الآخرة، والحد في الدنيا، روى هذا المعنى أبو صالح، عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. والتاسع: أنها كل ما عصي الله به، روي عن ابن عباس، وعبيدة، وهو قول ضعيف. والعاشر: أنها كل ذنب أوعده الله عليه النار، قاله الحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك في رواية، والزجاج. والحادي عشر: أنها ثمان: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل المؤمن، وقذف المحصنة، والزنا، وأكل مال اليتيم، وقول الزور، واقتطاع الرجل يمينه وعهده ثمناً قليلاً. رواه مُحرز، عن الحسن البصري^(٨).

(١) رواه ابن جرير ٢٣٨/٨.

(٢) رواه الحاكم مطولاً ٥٩/٤، وقال: قد احتجنا برواية هذا الحديث غير عبد الحميد بن سنان، فأما عمير بن قتادة فإنه صحابي، وابنه عبيد مطبق على إخراجهم والاحتجاج به. وتعقبه الذهبي في «مختصره» بأنهما لم يحتجا بعبد الحميد لجهالة، ووثقه ابن حبان. ورواه أبو داود ١٥٧/٣، والنسائي ٨٩/٧، وذكره ابن كثير ٤٨١/١ عن رواية الحاكم، ثم قال: هكذا رواه الحاكم مطولاً، وقد أخرجه أبو داود والنسائي مختصراً من حديث معاذ بن هانئ به، وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث مبسوطاً ثم قال الحاكم: رجاله كلهم محتج بهم في «الصحيحين» إلا عبد الحميد بن سنان، قلت: وهو حجازي لا يعرف إلا بهذا الحديث، وذكره ابن حبان في كتاب «الفتا» وقال البخاري: في حديث نظر.

(٣) البخاري ٨٢٢/١١، ولن نجد في مسلم من رواية عبد الله بن عمرو، وإنما هو في رواية أنس بن مالك، وفيه «قول الزور» مكان قوله «واليمين الغموس» ورواه الإمام أحمد في «المسند» ١١٢/١١، وذكره ابن كثير ٤٨٣/١ من رواية «المسند» ونسبه للبخاري، والترمذي، والنسائي. واليمين الغموس: قال ابن الأثير في «النهاية»: هي اليمين الكاذبة الفاجرة، كالتى يقطع بها الحالف مال غيره، سميت غموساً، لأنها تنمى صاحبها في الإنم، ثم في النار، «وفعلوا للمبالغة». وفي «عمدة القاري» ١٩٣/٢٣: قال ابن عبد البر: أكثر أهل العلم لا يرون في الغموس كفارة، ونقله ابن بطال أيضاً عن جمهور العلماء، وبه قال النخعي، والحسن البصري، ومالك ومن تبعه من أهل المدينة، والأوزاعي في أهل الشام، والثوري وسائر أهل الكوفة، وأحمد، وإسحاق، وأبو ثور، وأبو عبيد، وأصحاب الحديث. وقال الشافعي: فيها الكفارة، وبه قال طائفة من التابعين.

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» ١٣١/٣، والبخاري ٣٤٥/١٠، ومسلم ٩٢/١.

(٥) غير ابن مسعود ساقه الطبري من طرق كثيرة، وقال ابن كثير: هو صحيح إليه بلا شك.

(٦) رواه البخاري في «الأدب المفرد» ١٠١/١ وزاد الحافظ ابن حجر في «الفتح» ١٦١/١٢ نسبته إلى البيهقي، والطبراني وقال: سننه حسن.

(٧) البخاري ٤١٣/١٣، ومسلم ٩٠/١، والحليلة: الزوجة، سميت بذلك لكونها تحل للزوج، وقيل: لكونها تحل معه.

(٨) قال أبو جعفر الطبري: وأولى ما قيل في تأويل «الكبائر» بالصحة، ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ، دون ما قاله غيره، وإن كان كل قائل فيها قولاً -

قوله تعالى: ﴿تَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ روى المفضل، عن عاصم: «يكفر» «ويدخلكم» بالياء فيهما، وقرأ الباقون بالنون فيهما، وقرأ نافع، وأبان عن عاصم، والكسائي عن أبي بكر، عن عاصم: «مَدخلًا» بفتح الميم هاهنا، وفي (الحج) وضم الباقون «الميم»، ولم يختلفوا في ضم «ميم» ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ و﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠] قال أبو علي الفارسي: يجوز أن يكون «المدخل» مصدرًا، ويجوز أن يكون مكانًا، سواء فتح، أو ضم. قال السدي: السيئات هاهنا: هي الصفات. والمدخل الكريم: الجنة. قال ابن قتية: والكريم: بمعنى: الشريف.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْتَسَبْنَ وَسَقُلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكْفِي شَقًّا عَلِيمًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن أم سلمة قالت: يا رسول الله: يغزو الرجال، ولا تغزو، وإنما لنا نصف الميراث، فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد^(١). والثاني: أن النساء قلن: وددن أن الله جعل لنا الغزو، فنصيب من الأجر ما يصيب الرجال، فنزلت هذه الآية، قاله عكرمة^(٢). والثالث: أنه لما نزل ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ آلِهِمْ أَهْلٌ وَهِيَ الْمَوْلَاةُ الْمُؤْمِنَةُ الَّتِي هِيَ كَالْمَوْلَاتِ الَّتِي عَلَىٰ الْإِنْسَانِ﴾ قال الرجال: إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا، كما فضلنا عليهن في الميراث، وقال النساء: إنا لنرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال، كما لنا الميراث على النصف من نصيبهم، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة، والسدي^(٣). وفي معنى هذا التمني قولان: أحدهما: أن يتمنى الرجل مال غيره، قاله ابن عباس، وعطاء. والثاني: أن يتمنى النساء أن يكن رجالاً. وقد روي عن أم سلمة أنها قالت: يا ليتنا كنا رجالاً، فنزلت هذه الآية. وللتمني وجوه: أحدها: أن يتمنى الإنسان أن يحصل له مال غيره، ويوزل عن الغير، فهذا الحسد. والثاني: أن يتمنى مثل ما لغيره، ولا يحب زواله عن الغير، فهذا هو الغبطة^(٤) وربما لم يكن نيل ذلك مصلحة في حق المتمنى. قال الحسن: لا تمنّ مال فلان، ولا مال فلان، وما يدريك لعل هلاكه في ذلك المال؟ والثالث: أن

من الذين ذكرنا أقوالهم قد اجتهد وبالغ في نفسه، ولقوله في الصحة مذهب. وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ١٦٣/١٢: ومن أحسن التعاريف، أي: تعريف الكبيرة قول القرطبي في «المفهم»: كل ذنب أطلق عليه نص كتاب أو سنة أو إجماع: أنه كبيرة أو عظيم، أو أخبر فيه بشدة العقاب، أو علق عليه الحد، أو شدد النكير عليه؛ فهو كبيرة. وعلى هذا ينبغي تتبع ما ورد فيه الوعيد، أو اللعن، أو الفسق، من القرآن، أو الأحاديث الصحيحة والحسنة، ويضم إلى ما ورد فيه التخصيص في القرآن والأحاديث الصحاح والحسان على أنه كبيرة، فمهما بلغ مجموع ذلك، عرف منه تحرير عدا. وقال الذهبي في أوائل كتاب «الكبائر»: والذي يتجه ويقوم عليه الدليل: أن من ارتكب شيئاً من هذه العظام مما فيه حد في الدنيا، كالقتل، والزنى، والسرقة، أو جاء فيه وعيد في الآخرة من عذاب، أو غضب، أو تهديد، أو لعن فاعله على لسان نبينا محمد ﷺ فإنه كبيرة، ولا بد من تسليم أن بعض الكبائر أكبر من بعض، ألا ترى أنه ﷺ عدّ الشرك بالله من الكبائر؟ مع أن مرتكبه مخلد في النار، ولا يغفر له أبداً. وقال الحافظ ١٦٢/١٢ بعد أن جمع كثيراً من الأحاديث في بيان الكبائر: فهذا جميع ما وقفت عليه مما ورد التصريح بأنه من الكبائر، أو من أكبر الكبائر صحيحاً وضعيفاً مرفوعاً وموقوفاً، وقد تبعت غاية التبع وفي بعضه ما ورد خاصاً ويدخل في عموم غيره، ثم قال: والمعتمد من كل ذلك ما ورد مرفوعاً بغير تدخل من وجه صحيح، وهي السبعة المذكورة في حديث الباب - يعني حديث «اجتنبوا السبع الموبقات» والانتقال عن الهجرة والزنى والسرقة والعقوق واليمين الغموس والإلحاد في الحرم وشرب الخمر، وشهادة الزور، والنميمة، وترك التزوّج من البول، والغلول ونكت الصفقة وفراق الجماعة، فتلك عشرون خصلة، وتفاوت مراتبها، والمجمع على عده من ذلك أقوى من المختلف فيه إلا ما عضده القرآن أو الإجماع فيلحق بما فوقه.

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» ٣٢٢/٦ والترمذي ١٢٧/٢ والحاكم ٣٥٠/٢، عن سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أم سلمة. قال الحاكم: هذا حديث على شرط الشيخين إن كان سمع مجاهد من أم سلمة، ووافقه الذهبي على تصحيحه، قال الشيخ أحمد شاكر: وأما حكم الترمذي في روايته من طريق ابن عيينة بأنه حديث مرسل، فإنه جزم بلا دليل، ومجاهد أدرك أم سلمة يقيماً وعاصرها، فإنه ولد سنة ٢١، وأم سلمة ماتت بعد سنة ٦٠ على اليقين، والمعاصرة من الراوي الثقة تحمل على الاتصال إلا أن يكون الراوي مدلساً، ولم يزعم أحد أن مجاهداً مدلس إلا كلمة قالها القلقب الحلبي في «شرح البخاري» حكاهما عنه الحافظ في «التهذيب» ٤٤/١٠، ثم عقب عليها بقوله: ولم أر من نسب إلى التدليس. وقال الحافظ أيضاً في «الفتح» ١٩٤/٦ رداً على من زعم أن مجاهداً لم يسمع من عبد الله بن عمرو: لكن سماع مجاهد من عبد الله بن عمرو ثابت وليس بمدلس.

(٢) في «الدر المنثور»: أخرجه سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن عكرمة.

(٣) أخرجه ابن جرير ٢٦٤/٨، وابن أبي حاتم عن السدي.

(٤) قال ابن كثير: وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية، قال: ولا يتمنى الرجل فيقول: ليت أن لي مال فلان وأهله، فنهى الله عن ذلك، ولكن ليسأل الله من فضله. وقال الحسن ومحمد بن سيرين وعطاء والضحاك نحو هذا، وهو الظاهر من الآية، ولا يرد على هذا ما ثبت في صحيح البخاري ٦٥/٩ «لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على ماله في الحق، فيقول رجل: لو أن لي مثل مال فلان لعملت مثله» فإن هذا شيء غير ما نهى الله عنه الآية، وذلك أن الحديث حث على تمنى مثل نعمة هذا، الآية نهت عن تمنى عين نعمة هذا.

تتمنى المرأة أن تكون رجلاً، ونحو هذا مما لا يقع، فليعلم العبد أن الله أعلم بالمصالح، فليرضى بقضاء الله، ولتكن أمانيه الزيادة من عمل الآخرة.

قوله تعالى: ﴿لِرَجَالٍ نَّصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن المراد بهذا الاكتساب: الميراث، وهو قول ابن عباس، وعكرمة. والثاني: أنه الثواب والعقاب. فالمعنى: أن المرأة تثاب كثواب الرجل، وتأنم كإنثمه، هذا قول قتادة، وابن السائب، ومقاتل. واحتج على صحته أبو سليمان الدمشقي بأن الميراث لا يحصل بالاكتساب، وبأن الآية نزلت لأجل التمني والفضل.

قوله تعالى: ﴿وَسَلُّوا اللَّهَ مِنْ قُضِيِّهِ﴾ قرأ ابن كثير، والكسائي، وأبان، وخلف في اختياره «سَلُّوا اللَّهَ» «فَسَلُّوا الَّذِينَ» «فَسَلُّوا بَنِي إِسْرَئِيلَ» «وَسَلُّوا مَنْ أَرْسَلْنَا» وما كان مثله من الأمر المواجه به، وقبله «واو» أو «فاء» فهو غير مهموز عندهم. وكذلك نقل عن أبي جعفر، وشيبة^(١). وقرأ الباقون بالهمز في ذلك كله، ولم يختلفوا في قوله: ﴿وَلَسَلُّوا مَا أَفْتَقَرُوا﴾ [المتحنة: ١٠] أنه مهموز. وفي المراد بالفضل قولان: أحدهما: أن الفضل: الطاعة، قاله سعيد بن جبيرة، ومجاهد، والسدي. والثاني: أنه الرزق، قاله ابن السائب، فيكون المعنى: سلوا الله ما تتمنونه من النعم، ولا تتمنوا مال غيركم.

﴿وَلِكُلِّ جَمَلًا مَوْلًى وَمِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَقَاتِلُوهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَمَلًا مَوْلًى﴾ الموالى: الأولياء، وهم الورثة من العصة وغيرهم. ومعنى الآية: لكل إنسان موالى يرثون ما ترك. وارتفاع الوالدين والأقربين على معنيين من الإعراب: أحدهما: أن يكون الرفع على خبر الابتداء، والتقدير: وهم الوالدان والأقربون، ويكون تمام الكلام قوله ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾. والثاني: أن يكون رفعاً على أن الفاعل التارك للمال، فيكون الوالدان، هم المولى.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «عاقدت» بالالف، وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: «عقدت» بلا ألف. قال أبو علي: من قرأ بالالف، فالتقدير: والذين عاقدتهم أيمانكم، ومن حذف الألف، فالمعنى: عقدت جلفهم أيمانكم، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه. وفيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أهل الحلف، كان الرجل يحالف الرجل، فأَيَمَّا مات ورثه الآخر، فنسخ ذلك بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْكَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِطَوَلِّهِ مِنْ الْآخَرِ﴾ رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس^(٢). وروى عنه عطية قال: كان الرجل يلحق الرجل في الجاهلية، فيكون تابعه، فإذا مات الرجل، صار لأهله الميراث، وبقي تابعه بغير شيء، فانزل الله ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ فأعطي من ميراثه، ثم نزل من بعد ذلك ﴿وَأُولُوا الْأَرْكَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِطَوَلِّهِ مِنْ الْآخَرِ﴾ وممن قال هم الحلفاء: سعيد بن جبيرة، وعكرمة، وقاتدة. والثاني: أنهم الذين آخى بينهم رسول الله ﷺ، هم المهاجرون والأنصار، كان المهاجرون يوزنون الأنصار دون ذوي رحم للأخوة التي عقدتها رسول الله ﷺ بينهم. رواه سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس^(٣). وبه قال ابن زيد. والثالث: أنهم الذين كانوا يتبنون أبناء غيرهم في الجاهلية، هذا قول سعيد بن المسيب. فأما أرباب القول الأول،

(١) في «طبقات القراء» ٣٢٩/١: شيبه بن نصاح بن سرجس بن يعقوب إمام ثقة مقرئ المدينة مع أبي جعفر وقاضيه، ومولى أم سلمة رضي الله عنها، مسحت على رأسه، ودعت له بالخير.

(٢) في «الطبري» ٢٧٥/٨ عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَقَاتِلُوهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ فكان الرجل يعاقد الرجل: أيهما مات ورثه الآخر، فانزل الله ﴿وَأُولُوا الْأَرْكَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِطَوَلِّهِ مِنْ الْآخَرِ﴾ يعني في حكاية الله من المؤمنين والمؤمنين إلا أن تقاتلوا إلا أن تقاتلوا لكم تقاتلوا [سورة الأحزاب: ٦] يقول: إلا أن يوصوا لأولياءهم الذين عاقدا وصية فهو لهم جائز من ثلث مال الميت، وذلك هو المعروف. قلت: وعلي بن أبي طلحة أرسل عن ابن عباس ولم يروه، فالخير منقطع.

(٣) أخرجه البخاري ١٨٦/٨، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس، وتام الحديث: فلما نزلت: ﴿وَلِكُلِّ جَمَلًا مَوْلًى﴾ نسخت، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَقَاتِلُوهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصى له.

فقالوا: نسخ حكم الحلفاء الذين كانوا يتعاقدون على النصر والميراث بآخر (الأنفال)، وإليه ذهب ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وقتادة، والثوري، والأوزاعي، ومالك، وأحمد، والشافعي. وقال أبو حنيفة وأصحابه: هذا الحكم باقٍ غير أنه جعل ذوي الأرحام أولى من موالي المعاقدة. وذهب قوم إلى أن المراد: فأتوهم نصيبهم من النصر والنصيحة من غير ميراث، وهذا مروى عن ابن عباس، ومجاهد. وذهب قوم آخرون إلى أن المعاقدة: إنما كانت في الجاهلية على النصر لا غير، والإسلام لم يُغَيِّرْ ذلك، وإنما قرَّره، فقال النبي ﷺ: «أَيُّمَا حَلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ لَمْ يَزِدْهُ إِلَّا شِدَّةً»^(١) أراد: النصر والعون. وهذا قول سعيد بن جبير، وهو يدل على أن الآية محكمة.

﴿إِذَا جَاءَ قَوْمُكَ عَلَى السَّيِّئَةِ بِمَا فَكَّرَ اللَّهُ بِعَفْوِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْغَيْتَ فَتَنَنْتُكَ فَحَبِطَتْ لَلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّيْلِ نَسْفَةٌ نُسُوفُهَا فُتُورٌ وَأَنْفُجُورُهُمْ فِي الْمَصَاجِعِ وَأَنْتَرُيُونَهُمْ فَإِنْ أَلْمَنْتَهُمْ فَلَا تُبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ قَوْمُكَ عَلَى السَّيِّئَةِ﴾ سبب نزولها: أن رجلاً لطم زوجته لطمَةً فاستعدت عليه رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح، عن ابن عباس^(٢). وذكر المفسرون أنه سعد بن الربيع الأنصاري. قال ابن عباس: «قَوْمُونَ» أي: مسلطون على تأديب النساء في الحق. وروى هشام بن محمد، عن أبيه في قوله: ﴿إِذَا جَاءَ قَوْمُكَ عَلَى السَّيِّئَةِ﴾ قال: إذا كانوا رجلاً، وأنشد:

أَكَلُ امْرِئٍ تَحْسِبِينَ امْرَأً

وَنَاراً تَوْقُدُ بِاللَّيْلِ نَاراً^(٣)

قوله تعالى: ﴿وَيَمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ يعني: الرجال على النساء، وفضل الرجل على المرأة بزيادة العقل، وتوفير الحظ في الميراث، والغنيمة، والجمعة، والجماعات، والخلافة، والإمارة، والجهاد، وجعل الطلاق إليه غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَيَمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ قال ابن عباس: يعني المهر والنفقة عليهن. وفي «الصالحات» قولان: أحدهما: المحسنات إلى أزواجهن، قاله ابن عباس. والثاني: العاملات بالخير، قاله ابن المبارك. قال ابن عباس: «وَالْقَائِنَاتُ»: المطيعات لله في أزواجهن، و«الحافظات للغيب»، أي: لغيب أزواجهن. وقال عطاء، وقتادة: يحفظن ما غاب عنه الأزواج من الأموال، وما يجب عليهن من صيانة أنفسهن لهن.

قوله تعالى: ﴿وَيَمَّا حَفِظَ اللَّهُ﴾ قرأ الجمهور برفع اسم «الله» وفي معنى الكلام على قراءتهم ثلاثة أقوال: أحدها: بحفظ الله إياهن، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، ومقاتل. وروى ابن المبارك، عن سفيان، قال: بحفظ الله إياها

(١) رواد مسلم في «صحيحه» ١٩٦١/٤، والإمام أحمد في «المسند» ٨٣/٤، وأبو داود، وابن جرير، والنسائي، عن جبير بن مطعم، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة» قال القرطبي في «المفهم»: معنى: لا حلف، لا يتحالف أهل الإسلام كما كان أهل الجاهلية، كانوا يتحالفون، وذلك أن المتحالفين كانوا يتناصران في كل شيء فيمنع الرجل حليفه وإن كان ظالماً، ويقوم دونه، ويدفع عنه بكل ممكن حتى يمنع الحقوق، ويتصر به على الظلم والفساد، ولما جاء الشرع بالانتصاف من الظالم، وأنه يؤخذ ما عليه من الحق لا يمنعه أحد من ذلك، وحد الحدود، وبين الأحكام؛ أبطل ما كانت الجاهلية عليه من ذلك. قال النووي: وأما المواخاة في الإسلام، والمخالفة على طاعة الله تعالى والتناصر في الدين، والتعاون على البر والتقوى، وإقامة الحق، فهذا باق، لم ينسخ، وهذا معنى قوله ﷺ في هذه الأحاديث: «وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة» وأما قوله ﷺ: «لا حلف في الإسلام» فالمراد به حلف التوارث والحلف على ما منع الشرع منه، والله أعلم.

(٢) الخبر في الأصول كلها معزو لابن عباس، وقد بحث في كتب «التفسير» فلم أجد أحداً عزا إليه، ولا نقله عنه، وقد ذكره ابن جرير ٢٩١/٨ عن الحسن، وابن جريج، والسدي، وفي «الدر المنثور» ١٥١/٢: وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أشعث بن عبد الملك، عن الحسن، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير من طريق قتادة عن الحسن. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق جرير بن حازم، عن الحسن. وأخرج ابن مردويه عن علي قال: أتى النبي ﷺ...

(٣) البيت في «سبويه» ٣٣/١، و«الاصمعيات» ص ٢٢١، و«الشعر والشعراء» ١٩٢، و«شواهد العيني» ٤٤٦/٣، و«الخزانة» ١٩١/٤، وهو لأبي ذؤاد الأيادي من قصيدة يصف بها فرساً. وقوله: «وناراً توقد» هكذا الأصل، وهو موافق لرواية ابن قتيبة. وفي «الاصمعيات» «وناراً توقد» وهو الموافق لرواية سبويه، و«الخزانة»، والعيني. والبيت شاهد للعطف على معمولي عاملين بتقدير «كل» و«تحسين» قال النحاس: ومن لم يعطف على عاملين رواه «وناراً» بالنصب.

أن جعلها كذلك. والثاني: بما حفظ الله لهن مهورهن، وإيجاب نفقتهن، قاله الزجاج. والثالث: أن معناه: حافظات للغيب بالشيء الذي يحفظ به أمر الله، حكاه الزجاج. وقرأ أبو جعفر بنصب اسم الله. والمعنى: بحفظهن الله في طاعته.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ تَخَوُّفَهُمْ﴾ في الخوف قولان: أحدهما: أنه بمعنى العلم، قاله ابن عباس. والثاني: بمعنى الظن لما يبدو من دلائل النشوز، قاله الفراء، وأنشد:

وَمَا خِفْتُ يَا سَلَامُ أَنْكَ عَائِيبِي^(١)

قال ابن قتبية: والنشوز: بغض المرأة للزوج، يقال: نَشَزَتِ المرأة على زوجها، ونشزت: إذا فكرته، ولم تطمئن عنده، وأصل النشوز: الانزعاج^(٢). وقال الزجاج: أصله من النشز، وهو المكان المرتفع من الأرض.

قوله تعالى: ﴿يُؤْتِرُهُمْ﴾ قال الخليل: الوعظ: التذكير بالخير فيما يرق له القلب. قال الحسن: يعظها بلسانه، فإن أبت وإلا هجرها. واختلفوا في المراد بالهجر في المضجع على أربعة أقوال: أحدها: أنه ترك الجماع، رواه سعيد بن جبيرة، وابن أبي طلحة، والعمري، عن ابن عباس، وبه قال ابن جبيرة، ومقاتل، والثاني: أنه ترك الكلام، لا ترك الجماع، رواه أبو الضحى عن ابن عباس، وخصيف عن عكرمة، وبه قال السدي، والثوري. والثالث: أنه قول الهجر من الكلام في المضجع، روي عن ابن عباس، والحسن، وعكرمة. فيكون المعنى: قولوا لهنَّ في المضجع مُجَرًّا من القول. والرابع: أنه هجر فراشها، ومضاجعتها. روي عن الحسن، والشعبي، ومجاهد، والنخعي، ومقسم، وقتادة. قال ابن عباس: أهجرها في المضجع، فإن أقبلت وإلا فقد أذن الله لك أن تضربها ضرباً غير مبرح. وقال جماعة من أهل العلم: الآية على الترتيب، فالوعظ عند خوف النشوز، والهجر عند ظهور النشوز، والضرب عند تكرره، واللجاج فيه. ولا يجوز الضرب عند ابتداء النشوز. قال القاضي أبو يعلى: وعلى هذا مذهب أحمد. وقال الشافعي: يجوز ضربها في ابتداء النشوز.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَلَمَكُنَّكُمْ﴾ قال ابن عباس: يعني في المضجع ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي: فلا تتجنَّ عليها العلل. وقال سفيان بن عيينة: لا تكلفها الحب، لأن قلبها ليس في يدها. وقال ابن جرير: المعنى: فلا تلتمسوا سبيلا إلى ما لا يحل لكم من أبدانهم وأموالهم بالعلل، وذلك أن تقول لها وهي مطيعة لك: لست لي مُحَبَّة، فتضربها، أو تؤذيها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ قال أبو سليمان الدمشقي: لا تبغوا على أزواجكم، فهو ينتصر لهن منكم. وقال الخطابي: الكبير: الموصوف بالجلال، وكبر الشأن، يصغر دون جلاله كل كبير. ويقال: هو الذي كبر عن شبه المخلوقين.

﴿وَأَن خِفْتُمْ شِقَاقَ بَنْتِهِمَا فَأَبْسُوا حَكَمًا بَيْنَ أَهْلِهِ وَحَكَمًا بَيْنَ أَهْلِهِمَا﴾ في الخوف قولان: أحدهما: أنه الحذر من وجود ما لا يتيقن وجوده، قاله الزجاج. والثاني: أنه العلم، قاله أبو سليمان الدمشقي. قال الزجاج: والشقاق: العداوة، واشتقاقه من المتشاقين، كل صنف منهم في شق. و«الحكم»: هو القيم بما يسند إليه. وفي الأمور بإفناذ الحكمين قولان: أحدهما: أنه السلطان إذا ترافعا إليه، قاله سعيد بن جبيرة، والضحاك. والثاني: الزوجان، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾ قال ابن عباس: يعني الحكمين. وفي قوله: ﴿يُؤْفِقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ قولان: أحدهما: أنه راجع إلى الحكمين، قاله ابن عباس، وابن جبيرة، ومجاهد، وعطاء، والسدي، والجمهور. والثاني: أنه راجع إلى الزوجين، ذكره بعض المفسرين.

(١) صدره: اتاني كلامٌ عن نصيب يقولُه. وهو لأبي الغول الطهوي، شاعر إسلامي كان في الدولة المروانية. والبيت في «الخراتمة» ١٠٩/٣، ومسمط اللالي» ٥٧٩، ومعاني القرآن» ١٤٦/١، ٢٦٥، و«نادر أبي زيد» و«الطبري» ٥٥٠/٤، ٢٩٩/٨.

(٢) في «غريب القرآن» ١٢٦ «إذا تركته... الارتجاع».

فصل

والحكمان وكيلان للزوجين، ويُعتبر رضا الزوجين فيما يحكما به، هذا قول أحمد، وأبي حنيفة، وأصحابه. وقال مالك، والشافعي: لا يفتقر حكم الحكمين إلى رضا الزوجين^(١).

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ قال ابن عباس: وحده.

قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ قال الفراء: أغرامهم بالإحسان إلى الوالدين.

قوله تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الجار الذي بينك وبينه قرابة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، ومقاتل في آخرين. والثاني: أنه الجار المسلم، قاله نوف الشامي. فيكون المعنى: ذي القربى منكم بالإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ روى المفضل، عن عاصم: «والجار الجنب» بفتح الجيم، وإسكان النون. قال أبو علي: المعنى: والجار ذي الجنب، فحذف المضاف. وفي الجار الجنب ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الغريب الذي ليس بينك وبينه قرابة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والضحاك، وابن زيد، ومقاتل في آخرين. والثاني: أنه جارك عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك، وخلفك، رواه الضحاك، عن ابن عباس. والثالث: أنه اليهودي والنصراني، قاله نوف الشامي^(٢). وفي الصحاح بالجنب ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الزوجة، قاله علي، وابن مسعود، والحسن، وإبراهيم النخعي، وابن أبي ليلى. والثاني: أنه الرفيق في السفر، قاله ابن عباس في رواية مجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي، وابن قتيبة. وعن سعيد بن جبيرة كالقولين. والثالث: أنه الرفيق، رواه ابن جريج، عن ابن عباس، وبه قال عكرمة. قال ابن زيد: هو الذي يَلصَقُ بك رجاء خيرك. وقال مقاتل: هو رفيقك حضراً وسفراً. وفي ابن السبيل أقوال قد ذكرناها في (البقرة).

(١) قال ابن جرير ٣٣١/٨: وأي الأمرين كان. فليس لهما - أي للحكمين - ولا لواحد منهما الحكم بينهما بالفرقة، ولا بأخذ مال إلا برضى المحكوم عليه بذلك، وإلا ما لزم من حق لأحد الزوجين على الآخر في حكم الله، وذلك ما لزم الرجل لزوجته من النفقة والإمساك بمعروف إن كان هو الظالم لها. فاما غير ذلك، فليس ذلك لهما، ولا لأحد من الناس غيرهما، لا السلطان ولا غيره، وذلك أن الزوج إن كان هو الظالم للمرأة للإمام السبيل إلى أخذه بما يجب لها عليه من حق، وإن كانت المرأة هي الظالمة زوجها الناشئة عليه، فقد أباح الله له أخذ الفدية منها، وجعل إليه طلاقها على ما قد بيناه في سورة (البقرة). وإذا كان الأمر كذلك، لم يكن لأحد الفرقة بين رجل وامرأة بغير رضا الزوج، ولا أخذ مال من المرأة بغير رضاها بإعطائه إلا بحجة يجب التسليم لها من أصل أو قياس. وإن بعث الحكمين السلطان، فلا يجوز لهما أن يحكما بين الزوجين بفرقة إلا بتوكيل الزوج إياهما بذلك، ولا لهما أن يحكما بأخذ مال من المرأة إلا برضى المرأة.

قلت: وقد تمسك الإمام مالك بلفظ الحكم، فرأى نفاذ حكم الحكمين عليهما في المال والفرقة، بخلاف أبي حنيفة وأصحابه، والشافعي وأصحابه، وأحمد وأصحابه، وابن حزم الظاهري وأصحابه، فإنهم يرون جميعاً أن نفاذ حكمهما عليهما متوقف على رضا الزوجين بتحكيما من قبل، لأن السياق يبين أن شأن الحكمين السعي في الإصلاح لا التفريق، ولا يعرف في اللغة، ولا في الشريعة: أصلحت بين الزوجين، أي: طلقتهما عليه، كما في «المحلى» ٨٧/١٠ لابن حزم، وقال ابن حزم: ليس في الآية ولا في شيء من السنن أن للحكمين أن يفرقا، ولا أن ذلك للحاكم.

(٢) ذهب ابن جرير الطبري في تفسير معنى «الجنب» في هذا الموضع إلى أنه الغريب البعيد، مسلماً كان أو مشركاً، يهودياً كان أو نصرانياً، وقال: إن «الجنب» في كلام العرب البعيد، كما قال أعرابي بن قيس:

أَتَيْتُ حُرَيْشاً زَائِراً عَنْ جَنَابِ

فَكَانَ حُرَيْشٌ فِي عِطَائِي جَامِداً

يعني بقوله: «عن جنابة» عن بعد وغربة، ومنه قيل: اجتنب فلان فلاناً: إذا بعد منه وتجنبه، وجنبه غيره: إذا منعه إياه، ومنه قيل للجنب: جنباً، لاعتزاله الصلاة حتى يفتسل. فمعنى ذلك: والجار المجانب للقرابة. قلت: وقد ورد في الوصية بالجار أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورده»، رواه البخاري في «صحيحه» كتاب «الأدب» ومسلم ٢٠٢٥/٤. ومنها ما رواه الإمام أحمد في «المسند» ٢/ ١٦٨، والترمذي ١٢٩/٣، والحاكم في «المستدرک» ١٦٤/٤ عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره». وروى الإمام مسلم في «صحيحه» ٢٠٢٥/٤ عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر! إذا طبخت مرقة، فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك». وروى البخاري في «صحيحه» كتاب «الرقاق»، ومسلم كتاب «الإيمان»: مرفوعاً «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره».

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يعني: المملوكين^(١). وقال بعضهم: يدخل فيه الحيوان البهيم. قال ابن عباس: والمختال: البطر في مشيته، والفخور: المفتخر على الناس بكبره. وقال مجاهد: هو الذي يعد ما أعطى، ولا يشكر الله، وقال ابن قتيبة: المختال: ذو الخيلاء والكبر. وقال الزجاج: المختال: الصِّلَفُ التَّيَّاهُ الجهول. وإنما ذكر الاختيال هاهنا، لأن المختال يأنف من ذوي قراباته، ومن جيرانه إذا كانوا فقراء.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْثُرُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(٢) قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ ذكر المفسرون أنها نزلت في اليهود. فأما سبب نزولها، فقال ابن عباس: كان كُرْدَم بن زيد، [حليف كعب بن الأشرف] وأسامة بن حبيب، ونافع بن أبي نافع، وبحري بن عمرو، وحيي بن أخطب، ورفاعة بن زيد بن ثابت، يأتون رجالاً من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، وكانوا يخالطونهم، ويتصحبون لهم، فيقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم، فإننا نخشى عليكم الفقر [في ذهابها] ولا تسارعوا في النفقة، فإنكم لا تدرون ما يكون، فنزلت هذه الآية^(٣). وفي الذي بخلوا به وأمروا الناس بالبخل به قولان: أحدهما: أنه المال، قاله ابن عباس، وابن زيد. والثاني: أنه إظهار صفة النبي ﷺ ونبوته، قاله مجاهد، وقناة، والسدي.

قوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «بالبخل» خفيفاً. وقرأ حمزة، والكسائي: «بالبخل» محركاً، وكذلك في سورة (الحديد). وفي الذين آتاهم الله من فضله قولان: أحدهما: أنهم اليهود، أوتوا علم نعت محمد ﷺ فكتموه، هذا قول الجمهور. والثاني: أنهم أرباب الأموال بخلوا بها، وكتموا الغنى، ذكره الماوردي في آخرين.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ قال الزجاج: معناه: جعلنا ذلك عتاداً لهم، أي: مثبناً لهم.

﴿وَالَّذِينَ يُبْفِثُونَ أَثْمَالَهُمْ رِكَاةً الثَّانِيَةَ وَلَا يَأْتِزُّوهُ الْآخِرَ وَمَنْ يَكْفِرْ الشَّيْطَانُ لَكُمْ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾^(٤) قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُبْفِثُونَ أَثْمَالَهُمْ رِكَاةً الثَّانِيَةَ﴾^(٥) اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود، قاله ابن عباس، ومجاهد، ومقاتل. والثاني: أنهم المنافقون، قاله السدي، والزجاج، وأبو سليمان الدمشقي. والثالث: مشركو مكة أنفقوا على عداوة النبي ﷺ، ذكره الثعلبي. والقرين: صاحب الموالف، وهو فصيل من الاقتران بين الشيتين. وفي معنى مقارنة الشيطان قولان: أحدهما: مصاحبته في الفعل. والثاني: مصاحبته في النار.

﴿وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾^(٦)

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ﴾ المعنى: وأي شيء على هؤلاء الذين ينفقون أموالهم رياء الناس، ولا يؤمنون بالله، لو ءَامَنُوا. وفي الإنفاق المذكور هاهنا قولان: أحدهما: أنه الصدقة، قاله ابن عباس. والثاني: الزكاة، قاله أبو سليمان الدمشقي. وفي قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ تهديد لهم على سوء مقاصدهم.

(١) قال الحافظ ابن كثير: وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وصية بالأوفاء، لأن الرقین ضعيف الحيلة، أسير في أيدي الناس، فلها ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يوصي أمته في مرض الموت بقول: «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم» فجعل يرددها حتى ما يفيض بها لسانه. قلت: والحديث رواه أحمد، والنسائي، وابن ماجه ٥١٩/١ عن أنس، وإسناده صحيح على شرط الشيخين كما في «الزوائد». وروى الإمام أحمد عن المقدم بن معد يكرب، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة» ورواه النسائي، وإسناده صحيح وله الحمد. وعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق» رواه مسلم. وعن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «هم إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه» أخرجه.

(٢) رواه ابن هشام عن ابن إسحاق في مسيرته ٢٠٨/٢، وابن جرير ٣٥٣/٨ عن ابن عباس، وفي سننه محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، قال الذهبي: لا يعرف. قلت: ابن إسحاق لم يصرح بالتحديث.

(٣) قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: إن الله ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون بإعطائهم السمعة، وأن يمدحوا بالكرم، ولا يريدون بذلك وجه الله، وفي حديث «الثلاثة الذين هم أول من تسجر بهم النار، وهم: العالم والغايزي والمنفق، المرائون بأعمالهم» يقول صاحب المال: ما تركت من شيء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت في سبيلك، فيقول الله: كذبت إنما أردت أن يقال: جواد فقد قيل! أي: فقد أخذت جزاءك في الدنيا، وهو الذي أردت بفعلك. والحديث رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، عن أبي هريرة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا دَرُّوْ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيْمًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا دَرُّوْ﴾ قد شرحنا الظلم فيما سلف، وهو مستحيل على الله ﷻ، لأن قوما قالوا: الظلم: تصرف فيما لا يملك، والكل ملكه، وقال آخرون: هو وضع الشيء في غير موضعه، وحكمته لا تقتضي فعلاً لا فائدة تحته. ومثقال الشيء: زنه الشيء. قال ابن قتيبة: يقال: هذا على مثقال هذا، أي: على وزنه. قال الزجاج: وهو مفعال من الثقل. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: يظن الناس أن المثقال وزن دينار لا غير، وليس كما يظنون. مثقال كل شيء: وزنه، وكل وزن يسمى مثقالاً، وإن كان وزن ألف. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا تُكَلِّمُ مِنْ خَرَدَلٍ﴾ [الأنبياء: ٤٧] قال أبو حاتم: سألت الأصمعي عن صنعة مثقال الميزان، فقال: فارسي، ولا أدري كيف أقول، ولكني أقول: مثقال، فإذا قلت للرجل: ناولي مثقالاً، فأعطاك صنعة ألف، أو صنعة حبة، كان ممثلاً. وفي المراد بالنذر خمسة أقوال: أحدها: أنه رأس نملة حمراء، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: ذرة يسيرة من التراب، رواه يزيد بن الأصم، عن ابن عباس. والثالث: أصغر النمل، قاله ابن قتيبة، وابن فارس. والرابع: الخردلة. والخامس: الواحدة من الهباء الظاهر في ضوء الشمس إذا طلعت من ثقب، ذكرهما الثعلبي. واعلم أن ذكر النذر ضربٌ مثل بما يعقل، والمقصود أنه لا يظلم قليلاً ولا كثيراً.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً﴾ قرأ ابن كثير، ونافع: حسنة بالرفع. وقرأ الباقون بالنصب. قال الزجاج: من رفع، فالمعنى: وإن تحدثت حسنة، ومن نصب، فالمعنى: وإن تك فعلته حسنة.

قوله تعالى: ﴿يُضَاعِفْهَا﴾ قرأ ابن عامر، وابن كثير: يُضَعِّفُهَا بالتشديد من غير ألف. وقرأ الباقون: يضاعفها بألف مع كسر العين. قال ابن قتيبة: يضاعفها بالألف: يعطي مثلها مرات، ويضعفها بغير ألف: يعطي مثلها مرة^(١).

قوله تعالى: ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ أي: من قبله. والأجر العظيم: الجنة^(٢).

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ قال الزجاج: معنى الآية: فكيف يكون حال هؤلاء يوم القيامة، فحذف الحال، لأن في الكلام دليلاً عليه. ولفظ «كيف» لفظ الاستفهام، ومعناها التوبيخ. والشاهد: نبي الأمة. وبماذا يشهد؟ فيه أربعة أقوال: أحدها: بأنه قد بلغ أمته. قاله ابن مسعود^(٣)، وابن جريج، والسدي، ومقاتل.

(١) نص كلام ابن قتيبة في «غريب القرآن» ١٢٧: يضعفها، أي: يؤتي مثلها مرات، ولو قال: يضعفها لكان مرة واحدة. وفي «مجاز القرآن» ١٢٧/١: «يضاعفها»: أضعافاً، و«يضعفها»: ضعفين. وفي «الطبري» ٣٦٦/٨. وأما قوله: «يضاعفها» فإنه جاء بالألف، ولم يقل «يضعفها»، لأنه أريد به في قول بعض أهل العربية يضاعفها أضعافاً كثيرة، ولو أريد به في قوله: يضيف ذلك ضعفين، لقل: «يضيفها» بالتشديد.

(٢) قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا دَرُّوْ﴾... ٤٩٧/١: يخبر تعالى أنه لا يظلم عبداً من عباده يوم القيامة مثقال حبة خردل، ولا مثقال ذرة، بل يوفيهما له ويضاعفها له إن كانت حسنة، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ الْيَوْمَ لِلْعَالَمِينَ آيَاتٌ فَلَا يَسْمَعُونَ وَلَا يَسْهَرُونَ وَلَا يَنُودُونَ﴾. وقال تعالى مخبراً عن لقمان أنه قال: ﴿يَبْنَؤُا إِنَّمَا لَهُ تَكَلُّفٌ وَشَقَاكٌ حَبْرٌ مِّنْ خَرَدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَحْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَكُونِ أَوْ فِي الْأَرْنَبِ يَأْتِي بِمَا أَفْهَىٰ إِذْ اللَّهُ لَيْفٌ خَبِيرٌ ۝﴾ [لقمان: ١٦] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْكَارُ أَشْكَارُهَا فَأَمَلَكَمُ ۝ فَمَنْ يَسْمَلْ يُسْأَلْ يَسْأَلْ وَيَسْأَلْ يُسْأَلُ أَفْهَىٰ مِمَّا أَفْهَىٰ إِذْ اللَّهُ لَيْفٌ خَبِيرٌ ۝﴾. وفي «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل، وفيه «ليقول الله ﷻ: أرجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار» وفي لفظ: «أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار، فيخرجون خلقاً كثيراً» ثم يقول أبو سعيد: إفرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا دَرُّوْ﴾ الآية.

قلت: وروى الإمام مسلم في «صحيحه» ٢١٦٢/٤ عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة، يعطي بها في الدنيا ويجزي بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها في الدنيا، حتى إذا أنفى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزي بها». ورواه الإمام أحمد ١٢٣/٣، والطبري في «مسنده».

(٣) روى الإمام أحمد في «المسنَد» ٣٥٥٠ البخاري ٨١/٩، ومسلم ٥٥١/١ عن عبد الله بن مسعود، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ علي القرآن» قال: قلت: يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أشتي أن أسمعه من غيري» فقرأت «النساء» حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ۝﴾ [النساء: ٤١] رفعت رأسي، أو غمزني رجل إلى جنب، فرفعت رأسي، فرايت دموعه تسيل. هذا لفظ مسلم.

والثاني: بإيمانهم، قاله أبو العالية. والثالث: بأعمالهم، قاله مجاهد، وقتادة. والرابع: يشهد لهم وعليهم، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يعني: نبينا ﷺ. وفي «هؤلاء» ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم جميع أمته، ثم فيه قولان: أحدهما: أنه يشهد عليهم. والثاني: يشهد لهم، فتكون «على» بمعنى: اللام. والقول الثاني: أنهم الكفار يشهد عليهم بتبليغ الرسالة، قاله مقاتل. والثالث: اليهود والنصارى، ذكره الماوردي.

﴿يَوْمَ يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَخَسَوْا إِلَى الْأَرْضِ لَوْ شِئُوا بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْ شِئُوا بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو: «لو تسؤى»، بضم التاء، وتخفيف السين. والمعنى: ودوا لو جعلوا تراباً، فكانوا هم والأرض سواء، هذا قول الفراء في آخرين. قال أبو هريرة: إذا حشر الله الخلائق، قال للبهائم، والدواب، والطير: كونى تراباً. فعندها يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً^(١). وقرأ نافع، وابن عامر: «لو تسؤى»، بفتح التاء، وتشديد السين، والمعنى: لو تسؤى، فأدغمت التاء في السين، لقربها منها. قال أبو علي: وفي هذه القراءة اتساع، لأن الفعل مسند إلى الأرض، وليس المراد: ودوا لو صارت الأرض مثلهم، وإنما المعنى: ودوا لو يتسؤون بها. ثم في المعنى للمفسرين قولان: أحدهما: أن معناه: ودوا لو تخرقت بهم الأرض، فساخا فيها، قاله قتادة، وأبو عبيدة، ومقاتل. والثاني: أن معناه: ودوا أنهم لم يبعثوا، لأن الأرض كانت مستوية بهم قبل خروجهم منها، قاله ابن كيسان، وذكر نحوه الزجاج. وقرأ حمزة، والكسائي: «لو تسؤى»، بفتح التاء، وتخفيف السين، والواو مشددة مماله، وهي بمعنى: تسؤى، فحذف التاء التي أدغمها نافع، وابن عامر. فأما معنى القراءتين، فواحد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ في «الحديث» قولان: أحدهما: أنه قولهم: ما كنا مشركين، هذا قول الجمهور. والثاني: أنه أمر النبي ﷺ وصفته ونمته، قاله عطاء. فعلى الأول يتعلق الكتمان بالآخرة، وعلى الثاني يتعلق بما كان في الدنيا، فيكون المعنى: ودوا أنهم لم يكتموا ذلك. وفي معنى الآية ستة أقوال: أحدها: ودوا إذا فضحتهم جوارحهم أنهم لم يكتموا الله شركهم، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس. والثاني: أنهم لما شهدت عليهم جوارحهم لم يكتموا الله حديثاً بعد ذلك، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أنهم في موطن لا يكتمون حديثاً، وفي موطن يكتمون، ويقولون: ما كنا مشركين، قاله الحسن. والرابع: أن قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ كلام مستأنف لا يتعلق بقوله: ﴿لَوْ شِئُوا بِهِمُ الْأَرْضُ﴾، هذا قول الفراء، والزجاج. ومعنى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾: لا يقدرُونَ على كتمانِهِ، لأنه ظاهر عند الله^(٢). والخامس: أن المعنى: ودوا لو سويت بهم الأرض، وأنهم لم يكتموا الله حديثاً. والسادس: أنهم لم يعتقدوا قولهم: ما كنا مشركين كذباً، وإنما اعتقدوا أن عبادة الأصنام طاعة، ذكر القولين ابن الأنباري. وقال القاضي أبو يعلى: أخبروا بما توهموا، إذ كانوا يظنون أنهم ليسوا بمشركين، وذلك لا يخرجهم عن أن يكونوا قد كذبوا.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُشَاً إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَابُوا وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَاهُمْ أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمْ تُنِسْ مِنَ الْإِسَاءِ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَيْدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾ روى أبو عبد الرحمن السلمي، عن علي بن أبي

(١) رواه ابن جرير الطبري ٢٦/٣٠ طبع مصطفى البابي الحلبي الطبعة الثانية، وإسناده قوي.

(٢) قال ابن كثير: قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه، ولا يكتمون منه شيئاً. وروى ابن جرير عن سعيد بن جبيرة، قال: جاء رجل إلى ابن عباس، فقال: سمعت الله ﷻ يقول - يعني إخباراً عن المشركين يوم القيامة أنهم قالوا: ﴿وَاللَّهُ رَئُوفٌ بِكَ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وقال في الآية الأخرى ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ فقال ابن عباس: أما قوله ﴿وَاللَّهُ رَئُوفٌ بِكَ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا: نعالوا فلنجد، فقالوا: ﴿وَاللَّهُ رَئُوفٌ بِكَ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. فحتم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم، فلا يكتمون الله حديثاً. قلت: وسنده حسن. ورواه الطبري أيضاً بإسنادين آخرين، وذكرهما ابن كثير عنه.

طالب ﷺ قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً، فدعانا، وسقانا من الخمر، فأخذت [الخمر] منا، وحضرت الصلاة، فقدموني، فقرأت قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون^(١). فنزلت هذه الآية^(٢). وفي رواية أخرى، عن أبي عبد الرحمن، عن علي ﷺ أن الذي قدموه، وخطب في هذه السورة، عبد الرحمن بن عوف^(٣). وفي معنى قوله: ﴿لَا تَقْرَءُوا الْفَسْخَ﴾ قولان: أحدهما: لا تتعرضوا بالسكر في أوقات الصلاة. والثاني: لا تدخلوا في الصلاة في حال السكر، والأول أصح، لأن السكران لا يعقل ما يخاطب به. وفي معنى: ﴿وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ قولان: أحدهما: من الخمر، قاله الجمهور. والثاني: من النوم، قاله الضحاك، وفيه بعد. وهذه الآية اقتضت إباحة السكر في غير أوقات الصلاة، ثم نسخت بتحريم الخمر^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبٌ﴾ قال ابن قتيبة: الجنابة: البعد، قال الزجاج: يقل: رجل جنب، ورجلان جنب، ورجال جنب، كما يقال: رجل رضى، وقوم رضى. وفي تسمية الجنب بهذا الاسم قولان: أحدهما: لمجانبة مائه محله. والثاني: لما يلزمه من اجتناب الصلاة، وقراءة القرآن، ومس المصحف، ودخول المسجد.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن المعنى: لا تقربوا الصلاة وأنتم جنب إلا أن تكونوا مسافرين غير واجدين للماء فتيتموا، وتصلوا. وهذا المعنى مروى عن علي ﷺ، ومجاهد، والحكم، وقتادة، وابن زيد، ومقاتل، والفراء، والزجاج. والثاني: لا تقربوا مواضع الصلاة وهي المساجد وأنتم جنب إلا مجتازين، ولا تقعدوا. وهذا المعنى مروى عن ابن مسعود، وأنس بن مالك، والحسن، وسعيد بن المسيب، وعكرمة، وعطاء الخراساني، والزهرى، وعمرو بن دينار، وأبي الضحى، وأحمد، والشافعي، وابن قتيبة^(٥). وعن ابن عباس، وسعيد ابن جبير، كالقولين، فعلى القول الأول: «عابر السبيل»: المسافر، و«قربان الصلاة»: فعلها، وعلى الثاني: «عابر السبيل»: المجتاز في المسجد، و«قربان الصلاة»: دخول المسجد الذي تفعل فيه الصلاة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَجًا﴾ في سبب نزول هذا الكلام قولان: أحدهما: أن رجلاً من الأنصار كان مريضاً فلم يستطع أن يقوم فيتوضأ، ولم يكن له خادم، فأتى رسول الله ﷺ، فذكر له ذلك، فنزلت هذه الآية ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَجًا أَوْ عَلَى سَكْرٍ﴾ قاله مجاهد. والثاني: أن أصحاب رسول الله ﷺ أصابتهم جراحات، ففشت فيهم، وابتلوا بالجنابة، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَجًا﴾ الآية كلها، قاله إبراهيم النخعي. قال القاضي أبو يعلى: وظاهر الآية يقتضي جواز التيمم مع حصول المرضي الذي يستصّر معه باستعمال الماء، سواء كان يخاف التلف، أو لا

(١) أخرجه أبو داود ٤٤٥/٣، والترمذي ١٢٧/٢، وابن جرير ٣٧٦/٨، كلهم من طريق عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي ﷺ، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٢) رواه ابن جرير ٣٧٦/٨، عن محمد بن بشار، عن عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي ﷺ.

(٣) روى الإمام أحمد ٣٧٩/١ من عمر بن الخطاب، قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية التي في سورة (البقرة) ﴿يَسْأَلُكَ غَيْرُ الْكُفَرِ وَالنَّبِيِّ قُلْ فِيهِمْ إِذْ كُفِرُوا﴾ قال: فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في سورة (النساء) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَءُوا الْفَسْخَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: أن لا يقربوا الصلاة سكران، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في (المائدة)، فدعي عمر فقرئت عليه، فلما بلغ ﴿هَؤُلَاءِ أَنْتُمْ بُنْيَانٌ﴾ قال: فقال عمر: انتهينا انتهينا. ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه. قال علي بن المديني: هذا الإسناد صالح، وصححه الترمذي.

(٤) قال ابن جرير ٣٨٤/٨ بعد أن حكى القولين: وأولى القولين بالتأويل للذلك تأويل من تأوله ﴿وَلَا جُنُبٌ إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ﴾ إلا مجتازي طريق فيه. وذلك أنه قد بين حكم المسافر إذا عدم الماء وهو جنب في قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَجًا أَوْ عَلَى سَكْرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدُكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَسْتُمْ إِذَا نَزَلْتُمْ عَنْ سَكْرٍ﴾ فكان معلوماً بذلك أن قوله: ﴿وَلَا جُنُبٌ إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ﴾ لو كان معنياً به المسافر، لم يكن لإعادة ذكره في قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَجًا أَوْ عَلَى سَكْرٍ﴾ معنى مفهوم، وقد مضى ذكر حكمه قبل ذلك. وإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون، ولا تقربوها أيضاً جنباً حتى تغتسلوا إلا عابري سبيل. والعابر السبيل: المجتاز مرأً وقطعاً، يقال منه: عبرت هذا الطريق، فأنابته عبراً وعبراً. قال ابن كثير ٥٠٢/١: وهذا الذي نصره - يعني ابن جرير - هو قول الجمهور، وهو الظاهر من الآية.

يخاف، وكذلك السفر يجوز فيه التيمم عند عدم الماء، سواء كان قصيراً، أو طويلاً، وعدم الماء ليس بشرط في جواز التيمم للمريض، وإنما الشرط: حصول الضرر، وأما السفر، فعدم الماء شرط في إباحة التيمم، وليس السفر بشرط، وإنما ذكر السفر، لأن الماء يُعدم فيه غالباً.

قوله تعالى: ﴿أَوْ جَسَدًا أَحَدًا مِّنَ الْفَالِطِ﴾ «أو» بمعنى الواو، لأنها لو لم تكن كذلك، لكان وجوب الظهارة على المريض والمسافر غير متعلق بالحدث. والغايط: المكان المظلم من الأرض، فكفي عن الحدث بمكانه، قاله ابن قتيبة. وكذلك قالوا للمزادة: راوية، وإنما الرواية للبعير الذي يُسقى عليه، وقالوا للنساء: طعائن، وإنما الطعائن: اليهوداج، وكُنْ يَكُن فيها، وسموا الحدث عذرة، لأنهم كانوا يلقون الحدث بأفنية الدور.

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَكَسْتُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «أو لامتكم» بألف هاءنا، وفي (المائدة)، وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف في اختياره، والمفضل عن عاصم، والوليد بن عتبة، عن ابن عامر «أَوْ لَكَسْتُمْ» بغير ألف هاءنا، وفي (المائدة). وفي المراد بالملامسة قولان: أحدهما: أنها الجماع، قاله علي، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة. والثاني: أنها الملامسة باليد، قاله ابن مسعود، وابن عمر، والشعبي، وعبيدة، وعطاء، وابن سيرين، والنخعي، والنهدي، والحكم، وحماة^(١). قال أبو علي: التمس يكون باليد، وقد اتسع فيه فإوقع على غيره، فمن ذلك ﴿وَأَنَّا لَكُنَّا مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الجن: ٨] أي: عالجنا غيب السماء، ومنا من يسترقه فيلقيه إلى الكهنة، ويخبرهم به. فلما كان التمس يقع على غير المباشرة باليد، قال: ﴿فَلَسُّوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٧] فخص اليد، لئلا يلتبس بالوجه الآخر، كما قال: ﴿وَحَلَّيْلُ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مِّنْ آمَلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] لأن الابن قد يدعى وليس من الصلب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ سبب نزولها: أن عائشة رضي الله عنها كانت مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فانقطع عقد لها، فأقام النبي ﷺ على التماسه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فتزلت هذه الآية، فقال أسيد بن حضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر. أخرجه البخاري، ومسلم^(٢)، وفي رواية أخرى أخرجه البخاري ومسلم أيضاً: أن

(١) قال ابن جرير ٣٩٦/٨: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: عنى الله بقوله ﴿أَوْ لَكَسْتُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ الجماع دون غيره من معاني التمس، لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قبل بعض نسائه، ثم صلى ولم يتوضأ، ثم روى عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يتوضأ، ثم يقبل، ثم يصلي ولا يتوضأ»، ثم روى عن عروة، عن عائشة «أن رسول الله ﷺ قبل بعض نسائه، ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ. قلت: من هي إلا أنت؟ فضحكت». وحديث عائشة هذا، رواه أبو داود ٨٣/١، وابن ماجه ١٦٨/١، وأحمد في «المستدرك» ٢١٠/٦، وقد تكلم على هذا الحديث بعض الأئمة، والحق أنه صحيح. قال أبو عمر بن عبد البر: صححه الكوفيون وثبتوه لرواية الثقات من أئمة الحديث له، وحبيب لا ينكر لقاءه عروة، لروايته عن هو أكبر من عروة وأقدم موتاً.

قلت: ولم ينفرد حبيب برواية هذا الحديث، فقد تابعه عليه هشام بن عروة، عن أبيه عروة بن الزبير. انظر «سنن الدارقطني» ص: ٥٠، وقد جاء الحديث بإسناد آخر صحيح عن عائشة، انظر «الجواهر النقي» ١/١٢٥، و«نصب الراية» ١/٣٨.

وقال الإمام ابن رشد في «بداية المجتهد» ٢٩/١: وسبب اختلافهم في هذه المسألة اشتراك اسم التمس في كلام العرب، فإن العرب تطلق مرة على التمس الذي هو باليد، ومرة تكتي به عن الجماع، فذهب قوم إلى أن التمس الموجب للطهارة في آية الوضوء هو الجماع في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَكَسْتُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ وذهب آخرون إلى أنه التمس باليد. ثم قال: «وقد احتج من أوجب الوضوء من التمس باليد، بأن التمس يطلق حقيقة على التمس باليد، وينطلق مجازاً على الجماع، وأنه إذا تردد اللفظ بين الحقيقة والمجاز؛ فالأولى أن يحمل على الحقيقة، حتى يدل الدليل على المجاز. ولأنك أن يقولوا: إن المجاز إذا كثر استعماله كان أدل على المجاز منه على الحقيقة، كالحال في اسم «الغائط» الذي هو أدل على الحدث - الذي هو فيه مجاز - منه على المظلم من الأرض، الذي هو فيه حقيقة. والذي اعتقده: أن التمس وإن كانت دلالة على المعنيين بالسواء؛ أو قريباً من السواء -: فإنه أظهر عندي في الجماع، وإن كان مجازاً، لأن الله تعالى قد كنى بالمباشرة والتمس عن الجماع، وهما في معنى التمس، وعلى هذا التأويل في الآية يحتاج بها في إجازة التيمم للجنب، دون تقدير تقديم فيها ولا تأخير، على ما سيأتي بعد، وترفع المعارضة التي بين الآثار والآية على التأويل الآخر - يريد ابن رشد بالآثار هنا حديث عائشة في القبلة - وأما من فهم من الآية اللامين معاً فضعيف، فإن العرب إذا خاطبت بالاسم المشترك إنما تقصد به معنى واحداً من المعاني التي يدل عليها الاسم، لا جميع المعاني التي يدل عليها، وهذا بين بنفسه في كلامهم».

(٢) البخاري ١٨٩/٨، ومسلم ٢٧٩/١، ولفظه عن عائشة أنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء (أو بذات الجيش) انقطع عقد لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء. فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس ليسوا على ماء، وليس معهم ماء! قالت: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في =

عائشة استعارت من أسماء قلادة فهلكت، فبعث رسول الله ﷺ رجالاً في طلبها، فأدركتهم الصلاة وليس معهم ماء، فصلوا بغير وضوء، وشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فنزلت آية التيمم^(١). والتيمم في اللغة: القصد، وقد ذكرناه في قوله: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ وأما الصعيد: فهو التراب، قاله علي، وابن مسعود، والفراء، وأبو عبيد^(٢) والزجاج، وابن قتيبة. وقال الشافعي: لا يقع اسم الصعيد إلا على تراب ذي غبار. وفي الطيب قولان: أحدهما: أنه الطاهر. والثاني: الحلال.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْكُوا بُيُوتَكُمْ وَأَيِّدِيَكُمْ﴾ الوجه الممسوح في التيمم: هو المحدود في الوضوء. وفيما يجب مسحه من الأيدي ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إلى الكوعين حيث يقطع السارق، روى عمار عن النبي ﷺ أنه قال: «التيمم ضربة للوجه والكفين»^(٣). وبهذا قال سعيد بن المسيب، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة، والأوزاعي، ومكحول، ومالك، وأحمد، وإسحاق، وداود. والثاني: أنه إلى المرفقين، روى ابن عباس عن النبي ﷺ: أنه تيمم، فمسح ذراعيه^(٤). وبهذا قال ابن عمر، وابنه سالم، والحسن، وأبو حنيفة، والشافعي، وعن الشعبي كالتقوين. والثالث: أنه يجب المسح من رؤوس الأنامل إلى الآباط، روى عمار بن ياسر قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزلت الرخصة في المسح، فضربنا بأيدينا ضربة لوجوهنا، وضربة لأيدينا إلى المناكب والآباط^(٥). وهذا قول الزهري.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ قال الخطابي: «العفو»: بناء للمبالغة. و«العفو»: الصفح عن الذنوب، وترك مجازاة المسيء. وقيل: إنه مأخوذ من: عفت الريح الأثر: إذا درسته، وكان العافي عن الذنوب يمحوه بصفحه عنه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا ضَيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن يُضِلُّوا السَّبِيلَ﴾

= خاصرني، فلا يمتنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي، فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم «فتيمموا» فقال أسيد بن الحضير (وهو أحد النقباء) ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر. فقالت عائشة: فبئنا البعير الذي كنت عليه. فوجدنا العقد تحته. والبيداء: هي ذو الحليفة بالقرب من المدينة من طريق مكة، وفات الجيش وراء ذي الحليفة، قاله ابن التين.

(١) البخاري ٣٧٣/١، ومسلم ٢٧٩/١.

(٢) في النسخة الأحمدية «وأبو عبيدة» وفي «مجاز القرآن» ١٢٨/١: الصعيد: وجه الأرض. وفي «اللسان» ٢٥٤/٣: وقال أبو إسحاق: الصعيد وجه الأرض، قال: وعلى الإنسان أن يضرب يديه وجه الأرض، ولا يبالي أكان في الموضع تراب أو لم يكن، لأن الصعيد ليس هو التراب، إنما هو وجه الأرض تراباً كان أو غيره، قال: ولو أن أرضاً كلها صخر لا تراب عليه، ثم ضرب التميم يد على ذلك الصخر، لكان ذلك طهوراً إذا مسح به وجهه، قال الله تعالى «تَضَعُ ضَيْبًا» لأنه نهاية ما يصعد إليه من باطن الأرض، لا أعلم بين أهل اللغة خلافاً فيه أن الصعيد وجه الأرض. اهـ.

ونقل القرطبي أيضاً ٢٣٦/٥: عن الخليل، وابن الأعرابي، والزجاج. أن الصعيد: وجه الأرض كان عليه تراب أو لم يكن، وقد ذهب إلى تخصيص التيمم بالتراب الشافعي وأحمد وداود. وذهب مالك، وأبو حنيفة، وعطاء، والأوزاعي، والثوري إلى أنه مجزئ بالأرض وما عليها. وقال ابن القيم في «زاد المعاد» ١٠٣/١: وكذلك كان يتيمم بالأرض التي يصلي عليها، تراباً كانت أو سبخة أو رملًا. وصح عنه أنه قال: «حيثما أدركت رجلاً من أمتي الصلاة فعنده مسجد طهوره». وهذا نص صريح في أن من أدرسته الصلاة في الرمل فالرمل له طهوره. ولما سافر هو وأصحابه في غزوة تبوك قطعوا تلك الرمال في طريقهم، وماؤهم في غاية القلة، ولم يرووا عنه أنه حمل معه التراب، ولا أمر به، ولا فعله أحد من أصحابه، مع القطع بأن في المفاوز الرمال أكثر من التراب، وكذلك أرض الحجاز وغيره. ومن تدبر هذا قطع بأنه كان يتيمم بالرمل؛ والله أعلم، وهذا قول الجمهور.

(٣) البخاري ٣٧٧/١، ومسلم ٢٨٠/١، وأبو داود ١٣٦/١، والنسائي ١٦٩/١، وابن ماجه ١٥٨/١.

(٤) لم نجد في كتب السنة التي بين أيدينا هذا الحديث بهذا اللفظ عن ابن عباس، وروى البزار من طريق محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس، عن عمار، قال: كنت في القوم حين نزلت الرخصة في المسح بالتراب إذا لم نجد الماء، فأمرنا، ففصرنا واحدة للوجه ثم ضربة أخرى لليدين إلى المرفقين. قال الحافظ في «الدراية» ص ٣٦ بعد أن حسن إسناده: لكن أخرجه أبو داود، فقال: «إلى المناكب» وذكر أبو داود علته والاختلاف فيه. وحديث «التيمم ضربتان ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين» رواه الدارقطني، والحاكم من حديث ابن عمر وقد تفرد علي بن طليان برفعه، ووقفه غيره، وصوب وقفه الدارقطني، وأخرجه الدارقطني، والحاكم أيضاً من طريقين واهيين عن ابن عمر. قاله الحافظ ابن حجر. وقد روي من حديث جابر، ومن حديث عائشة، انظر «نصب الرابة» ١٥٠/١، ١٥٤.

(٥) أبو داود ١٣٤/١، والنسائي ١٦٧/١. وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٣٧٦/١٥: إن الأحاديث الواردة في صفة التيمم لم يصح منها سوى حديث أبي جهيم، وعمار، وما عداهما فضعيف أو مختلف في رفعه ووقفه، والراجح عدم رفعه، فأما حديث أبي جهيم، فورد بذكر اليدين مجعلاً، وأما حديث عمار، فورد بذكر الكفين في «الصحيحين»، وبذكر المرفقين في «السنن» وفي رواية «إلى نصف الذراع» وفي رواية «إلى الآباط». فأما رواية المرفقين وكذا نصف الذراع، ففيها مقال، وأما رواية الآباط، فقال الشافعي وغيره: إن كان ذلك وقع بأمر النبي ﷺ، فكل تيمم صح للنبي ﷺ بعده، فهو ناسخ له، وإن كان وقع بغير أمره، فالحجة فيما أمر به، ومما يقوي رواية «الصحيحين» في الانتصار على الوجه والكفين كون عمار كان يفتي بعد النبي ﷺ بذلك، وراوي الحديث أعرف بالمراد به من غيره، ولا سيما الصحابي المجتهد.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في رفاعه بن زيد بن ثابت. والثاني: أنها نزلت في رجلين كانا إذا تكلم النبي ﷺ لوبا ألتستهما وعاباه، روي القولان عن ابن عباس^(١). والثالث: أنها نزلت في اليهود، قاله قتادة. وفي النصيب الذي أوتوه قولان: أحدهما: أنه علم نبوة محمد النبي ﷺ. والثاني: العلم بما في كتابهم دون العمل.

قوله تعالى: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ قال ابن قتيبة: هذا من الاختصار، والمعنى: يشترون الضلالة بالهدى، ومثله: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: ٧٨] أي: تركنا عليه ثناء حسناً، فحذف الثناء لعلم المخاطب. وفي معنى اشتراهم الضلالة أربعة أقوال: أحدها: أنه استبدلهم الضلالة بالإيمان، قاله أبو صالح، عن ابن عباس. والثاني: أنه استبدلهم التكذيب بالنبي ﷺ بعد ظهوره بإيمانهم به قبل ظهوره، قاله مقاتل. والثالث: أنه إيتارهم التكذيب بالنبي ﷺ لأخذ الرشوة، وثبوت الرئاسة لهم، قاله الزجاج. والرابع: أنه إعطاؤهم أحبارهم أموالهم على ما يصنعونه من التكذيب بالنبي ﷺ، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُقْبِلُوا عَلَىكَ﴾ خطاب للمؤمنين. والمراد بالسبيل: طريق الهدى.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [١٥]

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ فهو يعلمكم ما هم عليه، فلا تستنصحوهم، وهم اليهود، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًا﴾ لكم، فمن كان وليه، لم يضره عدوه. قال الخطابي: «الولي»: الناصر، و«الولي»: المتولي للأمر، والقائم به، وأصله من الولي، وهو القرب، و«النصير»: فعيل بمعنى فاعل^(٢).

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَآتَيْنَا عَبْدَ مَرْيَمَ وَمَا عَلَّمْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقَيْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّمْ يَفْعَلْهُمُ اللَّهُ بِكَفَرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [١٦]

قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ قال مقاتل: نزلت في رفاعه بن زيد، ومالك بن الضيف، وكعب بن أسيد، وكلهم يهود. وفي «من» قولان ذكرهما الزجاج: أحدهما: أنها من صلة الذين أوتوا الكتاب، فيكون المعنى: ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب من الذين هادوا. والثاني: أنها مستأنفة، فالمعنى: من الذين هادوا قوم يحرفون، فيكون قوله: يحرفون، صفة، ويكون الموصوف محذوفاً، وأنشد سيويه:

وما الدهر إلا تارثان فمنهما

أموت وأخرى أبتغي العيش أخذح^(٣)

والمعنى: فمنهما تارة أموت فيها. قال أبو علي الفارسي: والمعنى: وكفى بالله نصيراً من الذين هادوا، أي: إن الله ينصر عليهم. فأما «التحريف»، فهو التغيير. و«الكلم»: جمع كلمة. وقيل: إن «الكلام» مأخوذ من «الكلم»، وهو الجرح الذي يشق الجلد واللحم، فسمي الكلام كلاماً، لأنه يشق الأسماع بوصوله إليها، وقيل: بل لتشقيقه المعاني المطلوبة في أنواع الخطاب. وفي معنى تحريفهم الكلم قولان: أحدهما: أنهم كانوا يسألون النبي ﷺ عن الشيء، فإذا خرجوا، حرفوا كلامه، قاله ابن عباس. والثاني: أنه تبديلهم التوراة، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿عَن مَّوَاضِعِهِ﴾، أي: عن أماكنه وجوهه.

(١) أخرج الأول ابن جرير ٢٨/٨ من طريق محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، قال: حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس، ومحمد بن أبي محمد مجهول. ونسبه السيوطي في «الدرر» ١٦٨/٢ إلى ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الدلائل».

(٢) قال ابن كثير ٥٠٧/١ في تفسير الآيتين: يخبر تبارك وتعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة - أنهم يشترون الضلالة بالهدى، ويعرضون عما أنزل الله على رسوله، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين في صفة محمد ﷺ ليشتروا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُقْبِلُوا عَلَىكَ﴾ أي: يريدون لو تكفروا بما أنزل عليك أيها المؤمنون، وتركون ما أنت عليه من الهدى والعلم النافع، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ أي: هو يعلم بهم، ويحذرهم منهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ أي: كفى به ولياً لمن لجأ إليه، ونصيراً لمن استنصره.

(٣) البيت لتسيم بن مقبل، «ديوانه» من ٢٤، و«الكتاب» ٣٧٦/١، و«الكامل» ٩٠٨/٣، و«حجاسة البحر» ١٨٣، و«الحبوان» ٤٨/٣. والكندج: الاكتساب، يقال: فلان يكندج على أهله. يقول: لا راحة في الدنيا، لأن وقتها قسماً، إما موت وهو مكروه عند النفس، وإما حياة وكلها سمي في المعيشة. واستشهد به سيويه والمبرد على حذف الاسم لدلالة الصفة عليه، وتقديره الكلام: فمنهما تارة أموت فيها، كما ذكره المؤلف رحمه الله.

قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ مَتَىٰ تَعْمَلُنَا﴾ قال مجاهد: سمعنا قولك، وعصينا أمرك.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَمَعَ عَيْنَ مَسْمُوعٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: اسمع لا سمعت، قاله ابن عباس، وابن زيد، وابن قتيبة. والثاني: أن معناه: اسمع غير مقبول ما تقول، قاله الحسن، ومجاهد. وقد تقدم في (البقرة) معنى: وراعنا. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال قتادة: «اللي»: تحريك ألسنتهم بذلك. وقال ابن قتيبة معنى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أنهم يحرفون «راعنا» عن طريق المراعاة، والانتظار إلى السبب بالرَّعونة. قال ابن عباس: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ مما بدلوا، و﴿أَقْوَمُ﴾ أي: أعدل، ﴿وَلَكِنَّ لَكُمْ اللَّهُ يَكْتُمُ﴾ بمحمد^(١).

قوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيه قولان: أحدهما: فلا يؤمن منهم إلا قليل، وهم عبد الله بن سلام، ومن تبعه، قاله ابن عباس. والثاني: فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً، قاله قتادة، والزجاج. قال مقاتل: وهو اعتقادهم أن الله خلقهم ورزقهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْكُتُبِ مَا مِثْلُ مَا نَزَّلْنَا مَعْكُم مِّن قَبْلِ أَن تَطْلُسَ وَجُوهًا فَرَدَّهَا عَلَيَّ آدْبَارُهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَعْتَصَبَ النَّبِيُّ وَكَانَ اللَّهُ مَفْعُولًا﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْكُتُبِ مَا مِثْلُ مَا نَزَّلْنَا﴾ سبب نزولها: أن النبي ﷺ دعا قوماً من أحناف اليهود، منهم عبد الله بن صوريا، وكعب [ابن أسد] إلى الإسلام، وقال لهم: إنكم لتعلمون أن الذي جئت به حق، فقالوا: ما نعرف ذلك، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس^(٢). وفي الذين أوتوا الكتاب قولان: أحدهما: أنهم اليهود، قاله الجمهور. والثاني: اليهود والنصارى، ذكره الماوردي. وعلى الأول يكون الكتاب: التوراة، وعلى الثاني: التوراة والإنجيل. والمراد بما نزلنا: القرآن، وقد سبق في (البقرة) بيان تصديقه لما معهم.

قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَطْلُسَ وَجُوهًا﴾ في طمس الوجوه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إعماء العيون، قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك. والثاني: أنه طمس ما فيها من عين، وأنف، وحاجب، وهذا المعنى مروي عن ابن عباس، واختيار ابن قتيبة. والثالث: أنه ردها عن طريق الهدى، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن، ومجاهد، والضحاك، والسدي. وقال مقاتل: من قبل أن تطمس وجوهاً، أي: نحول الملة عن الهدى والبصيرة. فعلى هذا القول يكون ذكر الوجه مجازاً. والمراد: البصيرة والقلوب. وعلى القولين قبله يكون المراد بالوجه: العضو المعروف.

قوله تعالى: ﴿فَرَدَّهَا عَلَيَّ آدْبَارُهَا﴾ خمسة أقوال: أحدها: نُصِيرُهَا فِي الْأَقْفَاءِ، وَنَجْعِلُ عَيْنُهَا فِي الْأَقْفَاءِ، هذا قول ابن عباس، وعطية. والثاني: نُصِيرُهَا كَالْأَقْفَاءِ، ليس فيها فم، ولا حاجب، ولا عين، وهذا قول قوم، منهم ابن قتيبة. والثالث: نجعل الوجه منبتاً للشعر، كالقروء، هذا قول الفراء. والرابع: نُثْفِئُهَا مَدْبَرَةً عَنْ دِيَارِهَا وَمَوَاضِعِهَا. وإلى نحوه ذهب ابن زيد. قال ابن جرير: فيكون المعنى: من قبل أن تطمس وجوههم التي هم فيها. وناحتهم التي هم بها نزول، فردها على آدبارها من حيث جاؤوا بدياً من الشام^(٣). والخامس: نردها في الضلالة، وهذا قول الحسن، ومجاهد، والضحاك، والسدي، ومقاتل.

(١) في «مشكل القرآن» ٢٩١: هؤلاء قوم من اليهود كانوا يقولون للنبي ﷺ إذا حدثهم وأمرهم: سمعنا، ويقولون في أنفسهم: عصينا، وإن أرادوا أن يكلموه بشيء قالوا له: اسمع يا أبا القاسم، ويقولون في أنفسهم: لا سمعت، ويقولون له: راعنا، يومونه في ظاهر اللفظ أنهم يريدون: انتظرونا، حتى نكلمك بما نريد، كما تقول العرب: أرعني سمعك وراعني، أي: انتظرني وترقب بي وتلوم علي، هذا ونحوه، وإنما يريد سبه بالرَّعونة في لغتهم، فقال الله سبحانه: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُخَوِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ تَوَاضِعِهِمْ وَيَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا﴾ ويقولون: ﴿وَرَوَّعْنَا لِيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: قلباً للكلام بها، ﴿وَكُنَّا فِي الْأَيْمَانِ زَكَاةً أَوْفُوا بِهَا﴾ كان قولهم: سمعنا وعصينا، وقالوا: واسمع، مكان قولهم: لا سمعت، وانتظرنا، مكان قولهم: راعنا؛ لكان خيراً لهم وأقروم. والعرب تقول: نظرتك وانتظرتك بمعنى واحد، قال الحطيتي:

وَقَدْ نَظَرْتُكَ لِمَنْ يَسْأَلُ عَيْنًا وَتَنَاسَسِي

(٢) أخرجه ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الدلائل» من طريق محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت قال: حدثني سعيد بن جبيرة أو عكرمة عن ابن عباس.

(٣) في تفسير الطبري ٤٤٢/٨: وقال آخرون: معنى ذلك: من قبل أن نمحو آثارهم من وجوههم التي هم بها، وناحتهم التي هم بها، فردها على آدبارها من حيث جاؤوا منه بدياً من الشام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَقْعُولًا﴾ قال ابن جرير: الأمر هاهنا بمعنى المأمور، سُمِّيَ باسم الأمر لحدوثه عنه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ قال ابن عمر: لما نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] قالوا لرسول الله ﷺ: والشرك؟ فكره رسول الله ﷺ ذلك، فنزلت هذه^(١). وقد سبق معنى الإشراف.

والمراد من الآية: لا يغفر لمشرك مات على شركه. وفي قوله: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ نعمة عظيمة من وجهين: أحدهما: أنها تقتضي أن كل ميت على ذنب دون الشرك لا يقطع عليه بالعذاب، وإن مات مصرأ^(٢). والثاني: أن تعليقه بالمشيئة فيه نفع للمسلمين، وهو أن يكونوا على خوف وطمع.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ سبب نزولها: أن مرحب بن زيد، وبحري بن عون - وهما من اليهود

- أتيا النبي ﷺ بأطفالهما، ومعهما طائفة من اليهود فقالوا: يا محمد هل على هؤلاء من ذنب؟ قال: لا، قالوا: والله ما نحن إلا كهيتهم، ما من ذنب نعمله بالنهار إلا كُفِّرَ عنا بالليل، وما من ذنب نعمله بالليل إلا كُفِّرَ عنا بالنهار، فنزلت هذه الآية. هذا قول ابن عباس^(٣).

وفي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قولان: أحدهما: ألم تُخبر، قاله ابن قتيبة. والثاني: ألم تعلم، قاله الزجاج. وفي الذين يزكون أنفسهم قولان: أحدهما: اليهود على ما ذكرنا عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقتادة، ومقاتل. والثاني: أنهم اليهود، والنصارى، وبه قال الحسن، وابن زيد. ومعنى «يزكون أنفسهم»: يزعمون أنهم أزكياء، يقال: زكى الشيء: إذا نما في الصلاح. وفي الذي زكوا به أنفسهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم يزعمون أنهم أزكياء، يقال: زكى الشيء: إذا نما في الصلاح. والثاني: أن اليهود قالوا: إن أبناءنا الذين ماتوا يزكوننا عند الله، ويشفعون لنا، رواه أبو صالح، عن ابن عباس. والثالث: أن اليهود كانوا يقدمون صبيانهم في الصلاة فيؤمنونهم، يزعمون أنهم لا ذنوب لهم، هذا قول عكرمة، ومجاهد، وأبي مالك. والرابع: أن اليهود والنصارى قالوا: ﴿حَسْبُ آبَتُنَا اللَّهُ وَاجْتَبَوهُ﴾ [المائدة: ١٨] وقالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًا﴾ [البقرة: ١١١] هذا قول الحسن، وقتادة.

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ اللَّهُ يُرِيكُم مِّنْ بَشَرٍ﴾ أي: يجعله زاكياً، ولا يظلم الله أحداً مقدار فتيل. قال ابن جرير: وأصل «الفتيل»: المفتول، صُرف عن مفعول إلى فاعل، كصرع، ودهين. وفي الفتيل قولان: أحدهما: أنه ما يكون في شق النواة، رواه عكرمة، عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعطاء بن أبي رباح، والضحاك، وقتادة، وعطية، وابن زيد، ومقاتل، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج. والثاني: أنه ما يخرج بين الأصابع من الوسخ إذا دلكن، رواه العوفي، عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، وأبو مالك، والسدي، والقرءاء.

(١) ابن جرير ٤٤٩/٨، ونقله عنه ابن كثير، ثم قال: وقد رواه ابن مردويه من طرق عن ابن عمر.

(٢) قال ابن جرير الطبري ٤٥٠/٨: وقد أبانت هذه الآية على أن كل صاحب كبيرة فني مشيئة الله تعالى، إن شاء عفا عنه ذنبه، وإن شاء عاقبه عليه، ما لم تكن كبيرته شركاً بالله تعالى. قلت: وروى البخاري في «صحيحه» ٦٠/١ عن عبادة بن الصامت ﷺ - وكان شهد بدرًا، وهو أحد النجباء ليلة العقبة - أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «يا أيها الناس، لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا بيهتان فتفترونه بين أبيكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفي منكم، فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً، فعوقب في الدنيا، فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً، ثم سره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه» فبايعناه على ذلك. ورواه مسلم ١٣٣٣/٣ والترمذي. وروى الإمام أحمد في «المسند» ١٦٦/٥ عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى ثلاثاً، ثم قال في الرابعة: «على رغم أنف أبي ذر»، فخرج أبو ذر وهو يجر إزاره، وهو يقول: وإن رغم أنف أبي ذر، فكان أبو ذر يحدث بهذا بعد ويقول: وإن رغم أنف أبي ذر» ورواه الشيخان.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٨٨ بمعناه عن الكلبي.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى إِثْمًا مُبِينًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ وهو قولهم: ﴿عَنْ أَبْنَاءِ اللَّهِ وَأَجْنُودِهِ﴾ وقولهم: ﴿أَنْ يَدْخُلَ الْحَجَّةُ إِلَّا مَنْ كَانَ هَؤُلَاءِ أَوْ نَصَرَهُ﴾ وقولهم: لا ذنب لنا، ونحو ذلك مما كذبوا فيه ﴿وَكَفَى بِهِ﴾ أي: وحسبهم بقليلهم الكذب ﴿إِثْمًا مُبِينًا﴾ يتبين كذبهم لسامعيه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن جماعة من اليهود قدموا على قريش، فسألوهم: أديننا خير، أم دين محمد؟ فقال اليهود: بل دينكم، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس^(١). والثاني: أن كعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب، قدما مكة، فقالت لهما قريش: أنحن خير، أم محمد؟ فقالا: أنتم، فنزلت هذه الآية، هذا قول عكرمة في رواية^(٢). وقال قتادة: نزلت في كعب، وحيي، ورجلين آخرين من بني النضير قالوا لقريش: أنتم أهدى من محمد. والثالث: أن كعب بن الأشرف وهو الذي قال لكفار قريش: أنتم أهدى من محمد، فنزلت هذه الآية. وهذا قول مجاهد، والسدي، وعكرمة في رواية. والرابع: أن حيي بن أخطب قال للمشركين: نحن وإياكم خير من محمد، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن زيد. والمراد بالمذكورين في هذه الآية اليهود. وفي «الجيت» سبعة أقوال. أحدها: أنه السحر، قاله عمر بن الخطاب، ومجاهد، والشعبي. والثاني: الأصنام، رواه عطية، عن ابن عباس. وقال: عكرمة: الجيت: صنم. والثالث: حيي بن أخطب، رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه قال الضحاک، والفراء. والرابع: كعب بن الأشرف، رواه الضحاک، عن ابن عباس، وليث عن مجاهد. والخامس: الكاهن، روي عن ابن عباس، وبه قال ابن سيرين، ومكحول. والسادس: الشيطان، قاله سعيد بن جبیر في رواية، وقاتدة، والسدي. والسابع: الساحر، قاله أبو العالية، وابن زيد. وروى أبو بشر، عن سعيد بن جبیر، قال: الجيت: الساحر بلسان الحبشة. وفي المراء بالطاغوت هاهنا ستة أقوال: أحدها: الشيطان، قاله عمر بن الخطاب، ومجاهد في رواية، والشعبي، وابن زيد. والثاني: أنه اسم للذين يكونون بين يدي الأصنام يعبرون عنها ليضلوا الناس، رواه العوفي، عن ابن عباس. والثالث: كعب بن الأشرف، رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه قال الضحاک، والفراء. والرابع: الكاهن، وبه قال سعيد بن جبیر، وأبو العالية، وقاتدة، والسدي. والخامس: أنه الصنم، قاله عكرمة. وقال: الجيت والطاغوت صنمان. والسادس: الساحر، روي عن ابن عباس، وابن سيرين، ومكحول. فهذه الأقوال تدل على أنهما اسمان لمسميين. وقال اللغويون منهم ابن قتيبة، والزجاج: كل معبود من دون الله، من حجر، أو صورة، أو شيطان، فهو جيت وطاقوت^(٣).

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢١٠، والطبري من طريق ابن إسحاق ٦٩/ ٨، وفي سنده مجهول.

(٢) أثر عكرمة، رواه سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم مرسلاً. وروى ابن جرير ٤٦٦/ ٨ عن ابن عباس، قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة، قالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم. قالوا: ألا ترى إلى هذا الصنم المنيتر من قومه. يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجج، وأهل الشدانة، وأهل السقاية؟ قال: أنتم خير منه. قال: فأنزلت: ﴿إِنَّمَا سَابِقَاتُ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾ [الكوثر: ٣] وأنزلت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّغُوتِ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدْ نَجَدَ لَكُمْ نَصِيرًا﴾ وإسناده صحيح. وزاد السيوطي نسبة في «الدر» ١٧١/ ٢ لأحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. وقولهم «ألا ترى إلى هذا الصنم الأبتَر» في «النهاية» الصنم: سفات تثبت في جلع النخلة، لا في الأرض، ثم قالوا للرجل الفرد الضعيف اللليل الذي لا أهل له ولا عقب ولا ناصر: «صنمور» قال الأستاذ محمود شاكر: فأراد هؤلاء الكفار من قريش أن محمداً ﷺ - بابي هو وأمي - صنمور نبت في جلع نخلة، فإذا قلع انقطع، فكذلك هو إذا مات، فلا عقب له. وكذبوا ونصر الله رسوله ﷺ وقطع ذاب الكافرين. والأبتَر: الذي لا عقب له.

(٣) قال أبو جعفر الطبري ٤٦٥/ ٨: والصواب من القول في تأويل ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّغُوتِ﴾ أن يقال: يصدقون بمعبودين من دون الله، ويعبدونهما من دون الله، ويتخذونهما إلهين، وذلك أن «الجيت» و«الطاقوت» اسمان لكل معظّم بمعبادة من دون الله أو طاعة أو خضوع له، كأنما ما كان ذلك المعظّم، من حجر أو إنسان أو شيطان، وإذا كان ذلك كذلك، وكانت الأصنام التي كانت الجاهلية تعبدتها، كانت معظمة بالعبادة من دون الله، فقد كانت جُوبُوتاً وطواغيت، وكذلك الشياطين التي كانت الكفار تطيعها في معصية الله، وكذلك الساحر والكاهن اللذان كان مقبُولاً منهما ما قالوا في أهل الشرك بالله، وكذلك حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف، لأنهما كانا مطاعين في أهل ملتهم من اليهود في معصية الله، والكفر به، ورسوله، فكانا جبتين وطاقوتين.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ الْفُرْقَانُ﴾ يعني لمشركي قريش: أنتم ﴿أَهْدَىٰ مِنَ الْغَيِّ أَمَّا أَتَىٰ﴾، يعنون النبي وأصحابه طريقاً في الديانة والاعتقاد.

﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ لَمْ يَلِدْهُمْ وَمَنْ يَلْعَنُ اللَّهُ فَإِنَّهُمْ حَمِيضٌ لَّهُمَّ تَبِيبٌ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ (٥٢) ﴿أَمْ لَمْ يَلِدْهُمْ وَمَنْ يَلْعَنُ اللَّهُ فَإِنَّهُمْ حَمِيضٌ لَّهُمَّ تَبِيبٌ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ (٥٣)

﴿أَمْ لَمْ يَلِدْهُمْ وَمَنْ يَلْعَنُ اللَّهُ فَإِنَّهُمْ حَمِيضٌ لَّهُمَّ تَبِيبٌ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ هذا استفهام معناه الإنكار، فالتقدير: ليس لهم. وقال الفراء: قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمْ يَلِدْهُمْ﴾ أي: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمْ يَلِدْهُمْ﴾ جوابٌ لجزء مضمّر، تقديره: ولئن كان لهم نصيب لا يوتون الناس نقيراً^(١). وفي «التقيير» أربعة أقوال: أحدها: أنه النقطة التي في ظهر النواة، رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وقائدة، والضحاك، والسدي، وابن زيد، ومقاتل، والفراء، وابن قتيبة في آخرين. والثاني: أنه القشر الذي يكون في وسط النواة، رواه التيمي، عن ابن عباس. وروي عن مجاهد: أنه الخيط الذي يكون في وسط النواة. والثالث: أنه نقر الرجل الشيء بطرف إبهامه، رواه أبو العالية، عن ابن عباس. والرابع: أنه حبة النواة التي في وسطها، رواه ابن أبي نجيع، عن مجاهد. قال الأزهري: «والفتيل» و«التقيير» و«القطمير»: تضرب أمثالاً للشيء التافه الحقير.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (٥٤)

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ سبب نزولها: أن أهل الكتاب قالوا: يزعم محمد أنه أوتي ما أوتي في تواضع، وله تسع نسوة، فأبي ملك أفضل من هذا، فنزلت، رواه العوفي، عن ابن عباس^(٢). وفي «أم» قولان: أحدهما: أنها بمعنى ألف الاستفهام، قاله ابن قتيبة. والثاني: بمعنى «بل» قاله الزجاج، وقد سبق ذكر «الحسد» في (سورة البقرة) والحاسدون هاهنا: اليهود. وفي المراد بالناس هاهنا أربعة أقوال: أحدها: النبي ﷺ، رواه عطية، عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، والسدي، ومقاتل. والثاني: النبي ﷺ، وأبو بكر، وعمر، وروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام. والثالث: العرب، قاله قتادة. والرابع: النبي، والصحابه، ذكره الماوردي. وفي الذي آتاهم الله من فضله ثلاثة أقوال: أحدها: إباحة الله تعالى نبيه أن ينكح ما شاء من النساء من غير عدد، روي عن ابن عباس، والضحاك، والسدي. والثاني: أنه النبوة، قاله ابن جريج، والزجاج. والثالث: بعثة نبي منهم على قول من قال: هم العرب^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ﴾ يعني: التوراة، والإنجيل، والزبور. كله كان في آل إبراهيم، وهذا النبي من أولاد إبراهيم. وفي الحكمة قولان: أحدها: النبوة، قاله السدي، ومقاتل. والثاني: الفقه في الدين، قاله أبو سليمان الدمشقي. وفي الملك العظيم خمسة أقوال: أحدها: ملك سليمان، رواه عطية، عن ابن عباس^(٤). والثاني: ملك داود، وسليمان في النساء، كان لداود مائة امرأة، وسليمان سبعمئة امرأة، وثلاثمئة سرية، رواه أبو صالح، عن ابن عباس^(٥)، وبه قال السدي. والثالث: النبوة، قاله مجاهد. والرابع: التأييد بالملائكة، قاله ابن زيد في آخرين.

(١) قال الطبري ٤٧٥/٨: ورفع قوله: ﴿لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ﴾ ولم يُنصب به «إذن» ومن حكمها أن تنصب الأفعال المستقبلية إذا ابتدئ الكلام بها، لأن معها «فَاء» ومن حكمها إذا دخل فيها بعض جروف المطف على توجه إلى الابتداء بها مرة، وإلى النقل عنها إلى غيرها أخرى، وهذا الموضع مما أريد به «الفاء» فيه النقل عن «إذن» إلى ما بعدها، وأن يكون معنى الكلام: أم لهم نصيب، فلا يوتون الناس نقيراً إذن. وانظر استيفاء الكلام على «إذن». «مسيبوه» ٤١١/١، و«معاني القرآن» للفراء ٢٧٣/١.

(٢) رواه ابن جرير ٤٧٨/٨: قال: حدثني محمد بن سعد، قال: حدثني أبي، قال: حدثني عمي، قال: حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس ذكره. وهذا إسناده مسلسل بالضعفاء: محمد بن سعد، قال الخطيب: هو لين في الحديث، وأبوه سعد بن محمد بن الحسن العوفي، ضعيف جداً، وعمه: وهو الحسن بن الحسن بن عطية العوفي، ضعفه ابن معين، وابن سعد، وأبو حاتم، والنسائي. وأبوه: هو الحسن بن عطية بن سعد العوفي، وهو ضعيف أيضاً. قال البخاري في «الكبير»: ليس ذلك، وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث. وأبو أبيه: عطية بن سعد بن جنادة العوفي، قال الحافظ في «التحريب»: صدوق يخطئ كثيراً، كان مدلساً.

(٣) قال ابن جرير ٤٧٩/٨: وأولى التأويلين في ذلك بالصراب قول قتادة وابن جريج الذي ذكرناه قبل، أن معنى «الفضل» في هذا الموضع: النبوة التي فضل الله بها محمداً، وشرف بها العرب، إذ آتاهما رجلاً منهم دون غيرهم، لما ذكرنا من أن دلالة ظاهر هذه الآية تدل على أنها تقرظ للنبي ﷺ وأصحابه، رحمة الله عليهم، على ما قد بينا قبل، وليس النكاح وتزوج النساء - وإن كان من فضل الله جل ثناؤه الذي آتاه عباده - بتقرظ لهم ومدح.

(٤) سنده ضعيف.

(٥) سنده ضعيف.

والخامس: الجمع بين سياسة الدنيا، وشرع الدين، ذكره الماوردي^(١).

﴿فَيَنْهَى مَنْ آمَنَ بِهِ وَيَتَمَنَّى مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِهِمْ سَعِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿فَيَنْهَى مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ فيمن تعود عليه الهاء والميم قولان: أحدهما: اليهود الذين أنذرهم نبينا محمد ﷺ، وهذا قول مجاهد، ومقاتل، والفراء في آخرين. فعلى هذا القول في هاء «به» ثلاثة أقوال: أحدها: تعود على ما أنزل الله على نبينا محمد ﷺ، قاله مجاهد. قال أبو سليمان: فيكون الكلام مبنياً على قوله ﴿عَلَى مَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهو النبوة، والقرآن. والثاني: أنها تعود إلى النبي ﷺ، فتكون متعلقة بقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ يعني بالناس: محمداً ﷺ، ويكون المراد بقوله: ﴿فَيَنْهَى مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ عبد الله بن سلام، وأصحابه. والثالث: أنها تعود إلى النبي عن آل إبراهيم، قاله الفراء. والقول الثاني: أن الهاء، والميم في قوله «فمنهم» تعود إلى آل إبراهيم، فعلى هذا في هاء «به» قولان: أحدهما: أنها عائدة إلى إبراهيم، قاله السدي. والثاني: إلى الكتاب، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَمَنَّى مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وابن جبير، وعكرمة، وابن عمر، والجحدري: «من صَدَّ عنه» برفع الصاد. وقرأ أبي بن كعب، وأبو الجوزاء، وأبو رجاء والجوني: بكسر الصاد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكَايِفُونَ سَوَاقِطِهِمْ تَأْكُلُ كُلُّ فِتْنَةٍ جُلُودَهُمْ بِدَلَّتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَيْرًا حَكِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿سَوَاقِطِهِمْ تَأْكُلُ﴾ قال الزجاج: أي: نشويهم في نار. ويروى أن يهودية أدت إلى النبي ﷺ شاة مصلية، أي: مشوية. وفي قوله: ﴿بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ قولان: أحدهما: أنها غيرها حقيقة، ولا يلزم على هذا أن يقال: كيف بدلت جلود التذت بالمعاصي بجلود ما التذت، لأن الجلود آلة في إيصال العذاب إليهم، كما كانت آلة في إيصال اللذة، وهم المعاقبون لا الجلود. والثاني: أنها هي بعينها تعاد بعد احتراقها، كما تعاد بعد البلى في القبور. فتكون الغيرية عائدة إلى الصفة، لا إلى الذات، فالمعنى: بدلناهم جلوداً غير محترقة، كما تقول: صُغت من خاتمي خاتماً آخر. وقال الحسن البصري في هذه الآية: تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا، فعادوا.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَكُنْ فِيهَا زَوْجٌ مُطَهَّرٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا

ظَلِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ قال الزجاج: هو الذي يُظْلُ من الحرِّ والريح، وليس كلُّ ظلٍ كذلك، فأعلم الله تعالى أن ظل الجنة ظليل لا حرَّ معه، ولا برد. فإن قيل: أفى الجنة برد أو حر يحتاجون معه إلى ظل؟ فالجواب: إن لا، وإنما خاطبهم بما يعقلون مثله، كقوله: ﴿وَلَمْ يَرْفَعُ فِيهَا بُكْرَةٌ وَعَشِيَّةٌ﴾ [مریم: ٦٢] وجواب آخر: وهو أنه إشارة إلى كمال وصفها، وتمكين بناؤها، فلو كان البرد أو الحر يتسلط عليها، لكان في أبنيتها وشجرها ظل ظليل.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

نَبِيًّا بَصِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن النبي ﷺ لما فتح مكة، طلب مفتاح البيت من عثمان بن أبي طلحة، فذهب ليعطيه إياه، فقال العباس: بأبي أنت وأمي اجتمع لي مع السقاية، فكف عثمان يده مخافة أن يعطيه للعباس، فقال النبي ﷺ: «هات المفتاح» فأعاد العباس قوله، وكف عثمان، فقال النبي ﷺ: «أرني المفتاح إن كنت تؤمن بالله وباليوم الآخر» فقال: هاك يا رسول الله بأمانة الله، فأخذ المفتاح، ففتح البيت، فنزل جبريل بهذه الآية، فدعا عثمان، فدفعه إليه. رواه أبو صالح، عن ابن عباس^(٢). وبه قال مجاهد،

(١) رجح ابن جرير رحمه الله في «تفسيره» ٨/٤٨٢ قول ابن عباس في تفسير «الملك» بملك سليمان، قال: لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب، دون الذي قال: إنه ملك النبوة، ودون قول من قال: إنه تحليل النساء والملك عليهن، لأن كلام الله الذي خوطب به العرب غير جائز توجيهه إلا إلى المعروف المستعمل فيهم من معانيه، إلا أن تأتي دلالة، أو تقوم حجة على أن ذلك بخلاف ذلك، يجب التسليم لها.

(٢) قال السيوطي في «الدر المنثور» ٢/١٧٤: أخرجه ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس مطولاً. قلت: والكلبي وأبو صالح ضعيفان لا يحتج بهما.

والزهري، وابن جريج، ومقاتل. والثاني: أنها نزلت في الأمراء. رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه قال زيد بن أسلم، وابنه، ومكحول، واختاره أبو سليمان الدمشقي، وقال: أمر الأمراء أن يؤدوا الأمانة في أموال المسلمين. والثالث: أنها نزلت عامة، وهو مروي عن أبي بن كعب، وابن عباس، والحسن، وقادة، واختاره القاضي أبو يعلى. وأعلم أن نزولها على سبب لا يمنع عموم حكمها، فإنها عامة في الودائع وغيرها من الأمانات. وقال ابن مسعود: الأمانة في الوضوء، وفي الصلاة، وفي الصوم، وفي الحديث، وأشد ذلك في الودائع^(١).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنها نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي إذ بعثه النبي ﷺ في سرية، أخرجه البخاري، ومسلم، من حديث ابن عباس^(٣). والثاني: أن عمار بن ياسر كان مع خالد بن الوليد في سرية، فهرب القوم، ودخل رجل منهم على عمار، فقال: إني قد أسلمت، هل ينفعني، أو أذهب كما ذهب قومي؟ قال عمار: أقم فأنت آمن، فرجع الرجل، وأقام فجاء خالد، فأخذ الرجل، فقال عمار: إني قد أمته، وإنه قد أسلم، قال: أنجير علي وأنا الأمير؟ فتنازعا، وقدما على رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح، عن ابن عباس^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ طاعة الرسول في حياته: امتثال أمره، واجتناب نهيه، وبعد مماته: اتباع سنته^(٥). وفي أولي الأمر أربعة أقوال: أحدها: أنهم الأمراء، قاله أبو هريرة^(٥)، وابن عباس في رواية، وزيد بن أسلم، والسدي، ومقاتل. والثاني: أنهم العلماء، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وهو قول جابر بن عبد الله، والحسن، وأبي العالية، وعطاء، والنخعي، والضحاك، ورواه خصيف عن مجاهد. والثالث: أنهم أصحاب النبي ﷺ، رواه ابن

(١) قال ابن كثير في تفسير الآية: يغير تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وفي حديث الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك» رواه الإمام أحمد وأهل السنن. وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله ﷻ على عباده من الصلاة والزكاة والصيام، والكفارات، والنذور، وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه، لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض، كالودائع وغير ذلك مما يأتون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بينة على ذلك، فأمر الله ﷻ بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة، كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «تَوْفُّدُ الْحَقِّ إِلَى أَهْلِهَا حَتَّى يَقْضَى لِلشَّاةِ الْجَمَاءُ مِنَ الْقَرْنَاءِ». قلت: وحديث «أد الأمانة...» رواه أبو داود في سننه ٣٩٣/٣، والترمذي ٢٥١/٢، والدارمي ٢٦٤/٢، والحاكم ٤٦٢/٢، كلهم من حديث أبي هريرة. قال الترمذي: حسن غريب. وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. قلت: وهو حديث صحيح. وقد وهم الشيخ أحمد شاكر الحافظ ابن كثير رحمه الله في عزو الحديث إلى الإمام أحمد وأهل السنن من طريق سمرة. وللإمام ابن تيمية رحمه الله رسالة أسماها «السياسة الشرعية» بناها على هذه الآية الكريمة، فارجع إليها، فإنها فريدة في بابها.

(٢) البخاري: ١٩٠/٨، ومسلم: ١٤٦٥/٣. قال الحافظ في «الفتح»: كذا ذكره - أي: البخاري - مختصراً، والمعنى: نزلت في قصة عبد الله بن حذافة، أي: المقصود منها في قصته قوله ﴿إِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ - الآية. قلت: وقصة حذافة بطولها رواها الإمام أحمد ٦٢٢/٢، والبخاري ١٣/١٠٩، ومسلم ١٤٦٩/٣ عن علي ﷺ، قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يسمعو له ويطيعوا، فأغضبوه في شيء فقال: اجتمعوا لي حطباً، فجمعوا له، ثم قال: أوقدوا ناراً، فأوقدوا، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعو لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى، قال: فادخلوها، قال: فنظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار، فكانوا كذلك، وسكن غضبه، وطففت النار، فلما رجعوا، ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها إنما الطاعة في المعروف».

(٣) ذكره ابن جرير بأطول مما ذكره المصنف ٤٩٨/٨ عن السدي، ونقله ابن كثير ٥١٨/١ ثم قال: وهكذا رواه ابن أبي حاتم من طرق عن السدي مرسلًا، ورواه ابن مردويه من رواية الحكم بن ظهير عن السدي عن أبي صالح، عن ابن عباس، فذكره بنحوه والله أعلم.

(٤) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: النكته في إعادة العامل في «الرسول» دون «أولي الأمر» مع أن المطاع في الحقيقة هو الله تعالى، كون الذي يعرف به ما يقع به التكليف، هما القرآن والسنة، فكان التقدير: وأطيعوا الله فيما قضى عليكم في القرآن، وأطيعوا الرسول فيما بين لكم من القرآن، وما ينصه عليكم من السنة، والمعنى: أطيعوا الله فيما يأمركم به من الوحي المتبدي بتلاوته، وأطيعوا الرسول فيما يأمركم به من الوحي الذي ليس بقرآن. قلت: وقد روى أبو داود ٢٧٩/٤ بسند صحيح عن المقدم بن معدي كرب، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فاحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، وإن ما حرمه رسول الله ﷺ كما حرم الله».

(٥) رواه ابن جرير عن أبي هريرة بإسناد صحيح، وقد ذكره الحافظ في «الفتح» ١٩١/٨، وقال: أخرجه الطبري بإسناد صحيح.

أبي نجيع، عن مجاهد، وبه قال بكر بن عبد الله المزني. والرابع: أنهم أبو بكر، وعمر، وهذا قول عكرمة^(١).

قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ نَزْعُكُمْ فِي شَيْءٍ﴾ قال الزجاج: معناه: اختلفتم وقال كل فريق: القول قولي. واشتقاق المنازعة: أن كل واحد ينتزع الحجة.

قوله تعالى: ﴿قَرُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَكَرُّوهُ﴾ في كيفية هذا الرد قولان: أحدهما: أن رده إلى الله رده إلى كتابه، وردّه إلى النبي رده إلى سنته، هذا قول مجاهد، وقتادة، والجمهور. قال القاضي أبو يعلى: وهذا الرد يكون من وجهين: أحدهما: إلى المنصوص عليه باسمه ومعناه. والثاني: الرد إليهما من جهة الدلالة عليه، واعتباره من طريق القياس، والنظائر. والقول الثاني: أن رده إلى الله ورسوله أن يقول من لا يعلم الشيء: الله ورسوله أعلم، ذكره قوم منهم الزجاج. وفي المراد بالتأويل أربعة أقوال: أحدها: أنه الجزاء، والثواب، وهو قول مجاهد، وقتادة. والثاني: أنه العاقبة، وهو قول السدي، وابن زيد، وابن قتيبة، والزجاج. والثالث: أنه التصديق، مثل قوله: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رَبِّي﴾ [يوسف: ١٠٠] قاله ابن زيد في رواية. والرابع: أن معناه: ردكم إياه إلى الله ورسوله أحسن من تأويلكم، ذكره الزجاج^(٢).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُبْرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِمْ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في رجل من المنافقين كان بينه وبين يهودي خصومة، فقال اليهودي: انطلق بنا إلى محمد، وقال المنافق: بل إلى كعب بن الأشرف، فأبى اليهودي، فأتيا النبي ﷺ، ففضى لليهودي، فلما خرجا، قال المنافق: نطلق إلى عمر بن الخطاب، فأقبل إليه، ففضا عليه القصة، فقال: رويداً حتى أخرج إليكما، فدخل البيت، فاشتعل على السيف، ثم خرج، فضرب به المنافق حتى برد، وقال: هكذا أقضي بين من لم يرض بقضاء الله ورسوله، فنزلت هذه الآية. رواه أبو صالح، عن ابن عباس^(٣). والثاني: أن أبا بردة الأسلمي كان كاهناً يقضي بين اليهود، فتنافر إليه ناس من المسلمين، فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة، عن ابن عباس^(٤). والثالث: أن يهودياً ومنافقاً كانت بينهما خصومة، فدعا اليهودي المنافق إلى النبي، لأنه لا يأخذ الرشوة، ودعا المنافق إلى حكاهم، لأنهم يأخذون الرشوة، فلما اختلفا، اجتمعا أن يحكما كاهناً، فنزلت هذه الآية، هذا قول الشعبي^(٥). والرابع: أن رجلاً من بني النضير قتل رجلاً من بني قريظة، فاختصموا،

(١) قال أبو جعفر: وأولى الأقوال من ذلك بالصواب، قول من قال: هم الأمراء، والولاء، لصحة الأخبار عن رسول الله ﷺ بالأمر بطاعة الأئمة والولاء فيما كان له طاعة، وللمسلمين مصلحة. ثم ذكر الأحاديث التي وردت في الباب.

(٢) قال الحافظ ابن كثير ١٨/١ في تفسير الآية: وهذا أمر من الله ﷻ بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] فما حكم به كتاب الله وسنة رسوله وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَوَّلِيَّ الْآخِرِ﴾ أي: ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَوَّلِيَّ الْآخِرِ﴾ فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة، ولا يرجع إليهما في ذلك، فليس مؤمناً بالله، ولا باليوم الآخر. وقوله: ﴿فَتَكَلَّمُوا﴾ أي: التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، والرجوع في فصل النزاع إليهما غير ﴿وَتَكَلَّمُوا تَأْوِيلًا﴾ أي: وأحسن عاقبة ومالاً، كما قاله السدي وغير واحد، وقال مجاهد: وأحسن جزاء وهو قريب.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول»: ٩٢ عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٤) نقل الخبر الهشيمي في «المجمع» ٦/٧ وقال: رواه الطبراني، ووجهه رجال الصحيح، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» ١٧٨/٢ عن أبي حاتم والطبراني بسند صحيح. وقال الحافظ ابن حجر في «الإصابة» في ترجمة أبي بردة: وعند الطبراني بسند جيد عن ابن عباس قال: كان أبو بردة الأسلمي كاهناً يقضي بين اليهود، فذكر القصة في نزول قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُبْرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِمْ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ فقال: «فقد جاء في الأصول وفي «مجمع الزوائد» ٦/٧، و«الدر المنثور» ١٧٨/٢، و«اللباب للنول»: ص ٦٧، والطبري ٥١٠/٨ من رواية السدي «فقال المنافق من بني قريظة والنضير: انطلقوا إلى أبي بردة بن أبي عبيدة» وفي ابن كثير ٥١٩/١: «فتنافر إليه ناس من المشركين» وفي «أسباب النزول» للواحدي ص: ٩٢ «فتنافر إليه ناس من أسلم». وفي «المجمع» وابن كثير «والفتح» ٢٩/٥ و«الدر المنثور» و«أسباب النزول»: «أبو بردة» بدل «أبي بردة» وهو خطأ.

(٥) ابن جرير ٥٠٨/٨، عن الشعبي، ونسبه السيوطي في «الدر» لابن المنذر، وذكره الواحدي في «أسباب النزول»: ٩٢ بسند إلى الشعبي.

فقال المنافقون منهم: انطلقوا إلى أبي بردة الكاهن، فقال المسلمون من الفريقين: بل إلى النبي ﷺ، فأبى المنافقون، فانطلقوا إلى الكاهن، فنزلت هذه الآية. هذا قول السدي^(١). والرَّعْم والرَّعْم لغتان، وأكثر ما يستعمل في قول ما لا تتحقق صحته، وفي «الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله» قولان: أحدهما: أنه المنافق. والثاني: إن الذي زعم أنه آمن بما أنزل إليه المنافق، والذي زعم أنه آمن بما أنزل من قبله اليهودي. والطاغوت: كعب بن الأشرف، قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والربيع، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَمَرْنَا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ قال مقاتل: أن يثيروا من الكهنة، و«الضلال البعيد»: الطويل.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ قال مجاهد: هذه الآية والتي قبلها نزلتا في خصومة اليهودي، والمنافق، والهاء والميم في «لهم»: إشارة إلى الذين يزعمون. و«الذي أنزل الله»: أحكام القرآن. و«إلى الرسول» أي: إلى حكمه.

﴿كَذَٰبٌ إِذَا مَسَّيْتَهُمْ مُّسِيبةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَٰبٌ إِذَا مَسَّيْتَهُمْ مُّسِيبةٌ﴾ أي: كيف يصنعون ويحتالون إذا أصابتهم عقوبة من الله؟ وفي المراد بالمصيبة قولان: أحدهما: أنه تهديد ووعد. والثاني: أنه قتل المنافق الذي قتله عمر. وفي الذي قدمت أيديهم ثلاثة أقوال: أحدها: نفاقهم واستهزاؤهم. والثاني: ردهم حكم النبي ﷺ. والثالث: معاصيهم المتقدمة.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾ بمعنى: ما أردنا.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه لما قتل عمر صاحبهم، جاؤوا يطلبون بدمه، ويحلفون ما أردنا بالمطالبة بدمه إلا إحساناً إلينا، وما يوافق الحق في أمرنا. والثاني: ما أردنا بالترافع إلى عمر إلا إحساناً وتوفيقاً. والثالث: أنهم جاؤوا يعتذرون إلى النبي ﷺ من محاكمتهم إلى غيره، ويقولون: ما أردنا في عدولنا عنك إلا إحساناً بالتقريب في الحكم، وتوفيقاً بين الخصوم دون الحمل على مَرِّ الحق^(٢).

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من النفاق والزيف. وقال ابن عباس: إضمارهم خلاف ما يقولون «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ» ولا تماقبيهم «وَعِظْهُمْ» بلسانك «وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا» أي: تقدم إليهم: إن فعلتم الثانية، عاقبتكم. وقال الزجاج: يقال: بلغ الرجل يبلغ بلاغة فهو بليغ: إذا كان يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه. وقد تكلم العلماء في حد «البلاغة» فقال بعضهم: «البلاغة»: إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، وقيل: «البلاغة»: حسن العبارة مع صحة المعنى، وقيل: «البلاغة»: الإيجاز مع الإفهام، والتصرف من غير إضجار. قال خالد بن صفوان: أحسن الكلام ما قلَّت ألفاظه، وكثُرَت معانيه، وخيَّرَ الكلام ما شَوَّق أوله إلى سماع آخره. وقال غيره: إنما يستحق الكلام اسم البلاغة إذا سابق لفظه معناه، ومعناه لفظه، ولم يكن لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك.

فصل

وقد ذهب قوم إلى أن «الإعراض» المذكور في هذه الآية منسوخ بآية السيف.

(١) رواه ابن جرير ٥٠٨/٨ عن السدي.

(٢) قال أبو جعفر في تفسير الآية: يعني بذلك جل ثناؤه، فكيف هؤلاء الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وهم يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك ﴿إِذَا مَسَّيْتَهُمْ مُّسِيبةٌ﴾ يعني إذا نزلت بهم نقمة من الله ﴿يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني بذنوبهم التي سلفت منهم، ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ يقول: ثم جاؤوك يحلفون بالله كذباً وزوراً ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المنافقين أنهم لا يرددهم عن التفات العبر والنقم، وأنهم إن تأنهت عقوبة من الله على تحاكمهم إلى الطاغوت لم يثبوا، ولكنهم يحلفون بالله كذباً وجراً على الله: ما أردنا باحتكامنا إليه إلا الإحسان من بعضنا إلى بعض، والصواب فيما احتكما فيه إليه.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ قال الزجاج: «من» دخلت للتوكيد. والمعنى: وما أرسلنا رسولا إلا ليطاع. وفي قوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: أنه بمعنى: الأمر، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الإذن نفسه، قاله مجاهد. وقال الزجاج: المعنى: إلا ليطاع بأن الله أذن له في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ يرجع إلى المتحاكمين اللذين سبق ذكرهما. قال ابن عباس: ظلما أنفسهم بسخطهم قضاء الرسول ﴿جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ من صنيعهم.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝﴾ قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنها نزلت في خصومة كانت بين الزبير وبين رجل من الأنصار في شراج الحرة^(١)، فقال النبي ﷺ للزبير: «اسق ثم أرسل إلى جارك» فغضب الأنصاري، قال: يا رسول الله: أن كان ابن عمتك! فتلون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال للزبير: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يبلغ الجذرا» قال الزبير: فوالله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك. أخرجه البخاري، ومسلم^(٢). والثاني: أنها نزلت في المنافق، واليهودي اللذين تحاكما إلى كعب بن الأشرف، وقد سبقت قصتهما، قاله مجاهد^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يكونون مؤمنين حتى يحكموك، وقيل: «لا» رد لزعمهم أنهم مؤمنون، والمعنى: فلا، أي: ليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا، وهم يخالفون حكمك. ثم استأنف، فقال: وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، أي: فيما اختلفوا فيه. وفي «الحرج» قولان: أحدهما: أنه الشك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي في آخرين. والثاني: الضيق، قاله أبو عبيدة، والزجاج. وفي قوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ قولان: أحدهما: يسلموا لما أمرتهم به، فلا يعارضونك، هذا قول ابن عباس، والزجاج، والجمهور. والثاني: يسلموا ما تنازعوا فيه لحكمك، ذكره الماوردي.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اقْتُلُوا أَخْرَجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا قَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَعَلُوا مَا يُوعَدُونَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيْهًا ۝ وَإِنَّا لَآتِيهِمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۝ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ سبب نزولها: أن رجلاً من اليهود قال: والله لقد كتب الله علينا أن نقتلوا أنفسكم، فقتلناها. فقال ثابت بن قيس بن الشماس: والله لو كتب الله علينا ذلك لفعلنا، فنزلت هذه الآية. هذا قول السدي^(٤). قال الزجاج: «لو» يمتنع به الشيء لامتناع غيره، تقول: لو جاءني زيد لجئته. والمعنى: أن

(١) الشراج، بكسر الشين، جمع شرج: مسيل الماء من الحرة إلى السهل. والحرة: موضع معروف بالمدينة، وهي أرض ذات حجارة سود نخرة، كأنما أحرقت بالنار.

(٢) البخاري ٢٦/٥، ومسلم ١٨٣٠/٤، ولغظه عن عروة، عن عبد الله بن الزبير ﷺ أنه حدثه أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند رسول الله ﷺ في شراج الحرة التي يسقون بها النخل. فقال الأنصاري: سرح الماء يمر، فأبى عليه، فاختصما عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك»، فغضب الأنصاري، فقال: أن كان ابن عمتك، فتلون وجه النبي ﷺ ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجذرا» فقال الزبير: والله إنني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾. وقد أفاض الحافظ ابن حجر في «الفتح» في بيان صحة الحديث واتصاله فأنظره. قوله: «فقال الأنصاري سرح» أي: أطلق الماء، وإنما قال له ذلك، لأن الماء كان يمر بأرض الزبير قبل أرض الأنصاري، فيحبسه لإكمال سقي أرضه، ثم يرسله إلى أرض جاره، فالتمس منه الأنصاري تعجيل ذلك فامتنع. وقوله: «أن كان ابن عمتك» بفتح همزة «أن» وهي للتعليل، كأنه قال: حكمت له بالتقديم لأجل أنه ابن عمتك. وقوله: «حتى يرجع إلى الجذرا» أي: يصير إليه، والجذر، بفتح الجيم: الحواجز التي تحبس الماء.

(٣) الطبري ٥٢٣/٨. قال الحافظ في «الفتح» ٢٩/٥: إن سنده صحيح. وقد رجح ابن جرير هذا القول، وقال: إنه أولى بالصواب، لأن قوله ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ في سياق قصة الذين ابتدأ الله الخبر عنهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ رَفَعُوا أَنْفُسَهُمْ بَيْنَا وَبَيْنَ آلِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ولا دلالة تدل على انقطاع قصتهم، فالحاق بعض ذلك ببعض ما لم تأت دلالة على انقطاعه أولى. ثم قال: وغير مستحيل أن تكون الآية نزلت في قصة المحتكمين إلى الطاغوت، ويكون فيها بيان ما احتكم فيه الزبير وصاحبه الأنصاري.

(٤) ابن جرير ٥٢٦/٨، ونقله ابن كثير عن ابن أبي حاتم أيضاً.

مجيئك امتنع لامتناع مجيئه، و«كتبنا» بمعنى: فرضنا. والمعنى: لو أنا فرضنا على المؤمنين بك أن يقتلوا أنفسهم. قرأ أبو عمرو: «أَنِ اقْتُلُوا» أنفسهم، بكسر النون، «أَوْ اخْرُجُوا» بضم الواو. وقرأ ابن عامر، وابن كثير، ونافع، والكسائي: «أَنْ اقْتُلُوا أَوْ اخْرُجُوا» بضم النون والواو. وقرأ عاصم، وحزمة بكسرهما. والمعنى: لو فرضنا عليهم كما فرضنا على قوم موسى، لم يفعله إلا قليل منهم، هذه قراءة الجمهور. وقرأ ابن عامر: «إِلَّا قَلِيلًا» بالنصب. «وَكُتِبَ عَلَيْهِمُ» يعني: المنافقين الذين يزعمون أنهم آمنوا، وهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويصدون عنك «فَقُلُوا مَا يَوْعُظُونَ بِهِ» أي: ما يذكرون به من طاعة الله، والوقوف مع أمره، «لَكِنَّ خَيْرَ مِمَّا لَكُمْ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ». وقال السدي: «وَأَشَدُّ تَلَبُّسًا» أي: تصديقاً.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِالْعِلْمِ﴾ (٧٥)

قوله تعالى: «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ» في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ كان شديد المحبة لرسول الله ﷺ، فرآه رسول الله يوماً فعرف الحزن في وجهه، فقال: «يا ثوبان ما غير وجهك؟» قال: ما بي من وجع غير أنني إذا لم أرك اشتقت إليك، فأذكر الآخرة، فأخاف أن لا أراك هناك، فنزلت هذه الآية. رواه أبو صالح، عن ابن عباس^(١). والثاني: أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له: ما ينبغي أن نفارقك في الدنيا، فإنك إذا فارقتنا رفعت فوقنا، فنزلت هذه الآية. هذا قول مسروق^(٢). والثالث: أن رجلاً من الأنصار جاء إلى النبي وهو محزون، فقال: «ما لي أراك محزوناً؟» فقال: يا رسول الله غداً ترفع مع الأنبياء، فلا نصل إليك. فنزلت هذه الآية. هذا قول سعيد بن جبيرة^(٣). قال ابن عباس: ومن يطع الله في الفرائض، والرسول في السنن. قال ابن قتيبة: والصديق: الكثير الصدق، كما يقال: فسيق، وسكير، وشريب، وخمير، وسكيت، وفجير، وعشيق، وضليل، وظليم: إذا كثرت منه ذلك. ولا يقال ذلك لمن فعل الشيء مرة أو مرتين حتى يكثر منه ذلك، أو يكون عادة. فأما الشهداء، فجمع شهيد وهو القتل في سبيل الله. وفي تسميته بالشهيد خمسة أقوال: أحدها: لأن الله تعالى وملائكته شهدوا له بالجنة، قاله ثعلب. والثاني: لأن ملائكة الرحمة تشهدوا له. والثالث: لسقوطه بالأرض، والأرض: هي الشاهدة، ذكر القولين ابن فارس اللغوي. والرابع: لقيامه بشهادة الحق في أمر الله حتى قتل، قاله أبو سليمان الدمشقي. والخامس: لأنه يشهد ما أعد الله له من الكرامة بالقتل، قاله شيخنا علي بن عبيد الله. فأما الصالحون، فهو اسم لكل من صلحت سريرته وعلايته. والجمهور على أن النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين عام في جميع من هذه صفته^(٤). وقال عكرمة: المراد بالنبيين هاهنا محمد، والصديقين أبو بكر، وبالشهداء عمر وعثمان وعلي، وبالصالحين سائر الصحابة.

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون سند عن الكلبي. (٢) الطبري ٥٣٤/٨، وابن أبي حاتم، وإسناده صحيح.

(٣) ابن جرير ٥٣٤/٨ بإسناد لا بأس به. وروى الطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في «الحلية» ١٢٥/٨ والضياء المقدسي في «صفة الجنة» عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إنك لأحب إلي من نفسي، وأحب إلي من أهلي، وأحب إلي من ولدي، وإنني لأكون في البيت فأذكرك، فما أصبر حتى أتيتك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك؟ فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت عليه ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (٧٥) قال الضياء المقدسي: لا أرى بإسناده بأساً. وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/٧: رواه الطبراني في «الصغير» و«الأوسط»، ورجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن عمران العابدني وهو ثقة.

(٤) في «صحيح مسلم» ٣٥٣/١ عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال: «كنت أبيت عند النبي ﷺ، فأتيت به بوضوءه وحاجته، فقال لي: «سل»، فقلت: يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: «أو غير ذلك؟» قلت: هو ذاك، قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود» وروى الإمام أحمد، والطبراني عن عمرو بن مرة الجهني، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله شهدت أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، وصليت الخمس، وأديت زكاة مالي، وصمت شهر رمضان؟ فقال رسول الله ﷺ: «من مات على ذلك كان مع النبيين، والصديقين، والشهداء يوم القيامة هكذا» - ونصب أصبعه - ما لم يعق والديه» قال الهيثمي في «الزوائد» ١٤٧/٨: رواه أحمد، والطبراني بإسنادين، ورجال أحد إسنادي الطبراني رجال الصحيح. وذكره قبل ذلك ٤٦/١ مختصراً، وقال: رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح، خلا شيخه البزار، وأرجو أنه إسناده حسن أو صحيح. قال ابن كثير بعدما روى جملة من الأحاديث: وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت في «الصحيح» و«المسانيد» وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟ فقال: «المرء مع من أحب» قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث. وفي رواية عن أنس أنه قال: إنني لأحب رسول الله ﷺ، وأحب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وأرجو أن يعطيني الله معهم، وإن لم أعمل كعملهم.

قوله تعالى: ﴿وَحَسَنَ أَزْوَاجِكَ رَفِيعًا﴾ قال الزجاج: «رفيعاً» منصوب على التمييز، وهو ينوب عن رفقاء. قال الشاعر:
بها جيف الحسرى فأما عظامها فبيض وأما جلدُها فصليب^(١)
وقال آخر:

فسي حلقكم عظم وقد شجينا^(٢)
يريد: في حلوكم عظام^(٣).

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ﴾ الذي أعطى المذكورين ﴿مِنْ اللَّهِ وَكَفَى بِالْمَقَاصِدِ وَالنِّيَّاتِ.﴾
﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا حُدُودًا حُدُودَكُمْ فَأَنْفَرُوا ثَبَاتٍ أَوْ أَنْفَرُوا جَوِيحًا﴾^(٤)

قوله تعالى: ﴿حُدُودًا حُدُودَكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: احذروا عدوكم. والثاني: خذوا سلاحكم.
قوله تعالى: ﴿فَأَنْفَرُوا ثَبَاتٍ﴾ قال ابن قتيبة: أي: جماعات، وأحدثها: ثبة، يريد جماعة بعد جماعة. وقال
الزجاج: «الثبات»: الجماعات المتفرقة. قال زهير:

وقد أغدو على ثبة كرام
قال ابن عباس: فانفروا ثبات، أي: عصبا، سرايا متفرقين، أو انفروا [جميعاً يعني]^(٥) كلكم.

فصل

وقد نقل عن ابن عباس أن هذه الآية وقوله: ﴿أَنْفَرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١] وقوله: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يَعْذِبَنَّكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩] منسوخات بقوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفَرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢] قال أبو سليمان الدمشقي:
والأمر في ذلك بحسب ما يراه الإمام، وليس في هذا من المنسوخ شيء.

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَنْ لَيْلِيٍّ فَإِنْ أَصْبَحْتُمْ مُبِيتَةً قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَوْ أَنَّ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾^(٦) وَلَيْنَ أَصْبَحْتُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ
لَيَقُولَنَّ كَانَ لَمْ تَكُنْ يَنْتَكُمُ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْتَمِسُنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٧)

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَنْ لَيْلِيٍّ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها في المنافقين، كعبد الله بن أبي، وأصحابه كانوا يتشاقلون عن الجهاد، فإن لقيت السرية نكبة، قال من أبطأ منهم: لقد أنعم الله علي، وإن لقوا غنيمَةً، قال: يا ليتني كنت معهم. هذا قول ابن عباس، وابن جريج. والثاني: أنها نزلت في المسلمين الذين قلت علومهم بأحكام الدين، فتشبطوا لقلّة العلم، لا لضعف الدين، ذكره الماوردي، وغيره. فعلى الأول تكون إضافتهم إلى المؤمنين بقوله «منكم» لموضع نطقهم بالإسلام، وجريان أحكامه عليهم، وعلى الثاني تكون الإضافة حقيقة. قال ابن

(١) البيت للعقمة بن عبدة وهو في «المفضليات» ٣٩٢، و«مختار الشعر الجاهلي» ٤٢١، و«الكتاب» ١٠٧/١ وقد تقدم. قال الأعلام: الشاهد فيه وضع الجلد موضع الجلود، لأنه اسم جنس ينوب واحده عن جميعه فأفرد ضرورة لذلك. وصف طريقاً بعيداً شاقاً على من سلكه، فجيف الحسرى - وهي المعية من الإبل - مستقرة فيه. وقوله: «فأما عظامها فبيض» أي: أكلت السباع والطيور ما عليها من اللحم فتصعرت وبدا وضوحها. وقوله: «فأما جلدُها فصليب» أي: محرم يابس، لأنه ملقى بالفلاة لم يدفن، ويقال: «الصليب» هنا الدوك، أي: قد سال ما فيه من رطوبة لإحماء الشمس عليه.

(٢) «الكتاب» ١٠٧/١، وصدره: لا تُنْكَرُ الْقَتْلُ وقد سبينا. وهو للمسيب بن زيد مائة الغنوي، قال الأعلام: الشاهد فيه وضع «الحلق» مكان الحلق. وصف أنهم قتلوا من قوم كانوا قد سبوا من قومه، فيقول: لا تنكروا قتلنا لكم، وقد سببتم منا، ففي حلوكم عظم بقتلنا لكم، «وقد شجينا» نحن أيضاً، أي: غصصنا بسيكم لمن سببتم منا، وهذا مثل.

(٣) قال سيبويه في «الكتاب» ١٠٧/١: وليس بمستنكر في كلامهم أن يكون اللفظ واحداً والمعنى جميع، حتى قال بعضهم في الشعر من ذلك ما لا يستعمل في الكلام، ثم أنشد البيتين اللذين ذكرهما المصنف. وفي «مجاز القرآن» ١٣١/١: «والرب تلفظ بلفظ الواحد، والمعنى يقع على الجميع. قال العباس بن مرداس:

فقلنا أنزلوا إننا أخروكم
فقد برئت من الأخين الشُّدُور
وفي القرآن: ﴿تُحْمِمْكُمْ فَلَقًا﴾ [الحج: ٢٢] والمعنى: أطفأاً. وفي «البحر المحيط» ٢٨٨/٣: وجاء مفرداً، إما لأن «الرفيق» مثل الخليل، والصديق يكون للمفرد والمثنى، والمجموع بلفظ واحد، وإما لإطلاق المفرد في باب التمييز اكتفاءً ويراد به الجمع، وبحسن ذلك هنا كونه فاصلة.

(٤) «ديوانه» ٧٢، و«مختار الشعر الجاهلي» ٢٧٠، و«مجاز القرآن» ١٣٢/١، و«الطبري» ٥٣٦/٨، و«اللسان» «ثبا» و«نشا» وفي الديوان: وقد أغدو على شرب كرام. والرواية التي استشهد بها المؤلف وغيره هي رواية الأعلام.

(٥) الزيادة من الطبري.

جريح: اللام في «لمن» لام تأكيد. قال الزجاج: واللام في «ليبطن» لام القسم، كقولك: إن متكم لمن أحلف بالله ليبطن، يقال: «أبطأ الرجل» و«بطؤ». فمعنى «أبطأ»: تأخر، ومعنى «بطؤ»: ثقل. وقرأ أبو جعفر: (لَيَبْطُنَنَّ) بتخفيف الهجمة. وفي معنى: «ليبطن» قولان: أحدهما: ليبطن هو نفسه، وهو قول ابن عباس. والثاني: ليبطن غيره، قاله ابن جريج. قال ابن عباس: و«المصيبة»: النكبة. و«الفضل من الله»: الفتح والغنمة.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ قرأ ابن كثير، وحفص، والمفضل، عن عاصم: «كأن لم تكن» بالياء، لأن الفاعل المسند إليه مؤنث في اللفظ. وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي، وأبو بكر، عن عاصم: «يكن» بالياء، لأن التانيث ليس بحقيقي. قال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى: ليقولن يا ليتني كنت معكم، كأن لم يكن بينكم وبينه مودة، أي: كأنه لم يعاقدكم على أن يجاهد معكم. ويجوز أن يكون هذا الكلام معترضاً به، فيكون المعنى: ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن يا ليتني كنت معكم، فإن أصابتكم مصيبة، قال: قد أنعم الله علي، كأن لم يكن بينكم وبينه مودة. فيكون معنى «المودة» أي: كأنه لم يعاقدكم على الإيمان^(١).

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٧٤)

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يشرون هاهنا: بمعنى يتغنون في قول الجماعة. وأنشدوا: وشروئت... بُرداً ليتني

من بُرد بُرد كُنْتُ هَامَةً^(٢)

و«برد»: غلام له باعه. ومعنى الآية: ليكن قتال المقاتلين على وجه الإخلاص، وطلب الآخرة.

قوله تعالى: ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ خرج مخرج الغالب، وقد يثاب من لم يغلب ولم يقتل.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (٧٥)

قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ﴾ قال الفراء: تقديره: وفي المستضعفين. وكذلك روي عن ابن عباس. وقال الزجاج: المستضعفون في موضع خفض، والمعنى في سبيل الله، وسبيل المستضعفين، أي: ما لكم لا تسعون في خلاص هؤلاء؟ قال ابن عباس: وهم ناس مسلمون كانوا بمكة لا يستطيعون أن يخرجوا. و«القرية»: مكة في قول الجماعة. قال الفراء: وإنما خفض «الظالم» لأنه نعت للأهل، فلما عاد الأهل على القرية كان فعل ما أضيف إليها بمنزلة فعلها، تقول: مررت بالرجل الواسعة داره^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ قال أبو سليمان: سألوا الله ولياً من عنده يلي إخراجهم منها، ونصيراً يمنعهم من المشركين. قال ابن عباس: فلما فتح رسول الله مكة، جعل الله ﷺ للنبي ﷺ وليهم، واستعمل عليهم رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد، فكان نصيراً لهم، ينصف الضعيف من القوي^(٤).

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٧٦)

(١) قال ابن عطية: المتأفق يعاطي المؤمنين المودة، ويعاهد على التزام كلف الإسلام، ثم يتخلف نفاقاً وشكاً وكفراً بالله ورسوله، ثم ينشئ عندما يكشف الغيب الظفر للمؤمنين، فعلى هذا بجهي قوله تعالى: ﴿كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ الغائبة بليغة، واعتراضاً بين القاتل والمقول بلفظ يظهر زيادة في قبح فعلهم «البحر المحيط» ٢٩٣/٣.

(٢) البيت لابن مفرغ، وهو يزيد بن ربيعة بن مفرغ، شاعر إسلامي، ولقب جده مفرغاً، لأنه زاهن على سقاء لبن أن يشربه، فشربه حتى فرغ، فلقب مفرغاً، ويكنى أبا عثمان، وهو من حمير، انظر أخباره في «الشعر والشعراء» ٣٢١، و«الأغاني» ١٨١/١٨. والبيت في «مجاز القرآن» ٤٨/١، و«الأضداد» لابن السكيت: ١٨٥، و«الشعر والشعراء» ٣٢١/١، والكمال: ٣٢٥/١، و«الخرزاة»: ٢١٤/٢. وفي «الخرزاة»: والهمة: أنشئ الصدى وهو ذكر اليوم، وفي «مروج الذهب» للمسعودي: ومن العرب من يزعم أن النفس طائر ينسبط في الجسم، فإذا مات الإنسان أو قتل، لم يزل يطيف به مستوحشاً، فيصاح على قبره، ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً، ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم، وهو أبداً مستوحش، ويوجد في الديار المعطلة، ومصاحب القتل والقبور، وإنها لم تزل عند ولد الميت، ومخلفة لتعلم ما يكون بعده فتخبره.

(٣) «معاني القرآن» ١/٢٧٧.

(٤) قال الحافظ في «الإصابة» ٢/٤٤٤: أورده القفيلي في ترجمة هشام بن محمد بن السائب الكلبي بسنده إليه عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس...

قوله تعالى: ﴿يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ الطاغوت هاهنا: الشيطان. وقال أبو عبيدة: الطاغوت هاهنا في معنى جماعة، كقوله: ﴿وَلَعَمْرُكَ الْخَنَازِيرُ﴾ معناه: ولحم الخنازير^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ﴾ يعني: مكره وصنعه ﴿كَانَ ضَيِّقًا﴾ حيث خذل أصحابه يوم بدر. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَى الدِّينُ قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ الْآخِرُ وَلَا ظُلُمُونَ قَبِيلًا﴾^(٢) قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في نفر من المهاجرين، كانوا يحبون أن يؤذن لهم في قتال المشركين وهم بمكة قبل أن يُفرض القتال، فنهوا عن ذلك، فلما أُذِن لهم فيه، كرهه بعضهم. روى هذا المعنى أبو صالح، عن ابن عباس^(٣)، وهو قول قتادة، والسدي، ومقاتل. والثاني: أنها نزلت واصفة أحوال قوم كانوا في الزمان المتقدم، فحذرت هذه الأمة من مثل حالهم، روى هذا المعنى عطية، عن ابن عباس. قال أبو سليمان الدمشقي: كأنه يومئذ إلى قصة الذين قالوا: ابعت لنا ملكاً. وقال مجاهد: هي في اليهود. فأما كُفُّ اليد، فالمراد به: الامتناع عن القتال، ذلك كان بمكة. و«كُتِبَ» بمعنى: فُرض، وذلك بالمدينة، هذا على القول الأول.

قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ في هذا الفريق ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم المنافقون. والثاني: أنهم كانوا مؤمنين، فلما فرض القتال، نافقوا جبنًا وخوفًا. والثالث: أنهم مؤمنون غير أن طبائعهم غلبتهم، فنفرت نفوسهم عن القتال. قوله: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾ في المراد بالناس قولان: أحدهما: كفار مكة. والثاني: جميع الكفار.

قوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ قيل: إن «أو» بمعنى الواو، و«كُتِبَ» بمعنى: فرضت. و«لولا» بمعنى «هلا». قال الفراء: إذا لم تر بعدها اسمًا، فهي استفهام، بمعنى هلا، وإذا رأيت بعدها اسمًا مرفوعاً، فهي التي جوابها اللام، تقول: لولا عبد الله لضربتك. وقال ابن قتيبة: إذا رأيتها بغير جواب، فهي بمعنى «هلا» تقول: لولا فعلت كذا، ومثلها «لوما» فإذا رأيت لـ «لولا» جواباً، فليست بمعنى «هلا» إنما هي التي تكون لأمر يقع بوقوع غيره، كقوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾^(٤) لَيْتَ فِي بَلَدِيهِ [المصافات: ١٤٣ - ١٤٤] قلت: فأما «لولا» التي لها جواب فكثيرة في الكلام، وأنشدوا في ذلك:

لولا الحياء وأن رأسي قد عشا
وأما التي بمعنى «هلا» فأنشدوا منها:
تعدون عقر النيب أفضل مجديكم
بني ضؤ طرى لولا الكمى المقنعا^(٥)

(١) في «مجاز القرآن» ٧٩/١: «أولياؤهم الطاغوت» في موضع جمع، لقوله: «يخرجونهم».

(٢) ذكره الواحدي عن الكلبي، وروى ابن جرير ٥٤٩/٨ عن ابن عباس: أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلّة! فقال: «إني أمرت بالمعفو، فلا تقتلوا»، فلما حوله الله إلى المدينة، أمر بالقتال فكفوا، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ الآية. وإسناده جيد، ورواه الحاكم في «المستدرک» مع اختلاف في لفظه، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٣) البيت لمدي بن الرقاق، وهو في «غريب القرآن» ص ٥٠، و«الشعر والشعراء» ٦٠٢/٢، و«الكامل» ١٢٧/١، و«الأغاني» ٣١١/٩، و«أمالي المرتضى» ٥١١/١، و«السمط» ٥٢١/١. وعشا فيه المشيب: أفسده أشد الإفساد، وهي بالثاء المثناة، وهي كذلك في «الشعر والشعراء» و«اللسان». وفي «السمط»: علا. وفي «أمالي المرتضى»: بدا. وفي حاشية أصل المرتضى: فشا. وفي «غريب القرآن»: عشا. وفي «الأغاني» و«الكامل»: عسا. قال ابن قتيبة: وكان بعض الرواة يشد بيت عدي بن الرقاق:

لولا الحياء وأن رأسي قد عشا
فيه المشيب لسرت أم القاسم

وينكر على من يرويه: «عسا» قال: وكيف يسو الشيب وهو إلى أن يرق في كبر الرجل ويلين، أقرب منه إلى أن يغلظ ويقسو ويصلب.

(٤) البيت لجرير بن عطية، ونسبه بعضهم لأشهب بن ربيعة، وهو خطأ، وهو في ديوان جرير: ٣٣٨، و«النفاضة» ٨٣٣، من قصيدة طويلة في مناقشة جرير والفززدق، و«مجاز القرآن» ٥٢/١، و«شرح المفصل» ١٤٤/٨، و«الخرائفة» ٤٦١/١، ورواية «الديوان والنفاضة»: «أفضل سميكم». وقوله: «عقر النيب» عقر الناقة أو الفرس: ضرب قواتها فقطعها، والعرب تفعل ذلك إذا أرادوا نحر البعير كيلا يشرد عند النحر. والنيب، جمع ناب: وهي الناقة المسنة. ويشير جرير بذلك إلى ما كان يفخر به الفززدق من معاقرة أبيه غالب بن صعصعة، وسحيم بن وثيل الرياحي بمكان يقال له: صوعر، فعقر =

بتشديد النون، ورفعها، ونصب الميم، وخفض اسم «الله» ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ﴾ بنصب الميم، ورفع السين^(١). وقرأ ابن عباس: وما أصابكم من سيئة، فمن نفسك، وأنا كتبتها عليك. وقرأ ابن مسعود: وأنا عدتها عليك^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنْ نَفْسُكَ﴾ أي: فبذنبك، قاله الحسن، وقتادة، والجماعة. وذكر فيه ابن الأنباري وجهاً آخر، فقال: المعنى: أضمن نفسك، فأضمرت ألف الاستفهام، كما أضمرت في قوله ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: أو تلك نعمة^(٣). قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ قال الزجاج: ذكر الرسول مؤكّد لقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ﴾ والباء في «الله» مؤكدة. والمعنى: وكفى بالله شهيداً. و«شهيداً»: منصوب على التمييز، لأنك إذا قلت: كفى بالله، ولم تبيّن في أي شيء الكفاية كنت مبهماً. وفي المراد بشهادة الله هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: شهيداً لك بأنك رسوله، قاله مقاتل. والثاني: على مقالته، قاله ابن السائب. والثالث: لك بالبلاغ، وعليهم بالكذب والنفاق، قاله أبو سليمان الدمشقي. فإن قيل: كيف عاب الله هؤلاء حين قالوا: إن الحسنة من عند الله، والسيئة من عند النبي ﷺ، وردّ عليهم بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ثم عاد، فقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ﴾ فهل قال القوم إلا هكذا؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنهم أضافوا السيئة إلى النبي ﷺ تشاوماً به، فردّ عليهم، فقال: كل بتقدير الله. ثم قال: ما أصابكم من حسنة، فمن الله، أي: من فضله، وما أصابكم من سيئة، فبذنبك، وإن كان الكل من الله تقديراً. والثاني: أن جماعة من أرباب المعاني قالوا: في الكلام محذوف مقدّر، تقديره: فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً، يقولون: ما أصابكم من حسنة، فمن الله، وما أصابكم من سيئة، فمن نفسك. فيكون هذا من قولهم. والمحذوف المقدّر في القرآن كثير، ومنه قوله: ﴿رَبَّنَا قَبَّلْ لَنَا﴾ [البقرة: ١٢٧] أي: يقولون: ربنا. ومثله ﴿أَوْ يَهْدِي أَمْرًا﴾ [البقرة: ١٩٦] أي: فخلق، ففدية. ومثله ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦] أي: يقال لهم. ومثله ﴿وَاللَّيْلُ يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَمٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] أي: يقولون سلام. ومثله ﴿أَوْ كَلِمَةٍ بِهَذَا أَمْرًا﴾ [الرعد: ٣١] أراد: لكان هذا القرآن. ومثله ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَوْقٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٠] أراد: لعذبكم. ومثله ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢] أي: يقولون. وقال الثوري بن توبل:

فَسَوْفَ تُصَادِفُهُ أَيْنَمَا^(٤)

فَإِنَّ الْمَنِيَّةَ مَنْ يَخْشَاهَا

أراد: أينما ذهب. وقال غيره:

فَأَقْسَمَ لَوْ شِئْتُ أَنَا رَسُولُهُ

أراد: لرددناه.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾

- (١) في «البحر المحيط» ٣/٣٠٢: وقرأت عائشة رضي الله عنها: فمن نفسك، بفتح الميم ورفع السين، فمن: استفهام معناه الإنكار، أي: فمن نفسك حتى ينسب إليها، المعنى: ما للنفس في الشيء فعل.
- (٢) في «القرطبي» ٥/٢٨٥: وروى عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس وأبي وابن مسعود، وذكر القراءة، ثم قال: فهذه قراءة على الضمير، وقد أثبتا بعض أهل الزيغ من القرآن، والحديث بذلك عن ابن مسعود وأبي منقطع، لأن مجاهداً لم ير عبد الله ولا أبيًا.
- (٣) في «البحر المحيط»: والعرب تحذف ألف الاستفهام، قال أبو غراش: رفؤني وبقالوا يا خيرلدا لم ترع أي: أهم هم؟ قلت: والبيت في «ديوان الهذليين» ٢/١٤٤، قال الشارح: رفؤني: أي سكنوني وكان أصلها: رفؤوني، قال أبو سعيد: وأهل الحجاز يهزمون، فترك الهزة. قلت: وفي «البحر المحيط»: «رموني» وهو تحريف.
- (٤) «مشكل القرآن» ١٦٨، و«أدب الكاتب» ١٨٣، و«المعاني الكبير» ٢/١٢٦٤، وهو من قصيدة له في «مختارات ابن الشجري» ١٩، وقبل هذا البيت قوله:

فَلَا تَسْتَهْيِبُكَ أَنْ تُقْدِمَا

فَإِنْ أَنْتَ لَا قَبِيضَ فَمَنْ نَجِدُ

يقول: إذا لقيت قوماً ذوي نجدة في حرب، فلا تهيب الإقدام عليها، فإن الذي يخشى المنيّة تلقاه أين ذهب من الأرض.

- (٥) البيت لامرئ القيس، وهو في «ديوانه» ٢٤٢ وفيه «أجذك» قال شارح الديوان: وقوله: «لو شيء» يريد لو أحد، وليس لـ «لو» هنا جواب، كما أمسك عن الجواب في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١]. فيقول: لو أحد أنا رسولاً لما أجنأه، ولكننا لم ندفعك عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ سبب نزولها: أن النبي ﷺ قال: «من أطاعني، فقد أطاع الله^(١)»، ومن أحبني، فقد أحب الله فقال المنافقون: لقد قارب هذا الرجل الشرك، فترلت هذه الآية، قاله مقاتل. ومعنى الكلام: من قَبِلَ ما أتى به الرسول، فإنما قبل ما أمر الله به، ومن تولى، أي: أعرض عن طاعته. وفي «الحفيظ» قولان: أحدهما: أنه الرقيب، قاله ابن عباس. والثاني: المحاسب، قاله السدي، وابن قتيبة.

فصل

قال المفسرون: وهذا كان قبل الأمر بالقتال، ثم نُسيخَ بآية السيف. ﴿وَيُؤْتُونَ طَاعَةً إِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُنْهَوْنَ عَنْ عَرَضٍ عَلَيْهِمْ وَيُؤْتُونَ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ طَاعَةً﴾ نزلت في المنافقين، كانوا يؤمنون عند رسول الله ﷺ ليأمنوا، فإذا خرجوا خالفوا، هذا قول ابن عباس. قال الفراء: والرفع في «طاعة» على معنى: أمرك طاعة. قوله تعالى: ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ﴾ قرأ أبو عمرو، وحمزة: بيت، بسكون «التاء»، وإدغامها في «الطاء» ونصب الباقي «التاء». قال أبو علي: التاء والطاء والدال من حيز واحد، فحسن الإدغام، ومن بين، فلانفصال الحرفين، واختلاف المخرجين. قال ابن قتيبة: والمعنى [فإذا برزوا من عندك، أي: خرجوا، بيت طائفة منهم غير الذي تقول، أي: أي] قالوا: وقَدَرُوا لِيلاً غير ما أعطوك نهراً. قال الشاعر:

أَتُونِي فَلَمْ أَرْضَ مَا بَيَّتُوا وكانوا أَتُونِي بِشَيْءٍ نُكِّرُ^(٣)

والعرب تقول: هذا أمر قد قُدِّرَ ليليل [وفُرج منه ليليل، ومنه قول الحارث بن حلزة:

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عِشَاءً فَلَمَّا أصبحوا أصبحت لهم ضوئاً^(٤)

وقال بعضهم: بيت، بمعنى: بَدَل، وأنشد:

وَبَيَّتَ قَوْلِي عِنْدَ الْمَلِكِ قَاتِلَكَ اللَّهُ عَبْدًا كَفُورًا^(٥)

وفي قوله: ﴿غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ قولان: أحدهما: غير الذي تقول الطائفة عندك، وهو قول ابن عباس، وابن قتيبة. والثاني: غير الذي تقول أنت يا محمد، وهو قول قتادة، والسدي.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: يكتب في الأعمال التي تثبتها الملائكة، قاله مقاتل في آخرين. والثاني: ينزله إليك في كتابه. والثالث: يحفظه عليهم ليجازوا به، ذكر القولين الزجاج، قال ابن عباس: فأعرض عنهم: فلا تعاقبهم، وثق بالله ﷻ، وكفى بالله ثقة لك. قال: ثم نسخ هذا الإعراض، وأمر بقتالهم. فإن قيل: ما الحكمة في أنه ابتدأ بذكرهم جملة، ثم قال: ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ﴾ والكل منافقون؟ فالجواب من وجهين، ذكرهما أهل التفسير: أحدهما: أنه أخبر عن سهر ليله، ودبر أمره منهم دون غيره منهم. والثاني: أنه ذكر من علم أنه يبقى على نفاقه دون من علم أنه يرجع.

(١) قول الرسول ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله» رواه البخاري ٩٩/١٣، ومسلم ١٤٦٦/٣ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال الحافظ في «الفتح»: قوله: «من أطاعني فقد أطاع الله»: هذه الجملة منقولة من قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

(٢) الزيادة من «غريب القرآن» ١٣١.

(٣) البيت لعبيد بن همام، أخو بني المدوية بن بني مالك بن حنظلة بن بني تميم، وهو في «مجاز القرآن» ١/١٣٣، و«غريب القرآن» ١٣١، و«الكامل» ٣٧٩/٢، و«الحيوان» ٣٧٦/٤، و«تفسير الطبري» ٥٦٣/٨. نكر، بضمين، مثل نكر بضم فسكون: الأمر المنكر الذي تكره، والبيت يتمه الذي بعده وهو:

لَأَنْكَحَ إِيْمَهُمْ مِنْ نَزْرًا

وقد ذكر الجاحظ في «الحيوان» خبر هذين البيتين في خبر النعمان بن المنذر ومثاله، وذلك أن أخاه المنذر بن المنذر خطب إلى عبدة بن همام، فردّه أقبح الرد، وذكر البيتين.

(٤) الزيادة من «غريب القرآن» ١٣١. والبيت في «شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» ٤٥٢.

(٥) البيت للأسود بن عامر بن جوين اللطاني، وهو في «غريب القرآن» ١٣٢، و«تفسير الطبري» ١٩٢/٩، و«الجامع لأحكام القرآن» ٥/٢٨٩ وفيهما «عبد الملوك» وفي «الطبري»، «قاتلك الله عبداً كئوداً».

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ قال الزجاج: «التدبر»: النظر في عاقبة الشيء. «والذبر»: النحل، سمي ذبراً، لأنه يُغَيَّب ما يُتَضَع به، «والذبر»: المال الكثير، سمي ذبراً لكثرة، لأنه يبقى للأعقاب والأديار. وقال ابن عباس: أفلا يتدبرون القرآن، فيتفكرون فيه، فيرون تصديق بعضه لبعض، وأن أحداً من الخلائق لا يقدر عليه. قال ابن قتيبة: والقرآن من قولك: ما قرأت الناقة سلى^(١) قط، أي: ما ضمت في رحمها ولدًا، وأنشد أبو عبيدة:

هَجَانُ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينًا^(٢)

وإنما سمي قرآنًا، لأنه جمع السور، وضمها^(٣).

قوله تعالى: ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه التناقض، قاله ابن عباس، وابن زيد، والجمهور. والثاني: الكذب، قاله مقاتل، والزجاج. والثالث: أنه اختلاف تفاوت من جهة بليغ من الكلام، ومردول، إذ لا بد للكلام إذا طال من مردول، وليس في القرآن إلا بليغ، ذكره الماوردي في جماعته^(٤).

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَخِطُّونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ الشَّيْلَنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن النبي ﷺ لما اعتزل نساءه، دخل عمر المسجد، فسمع الناس يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، فدخل على النبي ﷺ فسأله: أطلقت نساءك؟ قال: «لا». فخرج فنادى: ألا إن رسول الله لم يطلق نساءه. فنزلت هذه الآية. فكان هو الذي استبط الأمر. انفرد بإخراجه مسلم، من حديث ابن عباس، عن عمر^(٥). والثاني: أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث سرية من السرايا فَعَلَبَتْ أو عُيِّلَتْ، تحدثوا بذلك، وأفشوه، ولم يصبروا حتى يكون النبي هو المتحدث به. فنزلت هذه الآية. رواه أبو صالح، عن ابن عباس. وفي المشار إليهم بهذه الآية قولان: أحدهما: أنهم المنافقون. قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: أهل النفاق، وضعة المسلمين، ذكره الزجاج. وفي المراد بالأمن أربعة أقوال: أحدها: فوز السرية بالظفر والغنمية، وهو قول الأكثرين. والثاني: أنه الخبر يأتي إلى النبي ﷺ أنه ظاهر على قوم، فيأمن منهم، قاله الزجاج. والثالث: أنه ما يعزم عليه رسول الله ﷺ من المودة والأمان لقوم، ذكره الماوردي. والرابع: أنه الأمن يأتي من المأمن وهو المدينة، ذكره أبو سليمان الدمشقي مُخرجاً من حديث عمر. وفي «الخوف» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه النكبة التي تُصيب السرية، ذكره جماعة من المفسرين. والثاني: أنه الخبر يأتي أن قوماً يجمعون للنبي ﷺ، فيخاف منهم، قاله الزجاج. والثالث: ما يعزم عليه النبي من الحرب والقتال، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ قال ابن قتيبة: أشاعوه. وقال ابن جرير: والهاء عائدة على الأمر^(٦).

(١) في «اللسان» السلى: لفاقة الولد من الدواب والإبل، وهو من الناس المشيمة.

(٢) صدره: فزاعي عيطل آدماء بكر. والبيت لعمر بن كلثوم من معلقته المشهورة، وقد انفرد أبو عبيدة بهذه الرواية، انظر «شرح القصائد السبع الجاهليات» ٣٨٠. وهو في «مجاز القرآن» ٢/١ وغريب القرآن: ٣٣ و«تفسير الطبري» ٩٦/١ و«الجمهرة» ٢٢٩/١، و«اللسان» و«الناج» مادة قرأ. والعيطل: الناقة الطويلة العنق في حسن منظر وسمن. والأدماء: البيضاء مع سواد المقلتين، ووصفها بأنها بكر، لأن ذلك أحسن لها، وهي في عهدنا ذلك ألين وأسمن، وهجان اللون: بيضاء كريمة.

(٣) رجح الطبري في «تفسيره» ٩٤/١ قول ابن عباس في تأويل «القرآن» بالتلاوة والقراءة. ونقل عنه أنه فسر قول الله تعالى (فإذا قرأناه) أي: ببناء (فأتبع قرآنه) يقول أحمل به. ثم قال: ومعنى قول ابن عباس هذا: فإذا ببناء بالقراءة فاعمل بما ببناء لك بالقراءة.

(٤) قال ابن جرير ٥٦٧/٨ يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أفلا يتدبر الميبتون غير الذي تقول لهم يا محمد كتاب الله، فيعلموا حجة الله عليهم في طاعتك، واتباع أمرك، وأن الذي أتيتهم من التنزيل من عند ربهم لاتسق معانيه، واتلاف أحكامه، وتأيد بعضه بعضاً بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق، فإن ذلك لو كان من غير الله، لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض.

(٥) مسلم ١١٠٥/٢ وهو حديث طويل فيه فوائد عظيمة، وتوجهات قيمة، فارجع إليه.

(٦) في «الطبري» ٥٦٨/٨ و«الهاء» في قوله: «أذاعوا به» من ذكر «الأمر» وتأويله: أذاعوا بالأمر من الأمن أو الخوف الذي جاءهم، يقال منه: «أذاع فلان بهذا الخبر وأذاعه» ومنه قول أبي الأسود:

بمعلياء نار أوقدت بئس قلوب

أذاع به في الناس حتى كائمه

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ يعني: الأمر ﴿إِلَى الرَّسُولِ﴾ حتى يكون هو المخبر به ﴿وَلَا تَأْتِي الْأُمُورُ مِنْهُمْ﴾ وفيهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم مثل أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم أبو بكر، وعمر، قاله عكرمة. والثالث: العلماء، قاله الحسن، وقادة، وابن جريج. والرابع: أمراء السرايا، قاله ابن زيد، ومقاتل. وفي ﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَ﴾ قولان: أحدهما: أنهم الذين يتبعونه من المذيعين له، قاله مجاهد. والثاني: أنهم أولو الأمر، قاله ابن زيد. والاستنباط في اللغة: الاستخراج. قال الزجاج: أصله من النبط، وهو الماء الذي يخرج من البئر أول ما تحفر، يقال من ذلك: قد أنببط فلان في غصراء، أي: استنبط الماء من طين حُرّ. والنبط: سُموا نبطاً، لاستنباطهم ما يخرج من الأرض. قال ابن جرير: ومعنى الآية: وإذا جاءهم خبر عن سرية للمسلمين بخير أو بشر أفشوه، ولو سكتوا حتى يكون الرسول وذو الأمر يتولون الخبر عن ذلك، فيصححوه إن كان صحيحاً، أو يطلوه إن كان باطلاً، لعلم حقيقة ذلك من يبحث عنه من أولي الأمر^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾. في المراد بالفضل أربعة أقوال: أحدها: أنه رسول الله. والثاني: الإسلام. والثالث: القرآن. والرابع: أولو الأمر. وفي الرحمة أربعة أقوال: أحدها: أنها الوحي. والثاني: اللطف. والثالث: النعمة. والرابع: التوفيق.

قوله تعالى: ﴿لَا تَبْتَغُوا الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في معنى هذا الاستثناء ثلاثة أقوال: أحدها: أنه راجع إلى الإذاعة، فتقديره: أذاعوا به إلا قليلاً. وهذا قول ابن عباس، وابن زيد، واختاره الفراء، وابن جرير^(٢). والثاني: أنه راجع إلى المستنبطين، فتقديره: لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلاً، وهذا قول الحسن، وقادة، واختاره ابن قتيبة. فعلى هذين القولين، في الآية تقديم وتأخير. والثالث: أنه راجع إلى أتباع الشيطان، فتقديره: لا تبغتم الشيطان إلا قليلاً منكم، وهذا قول الضحاك، واختاره الزجاج. وقال بعض العلماء: المعنى: لولا فضل الله بإرسال النبي إليكم، لضللتكم إلا قليلاً منكم كانوا يستدركون بعقولهم معرفة الله، ويعرفون ضلال مَنْ يَعْبُدُ غيره، كقس بن ساعدة.

﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ سبب نزولها: أن النبي ﷺ لما ندب الناس لموعده أبي سفيان بيدر الصُغرى بعد أخذ، كره بعضهم ذلك، فزلت هذه الآية، رواه أبو صالح، عن ابن عباس. وفي «فاء» «فقاتل» قولان: أحدهما: أنه جواب قوله: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلْ أَوْ يُقْتَلْ﴾، والثاني: أنها متصلة بقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ذكرهما ابن السري. والمراد بسبيل الله: الجهاد.

قوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ أي: إلا المجاهدة بنفسك^(٣). و«جرّض»: بمعنى حضّض. قال الزجاج:

(١) نص كلامه في «جامع البيان» ٥٦٨/٨، ٥٧١: وإذا جاءهم خبر عن سرية للمسلمين غازية بأنهم قد أمنوا عن عدوهم بغلبتهم إياهم ﴿أَوْ الْحَوَى﴾ يقول: أو تخوفهم من عدوهم بإصابتهم عدوهم منهم، ﴿أَنَافِعُوا بِدِّهِ﴾ يقول: أفشوه وبشروا في الناس قبل رسول الله ﷺ، وقبل ما أتى سرايا رسول الله ﷺ... ولو ردوا الأمر الذي نالهم من عدوهم والمسلمين إلى رسول الله ﷺ، وإلى أولي أمرهم، يعني: وإلى أمرائهم وسكتوا فلم يذيعوا ما جاءهم من الخبر حتى يكون رسول الله ﷺ، أو ذوو أمرهم هم الذين يتولون الخبر عن ذلك، بعد أن تثبت عندهم صحته، أو بطوله، فيصححوه إن كان صحيحاً، أو يطلوه إن كان باطلاً، لعلم حقيقة ذلك الخبر الذي جاءهم به، الذين يبحثون عنه، ويستخرجونه «منهم» يعني أولي الأمر، و«الهاء» و«الميم» في قوله «منهم» من ذكر أولي الأمر، يقول: لعلم ذلك من أولي الأمر من يستنبطه.

(٢) انظر «معاني القرآن» للفراء ٢٧٩/١، و«جامع البيان» ٥٧٧/٨.

(٣) قال ابن جرير الطبري: فأما قوله ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ فإنه يعني لا يكلفك الله فيما فرض عليك من جهاد عدوه وعدوك إلا ما حُمِّلَكَ من ذلك من دون ما حُمِّلَ غيرك منه، أي: إنك إنما تتبع بما اكتسبه دون ما اكتسبه غيرك، وإنما عليك ما كلفته دون ما كلفه غيرك. وقال الزجاج: أمره بالجهاد وإن قاتل وحده، لأنه ضمن له النصرة. وقال ابن كثير: يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ أن يباشر القتال بنفسه، ومن نكل فلا عليه منه، ولهذا قال: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي إسحاق، قال: سألت البراء بن عازب عن الرجل يلقى المائة من العدو فيقاتل أياكون ممن قال الله فيه: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾؟ قال: قد قال الله تعالى: ﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ورواه الإمام أحمد عن أبي إسحاق، قال: قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين، أو ممن ألقى يده إلى التهلكة؟ قال: لا، إن الله بعث رسوله ﷺ وقال: ﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ إنما ذلك في النفقة. قلت: وإسناده صحيح، وذكره الهيثمي في «الزوائد» ٣٢٨/٥ عن «المستند» وقال: رجاله رجال الصحيح، غير سليمان بن داود الهاشمي وهو ثقة.

ومعنى «عسى» في اللغة: معنى الطمع والإشفاق. والإطماع من الله واجب. و«البأس»: الشدة. وقال ابن عباس: والله أشد عذاباً. قال قتادة: و«التكيل»: العقوبة.

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ حَسَبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا ۝٨٥﴾
قوله تعالى: «مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً» في المراد بالشفاعة أربعة أقوال: أحدها: أنها شفاعة الإنسان للإنسان، ليجتلب له نفعاً، أو يُخلصه من بلاء، وهذا قول الحسن، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد. والثاني: أنها الإصلاح بين اثنين، قاله ابن السائب. والثالث: أنه الدعاء للمؤمنين والمؤمنات، ذكره الماوردي. والرابع: أن المعنى: مَنْ يَصْرُ شافعاً لوتر أصحابك يا محمد، فيشفعهم في جهاد عدوهم وقتالهم في سبيل الله، قاله ابن جرير، وأبو سليمان الدمشقي. وفي الشفاعة السيئة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها السعي بالنيمة، قاله ابن السائب، ومقاتل. والثاني: أنها الدّعاء على المؤمنين والمؤمنات، وكانت اليهود تفعله، ذكره الماوردي. والثالث: أن المعنى من يشفع وتر أهل الكفر، فيقاتل المؤمنين، قاله ابن جرير، وأبو سليمان الدمشقي. قال الزجاج: و«الكفل» في اللغة: النصب، وأخذ من قولهم: اكتفلت البعير: إذ أدت على سنامه، أو على موضع من ظهره كساء، وركبت عليه. وإنما قيل له: كفل، لأنه لم يستعمل الظهر كله، وإنما استعمل نصيباً منه. وفي «المقيت» سبعة أقوال: أحدها: أنه المقتدر، قال أحبحة بن الجلاح:

وذي ضِعْفَيْنِ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ مُقْبِلًا^(١)

وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس، وابن جرير، والسدي، وابن زيد، والفراء، وأبو عبيد، وابن قتيبة، والخطابي. والثاني: أنه الحفيظ، رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والزجاج. وقال: هو بالحفيظ أشبه، لأنه مشتق من القوت، يقال: قُت الرجل أقوته قوتاً: إذا حفظت عليه نفسه بما يقوته. والقوت: اسم الشيء الذي يحفظ نفسه [ولا فضل فيه على قدر الحفظ]، فمعنى المقيت: الحافظ الذي يعطي الشيء على قدر الحاجة من الحفظ. قال الشاعر:

أَلَيْ الْفَضْلُ أَمْ عَلَيَّ إِذَا حُو سَبْتُ إِنِّي عَلَى الْحَسَابِ مُقْبِلٌ^(٢)

والثالث: أنه الشهيد، رواه ابن أبي نجیح، عن مجاهد، واختاره أبو سليمان الدمشقي. والرابع: أنه الحسيب، رواه خصيف عن مجاهد. والخامس: الرقيب، رواه أبو شعبة عن عطاء. والسادس: الدائم، رواه ابن جرير عن عبد الله بن كثير. والسابع: أنه معطي القوت، قاله مقاتل بن سليمان. وقال الخطّاب: المقيت يكون بمعنى معطي القوت، قال الفراء: يقال: قاته وأقاته.

﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَابٍ فَأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهُا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ۝٨٦﴾

قوله تعالى: «وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَابٍ» في التحية قولان: أحدهما: أنها السلام، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني:

(١) «غريب القرآن» ١٣٢، و«تفسير الطبري» ٥٨٤/٩، و«اللسان» مادة: قوت، و«الجمهرة» ٣٦/٢، ونسبه للزبير بن عبد المطلب. قال الأستاذ محمود شاكر: لم أجده للزبير، بل وجدته لأبي قيس بن رفاع، مرفوع القافية في «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام: ٢٤٣، وفي «الطبقات»: بعد أن ذكر تخريج البيت: وروايتهم «مقيتاً» وهو خطأ، ورواه ابن الشجري: «وإني في مسأته مقيت» والرفع في رواية ابن سلام وجه عربي صحيح، انظر ابن مالك في كتابه «شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح» ٢٤/٢١، وتأويل البيت «وكتته على مسأته مقيت» فحذف خبر كان، لأنه ضمير متصل، كما يحذف المفعول به إذا كان ضميراً متصلاً، ويستغنى عنه بنية الضمير، يعني: وكنت ذا ضغن مثله وأنا على مسأته مقيت. ومقيت: مقتدر، من قولهم: أقات على الشيء: اقتدر عليه وأطاقه.

(٢) البيت للسؤال بن عادياء، وهو في «مجاز القرآن» ١٣٥/١، و«الأصمعيات» ٨٥، و«طبقات فحول الشعراء» ٢٣٧، و«غريب القرآن» ١٣٣، و«اللسان» ٧٥/٢، وقبلة:

لَيْتَ شِعْرِي وَأَشْمَرُنْ إِذَا مَا قَرَّبُوها مِنْ شَوْرَةٍ قَسِيرِثْ

وقوله: «لَيْتَ شِعْرِي» أي: ليت لي علماً حاضراً يحيط بما سوف يكون. وأشعرن: استفهام، يقول: وهل أشعرن. وقوله: «قربوها منشورة» يعني: صفح أعماله يوم يقوم الناس لرب العالمين. وفي «الصالح»: المقيت: الحافظ للشيء والشاهد له. أي: أعرف ما عملت من السوء، لأن الإنسان على نفسه بصيرة.

الدعاء، ذكره ابن جرير، والماوردي. فأما «أحسن منها» فهو الزيادة عليها، وردها: قول مثلها. قال الحسن: إذا قال أخوك المسلم: السلام عليكم، فرد السلام، وزد: ورحمة الله. أو رد ما قال ولا تزدد. وقال الضحاك: إذا قال: السلام عليك، قلت: وعليكم السلام ورحمة الله. وإذا قال: السلام عليك ورحمة الله، قلت: وعليكم السلام، ورحمة الله وبركاته، وهذا منتهى السلام. وقال قتادة: بأحسن منها للمسلم، أو ردوها على أهل الكتاب.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (٢٧)

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال مقاتل: نزلت في الذين شكوا في البعث. قال الزجاج: واللام في «ليجمعنكم» لام القسم، كقولك: والله ليجمعنكم، قال: وجائز أن تكون سُميت القيامة، لقيام الناس من قبورهم، وجائز أن تكون، لقيامهم للحساب.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ إنما وصف نفسه بهذا، لأن جميع الخلق يجوز عليهم الكذب، ويستحيل في حقه.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَانَّهُ آزَكَّهُمْ يَمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (٢٨)

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾ في سبب نزولها سبعة أقوال: أحدها: أن قوماً أسلموا، فأصابهم وباء بالمدينة وجماها، فخرجوا فاستقبلهم نفر من المسلمين، فقالوا: مالكم خرجتم؟ قالوا: أصابنا وباء بالمدينة، واجتوبناها، فقالوا: أما لكم في رسول الله أسوء؟ فقال بعضهم: نأفقوا، وقال بعضهم: لم ينافقوا، فنزلت هذه الآية، رواه أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه^(١). والثاني: أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى أحد، رجع ناس ممن خرج معه، فافترق فيهم أصحاب رسول الله، ففرقة تقول: تقتلهم، وفرقة تقول: لا تقتلهم، فنزلت هذه الآية، هذا في «الصحاحين» من قول زيد بن ثابت^(٢). والثالث: أن قوماً كانوا بمكة تكلموا بالإسلام وكانوا يعاونون المشركين، فخرجوا من مكة لحاجة لهم، فقال قوم من المسلمين: اخرجوا إليهم، فاقتلوهم، فإنهم يظاهرون عدوكم. وقال قوم: كيف تقتلهم وقد تكلموا بمثل ما تكلمنا به؟ فنزلت هذه الآية، رواه عطية، عن ابن عباس^(٣). والرابع: أن قوماً قدموا المدينة، فأظهروا الإسلام، ثم رجعوا إلى مكة، فأظهروا الشرك، فنزلت هذه الآية، هذا قول الحسن، ومجاهد: والخامس: أن قوماً أعلنوا الإيمان بمكة وامتنعوا من الهجرة، فاختلف المؤمنون فيهم، فنزلت هذه الآية، وهذا قول الضحاك. والسادس: أن قوماً من المنافقين أرادوا الخروج من المدينة، فقالوا للمؤمنين: إنه قد أصابتنا أوجاع في المدينة، فلعلنا نخرج فتمائل، فإننا كنا أصحاب بادية، فانطلقوا واختلف فيهم أصحاب رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية. هذا قول السدي. والسايع: أنها نزلت في شأن ابن أبي حين تكلم في عائشة بما تكلم، وهذا قول ابن زيد^(٤).

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ خطاب للمؤمنين. والمعنى: أي شيء لكم في الاختلاف في أمرهم؟ «والفتنة»: الفرقة.

(١) «المستند» ١٣١/٣. وذكره البيهقي في «مجمع الزوائد» ٧/٧ عن أحمد وقال: وفيه ابن إسحاق وهو مدلس، وأبو سلمة لم يسمع من أبيه، قلت: ولم يصرح ابن إسحاق بالتحديث، وذكره السيوطي في «أسباب النزول» ٧١، وقال: في إسناده تدليس وانقطاع. وقال الحافظ في «الفتح»: وفي سبب نزولها قول آخر، أخرجه أحمد من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه، وذكر الحديث، ثم قال: وأخرجه ابن أبي حاتم من وجه آخر عن أبي سلمة مرسلًا، فإن كان محفوظًا، احتمل أن تكون نزلت في الأمرين جميعًا. وقوله «اجتوبناها» أي أصابنا الجوى، وهو المرض وهاء الجوف إذا تظاول، وذلك إذا لم يوافقهم هواها واستوخمها، ويقال: اجتويت البلد: إذا كرهت المقام فيها وإن كنت في نعمة، قاله في «النهاية».

(٢) «المستند» ١٨٤/٥، والبخاري ١٩٣/٨ ومسلم ٢١٤٢/٤. قال الحافظ في «الفتح»: وهذا هو الصحيح في سبب نزولها. وفي «الفتح»: وقوله «رجع ناس ممن خرج معه» يعني عبد الله بن أبي وأصحابه، وقد ورد ذلك صريحاً في رواية موسى بن عقبة في «المغازي»، وأن عبد الله بن أبي كان وافق رأيه رأي النبي ﷺ على الإقامة بالمدينة، فلما أشار غيره بالخروج، وأجابهم النبي ﷺ فخرج، قال عبد الله بن أبي: أطاعهم وعصاني، علام تقتل أنفسنا؟ فرجع بثلث الناس. قال ابن إسحاق في رواية: فاتبهم عبد الله بن عمرو بن حرام وهو والد جابر، وكان خزرجياً كعبد الله بن أبي، فناداهم أن يرجعوا فأبوا، فقال: أبعدكم الله.

(٣) ابن جرير ١٠/٩، وابن أبي حاتم من طريق العوفي، وإسناده ضعيف جداً.

(٤) ابن جرير ١٣/٩، وقوى قول من قال: إنها نزلت في اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في قوم كانوا ارتدوا بعد إسلامهم من أهل مكة.

يريد: إذا انتسبت، قالت: أكبراً، أي: يا آل بكر. وفي القوم المذكورين أربعة أقوال: أحدها: أنهم بنو بكر بن زيد مناة، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم هلال بن عويمر الأسلمي، وسراقة بن مالك، وخزيمة بن عامر بن عبد مناف، قاله عكرمة. والثالث: أنهم بنو مدلج، قاله الحسن^(١). والرابع: خزاعة وبنو مدلج، قاله مقاتل. قال ابن عباس: «والميثاق: العهد».

قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: أو يصلون إلى قوم جاؤوكم، قاله الزجاج في جماعة. والثاني: أنه يعود إلى المظلومين للقتل، فتقديره: أو رجعوا فدخلوا فيكم، وهو بمعنى قول السدي.

قوله تعالى: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن فيه إضمار «قد». والثاني: أنه خبرٌ بعد خبر، فقوله: ﴿جَاءَكُمْ﴾: خبرٌ قد تم، و﴿حَصِرَتْ﴾: خبرٌ مستأنف، حكاهما الزجاج. وقرأ الحسن، ويعقوب، والمفضل، عن عاصم: «حَصِرَ صُدُورُهُمْ» على الحال. و«حصرت»: ضاقت، ومعنى الكلام: ضاقت صدورهم عن قتالكم للعهد الذي بينكم وبينهم، أو يقاتلوا قومهم، يعني قريشاً. قال مجاهد: هلال بن عويمر هو الذي حصر صدره أن يقاتلكم، أو يقاتل قومه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطْنَاهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ قال الزجاج: أخبر أنه إنما كفَّهم بالرعب الذي قذف في قلوبهم. وفي «السلم» قولان: أحدهما: أنه الإسلام، قاله الحسن. والثاني: الصلح، قاله الربيع. ومقاتل.

فصل

قال جماعة من المفسرين: معاهدة المشركين وموادعتهم المذكورة في هذه الآية منسوخة بآية السيف. قال القاضي أبو يعلى: لما عزَّ الله الإسلام أمروا أن لا يقبلوا من مشركي العرب إلا الإسلام أو السيف^(٢).

= من قصيلة يهجو بها يزيد بن مسهر الشيباني. قال في «اللسان» اتصلت: انتسبت، وقسرها شارح شعر الأعشى: إذا دعت: يعني يدعوى الجاهلية، وهو الاعتزاء. يقول: تدعى إليهم وتنتسب، وهي من إمانهم اللواتي سبين وقد رغمت أنوف رجالهن الذين كانوا يدافعون عنهم، ثم انهزموا عنهم وتركوهن للسياة. قلت: وما جرى عليه ابن قتيبة في تفسير هذه الآية سيق إليه أبو عبيدة في «مجاز القرآن» ١٣٦/١ وتعقبها النحاس بقوله في «الناسخ والمنسوخ» ١٠٩: وهذا غلط عظيم، لأنه يذهب إلى أن الله تعالى حظر أن يقاتل أحد بينه وبين المسلمين نسب، والمشركون قد كان بينهم وبين السابقين الأولين أنساب، وأشد من هذا الجهل الاحتجاج بأن ذلك كان ثم نسخ، لأن أهل التأويل مجمعون على أن الناسخ له (براءة)، وإنما نزلت (براءة) بعد الفتح وبعد أن انقطعت الحروب، وإنما يؤتى هذا من الجهل بقول أهل التفسير، والاجزاء على كتاب الله، وحمله على المعقول من غير علم بأقاويل المتقدمين. والتقدير على قول أهل التأويل: فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أولئك خزاعة صالحهم النبي ﷺ على أنهم لا يقاتلون، وأعطاهم الزمام والأمان، ومن وصل إليهم، فدخل في الصلح معهم، كان حكمه كحكمهم ﴿أَوْ جَاءَكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ أي: وإلا الذين جاؤوكم حصرت صدورهم، وهم بنو مدلج وبنو خزيمة ضاقت صدورهم أن يقاتلوا المسلمين، أو يقاتلوا قومهم بني مدلج. و«حصرت»: خبر بعد خبر.

وفي «صحيح البخاري» في قصة صلح الحديبية: فكان من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم، ومن أحب أن يدخل في صلح محمد ﷺ وأصحابه وعهدهم.

(١) قال ابن كثير ٥٣٣/١: وروى ابن أبي حاتم، حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جدعان، عن الحسن أن سراقة بن مالك المدجلي حدثهم، قال: لما ظهر يعني النبي ﷺ على أهل بدر وأحد، وأسلم من حولهم، قال سراقة بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج، فأنتبهت فقلت: أنشدك النعمة. فقالوا: صَ، فقال النبي ﷺ: «ههوه ما تريد؟» قال: بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي، وأنا أريد أن توادعهم، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام، وإن لم يسلموا، لم نخش قلوب قومك عليهم، فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد، فقال: «أذهب معه فاقبل ما يريد»، فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ، وإن أسلمت قريش أسلموا، فأنزل الله ﴿وَوُثِّقَ لَهُ الْوَيْثُ كَمَا كَفَرُوا فَكَفَرُوا سَوَاءً فَلَا تَنْفَعُكُمْ آلُكُمْ وَلَا بَنُوكُمْ﴾ ورواه ابن مردويه، وقال: فأنزل الله ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْإِيمَانَ بِكُمْ وَيُؤْتُونَ السَّلَامَ﴾ فكان من وصل إليهم كانوا معهم على عهدهم. قلت: والحسن لم يسمع من سراقة، وعلي بن زيد بن جدعان: ضعيف.

(٢) قال الخرفي: ولا تقبل الجزية إلا من يهودي أو نصراني أو مجوسي إذا كانوا مقيمين على ما عهدوا عليه، ومن سواهم فالإسلام أو القتل. قال في «المنها» ٥٣٣/١٠: يعني من سوى اليهود والنصارى والمجوس لا تقبل منهم الجزية، ولا يقرؤن بها، ولا يقبل منهم إلا الإسلام، فإن لم يسلموا قتلوا، هذا ظاهر مذهب أحمد، وروي عن الحسن بن ثواب أنها تقبل من جميع الكفار إلا عبدة الأوثان من العرب، لأن حديث بريدة يدل بعمومه على قبول الجزية من كل كافر إلا أنه خرج منه عبدة الأوثان من العرب لغلظ كفرهم من وجهين: أحدهما: دينهم، والثاني: كونهم من هبط النبي ﷺ. وفي «نيل الأوطار» ٥٣٨/٨، وقوله: «فسلمهم الجزية» ظاهره عدم الفرق بين الكافر العممي والعربي، والكتابي وغير الكتابي، وإلى ذلك ذهب مالك، والأوزاعي، وجماعة من أهل العلم.

﴿سَتَجِدُونَ الْعَرَبَ يَرْذَوْنَ أَنْ يُأْمِنُوا بِكُمْ وَيَأْمِنُوا قَوْمَهُمْ كُلُّ مَا رَدُّوا إِلَى الْآفَنَةِ أُنْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَرِلَوْكُمْ وَلَقَدْ آتَيْنَاكُمْ الْكِتَابَ السَّامِيَّ وَكَلَّمْنَا آبَاءَهُمْ فَعَدُّوهُمْ وَأَقْبَلُوهُمْ حَيْثُ تَوَفَّتْهُمُ وَأَوَّلَيْكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ الْعَرَبَ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في أسد وغطفان، كانوا قد تكلموا بالإسلام ليأمنوا المؤمنين بكلمتهم، ويأمنوا قومهم بكفرهم، رواه أبو صالح، عن ابن عباس. والثاني: أنها نزلت في بني عبد الدار، رواه الضحاك، عن ابن عباس. والثالث: أنها نزلت في قوم أرادوا أخذ الأمان من النبي ﷺ، وقالوا: لا نقاتلك ولا نقاتل قومنا، قاله قتادة. والرابع: أنها نزلت في نعيم بن مسعود الأشجعي، كان يأمن في المسلمين والمشركين، فينقل الحديث بين النبي ﷺ وبينهم، ثم أسلم نعيم، هذا قول السدي. ومعنى الآية: ستجدون قوماً يظهرن الموافقة لكم ولقومهم، ليأمنوا الفريقين، كلما دعوا إلى الشرك، عادوا فيه، فإن لم يعتزلوكم في القتال، ويلقوا إليكم الصلح، ويكفوا أيديهم عن قتالكم، فخذوهم، أي: انسروهم، واقتلوهم حيث أدرتكموهم، وأولانكم جعلنا لكم عليهم حجة بينة في قلوبهم.

فصل

قال أهل التفسير: والكف عن هؤلاء المذكورين في هذه الآية منسوخ بآية السيف.

﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِيهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمُ بَيْتَاتٌ فِدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ. وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَوْسِيماً شَهْرَيْنِ مُسْتَأْمِنَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن عياش بن أبي ربيعة أسلم بمكة قبل هجرة رسول الله، ثم خاف أن يظهر إسلامه لقومه، فخرج إلى المدينة فقالت أمه لابنيها أبي جهل، والحارث ابني هشام، وهما أخواه لأمه: والله لا يُظْلَتِي سَقَف، ولا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى تأتيا بي به. فخرجا في طلبه. ومعهما الحارث بن زيد، حتى أتوا عياشاً وهو مُتَحَصِّنٌ في أَطْم، فقالوا له: انزل فإن أُمك لم يؤوها سَقَفٌ، ولم تذق طعاماً، ولا شرباً، ولك علينا أن لا نحول بينك وبين دينك، فنزل، فأوثقوه، وجلده كل واحد منهم مائة جلدة، فقدموا به على أمه، فقالت: والله لا أحلك من وثاقل حتى تكفر، فطرح موثقاً في الشمس حتى أعطاهم ما أرادوا، فقال له الحارث بن زيد: يا عياش لئن كان ما كنت عليه هدى لقد تركته، وإن كان ضلالاً لقد ركبته. فغضب، وقال: والله لا ألقاك خالياً إلا قتلتك، ثم أفلت عياش بعد ذلك، وهاجر رسول الله ﷺ بالمدينة، ثم أسلم الحارث بعده، وهاجر ولم يعلم عياش، فلقى يوماً فقتله، فقيل له: إنه قد أسلم، فجاء إلى النبي ﷺ فأخبره بما كان، وقال: لم أشعر بإسلامه، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح، عن ابن عباس. وهو قول سعيد بن جبير، والسدي، والجمهور. والثاني: أن أبا الدرداء قتل رجلاً قال لا إله إلا الله في بعض السرايا، ثم أتى النبي ﷺ، فذكر له ما صنع، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن زيد^(١). قال الزجاج: معنى الآية: وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً البتة. والاستثناء ليس من الأول، وإنما المعنى: إلا أن يُخطئ المؤمن. وروى أبو عبيدة، عن يونس: أنه سأل روية عن هذه الآية، فقال: ليس له أن يقتله عمداً ولا خطأ، ولكنه أقام «إلا» مقام «لوا» قال الشاعر:

وَكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ لَعَمْرُ أَبِيكَ إِلَّا الْفَرَقْدَانِ^(٢)

(١) قال ابن جرير الطبري ٣٤/٩: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله عرف عباده بهذه الآية ما على من قتل مؤمناً خطأ من كفارة ودية، وجائز أن تكون الآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة وقتله، وفي أبي الدرداء وصاحبه. وأي ذلك كان، فالذي عنى الله تعالى بالآية: تعريف عباده ما ذكرنا. وقد عرف ذلك من عقل عنه من عباده تنزيه، وغير ضائهم جهلهم بمن نزلت فيه.

(٢) البيت لعمر بن معد يكرب، وقيل لسوار بن المضرب، وقيل لحضرمي بن عامر. وهو في سيبويه ١/٣٧١، والكمال ٣/١٢٤٠، والبيان والبيان ١/٢٢٨، وشرح المفصل ٢/٨٩، والبحر المحيط ٣/٣٢١، وشواهد المغني ٧٨، وخزانة الأدب ٢/٥٢. قال الأعلام: والشاهد فيه نعت «كل» =

أَرَادَ: وَالْفَرَقْدَانِ. وقال بعضُ أهل المعاني: تقديرُ الآية: لكن قد يقتل خطأ، وليس ذلك فيما جعل الله له، لأن الخطأ لا تصح فيه الإباحة، ولا النهي. وقيل: إنما وقع الاستثناء على ما تضمنته الآية من استحقاق الإثم، وإيجاب القتل. قوله تعالى: ﴿تَتَزَيَّرُ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً﴾ قال سعيد بن جبير: عتق الرقبة واجبٌ على القاتل في ماله، واختلفوا في عتق الغلام الذي لا يصح منه فعل الصلاة والصيام، فروي عن أحمد جوازه، وكذلك روى ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، وهذا قول عطاء، ومجاهد^(١). وروي عن أحمد: لا يجزئ إلا من صام وصلى، وهو قول ابن عباس في رواية، والحسن، والشعبي، وإبراهيم، وقتادة.

قوله تعالى: ﴿وَدِيَّةٌ مِّمَّا كَتَبْتُ إِلَى أَهْلِيهِ﴾ قال القاضي أبو يعلى: ليس في هذه الآية بيان من تلزمه هذه الدية، واتفق الفقهاء على أنها عاقلة القاتل، تحملها عنه على طريق المواساة، وتلزم العاقلة في ثلاث سنين، كل سنة ثلثها. والعاقلة: العصبات من ذوي الأنساب، ولا يلزم الجاني منها شيء^(٢). وقال أبو حنيفة: هو كواحد من العاقلة. وللنفس ستة أبدال: من الذهب ألف دينار، ومن الورق اثنا عشر ألف درهم، ومن الإبل مائة، ومن البقر مائتا بقرة، ومن الغنم ألفا شاة، وفي الحلل روايتان عن أحمد، إحداهما: أنها أصل، فتكون مائتا حلة. فهذه دية الذكر الحر المسلم، ودية الحرّة المسلمة على النصف من ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَفْكَرُوا﴾ قال سعيد بن جبير: إلا أن يتصدّق أولياء المقتول بالدية على القاتل. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنَ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: وإن كان المقتول خطأ من قوم كفار، ففيه تحرير رقبة من غير دية، لأن أهل ميراثه كفار. والثاني: وإن كان مقيماً بين قومه، فقتله من لا يعلم بإيمانه، فعليه تحرير رقبة ولادية، لأنه ضيع نفسه بإقامته مع الكفار، والقولان مرويان عن ابن عباس، وبالأول قال النخعي، والثاني سعيد بن جبير. وعلى الأول تكون «من» للتبعض، وعلى الثاني تكون بمعنى في. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنَ قَوْمٍ يَبِينَكُمْ وَيَبِينُكُمْ يُشِيقُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الرجل من أهل الدّمة يُقتل خطأ، فيجب على قاتله الدية والكفارة، هذا قول ابن عباس، والشعبي، وقتادة، والزهري، وأبي حنيفة، والشافعي. ولأصحابنا تفصيل في مقدار ما يجب من الدية^(٣). والثاني: أنه المؤمن يقتل وقومه مشركون، ولهم عقد، فديته لقومه، وميراثه للمسلمين، هذا قول النخعي.

- بقوله: «إلا الفرقدان» على تأويل «غير» والتقدير: وكل أخ غير الفرقدين مفارقة أخوه، وهذا على مذهب الجاهلية، كأنه قال هذا قبل الإسلام، ويحتل أنه يريد في مدة الدنيا. والفرقدان، تشية فرقد: وهو نجم قريب من القطب الشمالي يهتدي به، ويجانبه آخر أخفى منه، فهما فرقدان. وقال أبو حيان رحمه الله بعد أن نقل مقالة أبي عبيدة: والذي يظهر أن قوله: «إلا خطأ» استثناء منقطع، وهو قول الجمهور منهم أبان بن تغلب، والمعنى: لكن المؤمن قد يقتل المؤمن خطأ.

(١) قال ابن كثير ٥٣٤/١: والذي عليه الجمهور أنه متى كان مسلماً صح عتقه عن الكفارة، سواء كان صغيراً أو كبيراً.

(٢) في «المعني» ٤٩٦/٩: ولا نعلم بين أهل العلم خلافاً في أن دية الخطأ على العاقلة، قال ابن المنذر: أجمع على هذا كل من نحفظ عنه من أهل العلم، وقد ثبتت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قضى بدية الخطأ على العاقلة، وأجمع أهل العلم على القول به، وقد جعل النبي ﷺ دية عمد الخطأ على العاقلة بما قد رويناه من الأحاديث، وفيه تشية على أن العاقلة تحمل دية الخطأ، والمعنى في ذلك أن جنائيات الخطأ تكثر، ودية الأدمي كثيرة، لإيجابها على الجاني في ماله يحجب به، فاقتضت الحكمة إيجابها على العاقلة على سبيل المواساة للقاتل، والإعالة له تخفيفاً عنه إذا كان معذوراً في فعله، وينفرد هو بالجاني. قال ابن كثير: وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل لا في ماله، قال الشافعي: لا أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة، وهو أكثر من حديث الخاصة. وهذا الذي أشار إليه رحمه الله قد ثبت في غير ما حديث، فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: اقتلت امرأتان من هذيل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر، فقتلتها وما في بطنها، فاغتصموا إلى رسول الله ﷺ، فنقضى أن دية جنيها غرة عبد أو أمة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها، وهذا يقتضي أن حكم عمد الخطأ حكم الخطأ المحض في وجوب الدية. لكن هذا تجب فيه الدية أثلاثاً كالعمد لشبهه به. وفي «صحيح البخاري» من عبد الله بن عمر، قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جليمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صباناً صباناً، فجعل خالد يقتلهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فرفع يديه وقال: «اللهم إني أبرأ إليك من صنع خالده قال ابن إسحاق: وبعت علياً، فودى قتلهم، وما أنلف من أموالهم حتى مبلغة الكلب. وهذا يؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال.

(٣) في «الكانبي» ٧٨/٣: ودية الكتابي نصف دية المسلم، لما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ أنه قال: «دية المعاهد نصف دية المسلم» رواه أبو داود. وروي عنه: أن دية ثلث الدية، لما روي أن عمر جعل دية اليهودي والنصراني أربعة آلاف، إلا أنه رجع عن هذه الرواية، -

قوله تعالى: ﴿مَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَكَتِّبَيْنِ﴾ اختلفوا هل هذا الصيام بدل من الرقبة وحدها إذا عدها، أو بدل من الرقبة والدية؟ فقال الجمهور: عن الرقبة وحدها، وقال مسروق، ومجاهد، وابن سيرين: عنهما. واتفق العلماء على أنه إذا تخلل صوم الشهرين إفطار لغير عذر، فعليه الابتداء، فأما إذا تخللها المرض، أو الحيض، فعندنا لا ينقطع التابع، وبه قال مالك. وقال أبو حنيفة: المرض يقطع، والحيض لا يقطع، وفرق بينهما بأنه يمكن في لعادة صوم شهرين بلا مرض، ولا يمكن ذلك في الحيض، وعندنا أنها معذورة في الموضعين.

قوله تعالى: ﴿تَوْبَةُ مِنَ اللَّهِ﴾ قال الزجاج: معناه: فعل الله ذلك توبة منه. قوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ أي: لم يزل عليمًا بما يصلح خلقه من التكليف ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يقضي بينهم، ويدبره في أمورهم.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَدِّيًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَذِبُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَدِّيًا﴾ سبب نزولها: أن مقيس بن ضبابة وجد أخاه هشام بن ضبابة قتيلاً في بني النجار، وكان مسلماً، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فأرسل رسول الله رسولا من بني فهر، فقال له: إيت بني النجار، فأقرئهم مني السلام، وقل لهم: إن رسول الله ﷺ يأمركم إن علمتم قاتل هشام، فادفعوه إلى مقيس بن ضبابة، وإن لم تعلموه له قاتلاً، فادفعوا إليه دية، فأبلغهم الفهري ذلك، فقالوا: والله ما نعلم له قاتلاً، ولكننا نعطى دية، فأعطوه مائة من الإبل، ثم انصرفا راجعين إلى المدينة، فأتى الشيطان مقيس بن ضبابة، فقال: تقبل دية أخيك، فيكون عليك سبّة ما بقيت. اقتل الذي معك مكان أخيك، وأفضل بالدية، فرمى الفهري بصخرة، فشذخ رأسه، ثم ركب بعيراً منها، وساق بقيتها راجعاً إلى مكة، وهو يقول:

قتلت به فهراً وحملت عقله
وأدركت ثأري واضطجعتُ موسداً
سُراً بني النجار أرباب فارع
وكننت إلى الأصنام أول راجع

فنزلت هذه الآية، ثم أهدر النبي ﷺ دمه يوم الفتح، فقتل، رواه أبو صالح، عن ابن عباس^(١). وفي قوله: ﴿مُتَعَدِّيًا﴾ قولان: أحدهما: متعمداً لأجل أنه مؤمن، قاله سعيد بن جبيرة. والثاني: متعمداً لقتله، ذكره بعض المفسرين. وفي قوله: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ قولان: أحدهما: أنها جزاؤه قطعاً. والثاني: أنها جزاؤه إن جازاه. واختلف العلماء هل للمؤمن إذا قتل مؤمناً متعمداً توبة أم لا؟ فذهب الأكثرون إلى أن له توبة، وذهب ابن عباس إلى أنه لا توبة له.

= وقال: كنت أذهب إلى أن دية اليهودي والنصراني أربعة آلاف، فأنا اليوم أذهب إلى نصف دية المسلم. قلت: أما حديث عمرو بن شعيب فرواه أيضاً أحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن ماجه، وهو حديث حسن. وأما أثر عمر فقد رواه عنه سعيد بن المسيب، وهو مقطوع، لأن سعيداً لم يسمع من عمر.

(١) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص ٩٨ عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، ونسبه السيوطي في «الدر المنثور» ١٩٦/٢ إلى البيهقي في «شعب الإيمان» من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. ورواه ابن جرير الطبري ٦١/٩ من طريق ابن جريج عن عكرمة ولفظه: أن رجلاً من الأنصار قتل أخا مقيس بن ضبابة، فأعطاه النبي ﷺ الدية، فقبلها، ثم وثب على قاتل أخيه فقتله. قال ابن جريج: وقال غيره: ضرب النبي ﷺ دية على بني النجار، ثم بعث مقيساً، وبعث معه رجلاً من بني فهر في حاجة للنبي ﷺ، فاحتمل مقيس الفهري، وكان أبدأ فضرب به الأرض، ورضخ رأسه بين حجرين، ثم ألقي يتغنى:

ثأرتُ به فهراً وحملت عقله
فقال النبي ﷺ: «أظنه قد أحدث حدثاً، أما والله لئن كان فعل لا أومنه في جل ولا حرم، ولا سلم ولا حرب» فقتل يوم الفتح. قال ابن جريج: وفيه نزلت هذه الآية ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَدِّيًا﴾. وفي «سيرة ابن هشام» ٢٩٣/٢ قال ابن إسحاق: وقدم مقيس بن ضبابة من مكة مسلماً فيما يظهر، فقال: يا رسول الله جئتكم مسلماً، وجئتكم أطلب دية أخي، قُتل خطأ. فأمر له رسول الله ﷺ بدية أخيه هشام بن ضبابة فأقام عند رسول الله غير كثير، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله، ثم خرج إلى مكة مرتداً، فقال في شعره يقول:

شفي السُّفْسُ أن قد مات بالقاع مُسَيِّداً
وكانت هموم السُّفْسِ من قبل قتلته
حسنت به وتري وأدركت ثأورتي
ثأرت به فهراً وحملت عقله
نُضِرَج ثوبيه ومساء الأخادع
ثُلِمُ فتحميني وطاء المضاجع
وكننت إلى الأوثان أوّل راجع
سُراً بني النجار أرباب فارع

فصل

اختلف العلماء في هذه الآية هل هي محكمة أم منسوخة؟ فقال قوم: هي محكمة، واحتجوا بأنها خير، والأخبار لا تحتل النسخ، ثم اختلف هؤلاء فرقتين، إحداهما قالت: هي على ظاهرها، وقائل المؤمن مخلد في النار. والفرقة الثانية قالت: هي عامة قد دخلها التخصيص بدليل أنه لو قتله كافر، ثم أسلم الكافر، انهدرت عنه العقوبة في الدنيا والآخرة، فإذا ثبت كونها من العام المخصص، فأى دليل صلح للتخصيص، وجب العمل به. ومن أسباب التخصيص أن يكون قتله مستحلاً، فيستحق الخلود لاستحلاله. وقال قوم: هي مخصوصة في حق من لم يثب، واستدلوا بقوله تعالى في الفرقان: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَاعْمَلَ عَمَلًا مَبْرُورًا فَأُولَئِكَ يَرْجُو اللَّهُ غُفْرَانَهُمْ حَسَنَةٌ مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الفرقان]. وقال آخرون: هي منسوخة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَتَغَيَّرُ عَنْ بَرْكَ يَوْمَ وَيَتَغَيَّرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].^(١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَبُّوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَسَلَمْتُمْ لَسْتُمْ مُؤْمِنًا تَتَّبِعُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَوَيْدَ اللَّهِ مَكَائِدُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَرَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَبُّوا﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن النبي ﷺ بعث سرية فيها المقداد بن الأسود، فلما أتوا القوم، وجدوهم قد تفرقوا، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، فأهوى إليه المقداد فقتله. فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلاً يشهد أن لا إله إلا الله؟! لأذكرن ذلك للنبي ﷺ، فلما قدموا على النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله، فقتله المقداد، فقال: «ادعوا لي المقداد فقال: يا مقداد أقتلت رجلاً قال لا إله إلا الله، فكيف لك بـ «لا إله إلا الله غداً! قال: فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَبُّوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَسَلَمْتُمْ لَسْتُمْ مُؤْمِنًا تَتَّبِعُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَوَيْدَ اللَّهِ مَكَائِدُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَرَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ فقال رسول الله ﷺ للمقداد: «كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتلته؟ وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل». روى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس^(٢). والثاني: أن رجلاً من بني سليم مر على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، ومعه غنم، فسلم، فقالوا: ما سلم عليكم إلا ليتعوذ [مننا]، فعمدوا إليه فقتلوه، وأخذوا غنمه، فأتوا بها رسول الله ﷺ، فنزلت هذه

(١) قال الشوكاني في «فتح القدير» ١/ ٤٦١: وقد اختلف العلماء هل لقاتل العمد من توبة أم لا توبة له؟ فروى البخاري عن سعيد بن جبيرة قال: اختلف فيها علماء أهل الكوفة، فرحلت فيها إلى ابن عباس فسأله عنها، فقال: نزلت هذه الآية ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَدِّيًا﴾ وهي آخر ما نزل وما نسخها شيء. وقد روى النسائي عنه نحو هذا. وروى النسائي عن زيد بن ثابت نحوه. وممن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف أبو هريرة، وعبد الله بن عمرو، وأبو سلمة، وعبيد بن عمير، والحسن، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، نقله ابن أبي حاتم عنهم. وذهب الجمهور إلى أن التوبة منه مقبولة، واستدلوا بمثل قوله تعالى ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ يَدْرِئَكَ كَتِبَ﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَسَلَمْتُمْ لَسْتُمْ مُؤْمِنًا تَتَّبِعُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَوَيْدَ اللَّهِ مَكَائِدُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَرَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾، قالوا أيضاً: والجمع ممكن بين آية النساء هذه، وآية الفرقان فيكون معناه: فجزاؤه جهنم إلا من تاب، لا سيما وقد اتحد السبب، وهو القتل والموجب وهو التوعد بالعقاب. واستدلوا أيضاً بالحديث المذكور في الصحيحين عن عباد بن الصامت أنه قال: «بابعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق»، ثم قال: «فمن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء حلبه» ويحدث أبي هريرة الذي أخرجه مسلم في «صحيحه» غيره في الذي قتل مئة نفس. وذهب جماعة منهم أبو حنيفة وأصحابه، الشافعي إلى أن القاتل عمداً داخل تحت المشيئة تاب أو لم يتب. وقد أوضحت في شرحي على «المتقى» متمسك كل فريق. والحق أن باب التوبة لم يغلَقْ دون كل عاص، بل هو مفتوح لكل من قصد ورام الدخول منه، وإذا كان الشرك - وهو أعظم الذنوب وأشدّها - تمحوه التوبة إلى الله ويقبل من صاحبه الخروج منه، والدخول في باب التوبة، فكيف بما دونه من المعاصي التي من جملتها القتل عمداً، لكن لا بد في توبة قاتل العمد من الاعتراف بالقتل، وتسليم نفسه للقصاص إن كان واجباً. أو تسليم الدية إن لم يكن القصاص واجباً، وكان القاتل غنياً متمسكاً من تسليمها أو بعضها. وأما مجرد التوبة من القاتل عمداً، وعزمه على أن لا يعود إلى قتل أحد من دون اعتراف ولا تسليم نفس، فنحن لا نقطع بقبولها، والله أرحم الراحمين هو الذي يحكم بين عباد فيما كانوا فيه يختلفون.

(٢) رواء البزار والطبراني في «الكبير» والدارقطني في «الأفراد» قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ٨: وإسناده جيد. وقد روى البخاري ١٦٧/ ١٢ بشرح الفتح بعضه مختصراً تليفاً، فقال الحافظ: وهذا التعليق وصله البزار والدارقطني في «الأفراد» والطبراني في «الكبير» من رواية أبي بكر بن علي بن عطاء بن مقدم والد محمد بن أبي بكر المقدمي عن حبيب وذكر الحديث بطوله - ثم قال: قال الدارقطني: تفرد به حبيب وتفرد به أبو بكر عنه. قلت: أي الحافظ ابن حجر - قد تابع أبا بكر سفيان الثوري، لكنه أرسله. أخرجه ابن أبي شيبة عن وكيع عنه، وأخرجه الطبري من طريق أبي إسحاق الفزاري عن الثوري كذلك.

الآية. رواه عكرمة، عن ابن عباس^(١). والثالث: أن قوماً من أهل مكة سمعوا بسرية لرسول الله ﷺ أنها تُريدُهم فهربوا، وأقام رجل منهم كان قد أسلم، يقال له: مرداس، وكان على السرية رجل، يقال له: غالب بن فضالة، فلما رأى مرداس الخيل، كبر ونزل إليهم، فسلم عليهم، فقتله أسامة بن زيد، واستاق غنمه، ورجعوا إلى النبي ﷺ فآخبروه، فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وجداً شديداً، ونزلت هذه الآية. رواه أبو صالح عن ابن عباس^(٢). وقال السدي: كان أسامة أمير السرية. والرابع: أن رسول الله بعث أبا حذرد الأسلمي، وأبا قتادة، ومحلّم بن جثامة في سرية إلى إضم^(٣)، فلحقوا عامر بن الأضبط الأشجعي، فحيّاهم بتحية الإسلام، فحمل عليه محلّم بن جثامة فقتله، وسلبه بغيراً وسقاء. فلما قدموا على النبي ﷺ أخبروه، فقال: «أقتلته بعدما قال أمنت؟!». ونزلت هذه الآية. رواه ابن أبي حذرد، عن أبيه^(٤). فاما التفسير، فقوله: «إِنَّا صَرَفْنَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» أي: سرتهم وغزوتهم. وقوله: «فَتَبَيَّنُوا» قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عارم: «فَتَبَيَّنُوا» بالنون من التبيين للأمر قبل الإقدام عليه. وقرأ حمزة، والكسائي وخلف (فتبينوا) بالثاء من الثبات وترك الاستعجال، وكذلك قرؤوا في (الحجرات).

قوله تعالى: «لَمَنَ أَلْفَ إِلَى كُمْ أَسْلَمَ» قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر، وحفص عن عاصم، والكسائي: «السلام» بالالف مع فتح السين. قال الزجاج: يجوز أن يكون بمعنى التسليم، ويجوز أن يكون بمعنى الاستسلام. وقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، وخلف، وجبلة عن المفضل عن عاصم: «(السلام) بفتح السين واللام من غير ألف، وهو من الاستسلام. وقرأ أبان بن يزيد عن عاصم: بكسر السين وإسكان اللام من غير ألف. «والسلم»: الصلح. وقرأ الجمهور: «أَسَلَتْ مُؤْمِنًا»، بكسر الميم، وقرأ علي، وابن عباس، وعكرمة، وأبو العالية، ويحيى بن يعمر، وأبو جعفر: بفتح الميم من الأمان.

قوله تعالى: «تَبَيَّنُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا» و«عرضها»: ما فيها من مال، قلّ أو كثر. قال المفسرون والمراد به: ما غنموه من الرجل الذي قتلوه. قوله تعالى: «وَقَدْ أَلَّهِ مَكَانَهُ كَثِيرَةً» فيه قولان: أحدهما: أنه ثواب الجنة، قاله مقاتل. والثاني: أنها أبواب الرزق في الدنيا، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: «كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ» فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: كذلك كنتم تأمنون من قومكم المؤمنين بهذه الكلمة، فلا تخفوا من قالها، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: كذلك كنتم تخفون إيمانكم بمكة كما كان هذا يخفي إيمانه، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. والثالث: كذلك كنتم من قبل مشركين، قاله مسروق، وقاتدة، وابن زيد.

قوله تعالى: «فَصَرَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ» في الذي مَن به أربعة أقوال: أحدها: الهجرة، قاله ابن عباس. والثاني: إعلان الإيمان، قاله سعيد بن جبيرة. والثالث: الإسلام، قاله قاتدة، ومسروق. والرابع: التوبة على الذي قتل ذلك الرجل، قاله السدي.

قوله تعالى: «فَتَبَيَّنُوا» تأكيد للأول.

«لَا يَسْتَوِي الْقَتِيلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَمَّا أُولَى الْقَصَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَتِيلِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَتِيلِينَ أَجْرًا عَظِيمًا» ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: «لَا يَسْتَوِي الْقَتِيلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» قال أبو سليمان الدمشقي: نزلت هذه الآية من أجل قوم كانوا إذا

(١) «المسند»، والترمذي ٩٠/٤، والحاكم: ٢٤٥/٢ من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، ورواه بمعناه البخاري ١٩٤/٨، ومسلم ٢٣١٩/٤ من طريق سفيان عن عمرو، عن عطاء عن ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن جرير ٧٦/٩ عن أبي صالح، واسم الذي على رأس السرية عنده «قليب»، وانظر الاختلاف في اسمه «قليب» أو «قلت» في «الإصابة».

(٣) إضم: واد يشق الحجاز حتى يفرغ في البحر، من عند المدينة، وهو واد لأشجع وجهية.

(٤) «المسند»، ١١/٦، وابن جرير ٧٣/٩، وذكره الهيثمي في «المجمع»، ٨/٧، وقال: رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات. قلت: وفي سند أحمد القعقاع بن عبد الله بن أبي حذرد، أورده الحافظ ابن حجر في «تجويد المغفرة»، ونقل عن البخاري أن له صحبة ولا تصح، ولم يذكر عن أحد توثيقه.

حضرت غزاة يستأذنون في القعود. وقال زيد بن ثابت: إني لقاعد إلى جنب رسول الله ﷺ إذ غشيت السكينة، ثم سُري عنه، فقال: «اكتب» (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون) الآية، فقام ابن أم مكتوم، فقال: يا رسول الله، كيف بمن لا يستطيع الجهاد؟ فوالله ما قضى كلامه حتى غشيت رسول الله السكينة، ثم سُري عنه، فقال: «اقرأ» فقرأت لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون، فقال النبي ﷺ: «عَبْرَ أُولَى الْقَرَرِ» فالحققتها^(١).

قوله تعالى: «لَا يَسْتَوِي الْقَاتِلُونَ» يعني عن الجهاد، والمعنى: أن المجاهد أفضل. قال ابن عباس: وأريد بهذا الجهاد غزوة بدر^(٢). وقال مقاتل: غزاة تبوك.

قوله تعالى: «عَبْرَ أُولَى الْقَرَرِ» قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة: (غير) برفع الراء، وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، وخلف، والمفضل: بتصبها. قال أبو علي: من رفع الراء، جعل «غير» صفة للقاعدين، ومن نصبها، جعلها استثناء من القاعدين. وفي «الضرر» قولان: أحدهما: أنه العجز بالزمانة والمرض، ونحوهما. قال ابن عباس: هم قوم كانت تحبسهم عن الغزاة أمراض وأوجاع. وقال ابن جبير، وابن قتيبة: هم أولو الزمانة. وقال الزجاج: الضرر: أن يكون ضريراً أو أعمى أو زماً. والثاني: أنه العذر، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

قوله تعالى: «نَسَلُ اللَّهِ الْكُفَّيْنِ بِأَنَّهُمَا عَلَى الْقَتِيلَيْنِ دَرَجَةٌ» في هؤلاء القاعدين قولان: أحدهما: أنهم القاعدون بالضرر، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: القاعدون من غير ضرر، قاله أبو سليمان الدمشقي. قال ابن جرير: والدرجة: الفضيلة. فأما الحسن في الجنة في قول الجماعة.

قوله تعالى: «نَسَلُ اللَّهِ الْكُفَّيْنِ عَلَى الْقَتِيلَيْنِ» قال ابن عباس: القاعدون هاهنا: غير أولي الضرر، وقال سعيد بن جبير: هم الذين لا عذر لهم.

﴿دَرَجَتَيْنِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ دَرَجَةٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

قوله تعالى: «دَرَجَتَيْنِ بَيْنَهُ» قال الزجاج: درجات في موضع نصب بدلاً من قوله: «أجرًا عظيماً»، وهو مفسر للأجر. وفي المراد بالدرجات قولان: أحدهما: أنها درجات الجنة، قل ابن محيريز: الدرجات: سبعون درجة ما بين كل درجتين حُضِرَ الفرس الجواد المضمر سبعين سنة^(٣)، وإلى نحوه ذهب مقاتل. والثاني: أن معنى الدرجات: الفضائل، قاله سعيد بن جبير^(٤). قال قتادة: كان يقال: الإسلام درجة، والهجرة في الإسلام درجة، والجهاد في الهجرة درجة، والقتل في الجهاد درجة. وقال ابن زيد: الدرجات: هي السبع التي ذكرها الله تعالى في براءة حين قال: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُعِينُهُمْ ظُلُمًا»... إلى قوله: «وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمُ»... [التوبة: ١٢٠، ١٢١]. فإن قيل: ما الحكمة في أن الله تعالى ذكر في أول الكلام درجة، وفي آخره درجات؟ فتنه جوابان: أحدهما: أن الدرجة الأولى تفضيل المجاهدين على القاعدين من أولي الضرر منزلة. والدرجات: تفضيل المجاهدين على القاعدين من غير أولي الضرر منازل كثيرة، وهذا معنى قول ابن عباس. والثاني: أن الدرجة الأولى درجة المدح والتعظيم، والدرجات: منازل الجنة، ذكره القاضي أبو يعلى.

(١) «المسند» ٥/١٨٤، والبخاري ٨/١٩٥، وأبو داود ٣/١٧، والترمذي ٤/٩٢، والنسائي ٦/٩، ولقظه عند البخاري عن ابن شهاب قال: حدثني سهل بن سعد الساعدي أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد، فأقبلت حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره أن النبي ﷺ أملى عليه «لَا يَسْتَوِي الْقَاتِلُونَ مِنَ الْقَتِيلَيْنِ وَالْكَافِرُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» فجاء ابن أم مكتوم وهو يملأها علي قال: يا رسول الله والله لو أستطيع الجهاد معك لجاهدت، وكان أعمى، فأنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي، فنقلت علي حتى خفت أن ترش فخذي، ثم سُري عنه، فأنزل الله «عَبْرَ أُولَى الْقَرَرِ». واملأها - بضم أوله وكسر الميم وتشديد اللام - هو مثل يملأها. والمرض: الدق. وسري: كشف. وروى البخاري عن البراء، قال: لما نزلت «لَا يَسْتَوِي الْقَاتِلُونَ مِنَ الْقَتِيلَيْنِ» دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم، فشكا خرابته، فأنزل الله «عَبْرَ أُولَى الْقَرَرِ».

(٢) «البخاري» ٨/١٩٧.

(٣) حضر الفرس: ارتفاعه في عدوه، يقال: أحضر الفرس يحضر إحضاراً: عدا عدواً شديداً. والفرس المضمر: هو الذي أعد إعداداً للسياق والركض.

(٤) روى البخاري ٦/٩، و١٣/٣٤٩ عن أبي هريرة مرفوعاً: «إن في الجنة مائة درجة أعطاها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض» وروى مسلم ١٣/١٥٠ عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وجبت له الجنة» فنجب لها أبو سعيد، فقال: أعطاها عليّ يا رسول الله ففعل، ثم قال: «وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله».

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالَتْ لَيْكُم مَّاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن أناساً كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام، فلما أخرج النبي ﷺ إلى بدر لم تدع قريش أحداً إلا أخرجوه معهم، فقتل أولئك الذين أقروا بالإسلام، فنزلت فيهم هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس^(١). وقال قتادة: نزلت في أناس تكلموا بالإسلام، فخرجوا مع أبي جهل، فقتلوا يوم بدر، واعتذروا بغير عذر، فأبى الله أن يقبل منهم. والثاني: أن قوماً نافقوا يوم بدر، وارتابوا، وقالوا: غير هؤلاء دينهم وأقاموا مع المشركين حتى قتلوا، فنزلت فيهم هذه الآية. رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنها نزلت في قوم تخلفوا عن رسول الله ﷺ، ولم يخرجوا معه، فمن مات منهم قبل أن يلحق بالنبي، ضربت الملائكة وجهه ودبره، رواه العوفي عن ابن عباس^(٢). وفي «التوفي» قولان: أحدهما: أنه قبض الأرواح بالموت، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: الحشر إلى النار، قاله الحسن. قال مقاتل: والمراد بالملائكة ملك الموت وحده. وقال في موضع آخر: ملك الموت وأعوانه، وهم ستة، ثلاثة يَلُون أرواح المؤمنين، وثلاثة يَلُون أرواح الكفار. قال الزجاج: ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ نصب على الحال، والمعنى: تتوفاهم في حال ظلمهم أنفسهم، والأصل: ظالمين، لأن النون حذفت استخفافاً. فأما ظلمهم لأنفسهم، فيحتمل على ما ذكر في قصتهم أربعة أقوال: أحدها: أنه ترك الهجرة، والثاني: رجوعهم إلى الكفر، والثالث: الشك بعد اليقين. والرابع: إعانة المشركين.

قوله تعالى: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ قال الزجاج: هو سؤال توبيخ، والمعنى: كنتم في المشركين أو في المسلمين.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال مقاتل: كنا مقهورين في أرض مكة، لا نستطيع أن نذكر الإيمان، قالت الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً﴾ يعني المدينة ﴿فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ يعني: إليها. وقول الملائكة لهم يدل على أنهم كانوا يستطيعون الهجرة.

﴿إِلَّا السُّتَافِينَ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ قَالَتْ لَيْكُم مَّاؤُهُمْ جَهَنَّمُ عَفْوَ عَفْوَ ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا السُّتَافِينَ﴾ سبب نزولها: أن المسلمين قالوا في حق المستضعفين من المسلمين بمكة: هؤلاء بمنزلة الذين قتلوا ببدر، فنزلت هذه الآية. قاله مجاهد. قال الزجاج: «المستضعفين» نصب على الاستثناء من قوله: ﴿مَّاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ قال أبو سليمان: «المستضعفون»: ذوو الأسنان، والنساء، والصبيان.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ أي: لا يقدرون على حيلة في الخروج من مكة، ولا على نفقة، ولا قوّة. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ قولان: أحدهما: أنهم لا يعرفون الطريق إلى المدينة، قاله ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد. والثاني: أنهم لا يعرفون طريقاً يتوجهون إليه، فإن خرجوا هلكوا، قاله ابن زيد. وفي «عسى» قولان: أحدهما: أنها بمعنى الإيجاب، قاله الحسن. والثاني: أنها بمعنى الترجي. فالمعنى: أنهم يرجون العفو، قاله الزجاج.

(١) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية. قال: فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية: لا عذر لهم، قال: فخرجوا، فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة فنزلت فيهم ﴿وَمَنْ أَكْثَرُ مَنْ يَقُولُ مَآئِكَ مَآئِكَ فَأَوْفَا أَوْفَى فِي اللَّهِ﴾ الآية [العنكبوت: ١٠] فكتب المسلمون إليهم بذلك، فحزنوا وأبسا من كل خير، ثم نزل فيهم ﴿ثُمَّ لَيْكَ لَيْكَ هَاجِرُوا مِنْ بَدْرٍ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَنَحُوا وَمَسَكُوا لَيْكَ لَيْكَ مِنْ بَدْرٍ مَا قُتِلُوا لَقَوْهُ رَجِئًا ﴿١١٠﴾﴾ [النحل: ١١٠] فكتبوا إليهم بذلك: فإن الله قد جعل لكم مخرجاً فخرجوا فأدبرهم المشركون، فقاتلوهم حتى نجا من نجا، وقتل من قتل. وإسناده صحيح، وذكره الهيثمي في «معجم الزوائد» ٩/٧، ١٠ وقال: رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن شريك وهو ثقة. وقوله «فأعطوهم الفتنة» أي: كفروا بعد إسلامهم. وفي البخاري ١٩٧/٨ سبب آخر لهذه الآية عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود، قال: نُفِط على أهل المدينة بُغْتٌ، فَاكْتَبْتُ فِيهِ، فَلَقِيتُ عَكْرَمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، فَأَخْبَرْتُهُ فَهَانِي عَنْ ذَلِكَ أَشَدَّ النَّهْيِ، ثُمَّ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يَكْتُمُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِي السَّهْمُ يَوْمَئِذٍ بِهِ، فَيَصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ أَوْ يَضْرِبُ فَيَقْتُلُ، فَانْزَلَ اللَّهُ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾.

﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَاً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْوُثْقُ فَقَدْ وَقَعَ أَثَرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (١٠٠)

قوله تعالى: ﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَاً كَثِيراً وَسَعَةً﴾ قال سعيد بن جبير، ومجاهد: متزحزحاً عما يكره. وقال ابن قتيبة: المراعى والمهاجر: واحد، يقال: راغمت وهاجرت، وأصله: أن الرجل كان إذا أسلم، خرج عن قومه مُراعِماً، أي: مغاضباً لهم، ومهاجراً، أي: مقاطعاً من الهجران، فقليل للمذهب: مراغم، وللمصير إلى النبي ﷺ هجرة، لأنها كانت بهجرة الرجل قومه. [قال الجعدي: عزيز المراعى والمذهب] (١). وفي السعة قولان: أحدهما: أنها السعة في الرزق، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: التمكن من إظهار الدين، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ اتفقوا على أنه نزل في رجل خرج مهاجراً، فمات في الطريق، واختلفوا فيه على ستة أقوال: أحدها: أنه ضمرة بن العيص، وكان ضريباً موبراً، فقال: احمولني فحمل وهو مريض، فمات عند التنعيم (٢)، فنزل فيه هذا الكلام، رواه سعيد بن جبير (٣). والثاني: أنه العيص بن ضمرة بن زبناخ الخزاعي أمر أهله أن يحملوه على سريره، فلما بلغ التنعيم مات، فنزلت فيه هذه الآية، رواه أبو بشر عن سعيد ابن جبير. والثالث: أنه ابن ضمرة الجندعي مرض، فقال لبيه: أخرجوني من مكة، فقد قتلني غمها، فقالوا: أين؟ فأوماً بيده نحو المدينة، يريد الهجرة، فخرجوا به فمات في الطريق، فنزل فيه هذا، ذكره ابن إسحاق. وقال مقاتل: هو جُنْدَب بن ضمرة. والرابع: أن اسمه سبرة، فلما نزل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ إلى قوله ﴿مُرْعَاً كَثِيراً﴾ قال لأهله وهو مريض: احمولني، فإني موبر، ولي من المال ما يُبلغني إلى المدينة، فلما جاوز الحرم، مات. فنزل فيه هذا، قاله قتادة. والخامس: أنه رجل من بني كنانة هاجر، فمات في الطريق، فسخر منه قومه، فقالوا: لا هو بلغ ما يريد، ولا أقام في أهله حتى يدفن، فنزل فيه هذا، قاله ابن زيد. والسادس: أنه خالد بن حزام أخو حكيم بن حزام، خرج مهاجراً، فمات في الطريق، ذكره الزبير بن بكار، وقوله: «وقع» معنا: وجب.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (١٠١)

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ روى مجاهد عن أبي عياش الزُّرْقِي قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ بَغْضَفَانَ (٤)، وعلى المشركين خالد بن الوليد، [قال]: فصلينا الظهر، فقال المشركون: لقد أصبنا غرة، لو كنا حملنا عليهم وهم في الصلاة، فنزلت آية القصر فيما بين الظهر والعصر (٥). والضرب في الأرض: السفر،

(١) ما بين معقنين من تمام كلام ابن قتيبة في «غريب القرآن»، ١٣٥. وصدر البيت «كطود يلاذ بأركانه» وهو في «ديوانه» ٣٣، و«مجاز القرآن» ١/١٣٨، و«الطبري» ١١٢/٩، و«اللسان» و«التاج» مادة رَغِمَ، والطود: الجبل العظيم المنيف. يلاذ: يتحمن، والمراعى: المضطرب في البلاد والمذهب.

(٢) التنعيم: موضع في الحل بين مَرْو وسِرف، بينه وبين مكة فرسخان، ومن التنعيم يحرم من أراد العمرة من أهل مكة.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير ١١٤/٩، والبيهقي في «سننه» ١٤/٩ عن سعيد بن جبير. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: خرج ضمرة بن جندب إلى رسول الله ﷺ فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ، فنزلت ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية. وفي إسناده أئمت بن سوار، وهو ضعيف. ورواه ابن جرير ١١٨/٩ بنحوه بإسناد آخر، وفيه شريك بن عبد الله القاضي، وهو صدوق يخطئ كثيراً، وذكره الهيثمي في «الزوائد» ١٠/٧، وقال: رواه أبو يعلى، ورجاله ثقات، ونسبه السيوطي في «الدر المنثور» ٢/٢٠٧ لأبي يعلى وابن أبي حاتم والطبراني بسند رجاله ثقات، ثم لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من وجه آخر.

(٤) بَغْضَفَانَ: على مرحلتين من مكة.

(٥) هو قطعة من حديث طويل أخرجه الطبري: ١٣١/٩، وأحمد في «المسنَد» ٩٥/٤، وأبو داود ١٦/٢، والنسائي ١٧٧/٣، والحاكم في «المستدرَك» ١/٣٣٧، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وواقفه الذهبي، وصححه البيهقي، وقال الحافظ ابن كثير في: «تفسيره»: وإسناده صحيح، وله شواهد كثيرة، ولفظه بتسامه: عن أبي عياش الزُّرْقِي، قال: كنا مع رسول الله ﷺ بَغْضَفَانَ، وعلى المشركين خالد بن الوليد، فصلينا الظهر، فقال المشركون: لقد أصبنا غرة، لقد أصبنا غفلة لو كنا حملنا عليهم وهم في الصلاة، فنزلت آية القصر بين الظهر والعصر، فلما حضرت العصر، قام رسول الله ﷺ مستقبل القبلة، والمشركون أمامه، فصُفِّت خلف رسول الله ﷺ صف، وصف بعد ذلك الصف صف آخر، فرجع رسول الله ﷺ، وركعوا جميعاً، ثم سجد، وسجد الصف الذين يلونه، وقام الآخرون يحرسونهم، فلما صلى هؤلاء السجدتين وقاموا، سجد الآخرون الذين كانوا خلفهم، ثم تأخر الصف الذي يليه إلى مقام الآخرين، وتقدم الصف الأخير إلى مقام الصف الأول، ثم ركَع رسول الله ﷺ وركعوا جميعاً، ثم سجد وسجد الصف الذي يليه، وقام الآخرون يحرسونهم، فلما جلس رسول الله ﷺ والصف الذي يليه، سجد الآخرون، ثم جلسوا جميعاً، فسلم عليهم جميعاً، فصلاهما بَغْضَفَانَ، وصلاهما يوم بني سليم. هذا لفظ أبي داود.

والجُنَاح: الإثم، والقصر: النقص، والفتنة: القتل. وفي القصر قولان: أحدهما: أنه القصر من عدد الركعات. والثاني: أنه القصر من حدودها. وظاهر الآية يدل على أن القصر لا يجوز إلا عند الخوف، وليس الأمر كذلك، وإنما نزلت الآية على غالب أسفار رسول الله ﷺ، وأكثرها لم يخل عن خوف العدو. وقيل: إن قوله: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ كلام تام. وقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ كلام مبتدأ، ومعناه: وإن خفتم^(١). واختلف العلماء هل صلاة المسافر ركعتين مقصورة أم لا؟ فقال قوم: ليست مقصورة، وإنما فرض المسافر ذلك، وهو قول ابن عمر، وجابر بن عبد الله، وسعيد بن جبير، والسدي، وأبي حنيفة، فعلى هذا القول قصر الصلاة أن تكون ركعة^(٢) ولا يجوز ذلك إلا بوجود السفر والخوف، لأن عند هؤلاء أن الركعتين في السفر إذا لم يكن فيه خوف تمام غير قصر، واحتجوا بما روى ابن عباس أن النبي ﷺ صلى بذي قرد، فصلى الناس خلفه صفين، صفاً خلفه، و صفاً موازي العدو، فصلى بالذين خلفه ركعة، ثم انصرف هؤلاء إلى مكان هؤلاء، وجاء أولئك فصلى بهم ركعة، ولم يقضوا^(٣). وعن ابن عباس أنه قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة^(٤). والثاني: أنها مقصورة، وليست بأصل، وهو قول مجاهد، وطاوس، وأحمد، والشافعي. قال يعلى بن أمية: قلت لعمر بن الخطاب: عجبت من قصر الناس اليوم، وقد آمنوا، وإنما قال الله تعالى ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ فقال عمر: عجبت مما عجبت منه، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته»^(٥).

فصل

وإنما يجوز للمسافر القصر إذا كان سفره مُباحاً، وبهذا قال مالك، والشافعي، وقال أبو حنيفة: يجوز له القصر في سفر المعصية. فأما مدة الإقامة التي إذا نواها أتم الصلاة، وإن نوى أقل منها قصر، فقال أصحابنا: إقامة اثنين وعشرين صلاة. وقال أبو حنيفة: خمسة عشر يوماً. وقال مالك، والشافعي: أربعة أيام^(٦).

﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكُمْ وَلْيَأْخُذُوا صَلَاتِهِمْ إِذَا سَبَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ زُرَّائِهِمْ وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْلُوبُوا عَنْ صَلَاتِهِمْ وَاتَّبَعُوا قَبِيلَهُمْ عَلَيْهِمْ مِتْلَةٌ وَجِدَّةٌ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَسْعَوْا إِلَى صَلَاتِكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِمًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ سبب نزولها: أن المشركين لما رأوا النبي ﷺ وأصحابه قد

- (١) في «فتح القدير» للشوكاني ٤٧٠/١: ذكر معنى هذا الجرجاني والمهدوي وغيرهما ورده القشيري، والقاضي أبو بكر بن العربي. وقد حكى القرطبي عن ابن عباس معنى ما ذكره الجرجاني ومن معه. ومما يرد هذا ويدفعه الواو في قوله: ﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ﴾ وقد تكلف بعض المفسرين، فقال: إن الواو زائدة، وإن الجواب للشرط المذكور، أعني قوله: «إن خفتم» هو قوله: «فلتقم طائفة».
- (٢) جاء في «المبسوط» للسرخسي ٤٦/٢ والثاني: وهو ألا ينقص عدد الركعات بسبب الخوف عندنا، وكان ابن عباس يقول: صلاة المقيم أربع ركعات، وصلاة المسافر ركعتان، وصلاة الخوف ركعة، وبه أخذ بعض العلماء.
- (٣) رواه النسائي ١٦٩/٣ ورجال إسناده ثقات، وذكر الحافظ في «التلخيص» ١٤١: أن الشافعي ذكر هذا النوع، فقال: روي حديث لا يثبت أنه صلى بذي قرد - وذكره - ثم قال: فتركناه. قال الحافظ ابن حجر: وقد صححه ابن حبان وغيره. وذو قرد: موضع على ليلتين من المدينة. وعن ثعلبة بن زهيم قال: كنا مع سعيد بن العاص بطبرستان، فقال: أيكم صلى مع رسول الله صلاة الخوف؟ فقال حذيفة: أنا، فصلى بهؤلاء ركعة وبهؤلاء ركعة ولم يقضوا. رواه أبو داود، والنسائي، وسكت عنه أبو داود، والمندري، ورجال إسناده رجال الصحيح.
- (٤) «المسند» ٣٦٣/٣، ومسلم ٤٧٩/١، وأبو داود ٢٣/١، والنسائي ١٦٩/٣.
- (٥) «المسند» ١٧٥/١، ومسلم ٤٧٨/١، وأبو داود ٤/٢، والنسائي ١١٦/٣، وابن ماجه ٣٣٩/١، والترمذي ٩٢/٤. قال: هذا حديث حسن صحيح. وقال الحافظ ابن كثير ٥٤٤/١: وأما قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ تَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية، فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام، أو في سرية خاصة، وسائر الأحياء حرب للإسلام وأهله، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب، أو على حادثة، فلا مفهوم له، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا قَبَائِكُمْ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ أَرَادَ نَفْسُكُمْ﴾ [النور: ٢٣] وكقوله تعالى: ﴿وَرَبِّكُمْ كُنْتُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [النساء: ٢٣]. قلت: وروى الإمام أحمد ٢٥٧/٣، والترمذي ٤٣١/٢، والنسائي ١١٧/٣ عن ابن عباس: أن النبي ﷺ خرج من المدينة إلى مكة لا يخاف إلا الله رب العالمين، فصلى ركعتين. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
- (٦) انظر «المغني لابن قدامة» ١٣٢/٢، و«إزاد المعاد» ٢٩/٣، و«نيل الأوطار» ٢٥٦/٣.

صَلُّوا الظُّهْر، نَدِمُوا إِذْ لَمْ يَكْبُوا عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: دَعَوْهُمْ فَإِنْ لَهُمْ صَلَاةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ، يَعْنُونَ الْعَصْرَ، فَإِذَا قَامُوا فَشَدُّوا عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا قَامُوا إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ، نَزَلَ جَبْرِيلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ. رَوَاهُ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾ خطابٌ للنبي ﷺ، ولا يدل على أن الحكم مقصورٌ عليه، فهو كقوله ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣] وقال أبو يوسف: لا تجوزُ صلاةُ الخوفِ بعد النبي ﷺ. والهاء والميم من «فيهم» تعودُ على الضارين في الأرض.

قوله تعالى: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الْمُكْرَةَ﴾ أي: ابتدأتها، ﴿فَلَنُفِخَ بِالسُّؤْفَاءِ مِنْهُمْ نَعْلٌ﴾ أي: لتنف. ومثله ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠]. ﴿وَلْيَأْخُذُوا بِحُلِيِّهِمْ﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم الباقون، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم المصلون معه، ذكره ابن جرير. قال: وهذا السلاح كالسيف، يتقلده الإنسان، والخنجر يشده إلى ذراعه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَجَدُوا﴾ يعني المصلين معه ﴿فَلْيَكُونُوا﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: هم الطائفة التي لم تصل، أمرت أن تحرس الطائفة المصلية، وهذا معنى قول ابن عباس. والثاني: أنهم المصلون معه أمروا إذا سجدوا أن ينصرفوا إلى الحرس. واختلف العلماء كيف ينصرفون بعد السجود، فقال قوم: إذا أتموا مع الإمام ركعةً أتموا لأنفسهم ركعةً، ثم سلموا، وانصرفوا، وقد تمت صلاتهم. وقال آخرون: ينصرفون عن ركعةٍ، واختلف هؤلاء، فقال بعضهم: إذا صلوا مع الإمام ركعةً وسلموا، فهي تجزئهم. وقال آخرون منهم أبو حنيفة: بل ينصرفون عن تلك الركعة إلى الحرس وهم على صلاتهم، فيكونون في وجه العدو مكان الطائفة الأخرى التي لم تصل، وتأتي تلك الطائفة. واختلفوا في الطائفة الأخرى، فقال قوم: إذا صلى بهم الإمام أطال التشهد حتى يقضوا الركعة الفائتة، ثم يسلم بهم، وقال آخرون: بل يسلم هو عند فراغه من الصلاة بهم، فإذا سلم قضوا ما فاتهم. وقال آخرون: بل يصلي بالطائفة الثانية ركعةً ويسلم هو، ولا تسلم هي، بل ترجع إلى وجه العدو، ثم تجيء الأولى، فتقضي ما بقي من صلاتها وتسلم، وتمضي وتجيء الأخرى، فتم صلاتها، وهذا مذهب أبي حنيفة^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا بِحُدُودِهِمْ وَأَسْلِحَتِهِمْ﴾ قال ابن عباس: يريد الذين صلوا أولاً. وقال الزجاج: يجوز أن يريد به الذين وجاء العدو، لأن المصلي غير مقاتل، ويجوز أن يكون الجماعة أمروا بحمل السلاح، لأنه أربب للعدو، وأحرى أن لا يقدموا عليهم. و«الجناح»: الإثم، وهو من: جنحت: إذا عدلت عن المكان، وأخذت جانباً عن القصد. والمعنى: أنكم إذا وضعت أسلحتكم، لم تعدلوا عن الحق.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ يَكُمُ آذَى مِنْ مَطَرٍ﴾ قال ابن عباس: رخص لهم في وضع الأسلحة لثقلها على المريض وفي المطر، وقال: وخذوا حذرکم كي لا يتغفلوكم.

﴿وَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ يَتَنَبَّأُ وَقُومُوا وَعَلَىٰ جُوبِئِكُمْ﴾ فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا تَوْفِيقًا ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ يعني صلاة الخوف، و«قضيتهم» بمعنى: فرغتم.

(١) في «المعني» ٢٦٨/٢: ويجوز أن يصلي صلاة الخوف على كل صفة صلاها رسول الله ﷺ، قال أحمد: كل حديث يروى في أبواب صلاة الخوف، فالعمل به جائز، وقال: ستة أوجه أو سبعة يروى فيها كلها جائز، وقال الأثرم: قلت لأبي عبد الله: تقول بالأحاديث كلها، كل حديث في موضعه، أو تختار واحداً منها؟ قال: أنا أقول: من ذهب إليها كلها فحسن، وأما حديث سهل، فأنا اختاره. قلت: وحديث سهل الذي اختاره الإمام أحمد رواه الجماعة ولفظه عند مسلم ٥٧٥/١: عن صالح بن خوات بن جبير عن سهل بن أبي حثمة أن رسول الله ﷺ صلى بأصحابه في الخوف، فصفهم خلفه صفين، فصلى بالذين يلونه ركعة، ثم قام، فلم يزل قائماً حتى صلى الذين خلفهم ركعة، ثم تقدموا وتأخر الذين كانوا قدامهم فصلى بهم ركعة، ثم قعد حتى صلى الذين تَخَلَّفُوا ركعة، ثم سلم. وقال الحافظ في «التلخيص» ص ١٤١: رويت صلاة الخوف عن النبي ﷺ على أربعة عشر نوعاً ذكرها ابن حزم في جزء مفرد، وبعضها في «صحيح مسلم» ومعظمها في «سنن أبي داود»... وذكر الحاكم منها ثمانية أنواع، وذكر ابن حبان تسعة، وقال: ليس بينها تضاد، ولكنه ﷺ صلى صلاة الخوف مراراً، والمرء مباح له أن يصلي ما شاء عند الخوف من هذه الأنواع، وهي من الاختلاف المباح. ونقل ابن الجوزي عن أحمد أنه قال: ما أعلم في هذا الباب حديثاً إلا صحيحاً.

قوله تعالى: ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ في هذا الذكر قولان: أحدهما: أنه الذكر لله في غير الصلاة، وهذا قول ابن عباس، والجمهور قالوا: وهو التسيب، والتكبير، والدعاء، والشكر. والثاني: أنه الصلاة، فيكون المعنى: فصلوا قياماً، فإن لم تستطيعوا فقعوداً، فإن لم تستطيعوا فعلى جنوبكم، هذا قول ابن مسعود. وفي المراد بالطمأنينة قولان: أحدهما: أنه الرجوع إلى الوطن عن السفر، وهو قول الحسن، ومجاهد، وقتادة. والثاني: أنه الأمن بعد الخوف، وهو قول السدي، والزجاج، وأبي سليمان الدمشقي. وفي إقامة الصلاة قولان: أحدهما: إتمامها، قاله مجاهد، وقتادة، والزجاج، وابن قتيبة. والثاني: أنه إقامة ركوعها وسجودها، وما يجب فيها مما قد يترك في حالة الخوف، هذا قول السدي.

قوله تعالى: ﴿كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ أي: فرضاً. وفي «الموقوت» قولان: أحدهما: أنه بمعنى المفروض، قاله ابن عباس، ومجاهد، والسدي، وابن زيد. والثاني: أنه الموقت في أوقات معلومة، وهو قول ابن مسعود، وقتادة، وزيد بن أسلم، وابن قتيبة.

﴿وَلَا تَهْوَ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ إِنَّ تَكْوِينَ تَأْمُونُ فَإِنَّهُمْ يَأْمُرُونَ كَمَا تَأْمُرُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ آتٍ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهْوَ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ﴾ قال أهل التفسير: سبب نزولها: أن النبي ﷺ أمر أصحابه لما انصرفوا من أحد أن يسبوا في أثر أبي سفيان وأصحابه، فشكوا ما بهم من الجراحات، فنزلت هذه الآية. قال الزجاج: ومعنى «تهنوا»: تضعفوا، يقال: وَهَنَ يَهِنُ إِذَا ضَعُفَ، وكلُّ ضَعْفٍ فَهْرٌ وَهْنٌ. وابتغى القوم: طلبهم بالحرب. و«القوم» هاهنا: الكفار ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونُونَ﴾ أي: توجعون، فإنهم يجدون من الوجع بما ينالهم من الجراح والتعب، كما تجدون، وأنتم مع ذلك ترجون ما لا يرجون. وفي هذا الرجاء قولان: أحدهما: أنه الأمل، قاله مقاتل. قال الزجاج: وهو إجماع أهل اللغة الموثوق بعلمهم. والثاني: أنه الخوف، رواه أبو صالح عن ابن عباس. قال الفراء: ولم يوجد الخوف بمعنى الرجاء إلا ومعه جحد، [فإذا كان كذلك كان الخوف على جهة الرجاء والخوف، وكان الرجاء كذلك] كقوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] وقوله: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجن: ١٤] قال الشاعر:

لا تترجي حين تلاقي الذائدا
أسبعة لأقت معاً أم واحداً^(١)
وقال الهذلي:

إذا لَسَعَتْهُ النُّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسَعَهَا
ولا يجوز رجوتك وأنت تريد خفتك، ولا خفتك وأنت تريد رجوتك^(٢). قال الزجاج: وإنما اشتمل الرجاء على معنى الخوف، لأنه أمل قد يخاف أن لا يتم، فعلى القول الأول يكون المعنى: ترجون النصر وإظهار دينكم والجنة. وعلى الثاني: تخافون من عذاب الله ما لا يخافون.

﴿إِنَّا أَرْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن طلعة بن أبيرق سرق درعاً لقتادة بن النعمان، وكان الدرع في جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق يَنْتَشِرُ من خرق في الجراب، حتى انتهى إلى الدار،

(١) «معاني القرآن» للفراء ٢٨٦/١، و«الأضداد» لابن الأثير ص ١١، و«اللسان»: مادة رجا، من غير نسبة. و«الذائد»: من زاد الإبل: إذا طردها وساقها ودفعها.

(٢) «شرح أشعار الهذليين» ١٤٤/١، و«معاني القرآن» ٢٨٦/١، و«الطبري» ١٧٤/٩. وهذا البيت لأبي ذؤيب من قصيدة له، وصف فيها مشتار العمل من بيوت النحل، فقال قبل هذا البيت:

فَلَوْ كَانَ حَبْلٌ مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً
تَدُلُّ عَلَيْهَا بِالْحَبَالِ مُوْتَقَاً
وقوله: لم يرج لسمها: أي: لم يخف ولم يبالها. وقوله: خالفها: أي دخل بيت النحل ليأخذ سلها وقد خرجت إليه حين سمعت حسه فخالفها إلى بيوت سلها غير هياب للسمها. ويرى «وحالفها» بالحاء، أي لازمها. والنوب: جمع نائب: وهو صفة للنحل أي: أنها ترعى ثم تنوب إلى بيتها لتضع سلها، تحمي وتذهب. والعوامل: التي تعمل العمل، ويرى «العوامل» أي ذوات العمل.

(٣) «معاني القرآن» للفراء ٢٨٦/١، وما بين معنيين منه.

ثم خباها عند رجل من اليهود، فالتصمت الدرع عند طعمة، فلم توجد عنده، وحلف: مالي بها علم، فقال أصحابها: بلى والله، لقد دخل علينا فأخذها، وطلبنا أثره حتى دخل داره، فرأينا أثر الدقيق، فلما حلف تركوه، واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوه، فقال: دفعها إلي طعمة، فقال قوم طعمة: انطلقوا إلى رسول الله ﷺ وليجادل عن صاحبنا فإنه بريء، فأنوه فكلموه في ذلك، فهم أن يفعل، وأن يعاقب اليهودي، فنزلت هذه الآيات كلها. رواه أبو صالح عن ابن عباس^(١). والثاني: أن رجلاً من اليهود، استودع طعمة بن أبيرق درعاً، فخانها، فلما خاف اطلاعهم عليها، ألقاها في دار أبي مليل الأنصاري، فجادل قوم طعمة عنه، وأتوا النبي ﷺ فسألوه أن يبرئه، ويكذب اليهودي، فنزلت الآيات، هذا قول السدي، ومقاتل. والثالث: أن مشربة رفاعة بن زيد نقتبت، وأخذ طعامه وسلاحه، فأتهم به بنو أبيرق، وكانوا ثلاثة: بشير، ومبشر، وبشر، فذهب قتادة بن النعمان إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أهل بيت منكم فيه جفاء فقبوا مشربة^(٢) لعمتي رفاعة بن زيد، وأخذوا سلاحه، وطعامه، فقال: انظر في ذلك، فذهب قوم من قوم بني أبيرق إلى النبي ﷺ، فقالوا: إن قتادة بن النعمان، وعمه، عمدوا إلى أهل بيت منكم يرمونهم بالسرقة وهم أهل بيت إسلام وصلاح، فقال النبي لقتادة: «رميتهم بالسرقة على غير بينة!» فنزلت هذه الآيات. قاله قتادة بن النعمان^(٣). والكتاب: القرآن. والحق: الحكم بالعدل. ﴿لَتَحْكُمَ بَيْنَ الْكَافِرِينَ﴾: أي لتقضي بينهم. وفي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قولان: أحدهما: أنه الذي علمه، والذي علمه أن لا يقبل دعوى أحد على أحد إلا ببرهان. والثاني: أنه ما يؤدي إليه اجتهاده، ذكره الماوردي^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْكَافِرِينَ حَصِيماً﴾ قال الزجاج: لا تكن مخصماً، ولا دافعاً عن خائن. واختلفوا هل خصم عنه أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنه قام خطياً فعذره. رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنه هم بذلك ولم يفعله، قاله سعيد بن جبير، وقاتدة. قال القاضي أبو يعلى: وهذه الآية تدل على أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن غيره في إثبات حق أو نفيه، وهو غير عالم بحقيقة أمره، لأن الله تعالى عاتب نبيه على مثل ذلك.

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ لَكَ اللَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ﴾ في الذي أمر بالاستغفار منه قولان: أحدهما: أنه القيام بعذره. والثاني: أنه العزم على ذلك.

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاتاً أَثِيماً﴾ ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُ مَا لَمْ يَرْضَ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ حَاطِطاً﴾

(١) إسناده ضعيف جداً.

(٢) الجفاء: غلظ الطبع، والمشرية، بفتح الميم وسكون الشين وفتح الراء أو ضمها: وهي الفقرة، أو العلية، أو الصفة بين الفقرة، والمشارب: العلالي.

(٣) هو قطعة من حديث طويل رواه الترمذي: ٩٣/٤، وابن جرير: ١٨١/٩، والحاكم: ٣٨٥/٤، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. قلت: وليس كما قال، ففي إسناده عمر بن قتادة بن النعمان الظفري الأنصاري المدني لم يخرج له مسلم، وهو مجهول، لم يوثقه غير ابن حبان، انظر «تهذيب التهذيب» ٤٨٩/٧.

(٤) قال ابن كثير رحمه الله في «تفسيره» ٥٥٠/١: وقوله: ﴿لَتَحْكُمَ بَيْنَ الْكَافِرِينَ﴾ احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية، وبما ثبت في «الصحيحين» عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال: «ألا إنما أنا بشر، وإنما أقضي بفتح مما أسمع، ولعل أحداكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار، فليحملها أو ليلوها، وروى الإمام أحمد عن أم سلمة، قالت: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في موارث بينهما قد دَرَسَتْ، ليس عندهما بينة، فقال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلي، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي بينكم على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها إسقاطاً في حق يوم القيامة» فبكى الرجلان، وقال كل منهما: حقّي لأخي، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنا قلتما فإنما فاقسما ثم توخيا الحق بينكما، ثم استهما، ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه» وقد رواه أبو داود من حديث أسامة بن زيد به وزاد: «إني إنما أقضي بينكما برأي فيما لم ينزل علي فيه». قلت: الحديث الأول في البخاري ٢٩٩/١٢، ٣٩٩/١٣، وفي مسلم: ١٣٣٧/٣ وقد استوفى الحافظ رحمه الله في «الفتح» ١٥١/١٣ الكلام على هذا الحديث فانظره. والحديث الثاني رواه أحمد في «المسند» ٣٢٠/٦ وإسناده حسن، ورواه أبو داود: ٤١٠/٣ مختصراً. والإسقاط: بكسر الهمزة وسكون السين: الحديدة التي تحرك بها النار وتسمع. وفي «تفسير ابن كثير»: «انتظاماً» وهو تحريف.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: يخونون أنفسهم، فيجعلونها خائنة بارتكاب الخيانة. قال عكرمة: والمراد بهم: طعمة بن أبيرق، وقومه الذين جادلوا عنه. وفي حديث العوفي عن ابن عباس قال: انطلق نفر من عشيرة طعمة ليلاً إلى رسول الله ﷺ فقال: إن صاحبنا بريء. والاستخفاء: الاستتار، والمعنى: يستترون من الناس لئلا يظلموا على خيانتهم وكذبهم، ولا يستترون من الله، وهو معهم بالعلم. وكل ما فُكر فيه، أو خيض فيه بليل، فقد بُيِّت. وجمهور العلماء على أن المشار إليه بالاستخفاء، والتببيت، قوم طعمة. والذي يبتوا: احتيالهم في براءة صاحبهم بالكذب. وقال الزجاج: هو السارق نفسه، والذي بيَّت أنه قال: أرمي اليهودي بأنه سارق الدرع، وأحلف أنني لم أسرقها، فتقبل يميني، ولا تقبل يمين اليهودي.

﴿هَتَأْتُهُ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُهُ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ قوله تعالى: ﴿هَتَأْتُهُ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُهُ عَنْهُمْ﴾ قال الزجاج: «ها» للتنبية، وأعيدت في أوله. والمعنى: ها أنتم الذين جادلتم. والمجادلة، والجدال: شدة المخاصمة، والجدل: شدة القتل. والكلام يعود إلى من احتج عن السارق. فأما قوله: «عنهم» فإنه عائد إلى السارق. و«عليهم» بمعنى «لهم». والوكيل: القائم بأمر من وكله، فكانه قال: من الذي يتوكل لهم منكم في خصومة ربهم؟

﴿وَمَنْ يَمَلِّ سَوْءًا أَوْ يَطْلِمِ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَلِّ سَوْءًا أَوْ يَطْلِمِ نَفْسَهُ﴾ اختلفوا في نزولها على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت خطاباً للسارق، وعرضاً للتوبة عليه. رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال ابن زيد، ومقاتل. والثاني: أنها للنذين جادلوا عنه من قومه، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أنه عني بها كل مسيء ومُذنب. ذكره أبو سليمان الدمشقي. وإطلاقها لا يمنع أن تكون نزلت على سبب. وفي هذا السوء ثلاثة أقوال: أحدها: أنه السرقة. والثاني: الشرك. والثالث: أنه كل ما يأنم به. وفي هذا الظلم قولان: أحدهما: أنه رمي البريء بالثئمة. والثاني: ما دون الشرك^(١).

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا﴾ أي: ومن يعمل ذنباً ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ يقول: ما يعود وباله عليه. قاله مقاتل، وهذه في طعمة أيضاً.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيئًا فَقَدْ أَخْتَلَى بِهِنَّ وَإِنَّمَا تُبَيِّنُ﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾ جمهور العلماء على أنها نزلت متعلقة بقصة طعمة بن أبيرق. وقد روى الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول إذ رمى عائشة ﷺ بالإفك. وفي قوله: ﴿خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾ أربعة أقوال: أحدها: أن «الخطيئة» يمين السارق الكاذبة، و«الإثم»: سرقة الدرع، ورميه اليهودي، قاله ابن السائب. والثاني: أن «الخطيئة» ما يتعلق به من الذنب، و«الإثم»: قذف البريء، قاله مقاتل. والثالث: أن «الخطيئة» قد تقع عن عمد، وقد تقع عن خطأ، و«الإثم»: يختص العمد. قاله ابن جرير، وأبو سليمان الدمشقي. وذكر الزجاج أن الخطيئة نحو قتل الخطأ الذي يرتفع فيه الإثم. والرابع: أنه لما سئى الله ﷻ بعض المعاصي خطيئة، وبعضها إثماً، أعلم أن من كسب ما يقع عليه أحد هذين الاسمين، ثم قذف به بريئاً، فقد احتمل بهتاناً، ذكره الزجاج أيضاً. فأما قوله: ﴿ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيئًا﴾ أي: يقذف بما جناه بريئاً منه. فإن قيل: الخطيئة والإثم اثنان، فكيف قال: «به» فعنه أربعة أجوبة: أحدها: أنه أراد: ثم يرمي بهما، فاكفى بإعادة الذكر على الإثم من إعادته على الخطيئة، كقوله: ﴿انْفَضُّوا إِلَيْنَا﴾ فخص التجارة، والمعنى للتجارة واللُّهُو. والثاني: أن الهاء تعود على الكسب، فلما دلَّ بـ «يكسب» على الكسب، كنى عنه. والثالث:

(١) روى الإمام أحمد في «المسند» ١٧٤/١ عن علي بن عبد الله قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً نفعتني الله بما شاء أن يفعني منه، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يذنب ذنباً ثم يتوأس فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله تعالى لذلك الذنب إلا غفر له» وقرأ هاتين الآيتين: ﴿وَمَنْ يَمَلِّ سَوْءًا أَوْ يَطْلِمِ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجُورًا قَالُوا... أَنفُسُهُمْ﴾ الآية لآل عمران: ١٣٥ [رواه الترمذي: ٢٥٧/٢، وابن حبان في «صحيحه» وهو حديث حسن. وقد ذكر في «التهذيب» ٢٦٨/١ تحسينه عن ابن عدي.

أن الهاء راجعة على معنى الخطيئة والإثم، كأنه قال: ومن يكسب ذنباً، ثم يرم به. ذكر هذه الأقوال ابن الأنباري. والرابع: أن الهاء تعود على الإثم خاصة، قاله ابن جرير الطبري. وفي المراد بالبريء الذي قذفه هذا السارق قولان: أحدهما: أنه كان يهودياً، قاله ابن عباس، وعكرمة، وابن سيرين، وقتادة، وابن زيد، وسماء عكرمة، وقتادة، زيد بن السَّمِير^(١). والثاني: أنه كان مسلماً، روي عن ابن عباس، وقتادة بن النعمان، والسدي، ومقاتل. واختلفوا في ذلك المسلم، فقال الضحاك عن ابن عباس: هو عائشة لما قذفها ابن أبي، وقال قتادة بن النعمان: هو لبيد بن سهل. وقال السدي، ومقاتل: هو أبو مُلِيل الأنصاري. فأما البهتان: فهو الكذب الذي يُحَيِّر من عَظْمه، يقال: بهت الرجل: إذا تحيّر. قال ابن السائب: فقد احتمل بهتاناً برميه البريء، وإثماً مبيناً يمينه الكاذبة.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْكَ تَهْتَكُنَّ أَنْ يُجْلَوْكَ وَمَا يُجْلَوْنَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَصُرُونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَانزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنها متعلقة بقصة طعمة وقومه، حيث لبسوا على النبي ﷺ أمر صاحبهم، هذا قول ابن عباس من طريق ابن السائب. والثاني: وقد ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: جئناك نبايعك على أن لا نحشر ولا نعشر، وعلى أن تمتعنا بالعزى سنة، فلم يجبه، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس في رواية الضحاك. وفي المراد بفضل الله ورحمته قولان: أحدهما: النبوّة والعصمة. والثاني: الإسلام والقرآن، روي عن ابن عباس. قال مقاتل: لولا فضل الله عليك حيث بين لك أمر طعمة، وحولك بالقرآن عن تصديق الخائن؛ لهمت طائفة منهم أن يُجْلَوْكَ. قال الفراء: والمعنى: لقد همت. فإن قيل: كيف قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْكَ﴾ وقد همت بإضلاله؟ فالجواب: أنه لولا فضل الله عليك ورحمته، لظهر تأثير ما هموا به. فأما الطائفة، فعلي رواية ابن السائب عن ابن عباس: قوم طعمة، وعلى رواية الضحاك: وقد ثقيف. وفي الإضلال قولان: أحدهما: التخطئة في الحكم. والثاني: الاستئلال عن الحق. قال الزجاج: وما يُجْلَوْنَ إلا أنفسهم، لأنهم يعملون عمل الضالين، فيرجع الضلال إليهم. فأما «الكتاب»، فهو القرآن. وفي «الحكمة» ثلاثة أقوال: أحدها: القضاء بالوحي، قاله ابن عباس. والثاني: الحلال والحرام، قاله مقاتل. والثالث: بيان ما في الكتاب، وإلهام الصواب، وإلقاء صحة الجواب في الرّوع، قاله أبو سليمان الدمشقي، وفي قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الشرع، قاله ابن عباس ومقاتل. والثاني: أخبار الأولين والآخرين، قاله أبو سليمان. والثالث: الكتاب والحكمة، ذكره الماوردي، وفي قوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه المنة بالإيمان. والثاني: المنة بالنبوّة، هذان عن ابن عباس. والثالث: أنه عام في جميع الفضل الذي خصه الله به، قاله أبو سليمان.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ﴾ قال ابن عباس: هم قوم طعمة، وقال مقاتل: وكلهم يهود تناجوا في أمر طعمة، وقال مجاهد: هو عام في نجوى جميع الناس. قال الزجاج: ومعنى النجوى: ما تنفرد به الجماعة أو الاثنان، ميراً كان أو ظاهراً. ومعنى «نجوت الشيء» في اللغة: خلصته وألقيته، يقال: نجوت الجلد: إذا ألقيته عن البعير وغيره. قال الشاعر:

فقلتُ انجوا عنها نجا الجلد إنّه

سُيرضيكما منها سنّامٌ وغاريبه^(٢)

(١) في «الطبري» ١٨٧/٩، و«ابن كثير» ٥٥٣/١ زيد بن السمين.

(٢) البيت لأبي القمر الكلبي كما في «الخرائفة» ٢٢٧/٢ و«العيني» ٣٧٣/٣، ونسب في «الخرائفة» أيضاً إلى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، وهو في «الجميل» و«اللسان» مادة نجا، و«إصلاح المطلق» ٩٤ و«المخصص» ١٧٥/٧، ٨١/١٥، ١٤٣ بدون نسبة. وقال في «اللسان»: قال الفراء: أضاف النجا إلى الجلد (وهما مترادفان) لأن العرب تضيف الشيء إلى نفسه إذا اختلف اللفظان، كقوله تعالى: حق اليقين، ولدار الآخرة، والجلد نجا مقصور أيضاً، وقال ابن بري: ومثله ليزيد بن الحكم:

وقد نجوت فلاناً: إذا استكتهه، قال الشاعر:

نَجُوتُ مُجَالِدًا فَوَجَدْتُ مِنْهُ
وأصله كله من النجوة، وهو ما ارتفع من الأرض، قال الشاعر يصف سيلاً:

فَمَنْ بِنَجْوَتِهِ كَمَنْ بَعَقَوْتَهُ
والمُشْتَكُّ كَمَنْ يَمْشِي بِقِرْوَاخ^(١)

والمراد بنجواهم: ما يدبرونه بينهم من الكلام. فأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾، فيجوز أن يكون بمعنى: إلا في نجوى من أمر بصدقة، ويجوز أن يكون استثناء ليس من الأول، فيكون بمعنى: لكن من أمر بصدقة، ففي نجواهم خير^(٢). وأما قوله: ﴿أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ فالمعنى: حث عليها. وأما المعروف، ففيه قولان: أحدهما: أنه الفرض، روي عن ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أنه عام في جميع أفعال البر، وهو اختيار القاضي أبي يعلى، وأبي سليمان الدمشقي.

﴿وَمَنْ يُنَاقِ الرُّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَصُفِيَ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا^(٣)﴾
قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُنَاقِ الرُّسُولَ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنه لما نزل القرآن بتكذيب طعنة، وبيان ظلمه، وخاف على نفسه من القطع والفضيحة، هرب إلى مكة، فلحق بأهل الشرك، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، والسدي. وقال مقاتل: لما قدم مكة نزل على الحجاج بن علاط السلمي فأحسن نزله، فبلغه أن في بيته ذهباً، فخرج في الليل فنقب حائط البيت، فعلموا به فأحاطوا بالبيت، فلما رأوا، أرادوا أن يرحموا، فاستحيا الحجاج، لأنه ضيفه، فتركوه، فخرج، فلحق بحرة بني سليم يعبد صنمهم حتى مات على الشرك، فنزل فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وقال غيره: بل خرج مع تجار فسرق منهم شيئاً، فرموا بالحجارة حتى قتلوه، وقيل: ركب سفينة، فسرق فيها مالاً، فعلم به، فألقي في البحر. والقول الثاني: أن قوماً قدما على رسول الله ﷺ فأسلموا، ثم ارتدوا، فنزلت فيهم هذه الآية، روي عن ابن عباس. ومعنى الآية: ومن يخالف الرسول في التوحيد والحدود، من بعد ما تبين له التوحيد والحكم، ويتبع غير دين المسلمين، نولّه ما تولى، أي: نكله

= تفاوض من أطوي طوى الكشح دونه

ومن دون من صافيته أنت منطوي

قال: ويقوي قول الفراء بعد البيت قولهم: عرق النسا، وجبل الوريد، وثابت قطنة، وسعيد كرز. وفي «الخرزاة»: وقال ابن السرياني في شرح أبيات «إصلاح المنطق»: يريد: قشر عنها لحمها وشحمها، كما يقشر الجلد فإنها سمينة. وغارها: ما بين السنام والعنق. قال صاحب «الخرزاة»: ويؤخذ من هذا التفسير أن «النجا» هنا اسم مصدر بمعنى النجر، على أنه مفعول مطلق، وليس اسماً للجلد فلا يكون كما قاله الفراء فتأمل.

(١) البيت في «الحيوان» ٢٥٢/١ للحكم بن عجل الأسيدي، وورد بدون نسبة في «معجم مقاييس اللغة» ٣٩٨/٥، و«المخصص» ٢٠٩/١١، و«اللسان» مادة: جلد، ونكه، ونجا وفي «الحيوان» و«اللسان»: «قريب عهد»، وفي «المخصص» و«معجم مقاييس اللغة»: «حديث عهد». قلت: وقد جاء في النسخة الخطية لكتاب «الحيوان» التي رمز لها محقق الكتاب بـ «هـ» و«نجوت» بالجيم، على الصواب كما هو في سائر المراجع، ولكن المحقق حذفها، ووضع مكانها «فحوت» بالحاء، ثم أثبت ما في نسخة «هـ» بالهاش، وقال: هو تحريف.

(٢) البيت لعبيد بن الأبرص في «ديوانه» ٥٣، و«الأزمنة والأمكنة» ٩٣/٢، و«الأمالي» ١٧٧/١، و«مختارات ابن الشجري» ١٠١، و«اللسان» ٣٠٨/١٥ ويروي أيضاً لأوس بن حجر في «ديوانه» ١٦، و«الشعر والشعراء» ١٦٠/١، و«الحيوان» ١٣٢/٦، و«الأغانى» ٧١/١١. وفي الديوان وبعض المراجع: «فمن بنجوتهم كمن بمحفله»، والمحفل: مستقر الماء. النجوة: ما ارتفع من الأرض. والعقوة: الساحة، وما حول الدار، والمحلة. والمستكن: الذي استكن في بيته، والكن: البيت. والقرواح: الأرض البارزة للشمس لا يسترها شيء. يريد أن المطر عم المرتفعات والمنخفضات، وأدرك الناس الذين في بيوتهم وخارجها.

(٣) في «الطبري» ٢٠٢/٩: وقال بعض نحوي الكوفة: قد تكون «من» في موضع خفض ونصب، أما خفض فعلى قولك: لا خير في كثير من نجواهم إلا في من أمر بصدقة، فتكون «النجوى» على هذا التأويل هم الرجال المناجون، كما قال جل ثناؤه ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى إِلَّا هُوَ ذَاكُمُذْ﴾ [المجادلة: ٧] وكما قال ﴿لَا تَجْعَلْ لِنَفْسٍ مِنْكُمْ نَجْوَى﴾ [الإسراء: ٤٧] وأما نصب فعلى أن تجعل «النجوى» فعلاً فيكون نصباً، لأنه حينئذ يكون استثناء منقطعاً، لأن «من» خلاف «النجوى» فيكون ذلك نظير قول الشاعر:

وقفتُ فيها أصيلاً أسألُها

عُيت جواباً وما بالريح من أحد

إلا الأوازي لا يَأْ ما أبينُها

والنوي كالحوض بالمظلومة الجلي

وقد يحتمل «من» على هذا التأويل أن يكون رفعاً كما قال الشاعر:

وبلدة ليس بها أنيس

إلا اليمافير وإلا اليميس

قلت: وأراد يبعث نحوي الكوفة: الفراء، وكلامه هذا في «معاني القرآن» ٢٨٧/١. مع بعض تغيير.

سؤل لهم، هذا قول مقاتل، والزجاج. والثالث: أنه أصنامهم التي عبدوا، ذكره الماوردي. فأما «المريد»، فقال الزجاج: «المريد»: المارد، وهو الخارج عن الطاعة، ومعناه: أنه قد مرد في الشر، يقال: مرد الرجل يمرُد مُروداً: إذا عتا، وخرج عن الطاعة. وتأويل المردود: أن يبلغ الغاية التي يخرج بها من جملة ما عليه ذلك الصنف، وأصله في اللغة: امسلس الشيء، ومنه قيل للإنسان: أمرد: إذا لم يكن في وجهه شعر، وكذلك يقال: شجرة مرداء: إذا تناثر ورقها، وصخرة مرداء: إذا كانت ملساء. وفي قوله: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ قولان: أحدهما: أنه ابتداء دعاء عليه باللعن، وهو قول من قال: هو مرداء. والثاني: أنه إخبار عن لعن متقدم، وهو قول من قال: هو إبليس. قال ابن جرير: المعنى: قد لعنه الله. قال ابن عباس: معنى الكلام: دحره الله، وأخرجه من الجنة. وقال - يعني إبليس -: ﴿لَأُحْضِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَفِيسًا مَفْرُوضًا﴾. وقال ابن قتيبة: أي: حظاً افترضته لنفسي منهم، فأضلُّهم. وقال مقاتل: النصيب المفروض: أن من كل ألف إنسان واحد في الجنة، وسائرهم في النار^(١). قال الزجاج: «الفرض» في اللغة: القطع، و«الفُرْضة»: الثلثة تكون في النهر. و«الفرض» في القوس: الحزن الذي يشد فيه الوتر، والفرض فيما ألزمه الله العباد: جعله حتماً عليهم قاطعاً.

﴿وَلَا ضِلَّيْنَهُمْ وَلَا مِئِينَهُمْ وَلَا مَبْئِثَهُمْ﴾ مَادَاكَ الْاَلْتَمِزُ وَلَا مَبْئِثَهُمْ فَلْيَغْيِرْكَ خَلْقُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا ضِلَّيْنَهُمْ﴾ قال ابن عباس: عن سبيل الهدى، وقال غيره: ليس له من الضلال سوى الدعاء إليه. وفي قوله: ﴿وَلَا مِئِينَهُمْ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أنه الكذب الذي يخبرهم به، قال ابن عباس: يقول لهم: لا جنة، ولا نار، ولا بعث. والثاني: أنه التسويف بالتوبة، روي عن ابن عباس. والثالث: أنه إيهامهم أنهم سينالون من الآخرة حظاً، قاله الزجاج. والرابع: أنه تزوين الأمانى لهم، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَغْيِرْكَ خَلْقُ اللَّهِ﴾ قال قتادة، وعكرمة، والسدي: هو شق أذن البَحيرة. قال الزجاج: ومعنى «يتكن» يُشَقَّقْنَ، يقال: بتكت الشيء أبتهك بتكاً: إذا قطعت، وبتهك وبتهك، مثل: قطعته وقطع. وهذا في البحيرة كانت الجاهلية إذا ولدت الناقة خمسة أبطن، وكان الخامس ذكراً، شقوا أذن الناقة، وامتنعوا من الانتفاع بها، ولم تُطْرَدَ عن ماءٍ، ولا مرعى، وإذا لقيها المعبي، لم يركبها. سؤل لهم إبليس أن هذا قريةٌ إلى الله تعالى. وفي المراد بتغيير خلق الله خمسة أقوال: أحدها: أنه تغيير دين الله، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن في رواية، وسعيد بن المسيَّب، وابن جبير، والنخعي، والضحاك، والسدي، وابن زيد، ومقاتل. وقيل: معنى تغيير الدين: تحليل الحرام، وتحريم الحلال. والثاني: أنه تغيير الخلق بالخصاء، رواه عكرمة عن ابن عباس، وهو مروي عن أنس بن مالك. وعن مجاهد، وقتادة، وعكرمة، كالقولين. والثالث: أنه التغيير بالوشم، وهو قول ابن مسعود^(٢)، والحسن في رواية. والرابع: أنه تغيير أمر الله، رواه أبو شبة عن عطاء. والخامس: أنه عبادة الشمس والقمر والحجارة، وتحريم ما حرّموا من الأنعام، وإنما خلق ذلك للانتفاع به، قاله الزجاج^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ في المراد بالولي قولان: أحدهما: أنه بمعنى الرب،

(١) وفي «القرطبي» ٣٨٨/٥ قلت: وهذا صحيح معنى، يعضده قوله تعالى لآدم يوم القيامة: «ابعت بعث النار، فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين». أخرجه مسلم. وبعث النار: هو نصيب الشيطان.

(٢) أحمد في «المسند»، والبخاري ٤٨٣/٨، ومسلم ١٦٧٩/٣، ولفظه: «لن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله...» قلت: الواشمة هي التي تشم، والمستوشمة: هي التي تطلب الروشم، والوشم: أن يغرز في العضو إبرة أو نحوها حتى يسيل الدم، ثم يحشى بكحل أو تزرر فيخضر. والمتنصة والنامصة: التي تنسف الشعر من وجهها. وقيل: هي التي تزيل شعر الحاجبين بالمنقاش حتى ترفقه وترفعه وتسويه. والمتفلجة: التي تصنع الفلج بأسنانها إذا كانت متلاصقة، وذلك بأن تحك ما بينهما بالمبرد حتى يتسع ما بين أسنانها.

(٣) قال أبو جعفر الطبري ٢٢٢/٩: وأولى الأقوال بالصواب في تأويل ذلك قول من قال: معناه: ﴿وَلَا مَبْئِثَهُمْ فَلْيَغْيِرْكَ خَلْقُ اللَّهِ﴾ قال: دين الله، وذلك لدلالة الآية الأخرى على أن ذلك معناه، وهي قوله: ﴿فَطَرَتْ اللَّهُ آلِي طَعْرِ النَّاسِ عَلَيَّهَا لَا يَبْدِلُ يَخْلُقُ اللَّهُ ذَلِكَ لِكَيْتُمْ أَتَقْتِرُوا﴾ [الروم: ٣٠] وإذا كان ذلك معناه، دخل في ذلك فعل كل ما نهى الله عنه، من خصاء ما لا يجوز خصاؤه ووشم ما نهى عن رشمه ووشره وغير ذلك من المعاصي، ودخل فيه ترك كل ما أمر الله به، لأن الشيطان لا شك أنه يدعو إلى جميع معاصي الله، وينهى عن جميع طاعته، فلذلك معنى أمره نصيبه المفروض من عباد الله، بتغيير ما خلق الله من دينه.

قاله مقاتل. والثاني: من الموالاة، قاله أبو سليمان الدمشقي. فإن قال قائل: من أين لإبليس العلم بالعواقب حتى قال: ولا أضلتهم. وقال في (الأعراف): ﴿وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (١٧). وقال في (بني إسرائيل): ﴿لَأَحْتَكِبَنَّ دُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢٠). فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه ظن ذلك، فتحقق ظنه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِلَيسُ ظَنُّهُمْ﴾ (سبا: ٢٠) قاله الحسن، وابن زيد. وفي سبب ذلك الظن قولان: أحدهما: أنه لما قال الله تعالى له: ﴿لَأَتَلَذَّنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ أُمَّمٍ﴾ (٢٥) (ص: ٨٥) علم أنه ينال ما يريد. والثاني: أنه لما استزل آدم، قال: ذرية هذا أضعف منه. والثاني: أن المعنى: لأحرص ولا اجتهدن في ذلك، لا أنه كان يعلم الغيب، قاله ابن الأنباري. والثالث: أن من الجائز أن يكون علم من جهة الملائكة بخبر من الله تعالى أن أكثر الخلق لا يشكرون، ذكره الماوردي. فإن قيل: فلم اقتصر على بعضهم فقال: ﴿نَسِيبًا مَقْرُوصًا﴾ وقال: ﴿وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٧) وقال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه يجوز أن يكون علم مآل الخلق من جهة الملائكة، كما بينا. والثاني: أنه لما لم ينل من آدم كل ما يريد، طمع في بعض أولاده، وأيس من بعض. والثالث: أنه لما عاين الجنة والنار، علم أنهما خلقنا لمن يسكنهما، فأشار بالنصيب المفروض إلى ساكني النار.

قوله تعالى: ﴿يَبْدَهُمْ﴾ يعني: الشيطان يعد أولياءه. وفيما يعدهم به قولان: أحدهما: أنه لا بعث لهم، قاله مقاتل. والثاني: النصرة لهم، ذكره أبو سليمان الدمشقي. وفيما يُمَيِّهِم قولان: أحدهما: الغرور والأمان، مثل أن يقول: سيطول عمرك، وتنال من الدنيا مرادك. والثاني: الظفر بأولياء الله.

﴿يَبْدَهُمْ وَيَمَيِّهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (٢٥) أَوَّلُكَ مَا وَبَّهَهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَحْدُونَ عَنْهَا بِحَبِيصٍ (٢٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (٢٧)

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: باطلاً يغرهم به. فأما المحيص. فقال الزجاج: هو المعدل والملجأ، يقال: حصت عن الرجل أحيص، ورووا: حصت أحيص بالجمع والضاد، بمعنى: حصت، ولا يجوز ذلك في القرآن، وإن كان المعنى واحداً، لأن القراءة سنة، والذي في القرآن أفصح مما يجوز، ويقال: حصت أحوص حوصاً وحياصة^(١): إذا خطت، قال الأصمعي: يقال: حص عين صقرك، أي: خط عينه، والحوص في العين: ضيق مؤخرها، ويقال: وقع في حيص بيص. وحاص باص: إذا وقع فيما لا يقدر على التخلص منه^(٢).

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَمَلَّ سَوْماً يُجَرِّ بِهْ وَلَا يَجِدُ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيْرًا﴾ (٢٨)

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن أهل الأديان اختصموا، فقال أهل التوراة: كتابنا خير الكتب، ونبينا خير الأنبياء، وقال أهل الإنجيل مثل ذلك، وقال المسلمون: كتابنا نسخ كل كتاب، ونبينا خاتم الأنبياء، فنزلت هذه الآية، ثم خير بين الأديان بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ بَيْنًا يَمَعَنَ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ رواه العوفي عن ابن عباس^(٣) وإلى هذا المعنى ذهب مسروق، وأبو صالح، وقادة، والسدي. والثاني: أن العرب قالت: لا بُعث، ولا نعذب، ولا نحاسب، فنزلت هذه الآية، هذا قول مجاهد^(٤). والثالث: أن اليهود والنصارى قالوا: لا يدخل الجنة غيرنا، وقالت قريش: لا بُعث، فنزلت هذه الآية، هذا قول عكرمة. قال الزجاج: اسم «ليس» مضمَر، والمعنى: ليس ثواب الله ﷻ بآمانيتكم، وقد جرى ما يدل على الشواب، وهو قوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. وفي المشار إليه بقوله «آمانيتكم» قولان: أحدهما: أنهم المسلمون على قول الأكثرين. والثاني: المشركون على قول مجاهد.

(١) في الأصول التي بين أيدينا «حياصة» والتصويب من «اللسان».

(٢) قال ابن يعيش شارح «المفصل» ١١٤/٤: «وقوع الناس في حيص بيص» إذا وقعوا في فتنة واختلاط من أمرهم، لا مخرج لهم منه، وهما اسمان زكيا اسماً واحداً، وبينما بناء «خمس عشرة» و«خمس» مأخوذ من: حاص يحيص: إذا فر، يقال: ما عنه محيص، أي: مهرب. و«بيص» مأخوذ من قولهم: باص ييوص: أي: فات سبق، لأنه إذا وقع الاختلاط والفتنة، فمنهم هارب، ومنهم فانت، ولذلك فسرهما - أي الزمخشري - «بفتنة تموج بأهلها متأخرين ومتقدمين» فالحيص: التأخر والهرب، والبوص: التقدم والسبق، وكان ينبغي أن يقال: حيص بوص، غير أنهم أتبعوا الثاني الأول.

(٣) رواه ابن جرير الطبري: ٢٣٠/٩.

(٤) أخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وإسناده صحيح، ورجح هذا القول الطبري ٢٣٢/٩.

فأما أمانى المسلمين، فما نقل من قولهم كتابنا ناسح للكتب، ونبينا خاتم الأنبياء، وأمانى المشركين قولهم: لا نبعث، وأمانى أهل الكتاب قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، وإن النار لا تمسنا إلا أياماً معدودة، وإن كتابنا خير الكتب، ونبينا خير الأنبياء، فأخبر الله ﷻ أن دخول الجنة والجزاء، بالأعمال لا بالأمانى. وفي المراد «بالسوء» قولان: أحدهما: أنه المعاصي، ومنه حديث أبي بكر الصديق أنه قال: يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية؟ ﴿مَنْ يَمَلَّ سَوْماً يُجَزَّ بِهِ﴾ فإذا عملنا سوءاً جزينا به، فقال: «غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تعرض؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟»^(١) فذلك ما تُجَزَّون به^(٢). والثاني: أنه الشرك، قاله ابن عباس، ويحيى بن أبي كثير. وفي هذا الجزاء قولان: أحدهما: أنه عام في كل من عمل سوءاً فإنه يجازى به، وهو معنى قول أبي بن كعب، وعائشة، واختاره ابن جرير، واستدل عليه بحديث أبي بكر الذي قدمناه. والثاني: أنه خاص في الكفار يجازون بكل ما فعلوا، فأما المؤمن فلا يجازى بكل ما جنى، قاله الحسن البصري. وقال ابن زيد: وعد الله المؤمنين أن يكفر عنهم سيئاتهم، ولم يعد المشركين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً﴾ قال أبو سليمان: لا يجد من أراد الله أن يجزيه بشيء من عمله ولياً، وهو القريب، ولا ناصرأ يمنعه من عذاب الله وجزائه.

﴿وَمَنْ يَمَلَّ مِنَ الْفُكُلَيْنِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَثْنَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ مِنَ الْفُكُلَيْنِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَثْنَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ قال مسروق: لما نزلت ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ قال أهل الكتاب: نحن وأنتم سواء، فنزلت ﴿وَمَنْ يَمَلَّ مِنْ... الْفُكُلَيْنِ﴾ الآية، وهذه تدل على ارتباط الإيمان بالعمل الصالح، فلا يقبل أحدهما إلا بوجود الآخر، وقد سبق ذكر «النكير».

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ قال ابن عباس: خير الله بين الأديان بهذه الآية. و«أسلم» بمعنى: أخلص. وفي «الوجه» قولان: أحدهما: أنه الدين. والثاني: العمل. وفي الإحسان قولان: أحدهما: أنه التوحيد، قاله ابن عباس. والثاني: القيام بما فرض الله، قاله أبو سليمان الدمشقي. وفي اتباع ملة إبراهيم قولان: أحدهما: اتباعه على التوحيد والطاعة. والثاني: اتباع شريعته، اختاره القاضي أبو يعلى. فأما الخليل، فقال ابن عباس: الخليل: الصفي، وقال غيره: المصافي، وقال الزجاج: هو المُحِبُّ الذي ليس في محبته خلل. قال: وقيل: الخليل: الفقير، فجاز أن يكون إبراهيم سُمِّيَ خليل الله بأنه أحبه محبةً كاملةً، وجزاء أن يكون لأنه لم يجعل فقره وفاقه إلا إليه، و«الْحَلَّةُ»: الصداقة، لأن كل واحد يسدُّ خلل صاحبه، و«الْحَلَّةُ» بفتح الخاء: الحاجة، سُميت حَلَّةً للاختلال الذي يلحق الإنسان فيما يحتاج إليه، وسمي الحَلُّ الذي يؤكل خللاً، لأنه اختلَّ منه طعم الحلاوة. وقال ابن الأنباري: الخليل: فعيل من الحَلَّة، والحَلَّة: المودة. وقال بعض أهل اللغة: الخليل: المحب، والمحب الذي ليس في محبته نقص ولا خلل، والمعنى: أنه كان يحب الله، ويحبه الله محبة لا نقص فيها، ولا خلل، ويقال: الخليل: الفقير، فالمعنى: اتخذ فقيراً إليه ينزل فقره وفاقه به، لا بغيره. وفي سبب اتخاذ الله له خليلاً ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اتخذ خليلاً لإطعامه الطعام، روى عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «يا جبريل لم اتخذ الله إبراهيم خليلاً؟ قال: لإطعامه الطعام»^(٣). والثاني: أن الناس أصابهم سنة فأقبلوا إلى باب إبراهيم يطلبون الطعام، وكانت له ميرة من صديق

(١) اللأواء، بفتح اللام والواو بينهما همزة ساكنة بالمد: المشقة والشدة.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» ١/١٨١، وابن جرير ٩/٢٤٢، والحاكم في «المستدرک» ٣/٧٤، والبيهقي في «السنن» ٣/٣٧٣ عن أبي بكر ﷺ، وفي إسناده انقطاع بين التابعي أبي بكر بن أبي زهير الثقفي راويه عن أبي بكر الصديق وبين أبي بكر، لكن للحديث شواهد تؤيد صحته، من ذلك ما رواه الإمام أحمد في «المسند» ١٣/١١٥، ومسلم في «صحيحه» ٤/١٩٩٣، والترمذي ٤/٩٤ عن أبي هريرة قال: لما نزلت ﴿مَنْ يَمَلَّ سَوْماً يُجَزَّ بِهِ﴾ شقت على المسلمين وبلغت منهم ما شاء الله تَبَلَّغ، فشكروا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال لهم رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكها، أو الشوكة يشاكها». وقوله: قاربوا: أي: اقتصدوا فلا تغلوا ولا تقصروا بل توسطوا. وسددوا: معناه: اقتصدوا السداد وهو الصواب. والنكبة: ما يصيب الإنسان من الحوادث.

(٣) نسبة السيوطي في «الدرر» ٢٠/٢٣٠ للبيهقي في «شعب الإيمان».

له بمصر في كل سنة، فبعث غلماناً بالليل إلى صديقه، فلم يعطهم شيئاً، فقالوا: لو احتملنا من هذه البطحاء ليرى الناس أننا قد جئنا بميرة، فملؤوا الغرائز^(١) ملاً، ثم أتوا إبراهيم عليه السلام، فأعلموه، فاهتم إبراهيم لأجل الخلق. فنام وجاءت سارة وهي لا تعلم ما كان، ففتحت الغرائز، فإذا دقيق حواري، فأمرت الخبازين فخبزوا، وأطعموا الناس، فاستيقظ إبراهيم، فقال: من أين هذا الطعام؟ فقالت: من عند خليلك المصري، فقال: بل من عند خليلي الله ﷻ، فيومئذ اتخذه الله خليلاً، رواه أبو صالح عن ابن عباس^(٢). والثالث: أنه اتخذه خليلاً لكسره الأصنام، وجداله قومه، قاله مقاتل.

﴿وَلَوْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ أي: أحاط علمه بكل شيء.

﴿وَرَسَّخْنَاكَ فِي الْإِسَاءِ فَمَا إِنْ يَنْتَبِهُكُمْ فِيهِمْ وَمَا يَنْتَبِهُ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ أَلَيْسَ لَهُ نُورٌ يَهْدِيهِ فَعَلِمَ مَا لَمْ يَكُنْ لَهَا بَتَلَتِ لَهُمْ وَرَبَّيُونَهُمْ أَنْ تَكْثُرُونَ﴾ وَالْمُسْتَضِئِينَ مِنْ أَلْوَانٍ وَأَنْ تَقُولُوا لَيْسَ بِنُورٍ وَمَا تَقُولُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَسَّخْنَاكَ فِي الْإِسَاءِ﴾ في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها: أنهم كانوا في الجاهلية لا يؤمنون بالنساء والأطفال، فلما فرض الله الموارث في هذه السورة، شق ذلك عليهم، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت هذه الآية^(٣)، هذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد. والثاني: أن ولي اليتيمة كان يتزوجها إذا كانت جميلة وهويها، فيأكل مالها، وإن كانت دميعة منعها الرجال حتى تموت، فإذا ماتت ورثها، فنزلت هذه الآية، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس^(٤). والثالث: أنهم كانوا لا يؤتون النساء صدقاتهن، ويتملك ذلك أولياهن، فلما نزل قوله: ﴿وَمَا أُولَئِكَ إِلَّا نِسَاءٌ صَدَّقْنَ بِنُحُلَةٍ﴾ سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت هذه الآية، هذا قول عائشة رضي الله عنها^(٥). والرابع: أن رجلاً كانت له امرأة كبيرة، وله منها أولاد، فأراد طلاقها، فقالت: لا تفعل، واقسم ليس في كل شهر إن شئت أو أكثر، فقال: لئن كان هذا يصلح، فهو أحب إلي، فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك، فقال: «قد سمع الله ما تقول، فإن شاء أجابك»، فنزلت هذه الآية، والتي بعدها، رواه سالم الأفطس عن سعيد بن جبير^(٦). والخامس: أن ولي اليتيمة كان إذا رغب في مالها وجمالها لم يسطر لها في صداقها، فنزلت هذه الآية، ونهوا أن ينكحوا، أو يبلغوا بهن أعلى ستهن من الصداق، ذكره القاضي أبو يعلى. وقوله: ﴿وَرَسَّخْنَاكَ﴾ أي: يطلبون الفتوى، وهي تبين المشكل من

(١) الغرائز: جمع غرارة بكسر الغين: وهي الجوانح التي يوضع فيها التبن والقمح وغيرها.

(٢) إسناده ضعيف، وقد رواه ابن جرير الطبري في «التفسير» بدون سند، ونقله عنه ابن كثير، وقال: وفي صحة هذا وقوعه نظر، وغايته أن يكون خبراً إسرائيلياً لا يصدق ولا يكذب.

(٣) ابن جرير: ٢٥٣/٩ وابن المنذر من طريق عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وعطاء هذا صدوق لكنه اختلط، فمن روى عنه قبل الاختلاط فحديثه صحيح، ومن روى عنه بعده فإنه يتوقف في حديثه ولا يحتج به. قال الحافظ في «التهذيب»: قلت: فيحصل لنا من مجموع كلامهم أن صفيان الثوري وشعبة وزهير، وزائدة وحمام بن زيد وأيوب عنه صحيح، ومن عدهم يتوقف فيه.

(٤) لم نجد هذا الأثر عن ابن عباس من طريق ابن أبي طلحة في كتب المصادر التي بين أيدينا، وفي الطبري ٢٥٥/٩ عن إبراهيم قال: كان الرجل منهم تكون له اليتيمة بها الدمامة والأمر الذي يرغب عنها فيه، ولها مال، قال: فلا يتزوجها ولا يزوجه، حتى تموت فيرتها. قال: ففهم الله عن ذلك. وفيه أيضاً عن ابن عباس من طريق العوفي: كانت اليتيمة تكون في حجر الرجل فيرغب أن ينكحها أو يجامعها، ولا يعطيها مالها رجاء أن تموت فيرتها، وإن مات لها حميم لم تعط من الميراث شيئاً، وكان ذلك في الجاهلية، فبين الله لهم ذلك.

(٥) رواه ابن جرير ٢٨١/٩ بمعناه.

(٦) روى البخاري: ١٧٩/٨، ومسلم ٢٣١٥/٤ عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله: ﴿وَإِنْ جُنْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا إِلَى الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا كَتَبَ لَكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ سَنَقْ وَلكُمْ فِي ذَلِكَ دَرَجَةٌ﴾ فقالت: يا ابن اختي هذه اليتيمة تكون في حجر ولها تشاركه في ماله، فيعجبها مالها وجمالها، فيريد ولها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره. فنهوا أن ينكحوا إلا أن يقسطوا لهم، ويبلغوا لهم أعلى ستهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، قال عروة: قالت عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله ﷻ ﴿وَرَسَّخْنَاكَ فِي الْإِسَاءِ فَمَا إِنْ يَنْتَبِهُكُمْ فِيهِمْ وَمَا يَنْتَبِهُ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ أَلَيْسَ لَهُ نُورٌ يَهْدِيهِ فَعَلِمَ مَا لَمْ يَكُنْ لَهَا بَتَلَتِ لَهُمْ وَرَبَّيُونَهُمْ أَنْ تَكْثُرُونَ﴾ ما كُتِبَ لَهُمْ وَرَبَّيُونَهُمْ أَنْ تَكْثُرُونَ﴾ قالت: والذي ذكر الله تعالى أنه يتلى عليكم في الكتاب الآية الأولى التي قال الله فيها: ﴿وَإِنْ جُنْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا إِلَى الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا كَتَبَ لَكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى: ﴿وَرَبَّيُونَهُمْ أَنْ تَكْثُرُونَ﴾ رغبة أحدهم عن اليتيمة التي تكون في حجره، حين تكون قليلة المال والجمال. فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن.

الأحكام. وقيل: الاستفتاء: الاستخبار. قال المفسرون: والذي استفتوه فيه، ميراث النساء، وذلك أنهم قالوا: كيف ترث المرأة والصبي الصغير؟

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتْلُكُمُ عَلَيْهِمْ﴾ قال الزجاج: موضع «ما» رفع، المعنى: الله يفتيكم فيهن، وما يتلى عليكم في الكتاب أيضاً يفتيكم فيهن. وهو قوله: ﴿وَمَا أُولَئِكَ إِلَّا قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الآية. والذي تلي عليهم في التزويج قوله تعالى: ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَفْقَهُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٢٣]. وفي يتامى النساء قولان: أحدهما: أنهم النساء اليتامى، فأضيفت الصفة إلى الاسم، كما تقول: يوم الجمعة. والثاني: أنهم أمهات اليتامى، فأضيف إليهن أولادهن اليتامى. وفي الذي كتب لهن قولان: أحدهما: أنه الميراث، قاله ابن عباس، ومجاهد في آخرين. والثاني: أنه الصداق. ثم في المخاطب بهذا قولان: أحدهما: أنهم أولياء المرأة كانوا يحوزون صداقها دونها. والثاني: ولي اليتيمة، كان إذا تزوجها لم يعدل في صداقها. وفي قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُمْ﴾ قولان: أحدهما: وترغبون في نكاحهن رغبة في جمالهن، وأموالهن، هذا قول عائشة، وعبيدة. والثاني: وترغبون عن نكاحهن لقبهجن، فتمسكوهن رغبة في أموالهن، وهذا قول الحسن.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّخِيمَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ قال الزجاج: موضع المستضعفين خفض على قوله: ﴿وَمَا يَتْلُكُمُ عَلَيْهِمْ﴾ في الْكِتَابِ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ المعنى: وفي الولدان. قال ابن عباس: يريد أنهم لم يكونوا يورثون صغيراً من الغلمان والجواري، فنهاهم الله عن ذلك، ويبين لكل ذي سهم سهمه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ لَئِنْ رَأَيْنَا مِنْ بَيْتٍ مَوْسَدًا أَوْ إِعْرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْنَا أَنْ يُصَلِّحًا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ لَئِنْ رَأَيْنَا مِنْ بَيْتٍ مَوْسَدًا أَوْ إِعْرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْنَا أَنْ يُصَلِّحًا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن سودة خشيت أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله لا تطلقني، وأمسكني، واجعل يومي لعائشة، ففعل، فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس^(١). والثاني: أن بنت محمد بن مسلمة كانت تحت رافع بن خديج، فكره منها أمراً، إما كبيراً، وإما غيره، فأراد طلاقها، فقالت: لا تطلقني، واقسم لي ما شئت، فنزلت هذه الآية، رواه الزهري عن سعيد بن المسيب^(٢). قال مقاتل: واسمها خويلة. والثالث: قد ذكرناه عن سالم الأبطس عن سعيد بن جبير في نزول الآية التي قبلها. وقالت عائشة: نزلت في المرأة تكون عند الرجل، فلا يستكثر منها، ويريد فراقها، ولعلها تكون له محبة أو يكون لها ولد ففكره فراقه، فنقول له: لا تطلقني وأمسكني، وأنت في حل من شأني. رواه البخاري، ومسلم^(٣). وفي خوف النشوز

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي ١٧/٢، والترمذي ٩٤/٤، والبيهقي في «السنن» ٢٩٧/٣، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال الحافظ في «الفتح» بعد نقل هذا الحديث عن الترمذي: وله شاهد في «الصحاحين» من حديث عائشة بدون ذكر نزول الآية. قلت: روى الشيخان عن عائشة أن سودة بنت زمعة وبنت يومها لعائشة، وكان النبي ﷺ يقسم لعائشة بيومها ويوم سودة. وأخرج أبو داود في «سننه» ٣٢٦/٢ عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قالت عائشة: يا ابن أختي كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في القسم، من مكته عندنا، وكان قل يوم إلا وهو يطوف علينا جميعاً، فيلنو من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ التي هو يومها فيبيت عندها، ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنت، وقررت أن يفارقها رسول الله ﷺ: يا رسول الله يومي لعائشة، فقبل ذلك رسول الله ﷺ منها، قالت: نقول في ذلك أنزل الله تعالى وفي أشباهها، أراه قال: ﴿وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ لَئِنْ رَأَيْنَا مِنْ بَيْتٍ مَوْسَدًا أَوْ إِعْرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْنَا أَنْ يُصَلِّحًا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. وإسناده جيد.

(٢) «الموطأ» ٥٤٨/٢ عن ابن شهاب عن رافع بن خديج. و«الأم» ١٧١/٥، و«المسنند» للشافعي ٢٨/٢، و«جامع البيان» ٢٧٥/٩، عن الزهري عن سعيد بن المسيب. ورواه الحاكم في «المستدرک» ٣٠٨/٢ من طريق إسحاق بن إبراهيم عن عبد الرزاق مرفوعاً إلى رافع بن خديج، وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. ورواه البيهقي في «السنن» من طريق أخرى مطولاً من طريق أبي اليمان عن شعيب ابن أبي حمزة عن الزهري.

(٣) البخاري ١٩٩/٨، ومسلم ٢٣١٦/٤، ولفظه عن عائشة في قوله ﷺ: ﴿وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ لَئِنْ رَأَيْنَا مِنْ بَيْتٍ مَوْسَدًا أَوْ إِعْرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْنَا أَنْ يُصَلِّحًا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. قالت: «نزلت في المرأة تكون عند الرجل، فلعله أن لا يستكثر منها، وتكون لها صبية وولد، ففكره أن يفارقها، فنقول له: أنت في حل من شأني».

قولان: أحدهما: أنه العلم به عند ظهوره. والثاني: الحذر من وجوده لأماراته. قال الزجاج: والنشوز من بعل المرأة: أن يُسيء عشرتها، وأن يمنعها نفسه ونفقتها. وقال أبو سليمان: نشوزاً، أي: نبوأ عنها إلى غيرها، وإعراضاً عنها، واشتغالاً بغيرها. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا أَنْ يُصْلِحَ بَيْنَهُمَا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «يُصْلِحُ بَيْنَهُمَا» يفتح الياء، والتشديد. والأصل: «يتصالحا»، فأدغمت التاء في الصاد. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: «يُصْلِحُ» بضم الياء، والتخفيف. قال المفسرون: والمعنى: أن يوقعا بينهما أمراً يرضيان به، وتلوم بينهما الصيحة، مثل أن تصبر على تفضيله. وروي عن علي، وابن عباس: أنهما أجازا لهما أن يصطلحا على ترك بعض مهرها، أو بعض أيامها، بأن يجعله لغيرها. وفي قوله: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ قولان: أحدهما: خير من الفرقة، قاله مقاتل، والزجاج. والثاني: خير من النشوز والإعراض، ذكره الماوردي. قال قتادة: متى ما رضيت بدون ما كان لها، واصطلحا عليه، جاز، فإن أثبت لم يصلح أن يجسها على الخسف.

قوله تعالى: ﴿وَأَحْضَرْتُ الْأَنْفُسَ الشَّحَّ﴾ «أحضرت»: بمعنى: ألزمت. و«الشح» الإفراط في الحرص على الشيء. وقال ابن فارس: «الشح»: البخل مع الحرص، وتشاح الرجلان على الأمر: لا يريدان أن يفوتهما. وفيمن يعود إليه هذا الشح من الزوجين قولان: أحدهما: المرأة، فتقديره: وأحضرت نفس المرأة الشح بحقها من زوجها، هذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير. والثاني: الزوجان جميعاً، فالمرأة تشح على مكانها من زوجها، والرجل يشح عليها بنفسه إذا كان غيرها أحب إليه، هذا قول الزجاج. وقال ابن زيد: لا تطيب نفسه أن يعطيها شيئاً فتحلله، ولا تطيب نفسها أن تعطيه شيئاً من مالها، فتعقله عليها.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَحْسَبُوا﴾ فيه قولان: أحدهما: بالصبر على التي يكرهها. والثاني بالإحسان إليها في عشرتها.

قوله تعالى: ﴿وَتَقْوُوا﴾ يعني الجور عليها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازيكم عليه. ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَمْدِلُوا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَكَوْ حَرَضْتُمْ فَلَا تَحِيلُوا كُلَّ الْيَسِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمَمْلُوقَةِ وَإِنْ تَصْلِحُوا وَتَقْوُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَمْدِلُوا بَيْنَ الْإِنْسَانِ﴾ قال أهل التفسير: لن تطيقوا أن تسووا بينهم في المحبة التي هي ميل الطباع، لأن ذلك ليس من كسبكم ﴿وَلَوْ حَرَضْتُمْ﴾ على ذلك^(١) ﴿فَلَا تَحِيلُوا﴾ إلى التي تحبون في النفقة والقسم. وقال مجاهد: لا تعتمدوا الإساءة فتذروا الأخرى كالمعلقة وقال ابن عباس: المعلقة: التي لا هي أيم، ولا ذات بعل. وقال قتادة: المعلقة: المسجونة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْلِحُوا﴾ أي: بالعدل في القسمة ﴿وَتَقْوُوا﴾ الجور ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا﴾ لميل القلوب. ﴿وَإِنْ يَنْفَرَا بَيْنَ اللَّهِ كُلاًَّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اتَّقَا اللَّهَ وَانْتَفَرُوا فَإِنَّ يَوْمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ كَانَ اللَّهُ عَيْنًا حَكِيمًا﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَنْفَرَا﴾ يقول: وإن أبت المرأة أن تسمح لزوجها بإيثار التي يميل إليها، واختارت الفرقة، فإن الله يغني كل واحد من سعة. قال ابن السائب: يغني المرأة برجل، والرجل بامرأة. ثم ذكر ما يوجب الرغبة إليه في طلب الخير، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني: أهل

(١) قال أبو بكر بن العربي في «شرح الترمذي» ٨٠/٥: قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَمْدِلُوا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَكَوْ حَرَضْتُمْ فَلَا تَحِيلُوا كُلَّ الْيَسِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمَمْلُوقَةِ﴾ فأخبر سبحانه أن أحداً لا يملك العدل بين النساء، والمعنى فيه تعلق القلب لبعضهن أكثر منه إلى بعض، فعنهم فيما يكونون، وأخذهم بالمساواة فيما يظهرون. قلت: روى أبو داود ٣٢٦/٢ والترمذي بشرح ابن العربي ٨٠/٥، والنسائي ٦٤/٧، وابن ماجه ٦٣٤/١ بسند جيد عن عائشة قالت: إن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل، ويقول: «اللهم هذه قسمتي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» وصححه أيضاً ابن كثير في «التفسير». ورواه الحاكم ١٨٧/٢ وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي. قال الترمذي: ومعنى قوله: «لا تلمني فيما تملك ولا أملك» إنما يعني به الحب والمودة.

التوراة، والإنجيل، وسائر الكتب ﴿وَيَاكُمْ﴾ يا أهل القرآن^(١) ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ قيل: وحده ﴿وَلَنْ تَكْفُرُوا﴾ بما أوصاكم به ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فلا يضره خلافكم. وقيل: له ما في السموات، وما في الأرض من الملائكة، فهم أطوع له منكم. وقد ذكرنا في سورة (البقرة) معنى «الغني الحميد»، وفي (آل عمران) معنى «الوكيل».

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾. قال ابن عباس: يريد المشركين والمنافقين ﴿وَيَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أطوع له منكم. وقال أبو سليمان: هذا تهديد للكفار، يقول: إن يشأ يهلككم كما أهلك من قبلكم إذ كفروا به، وكذبوا رسله^(٢).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَانَ اللَّهُ سَمِيمًا بَصِيرًا﴾ ﴿١٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ قيل: إن هذه الآية نزلت من أجل المنافقين كانوا لا يصدّقون بالقيامة، وإنما يطلبون عاجل الدنيا، ذكره أبو سليمان. وقال الزجاج: كان مشركو العرب يتقربون إلى الله ليعطيهم من خير الدنيا، ويصرف عنهم شرها، ولا يؤمنون بالبعث، فأعلم الله عز وجل أن خير الدنيا والآخرة عنده. وذكر الماوردي أن المراد بثواب الدنيا: الغنيمة في الجهاد، وثواب الآخرة: الجنة. قال: والمراد بالآية: حث المجاهد على قصد ثواب الله.

﴿يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا كُوفًا قَوْمِينَ بِأَلْسِنَةٍ سُودَةٍ لَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَسُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿١٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا كُوفًا قَوْمِينَ بِأَلْسِنَةٍ سُودَةٍ لَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن فقيراً وغنياً اختصما إلى النبي ﷺ، فكان صفوه^(٣) مع الفقير يرى أن الفقير لا يظلم الغني، فنزلت هذه الآية، هذا قول السدي^(٤). والثاني: أنها متعلقة بقصة ابن أبيرق، فهي خطاب للذين جادلوا عنه، ذكره أبو سليمان الدمشقي. و«القوام»: مبالغة من قائم. و«القسط»: العدل. قال ابن عباس: كونوا قوالين بالعدل في الشهادة على من كانت، ولو على أنفسكم. وقال الزجاج: معنى الكلام: قوموا بالعدل، واشهدوا لله بالحق، وإن كان الحق على الشاهد، أو على والديه، أو قريبه، ﴿إِنْ يَكُنْ﴾ المشهود له ﴿غَنِيًّا﴾ فالله أولى به، وإن يكن ﴿فَقِيرًا﴾ فالله أولى به. فاما الشهادة على النفس، فهي إقرار الإنسان بما عليه من حق. وقد أمرت الآية بأن لا ينظر إلى فقر المشهود عليه، ولا إلى غناه، فإن الله تعالى أولى بالنظر إليهما. قال عطاء: لا تحيفوا على الفقير، ولا تعظموا الغني، فتمسكوا عن القول فيه. وممن قال: إن الآية نزلت في الشهادات، ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، والزهري، وقتادة، والضحاك.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن معناه: فلا تتبعوا الهوى، واتقوا الله أن تعدلوا عن الحق، قاله مقاتل. والثاني: ولا تتبعوا الهوى لتعدلوا، قاله الزجاج. والثالث: فلا تتبعوا الهوى كراهية أن تعدلوا عن الحق. والرابع: فلا تتبعوا الهوى فتعدلوا، ذكرهما الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَلَوُّوا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، والكسائي: تلووا، وبواوين، الأولى مضمومة، واللام ساكنة^(٥). وفي معنى هذه القراءة ثلاثة أقوال: أحدها: أن يلوي الشاهد لسانه بالشهادة إلى غير الحق. قال ابن عباس: يلوي لسانه بغير الحق، ولا يقيم الشهادة على وجهها، أو يعرض عنها ويتركها. وهذا قول مجاهد،

(١) أي: ووصيتكم أنتم يا أهل القرآن، كما وصيتنا من كان قبلكم من أهل الكتابين: أن اتقوا الله.

(٢) قال ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ أي: هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه، كما قال: ﴿وَلَيْتَ تَتَذَكَّرُوا يَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] وقال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضرعوا أمره.

(٣) ابن جرير ٤٠٣/٩، وقوله «فكان صفوه» أي: ميله، وفي «الطبري» «صلمه» وهو الميل أيضاً.

(٤) رواه الواحدي في «أسباب النزول» (ص ١٦١).

(٥) من لوى يلوي، والأصل: تلووا، حذف الضمة عن الباء لثقلها، ثم الباء لالتقاء الساكنين، وضمت الواو من أجل واو الضمير.

وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة، والسدي، وابن زيد. والثاني: أن يلوي الحاكم وجهه إلى بعض الخصوم، أو يُعرض عن بعضهم، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أن يلوي الإنسان عنقه إعراضاً عن أمر الله لكبره وعتوه^(١). ويكون: «أو تعرضوا» بمعنى: وتعرضوا، ذكره الماوردي. وقرأ الأعمش، وحزمة، وابن عامر: «تلوا» بواو واحدة، واللام مضمومة. والمعنى: أن تلوا أمور الناس، أو تركوا، فيكون الخطاب للحكام^(٢).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِأَمْنٍ وَإِلَهُ وَرَسُولِهِ وَأَلْكِتَبِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِأَمْنٍ وَإِلَهُ وَرَسُولِهِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن عبد الله بن سلام، وأسدًا، وأسيداً ابني كعب، وثعلبة بن قيس، وسلاماً، وسلمة، ويامين. وهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب آمنوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله نؤمن بك، وبكتابك، وبموسى، والتوراة، وعزير، ونكفر بما سوى ذلك من الكتب والرسل، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس^(٣). والثاني: أن مؤمني أهل الكتاب كان بينهم وبين اليهود كلام لما أسلموا، فنزلت هذه الآية، هذا قول مقاتل. وفي المشار إليهم بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم المسلمون، قاله الحسن، فيكون المعنى: يا أيها الذين آمنوا بمحمد والقرآن اثبتوا على إيمانكم. والثاني: اليهود والنصارى، قاله الضحاك، فيكون المعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى والتوراة، وبيعسى والإنجيل: آمنوا بمحمد والقرآن. والثالث: المنافقون، قاله مجاهد، فيكون المعنى: يا أيها الذين آمنوا في الظاهر بالسنتهم، آمنوا بقلوبكم.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْكِتَبِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: «نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل» مضمومتين^(٤). وقرأ نافع، وعاصم، وحزمة، والكسائي: «نزل على رسوله، والكتاب الذي أنزل» مفتوحتين. والمراد بالكتاب الذي نزل على رسوله القرآن، والكتاب الذي أنزل من قبل: كل كتاب أنزل قبل القرآن، فيكون «الكتاب» هاهنا اسم جنس.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَتَغَيَّرُ لَهُمْ وَلَا لِيَهُدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها في اليهود آمنوا بموسى، ثم كفروا بعد موسى، ثم آمنوا بعزير، ثم كفروا بعده بعيسى، ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ، هذا قول ابن عباس. وروي عن قتادة قال: آمنوا بموسى، ثم كفروا بعبادة العجل، ثم آمنوا به بعد عوده، ثم كفروا بعده بعيسى، ثم ازدادوا كفراً بمحمد. والثاني: أنها في اليهود والنصارى، آمن^(٥) اليهود بالتوراة، وكفروا بالإنجيل، وآمن النصارى بالإنجيل، ثم تركوه فكفروا به، ثم ازدادوا كفراً بالقرآن وبمحمد، رواه شيبان عن قتادة. وروي عن الحسن قال: هم قوم من أهل الكتاب، قصدوا تشكيك المؤمنين، فكانوا يظهرهم الإيمان ثم الكفر، ثم ازدادوا كفراً بثبوتهم على دينهم. وقال مقاتل: آمنوا بالتوراة وموسى، ثم كفروا من بعد موسى، ثم آمنوا بعيسى والإنجيل، ثم كفروا من بعده، ثم ازدادوا كفراً بمحمد والقرآن. والثالث: أنها في المنافقين آمنوا، ثم ارتدوا، ثم ماتوا على كفرهم، قاله مجاهد. وروي ابن جريج^(٦) عن مجاهد ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ قال: ثبتوا عليه حتى ماتوا. قال ابن عباس: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَتَغَيَّرُ لَهُمْ﴾ ما أقاموا على ذلك ﴿وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ أي: لا يجعلهم بكفرهم مهتدين. قال: وإنما علق امتناع المغفرة بكفر بعد كفر، لأن المؤمن بعد الكفر يُغفر له كفره، فإذا ارتدَّ طوَّلب بالكفر الأول.

﴿بَشِّرِ الْمُتَّقِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُتَّقِينَ﴾ زعم مقاتل أنه لما نزلت المغفرة في (سورة الفتح) للنبي والمؤمنين قال عبد الله بن

(٢) في الأحمدية: للحاكم.

(١) في النسخة الأحمدية: وعلوه.

(٣) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ١٠٦ عن الكلبي، وليس فيه «يامين».

(٤) أي: على يتألفان للمفعول، والثائب ضمير الكتاب.

(٥) في «الأحمدية»: أقر.

(٦) في «الأحمدية»: ابن جرير. والخبر رواه ابن جرير عن ابن جريج، عن مجاهد.

أبي ونفر معه: فما لنا؟ فنزلت هذه الآية. وقال غيره: كان المنافقون يتولون اليهود، فألحقوا بهم في التبشير بالعذاب. وقال الزجاج: معنى الآية: اجعل موضع بشارتهم العذاب. والعرب تقول: تحيتك الضرب، أي: هذا بدل لك من التحية. قال الشاعر:

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع^(١)

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكُفْرَينَ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلْيَبْتَتُونَ إِندَهُمُ الْيَزَّةَ فَإِنَّ الْيَزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكُفْرَينَ أُولَئِكَ﴾ قال ابن عباس: يتخذون اليهود أولياء في العون والنصرة.

قوله تعالى: ﴿أَلْيَبْتَتُونَ إِندَهُمُ الْيَزَّةَ﴾ أي: القوة بالظهور على محمد وأصحابه، والمعنى: أيتقون بهم؟ قال مقاتل: وذلك أن اليهود أعانوا مشركي العرب على قتال رسول الله ﷺ. وقال الزجاج: أيتغي المنافقون عند الكافرين العزة. واليَزَّة: المتعة، وشدة الغلبة، وهو مأخوذ من قولهم: أرض غزاز. قال الأصمعي: «الغزاز»: الأرض التي لا تثبت. فتأويل العزة: الغلبة والشدة التي لا يتعلق بها إذلال. قالت الخنساء:

كَأَن لَّمْ يَكُونُوا حَمِيَّ يَتَّقِي إِذِ النَّاسِ إِذَا ذَاكَ مَنْ عَزَّ بِرَّ^(٢)

أي: من قوي وغلب سلب. ويقال: قد استعز على المريض^(٣)، أي: اشتد وجعه. وكذلك قول الناس: يعز علي يفعل، أي: يشتد، وقولهم: قد عز الشيء: إذا لم يوجد، معناه: صعب أن يوجد، والباب واحد^(٤).

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ أَيْتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهَا حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾
﴿إِنَّكُمْ إِذَا يَنْتَهَلُوا إِلَهَ اللَّهِ جَامِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ وقرأ عاصم، ويعقوب: «نَزَّلَ» بفتح النون والزاي. قال المفسرون: الذي نزل عليهم في النهي عن مجالستهم، قوله في (الأنعام ٦٨) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وكان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود، فيسخرزون من القرآن ويكذبون به، فنهى الله المسلمين عن مجالستهم. وآيات الله: هي القرآن. والمعنى: إذا سمعتم الكفر بآيات الله، والاستهزاء بها، فلا تقعدوا معهم حتى يأخذوا من حديث غير الكفر والاستهزاء. ﴿إِنَّكُمْ﴾ إن جالستمهم على ما هم عليه من ذلك، فأنتم «يَنْتَهَلُونَ» وفي ماذا تقع المماثلة فيه قولان:

(١) «الكتاب» لسيبويه ١/٣٦٥، ٤٢٩، «والخزانة» ٥٣/٤ قال البغدادى: وهذا البيت نسبة شراح آيات الكتاب وغيرهم إلى عمرو بن معديكرب الصحابي ولم أره في شعره. وفي «العمدة» لابن رشتين: ٢٩٢/٢. وما يعد سرقاً وليس يسرق اشتراك اللفظ المتعارف، كقول عترة:

وخيل قد دلفت لها بخيل عليها الأند تهتصر امتصارا
وقول عمرو بن معدى كرب:

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع

والخيل: اسم جمع الفرس لا واحد له من لفظه، والمراد به الفرسان، وأراد بالخيل الأول: خيل الأعداء، وبالثاني: خيله، والضمير في «بينهم» للخيلين. ودلفت: دنوت وزحف. ووجيع: بمعنى موجع، يقول: إذا تلاقوا جعلوا بدلاً من تحية بعضهم لبعض الضرب الوجيع. وهذا على سبيل التهكم.

(٢) «ديوانها» ١٤٤، «والكامل» ٢/٧٩٣، ٣/١٢٢٣، «ومجمع الأمثال» ٢/٣٠٧، «وشواهد المغني» ٨٨، «والحماسة» لابن الشجري ١/٢٤٦ قال ابن الشجري: «وعز»: معناه: غلب، من قول الله ﷻ: ﴿وَعَزَّوْا فِي الْحَبَابِ﴾ [ص: ٢٣]. «وبز»: معناه: سلب، تقول: بززت الرجل: إذا سلبت سلاحه، ويقال للسلاح المسلوب: هذا بز فلان. «ومن» في البيت بمعنى الذي، وموضعه مع «عز» رفع بالابتداء و«بز» خبرها، والجملة التي هي المبتدأ وخبره خبر عن المبتدأ الأول الذي هو الناس، والعائد إلى الناس محذوف، كما حذفوه من قولهم: «السمن متوان بدرهم» يريدون: متوان منه، وكذلك التقدير: من عز منهم بز، ولا يجوز أن يكون «إذ ذاك» خبراً عن الناس لما ذكرته لك من امتناع الأخبار بطرؤ الزمان عن الأشخاص، وإذا بطل أن يكون «إذ ذاك» خبراً عن الناس، بقي أن يتعلق بـ«بز»، ولا يجوز أن تكون «من» شرطية، لأن الشرط وجوبه لا يعمل واحد منهما فيما قبله بإجماع البصريين، كما لا يتقدم على الاستفهام ما يكون في جزئه، وأجاز قوم من البغداديين أن يعمل جواب الشرط فيما تقدم عليه لمفارقتها الاستفهام بكونه جزاء، فعلى قول هؤلاء «من» أن تكون شرطاً، فأما «ذاك» فموضعه رفع بالابتداء وخبره محذوف. أي: ذاك كائن أو موجود، ولا يجوز أن يكون موضع ذاك على انفراده خفياً، لأن «إذ» لا تنضاف إلا إلى جملة، فموضع الجملة التي هي ذاك وخبره جر.

(٣) استمز: بالبناء للمجهول، وفي الحديث «أنه استمز برسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه» أي: اشتد به المرض وغلبه، وأشرف على الموت.

(٤) في «الصالح»: عز الشيء يبرز عزاً وعزة وعزارة: إذا قل لا يكاد يوجد، فهو عزيز. وعز فلان يبرز عزاً وعزارة أيضاً: أي: صار عزيزاً، أي: قوي بعد ذلة. وعز علي أن تفعل كذا، وعز علي ذاك، أي: حق واشتد، وفي المثل: «إذا عز أخوك فهز» وعز يهز عزاً: غلبه، وفي المثل «من عز يز».

أحدهما: في العصيان. والثاني: في الرضا بحالهم، لأن مُجالس الكافر غير كافر. وقد نُبِئت الآية على التحذير من مجالسة العصاة^(١). قال إبراهيم النخعي: إن الرجل ليجلس في المجلس فيتكلم بالكلمة، فيرضي الله بها، فتصيبه الرحمة فتعم من حوله، وإن الرجل ليجلس في المجلس، فيتكلم بالكلمة، فيسخط الله بها، فيصيبه السخط، فيعم من حوله.

﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَ يُكْرِمُ اللَّهُ أُولَئِكَ أَثَرُ النَّاسِ الَّتِي كَانُوا أَتَوْا اللَّهَ تَسْتَحْذِرُ مِنْهُ عَلَيْهِمْ سَبِيلٌ﴾^(٢) وَتَسْتَحْذِرُ مِنْهُ عَلَيْهِمْ سَبِيلٌ

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَ يُكْرِمُ اللَّهُ أُولَئِكَ أَثَرُ النَّاسِ الَّتِي كَانُوا أَتَوْا اللَّهَ تَسْتَحْذِرُ مِنْهُ عَلَيْهِمْ سَبِيلٌ﴾ قال أبو سليمان: هذه الآية نزلت في المنافقين خاصة. قال مقاتل: كان المنافقون يربضون بالمؤمنين الدوائر، فإن كان الفتح، قالوا: ألم تكن معكم؟ فأعطونا من الغنمة. وإن كان للكافرين نصيب، أي: دولة على المؤمنين، قالوا للكفار: ألم نستحوذ عليكم؟ قال المبرّد: ومعنى: ألم نستحوذ عليكم: ألم نغلبكم على رأيكم. وقال الزجاج: ألم تغلب عليكم بالموالاة لكم. «ونستحوذ» في اللغة، بمعنى: نستولي، يقال: حُذِت الإبل، وحُزَّتْها: إذا استوليت عليها وجمعتها. وقال غيره: ألم نستول عليكم بالمعونة والنصرة؟ وقال ابن جريج: ألم نبين لكم أنا على دينكم؟ وفي قوله: ﴿وَتَسْتَحْذِرُ مِنْهُ عَلَيْهِمْ سَبِيلٌ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: تمنعكم منهم بتخذيهم عنكم. والثاني: بما نعلمكم من أخبارهم. والثالث: بصرفنا إياكم عن الدخول في الإيمان. ومراد الكلام: إظهار المنة من المنافقين على الكفار، أي: فاعرفوا لنا هذا الحق عليكم.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْكُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ﴾ يعني المؤمنين والمنافقين. قال ابن عباس: يريد أنه آخر عقاب المنافقين.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه لا سبيل لهم عليهم يوم القيامة، روى يُسَيْعُ الحضرمي عن علي بن أبي طالب أن رجلاً جاءه، فقال: أرايت قول الله ﷻ: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ وهم يقاتلوننا [فيظهرون ويقتلون]، فقال: ولن يجعل الله للكافرين يوم القيامة على المؤمنين سبيلًا. هذا مروى عن ابن عباس^(٢)، وقتادة. والثاني: أن المراد بالسبيل: الظهور عليهم، يعني: أن المؤمنين هم الظاهرون، والعاقبة لهم، وهذا المعنى في رواية عكرمة، عن ابن عباس. والثالث: أن السبيل: الحجة. قال السدي: لم يجعل الله عليهم حجة، يعني فيما فعلوا بهم من القتل والإخراج من الديار. قال ابن جريج: لما وعد الله المؤمنين أنه لا يدخل المنافقين مدخلهم من الجنة، ولا المؤمنين مدخل المنافقين، لم يكن للكافرين على المؤمنين حجة بأن يقولوا لهم: أنتم كنتم أعدائنا، وكان المنافقون أوليائنا، وقد اجتمعتم في النار^(٣).

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٤) قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ أي: يعملون عمل المخادع. وقيل: يخادعون نبيّه، وهو خادعهم، أي:

(١) روى الإمام أحمد ١٤٨/٢ بترتيب الساعاتي، والترمذي ٢٠/٤ وحسنه، والنسائي ١٩٨/١ من حديث جابر أن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر» وهو حديث صحيح. قال ابن حجر: أخرجه النسائي من حديث جابر مرفوعاً بإسناده جيد، قلت: وليس في النسائي الشطر الثاني من الحديث، وأخرجه الترمذي من وجه آخر بسند فيه ضعف، وأبو داود في «سننه» ٤٧٧/٣ عن ابن عمر بسند فيه انقطاع، وأحمد ٢١٠/١ عن عمر بسند فيه مجهول. وفي «القرطبي» ٤١٨/٥: فكل من جلس في مجلس معصية، ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها، فإن لم ينكر على النكير عليهم، فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٥٦، وابن جرير ٣٢٧/٩ بإسناد صحيح، الحاكم ٣٠٩/٢، وصححه ووافقه الذهبي، وزاد السيوطي في «الدر» ٢٣٥/٢ نسبه للفرابي وعبد بن حميد وابن المنذر. و«يُسَيْعُ» بضم الياء في أوله وفتح السين، وسكون الياء الثانية: هو ابن معدان الحضرمي، ويقال: الكندي، وهو تابعي وثقة النسائي وغيره، مترجم في «التهذيب» ٣٨٠/١١، ووقع في «الأحمدية» و«تفسير ابن كثير»: «سيع» وهو تصحيف.

(٣) ذكر القرطبي في «تفسره» ٤١٩/٥ الآية التأويل الثالث: وهو أن الله سبحانه لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً منه إلا أن يتواصوا بالباطل ولا يتناهاوا عن المنكر، ويتقاعدوا عن التوبة، فيكون تسليط العدو من قبلهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْنَكُمْ مِنْ مُبِيسَةٍ قِيمَا كُنْتُمْ يُبْكَرُ﴾ [الشورى: ٣٠] قال ابن العربي: وهذا نفيس جداً. فيكون المعنى إذن: إن الكافرين لا يكون لهم من حيث هم كافرون سبيل ما على المؤمنين من حيث هم مؤمنون، يقومون بحقوق الإيمان ويتيمون هديه.

مجازيهم على خداعهم. وقال الزجاج: لما أمر بقبول ما أظهروا، كان خادعاً لهم بذلك. وقيل: خداعه إياهم يكون في القيامة بإطفاء نورهم، وقد شرحنا طرفاً من هذا في (البقرة).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالًا﴾ أي: متثاقلين. و«كسالي»: جمع كسلان، و«الكسل»: التثاقل عن الأمر. وقرأ أبو عمران الجوني: «كسالي» بفتح الكاف، وقرأ ابن السميع: «كسلي»، بفتح الكاف من غير ألف. وإنما كانوا هكذا. لأنهم يصلون حذراً على دمائهم، لا يرجون بفعلها ثواباً، ولا يخافون بتركها عقاباً^(١).

قوله تعالى: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ أي: يصلون ليراهم الناس. قال قتادة: والله لولا الناس ما صلى المنافق^(٢). وفي تسمية ذكرهم بالقليل ثلاثة أقوال: أحدها: أنه سُمي قليلاً، لأنه غير مقبول، قاله علي عليه السلام، وقاتادة. والثاني: لأنه رياء، ولو كان لله لكان كثيراً، قاله ابن عباس، والحسن. والثالث: أنه قليل في نفسه، لأنهم يقتصرون على ما يظهر، دون ما يخفى من القراءة والتسبيح، ذكره الماوردي.

﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا يَبْصُرُ لِمَ سَبِيلَ﴾

قوله تعالى: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ المذبذب: المتردد بين أمرين، وأصل المذبذب: التحرك، والاضطراب، وهذه صفة المنافق، لأنه محير في دينه لا يرجع إلى اعتقاد صحيح. قال قتادة: ليسوا بالمشركين المصرحين بالشرك، ولا بالمؤمنين المخلصين. قال ابن زيد: ومعنى «بين ذلك»: بين الإسلام والكفر، لم يظهروا الكفر فيكونوا إلى الكفار، ولم يصدقوا الإيمان، فيكونوا إلى المؤمنين. قال ابن عباس: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا يَبْصُرُ لِمَ سَبِيلَ﴾ إلى الهدى. وقد روى ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مثل المنافق: مثل الشاة العائرة بين الغنمين تُعْمَرُ إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة، ولا تدري أيها تتبع»^(٣).

﴿يَأْتِيهَا الْزَيْنُ مَاسَوًا لَا تَنْخَبِذُوا الْكَافِرِينَ أَرَأَيْتَ إِنْ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ أَرِيتُمْ أَن تُجَاهِلُوا بِهِ عَلَى كُفْرِهِمْ سُلْطَنًا مُّبِينًا﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَنْخَبِذُوا الْكَافِرِينَ أَرَأَيْتَ﴾ في المراد بالكافرين قولان: أحدهما: اليهود، قاله ابن عباس. والثاني: المنافقون، قال الزجاج: ومعنى الآية: لا تجعلوهم بطانتكم وخاصتكم. والسلطان: الحجة الظاهرة^(٤)، وإنما قيل للامير: سلطان، لأنه حجة الله في أرضه، واشتقاق السلطان: من السليط. والسليط^(٥): ما يستضاء به، ومن هذا قيل للزيت: السليط. والعرب تؤثت السلطان وتذكره، تقول: قضت عليك السلطان، وأمرتك السلطان، والتذكر أكثر وبه جاء القرآن، فمن أثت، ذهب إلى معنى الحجة، ومن ذكر، أراد صاحب السلطان. قال ابن الأنباري: تقدير الآية: أتريدون أن تجعلوا الله عليكم بموالة الكافرين حجة بينة تلزمكم عذابه، وتكسبكم غضبه؟

﴿إِنَّ الْكُفْرَيْنَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْكُفْرَيْنَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: بفتح الراء، وقرأ

(١) أخرجه الإمام مسلم ٤٥١/١ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حيوًا، ولقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام، ثم أمر رجلاً فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار». وفي «المسند» عن أبي هريرة رضي الله عنه «ولولا ما في البيوت من النساء والذرية لأقمت صلاة العشاء، وأمرت فتاتي يحرقون ما في البيوت بالنار». وروى الإمام مالك في «الموطأ» ٢٢٠/١ عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» ورواه مسلم ٤٣٤/١، والترمذي ٣٠١/١، والنسائي ٢٥٤/١.

(٢) في «الأحمدية» المنافقون.

(٣) رواه الإمام أحمد ١٢٩/٧، ومسلم ٢١٤٦/٤ وابن جرير ٣٣٣/٩. والشاة العائرة: هي المترددة بين قطيعين لا تدري أيهما تتبع، من قولهم: عار الفرس والمكلب وغيرهما يميز عياراً: إذ ذهب كأنه منفلت من صاحبه، فهو يتردد هنا وهنا. وقوله: تعير إلى هذه مرة. أي: تذهب في تردها إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة.

(٤) روى ابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن ابن عباس في قوله «سُلْطَنًا مُّبِينًا»: كل سلطان في القرآن حجة.

(٥) في «الأحمدية» التسليط، وهو خطأ. و«السليط» الزيت. قال: النابغة الجعدي:

بغضني كممثل سراج السليط
ظلم لم يجعل الله فيه نحاساً
نظر «اللسان» مادة سلط.

عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: بتسكين الراء. قال الفراء: وهي لغتان: قال أبو عبيدة: جهنم أدراك، أي: منازل، وأطبق^(١). فكل منزل منها: درك. وحكى ابن الأنباري عن بعض العلماء أنه قال: الدركات: مراق، بعضها تحت بعض. وقال الضحاك: الدرج: إذا كان بعضها فوق بعضها، والدرك: إذا كان بعضها أسفل من بعض. وقال ابن فارس: الجنة درجات، والنار دركات. وقال ابن مسعود في هذه الآية: هم في توابيت من حديد مبهمة [عليهم]^(٢). قال ابن الأنباري: المبهمة: التي لا أفعال عليها، يقال: أمر مبهم: إذا كان ملتبساً لا يعرف معناه، ولا بابه. قوله تعالى: ﴿وَلَنْ نَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ قال ابن عباس: مانعاً من عذاب الله.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣) قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ قال مقاتل: سبب نزولها: أن قوماً قالوا عند ذكر مستقر المنافقين: فقد كان فلان وفلان منافقين، فتابوا، فكيف يُفعل بهم؟ فنزلت هذه الآية^(٤). ومعنى الآية: إلا الذين تابوا من النفاق ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم بعد التوبة ﴿وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي: استمسكوا بدينه. ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الإسلام، وإخلاصه: رفع الشرك عنه، قاله مقاتل. والثاني: أنه العمل، وإخلاصه: رفع شوائب النفاق والرياء منه، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في «مع» قولان: أحدهما: أنها على أصلها، وهو الاقتران. وفي ماذا اقترنوا بالمؤمنين؟ فيه قولان: أحدهما: في الولاية، قاله مقاتل. والثاني: في الدين. والثواب. قاله أبو سليمان. والثاني: أنها بمعنى «من» فتقديره: فأولئك من المؤمنين، قاله الفراء.

﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾^(٥) قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ «ما» حرف استفهام، ومعناه: التقرير^(٦)، أي: إن الله لا يعذب الشاكر المؤمن، ومعنى الآية: ما يصنع الله بعذابكم إن شكرتم نعمه، وآمنت به وبرسوله. والإيمان مقدم في المعنى وإن أخر في اللفظ. وروي عن ابن عباس أن المراد بالشكر: التوحيد.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أي: للقليل من أعمالكم، علماً بنياتكم، وقيل: شاكراً، أي: قابلاً. ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَى مِنَ الْقَوْلِ وَلَا مَن ظَهَرَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾^(٧) قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن ضيفاً تضيف قوماً فأساؤوا قراءه فاشتكاها، فنزلت هذه الآية رخصة في أن يشكوا، قاله مجاهد^(٨). والثاني: أن رجلاً نال من أبي بكر

(١) تمام كلام أبي عبيدة في «مجاز القرآن» ١٤٢: ويقال للجمال الذي عجز عن بلوغ الركبة: أعطني دركاً أصل به.

(٢) قال السيوطي في «الدرر» ٢٣٦/٢: رواه ابن أبي شيبة، وهناد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في صفة النار عن ابن مسعود. قلت: وفي سنده انقطاع، لأن خيثمة بن عبد الرحمن الراوي عن ابن مسعود لم يسمع منه، ذكره الإمام أحمد، ورواه ابن أبي حاتم من طريق حماد بن سلمة: أخبرنا علي بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمن أن ابن مسعود... وعلي بن يزيد ضعيف، والقاسم بن عبد الرحمن صدوق يرسل كثيراً. وفي «الطبري» ٣٣٩/٩: ابن أبي هريرة: ﴿إِنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا الْأَشْكَالَ مِنَ النَّارِ﴾ قال: «في توابيت تُرْتَجَّ عليهم» وفي «تفسير ابن كثير» ٥٧٠/١: ورواه ابن أبي حاتم بسند حسن، ولفظه: «الدرك الأسفل: بيوت لها أبواب تطبق عليهم، فتوقد من تحتهم ومن فوقهم».

(٣) في «مصحح البخاري» ٢٠٠/٨: عن الأسود قال: كنا في حلقة عبد الله، فجاء حذيفة حتى قام علينا، فسلم، ثم قال: لقد أنزل النفاق على قوم خير منكم. قال الأسود: سبحان الله! إن الله يقول: ﴿إِنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا الْأَشْكَالَ مِنَ النَّارِ﴾ فتبسع عبد الله، وجلس حذيفة في ناحية المسجد، فقام عبد الله، ففرق أصحابه، فرماني بالحصى، فأتيته، فقال حذيفة: عجبت من ضحكك وقد عرف ما قلت، لقد أنزل النفاق على قوم كانوا خيراً منكم، ثم تابوا فتاب الله عليهم. قال الحافظ ابن حجر: ويستفاد من قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ صحة توبة الزناديق، وقبولها على ما عليه الجمهور، فإنها مستثناة من المنافقين من قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا الْأَشْكَالَ مِنَ النَّارِ﴾ وقد استدل بذلك جماعة، منهم أبو بكر الرازي في «أحكام القرآن».

(٤) في «الأحمدية»: التقدير، وهو خطأ.

(٥) ابن جرير ٣٤٧/٩، ونسب السيوطي في «الدرر» للفرابي وعبد بن حميد، وجاء في «تفسير ابن كثير» ٥٧٠/١: قال ابن عباس في تفسير الآية: يقول: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ وإن صبر فهو خير له. وروي أبو داود ١٠٧/٢ عن عائشة قالت: سُِرِّقَ لها شيء، فجعلت تدعو عليه، فقال النبي ﷺ: «لا تسبخي عنه» (قال الخطابي: لا تسبخي عنه، =

الصديق والنبى ﷺ حاضر، فسكت عنه أبو بكر مراراً، ثم رذ عليه، فقام النبي ﷺ، فقال أبو بكر: يا رسول الله شتمني فلم تقل له شيئاً، حتى إذا رددت عليه قلت؟! فقال: «إن ملكاً كان يجيب عنك، فلما رددت عليه، ذهب الملك، وجاء الشيطان» فنزلت هذه الآية^(١)، هذا قول مقاتل. واختلف القراء في قراءة ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ فقرأ الجمهور بضم الظاء، وكسر اللام. وقرأ عبد الله بن عمرو، والحسن، وابن المسيب، وأبو رجاء، وسعيد بن جبيرة، وقتادة، والضحاك، وزيد بن أسلم، بفتحهما. فعلى قراءة الجمهور، في معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: إلا أن يدعو المظلوم على من ظلمه، فإن الله قد أرخص له، قاله ابن عباس. والثاني: إلا أن ينتصر المظلوم من ظالمه، قاله الحسن، والسدي. والثالث: إلا أن يخبر المظلوم بظلم من ظلمه، رواه ابن أبي نجيع عن مجاهد. وروى ابن جريج عنه قال: إلا أن يجهر الضيف بظلم من لم يضيفه. فأما قراءة من فتح الظاء، فقال ثعلب: هي مردودة على قوله: ﴿مَنْ يَفْعَلْ اللَّهُ بِكَ بِكُمْ﴾ إلا من ظلم. وذكر الزجاج فيها قولين: أحدهما: أن المعنى: إلا أن الظالم يجهر بالسوء ظلماً. والثاني: إلا أن تجهروا بالسوء للظالم. فعلى هذا تكون «إلا» في هذا المكان استثناء منقطعاً، ومعناها: لكن المظلوم يجوز له أن يجهر لظالمه بالسوء. ولكن الظالم قد يجهر بالسوء. واجهروا له بالسوء^(٢). وقال ابن زيد: إلا من ظلم، أي: أقام على النفاق، فيجهر له بالسوء حتى يتزع.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَكِيمًا﴾ أي: لما تجهرون به من سوء القول ﴿عَلِيمًا﴾ بما تخفون. وقيل: سميعاً لقول المظلوم، عليماً بما في قلبه، فليقت الله، ولا يقل إلا الحق. وقال الحسن: من ظلم، فقد رخص له أن يدعو على ظالمه من غير أن يعتدي، مثل أن يقول: اللهم أعني عليه، اللهم استخرج لي حقي، اللهم حل بينه وبين ما يريد^(٣).

﴿إِنْ يُدْأَوْ خَيْرٌ أَوْ تُخَفَوْهُ أَوْ تُعَفَّوْا عَنْ سُوءِ قَوْلِ اللَّهِ كَانَ عَفْوَ قَدِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ يُدْأَوْ خَيْرٌ﴾ قال ابن عباس: يريد من أعمال البر كالصيام والصدقة. وقال بعضهم: إن تبدوا خيراً بدلاً من السوء. وأكثرهم على أن «الهاء» في «تخفوه» تعود إلى الخير. وقال بعضهم: تعود إلى السوء.

أي: لا تخفني عنه بدعائك) وقال الحسن البصري: لا يدع عليه، وليل: اللهم أعني عليه واستخرج حقي منه. وقال عبد الكريم بن مالك الجزري في هذه الآية: هو الرجل يشتمك فتشتمه لكن إن افتري عليك فلا تفتري عليه، لقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّكَ تَسْتَرْ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَا تَكْتُمُ مِنْ سَيْلٍ﴾ وروى أبو داود ٣٧٧/٤ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «المستبان ما قالاً فعلى الباطن منهما ما لم يعتد المظلوم» [قلت: ورواه أحمد في المسند ١٩٤/١٤ والبخاري في «الأدب المفرد» ٥١٢/١، ومسلم ٢٠٠٠/٤، والترمذي ١٣٩٩/٣]. وقد روى البخاري ٧٧/٥، ومسلم ١٣٥٣/٣ عن عتبة بن عامر قال: قلنا: يا رسول الله إنك تبعنا، فنزل يقوم فلا يقرونا، فما ترى في ذلك؟ فقال: «إذا نزلتم يقوم فأمرؤا لكم بما يبغي للضيف فاقبلوا منهم وإن لم يفعلوا، فخلوا منهم حق الضيف الذي يبغي لهم» وروى الإمام أحمد ١٣١/٤، وأبو داود عن المقدم أبي كريمة عن النبي ﷺ أنه قال: «أيما مسلم ضاف قوماً فأصبح الضيف معروماً، فإن حقاً على كل مسلم نصره حتى يأخذ بقري ليلته من زوجه وماله» وروى أحمد ١٣٠/٤ أيضاً عن المقدم أبي كريمة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليلة الضيف واجبة على كل مسلم، فإن أصبح بفاته معروماً كان ديناً عليه، فإن شاء اقتضاه وإن شاء تركه» ورواه أبو داود ٤٦٩/٣. ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار عن أبي هريرة «أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال: إن لي جاراً يؤذيني، فقال له: «أخرج متاعك، فضعه على الطريق»، فأخذ الرجل متاعه، فطرحه على الطريق، فجعل كل من مر به قال: ما لك؟ قال: جاري يؤذيني، فيقول: اللهم العنه، اللهم اخزه. قال: فقال: أرجع إلى منزلك، وقال: لا أؤذيك أبداً» ورواه أبو داود ٤٦٠/٤ والبخاري في «الأدب المفرد» ٢١٦/١ وهو حديث حسن.

(١) لم يذكره أحد من المفسرين سبباً لنزول الآية، وقد جاء معنى الحديث بدون ذكر سبب، فمن ابن المسيب قال: بينما رسول الله ﷺ جالس ومعه أصحابه وقع رجل بأبي بكر ﷺ، فأذاه فصمت عنه أبو بكر، ثم أذاه الثانية، فصمت عنه أبو بكر، ثم أذاه الثالثة، فانتصر أبو بكر، فقام رسول الله ﷺ، فقال: أوجدت علي يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «نزل ملك من السماء يكلبه بما قال لك، فلما انتصرت ذهب الملك وقعد الشيطان فلم أكن لأجلس إذ وقع الشيطان» رواه أبو داود هكذا مرسل ٣٧٧/٤ ومتصلاً من طريق ابن عجلان عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة بنحوه، قال المنذري: وذكر البخاري في «تاريخه» أن المرسل أصح.

(٢) في «مجمع البيان» للطبرسي ٢٧٣/٦ قال ابن جني: ظَلَمَ وَظَلِمَ جميعاً على الاستثناء المنقطع، أي: لكن من ظلم فإن الله لا يخفى عليه أمره، ودل عليه قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمَا﴾ وموضع «من» نصب في الوجهين جميعاً، قال الزجاج: فيكون المعنى: لكن المظلوم يجهر بظلامته تشكياً، ولكن الظالم يجهر بذلك ظلماً، قال: ويجوز أن يكون موضع «من» رفعاً، على معنى: لا يحب الله أن يجهر بالسوء من القول إلا من ظلم، فيكون «من» بدلاً من معنى «أخذ». المعنى: لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء من القول إلا المظلوم، قال: وفيها وجه آخر لا أعلم أحداً من النحويين ذكره، وهو أن يكون على معنى: لكن الظالم أجهروا له بالسوء من القول. وقال الطبري: وأولى القراءتين بالصواب في ذلك قراءة من قرأ ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ بضم الظاء، لإجماع الحجة من القراءة وأهل التأويل على صحتها، وشذوذ قراءة من قرأ ذلك بالفتح.

(٣) ابن جرير ٣٤٤/٩.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ قال أبو سليمان: أي: لم يزل ذا عفوٍ مع قدرته، فاعفوا أنتم مع القدرة^(١).
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم اليهود كانوا يؤمنون بموسى، وعزير، والتوراة، ويكفرون بعيسى، والإنجيل، ومحمد، والقرآن، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم اليهود والنصارى، آمن اليهود بالتوراة وموسى، وكفروا بالإنجيل وعيسى، وآمن النصارى بالإنجيل وعيسى، وكفروا بمحمد والقرآن، قاله قتادة. ومعنى قوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: يريدون أن يفرقوا بين الإيمان بالله، والإيمان برسله، ولا يصح الإيمان به والتكذيب برسله أو ببعضهم ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: بين إيمانهم ببعض الرسل، وتكذيبهم ببعض ﴿سَبِيلًا﴾ أي: مذهبا يذهبون إليه. وقال ابن جريج: ديناً يدينون به.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِمًّا﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ ذكره «الحق» هاهنا تأكيداً لكفرهم إزالةً لتوهم من يتوهم أن إيمانهم ببعض الرسل^(٢) يزيل عنهم اسم الكفر.

﴿يَسْتَلْكَ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ فَخَذَلْنَاهُمْ فَعَسَىٰ يُظْلِمُهُمْ ثُمَّ أَخَذُوا الْوَجَلَ مِنْ بَدَنِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلَيْسَتْ فَعَقَرًا عَنْ ذَلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْتَلْكَ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم سألوه أن ينزل كتاباً عليهم خاصة، هذا قول الحسن، وقاتدة. والثاني: أن اليهود والنصارى أتوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: لا تُبَايعك حتى تأتينا بكتاب من عند الله إلى فلان أنك رسول الله، وإلى فلان بكتاب أنك رسول الله، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن جريج. والثالث: أن اليهود سألوا النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء مكتوباً كما نزلت التوراة على موسى، هذا قول القرطبي، والسدي. وفي المراد بأهل الكتاب قولان: أحدهما: اليهود والنصارى. والثاني: اليهود. وفي المراد بأهل الكتاب المنزل من السماء قولان: أحدهما: كتاب مكتوب غير القرآن. والثاني: كتاب بتصديقه في رسالته، وقد بينا في (البقرة) معنى سؤالهم رؤية الله جهرة، واتخاذهم العجل. والبيئات: الآيات التي جاء بها موسى. فإن قيل: كيف قال: ثم اتخذوا العجل، و«ثم» تقتضي التراخي والتأخر، فكيف اتخذوا العجل بعد قولهم: «أرنا الله جهرة؟» ففته أربعة أجوبة، ذكرهن ابن الأنباري. أحدهن: أن تكون «ثم» مردودة على فعلهم القديم، والمعنى: وإذ وعدنا موسى أربعين ليلة، فخالفوا أيضاً، ثم اتخذوا العجل. والثاني: أن تكون مقدمة في المعنى، مؤخرة في اللفظ، والتقدير: فقد اتخذوا العجل، ثم سألوا موسى أكبر من ذلك. ومثله «فَأَلْفَيْهَ إِلَهُتَهُمْ ثُمَّ قَوْلَ عَنْهُمْ فَأَنْظَرْ مَاذَا يَرْجُونَ» [النمل: ٢٨] المعنى: فآلفه إليهم، ثم انظر ماذا يرجعون، ثم كانوا اتخذوا العجل، فأضمر الكون. والرابع: أن «ثم» معناها التأخير في الإخبار، والتقديم في الفعل، كما يقول القائل: شربت الماء، ثم أكلت الخبز، يريد: شربت الماء، ثم أخبركم أنني أكلت الخبز بعد إخباري بشرب الماء^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ أي: لم نستأصل عبدة العجل. وال«السلطان المبين»: الحجة البينة. قال ابن عباس: اليد والعصا. وقال غيره: الآيات التسع.

(١) روى الإمام أحمد في «المسند» ١٩٤/١٢، ومسلم في «صحيحه» ٢٠٠١/٤ عن أبي هريرة مرفوعاً: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

(٢) في «الأحمدية»: ذكرهم بزيادة «هم» ولا معنى لها هنا.

(٣) في «البحر المحيط» ٣٨٧/٣: «ثم» للترتيب في الأخبار لا في نفس الأمر، ثم قد كان من أمرهم أن اتخذوا العجل، أبأوهم والذين شجقوا غير الذين اتخذوا العجل.

أنت ذاك، فألقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى، وجاء اليهود، فأخذوا الرجل، فقتلوه، ثم صلبوه^(١). وبهذا القول قال وهب بن منبه، وقتادة، والسدي.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ أَكُونَنَّ بِكُمْ فِي الْمَخْتَلِفِينَ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمُ الْيَهُودُ، فعلى هذا في هاء «فيه» قولان: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ كِتَابِيَّةٌ عَنْ قَتْلِهِ، فَاخْتَلَفُوا هَلْ قَتَلُوهُ أَمْ لَا؟. وَفِي سَبَبِ اخْتِلَافِهِمْ فِي ذَلِكَ قَوْلَانِ. أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ لَمَّا قَتَلُوا الشَّخْصَ الْمَشْبُوهَ كَانَ الشُّبْهَ قَدْ أُلْقِيَ عَلَى وَجْهِهِ دُونَ جَسَدِهِ، فَقَالُوا: الْوَجْهَ وَجْهَ عَيْسَى، وَالْجَسَدَ جَسَدَ غَيْرِهِ، ذَكَرَهُ ابْنُ السَّائِبِ. وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنْ كَانَ هَذَا عَيْسَى، فَأَيْنَ صَاحِبُنَا؟ وَإِنْ كَانَ هَذَا صَاحِبُنَا، فَأَيْنَ عَيْسَى؟ يَعْنُونَ الَّذِي دَخَلَ فِي طَلْبِهِ، هَذَا قَوْلُ السَّدِيِّ. وَالثَّانِي: أَنَّ «الْهَاءَ» كِتَابِيَّةٌ عَنْ عَيْسَى، وَاخْتِلَافُهُمْ فِيهِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: هُوَ وَلَدُ زَنَى، وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ: هُوَ سَاحِرٌ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ الْمُخْتَلِفِينَ النَّصَارَى، فعلى هذا في هاء «فيه» قولان: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ تَرَجَعَ إِلَى قَتْلِهِ، هَلْ قَتَلَ أَمْ لَا؟ وَالثَّانِي: أَنَّهُ تَرَجَعَ إِلَيْهِ، هَلْ هُوَ إِلَهٌ أَمْ لَا؟ وَفِي هَاءِ «منه» قولان: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ تَرَجَعَ إِلَى قَتْلِهِ. وَالثَّانِي: إِلَى نَفْسِهِ، هَلْ هُوَ إِلَهٌ، أَمْ لَغَيْرِ رَشْدَةٍ، أَمْ هُوَ سَاحِرٌ؟.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْتَابُ الظَّنِّ﴾ قال الزجاج: «اتباع» منصوب بالاستثناء، وهو استثناء ليس من الأول. والمعنى: ما لهم به من علم إلا أنهم يتبعون الظن، وإن رُفِعَ جاز على أن يجعل علمهم اتباع الظن، كما تقول العرب: تحيتك الضرب.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ في «الهاء» ثلاثة أقوال: أَحَدُهَا: أَنَّهُ تَرَجَعَ إِلَى الظَّنِّ فَيَكُونُ الْمَعْنَى: وَمَا قَتَلُوا ظَنَّهُمْ يَقِينًا، هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ تَرَجَعَ إِلَى الْعِلْمِ، أَي: مَا قَتَلُوا [العلم به] يَقِينًا، تقول: قتلته يَقِينًا، وقتلته علماً [للرأي والحديث]^(٢) هَذَا قَوْلُ الْفَرَّاءِ، وَابْنُ قَتَيْبَةَ. قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ: وَأَصْلُ هَذَا: أَنَّ الْقَتْلَ لِلشَّيْءِ يَكُونُ عَنْ قَهْرٍ وَاسْتِعْلَاءٍ وَغَلْبَةٍ، يَقُولُ: فَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ يَقْتُلُ الْمَسِيحَ عَلَماً أَحِيطَ بِهِ، إِنَّمَا كَانَ ظَنًّا. وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ تَرَجَعَ إِلَى عَيْسَى، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: وَمَا قَتَلُوا عَيْسَى حَقًّا، هَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ. وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: الْيَقِينُ مُؤَخَّرٌ فِي الْمَعْنَى، فَالْتَقْدِيرُ: وَمَا قَتَلُوهُ، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ يَقِينًا.

﴿وَلَنْ يَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ، قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ قال الزجاج: المعنى: وما منهم أحد إلا ليؤمنن به، ومثله ﴿وَلَنْ يَنْكَرُوا إِلَّا وَأَرَادَهُمَا﴾ [سريم: ٧١]. وَفِي أَهْلِ الْكِتَابِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمُ الْيَهُودُ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، قَالَه الْحَسَنُ، وَعُكْرَمَةُ. وَفِي هَاءِ «به» قولان: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ رَاجِعَةٌ إِلَى عَيْسَى، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْجُمْهُورُ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ رَاجِعَةٌ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، قَالَه عُكْرَمَةُ. وَفِي هَاءِ «موته» قولان: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ تَرَجَعَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ. رَوَى سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَيْسَ يَهُودِي يَمُوتُ أَبَدًا حَتَّى يُؤْمِنَ بِعَيْسَى، فَقِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنْ خَرَّ مِنْ فَوْقَ بَيْتٍ؟ قَالَ: يَتَكَلَّمُ بِهِ فِي الْهُوِيِّ^(٣) قَالَ: وَهِيَ فِي قِرَاءَةِ أَبِي: «قَبْلَ مَوْتِهِمْ»^(٤). وَهَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ، وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ. وَرَوَى الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: يُؤْمِنُ الْيَهُودِي قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ، وَلَا تَخْرُجُ رُوحُ النَّصْرَانِيِّ حَتَّى يَشْهَدَ أَنَّ عَيْسَى عَبْدٌ. وَقَالَ عُكْرَمَةُ: لَا تَخْرُجُ رُوحُ الْيَهُودِيِّ وَالنَّصْرَانِيِّ حَتَّى يُؤْمِنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ تَعَوَّدَ إِلَى عَيْسَى. رَوَى عَطَاءٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِذَا نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَا يَبْقَى يَهُودِي وَلَا نَصْرَانِي، وَلَا أَحَدٌ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ إِلَّا اتَّبَعَهُ

(١) هو قطعة من خبر طويل رواه ابن أبي حاتم، وذكره الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ٧٤/١ وصححه إسناده إلى ابن عباس. وقد استبعد الشيخ أحمد شاكر في «مقدمة التفسير» ٣١/٤ صحة هذا الأثر، ورد، واستنتج أنه من أوهام المنهال بن عمرو الأسدي، راويها عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، ثم قال: فالذي يؤمن به موفنين هو ما أخبرنا الله به في كتابه نصاً أنهم ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم دون أن ندخل في تفصيل كيف شبه لهم، وعلى من من الناس ألقى شبهه؟ فهذا التفصيل لم تكلف الإيمان به، إذ لم يعلمنا الله ولا رسوله بشيء من ذلك التفصيل.

(٢) «غريب القرآن» ص ١٣٧، والزيادة منه.

(٣) الهوي، بضم الهاء، وكسر الواو والياء المشددة: مصدر هوى يهوي: إذا سقط من فوق إلى أسفل.

(٤) رواه ابن جرير الطبري ٣٨٢/٩، ولفظه: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿وَلَنْ يَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: هي في قراءة أبي «قَبْلَ مَوْتِهِمْ» ليس يهودي يموت أبداً حتى يؤمن بعيسى. قيل لابن عباس: أرايت إن خر من فوق بيت؟ قال: يتكلم به في الهوي، فقيل: أرايت إن ضرب عتق أحد منهم؟ قال: بلجلج بها لسانه.

﴿لَنْ يَكُنَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُسْتَضِئِينَ بِالنُّورِ وَالَّذِينَ أُولَئِكَ سَتُؤْتِيهِمُ آلُكُمْ عَلَيْهِ﴾

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَكُنَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ قال ابن عباس: هذا استثناء لمؤمني أهل الكتاب، فأما الراسخون، فهم الثابتون في العلم. قال أبو سليمان: وهم عبد الله بن سلام، ومن آمن معه، والذين آمنوا من أهل الإنجيل. ممن قديم مع جعفر من الحبشة، والمؤمنون، يعني أصحاب رسول الله. فأما قوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ فهم القائمون بأدائها كما أمروا. وفي نصب «المقيمين» أربعة أقوال: أحدها: أنه خطأ من الكاتب، وهذا قول عائشة، وروي عن عثمان بن عفان أنه قال: إن في المصحف لحناً ستقيمه العرب بالسنتها^(١). وقد قرأ ابن مسعود، وأبي، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والجدري: «والمقيمون الصلاة» بالواو. وقال الزجاج: قول من قال إنه خطأ، بعيد جداً، لأن الذين جمعوا القرآن هم أهل اللغة، والقُدوة، فكيف يتركون في كتاب الله شيئاً يُصلِّحُه غيرهم؟! فلا ينبغي أن ينسب هذا إليهم. وقال ابن الأنباري: حديث عثمان لا يصح، لأنه غير متصل، ومحال أن يؤخر عثمان شيئاً فاسداً، ليُصلِّحه من بعده^(٢). والثاني: أنه نسق على «ما» والمعنى: يؤمنون بما أنزل إليك، وبالمقيمين الصلاة، فقيل: هم الملائكة، وقيل: الأنبياء. والثالث: أنه نسق على الهاء والميم من قوله ﴿مِنْهُمْ﴾ فالمعنى: لكن الراسخون في العلم منهم، ومن المقيمين الصلاة يؤمنون بما أنزل إليك. قال الزجاج: وهذا رديء عند النحويين، لا ينسق بالظاهر المجرور على المضمحل المجرور إلا في الشعر. والرابع: أنه منصوب على المدح، فالمعنى: اذكر المقيمين الصلاة، وهم المؤتون الزكاة، وأنشدوا:

لَا يَنْبَغِدَنَّ قَوْمِي الَّذِينَ هُمُ سُمُّ الْعُدَّةِ وَأَفْءُ الْجُرُزِ
النَّازِلِينَ بِكُلِّ مَعْتَرِكٍ وَالطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الْأُزْرِ^(٣)

(١) قال السخاوي: هذا الأثر ضعيف، والإسناد فيه اضطراب وانقطاع، لأن عثمان رضي الله عنه جعل للناس إماماً يقتدون به، فكيف يرى فيه لحناً ويتركه لتقيمه العرب بالسنتها؟ وقد كتب مصاحف سبعة، وليس فيها اختلاف قط إلا فيما هو من وجوه القراءات، وإذا لم يقمه هو ومن باشر الجمع، كيف يقيمه غيرهم؟ وقد نقل ابن هشام في شرح «شذور الذهب» ٥٠ عن الإمام تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية رحمه الله أنه قال: وقد زعم قوم أن قراءة من قرأ ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ﴾ لحن، وأن عثمان رضي الله عنه قال: إن في المصحف لحناً ستقيمه العرب بالسنتها. وهذا خبر باطل لا يصح من وجوه. أحدها: أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتسارعون إلى إنكار أدنى المنكرات، فكيف يقررون اللحن في القرآن مع أنهم لا كلفة عليهم في إزالته. والثاني: أن العرب كانت تستفتح اللحن غاية الاستباحة في الكلام، فكيف لا يستبحون بقاءه في المصحف. والثالث: أن الاحتجاج بأن العرب ستقيمه بالسنتها غير مستقيم، لأن المصحف الكريم يقف عليه العربي والعجمي. والرابع: أنه قد ثبت في «الصحيح» أن زيد بن ثابت أراد أن يكتب «التابوت» بالهاء على لغة الأنصار، فمنعوه من ذلك، ورفعه إلى عثمان رضي الله عنه، فأمرهم أن يكتبوه بالباء على لغة قريش. وقال الزمخشري: نصب على المدح لبيان فضل الصلاة، وهو باب واسع قد كسره سيبويه على أمثلة وشواهد، ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحناً في خط المصحف، وربما التفت إليه من لم ينظره في الكتاب، ولم يعرف مذاهب العرب، وما لهم من النصب على الاختصاص من الافتتان، وغبي عليه أن السابقين الأولين كانوا أبعد ممة في الغيرة على الإسلام، وذبح المطاعن عنه من أن يتروكا في كتاب الله ثلمة ليسدها من بعدهم، وغرقاً يرفوه من يلحق بهم. وقد روى أبو جعفر الطبري الرواية التي نسبت إلى عائشة أم المؤمنين بقوله: فلو كان ذلك خطأ من الكاتب، لكان الواجب أن يكون في كل المصاحف غير مصحفنا الذي كتبه لنا الكاتب الذي أخطأ في كتابه بخلاف ما هو في مصحفنا. وفي اتفاق مصحفنا ومصحف أبي في ذلك، ما يدل على أن الذي في مصحفنا من ذلك صواب غير خطأ مع أن ذلك لو كان خطأ من جهة الخط، لم يكن الذين أخذ عنهم القرآن من أصحاب رسول ﷺ يعلمون من علموا ذلك من المسلمين على وجه اللحن، ولا صلحوا بالسنتهم، ولقنوه الأمة تعليماً على وجه الصواب، وفي نقل المسلمين جميعاً ذلك قراءة على ما هو به في الخط مرسوماً أدل الدليل على صحة ذلك وصوابه، وأن لا صنع في ذلك للكاتب.

(٢) انظر كلام الزجاج هذا وكلام ابن تيمية رحمهما الله على الآية في «مجموع فتاويه» ١٥٣/١٥.

(٣) «مجاز القرآن» ١٤٣/١، «وسيبويه» ١٠٤/١، «والكمال» ٧٥١/٢، «والأمالي» ١٥٤/٢، «وخزانة الأدب» ٣٠١/٢. وهما للخرقي بنت هفان من قصيدة رثت بها زوجها بشرين عمرو بن مرثد الضبي، وابنها علقمة بن بشر، وأخوها حسان وشرحيل، ومن قتل معه من قومه. قال البغدادى: وقولها: سم العدة.. السم: معروف وسيه مثله. والعدة: الأعداء، جمع عاد، كقضاة: جمع قاض. حكى أبو زيد: أشتت الله عاصيك، أي: عدوك. ولا يكون «العدة» جمع عدو، لأن «عدواً» فعول، وفعول لا يجمع على فعلة، وإنما يجمع عليه فاعل المعتل اللام. والأعداء: جمع عدو، أجروا فعولاً مجرى فعيل كثيره وأشرف، وقد جمعوا أعداء على أعادي. والأفة: العلة. والجزر: بضم فسكون: جمع جزر، والأصل بضمين كرسول ورسول، فسكن الثاني تخفيفاً. والجزور: هي الناقة التي تنحر، فإن كانت من الغنم فهي جزرة بفتحين. وصنعتهم أولاً بالشجاعة والنجدة، وأنهم يقتلون أعداءهم كما يقتلهم السم، وثانياً بالكرم ونحر الإبل للأضياف، فكانهم آفة للإبل تصيبها فتهلكها. والباء في «بكل»: ظرفية متعلقة بالنازليين. والمعترك، والمعترك: موضع القتال، وهو مشتق من: عركت الرمح الحب: إذا طحنته، أرادوا أن موضع القتال: يطحن كما تطحن الرمح ما يحصل فيها. وقولها: النازليين بكل معترك. يعني أنهم ينزلون عن الخيل عند ضيق المعترك فيقاتلون على أقدامهم، وفي ذلك الوقت يتداعون: نزالي. وقولها: =

وهذا على معنى: اذكر النازلين، وهم الطيبون، ومن هذا قولك: مررت بزيد الكريم، إن أردت أن تخلصه من غيره، فالخفض هو الكلام، وإن أردت المدح والثناء، فإن شئت نصبت، فقلت: بزيد الكريم، كأنك قلت: اذكر الكريم، وإن شئت رفعت على معنى: هو الكريم. وتقول: جاءني قومك المطعمين في المخمل، والمغِيثون في الشدائد على معنى: اذكر المطعمين، وهم المغِيثون، وهذا القول اختيار الخليل، وسيبويه. فهذه الأقوال حكاهما الزجاج، واختار هذا القول.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَلَامًا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَنِي إِسْرَافِيلَ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ قال ابن عباس: قال عدي بن زيد، وسكين: يا محمد ما نعلم الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى، فنزلت هذه الآية^(١). وقد ذكرنا في «آل عمران» معنى الوحي، وذكر هنالك. وإسحاق: أعجمي، وإن وافق لفظ العربي، يقال: أسحقه الله يسحقه إسحاقاً، ويعقوب: أعجمي. فأما يعقوب، وهو ذكر الحجل وهي القبج^(٢) فعربي، كذلك قرأته على شيخنا أبي منصور اللغوي^(٣). وأيوب: أعجمي، ويونس: اسم أعجمي. قال أبو عبيدة، يقال: يُؤنس ويونس بضم النون وكسرهما، وحكى أبو زيد الأنصاري عن العرب همزه مع الكسرة والضمّة والفتحة. وقال الفراء: يونس بضم النون من غير همز لغة أهل الحجاز، وبعض بني أسد يقول: يؤنس بالهمز، وبعض بني عُقيل يقول: يونس بفتح النون من غير همز. والمشهور في القراءة يؤنس برفع النون من غير همز. وقد قرأ ابن مسعود، وقتادة، ويحيى بن يعمر، وطلحة: يؤنس بكسر النون مهموزاً. قرأ أبو الجوزاء، وأبو عمران، والجحدري: يُؤنس بفتح النون من غير همز. وقرأ أبو المتوكل: يؤنس بفتح النون مهموزاً. وقرأ أبو السماك العدوي: يؤنس بكسر النون من غير همز. وقرأ عمرو بن دينار برفع النون مهموزاً. وهارون: اسم أعجمي، وباقي الأنبياء قد تقدم ذكرهم. فأما الزبور، فأكثر القراء على فتح الزاي، وقرأ أبو رزين، وأبو رجاء، والأعمش، وحمة بضم الزاي. قال الزجاج: فمن فتح الزاي، أراد: كتاباً، ومن ضم، أراد: كُتِباً. ومعنى ذكر «داود» أي: لا تنكروا تفضيل محمد بالقرآن، فقد أعطى الله داود الزبور. وقال أبو علي: كأن حمزة جعل كتاب داود أنحاء، وجعل كل نحو زبراً، ثم جمع، فقال: زُبُوراً. وقال ابن قتيبة: الزُّبُورُ فَعُول بمعنى مفعول، كما تقول: حلوب وركوب بمعنى: محلوب ومركوب، وهو من قولك: زبرت الكتاب أزيه زبراً: إذا كتبته، قال: وفيه لغة أخرى: الزُّبُور بضم الزاي، كأنه جمع^(٤).

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ تأكيد كَلَّمَ بالمصدر يدل على أنه سمع كلام الله حقيقة. روى أبو سليمان الدمشقي، قال: سمعت إسماعيل بن محمد الصقار يقول: سمعت ثعلباً يقول: لولا أن الله تعالى أكد الفعل بالمصدر،

والطيبون. أرادت أنهم أعفاه في فروجه، لأن العرب تكني بالشيء عما يحويه أو يشتمل عليه، كقولهم: ناصح الجيب، يريدون الفواد، فكنا عته بالجيب الذي يقع عليه أو قريباً من. قال ابن خلف: إذا وصفوا الرجل بطهارة الإزار وطيه، فهو إشارة وكتابة عن عفة الفرج، يراد أنه: لا يعقد إزاره على فرج زانية وكذلك طهارة الذليل. وإذا وصف بطهارة الكم أو الردن وهو الكم بعينه: أرادوا أنه لا يسرق ولا يخون وإذا وصفوه بطهارة الجيب: أرادوا أن قلبه لا ينطوي على غش ولا مكروه، وقد يكونون عن عفة الفرج بطيب الحجة كما قال النابغة:

يحيون بالريحان يوم السباسب

رقاق النعال طيب حشواتهم

(١) «سيرة ابن هشام» ٥٦٢/١، وابن جرير ٤٠٠/٩ من ابن عباس، وفي سنده محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، ذكره ابن حبان في «الثقات» وقال الذهبي: لا يعرف. وسكين بن أبي سكين، وعدي بن زيد من بني قيتقاع، ذكرهم ابن هشام في «السيرة» في الأعداء من يهود.

(٢) في «اللسان» ٣٥١/٢: القبج: الحجل، والقبج: الكروان مغرب، وهو بالفارسية كيج مغرب، القاف والجيم لا يجتمعان في كلمة واحدة من كلام العرب، والقبجة: تقع على الذكر والأنثى حتى تقول: يعقوب، يختص بالذكر، لأن الهاء إنما دخلته على أنه الواحد من الجنس، وكذلك النعامة حتى تقول: ظليم، والحلة حتى تقول: يعسوب.

لجاز أن يكون كما يقول أحدهما للآخر: قد كلمت لك فلاناً بمعنى: كتبت إليه رقعة، أو بعثت إليه رسولاً، فلما قال: تكليماً لم يكن إلا كلاماً مسموعاً من الله^(١).

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ أي: لئلا يحتجوا في ترك التوحيد والطاعة بعدم الرسل، لأن هذه الأشياء إنما تجب بالرسل^(٢).

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾

قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن النبي ﷺ دخل على جماعة من اليهود، فقال: «أني والله أعلم أنكم لتعلمون أنني رسول الله»، فقالوا: ما نعلم ذلك، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس^(٣). والثاني: أن رؤساء أهل مكة أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: سألنا عنك اليهود، فزعموا أنهم لا يعرفونك، فأتينا بمن يشهد لك أن الله بعثك، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن السائب. قال الزجاج: الشاهد: المبين لما يشهد به، فالله ﷻ بين ذلك، ويعلم مع إبانته أنه حق. وفي معنى ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنزله وفيه علمه، قاله الزجاج. والثاني: أنزله من علمه، ذكره أبو سليمان الدمشقي. والثالث: أنزله إليك بعلم منه أنك خيرته من خلقه، قاله ابن جرير.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: يشهدون أن الله أنزله. والثاني: يشهدون بصدقك^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ قال الزجاج: «الباء» دخلت مؤكدة. والمعنى: اكتفوا بالله في شهادته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال مقاتل وغيره: هم اليهود كفروا بمحمد، وصدوا الناس عن الإسلام، قال أبو سليمان: وكان صدُّهم عن الإسلام قولهم للمشركين ولأتباعهم: ما نجد صفة محمد في كتابنا. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا﴾ لا طريق جهنم خلدلين فيها أبداً وكان ذلك على الله يبيهاً

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ قال مقاتل وغيره: هم اليهود أيضاً كفروا بمحمد والقرآن. وفي الظلم المذكور هاهنا قولان: أحدهما: أنه الشرك، قاله مقاتل. والثاني: أنه جحدهم صفة النبي محمد ﷺ في كتابهم.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يريد من مات منهم على الكفر. وقال أبو سليمان: لم يكن الله ليستر عليهم قبيح فعالهم، بل يفضحهم في الدنيا، ويعاقبهم بالقتل والجلاء والسبي، وفي الآخرة بالنار ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا﴾ ينجون فيه. وقال مقاتل: طريقاً إلى الهدى ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ يعني كان عذابهم على الله هيناً.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُولُ وَالْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

(١) وفي «القرطبي» ١٨/٦: قال النحاس: وأجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازاً وأنه لا يجوز في قول الشاعر:

امتنعوا الحوض وقال قطنني

أن يقول: قال قولاً، فكذلك لما قال: «تكليماً» وجب أن يكون كلاماً على الحقيقة من الكلام الذي يعقل.

(٢) روى البخاري في صحيحه ٣٣٧/١٣، ومسلم ٢١١٤/٤ واللفظ له عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد أحب إليه الملع من الله ﷻ من أجل ذلك ملع نفسه، وليس أحد أغبر من الله من أجل ذلك حرم الفواحش، وليس أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل».

(٣) «سيرة ابن هشام» ٢١١/٢، وابن جرير ٤٠٩/٩ عن ابن عباس قال: دخل على رسول الله ﷺ جماعة من يهود، فقال لهم: «أني والله أعلم أنكم لتعلمون أنني رسول الله ﷻ فقالوا: ما نعلم ذلك، فأنزل الله ﷻ ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ وزاد السيوطي نسبه في «الدر» ٢/٢٤٨ إلى ابن المنذر، والبيهقي في «الدلائل». قلت: وفي سنده محمد مولى زيد بن ثابت وهو مجهول كما تقدم.

(٤) في «الأحمدية»: يصدق.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الكلام عام، وروي عن ابن عباس أنه قال: أراد المشركين. ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالهدى، والصدق.

قوله تعالى: ﴿فَقَامُوا خِيَرًا لَّكُمْ﴾^(١) قال الزجاج عن الخليل وجميع البصريين: إنه منصوب بالحمل^(٢) على معناه، لأنك إذا قلت: انته خيراً لك، وأنت تدفعه عن أمر فتدخله في غيره، كان المعنى: انته خيراً لك، وادخل في ما هو خير لك. وأنشد الخليل وسيبويه قول عمر بن أبي ربيعة:

فواعديه سَرَحَتْنِي مَالِكُ
أَو الرُّبَا بَيْنَهُمَا أَسْهَلُ^(٣)

كأنه قال: إيتني مكاناً أسهل.

قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو غني عنكم، وعن إيمانكم. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما يكون من إيمان أو كفر ﴿حَكِيمًا﴾ في تكليفكم مع علمه بما يكون منكم.

﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتِّبُ لَا تَمْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةً أَنْتَهُمَا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحْدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ وَلَدٌ لَّمْ يَكُنْ لَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(٤)

قوله تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتِّبُ لَا تَمْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ قال مقاتل: نزلت في نصارى نجران، السيد والعاقب، ومن معهما. والجمهور على أن المراد بهذه الآية: النصارى. وقال الحسن: نزلت في اليهود والنصارى. والغلو: الإفراط ومجاوزة الحد، ومنه غلا السعر. وقال الزجاج: الغلو: مجاوزة القدر في الظلم. وغلو النصارى في عيسى: قول بعضهم: هو الله، وقول بعضهم: هو ابن الله، وقول بعضهم: هو ثالث ثلاثة. وعلى قول الحسن غلو اليهود فيه قولهم: إنه لغير رشدة. وقال بعض العلماء: لا تغلوا في دينكم بالزيادة في التشدد فيه^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي: لا تقولوا: إن الله له شريك أو ابن أو زوجة. وقد ذكرنا معنى «المسيح» والكلمة في (آل عمران). وفي معنى ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أحدها: أنه روح من أرواح الأبدان. قال أبي بن كعب: لما أخذ الله الميثاق على بني آدم كان عيسى روحاً من تلك الأرواح، فأرسله إلى مريم، فحملت به. والثاني: أن الروح النفخ، فسُمي روحاً، لأنه حدث عن نفخة جبريل في درع مريم. ومنه قول ذي الرمة:

(١) وفي «مجاز القرآن» ١٤٣/١ ﴿فَقَامُوا خِيَرًا لَّكُمْ﴾ نصب على ضمير جواب «يكن خيراً لكم» وكذلك كل أمر ونهي. قلت: ويريد بقوله: «ضمير» الإضمار الذي هو المصدر، لا بمعنى المضمر في اصطلاح النحاة.

(٢) في «الأحمدية» على الحمل.

(٣) «ديوانه» ٣٤٩ وروايته فيه:

وواعديه سدرتني مَالِكُ
أَوْ ذَا الَّذِي بَيْنَهُمَا أَسْهَلُ

وسيبويه ١٤٣/١، و«الخرائفة» ٢٨٠/١، وابن جرير ٤١٥/٩. قال الأعمش: الشاهد فيه نصب أسهل بإضمار فعل دل عليه ما قبله، لأنه لما قال: «فواعديه سرحتي مالك أو الربا بينهما» علم أنه مزعج لها داع إلى إثبات أحدهما، فكانه قال: إيتني أسهل الأمرين عليك. وهذا تفسيره على مقالة سيبويه. ونقل صاحب «الخرائفة» عن ابن خلف معناه أنها قالت لأمتها: واعدني الليلة أن يقصد السرحتين، ويلتصم مكاناً سهلاً يقرب من ذلك الموضع، لأنهما إذا علوا الربى عرف مكانهما وشنع أمرهما. و«أسهل» أفعل: تفضيل من السهولة ضد الحزونة، والمفضل عليه محذوف تقديره: أسهل منهما. وسرحتا مالك: شجرتان لمالك، والسرحة: واحدة السرح، وهو كل شجر عظيم لا شوك له. والربى: جمع رهوة: المشرف من الأرض، وكانت الربى بين السرحتين.

(٤) قال ابن كثير رحمه الله: ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزل التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه - ممن زعم أنه على دينه - فادعوا فيهم العصمة، واتبعوهم في كل ما قالوه، سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً، ولهذا قال تعالى ﴿أَتَشْكُرُونَا أَعْزَمَ لَكُمْ وَفِيكُمْ أَنْزَلْنَا مِنَ اللَّهِ الْتَوْبَةَ﴾ [التوبة: ٣١] وروى الإمام أحمد ٢٢٦/١ عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد الله ورسوله» ورواه البخاري: ٣٣٥/٦. قلت: قال الحافظ ابن حجر: وقوله: «لا تطروني» بضم أوله، والإطراء: المدح بالباطل، تقول: أطريت فلاناً: مدحته فأفرطت في مدحه. وقوله: «كما أطرت النصارى ابن مريم» أي: في دعواهم فيه الإلهية وغير ذلك.

وَقُلْتُ لَهُ اَرْفَعَهَا إِلَيْكَ وَأَخِيهَا
هذا قول أبي روق. والثالث: أن معنى ﴿رُوحٌ مِّنْهُ﴾ إنسان حيّ بإحياء الله له. والرابع: أن الروح: الرحمة، فمعناه: ورحمة منه، ومثله ﴿وَأَنبَدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. والخامس: أن الروح هاهنا جبريل. فالمعنى: ألقاها الله إلى مريم، والذي ألقاها رُوحٌ منه، ذكر هذه الأقوال الثلاثة أبو سليمان الدمشقي. والسادس: أنه سَمَاهُ روحاً، لأنه يحيي به الناس كما يحيون بالآرواح، ولهذا المعنى سمي القرآن روحاً، ذكره القاضي أبو يعلى. والسابع: أن الروح: الوحي أوحى الله إلى مريم يبشرها به، وأوحى إلى جبريل بالنفخ في درعها، وأوحى إلى ذات عيسى أن: كن فكان. ومثله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل: ٢٠] أي: بالوحي، ذكره الثعلبي. فأما قوله: «منه» فإنه إضافة تشريف، كما تقول: بيت الله، والمعنى من أمره، ومما يقاربها قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [البقرة: ١٣].
قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ قال الزجاج: رفعه بإضمار: لا تقولوا ألهتنا ثلاثة ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ﴾ أي: ما هو إلا إله واحد ﴿مُسَبَّحَةٌ﴾ ومعنى «سبحانه»: تبرئته من أن يكون له ولد. قال أبو سليمان: ﴿وَكُنَّ بِإِلَهِ وَحِيدًا﴾ أي: قِيَمًا على خلقه، مدبراً لهم.

﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسَخَّرَ مَنَاسِكُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾
قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ سبب نزولها: أن وفد نجران وفدوا على رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد لَمْ تذكر صاحبنا؟ قال: ومن صاحبكم؟ قالوا: عيسى، قال: وأي شيء أقول له؟ هو عبد الله، قالوا: بل هو الله، فقال: إنه ليس بعار عليه أن يكون عبداً لله، قالوا: بلى، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. قال الزجاج: معنى يستنكف: يأنف، وأصله في اللغة من نكفت الدمع: إذا نحيته بأصبعك من خذك. قال الشاعر:
فبانوا فلولا ما تذكُّرُ منهم
من الجلف لم ينكف لعينيك مَدْمَعُ^(١)

قوله تعالى: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ قال ابن عباس: هم حملة العرش.
﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَزَيَّدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَخْدَعُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾
قوله تعالى: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: ثواب أعمالهم ﴿وَزَيَّدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ مضاعفة الحسنات. وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ قال: يدخلون الجنة، ﴿وَزَيَّدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾: الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ تُورًا مُبِينًا﴾

(١) «ديوانه» ص ٢٤٦، وابن جرير ٤٢٠/٩، «واللسان» مادة «روح» من جملة آيات نعت بها النار وقبل البيت:
فلما بدت كُفِّنْهَا وهي طفلة
بطلساء لم تُكْمَلْ ذراعاً ولا شبراً
وقلت... البيت ويعد:
وظاهر لها من يابس الشُّخْتِ واستمعن
ولما تَنَمَّتْ تَأْكُلُ السَّمَّ لَمْ تَدْعُ
فلما جَرَّتْ فِي الْجَزْلِ جِرياً كأنه
وقوله: أوفعها إليك. أي: قال لصاحبه: خلها بيك، وارفعها إلى فمك، ثم أحياها بروحك أي: انفع لها نفخاً يسيراً، واقته لها قية قدراً، يأمره بالرفق والنفع القليل شيئاً فشيئاً، كأنه جعل النفخ قوتاً لهذه النار، بقدر لها تقديراً شيئاً بعد شيء حتى تكتمل.

(٢) «اللسان» ٣٤٠/٩، «فتاح العروس» ٢٦١/٦ ولم ينسبها لقائل. وفي «التهذيب»: فماتوا. وانظر كلام الزجاج في «القرطبي» ٢٦/٦.
(٣) في «الدرر المشو» ٢٤٩/٢: وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في «الحلية»، والإسماعيلي في «معجمه» بسند ضعيف عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَزَيَّدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال: أجورهم: يدخلهم الجنة. ويزيدهم من فضله: الشفاعة فيمن وجبت لهم النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا. وذكره ابن كثير عن ابن مردويه، ثم قال: وهذا إسناد لا يثبت، وإذا روي عن ابن مسعود موقوفاً فهو جيد. وفي «المجمع» ١٣/٧: روى الطبراني في «الأوسط» والكبير، وفي إسماعيل بن عبد الله الكندي ضعفه الذهبي من عند نفسه، فقال: أتى بخبر منكرو، وبقيه رجاله وثقوا. قلت: ذكره الذهبي في «الميزان» ١٠٩/١، وقال: روى عن الأعمش، وعنه بقية بخبر عجيب منكرو. قلت: يريد به هذا الخبر.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ في البرهان ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحجة، قاله مجاهد، والسدي. والثاني: القرآن، قاله قتادة. والثالث: أنه النبي محمد ﷺ، قاله سفيان الثوري. فأما النور المبين، فهو القرآن، قاله قتادة، وإنما سماه نوراً، لأن الأحكام تبين به بيان الأشياء بالنور.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ۖ فَسُخِّرَتْ لَهُمْ فِي رَحْمَةِ رَبِّهِمْ وَلِيٌّ مِّمَّنْ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ (١٧٥)

قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِهِ﴾ أي: استمسكوا. وفي هاء «به» قولان: أحدهما: أنها تعود إلى النور وهو القرآن، قاله ابن جريج. والثاني: تعود إلى الله تعالى، قاله مقاتل. وفي «الرحمة» قولان: أحدهما: أنها الجنة، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أنها نفس الرحمة، والمعنى: سيرحهم، قاله أبو سليمان. وفي «الفضل» قولان: أحدهما: أنه الرزق في الجنة، قاله مقاتل. والثاني: أنه الإحسان، قاله أبو سليمان.

قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: يوفهم لإصابة الطريق المستقيم. وقال ابن الحنفية: الصراط المستقيم: دين الله.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلُّانُ إِنَّمَا تَرَكَ وَلَدٌ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ نِصْفُ مَا لِلْأُنثَىٰ بَيْنَهُمَا اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضْلُوا وَاللَّهُ يُكَلِّمُ شَيْءٍ عَلَيْهِ﴾ (١٧٦)

قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنها نزلت في جابر بن عبد الله. روى أبو الزبير عن جابر قال: مرضت فأتاني رسول الله ﷺ يعودني هو وأبو بكر [وهما ماشيان] فوجدني قد أغمي علي، فتوضأ رسول الله ﷺ، ثم صب علي من وضوئه، فأفقت، وقلت: يا رسول الله كيف أصنع في مالي؟ وكان لي تسع أخوات، ولم يكن لي ولد. فلم يجيني بشيء، ثم خرج وتركني، ثم رجع إلي وقال: «يا جابر لا أراك ميتاً من وجعك هذا، وإن الله ﷻ قد أنزل في أخواتك، وجعل لهن الثلثين»، فقرأ علي هذه الآية: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ فكان جابر يقول: أنزلت هذه الآية في^(١). والثاني: أن الصحابة أهتمهم بيان شأن الكلاله فسألوا عنها نبي الله، فنزلت هذه الآية، هذا قول قتادة. وقال سعيد بن المسيب: سأل عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ كيف نورث الكلاله؟ فقال: «أو ليس قد بين الله تعالى ذلك، ثم قرأ: ﴿وَإِن كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً﴾» فأنزل الله ﷻ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾ أي: مات ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ يريد: ولا والد: فاكتفى بذكر أحدهما، ويدل على المحذوف أن الفتيا في الكلاله، وهي من ليس له ولد ولا والد.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾ يريد من أبيه وأمه ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ عند انفرادها ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا﴾ أي: يستغرق ميراث الأخت إذا لم يكن لها ولد ولا والد، وهذا هو الأخ من الأب والأم، أو من الأب ﴿وَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ﴾ يعني: أختين. وسئل الأخفش ما فائدة قوله «اثنتين» و«كانتا» لا يُفسَّر إلا باثنتين؟ فقال: أفادت العدد العاري عن الصفة، لأنه يجوز في «كانتا» صغيرتين، أو حرتين، أو صالحتين، أو طالحتين، فلما قال: «اثنتين» فإذا إطلاق العدد على أي وصف كانتا عليه ﴿فَلَهُمَا الشُّلُّانُ﴾ من تركه أخيهما الميت ﴿وَإِن كَانُوا﴾ يعني المخلفين.

قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضْلُوا﴾ قال ابن قتيبة: لثلاث تضلوا. وقال الزجاج: فيه قولان: أحدهما: أن لا تضلوا، فأضمرت لا. والثاني: كراهية أن تضلوا، وهو قول البصريين. قال ابن جريج: أن تضلوا في شأن الموارث.

(١) أبو داود: ١٦٤/٣، والطائسي في «مسند» ١٧/٢، وابن جرير ٤٣٢/٩، والبيهقي في «السنن» ٢٣١/٦، وروى مسلم في «صحيحه» ١٢٣٤/٣ عن جابر بن عبد الله قال: مرضت، فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيين، فأغمي علي، فتوضأ، ثم صب علي من وضوئه فأفقت قلت: يا رسول الله! كيف أقضي في مالي؟ فلم ير علي شيئاً حتى نزلت آية الميراث ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ وروى البخاري: ١٨٢/٨، ومسلم: ١٢٣٥/٣ عن جابر ﷺ قال: عادني النبي ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل، فدعا بماء فتوضأ منه، ثم رش علي فأفقت، قلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزل ﴿يُؤْيِيكُمُ اللَّهُ فِي تَرَابِكُمْ﴾.

(٢) أخرجه ابن جرير ٤٣١/٩، وهو حديث مرسل، وفي سننه سفيان بن وكيع شيخ الطبري وهو ضعيف.

سورة المائدة^(١)

قال ابن عباس، والضحاك: هي مدنية. وقال مقاتل: نزلت نهاراً وكلها مدنية. وقال أبو سليمان الدمشقي: فيها من المكي ﴿أَلَيْسَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ دِيْنَكُمْ﴾ قال: وقيل: فيها من المكي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا سَعْتَكُمْ آلِهَةً﴾ والصحيح أن قوله: ﴿أَلَيْسَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ دِيْنَكُمْ﴾ نزلت بعرفة يوم عرفة، فلهذا نسبت إلى مكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْتَنِ إِلَّا مَا بَلَغَ عَلَيْكُمْ غَيْرُ حِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ لِمَا اللَّهُ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۖ﴾ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اختلّفوا في المخاطبين بهذا على قولين: أحدهما: أنهم المؤمنون من أمتنا، وهذا قول الجمهور. والثاني: أنهم أهل الكتاب، قاله ابن جريج. والعقود: العهود، قاله ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير، وقتادة، والضحاك، والسدي، والجماعة. وقال الزجاج: «العقود»: أوكد العهود. واختلّفوا في المراد بالعهود هاهنا على خمسة أقوال: أحدها: أنها عهود الله التي أخذها على عباده فيما أحلّ وحرم، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد. والثاني: أنها عهود الدين كلها، قاله الحسن. والثالث: أنها عهود الجاهلية، وهي الحلف الذي كان بينهم، قاله قتادة. والرابع: أنها العهود التي أخذها الله على أهل الكتاب من الإيمان بالنبي محمد ﷺ، قاله ابن جريج، وقد ذكرنا عنه أن الخطاب للكتابيين. والخامس: أنها عقود الناس بينهم، من بيع، ونكاح، أو عقد الإنسان على نفسه من نذر، أو يمين، وهذا قول ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْتَنِ﴾ في بهيمة الأنعام ثلاثة أقاويل: أحدها: أنها أجنّة الأنعام التي توجد ميتة في بطون أمهاتها إذا ذبحت الأمهات، قاله ابن عمر، وابن عباس^(٢). والثاني: أنها الإبل، والبقر، والغنم، قاله الحسن، وقتادة، والسدي. وقال الربيع: هي الأنعام كلها. وقال ابن قتيبة: هي الإبل، والبقر، والغنم، والوحوش كلها. والثالث: أنها وحوش الأنعام كالظباء، وبقر الوحش، روي عن ابن عباس، وأبي صالح. وقال الفراء: بهيمة الأنعام: بقر الوحش، والظباء، والحمر الوحشية. قال الزجاج: وإنما قيل لها بهيمة، لأنها أبهمت عن أن تميّز، وكل حي لا يميّز فهو بهيمة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا بَلَغَ عَلَيْكُمْ﴾ روي عن ابن عباس أنه قال: هي الميتة وسائر ما في القرآن تحريمه. وقال ابن الأنباري: المتلو علينا من المحظور الآية التي بعدها، وهي قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْيَتُهُ﴾^(٣).

قوله تعالى: ﴿غَيْرُ حِلِّي الصَّيْدِ﴾ قال أبو الحسن الأخفش: أوفوا بالعقود غير محلي الصيد، فانتصب على الحال. وقال غيره: المعنى: أحت لكم بهيمة الأنعام غير مستحلي اصطباها وأنتم حرم، قال الزجاج: الحرم: المحرمون، وواحد الحرم: حرام، يقال: رجل حرام، وقوم حرم. قال الشاعر:

(١) روى الحاكم في «المستدرک» ٣١١/٢ من جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة رضي الله عنها، فقالت لي: يا جبير تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، قالت: أما إنها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم من حرام فحرموه. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، ورواه الإمام أحمد وزاد: «وسألناها عن خلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: القرآن».

(٢) في الحديث عن النبي ﷺ قال: «ذكاة الجنين ذكاة أمه» رواه أبو داود ١٣٦/٣، والترمذي ١٧٨/١، وابن ماجه ١٠٦٧/٢ من حديث جابر وهو حديث صحيح. وفي «المغني» ٥١/١١: إذا خرج الجنين ميتاً من بطن أمه بعد ذبحها أو وجد ميتاً في بطنها، أو كانت حركته بعد خروجه كحركة المذبوح فهو حلال. روي هذا عن عمر وعلي وبه قال سعيد بن المسيب، والنخعي، والشافعي، وإسحاق وابن المنذر.

(٣) وفي «القرطبي» ٣٥/٦: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا بَلَغَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يقرأ عليكم في القرآن والسنة من قوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْيَتُهُ﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام: «وكل ذي ناب من السباع حرام».

فقلت لها فيشي إليك فانني حرام وإنسي بعد ذلك لبيب^(١)

أي: ملب. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ مَا يُرِيدُ﴾ أي: الخلق له يحل ما يشاء لمن يشاء، ويحرم ما يريد على من يريد. ﴿يَكُنَّا الَّذِينَ آمَنُوا لَا نُحِلُّوا سَعَتَهُ اللَّهُ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْفَلَاحَةَ وَلَا عَائِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَنَوَّنَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَتَائُ قَوْمٍ أَنْ مَسَدُكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَاصْطَادُوا عَلَى الْإِلَهِ وَالنَّفْسِ وَلَا تَعَاوَدُوا عَلَى الْإِلَهِ وَالْمَدُونِ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا سَعَتَهُ اللَّهُ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن شريح بن ضبيعة^(٢) أتى المدينة، فدخل على النبي ﷺ، فقال: إلى ما تدعو؟ فقال: «إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله»، فقال: إن لي أمراء خلفي أرجع إليهم أشاورهم، ثم خرج، فقال النبي ﷺ: «لقد دخل بوجه كافر وخرج بعقب غادر، وما الرجل بمسلم»، فمر شريح بسرح لأهل المدينة، فاستاقه، فلما كان عام الحديبية، خرج شريح إلى مكة معتمراً، ومعه تجارة، فأراد أهل السرح أن يغيروا عليه كما أغار عليهم، فاستأذنوا رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس^(٣). وقال السدي: اسمه الحطم بن هند البكري^(٤). قال: ولما ساق السرح جعل يرتجز:

قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقٍ حُطَمٌ
وَلَا بِجَزَارٍ عَلَى ظَهْرٍ وَضَمٌ
بَاتَ يُقَاسِمُهَا غَلَامٌ كَالزَّلَمِ
لَيْسَ بِرَاعِي إِبِلٍ وَلَا غَنَمٍ
بَاتُوا نِيَاماً وَابْنُ هَنْدٍ لَمْ يَنْمِ
خَدَّلَجُ السَّاقِينَ مَمْسُوحُ الْقَدَمِ^(٥)

(١) البيت للمضرب بن كعب بن زهير بن أبي سلمى، وهو في «مجاز القرآن» ١٤٥/٨، و«السمط» ٧٩١/٢، و«الانقباض» ٤٧٥، و«شرح أدب الكاتب» للجواليقي ٤١١، و«القرطبي» ٣٦/٦. قال البطلوسي: سمي المضرب، لأنه شب بامرأة، فغار أخوها لذلك، فضربه بالسيف ضربات عديدة، ويروى لشبل بن الصامت المري وبعدة:

فَصَدَّتْ بِمِعْنِي شَادِي وَتَبَسُّمَتْ
بِعَجْفَاءٍ عَنْ غُرْلِهِنَّ غُرُوبِ

وأراد بالغر: أستانها، والغروب: جمع غرب، وهو حد الأستان. وصف أن محبوبته لقيها وهو محرم ملب، فنزع عن الكلام معها، ومعنى «فيشي»: أرجعي. و«الحرام»: المحرم. و«ليب» هاتنا بمعنى: ملب وهو نادر، لأن فِعْلاً لا يستعمل بمعنى «مفعول». و«بعد» بمعنى: «مع» وقوله: «فيشي إليك» أمر بعد أمر على معنى التأكيد في إبعاده عن نفسه.

(٢) في «أسباب النزول» للواحدي: ضبيح الكندي. (٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص ١٠٧ عن ابن عباس بدون سند.

(٤) رواية السدي هذه أخرجه ابن جرير ٤٧٢/٩. ورواه أيضاً ابن جرير، وابن المنذر من طريق عكرمة.

(٥) الرجز في «الأغاني» ٤٤/١٤، و«حماسة» أبي تمام ٣٥٤/١. و«رغبة الأمل» ٧٥/٤، و«البيان والتبيين» ٣٠٨/٢. وقد اختلفوا في نسبة هذا الشعر اختلافاً كثيراً، فنسبه في «الحماسة» لرشيد بن رميض العنزي، ونسب أيضاً للأغلب العجلي، وللأخضر بن شهاب، ولجابر بن خني التخلي، وانظر «السمط» ٧٢٩، ولعل الحطم أنشده مدحاً لنفسه فيما فعل من سوق السرح. وقبل هذا الرجز:

هَذَا أَوَّانُ الشَّدِّ فَاشْتَدَّى زَيْمٌ

قال المروزقي: وزيم اسم فرس، وقوله: قد لفها. يريد الإبل، وجعل الفعل لليل على المجاز. والمعنى: جمعها برجل متاهي القوة، عنيف السوق، يكسر الطرائد بعضاً على بعض، لقلته رفقته وكثرة عصفه، ولأنه قليل الفكر فيها إذا كانت حُصِلَتْ بالغارة، فإن سلمت فهي غُتْمٌ، وإن تلفت فليست بئرم، فالعوض منها بالقرب. وقوله: الحطم: بناء للمبالغة، وهو من الحطم: الكر. وقوله:

لَيْسَ بِرَاعِي إِبِلٍ وَلَا غَنَمٍ
وَلَا بِجَزَارٍ عَلَى ظَهْرٍ وَضَمٌ

يقول: لا يرق هذا الرجل بوسايقه رفق الرعاة، ولا رفق الجزار، وذلك أن الراعي مكترى لاستصلاح مرعيه، وحفظ ما ضم إليه بجهد، والجزار لا يستهلك ماله، ولا يعنف علف من لا يبالي به، وهذا صفة المغوار، القليل الفكر في فساد ما يحويه منها، الذاهب عن استبقائها، لا يبالي كيف استوسقت، على أي حالة تحصلت. وقوله: باتوا نياماً... يقول: مكث الناس النائمين في ليهم، وهذا الرجل لم ينام، لأنه كان يبيت للغارة، ثم قال: بات يقاسمها أي: يعاني الغارة كيف يوقعها ويدبرها، متى يأخذ فيها غلام مدبج الخلق، خفف ثقف شمس، كأنه قدح. يعني ابن هند. والزلم، بفتح الزاي وضمها: القِدْح كان يستقسم به. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْبِرُوا بِالْأَكْثَرِ﴾. ويجوز أن يكون المضمرون في «باتوا» المغار عليهم. وقوله: خدلج الساقين، يصفه بأنه غليظ الساقين، ولوطه الأرض صوت، ولقدمة خفق، وهو سرعة الخطو مع ضرب الأرض بها، كأنه يشير بهذا إلى ثباته وقوته في العمل والسير، وشدة بلائه وصبره على الكد. وقال الأستاذ محمود شاكر: وخدلج الساقين: ممتلئ الساقين، وهذا غير حسن في الرجال، وإنما صواب روايته ما رواه ابن الأعرابي:

مَهْفُوفُ الْكَشْحَيْنِ خَفَاقُ الْقَدَمِ

أي: ضامر أخصر، وخفاق القدم: لأقدامه خفق متتابع على الأرض من سرعته وهو يحدو بالإبل. ورواية المصنف «مسحوق القدم» أي: ليس لباطن قدميه أخمص، فأسفل قدميه مستو أملس لين، ليس فيهما تكسر ولا شقاق.

والثاني: أن ناساً من المشركين جاؤوا يؤمون البيت يوم الفتح مهلين بعمرة، فقال المسلمون: لا ندع هؤلاء بل نغير عليهم، فنزل قوله: ﴿وَلَا تَأَيَّنَ الْيَتِيمَ الْكُرَامَ﴾^(١). قال ابن قتيبة: وشعائر الله: ما جعله الله علماً لطاعته. وفي المراد بها هاهنا سبعة أقوال: أحدها: أنها مناسك الحج، رواه الضحاك عن ابن عباس. وقال الفراء: كانت عامة العرب لا يرون الصفا والمروة من الشعائر، ولا يطوفون بينهما، فقال الله تعالى: لا تستحلوا ترك ذلك. **والثاني:** أنها ما حرم الله تعالى في حال الإحرام، رواه العوفي عن ابن عباس. **والثالث:** دين الله كله، قاله الحسن. **والرابع:** حدود الله، قاله عكرمة، وعطاء. **والخامس:** حرم الله، قاله السدي. **والسادس:** الهدايا المشعرة لبيت الله الحرام، قاله أبو عبيدة، والزجاج. **والسابع:** أنها أعلام الحرم، نهاهم أن يتجاوزوها غير محرمين إذا أراوا دخول مكة، ذكره الماوردي، والقاضي أبو يعلى^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا الشَّهَرَ الْحُرَامَ﴾ قال ابن عباس: لا تُحِلُّوا القتال فيه. وفي المراد بالشهر الحرام ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ذو القعدة، قاله عكرمة، وقناة. **والثاني:** أن المراد به الأشهر الحرم. قال مقاتل: كان جنادة بن عوف يقوم في سوق عكاظ كل سنة فيقول: ألا إني قد أحللت كذا، وحرمت كذا. **والثالث:** أنه رجب، ذكره ابن جرير الطبري. **واللهدي:** كل ما أهدى إلى بيت الله تعالى من شيء. وفي القلائد قولان: أحدهما: أنها المقلدات من الهدي، رواه العوفي عن ابن عباس. **والثاني:** أنها ما كان المشركون يقلدون به إبلهم وأنفسهم في الجاهلية، ليأمنوا به عدوهم، لأن الحرب كانت قائمة بين العرب إلا في الأشهر الحرم، فمن لقوه مقلداً نفسه، أو بعيه، أو مشعراً بُدْئَهُ أو سائِقاً هدياً لم يُتعرض له. قال ابن عباس: كأن من أراد أن يسافر في غير الأشهر الحرم، قلد بعيه من الشعر والوبر، فيأمن حيث ذهب. وروى مالك بن مغول^(٣) عن عطاء قال: كانوا يقلدون من لحاء شجر الحرم، فيأمنون به إذا خرجوا من الحرم. فنزلت هذه الآية^(٤). وقال قناة: كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلد من السمر، فلم يعرض له أحد، وإذا رجع تقلد قلادة شعر، فلم يعرض له أحد^(٥). وقال الفراء: كان أهل مكة يُقلدون بلحاء الشجر، وسائر العرب يُقلدون بالوبر والشعر. وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: لا تستحلوا المقلدات من الهدي. **والثاني:** لا تستحلوا أصحاب القلائد. **والثالث:** أن هذا نهى للمؤمنين أن ينزعوا شيئاً من شجر الحرم، فيقلدوه كما كان المشركون يفعلون في جاهليتهم، رواه عبد الملك عن عطاء، وبه قال مطرف، والربيع بن أنس^(٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأَيَّنَ الْيَتِيمَ الْكُرَامَ﴾ «الآية»: القاصد، «والبيت الحرام»: الكعبة، والفضل: الربح في التجارة، والرضوان من الله يطلبونه في حجهم على زعمهم. ومثله قوله: «وَأَنْظُرْ إِلَيْكَ الْيَوْمَ» [طه: ٩٧] وقيل: ابتغاء الفضل عام، وابتغاء الرضوان للمؤمنين خاصة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ لفظه لفظ الأمر، ومعناه الإباحة، نظيره: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] وهو يدل على إحرام متقدم^(٧).

(١) أخرجه ابن جرير ٤٧٤/٩: حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد...

(٢) رجع ابن جرير الطبري ما ذهب إليه عطاء من قوله - حين سئل عن شعائر الله -: حرمت الله، اجتناب سخط الله، واتباع طاعته، فذلك شعائر الله.

(٣) في «الأحمدية» «معوله» وهو تصحيف. ومالك هنا ثقة، روى له الجماعة، مترجم في «التلخيص» ٢٢/١٠.

(٤) ابن جرير ٤٦٨/٩: وفي سنده سفيان بن وكيع، وهو ضعيف. و«اللحاء» بكسر اللام: قشر الشجرة.

(٥) ابن جرير ٤٦٨/٩: وإسناده صحيح. والسمر، بفتح السين وضم الميم: ضرب من الشجر، صغار الورق، قصار الشوك، وله برمة صفراء يأكلها الناس، وليس في الغضاء شيء أجود خشباً منه، ينقل إلى القرى فتسمى به البيوت. وقوله: «تقلد من السمر» يريد قشره.

(٦) اختار ابن جرير أن الله نهى عن استحلال حرمة المقلد، هدياً كان أو إنساناً دون حرمة القلادة، فمعنى الآية على ما اختاره: يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله، ولا الشهر الحرام، ولا الهدي، ولا المقلد نفسه بقلائد الحرم.

(٧) قال ابن كثير ٥/٢: وقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أي: فرغتم من إحرامكم، وأحللتم منه، فقد أباحنا لكم ما كان محرماً عليكم في حال الإحرام من الصيد، وهذا أمر بعد الخطر، والصحيح الذي يثبت على السبر أنه يرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي، فإن كان واجباً رده واجباً، وإن كان مستحباً فمستحب، أو مباحاً فباح، ومن قال: إنه على الوجوب ينتقض عليه بآيات كثيرة، ومن قال: إنه للإباحة يرد عليه آيات أكثر، والذي يتظم الأدلة كلها هذا الذي ذكرناه، كما اختاره بعض علماء الأصول والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ وروى الوليد عن يعقوب «يجرمنكم» بسكون النون، وتخفيفها. قال ابن عباس: لا يحملنكم، وقال غيره: لا يدخلنكم في الجرم، كما تقول: آثمته، أي: أدخلته في الإثم. وقال ابن قتيبة: لا يكسبنكم يقال: فلان جارم أهله، أي: كاسبهم، كذلك جريمتهم^(١). وقال الهذلي ووصف عقاباً:

جريمة ناهض في رأس زيتي تَرَى لِعِظَامٍ مَا جَمَعَتْ صَلِيباً^(٢)

والناهض: فرخها، يقول: هي تكسب له، وتأتيه بقوته. و«الشنان»: البغض، يقال: شنته أشنؤه: إذا أبغضته. وقال ابن الأنباري: «الشنان»: البغض، و«الشنان»: بتسكين النون: البغيض. واختلف القراء في نون الشنان، فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: بتحريكها، وأسكنها ابن عامر، وروى حفص عن عاصم تحريكها، وأبو بكر عنه تسكينها، وكذلك اختلف عن نافع. قال أبو علي: «الشنان»، قد جاء وصفاً، وقد جاء اسماً، فمن حرك، فلأنه مصدر، والمصدر يكثر على فَعْلان، نحو الزَّوان، ومن سَكَن، قال: هو مصدر، وقد جاء المصدر على فَعْلان، تقول: لويته دينه لَيَّاناً، فالمعنى في القراءتين واحد، وإن اختلف اللفظان. واختلفوا في قوله: ﴿أَنْ صَدْرَكُمْ﴾ فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالكسر، وقرأ الباقر بالفتح، فمن فتح جعل الصّد ماضياً، فيكون المعنى من أجل أن صدوكم، ومن كسرها، جعلها للشرط، فيكون الصّد مترقباً. قال أبو الحسن الأخفش: وقد يكون الفعل ماضياً مع الكسر، كقوله: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧] وقد كانت السرقة عندهم قد وقعت، وأنشد أبو علي الفارسي:

إذا ما انْتَسَبْنَا لَمْ تَلِدُنِي لَيْمَةً وَلَمْ تَجِدِي مَنْ أَنْ تُقِرِّي بِهَا بُدْأً^(٣)

[فانتفاء الولادة أمر ماض وقد جعله جزاء، والجزاء إنما يكون بالمستقبل، فيكون المعنى: إن نتسب لا تجدني مولود لئيمة^(٤)]. قال ابن جرير: وقراءة من فتح الألف أبين، لأن هذه السورة نزلت بعد الحديبية، وقد كان الصّد تقدّم. فعلى هذا في معنى الكلام قولان: أحدهما: ولا يحملنكم بغض أهل مكة أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا فيه، فتقاتلوه، وتأخذوا أموالهم إذا دخلتموه، رواء أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: لا يحملنكم بغض أهل مكة وصدّهم إياكم أن تعتدوا بإتيان ما لا يحل لكم من الغارة على المعتمرين من المشركين، على ما سبق في نزول الآية. قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْرِ وَالتَّقْوَى﴾ قال الفراء: يُعِين بعضكم بعضاً. قال ابن عباس: البر ما أمرت به، و«التقوى»: ترك ما نهيت عنه. فأما «الإثم»: فالمعاصي. والعدوان: التعدي في حدود الله، قاله عطاء^(٥).

(١) في «الأحلية»: «حرمتم» وهو خطأ.

(٢) البيت لأبي غرashed الهذلي كما في «ديوان الهذليين» ١٣٣/٢، و«المعاني الكبير» ٢٨٠/١ و«غريب القرآن» ١٣٩، و«معجم مقاييس اللغة» ٤٤٦/١، و«اللسان»: مادة جرم وهو في وصف عقاب شبه فرسه بها وقوله:

كأنني إذ غَدَرًا ضَمَّنْتُ بِزِي

جريمة: كاسية. وناهض: فرخ. واليتق: أرفع موضع في الجبل. والصليب: الدوك. وقال الأزهري في «التهذيب»: عن هذا البيت: يصف عقاباً تصيد فرخها الناهض ما تأكله من لحم طير أكلته وبقي عظامه يسيل منها الدوك.

(٣) «معاني القرآن» للفراء ٦١/١، ١٧٨، و«ابن جرير» ١٦٥/٢، و«شذور الذهب» ٣٣٩، و«شواهد المنني» ٣٣. وهو لزائدة بن صمصمة الفقهسي يعرض بزوجه، وكانت أمها سرية، وقبل البيت:

رَمَيْتَنِي عَنْ قَوْسِ الْعَدُوِّ وَاعْتَدْتُ

والشاهد فيه قوله: «إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة» فإن ظاهره أن جواب الشرط، وهو قوله «لم تلدني» ماض في المعنى وإن كان فعلاً مضارعاً في اللفظ، لكن هذا الظاهر غير مراد، لأن الشاعر يريد أن يقول: إننا إذا تفاخرنا بأنسابنا، تبين أني لم تلدني لئيمة.

(٤) ما بين متقنين من «معجم البيان» للطبرسي ١١/٦.

(٥) قال ابن كثير ٦/٢: وقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْرِ وَالتَّقْوَى﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخير، وهو البر، وترك المنكرات، وهو التقوى، وينهاهم عن التناصر على الباطل، والتعاون على المآثم والمحامد. قال ابن جرير: الإثم: ترك ما أمر الله بفعله، والعدوان: مجاوزة ما حد الله في دينكم ومجاوزة ما فوض الله إليكم في أنفسكم وفي غيركم. وقد روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، قال، قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قيل يا رسول الله، هذا نصرت مظلوماً، فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال: تحجزه وتمنعه من الظلم، فلذلك نصره». ورواه البخاري ٥/٧١، ومسلم ٤/١٩٩٨. وروى الإمام مسلم في «صحيحه» ٣/١٥٠٦ عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «من دُلَّ على خير فله مثل أجر فاعله». وروى الإمام مسلم أيضاً ٤/٢٠٦٠ عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً».

فصل

اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على قولين: أحدهما: أنها محكمة، روي عن الحسن أنه قال: ما نسخ من المائدة شيء، كذلك قال أبو ميسرة في آخرين قالوا: ولا يجوز استحلال الشعائر، ولا الهدي قبل أو أن ذبحه. واختلفوا في «القلائد» فقال قوم: يحرم رفع القلادة عن الهدي حتى ينحر، وقال آخرون: كانت الجاهلية تقلد من شجر الحرم، فقبل لهم: لا تستحلوا أخذ القلائد من الحرم، ولا تصدوا القاصدين إلى البيت. والثاني: أنها منسوخة، وفي المنسوخ منها أربعة أقوال: أحدها: أن جميعها منسوخ، وهو قول الشعبي. والثاني: أنها وردت في حق المشركين كانوا يقلدون هداياهم، ويظهرون شعائر الحج من الإحرام والتلبية، فنهى المسلمون بهذه الآية عن التعرض لهم، ثم نسخ ذلك بقوله: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» [التوبة: ٥] وهذا قول الأكثرين. والثالث: أن الذي نسخ قوله: «وَلَا يَأْتِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ» نسخه قوله: «فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا» [التوبة: ٣٨] روي عن ابن عباس، وقتادة. والرابع: أن المنسوخ منها: تحريم الشهر الحرام، وأمن البيت الحرام: إذا كانوا مشركين. وهدي المشركين: إذا لم يكن لهم من المسلمين أمان، قاله أبو سليمان الدمشقي.

«حَرَمْتَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالْذَّمَّ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُولَ لَغَيْرِ اللَّهِ يَدُهُ وَالْمُنْخَفِقَةَ وَالْمَوْقُوذَةَ وَالْمَرْدِيَّةَ وَالنَّطِيحَةَ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْكَرِ ذَلِكَ يَنْتَقِ الْيَوْمَ يَسُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَدَيْكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْا الْيَوْمَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ وَبَيْنَكُمْ وَأَمْسَكْتُمْ عَلَيْكُمْ يَمْنَى وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامُ وَبِمَا قَمِنَ اسْتَطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَفِيٌّ» ﴿١﴾ قوله تعالى: «حَرَمْتَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ» (١) مفسر في (البقرة)، فأما «المنخفقة» فقال ابن عباس: هي التي تختنق وتموت، وقال الحسن، وقتادة: هي التي تختنق بجبل الصائد وغيره. قلت: والمنخفقة حرام كيف وقع ذلك. قال ابن قتية: «الموقوذة»: التي تضرب حتى ترقد، أي: تشرف على الموت، ثم تترك حتى تموت، وتؤكل بغير ذكاة^(٢)، ومنه يقال: فلان وقيد، وقد وقذته العيادة. «والمتردية»: الواقعة من جبل أو حائط، أو في بئر، يقال: تردى: إذا سقط. «والنطيحة»: التي تنطحها شاة أخرى، أو بقرة، «فعليلة» في معنى «مفعولة» «وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ» وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، وأبو مجلز، وابن أبي ليلى: السَّبُع: بسكون الباء. والمراد: ما اقتصره فأكل بعضه «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» أي: إلا ما لحقتم من هذا كله وبه حياة، فذبحتموه. فأما الاستثناء، ففيه قولان: أحدهما: أنه يرجع إلى المذكور من عند قوله: «وَالْمُنْخَفِقَةَ». والثاني: أنه يرجع إلى ما أكل السبع خاصة، والعلماء على الأول.

فصل في الذكاة

قال الزجاج: أصل الذكاة في اللغة: تمام الشيء، فمنه الذكاء في السن، وهو تمام السن. قال الخليل: الذكاء:

(١) يستثنى من الميتة السمك فإنه حلال سواء مات بتذكية أو غيره، لما رواه مالك ٢٢/١، والشافعي ٢١/١، وأحمد ٢١٤/١، وأبو داود ٥٤/١، والترمذي ٩٦/١، والنسائي ١٧٤/١، وابن ماجه ١٣٦/١، وابن خزيمة، وابن حبان في «صحيحيهما» عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر، فقال: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» وكذلك الجراد لما روى الشافعي ١٧٣/٢، وأحمد ١٠٣/٨، وابن ماجه ١٠٧٣/٢، والدارقطني ٥٤٠، والبيهقي ٢٥٤/١ عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أحل لكم ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالسمك والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال» وقد روى سليمان بن بلال - أحد الأثبات - عن زيد بن أسلم عن ابن عمر فوقفه عليه، وصحح الموقوف أبو زرعة الرازي وأبو حاتم. قال الحافظ ابن حجر في «التلخيص» ٩: نعم الرواية الموقوفة التي صححها أبو حاتم وغيره هي في حكم المرفوع، لأن قول الصحابي: «أحل لنا، وحرم علينا كذا، مثل قوله: أمرنا بكذا ونهينا عن كذا، فيحصل الاستدلال بهذه الرواية، لأنها في معنى المرفوع.

(٢) في «صحيح مسلم» ١٥٢٩/٣ أن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله إني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب، قال: «إذا رميت بالمعراض فخرق فكله، وإن أصاب بعرضه فإنما هو وقيد فلا تأكله» وفي «المعني» ٢٥/١١: المعراض: عود محدد، وربما جعل في رأسه حديدة، قال أحمد: المعراض يشبه السهم يحذف به الصيد، وربما أصاب الصيد يحلله فخرق وقتل فيباح، وربما أصاب بعرضه فقتل بقله فيكون موقوذاً فلا يباح، وهذا قول علي، وعثمان، وعمار، وابن عباس وبه قال النخعي ومالك، والثوري، والشافعي، وأبو حنيفة، وإسحاق، وأبو ثور. وقال الشوكاني في «فتح القدير» ٨/٢: وقد سألني جماعة من أهل العلم عن الصيد بالبنادق الحديدية التي يجعل فيها البارود والرصاص إذا مات ولم يتمكن الصائد من تذكيته حياً. والذي يظهر لي أنه حلال، لأنها تخزق وتدخل في الغالب من جانب منه، وتخرج من الجانب الآخر، وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح: «إذا رميت بالمعراض فخرق فكله» فاعتبر الخرق في تحليل الصيد.

أن تأتي على قروحه سنة، وذلك تمام استكمال القوة، ومنه الذكاء في الفهم، وهو أن يكون فهماً تاماً، سريع القبول. وذُكِّيت النار، أي: أتممت إشعالها. وقد روي عن علي، وابن عباس، والحسن، وقَتادة أنهم قالوا: ما أدركت ذكاته بأن توجد له عينٌ تُظَرِّف، أو ذنبٌ يتحرك، فأكله حلالٌ. قال القاضي أبو يعلى: ومذهب أصحابنا أنه إن كان يعيش مع ما به، حل بالذبح، فإن كان لا يعيش مع ما به، نظرت، فإن لم تكن حياته مستقرة، وإنما حركته حركة المذبوح، مثل أن شُقَّ جوفه، وأبينت حشوته، فانفصلت عنه، لم يحل أكله، وإن كانت حياته مستقرة يعيش اليوم واليومين، مثل أن يشق جوفه، ولم تقطع الأمعاء، حل أكله. ومن الناس من يقول: إذا كانت فيه حياة في الجملة أبيح بالذكاة، والصحيح ما ذكرنا، لأنه إذا لم تكن فيه حياة مستقرة، فهو في حكم الميت. ألا ترى أن رجلاً لو قطع حُشْوَةَ آدمي، ثم ضرب عنقه آخر، فالأول هو القاتل، لأن الحياة لا تبقى مع الفعل الأول^(١). وفي ما يجب قطعه في الذكاة روايتان: إحداهما: أنه الحلقوم والمريء، والعرقان اللذان بينهما الحلقوم والمريء، فإن نقص من ذلك شيئاً، لم يؤكل، هذا ظاهر كلام أحمد في رواية عبد الله. والثانية: يجزئ قطع الحلقوم والمريء، وهو ظاهر كلامه في رواية حنبل، وبه قال الشافعي. وقال أبو حنيفة: يجزئ قطع الحلقوم والمريء وأحد الودجين. وقال مالك: يجزئ قطع الأوداج، وإن لم يقطع الحلقوم^(٢). وقال الزجاج: الحلقوم بعد الفم، وهو موضع النفس، وفيه شعب تشعب منه في الرئة. والمريء: مجرى الطعام، والودجان: عرقان يقطعهما الذابح. فأما الآلة التي تجوز بها الذكاة، فهي كل ما أنهر الدم، وفرى الأوداج سوى السن والظفر، سواء كانا منزوعين، أو غير منزوعين^(٣). وأجاز أبو حنيفة الذكاة بالمنزوعين. فأما البعير إذا توحش، أو تردى في بئر، فهو بمنزلة الصيد ذكاته عقره^(٤). وقال

(١) في «المغني» لابن قدامة ١١/٦١ والمنخقة، والموقوذة، والمتريدة، والنطيحة وأكيلة السبع وما أصابها مرض فماتت به محرمة إلا أن تدرك ذكاتها لقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوهَا﴾ وفي حديث جارية كعب أنها أصيبت شاة من غنمها، فأدركتها فذبحتها بحجر فستل النبي ﷺ فقال: «كلوها» رواه أحمد والبخاري. فإن كانت لم يبق من حياتها إلا مثل حركة المذبوح لم تبح بالذكاة، لأنه لو ذبح ما ذبحه المجوسي لم يبيح، وإن أدركها وفيها حياة مستقرة بحيث يمكنه ذبحها حلت لمعوم الآية والخبر، وسواء كانت قد انتهت إلى حال يعلم أنها لا تعيش معه أو تعيش لمعوم الآية والخبر، ولأن النبي ﷺ لم يسأل ولم يستفصل. وقد قال ابن عباس في ذنب عدا على شاة فقعرها، فوق قصبها بالأرض، فأدركها فذبحها بحجر قال: يلقي ما أصاب الأرض ويأكل سائرهما. وقال أحمد في بهيمة عقرت بهيمة حتى تبين فيها آثار الموت إلا أن فيها الروح يعني فذبحت قال: إذا مصبت بذنبها، وطرفت بعينها، وسال الدم، فأرجو إن شاء الله تعالى أن لا يكون يأكلها بأس، وروى ذلك بإسناده عن عقیل بن عمير وطاووس وقالوا: تحركت، ولم يقلوا: سال الدم، وهذا على مذهب أبي حنيفة. وقال إسماعيل بن سعيد: سألت أحمد عن شاة مريضة خافوا عليها الموت، فذبحوها فلم يعلم منها أكثر من أنها طرفت بعينها أو حركت يدها أو رجلها أو ذنبها بضعف فنهز الدم قال: فلا بأس به، وقال ابن أبي موسى: إذا انتهت إلى حد لا تعيش معه لم تبح بالذكاة، ونص عليه أحمد فقال: إذا شق الذنب بطنها فخرج قصبها فذبحها لا تؤكل، وقال: إن كان يعلم أنها تموت من عقر السبع فلا تؤكل وإن ذكاه، وقد يخاف على الشاة الموت من العلة والشئ، يصيبها فيبادهها فيذبحها فيأكلها وليس هذا مثل هذه، لا يدري لعلها تعيش، والتي قد خرجت أمعاؤها يعلم أنها لا تعيش، وهذا قول أبي يوسف والأول أصح، لأن عمر ﷺ انتهى به الجرح إلى حد علم أنه لا يعيش معه فوصى بقتل وصاياه، ووجبت العبادة عليه، وفي ما ذكرنا من عموم الآية والخبر وكون النبي ﷺ لم يستفصل في حديثه جارية كعب ما يرد هذا وتحمل نصوص أحمد على شاة خرجت أمعاؤها وبانت منها فتلك لا تحل بالذكاة، لأنها في حكم الميت، ولا تبقى حركتها إلا كحركة المذبوح، فأما ما خرجت أمعاؤها ولم تبين منها فهي في حكم الحياة، تباح بالذبح ولهذا قال الخرقي فيمن شق بطن رجل فأخرج حشوته فقطعها فأبانه، ثم ضرب عنقه آخر، فالقاتل هو الثاني. وقال بعض أصحابنا: إذا كانت تعيش معظم اليوم حلت بالذكاة، وهذا التحديد بعيد يخالف ظاهر النصوص ولا سبيل إلى معرفته، وقوله في حديث جارية كعب: «فأدركتها فذكتها بحجر» يدل على أنها بادرتها بالذكاة حين خافت موتها في ساعتها، والصحيح أنها إذا كانت تعيش زمناً يكون الموت بالذبح أسرع منه، حلت بالذبح، وأنها متى كانت مما لا يتيقن موتها كالمریضة أنها متى تحركت وسال دمه حلت والله أعلم.

(٢) في «المغني» ٤٤/١١: وأما الفعل فيعتبر قطع الحلقوم والمريء، وبهذا قال الشافعي، وعن أحمد رواية أخرى أنه يعتبر مع هذا قطع الودجين، وبه قال مالك وأبو يوسف، لما روى أبو هريرة ؓ قال: نهى رسول الله عن شريطة الشيطان وهي التي تذبح فتقطع الجلد ولا تفري الأوداج، ثم ترك حتى تموت. رواه أبو داود ١٣٦١/٣. [قال المنذري: وفي إسناده عمرو بن عبد الله الصنعاني وقد تكلم فيه غير واحد] وقال أبو حنيفة: يعتبر قطع الحلقوم والمريء وأحد الودجين. ولا خلاف في أن الأكل قطع الأربعة، الحلقوم والمريء والودجين.

(٣) روى البخاري: ٩٤/٥، ومسلم: ١٥٥٨/٤، وأبو داود: ١٣٤٤/٣، والنسائي: ٢٢٦٧/٧، والترمذي: ١٨٠١/١ وابن ماجه: ١٠٦١/٢ عن رافع بن خديج قال: قلت: يا رسول الله إنا نلقى العدو غداً وليس معنا مدى، فقال النبي ﷺ: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا ما لم يكن سناً أو ظفراً وسأحدثكم من ذلك، أما السن فعضم، وأما الظفر فمدى الحيشة».

(٤) روى البخاري: ٩٤/٥، ومسلم: ١٥٥٨، والنسائي: ٢٢٨٧/٧، وأبو داود عن رافع بن خديج قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فند بعير من إبل القوم، ولم يكن معهم خيل، فرماه رجل بسهم فحبسه، فقال رسول الله ﷺ: «إن لهذه البهائم أوابد كأوابد الوحش، فما قتل منها فلا تأكلوا به هكذا». وفي =

مالك: ذكاته ذكاة المقدور عليه^(١). فإن رمى صيداً، فأبان بعضه، وفيه حياة مستقرة، فذكاه، أو تركه حتى مات جازأكله، وفي أكل ما بان منه روايتان.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ في النصب قولان: أحدهما: أنها أصنام تنصب فتعبد من دون الله، قاله ابن عباس، والفراء، والزجاج، فعلى هذا القول يكون المعنى، وما ذبح على اسم النصب، وقيل لأجلها، فتكون «على» بمعنى «اللام»، وهما يتعاقبان في الكلام، كقوله: ﴿فَسَلِّ لَكَ﴾ [الواقعة: ٩١] أي: عليك، وقوله: ﴿وَلِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ١٧]. والثاني: أنها حجارة كانوا يذبحون عليها، ويشرحون اللحم عليها ويعظمونها، وهو قول ابن جريج. وقرأ الحسن، وخارجة عن أبي عمرو: على النُّصْب، بفتح النون، وسكون الصاد، قال ابن قتيبة، يقال: نُصِبَ ونُصِبَ ونُصِبَ، وجمعه أنصاب.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَسْقِسُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ قال ابن جرير: أي: وأن تطلبوا علم ما قسم لكم، أو لم يقسم بالأزلام، وهو استفعلت من القسم [قسم الرزق والحاجات]. قال ابن قتيبة: الأزلام: القداح، واحدها: زَلَم وزَلَم. والاستقسام بها: أن يضرب [بها] فيعمل بما يخرج فيها من أمر أو نهى، فكانوا إذا أرادوا أن يقسموا شيئاً بينهم، فأحبوا أن يعرفوا قسم كل امرئ تعرفوا ذلك منها، فأخذ الاستقسام من القسم وهو النصيب. قال سعيد بن جبير: الأزلام: حصى بيض، كانوا إذا أرادوا غداً، أو روحاً، كتبوا في قدهين، في أحدهما: أمرني ربي، وفي الآخر: نهاني ربي، ثم يضربون بهما، فأبهما خرج، عملوا به. وقال مجاهد: الأزلام: سهام العرب، وكعاب فارس التي يتقمارون بها. وقال السدي: كانت الأزلام تكون عند الكهنة. وقال مقاتل: في بيت الأصنام. وقال قوم: كانت عند سدنة الكعبة^(٢). قال الزجاج: ولا فرق بين ذلك، وبين قول المنجمين: لا تخرج من أجل نجم كذا، أو أخرج من أجل نجم كذا.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ فِتْنٌ﴾ في المشار إليه بذلك قولان: أحدهما: أنه جميع ما ذكر في الآية، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وبه قال سعيد بن جبير. والثاني: أنه الاستقسام بالأزلام، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والفسق: الخروج عن طاعة الله إلى معصيته^(٣).

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَبِّئُكَ الْفَافِ كَفَرُوا مِنْ دِيْنِكَ﴾ في هذا اليوم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اليوم الذي دخل فيه رسول الله مكة في حجة الوداع، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال ابن السائب: نزلت ذلك اليوم. والثاني: أنه يوم عرفة، قاله مجاهد، وابن زيد. والثالث: أنه لم يرد يوماً بعينه، وإنما المعنى: الآن يشوا كما تقول: أنا اليوم قد كبرت، قاله الزجاج. قال ابن الأنباري: العرب توقع اليوم على الزمان الذي يشتمل على الساعات والليالي، فيقولون: قد كنت في غفلة، فالיום استيقظت، يريدون: فالآن، ويقولون: كان فلان يزورنا، وهو اليوم يجفونا، ولا يقصدون باليوم قصد يوم واحد. قال الشاعر:

فِيَوْمٍ عَلَيْنَا وَيَوْمٍ لَنَا وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُ^(٤)

= «المعني»: روي ذلك عن علي، وابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وعائشة عليهن السلام، وبه قال مسروق، والأسود، والحسن، وعطاء، وإسحاق، والشعبي، والحكم، وحماة، والثوري، وأبو حنيفة، والشافعي، وإسحاق، وأبو ثور.

(١) ذكر في «المعني» أن الإمام أحمد قال: لعل مالكا لم يسمع حديث رافع بن خديج. وتناول ابن العربي في «أحكام القرآن» الحديث بأن مفاده جواز حبس ما ند من البهائم بالرمي وغيره، لا أن ذلك ذكاة لها.

(٢) روى البخاري ٢٧٦/٦ عن ابن عباس عليه السلام أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحييت، ورأى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما الأزلام، فقال: «قاتلهم الله، والله إن استقسما بالأزلام قط».

(٣) قال الحافظ ابن كثير: وقد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا أن يمرهم أن يستخبروه بأن يعيدوه، ثم يسألوه الخيرة في الأمر الذي يريدونه، كما روى الإمام أحمد والبخاري ٤٠/٣ وأهل السنن عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، ويقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدر بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه باسمه - خير لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: عاجل أمري وآجله، فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلمه شراً لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفني عنه واصرفه عني، واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به» لفظ أحمد. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٤) البيت للنمر بن تولب كما في «الشواهد الكبرى» ٥٦٥/١ للمعني، والنمر بن تولب: شاعر مخضرم عاش عمراً طويلاً في الجاهلية، وكان فيها شاعر =

أراد: فزمان لنا، وزمان علينا، ولم يقصد ليوم واحد لا ينضم إليه غيره. وفي معنى يأسهم قولان: أحدهما: أنهم يشعرون أن يرجع المؤمنون إلى دين المشركين، قاله ابن عباس، والسدي. والثاني: يشعرون أن يطلون الإسلام، قاله الزجاج. قال ابن الأنباري: وإنما يشعرون أن يطل دينهم لما نقل الله خوف المسلمين إليهم، وأمنهم إلى المسلمين، فعلموا أنهم لا يقدر أن يطل دينهم، ولا على استصالحهم، وإنما قاتلوهم بعد ذلك ظناً منهم أن كفرهم يبقى.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ قال ابن جريج: لا تخشوهم أن يظهروا عليكم، وقال ابن السائب: لا تخشوهم أن يظهروا على دينكم، واخشوني في مخالفة أمري.

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ روى البخاري، ومسلم في «الصحيحين» من حديث طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر فقال: يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية من كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: وأي آية هي؟ قال: قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ فقال عمر: إني لأعلم اليوم الذي نزل فيه على رسول الله، والساعة التي نزلت فيها، والمكان الذي نزل فيه على رسول الله وهو قائم بعرفة في يوم الجمعة. وفي لفظ «نزلت عشية عرفة»^(١) قال سعيد بن جبيرة: عاش رسول الله ﷺ بعد ذلك أحداً وثمانين يوماً. فأما قوله: ﴿الْيَوْمَ﴾ ففيه قولان: أحدهما: أنه يوم عرفة، وهو قول الجمهور^(٢). والثاني: أنه ليس بيوم معين، رواه عطية عن ابن عباس، وقد ذكرنا هذا آنفاً. وفي معنى إكمال الدين خمسة أقوال: أحدها: أنه إكمال فرائضه وحدوده، ولم ينزل بعد هذه الآية تحليل ولا تحريم، قاله ابن عباس، والسدي، فعلى هذا يكون المعنى: اليوم أكملت لكم شرائع دينكم. والثاني: أنه بنفي المشركين عن البيت، فلم يحج معهم مشرك عاملاً، قاله سعيد بن جبيرة، وقتادة. وقال الشعبي: كمال الدين هاهنا: عزه وظهوره، وذلل الشرك ودروسه، لا تكامل الفرائض والسنن، لأنها لم تنزل تنزل إلى أن قبض رسول الله ﷺ، فعلى هذا يكون المعنى: اليوم أكملت لكم نصر دينكم. والثالث: أنه رفع النسخ عنه. وأما الفرائض فلم تنزل تنزل عليه حتى قبض، روي عن ابن جبيرة أيضاً. والرابع: أنه زوال الخوف من العدو، والظهور عليهم، قاله الزجاج. والخامس: أنه أمن هذه الشريعة من أن تنسخ بأخرى بعدها، كما نسخ بها ما تقدمها. وفي إتمام النعمة ثلاثة أقوال: أحدها: منع المشركين من الحج معهم، قاله ابن عباس، وابن جبيرة، وقتادة. والثاني: الهداية إلى الإيمان، قاله ابن زيد. والثالث: الإظهار على العدو، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَتَطَلَّعَ﴾ أي: دعت الضرورة إلى أكل ما حُرِّم عليه. ﴿فِي تَحْمِيلَةٍ﴾ أي: مجاعة، والخصم: الجوع. قال الشاعر يذم رجلاً:

يَسْرَى الْخَمِصَ تَعْذِيباً وَإِنْ يَلْقَى شَبْعَةً
يَبْتَثِ قَلْبُهُ مِنْ قِلَّةِ الْهَمِّ مُبْهِمًا^(٣)

وهذا الكلام يرجع إلى المحرمات المتقدمة من الميتة والدم، وما ذكر معها. قوله: ﴿غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ قال ابن قتيبة: غير مائل إلى ذلك، و«الجنف»: الميل. وقال ابن عباس، والحسن، ومجاهد: غير متعمد للإثم. وفي معنى «متجانف الإثم» قولان: أحدهما: أن يتناول منه بعد زوال الضرورة، روي عن ابن عباس في آخرين. والثاني: أن

= الرياب، وكان من ذوي النعمة والوجاهة جواداً وقابلاً لماله، أدرك الإسلام وهو كبير السن، ووفد على النبي ﷺ فكتب له كتاباً فكان في أيدي أهله. وقوله: «فيوم علينا ويوم لنا» يريد أن الدهر يومان، يوم يكون علينا وفيه نساء، ويوم يكون لنا وفيه نسر ونفح.

(١) البخاري ٢٠٣/٨، ومسلم ٢٣١٢/٤، ولفظ مسلم قريب من سيطرة المصنف، ورواه الإمام أحمد في «المسند» ٢٣٧/١، والترمذي ٩٦/٤، والنسائي ١١٤/٨.

(٢) قال ابن كثير: والصواب الذي لا شك فيه ولا مرية: أنها أنزلت يوم عرفة وكان يوم الجمعة، كما روى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الله بن عباس، وسمرة بن جندب، وأرسله الشعبي، وقتادة بن دعامة، وشهر بن حوشب، وغير واحد من الأئمة والعلماء، واختاره ابن جرير رحمه الله.

(٣) البيت لحاتم الطائي، وهو في «ديوانه» ١٠٩، و«نوادير أبي زيد» ١١١، و«طبقات فحول الشعراء» ٤٨٣، و«الأغاني» ١٦/١٢٢، و«غريب القرآن» ١٤١. وقوله:

لِحَا اللَّهِ مُمْلُوكاً مُنْهً
مِنَ الْعَيْشِ أَنْ يَلْقَى لَبُوساً وَمُطْعِماً
وللشعر في «طبقات ابن سلام» خير فائزوه.

يتعرض لمعصية في مقصده، قاله قتادة. وقال مجاهد: من بغى وخرج في معصية، حرم عليه أكله. قال القاضي أبو يعلى: وهذا أصح من القول الأول، لأن الآية تقتضي اجتماع تجانف الإثم مع الاضطراب، وذلك إنما يصح في سفر العاصي، ولا يصح حمله على تناول الزيادة على سد الرمق، لأن الاضطراب قد زال. قال أبو سليمان: ومعنى الآية: فمن اضطرب فأكله غير متجانف لإثم، فإن الله غفور، أي: متجاوز عنه، رحيم إذ أحل ذلك للمضطرب^(١).

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَكُمْ مِنْ دَمَائِهِمْ قُلْ أَمَرَ أَنْ يَكُلُوا مِنْ دَمَائِهِمْ وَمَا عَنِتُّمْ قُلْ كَلِمَةً عَمَلُكُمْ اللَّهُ لِيَكُنَّ كَلِمَةً وَاحِدَةً وَأَنْتُمْ مَعَكُمْ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَكُمْ مِنْ دَمَائِهِمْ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن النبي ﷺ لما أمر بقتل الكلاب، قال الناس: يا رسول الله ماذا أحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فنزلت هذه الآية، أخرجه أبو عبد الله الحاكم في «صحيحه» من حديث أبي رافع عن النبي ﷺ^(٣) وكان السبب في أمر النبي ﷺ بقتلها أن جبريل ﷺ استأذن على رسول الله ﷺ فأذن له، فلم يدخل وقال: «إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة» فنظروا فإذا في بعض بيوتهم جرو^(٤). والثاني: أن عدي بن حاتم، وزيد الخيل الذي سمّاه رسول الله: زيد الخير، قالوا: يا رسول الله إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة، فمنه ما ندرك ذكاته، ومنه ما لا ندرك ذكاته، وقد حرّم الله الميتة، فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت هذه الآية، قاله سعيد بن جبير^(٥). قال الزجاج: ومعنى الكلام: يسألونك أي شيء أحل لهم؟ قل: أحل لكم الطيبات، وأحل لكم صيد ما علمتم من الجوارح، والتأويل أنهم سألوا عنه ولكن حذف ذكر صيد ما علمتم، لأن في الكلام دليلاً عليه. وفي الطيبات قولان: أحدهما: أنها المباح من الذبائح. والثاني: أنها ما استطابته العرب مما لم يحرم. فأما «الجوارح» فهي

(١) قال ابن كثير رحمه الله ١٤/٢: وقوله: ﴿فَمَنْ أَضَلُّ مِنْ مَنَافِقِ إِثْرِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله تعالى لضرورة الجأته إلى ذلك، فله تناولها، والله غفور رحيم له، لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر وانقاره إلى ذلك، فيتجاوز عنه ويغفر له. وفي «المستدرک» ١٧٠/٨: «صحيح ابن حبان» عن ابن عمر مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته» لفظ ابن حبان. [قلت: وفي «المجمع» ١٦٢/٣: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، والزار والطبراني في «الأوسط» وإسناده حسن] وفي لفظ لأحمد ٢٣٨/٧ من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرقة. ولهذا قال الفقهاء: قد يكون تناول الميتة واجباً في بعض الأحيان، وهو ما إذا خاف على نفسه ولم يجد غيرها، وقد يكون مندوباً، وقد يكون مباحاً، بحسب الأحوال. واختلفوا هل يتناول منها قدر ما يسد به الرمق، أو له أن يشبع ويتزود؟ على أقوال، كما هو مقرر في كتاب «الأحكام». وفيما إذا وجد ميتة وطعام الغير، أو صيداً وهو محرم، هل يتناول الميتة أو ذلك الصيد ويلزمه الجزاء، أو ذلك الطعام ويضمن بدله؟ على قولين، هما قولان للشافعي رحمه الله. وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم! بل متى اضطرب إلى ذلك جاز له. وقد روى الإمام أحمد ٢١٨/٥ عن أبي واقد الليثي، أنهم قالوا: يا رسول الله إنا بأرض تصيبنا بها الممخصة فتنبأ لنا بها الميتة؟ فقال: «إذا لم تصطبحوها، ولم تغتبقوها، ولم تحنثوا بقلأ، فشاكنكم بها». فترد به أحد من هذا الوجه، وهو إسناده صحيح على شرط «الصحيحين». وكذا رواه ابن جرير ٥٣٨/٩. ومعنى قوله: «ما لم تصطبحوها» يعني به الفداء، «وما لم تغتبقوها» يعني به العشاء. «أو تحنثوا بقلأ فشاكنكم بها» أي: تكلموا بها. قال ابن جرير: يروى هذا الحرف - يعني قوله أو تحنثوا - على أربعة أوجه: «تحنثوا» بالهمزة و«تحنثوا» بتخفيف الياء والحاء. و«تحنثوا» بتشديد الفاء. و«تحنثوا» بالحاء والتخفيف، ويحتمل الهمز، كما ذكره في «التفسير»، وقوله: «غير متجانف لإثم» أي: متعاط لمعصية الله فإن الله قد أباح ذلك له. وسكت عن الآخر، كما قال في سورة البقرة ١٧٣: ﴿فَمَنْ أَضَلُّ مِنْ مَنَافِقِ إِثْرِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقد استدلل بهذه الآية من يقول بأن العاصي بسفرو لا يترخص بشيء من رخص السفرة، لأن الرخص لا تنال بالعاصي. والله أعلم.

(٢) «المستدرک» ٣١١/٢: وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه على تصحيحه الذهبي. وفي سنده محمد بن إسحاق وقد عنعن. ورواه ابن جرير ٥٤٥/٩ بسند فيه موسى بن عبيدة بن نسيب الردي، وهو منكر الحديث لا تحل الرواية عنه. وروى الإمام أحمد في «المستدرک» ٩/٦، ٣٩١ نحو هذا المعنى عن أبي رافع في قتل الكلاب ولكن ليس فيه أنه سبب لنزول هذه الآية. قلت: وإطلاق المصنف لفظ الصحيح على «مستدرک الحاكم» فيه تساهل إذ ليس كل ما في «المستدرک» صحيحاً، بل فيه الضعيف والموضوع.

(٣) وروى الإمام مسلم ١٦٦٤/٣ عن عبد الله بن عباس ؓ قال: أخبرني ميمونة أن رسول الله ﷺ أصبح يوماً واجماً فقالت ميمونة: يا رسول الله لقد استنكرت هيتك منذ اليوم! قال رسول الله ﷺ: «إن جبريل كان وأعلمني أن يلقاني الليلة فلم يلقني أما والله ما أخلفني» قال: فظل رسول الله ﷺ يومه ذلك على ذلك، ثم وقع في نفسه جرو كلب تحت فسطاط لنا، فأمر به فأخرج، ثم أخذ بيده ماء فنضح مكانه، فلما أمسى لقيه جبريل فقال له: «قد كنت وعدتني أن تطلقني البارحة» قال: أجل لكنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة، فأصبح رسول الله ﷺ يومئذ فأمر بقتل الكلاب، حتى إنه يأمر بقتل كلب الحائط الصغير، ويترك كلب الحائط الكبير.

(٤) رواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن عدي بن حاتم، وزيد بن مهلهل الطائين. وفي سنده ابن لهيعة، قال الحفاظ في «التقريب» صدوق خلط بعد احتراق كبه، وعطاء بن دينار الراوي عن سعيد بن جبير، قيل: لم يسمع منه.

ما صيد به من سباع البهائم والطير، كالكلب، والفهد، والصقر، والبازي، ونحو ذلك مما يقبل التعليم. قال ابن عباس: كل شيء صاد فهو جراح. وفي تسميتها بالجوارح قولان: أحدهما: لكسب أهلها بها. قال ابن قتيبة: أصل الاجترار: الاكتساب، يقال: امرأة لا جراح لها، أي: لا كاسب. والثاني: لأنها تجرح ما تصيد في الغالب، ذكره الماوردي. قال أبو سليمان الدمشقي: وعلامة التعليم أنك إذا دعوته أجاب، وإذا أسدته استأسد، ومضى في طلبه، وإذا أمسك أمسك عليك لا على نفسه، وعلامة إمساكه عليك: أن لا يأكل منه شيئاً، هذا في السباع والكلاب، فأما تعليم جوارح الطير فبخلاف السباع، لأن الطائر إنما يُعلَّم الصيد بالأكل، والفهد والكلب وما أشبههما يعلمون بترك الأكل، فهذا فرق ما بينهما.

وفي قوله: «مُكَلِّبِينَ» ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أصحاب الكلاب، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وهو قول ابن عمر، وسعيد بن جبير، وعطاء، والضحاك، والسدي، والفراء، والزجاج، وابن قتيبة. قال الزجاج: يقال: رجل مكَلَّب وكَلَّابِي، أي: صاحب صيد بالكلاب. والثاني: أن معنى «مكَلِّبِينَ»: مُصَرِّين على الصيد، وهذا مروى عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد. والثالث: أن «مكَلِّبِينَ» بمعنى: معلمين. قال أبو سليمان الدمشقي: وإنما قيل لهم: مكَلِّبِينَ، لأن الغالب من صيدهم إنما يكون بالكلاب. قال ثعلب: وقرأ الحسن، وأبو رزين، «مُكَلِّبِينَ»، بسكون الكاف، يقال: أكلب الرجل: إذا كثرت كلابه، وأمشى: إذا كثرت ماشيته، والعرب تدعو الصائد مكَلَّباً.

قوله تعالى: «تُؤَدِّبُونَ بَنِيَّ أَعْلَمَكُمْ اللَّهُ» قال سعيد بن جبير: تؤدِّبونهم لطلب الصيد. وقال الفراء: تؤدِّبونهم أن لا يأكلن صيدهن. واختلفوا هل إمساك الصائد عن الأكل شرط في صحة التعليم أم لا؟ على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه شرط في كل الجوارح، فإن أكلت، لم يؤكل، روي عن ابن عباس، وعطاء. والثاني: أنه ليس بشرط في الكل، ويؤكل وإن أكلت، روي عن سعد بن أبي وقاص، وابن عمر، وأبي هريرة، وسلمان الفارسي. والثالث: أنه شرط في جوارح البهائم، وليس بشرط في جوارح الطير، وبه قال الشعبي، والنخعي، والسدي، وهو أصح لما بينا أن جوارح الطير يعلم على الأكل، فأبيح ما أكل منه، وسباع البهائم تعلم على ترك الأكل، فأبيح ما أكلت منه. فعلى هذا إذا أكل الكلب والفهد من الصيد، لم يبيح أكله. فأما ما ل منه الصقر والبازي، فمباح، وبه قال أبو حنيفة، وأصحابه، وقال مالك: يباح أكل ما أكل منه الكلب، والفهد، والصقر، فإن قتل الكلب، ولم يأكل، أبيع. وقال أبو حنيفة: لا يباح، فإن أدرك الصيد، وفيه حياة، فمات قبل أن يذكيه، فإن كان ذلك قبل القدرة على ذكاته أبيع، وإن أمكنه فلم يذكه، لم يبيح، وبه قال مالك، والشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يباح في الموضعين. فأما الصيد بكلب المجوسي، فروي عن أحمد أنه لا يكره، وهو قول الأكثرين، وروي عنه الكراهة، وهو قول الثوري، لقوله تعالى: «وَمَا عَلَّمَهُ بَيْنَ الْجَوَارِحِ» وهذا خطاب للمؤمنين. قال القاضي أبو يعلى: ومنع أصحابنا الصيد بالكلب الأسود، وإن كان معلماً، لأن النبي ﷺ أمر بقتله^(١)، والأمر بالقتل: يمنع ثبوت اليد، ويبطل حكم الفعل، فيصير وجوده كالعدم، فلا يباح صيده.

قوله تعالى: «تَكَلَّمُوا بِمَا أَسْكَنْتُمْ عَلَيْكُمْ» قال الأخفش: «من» زائدة، كقوله: «فَبِمَا رُبَّ بَرٍّ» [النور: ٤٣].

قوله تعالى: «وَأَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ عَلَّمَهُ فِي هَاءِ الْكِنَايَةِ قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الإرسال، قاله ابن عباس، والسدي، وعندنا أن التسمية شرط في إباحة الصيد^(٢). والثاني: ترجع إلى الأكل فتكون التسمية مستحبة. قوله تعالى: «وَاتَّقُوا اللَّهَ» قال سعيد بن جبير: لا تستحلوا ما لم يذكر اسم الله عليه.

(١) روى الإمام أحمد، ومسلم ١٢٠٠/٣ عن جابر قال: أمرنا رسول الله ﷺ بقتل الكلاب حتى إن المرأة تقدم من البادية بكلبها فتقتله، ثم نهى رسول الله ﷺ عن قتلها وقال: «عليكم بالأسود البهيم في التقطين فإنه شيطان» وروى أبو داود ١٤٤/٣، والدارمي ٩٠/٢ عن عبد الله بن مغفل عن النبي ﷺ قال: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها كلها، فاقتلوا منها كل أسود بهيم».

(٢) قال في «المغني»: فإن ترك التسمية عمداً أو سهواً، لم يبيح. هذا تحقيق المذهب. وروى البخاري ٩٢/٢١ «بشرح المغني» ومسلم ١٥٣١/٣ عن عدي بن حاتم ﷺ قال: قلت: يا رسول الله إني أرسل كلبِي وأسمي. قال: «إن أرسلت كلبك وسميت فأخذ، فقتل، فكل، وإن أكل منه فلا تأكل فإنما أمسك على نفسه». قلت: إني أرسل كلبِي فأجد معه كلباً آخر، لا أدري أيهما أخذ؟ قال: «فلا تأكل فإنما سميت على كلبك، ولم تسم على غيره».

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُكُمْ حَلَالٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَالٌ لَمْ تَكُنْ وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتُ مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتُ مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ أَوْثَرُ الْكِتَابِ مِنْ قَلْبِكُمْ إِذَا تَنَاسَلْتُمْ أَجْرَهُنَّ مُحْتَمِلِينَ غَيْرَ مُسْتَفِيدِينَ وَلَا مُتَجِدِينَ أَخْدَانِي وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ قال القاضي أبو يعلى: يجوز أن يريد باليوم اليوم الذي أنزلت فيه الآية، ويجوز أن يريد اليوم الذي تقدم ذكره في قوله: ﴿الْيَوْمَ نَبِّئُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾، وفي قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وقيل: ليس بيوم معين. وقد سبق الكلام في «الطيبات» وإنما كرر إحلالها تأكيداً. فأما أهل الكتاب، فهم اليهود والنصارى. وطعامهم: ذبائحهم، هذا قول ابن عباس، والجماعة. وإنما أريد بها الذبائح خاصة، لأن سائر طعامهم لا يختلف بمن تولاها من مجوسي وكتابي، وإنما الذكاة تختلف، فلما خص أهل الكتاب بذلك، دل على أن المراد الذبائح، فأما ذبائح المجوس، فأجمعوا على تحريمها. واختلفوا في ذبائح من دان باليهودية والنصرانية من عبدة الأوثان، فروي عن ابن عباس أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب، فقال: لا بأس بها، وتلا قوله: ﴿وَمَنْ يَتُوكُمْ يُنْكِرُ بَيْنَهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] وهذا قول الحسن، وعطاء بن أبي رباح، والشعبي، وعكرمة، وقتادة، والزهري، والحكم، وحماد. وقد روي عن علي، وابن مسعود في آخرين أن ذبائحهم لا تحل. ونقل الخرقى عن أحمد في نصارى بني تغلب روايتين: إحداهما: تباح ذبائحهم، وهو قول أبي حنيفة، مالك. والثانية: لا تباح. وقال الشافعي: من دخل في دين أهل الكتاب بد نزول القرآن، لم يباح أكل ذبيحته^(١).

قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُكُمْ حَلَالٌ لَكُمْ﴾ أي: وذبائحكم لهم حلال، فإذا اشتروا منا شيئاً كان الثمن لنا حلالاً، واللحم لهم حلالاً. قال الزجاج: والمعنى: أحل لكم أن تطعموهم.

فصل

وقد زعم قوم أن هذه الآية اقتضت إباحة ذبائح أهل الكتاب مطلقاً وإن ذكروا غير اسم الله عليها، فكان هذا ناسخاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمَاءُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١] والصحيح أنها أطلقت إباحة ذبائحهم، لأن الأصل أنهم يذكرون الله، فيحمل أمرهم على هذا. فإن تيقنا أنهم ذكروا غيره، فلا نأكل، ولا وجه للنسخ، وإلى هذا الذي قلته ذهب علي، وابن عمر، وعباد، وأبو الدرداء، والحسن في جماعة.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَكْرُوهَاتُ مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ﴾ فيهن قولان: أحدهما: العفائف، قاله ابن عباس. والثاني: الحرائر، قاله مجاهد. وفي قوله: ﴿وَالْمَكْرُوهَاتُ مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ أَوْثَرُ الْكِتَابِ﴾ قولان: أحدهما: الحرائر أيضاً، قاله ابن عباس. والثاني: العفائف، قاله الحسن، والشعبي، والنخعي، والضحاك، والسدي، فعلى هذا القول يجوز تزويج الحرّة منهن والأمة.

فصل

وهذه الآية أباحت نكاح الكناينة. وقد روي عن عثمان أنه تزوج نائلة بنت الفرافصة على نسائه وهي نصرانية. وعن طلحة بن عبيد الله أنه تزوج يهودية. وقد روي عن عمر، وابن عمر كراهة ذلك. واختلفوا في نكاح الكناينة الحرة، فقال ابن عباس: لا تحل. والجمهور على خلافه، وإنما كرهوا ذلك، لقوله تعالى: ﴿لَا تَحْدُ قَوْمًا يَتَّبِعُونَكَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] والنكاح يوجب الود. واختلفوا في نكاح نساء تغلب، فروي عن علي رضي الله عنه الحظر، وبه قال جابر بن زيد، والنخعي، وروي عن ابن عباس الإباحة. وعن أحمد روايتان. واختلفوا في إماء أهل الكتاب، فروي عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد: أنه لا يجوز نكاحهن، وبه قال الأوزاعي، ومالك،

(١) في «الأم» للشافعي ٦/٥: «ولا يحل نكاح حرائر من دان من العرب دين اليهودية والنصرانية، لأن أصل دينهم كان الحنيفية، ثم ضلوا بعبادة الأوثان، وإنما انتقلوا إلى دين أهل الكتاب بعده، لا بأنهم كانوا الذين دانوا بالتوراة والإنجيل فضلوا عنها وأحدثوا فيها، إنما ضلوا عن الحنيفية ولم يكونوا كذلك، لا تحل ذبائحهم، كذلك كل أعجمي كان أصل دين من مضى من آباءه عبادة الأوثان ولم يكن من أهل الكتابين المشهورين، التوراة والإنجيل، فدان دينهم، لم يحل نكاح نسائهم».

والليث بن سعد، والشافعي، وأصحابنا، وروي عن الشعبي، وأبي مسيرة جواز ذلك، وبه قال أبو حنيفة. فأما المجوس، فالجمهور على أنهم ليسوا بأهل كتاب، وقد شدّ من قال: إنهم أهل كتاب، ويطل قولهم قوله ﷺ: «سُنُّوا بهم سُنَّةَ أهل الكتاب»^(١). فأما «الأجور»، و«الإحصان»، و«السفاح»، و«الأخذان» فقد سبق في سورة (النساء).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ سبب نزول هذا الكلام: أن الله تعالى لما رخص في نكاح الكتابيات قلن يبنهن: لولا/إن الله تعالى قد رضي علينا، لم يبح للمؤمنين تزويجنا، وقال المسلمون: كيف يتزوج الرجل منا الكتابية وليست على ديننا، فنزلت: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ رواه أبو صالح عن ابن عباس. وقال مقاتل بن حيان: نزلت فيما أحسن المسلمون من نساء أهل الكتاب، يقول: ليس إحصان المسلمين إياهن بالذي يخرجهن من الكفر. وروى ليث عن مجاهد: ومن يكفر بالإيمان، قال: الإيمان بالله تعالى. قال الزجاج: معنى الآية: من أحل ما حرم الله، أو حرم ما أحله الله، فهو كافر. وقال أبو سليمان: من جحد ما أنزله الله من شرائع الإيمان، وعرفه من الحلال والحرام، فقد حبط عمله المتقدم. وسمعت الحسن بن أبي بكر النيسابوري الفقيه يقول: إنما أباح الله ﷻ الكتابيات، لأن بعض المسلمين قد يعجبه حسنهن، فحذر ناكحهن^(٢) من الميل إلى دينهن بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾.

﴿يَتَأْتِيَ آلُ الْيَتِيمِ أَكْثَرُ مِمَّا أُكْتَبَ عَلَيْهِمْ مِنْ الْكُتُبِ وَأَنْتُمْ تُصْرِخُونَ أَنْ مُنْقِضُهَا هِيَ كَلِمَةُ الْيَتِيمِ إِنَّكُم مُّعْطَوْنَ عَلَيْهَا خَيْرًا مِمَّا تُخْشَوْنَ﴾ قال ابن الأنباري: وهذا كما تقول: إذا أخيت فأخ أهل الحسب، وإذا اتجرت فاتجر في البر. قال: ويجوز أن يكون الكلام مقدماً ومؤخراً، تقديره: إذا غسلتم وجوهكم، واستوفيتم الطهور، فقوموا إلى الصلاة. وللعلماء في المراد بالآية قولان: أحدهما: إذا قمت إلى الصلاة محدثين، فاغسلوا، فصار الحدث مضمراً في وجوب الوضوء، وهذا قول سعد بن أبي وقاص، وأبي موسى الأشعري، وابن عباس، والفقهاء. والثاني: أن الكلام على إطلاقه من غير إضمار، فيجب الوضوء على كل من يريد الصلاة، محدثاً كان، أو غير محدث، وهذا مروي عن علي عليه السلام^(٣)، وعكرمة، وابن سيرين. ونقل عنهم أن هذا الحكم غير منسوخ، ونقل عن جماعة من العلماء أن ذلك كان واجباً، ثم نسخ بالسنّة، وهو ما روى بُريدة أن النبي ﷺ صلى يوم الفتح خمس صلوات بوضوء واحد، فقال له عمر: لقد صنعت شيئاً لم تكن تصنعه؟ فقال: «عمداً فعلته يا عمر»^(٤). وقال قوم: في الآية تقديم وتأخير، ومعناها: إذا

(١) رواه مالك في «الموطأ» ٢٧٨/١، والشافعي في «مسنده» ١٣٠/٢، وغيرهما، وفيه كلام انظره في «نصب الراية» ٤٤٨/٣.

(٢) في نسخة الرباط: نكاحهن.

(٣) روى ابن جرير ١٢/١٠، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» ١١٩ عن مسعود بن علي الشيباني قال: سمعت عكرمة يقول: كان علي عليه السلام يتوضأ عند كل صلاة، ويقرا هذه الآية ﴿يَتَأْتِيَ آلُ الْيَتِيمِ أَكْثَرُ مِمَّا أُكْتَبَ عَلَيْهِمْ مِنْ الْكُتُبِ وَأَنْتُمْ تُصْرِخُونَ أَنْ مُنْقِضُهَا هِيَ كَلِمَةُ الْيَتِيمِ إِنَّكُم مُّعْطَوْنَ عَلَيْهَا خَيْرًا مِمَّا تُخْشَوْنَ﴾. وهذا الأثر ساقه ابن كثير في «تفسيره» ٢٢/٢، وساق معه آثرين آخرين عن علي، ثم قال: وهذه طرق جيدة عن علي، يقوي بعضها بعضاً.

(٤) أحمد في «المسند» ٣٥٠/٥، ومسلم ٢٣٢/١، وأبو داود ٨٢/١، والنسائي ٨٦/١، وابن ماجه ١٧٠/١، والترمذي ٨٩/١ وقال: حديث حسن صحيح. وروى البخاري ٢٧٣/١ عن سويد بن النعمان قال: فخرجنا مع رسول الله ﷺ عام خير حتى إذا كنا بالصهباة صلى لنا رسول الله ﷺ العصر، فلما صلى دعا بالأطعمة، فمل يؤت إلا بالسويق، فأكلنا وشربنا، ثم قام النبي ﷺ إلى المغرب، فمضض ثم صلى لنا المغرب ولم يتوضأ. قال أبو جعفر الطبري ١٩/١٠: وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: إن الله عني بقوله: ﴿إِذَا قُضِيَ إِلَيْكَ الْأَلْكَالُ فَاغْشِيْهُ﴾ جميع أحوال قيام القائم إلى الصلاة، غير أنه أمر فرض بغسل ما أمر الله بغسله القائم إلى صلاته، بعد حدث كان منه ناقض طهارته، وقبل إحداث الوضوء منه، وأمر ندب لمن كان على طهر قد تقدم منه، ولم يكن منه بعده حدث ينقض طهارته، ولذلك كان عليه السلام يتوضأ لكل صلاة قبل فتح مكة، ثم صلى يومئذ الصلوات كلها بوضوء واحد، ليعلم أمته أن ما كان يفعل ﷺ من تجديد الطهر لكل صلاة، إنما كان منه أخذاً بالفضل وإثارة منه لأحب الأمور إلى الله، ومصارعة منه إلى ما نبيه إليه ربه لا على أن ذلك كان عليه فرضاً واجباً. قلت: ومذهب الجمهور أنه يستحب الوضوء لكل صلاة، لما روى الإمام أحمد في «المسند» ٢٥٥/١٣ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم عند كل صلاة بوضوءه أو مع =

قمت إلى الصلاة من النوم أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء، فاغسلوا وجوهكم.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ «إلى» حُرِّفَ موضوعُ للغاية، وقد تدخل للغاية فيها تارة، وقد لا تدخل، فلما كان الحدث يقيناً، لم يرتفع إلا يقيين مثله، وهو غسل المرفقين. فأما الرأس فنقل عن أحمد وجوب مسح جميعه، وهو قول مالك، وروي عنه: يجب مسح أكثره، وروي عن أبي حنيفة روايتان: إحداهما: أنه يتقدّر بربع الرأس. والثانية: بمقدار ثلاث أصابع^(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة، وأبو بكر عن عاصم: بكسر اللام عطفاً على مسح الرأس، وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، وحفص عن عاصم، ويعقوب: بفتح اللام عطفاً على الغسل، فيكون من المقدم والمؤخر. قال الزجاج: الرجل من أصل الفخذ إلى القدم، فلما حذّ الكعبين، علّم أن الغسل ينتهي إليهما، ويدل على وجوب الغسل التحديد بالكعبين، كما جاء في تحيد اليد «إلى المرافق» ولم يجر في شيء من المسح تحديد. ويجوز أن يراد الغسل على قراءة الخفض، لأن التحديد بالكعبين يدل على الغسل، فينسق بالغسل على المسح. قال الشاعر:

يَا لَيْتَ بَغْلِكَ قَدْ غَدَا مَقْلُوداً سَيْفاً وَرُمَحاً^(٢)
والمعنى: وحاملاً رمحاً. وقال الآخر:

عَلَفْتُهَا تَبْنَاءً وَمَاءً بَارِداً^(٣)

والمعنى: وسقيتها ماءً بارداً. وقال أبو الحسن الأخفش: يجوز الجر على الإبتاع، والمعنى: الغسل، نحو قولهم: جحر ضبٍ خرب. وقال ابن الأنباري: لما تأخرت الأرجل بعد الرؤوس، نسقت عليها للقرب والجوار، وهي في المعنى نسق على الوجوه، كقولهم: جحر ضبٍ خرب^(٤)، ويجوز أن تكون منسوقة عليها، لأن العرب تسمي الغسل مسحاً، لأن الغسل لا يكون إلا بمسح. وقال أبو علي: مَنْ جَرَّ فُحْجَتَهُ أنه وجد في الكلام عاملين: أحدهما: الغسل، والآخر: الباء الجارة، ووجه العاملين إذا اجتماعاً: أن يحمل الكلام على الأقرب منهما دون الأبعد، وهو «الباء» هاهنا، وقد قامت الدلالة على أن المراد بالمسح: الغسل من وجهين: أحدهما: أن أبا زيد قال: المسح خفيف

= كل وضوء سواك، ولأخرت عشاء الآخرة إلى ثلث الليل وإسناده صحيح، وقد سقط من إسناده في طبعة الشيخ أحمد شاكر للمسنّد: أبو سلمة الراوي عن أبي هريرة. وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يتوضأ عند كل صلاة. قيل له: فأنتم كيف تصنعون؟ قال: كنا نصلي الصلوات بوضوء واحد ما لم نحدث. رواه أحمد في «المسنّد» بترتيب الساعاتي ٥٤/٢، والبخاري ٨٥/١، والنسائي ٨٥/١، وأبو داود ٨١/١، والترمذي ٨٨/١، والبيهقي في «السنن» ١٧٠/١. وعن عبد الله بن حنظلة بن الغسيل أن رسول الله ﷺ كان أمر بالوضوء لكل صلاة طاهراً كان أو غير طاهر، فلما شق ذلك عليه أمر بالسواك عند كل صلاة، ووضع عنه الوضوء إلا من حدث. رواه أحمد ٢٢٥/٥، وأبو داود ٤٣/١ وإسناده حسن.

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢٤/٢ وقوله: ﴿وَأَمْسَحُوا رُءُوسَكُمْ﴾ اختلفوا في هذه الباء هل هي للإصاق وهو الأظهر، أو للتعبض وفيه نظر، على قولين، ومن الأصوليين من قال: هذا مجمل، فليرجع في بيانه إلى السنة. وقد ثبت في «الصحيحين» من طريق مالك عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه: أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد بن عاصم - وهو جد عمرو بن يحيى - وكان من أصحاب النبي ﷺ: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فعدا بوضوء، فأفرغ على يديه، فغسل يديه مرتين مرتين، ثم مضمض واستنشق ثلاثاً، وغسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين، ثم مسح رأسه بيديه، فأقبل بهما وأدير، بدأ بمقدم رأسه، ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه. قلت: الحديث في البخاري ٢٥٨/١، ومسلم ٢١٠/١. وفي «المعني» ١١٢/١: لا خلاف في وجوب مسح الرأس، وقد نص الله تعالى عليه بقوله: ﴿وَأَمْسَحُوا رُءُوسَكُمْ﴾ واختلف في قدر الواجب، فروي عن أحمد وجوب مسح جميعه في حق كل أحد، وهو ظاهر كلام الخري، ومذهب مالك، وروي عن أحمد: يجزئ مسح بعضه. قال أبو الحارث: قلت لأحمد: فإن مسح برأسه وترك بعضه؟ قال: يجزئه.

(٢) البيت غير منسوب في «مشكل القرآن» ١٦٥، و«تفسير الطبري» ١٤٠/١، و«الكامل» ٢٨٩/١، و«أمالي المرتضى» ٥٤/١، و«أمالي ابن الشجري» ٢/٣٢١، و«شرح الحامسة» للرمزوقي ١١٤٧/٣، و«اللسان» مادة: قلد، ونسبه في حواشي ابن القوطية على «الكامل» ١٨٩ طبع ليسك لعبد الله بن الزبير. ويروى الشطر الأول منه «وَأَيَّتْ زَوْجِكَ فِي الرَّغْصِ» وفي «اللسان» تقلد الأمر: احتمله وكذلك تقلد السيف.

(٣) تمامه: حتى شئت همالة عينها. وهو في «مشكل القرآن» ١٦٥، و«أمالي المرتضى» ٢٥٩/٢، و«أمالي ابن الشجري» ٣٢١/٢، و«الإنصاف» ٢٥٣، وشرح «شواهد المعني» ٣١٤، و«الخرزانه» ٤٩٩/١. قال المعني: ١٨١/٤: أنشد الأصمعي وغيره، ولم أر أحداً عزاه إلى قائله. وشئت: بمعنى أقامت شتاء، ففي القاموس: شتا بالبدل: أقام به شتاء، كشى وتشتى. وهمالة: من هملت العين: إذا صبت دمعها، وعينها فاعل «همالة».

(٤) قال أبو حيان في «البحر» ٤٣٧/٣: وهو تأويل ضعيف جداً، ولم يرد إلا في التمت حيث لا يلبس على خلاف فيه قد قرر في علم العربية.

الغسل، قالوا: تمسحت للصلاة، وقال أبو عبيدة: ﴿فَطَوَّقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ﴾، أي: ضرباً، فكان المسح بالآية غسل خفيف. فإن قيل: فالمستحب التكرار ثلاثاً؟ قيل: إنما جاءت الآية بالمفروض دون المسنون. والوجه الثاني: أن التحديد والتوقيت إنما جاء في المغسول دون الممسوح، فلما وقع التحديد مع المسح، عُلِمَ أنه في حكم الغسل لموافقة الغسل في التحديد، وحجة من نصب أنه حُمِلَ ذلك على الغسل لاجتماع فقهاء الأمصار على الغسل^(١).

قوله تعالى: ﴿إِلَى الْكَبِيرِ﴾ «إلى» بمعنى «مع» والكعبان: العظامان الناتان من جانبي القدم.

قوله تعالى: ﴿وَأَن كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ أي: فتطهروا، فأدغمت التاء في الطاء، لأنهما من مكان واحد، واجتلبت الهمزة توصلًا إلى النطق بالسكان، وقد بين الله ﷻ طهارة الجنب في سورة (النساء) بقوله: ﴿حَتَّى تَتَمَلَّأُوا﴾ (النساء: ٤٣) وقد ذكرنا هناك الكلام في تمام الآية إلى قوله: ﴿مَّا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ و«الحرَج»: الضيق، فجعل الله الدين واسعاً حين رخص في التيمم.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ﴾ أي: يريد أن يطهركم. قال مقاتل: من الأحداث والجنباء، وقال غيره: من الذنوب والخطايا، لأن الوضوء يكفر الذنوب.

قوله تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ بِكُمْ عَلَيَّكُمْ﴾ في الذي يتم به النعمة أربعة أقوال: أحدها: بغفران الذنوب. قال محمد بن كعب القرظي: حدثني عبد الله بن دارة، عن حمران قال: مررت على عثمان بفخارة من ماء، فدعا بها فتوضأ، فأحسن الوضوء ثم قال: لو لم أسمع من رسول الله ﷺ غير مرة أو مرتين أو ثلاثاً ما حدثتكم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما توضأ عبد فأحسن الوضوء، ثم قام إلى الصلاة، إلا غفر له ما بينه وبين الصلاة الأخرى». قال محمد بن كعب: وكنت إذا سمعت الحديث التمسته في القرآن، فالتمسْتُ هذا فوجدته في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ اللَّهُ قَتْنَا شَيْئًا ۖ لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التفتح: ١، ٢] فعلمت أن الله لم يتم النعمة عليه حتى غفر له ذنوبه، ثم قرأت الآية التي في «المائدة»: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ إلى قوله ﴿وَلِيُتِمَّ بِكُمْ عَلَيَّكُمْ﴾ فعلمت أنه لم يتم النعمة عليهم حتى غفر

(١) قال القرطبي ٩٢/٦: إن لفظ «المسح» مشترك يطلق بمعنى المسح، ويطلق بمعنى الغسل، قال الهروي: أخبرنا الأزهرى أخبرنا أبو بكر محمد بن عثمان بن سعيد الدارني عن أبي حاتم عن أبي زيد الأنصاري قال: «المسح» في كلام العرب يكون غسلًا ويكون مسحًا، ومنه يقال للرجل إذا توضأ، فغسل أعضاءه: قد تمسح، ويقال: مسح الله ما بك: إذا غسلك وطهرك من الذنوب. فإذا ثبت بالنقل عن العرب أن «المسح» يكون بمعنى «الغسل» فترجح قول من قال: إن المراد بقراءة الخفض الغسل، بقراءة النصب التي لا احتمال فيها، وبكثرة الأحاديث الثابتة بالغسل، والتوعد على ترك غسلها في أخبار صحاح لا تحصى كثرة أخرجها الأئمة. وقال الحافظ ابن كثير ٢٦/٢: ومن أحسن ما يستدل به على أن «المسح» يطلق على الغسل الخفيف ما رواه الحافظ البيهقي ٧٥/١ عن الزنزال بن سبرة يحدث عن علي بن أبي طالب أنه صلى الظهر ثم قعد في حوائج الناس في رجة الكوفة حتى حضرت صلاة العصر، ثم أتى بكوز من ماء، فأخذ منه حنفة واحدة، مسح بها وجهه ويديه ورأسه ورجليه، ثم قام فشرب فضله وهو قائم، ثم قال: إن أناساً يكرهون الشرب قائماً، وإن رسول الله ﷺ صنع كما صنعت، وقال: «هذا وضوء من لم يحدث». رواه البخاري في «الصحيح» ببعض معناه. قلت: رواه البخاري في «كتاب الأشرية» ٧١/١٠ ولفظه: عن عبد الملك بن ميسرة سمعت الزنزال بن سبرة يحدث عن علي ﷺ أنه صلى الظهر، ثم قعد في حوائج الناس في رجة الكوفة حتى حضرت صلاة العصر، ثم أتى بماء فشرب وغسل وجهه ويديه وذكر رأسه ورجليه، ثم قام فشرب فضله وهو قائم، ثم قال: إن أناساً يكرهون الشرب قائماً، وإن النبي ﷺ صنع مثل ما صنعت. قال الحافظ: وفي رواية بهز: «فأخذ منه كفاً فمسح وجهه وذراعيه ورأسه ورجليه» وكذلك عند الطيالسي «فغسل وجهه ويديه ومسح على رأسه ورجليه» ومثله في رواية عمرو بن مرزوق عند الإسماعيلي. ويؤخذ منه أنه في الأصل: ومسح على رأسه ورجليه، وأن «أدم» - وهو أحد رواة الحديث - توقف في سياقه، فعبر بقوله: وذكر رأسه ورجليه. ووقع في رواية الأعمش، فغسل يديه ومضمض واستنشق، ومسح بوجهه وذراعيه ورأسه، وفي رواية علي بن الجعد عن شعبة عند الإسماعيلي: مسح بوجهه ورأسه ورجليه. والأحاديث التي جاءت بالغسل كثيرة، ففي البخاري ٢٣٢/١، ومسلم ٢١٤/١ عن عبد الله بن عمرو، قال: تخلف عنا رسول الله ﷺ في سفرة سافرها، فأدركنا وقد أركعتنا الصلاة صلاة العصر، ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فننادى بأعلى صوته: «أسبقوا الوضوء»، ويل للأعقاب من النار» وهو في «الصحيحين» أيضاً من حديث أبي هريرة. وفي «صحيح مسلم» ٢١٣/١ عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «ويل للأعقاب من النار»، وروى مسلم ٢١٥/١ عن عمر بن الخطاب: أن رجلاً توضأ فترك موضع طفر على قدم، فأبصره النبي ﷺ فقال: «ارجع فأحسن وضوءك» فرجع ثم صلى. وروى أبو داود ٨٢/١، وابن ماجه ٢١٨/١ عن أنس بن مالك أن رجلاً أتى النبي ﷺ وقد توضأ وترك موضع الطفر لم يصبه الماء، فقال له النبي ﷺ: «ارجع فأحسن وضوءك» قال ابن كثير: وإسناده جيد قوي صحيح. وفي «الصحيحين» «والسنن» عن عثمان، وعلي، وابن عباس، ومعاوية، وعبد الله بن زيد بن عاصم، والمقدام بن معد يكرب: أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين في وضوءه إما مرة أو مرتين أو ثلاثاً، على اختلاف رواياتهم.

لهم^(١). والثاني: بالهداية إلى الإيمان، وإكمال الدين، وهذا قول ابن زيد. والثالث: بالرخصة في التيمم، قاله مقاتل، وأبو سليمان. والرابع: ببيان الشرائع، ذكره بعض المفسرين.

﴿وَاذْكُرُوا يَوْمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَكُمْ رِسْمَهُ الَّذِي وَأَنفَعَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ يَدَاتُ الصُّدُورِ﴾ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا يَوْمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَكُمْ﴾ يعني النعم كلها. وفي هذا حث على الشكر. وفي الميثاق أربعة أقوال: أحدها: أنه إقرار كل مؤمن بما آمن به. قال ابن عباس: لما أنزل الله الكتاب، وبعث الرسول، فقالوا: آمنا، ذكرهم ميثاقه الذي أقروا به على أنفسهم، وأمرهم بالوفاء. والثاني: أنه الميثاق الذي أخذه من بني آدم حين أخرجه من ظهره، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وابن زيد. والثالث: أنه ما وثق على المؤمنين على لسان نبيه ﷺ من الأمر بالوفاء بما أقروا به من الإيمان. روى هذا المعنى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والرابع: أنه الميثاق الذي أخذ من الصحابة على السمع والطاعة في بيعة العقبة، وبيعة الرضوان، ذكره بعض المفسرين.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ قال مقاتل: اتقوه في نقض الميثاق ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ يَدَاتُ الصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها من إيمان وشك.

﴿تَأْتِيَا الزَّيْتِ مَأْمُورًا كُونُوا قَوَّيْنِ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿تَأْتِيَا الزَّيْتِ مَأْمُورًا كُونُوا قَوَّيْنِ لِلَّهِ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت من أجل كفار قريش أيضاً، وقد تقدم ذكرهم في قوله: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَن مَّدَّكُمْ عَنِ السَّجْدِ الْخَرَارِ﴾ روى نحو هذا أبو صالح، عن ابن عباس^(٢) وبه قال مقاتل. والثاني: أن قريشاً بعثت رجلاً ليقول رسول الله ﷺ، فاطلع الله عليه ذلك، ونزلت هذه الآية والتي بعدها، هذا قول الحسن. والثالث: أن النبي ﷺ ذهب إلى يهود بني النضير يستعينهم في دية، فهزموا بقتله، فزلت هذه الآية^(٣)، قاله مجاهد، وقطادة. ومعنى الآية: كونوا قوامين لله بالحق، ولا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل ﴿اعْدِلُوا﴾ في الولي والعدو ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، أي: إلى التقوى. والمنى: أقرب إلى أن تكونوا متقين، وقيل: هو أقرب إلى اتقاء النار.

﴿عَدَدَ اللَّهِ الْزَيْنِ مَأْمُورًا وَعَسَلُوا الصَّلَاحَ لَمْ مَعْفُورَةً وَاجْرُ عَظِيمٌ﴾ ﴿٩﴾ وَالزَّيْتِ كَذَرُوا وَكَذَبُوا بِتَائِيَتَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴿١٠﴾

(١) نسبة السيوطي في الدرر ٢/٢٤٦ إلى ابن المبارك في الزهد، وابن المنذر، والبيهقي في شعب الإيمان من طريق محمد بن كعب القرظي عن عبد الله بن دارة عن حمران مولى عثمان، عن عثمان ﷺ... وقد جاء في فضل الوضوء أحاديث صحاح عن النبي ﷺ. روى مسلم ٢١٦/١ عن عثمان بن عفان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطايه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره» وروى مالك في «الموطأ» ٣٠/١، والبخاري ٢٢٨/١، ومسلم ٢٥٥/١، والنسائي ٩١/١ عن عثمان ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرئ يتوضأ فيحسن وضوءه ثم يصلي الصلاة إلا غُفِرَ له ما بينه وبين الصلاة الأخرى حتى يصلها». وروى مسلم ٢٠٩/١، وأبو داود ٨٠/١، والنسائي ٩٢/١، والترمذي ٧٨/١، وابن ماجه ١٥٩/١ عن عتبة بن عامر قال: كانت علينا رعاية الإبل، فجاءت نوتى فروحتها بعشي، فأدركت رسول الله ﷺ قائماً يحدث الناس، فأدركت من قوله: «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين، مقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة» فقلت: ما أجود هذه، فإذا قاتل بين يدي يقول: التي قبلها أجود، فنظرت فإذا عمر، قال: إني قد رأيتك جئت آنفاً، قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فُتِّحَ، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء» وزاد الترمذي بعد قوله «ورسوله»: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين» وسندها حسن. وروى مالك ٣٢/١، ومسلم ٢١٥/١، والترمذي ٦١/١ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرجت من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطشتها يده مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب» وروى مسلم ٢٠٣/١ عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حبة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»، والطهور: الوضوء. «وبريقها» يهلكها.

(٢) في النسخة الأحمدية: روى نحو هذا عن ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) أخرجه ابن جرير ٩٦/١٠ عن عبد الله بن كثير.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ في معناها قولان: أحدهما: أن المعنى: وعدهم الله أن يغفر لهم ويأجرهم، فاكتمى بما ذكر عن هذا المعنى. والثاني: أن المعنى: وعدهم فقال: لهم مغفرة. وقد بينا في (البقرة) معنى «الجحيم».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن رجلاً من محارب قال لقومه: ألا أقتل لكم محمداً؟ فقالوا: وكيف تقتله؟ فقال: أفتك به، فاقبل إلى رسول الله ﷺ وسيفه في حجره، فأخذه، وجعل يهزه، ويهيم به، فيكفيه الله، ثم قال: يا محمد ما تخافني؟ قال: لا، قال: لا تخافني وفي يدي السيف؟ قال: لا، يعني الله منك، فأغمد السيف، فنزلت هذه الآية، رواه الحسن البصري عن جابر بن عبد الله. وفي بعض الألفاظ: فسقط السيف من يده. وفي لفظ آخر: فما قال له النبي ﷺ شيئاً، ولا عاقبه. واسم هذا الرجل: غورث بن الحارث من محارب خصفة^(١). والثاني: أن اليهود عزموا على الفتك برسول الله ﷺ، فكفاه الله شرهم. قال ابن عباس: صنعوا له طعاماً، فأوجي إليه بشأنهم، فلم يأت^(٢). وقال مجاهد، وعكرمة: خرج إليهم يستعينهم في دية، فقالوا: اجلس حتى نعطيك، فجلس هو وأصحابه، فخلا بعضهم ببعض، وقالوا: لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن، فمن يظهر على هذا البيت، فيطرح عليه صخرة؟ فقال عمرو بن جحاش: أنا، فجاء إلى رحي عزيمة ليطرحها عليه، فأمسك الله يده، وجاء جبريل، فأخبره، وخرج، ونزلت هذه الآية^(٣). والثالث: أن بني ثعلبة، وبني محارب أرادوا أن يفتكوا بالنبي وأصحابه، وهم ببطن نخلة في غزاة رسول الله ﷺ السابعة، فقالوا: إن لهم صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم، فإذا سجدوا وقعنا بهم، فاطلع الله نبيه على ذلك، وأنزل صلاة الخوف، ونزلت هذه الآية، هذا قول قتادة^(٤). والرابع: أنها نزلت في حق اليهود حين ظاهروا المشركين على رسول الله ﷺ، هذا قول ابن زيد.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّيْتُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُعْطِيَنَّ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ قال أبو العالية: أخذ الله ميثاقهم أن يخلصوا له العبادة، ولا يعبدوا غيره. وقال مقاتل: أن يعملوا بما في التوراة. وفي معنى النقيب ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الضمين، قاله الحسن، ومعناه: أنه ضمين ليعرف أحوال من تحت يده، ولا يجوز أن يكون ضميناً عنهم بالوفاء، لأن ذلك لا يصح ضمانه. وقال ابن قتيبة: هو الكفيل على القوم. والنقابة شبيهة بالعرافة. والثاني: أنه الشاهد، قاله قتادة. وقال ابن

(١) رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» ١٥٢ من طريق ابن إسحاق قال: حدثني عمرو بن عبيد عن جابر أن رجلاً... وقد سقط من إسناده الحسن، فقد رواه ابن هشام في «السيرة» ٢٠٥/٢ عن ابن إسحاق وحدثني عمرو بن عبيد عن الحسن عن جابر بن عبد الله، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» ص ٦ من طريق معمر عن الزهري ذكره عن أبي سلمة عن جابر. وقصة هذا الأعرابي - وهو غورث بن الحارث - ثابتة في «الصحاحين» بدون ذكر السبب، فقد روى البخاري ٣٣٠/٧، ومسلم ٥٧٦/١ عن ستان بن أبي ستان الدؤلي عن جابر بن عبد الله ﷺ أخبره أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قتل رسول الله ﷺ قتل معه، فأدركتهم القافلة في وادٍ كثير الغضا، فنزل رسول الله ﷺ وفرق الناس في الغضا يستظلون بالشجر ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرق، فعلق بها سيفه. قال جابر: فلما نومة فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجتنا، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا اختلط سفيي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتاً، فقال لي: من يمتك مني؟ قلت له: الله. فما هوذا جالس، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ».

(٢) رواه ابن جرير ١٠٥/١٠ وابن أبي حاتم وسنده ضعيف لا يحتج به.

(٣) خبر مجاهد وعكرمة رواه ابن جرير ١٠٢/١٠، ١٠٣، وانظر ابن هشام ١٩٠/٢.

(٤) ابن جرير ١٠٥/١٠ وفيه «وهو ببطن نخل» قال الأستاذ محمود شاكر: هكذا قال «في الغزوة السابعة» وهي في كثير من الروايات «الغزوة التاسعة» وهي «غزوة ذي أمر» بنجد، انظر ابن سعد ٢٤/١/٢، وإستيعاق الأسماع للمقريزي ١١٠/١. والذي جاء في الأخبار أن صلاة الخوف كانت في السنة السابعة.

فارس: النقيب: شاهد القوم، وضمينهم. والثالث: الأمين، قاله الربيع بن أنس، واليزيدي، وهذه الأقوال تتقارب. قال الزجاج: النقيب في اللغة، كالأمين والكفيل، يقال: نقب الرجل على القوم ينقب: إذا صار نقيباً عليهم، وصناعته النقابة، وكذلك عُرِفَ عليهم: إذا صار عريقاً، ويقال لأول ما يبدو من الجرب: النقبة، ويجمع النُقَب والنُقْب. قال الشاعر:

مَتَبَذَّلًا تَبْدُو مُحَاسِنُهُ يَضْعُ الْهِنَاءَ مَوَاضِعَ النُّقَبِ^(١)

ويقال: في فلان مناقب جميلة، وكل الباب معناه: التأثير الذي له عمق ودخول، ومن ذلك نقتب الحائط، أي: بلغت في النقب آخره، والنقبة من الجرب: داء شديد الدخول. وإنما قيل: نقيب، لأنه يعلم دخيلة أمر القوم، ويعرف مناقبهم، وهو الطريق إلى معرفة أمورهم. ونقل أن الله تعالى أمر موسى وقومه بالسير إلى الأرض المقدسة، وكان يسكنها الجبارون، فقال تعالى: يا موسى اخرج إليها وجاهد من فيها من العدو، وخُذْ من قومك اثني^(٢) عشر نقيباً، من كل سبط نقيباً يكون كفيلاً على قومه بالوفاء بما أمروا به، فاخاروا النقباء. وفيما بعثوا له قولان: أحدهما: أن موسى بعثهم إلى بيت المقدس، ليأتوه بخبر الجبارين، قاله ابن عباس، ومجاهد، والسدي. والثاني: أنهم بعثوا ضمناً على قومهم بالوفاء بميثاقهم، قاله الحسن، وابن إسحاق. وفي نبوتهم قولان: أحدهما: أنهم ليسوا بأنبياء.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ في الكلام محذوف. تقديره: وقال الله لهم. وفي المقول لهم قولان: أحدهما: أنهم بنو إسرائيل، قاله الجمهور. والثاني: أنهم النقباء، قاله الربيع، ومقاتل. ومعنى ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾، أي: بالعون والنصرة. وفي معنى: ﴿وَعَزَّزْنَاهُمْ﴾ قولان: أحدهما: أنه الإعانة والنصر، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والسدي. والثاني: أنه التعظيم والتوقير، قاله عطاء، واليزيدي، وأبو عبيدة، وابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضَهُمُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا﴾ في هذا الإقراض قولان: أحدهما: أنه الزكاة الواجبة. والثاني: صدقة التطوع. وقد شرحنا في (البقرة) معنى القرض الحسن.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَفَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾ يشير إلى الميثاق ﴿فَقَدْ مَلَ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: أخطأ قصد الطريق.

﴿فِيمَا نَقَّبَهُمْ يَشْتَقُّهُمْ لَعْنُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقَّبَهُمْ﴾ في الكلام محذوف، تقديره: فنقضوا، فبنقضهم لعناهم. وفي المراد بهذه اللعنة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها التعذيب بالجزية، قاله ابن عباس. والثاني: التعذيب بالمسخ، قاله الحسن، ومقاتل. والثالث: الإبعاد من الرحمة، قاله عطاء، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «قاسية» بالالف، يقال: قست، فهي قاسية، وقرأ حمزة، والكسائي، والمفضل، عن عاصم: «قسيّة» بغير ألف مع تشديد الياء،

(١) البيت لدريد بن الصمة من جملة أبيات في «الشعر والشعراء» ٣٠٢/١ والأغاني ٢٢/١٠، و«اللسان» مادة نقب، قالها في الخساء بنت عمرو بن الشريد، وقد مر بها وهي تنهأ بغيراً لها، فود تبذلت حتى فرغت منه، ثم نضت عنها ثيابها فاغتسلت، ودريد يراها وهي لا تشمر به، ناعجته، فانصرف إلى رحله وأنشأ يقول:

وَقِفُّوا فَنَانِ وَتَوَفُّوْكُمْ حَسْبِي
وَأَصْحَابِيهِ تَبِيلٌ مِنَ الْحُبِّ
كَالْيَوْمِ طَالِي أَيْتَنُ جُزْبِ
يَضْعُ الْهِنَاءَ مَوَاضِعَ النُّقَبِ
نَضَحَ الْعَبِيرَ بِرِطْلَةِ الْعَضْبِ
عَضُّ الْجَمِيحِ الْخَطْبِ مَا خَطْبِي

حَسْبِي أَمَّا ضَرَّ وَارْبَعُوا خَسْبِي
أَخْنَسَ قَدَمَاهُ الْفَوَادُ بِكُمْ
مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِهِ
مَتَبَذَّلًا تَبْدُو مُحَاسِنُهُ
مَنْحَرًّا نَضَحَ الْهِنَاءَ بِهِ
فَسَلِيهِمْ عُنِّي خُسَاسِ إِذَا

فخطبها إلى أبيها فردته وقالت: أتراني تاركة بني عمي كأنهم عوالي المراح، ومررت شيخ بني جشم؟

(٢) في الأحمدية «اثنا عشر» وهو خطأ.

قوله تعالى: ﴿يَتَّخِذِ الْكَافِرُ﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم اليهود. والثاني: اليهود والنصارى. والرسول: محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿يَبْتَغِي لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ قال ابن عباس: أخفوا آية الرجم^(١) وأمر محمد ﷺ وصفته «وَيَقْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» يتجاوز، فلا يخبرهم بكتمانه. فإن قيل: كيف كان له أن يمسك عن حق كتموه فلا يبينه؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنه كان متلقياً ما يؤمر به، فإذا أمر بإظهار شيء من أمرهم، أظهره، وأخذهم به، وإلا سكت. والثاني: أن عقد الذمة إنما كان على أن يُقَرَّوا على دينهم، فلما كتموا كثيراً مما أمروا به، واتخذوا غيره ديناً، أظهر عليهم ما كتموه من صفته وعلامة نبوته، لتحقيق معجزته عندهم، واحتكموا إليه في الرجم، فأظهر ما كتموا مما يوافق شريعته، وسكت عن أشياء لتحقيق إقرارهم على دينهم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ قال قتادة: يعني بالنور: النبي محمداً ﷺ. وقال غيره: هو الإسلام، فأما الكتاب المبين، فهو القرآن.

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ﴾ يعني: بالكتاب. ورضوانه: ما رضى به الله تعالى. و«السُّبُل»، جمع سبيل، قال ابن عباس: سبيل السلام: دين الإسلام. وقال السدي: «السلام»: هو الله، و«سبله»: دينه الذي شرعه. قال الزجاج: وجائز أن يكون «سبيل السلام» طريق السلامة التي من سلكها سليم في دينه، وجائز أن يكون «السلام» اسم الله عز وجل، فيكون المعنى: طرق الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ قال ابن عباس: يعني الكفر «إِلَى النُّورِ» يعني: الإيمان «بِإِذْنِهِ» أي: بأمره «وَيَهْدِيهِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» وهو الإسلام. وقال الحسن: طريق الحق.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ قال ابن عباس: هؤلاء نصارى أهل نجران، وذلك أنهم اتخذوه إلهاً «قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» أي: فمن يقدر أن يدفع من عذابه شيئاً «إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ» أي: فلو كان إلهاً كما تزعمون لقد أن يرد أمر الله إذا جاءه بإهلاكه أو إهلاك أمه، ولما نزل أمر الله بأمه لم يقلد أن يدفع عنها. وفي قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ رد عليهم حيث قالوا للنبي: فهات مثله من غير أب. فإن قيل: فلم قال «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» ولم يقل: وما بينهما؟^(٢) فالجواب أن المعنى: وما بين هذين النوعين من الأشياء، قاله ابن جرير.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَفْعَلُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى﴾ قال مقاتل: هم يهود المدينة، ونصارى نجران. وقال السدي: قالوا: إن الله تعالى أوحى إلى إسرائيل: إن ولدك بكري من الولد^(٣)، فأدخلهم النار فيكونون فيها أربعين يوماً حتى تطهرهم، وتآكل خطاياهم، ثم ينادي مناد: أخرجوا كل مختون من بني إسرائيل. وقيل: إنهم لما قالوا: المسيح ابن الله، كان

(١) ابن جرير ١٠/١٤١، والحاكم في «المستدرک» ٤/٣٥٩ وقال: هنا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) في النسخة الأحمدية «وما بينهم» والتصويب من نسخة «الرباط» والطبري.

(٣) الخبر في «القرطبي» ٦/١٢٠، وابن كثير ٢/٣٥ ونسبه لابن جرير وابن أبي حاتم. وجاء في «الطبري» ١٠/١٥١: «إن الله أوحى إلى بني إسرائيل أن ولداً من ولدك فأدخلهم النار...» وقال الأستاذ محمود شاكر في «المخطوطة»: «إلى إسرائيل إن ولدك من الولد أدخلهم النار» وهو خطأ يلا معنى صوابه ما في المطبوعة على الأرجح. قلت: الصواب ما جاء في «المخطوطة» بزيادة «بكري» كما وردت في الأصل وفي «تفسير ابن كثير» وغيره.

معنى قولهم: ﴿عَنْ أَنْبَاءِ اللَّهِ﴾ أي: من ابن الله. وفي قوله: ﴿قَدْ فَلَمَّ يَعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ إبطال لدعواهم، لأن الأب لا يعذب ولده، والحبیب لا یعذب حبیبه^(١) وهم يقولون: إن الله يعذبنا أربعين يوماً بالنار. وقيل: معنى الكلام: فلم عذب منكم من مسخه قردة وخنازير؟ وهم أصحاب السبت والمائدة.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّثْنِ خَلْقٍ﴾ أي: أنتم كسائر بني آدم تُجَارُونَ بالإحسان والإساءة. قال عطاء: يغفر لمن يشاء، وهم الموحدون، ويعذب من يشاء، وهم المشركون.

﴿يَتَأَخَّلُ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأَخَّلُ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ سبب نزولها: أن معاذ بن جبل، وسعد بن عباد، وعقبة بن وهب، قالوا: يا معشر اليهود اتقوا الله، والله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه بصفته. فقال وهب بن يهودا^(٢)، ورافع: ما قلنا هذا لكم، وما أنزل الله بعد موسى من كتاب، ولا أرسل رسولا بشيراً ولا نذيراً [بعده]، فنزلت هذه الآية^(٣)، قاله ابن عباس. فاما «الفترة» فأصلها السكون، يقال: فتر الشيء يفتت فتوراً: إذا سكنت حذته، وانقطع عما كان عليه، والطرف الفاتر: الذي ليس بحديد. والفتور: الضعف. وفي مدة الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ أربعة أقوال: أحدها: أنه كان بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة، رواه أبو صالح عن ابن عباس^(٤)، وبه قال سلمان الفارسي، ومقاتل. والثاني: خمسمائة سنة وستون سنة، قاله قتادة. والثالث: أربع مائة وبضع وثلاثون سنة، قاله الضحاك. والرابع: خمسمائة سنة وأربعون سنة، قاله ابن السائب. وقال أبو صالح عن ابن عباس: ﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: انقطاع منهم، قال: وكان بين ميلاد عيسى، وميلاد محمد ﷺ خمسمائة سنة وتسعة وتسعون سنة، وهي فترة. وكان بعد عيسى أربعة من الرسل، فذلك قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: ١٤]. قال: والرابع لا أدري من هو. وكافي بين تلك السنين مائة سنة، وأربع وثلاثون نبوة وسائرها فترة. قال أبو سليمان الدمشقي: والرابع - والله أعلم - خالد بن سنان الذي قال فيه رسول الله ﷺ «نَبِيٌّ ضَمِيْعُهُ قَوْمُهُ»^(٥).

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ قال الفراء: كي لا تقولوا: [ما جاءنا من بشير]^(٦)، مثل قوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ [النساء: ١٧٦]. وقال غيره: لتلا تقولوا، وقيل: كراهة أن تقولوا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمُوا أَدْعُوا إِلَهُكُمْ أَدْعُوا إِلَهُكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾

(١) روى الإمام أحمد ١٠٤/٣ قال: حدثنا ابن أبي عدي عن حميد عن أنس قال: مر النبي ﷺ في نفر من أصحابه وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسمي، وتقول: ابني ابني، وسعت فأخذته فقال القوم: يا رسول الله ما كانت هذه لتلقي ولدها في النار، قال: فخفضهم النبي ﷺ، فقال: «لا، والله لا يلقى حبيبه في النار» قلت: وإسناده صحيح، وحميد الطويل وإن قال بعضهم: إنه يدل على أنس، فإن الوساطة بينه وبين أنس ثابت، وهو ثقة صحيح كما قال الحافظ الملائي.

(٢) في «الطبري»، و«السيرة» و«الدر المنثور»: «يهودا» بالذال.

(٣) ابن هشام ٥٦٣/١، وابن جرير ١٥٥/١٠ وفي سننه محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت وهو مجهول. وزاد السيوطي نسبتها في «الدر» ٢٢٩/٢ لابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «الدلائل».

(٤) ونسب ابن كثير إلى أبي عثمان النهدي وكتاده في رواية عنه، ورواه البخاري عن سلمان الفارسي. قال ابن كثير: وهو المشهور.

(٥) روى البخاري ٣٥٤/٦، ومسلم ١٨٣٦/٤ ابن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ بِعِيسَى، الْأَنْبِيَاءُ أَبْنَاءُ عِلَاتٍ، وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ عِيسَى نَبِيٌّ» قال الحافظ ابن كثير ٣٥/٢: وهذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي يقال له: خالد بن سنان، كما حكاه القاضي وغيره. وقال الحافظ في «الفتح»: واستدل به، أي: بالحديث على أنه لم يبعث بعد عيسى أحد إلا نبياً ﷺ وفيه نظر، لأنه ورد أن الرسل الثلاثة الذين أرسلوا إلى أصحاب القرية المذكورة قصتهم في سورة (يس) كانوا من أتباع عيسى، وأن جرجيس وخالد بن سنان كانا نبيين، وكانا بعد عيسى. والجواب أن هذا الحديث يُضَمَّنُ ما ورد من ذلك، فإنه صحيح بلا تردد، وفي غيره مقال، أو المراد أنه لم يبعث بعد عيسى نبي بشريعة مستقلة، وإنما بعث بعده من بعث بتقرير شريعة عيسى. وقصة خالد بن سنان أخرجه الحاكم في «المستدرک» من حديث ابن عباس، ولها طرق جمعتها في ترجمته في كتابي في الصحابة. قلت: يريد كتاب «الإصابة» فانظره ٤٥٨/١.

(٦) ما بين معقنين من «معاني القرآن» للفراء ٣٠٣/١.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلْنَا فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم السبعون الذين اختارهم موسى، وانطلقوا معه إلى الجبل، جعلهم الله أنبياء بعد موسى وهارون، وهذا قول ابن السائب، ومقاتل. والثاني: أنهم الأنبياء الذين أُرسلوا من بني إسرائيل بعد موسى، ذكره الماوردي. وبماذا جعلهم ملوكاً؟ فيه ثمانية أقوال: أحدها: باليمن والسلوى والحجر. والثاني: بأن جعل للرجل منهم زوجةً وخادماً. والثالث: بالزوجة والخادم والبيت^(١)، رويت هذه الثلاثة عن ابن عباس، وهذا الثالث اختيار الحسن، ومجاهد. والرابع: بالخادم والبيت، قاله عكرمة. والخامس: بتملكهم الخدم، وكانوا أول من تملك الخدم، ومن اتخذ خادماً فهو ملك، قاله قتادة، والسدس: بكونهم أحراراً يملك الإنسان منهم نفسه وأهله وماله، قاله السدي. والسابع: بالمنازل الواسعة، فيها المياه الجارية، قاله الضحاك. والثامن: بأن جعل لهم الملك والسلطان، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آسَدًا يَرَى الْمَلَائِكَةَ﴾ اختلَفوا فيمن خوطب بهذا على قولين: أحدهما: أنهم قوم موسى، وهذا مذهب ابن عباس، ومجاهد. قال ابن عباس: ويعني بالعالمين: الذين هم بين ظهرائهم^(٢). وفي الذي آتاهم ثلاثة أقوال: أحدها: المن والسلوى والحجر والغمام، رواه مجاهد عن ابن عباس وقال به. والثاني: أنه الدار والخادم والزوجة، رواه عطاء عن ابن عباس. قال ابن جرير: ما أوتي أحد من النعم في زمان قوم موسى ما أوتوا. والثالث: كثرة الأنبياء فيهم، ذكره الماوردي. والثاني: أن الخطاب لأمه محمد ﷺ، وهذا مذهب سعيد بن جبير^(٣)، وأبي مالك.

﴿يَقْوَرِ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَقْوَرِ أَذْخُلُوا﴾ وقرأ ابن محيصن: يا قوم، بضم الميم، وكذلك ﴿يَقْوَرِ أَذْخُلُوا﴾ بضم الميم، وقيل للسطل: القدس، لأنه يُطَهَّر منه، وسُمِّي بيت المقدس، لأنه يتطهر فيه من الذنوب. وقيل: سمّاها مقدسة، لأنها طهرت من الشرك، وجعلت مسكناً للأنبياء والمؤمنين. والثاني: أن المقدسة: المباركة، قاله مجاهد. وفي المراد بتلك الأرض أربعة أقوال: أحدها: أنها أريحا، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال السدي، وابن زيد. قال السدي: أريحا: هي أرض بيت المقدس. وروي عن الضحاك أنه قال: المراد بهذه الأرض إيلياء وبيت المقدس. قال ابن قتيبة: وقرأت في مناجاة موسى أنه قال: اللهم إنك اخترت من الأنعام الضائنة، ومن الطير الحمامة، ومن البيوت بكة وإيلياء، ومن إيلياء بيت المقدس. فهذا يدل على أن إيلياء الأرض التي فيها بيت المقدس. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي أن إيلياء بيت المقدس، وهو معرّب. قال الفرزدق:

وَبَيْتَانِ بَيْتُ اللَّهِ نَحْنُ وَلَهُ

وَبَيْتٌ بِأَعْلَى إِيلْيَاءٍ مُشْرِفٌ^(٤)

والقول الثاني: أنها الطور وما حوله، رواه مجاهد عن ابن عباس وقال به. والثالث: أنها دمشق وفلسطين وبعض الأردن، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: أنها الشام كلها، قاله قتادة. وفي قوله تعالى: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه بمعنى أمركم وفرض عليكم دخولها، قاله ابن عباس، والسدي. والثاني: أنه بمعنى: وهبها الله

(١) روى مسلم في «صحيحه» ١١٠/١٨ بشرح النووي، وابن جرير ١٦١/١٠ عن أبي عبد الرحمن الحُبَيْلِي قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص، وسأله رجل، فقال: ألسنا من قراء المهاجرين، فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فانت من الأغنياء. قال: فإن لي خادماً، قال: فانت من الملوك.

(٢) قال ابن كثير: ٣٧/٢: والمقصود كانوا أفضل زمانهم، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم وأفضل عند الله، وأكمل شريعة، وأقوم منهاجاً، وأكرم نبياً، وأعظم ملوكاً، وأغزر أرقافاً، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأوسع مملكة، وأدوم عزاً. قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وغير ابن عباس رواه الحاكم في «المستدرک» ٣١٢/٢ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) أثر سعيد بن جبير رواه ابن جرير ١٦٤/١٠ عن السدي.

(٤) «ديوانه» ٣٢/٢، و«المعرب» ٣٢، و«معجم البلدان» ٣٩٢/١، و«اللسان»: مادة «أيل» وفي النسخة الأحمدية: و«بنيان» وهو تصحيف. وإيلياء: بكسر الهمزة في أوله ثم ياء، ثم لام مكسورة ثم ياء وألف ممدودة. قال في «القاموس»: ويقصر ويشدد فيها، وإلياً: بياء واحدة ويقصر.

لكم، قاله محمد بن إسحاق. وقال ابن قتيبة: جعلها لكم. والثالث: كتب في اللوح المحفوظ أنها مساكنكم. فإن قيل: كيف قال: فإنها محرمة عليهم، وقد كتبها لهم؟ فعه جوابان: أحدهما: أنه إنما جعلها لهم بشرط الطاعة، فلما عصوا حرّمها عليهم. والثاني: أنه كتبها لبني إسرائيل، وإليهم صارت، ولم يعن موسى أن الله كتبها للذين أمروا بدخولها بأعينهم. قال ابن جرير: ويجز أن يكون الكلام خرج مخرج العموم، وأريد به الخصوص، فتكون مكتوبة لبعضهم، وقد دخلها يوشع، وكالب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدُوا عَلَيَّ دَبَارًا﴾ فيه قولان: أحدهما: لا ترجعوا عن أمر الله إلى معصيته. والثاني: لا ترجعوا إلى الشرك به.

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنَنذُرُكَ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ﴾ قال الزجاج: الجبار من الأدميين: الذي يُجبر الناس على ما يريد، يقال: جبار: بَيْنَ الْجَبَرِيَّةِ، وَالْجَبَرِيَّةِ بكسر الجيم والباء، وَالْجَبَرُوتُ وَالْجُبُورَةُ وَالْجَبَارِ وَالْجَبَرُوت. وفي معنى وصفه هؤلاء بالجبارين ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم كانوا ذوي قوة، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم كانوا عظام الخلق والأجسام، قاله قتادة. والثالث: أنهم كانوا قتالين، قاله مقاتل.

الإشارة إلى القصة

قال ابن عباس: لما نزل موسى وقومه بمدينة الجبارين، بعث اثني عشر رجلاً ليأتوه بخبرهم، فلقيهم رجل من الجبارين، فجعلهم في كسائه، فأتى بهم المدينة، ونادى في قومه فاجتمعوا، فقالوا لهم: من أين أنتم؟ فقالوا: نحن قوم موسى بعثنا لنأتيه بخبركم، فأعطوهم حبةً من عنبٍ توقر الرجل، وقالوا لهم: قولوا لموسى وقومه: اقدروا قدر فاكههم، فلما رجعوا، قالوا: يا موسى إن فيها قوماً جبارين. وقال السدي: كان الذي لقيهم، يقال له: عاج، يعني: عوج بن عناق، فأخذ الاثني عشر، فجعلهم في حُجرتِهِ وعلى رأسه حُزْمة حطب، وانطلق بهم إلى امرأته، فقال: انظري إلى هؤلاء الذين يزعمون أنهم يريدون قتالنا، فطرحهم بين يديها، وقال: ألا أظنهم يرجلي؟ فقالت امرأته: لا، بل خلّ عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا. فلما خرجوا قالوا: يا قوم إن أخبرتم بني إسرائيل بخبر القوم، ارتدوا عن نبي الله، فأخذوا الميثاق بينهم على كتمان ذلك، فنكث عشرة، وكنتم رجلاً. وقال مجاهد: لما رأى النّبَاءُ الجبارين وجدوهم يدخل في كُفٍّ أحدهم اثنان منهم، ولا يحمل عقود عنهم إلا خمسة أو أربعة، ويدخل في شطر الرّمانة إذا نزع حبّها خمسة أو أربعة، فرجع النّبَاءُ كلُّهم ينهى سبطه عن قتالهم، إلا يوشع، وابن يُوْقَنَّا^(١).

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِمَا الدَّاهِيَةُ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُ بِمَا فَكَّرَ وَيُسَبِّحُ اللَّهَ قُلُوبًا خَائِفَةً﴾ قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ في الرجلين ثلاثة أقوال: أحدها: أنهما يوشع بن نون، وكالب بن يوقنة، قاله ابن عباس. وقال مجاهد: ابن يوقنا، وهما من النّبَاءِ. والثاني: أنهما كانا من الجبارين فأسلما، روي عن ابن عباس. والثالث: أنهما كانا في مدينة الجبارين، وهما على دين موسى، قاله الضحاك. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وأبو رجا، وأيوب: «يُخَافُونَ» بضم الياء، على معنى أنهما كانا من العدوّ، فخرجاً مؤمنين. وفي معنى «خوفهم» ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم خافوا الله وحده. والثاني: خافوا الجبارين، ولم يمنعهم خوفهم قول الحق. والثالث: يُخَافُ منهم، على قراءة ابن جبيرة. وفيما أنعم به عليهما أربعة أقوال: أحدها: الإسلام، قاله ابن عباس. والثاني: الصلاح والفضل واليقين، قاله عطاء. والثالث: الهدى، قاله الضحاك. والرابع: الخوف، ذكره ابن جرير عن بعض السلف.

(١) كان الأجدر بالمصنف أن لا يذكر هذه الأخبار الإسرائيلية الكاذبة التي وضعها القصاص ونفقت عند من لا يميز بين الصحيح والسقيم، فدونها في كثير من التفاسير. وخير لنا أن تقتصر في وصفهم على ما ذكر الله تعالى في الآيات الكريمة دونما زيادة.

قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ قال ابن عباس: قال الرجلان: ادخلوا عليهم باب القرية، فإنهم قد ملثوا منا رُعباً وقرعاً.

﴿قَالُوا يَكُونُ إِنَّ لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَفَتَنَّا إِنْ هُنَا فُتُونٌ﴾

قوله تعالى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَفَتَنَّا﴾ قال ابن زيد: قالوا له: انظر كما صنع ربك بفرعون وقومه، فليصنع بهؤلاء. وقال مقاتل: فاذهب أنت وسل ربك النصر. وقال غيرهما: اذهب أنت ولبيعتك ربك. قال ابن مسعود: لقد شهدت من المقداد شهيداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عُذِلَ به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، ومن بين يديك ومن خلفك. فرأيت رسول الله ﷺ أشرق لذلك وجهه وسر به^(١). وقال أنس: استشار رسول الله ﷺ الناس يوم خرج إلى بدر، فأشار عليه أبو بكر، ثم استشارهم، فأشار عليه عمر فسكت، فقال رجل من الأنصار: إنما يريدكم، فقالوا: يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن والله لو ضربت أكبادها حتى تبلغ برك الغماد لكنا معك^(٢).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَتْلُكَ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا أَتْلُكَ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ فيه قولان: أحدهما: لا أملك إلا نفسي، وأخي لا يملك إلا نفسه. والثاني: لا أملك إلا نفسي وإلا أخي، أي: وأملك طاعة أخي، لأن أخاه إذا أطاعه فهو كالملك له، وهذا على وجه المجاز، كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما نفعني مال [قط] ما نفعني مال أبي بكر» فبكى أبو بكر، وقال: هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله^(٣) يعني: أنني متصرف حيث صرفتني، وأمرك جائز في مالي.

قوله تعالى: ﴿فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قال ابن عباس: اقض بيننا وبينهم. وقال أبو عبيدة: باعد، وافصل، وميز. وفي المراد بالفاسقين ثلاثة أقوال: أحدها: العاصون، قاله ابن عباس. والثاني: الكاذبون، قاله ابن زيد. والثالث: الكافرون، قاله أبو عبيدة. قال السدي: غضب موسى حين قالوا له: اذهب أنت وربك، فدعا عليهم، وكان عجلة من موسى عجلها.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتَهَوَّنَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ الإشارة إلى الأرض المقدسة. ومعنى تحريمها عليهم: منعهم منها. فأما نصب «الأربعين»، فقال الفراء: هو منصوب بالتحريم، وجائز أن يكون منصوباً بـ «يتهون»^(٤). وقال الزجاج: لا يجوز أن ينتصب بالتحريم، لأن التفسير جاء أنها محرمة عليهم أبداً. قلت: وقد اختلف المفسرون في ذلك، فذهب الأكثرون،

(١) «المسند» ٥/٢٥٩، ٦/٦٥، ١٧٤، والبخاري ٧/٢٢٣، ٨/٢٠٥، والحاكم في «المستدرک» ٣/٣٤٩، وصححه ووافقه الذهبي. وذكره الحافظ ابن كثير في «البدایة والنهاية» عن البخاري، ثم قال: انفرد به البخاري دون مسلم، فرواه في مواضع من «صحيحه». وقوله: «فما عُذِلَ به» قال الحافظ: بضم المهملة وكسر الدال المهمة، أي: وزن، أي: من كل شيء يقابل ذلك من الدنياويات.

(٢) «المسند» ٢٠/٩٧، ترتيب الساعاتي. ورواه النسائي وابن حبان وابن مردويه. قال الحافظ ابن كثير في «البدایة والنهاية» ٣/٣٦٣ بعدما رواه عن «المسند»: وهذا إسناد ثلاثي صحيح على شرط الصحيح. وبرك الغماد: قال في «النهاية» يفتح الباء وتكسر، وتضم الغين وتكسر، وهو موضع باليمن. وقال السهيلي في «الروض الأنف» ٢/٦٥: وجدت في بعض كتب التفسير أنها مدينة الحبشة.

(٣) «المسند» ١٣/١٨٣، وابن ماجه ١/٣٦١. وقال البوصيري في «زوائد»: إسناده إلى أبي هريرة في مقال، لأن سلميان بن مهران الأعمش يلدس وكذا أبو معاوية إلا أنه صرح بالتحديث، فزال التلخيص، وبقية رجاله رجال الصحيح، وتقبة الشيخ أحمد شاكر في شرح «المسند» بقوله: وهذا تعليل منه غير جيد ولا سليم، فإنه - كما قال - قد صرح أبو معاوية والأعمش بالتحديث في رواية ابن ماجه، فلم يبق موضع للكلام، ولا يسمى هذا الإسناد حديثاً بأن فيه مقالاً. ثم رواية أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح صحيحة على شرط الشيخين، والصحيحان روايا الكثير بهذا الإسناد. قلت: الذي في «سنن ابن ماجه» تصريح أبي معاوية بالسماع، وأما الأعمش فلم يصرح. ورواه ابن حبان في «صحيحه» ٢/٣٣١ من مصورة «التقاسيم والأنواع» وذكر السيوطي أنه في «الجامع الصغير» ونسبه لأحمد وابن ماجه ورمز له بالحسن، وزاد شارحه المناوي أنه رواه أبو يعلى أيضاً، ثم قال: قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير إسحاق بن إسرائيل وهو ثقة مأمون، وليس هذا الحديث من شرط «الزوائد» للهيثمي، ولم يوجد فيه.

(٤) في «المكبري» ١/٢١٣: «أربعين سنة» ظرف لـ «محرمه» فالتحريم على هذا مقدر «يتهون» حال من الضمير المجزوء، وقيل: هي ظرف لـ «يتهون»، فالتحريم على هذا غير مؤقت.

منهم عكرمة، وقتادة، إلى ما قال الزجاج، وأنها حرمت عليهم أبداً. قال عكرمة: فإنها محرمة عليهم أبداً يتيهون في الأرض أربعين سنة، وذهب قومٌ، منهم الربيع بن أنس، إلى أنها حرمت عليهم أربعين سنة، ثم أمروا بالسرى إليها، وهذا اختيار ابن جرير. قال: إنما نصبت بالتحريم، والتحريم كان عاماً في حق الكل، ولم يدخلها في هذه المدة منهم أحد، فلما انقضت، أذن لمن بقي منهم بالدخول مع ذريهم. قال أبو عبيدة: ومعنى: يتيهون: يحورون ويضلون^(١).

الإشارة إلى قصتهم

قال ابن عباس: حرم الله على الذين عصوا دُخُولَ بيت المقدس، فلبثوا في تيههم أربعين سنة، وماتوا في التيه، ومات موسى وهارون، ولم يدخل بيت المقدس إلا يوشع وكالب بأبناء القوم، وناهض يوشع بمن بقي معه مدينة الجبارين فافتتحها. وقال مجاهد: تاهوا أربعين سنة يصبحون حيث أمسوا، ويمسون حيث أصبحوا. وقال السدي: لما ضرب الله عليهم التيه، ندم موسى على دعائه عليهم، وقالوا له: ما صنعت بنا، أين الطعام؟ فأنزل الله المن. قالوا: فأين الشراب؟ فأمر موسى أن يضرب بعصاه الحجر. قالوا: فأين الظل؟ فظلل عليهم الغمام. قالوا: فأين اللباس؟ وكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان، ولا يتخرق لهم ثوب، وقُبض موسى ولم يبق أحد ممن أبى دخول قرية الجبارين إلا مات، ولم يشهد الفتح. وفيه قول آخر أنه لما مضت الأربعون خرج موسى ببني إسرائيل من التيه، وقال لهم: ادخلوا هذه القرية، فكلوا منها حي شتتم رغداً، وادخلوا الباب سجداً، وقولوا حطة... إلى آخر القصة. وهذا قول الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد. قال ابن جرير الطبري، وأبو سليمان الدمشقي: وهذا الصحيح، وأن موسى هو الذي فتح مدينة الجبارين مع الصالحين من بني إسرائيل، لأن أهل السيرة أجمعوا على أن موسى هو قاتل عوج، وكان عوج ملكهم، وكان بلعم بن باعوراء فيمن سباه موسى وقتله، ولم يدخل مع موسى من قدمائهم غير يوشع وكالب، وإنما حرمت على الذين لم يطيعوا. وفي مسافة أرض التيه قولان: أحدهما: تسعة فراسخ، قاله ابن عباس. قال مقاتل: هذا عرضها، وطولها ثلاثون فرسخاً. والثاني: ستة فراسخ في طول اثني عشر فرسخاً، حكاه مقاتل أيضاً.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَلَى الْقَوْمِ اللَّيْلُ﴾ قال الزجاج: لا تحزن على قوم شأنهم المعاصي، ومخالفة الرسل^(٢). وقال ابن قتية: يقال: أسيت على كذا، أي: حزنت، فانا آسي أسى. ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ قال ابن عباس: آية: علامة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ قال ابن عباس: آية: علامة. وفيه قولان: أحدهما: أنهم ابناه لصلبه، وهما قاييل وهابيل، قاله ابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة. والثاني: أنهم أخوان من بني إسرائيل، ولم يكونا ابني آدم لصلب، هذا قول الحسن، والعلماء على الأول، وهو أصح، لقوله: ﴿كَيْفَ يُؤَرِّى سَوْءَ أَخِي﴾ [المائدة: ٣١] ولو كان من بني إسرائيل، لكان قد عرف الدفن، ولأن النبي ﷺ قال عنه: «إنه أول من سن القتل»^(٣). وقوله تعالى:

(١) في «مجاز القرآن» ١٦٠: أي: يحورون ويحارون ويضلون. وفي «الطبري» ١٩٩/١٠: يحارون ويضلون. قلت: وجاء في هامش نسخة الرباط ما نضه: لعله: يحارون.

(٢) قال الحافظ ابن كثير ٤٠/٢ بعد تفسير الآيات: وهذه القصة تضمنت تزييع اليهود، وبيان فضائهم ومخالفتهم لله ولرسوله، وتكولهم عن طاعتها فيما أمروهم به من الجهاد، فضمنت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم، مع أن بين أظهرهم رسول الله وكتابه وصفه من خلقه في ذلك الزمان، وهو يهدم بالنصر والظفر بأعدائهم، وهذا مع ما شاهدوا من فعل الله بدمهم فروع من المذاب والنكال، والفرق له ولجنوده في اليم وهم ينظرون، لتقر به أعينهم، وما بالهم من قدم، ثم يتكلمون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المعشار في عدة أهلها وعددهم. فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، واقتضوا فضيحة لا يغطيها الليل، ولا يسترها الليل. هذا وهم في جهلهم بعمهون، وفي غيهم بترددون، وهم اليقضاء إلى الله وأعداؤه، ويقولون مع ذلك: نحن أبناء الله وأحباؤه! فقيح الله وجوههم التي مسخ منها الخزائير والقرود، وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الورد، ويقضي لهم فيها بتأييد الخلود، وقد فعل، وله الحمد من جميع الوجوه.

(٣) «الفسنة» ٢٢٦/٥، والبخاري ٦/٢٢٦، ١٢/١٦٩، ١٣/٢٥٦، ومسلم ٣/١٣٠٣، والترمذي ٢/٩٢، والنسائي ٧/٨٢، وابن ماجه ٢/٨٧٣ من حديث ابن مسعود مرفوعاً، ولفظه: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل» وقوله: «كفل منها» الكفل، =

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: كما كان. والقربان: فعلان من القرب، وقد ذكرناه في (آل عمران). وفي السبب الذي قربا لأجله قولان: أحدهما: أن آدم ﷺ كان قد نُهي أن يُنكِحَ المرأةَ أخاها الذي هو توأماها^(١)، وأجبر له أن يُنكِحَها غيره من إخوتها، وكان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى، فولدت له ابنة وسيمة، وأخرى دميمة، فقال أخو الدميمة لأخي الوسيمة: أنكحني أختك، وأنكحك أختي، فقال أخو الوسيمة: أنا أحنُّ بأختي، وكان أخو الوسيمة صاحب حرث، وأخو الدميمة صاحب غنم، فقال: هَلُمَّ فلنقرب قرباناً، فأينا تُقبِلُ قربانه فهو أحنُّ بها، فجاء صاحب الغنم بكبش أبيض أعين أقرون، وجاء صاحب الحرث بصَبْرٍ^(٢) من طعام، فَتَقَبَّلَ الكبش، فخرّنه الله في الجنة أربعين خريفاً، فهو الذي ذبحه إبراهيم، فقتله صاحب الحرث، فَوَلَّدَ آدم كلهم من ذلك الكافر، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس^(٣). والثاني: أنهما قرباه من غير سبب^(٤). روى العوفي عن ابن عباس أن ابني آدم كانا قاعدَين يوماً، فقالا: لو قربنا قرباناً، فجاء صاحب الغنم بخير غنمه وأسمنها، وجاء الآخر ببعض زرعه، فنزلت النار، فأكلت الشاة، وتركت الزرع، فقال لأخيه: أتَمْشي في الناس وقد علموا أن قربانك تُقبِلُ، وأنت خيرٌ مني! لأقتلَنَّك. واختلَفوا هل قابيل وأخته ولدا قبل هابيل وأخته، أم بعدهما؟ على قولين، وهل كان قابيل كافراً أو فاسقاً غير كافراً؟ فيه قولان. وفي سبب قبول قربان هابيل قولان: أحدهما: أنه كان أتقى لله من قابيل. والثاني: أنه تقرب بخيار ماله، وتقرب قابيل بشرِّ ماله. وهل كان قربانهما بأمر آدم، أم من قبل أنفسهما؟ فيه قولان: أحدهما: أنه كان وأدم قد ذهب إلى زيارة البيت. والثاني: أن آدم أمرهما بذلك. وهل قُتل هابيل بعد تزويج أخت قابيل، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أنه قتله قبل ذلك لثلاث يصل إليها. والثاني: أنه قتله بعد نكاحها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَأْكُلَنَّكَ﴾ وروى زيد عن يعقوب: «لأقتلَنَّك» بسكون النون وتخفيفها. والقائل: هو الذي لم يُتَقَبَّلَ منه. قال الفراء: إنما حذف ذكره لأن المعنى يدل عليه، ومثل ذلك في الكلام أن تقول: إذا رأيت الظالم والمظلوم أعنت^(٥)، وإذا اجتمع السفه والحليم حُمد، وإنما كان ذلك، لأن المعنى لا يشكل، فلو قلت: مرّ بي رجلٌ وامرأةٌ، فأعنتُ، وأنت تريد أحدهما، لم يجز، لأنه ليس هناك علامة تدل على مُرادك^(٦). وفي المراد بالمتقين قولان: أحدهما: أنهم الذين يتقون المعاصي، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم الذين يتقون الشرك، قاله الضحاك.

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِيدِي إِلَيْكَ لِأَتُفَكَّ إِلَيْهِ أَخَافُ اللَّهُ رَبَّ الْمَلَكِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِيدِي إِلَيْكَ لِأَتُفَكَّ﴾ فيه قولان: أحدهما: ما أنا بمنتهصرٍ لنفسي، قاله ابن عباس. والثاني: ما كنت لأبتدئك، قاله عكرمة. وفي سبب امتناعه من دفعه عنه قولان: أحدهما: أنه منعه التحرُّج مع قدرته

= بكر أوله وسكون الفاء: التصيب، وأكثر ما يطلق على الأجر، والضعف على الإثم. ومنه قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُ بِهِ دَمُ النَّفْسِ﴾ [الحديد: ٢٨] وقع على الإثم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ سَنَكْفُرْ بِهِ لَكُمُ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [النساء: ٨٥].

(١) التوأم والتَّوَمُّمُ والتَّوَمُّمُ والتَّوَمُّمُ: هو من جميع الحيوان: المولود مع غيره في بطن من الاثنين إلى ما زاد، ذكرًا وأنثى، أو ذكرًا مع الأنثى. ويقال أيضاً: توأم للذكر، وتوامة للأنثى. «لسان العرب».

(٢) الصبرة: كومة من الطعام بلا كيل ولا وزن، ويقال: اشترت الشيء صبرةً، أي: بلا كيل ولا وزن.

(٣) ابن جرير الطبري ٢٢٣/١٠، وابن كثير ٤٢٢/٢ عن ابن أبي حاتم، وجود إسناده، وزاد السيوطي في «الدر المنثور» ٢٧٣/٢ نسبته إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن عساكر، وجود إسناده أيضاً. قال الشيخ أحمد شاکر: وهو خبر - كما ترى - ليس من السنة النبوية، بل ظاهره يدل على أنه مما أخذهُ ابن عباس من كتب أهل الكتاب.

(٤) قال ابن كثير: وهو ظاهر القرآن ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فالسياق يقتضي أنه إنما غضب عليه وحسده لقبول قربانه دونه. قلت: وخبر ابن عباس الذي ساقه المصنف عن العوفي ضعيف جداً.

(٥) في النسخة الأحمدية: «أعيت» وهو تحريف.

(٦) اختصر المؤلف رحمه الله كلام الفراء في «معاني القرآن» ٣٠٥/١ وإليك نصه بتمامه قال: ولم يقل: قال الذي لم يقبل منه: لأقتلَنَّك، لأن المعنى يدل على أن الذي لم يقبل منه هو القاتل لحسده لأخيه: لأقتلَنَّك، ومثله في الكلام أن تقول: إذا اجتمع السفه والحليم حمد، تنوي بالحمد الحليم، وإذا رأيت الظالم والمظلوم أعنت، وأنت تنوي: أعنت المظلوم للمعنى الذي لا يشكل. ولو قلت: مرّ بي رجل وامرأة فأعنت، وأنت تريد أحدهما لم يجز حتى يبين، لأنهما ليس فيهما علامة تستدل بها على موضع المعونة، إلا أن تريد: فأعنتهما جميعاً.

على الدفع وجوازه له، قاله ابن عمر^(١)، وابن عباس. والثاني: أن دفع الإنسان عن نفسه لم يكن في ذلك الوقت جائزاً، قاله الحسن، ومجاهد^(٢). وقال ابن جرير: ليس في الآية دليل على أن المقتول علم عزم القاتل على قتله، ثم ترك الدفع عن نفسه، وقد ذكر أنه قتله غيلةً، فلا يدعى ما ليس في الآية إلا بدليل^(٣).

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ فيه قولان: أحدهما: إني أريد أن ترجع بإثم قتلي وإثمك الذي في عنقك، هذا قول ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك. والثاني: أن تبوء بإثم في خطاياي، وإثمك في قتلك لي، وهو مروى عن مجاهد أيضاً^(٤) قال ابن جرير: والصحيح عن مجاهد القول الأول. وقد روى البخاري، ومسلم في «صحيحيهما» من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقتل نفس ظملاً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها، لأنه كان أول من سن القتل» فإن قيل: كيف أراد هابيل وهو من المؤمنين أن يبوء قابيل بالإثم وهو معصية، والمؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه ما أراد لأخيه الخطيئة، وإنما أراد: إن قتلتي أردت أن تبوء بالإثم، وإلى هذا المعنى ذهب الزجاج. والثاني: أن في الكلام محذوفاً، تقديره: إني أريد أن لا تبوء بإثمك وإثمك، فحذف «لا» كقوله: ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَمْيَهُ أَنْ تَنِيْدَ بِهِمْ﴾ [لقمان: ١٠] أي: أن لا تميد بكم، ومنه قول امرئ القيس:

فَقُلْتُ يَمِينُ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي^(٥)

أراد: لا أبرح. وهذا مذهب ثعلب. والثالث: أن المعنى: أريد زوال أن تبوء بإثمك وإثمك، وبطلان أن تبوء بإثمك وإثمك، فحذف ذلك، وقامت «أن» مقامه، كقوله: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْكَيْدَ﴾ [البقرة: ٩٣] أي: حبّ العجل، ذكره والذي قبله ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ الإشارة إلى مصاحبة النار.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: تابعت على قتل أخيه، قاله ابن عباس. والثاني: شجّعته، قاله مجاهد. والثالث: زوّت له، قاله قتادة. والرابع: رخصت له، قاله أبو الحسن الأخفش. والخامس: أن «طوّعت» فعلت من «الطوع» والعرب تقول: طاع لهذه الظبية أصول هذا الشجر، وطاع له كذا، أي: أناه طوعاً، حكاة

(١) في «الطبري» عن عبد الله بن عمرو.

(٢) قال القرطبي ١٣٦/٦: قال علماؤنا: وذلك مما يجوز التعبد به، إلا أن في شرعنا يجوز دفعه إجماعاً، وفي وجوب ذلك عليه خلاف، والأصح وجوب ذلك، لما فيه من النهي عن المنكر. وفي الحشوية قوم لا يجوزون للمصول عليه الدفع، واحتجوا بحديث أبي ذر، وحمله العلماء على ترك القتال في الفتنة، وكف اليد عند الشبهة على ما بيناه في كتاب «التفكير». قلت: حديث أبي ذر في «المستند» ١٤٩/٥، وأبي داود ١٤٢/٤، وابن ماجه ١٣٠٨/٢ وفيه «أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضاً، يعني حتى تنفرك حجارة الزيت من الدماء كيف تصنع؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: اتق في بيتك، وأغلق عليك بابك. قال: فإن لم أترك؟ قال: فأت من أنت منهم، فكن فيهم. قال: فأخذ سلاحي؟ قال: إذن تشاركهم فيما هم فيه، ولكن إن خشيت أن يروعك شماع السيف، فالتق طرف رءائك على وجهك حتى يوء بإثمك وإثمك» وفي معناه أحاديث عن جماعة من الصحابة، انظر «سنن أبي داود»، كتاب الفتن.

(٣) انظر كلام ابن جرير مطولاً في «التفسير» ٢١٤/١٠.

(٤) قال ابن كثير ٤٤/٢: وهذا قول وجدته عن مجاهد وأخشي أن يكون غلطاً، لأن الصحيح من الرواية عنه خلافه. قلت: القاتل ابن كثير -: وقد يتوهم كثير من الناس هذا القول، ويذكرون في ذلك حديثاً لا أصل له «ما ترك القاتل على المقتول من ذنب» وقد روى البزار حديثاً يشبه هذا ولكن ليس به، فروى عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «قل الصبر لا يمر بقلب إلا معناه». وهذا لا يصح، ولو صح فمعناه: أن الله يكفر عن المقتول بألم القتل ذنبه، فأما أن تحمل على القاتل فلا. ولكن قد يتفق هذا في بعض الأشخاص وهو الغالب، فإن المقتول يطالب القاتل في العرصات، فيأخذ له من حسنة بقدر مظلمته، فإن نفدت ولم يستوف حقه أخذ من سيئات المقتول فطرحت على القاتل، وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ في المظالم كلها، والقتل أعظمها وأشدّها.

(٥) «ديوانه» ٣٢، و«مشكل القرآن» ١٧٤، والصناعتين: ١٧٤، والطبري ٤٢/١٣. وقد أضمر حرف النفي - وهو «لا» - لدلالة المعنى عليه، لأن الفعل بعد القسم غير مؤكد، ولو كان الكلام إيجاباً لوجب تأكيد الفعل بالنون. والأوصال: جمع وصل بالكسر: وهو كل عضو يفصل من آخر.

الزجاج عن المبرّد. وقال ابن قتيبة: شايئته وانقادت له، يقال: لساني لا يطوع بكذا، أي: لا ينقاد^(١). وهذه المعاني تتقارب. وفي كيفية قتله ثلاثة أقوال: أحدها: أنه رماه بالحجارة حتى قتله، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: ضرب رأسه بصخرة وهو نائم، رواه مجاهد عن ابن عباس، والسدي عن أشياخه. والثالث: رضخ رأسه بين حجرين. قال ابن جريج: لم يدر كيف يقتله، فتمثل له إبليس، وأخذ طائراً فوضع رأسه على حجر، ثم شدخه بحجر آخر، ففعل به هكذا، وكان له «هابيل» يومئذ عشرون سنة. وفي موضع مصرعه ثلاثة أقوال: أحدها: على جبل ثور، قاله ابن عباس. والثاني: بالبصرة، قاله جعفر الصادق. والثالث: عند عقبة جراء، حكاه ابن جرير الطبري. وفي قوله: ﴿فَأَصْحَبَ مِنْ لَقْدِيرِينَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: من الخاسرين الدنيا والآخرة، فخرسانه الدنيا: أنه أسخط والده، وبقي بلا أخ، وخسرانه الآخرة: أنه أسخط ربه، وصار إلى النار، قاله ابن عباس. والثاني: أنه أصبح من الخاسرين الحسنات، قاله الزجاج. والثالث: من الخاسرين أنفسهم بإهلاكهم ليأها، قاله القاضي أبو يعلى.

﴿بَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِثُ سُوءَ أَخِيهِ قَالِ يَتَوَلَّوْنَ أَعْجَزْتَ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأَدْرِيَ سُوءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿بَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ﴾ قال ابن عباس: حملة على عاتقه، فكان إذا مشى تخطط يده ورجلاه في الأرض، وإذا قعد وضعه إلى جنبه حتى رأى غرابين اقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، ثم بحث له الأرض حتى وراه بعد أن حملة سنين. وقال مجاهد: حملة على عاتقه مائة سنة. وقال عطية: حملة حتى أروح^(٢). وقال مقاتل: حملة ثلاثة أيام. وفي المراد بسوء أخيه قولان: أحدهما: عورة أخيه. والثاني: جيفة أخيه.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ فإن قيل: أليس الندم توبة، فلم لم يقبل منه؟ فغنه أربعة أجوبة: أحدها: أنه يجوز أن لا يكون الندم توبة لمن تقدّمنا، ويكون توبة لهذه الأمة، لأنها خضت بخصائص لم تشارك فيها، قاله الحسن بن الفضل. والثاني: أنه ندم على حملة لا على قتله. والثالث: أنه ندم إذ لم يواره حين قتله. والرابع: أنه ندم على فوات أخيه، لا على ركوب الذنب. وفي هذه القصة تحذير من الحسد، لأنه الذي أهلك قابيل.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَفسُوقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ قال الضحّاك: من أجل ابن آدم الذي قتل أخاه ظلماً. وقال أبو عبيدة: من جناية ذلك، ومن جري ذلك. قال الشاعر^(٣):

وأهل خباءٍ صالحٍ ذاتٌ بينهم
قد احتربوا في عاجلٍ أنا أجله^(٤)

أي: جانبه وجارٌ ذلك عليهم. وقال قوم: الكلام متعلق بما قبله، والمعنى: فأصبح من النادمين من أجل ذلك.

(١) وتام كلام ابن قتيبة في «غريب القرآن» ١٤٢: ومنه يقال: أتيت طائماً وطوعاً وكراً، ولو كان من «إطاع» لكان مطيعاً وطاعة وإطاعة.

(٢) يقال: أروح اللحم، وأراح: أثن وسطعت له ريح خبيثة.

(٣) نسب أبو عبيدة في «مجاز القرآن» إلى الخنوت وهو توبة بن مضر أحد بني مالك بن سعد بن زيد مناة بن نعيم، وإنما سماه الخنوت الأحنف بن قيس، لأن الأحنف كلمة، فلم يكلمه احتقاراً له، فقال: إن صاحبكم هذا لخنوت. والخنوت: المتعجب الداهب بنفسه، المستصغر للناس. وذكره الأملدي في «المؤتلف والمختلف» ٩١ وقال: قتل أخواه... فادرك الأخذ بشارهما، وجزع على أخويه جزعاً شديداً. وكان لا يزال يبكي أخويه، فطلب إليه الأحنف أن يكف فابى، فسماه الخنوت، وهو الذي يمنعه الغيظ أو البكاء من الكلام. ونسب التبريزي في شرح «إصلاح المنطق» والشتري في «شرح ديوان زهير» إلى خوات بن بجير الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ والحق بشعر زهير بن أبي سلمى في «ديوانه» بشرح الشتمري.

(٤) «مجاز القرآن» ١٦٣/١، «إصلاح المنطق» ٩، «والطبري» ٢٣١/١٠، «ديوان زهير» بشرح الشتمري ٣٣، «واللسان» مادة: أجل. وفي رواية لابن بري في «اللسان».

وأهل خباءٍ آمنين فجمعهم
وأقبلت أسعى أسال القوم مالهم
ويروى الشطر الأول من البيت الثاني «فأقبلت في الساعين أسال عنهم». قال الشتمري: ومعنى البيت: أنه وصف تأريسه بين قوم مصطلحين وسعيه بينهم بالفساد حتى أوقفهم في حرب وعاجل شر أجله عليهم، أي: جناه وأحدثه، ثم زعم أنه بعد ما كادهم ويحث الحرب بينهم جعل يسأل عن الساعين بالشر المهيجين له بين القوم، كما يسأل الإنسان عما جهل.

فعلى هذا يحسن الوقف هاهنا، وعلى الأول لا يحسن الوقف. والأول أصح. و«كتبنا» بمعنى: فرضنا. ومعنى «فَنَكَلَ نَفْسًا يَمِيرَ نَفْسًا» أي: قتلها ظلماً ولم تقتل نفساً. «أَوْ فَسَادًا فِي الْأَرْضِ» «فساد» منسوق على «نفس»، المعنى: أو بغير فساد تستحق به القتل. وقيل: أراد بالفساد هاهنا: الشرك. وفي معنى قوله: «وَنَكَلْنَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا» خمسة أقوال: أحدها: أن عليه إثم من قتل الناس جميعاً، قاله الحسن، والزجاج. والثاني: أنه يصلى النار بقتل المسلم، كما لو قتل الناس جميعاً، قاله مجاهد، وعطاء. وقال ابن قتيبة: يُعَذَّبُ كما يُعَذَّبُ قَاتِلُ النَّاسِ جميعاً. والثالث: أنه يجب عليه من القصاص مثل ما لو قتل الناس جميعاً، قاله ابن زيد. والرابع: أن معنى الكلام: ينبغي لجميع الناس أن يُعِينُوا ولي المقتول حتى يُقِيدُوهُ منه، كما لو قتل أولياءهم جميعاً، ذكره القاضي أبو يعلى. والخامس: أن المعنى: من قتل نبياً أو إماماً عادلاً، فكانما قتل الناس جميعاً، رواه عكرمة عن ابن عباس. والقول بالعموم أصح. فإن قيل: إذا كان إثم قاتل الواحد كإثم من قتل الناس جميعاً، دل هذا على أنه لا إثم عليه في قتل مَنْ يقتله بعد قتل الواحد إلى أن يفنى الناس؟ فالجواب: أن المقدار الذي يستحقه قاتل الناس جميعاً، معلوم عند الله محدود، فالذي يقتل الواحد يلزمه ذلك الإثم المعلوم، والذي يقتل الاثنين يلزمه مثله، وكلما زاد قتلاً زاده الله إثمًا، ومثل هذا قوله: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثَرَاتٍ» [الأنعام: ١٦٠] فالحسنة معلوم عند الله مقدار ثوابها، فعاملها يعطي بمثل ذلك عشر مرات. وهذا الجواب عن سؤال سائل إن قال: إذا كان من أحيا نفساً فله ثواب مَنْ أحيا الناس، فما ثواب من أحيا الناس كلهم؟ هذا كله منقول عن المفسرين. والذي أراه أن التشبيه بالشئ قريب منه، لأنه لا يجوز أن يكون إثم قاتل شخصين كإثم قاتل شخص، وإنما وقع التشبيه بـ «كأنما»، لأن جميع الخلائق من شخص واحد، فالمقتول يتصور منه نشر عدد الخلق كلهم^(١). وفي قوله: «وَمَنْ أَحْيَاهَا» خمسة أقوال: أحدها: استنقاذها من هلكة، روي عن ابن مسعود، ومجاهد. قال الحسن: من أحياها من غرق أو حرق أو هلاك. وفي رواية عكرمة عن ابن عباس: من شَدَّ عَصَدَ نَبِيٍّ أو إمام عادل، فكانما أحيا الناس جميعاً. والثاني: ترك قتل النفس المحرمة، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد في رواية. والثالث: أن يعفو أولياء المقتول عن القصاص، قاله الحسن، وابن زيد، وابن قتيبة. والرابع: أن يزجر عن قتلها وينهى. والخامس: أن يعين الولي على استيفاء القصاص، لأن في القصاص حياة، ذكرهما القاضي أبو يعلى. وفي قوله: «وَنَكَلْنَا نَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا» قولان: أحدهما: أنه أجر من أحيا الناس جميعاً، قاله الحسن، وابن قتيبة. والثاني: فعلى جميع الناس شكره، كما لو أحياهم، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ» يعني: بني إسرائيل الذين جرى ذكروهم.

«إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ نَسَافُ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلْفٍ أَوْ يُنْفَخُوا مِنْ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في ناس من غزينة قدموا المدينة، فاجتأؤوها، فبعثهم رسول الله في إبل الصدقة، وأمرهم أن يشربوا من البانها وأبوالها ففعلوا، فصيحوا، وارتدوا عن الإسلام، وقتلوا الراعي، واستاقوا الإبل، فأرسل رسول الله في آثارهم، فجيء بهم، فقطع أيديهم

(١) قال ابن جرير ٢٤١/١٠: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال: تأويل ذلك: أنه من قتل نفساً مؤمنة بغير نفس قتلها، فاستحققت القود بها والقتل قصاصاً - أو بغير فساد في الأرض يحرب الله ورسوله وحرب المؤمنين فيها - فكانما قتل الناس جميعاً فيما استوجب من عظيم العقوبة من الله جل ثناؤه، كما أوعده ذلك - من فعله - به بقوله: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مَتَعِدًا فَبِغَيْرِ ذَلِكُمْ كَيْلًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَهُمْ أَعْدَاءُ كَثِيرٌ عَدَاؤُهُمْ عَظِيمٌ» [سورة النساء]. وقال ابن كثير في تفسير الآية ٤٦/٢: أي: من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض واستحل قتلها بلا سبب ولا جنابة، فكانما قتل الناس جميعاً، لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس، ومن أحياها، أي: حرم قتلها واعتقد ذلك، فقد سلم الناس كلهم بهذا الاعتبار، ولهذا قال: «وَنَكَلْنَا نَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا». وفي «البحر المحيط» لأبي حيان ٤٦٨/٣: وقال ابن عطية: والذي أقول: إن التشبيه بين قاتل النفس وقاتل الكل لا يطرد من جميع الجهات، لكن الشبه قد يحصل من ثلاث جهات. إحداها: القود فإنه واحد، والثانية: الوعيد، فقد وعد الله قاتل النفس بالخلود في النار، وتلك غاية العذاب، فإن تربيته يخرج من النار بعد ذلك بسبب التوحيد، فكذلك قاتل الجميع أن لو اتفق ذلك. والثالثة: انتهاك الحرمه، فإن نفساً واحدة في ذلك وجميع الأتفس سواء، والمتنكفي في واحدة ملحوظ بعين متتهك الجميع.

وأرجلهم من خلاف، وسَمَّرَ أعينهم، وألقاهم بالحِرة حتى ماتوا، ونزلت هذه الآية، رواء قتادة عن أنس^(١)، وبه قال سعيد بن جببر، والسدي. والثاني: أن قوماً من أهل الكتاب كان بينهم وبين النبي ﷺ عهد وميثاق، فنقضوا العهد، وأفسدوا في الأرض، فخير الله رسوله بهذه الآية: إن شاء أن يقتلهم، وإن شاء أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف. رواء ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. والثالث: أن أصحاب أبي بردة الأسلمي قطعوا الطريق على قوم جاؤوا يريدون الإسلام، فنزلت هذه الآية، رواء أبو صالح عن ابن عباس. وقال ابن السائب: كان أبو بردة، واسمه هلال بن عويمر، وادع النبي ﷺ على أن لا يعينه ولا يعين عليه، ومن آتاه من المسلمين لم يُهَجِّجْ، ومن مَرَّ بهلال إلى رسول الله ﷺ لم يُهَجِّجْ، فمَرَّ قوم من بني كنانة يريدون الإسلام بناسٍ من قوم هلال، فَنَهَدُوا إليهم، فقتلوه وأخذوا أموالهم، ولم يكن هلال حاضراً، فنزلت هذه الآية. والرابع: أنها نزلت في المشركين، رواء عكرمة عن ابن عباس^(٢)، وبه قال الحسن. واعلم أن ذكر «المحاربة» لله ﷻ في الآية مجاز. وفي معناها للعلماء قولان: أحدهما: أنه سَمَّاهم محاربين له تشبيهاً بالمحاربين حقيقة، لأن المخالف محارب، وإن لم يحارب، فيكون المعنى: يخالفون الله ورسوله بالمعاصي. والثاني: أن المراد: يحاربون أولياء الله، وأولياء رسوله. وقال سعيد بن جببر: أراد بالمحاربة الله ورسوله، الكفر بعد الإسلام. وقال مقاتل: أراد بها الشرك. فأما «الفساد» فهو القتل والجراح وأخذ الأموال، وإخافة السبيل.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يُقَاتِلُوا أَوْ يُكَلِّبُوا﴾ اختلف العلماء هل هذه العقوبة على الترتيب، أم على التخيير؟ فمذهب أحمد ﷺ أنها على الترتيب، وأنهم إذا قتلوا، وأخذوا المال، أو قتلوا ولم يأخذوا، قُتِلُوا وصُلِبُوا، وإن أخذوا المال، ولم يقتلوا، قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإن لم يأخذوا المال، نُفُوا. قال ابن الأنباري: فعلى هذا تكون «أو» مبقضة، فالمعنى: بعضهم يفعل به كذا، وبعضهم كذا، ومثله قوله: ﴿كُونُوا هَؤُلَاءِ أَوْ نَكُونُوا﴾ [البقرة: ١٣٥] المعنى: قال بعضهم هذا، وقال بعضهم هذا. وهذا القول اختيار أكثر اللغويين. وقال الشافعي: إذا قتلوا وأخذوا المال، قُتِلُوا وصُلِبُوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال، قُتِلُوا ولم يُقَتَّلُوا، وقُتِلُوا ولم يُصَلَّبُوا، وإذا أخذوا المال ولم يأخذوا وأرجلهم من خلاف. وقال مالك: الإمام مخير في إقامة أي الحدود شاء، سواء قتلوا أو لم يقتلوا، أخذوا المال أو لم يأخذوا، والصلب بعد القتل. وقال أبو حنيفة، ومالك: يُصَلَّبُ ويُبْعَجُ برمج حتى يموت. واختلفوا في مقدار زمان الصلب، فعندنا أنه يُصَلَّبُ بمقدار ما يشتهر صلبه. واختلف أصحاب الشافعي، فقال بعضهم: ثلاثة أيام، وهو مذهب

(١) «المسند» ١٦٣/٣ من طريق معمر عن قتادة، ١٧٠، ٢٣٣ من طريق سعيد عن قتادة، ٢٨٧ من طريق حماد عن قتادة، ٢٩٠ من طريق عفان عن قتادة، والبخاري: ٢٨٩/١، ١٠٨/٦، ٣٥٢/٧، ٢٠٦/٨، ٩٩/١٢، ومسلم ١٥٣/١١، وأبو داود ١٨٦/٤، والنسائي ٩٧/٧، و«سنن البيهقي» ٦٢/٨. عريته، بضم العين المهملة وفتح الراء وآخرها نون ثم هاء: حي من قضاة وحي من بجيلة، والمراد هنا الثاني. واجتوى الأرض والبلد: إذا كره المقام فيه وإن كان في نعمة، وقيد الخطابي بما إذا تضرر بالإقامة وهو المناسب هنا، وقيل: أصابهم الجوى، وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول. و«سمر» روي بتشديد الميم ويتخفيفها، وضبطت في الأصل بالتشديد. ووقع لمسلم من رواية عبد العزيز «وسمل» بالتخفيف واللام. قال الخطابي: السمل: فزع العين بأي شيء كان. قال أبو ذؤيب الهذلي:

سَمِلْتُ بِشَوْكٍ فَهِيَ عَوْرُ تَدْمَعِ

والعين بعدهم كأن حذاقها

قال: «السمر» لغة في «السمل» ومخرجها متقارب. قال: وقد يكون من السمار، يريد: أنهم كحلوا بأبمال قد أحميت. قال الحافظ ابن حجر: وقد وقع التصريح بالمراد عند المصنف - يعني البخاري - من رواية وهيب عن أيوب، ومن رواية الأوزاعي عن يحيى كلاهما عن أبي قلابة. ولفظه «ثم أمر بمسامير فأحميت فكلهم بها». قلت: وإنما سمل رسول الله ﷺ أعينهم قصاصاً، لأنهم سملوا أعين الرعاة. وقد جاء التصريح بذلك عن أنس في «صحيح مسلم» ١٥٧/١١. والجرة، بفتح الحاء: أرض ذات حجارة سود نخرات، كأنها أحرقت بالنار، ومدينة رسول الله ﷺ بين حرتين.

(٢) النسائي ١٠١/٧، وأبو داود: ١٨٧/٤، وتامه: فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه لم يكن عليه سبيل، وليست هذه الآية للرجل المسلم، فمن قتل وأفسد في الأرض وحارب الله ورسوله، ثم لحق بالكفار قبل أن يقدر عليه، لم يمتعه ذلك أن يقام فيه الحد الذي أصاب. وإسناده حسن، ورواه الطبري ٢٤٤/١٠ من قول عكرمة والحسن البصري. وقد ضعف القرطبي هذا القول، ورده بقوله تعالى: ﴿كُلُّ لَدَيْنَا مَعْلُومٌ﴾ إن يَنْتَهُوا يَنْتَرَهُمْ تَأْمِناً قَدْ سَلَّمَ. ويقول ﷺ: «الإسلام يهدم ما قبله» رواء مسلم. وقال أبو ثور: وفي الآية دليل على أنها نزلت في غير أهل الشرك، وهو قوله جل ثناؤه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأَ عَلَيْهِمُ الْبُيُوتَ﴾ وقد أجمعوا على أن أهل الشرك إذا وقعوا في أيدينا فأسلموا أن دماءهم تحرم، فدل ذلك على أن الآية نزلت في أهل الإسلام. وقال ابن كثير ٤٨/٢ وتبعه الشوكاني في «فتح القدير» ٣٢/٢: والصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات.

أبي حنيفة، وقال بعضهم: يترك حتى يسيل صديده. قال أبو عبيدة: ومعنى «من خلاف» أن تُقَطَّع يَدُهُ الْيُمْنَى وَرِجْلُهُ الْيُسْرَى، يُخَالَفُ بَيْنَ قِطْعِمَا. فأما «النفي» فأصله الطرد الإبعاد. وفي صفة نفيهم أربعة أقوال: أحدها: إبعادهم من بلاد الإسلام إلى دار الحرب، قاله أنس بن مالك، والحسن، وقائدة، وهذا إنما يكون في حق المحارب المشرك، فأما المسلم فلا ينبغي أن يضطر إلى ذلك. والثاني: أن يُطْلَبُوا لِثِقَامِ عَلَيْهِمُ الْحُدُودُ، فيُبعَدُوا، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثالث: إخراجهم من مدينتهم إلى مدينة أخرى، قاله سعيد بن جبير. وقال مالك: ينفي إلى بلدٍ غير بلده، فيحبس هناك. والرابع: أنه الحبس، قاله أبو حنيفة وأصحابه. وقال أصحابنا: صفةُ النفي: أن يُشْرَدَ ولا يترك يَأْوِي في بلد، فكلما حَصَلَ في بلد نُفِيَ إلى بلدٍ غيره. وفي «الخزي» قولان: أحدهما: أنه العقاب. والثاني: الفضيحة. وهل يثبت لهم حكم المحاربين في المصر، أم لا؟ ظاهر كلام أصحابنا أنه لا يثبت لهم ذلك في المصر^(١) وهو قول أبي حنيفة. وقال الشافعي، وأبو يوسف: المصر والصحرى سواء، ويعتبر في المال المأخوذ قدر نصاب، كما يُعتبر في حق السَّارِقِ، خلافاً لمالك^(٢).

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَلَّ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ قال أكثر المفسرين: هذا الاستثناء في المحاربين المشركين إذا تابوا من شركهم وحر بهم وفسادهم، وآمنوا قبل القدرة عليهم، فلا سبيل عليهم فيما أصابوا من مال أو دم، وهذا لا خلاف فيه. فأما المحاربون المسلمون، فاختلَفوا فيهم، ومذهب أصحابنا: أن حدود الله تسقط عنهم من احتتام القتل والصلب والقطع والنفي. فأما حقوق الآدميين من الجراح والأموال، فلا تسقطها التوبة، وهذا قول الشافعي^(٣).

﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَبِشَلَمُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا نَقُولُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٨﴾ يُرِيدُونَ أَن يُفْرِجُوا مِنَ الْأَنَارِ وَمَا هُمْ بِفَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ في «الوسيلة» قولان: أحدهما: أنها القرية، قاله ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، والفراء. وقال قتادة: تقربوا إليه بما يرضيه. قال أبو عبيدة: يقال: توسلت إليه، أي: تقربت إليه. وأنشد:

إذا غفل الواشونَ غُدَاً لِرَوْضِلِنَا وَعَادَ التَّصَافِي بَيْنَنَا وَالْوَسَائِلِ^(٤)

والثاني: المحبة، يقول: تحببوا إلى الله، هذا قول ابن زيد:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(١) في «المغني» ٣٠١/١: وثبتت أحكام المحاربين بشروط ثلاثة. أحدها: أن يكون ذلك في الصحراء، فإن كان ذلك منهم في القرى والأمصار، فقد توقف أحمد رحمه الله فيهم، وظاهر كلام الخرقى أنهم غير محاربين، وبه قال أبو حنيفة، والثوري، وإسحاق... وقال كثير من أصحابنا: هو قاطع حيث كان، وبه قال الأوزاعي، والليث، والشافعي، وأبو يوسف، وأبو ثور.

(٢) في «القرطبي» ١٥٣/٦: ولا يراعى في المال الذي يأخذه المحارب نصاباً كما يراعى في السرقة، وانظر «أحكام القرآن» لابن العربي ٥٩٨/٢.

(٣) قال الخرقى: فإن تابوا من قبل أن يقدر عليهم، سقطت عنهم حدود الله تعالى، وأخذوا بحقوق الآدميين من الأنفس والجراح والأموال، إلا أن يعنى لهم عنها. قال ابن قدامة: لا نعلم في هذا خلافاً بين أهل العلم، وبه قال مالك، والشافعي، وأصحاب الرأي، وأبو ثور.

(٤) «مجاز القرآن» ١/١٦٤، «الطبري» ٢٩٠/١٠، «القرطبي» ١٥٩/٦ وقاتله لا يعرف. واستشهد أبو عبيد أيضاً - على أن الوسيلة معناها القرية - بيت عترة:

إِنَّ الرَّجَالَ لَهُمُ إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ
وهو في «مختار الشعر الجاهلي» ٣٩٦، «الطبري» ٢٩٠/١٠، و«الخرائفة» ١١/٣ من أبيات قالها لامرأته، وكانت لا تزال تذكر خيله، وتلومه في فرس كان يؤثّر على خيله، وسفيه ألبان إليه فقال:

فَيَكُونُ جِلْدُكَ مِثْلَ جِلْدِ الْأَجْرَبِ
فَتَأْزُهِي مَا شِئْتَ ثُمَّ تَحْزِي
إِنْ كُنْتَ سَائِلَتِي غَبُوقاً فَادْهَبِي
.....

وابن النعمانة عند ذلك مركبي

لَا تَذْكُرِي مُهْرِي وَمَا أَطْعَمْتُهُ
إِنَّ الْغَبُوقَ لَهُ وَأَنْتَ مَسْوُوءٌ
كُذِبَ الْمَعْتَبِقُ وَمَاءٌ شَرٌّ بَارِدٌ
إِنَّ الْمَرْجِيئَ.....
وَيَكُونُ مَرْكَبُكَ الْقَعُودَ وَحَدَجَهُ

عشرة دراهم^(١). وقال الشافعي: الاعتبار في ذلك بربع دينار، وغيره مقوّم به، فلو سرق درهمين قيمتهما ربع دينار، قُطع، فإن سرق نصاباً من الثَّبر، فعليه القُطع. وقال أبو حنيفة: لا يقطع حتى يبلغ ذلك نصاباً مضروباً، فإن سرق منديلاً لا يُساوي نصاباً، في طرفه دينار، وهو لا يعلم، لا يقطع. وقال الشافعي: يقطع. فإن سرق ستارة الكعبة، قطع، خلافاً لأبي حنيفة. فإن سرق صَبِيّاً صغيراً حُرّاً، لم يقطع، وإن كان على الصغير حُلِي. وقال مالك: يقطع بكل حال. وإذا اشترك جماعة في سرقة نصاب، قطعوا، وبه قال مالك، إلا أنه اشترط أن يكون المسروق ثقبلاً يحتاج إلى معاونة بعضهم لبعض في إخراجه. وقال أبو حنيفة، والشافعي: لا قطع عليه بحال^(٢) ويجبُ القطع على جاحد العارية عندنا، وبه قال سعيد بن المسيب، والليث بن سعد، خلافاً لأكثر الفقهاء^(٣).

فصل

فأما الحرز، فهو ما جعل للسكنى، وحفظ الأموال، كالدور والمضارب والخيم التي يسكنها الناس، ويحفظون أمتعتهم بها، فكل ذلك حرز، وإن لم يكن فيه حافظ ولا عنده، وسواء سُرق من ذلك وهو مفتوح الباب، أو لا باب له إلا أنه محجّر بالبناء. فأما ما كان في غير بناء ولا خيمة، فإنه ليس في حرز إلا أن يكون عنده من يحفظه. ونقل الميموني عن أحمد: إذا كان المكان مشتركاً في الدخول إليه، كالحمام والخيمة لم يقطع السارق منه، ولم يُعتَبَر الحافظ. ونقل عنه ابن منصور: لا يقطع سارق الحمام إلا أن يكون على المتاع أجير حافظ. فأما النَّبَاش، فقال أحمد في رواية أبي طالب: يقطع، وبه قال مالك، والشافعي، وابن أبي ليلى. وقال الثوري، والأوزاعي، وأبو حنيفة: لا يقطع.

(١) في «مرطأ مالك» برواية محمد بن الحسن ٣٠٤: قال محمد: قد اختلف الناس فيما تقطع فيه اليد، فقال أهل المدينة: ربع دينار، ورووا هذه الأحاديث، وقال أهل العراق: لا تقطع في أقل من عشرة دراهم، ورووا ذلك عن النبي ﷺ وعن عمر وعن عثمان وعن علي وعن عبد الله بن مسعود وعن غير واحد، فإذا جاء الاختلاف في الحدود، أخذ فيها بالثقة، وهو قول أبي حنيفة والعام من فقهاءنا. وانظر أدلة الحنفية في «نصب الراية» ٣/ ٣٥٥ للزيلعي، و«سنن أبي داود» ٣/ ١٩٣، و«مسند أحمد» ١١/ ١٣٩، و«التعليق الممجّد» ٣٠٤ للكتوبي، و«التعليق المغني على سنن الدارقطني» ٣٦٨.

(٢) في «تفسير القرطبي» ٦/ ١٦٣: إذا اجتمع جماعة فاشتركوا في إخراج نصاب من حرزه فلا يخلو، إما أن يكون بعضهم ممن يقدّر على إخراجه، أو لا، إلا بتعاونهم، فإذا كان الأول فاختلف فيه علماؤنا على قولين: أحدهما: يقطع فيه. والثاني: لا يقطع فيه، وبه قال أبو حنيفة والشافعي، قالوا: لا يقطع في السرقة المشتركة إلا بشرط أن يجب لكل واحد من حصته نصاب، لقوله ﷺ: «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً» وكل واحد من هؤلاء لم يسرق نصاباً فلا قطع عليهم. ووجه القطع في إحدى الروايتين أن الاشتراك في الجناية لا يسقط عقوبتها كالاشتراك في القتل، قال ابن العربي: وما أقرب ما بينهما فإنما إنما قلنا: الجماعة بالواحد صيانة للعلماء، لئلا يتعاون على سفكها الأعداء، فكذلك في الأموال مثله، لا سيما وقد ساعدنا الشافعي على أن الجماعة إذا اشتركوا في قطع يد رجل قطعوا ولا فرق بينهما. وإن كان الثاني وهو مما لا يمكن إخراجه إلا بالتعاون، فإنه يقطع جميعهم بالاتفاق من العلماء، ذكره ابن العربي.

(٣) في «شرح المفردات» للبهوتي ٣٠٨: يقطع جاحد العارية كالسارق، وجزم به جماعة من الأصحاب وهو المذهب، قطع به في «التنقيح» و«الإقناع» و«المنتهى» وهو قول إسحاق، وصح الشيخ الموفق والشارح وجماعة: لا قطع عليه، وهو قول الخرفي، وأبي إسحاق بن شاذان، وأبي الخطاب، وسائر الفقهاء، لقوله ﷺ: «لا قطع على الخائن»، رواه أحمد وأصحاب «السنن» وصححه الترمذي، ولأن الواجب قطع السارق، والخائن ليس بسارق، فأشبهه جاحد الدومة وغيرها من الأمانات. ولنا حديث عائشة قالت: كانت امرأة تستعير المتاع وتجده، فأمر النبي ﷺ بقطع يدها، فأثني أهلها أسامة فكلّموه فكلّم النبي ﷺ، فقال ﷺ: «لا أراك تكلمني في حد من حدود الله تعالى»، ثم قام النبي ﷺ خطيباً وقال: «إنما هلك من كان قبلكم أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه، والذي نفسي بيده لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها» قال: قطع يدها. متفق عليه. قال أحمد: لا أعرف شيئاً يدفعه، والجواب عنه بأنها قطعت بسرقته لا بجدها، لا يلام سياق الخبر. قلت: وجاء في البخاري: أنها سُرقت. قال الحافظ ١٢/ ٧٩ وقد وقع في رواية معمر عن الزهري في هذا الحديث أن المرأة المذكورة كانت تستعير المتاع وتجده. أخرجه مسلم وأبو داود، وأخرجه النسائي من رواية شعيب بن أبي حمزة عن الزهري بلفظ: «استعارت امرأة على السنة ناس يعرفون وهي لا تعرف حليا فباعته، وأخذت ثمنه» الحديث. قال شيخنا في «شرح الترمذي» - أي الحافظ العراقي -: اختلف على الزهري، فقال الليث ويونس وإسماعيل بن أمية، وإسحاق بن راشد: سُرقت، وقال معمر وشعيب: إنها استعارت وجحدت. ثم قال الحافظ: وجزم جماعة بأن معمر تفرد عن الزهري بقوله: «استعارت وجحدت» وليس كذلك، بل تابعه شعيب كما ذكره شيخنا عند النسائي، ويونس كما أخرجه أبو داود من رواية أبي صالح كاتب الليث عن الليث، وعلقه البخاري لليث عن يونس لكن لم يسق لفظه. قلت: وبذلك يتبين أن قول البهوتي - بعد أن ذكر الحديث بلفظ «استعار» - متفق عليه، وهم، وانظر الكلام على هذا الحديث في «الفتح» ١٢/ ٧٧.

فصل

فأما موضع قطع السارق، فمن مَفْصِلِ الْكَفِّ، ومن مَفْصِلِ الرَّجْلِ. فأما اليد اليسرى والرجل اليمنى، فروي عن أحمد: لا تقطع، وهو قول أبي بكر، وعمر، وعلي، وأبي حنيفة، وروي عنه: أنها تقطع، وبه قال مالك، والشافعي. ولا يثبت القطع إلا بإقراره مرتين^(١)، وبه قال ابن أبي ليلى، وابن شبرمة، وأبو يوسف. وقال أبو حنيفة، ومالك، والشافعي: يثبت بمرة. ويجتمع القطع والغرم موسراً كان أو معسراً. وقال أبو حنيفة: لا يجتمعان، فإن كانت العين باقية أخذها ربها، وإن كانت مستهلكة، فلا ضمان. وقال مالك: يضمنها إن كان موسراً، ولا شيء عليه إن كان معسراً.

قوله تعالى: ﴿نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ قد ذكرنا «النكال» في (البقرة).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قال سعيد بن جبيرة: شديد في انتقامه، حكيم إذ حكم بالقطع. قال الأصمعي: قرأت هذه الآية، وإلى جنبي أعرابي، فقلت: والله غفور رحيم، سهواً، فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ قلت: كلام الله. قال: أعد فأعدت: والله غفور رحيم، فقال: ليس هذا كلام الله، فتنبعت، فقلت: والله عزيز حكيم. فقال: أصبت، هذا كلام الله. فقلت له: أنقرأ القرآن؟ قال: لا. قلت: فمن أين علمت أنني أخطأت؟ فقال: يا هذا عزّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع.

﴿قَدْ تَابَ مِنْ بَدِّ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ٢٤٠ أَلَمْ تَلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَكُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٤١﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ تَابَ مِنْ بَدِّ ظُلْمِهِ﴾ سبب نزولها: أن امرأة كانت قد سرت، فقالت: يا رسول الله هل لي من توبة؟ فنزلت هذه الآية. قاله عبد الله بن عمرو^(٢). وقال سعيد بن جبيرة: فمن تاب من بعد ظلمه، أي: سرقته، وأصلح العمل، فإن الله يتجاوز عنه، إن الله غفور لما كان منه قبل التوبة، رحيم لمن تاب.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَابِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمَنْ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّتُوا لِلْكَذِبِ سَكَّتُوا لِقَوْمِهِمْ مَخْرُوجِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِتُوبَةٍ بَلْ يَخْتَفُونَ الْكَذِبَ مِنْ بَدِّ مَوَاضِعِهِمْ يَقُولُونَ إِنَّا أُوتِيتُمْ هَذَا فَخَذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتُوهُ فَاخْذُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ أَلْفٍ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ٢٤٢

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على خمسة أقوال: أحدها: أن النبي ﷺ مرّ بيهودي وقد حمموه^(٣) وجلدوه، فقال: أهكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى، هكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم؟ قال: لا، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا نترك الشريف، ونقيم على الوضع، فقلنا: تعالوا نُجِيعْ على شيء نقيمه على الشريف والوضع، فاجتمعنا على التحميم والجلد. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه» فأمر به فُرجِم،

(١) قال الخري: ولا يقطع إلا بشهادة عدلين أو اعتراف مرتين. ولم يذكر المصنف رحمه الله الشهادة، لأن كل من حفظ عنه من أهل العلم يوجب القطع بشهادة حرين مسلمين.

(٢) «المسند» ١٨٥/١٠، وابن جرير ٢٩٩/١٠ ولفظه «عن عبد الله بن عمرو أن امرأة سرت على عهد رسول الله ﷺ، فجاء بها الذين سرقتهم، فقالوا: يا رسول الله: إن هذه المرأة سرقتنا، قال قوما: فنحن نقديها، يعني أهلها، فقال رسول الله ﷺ: «اطعموها يدها» فقالوا: نحن نقديها بخمسة دنانير، قال: «اطعموها يدها» قال: فقطعت يدها اليمنى. فقالت المرأة: هل لي من توبة يا رسول الله؟ قال: «نعم أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك» فأنزل الله ﷻ في سورة المائدة ﴿قَدْ تَابَ مِنْ بَدِّ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ...﴾ إلى آخر الآية. وهو في «مجمع الزوائد» ٦/ ٢٧٦، وقال الهيثمي: رواه أحمد وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن وفيه ضعف، وبقيّة رجاله ثقات. قلت: وفي إسناده أيضاً يحيى بن عبد الله بن شريح المعافري. قال أحمد: أحاديثه مناكير، وقال البخاري: فيه نظر. وقال النسائي: ليس بالقوي. وقال ابن معين: ليس به بأس، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به إذا روى عنه ثقة. ونقله ابن كثير في «التفسير» ٥٧/٢ عن «مسند أحمد»، وقال: وهذه المرأة هي المخزومية التي سرت، وحديثها ثابت في «الصحيحين» من رواية الزهري عن عروة عن عائشة.

(٣) في «اللسان» وحمم الرجل: سخم وجهه بالحمم، وهو الفحم، وفي حديث الرجم: أنه مرّ بيهودي محمّم مجلود، أي: مسود الوجه.

ونزلت هذه الآية، رواه البراء بن عازب^(١). والثاني: أنها نزلت في ابن صوريا آمن ثم كفر، وهذا المعنى مروى عن أبي هريرة^(٢). والثالث: أنها نزلت في يهودي قتل يهودياً، ثم قال: سلوا محمداً فإن كان بُعِثَ بالبدية، اختصمنا إليه، وإن كان بعث بالقتل، لم نأته، قاله الشعبي^(٣). والرابع: أنها نزلت في المنافقين، قاله ابن عباس، ومجاهد. والخامس: أن رجلاً من الأنصار أشارت إليه قريظة يوم حصارهم على ماذا ننزل؟ فأشار إليهم: أنه الذَّبَح، قاله السدي^(٤). قال مقاتل: هو أبو لبابة بن عبد المنذر، قالت له قريظة: أنزل على حكم سعد، فأشار بيده: إنه الذَّبَح، وكان حليفاً لهم. قال أبو لبابة: فعلمت أنني قد خُنتُ الله ورسوله، فنزلت هذه الآية. ومعنى الكلام: لا يحزنك مسارعة الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم وهم المنافقون، ومن الذين هادوا وهم اليهود. ﴿مَسْعُونٌ لِّكَذِبٍ﴾ قال سيبويه: هو مرفوعٌ بالابتداء. قال أبو الحسن الأخفش: ويجوز أن يكون رَفَعَهُ على معنى: ومن الذين هادوا سماعون للكذب. وفي معناه أربعة أقوال: أحدها: سماعون منك ليكذبوا عليك. والثاني: سماعون للكذب، أي: قائلون له. والثالث: سماعون للكذب الذي بدلوه في توراتهم. والرابع: سماعون للكذب، أي: قائلون له، ومنه: «سمع الله لمن حمده» أي: قبل. وفي قوله: ﴿سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَوْ يَأْتَوُكَ﴾ قولان: أحدهما: يسمعون لأولئك، فهم عيونٌ لهم. والثاني: سماعون من قوم آخرين، وهم رؤساؤهم المبدلون التوراة. وفي السماعين للكذب، وللقوم الآخرين قولان: أحدهما: أن «السماعين للكذب» يهود المدينة، والقوم الآخرون [الذين لم يأتوا رسول الله ﷺ] يهود فُكَّ. والثاني: بالعكس من هذا. وفي تحريفهم الكلم خمسة أقوال: أحدها: أنه تغيير حدود الله في التوراة، وذلك أنهم غيروا الرِّجَم، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: تغيير ما يسمعون من النبي ﷺ بالكذب عليه، قاله الحسن. والثالث: إخفاء صفة النبي ﷺ. والرابع: إسقاط القود بعد استحقاقه. والخامس: سوء التأويل. وقال ابن جرير: المعنى يُحَرِّقُونَ حكم الكلم، فحذف ذكر الحكم لمعرفة السامعين بذلك.

قوله تعالى: ﴿مَنْ بَدَّلَ مَوَاضِعَهُ﴾ قال الزجاج: أي: من بعد أن وضعه الله مواضعه، فأحلَّ حلاله وحرم حرامه. قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ أُوتِيئَتْنَا هَذَا فَحَدُّهُ﴾ في القائلين لهذا قولان: أحدهما: أنهم اليهود، وذلك أن رجلاً وامرأة من أشرافهم زنيا، فكان حدهما الرِّجَم، فكرهت اليهود رجمهما، فبعثوا إلى النبي ﷺ يسألونه عن قضائه في الزَّانِينِ إذا أَحْصَيْنَا، وقالوا: إن أفتاكم بالجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرِّجَم فلا تعملوا به، هذا قول الجمهور. والثاني: أنهم المنافقون. قال قتادة: وذلك أن بني النضير كانوا لا يُعطون قريظة القود إذا قتلوا منهم، وإنما يعطونهم الدية، فإذا قتلت قريظة من النضير لم يُرضوا إلا بالقود تعزراً عليهم، فقتل بنو النضير رجلاً من قريظة عمداً، فأرادوا رفع ذلك إلى النبي ﷺ، فقال رجل من المنافقين: إن قتلكم قتل عمداً، ومتى ترفعوا ذلك إلى محمد خشيئاً عليكم القود، فإن قُبلت منكم الدية فأعطوا، وإلا فكونوا منه على حذر^(٥). وفي معنى «فاحذروا» ثلاثة أقوال: أحدها: فاحذروا أن تعملوا بقوله الشديد. والثاني: فاحذروا أن تطلعوه على ما في التوراة فيأخذكم بالعمل به. والثالث: فاحذروا أن تسأله بعدها. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤَدِّ اللَّهُ فَتَنَتَهُ﴾ في «الفتنة» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها بمعنى الضلالة، قاله ابن عباس ومجاهد. والثاني: العذاب، قاله الحسن، وقاتدة. والثالث: الفضيحة، ذكره الزجاج.

قوله تعالى: ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ رِبَّكَ أَلَّهُ شَيْئاً﴾ أي: لا تغني عنه، ولا تقدر على استنقاذه. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ من حزنه على مسارعته في الكفر.

(١) «المسند» ٢٨٦/٤، ومسلم ١٣٢٧/٣، وأبو داود ٢٥١٤/٤، و«التاسخ والمنسوخ» للنحاس ١٣٠، و«سنن البيهقي» ٢٤٦/٨، وتامه: فأنزل الله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ لَا يَحْكُمُونَ أَلَيْسَ الْكِتَابُ الَّذِي يُكْرَهُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أُوتِيئْتُمْ هَذَا فَحَدُّهُ﴾ يقول: اتوا محمداً، فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرِّجَم فاحذروا، فأنزل الله تعالى ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ في الكفار كلها. واختار ابن كثير هذا السبب، وقال: هو الصحيح.

(٢) ابن جرير: ٣٠٤/١٠، و«سنن البيهقي» ٢٤٦/٨، وذكره السيوطي في «الدرر» ٢٨١/٢ وزاد نسبة إلى ابن إسحاق، وابن المنذر. قلت: وفي سنده مجهول.

(٣) ابن جرير ٣٠٢/١٠، وزاد السيوطي نسبة إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٤) ابن جرير ٣٠٢/١٠، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٥) ابن جرير: ٣١٥/١٠ من طريق يزيد بن زريع قال: حدثنا سعيد عن قتادة...

قوله تعالى: ﴿أَتَرَى اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُمْ فُؤُودَهُمْ﴾ قال السدي: يعني المنافقين واليهود، لم يُرَد أن يطهر قلوبهم من دنس الكفر، ووسخ الشرك بطهارة الإيمان والإسلام.

قوله تعالى: ﴿كَمْ فِي الَّذِينَ خِزَى﴾ أما خزي المنافقين، فبهتك سترهم وإطلاع النبي على كفرهم، وخزي اليهود بفضيحتهم في إظهار كذبهم إذ كتموا الرجم، وبأخذ الجزية منهم. قال مقاتل: وخزي قريظة بقتلهم وسبيهم، وخزي النضير بإجلائهم.

﴿سَتَمُوتُ لِلْكَذِبِ أَكْثَلُونَ لِلْحُكْمِ فَإِنْ جَاءَكَ فَاعْلَمْ بِبَيِّنَةٍ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاعْلَمْ بِبَيِّنَةٍ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿سَتَمُوتُ لِلْكَذِبِ﴾ قال الحسن: يعني حكام اليهود يسمعون الكذب ممن يكذب عندهم في دعواه، ويأتيهم برشوة فيأخذونها. وقال أبو سليمان: هم اليهود يسمعون الكذب، وهو قول بعضهم لبعض: محمد كاذب، وليس بنبي، وليس في التوراة رجم، وهم يعلمون كذبهم.

قوله تعالى: ﴿أَكْثَلُونَ لِلْحُكْمِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر «الشُّحْتُ» مضمومة الحاء مثقلة. وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحزمة «الشُّحْتُ» ساكنة الحاء خفيفة. وروى خارجة بن مصعب عن نافع «أَكْثَلُونَ لِلشُّحْتِ» بفتح السين وجزم الحاء. قال أبو علي: الشُّحْتُ والشُّحْتُ لغتان، وهما اسمان للشيء المسحوت، وليس بالمصدر، فأما من فتح السين، فهو مصدر سحيت، فأوقع اسم المصدر على المسحوت، كما أوقع الضرب على المضروب في قولهم: هذا الدرهم ضرب الأمير. وفي المراد بالسحت ثلاثة أقوال: أحدها: الرُّشوة في الحكم. والثاني: الرشوة في الدين، والقولان عن ابن مسعود. والثالث: أنه كل كسب لا يحل، قاله الأخفش.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءَكَ فَاعْلَمْ بِبَيِّنَةٍ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فيمن أريد بهذا الكلام قولان: أحدهما: اليهوديان اللذان زنيا، قاله الحسن، ومجاهد، والسدي. والثاني: رجلان من قريظة والنضير قتل أحدهما الآخر، قاله قتادة. وقال ابن زيد: كان حيي بن أخطب قد جعل للنضيريين دينين، والقرظي دية، لأنه كان من النضير، فقالت قريظة: لا نرضى بحكم حيي، ونتحاكم إلى محمد، فقال الله تعالى لنبيه: ﴿فَإِنْ جَاءَكَ فَاعْلَمْ بِبَيِّنَةٍ﴾ الآية.

فصل

اختلف علماء التفسير في هذه الآية على قولين: أحدهما: أنها منسوخة وذلك أن أهل الكتاب كانوا إذا ترافعوا إلى النبي ﷺ كان مخيراً، إن شاء حكم بينهم، وإن شاء أعرض عنهم، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ فلزمه الحكم، وزال التخيير، وهذا مروي عن ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وعكرمة، والسدي^(١). والثاني: أنها محكمة، وأن الإمام ونوابه في الحكم مخيرون إذا ترافعوا إليهم، إن شاؤوا حكموا بينهم، وإن شاؤوا أعرضوا عنهم، وهذا مروي عن الحسن، والشعبي، والنخعي، والزهري، وبه قال أحمد بن حنبل، وهو الصحيح^(٢)، لأنه لا تنافي بين الآيتين، لأن إحداهما خيرت بين الحكم وتركه. والثانية بينت كيفية الحكم إذا كان^(٣).

﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ وَعِنْدَهُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾

(١) قال أبو جعفر النحاس في «التاسخ والمنسوخ» ١٢٩: وهو الصحيح من قول الشافعي. قال في كتاب «الجزية»: ولا خيار له إذا تحاكموا إليه، لقوله ﷺ: «مَنْ يَهْدِيَهُمُ الْغَيْرَةُ عَنْ يَوْمٍ وَهُمْ يَمُوتُونَ» [التوبة: ٢٩] وهذا من أصلح الاحتجاجات، لأنه إذا كان معنى: «وهم صاغرون» أن تجري عليهم أحكام المسلمين، وجب ألا يردوا إلى أحكامهم، فإذا وجب هذا فالآية منسوخة، وهو أيضاً قول الكوفيين: أبي حنيفة، وزفر، وأبي يوسف، ومحمد، لا اختلاف بينهم إذا تحاكم أهل الكتاب إلى الإمام أنه ليس له أن يعرض عنهم، غير أن أبا حنيفة قال: إذا جاءت المرأة والزوج، فعليه أن يحكم بينهما بالعدل، فإن جاءت المرأة وحدها ولم يرض الزوج لم يحكم... وقال الباقر: بل يحكم.

(٢) وقد أفتى بهذا القول عطاء بن أبي رباح، ومالك بن أنس. ذكر ذلك النحاس عنهما في «التاسخ والمنسوخ» ١٢٩، والقرطبي في «الأحكام» ١٨٤/٦، وإليه ذهب قتادة كما في «الطبري» ٣٣٠/١٠، وسعيد بن جبير كما ذكره المؤلف عنه في «ناسخ القرآن» الورقة ٨٣. واختاره أبو جعفر الطبري، لعدم التعارض بين الآيتين، ولأنه لم يصح به خبر عن رسول الله ﷺ، ولم يجمع عليه علماء المسلمين.

(٣) ذكر هذا الكلام المؤلف رحمه الله أيضاً في «فناسخ القرآن» الورقة: ٨٤.

قوله تعالى: ﴿كَفَّ يَحْكُمُكَ ذَاكَ وَعِنْدَهُ التَّوْرَةُ﴾ قال المفسرون: هذا تعجب من الله ﷻ لنبيه من تحكيم اليهود إياه بعد علمهم بما في التوراة من حكم ما تحاكموا إليه فيه، وتقرع لليهود إذ يتحاكمون إلى من يجحدون نبوته، ويتركون حكم التوراة التي يعتقدون صحتها.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: حكم الله بالرجم، وفيه تحاكموا، قاله الحسن. والثاني: حكمه بالقود، وفيه تحاكموا، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ فيه قولان: أحدهما: من بعد حكم الله في التوراة. والثاني: من بعد تحكيمك. وفي قوله: ﴿وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ قولان: أحدهما: ليسوا بمؤمنين لتحريفهم التوراة. والثاني: ليسوا بمؤمنين أن حكمك من عند الله لجحدهم نبوتك.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَا تَشْعُرُوا بِشَيْءٍ قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ قال المفسرون: سبب نزول هذه الآية: استفتاء اليهود رسول الله ﷺ في أمر الزانيين، وقد سبق. والهدى: البيان. فالتوراة مبينة صحة نبوة محمد ﷺ، ومبينة ما تحاكموا فيه إليه. والنور: الضياء الكاشف للشبهات، والموضح للمشكلات. وفي النبيين الذين أسلموا ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم الأنبياء من لدن موسى إلى عيسى، قاله الأكثرون. فعلى هذا القول في معنى «أسلموا» أربعة أقوال: أحدها: سلموا لحكم الله، رضوا بقضائه. والثاني: انقادوا لحكم الله، فلم يكتموه كما كتم هؤلاء. والثالث: أسلموا أنفسهم إلى الله ﷻ. والرابع: أسلموا لما في التوراة ودانوا بها، لأنه قد كان فيهم من لم يعمل بكل ما فيها كعيسى ﷺ. قال ابن الأنباري: وفي «المسلم» قولان: أحدهما: أنه سُمي بذلك لاستسلامه وانقياده لربه. والثاني: لإخلاصه لربه، من قوله: «وَرَجُلًا سَلَامًا لِرَجُلٍ» (١) (النمر: ٢٩) أي: خالصاً له. والثاني: أن المراد بالنبيين محمد ﷺ، قاله الحسن، والسدي. وذلك حين حكم على اليهود بالرجم، وذكره بلفظ الجمع كقوله: ﴿أَمْرٌ يُحْشَدُونَ أَتَاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (النساء: ٥٤). وفي الذي حكم به منها قولان: أحدهما: الرجم والقود. والثاني: الحكم بسائرهما ما لم يرد في شرعه ما يخالف. والثالث: النبي محمد ﷺ، ومن قبله من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، قاله عكرمة.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ قال ابن عباس: تابوا من الكفر. قال الحسن: هم اليهود. قال الزجاج: ويجوز أن يكون في الآية تقديم وتأخير على معنى: إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور للذين هادوا يحكم بها النبيون الذين أسلموا. فأما «الربانيون» فقد سبق ذكرهم في (آل عمران). وأما «الأحبار» فهم العلماء واحدهم حبر وجبر، والجمع أحبار وجبور. وقال الفراء: أكثر ما سمعت العرب تقول في واحد الأحبار: حبر بكسر الحاء. وفي اشتقاق هذا الاسم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه من الحَبَار وهو الأثر الحسن، قاله الخليل. والثاني: أنه من الجبر الذي يكتب به، قاله الكسائي. والثالث: أنه من الحبر الذي هو الجمال والبهاء. وفي الحديث: «يخرج رجل من النار قد ذهبَ حَبْرُهُ وَسَبْرُهُ» أي: جماله وبهاؤه. فالعالمُ بهيَّ بجمال العلم، وهذا قول قطرب. وهل بين الربانيين والأحبار فرق أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: لا فرق، والكل العلماء، هذا قول الأكثرين، منهم ابن قتيبة، والزجاج. وقد روي عن مجاهد أنه قال: الربانيون: الفقهاء العلماء، وهم فوق الأحبار. وقال السدي: الربانيون العلماء، والأحبار القراء. وقال ابن زيد: الربانيون: الولاة، والأحبار: العلماء، وقيل: الربانيون: علماء النصارى، والأحبار: علماء اليهود.

قوله تعالى: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: بما استودعوا من كتاب الله وهو التوراة. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: يحكمون بحكم ما استحفظوا. والثاني: العلماء بما استحفظوا. قال ابن جرير: «الباء» في

(١) كذا في الأصل «سالمًا» بالألف وكسر اللام اسم فاعل. وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، ويعقوب؛ أي خالصاً من الشركة، ووافقهم ابن محيصن، واليزيدي، والحسن. وقرأ الباقر: يفتح السين واللام بلا ألف، مصدر وصف به للمبالغة في الخلو من الشركة.

قوله: ﴿بِمَا اسْتَحْفِظُوا﴾ من صلة الأحبار. وفي قوله: ﴿وَكَاثُرًا عَلَيْهِ شُهَدَاءُ﴾ قولان: أحدهما: وكانوا على ما في التوراة من الرّجْم شهداء، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: وكانوا شهداء لمحمد ﷺ بما قال إنه حق. رواه العوفي عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْنَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وحزمة، وابن عامر، والكسائي «واخشون» بغير ياء في الوصل والوقف. وقرأ أبو عمرو بياء في الوصل، وبغير ياء في الوقف، وكلاهما حسن. وقد أشرنا إلى هذا في (آل عمران). ثم في المخاطبين بهذا قولان: أحدهما: أنهم رؤساء اليهود، قيل لهم: فلا تخشوا الناس في إظهار صفة محمد، والعمل بالرّجْم، واخشوني في كتمان ذلك، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس. قال مقاتل: الخطاب لليهود المدينة، قيل لهم: لا تخشوا يهود خيبر أن يخبروهم بالرّجْم، ونعت محمد، واخشوني في كتمانهم. والثاني: أنهم المسلمون، قيل لهم: لا تخشوا الناس، كما خشيت اليهود الناس، فلم يقولوا الحق، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِمَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ قَلِيلًا﴾ في المراد بالآيات قولان: أحدهما: أنها صفة محمد ﷺ والقرآن. والثاني: الأحكام والفرائض. والثمن القليل مذكور في (البقرة). فأما قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. وقوله تعالى بعدها: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. فاختلف العلماء فيمن نزلت على خمسة أقوال: أحدها: أنها نزلت في اليهود خاصة، رواه عبيد بن عبد الله عن ابن عباس، وبه قال قتادة. والثاني: أنها نزلت في المسلمين، روى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس نحو هذا المعنى. والثالث: أنها عامة في اليهود، وفي هذه الأمة، قاله ابن مسعود، والحسن، والنخعي، والسدي. والرابع: أنها نزلت في اليهود والنصارى، قاله أبو مجلز. والخامس: أن الأولى في المسلمين، والثانية في اليهود، والثالثة في النصارى، قاله الشعبي. وفي المراد بالكفر المذكور في الآية الأولى قولان: أحدهما: أنه الكفر بالله تعالى. والثاني: أنه الكفر بذلك الحكم، وليس بكفر ينقل عن الملة. وفصل الخطاب: أن من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً له، وهو يعلم أن الله أنزله، كما فعلت اليهود، فهو كافر، ومن لم يحكم به ميلاً إلى الهوى من غير جحود، فهو ظالم وفاسق^(١). وقد روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم به فهو فاسق وظالم^(٢).

﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ نَبَاً أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا﴾ أي: فرضنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على اليهود ﴿فِيهَا﴾ أي: في التوراة. قال ابن عباس: وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس، فما بالهم يخالفون، فيقتلون النفسين بالنفس، ويفقذون العينين بالعين؟ وكان على بني إسرائيل القصاص أو العفو، وليس بينهم دية في نفس ولا جرح، فخفف الله عن أمة محمد بالدية. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿أَنفُسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾، ينصبون ذلك كله ويرفعون «والجروح» وكان نافع، وعاصم، وحزمة ينصبون ذلك كله، وكان الكسائي يقرأ: «أن النفس بالنفس» نصباً،

(١) وقد ارتضى هذا المذهب أبو جعفر الطبري في «تفسيره» ٣٥٨/١٠، فإنه قال: فكل من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به، فهو بالله كافر، كما قال ابن عباس، لأنه بجحوده حكم الله بعد علمه أنه أنزله في كتابه نظير جحوده نبوة نبيه بعد علمه أنه نبي. وفي «القرطبي» ١٩٠/٦: قال ابن مسعود، والحسن: هي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار، أي: معتقداً ذلك ومستحلاً له، فأما من فعل ذلك وهو معتقد أنه رাকب محرّم، فهو من فساق المسلمين، وأمره إلى الله تعالى، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له. وقال إسماعيل القاضي في «أحكام القرآن»: ظاهر الآيات يدل على أن من فعل مثل ما فعلوا - يعني اليهود - واخترع حكماً يخالف به حكم الله، وجعله ديناً يعمل به، فقد لزمه مثل ما لزمهم من الوعيد المذكور حاكماً كان أو غيره.

(٢) «الطبري» ٢٥٧/١٠، وعلي بن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس ﷺ. وروى الحاكم في «المستدرک» ٣١٣/٢ من طريق سفیان بن عیینة، عن هشام بن حُجیر عن طاووس عن ابن عباس: أنه ليس بالكفر الذي يذهبون إليه، إنه ليس كفراً ينقل عن الملة ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ كفر دون كفر. ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح.

ويرفع ما بعد ذلك. قال أبو علي: وحجته أن الواو لعطف الجُمْل، لا للاشتراك في العامل، ويجوز أن يكون حمل الكلام على المعنى، لأن معنى: وكتبنا عليهم: قلنا لهم: النفس بالنفس، فحمل العين على هذا، وهذه حجة من رفع الجروح. ويجوز أن يكون مستأنفاً، لا أنه مما كُتِبَ على القوم، وإنما هو ابتداء إيجاب. قال القاضي أبو يعلى: وقوله: العين بالعين، ليس المراد قلع العين بالعين، لتعذر استيفاء المماثلة، لأننا لا نقف على الحد الذي يجب قلعه، وإنما يجب فيما ذهب ضوؤها وهي قائمة، وصفة ذلك أن تُشَدَّ عين القالع، وتُحْمَى مرآة، فتقدّم من العين التي فيها القصاص حتى يذهب ضوؤها. وأما الأنف فإذا قطع المارِن، وهو ما لأن منه، وتركت قصبتها، ففيه القصاص، وأما إذا قطع من أصله، فلا قصاص فيه، لأنه لا يمكن استيفاء القصاص، كما لو قطع يده من نصف الساعد. وقال أبو يوسف، ومحمد: فيه القصاص إذا استوعب. وأما الأذن، فيجب القصاص إذا استوعبت، وعرف المقدار. وليس في عظم قصاص إلا في السن، فإن قلعت قلع مثلها، وإن كُسِرَ بعضها، برد بمقدار ذلك. وقوله: «وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ» يقتضي إيجاب القصاص في سائر الجراحات التي يمكن استيفاء المثل فيها.

قوله تعالى: «فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ» يشير إلى القصاص. «فَهُوَ كَفَّارَةٌ لِّكَ» في هاء «له» قولان: أحدهما: أنها إشارة إلى المجروح، فإذا تصدّق بالقصاص كفر من ذنوبه، وهو قول ابن مسعود، وعبد الله بن عمرو بن العاص^(١)، والحسن، والشعبي. والثاني: إشارة إلى الجارح إذا عفا عنه المجروح، كفر عنه ما جنى، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، ومقاتل، وهو محمول على أن الجاني تاب^(٢) من جنايته، لأنه إذا كان مُصْرّاً فعقوبة الإصرار باقية.

«وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٧﴾»

قوله تعالى: «وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم» أي: وأتبنا على آثار النبيين الذين أسلموا «بِعِيسَى» فجعلناه يقفو آثارهم «مُصَدِّقًا» أي: بعثناه مُصَدِّقًا «لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» «وَأَيَّدْنَاهُ بِإِنجِيلٍ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا» ليس هذا تكراراً للاول، لأن الاول لعيسى، والثاني للإنجيل، لأن عيسى كان يدعو إلى التصديق بالتوراة، والإنجيل أنزل وفيه ذكر التصديق بالتوراة.

«وَلِيَعْلَمَ أَقْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّزِمَكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٨﴾»

قوله تعالى: «وَلِيَعْلَمَ أَقْلَ الْإِنجِيلِ» قرأ الاكثرون بجزم اللام على معنى الأمر، تقديره: وأمرنا أهله أن يحكموا بما أنزل الله فيه. وقرأ الأعمش، وحزمة بكسر اللام، وفتح الميم على معنى «كي»، فكانه قال: وآتيناه الإنجيل لكي يحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه.

«وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَلَسَكُمْ أَنَّهُ وَجِدَهُ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَجِيبُوا أَلْحِينَ إِلَى اللَّهِ مَرَجُكُمْ جِيئًا فَيُبْلِيَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلَّلُونَ ﴿١٩﴾»

قوله تعالى: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ» يعني القرآن «بِالْحَقِّ» أي: بالصدق «مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ» قال ابن عباس: يريد كل كتاب أنزله الله تعالى. وفي «المهيمن» أربعة أقوال: أحدها: أنه المؤيمن^(٣) رواه التميمي^(٤) عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جببر، وعكرمة، وعطاء، والضحاك. وقال المبرد: «مهيمن» في معنى: «مؤيمن» إلا أن الهاء بدل من الهمزة، كما قالوا: أرت الماء، وهرقت، وإياك وهياك. وأرباب هذا القول يقولون: المعنى: أن القرآن

(١) قول عبد الله بن عمرو بن العاص، أخرجه الطبري ٣٦٢/١٠، والبيهقي في «السنن» ٥٤/٨، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦٣/٢ من تفسير ابن أبي حاتم من طريق الطيالسي عن شعبة، وخرجه السيوطي في «الدر المنثور» ٢٨٨/٢ وزاد نسبه للقرطبي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٢) في النسخة الأحمدية «مات» وهو خطأ.

(٣) قوله: «المؤيمن» كذا في الأصول المخطوطة التي بين أيدينا، وفي الطبري وسائر المراجع: «المؤتمن».

(٤) هو أريدة ويقال: أريد التميمي الكوفي، روى التفسير عن ابن عباس، وروى عنه أبو إسحاق السبيعي. قال الحافظ في «التقريب»: صدوق.

مؤتمن على ما قبله من الكتب، إلا أن ابن أبي نجيج روى عن مجاهد: «مُهِمَّنَا عَلَيْهِ»^(١). قال: محمد مؤتمن على القرآن. فعلى قوله، في الكلام محذوف، كأنه قال: وجعلناك يا محمد مهمناً عليه، فتكون هاء «عليه» راجعة إلى القرآن. وعلى غير قول مجاهد ترجع إلى الكتب المتقدمة. والثاني: أنه الشاهد، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقتادة، والسدي، ومقاتل. والثالث: أنه المصدّق على ما أخبر عن الكُتُب، وهذا قول ابن زيد، وهو قريب من القول الأول. والرابع: أنه الرقيب الحافظ، قاله الخليل^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ﴾ يشير إلى اليهود ﴿يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ إليك في القرآن ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ أَلْحَقِ﴾. قال أبو سليمان: المعنى: فترجع عما جاءك. قال ابن عباس: لا تأخذ بأهوائهم في جلد المُحَصَّن. قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَمَلًا بَيْنَكُمْ شِرْعَةٌ وَمِنْهَا جَانِبٌ﴾ قال مجاهد: الشريعة: السنة، والمنهاج: الطريق. وقال ابن قتيبة: الشريعة والشريعة واحد، والمنهاج: الطريق الواضح. فإن قيل: كيف نسق «المنهاج» على «الشريعة» وكلاهما بمعنى واحد؟ فعنه جوابان: أحدهما: أن بينهما فرقاً من وجهين: أحدهما: أن «الشريعة» ابتداء الطريق، والمنهاج: الطريق المستمر، قاله المبرد. والثاني: أن «الشريعة» الطريق الذي ربما كان واضحاً، وربما كان غير واضح، والمنهاج: الطريق الذي لا يكون إلا واضحاً، ذكره ابن الأنباري. فلما وقع الاختلاف بين الشريعة والمنهاج، حُسِّنَ نسق أحدهما على الآخر. والثاني: أن الشريعة والمنهاج بمعنى واحد، وإنما نسق أحدهما على الآخر لاختلاف اللفظين. قال الحطّين:
 أَلَا حَبِذَا هِنْدُ وَأَرْضُ بِهَا هِنْدُ

وهند أتى من دونها النأي والبُعد^(٣)
 فنسق البُعد على النأي لما خالفه في اللفظ، وإن كان موافقاً له في المعنى، ذكره ابن الأنباري، وأجاب عنه أربابُ القول الأول، فقالوا: «النأي» كل ما قلّ بعده أو كثر كأنه المفارقة، والبعد إنما يُستعمل فيما كثرت مسافة مفارقتها. وللمفسرين في معنى الكلام قولان: أحدهما: لكل ملة جعلنا شريعةً ومنهاجاً، فلاهل التوراة شريعة، ولأهل الإنجيل شريعة، ولأهل القرآن شريعة، هذا قول الأكثرين. قال قتادة: الخطاب للأمم الثلاث: أمّة موسى، وعيسى، وأمّة محمد، فالتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة يُجِلُّ الله فيها ما يشاء، ويحرّم [ما يشاء] بلاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، ولكن الدين الواحد الذي لا يُقبل غيره، التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به الرسل. والثاني: أن المعنى: لكل من دخل في دين محمد جعلنا القرآن شريعةً ومنهاجاً، هذا قول مجاهد^(٤).

(١) في «إتحاف فضلاء البشر» ١٢١: وعن ابن محين «ومهمناً» بفتح الميم الثانية «عليه» في موضع رفع على النياية إن كان حالاً من الكتاب، فإن كان حالاً من كاف «إليك» فثابت الفاعل ضمير مستتر يعود إليه ﷺ، والجمهور على كسرهما اسم فاعل.

(٢) قال ابن كثير في «التفسير» ٦٥/٢: وقوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَتَّبِعُكَ﴾ قال ابن عباس: مؤتمناً عليه، وقال: القرآن أمين على كل كتاب قبله، وروى عن عكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وعطية، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني، والسدي، وابن زيد نحو ذلك. وقال ابن جريج: القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل. وعن ابن عباس: أي: حاكماً على ما قبله من الكتب. وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم «المهمين» يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمتها وأكملها حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، ولهذا جملة شاهدة وأميناً وحاكماً عليها كلها، وتكفل تعالى حفظه بنفسه الكريم، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ الرَّحْمَنُ الْكَرِيمُ﴾ [الحجر: ٩] فأما ما حكاه ابن أبي حاتم عن عكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء الخراساني، وابن أبي نجيج عن مجاهد أنهم قالوا في قوله: «ومهمناً عليه»: يعني محمداً ﷺ أمين على القرآن، فإنه صحيح في المعنى، ولكن في تفسير هذا بهذا نظر، وفي تنزيله عليه من حيث العربية أيضاً نظر. وبالجمله فالصحيح الأول. وقال أبو جعفر ابن جرير بعد حكايته له عن مجاهد: وهذا التأويل بعيد من المفهوم في كلام العرب، بل هو خطأ. وذلك أن «المهمين» عطف على «المصدق» فلا يكون إلا صلة لما كان المصدق صلة له. قال: ولو كان لأمر كما قال مجاهد، لقال: وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، مهمناً عليه. يعني: من غير عطف.

(٣) «ديوانه» ١٤٠، و«الموشح»: ٩١ من قصيدة يمدح بها بني سعد، و«اللسان» مادة: «نأي» وفيه قول الحطّين:

وهند أتى من دونها النأي والبعد

إنما أراد المقارنة، ولو أراد البعد لما جمع بينهما.

(٤) قال ابن كثير في «التفسير» ٦٦/٢: ثم هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام، المتفقة في التوحيد، كما ثبت في «صحيح البخاري» عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «تحن معاشر الأنبياء إخوة لملات ديننا واحد» يعني بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله، وضمنه كل كتاب أنزله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَنَّ إِلَيْهِ مَا يَشَاءُ لَنَا وَلَإِنَّ إِلَهَنَا

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فيه قولان: أحدهما: لجمعكم^(١) على الحق. والثاني: لجعلكم على ملة واحدة ﴿وَلَكِنْ يَسْتَلْزِمُكُمْ﴾ أي: ليختبركم ﴿فِي مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من الكتب، وبين لكم من الملل. فإن قيل: إذا كان المعنى بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً﴾: نبينا محمداً مع سائر الأنبياء قبله، فمن المخاطب بقوله: ﴿يَسْتَلْزِمُكُمْ؟﴾ فالجواب: أنه خطاب للنبينا، والمراد به سائر الأنبياء والأمم. قال ابن جرير: والعرب من شأنها إذا خاطبت غائباً، فأرادت الخبر عنه أن تغلب المخاطب، فتخرج الخبر عنهما على وجه الخطاب.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفِهُوا الْخَيْرَاتِ﴾ قال ابن عباس، والضحاك: هو خطاب لأمة محمد ﷺ. قال مقاتل: «والخيرات»: الأعمال الصالحة. «إِلَّا اللَّهُ مَرْجُمُكُمْ» في الآخرة «فَيُنَزِّلُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ» مِنَ الدِّينِ. قال ابن جرير: قد بين ذلك في الدنيا بالأدلة والحجج، وغداً بينه بالمجازاة.

﴿وَأَن أَسْأَلَكُمْ بِتَنَهُمَ يَمَا أَرْزَلُ اللَّهُ وَلَا تَنَجَّ أَهْوَاءَهُمْ وَأَسْأَلَكُمْ أَن يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَرْزَلُ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّا يُبْذِلُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثُرَ مِنَّا كَثِيرًا مِّنَ الْآثِمِينَ لَنَنْصِفَنَّ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَن أَسْأَلَكُمْ بِتَنَهُمَ يَمَا أَرْزَلُ اللَّهُ﴾ سبب نزولها: أن جماعة من اليهود منهم كعب بن أسيد^(٢)، وعبد الله بن صوريا، وشأس بن قيس، قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد، لعلنا نفتته عن دينه، فأتوه، فقالوا: يا محمد، قد عرفت أننا أجبارة اليهود وأشرافهم، وأننا إن تبناك، اتبعك اليهود، وإن بيننا وبين قوم خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونحن نؤمن بك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ، ونزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس^(٣). وذكر مقاتل: أن جماعة من بني النضير قالوا له: هل لك أن تحكم لنا على أصحابنا أهل قريظة في أمر الدماء كما كنا عليه من قبل، ونبايعك؟ فنزلت هذه الآية. قال القاضي أبو يعلى: وليس هذه الآية تكراراً لما تقدم، وإنما نزلت في شيئين مختلفين، أحدهما: في شأن الرِّجْم، والآخر: في النسوية في الديات حتى تحاكموا إليه في الأمرين.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلَكُمْ أَن يَقْتُلُوكَ﴾ أي: يصرفوك ﴿عَنْ بَعْضِ مَا أَرْزَلُ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه الرِّجْم، قاله ابن عباس. والثاني: شأن القصاص والدماء، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿إِن تَوَلَّوْا﴾ فيه قولان: أحدهما: عن حكمك. والثاني: عن الإيمان، فاعلم أن إعراضهم من أجل أن الله يريد أن يعذبهم ببعض ذنوبهم. وفي ذكر البعض قولان: أحدهما: أنه على حقيقته، وإنما يصيبهم ببعض ما يستحقونه. والثاني: أن المراد به الكل، كما يُذكر لفظ الواحد، ويراد به الجماعة، كقوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّارُ إِذَا عَلِقَتْهُ الرِّسَّةُ﴾ [الطلاق: ١] والمراد: جميع المسلمين. وقال الحسن: أراد ما عجله من إجلاء بني النضير وقتل بني قريظة.

قوله تعالى: ﴿وَأَن كَثُرَ مِنَّا كَثِيرًا مِّنَ الْآثِمِينَ لَنَنْصِفَنَّ﴾ قال المفسرون: أراد اليهود. وفي المراد بالفسق هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: الكفر، قاله ابن عباس. والثاني: الكذب، قاله ابن زيد. والثالث: المعاصي، قاله مقاتل.

﴿أَفَنَحْكُمُ الْبَغْيَ يُؤْتُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حَكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَنَحْكُمُ الْبَغْيَ يُؤْتُونَ﴾ قرأ الجمهور «يُبغون» بالياء، لأن قبله غيبة، وهي قوله: ﴿وَأَن كَثُرَ مِنَّا كَثِيرًا مِّنَ الْآثِمِينَ لَنَنْصِفَنَّ﴾. وقرأ ابن عامر «تبغون» بالتاء، على معنى: قل لهم. وسبب نزولها: أن النبي ﷺ لما حكم بالرجم على اليهوديين تعلق بنو قريظة ببني النضير، وقالوا: يا محمد هؤلاء إخواننا، أبونا واحد، وديننا واحد، إذا قتلوا منا قتيلاً أعطينا سبعين وسقاً^(٤) من تمر، وإن قتلنا منهم واحداً أخذوا منا أربعين ومائة وسق، وإن قتلنا منهم رجلاً قتلوا به

١ - أَلَا فَاقْتَدِرُوا ﴿٥٩﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا كُفْرَهُمْ﴾ [النحل: ٣٦] وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في الشريعة حراماً، ثم يحل في الشريعة الأخرى وبالعكس، وخفيفاً، فيزداد في الشدة في هذه دون هذه، وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

(١) في النسخة الأحمدية: لجعلكم.

(٢) كذا في الأصول المخطوطة «أسيد» بالياء، وفي «سيرة ابن هشام» ٥٦٧/١، والطبري ٣٩٣/١٠، وابن كثير ٦٧/٢، و«الدر المنثور» ٢٩٠/٢ «كعب بن أسد».

(٣) قلت: في مسنده عند الطبري محمد بن زيد بن ثابت لم يوثقه غير ابن حبان.

(٤) الوسق يفتح الواو وكسرهما: حمل بعير، أو ستون صاعاً، وهو مكيال لهم.

رجلين، وإن قتلنا امرأة قتلوا بها رجلاً، فاقض بيننا بالعدل، فقال رسول الله ﷺ: «ليس لبني النضير على بني قريظة فضل في عقل ولا دم» فقال بنو النضير: والله لا نرضى بقضائك، ولا نطيع أمرك، ولناخذن بأمرنا الأول، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس^(١). قال الزجاج: ومعنى الآية: أنطلب اليهود حكماً لم يأمر الله به، وهم أهل كتاب الله، كما تفعل الجاهلية!^(٢)

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا﴾ قال ابن عباس. ومن أعدل! وفي قوله: ﴿لَقَوْمٌ يُؤْتُونَ﴾ قولان: أحدهما: يؤقنون بالقرآن، قاله ابن عباس. والثاني: يؤقنون بالله، قاله مقاتل. وقال الزجاج: من أيقن نبين عدل الله في حكمه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّكُمْ كَمَا تَوَلَّاهُمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣)
قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في أبي لبابة حين قال لبني قريظة إذ رضوا بحكم سعد: إنه الذبح، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وهو قول عكرمة^(٤). والثاني: أن عبادة بن الصامت قال: يا رسول الله إن لي موالي من اليهود، وإنني أبرأ إلى الله من ولاية يهود، فقال عبد الله بن أبي: إني رجل أخاف الدوائر، ولا أبرأ إلى الله من ولاية يهود، فنزلت هذه الآية، قاله عطية العوفي^(٥). والثالث: أنه لما كانت وقعة أحد خافت طائفة من الناس أن يُدال عليهم الكفار، فقال رجل لصاحبه: أما أنا فالحق بفلان اليهودي، فأخذ منه أماناً، أو أتهدد معه، فنزلت هذه الآية، قاله السدي^(٦)، ومقاتل. قال الزجاج: لا تتولهم في الدين. وقال غيره: لا تستنصروا بهم، ولا تستعينوا، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في العون والنصرة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّكُمْ كَمَا تَوَلَّاهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ فيه قولان: أحدهما: من يتولهم في الدين، فإنه منهم في الكفر. والثاني: من يتولهم في العهد فإنه منهم في مخالفة الأمر.

﴿تَدْرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْأَلُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشُوكَ أَنَّ نَحْنُ بَيْنَكَ وَدَاخِرُكَ فَقَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّكَ الْفَتْحُ أَوْ أَمْرٌ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْهِجُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْرِيبٌ﴾^(٧)

قوله تعالى: ﴿تَدْرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْأَلُونَ فِيهِمْ﴾ قال المفسرون: نزلت في المنافقين، ثم لهم في ذلك قولان: أحدهما: أن اليهود والنصارى كانوا يميمرون^(٨) المنافقين ويقرضونهم فيؤادونهم، فلما نزلت ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ قال المنافقون: كيف نقطع مودة قوم إن أصابتنا سنة وسعوا علينا، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. ومن قال: نزلت في المنافقين، ولم يعين: مجاهد، وقتادة. والثاني: أنها نزلت في عبد الله بن أبي، قاله عطية العوفي. وفي المراد بالمرض قولان: أحدهما: أنه الشك، قاله مقاتل. والثاني: النفاق، قاله الزجاج. وفي قوله: «يسارعون فيهم» ثلاثة أقوال: أحدها: يسارعون في مولاتهم ومناصحتهم، قاله مجاهد، وقتادة. والثاني: في رضاهم،

(١) أبو صالح ضعيف لا يحتج به، وقد جاءت آثار عن ابن عباس أن بني النضير وبني قريظة تحاكموا إلى النبي ﷺ، وأن رسول الله ﷺ حملهم على الحق، وجعل الدية بينهم سواء. انظر «مسند أحمد» ١٤٥/٥، و«الطبري» ٣٢٧/١٠، و«ابن كثير» ٦٠/٢، و«الدر المنثور» ٢٨٤/٢.

(٢) روى البخاري ١٨٥/١٢ عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه».

(٣) أبو صالح ضعيف لا يحتج به، وقول عكرمة ذكره ابن جرير في «تفسيره» ٣٩٨/١٠.

(٤) ابن جرير ٣٩٥/١٠، وفيه عطية بن سعد العوفي، وصفه الحافظ في «التقريب» بقوله: صدوق يخطئ كثيراً، وأنه مدلس. وروى الطبري بعبارة أيضاً من طريق ابن إسحاق: حدثني والذي إسحاق بن يسار عن عبادة بن الوليد... ومسنده حسن، وخرجه السيوطي في «الدر المنثور» ٢٩٠/٢، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» وابن عساکر. وأخرج ابن مردويه من طريق عبادة بن الوليد عن أبيه عن جده عبادة بن الصامت قال: «نزلت هذه الآية حين أتيت رسول الله ﷺ فبرأت إليه من حلف يهود، وظاهرت رسول الله ﷺ والمسلمين عليهم».

(٥) «الطبري» ٣٩٧/١٠. وقوله «يدال عليهم الكفار»، الإدالة: الغلبة، يقال: أدبل لنا على أعدائنا، أي: نصرنا عليهم. ومنه حديث أبي سفيان، وهرقل: ندال عليه ويدال علينا، أي: تغلبه مرة وتغلبنا أخرى.

(٦) أي: يجلبون لهم الطعام.

قاله ابن قتيبة. والثالث: في معاونتهم على المسلمين، قاله الزجاج: وفي المراد «بالدائرة» قولان: أحدهما: الجذب والمجاعة، قاله ابن عباس. قال ابن قتيبة: نخشى أن يدور علينا الدهر بمكروه، يعنون الجذب، فلا يبايعونا، و[نمتار فيهم] فلا يبيعرونا. والثاني: انقلاب الدولة لليهود على المسلمين، قاله مقاتل. وفي المراد بالفتح أربعة أقوال: أحدها: فتح مكة، قاله ابن عباس، والسدي. والثاني: فتح قرى اليهود، قاله الضحاك. والثالث: نصر النبي ﷺ على من خالفه، قاله قتادة، والزجاج. والرابع: الفرج، قاله ابن قتيبة. وفي «الأمر» أربعة أقوال: أحدها: إجلاء بني النضير وأخذ أموالهم، وقتل قريظة، وسي ذراريهم، قاله ابن السائب، ومقاتل. والثاني: الجزية، قاله السدي. والثالث: الخصب، قاله ابن قتيبة. والرابع: أن يؤمر النبي ﷺ بإظهار أمر المنافقين وقتلهم، قاله الزجاج. وفيما أسروا قولان: أحدهما: موالاتهم. والثاني: قولهم: لعل محمداً لا ينصر.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَنَّهُمْ لَكُمْ حِطَّةٌ اغْنَلُكُم مَّا صَبَحُوا خَيْرِينَ ٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قرأ أبو عمرو، بنصب اللام على معنى: وعسى أن يقول. ورفع الباقون، فجعلوا الكلام مستأنفاً. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: يقول، بغير واو، مع رفع اللام، وكذلك في مصاحف أهل مكة والمدينة. قال المفسرون: لما أجلى رسول الله ﷺ بني النضير، اشتد ذلك على المنافقين، وجعلوا يتأسفون على فراقهم، وجعل المنافق يقول لقربيه المؤمن إذا رآه جاداً في معاداة اليهود: أهذا جزاؤهم منك، طال والله ما أشبعوا بطنك؟ فلما قُتلت قريظة، لم يُطق أحدٌ من المنافقين ستر ما في نفسه، فجعلوا يقولون: أربعمئة حُصِدوا في ليلة، فلما رأى المؤمنون ما قد ظهر من المنافقين، قالوا: ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ يعنون المنافقين ﴿الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أغلظوا في الأيمان. وقال مقاتل: جهد أيمانهم: القسم بالله. وقال الزجاج: اجتهدوا في المبالغة في اليمين ﴿لأنهم لكم﴾ على عدوكم ﴿حِطَّةٌ اغْنَلُكُم﴾ بنفاقهم.

﴿يَكَايِبُ الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن رَّبِّهِ سَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يَجْتَهُدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن رَّبِّهِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي: «يرتد»، بإدغام الدال الأولى في الأخرى، وقرأ نافع، وابن عامر: «يرتدد»، بدالين. قال الزجاج: «يرتدد» هو الأصل، لأن الثاني إذا سُكِّنَ من المضاعف، ظهر التضعيف. فأما «يرتد» فادغمت الدال الأولى في الثانية، وحُرِّكت الثانية بالفتح، لالتقاء الساكنين. قال الحسن: علم الله أن قوماً يرجعون عن الإسلام بعد موت نبيهم ﷺ، فأخبرهم أنه سيأتي بقوم يُحِبُّهم ويحبُّونه. وفي المراد بهؤلاء القوم ستة أقوال: أحدها: أبو بكر الصديق وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة، قاله علي بن أبي طالب، والحسن، وقاتلة، والضحاك، وابن جريج. قال أنس بن مالك: كرهت الصحابة قتال مانعي الزكاة، وقالوا: أهل القبلة، فتغلَّد أبو بكر سيفه، وخرج وحده، فلم يجدوا بُدأً من الخروج على أثره. والثاني: أبو بكر، وعمر، روي عن الحسن، أيضاً. والثالث: أنهم قوم أبي موسى الأشعري، روى عياض الأشعري^(١) أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «هم قوم هذا» يعني: أبا موسى^(٢). والرابع: أنهم أهل اليمن، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والخامس: أنهم الأنصار، قاله السدي. والسادس: المهاجرون والأنصار، ذكره أبو سليمان الدمشقي. قال ابن جرير: وقد أنجز الله ما وَعَدَ فأتى بقوم في زمن عمر كانوا أحسن موقعاً في الإسلام ممن ارتد.

(١) عياض الأشعري: هو عياض بن عمرو الأشعري. مختلف في صحبته، روى عن النبي ﷺ مرسلاً، وروى عن أبي موسى وامرأة أبي موسى، وروى عنه الشعبي وسماك بن حرب. قال الحافظ: وروايته عن امرأة أبي موسى عند مسلم. مترجم في «التهذيب» ٢٠٢/٨، و«الإصابة» ٥٠/٣، و«التاريخ الكبير» للبخاري ١٩/١٤.

(٢) ابن جرير ٤١٥/١٠، وطبقات ابن سعد ١٠٧/٤، والحاكم في «المستدرک» ٣١٣/٣، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٦/٧، وقال: رواه الطبراني في رجاله رجال الصحيح، وخرجه السيوطي في «الدر المنثور» ٢٩٢/٢ وزاد نسبه لابن أبي شبة في «مسند»، وعبد بن حميد، والحكيم الترمذي، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل».

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى الْكُفَرَيْنِ﴾ قال علي بن أبي طالب عليه السلام: أهل رقة على أهل دينهم، أهل غلظة على من خالفهم في دينهم. وقال الزجاج: معنى «أذلة» جانبهم لئلا على المؤمنين، لا أنهم أذلاء. ﴿يَجْتَهُدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ تَوْنَهُ لَا يَخَافُونَ﴾ لأن المنافقين يراقبون الكفار، ويظهرونهم، ويخافون لومهم، فأعلم الله تعالى أن الصحيح الإيمان لا يخاف في الله لومة لائم، ثم أعلم أن ذلك لا يكون إلا بتوقيفه، فقال: ﴿ذَلِكَ فَقُلِ اللَّهُ يُؤَيِّدُ مَنْ يُشَاءُ﴾ يعني: محبتهم لله، ولين جانبهم للمسلمين، وشدتهم على الكافرين^(١).

﴿إِنَّمَا رِزْقُكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُبْسِئُونَ السَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَاكِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُوَ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا رِزْقُكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أن عبد الله بن سلام وأصحابه جازوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: إن قوماً قد أظهروا لنا العداوة، ولا نستطيع أن نجالس أصحابك لبعد المنازل، فنزلت هذه الآية، فقالوا: رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين، وأذن بلال بالصلاة، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا مسكين يسأل الناس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هل أعطاك أحد شيئاً؟» قال: نعم. قال: «ماذا؟» قال: خاتم فضة. قال: «من أعطاك؟» قال: ذاك القائم، فإذا هو علي بن أبي طالب، أعطانيه وهو راکع، فقرا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس^(٢)، وبه قال مقاتل. وقال مجاهد: نزلت في علي بن أبي طالب، تصدق وهو راکع. والثاني: أن عبادة بن الصامت لما تبرأ من حلفائه اليهود نزلت هذه الآية في حقه، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أنها نزلت في أبي بكر الصديق، قاله عكرمة. والرابع: أنها نزلت فيمن مضى من المسلمين ومن بقي منهم، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَاكِرُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنهم فعلوا ذلك في ركوعهم، وهو تصدق علي عليه السلام بخاتمه في ركوعه^(٣). والثاني: أن من شأنهم إيتاء الزكاة وفعل الركوع. وفي المراد بالركوع ثلاثة أقوال: أحدها: أنه نفس الركوع على ما روى أبو صالح عن ابن عباس. وقيل: إن الآية نزلت وهم في الركوع. والثاني: أنه صلاة التطوع بالليل والنهار، وإنما أفرد الركوع بالذكر تشريفاً له، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أنه الخضوع والخشوع، وأنشدوا: لا تُذِلُّ الْفَقِيرَ عِلَّكَ أَنْ تَرُ كَع يَوْمًا وَالذُّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ^(٤)

ذكره الماوردي. فأما «حزب الله» فقال الحسن: هم جند الله. وقال أبو عبيدة: أنصار الله^(٥). ثم فيهم قولان:

(١) قال ابن كثير في «التفسير» ٧٠/٢: وقوله صلى الله عليه وسلم: ﴿يَجْتَهُدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ تَوْنَهُ لَا يَخَافُونَ﴾ أي: لا يردعهم عما هم فيه من طاعة الله، وإقامة الحدود، وقال أعداءه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا يردعهم عن ذلك راد، ولا يصدعهم عنه صائد، ولا يحبك فيهم لوم لائم، ولا عدل عاذل. وروى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: «أمرني خليلي صلى الله عليه وسلم يسبح؛ أمرني بحب المساكين والفقراء منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أبهرت، وأمرني ألا أسأل أحداً شيئاً، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرأ، وأمرني ألا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول «لا حول ولا قوة إلا بالله» فلهن من كنز تحت العرش». قلت: أخرجه أحمد في «المسنَد» ١٥٩/٥ وسنده حسن، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢٦٥/٧، ونسبه للطبراني في «الصغير» و«الكبير»، وقال: ورواه رجال الصحيح غير سلام أبي المنذر وهو ثقة، ورواه البزار.

(٢) روى ابن مردويه عن طريق محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. قلت: محمد بن السائب مترك، نقل الذهبي في «ميزان الاعتدال» عن البخاري أن يحيى وابن مهدي تركاه، وروى عنه عن سفيان قال: قال لي الكلبي: كل ما حدثك عن أبي صالح فهو كذب، وأبو صالح ضعيف، وخاصة فيما يروي عن الكلبي. ولذلك قال ابن كثير رحمه الله: هذا إسناد لا يفرح به، ثم قال ابن كثير: ورواه ابن مردويه عن حديث علي بن أبي طالب عليه السلام نفسه، وعمار بن ياسر، وأبي رافع، وليس يصح شيء منها بالكلية لضعف أسانيدنا، وجهالة رجالها.

(٣) قال ابن كثير في «التفسير» ٧١/٢: وقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة - أي جملة: وهم ذاكرون - في موضع الحال من قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: في حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك، لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره، لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى. ثم ساق الآثار الرواية في ذلك، وأبان عن عوارها.

(٤) قاله الأصبط بن قريع بن عوف بن كعب السعدي التميمي، شاعر جاهلي قديم، أساء قومه إليه، فانتقل عنهم إلى آخرين ففعلوا كالأولين، فقال: بكل واد بنو سعد. يعني: قومه. والبيت في «البيان والبيان» ٣/٣٤١، و«الشعر والشعراء» ١/٣٤٣، و«الأمالي» ١/١٠٧، و«الحماسة ابن الشجري» ١٣٧، و«الحماسة البصرية» ١٣٤، و«زهر الآداب» ١/٥١٧، و«الأغاني» ١٨/٦٨، و«شواهد الحيني» ٤/٣٣٤، و«شواهد السيوطي» ١٥٥. وقوله: لا تذل. روي: لا تعاود، وروي: لا تحقرن. وروي: لا تهين، والأصل: لا تهين الفقير حذفت التون الخفيفة لالتقاء الساكنين، وبقيت الفتحة.

(٥) وأنشد أبو عبيدة في ذلك قول رؤبة:

فكسيف أضوى ولسل حنزي

عباس أن المسحّين من أصحاب السبت: مسح شبابهم قردة، ومشايخهم خنازير. وقال غيره: القردة: أصحاب السبت، والخنازير: كفار مائدة عيسى. وكان ابن قتيبة يقول: أنا أظن أن هذه القردة والخنازير هي المسوخ بأعيانها توالدت. قال: واستدللت بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفَرَّةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ فدخلوا الألف واللام يدل على المعرفة، وعلى أنها القردة التي تعين، ولو كان أراد شيئاً انقراض ومضى، لقال: وجعل منهم قردة وخنازير، إلا أن يصح حديث أم حبيبة في «المسوخ» فيكون كما قال ﷺ. قلت أنا: وحديث أم حبيبة في «الصحيح» انفرد بإخراجه مسلم، وهو أن رجلاً سأل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، القردة والخنازير هي ممّا مُسِخ؟ فقال النبي ﷺ: «[إن الله] لم يمسخ قوماً أو يهلك قوماً، فيجعل لهم نسلًا ولا عاقبة، وإن القردة والخنازير قد كانت قبل ذلك»^(١) وقد ذكرنا في سورة (البقرة) عن ابن عباس زيادة بيان ذلك، فلا يلتفت إلى ظن ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿وَعَبْدٌ أَلْفُتُوتُ﴾ فيها عشرون قراءة. قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، ونافع، والكسائي: «وعبد» بفتح العين والياء والدال، ونصب تاء «الطَاغُوت». وفيها وجهان. أحدهما: أن المعنى: وجعل منهم القردة والخنازير ومن عبد الطاغوت. والثاني: أن المعنى: من لعنه الله وعبد الطاغوت. وقرأ حمزة: «وَعَبْدُ الطَاغُوت» بفتح العين والدال، وضم الباء، وخفض تاء «الطَاغُوت». قال ثعلب: ليس لها وجه إلا أن يجمع فَعْلٌ على فَعْلٍ. وقال الزجاج: وجهها أن الاسم بني على «فَعْلٌ» كما تقول: عَلِمَ زيد، ورجل حَذَر، أي: مبالغ في الحذر. فالمعنى: جعل منهم خَدَمَةَ الطاغوت ومن بلغ في طاعة الطاغوت الغاية^(٢). وقرأ ابن مسعود، وأبى بن كعب، «وَعَبْدُوا» بفتح العين والياء، ورفع الدال على الجمع «الطَاغُوت». بالنصب. وقرأ ابن عباس، وابن أبي عبلة: «وَعَبْدَ» بفتح العين والياء والدال، إلا أنهما كسرا تاء «الطَاغُوت». قال الفراء: أرادوا «عبدة» فحذفوا الهاء^(٣). وقرأ أنس بن مالك: «وَعَبْدَ» بفتح العين والدال وياء بعد الباء وخفض تاء «الطَاغُوت». وقرأ أيوب، والأعمش: «وَعَبْدَ» برفع العين ونصب الباء والدال مع تشديد الباء، وكسر تاء «الطَاغُوت». وقرأ أبو هريرة، وأبو رجاء، وابن السميعف: «وَعَابِدَ» بالفتح، مكسورة الباء، مفتوحة الدال، مع كسر تاء «الطَاغُوت». وقرأ أبو العالية، ويحيى بن وثاب: «وَعَبْدَ» برفع العين والياء وفتح الدال، مع كسر تاء الطاغوت. قال الزجاج: هو جمع عبيد، وعَبْدٌ مثل رَغِيف، ورَغْف، وسرير، وسُرُر، والمعنى: وجعل منهم عبيد الطاغوت. وقرأ أبو عمران الجوني، ومورق العجلي، والنخعي: «وَعَبْدَ» برفع العين وكسر الباء مخففة، وفتح الدال مع ضم تاء «الطَاغُوت». وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وعكرمة: «وَعَبْدَ» بفتح العين والدال، وتشديد الباء مع نصب تاء الطاغوت. وقرأ الحسن، وأبو مجلز، وأبو نهيك: «وَعَبْدَ» بفتح العين والدال، وسكون الباء خفيفة مع كسر تاء الطاغوت. وقرأ قتادة، وهذيل بن شرحبيل: «وَعَبْدَةَ» بفتح العين والياء والدال وتاء في اللفظ منصوبة بعد الدال «الطَاغُوت» بألف وواو وياء بعد الغين على الجمع. وقرأ الضحاك، وعمرو بن دينار: «وَعَبْدَ» برفع العين وفتح الباء والدال مع تخفيف الباء، وكسر تاء «الطَاغُوت». وقرأ سعيد بن جبير، والشعبي: «وَعَبْدَةَ» مثل حمزة، إلا أنهما رفعوا تاء «الطَاغُوت». وقرأ يحيى بن يعمر، والجحدري: «وَعَبْدَ» بفتح العين ورفع الباء والدال مع كسر تاء «الطَاغُوت». وقرأ أبو الأشهب العطاردى: «وَعَبْدَ» برفع العين وتسكين الباء، ونصب الدال، مع كسر تاء

(١) مسلم: ٢٠٥١/٤، ورواه الإمام أحمد في «المسند» ٢٦٠/٥.

(٢) في «معاني القرآن» للفراء ٢١٤/١: وأما قوله: «وَعَبْدَ الطَاغُوت» فإن تكن فيه لغة مثل: حَذَرٌ وعَجَلٌ فهو وجه، وإلا فإنه أراد - والله أعلم - قول الشاعر:

أَبْنِي ثُبَيْيْنِي إِنَّ أَمْكُم أُمَّةٌ وَإِنَّ أَبْسَاكُم عِبْدُ

وهذا في الشعر يجوز لضرورة القوافي، فأما في القراءة فلا. قلت: والبيت لأوس بن حجر، وهو في «ديوانه» ٢١، «والصالح»، و«اللسان» و«التاج»: عبد. قلت: ورواه ابن سيده في «المختص» ٩٥/٣: «وإن أباكم وغب».

(٣) «معاني القرآن» ٣١٤/١، وفي الطبري ٤٤١/١٠: ولو قرئ ذلك «وَعَبْدَ الطَاغُوت» بالكسر كان له مخرج في العربية صحيح، وإن لم أستجز اليوم القراءة بها، إذ كانت قراءة الحجة من القراءة بخلافها. ووجه جوازها في العربية أن يكون مراداً بها: عبدة الطاغوت، ثم حذفت الهاء للإضافة كما قال الراجز: قام ولاها فسقوه صرخداً يريد: قام ولاتها، فحذف التاء من «ولاتها» للإضافة. قلت: وصرخداً: موضع بالشام، من عمل حوران، تنسب إليه الخمر الجيدة.

«الطاغوت». وقرأ أبو السَّمَاك: «وَعَبْدُهُ» بفتح العين والباء والدال وتاء في اللفظ بعد الدال مرفوعة مع كسر تاء «الطاغوت». وقرأ معاذ القارئ: «وعابده» مثل قراءة أبي هريرة إلا أنه ضم الدال. وقرأ أبو حيو: «وَعَبَادَ» بتشديد الباء وبألف بعدها مع رفع العين، وفتح الدال. وقرأ ابن حَزَلَم، وعمرو بن فائد: «وَعَبَادُ» مثل أبي حيو إلا أن العين مفتوحة والدال مضمومة. وقد سبق ذكر «الطاغوت» في سورة (البقرة). وفي المراد به هاهنا قولان: أحدهما: الأصنام. والثاني: الشيطان.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ أي: هؤلاء الذين وصفناهم شر مكاناً من المؤمنين، ولا شر في مكان المؤمنين، ولكن الكلام مبني على كلام الخصم، حين قالوا للمؤمنين: لا نعرف شراً منكم، فقيل: من كان بهذه الصفة، فهو شرّ منهم.

﴿رَأَىٰ جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿رَأَىٰ جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ قال قتادة: هؤلاء ناسٌ من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ، فيخبرونه أنهم مؤمنون بما جاء به، وهم متمسكون بضلاتهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ﴾ أي: دخلوا كافرين، وخرجوا كافرين، فالكفر معهم في حالتهم، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ من الكفر والنفاق.

﴿وَرَأَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْكِرُونَ فِي الْآثَرِ وَالْعُدُونِ وَأَصْلُهُمُ الشَّحْتُ لِقَسٍّ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَأَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ يعني: اليهود ﴿يُسْكِرُونَ﴾، أي: يبادرون ﴿فِي الْآثَرِ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه المعاصي، قاله ابن عباس: والثاني: الكفر، قاله السدي. فأما العدوان فهو الظلم. وفي «الشحت» ثلاثة أقوال: أحدها: الرشوة في الحكم. والثاني: الرشوة في الدين. والثالث: الربا.

﴿لَوْلَا يَتَّبِعُهُمُ الرَّاكِبُونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَنَّهُمُ الشَّحْتُ لِقَسٍّ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَتَّبِعُهُمُ الرَّاكِبُونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ «لولا» بمعنى: «هلا» و«الرَّابَانِيُونَ» مذكورون في (آل عمران)، و«الأحبار» قد تقدم ذكرهم في هذه السورة. وهذه الآية من أشد الآيات على تاركي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لأن الله تعالى جمع بين فاعل المنكر وتارك الإنكار في الذم. قال ابن عباس: ما في القرآن آية أشدّ توبيخاً من هذه الآية.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلِقُوا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُوقِفُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَنِيذِرَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ مُطِيعًا وَكَفَرًا وَالْقِيَامَةَ بَيْنَهُمُ الْعَادَةُ وَالْبَعْثَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْلِفِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ قال أبو صالح عن ابن عباس: نزلت في فحاح اليهودي وأصحابه، قالوا: يد الله مغلولة. وقال مقاتل: فحاح وابن صلوبا^(١)، وعازر بن أبي عازر. وفي سبب قولهم هذا ثلاثة أقوال: أحدها: أن الله تعالى كان قد بسط لهم الرزق، فلما عصوا الله تعالى في أمر محمد ﷺ وكفروا به كفّ عنهم بعض ما كان بسط لهم، فقالوا: يد الله مغلولة، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال عكرمة. والثاني: أن الله تعالى استقرض منهم كما استقرض من هذه الأمة، فقالوا: إن الله بخيل، ويده مغلولة فهو يستقرضنا، قاله قتادة. والثالث: أن النصارى لما أعانوا بختصر المجوسي على تخريب بيت المقدس، قالت اليهود: لو كان الله صحيحاً، لمنعنا منه، فيده مغلولة، ذكره قتادة أيضاً. والمغلولة: المسكة المنقبضة. وعن ماذا عَنُوا أنها مسكة، فيه قولان: أحدهما: عن العطاء، قاله ابن عباس، وقتادة، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج. والثاني: مسكة عن عذابنا، فلا يعذبنا إلا تحلة القسم بقدر عبادتنا العجل، قاله الحسن. وفي قوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: غلت في جهنم، قاله الحسن. والثاني: أمسكت

عن الخير، قاله مقاتل. والثالث: جُعِلُوا بُخْلَاء، فهم أبخل قوم، قاله الزجاج. قال ابن الأنباري: وهذا خير أخبر الله تعالى به الخلق أن هذا قد نزل بهم، وموضعه نصب على معنى الحال. تقديره: قالت اليهود هذا في حال حكم الله بغل أيديهم، ولعنته إياهم، ويجوز أن يكون المعنى: فغلت أيديهم، ويجوز أن يكون دعاء، معناه: تعليم الله لنا كيف ندعو عليهم، كقوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [اللب: ١] وقوله: ﴿لَتَنَحَّلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَآبِيْنَت﴾ [الفتح: ٢٧]. وفي قوله: ﴿وَلِيُوْثِرُوا بِمَا قَالُوا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أبعدوا من رحمة الله. والثاني: عذبوا في الدنيا بالجزية، وفي الآخرة بالنار. والثالث: مُسَخُوا قردة وخنازير. وروى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «من لعن شيئاً لم يكن للعنة أهلاً رجعت اللعنة على اليهود بلعنة الله إياهم». قال الزجاج: وقد ذهب قومٌ إلى أن معنى «يد الله»: نعمته، وهذا خطأ ينقضه ﴿بَلْ يَدَايَ مَبْسُوكَتَانِ﴾ فيكون المعنى على قولهم: نعمته، ونعم الله أكثر من أن تحصى. والمراد بقوله: بل «يَدَايَ مَبْسُوكَتَانِ»: أنه جواد ينفق كيف يشاء^(١) وإلى نحو هذا ذهب ابن الأنباري. قال ابن عباس: إن شاء وسَّع في الرزق، وإن شاء قُتِر.

قوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَيْدَهُمْ مَا أُوْثِرُوا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ عَذَابًا كَثُفًا﴾ قال الزجاج: كلما أنزل عليك شيء كفروا به، فيزيد كفرهم. «والطغيان» هاهنا: الغلو في الكفر. وقال مقاتل: وليزيد بني النضير ما أنزل إليك من ريك من أمر الرجم والذماء طغياناً وكفراً.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْنَتَيْنِ يَتَّبِعُهُمُ الْغَدَاةُ وَالْبَقِصَةُ﴾ فيمن عنى بهذا قولان: أحدهما: اليهود والنصارى، قاله ابن عباس، ومجاهد، ومقاتل. فإن قيل: فأين ذكر النصارى؟ فالجواب: أنه قد تقدم في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَةَ أَوْلِيَاءَ﴾. والثاني: أنهم اليهود، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ لَمَفَاةَا اللَّهُ﴾ ذكر إيقاد النار مَثَلٌ ضُرِبَ لاجتهادهم في المحاربة، وقيل: إن الأصل في استعارة اسم النار للحرب أن القبيلة من العرب كانت إذا أرادت حرب أخرى أوقدت النار على رؤوس الجبال، والمواضع المرتفعة، ليعلم استعدادهم للحرب، فيتأهب من يريد إعاتتهم. وقيل: كانوا إذا تحالفوا على الجُد في حربهم، أوقدوا ناراً، وتحالفوا. وفي معنى الآية قولان: أحدهما: كلما جمعوا لحرب النبي ﷺ فرقههم الله. والثاني: كلما مكروا مكرأ رده الله.

قوله تعالى: ﴿وَسَيُؤَنِّفُ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: بالمعاصي، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: بمحو ذكر النبي ﷺ من كتبهم، ودفع الإسلام، قاله الزجاج. والثالث: بالكفر. والرابع: بالظلم، ذكرهما الماوردي.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِتَاتِيْمٌ وَلَا نَخْلُفُ عَنْهُمْ سُبُوْحًا﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿ءَامَنُوا﴾ بالله وبرسله ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الشرك ﴿لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِتَاتِيْمٌ﴾ التي سلفت.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِوَعْدِ اللَّهِ وَالْإِنجِيلِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْفَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيْرٌ مِنْهُمْ سَلَمٌ مَا يَمْشُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِوَعْدِ اللَّهِ وَالْإِنجِيلِ﴾ قال ابن عباس: عملوا بما فيهما. وفيما أنزل إليهم من ربهم قولان: أحدهما: كتب أنبياء بني إسرائيل. والثاني: القرآن، لأنهم لما خطبوا به، كان نازلاً إليهم.

قوله تعالى: ﴿لَأَكْفَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: لأكلوا بقطر السماء، ونبات الأرض، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة. والثاني: أن المعنى: لو سَّع عليهم، كما يقال: فلان في خير من قرنه إلى

(١) روى البخاري ٢٦٥٨/٨، ٣٤٧/١٣، ومسلم ٦٩١/٢ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن يمين الله ملأى لا يغيثها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرايتكم ما أتفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغيث ما في يمينه». قال: وعرضه على الماء وفي يده الأخرى القبض يربع ويغضض. وقال: يقول الله تعالى: أَتَفِقُ أَتَفِقُ عَلَيْكَ، وقوله: سحاء، يفتح السين وتشديد الحاء، أي: دائم الصب والهطل بالمطاء. وقوله: لا يغيثها، أي: لا ينقصها. والليل والنهار: منصوبان على الظرف.

قدمه، ذكره الفراء، والزجاج. وقد أعلم الله تعالى بهذا أن التقوى سبب في توسعة الرزق كما قال: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] وقال: ﴿وَرَزَقَهُ مِّنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣].

قوله تعالى: ﴿يَنْهَىٰ أَنَّهُ مُقْعِدٌ﴾ يعني: من أهل الكتاب، وهم الذين أسلموا منهم، قاله ابن عباس، ومجاهد. وقال القرطبي: هم الذين قالوا: المسيح عبد الله ورسوله. و«الاقتصاد» الاعتدال في القول والعمل من غير غلو ولا تقصير.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَفْصِلُ بَيْنَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ وَالَّذِينَ يَبْلُغُونَ إِلَيْكَ الْمَسَارِعَ﴾ [التوبة: ١٠٥]

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت على أسباب، روى الحسن أن النبي ﷺ قال: «لما بعثني الله برسالته، ضقت بها ذرعاً، وعرفت أن من الناس من يكذبني»، وكان رسول الله ﷺ، يهاب قريشاً واليهود والنصارى، فأنزل الله هذه الآية^(١). وقال مجاهد: لما نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ قال: «يا رب كيف أصنع؟ إنا أنا وحدي بجمع علي الناس»، فأنزل الله ﴿وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَفْصِلُ بَيْنَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ وَالَّذِينَ يَبْلُغُونَ إِلَيْكَ الْمَسَارِعَ﴾. وقال مقاتل: لما دعا اليهود، وأكثر عليهم جعلوا يستهزؤون به، فسكت عنهم، فحُضِرَ بهذه الآية. وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يُحَرِّسُ فيرسل معه أبو طالب كل يوم رجلاً من بني هاشم يحرسونه حتى نزلت عليه الآية، فقال: «يا عمه إن الله قد عصمني من الجن والإنس»^(٢). وقال أبو هريرة: نزل رسول الله ﷺ ذات يوم تحت شجرة وعلق سيفه فيها، فجاء رجل فأخذه، فقال: يا محمد من يمنعني منك؟ فقال: «الله»، فنزل قوله: ﴿وَاللَّهُ يَفْصِلُ بَيْنَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ وَالَّذِينَ يَبْلُغُونَ إِلَيْكَ الْمَسَارِعَ﴾^(٣). قالت عائشة: سهر رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقلت: ما شأنك؟ قال: «ألا رجلٌ صالح يحرسني الليلة»، فبينما نحن في ذلك إذ سمعت صوت السلاح، فقال: «من هذا؟ فقال: سعد وحذيفة جئنا نحرسك، فنام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيطة، فنزلت ﴿وَاللَّهُ يَفْصِلُ بَيْنَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ وَالَّذِينَ يَبْلُغُونَ إِلَيْكَ الْمَسَارِعَ﴾ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من قبة آدم وقال: «انصرفوا أيها الناس، فقد عصمني الله تعالى»^(٤). قال الزجاج: قوله: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ معناه: بلغ جميع ما أنزل إليك، ولا تراقب أحداً، ولا تترك شيئاً منه مخافة أن ينالك مكروه، فإن تركت منه شيئاً، فما بلغت^(٥). قال ابن قتبية: يدل على هذا المحذوف قوله: ﴿وَاللَّهُ يَفْصِلُ﴾ وقال ابن عباس: إن كتمت آية فما بلغت رسالتي. وقال غيره: المعنى: بلغ جميع ما أنزل إليك جهراً، فإن أخفيت شيئاً منه لخوف أذى يلحقك، فكانك ما بلغت شيئاً. وقرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «رسالته» على التوحيد. وقرأ نافع «رسالاته» على الجمع.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَفْصِلُ بَيْنَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ وَالَّذِينَ يَبْلُغُونَ إِلَيْكَ الْمَسَارِعَ﴾ قال ابن قتبية: أي: يمنعك منهم. وعصمة الله: منعه للعبد من المعاصي، ويقال: طعام لا يعصم، أي: لا يمنع من الجوع. فإن قيل: فأين ضمان العصمة وقد شُجَّ جبينه، وكبرت رباعيته، ويبلغ في أذاه؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنه عصمه من القتل والأسر وتلف الجملة، فأما عوارض الأذى، فلا تمنع عصمة الجملة. والثاني: أن هذه الآية نزلت بعدما جرى عليه ذلك، لأن «المائدة» من أواخر ما نزل.

- (١) نسبة السيوطي في «الدر المنثور» ٣٩٨/٢ لأبي الشيخ.
- (٢) نقل ابن كثير في «التفسير» ٧٨/٢ عن ابن مردويه خبراً بمعناه عن جابر بن عبد الله، ثم قال: وهذا حديث غريب وفيه نكارة، فإن هذه الآية مدنية، وهذا الحديث يقتضي أنها مكية، ثم أخرج عن ابن مردويه الحديث الذي ذكره المصنف، وقال: رواه الطبراني عن يعقوب بن غيلان العماني عن أبي كريب به، وهذا أيضاً حديث غريب، والصحيح أن هذه الآية مدنية بل هي من أواخر ما نزل بها، والله أعلم.
- (٣) الخبر في «موارد الظلمات» في زوائد ابن حبان ٤٣، ونقله ابن كثير عن ابن مردويه وابن حبان. وفي سننه مؤمل بن إسماعيل العدوي وهو صدوق سيء الحفظ، وانظر ترجمته في «التهذيب» ٣٨٠/١٠.
- (٤) الترمذي ٩٦/٤، والطبري ٤٦٩/١٠، والحاكم ٣١٣/٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وقد حسن الحافظ في «الفتح» إسناده.
- (٥) روى البخاري ٢٠٦/٨، ومسلم ١٥٩/١ عن عائشة رضي الله عنها قالت: من حدثك أن محمداً ﷺ كتم شيئاً مما أنزل عليه، فقد كذب، والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يهديهم إلى الجنة. والثاني: لا يعينهم على بلوغ غرضهم.

﴿قُلْ يَتَّخِذِ الْكَاتِبُ لِسْتُمْ عَلَىٰ قَوْمٍ حَقٌّ يُؤْمِنُوا بِالْتَّوْحِيدِ وَالْإِنجِيلِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَزِيدَتْ كِتَابًا مِنْهُمَا تَأْتِي إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُفَيْنًا وَكَفَرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّخِذِ الْكَاتِبُ لِسْتُمْ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ سبب نزولها: أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ألست تؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها حق؟ قال: «بلى، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها، فأنا بريء من إحدائكم». فقالوا: نحن على الهدى، ونأخذ بما في أيدينا، ولا تؤمن بك، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. فأما أهل الكتاب، فالمراد بهم اليهود والنصارى. وقوله: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي: لستم على شيء من الدين الحق حتى تقيموا التوراة والإنجيل، وإقامتهما: العلم بما فيهما، ومن ذلك الإيمان بمحمد ﷺ. وفي الذي أنزل إليهم من ربهم قولان قد سبقا، وكذلك باقي الآية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّابِقِينَ مِنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ﴾ قد ذكرنا تفسيرها في (البقرة). وكذلك اختلفوا في إحكامها ونسخها كما بينا هناك. فأما رفع «الصابين» فذكر الزجاج عن البصريين، منهم الخليل، وسيبويه أن قوله: «والصابون» محمول على التأخير، ومرفوع بالابتداء. والمعنى: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله اليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابون والنصارى كذلك أيضاً، وأنشدوا:

وَالْأَفَاعِلُمُوا أَنَا وَأَنْتُمْ بُغَاةٌ مَا بَقِينَا فِي شِقَاقٍ^(١)

المعنى: فاعلموا أنا بغاة ما بقينا في شقاق، وأنتم أيضاً كذلك.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيكًا كَذَّبُوا وَفَرِيكًا يَمْشُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ قال مقاتل: أخذ ميثاقهم في التوراة بأن يعملوا بما فيها. قال ابن عباس: كان فيمن كذبوا، محمد، وعيسى، وفيمن قتلوا، زكريا، ويحيى. قال الزجاج: فأما التكذيب، فاليهود، والنصارى يشتركون فيه. وأما القتل فيخص اليهود.

﴿وَحَسِبُوا أَنَّ تَكْوِينَ فَتَنَةً وَمَضُوا فِيهَا ثُمَّ عَصَوْا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكُفِرُوا بِمَا يَمْشُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوا أَنَّ تَكْوِينَ فَتَنَةً﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر: «تكون» بالنصب. وقرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «تكون» بالرفع، ولم يختلفوا في رفع «فتنة». قال مكي بن أبي طالب: من رفع جعل «أن» مخففة من الثقيلة، وأضمر معها «الهاء»، وجعل «حسبوا» بمعنى: أيقنوا، لأن «أن» للتأكيد، والتأكيد لا يجوز إلا مع اليقين. والتقدير: أنه لا تكون فتنة. ومن نصب جعل «أن» هي الناصبة للفعل، وجعل «حسبوا» بمعنى: ظنوا. ولو كان قبل «أن» فعل لا يصلح للشك، لم يجوز أن تكون إلا مخففة من الثقيلة، ولم يجوز نصب الفعل بها، كقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ﴾ [طه: ٨٩] و﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ﴾ [المزمل: ٢٠] قال أبو علي: الأفعال ثلاثة: فعل يدل على ثبات الشيء واستقراره، نحو العلم واليقين، وفعل يدل على خلاف الثبات والاستقرار، وفعل يجذب إلى هذا مرة، وإلى هذا أخرى، فما كان معناه العلم، وقعت بعده «أن» الثقيلة، لأن معناها ثبوت الشيء واستقراره، كقوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ

(١) البيت لبشر بن أبي خازم من قصيدة يهجو بها أوس بن حارثة. وهو في «ديوانه» ١٦٥، وسيبويه ٢٩٠/١، وشواهد المني ٢٧١/٢ وقوله:

إذا جـزـت نـواصـي أـك بـدر فـادو هـا وأـسـرى فـي السـوئـاق

وقصة البيهقي أن قوماً من أك بدر الفزاريين جاؤوا بني لأم من طيء، فأسترهم طيء، وجزوا نواصيهم، وقالوا: منّا عليكم ولم تقتلكم، فغضب بنو فزارة، فانتصر لهم بشر للحلف الذي كان بينهم وبين بني أسد قومه. والمعنى: أدوا إلينا نواصي بني بدر، واحملوا معنا أسرارهم، وإلا فلنا وأنتم متعادون أبداً.

أَلَعَلَّ الْيَاسِينَ ﴿٢٥﴾ [النور: ٢٥] ﴿أَلَمْ يَأْنِ أَنْ يَأْتِ اللَّهَ بَعْدَ﴾ [الملق: ١٤] وما كان على غير وجه الثبات والاستقرار نحو: أطمع وأخاف وأرجو، وقعت بعده «أن» الخفيفة، كقوله: ﴿إِن جِئْتُمْ إِلَّا بَيِّنَاتٍ حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩] ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَنْخَلِطَكُمْ الْإِنْسُ﴾ [الأنفال: ٢٦] ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٠] ﴿أَلَمْ نَقُصِّرْ لِي﴾ [الشعراء: ٨٢] وما كان متردداً بين الحالين مثل حسبْتُ وظننت، فإنه يجعل تارة بمنزلة العلم، وتارة بمنزلة أرجو وأطمع وكلتا القراءتين في ﴿وَحَسِبُوا إِلَّا تَكُونُ فِتْنَةً﴾ قد جاء بها التنزيل. فمثل مذهب من نصب: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا الشَّيْكَاتِ أَنْ نَحْمِلَهُنَّ﴾ [الجاثية: ٢١] ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الشَّيْكَاتِ أَنْ يَسْفُتُوا﴾ [العنكبوت: ٤] ﴿أَحْسِبَ الْإِنْسُ أَنْ يُبْرَكُوا﴾ [العنكبوت: ٢] ومثل مذهب من رفع: ﴿إِنِّي سَبَّوهُنَّ أَنَا فُتْنَهُنَّ﴾ [المؤمنون: ٥٥] ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ [الزخرف: ٨٠] قال ابن عباس: ظنوا أن الله لا يعذبهم، ولا يبتليهم بقتلهم الأنبياء، وتكذيبهم الرسل.

قوله تعالى: ﴿فَعَمُوا وَصَمُوا﴾ قال الزجاج: هذا مثل تأويله: أنهم لم يعملوا بما سمعوا، ورأوا من الآيات، فصاروا كالعمي الصم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: رفع عنهم البلاء، قاله مقاتل. وقال غيره: هو ظفرهم بالأعداء، وذلك مذكور في قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٦]. والثاني: أن معنى «تاب عليهم»: أرسل إليهم محمداً يعلمهم أن الله قد تاب عليهم إن آمنوا وصدّقوا، قاله الزجاج. وفي قوله: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا﴾ قولان: أحدهما: لم يتوبوا بعد رفع البلاء، قاله مقاتل. والثاني: لم يؤمنوا بعد بعثة محمد ﷺ، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿كَثِيرٌ يَتَّبِعُ﴾ أي: عمي وصم كثير منهم، كما تقول: جاءني قومك أكثرهم. قال ابن الأنباري: هذه الآية نزلت في قوم كانوا على الكفر قبل أن يُبعث رسول الله ﷺ، فلما بعث كذبوه بغياً وحسداً، وقدروا أن هذا الفعل لا يكون موبقاً لهم، وجانباً عليهم، فقال الله تعالى: ﴿وَحَسِبُوا إِلَّا تَكُونُ فِتْنَةً﴾ أي: ظنوا ألا تقع بهم فتنة في الإصرار على الكفر، فعموا وصموا بمجانبة الحق. ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: عرّضهم للتوبة بأن أرسل محمداً ﷺ وإن لم يتوبوا، ثم عموا وصموا بعد بيان الحق بمحمد، كثير منهم، فخص بعضهم بالفعل الأخير، لأنهم لم يجتمعوا كلهم على خلاف رسول الله ﷺ.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِمَنْ يُؤْمِنُ اللَّهُ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّكُمْ مِنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ قال مقاتل: نزلت في نصارى نجران، قالوا ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ﴾ أي: وقد كان المسيح قال لهم وهو بين أظهرهم: إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ تَالِكٌ تَلْدَفُ وَكَانَ مِنْ إِلَهِ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ تَالِكٌ تَلْدَفُ﴾ قال مجاهد: هم النصارى. قال وهب بن منبه: لما ولد عيسى لم يبق صنم إلا خرّ لوجهه، فاجتمعت الشياطين إلى إبليس، فأخبروه، فذهب فطاف أقطار الأرض، ثم رجع، فقال: هذا المولود الذي ولد من غير ذكر، أردت أن أنظر إليه، فوجدت الملائكة قد حفت بأمره، فليتلخف عندي اثنان من مردتكم. فلما أصبح، خرج بهما في صورة الرجال، فأتوا مسجد بني إسرائيل وهم يتحدثون بأمر عيسى، ويقولون: مولود من غير أب. فقال إبليس: ما هذا ببشر، ولكن الله أحب أن يتمثل في امرأة ليختبر العباد، فقال أحد صاحبيه: ما أعظم ما قلت، ولكن الله أحب أن يتخذ ولداً. وقال الثالث: ما أعظم ما قلت، ولكن الله أراد أن يجعل إلهاً في الأرض، فآلقوا هذا الكلام على ألسنة الناس، ثم تفرّقوا، فتكلم به الناس. وقال محمد بن كعب: لما رفع عيسى اجتمع مئة من علماء بني إسرائيل، وانتخبوا منهم أربعة، فقال أحدهم: عيسى هو الله كان في الأرض ما

بدا له، ثم صعد إلى السماء، لأنه لا يحيي الموتى ولا يبرئ الأكمه والأبرص إلا الله. وقال الثاني: ليس كذلك، لأننا قد عرفنا عيسى، وعرفنا أمه، ولكنه ابن الله. وقال الثالث: لا أقول كما قلتما، ولكن جاءت به أمه من عمل غير صالح. فقال الرابع: لقد قلتم قبيحاً، ولكنه عبد الله ورسوله وكلمته، فخرجوا، فاتبع كل رجل منهم عُنُق^(١) من الناس. قال المفسرون: ومعنى الآية: أن النصارى قالت: الإلهية مشتركة بين الله وعيسى ومريم، وكل واحد منهم إله. وفي الآية إضمار، فالمعنى: ثالث ثلاثة آلهة، فحذف ذكر الآلهة، لأن المعنى مفهوم، لأنه لا يكفر من قال: هو ثالث ثلاثة، ولم يرد الآلهة، لأنه ما من اثنين إلا وهو ثالثهما، وقد دل على المحذوف قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحِيدٌ﴾. قال الزجاج: ومعنى ثالث ثلاثة: أنه أحد ثلاثة. ودخلت «من» في قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ﴾ للتوكيد. والذين كفروا منهم، هم المقيمون على هذا القول. وقال ابن جرير: المعنى: ليمسّن الذين يقولون: المسيح هو الله، والذين يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، وكل كافر يسلك سبيلهم، عذاب أليم.

﴿أَنلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَسَتُغْفِرُهُ اللَّهُ وَعَفُوًّا رَجِسٌ﴾

قوله تعالى: ﴿أَنلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾ قال الفراء: لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه الأمر، كقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾

[المائدة: ٩١].

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُتُوهُ صِدْقَةٌ مِّنَّا يَآكُلَانِ أَلْعَمَامُ أَتَشْرَكُ كَيْفَ بَيِّتَ لَهُمُ آلَآئِيَتِ ثُمَّ أَتَشْرَكُ أَنَّنِ يَرْفُكُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ فيه رد على اليهود في تكذيبهم رسالته، وعلى النصارى في ادعائهم إلهيته. والمعنى: أنه ليس بإله، وإنما حكمه حكم من سبقه من الرسل. وفي قوله: ﴿وَأُتُوهُ صِدْقَةٌ﴾ رد على من نسبها من اليهود إلى الفاحشة. قال الزجاج: والصديقة: المبالغة في الصدق، وصديق «فعل» من أبنية المبالغة، كما تقول: فلان سكت، أي: مبالغ في السكوت. وفي قوله: ﴿مِنَّا يَآكُلَانِ أَلْعَمَامُ﴾ قولان: أحدهما: أنه بين أنهما يعيشان بالغذاء، ومن لا يُقيمه إلا أكل الطعام فليس بإله، والثاني: أنه نَبَّهَ بأكل الطعام على عاقبته، وهو الحدث، إذ لا بد لأكل الطعام من الحدث، قاله ابن قتيبة. قال: وقوله: ﴿أَتَشْرَكُ كَيْفَ بَيِّتَ لَهُمُ آلَآئِيَتِ﴾ من ألطف ما يكون من الكناية. ويؤفكون: يُصرفون عن الحق ويُعدّلون، يقال: أفك الرجل عن كذا: إذا عدل عنه، وأرض مأفوك: محرومة المطر والنبات، كان ذلك صُرف عنها وعدل.

﴿قُلْ أَشْهَدُوتُ بِنِ دُوبِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ مَرًّا وَلَا ثَمًّا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَشْهَدُوتُ بِنِ دُوبِ اللَّهِ﴾ قال مقاتل: قل لنصارى نجران: أتعبدون من دون الله، يعني عيسى ابن مريم ما لا يملك لكم ضرراً في الدنيا، ولا نفعاً في الآخرة. والله هو السميع لقولهم: المسيح ابن الله، وثالث ثلاثة، العليم بمقاتلتهم.

﴿قُلْ يَآأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاكِهِ السَّبِيلِ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَآأَهْلَ الْكِتَابِ﴾ قال مقاتل: هم نصارى نجران. والمعنى: لا تغلوا في دينكم، فتقولوا غير الحق في عيسى. وقد بينا معنى «الغلو» في آخر سورة (النساء).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ قال أبو سليمان: من قبل أن تضلوا. وفيهم قولان: أحدهما: أنهم رؤساء الضلالة من اليهود. والثاني: رؤساء اليهود والنصارى. والآية خطاب للذين كانوا في عصر نبينا ﷺ فهو أن يتبعوا أسلافهم فيما ابتدعوا بأهوائهم.

﴿لَمَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنَاتِ إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ في لعنهم قولان: أحدهما: أنه نفس اللعن، ومعناه: المباحدة من الرحمة. قال ابن عباس: لعنوا على لسان داود، فصاروا قردة، ولعنوا على لسان عيسى في الإنجيل. قال الزجاج: وجائز أن يكون داود وعيسى أعلمًا أن محمدًا نبي، ولعنوا من كفر به. والثاني: أنه المسخ، قاله مجاهد، لعنوا على لسان داود فصاروا قردة، وعلى لسان عيسى، فصاروا خنازير. وقال الحسن، وقتادة: لعن أصحاب السبت على لسان داود، فإنهم لما اعتدوا، قال داود: اللهم العنهم، واجعلهم آية، فمسخوا قردة. ولعن أصحاب المائدة على لسان عيسى، فإنهم لما أكلوا منها ولم يؤمنوا؛ قال عيسى: اللهم العنهم كما لعنت أصحاب السبت، فجعلوا خنازير.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَمَّا عَصَا﴾ أي: ذلك اللعن بمصعبتهم لله تعالى في مخالفتهم أمره ونهيه، وباعتدائهم في مجاوزة ما حذاهم.

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ التناهي: تفاعل من النهي، أي: كانوا لا ينهوا بعضهم بعضاً عن المنكر. وذكر المفسرون في هذا المنكر ثلاثة أقوال: أحدها: صيد السمك يوم السبت. والثاني: أخذ الرشوة في الحكم. والثالث: أكل الربا، وأثمان الشحوم. وذكر المنكر منكرًا يدل على الإطلاق، ويمنع هذا الحصر، ويدل على ما قلنا، ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعذيرًا، فإذا كان الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريبه، فلما رأى الله تعالى ذلك منهم، ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم»^(١).

قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ قال الزجاج: اللام دخلت للقسم والتوكيد، والمعنى: لبئس شيئاً فعلهم.

﴿تَكَرَّأَ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خَالِدُونَ﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَهُ مَا أَخَذُوهُمْ أُوْلِيَّةً وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ

قوله تعالى: ﴿تَكَرَّأَ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم المنافقون، روي عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد. والثاني: أنهم اليهود، قاله مقاتل في آخرين، فعلى هذا القول انتظام الآيات ظاهر، وعلى الأول يرجع الكلام إلى قوله: ﴿قَدَّمَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُكْسِفُونَ فِيهِمْ﴾. وفي الذين كفروا قولان: أحدهما: أنهم اليهود، قاله أرباب القول الأول. والثاني: أنهم مشركو العرب، قاله أرباب هذا القول الثاني.

قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: بشما قدموا لمعادهم ﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ قال الزجاج: يجوز أن تكون «أن» في موضع رفع على إضمار هو، كأنه قيل: هو أن سخط الله عليهم.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْتُكَ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ فَيَقْبَلُونَ وَهُمْ كَاذِبُونَ وَأَنْهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرُّسُولِ رَجَعُوا خَلْفَهُمْ فَيَقُولُ مَنْ يَنْصُرُنَا مِنَ الْغَيْبِ مَا نَقُتِلُ فَيَقُولُ مَنْ يَنْصُرُنَا مِنَ الْغَيْبِ مَا نَقُتِلُ فَيَقُولُ مَنْ يَنْصُرُنَا مِنَ الْغَيْبِ مَا نَقُتِلُ

قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾ قال المفسرون: نزلت هذه الآية وما بعدها مما يتعلق بها في النجاشي وأصحابه. قال سعيد بن جبیر: بعث النجاشي قوماً إلى رسول الله ﷺ فأسلموا، فنزلت فيهم هذه الآية والتي بعدها^(٢)، وسنذكر قصتهم فيما بعد. قال الزجاج: واللام في «لتجدن» لام القسم، والنون دخلت تفصل بين الحال والاستقبال، و«عداوة» منصوب على التمييز، واليهود ظاهروا المشركين على المؤمنين حسداً للنبي ﷺ.

(١) أحمد ٥/٢٦٨، وأبو داود ٤/١٧٢، والترمذي ٤/٩٧، وابن ماجه ٢/١٣٢٧، وابن جرير ١٠/٤٩٢ عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه. قال المنذري: وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه فهو منقطع.

(٢) اختار الإمام أبو جعفر الطبري أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة، سواء كانوا من الحبشة أو غيرها.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يعني: عبدة الأوثان. فأما الذين قالوا: إنا نصارى، فهل هذا عام في كل النصارى، أم خاص؟ فيه قولان: أحدهما: أنه خاص، ثم فيه قولان: أحدهما: أنه أراد النجاشي وأصحابه لما أسلموا، قاله ابن عباس، وابن جبير. والثاني: أنهم قوم من النصارى كانوا متمسكين بشريعة عيسى، فلما جاء محمد ﷺ أسلموا، قاله قتادة. والقول الثاني: أنه عام. قال الزجاج: يجوز أن يراد به النصارى، لأنهم كانوا أقلّ مظاهرة للمشركين من اليهود.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا﴾ قال الزجاج: «القس» و«القسيس»: من رؤساء النصارى. وقال قطرب: القسيس: العالم بلغة الروم، فأما «الرهبان» فهم العباد أرباب الصوامع. قال ابن فارس: الترقب: التبعّد، فإن قيل: كيف مدحهم بأن منهم قسيسين وزهباناً، وليس ذلك من أمرٍ شريعتنا؟ فالجواب: أنه مدحهم بالتمسك بدين عيسى حين استعملوا في أمر محمد ما أخذ عليهم في كتابهم، وقد كانت الرهبانية مستحسنة في دينهم. والمعنى: بأن فيهم علماء بما أوصى به عيسى من أمر محمد ﷺ. قال القاضي أبو يعلى: وربما ظن جاهل أن في هذه الآية مدح النصارى، وليس كذلك، لأنه إنما مدح من آمن منهم، ويدل عليه ما بعد ذلك، ولا شك أن مقالة النصارى أقبح من مقالة اليهود.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: لا يتكبرون عن اتباع الحق.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَرْسَلُوا﴾ قال ابن عباس: لما حضر أصحاب النبي ﷺ بين يدي النجاشي، وقرؤوا القرآن، سمع ذلك القسيسون والرهبان، فأنحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق، فقال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا قَتِيلَيْن﴾ إلى قوله: ﴿وَيُنَازِعِينَ﴾. وقال سعيد بن جبير: بعث النجاشي من خيار أصحابه ثلاثين رجلاً إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليهم القرآن، فبكوا ورثوا، وقالوا: نعرف الله، وأسلموا، وذهبوا إلى النجاشي فأخبروه فأسلم، فأنزل الله فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَرْسَلُوا﴾.. الآية. وقال السدي: كانوا اثني عشر رجلاً؛ سبعة من القسيسين، وخمسة من الرهبان، فلما قرأ عليهم رسول الله ﷺ القرآن، بكوا وآمنوا، فنزلت هذه الآية فيهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَكْبَهْتُمْ مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، أي: مع من يشهد بالحق. وللمفسرين في المراد بالشاهدين هاهنا أربعة أقوال: أحدها: محمد وأمه، رواه علي بن أبي طلحة، وعكرمة عن ابن عباس. والثاني: أصحاب محمد ﷺ، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: الذين يشهدون بالإيمان، قاله الحسن. والرابع: الأنبياء والمؤمنون، قاله الزجاج.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٤) فَأَنبَهُهُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦)

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ قال ابن عباس: لامهم قومهم على الإيمان، فقالوا هذا. وفي القوم الصالحين ثلاثة أقوال: أحدها: أصحاب رسول الله، قاله ابن عباس. والثاني: رسول الله ﷺ وأصحابه، قاله ابن زيد. والثالث: المهاجرون الأولون، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال ابن عباس: ثواب المؤمنين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسْتَدُوا بِرَأْسِ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُفْتَنِينَ﴾ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَانْفَعُوا اللَّهَ الَّذِي أَنشَأَ بِهِ مُؤْمِنَاتِكُمْ (٨٨)

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ، منهم عثمان بن مظعون، حرّموا اللحم والنساء على أنفسهم، وأرادوا حبّ أنفسهم ليتفرغوا للعبادة، فقال رسول الله: «لم أؤمر بذلك»، ونزلت هذه الآية، رواه العوفي عن ابن عباس. وروى أبو صالح عن ابن عباس، قال: كانوا عشرة: أبو بكر، وعمر، وعلي، وابن مسعود، وعثمان بن مظعون، والمقداد بن الأسود، وسالم مولى أبي حذيفة، وسلمان الفارسي، وأبو ذر، وعمار بن ياسر، اجتمعوا في دار عثمان بن مظعون، فتواثقوا على

ذلك، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «من رغب عن سنّتي فليس مني» ونزلت هذه الآية^(١). قال السدي: كان سبب عزمهم على ذلك أن رسول الله ﷺ جلس يوماً، فلم يزدهم على التخويف، فرقّ الناس، وبكوا، فعزم هؤلاء على ذلك، وحلفوا على ما عزموا عليه. وقال عكرمة: إن علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وعثمان بن مظعون، والمقداد، وسالم مولى أبي حذيفة في أصحابه، تَبَلَّوا، فجلسوا في البيوت، واعتزلوا النساء، ولبسوا المسوح^(٢) وحرّموا طيبات الطعام واللباس، إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل، وهموا بالاختصاء، وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار، فنزلت هذه الآية. والثاني: أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ، فقال: إني إذا أكلت من هذا اللحم، أقبلت على النساء، وإني حرّمته عليّ، فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس^(٣). والثالث: أن ضيفاً نزل بعد الله بن رواحة، ولم يكن حاضراً، فلما جاء، قال لزوجته: هل أكل الضيف؟ فقالت: انتظرتك. فقال: حبست ضيفي من أجلي؟! طعامك عليّ حرام. فقالت: وهو عليّ حرام إن لم تأكله، فقال الضيف: وهو عليّ حرام إن لم تأكله، فلما رأى ذلك ابن رواحة قال: قربي طعامك، كلوا بسم الله، ثم غدا إلى النبي ﷺ، فأخبره بذلك فقال: أحسنت، ونزلت هذه الآية، وقرأ حتى بلغ ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُحْوَ فِي آيَاتِكُمْ﴾ رواه عبد الرحمن بن زيد عن أبيه^(٤). فأما «الطيبات» فهي اللذيزات التي تشبهها النفوس مما أبيع. وفي قوله: «ولا تعتدوا» خمسة أقوال: أحدها: لا تجبوا أنفسكم، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وإبراهيم. والثاني: لا تأتوا ما نهى الله عنه، قاله الحسن. والثالث: لا تسيروا بغير سيرة المسلمين من ترك النساء، وإدامة الصيام، والقيام، قاله عكرمة. والرابع: لا تحرّموا الحلال، قاله مقاتل. والخامس: لا تغصبوا الأموال المحرّمة، ذكره الماوردي.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُحْوَ فِي آيَاتِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتُكُمْ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبٍ فَمَنْ كَرِهَ فَوْصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّرَ آيَاتِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُحْوَ فِي آيَاتِكُمْ﴾ سبب نزولها: أنه لما نزل قوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال القوم الذين كانوا حرّموا النساء واللحم: يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها؟ فنزلت هذه الآية، رواه العوفي عن ابن عباس. وقد سبق ذكر «الفحوى» في سورة (البقرة).

قوله تعالى: ﴿بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: «عقدتم» بغير ألف، مشددة القاف. قال أبو عمرو: معناها: وكدت. وقرأ أبو بكر، والمفضل عن عاصم: «عقدتم» خفيفة بغير ألف، واختارها أبو عبيد. قال ابن جرير: معناها: أوجبتوها على أنفسكم. وقرأ ابن عامر: «عاهدتم» بألف، مثل «عاهدتم». قال القاضي أبو يعلى: وهذه القراءة المشددة لا تحتل إلا عقد قول. فأما المخففة، فتحتمل عقد القلب، وعقد القول. وذكر المفسرون في معنى الكلام قولين: أحدهما: ولكن يؤاخذكم بما عقدتم عليه قلوبكم في التعمد لليمين، قاله مجاهد. والثاني: بما عقدتم عليه قلوبكم أنه كذب، قاله سعيد بن جبيرة.

قوله تعالى: ﴿فَكَفَّرْتُمُوهَا﴾ قال ابن جرير: الهاء عائدة على «ما» في قوله: ﴿بِمَا عَقَّدْتُمُ﴾

فصل

فأما إطعام المساكين، فروى عن ابن عمر، وزيد بن ثابت، وابن عباس، والحسن في آخرين: أن لكل مسكين

(١) ابن جرير ٥١٩/١٠ عن عكرمة بمعناه، وخرجه السيوطي في «الدر» وزاد نسبه لابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٢) المسوح: جمع مسح بكسر فسكون: وهو كساء من شعر يلبسه الرهبان.

(٣) الترمذي ٩٧/٤، وابن جرير ٥٢٠/١٠. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وروى البخاري ٢٠٧/٨ عن عبد الله بن مسعود، قال: كنا نغزو مع النبي ﷺ، وليس معنا نساء، فقلنا: ألا نختصي؟ فهناك عن ذلك، فرخص لنا بعد ذلك أن نتزوج المرأة بالثوب، ثم قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا مَكَاتِبَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

(٤) ابن جرير ٥١٩/١٠، وزاد السيوطي في «الدر المثنى» نسبه إلى ابن أبي حاتم.

مَدْبُرٌ، وبه قال مالك، والشافعي. وروي عن عمر، وعلي، وعائشة في آخرين: لكل مسكين نصف صاع من بُزٍّ، قال عمر، وعائشة: أو صاعاً من تمر، وبه قال أبو حنيفة. ومذهب أصحابنا في جميع الكفارات التي فيها إطعام، مثل كفارة اليمين، والظهار، وفدية الأذى، والمفطرة في قضاء رمضان، مَدْبُرٌ، أو نصف صاع تمر أو شعير. وبن شرط صحة الكفارة، تملك الطعام للفقراء، فإن غداهم وعشائهم، لم يجزئه، وبه قال سعيد بن جبير، والحكم، والشافعي. وقال الثوري، والأوزاعي: يجزئه، وبه قال أبو حنيفة، ومالك. ولا يجوز صرف مدين إلى مسكين واحد، ولا إخراج القيمة في الكفارة، وبه قال الشافعي. وقال أبو حنيفة: يجوز. قال الزجاج: وإنما وقع لفظ التذكير في المساكين، ولو كانوا إناثاً لأجزأ، لأن المغلب في كلام العرب التذكير. وفي قوله: ﴿يَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْمِئِنُّ عَلَيْهِكُمْ﴾ قولان: أحدهما: من أوسطه في القدر، قاله عمر، وعلي، وابن عباس، ومجاهد. والثاني: من أوسط أجناس الطعام، قاله ابن عمر، والأسود، وعبيدة، الحسن، وابن سيرين. وروي عن ابن عباس قال: كان أهل المدينة [يقولون]: للحر من القوت أكثر مما للمملوك، ولل كبير أكثر ما للصغير، فنزلت ﴿يَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْمِئِنُّ عَلَيْهِكُمْ﴾ ليس بأفضله ولا بأخسه. وفي كسوتهم خمسة أقوال: أحدها: أنها ثوب واحد، قاله ابن عباس، ومجاهد، وطاووس، وعطاء، والشافعي. والثاني: ثوبان، قاله أبو موسى الأشعري، وابن المسيب، والحسن، وابن سيرين، والضحاك. والثالث: إزار ورداء وقميص، قاله ابن عمر. والرابع: ثوب جامع كالملحفة، قاله إبراهيم النخعي. والخامس: كسوة تجزئ فيها الصلاة، قاله مالك. ومذهب أصحابنا: أنه إن كسا الرجل، كساه ثوباً، والمرأة ثوبين، درعاً وخماراً، وهو أدنى ما تُجزئ فيه الصلاة. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو الجوزاء، ويحيى بن يعمر: «أو كسوتهم»، بضم الكاف. وقد قرأ سعيد بن جبير، وأبو العالية، وأبو نهيك، ومعاذ القارئ^(١): «أو كاسوتهم» بهجمة مكسورة، مفتوحة الكاف، مكسورة التاء والهاء. وقرأ ابن السميع، وأبو عمران الجوني مثله، إلا أنهما فتحا الهمزة. قال المصنف: ولا أرى هذه القراءة جائزة، لأنها تسقط أصلاً من أصول الكفارة.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبٍ﴾ تحريرها: عتقها، والمراد بالرقبة: جملة الشخص. واتفقوا على اشتراط إيمان الرقبة في كفارة القتل لموضع النص. واختلفوا في إيمان الرقبة المذكورة في هذه الكفارة على قولين: أحدهما: أنه شرط، وبه قال الشافعي، لأن الله تعالى قيد بذكر الإيمان في كفارة القتل، فوجب حمل المطلق على المقيّد. والثاني: ليس بشرط، وبه قال أبو حنيفة، وعن أحمد رضي الله عنه في إيمان الرقبة المعتقة في كفارة اليمين، وكفارة الظهار، وكفارة الجماع، والمنذورة، روايتان.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَرَّ يَحْدُ﴾ اختلفوا فيما إذا لم يجده، صام، على خمسة أقوال: أحدها: أنه إذا لم يجد درهمين صام، قاله الحسن. والثاني: ثلاثة درهم، قاله سعيد بن جبير. والثالث: إذا لم يجد إلا قَدْرَ ما يكفر به، صام، قاله قتادة. والرابع: يمتي درهم، قاله أبو حنيفة. والخامس: إذا لم يكن له إلا قدر قوته وقوت عائلته يومه وليلته، قاله أحمد، والشافعي. وفي تنابع الثلاثة أيام، قولان: أحدهما: أنه شرط، وكان أبي، وابن مسعود يقرآن: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات» وبه قال ابن عباس، ومجاهد، وطاووس، وعطاء، وقاتدة، وأبو حنيفة، وهو قول أصحابنا. والثاني: ليس بشرط، ويجوز التفريق، وبه قال الحسن، ومالك، وللشافعي فيه قولان.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَثْرَةُ آيَاتِنَا إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ فيه إضمار تقديره: إذا حلفتكم وحشتم. وفي قوله: ﴿وَاحْفَظُوا آيَاتِنَا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أفلوا منها، ويشهد له قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْصَةً لِّإِتْيَانِكُمْ﴾ وأنشدوا:

قَلِيلَ الْأَيَّامِ حَافِظَ لِيَمِينِهِ^(٢)

والثاني: احفظوا أنفسكم من الحنث فيها. والثالث: راعوها لكي تؤدّوا الكفارة عند الحنث فيها.

(١) هو معاذ بن الحارث أبو الحارث، ويقال: أبو حليمة، الأنصاري المدني المعروف بالقارئ. روى عنه نافع وابن سيرين، وحدث عنه نافع مولى ابن عمر، توفي بالحرّة سنة ثلاث وستين، وهو ابن تسع وستين. «طبقات القراء» لابن الجزري ٣٠١/٢.

(٢) وتامه: وإن سبقت منه الآية بروت. والبيت لكثير عزة. «ديوانه» ٢٢٠/٢، و«اللسان»: مادة «ألي»، ولم ينسبه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١)

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن سعد بن أبي وقاص أتى نقرأ من المهاجرين والأنصار، فأكل عندهم، وشرب الخمر قبل أن تحرم، فقال: المهاجرون خير من الأنصار، فأخذ رجلٌ لخي^(١) جمل فضربه، فجذع أنفه، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره، فنزلت هذه الآية، رواه مصعب بن سعد عن أبيه^(٢). وقال سعيد بن جبيرة: صنع رجل من الأنصار صنيعاً، فدعا سعد بن أبي وقاص، فلما أخذت فيهم الخمرة افتخروا واستبوا، فقام الأنصاري إلى لحي بعير، فضرب به رأس سعد، فإذا الدم على وجهه، فذهب سعد يشكو إلى النبي ﷺ، فنزل تحريم الخمر في قوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿تَتَّقُونَ﴾^(٣). والثاني: أن عمر بن الخطاب قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت التي في (البقرة) فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية، في النساء: ٤٣ فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية، رواه أبو مسيرة عن عمر^(٤). والثالث: أن أناساً من المسلمين شربوها، فقاتل بعضهم بعضاً، وتكلموا بما لا يرضاه الله من القول، فنزلت هذه الآية، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والرابع: أن قبيلتين من الأنصار شربوا، فلما ثملوا عبث بعضهم ببعض، فلما صَحَّوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه وبرأسه وبلحيته، فيقول: صنع بي هذا أخي فلان! والله لو كان بي رؤوفاً ما صنع بي هذا، حتى وقعت في قلوبهم الضغائن، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن، فنزلت هذه الآية، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس^(٥). وقد ذكرنا الخمر والميسر في (البقرة)، وذكرنا في «الأنصاف» في أول هذه السورة قولين، وهما اللذان ذكرهما المفسرون في الأنصاف. وذكرنا هناك «الأزلام». فأما الرِّجْس، فقال الزجاج: هو اسم لكل ما استغذِر من عمل، يقال: رَجِسَ الرَّجُلُ يَرْجُسُ، وَرَجِسَ يَرْجُسُ: إذا عمل عملاً قبيحاً، والرِّجْس بفتح الراء: شدة الصوت، فكان الرِّجْس، العمل الذي يقبح ذكره، ويرتفع في القبح، ويقال: رعدَ رَجَاس: إذا كان شديد الصوت.

قوله تعالى: ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ قال ابن عباس: من تزوين الشيطان. فإن قيل: كيف نُسِبَ إليه، وليس من فعله؟ فالجواب: أن نسبته إليه مجاز، وإنما نسب إليه، لأنه هو الداعي إليه، المزين له، ألا ترى أن رجلاً لو أغرى رجلاً بضرب رجل، لجاز أن يقال له: هذا من عملك.

قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا﴾ قال الزجاج: اتركوه. واشتقاقه في اللغة: كونوا جانباً منه. فإن قيل: كيف ذكر في هذه الآية أشياء، ثم قال: فاجتنبوا؟ فالجواب: أن الهاء عائدة على الرِّجْس، والرِّجْس واقع على الخمر، والميسر، والأنصاف، والأزلام، ورجوع الهاء عليه بمنزلة رجوعها على الجمع الذي هو واقع عليه، ومنبئ عنه، ذكره ابن الأنباري.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَصَدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (١) وَأَلْبِسُوا اللَّهَ وَأَلْبِسُوا الرُّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رُسُولِي الْبُكَ الْبَيْنُ (٢)

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ أما «الخمر» فوقع العداوة والبغضاء فيها على نحو ما ذكرنا في سبب نزول الآية من القتال والممارسة. وأما الميسر، فقال قتادة: كان الرجل يقامر على أهله وماله، فيَقْمَرُ ويبقى حزينا سلباً، فينظر إلى ماله في يد غيره، فيكسبه ذلك العداوة والبغضاء.

(١) لحي الجمل، يفتح اللام وسكون الحاء، وهما لحيان، وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم

(٢) ابن جرير ٥٦٩/١٠، والمستند ٨٢/٣، ومسلم ١٨٧٧/٤، وأسنى البيهقي ٢٨٥/٨، والناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس ٤٠.

(٣) لم نجد هذا الخبر عن سعيد بن جبيرة في شيء من المراجع التي بين أيدينا.

(٤) «المستند» ٣١٦/١، وأسنى أبي داود ٤٤٤/٣، وأسنى النسائي ٢٨٦/٨، والترمذي ٩٨/٤، والطبري ٥٦٦/١٠، وأسنى البيهقي ٢٨٥/٨، والناسخ والمنسوخ للنحاس: ٣٩. ونقل الحافظ في «الفتح» وابن كثير في «التفسير» تصحيحه عن علي بن المديني والترمذي.

(٥) ابن جرير ٥٧١/١٠، وأسنى البيهقي ٢٨٥/٨، والحاكم في «المستدرک» ١٤١/٤، قال الذهبي: قلت: صحيح على شرط مسلم. وخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٨/٧ وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه لفظ استفهام، ومعناه: الأمر. تقديره: انتهوا. قال الفراء: رد علي أعرابي: هل أنت ساكت، هل أنت ساكت؟ وهو يريد: اسكت، اسكت. والثاني: أنه استفهام، لا بمعنى: الأمر. ذكر شيخنا علي بن عبيد الله أن جماعة كانوا يشربون الخمر بعد هذه الآية، ويقولون: لم يحرمها، إنما قال: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾، فقال بعضنا: انتهينا، وقال بعضنا: لم تنته، فلما نزلت ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ﴾ [الأعراف: ٣٣] حرمت، لأن «الإثم» اسم للخمر. وهذا القول ليس بشيء والأول أصح.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما أمركم، واحذروا خلافهما ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولٍ﴾ محمد ﴿أَلْبَسَ الْكَيْدَ﴾ وهذا وعيد لهم، كأنه قال: فاعلموا أنكم قد استحققتم العذاب لتوليكم. ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يَخِبُ الْمُحْسِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ سبب نزولها: أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ ماتوا وهم يشربون الخمر، إذ كانت مباحة، فلما حرمت، قال ناس: كيف بأصحابنا وقد ماتوا وهم يشربونها؟ فنزلت هذه الآية، قاله البراء بن عازب^(١). و«الجناح»: الإثم. وفيما طعموا ثلاثة أقوال: أحدها: ما شربوا من الخمر قبل تحريمها، قاله ابن عباس، والجمهور. قال ابن تقيّة: يقال: لم أطعم خبزاً وأدماً ولا ماء ولا نوماً. قال الشاعر:

فإن شئت حرمت النساء سواكم
وإن شئت لم أطعم نفاقاً ولا بزدا^(٢)

النفاق: الماء [البارد] الذي ينقخ الفؤاد ببرده، والبرد: النوم. والثاني: ما شربوا من الخمر وأكلوا من الميسر. والثالث: ما طعموا من المباحات. وفي قوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: اتقوا بعد التحريم، قاله ابن عباس. والثاني: اتقوا المعاصي والشرك. والثالث: اتقوا مخالفة الله في أمره. وفي قوله: ﴿وَأَمَنُوا﴾ قولان: أحدهما: آمنوا بالله ورسوله. والثاني: آمنوا بتحريمها. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال مقاتل: أقاموا على الفرائض.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ في هذه التقوى المعادة أربعة أقوال: أحدها: أن المراد خوف الله ﷻ. والثاني: أنها تقوى الخمر والميسر بعد التحريم. والثالث: أنها الدوام على التقوى. والرابع: أن التقوى الأولى مخاطبة لمن شربها قبل التحريم، والثانية لمن شربها بعد التحريم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَنُوا﴾ في هذا الإيمان المعاد قولان: أحدهما: صدّقوا بجميع ما جاء به محمد ﷺ. والثاني: آمنوا بما يجيء من الناسخ والمنسوخ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا﴾ في هذه التقوى الثالثة أربعة أقوال: أحدها: اجتنبوا العود إلى الخمر بعد تحريمها، قاله ابن عباس. والثاني: اتقوا ظلم العباد. والثالث: توقوا الشبهات. والرابع: اتقوا جميع المحرمات. وفي الإحسان قولان: أحدهما: أحسنوا العمل بترك شربها بعد التحريم، قاله ابن عباس. والثاني: أحسنوا العمل بعد تحريمها، قاله مقاتل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا يَسْأَلُكُمْ اللَّهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الصَّدَقَاتِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ اللَّهُ مَنَّ يَخَافُ وَالْقَبِيحَ فَمَنْ أَغْدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(١) «مسند الطيالسي» ١٨/٢، والطبري ٥٧٩/١٠، والترمذي ٩٨/٤ وقال: هذا حديث حسن صحيح. وخرجه السيوطي في «الدر المنثور» ٣٢٠/٢ وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وأبي الشيخ، وابن مردويه. وروى البخاري ٢٠٩/٨، ومسلم ١٤٨/١٣، والنسائي ٢٨٧/٨ عن أنس رضي الله عنه قال: كنت ساقى القوم في منزل أبي طلحة، فنزل تحريم الخمر، فأمر منادياً فنادى، فقال أبو طلحة: أخرج فانظر ما هذا الصوت؟ قال: فخرجت، فقلت: هذا مناد ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت، فقال لي: اذهب فأمرقها، قال: فجرت في سكك المدينة، قال: وكانت خمرهم يومئذ الفضيخ، فقال بعض القوم: قتل قوم وهي في بطونهم، قال: فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾. وروى أحمد ٢٤١/٤ بسند حسن عن ابن عباس قال: لما حرمت الخمر قال أناس: يا رسول الله أصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها فأنزلت ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾.

(٢) البيت لعبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان العرجي، وهو في «ديوانه» ١٠٩، و«غريب القرآن» ١٤٦، والقرطبي ١٧٨/١٩، و«اللسان» مادة: تقح.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ لَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾ قال المفسرون: لما كان عام الحديبية، وأقام النبي ﷺ بالتعميم^(١)، كانت الوحوش والطير تغشاهم في رحالهم، وهم مُحَرَّمُونَ، فنزلت هذه الآية^(٢)، ونهوا عنها ابتلاء. قال الزجاج: اللام في «لبيئس لكم» لام القسم، ومعناه: لنختبرن طاعتكم من معصيتكم. وفي «من» قولان: أحدهما: أنها للتبعض، ثم فيه قولان: أحدهما: أنه عنى صيد البر دون صيد البحر. والثاني: أن عنى الصيد ما داموا في الإحرام كأن ذلك بعض الصيد. والثاني: أنها لبيان الجنس، كقوله: ﴿فَلَا تَجْكَبُوا أَلْيَسَ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحج: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿تَنَالَهُ آيَاتُكُمْ وَرَمَاتُكُمْ﴾ قال مجاهد: الذي تناله اليد: الفراخ والبيض، وصغار الصيد، والذي تناله الرماح: كبار الصيد.

قوله تعالى: ﴿لَعَنَ اللَّهُ﴾ قال مقاتل: ليرى الله من يخافه بالغيب ولم يره، فلا يتناول الصيد وهو مُحَرَّمٌ ﴿فَمَنْ أَتَعَنَ﴾ فأخذ الصيد عمداً بعد النهي للمُحَرَّمِ عن قتل الصيد ﴿فَلَعَنَ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ قال ابن عباس: يوسع بطنه وظهره جلداً، وتسلب ثيابه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعِدًا فِجْرًا يَتْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّرَ تِلْكَ سَكَنًا مَكِينًا أَوْ عَدَلَ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَعَلَى أَرْسِهِ عَذَابُ اللَّهِ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ بين الله ﷻ بهذه الآية من أي وجوه تقع البلوى، وفي أي زمان، وما على من قتله بعد النهي؟. وفي قوله: ﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: وأنتم محرمون بحج أو عمرة، قاله الأكثرون. والثاني: وأنتم في الحرم، يقال: أحرم: إذا دخل في الحرم، وأنجد: إذا أتى نجداً. والثالث: الجمع بين القولين.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعِدًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أن يتعمد قتله ذاكراً لإحرامه، قاله ابن عباس، وعطاء. والثاني: أن يتعمد قتله ناسياً لإحرامه، قاله مجاهد. فاما قتله خطأ، ففيه قولان: أحدهما: أنه كالعمد، قاله عمر، وعثمان، والجمهور. قال الزهري: نزل القرآن بالعمد، وجرت السنة في الخطأ، يعني: ألحقت المخطئ بالمتعمد في جوب الجزاء. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الضبع صيد وفيه كبش إذا قتله المحرم»^(٣) وهذا عام في العامد والمخطئ. قال القاضي أبو يعلى: أفاد تخصيص العمد بالذكر ما ذكر في أثناء الآية من الوعيد، وإنما يختص ذلك بالعامد. والثاني: أنه لا شيء فيه، قاله ابن عباس، وابن جبير، وطاووس، وعطاء، وسالم، والقاسم، وداود. وعن أحمد روايتان: أصحهما الرجوب.

قوله تعالى: ﴿فِجْرًا يَتْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «فجراً يثلي» مضافة وبخفص «مثل». وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: «فجزاء» منون «مثل» مرفوع. قال أبو علي: من أضاف، فقوله: ﴿مِنْ النَّعَمِ﴾ يكون صفة للجزاء، وإنما قال: مثل ما قتل، وإنما عليه جزاء المقتول لا جزاء مثله، لأنهم يقولون: أنا أكرمُ مثلك، يريدون: أنا أكرمك، فالمعنى: جزاء ما قتل. ومن رفع «المثل»، فالمعنى: فعليه جزاء من النعم مماثل للمقتول، والتقدير: فعليه جزاء. قال ابن قتيبة: النعم: الإبل، وقد يكون البقر والغنم، والأغلب عليها الإبل. وقال الزجاج: النعم في اللغة: الإبل والبقر والغنم، فإن انفردت الإبل، قيل لها: نعم، وإن انفردت البقر والغنم، لم تسم نعماً.

فصل

قال القاضي أبو يعلى: والصيد الذي يجب الجزاء بقتله: ما كان مأكول اللحم، كالغزال، وحمار الوحش،

(١) التعميم: موضع بين مَرَّ وسَرَف، بينه وبين مكة فرسخان، ومن التعميم يحرم من أراد العمرة.

(٢) نسبة السيوطي في «الدر المنثور» ٢/٣٢٧ إلى ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان.

(٣) أبو داود ٤٨٥/٣، وابن ماجه ١٠٣٠/٢، والدارقطني ٢٦٦/١، والبيهقي ١٨٣/٥، والحاكم ٤٥٢/١، ٤٥٣ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي. ورواه النسائي ١٩١/٥، والترمذي ١٠٤/١ ولقظه عن ابن أبي عمار قال: سألت جابر بن عبد الله عن الضبع، فأمرني بأكلها. قلت: أصيد هي؟ قال: نعم. قلت: أسمعت من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال في «طله الكبير»: سألت عنه البخاري فصحه، وقال البيهقي: هو حديث جيد تقوم به الحجة.

والنعامة، ونحو ذلك، أو كان متولداً من حيوان يؤكل لحمه، كالسَّمع، فإنه متولد من الضيع والذئب، وما عدا ذلك من السباع كلها فلا جزاء على قاتلها؛ سواء ابتدأ قتلها، أو عدت عليه، فقتلها دفعاً عن نفسه، لأن السبع لا مثل له صورة ولا قيمة، فلم يدخل تحت الآية، ولأن النبي ﷺ أجاز للمحرم قتل الحية، والعقرب، والفوسقة، والغراب، والحدأة، والكلب العقور، والسبع العادي^(١). قال: والواجب بقتل الصيد فيما له مثل من الأنعام مثله، وفيما لا مثل له قيمته، وهو قول مالك، والشافعي. وقال أبو حنيفة: الواجب فيه القيمة، وحمل المثل على القيمة، وظاهر الآية يرد ما قال، ولأن الصحابة حملوا الآية على المثل من طريق الصورة، فقال ابن عباس: المثل النظير، ففي الظبية شاة، وفي النعامة بعير.

قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ يعني بالجزاء، وإنما ذكر اثنين، لأن الصيد يختلف في نفسه، فافتقر الحكم بالمثل إلى عدلين.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ﴾ يعني: من أهل ملتكم.

قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلِغُ الْكُفَّةِ﴾ قال الزجاج: هو منصوب على الحال، والمعنى: يحكمان به مقدراً أن يهدى. ولفظ قوله «بالغ الكعبة» لفظ معرفة، ومعناه: النكرة. والمعنى: بالغاً الكعبة، إلا أن التنوين حذف استخفافاً. قال ابن عباس: إذا أتى مكة ذبحه، وتصدق به.

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَثْرَةٌ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: ﴿أَوْ كَثْرَةٌ﴾ متوناً ﴿طَعَامٌ﴾ رفعاً. وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿أَوْ كَثْرَةٌ﴾ رفعاً غير متون «طعام مساكين» على الإضافة. قال أبو علي: من رفع ولم يضيف، جعله عطفاً على الكفارة عطف بيان، لأن الطعام هو الكفارة، ولم يضيف الكفارة إلى الطعام، لأن الكفارة لقتل الصيد، لا للطعام، ومن أضاف الكفارة إلى الطعام، فلأنه لما خیر المكفر بين الهدى، والطعام، والصيام، جازت الإضافة لذلك، فكانه قال: كفارة طعام، لا كفارة هدي، ولا صيام. والمعنى: أو عليه بدل الجزاء والكفارة، وهي طعام مساكين. وهل يعتبر في إخراج الطعام قيمة النظير، أو قيمة الصيد؟ فيه قولان: أحدهما: قيمة النظير، وبه قال عطاء، والشافعي، وأحمد. والثاني: قيمة الصيد، وبه قال قتادة، وأبو حنيفة، ومالك. وفي قدر الإطعام لكل مسكين قولان: أحدهما: مَدَان من بُرٍّ، وبه قال ابن عباس، وأبو حنيفة. والثاني: مُدٌّ برٍّ، وبه قال الشافعي، وعن أحمد روايتان، كالقولين.

قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ قرأ أبو رزين، والضحاك، وقاتدة، والجحدري، وطلحة: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ﴾ بكسر العين. وقد شرحنا هذا المعنى في (البقرة). قال أصحابنا: يصوم عن كل مُدٍّ بُرٍّ، أو نصف صاع تمر، أو شعير يوماً. وقال أبو حنيفة: يصوم يوماً عن نصف صاع في الجميع. وقال مالك، والشافعي: يصوم يوماً عن كلِّ مُدٍّ من الجميع.

فصل

وهل هذا الجزاء على الترتيب، أم على التخيير؟ فيه قولان: أحدهما: أنه على التخيير بين إخراج النظير، وبين الصيام، وبين الإطعام. والثاني: أنه على الترتيب، إن لم يجد الهدى، اشترى طعاماً، فإن كان معسراً صام، قاله ابن سيرين. والقولان مرويان عن ابن عباس، وبالأول قال جمهور الفقهاء.

(١) روى البخاري ٣٠/٤، ٣٢، ومسلم ٨٥٧/٢، والترمذي ١٠٣/١، والنسائي ١٨٨/٥، وابن ماجه ١٠٣١/٢ عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يقتلن في الحرم، للفأرة، والمقرب، والغراب، والحدأة، والكلب العقور». ورواه البخاري ومسلم من طريق ابن عمر مرفوعاً ولفظه: «خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جناح: المقرب، والفأرة، والكلب العقور، والغراب، والحدأة» وقول المصنف «الفوسقة» يريد بها الفأرة، وقد وردت اللفظة في البخاري من حديث جابر. وقوله: «السبع العادي» هو قطعة من حديث، قال الحفاظ في «التلخيص» ٢٢٤/١: روى أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري في حديث. وفيه يزيد بن أبي زياد، وهو ضعيف وإن حسنه الترمذي، وفيه لفظة منكدة وهي قوله: «ويرمي الغراب ولا يقتله». وأما الحية، فقد روى مسلم ٨٥٦/٢ عن عائشة مرفوعاً «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية والغراب الأبقع، والفأرة، والكلب العقور، والحدأة». وروى مسلم أيضاً من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ أمر بقتل حية وهو بمنى.

قوله تعالى: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهُ﴾ أي: جزاء ذنبه. قال الزجاج: «الوبال»: ثقل الشيء في المكروه، ومنه قولهم: طعامٌ وبيل، وماءٌ وبيل: إذا كانا ثقيلين. قال الله ﷻ: ﴿فَلَعَنَ اللَّهُ أَهْلَكَ وَيَلَاكُ﴾ [الزلزال: ١٦] أي: تقيلاً شديداً.

قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: ما سلف في الجاهلية، من قتلهم الصيد، وهم محرمون، قاله عطاء. والثاني: ما سلف من قتل الصيد في أول مرة، حكاه ابن جرير، والأول أصح. فعلى القول الأول يكون معنى قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ في الإسلام، وعلى الثاني: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ ثانية بعد أولى. قال أبو عبيدة: «عاد» في موضع يعود، وأنشد:

إِنْ يَسْمَعُوا رِبِيَّةً طَارُوا بِهَا فَرَحاً وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسَوْءٍ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا^(١)

قوله تعالى: ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ «الانتقام»: المبالغة في العقوبة، وهذا الوعيد بالانتقام لا يمنع إيجاب جزاء ثانٍ إذا عاد، وهذا قول الجمهور، وبه قال مالك، والشافعي، وأحمد. وقد روي عن ابن عباس، والنخعي، وداود: أنه لا جزاء عليه في الثاني، إنما وعد بالانتقام.

﴿أَجَلٌ لَكُمْ سَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعٌ لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرِّمَ عَلَيْكُمْ سَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرماً وَأَقْفُوا اللَّهَ الْوَعْدَ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ سَيْدُ الْبَحْرِ﴾ قال أحمد: يؤكل كلُّ ما في البحر إلا الضفدع والتمساح، لأن التمساح يأكل الناس يعني: أنه يقرس. وقال أبو حنيفة، والثوري: لا يباح منه إلا السمك. وقال ابن أبي ليلى، ومالك: يباح كلُّ ما فيه من ضفدع وغيره. فأما طعامه، ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: ما نبذه البحر ميتاً، قاله أبو بكر، وعمر، وابن عمر، وأبو أيوب، وقتادة. والثاني: أنه مليحة^(٢)، قاله سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبيرة، والسدي. وعن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة كالقولين. واختلفت الرواية عن النخعي، فروي عنه كالقولين، وروي عنه أنه جمع بينهما، فقال: طعامه الملبح وما لفظه. والثالث: أنه ما نبت بمائه من زروع البر، وإنما قيل لهذا: طعام البحر، لأنه ينبت بانه، حكاه الزجاج. وفي المتاع قولان: أحدهما: أنه المنفعة، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة. والثاني: أنه الحل، قاله النخعي. قال مقاتل: متاعاً لكم، يعني: المقيمين، وللسيارة، يعني: المسافرين.

قوله تعالى: ﴿وَحَرِّمَ عَلَيْكُمْ سَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرماً﴾ أما الاصطيد، فمحرم على المحرم، فإن صيد لأجله، حرم عليه أكله خلافاً لأبي حنيفة، فإن أكل فعليه الضمان خلافاً لأحد قولي الشافعي. فإن ذبح المحرم صيداً، فهو ميتة خلافاً لأحد قولي الشافعي أيضاً. فإن ذبح الحلال صيداً في الحرم، فهو ميتة أيضاً، خلافاً لأكثر الحنفية.

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فَيُكَفِّرُ عَنْ ذُنُوبِ النَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَ ذَلِكَ يَتَسَلَّمُونَ أَنْ اللَّهُ يَسَلِّمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ﴾ جعل بمعنى: صبر. وفي تسمية الكعبة كعبة قولان: أحدهما: لأنها مربعة، قاله عكرمة، ومجاهد. والثاني: لملوها وتوثنها، يقال: كعبت المرأة كعابة، وهي كاعب: إذا نتأ ثديها. ومعنى تسمية البيت بأنه حرام: أنه حرم يصاد عنده، وأن يختلئ ما عنده من الخلا، وأن يُعَصَّدَ شجره^(٣)، وعظمت حرمة. والمراد بتحريم

(١) البيت لقنن ابن أم صاحب، وهي أمه، واسم أبيه: ضمرة، أحد بني عبد الله بن غطفان، وكان في أيام الوليد بن عبد الملك، وهو من جملة أبيات قالها في أناس من قومه، كانوا يبايعونه العداوة، ويتبعون عثراته، ويشبهونها في الناس. وهو في «مجاز القرآن» ١/ ١٧٧، و«الحامسة» ٣/ ١٤٥٠، و«السطح» ١/ ٣٦٢، و«الانقباض» ٢٩٢، و«شواهد المغني» للسيوطي: ٣٢٦، و«شرح المصنوع» ٤٧٠، و«اللسان»: أذن. ورواية الشطر الثاني في المراجع التي ذكرت آنفاً عدا «مجاز القرآن»:

مَنْ مَنِي وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا

وبعد البيت:

وَإِنْ ذُكِرْتُ بِشَرِّ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا
لَبِئْسَ الْخُلَفَاءُ الْجَهْلُ وَالْجُبْنُ

صَمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذَكَرْتُ بِهِ
جَهْلًا عَلَيْنَا وَجِبْنًا عَنْ عَدُوِّهِمْ

(٢) الملبح: على وزن فَعِيل: هو المملح، يقال: سمك ملبح ومملوح ومملح.

(٣) روى البخاري ٤٠/ ٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ، فَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا تَحُلْ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا أَهَلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَلَا يَخْتَلِئُ خِلَافَهَا، وَلَا يُعَصَّدُ شَجَرُهَا، وَلَا يَنْفَرُ صَيْدُهَا، وَلَا تُلْتَقَطُ لِقَطْنُهَا إِلَّا لِمَعْرُوفٍ»، قال العباس: يا رسول الله إلا الأذخر لصاغتنا =

البيت سائر الحرم، كما قال: ﴿هَذَا بَلَدٌ الْكَعْبَةِ﴾ وأراد: الحرم^(١). والقيام: بمعنى القوام. وقرأ ابن عامر: قيماً بغير ألف. قال أبو علي: وجهه على أحد أمرين، إما أن يكون جعله مصدراً، كالشيع، أو حذف الألف وهو يريد بها، كما يُقصر الممدود. وفي معنى الكلام ستة أقوال: أحدها: قياماً للدين، ومعالم للحج، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: قياماً لأمر من توجه إليها، رواه العوفي عن ابن عباس. قال قتادة: كان الرجل لو جرَّ كلَّ جريرة، ثم لجأ إليها، لم يُتناول، [ولم يُقَرَّب]. وكان الرجل لو لقي قاتل أبيه في الشهر الحرام، لم يعرض له ولم يقربه، وكان الرجل إذا أراد البيت تقلد قلادة من شعر، فأحمته ومنعته من الناس، كان إذا نفر تقلد قلادة من الإذخر أو من إحاء السُّر فمنعته من الناس حتى يأتي أهله. حواجز ألقاها الله بين الناس في الجاهلية^(٢). والثالث: قياماً لبقاء الدين، فلا يزال في الأرض دين ما حُجَّت واستُقِلت، قاله الحسن. والرابع: قوام دنيا وقوام دين، قاله أبو عبيدة^(٣). والخامس: قياماً للناس، أي: مما أمروا أن يقوموا بالفرض فيه، ذكره الزجاج. والسادس: قياماً لمعايشهم ومكاسبهم بما يحصل لهم من التجارة عندها، ذكره بعض المفسرين. فأما الشهر الحرام، فالمراد به الأشهر الحرم، كانوا يأمن بعضهم بعضاً فيها، فكان ذلك قواماً لهم، وكذلك إذا أهدى الرجل هدياً أو قلد بغيره أمرٌ كيف تصرف، فجعل الله تعالى هذه الأشياء عصمة للناس بما جعل في صدورهم من تعظيمها.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ ذكر ابن الأنباري في المشار إليه بذلك أربعة أقوال: أحدها: أن الله تعالى أخبر في هذه السورة بغيوب كثيرة من أخبار الأنبياء وغيرهم، وأطلع على أشياء من أحوال اليهود والمنافقين، فقال: ذلك لتعلموا، أي: ذلك الغيب الذي أنبأتكم به عن الله يدلكم على أنه يعلم ما في السموات وما في الأرض، ولا تخفى عليه خافية. والثاني: أن العرب كانت تسفك الدماء بغير حلها، وتأخذ الأموال بغير حقها، ويقتل أحدهم غير القاتل، فإذا دخلوا البلد الحرام، أو دخل الشهر الحرام، كفُّوا عن القتل. والمعنى: جعل الله الكعبة أمناً، والشهر الحرام أمناً، إذ لو لم يجعل للجاهلية وقتاً يزول فيه الخوف لهلكوا، فذلك يدل على أنه يعلم ما في السموات وما في الأرض. والثالث: أن الله تعالى صرف قلوب الخلق إلى مكة في الشهور المعلومه فإذا وصلوا إليها عاش أهلها معهم، ولولا ذلك ماتوا جوعاً، لعلمه بما في ذلك من صلاحهم، وليستدلوا بذلك على أنه يعلم ما في السموات وما في الأرض. والرابع: أن الله تعالى جعل مكة أمناً، وكذلك الشهر الحرام، فإذا دخل الطيبي الوحشي الحرم، أنس بالناس، ولم ينفر من الكلب، ولم يطلبه الكلب، فإذا خرجا عن حدود الحرم، طلبه الكلب، ودُعِر هو منه، والطيَّار يأنس بالناس في الحرم، ولا يزأل يطير حتى يقرب من البيت، فإذا قرب منه عدل عنه، ولم يطر فوقه إجلالاً له، فإذا لحقه وجعٌ طرح نفسه على سقف البيت استشفاء به، فهذه الأعاجيب في ذلك المكان، وفي ذلك الشهر قد دللن على أن الله تعالى يعلم ما في السموات وما في الأرض.

﴿مَّا عَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ في هذه الآية تهديدٌ شديد. وزعم مقاتل أنها نزلت والتي بعدها، في أمر شريح بن ضبيعة وأصحابه، وهم حجاج اليمامة حين هم المسلمون بالغارة عليه، وقد سبق ذكر ذلك في أول السورة.

وقبورنا. قال: «إلا الإذخر» قال الحافظ: وقوله: «ولا يختلى خلاها» بالخاء المعجمة، والخلى: مقصور، وذكر ابن التين أنه وقع في رواية القاسبي بالمد، وهو الرطب من النبات، واختلاؤه: قطعه واحتشاشه. وقوله «لا يعفد» أي: لا يقطع. قوله «الإذخر» هو نبت معروف عند أهل مكة طيب الريح، له أصل متفرق، وقصبان دقاق، ينبت في السهل والحزن، وأهل مكة يسقون به البيوت بين الخشب، ويسدون الخلل بين اللبنة في القبور، ويستعملونه بدلاً من الحلفاء في الوقود.

(١) حد حرم مكة: من طريق المدينة: ثلاثة أميال عند بيوت السقيا، ويقال لها: بيوت نزار، وهي دون التعيم، ويعرف الآن بمسجد عائشة. وحده من طريق اليمن: سبعة أميال عند أضواء لبن. وحده من طريق العراق: سبعة أميال على ثنية خل بالمقطع. وحده من الجعرانة: تسعة أميال في شعب عبد الله بن خالد، وحده من طريق جدة: عشرة أميال عند منقطع الأعشاش. وحده من طريق الطائف على عرفات من بطن نمرة: سبعة أميال عند طرف عرفة، وحده من بطن عرفة: أحد عشر ميلاً. عن «مفيد الأنام» ٢٥٥/١.

(٢) الخبر في الطبري ٩٣/١، والزيادة منه.

(٣) الذي في «مجاز القرآن» ١٧٧/١: «جعل الله البيت الحرام قياماً للناس» أي: قواماً. وقال حميد الأرقط: قوام دنيا وقوام دين.

وهل هذه الآية محكمة، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أنها محكمة، وأنها تدل على أن الواجب على الرسول التبليغ، وليس عليه الهدى. والثاني: أنها كانت قبل الأمر بالقتال، ثم نسخت بآية السيف^(١).

﴿ثَلَّ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَّقُوا لَئِنْ أَتَيْتُمْ لَكُمْ تُقْلِحُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ روى جابر بن عبد الله أن رجلاً قال: يا رسول الله إن الخمر كانت تجارتي، فهل ينفعني ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله؟ فقال له النبي ﷺ: «إن الله لا يقبل إلا الطيب» فنزلت هذه الآية تصديقاً لقول رسول الله ﷺ^(٢). وفي الخبيث والطيب أربعة أقوال: أحدها: الحلال والحرام، قاله ابن عباس، والحسن. والثاني: المؤمن والكافر، قاله السدي. والثالث: المطيع والعاصي. والرابع: الرديء والجيد، ذكرهما الماودي. ومعنى الإعجاب هاهنا: السرور بما يتعجب منه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْتَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ سُؤُومٌ وَإِنْ سَأَلْتُمْ عَنْهَا جِئَ يُنَزَّلُ الْفَرْعُ إِنْ تَبَدَّ لَكُمْ عَنَّْا اللَّهُ عَنَّْا وَاللَّهُ عَفْوٌ حَسِيدٌ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَسْتَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تَبَدَّ لَكُمْ سُؤُومٌ﴾ في سبب نزولها ستة أقوال: أحدها: أن الناس سألوا النبي ﷺ حتى أحفوه بالمسألة، فقام مغضباً خطيباً، فقال: «سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء ما دمت في مقامي هذا إلا بينته لكم»، فقام رجل من قريش، يقال له عبد الله بن حذافة كان إذا لاحى يُدعى إلى غير أبيه، فقال: يا نبي الله من أبي؟ قال: «أبوك حذافة»، فقام آخر، فقال: أين أبي؟ قال: في النار، فقام عمر فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وبالقرآن إماماً، إننا حديثو عهد بجاهلية، والله أعلم من أبائنا، فسكن غضبه، ونزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن أبي هريرة^(٣)، وقتادة عن أنس^(٤). والثاني: أن رسول الله ﷺ خطب الناس، فقال: «إن الله كتب عليكم الحج»، فقام عكاشة بن مُحصن، فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: «أما إني لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ثم تركتم لضللتم، اسكتوا عني ما سكث عنكم، فإنما هلك من هلك ممن كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم»، فنزلت هذه الآية، رواه محمد بن زياد عن أبي هريرة^(٥). وقيل: إن السائل عن ذلك الأقرع بن حابس^(٦). والثالث: أن قوماً كانوا يسألون رسول الله ﷺ استهزاء، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فنزلت هذه الآية، رواه أبو الجوزية عن ابن عباس^(٧). والرابع: أن قوماً سألوا رسول الله ﷺ عن البحيرة، والسائبة،

(١) القول الأول هو الصحيح، لأن الآية خبر، وهو لا يقبل النسخ، والقصر فيها إضافي يراد به تقرير أن الرسول ﷺ ليس مكلفاً بإيجاد الإيمان في قلوبهم، إذ هذا ليس في مقدور أحد سوى الله جل جلاله.

(٢) «أسباب النزول» ص ١٢٠ للواحدي.

(٣) الطبري ١٠٣/١١ من طريق عبد العزيز حدثنا قيس عن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة. وعبد العزيز: هو عبد العزيز بن أبان الأموي من ولد سعيد بن العاص، ذكره الذهبي في «اليزان»، وقال عنه: أحد المتروكين، وكذبه يحيى بن معين، وقال أبو حاتم: لا يكتب حديثه، وقال البخاري: فيه نظر. وفيه: هو ابن الربيع الأسدي أبو محمد الكوفي صدوق تغير لما كبر. على أن ابن كثير نقله في «تفسيره» ١٠٥/٢ عن الطبري، وقال: إسناده جيد.

(٤) البخاري ٢٣٠/١٣، ومسلم ١٨٣٤/٤، وابن جرير ٧٩/١١ بالفاظ مقاربة وبأطول مما رواه المصنف. وخرجه السيوطي في «الدر المنثور» ٣٣٤/٢ نسبه إلى ابن حميد، ولابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٥) ابن جرير ١٠٥/١١ وسنده حسن، وفيه «فقام محسن الأسدي» في الرواية الثانية «عكاشة بن محسن الأسدي». ورواه أحمد في المسند ٥٠٨/٢، ومسلم ٩٧٥/٢، والسائل رجل، ولم يبين في الخبر اسمه، وليس فيه ذكر الآية ونزولها، ولفظه «خطبنا رسول الله ﷺ»، فقال: «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا»، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم، ثم قال: فروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدهو». وقد أشار الحافظ في «الفتح» ٢٢٠/١٣ إلى هذا الحديث، وما فيه من زيادة السؤال عن الحج، ثم قال: وأخرجه الدارقطني مختصراً، وزاد فيه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْتَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ سُؤُومٌ﴾ وله شاهد عن ابن عباس عند الطبري في «التفسير».

(٦) قال النووي في «شرح مسلم» ١٠١/٩: «هذا الرجل هو الأقرع بن حابس، كذا جاء ميباً في غير هذه الرواية» قلت: الرواية التي جاء فيها ميباً هي من حديث ابن عباس عند أحمد في «المسند» ٨٤/٤، ٢٢٤، ١٧٢/٤، ١٧٥.

(٧) البخاري: ٢١٢/٨، والطبري: ٩٨/١١، وأبو الجوزية: هو حطان بن خفاف بن زهير بن عبد الله بن رمح بن عرعة الجرمي، وثقه أحمد وابن معين وأبو زرعة وغيرهم، وقال ابن عبد البر: أجمعوا على أنه ثقة.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ ﴿١٥١﴾

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ وَلَا سَابِقَ وَلَا حَاسِبٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْذَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(٢) روى البخاري ٢١٣/٨، ومسلم ٢١٩٢/٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، وكان أول من سب السوائف». وروى البخاري ٢١٤/٨ عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً، ورأيت عمراً يجر قصبه وهو أول من سب السوائف» والقصب، بضم القاف وسكون الصاد المهملة: الأعماء.

خزنة الآلهة، فيطعمون ابن السبيل من ألبانه ولحومه إلا النساء فلا يطعمونهن شيئاً منه إلا أن يموت، فيشترك فيه الرجال والنساء، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وقال الشعبي: كانوا يهدون لألهتهم الإبل والغنم، ويتركونها عند الآلهة، فلا يشرب منها إلا رجل، فإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء. والثالث: أنها الناقة إذا ولدت عشرة أبطن كلهن إناث، مبيت، فلم تركب، ولم يجر لها وير، ولم يشرب لبنها إلا ضيف أو ولد لها حتى تموت، فإذا ماتت أكلها الرجال والنساء، ذكره الفراء. والرابع: أنها البعير يُسبب بنذر يكون على الرجل إن سلمه الله تعالى من مرض، أو بلغه منزله أن يفعل ذلك، قاله ابن قتيبة. قال الزجاج: كان الرجل إذا نذر لشيء من هذا، قال: ناقتي سائبة، فكانت كالبحيرة في أن لا ينتفع بها ولا تمنع من ماء ومرعى. والخامس: أنه البعير يحجج عليه الحجة، فيُسبب، ولا يستعمل شكراً لنجحتها، حكاه الماوردي عن الشافعي. وفي «الوصيلة» خمسة أقوال: أحدها: أنها الشاة كانت إذا نُجِجَتْ سبعة أبطن، نظروا إلى السابع، فإن كان أنثى، لم ينتفع النساء منها بشيء إلا أن تموت، فيأكلها الرجال والنساء، وإن كان ذكراً، ذبحوه، فأكلوه جميعاً، وإن كان ذكراً وأنثى، قالوا: وصلت أخاها، فترك مع أخيها فلا تذبح، ومنافعها للرجال دون النساء، فإذا ماتت اشترك فيها الرجال والنساء، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وذهب إلى نحوه ابن قتيبة، فقال: إن كان السابع ذكراً، ذبح فأكل منه الرجال والنساء، وإن كان أنثى، تركت في النعم، وإن كان ذكراً وأنثى، قالوا: وصلت أخاها، فلم تذبح لمكانها، وكانت لحومها حراماً على النساء، ولبن الأنثى حراماً على النساء إلا أن يموت منها شيء فيأكله الرجال والنساء. والثاني: أنها الناقة البكر تبتكر^(١) في أول نتاج الإبل بالأنثى، ثم تنثي بالأنثى، فكانوا يستبقونها لطواغيتهم، ويدعونها الوصيلة، أي: وصلت إحداها بالأخرى، ليس بينهما ذكر، رواه الزهري عن ابن المسيب. والثالث: أنها الشاة تنتج عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن، فيدعونها الوصيلة، وما ولدت بعد ذلك فللذكر دون الإناث، قاله ابن إسحاق. والرابع: أنها الشاة تنتج سبعة أبطن، عناقين^(٢) عناقين، فإذا ولدت في سابعها عناقاً وجدياً، قيل: وصلت أخاها، فجرت مجرى السائبة، قاله الفراء. والخامس: أن الشاة كانت إذا ولدت أنثى، فهي لهم، وإذا ولدت ذكراً جعلوه لألهتهم، فإن ولدت ذكراً وأنثى، قالوا: وصلت أخاها، فلم يذبحوا الذكر لألهتهم، قاله الزجاج. وفي «الحام» ستة أقوال: أحدها: أنه الفحل، ينتج من صلبه عشرة أبطن، فيقولون: قد حمى ظهره، فيسببونه لأصنامهم، ولا يحمل عليه، قاله ابن مسعود، وابن عباس، واختاره أبو عبيدة، والزجاج. والثاني: أنه الفحل يولد لولده، فيقولون: قد حمى هذا ظهره، فلا يحملون عليه، ولا يجزؤون وبره، ولا يمنعون ماءً، ولا مرعى، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، واختاره الفراء، وابن قتيبة. والثالث: أنه الفحل يظهر من أولاده عشر إناث من بناته، وبنات بناته، قاله عطاء. والرابع: أنه الذي ينتج له سبع إناث متواليات، قاله ابن زيد. والخامس: أنه الذي لصلبه عشرة كلها تضرب في الإبل، قاله أبو روق. والسادس: أنه الفحل يضرب في إبل الرجل عشر سنين، فيخلى، ويقال: قد حمى ظهره، ذكره الماوردي عن الشافعي. قال الزجاج: والذي ذكرناه في البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام أثبت ما رويانا عن أهل اللغة. وقد أعلم الله ﷻ في هذه الآية أنه لم يحرم من هذه الأشياء شيئاً، وإن الذين كفروا افتروا على الله ﷻ. قال مقاتل: وافترأؤهم: قولهم: إن الله حرمه وأمرنا به. وفي قوله: «وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» قولان: أحدهما: وأكثرهم، يعني: الأتباع لا يعقلون أن ذلك كذب على الله من الرؤساء الذين حرموا، قاله الشعبي. والثاني: لا يعقلون أن هذا التحريم من الشيطان، قاله قتادة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ بِآبَائِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَحْكُمُونَ﴾ (١٥)

قوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ» يعني: إذا قيل لهؤلاء المشركين الذين حرموا على أنفسهم هذه الأنعام: تعالوا إلى ما أنزل الله في القرآن من تحليل ما حرمتهم على أنفسهم، قالوا: «حَسْبُنَا» أي: يكفينا «مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا» من الدين والمنهاج «أَوَلَوْ كَانَ بِآبَائِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا» من الدين «وَلَا يَحْكُمُونَ» له، أي: يتبعونهم في خطئهم.

(١) يقال: ابتكرت الحامل: إذا ولدت بكرها، واثنت في الثاني، وثلت في الثالث.

(٢) المناق: الأنثى من ولد المعز.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنْفِقُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾
 قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن النبي ﷺ كتب إلى هجر، وعليهم المنذر بن ساوي يدعوهم إلى الإسلام، فإن أبو فليؤدوا الجزية، فلما أتاه الكتاب، عرضه على من عنده من العرب واليهود والنصارى والمجوس، فأقرؤوا بالجزية، وكرهوا الإسلام، فكتب إليهم رسول الله ﷺ: «أما العرب فلا تقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، وأما أهل الكتاب والمجوس، فأقبل منهم الجزية» فلما قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ أسلمت العرب، وأعطى أهل الكتاب والمجوس الجزية، فقال منافقو مكة: عجباً لمحمد يزعم أن الله بعثه ليقاتل الناس كافة حتى يسلموا، وقد قبل من مجوس هجر، وأهل الكتاب الجزية، فهلاً أكرههم على الإسلام، وقد ردّها على إخواننا من العرب، فشق ذلك على المسلمين، فنزلت هذه الآية، رواء أبو صالح عن ابن عباس. وقال مقاتل: كان رسول الله ﷺ لا يقبل الجزية إلا من أهل الكتاب، فلما أسلمت العرب طوعاً وكرهاً، قبلها من مجوس هجر، فطعن المنافقون في ذلك، فنزلت هذه الآية. والثاني: أن الرجل كان إذا أسلم، قالوا له: سفهت آباءك وضلللتهم، وكان ينبغي لك أن تنصرهم، فنزلت هذه الآية، قاله ابن زيد. قال الزجاج: ومعنى الآية: إنما ألزمتكم الله أمر أنفسكم، ولا يؤاخذكم بذنوب غيركم، وهذه الآية لا توجب ترك الأمر بالمعروف، لأن المؤمن إذا تركه وهو مستطيع له، فهو ضالّ، وليس بمهتدي^(١). وقال عثمان بن عفان: لم يأت تأويلها بعد. وقال ابن مسعود: تأويلها في آخر الزمان: قولوا ما قبل منكم، فإذا غلبتم، فعليكم أنفسكم^(٢). وفي قوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قولان: أحدهما: لا يضرركم من ضل بترك الأمر بالمعروف إذا هديتم أنتم للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قاله حذيفة بن اليمان، وابن المسيّب. والثاني: لا يضرركم من ضل من أهل الكتاب إذا أدوا الجزية، قاله مجاهد. وفي قوله: ﴿فَيُنْفِقُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تنبيه على الجزاء.

فصل

فعلى ما ذكرنا عن الزجاج في معنى الآية، هي محكمة، وقد ذهب قوم من المفسرين إلى أنها منسوخة، ولهم في ناسخها قولان: أحدهما: أنه آية السيف. والثاني: أن آخرها نسخ أولها. روي عن أبي عبيد أنه قال: ليس في القرآن آية جمعت الناسخ والمنسوخ غير هذه، وموضع المنسوخ منها إلى قوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ﴾ والناسخ: قوله: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾. والهدى هاهنا: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر^(٣).

(١) روى الإمام أحمد في «المسند» ٢/١، ١٧، ٣٣، ٥٢ عن قيس بن أبي حازم، قال: قام أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أيها الناس إنكم تفرّون هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ إلى آخر الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه» قال الحافظ ابن كثير في «التفسير» ١٠٩/٢: وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة وابن حبان في «صحيحه» وغيرهم من طرق كثيرة عن جماعة كثيرة عن إسمايل بن أبي خالد به متصلاً مرفوعاً، ومنهم من رواء عنه به موقوفاً على الصديق، وقد رجح رفعه الدارقطني. وقال ابن جرير ١٥٢/١١ بعد أن أورد الآثار: وأولى هذه الأقوال، وأصح التأويلات عندنا بتأويل هذه الآية ما روي عن أبي بكر الصديق ﷺ فيها، وهو ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ الزموا العمل بطاعة الله، وبما أمركم به، واتهوا عما نهاكم الله عنه ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ يقول: فإنه لا يضرركم ضلال من ضل إذا أنتم لزمتم العمل بطاعة الله، وأديتم فيمن ضل من الناس ما ألزمتكم الله به فيه، من فرض الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر الذي يركبه، أو يحاول ركوبه، والأخذ على يده إذا رام ظملاً لمسلم أو معاهد، ومنعه منه، فأبى النزوع عن ذلك، ولا ضير عليكم في تمادي في غيه وضلاله، إذا أنتم اهتديتم، وأديتم حق الله تعالى ذكره فيه. وإنما قلنا ذلك أولى التأويلات في ذلك بالصواب، لأن الله تعالى ذكره، أمر المؤمنين أن يقوموا بالقسط، ويتعاونوا على البر والتقوى، ومن القيام بالقسط الأخذ على يدي الظالم، ومن التعاون على البر والتقوى، الأمر بالمعروف، وهذا مع ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من أمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو كان للناس ترك ذلك لم يكن للأمر به معنى إلا في الحال التي رخص فيه رسول الله ﷺ ترك ذلك، وهي حال العجز عن القيام به بالجوارح الظاهرة فيكون مرخصاً له تركه، إذا قام حيثنأ بأداء فرض الله عليه في ذلك بقلبه. وإذا كان ما وصفنا من التأويل بالآية أولى، فين أنه قد دخل في معنى قوله: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ مما قاله حذيفة وسعيد بن المسيّب من أن ذلك (إذا) أمرتم بالمعروف ونهيتهم عن المنكر.

(٢) ابن جرير الطبري ١٣٩/١١، وذكر الهيثمي في «المجمع» ١٩/٧، وقال: رواء الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن الحسن البصري لم يسمع من ابن مسعود.

(٣) ذكر المؤلف رحمه الله في كتابه «نواسخ القرآن» ورقة ٨٥ أربعة أشياء تدل على إحكام هذه الآية هي في إيجاز:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ذُو عَدْلٍ مِّن غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ صَرِّفْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَاصْبِرْ لِمُصِيبَةِ الْمَوْتِ عَسَاسُهُنَّ مِنْ بَعْدِ الْكَلَامَةِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْفِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ﴾ روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان تميم الداري، وعدي بن بدءا يختلفان إلى مكة، فصحبهما رجل من قريش من بني سهم، فمات بأرض ليس فيها أحد من المسلمين، فأوصى إليهما بتركته، فلما قدما، دفعاها إلى أهله، وكثما جاماً كان معه من فضة، وكان مخوّصاً بالذهب، فقالا: لم نره، فأتي بهما إلى النبي ﷺ، فاستحلفهما بالله: ما كتما، وخلي سبيلهما. ثم إن الجاهل وجد عند قوم من أهل مكة، فقالوا: ابتعنا من تميم الداري، وعدي بن بدء، فقام أولياء السهمي، فأخذوا الجاهل، وحلف رجلان منهم بالله: إن هذا الجاهل جام صاحبنا، وشهادتنا أحق من شهادتهما، وما اعتدنا، فنزلت هذه الآية، والتي بعدها^(١). قال مقاتل: واسم الميت: بُزَيْلُ بْنُ أَبِي مَارِيَةَ مَوْلَى الْعَاصِ بْنِ وَائِلِ السَّهْمِيِّ، وكان تميم، وعدي نصرانيين، فأسلم تميم، ومات عدي نصرانياً^(٢). فأما التفسير، فقال الفراء: معنى الآية: ليشهدكم اثنان إذا حضر أحدكم الموت^(٣). قال الزجاج: المعنى: شهادة هذه الحال شهادة اثنين، فحذف «شهادة»، ويقوم «اثنان» مقامهما. وقال ابن الأنباري: معنى الآية: ليشهدكم في سفركم إذا حضركم الموت، وأردتم الوصية اثنان. وفي هذه الشهادة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الشهادة على الوصية التي ثبتت عند الحكام، وهو قول ابن مسعود، وأبي موسى، وشريح، وابن أبي ليلى، والأوزاعي، والثوري، والجمهور. والثاني: أنها إيمان الوصي بالله تعالى إذا ارتاب الورثة بهما، وهو قول مجاهد. والثالث: أنها شهادة الوصية، أي: حضورها، كقوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٣٣] جعل الله الوصي هاهنا اثنين تأكيداً، واستدل أرباب هذا القول بقوله: ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ قالوا: والشاهد لا يلزمه يمين. فأما «حضور الموت» فهو حضور أسبابه ومقدماته. وقوله: ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾، أي: وقت الوصية. وفي قوله: «منكم» قولان: أحدهما: من أهل دينكم وملتكم، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وشريح، وابن سيرين، والشعبي، وهو قول أصحابنا والثاني: من عشيرتكم وقبيلتكم، وهم مسلمون أيضاً، قاله الحسن، وعكرمة، والزهرري، والسدي.

قوله تعالى: ﴿أَوْ ذُو عَدْلٍ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ تقديره: أو شهادة آخرين من غيركم. وفي قوله: «من غيركم» قولان: أحدهما: من غير ملتكم ودينكم، قاله أرباب القول الأول. والثاني: من غير عشيرتكم وقبيلتكم، وهم مسلمون أيضاً، قاله أرباب القول الثاني. وفي «أو» قولان: أحدهما: أنها ليست للتخيير، وإنما المعنى: أو آخران من غيركم إن لم تجدوا منكم، وبه قال ابن عباس، وابن جبير، والثاني: أنها للتخيير، ذكره الماوردي.

١ - أن قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَلْسِنَتُكُمْ﴾ يقتضي إغراء الإنسان بمصالح نفسه، ويتضمن الإخبار بأنه لا يعاقب بضلal غيره، وليس من مقتضى ذلك ألا ينكر على غيره، وإنما غاية الأمر أن يكون ذلك مسكوتاً عنه، فيقف على الدليل.

٢ - أن الآية تدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَلْسِنَتُكُمْ﴾ أمر بإصلاحها وأداء ما عليها، وقد ثبت وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فصار من جملة ما على الإنسان في نفسه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بدليل قوله ﷺ فيها: ﴿إِذَا أَفْتَبَشَرْتُمْ﴾.

٣ - أن الآية قد حملها قوم على أهل الكتاب إذا أدوا الجزية، فحيث لا يلزمون بغيرها.

٤ - أنه لما عابهم في تقليد آبائهم بالآية المتقدمة، أعلمهم بهذه الآية أن المكلف إنما يلزمه حكم نفسه، وأنه لا يضره ضلال غيره إذا كان مهتدياً، حتى يعلموا أنه لا يلزمهم من ضلال آبائهم شيء من الذم والمقاب قال: وإذا تلمحت هذه المناسبة بين الآيتين لم يكن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هاهنا مدخل، وهذا أحسن الوجوه في الآية.

(١) البخاري ٣٠٧/٥، ٣٠٩، وأبو داود: ٤١٨/٣، والترمذي ١٠٠/٤، وحسنه، وابن جرير ١٨٥/١١، والبيهقي في «السنن» ١٠/١٦٥. وخرجه السيوطي في «الدر المنثور» ٣٤٢/٢، وزاد نسبة إلى ابن المنذر والطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه. والجاهل: إناء من فضة. وقوله: (كان مخوّصاً بالذهب) أي: عليه صفائح من ذهب على هيئة خوص النخل وهو ورقه، والتخويض: أن يجعل على الشيء صفائح من الذهب على قدر عرض خوص النخل.

(٢) تميم الداري: هو تميم بن أوس بن خازجة اللخمي منسوب إلى جده الدار بن هانئ وقد على رسول الله ﷺ سنة تسع وأسلم، وكان نصرانياً، وأما عدي بن بدء، فكان نصرانياً، ويذكر أنه أسلم، لكن الحافظ ابن حجر صحح في «الإصابة» في ترجمته أنه مات نصرانياً.

(٣) نص كلام الفراء في «معاني القرآن» ٣٢٣ يقول: شاهدان أو وصيان، وقد اختلف فيه، ورفع الاثنين الشهادة، أي: ليشهدكم اثنان من المسلمين.

فصل

فالقائل بأن المراد بالآية شهادة مسلمين من القبيلة، أو من غير القبيلة لا يشك في إحكام هذه الآية. فاما القائل بأن المراد بقوله: ﴿أَوْ عَاكِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أهل الكتاب إذا شهدوا على الوصية في السفر، فلهم فيها قولان: أحدهما: أنها محكمة، والعمل على هذا باق، وهو قول ابن عباس، وابن المسيب، وابن جبير، وابن سيرين، وقتادة، والشعبي، والثوري، وأحمد في آخرين. والثاني: أنها منسوخة بقوله: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ وهو قول زيد بن أسلم، وإليه يميل أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، قالوا: وأهل الكفر ليسوا بعدول، والأول أصح، لأن هذا موضع ضرورة كما يجوز في بعض الأماكن شهادة نساء لا رجل معهن بالحيف والنفس والاستهلال^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتَ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ هذا الشرط متعلق بالشهادة، والمعنى: ليشهدكم اثنان إن أنتم ضربتم في الأرض، أي: سافرت. ﴿فَأَصْبَحْتُمْ شُعْبَةَ الْمَوْتِ﴾ فيه محذوف، تقديره: وقد أسندتم الوصية إليهما، ودفعتم إليهما ما لكم ﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَدْلِ الْفَلَاةِ﴾ خطاباً للورثة إذا ارتابوا. وقال ابن عباس: هذا من صلة قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، أي: من الكفار. فاما إذا كانا مسلمين، فلا يمين عليهما. وفي هذه الصلاة قولان: أحدهما: صلاة العصر، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال شريح، وابن جبير، وإبراهيم، وقتادة، والشعبي. والثاني: من بعد صلاتهما في دينهما، حكاه السدي عن ابن عباس^(٢)، وقال به. وقال الزجاج: كان الناس بالحجاز يحلفون بعد صلاة العصر، لأنه وقت اجتماع الناس. وقال ابن قتيبة: لأنه وقت يعظمه أهل الأديان.

قوله تعالى: ﴿يَقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ أي: فيحلفان ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ أي: شككتم يا أولياء الميت. ومعنى الآية: إذا قديم الموصى إليهما بتركة المتوفى، فاتهمهما الوارث، استحلها بعد صلاة العصر: أنهما لم يسرقا، ولم يخونا. فالشرط في قوله: ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ متعلق بتحبسونهما، كأنه قال: إن إرتبتم حبستموهما فاستحلفتموهما، فيحلفان بالله: ﴿لَا تَقْرَأُ بِهِ﴾ أي: بأيامنا، وقيل: بتحريف شهادتنا، فإلهاء عائدة على المعنى. ﴿فَتَنَّا﴾ أي: عرضاً من الدنيا ﴿وَلَوْ كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ أي: ولو كان المشهود له ذا قرابة منا، وخصّ ذا القرابة، لميل القريب إلى قريبه. والمعنى: لا نحايي في شهادتنا أحداً، ولانميل مع ذي القربى في قول الزور. ﴿وَلَا تَكْفُرُ شَهَادَةُ أَلْفٍ﴾ إنما أضيفت إليه، لأمره بإقامتها، ونبيه عن كتمانها. وقرأ سعيد بن جبير: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةً﴾ بالتثنية «الله» بقطع الهمزة وقصرها، وكسر الهاء، ساكنة النون في الوصل. وقرأ سعيد بن المسيب، وعكرمة «شهادة» بالتثنية والوصل منصوبة الهاء. وقرأ أبو عمران الجوني «شهادة» بالتثنية وإسكانها في الوصل «الله» بقطع الهمزة وقصرها مفتوحة الهاء. وقرأ الشعبي، وابن السميع «شهادة» بالتثنية وإسكانها في الوصل «الله» بقطع الهمزة، ومذها، وكسر الهاء. وقرأ أبو العالية، وعمرو بن دينار مثله، إلّا أنهما نصباً الهاء. واختلف العلماء لأي معنى وجبت اليمين على هذين الشاهدين، على ثلاثة أقوال: أحدها: لكونهما من غير أهل الإسلام، روي هذا المعنى عن أبي موسى الأشعري. والثاني: لوصية وقعت بخط الميت وَقَدْ وَرَّثَهُ بعض ما فيها، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: لأن الورثة كانوا يقولون: كان مال ميتنا أكثر، فاستخانوا الشاهدين، قاله الحسن، ومجاهد.

(١) جاء في «شرح المفردات» ص ٣٣٣: إذا كان مسلم مع رفقة كفار مسافرين ولم يوجد غيرهم من المسلمين فوصى بوصيته اثنان منهم قبلت شهادتهما ويستحلفان بعد العصر لا ننثري به ثمناً ولو كان ذا قربي ولا نكتم شهادة الله وأنها وصية الرجل بعينه، فإن عثر على أنهما استحقا إثماً قام آخران من أولياء الموصي لحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما ولقد خانا وكتما ويقضى لهم. قال ابن المنذر: وبهذا قال أكابر العلماء ومن قاله شريح، والنخعي، والأوزاعي ويحيى بن حمزة وقضى بذلك عبد الله بن مسعود في زمن عثمان، رواه أبو عبيدة: وقضى به أبو موسى الأشعري، رواه أبو داود، والخلال. وقال أبو حنيفة، ومالك، والشافعي: لا تقبل لأن من لا تقبل شهادته على غير الوصية لا تقبل في الوصية كالفاسق وأولى... (ولنا) قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْلَحُوا مِنْكُمْ إِذَا سَأَلْتُمُ النَّاسَ عَنْ شَيْءٍ فَقُلُوا قَوْلًا عَدْلًا وَلَا تَقْرَأُوا بِهِ﴾ الآية، وهذا نص الكتاب وقد قضى به رسول الله ﷺ كما في حديث ابن عباس رواه أبو داود وقضى به بعده أبو موسى، وابن مسعود كما تقدم، وحمل الآية على أنه أراد من غير عشيرتكم لا يصح لأن الآية نزلت في قصة عدي ونعيم بلا خلاف بين المفسرين ودلت عليه الأحاديث ولأنه لو صح ما ذكروه لم تجب الأيمان لأن الشاهدين من المسلمين لا قسامة عليهما.

(٢) هذه رواية شاذة، رواها الطبري ١١/١٧٥ في قصة طويلة، ثم ردّها رداً شديداً، وجزم بأن المراد الصلاة المعروفة للمخاطبين التي كان رسول الله ﷺ يتخيرها لاستحلاف من أراد تنظيظ اليمين عليه، وهي صلاة العصر.

﴿إِنَّا عِزُّ عَمَّا اسْتَحَقَّ إِنَّمَا فَخَارَ بِنُفُوسِهِمَا مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَئِينَ فَيُقسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٧)

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عِزُّ عَمَّا اسْتَحَقَّ إِنَّمَا﴾ قال المفسرون: لما نزلت الآية الأولى، دعا رسول الله ﷺ عدلياً وتعيماً، فاستحلفهما عند المنبر: أنهما لم يخونا شيئاً مما دفع إليهما، فحلفا، وخلى سبيلهما، ثم ظهر الإناء الذي كتماه، فرفعهما أولياء الميت إلى رسول الله ﷺ، فنزلت ﴿إِنَّا عِزُّ عَمَّا اسْتَحَقَّ إِنَّمَا﴾ ومعنى «عثر»: أطلع، أي: إن عثر أهل الميت، أو من يلي أمره، على أن الشاهدين اللذين هما آخران من غيرنا ﴿اسْتَحَقَّ إِنَّمَا﴾ لميلهما عن الاستقامة في شهادتهما ﴿فَخَارَ بِنُفُوسِهِمَا﴾ أي: مقام هذين الخائنين ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَئِينَ﴾. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: «استحق» بضم التاء، «الأوليان» على الشنية. وفي قوله ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ قولان: أحدهما: أنهما الذميان. والثاني: الوليان. فعلى الأول في معنى «استحقَّ عَلَيْهِمُ» أربعة أقوال: أحدها: استحق عليهم الإيضاء، قال ابن الأنباري: المعنى: من القوم الذين استحق فيهم الإيضاء، استحقه الأوليان بالميت، وكذلك قال الزجاج: المعنى: من الذين استحققت الوصية أو الإيضاء عليه. والثاني: أنه الظلم، والمعنى: من الذين استحق عليهم ظلم الأوليان، فحذف الظلم، وأقام الأوليين مقامه، ذكره ابن القاسم أيضاً. والثالث: أنه الخروج مما قاما به من الشهادة، لظهور خيانتهم. والرابع: أنه الإثم، والمعنى: استحق منهم الإثم، ونابت «على» عن «من» كقوله: ﴿عَلَّ النَّاسُ يَسْتَرْوُونَ﴾ [المطففين: ٢٢] أي: منهم. وقال الفراء: «على» بمعنى «في» كقوله: ﴿عَلَّ مَلِكٌ سَلَمَتَنَ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: في ملكه، ذكر القولين أبو على الفارسي. وعلى هذه الأقوال مفعول «استحق» محذوف مُقَدَّر. وعلى القول الثاني في معنى «اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ» قولان: أحدهما: استحق منهم الأوليان، وهو اختيار ابن قتيبة. والثاني: جني عليهم الإثم، ذكره الزجاج. فأما «الأوليان»، فقال الأخفش: الأوليان: اثنان، واحدهما: الأولي، والجمع: الأولون. ثم للمفسرين فيهما قولان: أحدهما: أنهما أولياء الميت، قاله الجمهور. قال الزجاج: «الأوليان» في قول أكثر البصريين يرتفعان على البَدَلِ مما في «يقومان» والمعنى: فليقم الأوليان بالميت مقام هذين الخائنين. وقال أبو علي: لا يخلو الأوليان أن يكون ارتفاعهما على الابتداء، أو يكون خبر مبتدأ محذوف، كأنه قال: فآخران يقومان مقامهما، هما الأوليان، أو يكون بدلاً من الضمير الذي في «يقومان». والتقدير: فيقوم الأوليان. والقول الثاني: أن الأوليان: هما الذميان، والمعنى: أنهما الأوليان بالخيانة، فعلى هذا يكون المعنى: يقومان، إلا من الذين استحق عليهم. قال الشاعر:

فليت لنا من ماء زَمْزَمَ شَرْبَةً مُبَرَّدَةً بِأَثَرِ عَلَى طَهْيَانٍ^(١)

أي: بدلاً من ماء زمزم. وروى قُرَّة عن ابن كثير، وحفص وعاصم^(٢): «استحق» بفتح التاء والحاء «الأوليان» على الشنية، والمعنى: استحق عليهم الأوليان بالميت وصيته التي أوصى بها، فحذف المفعول. وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم: «استحق» برفع التاء، وكسر الحاء، «الأولين» بكسر اللام، وفتح النون على الجمع، والتقدير: من الأولين الذين استحق فيهم الإثم، أي: جني عليهم، لأنهم كانوا أولين في الذكر. ألا ترى أنه قد تقدم ﴿ذَوَى عَدْلٍ يَنْكُرُ﴾ على قوله: ﴿أَوْ عَاخِرَانِ مِنَ غَيْرِكُمْ﴾. وروى الحلبي عن عبد الوارث «الأوليين» بفتح الواو وتشديدها، وفتح اللام، وسكون الياء، وكسر النون، وهي ثنية: أوَّل. وقرأ الحسن البصري: «استحق» بفتح التاء والحاء، «الأولان» ثنية «أوَّل» على البدل من قوله: «فآخران». وقال ابن قتيبة: أشبه الأقوال بالآية أن الله تعالى أراد أن يعرفنا كيف يشهد بالوصية عند حضور الموت، فقال: ﴿ذَوَى عَدْلٍ يَنْكُرُ﴾، أي: عدلان من المسلمين [تشهدونهما على الوصية]، وعلم أن من الناس من يسافر فيصحبه في سفره أهل الكتاب دون المسلمين، وينزل القرية التي لا يسكنها غيرهم، ويحضره الموت، فلا يجد من يشهده من المسلمين، فقال: ﴿أَوْ عَاخِرَانِ مِنَ غَيْرِكُمْ﴾، أي: من غير أهل دينكم، [وَلَا مَرْتَمٌ فِي آلَائِهِ] أي: سافرتهم ﴿فَأَمَّيْنَتَكُمْ مَوْبِئُهُ الْمَوْتُ﴾ وتم الكلام. فالعدلان من المسلمين للحضر والسفر خاصة إن أمكن إشهادهما في

(١) في «اللسان الطهيان» كأنه اسم قلَّة جبل، والطهيان: خشبة يرد عليها الماء، ثم أنشد البيت، ونسبه للأحول الكندي.

(٢) في النسخة الأحمدية: وروى قُرَّة عن ابن كثير، وحفص عن عاصم.

السفر] والذميان في السفر خاصة إذا لم يوجد غيرهما [ثم قال] ﴿تَحْسِبُونَهُمَا بِرُءُوسِ الصَّلَاةِ يُفْقِهَانِ بِاللَّهِ إِنَّ أَرْبَثَ أَرْدَبٍ﴾ أراد: تحسبونهما من بعد صلاة العصر إن ارتبتم في شهادتهما، وخشيتن أن يكونا قد خانا، أو بدلًا، فإذا حلفا، مضت شهادتهما. فإن عثر [بعد هذه اليمين] أي: ظهر على أنهما استحقا إثمًا، أي: حثا في اليمين بكذب [في قول] أو خيانة [في ودیعة]، فأخران، أي: قام في اليمين مقامهما رجلان من قرابة الميت الذين استحق منهم الأوليان، وهما الوليان، يقال: هذا الأولي بفلان، ثم يحذف من الكلام «بفلان»، فيقال: هذا الأولي، وهذان الأوليان، و«عليهم» بمعنى: «منهم». فيحلفان بالله: لقد ظهرنا على خيانة الذميين، وكذبهما، وما اعتدنا عليهما، ولشهادتنا أصح، لكفرهما وإيماننا، فيرجع على الذميين بما اختانا، وينقض ما مضى من الحكم بشهادتهما تلك^(١). وقال غيره: لشهادتنا، أي: ليميننا أحق، وسميت اليمين شهادة، لأنها كالشهادة على ما يحلف عليه أنه كذلك. قال المفسرون: فلما نزلت هذه الآية قام عمرو بن العاص، والمطلب بن أبي وداعة السهميان، فحلفا بالله، ودفع الإثام إليهما وإلى أولياء الميت.

﴿ذَلِكَ أَذَقَ أَنْ يَأْتُوا بِالْقَهْدَةِ عَلَى وَجْهَيْهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا اللَّهَ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَذَقَ﴾ أي: ذلك الذي حكمنا به من رد اليمين، أقرب إلى إتيان أهل الذمة بالشهادة على وجهها، أي: على ما كانت، وأقرب أن يخافوا أن ترد أيمان أولياء الميت بعد أيمانهم، فيحلفون على خيانتهم، فيفتضحوا، ويغرموا، فلا يحلفون كاذبين إذا خافوا ذلك. ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ أن تحلفوا كاذبين، أو تخونوا أمانة، واسمعوا الموعظة.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ قال الزجاج: نصب «يوم» محمول على قوله: «واتقوا الله»: واتقوا يوم جمعه للرسول. ومعنى مسأله للرسول توبيخ الذين أرسلوا إليهم. فاما قول الرسول: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ ففيه ستة أقوال: أحدها: أنهم طاشت عقولهم حين زفرت جهنم، فقالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ ثم ترد إليهم عقولهم، فينتطقون بحجتهم، رواه أبو الضحى عن ابن عباس، وبه قال الحسن، ومجاهد، والسدي. والثاني: أن المعنى: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ إلا علم أنت أعلم به منا، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أن المراد بقوله: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾: ماذا عملوا بعدكم، وأحدثوا، فيقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾، قاله ابن جريج، وفيه بُعْدٌ. والرابع: أن المعنى: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ مع علمك، لأنك تعلم الغيب، ذكره الزجاج. والخامس: أن المعنى: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ كعلمك، إذ كنت تعلم ما أظهر القوم وما أضمرنا، ونحن نعلم ما أظهرنا، ولا نعلم ما أضمرنا، فعلمك فيهم أنفذ من علمنا، هذا اختيار ابن الأنباري. والسادس: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ بجميع أفعالهم إذ كنا نعلم بعضها وقت حياتنا، ولا نعلم ما كان بعد وفاتنا، وإنما يستحق الجزاء بما تقع به الخاتمة، حكاه ابن الأنباري. قال المفسرون: إذا رد الأنبياء العلم إلى الله أُلْبِسَتِ الْأُمَمُ، وعلمت أن ما آتته في الدنيا غير غائب عنه، وأن الكل لا يخرجون عن قبضته.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ قال الخطابي: العلام: بمنزلة العليم، وبناء «فعل» بناء التكثير، فاما «الغيب» فجمع غيب، وهو ما غاب عنك.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰيُحْيَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَيْكَ إِذْ أَبَدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِ فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَرَىٰ الْأَكْشَمَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَ لِي إِلَٰهِينَ كَمَا جَعَلَ لَكَ آلَافٌ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰيُحْيَىٰ﴾ قال ابن عباس: معناه: وإذ يقول.

قوله تعالى: ﴿اَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَيْكَ﴾ في تذكيره النعم فائدتان: إحداهما: إسماع الأمم ما خصه به من

الكرامة. والثانية: تأكيد حجته على جاحده. ومن نعمة على مريم أنه اصطفاها وطهرها، وأتاها برزقها من غير سبب. وقال الحسن: المراد بذكر النعمة: الشكر. فأما النعمة، فلفظها لفظ الواحد، ومعناها الجمع. فإن قيل: لم قال هاهنا: ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ وفي (آل عمران) «فيه»؟ فالجواب: أنه جائز أن يكون ذكر الطير على معنى الجميع، وأنت على معنى الجماعة، وجاز أن يكون «فيه» للطير، و«فيها» للهيئة، ذكره أبو على الفارسي.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّيْتٌ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم هاهنا، وفي (هود) و(الصف) ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّيْتٌ﴾، وقرأ في (يونس) ﴿لَسِحْرٌ مُّيْتٌ﴾ بالفتح. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، الأربعة ﴿سِحْرٌ مُّيْتٌ﴾ بغير ألف، فمن قرأ «سحر» أشار إلى ما جاء به، ومن قرأ «ساحر»، أشار إلى الشخص.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ مَأْمُونُوا بِرِسُولِي قَالُوا مَا مَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

وفي الوحي إلى الحواريين قولان. أحدهما: أنه بمعنى الإلهام، قاله الفراء. وقال السدي: قذف في قلوبهم. والثاني: أنه بمعنى الأمر، فتقديره: أمرت الحواريين و«إلى» صلة، قاله أبو عبيدة. وفي قوله: ﴿وَأَشْهَدُ﴾ قولان: أحدهما: أنهم يعنون الله تعالى. والثاني: عيسى عليه السلام. وقوله: ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: مخلصون للعبادة والتوحيد. وقد سبق شرح ما أهمل هاهنا فيما تقدم.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ لِيُحْيِيَ ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ قال الزجاج: أي: هل يقدر. وقرأ الكسائي: «هل يستطيع» بالثاء، ونصب الرب. قال الفراء: معناه: هل تقدر أن تسأل ربك. قال ابن الأنباري: ولا يجوز لأحد أن يتوهم أن الحواريين شكوا في قدرة الله، وإنما هذا كما يقول الإنسان لصاحبه: هل يستطيع تقوم معي، وهو يعلم أنه مستطيع، ولكنه يريد: هل يسهل عليك. وقال أبو علي: المعنى: هل يفعل ذلك بمسالتك إياه^(١). وزعم بعضهم أنهم قالوا ذلك قبل استحكام إيمانهم ومعرفتهم، فرد عليهم عيسى بقوله: اتقوا الله، أن^(٢) تنسبوه إلى عجز، والأول أصح. فأما «المائدة» فقال اللغويون: المائدة: كل ما كان عليه من الأخوة طعام، فإذا لم يكن عليه طعام، فليس بمائدة، والكأس: كل إناء فيه شراب، فإذا لم يكن فيه شراب، فليس بكأس، ذكره الزجاج. قال الفراء: وسمعت بعض العرب يقول للطبق الذي تهدي عليه الهدية: هُوَ الْمُهْدَى، مقصور، ما دامت عليه الهدية، فإذا كان فارغاً رجع إلى اسمه إن كان طبقاً أو خواناً أو غير ذلك. وذكر الزجاج عن أبي عبيدة أن لفظها فاعلة، وهي في المعنى مفعولة، مثل ﴿يَعْبُدُونَ رَبَّيْكُمْ﴾ [الحاقة: ٢١]. قال أبو عبيدة: وهي من العطاء، والممتد: المفتعل المطلوب منه العطاء، قال الشاعر:

إلى أمير المؤمنين الممتد^(٣)

وَمَادَ زَيْدٌ عَمْرًا: إذا أعطاه. قال الزجاج: والأصل عندي في «مائدة» أنها فاعلة من: ماد يمد: إذا تحرك، فكانها تميد بما عليها. وقال ابن قتيبة: المائدة: الطعام، من: مادني يمدني، كأنها تميد الأكلين، أي: تعطيهم، أو تكون فاعلة بمعنى: مفعول بها، أي: ميد بها الأكلون.

قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: اتقوه أن تسألوه البلاء، لأنها إن نزلت وكذبتم، عذبتهم، قاله مقاتل. والثاني: أن تسألوه ما لم تسأله الأمم قبلكم، ذكره أبو عبيد. والثالث: أن تشكروا في قدرته.

﴿قَالُوا يُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَ مِنَّا وَتَحْمِلَ قُلُوبَنَا وَتَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقَتْنَا وَكُنُوزُهَا مِنَّا الشَّهِيدُ ﴿١١٣﴾﴾

(١) في «نسخة الرباط» ما يفعل ذلك بمسالتك إياه.

(٢) في «الأحمدية» «أي» بدل «أن» وهو خطأ.

(٣) الرجز لروية، وهو في «ديوانه» ٤٠، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة ١/١٨٣، و«اللسان»: مادة «مد»، وقوله: نهدي رؤوس المترفين الأنداد. والمترفون: المتعتمون المتوسعون في لذات الدنيا وشهواتها، والأنداد: جمع ند بكسر التون، وهو هنا بمعنى الضد، يقال للرجل إذا خالفك، فأردت وجهاً تذهب إليه، ونازعك في ضده. هو ندي ونديدي، حكاه قطرب كما في «الأضداد» ٢/٦٥٦ لأبي الطيب الحلبي. ويأتي أيضاً بمعنى المثل والشبيه. وانظر «الأضداد» ٢٣ لابن الأنباري. يقول: تقتل الخارجين على أمير المؤمنين، ثم نهدي إليه رؤوسهم، وهو المسؤول دون الناس.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يُرِيدُ أَنْ تُلْكَئَ لَنَا فَتَنْأَىٰ عَنْكَ الْفَيْءُ فَاصْنَا لَكُم بَاقِرًا فَتَحْمِلَ الْعَاقِلُ أَوْثَاقَهُمْ﴾ هذا اعتذار منهم يَتَوَقَّعُ به سبب سؤالهم حين نهوا عنه، وفي إرادتهم للأكال منها ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أرادوا ذلك للحاجة، وشدة الجوع، قاله ابن عباس. والثاني: ليزدادوا إيماناً، ذكره ابن الأنباري. والثالث: للتبرك بها، ذكره الماوردي. وفي قوله: ﴿وَتَقْلِبُنِي فَوْقَ ظَهْرِي﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: تطمئن إلى أن الله تعالى قد بعثك إلينا نبياً. والثاني: إلى أن الله تعالى قد اختارنا أعواناً لك. والثالث: إلى أن الله تعالى قد أجابك. وقال ابن عباس: قال لهم عيسى: هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً، ثم لا تسألونه شيئاً إلا أعطاكم؟ فصاموا، ثم سألوا المائدة: فمعنى: ﴿وَتَقْلِبُنِي فَوْقَ ظَهْرِي﴾ في أنا إذا صمنا ثلاثين يوماً لم نسأل الله شيئاً إلا أعطانا. وفي هذا العلم قولان: أحدهما: أنه علم يحدث لهم لم يكن، وهو قول من قال: كان سؤالهم قبل استحكام معرفتهم. والثاني: أنه زيادة علم إلى علم، ويقين إلى يقين، وهو قول من قال: كان سؤالهم بعد معرفتهم. وقرأ الأعمش: «وتعلم» بالناء، والمعنى: وتعلم القلوب أن قد صدقتنا. وفي قوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ أربعة أقوال: أحدها: من الشاهدين لله بالقدرة، ولك بالنبوة. والثاني: عند بني إسرائيل إذا رجعنا إليهم، وذلك أنهم كانوا مع عيسى في البرية عند هذا السؤال. والثالث: من الشاهدين عند من يأتي من قومنا بما شاهدنا من الآيات الدالة على أنك نبي. والرابع: من الشاهدين لك عند الله بأداء ما بعثت به.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ وقرأ ابن محيصن، وابن السميع، والجحدري: «ولاولانا وآخرانا» برفع الهمزة، وتخفيف الواو، والمعنى: يكون اليوم الذي نزلت فيه عيداً لنا، نعظمه نحن ومن بعدنا، قاله قتادة، والسدي. وقال كعب: أنزلت عليهم يوم الأحد، فاتخذوه عيداً. وقال ابن قتيبة: عيداً، أي: مجمعاً. قال الخليل بن أحمد: العيد: كل يوم يجمع، كأنهم عادوا إليه. وقال ابن الأنباري: سُمِّيَ عيداً للعود من الترح إلى الفرح.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ آيَٰتُكَ﴾ أي: علامة منك تدل على توحيدك، وصحة نبوة نبيك. وقرأ ابن السميع، وابن محيصن، والضحاك «وأنه منك» بفتح الهمزة، وينون مشددة. وفي قوله: ﴿وَارْزُقْنَا﴾ قولان: أحدهما: ارزقنا ذلك منك عندك. والثاني: ارزقنا الشكر على ما أنعمت به من إجابتك لنا.

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُرْسِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ يَوْمِكُمْ فَلَا أَغْوَابَةَ عَنْكَ﴾ قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُرْسِلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ قرأ نافع، وعاصم، وابن عامر «منزلها» بالتشديد، وقرأ الباقون خفيفة. وهذا وعد بإجابة سؤال عيسى. واختلف العلماء: هل نزلت، أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنها نزلت، قاله الجمهور، فروى وهب بن منبه عن أبي عثمان الهندي، عن سلمان الفارسي قال: لما رأى عيسى أنهم قد جدوا في طلبها لبس جبة من شعر، ثم توضأ، واغتسل، وصفت قدميه في محرابه حتى استويا، وألصق الكعب بالكعب، وحاذى الأصابع بالأصابع، ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره، وطأ رأسه خضوعاً، ثم أرسل عينيه بالبكاء، فما زالت تسيل دموعه على خده، وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلت الأرض من دموعه حيال وجهه، ثم رفع رأسه إلى السماء، فقال: اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء، فبينما عيسى كذلك، هَبَطَتْ علينا مائدة من السماء، سفرة حمراء بين غمامتين، غمامة من تحتها، وغمامة من فوقها، وعيسى يبكي ويتضرع، ويقول: إلهي اجعلها سلامة، لا تجعلها عذاباً، حتى استقرت بين يديه، والحواريون من حوله، فأقبل هو وأصحابه حتى قعدوا حولها، وإذا عليها منديل مغطى، فقال عيسى: أيكم أوثق بنفسه وأقل بلاء عند ربه فليأخذ هذا المنديل، وليكشف لنا عن هذه الآية. قالوا: يا روح الله أنت أولانا بذلك، فاكشف عنها، فاستأنف وضوءاً جديداً، وصلى ركعتين، وسأل ربه أن يأذن له بالكشف عنها، ثم قعد إليها، وتناول المنديل، فإذا عليها سمكة مشوية، ليس فيها شوك، وحولها من كل البقل ما خلا الكراث، وعند رأسها الخل، وعند ذنبها الملح، وحولها خمسة أرغفة، على رغيف تمر، وعلى رغيف زيتون، وعلى رغيف خمس رمانات. فقال شمعون رأس الحواريين: يا روح الله أين طعام الدنيا هذا، أم من طعام الجنة؟ فقال عيسى: سبحان الله أما تتهنون! ما أخوفني عليكم. قال شمعون: لا وإله بني إسرائيل ما أردت بهذا سوءاً. قال عيسى: ليس ما ترون عليها من طعام

الدنيا، ولا من طعام الجنة، إنما هو شيء ابتدعه الله، فقال له: «كن» فكان أسرع من طرفة عين. فقال الحواريون: يا روح الله إنما نريد أن نرى في هذه الآية آية، فقال: سبحانه الله! ما اكتفيتُم بهذه الآية! ثم أقبل على السمكة فقال: عودي بإذن الله حيّة طرية، فعدت تضطرب على المائدة، ثم قال: عودي كما كنت، فعدت مشوية، فقال: يا روح الله كن أنت أول من يأكل منها، فقال: معاذ الله بل يأكل منها مَنْ سألها، فلما رأوا امتناعه، خافوا أن يكون نزولها عقوبة، فلما رأى عيسى ذلك دعا لها الفقراء والزُّمى واليتامى، فقال: كلوا من رزق ربكم، ودعوة نبيكم، ليكون مهنّوها لكم، وعقوبتها علي غيركم، فأكل منها ألف وسبعمئة إنسان، يصدرّون عنها شباعاً وهي كهيتها حين نزلت، فصَحَّ كل مريض، واستغنى كل فقير أكل منها، ثم نزلت بعد ذلك عليهم، فازدحموا عليها، فجعلها عيسى نوباً بينهم، فكانت تنزل عليهم أربعين يوماً، تنزل يوماً وتغث يوماً، وكانت تنزل عند ارتفاع الضحى، فيأكلون منها حتى إذا قالوا، ارتفعت إلى السماء وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض^(١). وقال قتادة: كانت تنزل عليكم بكرة وعشية، حيث كانوا. وقال غيره: نزلت يوم الأحد مرتين. وقيل: نزلت غدوة وعشية يوم الأحد، فلذلك جعلوه عيداً. وفي الذي كان على المائدة ثمانية أقوال: أحدها: أنه خبز ولحم، روي عن عمار بن ياسر عن النبي ﷺ أنه قال: «نزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً»^(٢). والثاني: أنها سمكة مشوية، وخمس أرغفة، وتمر، وزيتون، ورمّان. وقد ذكرناه عن سلمان. والثالث: ثمر من ثمار الجنة، قاله عمار بن ياسر، وقال قتادة: ثمر من ثمار الجنة، وطعام من طعامها. والرابع: خبز، وسمك، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وأبو عبد الرحمن السلمي. والخامس: قطعة من ثريد، رواه الضحاك عن ابن عباس. والسادس: أنه أنزل عليها كل شيء إلا اللحم، قاله سعيد بن جبيرة. والسابع: سمكة فيها طعم كل شيء من الطعام، قاله عطية العوفي. والثامن: خبز أرز وبقل، قاله ابن السائب. والقول الثاني: أنها لم تنزل، روى قتادة عن الحسن أن المائدة لم تنزل، لأنه لما قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَدِّ يَنْكُرْ فَإِنَّ أَغْذِيَهُ عَذَابًا لَا أَغْذِيَهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قالوا: لا حاجة لنا فيها. وروى ابن أبي نجيع عن مجاهد، قال: أنزلت مائدة عليها ألوان من الطعام، فعرضها عليهم، وأخبرهم أنه العذاب إن كفروا، فأبوها فلم تنزل. وروى ليث عن مجاهد قال: هذا مثلٌ ضربهُ الله تعالى لخلقهِ، لينهاهم عن مسألة الآيات أنبيائه، ولم ينزل عليهم شيء، والأول أصح^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَدِّ يَنْكُرْ﴾ أي: بعد إنزال المائدة. وفي العذاب المذكور قولان: أحدهما: أنه المسخ. والثاني: جنس من العذاب لم يعذب به أحد سواهم. قال الزجاج: ويجوز أن يعجل لهم في الدنيا، ويجوز أن يكون في الآخرة. وفي «العالمين» قولان: أحدهما: أنه عام. والثاني: عالمو زمانهم. وقد ذكر المفسرون أن جماعة من أصحاب المائدة مسخوا. وفي سبب مسخهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أمروا أن لا يخونوا، ولا يذبحوا، فخانوا وادخروا، فمسخوا قرّة وخنازير، رواه عمار بن ياسر عن النبي ﷺ. والثاني: أن عيسى خصّ بالمائدة الفقراء، فتكلم الأغنياء بالقبيح من القول، وشكّوا الناس فيها، وارتابوا، فلما أمسى المرتابون بها، وأخذوا مضاجعهم، مسخهم الله خنازير، قاله سلمان الفارسي. والثالث: أن الذين شاهدوا المائدة، ورجعوا إلى قومهم، فأخبروهم، فضحك بهم من لم يشهد، وقالوا: إنما سحر أعينكم، وأخذ بقلوبكم، فمن أراد الله به خيراً، ثبت على بصيرته، ومن أراد به فتنة، رجع إلى كفره. فلعنهم عيسى، فأصبحوا خنازير، فمكثوا ثلاثة أيام، ثم هلكوا، قاله ابن عباس.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا أَنتَ قَلْتَ لِلنَّاسِ آخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ

(١) ذكر الخبر بطوله الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ١١٧/٢ - ١١٨ من رواية ابن أبي حاتم، ثم قال: هذا أثر غريب جداً. وذكره السيوطي في «الدر المنثور»، ٣٤٦/٢، وزاد نسبته إلى الحكيم الترمذي في «نوارد الأصول» وأبي الشيخ في «العظمة» وأبي بكر الشافعي في «فوائده» المعروفة بـ «الغليات» عن سلمان الفارسي.

(٢) الطبري ٢٢٨/١، والترمذي ١٠٢/٤ مرفوعاً وموقوفاً ولفظه: «أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً، وأمروا أن لا يخونوا ولا يذبحوا لعد، فخانوا وادخروا، ووقعوا لعد، فمسخوا قرّة وخنازير» وحزم بأن الموقوف أصح، وقال: ولا نعرف للحديث المرفوع أصلاً.

(٣) وهو الذي اختاره ابن جرير، قال: لأن الله تعالى أخبر بتزوله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَزْلَهَا لَكُنُوزًا مِّنْ يَكْفُرُ بَدِّ يَنْكُرُ فَإِنَّ أَغْذِيَهُ عَذَابًا لَا أَغْذِيَهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال: ووعدوه وعيده حق وصدق. قال ابن كثير: وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف.

لِي يَحْيَىٰ إِنْ كُنْتَ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ في زمان هذا القول قولان: أحدهما: أنه يقوله له يوم القيامة، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن جريج. والثاني: أنه قاله له حين رفعه إليه، قاله السدي، والأول أصح. وفي «إذ» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها زائدة، والمعنى: وقال الله، قاله أبو عبيدة. والثاني: أنها على أصلها، والمعنى: وإذ يقول الله له، قاله ابن تقيّة. والثالث: أنها بمعنى: «إذا»، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغْنَا﴾ [سبا: ٥١] والمعنى: إذا. قال أبو النجم:

ثم جزاك الله عني إذ جرى جئات عذني في السموات العللا^(١)

ولفظ الآية لفظ الاستفهام، ومعناها التوبيخ لمن ادعى ذلك على عيسى. قال أبو عبيدة: وإنما قال: «إلهين»، لأنهم إذ أشركوا فعل ذكر مع فعل أنشئ [غلب فعل الذكر] ذكروهما. فإن قيل: فالنصارى لم يتخذوا مريم إلهًا، فكيف قال الله تعالى ذلك فيهم؟ فالجواب: أنهم لما قالوا: لم تلد بشراً، وإنما ولدت إلهًا، لزمهم أن يقولوا: إنها من حيث البعضية بمثابة من ولدته، فصاروا بمثابة من قاله.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ﴾ أي: براءة لك من السوء ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي: لست أستحق العبادة، فادعوا الناس إليها. وروى عطاء بن السائب عن مسيرة قال: لما قال الله تعالى لعيسى: ﴿وَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيْ لِلْهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ رُعد كل مفصل منه حتى وقع مخافة أن يكون قد قاله، وما قال: إني لم أقل، ولكنه قال: ﴿إِنْ كُنْتَ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ فإن قيل: ما الحكمة في سؤال الله تعالى له عن ذلك وهو يعلم أنه ما قاله؟ فالجواب: أنه تثبيت للحجة على قومه، وإكذاب لهم في ادعائهم عليه أنه أمرهم بذلك، ولأنه إقرار من عيسى بالعجز في قوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ وبالعبودية في قوله: ﴿إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ قال الزجاج: تعلم ما أضمره، ولا أعلم ما عندك علمه، والتأويل: تعلم ما أعلم وأنا لا أعلم ما تعلم.

﴿وَمَا قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكَنتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ قال مقاتل: وحده.

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾^(٢) أي: على ما يفعلون ما كنت مقيماً فيهم، [وقوله] ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ فيه قولان: أحدهما: بالرفع إلى السماء. والثاني: بالموت عند انتهاء الأجل. والرقيب «مشروح في سورة (النساء)، و«الشهيد» في (آل عمران).

﴿إِنْ تَعْبُدُهُمْ فَإِنَّهُمْ إِبَادَةٌ وَإِنْ تَعْبُدْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْمَرْبِيُّ لَهُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَعْبُدُهُمْ فَإِنَّهُمْ إِبَادَةٌ﴾ قال الحسن، وأبو العالية: إن تعذبهم، فإباقمتهم على كفرهم، وإن تغفر لهم، فبتوبة كانت منهم. وقال الزجاج: علم عيسى أن منهم من آمن، ومنهم من أقام على الكفر، فقال في جملتهم: ﴿إِنْ تَعْبُدُهُمْ﴾ أي: إن تعذب من كفر منهم فإنهم عبادك، وأنت العادل فيهم، لأنك قد أوضحت لهم الحق، فكفروا،

(١) «الأضداد» لابن الأنباري: ١١٩، و«أضداد» أبي الطيب ٢٨/١، وابن جرير ٢٣٥/١١، والصاحبي: ١١٢، و«اللسان»: طها. وفيها: العلالي بدل «السموات» وهي جمع «عليه» بكسر الغين وتشديد اللام المكسورة، والياء المشددة: وهي الغرفة العالية من البيت، وأراد ذلك في (عليين) المذكورة في القرآن.

(٢) روى الإمام أحمد ٣٥١/٢، والبخاري ٢١٥/٨، ومسلم ٢١٩٤/٤، وأبو داود الطيالسي ٢٢٥/٢ عن ابن عباس ؓ قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاةً هراةً غزلاء» ثم قال ﴿كُنَّا بَدَلًا أَنْزَلَ حَكْمِي يُبِيدُ رَعْدًا عَلَيْنَا إِنْ كُنَّا قَتِيلِينَ...﴾ إلى آخر الآية، ثم قال: «ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا رب اصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ إِنْ تَعْبُدُهُمْ فَإِنَّهُمْ إِبَادَةٌ وَإِنْ تَعْبُدْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْمَرْبِيُّ لَهُمْ﴾ قال: «فيقال لي: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم». وقوله: «غزلاء» جمع أغرل، أي: غير مختونين، أي: أنهم يحشرون كما خلقوا لا شيء معهم، ولا ينقص منهم شيء، بل يتم لهم كل ما نقص منهم.

وإن تغفر لهم، أي: وإن تغفر لمن أقلع منهم، وآمن، فذلك تفضل منك، لأنه قد كان لك أن لا تغفر لهم بعد عظيم فريتهم، وأنت في مغفرتك لهم عزيز، لا يمتنع عليك ما تريد، حكيم في ذلك. وقال ابن الأنباري: معنى الكلام: لا ينبغي لأحد أن يعترض عليك، فإن عذبتهم؛ فلا اعتراض عليك، وإن غفرت لهم - ولست فاعلاً إذا ماتوا على الكفر - فلا اعتراض عليك. وقال غيره: العفو لا ينقص عزك، ولا يخرج عن حكمك. وقد روى أبو ذر قال: قام رسول الله ﷺ قيام ليلة بآية يرددها: ﴿إِنْ تُدْرِكُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ فَيَرْجِعُوا رُجُوعًا وَلَمْ يَتُوبُوا لَهُمْ لَبْسٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَکْذِبُ﴾ (١).
 ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَوَّضُوا عَنْ ذَلِكَ أَلْفُورُ الْقَطِيمِ﴾ (٢) اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ قرأ الجمهور برفع اليوم، وقرأ نافع بنصبه على الظرف. قال الزجاج: المعنى: قال الله هذا لعيسى في يوم ينفع الصادقين صدقهم، ويجوز أن يكون على معنى: قال الله هذا الذي ذكرناه يقع في يوم ينفع الصادقين صدقهم. والمراد باليوم: يوم القيامة. وإنما خص نفع الصدق به، لأنه يوم الجزاء. وفي هذا الصدق قولان: أحدهما: أنه صدقهم في الدنيا ينفعهم في الآخرة. والثاني: صدقه في الآخرة ينفعهم هنالك. وفي هذه الآية تصديق لعيسى فيما قال.

قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: بطاعتهم، ﴿وَرَوَّضُوا عَنْهُ﴾ بشوابه. وفي قوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تنبيه على عبودية عيسى، وتحريض على تعلق الآمال بالله وحده.



(١) «المستد» ١٤٩/٥ ولفظه عن أبي ذر قال: صلى رسول الله ﷺ ليلة، فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿إِنْ تُدْرِكُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ فَيَرْجِعُوا رُجُوعًا وَلَمْ يَتُوبُوا لَهُمْ لَبْسٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَکْذِبُ﴾ فلما أصبح قلت: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها. قال: «سألت ربي ﷻ الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله ﷻ شيئاً» ورجاله ثقات، خلا جسر بنت دجاجة العامرية، فإنه لم يوثقها سوى العجلي وابن حبان، وقال البخاري: عند جسر عجائب. انظر «تهذيب التهذيب» ٤٠٦/١٢.

سورة الأنعام

فصل في نزولها

روى مجاهد عن ابن عباس: أن (الأنعام) مما نزل بمكة. وهذا قول الحسن، وقتادة، وجابر بن زيد. وروى يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: نزلت سورة (الأنعام) جملةً ليلاً بمكة، وحولها سبعون ألف ملك^(١). وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: هي مكة، نزلت جملة واحدة، ونزلت ليلاً؛ وكتبوها من ليلتهم، غير ست آيات وهي: ﴿قُلْ تَكَلَّوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الثلاث آيات (الأنعام: ١٥١ - ١٥٣) وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية (الأنعام: ٩١). وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ إلى آخر الآيتين (الأنعام: ٩٣، ٩٤). وذكر مقاتل نحو هذا. وزاد آيتين: قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَبُ يَكْمُونَ أَنْتُمْ مُرْكٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْمَقْصُودِ﴾ (الأنعام: ١١٤)، وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَبُ يَكْمُونَ﴾ (الأنعام: ٢١). وروى عن ابن عباس، وقتادة قالا: هي مكة، إلا آيتين نزلتا بالمدينة؛ قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية (الأنعام: ٩١). وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ (الأنعام: ١٤١). وذكر أبو الفتح ابن شيطا أنها مكة، غير آيتين نزلتا بالمدينة ﴿قُلْ تَكَلَّوْا﴾ والتي بعدها (الأنعام: ١٥١، ١٥٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقُولُونَ ۖ

فأما التفسير، فقال كعب: فاتحة (الكهف) فاتحة (الأنعام)، وخاتمتها خاتمة (هود)؛ وإنما ذكر السموات والأرض، لأنهما من أعظم المخلوقات. والمراد «بالجعل»: الخلق. وقيل: إن «جعل» هنا: صلة؛ والمعنى: والظلمات. وفي المراد بالظلمات والنور ثلاثة أقوال: أحدها: الكفر والإيمان، قاله الحسن. والثاني: الليل والنهار، قاله السدي. والثالث: جميع الظلمات والأنوار. قال قتادة: خلق الله السموات قبل الأرض، والظلمات قبل النور، والجنة قبل النار.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: المشركين بعد هذا البيان «بِرَبِّهِمْ يَقُولُونَ»، أي: يجعلون له عديلاً، فيعبدون الحجارة الموات، مع إقرارهم بأنه الخالق لما وُصف. يقال: عدلت هذا بهذا: إذا ساوته به. قال أبو عبيدة: هو مقدم ومؤخر، تقديره: يعدلون بربهم. وقال النضر بن شميل: الباء: بمعنى «عن».

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُرُّونَ ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ يعني: آدم، وذلك أنه لما شك المشركون في البعث، وقالوا: من يحيي هذه العظام؟ أعلمهم أنه خلقهم من طين، فهو قادر على إعادة خلقهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: أن الأجل الأول: أجل الحياة إلى الموت، والثاني: أجل الموت إلى البعث، روي عن ابن عباس، والحسن، وابن المسيب، وقتادة، والضحاك، ومقاتل. والثاني: أن الأجل الأول: النوم الذي يُقْبَضُ فيه الروح، ثم ترجع في حال اليقظة؛ والأجل المسمى عنده: أجل موت الإنسان. رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أن الأجل الأول: أجل الآخرة متى يأتي، والأجل الثاني: أجل الدنيا، قاله مجاهد في رواية. والرابع: أن الأول: خلق الأشياء في ستة أيام، والثاني: ما كان بعد ذلك إلى يوم القيامة، قاله عطاء الخراساني. والخامس: أن الأول: قضاء حين أخذ الميثاق على خلقه، والثاني: الحياة في الدنيا،

(١) ذكره ابن كثير ١٢٢/٢ عن الطبراني في «الكبير» وفيه علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف ضعفه ابن سعد، والإمام أحمد، وابن معين وغيرهم. وزاد السيوطي في «الدر المنثور» ٢/٣ نسبة أبي عبيد، وابن الضريس، وابن المنذر، وابن مردويه.

قاله ابن زيد، كأنه يشير إلى أجل الذرية حين أحياءهم وخاطبهم. والسادس: أن الأول: أجل من قدم من قبل، والثاني: أجل من يموت بعد، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْهُ أَي بعد هذا البيان ﴿تَمَرُّونَ﴾ وفيه قولان: أحدهما: تشكون، قاله قتادة، والسدي. وفيما شكوا فيه قولان: أحدهما: الوحداية. والثاني: البعث. والثاني: يختلفون: مأخوذ من المراء، ذكره الماوردي.

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: هو المعبود في السموات وفي الأرض، قاله ابن الأنباري. والثاني: وهو المتفرد بالتدبير في السموات وفي الأرض، قاله الزجاج. والثالث: وهو الله في السموات، ويعلم سرهم وجهركم في الأرض، قاله ابن جرير. والرابع: أنه مقدّم ومؤخّر. والمعنى: وهو الله يعلم سرهم وجهركم في السموات والأرض، ذكره بعض المفسرين.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْتَزَارُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ نزلت في كفار قريش. وفي «الآية» قولان: أحدهما: أنها الآية من القرآن. والثاني: المعجزة، مثل انشقاق القمر. والمراد بالحق: القرآن. والأنباء: الأخبار. والمعنى: سيعلمون عاقبة استهزائهم.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَرِئُكَ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِزَازًا وَجَعَلْنَا الْآلِهَةَ نَجْرًا مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَلْهَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ القرن: اسم أهل كل عصر، وسموا بذلك لاقتنائهم في الوجود. وللمفسرين في المراد بالقرن سبعة أقوال: أحدها: أنه أربعون سنة، ذكره ابن سيرين عن النبي ﷺ. والثاني: ثمانون سنة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: مائة سنة، قاله عبد الله بن بشر المازني، وأبو سلمة بن عبد الرحمن. والرابع: مائة وعشرون سنة، قاله زُرارة بن أوفى، وإلياس بن معاوية. والخامس: عشرون سنة، حكاه الحسن البصري. والسادس: سبعون سنة، ذكره الفراء. والسابع: أن القرن: أهل كل مدة كان فيها نبي، أو طبقة من العلماء، قلت السنون، أو كثرت؛ بدليل قوله ﷺ: «خيركم قرني» يعني: أصحابي «ثم الذين يلونهم» يعني: التابعين «ثم الذين يلونهم»^(١) يعني: الذين أخذوا عن التابعين. فالقرن: مقدار التوسط في أعمار أهل الزمان، فهو في كل قوم على مقدار أعمارهم؛ واشتقاق القرن: من الاقتران. وفي معنى ذلك الاقتران قولان: أحدهما: أنه سمي قرناً، لأنه المقدار الذي هو أكثر ما يقترن فيه أهل ذلك الزمان في بقائهم. هذا اختيار الزجاج. والثاني: أنه سمي قرناً، لأنه يقرن زماناً بزمان، وأمة بأمة، قاله ابن الأنباري. وحكى ابن قتيبة عن أبي عبيدة قال: يرون أن أقل ما بين القرنين: ثلاثون سنة.

قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: أعطيتهم ما لم نُعطكم. يقال: مكنته ومكنت له: إذا أقدرته على الشيء بإعطاء ما يصح به الفعل من العدة. وفي هذه الآية رجوع من الخبر إلى الخطاب. فأما السماء: فالمراد بها المطر. ومعنى «أرسلنا»: أنزلنا. و«المدرار»: مفعال، من درر، يدر؛ والمعنى: نرسلها كثيرة الدّر. ومفعال: من أسماء

(١) رواه بهذا اللفظ البخاري في «صحيحه» ١٩٠/٥ بشرح «الفتح» عن عمران بن حصين رضى الله عنه، وتامه، قال عمران: لا أدري أذكر النبي ﷺ بعد قرنين أو ثلاثة، قال النبي ﷺ: «إن بعدكم قوماً يخونون ولا يؤمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، وينلدون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن» ورواه البخاري ١٩١/٥، ومسلم ١٩٦٣/٤ في «صحيحيهما» عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه بلفظ «خير الناس قرني»، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يحيي أرواح تسبق شهادة أحدهم بيمينه، ويعينه شهادته» ورواه مسلم ١٩٦٢/٤ بلفظ «خير أمتي قرني». وانظر الكلام على هذا الحديث في «فتح الباري» ٥/٧.

مكروه فعله، ومنه: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر: ٤٣)؛ أي: ترجع عاقبة مكروهه إلا عليهم. قال السدي: وقع بهم العذاب الذي استهزؤا به.

﴿قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلّٰهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ المعنى: فإن أجابوك، وإلا فـ ﴿قُلْ لِلّٰهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ قال ابن عباس: قضى لنفسه أنه أرحم الراحمين. قال الزجاج: ومعنى كتب: أوجب ذلك إيجاباً مؤكداً، وجائز أن يكون كتب في اللوح المحفوظ؛ وإنما حُوطِبَ الخلق بما يعقلون، فهم يعقلون أن توكيد الشيء المؤخّر أن يحفظ بالكتاب. وقال غيره: رحمته عامة؛ فمنها تأخير العذاب عن مستحقّه، وقبول توبة العاصي.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْمَعَكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ اللام: لام القسم، كأنه قال: والله ليجمعنكم إلى اليوم الذي أنكرتموه. وذهب قوم إلى أن «إلى» بمعنى: «في». ثم اختلفوا، فقال قوم: في يوم القيامة. وقال آخرون: في قبوركم إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: بالشرك، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لما سبق فيهم من القضاء. وقال ابن قتيبة: قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ مردود إلى قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَذَابَ الْمَكِيدِينَ﴾ الذين خسروا.

﴿وَلَمْ يَأْتِ سَكَنٌ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ السَّيِّئُ الْعَلِيلُ﴾ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَأْتِ سَكَنٌ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ سبب نزولها أن كفار مكة قالوا للنبي ﷺ: قد علمنا أنه إنما يحملك على ما تدعونا إليه الحاجة؛ فنحن نجعل لك نصيباً في أموالنا حتى تكون من أغنانا رجلاً، وترجع عما أنت عليه، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. وفي معنى «سكن» قولان: أحدهما: أنه من السكنى. قال ابن الأعرابي: «سكن» بمعنى حلّ. والثاني: أنه من السكون الذي يضاد الحركة. قال مقاتل: من المخلوقات ما يستقر بالنهار، ويتشر بالليل؛ ومنها ما يستقر بالليل، ويتشر بالنهار. فإن قيل: لم خص السكون بالذكر دون الحركة؟ فغنة ثلاثة أجوبة: أحدها: أن السكون أعم وجوداً من الحركة. والثاني: أن كل متحرك قد يسكن، وليس كل ساكن يتحرك. والثالث: أن في الآية إضماراً؛ والمعنى: وله ما سكن وتحرك؛ كقوله: ﴿يَتَّبِعُكُمُ الْحَرُّ﴾ [النحل: ٨٢] أراد: والبرد؛ فاختصر.

﴿قُلْ أَغْيَرُ اللّٰهُ أَغْيَدَ وَلِيًّا فَاطِرُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطِمْ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أَرِيتُ أَنَّ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ أَسَدَ وَلاَ تَكُونُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغْيَرُ اللّٰهُ أَغْيَدَ وَلِيًّا﴾ ذكر مقاتل أن سبب نزولها، أن كفار قريش قالوا: يا محمد، ألا ترجع إلى دين آبائك؟ فنزلت هذه الآية. وهذا الاستفهام معناه الإنكار؛ أي: لا أتخذ ولياً غير الله أتولاه، وأعبده، وأستعينه.

قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ الجمهور على كسر راء «فاطر». وقرأ ابن أبي عبيدة برفعها. قال أبو عبيدة: الفاطر، معناه: الخالق. وقال ابن قتيبة: المبتدئ. ومنه «كل مولود يولد على الفطرة»^(١) أي: على ابتداء الخلقة، وهو الإقرار بالله حين أخذ العهد عليهم في أصلاّب آبائهم. وقال ابن عباس: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر؛ فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي: أنا ابتدأتها. قال الزجاج: إن قيل: كيف يكون الفطر بمعنى الخلق؟ والانفطار: الانشقاق في قوله تعالى: ﴿إِذَا أَسْمَأُ أَسْفَطَتْ﴾ ﴿١٥﴾ [الأنفطار: ١] فالجواب: إنما يرجعان إلى شيء واحد، لأن معنى «فطرهما»: خلقها خلقاً قاطعاً. والانفطار، والفطور: تقطّع وتشقّق.

(١) البخاري (١٩٧/٣) عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة، هل ترى فيها جدهاء» ورواه البخاري أيضاً (١٧٦/٣) ومسلم في «صحيحه» (٢٠٤٧/٤) بلفظ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة» ثم يقول أبو هريرة: ﴿فَطَرَتْ أَوَّلَ الْيَوْمِ لَيْسَ عَلَيْهَا شَيْءٌ وَلَا يَدِينُ لَيْتَنِي أَتَى اللّٰهُ الْآيَةَ. ورواه أحمد في «المستند» عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فإذا هرب عنه لسانه، إما شاكراً، وإما كفوراً» وفي رواية لمسلم (٢٠٤٨/٤): «ليس من مولود يولد إلا على هذه الفطرة، حتى يعرب عنه لسانه» وفي رواية له أيضاً: «حتى يبين عنه لسانه».

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُزِقُّمْ وَلَا يَطْعَمُهُ﴾ قرأ الجمهور بضم الياء من الثاني؛ ومعناه: وهو يزرق ولا يزرق، لأن بعض العبيد يزرق مولاه. وقرأ عكرمة والأعمش «ولا يطعم» بفتح الياء. قال الزجاج: وهذا الاختيار عند البصريين بالعربية، ومعناه: وهو يزرق ويظعم ولا يأكل.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَدَ﴾ أي: أول مسلم من هذه الأمة؛ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال الأخفش: معناه: وقيل لي: لا تكوننَّ، فصارت: أمرت، بدلاً من ذلك؛ لأنه حين قال: أمرت، قد أخبر أنه قيل له.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ زعم بعض المفسرين أنه كان يجب عليه أن يخاف عاقبة الذنوب، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿لَا تَقْرَأُ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَلِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٣] والصحيح أن الآيتين خبر، والخبر لا يدخله النسخ، وإنما هو معلق بشرط، ومثله: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَنْكَ﴾ [الزمر: ٦٦].

﴿مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْأَمِينُ﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم ﴿مَنْ يَصْرِفْ﴾ بضم الياء وفتح الراء، يعنون: العذاب. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿يَصْرِفْ﴾ بفتح الياء وكسر الراء؛ الضمير قوله: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾؛ ومما يحسن هذه القراءة قوله ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾، فقد اتفق إسناد الضميرين إلى اسم الله تعالى، ويعني بقوله: ﴿يَصْرِفْ﴾ العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، يعني: يوم القيامة، ﴿وَذَلِكَ﴾ يعني: صرف العذاب.

﴿وَلَنْ يَسْتَسْكِنَ اللَّهُ يَصْرِفَ فَلَا كَافٍ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَسْتَسْكِنَ يَخْتَرِ فَوَ عَن كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَسْتَسْكِنَ اللَّهُ يَصْرِفَ﴾ الضر: اسم جامع لكل ما ينتصر به الإنسان، من فقر، ومرض، وغير ذلك؛ والخير: اسم جامع لكل ما ينتفع به الإنسان. وللمفسرين في الضر والخير قولان: أحدهما: أن الضر: السقم؛ والخير: العافية. والثاني: أن الضر: الفقر، والخير: الغنى.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ القاهر: الغالب، والقهر: الغلبة. والمعنى: أنه قهر الخلق فصرفهم على ما أراد طوعاً وكراً؛ فهو المستعلي عليهم، وهم تحت التسخير والتذليل.

﴿قُلْ أَنتُمْ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَهْلُكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً آخَرَةً قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحِيدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ سبب نزولها: أن رؤساء مكة أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، ما نرى أحداً يصدقك بما تقول، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر ولا صفة، فأرنا من يشهد أنك رسول الله، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. ومعنى الآية: قل لقريش: أي شيء أعظم شهادة؟ فإن أجابوك، وإلا فقل: الله، وهو شهيد بيني وبينكم على ما أقول. وقال الزجاج: أمره الله أن يحتج عليهم بأن شهادة الله في نبوته أكبر شهادة، وأن القرآن الذي أتى به، يشهد له أنه رسول الله، وهو قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ ففي الإنذار به دليل على نبوته، لأنه لم يأت أحد بمثله، ولا يأتي؛ وفيه خبر ما كان وما يكون؛ ووعد فيه بأشياء، فكانت كما قال. وقرأ عكرمة، وابن السميع، والجحدري «وأوحى إلي» بفتح الهمزة والحاء: «القرآن» بالنصب؛ فأما «الإنذار»، فمعناه: التخويف، ومعنى ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي: من بلغ إليه هذا القرآن، فإني نذير له. قال القرظي: من بلغه القرآن فكانما رأى النبي ﷺ، وكلمه^(١). وقال أنس بن مالك: لما نزلت هذه الآية، كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر وكل جبار يدعوهم إلى الله ﷻ.

(١) الطبري ٢٩١/١١ دون قوله: «وكلمه» وفيه: ثم قرأ ﴿وَمَنْ بَلَغَ أَهْلُكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ ونسب ابن كثير: ١٢٦/٢ إلى ابن أبي خاتم، وقال: زاد أبو خالد - وهو أحد رواة الخبر - «وكلمه».

قوله تعالى: ﴿أَلَيْكُمُ النَّهْيُ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ إِلَهًا آخَرَ﴾ هذا استفهام معناه الإنكار عليهم. قال الفراء: وإنما قال: «آخر» ولم يقل: «آخر» لأن الآلهة جمع؛ والجمع يقع عليه التانيث، كما قال: ﴿وَاللَّهُ الْأَتَمُّ الْقَسِيُّ﴾ [الأعراف: ١٨١] وقال: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: ٥٢].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ يَمُوتُونَ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمُ الَّذِينَ خَيْرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ﴾ في الكتاب قولان: أحدهما: أنه التوراة والإنجيل؛ وهذا قول الجمهور. والثاني: أنه القرآن. وفي هاء «يعرفونه» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى النبي ﷺ، قاله السدي. وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال لعبد الله بن سلام: إن الله قد أنزل على نبيه بمكة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ يَمُوتُونَ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٧، والأنعام: ٢١] فكيف هذه المعرفة؟ فقال: لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني، ولأننا أشد معرفة بمحمد ﷺ مني بابني. فقال عمر: وكيف ذاك؟ فقال: إني أشهد أنه رسول الله حقاً، ولا أدري ما يصنع النساء. والثاني: أنها ترجع إلى الدين والنبي. فالمعنى: يعرفون الإسلام أنه دين الله ﷻ، وأن محمداً رسول الله، قاله قتادة. والثالث: أنها ترجع إلى القرآن. فالمعنى: يعرفون الكتاب الدال على صدقه؛ ذكره الماوردي. وفي ﴿الَّذِينَ خَيْرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ قولان: أحدهما: أنهم مشركو مكة. والثاني: كفار أهل الكتابين.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: اختلق على الله الكذب في ادعاء شريك معه. وفي «آياته» قولان: أحدهما: أنها محمد والقرآن، قاله ابن السائب. والثاني: القرآن، قاله مقاتل. والمراد بالظلم المذكور في هذه الآية: الشرك.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَامًا تُمْ قُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا بَيْنَ شُرَكَائِهِمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَامًا﴾ انتصب «اليوم» بمحذوف تقديره: واذكر يوم نحشرهم. قال ابن جرير: والمعنى: لا يفلحون اليوم، ولا يوم نحشرهم. وقرأ يعقوب: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ «ثم يقول» بالياء فيهما. وفي الذين عنى قولان: أحدهما: المسلمون والمشركون. والثاني: العابدون والمعبودون. وقوله: ﴿بَيْنَ شُرَكَائِهِمُ﴾ سؤال توبيخ. والمراد بشركائهم: الأوثان؛ وإنما أضافها إليهم لأنهم زعموا أنها شركاء لله. وفي معنى: ﴿تَزْعُمُونَ﴾ قولان: أحدهما: يزعمون أنهم شركاء مع الله. والثاني: يزعمون أنها تشفع لهم.

﴿ثُمَّ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ لَأَنَّا أَقُولُوا وَلَوْلَا رَحْمَةُ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «ثم لم تكن» بالياء، «فتنتهم» بالرفع. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: «تكن» بالياء أيضاً، «فتنتهم» بالنصب؛ وقد رويت عن ابن كثير أيضاً. وقرأ حمزة، والكسائي: «يكن» بالياء، «فتنتهم» بالنصب. وفي «الفتنة» أربعة أقوال: أحدها: أنها بمعنى الكلام والقول. قال ابن عباس، والضحاك: لم يكن كلامهم. والثاني: أنها المعذرة. قال قتادة، وابن زيد: لم تكن معذرتهم. قال ابن الأنباري: فالمعنى: اعتذروا بما هو مُهلِكٌ لهم، وسبب لفضيحتهم. والثالث: أنها بمعنى البلية. قال عطاء الخراساني: لم تكن بليتهم. وقال أبو عبيد: لم تكن بليتهم التي ألزمتهم الحجة، وزادتهم لائمة. والرابع: أنها بمعنى الافتتان. والمعنى: لم تكن عاقبة فتنتهم. قال الزجاج: لم يكن افتتانهم بشركهم، وإقامتهم عليه، إلا أن تبرؤوا منه. ومثل ذلك في اللغة أن ترى إنساناً يحب غاويماً، فإذا وقع في ملكة تبرأ منه؛ فيقول: ما كانت محبتك لفلان إلا أن انتفيت منه. قال: وهذا تأويل لطيف، لا يعرف إلا من عرف معاني الكلام، وتصرف العرب في ذلك. وقال ابن الأنباري: المعنى: أنهم افتتنوا بقولهم هذا، إذ كذبوا فيه، ونفوا عن أنفسهم ما كانوا معروفين به في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿لَأَنَّا أَقُولُوا وَلَوْلَا رَحْمَةُ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «والله ربنا» بكسر الباء. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: بنصب الباء. وفي هؤلاء القوم الذين هذا وصفهم قولان: أحدهما:

أنهم المشركون. والثاني: المنافقون^(١). ومتى يحلفون؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا من كان مسلماً، قالوا: تعالوا نكابر عن شركنا، فحلفوا، قاله ابن عباس^(٢). والثاني: أنهم إذا دخلوا النار، ورأوا أهل التوحيد يخرجون، حلفوا [واعترضوا]، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد. والثالث: أنهم إذا سئلوا: أين شركاؤكم؟ تبرؤوا، وحلفوا: ما كنا مشركين، قاله مقاتل.

﴿أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَمَسَدَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: باعتذارهم بالباطل. ﴿وَمَسَدَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: ذهب ما كانوا يذعنون ويختلفون من أن الأصنام شركاء لله، وشفعاؤهم في الآخرة.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَكَانَ يَرَوْنَ كُلَّ آيَةٍ لَا يُفْقَهُوهُ إِذَا جَاءَهُمْ يَجِدُولَهُ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يَتَّبِعْ عَنْتَهُ وَيَتَّبِعْ عَنْتَهُ وَإِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَتَّبِعُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ سبب نزلوها: أن نفرأ من المشركين، منهم عتبة، وشيبة، والنضر بن الحارث، وأميه وأبي ابنا خلف، جلسوا إلى رسول الله ﷺ، واستمعوا إليه، ثم قالوا للنضر بن الحارث: ما يقول محمد؟ فقال: والذي جعلها بيني، ما أدري ما يقول؟ إلا أني أرى تحرك شفتيه، وما يقول إلا أساطير الأولين، مثلما كنت أحدثكم عن القرون الماضية؛ وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى، فتزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. فاما «الأكِنَّة»، فقال الزجاج: هي جمع كِنَان، وهو الغطاء؛ مثل عِنَانٍ وَأَعِنَّة. وأما: «أن يفقهوه»، فنصوب على أنه مفعول له. المعنى: وجعلنا على قلوبهم أكِنَّة لكرهه أن يفقهوه، فلما حذفت اللام، نصبت الكراهة؛ ولما حذفت الكراهة، انتقل نصبها إلى «أن». «الوقر»: ثقل السمع، يقال: في أذنه وقْر، وقد وقِرَتِ الأذن، تُوقَر. قال الشاعر:

وَكَلَامٌ سَلِيٌّ قَدْ وَقِرَتْ
أُذُنِي عَنْهُ وَمَا بِي مِنْ صَمَمٍ^(٣)

والوقر، بكسر الواو: أن يُحْمَلَ البعير وغيره مقدار ما يطيق، يقال: عليه وقْر، ويقال: نخلة موقرة، وموقرة. وإنما فُعل ذلك بهم مجازاة لهم بإقامتهم على كفرهم، وليس المعنى أنهم لم يفقهوه، ولم يسمعه، ولكنهم لما عدلوا عنه، وصرفوا فكرهم عما عليهم في سوء العاقبة، كانوا بمنزلة من لم يعلم ولم يسمع. ﴿وَكَانَ يَرَوْنَ كُلَّ آيَةٍ﴾ أي: كل علامة تدل على رسالتك، ﴿لَا يُفْقَهُوهُ﴾. ثم أعلم الله ﷻ مقدار احتجاجهم وجدلهم، وأنهم إنما يستعملون في الاحتجاج أن يقولوا: ﴿إِنَّ هَذَا﴾، أي: ما هذا ﴿إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وفيها قولان: أحدهما: أنها ما سطر من أخبارهم وأحاديثهم. روى أبو صالح عن ابن عباس قال: أساطير الأولين: كذبهم، وأحاديثهم في دهرهم. وقال أبو الحسن الأخفش: يزعم بعضهم أن واحدة الأساطير: أسطورة. وقال بعضهم: أساطيرة؛ ولا أراه إلا من الجمع الذي ليس له واحد، نحو عباديد، ومذاكير، وأبائيل. وقال ابن قتيبة: أساطير الأولين: أخبارهم وما سطر منها، أي: ما كتب، ومنه قوله: ﴿تُؤَقَّرُ وَتَأْتَرُ وَمَا يَسْطَرُونَ﴾ ﴿١٦﴾ [الغلم] أي: يكتبون، واحدها سطر، ثم أسطار، ثم أساطير جمع الجمع، مثل قول، وأقوال، وأقاويل^(٤). والقول الثاني: أن معنى أساطير الأولين: الترهات. قال أبو عبيدة: واحد الأساطير: أسطورة، وإسطارة، ومجازها مجاز الترهات. قال ابن الأنباري: الترهات عند العرب: طرق غامضة، ومسالك مشككة، يقول قائلهم: قد

(١) قال ابن كثير بعد أن نقل هذا القول عن ابن عباس: وفيه نظر، فإن هذه الآية مكية، والمنافقون إنما كانوا بالمدينة، والتي نزلت في المنافقين آية ﴿يَمُذِّبُهُمُ اللَّهُ كَيْفَ يَشَاءُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨].

(٢) الطبري ٣٠٢/١١، وذكره ابن كثير ١٢٧/٢ عن أبي حاتم وإسناده حسن، ونصه: عن سعيد بن جبير قال: أتى رجل ابن عباس فقال: سمعت الله يقول: ﴿وَأَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] قال ابن عباس: أما قوله: ﴿وَأَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ فإنه لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا: تعالوا نجهد، فقالوا: ﴿وَأَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ فحتم الله على أنفوسهم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾. وفي رواية للطبري ٣٧٤/٨: بين أن السائل هو نافع بن الأزرق، وكان يأتي ابن عباس ليلقي عليه مشابه القرآن.

(٣) البيت للمظن البعدي من قصيدة حكيمية جيدة أثبتها صاحب «المفضليات» ٢٩٣.

(٤) «غريب القرآن» ٣٧.

أخذنا في ترهات البساس، يعني: قد عدلنا عن الطريق الواضح إلى المشكل؛ وعما يعرف إلى ما لا يعرف. و«البساس»: الصحاري الواسعة، والترهات: طرق تشعب من الطريق الأعظم، فتكثر وتشكل، فجعلت مثلاً لما لا يصح وينكشف. فإن قيل: لم عابوا القرآن بأنه أساطير الأولين، وقد سطر الأولون ما فيه علم وحكمة، وما لا عيب على قائله؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنهم نسبوه إلى أنه ليس بوحى من الله. والثاني: أنهم عابوه بالإشكال والغموض، استراحة منهم إلى البهت والباطل. فعلى الجواب الأول تكون «أساطير» من التسطير، وعلى الثاني تكون بمعنى الترهات، وقد شرحنا معنى الترهات.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْهُ يَكْفُرْ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن أبا طالب كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ، ويتابعوا عملاً جاء به، فنزلت فيه هذه الآية، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهو قول عمرو بن دينار، وعطاء بن دينار، والقاسم بن مخيمرة^(١). وقال مقاتل: كان رسول الله ﷺ عند أبي طالب يدعوه إلى الإسلام، فاجتمعت قريش إلى أبي طالب يريدون بالنبي ﷺ سوءاً، فسألوا أبا طالب أن يدفعه إليهم فيقتلوه، فقال: ما لي عنه صبر؛ فقالوا: ندفع إليك من شبابنا من شئت مكان ابن أخيك؛ فقال أبو طالب: حين تروح الإبل، فإن حنت ناقة إلى غير فضيلها دفعته إليكم، وقال:

وَاللَّهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ
فَاضْدَغْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةً
وَعَرَضْتَ دِينَاً لَا مَحَالَةَ أَنَّهُ
لَوْلَا الْمَلَأَةُ أَوْ حَذَارِي سُبَّةٌ
حَتَّى أَوْسَدَ فِي الثُّرَابِ دَفِينَا
وَابْشُرْ وَقَرُّ بِذَاكَ مِنْكَ عُيُونَا
مِنْ خَيْرِ أَذْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْجَدْتَنِي سَمَحاً بِذَاكَ مُبِينَا

فنزلت فيه هذه الآية. والثاني: أن كفار مكة كانوا ينهون الناس عن اتباع النبي ﷺ، ويتابعون بأنفسهم عنه، رواه الوالبي عن ابن عباس، ويه قال ابن الحنفية، والضحاك، والسدي. فعلى القول الأول، يكون قوله: «وهم» كناية عن واحد؛ وعلى الثاني: عن جماعة. وفي هاء «عنه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى النبي ﷺ. ثم فيه قولان: أحدهما: ينهون عن أذاه. والثاني: عن أتباعه. والقول الثاني: أنها ترجع إلى القرآن، قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد. «وَيَتَّبِعُونَ» بمعنى يبعدون. وفي هاء «عنه» قولان: أحدهما: أنها راجعة إلى النبي ﷺ. والثاني: إلى القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَكْفُرُوا﴾ أي: وما يهلكون ﴿إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ بالتباع عنه ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم يهلكونها.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَقُولُ عَلَى الْآثَرِ يَقُولُوا يَكْفُرُوا﴾ في معنى «وقفوا» ستة أقوال: أحدها: حبسوا عليها، قاله ابن السائب.

والثاني: غرضوا عليها، قاله مقاتل. والثالث: عاينوها. والرابع: وقفوا عليها وهي تحتهم. والخامس: دخلوا إليها فعرفوا مقدار عذابها، تقول: وقفت على ما عند فلان، أي: فهمته وتبينته، ذكر هذه الأقوال الثلاثة الزجاج، واختار الأخير. وقال ابن جرير: «على» هاهنا بمعنى «في». والسادس: جعلوا عليها وقفاً، كالوقوف المؤيدة على سبلها، ذكره الماوردي. والخطاب بهذه الآية للنبي ﷺ، والوعيد للكفار، وجواب «لو» محذوف، ومعناه: لو رأيتم في تلك الحال، لرأيت عجباً.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْذِبْ بِآيَاتِنَا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم برفع الباء من «تكذب»، والنون من «نكون». قال الزجاج: والمعنى أنهم تمنوا الرد، وضمنوا أنهم لا يكذبون. والمعنى: يا ليتنا نرد، ونحن لا نكذب بآيات ربنا، رُذِّنا أو لم نرد، ونكون من المؤمنين، لأننا قد عاينا ما لا نكذب معه أبداً. قال: ويجوز الرفع على وجه آخر، على معنى «يا ليتنا نرد»، يا ليتنا لا نكذب، كأنهم تمنوا الرد والتوفيق للتصديق. وقال الأخفش: إذا رفعت جعلته على مثل اليمين، كأنهم قالوا: ولا نكذب - واللّه - بآيات ربنا، ونكون - والله - من المؤمنين.

(١) هو أبو عروة القاسم بن مخيمرة الهمداني الكوفي، نزيل دمشق، ثقة فاضل مترجم في «التهذيب».

وقرأ حمزة: «إلا المعجلي»^(١)، وحفص عن عاصم، ويعقوب: بنصب الباء من «نكذب»، والنون من «نكون». قال مكي بن أبي طالب: وهذا النصب على جواب التمني، وذلك بإضمار «أن»، حملاً على مصدر «نرد»، فأضمرت «أن» لتكون مع الفعل مصدراً، فعطف بالواو مصدراً على مصدر. وتقديره: يا ليت لنا رداً، وانتفاءً من التكذيب، وكوناً من المؤمنين.

وقرأ ابن عامر برفع الباء من «نكذب»، ونصب النون من «نكون»؛ فالرفع قد بينا علته، والنصب على جواب التمني.

﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وَقَالُوا إِنَّمَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ﴾ «بل»: هاهنا ردٌ لكلامهم، أي: ليس الأمر على ما قالوا من أنهم لو ردوا لأمنوا. وقال الزجاج: «بل» استدراك وإيجاب بعد نفي؛ تقول: ما جاء زيد، بل عمرو. وفي معنى الآية أربعة أقوال: أحدها: بدا ما كان يخفيه بعضهم عن بعض، قاله الحسن. والثاني: بدا بنطق الجوارح ما كانوا يخفون من قبل بالاستتهم، قاله مقاتل. والثالث: بدا لهم جزاء ما كانوا يخفونه، قاله المبرد. والرابع: بدا للاتباع ما كان يخفيه الرؤساء، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ قال ابن عباس: لعادوا إلى ما نهوا عنه من الشرك، وإنهم لكاذبون في قولهم: ﴿وَلَا تَكْذِبْ بِمَا كُنَّا نَنْهَى عَنْهُ﴾. قال ابن الأنباري: كذبهم الله في إخبارهم عن أنفسهم، أنهم إن رُدُّوا، آمنوا ولم يكذبوا، ولم يكذبهم في التمني.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنَّمَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ هذا إخبار عن منكري البعث. قال مقاتل: لما أخبر النبي ﷺ كفار مكة بالبعث، قالوا هذا. وكان عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقول: هذا حكاية قولهم، لو ردوا لقالوه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَقُولُ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَقُولُ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ قال مقاتل: عُرِضُوا على ربهم ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ العذاب ﴿وَالْحَقُّ﴾. وقال غيره: أليس هذا البعث حقاً؟ فعلى قول مقاتل: ﴿يَمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بالعذاب، وعلى قول غيره: ﴿تَكْفُرُونَ﴾ بالبعث.

﴿فَقَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْشَرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَقْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْثَانَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ اللَّهِ﴾ إنما وُصِفُوا بالخسران، لأنهم باعوا الإيمان بالكفر، فعظم خسارتهم. والمراد ببقاء الله: البعث والجزاء؛ والساعة: القيامة؛ والبغته: المفاجأة. قال الزجاج: كل ما أتى فجأة فقد بغت، يقال: قد بغته الأمر يَبْغِثُهُ بَغْتَةً وبَغْتَةً: إذا أتاه فجأة. قال الشاعر:

وَلَكِنَّهُمْ بَانُوا وَلَمْ أَحْسِنْ بَغْتَةً وَأَفْطَحُ شَيْءٍ حِينَ يَفْجُؤُكَ الْبَغْتُ^(٢)

قوله تعالى: ﴿يَحْشَرُنَا﴾ الحسرة: التلطف على الشيء الفائت، وأهل التفسير يقولون: يا ندامتنا. فإن قيل: ما معنى دعاء الحسرة، وهي لا تعقل؟ فالجواب: أن العرب إذا اجتهدت في المبالغة في الإخبار عن عظيم ما تقع فيه، جعلته نداءً، فَتَذِلُّ عَلَيْهِ «يا» للتنبيه، والمراد تنبيه الناس لا تنبيه المنادي. ومثله قولهم: لا أرىك هاهنا، لفظه لفظ الناهي لنفسه، والمعنى للمنهى؛ ومن هذا قولهم: يا خَيْلُ الله اركبي، يراد: يا فرسان خيل الله. وقال سيبويه: إذا قلت: يا عجباه، فكأنك قلت: احضر. وتعال يا عَجَبْ. فهذا زمانك. فأما التفريط فهو: التضييع. وقال الزجاج: التفريط في اللغة: تقديم العجز^(٣). وفي المكني عنه بقوله: «فيها» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الدنيا، فالمعنى: على ما

(١) هو أبو أحمد عبد الله بن صالح بن مسلم بن صالح المعجلي الكوفي نزيل بغداد، مقرر مشهور ثقة، أخذ القراءة عرضاً عن حمزة الزيات، وعن سليم عن حمزة أيضاً، مات في حدود العشرين ومائتين.

(٢) «مجاز القرآن» ١/ ١٩٣، و «الكامل» ٨٧٨، و «اللسان»: بغت، وهو ليزيد بن ضبة مولى لثيف، واسم أبيه مقسم، وضبة أمه، غلبت على نسيه، لأن أباه مات وخلفه صغيراً. وهو شاعر إسلامي.

(٣) في «اللسان»: وقال الزجاج: «وَكَانَ أَشْرُّ ذِكْكَ»، أي: كان أمره التفريط، وهو تقديم العجز.

ضيعنا في الدنيا من عمل الآخرة، قاله مقاتل. والثاني: أنها الصفة، لأن الخسران لا يكون إلا في صفة، وترك ذكرها اكتفاء بذكر الخسران؛ قاله ابن جرير. والثالث: أنها الطاعة، ذكره بعض المفسرين. فأما الأوزار، فقال ابن قتبية: هي الآثام، وأصل الوزر: الحمل على الظهر. وقال ابن فارس: الوزر: الثقل. وهل هذا الحمل حقيقة؟ فيه قولان: أحدهما: أنه على حقيقته. قال عمير بن هانئ: يحشر مع كل كافر عمله في صورة رجل قبيح، كلما كان هؤلاء عظمه عليه، وزاده خوفاً، فيقول: بشس الجليس أنت، مالي ولك؟ فيقول: أنا عملك، طالما ركبتني في الدنيا، فلأركبك اليوم حتى أخزيك على رؤوس الناس، فيركبه ويتخطى به الناس حتى يقف بين يدي ربه، فذلك قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ وهذا قول السدي، وعمرو بن قيس الملائي^(١)، ومقاتل. والثاني: أنه مثل، والمعنى: يحملون ثقل ذنوبهم، قاله الزجاج. قال فجعل ما ينالهم من العذاب بمنزلة أثقل ما يتحمل، ومعنى ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُونُ﴾: بشس الشيء شيئاً يزونه، أي يحملونه.

﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَبِثٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَبِثٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: وما الحياة الدنيا في سرعة انقطاعها، وقصر عمرها، إلا كالشيء يلعب به. والثاني: وما أمر الدنيا والعمل لها إلا لعب ولهو، فأما فعل الخير، فهو من عمل الآخرة، لا من الدنيا. والثالث: وما أهل الحياة الدنيا إلا أهل لعب ولهو، لاشتغالهم عما أمروا به. واللعب: ما لا يجدي نفعاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ اللام: لام القسم، والدار الآخرة: الجنة ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ فيعملون لها. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، «يعقلون» بالياء، في (الأنعام) و (الأعراف) و (يوسف) و (يس)، وقرأوا في (القصص) بالتاء. وقرأ نافع كل ذلك بالياء، وروى حفص عن عاصم كل ذلك بالتاء، إلا في (يس) ﴿فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (يس: ٦٧)، بالياء. وقرأ ابن عامر الذي في (يس) بالياء، والباقي بالتاء.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّكُمْ لِكَاذِبِينَ﴾ لا يَكُونُ لَكُمْ وَلَكِنْ أَتَيْنَاكُمْ بِآيَاتٍ اللَّهُ يَمْحُذُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّكُمْ لِكَاذِبِينَ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن رجلاً من قريش يقال له: الحارث بن عامر، قال: والله يا محمد ما كذبنا قط فننهكم اليوم، ولكننا إن ننبئك نكُفَّ من أرضنا، فنزلت هذه الآية، رَوَاهُ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وقال مقاتل: كان الحارث بن عامر يكذب النبي في العلانية، فإذا خلا مع أهل بيته، قال: ما محمد من أهل الكذب، فنزلت فيه هذه الآية. والثاني: أن المشركين كانوا إذا رأوا النبي ﷺ، قالوا فيما بينهم: إنه لنبى، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح. والثالث: أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب الذي جئت به، فنزلت هذه الآية، قاله ناجية بن كعب^(٢). وقال أبو يزيد المدني: لقي رسول ﷺ أبا جهل، فصافحه أبو جهل، فقيل له: أنصافح هذا الصابغ؟ فقال: والله إني لأعلم أنه نبي، ولكن متى كنا تبعاً لنبى عبد مناف؟ فأنزل الله هذه الآية. والرابع: أن الأخنس بن شريق لقي أبا جهل، فقال الأخنس: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أصادق هو، أم كاذب؟ فليس هاهنا من يسمع كلامك غيري. فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق، وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء، والسقاية، والحجابة، والنوبة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فنزلت هذه الآية، قاله السدي^(٣). فأما الذي يقولون، فهو التكذيب للنبي ﷺ، والكفر بالله. وفي الآية تسلية للنبي ﷺ وتعزية عما يواجهمون به.

(١) هو أبو عبد الله عمرو بن قيس الملائي الكوفي، ثقة فاضل متعب، مترجم في «التهذيب» وغيره. وقد خرج الطبري أثره ٣٢٧/١١، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٩/٣ وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وإسناد ابن أبي حاتم فيما رواه ابن كثير (١٢٩/٢): حدثنا أبو سعيد الأشج، قال: حدثنا أبو خالد الأحمر عن عمرو بن قيس الملائي عن أبي مرزوق.

(٢) الطبري: ٣٣٤/١١، مرسلاً عن ناجية بن كعب الأسدي، ورواه الترمذي ١٠٣/٤ عن علي، ثم رواه مرسلاً من رواية ناجية بن كعب دون ذكر علي، وقال: وهذا أصح، ورواه الحاكم في «المستدرک» ٣١٥/٢ موصولاً بإسناد آخر غير إسناد الترمذي، وصححه على شرط الشيخين، قال الشيخ أحمد شاکر في «عمدة التفسير» (٢٥/٥): فالواصل زيادة من ثقتين، فهي مقبولة على اليقين، وقد تعقب الذهبي تصحيح الحاكم إياه «على شرط الشيخين» بأنهما لم يخرجها لناجية شيئاً. وهذا صحيح، فإن الشيخين لم يخرجها لناجية بن كعب الأسدي شيئاً، ولكنه تابعي ثقة، فالحديث صحيح، وإن لم يكن على شرطهما.

(٣) الطبري: ٣٣٢/١١.

﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اشْتَغَلْتَ أَنْ تَبْلُغَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَاتِهِ وَكُوْشَاةُ اللَّهِ لَجَمْعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ سبب نزولها: أن الحارث بن عامر أتى النبي ﷺ في نفر من قريش فقال: يا محمد، اتنا بآية كما كانت الأنبياء تأتي قومها بالآيات، فإن فعلت آمنا بك، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. و «كبر»: بمعنى «عظم». وفي إعراضهم قولان: أحدهما: عن استماع القرآن. والثاني: عن اتباع النبي ﷺ. فأما «النفق»، فقال ابن قتيبة: النفق في الأرض: المدخل، وهو السرب. والسلم في السماء: المصعد. وقال الزجاج: النفق: الطريق النافذ في الأرض. والنافق، ممدود: أحد حجرة البربوع يخرقه من باطن الأرض إلى جلد الأرض، فإذا بلغ الجلدة أرقها، حتى إن رابه ريب، دفع برأسه ذلك المكان وخرج، ومنه سمي المنافق، لأنه أبطن غير ما أظهر، كالنافق الذي ظاهره غير بين، وباطنه حفر في الأرض. و «السلم» مشتق من السلامة، وهو الشيء الذي يسلمك إلى مصعدك. والمعنى: فإن استطعت هذا فافعل، وحذف «فافعل»، لأن في الكلام دليلاً عليه. وقال أبو عبيدة: السلم: السبب والمرقا، تقول: اتخذتني سلماً لحاجتك، أي: سبباً. وفي قوله: ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَاتِهِ﴾ قولان: أحدهما: بآية قد سألك إياها، وذلك أنهم سألو نزل ملك، ومثل آيات الأنبياء، كعصا موسى، وناقة صالح. والثاني: بآية هي أفضل من آيتك.

قوله تعالى: ﴿وَكُوْشَاةُ اللَّهِ لَجَمْعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لو شاء أن يطبعهم على الهدى لطبعهم. والثاني: لو شاء لأنزل ملائكة تضطربهم إلى الإيمان، ذكرهما الزجاج. والثالث: لو شاء لأمنوا كلهم، فأخبر أنما تركوا لإيمان بمشيئته، ونافذ قضائه.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا تجهل أنه لو شاء لجمعهم على الهدى. والثاني: لا تجهل أنه يؤمن بك بعضهم، ويكفر بعضهم. والثالث: لا تكونن ممن لا صبر له، لأن قلة الصبر من أخلاق الجاهلين.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: إنما يجيبك من يسمع، والمراد به سماع قبول. وفي المراد بالموتى قولان: أحدهما: أنهم الكفار، قاله الحسن، ومجاهد، وقتادة، فيكون المعنى: إنما يستجيب المؤمنون؛ فأما الكفار، فلا يستجيبون حتى يبعثهم الله، ثم يحشرهم كفاراً، فيجيبون اضطراراً^(١). والثاني: أنهم الموتى حقيقة، ضربهم الله مثلاً؛ والمعنى: أن الموتى لا يستجيبون حتى يبعثهم الله، فكذلك الذين لا يسمعون.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ يعني: المؤمنين والكافرين، فيجازي الكل.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قال ابن عباس: نزلت في رؤساء قريش. و «لولا»: بمعنى «هلا»؛ وقد شرحناها في سورة (النساء). وقال مقاتل: أرادوا بالآية مثل آيات الأنبياء. وقال غيره: أرادوا نزل ملك يشهد له بالنبوة. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: لا يعلمون بأن الله قادر على إنزال الآية. والثاني: لا يعلمون ما عليهم من البلاء في إنزالها، لأنهم إن لم يؤمنوا بها، زاد عذابهم. والثالث: لا يعلمون المصلحة في نزول الآية.

﴿وَمَنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلَمَ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا قَرَّبْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلَمَ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ قال ابن عباس: يريد كل ما دب على الأرض. قال الزجاج: وذكر الجناحين توكيد، وجميع ما خلق لا يخلو إما أن يدب، وإما أن يطير.

(١) قال الطبري ٣٤١/١١: ﴿الْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ يقول: والكفار يبعثهم الله مع الموتى، فجعلهم تعالى ذكره في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتاً، لا يعللون دعاء، ولا يفقهون قولاً، إذ كانوا لا يتدبرون حجج الله، ولا يعتبرون آياته، ولا يتذكرون فينزعون عما هم عليه من تكذيب رسول الله وخلافهم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنَّمْ أَنَا لَكُمْ﴾ قال مجاهد: أصناف مصنفه. وقال أبو عبيدة: أجناس يعرفون الله ويعبدونه. وفي معنى «أمثالكم» أربعة أقوال: أحدها: أمثالكم في كون بعضها يفقه عن بعض، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: في معرفة الله، قاله عطاء. والثالث: أمثالكم في الخلق والموت والبعث، قاله الزجاج. والرابع: أمثالكم في كونها تطلب الغذاء، وتبغى الرزق، وتتوفى المهلك، قاله ابن قتيبة. قال ابن الأنباري: وموضع الاحتجاج من هذه الآية أن الله تعالى رغب في المشركين عقولاً، وجعل لهم أفهاماً ألزمهم بها أن يتدبروا أمر النبي ﷺ ويتمسكوا بطاعته، كما جعل للطير أفهاماً يعرف بها بعضها إشارة بعض، وهدى الذكّر منها لإتيان الأنثى، وفي كل ذلك دليل على نفاذ قدرة المركّب ذلك فيها.

قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ في الكتاب قولان: أحدهما: أنه اللوح المحفوظ. روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس: ما تركنا شيئاً إلا وقد كتبناه في أم الكتاب، وإلى هذا المعنى ذهب قتادة، وابن زيد. والثاني: أنه القرآن. روى عطاء عن ابن عباس: ما تركنا من شيء إلا وقد بيناه لكم. فعلى هذا يكون من العام الذي أريد به الخاص، فيكون المعنى: ما فرطنا في شيء بكم إليه حاجة إلا وبيناه في الكتاب، إما نصاً، وإما مجملًا، وإما دلالة، كقوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يَتَنَبَّأُ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] أي: لكل شيء يحتاج إليه في أمر الدين.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الجمع يوم القيامة. روى أبو ذر قال: انتطحت شاتان عند النبي ﷺ فقال: يا أبا ذر، «أندري فيما انتطحتا؟» قلت: لا. قال: «الكل الله يدري، وسيقضي بينهما»^(١). وقال أبو هريرة: يحشر الله الخلق يوم القيامة، البهائم والدواب والطير وكل شيء، فيبلغ من عدله أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً، فيقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً^(٢). والثاني: أن معنى حشرها: موتها، قاله ابن عباس، والضحاك.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سُدُّوا أَبْصَارَهُمْ﴾ في الظلمات من يشك الله يُضِلُّهُ وَمَنْ يُشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني ما جاء به محمد ﷺ ﴿صُمُّوا﴾ عن القرآن لا يسمعون، ﴿وَبُكِّمُوا﴾ عنه لا ينطقون به، ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: في الشرك والضلالة. ﴿مَنْ يَشْكُ الله يُضِلُّهُ﴾ فيموت على الكفر، ﴿وَمَنْ يُشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وهو الإسلام.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحزمة: «أرايتم» و«أرايتكم» و«أرايت» بالالف في كل القرآن مهموزاً؛ ولين الهزمة نافع في الكل. وقرأ الكسائي بغير همز ولا الف. قال الفراء: العرب تقول: أرايتك، وهم يريدون: أخبرني. فأما عذاب الله، ففي المراد به هاهنا قولان: أحدهما: أنه الموت، قاله ابن عباس. والثاني: العذاب الذي كان يأتي الأمم الخالية، قاله مقاتل. فأما الساعة، فهي القيامة. قال الزجاج: وهو اسم للوقت الذي يصعق فيه العباد، وللوقت الذي يبعثون فيه.

قوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ أي: أندعون صنماً أو حجراً لكشف ما بكم!!! فاحتج عليهم بما لا يدفعونه، لأنهم كانوا إذا مسهم الضر دعوا الله.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ جواب لقوله: «أرايتكم»، لأنه بمعنى أخبروا، كأنه قيل لهم: إن كنتم صادقين، فأخبروا من تدعون عند نزول البلاء بكم؟.

(١) «المسند» ١٦٢/٥ و ١٧٣، و«الطبري» ٣٤٨/١١.

(٢) «الطبري» ٣٤٧/١١، والحاكم ٣١٦/٢ وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وأورد ابن كثير في «تفسيره» ١٣١/٢ ثم قال: وقد روي هذا مرفوعاً في حديث الصور، وخرجه السيوطي في «الدر المنثور» ١١/٣ وزاد نسبة لأبي عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم. وروى مسلم في «صحيحه» ١٩٩٧/٤ عن أبي هريرة مرفوعاً: «لنؤمن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء». والجلحاء: الشاة إذا لم تكن ذات قرن، والقرناء: القرن.

﴿بَلْ إِنَّمَا تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَتَسَوَّنَ مَا تَشْكُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ إِنَّمَا تَدْعُونَ﴾ قال الزجاج: أعلمهم أنهم لا يدعون في الشدائد إلا إياه؛ وفي ذلك أعظم الحجج عليهم، لأنهم عبدوا الأصنام. ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ المعنى: فيكشف الضر الذي من أجله دعوتهم، وهذا على اتساع الكلام مثل قوله: ﴿وَتَسَلَّى الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، أي: أهل القرية. ﴿وَتَتَسَوَّنَ﴾: يجوز أن يكون بمعنى «تتركون»؛ ويجوز أن يكون المعنى: إنكم في ترككم دعاءهم بمنزلة من قد نسيتهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالْقَسَاءِ وَلَمَّا هَمَّ بِفِرْعَوْنَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ في الآية محذوف، تقديره: ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك رسلاً فخالفوهم، فأخذناهم بالبأساء؛ وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الزمانة والخوف، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنها البؤس، وهو الفقر، قاله ابن قتيبة. والثالث: أنها الجوع، ذكره الزجاج. وفي الضراء ثلاثة أقوال: أحدها: البلاء، والجوع، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: النقص في الأموال والأنفس، ذكره الزجاج. والثالث: الأسقام والأمراض، قاله أبو سليمان.

قوله تعالى: ﴿لَمَّا هَمَّ بِفِرْعَوْنَ﴾ أي: لكي يتضرعوا. والتضرع: التذلل والاستكانة، وفي الكلام محذوف تقديره: فلم يتضرعوا..

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا﴾ معناه: «فهلأ». والبأس: العذاب. ومقصود الآية: أن الله تعالى أعلم نبيه ﷺ أنه قد أرسل إلى قوم قبله بلغوا من القسوة أنهم أخذوا بالشدائد، فلم يخضعوا، وأقاموا على كفرهم، وزين لهم الشيطان ضلالتهم فأصروا عليها.

﴿فَلَمَّا شَاؤْنَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فُزِحُوا يِمَّا أَوَّلُوا آخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا شَاؤْنَا دُكِّرُوا بِهِ﴾ قال ابن عباس: تركوا ما وعظوا به. ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يريد رخاء الدنيا وسرورها. وقرأ أبو جعفر، وابن عامر: «فَتَحْنَا» بالتشديد هنا وفي (الأعراف)، وفي (الأنبياء): «فُتِحَتْ»، وفي (القمر): «فَتَحْنَا»، والجمهور على تخفيفهن. قال الزجاج: أبواب كل شيء كان مغلقاً عنهم من الخير، حتى إذا ظنوا أن ما كان نزل بهم، لم يكن انتقاماً، وما فُتح عليهم، فاستحقاقهم، أخذناهم بغتة، أي: فاجأهم عذابنا. وقال ابن الأنباري: إنما أراد بقوله «كل شيء»: التأكيد، كقول القائل: أكلنا عند فلان كل شيء، وكنا عنده في كل سرور، يريد بهذا العموم تكثر ما يصفه والإطنا بفيه، كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]. وقال الحسن: من وسَّع عليه فلم ير أنه لم يُمْكِرْ به، فلا رأي له؛ ومن قُتِرَ عليه فلم ير أنه ينظر له، فلا رأي له، ثم قرأ هذه الآية، وقال: مُكِرَ بالقوم ورب الكعبة، أعطوا حاجاتهم ثم أخذوا^(١).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ في المبلس خمسة أقوال: أحدها: أنه الآيس من رحمة الله ﷻ، رواه الضحاك عن ابن عباس؛ وقال في رواية أخرى: الآيس من كل خير. وقال الفراء: المبلس: اليأس المنقطع رجاءه، ولذلك قيل للذي يسكت عند انقطاع حجته، فلا يكون عنده جواب: قد أبلس. قال العجاج:

يَا صَاحِبَ هَلْ تَعْرِفُ رَسْمًا مُّكْرَسًا قَالَ نَعَمْ أَغْرَرْنَا وَإِنَّا لَكَا^(٢)

أي: لم يجز جواباً. وقيل: المكسر: الذي قد بعرت فيه الإبل، وبؤلت، فيكرب بعضها بعضاً. والثاني: أنه

(١) في «تفسير المنار» ٤١٤/٧: والآية تفيد أن البأساء والضراء وما يقابلهما من السراء والنعماء، مما يتربى ويتهذب به الموقفون من الناس، وإلا كانت النعم أشد وبالاً عليهم من النقم، وهذا ثابت بالاختبار، فلا خلاف في أن الشدائد مصلحة للفساد، وأجدر الناس بالاستفادة من الحوادث المؤمن، كما ثبت في حديث صهيب مرفوعاً في «صحيح مسلم»: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابه سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابه ضراء صبر فكان خيراً له».

(٢) «مجاز القرآن» ١/١٩٣، و«معاني القرآن» للفراء: ٣٣٥، و«الطبري» ١١/٣٦٣، و«الكامل» ٥٣٩، و«اللسان» و«التاج»: بلس.

المفتضح. قال مجاهد: الإبلان: الفضيحة. والثالث: أنه المهلك، قاله السدي. والرابع: أنه المجهود المكروب الذي قد نزل به من الشر ما لا يستطيعه، قاله ابن زيد. والخامس: أنه الحزين النادم، قاله أبو عبيدة، وأنشد لرؤية: وحضرت يوم الخميس الأخماس وفي الوجوه صفرة وإبلان^(١) أي: اكتئاب، وكسوف، وحزن. وقال الزجاج: هو الشديد الحسرة، الحزين، اليائس. وقال في موضع آخر: المبلس: الساكت المتحير.

﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوَرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَلَحِمُوا لِرَبِّ آلَاءَيْنِ ۝١٥﴾

قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوَرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قال ابن السائب: دابرهم: الذي يتخلف في آخرهم. والمعنى: أنهم استوصلوا. وقال أبو عبيدة: دابرهم: آخرهم الذي يدبرهم. قال ابن قتيبة: هو كما يقال: اجتث أصلهم. قال المفسرون: وإنما حمد نفسه على قطع دابرهم، لأن ذلك إنعام على رسلهم الذين كذبوهم، وعلم الحمد على كفايته شر الظالمين.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ﴾ أي: أذهبها، ﴿وَوَخَّمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ حتى لا تعرفون شيئاً ﴿مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ؟﴾ في هاء «به» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها تعود على الفعل، والمعنى: يأتيكم بما أخذ الله منكم، قاله الزجاج. وقال الفراء: إذا كنيت عن الأفاعيل، وإن كثرت، وحذت الكناية، كقولك للرجل: إقبالك وإدبارك يؤذيني. والثاني: أنها تعود إلى الهدى، ذكره الفراء. فعلى هذا تكون الكناية عن غير مذكور، ولكن المعنى يشتمل عليه، لأن من أخذ سمعه وبصره وختم على قلبه لم يهتد. والثالث: أنها تعود على السمع، ويكون ما غطف عليه داخلاً معه في القصة، لأنه معطوف عليه، ذكره الزجاج. والجمهور يقرؤون: ﴿مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ﴾ بكسر هاء «به». وروى المسيبي^(٢) عن نافع: «به أنظر»: بالضم. قال أبو علي: من كسر، حذف الياء التي تلحق الهاء في نحو: بهي عيب؛ ومن ضم، فعلى قول من قال: فحسبنا بهو وبدار هو الأرض، فحذف الواو.

قوله تعالى: ﴿أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ قال مقاتل: يعني تكون العلامات في أمور شتى، فيخوفهم بأخذ الأسماع والأبصار والقلوب، وبما صنع بالأمم الخالية ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾، أي: يعرضون فلا يعتبرون.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝١٧﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ قال الزجاج: البغته: المفاجأة؛ والجهرة: أن يأتيهم وهم يرونه. ﴿هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: هل يهلك إلا أنتم ومن أشبهكم، لأنكم كفرتم معاندين، فقد علمتم أنكم ظالمون.

﴿وَمَا رُسُلُ الْمَرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا وَتَابَيْنَا بِمَسْئِهِمُ الْعَذَابَ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۝١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا رُسُلُ الْمَرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: بالثواب؛ ومنذرين بالعقاب، وليس إرسالهم ليأتوا بما يقترحونه من الآيات. ثم ذكر ثواب من صدق، وعقاب من كذب في تمام الآية والتي بعدها. وقال ابن عباس: يفسقون: بمعنى يكفرون.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا تَعَيَّ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٢٠﴾

(١) «ديوانه» ٦٧، و«مجاز القرآن» ١/ ١٩٢، و«اللسان»: بلس، ورواية «ديوانه» «وعرفت يوم الخميس».

(٢) هو إسحاق بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن المسيب المدني، إمام جليل، عالم بالحديث، قيم في قراءة نافع، ضابط لها، محقق، فقيه. انظر «طبقات الفراء» ١/ ١٥٧.

قوله تعالى: ﴿ثَلَّ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ سبب نزولها: أن أهل مكة قالوا: يا محمد، لو أنزل الله عليك كنزاً فتستغني به، فإنك فقير محتاج، أو تكون لك جنة تأكل منها، فإنك تجوع، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. قال الزجاج: وهذه الآية متصلة بقوله: ﴿قُلْ لَا أَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَةً مِنْ رَبِّي﴾، فأعلمهم أنه لا يملك خزائن الله التي منها يرزق ويعطي، ولا يعلم الغيب فيخبرهم به إلا بوحي، ولا يقول: إنه ملك، لأن الملك يشاهد من أمور الله تعالى ما لا يشاهده البشر. وقرأ ابن مسعود، وابن جبير، وعكرمة، والجاحدي: «إني ملك» بكسر اللام. وفي الأعمى والبصير قولان: أحدهما: أن الأعمى: الكافر، والبصير: المؤمن، قاله ابن عباس وقادة. والثاني: الأعمى: الضال والبصير: المهتدي، قاله سعيد بن جبير ومجاهد. وفي قوله تعالى: ﴿أَنَّا تَنفَكُّوْنَ﴾ قولان: أحدهما فيما بينكم من الآيات الدالة على وحدانيته، وصدق رسوله. والثاني: فيما ضرب لكم من مثل الأعمى والبصير، وأنهما لا يستويا.

﴿وَأَنْذِرْ يَوْمَ الْآزِفِ إِذْ يَحْشُرُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَيْ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ يَوْمَ الْآزِفِ﴾ قال الزجاج: يعني بالقرآن، وإنما ذكر الذين يخافون الحشر دون غيرهم، وإن كان مذكراً لجميع الخلق، لأن الحجة على الخائفين الحشر أظهر، لاعترافهم بالمعاد، فهم أحد رجلين: إما مسلم، فيُنذر ليؤدي حق الله عليه في إسلامه، وإما كفايي، فأهل الكتاب مجمعون على البعث. وذكر الولي والشفيع، لأن اليهود والنصارى ذكرت أنها أبناء الله وأحباءه، فأعلم ﷺ أن أهل الكفر ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع. وقال غيره: ليس لهم من دونه ولي، أي: ليس لهم غير الله ولي ولا شفيع، لأن شفاعته الشافعين بأمره. وقال أبو سليمان الدمشقي: هذه الآية متعلقة بقوله: ﴿وَأَرْجَى إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُذَكِّمَ بِهِ﴾ [الأنعام: ١١٩].

﴿وَلَا تَقْرُؤُ الْآيَةَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَقْطِرُ دُمُوعُهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُؤُ الْآيَةَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ روى سعد بن أبي وقاص قال: نزلت هذه الآية في ستة: فتي، وفي ابن مسعود، وصهيب، وعمار، والمقداد، وبلال. قالت قریش لرسول الله ﷺ: إنا لا نرضى أن نكون أتباعاً لهؤلاء، فاطردهم عنك. فدخل على رسول الله ﷺ من ذلك ما شاء الله أن يدخل، فنزلت هذه الآية^(١). وقال خباب بن الارت: نزلت فينا، كنا ضعفاء عند النبي ﷺ، يعلمنا بالغداة والعشي ما ينفعنا، فجاء الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، فقالا: إنا من أشرف قومنا، وإنا نكره أن يرونا معهم، فاطردهم إذا جالسناك. قال: «نعم». فقالوا: لا نرضى حتى تكتب بيننا كتاباً، فأتي بأديم ودواة، ودعا علياً ليكتب، فلما أراد ذلك، ونحن قعود في ناحية، إذ نزل جبريل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُؤُ الْآيَةَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ فرمى بالصحيفة ودعانا، فأثينا وهو يقول: ﴿سَكُنْمْ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾. فلدنونا نه يومئذ حتى وضعنا ركبنا على ركبته^(٢). وقال ابن مسعود: مرّ الملا من قریش على رسول الله ﷺ وعنده خباب، وصهيب، وبلال، وعمار، فقالوا: يا محمد، رضيت بهؤلاء، أتريد أن نكون تبعاً لهم؟! فنزلت: ﴿وَلَا تَقْرُؤُ الْآيَةَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾^(٣). وقال عكرمة: جاء عتبة، وشيبة ابنا ربيعة، ومطعم بن عدي، والحارث بن نوفل، في أشرف بني عبد مناف، إلى أبي طالب فقالوا: لو أن ابن أخيك يطرد عنه موالينا وعبيدنا كان أعظم في صدورنا، وأدنى لأتباعنا إياه، فأتاه أبو طالب فحدثه بذلك، فقال عمر بن الخطاب: لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون، فنزلت هذه الآيات، فأقبل عمر يعتذر من مقاله^(٤). وروى أبو صالح عن ابن عباس: أن هذه

(١) رواه ابن ماجه ١٣٨٣/٢، ومسلم بنحو مختصر ١٨٧٨/٤، ورواه بنحو الطبري ٣٧٨/١١، وأورده ابن كثير في «تفسيره» ١٣٥/٢ بنحو عن سعد، وقال: رواه الحاكم في «مستدرکه» من طريق سفيان قال: على شرط الشيخين، وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» من طريق المقدم بن شريح به.

(٢) رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» ٣٧٦/١١ بمعناه، وأورده ابن كثير في «تفسيره» ١٣٤/٢ من رواية ابن أبي حاتم وقال: وهذا حديث غريب، فإن الآية مكية، والأقرع بن حابس، وعيينة، إنما أسلموا بعد الهجرة بدهر. ورواه ابن ماجه ١٣٨٣/٢.

(٣) رواه أحمد في «المسند» رقم (٣٩٨٥) وقال الشيخ أحمد شاکر في تعليقه عليه: إسناده صحيح، ورواه الطبري ٣٧٤/١١، ٣٧٥.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» ٣٧٩/١١، ٣٨٠ بأطول منه.

الآيات نزلت في الموالى، منهم بلال، وصهيب، وخباب، وعُتَار، ويهجع، وسلمان، وعامر بن فهيرة، وسالم مولى أبي حذيفة؛ وأن قوله: ﴿وَأَنْذِرْ يَٰ آلِ زَيْنٍ يَخَافُونَ أَنْ يُبْسَرُوا لَكَ رَيْهَمٌ﴾ نزلت فيهم أيضاً. وقد روى العوفي عن ابن عباس: أن ناساً من الأشراف قالوا للنبي ﷺ: نؤمن لك، وإذا صلينا فأخّر هؤلاء الذين معك، فليصلوا خلفنا. فعلى هذا، إنما سألوهم تأخيرهم عن الصف، وعلى الأقوال التي قبله، سألوهم طردهم عن مجلسه.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ في هذا الدعاء خمسة أقوال: أحدها: أنه الصلاة المكتوبة، قاله ابن عمر، وابن عباس. وقال مجاهد: هي الصلوات الخمس؛ وفي رواية عن مجاهد، وقتادة قالوا: يعني صلاة الصبح والعصر. وزعم مقاتل أن الصلاة يومئذ كانت ركعتين بالغداة، وركعتين بالعشي؛ ثم فرضت الصلوات الخمس بعد ذلك. والثاني: أنه ذكر الله تعالى، قاله إبراهيم النخعي، وعنه كالقول للأول. والثالث: أنه عبادة الله، قاله الضحاك. والرابع: أنه تعلم القرآن غداة وعشية، قاله أبو جعفر. والخامس: أنه دعاء الله بالتوحيد، والإخلاص له، وعبادته، قاله الزجاج. وقرأ الجمهور: «بالغداة»؛ وقرأ ابن عامر هاهنا وفي (الكهف) أيضاً: «بالغدوة» بضم الغين وإسكان الدال ويعدها واو. قال الفراء: والعرب لا تدخل الألف واللام على «الغدوة»، لأنها معرفة بغير ألف ولام، ولا تضيفها العرب؛ يقولون: أتيتك غداة الخميس، ولا يقولون: غُدوة الخميس، فهذا دليل على أنها معرفة. وقال أبو علي: الوجه: الغداة، لأنها تستعمل نكرة، وتتعرف باللام؛ وأما غُدوة، فمعرفة. وقال الخليل: يجوز أن تقول: أتيتك اليوم غُدوة ويكرة، فجعلها بمنزلة ضحوة، فهذا وجه قراءة ابن عامر. فإن قيل: دعاء القوم كان متصلاً بالليل والنهار، فلماذا خص الغداة والعشي؟ فالجواب: أنه نبه بالغداة على جميع النهار، وبالعشي على الليل، لأنه إذا كان عمل النهار خالصاً له، كان عمل الليل أصفى.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ قال الزجاج: أي يريدون الله، فيشهد الله لهم بصحة النيات، وأنهم مخلصون في ذلك. وأما الحساب المذكور في الآية، ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه حساب الأعمال، قاله الحسن. والثاني: حساب الأرزاق. والثالث: أنه بمعنى الكفاية؛ والمعنى: ما عليك من كفايتهم، ولا عليهم كفايتك.

قوله تعالى: ﴿تَتَكَوَّنُ مِنْ أَلْطَلِيلِ﴾ قال ابن الأنباري؛ عظم هذا الأمر على النبي ﷺ، وخَوْفٌ بالدخول في جملة الظالمين، لأنه كان قد هم بتقديم الرؤساء على الضعفاء.

﴿رَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ يَقُولُوا أَهْلَكَنَا مَرَكُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنَاتٍ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿رَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ المعنى: وكما ابتلينا قبلك الغني بالفقر، ابتلينا أيضاً بعضهم ببعض. و«فتنا» بمعنى: ابتلينا واختبرنا؛ «يَقُولُوا»، يعني الكبراء؛ «أَهْلَكَنَا»، يعنون الفقراء والضعفاء «مَرَكُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ» بالهedy؟ وهذا استفهام معناه الإنكار، كأنهم أنكروا أن يكونوا سبقوهم بفضيلة. قال ابن السائب: ابتلى الله الرؤساء بالموالي؛ فإذا نظر الشريف إلى الوضع قد آمن قبله، أنف أن يسلم، ويقول: سبقني هذا؟

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أي: بالذين يشكرون نعمته إذا مرَّ عليهم بالهداية. والمعنى: إنما يهدي الله من يعلم أنه يشكر. والاستفهام في «أليس»، معناه التقرير، أي: إنه كذلك.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنْتُمْ مِّنْ عِوَالِ مِّنْكُمْ سُوءًا بِجَهَلِكُمْ ثُمَّ قَاتَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَوُّوا رَجِعُوا﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ اختلفوا فيمن نزلت على خمسة أقوال: أحدها: أنها نزلت في رجال أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا أصبنا دنوباً عظيمة، فسكت عنهم رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية^(١)، قاله أنس بن مالك. والثاني: أنها نزلت في الذين نهي عن طردهم، فكان النبي ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلام، وقال: «الحمد لله الذي

(١) رواه الطبري في «تفسيره» ١١/٣٩٠، ٣٩١ من طريق مجمع بن صمعان قال: سمعت ما هان. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» وزاد نسبت إلى القرطبي وعبد بن حميد، ومسدد، وابن المنذر، وأبي الشيخ، وابن أبي حاتم. وما هان هو أبو سالم الكوفي الأعور، ثقة عابد، روى عن ابن عباس وأما سلمة، قتله الحجاج سنة ثلاث وثمانين.

جعل في أمي من أمرني أن أبدأهم بالسلام»، قاله الحسن، وعكرمة. والثالث: أنها نزلت في أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وحزمة، وجعفر، وعثمان بن مظعون، وأبي عبيدة، ومصعب بن عمير، وسالم، وأبي سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم، وعمار، وبلال، قاله عطاء. والرابع: أن عمر بن الخطاب كان أشار على رسول الله ﷺ بتأخير الفقراء، استمالة للرؤساء إلى الإسلام. فلما نزلت: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ دِيْنَهُمْ﴾، جاء عمر يعتذر من مقالته ويستغفر منها، فنزلت فيه هذه الآية، قاله ابن السائب. والخامس: أنها نزلت مبشرة بإسلام عمر بن الخطاب؛ فلما جاء وأسلم، تلاها عليه رسول الله ﷺ، حكاه أبو سليمان الدمشقي. فأما قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا نُنَزِّلُ﴾ فمعناه: يصدقون بحججنا وبراهيننا.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه أمر بالسلام عليهم تشريفاً لهم؛ وقد ذكرناه عن الحسن، وعكرمة. والثاني: أنه أمر بإبلاغ السلام إليهم عن الله تعالى، قاله ابن زيد. قال الزجاج: ومعنى السلام: دعاء للإنسان بأن يسلم من الآفات. وفي السوء قولان: أحدهما: أنه الشرك. والثاني: المعاصي. وقد ذكرنا في سورة (النساء) معنى «الجهالة». قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «إنه من عمل منكم سوءاً» «فإنه غفور» بكسر الالف فيهما. وقرأ عاصم، وابن عامر: بفتح الالف فيهما. وقرأ نافع: بتصب ألف «أنه» وكسر ألف «فإنه غفور». قال أبو علي: من كسر ألف «إنه» جعله تفسيراً للرحمة؛ ومن كسر ألف «فإنه غفور» فلأن ما بعد الفاء حكمه الابتداء، ومن فتح ألف «أنه» من عمل «جعل» بدلاً من الرحمة، والمعنى: كتب ربكم «أنه من عمل»، ومن فتحها بعد الفاء، أضمر خبراً تقديره: فله: «أَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» والمعنى: فله غفرانه. وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْكَبْكُمْ قَارِجَهُنَّ﴾ [النوبة: ٦٣]، معناه: فله أن له نار جهنم. وأما قراءة نافع، فإنه أبدل من الرحمة، واستأنف ما بعد الفاء.

﴿وَكَذَلِكَ نُنْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٥٩)

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْصِلُ الْآيَاتِ﴾ أي: وكما فصلنا لك في هذه السورة دلائلنا وأعلامنا على المشركين، كذلك نبين لك حججتنا في كل حق ينكره أهل الباطل. قال ابن قتيبة؛ ومعنى تفصيلها: إتيانها متفرقة شيئاً بعد شيء.

قوله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: «ولتستبين» بالياء، «سبيل» بالرفع. وقرأ نافع، وزيد عن يعقوب: بالياء أيضاً، إلا أنهما نصباً السبيل. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «وليتستبين» بالياء، «سبيل» بالرفع. فمن قرأ «ولتستبين» بالياء أو التاء، فلأن السبيل تذكر وتؤنث على ما بينا في (آل عمران)، ومن نصب اللام، فالمعنى: ولتستبين أنت يا محمد سبيل المجرمين. وفي سبيلهم التي بُيِّنَتْ له، قولان: أحدهما: أنها طريقهم في الشرك، ومصيرهم إلى الخزي، قاله ابن عباس. والثاني: أنها مقصودهم في طرد الفقراء عنه، وذلك إنما هو الحسد، لا إثارة مجالسته وأتباعه، قاله أبو سليمان. فإن قيل: كيف انفردت لام «كي» في قوله: «ولتستبين» وسبيلها أن تكون شرطاً لفعل يتقدمها أو يأتي بعدها؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري بجوابين: أحدهما: أنها شرط لفعل مضمر، يراد به: ونفعل ذلك لكي تستبين. والثاني: أنها معطوفة على لام مضمرة، تأويله: نفصل الآيات لينكشف أمرهم، ولتستبين سبيلهم.

﴿قُلْ إِنِّي مُبَشِّرُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَدْ ضَلَّكُم إِذَا مَا أَنَا مِنَ الْغَاثِ الْغَاثِ﴾ (٦١)

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي مُبَشِّرُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يعني الأصنام. وفي معنى «تدعون» قولان: أحدهما: تدعونهم آلهة. والثاني: تعبدون؛ قاله ابن عباس. وأهواؤهم: دينهم. قال الزجاج: أراد إنما عبدتموها على طريق الهوى، لا على طريق البيئنة والبرهان. ومعنى «إذَا» معنى الشرط؛ والمعنى: قد ضللت إن عبدتها. وقرأ طلحة، وابن أبي ليلي: «قد ضللت» بكسر اللام.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَحْصَىٰ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِينَ﴾ (٦٢)

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ سبب نزولها أن النضر بن الحارث وسائر قريش قالوا للنبي ﷺ: يا محمد اتننا بالعذاب الذي تعدُّنا به، استهزاءً؛ وقام النضر عند الكعبة وقال: اللهم إن كان ما يقول حقاً، فانتنا بالعذاب؛

فترلت هذه الآية؛ رواه أبو صالح عن ابن عباس. فأما البيّنة، فهي الدلالة التي تفصل بين الحق والباطل. قال الزجاج: أنا على أمرين، لا متبّع لهوى.

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ بِهِ كَافِرًا﴾ في هاء الكناية، ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الرب. والثاني: ترجع إلى البيان. والثالث: ترجع إلى العذاب الذي طلبوه استهزاء.

قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي: ما بيدي. وفي الذي استعجلوا به قولان: أحدهما: أنه العذاب؛ قاله ابن عباس، والحسن. والثاني: أنه الآيات التي كانوا يقتربونها؛ ذكره الزجاج.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَلْهَمَكُمْ إِلَّا إِلَهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الحكم الذي يفصل به بين المختلفين بإيجاب الثواب والعقاب. والثاني: أنه القضاء بإتزال العذاب على المخالف.

قوله تعالى: ﴿يَقْضُ الْحَقُّ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، ونافع ﴿يَقْضُ الْحَقُّ﴾ بالصاد المشددة، من القصص؛ والمعنى: أن كل ما أخبر به فهو حق. وقرأ أبو عمرو، وابن عمر، وحزمة، والكسائي: «يقضي الحق» من القضاء؛ والمعنى: يقضي القضاء الحق.

﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي: من العذاب ﴿لَقَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ قال ابن عباس: يقول: لم أمهلكم ساعة، ولأهلككم.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن المعنى: إن شاء عاجلهم، وإن شاء أخر عقوبتهم. والثاني: أعلم بما يؤول إليه أمرهم، وأنه قد يهتدي منهم قوم، ولا يهتدي آخرون؛ فذلك يؤخرهم.

﴿وَعِنْدُ مَنَاقِبِ الْغَيْبِ لَا يَمْلِكُهَا إِلَّا هُوَ وَمَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا بَكْبَكٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَعِنْدُ مَنَاقِبِ الْغَيْبِ﴾ قال ابن جرير: المفاتيح: جمع مفتاح؛ يقال: مفتاح ومفتاح، فمن قال: مفتاح، جمعه: مفاتيح. ومن قال: مفتاح، جمعه: مفاتيح. وفي «مفاتيح الغيب» سبعة أقوال: أحدها: أنها خمس لا يعلمها إلا الله ﷻ. روى البخاري في أفرادها من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله، لا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا تعلم نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى ينزل الغيث إلا الله»^(١) قال ابن مسعود: «أوتيت نبؤكم علم كل شيء إلا مفاتيح الغيب»^(٢). والثاني: أنها خزائن غيب السموات من الأقدار والأرزاق، قاله ابن عباس. والثالث: ما غاب عن الخلق من الثواب والعقاب، وما تصير إليه الأمور، قاله عطاء. والرابع: خزائن غيب العذاب، متى ينزل، قاله مقاتل. والخامس: الوصلة إلى علم الغيب إذا استغلم، قاله الزجاج. والسادس: عواقب الأعمار وخواتيم الأعمال. والسابع: ما لم يكن، هل يكون، أم لا يكون؟ وما يكون كيف يكون وما لا يكون، إن كان، كيف يكون؟ فأما البر، فأمّا البر، فهو القفر. وفي البحر قولان: أحدهما: أنه الماء، قاله الجمهور. والثاني: أنه القرى، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ قال الزجاج: المعنى: أنه يعلمها ساقطة وثابتة، كما تقول: ما يجيشك أحد إلا وأنا أعرفه، ليس تأويله: أعرفه في حال مجيئه فقط. فأما ظلمات الأرض، فالمراد بها بطن الأرض.

(١) «المسند» ٧/٧، والبخاري: ٢١٩/٨، «وصحاح ابن حبان» ٦٩/١، ٧٠.
 (٢) الطبري: ٤٠١/١١، ورواه أحمد في «المسند» ٢٤١/٥ بلفظ: «أوتيت نبؤكم مفاتيح كل شيء غير خمس» (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ يَلْمُ الْكَافِرَ وَيَزِيلُ الْقَيْثَ وَيَكْرَهُ مَا فِي الْأَرْضِ وَمَا تَدْرِي قَسْرًا تَدْرِي قَسْرًا يَأْتِي الْأَرْضَ تَوْرًا إِنَّ اللَّهَ يَلْمُ خَيْرًا) قال الشيخ أحمد شاذلي في تعليقه على «المسند»: إسناده صحيح، وذكره ابن كثير في «التفسير» ٤٧٤/٦ عن هذا الموضع، ثم قال: «وكذا رواه عن محمد بن جعفر عن شعبة عن عمرو بن مرة به وزاد في آخره: قال: قلت له: أنت سمعته من عبد الله؟ قال: نعم أكثر من خمسين مرة، ورواه أيضاً عن وكيع عن مسعر عن عمرو بن مرة به، وهذا إسناد حسن على شرط «السنن» ولم يخرجوه». وهو أيضاً في «مجمع الزوائد» ٢٦٣/٨، وقال: رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح. ورواه أحمد أيضاً في «المسند» ٣١٧/٧ من حديث ابن عمر مرفوعاً بلفظ: «أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس...».

وفي الرطب واليابس، خمسة أقوال: أحدها: أن الرطب: الماء، واليابس: البادية. والثاني: الرطب: ما يُنبت، واليابس: ما لا يُنبت. والثالث: الرطب: الحي، واليابس: الميت. والرابع: الرطب: لسان المؤمن يذكر الله، واليابس: لسان الكافر لا يتحرك بذكر الله. والخامس: أنهما الشيء ينتقل من إحدى الحالتين إلى الأخرى، فهو يعلمه رطباً، ويعلمه يابساً. وفي الكتاب المبين قولان: أحدهما: أنه اللوح المحفوظ؛ قاله مقاتل. والثاني: أنه علم الله المتقن؛ ذكره الزجاج. فإن قيل: ما الفائدة في إحصاء هذه الأشياء في كتاب؟ فعنه ثلاثة أجوبة، ذكرهن ابن الأنباري: أحدها: أنه أحصاها في كتاب لتقف الملائكة على نفاذ علمه. والثاني: أنه نبه بذلك عباده على تعظيم الحساب، وأعلمهم أنه لا يفوته ما يصنعون، لأن من ثبت ما لا ثواب فيه ولا عقاب، فهو إلى إثبات ما فيه ثواب وعقاب أسرع. والثالث: أن المراد بالكتاب: العلم؛ فالمعنى: أنها مثبتة في علمه.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَكَّلُكُمْ بِأَيْدِيهِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٧)

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَكَّلُكُمْ بِأَيْدِيهِ﴾ يريد به النوم، لأنه يقبض الأرواح عن التصرف بالنوم، كما يقبض بالموت. وقال ابن عباس: يقبض أرواحكم في منامكم. وجرحتم: بمعنى كسبتم. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ أي: يوقظكم فيه، أي: في النهار. ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: لتبلغوا الأجل المسمى لانقطاع حياتكم، فدل بالبقطة بعد النوم على البعث بعد الموت.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ﴾ (١٨)

قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ الحفظة: الملائكة، واحدهم: حافظ، والجمع: حفظة، مثل كاتب وكتبة، وفاعل وفعله. وفيما يحفظونه قولان: أحدهما: أعمال بني آدم؛ قاله ابن عباس. والثاني: أعمالهم وأجسادهم، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وقرأ حمزة: «توفاه رسلنا» وحجته أنه فعل مسند إلى مؤنث غير حقيقي، وإنما التأنيث للجمع، فهو مثل: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ [يوسف: ٣٠]. وفي المراد بالرسل ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أعوان ملك الموت، قاله ابن عباس. وقال النخعي: أعوانه يتوفون النفوس، وهو يأخذها منهم. والثاني: أن المراد بالرسل ملك الموت وحده، قاله مقاتل. والثالث: أنهم الحفظة، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ﴾ قال ابن عباس: لا يضيعون. فإن قيل: كيف الجمع بين قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وبين قوله: ﴿قُلْ بِتَوَفَّيْكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾؟ [السجدة: ١١] فعنه جوابان: أحدهما: أنه يجوز أن يريد بالرسل ملك الموت وحده، وقد يقع الجمع على الواحد. والثاني: أن أعوان ملك الموت يفعلون بأمره، فأضيف الكل إلى فعله. وقيل: تَوَفَّيْ أعوان ملك الموت بالترفع، وتَوَفَّيْ ملك الموت بأن يأمر الأرواح فتجيب، ويدعوها فتخرج، وتَوَفَّيْ الله تعالى بأن يخلق الموت في الميت.

﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَىٰ آلِهِم مَّا كَانُوا فِيهِ أَوْ إِلَىٰ سَائِرَ مَوَاطِنَ الْأُولَىٰ أَلَمْ يَكُن لَّهُمْ لَحَافَةٌ أَنَّهُمْ كَانُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعِينَ﴾ (١٩)

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَىٰ آلِهِم مَّا كَانُوا فِيهِ أَوْ إِلَىٰ سَائِرَ مَوَاطِنَ الْأُولَىٰ﴾ يعني العباد. وفي متولي الرد قولان: أحدهما: أنهم الملائكة، ردّتهم بالموت إلى الله تعالى. والثاني: أنه الله ﷻ، ردّهم بالبعث في الآخرة. وفي معنى ردّهم إلى الله تعالى، قولان: أحدهما: أنهم ردوا إلى المكان الذي لا يملك الحكم فيه إلا الله وحده. والثاني: أنهم ردوا إلى تدبيره وحده؛ لأنه لما أنشأهم كان منفرداً بتدبيرهم، فلما مكّنهم من التصرف صاروا في تدبير أنفسهم، ثم كفهم عنه بالموت، فصاروا مردودين إلى تدبيره.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُن لَّهُمْ لَحَافَةٌ﴾ يعني القضاء. وبيان سرعة الحساب في (البقرة) (١).

(١) يعني: تقدم بيان سرعة الحساب في سورة (البقرة) عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ لَهُمْ صِيبٌ نِّمًا كَسَبُوا﴾ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩).

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ تَدْعُوهُمْ فَضَرَمًا وَخَفِيَةً لَيْنَ أُنْجِنَا مِنْ هَٰذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿٦٣﴾ قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُنْقَرُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ﴾ قرأ عاصم، وحزمة، والكسائي، وأبو جعفر: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ﴾ ﴿قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ﴾، مشدّدين. وقرأ يعقوب، والقزاز عن عبد الوارث: بسكون النون وتخفيف الجيم. قال الزجاج: والمشدّدة أجود للكثرة. وظلمات البر والبحر: شدائدها؛ والعرب تقول لليوم الذي تلقى فيه شدة: يوم مظلم، حتى إنهم يقولون: يوم ذو كواكب، أي: قد اشتدت ظلمته حتى صار كالليل. قال الشاعر:

فَدَيْ لِبَنِي دَهْلٍ بَنِي شَيْبَانَ نَاقِيَتِي إِذَا كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبٍ أَشْنَعًا^(١)

قوله تعالى: ﴿تَدْعُوهُمْ فَضَرَمًا﴾ أي: مظهرين الضراعة، وهي شدة الفقر إلى الشيء، والحاجة.

قوله تعالى: ﴿وَخَفِيَةً﴾ قرأ عاصم إلا حفصاً: «وخفية» بكسر الخاء؛ وكذلك في (الأعراف). وقرأ الباقون بضم الخاء، وهما لغتان. قال الفراء: وفيها لغة أخرى بالواو، ولا تصلح في القراءة، خُفوة، وخَفُوة. ومعنى الكلام، أنكم تدعون في أنفسكم، كما تدعونه ظاهراً: ﴿لَيْنَ أُنْجِنَا﴾، كذلك قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو: «لئن أنجيتنا»، وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: «لئن أنجانا» بالفتح، لمكان الغيبة في قوله: «تدعون». وكان حمزة، والكسائي، وخلف، يُميلون الجيم.

قوله تعالى: ﴿مِنْ هَٰذِهِ﴾ يعني: في أي شدة وقعتم، قلتم: ﴿لَيْنَ أُنْجِنَا مِنْ هَٰذِهِ﴾. قال ابن عباس: و «الشاكرون» هاهنا: المؤمنون. وكانت قريش تسافر في البر والبحر، فإذا ضلوا الطريق وخافوا الهلاك، دَعَوْا الله مخلصين فأنجاهم. فأما «الكرب» فهو الغم الذي يأخذ بالنفس، ومنه اشتقت الكربة.

﴿قُلْ هُوَ الْغَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَتْ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيَرْزُقَكُمْ بِأَسْبَغٍ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَكْبَدَ لِمَالِهِمْ يَقْفَهُوكَ﴾ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْغَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَتْ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن الذي فوقهم: العذاب النازل من السماء، كما خُصب قوم لوط، وأصحاب الفيل. والذي من تحت أرجلهم: كما خُسف بقارون، قاله ابن عباس، والسدي، ومقاتل. وقال غيرهم: ومنه الطوفان، والريح، والصيحة، والرجفة. والقول الثاني: أن الذي من فوقهم: من قِبَل أمرائهم. والذي من تحتهم: من سَفَلَتهم، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وقال في رواية أخرى: الذي من فوقهم: أئمة السوء؛ والذي من تحت أرجلهم: عبيد السوء.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾ قال ابن عباس: يَبِث فيكم الأهواء المختلفة، فتصبرون فرقاً. قال ابن قتيبة: يلبسكم: من الالتباس عليهم^(٢). والمعنى: حتى تكونوا شيعاً، أي: فرقاً مختلفين. ثم يذيق بعضكم بأس بعض بالقتال والحرب. وقال الزجاج: يلبسكم، أي: يخلط أمركم خلط اضطراب، لا خلط اتفاق. يقال: لَبِستُ عليهم الأمر، ألبسه: إذا لم أئيّه. ومعنى شيعاً: أي يجعلكم فرقاً، فإذا كتتم مختلفين، قاتل بعضكم بعضاً.

قوله تعالى: ﴿وَيَرْزُقَكُمْ بِأَسْبَغٍ﴾ أي: يقتل بعضكم بيد بعض. وفيمن غني بهذه الآية، ثلاثة أقوال: أحدها:

(١) البيت أنشده سيبويه في «الكتاب» ٢١/١، ونسبه لمقاس العائذي، واسمه مسهر بن النعمان بن عمرو بن ربيعة بن تيم بن الحارث... وهو شاعر جاهلي كما نص عليه ابن دريد في «الاشتقاق»، وذكر المرزباني أنه مخضرم. ورواية الشطر الثاني عند سيبويه: «إِذَا كَانَ يَوْمٌ ذُو كَوَاكِبٍ أَشْنَعُ»

وأورد بعده لعمرو بن شاس بيتاً آخر هو:

بَنِي أَسَدٍ هَلْ تَعْلَمُونَ بِلَادَنَا إِذَا كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبٍ أَشْنَعًا

فالمصنف لفق البيت من البيتين، قال الأعمش: أراد: وقع يوم، أو حضر يوم، ونحو ذلك مما يقتصر فيه على الفاعل، وأراد باليوم يوماً من أيام الحرب، وصفه بالشدّة، فجعله كالليل تبدو فيه الكواكب، ونسبه إلى الشبهة، إما لكثرة السلاح الصقيلة فيه، وإما لما ذكره من النجوم، وذهل بن شيبان بن بني بكر بن وائل، وكان مقاس نازلاً فيهم، وأصله من قريش من عاتكة، وهم حي منهم.

(٢) في «غريب القرآن»: من الالتباس عليكم.

أنها في المسلمين أهل الصلاة، هذا مذهب ابن عباس، وأبي العالية، وقتادة. وقال أبي بن كعب في هذه الآية: هن أربع خلل، وكلهن عذاب، وكلهن واقع قبل يوم القيامة، فمضت اثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة، ألبسوا شيعاً، وأذيق بعضهم بأس بعض. وثنتان واقعتان لا محالة: الخسف، والرجم^(١). والثاني: أن العذاب للمشركين، وباقى الآية للمسلمين، قاله الحسن. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة، سألته أن لا يصيبكم بعذاب أصاب به من كان قبلكم، فأعطانيها، وسألته أن لا يسلط عليكم عدواً يستبيح بيضتكم فأعطانيها، وسألته أن لا يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض، فمنعنيها»^(٢). والثالث: أنها تهذد للمشركين، قاله ابن جرير الطبري، وأبو سليمان الدمشقي.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِبَكِيلٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ في هاء «به» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها كناية عن القرآن. والثاني: عن تصريف الآيات. والثالث: عن العذاب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِبَكِيلٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: لست حفيظاً على أعمالكم لأجازيكم بها، إنما أنا منذر، قاله الحسن. والثاني: لست حفيظاً عليكم، أخذكُم بالإيمان، إنما أدعوكم إلى الله، قاله الزجاج.

فصل

وفي هذا القدر من الآية قولان: أحدهما: أنه اقتضى الاقتصار في حقهم على الإنذار من غير زيادة، ثم نسخ ذلك بآية السيف. والثاني: أن معناه: لست حفيظاً عليكم، إنما أطلبكم بالظواهر من الإقرار والعمل، لا بالأسرار؛ فعلى هذا هو محكم.

﴿لَكُلِّ بَرٍّ مٌسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَكُلِّ بَرٍّ مٌسْتَقَرٌّ﴾ أي: لكل خير يخبر الله به وقت يقع فيه من غير خلف ولا تأخير. قال السدي: فاستقر بنا القرآن بما كان يهدم من العذاب يوم بدر. وقال مقاتل: منه في الدنيا يوم بدر، وفي الآخرة جهنم.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِنَّمَا يُغِيثُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدَ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ فيمن أريد بهذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: المشركون. والثاني: اليهود. والثالث: أصحاب الأهواء. والآيات: القرآن. وخوض المشركين فيه: تكذيبهم به واستهزاؤهم، ويقاربه خوض اليهود، وخوض أهل الأهواء بالمراء والخصومات.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: فاترك مجالستهم، حتى يكون خوضهم في غير القرآن. ﴿وَإِنَّمَا يُغِيثُكَ﴾ وقرأ ابن عامر: «يُغِيثُكَ»، بفتح النون، وتشديد السين، والنون الثانية. ومثل هذا: غَرَمْتُه وأغرَمْتُهُ. وفي التنزيل: ﴿يَهْدِي الْكُفْرَ بَيْنَهُمْ﴾ [الطارق: ١٧]. والمعنى: إذا أسناك الشيطان، فقعدت معهم ناسياً نَهْيَنا لك، فلا تقعد بعد الذكرى. والذكر والذكرى: واحد. قال ابن عباس: قم إذا ذكرته؛ والظالمون: المشركون.

(١) «المسند» ١٣٤/٥، ١٣٥، «الطبري» ٤٢٢/١١، وخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢١/٧، ثم قال: رواه أحمد ورجاله ثقات، قلت: - أي الهيثمي -: والظاهر أن من قوله: «فمضت اثنتان إلى آخره» من قول رفيع: (يعني أبا العالية) فإن أبي بن كعب لم يتأخر إلى زمن الفتنة. وقال الحافظ في «الفتح» ٢٢٠/٨: وقد أعل هذا الحديث بأن أبي بن كعب لم يدرك سنة خمس وعشرين من الوفاة النبوية، فكان حديثه انتهى عند قوله: «لا محالة» والباقي من كلام بعض الرواة، وأعل أيضاً بأنه مخالف لحديث جابر وغيره، وأجيب بأن طريق الجمع أن الإعادة المذكورة في حديث جابر وغيره مقيدة بزمان مخصوص، وهو وجود الصحابة، والقرون الفاضلة، وقد روى أحمد والترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص قال: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾ إلى آخرها فقال: أما إنها كانت، ولم يأت تأويلها بعد، وهذا يحتمل أن لا يخالف حديث جابر بأن المراد بتأويلها ما يتعلق بالفتن ونحوها.

(٢) «صحيح مسلم» ٢٢١٦/٤ عن سعد بن أبي وقاص، «المسند» ٢٤٠/٥، «ابن ماجه» ١٣٠٣/٢ عن معاذ بن جبل ؓ، وقال البوصيري في «زوائد»: إسناده صحيح، رجاله ثقات.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾^(١)
 قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن المسلمين قالوا: لئن كنا كلما استهزأ المشركون بالقرآن، وخاضوا فيه، فمنعناهم، لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام، ولا أن نطوف بالبيت، فنزلت هذه الآية. والثاني: أن المسلمين قالوا: إنا نخاف الإثم إن لم ننههم عن الخوض، فنزلت هذه الآية. والثالث: أن المسلمين قالوا: لو قمنا عنهم إذا خاضوا، فإنا نخشى الإثم في مجالستهم، فنزلت هذه الآية. هذا عن مقاتل، والأولان عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: يتقون الشرك. والثاني: يتقون الخوض.
 قوله تعالى: ﴿وَنَنْتَهِجُكُمْ﴾ يعني: حساب الخائضين. وفي «حسابهم» قولان: أحدهما: أنه كفرهم وأثامهم. والثاني: عقوبة خوضهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ ذَكَرُوا﴾ أي: ولكن عليكم أن تذكروهم. وفيما تذكروهم به، قولان: أحدهما: الموعظ. والثاني: قيامكم عنهم. قال مقاتل: إذا قمتم عنهم، منعهم من الخوض الحياء منكم، والرغبة في مجالستكم.
 قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: يتقون الاستهزاء. والثاني: يتقون الرعيد.

فصل

وقد ذهب قوم إلى أن هذه الآية منسوخة، لأنها اقتضت جواز مجالسة الخائضين والاعتصار على تذكيرهم، ثم نسخت بقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]. والصحيح أنها محكمة، لأنها خير، وإنما دلت على أن كل عبد يختص بحساب نفسه، ولا يلزمه حساب غيره.
 ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ وَغَرَّتُهُمْ الْخَيْرَةُ الْأَلْتِي وَذَكَّرُوا بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَقْلٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَقُولَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم الكفار. والثاني: اليهود والنصارى. وفي اتخاذهم دينهم لعباً ولهواً، ثلاثة أقوال: أحدها: أنه استهزأهم بآيات الله إذا سمعوها. والثاني: أنهم دانوا بما اشتبهوا، كما يُلَهَّوْنَ بما يشتهون. والثالث: أنهم يحافظون على دينهم إذا اشتبهوا، كما يلهون إذا اشتبهوا. قال الفراء: ويقال: إنه ليس من قوم إلا ولهم عيد، فهم يُلَهَّون في أعيادهم، إلا أمة محمد ﷺ فإن أعيادهم صلاة وتكبير وبر وخير.

فصل

وللعلماء الناسخ والمنسوخ في هذا القدر من الآية، قولان: أحدهما: أنه خرج مخرج التهديد، كقوله: ﴿ذَرِّ وَمَنْ خَلَقْتَ رَجِيْدًا﴾ [المدثر: ١١] فعلى هذا، هو محكم، وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد. والثاني: أنه اقتضى المسامحة لهم والإعراض عنهم، ثم نسخ بآية السيف؛ وإلى هذا ذهب قتادة، والسدي.
 قوله تعالى: ﴿وَذَكَّرُوا بِهِ﴾ أي: عظ بالقرآن. وفي قوله: ﴿أَنْ تُبْسَلَ﴾ قولان: أحدهما: لثلا تبسل نفس، كقوله: ﴿أَنْ تَبْسَلَ﴾ [النساء: ١٧٦]. والثاني: ذكرهم بإسالة المسلمين بجناياتهم لعلهم يخافون. وفي معنى «تبسل» سبعة أقوال: أحدها: تُسَلَّم، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، ومجاهد، والسدي. وقال ابن قتيبة: تُسَلَّم إلى الهلكة. قال الشاعر:

وإِسَالِي بِنْسِي بِغَيْرِ جُرْمٍ بَعَوْنَاهُ وَلَا بِسَلَمٍ مُرَاقِي^(٣)
 أي: بغير جرم أجرمناه؛ والبَعُو: الجناية. وقال الزجاج: تُسَلَّم بعملها غير قادرة على التخلص. والمستبسل:

(١) البيت لعوف بن الأحوص الكلابي كما قال ابن قتيبة في «المعاني الكبير» ١١٤٤/٢، وهو في «نوادير أبي زيد» ١٥١، و«مجاز القرآن» ١٩٤/١، و«غريب القرآن» ١٥٥، و«الطبري» ٤٤٥/١١، و«القرطبي» ١٦/٧، و«شواهد الكشاف» ٢٠٠، و«اللسان» و«التاج» «بسل» و«بعو».

المستسلم الذي لا يعلم أنه يقدر على التخلص. والثاني: تَفْصَح، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: تُدْفَع، رواه الضحاك عن ابن عباس. والرابع: تُهْلَك، روي عن ابن عباس أيضاً. والخامس: تُحْبَس وتُؤْخَذ، قاله قتادة، وابن زيد. والسادس: تُجْزَى، قاله ابن السائب، والكسائي. والسابع: تُرْتَهَن، قاله الفراء. وقال أبو عبيدة: تُرْتَهَن وتسلم؛ وأنشد:

هُنَالِكَ لَا أَرْجُو حَيَاةَ تَسْرُئِي سَمِيرَ اللَّيَالِي مُبَسَّلاً بِالْجَرَائِرِ^(١)

سمير الليالي: أبَد الليالي. فأما الولي: فهو الناصر الذي يمنعها من عذاب الله. والعدل: الفداء. قال ابن زيد: وإن تفقد كل فداء لا يقبل منها. فأما الحميم، فهو الماء الحار. قال ابن قتيبة: ومنه سمي الحمام.

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهَيْدَى اقْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهَدَىٰ وَأَنزَلْنَا لِلْإِسْلَامِ رَبِّرَ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَوْفِيُوا الْعَهْدَ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: أنعبد ما لا يضرنا إن لم نعبد، ولا ينفعنا إن عبدناه، وهي الأصنام. ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ أي: نرجع إلى الكفر: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ﴾ إلى الإسلام، فنكون ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ وقرأ حمزة: «استهواه الشياطين»، على قياس قراءته: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾. وفي معنى «استهواها» قولان: أحدهما: أنها هوت به وذهبت، قاله ابن قتيبة. وقال أبو عبيدة: تشبَّه له الشياطين، فيتبعها حتى تهوي به في الأرض، فضله. والثاني: زينت له هواه، قاله الزجاج. قال: و «حيران» منصوب على الحال، أي: استهوته في حال حيرته. قال السدي: قال المشركون للمسلمين: أتبعوا سبلنا، وارتكوا دين محمد، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ﴾ فنكون كرجل كان مع قوم على طريق، فضل، فحيرته الشياطين، وأصحابه على الطريق يدعونه: يا فلان هلم إلينا، فإننا على الطريق، فيأبى. وقال ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، دعاه أبوه وأمه إلى الإسلام فأبى. قال مقاتل: والمراد بأصحابه: أبواه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهَدَىٰ﴾ هذا رد على من دعا إلى عبادة الأصنام، وزجر عن إجابته كأنه قيل له: لا تفعل ذلك، لأن هدى الله هو الهدى، لا هدى غيره.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا لِلْإِسْلَامِ﴾ قال الزجاج: العرب تقول: أمرتك أن تفعل، وأمرتك لتفعل، وأمرتك بأن تفعل. فمن قال: «بأن» فالباء للإصاق. والمعنى: وقع الأمر بهذا الفعل، ومن قال: «أن تفعل» فعلى حذف الباء؛ ومن قال: «لتفعل» فقد أخبر بالعلة التي لها وقع الأمر. قال: وفي قوله: ﴿وَأَنْ أَوْفِيُوا الْعَهْدَ﴾ وجهان: أحدهما: أمرنا لأن نسلم، ولأن نقيم الصلاة. والثاني: أن يكون محمولاً على المعنى، لأن المعنى: أمرنا بالإسلام وبقامة الصلاة. ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ السَّاعَةِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: خلقهما للحق. والثاني: خلقهما حقاً. والثالث: خلقهما بكلامه وهو الحق. والرابع: خلقهما بالحكمة.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ قال الزجاج: الأجود أن يكون منصوباً على معنى: واذكر يوم يقول كن فيكون، لأن بعده ﴿يَوْمَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ فالمعنى: واذكر هذا وهذا. وفي الذي يقول له كن فيكون، ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يوم القيامة، قاله مقاتل. والثاني: ما يكون في القيامة. والثالث: أنه الصور، وما ذكر من أمر الصور يدل عليه، قالهما الزجاج. قال: وخص ذلك اليوم بسرعة إيجاد الشيء ليدل على سرعة أمر البعث.

(١) البيت للشنفرى، وهو شاعر جاهلي من صعاليك العرب وفتاكهم، وهو في «الطرائف» ٣٦، و«مجاز القرآن» ١/١٩٥، و«الشعر والشعراء» ٢٦/١، و«الحمامة» بشرح التريزي ٦٣/٢، وشرح «المفضليات» ١٩٧، و«الطبري» ١١/٤٤٦، و«اللسان» و«التاج»: بس. وقوله: سمير الليالي، ويروي «سجيس الليالي» وهما بمعنى: ومعنى «مبسل بالجرائر» أنه أسلم إلى عدوه بما جنى عليهم.

قوله تعالى: ﴿قَوْلَهُ الْحَقُّ﴾ أي: الصدق الكائن لا محالة ﴿وَلَهُ الثَّلَاثُ يَوْمٌ يُنْفَخُ فِي السُّورِ﴾. وروى إسحاق بن يوسف الأزرق عن أبي عمرو: «نفتح» بنونين. ومعنى الكلام: أن الملوك يومئذ لا ملك لهم، فهو المنفرد بالملك وحده، كما قال: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الافتطار: ١٩]. وفي «الصور» قولان: أحدهما: أنه قرن ينفخ فيه؛ روى عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سأل رسول الله ﷺ عن الصور، فقال: «هو قرن ينفخ فيه»^(١). وقال مجاهد: الصور كهنية البوق. وحكى ابن قتيبة: أن الصور: القرن، في لغة قوم من أهل اليمن، وأنشد:

نَحْنُ نَطْخُنَاهُمْ عِدَاةَ الْجَمْعَيْنِ
بِالضَّاحَاتِ فِي غَيْرِ النَّفْعَيْنِ
نَطْحاً شَدِيداً لَا كَنَظْحِ الصُّورَيْنِ^(٢)

وأنشد الفراء:

لَوْلَا ابْنُ جَعْدَةَ لَمْ يُفْتَحْ قَهْنُذُرُكُمْ
وَلَا خُرَاسَانُ حَتَّى يُنْفَخَ الصُّورُ^(٣)
وهذا اختيار الجمهور. والثاني: أن الصور جمع صورة؛ يقال: صورة وصور، بمنزلة سورة وسور، كسورة البناء؛ والمراد نفخ الأرواح في صور الناس، قاله قتادة، وأبو عبيدة. وكذلك قرأ الحسن، ومعاذ القارئ، وأبو منجّلز، وأبو المتوكل «في الصور» بفتح الواو. قال ثعلب: الأجود أن يكون الصور: القرن، لأنه قال ﷺ: ﴿وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ قَصِيْقٌ مِّنْ فِي السَّمَكَاتِ وَكَانَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ ثم قال: ﴿ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ ثَمَرَاتُ الْأَشْيَاءِ﴾؛ ولو كان الصور، كان: ثم نفخ فيها، أو فيهن؛ وهذا يدل على أنه واحد؛ وظاهر القرآن يشهد أنه ينفخ في الصور مرتين. وقد روى أهل التفسير عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الصور قرن ينفخ فيه ثلاث نفخات؛ الأولى: نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصعق، والثالثة: نفخة النيام لرب العالمين»^(٤). قال ابن عباس: وهذه النفخة المذكورة في هذه الآية هي الأولى، يعني: نفخة الصعق.

قوله تعالى: ﴿كَلِمَةُ الْفَيْبِ﴾ وهو ما غاب عن العباد مما لم يعاينوه، «وَالشَّهَادَةُ» وهو ما شاهدوه ورأوه. وقال الحسن: يعني بذلك السر والعلانية.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا زَرَّكَ أَنْتَ جَدُّ أَصْنَامًا مَّا لِهَآءِ رَبِّكَ وَتَوَكَّلْ عَلَى رَبِّكَ﴾^(٥)
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا زَرَّكَ﴾ في «آزر» أربعة أقوال: أحدها: أنه اسم أبيه، روي عن ابن عباس^(٥)، والحسن، والسدي، وابن إسحاق. والثاني: أنه اسم صنم، فأما اسم أبي إبراهيم، فتأرجح، قاله مجاهد. فيكون

(١) «المسند» ١٠/١٠، ١١، «الترمذي» ٢٩٥/٣، وصححه، وأبو داود في «سننه» ٣٢٦/٤، ورواه الحاكم في «المستدرک» ٤٣٦/٢، ٥٠٦، ٥٠٦/٤، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) الرجز في «غريب القرآن» ٢٦ بدون نسبة، والأول والثالث في «اللسان» (صور) والضاحات: الخيل الصالحة.

(٣) البيت بدون نسبة في «معاني القرآن» للفراء ١/٢٤٠، و«المعرب» للجواليقي ٢٦٧، وابن جرير الطبري ١١/٤٦٣، ونسب قریش ٣٤٥، و«اللسان»: صور. وابن جعدة: هو عبد الله بن جعدة بن هبيرة المخزومي، وكان أبو جعدة بن هبيرة على خراسان ولاه علي بن أبي طالب عليه السلام، والقهنذز، بضم القاف والهاء وسكون النون وضم الدال من لغة خراسان، يعنون بها الحصن أو القلعة. وقد استشهد الفراء وابن جرير بالبيت على أن العرب تقول: تنفخ في الصور، وتنفخ الصور.

(٤) هو قطعة من حديث طويل ساقه بطوله الحافظ ابن كثير في «التفسير» ١٤٦/٢ من طريق الحافظ أبي القاسم الطبراني. قال الشيخ أحمد شاکر: هو حديث ظاهر النكارة، وإسماعيل بن رافع رواه قال فيه ابن معين: لي بشي، وقال أبو حاتم: هو منكر الحديث، وقال ابن جبان في كتاب «المجروحين» ص ٨٣ - ٨٤ (مخطوط مصور): كان رجلاً صالحاً إلا أنه يقلب الأخبار، حتى صار الغالب على حديثه المناكير التي يسبق إلى القلب أنه كالمتمم لها. قلت: وروى البخاري ٨/٤٢٤، ومسلم ٤/٢٢٧٠ عن أبي هريرة عليه السلام مرفوعاً «أما بين التفتختين أربعمائة» قالوا: يا أبا هريرة أربعمائة يوماً؟ قال: أبيت. قال: أربعمائة شهراً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعمائة سنة؟ قال: أبيت. ثم ينزل الله من السماء ماء فينبئون كما ينبت البقل. وقوله: «أبيت» قال الحافظ: معناه: امتنع عن القول بتعيين ذلك، لأنه ليس عندي في ذلك توقيف. وقد رجح غير واحد من العلماء أنهما نفختان فقط.

(٥) قال الشيخ أحمد شاکر: أما أن اسم والد إبراهيم «آزر» فإنه عندنا أمر قطعي الثبوت بصريح القرآن في هذه الآية بدلالة الالفاظ على المعاني. وأما التأويل والتلاعب بالالفاظ، فما هو إلا إنكار مقنع لمضمون الكلام ومعناه، وسواء أكان اسمه في قول أهل النسب نفلاً عن الكتب السابقة «تأرجح» أو لم يكن، فلا أثر له في وجوب الإيمان بصدق ما نص عليه القرآن، وبدلالة لفظ «لأبيه» على معناه الوضعي في اللغة، والقرآن هو المهيمن على ما قبله من كتب الأديان السابقة. ثم يقطع كل شك، ويذهب بكل تأويل الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ٦/٢٧٦ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يلقي لإبراهيم آية آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر فترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني... إلى آخر الحديث». وليس بعد هذا النص مجال للتلاعب.

المعنى: أتتخذ آزر أصناماً؟ فكانه جعل أصناماً بدلاً من آزر، والاستفهام معناه الإنكار. والثالث: أنه ليس باسم، إنما هو سبب بعيد، وفي معناه قولان: أحدهما: أنه المعوّج، كأنه عابه بريغه وتعوّجه عن الحق، ذكره الفراء. والثاني: أنه المخطئ، فكانه قال: يا مخطئ أتتخذ أصناماً؟ ذكره الزجاج. والرابع: أنه لقب لأبيه، وليس باسمه، قاله مقاتل بن حيان. قال ابن الأنباري: قد يغلب على اسم الرجل لقبه، حتى يكون به أشهر منه باسمه. والجمهور على قراءة «آزر» بالنصب. وقرأ الحسن، ويعقوب بالرفع. قال الزجاج: من نصب، فموضع «آزر» خفض بدلاً من أبيه؛ ومن رفع فعلى النداء.

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٧٥)

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: وكما أريناه البصيرة في دينه، والحق في خلاف قومه، نريه ﴿مَلَكُوتَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ﴾. وقيل: «نري» بمعنى أرينا. قال الزجاج: والملكوت بمنزلة المُلْك، إلا أن الملكوت أبلغ في اللغة، لأن الواو والقاء يزدان للمبالغة؛ ومثل الملكوت: الرغبة والرهبة. قال مجاهد: ملكوت السموات والأرض: آياتها؛ تفرجت له السموات السبع، حتى العرش، فنظر فيهن، وتفرجت له الأرضون السبع، فنظر فيهن. وقال قتادة: ملكوت السموات: الشمس والقمر والنجوم، وملكوت الأرض: الجبال والشجر والبحار. وقال السدي: أقيم على صخرة، وفتحت له السموات والأرض، فنظر إلى ملك الله ﷻ، حتى نظر إلى العرش، وإلى منزله من الجنة، وفتحت له الأرضون السبع، حتى نظر إلى الصخرة التي عليها الأرضون.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ هذا عطف على المعنى، لأن معنى الآية: نريه ملكوت السموات والأرض ليستدل به، وليكون من المقربين. وفي ما يورق به ثلاث أقوال: أحدها: وحدانية الله وقدرته. والثاني: نبوته ورسالته. والثالث: ليكون موقناً بعلم كل شيء حساً، لا خبراً.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (٧٦)

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ قال الزجاج: يقال: جن عليه الليل، وأجنه الليل: إذا أظلم، حتى يستر بظلمته؛ ويقال لكل ماستر: جنّ، وأجنّ، والاختيار أن يقال: جنّ عليه الليل وأجنه الليل.

الإشارة إلى بدء قصة إبراهيم عليه السلام

روى أبو صالح عن ابن عباس قال: وُلد إبراهيم في زمن نُمرود، وكان لِنمرود كُهان، فقالوا له: يولد في هذه السنة مولود يفسد آلهة أهل الأرض، ويدعوهم إلى غير دينهم، ويكون هلاك أهل بيتك على يده، فعزل النساء عن الرجال، ودخل آزر إلى بيته، فوقع على زوجته، فحملت، فقال الكهان لِنمرود: إن الغلام قد حمل به الليلة. فقال: كل من ولدت غلاماً فاقتلوه. فلما أخذ أم إبراهيم المخاض، خرجت هاربة، فوضعت في نهر يابس، ولقته في خرقه، ثم وضعت في حلفاء^(١)، وأخبرت به أباه، فأتاه، فحفر له سرباً، وسد عليه بصخرة، وكانت أمه تختلف إليه فترضعه، حتى شب وتكلم، فقال لأمه: من ربي؟ فقالت: أنا. قال: فمن ربك؟ قالت: أبوك. قال: فمن رب أبي؟ قالت: اسكت. فسكت، فرجعت إلى زوجها، فقالت: إن الغلام الذي كنا نتحدث أنه يغيّر دين أهل الأرض، ابنك. فأتاه، فقال له مثل ذلك. فلما جنّ عليه الليل، دنا من باب السرب، فنظر فرأى كوكباً. قرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم «رأى»، بفتح الراء والهمزة؛ وقرأ أبو عمرو: «رأى»؛ بفتح الراء وكسر الهمزة، وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم. «رأى»، بكسر الراء والهمزة، واختلفوا فيها إذا لقيها ساكن، وهو آت في ستة مواضع: ﴿رَأَى الْقَمَرَ﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ﴾ وفي النحل ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [النحل: ٨٥] ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [النحل: ٨٦] وفي الكهف: ﴿وَرَأَى النَّجْمَ مُرَوِّجًا﴾ [الكهف: ٥٣]، وفي الأحزاب: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الأحزاب: ٢٢]. وقرأ أبو بكر عن

(١) في «اللسان» الحلفاء: نبت أطرافه محددة، كأنها أطراف سعف النخل والخواص، ينبت في مغايض السماء والنزوز، الواحدة: حلفة، مثل قصبة وقصباء، وطرفة وطرفاء.

عاصم، وحمزة إلا العبسي، وخلف في اختياره: بكسر الراء وفتح الهمزة في الكل، وروى العبسي كسرة الهمزة أيضاً، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو؛ وابن عامر، والكسائي: بفتح الراء والهمزة. فإن اتصل ذلك بمكتني، نحو: رآك، ورأه، ورأها؛ فإن حمزة، والكسائي، وخلف، والوليد عن ابن عامر، والمفضل، وأبان، والقزاز عن عبد الوارث، والكسائي عن أبي بكر: يكسرون الراء، ويميلون الهمزة. وفي الكوكب الذي رآه قولان: أحدهما: أنه الزهرة، قاله ابن عباس، وقتادة. والثاني: المشتري، قاله مجاهد، والسدي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه على ظاهره. روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، قال: هذا ربي، فعبده حتى غاب، وعبد القمر حتى غاب، وعبد الشمس حتى غابت؛ واحتج أرباب هذا القول بقوله: ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِ رَبِّي﴾ وهذا يدل على نوع تحيير، قالوا: وإنما قال هذا في حال طفولته على ما سبق إلى وهمه، قبل أن يثبت عنده دليل. وهذا القول لا يرتضى، والمتأهلون للنسبة محفوظون من مثل هذا على كل حال. فأما قوله: ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِ رَبِّي﴾ فما زال الأنبياء يسألون الهدى، ويتضرعون في دفع الضلال عنهم، كقوله: ﴿وَأَجِئْنِي وَبَيِّنْ أَنْ تَقْبَلَ الْآخِثَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] ولأنه قد آتاه رشده من قبل، وأراه ملكوت السموات والأرض ليكون موقناً، فكيف لا يعصمه عن مثل هذا التحيير؟ والثاني: أنه قال ذلك استدراجاً للحجة، ليعيب آلهتهم ويربهم بغضا عند أفولها، ولا بد أن يضمر في نفسه: إما على زعمكم، أو فيما تظنون، فيكون كقوله: ﴿إِنِّي بُرُكَايَا﴾، وإما أن يضمر: يقولون، فيكون كقوله: ﴿وَبَيِّنْ لَقَبْلَ رَبِّي﴾ [البقرة: ١٢٧]، أي: يقولان ذلك، ذكر نحو هذا أبو بكر ابن الأنباري، ويكون مراده استدراج الحجة عليهم، كما نقل عن بعض الحكماء أنه نزل يقوم يعبدون صنماً، فأظهر تعظيمه، فأكرموه، وصدروا عن رأيه، فدهمهم عدو، فشاوهم ملكهم، فقال: ندعو إلهنا ليكشف ما بنا، فاجتمعوا يدعونه، فلم ينفع، فقال هاهنا إله ندعوه، فيستجيب، فدعوا الله، فصرف عنهم ما يحذرون، وأسلموا. والثالث: أنه قال مستفهماً، تقديره: أهذا ربي؟ فأضمرت ألف الاستفهام، كقوله: ﴿أَفَأَيْنَ يَتَّ فَهُمْ لَتَلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أي: أفهم الخالدون؟ قال الشاعر:

كَذَّبْتُكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيْتَ بِوَأَسِيطٍ غَلَسَ الظُّلَامُ مِنَ الرَّبَابِ حَيَالاً^(١)

أراد: أكذبتك؟ قال ابن الأنباري: وهذا القول شاذ، لأن حرف الاستفهام لا يضمر إذ كان فارقاً بين الإخبار والاستخبار؛ وظاهر قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ أنه إشارة إلى الصانع. وقال الزجاج: كانوا أصحاب نجوم، فقال: هذا ربي، أي: هذا الذي يدبرني، فاحتج عليهم أن هذا الذي تزعمون أنه مدبر، لا نرى فيه إلا أثر مدبر. و«أفل» بمعنى: غاب؛ يقال: أفل النجم يأفل ويأفل أفولاً.

قوله تعالى: ﴿لَا أُحِبُّ الْآظِلِينَ﴾ أي: حبّ ربّ معبود، لأن ما ظهر وأفل كان حادثاً مدبراً. ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِ رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُغَوِّرُ إِلَهِي بَرِّي وَمِمَّا تَشْكُرُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ﴾ قال ابن قتيبة: سمي القمر قمراً لبياضه؛ والأقمر: الأبيض؛ وليلة قمراء، أي: مضيئة. فأما البازغ، فهو الطالع. ومعنى ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِ رَبِّي﴾: لئن لم يثبتني على الهدى. فإن قيل: لم قال في الشمس، هذا، ولم يقل: هذه؟ فغته أربعة أجوبة: أحدها: أنه رأى ضوء الشمس، لا عينها، قاله محمد بن مقاتل. والثاني: أنه أراد: هذا الطالع ربي، قاله الأخفش. والثالث: أن الشمس بمعنى الضياء والنور، فحمل الكلام على المعنى. والرابع: أن الشمس ليس في لفظها علامة من علامات التائيت، وإنما يشبه لفظها لفظ المدكر، فجاز تذكرها. ذكره والذي قبله ابن الأنباري.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلدِّينِ فَطَرْتُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَسَاجِدُ قَوْمِهِ قَالَ آمَنَّا بِحُجَّتِكَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾

(١) البيت للأخطل من قصيدة يهجو بها جريراً، وهو في «ديوانه» ٤١، و«مجاز القرآن» ٥٦/١، و«الكامل» ٦١١، و«الطبري» ٣٦١/١، و«النهاية»، و«اللسان» (كذب) و«شواهد المعنى» ٥٢، و«الخزانة» ٤١١/٢، ٤٥٢/٤.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ قال الزجاج: جعلت قصدي بعبادتي وتوحيدي لله رب العالمين ﷻ. وباقى الآية قد تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَسَاجِدٌ قَوْمٌ﴾ قال ابن عباس: جادلوه في آلهتهم، وخوَّفوه بها، فقال منكراً عليهم: ﴿أَتَحْكُمُونِي﴾. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿أَتَحْكُمُونِي﴾ و ﴿تَأْمُرُونِي﴾ [الزمر: ٩٤] بتشديد النون. وقرى نافع، وابن عامر بتخفيفها فحذفا النون الثانية لالتقاء النونين. ومعنى ﴿أَتَحْكُمُونِي فِي اللَّهِ﴾ أي: في توحيده. ﴿وَقَدْ هَدَيْنِي﴾ أي: بين لي ما به اهتديت. وقرأ الكسائي: «هداني»، بإمالة الدال. والإمالة حسنة فيما كان أصله الياء، وهذا من هدى يهدي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ أي: لا أرهب آلهتكم، وذلك أنهم قالوا: نخاف أن تمسك آلهتنا بسوء، فقال: لا أخافها لأنها لا تضر ولا تنفع ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾. فله أخاف ﴿وَبِيعَ رَبِّيَ شَيْءٌ عِلْمًا﴾ أي: علمه علماً تاماً.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمُ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [١٢١] الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ أي: من هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولا تخافون أنتم أنكم أشركتم بالله الذي خلقكم ورزقكم، وهو قادر على ضرركم ونفعكم ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ أي: حجة. ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ أي: بأن يأمن العذاب، الموحد الذي يعبد من بيده الضر والنفع؟ أم المشرك الذي يعبد ما لا يضر ولا ينفع؟ ثم بين الأحق من هو بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي: لم يخلطوه بشرك. روى البخاري، ومسلم في «صحيحهما» من حديث ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية، شق ذلك على المسلمين، فقالوا: يا رسول الله، وأينا ذلك؟ فقال: «إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه: ﴿إِنَّكَ الْإِنْسَانُ لظَلُومٌ عَظِيمٌ﴾»^(١) [لقمان: ١٣]؟ وفيمن عنى بهذه الآية، ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إبراهيم وأصحابه، وليست في هذه الأمة، قاله علي بن أبي طالب. وقال في رواية أخرى: هذه الآية لإبراهيم خاصة، ليس لهذه الأمة منها شيء. والثاني: أنه من هاجر إلى المدينة، قاله عكرمة. والثالث: أنها عامة، ذكره بعض المفسرين. وهل هي من قول إبراهيم لقومه، أم جواب من الله تعالى؟ فيه قولان.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [١٢٣]

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ يعني ما جرى بينه وبين قومه من الاستدلال على حدوث الكوكب والقمر والشمس، وعيبتهم، إذ سوا بين الصغير والكبير، وعبدوا من لا ينطق، والزامه إياهم الحجة. ﴿آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ أرشدناه إليها بالإلهام. وقال مجاهد: الحجة قول إبراهيم: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ؟﴾

قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عمرو وابن عامر: ﴿دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾، مضافاً. وقرأ عاصم، وحمزة والكسائي: ﴿دَرَجَاتٍ﴾، منوناً، وكذلك قرؤوا في (يوسف) [يوسف: ٧٦]. ثم في المعنى قولان: أحدهما: أن الرفع بالعلم والفهم والمعرفة. والثاني: بالاصطفاء للرسالة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ قال ابن جرير: حكيم في سياسة خلقه، وتلقيه أنبياءه الحجج على أمهم المكذبة ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يؤول إليه أمر الكل.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن دُورِيتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [١٢٤] وَذَكَرْنَا يُحْيَى وَيَعْقُوبَ وَإِسْحَاقَ كُلًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِلْيَاسَ وَيُوشَعَ وَدَاوُدَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٦﴾ وَمِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَآلِهِمْ وَآلِئِنَّهُمْ لَكَاِبُونَ ﴿١٢٧﴾

(١) «المسند» ٢٠٧/٥، و«البخاري» ٨١/١، ٢٢١/٨، و«مسلم بشرح النووي» ١٤٢/٢، ١٤٣، و«الترمذي» ١٣٢/٢.

قوله تعالى: ﴿وَوَعَيْنَا لَهُمْ إِيْشَاقَ﴾ ولدًا لصلبه ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ولدًا لإسحاق: ﴿كَلَّا﴾ من هؤلاء المذكورين: ﴿هَدَيْنَا﴾ أي: أرشدنا.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ في «هاء الكناية»، قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى نوح؛ رواه أبو صالح عن ابن عباس، واختاره الفراء، ومقاتل، وابن جرير الطبري. والثاني: إلى إبراهيم، قاله عطاء. وقال الزجاج: كلا القولين جائز، لأن ذكرهما جميعاً قد جرى، واحتج ابن جرير للقول الأول بأن الله تعالى ذكر في سياق الآيات لوطاً، وليس من ذرية إبراهيم. وأجاب عنه أبو سليمان الدمشقي بأنه يحتمل أن يكون أراد: ووهبنا له لوطاً في المعاضدة والنصرة، ثم قوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَبْرَى الْمُحْسِنِينَ﴾ من أبين دليل على أنه إبراهيم، لأن افتتاح الكلام إنما هو بذكر ما أثاب به إبراهيم. فأما «يوسف» فهو اسم أعجمي. قال الفراء: «يوسف». بضم السين من غير همز، لغة أهل الحجاز، وبعض بني أسد يقول: «يُوسُف» بالهمز، وبعض العرب يقول: «يُوسُف» بكسر السين، وبعض بني عُقِيل يقول: «يُوسُف» بفتح السين.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَبْرَى الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: كما جزينا إبراهيم على توحيدهِ وثباته على دينهِ، بأن رفعنا درجته ووهبنا له أولاداً أنبياءاً أتقياء، كذلك نجزي المحسنين. فأما عيسى، وإلياس، واليسع، ولوطاً؛ فأسماء أعجمية، وجمهور القراء يقرؤون «اليسع» بلام واحدة مخففاً، منهم ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر. وقرأ حمزة، والكسائي هاهنا وفي (ص): «إِلْيَاسُ» بلامين مع التشديد. قال الفراء: وهي أشبه بالصواب، وبأسماء الأنبياء من بني إسرائيل، ولأن العرب لا تدخل على «يُفْعَل» إذا كان في معنى فلان، ألفاً ولاماً، يقولون: هذا يسع قد جاء، وهذا يعمر، وهذا يزيد، فهكذا الفصح من الكلام. وأنشدني بعضهم:

وَجَدْنَا الْوَلِيدَ بِنَ الْيَزِيدِ مَبَارِكاً
شَلِيداً بِأَخْنَاءِ الْخِلَافَةِ كَاهِلُهُ^(١)

فلما ذكر الوليد بالالف واللام، أتبعه يزيد بالالف واللام، وكل صواب. وقال مكّي: من قرأه بلام واحدة، فالأصل عنده: يسع، ومن قرأه بلامين، فالأصل عنده: يُسْعُ، فأدخلوا عليه حرف التعريف. وباقى أسماء الأنبياء قد تقدم بيانها، والمراد بالعالمين: عالمو زمانهم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ «من» هاهنا للتبعض. قال الزجاج: المعنى: هدينا هؤلاء، وهدينا بعض آبائهم وذرياتهم. ﴿وَأَجْنِسْتُمْ﴾ مثل اخترتاهم واصطفيتاهم، وهو مأخوذ من جبيت الشيء: إذا أخلصته لنفسك. وجبت الماء في الحوض: إذا جمعت فيه. فأما الصراط المستقيم، فهو التوحيد.

﴿وَذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ اللَّهُ بِعَثَرٍ ثَمَّ كَاذِبُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: ذلك دين الله الذي هم عليه: ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾. ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ يعني الأنبياء المذكورين ﴿لَحِطَ﴾ أي: لبطل وزال عملهم، لأنه لا يقبل عمل مشرك.

﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْفُكْرَ وَالْبُيُوتَ فَإِنْ يُكَفِّرْ بِهَا هَؤُلَاءَ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني الكتب التي أنزلها عليهم. والحكم: الفقه، والعلم ﴿فَإِنْ يُكَفِّرْ بِهَا﴾ يعني بآياتنا. وفيمن أشير إليه به «هؤلاء» ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أهل مكة، قاله ابن عباس، وسعيد بن المسيب، وقتادة. والثاني: أنهم قريش، قاله السدي. والثالث: أمة النبي ﷺ، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا﴾ قال أبو عبيدة: فقد رزقناها قوماً. وقال الزجاج: وكلنا بالإيمان بها قوماً. وفي هؤلاء القوم أربعة أقوال: أحدها: أنهم أهل المدينة من الأنصار، قاله ابن عباس، وابن المسيب، وقتادة، والسدي. والثاني: الأنبياء والصالحون، قاله الحسن. وقال قتادة: هم النبيون الثمانية عشر المذكورون في هذا المكان. وهذا اختيار الزجاج، وابن جرير. والثالث: أنهم الملائكة، قاله أبو رجا. والرابع: أنهم المهاجرون والأنصار.

(١) البيت من قصيدة لابن ميادة الرماح بن أبرد يمدح فيها أبا العباس الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان. وهو في «معاني القرآن» للفراء ٣٤٢/١، و«المعنى» ٥٢، و«تاريخ الخلفاء» للسيوطي ٢٥٢. وقوله: «بأحناء الخلافة» فالأحناء جمع الحنو وهو الجهة والجانب، ويقال: أحناء الأمور لما تشابه منها وأشكل المخرج منه. والكاهل: اسم لما بين الكتفين، ويعبر بشدة الكاهل عن القوة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَتَقْتِدُ قُلْ لَا أَتَقْتِدُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ يعني النبيين المذكورين. وفي قوله تعالى: ﴿فَبِهِدْهُمْ أَتَقْتِدُ﴾ قولان: أحدهما: بشرائعهم وبسننهم فاعمل، قاله ابن السائب. والثاني: اقتد بهم في صبرهم، قاله الزجاج. وكان ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، يشتون الهاء من قوله: «أقتده» في الوصل ساكنة. وكان حمزة، وخلف، ويعقوب، والكسائي عن أبي بكر، واليزيدي في اختياره، يحدفون الهاء في الوصل. ولا خلاف في إثباتها في الوقف، وإسكانها فيه. قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَتَقْتِدُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ يعني على القرآن. والذكرى: العظة. والعالمون هاهنا: الجن والإنس.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْمَعُونَهُ قَرَاتِيسَ يُتَدَوَّنَا وَيَتَخَفُونَ كَيْدًا وَعِلْمًا مَّا لَوْ تَقَالُوا أَنَّهُ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ عَلَى اللَّهِ تَدْرَعُهُمْ فِي حَوَاشِيهِمْ يَلْمِزُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ في سبب نزولها سبعة أقوال: أحدها: أن مالك بن الصيف رأس اليهود، أتى رسول الله ﷺ ذات يوم، فقال له رسول الله ﷺ: «أشكك بالذي أنزل التوراة على موسى، أتجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين؟» قال: نعم. قال «فأنت الحبر السمين». فغضب، ثم قال: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس؛ وكذلك قال سعيد بن جبير، وعكرمة: نزلت في مالك بن الصيف. والثاني: أن اليهود قالوا: يا محمد، أنزل الله عليك كتاباً؟ قال: «نعم». قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً، فنزلت هذه الآية، رواه الوالي عن ابن عباس. والثالث: أن اليهود قالوا: يا محمد، إن موسى جاء بألواح يحملها من عند الله، فأتينا بآية كما جاء موسى، فنزل: ﴿بَسْمَلُكَ أَهْلَ الْكِتَابِ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾، إلى قوله: ﴿عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٣ - ١٥٦]. فلما حدثهم بأعمالهم الخبيثة، قالوا: والله ما أنزل الله عليك ولا على موسى وعيسى، ولا على بشر، من شيء، فنزلت هذه الآية، قاله محمد بن كعب. والرابع: أنها نزلت في اليهود والنصارى، آتاهم الله علماً فلم يتفمعوا به، قاله قتادة. والخامس: أنها نزلت في فنحاص اليهودي، وهو الذي قال: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ قاله السدي. والسادس: أنها نزلت في مشركي قريش، قالوا: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد^(١). والسابع: أن أولها، إلى قوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ في مشركي قريش. وقوله: ﴿مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ في اليهود، رواه ابن كثير عن مجاهد. وفي معنى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: ما عظموا الله حق عظمت، قاله ابن عباس، والحسن، والفراء، وثعلب، والزجاج. والثاني: ما وصفوه حق صفته، قاله أبو العالية، واختاره الخليل. والثالث: ما عرفوه حق معرفته، قاله أبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿يَجْمَعُونَهُ قَرَاتِيسَ﴾ معناه: يكتبونه في قراتيس. وقيل: إنما قال: قراتيس، لأنهم كانوا يكتبونه في قراتيس مقطعة، حتى لا تكون مجموعة، ليخفوا منها ما شاؤوا.

قوله تعالى: ﴿يُتَدَوَّنَا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «يجعلونه قراتيس يبدونها» و«يخفون» بالياء فيهن. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي؛ بالتاء فيهن. فمن قرأ بالياء، فلأن القوم غيب، بدليل قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. ومن قرأ بالتاء، فعلى الخطاب؛ والمعنى: تبدون منها ما تحبون، وتخفون كثيراً، مثل صفة محمد ﷺ، وآية الرجم، ونحو ذلك مما كتبه.

قوله تعالى: ﴿وَلْيُتَدَوَّنَا مَّا لَوْ تَقَالُوا أَنَّهُ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ﴾ في المخاطب بهذا قولان: أحدهما: أنهم اليهود، قاله الجمهور. والثاني: أنه خطاب للمسلمين، قاله مجاهد. فعلى الأول: علّموا ما في التوراة؛ وعلى الثاني: علّموا على لسان محمد ﷺ.

(١) رجع هذا القول ابن كثير وقال: إنه الأصح، لأن الآية مكية، واليهود لا يتكروا إنزال الكتب من السماء، وقريش والعرب قاطبة كانوا يبدون إرسال رسول من البشر كما قال: ﴿أَكَا لِنَّاسٍ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِذْ يَقُولُ ابْنَ الْنَّاسِ أَن يُبْعَثَ﴾ [النساء: ١٥٧]. وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْفِكُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّنَا اللَّهُ نَبِّئُكُمْ رَسُولًا﴾ [١٥٨] قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مِثْقَالَةَ ذَرَّةٍ لَّوَفَّيْنَاهُ نَجْوَائِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ لِقَاءَ رَبِّكُمُ الْإِسْرَاءُ: ٩٤، ٩٥.

قوله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ هذا جواب لقوله: ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ وتقديره: فإن أجابوك، وإلا فقل: الله أنزله.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَرَّهُمْ﴾ تهديد. وخوضهم: باطلهم. وقيل: إن هذا أمر بالإعراض عنهم، ثم نسخ بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني القرآن. قال الزجاج والمبارك: الذي يأتي من قبله الخير الكثير. والمعنى: أنزلناه للبركة والإنذار.

﴿وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب.

قوله تعالى: ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ قرأ عاصم إلا حفصاً: «ولينذر» بالياء؛ فيكون الكتاب هو المنذر. وقرأ الباقون: بالياء، على الخطاب للنبي ﷺ. فأما أم القرى، فهي مكة. قال الزجاج: والمعنى: لتنذر أهل أم القرى. وفي تسميتها بأم القرى أربعة أقوال: أحدها: أنها سميت بذلك، لأن الأرض دُحيت من تحتها، قاله ابن عباس. والثاني: لأنها أقدمها، قاله ابن قتيبة. والثالث: لأنها قبله جميع الناس، يؤمنونها. والرابع: لأنها كانت أعظم القرى شأنًا، ذكرهما الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قال ابن عباس: يريد الأرض كلها.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى القرآن. والثاني: إلى النبي محمد ﷺ. والمعنى: من آمن بالآخرة آمن به؛ ومن لم يؤمن به، فليس إيمانه بالآخرة حقيقة، ولا يعتد به، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فدل على أنه أراد المؤمنين الذين يحافظون على الصلوات.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أن أولها، إلى قوله: ﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ نزل في مسيلة الكذاب. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ نزل في عبد الله بن سعد بن أبي سرح، كان قد تكلم بالإسلام، وكان يكتب لرسول الله ﷺ في بعض الأحيان؛ فإذا أُملي عليه: «عزيز حكيم» كتب: «غفور رحيم» فيقول لرسول الله ﷺ: هذا وذاك سواء. فلما نزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿١٢﴾ أملاها عليه، فلما انتهى إلى قوله: ﴿خَلَقْنَا آخِرُ﴾ عجب عبد الله بن سعد، فقال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْكَاتِبِينَ﴾ [المؤمن: ١٢ - ١٤] فقال رسول الله ﷺ: «كذا أنزلت علي، فاكتبها» فشك حينئذ، وقال: لئن كان محمد صادقاً، لقد أوحى إلي كما أوحى إليه، ولئن كان كاذباً، لقد قلت كما قال، رواه أبو صالح عن ابن عباس^(١). قال عكرمة: ثم رجع إلى الإسلام قبل فتح مكة. والقول الثاني: أن جميع الآية في عبد الله بن سعد، قاله السدي. والثالث: أنها نزلت في مسيلة، والأسود العنسي، قاله قتادة. فإن قيل: كيف أفرد قوله: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى﴾ وذاك مفترٍ أيضاً؟ فنه جوابان: أحدهما: أن الوصفين لرجل واحد، وصف بأمر بعد أمر ليدل على جرأته. والثاني: أنه خص بقوله: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ بعد أن عم بقوله: ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ﴾ لأنه ليس كل مفترٍ على الله يدعي أنه يوحى إليه، ذكرهما ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: سأقول. قال ابن عباس: يعنون الشعر، وهم المستهزون. وقيل: هو قول عبد الله بن سعد بن أبي سرح. قال الزجاج: وهذا جواب لقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ لَنُنْزِلَ مِثْلَ هَذَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ فيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم قوم كانوا مسلمين بمكة، فأخرجهم الكفار

معهم إلى قتال بدر، فلما أبصروا قلة أصحاب رسول الله ﷺ رجعوا عن الإيمان، فنزل فيهم هذا، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنهم الذين قالوا: ﴿مَا أَرْكَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ﴾ قاله أبو سليمان. والثالث: الموصوفون في هذه الآية، وهم المفترون والمدعون الوحي إليهم، ومماثلة كلام الله. قال الزجاج: وجواب «لو» محذوف؛ والمعنى: لو تراهم في غمرات الموت لرأيت عذاباً عظيماً. ويقال لكل من كان في شيء كبير: قد غمر فلاناً ذلك. قال ابن عباس: غمرات الموت: سكراته. قال ابن الأنباري: قال اللغويون: سميت غمرات، لأن أهوالها يغمرن من يقعن به.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ يُبْطِلُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: بالضرب، قاله ابن عباس. والثاني: بالعذاب، قاله الحسن، والضحاك. والثالث: باسطوها لقبض الأرواح من الأجساد، قاله الفراء. وفي الوقت الذي يكون هذا فيه ثلاثة أقوال: أحدها: عند الموت. قال ابن عباس: هذا عند الموت، الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، وملك الموت يتوفاهم. والثاني: يوم القيامة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: في النار، قاله الحسن. قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ فيه إضمار «يقولون» وفي معناه قولان: أحدهما: استسلموا لإخراج أنفسكم. والثاني: أخرجوا أنفسكم من العذاب إن قدرتم.

قوله تعالى: ﴿تَجَزَّتْ عَدَابَ اللَّهِ الْهُونُ﴾ قال أبو عبيدة: الهون: مضموم، وهو الهوان؛ وإذا فتحوا أوله، فهو الرُّقُّ والدَّعة. قال الزجاج: والمعنى: تجزؤون العذاب الذي يقع به الهوان الشديد. **﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكَّبْتُمْ مَا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾**

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى﴾ سبب نزولها: أن النضر بن الحارث قال: سوف تشفع لي اللات والعزى، فنزلت هذه الآية، قاله عكرمة. ومعنى فرادى: وحداً. وهذا إخبار من الله تعالى بما يوجب به المشركين يوم القيامة. قال أبو عبيدة: فرادى، أي: فرد فرد. وقال ابن قتيبة: فرادى: جمع فرد. وللمفسرين في معنى «فرادى» خمسة أقوال: متقاربة المعنى: أحدها: فرادى من الأهل والمال والولد، قاله ابن عباس. والثاني: كل واحد على حدة، قاله الحسن. والثالث: ليس معكم من الدنيا شيء، قاله مقاتل. والرابع: كل واحد منفرد عن شريكه في الغنى وشقيقه، قاله الزجاج. والخامس: فرادى من المعبودين، قاله ابن كيسان.

قوله تعالى: ﴿كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا مال ولا أهل ولا ولد. والثاني: حفاة عراة غرلاً. والغزل: القلف. والثالث: أحياء. **﴿وَحَوَّلْنَاكُمْ﴾** بمعنى ملكناكم. **﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾** أي: في الدنيا. والمعنى: أن ما دأبتم في تحصيله في الدنيا فني، وبقي الندم على سوء الاختيار. وفي شفاعتهم، قولان: أحدهما: أنها الأصنام. قال ابن عباس: شفعاؤكم، أي: ألهمتكم الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم. و **﴿زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ﴾** أي: عندكم شركاء. وقال ابن قتيبة: زعمتم أنهم لي في خلقكم شركاء. والثاني: أنها الملائكة؛ كانوا يعتقدون شفاعتها، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم: بالرفع. وقرأ نافع، والكسائي، وحفص عن عاصم: بنصب النون على الظرف. قال الزجاج: الرفع أجود، ومعناه: لقد تقطع وصلكم، والنصب جائز، ومعناه: لقد تقطع ما كنتم فيه من الشركة بينكم. وقال ابن الأنباري: التقدير: لقد تقطع ما بينكم، فحذف «ما» لوضوح معناها. قال أبو علي: الذين رفعوه، جعلوه اسماً، فاستندوا الفعل الذي هو «تَقَطَّعَ» إليه؛ والمعنى: لقد تقطع وصلكم. والذين نصبوا، أضمرنا اسم الفاعل في الفعل، والمضمر هو الوصل؛ فالتقدير: لقد تقطع وصلكم بينكم. وفي الذي كانوا يزعمون قولان: أحدهما: شفاعة ألهمتهم. والثاني: عدم البعث والجزاء.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ اللَّيْلِ وَالنَّوْثُ يُخْرِجُ اللَّيْلَ مِنَ النَّوْثِ وَنُجُجَ اللَّيْلِ مِنَ اللَّيْلِ فَالِقُ اللَّهَ فَإِنَّهُ تَوَفَّكَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ اللَّيْلِ وَالنَّوْثُ﴾ في معنى الفلق قولان: أحدهما: أنه بمعنى الخلق، فالمعنى: خالق الحب والنوى، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الضحاك، ومقاتل. والثاني: أن الفلق بمعنى الشق. ثم في معنى

الكلام قولان: أحدهما: أنه فلق الحبة عن السنبل، والنواة عن النخلة، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن، والسدي، وابن زيد. والثاني: أنه الشقان اللذان في الحب والنوى، قاله مجاهد، وأبو مالك. قال ابن السائب: الحب: ما لم يكن له نوى، كالبر والشعير؛ والنوى: مثل نوى التمر.

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ قد سبق تفسيره في (آل عمران).

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ تَوَكُّنَكُمْ﴾ أي: كيف تُصرفون عن الحق بعد هذا البيان.

﴿فَإِنَّ الْإِصْبَاحَ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ الْإِصْبَاحَ﴾ في معنى الفلق قولان قد سبقا. فأما الإصباح، فقال الأخفش: هو مصدر من أصبح. وقال الزجاج: الإصباح والصبح واحد. وللمفسرين في الإصباح، ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ضوء الشمس بالنهار، وضوء القمر بالليل، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أنه إضاءة الفجر، قاله مجاهد. وقال ابن زيد: فلق الإصباح من الليل. والثالث: أنه نور النهار، قاله الضحاك. وقرأ أنس بن مالك، والحسن، وأبو مجلز، وأيوب، والجحدري: «فالق الأصباح» بفتح الهمزة. قال أبو عبيد: ومعناه جمع صبح.

قوله تعالى: ﴿وجاعل الليل سكناً﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «جاعل» بآلف. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: «وجعل» بغير ألف. «الليل» نصباً. قال أبو علي: من قرأ: «جاعل» فلاجل «فالق» وهم يراعون المشاكلة. ومن قرأ: «جعل» فلأن فاعلاً هاهنا، بمعنى: «فعل» بدليل قوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾. فأما السكن، فهو ما سكنت إليه. والمعنى: أن الناس يسكنون فيه سكناً راحة. وفي الحسبان قولان: أحدهما: أنه الحساب، قاله الجمهور. قال ابن قتيبة: يقال: خذ من كل شيء بحسبانه، أي: بحسابه. وفي المراد بهذا الحساب، ثلاثة أقوال: أحدها: أنهما يجريان إلى أجل يجعل لهما، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: يجريان في منازلهما بحساب، ويرجعان إلى زيادة ونقصان، قاله السدي. والثالث: أن جريانهما سبب لمعرفة حساب الشهور والأعوام، قاله مقاتل. والقول الثاني: أن معنى الحسبان: الضياء، قاله قتادة. قال الماوردي، كأنه أخذه من قوله تعالى: ﴿وَرَبِّيلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الكهف: ٤٠] أي: ناراً. قال ابن جرير: وليس هذا من ذلك في شيء.

﴿وَقَوَّالَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِيَتَّبِعُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَكُونُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَوَّالَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ﴾ جعل، بمعنى خلق. وإنما امتنَّ عليهم بالنجوم، لأن سالكي القفار وراكبي البحار، إنما يهتدون في الليل لمقاصدهم بها.

﴿وَقَوَّالَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَجِدَّوْكُمْ فَسَتَقَرُّوا وَنُتَوِّدُّ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَوَّالَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَجِدَّوْكُمْ﴾ يعني آدم ﴿فَسَتَقَرُّوا﴾. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، إلا رؤساً: بكسر القاف. وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: بفتحها. قال الزجاج: من كسر، فالمعنى: «فمنكم مستقر». ومن نصب، فالمعنى: «فلکم مستقر». فأما مستودع، فبالفتح لا غير. ومعناه على فتح القاف: «ولکم مستودع» وعلى كسر القاف: «منكم مستودع». وللمفسرين في هذا المستقر والمستودع تسعة أقوال: أحدها: فمستقر في الأرحام، ومستودع في الأضلاب، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبیر، ومجاهد، وعطاء، والضحاك، والنخعي، وقاتدة، والسدي، وابن زيد. والثاني: المستقر في الأرحام، والمستودع في القبر، قاله ابن مسعود. والثالث: المستقر في الأرض، والمستودع في الأضلاب، رواه ابن جبیر عن ابن عباس. والرابع: المستقر والمستودع في الرحم، رواه قابوس عن أبيه عن ابن عباس. والخامس: المستقر حيث يأوي، والمستودع حيث يموت، رواه مقسم عن ابن عباس. والسادس: المستقر في الدنيا، والمستودع في القبر. والسابع: المستقر في القبر، والمستودع في الدنيا، وهو عكس الذي قبله، روي عن الحسن. والثامن: المستقر في الدنيا، والمستودع عند الله تعالى، قاله مجاهد. والتاسع: المستقر في الأضلاب، والمستودع في الأرحام، قاله ابن بحر، وهو عكس الأول.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِّهٍِ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَرَيْبُوهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني المطر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي: بالمطر. وفي قوله تعالى: ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قولان: أحدهما: نبات كل شيء من الثمار، لأن كل ما ينبت، فنباته بالماء. والثاني: رزق كل شيء وغذاؤه. وفي قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ قولان: أحدهما: من الماء، أي: به. والثاني: من النبات. قال الزجاج: الخَضِرُ بمعنى الأخضر؛ يقال: اخضر، فهو أخضر، وخضر، مثل أعور، فهو أعور، وعور.

قوله تعالى: ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ﴾ أي: من الخضر ﴿حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ كالسنبل والشعير. والمتراكب: الذي بعضه فوق بعض.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ وروى الخفاف عن أبي عمرو: «قِنْوَانٌ» بضم القاف؛ وروى هارون عنه بفتحها. قال الفراء: معناه: ومن النخل ما قنوانه دانية؛ وأهل الحجاز يقولون: «قِنْوَانٌ» بكسر القاف؛ وقيس يضمنونها؛ وضبة، وتميم يقولون: «قِنْيان». وأنشدني المفضل عنهم:

فَأُثِّتَ أَغَالِيَهُ وَأَدَّتْ أَصُولُهُ وَمَالَ بِقِنْيَانٍ مِنَ الْبُسْرِ أَخْمَرًا^(١)

ويجتمعون جميعاً، فيقولون: «قِنْو» و«قُنُو» ولا يقولون: «قِنْي» ولا «قُنِي» وكلب يقولون: «ومال يقنيان». قال المصنف: والبيت لامرئ القيس؛ ورواه أبو سعيد السكري: «ومال يقنوان» مكسورة القاف مع الواو؛ ففيه أربع لغات: قِنْوَان، وقِنْوَان، وقِنْيان، وقِنْيان؛ و«أُثِّتَ»: كثرت؛ ومنه: شعر أُثِّيت. و«أَدَّتْ»: اشتدت. وقال ابن قتبية: القنوان: عذوق النخل، وأحدها: قنو، جمع على لفظ ثنية؛ ومثله: صنو وصنوان في الثنية، وصنوان في الجميع. وقال الزجاج: قِنْوَان: جمع قنو، وإذا ثنيتيه فهما قِنْوَان، بكسر النون. ودانية، أي: قريبة المتناول، ولم يقل: «ومنها قنوان بعيدة» لأن في الكلام دليلاً أن البعيدة السحيقة قد كانت غير سحيقة، فاجتزأ بذكر القريبة عن ذكر البعيدة؛ كقوله تعالى: ﴿سَرَّيْلٌ يَّقِيكُمْ الْآحَرَ﴾ [النحل: ٨١]. وقال ابن عباس: القِنْوَان الدانية: قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض.

قوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ قال الزجاج: هو نسق على قوله: «خَضِرًا» ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ المعنى: وأخرجنا منه شجر الزيتون والرمان؛ وقد روى أبو زيد عن المفضل: «وجنات» بالرفع.

قوله تعالى: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِّهٍِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: مشتبهاً في المنظر، وغير متشابه في الطعم، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: مشتبهاً ورقه، مختلفاً ثمره، قاله قتادة، وهو في معنى الأول. والثالث: منه ما يشبه بعضه بعضاً، ومنه ما يخالف. قال الزجاج: وإنما قرن الزيتون بالرمان، لأنهما شجرتان تعرف العرب أن ورقهما يشتمل على الغصن من أوله إلى آخره. قال الشاعر:

بُورِكَ الْمَيْتِ الْغَرِيبُ كَمَا بُو رَكَ نَضِجُ الرُّمَّانِ وَالزَّيْتُونِ

ومعناه: أن البركة في ورقه اشتماله على عوده كله.

قوله تعالى: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ﴾، و﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، و﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ [يس: ٣٥]: بالفتح في ذلك. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: بالضم فيهن. قال الزجاج: يقال: ثَمَرَةٌ، وَثَمَرٌ، وَثَمَارٌ، وَثَمَرٌ؛ فمن قرأ: «إِلَى ثَمَرِهِ» بالضم أراد جمع الجمع. وقال أبو علي: يحتمل وجهين. أحدهما هذا، وهو أن يكون الثمر جمع ثمار. والثاني: أن تكون الثمر جمع ثمرة، وكذلك: أكمة، وأكُم، وخشبة وخُشْب. قال الفراء: يقول: انظروا إليه أول ما يَغْقِد، وانظروا إلى ينعه، وهو نضجه

(١) البيت لامرئ القيس، «ديوانه» ٦٧، و«اللسان»: قنا. من قصيدته المستجادة، وهو من أولها يصف ظن الحي يشبهها بالنخل. وقوله: أثت أعاليه، أي: عظمت والفتت من ثقل حملها. وقوله: أدت، أي: تثنت ومالت.

ويلوغه. وأهل الحجاز يقولون: يَنْعُ، بفتح الياء، وبعض أهل نجد يضمونها. قال ابن قتيبة: يقال: يَنْعَت الثمرة، وأينعت: إذا أدركت، وهو اليَنْع واليَنْع. وقرأ الحسن، ومجاهد، وقتادة، والأعمش، وابن محيصن: «وَيْنَعِه» بضم الياء. قال الزجاج: اليَنْع: التَضَج. قال الشاعر:

فِي قَبَابٍ حَوْلَ دَسْكَرَةٍ حَوْلَهَا الزُّبُنُونُ قَدْ يَنْعَا^(١)

ويُنَّ الله تعالى لهم بتصرف ما خلق، ونقله من حال إلى حال لا يقدر عليه الخلق، أنه كذلك يبعثهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قال ابن عباس: يصدّقون أن الذي أخرجها النبات قادر على أن يحيي الموتى. وقال مقاتل: يصدّقون بالتوحيد.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْإِنِّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَمْ يَبَيِّنْ وَبَيَّنَّ يَفْقَهُوا سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْإِنِّ﴾ جعلوا، بمعنى وصفوا. قال الزجاج: نصب «الجن» من وجهين: أحدهما: أن يكون مفعولاً، فيكون المعنى: وجعلوا لله الجن شركاء؛ ويكون الجن مفعولاً ثانياً، كقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنْسَاءً﴾ [الزخرف: ١٩]. والثاني: أن يكون الجن بدلاً من شركاء، ومفسراً للشركاء. وقرأ أبو المتوكل، وأبو عمران، وأبو حيو، والجحدري: «شركاء الجن» برفع النون؛ وقرأ ابن أبي عبله، ومعاذ القارئ: «الجن» بخفض النون. وفي معنى جعلهم الجن شركاء ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أطاعوا الشياطين في عبادة الأوثان، فجعلوهم شركاء لله، قاله الحسن، والزجاج. والثاني: قالوا: إن الملائكة بنات الله فهم شركاؤه، كقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ كَلْبِهِ سَبِيلاً﴾ [الصافات: ١٥٨] فسمى الملائكة جنّاً لاجتماعهم، قاله قتادة، والسدي، وابن زيد. والثالث: أن الزنادقة قالوا: الله خالق النور والماء والدواب والأنعام، وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب، وفيهم نزلت هذه الآية. قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ في الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الجاعلين له الشركاء، فيكون المعنى: وجعلوا للذي خلقهم شركاء لا يخلقون. والثاني: أنها ترجع إلى الجن، فيكون المعنى: والله خلق الجن، فكيف يكون الشريك لله محدثاً؟ ذكرهما الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَمْ يَبَيِّنْ وَبَيَّنَّ﴾ وقرأ نافع: «وخرقوا» بالتشديد، للمبالغة والتكثير، لأن المشركين ادّعوا الملائكة بنات الله، والنصارى المسيح، واليهود عزيزاً. وقرأ ابن عباس، وأبو رجا، وأبو الجوزاء: «وخرقوا» بحاء غير معجمة وبتشديد الراء وبالفاء. وقرأ ابن السميع، والجحدري: «خارقوا» بألف وخاء معجمة. قال السدي: أما «البنون»، فقول اليهود عزيز ابن الله، وقول النصارى المسيح ابن الله. وأما البنات فقول مشركي العرب: الملائكة بنات الله. قال الفراء: خرقوا، واخترقوا، وخلقوا، واختلقوا، بمعنى افتروا. وقال أبو عبيدة: خرقوا: جعلوا. قال الزجاج: ومعنى: «بغير علم»: أنهم لم يذكروه من علم، إنما ذكروه تكذباً.

﴿يَبْيِغُ السَّمَكُونَ وَالْأَنْعَامَ أَنَّ يَكُونُ لَهُمْ وَلَدٌ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ يَكْفِي عَنْهُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

قوله تعالى: ﴿أَنَّ يَكُونُ لَهُمْ وَلَدٌ﴾ قال الزجاج: أي: من أين يكون له ولد، والولد لا يكون إلا من صاحبة؟! واحتج عليهم في نفي الولد بقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ﴾ فليس مثل خالق الأشياء، فكيف يكون الولد لمن لا مثل له؟! فإذا نُسب إليه الولد، فقد جُعِلَ له مثل.

﴿لَا تَدْرِيكَ الْآبَصَرُ وَهُوَ يَدْرِكُ الْآبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾

(١) «الحيوان» ٤/١٠، و«الكامل» ١/٢٢٦، و«مجاز القرآن» ١/٢٠٢، و«الطبري» ١١/٥٨٠، و«خزانة الأدب» ٣/٢٧٩، و«اللسان»: ينح. قال المبرد: قال أبو عبيدة: هذا الشعر مختلف فيه، فبعضهم ينسب إلى الأحموس، وبعضهم ينسب إلى يزيد بن معاوية. وفي «اللسان» قال ابن بري: هو للأحموس، أو يزيد بن معاوية، أو عبد الرحمن بن حسان، ونسب صاحب «اللسان» في مادة: «دسكرو» إلى الأخطل. والدسكرة: بناء كالقصر، كانت الأعاجم تتخذها للشرب والملاهي.

قوله تعالى: ﴿لَا تَذَرِكُ الْأَبْصَرَ﴾ في الإدراك قولان: أحدهما: أنه بمعنى الإحاطة. والثاني: بمعنى الرؤية. وفي «الأبصار» قولان: أحدهما: أنها العيون، قاله الجمهور. والثاني: أنها العقول، رواه عبد الرحمن بن مهدي عن أبي حصين القارئ. ففي معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدها: لا تحيط به الأبصار، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن المسيب، وعطاء. وقال الزجاج: معنى الآية: الإحاطة بحقيقته، وليس فيها دفع للرؤية، لما صح عن رسول الله ﷺ من الرؤية^(١)، وهذا مذهب أهل السنة والعلم والحديث. والثاني: لا تتركه الأبصار إذا تجلّى بنوره الذي هو نوره، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثالث: لا تتركه الأبصار في الدنيا، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن، ومقاتل. ويدل على أن الآية مخصوصة بالدنيا، قوله: ﴿يَوْمَ يُؤْمَرُ تَائِرُهُ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَائِرَةً ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] فقيد النظر إليه بالقيامة، وأطلق في هذه الآية، والمطلق يحمل على المقيد.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَذَرُكَ الْأَبْصَرَ﴾ فيه القولان. قال الزجاج: وفي هذا الإعلام دليل على أَنَّ خَلْقَهُ لا يدركون الأبصار، أي: لا يعرفون حقيقة البصر، وما الشيء الذي صار به الإنسان يبصر من عينه، دون أن يبصر من غيرهما من أعضائه؛ فأعلم الله أن خلقاً من خلقه لا يدرك المخلوقون كنهه، ولا يحيطون بعلمه؛ فكيف به ﷻ؟! فأما «اللطيف»، فقال أبو سليمان الخطابي: هو البرّ بعباده، الذي يلفظ بهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون. قال ابن الأعرابي: اللطيف: الذي يوصل إليك أَرْكَ في رفق؛ ومنه قولهم: لطف الله بك؛ ويقال: هو الذي لَطَّفَ عن أن يُدْرِكَ بالكيفية. وقد يكون اللطف بمعنى الدقة والغموض، ويكون بمعنى الصغر في نعوت الأجسام، وذلك مما لا يليق بصفات الباري سبحانه. وقال الأزهري: اللطيف من أسماء الله، معناه: الرفيق بعباده؛ والخبير: العالم بكنه الشيء، المطلع على حقيقته.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ البصائر: جمع بصيرة، وهي الدلالة التي توجب البصر بالشيء والعلم به. قال الزجاج: والمعنى: قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والبصائر ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ نفع ذلك ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ فعلى نفسه ضرر ذلك، لأن الله ﷻ غني عن خلقه. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي: لست آخذكم بالإيمان أخذ الحفيظ والوكيل، وهذا قبل الأمر بالقتال.

فصل

وذكر المفسرون أن هذه الآية نسخت بآية السيف. وقال بعضهم: معناها: لست رقيباً عليكم، أحصي أعمالكم؛ فعلى هذا لا وجه للنسخ.

﴿وَكَذَلِكَ نَصْرُكَ الْآيَتِ وَلَيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلَيُبَيِّنَنَّ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَصْرُكَ الْآيَتِ﴾ قال الأخفش: «وكذلك» معناها: وهكذا. وقال الزجاج: المعنى: ومثل ما بيئتاً فيما تلي عليك، يُبَيِّنُ الآيات. قال ابن عباس: نصرُ الآيات، أي: نبينها في كل وجه، ندعوهم بها مرة، ونخوفهم بها أخرى. ﴿وَلَيَقُولُوا﴾ يعني أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن «دارست». قال ابن الأنباري: معنى الآية: وكذلك نصرُ الآيات، لنزولهم الحجة، وليقولوا: دارست؛ وإنما نصرُ الآيات ليسعد قوم بفهمها والعمل بها، ويشقى آخرون بالإعراض عنها؛ فمن عمل بها سعد، ومن قال: دارست، شقي. قال الزجاج: وهذه اللام في «ليقولوا» يسميها أهل اللغة لام الصيرورة. والمعنى: أن السبب الذي أذاهم إلى أن قالوا: دارست، هو تلاوة الآيات، وهذا كقوله: ﴿فَالْقَلْعَةُ مَالٌ يَفُوتُكَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصر: ٨] وهم لم يطلبوا بأخذه أن يعاديهم، ولكن كان عاقبة الأمر أن صار لهم عدواً وحزناً. ومثله أن تقول: كتب فلان الكتاب لحتفه، فهو لم يقصد أن يهلك نفسه

(١) قال ابن كثير رحمه الله في «التفسير» ١٦١/٢: تواترت الأخبار عن أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس، وجابر، وصهيب، وبلال، وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات، وفي روضات الجنات، جعلنا الله تعالى منهم بته وكرمه.

بالكتاب، ولكن العاقبة كانت الهلاك. فأما «دارست» فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «دارست» بالالف وسكون السين وفتح التاء، ومعناها: ذاكرت أهل الكتاب. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: «درست» بسكون السين وفتح التاء، من غير ألف، على معنى: قرأت كتب أهل الكتاب. قال المفسرون: معناها: تعلمت من جبر، ويسار. وسنين هذا في قوله: ﴿إِنَّمَا يَمْلِكُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] إن شاء الله. وقرأ ابن عامر، ويعقوب: «درست» بفتح الراء والسين وسكون التاء من غير ألف. والمعنى: هذه الأخبار التي تتلوها علينا قديمة قد درست. أي: قد مضت وامتحت. وجميع من ذكرنا فتح الدال في قراءته. وقد روي عن نافع أنه قال: «دُرِسَتْ» برفع الدال وكسر الراء وتخفيف التاء، وهي قراءة ابن يعمر؛ ومعناها: قُرِئت. وقرأ أبي بن كعب: «دُرِسَتْ» بفتح الدال والسين وضم الراء وتسكين التاء. قال الزجاج: وهي بمعنى: «دُرِسَتْ» أي: امتحت؛ إلا أن المضمومة الراء أشد مبالغة. وقرأ معاذ القارئ، وأبو العالية، ومورق: «دُرِسَتْ» برفع الدال، وكسر الراء وتشديدها ساكنة السين. وقرأ ابن مسعود، وطلحة بن مصرف: «دُرِسَ» بفتح الراء والسين بلا ألف ولا تاء. وروى عصمة عن الأعمش: «دارس» بالف.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَلَوْنَ﴾ يعني: التصريف ﴿وَلْيَتَوَرَّعُوا﴾ ما تبيين لهم من الحق فيقبلوه. ﴿أَلَيْسَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ وَمَا جَعَلْنَكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِكَلِيمٍ ﴿١٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال المفسرون: نسخ بآية السيف. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ فيه ثلاثة أقوال حكاهما الزجاج: أحدها: لو شاء لجعلهم مؤمنين. والثاني: لو شاء لأنزل آية تضطرهم إلى الإيمان. والثالث: لو شاء لاستأصلهم، فقطع سبب شركهم. قال ابن عباس: وباقي الآية نسخ بآية السيف.

﴿وَلَا تَسُبُّوا آلَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا آلَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنه لما قال للمشركين: ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قالوا: لتنتهين يا محمد عن سب آلهم وعبيها، أو لنهجون إلهك الذي تعبد، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن المسلمين كانوا يسبون أوثان الكفار، فيردون ذلك عليهم، فنهاهم الله تعالى أن يستسبوا لربهم قوماً جهلة لا علم لهم بالله، قاله قتادة. ومعنى «يدعون»: يعبدون، وهي الأصنام. ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ﴾ أي: فيسبوا من أمرهم بعبئها، فيعود ذلك إلى الله تعالى، لا أنهم كانوا يصرحون بسب الله تعالى، لأنهم كانوا يقولون أنه خالقهم، وإن أشركوا به^(١).

قوله تعالى: ﴿عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: ظلماً بالجهل. وقرأ يعقوب: «عُدْوًا»، بضم العين والدال وتشديد الواو. والعرب تقول في الظلم: عدا فلان عُدْوًا وعُدْوًا. وعدا، أي: ظلم.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كما زيننا لهؤلاء المشركين عبادة الأصنام، وطاعة الشيطان، كذلك زيننا لكل جماعة اجتمعت على حق أو باطل عملهم من خير أو شر. قال المفسرون: وهذه الآية نسخت بتبني الخطاب في آية السيف.

﴿وَأَنسُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أُنْفُسِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَةُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٥٨﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَنسُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أُنْفُسِهِمْ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنه لما نزل في [الشعراء: ٤٤]: ﴿إِنْ تَنَادَّ نَزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ﴾ قال المشركون: أنزلها علينا حتى والله نؤمن بها؛ فقال المسلمون: يا رسول الله، أنزلها عليهم

(١) ومن هذا القيل - وهو ترك المصلحة للرد - فسدة أرجح منها - ما رواه الإمام أحمد ٤٨/١٠، ٤٩، والبخاري ٣٣٨/١٠، ومسلم ٩٢/١ عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه» قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم، يسب أباه الرجل يسب أباه، ويسب أمه يسب أمه».

لكي يؤمنوا؛ فنزلت هذه الآية؛ رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن قريشاً قالوا: يا محمد، تخبرنا أن موسى كان معه عصى يضرب بها الحجر، فينفجر منها اثنتا عشرة عيناً، وأن عيسى كان يحيي الموتى، وأن ثمود كانت لهم ناقة، فائتنا بمثل هذه الآيات حتى نصدقك: فقال: «أي شيء تحبون؟» قالوا: أن تجعل لنا الصفا ذهباً. قال: «فإن فعلت تصدقوني؟» فقالوا: نعم، والله لئن فعلت لتبعتنك أجمعين. فقام رسول الله ﷺ يدعو، فجاءه جبريل فقال: إن شئت أصبح الصفا ذهباً، ولكني لم أرسل آية فلم يصدق بها، إلا أنزلت العذاب، وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم. فقال رسول الله ﷺ: «اتركهم حتى يتوب تائبهم»، فنزلت هذه الآية إلى قوله: «يجهلون»، هذا قول محمد بن كعب القرظي^(١). وقد ذكرنا معنى «جَهَدَ أَيْكُنْهُمْ» في (المائدة)؛ وإنما حلفوا على ما اقترحوا من الآيات، كقولهم: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَقْعُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلُوعاً» [الإسراء: ٩٠].

قوله تعالى: «قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ» أي: هو القادر على الإتيان بها دون أحد من خلقه. «وَمَا يُشِيرُكُمْ أَنْهًا» أي: يدريكم أنها. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم، وخلف في اختياره: بكسر الألف، فعلى هذه القراءة يكون الخطاب بقوله: «يشعركم» للمشركين، ويكون تمام الكلام عند قوله: «وَمَا يُشِيرُكُمْ» ويكون المعنى: وما يدريكم أنكم تؤمنون إذا جاءت؟ وتكون «إنها» مكسورة على الاستئناف والإخبار عن حالهم. وقال أبو علي: التقدير: وما يشعركم إيمانهم؟ فحذف المفعول. والمعنى: لوجاءت الآية التي اقترحوها، لم يؤمنوا. فعلى هذا يكون الخطاب للمؤمنين. قال سيبويه: سألت الخليل عن قوله: «وَمَا يُشِيرُكُمْ أَنْهًا»؛ فقلت: ما منعها أن تكون كقولك: ما يدريك أنه لا يفعل؟ فقال: لا يحسن ذلك في هذا الموضع؛ إنما قال: «وَمَا يُشِيرُكُمْ» ثم ابتدا فأوجب، فقال: «إنها إذا جاءت لا يؤمنون» ولو قال: «وَمَا يُشِيرُكُمْ أَنْهًا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ»؛ كان ذلك عذراً لهم. وقرأ نافع، وحفص عن عاصم، وحمزة، والكسائي: «أنها»، بفتح الألف؛ فعلى هذا، المخاطب بقوله: «وَمَا يُشِيرُكُمْ» رسول الله ﷺ وأصحابه؛ ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: وما يدريكم لعلها إذا جاءت لا يؤمنون. وفي قراءة أبي: لعلها إذا جاءت لا يؤمنون. والعرب تجعل «أن» بمعنى «لعل». يقولون: اتت السوق أنك تشتري لنا شيئاً، أي: لعلك. قال عدي بن زيد:

أَعَاذِلُ مَا يُنْذِرُنِي أَنْ مَنِيَّتِي إِلَى سَاعَةٍ فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي ضَحَى غَدٍ^(٢)

أي: لعل منيتي. وإلى هذا المعنى ذهب الخليل، وسيبويه، والفراء في توجيه هذه القراءة. والثاني: أن المعنى: وما يدريكم أنها إذا جاءت يؤمنون، وتكون «لا» صلة؛ كقوله تعالى: «قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَنْبَذَ إِذْ أَمَرْتُكَ» [الأعراف: ١٧] وقوله تعالى: «وَحَكَمَ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ» [الأنبياء: ٩٥] ذكره الفراء ورده الزجاج واختار الأول. والآخر على قراءة: «يؤمنون» بالياء؛ منهم ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وحفص عن عاصم؛ وقرأ ابن عامر، وحمزة: بالتاء، على الخطاب للمشركين. قال أبو علي: من قرأ بالياء، فلأن الذين أقسموا غيَّب، ومن قرأ بالتاء، فهو انصراف من الغيبة إلى الخطاب.

«وَنَقَلَبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ»

قوله تعالى: «وَنَقَلَبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ» التقليل: تحويل الشيء عن وجهه. وفي معنى الكلام أربعة أقوال: أحدها: لو أتيناهاً بآية كما سألوها، لقلبنا أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان بها، وحلنا بينهم وبين الهدى، فلم يؤمنوا كما لم يؤمنوا بما رأوا قبلها، عقوبة لهم على ذلك. وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد. والثاني: أنه جواب لسؤالهم في الآخرة الرجوع إلى الدنيا؛ فالمعنى: لو ردوا لحلنا بينهم وبين الهدى كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا، روى هذا المعنى ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: ونقلب أفئدة هؤلاء وأبصارهم عن الإيمان بالآيات كما لم يؤمنوا أولهم من الأمم الخالية بما رأوا من الآيات، قاله مقاتل. والرابع: أن ذلك التقليل

(١) «الطبري» ٣٨/١٢، وقال ابن كثير بعد أن أورد: وهذا مرسل، وله شواهد من وجوه أخر.

(٢) «جمهرة أشعار العرب» ١٧٩، «الشعر والشعراء» ١٧٨/١ «واللسان»: أنن، وغيرها، من قصيدة له حكيم.

في النار عقوبة لهم، ذكره الماوردي. وفي هاء «به» أربعة أقوال: أحدها: أنها كناية عن القرآن. والثاني: عن النبي ﷺ. والثالث: عما ظهر من الآيات. والرابع: عن التقلب. وفي المراد بـ «أول مرة» ثلاثة أقوال: أحدها: أن المرة الأولى: دار الدنيا. والثاني: أنها معجزات الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم. والثالث: أنها صرف قلوبهم عن الإيمان قبل نزول الآيات أن لو نزلت. والطغيان والعمه المذكوران في سورة (البقرة).

﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَّنا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةُ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَّنا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةُ﴾ سبب نزولها: أن المستهزئين أتوا رسول الله ﷺ في رهط من أهل مكة، فقالوا له: ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم: أحق ما تقول، أم باطل؟ أو أرننا الملائكة يشهدون لك أنك رسول الله، أو اثنتا بالله والملائكة قبلاً، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صلح عن ابن عباس. ومعنى الآية: ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة كما سألوا، وكلمهم الموتى، فشهدوا لك بالنبوة ﴿وَحَشَرْنَا﴾ أي: جمعنا ﴿عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ في الدنيا ﴿قُبُلًا مَّا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾، فأخبر أن وقوع الإيمان بمشيئته، لا كما ظنوا أنهم متى شأوا آمنوا، ومتى شأوا لم يؤمنوا. فاما قوله: ﴿قُبُلًا﴾، فقرأ ابن عامر، ونافع: بكسر القاف وفتح الباء. قال ابن قتيبة: معناها: معاينة. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي: ﴿قُبُلًا﴾ بضم القاف والباء. وفي معناها، ثلاثة أقوال: أحدها: أنه جمع قبيل، وهو الصَّنْف؛ فالمعنى: وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً قبلاً، قاله مجاهد، واختاره أبو عبيدة، وابن قتيبة. والثاني: أنه جمع قبيل أيضاً، إلا أنه: الكفيل؛ فالمعنى: وحشرنا عليهم كل شيء، فكفَّلَ بصحة ما تقول، اختاره الفراء، وعليه اعتراض، وهو أن يقال: إذا لم يؤمنوا بإنزال الملائكة، وتكليم الموتى، فَلَأَن لا يؤمنوا بالكفالة التي هي قول، أولى. فالجواب: أنه لو كَفَّلَت الأشياء المحشورة، فنطق ما لم ينطق، كان ذلك آية بينة. والثالث: أنه بمعنى المقابل، فيكون المعنى: وحشرنا عليهم كل شيء، فقابلهم، قاله ابن زيد. قال أبو زيد: يقال: لقيت فلاناً قُبُلًا وقُبُلًا وقُبُلًا وقُبُلًا وقُبُلًا وقُبُلًا ومقابلة، وكله واحد، وهو للمواجهة. قال أبو علي: فالمعنى في القرآن - على ما قاله أبو زيد - واحد، وإن اختلفت الألفاظ.

قوله تعالى: ﴿وَلَكنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: يجهلون أن الأشياء لا تكون إلا بمشيئة الله تعالى. والثاني: أنهم يجهلون أنهم لو أتوا بكل آية ما آمنوا.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيطَانِ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ أي: وكما جعلنا لك ولأمتك شياطين الإنس والجن أعداء، كذلك جعلنا لمن تقدّمك من الأنبياء وأممهم؛ والمعنى: كم ابتليناك بالأعداء، ابتلينا مَنْ قبلك، ليعظم الثواب عند الصبر على الأذى. قال الزجاج: «عدو»: في معنى أعداء، و«شياطين الإنس والجن»: منصوب على البدل من «عدو»، ومفسر له؛ ويجوز أن يكون: «عدو» منصوب على أنه مفعول ثان، المعنى: وكذلك جعلنا شياطين الإنس والجن أعداء لأممهم. وفي شياطين الإنس والجن ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم مرءة الإنس والجن، قاله الحسن، وقتادة. والثاني: أن شياطين الإنس: الذين مع الإنس، وشياطين الجن: الذين مع الجن، قاله عكرمة، والسدي. والثالث: أن شياطين الإنس والجن: كفارهم، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿يُوحِي﴾ أصل الوحي: الإعلام والدلالة بستر وإخفاء. وفي المراد به هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: يأمر. والثاني: يوسوس. والثالث: يشير. وأما ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾، فهو ما زُيِّنَ منه، وحُسِّنَ، ومُوَّه، وأصل الزخرف: الذهب. قال أبو عبيدة: كل شيء حَسَنَتُهُ وزَيَّنَتُهُ وهو باطل، فهو زخرف. وقال الزجاج: «الزخرف» في اللغة: الزينة؛ فالمعنى: أن بعضهم يزَيِّنُ لبعض الأفعال القبيحة؛ و«غُرُورًا» منصوب على المصدر؛ وهذا المصدر محمول على المعنى، لأن معنى إيهام الزخرف من القول: معنى الغرور، فكانه قال: يَغُرُّونَ غُرُورًا. وقال

ابن عباس: ﴿يُتَرَفَّقُ الْقَوْلُ غُرُورًا﴾: الأمانى بالباطل. قال مقاتل: وكلّ إبليس بالإنس شياطين يُضِلُّونَهُمْ، فإذا التقى شيطان الإنس بشيطان الجن، قال أحدهما لصاحبه: إني أضللت صاحبي بكذا وكذا، فأضللت أنت صاحبك بكذا وكذا، فذلك وحي بعضهم إلى بعض. وقال غيره: إن المؤمن إذا أعى شيطانه، ذهب إلى متمرّد من الإنس، وهو شيطان الإنس، فأغراه بالمؤمن ليفتنه. وقال قتادة: إن من الجن شياطين، وإن من الإنس شياطين. وقال مالك بن دينار: إن شيطان الإنس أشد عليّ من شيطان الجن، لأنّي إذا تعرّضت من ذاك ذهب عني، وهذا يجُرُّني إلى المعاصي عياناً.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَسَدُوهُ﴾ في هاء الكناية ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الوسوسة. والثاني: ترجع إلى الكفر. والثالث: إلى الغرور، وأذى النّبيين.

قوله تعالى: ﴿تَذَرُهُمْ وَمَا يَتَّبِعُونَ﴾ قال مقاتل: يريد كفار مكة وما يفترون من الكذب. وقال غيره: فذر المشركين وما يخاصمونك به مما يوحي إليهم أولياهم، وما يختلقون من كذب، وهذا القدر من هذه الآية منسوخ بآية السيف.

﴿وَلَيَصْنَعَنَّ الْإِلَهُ آيَةً الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَقْرَأُوا مَا هُمْ مُنْفَرِقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَيَصْنَعَنَّ الْإِلَهُ آيَةً﴾ أي: ولتبل، والهاء: كناية عن الزخرف والغرور. والأفئدة: جمع فؤاد، مثل غراب وأغربة. قال ابن الأنباري: فعلنا بهم ذلك لكي تصغي إلى الباطل أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة، و(وليرضوا) الباطل، ﴿وَلَيَقْرَأُوا﴾ أي: ليكتسبوا، وليعملوا ما هم عاملون.

﴿أَفَتَدْعُونَ إِلَهُ ابْنَيْ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَتَدْعُونَ إِلَهُ ابْنَيْ حَكَمًا﴾ سبب نزولها: أن مشركي قريش قالوا للنبي ﷺ: اجعل بيننا وبينك حكماً، إن شئت من أحبار اليهود، وإن شئت من أحبار النصارى، ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك، فنزلت هذه الآية، ذكره الماوردي. فأما الحكم، فهو بمعنى الحاكم، والمعنى: أفغير الله أطلب قاضياً بيني وبينكم؟! و«الكتاب»: القرآن، و«المفصل»: المبين الذي بان فيه الحق من الباطل، والأمر من النهي، والحلال من الحرام. ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ فيهم قولان: أحدهما: علماء أهل الكتابين، قاله الجمهور. والثاني: رؤساء أصحاب النبي محمد ﷺ، كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وأشباههم، قاله عطاء.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ﴾ قرأ ابن عمر، وحفص عن عاصم: «منزل» بالتشديد؛ وخففها الباقون.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، ونافع: «كلمات» على الجمع؛ وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب: «كلمة» على التوحيد؛ وقد ذكرت العرب الكلمة، وأرادت الكثرة؛ يقولون: قال قس في كلمته، أي: في خطبته، وزهير في كلمته، أي: في قصيدته. وفي المراد بهذه الكلمات ثلاثة أقوال: أحدها: أنها القرآن، قاله قتادة. والثاني: أفضيته وعداته. والثالث: وعده ووعيده، وثوابه وعقابه. وفي قوله: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قولان: أحدهما: صدقاً فيما أخبر، وعدلاً فيما قضى وقدر. والثاني: صدقاً فيما وعد وأوعد، وعدلاً فيما أمر ونهى. وفي قوله: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ قولان: أحدهما: لا يقدر المفترّون على الزيادة فيها والنقصان منها. والثاني: لا تخلف لمواعيده، ولا مغير لحكمه.

﴿وَلَنْ نُطِيعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَكْفُرُونَ إِلَّا الظَّلَّ وَكَانَ هُمْ إِلَّا يَهْرُصُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ نُطِيعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ سبب نزولها: أن الكفار قالوا للمسلمين: أتناكلون ما قتلتم، ولا نأكلون ما قتل ربكم؟ فنزلت هذه الآية، ذكره الفراء. والمراد بـ«أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ»: الكفار. وفي ماذا يطيعهم؟ فيه أربعة أقوال: أحدها: في أكل الميتة. والثاني: في أكل ما ذبحوا للأصنام. والثالث: في عبادة الأوثان. والرابع: في اتباع ملل الآباء؛ و«سَبِيلِ اللَّهِ»: دينه. قال ابن قتيبة: ومعنى «يَهْرُصُونَ»: يحدسون ويوقعون؛ ومنه قيل

للحازر: خالص. فإن قيل: كيف يجوز تعذيب من هو على ظنٍّ من شركه، وليس على يقين من كفره؟! فالجواب: أنهم لما تركوا التماس الحجة، وابتعوا أهواءهم، واقتصروا على الظن والجهل، عذبوا، ذكره الزجاج.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَفِرِينَ﴾ (١٧)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ قال الزجاج: موضع «مَنْ» رفع بالابتداء، ولفظها لفظ الاستفهام؛ والمعنى: إن ربك هو أعلم أي الناس يضل عن سبيله. وقرأ الحسن: «مَنْ يُضِلُّ» بضم الياء وكسر الضاد، وهي رواية ابن أبي شريح. قال أبو سليمان: ومقصود الآية: لا تلتفت إلى قسم من أقسم أنه يؤمن عند مجيء الآيات، فلن يؤمن إلا من سبق له القدر بالإيمان.

﴿تَكُلُّوا مِمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ عَلَىٰ إِنْ كُنتُمْ بِآيَاتِنَا مُؤْمِنِينَ﴾ (١٨)

قوله تعالى: ﴿تَكُلُّوا مِمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ عَلَىٰ﴾ سبب نزولها: أن الله تعالى لما حرم الميتة، قال المشركون للمؤمنين: إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله، فما قتل الله لكم أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم، يريدون الميتة، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ عَلَىٰ وَقَدْ فُضِّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّوا بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَفِرِينَ﴾ (١٩)

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا﴾ قال الزجاج: المعنى: وأي شيء يقع لكم في أن لا تأكلوا؟ وموضع «أن» نصب، لأن «في» سقطت، فوصل المعنى إلى «أن» فنصبها.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ فُضِّلَ لَكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: «فُضِّلَ لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ» مرفوعتان؛ وقرأ نافع، وحفص عن عاصم، ويعقوب، والقزاز عن عبد الوارث: «فُضِّلَ» بفتح الفاء، «مَا حُرِّمَ» بفتح الحاء، وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «فُضِّلَ» بفتح الفاء، «مَا حُرِّمَ» بضم الحاء. قال الزجاج: أي: فُضِّلَ لكم الحلال من الحرام، وأحل لكم في الاضطرار ما حُرِّمَ. وقال سعيد بن جبيرة: فُضِّلَ لكم ما حُرِّمَ عليكم، يعني: ما بين في (المائدة) من الميتة، والدم، إلى آخر الآية. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّوا بِأَهْوَاءِهِمْ﴾ يعني: مشركي العرب يضلون في أمر الذبائح وغيره. قرأ ابن كثير. وأبو عمرو: «لِيُضِلُّوا»، وفي (يونس: ٨٨): «وَيَنَّا لِيُضِلُّوا» وفي (إبراهيم: ٣٠): «أَنذَادًا لِّيُضِلُّوا» وفي (الحج: ٩): «ثَانِي عَظْمِهِ لِيُضِلَّ» وفي (النمل: ٦): «لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَغْيِرَ عِلْمَ» وفي (الزمر: ٨): «أَنذَادًا لِّيُضِلَّ» بفتح الياء في هذه المواضع الستة؛ وضمهن عاصم، وحمزة، والكسائي. وقرأ نافع، وابن عامر: «لِيُضِلُّوا بِأَهْوَاءِهِمْ». وفي (يونس): «لِيُضِلُّوا» بالفتح؛ وضمنا^(١) الأربعة الباقية. فمن فتح، أراد: أنهم هم الذين ضلوا؛ ومن ضم، أراد: أنهم أضلوا غيرهم، وذلك أبلغ في الضلال، لأن كل مُضِلٌّ ضَالٌّ وليس كل ضَالٍّ مُضِلًّا.

﴿وَذَرُوا ظِلَافَ الْإِنْتِهِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَمِعُونَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٢٠)

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظِلَافَ الْإِنْتِهِ وَبَاطِنَهُ﴾ في الإثم هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الزنا، رواه أبو صالح عن ابن عباس؛ فعلى هذا، في ظاهره وباطنه قولان: أحدهما: أن ظاهره: الإعلان به، وباطنه: الاستسار، قاله الضحاك، والسدي. قال الضحاك: وكانوا يرون الاستسار بالزنا حلالاً. والثاني: أن ظاهره نكاح المحرمات، كالأمهات، والبنات، وما نكح الآباء. وباطنه: الزنا، قاله سعيد بن جبيرة. والثاني: أنه عام في كل إثم. والمعنى: ذروا المعاصي، سرّها وعلايتها؛ وهذا مذهب أبي العالية، ومجاهد، وقتادة، والزجاج. وقال ابن الأنباري: المعنى: ذروا الإثم من جميع جهاته. والثالث: أن الإثم: المعصية^(٢)، إلا أن المراد به هاهنا أمر خاص. قال ابن زيد: ظاهره هاهنا: نزع أثوابهم، إذ كانوا يطوفون بالبيت عراة، وباطنه: الزنا.

(١) أي: نافع، وابن عامر المتقدم ذكرهما.

(٢) روى الإمام أحمد في «المسند» ٤/ ١٨٢، ومسلم في «صحيحه» ٤/ ١٩٨ عن النّوّاس بن سميان الأنصاري، قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم؟ فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكهرت بأن يطلع عليه الناس».

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَرَرَ يَدَاكَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفُسْقٌ وَإِنَّ الشَّاطِلِينَ لَيُوشَعُونَ إِلَيْكَ أَتَلْبَسُهُمْ لِيُجَدِّلُواكَ وَإِنَّ أَغْلَثُ قَوْمِكَ لَمَشْرُكُونَ﴾
 قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَرَرَ يَدَاكَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ سبب نزولها: مجادلة المشركين للمؤمنين في قولهم: أأأكلون مما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله! على ما ذكرنا في سبب قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨] هذا قول ابن عباس. وقال عكرمة: كتبت فارس إلى قريش: إن محمداً وأصحابه لا يأكلون ما ذبحه الله، ويأكلون ما ذبحوا لأنفسهم؛ فكتب المشركون إلى أصحاب النبي ﷺ بذلك، فوقع في أنفس ناسي من المسلمين من ذلك شيء، فنزلت هذه الآية. وفي المراد بما لم يذكر اسم الله عليه أربعة أقوال: أحدها: أنه الميتة، رواه ابن جبير عن ابن عباس. والثاني: أنه الميتة والمنخقة، إلى قوله: ﴿وَمَا دُيْعَ عَلَى النَّسَبِ﴾ [المائدة: ٢٣] روي عن ابن عباس. والثالث: أنها ذبائح كانت العرب تذبحها لأوثانها، قاله عطاء. والرابع: أنه عام فيما لم يسم الله عند ذبحه؛ وإلى هذا المعنى ذهب عبد الله بن يزيد الخطمي، ومحمد بن سيرين.

فصل

فإن تعمّد ترك التسمية، فهل يباح؟ فيه عن أحمد روايتان. وإن تركها ناسياً أيبحت. وقال الشافعي: لا يحرم في الحالين جميعاً. وقال شيخنا علي بن عبيد الله: فإذا قلنا: إن ترك التسمية عمداً يمنع الإباحة، فقد نُسخ من هذه الآية ذبائح أهل الكتاب بقوله: ﴿وَمَا دُيْعَ عَلَى النَّسَبِ﴾ [المائدة: ٢٥] وعلى قول الشافعي: الآية محكمة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفُسْقٌ﴾ يعني: وإن أكل ما لم يذكر عليه اسم الله لفسق، أي: خروج عن الحق والدين. وفي المراد بالشياطين هاهنا قولان: أحدهما: أنهم شياطين الجن، روي عن ابن عباس. والثاني: قوم من أهل فارس، وقد ذكرناه عن عكرمة؛ فعلى الأول: وحيمهم الوسوسة، وعلى الثاني: وحيمهم الرسالة. والمرادب «أوليائهم» الكفار الذين جادلوا رسول الله ﷺ في ترك أكل الميتة. ثم فيهم قولان: أحدهما: أنهم مشركو قريش. والثاني: اليهود؛ ﴿وَلَيْذَ أَطْعَمْتُمْ﴾ في استحلال الميتة ﴿لَكُمْ لَمَشْرُكُونَ﴾

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي يَوْمَ فِي آتَايَ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ اختفوا فيمن نزلت على خمسة أقوال: أحدها: أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب، وأبي جهل، وذلك أن أبا جهل رمى رسول الله ﷺ بفرث، وحمزة لم يؤمن بئذ، فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل، فأقبل حتى علا أبا جهل بالقوس، فقال له: أما ترى ما جاء به؟ سفه عقولنا، وسب آلهمنا، فقال حمزة: ومن أسفه منكم؟ تعبدون الحجارة من دون الله؟ أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس. والثاني: أنها نزلت في عمار بن ياسر، وأبي جهل، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال عكرمة. والثالث: في عمر بن الخطاب، وأبي جهل، قاله زيد بن أسلم، والضحاك. والرابع: في النبي ﷺ، وأبي جهل، قاله مقاتل. الخامس: أنها عامة في كل مؤمن وكافر، قاله الحسن في آخرين. وفي قوله: ﴿كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ قولان: أحدهما: كان ضالاً فهديناه، قاله مجاهد. والثاني: كان جاهلاً، فعلمناه، قاله الماوردي. وقرأ نافع: ﴿مِيثًا﴾ بالتحديد. قال أبو عبيدة: الميتة، مخففة: من مَيْتة، والمعنى واحد. وفي «النور» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الهدى، قاله ابن عباس. والثاني: القرآن، قاله الحسن. والثالث: العلم. وفي قوله: ﴿يَمْشِي يَوْمَ فِي آتَايَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: يهتدي به في الناس، قاله مقاتل. والثاني: يمشي به بين الناس إلى الجنة. والثالث: ينشر به دينه في الناس، فيصير كالماشي، ذكرهما الماوردي.

قوله تعالى: ﴿كَانَ مَثَلُهُ﴾ المثل: صلة؛ والمعنى: كمن هو في الظلمات. وقيل: المعنى: كمن لو شُبه بشيء، كان شبيهه من في الظلمات. وقيل: المراد بالظلمات هاهنا: الكفر.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الشرك والمعاصي.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مَجْرِمِهَا يَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مَجْرِمِهَا﴾ أي: وكما زينا للكافرين عملهم، فكَذَلِكَ جعلنا: في كل قرية أكابر مجرميها، وقيل معناه: وكما جعلنا فساق مكة أكابرها، فكَذَلِكَ جعلنا فساق كل قرية أكابرها. وإنما جعل الأكابر فساق كل قرية، لأنهم أقرب إلى الكفر بما أعطوا من الرياسة والسعة. وقال ابن قتيبة: تقدير الآية: وكَذَلِكَ جعلنا في كل قرية مجرميها أكابر؛ و«أكابر» لا ينصرف، وهم العظماء.

قوله تعالى: ﴿يَمْكُرُوا فِيهَا﴾ قال أبو عبيدة: المكر: الخديعة، والحيلة، والفجور، والغدر، والخلاف. قال ابن عباس: ليقولوا فيها الكذب. قال مجاهد: أجلسوا على كل طريق من طرق مكة أربعة، ليصرفوا الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ، يقولون للناس: هذا شاعر، وكاهن.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي: ذلك المكر بهم يحق.

﴿وَلَا جَاءَهُمْ مَائَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تَأْتِيَنَا مَوْءَاظٌ مِمَّنْ أَوْفَى رَسُولُ اللَّهِ أَفَلَمْ يَعْلَمُوا حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُمْ سَيِّئِبِ الَّذِينَ أَجْرُوا صَعَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ مِمَّا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا جَاءَهُمْ مَائَةٌ﴾ سبب نزولها: أن أبا جهل قال: زاحمتنا بنو عبد مناف في الشرف، حتى إذا صرنا كغرس بني رها، قالوا: مئاً نبينا يوحى إليه. والله لا نؤمن به ولا نطيعه أو أن يأتينا وحى كما يأتيه، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. قال الزجاج: الهاء والميم تعود على الأكابر الذين جرى ذكرهم. وقال أبو سليمان: تعود على المجادلين في تحريم الميتة. قال مقاتل: والآية: انشقاق القمر، والدخان. قال ابن عباس في قوله: ﴿يَمْكُرُوا مَوْءَاظٌ مِمَّنْ أَوْفَى رَسُولُ اللَّهِ﴾ قال: حتى يوحى إلينا، ويأتينا جبريل، فيخبرنا أن محمداً صادق. قال الضحاك: سأل كل واحد منهم أن يختص بالرسالة والوحي.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَفْلَحَ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ وقرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم: ﴿رِسَالَتَهُمْ﴾ بنصب التاء على التوحيد؛ والمعنى: أنهم ليسوا لها بأهل، وذلك أن الوليد بن المغيرة قال: والله لو كانت النبوة حقاً لكنث أولى بها منك، لأنني أكبر منك سنّاً، وأكثر منك مالاً، فنزل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَفْلَحَ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾. وقال أهل المعاني: الأبلغ في تصديق الرسل أن لا يكونوا قبل مبعضهم مطاعين في قومهم، لأن الطعن كان يتوجه عليهم، فيقال: إنما كانوا رؤساء فأتبعوا، فكان الله أعلم حيث جعل الرسالة لبيّتهم أبي طالب، دون أبي جهل، والوليد، وأكابر مكة.

قوله تعالى: ﴿سَيِّئِبِ الَّذِينَ أَجْرُوا صَعَارٌ﴾ قال أبو عبيدة: الصّعَار: أشد الذل. وقال الزجاج: المعنى هم، وإن كانوا أكابر في الدنيا، فسيصيبهم صغار عند الله، أي: صغار ثابت لهم عند الله. وجائز أن يكون المعنى: سيصيبهم عند الله صغار. وقال الفراء: معناه: صغار من عند الله، فحذفت «من». وقال أبو روق: صغار في الدنيا، وعذاب شديد في الآخرة. ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرِيمًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ قال مقاتل: نزلت في رسول الله ﷺ، وأبي جهل.

قوله تعالى: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ﴾ قال ابن الأعرابي: الشرح: الفتح. قال ابن قتيبة: ومنه يقال: شرح لك الأمر، وشرحت اللحم: إذا فتحته. وقال: ابن عباس: «يشرح صدره» أي: يوسع قلبه للتوحيد والإيمان. وقد روى ابن مسعود أن النبي ﷺ قرأ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾، فقيل له: يا رسول الله، وما هذا الشرح؟ قال: «نور يقدفه الله في القلب، فيفتح القلب». قالوا: فهل لذلك من أمارة؟ قال: «نعم». قيل: وما هي؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله»^(١).

(١) «الطبري» ١٠١/١٢، ١٠١ من طريقين عن عبد الله بن مسعود، وكلاهما ضعيف، وأورده ابن كثير ١٧٤/٢، بعد أن ذكره من طريق مرسل عن أبي جعفر الهاشمي، وقال: فهذه طرق لهذا الحديث مرسله ومتصلة بشد بعضها بعضاً. وانظر تعليق الأستاذ محمود شاكر على الحديث في «تفسير الطبري» ٩٩/١٢، ١٠٢.

قوله تعالى: ﴿صَبِقًا﴾ قرأ الأكثرون بالتشديد. وقرأ ابن كثير: «صَبِقًا»، وفي [الفرقان: ١٣]: «مَكَانًا صَبِقًا» بتسكين الياء خفيفة. قال أبو علي: الصَّبِيقُ، والصَّبِيقُ: مثل المَيْتِ، والمَيْتِ.

قوله تعالى: ﴿حَرَجًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «حَرَجًا» بفتح الراء. وقرأ نافع، وأبو بكر عن عاصم: بكسر الراء. قال الفراء: وهما لغتان.. وكذلك قال يونس بن حبيب النحوي: هما لغتان، إلا أن الفتح أكثر على السنة العرب من الكسر، ومجرهما مجرى الدَّنْفِ والدَّنِيفِ. وقال الزجاج: الحرج في اللغة: أضييق الضيق.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَاعِدُ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «يَصْعَدُ» بتشديد الصاد والعين وفتح الصاد من غير ألف. وقرأ أبو بكر عن عاصم: «يَصَاعِدُ» بتشديد الصاد وبعدها ألف. وقرأ ابن كثير: «يَصْعَدُ» بتخفيف الصاد والعين من غير ألف والصاد ساكنة. وقرأ ابن مسعود، وطلحة: «تَصْعَدُ» بقاء من غير ألف. وقرأ أبي بن كعب: «يَتَصَاعِدُ» بألف وتاء. قال الزجاج: قوله: ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾. و«يَصْعَدُ»، أصله: «يتصاعد»، و«يتصعد»، إلا أن التاء تدغم في الصاد لقربها منها، والمعنى: كأنه كُلف أن يَصْعَدَ إلى السماء إذا دعي إلى الإسلام من ضيق صدره عنه. ويجوز أن يكون المعنى: كأن قلبه يصعد في السماء نُبُوًّا عن الإسلام والحكمة. وقال الفراء: ضاق عليه المذهب، فلم يجد إلا أن يصعد في السماء، وليس يقدر على ذلك. وقال أبو علي: «يَصْعَدُ» و«يَصَاعِدُ»: من المشقة، وصعوبة الشيء، ومنه قول عمر: ما تَصْعَدُنِي شيء كما تصعدتني خطبة النكاح، أي: ما شق عليّ شيء مشقتها.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما قصصنا عليك. ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ﴾ وفيه خمسة أقوال: أحدها: أنه الشيطان، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. يعني: أن الله يسلطه عليهم. والثاني: أنه المأثم، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنه ما لا خير فيه، قاله مجاهد. والرابع: أنه العذاب، قاله عطاء، وابن زيد، وأبو عبيدة. والخامس: أنه اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة، قاله الزجاج. وهذه الآية تقطع كلام القدرية، إذ قد صرحت بأن الهداية والإضلال متعلقة بإرادة الله تعالى.

﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه القرآن، قاله ابن مسعود. والثاني: التوحيد، قاله ابن عباس. والثالث: ما هو عليه من الدين، قاله عطاء. ومعنى استقامته: أنه يؤدي بسالكه إلى الفوز. قال مكي بن أبي طالب: و«مستقيماً»: نصب على الحال من «صراط»، وهذه الحال يقال لها: الحال المؤكدة، لأن صراط الله، لا يكون إلا مستقيماً، ولم يؤت بها لتفرق بين حالتين، إذ لا يتغير صراط الله عن الاستقامة أبداً، وليست هذه الحال كالحال من قولك: «هذا زيد راكباً»، لأن زيدا قد يخلو من الركوب.

﴿لَمْ دَارُ السَّكْرِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَمْ دَارُ السَّكْرِ﴾ يعني الجنة. وفي تسميتها بذلك أربعة أقوال: أحدها: أن السلام هو الله، وهي داره، قاله ابن عباس، والحسن، وقادة، والسدي. والثاني: أنها دار السلامة التي لا تنقطع، قاله الزجاج. والثالث: أن تحية أهلها فيها السلام، ذكره أبو سليمان الدمشقي. والرابع: أن جميع حالاتها مقرونة بالسلام، ففي ابتداء دخولهم: ﴿أَدْخُلُوا يَسْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٤٦]، وبعد استقرارهم: ﴿وَاللَّيْلُ كَيْفَ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [سَلَامٌ عَلَيْهِمْ] [الرعد: ٢٣]، وقوله: ﴿إِلَّا قِيلَ سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٦]، وعند لقاء الله ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقوله: ﴿يَحْيِيهِمْ يَوْمَ يَقُومَتُ السَّلَامُ﴾ [الأحزاب: ٤٤]. ومعنى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: مضمونة لهم عنده، ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ أي: متولي إيصال المنافع إليهم، ودفع المضار عنهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الطاعات.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشِرُ الْجَنَّةِ قَدْ اسْتَغْنَوْا مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَمَلَنَا الْوَعْدَ بَلَّغْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَوَدُّكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيَمًا﴾ يعني الجن والإنس. وقرأ حفص عن عاصم: «يشحهم» بالياء. قال أبو سليمان: يعني: المشركين وشياطينهم الذين كانوا يوحون إليهم بالمجادلة لكم فيما حرمه الله من الميتة.

قوله تعالى: ﴿يَنْمَقَرُ لَئِنْ﴾ فيه إضمار، فيقال لهم: يا معشر؛ والمعشر: الجماعة، أمرهم واحد، والجمع: المعاشر. وقوله: ﴿فَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أي: من إغوائهم وإضلالهم. ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ يعني الذين أضلهم الجن. ﴿رَبَّنَا اسْتَنْتَعْ بَعْضًا بَعْضًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن استمتاع الإنس بالجن: أنهم كانوا إذا سافروا، فتزلوا وادياً، وأرادوا ميئاً، قال أحدهم: أعوذ بعظيم هذا الوادي من شر أهله؛ واستمتع الجن بالإنس: أنهم كانوا يفخرون على قومهم، ويقولون: قد سدنا الإنس حتى صاروا يعوذون بنا، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مقاتل، والفراء. والثاني: أن استمتاع الجن بالإنس: طاعتهم لهم فيما يغفرونهم به من الضلالة والكفر والمعاصي. واستمتع الإنس بالجن: أن الجن زَيَّنَتْ لهم الأموال التي يهْوَوْنَهَا، وشَهَّوْهَا إليهم حتى سهل عليهم فعلها، روى هذا المعنى عطاء عن ابن عباس، وبه قال محمد بن كعب، والزجاج. والثالث: أن استمتاع الجن بالإنس: إغواؤهم بإهام. واستمتاع الإنس بالجن: ما يَتَلَقَّوْنَ منهم من السحر والكهانة ونحو ذلك. والمراد بالجن في هذه الآية: الشياطين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَيْنَا آلَ لُوطٍ لَيْلًا﴾ فيه قولان: أحدهما: الموت، قاله الحسن، والسدي. والثاني: الحشر، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَأْتُونَكَم﴾ قال الزجاج: المشوى: المقام؛ و﴿خَلِيلِينَ﴾ منصوب على الحال. المعنى: النار مقامكم في حال خلود دائم ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ هو استثناء من يوم القيامة، والمعنى: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ مذبذبون ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ من مقدار حشرهم من قبورهم، ومدتهم في محاسبتهم. ويجوز أن تكون ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن يزيدهم من العذاب. وقال بعضهم: إلا ما شاء الله من كونهم في الدنيا بغير عذاب؛ وقيل في هذا غير قول، ستجدها مشروحة في (هود) إن شاء الله.

﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَظْمٍ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَظْمٍ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ في معناه أربعة أقوال: أحدها: نجعل بعضهم أولياء بعض، رواه سعيد عن قتادة. والثاني: نُتَّبِعُ بعضهم بعضاً في النوا بأعمالهم من الموالاة، وهي المتابعة، وراه معمر عن قتادة. والثالث: نسلط بعضهم على بعض، قاله ابن زيد. والرابع: نكل بعضهم إلى بعض ولا نعينهم، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من المعاصي.

﴿يَنْمَقَرُ لَئِنْ وَالْإِنْسِ أَلَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا يَنْتَهِى وَرُسُلُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا سَهْدًا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَضَهُمْ لَمَلِئُوا الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَنْمَقَرُ لَئِنْ وَالْإِنْسِ أَلَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ قرأ الحسن، وفتادة: «تأتكم» بالياء، ﴿رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾. واختلوا في الرسالة إلى الجن على أربعة أقوال: أحدها: أن الرسل كانت تبث إلى الإنس خاصة، وأن الله تعالى بعث محمداً ﷺ إلى الإنس والجن، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن رسل الجن، هم الذين سمعوا القرآن، فولوا إلى قومهم منفرين، روي عن ابن عباس أيضاً. وقال مجاهد: الرسل من الإنس، والنزول من الجن، وهم قوم يسمعون كلام الرسل، فيبلغون الجن ما سمعوا. والثالث: أن الله تعالى بعث إليهم رسلاً منهم، كما بعث إلى الإنس رسلاً منهم، قاله الضحاك، ومقاتل، وأبو سليمان، وهو ظاهر الكلام. والرابع: أن الله تعالى لم يبعث إليهم رسلاً منهم، وإنما جاءتهم رسل الإنس، قاله ابن جريج، والفراء، والزجاج. قالوا: ولا يكون الجمع في قوله: ﴿أَلَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ مانعاً أن تكون الرسل من أحد الفريقين، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الثُّرُودُ وَالنَّمِيَّاتُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنما هو خارج من الملح وحده. وفي دخول الجن الجنة إذا آمنوا قولان: أحدهما: يدخلونها، ويأكلون ويشربون، قاله الضحاك. والثاني: أن ثوابهم أن يجاروا من النار ويصيروا تواباً، رواه سفيان عن ليث.

قوله تعالى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا يَنْتَهِى﴾ أي: يقرؤون عليكم كتيب. ﴿وَرُسُلُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: يخوفونكم بيوم القيامة. وفي

قوله: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا﴾ قولان: أحدهما: أقرنا على أنفسنا بإنذار الرسل لنا. والثاني: شهد بعضنا على بعض بإنذار الرسل إياهم. ثم أخبرنا الله تعالى بحالهم، فقال: ﴿وَعَزَّزْنَاهُمْ بِحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بزيئها، وإمهالهم فيها. ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: أقرروا أنهم كانوا في الدنيا كافرين. وقال مقاتل: ذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر.

﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفُولُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ قال الزجاج: ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرسل، وأمر عذاب من كذب، لأنه لم يكن ربك مهلك القرى بظلم، أي: لا يهلككم حتى يبعث إليهم رسولا. قال ابن عباس: «بظلم» أي: بشرك ﴿وَأَهْلُهَا غَفُولُونَ﴾ لم يأتهم رسول.

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّنَّا عَمَلٌ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّنَّا عَمَلٌ﴾ أي: لكل عامل بطاعة الله أو بمعصيته درجات، أي: منازل يبلغها بعمله، إن كان خيراً فخيراً، وإن كان شراً فشراً. وإنما سميت درجات لتفاضلها في الارتفاع والانحطاط، كتفاضل الدرج.

قوله تعالى: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ الجمهور بالياء؛ وقرأ ابن عامر بالتاء على الخطاب.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُدْخِلْكُمْ مِّنْ بَدْرِكُمْ مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّنْ دُرَيْكَةِ قَوْمٍ مُّكْرِهَاتٍ﴾

﴿إِن مَّا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنشَأَ مُعْجِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ يريد: الغني عن خلقه ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ قال ابن عباس: بأوليائه وأهل طاعته. وقال غيره: بالكل. ومن رحمته تأخير الانتقام من المخالفين. ﴿إِنْ يَشَأْ يُدْخِلْكُمْ﴾ بالهلاك؛ وقيل: هذا الوعيد لأهل مكة؛ ﴿وَسَتُخْلِفُ مِنْ بَدْرِكُمْ مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم﴾ أي: ابتداءكم ﴿مِّنْ دُرَيْكَةِ قَوْمٍ مُّكْرِهَاتٍ﴾ يعني: آباءهم الماضين. ﴿إِن مَّا تُوعَدُونَ﴾ به من مجيء الساعة والحشر ﴿لَآتٍ وَمَا أَنشَأَ مُعْجِرِينَ﴾ أي: بفائتين. قال أبو عبيدة: يقال: أعجزني كذا، أي: فاتني وسبقني.

﴿قُلْ يَتُوبُ إِلَىٰ اللَّهِ مَنْ يَشَاءُ لِيُغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ إِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ﴾ وقرأ أبو بكر عن عاصم: «مكاناتكم» على الجمع. قال ابن قتيبة: أي: على موضعكم، يقال: مكان ومكانة، ومنزل ومنزلة. وقال الزجاج: اعملوا على تمكنكم. قال: ويجوز أن يكون المعنى: اعملوا على ما أنتم عليه. تقول للرجل إذا أمرته أن يثبت على حال: كن على مكانتك.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي غَافِلٌ﴾ أي: عامل ما أمرني به ربي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَذَابُ الدَّارِ﴾. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: «تكون» بالتاء. وقرأ حمزة، والكسائي: بالياء. وكذلك خلافهم في [القصر: ٢٧]، ووجه التأنيث، اللفظ، ووجه التذكير، أنه ليس بتأنيث حقيقي. وعاقبة الدار: الجنة. والظالمون هاهنا: المشركون. فلان قيل: ظاهر هذه الآية أمرهم بالإقامة على ما هم عليه، وذلك لا يجوز. فالجواب: أن معنى هذا الأمر المبالغة في الوعيد؛ فكانه قال: أقيموا على ما أنتم عليه، إن رضيت بالعذاب، قاله الزجاج.

فصل

وفي هذه الآية قولان: أحدهما: أن المراد بها التهديد؛ فعلى هذا هي محكمة. والثاني: أن المراد بها ترك القتال؛ فعلى هذا هي منسوخة بآية السيف.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِثْلَ دَرَاكِمٍ الْحَكْمَ وَالْأَنْكُرَ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعِيهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِهِمْ فَكَاكَاتٍ لِّشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَاكَاتٍ لِلَّهِ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ شُكَّيْهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِثْلَ دَرَاكِمٍ﴾ قال ابن قتيبة: ذرا، بمعنى خلق. ﴿وَمِثْلَ الْحَكْمِ﴾ وهو الزرع. ﴿وَالْأَنْكُرَ﴾: الإبل والبقر والغنم. وكانوا إذا زرعوا، خطوا خطأ، فقالوا: هذا لله، وهذا لآلهتنا، فإذا حصدوا ما

جعلوه لله، فوقع منه شيء فيما جعلوه لآلهتهم، تركوه وقالوا: هي إليه محتاجة؛ وإذا حصدوا ما جعلوه لآلهتهم، فوقع منه شيء في مال الله، أعادوه إلى موضعه. وكانوا يجعلون من الأنعام شيئاً لله؛ فإذا ولدت إنانها ميتاً أكلوه، وإذا ولدت أنعام آلهتهم ميتاً عظموه فلم يأكلوه. وقال الزجاج: معنى الآية: وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، جعلوا لشركائهم نصيباً، يدل عليه قوله تعالى: ﴿تَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرْغِمِهِمْ وَهَذَا لَشُرْكَائِنَا﴾، فدل بالإشارة إلى النصيبين على نصيب الشركاء؛ وكانوا إذا زكا ما لله، ولم يزك ما لشركائهم، ردوا الزاكي على أصنامهم، وقالوا: هذه أحوج، والله غني؛ وإذا زكا ما للأصنام، ولم يزك ما لله، أقروه على ما به. قال المفسرون: وكانوا يصرفون ما جعلوا لله إلى الضيفان والمساكين. فمعنى قوله: ﴿فَلَا يَصِلُ إِلَيْكَ اللَّهُ﴾ أي: إلى هؤلاء. ويصرفون نصيب آلهتهم في الزرع إلى النفقة على خُدَّامها. فأما نصيبها في الأنعام، ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان للنفقة عليها أيضاً. والثاني: أنهم كانوا يتقربون به، فيذبحونه لها. والثالث: أنه البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام. وقال الحسن: كان إذا هلك ما لأوثانهم غريمه، وإذا هلك ما لله لم يغرموه. وقال ابن زيد: كانوا لا يأكلون ما جعلوه لله حتى يذكروا عليه اسم أوثانهم، ولا يذكرون الله على ما جعلوه للأوثان. فأما قوله: «بزعمهم» فقرأ الجمهور: بفتح الزاي؛ وقرأ الكسائي، والأعمش: بضمها. وفي الزعم ثلاث لغات ضم الزاي، وفتحها، وكسرهما. ومثله: الشَّقَط، والسَّقَط، والسَّقَط؛ والفَتَك، والفَتَك، والفَتَك؛ والرَّعْم، والرَّعْم، والرَّعْم. قال الفراء: فتح الزاي في الرَّعْم، لأهل الحجاز؛ وضمها لأسد؛ وكسرهما لبعض قيس فيما يحكي الكسائي.

﴿وَكَذَلِكَ زُكِّيَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيُزْودَهُمْ وَلَيْسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمُ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فُكِّهُوا فَنَزَلَهُمْ وَمَا يَفْقَهُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زُكِّيَ﴾ أي: ومثل ذلك الفعل القبيح فيما قسموا بالجهل زَيْن. قال ابن الأنباري: ويجوز أن يكون «وكذلك» مستأنفاً، غير مشارٍ به إلى ما قبله؛ فيكون المعنى: وهكذا زَيْن. وقرأ الجمهور: «زَيْن» بفتح الزاي والياء، ونصب اللام من «قَتَلَ»، وكسر الدال من «أَوْلَادِهِمْ»، ورفع «الشركاء»؛ وجه هذه القراءة ظاهر. وقرأ ابن عامر؛ بضم زاي «زَيْن»، ورفع اللام [من «قَتَلَ»]، ونصب الدال من «أَوْلَادِهِمْ»، وخفض «الشركاء». قال أبو علي: ومعناها: قتل شركائهم أَوْلَادَهُمْ؛ ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول به، وهذا قبيح، قليل في الاستعمال. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والحسن: «زَيْن» بالرفع، «قَتَلَ» بالرفع أيضاً، «أَوْلَادِهِمْ» بالجر، «شركائهم» رفعاً. قال الفراء: رَفَعَ القتل إذ لم يسم فاعله؛ ورفع الشركاء بفعل نواه، كأنه قال: زَيْنَته لهم شركائهم. وكذلك قال سيبويه في هذه القراءة؛ قال: كأنه قيل: مَنْ زَيْنَته؟ فقال: شركائهم. قال مكي بن أبي طالب: وقد روي عن ابن عامر أيضاً أنه قرأ بضم الزاي، ورفع اللام، وخفض الأولاد والشركاء؛ فيصير الشركاء اسماً للأولاد، لمشاركتهم للأباء في النسب والميراث والدين. وللمفسرين في المراد بشركائهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم الشياطين، قاله الحسن، ومجاهد، والسدي. والثاني: شركائهم في الشرك، قاله قتادة. والثالث: قوم كانوا يخدمون الأوثان، قاله الفراء، والزجاج. والرابع: أنهم العَوَاة من الناس، ذكره الماوردي. وإنما أضيف الشركاء إليهم، لأنهم هم الذين اختلقوا ذلك وزعموه. وفي الذي زَيْنَته لهم من قتل أولادهم قولان: أحدهما: أنه وأد البنات أحياء خيفة الفقر، قاله مجاهد. والثاني: أنه كان يحلف أحدهم أنه إن ولد له كذا وكذا غلاماً أن ينحر أحدهم، كما حلف عبد المطلب في نحر عبد الله، قاله ابن السائب، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿لِيُزْودَهُمْ﴾ أي: ليهلكوهم. وفي هذه اللام قولان: أحدهما: أنها لام «كي». والثاني: أنها لام العاقبة، كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ﴾ [القصص: ٨] أي: آل أمرهم إلى الردى، لا أنهم قصدوا ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي: ليخلطوا. قال ابن عباس: ليُدخلوا عليهم الشك في دينهم؛ وكانوا على دين إسماعيل، فرجعوا عنه بتزيين الشياطين.

قوله تعالى: ﴿فَنَزَلَهُمْ وَمَا يَفْقَهُونَ﴾ قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية إذا دفنوا بناتهم قالوا: إن الله أمرنا بذلك؛

فقال: ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْقَهُونَ﴾؛ أي؛ يكذبون؛ وهذا تهديد ووعيد، فهو محكم. وقال قوم: مقصوده ترك قتالهم، فهو منسوخ بآية السيف.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَفْئِدَةُ حَبِيرٍ لَا يَخْلُقُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ رِيعِمَ وَأَفْئِدَةُ حَرَمَتٍ طُحُورُهَا وَأَفْئِدَةُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفْئِدَةٌ عَلَيْهِمْ سَبِّحْنَاهُمْ يَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿١٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَفْئِدَةُ حَبِيرٍ لَا يَخْلُقُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ رِيعِمَ وَأَفْئِدَةُ حَرَمَتٍ طُحُورُهَا وَأَفْئِدَةُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفْئِدَةٌ عَلَيْهِمْ سَبِّحْنَاهُمْ يَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿١٣٨﴾. قال ابن قتبية: وإنما قيل للحرام: حجير، لأنه حُجر على الناس أن يصيبوه. وقرأ الحسن، وقاتدة: «حجير» بضم الحاء. قال الفراء: يقال: حجير، وحجير، بكسر الحاء وضمها؛ وهي في قراءة ابن مسعود: «حرج»، مثل: «جذب» و«جذب». وفي هذه الأنعام التي جعلوها للأصنام قولان: أحدهما: أنها البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام. والثاني: أنها الذبائح التي للأوثان؛ وقد سبق ذكرهما.

قوله تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ هو كقولك: لا يذوقها إلا من نريد. وفيمن أطلقوا له تناولها قولان: أحدهما: أنهم منَعوا منها النساء، وجعلوها للرجال، قالها ابن السائب. والثاني: عكسه، قاله ابن زيد. قال الزجاج: أعلم الله تعالى أن هذا التحريم زعم منهم، لا حجة فيه ولا برهان. وفي قوله: ﴿وَأَفْئِدَةُ حَرَمَتٍ طُحُورُهَا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الحام، قاله ابن عباس. والثاني: البحيرة، كانوا لا يحجون عليها، قاله أبو وائل. والثالث: البحيرة، والسائبة، والحام، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَةُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ هي قربان آلهتهم، يذكرون عليها اسم الأوثان خاصة. وقال أبو وائل: هي التي كانوا لا يحجون عليها؛ وقد ذكرنا هذا عنه في قوله: ﴿حَرَمَتٍ طُحُورُهَا﴾، فعلى قوله؛ الصفتان لموصوف واحد. وقال مجاهد: كان من إيلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها في شيء؛ لا إن ركبوا، ولا إن حملوا، ولا إن حلبوا، ولا إن نبتجوا. وفي قوله: ﴿أَفْئِدَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: أن ذكر أسماء أوثانهم وترك ذكر الله، هو الافتراء. والثاني: أن إضافتهم ذلك إلى الله تعالى، هو الافتراء؛ لأنهم كانوا يقولون: هو حرم ذلك.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَفْئِدَةِ إِلَّا لُكُورٌ وَمَحْرُومٌ عَلَى أَزْوَاجٍ وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَبِّحْنَاهُمْ مِمَّا كَانُوكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿١٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَفْئِدَةِ﴾ يعني بالأنعام: المحرمات عندهم، من البحيرة، والسائبة، والوصيلة. وللمفسرين في المراد بما في بطونها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اللبن، قاله ابن عباس، وقاتدة. والثاني: الأجنة، قاله مجاهد. والثالث: الولد واللبن، قاله السدي، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا لُكُورٌ﴾ قرأ الجمهور: «خالصة» على لفظ التانيث. وفيها أربعة أوجه: أحدها: أنه إنما أنت، لأن الأنعام مؤنثة، وما في بطونها مثلها، قاله الفراء. والثاني: أن معنى «ما» التانيث، لأنها في معنى الجماعة؛ فكانه قال: جماعة ما في بطون هذه الأنعام خالصة، قاله الزجاج. والثالث: أن الهاء دخلت للمبالغة في الوصف، كما قالوا: «علامة» و«نسابة». والرابع: أنه أجري مجرى المصادر التي تكون بلفظ التانيث عن الأسماء المذكرة، كقولك: عطاوك عافية، والرخص نعمة، ذكرهما ابن الأنباري. وقرأ ابن مسعود، وأبو العالية، والضحاك، والأعمش، وابن أبي عبيدة: «خالص» بالرفع، من غير هاء. قال الفراء: وإنما ذكر لتذكير «ما». وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، وعكرمة، وابن يعمر: «خالصة» برفع الصاد والهاء على ضمير مذكر، قال الزجاج: والمعنى: ما خلص حياً. وقرأ قاتدة: «خالصة» بالنصب. فأما الذكور، فهم الرجال، والأزواج: النساء.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً﴾ قرأ الأكثرون: «يكن» بالياء، «ميتة» بالنصب؛ وذلك مردود على لفظ «ما». المعنى وإن يكن ما في بطون هذه الأنعام ميتة. وقرأ ابن كثير: «يكن» بالياء، «ميتة» بالرفع. وافقه ابن عامر في رفع الميتة؛ غير أنه قرأ: «تكن» بالتاء. والمعنى: وإن تحدث وتقع، فجعل «كان»: تامة لا تحتاج إلى خبر. وقرأ أبو بكر عن عاصم: «تكن» بالتاء، «ميتة» بالنصب. والمعنى: وإن تكن الأنعام التي في البطون ميتة.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ يعني الرجال والنساء. ﴿سَيَبْرُهُمْ وَصَفَّهُمْ﴾ قال الزجاج: أراد جزاء وصفهم الذي هو كذب.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ وقرأ ابن كثير، وابن عامر: «قتلوا» بالتشديد. قال ابن عباس: نزلت في ربيعة، ومضر، والذين كانوا يدفنون بناتهم أحياء في الجاهلية من العرب. وقال قتادة: كان أهل الجاهلية يقتل أحدهم بته مخافة السبي والفاقة، ويغذو كلبه. وقال الزجاج: وقوله: «سفهًا» منصوب على معنى اللام، تقديره: للسفه؛ تقول: فعلت ذلك حذر الشر. وقرأ ابن السميع، والجحدري، ومعاذ الفارئ: «سفهاء» برفع السين وفتح الفاء والهاء وبالمدة وبالنصب والهمز.

قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: كانوا يفعلون ذلك للسفه من غير أن أتاهم علم في ذلك، وحرموا ما رزقهم الله من الأنعام والحراث، وزعموا أن الله أمرهم بذلك.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرُهُمُ اللَّزْيُوتُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَاطُ مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ كُلًّا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآمَنَّا بِحَقِّ يَوْمٍ حَصَادِهِ وَلَا تُشْرِكُوا إِلَهُكُمْ لَا يَحِبُّ الْمُسْرِيفِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن المعروشات ما انبسط على وجه الأرض، فانتشر ما يعرّش، كالكرم، والقرع، والبطيخ؛ وغير معروشات: ما قام على ساق، كالنخل، والزروع، وسائر الأشجار. والثاني: أن المعروشات: ما أنبت الناس؛ وغير معروشات: ما خرج في البراري والجبال من الثمار، روي عن ابن عباس. والثالث: أن المعروشات، وغير المعروشات: الكرم، منه ما عرّش، ومنه ما لم يعرّش، قاله الضحاك. والرابع: أن المعروشات: الكروم التي قد عرّش عنها، وغير المعروشات: سائر الشجر التي لا تعرّش، قاله أبو عبيدة. والأكل: الثمر. ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَاطُ مُتَشَكِّبًا﴾، قد سبق تفسيره.

قوله تعالى: ﴿كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ هذا أمر إباحة؛ وقيل: إنما قدّم الأكل لينهى عن فعل الجاهلية في زرعهم من تحريم بعضها.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا حَقُّ يَوْمٍ حَصَادِهِ﴾ قرأ ابن عامر، وعاصم، وأبو عمرو: بفتح الحاء، وهي لغة أهل نجد، وتميم. وقرأ ابن كثير، ونافع، وحزمة، والكسائي: بكسرهما، وهي لغة أهل الحجاز، ذكره الفراء. وفي المراد بهذا الحق قولان: أحدهما: أنه الزكاة، روي عن أنس بن مالك، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، والحسن، وطاووس، وجابر بن زيد، وابن الحنفية، وقاتدة في آخرين؛ فعلى هذا، الآية محكمة: والثاني: أنه حق غير الزكاة فرض يوم الحصاد، وهو إطعام من حضر، وترك ما سقط من الزرع والثمر، قاله عطاء، ومجاهد. وهل تُسخ ذلك، أم لا؟ إن قلنا: إنه أمر وجوب، فهو منسوخ بالزكاة؛ وإن قلنا: إنه أمر استحباب، فهو باقي الحكم. فإن قيل: هل يجب إيتاء الحق يوم الحصاد؟ فالجواب: إن قلنا: إنه إطعام من حضر من الفقراء، فذلك يكون يوم الحصاد؛ وإن قلنا: إنه الزكاة، فقد ذكرت عنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن الأمر بالإيتاء محمول على النخيل، لأن صدقتها تجب يوم الحصاد. فأما الزروع، فالأمر بالإيتاء منها محمول على وجوب الإخراج؛ إلا أنه لا يمكن ذلك عند الحصاد، فيؤخر إلى زمان التقية، ذكره بعض السلف. والثاني: أن اليوم ظرف للحق، لا للإيتاء؛ فكانه قال: وآتوا حقه الذي وجب يوم حصاده بعد التقية. والثالث: أن فائدة ذكر الحصاد أن الحق لا يجب فيه بنفس خروجه وبلوغه؛ إنما يجب يوم حصوله في يد صاحبه. وقد كان يجوز أن يتوهم أن الحق يلزم بنفس نيابته قبل قطعه، فأفادت الآية أن الوجوب فيما يحصل في اليد، دون ما يتلف، ذكر الجوابين القاضي أبو يعلى. وفي قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا﴾ ستة أقوال: أحدها: أنه تجاوز المفروض في الزكاة إلى حد يُجحف به، قاله أبو العالية، وابن جريج. وروى أبو صالح عن ابن عباس: أن ثابت بن قيس بن شماس صرم خمسمائة نخلة، ثم قسمها في يوم واحد، فأمسى ولم يترك لأهله شيئاً، فكره الله تعالى له ذلك، فنزلت: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا إِلَهُكُمْ لَا يَحِبُّ الْمُسْرِيفِينَ﴾. والثاني: أن الإسراف: منع الصدقة الواجبة، قاله سعيد بن المسيب. والثالث: أنه

الإِنفاق في المعصية، قاله مجاهد، والزهري. والرابع: أنه إشراك الآلهة في الحرث والأنعام، قاله عطية العوفي، وابن السائب. والخامس: أنه خطاب للسلطان لئلا يأخذ فوق الواجب من الصدقة، قاله ابن زيد. والسادس: أنه الإسراف في الأكل قبل أداء الزكاة، قاله ابن بحر.

﴿وَمِنَ الْأَنْكَمِ حُمُولَةٌ وَفَرَشٌ كُلُّوْا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿١٤٢﴾ تَمَيَّنَ أَزْوَاجُ ﴿١٤٣﴾ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْكَمِ حُمُولَةٌ وَفَرَشٌ﴾ هذا نسق على ما قبله؛ والمعنى: أنشأ جنات، وأنشأ حملة وفرشاً. وفي ذلك خمسة أقوال: أحدها: أن الحمولة: ما حل من الإبل، والفرش: صغارها، قاله ابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وابن قتيبة. والثاني: أن الحمولة: ما انتفعت بظهورها، والفرش: الراعية، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أن الحمولة: الإبل، والخليل، والبغال، والحمير، وكل شيء يُحْمَلُ عليه. والفرش: الغنم: رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والرابع: الحمولة: من الإبل، والفرش: من الغنم، قاله الضحاك. والخامس: الحمولة: الإبل والبقر. والفرش: الغنم وما لا يحمل عليه من الإبل، قاله قتادة. وقرأ عكرمة، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء: «حمولة» بضم الحاء.

قوله تعالى: ﴿كُلُّوْا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ قال الزجاج: المعنى: لا تحرّموا ما حرّمتم مما جرى ذكره: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: طريقه. قال: وقوله: ﴿تَمَيَّنَ أَزْوَاجُ﴾ بدل من قوله: ﴿حُمُولَةٌ وَفَرَشٌ﴾. والزوج، في اللغة: الواحد الذي يكون معه آخر. قال المصنف؛ وهذا كلام يفتقر إلى تمام، وهو أن يقال: الزوج: ما كان معه آخر من جنسه، فحيثما يقال لكل واحد منهما زوج.

﴿وَمِنَ الْأَمْكَانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ قُلْ لِلزَّكَّرَيْنِ حَرَمٌ أَرِ الْأُنثَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ يَتَّبِعُ بِعِلْمِهِ إِنْ كُنْتُمْ مُدْقِقِينَ﴾ ﴿١٤٤﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ لِلزَّكَّرَيْنِ حَرَمٌ أَرِ الْأُنثَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِنْ مَسَّنَّكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَا أَظْلَمُ يَمْنُ أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُنْزِلَ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَمْكَانِ اثْنَيْنِ﴾ الضأن: ذوات الصوف من الغنم، والمعز: ذوات الشعر منها. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: «المعز» بفتح العين. وقرأ نافع، وحمره، وعاصم، والكسائي: بتسكين العين. والمراد بالأنثيين الذكر والأنثى. ﴿قُلْ لِلزَّكَّرَيْنِ﴾ من الضأن والمعز حرم الله عليكم ﴿أَرِ الْأُنثَيْنِ﴾ منها؟. المعنى: فإن كان ما حرم عليكم الذكركين، فكل الذكور حرام، وإن كان حرم الأنثيين، فكل الإناث حرام، وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، فهي تشتمل على الذكور، وتشتمل على الإناث، وتشتمل على الذكور والإناث، فيكون كل جنين حراماً. وقال ابن الأنباري: معنى الآية: ألحقكم التحريم من جهة الذكركين، أم من جهة الأنثيين؟ فإن قالوا: من جهة الذكركين، حرّم عليهم كل ذكر، وإن قالوا: من جهة الأنثيين، حرمت عليهم كل أنثى؛ وإن قالوا: من جهة الرحم، حرّم عليهم الذكر والأنثى. وقال ابن جرير الطبري: إن قالوا: حرّم الذكركين، أوجبوا تحريم كل ذكر من الضأن والمعز، وهم يستمتعون بلحوم بعض الذكركان منها وظهوره، وفي ذلك فساد دعواهم. وإن قالوا: حرّم الأنثيين أوجبوا تحريم لحوم كل أنثى من ولد الضأن والمعز، وهم يستمتعون بلحوم بعض ذلك وظهوره. وإن قالوا: ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، فقد كانوا يستمتعون ببعض ذكورها وإناثها. قال المفسرون: فاحتج الله تعالى عليهم بهذه الآية والتي بعدها، لأنهم كانوا يحرمون أجناساً من النعم، بعضها على الرجال والنساء، وبعضها على النساء دون الرجال. وفي قوله: ﴿قُلْ لِلزَّكَّرَيْنِ حَرَمٌ أَرِ الْأُنثَيْنِ﴾ إبطال لما حرّموه من البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام. وفي قوله: ﴿أَمَّا اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ﴾، إبطال قولهم: ﴿مَا فِي بُلُوتِهِ هَذَا الْأَنْكَمُ حَالِصَةٌ لِّلْكَوْنِ وَمَحْرَمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُوا بِعِلْمِهِ﴾ قال الزجاج: المعنى: فسروا ما حرّمتم بعلم، أي: أنتم لا علم لكم، لأنكم لا تؤمنون بكتاب. ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ أي: هل شاهدتم الله قد حرّم هذا، إذا كنتم لا تؤمنون برسول؟

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يُغْنِيهِ النَّاسُ يَفْعَلُ اللَّهُ بِهِ مَا يُرِيدُ﴾ قال ابن عباس: يريد عمرو بن لحي، ومن جاء بعده. والظالمون هاهنا: المشركون.

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُوجِدَ لِغَيْرِ اللَّهِ يَدْعُو فَتَكُنْ أَضْطَرَّ عَرِّي بَبَاحٍ وَلَا عَارَ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤٥)

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ نبيهم بهذا على أن التحريم والتحليل، إنما يثبت بالوحي. وقال طاووس، ومجاهد: معنى الآية: لا أجد محرماً مما كنتم تستحلون في الجاهلية إلا هذا. والمراد بالطعام: الأكل. ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ أي: إلا أن يكون المأكول ميتة. قرأ ابن كثير، وحمزة: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ﴾ بالياء، «ميتة» نصباً. وقرأ ابن عامر: «إلا أن تكون» بالناء، «ميتة» بالرفع؛ على معنى: إلا أن تقع ميتة، أو تحدث ميتة. ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ قال قتادة: إنما حُرِّمَ المسفوح، فأما اللحم إذا خالطه دم، فلا بأس به. قال الزجاج: المسفوح: المصبوب. وكانوا إذ ذكروا يأكلون الدم كما يأكلون اللحم. والرجم: اسم لما يقتل، وللعذاب. ﴿أَوْ فِسْقًا﴾ المعنى: أو أن يكون المأكول فسقاً. ﴿أُولَئِكَ لِيَرَى اللَّهُ يَدَهُ﴾ أي: رفع الصوت على ذبحه باسم غير الله، فسمي ما ذكر عليه غير اسم الله فسقاً، والفسق: الخروج من الدين.

فصل

اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على قولين: أحدهما: أنها محكمة. ولأرباب هذا القول في سبب إحكامها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها خبر، والخبر لا يدخله النسخ. والثاني: أنها جاء جواباً عن سؤال سألوه؛ فكان الجواب بقدر السؤال، ثم حُرِّمَ بعد ذلك ما حُرِّمَ. والثالث: أنه ليس في الحيوان محرم إلا ما ذكر فيها. والقول الثاني: أنها منسوخة بما ذكر في (المائدة) من المنخقة والموقوذة، وفي السنة من تحريم الحمر الأهلية، وكل ذي ناب من السباع، ومخلب من الطير^(١). وقيل: إن آية (المائدة) داخلة في هذه الآية، لأن تلك الأشياء كلها ميتة.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِغَلَبِ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَنِيِّمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ (١٤٦)

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ وقرأ الحسن، والأعمش: «ظفر» بسكون الفاء؛ وهذا التحريم تحريم بلوى وعقوبة. وفي ذي الظفر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ما ليس بمنفرج الأصابع، كالإبل، والنعام، والإوز، والبط، قاله ابن عباس، وابن جببر، ومجاهد، وقتادة، والسدي. والثاني: الإبل فقط، قاله ابن زيد. والثالث: كل ذي حافر من الدواب، ومخلب من الطير، قاله ابن قتيبة. قال: وسمي الحافر ظفراً على الإستعارة؛ والعرب تجعل الحافر والأظلاف موضع القدم، استعارة؛ وأنشدوا:

سَأَنَنْفُهَا أَوْ سَوَفَ أَجْعَلُ أَمْرَهَا إِلَى مَلِكٍ أَظْلَافُهُ لَمْ تُشَقَّقْ^(٢)

أراد قدميه؛ وإنما الأظلاف للشاء والبقرة. قال ابن الأنباري: الظفر هاهنا، يجري مجرى الظفر للإنسان. وفيه ثلاث لغات. أعلاهن: ظُفْرٌ؛ ويقال: ظُفْرٌ، وأظفور. وقال الشاعر:

(١) روى الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، عن أبي ثعلبة الخشني، قال: «حرم رسول الله ﷺ لحوم الحمر الأهلية» وزاد أحمد: «ولحم كل ذي ناب من السباع» وقد صح النهي عن أكل لحوم الحمر الأهلية من حديث البراء بن عازب، وابن عمر، وأبي هريرة، وزاهر الأسلمي، وابن أبي أرفى. وروى الجماعة إلا البخاري والترمذي عن ابن عباس قال: «نهى رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير» وروى مسلم في «صحيحه» ١٥٣٤/٣ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كل ذي ناب من السباع حرام».

(٢) البيت غير منسوب في «مشكل القرآن» ١١٦، و«الصناعتين» ٣٠١، و«الموازنة» ٤٤، و«الأمالي» ١٢٠/٢. وفي «السمط» ٧٤٦: البيت لعفان بن قيس بن عاصم بن عبيد البربوعي، وكان النعمان بن المنذر استعمل الغلاف بن عمرو الرياحي على هجائن من يلي أرضه من العرب، وكانت لعفان هذا هجائن، فأخفاها، فطلبها الغلاف، فعمد عفان بإبله حتى أتى النعمان، فأجاره ولم يأخذ منها شيئاً. فقال قصيدة منها:

سواء عليكم شؤمها وهجائنُها وإن كان فيها واضح اللون يسبرقي
سأمنها - البيت - وهذه من أفتح الاستعارات، وإنما يريد بقوله: أظلافه لم تشقق: أنه متمل مترفه، فلم تشقق قدماً.

ألم تر أنَّ الموتَ أَذْرَكَ مَنْ مَضَى
وقال الآخر:

فلم يُبْقِ مِنْهُ ذَا جَنَاحٍ وَذَا ظُفْرٍ

لقد كنتُ ذَا نَابٍ وَظُفْرٍ عَلَى الْعِدَى
وقال الآخر:

فأصبحتُ مَا يَخْشَوْنَ نَابِي وَلَا ظُفْرِي

مَا بَيْنَ لُقْمَتِهِ الْأُولَى إِذَا انْحَدَرَتْ

وبين أخرى تليها قَيْدُ أَظْفُورٍ^(١)

وفي شحوم البقر والغنم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إنما حرم من ذلك شحوم الثروب خاصة، قاله قتادة. والثاني: شحوم الثروب والكلبي، قاله السدي، وابن زيد. والثالث: كل شحم لم يكن مختلطاً بعظم، ولا على عظم، قاله ابن جريج. وفي قوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ما علق بالظهر من الشحوم، قاله ابن عباس. والثاني: الألية، قاله أبو صالح، والسدي. والثالث: ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما، قاله قتادة. فأما الحوايا، فللمفسرين فيها أقوال تتقارب معانيها. قال ابن عباس، والحسن، وابن جبير، ومجاهد، وقاتدة، والسدي، وابن قتيبة: هي المباعر. وقال ابن زيد: هي بنات اللين، وهي المرائب التي تكون فيها الأمعاء. وقال الفراء: الحوايا: هي المباعر، وبنات اللين. وقال الأصمعي: هي بنات اللين، واحدها: حاوية، وحوية. قال الشاعر:

أَقْبُلْهُمْ وَلَا أَرَى مُعَاوِيَةَ
وقال الآخر:

الْجَاخِظَ الْعَيْنِ الْعَظِيمَ الْحَاوِيَةَ^(٢)

كَأَنَّ نَفِيقَ الْحَبِّ فِي حَاوِيَانِهِ

فحَيْحُ الْأَفَاعِي أَوْ نَفِيقُ الْعَقَارِبِ^(٣)

وقال أبو عبيدة: الحوايا: ما تحوى من البطن، أي: ما استدار منها. وقال الزجاج: الحوايا: اسم لجميع ما تحوى من الأمعاء، أي: استدار. وقال ابن جبر الطبري: الحوايا: ما تحوى من البطن، فاجتمع واستدار، وهي بنات اللين، وهي المباعر، وتسمى: المرائب، وفيها الأمعاء.

قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا اتَّخَذَ غُفْرًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه شحم البطن والألية، لأنهما على عظم، قاله السدي. والثاني: كل شحم في القوائم، والجنب، والرأس، والعيني، والأذنين، فهو مما اختلط بعظم، قاله ابن جريج. واتفقوا على أن ما حملت ظهورهما حلال، بالاستثناء من التحريم. فأما ما حملت الحوايا، أو ما اختلط بعظم، ففيه قولان: أحدهما: أنه داخل في الاستثناء، فهو مباح؛ والمعنى: وأبيح لهم ما حملت الحوايا من الشحم وما اختلط بعظم، هذا قول الأكثرين. والثاني: أنه نسق على ما حرم، لا على الاستثناء؛ فالمعنى: حرمنا عليهم شحومهما، أو الحوايا، أو ما اختلط بعظم، إلا ما حملت الظهور، فإنه غير محرم، قاله الزجاج. فأما «أو» المذكورة هاهنا، فهي بمعنى الواو، كقوله: ﴿إِنَّمَا أَوْفَرُّكُمْ﴾ [الدحر: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ﴾ أي: ذلك التحريم عقوبة لهم على بغيهم. وفي بغيهم قولان: أحدهما: أنه قتلهم الأنبياء، وأكلهم الربا. والثاني: أنه تحريم ما أحل لهم.

﴿إِن كَذَّبْتُمْ فَلَا تَرَحْمَةً وَلَا يُرَدُّ بِأْسُكُمْ عَنِ الْقَوَرِ﴾ [التجريت: ١٧]

قوله تعالى: ﴿إِن كَذَّبْتُمْ﴾ قال ابن عباس: لما قال رسول الله ﷺ للمشركين: «هذا ما أوحى إلي أنه محرم على المسلمين وعلى اليهود»، قالوا: فإنك لم تصب، فنزلت هذه الآية. وفي المكذبين قولان: أحدهما: المشركون، قاله ابن عباس. والثاني: اليهود، قاله مجاهد. والمراد بذكر الرحمة الواسعة، أنه لا يعجل بالعقوبة. والبأس: العذاب. وفي المراد بالمجرمين قولان: أحدهما: المشركون. والثاني: المكذبون.

(١) البيت غير منسوب في «اللسان» و«أساس البلاغة»: ظفر، وروايه فيهما:

مَا بَيْنَ لُقْمَتِهَا الْأُولَى إِذَا أَزْدَرَتْ

(٢) البيت في «اللسان»: حوى، منسوب لعلي عليه السلام.

(٣) قائله جبر، وهو في «ديوانه» ٨٣، و«معجم مقاييس اللغة» ١١٢/٢، و«اللسان»: حوى.

وبين أخرى تليها قيس أظفُور

فالتقدير: عليكم أن لا تشركوا، ذكره ابن الأنباري. والثاني: أن يكون بمعنى: فُرض عليكم، ووجب عليكم أن لا تشركوا. وفي هذا الشرك قولان: أحدهما: أنه ادعاء شريك مع الله ﷻ. والثاني: أنه طاعة غيره في معصيته.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا أَرْكَبَكُمْ﴾ يريد دفن البنات أحياء. ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ أي: من خوف فقر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَكَّرَ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أن الفواحش: الزنا، وما ظهر منه: الإعلان به، وما بطن الاستسار به، قاله ابن عباس، والحسن، والسدي. والثاني: أن ما ظهر: الخمر، ونكاح المحرمات. وما بطن: الزنا، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد. والثالث: أن ما ظهر: الخمر، وما بطن: الزنا، قاله الضحاك. والرابع: أنه عام في الفواحش. وظاهرها: علانيتها، وباطنها: سريها، قاله قتادة. والخامس: أن ما ظهر: أفعال الجوارح، وما بطن: اعتقاد القلوب، ذكره الماوردي في تفسير هذا الموضع، وفي تفسير قوله: ﴿وَدَرُوا ظُلُمَ الْأَثَرِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأقسام: ١٢٠]. والنفس التي حرم الله: نفس مسلم أو معاهد. والمراد بالحق: إذن الشرع.

﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدُّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْيَمَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكُفَّ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَكَانَ ذَا قُرْبٍ وَمِنْهُدٍ اللَّهُ أَوْفُوا ذَلِكَكُمْ وَمَنْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدُّهُ﴾ إنما خص مال اليتيم، لأن الطمع فيه، لقلة مراعيه وضعف مالكة، أقوى. وفي قوله: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أنه أكل الوصي المصالح للمال المعروف وقت حاجته، قاله ابن عباس، وابن زيد. والثاني: التجارة فيه، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك، والسدي. والثالث: أنه حفظه له إلى وقت تسليمه إليه، قاله ابن السائب. والرابع: أنه حفظه عليه، وتثمينه له، قاله الزجاج. قال: و«حتى» محمولة على المعنى؛ فالمعنى: احفظوه عليه حتى يبلغ أشده، فإذا بلغ أشده، فادفعوه إليه. فاما الأشد، فهو استحكام قوة الشباب والسن. قال ابن قتيبة: ومعنى الآية: حتى يتناهى في النبات إلى حدِّ الرجال. يقال: بلغ أشده: إذا انتهت منتهاه قبل أن يأخذ في النقصان. وقال أبو عبيدة: الأشدُّ لا واحد له منه؛ فإن أكرهوا على ذلك، قالوا: شدُّ، بمنزلة: ضَبُّ؛ والجمع: أضْبُ. قال ابن الأنباري: وقال جماعة من البصريين: واحد الأشدُّ: شدُّ، بضم الشين. وقال بعض البصريين: واحد الأشدُّ: شِدة، كقولهم: نعمة، وأنعم. وقال بعض أهل اللغة: الأشدُّ: اسم لا واحد له. وللمفسرين في الأشد ثمانية أقوال: أحدها: أنه ثلاث وثلاثون سنة، رواه ابن جبير عن ابن عباس. والثاني: ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أربعون سنة، روي عن عائشة ؓ. والرابع: ثماني عشرة سنة، قاله سعيد بن جبير، ومقاتل. والخامس: خمس وعشرون سنة، قاله عكرمة. والسادس: أربع وثلاثون سنة، قاله سفيان الثوري. والسابع: ثلاثون سنة، قاله السدي. وقال: ثم جاء بعد هذه الآية: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ [النساء: ٦] فكانه يشير إلى النسخ. والثامن: بلوغ الحُلُم، قاله زيد بن أسلم، والشعبي، ويحيى بن يعمر، وربيعة، ومالك بن أنس، وهو الصحيح. ولا أظن بالذين حكينا عنهم الأقوال التي قبله فسروا الآية بما ذكر عنهم، وإنما أظن أن الذين جمعوا التفاسير، نقلوا هذه الأقوال من تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ [يوسف: ٢٢، والقصص: ١٤] إلى هذا المكان؛ وذلك نهاية الأشد، وهذا ابتداء تمامه؛ وليس هذا مثل ذلك. قال ابن جرير: وفي الكلام محذوف، ترك ذكره اكتفاءً بدلالة ما ظهر عما حُذف، لأن المعنى: حتى يبلغ أشده؛ فإذا بلغ أشده، فأنستم منه رشداً، فادفعوا إليه ماله. قال المصنف: إن أراد بما ظهر ما ظهر في هذه الآية، فليس بصحيح؛ وإنما استفيد إيناس الرشد والإسلام من آية أخرى؛ وإنما أُطلق في هذه الآية ما قيّد في غيرها، فحمل المطلق على المقيد.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي: أنموه ولا تنقصوا منه. و﴿الْيَمَانَ﴾ أي: وَزَنَ الميزان. والقسط: العدل. ﴿لَا تَكُفَّ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: ما يسعها، ولا تضيق عنه. قال القاضي أبو يعلى: لما كان الكيل والوزن يتعذر فيهما التحديد بأقل القليل كُلَّفْنَا الاجتهاد في التحري، دون تحقيق الكيل والوزن.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا﴾ أي: إذا تكلمتم أو شهدتم، فقولوا الحق، ولو كان المشهود له أو عليه ذا قرابة. وعَهْدُ الله يشتمل على ما عهده إلى الخلق وأوصاهم به، وعلى ما أوجبه الإنسان على نفسه من نذر وغيره. ﴿ذَلِكَكُمْ

وَصَنَّكُمْ بِهِ لَمَّا كُنْتُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٣﴾ أي: لتذكروهم وتأخذوا به. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] و ﴿يَذَكَّرُونَ﴾ [انعام: ١٢٦] و ﴿يَذَكِّرُ الْإِنْسَانَ﴾ [مریم: ٦٧] و ﴿أَنْ يَذَكَّرَ﴾ [الفرقان: ٦٢]، و ﴿يَذَكِّرُوا﴾ [الإسراء: ٤١] مشدداً ذلك كله. وقرأ نافع، وأبو بكر عن عاصم، وابن عامر كل ذلك بالتشديد، إلا قوله: ﴿أَوَّلًا يَذَكِّرُ الْإِنْسَانَ﴾ [مریم: ٦٧] فأنهم خففوه. روى أبان، وحفص عن عاصم: «يذكرون» خفيفة الذال في جميع القرآن. قرأ حمزة، والكسائي: «يَذَكِّرُونَ» مشدداً إذا كان بالياء، ومخففاً إذا كان بالتاء.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو: «وَأَنَّ» بفتح الألف مع تشديد النون. قال الفراء: إن شئت جعلت «أَنَّ» مفتوحة بوقوع «اتل» عليها؛ وإن شئت جعلتها خفصاً، على معنى: ذلكم وصاكم به، ويأن هذا صراطي مستقيماً. وقرأ ابن عامر بفتح الألف أيضاً، إلا أنه خفف النون، فجعلها مخففة من الثقيلة؛ وحكم إعرابها حكم تلك. وقرأ حمزة، والكسائي: بتشديد النون مع كسر الألف. قال الفراء: وكسر الألف على الاستئناف. وفي الصراط قولان: أحدهما: أنه القرآن. والثاني: الإسلام. وقد بينا إعراب قوله: «مستقيماً» أيضاً. فأما «السُّبُلُ»، فقال ابن عباس: هي الضلالات^(١). وقال مجاهد: البدع والشبهات. وقال مقاتل: أراد ما حرموا على أنفسهم من الأنعام والحرق. ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: فتضلکم عند يته.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمٍ يَلْتَمِسُ رَبِّهَ يَوْمَئِذٍ﴾ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ قال الزجاج: «ثم» هاهنا للعطف على معنى التلاوة؛ فالمعنى اتل ما حرم ربكم، ثم اتل عليكم ما آتاه الله موسى. وقال ابن الأنباري: الذي بعد «ثم» مقدّم على الذي قبلها في النية؛ والتقدير: ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ في قوله: «تماماً» قولان: أحدهما: أنها كلمة متصلة بما بعدها؛ تقول: أعطيتك كذا تماماً على كذا، وتماماً لكذا، وهذا قول الجمهور. والثاني: أن قوله: «تماماً» كلمة قائمة بنفسها، غير متصلة بما بعدها؛ والتقدير: آتينا موسى الكتاب تماماً، أي: في دفعة واحدة، لم نفرّق إنزاله كما فرّق إنزال القرآن، ذكره أبو سليمان الدمشقي. وفي المشار إليه بقوله: «أحسن» أربعة أقوال: أحدها: أنه الله ﷻ. ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: تماماً على إحسان الله إلى أنبيائه، قاله ابن زيد. والثاني: تماماً على إحسان الله تعالى إلى موسى؛ وعلى هذين القولين، يكون «الذي» بمعنى «ما». والقول الثاني: أنه إبراهيم الخليل عليه السلام؛ فالمعنى: تماماً للنعمة على إبراهيم الذي أحسن في طاعة الله، وكانت نبوة موسى نعمة على إبراهيم، لأنه من ولده، ذكره الماوردي. والقول الثالث: أنه كل محسن من الأنبياء، وغيرهم. وقال مجاهد: تماماً على المحسنين، أي: تاماً لكل محسن. وعلى هذا القول، يكون «الذي» بمعنى «مَنْ»، و«على» بمعنى لام الجر؛ ومن هذا قول العرب: أتم عليه، وأتم له. قال الراعي:

رَعَيْتَهُ أَشْهَرًا وَخَلَا عَلَيْهِ^(٢)

أي: لها. قال ابن قتيبة: ومثل هذا أن تقول: أوصي بمالي للذي غزا وحج؛ تريد: للغازين والحاجين. والقول الرابع: أنه موسى. ثم في معنى: «أحسن» قولان: أحدهما: أحسن في الدنيا بطاعة الله ﷻ. قال الحسن،

(١) روى الإمام أحمد في «المسند» ١٨٢/٤، ١٨٣، والحاكم في «المستدرک» ١/٧٣ عن النواس بن سميان الأنصاري عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جَنَّتِي الصراط سوران، فيها أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتح، فإني إن تفتحته تلجه، والصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة: محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي فوق الصراط: واهظ الله في قلب كل مسلم». وخرجه ابن كثير في «التفسير»، ثم قال: إسناده حسن صحيح. وقوله: «تعوجوا» قال القاري في «شرح المشكاة»: بتشديد الجيم من الأعوجاج، كذا في نسخة السيد وغيره، وفي نسخة: بتشديد الواو على حذف إحدى التائين، وهو تأكيد لما قبله، أي: لا تميلوا إلى الأطراف. قلت: ووقع في «المسند»: «ولا تفرجوا» وهو تحريف.

(٢) تمامه: فطار الثِّي فيها واستغارا. وهو في «أدب الكاتب» لابن قتيبة: ٤٠١ من أبيات يصف بها ناقة ذات سمن. قال الجواليقي: رعته، أي: رعت هذه الناقة هذا النبات أشهراً، وتخلت به، لم يرهه غيرها. وطار التي، أي: ارتفع الشحم، واستغار، أي: هبط فيها ودخل.

وقتادة: تماماً لكرامته في الجنة إلى إحسانه في الدنيا. وقال الربيع: هو إحسان موسى بطاعته. وقال ابن جرير: تماماً لنعمنا عنده على إحسانه في قيامه بأمرنا ونهينا. والثاني: أحسن من العلم وكتب الله القديمة؛ وكأنه زيد على ما أحسنه من التوراة؛ ويكون «التمام» بمعنى الزيادة، ذكره ابن الأنباري. فعلى هذين القولين، يكون «الذي» بمعنى: «ما». وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو رزين، والحسن، وابن يعمر: «على الذي أحسن»، بالرفع. قال الزجاج: معناه: على الذي هو أحسن الأشياء. وقرأ عبد الله بن عمرو، وأبو المتوكل، وأبو العالية: «على الذين أحسن» برفع الهمزة وكسر السين وفتح النون؛ وهي تحتمل الإحسان، وتحتمل العلم.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِصِلَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: تبياناً لكل شيء من أمر شريعتهم مما يحتاجون إلى علمه، لكي يؤمنوا بالبعث والجزاء.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُتَمِّمٌ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ رَبِّهِمْ أَتَقْوُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ يعني القرآن، ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا﴾ أن تخالفوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. قال الزجاج: لتكونوا راجين للرحمة.

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِكُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ سبب نزولها: أن كفار مكة قالوا: قاتل الله اليهود والنصارى، كيف كذبوا أنبياءهم؛ فوالله لو جاءنا نذير وكتاب، لكننا أهدى منهم، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. قال الفراء: «أن» في موضع نصب في مكانين: أحدهما: أنزلناه لئلا تقولوا. والآخر: من قوله: واتقوا أن تقولوا. وذكر الزجاج عن البصريين، أن معناه: أنزلناه، كراهة أن تقولوا؛ ولا يجوزون إضمار «لا». فأما الخطاب بهذه الآية، فهو لأهل مكة؛ والمراد إثبات الحجة عليهم بإنزال القرآن كي لا يقولوا يوم القيامة: إن التوراة والإنجيل أنزلا على اليهود والنصارى، وكنا غافلين عما فيهما. و«دراستهم»: قراءتهم الكتب. قال الكسائي: ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِكُمْ﴾ لا نعلم ما هي، لأن كتبهم لم تكن بلغتنا، فانزل الله كتاباً فبلغتهم لتقطع حججهم.

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَعَتِزَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ قال الزجاج: إنما كانوا يقولون هذا، لأنهم مبلون بالأذهان والأفهام، وذلك أنهم يحفظون أشعارهم وأخبارهم، وهم أميون لا يكتبون. ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ أي: ما فيه البيان وقطع الشبهات. قال ابن عباس: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ أي: حجة، وهو النبي، والقرآن، والهدى، والبيان، والرحمة، والنعمة. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: أكفر ﴿مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني محمداً والقرآن. ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أعرض فلم يؤمن بها. وسوء العذاب: قبيحه.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْثُ مَلائِكَتِكَ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْثُ مَلائِكَتِكَ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِنْشَاءُ ثَرْجَةٍ مَاتَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ مَنْظُورُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «تأتيهم» بالياء. وقرأ حمزة، والكسائي: «يأتيهم» بالياء. وهذا الإتيان لقبض أرواحهم. وقال مقاتل: المراد بالملائكة: ملك الموت وحده.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ قال الحسن: أو يأتي أمرك ربك^(١). وقال الزجاج: أو يأتي إهلاكه وانتقامه، إما بعذاب عاجل، أو بالقيامة.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْثُ مَلائِكَتِكَ رَبِّكَ﴾ وروى عبد الوارث إلا القزاز: بتسكين ياء «أو يأتي»، وفتحها الباقون.

(١) خرج ابن الجوزي هنا على مذنب السلف في هذا النقل.

وفي هذه الآية أربعة أقوال: أحدها: أنه طلوع الشمس من مغربها، رواه أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ^(١)، وبه قال ابن مسعود. وفي رواية زرارة بن أوفى عنه، وعبد الله بن عمرو، ومجاهد، وقتادة، والسدي. وقد روى البخاري، ومسلم في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورأها الناس، آمن من عليها، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً»^(٢). وروى عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت، طُبع على كل قلب بما فيه، [و] كفي الناس العمل»^(٣). والثاني: أنه طلوع الشمس والقمر من مغربهما، رواه مسروق عن ابن مسعود. والثالث: أنه إحدى الآيات الثلاث، طلوع الشمس من مغربها، والدابة، وفتح يأجوج ومأجوج، روى هذا المعنى القاسم عن ابن مسعود. والرابع: أنه طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض، قاله أبو هريرة؛ والأول أصح. والمراد بالخير هاتان: العمل الصالح؛ وإنما لم ينفع الإيمان والعمل الصالح حينئذٍ، لظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان. وقال الضحاك: من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه، قبل منه، كما يقبل منه قبل الآية. وقيل: إن الحكمة في طلوع الشمس من مغربها، أن الملحدة والمنجمين، زعموا أن ذلك لا يكون، فيريهم الله قدرته، ويطلعها من المغرب كما أطلعها من المشرق، ولتحقق عجز نمروذ حين قال له إبراهيم: «فَأَتِهَا مِنْ أَلْمَغْرِبِ فَهَبَتْ» [البقرة: ٢٥٨].

فصل

وفي قوله: «فَلْيَنْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ» قولان: أحدهما: أن المراد به التهديد، فهو محكم. والثاني: أنه أمر بالكف عن القتال، فهو منسوخ بآية السيف.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَرَّعُوا دِيْنَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَرَّعُوا دِيْنَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «فرَّقوا» مشددة. وقرأ حمزة، والكسائي: «فارَّقوا» بآلف. وكذلك قرَّعوا في [الروم: ٣٢]؛ فمن قرأ: «فرَّقوا»، أراد: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض. ومن قرأ: «فارَّقوا»، أراد: باينوا. وفي المشار إليهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم أهل الضلالة من هذه الأمة، قاله أبو هريرة. والثاني: أنهم اليهود والنصارى، قاله ابن عباس، والضحاك، وقتادة، والسدي. والثالث: اليهود، قاله مجاهد. والرابع: جميع المشركين، قاله الحسن. فعلى هذا القول، دينهم: الكفر الذي يعتقده ديناً، وعلى ما قبله، دينهم: الذي أمرهم الله به. والشَّيع: الفرق والأحزاب. قال الزجاج: ومعنى «شِيعَتْ» في اللغة: اتبعت. والعرب تقول: شاعكم السلام، وأشاعكم، أي: تبعكم. قال الشاعر:

أَلَا يَا نُخْلَةً مِنْ ذَاتِ عِرْقٍ بِرُؤْدِ الظِّلِّ شَاعَكُمْ السَّلَامُ^(٤)

وتقول: أتيتك غداً، أو شيعة، أي: أو اليوم الذي يتبعه. فمعنى الشيعة: الذين يتبع بعضهم بعضاً، وليس كلهم متفقين. وفي قوله تعالى: «لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ» قولان: أحدهما: لست من قتالهم في شيء؛ ثم نسخ بآية السيف، وهذا مذهب السدي. والثاني: لست منهم، أي: أنت بريء منهم، وهم منك براءة، إنما أمرهم إلى الله في جزائهم، فتكون الآية محكمة.

(١) «المستد» ٣١/٣، والطبري ٢٤٧/١٢، «الترمذي» ١٣٣/٢. وفي سنده عطية العوفي، وهو ضعيف.

(٢) «المستد» رقم (٧١٦١)، «البخاري» ٢٢٣/٨، «مسلم» ١٩٤/٢، و«أبو داود» ١٦٣/٤، و«ابن ماجه» ٢٣٥٢/٢. وخرجه السيوطي في «الدر المنثور» ٥٧/٣ وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، وعبد الرزاق، والنسائي، وابن المنذر، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث»، والطبراني، وابن أبي عدي.

(٣) «المستد» ١٣٣/٣، «الطبري» ٢٥٣/١٢، وخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢٥٠/٥ وقال: ورجال أحمد ثقات. وقال ابن كثير بعد أن ذكره ٢/ ١٩٥: هذا الحديث حسن الإسناد، ولم يخرج أحد من الكتب الستة.

(٤) البيت غير منسوب في «أساس البلاغة»، «اللسان»: شيع.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالٍ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالٍ﴾ وقرأ يعقوب، والقزاز عن عبد الوارث: «عشر» بالتونين، «أمثالها» بالرفع. قال ابن عباس: يريد: من عملها، كتبت له عشر حسنات. ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا﴾ جزاء «مِثْلُهَا». وفي الحسنة والسيئة هاهنا قولان: أحدهما: أن الحسنة: قول لا إله إلا الله. و«السيئة» الشرك، قاله ابن مسعود، ومجاهد، والنخعي. والثاني: أنه عام في كل حسنة وسيئة. روى مسلم في «صحيحه» من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغفر». فإن قيل: إذا كانت الحسنة كلمة التوحيد، فأى مثل لها حتى يجعل جزاء قائلها عشر أمثالها؟ فالجواب: أن جزاء الحسنة معلوم القدر عند الله، فهو يجازي فاعلها بعشر أمثاله، وكذلك السيئة. وقد أشرنا إلى هذا في (المائدة) عند قوله: ﴿فَكَاَنَّا قَتَلُوكَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]. فإن قيل: المثل مذكر، فلم قال: ﴿عَشْرُ أَثْمَالٍ﴾ والهاء إنما تسقط في عدد المؤنث؟ فالجواب: أن الأمثال خلقت حسنات مؤنثة؛ وتلخيص المعنى: فله عشر حسنات أمثالها، فسقطت الهاء من عشر، لأنها عدد مؤنث، كما تسقط عند قولك: عشر نعال، وعشر جباب.

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ آبَائِهِمْ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال الزجاج: أي: دلّني على الدين الذي هو دين الحق. ثم فسّر ذلك بقوله: ﴿وَدِينًا قِيَمًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «قِيَمًا» مفتوحة القاف، مشددة الياء. والقيم: المستقيم. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «قِيَمًا» بكسر القاف وتخفيف الياء. قال الزجاج: وهو مصدر، كالتصغير والكبير. وقال مكّي: من خففه بناه على «فعل» وكان أصله أن يأتي بالواو، فيقول: «قَوْمًا» كما قالوا: عَوْض، وجَوْل، ولكنه شذ عن القياس. قال الزجاج: ونصب قوله: ﴿وَدِينًا قِيَمًا﴾ محمول على المعنى، لأنه لما قال: «هداني» دل على عرفني ديناً؛ ويجوز أن يكون على البدل من قوله: ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، فالمعنى: هداني صراطاً مستقيماً ديناً قِيَمًا. و«حنيفاً» منصوب على الحال من إبراهيم، والمعنى: هداني ملة إبراهيم في حال حنيفيته.

﴿قُلْ إِذْ صَلَّيْتُ وَكُنْتُ نَحِيًّا وَمَمَاتٍ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَئِكَ لُزْتُ وَأَنَا أَوَّلُ السَّالِئِينَ

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِذْ صَلَّيْتُ وَكُنْتُ نَحِيًّا وَمَمَاتٍ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يريد: الصلاة المشروعة. والنسك: جمع نسكة. وفي النسك هاهنا أربعة أقوال: أحدها: أنها الذبائح؛ قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وابن قتيبة. والثاني: الدين، قاله الحسن. والثالث: العبادة. قال الزجاج: النسك كل ما تقرب به إلى الله ﷻ، إلا أن الغالب عليه أمر الذبح. والرابع: أنه الدين، والحج، والذبايح، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَنَحِيًّا وَمَمَاتٍ﴾ الجمهور على تحريك ياء «محيي»، وتسكين ياء «مماتي». وقرأ نافع: بتسكين ياء «محيي»، ونصب ياء «مماتي»، ثم المفسرين في معناه قولان: أحدهما: أن معناه: لا يملك حياتي ومماتي إلا الله. والثاني: حياتي لله في طاعته، ومماتي لله في رجوعي إلى جزائه. ومقصود الآية أنه أخبرهم أن أفعالي وأحوالي لله وحده، لا لغيره كما تشركون أنتم به.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ السَّالِئِينَ﴾ قال الحسن، وقناة: أول المسلمين من هذه الأمة.

﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ أَمْ يَأْتِي رَبِّي كُلُّ مَنٍّ وَلَا تَكُيْبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهِمْ وَلَا زُرْدٌ وَارِدَةٌ وَزَادَ أُخْرَى ثُمَّ لَكَ رِيكَ مَرَجَعُكَ بَيْتُكَ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ أَمْ يَأْتِي رَبِّي﴾ سبب نزولها أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: ارجع عن هذا الأمر، ونحن لك الكفلاء بما أصابك من تبة، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُيْبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا يؤخذ سواها بعملها. وقيل: المعنى: إلا عليها عقاب معصيتها، ولها ثواب طاعتها. ﴿وَلَا زُرْدٌ وَارِدَةٌ وَزَادَ أُخْرَى﴾ قال الزجاج: لا تؤخذ نفس أئمة بإثم أخرى. والمعنى: لا يؤخذ أحد بذنب غيره. قال أبو سليمان: ولما ادّعت كل فرقة من اليهود والنصارى أو المشركين أنهم أولى بالله من

غيرهم، عرفهم أنه الحاكم بينهم بقوله: ﴿فَيَنْبَغِيكُمْ يَمَا كُتِبَ فِيهِ تَعْلِيلُونَ﴾ ونظيره ﴿إِنَّ اللَّهَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الحج: ١٧].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٦٥)

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ قال أبو عبيدة: الخلائف: جمع خليفة. قال الشماخ: تُصِيبُهُمْ وَتُخْطِئُنِي الْمَنَايَا وأخْلَفَ فِي رُبُوعٍ عَنْ رُبُوعٍ^(١) وللمفسرين فيمن خلفوه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم خلفوا الجن الذين كانوا سكان الأرض؛ قاله ابن عباس. والثاني: أن بعضهم يخلف بعضاً؛ قاله ابن قتبية. والثالث: أن أمة محمد خلفت سائر الأمم، ذكره الزجاج. قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي: في الرزق، والعلم، والشرف، والقوة، وغير ذلك ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: ليختبركم، فيظهر منكم ما يكون عليه الثواب والعقاب. قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه سماء سريعاً، لأنه آتٍ، وكل آتٍ قريب. والثاني: أنه إذا شاء العقوبة، أسرع عقابه.



(١) «ديوانه» ٥٨، و«مجاز القرآن» ٢٠٩/١، و«الطبري» ٢٨٨/١٢، و«القرطبي» ١٥٨/٧، و«اللسان»، و«التاج»: ربع. والربوع: جمع ربع، وهو جماعة الناس الذين ينزلون ربماً يسكنونه، يقول: أبقي في قوم بعد قوم.

سورة الأعراف

فصل في نزولها

روى العوفي، وابن أبي طلحة، وأبو صالح عن ابن عباس، أن سورة الأعراف من المكي، وهذا قول الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، وجابر بن زيد، وقتادة. وروى عن ابن عباس، وقتادة أنها مكية، إلا خمس آيات؛ أولها قوله تعالى: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾. وقال مقاتل: كلها مكية، إلا قوله: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ إلى قوله: ﴿وَرَأَى أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣ - ١٧٢] فإنهن مدنيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿التَّصَّ﴾

فأما التفسير، فقوله تعالى: ﴿التَّصَّ﴾ قد ذكرنا في أول سورة (البقرة) كلاماً مجملاً في الحروف المقطعة أوائل السور، فهو يعم هذه أيضاً. فأما ما يختص بهذه الآية ففيه سبعة أقوال: أحدها: أن معناه: أنا الله أعلم وأفضل، رواه أبو الضحى عن ابن عباس. والثاني: أنه قَسَمَ أقسم الله به، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أنها اسم من أسماء الله تعالى، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: أن الألف مفتاح اسمه «الله»، واللام مفتاح اسمه «لطيف»، والميم مفتاح اسمه «مجيد»، والصاد مفتاح اسمه «صادق»، قاله أبو العالية. والخامس: أن ﴿التَّصَّ﴾ اسم للسورة، قاله الحسن. والسادس: أنه اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة. والسابع: أنها بعض كلمة. ثم في تلك الكلمة قولان: أحدهما: المصور، قاله السدي. والثاني: المصير إلى كتاب أنزل إليك، ذكره الماوردي.

﴿كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ قال الأخفش: رفع الكتاب بالابتداء. ومذهب الفراء أن الله اكتفى في مفتتح السور ببعض حروف المعجم عن جميعها، كما يقول القائل: «أ ب ت ث» ثمانية وعشرون حرفاً؛ فالمعنى: حروف المعجم كتاب أنزلناه إليك. قال ابن الأنباري: ويجوز أن يرتفع الكتاب بإضمار: هذا الكتاب. وفي الحرج قولان: أحدهما: أنه الشك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن قتيبة. والثاني: أنه الضيق، قاله الحسن، والزجاج. وفي هاء «منه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الكتاب؛ فعلى هذا، في معنى الكلام قولان: أحدهما: لا يضيقتُ صدرك بالإبلاغ، ولا تخافُ، قاله الزجاج. والثاني: لا تشكُّ أنه من عند الله. والقول الثاني: أنها ترجع إلى مضمّر، وقد دل عليه الإنذار، وهو التكذيب، ذكره ابن الأنباري. قال الفراء: فمعنى الآية: لا يضيقتُ صدرك أن كذبوك. قال الزجاج: وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِ» مقدّم، والمعنى: أنزل إليك لتنذره وذكرى للمؤمنين، فلا يكن في صدرك حرج منه. ﴿وَذِكْرَى﴾ يصلح أن يكون في موضع رفع ونصب وخفض؛ فأما النصب؛ فعلى قوله: أنزل إليك لتنذره، وذكرى للمؤمنين، أي: ولتذكر به ذكرى، لأن في الإنذار معنى التذكير. ويجوز الرفع على أن يكون: وهو ذكرى، كقولك: وهو ذكرى للمؤمنين. فأما الخفض، فعلى معنى: لتنذر، لأن معنى «التنذر»: لأن تنذر؛ المعنى: للإنذار والذكرى، وهو في موضع خفض.

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إن قيل: كيف خاطبه بالإنفراد في الآية الأولى، ثم جمع بقوله: «اتبعوا»؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه لما علم أن الخطاب له ولأمته، حسن الجمع لذلك المعنى. والثاني: أن الخطاب الأول خاص له؛ والثاني محمول على الإنذار، والإنذار في طريق القول، فكانه قال: لنقول لهم منذراً: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ذكرهما ابن الأنباري. والثالث: أن الخطاب الثاني للمشركين، ذكره جماعة من

المفسرين؛ قال: والذي أنزل إليهم القرآن. وقال الزجاج: الذي أنزل: القرآن وما أتى عن النبي ﷺ، لأنه مما أنزل عليه، لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: لا تتولوا من عدل عن دين الحق؛ وكل من ارتضى مذهباً فهو ولي أهل المذهب. وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ما: زائدة مؤكدة؛ والمعنى: قليلاً تذكرون. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: «تَذَكَّرُونَ» مشددة الذال والكاف. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «تَذَكَّرُونَ» خفيفة الذال مشددة الكاف. قال أبو علي: من قرأ «تَذَكَّرُونَ» بالتحديد، أراد «تذكرون» فأدغم التاء في الذال، وإدغامها فيها حسن، لأن التاء مهموسة، والذال مجهورة؛ والمجهور أزيد صوتاً من المهموس وأقوى؛ فإدغام الانقاص في الأزيد حسن. وأما حمزة ومن وافقه، فإنهم حذفوا التاء التي أدغمها هولاء، وذلك حسن لاجتماع ثلاثة أحرف متقاربة. وقرأ ابن عامر: «يتذكرون» بياء وتاء، على الخطاب للنبي ﷺ؛ والمعنى قليلاً ما يتذكر هولاء الذين ذكروا بهذا الخطاب.

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَمَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ (١)

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ «كم» تدل على الكثرة، و«رب»: موضوعة للقلّة. قال الزجاج: المعنى: وكم من أهل قرية، فحذف الأهل، لأن في الكلام دليلاً عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا بَأْسُنَا﴾ محمول على لفظ القرية؛ والمعنى: فجاءهم بأسنا غفلة وهم غير متوقعين له؛ إما ليلاً وهم نائمون، أو نهاراً وهم قائلون. قال ابن قتيبة: بأسنا: عذابنا. وبياتاً: ليلاً. وقائلون: من القائلة نصف النهار. فإن قيل: إنما آتاهم البأس قبل الإهلاك، فكيف يقدم الإهلاك؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن الإهلاك والبأس يقعان معاً، كما تقول: أعطيتني فأحسنت؛ وليس الإحسان بعد الإعطاء ولا قبله، وإنما وقعا معاً، قاله الفراء. والثاني: أن الكون مضمّر في الآية، تقديره: أهلكتنا، وكان بأسنا قد جاءها، فأضمر الكون، كما أضمر في قوله: ﴿وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي: ما كانت الشياطين تتلو. وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَسْرِقْ﴾ [يوسف: ٧٧]، أي: إن يكن سرق. والثالث: أن في الآية تقدماً وتأخيراً، تقديره: وكم من قرية جاءها بأسنا بياتاً، أو هم قائلون فأهلكنا، كقوله تعالى: ﴿إِنْ مَتَّعْتُكَ ذَرَأَتَكَ وَرَأَيْتَكَ إِكًّا﴾ [آل عمران: ٥٥]، أي: رافعت ومتوفيك، ذكرهما ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ قال الفراء: فيه واو مضمرة؛ والمعنى: فجاءها بأسنا بياتاً، أو هم قائلون، فاستقلوا نسقاً على نسق^(١).

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَتُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٢)

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَتُهُمْ﴾ قال اللغويون: العدوى هاهنا بمعنى الدعاء والقول. والمعنى: ما كان قولهم وتداعيهم إذ جاءهم العذاب إلا الاعتراف بالظلم. قال ابن الأنباري: وللدعوى في الكلام موضعان: أحدهما: الإدعاء. والثاني: القول والدعاء. قال الشاعر:

إِذَا مَسَّكَ رَجُلِي دَعْوَتِي أَشْتَفِي
﴿فَلَنَسْتَأْذِنَكَ الْإِيْثَ وَأَتِيَهُمُ الرِّسَالُ﴾ (٣) فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بِمِثْلِ مَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْتَأْذِنَكَ الْإِيْثَ أَتِيَهُمُ الرِّسَالُ﴾ يعني: الأمم يسألون: هل بلغكم الرسل، وماذا أجبتهم؟ ويسأل الرسل: هل بلغتم، وماذا أجبتهم؟. ﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فلنخبرهم بما عملوا بعلم منا ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ عن الرسل والأمم. وقال ابن عباس: يوضع الكتاب، فيتكلم بما كانوا يعملون.

﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغِي الْحَقَّ مِمَّنْ نَقَلْتَ مُوَارِيثُهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٤) وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا يَجَادِبُونَ بِظُلْمٍ ﴿٥﴾

(١) وتام كلام الفراء في «معاني القرآن» ٣٧٢: ولو قيل لكان جازئاً، كما تقول في الكلام: انتبى والياً، أو وأنا معزول، وإن قلت: أو أنا معزول، فانت مضمّر للوار.

(٢) البيت لكثير عزة، «ديوانه» ٢٤٥/٢، والطبري ٣٠٤/١٢، ونهاية الأرب ١٢٥/٢، واللسان: مذل. ومذلت رجله مذلاً بفتح وسكون، ومذت: خذرت، وكانوا يزعمون أن المرء إذا خذرت رجله، ثم دعا باسم من أحب، زال خدرها.

قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ أي: العدل. وإنما قال: «موازينه» لأن «من» في معنى جميع، يدل عليه قوله: ﴿فَأُولَئِكَ﴾. وفي معنى «يُظْلَمُونَ» قولان: أحدهما: يجحدون. والثاني: يكفرون. قال القراء: والمراد بموازينه: ووزنه. والعرب تقول: هل لك في درهم بميزان درهمك، ووزن درهمك، ويقولون: داري بميزان دارك، ووزن دارك؛ ويريدون: حذاء دارك. قال الشاعر:

قَدْ كُنْتُ قَبْلَ لِقَائِكُمْ ذَا مِزْرَةٍ عِنْدِي لِكُلِّ مُخَاصِمٍ مِيزَانُهُ^(١)
يعني: مثل كلامه ولفظه.

فصل

والقول بالميزان مشهور في الحديث، وظاهر القرآن ينطبق به. وأنكرت المعتزلة ذلك، وقالوا: الأعمال أعراض، فكيف توزن؟ فالجواب: أن الوزن يرجع إلى الصحائف، بدليل حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَسْتَخْلَصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُنْشَرُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتَسْعِينَ سِجِلًا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتَنْكُرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمْتُكَ كِتَابَتِي الْحَافِظُونَ؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: أَلَمْ تَكُنْ عَذْرًا وَحَسَنَةً؟ فَبَيَّهْتَ الرَّجُلَ، فيقول: لا يا رب؛ فيقول: بلى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَيُخْرِجُ لَهُ بَطَاقَةً فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيُوضَعُ السِّجِلَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبَطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ؛ قَالَ: فَطَاشَتْ السِّجِلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبَطَاقَةُ» أخرجه أحمد في «مسنده»، والترمذي^(٢). وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ الطَّوِيلِ الْأَكُولِ الشَّرُوبِ، فَلَا يَزِنُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»^(٣)، فعلى هذا يوزن الإنسان. قال ابن عباس: توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكِفَتَانِ. فأما المؤمن، فيؤتى بعمله في أحسن صورة، فيوضع في كفة الميزان، فتثقل حسناته على سيئاته، وأما الكافر، فيؤتى بعمله في أقبح صورة، فيوضع في كفة الميزان، فيخف وزنه^(٤). وقال الحسن: للميزان لسان وكِفَتَانِ. وجاء في الحديث: أن داود ﷺ سأل ربه أن يريه الميزان، فأراه إياه؛ فقال: يا إلهي، من يقدر أن يملأ كفتيه حسنات؟ فقال: يا داود، إني إذا رضيت عن عبدي، ملأته بتمر. وقال حذيفة: جبريل صاحب الميزان يوم القيامة، فيقول له ربه: زن بينهم، ورؤد من بعضهم على بعض؛ فيرد على المظلوم من الظالم ما وجد له من حسنة. فإن لم تكن له حسنة، أخذ من سيئات المظلوم، فرد على سيئات الظالم، فيرجع وعليه مثل الجبال. فإن قيل: أليس الله يعلم مقادير الأعمال، فما الحكمة في وزنها؟ فالجواب أن فيه خمسة حكم: إحداهما: امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا. والثانية: إظهار علامة السعادة والشقاوة في الآخرة. والثالثة: تعريف العباد ما لهم من خير وشر. والرابعة: إقامة الحجة عليهم. والخامسة: الإعلام بأن الله عادل لا يظلم. ونظير هذا أنه أثبت الأعمال في كتاب، واستسخرها من غير جواز النسيان عليه.

﴿وَلَقَدْ كُتِبَ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُتِبَ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه قولان: أحدهما: مكتاكم إياها. والثاني: سهّلنا عليكم التصرف فيها. وفي المعاييش قولان: أحدهما: ما تعيشون به من المطاعم والمشارب. والثاني: ما تتوصلون به إلى المعاييش، من زراعة، وعمل، وكسب. وأكثر القراء على ترك الهمز في «معايش» وقد رواها خارجة عن نافع مهموزة. قال

- (١) في «اللسان»: والميزان: المقدار، أشد ثقل: قد كنت.....
- (٢) «المسند» ١٩٧/١١، و«سنن الترمذي» ٣٦٧/٣، وابن ماجه ١٤٣٧/١، والحاكم في «المستدرک» ٥٢٩/١. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وهو كما قال.
- (٣) ذكره ابن كثير في «التفسير» ١٠٧/٣ من طريق ابن أبي حاتم عن أبي هريرة بلفظ: «يؤتى بالرجل الأكل والشروب العظيم فيوزن بحبة فلا يزنه». وروى البخاري ٣٢٤/٨، ومسلم ٢١٤٧/٤ عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة» وقال: «أقروا: ﴿فَلَا تُؤْمِنُ كُنْزَ الْيَمِينِ﴾»، [الكهف: ١٠٥].
- (٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» بأطول ما هنا، ونسبه إلى البيهقي في «شعب الإيمان».

الزجاج: وجميع النحويين البصريين يزعمون أن همزها خطأ، لأن الهمز إنما يكون في الياء الزائدة، نحو صحيفة وصحائف؛ فصحيفة من الصحف؛ والياء زائدة، فأما معاش، فمن العيش؛ فالياء أصلية.

قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: شكركم قليل. وقال ابن عباس: يريد أنكم غير شاكرين.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكِئَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَوْ يَكُنُ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ فيه ثمانية أقوال: أحدها: ولقد خلقناكم في ظهر آدم، ثم صورناكم في الأرحام، رواه عبد الله بن الحارث عن ابن عباس. والثاني: ولقد خلقناكم في أصلاب الرجال، وصورناكم في أرحام النساء، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وبه قال عكرمة. والثالث: «ولقد خلقناكم»، يعني آدم، «ثم صورناكم»، يعني ذريته من بعده، رواه العوفي عن ابن عباس. والرابع: «ولقد خلقناكم»، يعني آدم، «ثم صورناكم» في ظهره، قاله مجاهد. والخامس: «خلقناكم» نطفاً في أصلاب الرجال، وترائب النساء، «ثم صورناكم» عند اجتماع النطف في الأرحام، قاله ابن السائب. والسادس: «خلقناكم» في بطون أمهاتكم، «ثم صورناكم» فيما بعد الخلق بشق السمع والبصر، قاله معمر. والسابع: «خلقناكم»، يعني آدم خلقناه من تراب، «ثم صورناكم»، أي: صورناه، قاله الزجاج وابن قتيبة. قال ابن قتيبة: فجعل الخلق لهم إذ كانوا منه؛ فمن قال: عنى بقوله: «خلقناكم» آدم، فمعناه: خلقنا أصلكم؛ ومن قال: صورنا ذريته في ظهره، أراد إخراجهم يوم الميثاق كهية الذر. والثامن: «ولقد خلقناكم» يعني الأرواح، «ثم صورناكم» يعني الأجساد، حكاه القاضي أبو يعلى في «المعتمد». وفي «ثم» المذكورة مرتين قولان: أحدهما: أنها بمعنى الواو، قاله الأخفش. والثاني: أنها للترتيب، قاله الزجاج.

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ آلَا سَجَدَ إِذْ أَمَرْتَهُ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾

قوله تعالى: ﴿مَا مَنَّكَ آلَا سَجَدَ﴾ «ما» استفهام، ومعناها الإنكار. قال الكسائي: «لا» هاهنا زائدة. والمعنى: ما منعك أن تسجد؟ وقال الزجاج: موضع «ما» رفع. والمعنى: أي شيء منعك من السجود؟ و«لا» زائدة مؤكدة؛ ومثله: ﴿لَوْلَا يَمْلِكُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩]. قال ابن قتيبة: وقد تزداد «لا» في الكلام. والمعنى: طرحها لإبائه في الكلام، أو جحد، كهذه الآية. وإنما زاد «لا» لأنه لم يسجد. ومثله: ﴿أَلَمْ يَكُنْ إِذَا جَاءَتْهُ لَا يَدْعُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩] على قراءة من فتح «أنها»، فزاد «لا» لأنهم لم يؤمنوا؛ ومثله: ﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرَبَيْهِ أَهْلَ كَنْهَاتِهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]. وقال الفراء: «لا» هاهنا جحد محض، وليست بزائدة، والمنع راجع إلى تأويل القول، والتأويل: من قال لك: لا تسجد؛ فأحل المنع محل القول، ودخلت بعده «أن» ليدل على تأويل القول الذي لم يتصرح لفظه. وقال ابن جرير: في الكلام محذوف، تقديره: ما منعك من السجود، فأحوجك أن لا تسجد؟. قال الزجاج: وسؤال الله تعالى لإبليس ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ﴾ توبيخ له، ولِيُظْهِرَ أنه معاند، ولذلك لم يتب، وأتى بشيء في معنى الجواب، ولفظه غير جواب، لأن قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ إنما هو جواب، أيكما خيراً؛ ولكن المعنى: متعني من السجود فضلي عليه. ومثله قولك للرجل: كيف كنت؟ فيقول: أنا صالح؛ وإنما الجواب: كنت صالحاً، فيجيب بما يُحتاج إليه وزيادة. قال العلماء: وقع الخطأ من إبليس حين قاس مع وجود النص، وخفي عليه فضل الطين على النار؛ وفضله من وجوه: أحدها: أن من طبع النار الطيش والالتهاب والعجلة، ومن طبع الطين الهدوء والرزانة. والثاني: أن الطين سبب الإنبات والإيجاد، والنار سبب الإعدام والإهلاك. والثالث: أن الطين سبب جمع الأشياء، والنار سبب تفريقها.

﴿قَالَ فَاقْبِطْ يَتَا مَّا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّافِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَاقْبِطْ يَتَا مَّا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهم: أنها ترجع إلى السماء، لأنه كان فيها، قاله الحسن.

والثاني: إلى الجنة، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ إن قيل: فهل لأحد أن يتكبر في غيرها؟ فالجواب: أن المعنى: ما

للمتكبر أن يكون فيها، وإنما المتكبر في غيرها. وأما الصاغر، فهو الذليل. والصغار: الذل. قال الزجاج: استكبر إبليس بإبائه السجود، فأعلمه الله أنه صاغر بذلك.

﴿قَالَ أَطْرَقَ إِلَيَّ بَرٌّ يَمُوتُونَ﴾ ١٤ ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ١٥

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَطْرَقَ﴾ أي أمهلني وأخبرني ﴿إِلَيَّ بَرٌّ يَمُوتُونَ﴾، فأراد أن يعبر قنطرة الموت وسأل الخلود، فلم يجبه إلى ذلك، وأنظره إلى النفخة الأولى حين يموت الخلق كله. وقد بين مدة إمهاله في (الحجر) بقوله: ﴿إِلَيَّ بَرٌّ أَلْوَقْتُ الْمَمُوتُ﴾ ١٦ [الحجر: ٣٨]. وفي ما سأل الإمهال له قولان: أحدهما: الموت. والثاني: العقوبة. فإن قيل: كيف قيل له: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ وليس أحد أنظر سواه؟ فالجواب: أن الذين تقوم عليهم الساعة منظرون إلى ذلك الوقت بأجالهم، فهو منهم.

﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَتَذَكَّرَ لَمْ يَزَلْكَ الشَّيْطَانُ﴾ ١٧

قوله تعالى: ﴿فِيمَا أُغْوِيَنِي﴾ في معنى هذا الإغواء قولان: أحدهما: أنه بمعنى الإضلال، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: أنه بمعنى الإهلاك، ومنه قوله: ﴿فَسَرَقَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، أي: هلاكاً، ذكره ابن الأنباري. وفي معنى «فيما» قولان: أحدهما: أنها بمعنى القسم، أي: فبإغوائك لي. والثاني: أنها بمعنى الجزاء، أي فبأنك أغويتني، ولأجل أنك أغويتني ﴿لَأَتَذَكَّرَ لَمْ يَزَلْكَ الشَّيْطَانُ﴾. قال الفراء، والزجاج: أي على صراطك. ومثله قولهم: ضُرب زيد الظهر والبطن. وفي المراد بالصراط هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه طريق مكة، قاله ابن مسعود، والحسن، وسعيد بن جبيرة؛ كان المراد صُدُّهم عن الحج. والثاني: أنه الإسلام، قاله جابر بن عبد الله، وابن الحنفية، ومقاتل. والثالث: أنه الحق، قاله مجاهد.

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ ١٨

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ فيه سبعة أقوال: أحدها: «من بين أيديهم» أشككهم في آخرتهم، «ومن خلفهم» أرغبهم في دنياهم، «وعن أيمنهم» أي: من قبل حسانتهم، «وعن شمائلهم» من قبل سيئاتهم، قاله ابن عباس. والثاني: مثله، إلا أنهم جعلوا «من بين أيديهم» الدنيا، «ومن خلفهم» الآخرة، قاله النخعي، والحكم بن عتيبة. والثالث: مثل الثاني، إلا أنهم جعلوا «وعن أيمنهم» من قبل الحق أصلهم عنه، «وعن شمائلهم» من قبل الباطل أرؤهم إليه، قاله مجاهد، والسدي. والرابع: «من بين أيديهم» من سبيل الحق، «ومن خلفهم» من سبيل الباطل، «وعن أيمنهم» من قبل آخرتهم، «وعن شمائلهم» من أمر الدنيا، قاله أبو صالح. والخامس: «من بين أيديهم» «وعن أيمنهم» من حيث يبصرون، «ومن خلفهم» «وعن شمائلهم» من حيث لا يبصرون، نقل عن مجاهد أيضاً. والسادس: أن المعنى: لا تصرفن لهم في الإضلال من جميع جهاتهم، قاله الزجاج، وأبو سليمان الدمشقي. فعلى هذا، يكون ذكر هذه الجهات، للمبالغة في التأكيد. والسابع: «من بين أيديهم» فيما بقي من أعمارهم، فلا يقدمون فيه على طاعة، «ومن خلفهم» فيما مضى من أعمارهم، فلا يتوبون فيه من معصية، «وعن أيمنهم» من قبل الغنى، فلا ينفقونه في مشكور، «وعن شمائلهم» من قبل الفقر، فلا يمتنعون فيه من محظور، قاله الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ ١٩ فيه قولان: أحدهما: موحدان، قاله ابن عباس. والثاني: شاكرين لنعمتك، قاله مقاتل. فإن قيل: من أين علم إبليس ذلك؟ فقد أسلفنا الجواب عنه في سورة (النساء).

﴿قَالَ أَخْرَجْنَاهُ مِنْهَا مَذْذُورًا مُتَعَذِّرًا لَمْ يَمَكْ مِنْهُمْ لَأَتْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٢٠ ﴿وَتَكَادُمْ أَشْكُو أَنْتَ وَرَبُّكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ٢١

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَخْرَجْنَاهُ مِنْهَا مَذْذُورًا﴾ وقرأ الأعمش: «مذموماً» بضم الذال من غير حمز. قال الفراء: الذُّمُّ: الذُّمُّ؛ يقال: ذامْتُ الرجل، أذامُهُ ذاماً؛ وذممتُهُ، أذمُّهُ ذمّاً؛ وذمُّتُهُ، أذيمُهُ ذِيماً؛ ويقال: رجل مذذوم، ومذموم، ومذيم، بمعنى. قال حسان بن ثابت:

وَأَقَامُوا حَتَّى أَبِيرُوا جَمِيعاً
فِي مَقَامٍ وَكُلُّهُمْ مَذْذُومٌ^(١)

(١) «سيرة ابن هشام» ١٥٠/٢، وفيها: «حتى أبيعوا... وكلهم مذموم» والبيت من قصيدة يذكر فيها عدة أصحاب اللواء يوم أحد.

قال ابن قتية: المذموم: المذموم بأبلغ الذم. والمدحور: المقصي المبعّد. وقال الزجاج: معنى المذموم كمنى المذموم، والمدحور: المبعّد من رحمة الله. واللام من «الأملاء»: لام القسم؛ والكلام بمعنى الشرط والجزاء، كأنه قيل له: من تبعك، أعذبه، فدخلت اللام للمبالغة والتوكيد. فلام «الأملاء» هي لام القسم، ولام «لمن تبعك» توطئة لها. فأما قوله: «منهم» فقال ابن الأنباري: الهاء والميم عائدتان على ولد آدم، لأنه حين قال: «وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّاسَ مَوَازِينَهُمْ» [الأعراف: ١١] كان مخاطباً لولد آدم، فرجع إليهم، فقال: «لَمَن يَمْلِكُ مِنْهُمْ» فجعلهم غائبين، لأن مخاطبهم في ذا الموضع توقع لبساً؛ والعرب ترجع من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى الخطاب. ومن قال: «وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّاسَ مَوَازِينَهُمْ» خطاب لآدم، قال: أعاد الهاء والميم على ولده، لأن ذكره يكفي من ذكرهم؛ والعرب تكتفي بذكر الوالد من ذكر الأولاد إذا انكشف المعنى وزال اللبس. قال الشاعر:

أرى الخطفى بَدَّ الفِرزدقُ شِعرَه
ولكنَّ خيراً من كُليبٍ مُجاشِعُ

أراد: أرى ابن الخطفى، فاكشف بالخطفى من ابنه.

قوله تعالى: «لَأَنبَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ» يعني أولاد آدم المخالفين وقرناءهم من الشياطين.

«وَتَوَسَّسَ لَهَا الشَّيْطَانُ يَتَّبِعُ لَهَا مَا دُرِيَ عَنْهَا مِنْ سَرَوَاتِهَا وَقَالَ مَا لَهَا مِنْ دُونِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْكَافِرِينَ» [١٥]

قوله تعالى: «وَتَوَسَّسَ لَهَا الشَّيْطَانُ» قيل: إن الوسوسة: إخفاء الصوت. قال ابن فارس: الوسواس: صوت الحلي، ومنه وسواس الشيطان. و «لها» بمعنى «إليها»، «يَتَّبِعُ لَهَا» أي: ليظهر لها «مَا دُرِيَ عَنْهَا» أي: ستر. وقيل: إن لام «ليدي» لام العاقبة؛ وذلك أن عاقبة الوسوسة أدت إلى ظهور عورتها، ولم تكن الوسوسة لظهورها.

قوله تعالى: «لَا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ» قال الأخفش، والزجاج: معناه: ما نهاكما إلا كراهة أن تكونا ملكين. وقال ابن الأنباري: المعنى: إلا أن لا تكونا، فاكشف بـ «أن» من «لا» فأسقطها. فإن قيل: كيف انقاد آدم لإبليس، مستشرفاً إلى أن يكون ملكاً، وقد شاهد الملائكة ساجدة له؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنه عرف قريبهم من الله، واجتماع أكثرهم حول عرشه، فاستشرف لذلك، قاله ابن الأنباري. والثاني: أن المعنى: إلا أن تكونا طويلي العمر مع الملائكة: «أَوْ تَكُونَا مِنَ الْكَافِرِينَ» لا تموتان أبداً، قاله أبو سليمان الدمشقي. وقد روى يعلى بن حكيم عن ابن كثير: «أن تكونا ملكين» بكسر اللام، وهي قراءة الزهري.

«وَكَاذِبَهُمَا إِلَهِي لَكُمْ لَيْنَ الشَّجَرَةِ» [١٦] فَلَمَّا بَدَتْ لَهَا شَجَرَةٌ ذَاقَا الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا هَوَافَيْنِ فَتَقَفَا فِيهَا مِنْ دُونِ الْحَيَاةِ وَكَادَهُمَا رَهْمًا أَوْ أَنْتَكُمَا عَنْ نَهْيِكُمَا الشَّجَرَةَ وَأَقْبَلَ لَهَا إِلَى الشَّيْطَانِ لَهَا عَذَابٌ شَدِيدٌ [١٧] قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَنَا تَتَوَلَّى لَنَا تَرْحَمْنَا لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ [١٨] قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ [١٩] قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَفِيهَا تُخْرَجُونَ [٢٠]

قوله تعالى: «وَكَاذِبَهُمَا» قال الزجاج: حلف لهما، فدلأهما في المعصية بأن غرهما. قال ابن عباس: غرهما باليمين، وكان آدم لا يظن أن أحداً يحلف بالله كاذباً.

قوله تعالى: «فَلَمَّا ذَاقَا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ» أي: فلما ذاقا ثمر الشجرة. قال الزجاج: وهذا يدل على أنها إنما ذاقاها ذوقاً، ولم يبالغا في الأكل. والسواة كناية عن الفرج، لا أصل له في تسميته. ومعنى: «وَلَمَّا ذَاقَا» أخذاً في الفعل؛ والأكثر: طيق يظفّق؛ وقد رويت: طفق يظفّق، بكسر الفاء، ومعنى: «يَتَقَفَا» يجعلان ورقة على ورقة، ومنه قيل للذي يرقع النعل: خصاف. وفي الآية دليل على أن إظهار السواة قبيح من لدن آدم؛ ألا ترى إلى قوله: «يَتَّبِعُ لَهَا مَا دُرِيَ عَنْهَا مِنْ سَرَوَاتِهَا» فإنهما بادرا يستتران لقبح التكشف. وقيل: إنما سميت السواة سواة، لأن كشفها يسوء صاحبها. قال وهب بن منبه: كان لباسهما نوراً على فروجهما، لا يرى أحدهما عورة الآخر؛ فلما أصابا الخطيئة، بدت لهما سوءاتهما. وقرأ الحسن: «سَوَاتُهُمَا» على التوحيد؛ وكذلك قرأ: «يَخْضِفَانِ» بكسر الياء والخاء مع تشديد الصاد. وقرأ الزهري: بضم الياء وفتح الخاء مع تشديد الصاد. وفي الورق قولان: أحدهما: ورق التين، قاله

ابن عباس. والثاني: ورق الموز، ذكره المفسرون. وما بعد هذا قد سبق تفسيره إلى قوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ يعني الأرض. واختلف القراء في تاء «تخرجون»؛ فقرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو: بضم التاء وفتح الراء، هاهنا؛ وفي الروم: ﴿وَكَذَلِكَ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ١٩]. وفي الزخرف: ﴿كَذَلِكَ تَخْرُجُونَ﴾ [الزخرف: ١١]. وفي الجاثية: ﴿لَا تَخْرُجُونَ مِنْهَا﴾ [الجاثية: ٣٥]. وقرأ من حمزة، والكسائي: بفتح التاء وضم الراء. وفتح ابن عامر التاء في (الأعراف) فقط. فأما التي في (الروم): ﴿إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، وفي ﴿سَأَلْ سَائِلٌ﴾: ﴿يَوْمَ تَخْرُجُونَ﴾ [المعارج: ٤٣] فمفتوحتان من غير خلاف.

﴿يَبْقَىٰ مَادَمٌ قَدْ أُنْزِلَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُوَزِي سَوَاءَ يَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ مَّا يَدْرِي اللَّهُ لَعَلَّكُمْ يَذْكُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ مَادَمٌ قَدْ أُنْزِلَا عَلَيْكَ لِبَاسًا﴾ سبب نزولها: أن ناساً من العرب كانوا يطوفون بالبيت عراء، فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد. وقيل: إنه لما ذكر عري آدم، من علينا باللباس. وفي معنى ﴿أُنْزِلَا عَلَيْكَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: خلقناكم. والثاني: ألهمناكم كيفية صنعه. والثالث: أنزلنا المطر الذي هو سبب نبات ما يتخذ لباساً. وأكثر القراء قرؤوا: وريشاً. وقرأ ابن عباس، والحسن، وزر بن حبيش، وقتادة، والمفضل، وأبان عن عاصم: «وريشاً» بآلف. قال الفراء: يجوز أن تكون الرياش جمع الريش. ويجوز أن تكون بمعنى الريش كما قالوا: لبس، ولباس. قال الشاعر:

فلما كَشَفْنَ اللَّبْسَ عَنْهُ مَسَخَتْهُ
بأطراف طِفْلٍ زَانٍ غَيْلاً مُوَشَّمًا^(١)

قال ابن عباس، ومجاهد: «الرياش»: المال؛ وقال عطاء: المال والنعيم. وقال ابن زيد: الريش: الجمال؛ وقال معبد الجهني: الريش: الرزق؛ وقال ابن قتيبة: الريش والرياش: ما ظهر من اللباس. وقال الزجاج: الريش: اللباس وكل ما ستر الإنسان في جسمه ومعيشته. يقال: تريش فلان، أي: صار له ما يعيش به. أنشد سيبويه:

رياشي منكُم وهوائي مَنكُم
وإن كَانَتْ زيارتُكم لِمَا^(٢)

وعلى قول الأكثرين: الريش والرياش بمعنى. قال قطرب: الريش والرياش واحد. وقال سفيان الثوري: الريش: المال، والرياش: الثياب.

قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة: «ولباسُ التقوى» بالرفع. وقرأ ابن عامر، ونافع، والكسائي: بنصب اللباس. قال الزجاج: من نصب اللباس، عطف به على الريش؛ ومن رفعه، فيجوز أن يكون مبتدأ، ويجوز أن يكون مرفوعاً بإضمار: هو؛ المعنى: وهو لباس التقوى، أي: وستر العورة لباس المتقين. وللمفسرين في لباس التقوى عشرة أقوال: أحدها: أنه السميت الحسن، قاله عثمان بن عفان؛ ورواه الدِّبَالُ بن عمرو عن ابن عباس. والثاني: العمل الصالح، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: الإيمان، قاله قتادة، وابن جريج، والسدي؛ فعلى هذا، سمي لباس التقوى، لأنه يقي العذاب. والرابع: خشية الله تعالى، قاله عروة بن الزبير. والخامس: الحياء، قاله معبد الجهني، وابن الأنباري. والسادس: ستر العورة للصلاة، قاله ابن زيد. والسابع: أنه الدرع، وسائر آلات الحرب، قاله زيد بن علي. والثامن: العفاف، قاله ابن السائب. والتاسع: أنه ما يَتَّقَى به الحر والبرد، قاله ابن بحر. والعاشر: أن المعنى: ما يَلْبَسُه المتقون في الآخرة، خير مما يلبسه أهل الدنيا، رواه عثمان بن عطاء عن أبيه.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ قال ابن قتيبة: المعنى: ولباس التقوى خير من الثياب، لأن الفاجر، وإن كان حسن الثوب، فهو بادي العورة: و «ذلك» زائدة. قال الشاعر في هذا المعنى:

(١) البيت لحمد بن ثور الهلالي، «ديوانه» ١٤، و«معاني القرآن» للفراء: ١/٣٧٥، و«الطبري» ١٢/٣٦٤، و«المخصص» ٤/٣٥، و«اللسان»: «لبس» و«طفل». الطفل: البنان الناعم، أراد: مسحته بأطراف ينان طفل. والفيل: الساعد الريان الممتلئ. والموشم: عليه الوشم. والوشم: زينة الجاهلية، وقد أبطلها الإسلام، ولعن فاعلها.

(٢) البيت لجبر، «ديوانه» ٥٠٦، يمدح هشام بن عبد الملك، وأنشده سيبويه ٢/٤٥ ونسبه للراعي. والمام: الشيء اليسير، وهو أيضاً: الزيادة في النوم، وأصله من ألم بالمتزل: إذا نزل به ثم رحل.

إِنِّي كَأَنِّي أَرَى مَنْ لَا حَيَاءَ لَهُ وَلَا أَمَانَةَ وَسَطَ الْقَوْمِ عُرْيَانَا
قال ابن الأنباري: ويقال: لباس التقوى، هو اللباس الأول، وإنما أعاده لما أخبر عنه بأنه خير من التعري، إذ
كانوا يتعبدون في الجاهلية بالتعري في الطواف.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ مَّآثِرِ اللَّهِ﴾ قال مقاتل: يعني: الثياب والمال من آيات الله وصنعه، لكي يذكروا، فيعتبروا
في صنعه.

﴿يَبْقَىٰ مَادَمٌ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَجَمُّا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِمَّنْ
حَيْثُ لَا تَدْرِي إِنْ جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ مَادَمٌ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ قال المفسرون: هذا الخطاب للذين كانوا يطوفون عراً؛
والمعنى: لا يخذعكم ولا يضلكنم بغروره، فيزين لكم كشف عوراتكم، كما أخرج أبويكم من الجنة بغروره. وأضيف
الإخراج ونزع اللباس إليه، لأنه السبب. وفي «لباسهما» أربعة أقوال: أحدها: أنه النور، رواه أبو صالح عن
ابن عباس؛ وقد ذكرناه عن ابن منبه. والثاني: أنه كان كالظفر؛ فلما أكل، لم يبق عليهما منه إلا الظفر، رواه سعيد بن
جبير عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، وابن زيد. والثالث: أنه التقوى، قاله مجاهد. والرابع: أنه كان من ثياب الجنة،
ذكره القاضي أبو يعلى.

قوله تعالى: ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَجَمُّا﴾ أي: ليري كل واحد منهما سواة صاحبه. ﴿إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ قال مجاهد:
قبيله: الجن والشياطين. قال ابن عباس: جعلهم الله يجرون من بني آدم مجرى الدم، وصدور بني آدم مساكن لهم، فهم
يرون بني آدم، وبني آدم لا يرونهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال الزجاج: سلطناهم عليهم، يزدون في غيهم. وقال
أبو سليمان: جعلناهم موالين لهم.

﴿وَإِذَا قُلُوا فُجْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا مَبَادِنَا وَاللَّهِ أَشْرَكُنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾
قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلُوا فُجْشَةً﴾ فمن عني بهذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم الذين كانوا يطوفون بالبيت عراً.
والفاحشة: كشف العورة، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وزيد بن أسلم، والسدي. والثاني:
أنهم الذين جعلوا السابعة والوصيلة والحام وتلك الفاحشة، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنهم
المشركون؛ والفاحشة: الشرك، قاله الحسن، وعطاء. قال الزجاج: فأعلمهم عز وجل أنه لا يأمر بالفحشاء، لأن
حكمته تدل على أنه لا يفعل إلا المستحسن. والقسط: العدل. والعدل: ما استقر في النفوس أنه مستقيم لا ينكره
مميز، فكيف يأمر بالفحشاء، وهي ما عظم قبحه؟!.

﴿قُلْ أَتَمَرُ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا زُجُوجَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٩﴾﴾
قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا زُجُوجَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: إذا حضرت الصلاة وأنتم عند
مسجد، فصلوا فيه، ولا يقول أحدكم: أصلي في مسجد، قاله ابن عباس، والضحاك، واختاره ابن قتيبة. والثاني:
توجهوا حيث كنتم في الصلاة إلى الكعبة، قاله مجاهد، والسدي، وابن زيد. والثالث: اجعلوا سجودكم خالصاً لله
تعالى دون غيره، قاله الربيع بن أنس. والرابع: اقصدا المسجد في وقت كل صلاة، أمراً بالجماعة لها، ذكره
الماوردي. وفي قوله: ﴿وَادْعُوهُ﴾ قولان: أحدهما: أنه العبادة. والثاني: الدعاء. وفي قوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾
قولان: أحدهما: مفتردين له العبادة. والثاني: موحدين غير مشركين. وفي قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ ثلاثة
أقوال: أحدها: كما بدأكم سعداء وأشقياء، كذلك تبعثون، روى هذا المعنى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه
قال مجاهد، والقرظي، والسدي، ومقاتل، والفراء. والثاني: كما خلقتكم بقدرته، كذلك يعيدكم، روى هذا المعنى
العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وابن زيد، والزجاج، وقال: هذا الكلام متصل بقوله: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا
تَمُوتُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]. والثالث: كما بدأكم لا تملكون شيئاً، كذلك تعودون، ذكره الماوردي.

﴿فَرِيقًا هَذَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ يُخْسِرُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَذَى﴾ قال الفراء: نصب الفريق بـ «تعودون». وقال ابن الأنباري: نصب «فريقاً» و «فريقاً» على الحال من الضمير الذي في «تعودون»، يريد: تعودون كما ابتدأ خلقكم مختلفين، بعضهم سعداء، وبعضكم أشقياء.

قوله تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي: بالكلمة القديمة، والإرادة السابقة.

﴿يَبْتَغِي مَادًّا خُدُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَبْتَغِي مَادًّا خُدُوا زِينَتَكُمْ﴾ سبب نزولها: أن ناساً من الأعراب كانوا يطوفون بالبيت عراة، الرجال بالنهار، والنساء بالليل، وكانت المرأة تعلق على فرجها سيوراً، وتقول:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَغْضُهُ أَوْ كُؤُهُ وَمَا بَدَأَ مِنْهُ فَلَا أَجْلُهُ

فنزلت هذه الآية^(١) قاله ابن عباس. وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن: كانوا إذا حجوا، فأفاضوا من منى، لا يصلح لأحد منهم في دينه الذي اشتروعوا أن يطوف في ثوبيه، فيلقيهما حتى يقضي طوافه، فنزلت هذه الآية. وقال الزهري: كانت العرب تطوف بالبيت عراة، إلا الحمس، قريش وأحلافها، فمن جاء من غيرهم، وضع ثيابه وطاف في ثوبي أحمس، فإن لم يجد من يُعيره من الحمس، ألقي ثيابه وطاف عرباناً، فإن طاف في ثياب نفسه، جعلها حراماً عليه إذا قضى الطواف، فلذلك جاءت هذه الآية. وفي هذه الزينة قولان: أحدهما: أنها الثياب. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ورد في ستر العورة في الطواف، قاله ابن عباس، والحسن في جماعة. والثاني: أنه ورد في ستر العورة في الصلاة، قاله مجاهد، والزجاج. والثالث: أنه ورد في التزين بأجمل الثياب في الجمع والأعياد، ذكره الماوردي. والثاني: أن المراد بالزينة: المشط، قاله أبو رزين.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ قال ابن السائب: كان أهل الجاهلية لا يأكلون في أيام حجهم دسماً، ولا ينالون من الطعام إلا قوتاً، تعظيماً لحجهم، فنزل قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾. وفي قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أربعة أقوال: أحدها: لا تسرفوا بتحريم ما أحل لكم، قاله ابن عباس. والثاني: لا تأكلوا حراماً، فذلك الإسراف، قاله ابن زيد. والثالث: لا تشركوا، فمعنى الإسراف هاهنا: الإشراك، قاله مقاتل. والرابع: لا تأكلوا من الحلال فوق الحاجة، قاله الزجاج. ونقل أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، فقال علي: قد جمع الله تعالى الطب في نصف آية من كتابنا. قال: ما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾. قال النصراني: ولا يؤثر عن نبيكم شيء من الطب، فقال: قد جمع رسولنا علم الطب في ألفاظ يسيرة. قال: وما هي؟ قال: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس الداء، وعودوا كل بدن ما اعتاد»^(٢). فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً. قال المصنف: هكذا نقلت هذه الحكاية، إلا أن هذا الحديث المذكور فيها عن النبي ﷺ لا يثبت. وقد جاءت عنه في الطب أحاديث قد ذكرتها في كتاب «لفظ المنافع في الطب».

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن المشركين عيروا المسلمين، إذ

(١) مسلم في «صحيحه» ٢٢٢٠/٤ من طريق غندر عن شعبة، والطبري ٣٩٠/١٢. ورواه الحاكم في «المستدرک» ٣١٩/٢ - ٣٢٠ من طريق أبي داود الطيالسي عن شعبة، ولكن قال: نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾. ثم قال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) ذكره الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» وقال: لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ، بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب، أو غيره. نعم عند ابن أبي الدنيا في الصمت من جهة وهب بن منبه قال: أجمعت الأطباء على أن رأس الطب الحمية، وأجمعت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت. وللخلال من حديث عائشة: «الأزم دواء، والمعدة داء، وعودوا بدنأ ما اعتاد». وأورد الغزالي في «الإحياء» من المرفوع: «البطنة أصل الداء، والحمية أصل الدواء، وعودوا كل بدن بما اعتاد». وقال مخرجه: «لم أجد له أصلاً».

لبسوا الثياب في الطواف، وأكلوا الطيبات، فنزلت، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنهم كانوا يُحرِّمون أشياء أحلها الله، من الزروع وغيرها، فنزلت هذه الآية، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: نزلت في طوافهم بالبيت عراً، قاله طاووس، وعطاء. وفي زينة الله قولان: أحدهما: أنها ستر العورة؛ فالمعنى: من حرم أن تلبسوا في طوافكم ما يستركم؟ والثاني: أنها زينة اللباس. وفي الطيبات قولان: أحدهما: أنها الحلال. والثاني: المستلذ. ثم في ما عني بها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها البحائر، والسوائب، والوصائل، والحوامي التي حرَّموها، قاله ابن عباس، وقتادة. والثاني: أنه السَّمْنُ، والألبان، واللحم، وكانوا حرَّموه في الإحرام، قاله ابن زيد. والثالث: الحرث، والأنعام، والألبان، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ لَدَيْنَا مَاتُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً﴾ قال ابن الأنباري: «خالصة» نصب على الحال من لام مضمره، تقديرها: هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا مشتركة، وهي لهم في الآخرة خالصة، فحذفت اللام لوضوح معناها، كما تحذف العرب أشياء لا يُلِيس سقوطها. قال الشاعر:

تَقُولُ ابْنَتِي لَمَّا رَأَتْنِي شَاحِباً كَأَنَّكَ يَخْمِيكَ الطَّعَامُ طَبِيبُ
تَتَابِعُ أَحْدَاثَ تَخْرُجْنَ إِخْوَتِي فَشَيْبَنَ رَأْسِي، وَالْخُطُوبُ تُشِيبُ

أراد: فقلت لها: الذي أكسبني ما ترين، تتابع أحداث، فحذف لانكشاف المعنى. قال المفسرون: إن المشركين شاركوا المؤمنين في الطيبات، فأكلوا ولبسوا ونكحوا، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للمؤمنين، وليس للمشركين فيها شيء. وقيل: خالصة لهم من ضرر أو إثم. وقرأ نافع: «خالصة» بالرفع. قال الزجاج: ورفعتها على أنه خبر بعد خبر، كما تقول: زيد عاقل لبيب: والمعنى: قل هي ثابتة للذين آمنوا في الدنيا، خالصة يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي: هكذا نبئتها.
﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِقَرَىٰ أَخَىٰ وَأَن تَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَأَن تَقُولُوا عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ قرأ حمزة: ﴿رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ بإسكان الياء. «مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ» فيه ستة أقوال: أحدها: أن المراد بها الزنا، ما ظهر منه: علانيته، وما بطن: سره، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير. والثاني: أن ما ظهر: نكاح الأمهات، وما بطن: الزنا، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال علي بن الحسين. والثالث: أن ما ظهر: نكاح الأبناء نساء الآباء، والجمع بين الأختين، وأن تنكح المرأة على عماتها أو خالتهما، وما بطن: الزنا، روي عن ابن عباس أيضاً. والرابع: أن ما ظهر: الزنا، وما بطن: العزل، قاله شريح. والخامس: أن ما ظهر: طواف الجاهلية عراً، وما بطن: الزنا، قاله مجاهد. والسادس: أنه عام في جميع المعاصي. ثم في «مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ» قولان: أحدهما: أن الظاهر: الغلانية، والباطن: السر، قاله أبو سليمان الدمشقي. والثاني: أن ما ظهر: أفعال الجوارح، والباطن: اعتقاد القلوب، قاله الماوردي. وفي الإثم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الذنب الذي لا يوجب الحد، قاله ابن عباس، والضحاك، والفراء. والثاني: المعاصي كلها، قاله مجاهد. والثالث: أنه الخمر، قاله الحسن، وعطاء. قال ابن الأنباري: أنشدنا رجل في مجلس ثعلب بحضرته، وزعم أن أبا عبيدة أنشده:

نَشْرَبُ الْإِثْمَ بِالصُّوَاعِ جَهَاراً وَتَرَى الْمُثَنِّكَ بَيْنَنَا مُسْتَعَاراً^(١)

فقال أبو العباس: لا أعرفه، ولا أعرف الإثم: الخمر، في كلام العرب. وأنشدنا رجل آخر:
شَرِبْتُ الْإِثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي كَذَلِكَ الْإِثْمُ تَذَهَبُ بِالْعُقُولِ
قال أبو بكر: وما هذا البيت معروفاً أيضاً في شعر من يحتج بشعره، وما رأيت أحداً من أصحاب الغريب أدخل

(١) البيت غير منسوب في «اللسان»: إثم، «التاج»: منك. «المك»: «الأرج».

الإثم في أسماء الخمر، ولا سمّتها العرب بذلك في جاهلية ولا إسلام. فإن قيل: إن الخمر تدخل تحت الإثم، فصواب، لا لأنه اسم لها. فإن قيل: كيف فصل الإثم عن الفواحش، وفي كل الفواحش إثم؟ فالجواب: أن كل فاحشة إثم، وليس كل إثم فاحشة، فكان الإثم كل فعل مذموم؛ والفاحشة: العظيمة. فأما البغي، فقال الفراء: هو الاستطالة على الناس.

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَشْرَكُوا﴾ قال الزجاج: موضع «أن» نصب؛ فالمعنى: حرّم الفواحش، وحرّم الشرك. والسلطان: الحجة.

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَقُولُونَ﴾ عام في تحريم القول في الدين من غير يقين.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَنْصِفُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ سبب نزولها: أنهم سألوا النبي ﷺ العذاب، فأنزلت، قاله مقاتل. وفي الأجل قولان: أحدهما: أنه أجل العذاب. والثاني: أجل الحياة. قال الزجاج: الأجل: الوقت المؤقت. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً﴾ المعنى: ولا أقل من ساعة. وإنما ذكر الساعة، لأنها أقل أسماء الأوقات.

﴿يَتَّبِعُ مَادَمَ إِنَّمَا يَأْتِيهِمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَكُفِّرُونَ عَنْهُمْ مَا ظَلَمُوا فِيهِمْ فَأُولَٰئِكَ نَجِيتُهُمْ وَمِنَ الْأَجَلِ الَّذِي أَقْبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَتْلَوْنَ نَجِيمَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ثُمَّ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ يَتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَإِنَّ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا صَلَوَاتٌ عَلَيْنَا لَمَّا دُخِلْنَا فِي سُلُوكِنَا فَاصْبِرْ لِحُكْمِ اللَّهِ إِنَّكَ أَنتَ أَكْثَرُ حَكِيمٌ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُ مَادَمَ إِنَّمَا يَأْتِيهِمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ قال الزجاج: أضمر: «فأطيعوهم». وقد سبق معنى «إما» في سورة البقرة: [٣٨]؛ والباقي ظاهر إلى قوله: ﴿يَتْلَوْنَ نَجِيمَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ ففي معناه سبعة أقوال: أحدها: ما قُدر لهم من خير وشر، رواه مجاهد عن ابن عباس. والثاني: نصيبهم من الأعمال، فيجزون عليها، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: ما كُتِبَ عليهم من الضلالة والهدى، قاله الحسن. وقال مجاهد، وابن جبير: من السعادة والشقاوة. والرابع: ما كتب لهم من الأرزاق والأعمار والأعمال، قاله الربيع، والقرظي، وابن زيد. والخامس: ما كتب لهم من العذاب، قاله عكرمة، وأبو صالح، والسدي. والسادس: ما أخبر الله تعالى في الكتاب كلها: أنه من افترى على الله كذباً، أسود وجهه، قاله مقاتل. والسابع: ما أخبر في الكتاب من جزائهم، نحو قوله: ﴿فَأَذَرْنَا مَا عَنِتُّمْ قَدَافًا تَلْقَىٰ﴾ [الليل: ١٤]، قاله الزجاج. فإذا في الكتاب خمسة أقوال: أحدها: أنه اللوح المحفوظ. والثاني: كُتِبَ الله كلها. والثالث: القرآن. والرابع: كتاب أعمالهم. والخامس: القضاء.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ فيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أعوان ملك الموت، قاله النخعي. والثاني: ملك الموت وحده، قاله مقاتل. والثالث: ملائكة العذاب يوم القيامة. وفي قوله: «يتوَفَّوْنَهُمْ» ثلاثة أقوال: أحدها: يتوَفَّوْنَهُم بالموت، قاله الأكثرون. والثاني: يتوَفَّوْنَهُم بالحشر إلى النار يوم القيامة، قاله الحسن. والثالث: يتوَفَّوْنَهُم عذاباً، كما تقول: قتل فلاناً بالعذاب، وإن لم يمِت، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ﴾ أي: تعبدون «مِن دُونِ اللَّهِ»، وهذا سؤال تبكييت وتقريع. قال مقاتل: المعنى: فليمنعوكم من النار. قال الزجاج: ومعنى «صَلَوَاتٌ عَلَيْنَا»: بطلوا وذمبوا، فيعتفون عند موتهم أنهم كانوا كافرين. وقال غيره: ذلك الاعتراف يكون يوم القيامة.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْآلِيزِ وَالْإِنسِ فِي الْأَنْثَرِ كُلًّا دَخَلَتْ أُمَّةٌ أَمْنًا خَلَّتْ إِذَا أَدَارَكُوا فِيهَا جِيَمًا قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ لِأُولِنَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلَحُوا فَأَتَيْنَهُمْ عَذَابًا يَصْمُغًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَقْلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا﴾ إن الله تعالى يقول لهم ذلك بواسطة الملائكة، لأن الله تعالى لا يكلم الكفار يوم القيامة. قال ابن قتيبة: و«في» بمعنى: «مع». وفي قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ قولان: أحدهما: مضت إلى العذاب. والثاني: مضت في الزمان، يعني كفار الأمم الماضية.

والمقصود أنهم لا يدخلون الجنة، كما لا يدخل الجمل في ثقب الإبرة، ولو ذكر أكبر منه أو أصغر منه، جاز، والناس يقولون: فلان لا يساوي درهماً، وهذا لا يعني عنك فيلاً، وإن كنا نجد أقل من الدرهم والفتيل. والثاني: أن الجمل أكبر شأنًا عند العرب من سائر الدواب، فإنهم يقدمونه في القوة على غيره، لأنه يوقر بحمله فينهض به دون غيره من الدواب، ولهذا عجبهم من خلق الإبل، فقال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۖ﴾ [الغاشية: ١٧]، فآثر الله ذكره على غيره لهذا المعنى. ذكر الجوابين ابن الأنباري. قال: وقد روى شهر بن حوشب عن ابن عباس أنه قرأ: «حتى يلج الجمل» بضم الجيم وتشديد الميم، وقال: هو القَلْسُ^(١) الغليظ. قال المصنف: وهي قراءة أبي رزين، ومجاهد، وابن محيصن، وأبي مجلز، وابن يعمر، وأبان عن عاصم. قال: وروى مجاهد عن ابن عباس: «حتى يلج الجمل» بضم الجيم وفتح الميم وتخفيفها. قلت: وهي قراءة قتادة، وقد رويت عن سعيد بن جبير، وأنه قرأ: «حتى يلج الجمل» بضم الجيم وتسكين الميم. قلت: وهي قراءة عكرمة. قال ابن الأنباري: فالجمل يحتمل أمرين: يجوز أن يكون بمعنى الجمل، ويجوز أن يكون بمعنى جملة من الجمال، قيل في جمعها: جُمْلٌ، كما يقال: حُجْرَةٌ، وحُجْرٌ، وظُلْمَةٌ، وظُلْمٌ. وكذلك من قرأ: «الجمل» يسوغ له أن يقول: الجُمْلُ، بمعنى الجمل، وأن يقول: الجُمْلُ، جمع جُمْلَةٌ، مثل بُسْرَةٍ، وبُسْرٍ. وأصحاب هذه القراءات يقولون: الجبل والحبال، أشبه بالإبرة والخيوط من الجمال. وروى عطاء بن يسار عن ابن عباس أنه قرأ: «الجمل» بضم الجيم والميم، وبالتخفيف، وهي قراءة الضحاك، والجحدري. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء: «الجمل» بفتح الجيم، ويسكون الميم خفيفة.

قوله تعالى: ﴿فِي سِتْرِ اللَّيَالِي﴾ السَّم فِي اللُّغَةِ: الثَّقْبُ. وفيها ثلاث لغات: فتح السين، وبها قرأ الأكثرون، وضمها، وبه قرأ ابن مسعود، وأبو رزين، وقتادة، وابن محيصن، وطلحة بن مصرف، وكسرها، وبه قرأ أبو عمران الجوني، وأبو نعيم، والأصمعي عن نافع. قال ابن القاسم: والخياط: المَخِيطُ، بمنزلة اللحاف والملحف، والقرام والمقرم. وقد قرأ ابن مسعود، وأبو رزين، وأبو مجلز: «في سم المَخِيطِ». وقال الزجاج: الخياط: الإبرة، وسُمِّها: ثَقْبُها. والمعنى: أنهم لا يدخلون الجنة أبداً. قال ابن قتيبة: هذا كما يقال: لا يكون ذلك حتى يشيب الغراب، ويبيض القار.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مثل ذلك نجزي الكافرين أنهم لا يدخلون الجنة. ﴿لَكُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ المهاد: الفراش. وفي المراد بالغواشي ثلاثة أقوال: أحدها: اللحف، قاله ابن عباس، والقرظي، وابن زيد. والثاني: ما يغشاهم من فوقهم من الدخان، قاله عكرمة. والثالث: غاشية فوق غاشية من النار، قاله الزجاج. قال ابن عباس: والظالمون هاهنا: الكافرون.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ أَنْهَارٌ وَقَالُوا لَسَدٌ لِمَ الَّذِي هَدَّنا لَهُذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَّنا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ نَبِيًّا وَإِنَّا بِهَذَا الْآيَةِ لَنُؤْمِنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ فيمن عني بهذه الآية أربعة أقوال: أحدها: أهل بدر. روى الحسن عن علي عليه السلام أنه قال: فينا والله أهل بدر نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾. وروى عمرو بن الشريد عن علي أنه قال: إني لأرجو أن أكون أنا، وعثمان، وطلحة، والزبير، من الذين قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾. والثاني: أنهم أهل الأحقاد من أهل الجاهلية حين أسلموا. روى كثير التَّوَّاء عن أبي جعفر قال: نزلت هذه الآية في علي، وأبي بكر، وعمر. قلت لأبي جعفر: فأبى غل هو؟ قال: غل الجاهلية، كان بين بني هاشم وبني تيم وبني عدي في الجاهلية شيء، فلما أسلم هؤلاء، تحابوا، فأخذت أبا بكر الخاصرة، فجعل علي يسخن يده ويكمد بها خاصرة

(١) القلس، بفتح القاف وسكون اللام: جبل غليظ من جبال السفن.

أبي بكر، فنزلت هذه الآية. والثالث: أنهم عشرة من الصحابة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن مسعود، قاله أبو صالح. والرابع: أنها في صفة أهل الجنة إذا دخلوها. روى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيُحْبِسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا هَلَّابُوا وَقَفُوا، أَذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ. فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لِأَحَدِهِمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِمَّنْ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»^(١). وقال ابن عباس: أول ما يدخل أهل الجنة الجنة، تعرض لهم عيتان، فيشربون من إحدى العينين، فيذهب الله ما في قلوبهم من غلٍّ وغيره مما كان في الدنيا، ثم يدخلون إلى العين الأخرى، فيغتسلون منها، فتشرق ألوانهم، وتصفو وجوههم، وتجري عليهم نضرة النعيم. فأما النزح، فهو قلع الشيء من مكانه. والغل: الحقد الكامن في الصدر. وقال ابن قتيبة: الغل: الحسد والعداوة.

قوله تعالى: ﴿لَمَسَّ يَوْمَ الْآزَى هَذَانَا﴾ قال الزجاج: معناه: هذان لما صيرنا إلى هذا. قال ابن عباس: يعنون ما وصلوا إليه من رضوان الله وكرامته. وروى عاصم بن ضمرة عن علي كرم الله وجهه قال: تستقبلهم الولدان كأنهم لؤلؤ منشور، فيطوفون بهم كإطافتهم بالحميم جاء من الغيبة، ويبشرونهم بما أعد الله لهم، ويذهبون إلى أزواجهم فيبشرونهن، فيستغفهن الفرح، فيقمن على أشكف الباب، فيقلن: أنت رأيت، أنت رأيت؟ فيجيء إلى منزله فينظر في أساسه، فإذا صخر من لؤلؤ، ثم يرفع بصره، فلولوا أن الله ذلله لذهب بصره، ثم ينظر أسفل من ذلك، فإذا هو بالسر الموضونة، والفرش المرفوعة، والزرايب المبوثة، فعند ذلك قالوا: ﴿لَمَسَّ يَوْمَ الْآزَى هَذَانَا﴾ وما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَذَا اللَّهُ ﴿كَلِمَةً قَرَأَ وَمَا كُنَّا بِبَائِيَاتِ الْوَاوِ، غَيْرِ ابْنِ عَامِرٍ، فَإِنَّهُ قَرَأَ مَا كُنَّا لِنَهْتَدِي﴾ بغير واو، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام. قال أبو علي: وجه الاستغناء عن الواو، أن القصة ملتبسة بما قبلها، فأغنى التباسها به عن حرف المعطف، ومثله ﴿رَأَيْبُهُمْ كَلِمَةً﴾ [الكهف: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ﴾ هذا قول أهل الجنة حين رأوا ما وعدهم الرسل عياناً. ﴿وَوَدُّوا أَنْ يَلَكُمُ الْجَنَّةُ﴾ قال الزجاج: إنما قال «تلكم» لأنهم وعدوا بها في الدنيا، فكانه قيل لهم: هذه تلكم التي وعدتم بها. وجائز أن يكون هذا قيل لهم حين عاينوها قبل دخولهم إليها. قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر «أورثتموها» غير مدغمة. وقرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي «أورثتموها» مدغمة، وكذلك قرؤوا في [الزعر: ٧٢]. قال أبو علي: من ترك الإدغام، فلتباين مخرج الحرفين، ومن أدغم، فلأن التاء والتاء مهموستان متقاربتان. وفي معنى «أورثتموها» أربعة أقوال: أحدها: ما روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما الكافر فإنه يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة»^(٢)، فذلك قوله: ﴿أورثتموها﴾ كما كثر تَمَلُّوْهُ. وقال بعضهم: لما سُمي الكفار أمواتاً بقوله: ﴿أَوْرَثَ عَيْرٌ أَيْكَاوُ﴾ [النحل: ٢١]. وسمى المؤمنين أحياء بقوله: «لتنذر من كان حياً»^(٣) [يس: ٧٠] أورث الأحياء الموتى. والثاني: أنهم أورثوها عن الأعمال، لأنها جعلت جزاء لأعمالهم، وثواباً عليها، إذ هي عواقبها، حكاها أبو سليمان الدمشقي. والثالث: أن دخول الجنة برحمة الله، واقتسام

(١) [البخاري: ٧٠/٥، و ٣٤٦/١١، [شرح الفتح، والطبري: ٣٨/١٤، قال الحافظ ٣٤٦/١١: قوله: «والذي نفس محمد بيده» هذا ظاهره أنه مرفوع كله، وكذا في سائر الروايات، إلا في رواية عفان عند الطبري: قال: فإنه جعل هذا من كلام قتادة، فقال بعد قوله: «في دخول الجنة» قال: وقال قتادة: «والذي نفسي بيده لأحدهم أهدى... إلخ. وفي رواية شعيب بن إسحاق بعد قوله: «في دخول الجنة» قال: فوالذي نفسي بيده... إلخ. فأبهم القائل، فعلى رواية عفان يكون هو قتادة، وعلى رواية غيره يكون هو النبي ﷺ، وزاد محمد بن المنهال عند الإسماعيلي: قال قتادة: كان يقال: ما يشبه بهم إلا أهل الجمعة إذا انصرفوا من جمعهم، وهكذا عند عبد الوهاب وروح. وفي رواية بشر بن خالد وعفان جميعاً عند الطبري: قال: وقال بعضهم... فذكره، وكذا في رواية شعيب بن إسحاق، ويونس بن محمد، والقائل: وقال بعضهم: هو قتادة، ولم أقف على تسمية القائل.

(٢) [الطبري: ٦/١٨ من رواية الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ؓ مرفوعاً بلفظ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان، منزل في الجنة، ومنزل في النار، وإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾». وكذلك أورده ابن كثير ٣٣٩/٣ من رواية ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً. ورواه أحمد في «المسند» بنحوه، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٣٩٩/١٠ وذكر رواية أخرى له، ثم قال: رواه أحمد ورجال الرواية الأولى رجال الصحيح.

(٣) كذا الأصل «لتنذر» بالتاء، وهي قراءة نافع، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب، وأما قراءة حفص، فبالياء «لتنذر».

الدرجات بالأعمال. فلما كان يفسر نيلها لا عن عوض، سميت ميراثاً. والميراث: ما أخذته عن غير عوض. والرابع: أن معنى الميراث هاهنا: أن أمرهم يؤول إليها كما يؤول الميراث إلى الوارث.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ النَّارُ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٨٩﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ ﴿٩٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ أي: من العذاب؟ وهذا سؤال تقرير وتعيير. ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾. قرأ الجمهور بفتح العين في سائر القرآن، وكان الكسائي يكسرها. قال الأخفش: هما لغتان.

قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: نادى مناد: ﴿أَن لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ قرأ ابن كثير في رواية قتيل ونافع، وأبو عمرو، وعاصم: ﴿أَن لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ خفيفة النون ساكنة. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿أَن﴾ بالتشديد، «لعنة الله» بالنصب. قال الأخفش: و «أَن» في قوله: ﴿أَن تِلْكَمُ الْبَغْتَةُ﴾ [الأعراف: ٤٣] وقوله: ﴿أَن لَعْنَةُ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿أَن لِّلْمَسْئُورِ﴾ [يونس: ١٠]، و: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾، هي «أَن» الثقيلة خففت. قال الشاعر:

فِي فِشْيَةِ كُثَيْفٍ الْهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا
أَن هَالِكٌ كُلٌّ مِّنْ يَخْفَى وَيَنْتَعِلُ^(١)
وأنشد أيضاً:

أَكْثَرُهُ وَأَعْلَمُ أَنَّ كِلَانَا
عَلَى مَا سَاءَ صَاحِبِهِ حَرِيصُ^(٢)

ومعناه: أنه كلانا؛ وتكون «أَن قَدْ وَجَدْنَا» في معنى: أي. قال ابن عباس: والظالمون هاهنا: الكافرون.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: أذن المؤذن أن لعنة الله على الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وهو الإسلام. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ مفسر في [إد عمران: ٩٩]. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: وهم يكونون الآخرة كافرون.

﴿وَبَيْنَهُمَا جَبَّارٌ ذَلَّ الْأَعْرَافَ يَمَالُ يَمْرِؤُنَ كَلًّا يَسْتَنْفِئُ وَكَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَمَ عَلَيْكُمْ لَوْ يَدْخُلُونَهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا جَبَّارٌ﴾ أي بين الجنة والنار حاجز، وهو السور الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿فَقُتِرَ بَيْنَهُمْ يَسُورٌ لَّهُمْ بَابٌ﴾ [الحديد: ١٣]، فسمي هذا السور بالأعراف لارتفاعه. قال ابن عباس: الأعراف: هو السور الذي بين الجنة والنار، له عرف كعرف الديك. وقال أبو هريرة: الأعراف: جبال بين الجنة والنار، فهم على أعرافها، يعني: على ذراها، خلقتها كخلقة عرف الديك. قال اللغويون: الأعراف عند العرب: كل ما ارتفع من الأرض وعلا؛ يقال لكل عالٍ: عُرف، وجمعه: أعراف. قال الشاعر:

كُلُّ كِنَازٍ لَحْمُهُ زَيْفٌ
كَالْعَلَمِ الْمُوفِيِّ عَلَى الْأَعْرَافِ^(٣)
وقال الآخر:

وَرُنْتُ بِنِئَاءِ آبَاءٍ كِرَامٍ
عَلَوْا بِالْمَجْدِ أَعْرَافَ السِّنَاءِ

وفي «أصحاب الأعراف» قولان: أحدهما: أنهم من بني آدم، قاله الجمهور. وزعم مقاتل أنهم من أمة محمد ﷺ خاصة. وفي أعمالهم تسعة أقوال: أحدها: أنهم قوم قتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم، فمنعهم من دخول الجنة معصية آبائهم، ومنعهم من دخول النار قتلهم في سبيل الله، وهذا مروى عن النبي ﷺ^(٤). والثاني: أنهم قوم تساوت حسناتهم

(١) قاله الأعشى، وهو في «ديوانه» ٥٩، وسيبويه ٢٨٢/١، ٤٤٠، ٤٨٠ - ١٢٣/٢، و«الطبري» ٤٤٤/١٢، و«أمالى الشجري» ٢/٢، و«الإنصاف» ٨٩، و«الغزاة» ٥٤٧/٣ - ٣٥٦/٤. وهذا البيت أنشده هكذا سيبويه، وتبعه النحاة، وهو ملغى من بيتين، يقول الأعشى في قصيدته:

إِنَّمَا كُنْتُ نِئَاءً حَفَاءً لَا فَمَالَ لَنَا
أَنْ لَيْسَ يَنْقُضُ عَنْ ذِي الْحَيْلَةِ الْجَيْلُ
في فتية كسيوف الهند قد علموا

(٢) البيت غير منسوب في «سيبويه» ٤٤٠/١، و«الإنصاف» لابن الأثير: ٨٩، ١٨٣، و«أمالى ابن الشجري» ١٨٨/١. وقوله: أكاشره: أضاحكه.

(٣) البيت غير منسوب في «مجاز القرآن» ٢١٥/١، و«الطبري» ٤٥٠/١٢، و«غريب القرآن» ١٦٨، و«اللسان»: نوف. والكناز: المجتمع للحم القوية، والنياف: الطويل، والعلم: الجبل.

(٤) «الطبري» ٤٥٨/١٢، وفيه أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن السدي المدني وهو ضعيف، وأورده ابن كثير في «التفسير» ٢١٦/٢ عن سعيد بن منصور، ثم قال: ورواه ابن مردويه، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طرق عن أبي معشر به.

وميثاتهم، فلم تبلغ بهم حسناتهم دخول الجنة، ولا سيئاتهم دخول النار، قاله ابن مسعود، وحذيفة، وابن عباس، وأبو هريرة، والشعبي، وقناة. والثالث: أنهم أولاد الزنا، رواه صالح مولى التوأمة عن ابن عباس. والرابع: أنهم قوم صالحون فقهاء علماء، قاله الحسن، ومجاهد؛ فعلى هذا يكون لبثهم على الأعراف على سبيل النزهة. والخامس: أنهم قوم رضي عنهم آبؤهم دون أمهاتهم، أو أمهاتهم دون آبائهم، رواه عبد الوهاب بن مجاهد عن إبراهيم. والسادس: أنهم الذين ماتوا في الفترة ولم يبدلوا دينهم، قاله عبد العزيز بن يحيى. والسابع: أنهم أنبياء، حكاه ابن الأنباري. والثامن: أنهم أولاد المشركين، ذكره المنجوفي في تفسيره. والتاسع: أنهم قوم عملوا لله، لكنهم راؤوا في عملهم، ذكره بعض العلماء. والقول الثاني: أنهم ملائكة، قاله أبو مجلز، واعترض عليه، فقيل: إنهم رجال، فكيف تقول: ملائكة؟ فقال: إنهم ذكور وليسوا بآناث. وقيل: معنى قوله: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ أي: على معرفة أهل الجنة من أهل النار، ذكره الزجاج، وابن الأنباري. وفيه بُدّ وخلاف للمفسرين.

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾ أي: يعرف أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار. وسيما أهل الجنة: بياض الوجوه، وسيما أهل النار: سواد الوجوه، وزرقة العيون. والسيما: العلامة. وإنما عرفوا الناس، لأنهم على مكان عال يشرفون فيه على أهل الجنة والنار. ﴿وَنَادَا﴾ يعني: أصحاب الأعراف ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَمْ سَلَّمْتُمْ عَلَيَّكُمْ﴾. وفي قوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوا فِيهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ قولان: أحدهما: أنه إخبار من الله تعالى لنا أن أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون في دخولها، قاله الجمهور. والثاني: أنه إخبار من الله تعالى لأهل الأعراف إذا رأوا زمرة يُذْهَبُ بها إلى الجنة أن هؤلاء لم يدخلوها وهم يطمعون في دخولها، هذا قول السدي.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ إِلَيْكَ أَحْصَى النَّارَ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ يعني أصحاب الأعراف. والتلقاء: جهة اللقاء، وهي جهة المقابلة. وقال أبو عبيدة: تلقاء أصحاب النار، أي: حيالهم.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ روى أبو صالح عن ابن عباس قال: ينادون: يا وليد بن المغيرة، يا أبا جهل بن هشام، يا عاص بن وائل، يا أمية بن خلف، يا أبي بن خلف، يا سائر رؤساء الكفار، ما أغنى عنكم جمعكم في الدنيا المال والولد. ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: تتعظّمون عن الإيمان.

﴿أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن أهل النار أقسموا أن أهل الأعراف داخلون النار معنا، وأن الله لن يدخلهم الجنة، فيقول الله لأهل النار: ﴿أَهْؤُلَاءِ﴾ يعني أهل الأعراف ﴿الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ رواه وهب بن منبه عن ابن عباس. قال حذيفة: بينا أصحاب الأعراف هنالك، أطلع عليهم ربهم فقال لهم: «ادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم»^(١). والثاني: أن أهل الأعراف يرون في الجنة الفقراء والمساكين الذين كان الكفار يستهزؤون بهم، كسلمان، وصهيب، وخباب، فينادون الكفار: ﴿أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ وأنتم في الدنيا ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قاله ابن السائب. فعلى هذا ينقطع كلام أهل الأعراف عند قوله: ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ ويكون الباقي من خطاب الله لأهل الجنة. وقد ذكر المفسرون في قوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن يكون خطاباً من الله لأهل الأعراف، وقد ذكرناه. والثاني: [أن] يكون خطاباً من الله لأهل الجنة. والثالث: أن يكون خطاباً من أهل الأعراف لأهل الجنة، ذكرهما الزجاج. فعلى هذا الوجه الأخير، يكون معنى قول أهل الأعراف لأهل الجنة: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾: اعلوا إلى القصور المشرفة، وارتفعوا إلى المنازل المنيفة، لأنهم قد رأوهم في الجنة. وروى مجاهد عن عبد الله بن الحارث قال: يؤتى بأصحاب الأعراف إلى نهر يقال له: الحياة، عليه قضبان الذهب مكلفة

باللؤلؤ، فيُغمسون فيه، فيخرجون، فتبدو في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها، ويقال لهم: تمّنوا ما شئتم، ولكم سبعون ضعفًا، فهم مساكين أهل الجنة.

﴿وَأَذَىٰ أَصْحَابِ النَّارِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْهَا أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥٠)

قوله تعالى: ﴿وَأَذَىٰ أَصْحَابِ النَّارِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ قال ابن عباس: لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة، طمع أهل النار في الفرج بعد اليأس، فقالوا: يا رب، إن لنا قرابات من أهل الجنة، فاذن لنا حتى نراهم ونكلمهم، فنظروا إليهم وإلى ما هم فيه من النعيم فعرفوهم. ونظر أهل الجنة إلى قراباتهم من أهل جهنم فلم يعرفوهم، قد اسودت وجوههم وصاروا خلقًا آخر، فنادى أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم، وأخبروهم بقراباتهم، فينادي الرجل أخاه: يا أخي قد احترقت فأعشني؛ فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. قال السدي: عنى بقوله: ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ الطعام. قال الزجاج: أعلم الله ﷻ أن ابن آدم غير مستغنٍ عن الطعام والشراب، وإن كان معذبًا.

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْهَيْوَةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسُهُمْ كَمَا كُنُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَائِبِينَ﴾ (٥١)

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ قال ابن عباس: هم المستهزون. والمعنى: أنهم تلاعبوا بدِينهم الذي شرع لهم. وقال أبو روق: دينهم: عيدهم. وقال قتادة: ﴿لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ أي: أكلاً وشرباً. وقال غيره: هو ما زينه الشيطان لهم من تحريم البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، والمكاء، والتصدية، ونحو ذلك من خصال الجاهلية.

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسُهُمْ﴾ قال الزجاج: أي: نتركهم في العذاب كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا. و«ما» نسق على «كما» في موضع جر. والمعنى: وكجحدهم. قال ابن الأنباري: ويجوز أن يكون المعنى: فالיום نتركهم في النار على علم منا ترك ناس غافلي كما استعملوا في الإعراض عن آياتنا وهم ذاكرون ما يستعمله من نسي وغفل.

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِّغُورٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢)

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ﴾ يعني القرآن. ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ أي: بيناه بليضاح الحق من الباطل. وقيل: فصلناه فصلاً مرة بتعريف الحلال، ومرة بتعريف الحرام، ومرة بالوعد، ومرة بالوعيد، ومرة بحديث الأمم. وفي قوله: ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ قولان: أحدهما: على علم منا بما فصلناه. والثاني: على علم منا بما يصلحكم مما أنزلناه فيه. وقرأ ابن السميع، وابن محيصن، وعاصم، والجحدري، ومعاذ القاري: «فصلناه» بضاد معجمة.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ سُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٥٣)

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ قال ابن عباس: تصديق ما وعدوا في القرآن. ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ وهو يوم القيامة ﴿يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ سُوهُ﴾ أي: تركوه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالبعث بعد الموت.

قوله تعالى: ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ قال الزجاج: المعنى: أو هل نرد. وقوله: ﴿فَنَعْمَلْ﴾ منصوب على جواب الفاء للاستفهام.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ أَلْيَدُ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَبِيبُ النَّاسِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥٤)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ اختلفوا أي يوم بدأ بالخلق على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يوم السبت. روى مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: «خلق الله ﷻ التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر [من] يوم الجمعة [في] آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل»^(١)، وهذا اختيار محمد بن إسحاق. قال

(١) «المستند» ٨٣٢٣، ومسلم ٢١٤٩/٤. قال الحافظ ابن كثير في «التفسير» ٦٩١ بعد أن أورده: وهذا الحديث من غرائب «صحيح مسلم»، وقد تكلم =

ابن الأنباري: وهذا إجماع أهل العلم. والثاني: يوم الأحد، قاله عبد الله بن سلام، وكعب، والضحاك، ومجاهد، واختاره ابن جرير الطبري، وبه يقول أهل التوراة. والثالث: يوم الاثنين، قاله ابن إسحاق، وبهذا يقول أهل الإنجيل. ومعنى قوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في مقدار ذلك، لأن اليوم يعرف بطلوع الشمس وغروبها، ولم تكن الشمس حينئذ. قال ابن عباس: مقدار كل يوم من تلك الأيام ألف سنة، وبه قال كعب، ومجاهد، والضحاك، ولا نعلم خلافاً في ذلك. ولو قال قائل: إنها كأيام الدنيا، كان قوله بعيداً من وجهين: أحدهما: خلاف الآثار. والثاني: أن الذي يتوهمه المتوهم من الإبطاء في ستة آلاف سنة، يتوهمه في ستة أيام عند تصفح قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [١٧] لیس: ١٨٢. فإن قيل: فهلاً خلقها في لحظة، فإنه قادر؟ فعنه خمسة أجوبة: أحدها: أنه أراد أن يوقع في كل يوم أمراً تستعظمه الملائكة ومن يشاهده، ذكره ابن الأنباري. والثاني: أن الثبوت في تمهيد ما خلق لآدم وذريته قبل وجوده، أبلغ في تعظيمه عند الملائكة. والثالث: أن التعجيل أبلغ في القدرة، والثبوت أبلغ في الحكمة، فأراد إظهار حكمته في ذلك، كما يظهر قدرته في قول: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾. والرابع: أنه علم عباده الثبوت، فإذا ثبت من لا يزل، كان ذو الزلل أولى بالثبوت. والخامس: أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء، أبعد من أن يظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْثَىٰ﴾ قال الخليل بن أحمد: العرش: السرير؛ وكل سرير لملك يسمى عرشاً؛ وقلما يُجمع العرش إلا في اضطرار؛ واعلم أن ذكر العرش مشهور عند العرب في الجاهلية والإسلام. قال أمية بن أبي الصلت:

مَجْدُوا اللَّهَ فَهُوَ الْمَجْدُ أَهْلُ
بِالْبِنَاءِ الْأَعْلَى الَّذِي سَبَقَ النَّاسُ
شَرْجَعًا لَا يَنَالُهُ نَظَرُ الْعَيْنِ
رَبَّنَا فِي السَّمَاءِ أَمْسَى كَبِيرًا
سُوسَى فَوْقَ السَّمَاءِ سَرِيرًا
بِثَرَى دُونَكَ الْمَلَائِكَةُ صُورًا

وقال كعب: إن السموات في العرش كالقنديل معلق بين السماء والأرض. وروى إسماعيل بن أبي خالد عن سعد الطائي قال: العرش ياقوتة حمراء. وإجماع السلف منعقد على أن لا يزيدوا على قراءة الآية. وقد شد قوم فقالوا: العرش بمعنى الملك. وهذا عدول عن الحقيقة إلى التجوز، مع مخالفة الأثر؛ ألم يسمعوها قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [٧] أتراه كان المُلْكُ على الماء؟ وكيف يكون الملك ياقوتة حمراء؟ وبعضهم يقول: استوى بمعنى استولى؛ ويحتج بقول الشاعر:

حَتَّى اسْتَوَى بِشَرْ عَلَى الْعِرَاقِ
وَيَقُولُ الشَّاعِرُ أَيْضًا:

هَـمَا اسْتَوَىا بِفَضْلِهِمَا جَمِيعًا
عَلَى عَرْشِ الْمُلُوكِ بَعِيرِ دَوْرٍ

وهذا منكر عند اللغويين. قال ابن الأعرابي: العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى، ومن قال ذلك فقد أعظم. قالوا: وإنما يقال استولى فلان على كذا، إذا كان بعيداً عنه غير متمكن منه، ثم تمكن منه؛ والله ﷻ لم يزل مستولياً على الأشياء؛ والبيتان لا يعرف قائلهما، كذا قال ابن فارس اللغوي. ولو صحتا، فلا حجة فيهما لما بيّنا من استيلاء من لم يكن مستولياً. نعوذ بالله من تعطيل الملحدة وتشبيه المجسمة.

قوله تعالى: ﴿يُنشِئُ الْآلِلَ النَّهَارَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «يُنْشِئُ» ساكنة الغين خفيفة. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «يُنْشِئُ» مفتوحة الغين مشددة؛ وكذلك قرؤوا في [الرعد: ٢٣]. قال الزجاج: المعنى: أن الليل يأتي على النهار فيغطيه؛ وإنما لم يقل: ويغشي النهار الليل، لأن في الكلام دليلاً عليه؛ وقد قال في موضع آخر: ﴿يَكُونُ الْآلِلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى الْآلِلِ﴾ [الزمر: ٢٥]. وقال أبو علي: وإنما لم

= عليه علي بن المدني، والبخاري وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحيار، وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعاً، وقد حرر ذلك البيهقي.

يقول: يغشي النهار الليل، لأنه معلوم من فحوى الكلام، كقوله: ﴿سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، وانتصب الليل والنهار، لأن كل واحد منهما مفعول به. فاما الحثيث، فهو السريع.

قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ قرأ الأكثرون: بالنصب فيها، وهو على معنى: خلق السموات والشمس. وقرأ ابن عامر: «والشمس والقمر والنجوم مسخرات» بالرفع فيهن هاهنا وفي [النحل: ١٢]، تابعه حفص في قوله تعالى: ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ في [النحل: ١٢] فحسب. والرفع على الاستئناف. والمسخرات: المذلللات لما يراد منهن من طلوع وأفول وسير على حسب إرادة المدبر لهن.

قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْفَلَكُ﴾ لأنه خلقهم ﴿وَالْأَرْضُ﴾. فله أن يأمر بما يشاء. وقيل: الأمر: القضاء.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: تفاعل من البركة، رواه الضحاك عن ابن عباس؛ وكذلك قال القتيبي، والزجاج. وقال أبو مالك: افتعل من البركة. وقال الحسن: تجيء البركة من قبلة. وقال الفراء: تبارك: من البركة؛ وهو في العربية كقولك: تقدس ربنا. والثاني: أن تبارك بمعنى تعالى، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وكذلك قال أبو العباس: تبارك: ارتفع؛ والمتبارك: المرتفع. والثالث: أن المعنى: باسمه يُتَبَرَّكُ في كل شيء، قاله ابن الأنباري. والرابع: أن معنى «تبارك» تقدس، أي: تطهر، ذكره ابن الأنباري أيضاً.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُنْتَبِذِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ التضرع: التذلل والخضوع. والخُفْيَةُ: خلاف العلانية. قال الحسن: كانوا يجتهدون في الدعاء، ولا تسمع إلا همساً. ومن هذا حديث أبي موسى: «اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً»^(١). وفي الاعتداء المذكور هاهنا قولان: أحدهما: أنه الاعتداء في الدعاء. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن يدعو على المؤمنين بالشر، كالخزي واللعنة، قاله سعيد بن جبير، ومقاتل. والثاني: أن يسأل ما لا يستحقه من منازل الأنبياء، قاله أبو مجلز. والثالث: أنه الجهر في الدعاء، قاله ابن السائب. والثاني: أنه مجاوزة المأمور به، قاله الزجاج.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: لا تفسدوها بالكفر بعد إصلاحها بالإيمان. والثاني: لا تفسدوها بالظلم بعد إصلاحها بالعدل. والثالث: لا تفسدوها بالمعصية بعد إصلاحها بالطاعة. والرابع: لا تعصوا، فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم بعد أن أصلحها بالمطر والخصب. والخامس: لا تفسدوها بقتل المؤمن بعد إصلاحها ببقائه. والسادس: لا تفسدوها بتكذيب الرسل بعد إصلاحها بالوحي. وفي قوله: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قولان: أحدهما: خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه. والثاني: خوفاً من الرد، وطمعاً في الإجابة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال الفراء: رأيت العرب تؤنث القرية في النسب، لا يختلفون في ذلك، فإذا قالوا: دارك منا قريب، أو فلانة منا قريب، من القرب والبعد، ذكروا وأُنْثُوا، وذلك أنهم جعلوا القريب خُلُقاً من المكان، كقوله: ﴿وَمَا مِنْ أَلْفِيلَةٍ بَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لِمَلَّ السَّاعَةُ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ولو أنث ذلك لكان صواباً. قال عروة:

عَشِيَّةٌ لَا عَفْرَاءَ مِنْكَ قَرِيبَةٌ فَتَذْنُو وَلَا عَفْرَاءَ مِنْكَ بَعِيدٌ^(٢)

(١) البخاري ٩٤/٦، ومسلم ٢٠٧٦/٤. وقوله: «اربعوا على أنفسكم»: قال النووي: أي: ارفقوا بأنفسكم واخفصوا أصواتكم، فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان ليد من يخاطبه ليسمعه، وأثم تعدون الله تعالى، وليس هو بأصم ولا غائب، بل هو سميع قريب، وهو معكم بالعلم والإحاطة.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣٨١/١، والطبري ٤٨٨/١٢، وهو في ديوان عروة بن حزام، وفي التزيين الأسواق ٨٤/١، ومسط اللآلي ٤٠١ من شعر له، صواب إنشاده على الباء:

فَتَذْنُو وَلَا عَفْرَاءَ مِنْكَ قَرِيبٌ
لَهَا بَيْنَ جِلْدِي وَالْمَعْطَامِ دَنِيبٌ

عَشِيَّةٌ لَا عَفْرَاءَ مِنْكَ بَعِيدَةٌ
وَأَنِّي لَتَفْشَانِي لَذِكْرِكَ فَتْرَةٌ

وقال الزجاج: إنما قيل: «قريب» لأن الرحمة والغفران والعمو بمعنى واحد، وكذلك كل تأنيث ليس بحقيقي. وقال الأخفش: جازئ أن تكون الرحمة هاهنا في معنى المطر.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا فَقَالَا سُقْنَاهُ لِيَكُو مَيْتًا فَآزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّوَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَ لِمَلَكُم نَذِيرٌ﴾ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ قرأ أبو عمرو، ونافع، وابن عامر، وعاصم: «الرياح» على الجمع. وقرأ ابن كثير، وحزمة، والكسائي: «الريح» على التوحيد. وقد يأتي لفظ التوحيد، ويراد به الكثرة، كقولهم: كثر الدرهم في أيدي الناس، ومثله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ﴾ ﴿١٠٠﴾ [المصر: ٢].

قوله تعالى: ﴿نُشْرًا﴾ قرأ أبو عمرو، وابن كثير، ونافع: «نُشْرًا» بضم النون والشين؛ أرادوا جمع نشور؛ وهي الرياح الطيبة الهبوب، تهب من كل ناحية وجانب. قال أبو عبيدة: النُشْر: المتفرقة من كل جانب. وقال أبو علي: يحتمل أن تكون النشور بمعنى المنتشر، وبمعنى الناشر؛ يقال: أنشر الله الرياح، مثل أحيائها، فنشرت، أي: حييت. والدليل على أن إنبات الرياح إحيائها قول الفقعي:

وَهَبْتُ لَهُ رِيحَ الْجَنُوبِ وَأُخْبِثْتُ لَهُ رَيْدَةَ يُحْيِي الْمَيِّتَ نَسِيْمَهَا^(١)

ويدل على ذلك أن الريح قد وصفت بالموت. قال الشاعر:

إِنِّي لَأَزْجُرُ أَنْ تَمُوتَ الرِّيحُ فَأَقْعُدَ الْيَوْمَ وَأَشْتَرِيحُ

والريدة والريدانة: الريح. وقرأ ابن عامر، وعبد الوارث، والحسن البصري: «نُشْرًا» بالنون مضمومة وسكون الشين، وهي في معنى «نُشْرًا». يقال: كُتِبَ وَكُتِبَ، ورُسِلَ ورُسِلَ. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، والمفضل عن عاصم: «نُشْرًا» بفتح النون وسكون الشين. قال الفراء: النُشْر: الريح الطيبة اللينة التي تنشئ السحاب. وقال ابن الأنباري: النُشْر: المنتشرة الواسعة الهبوب. وقال أبو علي: يحتمل النُشْر أن يكون خلاف الطي، كأنها كانت بانقطاعها كالمطوية. ويحتمل أن يكون معناها ما قاله أبو عبيدة في النشر: أنها المتفرقة في الوجوه؛ ويحتمل أن يكون معناها: النشر الذي هو الحياة، كقول الشاعر:

[حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا] يَا عَجَبًا لِمَيِّتِ النَّاشِرِ^(٢)

قال: وهذا هو الوجه. وقرأ أبو رجاء العطاردي، وإبراهيم النخعي، ومسروق، ومورق العجلي: «نُشْرًا» بفتح النون والشين. قال ابن القاسم: وفي النُشْر وجهان: أحدهما: أن يكون جمعاً للنشور، كما قالوا: عَمُدٌ وَعَمَدٌ، وإِهَابٌ وَأَقْب. والثاني: أن يكون جمعاً، واحده ناشر، يجري مجرى قوله: غَائِبٌ وَغَيْبٌ، وحافِدٌ وَحَفْدٌ، وكل القراء نَوْنُ الكلمة. وكذلك اختلافهم في [الفرقان: ٤٨] و [النمل: ٦٣]. هذه قراءات من قرأ بالنون. وقد قرأ آخرون بالباء؛ فقرأ عاصم إلا المفضل: «نُشْرِي» بالباء المضمومة وسكون الشين مثل فُعْلَى. قال ابن الأنباري: وهي جمع بشيرة، وهي التي تبشّر بالمطر. والأصل ضم الشين، إلا أنهم استقلوا الضمتين. وقرأ ابن خثيم، وابن جندب، مثله، إلا أنهما نَوْنَا الراء. وقرأ أبو الجوزاء، وأبو عمران، وابن أبي عبيدة: بضم الباء والشين، وهذا على أنها جمع بشيرة. والرحمة هاهنا: المطر؛ سماء رحمة لأنه كان بالرحمة. و «أَقْلَتْ» بمعنى حملت. قال الزجاج: السحاب: جمع سحابة. قال ابن فارس: سمي السحاب لانسحابه في الهواء.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَا﴾ أي: بالباء. وقوله تعالى: ﴿سُقْنَاهُ﴾ رد الكناية إلى لفظ السحاب، ولفظه لفظٌ واحد. وفي قوله: ﴿لِيَكُو مَيْتًا﴾ قولان: أحدهما: إلى بلد. والثاني: لإحياء بلد. والميِّت: الذي لا يُنْبِثُ فيه، فهو محتاج إلى المطر. وفي قوله: ﴿فَآزَلْنَا بِهِ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن الكناية ترجع إلى السحاب. والثاني: إلى المطر، ذكرهما الزجاج. والثالث: إلى البلد، ذكره ابن الأنباري. فاما هاء ﴿فَآخْرَجْنَا بِهِ﴾ فتحتمل الأقوال الثلاثة.

(١) البيت غير منسوب في «اللسان»: ريد، والريدة: الريح اللينة.

(٢) البيت لأعشى قيس، «ديوانه» ١٨ من قصيدة يهجو بها طعمة بن علاثة، ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: كما أحيينا هذا البلد. وقال مجاهد: نحيا الموتى بالمطر كما أحيينا البلد الميت به. قال ابن عباس: يرسل الله تعالى بين النفتين مطراً كمني الرجال، فنبت الناس به في قبورهم كما نبتوا في بطون أمهاتهم.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قال الزجاج: لعل ترج. وإنما خوطب العباد على ما يرجوه بعضهم من بعض؛ والمعنى: لعلكم بما يئس لكم تستدلون على توحيد الله، وأنه يبعث الموتى.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ تُصْرَفُ أَكُنْتَ لِتَمُرَّ بِشُكْرِهِ﴾ قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ يعني الأرض الطيبة الثرية، ﴿يَخْرِجُ نَبَاتُهُ﴾ وقرأ ابن أبي عبيدة: «يُخْرِجُ» بضم الياء وكسر الراء، «نباته» بنصب التاء، ﴿وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ﴾ كذلك أيضاً. وقد روى أبان عن عاصم: «لا يُخْرِجُ» بضم الياء وكسر الراء. والمراد بالذي خبت: الأرض السبخة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ قرأ الجمهور: بفتح النون وكسر الكاف. وقرأ أبو جعفر: «نَكِدًا» بفتح الكاف. وقرأ مجاهد، وقتادة، وابن محيصن: «نَكِدًا» بإسكان الكاف. قال أبو عبيدة: قليلاً عسيراً في شدة، وأنشد:

لَا تُنْجِرُ الْوَعْدَ إِنْ وَعَدْتَ وَإِنْ أَغْطَيْتَ أَغْطَيْتَ تَأْفَهُاً نَكِيداً^(١)

قال المفسرون: هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر؛ فالمؤمن إذا سمع القرآن وعقله انتفع به وبأن أثره عليه، فشبه بالبلد الطيب الذي يُمرع ويخصب ويحسن أثر المطر عليه؛ وعكسه الكافر.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتُوبُوا عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قَالَ أَلَمَلَّا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦﴾ قَالَ يَتُوبُوا لَيْسَ بِي ضَالُّةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ أُنَبِّئُكُمْ رَسُولِي رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ قال مقاتل: وحْدوه؛ وكذلك في سائر القصص بعدها.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ قرأ الكسائي: «غيره» بالخفض. قال أبو علي: جعل غيراً صفة لـ «إله» على اللفظ.

قوله تعالى: ﴿أُنَبِّئُكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو: «أُنَبِّئُكُمْ» ساكنة الباء خفيفة اللام. وقرأ الباقون: «أُنَبِّئُكُمْ» مفتوحة الباء مشددة اللام.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ يقال: نصحت ونصحت له، وشكرته وشكرت له.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: من مغفرته لمن تاب، وعقوبته لمن أصر. وقال مقاتل: أعلم من نزول العذاب ما لا تعلمونه؛ وذلك أن قوم نوح لم يسمعوا بقوم عذبوا قبلهم.

﴿أَوْ عَجِبْتَ أَنْ جَاءَكَ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكَ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنْكُرُ لِيُذَكِّرَكَ وَلِنَقُولَ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلُكَ مِنْ قَبْلِكَ فَكَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُ بِأَفْئِدَتِهِ فَأَجْبَنَ وَأُتِيَتْ الْفُلُكُ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَصِيًّا﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْ عَجِبْتَ﴾ قال الزجاج: هذه واو العطف، دخلت عليها ألف الاستفهام، فبقيت مفتوحة. وفي الذكر قولان: أحدهما: الموعظة. والثاني: البيان. وفي قوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ يَنْكُرُ﴾ قولان: أحدهما: أن «على» بمعنى: «مع»، قاله الفراء. والثاني: أن المعنى: على لسان رجل منكم، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿تَوَّابًا عَصِيًّا﴾ قال ابن عباس: عميت قلوبهم عن معرفة الله وقدرته وشدة بطشه.

﴿وَلَا يَدْرَأُ عَنْهُمْ هُدًى قَالَ يَتُوبُوا عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ قَالَ أَلَمَلَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦﴾ قَالَ يَتُوبُوا لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ أُنَبِّئُكُمْ رَسُولِي رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ عَجِبْتَ أَنْ جَاءَكَ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكَ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنْكُرُ لِيُذَكِّرَكَ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَمَعْتُمْ خُلَفَاءَ

(١) «مجاز القرآن» ١/٢١٧، «الطبري» ١٢/٤٩٥، «واللسان»: شه.

ثم انفلقت عنها على الصفة التي طلبوها. والثاني: أنها كانت تشرب ماء الوادي كله في يوم، وتسقيهم اللبن مكانه. قوله تعالى: ﴿وَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ﴾ قال ابن الأنباري: ليس عليكم مؤنتها وعلفها. و«تأكل» مجزوم على جواب الشرط المقدر، أي: إن تذروها تأكل.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْهَوْا يَوْمَ﴾، أي: لا تصيوها بعقر.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ أَكْمَرُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أنزلكم؛ يقال: تبوأ فلان منزلاً: إذا نزل. وبؤأته: أنزلته. قال الشاعر: وَيُؤْتِ فِي صَمِيمٍ مَغْشَرَهَا قَمَمٌ فِي قَوْمِهَا مُبَوَّوْهَا^(١)

أي: أنزلت من الكريم في صميم النسب؛ قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿تَنْجُذُوكَ مِنْ شُهُولِكُمْ قُصُورًا﴾ السهل: ضد الحزن. والقصر: ما شُيِّد وعلا من المنازل. قال ابن عباس: اتخذوا القصور في سهول الأرض للضيف، ونقبوا في الجبال للشتاء. قال وهب بن منبه: كان الرجل منهم يبني البنيان، فتمر عليه مائة سنة، فيخرب، ثم يجده، فتمر عليه مائة سنة، فيخرب ثم يجده، فتمر عليه مائة سنة، فيخرب؛ فأضجرهم ذلك، فاتخذوا من الجبال بيوتاً.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا مِنْ ءَمَانٍ وَنَتَمِ اسْتَكْبَرُوا أَنَّ مَكِيلًا مُرْسَلًا مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾^(٢) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ^(٣)

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ وقرأ ابن عامر ﴿وَقَالَ الَّذِينَ﴾ بزيادة واو؛ وكذلك هي في مصاحفهم. ومعنى الآية: تكبروا عن عبادة الله. ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا﴾ يريد: المساكين. ﴿لَمَنْ ءَمَانٍ وَنَتَمِ﴾ بدل من قوله ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا﴾ لأنهم المؤمنون. ﴿اسْتَكْبَرُوا أَنَّ مَكِيلًا مُرْسَلًا﴾ هذا استفهام إنكار.

﴿فَقَعَرُوا الْكَافَّةَ وَعَمُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ آثِنَا بِمَا تَوَدَّعْنَا إِنْ كُنَّا مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٤) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا^(٥)

قوله تعالى: ﴿فَقَعَرُوا الْكَافَّةَ﴾ أي: قتلوها. قال ابن قتيبة: والعقر يكون بمعنى القتل، ومنه قوله ﷺ عند ذكر الشهداء: «من عقر جواده»^(٦) وقال ابن إسحاق: كمن لها قاتلها في أصل شجرة فرماها بسهم، فانتظم به عضلة ساقها، ثم شد عليها بالسيف فكسر عرقوبها، ثم نحرها. قال الأزهري: العقر عند العرب: قطع عرقوب البعير، ثم جعل العقر نحرًا، لأن ناجر البعير يعقره ثم ينحره.

قوله تعالى: ﴿وَعَمُوا﴾ قال الزجاج: جاوزوا المقدار في الكفر. قال أبو سليمان: عتوا عن اتباع أمر ربهم.

قوله تعالى: ﴿بِمَا تَوَدَّعْنَا﴾ أي: من العذاب.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ قال الزجاج: الرجفة: الزلزلة الشديدة.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ أي: في مدينتهم. فإن قيل: كيف وُحِدَ الدار هاهنا، وجمعها في موضع آخر، فقال: ﴿فِي دَارِهِمْ﴾ [مود: ٢٧]؟ فتنه جوابان، ذكرهما ابن الأنباري: أحدهما: أنه أراد بالدار؛ المعسكر، أي: فأصبحوا في معسكرهم. وأراد بقوله: ﴿فِي دَارِهِمْ﴾: المنازل التي ينفرد كل واحد منها بمنزل. والثاني: أنه أراد بالدار: الديار، فاكفى بالواحد من الجميع، كقول الشاعر:

كُلُّوا فِي زُصْفٍ بَطْنُكُمْ تَعِيْشُوا

وشاهد هذا كثيرة في هذا الكتاب.

قوله تعالى: ﴿جَنِينًا﴾ قال الفراء: أصبحوا رماداً جاثماً. وقال أبو عبيدة: أي: بعضهم على بعض جثوم. والجثوم للناس والطيور بمنزلة البروك للإبل. وقال ابن قتيبة: الجثوم: البروك على الركب. وقال غيره: كأنهم أصبحوا

(١) البيت لإبراهيم بن هزيم في «مجاز القرآن» ١/٢١٨، و«اللسان»: بوا، و«شواهد المعنى» ٢٨٠.

(٢) رواء ابن ماجه ٩٣٤/٢ عن عمرو بن عبسة قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله أي الجهاد أفضل؟ قال: «من أريق ماله وعقر جواده» قال في «الزوائد»: إسناده ضعيف لضعف محمد بن ذكوان.

موتى على هذه الحال. وقال الزجاج: أصبحوا أجساماً ملقاة في الأرض كالرماد الجاثم. قال المفسرون: معنى «جاثمين»: بعضهم على بعض، أي: إنهم سقط بعضهم على بعض عند نزول العذاب.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِرِسَالَةٍ مِنِّي وَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ التَّصْوِيعَ ﴿٧٩﴾ وَلَوْ أَنِّي قَالُ لَقَوْمِيهِ أَتَأْتُونَ النَّحْسَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ الْنِسَاءِ ﴿٨١﴾ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٢﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِيهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظَاهِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ يقول: انصرف صالح عنهم بعد عقر الناقة، لأن الله تعالى أوحى إليه أن يخرج من بين أظهرهم، فإني مهلكهم. وقال قتادة: ذكر لنا أن صالحاً أسمع قومه كما أسمع نبيكم قومه، يعني: بعد موتهم.

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ النَّحْسَةَ﴾ يعني إتيان الرجال. ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾ قال عمرو بن دينار: ما نزا ذكر على ذكر في الدنيا حتى كان قوم لوط. وقال بعض اللغويين: لوط: مشتق من لطت الحوض: إذا ملسته بالطين. قال الزجاج: وهذا غلط، لأنه اسم أعجمي كإسحاق، ولا يقال: إنه مشتق من السحق وهو البعد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ هذا استفهام إنكار. والمسرف: المجاوز ما أمر به. وقوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ يعني لوطاً وأتباعه المؤمنين ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظَاهِرُونَ﴾ قال ابن عباس: يتنزهون عن أدبار الرجال وأدبار النساء.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا قَاتِلًا فَكَيفَ كَانَتْ عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ في أهله قولان: أحدهما: ابتداء. والثاني: المؤمنون به. ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: الباقيين في عذاب الله تعالى. قال أبو عبيدة: وإنما قال: «من الغابرين» لأن صفة النساء مع صفة الرجال تُذكر إذا أشرك بينهما.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ قال ابن عباس: يعني: الحجارة. قال مجاهد: نزل جبريل، فأدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط، ورفعها، ثم قلبها، فجعل أعلاها أسفلها، ثم أتبعوا بالحجارة.

﴿وَالَّذِي مَدِينَتِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَرُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ بَيْنَ آلِهِ غِيْرٌ قَدْ جَاءَكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاقْضُوا إِلَيْكَ الْكَيْلَ وَالزَّيْرَاتِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّكَاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بِمَدِّ يَدِكُمْ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي مَدِينَتِ﴾ قال قتادة: مدين: ماء كان عليه قوم شعيب، وكذلك قال الزجاج، وقال: لا ينصرف، لأنه اسم البقرة. وقال مقاتل: مدين: هو ابن إبراهيم الخليل لصلبه. وقال أبو سليمان الدمشقي: مدين: هو ابن مديان بن إبراهيم، والمعنى: أرسلنا إلى ولد مدين، فعلى هذا: هو اسم قبيلة. وقال بعضهم: هو اسم للمدينة. فالمعنى: وإلى أهل مدين. قال شيخنا أبو منصور اللغوي: مدين اسم أعجمي. فإن كان عربياً، فإليه زائدة، من قولهم: مدن بالمكان: إذا أقام به.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّكَاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ قال الزجاج: البخس: النقص والقلة؛ يقال: بخست أبخس؛ بالسين، وبخست عينه، بالصاد لا غير. ﴿وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا تعملوا فيها بالمعاصي بعد أن أصلحها الله بالأمر بالعدل، وإرسال الرسل.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: مصدقين بما أخبرتكم عن الله.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن مَّاتَ بِهِ وَكَبُوتُهَا عِوَجًا وَأَنذَرُونَا إِذْ كُنْتُمْ قِيلًا نَّكُرُكُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُ الْمُتَعِدِينَ ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ أي: بكل طريق ﴿تُوعِدُونَ﴾ من آمن بشعيب بالشر، وتخوفونهم بالعذاب والقتل. فإن قيل: كيف أفرد الفعل، وأخلاه من المفعول؛ فهلاً قال: توعدون بكذا؟ فالجواب: أن العرب إذا أخلت هذا الفعل من المفعول، لم يدل إلا على شر؛ يقولون: أوعدت فلاناً. وكذلك إذا أفردوا وعدت من مفعول، لم يدل

أَلَا أُنَبِّئُكَ بِإِني عُضِمَ رُسُولًا
بِأُني عَن قُتَاخَتِكُمْ عَنِي^(١)
قال الفراء: وأهل عُمان يسمون القاضي: الفاتح والفتاح. قال الزجاج: وجائز أن يكون المعنى: أظهر أمرنا حتى يفتح ما بيننا وينكشف؛ فجائز أن يكونوا سألوا بهذا نزول العذاب بقومهم ليظهر أن الحق معهم.
قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَقْتُلُوا فِيهَا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: كأن لم يعيشوا في دارهم، قاله ابن عباس، والأخفش. قال حاتم طي:

عَنِينَا زَمَانًا بِالسَّعْلِكِ وَالْخِنَى
فَكُلًّا سَقَانَاهُ بِكَاسِيهِمَا الدُّهْرِ^(٢)
فَمَا زَادَنَا بَغِيًّا عَلَى ذِي قَرَابَةٍ
غِنَانًا، وَلَا أَزْرَى بِأَخْسَائِنَا الْفَقْرِ^(٣)

قال الزجاج: معنى غنينا: عشنا. والتصعلك: الفقر، والعرب تقول للفقر: الصعلوك. والثاني: كأن لم يتنعموا فيها، قاله قتادة. والثالث: كأن لم يكونوا فيها، قاله ابن زيد، ومقاتل. والرابع: كأن لم ينزلوا فيها، قاله الزجاج، قال الأصمعي: المغاني: المنازل؛ يقال: غنينا بمكان كذا، أي: نزلنا به. وقال ابن قتيبة: كأن لم يقيموا فيها، ومعنى: غنينا بمكان كذا: أقمنا. قال ابن الأنباري: وإنما كرر قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾ للمبالغة في ذمهم؛ كما تقول: أخوك الذي أخذ أموالنا، أخوك الذي شتم أعراسنا.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: عرض. والثاني: انصرف. ﴿وَقَالَ يَتَوَلَّى لَكُمْ إِبْرَاهِيمُ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَالِدٌ وَلَا وَلَدٌ﴾ قال قتادة: أسمع شعيب قومه، وأسمع صالح قومه؛ كما أسمع نبيكم قومه يوم بدر؛ يعني: أنه خاطبهم بعد الهلاك. ﴿فَكَيْفَ أَتَى﴾ أي: أحزن. وقال ابن إسحاق: أصاب شعيباً على قومه حزن شديد، ثم عاتب نفسه، فقال: كيف آسى على قوم كافرين.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسْوَءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضْحَكُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ قال الزجاج: يقال لكل مدينة: قرية، لاجتماع الناس فيها. وقال غيره: في الآية اختصار، تقديره: فكذبوه. ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسْوَءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ وقد سبق تفسير البأساء والضراء في [الأنعام: ٤٢]، وتفسير التضرع في هذه السورة [الأعراف: ٥٥]. ومقصود الآية: إعلام النبي ﷺ بسنة الله في المكذبين، وتهديد قریش. ﴿فَمِمَّا كَذَّبُوا كُنَّا أَهْلًا مِّنَ السَّيِّئَةِ حَتَّىٰ عَقَوْا وَقَالُوا قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَالْحَقَّ كَذَّبُوا وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَقْرَأُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَمِمَّا كَذَّبُوا كُنَّا أَهْلًا مِّنَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن السيئة: الشدة؛ والحسنة: الرخاء، قاله ابن عباس. والثاني: السيئة: الشر؛ والحسنة: الخير، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَقَوْا﴾ قال ابن عباس: كثروا، وكثرت أموالهم. ﴿وَقَالُوا قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَالْحَقَّ كَذَّبُوا وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فنحن مثلهم، يصيبنا ما أصابهم، يعني: أنهم أرادوا أن هذا دأب الدهر، وليس بمقوبة. ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِقَنَةٍ﴾ أي: فجاءه بنزول العذاب ﴿وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بنزوله، حتى أهلكهم الله.

قوله تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ قال الزجاج: المعنى: أتاهم الغيث من السماء، والنبات من الأرض، وجعل ذلك زاكياً كثيراً.

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْتِيَنَّ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

(١) «مجاز القرآن» ١/ ٢٢٠، و«إصلاح المنطق» ١١٢، و«الطبري» ١٢/ ٥٦٤، و«السمط» ٩٢٧، و«القرطبي» ١٣/ ٩٤، و«اللسان» و«التاج»: فتح. وينو عصب: رطط عمرو بن معد يكرب الزبيدي. والبيت مختلف في غزوه، انظر تعليق الراجكوتي في «سقط اللالي» ٩٢٧.

(٢) البيهقي في «ديوان حاتم» ١١٩، و«الأغاني» ١٧/ ٢٩٦، و«خزانة الأدب» للبغدادي ١٦٣/ ٢.

(٣) في الديوان، و«الخزانة»: «فما زادنا بأوأ» والبأو: الكبير والفخر.

قوله تعالى: ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْفُرْقَةِ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، ونافع: «أَوَ أَمِنَ أَهْلُ» بإسكان الواو. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «أَوَ أَمِنَ» بتحريك الواو. وروى ورش عن نافع: «أَوَ أَمِنَ» يدغم الهمزة، ويلقي حركتها على الساكن.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(١٢٦) ذَلِكَ الْفَرْقُ نَفْضٌ عَلَيْكَ مِنْ أَتْبَاهِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ^(١٢٧)

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾ وقرأ يعقوب: «نَهْدِ» بالنون، وكذلك في [طه: ١٢٨]، و [السجدة: ٢٦]. قال الزجاج: من قرأ بالياء، فالمعنى: أولم يبين الله لهم. ومن قرأ بالنون، فالمعنى: أولم نبين. وقوله تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ﴾ ليس بمحمول على «أصبتهم»، لأنه لو حمل على «أصبتهم» لكان: ولطبعنا. وإنما المعنى: ونحن نطبع على قلوبهم. ويجوز أن يكون محمولاً على الماضي، ولفظه لفظ المستقبل، كما قال: ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ﴾، والمعنى: لو شئنا. وقال ابن الأنباري: يجوز أن يكون معطوفاً على: أصبتنا، إذ كان بمعنى نصيب: فوضع الماضي في موضع المستقبل عند وضوح معنى الاستقبال، كما قال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي لَنْ نَشَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠]، أي: إن يشأ، يدل عليه قوله: ﴿وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُولًا﴾، قال الشاعر:

إِنْ يَسْمَعُوا رَبَّةً طَارُوا بِهَا فَرَحاً
يَنْي، وَمَا سَيَعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا^(١)
أي: يدفنون.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يقبلون، ومنه «سمع الله لمن حمده»، قال الشاعر:

دَعَاؤُ اللَّهِ حَيْسَى خِفْتُ أَنْ لَا
يَكُونُ اللَّهُ يَسْمَعُ مَا أَقُولُ^(٢)

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بما سبق في علم الله أنهم يكذبون به يوم أقرأوا له بالميثاق حين أخرجهم من صلب آدم، هذا قول أبي بن كعب. والثاني: فما كانوا ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذبوا به يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من صلب آدم، فآمنوا كرهاً حيث أقرأوا باللسن، وأضمرُوا التأكيد، قاله ابن عباس، والسدي. والثالث: فما كانوا لو رددناهم إلى الدنيا بعد موتهم ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل هلاكهم، هذا قول مجاهد. والرابع: فما كانوا ليؤمنوا بما كذب به أوائلهم من الأمم الخالية، بل شاركوهم في التأكيد، قاله يمان بن رباب. والخامس: فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية المعجزات والعجائب بما كذبوا قبل رؤيتها.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾^(١٢٨)

قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ﴾ قال مجاهد: يعني؛ القرون الماضية. ﴿مِنْ عَهْدٍ﴾ قال أبو عبيدة: أي: وفاء. قال ابن عباس: يريد الوفاء بالعهد الذي عاهدهم حين أخرجهم من صلب آدم. وقال الحسن: العهد هاهنا: ما عهده إليهم مع الأنبياء أن لا يشركوا به شيئاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا﴾ قال أبو عبيدة: وما وجدنا أكثرهم إلا الفاسقين.

﴿فَهُمْ بَشَرٌ مِنْ بَعْدِهِمْ مَوْسَىٰ وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَلَمَّا هَمَّ بِمَا فَاظْتَرَّ كَيْفَ كَانَتْ عَجَبَةُ الْمُؤْسِدِينَ﴾^(١٢٩) وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرَعُونَ لِي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْمَلَكِينَ^(١٣٠) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ^(١٣١) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَلَا يَأْتِيَنَّكَ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ^(١٣٢) قَالَتِ عَصَا هَارُونَ إِذَا هِيَ تَعْبَانُ تُبِينُ^(١٣٣)

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ بَشَرٌ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني: الأنبياء المذكورين.

(١) البيت لقعناب ابن أم صاحب، وهي أمه، واسم أبيه ضمرة، أحد بني عبد الله بن غطفان، من شعراء العصر الأموي. وهو في «الحماسة» ١٢/٤، و«شاهد المغني» للسيوطي ٢٢٦.

(٢) البيت غير منسوب في «اللسان»: سمع.

قوله تعالى: ﴿تَقْلَبُوا بِهَا﴾ قال ابن عباس: فكذبوا بها. وقال غيره: فجحدها بها.

قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ «على» بمعنى الباء. قال الفراء: العرب تجعل الباء في موضع «على»؛ تقول: رميت بالقوس، وعلى القوس، وجئت بحال حسنة، وعلى حال حسنة. وقال أبو عبيدة: «حقيق» بمعنى؛ حريص. وقرأ نافع، وأبان عن عاصم: «حَقِيقٌ عَلَيَّ» بتشديد الياء وفتحها، على الإضافة. والمعنى: واجب علي.

قوله تعالى: ﴿فَدَّ يَحْنُكُم بِبَنَاتِهِ﴾ قال ابن عباس: يعني: العصا. «فَأَرْسِلَ مَعِيَ بَنَاتِي بِسِحْرِي» أي: أطلق عنهم؛ وكان قد استخدمهم في الأعمال الشاقة. «فَإِذَا هِيَ شُجَابٌ تُنِيبٌ» قال أبو عبيدة: أي: حية ظاهرة. قال الفراء: الثعبان: أعظم الحيات، وهو الذكر. وكذلك روى الضحاك عن ابن عباس: الثعبان: الحية الذكر.

﴿وَرَجَّ يَدُهُ إِذَا فِي بِمَضَاهِ لِلظَّيْرِ﴾ ١٠٨ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْرِ رَعُونَ إِنَّكَ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ١٠٩ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَنَادَا تَأْمُرُونَ ١١٠ قَالُوا أَتَيْنَا وَهَآءُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ ١١١ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلَيْهِ ١١٢ وَجَاءَ السَّحَرَةُ وَرَعُونَ قَالُوا إِنَّكَ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ لَوِنَ الْمُقَرَّبِينَ ١١٤ قَالُوا يَمْشُونَ إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ الْمُنْقَلِبِينَ ١١٥ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَعْفَوْهُمِ وَجَاءَهُمْ بِسِحْرِ عَظِيمٍ ١١٦ وَأَوْجَحْنَا لَكَ مِثْلَهُ أَنْ آتَى عَصَاكَ إِذَا فِي تَلَقَّفَ مَا يَأْكُلُونَ ١١٧ فَوَقَّعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَمَكُونُ ١١٨ فَتَلَبَّوْا هَٰذَا وَاقْبَلُوا صَنِيعِينَ ١١٩ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ ١٢٠ قَالُوا مَا نَنَا رَبِّي الْمُنْقَلِبِينَ ١٢١ رَبِّ مِثْلَهُ وَهَرُونَ ١٢٢

قوله تعالى: ﴿وَرَجَّ يَدُهُ﴾ قال ابن عباس: أدخل يده في جيبه، ثم أخرجها، فإذا هي تبرق مثل البرق، لها شعاع غلب نور الشمس، فخرؤا على وجوههم؛ ثم أدخلها جيبه فصارت كما كانت. قال مجاهد: بيضاء من غير برص.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَا تَأْمُرُونَ﴾ قال ابن عباس: ما الذي تشيرون به علي؟ وهذا يدل على أنه من قول فرعون، وأن كلام الملا انقطع عند قوله: ﴿مِنْ أَرْضِكُمْ﴾. قال الزجاج: يجوز أن يكون من قول الملا، كأنهم خاطبوا فرعون ومن يخصه، أو خاطبوه وحده؛ لأنه قد يقال للرئيس المطاع: ماذا ترون؟

قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا﴾ قرأ ابن كثير «أرجهوه» مهموز بواو بعد الهاء في اللفظ. وقرأ أبو عمرو مثله، غير أنه يضم الهاء ضمة، من غير أن يبلغ بها الواو؛ وكانا يهزمان: «مرجون» [النوبة: ١٠٦] و«ترجي» [الأحزاب: ٥١]. وقرأ قالون والمسيبي عن نافع «أرجوه» بكسر الهاء، ولا يبلغ بها الياء، ولا يهزم. وروى عنه ورش: «أرجهي» يصلها بياء، ولا يهزم بين الجيم والهاء. وكذلك قال إسماعيل بن جعفر عن نافع؛ وهي قراءة الكسائي. وقرأ حمزة: «أرجه» ساكنة الهاء غير مهموز، وكذلك قرأ عاصم في غير رواية المفضل، وقد روى عنه المفضل كسر الهاء من غير إشباع ولا همز، وهي قراءة أبي جعفر، وكذلك اختلافهم في سورة [الشعراء: ٣٦]. قال ابن قتيبة أَرْجُهُ: آخره؛ وقد يهزم، يقال: أرجأت الشيء، وأرجيته. ومنه قوله: ﴿تَرَجَىٰ مَنِ نَسَاهُ يَتَّخِذُ﴾ [الأحزاب: ٥١]. قال الفراء: بنو أسد تقول: أرجيت الأمر، بغير همز، وكذلك عامة قيس؛ وبعض بني تميم يقولون: أرجأت الأمر، بالهمز، والقراء مولعون بهمزها، وترك الهمز أجود.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ﴾ يعني مدائن مصر، «حَاشِرِينَ» أي: من يحشر السحرة إليك ويجمعهم. وقال ابن عباس: هم الشرط.

قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «سَحَابٍ»، وفي [يونس: ٧٩]: «بِكُلِّ سَحَابٍ»؛ وقرأ حمزة، والكسائي: «سَحَابٍ» في الموضعين؛ ولا خلاف في [الشعراء: ٣٧] أنها: «سَحَابٍ».

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَنَا لَأَجْرًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وحفص عن عاصم: «إِنَّكَ لَنَا لَأَجْرًا» مكسورة الألف على الخبر، وفي [الشعراء: ٤١] «آيِن» ممدودة مفتوحة الألف، غير أن حفصاً روى عن عاصم في [الشعراء: ٤١]: «آيِن» بهمزتين. وقرأ أبو عمرو: «آيِن لَنَا» ممدودة في السورتين. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن

عاصم: بهمزيّن في الموضعين. قال أبو علي: الاستفهام أشبه بهذا الموضع، لأنهم لم يقطعوا على أن لهم الأجر، وإنما استفهموا عنه.

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ مَعِ الْآجِرِ الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ﴾ أي: ولكم مع الأجر المنزل الرفيع عندى.

قوله تعالى: ﴿سَكْرَتَا أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ قال أبو عبيدة: عَشَوُا أعين الناس وأخذوها. ﴿وَأَسْرَهُيُومَهُمْ﴾ أي: خوفوهم. وقال الزجاج: استدعوا رهبتهم حتى رهبهم الناس.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ وقرأ عاصم: ﴿تَلْقَفُ﴾ ساكنة اللام، خفيفة القاف هاهنا وفي [طه: ٦٩]، و[الشعراء: ٤٥]. وروى البرقي، وابن فليح عن ابن كثير: ﴿تَلْقَفُ﴾ بتشديد التاء. قال الفراء: لَقِفْتُ الشيء، فأنا أَلْقَفُهُ لَقْفًا وَلَقْفَانًا؛ والمعنى: تبتلع.

قوله تعالى: ﴿مَا يَأْكُورُنَّ أَيْ: يَكْذِبُونَ، لأنهم زعموا أنها حيات.

قوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ قال ابن عباس: استبان. ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من السحر.

(الإشارة إلى قصتهم)

اختلفوا في عدد السحرة على ثلاثة عشر قولاً: أحدها: اثنان وسبعون، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: اثنان وسبعون ألفاً، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال مقاتل. والثالث: سبعون، روي عن ابن عباس أيضاً. والرابع: اثنا عشر ألفاً، قاله كعب. والخامس: سبعون ألفاً، قاله عطاء، وكذلك قال وهب في رواية، إلا أنه قال: فاختر منهم سبعة آلاف. والسادس: سبعمائة. وروى عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب في رواية، أنه قال: كان عدد السحرة الذين عارضوا موسى سبعين ألفاً مختارين من سبعمائة ألف، ثم إن فرعون اختار من السبعين الألف سبعمائة. والسابع: خمسة وعشرون ألفاً، قاله الحسن. والثامن: تسعمائة، قاله عكرمة. والتاسع: ثمانون ألفاً، قاله محمد بن المنكدر. والعاشر: بضعة وثلاثون ألفاً، قاله السدي: والحادي عشر: خمسة عشر ألفاً، قاله ابن إسحاق. والثاني عشر: تسعة عشر ألفاً، رواه أبو سليمان الدمشقي. والثالث عشر: أربع مائة، حكاه الثعلبي. فأما أسماء رؤسائهم، فقال ابن إسحاق: رؤوس السحرة ساتور، وعاذور، وحطط، ومُصَفَّى، وهم الذين آمنوا، كذا حكاه ابن مأكولا. ورأيت عن غير ابن إسحاق: سابورا، وعازورا. وقال مقاتل: اسم أكبرهم شمعون. قال ابن عباس: ألقوا حبلاً غلاظاً، وخشباً طوالاً، فكانت ميلاً في ميل، فألقى موسى عصاه، فإذا هي أعظم من حبالهم وعصيتهم، قد سدت الأفق، ثم فتحت فاهما ثمانين ذراعاً، فابتلعت ما ألقوا من حبالهم وعصيتهم، وجعلت تأكل جميع ما قدرت عليه من صخرة أو شجرة، والناس ينظرون، وفرعون يضحك تجلداً، فأقبلت الحيّة نحو فرعون، فصاح: يا موسى، يا موسى، فأخذها موسى، وعرفت السحرة أن هذا من السماء، وليس هذا بسحر، فخرّوا سجداً، وقالوا: آمنا برب العالمين، فقال فرعون: إياي تعنون؟ فقالوا: ربّ موسى وهارون، فأصبحوا سحرة، وأمسا شهداء. وقال وهب بن منبه: لما صارت ثعباناً حملت على الناس فانهزموا منها، فقتل بعضهم بعضاً، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً. وقال السدي: لقي موسى أمير السحرة، فقال: أرأيت إن غلبتك غداً، أتؤمن بي؟ فقال الساحر: لأتئين غداً بسحر لا يغلبه السحر، فوه لئن غلبتني لأؤمنن بك. فإن قيل: كيف جاز أن يأمرهم موسى بالإلقاء، وفعل السحر كفر؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن مضمون أمره: إن كنتم محقين فآلقوا. والثاني: ألقوا على ما يصح، لا على ما يفسد ويستحيل، ذكرهما الماوردي. والثالث: إنما أمرهم بالإلقاء لتكون معجزته أظهر، لأنهم إذا ألقوا، ألقى عصاه فابتلعت ذلك، ذكره الواحدي. فإن قيل: كيف قال: ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾؟ وإنما سجدوا باختيارهم؟ فالجواب أنه لما زالت كل شبهة بما أظهر الله تعالى من أمره، اضطهرهم عظيم ما عاينوا إلى مبادرة السجود، فصاروا مفعولين في الإلقاء تصحيحاً وتعظيماً لشأن ما رأوا من الآيات، ذكره ابن الأنباري. قال ابن عباس: لما أمنت السحرة، أتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا سَمِعُ بِهِ قِيلَ أَنْ كَانَ لَهْكَ إِذًا هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُومُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لَأَقِطَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْسُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصِيبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَهُ رَبِّنَا مُنْقَلَبُونَ ﴿١٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بَيْتُكُمْ﴾ قرأ نافع، وابن عامر، وأبو عمرو: «وَأَمَّا بَيْتُكُمْ» بهمة ومدة على الاستفهام. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «وَأَمَّا بَيْتُكُمْ» فاستفهموا بهمزة، الثانية ممدودة. وقرأ حفص عن عاصم: «وَأَمَّا بَيْتُكُمْ» على الخبر. وروى ابن الإخريط^(١): عن ابن كثير: «قال فرعون وأما بَيْتُكُمْ» فقلب همزة الاستفهام واواً، وجعل الثانية ملية بين بين. وروى قتيل عن القواس مثل رواية ابن الإخريط، غير أنه كان يهزم بعد الواو. وقال أبو علي: همز بعد الواو، لأن هذه الواو منقلبة عن همزة الاستفهام، وبعد همزة الاستفهام همزة «وَأَفْعَلْتُمْ» فحققتها ولم يخففها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَكُنْزٌ مَّكَرْتُمْ﴾ قال ابن السائب: لصنيع صنعتموه فيما بينكم وبين موسى في مصر قبل خروجكم إلى هذا الموضع لتستولوا على مصر فتخرجوا منها أهلها ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ما صنعتم، ﴿لَأُظَاهِرَنَّ أَهْلَكُمْ وَأَهْلَكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ﴾ وهو قطع اليد اليمنى، والرجل اليسرى. قال ابن عباس: أول من فعل ذلك، وأول من صلب، فرعون.

﴿وَمَا نَقِمْ يَتَا إِلَّا أَنْتَ مَأْمَرًا يَنْصُرُنَا بِكُنْزٍ رَجَا لَنَا جَاءَتْهُ رَجَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا سَبَرًا وَتَوَقَّأَ مَسْلُوبِينَ﴾ وقال اللؤلؤ من قَوْرٍ وَتَوَقَّأَ أَنْذَرُ مُوسَى وَتَوَقَّأَ يُقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَقَطَ أَيْتَاهُمْ وَتَسْتَعِي. يسأههم وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهُونَ ﴿١٢٦﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقِمْ يَتَا﴾ أي: وما تكره منا شيئاً، ولا تطعن علينا إلا لانا أماناً. ﴿رَجَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا سَبَرًا﴾ قال مجاهد: على القطع والصلب حتى لا نرجع كفاراً ﴿وَتَوَقَّأَ مَسْلُوبِينَ﴾ أي: مخلصين على دين موسى.

قوله تعالى: ﴿أَنْذَرُ مُوسَى وَتَوَقَّأَ﴾ هذا إغراء من الملا لفرعون. وفيما أرادوا بالفساد في الأرض قولان: أحدهما: قتل أبناء القبط، واستحياء نسائهم، كما فعلوا ببني إسرائيل، قاله مقاتل. والثاني: دعاؤهم الناس إلى مخالفة فرعون وترك عبادته.

قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُكَ﴾ جمهور القراء على نصب الراء؛ وقرأ الحسن برفعها. قال الزجاج: من نصب «ويذرك» نصبه على جواب الاستفهام بالواو؛ والمعنى: أياكون منك أن تذرك موسى وأن يذرك؟ ومن رفعه جعله مستأنفاً، فيكون المعنى: أنذر موسى وقومه، وهو يذرك وآلهتك؟ والأجود أن يكون معطوفاً على «أنذر» فيكون المعنى: أنذر موسى، وأن يذرك موسى؟ أي: أنطلق له هذا؟.

قوله تعالى: ﴿وَالْهَيْكَلُ﴾ قال ابن عباس: كان فرعون قد صنع لقومه أصناماً صغاراً، وأمرهم بعبادتها، وقال أنا ربكم ورب هذه الأصنام، فذلك قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]. وقال غيره: كان قومه يعبدون تلك الأصنام تقريباً إليه. وقال الحسن: كان يعبد تيساً في السر. وقيل: كان يعبد البقر سرّاً. وقيل: كان يجعل في عنقه شيئاً يعبد به. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وأبو العالية، وابن محيصن: «وَالْهَيْكَلُ» بكسر الهمزة وقصرها وفتح اللام وبألف بعدها. قال الزجاج: المعنى: ويذرك وربوبيتك. وقال ابن الأنباري: قال اللغويون: الإلاهة: العبادة؛ فالمعنى: ويذرك وعبادة الناس إياك. قال ابن قتيبة: من قرأ: «وَالْهَيْكَلُ» أراد: ويذرك والشمس التي تعبد، وقد كان في العرب قوم يعبدون الشمس ويسمونها إلهة. قال الأعشى:

فَمَا أَذْكَرُ الرَّهْبِ حَتَّى انْقَلَبْتُ تُبِيلُ الْإِلَهَةَ مِنْهَا قُرَيْبًا

يعني الشمس. والرهب: ناقته. يقول: اشتغلت بهذه المرأة عن ناقتي إلى هذا الوقت.

قوله تعالى: ﴿سَقَطَ أَيْتَاهُمْ﴾ قرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «سَقَطَ» و «يَقْتُلُونَ» أَيْتَاهُمْ [الأعراف: ١٤١] بالشديد، وخففهما نافع. وقرأ ابن كثير: «سَقَطَ» خفيفة، و «يَقْتُلُونَ» مشددة. وإنما عدل عن قتل موسى إلى قتل الأبناء لعلهم أنه لا يقدر عليه. ﴿وَأَنَا فَوْقَهُمْ قَاهُونَ﴾ أي: عالون بالملك والسلطان. فشكا بنو إسرائيل إعادة القتل على أبنائهم، فقال موسى: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ على ما يفعل بكم ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ

يَشْكَا مِنْ بَعْلِهِمْ. وقرأ الحسن، وهبيرة عن حفص عن عاصم: «يورثها» بالتشديد. فاطمعهم موسى أن يعطيهم الله أرض فرعون وقومه بعد إهلاكهم.

قوله تعالى: ﴿وَالْقَبِيضَ الْمُنْتَبِذَ﴾ فيها قولان: أحدهما: الجنة. والثاني: النصر والظفر.

﴿قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَيَوْمَ بَعْدَ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذَابُكُمْ وَسَتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ولقد أخذنا مال فرعون واليسين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَيَوْمَ بَعْدَ مَا جِئْتَنَا﴾ في هذا الأذى ستة أقوال: أحدها: أن الأذى الأول والثاني أخذ الجزية، قاله الحسن. والثاني: أن الأول ذبح الأبناء، والثاني إدراك فرعون يوم طلبهم، قاله السدي. والثالث: أن الأول أنهم كانوا يسحرون في الأعمال إلى نصف النهار، ويرسلون في بقيته يكتسبون، والثاني تسخيرهم جميع النهار بلا طعام ولا شراب، قاله جوير. والرابع: أن الأول تسخيرهم في ضرب اللين، وكانوا يعطونهم التبن الذي يخلطونه في الطين؛ والثاني أنهم كلّفوا ضرب اللين وجعل التبن عليهم، قاله ابن السائب. والخامس: أن الأول قتل الأبناء، واستحياء البنات، والثاني تكليف فرعون إياهم ما لا يطيقونه، قاله مقاتل. والسادس: أن الأول استخدامهم وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم، والثاني إعادة ذلك العذاب. وفي قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ قولان: أحدهما: تأتينا بالرسالة، ومن بعد ما جئنا بها، قاله ابن عباس. والثاني: تأتينا بعهد الله أنه سيخلصنا، ومن بعد ما جئتنا به، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذَابُكُمْ﴾ قال الزجاج: عسى: طمع وإشفاق، إلا أن ما يُطمع الله فيه فهو واجب.

قوله تعالى: ﴿وَسَتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ في هذا الاستخلاف قولان: أحدهما: أنه استخلاف من فرعون وقومه. والثاني: استخلاف عن الله تعالى، لأن المؤمنين خلفاء الله في أرضه. وفي الأرض قولان: أحدهما: أرض مصر، قاله ابن عباس. والثاني: أرض الشام، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ قال الزجاج: أي: يراه بوقوعه منكم، لأنه إنما يجازيهم على ما وقع منهم، لا على ما علم أنه سيقع.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا مَالَ فِرْعَوْنَ بِالْيَمِينِ﴾ قال أبو عبيدة: مجازة: ابتليناهم بالجدوب. وآل فرعون: أهل دينه وقومه. وقال مقاتل: هم أهل مصر. قال الفراء: «بالسنين» أي: بالقحط والجدوب عاماً بعد عام. وقال الزجاج: السنون في كلام العرب: الجدوب، يقال: مستهم السنة، ومعناه: جذب السنة، وشدة السنة. وإنما أخذهم بالضراء، لأن أحوال الشدة، تُرِقُّ القلوب، وتُرْغِب فيما عند الله وفي الرجوع إليه. قال قتادة: أما السنون، فكانت في بواديهم ومواشيتهم، وأما نقص الثمرات، فكان في أمصارهم وقراهم. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: يبس لهم كل شيء، وذئبت مواشيتهم، حتى يبس نيل مصر. فاجتمعوا إلى فرعون فقالوا له: إن كنت رباً كما تزعم، فاملأ لنا نيل مصر، فقال: غُدوة يصبحكم الماء، فلما خرجوا من عنده، قال: أي شيء صنعت؟ أنا أقدر أن أجيء بالماء في نيل مصر غدوة أصبح، فيكذبوني؟! فلما كان جوف الليل، اغتسل، ثم لبس يدرعة من صوف، ثم خرج حافياً حتى أتى بطن نيل مصر فقام في بطنه، فقال: اللهم إني أعلم أنك تقدر أن تملأ نيل مصر ماءً، فاملأه، فما علم إلا بخرير الماء لما أراد الله به من الهلكة. قلت: وهذا الحديث بعيد الصحة، لأن الرجل كان دهرياً لا يثبت إليها. ولو صح، كان إقراره بذلك كإقرار إبليس، وتبقى مخالفته عناداً.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَلَرْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ وهي الغيث والخصب وسعة الرزق والسلامة ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أي: نحن مستحقوها على ما جرى لنا من العادة في سعة الرزق، ولم يعلموا أنه من الله فيشكروا عليه. ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ وهي

القحط والجذب والبلاء ﴿يَطْرُقُوا بِمُؤَمَّنٍ وَمِنْ مَمَّةٍ﴾ أي: يتشاءموا بهم. وكانت العرب تزجر الطير، فتشاءم بالبارح، وهو الذي يأتي من جهة الشمال، وتترك بالسانح، وهو الذي يأتي من جهة اليمين.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُمُ اللَّهَ﴾ قال أبو عبيدة: «ألا» تنبيه وتوكيد ومجاز. «طائرتهم» حظهم ونصيبهم. وقال ابن عباس «أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُمُ اللَّهَ» أي: إن الذي أصابهم من الله. وقال الزجاج: المعنى: ألا إن الشؤم الذي يلحقهم هو الذي وعدوا به في الآخرة، لا ما ينالهم في الدنيا.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْنَيْنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِيَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَخَافُكَ يَا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ مَائِنَ مُمْسِكِينَ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا﴾ قال الزجاج: زعم النحويون أن أصل «مهما» ماما، ولكن أبدل من الألف الأولى الهاء ليختلف اللفظ، ف «ما» الأولى هي «ما» الجزء، و «ما» الثانية هي التي تزداد تأكيداً للجزاء، ودليل النحويين على ذلك أنه ليس شيء من حروف الجزء إلا و «ما» تزداد فيه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَتَفَقَّهُمُ﴾ [الأنفال: ٥٧] كقولك: إن تتفقنهم، وقال: ﴿وَمَا تَرْضَى عَنْهُمْ﴾ [الإسراء: ٢٨]، وتكون «ما» الثانية للشرط والجزاء، والتفسير الأول هو الكلام، وعليه استعمال الناس. قال ابن الأنباري: فعلى قول من قال: إن معنى «مه» الكف، يحسن الوقف على «مه»، والاختيار أن لا يوقف عليها دون «ما» لأنها في المصحف حرف واحد. وفي الطوفان ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الماء. قال ابن عباس: أرسل عليهم مطر دائم الليل والنهار ثمانية أيام، وإلى هذا المعنى ذهب سعيد بن جبیر، وقتادة، والضحاك، وأبو مالك، ومقاتل، واختاره الفراء، وابن قتية. والثاني: أنه الموت، روته عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ ^(١)، وبه قال مجاهد، وعطاء، وهوب بن منبه، وابن كثير. والثالث: أنه الطاعون، نقل عن مجاهد، وهوب أيضاً. وفي القمل سبعة أقوال: أحدها: أنه السوس الذي يقع في الحنطة، رواه سعيد بن جبیر عن ابن عباس، وقال به. والثاني: أنه الذبى، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعطاء. وقال قتادة: القمل: أولاد الجراد. وقال ابن فارس: الذبى: الجراد إذا تحرك قبل أن تنبت أجنحته. والثالث: أنه دواب سود صغار، قاله الحسن، وسعيد بن جبیر. وقيل: هذه الدواب هي السوس. والرابع: أنه الجعلان، قاله حبيب بن أبي ثابت. والخامس: أنه القمل، ذكره عطاء الخراساني، وزيد بن أسلم. والسادس: أنه البراغيث، حكاه ابن زيد. والسابع: أنه الحمنان، وأحدثها: حمنانة، وهي ضرب من القردان، قاله أبو عبيدة. وقرأ الحسن، وعكرمة، وابن يعمر: «القمل» برفع القاف وسكون الميم. وفي الدم قولان: أحدهما: أن ماءهم صار دماً، قاله الجمهور. والثاني: أنه رعا ف أصابهم، قاله زيد بن أسلم.

(الإشارة إلى شرح القصة)

قال ابن عباس: جاءهم الطوفان، فكان الرجل لا يقدر أن يخرج إلى ضيعته، حتى خافوا الغرق، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشفه عنا، ونؤمن بك، ونرسل معك بني إسرائيل؛ فدعا لهم، فكشفه الله عنهم، وأنبت لهم شيئاً لم ينبت قبل ذلك، فقالوا: هذا ما كنا نتمنى، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل ما أنبت الأرض، فقالوا: ادع لنا ربك، فدعا، فكشف الله عنهم، فأحزروا زروعهم في البيوت، فأرسل الله عليهم القمل، فكان الرجل يخرج بطحين عشرة أجربة إلى الرحي، فلا يرى منها ثلاثة أقفة، فسألوه، فدعا لهم، فكشف عنهم، فلم يؤمنوا، فأرسل الله عليهم الضفادع، ولم يكن شيء أشد منها، كانت تجيء إلى القدور وهي تغلي وتغور، فتلقى أنفسها فيها، فتفسد طعامهم وتطفئ نيرانهم، وكانت الضفادع بريئة، فأورثها الله تعالى برد الماء والثرى إلى يوم القيامة، فسألوه، فدعا لهم، فلم يؤمنوا، فأرسل الله عليهم الدم، فجرت أنهارهم وقلوبهم دماً، فلم يقدروا على الماء العذب، وبنو إسرائيل في الماء العذب، فإذا دخل الرجل منهم يستقي من أنهار بني إسرائيل صار ما دخل فيه دماً، والماء من بين يديه ومن خلفه صافٍ عذب لا يقدر

(١) «الطبري» ٥١/١٣ وفي سنده المنهال بن خليفة العجلي وهو ضعيف، والحجاج بن أرطاة صدوق كثير الخطأ والتدليس. وخرجه ابن كثير ٢٤٠/٢ من رواية ابن مردويه عن يحيى بن يعان به وقال: وهو حديث غريب.

عليه، فقال فرعون: أقسم بإلهي يا موسى لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننَّ لك، ولنرسلن معك بني إسرائيل، فدعا موسى، فذهب الدم وعذَّب ماؤهم، فقالوا: والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا مُنْقَضَاتُ﴾ قال ابن قتيبة: بين الآية والآية فصل. قال المفسرون: كانت الآية تمكث من السبت إلى السبت، ثم يقون عقيب رفعها شهراً في عافية، ثم تأتي الآية الأخرى. قال وهب بن منبه: بين كل آيتين أربعون يوماً. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: مكث موسى في آل فرعون بعدما غلب السحرة عشرين سنة يريهم الآيات، الجراد والقمل والضفادع والدم. وفي قوله: ﴿فَأَسْتَكَرُوا﴾ قولان: أحدهما: عن الإيمان. والثاني: عن الانزجار.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِنَّ أَجَلَ هُمْ يَلْفُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٣٥﴾ فَاتَّقِنَا مِنْهُمُ فَاعْرِفْتُهُمْ فِي آلِيهِ يَأْتَهُمْ كَذِبًا يَتَكَبَّرُونَ ۖ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ أي: نزل بهم العذاب. وفي هذا العذاب قولان: أحدهما: أنه طاعون أهلك منهم سبعين ألفاً، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير. والثاني: أنه العذاب الذي سلطه الله عليهم من الجراد والقمل وغير ذلك، قاله ابن زيد. قال الزجاج: «الرجز»: العذاب، أو العمل الذي يؤدي إلى العذاب. ومعنى الرجز في العذاب: أنه المقلقل لشدته قلقة شديدة متتابعة. وأصل الرجز في اللغة: تتابع الحركات، فمن ذلك قولهم: ناقة رجزاء، إذا كانت ترتعد قوائمها عند قيامها. ومنه رجز الشعر، لأنه أقصر أبيات الشعر، والانتقال من بيت إلى بيت، سريع، نحو قوله:

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعٌ
أُحِبُّ فِيهَا وَأَضْعُ

وزعم الخليل أن الرِّجْزَ ليس بشعر، وإنما هو أنصاف أبيات وأثلاث.

قوله تعالى: ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن معناه: بما أوصاك أن تدعوه به. والثاني: بما تقدم به إليك أن تدعوه فيجيبك. والثالث: بما عهد عندك في كشف العذاب عمن آمن. والرابع: أن ذلك منهم على معنى القسم، كأنهم أقسموا عليه بما عهد عنده أن يدعو لهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ هُمْ يَلْفُوهُ﴾ أي: إلى وقت غرقهم. ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ أي: ينقضون العهد.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقِنَا مِنْهُمُ﴾ قال أبو سليمان الدمشقي: انتصرنا منهم بإحلال نعمتنا بهم، وتلك النعمة تغريقنا إياهم في اليم. قال ابن قتيبة: اليم: البحر بالسريانية.

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: عن الآيات، وغفلتهم: تركهم الاعتبار بها. والثاني: عن النعمة.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُّونَ مَشْرِكَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا آلِي بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ وَكَانَتْ رِزْقُكَ الْخَسْفَ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا بِعِزَّةٍ ۖ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَتَكَبَّرُونَ عَلَى آصْنَافٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ﴾ يعني بني إسرائيل. ﴿الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُّونَ﴾ أي: يُسْتَدْلُونَ بذبح الأبناء، واستخدام النساء، وتسخير الرجال. ﴿مَشْرِكَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: مشارق الشام ومغاربها، قاله الحسن. والثاني: مشارق أرض الشام ومصر. والثالث: أنه على إطلاقه في شرق الأرض وغربها.

قوله تعالى: ﴿آلِي بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ قال ابن عباس: بالماء والشجر.

قوله تعالى: ﴿وَوَكَّعَتْ كُلُّ رِزْقٍ الْخَسْفَ﴾ وهي وعد الله لبني إسرائيل بإهلاك عدوهم، واستخلافهم في الأرض، وذلك في قوله: ﴿وَرَبِّدْ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَفْهِمُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصاص: ٥٠]، وقد بينا عللة تسمية ذلك كله في [آل عمران: ١٤٦].

قوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ فيه قولان: أحدهما: على طاعة الله تعالى. والثاني: على أذى فرعون.

قوله تعالى: ﴿وَدَمَرْنَا﴾ أي: أهلكنا ﴿مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من العمارات والمزارع. والدمار: الهلاك.

﴿مَا كَانُوا بِعِرْشِكَ﴾ أي: يبنون. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «يعرشون» بكسر الراء هاءنا وفي (النحل: ٦٨). وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: بضم الراء فيهما. وقرأ ابن أبي عبله: «يعرشون» بالشديد. قال الزجاج: يقال: عَرَشَ يَعْرِشُ وَيَعْرِشُ: إذا بنى.

قوله تعالى: ﴿يَعْكُفُونَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، ويعقوب: «يَعْكُفُونَ» بضم الكاف. وقرأ حمزة، والكسائي، والمفضل: بكسر الكاف. وقرأ ابن أبي عبله: بضم الياء وتشديد الكاف. قال الزجاج: ومعنى ﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَانِهِمْ﴾: يواظبون عليها ويلازمونها، يقال لكل من لزم شيئاً وواظب عليه: عَكَفَ يَعْكُفُ وَيَعْكُفُ. قال قتادة: كان أولئك القوم نزولاً بالركة، وكانوا من لحم. وقال غيره: كانت أصنامهم تماثيل البقر. وهذا إخبار عن عظيم جهلهم حيث توهموا جواز عبادة غير الله بعدما رأوا الآيات.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَعَالَى﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال ابن قتيبة: مهلك. والتبار: الهلاك.

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ لِنَبِيِّنَا﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ لِنَبِيِّنَا﴾ أي: أطلب لكم، وهذا استفهام إنكار. قال المفسرون، منهم ابن عباس، ومجاهد: العالَمون هاهنا: عالموا زمانهم.

﴿هَذِهِ أُمَّتُكُمْ مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ يَتَّبِعُونَ آيَاتَكُمْ وَيُسَبِّحُونَ بِحَمْدِكُمْ مِنْ أَصْفَافٍ مُتَبَعِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ قرأ ابن عامر: «وإذ أنجاكم» على لفظ الغائب المفرد.

﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَنَمَّ يَمُوتُ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ خَلِّفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ المعنى: وعدناه انقضاء الثلاثين ليلة. قال ابن عباس: قال موسى لقومه: إن ربي وعدني ثلاثين ليلة، فلما فصل إلى ربه زاده عشراً، فكانت فتنتهم في ذلك العشر. فإن قيل: لم زيد هذا العشر؟ فالجواب: أن ابن عباس قال: صام تلك الثلاثين ليلة ونهارها، فلما انسلخ الشهر، كره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم، فتناول شيئاً من نبات الأرض فمضغه، فأوحى الله تعالى إليه: لا كلمتك حتى يعود فوك على ما كان عليه، أما علمت أن رائحة فم الصائم أحب إلي من ريح المسك؟ وأمره بصيام عشرة أيام. وقال أبو العالية: مكث موسى على الطور أربعين ليلة، فبلغنا أنه لم يحدث حتى هبط منه. فإن قيل: ما معنى: ﴿فَنَمَّ يَمُوتُ لَيْلَةً﴾ وقد علم ذلك عند انضمام العشر إلى الثلاثين؟ فالجواب من وجوه: أحدها: أنه للتأكيد. والثاني: ليدل أن العشر، ليالٍ، لا ساعات. والثالث: لينفي تمام الثلاثين بالعشر أن تكون من جملة الثلاثين، لأنه يجوز أن يسبق إلى الوهم أنها كانت عشرين ليلة فأتمت بعشر. وقد بينا في سورة (البقرة: ٥١) لماذا كان هذا الوعد.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ﴾ قال ابن عباس: مرهم بالإصلاح. وقال مقاتل: ارفق.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِهِ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنظُرْ إِلَى الْأَجَلِ فَإِنِ اسْتَفَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَاهُ فَنَلَقَ رَّبَّهُ وَالْحُجُجَ جَمْعَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوْغًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِهِ﴾ قال الزجاج، أي: للوقت الذي وقفتنا له. ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ أسمعه كلامه، ولم يكن فيما بينه وبين الله شيء فيما سمع أحد. ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ أي: أرني نفسك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ تَرَنِي﴾ تعلق بهذا نفاة الرؤية وقالوا: «لن» لنفي الأبد، وذلك غلط، لأنها قد وردت وليس المراد بها الأبد في قوله: ﴿وَلَنْ يَتَذَكَّرَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ يَدَايِهِ﴾ (البقرة: ٩٥) ثم أخبر عنهم بتمنيهم في النار بقوله: ﴿يَتَذَكَّرُ فِي النَّارِ كُلِّ يَوْمٍ﴾ (الزخرف: ١٧)، ولأن ابن عباس قال في تفسيرها: لن تراني في الدنيا. وقال غيره: هذا جواب لقول

موسى: «أرني»، ولم يُرد؛ أرني في الآخرة، وإنما أراد في الدنيا، فأجيب عما سأل. وقال بعضهم: لن تراني بسؤالك. وفي هذه الآية دلالة على جواز الرؤية، لأن موسى مع علمه بالله تعالى، سألها، ولو كانت مما يستحيل لما جاز لموسى أن يسألها، ولا يجوز أن يجهل موسى مثل ذلك، لأن معرفة الأنبياء بالله ليس فيها نقص، ولأن الله تعالى لم ينكر عليه المسألة وإنما منعه من الرؤية، ولو استحالت عليه لقال: «لا أرى»، ألا ترى أن نوحاً لما قال: «إِنَّ أَتَيْتُ مِنْ أَهْلِي» [مود: ٤٥] أنكر عليه بقوله: «إِنَّهُمْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِيَّ» [مود: ٤٦]. ومما يدل على جواز الرؤية أنه علّقها باستقرار الجبل، وذلك جائز غير مستحيل، فدل على أنها جائزة، ألا ترى أن دخول الكفار الجنة لما استحال علّقه بمستحيل فقال: «حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخَيْلِ» [الأعراف: ٤٠].

قوله تعالى: «وَإِنْ أَسْتَفْتَرَ مَكَاثِمَ» أي ثبت ولم يتضعض.

قوله تعالى: «فَلَمَّا تَخَلَّى تَرِيُّهُ» قال الزجاج: ظهر، وبان. «جَعَلَكُمْ دَكَّاءَ» قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «دَكَّاءَ» منونة مقصورة هاهنا وفي [الكهف: ٩٨]. وقرأ عاصم: «دَكَّاءَ» هاهنا منونة مقصورة، وفي [الكهف: ٩٨]: «دكاء» ممدودة غير منونة. وقرأ حمزة، والكسائي: «دكاء» ممدودة غير منونة في الموضعين، قال أبو عبيدة: «جعلهم دكاً» أي: مندكاً، والدك: المستوي؛ والمعنى: مستوياً مع وجه الأرض، يقال: ناقة دكّاء، أي: ذاهبة السنام مستوٍ ظهرها. قال ابن قتيبة: كان سنامها دكاً، أي: التصق، قال: ويقال: إن أصل دككت: دققت، فأبدلت القاف كافاً لتقارب المخرجين. وقال أنس بن مالك في قوله: «جَعَلَكُمْ دَكَّاءَ»: ساخ الجبل. قال ابن عباس: واسم الجبل: زبير، وهو أعظم جبل بمدين، وإن الجبال تطاولت ليتجلى لها، وتواضع زبير فتجلى له.

قوله تعالى: «وَحَرَّ مَوْسَى صَوْقًا» فيه قولان: أحدهما: مغشياً عليه، قاله ابن عباس، والحسن، وابن زيد. والثاني: ميتاً، قاله قتادة، ومقاتل، والأول أصح، لقوله: «فَلَمَّا أَفَاقَ» وذلك لا يقال للميت. وقيل: بقي في غشيته يوماً وليلة.

قوله تعالى: «شُبْحَنَكَ ثَبْتَ إِلَيْكَ» فيما تاب منه ثلاثة أقوال: أحدها: سؤاله الرؤية، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: من الإقدام على المسألة قبل الإذن فيها. والثالث: اعتقاد جواز رؤيته في الدنيا. وفي قوله: «وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ» قولان: أحدهما: أنك لن تُرى في الدنيا، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أول المؤمنين من بني إسرائيل، رواه عكرمة عن ابن عباس.

قوله تعالى: «إِنِّي أَسْأَلُكَ» فتح ياء «إني» ابن كثير، وأبو عمرو. وقرأ ابن كثير، ونافع: «برسالتني». قال الزجاج: المعنى: اتخذتك صفوة على الناس برسالاتي وبكلامي، ولو كان إنما سمع كلام غير الله لما قال: «يُرْسَلُكَ وَيُكَلِّمُ» لأن الملائكة تنزل إلى الأنبياء بكلام الله.

«وَكُنْتَنَا لَمْ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذْنَا مِنْهُ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأَوْنَكَ دَارَ الْقَائِمِينَ ﴿٧٥﴾»

قوله تعالى: «وَكُنْتَنَا لَمْ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» في ماهية الألواح سبعة أقوال: أحدها: أنها زبرجد، قاله ابن عباس. والثاني: ياقوت، قاله سعيد بن جبير. والثالث: زمرد أخضر، قاله مجاهد. والرابع: برّد، قاله أبو العالية. والخامس: خشب، قاله الحسن. والسادس: صخر، قاله وهب بن منبه. والسابع: زمرد وياقوت، قاله مقاتل. وفي عددها أربعة أقوال: أحدها: سبعة، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثاني: لوحان، قاله أبو صالح عن ابن عباس، واختاره الفراء. قال: وإنما سماها الله تعالى ألواحاً، على مذهب العرب في إيقاع الجمع على التثنية، كقوله: «وَكُنَّا لَكُمْ شُهِيدِينَ» [الأنبياء: ٧٨] يريد داود، وسليمان، وقوله: «فَقَدْ صَفَّتْ قُلُوبُكُمَا» [التحریم: ٤]. والثالث: عشرة، قاله وهب. والرابع: تسعة، قاله مقاتل. وفي قوله: «مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» قولان: أحدهما: من كل شيء يحتاج إليه في دينه من الحلال والحرام والواجب وغيره. والثاني: من الحكم والعبر.

قوله تعالى: «مَوْعِظَةً» أي: نهياً عن الجهل. «وَتَفْصِيلاً» أي: تبيناً لكل شيء من الأمر والنهي والحدود والأحكام.

قوله تعالى: ﴿فَتَذَكَّرْنَا يَقُوتَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: بجذ وحزم، قاله ابن عباس. والثاني: بطاعة، قاله أبو العالية. والثالث: بشكر، قاله جوير.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسِنًا﴾ إن قيل: كأن فيها ما ليس بحسن؟ فعنه جوابان: أحدهما: أن المعنى: يأخذوا بحسنها، وكلها حسن، قاله قطرب. وقال ابن الأنباري: ناب «أحسن» عن «حسن» كما قال الفرزدق:
إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا
بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ^(١)

أي: عزيمة طويلة. وقال غيره: «الأحسن» هاهنا صلة، والمعنى: يأخذوا بها. والثاني: أن بعض ما فيها أحسن من بعض. ثم في ذلك خمسة أقوال: أحدها: أنهم أمروا فيها بالخير ونهوا عن الشر، ففعل الخير هو الأحسن. والثاني: أنها اشتملت على أشياء حسنة بعضها أحسن من بعض، كالقصاص والعفو والانتصار والصبر، فأمروا أن يأخذوا بالأحسن، ذكر القولين الزجاج. فعلى هذا القول، يكون المعنى: أنهم يتبعون العزائم والفضائل، وعلى الذي قبله، يكون المعنى: أنهم يتبعون الموصوف بالحسن وهو الطاعة، ويتجنبون الموصوف بالقبح وهو المعصية. والثالث: أحسنها: الفرائض والنوافل، وأدونها في الحسن: المباح. والرابع: أن يكون للكلمة معنيان أو ثلاثة، فتصرف إلى الأشبه بالحق. والخامس: أن أحسنها: الجمع بين الفرائض والنوافل.

قوله تعالى: ﴿سَأُزَيِّدُكَ دَارَ الْقَاسِقِينَ﴾ فيها أربعة أقوال: أحدها: أنها جهنم، قاله الحسن، ومجاهد. والثاني: أنها دار فرعون وقومه، وهي مصر، قاله عطية العوفي. والثالث: أنها منازل من هلك من الجبابرة والعمالقة، يريد بهم إياها عند دخولهم الشام، قاله قتادة. والرابع: أنها مصارع الفاسقين، قاله السدي. ومعنى الكلام: سأريكم عاقبة من خالف أمري، وهذا تهديد للمخالف، وتحذير للموافق.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا ءَايُوا لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَيْلًا أَرْسَدُوا لَا يَخَافُونَ سَيْلًا وَإِنْ يَرَوْا سَيْلًا أَلْفَى يَتَخَذُوا سَيْلًا ذَلِكَ يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنْهُمُ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَلَقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ في هذه الآية قولان: أحدهما: أنها خاصة لأهل مصر فيما رأوا من الآيات. والثاني: أنها عامة، وهو أصح. وفي الآيات قولان: أحدهما: أنها آيات الكتب المثلوة. ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أمنعهم فهمها. والثاني: أمنعهم من الإيمان بها. والثالث: أصرفهم عن الاعتراض عليها بالإبطال. والثاني: أنها آيات المخلوقات كالسما والارض والشمس والقمر وغيرها، فيكون المعنى: أصرفهم عن التفكير والاعتبار بما خلقت. وفي معنى يتكبرون قولان: أحدهما: يتكبرون عن الإيمان وأتباع الرسول. والثاني: يحقرون الناس ويرون لهم الفضل عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَيْلًا أَرْسَدُوا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: «سبيل الرشد» بضم الراء خفيفة. وقرأ حمزة، والكسائي: «سبيل الرشد» بفتح الراء والشين مثقلة.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَنْهَكُهُمُ﴾ قال الزجاج: فعل الله بهم ذلك بأنهم «كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ»، أي: كانوا في تركهم الإيمان بها والتدبر لها بمنزلة الغافلين. ويجوز أن يكون المعنى: وكانوا عن جزائها غافلين.

﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُمْ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوا عِجْلًا غَافِلِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عِجْلًا﴾ أي: من بعد انطلاقه إلى الجبل للميقات. «مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ» قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «من خلتهم» بضم الحاء. وقرأ حمزة، والكسائي: «جَلِيهِم» بكسر الحاء. وقرأ يعقوب: بفتحها وسكون اللام وتخفيف الباء. والخَلِي: جمع خَلِيٍّ، مثل نُذْيٍ وَثُدْيٍّ، وهو اسم لما يُتَحَسَّنُ به من

الذهب والفضة. قال الزجاج: ومن كسر الحاء من «حليهم» أتبع الحاء كسر اللام. والجسد: هو الذي لا يعقل ولا يميز، إنما هو بمعنى الجثة فقط. قال ابن الأنباري: ذكر الجسد دلالة على عدم الروح منه، وأن شخصه شخص مثال وصورة، غير منضم إليهما روح ولا نفس. فأما الحُوراء، فهو صوت البقرة، يقال: حَارَتْ البقرة تَحُورُ، وَجَارَتْ تَجَارُ؛ وقد نُقِلَ عن العرب أنهم يقولون في مثل صوت الإنسان من البهائم: رَغَا البعير وَجَرَجَر وَهَذَرَ وَقَبَقَبَ، وَصَهَلَ الفرس وَحَمَحَمَ، وَشَهَقَ الحمار وَنَهَقَ، وَشَحَجَ البغل، وَتَغَتَّ الشاة وَيَعَرَّتْ، وَتَأَجَّتِ النَّعْجَةُ، وَبَغَمَ^(١) الظبي وَتَرَبَّ^(٢)، وَرَأَزَ الأسد وَنَهَتْ وَنَأَتْ، وَوَعَوَ الذئب، وَنَهَمَ الفيل، وَرَزَقَ^(٣) القُرْدُ، وَضَبِحَ الثَّعْلَبُ، وَعَوَى الكَلْبُ وَتَبَجَّ، وَمَاءُ السُّتُورِ، وَصَأَتِ الفأرة، وَنَقَعَ الْغُرَابُ معجمة الغين، وَزَقَا الدَّيْكُ وَسَقَعَ، وَصَفَرَ النُّسْرُ، وَهَذَرَ الحمام وَهَذَلَ، وَنَقَضَتِ الضُّفَادُ وَنَقَّتْ، وَغَزَفَتِ الْجُنُ. قال ابن عباس: كان العجل إذا خار سجدوا، وإذا سكت رفعوا رؤوسهم. وفي رواية أبي صالح عنه: أنه خار خورة واحدة ولم يُتبعها مثلها، وبهذا قال وهب، ومقاتل. وكان مجاهد يقول: خواره حفيف الريح فيه؛ وهذا يدل على أنه لم يكن فيه روح. وقرأ أبو رزين العقيلي، وأبو مجلز: «له جُوراء» بجيم مرفوعة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكُونُ لَهُمْ آي: لا يستطيع كلامهم. ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ آي: لا يبين لهم طريقاً إلى حجة. ﴿أَتُخَذُوا﴾ يعني اتخذوه إلهاً. ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ قال ابن عباس: مشركين.

﴿وَلَمَّا سَوَّطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَيْنَ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَيْمًا قَالَ يَبْنَؤُنِي مِنْ بَدِيدٍ أَجَعَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَاللَّيَالِي الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوا بِكَ وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْكَ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْوُجُلَ سَيِّئًا لَمْ يَنْصُرُوا مِنْ رَبِّهِمْ ذُلًّا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَوَّطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ آي: ندموا. قال الزجاج: يقال للرجل النادم على ما فعل، المتحسر على ما فرط: قد سقط في يده، وأسقط في يده. وقرأ ابن السميع، وأبو عمران الجوني: «سَقَطَ» بفتح السين. قال الزجاج: والمعنى: ولما سَقَطَ الندم في أيديهم، شبَّه ما يحصل في القلب وفي النفس بما يرى بالعين. قال المفسرون: هذا الندم منهم إنما كان بعد رجوع موسى.

قوله تعالى: ﴿لَيْنَ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: «يرحمنا ربنا» ويغفر لنا» بالياء والرفع. وقرأ حمزة، والكسائي: «ترحمنا» وتغفر لنا» بالياء، «ربنا» بالنصب.

قوله تعالى: ﴿غَفَبِينَ أَيْمًا﴾ في الأسف ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحزين، قاله ابن عباس، والحسن، والسدي. والثاني: الجزع، قاله مجاهد. والثالث: أنه الشديد الغضب، قاله ابن قتيبة، والزجاج. وقال أبو الدرداء: الأسف: منزلة وراء الغضب أشد منه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ آي: لقومه ﴿يَبْنَؤُنِي مِنْ بَدِيدٍ﴾ فتح ياء «بدي» أهل الحجاز، وأبو عمرو؛ والمعنى: بشس ما عملتم بعد فراقني من عبادة العجل. ﴿أَجَعَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ قال الفراء: يقال: عَجَلْتُ الأمر والشئ: سبقتُه، ومنه هذه الآية. وأعجلته: استعجلته. قال ابن عباس: أعجلتم ميعاد ربكم فلم تصبروا له؟! قال الحسن: يعني وَغَدَّ الأربعين ليلة.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيَالِي الْأَلْوَحَ﴾ التي فيها التوراة. وفي سبب إلقائه إياها قولان: أحدهما: أنه الغضب حين رآهم قد عبدوا العجل، قاله ابن عباس. والثاني: أنه لما رأى فضائل غير أمته من أمة محمد ﷺ اشتد عليه، فألقاها، قاله قتادة، وفيه بُعد. قال ابن عباس: لما رمى بالألواح فتحطمت، رُفِعَ منها ستة أسباع، وبقي سبع.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى أَخِيهِ﴾ في ما أخذ به من رأسه ثلاثة أقوال: أحدها: لحيته وذواته. والثاني: شعر رأسه. والثالث: أذنه. وقيل: إنما فعل به ذلك، لأنه توهم أنه عصى الله بمقامه بينهم وترك اللوح به، وتعريفه ما أحدثوا بعده

(١) في الأصل: نغم، وهو تصحيف. (٢) في الأصل: ترب، وهو تصحيف. (٣) في الأصل: رقع، وهو تصحيف.

ليرجع إليهم فيتلافهم ويردهم إلى الحق، وذلك قوله: ﴿قَالَ يَهْرُونَ مَا مَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۖ أَلَا تَتَّبِعُنِي﴾ [طه: ٩٢، ٩٣].
قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَمُّ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: «قال ابن أمّ» نصباً. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: بكسر الميم، وكذلك في (طه: ٩٤). قال الزجاج: من فتح الميم، فلكثر استعمال هذا الاسم، ومن كسر، أضافه إلى نفسه بعد أن جعله اسماً واحداً، ومن العرب من يقول: «يا ابن أمي» بإثبات الياء. قال الشاعر:

يَا ابْنَ أُمِّي وَيَا شَقِيقَ نَفْسِي أَنْتَ خَلَفْتَنِي لِدَهْرٍ شَدِيدٍ^(١)

وقال أبو علي: يحتمل أن يريد من فتح: «يا ابن أمّ» أمّاً، ويحذف الالف، ومن كسر: «ابن أمي» فيحذف الياء. فإن قيل: لم قال: «يا ابن أمّ» ولم يقل: «يا ابن أب»؟ فالجواب أن ابن عباس قال: كان أخاه لأبيه وأمه، وإنما قال له ذلك ليرفقه عليه. قال أبو سليمان الدمشقي: والإنسان عند ذكر الوالدة أرقُّ منه عند ذكر الوالد. وقيل: كان لأمه دون أبيه، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ﴾ يعني عبدة العجل ﴿اسْتَفْهَمُوا﴾ أي: استدلوني. ﴿فَلَا تَشْمِتْ بِالْأَعْدَاءِ﴾ قرأ عبد الله بن عباس، ومالك بن دينار، وابن عاصم: «فَلَا تَشْمِتْ» بقاء مفتوحة مع فتح الميم، «الأعداء» بالرفع. وقرأ مجاهد، وأبو العالية، والضحاك، وأبو رجاء: «فَلَا تَشْمِتْ» بفتح التاء وكسر الميم، «الأعداء» بالنصب. وقرأ أبو الجوزاء، وابن أبي عبيدة مثل ذلك، إلا أنهما رفعاً «الأعداء». ويعني بالأعداء: عبدة العجل. ﴿وَلَا تَجْمَلْ فِي مَوَدَّتِكَ وَعَقوبَتِكَ لِي﴾ مع القوم القليلين وهم عبدة العجل. فلما تبين له عذر أخيه ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾.

قوله تعالى: ﴿وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها الجزية، قاله ابن عباس. والثاني: ما أمروا به من قتل أنفسهم، قاله الزجاج. فعلى الأول يكون ما أضيف إليهم من الجزية في حق أولادهم، لأن أولئك قُتلوا ولم يؤدوا جزية. قال عطية: وهذه الآية فيما أصاب بني قريظة والنضير من القتل والجلاء لتوليهم متخذي العجل ورضاهم به.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْقِرِينَ﴾ قال ابن عباس: كذلك أعاقب من اتخذ إلهاً دوني. وقال مالك بن أنس: ما من مبتدع إلا وهو يجد فوق رأسه ذلّةً، وقرأ هذه الآية. وقال سفيان بن عيينة: ليس في الأرض صاحب بدعة إلا وهو يجد ذلّةً تغشاه، قال: وهي في كتاب الله تعالى. قالوا: وأين هي؟ قال: أو ما سمعتم قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْوُجُلَ سَيِّئَاتٍ غَضَبْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قالوا: يا أبا محمد، هذه لأصحاب العجل خاصة، قال: كلا، اتلوا ما بعدها. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْقِرِينَ﴾ فهي لكل مفترٍ ومبتدعٍ إلى يوم القيامة.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَیْهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَیْهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها الشرك. والثاني: الشرك وغيره من الذنوب. ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَیْهَا﴾ يعني السيئات. وفي قوله: ﴿وَوَآمَنُوا﴾ قولان: أحدهما: آمنوا بالله، وهو يُخْرِجُ على قول من قال: هي الشرك. والثاني: آمنوا بأن الله تعالى يقبل التوبة. ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَیْهَا﴾ يعني السيئات.

﴿وَلَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ سَكْتٌ عَنْ مُوسَى الْكَذِبِ لَفَعَلَ اللَّهُ بِكَ مَا مَلَكَتْ أَعْيُنُ النَّاسِ لِمَعْرِفَةِ مَا كُنْتَ تَعْمَلُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ سَكْتٌ عَنْ مُوسَى الْكَذِبِ﴾ وقرأ ابن عباس، وأبو عمران «سَكْتٌ» بفتح السين وتشديد الكاف وبتاء بعدها، «الغضب» بالنصب. وقرأ سعيد بن جبير، وابن يعمر، والجحدري «سَكْتٌ» بضم السين وتشديد الكاف مع كسرها. وقرأ ابن مسعود، وعكرمة، وطلحة «سَكَنَ» بنون. قال الزجاج: «سكت» بمعنى سكن، يقال: سكت يسكت سَكْتًا: إذا سكن، وسكت يسكت سَكْتًا وسكوتًا: إذا قطع الكلام. قال: وقال بعضهم: المعنى: ولما سكت موسى عن

(١) البيت في «الطبري» ١٢٩/١٣، و«أمالى الزبيدي» ٩، و«جمهرة أشعار العرب» ٢٦٢، و«اللسان»: شق، وهو لأبي زيد حرملة بن المنذر الطائي من قصيدة يرثي ابن أخته اللجلاج، ويقال: يرثي أخاه اللجلاج، ويروي البيت:

يَا ابْنَ خَنَسَاءِ شَقِيقَ نَفْسِي يَا لَجْلَاجَ خَلَفْتَنِي لِدَهْرٍ شَدِيدٍ

ورواية المصنف، هي رواية النحاة جميعاً في كتبهم في «باب النداء». وقوله: «شقيق» تصغير شقيق، وهو الأخ.

الغضب، على القلب، كما قالوا: أدخلت القلنسوة في رأسي. والمعنى: أدخلت رأسي في القلنسوة، والأول هو قول أهل العربية.

قوله تعالى: ﴿أَخَذَ الْأَلْوَحَ﴾ يعني التي كان ألقاها. وفي قوله: ﴿وَفِي شَجَرَةٍ﴾ قولان: أحدهما: وفيما بقي منها؛ قاله ابن عباس. والثاني: وفيما نُسخ فيها؛ قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنه عام في الذين يخافون الله، وهو معنى قول ابن عباس. والثاني: أنهم أمة محمد ﷺ خاصة، وهو معنى قول قتادة.

﴿وَأَنذَارُ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا أَلِيمِينَ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتْلُوكَ بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ إِنِّي إِذْنٌ لِّإِلَهِ فَفُتِنْتُكَ فَنُصِّلَ بِمَا مَن نَّشَاءُ وَتَهْدِي مَن نَّشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنذَارُ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ المعنى: اختار من قومه، فحذف «من»، تقول العرب: اخترتك القوم، أي: اخترتك من القوم، وأنشدوا:

يُمَّا الَّذِي اخْتِيرَ الرُّجَالُ سَمَاحَةً
وَجُوداً إِذَا هَبَّ الرِّيحُ الرُّعَازُ^(١)

هذا قول ابن قتيبة، والفراء، والزجاج. وفي هذا الميقات أربعة أقوال: أحدها: أنه الميقات الذي وَقَّعَهُ اللهُ لموسى ليأخذ التوراة، أمر أن يأتي معه بسبعين، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال نوف البكالي. والثاني: أنه ميقات وَقَّعَهُ اللهُ تعالى لموسى، وأمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً ليدعوا ربهم، فدعوا فقالوا: اللهم أعطنا ما لم تعط أحداً قبلنا، ولا تعطيه أحداً بعدنا، فكره الله ذلك، وأخذتهم الرجفة؛ رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أنه ميقات وَقَّعَهُ اللهُ لموسى، لأن بني إسرائيل قالوا له: إن طائفة تزعم أن الله لا يكلمك، فخذ منك طائفة منا ليسمعوا كلامه فيؤمنوا فتذهب التهمة، فأوحى الله إليه أن اختر من خيارهم سبعين، ثم ارتق بهم على الجبل أنت وهارون، واستخلف يوشع بن نون، ففعل ذلك؛ قاله وهب بن منبه. والرابع: أنه ميقات وَقَّعَهُ اللهُ لموسى ليلقاه في ناس من بني إسرائيل، فيعتذر إليه من فعل عبدة العجل، قاله السدي. وقال ابن السائب: كان موسى لا يأتي ربه إلا بإذن منه. فأما الرجفة فهي الحركة الشديدة. وفي سبب أخذها إياهم أربعة أقوال: أحدها: أنه ادعاهم على موسى قتل هارون؛ قاله علي بن أبي طالب. والثاني: اعتداؤهم في الدعاء، وقد ذكرناه في رواية ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أنهم لم ينهوا عبدة العجل ولم يرضوا؛ نُقِلَ عن ابن عباس. وقال قتادة، وابن جريج: لم يأمرهم بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر، ولم يزيلوهم. والرابع: أنهم طلبوا استماع الكلام من الله تعالى، فلما سمعوه قالوا: ﴿كُنْ نُؤْمِنُ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]؛ قاله السدي وابن إسحاق.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي﴾ قال السدي: قام موسى يبكي ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي﴾ قال الزجاج: لو شئت أمئتهم قبل أن تبليهم بما أوجب عليهم الرجفة. وقيل: لو شئت أهلكتهم من قبل خروجنا وإياي، فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يهتمونني.

قوله تعالى: ﴿أَتْلُوكَ بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ إِنِّي﴾ قال المبرد: هذا استفهام استعطاف، أي: لا تُهلكنا. وقال ابن الأنباري: هذا استفهام على تأويل الجحد، أراد: لست تفعل ذلك. و«السفهاء» هاهنا: عبدة العجل. وقال الفراء: ظن موسى أنهم أهلكوا باتخاذ أصحابهم العجل. وإنما أهلكوا بقولهم: ﴿إِنَّا اللَّهُ جَهْرَةً﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها الابتلاء، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، وأبو العالية. والثاني: العذاب، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال قتادة. قوله تعالى: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ أي: ناصرنا وحافظنا.

(١) البيت للفردق، «ديوانه» ٥١٦، و«الناظف» ٩٩٦، و«مسيوبه» ١٨/١، و«الكامل» ٣٢/١، و«أمالي ابن الشجري» ١٨٦/١، و«الخرزانه» ٦٦٩/٣، و«اللسان»: خير. وعن بهذا البيت أباه غالباً، وهو أحد أجواد بني تميم.

أنه يأمرهم بالمعروف. قال ابن عباس: المعروف: مكارم الأخلاق، وصلة الأرحام. والمنكر: عبادة الأوثان، وقطع الأرحام. وقال مقاتل: المعروف: الإيمان، والمنكر: الشرك. وقال غيره: المعروف: الحق، لأن العقول تعرف صحته، والمنكر: الباطل، لأن العقول تنكر صحته. وفي الطيبات أربعة أقوال: أحدها: أنها الحلال، والمعنى: يُحل لهم الحلال. والثاني: أنها ما كانت العرب تستطيعه. والثالث: أنها الشُّحوم المحرمة على بني إسرائيل. والرابع: ما كانت العرب تحرّمه من البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام. وفي الخباثت ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الحرام، والمعنى: ويحرم عليهم الحرام. والثاني: أنها ما كانت العرب تستخبئه ولا تأكله، كالحيات، والحشرات. والثالث: ما كانوا يستحلونه من الميتة، والدم، ولحم الخنزير.

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي «إصْرهم». وقرأ ابن عامر «أصارهم» ممدودة الألف على الجمع. وفي هذا الإصر قولان: أحدهما: أنه العهد الذي أخذ الله على بني إسرائيل أن يعملوا بما في التوراة، قاله ابن عباس. والثاني: التشديد الذي كان عليهم من تحريم السبت، وأكل الشحوم والعروق، وغير ذلك من الأمور الشاقة، قاله قتادة. وقال مسروق: لقد كان الرجل من بني إسرائيل يذنب الذنب، فيصبح وقد كُتب على باب بيته: إن كفرته أن تنزع عينك، فينزعهما.

قوله تعالى: ﴿وَالْأَغْلَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ قال الزجاج: ذكر الأغلال تمثيل، ألا ترى أنك تقول: جعلت هذا طوقاً في عنقك، وليس هناك طوق، إنما جعلت لزومه كالطوق. والأغلال: أنه كان عليهم أن لا يُقبَل منهم في القتل دية، وأن لا يعملوا في السبت، وأن يقرضوا ما أصاب جلودهم من البول.

قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ يعني بمحمد ﷺ وروى أبان «وعزروه»، بتخفيف الزاي. وفي المعنى قولان: أحدهما: نصره وأعانه، قاله مقاتل. والثاني: عظموه، قاله ابن قتيبة. والنور الذي أنزل معه: القرآن سماه نوراً، لأن بيانه في القلوب كبيان النور في العيون. وفي قوله «معه» قولان: أحدهما: أنها بمعنى «عليه». والثاني: بمعنى أنزل في زمانه. قال قتادة: أما نصره، فقد سُبِّقَتْ إليه، ولكن خيركم من آمن به واتبع النور الذي أنزل معه.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ في الكلمات قولان: أحدهما: أنها القرآن، قاله ابن عباس. وقال قتادة: كلماته: آياته. والثاني: أنها عيسى ابن مريم، قاله مجاهد، والسدي.

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ فيه قولان: أحدهما: يدعون إلى الحق. والثاني: يعملون به. قوله تعالى: ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قال الزجاج: وبالحق يحكمون. وفي المشار إليهم بهذا ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم قوم وراء الصين لم تبلغهم دعوة الإسلام، قاله ابن عباس، والسدي. والثاني: أنهم من آمن بالنبي ﷺ مثل ابن سلام وأصحابه، قاله ابن السائب. والثالث: أنهم الذين تمسكوا بالحق في زمن أنبيائهم، ذكره الماوردي.

﴿وَعَلَّمْنَاهُمْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ أُسْبَاطًا أُولَئِكَ نَافِثَتْنِي وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَبَا ضَرْبٍ فَقَالِيجَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْتًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالتَّلَوَّى كَلُوا مِنْ طَيْبَاتِ مَا رَزَقْنَاهُمْ وَمَا ظَلَمُوا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَقَرْنَا لَكُمْ فِيهِ مَخْرَجَ السَّيْرِ الْمَخْرَجَيْنِ ﴿١١١﴾ فَقَدْ أَلْزَمَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمَسُّ مَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُمْ﴾ يعني قوم موسى، يقول: فرقناهم: «اثْنَتَا عَشْرَةَ أُسْبَاطًا» يعني أولاد يعقوب، وكانوا اثني عشر ولداً، فولد كل واحد منهم سبطاً. قال الفراء: وإنما قال «اثنتي عشرة» والسبط ذكر، لأن بعده «أمماً» فذهب بالتأنيث إلى الأم، ولو كان «اثني عشر» لتذكير السبط، كان جائزاً. وقال الزجاج: المعنى: وقطعناهم اثنتي عشرة فرقة، «أسباطاً» نعت «فرقة» كأنه يقول: جعلناهم أسباطاً، وفرقناهم أسباطاً، فيكون «أسباطاً» بدلاً من «اثنتي عشرة»

و «أُمَّمًا» من نعت أسباط. والأسباط في ولد إسحاق بمنزلة القبائل يُفصل بين ولد إسماعيل وبين ولد إسحاق. وقال أبو عبيدة: الأسباط: قبائل بني إسرائيل، واحدهم: سبط. ويقال: من أي سبط أنت؟ أي: من أي قبيلة وجنس؟ قوله تعالى: ﴿فَأَنجَسَتْ يَدَهُ﴾ قال ابن قتيبة: انفجرت؛ يقال: تَبَجَّسَ الماء، كما يقال: تَفَجَّرَ؛ والقصة المذكورة في سورة البقرة: ٥٨ - ٦٠.

قوله تعالى: ﴿نُنَزِّلُ لَكَ خَطَايَكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وحزمة، والكسائي: «نغفر لكم خطيئاتكم» بالثاء مهموزة على الجمع. وقرأ أبو عمرو ﴿نُنَزِّلُ لَكَ خَطَايَكُمْ﴾ مثل: قضاياكم، ولا ثاء فيها. وقرأ نافع «تَغْفِرُ» بالثاء مضمومة «خطيئاتكم» بالهمز وضم الثاء، على الجمع، وافقه ابن عامر في «تَغْفِرُ» بالثاء المضمومة، لكنه قرأ «خطيئتكُم» على التوحيد.

﴿وَسَأَلْتَهُم عَنِ الْفَرَكَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاتُهُمْ يَوْمَ سُبْحَتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبُوتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلَّوْهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَأَلْتَهُم﴾ يعني أسباط اليهود، وهذا سؤال تقرير وتوبيخ يقرّره على قديم كفرهم، ومخالفة أسلافهم الأنبياء، ويخبرهم بما لا يعلم إلا بوحى. وفي القرية خمسة أقوال: أحدها: أنها أيلة، رواه مرة عن ابن مسعود، وأبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، والسدي. والثاني: أنها مَدِين، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثالث: أنها ساحل مدين، روي عن قتادة. والرابع: أنها طبرية، قاله الزهري. والخامس: أنها قرية يقال لها: مقنا، بين مدين وعينونا، قال له ابن زيد. ومعنى: ﴿حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ مجاورة البحر وبقره. وعلى شاطئه. ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ قال الزجاج: أي: يَظْلُمُونَ، يقال: عدا فلان يعدو عُذْوَانًا وَعُدَاءً وَعَدْوًا وَعُدْوًا: إذا ظلم، وموضع «إِذْ» نصب؛ والمعنى: سلهم عن وقت عُدْوِهِم في السبت ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاتُهُمْ﴾ في موضع نصب أيضاً بـ «يَعْدُونَ» والمعنى: سلهم إذ عُدُوا في وقت الإتيان. ﴿شُرْعًا﴾ أي: ظاهرة. ﴿كَذَلِكَ بَلَّوْهُم﴾ أي: مثل هذا الاختبار الشديد نخبرهم بفسقهم. ويحتمل على بعد أن يكون المعنى: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبُوتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ كذلك، أي: لا تأتيتهم شُرْعًا؛ ويكون: ﴿بَلَّوْهُم﴾ مستأنفًا. وقرأ الحسن، والأعمش، وأبان، والمفضل عن عاصم: «يُسْبُوتُونَ» بضم الياء.

﴿وَرَأَتْ أَتَتْهُنَّ أُمَّةٌ لَّيْمٌ لِّهِنَّ لَيْمٌ يَظُنُّونَ أَنَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةُ إِلَى رَبِّكَ وَلَئِنَّهُمْ يَنفُقُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَرَأَتْ أَتَتْهُنَّ أُمَّةٌ لَّيْمٌ لِّهِنَّ﴾ قال المفسرون: ائترق أهل القرية ثلاث فرق؛ فرقة صادت وأكلت، وفرقة نهت وزجرت، وفرقة أسكت عن الصيد وقالت للفرقة الناهية: ﴿لَيْمٌ يَظُنُّونَ أَنَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ لا موهم على موعظة قوم يعلمون أنهم غير مقلعين، فقالت الفرقة الناهية: ﴿مَعْذِرَةُ إِلَى رَبِّكَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «معذرة» رفعًا، أي: موعظتنا إياهم معذرة، والمعنى أن الأمر بالمعروف واجب علينا، فعلينا موعظة هؤلاء عذرًا إلى الله. وقرأ حفص عن عاصم: «معذرة» نصبًا، وذلك على معنى نعتذر معذرة. ﴿وَلَئِنَّهُمْ يَنفُقُونَ﴾ أي: وجائز أن يتصفوا بالموعظة فيتركوا المعصية.

﴿فَلَمَّا سُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَجَحُوا عَنِ السُّوِّ وَأَنذَرْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا يَدَايَ يَبِيسَ يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا سُوا﴾ عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ فَلَمَّا هُمْ كَانُوا قَرْدَةً خَبِيرَةً ﴿وَأَنذَرْنَا﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكَّتْ لِبَعْنَةٍ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْتَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنْ رَزَقْتَ لَسْرِحُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَفَعُولٌ رَجِيمٌ ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّوِّ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّوِّ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني: تركوا ما وعظوا به ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّوِّ﴾ وهم الناهون عن المنكر. والذين ظلموا هم المعتدون في السبت.

قوله تعالى: ﴿يَدَايَ يَبِيسَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «يَبِيسَ» على وزن فاعِل، فالهزمة بين الباء والياء. وقرأ نافع: «يَبِيسَ» بكسر الباء من غير همز. وقرأ ابن عامر كذلك، إلا أنه همز. وروى خارجة عن نافع: «يَبِيسَ» بفتح الباء من غير همز، على وزن «فَعْلِلَ». وروى أبو بكر عن عاصم: «يَبِيسَ» على وزن «فَعْلِلَ». وقرأ

ابن عباس، وأبو رزين، وأيوب: «بَيَّاسٍ» على وزن «فَيْعَالٍ». وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، ومعاذ القاري: «بَيْسٍ» بفتح الباء وكسر الهمزة من غير ياء على وزن «نَعَسٍ». وقرأ الضحاك، وعكرمة: «بَيْسٍ» بتشديد الباء مثل «قَيْمٍ». وقرأ أبو العالية، وأبو مجلز: «بَيْسٍ» بفتح الباء والسين وبهمزة مكسورة من غير ياء ولا ألف على وزن «فَعِلٍ». وقرأ أبو المتوكل، وأبو رجاء: «بائسٍ» بألف ومدة بعد الباء وبهمزة مكسورة بوزن «فاعِلٍ». قال أبو عبيدة: البئس: الشديد، وأنشد:

حَنَقًا عَلَيَّ وَمَا تَرَى لِي فِيهِمْ أَثَرًا بَيْسًا^(١)

وقال الزجاج: يقال: بئس يباس بأساً. والعاني: الشديد الدخول في الفساد، المتمرد الذي لا يقبل موعظة. وقال ابن جرير: «فلما عتوا» أي: تمردوا فيما نهوا عنه؛ وقد ذكرنا في سورة [البقرة: ٦٥] قصة مسخهم. وكان الحسن البصري يقول: والله ما لحوم هذه الحيتان بأعظم عند الله من دماء قوم مسلمين.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُبُّكَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أعلم، قاله الحسن، وابن قتيبة، وقال: هو من آذنتك بالامر. وقال ابن الأنباري: «تأذن» بمعنى أذن؛ كما يقال: تعلَّم أن فلاناً قائم، أي: أعلم. وقال أبو سليمان الدمشقي: أي: أعلم أنبياء بني إسرائيل. والثاني: حتم، قاله عطاء. والثالث: وعد، قاله قطرب. والرابع: تألى، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على اليهود، وقال مجاهد: على اليهود والنصارى بمعاصيهم. ﴿مَنْ يَسْتَوْفُهُمْ﴾ أي: يوليهم ﴿سُوءَ الْفَالِكِ﴾. وفي المبعوث عليهم قولان: أحدهما: أنه محمد ﷺ وأمه، قاله ابن عباس. والثاني: العرب، كانوا يجيئونهم الخراج، قاله سعيد بن جبير، قال: ولم يجِبْ الخراج نبي قط إلا موسى، جباه ثلاث عشرة سنة، ثم أمسك إلى النبي ﷺ. وقال السدي: بعث الله عليهم العرب يأخذون منهم الجزية ويقتلونهم. وفي سوء العذاب أربعة أقوال: أحدها: أخذ الجزية، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: المسكنة والجزية، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: الخراج، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير. والرابع: أنه القتال حتى يُسلموا، أو يُعطوا الجزية.

﴿وَقُلْتَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أُسْمًا﴾ يَنْهَهُمُ الصَّالِحُونَ وَيَتَّبِعُونَ دُونَ ذَلِكَ وَيَكُونُهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلْتَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أُسْمًا﴾ قال أبو عبيدة: فرأناهم فرقاً. قال ابن عباس: هم اليهود، ليس من بلد إلا وفيه منهم طائفة. وقال مقاتل: هم بنو إسرائيل. وقيل: معناه: شتات أمرهم وافتراق كلمتهم. ﴿وَيَنْهَهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ وهم المؤمنون بعيسى ومحمد ﷺ. ﴿وَيَتَّبِعُونَ دُونَ ذَلِكَ﴾ وهم الكفار. وقال ابن جرير: إنما كانوا على هذه الصفة قبل أن يُبعث عيسى، وقبل ارتدادهم.

قوله تعالى: ﴿يَكُونُهُمْ﴾ أي: اخترناهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ﴾ وهي الخير، والخصب، والعافية، ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾ وهي الجذب، والشر، والشدائد؛ فالحسنات والسيئات تحت على الطاعة، أما النعم فلطلب الازدياد منها، وخوف زوالها، والنقم فلكتشفها، والسلامة منها. ﴿وَلَكَلَّهْمُ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لكي يتوبوا.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مَا يَنْهَى عَنْ عَمَلِهِمْ﴾ وَرَوُّوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ غَلَمُوا أَفْوَاجًا وَيَأْخُذُونَ كِتَابَ اللَّهِ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَارِ أَجْرُهُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا يَتَّقُونَ ﴿١٦٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: من بعد الذين وصفناهم. ﴿خَلَفَ﴾ وقرأ الجوني، والمجدي: «خَلَفَ» بفتح اللام. قال أبو عبيدة: الخَلَفَ والخَلَفَ واحد؛ وقوم يجعلون المحرك اللام، للصالح، والمسكن، لغير الصالح. وقال ابن قتيبة: الخَلَفَ: الرديء من الناس ومن الكلام، يقال: هذا خَلَفٌ من القول. وقال ابن الأنباري: أكثر ما تستعمل العرب الخَلَفَ، بإسكان اللام، في الرديء المذموم، وتفتح اللام في الفاضل الممدوح. وقد يوقع الخَلَفَ على

(١) البيت الذي الأصمعيّ المذنوبي، وهو في «الأغاني» ١٠٢/٣، ١٠٣، ومجاز القرآن: لأبي عبيدة ٢٣١/١، والطبري ٢٠١/١٣.

الممدوح، والخَلْفُ على المذموم؛ غير أن المختار ما ذكرناه. وفي المراد بهذا الخَلْف ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود، قاله ابن عباس، وابن زيد. والثاني: النصارى. والثالث: أن الخَلْف من أمة محمد ﷺ، والقولان عن مجاهد. فإن قيل: الخَلْف واحد، فكيف قال: «يأخذون» وكذلك قال في [مريم: ٥٩] «أضاعوا»؟ فقد ذكر ابن الأنباري عنه جوابين: أحدهما: أن الخَلْف: جمع خالف، كما أن المركب: جمع راكب، والشَّرْب: جمع شارب. والثاني: أن الخَلْف مصدر يكون للثنين والجميع، والمذكر والمؤنث.

قوله تعالى: ﴿وَرَوُّوا كِتَابَكُمْ﴾ أي: انتقل إليهم انتقال الميراث من سلف إلى خلف، فيخرج في الكتاب ثلاثة أقوال: أحدها: أنه التوراة. والثاني: الإنجيل. والثالث: القرآن.

قوله تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أي: هذه الدنيا، وهو ما يعرض لهم منها. وقيل: سماء عرضاً، لقلة بقاءه. قال ابن عباس: يأخذون ما أحبوا من حلال أو حرام. وقيل: هو الرُّشوة في الحكم. وفي وصفه بالأدنى قولان: أحدهما: أنه من الدُّنُو. والثاني: أنه من الدناءة.

قوله تعالى: ﴿سَيَفْرَرُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن المعنى: إنا لا نواخذ، تَمْثِيلاً على الله الباطل. والثاني: أنه ذنب يغفره الله لنا، تَمْثِيلاً لرحمة الله تعالى. وفي قوله: ﴿وَلَا يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ يَنْتَلِمْ يَأْخُذُونَ﴾ قولان: أحدهما: أن المعنى: لا يشعبهم شيء، فهم يأخذون لغیر حاجة، قاله الحسن. والثاني: أنهم أهل إصرار على الذنوب، قاله مجاهد. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ يَمِيقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قال ابن عباس: وكَدَّ الله عليهم في التوراة أن لا يقولوا على الله إلا الحق، فقالوا الباطل، وهو ما أوجبوا على الله من مغفرة ذنوبهم التي لا يتوبون منها، وليس في التوراة ميعاد المغفرة مع الإصرار.

قوله تعالى: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ معطوف على «ورثوا». ومعنى «درسوا ما فيه»: قرؤوه، فكأنه قال: خالفوا على علم. «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآخِرَةِ» أي: ما فيها من الثواب ﴿خَيْرٌ لِّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَقْلًا تَعْقِلُونَ﴾ أن الباقي خير من الفاني. قرأ ابن عامر، ونافع، وحفص عن عاصم: بالتاء، والباقون: بالياء.

﴿وَالَّذِينَ يَمْسُكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (١٧١)

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْسُكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحزمة، والكسائي وحفص عن عاصم «يمسكون» مشددة، وقرؤوا ﴿وَلَا تُسْكَرُوا بِبَيْعِ الْكَافِرِينَ﴾ مخففة [المنتحة: ١٠] وقرأهما أبو عمرو بالتشديد. وروى أبو بكر عن عاصم أنه خففهما. ويقال: مَسَكَتْ بالشيء، وتمسكت به، واستمسكت به، وامسكت به. وهذه الآية نزلت في مؤمني أهل الكتاب الذين حفظوا حدوده ولم يُحرّفوه، منهم [عبد الله] بن سلام وأصحابه. قال ابن الأنباري: وخبر «الذين»: «إنا» وما بعده، وله ضمير مقدر بعد «المصلحين» تأويله: والذين يمسكون الكتاب إنا لا نضيع أجر المصلحين منهم، ولهذه العلة وَعَدَهُمْ حفظ الأجر بشرط، إذ كان منهم من لم يصلح. قال: وقلا بعض النحويين: المصلحون يرجعون على الذين، وتلخيص المعنى عنده: والذين يمسكون بالكتاب، وأقاموا الصلاة، إنا لا نضيع أجرهم، فأظهرت كنايةهم بالمصلحين، كما يقال: عليّ لقيت الكسائي، وأبو سعيد رويت عن الخدري، يراد: لقيته ورويت عنه. قال الشاعر:

فيا ربّ لَيْسَ أَنْتَ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ وَأَنْتَ الَّذِي فِي رَحْمَةِ اللَّهِ أَظْمَعُ^(١)
أراد في رحمته، فأظهر ضمير الهاء.

﴿وَاذْكُرُوا مَا آتَيْنَاكُمْ يَوْمَ قَوْلِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا بِيَدِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٢)

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي: واذكر لهم إذ نتقنا الجبل، أي: رفعناه. قال مجاهد: أخرج الجبل من الأرض، ورفع فوقهم كالظلة، فقبل لهم: لتؤمننّ أو ليقعنّ عليكم. وقال قتادة: نزلوا في أصل جبل، فزُفِعَ فوقهم، فقال: لِنَأْخُذْ أَمْرِي، أو لأرمينكم به.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ وَكَفَّ ذُنُوبَهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ عَنْ أَسْفَهِمْ وَمَا يَكْفُرُونَ إِلَّا خَسْفًا وَمَا يَبْهَتُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَتَّخَذَ مِنْهُمْ أَقْسَمًا أَلَسْتُمْ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [١٧٢]

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنوعمان - ونوعمان قريب من عرفة - ذكره ابن قتيبة «فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها، فشرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلاً، وقال: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ»^(١) ومعنى الآية: وإذا أخذ ربكم من ظهور بني آدم. فقوله: «من ظهورهم» بدل من «بني آدم». وقيل: إنما قال: «من ظهورهم» ولم يقل: من ظهر آدم، لأنه أخرج بعضهم من ظهور بعض، فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لأنه قد علم أنهم بنوه، وقد أخرجوا من ظهره. وقوله تعالى: ﴿وَذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وحزمة، والكسائي «ذُرِّيَّتَهُمْ» على التوحيد. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر «ذُرِّيَّتَهُمْ» على الجمع. قال أبو علي: الذرية تكون جمعاً، وتكون واحداً. وفي قوله: ﴿وَأَتَّخَذَ مِنْهُمْ أَقْسَمًا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أشهدهم على أنفسهم بإقرارهم، قاله مقاتل. والثاني: دلهم بخلقه على توحيده، قاله الزجاج. والثالث: أنه أشهد بعضهم على بعض بإقرارهم بذلك، قاله ابن جرير.

قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ والمعنى: وقال لهم: ألسنت بربكم؟ وهذا سؤال تقرير. قالوا: بلى شهدنا أنك ربنا. قال السدي: قوله: «شهدنا» خبر من الله تعالى عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بني آدم. ويحسن الوقف على قوله: «بلى» لأن كلام الذرية قد انقطع. وزعم الكلبي أن الذرية لما قالت «بلى» قال الله للملائكة: «اشهدوا» فقالوا: «شهدنا». وروى أبو العالية عن أبي بن كعب قال: جمعهم جميعاً، فجعلهم أزواجاً، ثم صورهم، ثم استنطقهم، ثم قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ أنك إلهنا. قال: فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع، وأشهد عليكم أبائكم آدم ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ لم نعلم بهذا. وقال السدي: أجابته طائفة طائعين، وطائفة كارهين تقية.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ قرأ أبو عمرو «أن يقولوا»، «أو يقولوا» بالياء فيهما. وقرأ الباقون بالتاء فيهما. قال أبو علي: حجة أبي عمرو قوله: «وإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ» وقوله: «قَالُوا بلى»، وحجة من قرأ بالتاء أنه قد جرى في الكلام خطاب «ألسنت بربكم» قالوا بلى شهدنا. ومعنى قوله: «يقولوا»: لئلا يقولوا، ومثله: ﴿أَنْ تَبَيَّنَ بَيْنَكُمْ﴾ [لقمان: ١٠]. وفي قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ قولان: أحدهما: أنه إشارة إلى الميثاق والإقرار. والثاني: أنه إشارة إلى معرفة أنه الخالق. قال المفسرون: هذه الآية تذكير من الله تعالى بما أخذ على جميع المكلفين من الميثاق، واحتجاج عليهم لئلا يقول الكفار: إنا كنا عن هذا الميثاق غافلين لم نذكره، ونسيانهم لا يسقط الاحتجاج بعد أن أخبر الله تعالى بذلك على لسان النبي ﷺ الصادق. وإذا ثبت هذا بقول الصادق، قام في النفوس مقام الذكر، فالاحتجاج به قائم.

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَيْنِهِمْ أَفَتَبْلُغُونَا﴾ [١٧٣]

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ فأتبعنا منهاجهم على جهل منا بالكهنتك ﴿أَفَتَبْلُغُنَا بِمَا قَعَلِ الْبَاطِلُونَ﴾ في دعواهم أن معك إلهاً. فقطع الله احتجاجهم بمثل هذا، إذ أذكرهم أخذ الميثاق على كل واحد منهم. وجماعة أهل العلم على ما شرحنا من أنه استنطق الذر، ورغب فيهم عقولاً وأفهاماً عرفوا بها ما عرض

(١) «المستند» ١٥١/٤، وهو في «مجمع الزوائد» ٢٥/٧ وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح. ونقله ابن كثير في «التفسير» عن أحمد وقال: وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من «سننه» عن محمد بن عبد الرحمن صاعقة عن حسين بن محمد المرزوي به، ورواه ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث حسين بن محمد به إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفاً. وأخرجه الحاكم في «مستدرکه» من حديث حسين بن محمد وغيره عن جرير بن حازم عن كلثوم بن جبر به، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبر هكذا قال، وقد رواه عبد الوارث عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير موقوف، وكذا رواه إسماعيل بن عليه، وكيع عن ربيعة بن كلثوم بن جبر عن أبيه به، وكذا رواه العوفي، وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس، فهذا أكثر وأثبت.

عليهم. وقد ذكر بعضهم أن معنى أخذ الذرية: إخراجهم إلى الدنيا بعد كونهم نطفاً، ومعنى إشهادهم على أنفسهم: اضطرارهم إلى العلم بأنه خالقهم بما أظهر لهم من الآيات والبراهين. ولما عرفوا ذلك ودعاهم كل ما يرون ويشاهدون إلى التصديق، كانوا بمنزلة الشاهدين والمشهدين على أنفسهم بصحته، كما قال: ﴿شَهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] يريد: هم بمنزلة الشاهدين، وإن لم يقولوا: نحن كفر، كما يقول الرجل: قد شهدت جوارحي بصدقك، أي: قد عرفته. ومن هذا الباب قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٩] أي: بين وأعلم. وقد حكى نحو هذا القول ابن الأنباري، والأول أصح، لموافقة الآثار^(١).

﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلَمْ نُحْمِلْ بِرَيْبٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ﴾ أي: وكما بينّا في أخذ الميثاق الآيات، ليتدبرها العباد فيعملوا بموجبها. ﴿وَلَمْ نُحْمِلْ بِرَيْبٍ﴾ أي: ولكي يرجعوا عما هم عليه من الكفر إلى التوحيد.

﴿وَأَتْلُوهُنَّ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُوهُنَّ﴾ قال الزجاج: هذا نسق على ما قبله، والمعنى: اتل عليهم إذ أخذ ربك، ﴿وَأَتْلُوهُنَّ﴾ تَبَاؤُ الْوَيْلَ مَا تَبَيَّنَتْ مَا كَانَتْ تَفْعَلْنَ فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْمُنَارِقِينَ ﴿وَأَتْلُوهُنَّ﴾ ابن عباس: بلعم بن باعوراء. وروي عنه: أنه بلعام بن باعور، وبه قال مجاهد، وعكرمة، والسدي. وروى العوفي عن ابن عباس أن بلعماً من أهل اليمن. وروي عنه ابن أبي طلحة أنه من مدينة الجبّارين. والثاني: أنه أمية بن أبي الصلت، قاله عبد الله بن عمرو بن العاص، وسعيد بن المسيب، وأبو روق، وزيد بن أسلم، وكان أمية قد قرأ الكتب، وعلم أن الله مرسل رسولاً، ورجا أن يكون هو، فلما بعث النبي ﷺ حسده وكفر. والثالث: أنه أبو عامر الراهب، روى الشعبي عن ابن عباس. قال: الأنصار تقول: هو الراهب الذي بُني له مسجد الشُّقاق، وروي عن ابن المسيب نحوه. والرابع: أنه رجل كان في بني إسرائيل، أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيهن، وكانت له امرأة له منها ولد، وكانت سمجة دميمة، فقالت: ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل، فدعا الله لها، فلما علمت أن ليس في بني إسرائيل مثلاً، رغبت عن زوجها وأرادت غيره، فلما رغبت عنه، دعا الله أن يجعلها كلبه تَبَاحَةً، فذهبت منه فيها دعوتان، فجاء بنوها وقالوا: ليس بنا على هذا صبر أن صارت أثناً كلبه تَبَاحَةً يعيرنا الناس بها، فادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها أولاً، فدعا الله، فعادت كما كانت، فذهبت فيها الدعوات الثلاث، رواه عكرمة عن ابن عباس، والذي روي لنا في هذا الحديث «وكانت سَمُوجَةً» بكسر الميم، وقد روى سيبويه عن العرب أنهم يقولون: رجل سَمُجٌ: بتسكين الميم، ولم يقولوا: سَمِجٌ؛ بكسرها. والخامس: أنه المنافق، قاله الحسن. والسادس: أنه يكمل من انسلخ من الحق بعد أن أعطيه من اليهود والنصارى والحنفاء، قاله عكرمة. وفي الآيات خمسة أقوال: أحدها: أنه اسم الله الأعظم، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال ابن جبير. والثاني: أنها كتاب من كتب الله ﷻ. روى عكرمة عن ابن عباس قال: هو بلعام، أوتي كتاباً فانسلك منه. والثالث: أنه أوتي النبوة، فَرَّشَاهُ قَوْمُهُ عَلَى أَنْ يَسْكُتَ، ففعل وتركهم على ما هم عليه، قاله مجاهد، وفيه بُعد، لأن الله تعالى لا يصطفي لرسالته إلا معصوماً عن مثل هذه الحال. والرابع: أنها جُحجج التوحيد، وفهم أدلته. والخامس: أنها العلم بكتب الله ﷻ. والمشهور في التفسير أنه بلعام، وكان من أمره على ما ذكره المفسرون أن موسى ﷺ غزا البلد الذي هو فيه، وكانوا كفاراً، وكان هو مجاب الدعوة، فقال ملكهم: ادع على موسى، فقال: إنه من أهل ديني، ولا ينبغي لي أن أدعوا عليه، فأمر الملك أن تنحت خشبة لصلبه، فلما رأى ذلك، خرج على أتان له ليدعوا على موسى، فلما عاين عسكرهم، وقفت الأتان فضر بها، فقالت: لم تضربني، وهذه نار تتوقد قد منعني أن أمشي؟ فارجع، فرجع إلى الملك فأخبره، فقال: إما أن تدعوا عليهم، وإما أن أصلبك، فدعا على موسى باسم الله الأعظم لا أن يدخل المدينة،

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٤ في تفسير هذه الآية.

فاستجاب الله له، فوقع موسى وقومه في التيه بدعائه، فقال موسى: يا رب، بأي ذنب وقعنا في التيه؟ فقال: بدعاء بلعم. فقال: يا رب، فكما سمعت دعاء عليّ، فاسمع دعائي عليه، فدعا الله أن ينزع منه الاسم الأعظم، فنزع منه. وقيل: إن بلعام أمر قومه أن يزيّنوا النساء ويرسلوهنّ في العسكر ليقتلوا الزنا فيهم، فينصروا عليهم. وقيل: إن موسى قتله بعد ذلك. وروى السدي عن أشياخه أن بلعم أتى إلى قومه متبرّعاً، فقال: لا ترهبوا بني إسرائيل، فإنكم إذا خرجتم لقتالهم، دعوتهم فلهلكوا، فكان فيما شاء عندهم من الدنيا. وذلك بعد مضي الأربعين سنة التي تاهوا فيها، وكان نبيهم يوشع، لاموسى.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْلَخَ مِنْهَا﴾ أي: خرج من العلم بها.

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ قال ابن قتيبة: أدركه. يقال: اتبعت القوم: إذا لحقتهم، وتبعتهم: سرّ في أثرهم. وقرأ طلحة بن مصرف: «فاتبعه» بالتشديد. وقال البيهقي: اتبعه وأتبعه: لغتان. وكان «أتبعه» خفيفة بمعنى: قفاه، و«أتبعه» مشددة: حذا حذوه. ولا يجوز أن تقول: أتبعناك، وأنت تريد: أتبعناك، لأن معناها: اقتدينا بك. وقال الزجاج: يقال: تبع الرجل الشيء وأتبعه بمعنى واحد. قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعْ هَذَا﴾ [البقرة: ٣٨] وقال: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ رَجَعُونَ﴾ [يونس: ٩٠].

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: من الضالين، قاله مقاتل. والثاني: من الهالكين الفاسدين، قاله الزجاج.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتَرَكَّهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ في هاء الكناية في «رفعناه» قولان: أحدهما: أنها تعود إلى الإنسان المذكور، وهو قول الجمهور: فيكون المعنى: ولو شئنا لرفعنا منزلة هذا الإنسان بما علمناه. والثاني: أنها تعود إلى الكفر بالآيات، فيكون المعنى: لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بآياتنا، وهذا المعنى مروي عن مجاهد. وقال الزجاج: لو شئنا لعلنا بينه وبين المعصية.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: ركن إلى الدنيا وسكن. قال الزجاج: يقال: أخلد وأخلد، والأول أكثر في اللغة. والأرض هاهنا عبارة عن الدنيا، لأن الدنيا هي الأرض بما عليها. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: أنه ركن إلى أهل الدنيا، ويقال: إنه أرضى أمراته بذلك، لأنها حملته عليه. وقيل: أرضى بني عمه وقومه. والثاني: أنه ركن إلى شهوات الدنيا؛ وقد بين ذلك بقوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ والمعنى أنه انقاد لما دعاه إليه الهوى. قال ابن زيد: كان هواه مع قومه. وهذه الآية من أشد الآيات على أهل العلم إذا مالوا عن العلم إلى الهوى.

قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتَرَكَّهُ يَلْهَثُ﴾ معناه: أن هذا الكافر، إن زجرته لم ينزجر، وإن تركته لم يهتد، فالحالتان عنده سواء كحالاتي الكلب، فإنه إن طرد وحمل عليه بالطرد كان لاهثاً، وإن ترك وريض كان أيضاً لاهثاً، والتشبيه بالكلب اللاهث خاصة؛ فالمعنى: فمثله كمثل الكلب لاهثاً؛ وإنما شبهه بالكلب اللاهث، لأنه أخس الأمثال على أخس الحالات وأبشعها. وقال ابن قتيبة: كل لاهث إنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب، فإنه يلهث في حال راحته وحال كلاله، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته، فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن لم تعظه فهو ضال، كالكلب إن طردته وزجرته فسعى لهث، أو تركته على حاله رابضاً لهث. قال المفسرون: زُجِرَ في منامه عن الدعاء على بني إسرائيل فلم ينزجر، وخاطبته آتانه فلم ينته، ففُضِرَ له هذا المثل ولسائر الكفار؛ فذلك قوله: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ لأن الكافر إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال؛ وهو مع إرسال الرسل إليه كمن لم يأت رسول ولا بينة.

قوله تعالى: ﴿فَأَقْصِصْ الْقَصَصَ﴾ قال عطاء: قَصَصَ الذين كفروا وكذبوا أنبياءهم.

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ﴾ ﴿١٧٧﴾ مَنِ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَكِبُ وَشَرُّ مُضِلٍّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ ﴿١٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾ يقال: ساء الشيء يسوء: إذا قُبِحَ، والمعنى: ساء مثلاً مثل القوم، فحُذِفَ المضاف، فُتَّصِبَ «مثلاً» على التمييز.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ﴾ أي: يَضُرُّونَ بالمعصية.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَمْ أَعِنِّ لَّا يَعْبُرُونَ بِهَا وَلَكِنْ مَأْفَاكَ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَلَّا لَتَشْعُرَنَّ يَلَهُمْ أَشَدُّ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي: خلقنا. قال ابن قتيبة: ومنه ذرية الرجل، إنما هي الخلق منه، ولكن همزها يتركه أكثر العرب.

قوله تعالى: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ هذه اللام يسميها بعض أهل المعاني لام العاقبة، كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهْرٌ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] ومثله قول الشاعر:

أَمْوَالُنَا لِذَوِي الْمِيرَاثِ نَجْمَعُهَا وَذُرُونَا لِخَرَابِ الدَّهْرِ نَبْزِيهَا

ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز يعزيه بموت ابنه، فقال:

تَعَزَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَلِئْسَ لَمَّا قَدْ تَرَى يُغْذَى الصَّغِيرُ وَيُوَلَّدُ

وقد أخبر الله ﷻ في هذه الآية بنفاذ علمه فيهم أنهم يصيرون إليها بسبب كفرهم.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ لما أعرض القوم عن الحق والتفكر فيه، كانوا بمنزلة من لم يفقه ولم يُبصر ولم يسمع. وقال محمد بن القاسم النحوي: أراد بهذا كله أمر الآخرة، فإنهم يعقلون أمر الدنيا.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَلَّا لَتَشْعُرَنَّ﴾ شبههم بالأنعام لأنها تسمع وتبصر ولا تعتبر، ثم قال: ﴿يَلَهُمْ أَشَدُّ﴾ لأن الأنعام تبصر منافعها ومضارها، فتلزم بعض ما تبصره، وهؤلاء يعلم أكثرهم أنه معاند، فيقدم على النار، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ عن أمر الآخرة.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْمُسَنَّى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سُبُحْرُونَ مَا كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْمُسَنَّى﴾ سبب نزولها أن رجلاً دعا الله في صلاته، ودعا الرحمن، فقال أبو جهل: ليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً، فما بال هذا يدعو اثنين؟ فأنزل الله هذه الآية، قاله مقاتل. فأما الحسن، فهي تأنيث الأحسن. ومعنى الآية أن أسماء الله حسنى، وليس المراد أن فيها ما ليس بحسن. وذكر الماوردي أن المراد بذلك ما مالت إليه النفوس من ذكره بالعمو والرحمة دون السخط والنقمة. وقوله: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي: نادوه بها، كقولك: يا الله، يا رحمن.

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «يُلْحِدُونَ» بضم الياء، وكذلك في [النحل: ١٠٣] [السجدة: ٤٠]. وقرأ حمزة: «يَلْحِدُونَ» بفتح الحاء والياء فيهن. ووافقه الكسائي، وخلف في [النحل: ١٠٣]. قال الأخفش: أَلْحَدَ وَلَحَدَ: لغتان؛ فمن قرأ بهما أراد الأخذ باللغتين، فكان الإلحاد: العدول عن الاستقامة. وقال ابن قتيبة: يجورون عن الحق ويعدلون؛ [فيقولون: اللات والعزى ومناة وأشباه ذلك] ومنه لَحَدُ القبر، لأنه في جانب. قال الزجاج: ولا ينبغي لأحد أن يدعو بما لم يسم به نفسه، فيقول: يا جواد، ولا يقول: يا سخي؛ ويقول: يا قوي، ولا يقول: يا جلد، ويقول: يا رحيم، ولا يقول: يا رفيق، لأنه لم يصف نفسه بذلك. قال أبو سليمان الخطابي: ودليل هذه الآية أن الغلط في أسمائه والزيغ عنها إلحاد، ومما يُسمع على السنة العامة قولهم: يا سبحان، يا برهان، وهذا مهجور مستهجن لا قدوة فيه، وربما قال بعضهم: يا رب طه وتيس. وقد أنكر ابن عباس على رجل قال: يا رب القرآن. وروي عن ابن عباس أن إلحادهم في أسمائه أنهم سَمَّوْا بها أوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المئان.

فصل

والجمهور على أن هذه الآية محكمة، لأنها خارجة مخرج التهديد، كقوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ﴾ [المدثر: ١١]، وقد ذهب بعضهم إلى أنها منسوخة بآية القتال، لأن قوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْعَنُونَ فِي أَصْطَبِهِ ۖ﴾ يقتضي الإعراض عن الكفار، وهذا قول ابن زيد.

﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ۖ﴾ أي: يعملون به، ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ ۖ﴾ أي: وبالعامل به يعدلون. وفيمن أريد بهذه الآية أربعة أقوال: أحدها: أنهم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان من هذه الأمة، قاله ابن عباس. وكان ابن جريج يقول: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال: «هذه أمتي، بالحق يأخذون ويعطون ويقضون»^(١). وقال قتادة: بلغنا أن النبي ﷺ كان إذا تلا هذه الآية قال: «هذه لكم وقد أعطي القوم مثلها»^(٢) ثم يقرأ: ﴿وَمَنْ قَوَّرَ مُوسَى أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ۝﴾ [الأعراف: ١٥٩]. والثاني: أنهم من جميع الخلق، قاله ابن السائب. والثالث: أنهم الأنبياء. والرابع: أنهم العلماء، ذكر القولين الماوردي.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾ وَأَمْلَى لَهُمْ أَنْ يَكِيدَ مِثْنُ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ﴾ قال أبو صالح عن ابن عباس: هم أهل مكة. وقال مقاتل: نزلت في المستهزئين من قريش.

قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ۖ﴾ قال الخليل بن أحمد: سنطوي أعمارهم في اغترار منهم. وقال أبو عبيدة: الاستدراج: أن يُتدرج إلى الشيء في خفية قليلاً قليلاً ولا يُهجم عليه، وأصله من الدَّرَجَة، وذلك أن الراقي والنازل يرقى وينزل مَرَقَة مرقاة؛ ومنه: دَرَج الكتاب: إذا طواه شيئاً بعد شيء؛ ودرج القوم: إذا ماتوا بعضهم في إثر بعض. وقال الزبيدي: الاستدراج: أن يأتيه من حيث لا يعلم. وقال ابن قتيبة: هو أن يذيقهم من بأسه قليلاً قليلاً من حيث لا يعلمون، ولا يباغتهم به ولا يجاهرهم. وقال الأزهري: سناخذهم قليلاً قليلاً من حيث لا يحتسبون؛ وذلك أن الله تعالى يفتح عليهم من النعم ما يغتبطهم به ويركون إليه، ثم يأخذهم على غرثهم أغفل ما يكونون. قال الضحاك: كلما جدوا لنا معصية جددنا لهم نعمة. وفي قوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۖ﴾ قولان: أحدهما: من حيث لا يعلمون بالاستدراج. والثاني: بالهلكة.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ ۖ﴾ الإملاء: الإمهال والتأخير.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كِيدَىٰ مِثْنُ ۖ﴾ قال ابن عباس: إن مكري شديد. وقال ابن فارس: الكيد: المكر؛ فكل شيء عالجته فانت كِيدُهُ. قال المفسرون: مكر الله وكيدته: مجازاة أهل المكر والكيد على نحو ما بينا في سورة [البقرة: ١٥] و [آل عمران: ٥٤] من ذكر الاستهزاء والخداع والمكر.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ هَيَاتُ حَدِيثِهِمْ يَعْمَدُوْا يُؤْمِنُونَ ۝﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيُّ هَادٍ لَمْ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ ۖ﴾ سبب نزولها أن رسول الله ﷺ، علا على الصفا ليلة، ودعا قريشاً فخذلاً فخذلاً: يا بني فلان، يا بني فلان، فحذَّره بأس الله وعقابه، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون، بات يصوت حتى الصباح، فنزلت هذه الآية^(٣)، قاله الحسن، وقتادة. ومعنى الآية: أولم يتفكروا فيعلموا ما بصاحبهم من جنة، أي: جنون، فحُثِّم على التفكير في أمره ليعلموا أنه بريء من الجنون. ﴿إِنْ هُوَ ۖ﴾ أي: ما هو ﴿إِلَّا

(١) «الطبري» ٢٨٦/١٣، وابن كثير: ٢٦٩/٢، وخرجه السيوطي في «الدر المنثور» ١٤٩/٣، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٢) أورده السيوطي في «الدر» ١٤٩/٣ ونسبه لابن جرير، وابن المنذر، وعبد بن حميد.

(٣) «الطبري» ٢٨٩/١٣، وابن كثير: ٢٧٠/٢. وأورده السيوطي في «الدر» وزاد نسبه لابن المنذر، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

علمها. وقال ابن الأنباري: فيه تقديم وتأخير، تقديره: يسألونك عنها كأنك حفي بها، والحفي في كلام العرب: المعني.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: لا يعلمها إلا هو ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال مقاتل في آخرين: المراد بالناس هاهنا أهل مكة. وفي قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ قولان: أحدهما: لا يعلمون أنها كائنة، قاله مقاتل. والثاني: لا يعلمون أن هذا مما استأثر الله بعلمه، قاله أبو سليمان الدمشقي.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَكُنْتُ مِنَ الْخَاسِرِينَ وَمَا مَسَّنِيَ الشُّوْبُ إِنَّا إِنَّا لَا نَزِدُّهُ وَيَشِيرُ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ سبب نزولها أن أهل مكة قالوا: يا محمد، ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو، فتشتري فتربح، وبالأرض التي تريد أن تُجذب، فترحل عنها إلى ما قد أحصيت؟ فنزلت هذه الآية، روي عن ابن عباس. وفي المراد بالنفع والضرب قولان: أحدهما: أنه عام في جميع ما ينفع ويضر، قاله الجمهور. والثاني: أن النفع: الهدى، والضرب: الضلالة، قاله ابن جريج.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلا ما أراد أن أملكه بتمليكه إياي؛ ومن هو على هذه الصفة فكيف يعلم علم الساعة؟

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: لو كنت أعلم بجذب الأرض وقحط المطر قبل كون ذلك لهيات لسنة الجذب ما يكفيها، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: لو كنت أعلم ما أربح فيه إذا اشتريته لاستكثرت من الخير، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثالث: لو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من العمل الصالح، قاله مجاهد. والرابع: لو كنت أعلم ما أسأل عنه من الغيب لأجبت عنه. ﴿وَمَا مَسَّنِيَ الشُّوْبُ﴾ أي: لم يلحقني تكذيب، قاله الزجاج. فاما الغيب، فهو كل ما غاب عنك. ويخرج في المراد بالخير هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه العمل الصالح. والثاني: المال. والثالث: الرزق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ الشُّوْبُ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه الفقر، قاله ابن عباس. والثاني: أنه كل ما يسوء، قاله ابن زيد. والثالث: الجنون، قاله الحسن. والرابع: التكذيب، قاله الزجاج. فعلى قول الحسن، يكون هذا الكلام مبتدأ، والمعنى: وما بي من جنون إنما أنا نذير، وعلى باقي الأقوال يكون متعلقاً بما قبله.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَشَفَّاهَا حَمَلًا حَقِيْقًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَفْتَكْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَليًّا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَليًّا جَعَلَ لَمْ شُرَكَاءَ فِيْمَا ءَاتَاهُمَا فَفَعَلَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾ يعني بالنفس: آدم، وبزوجها: حواء. ومعنى ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾: لِيَأْنَسَ بِهَا وَيَأْوِي إِلَيْهَا. ﴿فَلَمَّا تَشَفَّاهَا﴾ أي: جامعها. قال الزجاج: وهذا أحسن كناية عن الجماع. والحمل، بفتح الحاء: ما كان في بطن، أو أخرجه شجرة. والحمل، بكسر الحاء: ما يُحْمَل. والمراد بالحمل الخفيف: الماء.

قوله تعالى: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: استمرت به، قعدت وقامت ولم يُثقلها. وقرأ سعد بن أبي وقاص، وابن مسعود، وابن عباس، والضحاك: «فاستمرت به». وقرأ أبي بن كعب، والجوني: «استمارت به» بزيادة ألف. وقرأ عبد الله بن عمرو، والجحدري: «فمازت به» بآلف وتشديد الراء. وقرأ أبو العالية، وأيوب، ويحيى بن يعمر: «فَمَرَّتْ بِهِ» خفيفة الراء، أي: شكت وتمارت أحملت، أم لا؟ ﴿فَلَمَّا أَفْتَكْ﴾، أي: صار حملها ثقيلاً. وقال الأخفش: صارت ذا ثقل. يقال: أثمنا، أي: صرنا ذوي ثمر.

قوله تعالى: ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ يعني آدم وحواء ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَليًّا﴾ وفي المراد بالصالح قولان: أحدهما: أنه الإنسان المشابه لهما، وخافا أن يكون بهيمة، هذا قول الأكثرين. والثاني: أنه الغلام، قاله الحسن، وقادة.

شرح السبب في دعائهما

ذكر أهل التفسير أن إبليس جاء حواء، فقال: ما يدريك ما في بطنك، لعله كلب أو خنزير أو حمار؛ وما يدريك من أين يخرج، أيشق بطنك، أم يخرج من فيك، أو منخريك؟ فأحزنها ذلك، فدعوا الله حينئذ، فجاء إبليس فقال: كيف تجدنيك؟ قالت: ما أستطيع القيام إذا قعدت، قال: أفرأيت إن دعوت الله، فجعله إنساناً مثلك ومثل آدم، أتسمينه باسمي؟ قالت: نعم. فلما ولدته سوياً، جاءها إبليس فقال: لم لا تُسمّيه بي كما وعدتني؟ فقالت: وما اسمك؟ قال: الحارث، وكان اسم إبليس في الملائكة الحارث، فسمته: عبد الحارث، وقيل: عبد شمس برضى آدم، فذلك قوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَليًا جَمَلًا لَمْ شُرَكَاءَ﴾^(١). قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «شركاء» بضم الشين والمد، جمع شريك. وقرأ نافع، وأبو بكر عن عاصم: «شُرَكَاء» مكسورة الشين على المصدر، لا على الجمع. قال أبو علي: من قرأ «شُرَكَاء» حذف المضاف، وكأنه أراد: جعلاً له ذا شريك، وذوي شريك؛ فيكون المعنى: جعلاً لغيره شريكاً، لأنه إذا كان التقدير: جعلاً له ذوي شريك، فالمعنى: جعلاً لغيره شريكاً؛ وهذه القراءة في المعنى كقراءة من قرأ «شركاء». وقال غيره: معنى «شركاء»: شريكاً، فأوقع الجمع موقع الواحد كقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. والمراد بالشريك: إبليس، لأنهما أطاعاه في الاسم، فكان الشريك في الطاعة، لا في العبادة؛ ولم يقصد أن الحارث ربهما، لكن قصداً أنه سبب نجاة ولدهما؛ وقد يُطلق العبد على من ليس بمملوك. قال الشاعر:

وإني لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَاصِياً وما فيَّ إِلَّا تِلْكَ مِنْ شَيْمَةِ الْعَبْدِ^(٢)

وقال مجاهد: كان لا يعيش لآدم ولد، فقال الشيطان: إذا وُلِدَ لكما ولد فسمياه عبد الحارث، فأطاعاه في الاسم، فذلك قوله: ﴿جَمَلًا لَمْ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾^(٣)، هذا قول الجمهور، وفيه قول ثانٍ، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: ما أشرك آدم، إن أول الآية لشكر، وآخرها مثل ضربه الله لمن يعبد في قوله: ﴿جَمَلًا لَمْ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾. وروى قتادة عن الحسن، قال: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً فهو دؤهم ونصروهم^(٤). وروي عن الحسن، وقاتدة قالاً: الضمير في قوله: ﴿جَمَلًا لَمْ شُرَكَاءَ﴾ عائد إلى النفس وزوجه من ولد آدم، لا إلى آدم وحواء. وقيل: الضمير راجع إلى الولد الصالح، وهو السليم الخلق، فالمعنى: جعل له ذلك الولد شركاء. وإنما قيل: «جعلاً» لأن حواء كانت تلد في كل بطن ذكراً وأنثى. قال ابن الأنباري: الذين جعلوا له شركاء اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار الذين هم أولاد آدم وحواء. فتأويل الآية: فلما آتاهما صالحاً، جعل أولادَهُما له شركاء، فحذف الأولاد وأقامهما مقامهم كما قال: ﴿وَسَلِّ الْقُرَيْشَ﴾ [يوسف: ٨٢]. وذهب السدي إلى أن قوله: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ في مشركي العرب خاصة، وأنها مفصولة عن قصة آدم وحواء.

﴿أَبَشْرُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَبَشْرُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ قال ابن زيد: هذه لآدم وحواء حيث سمّيا ولدهما عبد شمس، والشمس لا

(١) «الطبري» ٣٠٧/١٣ - ٣٠٨. ثم قال الطبري عقبه: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن آدم وحواء أنهما دعوا الله بهما بحمل حواء، وأقسما لئن أعطاهما ما في بطن حواء صالحاً، ليكونان لله من الشاكرين، والصالح قد يشمل معاني كثيرة، منها الصلاح في استواء الخلق، ومنها الصلاح في الدين، والصالح في العقل والتدبير، وإذا كان ذلك كذلك ولا خبر عن الرسول يوجب الحجة بأن ذلك على بعض معاني الصلاح دون بعض، ولا فيه من العقل دليل، وجب أن يعم كما عمه الله فيقال: إنهما قالاً: لئن آتيتنا صالحاً بجميع معاني الصلاح.

(٢) البيت للمتنع الكندي وهو في «الحماسة» ٣/ ١١٨٠، و«الأمالي» ١/ ٢٧٧، ورواية الشطر الثاني فيهما: «وما شيمة لي غيرها تنبه العبداء».

(٣) «الطبري» ٣١٢/١٣، وابن كثير: ٢/ ٢٧٥ من طريق ابن أبي حاتم عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب.

(٤) «الطبري» ٣١٥/١٣، وابن كثير: ٢/ ٢٧٥ وقال: وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن عليه السلام أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير، وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عدل عنه هو ولا غيره، ولا سيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم، مثل كعب أو وهب بن منبه، وغيرهما كما سيأتي بيانه إن شاء الله، إلا أننا برأنا من عهدة المرفوع، والله أعلم.

﴿وَأَن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمَدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَكْتُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٩٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمَدَى لَا يَسْمَعُوا﴾ في المراد بهؤلاء قولان: أحدهما: أنهم الأصنام. ثم في قوله: ﴿وَتَرَكْتُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ قولان: أحدهما: يواجهونك، تقول العرب: داري تنظر إلى دارك، ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ لأنه ليس فيهم أرواح. والثاني: وتراهم كأنهم ينظرون إليك، لأن لهم أعيناً مصنوعة، فاسقط كاف التشبيه، كقوله: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى﴾ [الحج: ٢] أي: كأنهم سكارى، ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ في الحقيقة. وإنما أخبر عنهم بالهاء والميم، لأنهم على هيئة بني آدم. والقول الثاني: أنهم المشركون، فالمعنى: وتراهم ينظرون إليك بأعينهم ولا يبصرون بقلوبهم.

﴿خُذِ الزُّكْرَ وَالْمَرْءَ بِالْمَرْءِ وَالْمَرْءَ بِالْمَرْءِ﴾ ﴿١٩٩﴾

قوله تعالى: ﴿خُذِ الزُّكْرَ﴾ العفو: الميسور، وقد سبق شرحه في سورة [البقرة: ٢١٩]. وفي الذي أمر بأخذ العفو منه ثلاثة أقوال: أحدها: أخلاق الناس، قاله ابن الزبير، والحسن، ومجاهد^(١) فيكون المعنى: اقبل الميسور من أخلاق الناس، ولا تستقص عليهم فتظهر منهم البغضاء. والثاني: أنه المال، وفيه قولان: أحدهما: أن المراد بعفو المال: الزكاة، قاله مجاهد في رواية الضحاك. والثاني: أنها صدقة كانت تؤخذ قبل فرض الزكاة، ثم نُسخَت بالزكاة، روي عن ابن عباس^(٢). والثالث: أن المراد به: مساهلة المشركين والعفو عنهم، ثم نسخ بآية السيف، قاله ابن زيد^(٣).

قوله تعالى: ﴿رَأَى بِالْمَرْءِ﴾ أي: بالمعروف. وفي قوله: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَهْلِيَّاتِ﴾ قولان: أحدهما: أنهم المشركون، أمر بالإعراض عنه، ثم نُسخ ذلك بآية السيف. والثاني: أنه عام فيمن جهل، أمر بصيانة النفس عن مقابلتهم على سفههم، وإن وجب عليه الإنكار عليهم. وهذه الآية عند الأكثرين كلها محكمة، وعند بعضهم أن وسطها محكم، وطرفها منسوخان على ما بينا.

﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّكَ الْبَرُّ أَتَقَوَّا إِذَا سَأَلْتَهُمْ طَلِيفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ ﴿٢٠١﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ قال ابن زيد؛ لما نزلت ﴿خُذِ الزُّكْرَ﴾ قال النبي ﷺ: «يا رب كيف بالغضب؟» فنزلت هذه الآية^(٤). فأما قوله: ﴿وَمَا﴾ فقد سبق بيانه في سورة [البقرة] في قوله: ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ هَذِهِ﴾ [البقرة: ٢٨]، وقال أبو عبيدة: ومجاز الكلام: وإما تستخفك منه خفة وغضب وعجلة. وقال السدي: النزغ: الوسوسة وحديث النفس. قال الزجاج: النزغ: أدنى حركة تكون، تقول: قد نزغته: إذا حركته. وقد سبق معنى الاستعاذة.

قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طِيفٌ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: «طيف» بغير ألف. وقرأ نافع، وهاسم، وابن عامر، وحزمة: «طائف» بألف ممدوداً مهموزاً. وقرأ ابن عباس، وابن جبير، والجدري، والضحاك: «طَيْفٌ» بتشديد الباء من غير ألف. وهل الطائف والطيف بمعنى واحد، أم يختلفان؟ فيه قولان: أحدهما: أنها بمعنى واحد، وهما ما كان كالخيال والشيء يلم بك، حكى عن الفراء. وقال الأخفش: الطيف أكثر في كلام العرب من الطائف، قال الشاعر:

(١) «الطبري» ٣٢٦/١٣ - ٣٢٧، وابن كثير: ٢٧٧/٢. وروى البخاري في «صحيحه» ٢٢٩/٨ عن عبد الله بن الزبير: ﴿خُذِ الزُّكْرَ وَالْمَرْءَ بِالْمَرْءِ﴾ قال: ما أنزل الله [أي هذه الآية] إلا في أخلاق الناس. وروى البخاري أيضاً ٢٢٩/٨ أن ابن عباس قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهللاً كانوا أو شباناً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: يني يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيتنا بالعدل، فغضب عمر حتى هم به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الزُّكْرَ وَالْمَرْءَ بِالْمَرْءِ وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَهْلِيَّاتِ﴾ ﴿٢٠١﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله.

(٢) «الطبري» ٣٢٨/١٣.

(٣) وقال «الطبري» ٣٢٩/١٣: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: معناه: خذ العفو من أخلاق الناس واترك الغلظة عليهم، وقال: أمر بذلك النبي ﷺ في المشركين.

(٤) «الطبري» ٣٣٣/١٣، وابن كثير: ٢٧٨/٢، وأورده السيوطي في «الدر» ١٥٤/٣ عن ابن جرير الطبري. وابن زيد: هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

أَلَا يَا لَقَوْمٍ لَطِيفِ الْخَيَالِ أَرَقَّ مِمَّنْ نَازَحَ ذِي دَلَالٍ^(١)
والثاني: أن الطائف: ما يطوف حول الشيء، والطيْف: اللَّمة والوسوسة والخطرة، حكى عن أبي عمرو. وروي عن ابن عباس أنه قال: الطائف: اللَّمة من الشيطان، والطيْف: الغضب. وقال ابن الأنباري: الطائف: الفاعل من الطيف؛ والطيْف عند أهل اللغة: اللَّمَم من الشيطان؛ وزعم مجاهد أنه الغضب.
قوله تعالى: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: تذكروا الله إذا همُّوا بالمعاصي فتركوها، قاله مجاهد. والثاني: تفكروا فيما أوضح الله لهم من الحجة، قاله الزجاج. والثالث: تذكروا غضب الله؛ والمعنى: إذا جرَّاهم الشيطان على ما لا يحل، تذكروا غضب الله، فأمسكوا، فإذا هم مبصرون لمواضع الخطأ بالتفكير.
﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْفِتْنَةِ شَرًّا لَا يَصِفُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ في هذه الهاء والميم قولان: أحدهما: أنها عائدة على المشركين؛ فتكون هذه الآية مقدَّمة على التي قبلها، والتقدير: وأعرض عن الجاهلين، وإخوان الجاهلين، وهم الشياطين ﴿يَمُدُّوهُمْ فِي الْفِتْنَةِ﴾ قرأ نافع: «يمدونهم» بضم الياء وكسر الميم. والباقون: بفتح الياء وضم الميم. قال أبو علي: عامة ما جاء في التنزيل فيما يُحمَد ويُسْتَحَب: أمدت، على أفعلت، كقوله: ﴿أَيُّدُّونِي بِسَالٍ﴾ [النمل: ٣٦] ﴿أَنَّا نُنْذِرُ بِيَوْمِ مَالٍ﴾ [المومنون: ٥٥] ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهٍ﴾ [الطور: ٢٢]، وما كان على خلافه يجيء على: مددت؛ كقوله: ﴿وَيُؤَدِّمُ فِي ظُلُمَاتِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]؛ فهذا يدل على أن الوجه فتح الياء، إلا أن وجه قراءة نافع بمنزلة ﴿فَيُؤَدِّمُ بِكَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]. قال المفسرون: ﴿يَمُدُّوهُمْ فِي الْفِتْنَةِ﴾ أي: يزبنون لهم، ويريدون منهم لزومه؛ فيكون معنى الكلام: إن الذين اتَّقُوا إذا جرَّاهم الشيطان إلى خطيئة، تابوا منها، وإخوان الجاهلين، وهم الشياطين، يمدونهم في الغي، هذا قول الأكثرين من العلماء. وقال بعضهم: الهاء والميم ترجع إلى الشياطين، وقد جرى ذكرهم لقوله: «من الشيطان»؛ فالمعنى: وإخوان الشياطين يمدونهم. والثاني: أن الهاء والميم ترجع إلى المتقين؛ فالمعنى: وإخوان المتقين من المشركين، وقيل: من الشياطين يمدونهم في الغي، أي: يريدون من المسلمين أن يدخلوا معهم في الكفر، ذكر هذا القول جماعة منهم ابن الأنباري. فإن قيل: كيف قال: «إخوانهم» وليسوا على دينهم؟ فالجواب: أنا إن قلنا: إنهم المشركون، فجائز أن يكونوا إخوانهم في النسب، أو في كونهم من بني آدم، أو لكونهم يظهرون النصح كالإخوان؛ وإن قلنا: إنهم الشياطين، فجائز أن يكونوا لكونهم مصاحبين لهم، والقول الأول أصح.

قوله تعالى: ﴿شَرًّا لَا يَصِفُونَ﴾ وقرأ الزهري، وابن أبي عبيدة: «لا يقصرون» بالتشديد. قال الزجاج: يقال: أقصر يقصر، وقصر يقصر. قال ابن عباس: لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات، ولا الشياطين تقصر عنهم؛ فعلى هذا يكون قوله: «يقصرون» من فعل الفريقين، وهذا على القول المشهور؛ ويخرج على القول الثاني أن يكون هذا وصفاً للإخوان فقط.
﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا آجَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتِيْتُكُمْ بِالْحَقِّ إِنِّي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾
قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ يعني به المشركين. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: إذا لم تأتهم بآية، سألوها تعنتاً. قاله ابن السائب. والثاني: إذا لم تأتهم بآية لإبطاء الوحي، قاله مقاتل. وفي قوله: ﴿لَوْلَا آجَبَيْتَهَا﴾ قولان: أحدهما: هلاً افعلتها من تلقاء نفسك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد، والفراء، والزجاج، وابن قتيبة في آخرين، وحكى عن الفراء أنه قال: العرب تقول: اجبتيت الكلام، واختلقته، وارتجلته؛ إذا افعلته من قبل نفسك. والثاني: هلاً طلبتها لنا قبل مسألتك؟ ذكره الماوردي؛ والأول أصح.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتِيْتُكُمْ بِالْحَقِّ إِنِّي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: ليس الأمر لي.
قوله تعالى: ﴿هَكَذَا بَصَائِرُ مِنَ رَّبِّكُمْ﴾ يعني القرآن. قال أبو عبيدة: البصائر بمعنى الحجج والبرهان والبيان، واحداً: بصيرة. وقال الزجاج: معنى البصائر: ظهور الشيء وبيانه.

(١) البيت لأمية بن عائذ في شرح «أشعار الهذليين» ٤٩٤/٢، قال السكري: الطيف: ما جاء في المنام، يقول: هذا الخيال جاء من امرأة نازحة ذات دلال، والدلال: الشكل والهيئة الحسنة، والنازح: البعيد، والأرق: أن يغمض عنه مرة ويفتحها أخرى، ويروى: «يؤرق» أي: يسهر فيه.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَكُمْ تُرْجَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ اختلفوا في نزولها على خمسة أقوال: أحدها: أن رسول الله ﷺ قرأ في الصلاة المكتوبة، فقرأ أصحابه وراءه رافعين أصواتهم، فنزلت هذه الآية^(١)، قاله ابن عباس. والثاني: أن المشركين كانوا يأتون رسول الله ﷺ إذا صلى، فيقول بعضهم لبعض: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، فنزلت هذه الآية، قاله سعيد بن المسيب. والثالث: أن فتى من الأنصار كان كلما قرأ النبي ﷺ شيئاً، قرأ هو، فنزلت هذه الآية، قاله الزهري. والرابع: أنهم كانوا يتكلمون في صلاتهم أول ما قرُضت، فيجيء الرجل فيقول لصاحبه: كم صليتم؟ فيقول: كذا وكذا، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة. والخامس: أنها نزلت تأمر بالإنصات للإمام في الخطبة يوم الجمعة، روي عن عائشة، وسعيد بن جبير، وعطاء، ومجاهد، وعمر بن دينار في آخرين^(٢).

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ في هذا الذكر أربعة أقوال: أحدها: أنه القراءة في الصلاة، قاله ابن عباس؛ فعلى هذا، أمر أن يقرأ في نفسه في صلاة الإسرار. والثاني: أنه القراءة خلف الإمام سرّاً في نفسه، قاله قتادة. والثالث: أنه يُذكر الله باللسان. والرابع: أنه ذكر الله باستدامة الفكر، لا يغفل عن الله تعالى، ذكر القولين الماوردي. وفي المخاطب بهذا الذكر قولان: أحدهما: أنه المستمع للقرآن، إما في الصلاة، وإما من الخطيب، قاله ابن زيد. والثاني: أنه خطاب النبي ﷺ، ومعناه عام في جميع المكلفين.

قوله تعالى: ﴿تَضَرَّعًا وَخِيفَةً﴾ التضرع: الخشوع في تواضع؛ والخيفة: الحذر من عقابه.

قوله تعالى: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ الجهر: الإعلان بالشيء؛ ورجل جهر الصوت: إذا كان صوته عالياً. وفي هذا نص على أنه الذكر باللسان؛ ويحتمل وجهين: أحدهما: قراءة القرآن. والثاني: الدعاء، وكلاهما مندوب إلى إخفائه^(٣)، إلا أن صلاة الجهر قد بين أدبها في قوله: ﴿وَلَا يَجْهَرُ بِسَلَاكٍ وَلَا تَخَافُ يَهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]. فاما الغدو فهو جمع غُدوة؛ والآصال جمع أَصْل، والأصل جمع أَصِيل؛ فالآصال جمع الجمع، والآصال: العشيات. وقال أبو عبيدة: هي ما بين العصر إلى المغرب؛ وأنشد:

لَسَمَرِي لَأَنْتَ الْبَيْتُ أَكْرَمُ أَهْلِهِ وَأَقْعُدُ فِي أَنْبَاءِهِ بِالْأَصَائِلِ^(٤)

وروي عن ابن عباس أنه قال؛ يعني بالغدو: صلاة الفجر؛ والآصال: صلاة العصر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَجِئُونَكَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني الملائكة. لا يَسْتَكْبِرُونَ أي: لا يتكبرون ويتعظمون ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ وفي هذه العبادة قولان: أحدهما: الطاعة. والثاني: الصلاة والخضوع فيها. وفي قوله: ﴿وَيَسْتَجِئُونَكَ﴾ قولان: أحدهما: يترهبونه عن السوء. والثاني: يقولون: سبحان الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ يَسْجُودُونَ﴾ أي: يصلون. وقيل: سبب نزول هذه الآية أن كفار مكة قالوا: أنسجد لما تأمرنا؟ فنزلت هذه الآية تخبر أن الملائكة وهم أكبر شأناً منكم، لا يتكبرون عن عبادة الله. وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي ويقول: يا ويله، أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فمضيت فلي النار»^(٥).



(١) ذكره السيوطي في «الدرر» ٣/ ١٥٥ عن ابن مردويه من رواية ابن عباس.

(٢) قال «الطبري» ١٣/ ٣٥٢: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: أمروا باستماع القرآن في الصلاة إذا قرأ الإمام وكان من خلفه ممن يأتهم به يسمعه، وفي الخطبة.

(٣) روى البخاري ٦/ ٩٤، ومسلم ٤/ ٢٠٧٦ عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبي ﷺ: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غافياً، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم» واللفظ لمسلم.

(٤) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في «ديوان الهذليين» ١/ ١٤١، ومجاز القرآن ١/ ٢٣٩، والأغاني ٦/ ٥٧، والخزانة ٢/ ٤٧٩، ٥٤٤.

(٥) رواه مسلم ١/ ٨٧، وابن ماجه ١/ ٣٣٤ عن أبي هريرة ﷺ، وأورده السيوطي في «الدرر» ٣/ ١٥٨ وزاد نسبه للبيهقي.

سورة الأنفال

وهي مدنية بإجماعهم. وحكى الماوردي عن ابن عباس أن فيها سبع آيات مكيات، أولها: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٣٠].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَسْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ ۝﴾^(١)
قوله تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «من قتل قتيلًا فله كذا وكذا، ومن أسر أسيرًا فله كذا وكذا»، فأما المشيخة، فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان، فسارعوا إلى القتل والغنائم، فقال المشيخة للشبان: أشركونا معكم، فإننا كنا لكم رداءً؛ فأبوا، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ، فنزلت سورة (الأنفال)، رواه عكرمة عن ابن عباس^(٢). والثاني: أن سعد بن أبي وقاص أصاب سيفاً يوم بدر، فقال: يا رسول الله، هبه لي، فنزلت هذه الآية، رواه مصعب بن سعد عن أبيه^(٣). وفي رواية أخرى عن سعد قال: قتلت سعيد بن العاص، وأخذت سيفه فأتيت به رسول الله، فقال: «أذهب فاطرحه في القَبَضِ» فرجعت، وبني ما لا يعلمه إلا الله؛ فما جاوزت إلا قريباً حتى نزلت سورة (الأنفال)، فقال: «أذهب فخذ سيفك»^(٤). وقال السدي: اختصم سعد وناس آخرون في ذلك السيف، فسألوا النبي ﷺ، فأخذه النبي ﷺ منهم، فنزلت هذه الآية. والثالث: أن الأنفال كانت خالصة لرسول الله ﷺ، ليس لأحد منها شيء، فسألوه أن يعطيهم منها شيئاً، فنزلت هذه الآية، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وفي المراد بالأنفال ستة أقوال: أحدها: أنها الغنائم، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والضحاك، وأبو عبيدة، والزجاج، وابن قتيبة في آخرين. وواحد الأنفال: نَقْلٌ، قال لبيد: إِنَّ تَقْوَى رُبِّنَا خَيْرٌ نَقْلٌ
وبإذن اللّهِ رَيْثِي وَعَجَلٌ^(٥)

والثاني: أنها ما نَقَلَ رسول الله ﷺ القاتل من سَلَبِ قتيله. والثالث: أنها ما شذ من المشركين إلى المسلمين من عَبْدٍ أو دابة بغير قتال، قاله عطاء. وهذا والذي قبله مرويان عن ابن عباس أيضاً. والرابع: أنه الخمس الذي أخذ رسول الله ﷺ من الغنائم، قاله مجاهد. والخامس: أنه أنفال السرايا، قاله علي بن صالح بن حي. وحكي عن الحسن قال: هي السرايا التي تتقدم أمام الجيوش. والسادس: أنها زيادات يُؤْتَرُ بها الإمام بعض الجيش لما يراه من المصلحة، ذكره الماوردي. وفي «عن» قولان: أحدهما: أنها زائدة، والمعنى: يسألونك الأنفال؛ وكذلك قرأ سعد بن أبي وقاص، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وأبو العالية: «يسألونك الأنفال» بحذف «عن». والثاني: أنها أصل،

(١) الطبري ٣٦٨/١٣، ورواه أبو داود في «سننه» ١٠٢/٣ رقم (٢٧٣٧) مع اختلاف يسير، وكذلك البيهقي ٢٩١/٦ - ٢٩٢، والحاكم ١٣١/٢ - ١٣٢، وقال: صحيح، وأقره الذهبي. وخرّجه ابن كثير في «تفسيره» ٢٨٤/٢ وزاد نسبه إلى النسائي، وابن حبان، وابن مردويه. وذكره السيوطي في «الدر» ١٥٩/٣ وزاد، نسبه إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٢) الطبري ٣٧٦/١٣، ورواه مسلم ٥٣/١٢ - ٥٤ بأطول منه، وخرجه ابن كثير في «تفسيره» ٢٨٣/٢، ورواه البيهقي في «السنن الكبرى» ٢٩١/٦.
(٣) «المستند» ٧٨/٣، و«الطبري» ٣٧٣/١٣، و«الأموال» لأبي عبيد (٣٠٣) وهو ضعيف لا تقاطعه، فإن محمد بن عبيد الله الثقفي أبو عون لم يدرك سعداً، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام في خلال الخبر: قتلت سعيد بن العاص، وقال غيره: العاص بن سعيد. قال أبو عبيد: هذا عندنا هو المحفوظ. وفي «الإصابة» ٣٦/٣: وأخرجه البيهقي من طريق محمد بن عبيد الله الثقفي عن سعيد قال: لما كان يوم بدر قتل أخي عمير، وقتلت أنا سعيد بن العاص، قال الحافظ ابن حجر: كذا فيه، والصواب: العاص بن سعيد بن العاص، فإنه قتل يوم بدر كافراً، أما سعيد بن العاص بن أمية، فإنه مات قبل بدر مشركاً.

(٤) «دبوانه» ١٧٤، و«مجاز القرآن» ٢٤٠/١، و«جمهرة الأشعار» ٧، و«الطبري» ٣٦٦/١٣، و«غريب القرآن» ١٧٧، و«اللسان»: نقل. وقوله: خير نفل، هذه رواية الأصمعي، وروى أبو عبيدة: خير النفل، قال أبو الحسن: النفل: الفضل والعطية. والريث: مصدر رثت أريث: إذا أبطأت.

والمعنى: يسألونك عن الأنفال لمن هي؟ أو عن حكم الأنفال؛ وقد ذكرنا في سبب نزولها ما يتعلق بالقولين. وذكرهم إنهم إنما سألوا عن حكمها لأنها كانت حراماً على الأمم قبلهم.

فصل

واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية، فقال بعضهم: إنها ناسخة من وجه، منسوخة من وجه، وذلك أن الغنائم كانت حراماً في شرائع الأنبياء المتقدمين، فنسخ الله ذلك بهذه الآية، وجعل الأمر في الغنائم إلى ما يراه الرسول ﷺ ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسُهُ﴾ [الأنفال: ٤١]. وقال آخرون: المراد بالأنفال شيان: أحدهما: ما يجعله الرسول ﷺ لطافة من شجعان العسكر ومتقدميه، يستخرج به نصحبهم، ويحرضهم على القتال. والثاني: ما يفضل من الغنائم بعد قسمتها كما روي عن ابن عمر قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فغنمنا إبلاً، فأصاب كل واحد منا اثنا عشر بعيراً، ونقلنا بعيراً بعيراً؛ فعلى هذا هي محكمة، لأن هذا الحكم باقٍ إلى وقتنا هذا.

فصل

ويجوز الثقل قبل إحراز الغنيمة، وهو أن يقول الإمام: من أصاب شيئاً فهو له، وبه قال الجمهور. فأما بعد إحرازها، ففيه عن أحمد روايتان. وهل يستحق القاتل سلب المقتول إذا لم يشترط له الإمام؟ فيه قولان: أحدهما: يستحقه، وبه قال الأوزاعي، والليث، والشافعي. والثاني: لا يستحقه، ويكون غنيمة للجيش، وبه قال أبو حنيفة، ومالك؛ وعن أحمد روايتان كالقولين.

قوله تعالى: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ يحكمان فيها ما أرادا، ﴿فَاتَّخِذُوا اللَّهَ﴾ بترك مخالفته ﴿وَأَسْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ قال الزجاج: معنى «ذات بينكم» حقيقة وصلحكم. والبين: الوصل؛ كقوله: ﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]. ثم في المراد بالكلام قولان: أحدهما: أن يرُدَّ القوي على الضعيف، قاله عطاء. والثاني: ترك المنازعة تسليماً لله ورسوله.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْلِحُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: اقبلوا ما أمرتم به في الغنائم وغيرها. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحُجَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ قال الزجاج: إذا ذكرت عظمته وقدرته وما خوف به من عصاه، فزعت قلوبهم، قال الشاعر:

لَعَمْرُكَ مَا أَذْرِي وَإِنِّي لَا وَجَلَ
عَلَىٰ أَيْنَا تَغْدُو الْمَنِيَّةُ أَوَّلُ^(١)
يقال: وجَلَ يَوجَلُ ويَجَلُ ويَجَلُّ ويَجَلُّ، هذه أربع لغات حكاهما سيويه. وأجودها: يَوجَلُّ. وقال السدي: هو الرجل يهيم بالمعصية، فيذكر الله فيتزع عنها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ وفي قوله: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: تصديقاً، قاله ابن عباس. والمعنى: أنهم كلما جاءهم شيء عن الله آمنوا به فزادوا إيماناً بزيادة الآيات. والثاني: يقيناً، قاله الضحاك. والثالث: خشية الله، قاله الربيع بن أنس. وقد ذكرنا معنى التوكل في [آل عمران: ١٢٢].

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ قال ابن عباس: يعني الصلوات الخمس: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يعني الزكاة.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّمْ يَرْجِعْ فِيهِمْ وَمَقْفَرٌ رِّزْقٌ كَرِيمٌ﴾ قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ قال الزجاج: «حقاً» منصوب بمعنى دلت عليه الجملة، والجملة «أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ»، فالمعنى: أحق ذلك حقاً. قال مقاتل: المعنى: أولئك هم المؤمنون لا شك في إيمانهم كشك المنافقين. قوله تعالى: ﴿لَّمْ يَرْجِعْ فِيهِمْ﴾ قال عطاء: درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم، والرزق الكريم: ما أعد لهم فيها.

(١) البيت لمعن بن أوس في «مجاز القرآن» ٢٤٠/١، و«الانقصاب» ٤٦٣، و«شرح حاشية أبي تمام» للمرزوقي ١١٢٦/٣، و«الحماسة البصرية» ١٤١، و«الخزانة» ٥٠٥/٣.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ ١٠ ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ١١ ﴿

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ في متعلق هذه الكاف خمسة أقوال: أحدها: أنها متعلقة بالأنفال. ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أن تأويله: امض لأمر الله في الغنائم وإن كرهوا، كما مضيت في خروجك من بيتك وهم كارهون، قاله الفراء. والثاني: أن الأنفال لله والرسول ﷺ بالحق الواجب، كما أخرجك ربك بالحق، وإن كرهوا ذلك، قاله الزجاج. والثالث: أن المعنى: يسألوك عن الأنفال مجادلة، كما جادلوك في خروجك، حكاة جماعة من المفسرين. والثاني: أنها متعلقة بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا﴾، والمعنى: إن التقوى والإصلاح خير لكم، كما كان إخراج الله نبيه محمداً خيراً لكم وإن كرهه بعضكم، هذا قول عكرمة. والثالث: أنها متعلقة بقوله: ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾، فالمعنى: مجادلتهم إياك في الغنائم كإخراج الله إياك إلى بدر وهم كارهون، قاله الكسائي. والرابع: أنها متعلقة بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾، والمعنى: وهم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، ذكره بعض ناقلي التفسير. والخامس: أن «كما» في موضع قَسَم، معناها: والذي أخرجك من بيتك، قاله أبو عبيدة، واحتج بأن «ما» في موضع «الذي» ومنه قوله: ﴿وَمَا عَلَيَّ الْكُفْرُ وَالْأَنفَالُ﴾ ١٢ قال ابن الأنباري: وفي هذا القول بُعِدَ، لأن الكاف ليست من حروف الإقسام. وفي هذا الخروج قولان: أحدهما: أنه خروجه إلى بدر، وكره ذلك طائفة من أصحابه، لأنهم علموا أنهم لا يظفرون بالغنيمة إلا بالقتال. والثاني: أنه خروجه من مكة إلى المدينة للهجرة. وفي معنى قوله: «بالحق» قولان: أحدهما: أنك خرجت ومعك الحق. والثاني: أنك خرجت بالحق الذي وجب عليك. وفي قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ قولان: أحدهما: كارهون خروجك. والثاني: كارهون صرف الغنيمة عنهم، وهذه كراهة الطبع لمشقة السفر والقتال، وليست كراهة لأمر الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ يعني في القتال يوم بدر، لأنهم خرجوا بغير عُدَّة، فقالوا: هلاً أخبرتنا بالقتال لتأخذ العُدَّة، فجادلوه طلباً للرخصة في ترك القتال. وفي قوله: ﴿يَهْدِي مَا يَشَاءُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: تبين لهم فرضه. والثاني: تبين لهم صوابه. والثالث: تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أُمِرَ به. وفي «المجادلين» قولان: أحدهما: أنهم طائفة من المسلمين، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: أنهم المشركون، قاله ابن زيد، فعلى هذا يكون جدالهم في الحق الذي هو التوحيد، لا في القتال. فعلى الأول، يكون معنى قوله: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ أي: في لقاء العدو ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾، لأن أشد حال من يساق إلى الموت أن يكون ناظراً إليه، وعالمًا به. وعلى قول ابن زيد: كأنما يساقون إلى الموت حين يدعون إلى الإسلام لكرهتهم إياه.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَوَدَّوْنَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَوْةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكُلِّ مِثْقَلٍ ذَرَّةٍ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ١٣ ﴿إِحْيَى الْحَقَّ وَبَيِّنَ الْبَيِّنَاتِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ١٤ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ قال أهل التفسير: أقبل أبو سفيان من الشام في غير لقريش، حتى إذا دنا من بدر، نزل جبريل فأخبر النبي ﷺ بذلك، فخرج في جماعة من أصحابه يريدهم، فبلغهم ذلك فبعثوا عمرو بن ضمضم الغفاري إلى مكة مستغيثاً، فخرجت قريش لل منع عنها، ولحق أبو سفيان بساحل البحر، فقات رسول الله، ونزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ﴾ والمعنى: اذكروا إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين. والطائفتان: أبو سفيان وما معه من المال، وأبو جهل ومن معه من قريش؛ فلما سبق أبو سفيان بما معه، كتب إلى قريش: إن كنتم خرجتم لتحزروا ركائبكم، فقد أحرزتها لكم. فقال أبو جهل: والله لا نرجع. وسار رسول الله ﷺ يريد القوم، فكره أصحابه ذلك وودوا أن لو نالوا الطائفة التي فيها الغنيمة دون القتال؛ فذلك قوله: ﴿وَوَدَّوْنَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَوْةِ﴾ أي: ذات السلاح. يقال: فلان شاكى السلاح؛ بالتخفيف، وشاكاً في السلاح؛ بالتشديد، وشائك. قال أبو عبيدة: ومجاز الشوكة الحد؛ يقال: ما أشد شوكه بني فلان، أي: حدهم. وقال الأخفش: إنما أنت ذات الشوكة؛ لأنه يعني الطائفة.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّهُ اللَّهُ أَنْ يُحْيِيَ الْخَلْقَ﴾ في المراد بالحق قولان: أحدهما: أنه الإسلام، قاله ابن عباس في آخرين. والثاني: أنه القرآن، والمعنى: يُحْيِ ما أنزل إليك من القرآن.

قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُ بِهِ﴾ أي: بعبادته التي سبقت من إعزاز الدين، كقوله: ﴿يُظْهِرُهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: يجتث أصلهم؛ وقد بيّن ذلك في [الأنعام: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿لِيُحْيِيَ الْحَقَّ﴾ المعنى: ويريد أن يقطع دابر الكافرين كيما يحق الحق. وفي هذا الحق القولان المتقدمان. فأما الباطل، فهو الشرك؛ والمجرمون هاهنا: المشركون.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنْتُمْ مَلَكُوتُ رَبِّكُمْ﴾ [١] وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [٢]

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ سبب نزولها ما روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر، نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة وثيف، ونظر إلى المشركين وهم ألف وزيادة، فاستقبل القبلة، ثم مَدَّ يديه عليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «اللهم أنجز ما وعدتني، اللهم أنجز ما وعدتني، اللهم إنك إن تُهْلِكَ هذه العصاة لا تُعَذِّبُ في الأرض أبداً» فما زال يستغيث ربه ويدعوه، حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر الصديق فاخذ رداءه فرداه به، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كذاك^(١) مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك؛ وأنزل الله تعالى هذه الآية^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِذْ﴾ قال ابن جرير: هي من صلة «بيطل». وفي قوله: ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ قولان: أحدهما: تستنصرون. والثاني: تستجيبون. والفرق بينهما أن المستنصر يطلب الظفر، والمستجير يطلب الخلاص. وفي المستغيثين قولان: أحدهما: أنه رسول الله ﷺ، قاله الزهري. والثاني: أنه رسول الله ﷺ، قاله السدي. فأما الإمداد فقد سبق في [آل عمران: ١٢٤]. وقوله: ﴿بِأَلْفٍ﴾ قرأ الضحاك، وأبو رجاء: «بألف» بهمزة ممدودة وبالف على الجمع. وقرأ أبو العالية. وأبو المتوكل: «بألف» برفع الهمزة واللام وبواو بعدها على الجمع. وقرأ ابن خلدون^(٣)، والجحدري: «بألف» بضم الألف واللام من غير واو ولا ألف، وقرأ أبو الجوزاء، وأبو عمران: «بيلف» بياء مفتوحة وسكون اللام من غير واو ولا ألف. فأما قوله: ﴿مُرْدَفِينَ﴾ فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «مردفين» بكسر الدال. قال ابن عباس، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، والفراء: هم المتتابعون. وقال أبو علي: يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكونوا مردفين مثلهم، تقول: أردفت زيدا دابتي؛ فيكون المفعول الثاني محذوفاً في الآية. والثاني: أن يكونوا جاؤوا بعدهم؛ تقول العرب: بنو فلان مردفونا، أي: هم يجيئون بعدنا. قال أبو عبيدة: مردفين جاؤوا بعد. وقرأ نافع، وأبو بكر عن عاصم: «مردفين» بفتح الدال. قال الفراء: أراد: فَعَلَ ذلك بهم، أي: إن الله أردف المسلمين بهم. وقرأ معاذ القارئ، وأبو المتوكل الناجي، وأبو مجلز: «مُردفين» بفتح الراء والدال مع التشديد. وقرأ أبو الجوزاء، وأبو عمران: «مُردفين» برفع الراء وكسر الدال. وقال الزجاج: يقال: ردفت الرجل: إذا ركبت خلفه، وأردفته: إذا أركبته خلفي. ويقال: هذه دابة لا تُردف، ولا يقال: لا تُردف. ويقال: ردفت الرجل: إذا جئت بعده. فمعنى «مردفين» يأتون فرقة بعد فرقة. ويجوز في اللغة: مُردفين ومُردفين ومُردفين، فالدال مكسورة مشددة على كل حال، والراء يجوز فيها الفتح والضم والكسر. قال سيبويه: الأصل مرتدفين، فأدغمت التاء في الدال فصارت مُردفين لأنك طرحت حركة التاء على الراء؛ وإن شئت لم تطرح حركة التاء، وسكرت الراء لالتقاء الساكنين. والذين ضموا الراء، جعلوها تابعة لضممة الميم. وقد سبق في [آل عمران] تفسير قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وكان مجاهد يقول: ما أمد الله النبي ﷺ بأكثر من هذه الألف التي ذكرت في [الألف: ١٠]، وما ذكر الثلاثة والخمسة إلا بشري، ولم يُمدوا بها؛ والجمهور على خلافه، وقد ذكرنا اختلافهم في عدد الملائكة في [آل عمران: ١٢٦].

(١) هكذا وقع لجمهور رواة مسلم «كذاك»، وليضعهم: «كفاك» وكل بمعنى. وفي الطبري، «وامسند أحمد»، و«تفسير ابن كثير»: كفاك.

(٢) «الطبري» ٤٠٩/١٣، ورواه مسلم ١٣٨٤/٣ مطولاً، وأحمد في «المسند» رقم ٢٠٨ و ٢٢١.

(٣) هو تميم بن حذلم الضبي أبو سلمة الكوفي.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسُ أَمْتَةً مِنْهُ وَيَرْزُقُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَتُتَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسُ أَمْتَةً مِنْهُ﴾ قال الزجاج: «إذ» موضعها نصب على معنى: وما جعله الله إلا بشري، في ذلك الوقت، ويجوز أن يكون المعنى: اذكروا إذ يغشاكم النعاس. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «إذ يغشاكم» بفتح الياء وجزم الغين وفتح الشين وألف «النعاس» بالرفع. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «يُغَشِّيكُم» بضم الياء وفتح الغين مشددة الشين مكسورة، «النعاس» بالنصب. وقرأ نافع: «يُغَشِّيكُم» بضم الياء وجزم الغين وكسر الشين، «النعاس» بالنصب. وقال أبو سليمان الدمشقي: الكلام راجع على قوله: ﴿وَلِيُطَهِّرَكُم بِهِ قُلُوبُكُمُ﴾ إذ يغشاكم النعاس. قال الزجاج: و «أمتة» منصوب: معقول له، كقولك: فعلت ذلك حذر الشر. يقال: أمنتُ آمنُ أماناً وأماناً وأمتة. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو المتوكل، وأبو العالية، وابن يغمر، وابن محيصن: «أمتة منه» بسكون الميم.

قوله تعالى: ﴿وَيَرْزُقُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ قال ابن عباس: نزل النبي ﷺ يوم بدر، وبينه وبين الماء رملة، وغلبهم المشركون على الماء، فأصاب المسلمين الظمأ، وجعلوا يصلون محدثين، وألقى الشيطان في قلوبهم الوسوسة، يقول: تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون محدثين، فانزل الله عليهم مطراً، فشرّبوا وتطهروا، واشتد الرمل حين أصابه المطر، وأزال الله رجز الشيطان، وهو وسواسه، حيث قال: قد غلبكم المشركون على الماء. وقال ابن زيد: رجز الشيطان: كيد، حيث أوقع في قلوبهم أنه ليس لكم بهؤلاء القوم طاقة. وقال ابن الأنباري: ساءهم عدم الماء عند فقرهم إليه، فأرسل الله السماء، فزالت وسوسة الشيطان التي تكسب عذاب الله وغضبه، إذ الرجز: العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمُ﴾ الربط: الشد. و «على» في قول بعضهم صلة، فالمعنى: وليربط قلوبكم. وفي الذي ربط به قلوبهم وقواها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الصبر، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنه الإيمان، قاله مقاتل. والثالث: أنه المطر الذي أرسله يثبت به قلوبهم بعد اضطرابها بالوسوسة التي تقدم ذكرها.

قوله تعالى: ﴿وَتُتَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ في هاء «به» قلان: أحدهما: أنها ترجع إلى الماء؛ فإن الأرض كانت رَمَلة، فاشتدت بالمطر، وثبتت عليها الأقدام، قاله ابن عباس، ومجاهد، والسدي في آخرين. والثاني: أنها ترجع إلى الربط، فالمعنى: وثبتت بالربط الأقدام، ذكره الزجاج.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَنْزِلُوا إِلَيْكَ مَأْمُورًا سَالِفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْبِرُوا فَوْقَ الْأَغْنَابِ وَانصُرُوا فِيهِمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاكَرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَنْزِلُوا إِلَيْكَ مَأْمُورًا﴾ قال الزجاج: «إذ» في موضع نصب، والمعنى: وليربط إذ يوحى. ويجوز أن يكون المعنى: واذكروا إذ يوحى. قال ابن عباس: وهذا الوحي إلهام.

قوله تعالى: ﴿إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ وهم الذين أمد بهم المسلمين. ﴿أَنْ يَنْزِلُوا إِلَيْكَ مَأْمُورًا﴾ بالعون والنصرة. ﴿فَاضْبِرُوا فَوْقَ الْأَغْنَابِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: قاتلوا معهم، قاله الحسن. والثاني: بشروهم بالنصر؛ فكان الملك يسير أمام الصف في صورة الرجل، ويقول: أبشروا فإن الله ناصركم، قاله مقاتل. والثالث: ثبوتهم بأشياء تلقونها في قلوبهم تقوى بها، ذكره الزجاج. والرابع: صححوا عزائمهم ونياتهم على الجهاد، ذكره الثعلبي. فأما الرعب، فهو الخوف. قال السائب بن يسار: كنا إذا سألنا يزيد بن عامر السوائي عن الرعب الذي ألقاه الله في قلوب المشركين كيف؟ كان يأخذ الحصى فيرمي به الطست فيطش، فيقول: كنا نجد في أجوافنا مثل هذا.

قوله تعالى: ﴿فَاضْبِرُوا فَوْقَ الْأَغْنَابِ﴾ في المخاطب بهذا قولان: أحدهما: أنهم الملائكة. قال ابن الأنباري: لم تعلم الملائكة أين تقصد بالضرب من الناس، فعلمهم الله تعالى ذلك. والثاني: أنهم المؤمنون، ذكره جماعة من

المفسرين. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: فاضربوا الأعناق، و «فوق» صلة؛ وهذا قول عطية، والضحاك، والأخفش، وابن قتيبة. وقال أبو عبيدة: «فوق» بمعنى «على»، تقول: ضربته فوق الرأس، وضربته على الرأس. والثاني: اضربوا الرؤوس لأنها فوق الأعناق، وبه قال عكرمة. وفي المراد بالبنان ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الأطراف، قاله ابن عباس، والضحاك. وقال الفراء: علمهم مواضع الضرب، فقال: اضربوا الرؤوس والأيدي والأرجل. وقال أبو عبيدة، وابن قتيبة: البنان: أطراف الأصابع. قال ابن الأنباري: واكتفى بهذا من جملة اليد والرجل. والثاني: أنه كل مفصل، قاله عطية، والسدي. والثالث: أنه الأصابع وغيرها من جميع الأعضاء، والمعنى: أنه أباحهم قتلهم بكل نوع، هذا قول الزجاج. قال واشتقاق البنان من قولهم: أبى بالمكان: إذا أقام به، فالبنان به يُعتمَل كل ما يكون للإقامة والحياة.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ﴾ «ذلك» إشارة إلى الضرب، و «شاقوا» بمعنى: جانبوا، فصاروا في شقٍّ غير شقٍّ المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَمْ فَذَوُّهُ﴾ خطاب للمشركين؛ والمعنى: ذوقوا هذا في عاجل الدنيا. وفي فتح «أن» قولان: أحدهما: بإضمار فعل، تقديره: ذلكم فذوقوه واعلموا أن للكافرين. والثاني: أن يكون المعنى: ذلك بأن للكافرين عذاب النار. فإذا ألقى الباء، نصبت. وإن شئت، جعلت «أن» في موضع رفع؛ يريد: ذلكم فذوقوه، وذلك أن للكافرين عذاب النار، هذا معنى قول الفراء.

﴿يَمَأْئِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَحْصَا فَلا تُولَوْهُمْ اأَذْكَبَ ۖ وَنَ يُولِيهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مَنَحْنَاهُ إِنْ شَاءَ أَوْ مَنَحْنَاهُ إِنَّكَ يَوْمَئِذٍ تَفَقَّدُ بُكَاءَ النَّاسِ وَيَصْعَقُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ وَتَأْوِيلُهُ جَهَنَّمُ وَلَسَ الْمَيْمُ ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَحْصَا﴾ الزحف: جماعة يزحفون إلى عدوهم؛ قاله الليث. والتزاحف: التداني والتقارب، قال الأعشى:

لَمَنِ الظَّلَائِرُ سَيَرُهُنَّ تَرْحُفُ

قال الزجاج: ومعنى الكلام: إذا واقفتموهم للقتال فلا تدبروا «وَنَ يُولِيهِمْ» يوم حربهم «دُبرُهُ» إلا أن يتحرف ليقاتل، أو يتحيز إلى فئة؛ ف «متحرِّفاً» و «متحيزاً» منصوبان على الحال. ويجوز أن يكون نصبهما على الاستثناء؛ فيكون المعنى: إلا رجلاً متحرِّفاً أو متحيزاً. وأصل متحيز؛ مُتَحَيِّزٌ؛ فأدغمت الباء في الواو. قوله تعالى: ﴿وَمَا وَهُ جَهَنَّمُ﴾ أي: مرجعه إليها؛ ولا يدل ذلك على التخليد.

فصل

اختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال قوم: هذه خاصة في أهل بدر، وهو مروي عن ابن عباس، وأبي سعيد الخدري، والحسن، وابن جبير، وقتادة، والضحاك. وقال آخرون: هي على عمومها في كل منهزم؛ وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً. وقال آخرون: هي على عمومها، غير أنها نسخت بقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ مَّارَّةً سَاِرةً يَأْتِيُوا يَأْتِيَنَّ﴾ [الأنفال: ٦٦] فليس للمسلمين أن يفروا من مثلهم، وبه قال عطاء بن أبي رباح. وروى أبو طالب عن أحمد أنه سئل عن الفرار من الزحف، فقال: لا يفر رجل من رجلين؛ فإن كانوا ثلاثة، فلا بأس. وقد نُقل نحو هذا عن ابن عباس. وقال محمد بن الحسن: إذا بلغ الجيش اثني عشر ألفاً، فليس لهم أن يفروا من عدوهم، وإن كثر عددهم. ونقل نحو هذا عن مالك؛ ووجه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما هُزم قوم إذا بلغوا اثني عشر ألفاً من قلة» (١) إذا صبروا وصدقوا.

﴿فَلَمَّ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَاتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَبَّنَا وَلِئَلَّيْنا الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسْبُا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۖ﴾ ذَلِكَ كَمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُهِمٌّ كِيدَ الْكَافِرِينَ ۖ﴾

(١) رواه أبو داود رقم (٢٦١١) عن ابن عباس بلفظ: «لن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة» وقال: والصحيح أنه مرسل، ورواه الترمذي وقال: حسن غريب، ولم يصححه، لأنه يروى مسنداً ومرسلاً ومعضلاً. قال ابن القطان: لكن هذا ليس بعله فالأقرب صحته.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ وقرأ ابن عامر، وأهل الكوفة إلا عاصماً «ولكن الله قتلهم» ولكن الله رمى بتخفيف النون ورفع اسم الله فيهما. وسبب نزول هذا الكلام أن أصحاب رسول الله ﷺ لما رجعوا عن بدر جعلوا يقولون: قَتَلْنَا وَقَتَلْنَا، هذا معنى قول مجاهد. فأما قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ ففي سبب نزوله ثلاثة أقوال: أحدها: أن النبي ﷺ قال لعلي: «ناولني كفاً من حصباء، فناوله، فرمى به في وجوه القوم، فما بقي منهم أحد إلا وقعت في عينه حصاة»^(١). وقيل: أخذ قبضة من تراب، فرمى بها، وقال: «شاهت الوجوه»؛ فما بقي مشرك إلا شغل بعينه يعالج التراب الذي فيها، فنزلت: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ وذلك يوم بدر؛ وهذا قول الأكثرين. وقال ابن الأنباري: وتأويل شاهت: قبحت؛ يقال: شاء وجهه يشوه شوهاً وشوهة، ويقال: رجل أشوه، وامرأة شوهاء؛ إذا كانا قبيحين. والثاني: أن أبي بن خلف أقبل يوم أحد إلى النبي ﷺ يريد، فاعترض له رجال من المؤمنين، فأمرهم رسول الله ﷺ فخلوا سبيله، وطعن النبي ﷺ بحرته، فسقط أبي عن فرسه، ولم يخرج من طعته دم، فاتاه أصحابه وهو يخور خوار الثور، فقالوا: إنما هو خدش، فقال: والذي نفسي بيده، لو كان الذي بي بأهل المجاز لماتوا أجمعون، فمات قبل أن يقدّم مكة؛ فنزلت هذه الآية، رواه سعيد بن المسبب عن أبيه. والثالث: أن رسول الله ﷺ رمى يوم خيبر بسهم، فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق وهو على فراشه، فنزلت هذه الآية، ذكره أبو سليمان الدمشقي في آخرين.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ اختلفوا في معنى إضافة قتلهم إليه على أربعة أقوال: أحدها: أنه قتلهم بالملائكة الذين أرسلهم. والثاني: أنه أضاف القتل إليه لأنه تولى نصرهم. والثالث: لأنه ساقهم إلى المؤمنين، وأمكنهم منهم. والرابع: لأنه ألقى الرعب في قلوبهم. وفي قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن المعنى: وما ظفرت أنت ولا أصبت، ولكن الله أظفرك وأيدك، قاله أبو عبيدة. والثاني: وما بلغ رميك كفاً من تراب أو حصى أن تملأ عيون ذلك الجيش الكثير، إنما الله تولى ذلك؛ قاله الزجاج. والثالث: وما رميت قلوبهم بالرعب إذ رميت وجوههم بالتراب؛ ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بَلَاءٌ حَسَنٌ﴾ أي: لننعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والأجر. ﴿إِنَّ اللَّهَ تَبَّ﴾ لدعائهم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بئياتهم.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾ قال الزجاج: موضعه رفع: والمعنى: الأمر ذلكم. وقال غيره: «ذلكم» إشارة إلى القتل والرمي والبلاء الحسن. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ أي: واعلموا أن الله. والذي ذكرناه في فتح «أن» في قوله: ﴿وَأَنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو مذكور في فتح «أن» هذه.

قوله تعالى: ﴿مُوهِنٌ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمر «مُوهِنٌ» بفتح الواو وتشديد الهاء منونة «كيد» بالنصب. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم «موهنٌ» ساكنة الواو، «كيد» بالنصب. وروى حفص عن عاصم موهنٌ كيد مضاف. والموهن: المضعف، والكيد: المكر.

﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَتَدِجَاجُكُمْ الْكَفَّارُ﴾ وَإِنْ تَنَلُّوا فَهُوَ حَيْزُكُمْ وَإِنْ تَوَدُّوا نَعَدْ وَإِنْ تُنْفُوا عَنْكُمْ فَنَفْخُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَرِهَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلِيقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا﴾ في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها: أن أصحاب رسول الله ﷺ استنصروا الله وسألوه الفتح، فنزلت هذه الآية؛ وهذا المعنى مروى عن أبي بن كعب، وعطاء الخراساني. والثاني: أن أبا جهل قال: اللهم أينما كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره اليوم، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أن المشركين أخذوا بأستار الكعبة قبل خروجهم إلى بدر، فقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم القبيلتين؛ فنزلت هذه الآية؛ قاله السدي. والرابع: أن المشركين قالوا: اللهم إنا لا نعرف ما جاء به محمد، فافتح بيننا وبينه

بالحق؛ فنزلت هذه الآية، قاله عكرمة. والخامس: أنهم قالوا بمكة: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْلِكْ عَلَيْنَا جِكَارَةً مِنَ السَّكَلَةِ﴾ الآية [الأشغال: ٣٢]، فعذبوا يوم بدر، قاله ابن زيد. فخرج من هذه الأقوال أن في المخاطبين بقوله: «إِنْ تَسْتَفْتَحُوا» قولان: أحدهما: أنهم المؤمنون. والثاني: المشركون؛ وهو الأشهر. وفي الاستفتاح قولان: أحدهما: أنه الاستنصار؛ قاله ابن عباس، والزجاج في آخرين. فإن قلنا: إنهم المسلمون، كان المعنى: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر بالملائكة؛ وإن قلنا: إنهم المشركون؛ احتمل وجهين: أحدهما: إن تستنصروا فقد جاء النصر عليكم. والثاني: إن تستنصروا لأحب الفريقين إلى الله، فقد جاء النصر لأحب الفريقين. والثاني: أن الاستفتاح: طلب الحكم، والمعنى: إن تسألوا الحكم بينكم وبين المسلمين، فقد جاءكم الحكم؛ وإلى هذا المعنى ذهب عكرمة، ومجاهد، وقتادة. فأما قوله: ﴿وَأَنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فهو خطاب للمشركين على قول الجماعة. وفي معناه قولان: أحدهما: إن تنتهوا عن قتال محمد ﷺ، والكفر، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: إن تنتهوا عن استفتاحكم، فهو خير لكم، لأنه كان عليهم، لا لهم، ذكره الماوردي. وفي قوله: ﴿وَأَنْ تَعُودُوا نَعْدَ﴾ قولان: أحدهما: وإن تعودوا إلى القتال، نَعْدُ إلى هزيمتكم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: وإن تعودوا إلى الاستفتاح، نَعْدُ إلى الفتح لمحمد ﷺ، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تُتَّقِيَ عَنَّا﴾ أي: جماعتكم وإن كثرت، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالعون والنصر. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم: «وإن الله» بكسر الألف. وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «وإن» بفتح الألف. فمن قرأ بكسر «أن» استأنف. قال الفراء: وهو أحب إلي من فتحها. ومن فتحها، أراد: ولأن الله مع المؤمنين. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: لا تولّوا عن رسول الله ﷺ. والثاني: لا تولّوا عن أمر رسول الله ﷺ. ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ما نزل من القرآن، روي القولان عن ابن عباس.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِي لَا يَعْقِلُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في بني عبد الدار بن قصي، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: في اليهود، قريظة والنضير، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: في المنافقين، قاله ابن إسحاق، والواقدي، ومقاتل. وفي معنى الكلام قولان: أحدها: أنهم قالوا: سمعنا، ولم يتفكروا فيما سمعوا، فكانوا كمن لم يسمع، قاله الزجاج. والثاني: أنهم قالوا: سمعنا سماع من يقبل، وليسوا كذلك، حكى عن مقاتل.

قوله تعالى: ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في بني عبد الدار بن قصي، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: في المنافقين، قاله ابن إسحاق، والواقدي. والدواب: اسم كل حيوان يديب؛ وقد بينا في سورة [البقرة: ١٨] معنى الصم والبكم، ولم سماعهم بذلك.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: لو علم فيهم صدقاً وإسلاماً. والثاني: لو علم فيهم خيراً في سابق القضاء. والثالث: لو علم أنهم يصلحون. والرابع: لو علم أنهم يضغنون. وفي قوله: ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: لأسمعهم جواب كل ما يسألون عنه، قاله الزجاج. والثاني: لزرعهم الفهم، قاله أبو سليمان الدمشقي. والثالث: لأسمعهم كلام الموتى يشهدون بنبوّتك، حكاه الماوردي. وفي قوله: ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ قولان: أحدهما: مكذبون، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: وهم معرضون عما أسمعهم لمعاندتهم، قاله الزجاج.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُهُ مُخْرَجُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ أي: اجيبوا.

قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ يعني الرسول ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وفيه ستة أقوال: أحدها: أن الذي يحييكم: كل ما يدعو الرسول إليه، وهو معنى قول أبي صالح عن ابن عباس. وفي أفراد البخاري من حديث أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ، فلم أجبه، ثم أتيتُه فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، فقال: «الم يقل الله: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟ قلت: بلى، ولا أعوذ إن شاء الله»^(١). والثاني: أنه الحق، رواه شبل عن ابن أبي نجیح عن مجاهد. والثالث: أنه الإيمان، رواه ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد، وبه قال السدي. والرابع: أنه أتباع القرآن، قاله قتادة، وابن زيد. والخامس: أنه الجهاد، قاله ابن إسحاق. وقال ابن قتيبة: هو الجهاد الذي يحيي دينهم ويعليهم. والسادس: أنه إحياء أمورهم، قاله الفراء. فيخرج في إحيائهم خمسة أقوال: أحدها: أنه إصلاح أمورهم في الدنيا والآخرة. والثاني: بقاء الذكر الجميل لهم في الدنيا، وحياة الأبد في الآخرة. والثالث: أنه دوام نعيمهم في الآخرة. والرابع: أنه كونهم مؤمنين، لأن الكافر كالميت. والخامس: أنه يحييهم بعد موتهم، وهو على قول من قال: هو الجهاد، لأن الشهداء أحياء، ولأن الجهاد يُعزهم بعد ذلهم، فكأنهم صاروا به أحياء.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ وفيه عشرة أقوال: أحدها: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير. والثاني: يحول بين المؤمن وبين معصيته، وبين الكافر وبين طاعته، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الضحاك والفراء. والثالث: يحول بين المرء وقلبه حتى لا يتركه يعقل، قاله مجاهد. قال ابن الأنباري: المعنى: يحول بين المرء وعقله، فبادروا الأعمال، فإنكم لا تأمنون زوال العقول، فتحصلون على ما قدمتم. والرابع: أن المعنى: هو قريب من المرء، لا يخفى عليه شيء من سره، كقوله: ﴿وَمَنْ أَزْهَى إِلَهُ مِنْ حَلِيِّ الرَّبِّدِيِّ﴾ [ق: ١٦] وهذا معنى قول قتادة. والخامس: يحول بين المرء وقلبه، فلا يستطيع إيماناً ولا كفراً إلا بإذنه، قاله السدي. والسادس: يحول بين المرء وبين هواه، ذكره ابن قتيبة. والسابع: يحول بين المرء وبين ما يتمنى بقلبه من طول العمر والنصر وغيره. والثامن: يحول بين المرء وقلبه بالموت، فبادروا الأعمال قبل وقوعه. والتاسع: يحول بين المرء وقلبه بعلمه، فلا يضر العبد شيئاً في نفسه إلا والله عالم به، لا يقدر على تخييبه عنه. والعاشر: يحول بين ما يوقعه في قلبه من خوف أو أمن، فيأمن بعد خوفه، ويخاف بعد أمنه، ذكر معنى هذه الأقوال ابن الأنباري. وحكى الزجاج أنهم لما فكروا في كثرة عدوهم وقلة عددهم، فدخل الخوف قلوبهم، أعلمهم الله تعالى أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبده بالخوف الأمن، ويبدل عدوّه بالقوة الضعف؛ وقد أعلمت هذه الآية أن الله تعالى هو المقلب للقلوب، المتصرف فيها^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتُ إِلَيْهِ يُخْشَوْنَ﴾ أي: للجزاء على أعمالكم.

﴿وَأَنذَرْتُ أَنَ لَا تَصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ غَاسِقَةٌ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتُ أَنَ لَا تَصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ غَاسِقَةٌ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ اختلِفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في أصحاب النبي ﷺ خاصة، قاله ابن عباس، والضحاك. وقال الزبير بن العوام: لقد قرأناها زماناً، وما نرى أننا من أهلها، فإذا نحن المَعْنِيُونَ بها. والثاني: أنها نزلت في رجلين من قريش، قاله أبو صالح عن ابن عباس، ولم يسمهما. والثالث: أنها عامة، قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: في هذه الآية، أمر الله المؤمنين أن لا يُقروا المنكر بين أظهرهم، فيعصمهم الله بالعذاب. وقال مجاهد: هذه الآية لكم أيضاً. والرابع: أنها نزلت في علي، وعمار، وطلحة، والزبير، قاله الحسن. وقال السدي: نزلت في أهل بدر خاصة، فأصابتهم يوم الجمل. وفي الفتنة هاهنا سبعة أقوال: أحدها: القتال.

(١) «البخاري» ١١٩/٨، ٢٣١ دون قوله «قلت: بلى ولا أعوذ إن شاء الله» وهذه الزيادة إنما وردت عند أحمد في «المستند» ١٨/٦٥ بترتيب الساعاتي، والترمذي ١١١/٢ من حديث أبي هريرة عن أبي بن كعب.

(٢) روى مسلم في «صحيحه» ٢٠٤٥/٤ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء» ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك». وروى الترمذي ٣٦/٢ عن أنس بن مالك ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يكثُر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قلت: يا نبي الله أنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقبلها كيف شاء». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

والثاني: الضلالة. والثالث: السكوت عن إنكار المنكر. والرابع: الاختبار. والخامس: الفتنة بالأموال والأولاد. والسادس: البلاء. والسابع: ظهور البدع. فأما قوله: ﴿لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاسِرَةً﴾ فقال الفراء: أمرهم، ثم نهاهم، وفيه طرف من الجزاء. وإن كان نهياً، كقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا أَكْثَرُ الذَّلِيلِ أَذْخُلُوا مِنْكُمْ لََّا يَحْطِئَكُمْ شَيْئٌ﴾ [النمل: ١٨] أمرهم، ثم نهاهم؛ وفيه تأويل الجزاء. وقال الأخفش: «لا تصيب» ليس بجواب، وإنما هو نهى بعد نهى؛ ولو كان جواباً ما دخلت النون. وذكر ابن الأنباري فيها قولين: أحدهما: أن الكلام تأويله تأويل الخبر، إذ كان المعنى: إن لا يتقوها، تُصِيبَ الذين ظلموا، أي: وغيرهم، أي: لا تقع بالظالمين دون غيرهم، لكنها تقع بالصالحين والظالمين؛ فلما ظهر الفعل ظهور النهي، والنهي راجع إلى معنى الأمر، إذ القائل يقول: لا تقم، يريد: دع القيام، ووقع مع هذا جواباً للأمر، أو كالجواب له، فأكد له شبه النهي، فدخلت النون المعروف دخولها في النهي وما يضارعه. والثاني: أنها نهى محض، معناه: لا يقصدن الظالمون هذه الفتنة، فيهلكوا؛ فدخلت النون لتوكيد الاستقبال، كقوله: «لا يحطمنكم». وللمفسرين في معنى الكلام قولان: أحدهما: لا تصيبن الفتنة الذين ظلموا. والثاني: لا يصيبن عقاب الفتنة. فإن قيل: فما ذنب من لم يظلم؟ فالجواب: أنه بموافقته للأشعار، أو بسكوته عن الإنكار، أو بتركه للفرار، استحق العقوبة^(١). وقد قرأ علي، وابن مسعود، وأبي بن كعب: «لتصين الذين ظلموا» بغير ألف.

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قِلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَذِلَكُمْ النَّاسُ فَتَأْكُلُكُمْ وَأَيْدِيكُمْ يُضْرِبُونَ وَوَدَّكُمْ مِنَ الطَّاغُوتِ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قِلِيلٌ﴾ قال ابن عباس: نزلت في المهاجرين خاصة، كانت عدتهم قليلة، وهم مقهورون في أرض مكة، يخافون أن يستلبهم المشركون. وفي المراد بالناس ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أهل مكة، قاله ابن عباس. والثاني: فارس والروم، قاله وهب بن منبه. والثالث: أنهم المشركون الذين حضروا بدرًا، والمسلمون قليلون يومئذ، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿فَتَأْكُلُكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: فأواكم إلى المدينة بالهجرة، قاله ابن عباس، والأكثر: والثاني: جعل لكم مأوى تسكنون فيه آمنين، ذكره الماوردي. وفي قوله: ﴿وَأَيْدِيكُمْ يُضْرِبُونَ﴾ قولان: أحدهما: قواكم بالملائكة يوم بدر، قاله الجمهور. والثاني: عضدكم بنصره في بدر وغيرها، قاله أبو سليمان الدمشقي. وفي قوله: ﴿وَوَدَّكُمْ مِنَ الطَّاغُوتِ﴾ قولان: أحدهما: أنها الغنائم التي أحلها لهم، قاله السدي. والثاني: أنها الخيرات التي مكنتهم منها، ذكره الماوردي.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَخْشَوْنَ اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَيَخْشَوْنَ أَسْنَنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَمْلِكُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَخْشَوْنَ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر؛ وذلك أن النبي ﷺ لما حاصر قريظة سألوه أن يصالحهم على ما صالح عليه بني النضير، على أن يسيروا إلى أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا، وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة، وكان مناصحاً لهم، لأن ولده وأهله كانوا عندهم، فبعثه إليهم، فقالوا: ما ترى، أنزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه: إنه الذبح فلا تفعلوا، فطاعوه، فكانت تلك خيانتة؛ قال أبو لبابة: فما زالت قدماي حتى عرفت أنني قد خنت الله ورسوله، ونزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس، والأكثرين. وروي أن أبا لبابة ربط نفسه بعد نزول هذه الآية إلى سارية من سوارى المسجد، وقال: والله لا أذوق طعماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله علي، فمكث سبعة أيام كذلك، ثم تاب الله عليه، فقال: والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني، فجاء فحلّه بيده، فقال أبو لبابة: إن من تمام توبتي أن أهجّر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي، فقال

(١) روى البخاري ٩٤/٥ - ٢١٦ عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً».

رسول الله ﷺ: «يجزئك الثلث»^(١). والثاني: أن جبريل أتى رسول الله ﷺ فقال: إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أخرجوا إليه واكتموا»، فكتب إليه رجل من المنافقين: إن محمداً يريدكم، فخذوا حذرکم، فنزلت هذه الآية، قاله جابر بن عبد الله^(٢). والثالث: أنها نزلت في قتل عثمان بن عفان، قاله المغيرة بن شعبه. والرابع: أن قوماً كانوا يسمعون الحديث من رسول الله ﷺ، فيفشونه حتى يبلغ المشركين، فنزلت هذه الآية، قاله السدي^(٣). وفي خيانة اللّه قولان: أحدهما: ترك فرائضه. والثاني: معصية رسوله. وفي خيانة الرسول قولان: أحدهما: مخالفته في السر بعد طاعته في الظاهر. والثاني: ترك سنته. وفي المراد بالأمانات ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الفرائض، قاله ابن عباس. وفي خيانتها قولان: أحدهما: تنقيصها. والثاني: تركها. والثاني: أنها الذين، قاله ابن زيد؛ فيكون المعنى: لا تظهروا الإيمان وتُبطنوا الكفر. والثالث: أنها عامة في خيانة كل مؤتمن، ويؤكد نزولها في ما جرى لأبي لبابة.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَنَوكُمْ وَأَوَّلَكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَنَوكُمْ وَأَوَّلَكُمْ فِتْنَةٌ﴾ قال ابن عباس: هذا خطاب لأبي لبابة، لأنه كانت له أموال وأولاد عند بني قريظة. فاما الفتنة، فالمراد بها: الابتلاء والامتحان الذي يُظهر ما في النفس من اتباع الهوى أو تجنبه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ خير من الأموال والأولاد.

قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: بترك معصيته، واجتناب الخيانة لله ورسوله.

قوله تعالى: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه المخرج، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وابن قتيبة، والمعنى: يجعل لكم مخرجاً في الدين من الضلال. والثاني: أنه النجاة، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والسدي. والثالث: أنه النصر، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال الفراء. والرابع: أنه هدى في قلوبهم يفرقون به بين الحق والباطل، قاله ابن زيد، وابن إسحاق.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيْنَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذه الآية متعلقة بقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنتَ قَلِيلٌ﴾ فالمعنى: أذكر المؤمنين ما مَنَّ الله به عليهم، واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا.

الإشارة إلى كيفية مكربهم

قال أهل التفسير: لما بوع رسول الله ﷺ ليلة العقبة، وأمر أصحابه أن يلحقوا بالمدينة، أشفقت قريش أن يعلو أمره، وقالوا: والله لكانكم به قد كُرَّ عليكم بالرجال، فاجتمع جماعة من أشرافهم ليدخلوا دار الندوة فيتشاوروا في أمره، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ كبير، فقالوا: من أنت؟ قال: أنا شيخ من أهل نجد، سمعت ما اجتمعتم له، فأردت أن أحضرکم، ولن تعدمو من رأيي نصحاً، فقالوا: ادخل، فدخل معهم، فقالوا: انظروا في أمر هذا الرجل، فقال بعضهم: احبسوه في وثاق، وتربصوا به رب المنون. فقال إبليس: ما هذا برأي، يوشك أن يشب أصحابه فيأخذوه من أيديكم. فقال قائل: أخرجوه من بين أظهركم. فقال: ما هذا برأي، يوشك أن يجمع عليكم ثم يسير إليكم. فقال أبو جهل: نأخذ من كل قبيلة غلاماً، ثم نعطي كل غلام سيفاً فيضربوه به ضربة رجل واحد، فيفرق دمه في القبائل، فما أظن هذا الحي من قريش يقوى على ضرب قريش كلها، فيقبلون العقل ونستريح. فقال إبليس: هذا والله الرأي. ففترقوا

(١) خبر أبي لبابة أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ١٣٤، وأخرج بعضه الطبري ١٣/٤٨١، وابن هشام ٢/٢٣٦.

(٢) قال ابن كثير في «التفسير» بعد أن أورد عن ابن جرير: هذا حديث غريب جداً، وفي سنده وسياقه نظر.

(٣) قال أبو جعفر الطبري ١٣/٤٨٣: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله نهى المؤمنين عن خيائته وخيانة رسوله وخيائنه أماته، وجائز أن تكون نزلت في أبي لبابة، وجائز أن تكون نزلت في غيره، ولا خبر عندنا بأي ذلك كان يجب التسليم له بصحته. وقال ابن كثير ٣٠١/٢: والصحيح أن الآية عامة وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء.

عن ذلك. وأتى جبريل رسول الله ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه، وأخبره بمكر القوم، فلم يبيت في مضجعه تلك الليلة، وأمر علياً فبات في مكانه، وبات المشركون يحرسونه، فلما أصبح رسول الله ﷺ، أذن له الله في الخروج إلى المدينة، وجاء المشركون لمّا أصبحوا، فرأوا علياً، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، فاقصصوا أثره حتى بلغوا الجبل، فمروا بالغار، فرأوا نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخله لم يكن عليه نسج العنكبوت^(١). فأما قوله: ﴿لِيُثْبِتُكَ﴾ فقال ابن قتبية: معناه: ليحبسوك. يقال: فلان مثبت وجعاً: إذا لم يقدر على الحركة. وللمفسرين فيه قولان: أحدهما: ليثبتوك في الوثاق، قاله ابن عباس، والحسن في آخرين. والثاني: ليثبتوك في الحبس، قاله عطاء، والسدي في آخرين. وكان القوم أرادوا أن يحبسوه في بيت ويشدوا عليه بابه ويلقوا إليه الطعام والشراب، وقد سبق بيان المكر في [آل عمران: ٥٤].

﴿وَإِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِمْ إِيمَانُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِمْ إِيمَانُنَا﴾ ذكر أهل التفسير أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة، وأنه لما سمع رسول الله ﷺ يذكر قصص القرون الماضية، قال: لو شئت لقلت مثل هذا. وفي قوله: ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ قولان: أحدهما: قد سمعنا منك ولا نطيعك. والثاني: قد سمعنا قبل هذا مثله، وكان النضر يختلف إلى فارس تاجراً، فيسمع العباد يقرؤون الإنجيل. وقد بين التحدي كذب من قال: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾. وقد سبق معنى الأساطير في [الأنعام: ٢٥].

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا لِمَسَّ هَؤُلَاءِ مِنْ عَذَابِكُمْ فَلَنَسْطَرَّ عَلَيْكُمْ جِجَارًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ نَأْتِيَنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا لِمَسَّ هَؤُلَاءِ مِنْ عَذَابِكُمْ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في النضر أيضاً، رواه جماعة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبيرة، ومجاهد، وعطاء، والسدي. والثاني: أنها نزلت في أبي جهل، فهو القائل لهذا؛ قاله أنس بن مالك، وهو مخرج في «الصحاحين»^(٢). والثالث: أنها نزلت في قريش، قالوا هذا، ثم ندموا فقالوا: غفرانك اللهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَتْ لَإِلَهِكُمْ مَعَدِبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، رواه أبو معشر عن يزيد بن رومان، ومحمد بن قيس. وفي المشار إليه بقوله: ﴿إِنْ كَانَتْ هَذِهِ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه القرآن. والثاني: كل ما يقوله رسول الله ﷺ من الأمر بالتوحيد وغيره. والثالث: أنه إكرام محمد ﷺ بالنبوة من بين قريش.

﴿وَمَا كَانَتْ لَإِلَهِكُمْ مَعَدِبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ لَإِلَهِكُمْ مَعَدِبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لَإِلَهِكُمْ مَعَدِبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ في المشار إليه قولان: أحدهما: أهل مكة. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: وما كان الله ليعذبهم وأنت مقيم بين أظهرهم. قال ابن عباس: لم تعذب قرية حتى يخرج نبيها والمؤمنون معه. والثاني: وما كان الله ليعذبهم وأنت حي؛ قاله أبو سليمان. والثاني: أن المشار إليهم المؤمنون، والمعنى: وما كان الله ليعذب المؤمنين بضرب من العذاب الذي أهلك به من قبلهم وأنت حي؛ ذكره أبو سليمان الدمشقي.

فصل

قال الحسن، وعكرمة: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وفيه بُعد، لأن النسخ لا يدخل على الأخبار. وقال ابن أبيزى: كان النبي ﷺ بمكة، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَتْ لَإِلَهِكُمْ مَعَدِبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ فخرج

(١) مسيرة ابن هشام ١/ ٤٨٠ - ٤٨٣ قال فيه ابن إسحاق: فحدثني من لا أنهم من أصحابنا عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد وغيره ممن لا أنهم عن عبد الله بن عباس. ورواه أحمد في «مسنده» رقم (٣٢٥١) مختصراً، وفي سنده عثمان بن عمرو الجزري، وثقه ابن حبان، وضعفه غيره، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢٧/ ٧ مختصراً أيضاً وقال: رواه أحمد، والطبراني، وفيه عثمان بن عمرو الجزري، وثقه ابن حبان، وضعفه غيره، وبقي رجاله رجال الصحيح. وأوردته السيوطي في «الدر» ٣/ ١٧٩ وزاد نسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبي الشيخ، وابن مردويه، وأبي نعيم في «الدلائل»، والطبري، وهو في «الطبري» ١٣/ ٤٩٤ و ٤٩٧ مختصراً.

(٢) «البخاري» ٢٣٢/ ٨، و«مسلم» ٢١٥٤/ ٤، وأوردته السيوطي في «الدر» ٣/ ١٨٠ وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن أنس بن مالك.

إلى المدينة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وكان أولئك البقية من المسلمين بمكة يستغفرون، فلما خرجوا أنزل الله: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾^(١). وجميع أقوال المفسرين تدل على أن قوله: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، كلام مبتدأ من إخبار الله ﷻ. وقد روي عن محمد بن إسحاق أنه قال: هذه الآية من قول المشركين، قالوا: والله إن الله لا يعذبنا ونحن نستغفر، فرد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وفي معنى هذا الكلام خمسة أقوال: أحدها: وما كان الله معذب المشركين، وفيهم من قد سبق له أن يؤمن؛ رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، واختاره الزجاج. والثاني: وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون الله، فإنهم كانوا يلبثون ويقولون: غفرانك؛ وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً، وفيه ضعف، لأن استغفار المشرك لا أثر له في القبول. والثالث: وما كان الله معذبهم، يعني المشركين، وهم - يعني المؤمنين الذين بينهم - يستغفرون؛ روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال الضحاك، وأبو مالك. قال ابن الأنباري: وُصفوا بصفة بعضهم، لأن المؤمنين بين أظهرهم، فأوقع العموم على الخصوص، كما يقال: قتل أهل المسجد رجلاً، وأخذ أهل البصرة فلاناً، ولعله لم يفعل ذلك إلا رجل واحد. والرابع: وما كان الله معذبهم وفي أصلاهم من يستغفر الله، قاله مجاهد. قال ابن الأنباري: فيكون معنى تعذيبهم: إهلاكهم؛ فالمعنى: وما كان الله مهلكهم، وقد سبق في علمه أنه يكون لهم أولاد يؤمنون به ويستغفرونه؛ فوصفهم بصفة ذرارهم، وغلبوا عليهم كما غلب بعضهم على كلهم في الجواب الذي قبله. والخامس: أن المعنى: لو استغفروا لما عذبهم الله، ولكنهم لم يستغفروا فاستحقوا العذاب؛ وهذا كما تقول العرب: ما كنت لأهينك وأنت تكرمي؛ يريدون: ما كنت لأهينك لو أكرمتي؛ فأما إذ لست تكرمي، فإنك مستحق لإهانتني، وإلى هذا القول ذهب قتادة والسدي. قال ابن الأنباري: وهو اختيار اللغويين. وذكر المفسرون في معنى هذا الاستغفار ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الاستغفار المعروف؛ وقد ذكرناه عن ابن عباس. والثاني: أنه بمعنى الصلاة؛ رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، ومنصور عن مجاهد، وبه قال الضحاك. والثالث: أنه بمعنى الإسلام، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد، وبه قال عكرمة.

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُتَفُونُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ هذه الآية أجازت تعذيبهم، والأولى نفت ذلك. وهل المراد بهذا: العذاب الأول، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أنه هو الأول، إلا أن الأول امتنع بشيئين: أحدهما: كون النبي ﷺ فيهم. والثاني: كون المؤمنين المستغفرين بينهم؛ فلما وقع التمييز بالهجرة، وقع العذاب بالباقيين يوم بدر، وقيل: بل وقع بفتح مكة. والثاني: أنهما مختلفان، وفي ذلك قولان: أحدهما: أن العذاب الثاني قُتل بعضهم يوم بدر، والأول استتصال الكل؛ فلم يقع الأول لما قد عُلم من إيمان بعضهم، وإسلام بعض ذرارهم، ووقع الثاني. والثاني: أن العذاب الأول عذاب الدنيا. والثاني: عذاب الآخرة؛ قاله ابن عباس. فيكون المعنى: وما كان الله معذب المشركين لاستغفارهم في الدنيا، وما لهم آلَا يعذبهم الله في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ قال الزجاج: المعنى: وهم يصدون ﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أوليائه. وفي هاء الكناية في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُمْ﴾ قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى «المسجد»، وهو قول الجمهور. قال الحسن: إن المشركين قالوا: نحن أولياء المسجد الحرام، فرد الله عليهم بهذا. والثاني: أنها تعود إلى الله ﷻ، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُتَفُونُونَ﴾ للشرك والمعاصي، ولكن أكثر أهل مكة لا يعلمون من الأولى بيت الله.

(١) «الطبري» ٥٠٩/١٣، ٥١٠، وأورده السيوطي في «الدر» ١٨١/٣ وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١٥)

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ﴾ سبب نزولها أنهم كانوا يطوفون بالبيت ويصفقون ويصفرون ويضعون خدودهم بالأرض، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عمر. فأما المكاء، ففيه قولان: أحدهما: أنه الصفير، قاله ابن عمر، وابن عباس، وابن جبير، وقتادة، وأبو عبيدة، والزجاج، وابن قتيبة. قال ابن فارس: يقال: مكأ الطائر [يمكنو] مكاء: إذا صَفَرَ، ويقال: مَكَيْتُ يده [تَمَكَّى] مَكَّى، مقصور، أي: غُلِظَتْ وَخَشُنَتْ، ويقال: تَمَكَّى: إذا تَوَضَّأَ. وأنشدوا:

[إِنَّكَ وَالْجَوْرَ عَلَى سَبِيلِ] كَالْمُتَمَكِّي بَدَمِ الْقَتِيلِ^(١)

وسئل أبو سلمة بن عبد الرحمن عن المكاء، فجمع كَفَيْهِ، وجعل يَصْفِرُ فيهما. والثاني: أنه إدخال أصابعهم في أنوفهم يخلطون به، وبالتصديّة على محمد ﷺ صلاته، قاله مجاهد. قال ابن الأنباري: أهل اللغة ينكرون أن يكون المكاء إدخال الأصابع في الأنف، وقالوا: لا يكون إلا الصفير. وفي التصديّة قولان: أحدهما: أنها التصفيق، قاله [ابن] عمر، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والجمهور. قال ابن قتيبة: يقال: صَدَّى: إذا صَفَقَ بيديه. قال الراجز:

صَدَّتْ بِحَدٍّ وَجَلَّتْ عَن حَدٍّ وَأَنَا مِنْ غَرِّهِ الْهَوَى أَصْدَى^(٢)

الغرو: العجب، يقال: لا غرو من كذا، أي: لا عجب. والثاني: أن التصديّة: صدُّهم الناس عن البيت الحرام، قاله سعيد بن جبير. وقال ابن زيد: هو صدُّهم عن سبيل الله ودينه. وزعم مقاتل أن النبي ﷺ كان إذا صلى في المسجد الحرام، قام رجلان من المشركين من بني عبد الدار عن يمينه فيصفقان، ورجلان عن يساره فيصفقان، فيختلط على النبي ﷺ صلاته وقراءته، فقتلهم الله بيدر، فذلك قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بتوحيد الله. فإن قيل: كيف سمي المكاء والتصديّة صلاة؟ فنه جوابان ذكرهما ابن الأنباري: أحدهما: أنهم جعلوا ذلك مكان الصلاة، ومشهور في كلام العرب أن يقول الرجل: زرت عبد الله، فجعل جفائي صَلَّتي، أي: أقام الجفاء مقام الصلة، قال الشاعر:

قُلْتُ لَهُ اطْعِمْنِي عَمِيمٌ تَمَرًا فَكَانَ تَمَرِي كَهَرَّةٍ وَزَّيْرًا

أي: أقام الصياح عليّ مقام التمر. والثاني: أن من كان المكاء والتصديّة صلاته، فلا صلاة له، كما تقول العرب: ما لفلان عيب إلا السخاء، يريدون: من السخاء عيبه، فلا عيب له، قال الشاعر:

فَتَنَى كُمَلْتُ خَيْرَاتُهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَلَا يُبْقِي مِنَ الْمَالِ بَاقِيًا^(٣)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ جَهَنَّمَ بَئْسُ مَوْسَرًا﴾ (١٦)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في المطعميين ببدر، وكانوا اثني عشر رجلاً يطعمون الناس الطعام، كل رجل يطعم يوماً، وهم: عتبة، وشيبة، ومُثَنَّى وَثَيْبَةُ ابنا الحجاج، وأبو البختري^(٤)، والنضر بن الحارث، وأبو جهل، وأخوه الحارث، وحكيم بن حزام، وأبيّ بن خلف، وزمعة بن الأسود، والحارث بن عامر بن نوفل، هذا قول أبي صالح عن ابن عباس. والثاني: أنها نزلت في أبي سفيان بن حرب، استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش لقتال رسول الله ﷺ سوى من استجاش من

(١) البيت في «اللسان» مكأ، ونسب إلى عترة الطائي، وعترة هذا: هو عترة بن عُكْبَرَةَ الطائي، وعكبرة أم أمه، وبها يعرف، وهو عترة بن الأخرس بن ثعلبة بن صبيح بن معبد بن عدي بن أفلت بن سلسلة بن عمرو بن سلسلة بن غنم بن ثوب بن معن بن عتود، شاعر محسن وفارس. «المؤتلف والمختلف» ٢٢٥.

(٢) «غريب القرآن» لابن قتيبة ١٧٩. وانظر «ديوان بشار» ٢٢٢/٢ - ٢٢٣.

(٣) البيت للناطقة الجعدي، «ديوان» ١٧٣ طبع المكتب الإسلامي، و«الحماسة» ٩٦٩/٢، و«الخزانة» ١٢/٢، و«شرح شواهد المغني» ٢٠٩.

(٤) هو سعيد بن فيروز الطائي.

العرب، قاله سعيد بن جبيرة^(١). وقال مجاهد: نزلت في نفقة أبي سفيان على الكفار يوم أُحُد. والثالث: أنها نزلت في أهل بدر، وبه قال الضحاك. فأما سبيل الله، فهو دين الله.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: تكون عاقبة نفقتهم ندامة، لأنهم لم يظفروا.
﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَجْعَلَهُمْ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَبِيرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر «ليميز» خفيفة. وقرأ حمزة، والكسائي «ليميز» بالتشديد وهما لغتان: مِزَتْهُ وَمِيزَتْهُ. وفي لام «ليميز» قولان: أحدهما: أنها متعلقة بقوله: «فَسَيُفْقَرُوهَا» قاله ابن الأنباري. والثاني: أنها متعلقة بقوله: «إِلَى جَهَنَّمَ يَحْشَرُونَ»، قاله ابن جرير الطبري. وفي معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدها: ليميز أهل السعادة من أهل الشقاء، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وقال السدي، ومقاتل: يميز المؤمن من الكافر. والثاني: ليميز العمل الطيب من العمل الخبيث، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: ليميز الإنفاق الطيب في سبيله، من الإنفاق الخبيث في سبيل الشيطان، قاله ابن زيد، والزجاج.
قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: يجمع بعضه فوق بعض، وهو قوله: ﴿فَيَجْعَلُهُمْ جَمِيعًا﴾. قال الزجاج: الركم؛ أن يُجْعَلَ بعض الشيء على بعض، يقال: ركمت الشيء أركمه رَكْمًا؛ والركام؛ الاسم؛ فمن قال: المراد بالخبيث: الكفار، فإنهم في النار بعضهم على بعض؛ ومن قال: أموالهم، فله في ذلك قولان: أحدهما: أنها أُلْقِيَتْ في النار ليعذب بها أربابها، كما قال تعالى: ﴿فَتَكُونُ بِهَا جِاهَنُهمُ﴾ [التوبة: ٣٥]. والثاني: أنهم لَمَّا عَظُمُوا في الدنيا، أراهم هوانها يالْقائِها في النار كما تُلْقَى الشمس والقمر في النار، ليرى من عيدهما ذُلُّهما.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ نزلت في أبي سفيان وأصحابه، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وفي معنى الآية قولان: أحدهما: إن ينتهوا عن المحاربة، يُغْفَرْ لَهُمْ ما قد سلف من حربهم، فلا يُؤَاخَذُونَ به؛ وإن يعودوا إلى المحاربة، فقد مضت سنة الأولين في نصر الله أولياءه؛ وقيل: في قتل من قُتِلَ يوم بدر وأُسر. والثاني: إن ينتهوا عن الكفر، يُغْفَرْ لَهُمْ ما قد سلف من الإثم؛ وإن يعودوا إليه، فقد مضت سنة الأولين من الأسى السالفة حين أخذوا بالعذاب المستأصل. قال يحيى بن معاذ في هذه الآية: إن توحيداً لم يعجز عن هدم ما قبله من كفر، لا يعجز عن هدم ما بعده من ذنب^(٢).

﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونُ فِتْنَةٌ وَيَكُونُوا الَّذِينَ كُفِرُوا بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونُ فِتْنَةٌ﴾ أي: شرك. وقال الزجاج: حتى لا يفتن الناس فتنة كفر؛ ويدل عليه قوله: ﴿وَيَكُونُوا الَّذِينَ كُفِرُوا بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَنْتَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ أي: عن الكفر والقتال، ﴿فَاتَّكَلَّ اللَّهُ بِمَا يَمْلِكُونَ بَعِيرٌ﴾ وقرأ يعقوب إلا روحاً: «بما تعملون» بالتاء.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَيْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن الإيمان وعادوا إلى القتال ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَيْكُمْ﴾ أي: وليكم وناصركم. قال ابن قتية: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: نعم الولي ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: الناصر، مثل قدير وقادر، وسميع وسامع.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ إِلَهَكُمْ هُوَ يُؤْتِي السُّبُلَ وَيُغْنِي أَعْيُنَكُمْ وَيُؤْتِي السُّبُلَ وَيُغْنِي أَعْيُنَكُمْ وَيُؤْتِي السُّبُلَ وَيُغْنِي أَعْيُنَكُمْ﴾
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْفُرْقَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

(١) «الطبري» ١٣/٥٣٠.

(٢) روى مسلم في «صحيحه» ١١١/١ عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: قلنا: يا رسول الله، أنزأخذ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: «من أحسن في الإسلام لم يؤخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر».

وروى مسلم أيضاً في «صحيحه» ١١٢/١ من حديث عمرو بن العاص ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله».

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ اختلفوا، هل الغنيمة والفيء بمعنى واحد، أم يختلفان؟ على قولين: أحدهما: أنهما يختلفان. ثم في ذلك قولان: أحدهما: أن الغنيمة: ما ظهر عليه من أموال المشركين، والفيء: ما ظهر عليه من الأرضين، قاله عطاء بن السائب. والثاني: أن الغنيمة: ما أخذ عنوةً، والفيء: ما أخذ عن صلح، قاله سفيان الثوري. وقيل: بل الفيء: ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، كالعشور، والجزية، وأموال المهادنة، والصلح، وما هربوا عنه. والثاني: أنهما واحد، وهما: كل ما نيل من المشركين، ذكره الماوردي. وقال الزجاج: الأموال ثلاثة أصناف؛ فما صار إلى المسلمين من المشركين في حال الحرب، فقد سماه الله تعالى: أنفالاً وغنائم؛ وما صار من المشركين من خراج أو جزية مما لم يأخذ في الحرب، فقد سماه: فيئاً؛ وما خرج من أموال المسلمين، كالزكاة، والنذر، والقرب، سماه: صدقة. وأما قوله: ﴿وَمِنْ شَيْءٍ﴾ فالمراد به: كل ما وقع عليه اسم شيء. قال مجاهد: المَحْط من الشيء.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ حُسْمَةً﴾ وروى عبد الوارث: «حُسْمَةٌ» بسكون الميم. وفي المراد بالكلام قولان: أحدهما: أن نصيب الله مستحق يُصرف إلى بيته. قال أبو العالية: كان يجاء بالغنيمة فيقسمها رسول الله ﷺ على خمسة أسهم، فيقسم أربعة بين الناس، ثم يجعل من السهم الخامس للكعبة؛ وهذا مما انفرد به أبو العالية فيما يقال. والثاني: أن ذكر الله هاهنا لأحد وجهين: أحدهما: لأنه المتحكم فيه، والمالك له، والمعنى: فإن للرسول خمسة ولذي القربى، كقوله: ﴿يَسْتَوُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ فُلِيَ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١]. والثاني: أن يكون المعنى: إن الخمس مصروف في وجوه القرب إلى الله تعالى، وهذا قول الجمهور. فعلى هذا، تكون الواو زائدة، كقوله: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَاكَ تَكَلَّمَ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] المعنى: نادينا، ومثله كثير.

فصل

أجمع العلماء على أن أربعة أخماس الغنيمة لأهل الحرب خاصة؛ فأما الخمس الخامس، فكيف يقسم؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: يقسم منه الله وللرسول ولمن ذكر في الآية. وقد ذكرنا أن هذا مما انفرد به أبو العالية، وهو يقتضي أن يقسم على ستة أسهم. والثاني: أنه مقسوم على خمسة أسهم: سهم للرسول، وسهم لذوي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لأبناء السبيل، على ظاهر الآية، وبه قال الجمهور. والثالث: أنه يقسم على أربعة أسهم. فسهم الله ﷻ وسهم رسوله عائد على ذوي القربى، لأن رسول الله ﷺ لم يكن يأخذ منه شيئاً، وهذا المعنى رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

فصل

فأما سهم الرسول ﷺ، فإنه كان يصنع فيه ما بيئاً. وهل سقط بموته، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: لم يسقط بموته، وبه قال أحمد، والشافعي في آخرين. وفيما يصنع به قولان: أحدهما: أنه للخليفة بعده، قاله قتادة. والثاني: أنه يُصرف في المصالح، وبه قال أحمد، والشافعي. والثاني: أنه يسقط بموته كما يسقط الصفئ، فيرجع إلى جملة الغنيمة، وبه قال أبو حنيفة. وأما ذوو القربى، ففيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم جميع قريش. قال ابن عباس: كنا نقول: نحن هم؛ فأبى علينا قوماً، وقالوا: قريش كلها ذوو قربى. والثاني: بنو هاشم، وبنو المطلب، وبه قال أحمد، والشافعي. والثالث: أنهم بنو هاشم فقط، قاله أبو حنيفة. وبماذا يستحقون؟ فيه قولان: أحدهما: بالقرابة، وإن كانوا أغنياء، وبه قال أحمد، والشافعي. والثاني: بالفقر، لا بالاسم، وبه قال أبو حنيفة. وقد سبق في [البقرة: ١٧٧] معنى اليتامى والمساكين وابن السبيل. وينبغي أن تعتبر في اليتيم أربعة أوصاف: موت الأب، وإن كانت الأم باقية. والصَّغَرُ، لقوله ﷻ: ﴿لَا يَتَّم بِعَدِ حُلُمٍ﴾^(١). والإسلام، لأنه مال للمسلمين. والحاجة، لأنه مُعَدُّ للمصالح.

(١) رواه أبو داود ١٥٦٣/٣ من حديث علي بن أبي طالب بلفظ: «لا يتم بعد احتلام، ولا صمات يوم إلى الليل» قال المنذري: في إسناده يحيى بن محمد المدني الجاري، قال البخاري: يتكلمون فيه. وقال ابن حبان: يجب التنبه عما انفرد به من الروايات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ هو يوم بدر، فُرق فيه بين الحق والباطل بنصر المؤمنين. والذي أنزل عليه يومئذ قوله: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: ١] نزلت حين اختلفوا فيها، فالمعنى: إن كنتم آمنتُمْ بذلك، فاصدروا عن أمر الرسول في هذا أيضاً.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْمَدِينَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ الْقُصُوصِ وَالرَّكْبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لَيَقْبِضَنَّ اللَّهُ أَمْرًا كَمَا مَقُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْمَدِينَةِ الْأَنْبِيَاءِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «بالعدوة» و «العدوة» العين فيهما مكسورة. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: بضم العين فيهما. قال الأخفش: لم يُسمع من العرب إلا الكسر. وقال ثعلب: بل الضم أكثر اللغتين. قال ابن السكيت: عُدوة الوادي وعدوته: جانبه؛ والجمع: عُدَى وعُدَى. والدنيا: تأنيث الأدنى؛ وضدها: القصوى، وهي تأنيث الأقصى؛ وما كان من النعوت على «فعلَى» من ذوات الواو، فإن العرب تحوّلته إلى الياء، نحو: الدنيا، من: دنوت؛ والعليا، من: علوت؛ لأنهم يستثقلون الواو مع ضم الأول، وليس في هذا اختلاف، إلا أن أهل الحجاز قالوا: القصوى، فأظهروا الواو، وهو نادر؛ وغيرهم يقول: القصيا. قال المفسرون: إذ أنتم بشفير الوادي الأدنى من المدينة، وعدوكم بشفيره الأقصى من مكة، وكان الجمعان قد نزلا وادي بدر على هذه الضفة، والركب: أبو سفيان وأصحابه. قال الزجاج: من نصب «أسفل» أراد: والركب مكاناً أسفل منكم، ويجوز الرفع على معنى: والركب أشد تسفلاً منكم. قال قتادة: وكان المسلمون أعلى الوادي، والمشركون أسفله. وفي قوله: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ قولان: أحدهما: لو تواعدتم، ثم بلغكم كثرتهم، لتأخرتم عن الميعاد، قاله ابن إسحاق. والثاني: لو تواعدتم على الاجتماع في المكان الذي اجتمعتم فيه من عدوتي وادي بدر لاختلفتم في الميعاد، قاله أبو سليمان. وقال الماوردي: كانت تقع الزيادة والنقصان، أو التقدم والتأخر من غير قصد لذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَيَقْبِضَنَّ اللَّهُ أَمْرًا كَمَا مَقُولًا﴾ وهو إعزاز الإسلام، وإذلال الشرك.

قوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ وروى خلف عن يحيى: «لِيَهْلِكَ» بضم الياء وفتح اللام.

قوله تعالى: ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ قرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «من حي» بياء واحدة مشددة، وهذه رواية حفص عن عاصم، وقبيل عن ابن كثير. وروى شبل عن ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم: «حيي» بياءين، الأولى مكسورة، والثانية مفتوحة، وهي قراءة نافع. فمن قرأ بياءين، بين ولم يُدغم. ومن أَدغم ياء «حيي» فلاجتماع حرفين من جنس واحد. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: لَيُقْتَلَ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَنْ حُجَّةٍ، وَيَبْقَىٰ مِنْ بَقِيٍّ مِنْهُمْ عَنْ حُجَّةٍ. والثاني: ليكفر من كفر بعد حجة، ويؤمن من آمن عن حجة.

﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرْسَلْنَاهُمْ كَثِيرًا لَفُتِلْتُمْ وَلَتَنْتَعَثُنَّ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّكُمْ عَلَيْهِ يُدَاتِ الْأَشْهُورُ﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أن نبي الله ﷺ رأى عسكر المشركين في المنام قبل لقائهم في قلّة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. قال مجاهد: لما أخبر أصحابه بأنه رآهم في المنام قليلاً، كان ذلك تبييناً لهم. قال أبو سليمان الدمشقي: والكلام متعلق بما قبله، فالمعنى: وإن الله لسميع لما يقوله أصحابك، عليهم بما يضمنونه، إذ حدثهم بما رأيت في منامك. والثاني: إذ يريكم الله بعينك التي تنام بها، قاله الحسن^(١). قال الزجاج: وكثير من النحويين يذهبون إلى هذا المذهب. ومعناه عندهم: إذ يريكم الله في موضع منامك، أي: بعينك؛ ثم حذف الموضع، وأقام المنام مقامه.

= وقد حسنه النووي في «الأذكار» والرياض. وقال المناوي: وفي رواية للبخاري «بعد حلم» كما هي رواية المصنف هنا. وفي «المقاصد الحسنة» للسخاوي: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَلِيٍّ فِي حَدِيثٍ، وَقَدْ أَهْلَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ، وَحَسَنَهُ النَّوَوِيُّ مُتَمَسِّكًا بِسُكُوتِ أَبِي دَاوُدَ عَلَيْهِ، لَا سِيَّمَا وَهُوَ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ فِي «الصَّغِيرِ» مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنْ عَلِيٍّ، بَلْ لَهُ شَوَاهِدٌ عَنْ جَابِرٍ، وَأَنَسٍ وَغَيْرِهِمَا.

(١) قال ابن كثير: ٣١٥/٢. وهذا القول غريب.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَلَّمْتُ﴾ أي: لجنتهم وتأخرتهم عن حربهم. وقال مجاهد: لفشل أصحابك، ولرأوا ذلك في وجهك.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَنَزَّلَتْ فِي الْآخِرِ﴾ أي: لاختلفتم في حربهم، فكان ذلك من دواعي هزيمتكم، ﴿وَلَقَدْ كَانَ اللَّهُ سَكُوتًا﴾ من المخالفة والفشل.

﴿وَإِذْ يُرِيدُكُمْ لِيُذِلَّكُمْ قَلِيلًا فَخَفَّفْنَاهُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ لِيُخْشِعُوا إِلَهُكَ إِنَّهُمْ جَنَاحُوا قَوْلٍ مُنْهَكٍ مِنَ الْحَرْبِ أَلْفٍ ۚ﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيدُكُمْ لِيُذِلَّكُمْ قَلِيلًا﴾ قال مقاتل: صدق الله رؤيا رسوله التي أخبر بها المؤمنين عن قلة عدوهم قبل لقائهم، بأن قللهم وقت اللقاء في أعينهم. وقال ابن مسعود: لقد قللوا في أعيننا، حتى قلت لرجل إلى جاني: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة؛ حتى أخذنا رجلاً منهم، فسالناه، فقال: كُنَّا أَلْفًا. قال أبو صالح عن ابن عباس: استقل المسلمون المشركين، والمشركون المسلمين، فاجترأ بعضهم على بعض. فإن قيل: ما فائدة تكرير الرؤية هاهنا، وقد ذكرت في قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيدُكُمْ لِيُذِلَّكُمْ قَلِيلًا﴾؟ فنه جوابان: أحدهما: أن الأولى كانت في المنام، والثانية في اليقظة. والثاني: أن الأولى للنبي ﷺ خاصة، والثانية له ولأصحابه. فإن قيل: تكثير المؤمنين في أعين الكافرين أولى، لمكان إعزازهم. فنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنهم لو كثروا في أعينهم، لم يقدموا عليهم، فلم يكن قتال؛ والقتال سبب النصر، فقللهم لذلك. والثاني: أنه قللهم لئلا يتأهب المشركون كل التأهب؛ فإذا تحقق القتال، وجدهم المسلمون غير مستعدين، فظفروا بهم. والثالث: أنه قللهم ليحمل الأعداء عليهم في كثرتهم، فيغلبهم المسلمون، فيكون ذلك آية للمشركين ومثباً على نصره الحق.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاغْلُظْوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا الْفِتْنَةَ وَتَكُونُوا مِنَ الْكَافِرِينَ ۝﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاغْلُظْوا﴾ الفئته: الجماعة. ﴿وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الدعاء والنصر. والثاني: ذكر الله على الإطلاق.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا الْفِتْنَةَ﴾ قد سبق ذكر التنازع والفشل آنفاً.

قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وروى أبان: «ويذهب، بالياء والجزم. وفيه أربعة أقوال: أحدها: تذهب شدتكم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال السدي: حدثتكم وجذتكم. وقال الزجاج: صولتكم وقوتكم. والثاني: يذهب نصركم، قاله مجاهد، وقناة. والثالث: تنقطع دولتكم، قاله أبو عبيدة. وقال ابن قتيبة: يقال هبَّتْ له ريح النصر: إذا كانت له الدولة. ويقال: له الريح اليوم، أي: الدولة. والرابع: أنها ريح حقيقة، ولم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله فتضرب وجوه العدو؛ ومنه قوله ﷺ: «نُصِرْتُ بِالْصَّبَا، وأهلكْتُ عَادَ بِالْبُورِ»^(١)، وهذا قول ابن زيد، ومقاتل.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَةً الْأَنْبِيَاءِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ يُجِطُّ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا﴾ قال المفسرون: هم أبو جهل ومن خرج معه من مكة، خرجوا ليدفعوا عن غيرهم التي كانت مع أبي سفيان، ومعهم القيان والمعازف، وهم يشربون الخمر. فلما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز ما معه، كتب إليهم: إني قد أحرزت أموالكم فارجعوا. فقال أبو جهل: والله لا نفعل حتى نردّ بدرًا فنيقم ثلاثاً، وننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وناحت عليهم النواحي مكان القيان. فأما البطر؛ فهو الطغيان في النعم، وترك شكرها. والرياء: العمل من أجل رؤية الناس. وسبيل الله هاهنا: دينه.

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهْمُ الشَّيْطَانِ أَغْوَيْنَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْنَانَ تَفْصَحُ عَنْ وَعْدِ اللَّهِ وَإِنِّي لَأُبْرِيءُ مِنْكُمْ وَإِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَإِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾

(١). أحمد في «المستدر» رقم (٢٩٨٤)، والبخاري ٤٣٢/٢، ومسلم ٦١٧/٢، كلهم من رواية عبد الله بن عباس ؓ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ رَمَى لَهُمُ السَّيْلُنُ أَعْمَلَهُمْ﴾ قال عروة بن الزبير: لما أجمعت قريش المسير إلى بدر، ذكروا ما بينهم وبين كنانة من الحرب، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك المدلجي، وكان من أشراف بني كنانة، فقال لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنْ أَتَائِي وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ من أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعاً. وفي المراد بأعمالهم هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: شركهم. والثاني: مسيرهم إلى بدر. والثالث: قتالهم لرسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْقِسْمَانِ﴾ أي: صارتا بحيث رأت إحداهما الأخرى. وفي المراد بالفتتين قولان: أحدهما: فئة المسلمين، وفئة المشركين، وهو قول الجمهور. والثاني: فئة المسلمين، وفئة الملائكة، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿تَكْصُرُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ قال أبو عبيدة: رجع من حيث جاء. وقال ابن قتيبة: رجع القهقري. قال ابن السائب: كان إبليس في صف المشركين على صورة سراقه، أخذاً بيد الحارث بن هشام؛ فرأى الملائكة فنكص على عقبيه، فقال له الحارث: أفراراً من غير قتال؟ فقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾؛ فلما هُزم المشركون، قالوا: هَزَمَ النَّاسُ سَرَاقَةً، فبلغه ذلك، فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم. قال قتادة: صدق عدو الله في قوله: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾، ذكر لنا أنه رأى جبريل ومعه الملائكة، فعلم أنه لا يد له بالملائكة، وكذب عدو الله في قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له بهم. وقال عطاء: معناه: إني أخاف الله أن يهلكني. وقال ابن الأنباري: لما رأى نزول الملائكة، خاف أن تكون القيامة، فيكون انتهاء إنظاره، فيقع به العذاب. ومعنى «نكص» رجع هارباً بخزي وذل. واختلفوا في قوله: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ هل هو ابتداء كلام، أو تمام الحكاية عن إبليس، على قولين.

﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمَنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَاتَّ اللَّهُ غَيْرُ حَكِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمَنَافِقُونَ﴾ قال ابن عباس: هم قوم من أهل المدينة من الأوس والخزرج. فأما الذين في قلوبهم مرض، ففيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم قوم كانوا قد تكلموا بالإسلام بمكة، فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر كرهاً؛ فلما رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين، ارتابوا وناقضوا، وقالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وإليه ذهب الشعبي في آخرين. وعدّهم مقاتل، فقال: كانوا سبعة: قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منية بن الحجاج، والوليد بن الوليد بن المغيرة، والوليد بن عتبة بن ربيعة. والثاني: أنهم المشركون، لما رأوا قلة المسلمين، قالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن. والثالث: أنهم قوم مرتابون، لم يُظهروا عداوة النبي ﷺ، ذكره الماوردي. والمرض هاهنا: الشك، والإشارة بقوله: «هؤلاء» إلى المسلمين؛ وإنما قالوا هذا، لأنهم رأوا قلة المسلمين، فلم يشكوا في أن قريشاً تغلبهم.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرِفُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ﴾ قرأ الجمهور «يتوفى» بالياء. وقرأ ابن عامر «تتوفى» بتاءين. قال المفسرون: نزلت في الرهط الذين قالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾. وفي المراد، بالملائكة ثلاثة أقوال: أحدها: ملك الموت وحده، قاله مقاتل. والثاني: ملائكة العذاب، قاله أبو سليمان الدمشقي. والثالث: الملائكة الذين قاتلوا يوم بدر، ذكره الماوردي. وفي قوله: ﴿يَصْرِفُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ أربعة أقوال: أحدها: يضرّبون وجوههم ببدر لما قاتلوا، وأدبارهم لما انهزموا. والثاني: أنهم جاؤوهم من بين أيديهم ومن خلفهم، فالذين أمامهم ضربوا وجوههم، والذين وراءهم ضربوا أدبارهم. والثالث: يضرّبون وجوههم عند الموت بسيّاط من نار. وهل المراد نفس الوجوه والأدبار، أم المراد ما أقبل من أبدانهم وأدبر؟ فيه قولان. وفي قوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ قولان: أحدهما: أنه في الدنيا؛ وفيه إضمار «يقولون»، فالمعنى: يضرّبون ويقولون، كقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا﴾ [البقرة: ١٢٧] أي: ويقولان. قال النابغة:

كَأَنَّكَ مِنْ جَمَالِ بَنِي أَقِيْشٍ يُقَعِّعُ خَلْفَ رَجُلَيْهِ بِشَرٍّ^(١) والمعنى: كأنك جمل من جمال لبني أقيش، هذا قول الفراء وأبي عبيدة. والثاني: أن الضرب لهم في الدنيا، فإذا وردوا يوم القيامة إلى النار، قال خزنتها: ذوقوا عذاب الحريق، هذا قول مقاتل.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ أي: بما كسبتم من قبائح أعمالكم: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢) لا يظلم عباده بعقوبتهم على الكفر، وإن كان كفرهم بقضائه، لأنه مالك، فله التصرف في ملكه كما يشاء، فيستحيل نسبة الظلم إليه.

﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَٱخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: كعادتهم. والمعنى: كذب هؤلاء كما كذب أولئك، فنزل بهم العذاب كما نزل بأولئك. قال ابن عباس: أيقن آل فرعون أن موسى نبي الله فكذبوه، فكذلك هؤلاء في حق محمد ﷺ.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنفَعَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُفَرِّدُوا مَا بَيْنَهُم بَآئِنًا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ﴾ أي: ذلك الأخذ والعقاب بأن الله ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنفَعَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُفَرِّدُوا﴾ بالكفران وترك الشكر. قال مقاتل: والمراد بالقوم هاهنا أهل مكة، أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، ثم بعث فيهم محمداً ﷺ، فلم يعرفوا المنعم عليهم، فغیر الله ما بهم. وقال السدي: كذبوا بمحمد، فنقله الله إلى الأنصار. قال أبو سليمان الخطابي: والقوي يكون بمعنى القادر، فمن قوي على شيء فقد قدر عليه، وقد يكون معناه: التام القوة الذي لا يستولي عليه العجز في حال، والمخلوق، وإن وصف بالقوة، فقوته متناهية، وعن بعض الأمور قاصرة.

﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَنتَهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنفَرْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: كذب أهل مكة بمحمد والقرآن، كم كذب آل فرعون بموسى والتوراة، وكذب من قبلهم بأنبيائهم. قال مكي بن أبي طالب: الكاف من «كذاب» في موضع نصب، نعت لمحدوف تقديره: غيرنا بهم لما غيروا تغييراً مثل عادتنا في آل فرعون، ومثلها الآية الأولى، إلا أن الأول للعادة في العذاب؛ تقديره: فعلنا بهم ذلك فعلاً مثل عادتنا في آل فرعون.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَلَكْنَهُمْ﴾ يعني الأمم المتقدمة، بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالريح، فكذلك أهلكتنا كفار مكة بيد. وقال بعضهم: يعني بقوله: «فأهلكناهم» الذين أهلكتهم بيد.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال أبو صالح عن ابن عباس: نزلت في بني قريظة من اليهود، منهم كعب بن الأشرف وأصحابه.

﴿ٱلَّذِينَ عٰهَدْتَ لَهُم مَّا يَنْفُتُونَ عٰهَدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عٰهَدْتَ لَهُم مَّا يَنْفُتُونَ عٰهَدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ في «مِنْ» أربعة أقوال: أحدها: أنها صلة؛ والمعنى: الذين عاهدتهم. والثاني: أنها للتبعض؛ فالمعنى: إن شر الدواب الكفار. وشرهم الذين عاهدت ونقضوا. والثالث: أنها بمعنى «مع»؛ والمعنى: عاهدت معهم. والرابع: أنها دخلت، لأن العهد أخذ منهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَنْفُتُونَ عٰهَدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ أي: كلما عاهدتهم نقضوا. وفي قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾

(١) «مجاز القرآن» ٤٧/١، و«الكتاب» ٣٢٧/١، و«الكامل» ٣٣٩، و«مختار الشعر الجاهلي» ٢٠٠/١، و«اللسان»، و«التاج»: تقعع، و«الخزانة» ٢/٣١٢. وقمع الشيء: صوت، ويقولون: فلان يقمع له بالشان، وهو مثل يضرب لمن يروعه ما لا حقيقة له، وبنو أقيش: فخذ من أشجع، ويقال: هم من عكل، وإليه غير عتاق، يضرب بنفارها المثل، فجعل عينة بن حصن المهجو كالجمال النافر لجنته وخفته عند الفرع، والشن: الجلد البالي.

(٢) روى مسلم في «صحيحه» ١٩٩٤/٤ عن أبي ذر الغفاري ؓ عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا...» الحديث.

قولان: أحدهما: لا يَتَّقُونَ نقض العهد. والثاني: لا يَتَّقُونَ الله في نقض العهد. قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ قد عاهد يهود قريظة أن لا يحاربوه ولا يعاونوا عليه، فنقضوا العهد وأعانوا عليه مشركي مكة بالسلاح، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا؛ ثم عاهدوه الثانية، فنقضوا ومالوا الكفار يوم الخندق، وكتب كعب بن الأشرف إلى مكة يوافقهم على مخالفة رسول الله ﷺ.

﴿فَإِنَّمَا تَتَّقَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَتَرَدَّ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (٥٧)

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا تَتَّقَنَّهُمْ﴾ قال أبو عبيدة: مجازة: فإن تثقفنهم. فعلى قوله، تكون «ما» زائدة. وقد سبق بيان «فأما» في [البقرة: ٢٣٨]. قال ابن قتيبة: فمعنى «تثقفنهم» تظفر بهم. ﴿فَتَرَدَّ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ﴾ أي: افعل بهم فعلاً من العقوبة والتنكيل يترقب به مَن وراءهم من أعدائك. قال: ويقال: شرد بهم، أي: سمع بهم، بلغة قريش. قال الشاعر:

أَطُوفُ فِي الْأَبَاطِحِ كُلِّ يَوْمٍ مَخَافَةً أَنْ يُشْرِدَ بِي حَكِيمٌ^(١)

وقال ابن عباس: نكل بهم تنكيلاً يشرد غيرهم من ناقضي العهد، لعلهم يذكرون النكال فلا يتقضون العهد.

﴿وَلِئَلَّا تَخَافَنَّ مِنْ قُوَّةِ حِيَانِهِ فَأَتَيْدَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ (٥٨)

قوله تعالى: ﴿وَلِئَلَّا تَخَافَنَّ مِنْ قُوَّةِ حِيَانِهِ﴾ قال المفسرون: الخوف هاهنا بمعنى العلم، والمعنى: إن علمت من قوم قد عاهدتهم خيانة، وهي نقض عهد. وقال مجاهد: نزلت في بني قريظة. وفي قوله: ﴿فَأَتَيْدَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أربعة أقوال: أحدها: فأتيت إليهم نقضك العهد لتكون وإياهم في العلم بالنقض سواءً، هذا قول الأكثرين، واختاره الفراء، وابن قتيبة، وأبو عبيدة. والثاني: فأنبذ إليهم جهراً غير سر، ذكره الفراء أيضاً في آخرين. والثالث: فأنبذ إليهم على مهل، قاله الوليد بن مسلم. والرابع: فأنبذ إليهم على عدل من غير حيف، وأنشدوا:

فَاضْرِبْ وَجْهَ الْعُدَّةِ الْأَعْدَاءِ حَتَّى يُجِيبُوكَ إِلَى السَّوَاءِ^(٢)

ذكره أبو سليمان الدمشقي.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ (٥٩)

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم «ولا تحسبن» بالتاء وكسر السين؛ إلا أن عاصماً فتح السين. وقرأ ابن عامر، وحزمة، وحفص عن عاصم: بالياء وفتح السين. وفي الكافرين هاهنا قولان: أحدهما: جميع الكفار، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنهم الذين انهزموا يوم بدر، ذكره محمد بن القاسم النحوي وغيره. و«سبقوا» بمعنى فاتوا. قال ابن الأنباري: وذلك أنهم أشفقوا من هلكة تنزل بهم في بعض الأوقات؛ فلما سلموا منها، قيل: لا تحسبن أنهم فاتوا بسلامتهم الآن، فإنهم لا يعجزونا، أي: لا يفوتونا فيما يستقبلون من الأوقات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ قرأ الجمهور بكسر الالف. وقرأ ابن عامر: بفتحها؛ وعلى قراءته اعتراض. لقائل أن يقول: إذا كان قد قرأ «يحبسن» بالياء، وقرأ «أنهم» بالفتح، فقد أقرهم على أنهم لا يعجزون؛ ومتى علموا أنهم لا يعجزون، لم يلاموا؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري فقال: المعنى: «لا يحسبن الذين كفروا سبقوا» لا يحسبن أنهم يعجزون؛ و«لا» زائدة مؤكدة. وقال أبو علي: المعنى: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا وأبأهم سبقوا، لأنهم لا يفوتون، فهم يُعْجِزُونَ على كفرهم.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْغَلِيلِ يُرْهِبُوكَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٦٠)

قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ في المراد بالقوة أربعة أقوال: أحدها: أنها الرمي، رواه عقبه بن

(١) البيت غير منسوب في «اللسان»: شرد. وأطوف: أطوف، وحكيم: رجل من بني سليم كانت قريش ولته الأخذ على أيدي السفهاء.

(٢) البيت في «الطبري» غير منسوب ٢٧/١٤، والغدر بضمتين، جمع غدر، مثل صبور، وهو القادر المستمر للغدر.

عامر عن رسول الله ﷺ^(١). وقال الحكم بن أبان: هي النبل. والثاني: ذكور الخيل، قاله عكرمة. والثالث: السلاح، قاله السدي، وابن قتيبة. والرابع: أنه كل ما يُقَوَّى به على حرب العدو من آلة الجهاد.

قوله تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ يعني ربطها واقتناءها للغزو؛ وهو عام في الذكور والإناث في قول الجمهور. وكان عكرمة يقول: المراد بقوله: ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ إناثها.

قوله تعالى: ﴿تَرْيَبُونَ بِهِ﴾ روى رويس، وعبد الوارث «تُرْهَبُونَ» بفتح الراء وتشديد الهاء، أي؛ تخيفون وترعبون به عدو الله وعدوكم، وهم مشركو مكة وكفار العرب.

قوله تعالى: ﴿وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من دون كفار العرب. واختلفوا فيهم على خمسة أقوال: أحدها: أنهم الجن. روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هم الجن، وإن الشيطان لا يخبل أحداً في داره فرس عتيق»^(٢). والثاني: أنهم بنو قريظة، قاله مجاهد. والثالث: أهل فارس، قاله السدي. والرابع: المنافقون، قاله ابن زيد. والخامس: اليهود، قاله مقاتل.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْغَلِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم «للسلم» بكسر السين. قال الزجاج: السلم: الصلح والمصالمة. يقال: سلم وسلم وسلم في معنى واحد، أي: إن مالوا إلى الصلح فسلم إليه. قال الفراء: إن شئت جعلت «لها» كناية عن السلم لأنها تؤنث، وإن شئت جعلتها للفعلة، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَنِي بَدِيٍّ لَقَفُورٌ رَجِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٥٣]. فإن قيل لم قال «لها» ولم يقل: «إليها»؟ فالجواب: أن «اللام» و«إلى» تنوب كل واحدة منهما عن الأخرى. وفيمن أريد بهذه الآية قولان: أحدهما: المشركون، وأنها نسخت بآية السيف. والثاني: أهل الكتاب، فإن قيل: إنها نزلت في ترك حربهم إذا بذلوا الجزية وقاموا بشرط الذمة، فهي محكمة. وإن قيل: نزلت في موادعتهم على غير جزية، توجه النسخ لها بآية الجزية.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ نَصْرَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَتَفَتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَتَفَتَ بِرَبِّكَ قُلُوبُهُمْ وَلَعَجَّ اللَّهُ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُمْ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا﴾ قال مقاتل: يعني يهود قريظة: ﴿أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ بالصلح لتكف عنهم، حتى إذا جاء مشركو العرب، أعانواهم عليك ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾. قال الزجاج: فإن الذي يتوَلَّى كفايتك الله ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ﴾ أي: قواك. وقال مقاتل: قواك ينصره وبالمؤمنين من الأنصار يوم بدر.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني الأوس والخزرج، وهم الأنصار، كانت بينهم عداوة في الجاهلية، فألف الله بينهم بالإسلام. وهذا من أعجب الآيات، لأنهم كانوا ذوي أنفة شديدة؛ فلو أن رجلاً لطم رجلاً. لقتلت عنه قبيلته حتى تدرك ثاره، فآل بهم الإسلام إلى أن يقتل الرجل ابنه وأباه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ فيه قولان: أحدهما: حسبك الله، وحسب من اتبعك، هذا قول أبي صالح عن ابن عباس، وبه قال ابن زيد، ومقاتل، والأكثر. والثاني: حسبك الله ومعيه، قاله مجاهد. وعن الشعبي كالقولين. وأجاز الفراء والزجاج الوجهين. وروى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: أسلم مع رسول الله ﷺ تسعة وثلاثون، ثم أسلم عمر فصاروا أربعين، فنزلت هذه الآية. قال أبو سليمان الدمشقي: هذا لا يحفظ، والسورة مدنية بإجماع، والقول الأول أصح.

(١) روى مسلم في «صحيحه» ١٣/٦٤ عن عتبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: ﴿وَأَعِذُوا لَهُمْ مَا اسْتَعَلُّكُمْ مِنْ فِرْقٍ﴾ إلا إن القوة الرمي، إلا إن القوة الرمي، ورواه أبو داود في «سننه» رقم ٢٥١٥، وابن ماجه رقم ٢٨١٣، والحاكم ٣٢٨/٢ وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجه البخاري، ووافقه الذهبي.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٢/٣٢٢ من رواية ابن أبي حاتم عن يزيد بن عبد الله بن غريب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كان يقول في قول الله تعالى: ﴿وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِ لَا تَسْلُونَهُمْ﴾ قال: «هم الجن» ثم قال: ورواه الطبراني عن يزيد بن عبد الله بن غريب به وزاد: قال رسول الله ﷺ: «لا يخبل بيت فيه عتيق من الخيل» وقال: وهذا الحديث منكر لا يصح إسناده ولا متنه.

﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ حَرِيصَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِيرُونَ يَقْبَلُوا مَا نَتَيْ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَقْبَلُوا أَلْفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٥﴾ أَلَفْنَ حَقَّقَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ صَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَقْبَلُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَقْبَلُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿حَرِيصَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ قال الزجاج: تأويله: حُثْمهم. وتأويل التحريض في اللغة: أن يحث الإنسان على الشيء حثاً يعلم معه أنه حارص إن تخلف عنه. والحرارص: الذي قد قارب الهلاك.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِيرُونَ يَقْبَلُوا مِائَتَيْنِ﴾ لفظُ هذا الكلام لفظ الخبر، ومعناه الأمر، والمراد: يقاتلوا مائتين، وكان هذا فرضاً في أول الأمر، ثم نسخ بقوله: ﴿أَلَفْنَ حَقَّقَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ ففرض على الرجل أن يثبت لرجلين، فإن زادوا جاز له الفرار. قال مجاهد: وهذا التشديد كان في يوم بدر. واتفق القراء على قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ﴾ ففروا «يكن» بالياء، واختلفوا في قوله: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَقْبَلُوا أَلْفًا﴾، وفي قوله: ﴿فَإِنْ تَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ فقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: بالياء فيهما. وقرأهما عاصم، وحزمة، والكسائي: بالياء. وقرأ أبو عمرو «يكن منكم مائة يغلبوا» بالياء، «فإن تكن منكم مائة صابرة» بالياء. قال الزجاج: من أثت، فللفظ المائة؛ ومن ذكر، فلان المائة وقعت على عدد مذكر. وقال أبو علي: من قرأ بالياء، فلأنه أريد منه المذكر، بدليل قوله: «يغلبوا»، وكذلك المائة الصابرة هم رجال، ففروها بالياء، لموضع التذكير. فأما أبو عمرو، فإنه لما رأى صفة المائة مؤنثة بقوله: «صابرة» أثت الفعل، ولما رأى «يغلبوا» مذكراً، ذكر. ومعنى الكلام: إن يكن منكم عشرون صابرون يثبتون عند اللقاء، يغلبوا مائتين، لأن المؤمنين يحسبون أفعالهم، وأهل الشرك يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب، فإذا صدقهم المؤمنون القتال لم يثبتوا؛ وذلك معنى قوله: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَلِمَ﴾ وروى المفضل «وعلم» بضم العين «أن فيكم صَعْفًا» بضم الصاد. وقرأ عاصم، وحزمة: بفتح الصاد. وكذلك خلافهم في [الروم: ٥٥]، قال الفراء: الضم لغة قريش، والفتح لغة تميم. قال الزجاج: والمعنى في القراءتين واحد، يقال: هو الضَّعْفُ والضَّعْفُ، والمَكْثُ والمَكْثُ، والفَقْرُ والفَقْرُ، وفي اللغة كثير من باب فَعْلٌ وفَعْلٌ، والمعنى واحد. وقرأ أبو جعفر «وعلم أن فيكم صَعْفًا» على فُعْلًا. فأما قوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فهو إعلام بأن الغلبة لا تقع إلا بإرادته.

﴿مَا كَانَتْ لِيَنْبِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَتَرَى حَتَّى يُثْبِتْ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْبِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَتَرَى حَتَّى يُثْبِتْ فِي الْأَرْضِ﴾ روى مسلم في أفرادهِ من حديث عمر بن الخطاب قال: لما هزم الله المشركين يوم بدر، وقُتل منهم سبعون وأسير منهم سبعون، استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر علياً، فقال أبو بكر: يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإنني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً. فقال رسول الله: «ما ترى يا ابن الخطاب؟ قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكّنني من فلان، قريب لعمر، فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، تمكّن حمزة من أخيه فلان فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هودة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. فَيُؤَيِّ رسول الله ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فأخذ منهم الفداء. فلما كان من الغد، غدوت إلى رسول الله ﷺ، فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وهما يبكيان. فقلت: يا رسول الله، أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت. فقال النبي ﷺ: «أبكي للذي عرض علي أصحابك من الفداء. لقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة» لشجرة قريبة، فأنزل الله ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْبِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَتَرَى﴾ إلى قوله ﴿عَظِيمٌ﴾^(١). وروي عن ابن عمر قال: لما أشار عمر بقتلهم، وفاداهم رسول الله ﷺ، أنزل الله تعالى

(١) «الطبري» ٦٣/١٤ ورواه أحمد في «المسند» رقم ٢٠٨ و ٢٢١ مطولاً، ورواه مسلم في «صحيحه» ٣/١٣٨٣ - ١٣٨٥ كذلك مطولاً، وقد رواه المؤلف من رواية مسلم مختصراً بمعناه، وروى بعضه أبو داود في «سننه» رقم ٢٦٩٠، ورواه الترمذي ١٣٤/٢ مختصراً، والواحدي في «أسباب النزول» =

على العباس الفداء» فأخذوا منه ثمانين أوقية، وكان فداء كل أسير أربعين أوقية. فقال العباس لرسول الله ﷺ: لقد تركتني ما حييت أسأل قريشاً بكفّي. فقال له: «أين الذهب الذي تركته عند أم الفضل؟» فقال: أي الذهب؟ فقال: «إنك قلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث، فهو لك ولولئك» فقال: ابن أخي، من أخبرك؟ فقال: «الله أخبرني»، فقال العباس: أشهد أنك صادق، وما علمت أنك رسول الله قبل اليوم؛ وأمر ابني أخيه فأسلما. وفيهم نزلت: ﴿قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ رِبَکَ الْأَسْرَى﴾ الآية. وروى العوفي عن ابن عباس أنها نزلت في جميع من أسر يوم بدر. وقال ابن زيد: لما بعث رسول الله ﷺ أتاه رجال، فقالوا: لولا أننا نخاف هؤلاء القوم لأسلمنا، ولكننا نشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. فلما كان يوم بدر، قال المشركين: لا يتخلف عنا أحد إلا هدمنا داره واستحللنا ماله، فخرج أولئك القوم، فقتلت طائفة منهم وأسرت طائفة. فأما الذين قُتلوا، فهم الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمْ النَّسِیْکَةُ ظَالِمِیْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٢٨]. وأما الذين أسروا فقالوا: يا رسول الله أنت تعلم أننا كنا نشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، وإنما خرجنا مع هؤلاء خوفاً منهم. فذلك قوله: ﴿قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ رِبَکَ الْأَسْرَى﴾ إلى قوله: ﴿حَکِیْ﴾. فأما قوله: ﴿إِن یَسْلَمْ اَللّٰهُ فِی قُلُوبِکُمْ حَبْرًا﴾ فمعناه إسلاماً وصدقاً ﴿وَبِیْزِکُمْ حَبْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْکُمْ﴾ من الفداء. وفيه قولان: أحدهما: أكثر مما أخذ منكم. والثاني: أحل وأطیب. وقرأ الحسن، ومجاهد، وقتادة، وابن أبي عبلة: «مما أخذ منكم» بفتح الخاء؛ يشيرون إلى الله تعالى. وفي قوله: ﴿وَبِیْزِکُمْ لَکُمْ﴾ قولان: أحدهما: يغفر لكم كفرکم وقاتلکم رسول الله، قاله الزجاج. والثاني: يغفر لكم خروجکم مع المشركين، قاله ابن زيد في تمام كلامه الأول.

﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ يعني: إن أراد الأسراء خيانتك بالكفر بعد الإسلام ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ إذ كفروا به قبل أسرهم. وقال ابن زيد: فقد خانوا بخروجهم مع المشركين؛ وقد ذكرنا عنه أنها نزلت في قوم تكلموا بالإسلام. وقال مقاتل: المعنى: إن خانوك أمكنتك منهم فقتلتهم وأسرتهم كما أمكنتك بيدر. قال الزجاج: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بخيانة إن خانوها، ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره عليهم ومجازاته إياهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهِجِرُوا مَا لَكُم مِّنَ وَفَاءٍ حَتَّىٰ يَهِجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: المهاجرين الذين هجروا ديارهم وأموالهم وقومهم في نصرة الدين. ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا﴾ يعني: الأنصار، آووا رسول الله، وأسكنوا المهاجرين ديارهم، ونصروهم على أعدائهم. ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: في النصرة. والثاني: في الميراث. قال المفسرون: كانوا يتوارثون بالهجرة، وكان المؤمن الذي لم يهاجر لا يرث قريبه المهاجر، وهو معنى قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنَ وَفَاءٍ حَتَّىٰ يَهِجِرُوا﴾. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وابن عامر، وعاصم، والكسائي: «ولايتهم» بفتح الواو. وقرأ حمزة: بكسر الواو. قال الزجاج: المعنى: ليس بينكم وبينهم ميراث حتى يهاجروا. ومن كسر واو الولاية، فهي بمنزلة الإمارة؛ وإذا فتحت، فهي من النصرة. وقال يونس النحوي: الولاية، بالفتح، لله ﷻ، والولاية، بالكسر، من وليت الأمر. وقال أبو عبيدة: الولاية، بالفتح، للخالق؛ والولاية، للمخلوق. قال ابن الأنباري: الولاية، بالفتح، مصدر الولي، والولاية: مصدر الوالي، يقال: وليت بين الولاية، ووال بين الولاية؛ فهذا هو الاختيار؛ ثم يصلح في ذا ما يصلح في ذا. وقال ابن فارس: الولاية، بالفتح: النصرة، وقد تكسر. والولاية، بالكسر: السلطان.

فصل

وذهب قوم إلى أن المراد بهذه الولاية مولاة النصر والمودة. قالوا: ونسخ هذا الحكم بقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]. فأما القائلون بأنها ولاية الميراث، فقالوا: نسخت بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأقوال: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي: إن استنصركم المؤمنون الذين لم يهاجروا فانصروهم، إلا أن يستنصروكم على قوم بينكم وبينهم عهد، فلا تغدروا بأرباب العهد. وقال بعضهم: لم يكن على المهاجر أن ينصر من لم يهاجر إلا أن يستنصره.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ فَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ] ﴿٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: في الميراث، قاله ابن عباس. والثاني: في النصرة، قاله قتادة. وفي قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ قولان: أحدهما: أنه يرجع إلى الميراث، فالمعنى: إلا تأخذوا في الميراث بما أمرتكم، قاله ابن عباس. والثاني: أنه يرجع إلى التناصر. فالمعنى: إلا تتعاونوا وتتناصروا في الدين، قاله ابن جريج. وبيانه أنه إذا لم يتول المؤمن المؤمن توكلاً حقاً، ويتبرأ من الكافر جداً، أدى ذلك إلى الضلال والفساد في الدين. فإذا هجر المسلم أقرابه الكفار، ونصر المسلمين، كان ذلك أدعى لأقرابه الكفار إلى الإسلام وترك الشرك.

قوله تعالى: ﴿وَسَاءَ كَبِيرٌ﴾ قرأ أبو هريرة. وابن سيرين، وابن السميع: «كثير» بالناء.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: هم الذين حققوا إيمانهم بما يقتضيه من الهجرة والنصرة، بخلاف من أقام بدار الشرك. والرزق الكريم: هو الحسن، وذلك في الجنة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَّهَهُمْ مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [٧٥]

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ﴾ أي: من بعد المهاجرين الأولين. قال ابن عباس: هم الذين هاجروا بعد الحديبية.

قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أي: في الموارث بالهجرة. قال ابن عباس: أخى النبي ﷺ بين أصحابه، وكانوا يتوارثون بذلك الإخاء حتى نزلت هذه الآية، فتوارثوا بالنسب.

قوله تعالى: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اللوح المحفوظ. والثاني: أنه القرآن. وقد بين لهم قسمة الميراث في سورة [النساء: ١١، ١٢]. والثالث: أنه حكم الله، ذكره الزجاج.



سورة التوبة

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

فصل في نزولها

هي مدنية بإجماعهم، سوى الآيتين اللتين في آخرها: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] فإنها نزلت بمكة. روى البخاري في «صحيحه» من حديث البراء قال: آخر سورة نزلت (براءة)^(١). وقد نُقل عن بعض العرب أنه سمع قارئاً يقرأ هذه السورة، فقال الأعرابي: إني لأحسب هذه من آخر ما نزل من القرآن. قيل له: ومن أين علمت؟ فقال: إني لأسمع عهوداً تُنشد، ووصايا تُنفذ.

فصل

واختلفوا في أول ما نزل من (براءة) على ثلاثة أقوال: أحدها: أن أول ما نزل منها قوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ [التوبة: ٢٥]، قاله مجاهد. والثاني: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، قاله أبو الضحى، وأبو مالك. والثالث: ﴿لَا تَنْصُرُوهُ﴾ [التوبة: ٤٠]، قاله مقاتل. وهذا الخلاف إنما هو في أول ما نزل منها بالمدينة، فإنهم قد قالوا: نزلت الآيتان اللتان في آخرها بمكة.

فصل

ولها تسعة أسماء: أحدها: سورة التوبة. والثاني: براءة؛ وهذان مشهوران بين الناس. والثالث: سورة العذاب، قاله حذيفة. والرابع: الْمُقَشَّقَشَةُ، قاله ابن عمر. والخامس: سورة البحوث، لأنها بحثت عن سرائر المنافقين، قاله المقداد بن الأسود. والسادس: الفاضحة، لأنها فضحت المنافقين، قاله ابن عباس. والسابع: المبعثرة، لأنها بعثت أخبار الناس، وكشفت عن سرائرهم، قاله الحارث بن يزيد، وابن إسحاق. والثامن: المثيرة، لأنها أثارت مخازي المنافقين ومثالبهم، قاله قتادة. والتاسع: الحافرة، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين، قاله الزجاج.

فصل

وفي سبب امتناعهم من كتابة التسمية في أولها ثلاثة أقوال: أحدها: رواه ابن عباس، قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم على أن عمدتم إلى (الأنفال) وهي من المثاني، وإلى (براءة) وهي من المثين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما «بسم الله الرحمن الرحيم»؟ فقال: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه شيء يدعو بعض من يكتب، فيقول: «ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»، وكانت (الأنفال) من أوائل ما نزل بالمدينة، و (براءة) من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها؛ وقُبض رسول الله ﷺ، ولم يُبين لنا أنها منها، فظننا أنها منها؛ فمن ثم قرئت بينهما ولم أكتب بينهما: «بسم الله الرحمن الرحيم»^(٢). وذكر نحو هذا المعنى عن أبي بن كعب. قال الزجاج: والشبه الذي بينهما، أن في (الأنفال) ذكر اليهود، وفي (براءة) نقضها. وكان قتادة يقول: هما سورة واحدة. والثاني: رواه

(١) «البخاري» ٢٢٧/٨.

(٢) «المستد» ٣٩٩/١، وأبو داود ٢٩٠/١، والترمذي ١٣٤/٢ وحسنه، وابن أبي داود في «المصاحف» ٣١، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» ١٥٨، والحاكم ٣٣٠/٢، وصححه، وخرجه السيوطي في «الدر» ٢٠٧/٣ وزاد نسبه إلى النسائي، وابن المنذر، وابن حبان، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، وقد ضعف هذا الحديث الشيخ أحمد شاكر، بل حكم عليه بأنه لا أصل له في تعليقه على «المستد»، فانظره.

محمد بن الحنفية، قال: قلت لأبي: لم لم تكتبوا في (براءة) «بسم الله الرحمن الرحيم»؟ فقال: يا بني، إن (براءة) نزلت بالسيف، وإن «بسم الله الرحمن الرحيم» أمان. وسئل سفيان بن عيينة عن هذا، فقال: لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت في المنافقين. والثالث: أن رسول الله ﷺ، لما كتب في صلح الحديبية «بسم الله الرحمن الرحيم»، لم يقبلوها وردوها، فما ردها الله عليهم، قاله عبد العزيز بن يحيى المكي.

فصل

فأما سبب نزولها، فقال المفسرون: أخذت العرب تنقض عهوداً بنتها مع رسول الله ﷺ، فأمره الله تعالى بالبقاء عهودهم إليهم، فأنزل (براءة) في سنة تسع، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم ليقم للناس الحج في تلك السنة، وبعث معه صدراً من (براءة) ليقراها على أهل الموسم، فلما سار، دعا رسول الله ﷺ علياً، فقال: «أخرج بهذه القصة من صدر (براءة) وأذن في الناس بذلك» فخرج علي على ناقه رسول الله ﷺ العضاء حتى أدرك أبا بكر، فرجع أبو بكر فقال: يا رسول الله، أنزل في شأني شيء؟ قال: «لا، ولكن لا يبلغ عني إلا رجل مني، أما ترضى أنك كنت صاحبي في الغار، وأنتك صاحبي على الحوض»؟ قال: بلى يا رسول الله. فسار أبو بكر أميراً على الحج، وسار علي ليؤذن بـ (براءة).

فصل

وفي عدد الآيات التي بعثها رسول الله ﷺ من أول (براءة) خمسة أقوال: أحدها: أربعون آية، قاله علي رضي الله عنه. والثاني: ثلاثون آية، قاله أبو هريرة. والثالث: عشر آيات، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: سبع آيات، رواه ابن جريج عن عطاء. والخامس: تسع آيات، قاله مقاتل.

فصل

فإن توهم متوهم أن في أخذ (براءة) من أبي بكر، وتسليمها إلى علي، تفضيلاً لعلي على أبي بكر، فقد جهل؛ لأن النبي ﷺ أجرى العرب في ذلك على عادتهم. قال الزجاج: وقد جرت عادة العرب في عقد عهدها ونقضها، أن يتولى ذلك على القبيلة رجل منها؛ وجائز أن تقول العرب إذا تلا عليها نقض العهد من ليس من رهط النبي ﷺ: هذا خلاف ما نعرف فينا في نقض العهود، فأزاح النبي ﷺ العلة بما فعل. وقال عمرو بن بحر: ليس هذا بتفضيل لعلي على أبي بكر، وإنما عاملهم بعادتهم المتعارفة في جعل العقد، وكان لا يتولى ذلك إلا السيد منهم، أو رجل من رهطه ذنباً، كأخ، أو عم؛ وقد كان أبو بكر في تلك الحجة الإمام، وعلي يأتى به، وأبو بكر الخطيب، وعلي يسمع. وقال أبو هريرة: بعثني أبو بكر في تلك الحجة مع المؤذنين الذين بعثهم يؤذنون بمنى: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان؛ فأذن معنا علي بـ (براءة) وبذلك الكلام. وقال الشعبي: بعث رسول الله ﷺ علياً يؤذن بأربع كلمات: «ألا لا يحج بعد العام مشرك، ألا ولا يطوف بالبيت عريان، ألا ولا يدخل الجنة إلا مسلم، ألا ومن كانت بيته وبين محمد مدة فأجله إلى مدته، والله بريء من المشركين ورسوله».

فصل

فأما التفسير، فقولته تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ﴾ قال الفراء: هي مرفوعة بإضمار «هذه»، ومثله: ﴿سُورَةٌ أُنزِلَتْهَا﴾ [النور: ٤٢]. وقال الزجاج: يقال: برئت من الرجل والدين براءة، وبرئت من المرض؛ وبرأت أيضاً أبرأ برأ، وقد روى: برأت أبرؤ بروء. ولم نجد في ما لاهم همز: فَعَلْتُ أَفْعَل، إلا هذا الحرف. ويقال: بريت القلم، وكل شيء نحته: أبريه برئياً، غير مهموز. وقرأ أبو رجاء، ومورق، وابن يعمر: «براءة» بالنصب. قال المفسرون: والبراءة هاهنا: قطع الموالاة، وارتفاع العصمة، وزوال الأمان. والخطاب في قوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ لأصحاب رسول الله ﷺ، والمراد رسول الله ﷺ، لأنه هو الذي كان يتولى المعاهدة، وأصحابه راضون؛ فكانهم بالرضا عاهدوا أيضاً؛ وهذا عام في كل من عاهد رسول الله ﷺ. وقال مقاتل: هم ثلاثة أحياء من العرب: خزاعة، وبنو مدلج، وبنو جذيمة.

﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ (١)

قوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: انطلقوا فيها آمنين لا يقع بكم من مكروه. إن قال قائل: هذه مخاطبة شاهد، والآية الأولى إخبار عن غائب، فعنه جوابان: أحدهما: أنه جائز عند العرب الرجوع من الغيبة إلى الخطاب. قال عترة:

شَطَطَتْ مَزَارُ الْعَاشِقِينَ فَاصْبَحْتُ عَسِيراً عَلَيَّ طِلَابُكَ ابْنَةُ مَسْخَرَمٍ^(٢)

هذا قول أبي عبيدة. والثاني: أن في الكلام إضماراً، تقديره: فقل لهم: سيحوا في الأرض، أي: اذهبوا فيها، وأقبلوا، وأدبروا، وهذا قول الزجاج. واختلفوا فيمن جعلت له هذه الأربعة الأشهر على أربعة أقوال: أحدها: أنها أمان لأصحاب العهد، فمن كان عهده أكثر منها، حُطَّ إليها، ومن كان عهده أقل منها، رفع إليها، ومن لم يكن له عهد، فأجله انسلاخ المحرم خمسون ليلة، قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك. والثاني: أنها للمشركين كافة، من له عهد، ومن ليس له عهد، قاله مجاهد، والزهري، والقرظي. والثالث: أنها أجل لمن كان رسول الله ﷺ قد آمنه أقل من أربعة أشهر، أو كان أمانه غير محدود؛ فأما من لا أمان له، فهو حرب، قاله ابن إسحاق. والرابع: أنها أمان لمن لم يكن له أمان ولا عهد؛ فأما أرباب العهود، فهم على عهودهم إلى حين انقضاء مددهم، قاله ابن السائب. ويؤكد ما روي أن علياً نادى يومئذ: ومن كان بينه وبين رسول الله عهد، فعهد إلى مدته. وفي بعض الألفاظ: فأجله أربعة أشهر. واختلفوا في مدة هذه الأربعة الأشهر على أربعة أقوال: أحدها: أنها الأشهر الحرم: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، قاله ابن عباس. والثاني: أن أولها يوم الحج الأكبر، وهو يوم النحر، وآخرها العاشر من ربيع الآخر، قاله مجاهد، والسدي، والقرظي. والثالث: أنها شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، لأن هذه الآية نزلت في شوال، قاله الزهري. قال أبو سليمان الدمشقي: وهذا أضعف الأقوال، لأنه لو كان كذلك، لم يجز تأخير إعلامهم به إلى ذي الحجة، إذ كان لا يلزمهم الأمر إلا بعد الإعلام. والرابع: أن أولها العاشر من ذي القعدة، وآخرها العاشر من ربيع الأول، لأن الحج في تلك السنة كان في ذلك اليوم، ثم صار في السنة الثانية في العشر من ذي الحجة، وفيها حج رسول الله ﷺ وقال: «إن الزمان قد استدار»^(٣)، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي: وإن أجلتكم هذه الأربعة الأشهر فلن تفوتوا الله.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ قال الزجاج: الأجود فتح «أن» على معنى: اعلمو أن، ويجوز كسرهما على الاستئناف. وهذا ضمان من الله نصرته المؤمنين على الكافرين.

﴿وَأَذِّنْ لِلَّهِ رَسُولِيهِ إِلَى الْآخِرِينَ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ وَتُكُنْمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَخَشِرُوا الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَدَابِ اللَّهِ﴾ (٢)

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لِلَّهِ رَسُولِيهِ﴾ أي: إعلام؛ ومنه أذان الصلاة. وقرأ الضحاك، وأبو المتوكل، وعكرمة، والجاحدري، وابن يعمر: «وَأَذِّنْ» بكسر الهمزة وقصرها ساكنة الذال من غير ألف.

(١) البيت في «شرح القصائد السبع الطوال» ٢٩٩، و«مجاز القرآن» ٢٣/١، و«مختار الشعر الجاهلي» ٣٧٠ من معلقته المشهورة، وقوله: شطت مزار العاشقين، يعني: شطت عبلة مزار العاشقين، أي: بددت من مزارهم. وفي «شرح المعلقات»: حلت بأرض الزائرين، والزائرون: الأعداء، جعلهم يزأرون زئير الأسد، شبه وعيدهم بالزئير، يقول: نزلت الحبيبة بلاد أعالي، فسر عليّ طلابها.

(٢) الحديث في «المستند» ٣٧/٥، والبخاري ٥٩٩/٣ و ٢٤٤/٨ و ٦١/١٠، ومسلم رقم ١٦٧٩، وأبو داود رقم ١٩٤٧. ولفظه في البخاري ٦/١٠ عن أبي بكره عن النبي ﷺ قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى، قال: «ألي هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى، قال: «إن دماءكم وأموالكم - قال محمد (ابن سيرين): وأحسابكم - عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أروى له من بعض من سمعه، فكان محمد (ابن سيرين) إذا ذكره قال: صدق النبي ﷺ، ثم قال (أي النبي ﷺ): «ألا هل بلغت، ألا هل بلغت».

قوله تعالى: ﴿إِلَّا النَّاسُ﴾ أي: للناس. يقال: هذا إعلام لك، وإليك. والناس هاهنا عام في المؤمنين والمشركين. وفي يوم الحج الأكبر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يوم عرفة، قاله عمر بن الخطاب، وابن الزبير، وأبو جحيفة، وطاووس، وعطاء. والثاني: يوم النحر، قاله أبو موسى الأشعري، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن أبي أوفى، وابن المسيب، وابن جبير، وعكرمة، والشعبي، والنخعي، والزهري، وابن زيد، والسدي في آخرين. وعن علي، وابن عباس، كالقولين. والثالث: أنه أيام الحج كلها، فعبّر عن الأيام باليوم، قاله سفيان الثوري. قال سفيان: كما يقال: يوم بعث، ويوم الجمل، ويوم صفين يراد به: أيام ذلك، لأن كل حرب من هذه الحروب دامت أياماً. وعن مجاهد، كالأقوال الثلاثة. وفي تسميته بيوم الحج الأكبر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه سماء بذلك لأنه اتفق في سنة حج فيها المسلمون والمشركون، ووافق ذلك عيد اليهود والنصارى، قاله الحسن. والثاني: أن الحج الأكبر: هو الحج، والأصغر: هو العمرة، قاله عطاء، والشعبي. والثالث: أن الحج الأكبر: القران، والأصغر: الأفراد، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ﴾ وقرأ الحسن، ومجاهد، وابن يعمر: «إِنَّ اللَّهَ» بكسر الهمزة. ﴿يَرَى الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: من عهد المشركين، فحذف المضاف ﴿وَرَسُولُهُ﴾ رفع على الابتداء، وخبره مضمرة على معنى: ورسوله أيضاً بريء. وقرأ أبو رزين، وأبو مجلز، وأبو رجاء، ومجاهد، وابن يعمر، وزيد عن يعقوب: «وَرَسُولُهُ» بالنصب. ثم رجع إلى خطاب المشركين بقوله: ﴿فَإِنْ تَبَيَّنَ﴾ أي: رجعتكم عن الشرك، ﴿وَلَنْ تَرَيْتُمْ﴾ عن الإيمان. ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَيْنَا الْإِنِيتُمْ عَاهِدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال أبو صالح عن ابن عباس: فلما قرأ علي (براءة)، قالت بنو ضمرة: ونحن مثلهم أيضاً؟ قال: لا، لأن الله تعالى قد استثناكم؛ ثم قرأ هذه الآية. وقال مجاهد: هم قوم كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد ومدة، فأمر أن يفي لهم. قال الزجاج: معنى الكلام: وقعت البراءة من المعاهدين الناقضين للعهد، إلا الذين عاهدتم ثم لم ينقضوكم، فليسوا داخلين في البراءة ما لم ينقضوا العهد. قال القاضي أبو يعلى: وفصل الخطاب في هذا الباب: أنه قد كان بين رسول الله ﷺ وبين جميع المشركين عهد عام، وهو أن لا يُصدَّ أحدٌ عن البيت، ولا يُخاف أحد في الشهر الحرام، فجعل الله عهدهم أربعة أشهر؛ وكان بينه وبين أقوام منهم عهود إلى آجال مسماة، فأمر بالوفاء لهم، وإتمام مدتهم إذا لم يُخش غدرهم.

﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاتَّقُوا اللَّهَ عِيتَ وَجَدْتُمْهُمُ وَخَدُّوهُمُ وَأَقْدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، قاله الأكثرون. والثاني: أنها الأربعة الأشهر التي جعلت لهم فيها السياحة، قاله الحسن في آخرين، فعلى هذا، سميت حُرماً لأن دماء المشركين حرمت فيها.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ عِيتَ وَجَدْتُمْهُمُ﴾ أي: من لم يكن له عهد ﴿حِيتَ وَجَدْتُمْهُمُ﴾ قال ابن عباس: في الحل والحرم والأشهر الحرم.

قوله تعالى: ﴿وَعَدُّوهُمُ﴾ أي: اسروهم؛ والأخذ: الأسير. ﴿وَأَحْصُوا لَهُمُ﴾ أي: احبسوهم؛ والحصر: الحبس. قال ابن عباس: إن تحصنوا فاحصروهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ قال الأخفش: أي: على كل مرصد؛ فالتقى «على» وأعمل الفعل، قال الشاعر:

نُغَالِي اللَّحْمَ لِلْأَصْيَافِ نَيْشاً وَنُرخِصُّهُ إِذَا نَضِجَ الْقُدُورُ^(١)

(١) البيت غير منسوب في «اللسان» و«أساس البلاغة» مادة غلى. قال أبو مالك: نغالي اللحم: نشتره غالباً، ثم نبخله ونظمه إذا نضج في قدورنا.

المعنى: نغالي باللحم، فحذف الباء كما حذف «على». وقال الزجاج: «كل مرصد» ظرف، كقولك: ذهب مذهباً، فلست تحتاج أن تقول في هذه إلا ما تقوله في الظروف، مثل: خلف، وقُدَّام.
قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ أي: من شركهم. وفي قوله: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ قولان: أحدهما: اعترفوا بذلك. والثاني: فعلوه.

فصل

واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على ثلاثة أقوال: أحدها: أن حكم الأسارى كان وجوب قتلهم، ثم نسخ بقوله: ﴿إِنَّمَا مَتَّ بَدُّ رَمَاً يَنَاقَةُ﴾ [معد: ٤]، قاله الحسن، وعطاء في آخرين. والثاني: بالعكس، وأنه كان الحكم في الأسارى: أنه لا يجوز قتلهم صبراً، وإنما يجوز المن أو الفداء بقوله: ﴿إِنَّمَا مَتَّ بَدُّ رَمَاً يَنَاقَةُ﴾ ثم نسخ بقوله: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾، قاله مجاهد، وقناة. والثالث: أن الآيتين محكمتان، والأسير إذا حصل في يد الإمام، فهو مخير، إن شاء مَرَّ عليه، وإن شاء فاداه، وإن شاء قتله صبراً، أي ذلك رأى فيه المصلحة للمسلمين فعل، هذا قول جابر بن زيد، وعليه عامة الفقهاء، وهو قول الإمام أحمد.

﴿وَرَأَى أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجَرَهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١)
قوله تعالى: ﴿وَرَأَى أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ قال المفسرون: وإن أحد من المشركين الذين أمرتك بقتلهم استأمنك بيتني أن يسمع القرآن وينظر فيما أمر به ونهي عنه، فأجزه، ثم أبلغه الموضع الذي يأمن فيه. وفي قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قولان: أحدهما: أن المعنى: ذلك الذي أمرناك به من أن يُعَرَّفُوا ويُجَارُوا لجهلهم بالعلم. والثاني: ذلك الذي أمرناك به من رده إلى مأمنه إذا امتنع من الإيمان، لأنهم قوم جهلة بخطاب الله.
﴿كَيفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِي عَاهَدْتُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿كَيفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ أي: لا يكون لهم ذلك، ﴿إِلَّا الَّذِي عَاهَدْتُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وفيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم بنو ضمرة، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم قريش، قاله ابن عباس أيضاً. وقال قناة: هم مشركو قريش الذين عاهدهم نبي الله ﷺ زمن الحديبية، فنكثوا وظاهروا المشركين. والثالث: أنهم خزاعة، قاله مجاهد. وذكر أهل العلم بالسيرة أن رسول الله ﷺ لما صالح سهيل بن عمرو في غزوة الحديبية، كتب بينه وبينه: «هذا ما اصطلاح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو، وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه لا إسلال ولا إغلال، وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل، وأنه من أتى محمداً منهم بغير إذن وليه رده إليه، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يردوه، وأن محمداً يرجع عنا عامه هذا بأصحابه، ويدخل علينا في قابل في أصحابه فيقيم بها ثلاثاً لا يدخل علينا بسلاح، إلا سلاح المسافر، السيوف في القرب» فوثبت خزاعة فقالوا: نحن ندخل في عهد محمد وعقده، ووثبت بنو بكر فقالوا: نحن ندخل في عهد قريش وعقدها. ثم إن قريشاً أعانت بني بكر على خزاعة بالرجال والسلاح فبيئوا خزاعة ليلاً، فقتلوا منهم عشرين رجلاً. ثم إن قريشاً ندمت على ما صنعت، وعلموا أن هذا نقض للعهد والمدة التي بينهم وبين رسول الله ﷺ، وخرج قوم من خزاعة إلى رسول الله ﷺ فأخبروه بما أصابهم، فخرج إليهم وكانت غزاة الفتح. قال أبو عبيدة: الإسلال: السرقة، والإغلال: الخيانة. قال ابن الأعرابي: وقوله: «وأن بيننا عيبة مكفوفة» مثل، أراد: أن صلحنا مُحْكَمٌ مُسْتَوْتَقٌّ منه، كأنه عيبة مشرجة. وزعم بعض المفسرين أن قوله: ﴿إِلَّا الَّذِي عَاهَدْتُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ نسخ بقوله: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

﴿كَيفَ وَإِنْ بَطَلُوهَا عَلَيْهِمْ لَا يُزَيِّرُوكُمْ إِلَا وَلَا دِمَّةٌ بَرُّوْكُمْ بِأَنَّهُمْ وَتَابَ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَسِقُوتٌ﴾^(٣)

قوله تعالى: ﴿كَفَيْتَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ قال الزجاج: المعنى: كيف يكون لهم عهد وإن يظهروا عليكم، فحذف ذلك، لأنه قد سبق، قال الشاعر:

وَحَبَّرْتُ مَانِي أَمَّا الْمَوْتُ بِالْقُرَى
أَي: فكيف مات وليس بقرية؟ ومثله قول الحطيئة:

فَكَيْفَ وَلَمْ أَعْلَمْهُمْ خَذَلُوكُمْ

أَي: فكيف تلوموني على مدح قوم؟ واستغنى عن ذكر ذلك، لأنه قد جرى في القصيدة ما يدل على ما أضمر. وقوله: ﴿يَظْهَرُوا﴾ يعني: يقدروا ويظفروا. وفي قوله: ﴿لَا يَزِيدُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: لا يحفظوا. والثاني: لا يخافوا، قاله السدي. والثالث: لا يراعوا، قاله قطرب. وفي الإل خمسة أقوال: أحدها: أنه القرابة، رواه جماعة عن ابن عباس، وبه قال الضحاك، والسدي، ومقاتل، والفراء، وأنشدوا:

إِنَّ الْوُشَاةَ كَثِيرٌ إِنْ أَطَعْتَهُمْ
لَا يَرْقُبُونَ بَنَّا إِلَّا وَلَا ذِمًّا

وقال الآخر:

لَعَنُوكَ إِنْ إِلَّاكَ مِنْ قُرَيْشٍ

والثاني: أنه الجوار، قاله الحسن. والثالث: أنه الله تعالى، رواه ابن أبي نجيج عن مجاهد، وبه قال عكرمة. والرابع: أنه العهد، رواه خصيف عن مجاهد، وبه قال ابن زيد، وأبو عبيدة. والخامس: أنه الحلف، قاله قتادة. وقرأ عبد الله بن عمرو، وعكرمة، وأبو رجاء، وطلحة بن مصرف: «إِيلاً» بياء بعد الهمزة. وقرأ ابن السميع، والجدري: «أَلَا» بفتح الهمزة وتشديد اللام. وفي المراد بالذمة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها العهد، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقاتة، والضحك في آخرين. والثاني: التذم من لا عهد له، قاله أبو عبيدة، وأنشد:

لَا يَرْقُبُونَ بَنَّا إِلَّا وَلَا ذِمًّا

والثالث: الأمان، قاله الزبيدي، واستشهد بقوله: «ويسعى بذمتهم أدناهم»^(١).

قوله تعالى: ﴿يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: يرضونكم بأفواههم في الوفاء، وتابى قلوبهم إلا الغدر. والثاني: يرضونكم بأفواههم في العدة بالإيمان، وتابى قلوبهم إلا الشرك. والثالث: يرضونكم بأفواههم في الطاعة، وتابى قلوبهم إلا المعصية، ذكرهن الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَأَكْفَرُكُمْ فِئْتُونَ﴾ قال ابن عباس: خارجون عن الصدق، ناكثون للعهد.

﴿أَشْرَوْا بِعَاقِبَةِ اللَّهِ مَسْكًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ لَا يَزِيدُ فِي تَوْبَةٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَعَدُونَ ﴿٢﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَفُتِحَتْ الْآبَاتُ لِقَوْمٍ يُعْمَلُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿أَشْرَوْا بِعَاقِبَةِ اللَّهِ مَسْكًا قَلِيلًا﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان على طعاه، قاله مجاهد. والثاني: أنهم قوم من اليهود، قاله أبو صالح. فعلى الأول، آيات الله: حججه. وعلى الثاني: هي آيات التوراة. والتمن القليل: ما حصلوه بدلاً من الآيات. وفي وصفه بالقليل وجهان: أحدهما: لأنه حرام، والحرام قليل. والثاني: لأنه من عَرَض الدنيا الذي بقاؤه قليل. وفي قوله: ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ثلاثة

(١) البيت لكعب بن سعد الغنوي من مرثيته الشهيرة النبيلة في «الأصمعيات» ٩٩، و«طبقات فحول الشعراء» ١٧٦، و«أمالي القاضي» ١٥١/٢، و«جمهرة أشعار العرب» ١٣٥، و«معاني القرآن» للفراء ٤٢٤/١.

(٢) «ديوانه» ١٤٠ وفيه: على موطن ولا أديمكم قذوا. وقوله: خذلوكم على معظم، قال أبو عمرو: أي: لم يخذلوكم في أمر حدث. وقوله: ولا أديمكم قذوا، أي: لم يقموا في حبسكم.

(٣) قائله حسان بن ثابت الأنصاري، «ديوانه» ٤٠٧، و«اللسان»: «ألل» وهو من أبيات هجا بها أبو سفيان قبل إسلامه. والسقب: هو ولد الناقة ساعة يولد، والرأل: ولد النعام، يقول: ما قرابتك في قریش إلا كقرابة الفصيل من ولد النعام، أي: لست منهم في نسب.

(٤) «المسند» رقم ٩٥٩، وأبو داود رقم ٤٥٣٠، والنسائي ٢٠/٨، كلهم من حديث علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو جزء من حديث طويل، وسنده صحيح.

أقوال: أحدهما: عن بيته، وذلك حين منعوا النبي ﷺ بالحديبية دخول مكة. والثاني: عن دينه بمنع الناس منه. والثالث: عن طاعته في الوفاء بالعهد.

﴿وَأَن لَّكُم مِّنْهُم مَّن بَدَّ عَصَاهُ فِي رِجْلِهِ قَتَلُواْ أَبْنَاءَ أَهْلِهِمْ لَمَّا سَمُواْ بِهِمْ﴾ قال ابن عباس: نزلت في أبي سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وسائر رؤساء قريش الذين نقضوا العهد حين أعانوا بني بكر على خزاعة حلفاء رسول الله، فأمر رسول الله ﷺ أن يسير إليهم فينصر خزاعة، وهم الذين هموا بإخراج رسول الله ﷺ. فأما النكت، فمنعناه: النقض. والأيمان هاهنا: العهود. والطعن في الدين: أن يعاب، وهذا يوجب قتل الذمي إذا طعن في الإسلام، لأن المأخوذ عليه أن لا يطعن فيه.

قوله تعالى: ﴿فَقَتَلُواْ أَبْنَاءَ أَهْلِهِمْ﴾ قرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي «أئمة» بتحقيق الهمزتين. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: بتحقيق الأولى وتلين الثانية. والمراد بأئمة الكفر: رؤوس المشركين وقادتهم. ﴿لَمَّا سَمُواْ بِهِمْ﴾ أي: لا عهد لهم صادقة؛ هذا على قراءة من فتح الألف، وهم الأكثرون. وقرأ ابن عامر «لا إيمان لهم» بالكسر^(١)؛ وفيها وجهان ذكرهما الزجاج: أحدهما: أنه وصف لهم بالكفر ونفي الإيمان، والثاني: لا أمان لهم، تقول: آمنته إيماناً، والمعنى: فقد بطل أمانكم لهم بنقضهم. وفي قوله: ﴿لَمَّا سَمُواْ بِهِمْ﴾ قولان: أحدهما: عن الشرك. والثاني: عن نقض العهود. وفي «العل» قولان: أحدهما: أنها بمعنى الترجي، المعنى: ليرجى منهم الانتهاء. قاله الزجاج. والثاني: أنها بمعنى: «كي»، قاله أبو سليمان الدمشقي.

﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَكَسَبُواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْهُمْ أُولَئِكَ نَجُودُونَ فَأُولَئِكَ يَخْلُفُونَ﴾ إن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ قَاتِلُوهُمْ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِّنْكُمْ عَلَىٰ يَدَيْهِمْ وَيَكُفِّرْ قُلُوبَهُمْ وَيُؤْتِ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ قَوْمًا﴾ قال الزجاج: هذ على وجه التوبيخ، ومعناه الحض على قتالهم. قال المفسرون: وهذا نزل في نقض قريش عهد رسول الله ﷺ الذي عاهدهم بالحديبية حيث أعانوا على خزاعة. وفي قوله: ﴿وَكَسَبُواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ قولان: أحدهما: أنهم أبو سفيان في جماعة من قريش، كانوا فيمن هم بإخراج النبي ﷺ من مكة. والثاني: أنهم قوم من اليهود، غدروا برسول الله ﷺ، ونقضوا عهده وهموا بمعاونة المنافقين على إخراجهم من المدينة.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ بَدَّوْهُمْ أُولَئِكَ مَرَّةً﴾ فيه قولان: أحدهما: بدؤوكم بإعاتتهم على حلفائكم، قاله ابن عباس. والثاني: بالقتال يوم بدر، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ قال الزجاج: أتخشون أن ينالك من قتالهم مكروه؟ فمكروه عذاب الله أحق أن يخشى إن كنتم مصدقين بعذابه وثوابه.

قوله تعالى: ﴿وَيَكُفِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد: يعني خزاعة. قوله تعالى: ﴿رِيدْهُمْ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: كَرِّبْهُمْ وَوَجِّدْهُمْ بِمَعُونَةِ قُرَيْشِ بْنِ بَكْرٍ عَلَيْهَا.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ قال الزجاج: هو مستأنف، وليس بجواب «قاتلوهم». وفيمن غُني به قولان: أحدهما: بنو خزاعة، والمعنى: ويتوب الله على من يشاء من بني خزاعة، قاله عكرمة. والثاني: أنه عام في المشركين كما تاب على أبي سفيان، وعكرمة، وسهيل. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بَيِّنَاتُ الْمُؤْمِنِينَ، ﴿حَكِيمٌ﴾ فِيمَا قَضَى.

(١) قال أبو جعفر الطبري: والصواب من القراءة في ذلك الذي لا أستجيز القراءة بغيره، قراءة من قرأ بفتح الألف، دون كسرهما، لإجماع الحجة من القراءة على القراءة به، وإجماع أهل التأويل على ما ذكرت من أن تأويله: لا عهد لهم، والإيمان التي بمعنى العهد، لا تكون إلا بفتح الألف، لأنها جمع يمين كانت على عقد كان بين المتوادعين.

﴿أَرَحَبْتُ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا عَلِمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَرَ يَسْتَحِدُّوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَمَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٦)

قوله تعالى: ﴿أَرَحَبْتُ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ في المخاطب بهذا قولان: أحدهما: أنهم المؤمنون، خو طربوا بهذا حين شق على بعضهم القتال، قاله الأكثرون. والثاني: أنهم قوم من المنافقين كانوا يسألون رسول الله ﷺ الخروج معه إلى الجهاد تعذيراً، قاله ابن عباس. وإنما دخلت الميم في الاستفهام، لأنه استفهام معترض في وسط الكلام، فدخلت لفرق بينه وبين الاستفهام المبتدأ. قال الفراء: ولو أريد به الابتداء، لكان إما بالالف، أو بـ «هل»، ومعنى الكلام: أن تُتْرَكُوا بغير امتحان يبين به الصادق من الكاذب. ﴿وَلَمَّا عَلِمَ اللَّهُ﴾ أي: ولم تجاهدوا فيعلم الله وجود ذلك منكم؛ وقد كان يعلم ذلك غيباً، فأراد إظهار ما علم ليجازي على العمل. فأما الوليجة، فقال ابن قتيبة: هي البطانة من غير المسلمين، وهو أن يتخذ الرجل من المسلمين دخيلاً من المشركين وخليطاً وواذاً؛ وأصله من الولوج. قال أبو عبيدة: وكل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة، والرجل يكون في القوم وليس منهم فهو وليجة فيهم.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خِلَافُكُمْ﴾ (١٧) ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَغْشُ إِلَّا اللَّهَ فَسَمَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٨)

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «مسجد الله» على التوحيد، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ على الجمع. وقرأ عاصم، ونافع، وابن عامر، وحزمة، والكسائي على الجمع فيها. وسبب نزولها أن جماعة من رؤساء قريش أسروا يوم بدر فيهم العباس بن عبد المطلب، فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فغيروهم بالشرك، وجعل علي بن أبي طالب يوبخ العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم، فقال العباس: ما لكم تذكرن مساوئنا وتكتمن محاسننا؟ فقالوا: وهل لكم من محاسن؟ قالوا: نعم، لنحن أفضل منكم أجراً؛ إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفك العاني، فنزلت هذه الآية (١)، قاله مقاتل في جماعة. وفي المراد بالعمارة قولان: أحدهما: دخوله والجلوس فيه. والثاني: البناء له وإصلاحه؛ فكلاهما محظور على الكافر. والمراد قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: يجب على المسلمين منهم من ذلك. قال الزجاج: وقوله: ﴿شَاهِدِينَ﴾ حال. المعنى: ما كانت لهم عمارته في حال إقرارهم بالكفر، ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ لأن كفرهم أذهب ثوابها. فإن قيل: كيف يشهدون على أنفسهم بالكفر، وهم يعتقدون أنهم على الصواب؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه قول اليهودي: أنا يهودي، وقول النصراني: أنا نصراني، قاله السدي. والثاني: أنهم ثبتوا على أنفسهم الكفر بعدولهم عن أمر النبي ﷺ، وهو حق لا يخفى على مميز، فكانوا بمنزلة من شهد على نفسه. والثالث: أنهم آمنوا بأنبياء شهدوا لمحمد ﷺ بالتصديق، وحرضوا على اتباعه، فلما آمنوا بهم وكذبوه، دلوا على كفرهم، وجرى ذلك مجرى الشهادة على أنفسهم بالكفر، لأن الشهادة هي تبين وإظهار، ذكرهما ابن الأنباري. فإن قيل: ما وجه قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ولم يذكر الرسول، والإيمان لا يتم إلا به؟ فالجواب: أن فيه دليلاً على الرسول، لقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أي: الصلاة التي جاء بها الرسول، قاله. فإن قيل: ﴿فَسَمَىٰ﴾ ترج، وفاعل هذه الخصال مهتد بلا شك. فالجواب: أن «عسى» من الله واجبة، قاله ابن عباس. فإن قيل: قد يعمر مساجد الله من ليس فيه هذه الصفات. فالجواب: أن المراد أنه من كان على هذه الصفات المذكورة، كان من أهل عمارتها؛ وليس المراد أن من عمرها كان بهذه الصفة.

﴿أَجْمَلَتْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ لِلرَّائِ كُنَّ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوْنَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُرُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَغْلَبَتْ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ النَّجَّاتُ﴾ (٢٠) ﴿يُخَيِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بَرَحَمَةً فَبَيْنَ يَدَيْهِمْ رِضْوَانٌ وَجَعَلَتْ لَهُمْ فِيهَا نَيْمَةً مُقِيمَةً﴾ (٢١) ﴿خَلِيلِينَ﴾ (٢٢) ﴿فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣)

قوله تعالى: ﴿أَجْمَلَتْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ في سبب نزولها ستة أقوال: أحدها: رواه مسلم في «صحيحه» من حديث

النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ، فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد [الإسلام إلا] أن أسقي الحاج، وقال الآخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد [الإسلام إلا] أن أغمر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلت، فزجرهم عمر، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وهو يوم الجمعة، ولكني إذا صليت الجمعة، دخلت فاستفتيت رسول الله فيما اختلفتم فيه، فنزلت هذه الآية^(١). والثاني: أن العباس بن عبد المطلب قال يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نَعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني^(٢)، فنزلت هذه الآية^(٣)، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أن المشركين قالوا: عمارة بيت الله الحرام، والقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفتخرون بالحرم من أجل أنهم أهله، فنزلت هذه الآية، رواه عطية العوفي عن ابن عباس. والرابع: أن علياً والعباس وطلحة - يعني سادن الكعبة - افتخروا، فقال طلحة: أنا صاحب البيت، بيدي مفتاحه، ولو أشاء بت فيه. وقال العباس: أنا صاحب السقاية، والقائم عليها، ولو أشاء بت في المسجد. وقال علي: ما أدري ما تقولون، لقد صليت ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، فنزلت هذه الآية، قاله الحسن، والشعبي، والقرظي. والخامس: أنهم لما أمروا بالهجرة قال العباس: أنا أسقي الحاج، وقال طلحة: أنا صاحب الكعبة فلا نهاجر، فنزلت هذه الآية والتي بعدها، قاله مجاهد. هكذا ذكر مجاهد، وإنما الصواب عثمان بن طلحة، لأن طلحة هذا لم يسلم. والسادس: أن علياً قال للعباس: ألا تلحق بالنبي ﷺ؟ فقال: ألسني في أفضل من الهجرة، ألسنت أسقي حاج بيت الله وأمر المسجد الحرام؟ فنزلت هذه الآية والتي بعدها، قاله مرة الهمداني، وابن سيرين. قال الزجاج: ومعنى الآية: أجمعتم أهل سقاية الحاج وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله؟ فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه. قال الحسن: كان يُبذَر زبيب، فيسقون الحاج في الموسم. وقال ابن عباس: عمارة المسجد: تجميره، وتخليقه، فأخبر الله أن أفعالهم تلك لا تنفعهم مع الشرك، وسماهم ظالمين لشركهم.

قوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ دَرَجَةً﴾. قال الزجاج: هو منصوب على التمييز. والمعنى: أعظم من غيرهم درجة. والفائز: الذي يظهر بأمنيته من الخير. فاما النعيم، فهو لين العيش، والمقيم: الدائم.

﴿يَأْتِيَا الْبَيْتَ مَأْسُورًا لَا تَخْجِدُوا آبَاءَكُمْ وَلِخَوْنِكُمْ أُولِيَاءَ إِنَّ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكُمْ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾ (١٣)

قوله تعالى: ﴿لَا تَخْجِدُوا آبَاءَكُمْ وَلِخَوْنِكُمْ أُولِيَاءَ﴾ في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها: أنه لما أمر المسلمون بالهجرة، جعل الرجل يقول لأهله: إنا قد أمرنا بالهجرة، فمنهم من يسرع إلى ذلك، ومنهم من يتعلق به عياله وزوجته فيقولون: نَشُدُّكَ الله أن تَدْعَنَا إلى غير شيء، فيرق قلبه فيجلس معهم، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنه لما أمر الله المؤمنين بالهجرة، قال المسلمون: يا نبي الله، إن نحن اعتزلنا مَنْ خالفنا في الدين، قطعنا آبائنا وعشائرننا، وذهبت تجارتنا، وخربت ديارنا، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أنه لما قال العباس: أنا أسقي الحاج، وقال طلحة: أنا أحجب الكعبة فلا نهاجر، نزلت هذه الآية والتي قبلها، هذا قول قتادة، وقد ذكرناه عن مجاهد. والرابع: أن نفراً ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، فنهى الله عن ولايتهم، وأنزل هذه الآية، قاله مقاتل. والخامس: أن النبي ﷺ لما أمر الناس بالجهاز لنصرة خزاعة على قريش، قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، نعاونهم على قومنا؟ فنزلت هذه الآية، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

﴿قَدْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبِحَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ أَلْفِ دِينَارٍ وَرَسُولُهُ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١٤)

(١) «الطبري» ١٦٩/١٤، ومسلم ٢٦/١٣، وأورده السيوطي في «الدر» ٢١٨/٣ وزاد نُسبته لأبي داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٢) «العاني: الأسير».

(٣) «الطبري» ١٧٠/١٤ وعلي بن أبي طلحة لم يدرك ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿قَدْ إِنْ كَادَ مَا أَتَاكُمْ﴾ الآية، في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في الذين تخلفوا مع عيالهم بمكة ولم يهاجروا، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن علي بن أبي طالب قدم مكة، فقال لقوم: ألا تهاجرون؟ فقالوا: نقيم مع إخواننا وعشائرننا وساكننا، فنزلت هذه الآية، قاله ابن سيرين. والثالث: أنه لما نزلت الآية التي قبلها، قالوا: يا رسول الله، إن نحن اعتزلنا مَنْ خالفنا في الدين، قطعنا آباءنا وعشيرتنا، وذهبت تجارتنا، وخربت ديارنا، فنزلت هذه الآية. ذكره بعض المفسرين في هذه الآية، وذكره بعضهم في الآية الأولى كما حكيناها عن ابن عباس. فأما العشيرة، فهم الأقارب الأدنون. وروى أبو بكر عن عاصم «وعشيرتكم» على الجمع. قال أبو علي: وجهه أن كل واحد من المخاطبين له عشيرة، فإذا جمعت قلت: عشيرتكم؛ وحجة من أفرد: أن العشيرة واقعة على الجمع، فاستغنى بذلك عن جمعها. وقال الأخفش: لا تكاد العرب تجمع عشيرة: عشيرات، إنما يجمعونها على عشائر. والافتراق بمعنى الاكتساب. والتريص: الانتظار. وفي قوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ قولان: أحدهما: أنه فتح مكة، قاله مجاهد والأكثر، ومعنى الآية: إن كان المقام في أهاليكم، وكانت الأموال التي اكتسبتموها ﴿وَيَحْكُمُ نَحْشُورَ كَسَادَهَا﴾ لفرافكم بلدكم ﴿وَمَسْكِنُكُمْ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ﴾ من الهجرة، فأقيموا غير مثابين حتى تُفتح مكة، فيسقط فرض الهجرة. والثاني: أنه العقاب، قاله الحسن.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْتُكُمْ فَلَمْ تُثْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَّذْيَبَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ أي: في أماكن. قال الفراء: وكل جمع كانت فيه ألف قبلها حرفان وبعدها حرفان لم يُجَرَّ^(١)، مثل، صوامع، ومساجد. وجُري «حنين» لأنه اسم لمذكر، وهو واو بين مكة والطائف، وإذا سُمِّيَتْ ماءً أو وادياً أو جبلاً باسم مذكر لا علّة فيه، أجريته، من ذلك: حنين، وبدلر، وجراء، وتُبَيْر، ودابق^(٢). ومعنى الآية: أن الله ﷻ أعلمهم أنهم إنما يغلبون بنصر الله لا بكثرتهم. وفي عددهم يوم حنين أربعة أقوال: أحدها: أنهم كانوا ستة عشر ألفاً، رواه عطاء عن ابن عباس. والثاني: عشرة آلاف، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: كانوا اثني عشر ألفاً، قاله قتادة، وابن زيد، وابن إسحاق، والواقدي. والرابع: أحد عشر ألفاً وخمسمائة، قاله مقاتل. قال ابن عباس: فقال ذلك اليوم سلمة بن سلامة بن وقش، وقد عجب لكثرة الناس: لن نُغَلَب اليوم من قِلَّة، فساء رسول الله ﷺ كلامه، ووكلوا إلى كلمة الرجل، فذلك قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْتُكُمْ فَلَمْ تُثْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا﴾. وقال سعيد بن المسيب: القائل لذلك أبو بكر الصديق. وحكى ابن جرير أن القائل لذلك رسول الله ﷺ. وقيل: بل العباس. وقيل: رجل من بني بكر.

قوله تعالى: ﴿وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: برحبها. قل الفراء: والباء هاهنا بمنزلة «في» كما تقول: صافت عليكم الأرض في رحبها ويرحبها.

الإشارة إلى القصة

قال أهل العلم بالسيرة: لما فتح رسول الله ﷺ مكة، تأمر عليه أشراف هوازن وثقيف، فجاؤوا حتى نزلوا أوطاس^(٣)، وأجمعوا المسير إليه، فخرج إليهم رسول الله ﷺ، فلما التقوا أعجبته كثرتهم فهزموا. وقال البراء بن عازب: لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكبنا على الغنائم، فأقبلوا بالسهم، فأنكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ^(٤). وبعضهم يقول: ثبت مع رسول الله ﷺ يومئذ جماعة من أصحابه منهم أبو بكر، وعمر، وعلي، والعباس، وأبو سفيان بن الحارث. وبعضهم يقول: لم يبق معه سوى العباس وأبي سفيان، فجعل النبي يقول للعباس: «ناد: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة» فنادى، وكان صيئاً، فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حُتَّت إلى أولادها، يقولون: يا

(١) إجراء الاسم عند الكوفيين صرفه وتنوينه، وعدم إجرائه: منع صرفه. (٢) دابق: قرية من قرى حلب.

(٣) أوطاس: واد في ديار هوازن. (٤) البخاري ٢٤/٨، ومسلم ١٢١/١٢.

لبيك، فنظر النبي ﷺ إلى قتالهم، فقال: «الآن حمي الوطيس، أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب» ثم قال للعباس: «ناولني حصيات» فنأوله، فقال: «شاهت الوجوه» ورمى بها، وقال: «انهزموا ورب الكعبة»، فقذف الله في قلوبهم الرعب فانهمزموا^(١). وقيل: أخذ رسول الله ﷺ كفاً من تراب، فرماه به فانهمزموا. وكانوا يقولون: ما بقي منا أحد إلا امتلأت عينه بالتراب^(٢).

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَوْ تَرَوْهَا لَأَيَّدَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: بعد الهزيمة. قال أبو عبيدة: هي فَيْعِلَةٌ من السكون، وأنشد:

لِلَّهِ قَبْرٌ غَالِيهَا مَاذَا يُجِنُّ
لَقَدْ أَجَرْتُ سَكِينَةً وَوَقَارًا^(٣)
وكذلك قال المفسرون: الأمن والطمأنينة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَوْ تَرَوْهَا﴾ قال ابن عباس: يعني الملائكة. وفي عددهم يومئذ ثلاثة أقوال: أحدها: ستة عشر ألفاً، قاله الحسن. والثاني: خمسة آلاف، قاله سعيد بن جبيرة. والثالث: ثمانية، قاله مجاهد، يعني: ثمانية آلاف. وهل قاتلت الملائكة يومئذ، أم لا؟ فيه قولان. وفي قوله: ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أربعة أقوال: أحدها: بالقتل، قاله ابن عباس، والسدي. والثاني: بالقتل والهزيمة، قاله ابن أبيزي، ومقاتل. والثالث: بالخوف والحذر، ذكره الماوردي. والرابع: بالقتل، والأسر، وسبي الأولاد، وأخذ الأموال، ذكره بعض ناقلي التفسير.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوفقه للتوبة من الشرك.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ قال أبو عبيدة: معناه: فذر. قال الزجاج: يقال لكل شيء مستقذر: نجس. وقال الفراء: لا تكاد العرب تقول: نجس، إلا وقبلها رجس، فإذا أفردوها قالوا: نجس. وفي المراد بكونهم نجساً ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أنجاس الأبدان، كالكلب والخنزير، حكاه الماوردي عن الحسن، وعمر بن عبد العزيز. وروى ابن جرير عن الحسن قال: من صافحهم فليتوضأ. والثاني: أنهم كالأنجاس لتركهم ما يجب عليهم من غسل الجنابة، وإن لم تكن أبدانهم أنجاساً، قاله قتادة. والثالث: أنه لما كان علينا اجتنابهم كما تجتنب الأنجاس، صاروا بحكم الاجتناب كالأنجاس، وهذا قول الأكثرين، وهو الصحيح.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ قال أهل التفسير: يريد جميع الحرم. ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ وهو سنة تسع من الهجرة، وهي السنة التي حج فيها أبو بكر وقرئت (براءة). وقد أخذ أحمد رحمته بظاهر الآية، وأنه يحرم عليهم دخول الحرم، وهو قول مالك، والشافعي. واختلفت الرواية عنه في دخولهم غير المسجد الحرام من المساجد، فروي عنه المنع أيضاً إلا لحاجة، كالحرم، وهو قول مالك. وروي عنه جواز ذلك، وهو قول الشافعي. وقال أبو حنيفة: يجوز لهم دخول المسجد الحرام، وسائر المساجد.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ وقرأ سعد بن أبي وقاص، وابن مسعود، والشعبي، وابن السميع: «عائلة». قال سعيد بن جبيرة: لما نزلت: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ شقَّ على المسلمين، وقالوا: مَنْ يَأْتِينَا بطعامنا؟ وكانوا يُقَدِّمون عليهم بالتجارة، فنزلت: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ الآية. قال

(١) مسند أحمد رقم ١٧٧٥ بنحوه، ورواه مسلم ١١٥/١٢ بنحوه أيضاً. وذكره الطبري ١٨٢/١٤ - ١٨٣، ورواه الحاكم في «المستدرک» ٣/ ٣٢٧، وأورد السيوبي في «الدرر» ٣/ ٢٢٤ - ٢٢٥، وزاد نسبه لعبد الرزاق، وابن سعد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٢) مسند أحمد ٢٨٦/٥ عن أبي عبد الرحمن الفهري، والطبري في «التفسير» ١٨٥/١٤، وخرجه البيهقي في «معجم الزوائد» ١٨١/٦ - ١٨٢. وقال: رواه البزار، والطبراني، ورجاله ثقات.

(٣) البيت لأبي عريف الكلبي في «مجاز القرآن» ١/ ٢٥٥، و«اللسان»: سكن.

الأخفش: العيلة: الفقر. يقال: عال يعيل عيلة: إذا افتقر. وأعال إعالة فهو يُعيل: إذا صار صاحب عيال. وقال أبو عبيدة: العيلة هاهنا مصدر عال فلان: إذا افتقر، وأنشد:

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل^(١)

وللمفسرين في قوله: «وإن قولان: أحدهما: أنها للشرط، وهو الأظهر. والثاني: أنها بمعنى «وإذا»، قاله عمرو بن فايد. قالوا: وإنما خاف المسلمون الفقر، لأن المشركين كانوا يحملون التجارات إليهم، ويجيئون بالطعام وغيره. وفي قوله: «فَسَوْفَ يَنْفِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَكَتُمْ» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أنزل عليهم المطر عند انقطاع المشركين عنهم، فكثر خيرهم، قاله عكرمة. والثاني: أنه أغناهم بالجزية المأخوذة من أهل الكتاب، قاله قتادة، والضحاك. والثالث: أن أهل نجد، وجُزْش، وأهل صنعاء أسلموا، فحملوا الطعام إلى مكة على الظهر، فأغناهم الله به، قاله مقاتل.

قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ» قال ابن عباس: عليم بما يصلحكم، «حَكِيمٌ» فيما حكم في المشركين. «فَتَبْلُغُوا آلَئِذٍ لَّآ يَوْمُئِذٍ بِإِلَهِ وَلَا يَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَلَا يُخْرِجُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُبْطِلُوا الْإِسْلَامَ عَنْ يَدِهِ وَهُمْ صُنُوفٌ»^(٢)

قوله تعالى: «فَتَبْلُغُوا آلَئِذٍ لَّآ يَوْمُئِذٍ بِإِلَهِ» قال المفسرون: نزلت في اليهود والنصارى. قال الزجاج: ومعناها لا يؤمنون بالله إيمان الموحدين، لأنهم أقروا بأنه خالقهم وأنه له ولد، وكذلك إيمانهم بالبعث لأنهم لا يقرون بأن أهل الجنة يأكلون ويشربون. وقال الماوردي: إقرارهم باليوم الآخر يوجب الإقرار بحقوقه، وهم لا يقرون بها، فكانوا كمن لا يُبَيِّرُ به.

قوله تعالى: «وَلَا يُخْرِجُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» قال سعيد بن جبير: يعني الخمر والخنزير.

قوله تعالى: «وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ» في الحق قولان: أحدهما: أنه اسم الله، فالمعنى: دين الله، قاله قتادة. والثاني: أنه صفة للدين، والمعنى: ويدِينون الدين الحق^(٣)؛ فأضاف الاسم إلى الصفة. وفي معنى «يدِينون» قولان: أحدهما: أنه بمعنى الطاعة، والمعنى: لا يطيعون الله طاعة حق، قاله أبو عبيدة. والثاني: أنه من: دان الرجل يدين كذا: إذا التزمه. ثم في جملة الكلام قولان: أحدهما: أن المعنى: لا يدخلون في دين محمد ﷺ، لأنه ناسخ لما قبله. والثاني: لا يعملون بما في التوراة من اتباع محمد ﷺ.

قوله تعالى: «حَتَّى يُبْطِلُوا الْإِسْلَامَ عَنْ يَدِهِ» قال ابن الأنباري: الجزية: الخراج المجعول عليهم؛ سميت جزية، لأنها قضاء لما عليهم؛ أخذ من قولهم: جَزَى يَجْزِي: إذا قضى؛ ومنه قوله تعالى: «لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا» [البقرة: ٤٨]، وقوله: «وَلَا تَجْزِي عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ»^(٤). وفي قوله: «عَنْ يَدِهِ» ستة أقوال: أحدها: عن قهر، قاله قتادة، والسدي. وقال الزجاج: عن قهر وذُل. والثاني: أنه النقد العاجل، قاله شريك، وعثمان بن مقسم. والثالث: أنه إعطاء المبتدئ

(١) البيت لأحبة بن الجلاح في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة ٢٥٥/١، ومعاني القرآن» للفراء ٢٥٥، و«جمهرة أشعار العرب» ١٢٥، و«اللسان» و«التاج» عيل، وهو من قصيدته التي قالها في حرب بينه وبين قومه من الأوس وبني النجار من الخزرج، قتل فيها أخوه، وكانت عنده امرأته سلمى بنت عمرو بن زيد النجارية، فحزنت قوماً معها أحبة وقومه من الأوس، فضرها حتى كسر يدها وولفها، وبعد هذا البيت قرين له:

وما تدري إذا أجمعت أمراً بأي الأرض يدركك المقبيل

(٢) قال ابن كثير ٣٤٧/٢: فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل، ولا بما جاؤوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً، لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ، لأن جميع الأنبياء بشروا به، وأمروا باتباعه، فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل، علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فلذلك لا يفهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم.

(٣) هو قطعة من حديث طويل، فقد روى البخاري ١٥/١٠، ومسلم ١٥٥٣/٣ واللفظ له عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا (يعني يوم عيد الأضحى) نصلي، ثم نرجع فننحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن فنيح، (يعني قبل صلاة العيد) فلنما هو لهم قدمه لأمله، ليس من النكس في شيء، وكان أبو بردة بن نيار (خال البراء بن عازب) قد فنيح (يعني قبل الصلاة) فقال: «عندي جذعة خير من سنة» فقال: انبجها ولن تجزي عن أحد بعدك».

بالعطاء، لا إعطاء المكافئ، قاله ابن قتيبة. والرابع: أن المعنى: عن اعتراف للمسلمين بأن أيديهم فوق أيديهم. والخامس: عن إنعام عليهم بذلك، لأن قبول الجزية منهم إنعام عليهم، حكاها الزجاج. والسادس: يؤدونها بأيديهم، ولا ينفذونها مع رسلهم، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ صَغَرُونَ﴾ الصاغر: الذليل الحقير. وفيما يَكْلَفُونَهُ من الفعل الذي يوجب صغارهم خمسة أقوال: أحدها: أن يمشوا بها مُكَلِّبِينَ، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن لا يُحْمَدُوا على إعطائهم، قاله سلمان الفارسي. والثالث: أن يكونوا قِيَاماً والأخذ جالساً، قاله عكرمة. والرابع: أن دفع الجزية هو الصغار. والخامس: أن إجراء أحكام الإسلام عليهم هو الصغار.

فصل

واختلف في الذين تؤخذ منهم الجزية من الكفار، فالمشهور عن أحمد: أنها لا تقبل إلا من اليهود والنصارى والمجوس، وبه قال الشافعي. ونقل الحسن بن ثواب عن أحمد: أنه من سُبِي من أهل الأديان من العرب والعجم، فالعرب إن أسلموا، وإلا السيف، وأولئك إن أسلموا، وإلا الجزية؛ فظاهر هذا أن الجزية تؤخذ من الكل، إلا من عابدي الأوثان من العرب فقط، وهو قول أبي حنيفة، ومالك.

فصل

فأما صفة الذين تؤخذ منهم الجزية، فهم أهل القتال. فأما الرِّؤُوسُ، والأعمى، والمفلوج، والشيخ الفاني، والنساء، والصبيان، والراهب الذي لا يخالط الناس، فلا تؤخذ منهم.

فصل

فأما مقدارها، فقال أصحابنا: على الموسر: ثمانية وأربعون درهماً، وعلى المتوسط: أربعة وعشرون، وعلى الفقير المعتمل: اثنا عشر، وهو قول أبي حنيفة. وقال مالك: على أهل الذهب أربعة دنانير، وعلى أهل الورق أربعون درهماً، وسواء في ذلك الغني والفقير. وقال الشافعي: على الغني والفقير دينار. وهل تجوز الزيادة والقصان مما يؤخذ منهم؟ نقل الأثر عن أحمد: أنها تزداد وتنقص على قدر طاقتهم، فظاهر هذا: أنها على اجتهاد الإمام ورأيه. ونقل يعقوب بن بختان^(١): أنه لا يجوز للإمام أن ينقص من ذلك، وله أن يزيد.

فصل

ووقت وجوب الجزية: آخر الحول، وبه قال الشافعي. وقال أبو حنيفة: تجب في أول الحول. فأما إذا دخلت سنة في سنة، فهل تسقط جزية السنة الماضية؟ عندنا لا تسقط. وقال أبو حنيفة: تسقط. فأما إذا أسلم، فإنها تسقط بالإسلام. فأما إن مات، فكان ابن حامد يقول: لا تسقط. وقال القاضي أبو يعلى: يحتمل أن تسقط.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰ إِنَّ اللَّهَ وَقَّالَتِ الْصَّخْرَىٰ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُكْذِبُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَتَلْنَاهُ اللَّهُ أَنَّهُ يُؤَفِّكُونَ ﴿١٥﴾ أَفَكَذَّبُوا أَجَارُهُمْ زُكِّيَهُمْ أَتَبَايَأُ مِن ذُؤَبِ اللَّهِ وَالْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰ ابْنُ اللَّهِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة: «عزير» ابن الله» بغير تنوين. وقرأ عاصم، والكسائي، ويعقوب، وعبد الوارث عن أبي عمرو: منوناً. قال مكِّي بن أبي طالب: من نُونٍ عزيراً رفعه على الابتداء، و«ابن» خبره. ولا يحسن حذف التنوين على هذا من «عزير» لالتقاء الساكنين. ولا تحذف ألف «ابن» من الخط، ويكسر التنوين لالتقاء الساكنين. ومن لم ينون «عزيراً» جعله أيضاً مبتدأ،

(١) هو يعقوب بن إسحاق بن بختان أحد تلامذة الإمام أحمد، ترجمته في «طبقات الحنابلة» ١/١٤٥.

و «ابن» صفة له؛ فيُحذف التنوينُ على هذا استخفافاً لالتقاء الساكنين، ولأن الصفة مع الموصوف كالشيء الواحد، وتحذف ألف «ابن» من الخط، والخبر مضمّر تقديره: عزيز بن الله نبيناً وصاحبنا. وسبب نزولها أن سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: كيف نَتَّبِعُكَ وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيزاً ابن الله؟ فنزلت هذه الآية^(١)، قاله ابن عباس. وقال ابن عمر، وابن جريج: إن القائل لذلك فنحاص. فأما العزيز، فقال شيخنا أبو منصور اللغوي: هو اسم أعجمي معرب، وإن وافق لفظ العربية، فهو عبراني؛ كذا قرأته عليه. وقال مكّي بن أبي طالب: العزيز عند كل النحويين: عربي مشتق من قوله: يعزّروه. وقال ابن عباس: إنما قالوا ذلك، لأنهم لما عملوا بغير الحق، أنساهم الله التوراة، ونسخها من صدورهم، فدعا عزيز الله تعالى؛ فعاد إليه الذي نُسخ من صدورهم، ونزل نور من السماء فدخل جوفه، فأذن في قومه فقال: قد آتاني الله التوراة؛ فقالوا: ما أوتيتها إلا لأنه ابن الله. وفي رواية أخرى عن ابن عباس: أن يختصر لما ظهر على بني إسرائيل، وهدم بيت المقدس، وقتل من قرأ التوراة، كان عزيز غلاماً، فتركه. فلما توفي عزيز ببابل، ومكث مائة عام، ثم بعثه الله تعالى إلى بني إسرائيل، فقال: أنا عزيز؛ فكذبوه وقالوا: قد حدّثنا آباءنا أن عزيزاً مات ببابل، فإن كنت عزيزاً فأمل علينا التوراة؛ فكتبها لهم؛ فقالوا: هذا ابن الله. وفي الذين قالوا هذا عن عزيز ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم جميع بني إسرائيل، روي عن ابن عباس. والثاني: طائفة من سلفهم، قاله الماوردي. والثالث: جماعة كانوا على عهد رسول الله ﷺ، وفيهم قولان: أحدهما: فنحاص وحده، وقد ذكرناه عن ابن عمر، وابن جريج. والثاني: الذين ذكرناهم في أول الآية عن ابن عباس. فإن قيل: إن كان قول بعضهم، فلمْ أُضيف إلى جميعهم؟ فنعته جوابان: أحدهما: أن إيقاع اسم الجماعة على الواحد معروف في اللغة، تقول العرب: جثت من البصرة على البغال، وإن كان لم يركب إلا بغلاً واحداً. والثاني: أن من لم يقل، لم ينكره.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ في سبب قولهم هذا قولان: أحدهما: لكونه ولد من غير ذكر. والثاني: لأنه أحى الموتى، وأبرأ الكُمّة والبُرس؛ وقد شرحنا هذا المعنى في [المائدة: ١١٠].
قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ إن قال قائل: هذا معلوم، فما فائدته؟ فالجواب: أن المعنى: إنه قول بالفم، لا بيان فيه، ولا برهان، ولا تحت معنى صحيح، قاله الزجاج.

قوله تعالى: «يضاهون» قرأ الجمهور: من غير همز. وقرأ عاصم: ﴿يَضَاهُونَ﴾. قال ثعلب: لم يتابع عاصماً أحد على الهمز. قال الفراء: وهي لغة. قال الزجاج: «يضاهون» يشابهون قول مَنْ تَقَدَّمَهُمْ من كَفَرْتَهُمْ، فإنما قالوه اتباعاً لمتقدميهم. وأصل المضاهاة في اللغة: المشابهة؛ والأكثر ترك الهمز؛ واشتاقه من قولهم: امرأة ضياء، وهي التي لا يثبت لها ثدي. وقيل: هي التي لا تحيض، والمعنى: أنها قد أشبهت الرجال. قال ابن الأنباري: يقال: ضاهيت، وضاهات: إذا شَبَّهَتْ. وفي ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم عبدة الأوثان، والمعنى: أن أولئك قالوا: الملائكة بنات الله، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم اليهود، فالمعنى: أن النصارى في قولهم: المسيح ابن الله، شابهوا اليهود في قولهم: عزيز ابن الله، قاله قتادة، والسدي. والثالث: أنهم أسلافهم، تابعوهم في أقوالهم تقليداً، قاله الزجاج، وابن قتيبة. وفي قوله: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: لعنهم الله، قاله ابن عباس. والثاني: قتلهم الله، قاله أبو عبيدة. والثالث: عاداهم الله، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يُّؤْكَلُوا﴾ أي: من أين يصرفون عن الحق.
قوله تعالى: ﴿فَتَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قد سبق في [المائدة: ٤٤] معنى الأحبار والرهبان. وقد روي عن النبي ﷺ أنه سئل عن هذه الآية، فقال: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلّوه، وإذا حرما عليهم شيئاً حرّموه»^(٢). فعلى هذا المعنى: إنهم جعلوهم كالأرباب وإن لم يقولوا: إنهم أرباب.

(١) «الطبري» ٢٠٢/١٤، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٢٩/٢، وزاد نسبه لابن إسحاق، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) رواه الترمذي ١٣٦/٢، وقال: حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث. =

قوله تعالى: ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ قال ابن عباس: اتخذوه ربًّا.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْلِقُوا ذُرِّيَّتَهُ أَيْقُوهِيهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ ذُرِّيَّتَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يخمدوا دين الله بتكذيبهم، يعني؛ أنهم يكذبون به ويعرضون عنه يريدون إبطاله بذلك. وقال الحسن وقادة: نور الله: القرآن والإسلام. فأما تخصيص ذلك بالأفواه، فلما ذكرنا في الآية قبلها. وقيل: إن الله تعالى لم يذكر قولاً مقروناً بالأفواه والألسن إلا وهو زور.

قوله تعالى: ﴿وَيَا أَيُّهَا اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُؤْمَرُ﴾ قال الفراء: إنما دخلت «إلا» هاهنا، لأن في الإياء طرفاً من الجحد، ألا ترى أن «أبيت» كقولك: «لم أفعل»، و «لا أفعل»، فكانه بمنزلة قولك: ما ذهب إلا زيد، قال الشاعر:

فَهَلْ لِي أَمْ غَيْرُهَا إِنْ تَرَكْتُهَا أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ أَكُونَ لَهَا ابْنًا^(١)

وقال الزوجان: المعنى: ويأبى الله كل شيء إلا إتمام نوره. قال مقاتل: «يتم نوره» أي: يظهر دينه.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿بِآيَاتِهِ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه التوحيد. والثاني: القرآن. والثالث: تبيان الفرائض. فأما دين الحق، فهو الإسلام. وفي قوله: ﴿يُظْهِرُ﴾ قولان: أحدهما: أن الهاء عائدة على رسول الله ﷺ، فالمعنى: ليعلمه شرائع الدين كلها، فلا يخفى عليه منها شيء، قاله ابن عباس. والثاني: أنها راجعة إلى الذين. ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: ليظهر هذا الدين على سائر الملل^(٢). ومتى يكون ذلك؟ فيه قولان: أحدهما: عند نزول عيسى عليه السلام، فإنه يتبعه أهل كل دين، وتصير الملل واحدة، فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الإسلام أو أدوا الجزية، قاله أبو هريرة، والضحاك. والثاني: أنه عند خروج المهدي، قاله السدي. والقول الثاني: أن إظهار الدين إنما هو بالحجج الواضحة، وإن لم يدخل الناس فيه.

[illegible]

قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ﴾ الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى. وفي الباطل أربعة أقوال: أحدها: أنه الظلم، قاله ابن عباس. والثاني: الرشا في الحكم، قاله الحسن. والثالث: الكذب، قاله أبو سليمان. والرابع: أخذه من الجهة المحظورة، قاله القاضي أبو يعلى. والمراد: أخذ الأموال، وإنما ذكر الأكل، لأنه معظم المقصود من المال. وفي المراد بسبيل الله هاهنا قولان: أحدهما: الإيمان برسول الله ﷺ، قاله ابن عباس، والسدي. والثاني: أنه الحق والحكم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت عامة

= ررواه «الطبري» ١٤/ ٢١٠ من طرق عن عدي بن حاتم، وخرجه السيوطي في «الدر» ٣/ ٢٣٠، وزاد نسبة لابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «استنابه».

(١) قائله المتلمس، وهو فى «معانى القرآن» للفراء ٤٣٣/١، من قصيدة له يرد فيها على من عير أمه مطالعها:

یہ میری امی رجا لا آری
اُخا کرم اِلا بِاَن یستکرمنا

في أهل الكتاب والمسلمين، قاله أبو ذر، والضحاك. والثاني: أنها خاصة في أهل الكتاب، قاله معاوية بن أبي سفيان. والثالث: أنها في المسلمين، قاله ابن عباس، والسدي. وفي الكثر المستحق عليه هذا الوعيد ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ما لم تؤد زكاته. قال ابن عمر: كل مال أدب زكاته وإن كان تحت سبع أرضين فليس بكنز، وكل مال لا تؤد زكاته فهو كنز وإن كان ظاهراً على وجه الأرض^(١)، وإلى هذا المعنى ذهب الجمهور. فعلى هذا، معنى الإنفاق: إخراج الزكاة. والثاني: أنه ما زاد على أربعة آلاف، روي عن علي بن أبي طالب أنه قال: أربعة آلاف نفقة، وما فوقها كنز. والثالث: ما فضل عن الحاجة، وكان يجب عليهم إخراج ذلك في أول الإسلام ثم نسخ. فإن قيل: كيف قال: «ينفقونها» وقد ذكر شيئين؟ فنه جوابان: أحدهما: أن المعنى: يرجع إلى الكنوز والأموال. والثاني: أنه يرجع إلى الفضة، وحذف الذهب، لأنه داخل في الفضة، قال الشاعر:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضي والرأي مختلف^(٢)
يريد: نحن بما عندنا راضون، وأنت بما عندك راضي، ذكر القولين الزجاج. وقال الفراء: إن شئت اكتفيت بأحد المذكورين، كقوله: «وَمَنْ يَكْسِبْ حَظِيَّتَهُ أَوْ إِنَّمَا يُدْرِيهِ بَيْنَكَ» [النساء: ١١٢]، وقوله: «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً أَنفُسَهُمْ إِنْهَابًا» [الجمعة: ١١]، وأنشد:

إني ضمننت لمن أتاني ما جئني وأبى وكان وكنت غير غدير^(٣)
ولم يقل: غديرين، وإنما اكتفى بالواحد لاتفاق المعنى. قال أبو عبيدة: والعرب إذا أشركوا بين اثنين قصروا، فخبروا عن أحدهما استغناء بذلك، وتحقيقاً لمعرفة السامع بأن الآخر قد شاركه، ودخل معه في ذلك الخبر، وأنشد:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله والنصب في «قار» أجود، وقد يكون الرفع. وقال حسان بن ثابت:
إن شرخ الشباب والشعر الأسـ ولم يقل: يعاصيا.

«يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَرَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ»^(٤)

قوله تعالى: «يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ» أي: على الأموال. قال ابن مسعود: والله ما من رجل يكوى بكنز، فيوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم، ولكن يوسع جلده، فيوضع كل دينار ودرهم على حدته^(٥). وقال ابن عباس: هي حية تطوي على جنبه وجبته، تقول: أنا مالك الذي بخلت به.

قوله تعالى: «هَذَا مَا كَرَزْتُمْ» فيه محذوف تقديره: ويقال لهم هذا ما كرتم لأنفسكم «فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ» أي: عذاب ذلك. فإن قيل: لم خص الجباه والجنوب والظهور من بقية البدن؟ فالجواب: أن هذه المواضع مجوفة، فيصل الحر إلى أجوافها، بخلاف اليد والرجل. وكان أبو ذر يقول: بشر الكنازين بكفي في الجباه وكفي في الجنوب

(١) أثر ابن عمر رواه الطبري ٢١٨/١٤، وإسناده صحيح. ورواه بمعناه مالك في «الموطأ» ٢٥٦/١.

(٢) قاله عمرو بن امرئ القيس من بني الحارث بن الخزرج، جاهلي قديم، وهو جد عبد الله بن راحة، والبيت في «جمهرة أشعار العرب» ٢٣٧، وسيبويه ٣٧/١ (منسوبة لقيس بن الخطيم) وهو خطأ، و«معاني القرآن» ٤٣٤/١، و«مجاز القرآن» ٢٥٨/١، و«الخرائفة» ١٩٠/٢.

(٣) البيت غير منسوب في «معاني القرآن» ٤٣٤/١، ونسبه سيبويه في «الكتاب» ٣٨/١ للفريزدق.

(٤) قاله ضايع بن الحارث البرجمي وهو في «الأصمعيات» ١٦، و«سيبويه» ٣٨/١، و«القرطبي» ٢٤٦/٦، و«شواهد المغني» ٢٩٣، و«الخرائفة» ٢٢٣/٤، و«اللسان»، و«التاج»: قُبر.

(٥) «ديوانه» ٤١٣، و«مجاز القرآن» ٢٥٨/١، و«القرطبي» ١٢٨/٨، و«الجمهرة» ٢٠٧/٢، و«اللسان»: شرح، والشرح: الحد، أي: غاية ارتفاعه، يعني بذلك أقصى قوته ونضارته وعنفوانه.

(٦) «الطبري» ٢٣٣/١٤، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢٩/٧ - ٣٠ وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. وأورده ابن كثير ٣٥٢/٢ من طريق ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً وقال: ولا يصح رفعه والله أعلم. وخروجه السيوطي في «الدر» ٢٣٣/٣، وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

وكي في الظهور، حتى يلتقي الحر في أجوافهم^(١). وجواب آخر: وهو أن الغني إذا رأى الفقير، انقبض؛ وإذا ضمه وإياه مجلس، ازور عنه وولاه ظهره، قاله أبو بكر الوراق.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَدِّينَ الْقِيَمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا بَيَّنَّا لَكُمْ كَافَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال المفسرون: نزلت هذه الآية من أجل النسيء الذي كانت العرب تفعله، فربما وقع حجهم في رمضان، وربما وقع في شوال، إلى غير ذلك؛ وكانوا يستحلون المحرم عاماً، ويحرمون مكانه صفر، وتارة يحرمون المحرم ويستحلون صفر. قال الزجاج: أعلم الله ﷻ أن عدد شهور المسلمين التي تعبّدوا بأن يجعلوه لستهم؛ اثنا عشر شهراً على منازل القمر؛ فجعل حجهم وأعيادهم على هذا العدد، فتارة يكون الحج والصوم في الشتاء، وتارة في الصيف، بخلاف ما يعتمد أهل الكتاب، فإنهم يعملون على أن السنة ثلاثمائة يوم وخمسة وستون يوماً وبعض يوم. وجمهور القراء على فتح عين «اثنا عشر». وقرأ أبو جعفر: «اثنا عشر»، «أحد عشر»، «تسعة عشر»، بسكون العين فيهن.

قوله تعالى: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ. قال ابن عباس: في الإمام الذي عند الله، كتبه ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ وفيها قولان: أحدهما: أنها رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، قاله الأكثرون. وقال القاضي أبو يعلى: إنما سماها حُرُمًا لمعنيين: أحدهما: تحريم القتال فيها، وقد كان أهل الجاهلية يعتقدون ذلك أيضاً. والثاني: لتعظيم انتهاك المحارم فيها أشد من تعظيمه في غيرها، وكذلك تعظيم الطاعات فيها. والثاني: أنها الأشهر التي أجل المشركون فيها للسياحة، ذكره ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَدِّينَ الْقِيَمُ﴾ فيه قولان: أحدهما: ذلك القضاء المستقيم، قاله ابن عباس. والثاني: ذلك الحساب الصحيح والعدد المستوي، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ اختلفوا في كناية «فيهن» على قولين: أحدهما: أنها تعود على الاثني عشر شهراً، قاله ابن عباس. فعلى هذا يكون المعنى: لا تجعلوا حرامها حلالاً، ولا حلالها حراماً، كفعل أهل النسيء. والثاني: أنها ترجع إلى الأربعة الحرم، وهو قول قتادة، والفراء؛ واحتج بأن العرب تقول لما بين الثلاثة إلى العشرة: ثلاث ليالٍ خلون، وأيام خلون؛ فإذا جُزّت العشرة قالوا: خلّت ومضت؛ ويقولون لما بين الثلاثة إلى العشرة: هُرُنٌ، وهؤلاء؛ فإذا جُزّت العشرة، قالوا: هي، وهذه؛ إرادة أن تُعرف سمة القليل من الكثير. وقال ابن الأنباري: العرب تعيد الهاء والنون على القليل من العدد، والهاء والألف على الكثير منه؛ والقلة: ما بين الثلاثة إلى العشرة، والكثرة: ما جاوز العشرة، يقولون: وجهك إليك أكْبُشاً فاذبحهن، وكباشاً فاذبحها؛ فلماذا قال: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾، وقال: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ﴾ لأنه يعني بقوله: «فيهن» الأربعة. ومن قال من المفسرين: إنه يعني بقوله: «فيهن» الاثني عشر، فإنه ممكن؛ لأن العرب ربما جعلت علامة القليل للكثير، وعلامة الكثير للقليل. وعلى قول من قال: ترجع «فيهن» إلى الأربعة؛ يُخرَج في معنى الظلم فيهن أربعة أقوال: أحدها: أنه المعاصي؛ فتكون فائدة تخصيص النهي عنه بهذه الأشهر، أن شأن المعاصي يعظم فيها أشد من تعظيمه في غيرها، وذلك لفضلها على ما سواها، كقوله: ﴿وَيَحْزِنُ إِلَ وَيُكْذِلُ﴾ [البقرة: ٩٨] وإن كانا قد دخلا في جملة الملائكة، وقوله: ﴿وَلِكُفٍّ وَنُفْلٍ وَرِيَّانٍ﴾ [الرحمن: ٦٨] وإن كانا قد دخلا في جملة الفاكهة، وقوله: ﴿فَلَا رَفَّتْ وَلَا سُوفَ وَلَا حِدَالٌ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧] وإن كان منها في غير الحج،

(١) «الطبري» ٢٣٠/١٤، وفي «صحيح مسلم» ٢/٦٩٠، عن الأحنف بن قيس قال: كنت في نفر من قريش، فمر أبو ذر وهو يقول: «بشر الكافرين بكي في ظهورهم يخرج من جنوبيهم، وبكي من قبل أفتانهم يخرج من جباههم»، قال: ثم تنحى فقمعد، قال: قلت: من هذا؟ قالوا: أبو ذر، قال: فقمعت إليه، فقلت: ما شيء سمعتك تقول قبيل، قال: ما قلت إلا شيئاً قد سمعته من نبيهم ﷺ. وروى مسلم أيضاً ٢/٦٨٢ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحمي عليه في نار جهنم فيجمل صفائح فيكوى بها جنباه وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار...».

وكما أمر بالمحافظة على الصلاة الوسطى وإن كان مأموراً بالمحافظة على غيرها، هذا قول الأكثرين. والثاني: أن المراد بالظلم فيهن فعل النسيء، وهو تحليل شهر محرم، وتحريم شهر حلال، قاله ابن إسحاق. والثالث: أنه البداية بالقتال فيهن؛ فيكون المعنى: فلا تظلموا أنفسكم بالقتال فيهن إلا أن تبدؤوا بالقتال، قاله مقاتل. والرابع: أنه ترك القتال فيهن؛ فيكون المعنى: فلا تظلموا فيهن أنفسكم بترك المحاربة لعدوكم، قاله ابن بحر، وهو عكس قول مقاتل. والسر في أن الله تعالى عظم بعض الشهور على بعض، ليكون الكف عن الهوى فيها ذريعة إلى استدامة الكف في غيرها تدريجاً للنفس إلى فراق مألوفها المكروه شرعاً.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ مَا كَانَ يَحْرُمُهُمْ عَمَّا رِثُوا عَدُوَّهُمْ أَتَى مَنَافِعَهُمْ فَجَسَدُوا بِهِ حَتَّىٰ يَكُونُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمُوتُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ لَكَفْرِهِمْ أَجَلٌ فَلَا يَحْشُرُونَ﴾ (٣٧)

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ الجمهور على همز النسيء ومدّه وكسر سينه. وروى شبل عن ابن كثير: «النسء» على وزن النيسع. وفي رواية أخرى عن شبل: «النسيء» مشددة الياء من غير همز، وهي قراءة أبي جعفر؛ والمراد بالكلمة التأخير. قال اللغويون: النسيء: تأخير الشيء. وكانت العرب تحرم الأشهر الأربعة، وكان هذا مما تمسكت به من ملة إبراهيم؛ فربما احتاجوا إلى تحليل المحرم للحرب تكون بينهم، فيؤخرون تحريم المحرم إلى صفر، ثم يحتاجون إلى تأخير صفر أيضاً إلى الشهر الذي بعده؛ ثم تتدافع الشهور شهراً بعد شهر حتى يستدير التحريم على السنة كلها، فكانهم يستنثون الشهر الحرام ويستقرضونه، فأعلم الله ﷻ أن ذلك زيادة في كفرهم، لأنهم أحلوا الحرام، وحرّموا الحلال: ﴿يُؤَاطِلُونَ﴾ أي: ليوافقوا ﴿عِدَّةً مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ فلا يخرجون من تحريم أربعة، ويقولون: هذه بمنزلة الأربعة الحرم، ولا يبالون بتحليل الحرام، وتحريم الحلال. وكان القوم لا يفعلون ذلك إلا في ذي الحجة إذا اجتمعت العرب للموسم، قال الفراء: كانت العرب في الجاهلية إذا أرادوا الصّدْر عن منى، قام رجل من بني كنانة يقال له: نعيم بن ثعلبة، وكان رئيس الموسم، فيقول: أنا الذي لا أعاب ولا أجاب ولا يرد لي قضاء؛ فيقولون: أنسنا شهراً؛ يريدون: أخر عنا حرمة المحرم، واجعلها في صفر، فيفعل ذلك. وإنما دعاهم إلى ذلك توالي ثلاثة أشهر حرم لا يُغيرون فيها، وإنما كان معاشهم من الإغارة، فتستدير الشهور كما بينا. وقيل: إنما كانوا يستحلون المحرم عاماً، فإذا كان من قابل رؤوه إلى تحريمه. قال أبو عبيد: والتفسير الأول أحب إليّ، لأن هذا القول ليس فيه استدارة. وقال مجاهد: كان أول من أظهر النسيء جنادة بن عرف الكناني، فوافقت حجة أبي بكر ذا القعدة، ثم حج النبي ﷺ في العام القابل في ذي الحجة، فذلك حين قال: «إلا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»^(١). وقال الكلبي: أول من فعل ذلك نعيم بن ثعلبة.

قوله تعالى: ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «يُضِلُّ» بفتح الياء وكسر الضاد، والمعنى: أنهم يكتسبون الضلال به. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «يُضِلُّ» بضم الياء وفتح الضاد، على ما لم يُسم فاعله. وقرأ الحسن البصري، ويعقوب إلا الوليد: «يُضِلُّ» بضم الياء وكسر الضاد؛ وفيه ثلاثة أوجه: أحدها: يُضِلُّ الله به. والثاني: يُضِلُّ الشيطان به، ذكرهما ابن القاسم. والثالث: يُضِلُّ به الذين كفروا الناس، لأنهم الذين سنوه لهم. قال أبو علي: التقدير: يُضِلُّ به الذين كفروا تابعيهم. وقال ابن القاسم: الهاء في «به» راجعة إلى النسيء، وأصل النسيء: المنسوء، أي: المؤخر، فينصرف عن «مفعول» إلى «فعل» كما قيل: مطبوخ وطبيخ، ومقدور وقدير، قال: وقيل: الهاء راجعة إلى الظلم، لأن النسيء كَشَفَتْ تأويل الظلم، فجرى مجرى المظهر؛ والأول اختيارنا.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْثُورًا مَّا لَكُمُ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلَبْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ قَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٣٨)

(١) رواء أحمد في «المستد» ٣٧/٥، والبخاري ٦/١٠، ومسلم رقم ١٦٧٩، وأبو داود رقم ١٩٤٧ عن أبي بكره، وقد أوردنا الحديث بطوله صفحة (٥٦٧).

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا﴾ قال المفسرون: لما أمر رسول الله ﷺ بغزوة تبوك، وكان في زمن عسرة وجذب وحر شديد، وقد طابت الشمار، عظم ذلك على الناس وأحبوا المقام، فنزلت هذه الآية^(١). وقوله: ﴿مَا لَكُمْ﴾ استفهام معناه التوبيخ. وقوله: ﴿أَنْفِرُوا﴾ معناه: اخرجوا. وأصل النفر: مفارقة مكان إلى مكان آخر لأمر حاج إلى ذلك. وقوله: ﴿أَتَأْتَلْتُمْ﴾ قال ابن قتيبة: أراد: تناقلتم، فأدغم التاء في التاء، وأحدث الألف ليسكن ما بعدها، وأراد: قعدتم. وفي قراءة ابن مسعود، والأعمش: «تناقلتم». وفي عنى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: تناقلتم إلى شهوات الدنيا حين أخرجت الأرض ثمرها، قاله مجاهد. والثاني: اطمأنتم إلى الدنيا، قاله الضحاك. والثالث: تناقلتم إلى الإقامة بأرضكم، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بنعيمها من نعيم الآخرة، فما يُتمتع به في الدنيا قليل بالإضافة إلى ما يُتمتع به الأولياء في الجنة^(٢).

﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣)
قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ﴾ سبب نزولها أن رسول الله ﷺ لما حثهم على غزو الروم تناقلوا، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. وقال قوم: هذه خاصة فيمن استنفره رسول الله ﷺ فلم ينفر. قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتناقلوا عنه، فأمسك عنهم المطر فكان عذابهم^(٤). وفي قوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وعيد شديد في التخلف عن الجهاد، وإعلام بأنه يستبدل لنصر نبيه قوماً غير متناقلين. ثم أعلمهم أنهم إن تركوا نصره لم يضره، كما لم يضره ذلك إذ كان بمكة. وفي هاء «تضروه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله، والمعنى: لا تضروا الله بترك النفير، قاله الحسن. والثاني: أنها ترجع إلى رسول الله ﷺ، فالمعنى: لا تضروه بترك نصره، قاله الزجاج.

فصل

وقد روي عن ابن عباس، والحسن، وعكرمة، قالوا: نُسخ قوله: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بقوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ يَسْتَفِرُّوْنَ كَأَنَّهُ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقال أبو سليمان الدمشقي: ليس هذا من المنسوخ، إذ لا تنافي بين الآيتين، وإنما حكم كل آية قائم في موضعها. وذكر القاضي أبو يعلى عن بعض العلماء أنهم قالوا: ليس هاهنا نسخ، ومتى لم يقاوم أهل الثغور العدو، ففرض على الناس النفير إليهم، ومتى استغفوا عن إعانة من وراءهم، عُذر القاعدون عنهم. وقال قوم: هذا في غزوة تبوك، ففرض على الناس النفير مع رسول الله ﷺ.

﴿إِلَّا تَضُرُّهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْبَرَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَلَاثَ أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْرُجْ إِنَّكَ اللَّهُ مَنَّانٌ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْفَاتِحَةُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٥)

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَضُرُّهُ﴾ أي: بالنفير معه: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ إعانة على أعدائه، ﴿إِذْ أَخْبَرَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حين قصدوا إهلاكه على ما شرحنا في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٣٠] فأعلمهم أن نصره ليس بهم. قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَ أَثْنَيْنِ﴾ العرب تقول: هو ثاني اثنين، أي: أحد الاثنين، وثالث ثلاثة، أي: أحد الثلاثة، قال الزجاج: وقوله: ﴿ثَلَاثَ أَثْنَيْنِ﴾ منصوب على الحال؛ المعنى: فقد نصره الله أحد اثنين، أي: نصره منفرداً إلا من

(١) الطبري ٢٥٣/١٤، عن مجاهد، وذكره السيوطي في «الدر» ٢٣٧/٣، وزاد نسبة لسند، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) روى مسلم في «صحيحه» رقم (٢٨٥٨) عن المستورد أخى بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «الله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبهه هذه - وأشار يحيى (أحد الرواة) بالسبابة - في اليوم، فلينظر بهم ترجع»، ورواه أحمد في «المسند» ٢٢٨/٤، والمعنى: ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها، ودوام الآخرة، ودوام لذتها ونعيمها، إلا كنسبة الماء الذي يملأ بالأصبع إلى باقي البحر.

(٣) رواه بنحوه أبو داود في «سننه» رقم (٢٥٠٦) وفي سننه نجدة بن نفيح وهو مجهول. وأورده السيوطي في «الدر» ٢٣٩/٣، وزاد نسبة لابن المنذر، وأبي الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه».

أبي بكر، وهذا معنى قول الشعبي: عاتب الله أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر. وقال ابن جرير: المعنى: أخرجوه وهو أحد الاثنين، وهما رسول الله ﷺ وأبو بكر. فأما الغار، فهو ثقب في الجبل، وقال ابن فارس: الغار: الكهف، والغار: نبت طيب الريح، والغار: الجماعة من الناس، والغاران: البطن والفرج، وهما الأجوفان، يقال: إنما هو عبد غارته. قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ وَأَنَّ الْفَتَى يَسْعَى لِيَخَارُتَهُ ذَائِبًا^(١)

قال قتادة: وهذا الغار في جبل بمكة يقال له: ثور. قال مجاهد: مكثا فيه ثلاثاً. وقد ذكرت حديث الهجرة في كتاب «الحدائق». قال أنس بن مالك: أمر الله ﷻ شجرة فنبتت في وجه رسول الله ﷺ فسترته، وأمر العنكبوت فانسجت في وجهه، وأمر حمامتين وحشيتين فوقعتا في فم الغار، فلما دنوا من الغار، عجل بعضهم لينظر، فرأى حمامتين، فرجع فقال: رأيت حمامتين على فم الغار، فعلمت أنه ليس فيه أحد^(٢). وقال مقاتل: جاء القائف فنظر إلى الأقدام فقال: هذه قدم ابن أبي قحافة، والأخرى لا أعرفها، إلا أنها تشبه القدم التي في المقام. وصاحبه في هذه الآية أبو بكر، وكان أبو بكر قد بكى لما مرَّ المشركون على باب الغار، فقال له النبي ﷺ: «ما ظنك بالثنين الله ثالثهما؟»^(٣) وفي السكينة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الرحمة، قاله ابن عباس. والثاني: الرقار، قاله قتادة. والثالث: السكون والطمأنينة، قاله ابن قتيبة، وهو أصح. وفي هاء «عليه» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى أبي بكر، وهو قول علي بن أبي طالب، وابن عباس، وحبيب بن أبي ثابت. واحتج من نصر هذا القول بأن النبي ﷺ كان مطمئناً. والثاني: أنها ترجع إلى النبي ﷺ، قاله مقاتل. والثالث: أن الهاء هاهنا في معنى تشية، والتقدير: فأنزل الله سكينة عليهما، فاكتمى بإعادة الذكر على أحدهما من إعادته عليهما، كقوله: «وَاللَّهُ رَسُولُهُ أَحَىٰ أَنْ يُرْضَوْهُ» [التوبة: ٦٢]، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّكُمْ﴾ أي: قواه، يعني النبي ﷺ بلا خلاف. «يَجُودُ لَمْ تَرَوْكَ» وهم الملائكة. ومتى كان ذلك؟ فيه قولان: أحدهما: يوم بدر، ويوم الأحزاب، ويوم حنين، قاله ابن عباس. والثاني: لما كان في الغار، صرّفت الملائكة وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته، قاله الزجاج. فإن قيل: إذا وقع الاتفاق أن هاء الكناية في «أيد» ترجع إلى النبي ﷺ، فكيف تفارقها هاء «عليه» وهما متفقتان في نظم الكلام؟ فالجواب: أن كل حرف يُردُّ إلى الأليق به، والسكينة إنما يحتاج إليها المنزعج، ولم يكن النبي ﷺ منزعجاً. فأما التأيد بالملائكة، فلم يكن إلا للنبي ﷺ ونظير هذا قوله: ﴿لَتُرْمَىٰ نَارًا بَالُوتًا وَرَسُولُهُ وَتَمَرِّدُوا وَتَوَلَّوْا﴾ [الفتح: ٨] يعني النبي ﷺ، «وَتَسْجُرُوهُ» يعني الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿وَجَمَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾ فيها قولان: أحدهما: أن كلمة الكافرين الشرك، جعلها الله السفلى لأنها مقهورة، وكلمة الله وهي التوحيد، هي العليا، لأنها ظهرت، هذا قول الأكثرين. والثاني: أن كلمة الكافرين ما قُتروا بينهم في الكيد به ليقتلوه، وكلمة الله أنه ناصرهم، رواء عطاء عن ابن عباس. وقرأ ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وقاتدة، والضحاك، ويعقوب: «وكلمة الله» بالنصب.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: في انتقامه من الكافرين: ﴿حَكِيمٌ﴾ في تديبه. ﴿أَتَيْتُكُمْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَنِّهْتُمَا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿أَتَيْتُكُمْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ سبب نزولها أن المقداد جاء إلى رسول الله ﷺ، وكان عظيمًا سمياً، فشكا إليه وسأله أن يأذن له، فنزلت هذه الآية، قاله السدي^(٤). وفي معنى «خفافاً وثقالاً» أحد عشر قولاً: أحدها: شيوخاً

(١) البيت في «اللسان» غور غير منسوب.

(٢) ابن سعد في «الطبقات» ٢٢٩/١، عن أبي مصعب المكي قال: أدركت أنس بن مالك وزيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة، فسمعتهم يتحدثون أن النبي ﷺ ليلة الغار: أمر الله شجرة. الحديث. وفي سننه ضعيف ومجهول. وفي «مسند أحمد» ٨٧/٥، من حديث ابن عباس: «... فمروا بالغار فرأوا على بابها نسج العنكبوت»، وفي سننه عثمان الجزري لم يوثقه غير ابن حبان.

(٣) «البخاري»: ١٠/٧، و«مسلم»: ١٨٥٤/٤، دون قوله: وكان أبو بكر قد بكى لما مرَّ المشركون على باب الغار. وأورده السيوطي في «الدرر» وزاد نسبه لابن سعد، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي، وأبي حنيفة، وابن حبان، وابن المنذر، وابن مردويه.

(٤) «أسباب النزول» للرازي ١٤١، وذكره السيوطي في «الدرر» ٢٤٦/٣، ونسبه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

وشباباً، رواه أنس عن أبي طلحة، وبه قال الحسن، والشعبي، وعكرمة، ومجاهد، وأبو صالح، وشمر بن عطية، وابن زيد في آخرين. والثاني: رجاله وركبنا، رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال الأوزاعي. والثالث: نشاطاً وغير نشاط، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة، ومقاتل. والرابع: أغنياء وفقراء، روي عن ابن عباس. ثم في معنى هذا الوجه قولان: أحدهما: أن الخفاف: ذوو العسرة وقلة العيال، والثقال: ذوو العيال والميسرة، قاله الفراء. والثاني: أن الخفاف: أهل الميسرة، والثقال: أهل العسرة، حكى عن الزجاج. والخامس: ذوي عيال، وغير عيال. قاله زيد بن أسلم. والسادس: ذوي ضياع، وغير ذوي ضياع، قاله ابن زيد. والسابع: ذوي أشغال، وغير ذوي أشغال، قاله الحكم. والثامن: أصحاب، ومرضى، قاله مرة الهمداني، وجوير. والتاسع: عراباً ومتأهلين، قاله يمان بن رباب. والعاشر: خفافاً إلى الطاعة، وثقالاً عن المخالفة، ذكره الماوردي. والحادي عشر: خفافاً من السلاح، وثقالاً بالاستكثار منه، ذكره الثعلبي.

فصل

روى عطاء الخراساني عن ابن عباس أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿وَمَا كَانَتِ التَّائِبُونَ يُبْدِلُوا كَذِبًا﴾ (١) [التوبة: ١٢٢]. وقال السدي: نسخت بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ (٢) [التوبة: ٩١].

قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ قال القاضي أبو يعلى: أوجب الجهاد بالمال والنفس جميعاً، فمن كان له مال وهو مريض أو مقعد أو ضعيف لا يصلح للقتال، فعليه الجهاد بماله، بأن يعطيه غيره فيغزو به، كما يلزمه الجهاد بنفسه إذا كان قوياً. وإن كان له مال وقوة، فعليه الجهاد بالنفس والمال. ومن كان معلماً عاجزاً، فعليه الجهاد بالنصح لله ورسوله، لقوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُرُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: ذلكم الجهاد خير لكم من تركه والتشاغل عنه. والثاني: ذلكم الجهاد خير حاصل لكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما لكم من الثواب.

﴿تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ يَتَوَكَّلُ عَلَى الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ﴾ قال المفسرون: نزلت في المنافقين الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك. ومعنى الآية: لو كان ما دعوا إليه عرضاً قريباً. والعرض: كل ما عرض لك من منافع الدنيا، فالمعنى: لو كانت غنيمة قريبة، أو كان سفرًا قاصداً، أي: سهلاً قريباً، لا تبعوك طمعاً في المال ﴿وَلَكِنْ بَدَّتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ قال ابن قتيبة: الشقة: السفر؛ وقال الزجاج: الشقة: الغاية التي تقصّد؛ وقال ابن فارس: الشقة: مصير إلى أرض بعيدة، تقول: شقة شاقة.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَوَكَّلُونَ بِاللَّهِ﴾ يعني المنافقين إذا رجعت إليهم ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا﴾ وقرأ زائدة عن الأعمش، والأصمعي عن نافع: ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا﴾ بضم الواو، وكذا أين وقع، مثل: ﴿لَوْ أَطْلَعْتُ عَلَيْهِمُ﴾ [الكهف: ١٨]، كأنه لما احتج إلى حركة الواو، حركت بالضم لأنها أخت الواو، والمعنى: لو قدرنا وكان لنا سعة في المال. ﴿يَتَوَكَّلُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكذب والنفاق ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لأنهم كانوا أغنياء ولم يخرجوا.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ اللَّهُ الظُّلُمَاتِ﴾

قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ كان ﷺ قد أذن لقوم من المنافقين في التخلف لما خرج إلى تبوك، قال ابن عباس: ولم يكن يومئذ يعرف المنافقين. قال عمرو بن ميمون: اثنان فعلهما رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين، وأخذه الفداء من الأسارى؛ فعاتبه الله كما تسمعون. قال مورق: عاتبه ربّه بهذا. وقال سفيان بن عيينة: انظر

(١) وقد ذهب إلى إحكام الآية ومنع النسخ جماعة، منهم ابن جرير الطبري، وأبو سليمان الدمشقي، وحكى القاضي أبو يعلى عن بعض العلماء أنهم قالوا:

(٢) ليس هاهنا نسخ، ومتى لم يقام أهل الثغور العدو، ففرض على الناس الفير إليهم، ومتى استغنوا عن إعانة من وراءهم حذر القاعدون عنهم.

(٣) أخرجه السيوطي في «الدرر» ٢٤٦/٣، من رواية ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن السدي.

إلى هذا اللطف، بدأ بالعفو قبل أن يعيره بالدُّب. وقال ابن الأنباري: لم يخاطب بهذا لجرم أجرمه، لكنَّ الله وقره ورفع من شأنه حين افتتح الكلام بقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ كما يقول الرجل لمخاطبه إذا كان كريماً عليه: عفا الله عنك، ما صنعت في حاجتي؟ ورضي الله عنك، هلاً زرتني.

قوله تعالى: ﴿حَقٌّ يَبَيِّنُ لَكَ الْآيَاتِ صَدَقُوا﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: حتى تعرف ذوي العذر في التخلف ممن لا عذر له. والثاني: لو لم تأذن لهم، لقعدوا ويان لك كذبهم في اعتذارهم. قال قتادة: ثم إن الله تعالى نسخ هذه الآية بقول: ﴿فَأَذِّنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢].

﴿لَا يَسْتَنْذِلُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [١١] إِنَّمَا يَسْتَنْذِلُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِذَلِكَ قُلُوبُهُمْ قَهْرَةٌ فِي رِيبِهِمْ يَرْدُّوكَ ﴿١٥﴾
قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَنْذِلُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ قال ابن عباس: هذا تعبير للمنافقين حين استأذنوا في القعود. قال الزجاج: أعلم الله ﷻ نبيه ﷺ أنَّ علامة النفاق في ذلك الوقت الاستئذان.

فصل

وروي عن ابن عباس أنه قال: نسخت هذه الآية بقوله: ﴿لَا يَذْهَبُ حَقٌّ يَسْتَنْذِلُ﴾ إلى آخر الآية [النور: ٦٢]. قال أبو سليمان الدمشقي: وليس للنسخ هاهنا مدخل، لإمكان العمل بالآيتين، وذلك أنه إنما عاب على المنافقين أن يستأذنوا في القعود عن الجهاد من غير عذر، وأجاز للمؤمنين الاستئذان لما يعرض لهم من حاجة، وكان المنافقون إذا كانوا معه فعرضت لهم حاجة، ذهبوا من غير استئذانه.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [١٦] لَوْ خَرَجُوا فِكرْنَا زَادَكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا تُصْعِقُوا يَخَافُكُمْ الْفِتْنَةُ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِالْغُلِيلِينَ ﴿١٧﴾
قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ يعني المستأذنين له في القعود. وفي المراد بالعدَّة قولان: أحدهما: النية، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثاني: السلاح، والمركوب، وما يصلح للخروج، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والانبعاث: الانطلاق، والتبُّط: ردُّ الإنسان عن الشيء بفعله.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا﴾ في القائل لهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم ألهموا ذلك خذلاناً لهم، قاله مقاتل. والثاني: أن النبي ﷺ قاله غضباً عليهم. والثالث: أنه قول بعضهم لبعض، ذكرهما الماوردي. وفي المراد بالقاعدین قولان: أحدهما: أنهم القاعدون بغير عذر، قاله ابن السائب. والثاني: أنهم القاعدون بعذر، كالنساء والصبيان، ذكره علي بن عيسى. قال الزجاج: ثم أعلم الله ﷻ لم كره خروجهم، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِكرْنَا زَادَكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ والخبال: الفساد وذهاب الشيء. وقال ابن قتبية: الخبال: الشر. فإن قيل: كان الصحابة كان فيهم خيال حتى قيل: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِكرْنَا زَادَكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾؟ فالجواب: أنه من الاستثناء المنقطع، والمعنى: ما زادوكم قوَّة، لكن أوقعوا بينكم خبالاً. وقيل: سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ لما خرج، ضرب عسكره على ثنية الوداع، وخرج عبد الله بن أبي، فضرب عسكره على أسفل من ذلك؛ فلما سار رسول الله ﷺ، تخلف ابن أبي فيمن تخلف من المنافقين، فنزلت هذه الآية (١).
قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصْعِقُوا يَخَافُكُمْ﴾ قال الفراء: الإيضاع: السير بين القوم. وقال أبو عبيدة: لأسرعوا بينكم، وأصله من التخلل. قال الزجاج: يقال: أوضعت في السير: أسرعت.

قوله تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ قال الفراء: يبغيونها لكم. وفي الفتنة قولان: أحدهما: الكفر، قاله الضحاك، ومقاتل، وابن قتبية. والثاني: تفريق الجماعة، وشتات الكلمة. قال الحسن: لأضعوا خلالكم بالنميمة لإفساد ذات بينكم.

(١) قال السيوطي في «الدرر»: ٤٤٧/٣: وأخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، عن الحسن البصري قال: كان عبد الله بن أبي، وعبد الله بن نبتل، ورفاعة بن زيد بن ثابت من عظماء المنافقين، وكانوا ممن يكيد الإسلام وأهله، وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ آتَيْنَا الْفِتْنَةَ بَيْنَ قَبْلِ وَكَأَيُّ لَفْظٍ الْأَوَّلِ﴾ إلى آخر الآية، وهي الآية التي بعد هذه.

قوله تعالى: ﴿وَفِيكَزْ سَعَوْنَ لَمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: عيون ينقلون إليهم أخباركم، قاله مجاهد، وابن زيد. والثاني: مَنْ يسمع كلامهم ويطيعهم، قاله قتادة، وابن إسحاق.

﴿لَقَدْ أَسْعَوْا لِلْفِتْنَةِ يَنْ قَبْلَ وَكَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَكَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَسْعَوْا لِلْفِتْنَةِ﴾ في الفتنة قولان: أحدهما: الشر، قاله ابن عباس. والثاني: الشر، قاله مقاتل. قوله تعالى: ﴿يَنْ قَبْلَ﴾ أي: من قبل غزوة تبوك. وفي قوله: ﴿وَكَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ خمسة أقوال: أحدها: يَغُوا لك الغوائل، قاله ابن عباس. وقيل: إن اثني عشر رجلاً من المنافقين وقفوا على طريقه ليلاً ليفتكوا به، فسلمه الله منهم. والثاني: احتالوا في تشبث أمرك وإبطال دينك، قاله أبو سليمان الدمشقي. قال ابن جرير: وذلك كانصراف ابن أبي يوم أحد بأصحابه. والثالث: أنه قولهم ما ليس في قلوبهم. والرابع: أنه ميلهم إليك في الظاهر، وممالأة المشركين في الباطن. والخامس: أنه حلفهم بالله ﴿لَوْ اسْتَظَلَمْنَا لَحَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ ذكر هذه الأقوال الثلاثة الماوردي.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى جَاءَكَ الْحَقُّ﴾ يعني النصر ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ يعني الإسلام.

﴿وَمِنْهُمْ مَن يَكْفُرُ أَتَذْنُ لِي وَلَا تَقِيَّتِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَكْفُرُ أَتَذْنُ لِي﴾ سبب نزولها أن رسول الله ﷺ قال للجعد بن قيس: «يا جعد، هل لك في جلال بني الأصفر، لعلك أن تغنم بعض بنات الأصفر»، فقال: يا رسول الله، ائذن لي فأقيم، ولا تفتني بينات الأصفر. فأعرض عنه، وقال: «قد أئذنت لك»، ونزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس^(١). وهذه الآية وما بعدها إلى قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ﴾ في المنافقين.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ يعني المنافقين ﴿مَن يَكْفُرُ أَتَذْنُ لِي﴾ أي: في القعود عن الجهاد، وهو الجعد بن قيس. وفي قوله: ﴿وَلَا تَقِيَّتِي﴾ أربعة أقوال: أحدها: لا تفتني بالنساء، قاله ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد. والثاني: لا تكسبني الإثم بأمرك إياي بالخروج وهو غير متيسر لي، فأثم بالمخالفة، قاله الحسن، وقتادة، والزجاج. والثالث: لا تكفرني بالزامك إياي الخروج، قاله الضحاك. والرابع: لا تصرفني عن شغلي، قاله ابن بحر.

قوله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ في هذه الفتنة أربعة أقوال: أحدها: أنها الكفر، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: الحرج، قاله علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: الإثم، قاله قتادة، والزجاج. والرابع: العذاب في جهنم، ذكره الماوردي.

﴿إِنَّ قُصِبَكَ حَسَنَةً سَأَوْتُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَسْتَوَلُّوْا وَهُمْ قَرِحُونَ﴾

﴿قُلْ لَنْ يُبِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُصِبَكَ حَسَنَةً﴾ أي: نصر وغنيمة. والمصيبة: القتل والهزيمة. ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا﴾ أي: عملنا بالحزم فلم نخرج. ﴿وَيَسْتَوَلُّوْا وَهُمْ قَرِحُونَ﴾ بمصابك وسلامتهم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ما قضى علينا، قاله ابن عباس. والثاني: ما بين لنا في كتابه من أننا نظفر فيكون ذلك حسنى لنا، أو نقتل فتكون الشهادة حسنى لنا أيضاً، قاله الزجاج. والثالث: لن يصيبنا في عاقبة أمرنا إلا ما كتب الله لنا من النصر الذي وعدنا، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: ناصرنا.

﴿قُلْ هَلْ تَرْضَوْنَ إِنَّا لَا آخِذِي الْحُسَيْنِيِّ وَنَحْنُ نَرْضَى بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ أَوْ يَأْخِذَنَا فَنَرِضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرْضُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرْضَوْنَ إِنَّا﴾ أي: تنتظرون. والحسينان: النصر والشهادة. ﴿وَنَحْنُ نَرْضَى بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ﴾ في هذا العذاب قولان: أحدهما: الصواعق، قاله ابن عباس. والثاني: الموت، قاله ابن جريج.

(١) أورده السيوطي في «الدر» ٢٤٨/٣، من رواية محمد بن إسحاق، وابن المنذر، والبيهقي في «الدلائل» من طريقه عن عاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر بن حزم.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَنَّكَ﴾ يعني: القتل.

﴿قُلْ أَنْتُمْ قُلُوبًا أَوْ كُرُمًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ لَكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٥٣)

قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ قُلُوبًا أَوْ كُرُمًا﴾ سبب نزولها أن الجد بن قيس قال للنبي ﷺ لما عرض عليه غزو الروم: إذا رأيت النساء افتتنت. ولكن هذا مالي أعينك به، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس^(١). قال الزجاج: وهذا لفظ أمر، ومعناه معنى الشرط والجزاء، المعنى: إن أنفقتم طائعين أو مكرهين لن يُتَقَبَلَ منكم. ومثله في الشعر قول كثير: أسبسي بنا أو أحسنني لا ملنومة
لم يأمرها بالإساءة، ولكن أعلمها أنها إن أساءت أو أحسنت فهو على عهدنا. قال الفراء: ومثله ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٨٠).

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٥٤)

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «تقبل» بالياء. وقرأ حمزة، والكسائي: «يقبل» بالياء. قال أبو علي: من أثت، فلان الفعل مسند إلى مؤنث في اللفظ؛ ومن قرأ بالياء، فلأنه ليس بتأنيث حقيقي، فجاز تذكره؛ كقوله: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ (البقرة: ٢٧٥). وقرأ الجحدري: «أن يقبل» بياء مفتوحة، «نفقاتهم» بكسر التاء. وقرأ الأعمش: «نفقتهم» بغير ألف، مرفوعة التاء. وقرأ أبو مجلز، وأبو رجاء: «أن يقبل» بالياء «نفقتهم» بنصب التاء على التوحيد.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ قال ابن الأنباري: «أن» هاهنا مفتوحة، لأنها بتأويل المصدر مرتفعة بـ «منعهم»، والتقدير: وما منعهم قبول النفقة منهم إلا كفرهم بالله.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ قد شرحناه في سورة [النساء: ١٤٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ لأنهم يعدون الإنفاق مغرمًا.

﴿فَلَا تُنْفِقْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ إِنَّا نُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَزَقَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٥٥)

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُنْفِقْ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي: لا تستحسن ما أنعمنا به عليهم من الأموال والأولاد. وفي معنى الآية أربعة أقوال: أحدها: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليُعَذِّبَهُمْ بها في الآخرة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن قتبية. فعلى هذا، في الآية تقديم وتأخير، ويكون تعذيبهم في الآخرة بما صنعوا في كسب الأموال وإنفاقها. والثاني: أنها على نظمها، والمعنى: ليُعَذِّبَهُمْ بها في الدنيا بالمصائب في الأموال والأولاد، فهي لهم عذاب، وللمؤمنين أجر، قاله ابن زيد. والثالث: أن المعنى: ليُعَذِّبَهُمْ بأخذ الزكاة من أموالهم والنفقة في سبيل الله، قاله الحسن. فعلى هذا، ترجع الكناية إلى الأموال وحدها. والرابع: ليُعَذِّبَهُمْ بسبي أولادهم وغنيمة أموالهم، ذكره الماوردي. فعلى هذا تكون في المشركين.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: تخرج، يقال: زهق السهم: إذا جاوز الهدف.

﴿وَنَزَلْنَاهُمْ بِاللَّهِ إِلَهُكُمْ لَكُمْ وَمَا هُمْ بِمُتَّقِينَ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَحْكُمُونَ مَلَكًا أَوْ مَلَائِكَةً أَوْ مَدْعَاةً تَقُولُ إِنَّهُم بِاللَّهِ إِلَهُكُمْ يَخْمَعُونَ﴾ (٥٧)

قوله تعالى: ﴿وَنَزَلْنَاهُمْ بِاللَّهِ إِلَهُكُمْ لَكُمْ﴾ أي: مؤمنون، و «يَفْرُقُونَ» بمعنى يخافون. فأما الملجأ، فقال الزجاج: الملجأ واللجأ مقصور مهموز، وهو المكان الذي يُتَحَصَّنُ فيه. والمغارات: جمع مغارة، وهو الموضع الذي يغور فيه الإنسان، أي: يستتر فيه. وقرأ سعيد بن جبير، وابن أبي عبيدة: «أو مغارات» بضم الميم؛ لأنه يقال: أغرت

(١) «الطبري»: ١٤ / ٢٩٤، وفي سنده انقطاع.

(٢) البيت لكثير غزوة: «ديوانه» ٥٣ / ١، من قصيدته المشهورة، «الطبري» ٢ / ٢٩٤، و ١٤ / ٢٩٣، و «معاني القرآن» للفراء ١ / ٤٤١، يقال: قلا، يقله قلى، فهو مقلى: كرهه وأبغضه، وتقل: تبغض، أي: استعمل من الفعل أو القول ما يدعو إلى بغضه.

وَعُرْتُ: إذا دخلت الغور. وأصل مُدْخَل: مدخل، ولكن التاء تبدل بعد الدال دالاً، لأن التاء مهموسة، والدال مجهورة، والتاء والدال من مكان واحد، فكان الكلام من وجه واحد أخفت. وقرأ أبي، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء: «أَوْ مُدْخَلًا» برفع الميم، وبتاء وذال مفتوحتين، مشددة الخاء. وقرأ ابن مسعود، وأبو عمران: «مُدْخَلًا» بنون بعد الميم المضمومة. قرى الحسن، وابن يعمر، ويعقوب: «مدخلًا» بفتح الميم وتخفيف الدال وسكونها. قال الزجاج: من قال: «مُدْخَلًا» فهو من دخل يدخل مدخلًا؛ ومن قال: «مُدْخَلًا» فهو من أدخلته مُدْخَلًا، قال الشاعر:

الحمد لله مُنْسَانًا وَمُضْبَحًا بالخير صَبَحْنَا رَبِّي وَمَسَانًا^(١)

ومعنى مُدْخَل ومُدْخَل: أنهم لو وجدوا قومًا يدخلون في جملتهم «كُلُّوْا» إليه، أي: إلى أحد هذه الأشياء «وَهُمْ يَسْتَحُونَ» أي: يسرعون إسرَاعاً لا يرد فيه وجوههم شيء. يقال: جمع وطمح: إذا أسرع ولم يرد وجهه شيء؛ ومنه قيل: فرس جموح للذي إذا حمل لم يرده اللجام.

﴿وَنُفِثُ مَن يَلِيكَ فِي الصَّدَقَاتِ إِن أَعْطُوا مِنهَا رِضْوَانًا وَلَئِن لَّمْ يَعْطُوا مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَنُفِثُ مَن يَلِيكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ فيمن نزلت فيه قولان: أحدهما: أنه ذو الخويصرة التميمي، قال للنبي ﷺ يوماً: أعدل يا رسول الله، فنزلت هذه الآية^(٢). ويقال: أبو الخواصر. ويقال: ابن ذي الخويصرة. والثاني: أنه ثعلبة بن حاطب، كان يقول: إنما يعطي محمد من يشاء، فنزلت هذه الآية. قال ابن قتيبة: «يلمك» يعيبك ويظعن عليك. يقال: همزت فلاناً ولمزته: إذا اغتبه وعبته؛ والأكثر على كسر ميم «يلمك». وقرأ يعقوب، ونظيف عن قنبل، وأبان عن عاصم، والقزاز عن عبد الوارث: ﴿يَلْمِزُكَ﴾ و﴿يَلْمِزُكَ﴾ و﴿لَا تَلْمِزُوا﴾ بضم الميم فيهن. وقرأ ابن السميع: «يلامك» مثل: يفاعلك. وقد رواها حماد بن سلمة عن ابن كثير. قال أبو علي الفارسي: وينبغي أن تكون فاعلت في هذا من واحد، نحو: طارقت النعل، وعافاه الله، لأن هذا لا يكون من النبي ﷺ. وقرأ الأعمش: «يلمك» بتشديد الميم من غير ألف، مثل: يفاعلك. قال الزجاج: يقال: لمزت الرجل ألمزه وألمزه، بكسر الميم وضمها: إذا عبته، وكذلك: همزته أهمزه، قال الشاعر:

إِذَا لَقَيْتُكَ تُبْدِي لِي مَكَاشِرَةً وَإِن تَغَيَّبْتُ كُنْتَ الْهَامِزَ اللَّمَزَةَ^(٣)

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾
﴿إِنَّمَا أَصَدَقْتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْكَاهِلِينَ عَلَيْهَا وَالْكُلُوفُفُ فُلُوبُهُمْ فِي الرِّقَابِ وَالْقَنَدِيرِينَ فِي سَيْبِلِ اللَّهِ وَأَبْنَى السَّيْلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي: قنعوا بما أعطوا. ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ في الزيادة، أي: لكان خيراً لهم. وهذا جواب «لو»، وهو محذوف في اللفظ. ثم بيّن المستحق للصدقات بقوله: ﴿إِنَّمَا أَصَدَقْتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ اختلفوا في صفة الفقير والمسكين على ستة أقوال: أحدها: أن الفقير: المتعفف عن السؤال والمسكين: الذي يسأل وبه رَمَقٌ، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وجابر بن زيد، والزهرى، والحكم، وابن زيد، ومقاتل. والثاني: أن الفقير: المحتاج الذي به زمانة، والمسكين: المحتاج الذين لا زمانة به، قاله قتادة. والثالث: الفقير: المهاجر، والمسكين: الذي لم يهاجر، قاله الضحاك بن مزاحم، والنخعي. والرابع: الفقير: فقير المسلمين، والمسكين: من أهل الكتاب، قاله عكرمة. والخامس: أن الفقير: من له البُلُغَةُ من الشيء، والمسكين: الذي ليس له شيء، قاله أبو حنيفة، ويونس بن حبيب، ويعقوب بن السكيت، وابن قتيبة. واحتجوا بقول الراعي:

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت في «الأغاني» ١٢٩/٤، و«اللسان» سا.

(٢) «الطبري»: ٣٠٣/١٤ وإسناده صحيح، وقصة ذو الخويصرة معرأة عن سبب النزول رواها البخاري في «صحيحه» ٤٥٥/٦، ومسلم ١٦٥/٧ من طريق الزهرى عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي سعيد الخدري.

(٣) البيت لزياد الأعجم في «الطبري» ٣٠١/١٤، و«مجاز القرآن» ٢٦٣/١، و«شواهد الكشاف» ١٥٢، و«إصلاح المنطق» ٤٧٥، و«الجمهرة» لابن دريد ١٨/٣، و«المقاييس» ٦٦/٦، و«اللسان»: همز.

أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حُلُوْبُهُ فَقَالَ يُونُسُ: قُلْتُ لِأَعْرَابِي: أَفَقِيرَ أَنْتَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، بَلْ مُسْكِينٌ؛ يَرِيدُ: أَنَا أَسْوَأُ حَالاً مِنَ الْفَقِيرِ. وَالسَّادِسُ: أَنَّ الْفَقِيرَ أَمْسُ حَاجَةً مِنَ الْمُسْكِينِ، وَهَذَا مَذْهَبُ أَحْمَدَ، لِأَنَّ الْفَقِيرَ مَأْخُوذٌ مِنْ انْكَسَارِ الْفَقَارِ، وَالْمُسْكِنُ مَأْخُوذَةٌ مِنَ السَّكُونِ وَالْخُشُوعِ، وَذَلِكَ أَبْلَغُ. قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: وَيُرْوَى عَنْ الْأَصْمَعِيِّ أَنَّهُ قَالَ: الْمُسْكِينُ أَحْسَنُ حَالاً مِنَ الْفَقِيرِ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ: الْمُسْكِينُ أَحْسَنُ حَالاً مِنَ الْفَقِيرِ، لِأَنَّ الْفَقِيرَ أَصْلُهُ فِي اللُّغَةِ: الْمَفْقُورُ الَّذِي نَزَعَتْ فَقْرَةٌ مِنْ فِقْرِ ظَهْرِهِ، فَكَأَنَّهُ انْقَطَعَ ظَهْرُهُ مِنْ شِدَّةِ الْفَقْرِ؛ فَصُرِفَ عَنْ مَفْقُورٍ إِلَى فَقِيرٍ، كَمَا قِيلَ: مَجْرُوحٌ وَجَرِيحٌ، وَمَطْبُوحٌ وَطَبِيخٌ، قَالَ الشَّاعِرُ:

لَمَّا رَأَى لُبْدَ النَّسُورِ تَطَايَرَتْ رَفَعَ الْقَوَادِمَ كَالْفَقِيرِ الْأَعْزَلِ^(١)
قَالَ: وَمِنْ الْحِجَةِ لِهَذَا الْقَوْلِ قَوْلُهُ: «أَمَّا السَّيِّئَةُ فَكَانَتْ لِمُسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَيِّئَةٍ عُصَبًا» [الكهف: ٧٩]، فوصف بالمسكنة من له سفينة تساوي مالاً؛ قَالَ: وَهُوَ الصَّحِيحُ عِنْدَنَا.
قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَالْمَكِيلِينَ عَلَيْهَا» وَهُمُ السَّعَاءَةُ لِجَبَايَةِ الصَّدَقَةِ، يُعْطَوْنَ مِنْهَا بِقَدْرِ أَجُورِ أَمْثَالِهِمْ، وَلَيْسَ مَا يَأْخُذُونَهُ بِزَكَاةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَالَّذِينَ ظَلَمُوا نُفُوسَهُمْ» وَهُمْ قَوْمٌ كَانُوا رُسُلَ اللَّهِ ﷺ يَتَأَلَّفُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ بِمَا يُعْطِيهِمْ، وَكَانُوا ذَوِي شَرَفٍ، وَهُمْ صَنَفَانِ: مُسْلِمُونَ، وَكَافِرُونَ. فَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ، فَصَنَفَانِ؛ صَنَفٌ كَانَتْ نِيَّتُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ ضَعِيفَةً، فَتَأَلَّفُهُمْ تَقْوِيَةً لِنِيَّتِهِمْ، كَعِثَّةِ بَنِي حَصْنٍ، وَالْأَقْرَعُ؛ وَصَنَفٌ كَانَتْ نِيَّتُهُمْ حَسَنَةً، فَأَعْطُوا تَأَلُّفاً لِعِشَائِرِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مِثْلَ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ. وَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ، فَصَنَفَانِ؛ صَنَفٌ يَقْصِدُونَ الْمُسْلِمِينَ بِالْأَذَى، فَتَأَلَّفُهُمْ دَفْعاً لِأَذَاهُمْ، مِثْلَ عَامِرِ بْنِ الطَّفِيلِ؛ وَصَنَفٌ كَانَ لَهُمْ مِيلٌ إِلَى الْإِسْلَامِ، تَأَلَّفَهُمْ بِالْعَطِيَّةِ لِيُؤْمِنُوا، كَصَفْوَانَ بْنِ أُمِيَّةٍ. وَقَدْ ذَكَرْتُ عِدَّةَ الْمُؤَلَّفَةِ فِي كِتَابِ «التَّلْقِيحِ». وَحُكْمُهُمْ بَاقٍ عِنْدَ أَحْمَدَ فِي رِوَايَةٍ، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ، وَالشَّافِعِيُّ: حُكْمُهُمْ مَنْسُوخٌ. قَالَ الزَّهْرِيُّ: لَا أَعْلَمُ شَيْئاً نَسَخَ حُكْمَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبَهُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «فِي أَرْقَابٍ» قَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: [١٧٧].
قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَالْفَاقِرِينَ» وَهُمْ الَّذِينَ لَزِمَهُمُ الدِّينُ وَلَا يَجِدُونَ الْقَضَاءَ. قَالَ قَتَادَةُ: هُمْ نَاسٌ عَلَيْهِمْ دَيْنٌ مِنْ غَيْرِ فُسَادٍ وَلَا إِسْرَافٍ وَلَا تَبْذِيرٍ، وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا، لِأَنَّهُ لَا يُؤْمَنُ فِي حَقِّ الْمَفْسُدِ إِذَا قُضِيَ دَيْنُهُ أَنْ يَعُودَ إِلَى الْإِسْتِدَانَةِ لِذَلِكَ؛ وَلَا خِلَافٍ فِي جَوَازِ قَضَاءِ دَيْنِهِ وَدَفْعِ الزَّكَاةِ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ قَتَادَةُ قَالَهُ عَلَى وَجْهِ الْكَرَاهِيَةِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ» يَعْنِي: الْغَزَاةَ وَالْمَرَابِطِينَ. وَيَجُوزُ عِنْدَنَا^(٢) أَنْ يُعْطَى الْأَغْنِيَاءُ مِنْهُمْ وَالْفُقَرَاءُ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ. وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: لَا يُعْطَى إِلَّا الْفَقِيرُ مِنْهُمْ. وَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يُصْرَفَ مِنَ الزَّكَاةِ إِلَى الْحَجِّ، أَمْ لَا؟ فِيهِ عَنْ أَحْمَدَ رَوَايَتَانِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَابْنِ السَّبِيلِ» هُوَ الْمَسَافِرُ الْمُنْقَطِعُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ فِي بِلَدِهِ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَأَبُو حَنِيفَةَ، وَأَحْمَدُ. فَأَمَّا إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْشَأَ سَفَرًا، فَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يُعْطَى؟ قَالَ الشَّافِعِيُّ: يَجُوزُ، وَعَنْ أَحْمَدَ مِثْلُهُ؛ وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: [١٧٧] فِيهِ أَقْوَالٌ عَنِ الْمُفَسِّرِينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ» يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ هَذَا.

(١) «ديوانه» ٥٥، و«إصلاح المنطق» ٣٢٦، و«الاقتضاب» ١١٤، والحلوة: الناقة التي تحلب، وقوله: وفق العيال، أي: لها لبن قدر كفايتهم لا فضل فيه عنهم. وقيل: قدر ما يقوتهم، وكل شيء طابق شيئاً فهو وفق له. والسبد: الشعر. وقيل: الوبر. فإذا قيل: ماله سيد ولا لبد، فمعناه: ماله ذو وير ولا صوف متلبد، يكنى بهما عن الإبل والغنم.

(٢) البيت للبيد، «ديوانه» ٢٧٤، و«اللسان» ٢٧٨، و«معجم البلدان» ٦/٢٧٨، و«معجم مقاييس اللغة» ٩٠/٤، و«الحيوان» ٦/٣٢٦، وقوله: كالفقير، ويرى: كالفقير، ويرى: كالكسير. والأعزل: المائل الذئب توصف به الخيل. والقوام: أربع ريشات في مقدم الجناح، الواحدة: قادمة، والفقير: المكسور الفقار، وهي ما انتضد من عظام الصلب من لدن الكاهل إلى العقب.

(٣) أي: عند الحنابلة.

فصل

وحُدُّ الغنى الذي يمنع أخذ الزكاة عند أصحابنا بأحد شيئين: أن يكون مالكاً لخمسين درهماً، أو عدلها من الذهب، سواء كان ذلك يقوم بكفايته، أو لا يقوم. والثاني: أن يكون له كفاية، إما من صناعة، أو أجرة عقار، أو عروض للتجارة يقوم ربها بكفايته. وقال أبو حنيفة: الاعتبار في ذلك أن يكون مالكاً لنصاب تجب عليه فيه الزكاة. فأما ذوو القربى الذين تحرم عليهم الصدقة، فهم بنو هاشم، وبنو المطلب. وقال أبو حنيفة: تحرم على ولد هاشم، ولا تحرم على ولد المطلب. ويجوز أن يعمل على الصدقة من بني هاشم وبنو المطلب ويأخذ عمالته منها، خلافاً لأبي حنيفة. فأما موالي بني هاشم وبنو المطلب، فتحرم عليهم الصدقة، خلافاً لمالك. ولا يجوز أن يعطي صدقته من تلزمه نفقته؛ وبه قال مالك، والثوري. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يعطي والداً وإن علا، ولا ولدأ وإن سفل، ولا زوجة، ويعطي من عداهم. فأما الذمي؛ فلاكثرون على أنه لا يجوز إعطاؤه. وقال عبيد الله بن الحسن: إذا لم يجد مسلماً، أعطى الذمي. ولا يجب استيعاب الأصناف، ولا اعتبار عدد من كل صنف؛ وهو قول أبي حنيفة، ومالك؛ وقال الشافعي: يجب الاستيعاب من كل صنف ثلاثة. فأما إذا أراد نقل الصدقة من بلد المال إلى موضع تقصر فيه الصلاة، فلا يجوز له ذلك، فإن نقلها لم يُجزئه؛ وهو قول مالك، والشافعي. وقال أبو حنيفة؛ يكره نقلها، وتجزئه. قال أحمد: ولا يعطى الفقير أكثر من خمسين درهماً. وقال أبو حنيفة: أكره أن يعطى رجل واحد من الزكاة مائتي درهم، وإن أعطيته أجزاءً. فأما الشافعي، فاعتبر ما يدفع الحاجة من غير حد. فإن أعطى من يظنه فقيراً، فبان أنه غني، فهل يجزئ؟ فيه عن أحمد روايتان.

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيُقْلِبُونَ هُوَ أَذُنٌ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ بَيِّنٌ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَيَنْكُرُ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن خذام بن خالد، والجلاس بن سويد، وعبيد بن هلال في آخرين، كانوا يؤذون رسول الله ﷺ، فقال بعضهم لبعض: لا تفعلوا، فإننا نخاف أن يبلغه فيقع بنا، فقال الجلاس: بل نقول ما شئنا، فإنما محمد أذن سامعة، ثم نأتيه فيصدقنا؛ فنزلت هذه الآية؛ قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن رجلاً من المنافقين يقال له: بُنْتَل بن الحارث، كان ينم حديث رسول الله ﷺ إلى المنافقين، فقيل له: لا تفعل؛ فقال: إنما محمد أذن، من حديثه شيئاً، صدقه؛ نقول ما شئنا، ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا، فنزلت هذه الآية؛ قاله محمد بن إسحاق^(١). والثالث: أن ناساً من المنافقين منهم جلاس بن سويد، ووديع بن ثابت، اجتمعوا، فأرادوا أن يقعوا في النبي ﷺ، وعندهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس، فحقروه، فتكلموا وقالوا: لئن كان ما يقوله محمد حقاً، لنحن شر من الحمير، فغضب الغلام، وقال: والله إن ما يقوله محمد حق، وإنكم لشر من الحمير؛ ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فدعاهم فسألهم، فحلفوا أن عامراً كاذب، وحلف عامر أنهم كذّبوا، وقال: اللهم لا تفرق بيننا حتى تبين صدق الصادق، وكذب الكاذب؛ فنزلت هذه الآية، ونزل قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَكُمُ﴾، قاله السدي^(٢). فأما الأذى فهو عيبه ونقل حديثه. ومعنى ﴿أَذُنٌ﴾ يقبل كل ما قيل له. قال ابن قتيبة: الأصل في هذا أن الأذن هي السامعة، فقيل لكل من صدق بكل خبر يسمعه: أذن. وجمهور القراء يقرؤون ﴿هُوَ أَذُنٌ قُلْ أَذُنٌ﴾ بالتثنية. وقرأ نافع ﴿هُوَ أَذُنٌ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ﴾ بإسكان الذال فيها. ومعنى ﴿أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: أذن خير، لا أذن شر؛ يسمع الخير فيعمل به، ولا يعمل بالشر إذا سمعه. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وابن يعمر، وابن أبي عتبة ﴿أَذُنٌ﴾ بالتثنية «خير» بالرفع. والمعنى: إن كان كما قلتم، يسمع منكم ويصدقكم، خير لكم من أن يكذبكم. قال أبو علي: يجوز أن تطلق الأذن على الجملة، كما قال الخليل: إنما سميت الناب من

(١) «الطبري» ٣٢٥/١٤، وأسباب النزول للواحدي ١٤٣، وأورده السيوطي في «الدرر» وزاد نسبة لابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) «أسباب النزول» للواحدي ١٤٣ عن السدي، وورأه «الطبري» ٣٢٩/١٤، ٣٣٠ عن قتادة سبباً لنزول الآية التي بعدها ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَكُمُ﴾، وأورده السيوطي كذلك في «الدرر» ٢٥٣/٣ عن قتادة من طريق ابن أبي حاتم، وابن المنذر، وعن السدي من طريق ابن أبي حاتم.

الإبل، لمكان الناب البازل، فسميت الجملة كلها به، فأجروا على الجملة اسم الجارحة لإرادتهم كثرة استعماله لها في الإصغاء بها. ثم بين ممن يقبل، فقال: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن قتيبة: الباء واللام زائدتان؛ والمعنى: يصدق الله ويصدق المؤمنين. وقال الزجاج: يسمع ما ينزله الله عليه، فيصدق به، ويصدق المؤمنين فيما يخبرونه به، و﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: وهو رحمة، لأنه كان سبب إيمان المؤمنين. وقرأ حمزة «ورحمة» بالخفض. قال أبو علي: المعنى: أذن خير ورحمة. والمعنى: مستمع خير ورحمة.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَكُمُ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَكُمُ﴾ قال ابن السائب: نزلت في جماعة من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك، فلما رجع النبي ﷺ، أتوا المؤمنين يعتذرون إليهم، ويحلفون ويعتلون. وقال مقاتل: منهم عبد الله بن أبي، حلف لا يتخلف عن رسول الله ﷺ، وليكوننَّ معه على عدوه. وقد ذكرنا في الآية التي قبلها أنهم حلفوا أنهم ما نطقوا بالعب. وحكى الزجاج عن بعض النحويين أنه قال: اللام في «ليرضوكم» بمعنى القسم، والمعنى: يحلفون بالله لكم لترضيتمكم. قال: وهذا خطأ، لأنهم إنما حلفوا أنهم ما قالوا ما حكي عنهم ليُرضوا باليمين، ولم يحلفوا أنهم يُرضون في المستقبل. قلت: وقول مقاتل يؤكد ما أنكره الزجاج، وقد مال إليه الأخفش.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: بالتوبة والإنابة. والثاني: بترك الطعن والعب. فإن قيل؛ لم قال: «يُرضوه» ولم يقل: «يرضوهم»؟ فقد شرحنا هذا عند قوله: ﴿وَلَا يُقْرِئُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

﴿أَلَمْ يَسْلَمُوا أَنْهُمْ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُمُ جَهَنَّمَ خَلِيداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَسْلَمُوا﴾ روى أبو زيد عن المفضل «الم تعلموا» بالشاء. : ﴿أَنْتُمْ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ﴾ فيه قولان: أحدهما: من يخالف الله، قاله ابن عباس. والثاني: من يعادي الله، كقولكم: من يجانب الله ورسوله، أي: يكون في حد، والله ورسوله في حد.

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لَهُمُ جَهَنَّمَ﴾ قرأ الجمهور: «فأن» بفتح الهمزة. وقرأ أبو رزين، وأبو عمران، وابن أبي عبيدة: بكسرهما. فمن كسر، فعلى الاستئناف بعد الفاء، كما تقول: فله نار جهنم. ودخلت «إن» مؤكدة. ومن قال: «فأن له» فإنما أعاد «أن» الأولى توكيداً؛ لأنه لما طال الكلام، كان إعادتها أؤكد.

﴿يَحْذَرُ الْكَافِرُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَغْفِرُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْكَافِرُونَ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن المنافقين كانوا يعيرون رسول الله ﷺ فيما بينهم، ويقولون: عسى الله أن لا يفيي سرنا، فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد. والثاني: أن بعض المنافقين قال: لوددت أني جلدت مائة جلدة، ولا ينزل فينا شيء يفضحنا، فنزلت هذه الآية، قاله السدي^(١). والثالث: أن جماعة من المنافقين وقفوا للنبي ﷺ في ليلة مظلمة عند مرجعه من تبوك ليفتكوا به، فأخبره جبريل ﷺ ونزلت هذه الآية، قاله ابن كيسان. وفي قوله: ﴿يَحْذَرُ الْكَافِرُونَ﴾ قولان: أحدهما: أنه إخبار من الله ﷻ عن حالهم، قاله الحسن، وقتادة، واختاره ابن القاسم. والثاني: أنه أمر من الله ﷻ لهم بالحلز، فتقديره: ليحلز المنافقون، قاله الزجاج. قال ابن الأنباري: والعرب ربما أخرجت الأمر على لفظ الخبر، فيقولون: يرحم الله المؤمن، ويعذب الكافر؛ يريدون: ليرحم وليعذب، فيسقطون اللام، ويُجرُونَه مجرى الخبر في الرفع، وهم لا ينون إلا الدعاء؛ والدعاء مضارع للأمر.

قوله تعالى: ﴿قُلِ اسْتَغْفِرُوا﴾ هذا وعيد خرج مخرج الأمر تهديداً. وفي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ وجهان: أحدهما: مظهر ما تُسرون. والثاني: ناصر من تخذلون، ذكرهما الماوردي.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ لا تَسْتَهْزِئُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَفْسَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُغْتَابُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ﴾ في سبب نزولها ستة أقوال: أحدها: أن جَدَّ بن قيس، ووديعه بن خدام، والجُهَيْر بن حُمَيْر، كانوا يسرون بين يدي رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك، فجعل رجلا من منهم يستهزأ برسول الله ﷺ، والثالث يضحك مما يقولان ولا يتكلم بشيء، فنزل جبريل فأخبره بما يستهزؤون، به ويضحكون؛ فقال لعنار بن ياسر: «أذهب فسلهم عما كانوا يضحكون منه، وقل لهم: أحرقكم الله» فلما سألهم، وقال: أحرقكم الله؛ علموا أنه قد نزل فيهم قرآن، فأقبلوا يعتذرون إلى رسول الله ﷺ، وقال الجُهَيْر: والله ما تكلمت بشيء، وإنما ضحكنا تعجباً من قولهم؛ فنزل قوله: ﴿لَا تَقُولُوا﴾ يعني جَدَّ بن قيس، ووديعه ﴿إِنْ نَفَعْنَا عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ يعني الجُهَيْر ﴿شَدَّ طَائِفَةٌ﴾ يعني الجَدَّ ووديعه، هذا قول أبي صالح عن ابن عباس. والثاني: أن رجلاً من المنافقين قال: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، ولا أرغب بطوناً، ولا أكذب، ولا أجبر عند اللقاء؛ يعني رسول الله ﷺ وأصحابه؛ فقال له عوف بن مالك: كذبت، لكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ؛ فذهب ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه؛ فجاء ذلك الرجل، فقال: يا رسول الله، إنا كنا نخوض ونلعب، هذا قول ابن عمر، وزيد بن أسلم، والقرظي. والثالث: أن قوماً من المنافقين كانوا يسرون مع رسول الله ﷺ، فقالوا: إن كان ما يقول هذا حقاً، لنحن شر من الحمير؛ فأعلم الله نبيه ما قالوا، ونزلت: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ﴾، قاله سعيد بن جبيرة. والرابع: أن رجلاً من المنافقين قال: يحدثنا محمد أن ناقة فلان بوادي كذا وكذا، وما يُدريه ما الغيب؟ فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد. الخامس: أن ناساً من المنافقين قالوا: يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها، هيهات؛ فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال نبي الله ﷺ: «احبسوا علي الركب»، فأنامهم، فقال: «قلتم كذا وكذا»، فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب؛ فنزلت هذه الآية، قاله قتادة^(١). والسادس: أن عبد الله بن أبي، ورهطاً معه، كانوا يقولون في رسول الله وأصحابه ما لا ينبغي، فإذا بلغ رسول الله ﷺ قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ لَهُمْ﴾ ﴿أَلَّا يَكْفُرُوا بِالْحَقِّ﴾ ﴿وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾، قاله الضحاك. فقوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ﴾ أي: عما كانوا فيه من الاستهزاء: ﴿يَقُولُ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي: نلهو بالحديث. وقوله: ﴿قَدْ كُنَّا كُذَّابًا﴾ أي: قد ظهر كفركم بعد إظهاركم الإيمان؛ وهذا يدل على أن الجَدَّ واللعب في إظهار كلمة الكفر سواء.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَعْزِ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ قرأ الأكثرون ﴿إِنْ يُعْزِ﴾ بالياء، «تُعَذِّبُ» بالتاء. وقرأ عاصم غير أبان ﴿إِنْ نَعْفُ﴾، «تُعَذِّبُ»، بالنون فيهما ونصب «طائفة»، والمعنى: إن نعف عن طائفة منكم بالتوفيق للتوبة، نعذب طائفة بترك التوبة. وقيل: الطائفتان هاهنا ثلاثة؛ فاستهزأ اثنان، وضحك واحد. ثم أنكر عليهم بعض ما سمع. وقد ذكرنا عن ابن عباس أسماء الثلاثة، وأن الضاحك اسمه الجُهَيْر، وقال غيره: هو مُحْشِي بن حُمَيْر. وقال ابن عباس ومجاهد: الطائفة: الواحد فما فوقه. وقال الزجاج: أصل الطائفة في اللغة: الجماعة؛ ويجوز أن يقال للواحد: طائفة، يراد به: نفس طائفة. قال ابن الأنباري: إذا أريد بالطائفة الواحد، كان أصلها طائفاً، على مثال: قائم وقاعد، فتدخل الهاء للمبالغة في الوصف، كما يقال: رواية، علامة، نشابة. قال عمر بن الخطاب ﷺ: ما فرغ من تنزيل (براءة) حتى ظننا أن لن يبقى منا أحد إلا سيزل فيه شيء.

﴿الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقَاتِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْحَسَنِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَحْتَمِلُونَ ثِقَلًا ثَقِيلًا مِنْ حِمْلٍ وَلَا يَخْفُفُ عَلَيْهِمْ ثِقَلُ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَيُسَلِّمُونَ عَلَى النَّاسِ وَهُمْ خَشَعَتِ الْأَذْيَانُ لِلْحِكْمِ وَهُمْ لَا يُفْتِنُ الْعَذَابُ أَلَيْسَ بِأُولَئِكَ الَّذِينَ تُحَدِّثُ الَّذِينَ كَانَ أَبْنَاءَ الْفِتْنَةِ وَكَانُوا شَرًّا أَكْثَرُ مِنْ خَيْرٍ أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ الَّذِينَ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠) وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ الْكَافِرَاتِ فَإِنَّ أَكْثَرَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ الْوَاسِعَةُ ﴿٧١﴾ كَذَلِكَ يَنْقُلُ اللَّهُ قُلُوبَ الَّذِينَ يَخْلَعُونَ عَلَى قُلُوبِهِمْ يَخْلَعُونَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَاسْتَنْتَعِمُوا بِحِلْيَتِهِمْ فَاسْتَنْتَعِمُوا بِحِلْيَتِهِمْ ﴿٧٢﴾ كَمَا اسْتَنْتَعِمَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَخُضُّوا كَذَلِكَ خَاسِرُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَثْمَانُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٧٣﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَثَمُودَ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكِينَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ يُعْظِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى: ﴿الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقَاتِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ قال ابن عباس: بعضهم على دين بعض. وقال مقاتل: بعضهم

(١) «الطبري» ٣٣٤/١٤، و«أسباب النزول» للواحدي ١٤٣ - ١٤٤، وذكره السيوطي في «الدر» ٣/٢٥٤ من رواية ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

أولياء بعض، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ وهو الكفر، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ وهو الإيمان. وفي قوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أربعة أقوال: أحدها: يقبضونها عن الإنفاق في سبيل الله، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد. والثاني: عن كل خير، قاله قتادة. والثالث: عن الجهاد في سبيل الله. والرابع: عن رفعها في الدعاء إلى الله تعالى، ذكرهما الماوردي.

قوله تعالى: ﴿سُئِلَ اللَّهُ فَصَبَّبَهُمْ﴾ قال الزجاج: تركوا أمره، فتركهم من رحمته وتوفيقه. قال: وقوله: ﴿وَهُوَ حَبِيبُهُمْ﴾ أي: هي كفاية ذنوبهم، كما تقول: عذبتك حسب فعلك، وحسب فلان ما نزل به، أي: ذلك على قدر فعله. وموضع الكاف في قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ نصب، أي: وعدكم الله على الكفر به كما وعد الذين من قبلكم. وقال غيره: رجع عن الخير عنهم إلى مخاطبتهم، وشبههم في العدول عن أمره بمن كان قبلهم من الأمم الماضية.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخُلُقِيِّهِمْ﴾ قال ابن عباس: استمتعوا بنصيبيهم من الآخرة في الدنيا. وقال الزجاج: بحظهم من الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ﴾ أي: في الطعن على الذين وتكذيب نبيكم كما خاضوا. ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْينُهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ لأنها لم تقبل منهم، وفي الآخرة، لأنهم لا يثابون عليها، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ بفوت الثواب وحصول العقاب.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ لِمُرْهَمٍ﴾ قال ابن عباس: يريد نمروذ بن كنعان ﴿وَأَصْحَابُ مَذْيَكٍ﴾ يعني قوم شعيب. ﴿وَالْمُؤَيَّدِينَ﴾ قرى لوط. قال الزجاج: وهم جمع مؤنثكة، انتفكت بهم الأرض، أي: انقلبت. قال: ويقال: إنهم جميع من أهلك، [كما] يقال للهلك: انقلبت عليه الدنيا.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ﴾ يعني هذه الأمم ﴿رُشْلُهُمْ بِالْيَمِينِ﴾ فكذبوا بها، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ قال ابن عباس: ليهلكهم حتى يبعث فيهم نبياً ينذرهم، والمعنى أنهم أهلكوا باستحقاقهم.

﴿وَالْمُؤَيَّدُونَ وَالْمُؤَيَّدَتُ بَشْتُمْ أَوْلِيَاءَ بَعْضُ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُرِيسُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَوْحُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَسَيَكُنْ عَلَيْهِمْ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤَيَّدُونَ وَالْمُؤَيَّدَتُ بَشْتُمْ أَوْلِيَاءَ بَعْضٍ﴾ أي: بعضهم يوالي بعضاً، فهم يد واحدة، يأمرون بالإيمان، وينهون عن الكفر.

قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ قال أبو عبيدة: في جنات عُدْن، يقال: عَدَنَ فلان بأرض كذا، أي: أقام؛ ومنه: المغدُون، وهو في مَعْدَنٍ صدق، أي: في أصل ثابت. قال الأعشى:

وإن تَسْتَضيفوا إلى جِلْمِهِ
تُضافوا إلى راجح قد عَدَنُ^(١)

أي: رزين لا يُستخف. قال ابن عباس: جنات عدن، هي بُطنان الجنة، وبُطنانها: وسطها، وهي أعلى درجة في الجنة، وهي دار الرحمن ﴿عَدْنٌ﴾ وسقفها عرشه، خلقها بيده، وفيها عين التسنيم، والجنات حولها محدقة بها.

قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال ابن عباس: أكبر مما يوصف. وقال الزجاج: أكبر مما هم فيه من النعيم. فإن قيل: لم كان الرضوان أكبر من النعيم؟ فنه جوابان: أحدهما: أن سرور القلب برضى الرب نعيم يختص بالقلب، وذاك أكبر من نعيم الأكل والشرب. وفي حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «يقول الله ﷻ لأهل الجنة: يا أهل الجنة، هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا وما لنا لا نرضى، وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أفلا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم أبداً»^(٢).

والثاني: أن الموجب للنعيم الرضوان، والموجب ثمرة الموجب، فهو الأصل.

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ جِهَدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَقْ عَلَيْهِمْ وَأْمُرْهُمْ بِجَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

(١) «ديوانه» ١٧، و«مجاز القرآن» ١/ ٢٦٤، و«الطبري» ١٤/ ٣٥٠، و«اللسان»: وزن. واستضاف إليه: لجأ إليه عند الحاجة.

(٢) رواد البخاري في «صحيحه» ١١/ ٣٦٣ - ٣٦٤، و«مسلم» ٤/ ٢١٧٦.

قوله تعالى: ﴿جَهَادِ الْكَفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أما جهاد الكفار، فبالسيف. وفي جهاد المنافقين قولان: أحدهما: أنه باللسان، قاله ابن عباس، والحسن، والضحاك، والربيع بن أنس. والثاني: جهادهم بإقامة الحدود عليهم، روي عن الحسن، وقتادة. فإن قيل: إذا كان رسول الله ﷺ قد أمر بجهادهم وهو يعلم أعيانهم، فكيف تركهم بين أظهر أصحابه فلم يقتلهم؟ فالجواب: أنه إنما أمر بقتال من أظهر كلمة الكفر وأقام عليها، فأما من إذا أطلع على كفره، أنكر وحلف وقال: إني مسلم، فإنه أمر أن يأخذه بظاهر أمره، ولا يبحث عن سره.

قوله تعالى: ﴿وَأَغْلَطَ عَلَيْهِمْ﴾ قال ابن عباس: يريد شدة الانتهاز لهم، والنظر بالبغضة والمقت. وفي الهاء والميم من «عليهم» قولان: أحدهما: أنه يرجع إلى الفريقين، قاله ابن عباس. والثاني: إلى المنافقين، قاله مقاتل.

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَتْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا بِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ يَتُوبُوا يَكُونُوا بَعْدَ ذَلِكَ أَعْيُنًا لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا كُنْ فِي الْأَرْزَاقِ مِنْ زَكَاةٍ وَلَا نُصِيرُ ۝٧٤﴾

قوله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن رسول الله ﷺ ذكر المنافقين فعابهم؛ فقال الجلاس بن سويد: إن كان ما يقول على إخواننا حقاً، لنحن شر من الحمير. فقال عامر بن قيس: والله إنه لصق، ولأنتم شر من الحمير؛ وأخبر رسول الله ﷺ بذلك، فأتى الجلاس فقال: ما قلت شيئاً، فحلفا عند المنبر، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وذهب إلى نحوه الحسن، ومجاهد، وابن سيرين. والثاني: أن عبد الله بن أبي قال: والله لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجن الأعرض منها الأذل، فسمعه رجل من المسلمين، فأخبر رسول الله ﷺ، فأرسل إليه، فجعل يحلف بالله ما قال، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة. والثالث: أن المنافقين كانوا إذا خَلَوْا، سبوا رسول الله ﷺ وأصحابه، وطعنوا في الدين؛ فنقل حذيفة إلى رسول الله ﷺ بعض ذلك، فحلفوا ما قالوا شيئاً، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك. فأما كلمة الكفر، فهي سبهم رسول الله ﷺ، وطعنهم في الدين. وفي سبب قوله: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في ابن أبي حين قال: لئن رجعنا إلى المدينة، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال قتادة. والثاني: أنها نزلت فيهم حين هموا بقتل رسول الله ﷺ، رواه مجاهد عن ابن عباس، قال: والذي هم رجل يقال له: الأسود. وقال مقاتل: هم خمسة عشر رجلاً، هموا بقتله ليلة العقبة. والثالث: أنه لما قال بعض المنافقين: إن كان ما يقول محمد حقاً، فنحن شر من الحمير؛ وقال له رجل من المؤمنين: لأنتم شر من الحمير، هم المنافق بقتله؛ فذلك قوله: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾، هذا قول مجاهد. والرابع: أنهم قالوا في غزوة تبوك: إذا قدمنا المدينة، عقدنا على رأس عبد الله بن أبي تاجاً نباهي به رسول الله ﷺ؛ فلم ينالوا ما هموا به.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ﴾ قال ابن قتيبة: أي: ليس ينقمون شيئاً، ولا يتعرفون من الله إلا الصنع، ومثله قول الشاعر:

مَا نَقَمَ النَّاسُ مِنْ أَمِيَّةٍ إِلَّا
وَأَنَّهُمْ سَادَةُ الْمُؤَلُّوكِ وَلَا

وهذا ليس مما يُنْقَم، وإنما أراد، أن الناس لا ينقمون عليهم شيئاً، وكقول النابغة:

وَلَا غَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ
بِهِنَّ فَلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ^(١)

أي: ليس فيهم عيب. قال ابن عباس: كانوا قبل قدوم النبي ﷺ المدينة في ضنك من معاشهم، فلما قدم عليهم غنموا، وصارت لهم الأموال. فعلى هذا، يكون الكلام عاماً. وقال قتادة: هذا في عبد الله بن أبي. وقال عروة: هو

(١) البيهقي لمجد ابن قيس الرقيات «ديوانه» ٤، و«الكامل» ٦٤٨، و«طبقات فحول الشعراء» ٥٣٣، و«مجاز القرآن» ١/١٧٠، و«الأغاني» ٤/١٦٠، و«غريب القرآن» ١٩٠، و«السمط» ٢٩٥، و«شواهد المغني» ٢١١، و«الخزانة» ٣/٢٦٨.

(٢) «ديوانه» ١١، و«مختار الشعر الجاهلي» ١٦١، و«العمدة» ٢/٤٥، و«الصناعتين» ٤٠٨.

الجلال بن سويد، قُتل له مولى، فأمر له رسول الله ﷺ بديته، فاستغنى؛ فلما نزلت ﴿إِنْ يَتُوبَا بِكَ خَيْرًا مِمَّا كَفَرَا﴾ قال الجلاس: أنا أتوب إلى الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتُوبَا﴾ أي: يعرضوا عن الإيمان. قال ابن عباس: كما تولى عبد الله بن أبي، ﴿يَعِزُّهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل، وفي الآخرة بالنار.

﴿وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَاهُم مِّن فَضْلِهِ لَيَصَّدَّقَنَّ وَلَيَكُونُنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥)

قوله تعالى: ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري، أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال: «ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تطبيق» قال: ثم قال مرة أخرى، فقال: «أما ترضى أن تكون مثل نبي الله؟ فوالذي نفسي بيده، لو شئت أن تسير معي الجبال ذهباً وفضة، لسارت» فقال: والذي بعثك بالحق، لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً، لأوتيت كل ذي حق حقه. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً فاتخذ غنماً، فتمت، فضاقت عليه المدينة، ففتنحى عنها، ونزل وادياً من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة، ويترك ما سواههما. ثم نمت، حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، ثم نمت، فترك الجمعة. فسأل عنه رسول الله ﷺ، فأخبر خبره، فقال: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة!» وأنزل الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ٢٩]، وأنزل فرائض الصدقة؛ فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة، وكتب لهما كتاباً يأخذان الصدقة، وقال: «مرا بثعلبة، وبفلان» رجل من بني سليم، فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذا إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، ما أدري ما هذا، انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إلي. فانطلقا؛ فأخبر السلمي، فاستقبلهما بخيار ماله، فقالا: لا يجب هذا عليك؛ فقال: خذاه، فلن نفسي بذلك طيبة؛ فأخذاه منه. فلما فرغا من صدقتهما، مرا بثعلبة فقال: أروني كتابكما، فقال: ما هذه إلا أخت الجزية، انطلقا حتى أرى رأيي، فانطلقا، فأخبرا رسول الله ﷺ بما كان، فنزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾، وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة، فخرج إلى ثعلبة، فأخبره؛ فأتى رسول الله، وسأله أن يقبل منه صدقته، فقال: «إن الله قد منعني أن أقبل منك صدقتك؛ فجعل يحشو التراب على رأسه. فقال: «هذا عملك، قد أمرتك فلم تطعني». فرجع إلى منزله. وقُبض رسول الله، ولم يقبل منه شيئاً، فلما ولي أبو بكر، سأله أن يقبل منه، فأبى. فلما ولي عمر، سأله أن يقبل منه، فأبى. فلما ولي عثمان، سأله أن يقبلها؛ فقال: لم يقبلها رسول الله ولا أبو بكر ولا عمر، فلم يقبلها؛ وهلك ثعلبة في خلافة عثمان ؓ. روى هذا الحديث القاسم عن أبي أمامة الباهلي^(١).

قال ابن عباس: مر ثعلبة على مجلس، فاشهدهم على نفسه: لئن آتاني الله من فضله، آتيت كل ذي حق حقه، وفعلت كذا وكذا. فأتاه الله من فضله، فأخلف ما وعد؛ فقص الله علينا شأنه. والثاني: أن رجلاً من بني عمرو بن عوف، كان له مال بالشام، فأبطأ عنه، فجهد له جهداً شديداً، فحلف بالله لئن آتانا من فضله، أي: من ذلك المال، لأصدقن منه، ولأصلحن، فأتاه ذلك المال، فلم يفعل، فنزلت هذه الآية، قاله ابن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس. قال ابن السائب: والرجل حاطب بن أبي بلتعة. والثالث: أن ثعلبة، ومُعْتَبَ بْنَ قُشَيْرٍ، خرجا على ملا، فقالا: والله لئن رزقنا الله لنصدقن. فلما رزقهما، بخلا به، فنزلت هذه الآية، قاله الحسن، ومجاهد. والرابع: أن نبتل بن الحارث، وجَدَّ بْنَ قَيْسٍ، وثعلبة بن حاطب، ومُعْتَبَ بْنَ قُشَيْرٍ، قالوا: لئن آتانا الله من فضله لنصدقن. فلما آتاهم من فضله بخلوا به، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك. فاما التفسير، فقول: ﴿وَمَنْهُمْ﴾ يعني المنافقين ﴿مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ أي: قال: علي عهد الله ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ الأصل: لتصدقن، فأدغمت التاء في الصاد لقرئها منها. ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: لنعملن ما يعمل أهل الصلاح في أموالهم من صلة الرحم والإنفاق في الخير. وقد روى كُثَيْبُ بْنُ مَعْبُدٍ بن ثابت أنه قال: إنما هو شيء نَوَّه في أنفسهم ولم يتكلموا به؛ ألم تسمع إلى قوله: ﴿أَلَمْ يَكُونُوا أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ؟﴾

(١) «الطبري» ٣٧١/١٤ - ٣٧٢ وخروجه الهيثمي في «المجمع» ٣١/٧ - ٣٢ وقال: رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الألهماني وهو متروك. وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج أحاديث الكشاف»: رواه الطبراني، والبيهقي في «الدلائل» والشعب، وابن أبي حاتم، والطبري، وابن مرفوعه، كلهم من طريق علي بن يزيد الألهماني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة، وقال: وهذا إسناد ضعيف جداً.

﴿فَلَمَّا أَتَيْنَهُمْ مِنْ فَضْلِهِمْ جَحَلُوا يَدَهُمْ وَنَوَلَوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٧٦)

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَهُمْ مِنْ فَضْلِهِمْ﴾ أي: ما طلبوا من المال: ﴿جَحَلُوا يَدَهُمْ﴾ ولم يفوا بما عاهدوا ﴿وَنَوَلَوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن عهدهم.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِنَّ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٧٧) أَوْ يَكُونُوا أَنْتَ اللَّهُ يَسْأَلُكُمْ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنْتَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْمُجِيبُ﴾ (٧٨)

قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ أي: صيّر عاقبة أمرهم النفاق. وفي الضمير في «أعقبهم» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله، فالمعنى: جازاهم الله بالنفاق، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد. والثاني: أنها ترجع إلى البخل، فالمعنى: أعقبهم بخُلُهم بما نذروا نفاقاً، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَسْأَلُوا﴾ يعني المنافقين: ﴿أَنْتَ اللَّهُ يَسْأَلُكُمْ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ حديثهم بينهم.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٩)

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنه لما نزلت آية الصدقة جاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لَغَفِيٌّ عن صاع هذا، فنزلت هذه الآية^(١)، قاله أبو مسعود^(٢). والثاني: أن عبد الرحمن بن عوف جاء بأربعين أوقية من ذهب، وجاء رجل من الأنصار بصاع من طعام، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع، قاله ابن عباس^(٣). وفي هذا الأنصاري قولان: أحدهما: أنه أبو خيثمة، قاله كعب بن مالك. والثاني: أنه أبو عقيل. وفي اسم أبي عقيل ثلاثة أقوال: أحدها: عبد الرحمن بن بِيحَان، رواه أبو صالح عن ابن عباس؛ ويقال: ابن بِيحَان؛ ويقال: سِيحَان^(٤). وقال مقاتل: هو أبو عقيل بن قيس. والثاني: أن اسمه الجُبَاب، قاله قتادة. والثالث: الجُبَاب. قال قتادة: جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف، وجاء عاصم بن عدي بن العجلان بمائة وَسَق من تمر. و ﴿يَلْمِزُونَ﴾ يعني يعيبون. و ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ أي: المتطوعين، قال الفراء: أدغمت التاء في الطاء، فصارت طاءً مشددة. والجهد لغة أهل الحجاز، ولغة غيرهم الجهد. قال أبو عبيدة: الجهد، بالفتح والضم سواء، ومجازه: طاقتهم. وقال ابن قتيبة: الجهد: الطاقة؛ والجهد: المشقة. قال المفسرون: غني بالمطوعين عبد الرحمن، وعاصم، وبالذين لا يجدون إلا جهدهم: أبو عقيل. وقوله: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي: جازاهم على فعلهم، وقد سبق هذا المعنى.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠)

قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ سبب نزولها: أنه لما نزل وعيد اللامزين قالوا: يا رسول الله استغفر لنا، فنزلت هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «سوف استغفر لهم أكثر من سبعين، لعل الله يغفر لهم»؛ فنزل قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٤٦]، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وظاهر قوله: «استغفر لهم» الأمر، وليس كذلك؛ إنما المعنى: إن استغفرت، وإن لم تستغفر، لا يُغْفَرُ لهم، فهو كقوله: ﴿أَتَيْقُظُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [التوبة: ٥٣]، وقد سبق شرح هذا المعنى هناك، هذا قول المحققين. وذهب قوم إلى أن ظاهر اللفظ يعطي أنه إن زاد على

(١) «الطبري» ٣٨٨/١٤، و«بخاري» ٢٢٤/٣، و«أ/٢٤٩»، و«مسلم» ١٠٥/٧، وأسباب النزول: للواحدي ١٤٦، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٦٢/٣ وزاد نسبة لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، وأبي نعيم في «المعرفة».

(٢) في الأصل: ابن مسعود، وكذا جاء في «الدر» وهو خطأ، والتصويب من المراجع التي ذكرت في التعليق السابق، وأبو مسعود: هو أبو مسعود الأنصاري البصري، واسمه عقبة بن عمرو بن ثعلبة، صاحب رسول الله ﷺ شهد العقبة.

(٣) «الطبري» ٣٨٢/١٤، وأورده السيوطي في «الدر» وزاد نسبة لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٤) انظر فتح الباري ٢٤٩/٨، فقد استوفى الحافظ ابن حجر الكلام على أبي عقيل هنا.

السبعين، رجي لهم الغفران. ثم نسخت بقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾. فإن قيل: كيف جاز أن يستغفر لهم، وقد أخبر بأنهم كفروا؟ فالجواب: أنه إنما استغفر لقوم منهم على ظاهر إسلامهم من غير أن يتحقق خروجهم عن الإسلام، ولا يجوز أن يقال: علم كفرهم ثم استغفر. فإن قيل: ما معنى حصر العدد بسبعين؟ فالجواب: أن العرب تستكثر في الأحاد من سبعة، وفي العشرات من سبعين.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٨١﴾

قوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ﴾ يعني المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. والمخلف: المتروك خلف من مضى. «بمقعدهم» أي: بعودهم. وفي قوله: ﴿خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: أن معناه: بعد رسول الله ﷺ، قاله أبو عبيدة. والثاني: أن معناه: مخالفة رسول الله ﷺ، وهو منصوب، لأنه مفعول له، فالمعنى: بأن قعدوا لمخالفة رسول الله ﷺ، قاله الزجاج. وقرأ ابن مسعود، وابن عمر، والأعمش، وابن أبي عبلة: «خَلَفَ رسول الله»، ومعناها: أنهم تأخروا عن الجهاد. وفي قوله: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ﴾ قولان: أحدهما: أنه قول بعضهم لبعض، قاله ابن إسحاق، ومقاتل. والثاني: أنهم قالوه للمؤمنين، ذكره الماوردي. وإنما قالوا هذا، لأن الزمان كان حينئذٍ شديد الحر. ﴿ثُلَّ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ لمن خالف أمر الله. وقوله: ﴿يَفْقَهُونَ﴾ معناه: يعلمون. قال ابن فارس: الفقه: العلم بالشيء. تقول: فقهت الحديث أفقهه؛ وكل علم بشيء: فقه. ثم اختص به علم الشريعة، فقيل لكل عالم بها: فقيه. قال المصنف: وقال شيخنا علي بن عبيد الله: الفقه في إطلاق اللغة: الفهم، وفي عرف الشريعة: عبارة عن معرفة الأحكام الشرعية المتعلقة بأفعال المكلفين، بنحو التحليل، والتحريم، والإيجاب، والإجزاء، والصحة، والفساد، والغرم، والضمان، وغير ذلك. وبعضهم يختار أن يقال: الفقه: فهم الشيء. وبعضهم يختار أن يقال: علم الشيء.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ لفظه لفظ الأمر، ومعناه التهديد. وفي قلة ضحكهم وجهان: أحدهما: أن الضحك في الدنيا، لكثرة حزنها وهمومها، قليل، وضحكهم فيها أقل، لما يتوجه إليهم من الوعيد. والثاني: أنهم إنما يضحكون في الدنيا، ويقاؤها قليل. ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ في الآخرة. قال أبو موسى الأشعري: إن أهل النار ليكون الدموع في النار، حتى لو أجريت السفن في دموعهم لجرت، ثم إنهم ليكون الدم بعد الدموع، فلمثل ما هم فيه فليبكي.

قوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من النفاق والمعاصي.

﴿إِن رَّجِمَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْرَكَ لآخرُج فقل لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقْبِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِن رَّجِمَكَ اللَّهُ﴾ أي: ردك من غزوة تبوك إلى المدينة ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ من المنافقين الذين تخلفوا بغير عذر. وإنما قال: ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ لأنه ليس كل من تخلف عن تبوك كان منافقاً. ﴿فَاسْتَدْرَكَ لآخرُج﴾ معك إلى الغزو، ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا إِلَى غَزَاةٍ﴾، ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ﴾ عني ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حين لم تخرجوا إلى تبوك. وذكر الماوردي في قوله: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قولين: أحدهما: أول مرة دُعيتهم. والثاني: قبل استئذانكم. فأما الخالفون، فقال أبو عبيدة: الخالف: الذين خلف بعد شاخص، فقعده في رحله، وهو الذي يتخلف عن القوم. وفي المراد بالخالفين قولان: أحدهما: أنهم الرجال الذين تخلفوا لأعذار، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم النساء والصبيان، قاله الحسن، وقناة.

﴿وَلَا ضَلَّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَمَسُّ عَلَى قُبُورِهِمْ إِتْمَمَ كَثَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَتَيَوتُ﴾ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا ضَلَّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ سبب نزولها: أنه لما توفي عبد الله بن أبي، جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ، فقال: أعطني قميصك حتى أكفنه فيه، وصل عليه، واستغفر له. فأعطاه قميصه؛ فقال: أَدْنِي أصلي عليه، فأذنه؛ فلما

أراد أن يصلي عليه، جذبه عمر بن الخطاب، وقال: أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين؟ فقال: «أنا بين خيرتين: «اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ» [التوبة: ٨١] فصلى عليه، فنزلت هذه الآية^(١)، رواه نافع عن ابن عمر. قال قتادة: «ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «ما يغني عنه قميصي من عذاب الله تعالى، والله إني لأرجو أن يُسَلِّمَ به ألف من قومه»^(٢). قال الزجاج: فيروى أنه أسلم ألف من الخزرج لما رآه يطلب الاستشفاء بثوب رسول الله ﷺ، وأراد الصلاة عليه. فأما قوله: «منهم» فإنه يعني المنافقين. وقوله: «وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ» قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ، إذا دُفِن الميت، وقف على قبره ودعا له^(٣)؛ فنهى عن ذلك في حق المنافقين. وقال ابن جرير: معناه لا تتولّد دفنه؛ وهو من قولك: قام فلان بأمر فلان؛ وقد تقدم تفسيره.

﴿وَلَا تُجِيبُوا دُعَاءَ الْكُافِرِينَ وَلَا تَجِبُوا لَهُمْ يَدْعُواكُمْ إِلَى الدِّينِ وَقَدْ كَفَرُوا وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ﴾ [٨٥] وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ الْأَنْعَامِ بِاللَّهِ وَجْهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُو الطَّلَاقِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَحْنُ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ رَسُوا أَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَحَّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَيْكِنَ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى: «وَلَا تُجِيبُوا دُعَاءَ الْكُافِرِينَ» سبق تفسيره [التوبة: ٥٥].

قوله تعالى: «وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ» هذا عام في كل سورة. وقال مقاتل: المراد بها سورة (براءة).

قوله تعالى: «أَنْ أَمِينًا» أي: بأن آمنوا. وفيه ثلاثة أوجه: أحدها: استديموا الإيمان. والثاني: افعلوا فعل من آمن. والثالث: آمنوا بقلوبكم كما أمتمم بالستكم، فعلى هذا يكون الخطاب للمنافقين.

قوله تعالى: «اسْتَأْذِنَكَ» أي: في التخلف «أُولُو الطَّلَاقِ» يعني الغنى، وهم الذين لا عذر لهم في التخلف. وفي «الخوالف» قولان: أحدهما: أنهم النساء، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وشمر بن عطية، وابن زيد، والفراء. وقال أبو عبيدة: يجوز أن تكون الخوالف هاهنا النساء، ولا يكادون يجمعون الرجال على تقدير فواعل، غير أنهم قد قالوا: فارس، والجميع: فوارس، وهالك [في قوم] هوالك. قال ابن الأنباري: الخوالف لا يقع إلا على النساء، إذ العرب تجمع فاعلة: فواعل؛ فيقولون: ضاربة، وضارب، وشاتمة، وشواتم؛ ولا يجمعون فاعلاً: فواعل، إلا في حرفين: فوارس، وهوالك؛ فيجوز أن يكون مع الخوالف: المتخلفات في المنازل. ويجوز أن يكون: مع المخالفات العاصيات. ويجوز أن يكون: مع النساء المعجزة اللاتي لا مدافعة عندهن. والقول الثاني: أن الخوالف: خساس الناس وأدنياؤهم؛ يقال: فلان خالفة أهله: إذا كان دونهم، ذكره ابن قتيبة؛ فأما «طَلَعَ»، فقال أبو عبيدة: معناه: ختم. و«الخيرات» جمع خيرة. وللمفسرين في المراد بالخيرات ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الفاضلات من كل شيء، قاله أبو عبيدة. والثاني: الجواري الفاضلات، قاله الميرد. والثالث: غنائم الدنيا ومنافع الجهاد، ذكره الماوردي.

﴿وَبِأَنفُسِهِمْ يَفْتَدُونَ مِنْ الْأَشْرَارِ يُدْعُونَ لَهُمْ وَقَدْ دَلَّ عَلَى الْإِيمَانِ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٩٠]

قوله تعالى: «وَبِأَنفُسِهِمْ يَفْتَدُونَ» وقرأ ابن مسعود: «المعتذرون». وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن يعمر، ويعقوب «المُعْذِرُونَ» بسكون العين وتخفيف الذال. وقرأ ابن السميع «المعاذرون» بالفتح. قال أبو عبيدة: المعتذرون من يعتذر وليس بجاذ، وإنما يعرض بما لا يفعله، أو يظهر غير ما في نفسه. وقال ابن قتيبة: يقال: عذرت في الأمر: إذا قصرت، وأعذرت: جددت. وقال الزجاج: من قرأ «المُعْذِرُونَ» بتشديد الذال، فتأويله: المعتذرون الذين يعتذرون، كان لهم عذر، أو لم يكن، وهو هاهنا أشبه بأن يكون لهم عذر، وأنشدوا:

(١) «الطبري» ٤٠٦/١٤، و«البخاري» ١١٠/٣، و٢٥١/٨ - ٢٥٥، و«مسلم» ٢٢١/١٧، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٦٦/٣، وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل».

(٢) «الطبري» ٤١٠/١٤، و«السيوطي» في «الدر» ٢٦٦/٢.

(٣) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا لأعيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل» رواه أبو داود رقم (٣٢٢١) وهو حديث صحيح، وفيه دلالة على مشروعية الاستغفار للميت عند الفراغ من دفنه، وسؤال التثبيت له، أي: أن يشهد الله في الجواب، وفيه دلالة على سؤال القبر، وقد ورد في ذلك أحاديث صحيحة كثيرة.

إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ انْهَمُ السَّلَامُ عَلَيْكُمَا
 أي: فقد جاء بعذر. ويجوز أن يكون «المعذرون» الذين يعذرون، يوهمون أن لهم عذراً، ولا عذر لهم. ويجوز
 في النحو: المعذرون؛ بكسر العين، والمُعذرون؛ بضم العين، غير أنه لم يُقرأ بهما، لأن اللفظ بهما يثقل. ومن قرأ
 «المعذرون» بتسكين العين، فتأويله: الذين أعذروا وجاؤوا بعذر. وقال ابن الأنباري: المعذرون هاهنا: المعتذرون
 بالعذر الصحيح. وأصل الكلمة عند أهل النحو: المعتذرون، فحوّلت فتحة التاء إلى العين، وأبدلت الذال من التاء،
 وأدغمت في الذال التي بعدها، فصارتا ذالاً مشددة. ويقال في كلام العرب: اعتذر: إذا جاء بعذر صحيح، وإذا لم
 يأت بعذر. قال الله تعالى: ﴿ثَلَّ لَا تَعْتَذِرُوا﴾ فدل على فساد العذر، وقال لبيد:

وَمَنْ يَبْكُ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اغْتَذَرَ

أي: فقد جاء بعذر صحيح. وكان ابن عباس يقرأ «المعذرون» ويقول: لعن الله المعذرين. يريد: لعن الله
 المقصّرين من المنافقين وغيرهم. والمعذرون: الذين يأتون بالعذر الصحيح؛ فبان من هذا الكلام أن لهم عذراً على
 قراءة من خفف. وهل يثبت لهم عذر على قراءة من شدد؟ فيه قولان. قال المفسرون: جاء هؤلاء ليؤذّن لهم في
 التخلف عن تبوك، فأذن لهم رسول الله ﷺ، وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر وإظهار علّة، جرأة على الله تعالى.

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُثُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ
 مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَلَّوْا لِتَحِيلَتِهِمْ قُلْتُ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَتُهُمْ تَفِيضُ
 مِنَ الدَّنِيِّ حَرْجًا أَلَّا يَحْدُثُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَقْبِلُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ
 وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في عائذ بن عمرو وغيره
 من أهل العذر، قاله قتادة. والثاني: في ابن [أم] مكتوم، قاله الضحاك. وفي المراد بالضعفاء ثلاثة أقوال: أحدها:
 أنهم الزمنى والمشايخ الكبار، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أنهم الصغار. والثالث: المجانين؛ سماوا ضعافاً
 لضعف عقولهم، ذكر القولين الماوردي. والصحيح أنهم الذين يضعفون لزمانة، أو عَمَى، أو سِنٌّ، أو ضعف في
 الجسم. والمرضى: الذين بهم ألال مائة من الخروج للقتال، و ﴿الَّذِينَ لَا يَحْدُثُونَ﴾ هم المُقِلُّون، والحرَج: الضيق
 في القعود عن الغزو بشرط النصح لله ولرسوله، وفيه وجهان: أحدهما: أن المعنى: إذا برثوا من النفاق. والثاني: إذا
 قاموا بحفظ الذراري والمنازل. فإن قيل بالوجه الأول، فهو يعم جميع المذكورين. وإن قيل بالثاني، فهو يخص
 المقلّين. وإنما شرط النصح، لأن من تخلف بقصد السعي بالفساد، فهو مذموم؛ ومن النصح لله: حث المسلمين على
 الجهاد، والسعي في إصلاح ذات بينهم، وسائر ما يعود باستقامة الدين.

قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: من طريق بالعقوبة، لأن المحسن قد سد بإحسانه باب العقاب.
 قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَلَّوْا لِتَحِيلَتِهِمْ﴾ نزلت في البكائين، واختلف في عددهم وأسمائهم؛ فروى
 أبو صالح عن ابن عباس قال: من ستة: عبد الله بن معقل، وصخر بن سلمان، وعبد الله بن كعب الأنصاري، وعُليّة بن
 زيد الأنصاري، وسالم بن عُمر، وعلبة بن عتبة^(٢)، أتوا رسول الله ﷺ ليحملهم، فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه»
 فانصرفوا باكين^(٣). وقد ذكر محمد بن سعد كاتب الواقدي مكان صخر بن سلمان: سلمة بن صخر، ومكان ثعلبة بن
 عتبة: عمرو بن عتبة. قال: وقيل منهم معقل بن يسار. وروى أبو إسحاق عن أشياخ له أن البكائين سبعة من
 الأنصار: سالم بن عُمر، وعُليّة بن زيد، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، وعمرو بن الثمام بن الجموح، وعبد الله بن

(١) البيت للبيد: «ديوانه» ٢١٤، و«مجاز القرآن» ١٦/١، و«الطبري» ١١٩/١، و«الأغاني» ٩٨/١٤، و«مشكل القرآن» ١٩٨، و«رسالة الفهران» ٤٢٩،
 و«المقد الفريد» ٤٩/١، و«الغزاة» ٢١٧/٢، و«اللسان» عذر. وقوله اعتر هنا، بمعنى أعتر أي: بلغ أقصى الغاية في العذر.

(٢) ضبطه الحافظ في «الإصابة» بالعين المهملة، كما في الأصل، وفي «الطبري» بالغين المعجمة.

(٣) «سيرة ابن هشام» ٥١٨/٢، بنحوه، والسيوطي في «الدر» ٢٦٧/٢.

مغفل. وبعض الناس يقول: بل، عبد الله بن عمرو المزني، وعرباض بن سارية، وهرمي بن عبد الله أخو بني واقف. وقال مجاهد: نزلت في بني مقرن، وهم سبعة؛ وقد ذكرهم محمد بن سعد، فقال: النعمان بن عمرو بن مقرن. وقال أبو خيثمة: هو النعمان بن مقرن، وسويد بن مقرن، ومعل بن مقرن، وسان بن مقرن، وعقيل بن مقرن، وعبد الرحمن بن مقرن، وعبد الرحمن بن عقيل بن مقرن. وقال الحسن البصري: نزلت في أبي موسى وأصحابه. وفي الذي طلبوا من رسول الله ﷺ أن يحملهم عليه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الدواب، قاله ابن عباس. والثاني: الزاد، قاله أنس بن مالك. والثالث: النعال، قاله الحسن.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ لَكُمْ أَلْخَبَارَكُمْ وَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابِ الْعَذَابِ وَالشَّهَادَةُ فَبَيِّنْهُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ قال ابن عباس: نزلت في المنافقين، يعتذرون إليكم إذا رجعتكم من غزوة تبوك، فلا تعذروهم فليس لهم عذر. فلما رجع رسول الله ﷺ أتوه يعتذرون، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا﴾ لن نصدقكم، قد أخبرنا الله أنه ليس لكم عذر ﴿وَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ إن عملتم خيراً وتبتن من تخلفكم ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ بعد الموت ﴿إِلَىٰ عَذَابِ الْعَذَابِ وَالشَّهَادَةُ﴾ فيخبركم بما كنتم تعملون في السر والعلانية.

﴿سَيَلْبَثُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَأَوْرَثَهُمْ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَلْبَثُونَ بِاللهِ لَكُمْ﴾ قال مقاتل: حلف منهم بضعة وثمانون رجلاً، منهم جَدَّ بن قيس، ومُعْتَب بن قشير.

قوله تعالى: ﴿لِتَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: لتصفحوا عن ذنبهم. والثاني: لأجل إعراضكم. وقد شرحنا في [المائدة: ٩٠] معنى الرجس.

﴿يَلْبَثُونَ لَكُمْ لِرَضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْفَٰكِرِ الْفٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَلْبَثُونَ لَكُمْ لِرَضَوْا عَنْهُمْ﴾ قال مقاتل: حلف عبد الله بن أبي للنبي ﷺ: لا أتخلف عنكم، ولا كونت معك على عدوك؛ وطلب منه أن يرضى عنه، وحلف عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعمر بن الخطاب، وجعلوا يترضون النبي ﷺ وأصحابه، وكان رسول الله ﷺ قال لما قدم المدينة: «لا تجالسوهم ولا تكلموهم»^(١).

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَبَغَاءً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَمْلِكُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا﴾ قال ابن عباس: نزلت في أعراب أسد وغطفان وأعراب من حول المدينة، أخبر الله أن كفرهم ونفاقهم أشد من كفر أهل المدينة، لأنهم أقسى وأجفى من أهل الحضر.

قوله تعالى: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَمْلِكُوا﴾ قال الزجاج: «أن» في موضع نصب، لأن الباء محذوفة من «أن»، المعنى: أجدر بترك العلم. تقول: جدير أن تفعل، وجدير بأن تفعل، كما تقول: أنت خليف بأن تفعل، أي: هذا الفعل ميسر فيك، فإذا حذفت الباء لم يصلح إلا بـ «أن»، وإن أنيت بالباء، صلح بـ «أن» وغيرها، فنقول: أنت جدير بأن تقوم، وجدير بالقيام. فإذا قلت: أنت جدير القيام، كان خطأ، وإنما صلح مع «أن» لأن «أن» تدل على الاستقبال، فكانها عوض من المحذوف. فأما قوله: ﴿حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ فيعني به الحلال والحرام والفرائض. وقيل: المراد بالآية أن الأعم في العرب هذا.

﴿وَرَيْنَ الْأَعْرَابَ مَنْ يَشْجِدُ مَا يُبْقِي مَعْرَكًا وَيَكْرَهُ يَكُ الدَّائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَيْنَ الْأَعْرَابَ مَنْ يَشْجِدُ مَا يُبْقِي﴾ إذا خرج في الغزو، وقيل: ما يدفعه من الصدقة ﴿مَعْرَكًا﴾ لأنه لا يرجو له ثواباً. قال ابن قتيبة: المغرم: هو الغرم والخسر. وقال ابن فارس: الغرم: ما يلزم أداؤه، والغرام: اللازم، وسمي الغريم لإلحاحه. وقال غيره: الغرم: التزام ما لا يلزم.

(١) أخرجه السيوطي في «الدرر» ٢٦٨/٣، من طريق ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، عن السدي بنحوه.

ومن قال هم المتقدمون من الصحابة، قال: هؤلاء تبعوهم في طريقهم، واقتدوا بهم في أفعالهم، ففضل أولئك بالسبق، وإن كانت الصلبة حاصلة للكل. وقال عطاء: اتباعهم إياهم بإحسان: أنهم يذكرون محاسنهم ويزعمون عليهم.

قوله تعالى: ﴿تَجَسَّى تَحْتَهَا الْآكْهَنُ﴾ قرأ ابن كثير: «من تحتها» فزاد «من» وكسر التاء الثانية.

قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ يعم الكل. قال الزجاج: رضي الله أفعالهم، ورضوا ما جازاهم به.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِفْقِ لَا تَعْلَمُهُمْ تَحْنُ تَعْلَمُهُمْ سَعَدَ بِهِمْ مَّرَتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَفِقُونَ﴾ قال ابن عباس: مزيعة، وجهينة، وأسلم، وغفار، وأشجع، كان فيهم بعد إسلامهم منافقون. قال مقاتل: وكانت منازلهم حول المدينة.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِفْقِ﴾ قال ابن عباس: مروا عليه وثبتوا، منهم عبد الله بن أبي، وجند بن قيس، والجلال، ومعتب، ووخز، وأبو عامر الراهب. وقال أبو عبيدة: عَتَوْا وَمَرَتُوا عليه، وهو من قولهم: تَمَرَّدَ فلان، ومنه: شيطان مريد. فإن قيل: كيف قال: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا﴾، وليس يجوز في الكلام: من القوم قعدوا؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن تكون «من» الثانية مردودة على الأولى؛ والتقدير: وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون، ثم استأنف «مردوا». والثاني: أن يكون في الكلام «مَنْ» مضمرة، تقديره: ومن أهل المدينة مَنْ مردوا؛ فأضمرت «مَنْ»، للدلالة «مِنْ» عليها، كقوله: ﴿وَمَا يَنَالُ إِلَّا لَكُمْ مَقَامٌ مَّكْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] يريد: إلا مَنْ له مقام معلوم؛ وعلى هذا ينقطع الكلام عند قوله: «منافقون». والثالث: أن «مَرَدُوا» متعلق بمنافقين، تقديره: ومن أهل المدينة منافقون مَرَدُوا، ذكر هذه الأجوبة ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ فيه وجهان: أحدهما: لا تعلمهم أنت حتى نُعَلِّمَكَ بهم. والثاني: لا تعلم عواقبهم.

قوله تعالى: ﴿سَعَدَ بِهِمْ مَّرَتَيْنِ﴾ فيه عشرة أقوال: أحدها: أن العذاب الأول في الدنيا، وهو فضيحتهم بالنفاق، والعذاب الثاني: عذاب القبر، قاله ابن عباس. قال: وقام رسول الله ﷺ يوم الجمعة خطيباً، فقال: «يا فلان اخرج فإنك منافق، ويا فلان اخرج»^(١) ففضحهم. والثاني: أن العذاب الأول: إقامة الحدود عليهم. والثاني: عذاب القبر؛ وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أن أحد العذابين: الزكاة التي تؤخذ منه، والآخر: الجهاد الذي يُؤْمَرُونَ به، قاله الحسن. والرابع: الجوع، وعذاب القبر، رواه شبل عن ابن أبي نجيج عن مجاهد، وبه قال أبو مالك. والخامس: الجوع والقتل، رواه سفيان عن ابن أبي نجيج عن مجاهد. والسادس: القتل والسي، رواه معمر عن ابن أبي نجيج عن مجاهد. وقال ابن قتيبة: القتل والأسر. والسابع: أنهم عُذِّبُوا بالجوع مرتين، رواه خُصَيْف عن مجاهد. والثامن: أن عذابهم في الدنيا بالمصائب في الأموال والأولاد، وفي الآخرة بالنار، قاله ابن زيد. والتاسع: أن الأول: عند الموت، تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم، والثاني: في القبر بمنكر ونكير، قاله مقاتل بن سليمان. والعاشر: أن الأول بالسيف، والثاني عند الموت؛ قاله مقاتل بن حيان.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ يعني عذاب جهنم.

﴿وَأَخْرَجُوا عَنْهُمْ خُلَافًا عَمَلًا صَالِحًا وَأَخْرَجَ سَيِّئًا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُوَبَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجُوا عَنْهُمْ خُلَافًا عَمَلًا صَالِحًا وَأَخْرَجَ سَيِّئًا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُوَبَّ عَلَيْهِمْ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنهم عشرة رهط تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فلما دنا رجوع رسول الله ﷺ، أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد. فلما رآهم رسول الله ﷺ، قال: «من هؤلاء؟» قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلَّفوا عنك، فاقسموا بالله لا يطلقون أنفسهم حتى تطلقهم أنت وتعذرهم، فقال: «وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله تعالى هو الذي يطلقهم، رغبوا

(١) «الطبري» ١٤/٤٤١ - ٤٤٢، وخرجه الهيثمي في «المجمع» ٣٣/٧، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي، وهو ضعيف. وأورد السيوطي في «الدر» وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

عني وتخلّفوا عن الغزو مع المسلمين» فنزلت هذه الآية^(١)، فأرسل إليهم فأطلقهم وعذرهم، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وروى العوفي عن ابن عباس أن الذين تخلّفوا كانوا ستة، فأوثق أبو لبابة نفسه ورجلان معه، وبقي ثلاثة لم يوثقوا أنفسهم فلما نزلت هذه الآية، أطلقهم رسول الله ﷺ وعذرهم^(٢). وروى أبو صالح عن ابن عباس أنهم كانوا ثلاثة: أبو لبابة بن عبد المنذر، وأوس بن ثعلبة، ووديعة بن خِذام الأنصاري. وقال سعيد بن جبير، ومجاهد، وزيد بن أسلم: كانوا ثمانية. وقال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا سبعة. والثاني: أنها نزلت في أبي لبابة وحده. واختلفوا في ذنبه على قولين: أحدهما: أنه خان الله ورسوله بإشارته إلى بني قريظة حين شاوروه في النزول على حكم سعد أنه الذبح، وهذا قول مجاهد^(٣)، وقد شرحناه في [الافتال: ٢٧]. والثاني: أنه تخلّف عن تبوك^(٤)، قاله الزهري. فأما الاعتراف، فهو الإقرار بالشيء عن معرفة. والاعتراف بالذنب أدعى إلى صدق التوبة والقبول.

قوله تعالى: ﴿خَلُفُوا عَمَّا سَلَاكُمْ دَآخِرَ سِيَئِ﴾ قال ابن جرير: وضع الواو مكان الباء، والمعنى: بآخريه، كما تقول: خلطت الماء واللبن. وفي ذلك العمل قولان: أحدهما: أن العمل الصالح: ما سبق من جهادهم، والسيء: التأخر عن الجهاد، قاله السدي. والثاني: أن العمل الصالح: توبتهم، والسيء: تخلّفهم، ذكره الفراء. وفي قوله: «عسى» قولان: أحدهما: أنه واجب من الله تعالى، قاله ابن عباس. والثاني: أنه ترديد لهم بين الطمع والإشفاق، وذلك يصد عن الله والإهمال.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ قال المفسرون: لما تاب الله ﷻ على أبي لبابة وأصحابه، قالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا فتصدق به عنا، فقال: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً» فنزلت هذه الآية^(٥). وفي هذه الصدقة قولان: أحدهما: أنها الصدقة التي بذلوها تطوعاً، قاله ابن زيد، والجمهور. والثاني: الزكاة، قاله عكرمة.

قوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ وقرأ الحسن «تطهرهم بها» بجزم الراء. قال الزجاج: يصلح أن يكون قوله: «تطهرهم» نعتاً للصدقة، كأنه قال: خذ من أموالهم صدقة مطهرة. والأجود أن يكون للنبي ﷺ، المعنى: فإنك تطهرهم بها فـ «تطهرهم» بالجزم، على جواب الأمر، المعنى: إن تأخذ من أموالهم، تطهرهم. ولا يجوز في «تزكّهم» إلا إثبات الياء، اتباعاً للمصحف. قال ابن عباس: «تطهرهم» من الذنوب، «وتزكّهم»: تصلحهم. وفي قوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ قولان: أحدهما: استغفر لهم، قاله ابن عباس. والثاني: ادع لهم، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿إِنْ صَلَاتُكَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم «إِنْ صَلَاتُكَ» على الجمع. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم «إِنْ صَلَاتُكَ» على التوحيد. وفي قوله: ﴿سَكَنٌ لَهُمْ﴾ خمسة أقوال: أحدها: طمأنينة لهم أن الله قد قَبِلَ منهم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال أبو عبيدة: تثبيت وسكون. والثاني: رحمة لهم، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: قُرْبَةٌ لهم، رواه الضحاك عن ابن عباس. والرابع: وَقَارٌ لهم، قاله قتادة. والخامس: تزكية لهم، حكاه الثعلبي. قال الحسن، وقاتدة: وهؤلاء سوى الثلاثة الذين خَلَفُوا.

(١) «الطبري» ٤٤٧/١٤ - ٤٤٨، و «أسباب النزول» لخواجزي ١٤٨، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٧٢/٣، وزاد نسبه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل».

(٢) «الطبري» ٤٤٨/١٤ - ٤٤٩، والسيوطي في «الدر» ٢٧٣/٣، وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٣) «الطبري» ٤٥١/١٤، والسيوطي في «الدر» ٢٧٢/٣، ونسبه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الدلائل» عن مجاهد مختصراً. وعن سعيد بن المسيب مطولاً ونسبه للبيهقي.

(٤) «الطبري» ٤٥٢/١٤، وقال: وأولى الأقوال بالصواب في ذلك قول من قال: نزلت هذه الآية في المعترفين بخطأ فعلهم في تخلفهم عن رسول الله ﷺ وتركهم الجهاد معه، والخروج لغزو الروم حين شخص إلى تبوك، وأن الذين نزل ذلك فيهم جماعة، أحدهم أبو لبابة. وقال ابن كثير ٢/٣٨٥: وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين، إلا أنها عامة في كل المنين الخطائين المخطئين المتلوئين.

(٥) «الطبري» ٤٥٤/١٤ - ٤٥٥.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٠٤﴾ وَفِي أَعْمَالُوا فَسَبِّحْهُ اللَّهُ عَمَلَكُمْ رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُودُونَ إِلَى عَلِيٍّ النَّبِيِّ وَالشَّهَدَةِ فَيَنْفَعُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ قرأ الجمهور «يعلموا» بالياء. وروى عبد الوارث «تعلموا» بالياء. وقوله: ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ قال أبو عبيدة: أي: من عبيده، تقول: أخذته منك، وأخذته عنك.

قوله تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ قال ابن قتيبة: أي يقبلها. ومثله ﴿خُذِ الْقَوْلَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] أي: اقبله.

قوله تعالى: ﴿وَفِي أَعْمَالُوا﴾ قال ابن زيد: هذا خطاب للذين تابوا.

﴿وَأَخْرَجُوا مُرَجَّوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١٠٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجُوا مُرَجَّوْنَ﴾ وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي «مرجؤون» بغير همز. والآية نزلت في كعب بن مالك، ومُرة بن الربيع، وهلال بن أمية، وكانوا فيمن تخلف عن تبوك من غير عذر، ثم لم يبالغوا في الاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه، ولم يوثقوا أنفسهم بالسواري؛ فوقف رسول الله ﷺ أمرهم، ونهى الناس عن كلامهم ومخالطتهم حتى نزل قوله: ﴿وَعَلَّ اللَّهُ الْكِبْرَ الْكِبْرَ﴾ [التوبة: ١١٨]. قال الزجاج: «وأخرون» عطف على قوله: «ومن أهل المدينة»، فالمعنى: منهم منافقون، ومنهم «أخرون مرجؤون» أي: مؤخرون؛ و«إمّا» لوقوع أحد الشينين، والله تعالى عالم بما يصير إليه أمرهم، لكنه خاطب العباد بما يعلمون، فالمعنى: ليكن أمرهم عندكم على الخوف والرجاء.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بما يؤول إليه حالهم، حكيم بما يفعله بهم.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَافًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِصْرًا كَذَابًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَنْهَدُ لَهُمُ الْكُفْرَ﴾ ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي: «والذين» بواو، وكذلك هي في مصاحفهم. وقرأ نافع، وابن عامر: «الذين» بغير واو، وكذلك هي في مصاحف أهل المدينة والشام. قال أبو علي: من قرأ بالواو، فهو معطوف على ما قبله، نحو قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ [التوبة: ٧٥]، ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ﴾ [التوبة: ٥٨]، ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ [التوبة: ٦١]، والمعنى: ومنهم الذين اتخذوا مسجداً. ومن حذف الواو، فعلى وجهين: أحدهما: أن يضم - ومنهم الذين اتخذوا - كقوله: أكفرتم، المعنى: فيقال لهم: أكفرتم. والثاني: أن يضم الخبر بعد، كما أضمر في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالسَّبِيلِ الْهَكَارِ﴾ [الحج: ٢٥]، المعنى: يُنْتَقَمُ مِنْهُمْ وَيُعَذَّبُونَ. قال أهل التفسير: لما اتخذ بنو عمرو بن عوف مسجداً قباء، ويعثوا إلى رسول الله ﷺ، فأتاهم فضلي فيه؛ حسدهم إخوانهم بنو عثم بن عوف، وكانوا من منافقي الأنصار، فقالوا: نبني مسجداً، ونرسل إلى رسول الله ﷺ فيصلي فيه، ويصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام؛ وكان أبو عامر قد ترهب في الجاهلية وتنصر، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، عاداه، فخرج إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن أعدوا ما استطعتم من قوة وسلاح، وابتوا لي مسجداً، فإني ذاهب إلى قيصر فأتي بجند الروم فأخرج محمداً وأصحابه، فبنوا هذا المسجد إلى جنب مسجد قباء؛ وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً: خذام بن خالد ومن داره أخرج المسجد، وبنيت بن الحارث، وبيجاد بن عثمان، وثعلبة بن حاطب، ومعتب بن قشير، وعبد بن حنيف، ووديعة بن ثابت، وأبو حبيبة بن الأزعر، وجارية بن عامر، وابناه يزيد^(١) ومُجمَع؛ وكان مُجمَعُ إمامهم فيه، ثم صلحت حاله، وبخرج جد عبد الله بن حنيف، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: «ما أردت بما أرى؟» فقال: والله ما أردت إلا الحسنى، وهو كاذب. وقال مقاتل: الذي حلف مُجمَع. وقيل: كانوا سبعة عشر؛ فلما فرغوا منه، أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا قد ابتينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي فيه؛ فدعا بقميصه ليلبسه، فنزل عليه القرآن وأخبره الله خبرهم، فدعا معن بن عدي، ومالك بن الدخشم في آخرين، وقال: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدموه»

(١) كذا الأصل بيزيد، والذي في «الطبري» وسيرة ابن هشام، وابن كثير، والدر: «زيد».

وأحرقوه، وأمر به رسول الله ﷺ أن يتخذ كُثامة تُلقي فيها الجيف^(١). ومات أبو عامر بالشام وحيداً غريباً. فأما التفسير، فقال الزجاج: «الذين» في موضع رفع، المعنى: ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً. و«ضراراً» انتصب مفعولاً له، المعنى: اتخذوه للضرار والكفر والتفريق والإرصاد. فلما حذفت اللام، أفضى الفعل فنصب. قال المفسرون: والضرار بمعنى المضارة لمسجد قباء، «وَكُثْرًا» بالله ورسوله «وَقَرِيبًا بِئِكَ الْمُؤْمِنِينَ» لأنهم كانوا يصلون في مسجد قباء جميعاً، فأرادوا تفريق جماعتهم، والإرصاد: الانتظار، فانتظروا به مجيء أبي عامر، وهو الذي حارب الله ورسوله من قبل بناء مسجد الضرار. «وَلَيَحْلِلَنَّ إِن آدَنَّا» أي: ما أردنا «إِلَّا الْحُسْنَ» أي: ما أردنا بابتناؤه إلا الحسن؛ وفيها ثلاثة أوجه: أحدها: طاعة الله. والثاني: الجنة. والثالث: فعل التي هي أحسن من إقامة الدين والاجتماع للصلاة. وقد ذكرنا اسم الحالف.

«لَا نَقَرُ فِيهِ أَبَدًا لَمَسِجِدٍ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ أَنْ يَبْطُغُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» (١٣٨)

قوله تعالى: «لَا نَقَرُ فِيهِ» أي: لا تصل فيه أبداً. «لَمَسِجِدٍ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى» أي: بني على الطاعة، وبناء المتقون «مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ» أي: منذ أول يوم. قال الزجاج: «مِنْ» في الزمان، والأصل: منذ ومذ، وهو الأكثر في الاستعمال. وجائز دخول «مِنْ» لأنها الأصل في ابتداء الغاية والتبعض، ومثله قول زهير:

لِمَنِ الدِّيارُ بِقُنَّةِ الحِجْرِ أَقْوَنَ مِنْ حِجَجٍ وَمِنْ شَهْرٍ^(٢)

وقيل: معناه: مِنْ مَرَّ حِجَجٍ وَمِنْ مَرَّ شهر. وفي هذا المسجد ثلاثة أقوال: أحدها: أنه مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة الذي فيه منبره وقبره. روى سهل بن سعد أن رجلين اختلفا في عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد الرسول، وقال الآخر: هو مسجد قباء، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «هو مسجدي هذا»^(٣) وبه قال ابن عمر، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، وسعيد بن المسيب. والثاني: أنه مسجد قباء، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، وقتادة، وعروة، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، والضحاك، ومقاتل. والثالث: أنه كل مسجد بني في المدينة، قاله محمد بن كعب.

قوله تعالى: «فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ أَنْ يَبْطُغُوا» سبب نزولها أن رجلاً من أهل قباء كانوا يستنجون بالماء، فنزلت هذه الآية، قاله الشعبي^(٤). قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية، أتاهم رسول الله ﷺ فقال: «ما الذي أثنى الله به عليكم فقالوا: إنا نستنجي بالماء»^(٥). فعلى هذا، المراد به الطهارة بالماء. وقال أبو العالية: أن يتطهروا من الذنوب. «أَقَمَنَّ أَسَسَ بُيُوتَكُمْ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنَ أَسَسَ بُيُوتَكُمْ عَلَى شَكٍّ حَرْبٍ هَكَذَا فَاتَّخَذَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» (١٣٩)

قوله تعالى: «أَقَمَنَّ أَسَسَ بُيُوتَكُمْ» قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي: «أسس» بفتح الألف في الحرفين جميعاً وفتح النون فيهما. وقرأ نافع، وابن عامر «أسس» بضم الألف «بنيانه» برفع النون. والبيان مصدر يراد به المبني. والتأسيس: إحكام أس البناء، وهو أصله، والمعنى: المؤسس بنيانه متقياً يخاف الله ويرجو رضوانه خير، أم المؤسس بنيانه غير متقٍ؟ قال الزجاج: وشفا الشيء: حرقه وحذله. والشفا مقصور، يكتب بالألف، ويشى شفوان.

(١) «الطبري» ٤٦٨/١٤، وأورده السيوطي بنحوه في «الدر» ٣/٢٧٧.

(٢) «ديوانه» ٨٦، و«مختار الشعر الجاهلي» ٢٦٣. وروى الأصمعي: ومن دهر. قوله: من شهر، أراد: من شهر. وأقوين: خلون. والقنة: أعلى الجبل، أو هي الجبل الذي ليس بتشتر.

(٣) «الطبري» ٤٧٩/١٤، وأحمد في «المسند» ٣٣١/٥، و«مسلم» ١٠١٥/٢ بنحوه، وخرجه الهيثمي في «المجمع» ٣٤/٧ وقال: رواه كُله أحمد، والطبراني باختصار، ورجالهما رجال الصحيح.

(٤) «الطبري» ٤٨٧/١٤، وأورده السيوطي في «الدر» ٣/٢٧٨.

(٥) السيوطي في «الدر» ٣/٢٧٨ بنحوه، ونسب للطبراني، وأبي الشيخ، والحاكم، وابن مردويه.

قوله تعالى: ﴿جُرُفٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي «جُرُفٌ» مثقلاً. وقرأ ابن عامر، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم: «جُرُفٌ» ساكنة الراء. قال أبو علي: فالضم الأصل، والإسكان تخفيف، ومثله: الشُّغْلُ والشُّغْلُ. قال ابن قتيبة: المعنى: على حرف جرف هائر. والجرف: ما يتجرف بالسيول من الأودية. والهاثر: الساقط. ومنه: تهوّر البناء وانهار: إذا سقط. وقرأ ابن كثير، وحمزة «هار» بفتح الهاء. وأمال الهاء نافع، وأبو عمرو. وعن عاصم كالقراءتين.

قوله تعالى: ﴿كَانَ يَرْجُو﴾ أي: بالبابي ﴿فِي نَارٍ جَهَنَّمَ﴾. قال الزجاج: وهذا مثل، والمعنى: أن بناء هذا المسجد كبناء على جرف جهنم يتهوّر بأمله فيها. وقال قتادة: ذكر لنا أنهم حفروا فيه حفرة، فروي فيها الدخان. قال جابر: رأيت المسجد الذي بني ضراراً يخرج منه الدخان.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ﴾ يعني: مسجد الضرار ﴿الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: شكاً ونفاقاً، لأنهم كانوا يحسبون أنهم محسنون في بنائه، قاله ابن عباس، وابن زيد. والثاني: حسرة وزندامة، لأنهم ندموا على بنائه، قاله ابن السائب ومقاتل. والثالث: أن المعنى: لا يزال هدم بنيانهم حرازة وغيظاً في قلوبهم، قاله السدي، والمبرد.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قرأ الأكثرون: «إلا» وهو حرف استثناء. وقرأ يعقوب «إلى أن» فجعله حرف جر. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «تَقَطَّعَ» بضم التاء. وقرأ ابن عامر، وحمزة، وحفص عن عاصم: «تَقَطَّعَ» بفتح التاء. ثم في المعنى قولان: أحدهما: إلا أن يموتوا، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقاتل في آخرين. والثاني: إلا أن يتوبوا توبة تقطع بها قلوبهم نداماً وأسفاً على تفریطهم، ذكره الزجاج.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِهِ﴾

﴿الْعَظِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾ سبب نزولها أن الأنصار لما بايعت رسول الله ﷺ ليلة العقبة وكانوا سبعين رجلاً، قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: «اشتريت لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم»، قالوا: فإذا فعلنا ذلك، فما لنا؟ قال: «الجنة» قالوا: ربح البيع، لا تقبل ولا نستقبل، فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى﴾ الآية، قاله محمد بن كعب القرظي^(١). فأما اشتراء النفس، فبالجهاد. وفي اشتراء الأموال وجهان: أحدهما: بالإنفاق في الجهاد. والثاني: بالصدقات. وذكر الشراء هاهنا مجاز، لأن المشتري حقيقة هو الذي لا يملك المشتري، فهو كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]. والمراد من الكلام أن الله أمرهم بالجهاد بأنفسهم وأموالهم ليجازيهم عن ذلك بالجنة، فعبّر عنه بالشراء لما تضمن من عوض ومعوض. وكان الحسن يقول: لا والله، إن في الدنيا مؤمن إلا وقد أخذت بيعته. وقال قتادة: ثامنهم والله فأغلى لهم.

قوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: «فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ» فاعل ومفعول. وقرأ حمزة، والكسائي: «فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ» مفعول وفاعل. قال أبو علي: القراءة الأولى بمعنى أنهم يقتلون أولاً ويُقْتَلُونَ، والآخرى يجوز أن تكون في المعنى كالأولى، لأن المعطوف بالواو يجوز أن يراد به التقديم؛ فإن لم يقدر فيه التقديم، فالمعنى: يقتل من بقي منهم بعد قتل من قُتل، كما أن قوله: ﴿فَمَا وَهَدُوا لِمَا آمَنُوا بِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٤٦] ما وهن من بقي يُقْتَلُ من قُتل. ومعنى الكلام: إن الجنة عوض عن جهادهم، قُتِلُوا أو قُتِلُوا. ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ﴾ قال

النبي ﷺ يستغفر له، فقال المسلمون: ما يمنعنا أن نستغفر لأبائنا ولذوي قرباتنا، وقد استغفر إبراهيم لأبيه، وهذا محمد يستغفر لعمه؟ فاستغفروا للمشركين، فنزلت هذه الآية. قال أبو الحسين بن المنادي^(١): هذا لا يصح، إنما قال النبي ﷺ لعمه: «لاستغفرن لك ما لم أنه عنك» قبل أن يموت، وهو في السياق، فأما أن يكون استغفر له بعد الموت، فلا، فانقلب ذلك على الرواة، وبقي على انقلابه. والثاني: أن النبي ﷺ مر بقبر أمه أمنة، فتوضأ وصلى ركعتين، ثم بكى، فبكى الناس لبكائه، ثم انصرف إليهم، فقالوا: ما الذي أبكاك؟ فقال: «مررت بقبر أُمِّي فصليت ركعتين، ثم استأذنت ربي أن أستغفر لها، فنهيت، فبكيت، ثم عدت فصليت ركعتين، واستأذنت ربي أن أستغفر لها، فزجرت زجراً، فأبكاني»، ثم دعا بإرحلته فركبها؛ فما سار إلا هُنيئة، حتى قامت الناقة لثقل الوحي؛ فنزلت ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْأَيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا، رَوَاهُ بَرِيدٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ﴾^(٢). والثالث: أن رجلاً استغفر لأبويه، وكانا مشركين، فقال له علي بن أبي طالب: أنتستغفر لهما وهما مشركان؟ فقال: أولم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكر ذلك علي للنبي ﷺ، فنزلت هذه الآية والتي بعدها، رواه أبو الخليل عن علي ﷺ^(٣). والرابع: أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا نبي الله، إن من آبائنا من كان يحسن الجوار، ويصل الرحم، ويفك العاني، ويوفي بالذمم، أفلا نستغفر لهم؟ فقال: «بلى، والله لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه»، فنزلت هذه الآية، وبُيِّنَ عذر إبراهيم، قاله قتادة^(٤). ومعنى قوله: ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجُبَيْرِ﴾ أي: من بعد ما بان أنهم ماتوا كفاراً.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَنْ مَرْغَبٍ وَعَدَا إِيَّاهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن إبراهيم وعد أباه الاستغفار، وذلك قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مریم: ٤٧]، وما كان يعلم أن الاستغفار للمشركين محظور حتى أخبره الله بذلك. والثاني: أن أباه وعده أنه إن استغفر له آمن؛ فلما تبين لإبراهيم عداوة أبيه لله تعالى بموته على الكفر، ترك الدعاء له. فعلى الأول، تكون هاء الكناية في «إِيَّاهُ» عائدة على آزر، وعلى الثاني، تعود على إبراهيم. وقرأ ابن السميع، ومعاذ القارئ، وأبو نهيك: «وعدها أباه» بالباء. وفي الأوَّاه ثمانية أقوال: أحدها: أنه الخاشع الدُّعَاء المتضرع، رواه عبد الله بن شداد بن الهاد عن النبي ﷺ. والثاني: أنه الدُّعَاء، رواه زرُّ عن عبد الله، وبه قال عبيد بن عمير. والثالث: الرحيم، رواه أبو العبيد بن العامري عن ابن مسعود، وبه قال الحسن، وقتادة، وأبو ميسرة. والرابع: أنه الموقن، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والضحاك. والخامس: أنه المؤمن، رواه العوفي، ومجاهد، وابن أبي طلحة عن ابن عباس. والسادس: أنه المسيح، رواه أبو إسحاق عن أبي ميسرة، وبه قال سعيد بن المسيب، وابن جبير. والسابع: أنه المتأوِّه لذكر عذاب الله، قاله الشعبي. قال أبو عبيدة: مجاز أوَّاه مجاز فَعَال من التأوِّه، ومعناه: متضرع شَقَقاً وَفَرَقاً ولزوماً لطاعة ربه، قال المُتَقَبِّب:

إِذَا مَا قُمْتُ أَرْحَلُهَا بَلِيلٌ تَأَوُّهُ أَهْلُ الرَّجُلِ الْحَزِينِ^(٥)

والثامن: أنه الفقيه، رواه ابن جريج عن مجاهد. فأما الحليم، فهو الصفوح عن الذنوب.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُخْزِلَ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَسْتَأْذِنَ لَهُمْ مَا يَنْتَقُونَ﴾ إِنَّ اللَّهَ يَكُلِّ شَيْءً عَلَيْهِ ﴿١١٦﴾ إِنَّ اللَّهَ لَمُ مَلِكٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٧﴾

(١) هو أحمد بن جعفر بن محمد أبو الحسين بن المنادي (٢٥٦ - ٣٣٦ هـ) عالم بالتفسير والحديث من أهل بغداد. قال ابن الجوزي: من وقف على مصنفاته علم فضله واطلاعه، ووقف على فوائده لا توجد في غير كتبه، جمع بين الرواية والدراية، ولا حشو في كلامه، آخر من روى عنه محمد بن فارس اللغوي، من كتبه «اختلاف العدد» و«دهاء أنواع الاستعاذات من سائر الآفات والعاهات».

(٢) «الطبري» ٥١٢/١٤ مختصراً، وأحمد في «المستد» ٣٥٩/٥، و«مسلم» ٦٧١/٢، بمعناه، وأورد السيوطي في «الدرة» ٢٨٤/٣ عن ابن مردويه.

(٣) «الطبري» ٥١٤/١٤، ٥١٥، وأحمد في «المستد» رقم ٧٧١، وأورد السيوطي في «الدرة» ٢٨٢/٣ وزاد نسبته للطيالسي، وابن أبي شيبة، والترمذي، والنسائي، وأبي يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان»، والضياء في «المختار».

(٤) «الطبري» ٥١٣/١٤.

(٥) البيت في «الطبري» ٥٣٤/١٤، و«المفضليات» ٢٩١، و«مجاز القرآن» ٢٧٠/٢، و«طبقات فحول الشعراء» ٢٣١، و«السمط» ٥٦، و«القرطبي» ٨/ ٢٧٦، و«اللسان»: أوه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ يُضِلَّ قَوْمًا﴾ الآية، سبب نزولها: أنه لما نزلت آية الفرائض، وجاء النسخ، وقد غاب قوم وهم يعلمون بالأمر الأول مثل أمر القبله والخمر، ومات أقوام على ذلك، سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال قوم: المعنى أنه بين أنه لم يكن ليأخذهم بالاستغفار للمشركين قبل تحريمه، فإذا حرّمه ولم يمتنعوا عنه، فقد ضلوا. وقال ابن الأنباري: في الآية حذف واختصار، والتأويل: حتى يتبين لهم ما يتقون، فلا يتقونه، فعند ذلك يستحقون الضلال؛ فحذف ما حذف لبيان معناه، كما تقول العرب: أمرتك بالتجارة فكسبت الأموال؛ يريدون: فتجرت فكسبت.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ قال المفسرون: تاب عليه من إذنه للمنافقين في التخلّف. وقال أهل المعاني: هو مفتاح كلام، وذلك أنه لما كان سبب توبة التائبين، ذكر معهم، كقوله: ﴿قَدْ تَابَ اللَّهُ خِمْسَهُ وَالرَّسُولَ﴾ [الأنفال: ٤١].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ﴾ قال الزجاج: هم الذين اتبعوه في غزوة تبوك، والمراد بساعة العسرة: وقت العسرة، لأن الساعة تقع على كل الزمان، وكان في ذلك الوقت حرّاً شديداً، والقوم في ضيقة شديدة، كان الجمل بين جماعة يعتقون عليه، وكانوا في فقر، فربما اقتسم التمرة اثنان، وربما مص التمرة الجماعة ليشربوا عليها الماء، وربما نحروا الإبل فشربوا من ماء كروشها من الحر. وقيل لعمر بن الخطاب: حدثنا عن ساعة العسرة، فقال: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، حتى إن الرجل ليذهب يلمس الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع، وحتى إن الرجل ينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده. فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيراً، فادع لنا. قال: «تحب ذلك؟» قال: نعم. فرفع يديه، فلم يرجعهما حتى قالت السماء^(١)، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جاوزت العسكر^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ قرأ حمزة، وحفص عن عاصم «كاد يزيغ» بالياء. وقرأ الباقون بالتاء، وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: تميل إلى التخلّف عنه، وهم ناس من المسلمين هموا بذلك، ثم لحقوه، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن القلوب مالت إلى الرجوع للشدة التي لقوها، ولم تزغ عن الإيمان، قاله الزجاج. والثالث: أن القلوب كادت تزغ تلفاً بالجهد والشدة، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ كرر ذكر التوبة، لأنه ليس في ابتداء الآية ذكر ذنبهم، فقدم ذكر التوبة فضلاً منه، ثم ذكر ذنبهم، ثم أعاد ذكر التوبة.

﴿وَعَلَّ الْكَلْبَةَ الذَّيْبَ حُلْفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّ الْكَلْبَةَ الذَّيْبَ حُلْفُوا﴾ وقرأ أبو رزين، وأبو مجلز، والشعبي، وابن يعمر: «خالقوا» بالالف، وقرأ معاذ الفارسي، وعكرمة، وحמיד: «حَلْفُوا» بفتح الخاء واللام المخففة. وقرأ أبو الجوزاء، وأبو العالية: «حَلْفُوا» بفتح الخاء واللام مع تشديدها. وهؤلاء هم المرادون بقوله: ﴿وَمَا خَرُوتَ مُرْجُونَ﴾ وقد تقدّمت أسماؤهم [التوبة: ١٠٦]. وفي معنى «حَلْفُوا» قولان: أحدهما: حُلْفُوا عن التوبة، قاله ابن عباس، ومجاهد. فيكون المعنى: حُلْفُوا عن توبة الله على

(١) قالت السماء: أي، أقبلت بالسحاب.

(٢) «الطبري» ٥٤١/١٤ - ٥٤٢، وخرجه البيهقي في «المجمع» ١٩٤/٦ - ١٩٥ وقال: رواه البزار، والطبراني في «الأوسط»، ورجال البزار ثقات. وذكره السيوطي في «الدر» ٢٨٦/٣ وزاد نسبة لابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبي نعيم، والبيهقي في «الدلائل»، والضياء في «المختارة».

أبي لبابة وأصحابه إذ لم يخضعوا كما خضع أولئك. والثاني: حُلفوا عن غزوة تبوك، قاله قتادة. وحديثهم مندرج في توبة كعب بن مالك^(١)، وقد رويتها في كتاب «الحدائق».

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: ضاقت مع سَعَتِهَا، وذلك أن المسلمين مُنعوا من معاملتهم وكلامهم، وأمروا باعتزال أزواجهم، وكان النبي ﷺ مُعرِضاً عنهم. ﴿وَسَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ بالهم والغم. ﴿وَلَقَدْ أَقْبَا﴾ أي: أيقنوا ﴿أَن لَّا يُلْجَأَ﴾ أي: لا معتصم من الله ومن عذابه إلا هو. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمُ﴾ أعاد التوبة تأكيداً، ﴿يَسْتَوُوا﴾ قال ابن عباس: ليستقيموا. وقال غيره: وقَّعهم للتوبة ليدوموا عليها ولا يرجعوا إلى ما يبطلها. وسئل بعضهم عن التوبة النصوح، فقال: أن تضيق على التائب الأرض، وتضيق عليه نفسه، كتوبة كعب وصاحبيه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنها نزلت في قصة الثلاثة المتخلفين. والثاني: أنها في أهل الكتاب. والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله في إيمانكم بمحمد ﷺ وكونوا مع الصادقين. وفي المراد بالصادقين خمسة أقوال: أحدها: أنه النبي ﷺ وأصحابه، قاله ابن عمر. والثاني: أبو بكر وعمر، قاله سعيد بن جبیر، والضحاك. وقد قرأ ابن السمين، وأبو المتوكل، ومعاذ القاري: «مع الصَّادِقِينَ» بفتح القاف وكسر النون على الشنية. والثالث: أنهم الثلاثة الذين حُلفوا، صدقوا النبي ﷺ عن تأخرهم، قاله السدي. والرابع: أنهم المهاجرون، لأنهم لم يتخلفوا عن رسول الله ﷺ في الجهاد، قاله ابن جريج. قال أبو سليمان الدمشقي: وقيل: إن أبا بكر الصديق احتج بهذه الآية يوم السقيفة، فقال: يا معشر الأنصار، إن الله يقول في كتابه: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَفْرَجُوا﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨] من هم؟ قالت الأنصار: أنتم هم. قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فأمركم أن تكونوا معنا، ولم يأمرنا أن نكون معكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. والخامس: أنه عام، قاله قتادة. و«مع» بمعنى: «من»، وكذلك هي في قراءة ابن مسعود: «وكونوا من الصادقين».

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَلُونَ مِنْهُمَا كَرْفٌ وَلَا يَتَلَوُّنَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كُتِبَ لَهُمْ يَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قال ابن عباس: يعني: مزينة، وجهينة، وأشجع، وأسلم، وغفار، ﴿أَن يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ في غزوة غزاها، ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ لا يرضوا لأنفسهم بالخفض والدعة ورسول الله في الحر والمشقة. يقال: رغبت بنفسي عن الشيء: إذا ترفعت عنه.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك النهي عن التخلف ﴿يَأْتُهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وهو العطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وهو التعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ وهي المجاعة ﴿وَلَا يَتَلَوُّنَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ أسراً أو قتلاً أو هزيمة، فأعلمهم الله أنه يجازيهم على جميع ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً﴾ قال ابن عباس: ثمرة فما فوقها. ﴿وَلَا يقطعُونَ وادياً﴾ مقبلين أو مدبرين ﴿إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ﴾ أي: أثبت لهم أجر ذلك. ﴿يَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ﴾ أي: بأحسن ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فصل

قال شيخنا علي بن عبيد الله: اختلف المفسرون في هذه الآية، فقالت طائفة: كان في أول الأمر لا يجوز التخلف عن رسول الله ﷺ حين كان الجهاد يلزم الكل؛ ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ يَسْتَفِرُّوْنَ كَذَلِكَ﴾ [التوبة: ١٢٢]؛

قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا آلَ لَيْكٍ يُؤْكُمُ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ قد أمر بقتال الكفار على العموم، وإنما يُبتدأ بالأقرب فالأقرب. وفي المراد بمن يليهم خمسة أقوال: أحدها: أنهم الروم، قاله ابن عمر. والثاني: قريظة، والنضير، وخيبر، وفك، قاله ابن عباس. والثالث: الديلم، قاله الحسن. والرابع: العرب، قاله ابن زيد. والخامس: أنه عام في قتال الأقرب فالأقرب، قاله قتادة. وقال الزجاج: في هذه الآية دليل على أنه ينبغي أن يقاتل أهل كل ثغر الذين يلونهم. قال: وقيل: كان النبي ﷺ ربما تخلف في حربه الذين يلونه من الأعداء ليكون ذلك أهيبَ له، فأمر بقتال من يليه لِيُسْتَرَّ بذلك. وفي الغلظة ثلاث لغات: غِلْظَة، بكسر الغين؛ وبها قرأ الأكثرون. وَغَلْظَة، بفتح الغين، رواها جيلة عن عاصم. وَغُلْظَة، بضم الغين، رواها المفضل عن عاصم. ومثلها: جَذوة وجَذوة وجَذوة، ووجنة ووجنة ووجنة، وِرْغوة وِرْغوة وِرْغوة، وِرْبة وِرْبة وِرْبة، وقسوة وقسوة وقسوة، وإلوة وإلوة وألوة: في اليمين. وشاة لِجبة وَلَجبة وَلَجبة: قد ولَّى لبها. قال ابن عباس في قوله «غلظة»: شجاعة. وقال مجاهد: شدة.

قوله تعالى: ﴿فَيَنْهَرُ مَنْ يَكُولُ أَتُكْمُ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيَّانَا﴾ هذا قول المنافقين بعضهم لبعض استهزاء بقول الله تعالى. ﴿وَأَنَا الَّذِينَ ءَاسَأُوا فَرَادَتَهُمْ إِيَّانَا﴾ لأنهم إذا صدّقوا بها وعملوا بما فيها، زادتهم إيماناً. ﴿وَهُمْ يَسْتَشِيرُونَ﴾ أي: يفرحون بنزولها. ﴿وَأَنَا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ﴾ أي: شك ونفاق. وفي المراد بالرجس ثلاثة أقوال: أحدها: الشك، قاله ابن عباس. والثاني: الإثم، قاله مقاتل. والثالث: الكفر، لأنهم كلما كفروا بسورة زاد كفرهم، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرْوُونَ﴾ يعني المنافقين. وقرأ حمزة: «أو لا ترو» بالتاء على الخطاب للمؤمنين. وفي معنى: ﴿يَقْتَتُونَ﴾ ثمانية أقوال: أحدها: يكذبون كذبة أو كذبتين يُضِلُّونَ بها، قاله حذيفة بن اليمان. والثاني: يناقون ثم يؤمنون ثم يناقون، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: يُبْتَلَوْنَ بالغزو في سبيل الله، قاله الحسن، وقادة. والرابع: يُقْتَنُونَ بالسَّنة والجوع، قاله مجاهد. والخامس: بالأوجاع والأمراض، قاله عطية. والسادس: يَنْقُضُونَ عهدهم مرة أو مرتين، قاله يمان. والسابع: يكفرون، وذلك أنهم كانوا إذا أخبرهم النبي ﷺ بما تكلموا به إذ خَلَوْا، علموا أنه نبي، ثم يأتيهم الشيطان فيقول: إنما بلغه هذا عنكم، فيشركون، قاله مقاتل بن سليمان. والثامن: يُفَضِّحُونَ بإظهار نفاقهم، قاله مقاتل بن حيان.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُ﴾ أي: من نفاقهم. ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي: يعتبرون ويتعظون. ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰ مِنْكُمْ بَرَكَةً أَمْ لَهُمْ نَصْرًا مِّنْ اللَّهِ قُلُوبُهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ قال ابن عباس: كانت إذا أنزلت سورة فيها عيب المنافقين، وخطبهم رسول الله ﷺ وعرض بهم في خطبته، شق ذلك عليهم، ونظر بعضهم إلى بعض يريدون الهرب، يقولون: ﴿هَلْ يَرَىٰ مِنْكُمْ بَرَكَةً أَمْ لَهُمْ نَصْرًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ قُمْتُمْ؟ فَإِنْ لَمْ يَرَهُمْ أَحَدٌ، خَرَجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ. قَالَ الزَّجَّاجُ: كَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ إِيمَاءً لِّثَلَا يَعْلَمُ بِهِمْ أَحَدٌ، ﴿ثُمَّ أَصْرَفُوا﴾ عن المكان، وجازئ عن العمل بما يسمعون. وقال الحسن: ثم انصرفوا على عزم التكذيب بمحمد ﷺ وبما جاء به.

قوله تعالى: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ قال ابن عباس: عن الإيمان. وقال الزجاج: أضلَّهم مجازاة على فعلهم. ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قرأ الجمهور بضم الفاء. وقرأ ابن عباس، وأبو العالية، والضحاك، وابن محيصن، ومحبوب عن أبي عمرو: بفتحها. وفي المضمومة أربعة أقوال: أحدها: من جميع العرب، قاله ابن عباس؛ وقال: ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت رسول الله ﷺ. والثاني: ممن تعرفون، قاله قتادة. والثالث: من نكاح لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، قاله جعفر الصادق. والرابع: بشر مثلكم، فهو أكد للحجة، لأنكم تفقهون عمن هو مثلكم، قاله الزجاج. وفي المفتوحة ثلاثة أقوال: أحدها: أفضلكم خلقاً. والثاني: أشرفكم نسباً. والثالث: أكثركم طاعة لله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: شديد عليه ما شقَّ عليكم، رواه الضحاك عن ابن عباس. قال الزجاج: شديد عليه عنتكم. والعنت: لقاء الشدة. والثاني: شديد عليه ما أثمكم، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ قال الحسن: حريص عليكم أن تؤمنوا.

قوله تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قال ابن عباس: سماء باسمين من أسمائه. وقال أبو عبيدة: «رؤوف» فعول، من الرافة، وهي أرق من الرحمة؛ ويقال: «رؤف»، وأنشد:

ترى للمؤمنين عليك حقاً
كفعل الوالد الرؤوف الرحيم^(١)

وقيل: رؤوف بالمطيعين، رحيم بالمدننين.

﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن الإيمان ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: يكفيني ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾. وقرأ ابن محيصن: «العظيم» برفع الميم. وإنما خص العرش بالذكر، لأنه الأعظم، فيدخل فيها الأصغر. قال أبي بن كعب: آخر آية أنزلت ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إلى آخر السورة^(١).



(١) «الطبري» ٥٨٨/١٤ - ٥٨٩، والحاكم في «المستدرک» ٣٣٨/٢، و«المسنَد» ١١٧/٥ وفي سننه علي بن زيد بن جدعان. قال الهيثمي في «المجمع» ٣٦/٧: وهو ثقة سبَّ الحفظ وبقية رجاله ثقات، ورواه أحمد في «المسنَد» ١٣٤/٥ بأطول منه عن عمر بن شقيق عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب، ورجاله ثقات خلا عمر بن شقيق فإنه مجهول.

سورة يونس

فصل في نزولها

روى عطية، وابن أبي طلحة عن ابن عباس أنها مكية، وبه قال الحسن، وعكرمة. وروى أبو صالح عن ابن عباس أن فيها من المدني قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ [يونس: ٤٠]. وفي رواية عن ابن عباس: فيها ثلاث آيات من المدني، أولها قوله: ﴿إِن كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ [يونس: ٩٤] إلى رأس ثلاث آيات، وبه قال قتادة. وقال مقاتل هي مكية، غير آيتين، قوله: ﴿إِن كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ والتي تليها [يونس: ٩٤، ٩٥]. وقال بعضهم: هي مكية إلا آيتين، وهي قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ والتي تليها [يونس: ٥٨، ٥٩].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ يَلِكْ مَا يَكُنْ أَلَكُنْبِ الْكَبِيرِ﴾

فأما قوله: ﴿أَلَمْ﴾ قرأ ابن كثير: ﴿أَلَمْ﴾ بفتح الراء. وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿أَلَمْ﴾ على الهجاء مكسورة. وقد ذكرنا في أول سورة (البقرة) ما يشتمل على بيان هذا الجنس. وقد خُصَّت هذه الكلمة بستة أقوال: أحدها: أن معناها: أنا الله أرى، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنا الله الرحمن، رواه عطاء عن ابن عباس. والثالث: أنه بعض اسم من أسماء الله. روى عكرمة عن ابن عباس قال: ﴿أَلَمْ﴾ و﴿حَمَّ﴾ و﴿نَّ﴾ حروف الرحمن. والرابع: أنه قَسَمٌ أقسم الله به، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والخامس: أنه اسم من أسماء القرآن، قاله مجاهد، وقاتدة. والسادس: أنه اسم للسورة، قاله ابن زيد. وفي قوله: ﴿يَلِكْ﴾ قولان: أحدهما: أنه بمعنى «هذه»، قاله أبو صالح عن ابن عباس، واختاره أبو عبيدة. والثاني: أنه على أصله. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن الإشارة إلى الكتب المتقدمة من التوراة والإنجيل، قاله مجاهد، وقاتدة؛ فيكون المعنى: هذه الأقاصيص التي تسمعونها، تلك الآيات التي وصفت في التوراة والإنجيل. والثاني: أن الإشارة إلى الآيات التي جرى ذكرها، من القرآن، قاله الزجاج. والثالث: أن «تلك» إشارة إلى ﴿أَلَمْ﴾ وأخواتها من حروف المعجم، أي: تلك الحروف المفتحة بها السُّور هي ﴿مَا يَكُنْ أَلَكُنْبِ﴾ لأن الكتاب بها يتلى، والفاظه إليها ترجع، ذكره ابن الأنباري. قال أبو عبيدة: ﴿الْكَبِيرِ﴾ بمعنى المحكم المبين الموضح؛ والعرب قد تضع فعلاً في معنى مُفْعَل؛ قال الله تعالى: ﴿مَا لَدَى عَيْدٍ﴾ [آ: ٢٣، ٢٤] أي: مُعَدٌّ.

﴿أَكَاكَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَيِّنِ الْآيَاتِ مَا هُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّكَ هَذَا سَاحِرٌ كَذِبٌ﴾ [١] إِنْ رَكَعَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ بِذِكْرِ الْأَمْرِ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْ يَنْفِخُ فِي سَافِرَةٍ فَاتَّبَعُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [٢]

قوله تعالى: ﴿أَكَاكَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ سبب نزولها: أن الله تعالى لما بعث محمداً ﷺ أنكرت الكفار ذلك، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، فنزلت هذه الآية^(١). والمراد بالناس هاهنا: أهل مكة، والمراد بالرجل: محمد ﷺ. ومعنى ﴿وَمِنْهُمْ﴾: يعرفون نسبه، قاله ابن عباس، فأما الألف فهي للتوبيخ والإنكار. قال ابن الأنباري: والاحتجاج عليهم في كونهم عجبا من إرسال محمد، محذوف هاهنا، وهو مبين في قوله: ﴿عَنْ قَسَمًا يَتَّبِعُهُمْ مَّوْعِنَتُهُمْ﴾ [الزعرور: ٣٢]، أي: فكما وضع لكم هذا التفاضل بالمشاهدة، فلا تنكروا تفضيل الله مَنْ شاء بالنبوة؛ وإنما حذفه هاهنا اعتماداً على ما بيّنه في موضع آخر. قال: وقيل: إنما عجبا من ذكر البعث والنشور، لأن الإنذار والتبشير يتصلان بهما، فكان جوابهم في مواضع كثيرة تدل على كون ذلك، مثل قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]،

(١) «الطبري» ١٣/١٥، وأخرجه السيوطي في «الدر» ٢٩٩/٣ وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس.

وقوله: ﴿فَتَجِبَا الَّذِي أَنْشَأَهُمَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]. وفي المراد بقوله: ﴿قَدَّمَ صِدْقٍ﴾ سبعة أقوال: أحدها: أنه الثواب الحسن بما قَدَّمُوا من أعمالهم، رواه العوفي عن ابن عباس، وروى عنه أبو صالح قال: عمل صالح يُقَدَّمون عليه. والثاني: أنه ما سبق لهم من السعادة في الذِّكْر الأول، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. قال أبو عبيدة: سابقة صدق. والثالث: شفيع صدق، وهو محمد ﷺ يشفع لهم يوم القيامة، قاله الحسن. والرابع: سَلَفَ صدق تقدّمهم بالإيمان، قاله مجاهد، وقتادة. والخامس: مقام صدق لا زوال عنه، قاله عطاء. والسادس: أن قدم الصّدق: المنزلة الرفيعة، قاله الزجاج. والسابع: أن القدم هاهنا: مصيبة المسلمين بنبئهم ﷺ وما يلحقهم من ثواب الله عند أسفهم على فقدته ومحبتهم لمشاهدته، ذكره ابن الأنباري. فإن قيل: لِمَ أثار القدم هاهنا على اليد، والعرب تستعمل اليد في موضع الإحسان؟ فالجواب: أن القدم ذكرت هاهنا للتقدم، لأن العادة جارية بتقدّم الساعي على قدميه، والعرب تجعلها كناية عن العمل الذي يُتقدّم فيه ولا يقع فيه تأخّر، قال ذو الرمة:

لَكُمْ قَدَمٌ لَا يُنْكَرُ النَّاسُ أَنَّهَا مع الحَسَبِ العَادِي طَمَّتْ عَلَى الْبَحْرِ^(١)

فإن قيل: ما وجه إضافة القدم إلى الصدق؟ فالجواب: أن ذلك مدح للتقدم، وكل شيء أضفته إلى الصدق، فقد مدحته؛ ومثله: ﴿أَنْزَلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠]، وقوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: ٥٥]. وفي الكلام محذوف، تقديره: أوحينا إلى رجل منهم، فلما أتاهم الوحي ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّكَ هَذَا لَسِحْرٌ ثَبِينٌ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وحزمة، والكسائي: ﴿لَسَاحِرٌ بِالْف. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿لَسَحِرٌ بغير ألف. قال أبو علي: قد تقدم قوله: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رَبِّكَ مِنْهُمْ﴾ فمن قال: ساحر، أراد الرجل؛ ومن قال: سحر، أراد الذي أوحى سحر، أي: الذي تقولون أنتم فيه: إنه وحي، سحر. قال الزجاج: لما أنذرهم بالبعث والنشور، فقالوا: هذا سحر، أخبرهم أن الذي خلق السموات والأرض قادر على بعثهم بقوله: ﴿إِنَّكَ رَبِّكُمُ اللَّهُ﴾ وقد سبق تفسيره في [الأعراف: ٥٤]. قوله تعالى: ﴿يَذَرُ الْأَثَرُ﴾ قال مجاهد: يقضيه. وقال غيره: يأمر به ويمضيه.

قوله تعالى: ﴿مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْ يَذِّقُهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يشفع أحد إلا أن يأذن له، قاله ابن عباس. قال الزجاج: لم يجز للشفيع ذكر قبل هذا، ولكن الذين خوطبوا كانوا يقولون: الأصنام شفعاؤنا. والثاني: أن المعنى: لا ثاني معه، مأخوذ من الشُّفْع، لأنه لم يكن معه أحد، ثم خلق الأشياء. فقوله: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْ يَذِّقُهُ﴾ أي: من بعد أمره أن يكون الخلق فكان، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿تَأْتِبُ دُونَهُ﴾ قال مقاتل: وحده. وقال الزجاج: المعنى: فاعبدوه وحده. وقوله: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ معناه: تتعظون.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ إِنَّهُمْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُولُوا الصَّلَاحَ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَسُّ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: مصيركم يوم القيامة ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ قال الزجاج: «وَعَدَّ اللَّهُ» منصوب على معنى: وعدكم الله وعداً، لأن قوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ معناه: الوعد بالرجوع، و «حَقًّا» منصوب على: أحق ذلك حقاً. قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ قرأه الأكثرون بكسر الألف. وقرأت عائشة، وأبو رزين، وعكرمة، وأبو العالية، والأعمش: بفتحها. قال الزجاج: من كسر، فعلى الاستئناف، ومن فتح، فالمعنى: إليه مرجعكم، لأنه يبدأ الخلق. قال مقاتل: يبدأ الخلق ولم يكن شيئاً، ثم يعيده بعد الموت. وأما القسط، فهو العدل. فإن قيل: كيف خصّ جزاء المؤمنين بالعدل، وهو في جزاء الكافرين عادل أيضاً؟ فالجواب: أنه لو جمع الفريقين في القسط، لم يتبين في حال اجتماعهما ما يقع بالكافرين من العذاب الأليم والشرب من الحميم، ففصلهم من المؤمنين ليبين ما يجزيهم به مما هو

(١) «ديوانه» ٣٦١ طبع المكتب الإسلامي، والبيت من قصيدة في مدح بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، يقول بعده:

خلال النسبي المصطفى عند ربه وعثمان والفساروق بمعد أبي بكر

ورواية البيت في الديوان: «طمت على الفخر». والعادي القديم، وطمت: علت.

عدل أيضاً، ذكره ابن الأنباري. فاما الحميم، فهو الماء الحار. وقال أبو عبيدة: كل حار فهو حميم.
﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرُوا مَنَازِلَ لِمَنَاسِلَ عَدَدَ النِّجِينَ وَالْحَسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ إِذْ فِي الْمَكَّةِ اللَّيْلِ وَقَالِ الْفُجَّارُ لَلْآيَةِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ إِنَّ الْآيَةَ لَا يَرُوحَتُ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا فِيهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ لِنَارٍ يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ إِنَّ الْآيَةَ مَأْمُورًا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِالْإِيمَانِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾ دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ وَأَجْرٌ دَعَوْهُمْ أَنْ لِمَسَدٌ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾ قرأ الأكثرون: «ضياء» بهمزة واحدة. وقرأ ابن كثير: «ضياء» بهمزتين في كل القرآن، أي: ذات ضياء. ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ أي: ذات نور. ﴿وَقَدَرُوا مَنَازِلَ﴾ أي: قدر له، فحذف الجار، والمعنى: هيًا ويسر له منازل. قال الزجاج: الهاء ترجع إلى «القمر» لأنه المقدر لعلم السنين والحساب. وقد يجوز أن يعود إلى الشمس والقمر، فحذف أحدهما اختصاراً. وقال الفراء: إن شئت جعلت تقدير المنازل للقمر خاصة، لأن به تعلم الشهور. وإن شئت جعلت التقدير لهما، فاكفني بذكر أحدهما من صاحبه، كقوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرَاحَهُ﴾ [التوبة: ٦٢]. قال ابن قتيبة: منازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً من أول الشهر إلى ثماني وعشرين ليلة، ثم يستمر. وهذه المنازل، هي النجوم التي كانت العرب تنسب إليها الأنواء، وأسماؤها عندهم الشُّرطَان، والبُطَيْن، والثُرَيَّا، والدَّبِيرَان، والهُقَّة، والهَنَعَة، والذُّرَاع، والشَّرَّة، والطَّرَف، والجبهة، والزُّبُرَة، والصَّرْفَة، والعَوَاء، والسَّمَكَ، والعَفْر، والزُّبَانِي، والإكليل، والقلب، والشَّوْطَة، والنعام، والبلدة، وسعد الذَّابِح، وسعد بُلُغ، وسعد السُّعُود، وسعد الأخبية، وقرغ الدُّلُو المقدم، وقرغ الدلو المؤخر، والرَّشَاء وهو الحوت.

قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي للحق، من إظهار صنعه وقدرته والدليل على وحدانيته. ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: «يفصل» بالياء. وقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «نفصل الآيات» بالنون، والمعنى: نُيِّنْهَا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يستدلون بالآمارات على قدرته.
قوله تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ في قولان: أحدهما: يتقون الشرك. والثاني: عقوبة الله. فيكون المعنى: إن الآيات لمن لم يحمله هواه على خلاف ما وضع له من الحق.

قوله تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ قال ابن عباس: لا يخافون البعث. ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ اختاروا ما فيها على الآخرة. ﴿وَاطْمَأَنَّنُوا فِيهَا﴾ آثروها. وقال غيره: ركنوا إليها، لأنهم لا يؤمنون بالآخرة. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها آيات القرآن ومحمد، قاله ابن عباس. والثاني: ما ذكره في أول السورة من صنعه، قاله مقاتل. فاما قوله: ﴿غَافِلُونَ﴾ فقال ابن عباس: مكذبون. وقال غيره: مُعْرِضُونَ. قال ابن زيد: وهؤلاء هم الكفار.
قوله تعالى: ﴿يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ قال مقاتل: من الكفر والتكذيب.

قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِالْإِيمَانِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: يهديهم إلى الجنة ثواباً بإيمانهم. والثاني: يجعل لهم نوراً يمشون به بإيمانهم. والثالث: يزيدهم هدى بإيمانهم. والرابع: يثيبهم بإيمانهم. فاما الهداية، فقد سبقت لهم.
قوله تعالى: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي: تجري بين أيديهم وهم يرونها من علو.

قوله تعالى: ﴿دَعَوْهُمْ فِيهَا﴾ أي: دعاوهم. وقد شرحنا ذلك في أول [الاعراف: ٥]. وفي المراد بهذا الدعاء قولان: أحدهما: أنه استدعاؤهم ما يشتهون. قال ابن عباس: كلما اشتهى أهل الجنة شيئاً، قالوا: ﴿سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾ فيأتيهم ما يشتهون؛ فإذا طعموا، قالوا: ﴿لِمَسَدٌ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فذلك آخر دعاوهم. وقال ابن جريج: إذا مرَّ بهم الطير يشتهونه، قالوا: ﴿سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾ فيأتيهم المَلَكُ بما اشتهو، فيسلم عليهم، فيردون عليه فذلك قوله: ﴿وَنَحْنُ فِيهَا سَلَامٌ﴾. فإذا أكلوا، حمداً ربهم؛ فذلك قوله: ﴿وَأَجْرٌ دَعَوْهُمْ أَنْ لِمَسَدٌ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. والثاني: أنهم إذا أرادوا الرغبة إلى الله تعالى في دعاء يدعو به، قالوا: ﴿سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ فِيهَا سَلَامٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها تحية بعضهم لبعض، وتحية الملائكة لهم، قاله ابن عباس.

والثاني: أن الله تعالى يُحْيِيهِمْ بالسلام. والثالث: أن التحية: المُلْكُ، فالمعنى: مُلْكُهُمْ فيها سالم، ذكرهما الماوردي.
قوله تعالى: ﴿وَأَكْبَرُ دَعْوَتَهُمْ﴾ أي: دعاؤهم وقولهم: ﴿إِنْ أَلْمَزْتُمْ لِرَبِّ الْغَالِبِينَ﴾. قرأ أبو مجلز، وعكرمة، ومجاهد، وابن يعمر، وقتادة، ويعقوب: «أَنَّ الحمد لله» بتشديد النون ونصب الدال. قال الزجاج: أعلم الله أنهم يبتدئون بتعظيم الله وتنزيهه، ويختمون بشكره والثناء عليه. وقال ابن كيسان: يفتحون كلامهم بالتوحيد، ويختمونه بالتوحيد.
﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُتِيَ إِلَهُهُمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ ذكر بعضهم أنها نزلت في النضر بن الحارث حيث قال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [الأنفال: ١٨]. والتعجيل: تقديم الشيء قبل وقته. وفي المراد بالآية قولان: أحدهما: ولو يعجل الله للناس الشر إذا دعوا على أنفسهم عند الغضب وعلى أهلهم، واستعجلوا به كما يعجل لهم الخير، لهلكوا، هذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. والثاني: ولو يعجل الله للكافرين العذاب على كفرهم كما عجل لهم خير الدنيا من المال والولد، لعجل لهم قضاء آجالهم ليتعجلوا عذاب الآخرة، حكاه الماوردي. ويقوي هذا تمام الآية وسبب نزولها. وقد قرأ الجمهور: ﴿لَقُتِيَ إِلَهُهُمْ﴾ بضم القاف ﴿أَجَلُهُمْ﴾ بضم اللام. وقرأ ابن عامر: «لَقُضِيَ» بفتح القاف «أَجَلُهُمْ» بنصب اللام. وقد ذكرنا في أول (سورة البقرة: ١٥) معنى الطغيان والعمه.
﴿وَإِذَا مَنِ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ دَعَا لِحَبِيئِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُشْرَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرْبٍ مِّمَّا كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُتَرَفِّينَ مَا كَانُوا يَمْكُونُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَنِ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في أبي حذيفة، واسمه هاشم بن المغيرة بن عبد الله المخزومي، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أنها نزلت في عتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، قاله عطاء. و«الضرر»: الجهد والشدة. واللام في قوله: ﴿لِحَبِيئِهِ﴾ بمعنى «على». وفي معنى الآية قولان: أحدهما: إذا مسه الضر دعا على جنبه، أو دعا قاعداً، أو دعا قائماً، قاله ابن عباس. والثاني: إذا مسه الضر في هذه الأحوال، دعا، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿كَلَّمَا كَشَفْنَا عَنْهُ غُشْرَهُ مَرَّ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أعرض عن الدعاء، قاله مقاتل. والثاني: مرَّ في العافية على ما كان عليه قبل أن يُتلى، ولم يُعْظَ بما يناله، قاله الزجاج. والثالث: مرَّ طاعياً على ترك الشكر.
قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾ قال الزجاج: «كان» هذه مخففة من الثقيلة، المعنى: كأنه لم يدعنا، قالت الخنساء:

كَأَن لَّمْ يَكُونُوا جَمِيٍّ يُسْقَى
إِذِ النَّاسُ إِذْ ذَاكَ مَنْ عَزَّ بَرًّا^(١)
قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُتَرَفِّينَ﴾ المعنى: كما زَيْن لهذا الكافر الدعاء عند البلاء، والإعراض عند الرِّخاء، كذلك زَيْن للمُسرفين، وهم المجاوزون الحد في الكفر والمعصية، علمهم.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا يَتَّقُونَ﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٦﴾
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ قال مقاتل: هذا تخويف لكفار مكة. والظلم هاهنا بمعنى الشرك. وفي قوله: ﴿وَمَا كَانُوا يَتَّقُونَ﴾ قولان: أحدهما: أنه عائد على أهل مكة، قاله مقاتل. والثاني: على القرون المتقدمة، قاله أبو سليمان. قال ابن الأنباري: ألزهمهم الله ترك الإيمان لمعاندهم الحق وإيثارهم الباطل. وقال الزجاج: جائز أن يكون جعل جزاءهم الطبع على قلوبهم، وجائز أن يكون أعلم ما قد علم منهم.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي﴾ أي: نلقب ونهلك ﴿الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني المشركين من قومك.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ عِبَادًا﴾ قال ابن عباس: جعلناكم يا أمة محمد خلائف، أي: استخلفناكم في الأرض. وقال قتادة: ما جعلنا الله خلائف إلا لينظر إلى أعمالنا، فأروا الله من أعمالكم خيراً بالليل والنهار. ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا نَزَلَتْ بِالزَّبْحِ لَا يُرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتَ بِشِرْهٍ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ فَلَا مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أُتِجَ إِلَّا مَا يُؤْتِي إِلَهِي أَنَا أَنَا إِنَّ عَصِيَّتَ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في المستهزئين بالقرآن من أهل مكة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنها نزلت في مشركي مكة، قاله مجاهد، وقتادة. والمراد بالآيات: القرآن. و«يرجون» بمعنى: يخافون. وفي علّة طلبهم سوى هذا القرآن أو تبديله قولان: أحدهما: أنهم أرادوا تغيير آية العذاب بالرحمة، وآية الرحمة بالعذاب، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم كرهوا منه ذكر البعث والنشور، لأنهم لا يؤمنون به، وكرهوا عيب آلهتهم، فطلبوا ما يخلو من ذلك، قاله الزجاج. والفرق بين تبديله والإتيان بغيره، أن تبديله لا يجوز أن يكون معه، والإتيان بغيره قد يجوز أن يكون معه.

قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ حرك هذه الباء ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأسكنها الباقون. ﴿مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾ حركها نافع، وأبو عمرو؛ وأسكنها الباقون، والمعنى: من عند نفسي، فالمعنى: أن الذي أتيت به من عند الله، لا من عندي فأبدله. ﴿إِنِّي أَنَا أَنَا﴾ فتح هذه الباء ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو. ﴿إِنَّ عَصِيَّتَ رَبِّي﴾ أي: في تبديله أو تغييره ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني في القيامة.

فصل

وقد تكلم علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على ما بيّنا في نظيرتها في [الأنعام: ١٥]. ومقصود الآيتين تهديد المخالفين؛ وأضيف ذلك إلى الرسول ليصعب الأمر فيه.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْهِمْ قُرْآنًا وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿فَنَ أَنْظَرُ وَمَنْ أَقْتَرُ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِفَاتِنَتِهِ إِنَّكُمْ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْهِمْ قُرْآنًا﴾ يعني القرآن؛ وذلك أنه كان لا يُنزل عليّ، فبأمرني بتلاوته عليكم. ﴿وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أي: ولا أعلمكم الله به. قرأ ابن كثير: «ولأدراكم» بلام التوكيد من غير ألف بعدها، يجعلها لأمّا دخلت على «أدراكم». وقرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «أدركم» بالإمالة. وقرأ الحسن، وابن أبي عبيدة، وشيبة بن نصاح: «ولا أدراكنكم» بتاء بين الألف والكاف. ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ وقرأ الحسن، والأعمش: «عُمُرًا» بسكون الميم. قال أبو عبيدة: وفي العمر ثلاث لغات: عمر، وعُمُر، وعُمُر. قال ابن عباس: أقمت فيكم أربعين سنة لا أحدثكم بشيء من القرآن ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أنه ليس من قبلي. ﴿فَنَ أَنْظَرُ وَمَنْ أَقْتَرُ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يريد: إني لم أفتّر على الله ولم أكذب عليه، وأنتم فعلتم ذلك حيث زعمتم أن معه شريكاً. والمجرمون ها هنا: المشركون.

﴿وَيَسْأَلُونَ مِنْ دُورِ اللَّهِ مَا لَا يَشْرَهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَوَّلَاكُمُ شَفَعْنَاهُ عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُتَّبِعُونَ اللَّهَ يَمَا لَا يَمْلِكُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَ مِنْ دُورِ اللَّهِ مَا لَا يَشْرَهُمْ﴾ أي: لا يضرهم إن لم يعبدوه، ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إن عبده، قاله مقاتل، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني المشركين. ﴿هَوَّلَاكُمُ﴾ يعنون الأصنام. قال أبو عبيدة: خرجت كنايةها على لفظ كناية الأدميين. وقد ذكرنا هذا المعنى في [الأعراف: ١٩١] عند قوله: ﴿وَمَنْ يَخْلُقُونَ﴾. وفي قوله: ﴿شَفَعْنَاهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: شفعأونا في الآخرة، قاله أبو صالح عن ابن عباس، ومقاتل. والثاني: شفعأونا في إصلاح معاشنا في الدنيا، لأنهم لا يُقِرُّون بالبعث، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْتُمْ تُؤْتُونَ اللَّهَ يَمَّا لَا يَمْلِكُ﴾ قال الضحاك: أتخبرون الله أنَّ له شريكاً، ولا يعلم الله لنفسه شريكاً في السموات ولا في الأرض.

﴿وَمَا كَانَ الْكَاشِ إِلَّا أَنْتَ وَجِدَهُ فَاخْتَفَوْا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْكَاشِ إِلَّا أَنْتَ وَجِدَهُ فَاخْتَفَوْا﴾ قد شرحنا هذا في سورة [البقرة: ٢١٣] وأحسن الأقوال أنهم كانوا على دين واحد موحدين، فاختلفوا وعبدوا الأصنام، فكان أول من بعث إليهم نوح عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ولولا كلمة سبقت بتأخير هذه الأمة أنه لا يهلكهم بالعذاب كما أهلك الذين من قبلهم، لفضي بينهم بنزول العذاب، فكان ذلك فصلاً بينهم فيما فيه يختلفون من الدين. والثاني: أن الكلمة: أن لكل أمة أجلاً، وللدنيا مدة لا يتقدم ذلك على وقته. والثالث: أن الكلمة: أنه لا يأخذ أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه. وفي قوله: ﴿لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ﴾ قولان: أحدهما: لفضي بينهم بإقامة الساعة. والثاني: بنزول العذاب على المكذبين.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ السَّاعَةِ﴾ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني المشركين ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلاً ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ مثل العصا واليد وآيات الأنبياء. ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن سؤالك: لِمَ لم تنزل الآية؟ غيب، ولا يعلم علّة امتناعها إلا الله. والثاني: أن نزول الآية متى يكون؟ غيب، ولا يعلمه إلا الله.

قوله تعالى: ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ فيه قولان: أحدهما: انتظروا نزول الآية. والثاني: قضاء الله بيننا بإظهار المحقّ على المبطل.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ سَبَتْنَاهُمْ وَإِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْفُرُونَ مَا تَنكَرُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ سبب نزولها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دعا على أهل مكة بالجذب فقهطوا سبع سنين، أنه أبو سفيان، فقال: ادع لنا بالخصب، فإن أخصبنا صدقناك، فدعا لهم، فسقوا ولم يؤمنوا، ذكره الماوردي. قال المفسرون: المراد بالناس هاهنا: الكفار. وفي المراد بالرحمة والضراء ثلاثة أقوال: أحدها: أن الرحمة: العافية والسرور، والضراء: الفقر والبلاء، قاله ابن عباس. والثاني: الرحمة: الإسلام، والضراء: الكفر، وهذا في حق المنافقين، قاله الحسن. والثالث: الرحمة: الخصب، والضراء: الجذب، قاله الضحاك. وفي المراد بالمكر هاهنا أربعة أقوال: أحدها: أنه الاستهزاء والتكذيب، قاله مجاهد، ومقاتل. والثاني: أنه الجحود والرد، قاله أبو عبيدة. والثالث: أنه إضافة النعم إلى غير الله، فيقولون: شقينا بنوء كذا، قاله مقاتل بن حيان. والرابع: أن المكر: النفاق، لأنه إظهار الإيمان وإبطان الكفر، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي: جزاء على المكر. ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ يعني الحفظة ﴿يَكْفُرُونَ مَا تَنكَرُونَ﴾ أي: يحفظون ذلك لمجازاتهم عليه. وقرأ يعقوب إلا رويساً وأبا حاتم، وأبان عن عاصم: «يمكرون» بالياء.

﴿هُوَ الَّذِي يَسِيرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتَ فِي فَكٍّ وَمَجْرَبٍ يَرِيحُ مَتَوَيْتٍ وَقَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَلَمُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ قلنا أجابهم إذا هم يستغوثون في الأرض بمصر الحَيِّ بِأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَثْنَاهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَنَعَ الْعَبِيدَ الَّذِينَ نَزَّلْنَا رَحْمَتَنَا فَتَنَّاكُمْ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَسِيرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتَ فِي فَكٍّ وَمَجْرَبٍ يَرِيحُ مَتَوَيْتٍ﴾ أي: الله الذي هو أسرع مكرًا، هو الذي يسيركم ﴿فِي الْبَرِّ﴾ على الدواب، وفي البحر على السفن، فلو شاء انتقم منكم في البر أو في البحر. وقرأ ابن عامر، وأبو جعفر: «ينشركم» بالنون والشين من النشر، وهو في المعنى مثل قوله: ﴿وَرَبُّهَا يَحَالَا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٢٢]. والفلك: السفن. قال الفراء: الفلك تذكّر وتؤنث، وتكون واحدة وتكون جمعاً، قال تعالى هاهنا: ﴿جَاءَتْهَا﴾ فأنث، وقال في لسان: [٤١] ﴿فِي الْفُلِكِ الشَّحُونُ﴾ فذكر.

قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ عاد بعد المخاطبة لهم إلى الإخبار عنهم. قال الزجاج: كل من أقام الغائب مقام مَنْ يخاطبه جاز أن يرده إلى الغائب، قال الشاعر:

شَطَّطَ مَزَارُ العاشقين فأصبح

عَسِيراً علي طلائِك ابنة مَخْرَم^(١)

قوله تعالى: ﴿رِيحٌ مَّطِيَّةٌ﴾ أي: لينة. ﴿وَفَرَحُوا بِهَا﴾ لئليها. ﴿جَاءَتْهَا﴾ يعني الفلك. قال الفراء: وإن شئت جعلتها للريح، كأنك قلت: جاءت الريح الطيبة ريح عاصف، والعرب تقول: عاصف وعاصفة، وقد عصفت الريح وأعصفت، والألف لغة لبني أسد. قال ابن عباس: الريح العاصف: الشديدة. قال الزجاج: يقال: عصفت الريح، فهي عاصف وعاصفة، وأعصفت، فهي معصف ومعصفة. ﴿رِيحَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: من كل أمانة الموج.

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه بمعنى اليقين. والثاني: أنه التوهم. وفي قوله: ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾ قولان: أحدهما: دنوا من الهلكة. قال ابن قتيبة: وأصل هذا أن العدو إذا أحاط ببلد، فقد دنا أهله من الهلكة. وقال الزجاج: يقال لكل من وقع في بلاء: قد أحيط بفلان، أي: أحاط به البلاء. والثاني: أحاطت بهم الملائكة، ذكره الزجاج.

قوله تعالى: ﴿دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ دون أولئهم. قال ابن عباس: تركوا الشرك، وأخلصوا لله الربوبية، وقالوا: ﴿لَيْنَ أَجِينَا مِنْ هَٰذِهِ﴾ الريح العاصف ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: الموحدين.

قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ البغي: الترامي في الفساد. قال الأصمعي: يقال: بغى الجرح: إذا ترامى إلى فساد. قال ابن عباس: يبعثون في الأرض بالدعاء إلى عبادة غير الله والعمل بالمعاصي والفساد. ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ يعني أهل مكة. ﴿إِنَّمَا بِقَيْكُم مَّا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: جناية مظالمكم بينكم على أنفسكم. وقال الزجاج: عملكم بالظلم عليكم يرجع.

قوله تعالى: ﴿مَتَّعَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا﴾ قرأ ابن عباس، وأبو رزين، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، وحفص، وأبان عن عاصم: ﴿مَتَّعَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا﴾ بنصب المتاع. قال الزجاج: من رفع المتاع، فالمعنى أن ما تنالونه بهذا البغي إنما تتفنون به في الدنيا، ومن نصب المتاع، فعلى المصدر. فالمعنى: تمتعون متاع الحياة الدنيا. وقرأ أبو المتوكل، واليزيدي في اختياره، وهارون العتكي عن عاصم: ﴿متاع الحياة﴾ بكسر العين. قال ابن عباس: ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ أي: منفعة في الدنيا.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنْ سَّمَاءٍ فَتَخَلَّتْ بِهِ تَبَٰثُ الْأَرْضُ وَمِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَرُكْبَتُهَا أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىٰهَا أَنَّهُمْ أَمْرًا يُلَٰئِلُ أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَقَعْ إِلَّا مِثْقَالَ أَلْفِ نَفْسٍ يَنْفَكُّونَ ۚ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنْ سَّمَاءٍ﴾ هذا مثل ضربه الله للدنيا الفانية، فشيها بمطر نزل من السماء ﴿فَتَخَلَّتْ بِهِ تَبَٰثُ الْأَرْضُ﴾ يعني التفت النبات بالمطر، وكثر ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ من الحبوب وغيرها ﴿وَالْأَنْعَامُ﴾ من المرعى. ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ قال ابن قتيبة: زينتها بالنبات. وأصل الزخرف: الذهب، ثم يقال لل نقش والنور والزهو وكل شيء زُيِّنَ زخرف. وقال الزجاج: الزخرف: كمال حسن الشيء.

قوله تعالى: ﴿وَأَزَيَّنَّتْ﴾ قرأ الجمهور «وازينت» بالتشديد. وقرأ سعد بن أبي وقاص، وأبو عبد الرحمن، والحسن، وابن يعمر: بفتح الهمزة وقطعها ساكنة الزاي، على وزن: وَأَفْعَلْتُ. قال الزجاج: من قرأ «وَأَزَيَّنَّتْ» بالتشديد، فالمعنى: وتزينت، فأدغمت التاء في الزاي، وأسكنت الزاي فاجتلبت لها ألف الوصل؛ ومن قرأ «وَأَزَيَّنَّتْ» بالتخفيف على أفعلت، فالمعنى: جاءت بالزينة. وقرأ أبي، وابن مسعود: «وتزيَّنت».

قوله تعالى: ﴿وَرُكْبَتُهَا أَهْلُهَا﴾ أي: أيقن أهل الأرض ﴿أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىٰهَا﴾ أي: على ما أنبتته، فأخبر عن الأرض، والمراد النبات، لأن المعنى مفهوم. ﴿أَنَّهُمْ أَمْرًا﴾ أي: قضاؤنا بإهلاكها ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ أي: محصوداً لا شيء فيها، والحصيد: المقطوع المستأصل. ﴿كَأَن لَّمْ تَقَعْ إِلَّا مِثْقَالَ أَلْفِ نَفْسٍ﴾ قال الزجاج: لم تعمر. والمغاني: المنازل التي

يعمرها الناس بالنزول فيها. يقال: غَنَيْنَا بِالْمَكَانِ: إِذَا نَزَلُوا بِهِ. وقرأ الحسن: «كَانَ لَمْ يَغْنَرْ» بالياء، يعني الحصيد. قال بعض المفسرين: تأويل الآية: أن الحياة في الدنيا سبب لاجتماع المال وما يروق من زهرة الدنيا ويعجب، حتى إذا استتم ذلك عند صاحبه، وظن أنه ممتّع بذلك، سلب عنه بموته، أو بحادثة تهلكه، كما أن الماء سبب لالتفاف النبات وكثرته، فإذا تزئنت به الأرض، وظن الناس أنهم مستمتعون بذلك، أهلكه الله، فعاد ما كان فيها كأن لم يكن.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّكِينِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ لَكَ مَرْجَئٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّكِينِ﴾ يعني الجنة. وقد ذكرنا معنى تسميتها بذلك عند قوله: ﴿لَكُمْ دَارُ السَّكِينِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧]. واعلم أن الله عَمَّ بالدعوة، وخصَّ بالهداية من شاء، لأن الحكم له في خلقه. وفي المراد بالصراف المستقيم أربعة أقوال: أحدها: كتاب الله، رواه عليٌّ عن النبي ﷺ^(١). والثاني: الإسلام، رواه الثَّوَالِيسُ بن سمعان عن النبي ﷺ^(٢). والثالث: الحق، قاله مجاهد، وقناة. والرابع: المخرج من الضلالات والشُّبُه، قاله أبو العالية.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ قال ابن عباس: قالوا: لا إله إلا الله. قال ابن الأنباري: الحسنى: كلمة مستغنى عن وصفها ونعتها، لأن العرب توقعها على الخَلَّة المحبوبة المرغوب فيها المفروح بها، فكان الذي تعلمه العرب من أمرها يغني عن نعتها، فكَذَلِكَ المزيّد عليها محمول على معناها ومتعرّف من جهتها، يدل على هذا قول امرئ القيس:

فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْحَدِيثَ وَأَسْمَحْتَ هَضَرْتُ بِغَصْنِ ذِي شَمَارِيخٍ مَيَّالٍ^(٣)
فَصَرَفْنَا إِلَى الْحُسْنَىٰ وَرَوَّ قَلَامُنَا وَرُضْتُ فذلَّتْ صَغْبَةً أَيْ إِذْلال

أي: إلى الأمر المحبوب. وهضرت بمعنى مدت. والغصن كناية عن المرأة. والباء مؤكدة للكلام، كما تقول العرب: ألقى بيده إلى الهلاك، يريدون: ألقى يده. والشماريخ كناية عن الذوائب. ورضت، معناه: أذلت. ومن أجل هذا قال: أي إذلال، ولم يقل: أي رياضة. وللمفسرين في المراد بالحسنى خمسة أقوال: أحدها: أنها الجنة، روي عن رسول الله ﷺ^(٤)، وبه قال الأكثرون. والثاني: أنها الواحدة من الحسنات بواحدة، قاله ابن عباس. والثالث: النصر، قاله عبد الرحمن بن سابط. والرابع: الجزء في الآخرة، قاله ابن زيد. الخامس: الأمانة، ذكره ابن الأنباري. وفي الزيادة ستة أقوال: أحدها: أنها النظر إلى الله ﷻ. روى مسلم في «صحيحه» من حديث صهيب عن النبي ﷺ أنه قال: «الزيادة: النظر إلى وجه الله عزّ جلّ»^(٥). وبهذا القول قال أبو بكر الصديق، وأبو موسى

(١) «الطبري» ١٧١/١ - ١٧٢ عن علي مرفوعاً، وإسناده ضعيف جداً. وقد خرج ابن كثير في «تفسيره» ٢٧/١ من رواية ابن أبي حاتم عن علي مرفوعاً، بسند ضعيف أيضاً، وخرجه السيوطي في «الدر» ١٥/١ عن علي مرفوعاً، وزاد نسبه لابن أبي شيبة، والترمذي وضعفه، وابن الأنباري في «المصاحف»، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب»، ومداره على الحارث الأعور، قال الحافظ ابن كثير في «الفضائل» ٥: وقد تكلموا فيه، بل قد كذب بعضهم من جهة رأيه واعتقاده، أما أنه تعمد الكذب في الحديث فلا، وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي ﷺ، وقد وهم بعضهم في رفعه.

(٢) «الطبري» ١٧٦/١، وخرجه أحمد في «المسند» ١٨٢/٤ - ١٨٣، ونقله ابن كثير ٢٧/١ من رواية «المسند»، وقال: وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، من حديث الليث بن سعد به، ورواه الترمذي، والنسائي جميعاً عن علي بن حجر، عن بقية، عن جبير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن جبير بن نفير، عن الثَّوَالِيسُ بن سمعان به، وهو إسناده حسن صحيح. وذكره السيوطي في «الدر» ١٥/١، وزاد نسبه لابن المنذر، وأبي الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب» عن الثَّوَالِيسُ بن سمعان مرفوعاً، ونص الحديث: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنيتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط حاج يدهو يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تموجوا. وداع يدهو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محامد الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم».

(٣) ديوانه: ٣٢. وقوله: تنازعنا الحديث، أي: حدثتني وحدثتها، وأصله من التزوع بالدلو، وهو جلبها. ومعنى أسمحت: انقادت وسهلت بعد صعوبتها وامتاعها.

(٤) «الطبري» ٦٥/١٥ بسند ضعيف جداً، وذكره ابن كثير ٤١٤/٢ من رواية ابن أبي حاتم بسنده، وخرجه السيوطي في «الدر» ٣٠٥/٣ وزاد نسبه للدارقطني في الروية، وابن مردويه.

(٥) الحديث في «مسلم» ١٦٣/١ ولفظه: عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ». ورواه أحمد =

الأشعري، وحذيفة، وابن عباس، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، والسدي، ومقاتل. والثاني: أن الزيادة: غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب، رواه الحكم عن علي، ولا يصح^(١). والثالث: أن الزيادة: مضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها، قاله ابن عباس، والحسن. والرابع: أن الزيادة: مغفرة ورضوان، قاله مجاهد. الخامس: أن الزيادة: أن ما أعطاهم في الدنيا لا يحاسبهم به في القيامة، قاله ابن زيد. والسادس: أن الزيادة: ما يشتهونه، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾ أي: لا يغشى ﴿وُجُوهُهُمْ قَتَرٌ﴾ وقرأ الحسن، وقتادة، والأعمش: «قَتَرٌ» بإسكان التاء، وفيه أربعة أقوال: أحدها: أنه السواد. قال ابن عباس: سواد الوجوه من الكآبة. وقال الزجاج: القتر: الغبرة التي معها سواد. والثاني: أنه دخان جهنم، قاله عطاء. والثالث: الخزي، قاله مجاهد. والرابع: الغبار، قاله أبو عبيدة. وفي اللذة قولان: أحدهما: الكآبة، قاله ابن عباس. والثاني: الهوان، قاله أبو سليمان.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَبْتَغِيهَا وَرَهَقُهُمْ ذُلٌّ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّا أَفْشَيْتَ وَجُوهُهُمْ قَطْعًا مِنْ أَيْلٍ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ قال ابن عباس: عملوا الشر. ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَبْتَغِيهَا﴾ في الآية محذوف، وفي تقديره قولان: أحدهما: أن فيها إضمار «لهم»، المعنى: لهم جزاء سيئة بمثلها، وأنشد ثعلب:

فَإِنْ سَأَلَ الْوَاشُونَ عَنْهُ فَقُلْ لَهُمْ
مُلِيمٌ بَلَّيْلَى لَمَّةٌ ثُمَّ إِنَّهُ
أَرَادَ هُوَ مُلِيمٌ، وهذا قول الفراء.

والثاني: أن فيها إضمار «منهم»، المعنى: جزاء سيئة منهم بمثلها، تقول العرب: رأيت القوم صائم وقائم، أي: منهم صائم وقائم، أنشد الفراء:

حَتَّى إِذَا مَا أَضَاءَ الضُّبْحُ فِي غَلَسِ
وَعُوذَ الْبَقْلُ مَلُويٍّ وَمَخْصُودُ

أي: منه ملوي، وهذا قول ابن الأنباري. وقال بعضهم: الباء زائدة هاهنا، و «من» في قوله: ﴿مِنْ عَاصِرٍ﴾ صلة، والعاصم: المانع. ﴿كَأَنَّا أَفْشَيْتَ وَجُوهُهُمْ﴾ أي: ألبست: ﴿قَطْعًا﴾ قرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وأبو عمرو، وحمزة: «قَطْعًا» مفتوحة الطاء، وهي جمع قطعة. وقرأ ابن كثير، والكسائي، ويعقوب: «قَطْعًا» بتسكين الطاء. قال ابن قتيبة: وهو اسم ما قُطِع. قال ابن جرير: وإنما قال: «مُظْلِمًا» ولم يقل: «مُظْلِمَةٌ» لأن المعنى: قطعاً من الليل المظلم، ثم حذفت الألف واللام من «المظلم»، فلما صار نكرة، وهو من نعت الليل، نُصِبَ عَلَى الْقَطْعِ؛ وقوم يسمون ما كان كذلك حالاً، وقوم قطعاً.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَرِيقًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَكُمْ فَالَّذِينَ أَشْرَكُوا كَانُوا كَالْحِجَابِ رَحِيلُهُمْ فَعَلَّمُوا﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ قال ابن عباس: يُجْمَعُ الْكُفَّارُ وَالْكَهْتَمُ. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ﴾ أي: ألهتكم. قال الزجاج: «مكانكم» منصوب على الأمر، كأنهم قيل لهم: انتظروا مكانكم حتى نفصل بينكم، والعرب تتوعد فتقول: مكانك، أي: انتظر مكانك، فهي كلمة جرت على الوعيد.

قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا بَيْنَهُمْ﴾ وقرأ ابن أبي عتبة: «فرايقلنا» بآلف، قال ابن عباس: فرّقنا بينهم وبين ألهتهم. وقال

= ٣٣٣/٤ و ١٦/٦، وخرجه السيوطي في «الدرر» ٣٠٥/٣ وزاد نسبه للطائسي، وهناد، والترمذي، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، والدارقطني في الروية، وابن مردويه، والبيهقي في «الأسماء والصفات». واللفظ الذي ساقه المؤلف «الزيادة: النظر إلى وجه الله ﷻ» ذكره السيوطي من رواية الدارقطني، وابن مردويه عن صهيب.

(١) «الطبري» ٦٩/١٥ عن الحكم بن عتيبة، عن علي، وهو ضعيف لإرساله، وخرجه السيوطي في «الدرر» ٣٠٦/٣ من طريق الحكم بن عتيبة عن علي، وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، والبيهقي في الروية.

وفي آخر السورة كذلك. وقرأ نافع، وابن عامر الحرفين «كلمات» على الجمع. قال الزجاج: الكاف في موضع نصب، أي: ويثل أفعالهم جازاهم ربك، والمعنى: حق عليهم أنهم لا يؤمنون. وقوله: «أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» بدل من «كُنْتُ رَبِّكَ» وجائز أن تكون الكلمة حقت عليهم لأنهم لا يؤمنون، وتكون الكلمة ما وعدوا به من العقاب. وذكر ابن الأنباري في «كذلك» قولين: أحدهما: أنها إشارة إلى مصدر «تُصرفون»، والمعنى: مثل ذلك الصرف حقت كلمة ربك. والثاني: أنه بمعنى هكذا. وفي معنى «حقت» قولان: أحدهما: وجبت. والثاني: سبقت. وفي كلمته قولان: أحدهما: أنها بمعنى وعده. والثاني: بمعنى قضائه. ومن قرأ «كلمات» جعل كل واحدة من الكلم التي توعدوا بها كلمة. وقد شرحنا معنى الكلمة في [الأعراف: ١٣٧ و ١٥٨].

قوله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أي: إلى الحق.

قوله تعالى: ﴿أَنَّنِي لَا يَهْدِي﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وورش عن نافع «يَهْدِي» بفتح الياء والهاء وتشديد الدال. قال الزجاج: الأصل يهتدي، فادغمت التاء في الدال، فطرحت فتححتها على الهاء. وقرأ نافع إلا ورشاً، وأبو عمرو: «يَهْدِي» بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال، غير أن أبا عمرو كان يُثِم الهاء شيئاً من الفتح. وقرأ حمزة، والكسائي: «يَهْدِي» بفتح الياء وسكون الهاء وتخفيف الدال. قال أبو علي: والمعنى: لا يهدي غيره إلا أن يَهْدِي هو، ولو هَدَى الضَّمُّ لم يَهْدِ، ولكن لما جعلوها كمن يعقل، أجريت مجراه. وروى يحيى بن آدم عن أبي بكر عن عاصم: «يَهْدِي» بكسر الياء والهاء وتشديد الدال، وكذلك روى أبان وجبله عن المفضل وعبد الوارث، قال الزجاج: أتبعوا الكسرة الكسرة، وهي رديئة لثقل الكسرة في الياء. وروى حفص عن عاصم، والكسائي عن أبي بكر عنه: «يَهْدِي» بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال، قال الزجاج: وهذه في الجودة كالمفتوحة الهاء، إلا أن الهاء كُسرت لالتقاء الساكنين. وقرأ ابن السميع: «يهتدي» بزيادة تاء. والمراد بقوله: ﴿أَنَّنِي لَا يَهْدِي﴾ الصم ﴿إِلَّا أَن يَهْدِي﴾. وظاهر الكلام يدل على أن الأصنام إن هديت اهتدت، وليست كذلك، لأنها حجارة لا تهتدي، إلا أنهم لما اتخذوها آلهة، عبر عنها كما يعبر عن من يعقل، ووصفت صفة من يعقل وإن لم تكن في الحقيقة كذلك؛ ولهذا المعنى قال في صفتها: ﴿أَنَّنِي﴾ لأنهم جعلوها كمن يعقل. ولما أعطاهما حقها في أصل وضعها، قال: ﴿يَتَأْتِي لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ [سرم: ٤٢]. وقال الفراء: ﴿أَنَّنِي لَا يَهْدِي﴾ أي: أتعبدون ما لا يقدر أن ينتقل من مكانه إلا أن يحول؟ وقد صرف بعضهم الكلام إلى الرؤساء والمضلين، والأول أصح.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ﴾ قال الزجاج: هو كلام تام، كأنه قيل لهم: أي شيء لكم في عبادة الأوثان؟ ثم قيل لهم: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: على أي حال تحكمون؟ وقال ابن عباس: كيف تقضون لأنفسكم؟ وقال مقاتل: كيف تقضون بالجور؟

﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَقْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: كلهم ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: ما يستيقنون أنها آلهة، بل يظنون شيئاً فيُعبون. ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يَقْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي: ليس هو كاليقين، ولا يقوم مقام الحق. وقال مقاتل: ظنهم بأنها آلهة لا يدفع عنهم من العذاب شيئاً، وقال غيره: ظنهم أنها تشفع لهم لا يغني عنهم.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَقْرَأَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ قَصْدِيقٌ إِلَى رَبِّكَ وَقَفَصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَبَّ فِئَةٍ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَقْرَأَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال الزجاج: هذا جواب قولهم: ﴿أَنْتَ يَشْرَهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا أَوْ يَذَلُّهُ﴾ [يونس: ١٥] وجواب قولهم: ﴿أَقْرَبَهُ﴾ [الفرقان: ٤]. قال الفراء: ومعنى الآية: ما ينبغي لمثل هذا القرآن أن يفترى من دون الله، فجاءت «أن» على معنى ينبغي. وقال ابن الأنباري: يجوز أن تكون «أن» مع «يفترى» مصدرًا، وتقديره: وما كان هذا القرآن افتراءً. ويجوز أن تكون «كان» تامة، فيكون المعنى: ما نزل هذا القرآن، وما ظهر هذا القرآن لأن يفترى، ويأن يفترى، فتنصب «أن» بفقد الخافض في قول الفراء، وتخفص بإضمار الخافض في قول الكسائي. وقال ابن قتيبة: معنى «أَنْ يَقْرَأَ» أي: يضاف إلى غير الله، أو يُختلق.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ صَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه تصديق الكتب المتقدمة، قاله ابن عباس. فعلى هذا، إنما قال: ﴿الَّذِي﴾ لأنه يريد الوحي. والثاني: ما بين يديه من البعث والنشور، ذكره الزجاج. والثالث: تصديق النبي ﷺ الذي بين يدي القرآن، لأنهم شاهدوا النبي ﷺ وعرفوه قبل سماعهم القرآن، ذكره ابن الأنباري. قوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ أي: وبيان الكتاب الذي كتبه الله على أمة محمد ﷺ والفرائض التي فرضها عليهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَزَّلَهُ قُلُوبُ قَاتِلِائِ بِسُورَةٍ يَنْزِلُهُ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَفْتَيْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٧٨)

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَزَّلَهُ قُلُوبُ قَاتِلِائِ بِسُورَةٍ يَنْزِلُهُ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَفْتَيْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في «أم» قولان: أحدهما: أنها بمعنى الواو، قاله أبو عبيدة. والثاني: بمعنى بل، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿قَاتِلِائِ بِسُورَةٍ يَنْزِلُهُ﴾ قال الزجاج: المعنى: فاتوا بسورة مثل سورة منه، فذكر المثل لأنه إنما التمس شبه الجنس، ﴿وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَفْتَيْتُمْ﴾ ممن هو في التكذيب مثلكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه اختلقه.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِإِلَهِهِ وَلَكِنَّا بِأَنَّهُمْ يُؤَيِّلُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (١٧٩)

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِإِلَهِهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن المعنى: بما لم يحيطوا بعلم ما فيه ذكر الجنة والنار والبعث والجزاء. والثاني: بما لم يحيطوا بعلم التكذيب به، لأنهم شاكون فيه. وفي قوله: ﴿وَلَكِنَّا بِأَنَّهُمْ يُؤَيِّلُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ قولان: أحدهما: تصديق ما وعدوا به من الوعيد. والتأويل: ما يؤول إليه الأمر. والثاني: ولم يكن معهم علم تأويله، قاله الزجاج. قيل لسفيان بن عيينة: يقول الناس: كل إنسان عدو ما جهل، فقال: هذا في كتاب الله. قيل: أين؟ فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِإِلَهِهِ﴾. وقيل للحسين بن الفضل: هل تجد في القرآن: من جهل شيئاً عاداه؟ فقال: نعم، في موضعين: قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِإِلَهِهِ﴾ وقوله: ﴿وَرَأَوْا لَمْ يَهْتَدُوا بِهِمْ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَافُ قَوْمِهِمْ﴾ [الاحقاف: ١١].

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِمْ وَرَكَعُ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (١٨٠)

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِمْ﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم اليهود، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: قريش، قاله مقاتل بن سليمان. وفي هاء «به» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى محمد ﷺ ودينه، قاله مقاتل. والثاني: إلى القرآن، قاله أبو سليمان الدمشقي. وهذه الآية تضمنت الإخبار عما سبق في علم الله، فالمعنى: ومنهم من يؤمن به. وقال الزجاج: منهم من يعلم أنه حق فيصدق به ويعانده فيظهر الكفر. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِمْ﴾ أي: يشك ولا يصدق.

قوله تعالى: ﴿وَرَكَعُ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ قال عطاء: يريد المكذبين، وهذا تهديد لهم.

﴿وَلَنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِّعُونَ مِمَّا عَمَلْتُمْ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨١)

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ﴾ الآية. قال أبو صالح عن ابن عباس: نسختها آية السيف؛ وليس هذا بصحيح، لأنه لا تنافي بين الآيتين.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٨٢)

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: في يهود المدينة، كانوا يأتون رسول الله ويستمعون القرآن فيعجبون ويشتبهونه ويغلب عليهم الشقاء، فنزلت هذه الآية. والثاني: أنها نزلت في المستهزئين، كانوا يستمعون إلى النبي ﷺ للاستهزاء والتكذيب، فلم يتفصوا، فنزلت فيهم هذه الآية، والقولان مرويان عن ابن عباس. والثالث: أنها نزلت في مشركي قريش، قاله مقاتل. قال الزجاج: ظاهرهم ظاهر من يستمع، وهم لشدة عداوتهم بمنزلة الصم. ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: ولو كانوا مع ذلك جهالاً. وقال ابن عباس: يريد أنهم شر من الصم، لأن الصم لهم عقول وقلوب، وهؤلاء قد أصم الله قلوبهم.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٨٣)

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ قال ابن عباس: يريد متعجبين منك. ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الصُّمَّ﴾ يريد أن الله

أعمى قلوبهم فلا يبصرون. وقال الزجاج: ومنهم من يُقبل عليك بالنظر، وهو من بغضه لك وكرهته لما يرى من آياتك كالأعمى. وقال ابن جرير: ومنهم من يستمع قولك وينظر إلى حججك على نُبوتك، ولكن الله قد سلبه التوفيق. وقال مقاتل: و «لو» في الآيتين بمعنى «إذا».

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسُ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ٤٤

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ لما ذكر الذين سبق القضاء عليهم بالشقاوة، أخبر أن تقدير ذلك عليهم ليس بظلم، لأنه يتصرف في ملكه كيف شاء، وهم إذا كسبوا المعاصي فقد ظلموا أنفسهم بذلك، لأن الفعل منسوب إليهم، وإن كان بقضاء الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «ولكن الناس» بتخفيف النون وكسرهما، ورفع الاسم بعدها.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانَ لَرُبِّهِمْ شَأْنُ السَّاعَةِ مِنَ النَّهَارِ يَتَفَارِقُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خِیرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ٤٥

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ﴾ وقرأ حمزة: «يحشرهم» بالياء. قال أبو سليمان الدمشقي: هم المشركون. قوله تعالى: ﴿كَانَ لَرُبِّهِمْ شَأْنُ السَّاعَةِ مِنَ النَّهَارِ﴾ فيه قولان: أحدهما: كأن لم يلبثوا في قبورهم، قاله ابن عباس. والثاني: في الدنيا، قاله مقاتل. قال الضحاك: قصر عندهم مقدار الوقت الذي بين موتهم وبعثهم، فصار كالساعة من النهار، لهول ما استقبلوا من القيامة.

قوله تعالى: ﴿يَتَفَارِقُونَ بَيْنَهُمْ﴾ قال ابن عباس: إذا بُعثوا من القبور تعارفوا، ثم تنقطع المعرفة. قال الزجاج: وفي معرفة بعضهم بعضاً، وعلم بعضهم بإضلال بعض، التوبيخ لهم، وإثبات الحجة عليهم. وقيل: إذا تعارفوا وبَّخ بعضهم بعضاً، فيقول هذا لهذا: أنت أضللتني، وكسبتني دخول النار.

قوله تعالى: ﴿قَدْ خِیرَ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ هو من قول الله تعالى، لا من قولهم، والمعنى: خسروا ثواب الجنة إذ كذبوا بالبعث ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ من الضلالة.

﴿وَأَمَّا رَبُّكَ بِعَاقِبَةِ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ فَاِتِنَا مَرْجُمَهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ ٤٦ ﴿لَا يَكْفِيكَ أَنْتَ رَسُولٌ إِذَا جَاءَكَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلِمُونَ﴾ ٤٧

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا رَبُّكَ بِعَاقِبَةِ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ﴾ قال المفسرون: كانت وقعة بدر مما أراه الله في حياته من عذابهم. ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ بعد الموت، والمعنى: إن لم تنتقم منهم عاجلاً، انتقمنا أجلاً.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب. قال الفراء: «ثم» هاهنا عطف، ولو قيل: معناها: هناك الله شهيد، كان جائزاً. وقال غيره: «ثم» هاهنا بمعنى الواو. وقرأ ابن أبي عتبة: «ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ بفتح الثاء، يراد به: هنالك الله شهيد».

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: إذا جاء في الدنيا بعد الإذن له في دعائهم، قضى بينهم بتعجيل الانتقام منهم، قاله الحسن. وقال غيره: إذا جاءهم في الدنيا، حُكم عليهم عند اتباعه وخلافه بالطاعة والمعصية. والثاني: إذا جاء يوم القيامة، قاله مجاهد. وقال غيره: إذا جاء شاهداً عليهم. والثالث: إذا جاء في القيامة وقد كذبوه في الدنيا، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ فيه قولان: أحدهما: بين الأمة، فأتى المحسن وعوقب المسيء. والثاني: بينهم وبين نبيهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٤٨

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ في الفائلين هذا قولان: أحدهما: الأمم المتقدمة، أخبر عنهم باستعجال العذاب لأنبيائهم، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم المشركون الذين أنذرهم نبينا ﷺ، قاله أبو سليمان. وفي المراد بالوعد قولان: أحدهما: العذاب، قاله ابن عباس. والثاني: قيام الساعة. ﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنت وأتباعك.

﴿قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا إِلَهٌ يَنفُسِي صُرّاً وَلَا نَفْساً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْتُكُمْ بِعَذَابٍ بَيْنَا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ٥٠﴾ أُنْزِلَ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْسَنُمْ بِهِ ۚ أَلَمْ يَكُنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُعْزِرُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ الآية، قد ذكرت تفسيرها في آيتين من [الأعراف: ٣٤ و ١٨٨].

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَيْتُكُمْ بِعَذَابٍ بَيْنَا﴾ قال الزجاج: البيات: كل ما كان بليلاً. وقوله: ﴿مَاذَا﴾ في موضع رفع من جهتين: إحداهما: أن يكون «ذا» بمعنى الذي، المعنى: ما الذي يستعجل منه المجرمون؟ ويجوز أن يكون «ماذا» اسماً واحداً، فيكون المعنى: أي شيء يستعجل منه المجرمون؟ والهاء في «منه» تعود على العذاب. وجائز أن تعود على ذكر الله تعالى، فيكون المعنى: أي شيء يستعجل المجرمون من الله تعالى؟ وعودها على العذاب أجود، لقوله: ﴿أُنْزِلَ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْسَنُمْ بِهِ ۚ﴾. وذكر بعض المفسرين أن المراد بالمجرمين: المشركون، وكانوا يقولون: نكذب بالعذاب ونستعجله، ثم إذا وقع العذاب أمانا به؛ فقال الله تعالى موثقاً لهم: ﴿أُنْزِلَ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْسَنُمْ بِهِ ۚ﴾ أي: هنالك تؤمنون فلا يُقبل منكم الإيمان، ويقال لكم: الآن تؤمنون؟ فاضمر: تؤمنون به مع «أَلَمْ يَكُنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ» مستهزئين، وهو قوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: كفروا، عند نزول العذاب ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾، لأنه إذا نزل بهم العذاب، أفضوا منه إلى عذاب الآخرة الدائم.

﴿وَيَسْتَفِئُونَ أَحَقَّ هُوَ قُلْ إِي وَرَوِّ لَكُمْ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ٥٣﴾ قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفِئُونَ أَحَقَّ هُوَ﴾ أي: ويستخبرونك «أَحَقَّ هُوَ» يعنون البعث والعذاب. ﴿قُلْ إِي﴾ المعنى: نعم «وَرَوِّ»، وفتح هذه الياء نافع، وأبو عمرو. وإنما أقسم مع إخباره تأكيداً. وقال ابن قتيبة: «إِي» بمعنى «بل» ولا تأتي إلا قبل اليمين صلة لها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ قال ابن عباس: بسابقين. وقال الزجاج: لستم ممن يُعجز أن يجازى على كفره.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۚ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٥٥﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ قال ابن عباس: أشركت. ﴿مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۚ﴾ عند نزول العذاب. ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾ يعني: الرؤساء أخفوها من الأتباع. ﴿وَفُتِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الفريقين. وقال آخرون منهم أبو عبيدة والمفضل: «أسروا الندامة» بمعنى أظهروا، لأنه ليس بيوم تصنع ولا تصبر، والإسراء من الأضداد؛ يقال: أسررت الشيء، بمعنى: أخفيته. وأسررته: أظهرته، قال الفرزدق:

ولما رأى الحجاج جرد سيفه
أسرَّ الحروري الذي كان أضمر^(١)

يعني: أظهر. فعلى هذا القول: أظهروا الندامة عند إحراق النار لهم، لأن النار ألهمتهم عن التصنع والكتمان. وعلى الأول: كتموها قبل إحراق النار إياهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ قال ابن عباس: ما وعد أولياءه من الثواب، وأعداءه من العقاب. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني المشركين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشَقَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ٥٦﴾ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ قال ابن عباس: يعني قريشاً. ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ﴾ يعني القرآن. ﴿وَشَقَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: دواء لداء الجهل. ﴿وَهُدًى﴾ أي: بيان من الضلالة.

(١) البيت في «أضداد الأصمعي» ٢١، و«أضداد السجستاني» ١٥١، و«أضداد ابن السكيت» ١٧٦، و«أضداد ابن الأنباري» ١٤٦، و«أضداد أبي الطيب» ٣٥٣، و«اللسان» و«التاج»: سرر، منسوباً فيها جميعاً إلى الفرزدق، وليس في «ديوانه».

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿٥٨﴾

الراء فيهما. قال الزجاج: مَنْ قرأ بالفتح، فالمعنى: وما يعزب عن ربك من مثقال ذرّة، ولا مثقال أصغر من ذلك ولا أكبر، والموضع موضع خفض، إلا أنه فُتح لأنه لا ينصرف. ومن رفع، فالمعنى: وما يعزب عن ربك مثقال ذرة ولا أصغر ولا أكبر. ويجوز رفعه على الابتداء، فيكون المعنى: ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ تُبَيِّنُ﴾ قال ابن عباس: هو اللوح المحفوظ.

﴿أَلَا إِنَّكَ أَوْلَىٰكَ اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ إِكْلَامِيكَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّكَ أَوْلَىٰكَ اللَّهُ﴾ روى ابن عباس أن رجلاً قال: يا رسول الله، مَنْ أولياء الله؟ قال: «الذين إذا رُؤوا ذُكر الله»^(١). وروى عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لَأَنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ، يَغْطِهِمُ الْغُيُوبُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ ﷻ» قالوا: يا رسول الله، مَنْ هم، وما أعمالهم لعلنا نحبيهم؟ قال: «هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إِنْ وَجَّهَهُمْ لِنُورٍ، وَإِنْهُمْ لَعَلَىٰ مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ»، ثم قرأ ﴿أَلَا إِنَّكَ أَوْلَىٰكَ اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح، أو تُرى له، رواه عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وجابر بن عبد الله، وأبو هريرة عن النبي ﷺ^(٣). والثاني: أنها بشارة الملائكة لهم عند الموت، قاله الضحاك، وقتادة، والزهري. والثالث: أنها ما بشر الله به في كتابه من جنته وثوابه، كقوله: ﴿وَيُبَشِّرُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥]، ﴿وَأُبَشِّرُوا بِالْحَيَاةِ﴾ [نصفت: ٣٠]، ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [التوبة: ٢١]، وهذا قول الحسن، واختاره الفراء، والزجاج، واستدلا بقوله: ﴿لَا يَبْدِلُ إِكْلَامِيكَ اللَّهُ﴾. قال ابن عباس: لا تُخلف لمواعيده، وذلك أن مواعيده بكلماته، فإذا لم تبدل الكلمات، لم تبدل المواعيد. فأما بشرهم في الآخرة، ففيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الجنة، رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ^(٤)، واختاره ابن قتيبة. والثاني: أنه عند خروج الروح تبشّر برضوان الله، قاله ابن عباس. والثالث: أنها عند الخروج من قبورهم، قاله مقاتل^(٥).

﴿وَلَا يَحْزَنُونَ قَوْلَهُمْ إِنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ جَبِيماً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنُونَ قَوْلَهُمْ﴾ قال ابن عباس: تكذيبهم. وقال غيره: تظاهروا عليك بالعداوة وإنكارهم وأذاهم. وتم الكلام ما هنا. ثم ابتداء فقال: ﴿إِنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ جَبِيماً﴾ أي: الغلبة له، فهو ناصرك وناصر دينك، ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولهم: ﴿الْعَلِيمُ﴾ بإضمارهم، فيجازيهم على ذلك.

﴿أَلَا إِنَّكَ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَشْعُرُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءُ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا الظُّلُمَ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَحْزَنُونَ﴾

(١) «الطبري» ١٢٠/١٥ مرسلاً، وأورده ابن كثير في «التفسير» ٤٢٢/٢ من رواية البزار مرفوعاً عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وخرجه السيوطي في «الدر» ٣٠٩/٣ وزاد نسبته إلى المبارك، والحكيم الترمذي في «نواهد الأصول»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) «الطبري» ١٢١/١٥، وأبو داود رقم (٣٥٢٧)، وذكره الحافظ ابن كثير وقال: إسناده جيد، إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب، ورواه الطبري ١٢٢/١٥، وأحمد ٣٤٣/٥ مطولاً من حديث أبي مالك الأشعري، وفي سنده شهر بن حوشب. وروى معاذ بن جبل ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله ﷻ: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور، يغطهم السيون والشهداء» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) انظر رواية الحديث عن هؤلاء الصحابة في «الطبري» ١٥/١٢٥ - ١٤٠ و«الدر» ٣١١/٣ - ٣١٣.

(٤) «الطبري» ١٣١/١٥، والسيوطي في «الدر» ٣١١/٣ وزاد نسبته لأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٥) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: إن الله - تعالى ذكره - أخبر أن أوليائه المتقين البشرى في الحياة الدنيا، ومن البشارة في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، ومنها بشرى الملائكة بإياه عند خروج نفسه برحمة الله، ومنها بشرى الله بإياه ما وعده في كتابه وعلى لسان رسول الله ﷺ من الثواب الجزيل، وكل هذه المعاني من بشرى الله بإياه في الحياة الدنيا بشره بها، ولم يخص الله من ذلك معنى دون معنى، فذلك مما عه - جل ثناؤه - أن لهم البشرى في الحياة الدنيا، وأما في الآخرة فالجنة.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ قال الزجاج: «ألا» افتتاح كلام وتنبيه، أي: فالذي هم له، يفعل فيهم وبهم ما يشاء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْجُدُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءُ﴾ أي: ما يتبعون شركاء على الحقيقة، لأنهم يعدونها شركاء لله شفعاء لهم، وليست على ما يظنون. «إِنْ يَسْجُدُوا إِلَّا الظَّنُّ» في ذلك «وَأَنْ هُمْ لَا يَفْرُسُونَ» قال ابن عباس: يكذبون. وقال ابن قتبية: يحدسون ويحزرون.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٧١)

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ المعنى: إن ربكم الذي يجب أن تعتقدوا ربوبيته، هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه، فيزول تعب النهار وكلالة بالسكون في الليل، وجعل النهار مبصراً، أي: مضيئاً تبصرون فيه. وإنما أضاف الإبصار إليه، لأنه قد فهم السامع المقصود، إذ النهار لا يبصر، وإنما هو ظرف يفعل فيه غيره، فقوله: ﴿عَيْنَهُ زَايِرَةٌ﴾ [الحاقة: ٢١]، إنما هي مرضية، وهذا كما يقال: ليل نائم، قال جرير:

لقد لُئِمْنَا يَا أُمَّ غَيْلَانَ فِي السُّرَى
ونمت وما ليل المطي بنائم^(١)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع اعتبار، فيعلمون أنه لا يقدر على ذلك إلا الإله القادر. ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَكِلاًً سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَمْ يَلَمْ يَلَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ شُلْطَانٍ يَهْدَى أَقْوَابَكُمْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧٢) قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثَمَرًا إِنَّمَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٣)

قوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَكِلاًً﴾ قال ابن عباس: يعني أهل مكة، جعلوا الملائكة بنات الله. قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيه له عما قالوا. «هُوَ الْغَنِيُّ» عن الزوجة والولد. «إِنَّ عِنْدَكُمْ» أي: ما عندكم «مِنْ شُلْطَانٍ» أي: حجة بما تقولون.

قوله تعالى: ﴿لَا يَفْلَحُونَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا يبقون في الدنيا. والثاني: لا يسعدون في العاقبة. والثالث: لا يفوزون. قال الزجاج: وهذا وقف التمام، وقوله: ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا﴾ مرفوع على معنى: ذلك متاع في الدنيا.

﴿وَأَنْتَ عَلَيْنَمْ نَبَأٌ نُوْجٌ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِمْ يَفْعَلُونَ إِنْ كَانِ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِمَا يَتَّبِعُ اللَّهُ فَعَلِ اللَّهُ فَعَلَتْ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ عَنَةً ثُمَّ افْعَلُوا إِلَيْكَ وَلَا تَنْظُرُونَ﴾ (٧٤)

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ عَلَيْنَمْ نَبَأٌ نُوْجٌ﴾ فيه دليل على نوبته، حيث أخبر عن قصص الأنبياء ولم يكن يقرأ الكتب، وتحريض على الصبر، وموعظة لقومه بذكر قوم نوح وما حلَّ بهم من العقوبة بالكذب.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانِ كَبُرَ﴾ أي: عظم وشق «عَلَيْكُمْ مَقَامِي» أي: طول مكثي. وقرأ أبو مجلز، وأبو رجاء، وأبو الجوزاء: «مَقَامِي» برفع الميم. «وَتَذَكَّرِي» وعظي. «فَعَلِ اللَّهُ فَعَلَتْ» في نصرتي ودفع شركم عني. «فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ» قرأ الجمهور: «فَأَجْمَعُوا» بالهمز وكسر الميم، من «أَجْمَعْتُ». وروى الأصمعي عن نافع: «فَأَجْمَعُوا» بفتح الميم، من «جَمَعْتُ». ومعنى «أَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ»: أحكموا أمركم واعزموا عليه. قال المؤرج: «أَجْمَعْتُ الأمر» أفصح من «أَجْمَعْتُ عليه»، وأنشد:

يَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْمَنْعَى لَا تَنْفَعُ
هَلْ أَغْدُوْنَ يَوْمًا وَأَمْرِي مُجْمَعُ^(٢)

فأما رواية الأصمعي، فقال أبو علي: يجوز أن يكون معناها: اجمعوا ذوي الأمر منكم، أي: رؤساءكم. ويجوز أن يكون جعل الأمر ما كانوا يجمعونه من كيدهم الذي يكيدون به، فيكون كقوله: «فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ افْعَلُوا صَفًّا» [طه: ٦٤].

(١) «ديوانه» ٥٥٤ من قصيدة له طويلة أجاب بها الفرزدق، والطبري ١٤٤/١٥، ومجاز القرآن ٢٧٩/١، و«سبويه» ٨٠/١، و«الخرائفة» ٢٢٣/١.

(٢) الرجز غير منسوب في «نوادير أبي زيد» ٤٧٦، ومعاني القرآن للقرطبي ١٤٨/١، والطبري ١٤٨/١٥، و«الأضداد» لابن الأنباري ٤١، و«أمالى المرتضى» ٥٥٩/١، و«الصحاح» ١، و«اللسان» جمع.

قوله تعالى: ﴿وَشَرَّكُمْ﴾ قال الفراء وابن قتيبة: المعنى: وادعوا شركاءكم. وقال الزجاج: الواو هاهنا بمعنى «مع»، فالمعنى: مع شركائكم. تقول: لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها، أي: مع فصيلها. وقرأ يعقوب: «وشركاؤكم» بالرفع.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ مِنْكُمْ عَلَيْهِمْ غَمَّةٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يكن أمركم مكتوماً، قاله ابن عباس. والثاني: غماً عليكم، كما تقول: كرب وكربة، قاله ابن قتيبة. وذكر الزجاج القولين. وفي قوله: ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيْكُمْ﴾ قولان: أحدهما: ثم اقصوا إلي ما في أنفسكم، قاله مجاهد. والثاني: افعلوا ما تريدون، قاله الزجاج، وابن قتيبة. وقال ابن الأنباري: معناه: اقصوا إلي بمكروهم وما توعدونني به، كما تقول العرب: قد قضى فلان، يريدون: مات ومضى.

﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَامِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَبْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِ يَحْمِلُنَّهُمْ خَلْتِفٌ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم عن الإيمان. ﴿فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: لم يكن دعائي إياكم طمعاً في أموالكم.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَجِرِيَ﴾ حرّك هذه الباء ابن عامر، وأبو عمرو، ونافع، وحفص عن عاصم، وأسكنها الباقون. قوله تعالى: ﴿يَحْمِلُنَّهُمْ خَلْتِفٌ﴾ أي: جعلنا الذين نجّوا مع نوح خلفاً ممن هلك.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَآمَنُوا بِمَا كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿٧٤﴾ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ﴾ أي: من بعد نوح ﴿رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ قال ابن عباس: يريد: إبراهيم وهوداً وصالحاً ولوطاً وشعيباً. ﴿فَآمَنُوا بِمَا كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: بان لهم أنهم رسل الله. ﴿فَمَا كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني الذين قبلهم. والمراد: أن المتأخرين مضوا على سنن المتقدمين في التكذيب. وقال مقاتل: فما كانوا يؤمنوا بما كذبوا به من العذاب من قبل نزوله.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي: كما طبعنا على قلوب أولئك، ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ يعني المتجاوزين ما أمروا به.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ﴾ يعني الرسل الذين أرسلوا بعد نوح.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَيَسْعَرُ ثِينٌ﴾ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَيْحَرُّ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِدُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَنْ وَجْدِنَا عَلَيْهِ وَأَنبَأَنَا فَتَكُونَ لَكُمُ الْكَذِبَاتُ فِي الْأَرْضِ وَمَا عَنَّا لَكُمَا يَمْؤُمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْفُوكَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِقُ الْعُلَاقِ لِلْجَائِزِينَ ﴿٨١﴾ وَرَفَعُ اللَّهُ السَّحَابَ بِكَمِينِهِ وَأَوْكَرَ السَّاجِدُونَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ وهو ما جاء به موسى من الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَيْحَرُّ هَذَا﴾ قال الزجاج: المعنى: أتقولون للحق لما جاءكم هذا اللفظ، وهو قولهم: ﴿إِنَّ هَذَا لَيَسْعَرُ ثِينٌ﴾. ثم قرأهم فقال: ﴿أَيْحَرُّ هَذَا؟﴾ قال ابن الأنباري: إنما أدخلوا الألف على جهة تفضيخ الأمر، كما يقول الرجل إذا نظر إلى الكسوة الفاخرة: أكسوة هذه؟ يريد بالاستفهام تعظيمها، وتأتي الرجل جائزاً، فيقول: أحق ما أرى؟ معظماً لما ورد عليه. وقال غيره: تقدير الكلام: أتقولون للحق لما جاءكم: هو سحر؟ أم سحر هذا؟ فحذف السحر الأول اكتفاءً بدلالة الكلام عليه، كقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ لِيَسُئَرُوا تَبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٧] المعنى بعثناهم ليسوءوا وجوهكم.

قوله تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا﴾ قال ابن قتيبة: لتصرفنا. قال: لفّ فلاناً عن كذا: إذا صرفته. ومنه الالتفات، وهو الانصراف عما كنت مقبلاً عليه.

الْقَرْنَةَ [يوسف: ٨٢]. وعلى القول الثاني يرجع ذكر الملا إلى الذرية. قال ابن جرير: وهذا أصح، لأنه كان في الذرية من أبوه قبطي وأمه إسرائيلية، فهو مع فرعون على موسى.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ يعني فرعون، ولم يقل: يفتنهم، لأن قومه كانوا على من كان عليه. وفي هذه الفتنة قولان: أحدهما: أنها القتل، قاله ابن عباس. والثاني: التعذيب، قاله ابن جرير.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: متطاوّل في أرض مصر ﴿وَإِنَّ لَيْنَ الشَّرَفِينَ﴾ حين كان عبداً فادّعى الربوبية.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنتُمْ ءَامِنُ بِاللَّهِ فَفَعَلْنَا لَكُمْ دُونَهُمْ﴾ لما شكّا بنو إسرائيل إلى موسى ما يهدّهم به فرعون من ذبح أولادهم، واستحياء نسائهم، قال لهم هذا. وفي قوله: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: لا تهلكتنا بعذاب على أيدي قوم فرعون، ولا بعذاب من قبلك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما عبّونا ولا سلّطنا عليهم. والثاني: لا تسلّطهم علينا فيفتنونا، والقولان مرويان عن مجاهد. والثالث: لا تسلّطهم علينا فيفتنونا بنا، لظنهم أنهم على حق، قاله أبو الضحى، وأبو مجلز.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَبُوءَ لِقَوْمِكَ بِمِصْرَ يُونَا﴾ قال المفسرون: لما أرسل موسى، أمر فرعون بمساجد بني إسرائيل فُخِرَتْ كُلُّهَا، ومُنَعُوا من الصلاة، وكانوا لا يصلّون إلا في الكنائس؛ فأمرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا مساجد في بيوتهم ويصلّون فيها خوفاً من فرعون. و «تَبُوءَ» معناه: اتَّخِذْ، وقد شرحناه في [الاعراف: ٧٤]. وفي المراد بمصر قولان: أحدهما: أنه البلد المعروف بمصر، قاله الضحاك. والثاني: أنه الإسكندرية، قاله مجاهد. وفي البيوت قولان: أحدهما: أنها المساجد، قاله الضحاك، والثاني: القصور، قاله مجاهد. وفي قوله: ﴿وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أربعة أقوال: أحدها: اجعلوها مساجد، رواه مجاهد، وعكرمة، والضحاك عن ابن عباس، وبه قال النخعي، وابن زيد. وقد ذكرنا أن فرعون أمر بهدم مساجدهم، فقيل لهم: اجعلوا بيوتكم قبلة بدلاً من المساجد. والثاني: اجعلوها قِبَل القبلة، رواه العوفي عن ابن عباس. وروى الضحاك عن ابن عباس، قال: قِبَل مكة. وقال مجاهد: أمروا أَنْ يجعلوها مستقبلية الكعبة، وبه قال مقاتل، وقتادة، والفراء. والثالث: اجعلوها يقابل بعضها بعضاً، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال سعيد بن جبير. والرابع: واجعلوا بيوتكم التي بالشام قبلة لكم في الصلاة، فهي قبلة اليهود إلى اليوم، قاله ابن بحر. فإن قيل: البيوت جمع، فكيف قال: «قبلة» على التوحيد؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري، فقال: من قال: المراد بالقبلة الكعبة، قال: وَحَدَّتِ القبلة لتوحيد الكعبة. قال: ويجوز أن يكون أراد: اجعلوا بيوتكم قِبْلًا، فاكتمى بالواحد عن الجمع، كما قال العباس بن مرداس:

فَقُلْنَا أَسْلِمُوا إِنَّا أَخْرَجْنَاكُمْ فَقَدْ بَرِئْتَ مِنَ الْإِحْنِ الصُّدُورُ

يريد: إِنَّا إِخْرَجْنَاكُمْ. ويجوز أن يكون وَحْد «قبلة» لأنه أجراها مجرى المصدر، فيكون المعنى: واجعلوا بيوتكم إقبالاً على الله، وقصداً لما كنتم تستعملونه في المساجد. ويجوز أن يكون وَحْدُها، والمعنى: واجعلوا بيوتكم شيئاً قبلة، ومكاناً قبلة، ومحلة قبلة.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قال ابن عباس: أتموا الصلاة ﴿وَكَبِّرُوا الْقُرْآنَ﴾ أنت يا محمد. قال سعيد بن جبير: بَشَّرهم بالنصر في الدنيا، وبالجنة في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ فَرَعَوْتَ لَنَا فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَتَهُ وَأَمْلَأْتَ قُلُوبَهُمْ﴾ قال ابن عباس: كان لهم من لدن فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن ذهب وفضة وزبرجد وياقوت.

قوله تعالى: ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ وفي لام «لِيُضِلُّوا» أربعة أقوال: أحدها: أنها لام «كي» والمعنى: آتيتهم ذلك كي يضلوا، وهذا قول الفراء. والثاني: أنها لام العاقبة، والمعنى: إنك آتيتهم ذلك فأصارهم إلى الضلال، ومثله قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَخِيراً﴾ [القصص: ٢٨] أي: آل أمرهم إلى أن صار لهم عدواً، لا أنهم قصدوا ذلك، وهذا كما تقول للذي كسب مالاً فأداه إلى الهلاك: إنما كسب فلان لحظه، وهو لم يكسب المال طلباً للحثف، وأنشدوا:

وللخراب يُجِدُّ النَّاسُ عَمْرَانَا

وقال آخر:

كما لخراب الدُّور تُبْنِي الْمَسَاكِينُ

وقال آخر:

فَلِلْمَوْتِ مَا تَلِدُ الْوَالِدَ

فإن يَكُنِ الْمَوْتُ أَفْنَاهُمْ

أراد: عاقبة الأمر ومصيره إلى ذلك، هذا قول الزجاج. والثالث: أنها لام الدعاء، والمعنى: ربنا ابتلهم بالضلال عن سبيلك، ذكره ابن الأنباري. والرابع: أنها لام أجل، فالمعنى: آتيتهم لأجل ضلالتهم عقوبةً منك لهم، ومثله قوله: ﴿سَيَحْلُقُونَ يَا إِلَهَ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبَتْ إِلَيْهِمْ لِنَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩٥] أي: لأجل إعراضكم، حكاه بعض المفسرين. وقرأ أهل الكوفة إلا المفضل، وزيد، وأبو حاتم عن يعقوب: «لِيُضِلُّوا» بضم الياء، أي: لِيُضِلُّوا غيرهم.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَتَيْتَنَا بِتِلْكَ الْكُفْرَةِ وَالنِّفَاقِ﴾ روى الحلبي عن عبد الوارث: «اطمُس» بضم الميم «عَنْ أَمْوَالِهِمْ» وفيه قولان: أحدهما: أنها جعلت حجارة، رواه مجاهد عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والضحاك، وأبو صالح، والفراء. وقال القرظي: جعل سكرهم حجارة. وقال ابن زيد: صار ذهبهم ودراهمهم وعدسهم وكل شيء لهم حجارة. وقال مجاهد: مسخ الله النخل والثمار والأطعمة حجارة، فكانت إحدى الآيات التسع. وقال الزجاج: تطميس الشيء: إذهابه عن صورته والانتفاع به على الحال الأولى التي كان عليها. والثاني: أنها هلكت، فالمعنى أهلك أموالهم، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، ومنه يقال: طمست عينه، أي: ذهب، وطمس الطريق: إذا عفا ودرس. وفي قوله: ﴿وَأَشَدُّ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أربعة أقوال: أحدها: اطبع عليها، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مقاتل، والفراء، والزجاج. والثاني: أهلكهم كفاراً، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. والثالث: اشدد عليها بالضلالة، قاله مجاهد. والرابع: أن معناه: قس قلوبهم، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه دُعَاء عليهم أيضاً، كأنه قال: اللهم فلا يؤمنوا، قاله الفراء، وأبو عبيدة، والزجاج. وقال ابن الأنباري: معناه: فلا آمنوا، قال الأعشى:

وَلَا تَلْقُنِي إِلَّا وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ^(١)

فَلَا يَنْبَسِطُ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْكَ مَا أَنْزَوِي

معناه لا انبسط، ولا لقيتني. والثاني: أنه عطف على قوله: «لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ»، فالمعنى: أنك آتيتهم لِيُضِلُّوا فلا يؤمنوا، حكاه الزجاج عن المبرد^(٢).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبُورَ الْفَنَاءَ الْأَلِيمُ﴾ قال ابن عباس: هو الغرق، وكان موسى يدعو، وهارون يؤمن، فقال الله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾، وكان بين الدعاء والإجابة أربعون سنة. فان قيل: كيف قال: ﴿دَعْوَتُكُمَا﴾ وهما دعوتان؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن الدعوة تقع على دعوتين وعلى دَعَوَاتٍ وكلام يطول كما بيَّنا في [الأعراف: ١٥٨] أن الكلمة تقع على كلمات، قال الشاعر:

هَلُمَّ إِلَى أَمْرِكُمْ قَدْ صُرِمٌ^(٣)

وَكُنْ دَعَا دَعْوَةً قَوْمَهُ

فأوقع «دعوة» على ألفاظ بيَّنها آخر بيته. والثاني: أن يكون المعنى: قد أجيب دعواتكما، فافتى بالواحد من ذكر الجميع، ذكر الجوابين ابن الأنباري. وقد روى حماد بن سلمة عن عاصم أنه قرأ «دَعَوَاتُكُمَا» بالالف وفتح العين. والثالث: أن موسى هو الذي دعا، فالدعوة له، غير أنه لما آمن هارون، أشرك بينهما في الدعوة، لأن التأمين على الدعوة منها. وفي قوله: ﴿فَأَسْتَسَيِّمًا﴾ أربعة أقوال: أحدها: فاستقيما على الرسالة وما أمرتكما به، قاله أبو صالح عن

(١) «ديوانه» ٥٨ من قصيدته في هجاء يزيد بن مسهر الشيباني، و«الطبري» ١٨٣/١٥.

(٢) قال ابن جرير الطبري ١٨٥/١٥: والصواب من القول في ذلك، أنه في موضع جزم على الدعاء، بمعنى (فلا آمنوا)، وإنما اخترت ذلك، لأن ما قبله دعاء وذلك قوله: ﴿رَبَّنَا أَتَيْتَنَا بِتِلْكَ الْكُفْرَةِ وَالنِّفَاقِ﴾ فالحاق قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ إذ كان في سياق ذلك بمعناه أشبه وأولى.

(٣) البيت لأعشى قيس، «ديوانه» ٤٣، و«مجاز القرآن» ٢٠٨/١، و«الطبري» ٧٧/٨، و«اللسان» و«التاج»: ربع.

ابن عباس. والثاني: فاستقيما على دعاء فرعون وقومه إلى طاعة الله، قاله ابن جرير. والثالث: فاستقيما في دعائكما على فرعون وقومه. والرابع: فاستقيما على ديني، ذكرهما أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ﴾ قرأ الأكثرون بتشديد تاء «تَتَّبِعَانِ». وقرأ ابن عامر بتخفيفها مع الاتفاق على تشديد نون «تَتَّبِعَانِ»، إلا أن النون الشديدة دخلت للنهي مؤكدة، وكُسرت لسكونها وسكون النون التي قبلها، واختير لها الكسر لأنها بعد الألف، فشبهت بنون الاثنين. قال أبو علي: ومن خفض النون أمكن أن يكون خفف النون الثقيلة، فإن شئت كان على لفظ الخبر، والمعنى الأمر، كقوله: ﴿يَرْيَضَكْ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨ و ٢٣٤] و ﴿لَا تُضَاكِرْ لِلدَّاءِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] أي: لا ينبغي ذلك، وإن شئت جعلته حالاً من قوله: ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ تقديره: استقيما غير متبعين. وفي المراد بسبيل الذين لا يعلمون قولان: أحدهما: أنهم فرعون وقومه، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: الذين يستعجلون القضاء قبل مجيئه، ذكره أبو سليمان الدمشقي. فإن قيل: كيف جاز أن يدعو موسى على قومه؟ فالجواب: أن بعضهم يقول: كان ذلك بوحى، وهو قول صحيح، لأنه لا يُظن بنبي أن يُقدِّم على مثل ذلك إلا عن إذن من الله ﷻ، لأن دعاءه سبب للانتقام.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَيْنَهُمُ رِجُوعُنَا وَجُنُودُهُ﴾ قال أبو عبيدة. أتبعهم وتبعهم سواء. وقال ابن قتيبة: أتبعهم: لحقهم. ﴿بَنِيًا وَعَدْرًا﴾ أي: ظملاً. وقرأ الحسن «فَأَتَيْنَهُمُ» بالتشديد، وكذلك شدوا «عَدْرًا» مع ضم العين.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ مَا أَتَى أَنَّهُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر «أنه» بفتح الألف، والمعنى: آمنت بأنه. فلما حُذِفَ حرف الجر، وصل الفعل إلى «أَنْ» فُضِبَ. وقرأ حمزة والكسائي «إنه» بكسر الألف، فحملوه على القول المضمر، كأنه قال: آمنت، فقلت: إنه. قال ابن عباس: لم يقبل الله إيمانه عند رؤية العذاب. قال ابن الأباري: جنح فرعون إلى التوبة حين أغلق بابها لحضور الموت ومعاينة الملائكة، فقيل له: ﴿مَّا أَتَى﴾ أي: الآن تتوب وقد أضعت التوبة في وقتها، وكنت من المفسدين بالدعاء إلى عبادة غير الله ﷻ؟ والمخاطب له بهذا كان جبريل. وجاء في الحديث أن جبريل جعل يدسُّ الطين في فم فرعون خشية أن يُغْفَرَ له^(١). قال الضحاك بن قيس: اذكروا الله في الرِّخَاءِ يذكركم في الشدة، إن يونس ﷺ كان عبداً صالحاً، وكان يذكر الله، فلما وقع في بطن الحوت سأل الله، فقال الله: ﴿فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانِ مِنَ السَّاسِينَ﴾ ﷻ لَكَيْتَ فِي بَلَدِيهِ إِلَّا يَوْمَ يُعْرَوْنَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، وإن فرعون كان عبداً طاعياً ناسياً لذكر الله تعالى، فلما أدركه الغرق قال: آمنت، فقال الله: ﴿مَّا أَتَى﴾ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ

قوله تعالى: ﴿تَالْيَوْمِ تَنْتَبِكُ﴾ وقرأ يعقوب «تَنْتَجِكُ» مخفف. قال اللغويون منهم يونس وأبو عبيدة: نُلتِك على نجوة من الأرض، أي: ارتفاع، ليصير علماً أنه قد غرق. وقرأ ابن السميع «تَنْتَحِكُ» بحاء. وفي سبب إخراجه من البحر بعد غرقه ثلاثة أقوال: أحدها: أن موسى وأصحابه لما خرجوا، قال من بقي من المدائن من قوم فرعون: ما أغرق فرعون، ولكنه هو وأصحابه يتصيدون في جزائر البحر، فأوحى الله إلى البحر أن اللفظ فرعون عرياناً، فكانت نجاة عيرة، وأوحى الله تعالى إلى البحر: أن اللفظ ما فيك، فلفظهم البحر بالساحل، ولم يكن يلفظ غريقاً، فصار لا يقبل غريقاً إلى يوم القيامة، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أن أصحاب موسى قالوا: إنا نخاف أن يكون فرعون ما غرق، ولا نؤمن بهلاكه، فدعا موسى ربه، فأخرجه حتى أيقنوا بهلاكه، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وإلى نحوه ذهب قيس بن عباد، وعبد الله بن شداد، والسدي، ومقاتل. وقال السدي: لما قال بنو إسرائيل: لم يغرق فرعون، دعا موسى، فخرج فرعون في ستمائة ألف وعشرين ألفاً عليهم الحديد، فأخذته بنو إسرائيل يمثلون به. وذكر غيره أنه إنما أخرج من البحر وحده دون أصحابه. وقال ابن جريج: كُذِّبَ بعض بني إسرائيل بغرقه، فرمى به البحر على ساحل البحر حتى رآه بنو إسرائيل قصيراً أحمر كأنه ثور. وقال أبو سليمان: عرفه بنو إسرائيل بدور كان له من لؤلؤ لم يكن لأحد

(١) «المسنند» ١٦/٤، ونقله ابن كثير في «التفسير» ٢/ ٤٣٠ من الطيالسي، وقال: وقد رواه أبو عيسى الترمذي أيضاً، وابن جرير أيضاً من غير وجه عن شعبة، وقال الترمذي: حسن غريب صحيح. ورواه الحاكم في «المستدرک» ٢/ ٣٤٠ وقال: هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، إلا أن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه على ابن عباس، ووافقه الذهبي.

مثلاً. فأما وجهه فقد غيَّره سُخْطُ الله تعالى. والثالث: أنه كان يدَّعي أنه رب، وكان يعبدُه قوم، فبينَ الله تعالى أمره، فأغرقه وأصحابه، ثم أخرجَه من بينهم، قاله الزجاج. وفي قوله: ﴿يَذَكُّكَ﴾ أربعة أقوال: أحدها: بجسدك من غير روح، قاله مجاهد. وذكر البدن دليل على عدم الروح. والثاني: بدرعك، قاله أبو صخر. وقد ذكرنا أنه كانت له درع من لؤلؤ، وقيل: من ذهب، فعُرف بدرعه. والثالث: نلقيك عرياناً، قاله الزجاج. والرابع: ننجيكَ وحدك، قاله ابن قتيبة. وفي قوله: ﴿لِتَكُوكَ لِمَنْ خَلَقَكَ مَائِدَةً﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: لتكون لمن بعدك في النكال آية لئلا يقولوا مثل مقالتك، فإنك لو كنت إلهاً ما غرقت، قاله أبو صالح عن ابن عباس. قال أبو عبيدة: «خلفك» بمعنى بعدك، والآية: العلامة. والثاني: لتكون لبني إسرائيل آية، قاله السدي. والثالث: لمن تخلف من قومه، لأنهم أنكروا غرقه على ما ذكرنا في أول الآية، فخرج في معنى الآية قولان: أحدهما: عبرة للناس. والثاني: علامة تدل على غرقه. وقال الزجاج: الآية أنه كان يدَّعي أنه رب، فبان أمره، وأخرج من بين أصحابه لما غرقوا. وقرأ ابن السميع، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء ﴿لَمَنْ خَلَقَكَ﴾ بالقاف.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَوْأًا صَدَقَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْوَيْلُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [٢٦] فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ فِيمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَتَنَّا الَّذِينَ يَقْرَءُونَ أَلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُوكَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ [٢٧] وَلَا تَكُوكَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا اللَّهُ فَتَكُوكَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ [٢٨] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَنْهُمْ كَيْفَ تُبَلِّغُهُمْ كَيْفَ تُبَلِّغُهُمْ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [٢٩]

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: أنزلناهم منزل صدق، أي منزلاً كريماً. وفي المراد ببني إسرائيل قولان: أحدهما: أصحاب موسى. والثاني: قريظة والنضير. وفي المراد بالمنزل الذي أنزلوه خمسة أقوال: أحدها: أنه الأردن، وفلسطين، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: الشام، وبيت المقدس، قاله الضحاك وقتادة. والثالث: مصر، روي عن الضحاك أيضاً. والرابع: بيت المقدس، قاله مقاتل. والخامس: ما بين المدينة والشام من أرض يثرب، ذكره علي بن أحمد النيسابوري. والمراد بالطيبات: ما أحل لهم من الخيرات الطيبة. ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ يعني بني إسرائيل. قال ابن عباس: ما اختلفوا في محمد، لم يزلوا به مصدقين، ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْوَيْلُ﴾ يعني القرآن، وروي عنه: حتى جاءهم العلم، يعني محمداً. فعلى هذا يكون العلم هاهنا: عبارة عن المعلوم. وبيان هذا أنه لما جاءهم، اختلفوا في تصديقه، وكفر به أكثرهم بغياً وحسداً بعد أن كانوا مجتمعين على تصديقه قبل ظهوره.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ في تأويل هذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أن الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره من الشاكين، بدليل قوله في آخر السورة: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ [يونس: ١٠٥]، ومثله قوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ أَنَّ اللَّهَ لَا يُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُشْرِكِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [الأحزاب: ٣٨] ثم قال: ﴿يَمَّا تَسْمَلُونَ حَيْرًا﴾ [الأحزاب: ٣] ولم يقل: بما تعمل، وهذا قول الأكثرين. والثاني: أن الخطاب للنبي ﷺ، وهو المراد به. ثم في المعنى قولان: أحدهما: أنه خوطب بذلك وإن لم يكن في شك، لأنه من المستفيض في لغة العرب أن يقول الرجل لولده: إن كنت ابني فبرئني، ولعبد: إن كنت عبدي فاطعني، وهذا اختيار الفراء. وقال ابن عباس: لم يكن رسول الله ﷺ في شك، ولا سال. والثاني: أن تكون «إن» بمعنى «ما» فالمعنى: ما كنت في شك ﴿فَتَنَّا﴾، المعنى: لسنا نريد أن نأمرك أن تسأل لأنك شاك، ولكن لتزداد بصيرة، ذكره الزجاج. والثالث: أن الخطاب للشاكين، فالمعنى: إن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزل إليك على لسان محمد، فسل، روي عن ابن قتيبة. وفي الذي أنزل إليه قولان: أحدهما: أنه أنزل إليه أنه رسول الله. والثاني: أنه مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل.

قوله تعالى: ﴿فَتَنَّا الَّذِينَ يَقْرَءُونَ أَلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وهم اليهود والنصارى. وفي الذين أمر بسؤالهم منهم قولان: أحدهما: من آمن، كعبد الله بن سلام، قاله ابن عباس، ومجاهد في آخرين. والثاني: أهل الصدق منهم، قاله الضحاك، وهو يرجع إلى الأول، لأنه لا يصدق إلا من آمن. قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ هذا كلام مستأنف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْآزِيزَ حَكَمْتُ﴾ أي؛ وجبت ﴿عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي؛ قوله. وبماذا حقت الكلمة عليهم، فيه أربعة أقوال: أحدها: باللغة. والثاني: بنزول العذاب. والثالث: بالسخط. والرابع: بالنقمة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ قال الأخفش: إنما أنت فعل «كل» لأنه أضافه إلى «آية» وهي مؤنثة. ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِسْنَتُهَا إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾ أي: أهل قرية. وفي «لولا» قولان: أحدهما: أنه بمعنى: لم تكن قرية آمنت ﴿فَنَفَعَهَا إِسْنَتُهَا﴾ أي: قُبِلَ منها ﴿إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ﴾، قاله ابن عباس. وقال قتادة: لم يكن هذا لأمة آمنت عند نزول العذاب، إلا لقوم يونس. والثاني: أنها بمعنى: فهلاً، قاله أبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج. قال الزجاج: والمعنى: فهلاً كانت قرية آمنت في وقت نفعها إيمانها، إلا قوم يونس؟ و«إلا» هاهنا استثناء ليس من الأول، كأنه قال: لكن قوم يونس. قال الفراء: نُصِبَ القوم على الانقطاع مما قبله، ألا ترى أن «ما» بعد «إلا» في الجحد يتبع ما قبلها؟ تقول: ما قام أحد إلا أخوك، فإذا قلت: ما فيها أحد إلا كلباً أو حماراً، نصبت، لانقطاعهم من الجنس، كذلك كان قوم يونس منقطعين من غيرهم من أمم الأنبياء، ولو كان الاستثناء وقع على طائفة منهم لكان رفعاً. وذكر ابن الأنباري في قوله: «إلا» قولين آخرين: أحدهما: أنها بمعنى الواو، والمعنى: وقوم يونس لما آمنوا فعلنا بهم كذا وكذا، وهذا مروى عن أبي عبيدة، والفراء ينكره. والثاني: أن الاستثناء من الآية التي قبل هذه تقديره: حتى يروا العذاب الأليم إلا قوم يونس، فالاستثناء على هذا متصل غير منقطع.

قوله تعالى: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾ أي: صرفنا عنهم ﴿عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ أي: عذاب الهوان والذل ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ أي: إلى حين آجالهم.

الإشارة إلى شرح قصتهم

ذكر أهل العلم بالسُّنَنِ والتفسير أن قوم يونس كانوا بـ «نينوى» من أرض الموصل، فأرسل الله ﷻ إليهم يونس يدعوهم إلى الله ويأمرهم بترك الأصنام، فأبوا، فأخبرهم أن العذاب مصبُّهم بعد ثلاث، فلما تغشاهم العذاب، قال ابن عباس، وأنس: لم يبق بين العذاب وبينهم إلا قدر ثلثي ميل، وقال مقاتل: قدر ميل، وقال أبو صالح عن ابن عباس: وجدوا حرَّ العذاب على أكتافهم، وقال سعيد بن جبیر: غشيهم العذاب كما يغشى الثوبُ القبرَ، وقال بعضهم: غامت السماء غيماً أسود يُظهر دخاناً شديداً، فغشي مدينتهم، واسودَّت سطوحهم، فلما أيقنوا بالهلاك لبسوا المسوح، وحثَّوا على رؤوسهم الرماد، وفرقوا بين كل والدَّة ولدها من الناس والأنعام، وعجَّوا إلى الله بالتوبة الصادقة، وقالوا: آمنا بما جاء به يونس، فاستجاب الله منهم. قال ابن مسعود: بلغ من توبتهم أن تراءوا المظالم بينهم، حتى إن كان الرجل ليأتي إلى الحجر قد وضع عليه أساس بنيانه فيقلعه، فيرده. وقال أبو الجلد^(١): لما غشيهم العذاب، مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم، فقالوا: ما ترى؟ قال: قولوا: يا حيُّ حين لا حيُّ، يا حيُّ مُحيي الموتى، يا حيُّ لا إله إلا أنت، فقالوا، فكشف العذاب عنهم. قال مقاتل: عجَّوا إلى الله أربعين ليلة، فكشف العذاب عنهم. وكانت التوبة عليهم في يوم عاشوراء يوم الجمعة. قال: وكان يونس قد خرج من بين أظهرهم، فقيل له: ارجع إليهم، فقال: كيف أرجع إليهم فيجدوني كاذباً؟ وكان من يكذب بينهم ولا بيَّنة له يُقتل، فانصرف مغاضباً، فالتقمه الحوت. وقال أبو صالح عن ابن عباس: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له: شُعيا، فقيل له: انت فلاناً الملك، فقل له يبعث إلى بني إسرائيل نبياً قوياً أميناً، وكان في مملكته خمسة من الأنبياء، فقال الملك ليونس: اذهب إليهم، فقال: ابعث غيري، فعزم عليه أن يذهب، فأتى بحر الروم، فركب سفينة، فالتقمه الحوت، فلما خرج من بطنها أمر أن ينطلق إلى قومه، فانطلق نذيراً لهم، فأبَّوا عليه، فوعدهم بالعذاب، وخرج، فلما تابوا رُفِعَ عنهم. والقول الأول أثبت عند العلماء، وأنه إنما التقمه الحوت بعد إنذاره لهم وتوبتهم. وسيأتي شرح قصته في التقام الحوت إياه في

(١) أبو الجلد، يفتح الجيم، وسكون اللام، هو جيلان بن أبي فروة الأسدي.

مكانه إن شاء الله تعالى [الصفات: ١٤٢]. فإن قيل: كيف كشف العذاب عن قوم يونس بعد إتيانه إليهم، ولم يكشف عن فرعون حين آمن؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن ذلك كان خاصاً لهم كما ذكرنا في أول الآية. والثاني: أن فرعون باشره العذاب، وهؤلاء دنا منهم ولم يباشرهم، فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية، فأما الذي يعاين، فلا توبة له، ذكره الزجاج. والثالث: أن الله تعالى علم منهم صدق النيات، بخلاف من تقدمهم من الهالكين، ذكره ابن الأنباري.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة. قال الأخفش: جاء بقوله: «جميعاً» مع «كل» تأكيداً لقوله: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَجَدَّدُوا إِلَهُنَّ إِنِّي أَنْتَبَيَّ﴾ [النحل: ٥١].

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ قال المفسرون، منهم مقاتل: هذا منسوخ بآية السيف، والصحيح أنه ليس هاهنا نسخ، لأن الإكراه على الإيمان لا يصح، لأنه عمل القلب.

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَجَعَلَ الْخَيْرَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: بقضاء الله وقدره. والثاني: بأمر الله، روي عن ابن عباس. والثالث: بمشيئة الله، قاله عطاء. والرابع: إلا أن يأذن الله في ذلك، قاله مقاتل. والخامس: بعلم الله. والسادس: بتوفيق الله، ذكرهما الزجاج، وابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْخَيْرَ﴾ أي: ويجعل الله الرجس. وروى أبو بكر عن عاصم: «ونجعل الرجس» بالنون. وفيه خمسة أقوال: أحدها: أنه السخط، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: الإثم والعدوان، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنه ما لا خير فيه، قاله مجاهد. والرابع: العذاب، قاله الحسن، وأبو عبيدة، والزجاج. الخامس: العذاب والغضب، قاله الفراء.

قوله تعالى: ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ﴾ أي: لا يعقلون عن الله أمره ونهيهِ. وقيل: لا يعقلون حججه ودلائل توحيده.

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُنْفِي الْأَكْثُ وَالْأَكْثُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال المفسرون: قل للمشركين الذين يسألونك الآيات على توحيد الله: انظروا بالتفكر والاعتبار ماذا في السموات والأرض من الآيات والعبر التي تدل على وحدانيته ونفاذ قدرته كالشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، وكل هذا يقتضي خالقاً مدبراً. ﴿وَمَا تُنْفِي الْأَكْثُ وَالْأَكْثُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في علم الله.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ يَوْمَ السَّعِيرِينَ﴾ ﴿١٠٤﴾ ثُمَّ نَتَّبِعْ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَسْجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ قال ابن عباس: يعني كفار قريش. ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال ابن الأنباري: أي: مثل وقائع الله بمن سلف قبلهم، والعرب تكني بالأيام عن الشرور والحروب، وقد تقصد بها أيام السرور والأفراح إذا قام دليل بذلك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَانظُرُوا﴾ هلاكي ﴿إِلَى مَعَكُمْ يَوْمَ السَّعِيرِينَ﴾ لنزول العذاب بكم. ﴿ثُمَّ نَتَّبِعْ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ من العذاب إذا نزل، فلم يهلك قوم قط إلا نجا نبيهم والذين آمنوا معه.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَسْجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقرأ يعقوب، وحفص، والكسائي في قراءته وروايته عن أبي بكر: «نتج المؤمنين» بالتخفيف. ثم في هذا الإنجاء قولان: أحدهما: ننجيهم من العذاب إذا نزل بالمكذِّبين، قاله الربيع بن أنس. والثاني: ننجيهم في الآخرة من النار، قاله مقاتل.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَمْبُذُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ وَلَمْ تُرَوْا أَن أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٠٤﴾ وَأَنْ أَوْتَرُ وَجْهَكَ لِلَّذِينَ حَبِطًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٠٥﴾ وَلَا تَتَّبِعْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ١٠٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ قال ابن عباس: يعني أهل مكة ﴿إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ الإسلام ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَمْبُذُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهي الأصنام ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي﴾ يقدر أن يميتكم. وقال ابن جرير: معنى الآية: لا ينبغي لكم أن تشكوا في ديني، لأنني أعبد الله الذي يميت وينفع ويضر، ولا تستنكروا عبادة من يفعل هذا، وإنما ينبغي لكم أن تشكوا وتذكروا ما أنتم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر. فلان قيل: لم قال: ﴿الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ﴾ ولم يقل: ﴿الذي خلقكم؟﴾ فالجواب: أن هذا يتضمن تهديدهم، لأن ميلاد عذابهم الوفاة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَوْتَرُ وَجْهَكَ﴾ المعنى: وأمرت أن أقم وجهك، وفيه قولان: أحدهما: أخلص عملك. والثاني: استقم بإقبالك على ما أمرت به بوجهك. وفي المراد بالحنيف ثلاثة أقوال: أحدها: أنه المتبع، قاله مجاهد. والثاني: المخلص، قاله عطاء. والثالث: المستقيم، قاله القرظي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ﴾ إن دعوته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن تركت عبادته. و«الظالم» الذي يضع الشيء في غير موضعه.

﴿وَأَنْ يَسْأَلَكَ اللَّهُ يَضُرَّكَ وَلَا يَنْفَعُكَ﴾ إِلَّا هُوَ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْبَشَرُ فَلَا رَأْيَ لِقَوْلِهِ يُعِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ١٠٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَخُذُوا حَتَّى أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِي وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ١٠٨﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ١٠٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ يَسْأَلَكَ اللَّهُ يَضُرَّكَ﴾ أي: بشدة وبلاء ﴿فَلَا كَاشِفُ﴾ لذلك ﴿إِلَّا هُوَ﴾ دون ما يعبد المشركون من الأصنام. وإن يصبك بخير، أي: برحمة ونعمة وعافية، فلا يقدر أحد أن يمنعك إياه. ﴿يُعِيبُ بِهِ﴾ أي: بكل واحد من الضر والخير.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه القرآن. والثاني: محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾ أي: فإنما يكون وبال ضلاله على نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: في منعكم من اعتقاد الباطل، والمعنى: لست بحفيظ عليكم من الهلاك كما يحفظ الوكيل المتاع من الهلاك. قال ابن عباس: وهذه منسوخة بآية القتال، والتي بعدها أيضاً، وهي قوله: ﴿وَأَصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ لأن الله تعالى حكم بقتل المشركين، والجزية على أهل الكتاب. والصحيح: أنه ليس هاهنا نسخ. أما الآية الأولى، فقد ذكرنا الكلام عليها في نظيرتها في [الأنعام: ١٠٧]. وأما الثانية، فقد ذكرنا نظيرتها في سورة [البقرة: ١٠٩] قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾.



سورة هود

[عليه السلام]

فصل في نزولها

روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس أنها مكية كلها، وبه قال الحسن، وعكرمة، ومجاهد، وجابر بن زيد، وقتادة. وروى عن ابن عباس أنه قال: هي مكية، إلا آية، وهي قوله: ﴿وَأَقْرِ السَّلَوةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ [هود: ١١٤]، وعن قتادة نحوه. وقال مقاتل: هي مكية كلها، إلا قوله: ﴿فَلَمَّا تَرَكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ [هود: ١٢] وقوله: ﴿أَوَلَيْكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [هود: ١٧] وقوله: ﴿إِنَّ أَلْحَسَنَ يَذُوقِينَ الشَّقَاءَ﴾ [هود: ١١٤]. وروى أبو بكر الصديق رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، عَجَلْ إِلَيْكَ الشَّيْب، قال: «شَيْبَتِي هود وأخواتها: الحاقة، والواقعة، وعم يتساءلون، وهل أتاك حديث الغاشية»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كُتِبَ عَلَيْكَ أَنْتَ مِمَّنْ قُلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ حَبِيرٍ﴾

فأما ﴿الرَّ﴾ فقد ذكرنا تفسيرها في سورة (يونس). قال الفراء: و ﴿كُتِبَ﴾ مرفوع بالهجاء الذي قبله، كأنك قلت: حروف الهجاء هذا القرآن، وإن شئت رفعته بإضمار «هذا كتاب»، والكتاب: القرآن. وفي قوله: ﴿أَنْتَ مِمَّنْ قُلْتُ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أحكمت فما تُنسخ بكتاب كما تُسخت الكتب والشرائع، قاله ابن عباس، واختاره ابن قتيبة. والثاني: أحكمت بالأمر والنهي، قاله الحسن، وأبو العالية. والثالث: أحكمت عن الباطل، أي: مُنعت، قاله قتادة، ومقاتل. والرابع: أحكمت بمعنى جُمعت، قاله ابن زيد. فإن قيل: كيف عمَّ الآيات هاهنا بالإحكام، وخص بعضها في قوله: ﴿يُنْذِرُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [آل عمران: ٢٨]؟ فنه جوابان: أحدهما: أن الإحكام الذي عمَّ به هاهنا غير الذي خصَّ به هناك. وفي معنى الإحكام العام خمسة أقوال، قد أسلفنا منها أربعة في قوله: ﴿أَنْتَ مِمَّنْ قُلْتُ﴾. الخامس: أنه إعجاز النظم والبلاغة وتضمن الحكيم المعجزة. ومعنى الإحكام الخاص: زوال اللبس، واستواء السامعين في معرفة معنى الآية. والجواب الثاني: أن الإحكام في الموضوعين بمعنى واحد. والمراد بقوله: ﴿أَنْتَ مِمَّنْ قُلْتُ﴾: أحكم بعضها بالبيان الواضح ومنع الالتباس، فأوقع العموم على معنى الخصوص، كما تقول العرب: قد أكلت طعام زيد، يعنون: بعض طعامه، ويقولون: قُتلنا ورب الكعبة، يعنون: قُتل بعضنا، ذكر ذلك ابن الأنباري. وفي قوله: ﴿ثُمَّ قُلْتُ﴾ ستة أقوال: أحدها: فضلت بالحلال والحرام، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: فضلت بالثواب والعقاب، رواه جسر بن فرقد عن الحسن. والثالث: فضلت بالوعد والوعيد، رواه أبو بكر الهذلي عن الحسن أيضاً. والرابع: فضلت بمعنى فُشرت، قاله مجاهد. الخامس: أنزلت شيئاً بعد شيء، ولم تنزل جملة، ذكره ابن قتيبة. والسادس: فضلت بجميع ما يحتاج إليه من الدلالة على التوحيد، وتثبيت نبوة الأنبياء، وإقامة الشرائع، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾ أي: من عنده.

﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ إِلَّا اللَّهُ إِلَهِي لَكُ رَهْنَةٌ ذَلِيلٌ وَفَهِيرٌ﴾ [١] وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكَ ثُمَّ تَوُوبُوا إِلَيْهِ يَتَّبِعْكُم مِّنَّا حَسَنًا إِنَّكَ أَكْبَرُ مَسْئُومٌ وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ [٢] إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [٣]

(١) «جامع الترمذي» ١٦٢/٢، ولفظه: قال أبو بكر: يا رسول الله قد ثبت، قال: «شَيْبَتِي هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه. قال الحافظ ابن حجر في «تخريج أحاديث الكشاف» ٨٧: وأطال الدارقطني في ذكر علله، واختلاف طرقه في أوائل كتاب «العلل». وانظر الكلام على هذا الحديث في «المقاصد الحسنة» ٢٥٥، ٢٥٦. للحافظ السخاوي.

قوله تعالى: ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ قال الفراء. المعنى: فضلت آياته بأن لا تعبدوا إلا الله ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا﴾. و «أن» في موضع النصب بلقائك الخافض. وقال الزجاج: المعنى: أمركم أن لا تعبدوا ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ وأن استغفروا. قال مقاتل: والمراد بهذه العبادة: التوحيد. والخطاب لكفار مكة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُؤَدُّوا إِلَيْهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن الاستغفار والتوبة هاهنا من الشرك، قاله مقاتل. والثاني: استغفروهم من الذنوب السالفة، ثم توبوا إليه من المستأنفة متى وقعت. وذكر عن الفراء أنه قال: «ثم» هاهنا بمعنى الواو.

قوله تعالى: ﴿يَنْفَعُكُمْ نَتَقًا حَسَنًا﴾ قال ابن عباس: يفضل عليكم بالرزق والسعة. وقال ابن قتية: يُعْمَرُكُمْ. وأصل الإمتاع: الإطالة، يقال: أمتع الله بك، ومتع الله بك، إمتاعاً ومتاعاً، والشئ الطويل: ممتع، يقال: جبل ممتع، وقد متع النهار: إذا تناول. وفي المراد بالأجل المسمى قولان: أحدهما: أنه الموت، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقادة. والثاني: أنه يوم القيامة، قاله سعيد بن جبيرة.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَةً﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله تعالى. ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: ويؤت كل ذي فضل من حسنة وخير فضله، وهو الجنة. والثاني: يؤتبه فضله من الهداية إلى العمل الصالح. والثاني: أنها ترجع إلى العبد، فيكون المعنى: ويؤت كل من زاد في إحسانه وطاعته ثواب ذلك الفضل الذي زاده، فيفضله في الدنيا بالمتزلة الرفيعة، وفي الآخرة بالثواب الجزيل.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: تُعرضوا عما أُمِرتم به، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو مجلز، وأبو رجاء: «وَإِنْ تَوَلَّوْا» بضم التاء. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا عَلَيْنَا﴾ فيه إضمار «فعل». واليوم الكبير: يوم القيامة.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَكُونُ صُدُورُهُمْ لَيَسْتَخِفُّونَهُ أَلا حِينَ يَسْتَفْشُونَ يَأْتِيَهُمْ بِعَلَمٍ مَا يُبَيِّرُكَ مَا يُبَيِّرُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِ يَدْعُونَ﴾

الصدور ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَكُونُ صُدُورُهُمْ﴾ في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها: أنها نزلت في الأخنس بن شريق، وكان يجالس رسول الله ﷺ ويحلف إنه ليحبته، ويضمر خلاف ما يظهر له، فنزلت فيه هذه الآية^(١)، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنها نزلت في ناس كانوا يستحيون أن يقضوا إلى السماء في الخلاء ومجامعة النساء، فنزلت فيهم هذه الآية، رواه محمد بن عباد عن ابن عباس^(٢). والثالث: أنها نزلت في بعض المنافقين، كان إذا مر برسول الله ﷺ، نثى صدره وظهره وطأ رأسه وغطى وجهه لثلا يراه رسول الله، قاله عبد الله بن شداد. والرابع: أن طائفة من المشركين قالوا: إذا أغلقنا أبوابنا وأرخينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد ﷺ، كيف يعلم بنا؟ فأخبر الله عما كتموا، ذكره الزجاج. والخامس: أنها نزلت في قوم كانوا لشدة عداوتهم رسول الله ﷺ إذا سمعوا منه القرآن حنوا صدورهم، ونكسوا رؤوسهم، وتغشوا ثيابهم ليعدهم صوت رسول الله ﷺ ولا يدخل أسماعهم شيء من القرآن، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿يَكُونُ صُدُورُهُمْ﴾ يقال: نثيت الشيء: إذا عطفته وطويته. وفي معنى الكلام خمسة أقوال: أحدها: يكونون ما فيها من العداوة لمحمد ﷺ، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: يشنون صدورهم على الكفر، قاله مجاهد. والثالث: يحنونها لثلا يسمعون كتاب الله، قاله قتادة. والرابع: يشنونها إذا ناجى بعضهم بعضاً في أمر رسول الله ﷺ، قاله ابن زيد. الخامس: يشنونها حياة من الله تعالى، وهو يخرج على ما حكينا عن ابن عباس. قال ابن الأنباري: وكان ابن عباس يقرؤها: «ألا إنهم تشنون صدورهم» وفسرها أن ناساً كانوا يستحيون أن يقضوا إلى السماء في الخلاء ومجامعة النساء. فتشنون: تفزعول، وهو فعل للصدور، معناه: المبالغة في نثي الصدور، كما تقول العرب: احلولى الشيء، يحلولى: إذا بالغوا في وصفه بالحلاوة، قال عترة:

(١) «أسباب النزول» للواحدي ١٥٣، عن الكلبي.

(٢) «البخاري» ٢٦٤/٨، «الطبري» ٢٣٦/١٥، وخرجه السيوطي في «الدر» ٣/٣٢٠ وزاد نسبه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

أَلَا قَاتِلَ اللَّهِ الطُّلُولَ الْبَوَالِبَا
وَقَوْلِكَ لِلشَّيْءِ الَّذِي لَا تَنَالُهُ

وَقَاتِلَ ذِكْرَكَ السَّنِينَ الْحَوَالِيَا^(١)
إِذَا مَا هُوَ أَخْلَوَلَى أَلَا لَيْتَ ذَا لِبَا

فعلى هذا القول، هو في حق المؤمنين، وعلى بقية الأقوال، هو في حق المنافقين. وقد خُرج من هذه الأقوال في معنى «يَتَنَوَّنُ مَدْرُورُهُ» قولان: أحدهما: أنه حقيقة في الصدور. والثاني: أنه كتمان ما فيها. قوله تعالى: «لِيَسْتَخَفُّوا مِنْهُ» في هاء «منه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله تعالى. والثاني: إلى رسوله ﷺ.

قوله تعالى: «أَلَا يَجِدُ يَسْتَفْشُونَ يَا بَاهِرُ» قال أبو عبيدة: العرب تدخل «ألا» توكيداً وإيجاباً وتنبيهاً. قال ابن قتيبة: «يستفشون ثيابهم» أي: يتفشونها ويستترون بها. قال قتادة: أخفى ما يكون ابن آدم، إذا حنى ظهره، واستغشى ثيابه، وأضر منه في نفسه. قال ابن الأنباري: أعلم الله أنه يعلم سرائرهم كما يعلم مظهراتهم. قوله تعالى: «إِنَّكُمْ عَلَيْكُمْ بِذَاتِ الْفُتُورِ» وقد شرحناه في [آل عمران: ١١٩].

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ يَبْتَاطُكُمْ أَنْتُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا وَلَكِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ تَقْبُولُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

قوله تعالى: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ» قال أبو عبيدة: «من» من حروف الزوائد، والمعنى: وما دابة، والدابة: اسم لكل حيوان يدب. وقوله: «أَلَا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا» قال العلماء: فضلاً منه، لا وجوباً عليه. و«على» هاهنا بمعنى «من». وقد ذكرنا المستقر والمستودع في سورة [الأنعام: ٦٧].

قوله تعالى: «كُلٌّ فِي كِتَابٍ» أي: ذلك عند الله في اللوح المحفوظ، هذا قول المفسرين. وقال الزجاج: المعنى: ذلك ثابت في علم الله ﷻ.

قوله تعالى: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» قال ابن عباس: عرشه: سريره، وكان الماء إذ كان العرش عليه على الريح. قال قتادة: ذلك قبل أن يخلق السموات والأرض.

قوله تعالى: «يَبْتَاطُكُمْ» أي: ليختبركم الاختبار الذي يجازي عليه، فيثيب المتعبر بما يرى من آيات السموات والأرض، ويعاقب أهل العناد.

قوله تعالى: «إِنَّكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا» فيه أربعة أقوال: أحدها: أيكم أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله ﷻ، وأسرع في طاعة الله، رواه ابن عمر عن رسول الله ﷺ^(٢). والثاني: أيكم أعمل بطاعة الله، قاله ابن عباس. والثالث: أيكم أتم عقلاً، قاله قتادة. والرابع: أيكم أزهد في الدنيا، قاله الحسن وسفيان.

قوله تعالى: «إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ» قال الزجاج: السحر باطل عندهم، فكانهم قالوا: إن هذا إلا باطل بين، فأعلمهم الله تعالى أن القدرة على خلق السموات والأرض تدل على بعث الموتى.

﴿وَلَكِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَ أَتَوْا مُعْذِرُونَ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوقًا عَنْهُمْ وَخَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِرِئْسِهِ يَتَخَفَتُونَ﴾

قوله تعالى: «وَلَكِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ» قال المفسرون: هؤلاء كفار مكة، والمراد بالآفة المعدودة: الأجل المعلوم، والمعنى: إلى مجيء أمة وانقراض أخرى قبلها. «لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ» وإنما قالوا ذلك تكذيباً واستهزاء.

(١) «ديوانه» ١٩٢، و«مختار الشعر الجاهلي» ١/ ٢٨٠. وقوله: قاتل الله الطلول ما أجلبها للأحزان، وأبعثها للشرق. واحلولى: حلي في عينك وسررت به. يقول: وقاتل قولك للشئ تحبه ولا تناله: ليت هذا الشئ لي.

(٢) «الطبري» ١٥/ ٢٥٠ - ٢٥١، وهو حديث ضعيف بمره، في سننه داود بن المحبر الطائي الثقفى صاحب كتاب «العقل»، وهو صاحب مناكير، وفيه أيضاً عبد الواحد بن زيد، منكر الحديث، ضعيف بمره. وذكره السيوطي في «الدرر» ٣/ ٣٢٢ من رواية داود بن المحبر في كتاب «العقل»، وزاد نسبة لابن أبي حاتم، والحاكم في «التاريخ»، وابن مردويه.

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ وقال: ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾. وقال بعضهم: لا يُصرف عنهم العذاب إذا أتاهم. وقال آخرون: إذا أخذتهم سيوف رسول الله ﷺ لم تُغمد عنهم حتى يباد أهل الكفر وتعلو كلمة الإخلاص.

قوله تعالى: ﴿وَنَافَكِهِمْ﴾ قال أبو عبيدة: نزل بهم وأصابهم. وفي قوله: ﴿ثُمَّ كَانُوا فِي يَدَيْهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ قولان: أحدهما: أنه الرسول والكتاب، قاله أبو صالح عن ابن عباس، فيكون المعنى: حاق بهم جزاء استهزائهم. والثاني: أنه العذاب، كانوا يستهزئون بقولهم: ﴿مَا يَحْسِبُهُمْ﴾، وهذا قول مقاتل.

﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَفُوشٌ عَلَىٰ كَفْرِهِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في الوليد بن المغيرة، قاله ابن عباس. والثاني: في عبد الله بن أبي أمية المخزومي، ذكره الواحدي. والثالث: أن الإنسان هاهنا اسم جنس، والمعنى: ولئن أذقنا الناس، قاله الزجاج. والمراد بالرحمة: النعمة، من العافية، والمال، والولد. واليؤوس: القنوط، قال أبو عبيدة: هو فعول من يئس. قال مقاتل: إنه ليؤوس عند الشدة من الخير، كفور لله في نعمه في الرخاء.

﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْبٍ مِّمَّا سَيَّئُوا يَكْفُلُونَ دَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَنَجِيٌّ فَخُورٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً﴾ قال ابن عباس: صحة وسعة في الرزق. ﴿بَعْدَ ضَرْبٍ﴾ بعد مرض وفقر. ﴿يَكْفُلُونَ دَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي﴾ يريد الضر والفقر. ﴿إِنَّهُ لَنَجِيٌّ﴾ أي: بَطَرُ ﴿فَخُورٌ﴾ قال ابن عباس: يفاخر أوليائي بما أوسعت عليه. فإن قيل: ما وجه عيب الإنسان في قوله: ﴿دَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي﴾، وما وجه ذمه على الفرح، وقد وصف الله الشهداء فقال: (فرحين)؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري، فقال: إنما عابه بقوله: ﴿دَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي﴾ لأنه لم يعترف بنعمة الله، ولم يحمده على ما صُرف عنه. وإنما ذمه بهذا الفرح، لأنه يرجع إلى معنى المرح والتكبر عن طاعة الله، قال الشاعر:

ولا يُنْسِبُنِي الْحَدَثَانُ عِرْضِي ولا أَلْقِي مِنَ الْفَرْحِ الْإِزَارَ^(١)

يعني من المرح. وفرح الشهداء فرح لا كبر فيه ولا خيلاء، بل هو مقرون بالشكر فهو مستحسن.

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ قال الفراء: هذا الاستثناء من الإنسان، لأنه في معنى الناس، كقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ﴾ [المعر: ٢، ٣]. وقال الزجاج: هذا استثناء ليس من الأول، والمعنى: لكن الذين صبروا. قال ابن عباس: الوصف الأول للكفار، والذين صبروا أصحاب محمد ﷺ.

﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ مِذْرُوقٌ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ سبب نزولها أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: ﴿أَنْتَ بِشْرٌ إِنِّي فَخْرٌ هَذَا أَوْ بَدَلَةٌ﴾ [يونس: ١٥]، فهم النبي ﷺ لا أن يُسمعهم عيب آلهتهم رجاء أن يتبعوه، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. وفي معنى الآية قولان: أحدهما: فلعلك تارك تبليغ بعض ما يوحى إليك من أمر الآلهة، وضائق بما حُلِفْتَ من ذلك صدرك، خشية أن يقولوا: لولا أنزل عليه كثر. والثاني: فلعلك لعظيم ما يرد على قلبك من تخليطهم تنوهم أنهم يُزيلونك عن بعض ما أنت عليه من أمر ربك. فأما الضائق، فهو بمعنى الضيق. قال الزجاج: ومعنى ﴿أَن يَقُولُوا﴾: كراهية أن يقولوا. وإنما عليك أن تنذرهم بما يوحى إليك، وليس عليك أن تأتيهم باقتراحهم من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الحافظ. والثاني: الشهيد، وقد ذكرناه في

[قال عمران: ١٧٣].

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلُ بِمِثْلِهِ مِثْلَهُ وَمِنْ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ١٣ ﴿قُلْ فَأَنزِلُوا آيَاتَكُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ بِمِثْلِهِ مِثْلَهُ وَإِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ١٤

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلُ بِمِثْلِهِ مِثْلَهُ﴾ «أم» بمعنى «بل»، و «افتراء» أتى به من قبل نفسه. ﴿قُلْ فَأَنزِلُوا﴾ أنتم في معارضي ﴿بِمِثْلِهِ مِثْلَهُ﴾ في البلاغة «مُفْتَرَيْنِ» بزعكم ودعواكم «وَأَنزَلْنَاهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» إلى المعاونة على المعارضة «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» في قولكم: «افتراء». ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنْزَلَ بِمِثْلِهِ مِثْلَهُ﴾ أي: يجيئكم إلى المعارضة، فقد قامت الحجة عليهم لكم. فإن قيل: كيف وحّد القول في قوله: «قل فأنزلوا» ثم جمع في قوله: «فإن لم يستجيبوا لكم؟» فعنه جوابان: أحدهما: أن الخطاب للنبي ﷺ وحده في الموضعين، فيكون الخطاب له بقوله: «لكم» تعظيماً، لأن خطاب الواحد بلفظ الجمع تعظيم، هذا قول المفسرين. والثاني: أنه وحّد في الأول لخطاب النبي ﷺ. وجمع في الثاني المخاطبة للنبي ﷺ وأصحابه، قاله ابن الأباري.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ بِمِثْلِهِ مِثْلَهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنزله وهو عالم بإنزاله، وعالم بأنه حق من عنده. والثاني: أنزله بما أخبر فيه من الغيب، ودلّ على ما سيكون وما سلف، ذكرهما الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: واعلموا ذلك. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ استفهام بمعنى الأمر. وفيمن خوطب به قولان: أحدهما: أهل مكة، ومعنى إسلامهم: إخلاصهم لله العبادة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنهم أصحاب رسول الله ﷺ، قاله مجاهد.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا لَهَا فِيهِمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ١٥ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ١٦

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا لَهَا فِيهِمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ١٥ «مَنْ» اختلّفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها عامة في جميع الخلق، وهو قول الأكثرين. والثاني: أنها في أهل القبلة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنها في اليهود والنصارى، قاله أنس. والرابع: أنها في أهل الرياء، قاله مجاهد. وروى عطاء عن ابن عباس: من كان يريد عاجل الدنيا ولا يؤمن بالبعث والجزاء. وقال غيره: إنما هي في الكافر، لأن المؤمن يريد الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا لَهَا فِيهِمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ١٥ أي: أجور أعمالهم ﴿فِيهَا﴾. قال سعيد بن جبير: أعطوا ثواب ما عملوا من خير في الدنيا. وقال مجاهد: مَنْ عمل عملاً من صِلَة، أو صدقة، لا يريد به وجه الله، أعطاه الله ثواب ذلك في الدنيا، ويدراً به عنه في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا لَهَا فِيهَا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ١٥ قال ابن عباس: أي في الدنيا. ﴿لَا يُخْشَوْنَ﴾ أي: لا يُنْقَصُونَ من أعمالهم في الدنيا شيئاً. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾ عملوا لغير الله ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا﴾ أي: ما عملوا في الدنيا من حسنة ﴿وَبِطُلَّ مَا كَانُوا﴾ لغير الله ﴿يَعْمَلُونَ﴾

فصل

وذكر قوم من المفسرين، منهم مقاتل، أن هذه الآية اقتضت أن من أراد الدنيا بعمله، أعطي فيها ثواب عمله من الرزق والخير، ثم نُسخ ذلك بقوله: ﴿عَبَلْنَا لَهُمْ فِيهَا مَا كَانُوا يُرِيدُونَ﴾ [الإسراء: ١٨]، وهذا لا يصح، لأنه لا يوفى إلا لمن يريد.

﴿أَمَّنْ كَانَ عَلَىٰ يَمِينِهِ رَيْبٌ أَن يُعْطَىٰ مِثْلَهُ بِمَا صَنَعَ أَمْ خِطَبَاتٍ مِّنَ الْأَحْزَابِ قَالَتْ إِنَّهُ عَاهَدُنَا رَبَّنَا بِأَن تُؤْتِيَنَا هَذِهِ حَزَنًا مِّمَّا هَزَنَّا وَتُؤْتِيَنَا هَذِهِ حَزَنًا مِّمَّا هَزَنَّا﴾ ١٧ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَسَنُةٌ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ١٨ ﴿أَمَّنْ كَانَ عَلَىٰ يَمِينِهِ رَيْبٌ أَن يُعْطَىٰ مِثْلَهُ بِمَا صَنَعَ﴾ ١٧ في المراد بالبيئة أربعة أقوال: أحدها: أنها الدين، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنها رسول الله ﷺ، قاله الضحاك. والثالث: القرآن، قاله ابن زيد. والرابع: البيان، قاله مقاتل.

وفي المشار إليه بـ «مَنْ» قولان: أحدهما: أنه رسول الله ﷺ، قاله ابن عباس والجمهور. والثاني: أنهم المسلمون، وهو يخرج على قول الضحاك. وفي قوله: «وَيَتْلُوهُ» قولان: أحدهما: يتبعه. والثاني: يقرؤه. وفي هاء «يتلوه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى النبي ﷺ. والثاني: إلى القرآن، وقد سبق ذكره في قوله: «فَأَتَا بِمَشْرِ سُوْرٍ يُتْلُوهُ مُفْتَرِيَتٌ» (هود: ١٣). وفي المراد بالشاهد ثمانية أقوال: أحدها: أنه جبريل، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، وعكرمة، وإبراهيم في آخرين. والثاني: أنه لسان رسول الله ﷺ الذي كان يتلو القرآن، قاله علي بن أبي طالب، والحسن، وقتادة في آخرين. والثالث: أنه علي بن أبي طالب. و«يتلوه» بمعنى يتبعه، رواه جماعة عن علي بن أبي طالب، وبه قال محمد بن علي، وزيد بن علي. والرابع: أنه رسول الله ﷺ هو شاهد من الله تعالى، قاله الحسين بن علي ﷺ. الخامس: أنه ملك يحفظه ويسدده، قاله مجاهد. والسادس: أنه الإنجيل يتلو القرآن بالتصديق، وإن كان قد أنزل قبله، لأن النبي ﷺ بشرت به التوراة، قاله الفراء. والسابع: أنه القرآن ونظمه وإعجازه، قاله الحسين بن الفضل. والثامن: أنه صورة رسول الله ﷺ ووجهه ومخايله، لأن كل عاقل نظر إليه علم أنه رسول الله ﷺ. وفي هاء «منه» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الله تعالى. والثاني: إلى النبي ﷺ. والثالث: إلى البيئة.

قوله تعالى: «وَمِنْ قَبْلِهِ» في هذه الهاء ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى النبي ﷺ، قاله مجاهد. والثاني: إلى القرآن، قاله ابن زيد. والثالث: إلى الإنجيل، أي: ومن قبل الإنجيل «كُتِبَ مُوسَى» يتبع محمداً بالتصديق له، ذكره ابن الأنباري. قال الزجاج: والمعنى: وكان من قبل هذا كتاب موسى دليلاً على أمر النبي ﷺ، فيكون «كُتِبَ مُوسَى» عطفاً على قوله: «وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ» أي: ويتلوه كتاب موسى، لأن موسى وعيسى بشراً بالنبي ﷺ في التوراة والإنجيل. ونصب «إماماً» على الحال. فإن قيل: كيف تتلوه التوراة، وهي قبله؟ قيل: لما بشرت به، كانت كأنها تالية له، لأنها تبعته بالتصديق له. وقال ابن الأنباري: «كُتِبَ مُوسَى» مفعول في المعنى، لأن جبريل تلاه على موسى، فارتفع الكتاب، وهو مفعول بمضمر بعده، تأويله: ومن قبله كتاب موسى كذلك، أي: تلاه جبريل أيضاً، كما تقول العرب: أكرمت أخاك وأبوك، فيرفعون الأب، وهو مكرم على الاستئناف، بمعنى: وأبوك مكرم أيضاً. قال: وذهب قوم إلى أن «كُتِبَ مُوسَى» فاعل، لأنه تلا محمداً بالتصديق كما تلاه الإنجيل.

فصل

فتلخيص الآية: أفمن كان على بيئة من ربه كمن لم يكن؟ قال الزجاج: ترك المضاد له، لأن في ما بعده دليلاً عليه، وهو قوله: «مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْنَى وَالْأَصْرَى» (هود: ٢٤). وقال ابن قتيبة: لما ذكر قبل هذه الآية قوماً ركنوا إلى الدنيا، جاء بهذه الآية، وتقدير الكلام: أفمن كانت هذه حاله كمن يريد الدنيا؟ فاكتمى من الجواب بما تقدم، إذ كان فيه دليل عليه. وقال ابن الأنباري: إنما حُذِفَ لانكشاف المعنى، والمحذوف المقدر كثير في القرآن والشعر، قال الشاعر:

فَأَقْسِمُ لَوْ شِئْنَا أَنَا رَسُولُهُ

سِوَاكَ، وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعاً^(١)

فإن قلنا: إن المراد بمن كان على بيئة من ربه، رسول الله ﷺ، فمعنى الآية: ويتبع هذا النبي شاهد، وهو جبريل ﷺ «منه» أي: من الله. وقيل: «شاهد» هو علي بن أبي طالب، «منه» أي: من النبي ﷺ. وقيل: «يتلوه» يعني القرآن، يتلوه جبريل، وهو شاهد لمحمد ﷺ أن الذي يتلوه جاء من عند الله تعالى. وقيل: ويتلو رسول الله ﷺ القرآن وهو شاهد من الله. وقيل: ويتلو لسان رسول الله ﷺ القرآن، فلسانه شاهد منه. وقيل: ويتبع محمداً شاهد له بالتصديق، وهو الإنجيل من الله تعالى. وقيل: ويتبع هذا النبي شاهد من نفسه، وهو سَمْتُهُ وهديه الدال على صدقه.

(١) البيت لامرئ القيس: «ديوانه» ٢٤٢، «والطبري» ١٧٧/١٥، و«مشكل القرآن» ١٦٦، و«الخزانة» ٢٢٧/٤. قوله: لو شيء، يريد: لو أحد، وليس له «لو» هنا جواب، كما أمسك عن الجواب في قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ» [الرعد: ٣] فنقول: لو أحد أتاناً رسوله لما أجبنا، ولكننا لم ندفعك عن ذلك.

وإن قلنا: إن المراد بمن كان على بيئة من ربه المسلمون، فالمعنى: أنهم يتبعون رسول الله ﷺ وهو البيئة، ويتبع هذا النبي شاهد له بصدقه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَرَحْمَةً﴾ إنما سماه إماماً، لأنه كان يهتدى به، «ورحمة» أي: وذا رحمة، وأراد بذلك التوراة، لأنها كانت إماماً وسبباً لرحمة من آمن به.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إشارة إلى أصحاب موسى. والثاني: إلى أصحاب محمد ﷺ. والثالث: إلى أهل الحق من أمة موسى وعيسى ومحمد. وفي هاء «به» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى التوراة. والثاني: إلى القرآن. والثالث: إلى محمد ﷺ. وفي المراد بالأحزاب هاهنا أربعة أقوال: أحدها: جميع الملل، قاله سعيد بن جبير. والثاني: اليهود والنصارى، قاله قتادة. والثالث: قريش، قاله السدي. والرابع: بنو أمية، وبنو المغيرة بن عبد الله المخزومي، وآل أبي طلحة بن عبد العزى، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدٌ﴾ أي: إليها مصيره، قال حسان بن ثابت:

أُورِدْتُمُوهَا حِيَاضَ الْمَوْتِ ضَاحِيَةً فَالنَّارُ مَوْعِدُهَا وَالْمَوْتُ لِأَقْبَاهَا^(١)

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ قرأ الحسن، وقاتدة: «مرية» بضم الميم أين وقع. وفي المكني عنه قولان: أحدهما: أنه الإخبار بمصير الكافر به، فالمعنى: فلا تك في شك أن موعد المكذب به النار، وهذا قول ابن عباس. والثاني: أنه القرآن، فالمعنى: فلا تك في شك من أن القرآن من الله تعالى، قاله مقاتل. قال ابن عباس: والمراد بالناس هاهنا: أهل مكة.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ قال الزجاج: ذكر عرضهم تأكيداً لحالهم في الانتقام منهم، وإن كان غيرهم يعرض أيضاً. فاما «الأشهاد» ففيهم خمسة أقوال: أحدها: أنهم الرسل، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: الملائكة، قاله مجاهد، وقاتدة. والثالث: الخلائق، روي عن قتادة أيضاً. وقال مقاتل: «الأشهاد» الناس، كما يقال: على رؤوس الأشهاد، أي: على رؤوس الناس. والرابع: الملائكة والنبيون وأمة محمد ﷺ يشهدون على الناس، والجوارح تشهد على ابن آدم، قاله ابن زيد. الخامس: الأنبياء والمؤمنون، قاله الزجاج. قال ابن الأنباري: وفائدة إخبار الأشهاد بما يعلمه الله: تعظيم بالأمر المشهود عليه، ودفع المجادلة فيه.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قد تقدم تفسيرها في [الأعراف: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ قال الزجاج: ذكرت «هم» ثانية على جهة التوكيد لشأنهم في الكفر. ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْمَعُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَخِيلُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: لم يعجزوني أن آمر الأرض فتخسف بهم. ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: لا ولي لهم ممن يعبدون بمعنهم مني. وقال ابن الأنباري: لما كانت عادة العرب جارية بقولهم: لا وزر لك مني ولا تفق، يعنون بالوزر: الجبل، والتفق: السرب، وكلاهما يلجأ إليه الخائف، أعلم الله تعالى أن هؤلاء الكافرين لا يسبقونه هرباً، ولا يجدون ما يحجز بينهم وبين عذابه من جميع ما يستر من الأرض ويلجأ إليه. قال: وقوله: «من أولياء» يقتضي محذوفاً، تلخيصه: من أولياء يمنعونهم من عذاب الله، فحذف هذا لشهرته.

قوله تعالى: ﴿يُضْمَعُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ يعني الرؤساء الصادقين عن سبيل الله، وذلك لإضلالهم أتباعهم واقتداء غيرهم بهم. وقال الزجاج: ﴿لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في دار الدنيا، ولا لهم ولي يمنع من انتقام الله، ثم استأنف ﴿يُضْمَعُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ لعظم كفرهم بيني وبالبعث والنشور.

(١) «ديوانه» ٤٢٤. والضاحية: من الإبل والغنم: التي تشرب ضحى، وهي هنا على المثل، وحياض الموت ترشيح.

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ فيمن عَنِيَ بهذا قولان: أحدهما: أنهم الكفار. ثم في معناه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم لم يقدروا على استماع الخير، وإبصار الحق، وفعل الطاعة، لأن الله تعالى حال بينهم وبين ذلك، هذا معنى قول ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أن المعنى: يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع ولا يسمعون، وبما كانوا يبصرون حُجج الله ولا يعتبرون بها، فحذف الباء، كما تقول العرب: لأجزيتك ما عملت، وبما عملت، ذكره الفراء، وأنشد ابن الأنباري في الاحتجاج له:

نُغَالِي الثَّلْحَمَ لِلأَصْيَافِ نَيْشاً وَنُبْذِلُهُ إِذَا نَضِجَ القُدُورُ^(١)

أراد: نُغَالِي باللحم. والثالث: أنهم من شدة كفرهم وعداوتهم للنبي ﷺ ما كانوا يستطيعون أن يفهموا ما يقول، قاله الزجاج. والقول الثاني: أنهم الأصنام، فالمعنى: ما كان للألهة سمع ولا بصر، فلم تستطع لذلك السمع، ولم تكن تبصر. فعلى هذا، يرجع قوله: ﴿مَّا كَانُوا﴾ إلى أوليائهم، وهي الأصنام، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس أيضاً. ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْآخِرُونَ﴾^(٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَصَلَّوْا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ إِلَى رَبِّهِمْ أَولَئِكَ أَحَبُّ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْنَى وَالْأَصْبَرِ وَالْأَصْبَرُ وَالْأَصْبَرُ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَلَّا تَذَكَّرُونَ^(٤)

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ قال ابن عباس: يريد: حقاً إنهم الأخسرون. وقال الفراء: «لاجرم» كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة، فجرت على ذلك، وكثر استعمالهم إياها حتى صارت بمنزلة «حقاً»، ألا ترى أن العرب تقول: لا جرم لأتيتك، لا جرم لقد أحسنت، وأصلها من جرم، أي: كسبت الذنب. قال الزجاج: ومعنى «لاجرم»: «لا» نفي لما ظنوا أنه يقعهم، كأن المعنى: لا يقعهم ذلك جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون، أي: كسب لهم ذلك الفعلُ الخسران. وذكر ابن الأنباري أن «لا» رد على أهل الكفر فيما قدروه من اندفاع الشر عنهم في الآخرة، والمعنى: لا يندفع عنهم عذابي، ولا يجدون ولياً يصرف عنهم نقمتي، ثم ابتداء مستأنفاً «جرم»، قال: وفيها قولان: أحدهما: أنها بمعنى: كسب كفرهم وما قدروا من الباطل وقوع العذاب بهم. فـ «جرم» فعل ماضٍ، ومعناه: كسب، وفاعله مضمَر فيه من ذكر الكفر وتقرير الباطل. والثاني: أن معنى جرم: أحقَّ وصحَّح، وهو فعل ماضٍ، وفاعله مضمَر فيه، والمعنى: أحقَّ كفرهم وقوع العذاب والخسران بهم، قال الشاعر^(٥):

وَلَقَدْ طَعَنْتُ أَبَا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً جَرَمْتُ فِزَارَةَ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوهَا^(٦)

أراد: حقت الطعنة فزارة بالغضب. ومن العرب من يغيِّر لفظ «جرم» مع «لا» خاصة، فيقول بعضهم: «لا جُرم»، ويقول آخرون: «لا جر» بإسقاط الميم، ويقال: «لاذا جرم» و«لاذا جر» بغير ميم، و«لا إن ذا جرم» و«لا عن ذا جرم»، ومعنى اللغات كلها: حقاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَاخِبُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ فيه سبعة أقوال: أحدها: خافوا ربهم، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أنابوا إلى ربهم، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: تابوا إلى ربهم، قاله قتادة. والرابع: اطمأنوا، قاله مجاهد. والخامس: أخلصوا، قاله مقاتل. والسادس: تخشعوا لربهم، قاله الفراء. والسابع: تواضعوا لربهم، قاله ابن قتيبة. فإن قيل: لم أوثرت «إلى» على اللام في قوله: ﴿وَلَاخِبُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾، والعادة جارية بأن يقال أخبتوا لربهم؟ فالجواب: أن المعنى: وَجَّهُوا خَوْفَهُمْ وَخُشُوعَهُمْ وَإِخْلَاصَهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ، واطمأنوا إلى ربهم. قال الفراء: وربما جعلت العرب «إلى» في موضع اللام، كقوله: ﴿بِأَنَّ رَيْكَ أَوْشَى لَهَا﴾^(٧) [الزُّلَّة: ٥٥]، وقوله: ﴿أَلَّذِي هَدَيْتَنَا إِلَيْكَ﴾ [الاعراف: ٤٣]. وقد يجوز في العربية: فلان يخبت إلى الله، يريد يفعل ذلك موجهً إلى الله. قال بعض المفسرين: هذه الآية نازلة في أصحاب رسول الله ﷺ، وما قبلها نازل في المشركين. ثم ضرب للفرقيين مثلاً، فقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْنَى وَالْأَصْبَرِ﴾

(١) تقدم البيت ٥٦٨.

(٢) نسبة البطليوسي في «الانقصاب» لأي اسماء بن الضرية، وقيل: بل هو لمعية بن عفيف.

(٣) «مجاز القرآن» ١٤٧/١، و«الانقصاب» ٣١٣، و«مسيبويه» ٤١٨/١، و«معاني القرآن» ٨٠، و«القرطبي» ٤٥/٦، و«اللسان» و«التاج»: جرم، و«الخرانة» ٣١٠/٤، و«شواهد الكشاف» ٣٢.

قال مجاهد: الفريقان: المؤمن والكافر. فأما الأعمى والأصم فهو الكافر، وأما البصير والسميع فهو المؤمن. قال قتادة: الكافر عَمِيَ عن الحق وَصَمَّ عنه، والمؤمن أَبْصَرَ الحقَ وَسَمِعَهُ ثم انتفع به. وقال أبو عبيدة: في الكلام ضمير، تقديره: مثل الفريقين كمثل الأعمى. وقال الزجاج: مثل الفريقين المسلمين كالْبصير والسميع، ومثل فريق الكافرين كالأعمى والأصم، لأنهم في عداوتهم وتركهم للفهم بمنزلة من لا يسمع ولا يبصر.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي: هل يستويان في المشابهة؟ والمعنى: كما لا يستويان عندكم، كذلك لا يستوي المؤمن والكافر عند الله. وقال أبو عبيدة: «هل» هاهنا بمعنى الإيجاب، لا بمعنى الاستفهام، والمعنى: لا يستويان. قال الفراء: وإنما لم يقل: «يستون» لأن الأعمى والأصم من صفة واحد، والسميع والبصير من صفة واحد، كقول القائل: مررت بالعاقل واللييب، وهو يعني واحداً، قال الشاعر:

وما أذري إذا يَمُنْتُ أرضاً أريدُ الخيرَ أيهما يليني^(١)

فقال: أيهما. وإنما ذكر الخير وحده، لأن المعنى يُعرف، إذ المبتغي للخير مَتَى للشر. وقال ابن الأنباري: الأعمى والأصم صفتان لكافر، والسميع والبصير صفتان لمؤمن، فَرَدَّ الفعلُ إلى الموصوفين بالأوصاف الأربعة، كما تقول: العاقل والعالم، والظالم والجاهل، حضراً مجلسي، فثبتي الخبر بعد ذكرك أربعة، لأن الموصوف بالعلم هو الموصوف بالعقل، وكذلك المنعوت بالجهل هو المنعوت بالظلم، فلما كان المنعوتان اثنين، رجع الخبر إليهما، ولم يلتفت إلى تفريق الأوصاف، ألا ترى أنه يسوغ أن تقول: الأديب واللييب والكريم والجميل قصدي، فتوحد الفعل بعد أوصاف لعله أن الموصوف بهن واحد، ولا يمتنع عطف النعوت على النعوت بحروف العطف، والموصوف واحد، فقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ١١٢] ثم قال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [التوبة: ١١٢] فلم يقتض دخول الواو وقوع خلاف بين الأمرين والناهين، وقد قيل: الأمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر في حال أمره، وكان دخول الواو دلالة على الأمر بالمعروف، لأن الأمر بالمعروف لا ينفرد دون النهي عن المنكر، كما ينفرد الحامدون بالحمد دون الساتحين، والساتحون بالسياسة دون الحامدين، ويدل أيضاً على أن العرب تنسق النعت على النعت والمنعوت واحد، كقول الشاعر يخاطب سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان:

يَظُنُّ سعيدٌ وابنُ عمرو بأئني إذا سامَني ذلاً أكونُ به أرَضَى

فتسق ابن عمرو على سعيد، وهو سعيد.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذْ لَّهُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٠) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآلِمْ ﴿١١﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ بِكَ إِلَهٍ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَحْنُ لَكُمْ كَذِبٌ ﴿١٢﴾ قَالَ يَبْقَوُا فِي دِينِكُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّيِّ وَآتَنِي رَحْمَةً مِّن عِنْدِي فَصَيَّتْ عَلَيْكُمُ الْغُلَامُ كُفْرًا وَأَنبَتَ لَهَا كِشْفُونٌ ﴿١٣﴾ وَتَبَقَرُوا لَكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِن آجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا لَأَتُهُمُ ثَلَاثُونَ أَلْفًا وَلَكِنْ أَتَاهُمْ قَوْمًا يَتَّبِعُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذْ لَّهُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي «إني» بفتح الالف، والتقدير: أرسلناه بأني، وكان الوجه بأنه لهم نذير، ولكنه على الرجوع من الإخبار عن الغائب إلى خطاب نوح قومه. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمة «إني» بكسر الالف، فحملوه على القول المضمر، والتقدير: فقال لهم: إني لكم نذير.

قوله تعالى: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أي: إنساناً مثلنا، لا فضل لك علينا. فأما الأراذل، فقال ابن عباس: هم السُّفلة. وقال ابن قتيبة: هم جمع «أرذل»، يقال: رجل رَذُلٌ، وقد رَذُلَ رذالة ورذولة. ومعنى الأراذل: الشرار.

قوله تعالى: ﴿يَبْقَوُا فِي دِينِكُمْ﴾ قرأ الأكثرون «بإدي» بغير همز. وقرأ أبو عمرو بالهمز بعد الدال. وكلهم همز «الرأي»

غير أبي عمرو. وللعلماء في معنى «بادي» إذا لم يُهمز ثلاثة أقوال: أحدها: أن المعنى: ما نرى أتباعك إلا سفلتنا وأردالنا في بادي الرأي لكل ناظر، يعنون أن ما وصفناهم به من النقص لا يخفى على أحد فيخالفنا، هذا مذهب مقاتل في آخرين. والثاني: أن المعنى أن هؤلاء القوم أتبعوك في ظاهر ما يرى منهم، وطوئتهم على خلافك. والثالث: أن المعنى: اتبعوك في ظاهر رأيهم، ولم يتدبروا ما قلت، ولو رجعوا إلى التفكير لم يتبعوك، ذكر هذين القولين الزجاج. قال ابن الأنباري: وهذه الثلاثة الأقوال على قراءة من لم يهمز، لأنه من بدا، يبدو؛ إذا ظهر. فأما من همز «بادي» فمعناه: ابتداء الرأي، أي أتبعوك أول ما ابتدؤوا ينظرون، ولو فكروا لم يعدلوا عن موافقتنا في تكذيبك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا رَأَى لَكُمْ عَلَيْكَ مِنْ فَضْلٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: من فضل في الخلق، قاله ابن عباس. والثاني: في الملك والمال ونحو ذلك، قاله مقاتل. والثالث: ما فُضِّلتم باتباعكم نوحاً، ومخالفتكم لنا بفضيلة تتبعكم طلباً لها، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿بَلْ تَقُولُ لَكُمْ عَذَابٌ كَذِبٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: نتيقنكم، قاله الكلبي. والثاني: نحسبكم، قاله مقاتل. قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتْرِفٍ رَأَيْتُمْ﴾ أي: على يقين وبصيرة. قال ابن الأنباري: وقوله: «إن كنت» شرط لا يوجب شكاً يلحقه، لكن الشك يلحق المخاطبين من أهل الزيف، فتقديره: إن كنت على بينة من ربي عندكم. ﴿وَرَأَيْتُمْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّي﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها النبوة، قاله ابن عباس. والثاني: الهداية، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «فَعَمِيَّتْ» بتخفيف الميم وفتح العين. قال ابن قتيبة: والمعنى: عमित عنها، يقال: عمي عليّ هذا الأمر: إذا لم أفهمه، وعमित عنه بمعنى. قال الفراء: وهذا مما حوِّلت العرب الفعل إليه، وهو في الأصل لغیره، كقولهم: دخل الخاتم في يدي، والخف في رجلي، وإنما الإصبع تدخل في الخاتم، والرجل في الخف، واستجازوا ذلك إذ كان المعنى معروفاً. وقرأ حفزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «فَعَمِيَّتْ» بضم العين وتشديد الميم. قال ابن الأنباري: ومعنى ذلك: فعماها الله عليكم إذ كنتم ممن حُكِمَ عليه بالشقاء. وكذلك قرأ أبي بن كعب، والأعمش: «فعماها عليكم». وفي المشار إليها قولان: أحدهما: البينة. والثاني: الرحمة.

قوله تعالى: ﴿أَتَرْكُومَا﴾ أي: أتُلزِمكم قبولها؟ وهذا استفهام معناه الإنكار، يقول: لا نقدر أن نُلزمكم من ذات أنفسنا. قال قتادة: والله لو استطاع نبي الله ﷺ لألزمها قومه، ولكن لم يملك ذلك. وقيل: كان مراد نوح ﷺ ردّ قولهم: ﴿وَمَا رَأَى لَكُمْ عَلَيْكَ مِنْ فَضْلٍ﴾ فبين فضله وفضل من آمن به بأنه على بينة من ربه، وقد أتاه رحمة من عنده، وسلب المكذوبون ذلك.

قوله تعالى: ﴿لَا أَتُكِّمُ عَنْهُ﴾ أي: على نصحي ودعائي إياكم «مَالاً» فتتهموني. وقال ابن الأنباري: لما كانت الرحمة بمعنى الهدى والإيمان، جاز تذكرها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال ابن جريج: سألوهم طردهم أفنة منهم، فقال: لا يجوز لي طردهم، إذ كانوا يلقون الله فيجزيههم بإيمانهم، ويأخذ لهم ممن ظلمهم وصغر شؤونهم. وفي قوله: ﴿وَلَكِنَّتُمْ أَنْتُمْ قَوْمًا تُجْهَلُونَ﴾ قولان: أحدهما: تجهلون أن هذا الأمر من الله تعالى، قاله ابن عباس. والثاني: تجهلون لأمركم إياي بطرد المؤمنين، قاله أبو سليمان.

﴿وَنَقُورٍ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الآية ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدَ خَزَائِنِ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَوِيَّ أَعِينَكُمْ لَنُؤَيِّنَنَّكُمْ أَنَّ يَوْمَئِذٍ أَتِيكُمْ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنَّ إِيَّاهُ لَأَلِيمُ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿قَالُوا يَسْخَرُ قَدَّ جَدَلْنَا فَكَذَّبْتَ بِجَدَلِنَا فَأَيْنَا بِمَا قَدَّمْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُعْجِزٍ﴾ ﴿لَا يَنْفَعُكُمْ نَصِيحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَقُورٍ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: من يعنني من عذاب الله إن طردهم. قوله تعالى: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدَ خَزَائِنِ اللَّهِ﴾ قال ابن الأنباري: أراد بالخزائن: علم الغيب المطوي عن الخلق،

لأنهم قالوا له: إنما أتبعك هؤلاء في الظاهر وليسوا معك، فقال لهم: ليس عندي خزائن غيوب الله فأعلم ما تنطوي عليه الضمائر. وإنما قيل للغيوب: خزائن، لغموضها عن الناس واستتارها عنهم. قال سفيان بن عيينة: إنما آيات القرآن خزائن، فإذا دخلت خزائنه فاجتهد أن لا تخرج منها حتى تعرف ما فيها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ قيل: إنما قال لهم هذا، لأن أرضهم أجديت، فسألوه: متى يجيء المطر؟ وقيل: بل سألوه: متى يجيء العذاب؟ فقال: ولا أعلم الغيب. وقوله: ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ جواب لقولهم: ﴿مَا رَبُّكَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [معد: ٢٧]. ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ أي: تحتقر وتستصغر المؤمنين. قال الزجاج: «تزدري» تستقل وتستخس، يقال: زريت على الرجل: إذا عبت عليه وخسست فعله، وأزريت به: إذا قصرت به. وأصل تزدري: تزتري، إلا أن هذه التاء تبدل بعد الزاي دالاً، لأن التاء من حروف الهمس، وحروف الهمس خفية، فالتاء بعد الزاي تخفى، فأبدلت منها الدال لجهرها.

قوله تعالى: ﴿لَنْ يُؤْمِنَهُمْ اللَّهُ عَزَّ﴾ قال ابن عباس: إيماناً. ومعنى الكلام: ليس لي أن أطلع على ما في نفوسهم فأقطع عليهم بشيء، وليس لاحتراركم إياهم يبطل أجورهم. ﴿إِنِّي إِذًا لَكِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إن قلت هذا الذي تقدم ذكره، وقيل: إن طردتهم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَدَلْنَا﴾ قال الزجاج: الجدل: هو المبالغة في الخصومة والمناظرة، وهو مأخوذ من الجدل، وهو شدة القتال، ويقال للفقير: أجدل، لأنه من أشد الطير. ويُقرأ «جَدَلْنَا».

قوله تعالى: ﴿قَاتِلْنَا يَا صِدْقًا﴾ قال ابن عباس: يعنون العذاب. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أنه يأتينا.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ﴾ أي أنصحكم. وفي هذه الآية شرطان، فجواب الأول النصيحة، وجواب الثاني النفع.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُصَوِّبَكُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: يضلكم، قاله ابن عباس. والثاني: يهلككم، حكاه ابن الأنباري. وقال: هو قول مرغوب عنه. والثالث: يضلكم ويهلككم، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ أي: هو أولى بكم، يتصرف في ملكه كما يشاء ﴿وَالَّذِي تُزْعَمُونَ﴾ بعد الموت.

﴿أَنْ يَقُولُوا أَفَرَأَيْنَا قَوْمًا يَمُوتُونَ﴾ ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ قال الزجاج: المعنى: أيقولون: (افتراء؟) قال ابن قتيبة: الافتراء: الاختلاق. ﴿فَقُلْ﴾ ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: جرم ذلك الاختلاق إن كنت فعلت. ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ في التكذيب. وقرأ أبو المتوكّل، وابن السميع: «فعلني أجمري» بفتح الهزة.

﴿وَأَرْجَى إِنْ تَوَجَّهْتُمْ لِنُجُوتِكُمْ إِنْ يَشَاءُ رَبُّكُمْ﴾ ﴿وَأَرْجَى إِنْ تَوَجَّهْتُمْ لِنُجُوتِكُمْ إِنْ يَشَاءُ رَبُّكُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَرْجَى إِنْ تَوَجَّهْتُمْ لِنُجُوتِكُمْ إِنْ يَشَاءُ رَبُّكُمْ﴾ قال المفسرون: لما أوحى إليه هذا، استجاز الدعاء عليهم، فقال: ﴿لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَهِشْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد: لا تحزن. وقال الفراء، والزجاج: لا تستكن ولا تحزن.

قال أبو صالح عن ابن عباس: فلا تحزن إذا نزل بهم الفرق ﴿يَا كَاؤًا يَقْمَلُونَ﴾

﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَ﴾ ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ ﴿وَوَحْيِنَا﴾ ﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الدِّينِ ظُلْمًا﴾ ﴿إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ﴾ ﴿وَصْنَعُ الْفُلَ﴾ ﴿وَكَلَّمَ مَرْءًا عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ قَالَ إِنَّ تَسَخَّرُوا مِنَّا فَكُنَّا نَسَخِّرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَّرُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَ﴾ أي: وأعمل السفينة. وفي قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: بمرأى منا، قاله

ابن عباس. والثاني: بحفظنا، قاله الربيع. والثالث: بعلمنا، قاله مقاتل. قال ابن الأنباري: إنما جمع على مذهب العرب في إيقاعها الجمع على الواحد، تقول: خرجنا إلى البصرة في السفن، وإنما جمع، لأن من عادة الملك أن يقول: أمرنا ونهينا. وفي قوله: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ قولان: أحدهما: وأمرنا لك أن تصنعها. والثاني: ويتعليمنا إياك كيف تصنعها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الْقَدَرِ عَلِيمًا﴾ فيه قولان: أحدهما: لا تسألني الصفح عنهم. والثاني: لا تخاطبني في إمهالهم. وإنما نهى عن الخطاب في ذلك صيانة له عن سؤال لا يجاب فيه.

الإشارة إلى كيفية عمل السفينة

روى الضحاك عن ابن عباس قال: كان نوح يُضرب ثم يُلَفُّ في لَبْدٍ فَيُلْقَى في بيته، يُرَوَّن أنه قد مات، ثم يخرج فيدعوهم. حتى إذا يش من إيمان قومه، جاءه رجل ومعه ابنه وهو يتوكأ على عصا، فقال: يا بني، انظر هذا الشيخ لا يغررك، قال: يا أبت أمكني من العصا، فأخذها فضربه ضربة شجوة مؤضحة^(١)، وسالت الدماء على وجهه، فقال: رب قد ترى ما يفعل بي عبادك، فإن يكن لك فيهم حاجة فاهداهم، وإلا فصبرني إلى أن تحكم، فأوحى الله إليه ﴿إِنَّكَ لَن تُولِيَهُنَّ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَمْسَحَ الْفَلَكَ﴾، قال يا رب، وما الفلك؟ قال: بيت من خشب يجري على وجه الماء أنجي فيه أهل طاعتي، وأغرق أهل معصيتي، قال: يا رب، وأين الماء؟ قال: إني على ما أشاء قدير، قال: يا رب، وأين الخشب؟ قال: أغرس الشجر، فغرس الساج^(٢) عشرين سنة، وكف عن دعائهم، وكفوا عنه، إلا أنهم يستهزئون به، فلما أدرك الشجر، أمره ربه، فقطعه وجففه ولقَّفه، فقال: يا رب، كيف أتخذ هذا البيت؟ قال: اجعله على ثلاث صور، رأسه كراس الطاووس، وجوؤه كجوؤ الطائر، وذنبه كذنب الديك، واجعلها مطبقة، وبعث الله إليه جبريل يعلمه، وأوحى الله إليه أن عجّل عمل السفينة فقد اشتد غضبي على من عصاني، فاستأجر نجارين يعملون معه، وسام، وحام، ويافت، معه ينتحون السفينة، فجعل طولها ستمائة ذراع، وعرضها ثلاثمائة وثلاثين ذراعاً، وعلوها ثلاثاً وثلاثين، وفجر الله له عين القار تغلي غلياناً حتى طلاها. وعن ابن عباس قال: جعل لها ثلاث بطون، فحمل في البطن الأول الوحوش والسباع والهوام، وفي الأوسط الدواب والأنعام، وركب هو ومن معه البطن الأعلى. وروي عن الحسن أنه قال: كانت سفينة نوح طولها ألف ذراع، وماتتا ذراع، وعرضها ستمائة ذراع. وقال قتادة: كانت فيما ذكر لنا طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسمائة ذراع، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً. وقال ابن جريج: كان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسين ومائة ذراع، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً، وكان في أعلاها الطير، وفي وسطها الناس، وفي أسفلها السباع. وزعم مقاتل أنه عمل السفينة في أربعمئة سنة.

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَا مَرْ عَلَى مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنهم رأوه يبني السفينة وما رأوا سفينة قط، فكانوا يسخرون ويقولون: صرت بعد النبوة نجاراً؟ وهذا قول ابن إسحاق والثاني: أنهم قالوا له: ما تصنع؟ فقال: أبني بيتاً يمشي على الماء، فسخروا من قوله، وهذا قول مقاتل. وفي قوله: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ خمسة أقوال: أحدها: إن تسخروا من قولنا فإننا نسخر من غفلتكم. والثاني: إن تسخروا من فعلنا عند بناء السفينة، فإننا نسخر منكم عند الغرق، ذكره المفسرون. والثالث: إن تسخروا منا في الدنيا، فإننا نسخر منكم في الآخرة، قاله ابن جرير. والرابع: إن تستجملونا، فإننا نستجملكم، قاله الزجاج. والخامس: إن تسخروا منا، فإن نستنصر الله عليكم، فسمى هذا سخرية، ليتفق اللفظان كما بينا في قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِكُمْ﴾ [البقرة: ١٥]، هذا قول ابن الأنباري. قال ابن عباس: لم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر، فلذلك سخروا منه، وإنما مياه البحار بقية الطوفان.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا وعيد، ومعناه: فسوف تعلمون من هو أحق بالسخرية، ومن هو أحمد عاقبة.

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: يُذَلُّه، وهو الغرق. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ أي: ويجب عليه ﴿عَذَابٌ مُثِيرٌ﴾ في

الآخرة.

(١) الموضحة: الشجة التي بلغت العظم، فأوضحت عنه. ولا قصاص في شيء من الشجاج إلا في الموضحة، وفي غيرها الدية.

(٢) الساج: شجر ينظم جداً، ويذهب طولاً وعرضاً، وله ورق أمثال التراس الدبلوماسية، يغطي الرجل بورقه منه، فتكنه من المطر، وله رائحة طيبة تشابه رائحة ورق الجوز مع ريقه ونعته.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَشْرَاقُهُمْ وَقَارَ الثُّورُ قُلْنَا امْجُلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَشْرَاقُهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: جاء أمرنا بعذابهم وإهلاكهم. والثاني: جاء عذابنا وهو الماء، ابتداءً بجنابت الأرض فدار حولها كالإكليل، وجعل المطر ينزل من السماء كأفواه القرب، فجعلت الوحوش يطلبن وسط الأرض هرباً من الماء حتى اجتمعن عند السفينة، فحيثما حمل فيها من كل زوجين اثنين.

قوله تعالى: ﴿وَقَارَ الثُّورُ﴾ الفور: الغليان؛ والفؤارة: ما يفور من القدر، قاله ابن فارس. قال المصنف: وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي عن ابن دريد قال: الثور: اسم فارسي معرب لا تعرف له العرب اسماً غير هذا، فلذلك جاء في التنزيل، لأنهم خطبوا بما عرفوا. وروي عن ابن عباس أنه قال: الثور، بكل لسان عربي وعجمي. وفي المراد بهذا الثور ستة أقوال: أحدها: أنه اسم لوجه الأرض، رواه عكرمة عن علي عليه السلام. وروى الضحاك عن ابن عباس: الثور: وجه الأرض، قال: قيل له: إذا رأيت الماء قد علا وجه الأرض، فاركب أنت وأصحابك، وهذا قول عكرمة، والزهرى. والثاني: أنه تنوير الصبح، رواه أبو جحيفة عن علي عليه السلام. وقال ابن قتبية: التنوير عند الصلاة. والثالث: أنه طلوع الفجر، روي عن علي أيضاً، قال: «وفار الثور»: طلوع الفجر. والرابع: أنه طلوع الشمس، وهو منقول عن علي أيضاً. والخامس: أنه تنور أهله، روى العوفي عن ابن عباس قال: إذا رأيت ثوراً أهلك يخرج منه الماء، فإنه هلاك قومك. وروى أبو صالح عن ابن عباس: أنه تنور آدم عليه السلام، وهبه الله لنوح، وقيل له: إذا فار الماء منه، فاحمل ما أمرت به. وقال الحسن: كان تنوراً من حجارة، وهذا قول مجاهد، والفراء، ومقاتل. والسادس: أنه أعلى الأرض وأشرفها^(١). قال ابن الأنباري: شُبِّهت أعالي الأرض وأماكنها المرتفعة لعلوها، بالتناير. واختلفوا في المكان الذي فار منه الثور على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه فار من مسجد الكوفة، رواه حبة العرنى عن علي عليه السلام. وقال زُرُّ بن حُبَيْش: فار الثور من زاوية مسجد الكوفة اليمنى. وقال مجاهد: نبع الماء من الثور، فعلمت به امرأته فأخبرته، وكان ذلك بناحية الكوفة. وكان الشعبي يحلف بالله ما كان الثور إلا بناحية الكوفة. والثاني: أنه فار بالهند، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثالث: أنه كان في أقصى دار نوح، وكانت بالشام في مكان يقال له: عين وردة، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا امْجُلْ فِيهَا﴾ أي: في السفينة ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾. وروى حفص عن عاصم: «من كل» بالتثنية. قال أبو علي: والمعنى: من كل شيء، ومن كل زوج زوجين، فحذف المضاف. وانتصاب «اثنين» على أنهما صفة لزوجين، وقد علم أن الزوجين اثنين، ولكنه توكيد. قال مجاهد: من كل صنف، ذكراً وأنثى. وقال ابن قتبية: الزوج يكون واحداً، ويكون اثنين، وهو هاهنا واحد، ومعنى الآية: احمل من كل ذكر وأنثى اثنين. وقال الزجاج: المعنى: احمل زوجين اثنين من كل شيء، والزوج في كلام العرب يجوز أن يكون معه واحد، والاثنان يقال لهما: زوجان، يقال: عندي زوجان من الطير، إنما يريد ذكراً وأنثى فقط. وقال ابن الأنباري: إنما قال «اثنين» فثنى الزوج، لأنه قصد قُضد الذكر والأنثى من الحيوان، وتقديره: من كل ذكر وأنثى.

قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي: واحمل أهلك. قال المفسرون: أراد بأهله: عياله وولده. ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي: سبق عليه القول من الله بالإهلاك. قال الضحاك: وهم امرأته وابنه كنعان.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ معناه: واحمل من آمن. ﴿وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وفي عددهم ثمانية أقوال: أحدها: أنهم كانوا ثمانين رجلاً معهم أهلهم، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: أن نوحاً حمل معه ثمانين إنساناً، وبنيه الثلاثة، وثلاث نسوة لبنيه، وامرأة نوح، رواه يوسف بن مهزبان عن ابن عباس. والثالث: كانوا ثمانين إنساناً، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال مقاتل: كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة. والرابع: كانوا أربعين، ذكره ابن جريج عن

(١) قال ابن كثير ٤٤٥/٢ بعد أن ساق أكثر هذه الأقوال: وهذه أقوال غريبة.

ابن عباس. والخامس: كانوا ثلاثين رجلاً، رواه أبو نهيك عن ابن عباس. والسادس: كانوا ثمانية، قال الحكم بن عتيبة: كان نوح وثلاثة بنيه وأربع كنانته. قال قتادة: ذكر لنا أنه لم ينج في السفينة إلا نوح وامرأته وثلاثة بنين له، ونساؤهم، فجماعتهم ثمانية، وهذا قول القرظي، وابن جريج. والسابع: كانوا سبعة، نوح، وثلاث كنانين له وثلاثة بنين، قاله الأعمش. والثامن: كانوا عشرة سوى نساؤهم، قاله ابن إسحاق. وروي عنه أنه قال: الذين نَجَوْا مع نوح بنوه الثلاثة، ونساؤهم ثلاث، وستة ممن آمن به^(١).

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِيدَهَا وَنُصْرَتُهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ﴾ يعني نوحاً للذين أمر بحملهم ﴿ارْكَبُوا﴾ السفينة. قال ابن عباس: ركبوا فيها لعشر مضين من رجب، وخرجوا منها يوم عاشوراء. وقال ابن جريج: رفعت من عين ورده يوم الجمعة لعشر مضين من رجب، فأتت موضع البيت فطافت به أسبوعاً، وكان البيت قد رُفِعَ في ذلك الوقت، ورست بياضدى^(٢) على الجودي يوم عاشوراء. قال ابن عباس: قرض الفأر حبال السفينة، فشكا نوح ذلك، فأوحى الله تعالى إليه، فمسح ذنب الأسد، فخرج سئوران، وكان في السفينة غيرة، فشكا ذلك إلى ربه، فأوحى الله تعالى إليه، فمسح ذنب الفيل، فخرج خنزيران فأكلا ذلك^(٣).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ جَرِيدَهَا وَنُصْرَتُهَا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: ﴿مَجْرَاهَا﴾ بضم الميم. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿مَجْرَاهَا﴾ بفتح الميم، وكسر الراء. وكلهم قرؤوا بضم الميم من «مرساها»، إلا أن ابن كثير، وأبا عمرو، وابن عامر، وحفصاً عن عاصم، كانوا يفتحون السين. ونافع، وأبو بكر عن عاصم، كانا يقرأنها بين الكسر والتفخيم. وكان حمزة، والكسائي، وخلف، يميلونها. وليس في هؤلاء أحد جعلها نعتاً لله، وإنما جعل الوصفين نعتاً لله تعالى، الحسن، وفتادة، وحُميد الأعرج، وإسماعيل بن مجالد عن عاصم، قرؤوا ﴿مَجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا﴾ بضم الميم، وبياءين صحيحتين، مثل مبدئها ومنشئها. وقرأ ابن مسعود: ﴿مَجْرَاهَا﴾ بفتح الميم، وإمالة الراء بعدها ألف، و﴿مُرْسَاهَا﴾ برفع الميم، وإمالة السين بعدها ألف. وقرأ أبو رزين، وأبو المتوكل: ﴿مَجْرَاهَا﴾ بفتح الميم والراء، وبألف بعدها، و﴿مُرْسَاهَا﴾ برفع الميم وفتح السين، وبألف بعدها. وقرأ أبو الجوزاء، وابن يعمر: ﴿مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ بفتح الميم فيهما جميعاً، وفتح الراء والسين، وبألف بعدهما وقرأ يحيى بن وثاب بفتح الميمين، إلا أنه أمال الراء والسين فيهما. وقرأ أبو عمران الجوني، وابن جبير، برفع الميم فيهما، وفتح الراء والسين، وبألف بعدهما جميعاً. فمن قرأ بضم الميمين، جعله من أجرى وأرسي. ومن فتحهما، جعله مصدراً من جرى الشيء يجري مجرى، ورسي يرسى مرسى. قال الزجاج: قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ أي: بالله، والمعنى: أنه أمرهم أن يسئوا في وقت جريها وقت استقرارها. ومن قرأ بضم الميمين، فالمعنى: بالله إجراؤها، وبالله إرساها. ومن فتحهما، فالمعنى: بالله يكون جريها، وبالله يقع إرساؤها، أي: إقرارها. وسمعت شيخنا أبا منصور اللخوي يقول: من ضم الميم في «مَجْرَاهَا» أراد: أجراها الله مجرى، ومن فتحها، أراد: جرت مجرى. وقال الضحاك: كان إذا أراد أن تجري، قال: بسم الله، فجرت. وإذا أراد أن ترسي، قال: بسم الله، فرست.

﴿وَيَوْمَ تَجْرَى بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَكَأَنَّ نُوحًا أَتَنَّهُ وَكَانَ فِي مَعْرَىٰ بَيْتٍ ارْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ سَكَاوَيْتُ إِلَىٰ جَبَلٍ يَخْسِفُهُ مَرَكُ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُ وَمَا يَبْتَهِمُ الْمُؤْمِنُ لَكَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَجْرَى بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ شبهه بالجبال في عظمته وارتفاعه، ويقال: إن الماء ارتفع على

(١) قال أبو جعفر الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله: ﴿وَمَا كَانَ نَمُوتُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يصفهم بأنهم كانوا قليلاً، ولم يحد عددهم بمقدار، ولا خبر عن رسول الله ﷺ صحيح، فلا ينبغي أن يتجاوز في ذلك حد الله، إذ لم يكن لمبلغ عدد ذلك حد من كتاب الله، أو أثر عن رسول الله ﷺ.

(٢) ضبطه ياقوت بكسر القاف وفتح الدال، وهو موضع بالجزيرة بالقرب من جبل الجودي.

(٣) الخبر ذكره الطبري ٣٤٢/١٥ عن ابن عباس وفيه علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف، وأورده ابن كثير عن ابن جرير واستغفريه، وليس يشك عاقل أن هذا الخبر من بقية أخبار بني إسرائيل، ولا يبلغ أن يكون شيئاً.

أطول جبل في الأرض أربعين ذراعاً، ويروى خمس عشرة ذراعاً. وذكر بعض المفسرين أنه ارتفع نحو السماء سبعين فرسخاً من الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَأَدَّيْهِ شُجٌّ ابْتَر﴾ لا يختلفون أنه كان كافراً. وفي اسمه قولان: أحدهما: كنعان، وهو قول الأكثرين. والثاني: اسمه يام، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال عبيد بن عمير، وابن إسحاق.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ﴾ المعزل: المكان المنقطع. ومعنى العزل: التثنية. وفي معنى الكلام وجهان ذكرهما الزجاج: أحدهما: في معزل من السفينة. والثاني: في معزل من دين أبيه.

قوله تعالى: ﴿يَبْنِيْٓ اَرْكَبَ مُّعَنًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي «يا بني اركب» مضافة، بكسر الياء. وروى أبو بكر عن عاصم «يا بني» مفتوحة الياء هاهنا، وباقى القرآن مكسورة. وروى حفص عنه بالفتح في كل القرآن «يا بني» إذا كان واحداً. قال النحويون: الأصل في «بني» ثلاث ياءات، ياء التصغير، وياء بعدها هي لام الفعل، وياء بعد لام الفعل هي ياء الإضافة. فمن قرأ «يا بني» أراد: يا بني، فحذف ياء الإضافة، وترك الكسرة تدل عليها، كما يقال: يا غلام أقبل. ومن فتح الياء، أبدل من كسرة لام الفعل فتحة، استقلالاً لاجتماع الياءات مع الكسرة، فانقلبت ياء الإضافة ألفاً، ثم حذفت الألف كما تحذف الياء، فبقيت الفتحة على حالها. وقيل: إن المعنى: يا بني آمن واركب معنا.

قوله تعالى: ﴿سَيَأْتِيكَ أَهْلٌ وَيَكْلِفُونَكَ﴾ أي: سأسير وأرجع ﴿إِلَّا جَبَلٌ يَعْصِفُ﴾ أي: يمنعي ﴿مِنْ الْمَاءِ﴾ أي: من تغريق الماء. ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ﴾ فيه قولان: أحدهما: لا مانع اليوم من أمر الله، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: لا معصوم، ومثله: ماء دافق، أي: مدفوق، وسرّ كاتم، وليلّ نائم، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَجَعُ﴾ قال الزجاج: هذا استثناء ليس من الأول، والمعنى: لكن من رحم الله فإنه معصوم. قال مقاتل: إلا من رحم فركب السفينة.

قوله تعالى: ﴿وَمَالٌ بَيْنَهُمَا الْوَجْهُ﴾ في المكني عنهما قولان: أحدهما: أنهما ابن نوح والجبل الذي زعم أنه يعصمه، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والثاني: نوح وابنه، قاله مقاتل.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكَ وَنَسَكِيهِ أَفْلَحِي وَغِيصَ الْمَاءُ وَفُصِحَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مَا كَانَ لَكَ بِهِ أَلَمٌ وَلَئِنْ أَتَيْتَ مِنْ أَهْلِ وَادٍ وَعَذَلَكِ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ يَبْنَوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْهُ يَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخْطَأْتُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَتَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَرَحْمَتُكَ أَكُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَتَارُشُ أَلَيْكَ مَاءُكَ﴾ وقف قوم على ظاهر الآية، وقالوا: إنما ابتلعت ما نبع منها، ولم تبتلع ماء السماء، فصار ذلك بحاراً وأنهاراً، وهو معنى قول ابن عباس. وذهب آخرون إلى أن المراد: ابلي ماءك الذي عليك، وهو ما نبع من الأرض وذلك بعد أن غرق ما على وجه الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَكَسَاءٌ أَقْلِي﴾ أي: أمسكي عن إنزال الماء. قال ابن الأنباري: لما تقدم ذكر الماء، عُلم أن المعنى: أقلمي عن إنزال الماء.

قوله تعالى: ﴿وَرِغِمَ الْمَاءُ﴾ أي: نقص. قال الزجاج: يقال: غاض الماء يغض: إذا غاب في الأرض. ويجوز إسماع الضم في الغين.

قوله تعالى: ﴿وَقُتِلَ الْأَمْرُ﴾ قال ابن عباس: غرق من غرق، ونجا من نجا. وقال مجاهد: قضى الأمر: هلك قوم نوح. وقال ابن قتيبة: «وقضى الأمر» أي: فرغ منه. قال ابن الأنباري: والمعنى: أحكمت هلكة قوم نوح، فلما دلت القصة على ما بيّن هلكتهم، أغنى عن نعت الأمر.

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَوَتْ﴾ يعني السفينة ﴿عَلَى الْجُودَى﴾ وهو اسم جبل. وقرأ الأعمش، وابن أبي عبلة: ﴿على الجودي﴾ بسكون الياء. قال ابن الأنباري: وتشديد الياء في «الجودي» لأنها ياء النسبة، فهي كالياء في علوي،

وهاشمي. وقد خففها بعض القراء. ومن العرب من يخفف ياء النسبة، فيسكنها في الرفع، والخفض، ويفتحها في النصب، فيقول: قام زيد العلوي، ورأيت زيداً العلوي. قال ابن عباس: دارت السفينة بالبيت أربعين يوماً، ثم وجهها الله إلى الجودي فاستقرت عليه. واختلفوا أين هذا الجبل على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه بالموصل، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. والثاني: بالجزيرة، قاله مجاهد، وقتادة. وقال مقاتل: هو بالجزيرة قريب من الموصل. والثالث: أنه بناحية أيد، قاله الزجاج. وفي علة استوائها عليه قولان: أحدهما: أنه لم يفرق، لأن الجبال تشامت يومئذ وتناولت، وتواضع هو فلم يفرق، فأرست عليه، قاله مجاهد. والثاني: أنه لما قلّ الماء أُرْسَتْ عليه، فكان استوائها عليه دلالة على قلة الماء.

قوله تعالى: ﴿وَيَلْبِسْ بَعْدَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن عباس: بُعِدَ من رحمة الله للقوم الكافرين. فإن قيل: ما ذنب من أغرق من البهائم والأطفال؟ فالجواب: أن أجالهم حضرت، فأمتيتا بالفرق، قاله الضحاك، وابن جريج.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنْ آتَيْتَ مِنْ أَهْلِي﴾ إنما قال نوح هذا، لأن الله تعالى وعده نجاة أهله، فقال: ﴿وَلَا يَنْفَعُكَ أَنْتَ أَهْلُكَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قال ابن عباس: أعدل العادلين. وقال ابن زيد: فانت أحكم الحاكمين بالحق. واختلفوا في هذا الذي سأل فيه نوح على قولين: أحدهما: أنه ابن نوح لصلبه، قاله ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك، والجمهور. والثاني: أنه ولد على فراشه لغير رثدة^(١) ولم يكن ابنه. روى ابن الأنباري بإسناده عن الحسن أنه قال: لم يكن ابنه، إن امرأته فجرت. وعن الشعبي قال: لم يكن ابنه، إن امرأته خاتنه، وعن مجاهد نحو ذلك^(٢). وقال ابن جريج: ناداه نوح وهو يحسب أنه ابنه، وكان وُلِدَ على فراشه. فعلى القول الأول، يكون في معنى قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ قولان: أحدهما: ليس من أهل دينك. والثاني: ليس من أهلك الذين وعدت نجاتهم. قال ابن عباس: ما بعث امرأة نبي قط^(٣)، وإنما المعنى: ليس من أهلك الذين وعدت نجاتهم. وعلى القول الآخر: الكلام على ظاهره، والأول أصح، لموافقة ظاهر القرآن، واجتماع الأكثرين عليه، وهو أولى من رمي زوجة نبي بفاحشة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرٌ صَالِحٌ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة: «إنه عمل» رفع منون «غير صالح» برفع الراء، وفيه قولان: أحدهما: أنه يرجع إلى السؤال فيه، فالمعنى: سؤلك إياي فيه عمل غير صالح، قاله ابن عباس، وقتادة، وهذا ظاهر، لأنه قد تقدم السؤال فيه في قوله: «رب إن ابني من أهلي»، فرجعت الكناية إليه. والثاني: أنه يرجع إلى المسؤول فيه. وفي هذا المعنى قولان: أحدهما: أنه لغير رثدة، قاله الحسن. والثاني: أن المعنى: إنه ذو عمل غير صالح، قاله الزجاج. قال ابن الأنباري: من قال: هو لغير رثدة، قال: المعنى: إن أصل ابنك الذي تظن أنه ابنك عمل غير صالح. ومن قال: إنه ذو عمل غير صالح، قال: حذف المضاف، وأقام العمل مقامه، كما تقول العرب: عبد الله إقبال وإدبار، أي: صاحب إقبال وإدبار. وقرأ الكسائي: «عَمِلٌ» بكسر الميم وفتح اللام «غير صالح» بفتح الراء، يشير إلى أنه مشرك.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُنْ لَكَ يَدٌ عَلَيْهِ عِلْمٌ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: «فلا تسألن» بفتح اللام، وتشديد النون، غير أن نافعاً، وابن عامر، كسرا النون، وفتحها ابن كثير، وحذفوا الياء في الوصل والوقف. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، بسكون اللام وتخفيف النون، غير أن أبا عمرو، وأبا جعفر، أثبتا الياء في الوصل، وحذفوها في الوقف، ووقف عليها يعقوب بالياء، والباقون يحذفونها في الحالين. قال أبو علي: من كسر النون، فقد عدى السؤال إلى مفعولين، أحدهما: اسم المتكلم، والآخر: الاسم الموصول، وحذفت النون المتصلة بياء المتكلم

(١) يقال: ولد لغير رثدة، أي: لغير تكاح صحيح.

(٢) قال ابن كثير ٤٤٨/٢: وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زينة، ويحكى القول بأنه ليس بابنه وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد، والحسن، وعبيد بن عمير، وأبي جعفر الباقر، وابن جريج.

(٣) قال ابن كثير ٤٤٨/٢: وكذا روي عن مجاهد أيضاً، وعكرمة، والفتحاك، وميمون بن مهران، وثابت بن الحجاج، وهو اختصار أبي جعفر ابن جرير الطبري، وهو الصواب الذي لا شك فيه.

لا اجتماع التونات. وأما إثبات الياء في الوصل فهو الأصل، وحذفها أخف، والكسرة تدل عليها، وتُعَلِّمُ أن المفعول مراد في المعنى. ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أنه نسبت به إليه، وليس منه. والثاني: في إدخاله إياه في جملة أهله الذين وعده نجاتهم. والثالث: سؤاله في إنجاء كافر من العذاب.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُعِطُّكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُحْذَرِينَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن تكون من الجاهلين في سؤالك من ليس من حزبك. والثاني: من الجاهلين بوعدي، لأنني وعدت بإنجاء المؤمنين. والثالث: من الجاهلين بنسبك، لأنه ليس من أهلك.

﴿قَدْ يَنْجُو أَهْلُ الْبَيْتِ مِنْكَ وَلَكِنْ أَمْرٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَمَّا سَنَنِيهِمْ ثُمَّ يَعْلَمُ مِنَّا عَذَابُكُمْ﴾ ﴿١٠٠﴾
 قوله تعالى: ﴿يَنْجُو أَهْلُ الْبَيْتِ﴾ قال ابن عباس: يريد: من السفينة إلى الأرض ﴿يَنْجُو﴾ أي: بسلامة.

قوله تعالى: ﴿وَرَكَّبْنَا عَلَيْكَ﴾ قال المفسرون: البركات عليه: أنه صار أباً للبشر جميعاً، لأن جميع الخلق من نسله. ﴿وَعَلَىٰ أُمِّهِمْ مَمْلَكٌ﴾ قال ابن عباس: يريد؛ من ولدك. قال ابن الأنباري: المعنى: من ذراري من مملك، والمراد: المؤمنون من ذريته. ثم ذكر الكفار، فقال: ﴿رَأْتُمْ﴾ أي: من الذرية أيضاً، والمعنى: وفيمن نَصِفْ لك أُمم، وفيمن نقص عليك أمره أُمم. ﴿سَتَجِدُنَهُمْ﴾ أي: في الدنيا ﴿فَمِنْ بَيْنَهُمْ وَنَا عَدَاؤُكَ الْبُيُوتُ﴾ في الآخرة. قال محمد بن كعب القرظي: لم يبق مؤمن ولا مؤمنة في أصلاّب الرجال وأرحام النساء يومئذٍ إلا أن تقوم الساعة إلا وقد دخل في ذلك السلام والبركات، ولم يبق كافر إلا دخل في ذلك المتاع والعذاب.

﴿وَلَقَدْ يَنْبَغُ أَنَّكَ يَا مُؤْمِنُ خَشِيَ أَنَّ مَلَكًا فَقَدَ ابْنَهُ فَقَالَ لَا يَأْكُلُ الْبَنَى فَاتَّخَذَ إِلَهُهُ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ وَلَمَّا عَفَا عَنْكَ الْإِثْمَ قَالَ أَعِزَّنِي فِي ذُرِّيَّتِي وَأَنْبِئْهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكَ الَّذِي هُوَ أَعْلَمُ بِمَا كُنْتَ تَعْمَلُ﴾ (١٠٠) وَلَقَدْ يَنْبَغُ أَنَّكَ يَا مُؤْمِنُ خَشِيَ أَنَّ مَلَكًا فَقَدَ ابْنَهُ فَقَالَ لَا يَأْكُلُ الْبَنَى فَاتَّخَذَ إِلَهُهُ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ وَلَمَّا عَفَا عَنْكَ الْإِثْمَ قَالَ أَعِزَّنِي فِي ذُرِّيَّتِي وَأَنْبِئْهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكَ الَّذِي هُوَ أَعْلَمُ بِمَا كُنْتَ تَعْمَلُ

قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ هَذَا﴾ يعني القرآن. ﴿فَاصْبِرْ﴾ كما صبر نوح على أذى قومه: ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ أي: آخر الأمر بالظفر والتمكين ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: لك ولقومك كما كان لمؤمني قوم نوح.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا كَاذِبُونَ﴾ أي: ما أنتم إلا كاذبون في إشراككم مع الله الأوثان. وما بعد هذا قد سبق تفسيره (يونس: ٧٢) إلى قوله: ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ وهذا أيضاً قد سبق تفسيره في سورة (الأنعام: ٦١). والسبب في قوله لهم ذلك، أن الله تعالى حبس المطر عنهم ثلاث سنين، وأعقم أرحام نسايتهم، فوعدهم إحياء بلادهم وبسط الرزق لهم إن آمنوا.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكُمْ قُوَّةً ۖ إِلَّا قُوَّتَكُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الولد وولد الولد، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: يزدكم شدة إلى شدتكم، قاله مجاهد، وابن زيد. والثالث: خصباً إلى خصبكم، قاله الضحاك. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مَحْرَمِينَ﴾ قال مقاتل: لا تُعرضوا عن التوحيد مشركين.

قوله تعالى: ﴿مَا جِئْنَا بِبَنِيٍّ﴾ أي: بحجة واضحة. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهِنَا﴾ يعنون الأصنام. ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ أي: بقولك، و«الباء» و«عن» يتعاقبان.

﴿إِنْ تَقُولُ إِلَّا أُعَذِّبَكَ بَعْضَ آيَاتِنَا يَسُوهُ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ عَلَىٰ بَرَكَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَاتَّبَعُوكَ بِزُحُولٍ ۖ وَإِذْ يُلَاقِيكَ يُسَبِّحُكَ ۚ إِنَّكَ لَكَبِيرٌ تَعْلَمُ ۚ وَإِنِّي أَخَافُكَ ۚ إِنِّي مَخْلُوعٌ مِّنَ الْعَالَمِينَ ۚ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: ما نقول في سبب مخالفتك إيانا إلا أن بعض آلهتنا أصابك بجنون لسببك إياها، فالذي يُظْهَر من عيبها إما لحق عقلك من التغيير. قال ابن قتيبة: يقال: عراني كذا، واعتراني: إذا ألمَّ بي. ومنه قيل لمن أتاك يطلب نائلك: عار، ومنه قول النابغة:

أَتَيْتُكَ عَارِيًّا خَلَقْتُ نِيَابِي عَلَى خَوْفٍ تُظَلُّ بِِي الظُّنُونُ^(١)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَشْهَدَ اللَّهُ...﴾ إلى آخر الآية. حرك ياء «إني» نافع. ومعنى الآية: إن كنتم تقولون: إن الآلهة عاقبتني لطعني عليها، فإني على يقين من عيبها والبراءة منها، وها أنا ذا أزيد في الطعن عليها، ﴿فَكَيْدُنِي بَيِّمًا﴾ أي: احتالوا أنتم وأوثانكم في ضري، ثم لا تمهلون. قال الزجاج: وهذا من أعظم آيات الرسل، أن يكون الرسول وحده وأُمَّته متعاونة عليه، فيقول لهم: كيدوني، فلا يستطيع أحد منهم ضربه، وكذلك قال نوح لقومه: ﴿فَاتَّخِذُوا أَرْكَمَ وَشُرَكَاءَ لَهُمْ﴾ [يونس: ٧١]. وقال محمد ﷺ: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكَ كَيْدٌ فَكَيْدِي﴾ [المرسلات: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِأَمِينَتِهَا﴾ قال أبو عبيدة: المعنى: أنها في قبضته ومملكه وسلطانه. فإن قيل: لم خص الناصية؟ فالجواب: أن الناصية هي شعر مقدَّم الرأس، فإذا أخذت بها من شخص، فقد ملكت سائر بدنه، وذلك لك. قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال مجاهد: على الحق. وقال غيره: في الكلام إضمار، تقديره: إن ربي يدل على صراط مستقيم. فإن قيل: ما وجه المناسبة بين قوله: ﴿إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِأَمِينَتِهَا﴾ وبين كونه على صراط مستقيم؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنه لما أخبر أنه أخذ بنواصي الخلق، كان معناه: أنهم لا يخرجون عن قبضته، فأخبر أنه على طريق لا يعدل عنه هارب، ولا يخفى عليه مستر. والثاني: أن المعنى: أنه وإن كان قادراً عليهم، فهو لا يظلمهم، ولا يريد إلا العدل^(٢)، ذكرهما ابن الأنباري.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَمَلْتُكُمْ بِهِ أَتَكْفُرُونَ﴾ وَتَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُمْ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ^(٣)

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه فعل ماض، معناه: فإن أعرضوا. فعلى هذا، في الآية إضمار، تلخيصه: فإن أعرضوا فقل لهم قد أبلغتكم، هذا مذهب مقاتل في آخرين. والثاني: أنه خطاب للحاضرين، وتقديره: فإن تتولَّوا، فاستقلوا الجمع بين تأين متحركتين، فاقصر على إحداها، وأسقطت الأخرى، كما قال النابغة:

المرء يَهْوَى أَنْ يَمْعِبَ
تَفْنَى بِقَاشِئُهُ وَيَبُ
وَصَصْرُفُ الْأَيْتَامِ حَشْ
شَ وَطُولُ عَيْشٍ قَدْ يَضُرُّهُ^(٤)
قَى بَغْدُ حُلُو الْعَيْشِ مُرُّهُ
شَى مَا يَرَى شَيْئاً يَسُرُّهُ

أراد؛ وتتصرف الأيام، فأسقط إحدى التائين، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ فيه وعيد لهم بالهلاك. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: حفيظ على أعمال العباد حتى يجازيهم بها. والثاني: أن «على» بمعنى اللام، فالمعنى: لكل شيء حافظ، فهو يحفظني من أن تتألوني بسوء.

﴿وَلَكِنَّا جَاءَ أَهْلَنَا بِجَنَّتَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَبِجَنَّتَيْنِ مِن عَذَابٍ غَلِيظٍ^(٥)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّا جَاءَ أَهْلَنَا﴾ فيه قولان: أحدهما: جاء عذابنا، قاله ابن عباس. والثاني: جاء أمرنا بهلاكهم.

قوله تعالى: ﴿وَبِجَنَّتَيْنِ هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ فيه قولان: أحدهما: نجيتناهم من العذاب بنعمتنا. والثاني: نجيتناهم بأن هديناهم إلى الإيمان، وعصمناهم من الكفر، روي القولان عن ابن عباس.

(١) «ديوانه» ٩٤ بشرح ابن السكيت، و«غريب القرآن» ٢٠٥، و«اللسان»: عري.

(٢) قال ابن كثير ٤٥٠/٢: وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة، ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، ويطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر، ولا توالي ولا تعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له، الذي بيده الملك والتصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

(٣) الأبيات في «أمالي القاضي» ٩/٢، و«الوحيات» ١٥٥، و«أمالي المرتضى» ٢٦٦/١، و«حسامه البحري» ١٣٦، و«الخزانة» ٥١٤/١.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَبِئْسَ أَكْرَمُ الْكَرَامِ﴾ إن قال قائل: لم قال هاهنا: «وإننا» وقال في ﴿إِزْهَيْهِمْ﴾: «وإننا»؟ فالجواب: أنهما لغتان من لغات قريش السبع التي نزل القرآن عليها. قال الفراء: من قال: «إننا» أخرج الحرف على أصله، لأن كناية المتكلمين «نا» فاجتمعت ثلاث نونات، نونا «إن» والنون المضمومة إلى الألف؛ ومن قال: «إننا» استثقل الجمع بين ثلاث نونان، وأسقط الثالثة، وأبقى الأولتين؛ وكذلك يقال: إني وإنتي، ولعلي ولعلني، وليتي ولينتي، قال الله في اللغة العليا: ﴿لَمَّا أَتَيْنَا أَتَيْنَا بِكَ﴾ [غافر: ٣٦]، وقال الشاعر في اللغة الأخرى:

أرني جواداً مات هزلاً لعلني

وقال الله تعالى: ﴿يَكِيدُنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ٧٣]، وقال الشاعر:

كُنيّة جابر إذ قال لي تي

فأما التريب، فهو الموقع للريبة والتهمة. والرحمة يراد بها هاهنا: النبوة.

قوله تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ التفسير: نقصان. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: فما تزيدوني غير بصارة في خسارتكم، قاله ابن عباس. وقال الفراء: المعنى: فما تزيدوني غير تخسير لكم، أي: كلما اعتذرتم عندي بعذر فهو يزيدكم تخسيراً. وقال ابن الأعرابي: غير تخسير لكم، لا لي. وقال بعضهم: المعنى: فما تزيدوني بما قلتكم إلا نسيتي لكم إلى الخسارة. والقول الثاني: فما تزيدوني غير الخسران إن رجعت إلى دينكم، وهذا معنى قول مقاتل. فإن قيل: فظاهر هذا أنه كان خاسراً، فزادوه خساراً، فقد أسلفنا الجواب في قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِئَكُمَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ قد شرحناها في سورة [الأعراف: ٧٣].

قوله تعالى: ﴿تَمَتُّوا فِي دَارِكُمْ﴾ أي: استمتعوا بحياتكم، وعبر عن الحياة بالتمتع، لأن الحي يكون متمتعاً بالحواس.

قوله تعالى: ﴿فَلَنَنَظَّرَنَّهُمْ أَكْبَارًا﴾ قال المفسرون: لما عُقرت الناقة صعد فصيلها إلى الجبل، ورغا ثلاث مرات، فقال صالح: لكل رغبة أجل يوم، ألا إن اليوم الأول تصبح وجوهكم مضفرة، واليوم الثاني مُخمرة، واليوم الثالث مُسودة؛ فلما أصبحوا في اليوم الأول، إذا وجوههم مصفرة، فصاحوا وضجوا، ويكؤا، وعرفوا أنه العذاب، فلما أصبحوا في اليوم الثاني، إذا وجوههم محمرة، فضجوا، ويكؤا، فلما أصبحوا في اليوم الثالث، إذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار، فصاحوا جميعاً: ألا قد حضركم العذاب؛ فتكفئوا وألقوا أنفسهم بالأرض، لا يدرون من أين يأتيهم العذاب، فلما أصبحوا في اليوم الرابع، انتهت صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، فقتطعت قلوبهم في صدورهم. وقال مقاتل: خفروا لأنفسهم قبوراً، فلما ارتفعت الشمس من اليوم الرابع، ولم يأتيهم العذاب، ظنوا أن الله قد رحمهم، فخرجوا من قبورهم يدعو بعضهم بعضاً، إذ نزل جبريل، فقام فوق المدينة فسد ضوء الشمس، فلما عاينوه، دخلوا قبورهم، فصاح بهم صيحة: موتوا، عليكم لعنة الله، فخرجت أرواحهم، وتزلزلت بيوتهم فوقت على قبورهم.

قوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ وَعْدٌ﴾ أي: العذاب «غَيْرُ مَكْذُوبٍ» أي: غير كذب.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر «يومئذ» بكسر الميم. وقرأ الكسائي بفتحها مع الإضافة. قال مكي: من كسر الميم، أعرب وخفض، لإضافة الخزي إلى اليوم، ولم يثن؛ ومن فتح، بنى اليوم على الفتح، لإضافته إلى غير متمكن، وهو «إذ». وقرأ ابن مسعود «ومن خزي» بالتثنية، «يومئذ» بفتح الميم. قال ابن الأنباري: هذه الواو في قوله: «ومن خزي» معطوفة على محذوف، تقديره: نجيتهم من العذاب ومن خزي يومئذ.

(١) البيت لحطاط بن يعفر، أخي الأسود بن يعفر، وهما أخوان من بني نهشل بن دارم، جاهليان، ويروي لحاتم الطائي، ولمعن بن أوس، وهو في «الشعر والشعراء» ٢٠٢، و«مجاز القرآن» ٥٥، و«الحامسة» ٢٥٤/٤، و«عيون الأخبار» ١٨١/٣، و«أمالي القاضي» ٩٢/٢، و«القرطبي» ١٢٧/٢، و«اللسان» ١٩٥/١، و«التاج»: أنن، و«الخزانة» ١٩٥/١.

(٢) البيت لزيد الخيل، وهو في «الكتاب» ٣٨٦/١، و«اللسان»: ليت، و«الخزانة» ٤٤٦/٢.

قال: ويجوز أن تكون دخلت لفعل مضمر، تأويله: نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا، ونجيناهم من خزي يومئذ. قال: وإنما قال: «واخذ» لأن الصيحة محمولة على الصباح.

قوله تعالى: ﴿أَلَا بُدًّا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كَافِرًا﴾ اختلّفوا في صرف «ثمود» وترك إجرائه في خمسة مواضع: في [هود] ﴿أَلَا إِنْ كُنْتُمْ كَافِرًا﴾ وفي [الفرقان: ٣٨] ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾، وفي [المنكوت: ٣٨] ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾، وفي [النجم: ٥١] ﴿وَتَمُودًا قَالُوا أَتُحْيِي الْمَيِّتَ﴾. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وابن عامر بالتثنية في أربعة مواضع منها، وتركوا ﴿أَلَا بُدًّا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كَافِرًا﴾ فلم يصرفوه. وقرأ حمزة بترك هذه الخمسة الأحرف، وصرفهن الكسائي. واختلف عن عاصم، فروى حسين الجعفي عن أبي بكر عنه أنه أجرى الأربعة الأحرف مثل أبي عمرو؛ وروى يحيى بن آدم أنه أجرى ثلاثة، في [هود: ٦٨] ﴿أَلَا إِنْ كُنْتُمْ كَافِرًا﴾، وفي [الفرقان: ٣٨] و [المنكوت: ٣٨]. وروى حفص عنه أنه لم يجر شيئاً منها مثل حمزة. واعلم أن ثموداً يراد به القبيلة تارة، ويراد به الحي تارة. فإذا أريد به القبيلة، لم يصرف، وإذا أريد به الحي، صرف. وما أخللنا به، فقد سبق تفسيره [الأعراف: ٧٣، والتوبة: ٧٠] إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنْ رَبِّهِمْ﴾. والرسول هاهنا: الملائكة. وفي عددهم ستة أقوال: أحدها: أنهم كانوا ثلاثة، جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير. وقال مقاتل: جبريل، وميكائيل، وملك الموت. والثاني: أنهم كانوا اثني عشر، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: ثمانية، قاله محمد بن كعب. والرابع: تسعة، قاله الضحاك. والخامس: أحد عشر، قاله السدي. والسادس: أربعة، حكاه الماوردي. وفي هذه البشرية أربعة أقوال: أحدها: أنها البشرية بالولد، قاله الحسن، ومقاتل. والثاني: بهلاك قوم لوط، قاله قتادة. والثالث: بنبوته، قاله عكرمة. والرابع: بأن محمداً يخرج من صلبه، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَكَنَّا﴾ قال ابن الأنباري: انتصب بالقول، لأنه حرف مقول، والسلام الثاني مرفوع بإضمار «عليكم». وقال الفراء: فيه وجهان: أحدهما: أنه أضمر «عليكم» كما قال الشاعر:

فَقُلْنَا السَّلَامَ فَاتَّقَتْ مِنْ أَمِيرِهَا
فَمَا كَانَ إِلَّا وَمُؤَهَا بِالْحَوَاجِبِ^(١)
والعرب تقول: التقينا فلاناً: سلام سلام. والثاني: أن القوم سلموا، فقال حين أنكرهم هو: سلام، فمن أنتم؟ لإنكاره إياهم. وقرأ حمزة، والكسائي: «قال سلم»، وهو بمعنى سلام، كما قالوا: جَلَّ وحلال، وجَرَمَ وحرام؛ فعلى هذا، يكون معنى «سلم»: سلام عليكم. قال أبو علي: فيكون معنى القراءتين واحداً وإن اختلف اللفظان. وقال الزجاج من قرأ: «سلم» فالعنى: أمرنا سلم، أي: لا بأس علينا.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَيْتَ﴾ أي: ما أقام حتى جاء بعجل حنيد، لأنه ظنهم أضيافاً، وكانت الملائكة قد جاءته في صورة الغلمان الوضاء. وفي الحنيد ستة أقوال: أحدها: أنه النضيج، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة. والثاني: أنه الذي يَقَطَّرُ ماؤه وذَسَمَهُ وقد شوي، قاله شمر بن عطية. والثالث: أنه ما حفرت الأرض ثم غمته، وهو من فعل أهل البادية، معروف، وأصله: محنود، فقيل: حنيد، كما قيل: طيبخ للمطبوخ، وقتيل للمقتول. هذا قول الفراء. والرابع: أنه المشوي، قاله أبو عبيدة. والخامس: المشوي بالحجارة المحماة، قاله مقاتل، وابن قتيبة. والسادس: السميطة، ذكره الزجاج، وقال: يقال: إنه المشوي فقط، ويقال: المشوي الذي يقطر، ويقال: المشوي بالحجارة.

﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَقِيلُ إِلَيْهِمْ وَنَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أُوتِينَا إِلَٰهَ قُوَّةٍ لَوْ لَوْ﴾^(٢)
قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ﴾ يعني الملائكة ﴿لَا تَقِيلُ إِلَيْهِمْ﴾ يعني العجل ﴿نَكَرَهُمْ﴾ أي: أنكرهم. قال أبو عبيدة: نَكَرَهُمْ وأنكرهم واستنكرهم، سواء، قال الأعشى:

فَأَنكَرْتَنِي وَمَا كَانَ إِلَّيْكَ نَكِرَتْ
مِنَ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلَا^(٣)

(١) «اللسان: وما».

(٢) قاله الأعشى الكبير ميمون بن قيس من قصيدة يمدح بها هودة بن علي الحنفي: «ديوانه» ١٠١، «والطبري» ٣٨٨/١٥، «ومجاز القرآن» ٢٩٣/١، «والقرطبي» ٦٧/٩، «وشواهد الكشاف» ١٦٩، «والصالح» ١٦٩، «واللسان»، «والنجاح»: نكر.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: أضمر في نفسه خوفاً. قال الفراء: وكانت شئنة في زمانهم إذا ورد عليهم القوم فاتوهم بالطعام فلم يمشوه، ظنوا أنهم عدو أو لصوص، فهناك أوجس في نفسه خيفة، فأوا ذلك في وجهه، فقالوا: ﴿لَا تَخَفْ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَّا قَوْرَ لُوطٍ﴾ قال الزجاج: أي: أرسلنا بالعذاب إليهم. قال ابن الأنباري: وإنما أضمر ذلك هاهنا، لقيام الدليل عليه بذكر الله تعالى له في سورة أخرى.

﴿وَأَمْرُهُمْ قَائِمَةٌ فَضَحَكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقَ يَقُوبُ﴾ (٧١) قَالَتْ يَنْتَظِرُنِي آلِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَطْلَى شَيْئًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢)

قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ قَائِمَةٌ﴾ واسمها سارة. واختلفوا أين كانت قائمة على ثلاثة أقوال: أحدها: وراء الستر تسمع كلامهم، قاله وهب. والثاني: كانت قائمة تخدمهم، قاله مجاهد، والسدي. والثالث: كانت قائمة تصلي، قاله محمد بن إسحاق. وفي قوله: ﴿فَضَحَكْتُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن الضحك هاهنا بمعنى التعجب، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن معنى «ضحكت»: حاضت، قاله مجاهد، وعكرمة. قال ابن قتية: وهذا من قولهم: ضحكت الأرب؛ إذا حاضت. فعلى هذا، يكون حيضها حينئذ تأكيداً للبشارة بالولد، لأن من لا تحيض لا تحمل. وقال الفراء: لم نسمع من ثقة أن معنى «ضحكت»: حاضت. قال ابن الأنباري: أنكر الفراء، وأبو عبيد، أن يكون «ضحكت» بمعنى حاضت، وعرفه غيرهم. قال الشاعر:

تَضَحَكُ الضَّبُعُ لِقَتْلِ هُذَيْلٍ وَتَرَى الذُّبَّ لَهَا يَنْشَهِلُ^(١)

قال بعض أهل اللغة: معناه: تحيض. والثالث: أنه الضحك المعروف، وهو قول الأكثرين. وفي سبب ضحكها ستة أقوال: أحدها: أنها ضحكت من شدة خوف إبراهيم من أضيافه، وقالت: من ماذا يخاف إبراهيم، وإنما هم ثلاثة، وهو في أهله وغلماناه؟ رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مقاتل. والثاني: أنها ضحكت من بشارة الملائكة لإبراهيم بالولد، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً، وهب بن منبه؛ فعلى هذا، إنما ضحكت سروراً بالبشارة، ويكون في الآية تقديم وتأخير، المعنى: وأمراته قائمة فبشرناها فضحكت، وهو اختيار ابن قتية. والثالث: ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم، قله قتادة. والرابع: ضحكت من إمساك الأضياف عن الأكل، وقالت: عجاًباً لأضيافنا، نخدمهم بأنفسنا، وهم لا يأكلون طعامنا! قاله السدي. والخامس: ضحكت سروراً بالأمن، لأنها خافت كخوف إبراهيم، قاله الفراء. والسادس: أنها كانت قالت لإبراهيم: اضمم إليك ابن أخيك لوطاً، فإنه سينزل العذاب بقومه، فلما جاءت الملائكة بعذابهم، ضحكت سروراً بموافقتها للصواب، ذكره ابن الأنباري. قال المفسرون: قال جبريل لسارة: أبشري أيتها الضاحكة بولد اسمه إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، فبشروها أنها تلد إسحاق، وأنها تعيش إلى أن ترى ولد الولد. وفي معنى الورا قولان: أحدهما: أنه بمعنى «بعد»، قاله أبو صالح عن ابن عباس، واختاره مقاتل، وابن قتية. والثاني: أن الورا: ولد الولد، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال الشعبي، واختاره أبو عبيد. فإن قيل: كيف يكون يعقوب وراء إسحاق وهو ولده لصلبه، وإنما الورا: ولد الولد؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري، فقال: المعنى: ومن وراء المنسوب إلى إسحاق يعقوب، لأنه قد كان الورا لإبراهيم من جهة إسحاق، فلو قال: ومن الورا يعقوب، لم يُعلم أهذا الورا منسوب إلى إسحاق، أم إلى إسماعيل؟ فأضيف إلى إسحاق لينكشف المعنى ويزول اللبس. قال: ويجوز أن ينسب ولد إبراهيم من غير إسحاق إلى سارة على جهة المجاز، فكان تأويل الآية: من الورا المنسوب إلى سارة، وإلى إبراهيم من جهة إسحاق، يعقوب. ومن حمل الورا على «بعد» لزم ظاهر العربية. واختلف القراء في «يعقوب»، فقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «يعقوب» بالرفع. وقرأ ابن عامر، وحزمة، وحفص عن عاصم: «يعقوب» بالنصب. قال الزجاج: وفي رفع «يعقوب»

وجهان: أحدهما: على الابتداء المؤخر، معناه التقديم؛ والمعنى ويعقوبُ يَحْدُثُ لها من وراء إسحاق. والثاني: وثبت لها من وراء إسحاق يعقوبُ. ومن نصبه، حملة على المعنى، والمعنى: وهبتا لها إسحاق، وهبتا لها يعقوبُ.

قوله تعالى: ﴿يَذَرْنِي وَالِدٌ وَاتْنَا عَصِيْبٌ﴾ هذه الكلمة تقال عند الإيذان بورود الأمر العظيم. ولم تُرد بها الدعاء على نفسها، وإنما هي كلمة تخفُّ على السنة النساء عند الأمر العجيب. وقولها: ﴿وَالِدٌ﴾ استفهام تعجب. قال الزجاج: و ﴿شَيْعًا﴾ منصوب على الحال. قال ابن الأنباري: إنما أشارت بقولها هذا لتنبه على شيخوخته. واختلفوا في سن إبراهيم وسارة يومئذٍ على أربعة أقوال: أحدها: أنه كان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة، وسارة بنت ثمان وتسعين سنة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنه كان إبراهيم ابن مائة سنة، وسارة بنت تسع وتسعين، قاله مجاهد. والثالث: كان إبراهيم ابن تسعين، وسارة مثله، قاله قتادة. والرابع: كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة، وسارة بنت تسعين، قاله عبيد بن عمير، وابن إسحاق.

﴿قَالُوا أَتُنجِيَنَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَرَكَّتُمْ عَلَيْكُمُ الْآيَاتُ إِنَّمَا حُيِّدَ نَجِيْدٌ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتُنجِيَنَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: من قضائه وقدرته، وهو إيجاد ولد من بين كبيرين. قال السدي: قالت سارة لجبرئيل: ما آية ذلك؟ فأخذ يده عوداً يابساً فلواه بين أصابعه فاهتز أخضر، فقالت: هو إذن لله ذبيح.

قوله تعالى: ﴿رَحِمَتُ اللَّهِ وَرَكَّتُمْ عَلَيْكُمُ الْآيَاتُ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه من دعاء الملائكة لهم. والثاني: أنه إخبار عن ثبوت ذلك لهم. ومن تلك البركات وجود أكثر الأنبياء والأسباط من إبراهيم وسارة. والحمد لله بالمعنى المحمود. فاما المجيد، فقال ابن قتيبة: بمعنى الماجد، وهو الشريف. وقال أبو سليمان الخطابي: هو الواسع الكرم. وأصل المجد في كلامهم: السعة، يقال: رجل ماجد: إذا كان سخياً واسع العطاء. وفي بعض الأمثال: في كل شجر نار، واستمجد المرء والعفار^(١)، أي: استكثر منها^(٢).

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَبَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلْكَ فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ أَوْهٌ شَيْبٌ ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَايِمٌ عَذَابٌ عَظِيمٌ مَرْدُورٌ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ يعني الفزع الذي أصابه حين امتنعوا من الأكل. ﴿يُجْدِلْكَ﴾ فيه إضمار أخذ وأقبل يجادلنا، والمراد: يجادل رسلنا. قال المفسرون: لما قالوا له: ﴿إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [النبوة: ٣١]، قال: أنهلكون قرية فيها مائة مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أنهلكون قرية فيها خمسون مؤمناً؟ قالوا: لا. قال: أربعون؟ قالوا: لا. فما زال ينقص حتى قال: فواحد؟ قالوا: لا. فقال حينئذٍ: ﴿إِنِّي فِيهَا لَأَوَدُّ﴾ يعني فيها. [النبوة: ٣١]، هذا قول ابن إسحاق. وقال غيره: قيل له: إن كان فيهم خمسة لم نعتبهم، فما كان فيهم سوى لوط وابنتيه. وقال سعيد بن جبير: قال لهم: أنهلكون قرية فيها أربعة عشر مؤمناً؟ قالوا: لا؛ وكان إبراهيم يعلّمهم أربعة عشر مع امرأة لوط، فسكتوا وطمأنئث نفسه؛ وإنما كانوا ثلاثة عشر فأهلكوا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ أَوْهٌ﴾ قد فسرناه في [إبراهيم: ١١٤]. فعند ذلك قالت الرسل لإبراهيم: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ يعنون الجدل. ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بعدايمهم. وقيل: قد جاء عذاب ربك، فليس بمرود، لأن الله قد قضى به.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلًا لُوْطًا بِرٍّ يَمٍّ وَصَاقَ يَمٍّ دَرَكًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيْبٌ﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلِ كَانُوا يَمْلِكُونَ السَّجَّاتِ قَالَ يَغْوِرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي مَسْئَتِي أَلَيْسَ يَنْكَرُ رَجُلٌ رَشِيْدٌ ﴿يَا لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رَجُلٌ شَدِيْدٌ﴾ قَالُوا يَلُوْطُ إِنَّا نَرَى رَجُلًا لَّنْ يَصِلُوْا إِلَيْكَ فَانْتَرِ بِأَهْلِكَ يَقْطَعُ مِنَ الْآلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًاكَ إِنَّهُمْ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِشَيْءٍ يَمْرُورٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلًا لُوْطًا﴾ قال المفسرون: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط، فأتوها

(١) المرخ والعفار: شجرتان فيهما نار ليس في غيرهما من الشجر، ويسوى من أغصانهما الزناد فيفتح بها.

(٢) أي: من النار، كأنها أخلت من النار ما هو حسبها فصلحاً للاقتناع بهما، فشبها بمن يكثر من العطاء طلباً للمجد.

عشاء. وقال السيدي عن أشياخه: أُنْزِمَا نصف النهار، فلما بلغوا نهر سدوم، لقوا بنت لوط تستقي الماء لأهلها، فقالوا لها: يا جارية، هل من منزل؟ قالت: نعم، مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم، فَرَقَا عليهم من قومها؛ فأتت أباها، فقالت: يا أبتاه، أدرك فتيةً على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم هي أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحهم؛ وقد كان قومه نَهَوُهُ أن يضيف رجلاً؛ فجاء بهم، ولم يعلم بهم أحد إلا أهل بيت لوط؛ فخرجت امرأته فأخبرت قومها، فجاءوا يُهْرَعُونَ إليه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَوْمٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: ساء ظنه بقومه، قاله ابن عباس. والثاني: ساء مجيء الرسل، لأنه لم يعرفهم، وأشفق عليهم من قومه، قاله ابن جرير. قال الزجاج: وأصل «سيء بهم» سُوءٌ بهم، من السوء، إلا أن الواو أسكنت ونقلت كسرتها إلى السين.

قوله تعالى: ﴿وَضَاقَ يَوْمَ ذَرْعًا﴾ قال ابن عباس: ضاق ذرعاً بأضيافه. قال الفراء: الأصل فيه: وضاق ذرعه بهم، فنقل الفعل عن الذرع إلى ضمير لوط، ونُصِبَ الذرع بتحول الفعل عنه، كما قال: ﴿وَأَشْتَقَلَّ الرَّأْسُ مَكِينًا﴾ [مريم: ٤] ومعناه: اشتعل شيب الرأس. قال الزجاج: يقال: ضاق فلان بأمره ذرعاً: إذا لم يجد من المكروه في ذلك الأمر مخلصاً. وذكر ابن الأنباري فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: وقع به مكروه عظيم لا يصل إلى دفعه عن نفسه؛ فالذرع كناية عن هذا المعنى. والثاني: أن معناه: ضاق صبره وعظم المكروه عليه؛ وأصله من ذرع فلاناً القيء؛ إذا غلبه وسبقه. والثالث: أن المعنى ضاق بهم وُسْعُهُ، فتاب الذرع والذراع عن الوسع، لأن الذراع من اليد، والعرب تقول: ليس هذا في يدي، يعنون: ليس هذا في وُسْعِي؛ ويدل على صحة هذا أنهم يجعلون الذراع في موضع الذرع، فيقولونه: ضقت بهذا الأمر ذراعاً، قال الشاعر:

إِلَيْكَ إِلَيْكَ ضَاقَ بِهِمْ ذِرَاعًا

فأما العصب، فقال أبو عبيدة: العصب: الشديد الذي يعصب الناس بالشر، وأنشد:

يَزُمُ عَصِيبٌ يَغْصِبُ الْإِبْطَالَ عَصَبُ الْقَوِي السَّكَمُ الطَّوَالَا^(١)

وقال أبو عبيد: يقال: يوم عصب، ويوم عصبص: إذا كان شديداً.

قوله تعالى: ﴿يَهْرَعُونَ إِلَى﴾ قال ابن عباس، ومجاهد: «يهرعون» يسرعون. وقال الفراء، والكسائي: لا يكون الإهراع إلا إسراعاً مع رعدة. قال ابن قتيبة: الإهراع شبيه بالردة، يقال: أهرع الرجل: إذا أسرع، على لفظ ما لم يسم فاعله، كما يقال: أُرْعِد. قال ابن الأنباري: الإهراع فعل واقع بالقوم وهو لهم في المعنى، كما قالت العرب: قد أولع الرجل بالأمر، ففعلوه مفعولاً، وهو صاحب الفعل، ومثله: أُرْعِد زيد، وسُهي عمرو من السهو، كل واحد من هذه الأفعال خرج الاسم معه مقدراً تقدير المفعول، وهو صاحب الفعل لا يُعرف له فاعل غيره. قال: وقال بعض النحويين: لا يجوز للفعل أن يجعل فاعله مفعولاً، وهذه الأفعال المذكورة فاعلوها محذوفون، وتأويل «أولع زيد»: أولعه طبعه وجبلته، و«أُرْعِد الرجل»: أُرْعِد غضبه، و«سُهي عمرو» جعله ساهياً ماله أو جهله، و«أهرع» معناه: أهرعه خوفه ورعبه؛ فلهذه العلة خُرج هؤلاء الأسماء مخرج المفعول به. قال: وقال بعض اللغويين: لا يكون الإهراع إلا إسراع المذخور الخائف؛ لا يقال لكل مسرع: مهرع، حتى ينضم إلى إسرعه جزع وذعر. قال المفسرون: سبب إهراعهم، أن امرأة لوط أخبرتهم بالأضياف. ﴿وَمِنْ قَبْلِ﴾ أي: ومن قبل مجيئهم إلى لوط ﴿كَأَنَّهُمْ يَمَلُّونَ السَّيَّئَاتِ﴾ يعني فعلهم المنكر. وفي قوله: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ قولان: أحدهما: أنهن بناته لصلبه، قاله ابن عباس. فإن قيل: كيف جمع، وقد كن اثنتين؟ فالجواب: أنه قد يقع الجمع على اثنين، كقوله: ﴿وَكُنَّا لِكُنُفِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]. والثاني: أنه عنى نساء أمته، لأن كل نبي أبو أمته، والمعنى: أنه عرض عليهم التزويج، أو أمرهم أن يكتفوا بنسائهم، وهذا مذهب مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن جريج. فإن قيل: كيف عرض تزويج المؤمنات

(١) البيت غير منسوب في «مجاز القرآن» ١/ ٢٩٤، و«الطبري» ١٥/ ٤١٠.

على الكافرين؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنه قد كان يجوز ذلك في شريعته، وكان جائزاً في صدر الإسلام حتى نسخ، قاله الحسن. والثاني: أنه عرض ذلك عليهم بشرط إسلامهم، قاله الزجاج، ويؤكد أن عرضهن عليهم موقوف على عقد النكاح، فجاز أن يقف على شرط آخر.

قوله تعالى: ﴿هَٰؤُلَاءِ لَكُمْ﴾ قل مقاتل: هن أهل من إتيان الرجال.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيه قولان: أحدهما: اتقوا عقوبته. والثاني: اتقوا معصيته.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي﴾ حرك ياء «ضيفي» أبو عمرو، ونافع. وفي معنى هذا الخزي ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الفضيحة، قاله ابن عباس. والثاني: الاستحياء، والمعنى: لا تفعلوا بأضيافي فعلاً يلزمني الاستحياء منه، لأن المضيف يلزمه الاستحياء من كل فعل يصل إلى ضيفه. والعرب تقول: قد خزي الرجل يخزي خزية: إذا استحيى، قال الشاعر:

مِنْ السَّيْفِ لَا تَخْزَى إِذَا الرِّيحُ أَلْصَقَتْ بِهَا مِرْطَهَا أَوْ زَايِلَ الْحَلِيِّ جِيَدَهَا

والثالث: أنه بمعنى الهلاك، لأن المعرة التي تقع بالمضيف في هذه الحال تلزمه هلكة، ذكرهما ابن الأنباري. قال ابن قتيبة: والضيف هاهنا: بمعنى الأضياف، والواحد يدل على الجميع، كما تقول: هؤلاء رسولي ووكيلي.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ يَنْكَرُ رَجُلٌ رَيْبَهُ﴾ في المراد بالرشيد قولان: أحدهما: المؤمن. والثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، روي عن ابن عباس. قال ابن الأنباري: يجوز أن يكون الرشيد بمعنى المرشد، فيكون المعنى: أليس منكم مرشد يعظكم ويعرفكم قبيح ما تأتون؟ فيكون الرشيد من صفة الفاعل، كالعليم، والشهيد. ويجوز أن يكون الرشيد بمعنى المرشد، فيكون المعنى: أليس منكم رجل قد أسعده الله بما منحه من الرشاد يصرفكم عن إتيان هذه المعرة؟ فيجري رشيد مجرى مفعول، كالكتاب الحكيم بمعنى المحكم.

قوله تعالى: ﴿مَا لَنَا فِي بَيْتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ فيه قولان: أحدهما: مالنا فيهن حاجة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: لسن لنا بأزواج فنستحقهن، قاله ابن إسحاق، وابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّكَ تَعْلَمُ مَا نُبِدُ﴾ قال عطاء: وإنك لتعلم أنا نريد الرجال، لا النساء.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ أي: جماعة أقوى بهم عليكم. وقيل: أراد بالقوة البطش. ﴿أَوْ آوِيَةٌ إِلَيْكَ تُكَوِّدُ﴾ أي: أنضم إلى عشيرة وشيعة تمنعني، وجواب «لو» محذوف على تقدير: لُحِلْتُ بينكم وبين المعصية. قال أبو عبيدة: قوله: «آوي» من قولهم: آويت إليك، فأننا آوي أويتاً، والمعنى: صرت إليك وانضمت. ومجاز الركن هاهنا: العشيرة العزيزة الكثيرة المنفعة، وأنشد:

يَا وَي إِلَيَّ رُكْنٌ مِنَ الْأَرْكَانِ فِي عَدَدِ طَيْسٍ وَمَجْدِ بَانِي^(١)

والطَّيْس: الكثير، يقال: أنا ابن طيس، وشراب طيس، أي: كثير. واختلفوا أي وقت قال هذا لوط؟ فروي عن ابن عباس أن لوطاً كان قد أغلق بابه والملائكة معه في الدار، وهو يناظرهم ويناشدهم وراء الباب، وهم يعالجون الباب ويرومون تسور الجدار؛ فلما رأت الملائكة ما يلقي من الكرب، قالوا: يا لوط إنا رسل ربك، فافتح الباب ودعنا وإياهم؛ ففتح الباب، فدخلوا، واستأذن جبريل ربه في عقوبتهم، فأذن له، فضرب بجناحه وجوههم فأعماهم، فانصرفوا يقولون: النجاة النجاة، فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض؛ وجعلوا يقولون: يا لوط، كما أنت حتى تصبح، يوعدونه؛ فقال لهم لوط: متى موعد هلاكهم؟ قالوا: الصبح، قال: لو أهلكتموهم الآن، فقالوا: أليس الصبح قريب؟ فقال أبو صالح عن ابن عباس: إنهم لما تواعدوه، قال في نفسه: ينطلق هؤلاء القوم غداً من عندي، وأبقى مع هؤلاء فيهلكوني، فقال: لو أن لي بكم قوة. قلت: وإنما يتوجه هذا إذا قلنا إنه كان قبل علمه أنهم ملائكة. وقال قوم: إنه إنما قال هذا لما كسروا بابه وهجموا عليه. وقال آخرون: لما نهاهم عن أضيافه فأبوا قال

(١) البيت غير منسوب في «الطبري» ٤٢٢/١٥، وفي «مجاز القرآن» ٢٩٤/١.

هذا. وفي الجملة، ما أراد بالركن نصر الله وعونه، لأنه لم يخل من ذلك، وإنما ذهب إلى العشيرة والأسرة. وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، وما بعث الله نبياً بعده إلا في ثروة من قومه»^(١).

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ قال مقاتل: فيه إضممار، تقديره: لن يصلوا إليك بسوء، وذلك أنهم قالوا للوط: إنا نرى معك رجالاً سحرُوا أبصارنا، فستعلم غداً ما تلقى أنت وأهلك؛ فقال له جبريل: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾
قوله تعالى: ﴿فَأَنزِلْنَا بِأَهْلِكَ﴾ قرأ عاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «فأسر» بإثبات الهمز في اللفظ من أسريت. وقرأ ابن كثير، ونافع: «فأسر بأهلك» بغير همز من أسريت، وهما لغتان. قال الزجاج: يقال: أسريت، وأسريت: إذا سرت ليلاً، قال الشاعر:

أسريت بهم حتى تكل مطيهم
وحتى الجياد ما يُقَدَّنَ بأرسان
وقال النابغة:

أَسْرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوَازِ سَارِيَّةٌ
تُزْجِي السَّمَالَ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرَدِ^(٢)
وقد روه: سرت. فأما أهله، فقال مقاتل: هم امرأته وابنتاه، واسم ابنتيه: رُبْنَا وَرُغْرَثَا. وقال السدي: اسم الكبرى: رِيَّة، واسم الصغرى: عروبة، والمراد بأهله: ابنتاه. فأما القطع، فهو بمعنى القطعة؛ يقال: مضى قطع من الليل، أي: قطعة. قال ابن عباس: يريد به: آخر الليل. وقال ابن قتيبة: «بِقَطْع» أي: ببقية تبقى من آخره. وقال ابن الأنباري: ذكر القطع بمعنى القطعة مختص بالليل، ولا يقال: عندي قطع من الثوب، بمعنى: عندي قطعة.
قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْفُتْ وَنَكْمٌ أَحَدٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه بمعنى: لا يتخلف منكم أحد، قاله أبو صالح عن ابن عباس، والثاني: أنه الالتفات المعروف، قاله مجاهد، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنتَ﴾ قرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي بنصب التاء. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن جُمَاز عن أبي جعفر برفع التاء. قال الزجاج: من قرأ بالنصب، فالمعنى: فأسر بأهلك إلا امرأتك. ومن قرأ بالرفع، حملة على «ولا يلفُتْ منكم أحد إلا امرأتك». وإنما أمرُوا بترك الالتفات لثلاثاً عظيم ما ينزل بهم من العذاب. قال ابن الأنباري: وعلى قراءة الرفع، يكون الاستثناء منقطعاً، معناه: لكن امرأتك، فإنها تلتفت فيصيبها ما أصابهم؛ فإذا كان استثناء منقطعاً، كان التثاقب معصية لربها، لأنه ندب إلى ترك الالتفات. قال قتادة: ذُكر لنا أنها كانت مع لوط حين خرج من القرية، فلما سمعت هذه العذاب، التفتت فقالت: واقوماه، فأصابها حجر فأهلكها، وهو قوله: ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ لِلْعَذَابِ﴾^(٣) «الصُّبْحُ»

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ قال المفسرون: قالت الملائكة: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ فقال: أريد أصجل من ذلك، فقالوا له: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ؟﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَشْرَانَا جَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سُلَافًا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ مَنُشُورٍ ﴿٨٢﴾ شُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا مِنْ أَكْثَلِينَ يَبْغِي﴾^(٤)

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَشْرَانَا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أمر الله الملائكة بعذابهم. والثاني: أن الأمر بمعنى العذاب. والثالث: أنه بمعنى القضاء بعذابهم.

قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سُلَافًا﴾ الكناية تعود إلى المؤتفكات، وهي قرى قوم لوط، وقد ذكرناها في

(١) «الطبري» ٤١٩/١٥ - ٤٢٠، ورواه الترمذي ١٣٩/٢ وقال: حديث حسن، والحاكم ٥٦١/٢ وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، ورواه البخاري ٢٩٧/٦ دون قوله: «وما بعث الله نبياً بعده إلا في ثروة من قومه».

(٢) «ديوانه» ٤ بشرح ابن السكيت، و«مجاز القرآن» ٢٩٥/١، و«مختار الشعر الجاهلي» ١٥٠/١، و«القرطبي» ٧٩/٩، و«اللسان»، و«التاج»: سرت. وأسرت: إذا أمطرت ليلاً، وقوله: «من الجوزاء سارية» كقولك: سقينا بنو كذا، أي: أصابه المطر ليلاً، وتزجي: تسوق وتدفع على الثور جامد البرد.

[براءة: ٧٠]، ونحن نشير إلى قصة هلاكهم هاهنا. قال ابن عباس: أمر جبريل لوطاً بالخروج، وقال: اخرج وأخرج غنمك وبقرتك، فقال: كيف لي بذلك وقد أغلقت أبواب المدينة؟ فبسط جناحه، فحملة وبتيه وماله من شيء، فأخرجهم من المدينة، وسأل جبريل ربّه، فقال: يا رب ولّني هلاك هؤلاء القوم، فأوحى الله إليه أن تولّ هلاكهم؛ فلما أن بدا الصبح، غدا عليهم جبريل فاحتملها على جناحه، ثم صعد بها حتى خرج الطير في الهواء لا يدري أين يذهب، ثم كفّأها عليهم، وسمعوا وخبّة^(١) شديدة، فالتفت امرأة لوط، فرماها جبريل بحجر فقتلها، ثم صعد حتى أشرف على الأرض، فجعل يثبّطهم مسافرتهم وزعاجتهم ومنّ تحوّل عن القرية، فرماهم بالحجارة حتى قتلهم. وقال السدي: اقتلع جبريل الأرض من سبغ أرضين، فاحتملها حتى بلغ بها إلى أهل السماء الدنيا، حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم قلبها. وقال غيره: كانت خمس قرى، أعظمها سدوم، وكان القوم أربعة آلاف ألف. وقيل: كان في كل قرية مائة ألف مقاتل، فلما رفعها إلى السماء، لم ينكسر لهم إناء ولم يسقط حتى قلبها عليهم. وقيل: نجا من الخمس واحدة لم تكن تعمل مثل عملهم. وانفرد سعيد بن جبير، فقال: إن جبريل وميكائيل تولّيا قلبها.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى القرى. والثاني: إلى الأمة. وفي السجّل سبعة أقوال: أحدها: أنها بالفارسية سنك وكلّ، السنك: الحجر، والكل: الطين، هذا قول ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير. وقال مجاهد: أولها حجر، وآخرها طين. وقال الضحاك: يعني الآجر. قال ابن قتيبة: من ذهب إلى هذا القول، اعتبره بقوله: ﴿جِبَارَةٌ يَنْزِلُ مِنْهَا﴾ [الذاريات: ٣٣] يعني الآجر. وحكى الفراء أنه طين قد طبخ حتى صار بمنزلة الأرحاء. والثاني: أنه بحر مملوّ في الهواء بين السماء والأرض، ومنه نزلت الحجارة، قاله عكرمة. والثالث: أن السجّل: اسم السماء الدنيا، فالمعنى: حجارة من السماء الدنيا، قاله ابن زيد. والرابع: أنه الشديد من الحجارة الصلب، قاله أبو عبيدة، وأنشد لابن مقبل:

[وَرَجَلَةٌ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ عَنْ عُرْضٍ] ضرباً تواصت به الأبطال يسجّينا^(٢)

وردة هذا القول ابن قتيبة، فقال: هذا بالنون، وذاك باللام، وإنما هو في هذا البيت فعيل من سجنت، أي: حبست، كأنه ثبت صاحبه. الخامس: أن قوله: «من سجّل» كقولك: من سجّل، أي: مما كتّب لهم أن يعدّوا به، وهذا اختيار الزجاج. والسادس: أنه من أسجلته، أي: أرسلته، فكانها رسالة عليهم. والسابع: أنه من أسجلت: إذا أعطيت، حكى القولين الزجاج. وفي قوله: «تَشْوَبُ» ثلاثة أقوال: أحدها: يتبع بعضه بعضاً، قاله ابن عباس. والثاني: مصفوف، قاله عكرمة، وقتادة. والثالث: نضد بعضه على بعض، لأنه طين جُمع فجعل حجارة، قاله الربيع بن أنس.

قوله تعالى: ﴿مُسَوَّمَةٌ﴾ قال الزجاج: أي معلّمة، أخذ من السومة، وهي العلامة. وفي علامتها ستة أقوال: أحدها: بياض في حمرة، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال الحسن. والثاني: أنها كانت مختومة، فالحجر أبيض وفيه نقطة سوداء، أو أسود وفيه نقطة بيضاء، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أنها المخططة بالسواد والحمرة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: عليها نضج من حمرة فيها خطوط حمرة على هيئة الجزع، قاله عكرمة، وقتادة. والخامس: أنها كانت معلّمة بعلامة يُعرف بها أنها ليست من ججارة الدنيا، قاله ابن جريج. والسادس: أنه كان على كل حجر منها اسم صاحبه، قاله الربيع. وحكي عن بعض من رأى تلك الحجارة أنه قال: كانت مثل رأس الإبل، ومثل مبارك الإبل، ومثل قبضة الرجل. وفي قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أن المعنى: جاءت من عند ربك، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: عند ربك معذّة، قاله أبو بكر الهذلي. والثالث: أن

(١) الوجبة: صوت الشيء يسقط فيسمع له كالهذّة.

(٢) «ديوانه» ٣٣٣، «ومجاز القرآن» ٢٩٦، «والطبري» ١٥ / ٤٣٤، و«جمهرة أشعار العرب» ١٦٢، و«منتهى الطلب» ٤٤، و«المعاني الكبير» ٩٩١، و«اللسان»: سجن.

المعنى: هذا التسويم لزم هذه الحجارة عند الله إيداناً بنفاذ قدرته وشدة عذابه، قاله ابن الأنباري. والرابع: أن معنى قوله: «عند ربك»: في خزانته التي لا يُصَرَّف في شيء منها إلا بإذنه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ آلَافٍ مِنْ أَتْلَافٍ يَبْعِدُ﴾ في المراد بالظالمين هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أن المراد بالظالمين هاهنا كفار قريش، خوَّفهم الله بها، قاله الأكثرون. والثاني: أنه عام في كل ظالم؛ قال قتادة: والله ما أجاز الله منها ظالماً بعد قوم لوط، فاتقوا الله وكونوا منه على حذر. والثالث: أنهم قوم لوط، فالمعنى: وما هي من الظالمين، أي: من قوم لوط يبعيد، والمعنى: لم تكن لتُخطئهم، قاله الفراء.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْجزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَفْضَلٍ مِنْ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قد ذكرناه في [الأعراف: ٨٥]. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفُسُوا الْيَكَالَ وَالْيَمْرَانَ﴾ أي: لا تطفئوا؛ وكانوا يطفئون مع كفرهم.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرْسَلْتُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه رخص الأسعار، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد. والثاني: سعة المال، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال قتادة، وابن زيد. وقال الفراء: أموالكم كثيرة، وأسعاركم رخيصة، فاي حاجة بكم إلى سوء الوزن والكيل؟

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ عَذَابُ يَوْمٍ يُحْيطُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه غلاء السعر، قاله ابن عباس. وقال مجاهد: القحط والجذب والغلاء. والثاني: العذاب في الدنيا، وهو الذي أصابهم، قاله مقاتل. والثالث: عذاب النار في الآخرة، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا الْيَكَالَ وَالْيَمْرَانَ بِالْوَسْطِ﴾ أي: اتقوا ذلك بالعدل. والإيفاء: الإتمام. ﴿وَلَا تَحْزَنْ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بنقص المكيال والميزان.

﴿يَقِئْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ قَالُوا يَشْعَبُ أَمْ لَوْلَاكَ تَأْمُرُهُ أَنْ تَزِلَّ مَا يَعْزُدُ مَا بَازُوا أَوْ أَنْ تَعْمَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا تَفْتَوُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَكِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَنْفَوْرُ أَنَّهُ يَشْعُرُ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَوَدَعَى مِنْهُ رِيقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُلْغِيَكُمْ إِلَا مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَلَقْتُ وَمَا تَوَفَّقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَنْفَوْرُ لَا يَجْرِمُكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُبَيِّعَكُمْ نِزْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ بِكُمْ يَبْعِدُ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَفْزَرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ نُوْهِوا إِلَيْهِ إِذْ رَفَعَ رَجِيمَ دُودُو ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَعَهُ كَيْفَا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَوْفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَنْفَوْرُ أَرْهَقِي أَعْرُ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَانْجِدْهُمْ وَرَأَاهُمْ ظَهْرًا إِنَّكَ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَنْفَوْرُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَائِكُمْ إِيَّيْ عَمِلَ سَوَفَ تَعْمَلُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُعْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْسَلْنَا إِيَّيْكُمْ رُسُلًا وَكَلَّمَآ أَمْرًا نَجِيًّا شَعْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ رَجَعُوا بِنَا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْغَةَ فَامْسَحُوا بِرُءُوسِهِمْ جَحِيمٌ ﴿٩٣﴾ كَانُوا يَنْتَوُونَ فِيهَا آلَا بَدَا لِمَنْ يَدَّتْ نُحُودُ ﴿٩٤﴾

قوله تعالى: ﴿يَقِئْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ﴾ فيه ثمانية أقوال: أحدها: ما أبقي الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن، خير من البخس، قاله ابن عباس. والثاني: رزق الله خير لكم، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال سفيان. والثالث: طاعة الله خير لكم، قاله مجاهد، والزجاج. والرابع: حفظكم من الله خير لكم، قاله قتادة. والخامس: رحمة الله خير لكم، قاله ابن زيد. والسادس: وصية الله خير لكم، قاله الربيع. والسابع: ثواب الله في الآخرة خير لكم، قاله مقاتل. والثامن: مراقبة الله خير لكم، ذكره الفراء. وقرأ الحسن البصري: «تقية الله خير لكم» بالتاء.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ شرط الإيمان في كونه خيراً لهم، لأنهم إن كانوا مؤمنين بالله ﷻ، عرفوا صحة ما يقول. وفي قوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: ما أمرت بقتالكم وإكراهكم على الإيمان. والثاني: ما أمرت بمراقبتكم عند كيلكم لئلا تبخسوا. والثالث: ما أحفظكم من عذاب الله إن نالكم.

قوله تعالى: ﴿أَصْلَوَاتُكَ تَأْتِيكَ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وحفص: «أصلاتك» على التوحيد. وفي المراد بصلواته ثلاثة أقوال: أحدها: دينه، قاله عطاء. والثاني: قراءته، قاله الأعمش. والثالث: أنها الصلوات المعروفة. وكان شعيب كثير الصلاة.

قوله تعالى: ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِكَ مَا تَحْتَكِرُ﴾ قال الفراء: معنى الآية: أصولك تأمرك أن تترك ما يعبد آبائنا، أو أن تترك أن تفعل في أموالنا ما نشاء؟ وفي معنى الكلام على قراءة من قرأ بالنون قولان: أحدهما: أن فعلهم في أموالهم هو البخس والتطيف، قاله ابن عباس؛ فالمعنى: قد تراضينا فيما بيننا بذلك. والثاني: أنهم كانوا يقطعون الدراهم والدنانير، فنهاهم عن ذلك، قاله ابن زيد. وقال القرظي: غُذِّبُوا في قطعهم الدراهم. قال ابن الأنباري: وقرأ الضحاك بن قيس الفهري «ما تشاء» بالتاء، ونسق «أن تفعل» على «أن تترك»، واستغنى عن الإضمار. قال سفيان الثوري: في معنى هذه القراءة أنه أمرهم بالزكاة فامتنعوا. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والضحاك، وابن أبي عبيدة: «أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء» بالتاء فيهما؛ ومعنى هذه القراءة كمعنى قراءة الفهري. وفي قوله: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْكَافِرُ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أنهم قالوه استهزاء به، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والفراء. والثاني: أنهم قالوا له: إنك لأنت السفية الجاهل، فكفى بهذا عن ذلك، ذكره الزجاج. والثالث: أنهم سبوه بأنه ليس بحليم ولا رشيد، فأنشأ الله ﷻ عليه فقال: بل إنك لأنت الحليم الرشيد، لا كما قال لك الكافرون، حكاه أبو سليمان الدمشقي عن أبي الحسن المصيصي. والرابع: أنهم اعترفوا له بالحلم والرشد حقيقة، وقالوا: أنت حليم رشيد، فلم تنهانا أن نفعل في أموالنا ما نشاء؟ حكاه الماوردي، وذهب إلى نحوه ابن كيسان.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَمِينٍ مِّن رَّوْحِي﴾ قد تقدم تفسيره (هود: ٢٨ و ٦٣) وفي قوله: ﴿وَرَزَقْنِي مِنهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحلال؛ قال ابن عباس: وكان شعيب كثير المال. والثاني: النبوّة. والثالث: العلم والمعرفة. قال الزجاج: وجواب الشرط هاهنا متروك، والمعنى: إن كنت على بينة من ربي، أتبع الضلال؟ فترك الجواب، لعلم المخاطبين بالمعنى، وقد مرّ مثل هذا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ﴾ قال قتادة: لم أكن لأنهاكم عن أمر ثم ارتكبه. وقال الزجاج: ما أقصد بخلافكم القصد إلى ارتكابه.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي: ما أريد بما أمركم به إلا إصلاح أموركم بقدر طاقتي. وقدر طاقتي: إبلاغكم لا إجباركم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ فتح تاء «توفيق» أهل المدينة، وابن عامر. ومعنى الكلام: ما إصابتي الحق في محاولة صلاحكم إلا بالله. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: فوضت أمري، وذلك أنهم تواعدوه بقولهم: ﴿تُخْرِجُكَ يَشِيمُ﴾ (الاعراف: ٨٨). ﴿وَإِلَيْهِ أُبْئِي﴾ أي: أرجع.

قوله تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقٌ﴾ حرك هذه الياء ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع. قال الزجاج: لا تكسبكم عداوتكم إياي أن تعدّوا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَوْمٌ لَّوْطٍ بَيْنَكُمْ يَمِينُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنهم كانوا قريباً من مساكنهم. والثاني: أنهم كانوا حديثي عهد بعذاب قوم لوط. قال الزجاج: كان إهلاك قوم لوط أقرب الإهلاكات التي عرفوها. قال ابن الأنباري: إنما وُحِدَ بعيداً، لأنه أزاله عن صفة القوم، وجعله نعتاً مكان محذوف، تقديره: وما قوم لوط منكم بمكان بعيد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّيَ رَحِيمٌ مُّؤَدِّ﴾ قد سبق معنى الرحيم. فأما الودود: فقال ابن الأنباري: معناه: المحب لعباده، من قولهم: وِدَدَ الرجل أَوْدَهُ وُدّاً وودّاً، ويقال: وِدَدَ الرجل وِدَاداً وودادة وودادة. وقال الخطابي: هو اسم مأخوذ من الود؛ وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون فعولاً في محل مفعول، كما قيل: رجل هيب، بمعنى مهيب، وفرس زكوب، بمعنى مركوب، فالله سبحانه مودود في قلوب أوليائه لما يتعرفونه من إحسانه إليهم. والوجه الآخر: أن

يكون بمعنى الواء، أي: أنه يؤدّ عباده الصالحين، بمعنى أنه يرضى عنهم بِتَقْبُلِ أعمالهم؛ ويكون معناه: أن يؤدّهم إلى خلقه، كقوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَكُمْ الْوَحْيَ وَدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

قوله تعالى: ﴿بِمَا نَفَقْتُمْ كَبِيرًا سَيَا قَوْلُ﴾ قال ابن الأنباري: معناه: ما نفقه صحة كثير مما تقول، لأنهم كانوا يتدبّرون بغيره، ويجوز أن يكونوا لاستقبالهم ذلك كأنهم لا يفقهونه.

قوله تعالى: ﴿وَرِئًا لَّزَيْكَ سَيَا ضَعِيفًا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: ضريراً؛ قال ابن عباس، وابن جبير، وقتادة: كان أعمى. قال الزجاج: ويقال: إن حمير تسمى المكفوف: ضعيفاً. والثاني: ذليلاً، قاله الحسن، وأبو روق، ومقاتل. وزعم أبو رزق أن الله لم يبعث نبياً أعمى، ولا نبياً به زمانة. والثالث: ضعيف البصر، قاله سفيان. والرابع: عاجزاً عن التصرف في المكاسب، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رَفْعُكَ لَرَجْتَنَّكَ﴾ قال الزجاج: لولا عشيرتك لقتلتناك بالرجم، والرجم من سيئ القتل، وكان رهطه من أهل ملتهم، فلذلك أظهروا الميل إليهم والإكرام لهم. وذكر بعضهم أن الرجم هاهنا بمعنى الشتم والأذى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِمَرْزُوقٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: بكرم. والثاني: بممتنع أن تقتلك. قوله تعالى: ﴿أَرْهَطِيْ أَعْرَ عَلَيْنَكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ وأسكن ياء «رهطي» أهل الكوفة، ويعقوب، والمعنى: أتراعون رهطي في، ولا تراعون الله في؟

قوله تعالى: ﴿وَأَلْهَنَّا أَعْيُنَهُمْ وَرَأَيْنَاهُمْ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله تعالى، قاله الجمهور. قال الفراء: المعنى: رميتهم بأمر الله وراء ظهوركم. قال الزجاج: والعرب تقول لكل من لا يعياً بأمر: قد جعل فلان هذا الأمر بظهر، قال الشاعر:

نَمِيمٌ بَنَ قَيْسَ لَا تَكُونَنَّ حَاجَتِي

والثاني: أنها كناية عما جاء به شعيب، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿إِن كَرِهَ رَبِّي مَكَانًا مَّحِيْطًا﴾ أي: عالم بأعمالكم، فهو يجازيكم بها. وما بعد هذا قد سبق تفسيره إلى قوله: ﴿سَوَّيْتُمُوهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٥]. فإن قال قائل: كيف قال هاهنا «سوف» وفي سورة أخرى «فسوف»؟ [الأنعام: ١٣٥] فالجواب: أن كلا الأمرين حسن عند العرب، إن أدخلوا الفاء، دلوا على اتصال ما بعد الكلام بما قبله، وإن أسقطوها، بنوا الكلام الأول على أنه قد تم، وما بعده مستأنف، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتُؤْخَذُ الْمُرُوءَةُ﴾ [البقرة: ٦٧]، والمعنى: فقالوا: أتخذنا، بالفاء، فحذفت الفاء لتمام ما قبلها. قال امرؤ القيس:

فَقَالَتْ يَمِينُ اللَّوْ مَالِكُ حَبْلَةٍ

خَرَجْتُ بِهَا أَمْشِي تَجُرُّ وَرَاءَنَا

قال ابن الأنباري: أراد: فخرجتُ، فأسقط الفاء لتمام ما قبلها. ويرى: فقمْتُ بها أَمْشِي.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْزُقُوا إِلَى مَعَكُمْ رَيْبًا﴾ قال ابن عباس: ارتقبوا العذاب، فإني ارتقب الثواب.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْهَنَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَصْحَابَهُ﴾ قال المفسرون: صاح بهم جبريل فماتوا في أمكنتهم. قال محمد بن كعب: عذّب أهل مدين بثلاثة أصناف من العذاب، أخذتهم رجفة في ديارهم، حتى خافوا أن تسقط عليهم، فخرجوا منها فأصابهم حرٌ شديد، فبعث الله الظلّة، فتنادوا: هلم إلى الظل؛ فدخلوا جميعاً في الظلّة، فصيح بهم صيحة واحدة فماتوا كلهم. قال ابن عباس: لم تعذب أمتان قط بعذاب واحد، إلا قوم شعيب وصالح، فأما قوم صالح، فأخذتهم الصيحة من تحتهم، وأما قوم شعيب، فأخذتهم من فوقهم، نشأت لهم سحابة كهيئة الظلّة فيها ريح بعد أن امتنعت الريح عنهم، فأثّروها يستظلّون تحتها فأحرقتهم.

(١) البيت تقدم ٢٤٧، وهو أيضاً في «الكامل» ٤٣٠، و«ذيل الأمالي» ٧٨، و«أضداد ابن الأنباري» ٢٥٦.

(٢) «ديوانه» ١٤، والمرط: إزار خز له علم، وإنما تجر مرطها ليخفى أثره وأثرها فلا يستدل عليهما، والمرحل: الموشى، وهو ضرب من البرود.

قوله تعالى: ﴿كَأَیَّدَتْ كُفُوءٌ﴾ أي: كما هلكت ثمود. قال ابن قتيبة: يقال: بَعَدَ يَبْعُدُ: إِذَا كَانَ بَعْدَهُ هَلَكَةٌ؛ وَبَعْدَ يَبْعُدُ: إِذَا نَأَى.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَمُطَلِّحِينَ ثَمِيمِينَ﴾ إِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَيْنَاهُ كَأَنبُوعًا أَثَرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَثَرَ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿١٧٧﴾
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ قال الزجاج: بعلامانا التي تدل على صحة نبوته. ﴿وَمُطَلِّحِينَ ثَمِيمِينَ﴾ أي: حجة بيّنة.

قوله تعالى: ﴿كَأَنبُوعًا أَثَرَ فِرْعَوْنَ﴾ وهو ما أمرهم به من عبادته واتخاذها إلهاً. ﴿وَمَا أَثَرَ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: مرشد إلى خير.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ آلْيَوْمِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَشَى الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ ﴿١٧٨﴾
قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ آلْيَوْمِ﴾ قال الزجاج: يقال: قَدَمْتُ الْقَوْمَ أَقْدَمُهُمْ، قَدَمًا وَقُدُومًا: إِذَا تَقَدَّمْتَهُمْ؛ والمعنى: يقدمهم إلى النار؛ ويدل عليه قوله: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ قال ابن عباس: أوردهم بمعنى أدخلهم. وقال قتادة: يمضي بين أيديهم حتى يهجم بهم على النار.

قوله تعالى: ﴿وَيَشَى الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ قال المفسرون: الورد: الموضع الذي ترده. وقال ابن الأنباري: الورد: مصدر معناه: الورد، تجعله العرب بمعنى الموضع المورود؛ فتلخيص الحرف: ويش المدخل المدخول النار.

﴿وَأَنبِئُوهُمْ فِي هَؤُلَاءِ لَعْنَةُ رَبِّهِمْ يَوْمَ آلْيَوْمِ يَشَى الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ ﴿١٧٩﴾
قوله تعالى: ﴿وَأَنبِئُوهُمْ فِي هَؤُلَاءِ لَعْنَةُ رَبِّهِمْ يَوْمَ آلْيَوْمِ﴾. في هذه اللعنة قولان: أحدهما: أنها في الدنيا الغرق، وفي الآخرة عذاب النار، هذا قول الكلبي، ومقاتل. والثاني: أنها اللعنة في الدنيا من المؤمنين، وفي الآخرة من الملائكة، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿يَشَى الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ قال ابن قتيبة: الرشد: العطية؛ يقول: اللعنة بشى العطية؛ يقال: رَفَدْتُهُ أَرَفَدُهُ: إِذَا أَعْطَيْتَهُ وَأَعْتَهُ. والمرفود: المعطى.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِدٌ وَحَصِيدٌ﴾ ﴿١٨٠﴾
قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى﴾ يعني ما تقدم من الخبر عن القرى المهلكة. ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي: نخبرك به. ﴿مِنْهَا قَائِدٌ وَحَصِيدٌ﴾ قال قتادة: القائم: ما يرى مكانه، والحصيد: لا يرى أثره. وقال ابن قتيبة: القائم: الظاهر العين، والحصيد: الذي قد أريد وحُصد. وقال الزجاج: القائم: ما بقيت حيطانه، والحصيد: الذي خُصِفَ به وما قد أمحى أثره.

﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا غَيْرَ نَتِيبٍ﴾ ﴿١٨١﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾ أي: بالعذاب والإهلاك. ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي. ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾ أي: فما نفعتهم ولا دفعت عنهم شيئاً ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بالهلاك. ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ يعني الآلهة ﴿غَيْرَ نَتِيبٍ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه التخسير، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقاتل، واختاره ابن قتيبة، والزجاج. والثاني: أنه الشر، قاله ابن زيد. والثالث: التدمير والإهلاك، قاله أبو عبيدة. فإن قيل: الآلهة جماد، فكيف قال: ﴿زادوهم﴾؟ فتنه جوابان: أحدهما: وما زادتهم عبادتها. والثاني: أنها في القيامة تكون عوناً عليهم فتزيدهم شراً.

﴿وَكَذَلِكَ أَتَتْكَ رِيحٌ إِذَا أَخَذَ الْفَرْشَ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَغْدَاكَ أَيْمٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿١٨٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَتَتْكَ رِيحٌ إِذَا أَخَذَ الْفَرْشَ﴾ أي: وكما ذكر من إهلاك الأمم وأخذهم بالعذاب أخذُ ريك ﴿إِذَا أَخَذَ الْفَرْشَ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ﴾ وصف القرى بالظلم، والمراد أهلها. وقال ابن عباس: الظلم هاهنا: بمعنى الكفر.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ ﴿١٨٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجْلِ مَعْدُودٍ ﴿١٨٤﴾
قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ يعني ما ذكر من عذاب الأمم وأخذهم. والآية: العبرة والعظة. ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ

لَهُ الْكَاشُ ﴿١٠٥﴾ لَأَن الْخَلْقَ يُحْشَرُونَ فِيهِ، وَيَشْهَدُهُ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَأَهْلُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. . . ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ﴾ وروى زيد عن يعقوب، وأبو زيد عن المفضل: «وما يؤخره بالياء» والمعنى: وما تؤخر ذلك اليوم إلا لوقت معلوم لا يعلمه إلا الله. ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمَنَ الْتَأَمَّ فِيهَا زُفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٧﴾ خَلِيلِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ قَدَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٨﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَمَنَ الْكَلْبَةُ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُورٍ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي: «يوم يأتي» بياء في الوصل، وحذفوها في الوقف؛ غير أن ابن كثير كان يقف بالياء، ويصل بالياء. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة بغير ياء في الوصل والوقف. قال الزجاج: الذي يختاره النحويون «يوم يأتي» بإثبات الياء، والذي في المصحف وعليه أكثر القراءات بكسر التاء، وهذيل تستعمل حذف هذه الياءات كثيراً. وقد حكى الخليل، وسيبويه، أن العرب تقول: لا أدري، فتحذف الياء، وتجتزئ بالكسرة، ويزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال. وقال الفراء: كل ياء ساكنة وما قبلها مكسورة، أو واو ساكنة وما قبلها مضموم، فإن العرب تحذفها وتجتزئ بالكسرة من الياء، وبالصيغة من الواو، وأنشدني بعضهم:

كَفَّاكَ كَفًّا مَا تَلَيْقُ بِهِمَا جُودًا وَأُخْرَى تُغِطُ بِالسَّيْفِ السَّهْمَا

قال المفسرون: وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ يعني: يأتي ذلك اليوم، لا تكلّم نفس إلا بإذن الله، فكل الخلائق ساكنون، إلا من أذن الله له في الكلام. وقيل: المراد بهذا الكلام الشفاعة.

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾ قال ابن عباس: منهم من كتب عليه الشقاوة، ومنهم من كتبت له السعادة.

قوله تعالى: ﴿لَمَنَ فِيهَا زُفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن الزفير كزفير الحمار في الصدر، وهو أول ما ينهق، والشهيق كشهيق الحمار في الحلق، وهو آخر ما يفرغ من نهيقه، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الضحاك، ومقاتل، والفراء. وقال الزجاج: الزفير: شديد الأنين وقبحه، والشهيق: الأنين الشديد المرتفع جداً، وهما من أصوات المكروبين. وزعم أهل اللغة من الكوفيين والبصريين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمار في النهيق، والشهيق بمنزلة آخر صوته في النهيق. والثاني: أن الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال أبو العالية، والربيع بن أنس. وفي رواية أخرى عن ابن عباس: الزفير: الصوت الشديد، والشهيق: الصوت الضعيف. وقال ابن فارس: الشهيق ضد الزفير، لأن الشهيق ردُّ النَّفْسِ، والزفير إخراج النَّفْسِ. وقال غيره: الزفير: الشديد، مأخوذ من الزُّفْرِ، وهو الحَمَلُ على الظهر لشدة؛ والشهيق: النَّفْسُ الطويل الممتد، مأخوذ من قولهم: جبل شاهق، أي: طويل. والثالث: أن الزفير زفير الحمار، والشهيق شهيق البغال، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿خَلِيلِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ المعروف فيه قولان: أحدهما: أنها السموات المعروفة عندنا، والأرض المعروفة؛ قال ابن قتيبة، وابن الأنباري: للعرب في معنى الأبد ألفاظ؛ تقول: لا أفعل ذلك ما اختلف الليل والنهار، وما دامت السموات والأرض، وما اختلفت الحِجَّةُ والذِّبَّةُ^(١)، وما أطلت الإبل^(٢)، في أشياء لهذا كثيرة، ظناً منهم أن هذه الأشياء لا تتغير، فخطبهم الله بما يستعملون في كلامهم. والثاني: أنها سموات الجنة والنار وأرضهما.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ في الاستثناء المذكور في حق أهل النار سبعة أقوال: أحدها: أن الاستثناء في حق الموحدين الذين يخرجون بالشفاعة، قاله ابن عباس، والضحاك. والثاني: أنه استثناء لا يفعله، تقول: والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك، وعزيمتك على ضربه، ذكره الفراء، وهو معنى قول أبي صالح عن ابن عباس: «إلا ما شاء ربك» قال: فقد شاء أن يخلدوا فيها. قال الزجاج: وفائدة هذا، أنه لو شاء أن يرحمهم لرحمهم، ولكنه أحلنا

(١) الحجة: ما يخرج البعير من بطنه ليضعه ثم يبتلع، والدرة: كثرة اللبن وسيلانه، واختلافهما: أن الدرة تسفل إلى الرجلين، والحجة: تعلو إلى الرأس.

(٢) يقال: أطلت الإبل تطأ أطيطاً: أنت تعباً وحينئذٍ أو رزمة. وفي المثل: «لا أفعل ذلك ما أطت الإبل».

أنهم خالدون أبداً. والثالث: أن المعنى: خالدين فيها أبداً، غير أن الله تعالى يأمر النار فتأكلهم وتفتنيهم، ثم يجدد خلقهم، فيرجع الاستثناء إلى تلك الحال، قاله ابن مسعود. والرابع: أن «إلا» بمعنى «سوى»، تقول: لو كان معنا رجل إلا زيد، أي: سوى زيد؛ فالمعنى: خالدين فيها مقدار دوام السموات والأرض سوى ما شاء ربك من الخلود والزيادة، وهذا اختيار الفراء. قال ابن قتيبة: ومثله في الكلام أن تقول: لأشكّنك في هذه الدار حولاً إلا ما شئت؛ تريد: سوى ما شئت أن أزيدك. الخامس: أنهم إذا حُشروا وبُعثوا، فهم في شروط القيامة؛ فالاستثناء واقع في الخلود بمقدار موقفهم في الحساب، فالمعنى: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا مقدار موقفهم للمحاسبة، ذكره الزجاج. وقال ابن كيسان: الاستثناء يعود إلى مكثهم في الدنيا والبرزخ والوقوف للحساب؛ قال ابن قتيبة: فالمعنى: خالدين في النار وخالدين في الجنة دوام السماء والأرض إلا ما شاء ربك من تعميمهم في الدنيا قبل ذلك، فكأنه جعل دوام السماء والأرض بمعنى الأبد على ما كانت العرب تستعمل، وإن كانتا قد تتغيران. واستثنى المشيئة من دوامهما، لأن أهل الجنة والنار قد كانوا في وقت من أوقات دوام السماء والأرض في الدنيا، لا في الجنة، ولا في النار. والسادس: أن الاستثناء وقع على أن لهم فيها زفيراً وشهيقاً، إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب التي لم تُذكر؛ وكذلك لأهل الجنة نعيم مما دُكر، ولهم مما لم يُذكر ما شاء ربك، ذكره الزجاج أيضاً. والسابع: أن «إلا» بمعنى «كما»، ومنه قوله: «وَلَا تَكِبُوا مَا تَكِبُوا مَا تَكِبُوا رَبِّكَ أَلَيْسَ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» [النساء: ٢٢]، ذكره الثعلبي. فأما الاستثناء في حق أهل الجنة، ففيه ستة أقوال: أحدها: أنه استثناء لا يفعله. والثاني: أن «إلا» بمعنى «سوى». والثالث: أنه يرجع إلى وقوفهم للحساب وليتهم في القبور. والرابع: أنه بمعنى: إلا ما شاء أن يزيدهم من النعيم الذي لم يُذكر. والخامس: أن «إلا» كـ «ما»، وهذه الأقوال قد سبق شرحها. والسادس: أن الاستثناء يرجع إلى لبث من لبث في النار من الموحدين، ثم أدخل الجنة، قاله ابن عباس، والضحاك، ومقاتل. قال ابن قتيبة: فيكون الاستثناء من الخلود مكث أهل الذنوب من المسلمين في النار، فكأنه قال: إلا ما شاء ربك من إخراج المذنبين إلى الجنة، وخالدين في الجنة إلا ما شاء ربك من إدخال المذنبين النار مدة. واختلف القراء في «سعدوا» فقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم؛ «سعدوا» بفتح السين. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: بضمها، وهما لغتان. قوله تعالى: «عَطَاةٌ غَيْرُ مَجْدُورٍ» نُصِبَ عطاء بما دل عليه الكلام، كأنه قال: أعطاهم النعيم عطاء.

والمجذوذ: المقطوع؛ قال ابن قتيبة: يقال: جذذت، وجدذت، وجذفت، وإذا قطعت. «وَلَا تَكُ فِي مَرْجَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَرَأَى لَمُوقَهُمْ نَصِيْبُهُمْ غَيْرَ مَنُوقٍ» قوله تعالى: «وَلَا تَكُ فِي مَرْجَةٍ» أي: فلا تك يا محمد في شك «وَمِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ» المشركون من الأصنام، أنه باطل وضلال، إنما يقلدون آباءهم، «وَرَأَى لَمُوقَهُمْ نَصِيْبُهُمْ» وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: ما قُدر لهم من خير وشر، قاله ابن عباس. والثاني: نصيبهم من الرزق، قاله أبو العالية. والثالث: نصيبهم من العذاب، قاله ابن زيد. وقال بعضهم: لا ينقصهم من عذاب آبائهم.

«وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاتَّخِذْ فِيهِ ذِكْرًا وَوَلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقِيتُ بَيْنَهُمْ وَأَنَّهُمْ لَئِي شَكَّ مِنْهُ مُوسَى» قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ» يعني التوراة «فَاتَّخِذْ فِيهِ» فمن مصدق به ومكذب كما فعل قومك بالقرآن. قال المفسرون: وهذه تعزية للنبي ﷺ.

قوله تعالى: «وَلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ» قال ابن عباس: يريد؛ إني أخرت أمرك إلى يوم القيامة، ولولا ذلك لعجلت عقاب من كذبك. وقال ابن قتيبة: لولا نظرة لهم إلى يوم الدين لَقُضي بينهم في الدنيا. وقال ابن جرير: سبقت من ربك أنه لا يعجل على خلقه بالعذاب، لقضي بين المصدق منهم والمكذب بإهلاك المكذب وإنجاء المصدق^(١). قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْيَ شَكَّ مِنْهُ مُوسَى» أي: من القرآن «مُوسَى» أي: موقع للرب.

(١) نص ابن جرير في «التفسير»: ولولا كلمة سبقت يا محمد من ربك بأنه لا يعجل على خلقه بالعذاب، ولكن يتأنى حتى يبلغ الكتاب أجله «لَقِيتُ بَيْنَهُمْ» يقول: لقضي بين المكذب منهم به والمصدق بإهلاك الله المكذب به منهم، وإنجاء المصدق به.

﴿وَإِنَّ كَلًّا لَّبُوفِيَّتِهِمْ وَكَانَ أَعْمَلُهُمْ إِتْمَامًا بِمَا يَمْلِكُونَ حَبِيرٌ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَلًّا﴾ يشير إلى جميع من قصص قصته في هذه السورة. وقال مقاتل: يعني به كفار هذه الأمة. وقيل: المعنى: وإن كلاً لخلق أو بشر ﴿لَبُوفِيَّتِهِمْ﴾. قرأ أبو عمرو، والكسائي ﴿وَإِنَّ﴾ مشددة النون، «لما» خفيفة. واللام في «لما» لام التوكيد، دخلت على «ما» وهي خبر «إِنَّ». واللام في «لَبُوفِيَّتِهِمْ» اللام التي يُتْلَقُ بها القسم، والتقدير: والله لبُوفِيَّتِهِمْ، ودخلت «ما» للفصل بين اللامين. قال مكي بن أبي طالب: وقيل: إن «ما» زائدة، لكن دخلت لتفصل بين اللامين اللَّذَيْنِ يتلقيان القسم، وكلاهما مفتوح، ففصل بـ «ما» بينهما. وقرأ ابن كثير ﴿وَإِنَّ﴾ بالتخفيف، وكذلك «لما». قال سيبويه: حدثنا من نثق به أنه سمع من العرب من يقول: إِنَّ عَمْرَأَ لَمُنْطَلِقٍ، فيخففون ﴿إِنَّ﴾ ويُعملونها، وأنشد:

وَوَجَّهَ حَسَنَ النُّحْرِ
كَأَن تَذْبِيحَهُ حُقَّانٍ^(١)

وقرأ نافع، وأبو بكر عن عاصم: ﴿وَإِنَّ﴾ خفيفة، «لما» مشددة، والمعنى: وما كلاً إلا؛ وهذا كما تقول: سألتك لماً فعلت، وإلا فعلت، ومثله قوله: ﴿إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّا غَنَىٰ لَّهَا حَافِظٌ ۝﴾ [الطارق: ٤]. وقرأ حمزة، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿وَإِنَّ﴾ بالتشديد، «لما» بالتشديد أيضاً. قال أبو علي: هذه قراءة مشككة، لأنه كما لا يحسن: إِنَّ زَيْدًا إِلَّا مُنْطَلِقٌ، كذلك لا يحسن تثقيل ﴿إِنَّ﴾ وتثقيل «لما». وحكي عن الكسائي أنه قال: لا أعرف وجه التثقيب في «لما»، ولم يُعِد فيما قال. وقال مكي بن أبي طالب: الأصل فيها «لَمِنْ ما» ثم ادغمت النون في الميم، فاجتمعت ثلاث ميمات في اللفظ، فحذفت الميم المكسورة؛ والتقدير: وَإِنَّ كُلَّ لَوْنٍ خَلَقَ لِبُوفِيَّتِهِمْ. قال: وقيل: التقدير: «لَمَنْ ما» بفتح الميم في «مَنْ» فتكون «ما» زائدة، وتحذف إحدى الميمات لتكرير الميم في اللفظ؛ والتقدير: لَخَلَقَ لِبُوفِيَّتِهِمْ، ومعنى الكلام: لبُوفِيَّتِهِمْ جزاء أعمالهم.

﴿فَأَنْتَبِهْتُمْ كَمَا أُبْرِتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَنْتَبِهْتُمْ كَمَا أُبْرِتَ﴾ قال ابن عيينة: استقم على القرآن. وقال ابن قتبية: امض على ما أمرت به.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ قال ابن عباس: من تاب معك من الشرك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا تطغوا في القرآن، فتحلوا وتحرموا ما لم آمركم به، قاله ابن عباس. والثاني: لا تعصوا ربكم ولا تخالفوه، قاله ابن زيد. والثالث: لا تخططوا التوحيد بشك، قاله مقاتل.

﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى اللَّهِ الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى اللَّهِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ روى عبد الوارث عن أبي عمرو: «تَرْكَبُوا» بفتح التاء وضم الكاف، وهي قراءة قتادة. وروى هارون عن أبي عمرو «تَرْكَبُوا» بفتح التاء وكسر الكاف. وروى محبوب عن أبي عمرو: «تَرْكَبُوا» بكسر التاء وفتح الكاف. وقرأ ابن أبي عبله «تَرْكَبُوا» بضم التاء وفتح الكاف على ما لم يُسم فاعله. وفي المراد بهذا الركوب أربعة أقوال: أحدها: لا تميلوا إلى المشركين، قاله ابن عباس. والثاني: لا ترضوا أعمالهم، قاله أبو العالية. والثالث: لا تلتحقوا بالمشركين، قاله قتادة. والرابع: لا تُدَاهِنُوا الظلمة، قاله السدي، وابن زيد. وفي قوله: ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ وجهان: أحدهما: فتصيبكم النار، قاله ابن عباس. والثاني: فيتعدى إليكم ظلمهم كما تتعدى النار إلى إحراق ما جاورها، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ليس لكم أعوان يمنعونكم من العذاب.

﴿وَأَقْبِرَ أَسْلَوَ طَرَفِي النَّارِ وَوَلَّكَ مَنَ أَيْلٍ إِنَّهُ لَمُسَكِّنٌ بِذَهَبٍ كَالشَّيَاطَانِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبِرَ أَسْلَوَ طَرَفِي النَّارِ﴾ أما سبب نزولها، فروى علقمة والأسود عن ابن مسعود أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إني أخذت امرأة في البستان فقبلتها، وضممتها إلي، وبارتها، وفعلت بها كل شيء، غير أنني لم أجامعها؛

فسكت النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقْبِرَ أَلْسَلَوْهُ طَرَفَ الْكَلْبِ...﴾ الآية، فدعا الرجل فقراها عليه، فقال عمر: أهي له خاصة، أم للناس كافة؟ قال: «لا، بل للناس كافة»^(١). وفي رواية أخرى عن ابن مسعود: أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى رسول الله، فذكر ذلك له، فنزلت هذه الآية، فقال الرجل: ألي هذه الآية؟ فقال: «لمن عمل بها من أمتي»^(٢). وقال معاذ بن جبل: كنت قاعداً عند رسول الله ﷺ، فجاء رجل، فقال: يا رسول الله، ما تقول في رجل أصاب من امرأة ما لا يحل له، فلم يدع شيئاً يصيبه الرجل من امرأته إلا أصابه منها، غير أنه لم يجامعها؟ فقال له النبي ﷺ: «توضاً وضوءاً حسناً، ثم قم فصل»، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقال معاذ: أهي له خاصة، أم للمسلمين عامة؟ فقال: «بل هي للمسلمين عامة»^(٣). واختلفوا في اسم هذا الرجل، فقال أبو صالح عن ابن عباس: هو عمرو بن غزية الأنصاري، وفيه نزلت هذه الآية، كان يبيع التمر، فأنته امرأة تبتاع منه تمرأ، فأعجبته، فقال: إن في البيت تمرأ أجود من هذا، فانطلقتني معي حتى أعطيك منه؛ فذكر نحو حديث معاذ^(٤). وقال مقاتل: هو أبو مقبل عامر بن قيس الأنصاري. وذكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب الحافظ أنه أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري^(٥). وذكر في الذي قال للنبي ﷺ: أله خاصة؟ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أبو اليسر صاحب القصة. والثاني: معاذ بن جبل. والثالث: عمر بن الخطاب. فأما التفسير، فقلوه: ﴿وَأَقْبِرَ أَلْسَلَوْهُ﴾ أي: أتم ركوعها وسجودها. فأما طرفا النهار، ففي الطرف الأول قولان: أحدهما: أنه صلاة الفجر، قاله الجمهور. والثاني: أنه الظهر، حكاه ابن جرير. وفي الطرف الثاني ثلاثة أقوال: أحدها: أنه صلاة المغرب، قاله ابن عباس، وابن زيد. والثاني: العصر، قاله قتادة. وعن الحسن كالقولين. والثالث: الظهر، والعصر، قاله مجاهد، والقرظي. وعن الضحاك كالأقوال الثلاثة.

قوله تعالى: ﴿وَرُفِّلَا مِنَ اللَّيْلِ﴾ وقرأ أبو جعفر، وشيبة: «وَرُفِّلَا» بضم اللام. قال أبو عبيدة: الرُّفْلُ: الساعات، واحداً: رُفْلَةٌ، أي: ساعة ومنزلة وقربة، ومنه سميت المزدلفة، قال العجاج:

نَاجٍ طَواهُ الْإِيْنُ مِمَّا أَوْجَفَا
طَيَّيْ السَّيَالِي رُفْلًا فَرُفْلًا
سَمَاوَةَ الْهَلَالِ حَتَّى اخْتَرُفْنَا^(٦)

قال ابن قتيبة: ومنه يقال أزلفني كذا عندك، أي: أدناني؛ والمزالف: المنازل والدرج، وكذلك الرُّفْلُ. وفيها للمفسرين قولان: أحدهما: أنها صلاة العتمة، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وعوف عن الحسن، وابن أبي نجيح عن مجاهد، وبه قال ابن زيد. والثاني: أنها صلاة المغرب والعشاء، روي عن ابن عباس أيضاً، ورواه يونس عن الحسن، ومنصور عن مجاهد، وبه قال قتادة، ومقاتل، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَلْسَلَتْ يَدَيْكَ السَّيَاتِ﴾ في المراد بالحسنات قولان: أحدهما: أنها الصلوات الخمس، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وابن المسيب، ومسروق، ومجاهد، والقرظي، والضحاك، والمقاتلان: ابن سليمان،

(١) «الطبري» ٥١٦/١٥ عن علقمة والأسود عن ابن مسعود، ورواه أحمد في «المسند» رقم (٤٢٥٠) و (٤٢٩٠)، ومسلم في «صحيحه» ٢١١٦/٤، وأبو داود في «سننه» رقم (٤٤٦٨)، والترمذي ١٣٩/٢.

(٢) «الطبري» ٥١٩/١٥، «مسند أحمد» رقم (٣٦٥٣) و (٤٠٩٤)، ورواه البخاري ٢٦٨/٨ - ٢٦٩، ومسلم ٢١١٥/٤، والترمذي ١٣٩/٢، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) «الطبري» ٥٢٠/١٥ - ٥٢٢، ورواه الترمذي ١٣٩/٢ من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل، وقال: هذا حديث ليس إسناده بمتصل، عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يسمع من معاذ بن جبل، ومعاذ بن جبل مات في خلافة عمر، وقتل عمر وعبد الرحمن بن أبي ليلى غلام صغير ابن ست، وقد روى عن عمر ورواه، وروى شعبة هذا الحديث عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن النبي ﷺ مرسلأ، والحديث بمعنى الذي قبله.

(٤) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٢٦٩/٨: وأما قصة ابن غزية، فأخرجها ابن منده من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَقْبِرَ أَلْسَلَوْهُ طَرَفَ الْكَلْبِ﴾ قال: نزلت في عمرو بن غزية وكان يبيع التمر، فأنته امرأة تبتاع تمرأ فأعجبته... الحديث اهـ. والكلبي وأبو صالح: ضعيفان.

(٥) لقد فصل الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٢٦٨/٨، ٢٦٩ القول في اسم هذا الرجل، فأرجع إليه إن شئت.

(٦) «ديوانه» ٨٤/١، «الطبري» ٧٧/١٢، «واللسان»: حقف، «والكامل» للمبرد ١/١٢٩، ٨٣٤/٣، «أعلاه». واحقوف: يريد: أعوج، وإنما هو اقموع، من الحقف، والحقف: النقا من الرمل يعوج ويدق، يريد: طواه الأبن كما طوت الليالي سماءة الهلال.

وابن حيان. والثاني: أنها سبحانه الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، رواه منصور عن مجاهد. والأول أصح، لأن الجمهور عليه، وفيه حديث مسند عن رسول الله ﷺ، رواه عثمان بن عفان عن رسول الله ﷺ أنه توضأ، وقال: «من توضأ وضوئي هذا، ثم صلى الظهر، غُفر له ما كان بينها وبين صلاة الصبح، ومن صلى العصر، غُفر له ما بينها وبين صلاة الظهر، ومن صلى المغرب، غُفر له ما بينها وبين صلاة العصر، ثم صلى العشاء، غُفر له ما بينها وبين صلاة المغرب، ثم لمعه أن يبيت ليلته يتمرغ، ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح، غُفر له ما بينته وبين صلاة العشاء، وهن الحسنات يذهبن السيئات»^(١). فأما السيئات المذكورة هاهنا، فقال المفسرون: هي الصغائر من الذنوب. وقد روى معاذ بن جبل، قال: قلت: يا رسول الله، أوصني؛ قال: «اتق الله حيثما كنت»، قال: قلت: زدني؛ قال: «اتبع السيئة الحسنة تمحها»، قلت: زدني؛ قال: «خالق الناس بخلق حسن»^(٢).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ ذِكْرُ لِلذَّكْرِ﴾ في المشار إليه بـ «ذلك» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه القرآن. والثاني: إقام الصلاة. والثالث: جميع ما تقدم من الوصية بالاستقامة، والنهي عن الطغيان، وترك الميل إلى الظالمين، والقيام بالصلاة. وفي المراد بالذكرى قولان: أحدهما: أنه بمعنى التوبة. والثاني: بمعنى العظة.

﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ﴾ فيما أمر بالصبر عليه قولان: أحدهما: لما يلقاه من أذى قومه. والثاني: الصلاة. وفي المراد بالمحسين ثلاثة أقوال: أحدهما: المصلون، قاله ابن عباس. والثاني: المخلصون، قاله مقاتل. والثالث: أنهم المحسنون في أعمالهم، قاله أبو سليمان.

﴿مَنْ لَوْ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَوْمٍ كَانُوا فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الْآزِبُ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ لَوْ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾ قال ابن عباس، والفراء: المعنى: فلم يكن. وقال ابن قتبية: المعنى: فهلاً كان من القرون من قبلكم أولوا بقية. وروى ابن جزم عن أبي جعفر «أولوا بَقِيَّةً بكسر الباء وسكون القاف وتخفيف الباء. وفي معنى «أولوا بَقِيَّةً» ثلاثة أقوال: أحدها: أولوا دين، قاله ابن عباس. قال ابن قتبية: يقال: قوم لهم بقية، وفيهم بقية: إذا كانت بهم مُسكة وفيهم خير. والثاني: أولوا تمييز. والثالث: أولوا طاعة، ذكرهما الزجاج، وقال: إذا قلت: فلان فيه بقية، فمعناه: فيه فضل.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء منقطع، أي: لكن قليلاً ممن أنجينا منهم ممن نهى عن الفساد. قال مقاتل: لم يكن من القرون من ينهى عن المعاصي والشرك إلا قليلاً ممن أنجينا من العذاب مع الرسل.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ الْآزِبُ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أي: اتبعوا مع ظلمهم ما أترفوا فيه مع استدامة نعيمهم، فلم يقبلوا ما ينقص من ترفهم. قال الفراء: آثروا اللذات على أمر الآخرة. قال: ويقال: اتبعوا ذنوبهم السيئة إلى النار.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: بغير جرم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: بشرك، ذكره ابن جرير، وأبو سليمان. وفي قوله: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها:

(١) «الطبري» ٥١٢/١٥، ورواه أحمد في «المسند» رقم (٥١٣) وفي آخره زيادة، «قالوا: هذه الحسنات، فما الباقيات يا عثمان؟ قال: «هن: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله» وخرجه الهيثمي في «المجمع» ٢٩٧/١ بنحو حديث أحمد، وهو حديث صحيح.

(٢) هذا الحديث خرجه أحمد في «المسند» ٢٢٨/٥ عن معاذ بن جبل، وخرجه أيضاً ١٥٣/٥ عن أبي ذر الغفاري، وخرجه الترمذي ٢٠/٢ عن أبي ذر، ومعاذ، ولفظه عند الترمذي: «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» وقال: هذا حديث حسن صحيح. وفي بعض النسخ: حسن. ورواه الحاكم في «المستدرک» ٥٤/١ عن أبي ذر بلفظ الترمذي، ورواه عن معاذ بلفظ «فقال: يا رسول الله أوصني، قال: أهدك ولا تشرك به شيئاً، قال: يا رسول الله زدني، قال: إذا أسأت فأحسن، قال: يا رسول الله زدني، قال: استقم، ولتحسن خلقك» وقال: صحيح الإسناد من رواية البصريين، ولم يخرجها، ووافقه الذهبي. وقد روي عن النبي ﷺ أنه أوصى بهذه الوصية معاذاً وأبا ذر من وجه آخر.

ينتصف بعضهم من بعض، رواه قيس بن أبي حازم عن جرير. قال أبو جعفر الطبري: فيكون المعنى: لا يهلكهم إذا تناصفوا وإن كانوا مشركين، وإنما يهلكهم إذا تناصفوا. والثاني: مصلحون لأعمالهم، متمسكون بالطاعة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: مؤمنون، قاله مقاتل.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) ﴿إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١١٩)

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال ابن عباس: لو شاء أن يجعلهم كلهم مسلمين لفعل.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم أهل الحق وأهل الباطل، رواه الضحاك عن ابن عباس؛ فيكون المعنى: إن هؤلاء يخالفون هؤلاء. والثاني: أنهم أهل الأهواء لا يزالون مختلفين، رواه عكرمة عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ﴾ قال ابن عباس: هم أهل الحق. وقال الحسن: أهل رحمة الله لا يختلفون. قوله تعالى: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ في المشار إليه بذلك أربعة أقوال: أحدها: أنه يرجع إلى ما هم عليه. قال ابن عباس: خلقهم فريقين، فريقاً يُرجم فلا يختلف، وفريقاً لا يُرجم يختلف. والثاني: أنه يرجع إلى الشقاء والسعادة، قاله ابن عباس أيضاً، واختاره الزجاج، قال: لأن اختلافهم مؤديهم إلى سعادة وشقاوة. قال ابن جرير: واللام في قوله: «ولذلك» بمعنى «على». والثالث: أنه يرجع إلى الاختلاف، رواه مبارك عن الحسن. والرابع: أنه يرجع إلى الرحمة، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقادة؛ فعلى هذا يكون المعنى: ولرحمته خلق الذين لا يختلفون في دينهم.

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ قال ابن عباس: وجب قول ربك: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ من كفار الجِنَّة، وكفار الناس. ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَبِّئْتُ بِهِمْ فُوَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٠) قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ﴾ قال الزجاج: «كلاً» منصوب بـ «نقص»، المعنى: كل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل نقص عليك. و «ما» منصوبة بدلاً من كل، المعنى: نقص عليك ما نبئت به فوداك؛ ومعنى تثبيت الفؤاد تسكين القلب هانئاً، ليس للشك، ولكن كلما كان البرهان والدلالة أكثر، كان القلب أثبت.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ في المشار إليه بـ «هذه» أربعة أقوال: أحدها: أنها السورة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو العالية، ورواه شيان عن قتادة. والثاني: أنها الدنيا، فالمعنى: وجاءك في هذه الدنيا، رواه سعيد عن قتادة؛ وعن الحسن كالقولين. والثالث: أنها الأقايصص المذكورة. والرابع: أنها هذه الآية بعينها، ذكر القولين ابن الأنباري. وفي المراد بالحق هانئاً ثلاثة أقوال: أحدها: أنها البيان. والثاني: صدق القصص والأنباء. والثالث: النبوة. فإن قيل: أليس قد جاءه الحق في كل القرآن، فلم خص هذه السورة؟ فالجواب أنا إن قلنا: إن الحق النبوة، فالإشارة بـ «هذه» إلى الدنيا، فيكون المعنى: وجاءك في هذه الدنيا النبوة، فيرتفع الإشكال. وإن قلنا: إنها السورة، فعنه أربعة أجوبة: أحدها: أن المراد، بالحق البيان، وهذه السورة جمعت من تبين إهلاك الأمم، وشرح مآلهم، ما لم يجمع غيرها، فبان أثر التخصيص، وهذا مذهب بعض المفسرين. والثاني: أن بعض الحق أوكد من بعض في ظهوره عندنا وخفائه علينا، ولهذا يقول الناس: فلان في الحق: إذا كان في الموت، وإن لم يكن قبله في باطل، ولكن لتعظيم ما هو فيه، فكان الحق المبين في هذه السورة أجلى من غيره، وهذا مذهب الزجاج. والثالث: أنه خص هذه السورة بذلك لبيان فضلها، وإن كان في غيرها حق أيضاً، فهو كقوله: ﴿وَالصَّلَاةُ أَوْشَكُ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقوله: ﴿وَحَبْرِيلٌ وَمِيكَالٌ﴾ [البقرة: ٢٩٨]، وهذا مذهب ابن الأنباري. والرابع: أن المعنى: وجاءك في هذه السورة الحق مع ما جاءك من سائر السور، قاله ابن جرير الطبري.

قوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: يتعظون إذا سمعوا هذه السورة وما نزل بالأمم قتلين قلوبهم.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ آمَنُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ (١٢١) ﴿وَاتَّقُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ (١٢٢)

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ هذا تهديد ووعيد، والمعنى: اعملوا ما أنتم عاملون، فستعلمون عاقبة أمركم، ﴿وَأَنْظِرُوا﴾ ما يعيدكم الشيطان ﴿إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ ما يعيدنا ربنا.

فصل

قال المفسرون: وهذه الآية اقتضت تركهم على أعمالهم، والاعتناع بإنذارهم، وهي منسوخة بآية السيف. واعلم أنه إذا قلنا: إن المراد بالآية التهديد، لم يتوجه نسخ.

﴿وَاللَّهُ غَيَّبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَيَّبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: علم ما غاب عن العباد فيهما. ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ قرأ نافع، وحفص عن عاصم ﴿يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ بضم الياء. وقرأ الباقون، وأبو بكر عن عاصم «يرجع» بفتح الياء، والمعنى: إن كل الأمور ترجع إليه في المعاد. ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ أي: وحده. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي: ثبت به. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم «تعملون» بالتاء. وقرأ الباقون بالياء. قال أبو علي: فمن قرأ بالياء، فالمعنى: قل لهم: وما ربك بغافل عما يعملون. ومن قرأ بالتاء، فالخطاب للنبي ﷺ ولجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، فهو أعم من الياء، وهذا وعيد، والمعنى: إنه يجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. قال كعب: خاتمة التوراة خاتمة «هود».



سورة يوسف [عليه السلام]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْآثِينَ ۝﴾

فصل في نزولها

هي مكية بالإجماع. وفي سبب نزولها قولان: أما القول الأول، فروي عن سعد بن أبي وقاص قال: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا، فأنزل الله تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْآثِينَ ۝﴾ إلى قوله: ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا، فأنزل الله تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ﴾^(١) [الزمر: ٢٣] كل ذلك يؤمرون بالقرآن. وقال عون بن عبد الله: ملأ أصحاب رسول الله ﷺ ملة، فقالوا: يا رسول الله حدثنا، فأنزل الله ﷻ: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، ثم إنهم ملأوا ملة أخرى، فقالوا: يا رسول الله، فوق الحديث، ودون القرآن، يعنون القصص، فأنزل الله ﷻ: ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، فأراد الحديث، دلهم على أحسن القصص، وأرادوا القصص، فدلهم على أحسن القصص^(٢). والثاني: رواه الضحاك عن ابن عباس قال: سألت اليهود النبي ﷺ، فقالوا: حدثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف، فأنزل الله ﷻ: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْآثِينَ ۝﴾ إنا أنزلناه قرآناً عربياً، وذلك أن التوراة بالعبرانية، والإنجيل بالسريانية، وأنتم قوم عرب، ولو أنزلته بغير العربية ما فهمتموه. وقد بينا تفسير أول هذه السورة في أول (يونس)، إلا أنه قد ذكر ابن الأنباري زيادة وجه في هذه السورة، فقال: لما لحق أصحاب رسول الله ﷺ مللٌ وسامة، فقالوا له: حدثنا بما يزيل عنا هذا الملل، فقال: «تلك الأحاديث التي تقدرون الانتفاع بها وانصراف الملل، هي آيات الكتاب المبين». وفي معنى «المبين» خمسة أقوال: أحدها: البين حلاله وحرامه، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: المبين للحروف التي تسقط عن ألسن الأعاجم، رواه خالد بن معدان عن معاذ بن جبل. والثالث: البين هداة ورشده، قاله قتادة. والرابع: المبين للحق من الباطل. الخامس: البين إعجازه فلا يعارض، ذكرهما الماوردي.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ قد ذكرنا معنى القرآن واشتقاقه في سورة (النساء: ٨٢). وقد اختلف الناس، هل في القرآن شيء بغير العربية، أم لا، فمذهب أصحابنا أنه ليس فيه شيء بغير العربية. وقال أبو عبيدة: من زعم أن في القرآن لساناً سوى العربية فقد أعظم على الله القول، واحتج بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] وروي عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة أن فيه من غير لسان العرب، مثل «سجبل» و«المشكاة» و«اليم» و«الطور» و«أباريق» و«إستبرق» وغير ذلك. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: قال أبو عبيد^(٣): وهؤلاء أعلم من أبي عبيدة،

(١) «الطبري» ٥٥٣/١٥، والحاكم في «المستدرک» ٣٤٥/٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وخرجه السيوطي في «الدر» ٣/٤ وزاد نسبته إلى إسحاق بن راهويه، والبخاري، وأبي يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٢) «الطبري» ٥٥٢/١٥، وخرجه السيوطي في «الدر» ٣/٤ من طريق عون بن عبد الله عن ابن مسعود، فهو مرسل. وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٥٥.

(٣) في الأصل: أبو عبيدة، وهو خطأ، لأن الكلام الآتي كلام أبي عبيد القاسم بن سلام يرد به على شيخه أبي عبيدة، وانظر «المغرب»: ٥ للجواليقي.

ولكنهم ذهبوا إلى مذهب، وذهب هو إلى غيره، وكلاهما مصيب إن شاء الله، وذلك أن هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل، فقال: أولئك على الأصل، ثم لفظت به العرب بألستها فعرته فصار عربياً بتعريبها إياه، فهي عربية في هذه الحالة، أعجمية الأصل، فهذا القول يصدق الفريقين جميعاً.

قوله تعالى: ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تَقُولُونَ ۖ﴾ قال ابن عباس: لكي تفهموا.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ قد ذكرنا سبب نزولها في أول الكلام. وقد خُصت بسبب آخر، فروي عن سعيد بن جبيرة قال: اجتمع أصحاب محمد ﷺ إلى سلمان، فقالوا: حدثنا عن التوراة فإنها حسن ما فيها، فأنزل الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ يعني: قصص القرآن أحسن مما في التوراة. قال الزجاج: والمعنى نحن نبين لك أحسن البيان، والقاص: الذي يأتي بالقصة على حقيقتها. قال وقوله: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: بوحينا إليك هذا القرآن.

قال العلماء: وإنما سميت قصة يوسف أحسن القصص، لأنها جمعت ذكر الأنبياء، والصالحين، والملائكة، والشياطين، والأنعام، وسير الملوك، والممالك، والتجار، والعلماء، والرجال، والنساء، وحيلهن، وذكر التوحيد، والفقه، والسرا، وتعبير الرؤيا، والسياسة، والمعاشر، وتدبير المعاش، والصبر على الأذى، والحلم، والعز، والحكم، إلى غير ذلك من العجائب.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُ فِي «إِنْ» قولان.

أحدهما: ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ قال ابن عباس: من قبل نزول القرآن. ﴿لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ عن علم خير يوسف وما صنع به

إخوته.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدِينَ ۖ﴾ قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ

عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ في «إِذ» قولان.

أحدهما: أنها صلة للفعل المتقدم، والمعنى: نحن نقص عليك إذا قال يوسف. والثاني: أنها صلة لفعل مضمّر،

تقديره: اذكر إذ قال يوسف، ذكرهما الزجاج، وابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ﴾ قرأ أبو جعفر، وابن عامر بفتح التاء، ووقفاً بالتاء، وافقهما ابن كثير في الوقف بالتاء،

وقرأ الباقر بكسر التاء. فمن فتح التاء، أراد: يا أبتا، فحذف الألف كما تحذف الياء، فبقيت الفتحة دالة على الألف،

كما أن الكسرة تبقى دالة على الياء. ومن وقف على الهاء، فلأن تاء التانيث تبدل منها الهاء في الوقف. وقرأ أبو جعفر

أحد عشر، وتسعة عشر، بسكون العين فيهما. وفي ما رآه يوسف قولان: أحدهما: أنه رأى الشمس والقمر

والكواكب، وهو قول الأكثرين. قال الفراء: وإنما قال: «رأيتهم» على جمع ما يعقل، لأن السجود فعل ما يعقل،

كقوله: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الْكَلْبُ أَذْخُلُوا سَكِينَتَكُمْ﴾ [النمل: ١٨]. قال المفسرون: كانت الكواكب في التأويل إخوته، والشمس أمه،

والقمر أباه، فلما قصها على يعقوب أشفق من حسد إخوته. وقال السدي: الشمس أبوه، والقمر خالته، لأن أمه كانت

قد ماتت. والثاني: أنه رأى أبويه وإخوته ساجدين له، فكفى عن ذكرهم، وهذا مروى عن ابن عباس، وقتادة. فأما

تكرار قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ فقال الزجاج: إنما كرره لِمَا طال الكلام توكيداً. وفي سن يوسف لما رأى هذا المنام ثلاثة

أقوال: أحدها: سبع سنين. والثاني: اثنا عشرة سنة. والثالث: سبع عشرة سنة. قال المفسرون: علم يعقوب أن إخوة

يوسف يعلمون تأويل رؤياه، فقال: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾، قال ابن قتيبة: يحتالوا لك حيلة

ويغتالوك. وقال غيره: اللام صلة، والمعنى: فيكيدوك. والعدو المبين: الظاهر العداوة.

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ بِمِثْمَارٍ عَلَيْكَ وَهَاجٍ مَّا يَتَّقُونَ كَمَا أَنتَهَا عَلَىٰ أَوَّلِكَ مِن قَبْلِ إِيْرِهِمْ

وَأَمَّا إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْزِيكَ رَبُّكَ﴾ قال الزجاج، وابن الأنباري: ومثل ما رأيتم من الرفعة والحال الجليلة، يختاركم ربك ويصطفيك من بين إخوانك. وقد شرحنا في [الأنعام: ٨٧] معنى الاجتباء. وقال ابن عباس: يصطفيك بالنبوة.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه تعبير الرؤيا، قاله ابن عباس ومجاهد، وقتادة، فعلى هذا سمي تأويلاً لأنه بيان ما يؤول أمر المنام إليه. والثاني: أنه العلم والحكمة، قاله ابن زيد. والثالث: تأويل أحاديث الأنبياء والأمم والكتب، ذكره الزجاج. قال مقاتل: و «من» هاهنا صلة.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤَيِّدُ بِنِعْمَتِهِ عَلَيْكَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: بالنبوة، قاله ابن عباس. والثاني: بإعلاء الكلمة. والثالث: بأن أحوج إخوته إليه حتى أنعم عليهم، ذكرهما الماوردي. وفي ﴿إِلَّا يَعْقُوبُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم ولده، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: يعقوب وامراته وأولاده الأحد عشر، أتم عليهم نعمته بالسجود ليوسف، قاله مقاتل.

والثالث: أهله، قاله أبو عبيدة، واحتج بأنك إذا صغرت الآل، قلت: أهيل.

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَنتَهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِزْهِيمٍ وَلِئِنَّكَ لَآتٍ بِعِيسَىٰ﴾ قال عكرمة: فنعمته على إبراهيم أن نجاه من النار، ونعمته على إسحاق أن نجاه من الذبح.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ أي: عليم حيث يضع النبوة ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبير خلقه.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلسَّائِلِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَةٌ﴾ أي: في خير يوسف وقصة إخوته (آيات) أي: عبر لمنم سأل عنهم، فكل حال من أحواله آية. وقرأ ابن كثير «آية». قال المفسرون: وكان اليهود قد سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف، فأخبرهم بها كما في التوراة، فمجبوا من ذلك. وفي وجه هذه الآيات خمسة أقوال.

أحدها: الدلالة على صدق محمد ﷺ حين أخبر أخبار قوم لم يشاهدهم، ولا نظر في الكتب. والثاني: ما أظهر الله في قصة يوسف من عواقب البغي عليه. والثالث: صدق رؤياه وصحة تأويله. والرابع: ضبط نفس وقهر شهوته حتى قام بحق الأمانة. والخامس: حدوث السرور بعد اليأس.

فإن قيل: لم خص السائلين، ولغيرهم فيها آيات أيضاً؟ فتنه جوابان.

أحدهما: أن المعنى: للسائلين وغيرهم، فاكثفى بذكر السائلين من غيرهم، كما اكثفى بذكر الحر من البرد في قوله: ﴿يَتَّبِعُكُمُ الْحَرُّ﴾ [النحل: ٨١].

والثاني: أنه إذا كان للسائلين عن خبر يوسف آية، كان لغيرهم آية أيضاً؛ وإنما خص السائلين، لأن سؤالهم نتج الأعجوبة وكشف الخبر.

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا﴾ يعني إخوة يوسف. ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ يعنون ابن يامين. وإنما قيل له: ابن يامين، لأن أمه ماتت نفساء. ويامين بمعنى الوجع، وكان أخاه لأمه وأبيه. والباقون إخوته لأبيه دون أمه.

فأما العصبة، فقال الزجاج: هي في اللغة الجماعة الذين أمرهم واحد يتابع بعضهم بعضاً في الفعل، ويتعصب بعضهم لبعض.

وللمفسرين في العصبة ستة أقوال.

أحدها: أنها ما كان أكثر من عشرة، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنها ما بين العشرة إلى الأربعين، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال قادة. والثالث: أنها ستة أو سبعة، قاله سعيد بن جبيرة والرابع: أنها من عشرة إلى خمسة عشر، قاله مجاهد. والخامس: الجماعة، قاله ابن زيد، وابن قتيبة، والزجاج. والسادس: عشرة، قاله مقاتل.

وقال الفراء: العصبة عشرة فما زاد..

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: لفي خَطْلًا من رأيه، قاله ابن زيد. والثاني: في شَقَاءٍ، قاله مقاتل؛ والمراد به عناء الدنيا. والثالث: لفي ضلال عن طريق الصواب الذي يقتضي تعديل المحبة بيننا، لأن نفعنا له أعمى. قال الزجاج: ولو نسبوه إلى الضلال في الدين كانوا كفاراً، إنما أرادوا: إنه قَدِمَ ابْنين صغيرين علينا في المحبة ونحن جماعة نفعنا أكثر.

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (١)

قوله تعالى: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ قال أبو علي: قرأ ابن كثير، ونافع، والكسائي: «مَبِينٌ اَقْتُلُوا» بضم التنوين، لأن تحريكه يلزم لالتقاء الساكنين، فحركوه بالضم لِيَتَّبِعُوا الضمة الضمة، كما قالوا: «مَدَّةٌ» و«ظُلُمَاتٌ». وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحزمة، بكسر التنوين، فلم يتبعوا الضمة كما قالوا: «مَدَّةٌ» و«ظُلُمَاتٌ». قال المفسرون: وهذا قولهم بينهم: ﴿أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ قال الزجاج: نصب «أَرْضًا» على إسقاط «في»، وأفضى الفعل إليها؛ والمعنى: أو اطرحوه أرضاً يبعد بها عن أبيه. وقال غيره: أرضاً تأكله فيها السباع.

قوله تعالى: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي: يفرغ لكم من الشغل بيوسف. ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد يوسف. ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: صالحين بالتوبة من بعد قتله، قاله ابن عباس. والثاني: يصلح حالكم عند أبيكم، قاله مقاتل. وفي قصتهم نكتة عجيبة، وهو أنهم عزموا على التوبة قبل الذنب، وكذلك المؤمن لا ينسى التوبة وإن كان مرتكباً للخطايا. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيِّبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٢) قَالُوا يَبْنَائَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَمَنَّا لَتَصَّحُونَ (٣) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٤) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (٥) قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَگَافِلُونَ (٦)

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يهوذا، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال وهب بن منبه، والسدي، ومقاتل. والثاني: أنه شمعون، قاله مجاهد. والثالث: روبيل، قاله قتادة، وابن إسحاق. فأما غيبة الجب، فقال أبو عبيدة: كل شيء غُيِبَ عنك شيئاً فهو غيبة، والجب: الرُّكبة التي لم تطو. وقال الزجاج: الغيبة: كل ما غاب عنك، أو غُيِبَ شيئاً عنك، قال المنخل:

فإِنْ أَنَا يَزْمَأُ غَيَّبَتْنِي غَيَّابَتِي فَيَسِيرُوا بِسَيْرِي فِي الْعَشِيرَةِ وَالْأَهْلِ

والجب: البئر التي لم تطو؛ سميت جباً من أجل أنها قُطعت قطعاً، ولم يحدث فيها غير القطع من طي وما أشبهه. وقال ابن عباس: ﴿فِي غَيِّبَتِ الْجُبِّ﴾ أي: في ظلماته. وقال الحسن: في قعره. وقرأ نافع: «غيابات الجب» فجعل كل منه غيبة. وروى خارجة عن نافع: «غَيَّابَات» بتشديد الياء. وقرأ الحسن، وقاتدة، ومجاهد: «غِيبة الجب» بغير ألف مع إسكان الياء. وأين كان هذا الجب، فيه قولان: أحدهما: بأرض الأردن، قاله وهب. وقال مقاتل: هو بأرض الأردن على ثلاث فراسخ من منزل يعقوب. والثاني: ببيت المقدس، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ قال ابن عباس: يأخذه بعض من يسير. ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: إن أضمرتم له ما تريدون. وأكثر القراء قَرَأُوا «يلقطه» بالياء. وقرأ الحسن، وقاتدة، وابن أبي عبلة بالناء. قال الزجاج: وجميع النحويين يجيزون ذلك، لأن بعض السيارة سيارة، فكأنه قال: تلتقطه سيارة بعض السيارة. وقال ابن الأنباري: من قرأ بالناء، فقد أُنْتُ فعل بعض، وبعض مذكر، وإنما فعل ذلك حملاً على المعنى، إذ التأويل: تلتقطه السيارة، قال الشاعر:

رَأَتْ مَرَّ السُّنَيْنِ أَخَذَنَ مِنِّي كَمَا أَخَذَ السُّرَارُ مِنَ الْهَلَالِ (١)

أراد: رأت السنين، وقال الآخر:

طَوَّلَ اللَّيَالِي أَسْرَعَتْ فِي نَقْضِي طَوَّيْنِ طَوَّيْنِ وَطَوَّيْنِ عَرَضِي (٢)

(١) البيت لجبر، «ديوانه» ٤٢٦، و«مجاز القرآن» ٩٨/١، و«الطبري» ٥٦٧/١٥، و«الكامل» للمبرد ٤٨٦، والسرار: آخر ليلة من الشهر يستسر فيها الهلال، أي: يختفي.

(٢) البيت للمعراج في ملحق ديوانه ٨١، و«الكتاب» ١٩٠/١، و«مجاز القرآن» ٩٩/١، و«الطبري» ٨٧/٧، و«البيان والتبيين» ٦٠/٤، و«شواهد المعاني» ٢٩٧، و«العيني» ٣٩٥/٣، و«الخزانة» ١٦٨/٢.

أراد: الليالي أسرع، وقال جرير:

لَمَّا أَتَى خَبَرَ الرُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ

أراد: تواضعت المدينة، وقال الآخر:

وَتَشَرَّقَ بِالْقَوْلِ الَّذِي قَدْ أَدْعَتْهُ

أراد: كما شرقت القناة.

قال المفسرون: فلما عزم القوم على كيد يوسف، قال: لأبيه: (مالك لا تأمنّا قرأ الجماعة «تأمنّا» بفتح الميم وإدغام النون الأولى في الثانية والإشارة إلى إعراب النون المدغمة بالضم؛ قال مكي: لأن الأصل «تأمنّا» ثم أَدغمت النون أوّلى، وبقي الإشمام يدل على ضمه النون الأولى. والإشمام: هو ضم شفتيك من غير صوت يُسمع، فهو بعد الإدغام وقبل فتحه النون الثانية. وابن كيسان يسمي الإشمام الإشارة، ويسمى الرّوم إشماماً؛ والرّوم: صوت ضعيف يُسمع خفياً. وقرأ أبو جعفر «تأمنّا» بضم الميم. وقرأ ابن مقسم «تأمنّا» بنونين على الأصل، والمعنى: مالك لا تأمنّا على يوسف فترسله معنا، فإنه قد كبر ولا يعلم شيئاً من أمر المعاش ﴿وَلَا لَكَ لِنُصْخَرُكُمْ﴾ فيما أشرنا به عليك؛ ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء. وقال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير، وذلك أنهم قالوا له: أرسله معنا، فقال: إني لَيُخْزِنُنِي أن تذهبوا به، فقالوا: مالك لا تأمنّا.

قوله تعالى: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبُ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو «نرتع ونلعب» بالنون فيهما، والعين ساكنة؛ وافقهم زيد عن يعقوب في «نرتع» فحسب.

وفي معنى «نرتع» ثلاثة أقوال.

أحدها: نلّهُ، قاله الضحاك. والثاني: نَسَعَ، قاله قتادة. والثالث: نَأْكَل؛ يقال: رتعت الإبل: إذا رعت، وأرتعتها: إذا تركتها ترعى. قال الشاعر:

وَخَبِيرٌ لِي إِذَا لَأَقَيْتُهُ

وَإِذَا يَخْلُو لَهُ لَخْمِي رَنَعٌ^(١)

أي: أكله، هذا قول ابن الأنباري، وابن قتيبة. وقرأ عاصم، وحزمة والكسائي: «يرتع ويلعب» بالياء فيهما وجزم العين والباء، يعنون «يوسف». وقرأ نافع: «نرتع» بكسر العين من «نرتع» من غير بلوغ إلى الياء. قال ابن قتيبة: ومعناها: نتحارس، ويرعى بعضنا بعضاً، أي يحفظ؛ ومنه يقال: رعاك الله، أي: حفظك. وقد رويت عن ابن كثير أيضاً «نرتعي» بإثبات ياء بعد العين في الوصل والوقف. وقرأ أنس، وأبو رجاء «نُرتع» بنون مرفوعة وكسر التاء وسكون العين، و«نلعب» بالنون. قال أبو عبيدة: أي: نرتع إبلنا.

فأما قوله: ﴿وَلْيَلْعَبْ﴾ فقال ابن عباس: نلهم.

فإن قيل: كيف لم ينكر عليهم يعقوب ذكر اللعب؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أنهم لم يكونوا حيثئذ أنبياء، قاله أبو عمرو بن العلاء. والثاني: أنهم عَنَوُا مباح اللعب، قاله الماوردي.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَيُخْزِنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أي: يحزنني ذهابكم به، لأنه يفارقني فلا أراه. ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحزمة: «الذئب» بالهمز في الثلاثة المواضع. وقرأ الكسائي، وأبو جعفر، وشيبة بغير همز. قال أبو علي: «الذئب» مهموز في الأصل. يقال: تَذَابَّتِ الرِّيحُ: إذا جاءت من كل جهة كما يأتي الذئب. وفي علة تخصيص الذئب بالذكر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه رأى في منامه أن الذئب شد

(١) «ديوانه» ٣٤٥، و«مجاز القرآن» ١٩٧/١، و«القائض» ٩٦٩، و«الكتاب» ١٩/١، ٢٥، و«الكامل» للبريد ٤٨٦، و«الطبري» ١٧/٢، و«الأضداد» ٢٩٦ لابن الأنباري، و«اللسان» و«التاج» سورة: و«الخرزاة» ١٦٦/٢.

(٢) البيت للأعشى الكبير ميمون بن قيس، ديوانه: ١٢٣، و«اللسان» شرق، ومعنى تشرق: تغص، وصدر القناة: أعلاها.

(٣) البيت لسويد بن أبي كاهل الشكري من قصيدة في «المفضليات» ١٩٠ - ٢٠٢، تعد ممن أغلى الشعر وأنفسه، وقد فضلها الأصمعي، وقال: كانت العرب تفضلها وتقدمها وتعدّها من حكمها، وكانت في الجاهلية تسميها البيّمة لما اشتملت عليه من الأمثال. وهو أيضاً في «الشعر والشعراء» ٣٨٤، و«الخرزاة» ٥٤٧/٢، ورواية الشطر الأول فيها: «ويحييني إذا لاقيته».

على يوسف، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن أرضهم كانت كثيرة الذئب، قاله مقاتل. والثالث: أنه خافهم عليه فكنى بذكر الذئب، قاله الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْشَرُ عَنْهُ عَنَاءَهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: غافلون في اللعب. والثاني: مشتغلون برعيتكم.

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَكَلَكُمُ الذَّيْبُ وَتَخَذَ عَصِيَّةً﴾ أي: جماعة نرى الذئب قد قصده ولا نرد عنه ﴿إِنَّا إِذَا لَخَشِيرُونَ﴾ أي: عاجزون. قال ابن الأنباري: ومن قرأ «عصية» بالنصب، فتقديره: ونحن نجتمع عصبة.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَآجَمُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبِ الْجُبِّ رَأَوْنَا إِلَيْهِ لَتَبْتُهُمْ بِأَمْوِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ في الكلام اختصار وإضمار، تقديره: فأرسله معهم فلما ذهبوا. ﴿وَرَأَوْنَا﴾ أي: عزموا على أن يجعلوه في غيبة الجب.

الإشارة إلى قصة ذهابهم

قال المفسرون: قالوا ليوسف: أما تشاق أن تخرج معنا فتلعب وتتصيد؟ قال: بلى، قالوا: فسل أباك أن يرسلك معنا، قال: أفعل، فدخلوا بجماعتهم على يعقوب، فقالوا: يا أبانا إن يوسف قد أحب أن يخرج معنا، فقال: ما تقول يا بني؟ قال: نعم يا أبت، قد أرى من إختوتي اللين واللطف، فأنا أحب أن تأذن لي، فأرسله معهم، فلما أصبحوا، أظهروا له ما في أنفسهم من العداوة، وأغلظوا له القول، وجعل يلجأ إلى هذا، فيضربه، وإلى هذا، فيؤذيه، فلما فطن لما قد عزموا عليه، جعل ينادي: يا أبتاه، يا يعقوب، لو رأيت يوسف وما ينزل به من إخوانه لأخزتك ذلك وأبكاك، يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك، وضيعوا وصيتك، وجعل يبكي بكاء شديداً. قال الضحاك عن ابن عباس: فأخذه روبيل فجلد به الأرض، ثم جثم على صدره وأراد قتله، فقال له يوسف: مهلاً يا أخي لا تقتلني، قال: يا ابن راحيل صاحب الأحلام، قل لرؤيك تخلصك من أيدينا، ولوى عنقه ليكرها، فنادى يوسف: يا يهوذا اتق الله في، وخل بيني وبين من يريد قتلي، فأدرسته له رحمة، فقال يهوذا: يا إخوانه، ألا أدلكم على أمر هو خير لكم وأرفق به؟ قالوا: وما ذاك؟ قال: تلقونه في هذا الجب فيلتقطه بعض السيارة، قالوا: نفعل؛ فانطلقوا به إلى الجب، فخلعوا قميصه، فقال: يا إخوانه، لِمَ نزعتم قميصي؟ ردوه عليّ أستر به عورتني ويكون كفناً لي في مماتي؛ فأخرج الله له حجراً في البئر مرتفعاً من الماء، فاستقرت عليه قدماء. وقال السدي: علوا يدلونه في البئر، فيتعلق بشفير البئر؛ فربطوا يديه ونزعوا قميصه، فقال: يا إخوانه، ردوا عليّ قميصي أتورى به، فقالوا: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً، فدلّوه في البئر، حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت، فكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة فيها فقام عليها؛ فلما ألقوه في الجب جعل يبكي، فنادوه، فظن أنها رحمة أدركتهم فأجابهم، فأرادوا أن يرضخوه بصخرة، فمنعهم يهوذا، وكان يهوذا يأتيه بالطعام. وقال كعب: جمعوا يديه إلى عنقه ونزعوا قميصه، فبعث الله إليه ملكاً، فحلّ عنه وأخرج له حجراً من الماء، فقعد عليه؛ وكان يعقوب قد أدرج قميص إبراهيم الذي كساه الله إياه يوم ألقى في النار في قصبة، وجعلها في عنق يوسف، فالبسه إياه الملك حيثنذ، وأضاء له الجب. وقال الحسن: ألقى في الجب، فَعَذَّبَ ماؤه، فكان يغنيه عن الطعام والشراب؛ ودخل عليه جبريل، فأنس به، فلما أمسى، نهض جبريل ليذهب، فقال له يوسف: إنك إذا خرجت عني استوحشت، فقال: إذا رهبت شيئاً فقل: يا صريح المستصرخين، يا غوث المستغيثين، ويا مفرج كرب المكروبين، قد ترى مكاني وتعلم حالي ولا يخفي عليك شيء من أمري. فلما قالها حقته الملائكة، فاستأنس في الجب ومكث فيه ثلاثة أيام، وكان إخوانه يرفعون حول الجب. وقال محمد بن مسلم الطائفي: لما ألقى يوسف في الجب، قال: يا شاهداً غير غائب، ويا قريباً غير بعيد، ويا غالباً غير مغلوب، اجعل لي فرجاً بما أنا فيه؛ قال: فما بات فيه. وفي مقدار سنه حين ألقى في الجب أربعة أقوال.

أحدها: اثنتا عشرة سنة، قاله الحسن. والثاني: ست سنين، قاله الضحاك. والثالث: سبع عشرة، قاله ابن السائب، وروي عن الحسن أيضاً. والرابع: ثمان عشرة.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ فيه قولان.

أحدهما: أنه إلهام، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنه وحي حقيقة.

قال المفسرون: أوحى إليه لتخبرن إخوتك بأمرهم، أي: بما صنعوا بك وأنت عالٍ عليهم. وفي قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قولان.

أحدهما: لا يشعرون أنك يوسف وقت إخبارك لهم، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مقاتل.

والثاني: لا يشعرون بالوحي، قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد. فعلى الأولى يكون الكلام من صلة «لننبئهم»؛ وعلى الثاني من صلة «وأوحينا إليه». قال حميد: قلت للحسن: أيحسد المؤمن المؤمن؟ قال: لا أبالك، مانسأك بني يعقوب؟.

﴿وَبَايَعُوا آبَاءَهُمْ غِيَاةً يَبْكُونَ﴾ ﴿١٦﴾ قَالُوا بَنَاتَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِئُ وَنَرْكَعُنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْنَعَا فَأَكَلَهُ الذِّمِّيُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَايَعُوا آبَاءَهُمْ غِيَاةً يَبْكُونَ﴾ ﴿١٦﴾ وقرأ أبو هريرة، والحسن، وابن السميع، والأعمش: «غِيَاةً» بضم العين.

قال المفسرون: جاؤوا وقت العتمة ليكونوا أجراً في الظلمة على الاعتذار بالكذب، فلما سمع صوتهم فزع، وقال: ما لكم يا بنيي، هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فما أصابكم؟ وأين يوسف؟ ﴿قَالُوا بَنَاتَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِئُ﴾ وفيه ثلاثة أقوال.

أحدها: نتضل، قاله ابن عباس، وابن قتيبة، قال: والمعنى، يسابق بعضنا بعضاً في الرمي. والثاني: نشند، قاله السدي. والثالث: نتصيد، قاله مقاتل. فيكون المعنى على الأول: نستبق في الرمي لننظر أينما سبق سهماً؛ وعلى الثاني: نستبق على الأقدام؛ وعلى الثالث: للصيد.

قوله تعالى: ﴿وَنَرْكَعُنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْنَعَا﴾ أي: ثيابنا. ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي: بمصدق. وفي قوله: ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ قولان: أحدهما: أن المعنى: وإن كنا قد صدقنا، قاله ابن إسحاق. والثاني: لو كنا عندك من أهل الصدق لاتهمتنا في يوسف لمحبتك إياه، وظننت أنا قد كذبتك، قاله الزجاج.

﴿وَبَايَعُوا عَلَى قَيْصِهِ وَيَدِرُ كَذِبٌ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ ﴿١٧﴾ قوله تعالى: ﴿وَبَايَعُوا عَلَى قَيْصِهِ وَيَدِرُ كَذِبٌ﴾ قال اللغويون: معناه: بدم مكذوب فيه، والعرب تجعل المصدر في كثير من الكلام مفعولاً، فيقولون للكذب مكذوب، وللعقل معقول، وللجلد مجلود، قال الشاعر:

حَتَّى إِذَا لَمْ يَشْرُكُوا لِعِظَامِهِ
لَحْماً وَلَا لِأَقْدَادِهِ مَقُولاً^(١)

أراد: عقلاً. وقال الآخر:

قَدْ وَالَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بِقُدْرَةٍ
بُرِغَ الْعَزَاءُ وَأَدْرَكَ الْمَجْلُودُ
يريد: أدرك الجلد. ويقولون: ليس لفلان عقد رأي، ولا معقود رأي، ويقولون: هذا ماء سكب، يريدون: مسكوباً، وهذا شراب صب، يريدون: مصبوباً، وماء غور، يعنون: غائراً، ورجل صوم، يريدون: صائماً، وامرأة نوح، يريدون: نائحة؛ وهذا الكلام مجموع قول الفراء، والأخفش، والزجاج، وابن قتيبة في آخرين. قال ابن عباس: أخذوا جدياً فذبحوه، ثم غمسوا قميص يوسف في دمه، وأتوه به وليس فيه خرق، فقال: كذبتهم، لو كان أكله الذئب لخرق القميص. وقال قتادة: كان دم ظبية. وقرأ ابن أبي عبيدة: «بدم كذباً» بالنصب. وقرأ ابن عباس، والحسن، وأبو العالية: «بدم كذب» بالدال غير معجزة، أي: بدم طري.

قوله تعالى: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ غير ما تصفون ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال الخليل: المعنى: فشأنى

(١) البيت للراعي النميري من قصيدة له يمدح بها عبد الملك بن مروان ويشكو من السعاة، «ديوانه» ١٣٧، «وأساس البلاغة» عقل.

صبر جميل، والذي اعتقده صبر جميل. وقال الفراء: الصبر مرفوع، لأنه عزى نفسه وقال: ما هو إلا الصبر، ولو أمرهم بالصبر، لكان نصيباً. وقال قطرب: المعنى: فصبري صبر جميل. وقرأ ابن مسعود، وأبي، وأبو المتوكل: «فصبراً جميلاً» بالنصب. قال الزجاج: والصبر الجميل، لا جزع فيه، ولا شكوى إلى الناس.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ السَّمِيعُ عَلَىٰ مَا يَصِفُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: على ما تصفون من الكذب. والثاني: على احتمال ما تصفون.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلْمٌ وَأَسْرَوْهُ يَصْنَعُ اللَّهُ عَلَيْهِ مَا يَشَاءُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي: قوم يسرون ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ قال الأخفش: أنت السيارة وذكر الوارد، لأن السيارة في المعنى للرجال. وقال الزجاج: الوارد: الذي يَرِدُ الماء ليستقي للقوم. وفي اسم هذا الوارد قولان: أحدهما: مالك بن دُغر بن يؤيب بن عيفا بن ميين بن إبراهيم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: مجلث بن رعويل، قاله وهب بن منبه.

قوله تعالى: ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾ أي: أرسلها. قال الزجاج: يقال: أدليت الدلو: إذا أرسلتها لتملأها، ودلوتها: إذا أخرجتها. ﴿قال يا بشراي﴾ قرأه ابن كثير، ونافع، وأبو عمر، وابن عامر: «يا بشراي» بفتح الياء وإثبات الالف. وروى ورش عن نافع «بشراي» و«محيائي» [الأنعام: ١٦٢] و«مثوائي» [يوسف: ٢٣] بسكون الياء. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي «يا بشري» بالالف بغير ياء. وعاصم بفتح الراء، وحزمة، والكسائي يميلانها. قال الزجاج: من قرأ «يا بشراي» فهذا النداء تنبيه للمخاطبين، لأن البشري لا تجيب ولا تعقل؛ فالمعنى: أبشروا، ويا أيها البشري هذا من أوانك، وكذلك إذا قلت: يا عجباه، فكأنك قلت: اعجبوا، ويا أيها العجب هذا من حينك؛ وقد شرحنا هذا المعنى [هود: ٦٩ و ٧٤]. فأما قراءة من قرأ «يَبُشْرَىٰ» فيجوز أن يكون المعنى: يا من حضر، هذه بشري. ويجوز أن يكون المعنى: يا بشري هذا أوانك، على ما سبق بيانه من تنبيه الحاضرين. وذكر السدي أنه نادى بذلك أحدهم وكان اسمه بشري. وقال ابن الأنباري: يجوز فيه هذه الأقوال، ويجوز أن يكون اسم امرأة. وقرأ أبو رجاء، وابن أبي عبيدة: «يا بُشْرَىٰ» بتشديد الياء وفتحها من غير ألف. قال ابن عباس: لما أدلى دلوه؛ تعلق يوسف بالحبل فنظر إليه فإذا غلام أحسن ما يكون من الغلمان، فقال لأصحابه: البشري، فقالوا: ما وراءك؟ قال: هذا غلام في البئر، فأقبلوا يسألونه الشركة فيه، واستخرجوه من الجُبِّ، فقال بعضهم لبعض: اكتموه عن أصحابكم لئلا يسألونكم الشركة فيه، فإن قالوا: ما هذا؟ فقولوا: استبضعناه أهل الماء لنبيعه لهم بمصر؛ فجاء إخوة يوسف فطلبوه فلم يجدوه في البئر، فنظروا، فإذا هم بالقوم ومعهم يوسف، فقالوا لهم: هذا غلام أبى منا، فقال مالك بن دعر: فانا أشتريه منكم، فباعوه بعشرين درهماً وحلّة ونعلين، وأسره مالك بن دعر من أصحابه، وقال: استبضعناه أهل الماء لنبيعه لهم بمصر.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْرَوْهُ يَصْنَعُ﴾ قال الزجاج: «بضاعة» منصوب على الحال، كأنه قال: وأسروه جاعليه بضاعة. وقال ابن قتبية: أسروا في أنفسهم أنه بضاعة وتجارة. وفي الفاعلين لذلك قولان: أحدهما: أنهم واردهو الجب، أسروا ابتياعه عن باقي أصحابهم، وتواصوا أنه بضاعة استبضعهم إياها أهل الماء؛ وقد ذكرنا هذا المعنى عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والثاني: أنهم إخوته، أسروا أمره، وباعوه، وقالوا: هو بضاعة لنا، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس أيضاً^(١).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ يعم الباعة والمشتريين.

﴿وَأَسْرَوْهُ يَحْسَبُ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةً وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَسْرَوْهُ﴾ هذا حرف من حروف الأضداد، تقول: شريت الشيء، بمعنى بعته؛ وشريت، بمعنى

(١) قال ابن جرير الطبري ١٦٩/١٢، طبع البابي الحلبي: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: وأسروا القوم المدلي دلوه ومن معه من أصحابه من رفقت السيارة أمر يوسف أنهم اشتروه خيفة منهم أن يستشركوهم، وقالوا لهم: هو بضاعة أبيعها معنا أهل الماء، وذلك أنه عقيب الخبر عنه، فلان يكون ما وليه من الخبر خبراً عنه، أشبه من أن يكون خبراً عن من هو بالخبر عنه غير متصل.

اشترته. فإن كان بمعنى باعوه، ففهم قولان: أحدهما: أنهم إخوانه، وهو قول الأكثرين. والثاني: أنهم السيارة، ولم يبعه إخوانه، قاله الحسن، وقادة. وإن كان بمعنى اشتروه، فإنهم السيارة.

قوله تعالى: ﴿يَتَمَنَّي بَيْتِي﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحرام، قاله ابن عباس، والضحاك، وقادة في آخرين. والثاني: أنه القليل، قاله عكرمة، والشعبي. قال ابن قتيبة البخس: الخسيس الذي يُبَخَس به البائع. والثالث: الناقص، وكانت الدراهم عشرين درهماً في العدد، وهي تنقص عن عشرين في الميزان، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ قال الفراء: إنما قيل: «معدودة» لِيُسْتَدَلَّ بها على القلة. وقال ابن قتيبة: أي: يسيرة، سهل عددها لقلتها، فلو كانت كثيرة لثقل عددها. وقال ابن عباس: كانوا في ذلك الزمان لا يَزْنُون أقل من أربعين درهماً، وقيل: إنما لم يَزْنُوا لزهدهم فيه. وفي عدد تلك الدراهم خمسة أقوال: أحدها: عشرون درهماً، قاله ابن مسعود، وابن عباس في رواية، وعكرمة في رواية، ونوف الشامي، وهب بن منبه، والشعبي، وعطية، والسدي، ومقاتل في آخرين. والثاني: عشرون درهماً وحلّة، ونعلان، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: اثنان وعشرون درهماً، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والرابع: أربعون درهماً، قاله عكرمة في رواية، وابن إسحاق. الخامس: ثلاثون درهماً، ونعلان، وحلّة، وكانوا قالوا له بالعبرانية: إما أن تُقَرَّ لنا بالعبودية، وإما أن نأخذك منهم فنتفكك، قال: بل أفرّ لكم بالعبودية، ذكره إسحاق بن بشر عن بعض أشياخه. قال المفسرون: اقتسموا ثمنه، فاشتروا به نعلاً وخفافاً. وكان بعض الصالحين يقول: والله ما يوسف - وإن باعه أعداؤه - بأعجب منك في بيعك نفسك بشهوة ساعة من معاصيك.

قوله تعالى: ﴿وَكَاثُرًا فَيَدِينُ مِنَ الزَّهْدِ﴾ الزهد: قلة الرغبة في الشيء. وفي المشار إليه قولان: أحدهما: أنهم إخوانه، قاله ابن عباس؛ فعلى هذا، في هاء «فيه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى يوسف، لأنهم لم يعلموا مكانه من الله تعالى، قاله الضحاك، وابن جريج. والثاني: أنها ترجع إلى الثمن. وفي علّة زهدهم قولان: أحدهما: رداءته. والثاني: أنهم قصدوا بعد يوسف، لا الثمن. والثاني: أنهم السيارة الذين اشتروه. وفي علّة زهدهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم ارتابوا لقلّة ثمنه. والثاني: أن إخوانه وصفوه عندهم بالخيانة والإباق. والثالث: لأنهم علموا أنه حر.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ يَصْرَ لَا تَرْجِعْهُ إِلَى يَصْرَ أَن يَفْعَلَا أَوْ يَفْعَلَا أَوْ يَفْعَلَا﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ يَصْرَ﴾ قال وهب: لما ذهب به السيارة إلى مصر، وقفوه في سوقها يعرضونه للبيع، فتزايد الناس في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه مسكاً، وزنه ورقاً، وزنه حريراً، فاشتراه بذلك الثمن رجل يقال له: قطفير، وكان أمين فرعون وخازنه، وكان مؤمناً. وقال ابن عباس: إنما اشتراه قطفير من مالك بن ذعر بعشرين ديناراً، وزوجني نعل، وثوبين أبيضين، فلما رجع إلى منزله قال لامرأته: أكرمي مثواه. وقال قوم: اسمه أطفير. وفي اسم المرأة قولان: أحدهما: راعيل بنت رعايل، قاله ابن إسحاق. والثاني: أزيلخا بنت تملیخا، قاله مقاتل. قال ابن قتيبة: ﴿أَكْرَمِي مَثْوَهُ﴾ يعني أكرمي منزله ومقامه عندك، من قولك: ثويت بالمكان: إذا أقمت به. وقال الزجاج: أحسنني إليه في طول مقامه عندنا. قال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف، فقال لامرأته: ﴿أَكْرَمِي مَثْوَهُ عَسَى أَنْ يَفْعَلَا﴾، وابنة شعيب حين قالت: ﴿يَكَايَا أَسْتَجِرُّهُ﴾ [القصص: ٢٢٦]، وأبو بكر حين استخلف عمر. وفي قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَفْعَلَا﴾ قولان: أحدهما: يكفينا إذا بلغ أمورنا. والثاني: بالربح في ثمنه.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَنَجِّدُمْ وَلَكُنَّ﴾ قال ابن عباس: تنبّأه. وقال غيره: لم يكن لهما ولد، وكان العزيز لا يأتي النساء. قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ أي: وكما أنجبنا من إخوانه وأخرجناه من ظلمة الجُبِّ، مكَّنَّا له في الأرض، أي: ملكناه في أرض مصر فجعلناه على خزائننا. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ﴾ قال ابن الأنباري: إنما دخلت الواو في «ولنعلمه» لفعل مضمر هو المجتلب للام، والمعنى: مكَّنَّا ليوسف في الأرض، واختصصناه بذلك لكي نعلمه من تأويل

الأحاديث. وقد سبق تفسير «تأويل الأحاديث» [يوسف: ٦]. «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِأَمْرِهِ» في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله، فالمعنى: أنه غالب على ما أراد من قضائه، وهذا معنى قول ابن عباس. والثاني: أنها ترجع إلى يوسف، فالمعنى: غالب على أمر يوسف حتى يبلغه ما أراد له، وهذا معنى قول مقاتل. وقال بعضهم: والله غالب على أمره حيث أمر يعقوب يوسف أن لا يقصّ رؤياه على إخوته، فعلموا بها، ثم أراد يعقوب أن لا يكيدوه، فكادوه، ثم أراد إخوة يوسف قتله، فلم يقدّر لهم، ثم أرادوا أن يلتقطه بعض السيارة فيندرس أمره، فعلا أمره، ثم باعوه ليكون مملوكاً، فغلب أمره حتى ملك، وأرادوا أن يعطفوا أباهم، فأباهم، ثم أرادوا أن يغزوا يعقوب بالبكاء والدم الذي القوه على القميص، فلم يخف عليه، ثم أرادوا أن يكونوا من بعده قوماً صالحين، فنسوا ذنبهم إلى أن أقرؤا به بعد سنين فقالوا: «إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ» [يوسف: ٩٧]، ثم أرادوا أن يمحوا محبته من قلب أبيه، فازدادت، ثم أرادت أن تلقي عليه التهمة بقولها: «مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا؟» [يوسف: ٢٥]، فغلب أمره، حتى شهد شاهد من أهلها، وأراد يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساقى، فنسي الساقى حتى لبث في السجن بضع سنين.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ؕ وَآتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٧)

قوله تعالى: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ» قد ذكرنا معنى الأشد في [الأنعام: ١٥٢]، واختلف العلماء في المراد به هاهنا على ثمانية أقوال: أحدها: أنه ثلاث وثلاثون سنة، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقتادة. والثاني: ثمانين سنة، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال عكرمة. والثالث: أربعون سنة، قاله الحسن. والرابع: بلوغ الحلم، قاله الشعبي، وربيع، وزيد بن أسلم، وابنه. الخامس: عشرون سنة، قاله الضحاك. والسادس: أنه من نحو سبع عشرة سنة إلى نحو الأربعين، قاله الزجاج. والسابع: أنه بلوغ ثمان وثلاثين سنة، حكاه ابن قتيبة. والثامن: ثلاثون سنة، ذكره بعض المفسرين^(١).

قوله تعالى: «وَآتَيْنَهُ حُكْمًا» فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه الفقه والعقل، قاله مجاهد. والثاني: النبوة، قاله ابن السائب. والثالث: أنه جعل حكيماً، قاله الزجاج، قال: وليس كل عالم حكيماً، إنما الحكيم: العالم المستعمل علمه، الممتنع به من استعمال ما جهل فيه. والرابع: أنه الإصابة في القول، ذكره الثعلبي. قال اللغويون: الحكم عند العرب ما يصرف عن الجهل والخطأ، ويمنع منهما، ويرد النفس عما يشينها ويعدو عليها بالضرر، ومنه: حكمة الدابة. وأصل أحكمت في اللغة: منعت، وسمي الحاكم حاكماً، لأنه يمنع من الظلم والزيغ. وفي المراد بالعلم هاهنا قولان: أحدهما: الفقه. والثاني: علم الرؤيا.

قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» أي: ومثل ما وصفنا من تعليم يوسف وحراسته، نثيب من أحسن عمله، واجتنب المعاصي، فننجزه من الهلكة، ونستقله من الضلالة فنجعل من أهل العلم والحكمة كما فعلنا بيوسف. وفي المراد بالمحسنين هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: الصابرون على النوائب. والثاني: المهتدون، روي عن ابن عباس. والثالث: المؤمنون. قال محمد بن جرير: هذا، وإن كان مخرج ظاهره على كل محسن، فالمراد به محمد ﷺ، والمعنى: كما فعلت يوسف بعد ما لقي من البلاء فمكثته في الأرض وآتيته العلم، كذلك أفعلك وأنجيك من مشركي قومك.

﴿وَرَوَدَتْهُ آلِي هُورٍ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغُلِقَتِ الْأَبْوَابُ وَقَاتَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنِّي الْقُلُوبُ﴾ (٣٨)

قوله تعالى: «وَرَوَدَتْهُ آلِي هُورٍ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ» أي: طلبت منه المواقعة، وقد سبق اسمها. قال

(١) قال ابن جرير الطبري ١٧٧/١٢: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه آتى يوسف - لما بلغ أشده - حكماً وعلماً. والأشد: هو انتهاء قوته وشبابه، وجائز أن يكون آتاه ذلك وهو ابن ثمانين سنة، وجائز أن يكون آتاه وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، ولا دلالة في كتاب الله ولا أثر عن رسول الله ﷺ، ولا في إجماع الأمة على أي ذلك كان، وإذا لم يكن ذلك موجوداً من الوجه الذي ذكرت، فالصواب أن يقال فيه كما قال ﷺ حتى تثبت حجة بصفة ما قيل في ذلك من الوجه الذي يجب التسليم له، فيسلم لها حيثلي.

الزجاج: المعنى: راودته عما أرادته مما يريد النساء من الرجال. «وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ» قرأ ابن كثير: «هَيْتُ لَكَ» بفتح الهاء وتسكين الياء وضم التاء. وقرأ نافع، وابن عامر: «هَيْتُ لَكَ» بكسر الهاء وتسكين الياء وفتح التاء، وهي مروية عن علي بن أبي طالب. وروى الحُلواني عن هشام عن ابن عامر مثله، إلا أنه همزه. قال أبو علي الفارسي: هو خطأ. وروي عن ابن عامر: «هَيْتُ لَكَ» بكسر الهاء وهمز الياء وضم التاء، وهي قراءة ابن عباس، وأبي الدرداء، وقتادة. قال الزجاج: هو من الهيئة، كأنها قالت: تهيأت لك. وعن ابن محيصن، وطلحة بن مصرف مثل قراءة ابن عباس؛ إلا أنها بغير همز. وعن ابن محيصن بفتح الهاء وكسر التاء، وهي قراءة أبي رزين، وحמיד. وعن الوليد بن عتبة بكسر الهاء والتاء مع الهمز، وهي قراءة أبي العالية. وقرأ ابن خثيم مثله، إلا أنه لم يهمز. وعن الوليد بن مسلم عن نافع بكسر الهاء وفتح التاء مع الهمز. وقرأ ابن مسعود، وابن السميع، وابن يعمر، والجحدري: «هَيْتُ لَكَ» برفع الهاء والتاء وبياء مشددة مكسورة بعدها همزة ساكنة. وقرأ أبي بن كعب: «ها أنا لك». وقرأ الباقون بفتح الهاء والتاء بغير همز. قال الزجاج: وهو أجود اللغات، وأكثرها في كلام العرب، ومعناها: هلم لك، أي: أقبل على ما أدعوك إليه، وقال الشاعر:

أُبْلِغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَخَا الْعِرَاقِ إِذَا أَتَيْتَنَا^(١)
أَنَّ الْعِرَاقَ وَأَهْلَهُ غُنُقٌ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا

أي: فأقبل وتعال. وقال ابن قتيبة؛ يقال: هَيْتَ فلان لفلان: إذا دعاه وصاح به، قال الشاعر:

قَدْ رَابِنِي أَنَّ الْكَرِيَّ أَسْكَتَا لَوْ كَانَ مَغْنِيًّا بِهَا لَهَيْتَا^(٢)

أي: صار ذا سكوت. واختلف العلماء في قوله: «هَيْتَ لَكَ» بأي لغة هي، على أربعة أقوال: أحدها: أنها عربية، قاله مجاهد. وقال ابن الأنباري: وقد قيل: إنها من كلام قريش، إلا أنها مما درس وقلَّ في أفواههم آخرًا، فأتى الله به، لأن أصله من كلامهم، وهذه الكلمة لا مصدر لها، ولا تصرُّف، ولا تثنية، ولا جمع، ولا تانيث، يقال: لاثنين: هَيْتَ لكما، وللجميع؛ هَيْتَ لكم، وللنسوة: هَيْتَ لَكُنَّ. والثاني: أنها بالسرانية، قاله الحسن. والثالث: بالهورانية، قاله عكرمة، والكسائي. وقال الفراء: يقال: إنها لغة لأهل حوران، سقطت إلى أهل مكة فتكلموا بها. والرابع: أنها بالقبطية، قاله السدي.

قوله تعالى: «قَالَ مَسَاكُ أَتَيْتُكَ» قال الزجاج: هو مصدر، والمعنى: أعود بالله أن أفعل هذا، يقال: عدت عيادًا ومعادًا ومعادة. «إِنَّهُ رَبِّي» أي: إن العزيز صاحبي «أَحْسَنَ مَثْوًى»، قال: ويجوز أن يكون «إِنَّهُ رَبِّي» يعني الله ﷻ «أَحْسَنَ مَثْوًى» أي: تولاني في طول مُقامي.

قوله تعالى: «إِنَّهُ لَا يُلَاحِظُ الظَّالِمِينَ» أي: إن فعلت هذا فختني في أهله بعدما أكرمني فأنا ظالم. وقيل: الظالمون هاهنا: الزناة.

«وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْمَ وَهَمَ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَاهُ بُرْهَنَ رَبِّي» كَذَلِكَ يُصَرِّفُ عَنْهُ الشَّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّحِينَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: «وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْمَ وَهَمَ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَاهُ بُرْهَنَ رَبِّي» الهم بالشئ في كلام العرب: حديث المرأة نفسها بمواقعتها ما لم يواقع. فأما همّ أزليخا، فقال المفسرون: دعت إلى نفسها واستلقت له. واختلفوا في همّه بها على خمسة أقوال: أحدها: أنه كان من جنس همّها، فلولا أن الله تعالى عصمه لفعل، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن، وسعيد بن جبير، والضحاك، والسدي، وهو قول عامة المفسرين المتقدمين، واختاره من المتأخرين جماعة منهم ابن جرير، وابن الأنباري. وقال ابن قتيبة: لا يجوز في اللغة: هممت بفلان، وهم بي، وأنت تريد: اختلف الهممين. واحتج من نصر هذا القول بأنه مذهب الأكثرين من السلف والعلماء الأكابر، ويدل عليه ما سنذكره من أمر البرهان الذي رآه. قالوا: ورجوعه عما هم به من ذلك خوفًا من الله تعالى يمحو عنه سيئ الهمم، ويوجب له علو المنازل، ويدل على هذا الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ: أن

(١) البيتان في مجاز القرآن ١/ ٣٠٥، والطبري ١٢/ ١٧٩، والقرطبي ٩/ ١٦٤، والصحاح، واللسان، والتاج: هيت. وقوله: غنق، أي: مائلون إليك ومتنظرون.

(٢) البيت غير منسوب في «غريب القرآن» ٢١٥، واللسان: هيت، والقرطبي ٩/ ١٦٥، والشرط الثاني في «الصحاح»: هيت. والكرّي: المستأجر.

ثلاثة خرجوا فلعجوا إلى غار، فانطبقت عليهم صخرة، فقالوا: ليذكر كل واحد منكم أفضل علمه. فقال أحدهم: اللهم إنك تعلم أنه كانت لي بنت عم فراودتها عن نفسها فأبت إلا بمائة دينار، فلما أتيها بها وجلست منها مجلس الرجل من المرأة، أُرعدت وقالت: إن هذا لعملٌ ما عملته قط، فممت عنها وأعطيتها المائة الدينار، فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا، فزال ثلث الحجر. والحديث معروف^(١)، وقد ذكرته في «الحدائق»، فعلى هذا نقول: إنما همت، فترقت همتها إلى العزيمة، فصارت مصرّة على الزنى. فأما هو، فعارضه ما يعارض البشر من خطرات القلب، وحديث النفس، من غير عزم، فلم يلزمه هذا الهمُّ ذنباً، فإن الرجل الصالح قد يخطر بقلبه وهو صائم شرب الماء البارد، فإذا لم يشرب لم يؤاخذ بما هجس في نفسه، وقد قال ﷺ: «عفي لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل»^(٢) وقال ﷺ: «هلك المصرون»، وليس الإصرار إلا عزم القلب، فقد فرّق بين حديث النفس وعزم القلب. وسئل سفيان الثوري: أيؤاخذ العبد بالهمة؟ فقال: إذا كانت عزمًا. ويؤيده الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: إذا همّ عبدي بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبها عليه سيئة»^(٣). واحتج القاضي أبو يعلى على أن همته لم تكن من جهة العزيمة، وإنما كانت من جهة دواعي الشهوة بقوله: «قَالَ مَكَدَ اللَّهُ لَأَنْتَ رَقِي» وقوله: «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ» وكل ذلك إخبار ببراءة ساحته من العزيمة على المعصية. فإن قيل: فقد سوى القرآن بين الهمتين، فلم فرقتهم؟ فالجواب: أن الاستواء وقع في بداية الهمة، ثم تركزت همتها إلى العزيمة، بدليل مراديتها واستلقاتها بين يديه، ولم تتعد همته مقامها، بل نزلت عن رتبتها، وانحل معقودها، بدليل هربه منها، ويقول: «معاذ الله»، وعلى هذا تكون همته مجرد خاطر لم يخرج إلى العزم. ولا يصح ما يروى عن المفسرين أنه حلّ السراويل وقعد منها مقعد الرجل، فإنه لو كان هذا، دل على العزم، والأنبياء معصومون من العزم على الزنى. والقول الثاني: أنها همت به أن يفرشها، وهمّ بها، أي: تمنّاها أن تكون له زوجة، رواه الضحاك عن ابن عباس. والقول الثالث: أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: ولقد همت به، ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، فلما رأى البرهان، لم يقع منه الهم، فقدم جواب «لولا» عليها، كما يقال: قد كنت من الهالكين، لولا أن فلاناً خلّصك، لكنت من الهالكين، ومنه قول الشاعر:

فَلَا يَدْعُنِي قَوْمِي صَرِيحًا لِحُرَّةٍ لَنْ كُنْتُ مَقْتُولًا وَتَسْلَمَ عَايِرُ

أراد: لئن كنت مقتولاً وتسلم عامر، فلا يدعني قومي، فقدم الجواب. وإلى هذا القول ذهب قطرب، وأكره قوم، منهم ابن الأنباري، وقالوا: تقديم جواب «لولا» عليها شاذ مستكره، لا يوجد في فصيح كلام العرب، فأما البيت المستشهد به فمن اضطراب الشعراء، لأن الشاعر يضيق الكلام به عند اهتمامه بتصحيح أجزاء شعره، فيضع الكلمة في غير موضعها، ويقدم ما حكمه التأخير، ويؤخر ما حكمه التقديم، ويعدل عن الاختيار إلى المستقيح للضرورة، قال الشاعر:

جَزَى رُبُّهُ عَنِّي عَدِيَّ بَنَ حَايِمٍ يَتَرَكِي وَخِذْلَانِي جَزَاءَ مَوْفَرٍ

تقديره: جزى عني عدِيّ بن حاتم رُبُّه، فاضطر إلى تقديم الرب. وقال الآخر:

لَمَّا جَفَا إِخْوَانَهُ مُضْعَبًا أَدَى بِذَلِكَ الْبَيْعِ صَاعًا بِصَاعٍ

أراد: لما جفا مضعباً إخوانه، وأنشد الفراء:

طَلَبًا لَعُرْفِكَ يَا ابْنَ يَحْيَى بَعْدَمَا تَقَطَّعَتْ بِي دُونَكَ الْأَسْبَابُ

فزاد تاء على «تقطعت» لا أصل لها ليصلح وزن شعره، وأنشد ثعلب:

(١) هو في «صحيح البخاري» ٣٤٠/٤ و ٣٦٩ و ١٢/٥ و ٣٦٧/٦، ومسلم ٢٠٩٩/٤، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ؓ.

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ ١١٦/٥ و ٤٧٨/١١ و لَفْظُهُ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لَأَمْتِي هُمَا وَمُسَوِّتٌ أَوْ حَدَّثَتْ بِهِنَّ أَنْفُسُهُمَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِنَّ أَوْ تَكَلَّمْ»، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ ١١٧/١ وَلَفْظُهُ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لَأَمْتِي هُمَا حَدَّثَتْ بِهِنَّ أَنْفُسُهُمَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ بِهِنَّ». وَرَوَاهُ أَيْضًا أَصْحَابُ السَّنَنِ الْأَرْبَعَةُ، كُلُّهُمْ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ.

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ ١١٧/١.

إِنَّ شَكْلِي وَإِنَّ شَكْلَكَ شَتَّى

فَأَلْزَمِي الْخَفْضَ وَانْعَمِي تَبَيُّضُضِي^(١)

فزاد صاداً لا أصل لها لتكمل أجزاء البيت، وقال الفرزدق:

هُمَا تَفْلا فِي فَيٍّ مِنْ فَمَوْنِهِمَا

عَلَى النَّابِجِ الْعَاوِي أَشَدُّ لِحَايَا

فزاد واواً بعد الميم ليصلح شعره. ومثل هذه الأشياء لا يحمل عليها كتاب الله النازل بالفصاحة، لأنها من ضرورات الشعراء. والقول الرابع: أنه هم أن يضربها ويدفعها عن نفسه، فكان البرهان الذي رآه من ربه أن الله أوقع في نفسه أنه إن ضربها كان ضربه إيها حجة عليه، لأنها تقول: راودني فمعتته فضربني، ذكره ابن الأنباري. والقول الخامس: أنه هم بالفرار منها، حكاه الثعلبي، وهو قول مردول، أفترأه أراد الفرار منها، فلما رأى البرهان، أقام عندها؟! قال بعض العلماء: كان هم يوسف خطيئة من الصغائر الجائزة على الأنبياء، وإنما ابتلاهم بذلك ليكونوا على خوف منه، وليعرفهم مواقع نعمته في الصفح عنهم، وليجعلهم أئمة لأهل الذنوب في رجاء الرحمة. قال الحسن: إن الله تعالى لم يقصص عليكم ذنوب الأنبياء تعبيراً لهم، ولكن لئلا تقتطوا من رحمته. يعني الحسن: أن الحجة للأنبياء ألزم، فإذا قبل التوبة منهم، كان إلى قبولها منكم أسرع. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من أحد يلقى الله تعالى إلا وقد هم بخطيئة أو عملها، إلا يخشى بن زكريا، فإنه لم يهم ولم يعملها»^(٢).

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَمَا بُرْهَانَ رَبِّي﴾ جواب «لولا» محذوف. قال الزجاج: المعنى: لولا أن رأى برهان ربه لأمضى ما هم به. قال ابن الأنباري: لزنا، فلما رأى البرهان كان سبب انصراف الزنى عنه. وفي البرهان ستة أقوال: أحدها: أنه مثل له يعقوب. روى ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال: نودي: يا يوسف، أتزني فتكون مثل الطائر الذي تنف ريشه فذهب يطير فلم يستطع؟ فلم يعط على النداء شيئاً، فنودي الثانية، فلم يعط على النداء شيئاً، فتمثل له يعقوب فضرب صدره، فقام، فخرجت شهوته من أنامله. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: رأى صورة أبيه يعقوب في وسط البيت عاصباً على أنامله، فادبر هارباً، وقال: وحقك يا أبت لا أعود أبداً. وقال أبو صالح عن ابن عباس: رأى مثال يعقوب في الحائط عاصباً على شفتيه. وقال الحسن: مثل له جبريل في صورة يعقوب في سقف البيت عاصباً على إبهامه أو بعض أصابعه. وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة، وابن سيرين، والضحاك في آخرين. وقال عكرمة: كل ولد يعقوب، قد ولد له اثنا عشر ولداً، إلا يوسف فإنه ولد له أحد عشر ولداً، فنقص بتلك الشهوة ولداً. والثاني: أنه جبريل ﷺ. روى ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال: مثل له يعقوب فلم يزدجر، فنودي: أتزني فتكون مثل الطائر تنف ريشه؟! فلم يزدجر حتى ركضه جبريل في ظهره، فوثب. والثالث: أنها قامت إلى صنم في زاوية البيت فسترته بثوب، فقال لها يوسف: أي شيء تصنعين؟ قالت: أستحي من إلهي هذا أن يراني على هذه السوءة، فقال: أتستحين من صنم لا يعقل ولا يسمع، ولا أستحي من إلهي القائم على كل نفس بما كسبت؟ فهو البرهان الذي رأى، قاله علي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين، والضحاك. والرابع: أن الله بعث إليه ملكاً، فكتب في وجه المرأة بالدم: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ فَجَسَةً وَسَاءَ سَبِيلَكُمْ﴾ قاله الضحاك عن ابن عباس. وروي عن محمد بن كعب القرظي: أنه رأى هذه الآية مكتوبة بين عينيه، وفي رواية أخرى عنه، أنه رآها مكتوبة في الحائط. وروى مجاهد عن ابن عباس قال: بدت فيما بينهما كف ليس فيها عضد ولا معصم، وفيها مكتوب: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ فَجَسَةً وَسَاءَ سَبِيلَكُمْ﴾ [الإسراء: ٣٢] فقام هارباً، وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد، فلما قعد إذا بكف قد بدت فيما بينهما فيها مكتوب: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمَ تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] فقام هارباً، فلما عاد، قال الله تعالى لجبريل: أدرك عبيد قبل أن يصيب الخطيئة، فانحط جبريل عاصباً على كفه أو أصبعه

(١) البيت في «مشكل القرآن» ٢٣٥، و«الطبري» ٢١٤/١، و«أمالى ابن الشجري» ١٩٧/١، و«اللسان»: بيض، خفض.

(٢) الحديث في «الطبري» ٣٧٧/٦، ٣٧٨ موقوفاً ومرفوعاً بألفاظ مختلفة، وأورده ابن كثير ٣٦١/١ من رواية ابن أبي حاتم مرفوعاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وموقوفاً، ووصف المرفوع بأنه غريب جداً، وقال بعد أن ذكر الموقوف: فهذا موقوف أصح إسناداً من المرفوع. وذكره السيوطي في «الدر» ٢/ ٢٢ مرفوعاً وموقوفاً أيضاً، وقال: وهو أقوى إسناداً من المرفوع.

وهو يقول: يا يوسف، أتعلم عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله في الأنبياء؟ وقال وهب بن منبه: ظهرت تلك الكف وعليها مكتوب بالعبرانية: ﴿أَفْتَنَ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] فانصرفا، فلما عادا رجعت وعليها مكتوب: ﴿وَلَا عَلَى كُفِّكَمْ لَحُوطَيْنِ﴾ ﴿كِرَامًا كَتِيبِينَ﴾ [الأنعام: ١٠، ١١]، فانصرفا، فلما عادا عادت وعليها مكتوب: ﴿وَلَا تَقْرَؤُوا آيَةَ الْآيَةِ﴾، فعاد، فعادت الرابعة وعليها مكتوب: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُجْمَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، فولى يوسف هارباً. والخامس: أنه سيده العزيز دنا من الباب، رواه ابن إسحاق عن بعض أهل العلم. وقال ابن إسحاق: يقال: إن البرهان خيال سيده، رآه عند الباب فهرب. والسادس: أن البرهان أنه عليم ما أحل الله مما حرم الله، فرأى تحريم الزنى، روي عن محمد بن كعب القرظي. قال ابن قتيبة: رأى حجة الله عليه، وهي البرهان، وهذا هو القول الصحيح، وما تقدمه فليس بشيء، وإنما هي أحاديث من أعمال القصاص، وقد أشرت إلى فسادها في كتاب «المغني في التفسير». وكيف يُظن بنبي الله كريم أنه يخوف ويرعب ويضطر إلى ترك هذه المعصية وهو مصر؟! هذا غاية القبح^(١).

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كذلك أريناه البرهان ﴿لِيَصْرِفَ عَنْهُ الشَّيْءَ﴾ وهو خيانة صاحبه ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ ركوب الفاحشة. ﴿إِنَّكُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتْلِينَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر بكسر اللام، والمعنى: إنه من عبادنا الذين أخلصوا دينهم. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي بفتح اللام، أرادوا: من الذين أخلصهم الله من الأسواء والفواحش. وبعض المفسرين يقول: السوء: الزنى، والفحشاء: المعاصي.

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصُومٌ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [١٦] قَالَ هِيَ زَوَّجْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِيهَا إِنْ كَانَتْ قَيْصُومٌ قَدْ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِيِّينَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ كَانَ قَيْصُومٌ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ يعني يوسف والمرأة، تبادرا إلى الباب يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه، وأراد يوسف أن يسبق ليفتح الباب ويخرج، وأرادت هي أن تسبق إمساك الباب لئلا يخرج، فأدركته فتعلقت بقميصه من خلف، فجذبت إليه، فقدت قميصه من دبر، أي: قطعت من خلفه، لأنه كان هو الهارب وهي الطالبة له. قال المفسرون: قطعت قميصه نصفين، فلما خرجا، ألقيا سيدها، أي: صادقا زوجها عند الباب، فحضرها في ذلك الوقت كيد، فقالت سابقة بالقول مبررة لنفسها من الأمر: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ قال ابن عباس: تريد الزنى ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: ما جزاؤه إلا السجن ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تعني الضرب بالسياط، فغضب يوسف حيثئذ وقال: ﴿هِيَ زَوَّجْتَنِي﴾. وقال وهب بن منبه: قال له العزيز حيثئذ: أختنتي يا يوسف في أهلي، وغدرت بي، وغررتني بما كنت أرى من صلاحك؟ فقال حيثئذ: ﴿هِيَ زَوَّجْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾

قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِيهَا﴾ وذلك أنه لما تعارض قولاهما، احتاجا إلى شاهد يُعلم به قول الصادق. وفي ذلك الشاهد ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان صبياً في المهد، رواه عكرمة عن ابن عباس، وشهر بن حوشب عن أبي هريرة، وبه قال سعيد بن جبير، والضحاك، وهلال بن يساف في آخرين. والثاني: أنه كان من خاصة الملك، رواه ابن أبي مليكة عن ابن عباس. وقال أبو صالح عن ابن عباس: كان ابن عم لها، وكان رجلاً حكيماً، فقال: قد سمعنا الاشتداد والجلية من وراء الباب، فإن كان شئ القميص من قدامه فأنث صادقة وهو كاذب، وإن كان من خلفه فهو صادق وأنت كاذبة. وقال بعضهم: كان ابن خالة المرأة. والثالث: أنه شئ القميص، رواه ابن أبي نجيع عن مجاهد، وفيه ضعف، لقوله: «من أهلها». فإن قيل: كيف وقعت شهادة الشاهد هاهنا معلقة بشرط، والشارط غير عالم بما يشترطه؟ فعنه جوابان ذكرهما ابن الأنباري: أحدهما: أن الشاهد شاهد بأمر قد علمه، فكأنه سمع بعض كلام

(١) قال أبو جعفر بن جرير الطبري ١٩١/١٢: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر عن مِّم يوسف وامرأة العزيز كل واحد منهما بصاحبه، لولا أن رأى يوسف برهان ربه، وذلك آية من آيات الله زجرته عن ركوب ما مِم به يوسف من الفاحشة، وجائز أن تكون تلك الآية صورة يعقوب، وجائز أن تكون صورة الملك، وجائز أن يكون الوعيد في الآيات التي ذكرها الله في القرآن على الزنى، ولا حجة للمعذر قاطعة بأي ذلك من أي، والصواب أن يقال في ذلك ما قاله الله تبارك وتعالى، والإيمان به، وترك ما عدا ذلك إلى عالمه.

يوسف وأزليخا، فعلم، غير أنه أوقع في شهادته شرطاً ليلزم المخاطبين قبول شهادته من جهة العقل والتمييز، فكانه قال: هو الصادق عندي، فإن تدبرتم ما أشرطه لكم، عقلتم قولي. ومثل هذا قول الحكماء: إن كان القدر حقاً، فالحرص باطل، وإن كان الموت يقيناً، فالطمأنينة إلى الدنيا حمق. والجواب الثاني: أن الشاهد لم يقطع بالقول، ولم يعلم حقيقة ما جرى، وإنما قال ما قال على جهة إظهار ما يسبح له من الرأي، فكن معنى قوله: «وشهد شاهد»: أعلم ويبن. فقال: الذي عندي من الرأي أن نقيس القميص ليوقف على الخائن. فهذان الجوابان يدلان على أن المتكلم رجل. فإن قلنا: إنه صبي في المهد، كان دخول الشرط مصححاً لبراءة يوسف، لأن كلام مثله أعجوبة ومعجزة لا يبقى معها شك.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَيْصَرُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (٢٨)

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَيْصَرُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ في هذا الرائي والقائل: قولان: أحدهما: أنه الزوج. والثاني: الشاهد. وفي هاء الكناية في قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى تمزيق القميص، قاله مقاتل. والثاني: إلى قولها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾، فالمعنى: قولك هذا من كيدكن، قاله الزجاج. والثالث: إلى السوء الذي دعت إليه، ذكره الماوردي. قال ابن عباس: «إن كيدكن» أي: عملكن «عظيم» تخلصن البريء والسقيم.

﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرَ لِذُنُوبِهِ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَقَالَ يَسُوؤُ فِي الْمَدِينَةِ أَمْرًاكَ الْعَزِيزُ تَزُوُّ فَنَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٩)

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا﴾ المعنى: يا يوسف أعرض. وفي القائل له هذا قولان: أحدهما: أنه ابن عمها وهو الشاهد، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الزوج، ذكره جماعة من المفسرين. قال ابن عباس: أعرض عن هذا الأمر فلا تذكره لأحد، واكتمه عليها. وروى الحلبي عن عبد الوارث: «يوسف أعرض عن هذا» بفتح الراء على الخير. قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرَ لِذُنُوبِهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: استغفني زوجك لثلاثا يعاقبك، قاله ابن عباس. والثاني: توبي من ذنبك فإنك قد أمتب. وفي القائل لهذا قولان: أحدهما: ابن عمها. والثاني: الزوج.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: من المذنبين. قال المفسرون: ثم شاع ذلك الحديث في مصر حتى تحدث بذلك النساء، وهو قوله: ﴿وَقَالَ يَسُوؤُ فِي الْمَدِينَةِ﴾، وفي عددهن قولان: أحدهما: أنهن كن أربعاً: امرأة ساقى الملك، وامرأة صاحب دواته، وامرأة خبازه، وامرأة صاحب سجنه، قاله ابن عباس. والثاني: أنهن خمس: امرأة الخباز، وامرأة الساقى، وامرأة السجان، وامرأة صاحب الدواة، وامرأة الآذن، قاله مقاتل. فأما العزيز، فهو بلغتهم الملك، والفتى بمعنى العبد. قال الزجاج: كانوا يسمون المملوك فتى. وإنما تكلم النسوة في حقها، طعناً فيها، وتحقيقاً لبراءة يوسف.

قوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: بلغ حبه شغاف قلبها. وفي الشغاف أربعة أقوال: أحدها: أنه جلد بين القلب والفؤاد، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: أنه غلاف القلب، قاله أبو عبيدة. قال ابن قتيبة: ولم يرد الغلاف، إنما أراد القلب، يقال: شغفت فلاناً: إذا أصبت شغافه، كما يقال: كبדתه: إذا أصبت كبده، وبطنته: إذا أصبت بطنه. والثالث: أنه حبة القلب وسوداؤه. والرابع: أنه داء يكون في الجوف في الشراسيف، وأنشدوا:

وَقَدْ خَالَ هَمٌّ دُونَ ذَلِكَ دَاخِلٌ دُخُولَ الشَّغَافِ تَبْتَغِيهِ الْأَصَابِعُ^(١)

ذكر القولين الزجاج. وقال الأصمعي: الشغاف عند العرب: داء يكون تحت الشراسيف في الجانب الأيمن من البطن، والشراسيف: مفاظ رؤوس الأضلاع، واحدها: شرسوف. وقرأ عبد الله بن عمرو، وعلي بن الحسين، والحسن

(١) البيت للناطقة النيباني، «ديوانه» ٧٩، ومجاز القرآن ٣٠٨/١، والطبري ١١٠/١٢، والألماني للقال ٢٠٥/١، والسمط ٤٨٩، والصاحح، «اللسان»، «التاج»: شغف، «القرطبي» ١٧٦/٩، «الخرائج» ٤٢٩/١.

البصري، ومجاهد، وابن محيصن، وابن أبي عبله: «قد شفعها» بالعين. قال الفراء: كأنه ذهب بها كل مذهب، والشَّعَف: رؤوس الجبال.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَنَهَا فِي سَحَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: عن طريق الرشد، لحبها إياه. والمبين الظاهر.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودْنَهُ عَنْ نَّفْسِهِ فَاتَّعَصَمَنَّ وَلَكِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا مَأْمُورٌ لِّيَسْجَنَّ وَلْيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ يعني: امرأة العزيز، ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه قولهن وعيبن لها، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، وابن قتيبة. قال الزجاج: وإنما سمي هذا القول مكرًا، لأنها كانت أطلعتهم على أمرها، واستكتمتهم، فمكرن وأفشين سرها. والثاني: أنه مكر حقيقة، وإنما قلن ذلك مكرًا بها ل تريهِنَّ يوسف، قاله ابن إسحاق.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ قال الزجاج: أفعلت من العتاد، وكل ما اتخذته عُدَّةً لشيء فهو عتاد، والعتاد: الشيء الثابت اللازم. وقال ابن قتيبة: أعتدت بمعنى أعدت. فأما المتكأ، ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه المجلس؛ فالمعنى: هيات لهن مجلساً، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنه الوسائد اللاني يتكئن عليها، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال الزجاج: المتكأ: ما يُتَكأُ عليه لطعام أو شراب أو حديث. والثالث: أنه الطعام، قاله الحسن، ومجاهد، وقتادة. قال ابن قتيبة: يقال: اتكأنا عند فلان: إذا طعمنا، قال جميل بن معمر:

فَطَلَلْنَا فِي نَعْمَةٍ وَأَتَكْنَا وَشَرِبْنَا الْحَلَالَ مِنْ قُلَيْبَةٍ^(١)

والأصل في هذا أن من دَعَوْتَه ليطعم، أعددت له التَّكَاةَ للمقام والطمأنينة، فسمي الطعام متكأً على الاستعارة. قال الأزهري: إنما قيل للطعام: متكأ، لأن القوم إذا قعدوا على الطعام اتكؤوا، ونُهِيت هذه الأمة عن ذلك^(٢). وقرأ مجاهد «متكأ» بإسكان التاء خفيفة، وفيه أربعة أقوال: أحدها: أنه الأترج، قاله ابن عباس، ومجاهد، ويحيى بن يعمر في آخرين، ومنه قول الشاعر:

نَشْرَبُ الْإِنَّمِ بِالْصُّوَاعِ جَهَارًا وَتَرَى الْمُتَّكَ بَيْنَنَا مُسْتَعَارًا^(٣)

يريد: الأترج. والثاني: أنه الطعام أيضاً، قاله عكرمة. والثالث: أنه كل شيء يُحْزَرُ بالسكاكين، قاله الضحاك. والرابع: أنه الزُّمَارِدُ^(٤)، روي عن الضحاك أيضاً. وقد روي عن جماعة أنهم فسروا المتكأ بما فسروا به المتك، فروي عن ابن جريج أنه قال: المتكأ: الأترج، وكل ما يُحْزَرُ بالسكاكين. وعن الضحاك قال: المتكأ: كل ما يُحْزَرُ بالسكاكين. وقرئ آخرون بين القراءتين، فقال مجاهد: من قرأ «متكأ» بالثقل، فهو الطعام، ومن قرأ بالتخفيف، فهو الأترج. قال ابن قتيبة: من قرأ «متكأ» فإنه يريد الأترج، ويقال: الزُّمَارِدُ. وأياً ما كان، فإني لا أحسبه سمي متكأً إلا بالقطع، كأنه مأخوذ من التَّكُّ، فأبدلت الميم منه باء، كما يقال: سَمَدُ رأسه وَسَبَدُه: إذا استأصله، وشر لازم، ولازب، والميم تبدل من الباء كثيراً، لقرب مخرجيهما.

قوله تعالى: ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ إنما فعلت ذلك، لأن الطعام الذي قدمته لهن يحتاج إلى السكاكين. وقيل: كان مقصودها اقتضاجهن بتقطيع أيديهن كما فضحنها. قال وهب بن منبه: ناولت كل واحدة منهن أترجةً وسكينا، وقالت لهن: لا تقطعن ولا تأكلن حتى أعلمكن، ثم قالت ليوسف: «اخرُجْ عَلَيْنَّ». قال الزجاج: إن شئت ضمنت التاء من قوله: «وقالت»، وإن شئت كسرت، والكسر الأصل لسكون التاء والخاء، ومن ضم التاء، فلثقل

(١) «ديوانه» ١٨٨، و«مشكل القرآن» ١٣٨، و«أساس البلاغة»: قلل، و«الأغاني» ٩٧/٧، و«القرطبي» ١٧٨/٩، وشرح شواهد المغني» ١٢٦.

(٢) روى البخاري في «صحيحه» عن أبي جحيفة وهب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أكل وأنا متكئ».

(٣) البيت غير منسوب في «القرطبي» ١٧٨/١٢، و«اللسان»: اثم، و«التاج»: متك.

(٤) الزمأورد: الرقاق الملقوف باللحم، وغيره، أو هو شيء يشبه الأترج. وفي «الطبري»: البزمأورد، بدل: الزمأورد.

الضمة بعد الكسرة. ولم يمكنه أن لا يخرج، لأنه بمنزلة العبد لها. وذكر بعض أهل العلم أنها إنما قالت: «أخرج وأضمرت في نفسها «عليهن»، فأخبر الحق عما في النفس كأن اللسان قد نطق به، ومثله ﴿إِنَّمَا تَطْلُومُ كُرِّيَوتِ اللَّهِ...﴾ الآية [الإنسان: ٢٩]، لم يقولوا ذلك، إنما أضمره، ويدل على صحة هذا أنها لو قالت له وهو شاب مستحسن: أخرج على نسوة من طبعهن الفتنة، ما فعل. وفي قوله: ﴿أَكْبَرْتُ﴾ قولان: أحدهما: أعظمته، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وابن أبي نجيح عن مجاهد، وبه قال قتادة، وابن زيد. والثاني: حَضَنَ، رواه الضحاك عن ابن عباس. وروى علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه قال: حَضَنَ من الفَرْح، قال: وفي ذلك يقول الشاعر:

نَأْتِي النِّسَاءَ لَدَى أَطْهَارِهِنَّ وَلَا نَأْتِي النِّسَاءَ إِذَا أَكْبَرْنَ إِكْبَاراً^(١)

وقد روى هذا المعنى ليث عن مجاهد، واختاره ابن الأنباري، وردّه بعض اللغويين، فروي عن أبي عبيدة أنه قال: ليس في كلام العرب «أكبرن» بمعنى «حَضَنَ»، ولكن عسى أن يكن من شدة ما أعظمته حَضَنَ، وكذلك روي عن الزجاج أنه أنكره.

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: حَزَزْنَ أَيْدِيَهُنَّ، وكن يحسبن أنهن يقطعن طعاماً، قاله ابن عباس، وابن زيد. والثاني: قطعن أَيْدِيَهُنَّ حتى ألقينها، قاله مجاهد، وقاتدة. والثالث: كَلَمْنَ الْأَكْثَفَ وَأَبْرَأَ الْأَنَامِلَ، قاله وهب بن منبه.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ قرأ أبو عمرو «حاشا» بألف في الوصل في الموضعين، واتفقوا على حذف الألف في الوقف، وأبو عمرو جاء به على التمام والأصل، والباقون حذفوا. وهذه الكلمة تستعمل في موضعين: أحدهما: الاستثناء. والثاني: التبرئة من الشر. والأصل «حاشا» وهي مشتقة من قولك: كنت في حشا فلان، أي في ناحيته. والحشا: الناحية، وأنشدوا:

بِأَيِّ الْحَشَا أُمْسَى الْخَلِيلُ الْمُبَايِسُ

أي: بأي النواحي، والمعنى: صار يوسف في حشاً من أن يكون بشراً، لفرط جماله. وقيل: صار في حشاً مما قرفته به امرأة العزيز. وقال ابن عباس، ومجاهد: «حاش لله» بمعنى: معاذ الله. قال الفراء: و «بشراً» منصوب، لأن الباء قد استعملت فيه، فلا يكاد أهل الحجاز ينطقون إلا بالباء، فلما حذفوها أحبوا أن يكون لها أثر فيما خرجت منه، فنصبوا على ذلك، وكذلك قوله: ﴿مَا هُكِّمَ أَمْتُهُنَّ﴾ [المجادلة: ٢]، وأما أهل نجد فيتكلمون بالباء وبغير الباء، فإذا أسقطوها، رفعوا، وهو أقوى الوجهين في العربية. قال الزجاج: قوله: الرفع أقوى الوجهين، غلط، لأن كتاب الله أقوى اللغات، ولم يقرأ بالرفع أحد. وزعم الخليل، وسيبويه، وجميع النحويين القدماء أن «بشراً» منصوب، لأنه خبر «ما»، و «ما» بمنزلة «ليس». قلت: وقد قرأ أبو المتوكل، وأبو نهيك، وعكرمة، ومعاذ القارئ في آخرين: «ما هذا بشر» بالرفع. وقرأ أبي بن كعب، وأبو الجوزاء، وأبو السَّوَّار: «ما هذا بِشَرٌّ» بكسر الباء والشين مقصوراً منوناً. قال الفراء: أي: ما هذا بمشترى. وقرأ ابن مسعود: «بشراً» بالمد والهمز مخفوضاً منوناً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ﴾ قرأ أبي، وأبو رزين، وعكرمة، وأبو حيوة، والجحدري: «ملك» بكسر اللام.

قوله تعالى: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لَتُنَتْنِي فِيهِ﴾ قال المفسرون: لما ذهلت عقولهن فقطعن أَيْدِيَهُنَّ، قالت لهن ذلك. فإن قيل: كيف أشارت إليه وهو حاضر بقولها: «فذلكن»؟ فعنه جوابان ذكرهما ابن الأنباري: أحدهما: أنها أشارت بـ «ذلكن» إلى يوسف بعد انصرافه من المجلس. والثاني: أن في الكلام إضمار «هذا» تقديره: فهذا ذلكن. ومعنى «لَتُنَتْنِي فِيهِ» أي: في حبه. ثم أقرت عندهن، فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي: امتنع.

قوله تعالى: ﴿وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قال الزجاج: القراءة الجيدة تخفيف «وليكونن» والوقف عليها بالألف، لأن النون الخفيفة تبدل منها في الوقف الألف، تقول: اضربن زيدا، وإذا وقفت قلت: اضربا. وقد قرئت «وليكونن» بتشديد

(١) البيت غير منسوب في «الطبري» ١٢/٢٠٥، و«القرطبي» ١٢/١٨٠، و«اللسان»: كبر.

النون، وأكرمها، لخلاف المصحف، لأن الشديدة لا يبدل منها شيء والصاغرون: المذلون.

﴿قَالَ رَبِّ آلَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَ وَأَكُنْ مِنَ الْكَاهِلِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمُ فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُمْ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ آلَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ قال وهب بن منبه: لما قالت: «فلكن الذي لمتني فيه» قلن: لا لوم عليك، قالت: فاطلبن إلى يوسف أن يسعفني بحاجتي، فقلن: يا يوسف افعل، فقالت: لئن لم يفعل لأخلدنه السجن، فعند ذلك قال: ﴿رَبِّ آلَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾. وقرأ يعقوب: «السَّجْن» بفتح السين هاهنا فحسب. قال الزجاج: من كسر سين «السجن» فعلى اسم المكان، فيكون المعنى: نزول السجن أحب إلي من ركوب المعصية، ومن فتح، فعلى المصدر، المعنى: أن أسجن أحب إلي. ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ أي: إلّا تعصمني ﴿أَصْبُ إِلَيْنَ﴾ أي: أمل إليهن. يقال: صبا إلى اللهو يصبو صبواً وصُبوراً وصَبَاءً: إذا مال. وقال ابن الأنباري: ومعنى هذا الكلام: اللهم اصرف عني كيدهن، ولذلك قال: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُ﴾. قال: فإن قيل: إنما كادته امرأة العزيز وحدها، فكيف قال: «كيدهن»؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن العرب توقع الجمع على الواحد، فيقول قائلهم: خرجت إلى البصرة في السفن، وهو لم يخرج إلّا في سفينة واحدة. والثاني: أن المكني عنه امرأة العزيز والنسوة اللاتي عاضدنّها على أمرها. والثالث: أنه عنى امرأة العزيز وغيرها من نساء العالمين اللاتي لهن مثل كيدها.

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ فِي بَدْيٍ مَا رَأَوُا فِي الْأَنْبِيَاءِ لِيَنْجُشَّهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ فِي بَدْيٍ مَا رَأَوُا فِي الْأَنْبِيَاءِ﴾ في المراد بالآيات ثلاثة أقوال: أحدها: أنها شق القميص، وقضاء ابن عمها عليها، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنها قد القميص، وشهادة الشاهد، وقطع الأيدي، وإعظام النساء إياه، رواه مجاهد عن ابن عباس. والثالث: جَمَالَهُ وَعِفَّتُهُ، ذكره الماوردي. قال وهب بن منبه: فأشار النسوة عليها بسجنه رجاء أن يستهوينه حين يخلو لهن في السجن، وقلن: متى سجنته قطع ذلك عنك قالّة الناس التي قد شاعت، ورأوا أنك تبغضينه، ويذلّه السجن لك، فلما انصرفن عادت إلى مراودته فلم يزد إلا بُعْدًا عنها، فلما يشت، قالت لسيدها: إن هذا العبد قد فضحني، وقد أبغضت رؤيته، فائذن لي في سجنه، فأذن لها، فسجنته وأضرّت به. وقال السدي: قالت: إما أن تأذن لي فأخرج واعتذر بعذري، وإما أن تحبسه كما حبستني، فظهر للعزيز وأصحابه من الرأي حبس يوسف. قال الزجاج: كان العزيز أمر بالإعراض فقط، ثم تغير رأيه عن ذلك. قال ابن الأنباري: وفي معنى الآية قولان: أحدهما: «ثم بدا لهم» أي: ظهر لهم بالقول والرأي والفكر سجنه. والثاني: ثم بدا لهم في يوسف بدءاً، فقالوا: والله لنسجنه، فاللام جواب يمين مضمرة. فأما الحين، فهو يقع على قصير الزمان وطويله. وفي المراد به هاهنا للمفسرين خمسة أقوال: أحدها: خمس سنين، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: سنة، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: سبع سنين، قاله عكرمة. والرابع: إلى انقطاع القلّة، قاله عطاء. الخامس: أنه زمان غير محدود، ذكره الماوردي، وهذا هو الصحيح، لأنهم لم يعزموا على حبسه مدة معلومة، وإنما ذكر المفسرون قدر ما لبث.

﴿وَوَخَّلَ مَعَهُ آلَيْسَ فَقَيَّانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خَبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْتًا يَتَوَلَّوْهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَخَّلَ مَعَهُ آلَيْسَ فَقَيَّانَ﴾ قال الزجاج: فيه دليل على أنه حبس، وإن لم يُذكر ذلك. و «قَيَّان» جانز أن يكونا حذّين أو شيخين، لأنهم يسمون المملوك فتى. قال ابن الأنباري: إنما قال: «قَيَّان» لأنهما كانا مملوكين، والعرب تسمي المملوك فتى، شاباً كان أو شيخاً. قال المفسرون: عُمرُ ملك مصر فملّوه، فدسّوا إلى خبّازه وصاحب شرابه أن يسّماء، فبلغه ذلك فحبسهما، فكان يوسف قال لأهل السجن: «إني أعبر الأحلام، فقال أحد الفتيتين: هلم فلنجرّب هذا العبد العبراني. واختلفوا هل كانت رؤياهما صادقة، أم لا؟ على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها كانت كذباً، وإنما سالاّه تجريباً، قاله ابن مسعود، والسدي. والثاني: أنها كانت صدقاً، قاله مجاهد، وابن إسحاق. والثالث: أن الذي صُلبَ منهما كان كاذباً، وكان الآخر صادقاً، قاله أبو مجلز.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾ يعني الساقى ﴿إِنِّي أَرَىٰ﴾ أي: في النوم ﴿أَقْصِرُ خَمْرًا﴾ أي: عنباً. وفي تسمية العنب خمرًا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه سماه باسم ما يؤول إليه، لأن المعنى لا يلتبس، كما يقال: فلان يطبخ الأجرّ ويعمل الدبس، وإنما يطبخ اللين ويصنع التمر، وهذا قول أكثر المفسرين. قال ابن الأنباري: وإنما كان كذلك، لأن العرب توقع بالفرع ما هو واقع بالأصل، كقولهم: فلان يطبخ أجرًا. والثاني: أن الخمر في لغة أهل عُمان اسم للعنب، قاله الضحاک، والزجاج. قال ابن القاسم: وقد نطقت قريش بهذه اللغة وعرفتھا. والثالث: أن المعنى: أعصر عنب خمر، وأصل خمر، وسبب خمر، فحذف المضاف، وخلفه المضاف إليه، كقوله: ﴿وَسَكَلَ الْفَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. قال أبو صالح عن ابن عباس: رأى يوسف ذات يوم الخبز والساقى مهمومين، فقال: ما شأنكما؟ قالوا: رأينا رؤيا، قال: قُضَاهَا عَلَيَّ، قال الساقى: إني رأيت كاني دخلت كرمًا فجئت ثلاثة عناقيد عنب، فعصرتهن في الكاس، ثم أتيت به الملك فشربه، وقال الخباز: رأيت أني خرجت من مطبخ الملك أحمل فوق رأسي ثلاث سلال من خبز، فوقع طير على أعلاهن فأكل منها، ﴿يَنْتَقِنَا بِنَاوِيلِهِ﴾ أي: أخبرنا بتفسيره. وفي قوله: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْضِينَ﴾ خمسة أقوال: أحدها: أنه كان يعود المرضى ويداويهم ويعزي الحزين، رواه مجاهد عن ابن عباس. والثاني: إنا نراك محسنًا إن أنبأتنا بِنَاوِيلِهِ، قاله ابن إسحاق. والثالث: إنا نراك من العالمين قد أحسنت العلم، قاله الفراء. قال ابن الأنباري: فعلى هذا يكون مفعول الإحسان محذوفًا، كما حُذف في قوله: ﴿وَفِيهِ يَصِيرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩] يعني العنب والسَّمْسَم. وإنما علموا أنه عالم، لنشره العلم بينهم. والرابع: إنا نراك ممن يحسن التأويل، ذكره الزجاج. والخامس: إنا نراك محسنًا إلى نفسك بلزومك طاعة الله، ذكره ابن الأنباري.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَاوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ﴾ وَمَا عَلَيْنَا رِيقٌ إِنِّي نَزَعْتُ مِنْهُ قَوْمٌ لَا يَوْمِيُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَاثِرُونَ ﴿١٧﴾ وَأَتَيْتُ يَلَّةَ آبَائِهِ إِزْرِيمَ وَإِسْحَاقَ وَتَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٨﴾ يَصْصَحِي السَّيْحَى أَنِّيَابُ مُتَّفِقُونَ كَيْفَ أَرَىٰ اللَّهُ الْوَجْدَ الْقَهَّارَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ﴾ في معنى الكلام قولان: أحدهما: لا يأتيكما طعام تُرْزَقَانِيهِ في اليقظة إلا أخبرتكما به قبل أن يصل إليكما، لأنه كان يخبر بما غاب كعيسى عليه السلام، وهو قول الحسن. والثاني: لا يأتيكما طعام تُرْزَقَانِيهِ في المنام إلا نبأكما بتاويله قبل أن يأتيكما في اليقظة، هذا قول السدي. قال ابن عباس: فقالا له: وكيف تعلم ذلك، ولست بساحر، ولا عراف، ولا صاحب نجوم؛ فقال: ﴿ذَلِكَ مَا عَلَيْنَا رِيقٌ﴾. فإن قيل: هذا كله ليس بجواب سؤالهما، فأين جواب سؤالهما؟ فتنه أربعة أجوبة: أحدها: أنه لما علم أن أحدهما مقتول، دعاها إلى نصيبهما من الآخرة، قاله قتادة. والثاني: أنه عدل عن الجواب لما فيه من المكروه لأحدهما، قاله ابن جريج. والثالث: أنه ابتدأ بدعائهما إلى الإيمان قبل جواب السؤال، قاله الزجاج. والرابع: أنه ظنهما كاذبين في رؤياهما، فعدل عن جوابهما ليعرضا عن مطالبته بالجواب، فلما ألحّا أجابهما، ذكره ابن الأنباري. فأما الملة فهي الدين وتكرير قوله: ﴿هُمْ﴾ للتوكيد.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قال ابن عباس: يريد: أن الله عصمنا من الشرك. ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي: أتباعنا الإيمان بتوفيق الله. ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ يعني المؤمنين بأن دلهم على دينه. وقال ابن عباس: ذلك من فضل الله علينا أن جعلنا أنبياء ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ أن بعثنا إليهم، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ من أهل مصر ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ نعم الله فيوحدونه.

قوله تعالى: ﴿أَنِّيَابُ مُتَّفِقُونَ﴾ يعني: الأصنام من صغير وكبير ﴿حَيْرٌ﴾ أي: أعظم صفة في المدح ﴿أَرَىٰ اللَّهُ الْوَجْدَ الْقَهَّارَ﴾ يعني أنه أحق بالإلهية من الأصنام؟ فأما الواحد، فقال الخطابي: هو الفرد الذي لم يزل وحده، وقيل: هو المنقطع القرين، المعدم الشريك والنظير، وليس كسائر الآحاد من الأجسام المؤلفة، فإن كل شيء سواء يدعى واحداً من جهة، غير واحد من جهات، والواحد لا يشي من لفظه، لا يقال: واحداً. والقَهَّار: الذي قهر الجبابرة من عتاة خلقه بالعقوبة، وقهر الخلق كلهم بالموت. وقال غيره: القَهَّار: الذي قهر كل شيء فذلّله، فاستسلم وذلّ له.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَتَشِئْمُونَ أَشْرَ وَابْتَازُكُم مَّا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتَنُمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ يَصْنَعِي السِّجْنِ أَمَّا أَحْذَكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ تَأْكُلُ أَلْطَرَّ مِنْ رَأْسِهِ فَبُؤْسَ الْأُمْرِ الَّذِي يُوَسْوِسُ لِلشَّقِيَيْنِ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ إنما جمع في الخطاب لهما، لأنه أراد جميع من شاركهما في شركهما. وقوله: ﴿مَنْ دُونِهِ﴾ أي: من دون الله ﴿إِلَّا أَسْمَاءَ﴾ يعني: الأرباب والآلهة، ولا يصح معاني تلك الأسماء للأصنام، فكانها أسماء فارغة، فكانهم يعبدون الأسماء لأنها لا تصح معانيها. ﴿مَّا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة بعبادتها. ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: ما القضاء والأمر والنهي إلا له. ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتَنُمْ﴾ أي: المستقيم، يشير إلى التوحيد. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يعلمون أنه لا يجوز عبادة غيره. والثاني: لا يعلمون ما للمطيعين من الثواب وللمعاصين من العقاب.

قوله تعالى: ﴿أَمَّا أَحْذَكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ الرب هاهنا: السيد. قال ابن السائب: لما قص الساقى رؤياه على يوسف، قال له: ما أحسن ما رأيت! أما الأغصان الثلاثة، فثلاثة أيام، يبعث إليك الملك عند انقضائها، فبردك إلى عملك، فتعود كأحسن ما كنت فيه، وقال للخباز: بش ما رأيت، السلال الثلاث، ثلاثة أيام، ثم يبعث إليك الملك عند انقضائها، فيقتلك ويصلبك ويأكل الطير من رأسك، فقالا: ما رأينا شيئاً، فقال: ﴿فَبُؤْسَ الْأُمْرِ الَّذِي يُوَسْوِسُ لِلشَّقِيَيْنِ﴾ أي: فُرغ منه، وسيقع بكما، صدقتما أو كذبتما. فإن قيل: لم حتم على وقوع التأويل، وربما صدق تأويل الرؤيا وكذب؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنه حتم ذلك لوجي آتاه من الله، وسبيل المنام المكذوب فيه أن لا يقع تأويله، فلما قال: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾، دل على أنه بوجي. والثاني: أنه لم يحتم، بدليل قوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾، قال أصحاب هذا الجواب: معنى «قُضِيَ الْأَمْرُ»: قُطِعَ الجواب الذي التمسناه من جهتي، ولم يعن أن الأمر واقع بكما. وقال أصحاب الجواب الأول: الظن هاهنا بمعنى العلم.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾ يعني الساقى. وفي هذا الظن قولان: أحدهما: أنه بمعنى العلم، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الظن الذي يخالف اليقين، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: عند صاحبك، وهو الملك، وقل له: إن في السجن غلاماً حُبِسَ ظملاً. واسم الملك: الوليد بن الرمان.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: فأنسى الشيطان الساقى ذكر يوسف لربه، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال ابن إسحاق. والثاني: فأنسى الشيطان يوسف ذكر ربه، وأمره بذكر الملك ابتغاء الفرج من عنده، قال مجاهد، ومقاتل، والزجاج، وهذا نسيان عمد، لا نسيان سهو، وعكسه القول الذي قبله.

قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ أي: غير ما كان قد لبث قبل ذلك، عقوبة له على تعلُّقه بمخلوق. وفي البضع تسعة أقوال: أحدها: ما بين السبع والتسع، روى ابن عباس أن أبا بكر لما ناحب^(١) قريشاً عند نزول: ﴿لَتَرَنَّاهُ يُحْيِي الْقُلُوبَ﴾ [الروم: ١، ٢٢]، قال له رسول الله ﷺ: «أَلَا احْتَطَطْتَ، فَإِنَّ الْبُضْعَ مَا بَيْنَ السَّبْعِ إِلَى التَّسْعِ^(٢)». والثاني: اثنتا عشرة سنة، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثالث: سبع سنين، قاله عكرمة. والرابع: أنه ما بين الخمس إلى السبع، قاله الحسن. والخامس: أنه ما بين الأربع إلى التسع، قاله مجاهد. والسادس: ما بين الثلاث إلى التسع، قاله الأصمعي، والزجاج. والسابع: أن البضع يكون بين الثلاث والتسع والعشر، قاله قتادة. والثامن: أنه ما دون العشرة، قاله القراء، وقال الأخفش: البضع: من واحد إلى عشرة. والتاسع: أنه ما لم يبلغ العقد ولا نصفه، قاله أبو عبيدة. قال ابن قتيبة: يعني ما بين الواحد إلى الأربعة. وروى الأثرم عن أبي عبيدة: البضع: ما بين ثلاث

(١) ناحب: واهن، والمتناجبة: المراهنة. قال الجمحي: وذلك قبل أن يكون تحريم ذلك (أي: الرهان).

(٢) «السند» ١٦٨/٤ وإسناده صحيح، و«الطبري» ١٧/٢١، والترمذي ١٥٠/٢، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

وخمس. وفي جملة ما لبث في السجن ثلاثة أقوال: أحدها: اثنتا عشرة سنة، قاله ابن عباس. والثاني: أربع عشرة، قاله الضحاك. والثالث: سبع سنين، قاله قتادة. قال مالك بن دينار: لما قال يوسف للساقى: «أذكركني عند ربيك»، قيل له: يا يوسف، أخذت من دوني وكيلاً؟ لأطيلن حبسك، فبكى، وقال: يا رب، أنسى قلبي كثرة البلوى، فقلت كلمة، فويل لإخوتي.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رَأْيِي إِنْ كُنْتُ لِرَأْيِي مُعْزِزًا﴾ (٤٣)

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ يعني ملك مصر الأكبر ﴿إِنِّي أَرَى﴾ يعني في المنام، ولم يقل: رأيت، وهذا جائز في اللغة أن يقول القائل: أرى، بمعنى رأيت. قال وهب بن منبه: لما انقضت المدة التي وقَّتها الله تعالى ليوسف في حبسه، دخل عليه جبريل إلى السجن، فبشَّره بالخروج وملك مصر ولقاء أبيه، فلما أمسى الملك من ليلته، رأى سبع بقرات سمان خرجن من البحر، في آثارهن سبع عجاف، فأقبلت العجاف على السمان، فأخذن بأذنابهن فأكلنهن إلى القرنين، ولم يزد في العجاف شيء، ورأى سبع سنبلات خضر وقد أقبل عليهن سبع يابسات فأكلنهن حتى أتين عليهن، ولم يزد في اليابسات شيء، فدعا أشراف قومه فقصصها عليهم، فقالوا: «أَضَعْتُ أَخْلِيَّ». قال الزجاج: والعجاف: التي قد بلغت في الهزال الغاية. والملا: الذين يُرجع إليهم في الأمور ويقتدى برأيهم، واللام في قوله: «لِلرَّءْيَا» دخلت على المفعول للتبين، المعنى: إن كنتم تعبرون. ثم بين باللام فقال: «لِلرُّوْيَا». ومعنى عبرت الرؤيا وعبرتها: أخبرت بآخر ما يؤول إليه أمرها، واشتقاقه من عبر النهر، وهو شاطئ النهر، فتأويل عبرت النهر: بلغت إلى عبره، أي: إلى شطه، وهو آخر عرضه. وذكر ابن الأنباري في اللام قولين: أحدهما: أنها للتوكيد. والثاني: أنها أفادت معنى «إلى» والمعنى: إن كنتم توجهون العبارة إلى الرؤيا.

﴿قَالُوا أَضَعْتُ أَخْلِيَّ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِكُلِّينَ﴾ (٤٤)

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَضَعْتُ أَخْلِيَّ﴾ قال أبو عبيدة: واحدا ضغث، مكسورة، وهي ما لا تأويل له من الرؤيا تراه جماعات، تُجمع من الرؤيا كما يُجمع الحشيش، فيقال: ضغث، أي: ملء كف منه. وقال الكسائي: الأضغاث: الرؤيا المختلطة. وقال ابن قتيبة: «أضغاث أحلام» أي: أخلاط مثل أضغاث النبات يجمعها الرجل، فيكون فيها ضروب مختلفة. وقال الزجاج: الضغث في اللغة: الحزمة والباقة من الشيء، كالبقول وما أشبهه، فقالوا له: رؤياك أخلاط أضغاث، أي: حزم أخلاط، ليست برويا بيّنة، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِكُلِّينَ﴾ أي: ليس للرؤيا المختلة عندنا تأويل. وقال غيره: وما نحن بتأويل الأحلام الذي هذا وصفها بالعلمين. والأحلام جمع حلم، وهو ما يراه الإنسان في نومه مما يصح ومما يبطل.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مَعَهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (٤٥) ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلَّكَ لَ تَكُونُ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٦) ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُونَهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (٤٧) ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا حَصَرْتُمْ﴾ (٤٨)

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مَعَهُمَا﴾ يعني الذي تخلص من القتل من الفتيين، وهو الساقى، ﴿وَادَّكَرَ﴾ أي: تذكر شأن يوسف وما وصَّاه به. قال الزجاج: وأصل ادَّكر: اذتكر، ولكن التاء أبدلت منها الدال، وأدغمت الدال في الدال. وقرأ الحسن: وادَّكر بالذال المشددة. وقوله: ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي بعد حين، وهو الزمان الذي لبثه يوسف بعده في السجن، وقد سبق بيانه. وقرأ ابن عباس، والحسن «بعد أمة» أراد: بعد نسيان. فإن قيل: هذا يدل على أن الناسي في قوله: ﴿فَأَنسَنَهُ السَّنْبُلُنَ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ هو الساقى، ولا شك أن من قال: إن الناسي يوسف يقول: لم ينس الساقى. فالجواب: أن من قال: إن يوسف نسي، يقول: معنى قوله: «وادَّكر» ذكر، كما تقول العرب: احتلب بمعنى حلب، واغتدى بمعنى غدا، فلا يدل إذاً على نسيان سبقه. وقد روى أبو صالح عن ابن عباس أنه قال: إنما لم يذكر الساقى خبر يوسف للملك حتى احتاج الملك إلى تأويل رؤياه، خوفاً من أن يكون ذكره ليوسف سبباً لذكره الذنب الذي من أجله حبس، ذكر هذا الجواب ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: من جهة يوسف ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أثبت الياء فيها وفي ﴿وَلَا تَقْرَؤُنَّ﴾ (يوسف: ٦٠) ﴿أَنْ تَقْنَدُونَ﴾ (يوسف: ٩٤) يعقوب في الحالين، فخطاب الملك وحده بخطاب الجميع، تعظيماً، وقيل: مخاطبه وخاطب أتباعه. وفي الكلام اختصار، المعنى: فأرسلوه فأثنى يوسف فقال: يا يوسف يا أيها الصديق. والصديق: الكثير الصدق، كما يقال فسيق، وسكير، وقد سبق بيانه (النساء: ٦٩).

قوله تعالى: ﴿لَمَّا أَتَيْنَاكَ إِلَى الْنَّاسِ﴾ يعني الملك وأصحابه والعلماء الذين جمعهم لتعبير رؤياه. وفي قوله: ﴿لَمَّا هُمْ يَكْتُمُونَ﴾ قولان: أحدهما: يعلمون تأويل رؤيا الملك. والثاني: يعلمون بمكانك فيكون سبب خلاصك. وذكر ابن الأنباري في تكرير «لعل» قولين: أحدهما: أن «لعل» الأولى متعلقة بالإفتاء، والثانية مبنية على الرجوع، وكلتاها بمعنى «كي». والثاني: أن الأولى بمعنى «عسى»، والثانية بمعنى «كي» فأعيدت لاختلاف المعنيين، وهذا هو الجواب عن قوله: ﴿لَمَّا هُمْ يَمْرُؤُنَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَيْكَ أَهْلُهَا لَمَّا هُمْ يَرْجُؤُنَّ﴾ (يوسف: ٦٣). قال المفسرون: كان سيده العزيز قد مات، واشتغلت عنه أمراته. وقال بعضهم: لم يكن العزيز قد مات، فقال يوسف للساقى: قل للملك: هذه سبع سنين مُخْصِبات، ومن بعدهن سبع سنين شداد، إلا أن يُحْتَالَ لهن، فانطلق الرسول إلى الملك فأخبره، فقال له الملك: ارجع إليه فقل له: كيف يُصْنَع؟ فقال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم «دَابًّا» ساكنة الهمزة، إلا أن أبا عمرو كان إذا أدرج القراءة لم يهمزها. وروى حفص عن عاصم «دَابًّا» بفتح الهمزة. قال أبو علي الأكثر في «دَاب» الإسكان، ولعل الفتح لغة، ومعنى «دَابًّا» أي: زراعة متوالية على عادتكم، والمعنى: تزرعون دائبين. فتاب «دَاب» عن «دائبين». وقال الزجاج: المعنى: تدأبون دابًّا، ودل على تدأبون «تزرعون» والداب: الملازمة للشيء والعادة. فإن قيل: كيف حكم بعلم الغيب، فقال: «تزرعون» ولم يقل: إن شاء الله؟ فعنه أربعة أجوبة: أحدها: أنه كان بروحي من الله ﷻ. والثاني: أنه بنى على علم ما علمه الله من التأويل الحق، فلم يشك. والثالث: أنه أضمر «إن شاء الله» كما أضمر إخوته في قولهم: ﴿وَنَبِيُّ أَهْلِنَا يَقْفُظُ أَخَانَا﴾ (يوسف: ٦٥)، فأضمروا الاستثناء في نياتهم، لأنهم على غير ثقة مما وعدوا، ذكره ابن الأنباري. والرابع: أنه كالآمر لهم، فكانه قال: ازرعوا.

قوله تعالى: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُبُكِيِّهِ﴾ فإنه أبقى له، وأبعد من الفساد. والشُّداد: المجذبات التي تشد على الناس. ﴿يَأْكُلْنَ﴾ أي: يذهب ما قدمتم لهن في السنين المخصبات، فوصف السنين بالأكل، وإنما يؤكل فيها، كما يقال: ليل نائم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَخْتُمُونَ﴾ أي: تحززون وتذخرون.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَدِّ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (١٨)

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَدِّ ذَلِكَ عَامٌ﴾ إن قيل: لِمَ أشار إلى السنين وهي مؤنثة بـ «ذلك»؟ فعنه جوابان ذكرهما ابن القاسم: أحدهما: أن السبع مؤنثة، ولا علامة للتأنيث في لفظها، فأشبهت المذكر، كقوله: ﴿أَلَسَمَاءُ مُتَفَطِّرَاتٌ بِيَدٍ﴾ (الزمل: ١٨) فذكر منطراً لَمَّا لم يكن في السماء علم التأنيث، قال الشاعر:

فَلَا مُزْنَةَ وَدَقَّتْ وَدَقَّهَا وَلَا أَرْضَ أَبْقَلَ إِنْقَالَهَا^(١)

فذكر «أبقل» لما وصفنا. والثاني: أن «ذلك» إشارة إلى الجذب، وهذا قول مقاتل، والأول قول الكلبي. قال قتادة: زاده الله علم عام لم يسألوه عنه.

قوله تعالى: ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ فيه قولان: أحدهما: يصيهم الغيث، قاله ابن عباس. والثاني: يغاثون بالخصب. ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: «يعصرون» بالياء. وقرأ

(١) البيت من شعر عامر بن جوين الطائي في «سبويه» ١/ ٢٤٠، و«معاني القرآن» ١/ ١٢٧، و«الكامل» ١/ ٦٦٠، و«شرح شواهد المغني» ٣١٩، و«الغزاة» ١/ ٢١، ٢٢.

حمزة، والكسائي بالتاء، فوجَّها الخطاب إلى المستفتين. وفي قوله: «يعصرون» خمسة أقوال: أحدها: يعصرون العنب والزيت والثمار، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والجمهور. والثاني: «يعصرون» بمعنى يحتلبون، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وروى ابن الأنباري عن أبيه عن أحمد بن عبيد قال: تفسير «يعصرون» يحتلبون الألبان لِسَعَةِ خيرهم وأَسَاحِ خصبهم، واحتج بقول الشاعر:

فَمَا عِصْمَةُ الْأَعْرَابِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ

طَعَامٌ وَلَا ذَرْبٌ مِنَ الْمَالِ يُغَصَّرُ

أي: يُحَلَب. والثالث: ينجون، وهو من العَصَر، والعَصَر: النجاء، والعَصْرَة: المنجاة. ويقال: فلان في عَصْرَة: إذا كان في حصن لا يُقَدَّر عليه، قال الشاعر:

صَادِباً يَسْتَنْفِثُ غَيْرَ مُفَارِثٍ

وَلَقَدْ كَانَ عُصْرَةُ الْمَنْجُودِ^(١)

أي: غيائاً للمغلوب المقهور، وقال عدي:

لَوْ بِغَيْرِ الْمَاءِ خَلَقِي شَرِقٌ

كُنْتُ كَالْغَضَّانِ بِالْمَاءِ اغْتِصَارِي^(٢)

هذا قول أبي عبيدة. والرابع: يصيبون ما يحبون، روي عن أبي عبيدة أيضاً أنه قال: المعتصر: الذي يصيب الشيء ويأخذه، ومنه هذه الآية. ومنه قول ابن أحرر:

فَإِنَّمَا الْعَيْنُ بِرِيَّانِهِ

وَأَنْتَ مِنْ أَفْنَانِهِ مُغْتَصِرٌ

والخامس: يعطون ويفضلون لِسَعَةِ عيشهم، رواه ابن الأنباري عن بعض أهل اللغة. وقرأ سعيد بن جبيرة: «يعصرون» بضم الياء وفتح الصاد. وقال الزجاج: أراد: يُمَطَّرُونَ من قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَابًا﴾ [النبا: ١٤].

﴿وَقَالَ لِلْكَلْبِ أَتَوْتِي يَدَهُ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَتَجْعَلُ إِنَّكَ رَيْكَةً فَشَكَّلَهُ مَا بَالَ النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِيهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [٥٠] قَالَ مَا خَطَبُكَ إِذْ زَوَدْتَنِي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِيهِ قُلْتُ خَشَّ لِلَّهِ مَا عَلَيْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ أَمَرْتُ الْعَزِيزَ الْفَقْرَ حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِيهِ وَإِنَّهُ لَيَنْ أَصْدِيقٍ﴾ [٥١]

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلْكَلْبِ أَتَوْتِي يَدَهُ﴾ قال المفسرون: لما رجع الساقى إلى الملك وأخبره بتأويل رؤياه، وقع في نفسه صحة ما قال، فقال: اتتوني بالذي عبرت رؤياي، فجاءه الرسول، فقال: أجب الملك، فأبى أن يخرج حتى تبين براءته مما قُرف به، فقال: ﴿أَتَجْعَلُ إِنَّكَ رَيْكَةً﴾ يعني الملك «فَشَكَّلَهُ مَا بَالَ النَّسْوَةِ» وقرأ ابن أبي عبيدة: «النسوة» بضم النون، والمعنى: فاسأل الملك أن يتعرف ما شأن تلك النسوة وحالهن ليعلم صحة براءتي، وإنما أشفق أن يراه الملك بعين مشكوك في أمره أو متهم بفاحشة، وأحب أن يراه بعد استقرار براءته عنده. وظاهر قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِيهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أنه يعني الله تعالى، وحكى ابن جرير الطبري أنه أراد به سيده العزيز، والمعنى: أنه يعلم براءتي. وقد روي عن نبينا ﷺ أنه استحسَنَ حزم يوسف وصبره عن التسرع إلى الخروج، فقال ﷺ: «إِنَّ الْكَرِيمَ ابْنَ الْكَرِيمِ [ابن الكريم] يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، لو لبثت في السجن ما لبث يوسف، ثم جاءني الداعي لأجبت^(٣)». وفي ذكره للنسوة دون امرأة العزيز أربعة أقوال: أحدها: أنه خلطها بالنسوة، لحسن عشرة فيه وأدب، قاله الزجاج. والثاني: لأنها زوجة ملك، فصانها. والثالث: لأن النسوة شاهدات عليها له. والرابع: لأن في ذكره لها نوع تهمة، ذكر الأقوال الثلاثة الماوردي. قال المفسرون: فرجع الرسول إلى الملك برسالة يوسف، فدعا الملك النسوة وفيهن امرأة العزيز، فقال: ﴿مَا خَطَبُكُمْ﴾ أي: ما شأنكن وقصتكن ﴿إِذْ زَوَدْتَنِي يُوسُفُ﴾. فإن قيل: إنما راودته واحدة، فلم جمعهن؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه جمعهن في السؤال ليعلم عين المراودة. والثاني: أن أزيخا راودته على نفسه، وراوده باقي النسوة على القبول منها. والثالث: أنه

(١) البيت لأبي زيد الطائي من قصيدة يرثي بها اللجج ابن أخته وكان من أحب الناس إليه، وهو في «الطبري» ٢٣٣/١٢، و«مجاز القرآن» ١/٣١٣، و«الانتصاب» ٣٩٠، و«القرطبي» ٩/٢٠٥، و«اللسان»: عصر.

(٢) البيت لعدي بن زيد، في «الكتاب» ١/٤٦٢، و«مجاز القرآن» ١/٣١٤، و«الجمهرة» ٢/١٥٤، و«اللسان»، و«التاج»: عصر، و«المنهاج» ٤/٤٥٤، و«شواهد المنهاج» ٢٥٥، و«الخرائفة» ٣/٥٩٤ و ٤/٤٦٠، ٥٢٤.

(٣) «الترمذي» ١٢٩/٢ من حديث أبي هريرة، وقال: حديث حسن. ورواه البخاري ٢٧٧/٨، عن أبي هريرة بهذا الصدد بلفظ: «لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي». ورواه مسلم ١/١٣٣ و ٤/١٨٣٩ بنحو حديث البخاري.

جمعهم في الخطاب، والمعنى لواحدة منهم، لأنه قد يقع على النوع وصف الجنس إذا أمن من اللبس، يدل عليه قول النبي ﷺ للنساء: «إنكن أكثر أهل النار»^(١)، فجمعهم في الخطاب والمعنى لبعضهم، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَيْفَ لِي بِأَنْتُمْ﴾ قال الزجاج: قرأ الحسن بتسكين الشين، ولا اختلاف بين النحويين أن الإسكان غير جائز، لأن الجمع بين ساكنين لا يجوز، ولا هو من كلام العرب. فأعلم النسوة الملك براءة يوسف من سوء، فقالت امرأة العزيز: ﴿الْفَنِّ حَصَحَ الْحَقُّ﴾ أي: برز وتبين، واشتقاقه في اللغة من الحصّة، أي: بانت حصة الحق وجهته من حصة جهة الباطل. وقال ابن القاسم: «حصحص» بمعنى وضح وانكشف، تقول العرب: حصحص البعير في بروكه: إذا تمكن، وأثر في الأرض، وفرّق الحصى. وللمفسرين في ابتداء أزليخا بالإقرار قولان: أحدهما: أنها لما رأت النسوة قد برّأته، قالت: لم يبق إلا أن يُقيل عليّ بالتقرير، فأقرت، قاله الفراء. والثاني: أنها أظهرت التوبة وحققت صدق يوسف، قاله الماوردي.

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَتَى لَمْ أَخْتَهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَتَى لَمْ أَخْتَهُ بِالْغَيْبِ﴾ قال مقاتل: «ذلك» بمعنى هذا. وقال ابن الأنباري: قال اللغويون: هذا وذلك يصلحان في هذا الموضع وأشباهه، لقرب الخير من أصحابه، فصار كالمشاهد الذي يشار إليه بهذا، ولما كان متقضيّاً، أمكن أن يشار إليه بذلك، ون المتقضي كالفائب. واختلفوا في القائل لهذا على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يوسف، وهو من أغمض ما يأتي من الكلام أن تحكي عن شخص شيئاً ثم تصله بالحكاية عن آخر، ونظير هذا قوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَمْرُكُ مِنْ أَتَيْكُمْ﴾ [الأعراف: ١١٠] هذا قول الملا: ﴿فَتَادَا تَأْمُرُونَ﴾ قول فرعون. ومثله: ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَةَ أَهْلِهَا أَذًى﴾ [النمل: ٢٤] هذا قول بلقيس: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ قول الله تعالى. ومثله: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدًا﴾ [يس: ٥٢] هذا قول الكفار، فقالت الملائكة: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ وإنما يجوز مثل هذا في الكلام، لظهور الدلالة على المعنى واختلفوا، أين قال يوسف هذا؟ على قولين: أحدهما: أنه لما رجع الساقى إلى يوسف فأخبره وهو في السجن بجواب امرأة العزيز والنسوة للملك، قال حينئذٍ: «ذلك ليعلم»، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال ابن جريج. والثاني: أنه قاله بعد حضوره مجلس الملك، رواه عطاء عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ أي: ذلك الذي فعلت من ردّي رسول الملك، ليعلم. واختلفوا في المشار إليه بقوله: «ليعلم» وقوله: ﴿لَمْ أَخْتَهُ﴾ على أربعة أقوال: أحدها: أنه العزيز، والمعنى: ليعلم العزيز أنني لم أخته في امرأته ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: إذا غاب عني، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن، ومجاهد، وقتادة، والجمهور. والثاني: أن المشار إليه بقوله: «ليعلم» الملك، والمشار إليه بقوله: «لم أخته» العزيز، والمعنى: ليعلم الملك أنني لم أخن العزيز في أهله بالغيب، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أن المشار إليه بالشين، الملك، فالمعنى: ليعلم الملك أنني لم أخن العزيز في أهله بالغيب، يعني الملك أيضاً، بالغيب. وفي وجه خيانة الملك في ذلك قولان: أحدهما: لكون العزيز وزيره، فالمعنى: لم أخنه في امرأة وزيره، قاله ابن الأنباري. والثاني: لم أخنه في بنت أخته، وكانت أزليخا بنت أخت الملك، قاله أبو سليمان الدمشقي. والرابع: أن المشار إليه بقوله: «ليعلم» الله، فالمعنى: ليعلم الله أنني لم أخنه، روي عن مجاهد، قال ابن الأنباري: نَسَبَ العلم إلى الله في الظاهر، وهو في المعنى للمخلوقين، كقوله: ﴿حَقٌّ تَأْتَرُ الْمُجَاهِدِينَ يَنْكُرُ﴾ [محمد: ٣١]. فإن قيل: إن كان يوسف قال هذا في مجلس الملك، فكيف قال: «ليعلم» ولم يقل: لتعلم، وهو يخاطبه؟ فالجواب: أنا إن قلنا: إنه كان حاضراً عند الملك، فإنما أثر الخطاب بالياء توقيراً للملك، كما يقول

(١) هذه قطعة من حديث طويل رواه البخاري ٣٤٥/١ من حديث أبي سعيد الخدري، بلفظ: «إني أرى أن أكثر أهل النار»، و«مسلم» ٨٦/١ من حديث عبد الله بن عمر، ولفظ مسلم بتمامه: «يا معشر النساء تصدقن وأكثرن من الاستغفار، فإني أراكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة منهن جزلة (ذات عقل وراي): وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدي لب متكن» قالت: يا رسول الله! وما نقصان العقل والدين؟ قال: «أما نقصان العقل، فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي ما تصلي، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين».

الرجل للوزير: إن رأى الوزير أن يوقع في قصتي. وإن قلنا: إنه كان غائباً، فلا وجه لدخول التاء، وكذلك إن قلنا: إنه عنى العزيز، والعزيز غائب عن مجلس الملك حينئذ. والقول الثاني: أنه قول امرأة العزيز، فعلى هذا يتصل بما قبله، والمعنى: ليعلم يوسف أنني لم أخنه في غيبته الآن بالكذب عليه. والثالث: أنه قول العزيز، والمعنى: ليعلم يوسف أنني لم أخنه بالغيب، فلم أغفل عن مجازاته على أمانته، حكى القولين الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾ قال ابن عباس: لا يصوب عمل الزناة، وقال غيره: لا يرشد من خان أمانته ويفضحه في عاقبه.

﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعْتُ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥٦) وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيهِ يَوْمَ اسْتَنْصَلْتُمُوهُ لِيُنْفِسَ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٧﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَصِيظٌ عَلَيْكَ ﴿٥٨﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ فَصُيِّبَ بِرَحْمَتٍ مِنْ رَبِّهِ وَلَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُتَصِفِينَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبْرِئُ﴾ في القائل لهذا ثلاثة أقوال، وهي التي تقدمت في الآية قبلها. فالذين قالوا: هو يوسف، اختلفوا في سبب قوله لذلك على خمسة أقوال: أحدها: أنه لما قال: ﴿لَعَلَّمْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ بِالْقَبْرِ﴾ غمزه جبريل، فقال: ولا حين هممت؟ فقال: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال الأكثرون. والثاني: أن يوسف لما قال: «لم أخنه» ذكر أنه قد هم بها فقال: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أنه لما قال ذلك، خاف أن يكون قد زغى نفسه، فقال: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾، قاله الحسن. والرابع: أنه لما قاله، قال له الملك الذي معه: اذكر ما هممت به، فقال: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾، قاله قتادة. والخامس: أنه لما قاله، قالت امرأة العزيز: ولا يوم حللت سراويلك؟ فقال: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾، قاله السدي. والذين قالوا: هذا قول امرأة العزيز، فالمعنى: وما أبرئ نفسي أنني كنت راودته. والذين قالوا: هو العزيز، فالمعنى: وما أبرئ نفسي من سوء الظن بيوسف، لأنه قد خطر لي.

قوله تعالى: ﴿لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ قرأ ابن عامر، وأهل الكوفة، ويعقوب إلا رويساً: «بالسوء إلا» بتحقيق الهمزتين. وقرأ أبو عمرو، وابن شبنوذ عن قبل بتحقيق الثانية وحذف الأولى. وروى تظيف عن قبل بتحقيق الأولى وقلب الثانية ياءً. وقرأ أبو جعفر، وورش، ورويس بتحقيق الأولى وتلين الثانية بين بين، مثل: «السُّوءَ عَلًّا». وروى ابن فليح بتحقيق الثانية وقلب الأولى واواً، وأدغمها في الواو التي قبلها، فتصير واواً مكسورة مشددة قبل همزة «إلا».

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا رَجَعْتُ رَبِّي﴾ قال ابن الأنباري: قال اللغويون: هذا استثناء منقطع، والمعنى: إلا أن رحمة ربي عليها المعتمد. قال أبو صالح عن ابن عباس: المعنى: إلا من عصم ربي. وقيل: «ما» بمعنى «من». قال الماوردي: ومن قال: هو قول امرأة العزيز، فالمعنى: إلا من رحم ربي في قهره لشهوته، أو في نزاعها عنه. ومن قال: هو قول العزيز، فالمعنى: إلا من رحم ربي بأن يكفيه سوء الظن، أو يشبته، فلا يعجل. قال ابن الأنباري: والقول بأن هذا قول يوسف، أصح، لوجهين: أحدهما: لأن العلماء عليه. والثاني: لأن المرأة كانت عابدة وثن، وما تضمنته الآية، أليق أن يكون قول يوسف من قول من لا يعرف الله ﷻ. وقال المفسرون: فلما تبين الملك عذر يوسف وعلم أمانته، قال: ﴿أَتُؤْتِيهِ يَوْمَ اسْتَنْصَلْتُمُوهُ لِيُنْفِسَ﴾ أي: أجعله خالصاً لي، لا يشركني فيه أحد. فإن قيل: فقد رويتم في بعض ما مضى أن يوسف قال في مجلس الملك: «ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب»، فكيف قال الملك: «أتؤتني به» وهو حاضر عنده؟! فالجواب: أن أرباب هذا القول يقولون: أمر الملك بإحضاره ليقفده الأعمال في غير المجلس الذي استحضره فيه لتعبير الرؤيا. قال وهب: لما دخل يوسف على الملك، وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً، كان كلما كلمه بلسان، أجابه يوسف بذلك اللسان، فعجب الملك، وكان يوسف يومئذ ابن ثلاثين سنة، فقال: إني أحب أن أسمع رؤياي منك شفاهاً، فذكرها له، قال: فما ترى أيها الصديق؟ قال: أرى أن تزور زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة، وتجمع الطعام، فيأتيك الناس فيمتارون، وتجمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد، فقال الملك: ومن لي بهذا؟ فقال يوسف: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾. قال ابن عباس: ويريد بقوله: ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: قد مكنتك في ملكي واتممتك فيه. وقال مقاتل: المكين: الوجه، والأمين: الحافظ.

قوله تعالى: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أي: خزائن أرضك. وفي المراد بالخزائن قولان: أحدهما: خزائن الأموال، قاله الضحاك، والزجاج. والثاني: خزائن الطعام فحسب، قاله ابن السائب. قال الزجاج: وإنما سأل ذلك، لأن الأنبياء بُعثوا بالعدل، فعلم أنه لا أحد أقوم بذلك منه. وفي قوله: ﴿إِنِّي حَافِظٌ عَلَيْكَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: حفيظ لما وليتني، عليم بالمجاعة متى تكون، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: حفيظ لما استودعني، عليم بهذه السنين، قاله الحسن. والثالث: حفيظ للحساب، عليم بالألسن، قاله السدي، وذلك أن الناس كانوا يردون على الملك من كل ناحية فيتكلمون بلغات مختلفة. واختلفوا، هل ولّاه الملك يومئذ، أم لا؟ على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ولّاه بعد سنة. روى الضحاك عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رحم الله أخي يوسف، لو لم يقل: اجعلني على خزائن الأرض، لاستعمله من ساعته، ولكنه أخر ذلك سنة». وذكر مقاتل أن النبي ﷺ قال: «لو أن يوسف قال إني حفيظ عليم إن شاء الله، لملك من وقته». قال مجاهد: أسلم الملك على يد يوسف. وقال أهل السير: أقام في بيت الملك سنة، فلما انصرمت، دعاه الملك، فتوجه، وردّاه بسيفه، وأمر له بسرير من ذهب، وضرب عليه كِلَّةٌ^(١) من إستبرق، فجلس على السرير كالقمر، ودانت له الملوك، ولزم الملك بيته، وفوّض أمره إليه، وعزل قُطَيفير عما كان عليه، وجعل يوسف مكانه، ثم إن قُطَيفير هلك في تلك الليالي، فزوَّج الملكُ يوسفَ بامرأة قُطَيفير، فلما دخل عليها، قال: أليس هذا خيراً مما تريد؟ فقالت: أيها الصديق لا تلمني، فإني كنت امرأة حسنة في مُلكٍ ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، فغلبتني نفسي، فلما بنى بها يوسف وجدها عذراء، فولدت له ابنتين، إفراهيم، وميشا، واستوسق له ملك مصر. والقول الثاني: أنه ملكه بعد سنة ونصف، حكاه مقاتل عن ابن عباس. والثالث: أنه سلّم إليه الأمر من وقته، قاله وهب، وابن السائب. فإن قيل: كيف قال يوسف: ﴿إِنِّي حَافِظٌ عَلَيْكَ﴾ ولم يقل: إن شاء الله؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن ترك الاستثناء أوجب عقوبة بأن أخر تمليكه، على ما ذكرنا عن النبي ﷺ. والثاني: أنه أضمر الاستثناء، كما أضمره في قولهم: ﴿وَيَكْبُرُ أَهْلُنَا﴾. والثالث: أنه أراد أن حفظي وعلمي يزيدان على حفظ غيري وعلمي، فلم يحتج هذا إلى الاستثناء، لعدم الشك فيه، ذكر هذه الأقوال ابن الأنباري. فإن قيل: كيف مدح نفسه بهذا القول، ومن شأن الأنبياء والصالحين التواضع؟ فالجواب: أنه لما خلا مدحه لنفسه من بغي وتكبر، وكان مراده به الوصول إلى حق يقيمه وعدل يحييه وجور يبطله، كان ذلك جميلاً جائزاً، وقد قال نبينا ﷺ: «أنا أكرم ولد آدم على ربه»^(٢)، وقال علي بن أبي طالب ﷺ: والله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليّل نزلت، أم بنهار. وقال ابن مسعود: لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته. فهذه الأشياء، خرجت مخرج الشكر لله، وتعريف المستفيد ما عند المفيد، ذكر هذا محمد بن القاسم. قال القاضي أبو يعلى: في قصة يوسف دلالة على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بالفضل عند من لا يعرفه، وأنه ليس من المحظور في قوله: ﴿فَلَا تَزْكُرُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ في الكلام محذوف، تقديره: اجعلني على خزائن الأرض، قال: قد فعلت، فحذف ذلك، لأن قوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ يدل عليه، والمعنى: ومثل ذلك الإنعام الذي أنعمنا عليه في دفع المكروه عنه، وتخليصه من السجن، وتقريبه من قلب الملك، أقدرناه على ما يريد في أرض مصر ﴿يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ قال ابن عباس: ينزل حيث أراد. وقرأ ابن كثير، والمفضل: «حيث نشاء» بالنون.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأُ بِرَبِّهَا﴾ أي: نخضع بنعمتنا من النبوة والنجاة ﴿مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُفِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني المؤمنين. يقال: إن يوسف باع أهل مصر الطعام بأموالهم، وحُلِيِّهم، ومواشيهم، وعقارهم، وعبيدهم، ثم بأولادهم، ثم برقابهم، ثم قال للملك: كيف ترى صنع ربي؟ فقال الملك: إنما نحن لك تبع، قال: فإني أشهد الله وأشهدك أنني قد اعتقت أهل مصر ورددت عليهم أملكهم. وكان يوسف لا يشبع في تلك الأيام، ويقول: إني أخاف أن أنسى الجائع.

(١) الكِلَّة: ستر رقيق يخاط شبه البيت يتوقى فيه من البعوض.

(٢) رواه الترمذي في «جامعه» ٢٠١/٢ عن أنس بن مالك ﷺ بلفظ: «أنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر» وقال: هذا حديث حسن غريب، وهو جزء من حديث طويل. وفي سنده الحسين بن يزيد الكوفي. قال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: لين الحديث.

﴿وَلَا تَجْرُ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَاَكَاوَا يَتَّقُونَ﴾ (٥٧)

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْرُ الْآخِرَةَ خَيْرٌ﴾ المعنى: ما تُعطي يوسف في الآخرة، خير مما أُعطيناه في الدنيا، وكذلك غيره من المؤمنين ممن سلك طريقه في الصبر.

﴿وَجَاءَ إِخْوَهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (٥٨)

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَهُ يُوسُفَ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس قال: لما فُوض الملك إلى يوسف أمر مصر، تَلَطَّف يوسف للناس، ولم يزل يدعوهم إلى الإسلام، فأمنوا به وأحبُّوه، فلما أصاب الناس القحط، نزل ذلك بأرض كنعان، فأرسل يعقوب ولده للميرة، وذاع أمر يوسف في الآفاق، وانتشر عدله ورحمته ورافته، فقال يعقوب: يا بني، إنه قد بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً، فانطلقوا إليه وأقروته مني السلام، وانتسبوا له لعله يعرفكم، فانطلقوا فدخلوا عليه، فعرفهم وأنكروه، فقال: من أين أقبلتم؟ قالوا: من أرض كنعان، ولنا شيخ يقال له: يعقوب، وهو يقرئك السلام، فبكى وعصر عينيه وقال: لعلكم جواسيس جئتم تنظرون عورة بلدي، فقالوا: لا والله، ولكننا من كنعان، أصابنا الجهد، فأمرنا أبونا أن نأتيك، فقد بلغه عنك خير، قال: فكم أنتم؟ قالوا: أحد عشر أخاً، وكنا اثني عشر فأكل أحدنا الذئب، قال: فمن يعلم صدقكم؟ اتنوني بأخيكم الذي من أبيكم. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: لما دخلوا عليه كلموه بالعبرانية، فأمر الترجمان فكلمهم ليشبه عليهم، فقال للترجمان: قل لهم: أنتم عيون، بعثكم ملككم لتتنظروا إلى أهل مصر فتخبرونه فيأتينا بالجنود، فقالوا: لا، ولكننا قوم لنا أب شيخ كبير، وكنا اثني عشر، فهلك منا واحد في الغنم، وقد خلقنا عند أبنائنا أخاً له من أمه، فقال: إن كنتم صادقين، فخلِّفوا عندي بعضكم رهناً، واتنوني بأخيكم، فحبس عنده شمعون. واختلفوا بماذا عرفهم يوسف على قولين: أحدهما: أنه عرفهم برويتهم، قاله ابن عباس. والثاني: أنه ما عرفهم حتى تعرَّفوا إليه، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ قال مقاتل: لا يعرفونه. وفي علَّة كونهم لم يعرفوه قولان: أحدهما: أنه جاوزه مقدِّرين أنه ملك كافر، فلم يتأملوا منه ما يزول به عنهم الشك. والثاني: أنهم عاينوا من زِيَّه وحليته ما كان سبباً لإنكارهم. وقد روى أبو صالح عن ابن عباس أنه كان لابساً ثياب حرير، وفي عنقه طوق من ذهب. فإن قيل: كيف يخفى من قد أُعطي نصف الحسن، وكيف يشبهه بغيره؟ فالجواب: أنهم فارقه طفلاً ورأوه كبيراً، والأحوال تتغير، وما توهموا أنه ينال هذه المرتبة. وقال ابن قتيبة: معنى كونه أُعطي نصف الحسن، أن الله جعل للحسن غاية وحداً، وجعله لمن شاء من خلقه، إما للملائكة، أو للجن، فجعل ليوسف نصف ذلك الحسن، فكانه كان حُسناً مقارباً لتلك الوجوه الحسنة، وليس كما يزعم الناس من أنه أُعطي هذا الحسن، وأُعطي الناس كلُّهم نصف الحسن.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ أَلَّا تَزَوَّجَ آتَى أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (٥٩) فَإِنْ لَر تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ (٦٠)

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ يقال: جهَّزت القوم تجهيزاً: إذا هيأت لهم ما يصلحهم، وجهاز البيت: متاعه. قال المفسرون: حمل لكل رجل منهم بعيراً، وقال: ﴿أَلَّا تَزَوَّجَ آتَى أَوْفَى الْكَيْلِ﴾ أي: أتمه ولا أبخسه، ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ يعني: المضيفين، وذلك أنه أحسن ضيافتهم. ثم أوعدهم على ترك الإتيان بأخيهم، فقال: ﴿فَإِنْ لَر تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه يعني به؛ فيما بعد، وهو قول الأكثرين. والثاني: أنه منعهم الكيل في الحال، قاله وهب بن منبه.

﴿قَالُوا سَرَوْهُ عَنْهُ آبَاؤُا وَنَا لَنَلْبَسُنَّ﴾ (٦١)

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَرَوْهُ عَنْهُ آبَاؤُا﴾ أي: نطلبه منه، والمرادة: الاجتهاد في الطلب. وفي قوله: ﴿وَنَا لَنَلْبَسُنَّ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن المعنى: وإنا لجاوؤوك به، وضامنون لك المجيء به، هذا مذهب الكلبي. والثاني: أنه تركيد، قاله الزجاج، فعلى هذا، يكون الفعل الذي ضمنوه عائداً إلى المرادة، فيصح معنى التوكيد. والثالث: وإنا لمديمون المطالبة به لأبنائنا، ومتابعون المشورة عليه بتوجيهه، وهذا غير المرادة، ذكره ابن الأنباري. فإن قيل: كيف جاز

ليوسف أن يطلب أخاه، وهو يعلم ما في ذلك من إدخال الحزن على أبيه؟ فعنه خمسة أجوبة: أحدها: أنه يجوز أن يكون ذلك بأمر من الله تعالى زيادة لبلاء يعقوب ليعظم ثوابه، وهذا الأظهر. والثاني: أنه طلبه لا ليجسه، فلما عرفه قال: لا أفارقك يا يوسف، قال: لا يمكنني حبسك إلا أن أنسبك إلى أمر فظيع، قال: افعل ما بدا لك، قاله كعب. والثالث: أن يكون قصد تنبيه يعقوب بذلك على حال يوسف. والرابع: ليتضاعف سرور يعقوب برجع ولديه. والخامس: ليعجل سرور أخيه باجتماعه به قبل إخوته. وكل هذه الأجوبة مدخولة، إلا الأولى، فإنه الصحيح. ويدل عليه ما روي عن وهب بن منبه، قال: لما جمع الله بين يوسف ويعقوب، قال له يعقوب: بيني وبينك هذه المسافة القريبة، ولم تكتب إليّ تعرفني؟! فقال: إن جبريل أمرني أن لا أعرفك، فقال له: سل جبريل، فسأله، فقال: إن الله أمرني بذلك، فقال: سل ربك، فسأله، فقال: قل ليعقوب: خفت عليه الذنب، ولم تؤمني؟.

﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا يَصْنَعَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْفِقُونَ إِذَا أَنْفَلَكُوا إِلَيْكَ أَهْلَهُمْ فَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٦٦)

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: «لفتيته». وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿لِفَتْيَانِهِ﴾. قال أبو علي: الفتية جمع فتى في العدد القليل، والفتيان في الكثير. والمعنى: قال لغلمانهم: ﴿اجْعَلُوا يَصْنَعَهُمْ﴾ وهي التي اشتروا بها الطعام ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾، والرحل: كل شيء يُعَدُّ للرحيل. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْفِقُونَ﴾ أي: ليعرفوها ﴿إِذَا أَنْفَلَكُوا﴾ أي: رجعوا ﴿إِلَيْكَ أَهْلَهُمْ فَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لكي يرجعوا. وفي مقصوده بذلك خمسة أقوال: أحدها: أنه تخوف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى، فجعل دراهمهم في رحالهم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنه أراد أنهم إذا عرفوها، لم يستحلوا إمساكها حتى يردوها، قاله الضحاك. والثالث: أنه استقبح أخذ الثمن من والده وإخوته مع حاجتهم إليه، فردّه عليهم من حيث لا يعلمون سبب رده تكرماً وتفضلاً، ذكره ابن جرير الطبري، وأبو سليمان الدمشقي. والرابع: ليعلموا أن طلبه لعودهم لم يكن طمعاً في أموالهم، ذكره الماوردي. والخامس: أنه أراهم كرمه وبرّه ليكون ادعى إلى عودهم.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَيْكَ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَنَا الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَمُ لَحَافِظُونَ﴾ (٦٧) قَالَ هَلْ مَأْنَسْتُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَسْنَحْتُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ بَلِّ قَالَهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٦٨)

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَيْكَ أَبِيهِمْ﴾ قال المفسرون: لما عادوا إلى يعقوب، قالوا: يا أبانا، قَدِمْنَا على خير رجل، أنزلنا، وأكرمنا كرامة، لو كان رجلاً من ولد يعقوب ما أكرمنا كرامته. وفي قوله: ﴿مَنَعَنَا الْكَيْلَ﴾ قولان قد تقدما في قوله: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ [يوسف: ٦١]. فإن قلنا: إنه لم يكل لهم، فلفظ «منع» بين. وإن قلنا: إنه خوفهم منع الكيل، ففي المعنى قولان: أحدهما: حُكِمَ علينا بمنع الكيل بعد هذا الوقت، كما نقول للرجل: دخلت والله النار بما فعلت. والثاني: أن المعنى: يا أبانا يُمنع منا الكيل إن لم ترسله معنا، فتاب «منع» عن «يُمنع» بكوله: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَ﴾ (٦٧) [الهمزة: ٣] أي: يخلده وقوله: ﴿وَأَدَّاهُ أَصْحَابُ الْكَلْبِ﴾ [الأمراء: ٥٠]، ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى﴾ [المائدة: ١١٦] أي: وإذ يقول، ذكرهما ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنًا نَكْتَلُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «نكتل»، بالنون. وقرأ حمزة، والكسائي: «يكتل» بالياء. والمعنى: إن أرسلته معنا اكتلنا، وإلا فقد مُنعتنا الكيل.

قوله تعالى: ﴿هَلْ مَأْنَسْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: لا آمنكم إلا كامني على يوسف، يريد أنه لم ينفعه ذلك الأمن إذ خانوه. ﴿فَالله خير حفظاً﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «حفظاً»، والمعنى: خير حفظاً من حفظكم. وقرأ حمزة والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿خَيْرٌ حَفِظًا﴾ بالف. قال أبو علي: ونصبه على التمييز دون الحال.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِصَدَنَّهُمْ ثَدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُغِي هَذِهِ بِصَدَعْنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا وَنَبِغِي أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَنًا وَزَدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٌ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ (٦٩) قَالَ لَنْ أَرْسِلَ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا يَنْتَ اللَّهُ لَأَتُنْفِضَنَّ يَوْمَ لَا أَنْ يَحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا مَاتُوا مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (٧٠)

مَنْهُ إِنْ أَلَيْسَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ يعني أوعية الطعام ﴿وَجَدُوا بِضَاعَهُمْ﴾ التي حملوها ثمناً للطعام ﴿رُدَّتْ﴾. قال الزجاج: الأصل «رُودت»، فادغمت الدال الأولى في الثانية، وبقيت الراء مضمومة. ومن قرأ بكسر الراء جعل كسرتها منقولة من الدال، كما فعل ذلك في: قبل، وبيع، ليدل على أن أصل الدال الكسر.

قوله تعالى: ﴿مَا بَتَيْ﴾ في «ما» قولان: أحدهما: أنها استفهام، المعنى: أي شيء نبغي وقد رُدَّت بضاعتنا إلينا؟ والثاني: أنها نافية، المعنى: ما نبغي شيئاً، أي: لسنا نطلب منك دراهم نرجع بها إليه، بل تكفيننا هذه في الرجوع إليه، وأرادوا بذلك تطيب قلبه ليأذن لهم بالعود. وقرأ ابن مسعود، وابن يعمر، والجحدري، وأبو حية: «ما تبغي» بالطاء، على الخطاب ليعقوب.

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَهْلًا﴾ أي: نجلب لهم الطعام. قال ابن قتيبة: يقال: مار أهله يميزهم ميراً، وهو مائر لأهله: إذا حمل إليهم أقواتهم من غير بلده.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانًا﴾ فيه قولان: أحدهما: نحفظ أخانا بنيامين الذي ترسله معنا، قاله الأكثرون. والثاني: ونحفظ أخانا شمعون الذي أخذه رهينة عنده، قاله الضحاك عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَنَزِدَاكَ كَيْلَ بِعِيرٍ﴾ أي: وقر بعير، يعنون بذلك نصيب أخيه، لأن يوسف كان لا يعطي الواحد أكثر من جمل بعير.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ذلك كيل سريع، لا حيس فيه، يعنون: إذا جاء معنا، عجل الملك لنا الكيل، قاله مقاتل. والثاني: ذلك كيل سهل على الذي نمضي إليه، قاله الزجاج. والثالث: ذلك الذي جئناك به كيل يسير لا يقنعنا، قاله الماوردي.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى تُوَفَّقَ بِرَبِّكَ إِلَهُ﴾ أي: تعطوني عهداً أثق به، والمعنى: حتى تحلفوا لي بالله ﴿لَتَأْتِيَ بِكُمْ﴾ أي: لتُردنَّه إلي. قال ابن الأنباري: وهذه اللام جواب لمضمر، تلخيصه: وتقولوا: والله لتأتيني به.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَمْلَأَ بِكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن يهلك جميعكم، قاله مجاهد. والثاني: أن يُحال بينكم وبينه فلا تقدرون على الإتيان به، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَ مَوَاقِفَ﴾ أي: أعظوه العهد، وفيه قولان: أحدهما: أنهم حلفوا له بحق محمد ﷺ ومنزلته من ربه، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنهم حلفوا بالله تعالى^(١)، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَنَ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الشهيد. والثاني: كفيل بالوفاء، رؤيا عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَجِيرٍ﴾ قال المفسرون: لما تجهزوا للرحيل، قال لهم يعقوب: «لا تدخلوا» يعني مصر «من باب واحد». وفي المراد بهذا الباب قولان: أحدهما: أنه أراد باباً من أبواب مصر، وكان لمصر أربعة أبواب، قاله الجمهور. والثاني: أنه أراد الطرق لا الأبواب، قاله السدي، وروى نحوه أبو صالح عن ابن عباس. وفي ما أراد بذلك ثلاثة أقوال: أحدها: أنه خاف عليهم العين، وكانوا أولي جمال وقوة، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. والثاني: أنه خاف أن يُغتالوا لما ظهر لهم في أرض مصر من التهمة، قاله وهب بن منبه. والثالث: أنه أحب أن يلقوا يوسف في خلوة، قاله إبراهيم النخعي.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ رَبُّكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لن أدفع عنكم شيئاً قضاه الله، فإنه إن شاء أهلككم متفرقين، ومصداقه في الآية التي بعدها ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ رَبُّكَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ وهي إرادته أن

(١) وهو الذي عليه أكثر المفسرين.

يكون دخولهم كذلك شفقة عليهم. قال الزجاج: «إلا حاجة» استثناء ليس من الأول، والمعنى: لكن حاجة في نفس يعقوب قضاها. قال ابن عباس: «قضاها» أي: أبداها وتكلم بها.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا لَدُوْا عَلَيْهِمْ لَمَّا عَشْتُهُ﴾ فيه سبعة أقوال: أحدها: إنه حافظ لما علمناه، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: وإنه لدو علم أن دخولهم من أبواب متفرقة لا يغني عنهم من الله شيئاً، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثالث: وإنه لعامل بما علم، قاله قتادة. وقال ابن الأنباري: سمي العمل علماً، لأن العلم أول أسباب العمل. والرابع: وإنه لمتيقن لوعدها، قاله الضحاك. والخامس: وإنه لحافظ لوصيتنا، قاله ابن السائب. والسادس: وإنه لعالم بما علمناه أنه لا يصيب بنيه إلا ما قضاها الله، قاله مقاتل. والسابع: وإنه لدو علم لتعليمنا إياه، قاله الفراء.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَيْتَ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ يعني إخوته ﴿ءَاوَيْتَ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ يعني بنيامين، وكان أخاه لأبيه وأمه، قاله قتادة، وضمه إليه وأنزله معه. قال ابن قتيبة: يقال: آوَيْتُ فلاناً إِلَيَّ، بمد الألف: إذا ضممته إليك، وأوَيْتَ إلى بني فلان، بقصر الألف: إذا لجأت إليهم. وفي قوله: ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ قولان: أحدهما: أنهم لما دخلوا عليه حبسهم بالباب، وأدخل أخاه، فقال له: ما اسمك؟ فقال: بنيامين، قال: فما اسم أمك؟ قال: راحيل بنت لاوي، فوثب إليه فاعتقه، فقال: «إني أنا أخوك»، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وكذلك قال ابن إسحاق: أخبره أنه يوسف. والثاني: أنه لم يعترف له بذلك، وإنما قال: أنا أخوك مكان أخيك الهالك، قاله وهب بن منبه. وقيل: إنه أجلسهم كل اثنين على مائدة، فبقي بنيامين وحيداً يبكي، وقال: لو كان أخي حياً لأجلستني معه، فضمه يوسف إليه، وقال: إني أرى هذا وحيداً، فأجلسه معه على مائدته. فلما جاء الليل، نام كل اثنين على منام، فبقي وحيداً، فقال يوسف: هذا ينام معي. فلما خلا به، قال: هل لك أخ من أمك؟ قال: كان لي أخ من أمي فهلك، فقال: أتحب أن أكون أحاك بدل أخيك الهالك؟ فقال: أيها الملك، ومن يجد أخاً مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف، وقام إليه فاعتقه، وقال: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ يوسف ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ قال قتادة: لا تأس ولا تحزن، وقال الزجاج: لا تحزن ولا تستكين. قال ابن الأنباري: «تبتئس»: تفنعل، من البؤس، وهو الضُرُّ والشدة، أي: لا يلحقك بُؤس بالذي فعلوا.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم كانوا يعيرون يوسف وأخاه بعبادة جدهما أبي أمهم للأصنام، فقال: لا تبتئس بما كانوا يعملون من التعبير لنا، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: لا تحزن بما سيعملون بعد هذا الوقت حين يسرقونك، فتكون «كانوا» بمعنى «يكونون» قال الشاعر:

فَأَذْرَكْتُ مَنْ قَدْ كَانَ قَبْلِي وَلَمْ أَذْغِ
لِمَنْ كَانَ بَعْدِي فِي الْقَصَائِدِ مَضْعَاً

وقال آخر:

وَانْضَخْ جَوَانِبَ قَبْرِهِ بِدِمَائِهَا
فَلَقَدْ يَكُونُ أَحَادِمَ وَدَبَائِحِ

أراد: فقد كان، وهذا مذهب مقاتل. والثالث: لا تحزن بما عملوا من حسدنا، وحرصوا على صرف وجه أبنينا عنا، وإلى هذا المعنى ذهب ابن إسحاق.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا أَلْفٌ مِنْكُمْ لَسْرُوفُونَ﴾ ﴿٧١﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْعَلُونَ ﴿٧٢﴾ قَالُوا نَقِذْ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ قال المفسرون: أوفى لهم الكيل، وحمل لـ «بنيامين» بعيراً باسمه كما حمل لهم، وجعل السقاية في رحل أخيه، وهي الصواع، فهما اسمان واقعان على شيء واحد، كالْبُرِّ والحنطة، والمائدة والخوان. وقال بعضهم: الاسم الحقيقي: الصواع، والسقاية وصف، كما يقال: كوز، وإناء، فالاسم الخاص: الكوز. قال المفسرون: جعل يوسف ذلك الصاع مكيالاً لثلاث مكيال بغيره. وقيل: كال لإخوته بذلك، إكراماً لهم. قالوا: ولما ارتحل إخوة يوسف وأمعنوا، أرسل الطلب في أثرهم، فأدركوا وحبسوا، ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ قال الزجاج: أعلم مُعْلَم، يقال: أذنته بالشيء، فهو مؤذن به، أي: أعلمته، وأذنت: أكثرت الإعلام بالشيء، يعني: أنه إعلام بعد إعلام. ﴿أَتَتْهَا

أَلَيْزُ؟ يريد: أهل العير، فأنث لأنه جعلها للعير. قال الفراء: لا يقال: عير، إلا لأصحاب الإبل. وقال أبو عبيدة: العير: الإبل المرحولة المركوبة. وقال ابن قتيبة: العير: القوم على الإبل. فإن قيل: كيف جاز ليوسف أن يُسرق من لم يسرق؟ فغته أربعة أجوبة: أحدها: أن المعنى: إنكم لسارقون يوسف حين قطعتموه عن أبيه وطرحتموه في الجب، قاله الزجاج. والثاني: أن المنادي نادى وهو لا يعلم أن يوسف أمر بوضع السقاية في رحل أخيه، فكان غير كاذب في قوله، قاله ابن جرير. والثالث: أن المنادي نادى بالتسريق لهم بغير أمر يوسف. والرابع: أن المعنى: إنكم لسارقون فيما يظهر لمن لم يعلم حقيقة أخباركم، كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْكَافِرُ﴾ [الدخان: ٤٩] أي: عند نفسك، لا عندنا، وقول النبي ﷺ: «كذب إبراهيم ثلاث كذبات»^(١) أي: قال قولاً يشبه الكذب، وليس به.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾ يعني: إخوة يوسف ﴿وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: على المؤذن وأصحابه. والثاني: أقبل المنادي ومن معه على إخوة يوسف بالدعوى. ﴿مَاذَا تَقُولُونَ﴾ ما الذي ضلّ عنكم؟ ﴿قَالُوا نَقُولُ صَوَاعَ الْمَلِكِ﴾ قال الزجاج: الصواع هو الصاع بعينه، وهو يذکر ويؤنث، وكذلك الصاع يذکر ويؤنث. وقد قرئ: «صياح» بياء، وقرئ: «صوغ» بغير معجمة، وقرئ: «صوع» بغير غير معجمة مع فتح الصاد، وضمها، وقرأ أبو هريرة: «صاع الملك» وكل هذه لغات ترجع إلى معنى واحد، إلا أن الصوغ، بالغين المعجمة، مصدر صغت، وُصف الإناء به، لأنه كان مصوغاً من ذهب. واختلفوا في جنسه على خمسة أقوال: أحدها: أنه كان قدحاً من زبرجد. والثاني: أنه كان من نحاس، روي عن ابن عباس. والثالث: أنه كان شربة من فضة مرصعة بالجواهر، قاله عكرمة. والرابع: كان كأساً من ذهب، قاله ابن زيد. والخامس: كان من مس^(٢)، حكاه الزجاج. وفي صفة قولان: أحدهما: أنه كان مستطيلاً يشبه الموك. والثاني: أنه كان يشبه الطاس.

قوله تعالى: ﴿وَلَمِنْ جَلَاءِ يَوْمٍ﴾ يعني الصواع ﴿جَلَّ بَيْرٍ﴾ من الطعام ﴿وَأَنَا يَوْمَ زَعِيمٍ﴾ أي: كفيل لمن رده بالجميل، بقوله المؤذن.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفَيْدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مِمَّنْ رَزَقُوا فِي رَحْمَةٍ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ قال الزجاج: «تالله» بمعنى: والله، إلا أن التاء لا يقسم بها إلا في الله ﷻ. ولا يجوز تالرحمن لأفعلن، ولا: تربى لأفعلن. والتاء تُبدل من الواو، كما قالوا في وراث: تراث، وقالوا: يتزّن، وأصله: يوترن، من الوزن. قل ابن الأنباري: أبدلت التاء من الواو، كما أبدلت في التخمّة والتراث والتجاء، وأصلهن من الوخمة والوراث والوجه، لأنهن من الوخامة والوراث والوجه. ولا تقول العرب: تالرحمن، كما قال: تالله، لأن الاستعمال في الإقسام كثر بالله، ولم يكن بالرحمن، فجاءت التاء بدلاً من الواو في الموضع الذي يكثر استعماله.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ يعنون يوسف ﴿مَا جِئْنَا لِنُفَيْدَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لنظلم أحداً أو نسرق. فإن قيل: كيف حلفوا على عليم قوم لا يعرفونهم؟ فالجواب من ثلاثة أوجه: أحدها: أنهم قالوا ذلك، لأنهم ردّوا الدراهم ولم يستحلّوها، فالمعنى: لقد علمتم أنا ردّدنا عليكم دراهمكم وهي أكثر من ثمن الصاع، فكيف نستحل صاعكم، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مقاتل. والثاني: لأنهم لما دخلوا مصر كعموا^(٣) أفواه إبلهم وحميرهم حتى لا تتناول شيئاً، وكان غيرهم لا يفعل ذلك، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أن أهل مصر كانوا قد عرفوهم أنهم لا يظلمون أحداً.

قوله تعالى: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ المعنى: قال المنادي وأصحابه: فما جزاؤه. قال الأخفش: إن شئت رددت الكناية إلى السارق، وإن شئت رددتها إلى السرق.

(١) انظر حديث الشفاعة الطويل، البخاري ٣٠٠/٨، ومسلم ١٨٤/١. والكذبات الثلاث، قوله: ﴿قَالَ إِنِّي سَيِّئٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبْتُمْ عَنْهَا﴾ وقوله في سارة زوجته: «أختي».

(٢) في «اللسان»: المس: النحاس.

(٣) كعم البعير: شد فاه، وقيل: شد فاه في هياجه لئلا يعض أو يأكل، والكعام: ما كعمه به.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ أي: في قولكم: ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾. ﴿قَالُوا﴾ يعني: إخوة يوسف ﴿جَزَاءُ مَنْ يُدِيرُ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ أي: يُستَعْبَدُ بذلك. قال ابن عباس: وهذه كانت سُنة آل يعقوب.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاؤِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاةِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَتَهُ مِمَّنْ نَشَاءُ وَتَوَقَّى كُلُّ دَنِيٍّ عِلْمَ عِلْمِهِ﴾ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ﴾ قال المفسرون: انصرف بهم المؤذن إلى يوسف، وقال: لا بد من تفتيش أمتعتكم، ﴿فَبَدَأَ﴾ يوسف ﴿بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاؤِ أَخِيهِ﴾ لإزالة التهمة، فلما وصل إلى وعاء أخيه، قال: ما أظن هذا أخذ شيئاً، فقالوا: والله لا نبرح حتى ننظر في رحله، فهو أطيب لنفسك. فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا﴾ وفي هاء الكناية ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى السرقة، قاله الفراء. والثاني: إلى السقاية، قاله الزجاج. والثالث: إلى الصواع على لغة من أثنه، ذكره ابن الأنباري. قال المفسرون: فأقبلوا على بنيامين، وقالوا: أي شيء صنعت؟! فضحتنا وأزريت بأبيك الصديق، فقال: وضع هذا في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالك، وقد كان يوسف أخبر أخاه بما يريد أن يصنع به.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: كذلك صنعنا له، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثاني: احتلنا له، والكيد: الحيلة، قاله ابن قتبية. والثالث: أردنا ليوسف، ذكره ابن القاسم. والرابع: دبرنا له بأن ألهمناه ما فعل بأخيه ليتوصل إلى حبسه. قال ابن الأنباري: لما دبر الله ليوسف ما دبر من ارتفاع المنزلة وكمال النعمة على غير ما ظن إخوته، شبه بالكيد من المخلوقين، لأنهم يسترون ما يكيّدون به عمن يكيّدونه.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ في الرماد بالدين هاهنا قولان: أحدهما: أنه السلطان، فالمعنى: في سلطان الملك، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنه القضاء، فالمعنى: في قضاء الملك، لأن قضاء الملك أن من سرق إنما يضرب ويغرّم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وبيانه أنه لو أجرى أخاه على حكم الملك ما أمكنه حبسه، لأن حكم الملك الغرم والضرب فحسب، فأجرى الله على السنة إخوته أن جزاء السارق الاسترقاق، فكان ذلك مما كاد الله ليوسف لطفاً حتى أظهره بمراده بمشيئة الله، فذلك معنى قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾. وقيل: إلا أن يشاء الله إظهار علة يستحق بها أخاه.

قوله تعالى: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَتَهُ مِمَّنْ نَشَاءُ﴾ وقرأ يعقوب «يرفع درجات من يشاء» بالياء فيهما. وقرأ أهل الكوفة «درجات» بالتنونين، والمعنى: نرفع الدرجات بصنوف العطاء، وأنواع الكرامات، وأبواب العلوم، وقهر الهوى، والتوفيق للهدى، كما رفعنا يوسف. ﴿وَوَقَّى كُلُّ دَنِيٍّ عِلْمَ عِلْمِهِ﴾ أي: فوق كل ذي علم رفعه الله بالعلم من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى، والكمال في العلم معدوم من غيره. وفي مقصود هذا الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أن المعنى: يوسف أعلم من إخوته، وفوقه من هو أعلم منه. والثاني: أنه نبّه على تعظيم العلم، ويبيّن أنه أكثر من أن يحاط به. والثالث: أنه تعليم للعالم التواضع لثلاثي يعجب.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَحْنَا يُوسُفَ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَاثِرٍ﴾ ﴿٧٧﴾

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ قَالُوا يَبْنَؤُهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْخَائِبِينَ﴾ ﴿٧٩﴾ قَالَ مَكَانَهُ اللَّهُ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عَنْدهُ إِنَّا إِذَا نَطْلُبُوهُ ﴿٨٠﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾ يعني: إخوة يوسف: ﴿إِنْ يَسْرِقْ﴾ يعنون بنيامين ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعنون يوسف. قال المفسرون: عوقب يوسف ثلاث مرات، قال للساقى: ﴿أَذْكَرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ فلبث في السجن بضعة سنين، وقال للعزير: ﴿يَلْعَلْ أَنَّى لَمْ أَغْنَهُ بِالْغَنِيِّ﴾، فقال له جبريل: ولا حين هممت؟ فقال: ﴿وَمَا أَزِيئُ نَفْسِي﴾، وقال لإخوته: ﴿إِنكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، فقالوا: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾. وفي ما عنوا بهذه السرقة سبعة أقوال: أحدها: أنه كان يسرق الطعام من مائدة أبيه في سني المجاعة، فطعمه للمساكين، رواه عطاء عن ابن عباس. والثاني: أنه سرق مكحلة لخالته، رواه أبو مالك عن ابن عباس. والثالث: أنه سرق صنماً لجده أبي أمه، فكسره وألقاه

في الطريق، فعبره إخوته بذلك، قاله سعيد بن جبير، وهب بن منبه، وقتادة. والرابع: أن عمه يوسف - وكانت أكبر ولد إسحاق - كانت تحضن يوسف تحبه حباً شديداً، فلما ترعرع، طلبه يعقوب، فقالت: ما أقدر أن يغيب عني، فقال: والله ما أنا بباركه، فعمدت إلى منطقة إسحاق، فربطتها على يوسف تحت ثيابه، ثم قالت: لقد فقدت منطقة إسحاق، فانظروا من أخذها، فوجدوها مع يوسف، فأخبرت يعقوب بذلك، وقالت: والله إنه لي أصنع فيه ما شئت، فقال: أنت وذاك، فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت، فذاك الذي عبره به إخوته، رواه ابن أبي نجيع عن مجاهد. والخامس: أنه جاءه سائل يوماً، فسرق شيئاً، فأعطاه السائل، فعبروه بذلك. وفي ذلك الشيء ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان بيضة، قاله مجاهد. والثاني: أنه شاة، قاله كعب. والثالث: دجاجة، قاله سفيان بن عيينة. والسادس: أن بني يعقوب كانوا على طعام، فنظر يوسف إلى عرق، فخبأه، فعبروه بذلك، قاله عطية العوفي، وإدريس الأودي. قال ابن الأنباري: وليس في هذه الأفعال كلها ما يوجب السرقة، لكنها تشبه السرقة، فعبره إخوته بذلك عند الغضب. والسابع: أنهم كذبوا عليه فيما نسبوه إليه، قاله الحسن. وقرأ أبو رزين، وابن أبي عبله: «فقد سُرِق» بضم السين وكسر الراء وتشديدها.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي قَبْرِهِ﴾ في هاء الكناية ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الكلمة التي ذكرت بعد هذا، وهي قوله: ﴿أَنْتَ سَرَّ مَكَانًا﴾، روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنها ترجع إلى الكلمة التي قالوها في حقه، وهي قولهم: ﴿فَقَدْ سَرَّكَ أَحْ لَمْ يَنْ قَبْلُ﴾، وهذا معنى قول أبي صالح عن ابن عباس، فعلى هذا يكون المعنى: أسر جواب الكلمة فلم يجبهم عليها. والثالث: أنها ترجع إلى الحجة، المعنى: فأسر الاحتجاج عليهم في ادعائهم عليه السرقة، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿أَنْتَ سَرَّ مَكَانًا﴾ فيه قولان: أحدهما: سر صنيعاً من يوسف لما قدمتم عليه من ظلم أخيكم وعقوق أبيكم، قاله ابن عباس. والثاني: سر منزلة عند الله، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: تقولون، قاله مجاهد. والثاني: بما تكذبون، قاله قتادة. قال الزجاج: المعنى: والله أعلم أسرق أخ له، أم لا. وذكر بعض المفسرين أنه لما استخرج الصواع من رحل أخيه، نقر الصواع، ثم أذنه من أذنه، فقال: إن صواعي هذا يخبرني أنكم كنتم اثني عشر رجلاً، وأنكم انطلقتم بأخ لكم فبعتموه، فقال بنيامين: أيها الملك، سل صواعك عن أخي، أحي هو؟ فقهره، ثم قال: هو حي، وسوف تراه، فقال: سل صواعك، من جعله في رحلي؟ فقهر، وقال: إن صواعي هذا غضبان، وهو يقول: كيف تسألني عن صاحبي وقد رأيت مع من كنت؟ فغضب روبيل، وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا، فإذا مس أحدهم الآخر ذهب غضبه، فقال: والله أيها الملك لتتركنا، أو لأصيحن صيحة لا يبقى بمصر امرأة حامل إلا ألقت ما في بطنها، فقال يوسف لابنه: قم إلى جنب روبيل فامسه، ففعل الغلام، فذهب غضبه، فقال روبيل: ما هذا؟ إن في هذا البلد من ذرية يعقوب؟ قال يوسف: ومن يعقوب؟ فقال: أيها الملك، لا تذكر يعقوب، فإنه إسرائيل الله ابن ذبيح الله ابن خليل الله. فلما لم يجدوا إلى خلاص أخيهم سبيلاً، سألوه أن يأخذ منهم بدلاً به، فذلك قوله: ﴿يَكُنْ لَهُمُ الْغُرُزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أي: في سنه، وقيل: في قدره، ﴿فَخَذَ أَمَدًا مَكَانَهُ﴾ أي: تستعبده بدلاً عنه ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: فيما مضى. والثاني: إن فعلت. ﴿قَالَ مَكَدًا اللَّهُ﴾ قد سبق تفسيره [يوسف: ٢٣]، والمعنى: أعوذ بالله أن نأخذ بريئاً بسيقم.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ حَكَمُوا بِحُكْمٍ قَالَتْ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَكُنْ أَمَّاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَافِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا قَرْنْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِیَ أَبَوْ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيْكُم فَقُولُوا بِتَابَاتٍ إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْعَذَابِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ﴾ أي: أيسوا. وفي هاء «منه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى يوسف، فالمعنى: يشوا من يوسف أن يخلي سبيل أخيه. والثاني: إلى أخيه، فالمعنى: يشوا من أخيه.

قوله تعالى: ﴿حَكَمُوا بِحُكْمٍ﴾ أي: اعتزلوا الناس ليس معهم غيرهم، يتناجون ويتناظرون ويتشاورون، يقال: قوم نجى، والجمع أنجية، قال الشاعر:

إِنِّي إِذَا مَا الْقَوْمَ كَانُوا أَنْجِيَهُ
وَاضْطَرَّيْتُ أَغْنَأُفَهُمْ كَالْأَرْشِيَةِ^(١)
وإنما وُحِدَ «نجياً» لأنه يجري مجرى المصدر الذي يكون للثنين والجمع والمؤنث بلفظ واحد. وقال الزجاج: انفردوا متجاجين فيما يعملون في ذهابهم إلى أبيهم وليس معهم أخوهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه كبيرهم في العقل، ثم فيه قولان: أحدهما: أنه يهوذا، ولم يكن أكبرهم سناً، وإنما كان أكبرهم سناً روبيل، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الضحاك، ومقاتل. والثاني: أنه شمعون، قاله مجاهد. والثاني: أنه كبيرهم في السن وهو روبيل، قاله قتادة، والسدي.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَافَاً مِنَ اللَّهِ﴾ في حفظ أخيكم وردّه إليه ﴿وَمِنْ قَبْلِ مَا فَرَطْتُمْ فِي يَوْشَفَ﴾ قال الفراء: «ما» في موضع رفع، كأنه قال: ومن قبل هذا تفريطكم في يوسف، وإن شئت جعلتها نصباً، المعنى: ألم تعلموا هذا، وتعلموا من قبل تفريطكم في يوسف. وإن شئت جعلت «ما» صلة، كأنه قال: ومن قبل فرطتم في يوسف. قال الزجاج: وهذا أجود الوجوه، أن تكون «ما» لغوياً.

قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أُنَبِّئَكَ الْآنَ﴾ أي: لن أخرج من أرض مصر، يقال: بَرِحَ الرجل بَرَحاً: إذا تنحى عن موضعه. ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ بِهَا﴾ قال ابن عباس: حتى يبعث إلي أن أتيه، ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أو يحكم الله لي، فیردُّ أخي علي. والثاني: يحكم الله لي بالسيف، فأحارب من حبس أخي. والثالث: يقضي في أمري شيئاً، ﴿وَهُوَ خَيْرٌ الْحُكْمَيْنِ﴾ أي: أعدلهم وأفضلهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ سَرَقٌ﴾ وقرأ ابن عباس، والضحاك، وابن أبي سريج عن الكسائي: «سُرِقٌ» بضم السين وتشديد الراء وكسرها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ فيه قولان: أحدهما: وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما علمنا، لأننا رأينا المسروق في رحله، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: وما شهدنا عند يوسف بأن السارق يؤخذ بسرقة إلا بما علمنا من دينك، قاله ابن زيد. وفي قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لَنَلْقِيَ حَفِظِينَ﴾ ثمانية أقوال: أحدها: أن الغيب هو الليل، والمعنى: لم نعلم ما صنع بالليل، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وهذا يدل على أن التهمة وقعت به ليلاً. والثاني: ما كنا نعلم أن ابنك يسرق، رواه ابن أبي نجيج عن مجاهد، وبه قال عكرمة، وقاتدة، ومكحول. قال ابن قتيبة: فالمعنى: لم نعلم الغيب حين أعطيناك الموثق لتأنيثك به أنه يسرق فيؤخذ. والثالث: لم نستطع أن نحفظه فلا يسرق، رواه عبد الوهاب عن مجاهد. والرابع: لم نعلم أنه سرق للملك شيئاً، ولذلك حكمنا باسترقاق السارق، قاله ابن زيد. والخامس: أن المعنى: قد رأينا السرقة قد أخذت من رحله، ولا علم لنا بالغيب فلعلهم سرّوه، قاله ابن إسحاق. والسادس: ما كنا لغير ابنك حافظين، إنما نقدر على حفظه في محضره، فإذا غاب عنا، خفيت عنا أموره. والسابع: لو علمنا من الغيب أن هذه البلية تقع بابنك ما سافرنا به، ذكرهما ابن الأنباري. والثامن: لم نعلم أنك تُصَابُ به كما أصبت بيوسف، ولو علمنا لم نذهب به، قاله ابن كيسان.

﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدُوقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾ المعنى: قولوا لأبيكم: سل أهل القرية ﴿الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ يعنون مصر ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقَلْنَا فِيهَا﴾ أي: وأهل العير، وكان قد صاحبهم قوم من الكنعانيين. قال ابن الأنباري: ويجوز أن يكون المعنى: وسل القرية والعير فإنها تعقل عنك لأنك نبي، والأنبياء قد تخاطبهم الأحجار والبهايم، فعلى هذا تسلم الآية من إضمار.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّيْتُ لَكُمُ أَنْفُسَكُمْ أَفَرَأَيْتُمْ فَصَرْتُمْ حَبِيلٌ عَنِ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جِمَاعٌ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

(١) البيت لسحيم بن وثيل البربوعي، كما في «اللسان»: نجا، وروايته فيه: «واضطرب القوم اضطراب الأرشي»، وهو غير منسوب في «مشكل القرآن» ٢٢٠، و«القرطبي» ٢٤١/٩. قال ابن بري: حكى القاضي الجرجاني عن الأصمعي وغيره: أنه يصف قوماً أتبعهم السير والسر، فرددوا على ركايبهم، واضطربوا عليها، وشد بعضهم على ناقته حذار سقوطه من عليها. وقيل: إنما ضربه مثلاً لتزلزل الأمر بهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ في الكلام اختصار، والمعنى: فرجعوا إلى أبيهم فقالوا له ذلك، فقال لم هذا، وقد شرحناه في أول السورة [يوسف: ١٨]. واختلفوا لأي علة قال لهم هذا القول، على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ظن أن الذي تخلف منهم، إنما تخلف حيلة ومكرًا ليصدّتهم، قاله وهب بن منبه. والثاني: أن المعنى: سوّلت لكم أنفسكم أن خروجكم بأخيكم يجلب نفعاً، فجرّ ضرراً، قاله ابن الأنباري. والثالث: سوّلت لكم أنه سرق، وما سرق. قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يعني: يوسف وبنيامين وأخاهما المقيم بمصر. وقال مقاتل: أقام بمصر يهودا وشمعون، فأراد بقوله: ﴿أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ﴾ يعني: الأربعة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ هُرِّقُوا بِاللَّيْلِ﴾ أي: بشدة حزني، وقيل: بمكانهم، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما حكم علي.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَكْفُفْ عَلَى يُوسُفَ وَأَيُّضَتَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَاطِمٌ ۝٨٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عن ولده أن يطيل معهم الخطب، وانفرد بحزنه، وهجّ عليه ذكر يوسف ﴿وَقَالَ يَكْفُفْ عَلَى يُوسُفَ﴾ قال ابن عباس: يا طول حزني على يوسف. قال ابن قتيبة: الأسف: أشد الحسرة. قال سعيد بن جبیر: لقد أعطيت هذه الأمة عند المصيبة ما لم يُعط الأنبياء قبلهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَلِنَا إِلَيْهِ رُجُوعٌ﴾ [البقرة: ١٥٦]، ولو أعطيتها الأنبياء لأعطيتها يعقوب؛ إذ يقول: ﴿يَكْفُفْ عَلَى يُوسُفَ﴾. فإن قيل: هذا لفظ الشكوى، فأين الصبر؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أنه شكاً إلى الله تعالى، لا منه. والثاني: أنه أراد به الدعاء، فالمعنى: يا رب ارحم أسفي على يوسف. وذكر ابن الأنباري عن بعض اللغويين أنه قال: نداء يعقوب الأسف في اللفظ من المجاز الذي يُعنى به غير المظهر في اللفظ، وتلخيصه: يا إلهي ارحم أسفي، أو أنت راء أسفي، وهذا أسفي، فنادى الأسف في اللفظ، والمنادى في المعنى سواء، كما قال: «يا حسرتنا» والمعنى: يا هؤلاء تنهوا على حسرتنا، قال: والحزن ونفور النفس من المكروه والبلاء لا عيب فيه ولا مائم إذا لم ينطق اللسان بكلام مؤثم ولم يشك إلا إلى ربه، فلما كان قوله: «يا أسفي» شكوى إلى ربه، كان غير ملوم. وقد روي عن الحسن أن أخاه مات، فجزع الحسن جزعاً شديداً، فعوتب في ذلك، فقال: ما وجدت الله عاب على يعقوب الحزن حيث قال: «يا أسفي على يوسف».

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّضَتَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ أي: انقلبت إلى حال البياض. وهل ذهب بصره، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أنه ذهب بصره، قاله مجاهد. والثاني: ضعف بصره لبياض تغشاه من كثرة البكاء، ذكره الماوردي. وقال مقاتل: لم يُبصر بعينه ست سنين. قال ابن عباس: وقوله: «من الحزن» أي: من البكاء، يريد أن عينيه ابيضتا لكثرة بكائه، فلما كان الحزن سبباً للبكاء، سمي البكاء حزناً. وقال ثابت البناني: دخل جبريل على يوسف، فقال: أيها الملك الكريم على ربه، هل لك علم بيعقوب؟ قال: نعم. قال: ما فعل، قال: ابيضت عيناه، قال: ما بلغ حزنه؟ قال: حزن سبعين ثكلى، قال: فهل له على ذلك من أجر؟ قال: أجر مائة شهيد. وقال الحسن البصري: ما فارق يعقوب الحزن ثمانين سنة، وما جفّت عينه، وما أحد يومئذ أكرم على الله منه حين ذهب بصره.

قوله تعالى: ﴿فَهُوَ كَاطِمٌ﴾ الكظيم بمعنى الكاظم، وهو الممسك على حزنه فلا يظهره، قاله ابن قتيبة. وقد شرحنا هذا عند قوله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْتَةَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَنُوا تَذَكَّرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ۝٨٦﴾ قُلْ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَهْرَنَ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٧﴾ يَبْنِي أَهْبُوا فَتَحْسَبُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَنُوا تَذَكَّرُ يُونُسَ﴾ قال ابن الأنباري: معناه: والله، وجواب هذا القسم «لا» المضمرة التي تأويلها: تالله لا تفتن، فلما كان موضعها معلوماً خفف الكلام بسقوطها من ظاهره، كما تقول العرب: والله أقصدك أبداً، يعنون: لا أقصدك، قال امرؤ القيس:

فَقُلْتُ يَمِينُ اللَّوْ أُبْرِحَ قَاعِدًا وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَذِيكَ وَأَوْصَالِي^(١)

(١) «ديوانه» ٣٢، «الطبري» ٤٢/١٣، «تأويل مشكل القرآن» ١٧٤، «الصناعتين» ١٣٨، «القرطبي» ٢٤٩/٩، «اللسان»: يمن.

يريد: لا أبرح، وقالت الخنساء:

فَأَقْسَمْتُ أَسَى عَلَى هَالِكِ

أرادت: لا أسى، وقال الآخر:

لَمْ يَشْعُرِ التُّغْثَى مَا عَلَيْهِ مِنَ الدِّ

تَاللَّهِ أَنْسَى مُصِيبَتِي أَبَدًا

أَوْ اسْأَلُ نَائِحَةً مَالَهَا^(١)

حُرْفِي وَلَا الْحَامِلُونَ مَا حَمَلُوا

مَا أَشْمَعَتْنِي حَزِينُهَا الْإِبِلُ

وقرأ أبو عمران، وابن محيصن، وأبو حيوة: «قالوا بالله» بالباء، وكذلك كل قَسَم في القرآن. وأما قوله: «فتفتأ» فقال المفسرون وأهل اللغة: معنى «فتفتأ» تزال، فمعنى الكلام: لا تزال تذكر يوسف، وأنشد أبو عبيدة:

فَمَا فَيَّئْتُ خَيْلَ ثُؤُبٍ وَتَدْعِي

وأنشد ابن القاسم:

فَمَا فَيَّئْتُ نِسَاءً رِعَالٌ كَانَتْهَا

رِعَالُ الْقَطَا حَتَّى اخْتَوَيْنَ بَنِي صَخْرٍ

قوله تعالى: «حَتَّى تَكُونَتْ حَرَمًا» فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه الدَّنْف، قاله أبو صالح عن ابن عباس. قال ابن قتيبة: يقال: أحرضه الحزن، أي: أدنفه. قال أبو عبيدة: الحرض: الذي قد أذابه الحزن أو الحب، وهي في موضع مُخْرَض. وأنشد:

إِنِّي امْرُؤٌ لَجَّ بِي حُبٌّ فَأَخْرَضَنِي

حَتَّى بَلَيْتُ وَحَتَّى شَفَّنِي السَّقَمُ^(٢)

أي: أذابني. وقال الزجاج: الحرض: الفاسد في جسمه، والمعنى: حتى تكون مدنفًا مريضًا. والثاني: أنه الذاهب العقل، قاله الضحاك عن ابن عباس. وقال ابن إسحاق: الفاسد العقل. قال الزجاج: وقد يكون الحرض: الفاسد في أخلاقه. والثالث: أنه الفاسد في جسمه وعقله، يقال: رجل حارض وحرض، فحارض يشئ ويجمع ويؤنث، وحرض لا يجمع ولا يشئ، لأنه مصدر، قاله الفراء. والرابع: أنه الهرم، قاله الحسن، وقتادة، وابن زيد.

قوله تعالى: «أَوْ تَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ» يعنون: الموتى. فإن قيل: كيف حلفوا على شيء يجوز أن يتغير؟ فالجواب: أن في الكلام إضماراً، تقديره: إن هذا في تقديرنا وظننا.

قوله تعالى: «إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي» قال ابن قتيبة: البئ: أشد الحزن، سمي بذلك، لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يئس.

قوله تعالى: «إِلَّا اللَّهُ» المعنى: إني لا أشكو إليكم، وذلك لما عثفه بما تقدم ذكره. وروى الحاكم أبو عبد الله في «صحيحه» من حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كان ليعقوب أخ مؤاخ، فقال له ذات يوم: يا يعقوب، ما الذي أذهب بصرك؟ وما الذي قوَّس ظهرك؟ قال: أمّا الذي أذهب بصري، فالبكاء على يوسف، وأما الذي قوَّس ظهري، فالحزن على بنيامين، فاتاه جبريل، فقال: يا يعقوب إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أما تستحي أن تشكو إلى غيري؟ فقال: إنما أشكو بني وحزني إلى الله، فقال جبريل: الله أعلم بما تشكو، ثم قال يعقوب: أي رب، أما ترحم الشيخ الكبير؟ أذهب بصري، وقوَّست ظهري، فاردد عليّ ريحاني أشمه شمة قبل الموت، ثم اصنع بي يا رب ما شئت، فاتاه جبريل، فقال: يا يعقوب، إن الله يقرأ عليك السلام ويقول: أبشر، فوعزتي لو كانا ميتين لنشترهما لك، اصنع طعاماً للمساكين، فإن أحب عبادي إليّ المساكين، وتدرى لم أذهب بصرك، وقوَّست ظهرك، وصنع إخوة يوسف بيوسف ما صنعوا؟ لأنكم ذبحتم شاة، فاتاكم فلان المسكين وهو صائم، فلم تطعموه منها. فكان يعقوب بعد

(١) «ديوانها» ١٢٠.

(٢) البيت لأوس بن حجر التميمي: «ديوانه» ٥٨ وقد استشهد به أبو عبيدة في «مجاز القرآن» ١/٣١٦، و«الطبري» ١٣/٣٩، و«شواهد الكشاف» ١٦٨.

(٣) البيت لعبد الله بن عمر بن عبد الله العرجي في «مجاز القرآن» ١/٣١٧، و«الطبري» ١٣/٤٢، و«الطبري» ٩/٢٥٠، و«الاشتقاق» ٤٨، و«السمط» ٤٢٢، و«الصالح»، و«اللسان»: حرض.

ذلك إذا أراد الغداء أمر منادياً فنادى: ألا من أراد الغداء من المساكين فليتغذَّ مع يعقوب، وإذا كان صائماً، أمر منادياً فنادى: من كان صائماً فليُفطر مع يعقوب»^(١). وقال وهب بن منبه: أوحى الله تعالى إلى يعقوب: أتدري لم عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة؟ قال: لا، قال: لأنك شويت عناقاً وقثرت على جارك وأكلت ولم تطعمه. وذكر بعضهم أن السبب في ذلك أن يعقوب ذبح عجل بقرة بين يديها، وهي تخور، فلم يرحمها. فإن قيل: كيف صبر يوسف عن أبيه بعد أن صار ملكاً؟ فقد ذكر المفسرون عنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه يجوز أن يكون ذلك عن أمر الله تعالى، وهو الأظهر. والثاني: لنلا يظن الملك بتعجيل استدعائه أهله، شدة فاقته. والثالث: أنه أحب بعد خروجه من السجن أن يدرج نفسه إلى كمال السرور. والصحيح أن ذلك كان عن أمر الله تعالى، ليرفع درجة يعقوب بالصبر على البلاء. وكان يوسف يلاقي من الحزن لأجل حزن أبيه عظيماً، ولا يقدر على دفع سببه.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ بِكَ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأنا سنسجد له، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أعلم من سلامة يوسف ما لا تعلمون. قال ابن السائب: وذلك أن ملك الموت أتاه، فقال له يعقوب: هل قبضت روح ابني يوسف؟ قال: لا. والثالث: أعلم من رحمة الله وقدرته ما لا تعلمون، قاله عطاء. والرابع: أنه لما أخبره بنوه بسيرة العزيز، طمع أن يكون هو يوسف، قاله السدي، قال: ولذلك قال لهم: ﴿أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا﴾. وقال وهب بن منبه: لما قال له ملك الموت: ما قبضت روح يوسف، تباشر عند ذلك، ثم أصبح، فقال لبنيه: ﴿أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾. قال أبو عبيدة: «تحسسوا» أي: تخبروا والتمسوا في المظان. فإن قيل: كيف قال: «من يوسف» والغالب أن يقال: تحسست عن كذا؟ فعنه جوابان ذكرهما ابن الأنباري: أحدهما: أن المعنى: عن يوسف، ولكن نابت عنها «من» كما تقول العرب: حدثني فلان من فلان، يعنون عنه. والثاني: أن «من» أوثرت للتبعض، والمعنى: تحسسوا خبراً من أخبار يوسف.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: من رحمة الله، قاله ابن عباس، والضحاك. والثاني: من فرج الله، قاله ابن زيد. والثالث: من توسعة الله، حكاه ابن القاسم. قال الأصمعي: الروح: الاستراحة من غم القلب. وقال أهل المعاني: لا تياسوا من الروح الذي يأتي به الله، ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ لأن المؤمن يرجو الله في الشدائد.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَّخِذُ الْكَرِيمُ مَسَنًا وَأَهْلَانَا الْفُرُّ وَحَنَّا يَضَعُهُ مُزْنَةً فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا قَعَلَمَ يُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَكُنْ لَنَا يُونُسُ قَالَ أَنَا يُونُسُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُتَحِينَ (٩٠) قَالُوا نَالَهُ لَقَدْ مَنَّكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطُولِينَ (٩١) قَالَ لَا تَقْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ بَغْوُ اللَّهِ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) أَذْهَبُوا يَقِيمِي هَذَا فَالْقَوْمُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصِيرَا وَأَتَوْهُ بِأَمْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣)

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ في الكلام محذوف، تقديره: فخرجوا إلى مصر، فدخلوا على يوسف، فـ ﴿قَالُوا يَتَّخِذُ الْكَرِيمُ﴾ وكانوا يسمون ملكهم بذلك، ﴿مَسَنًا وَأَهْلَانَا الْفُرُّ وَحَنَّا يَضَعُهُ مُزْنَةً﴾. وفي ماية تلك البضاعة سبعة أقوال: أحدها: أنها كانت دراهم، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنها كانت متاعاً رثاً كالجل والفرارة^(٢)، رواه ابن أبي مليكة عن ابن عباس. والثالث: كانت أقطاً^(٣) قاله الحسن. والرابع: كنت

(١) الحاكم في المستدرک ٣٤٨/٢ وقال: هكذا في سماعي بخط يد حفص بن عمر بن الزبير، وأظن الزبير وهماً من الراوي، فإنه حفص بن عمر بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري ابن أخي أنس بن مالك، فإن كان كذلك فالحديث صحيح، وقد رواه إسحاق بن راهويه مسلاً ١ هـ. وذكره ابن كثير في «التفسير» ٤٨٨/٢ من رواية ابن أبي حاتم، وقال: وهذا حديث غريب فيه تكارة. وخرجه الهيثمي في «المجمع» ٤٠/٧، وقال: رواه الطبراني في «التفسير» والأوسط عن شيخه محمد بن أحمد الباهلي البصري وهو ضعيف جداً. وأورده السيوطي في «الدرر» ٣٢/٤، وزاد نسبة لابن أبي الدنيا في كتاب «الفرج بعد الشدة»، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٢) الفرارة، بكسر الفين: الجوالق، واحدة الفرارة، وربما كان معرباً. (٣) الأقط؛ اللبن المجفف الذي لم يتزع زيده.

نعلاً وأدماً، رواه جوبير عن الضحاك. والخامس: كانت سوق المقل^(١)، روي عن الضحاك أيضاً. والسادس: حبة الخضراء وصنوبر، قاله أبو صالح. والسابع: كانت صوفاً وشيئاً من سمن، قاله عبد الله بن الحارث. وفي المزجاة خمسة أقوال: أحدها: أنها القليلة. روى العوفي عن ابن عباس قال: دراهم غير طائلة، وبه قال مجاهد، وابن إسحاق، وابن قتيبة. قال الزجاج: تأويله في اللغة أن التزجية: الشيء الذي يدافع به، يقال: فلان يزجي العيش، أي: يدفع بالقليل ويكتفي به، فالمعنى: جئنا ببضاعة إنما ندافع بها ونتقوت، وليست مما يتوسع به، قال الشاعر:

الْوَاهِبُ الْمَائَةِ الْهَجَانَ وَعَبْدَهَا عُوذًا تُزْجِي خَلْفَهَا أَظْفَالَهَا^(٢)

أي: تدفع أطفالها. والثاني: أنها الرديئة، رواه الضحاك عن ابن عباس. قال أبو عبيدة: إنما قيل للرديئة: مزجاة لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن ينفقها، قال: وهي من الإزجاء، والإزجاء عند العرب: السوق والدفع، وأنشد: لِيَبْنِكَ عَلَى مِلْحَانٍ ضَيْفٌ مُدْفَعٌ وَأَزْمَلَةٌ تُزْجِي مَعَ اللَّيْلِ أَرْمَلًا^(٣) أي: تسوقه. والثالث: الكاسدة، رواه الضحاك أيضاً عن ابن عباس. والرابع: الرثة، وهي المتاع الخلق، رواه ابن أبي مليكة عن ابن عباس. والخامس: الناقصة، رواه أبو حصين عن عكرمة.

قوله تعالى: ﴿فَأَوَّيْنَا لَكَ الْكَفْلَ﴾ أي: أتمه لنا ولا تنقصه لرداءة بضاعتنا. قوله تعالى: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: تصدق علينا بما بين سعر الجياد والرديئة، قاله سعيد بن جبير، والسدي. قال ابن الأنباري: كان الذي سألوه من المسامحة يشبه التصدق، وليس به. والثاني: برد أخينا، قاله ابن جريج، قال: وذلك أنهم كانوا أنبياء، والصدقة لا تحل للأنبياء. والثالث: وتصدق علينا بالزيادة على حقنا، قاله ابن عيينة، وذهب إلى أن الصدقة قد كانت تحل للأنبياء قبل نبينا ﷺ، حكاه عنه أبو سليمان الدمشقي، وأبو الحسن الماوردي، وأبو يعلى بن الفراء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أي: بالثواب. قال الضحاك: لم يقولوا: إن الله يجزيك إن تصدقت علينا، لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن.

قوله تعالى: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَآ فَعَلَتْ يَدَايُوكُ وَأَخْبَدُ﴾ في سبب قوله لهم هذا، ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أخرج إليهم نسخة الكتاب الذي كتبه على أنفسهم ببيعه من مالك بن ذعر، وفي آخر الكتاب: «وكتب يهوذا» فلما قرؤوا الكتاب اعترفوا بصحته وقالوا: هذا كتاب كتبناه على أنفسنا عند بيع عبد كان لنا، فقال يوسف عند ذلك: إنكم تستحقون العقوبة، وأمر بهم ليقتلوا، فقالوا: إن كنت فاعلاً، فاذهب بامتعتنا إلى يعقوب، ثم أقبل يهوذا على بعض إخوته، وقال: قد كان أبونا متصل الحزن لفقد واحد من ولده، فكيف به إذا أخبر بهلكنا أجمعين؟ فرق يوسف عند ذلك وكشف لهم أمره، وقال لهم هذا القول، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنهم لما قالوا: ﴿مَسْنَا وَأَهْنَأَ الْفَرْ﴾ أدرسته الرحمة، فقال لهم هذا، قاله ابن إسحاق. والثالث: أن يعقوب كتب إليه كتاباً: إن رددت ولدي، وإلا دعوت عليك دعوة تترك السابغ من ولدك، فبكى، وقال لهم هذا. وفي «هل» قولان: أحدهما: أنها استفهام لتعظيم القصة لا يراد به نفس الاستفهام. قال ابن الأنباري: والمعنى: ما أعظم ما ارتكبتم، وما أسمح ما أثرت من قطيعة الرحم وتضييع الحق، وهذا مثل قول العربي: أتدري من عصيت؟ هل تعرف من عادت؟ لا يريد بذلك الاستفهام، ولكن يريد تفضيع الأمر، قال الشاعر:

أَتَرْجُو بَنُو مَرْوَانَ سَمْعِي وَطَاعَتِي

(١) السوق: طعام يتخذ من دقيق الشعير أو الحنطة المغلول، ويقال لسويق المقل: الحنّي، ولسويق النبق: الفتي، وقال أهرابي يصفه: هو عدة المسافرين وطعام المجلان، وبلغة المريض.

(٢) البيت للأعشى في «ديوانه» ٢٩ من قصيدة يمدح بها قيس بن معد يكرب، والهجان: جمع هجين، وهو الأبيض الكريم، يقال: إبل هجان، والعوذ: الحديثات التاج، وزجى الشيء: دفعه برفق، يقول: إن الممدوح يهب المائة من الإبل وعبيدها، تبعها أطفالها تسمى خلفها.

(٣) البيت في «اللسان»: رمل، أنشده ابن بري شاهداً على أن الأرملة: المرأة التي لا زوج لها.

لم يرد الاستفهام، إنما أراد أن هذا غير مرجو عندهم. قال: ويجوز أن يكون المعنى: هل علمتم عقي ما فعلتم بيوسف وأخيه من تسليم الله لهما من المكروه؟ وهذه الآية تصديق قوله: ﴿لَتَنبَيِّهُنَّهٗ بِأَنَّهُمْ﴾. والثاني: أن «هل» بمعنى «قد» ذكره بعض أهل التفسير. فإن قيل: فالذي فعلوا بيوسف معلوم، فما الذي فعلوا بأخيه، وما سَعَوْا في حبسه ولا أرادوه؟ فالجواب من وجوه: أحدها: أنهم فرّقوا بينه وبين يوسف، فنَقَصُوا عيشه بذلك. والثاني: أنهم آذَوْهُ بعد فَقْدِ يوسف. والثالث: أنهم سَبَوْهُ لما قُذِفَ بسرقة الصاع. وفي قوله: ﴿إِذْ أَنتَرْتَهُ جَهْلُوتَ﴾ أربعة أقوال: أحدها: إذ أنتم صبيان، قاله ابن عباس. والثاني: مذنبون، قاله مقاتل. والثالث: جاهلون بعقوق الأب، وقطع الرحم، وموافقة الهوى. والرابع: جاهلون بما يؤول إليه أمر يوسف، ذكرهما ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنَا يُونُسُ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو جعفر، وابن محيصن: «إنا» على الخبر، وقرأ آخرون بهمزتين محقتين، وأدخل بعضهم بينها ألفاً^(١). واختلف المفسرون، هل عرفوه، أم شَبَّهوه؟ على قولين: أحدهما: أنهم شَبَّهوه بيوسف، قاله ابن عباس في رواية. والثاني: أنهم عرفوه، قاله ابن إسحاق. وفي سبب معرفتهم له ثلاثة أقوال: أحدها: أنه تبسم، فشَبَّهوا ثنياه بثنايا يوسف، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنه كانت له علامة كالشامة في قرنه، وكان ليعقوب مثلها، ولإسحاق مثلها، ولسارة مثلها، فلما وضع التاج عن رأسه، عرفوه، رواه عطاء عن ابن عباس. والثالث: أنه كشف الحجاب، فعرفوه، قاله ابن إسحاق.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ قال ابن الأنباري: إنما أظهر الاسم، ولم يقل: أنا هو، تعظيماً لما وقع به من ظلم إخوته، فكانه قال: أنا المظلوم المستحل منه، المراد قتله، فكفى ظهور الاسم من هذه المعاني، ولهذا قال: ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ وهم يعرفونه، وإنما قصد: وهذا المظلوم كظلمي.

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ نَاسٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: بخير الدنيا والآخرة. والثاني: بالجمع بعد الفرقة. والثالث: بالسلاطة ثم بالكرامة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ قرأ ابن كثير في رواية قبل: «من يتقي ويصبر» بياء في الوصل والوقف، وقرأ الباقر بن بغير ياء في الحالين. وفي معنى الكلام أربعة أقوال: أحدها: من يتق الزنى ويصبر على البلاء. والثاني: من يتق الزنى ويصبر على العزبة. والثالث: من يتق الله ويصبر على المصائب، رويت هذه الأقوال عن ابن عباس. والرابع: يتق معصية الله ويصبر على السجن، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿فَارْتَبَّ اللَّهُ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: أجز من كان هذا حاله.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: اختارك وفضلك. وبماذا عنوا أنه فضله فيه؟ أربعة أقوال: أحدها: بالملك، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثاني: بالصبر، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: بالحلم والصفح عنا، ذكره أبو سليمان الدمشقي. والرابع: بالعلم والعقل والحسن وسائر الفضائل التي أعطاه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ قال ابن عباس: لمذنبين آثمين في أمرك. قال ابن الأنباري: ولهذا اختير «خاطئين» على «مخطئين»، وإن كان «أخطأ» على ألسن الناس أكثر من «خطئ يخطئ» لأن معنى خطئ يخطئ، فهو خاطئ: آثم، ومعنى أخطأ يخطئ، فهو مخطئ: ترك الصواب ولم يأثم، قال الشاعر:

عَبَادُكَ يَخْطِئُونَ وَأَنْتَ رَبُّ
بِكُفْمِكَ الْمَنَآيَا وَالْحُسُومُ^(٢)

أراد: يأثمون. قال ويجوز أن يكون أثر «خاطئين» على «مخطئين» لموافقة رؤوس الآيات، لأن «خاطئين» أشبه بما قبلها. وذكر الفراء في معنى «إن» قولين: أحدهما: وقد كنا خاطئين. والثاني: وما كنا إلا خاطئين.

(١) قال أبو جعفر ابن جرير الطبري ٥٥/١٢: والصواب من القراءة في ذلك عندنا، قراءة من قرأ بالاستفهام، لإجماع الحجة من القرء عليه. وقال ابن كثير ٤٨٩/٢: والقراءة المشهورة هي الأولى، لأن الاستفهام يدل على الاستعظام، أي: أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من ستين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكنم نفسه، فلعلنا قالوا على سبيل الاستفهام: ﴿إِنَّا أَنَا يُونُسُ﴾؟

(٢) البيت غير منسوب في «اللسان»: خطأ.

قوله تعالى: ﴿لَا تَرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ قال أبو صالح عن ابن عباس: لا أعيركم بعد اليوم بهذا أبداً. قال ابن الأنباري: إنما أشار إلى ذلك اليوم، لأنه أول أوقات العفو، وسبيل العافي في مثله أن لا يراجع عقوبة. وقال ثعلب: قد ثرب فلان على فلان: إذا عدّد عليه ذنوبه. وقال ابن قتيبة: لا تعير عليكم بعد هذا اليوم بما صنعتم، وأصل التشريب: الإفساد، يقال: ثرب علينا: إذا أفسد، وفي الحديث: «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد، ولا يثرب»^(١) أي: لا يعيرها بالزنى. قال ابن عباس: جعلهم في جلّ، وسأل الله المغفرة لهم. وقال السدي: لما عرّفهم نفسه، سألهم عن أبيه، فقالوا: ذهب عيناه، فأعطاهم قميصه، وقال: «آذَهُبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْفَوْهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا» وهذا القميص كان في قسبة من فضة معلّقاً في عنق يوسف لما ألقي في الحب، وكان من الجنة، وقد سبق ذكره (يوسف: ١٨، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨).

قوله تعالى: ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ قال أبو عبيدة: يعود مبصراً. فإن قيل: من أين قطع على الغيب؟ فالجواب: أن ذلك كان بالوحي إليه، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ بِأَلْبَابِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال الكلبي كان أهله نحواً من سبعين إنساناً.

﴿وَلَكَّا فَصَلَّى الْآيُرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنْ لِأَجْدُ رِيحٌ يُوسُفَ لَوْ لَا أَنْ تُنْذِرُونِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَكَّا فَصَلَّى الْآيُرُ﴾ أي: خرجت من مصر متوجهة إلى كنعان. وكان الذي حمل القميص يهوذا. قال السدي: قال يهوذا ليوسف: أنا الذي حملت القميص إلى يعقوب بدم كذب فأحزنه، وأنا الآن أحمل قميصك لأسره، فجمله، قال ابن عباس: فخرج حافياً حاسراً يعدو، ومعه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿أَبُورُقْمَ﴾ يعني يعقوب لمن حضره من أهله وقربائه وولد ولده ﴿إِنْ لِأَجْدُ رِيحٌ يُوسُفَ﴾. ومعنى أجد: أشم، قال الشاعر:

وَلَيْسَ صَرِيرُ الشَّغْشِ مَا تَسْمَعُونَهُ
وَلَيْسَ قَتِيحُ الْمِسْكِ مَا تَجِدُونَهُ

وَلَكِنَّهَا أَضْلَابُ قَزَمٍ تَقْصِفُ
وَلَكِنَّهُ ذَاكَ الشَّنَاءُ الْمُخْلَفُ

فإن قيل: كيف وجد يعقوب ريحه وهو بمصر، ولم يجد ريحه من الحب وبعد خروجه منه، والمسافة هناك أقرب؟ فنه جوابان: أحدهما: أن الله تعالى أخفى أمر يوسف على يعقوب في بداية الأمر لتقع البلية التي يتكامل بها الأجر، وأوجده ريحه من المكان النازح عند تقضي البلاء ومجيء الفرج. والثاني: أن هذا القميص كان في قسبة من فضة معلّقاً في عنق يوسف على ما سبق بيانه، فلما نشره فاحت روائح الجنان في الدنيا فاتصلت بيعقوب، فعلم أن الرائحة من جهة ذلك القميص. قال مجاهد: هبت ريح فضربت القميص، ففاحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة، فعلم أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص، فمن ثم قال: ﴿إِنْ لِأَجْدُ رِيحٌ يُوسُفَ﴾. وقيل: إن ريح الصبا استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل البشير فأذن لها، فلذلك يستروح كل محزون إلى ريح الصبا، ويجد المكروبون لها رَوْحاً، وهي ريح لينة تأتي من ناحية المشرق، قال أبو صخر الهذلي:

إِذَا قُلْتُ هَذَا حِينَ أَسْلُو يَهْنِجُنِي
نَسِيمُ الصَّبَا مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ الْفَجْرُ^(٢)

قال ابن عباس: وجد ريح قميص يوسف من مسيرة ثمان ليال ثمانين فرسخاً.

قوله تعالى: ﴿لَوْ لَا أَنْ تُنْذِرُونِ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: تُجْهَلُونَ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال مقاتل. والثاني: تَسْفَهُونَ، رواه عبد الله بن أبي الهذيل عن ابن عباس، وبه قال عطاء، وقتادة، ومجاهد في رواية. وقال في رواية أخرى: لولا أن تقولوا: ذهب عقلك. والثالث: تَكْذِبُونَ، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، والضحاك. والرابع: تَهْرَمُونَ، قاله الحسن، ومجاهد في رواية. قال ابن فارس: الْفَنَدُ: إنكار العقل من هرم.

(١) البخاري ٣١٠/٤، ومسلم ١٣٢٨/٣ من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) «شرح أشعار الهذليين» ٩٥٧.

والخامس: تعجزون، قاله ابن قتيبة. وقال أبو عبيدة: تسفّهون وتعجزون وتلومون، وأنشد:

يَا صَاحِبِي دَعَا لَوْسِي وَتَفْنِيْدِي
فَلَيْسَ مَا قَاتَ مِنْ أُنْزِ بِمَرْدُوْدِي^(١)

قال ابن جرير: وأصل التفتيد: الإفساد، وأقوال المفسرين تتقارب معانيها، وسمعت الشيخ أبا محمد بن الخشاب يقول: قوله: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفْنِدُنِي﴾ فيه إضمار، تقديره: لأخبرتكم أنه حي.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾^(٣) قال ابن عباس: بنو بنيه خاطبوه بهذا، وكذلك قال السدي: هذا قول بني بنيه، لأن بنيه كانوا بمصر. وفي معنى هذا الضلال ثلاثة أقوال: أحدها: أنه بمعنى الخطأ، قاله ابن عباس، وابن زيد. والثاني: أنه الجنون، قاله سعيد بن جبیر. والثالث: الشقاء والعناء، قاله مقاتل، يريد بذلك شقاء الدنيا.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَاتَزَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤) قَالُوا يَبْنَائَا أَسْتَغْفِرُ لَكَ ذُنُوبًا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ^(٥) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ^(٦)

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه يهوذا، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال وهب بن منبه، والسدي، والجمهور. والثاني: أنه شمعون، قاله الضحاك. فإن قيل: ما الفرق بين قوله هاهنا: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ﴾ وقال في موضع: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ٨٩]؟ فالجواب: أنهما لغتان لقريش خاطبهم الله بهما جميعاً، فدخل «أن» لتوكيد مضي الفعل، وسقوطها للاعتماد على إيضاح الماضي بنفسه، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿أَلْفَهُ﴾ يعني القميص ﴿عَلَى وَجْهِهِ﴾ يعني يعقوب ﴿فَاتَزَدَّ بَصِيرًا﴾، الارتداد: رجوع الشيء إلى حال قد كان عليها. قال ابن الأنباري: إنما قال: ارتد، ولم يقل: رُدَّ، لأن هذا من الأفعال المنسوبة إلى المفعولين، كقولهم: طالت النخلة، والله أطالها، وتحركت الشجرة، والله حركها. قال الضحاك: رجع إليه بصره بعد العمى، وقوته بعد الضعف، وشبابه بعد الهرم، وسروره بعد الحزن. وروى يحيى بن يمان عن سفيان قال: لما جاء البشير يعقوب، قال: على أي دين تركت يوسف؟ قال: على الإسلام، قال: الآن تمت النعمة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيه أقوال قد سبق ذكرها قبل هذا بقليل.

قوله تعالى: ﴿يَبْنَائَا أَسْتَغْفِرُ لَكَ ذُنُوبًا﴾ سألوه أن يستغفر لهم ما أتوا، لأنه نبي مجاب الدعوة. ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ في سبب تأخير ذلك ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أخرهم لانتظار الوقت الذي هو مَظَنَّةُ الإجابة، ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أخرهم إلى ليلة الجمعة، رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ^(٧). قال وهب: كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة. والثاني: إلى وقت السحر من ليلة الجمعة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. قال طاووس: فوافق ذلك ليلة عاشوراء. والثالث: إلى وقت السحر، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال ابن مسعود، وابن عمر، وقتادة، والسدي، ومقاتل. قال الزجاج: إنما أراد الوقت الذي هو أخلق لإجابة الدعاء، لا أنه صَنَّ عليهم بالاستغفار، وهذا أشبه بأخلاق الأنبياء ﷺ. والقول الثاني: أنه دفعهم عن التعجيل بالوعد. قال عطاء الخراساني: طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها عند الشيوخ، ألا ترى إلى قول يوسف: ﴿لَا تَرَيْبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ﴾ وإلى قول يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾. والثالث: أنه أخرهم ليسأل يوسف، فإن عفا عنهم، استغفر لهم، قاله الشعبي. وروي عن أنس بن مالك أنهم قالوا: يا أبانا إن عفا الله عنا، وإلا فلا قَرَّةَ عَيْنٍ لَنَا فِي الدُّنْيَا، فدعا يعقوب وأمن يوسف، فلم يُجِبْ فيهم عشرين سنة، ثم جاء جبريل فقال: إن الله قد أجاب دعوتك في ولدك، وعفا ما صنعوا به، واعتقد موافقهم من بُعد على النبوة. قال المفسرون: وكان يوسف قد بعث مع البشير إلى يعقوب جَهازاً وماتتي

(١) البيت لهانئ بن شكيم العدوي في «مجاز القرآن» ٣١٨/١، والطبري ٥٩/١٣، والقرطبي ٢٦٠/٩.

(٢) «الطبري» ٦٥/١٣ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «قد قال أخي يعقوب: سوف استغفر لكم ربي، يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة». وسنده ضعيف، وقد أورده ابن كثير في «تفسيره» ٤٩٠/٢ وقال: وهذا غريب من هذا الوجه، وفي رفعه نظر، والله أعلم.

راحلة، وسأله أن يأتيه بأهله وولده. فلما ارتحل يعقوب ودنا من مصر، استأذن يوسف الملك الذي فوقه في تلقى يعقوب، فأذن له، وأمر الملاً من أصحابه بالركوب معه، فخرج في أربعة آلاف من الجند، وخرج معهم أهل مصر. وقيل: إن الملك خرج معهم أيضاً. فلما التقى يعقوب ويوسف، بكيا جميعاً، فقال يوسف: يا أبت بكيت عليّ حتى ذهب بصرك، أما علمت أن القيامة تجمعني وإياك؟ قال: أي بني، خشيت أن تسلب دينك فلا نجتمع. وقيل: إن يعقوب ابتدأه بالسلام، فقال: السلام عليك يا مذهب الأحزان.

﴿فَكَمَلَا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ إِيَّاهُ أَبُوَيَا وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ إِن شَاءَ اللَّهُ عَابِدِينَ﴾ (١١٠)

قوله تعالى: ﴿فَكَمَلَا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ يعني: يعقوب وولده. وفي هذا الدخول قولان: أحدهما: أنه دخول أرض مصر، ثم قال لهم: ﴿ادْخُلُوا مَعِيَ﴾ يعني البلد. والثاني: أنه دخول مصر، ثم قال لهم: ﴿ادْخُلُوا مَعِيَ﴾ أي: استوطنوها. وفي قوله: ﴿إِيَّاهُ أَبُوَيَا﴾ قولان: أحدهما: أبوه وخالته، لأن أمه كانت قد ماتت، قاله ابن عباس والجمهور. والثاني: أبوه وأمه، قاله الحسن، وابن إسحاق. وفي قوله: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ عَابِدِينَ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أن في الكلام تقديم وتأخير، فالمعنى: سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله، إنه هو الغفور الرحيم، هذا قول ابن جريج. والثاني: أن الاستثناء يعود إلى الأمن. ثم فيه قولان: أحدهما: أنه لم يثق بانصراف الحوادث عنهم. والثاني: أن الناس كانوا فيما خلا يخافون ملوك مصر، فلا يدخلون إلا بجوارهم. والثالث: أنه يعود إلى دخول مصر، لأنه قال لهم هذا حين تلقاهم قبل دخولهم، على ما سبق بيانه. والرابع: أن «إن» بمعنى: «إذا» كقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَا نَحْنُ﴾ [النور: ٣٣]. قال ابن عباس: دخلوا مصر يومئذ وهم ثيف وسبعون من ذكر وأنثى. وقال ابن مسعود: دخلوا وهم ثلاثة وتسعون، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْمَرْثَى وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَلَّ بِكُمْ مِنَ الْبَدَنِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْكَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (١١١) ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ لَئِنْ أَشَاءَ لَفُتِنَ فِيهِ إِنَّهُ يَنْتَهِى عَنِ الْفِتَنِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ﴾ (١١٢)

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْمَرْثَى﴾ في «أبويه» قولان قد تقدما في الآية التي قبلها. والعرش هاهنا: سرير المملكة، أجلس أبويه عليه «وخرُّوا» أي: أبويه وإخوته. وفي هاء «له» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى يوسف، قاله الجمهور. قال أبو صالح عن ابن عباس: كان سجودهم كهنة الركوع كما يفعل الأعاجم. وقال الحسن: أمرهم الله بالسجود لتأويل الرؤيا. قال ابن الأباري: سجدوا له على جهة التحية، لا على معنى العبادة، وكان أهل ذلك الدهر يحيي بعضهم بعضاً بالسجود والانحناء، فحظره رسول الله ﷺ، فروى أنس بن مالك قال: «قال رجل: يا رسول الله، أجدنا يلقي صديقه، أينحني له؟ قال: لا» (١). والثاني: أنها ترجع إلى الله، فالمعنى: وخرُّوا لله سجداً، رواء عطاء، والضحاك عن ابن عباس، فيكون المعنى: أنهم سجدوا شكرياً لله إذ جمع بينهم وبين يوسف.

قوله تعالى: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ أي: تصديق ما رأيت، وكان قد رآهم في المنام يسجدون له، فأراه الله ذلك في اليقظة. واختلفوا فيما بين رؤياه وتأويلها على سبعة أقوال: أحدها: أربعون سنة، قاله سلمان الفارسي، وعبد الله بن شداد بن الهاد، ومقاتل. والثاني: اثنتان وعشرون سنة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: ثمانون سنة، قاله الحسن، والفضيل بن عياض. والرابع: ست وثلاثون سنة، قاله سعيد بن جبيرة، وعكرمة، والسدي. والخامس: خمس وثلاثون سنة، قاله قتادة. والسادس: سبعون سنة، قاله عبد الله بن شاذب. والسابع: ثمانين سنة، قاله ابن إسحاق. قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ أي: إليّ. والبَدْوُ: البَسْطُ من الأرض. وقال ابن عباس: البدو: البادية، وكانوا أهل عمود وماشية.

(١) روى الترمذي في «جامعه» ٩٧/٢، وابن ماجه في «سننه» ١٢٢٠/٢ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، الرجل منا يلقي أخاه أو صديقه، أينحني له؟ قال: «لا» قال: أفيلتزمه ويقبله؟ قال: «لا» قال: فيأخذه بيده ويصافحه؟ قال: «نعم». وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ تَرْغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي: أفسد بيننا. قال أبو عبيدة: يقال: نزع بينهم ينزع، أي: أفسد وهيج، وبعضهم يكسر زاي ينزع. ﴿إِنَّ رَبِّي لَكَبِيرٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ أي: عالم بدقائق الأمور. وقد شرحنا معنى «اللطيف» في [الأنعام: ١٠٢]. فإن قيل: قد توالى على يوسف نعم خمسة، فما اقتصره على ذكر السجن، وهلا ذكر الجُبِّ، وهو أصعب؟ فالجواب من وجوه: أحدها: أنه ترك ذكر الجُبِّ تكريماً، لئلا يذكر إخوته صنيعهم، وقد قال: ﴿لَا تَقْرِبْ عَلَيَّكَ الْيَوْمَ﴾. والثاني: أنه خرج من الجُبِّ إلى الرق، ومن السجن إلى الملك، فكانت هذه النعمة أوفى. والثالث: أن طول لبثه في السجن كان عقوبة له، بخلاف الجُبِّ، فشكر الله على عفوهِ. قال العلماء بالسَّير: أقام يعقوب بعد قدومه مصر أربعاً وعشرين سنة. وقال بعضهم: سبع عشرة سنة في أهنأ عيش، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى يوسف أن يُحمَل إلى الشام حتى يدفنه عند أبيه إسحاق، ففعل به ذلك، وكان عمره مائة وسبعاً وأربعين سنة، ثم إن يوسف تاق إلى الجنة، وعلم أن الدنيا لا تدوم فتمنَّى الموت، قال ابن عباس، وقتادة: ولم يتمنَّ الموت نبي قبله، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ مَاتَ بَيْنِي مِنَ الْمَلِكِ﴾ يعني: ملك مصر ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وقد سبق تفسيرها [يوسف: ١٦]. وفي «مِنْ» قولان: أحدهما: أنها صلة، قاله مقاتل. والثاني: أنها للتبعض، لأنه لم يؤثَّ كلُّ الملك، ولا كلُّ تأويل الأحاديث.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا الْمَوْتُ وَالْآزْوَاجُ قَدْ شَرَحْنَا فِي [الأنعام: ١٦]. ﴿أَنْتَ وَلَوْ﴾ أي: الذي تلي أمري. ﴿تَوَكَّلْ مُسْلِمًا﴾ قال ابن عباس: يريد: لا تسلبني الإسلام حتى تتوفاني عليه. وكان ابن عقيل يقول: لم يتمنَّ يوسف الموت، وإنما سأل أن يموت على صفة، والمعنى: توفي إذا توفيتي مسلماً، قال الشيخ: وهذا الصحيح.

قوله تعالى: ﴿وَالْحَقْنِي بِالْخَيْلِ﴾ والمعنى: ألحقني بدرجاتهم، وفيهم قولان: أحدهما: أنهم أهل الجنة، قاله عكرمة. والثاني: آباءه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، قاله الضحاك، قالوا: فلما احتضر يوسف، أوصى إلى يهوذا، ومات، فنتشأ الناس في دفنه، كلُّ حُبِّ أن يُدفن في محلَّته رجاء البركة، فاجتمعوا على دفنه في النيل ليمر الماء عليه ويصل إلى الجميع، فدفنوه في صندوق من رخام، فكان هنالك إلى أن حمله موسى حين خرج من مصر ودفنه بأرض كنعان. قال الحسن: مات يوسف وهو ابن مائة وعشرين سنة. وذكر مقاتل أنه مات بعد يعقوب بستين.

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْقَبْرِ نُجِوْهُ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَرْثَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْقَبْرِ﴾ أي: ذلك الذي قصصنا عليك من أمر يوسف وإخوته من الأخبار التي كانت غائبة عنك، فأنزله الله عليك دليلاً على نبوتك. ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: عند إخوة يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَرْثَهُمْ﴾ أي: عزموا على إلقائه في الجب ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ﴾ بيوسف، وفي هذا احتجاج على صحة نبوة نبينا ﷺ، لأنه لم يشاهد تلك القصة، ولا كان يقرأ الكتاب، وقد أخبر عنها بهذا الكلام المعجز، فدلَّ على أنه أخبر بوحى.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وَمَا تَتْلُوهُ عَلَيْهِ مِنْ آجُرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن الأنباري: إن قريشاً واليهود سألت رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وإخوته، فشرحها شرحاً شافياً، وهو يؤمل أن يكون ذلك سبباً لإسلامهم، فخالقوا ظنه، فحزن رسول الله ﷺ، فعزَّاه الله تعالى بهذه الآية. قال الزجاج: ومعناها: وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على أن تهديهم. ﴿وَمَا تَتْلُوهُ عَلَيْهِ﴾ أي: على القرآن وتلاوته وهدايتك إياهم ﴿مِنْ آجُرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لَهُمْ لِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ وَنَجَاتُهُمْ﴾.

﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَايْنِ﴾ أي: وكَم ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: علامة ودلالة تدلهم على توحيد الله، من أمر السموات والأرض، ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ أي: يتجاوزونها غير متفكرين ولا معتبرين.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ فيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم المشركون، ثم في

معناها المتعلق بهم قولان: أحدهما: أنهم يؤمنون بأن الله خالقهم ورازقهم وهم يشركون به، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعكرمة، والشعبي، وقتادة. والثاني: أنها نزلت في تلبية مشركي العرب، كانوا يقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنهم النصارى، يؤمنون بأنه خالقهم ورازقهم، ومع ذلك يشركون به، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أنهم المنافقون، يؤمنون في الظاهر رثاء الناس، وهم في الباطن كافرون، قاله الحسن. فإن قيل: كيف وصف المشرك بالإيمان؟ فالجواب: أنه ليس المراد به حقيقة الإيمان، وإنما المعنى: أن أكثرهم، مع إظهارهم الإيمان بالسنتهم، مشركون.

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَيْثٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٠٧)

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَيْثٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ قال ابن قتيبة: الغاشية: المجللة تغشاهم. وقال الزجاج: المعنى: يأتيهم ما يغمرهم من العذاب. والبغتة: الفجأة من حيث لم تتوقع.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَيُسْحِنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٠٨)

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ المعنى: قل يا محمد للمشركين: هذه الدعوة التي أَدْعُو إليها، والطريقة التي أنا عليها، سبيلي، أي: سُتِّي ومنهاجي. والسبيل تذکر وتوثق، وقد ذكرنا ذلك في [آل عمران: ١٩٥]. ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ أي: على يقين. قال ابن الأنباري: وكل مسلم لا يخلو من الدعاء إلى الله ﷻ، لأنه إذا تلا القرآن، فقد دعا إلى الله بما فيه. ويجوز أن يتم الكلام عند قوله: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾، ثم ابتداء فقال: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُسْحِنَ اللَّهُ﴾ المعنى: وقل: سبحانه الله تنزيهاً له عما أشركوا.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُرِىهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا يَتَّقُونَ﴾ (١٠٩)

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ هذا نزل من أجل قولهم: هلا بعث الله ملكاً، فالمعنى: كيف تعجبوا من إرسالنا إياك، وسائر الرسل كانوا على مثل حالك ﴿يُوحَى إِلَيْهِمْ﴾؟ وقرأ حفص عن عاصم: «نوحى» بالنون. والمراد بالقرى: المدن. وقال الحسن: لم يبعث الله نبياً من أهل البادية، ولا من الجن، ولا من النساء، قال قتادة: لأن أهل القرى أعلم وأحلم من أهل القمود.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: المشركين المنكرين نبوتك ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ إلى مصارع الأمم المكذبة فيعتبروا بذلك. ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ يعني: الجنة ﴿خَيْرٌ﴾ من الدنيا ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ الشرك. قال الفراء: أضيفت الدار إلى الآخرة، وهي الآخرة، لأن العرب قد تضيف الشيء إلى نفسه إذا اختلف لفظه، كقوله: ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ الْيَقِينِ﴾ [الروامة: ٩٦] والحق: هو اليقين، وقولهم: أتيتك عام الأول، ويوم الخميس.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُونَ﴾ قرأ أهل المدينة، وابن عامر، وحفص، والمفضل، ويعقوب: «تعلمون» بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء، والمعنى: أفلا يعلمون هذا فيؤمنوا.

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا يَرَوْا تَبَارُكَ الْعَزَّ وَجَّهَ إِلَّا فِي السَّمُوتِ﴾ (١١٠)

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ﴾ المعنى متعلق بالآية الأولى، فتقديره: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً، فدعوا قومهم، فكذبوهم، وصبروا وطال دعاؤهم وتكذيب قومهم حتى إذا استياس الرسل، وفيه قولان: أحدهما: استياسوا من تصديق قومهم، قاله ابن عباس. والثاني: من أن نعلب قومهم، قاله مجاهد. ﴿وَكَلَّفُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «كُذِّبُوا» مشددة الذال مضمومة الكاف، والمعنى: وتيقن الرسل أن قومهم قد كذبوهم، فيكون الظن هاهنا بمعنى اليقين، هذا قول الحسن، وعطاء، وقتادة. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: «كُذِّبُوا» خفيفة، والمعنى: ظن قومهم أن الرسل قد كُذِّبوا فيما وعدوا به من النصر، لأن الرسل لا يظنون ذلك. وقرأ أبو رزين، ومجاهد، والضحاك: «كُذِّبُوا» بفتح الكاف والذال خفيفة، والمعنى: ظن قومهم أيضاً أنهم قد كُذِّبوا، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرًا﴾ يعني: الرسل «فَنَنْجِي مَنْ نَشَاءُ» قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «فَنَنْجِي» بنونين، الأولى مضمومة والثانية ساكنة والياء ساكنة. وقرأ ابن عامر، وأبو بكر، وحفص، جميعاً عن عاصم، ويعقوب: «فَنَجِّي» مشددة الجيم مفتوحة الياء بنون واحدة، يعني: المؤمنين، نَجَّوْا عند نزول العذاب.

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي: في خبر يوسف وإخوته. وروى عبد الوارث كسر القاف، وهي قراءة قتادة، وأبي الجوزاء. ﴿عِبْرَةً﴾ أي: عظة ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: لذوي العقول السليمة، وذلك من وجهين: أحدهما: ما جرى ليوسف من إعزازه وتمليكه بعد استعباده، فإنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ، قَادِرٌ عَلَى إِعْزَازِ مُحَمَّدٍ ﷺ وتعلية كلمته. والثاني: أن من تفكَّر، علم أن محمداً ﷺ مع كونه أمياً، لم يأت بهذه القصة على موافقة ما في التوراة مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، فاستدل بذلك على صحة نبوته.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ في المشار إليه قولان: أحدهما: أنه القرآن، قاله قتادة. والثاني: ما تقدم من القصص، قاله ابن إسحاق. فعلى القول الأول، يكون معنى قوله: ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ولكن كان تصديقاً لما بين يديه من الكتب ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ ﴿وَهُدًى﴾ بَيَاناً ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون بما جاء به محمد ﷺ. وعلى القول الثاني: وتفصيل كل شيء من نبأ يوسف وإخوته^(١).



(١) قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ٤٩٨/٢: وتفصيل كل شيء من تحليل وتحريم، ومحجوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات، وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور الجلية، وعن الغيوب المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات وتنزهه عن مماثلة المخلوقات، فلماذا كان هدى ورحمة لقوم يؤمنون، تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد، ويتفنون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة ويوم يفوز بالريح المبيضة وجوههم الناضرة، ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة.

سورة الرعد

فصل في نزولها

اختلفوا في نزولها على قولين: أحدهما: أنها مكية، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير، وعطاء، وقتادة. ورؤي أبو صالح عن ابن عباس أنها مكية، إلا آيتين منها، قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَعَوْا قَارِعَةٌ﴾ إلى آخر الآية (الرعد: ٣١)، وقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ (الرعد: ٤٣). والثاني: أنها مدنية، رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس، وبه قال جابر بن زيد. وروي عن ابن عباس أنها مدنية، إلا آيتين نزلتا بمكة، وهما قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا فُتِنَّا لَبَدَّلْنَا آيَاتِنَا بِالْجِبَالِ﴾ إلى آخرها (الرعد: ٣١). وقال بعضهم: المدني منها قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ إِلَهُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَمْ دَعَا لِقَائِي﴾ (الرعد: ١٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَهُاتَ الْكَتِبِ وَالَّذِينَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَهْتَفُونَ ۝﴾ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَهُاتَ الْكَتِبِ﴾ قد ذكرنا في سورة (البقرة) جملة من الكلام في معاني هذه الحروف. وقد روي عن ابن عباس في تفسير هذه الكلمة ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناها: أنا الله أعلم وأرى، رواه أبو الضحى عنه. والثاني: أنا الله أرى، رواه سعيد بن جبير عنه. والثالث: أنا الله الملك الرحمن، رواه عطاء عنه.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ إِلَهُاتَ الْكَتِبِ﴾ في «تلك» قولان، وفي «الكتاب» قولان قد تقدمت في أول (يونس).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ يعني: القرآن وغيره من الوحي ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال ابن عباس: يعني: أهل مكة. قال الزجاج: لما ذكر أنهم لا يؤمنون، عرّف الدليل الذي يوجب التصديق بالخالق فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ قال أبو عبيدة: العمد: متحرك الحروف بالفتحة، وبعضهم يحركها بالضمة، لأنها جمع عمود، وهو القياس، لأن كل كلمة هجاؤها أربعة أحرف الثالث منها ألف أو ياء أو واو، فجميعه مضموم الحروف، نحو رسول، والجمع: رسل، وحمار، والجمع: حُمُر، غير أنه قد جاءت أسامي استعمالوا جميعها بالحركة والفتحة، نحو عمود، وأديم، وإهاب، قالوا: آدم، وأقرب. ومعنى «عمد»: سوار، ودعائم، وما يقيم البناء. وقرأ أبو حيوة: «بغير عُمَد» بضم العين والميم. وفي قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ قولان: أحدهما: أن هاء الكناية ترجع إلى السموات، فالمعنى: ترونها بغير عمد، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقتادة، والجمهور. وقال ابن الأنباري: «ترونها» خبر مستأنف، والمعنى: رفع السموات بلا دعامة تمسكها، ثم قال: «ترونها» أي: ما تشاهدون من هذا الأمر العظيم، يغنيكم عن إقامة الدلائل عليه. والثاني: أنها ترجع إلى العمد، فالمعنى: إنها بعمد لا ترونها، رواه عطاء، والضحاك عن ابن عباس، وقال: لها عمد على قاف، ولكنكم لا ترون العمد، وإلى هذا القول ذهب مجاهد، وعكرمة، والأول أصح^(١).

قوله تعالى: ﴿وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: ذلّلها لما يراد منهما ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى وقت معلوم،

(١) قال ابن جرير الطبري ٩٤/١٣: وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ كما قال ربنا جل ثناؤه، ولا خبر بغير ذلك، ولا حجة يجب التسليم لها بقول سواء. وقال ابن كثير ٤٩٩/٢: بعد أن ذكر قول إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة، يعني بلا عمد، وكذا روي عن قتادة، وهذا هو اللائق بالسياق، والظاهر من قوله تعالى: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ أن تقع على الأرضين إلا بإذنوه، فعلى هذا يكون قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تأكيداً لنفي ذلك، أي: هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة.

وهو فناء الدنيا. ﴿يَذَرُ الْأَرْضَ﴾ أي: يصرفه بحكمته. ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: يبين الآيات التي تدل أنه قادر على البعث لكي توقنوا بذلك. وقرأ أبو رزين، وقتادة، والنخعي: «ندبر الأمر نفصل الآيات» بالنون فيهما.

﴿وَمَوْ أَلْزَى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْبَيْنِ أَتَيْنِ بِمَعْنَى أَيْلَ النَّهَارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَوْ أَلْزَى مَدَّ الْأَرْضَ﴾ قال ابن عباس: بسطها على الماء.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَ﴾ قال الزجاج: أي جبالاً ثوابت، يقال: رسا الشيء يرسو رسواً، فهو راس؛ إذا ثبت. و ﴿جَعَلَ فِيهَا رَوْبَيْنِ أَتَيْنِ﴾ أي: نوعين. والزوج: الواحد الذي له قرين من جنسه. قال المفسرون: ويعني بالزوجين: الحلو والحامض، والعذب والملح، والأبيض والأسود.

قوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ قد شرحناه في [الأعراف: ٥٤].

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَبَعَاتٌ وَجَعَتْ مِنْ أَشْجَارٍ نَخِيلٌ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا زَكَرُوا يَسْقَى إِيَّاهُ وَيَكْرِهُ وَيَكْرِهُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَرْضِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَبَعَاتٌ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها الأرض السبخة، والأرض العذبة، تنبت هذه، وهذه إلى جنبها لا تنبت، هذا قول ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد، والضحاك. والثاني: أنها القرى المتجاورات، قاله قتادة، وابن قتيبة، وهو يرجع إلى معنى الأول.

قوله تعالى: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ يَسْقَى وَيَسْقَى وَيَسْقَى﴾ رفعاً في الكل. وقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان» خفضاً في الكل. قال أبو علي: من رفع، فالمعنى: وفي الأرض قطع متجاورات وجنات، وفي الأرض زرع، ومن خفض حمله على الأعناب، فالمعنى: جنات من أعناب، ومن زرع، ومن نخيل.

قوله تعالى: ﴿يَسْقَى وَيَسْقَى وَيَسْقَى﴾ هذا من صفة النخيل. قال الزجاج: الصنوان: جمع صنو وصنو، ومعناه: أن يكون الأصل واحداً وفيه النخلتان والثلاث والأربع. وكذلك قال المفسرون: الصنوان: النخل المجتمع وأصله واحد، وغير صنوان: المتفرق. وقرأ أبو رزين، وأبو عبد الرحمن السلمي، وابن جبير، وقتادة: «صنوان» بضم الصاد. قال الفراء: لغة أهل الحجاز «صنوان» بكسر الصاد، وتميم وقيس يضمون الصاد.

قوله تعالى: ﴿يَسْقَى بِمَاءٍ وَبِقَرٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «تسقى» بالياء، «ونفضل» بالنون. وقرأ حمزة، والكسائي «تسقى» بالياء أيضاً، لكنهما أمالا القاف. وقرأ الحسن «ويفضل» بالياء. وقرأ عاصم، وابن عمر «يسقى» بالياء، «ونفضل» بالنون، وكلهم كسر الضاد. وروى الحلبي عن عبد الوارث ضم الياء من «يُفَضِّلُ» وفتح الضاد، «بعضها» برفع الضاد. وقال الفراء: من قرأ «تسقى» بالياء ذهب إلى تأنيث الزرع، والجنات، والنخيل، ومن كسر ذهب إلى النبت، وذلك كله يسقى بماء واحد، وأكله مختلف حامض وحلو، ففي هذا آية. قال المفسرون: الماء الواحد: ماء المطر، والأكل: الثمر، بعضه أكبر من بعض، وبعضه أفضل من بعض، وبعضه حامض وبعضه حلو، إلى غير ذلك، وفي هذا دليل على بطلان قول الطبايعين، لأنه لو كان حدوث الثمر على طبع الأرض والهواء، والماء، وجب أن يتفق ما يحدث لاتفاق ما أوجب الحدوث، فلما وقع الاختلاف، دل على مدبر قادر، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أنه لا تجوز العبادة إلا لمن يقدر على هذا.

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَتَعَبِّ قَوْلَهُمْ أَوَدَا كَمَا تَرَا لَنَا لَيْ خَلَقَ جَدِيدٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْتَابِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ﴾ أي: من تكذيبهم وعبادتهم ما لا ينفع ولا يضر بعدما رأوا من تأثير قدرة الله عز وجل في خلق الأشياء، فإنكارهم البعث موضع عجب. وقيل: المعنى: وإن تعجب بما وقفت عليه من القطع المتجاورات وقدرة ربك في ذلك، فعجب جحدهم البعث، لأنه قد بان لهم من خلق السموات والأرض ما يدل على أن البعث أسهل في القدرة.

عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية، وضع رسول الله ﷺ يده على صدره، فقال: «أنا المنذر»، وأومأ بيده إلى منكب علي، فقال: «أنت الهادي يا علي بك يهتدى من بعدي»^(١). قال المصنف: وهذا من موضوعات الرافضة. ثم إن الله تعالى أخبرهم عن قدرته، رداً على منكري البعث، فقال: «اللَّهُ يَمَلِكُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى» من علقه أو مضغة، أو زائد أو ناقص، أو ذكر أو أنثى، أو واحد أو اثنين أو أكثر، «وَمَا يَبْقِصُ الْأَرْحَامُ» أي: وما تنقص، «وَمَا تَزْدَادُ» وفيه أربعة أقوال: أحدها: ما تفيض: بالوضع لأقل من تسعة أشهر، وما تزداد: بالوضع لأكثر من تسعة أشهر، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبيرة، والضحاك، ومقاتل، وابن قتيبة، والزجاج. والثاني: وما تفيض: بالسقط الناقص، وما تزداد: بالولد التام، رواه العوفي عن ابن عباس، وعن الحسن كالقولين. والثالث: وما تفيض: بإرارة الدم في الحمل حتى يتضاءل الولد، وما تزداد: إذا أمسكت الدم فيعظم الولد، قاله مجاهد. والرابع: ما تفيض الأرحام: من ولده من قبل، وما تزداد: من تلده من بعد، روي عن قتادة، والسدي.

قوله تعالى: «وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ» أي: يقدر. قال أبو عبيدة: هو يفعل من القدر. قال ابن عباس: علم كل شيء فقدرة تقديره.

قوله تعالى: «عَلَيْهِ الْقَلْبُ وَالشَّهَادَةُ» قد شرحنا ذلك في [الأنعام: ٦]. و «الْكَبِيرُ» بمعنى: العظيم. ومعناه: يعود إلى كبر قدره واستحقاقه صفات العلو، فهو أكبر من كل كبير، لأن كل كبير يصغر بالإضافة إلى عظمته. ويقال: «الكبير» الذي كبر عن مشابهة المخلوقين. فأما «الْمُتَعَالَى» فقرأ ابن كثير «المتعالى» بياء في الوصل والوقف، وكذلك روى عبد الوارث عن أبي عمرو، وأثبتها في الوقف دون الوصل ابن شنيب عن قنبل، والباقون بغير ياء في الحالين. والمتعالى هو المنتزه عن صفات المخلوقين، قال الخطابي: وقد يكون بمعنى العالي فوق خلقه. وروي عن الحسن أنه قال: المتعالى عما يقول المشركون.

«سَوَاءٌ مِّنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأَلِيلٍ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ»

قوله تعالى: «سَوَاءٌ مِّنْكَ» قال ابن الأنباري: ناب «سواء» عن مستو، والمعنى: مستو منكم «مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ» أي: أخفاه وكنمه «وَمَنْ جَهَرَ بِهِ» أعلنه وأظهره، والمعنى: أن السر والسار سواء عنده.

قوله تعالى: «وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأَلِيلٍ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ» فيه قولان: أحدهما: أن المستخفي: هو المستتر المتواري في ظلمة الليل، والسارب بالنهار: الظاهر المتصرف في حوائجه. يقال: سرى الإبل تسرب: إذا مضت في الأرض ظاهرة، وأشدوا:

أرى كُلَّ قَوْمٍ قَارِبُوا قَيْدَ فَخْلِهِمْ

وَنَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فَهُوَ سَارِبٌ^(٢)

أي: ذاهب. ومعنى الكلام: أن الظاهر والخفي عنده سواء، هذا قول الأكثرين. وروى العوفي عن ابن عباس: «وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ» قال: صاحب رية بالليل، فإذا خرج بالنهار، أرى الناس أنه بريء من الإثم. والثاني: أن المستخفي بالليل؛ الظاهر، والسارب بالنهار: المستتر، يقال: انسرب الوحش: إذا دخل في كنيائه، وهذا قول الأخفش، وذكره قطرب أيضاً، واحتج له ابن جرير بقولهم: حَقِيقَتُ الشَّيْءِ: إذا أظهرته، ومنه «أَكَادُ أَخْفِيَهَا» [طه: ١٥] بفتح الألف، أي: أظهرها، قال: وإنما قيل للمتواري؛ سارب، لأنه صار في السرب مستخفياً.

(١) ابن جرير الطبري ١٣/١٠٨ وفي سنده الحسن بن الحسين العوفي الكوفي، قال أبو حاتم: لم يكن بصديق عندهم، وقال ابن عدي: لا يشبه حديثه حديث الثقات، وقال ابن حبان: يأتي عن الأثبات بالمزقات، ويروي المقلوبات. وقد ساق الذهبي هذا الحديث في ترجمته، وعده من منكراته، ثم قال: رواه ابن جرير في «تفسيره» عن أحمد بن يحيى عن الحسن بن معاذ، ومعاذ نكرة فلعل الآفة منه، وقال في ترجمة معاذ بن مسلم: مجهول وله عن عطاء بن السائب خير باطل سقاء في الحسن بن الحسين. وذكره ابن كثير ٢/٥٠٢ من رواية ابن جرير وقال: وهذا الحديث فيه تكارة شديدة.

(٢) البيت من قصيدة في «المفضليات» ٢٠٨، و«منتهى الطلب» ٢٩٥، و«الحماسة» بشرح المرزوقي ٧٢٨، و«اللسان»: سرب. للأخفش بن شهاب بن شريق بن ثمامة بن أرقم بن عدي بن معاوية بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل، وهو فارس المصا، والمصا فرسه، وهو شاعر جاهلي قديم قبل الإسلام بدهر. وقوله: فهو سارب، أي: توجه للمرعى، يريد أن الناس أقاموا في موضع لا يجترئون على الثقلة إلى غيره، ونحن أعزاء نذهب حيث شئنا لا يقدر أحد على مناعتنا.

﴿لَمْ مَعَّيْنَتُنِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿لَمْ مَعَّيْنَتُنِي﴾ في هاء «له» أربعة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى رسول الله ﷺ، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس. والثاني: إلى الملك من ملوك الدنيا، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثالث: إلى الإنسان، قاله الزجاج. والرابع: إلى الله تعالى، ذكره ابن جرير، وأبو سليمان الدمشقي. وفي المعقبات قولان: أحدهما: أنها الملائكة، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والحسن، وقتادة في آخرين. قال الزجاج: والمعنى: للإنسان ملائكة يعتقبون، يأتي بعضهم يعقب بعض. وقال أكثر المفسرين: هم الحَفَظَةُ، اثنان بالنهار واثنان بالليل، إذا مضى فريق، خلف بعده فريق، ويجتمعون عند صلاة المغرب والفجر^(١). وقال قوم، منهم ابن زيد: هذه الآية خاصة في رسول الله ﷺ، عزم عامر بن الطفيل وأريد بن قيس على قتله، فمنعه الله منها، وأنزل هذه الآية. والقول الثاني: أن المعقبات حُرَّاس الملوك الذين يتعاقبون الحُرَّس، وهذا مروى عن ابن عباس، وعكرمة. وقال الضحاك: هم السلاطين المشركون المحترسون من الله تعالى. وفي قوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ سبعة أقوال: أحدها: يحرسونه من أمر الله ولا يقدرون، هذا على قول من قال: هي في المشركين المحترسين من أمر الله. والثاني: أن المعنى: حَفَظَهُمْ له من أمر الله، قاله ابن عباس، وابن جبير، فيكون تقدير الكلام: هذا الحفظ مما أمرهم الله به. والثالث: يحفظونه بأمر الله، قاله الحسن، ومجاهد، وعكرمة. قال اللغويون: والباء تقوم مقام «من»، وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض. والرابع: يحفظونه من الجن، قاله مجاهد، والنخعي. وقال كعب: لولا أن الله تعالى وكل بكم ملائكة يَدُبُّونَ عنكم في مطعمكم ومشربكم وعَوَزَاتِكُمْ، إِذَا لَتَخَطَّفَتْكُمْ الجن. وقال مجاهد: ما من عَبْدٍ إِلَّا وَمَلَكٌ مَوْكَلٌ به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فإذا أَرَادَ شيء، قال: وراءك وراءك، إلا شيء قد قضي له أن يصيبه. وقال أبو مجلز: جاء رجل من مراد إلى علي عليه السلام، فقال: احترس، فإن ناساً من مراد يريدون قتلك، فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدِّر، فإذا جاء القدر خَلَّيَا بينه وبينه، وإن الأجل جُئْتُ حصينة. والخامس: أن في الكلام تقديماً وتأخيراً، والمعنى: له معقبات من أمر الله يحفظونه، قاله أبو صالح، والفراء. والسادس: يحفظونه لأمر الله فيه حتى يُسَلِّمُوهُ إلى ما قَدَّرَ له، ذكره أبو سليمان الدمشقي، واستدل بما روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: يحفظونه من أمر الله، حتى إذا جاء القَدَرُ خَلَّوْا عنه. وقال عكرمة: يحفظونه لأمر الله. والسابع: يحفظون عليه الحسنات والسيئات، قاله ابن جريج. قال الأخفش: وإنما أَثَّتْ المعقبات لكثرة ذلك منها، نحو النسابة، والعلامة، ثم ذَكَرَ في قوله: «يحفظونه» لأن المعنى مذكَر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ أي: لا يسلبهم نِعَمَهُ ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ فيعملوا بمعاصيه. قال مقاتل: ويعني بذلك كفار مكة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه العذاب. والثاني: البلاء.

قوله تعالى: ﴿فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾ أي: لا يردُّه شيء ولا تنفعه المعقبات. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: من دون الله ﴿وَالِ﴾ أي: من ولي يدفع عنهم العذاب والبلاء.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنِشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: خوفاً للمسافر وطمعاً للمقيم،

(١) روى البخاري ٢٨/٢، ومسلم ٤٣٩/١ عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون». قال ابن كثير ٥٠٣/٢ أي: للبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل، وحرس بالنهار يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، فائتان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه يحرسانه، واحد من رواه، وآخر من قدامه. فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلاً، حافظان وكاتبان.

قاله أبو صالح عن ابن عباس. قال قتادة: فالمسافر خاف أذاه ومشقته والمقيم يرجو منفعته. والثاني: خوفاً من الصواعق وطمعاً في الغيث، رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال الحسن. والثالث: خوفاً للبلد الذي يخاف ضرر المطر وطمعاً لمن يرجو الانتفاع به، ذكره الزجاج. والرابع: خوفاً من العقاب وطمعاً في الثواب، ذكره الماوردي. وكان ابن الزبير إذا سمع صوت الرعد يقول: إن هذا وعيد شديد لأهل الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَيُنْثَى السَّحَابُ الثَّقَالُ﴾ أي: ويخلق السحاب الثقال بالماء. قال الفراء: السحاب، وإن كان لفظه واحداً، فإنه جمع واحدته سحابة، جعل نعته على الجمع، كما قال: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَقَبِي خُضِرَ وَعَبَّرِي حَسَانُ﴾ [الرحمن: ٧٦] ولم يقل: أخضر، ولا حسن.

﴿وَيَسْجُ أَرَعْدُ بِحَمْدِهِ. وَالْمَلَكُوتُ مِنْ خِيَتِهِ. وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُجِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجِذِّلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ اللَّحَالِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْجُ أَرَعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه اسم الملك الذي يزجر السحاب، وصوته: تسبيحه، قاله مقاتل. والثاني: أنه الصوت المسموع. وإنما خص الرعد بالتسبيح، لأنه من أعظم الأصوات. قال ابن الأنباري: وإخباره عن الصوت بالتسبيح مجاز، كما يقول القائل: قد غمّني كلامك.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُوتُ مِنْ خِيَتِهِ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله ﷻ، وهو الأظهر. قال ابن عباس: يخافون الله، وليس كخوف ابن آدم، لا يعرف أحدهم من على يمينه ومن على يساره، ولا يشغله عن عبادة الله شيء. والثاني: أنها ترجع إلى الرعد، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُجِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في أريد بن قيس، وعامر بن الطفيل، أتيا إلى رسول الله ﷺ يريدان الفتك به، فقال: «اللهم اكفنيهما بما شئت»، فأما أريد فأرسل الله عليه صاعقة في يوم صائف صاح فأحرقت، وأما عامر فأصابته غدة فهلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، هذا قول الأكثرين، منهم ابن جريج^(١)، وأريد هو أخو لبيد بن ربيعة لأمه. والثاني: أنها نزلت في رجل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: حدثني يا محمد عن إلهك، أياقوت هو؟ أذهب هو؟ فنزلت على السائل صاعقة فأحرقت، ونزلت هذه الآية، قاله علي^(٢). قال مجاهد: وكان يهودياً. وقال أنس بن مالك: بعث رسول الله ﷺ إلى بعض فراعنة العرب يدعوه إلى الله تعالى، فقال للرسول: وما الله، أمين ذهب هو، أم من فضة، أم من نحاس؟ فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «ارجع إليه فادعه»، فرجع، فأعاد عليه الكلام، إلى أن رجع إليه ثالثة، فبينما هما يتراجعان الكلام، إذ بعث الله سحابة حيال رأسه، فرعدت ووقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه، ونزلت هذه الآية^(٣). والثالث: أنها في رجل أنكر القرآن وكذب رسول الله ﷺ فأرسل الله عليه صاعقة فأهلكته، ونزلت هذه الآية، قاله قتادة^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجِذِّلُونَ فِي اللَّهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: يكذبون بعظمة الله، قاله ابن عباس. والثاني: يخاصمون في الله، حيث قال قائلهم: أهو من ذهب، أم من فضة؟ على ما تقدم بيانه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ اللَّحَالِ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: شديد الأخذ، قاله علي^(٥). والثاني: شديد المكر،

(١) «الطبري» ١٢٦/١٣ بنحوه، عن ابن جريج، والواحد في «أسباب النزول» ١٥٦، ١٥٧ عن ابن عباس في رواية أبي صالح وابن جريج وابن زيد، وذكره السيوطي في «الدر» ٥٢/٤، وزاد نسبة لأبي الشيخ عن ابن جريج، وذكره ابن كثير ٥٠٦/٢ من رواية الطبراني مطولاً بنحوه، وفي سننه عبد العزيز بن عمران الزهري المدني، قال البخاري: لا يكتب حديثه، وقال النسائي وغيره: متروك.

(٢) «الطبري» ١٢٥/١٣.

(٣) «الطبري» ١٢٥/١٣، والواحد في «أسباب النزول» ١٥٦، وفي سننه علي بن أبي سارة الشيباني، قال أبو داود: تركوا حديثه، وقال البخاري: في حديثه نظر، وقال أبو حاتم: ضعيف، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٤٢/٧، وقال: رواه أبو يعلى، والبخاري في «الأوسط»، ورجال البزار رجال الصحيح غير ديلم بن غزوان وهو ثقة، وفي رجال أبي يعلى والطبراني علي بن أبي سارة وهو ضعيف.

(٤) «الطبري» ١٢٦/١٣، وأورده السيوطي في «الدر» ٥٢/٤ وزاد نسبة للخرائطي.

شديد العداوة، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: شديد العقوبة، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وقال مجاهد في رواية عنه: شديد الانتقام. وقال أبو عبيدة: شديد العقوبة والمكر والنكال، وأنشد للأعشى:

فَرَعُ نَبْعٍ يَهْتَرُ فِي غُصْنِ الْمَجْدِ غَزِيرُ النَّدى، شَدِيدُ الْمِحَالِ
إِنْ يُعَاقِبْ يَكُنْ غَرَاماً وَإِنْ يُغْفَرْ طَجَزِيلاً فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي^(١)

وقال ابن قتيبة: شديد المكر واليد، وأصل المحال: الحيلة. والرابع: شديد القوة، قاله مجاهد. قال الزجاج: يقال: ما حلته ومحالاً: إذا قاوته حتى تبين له أيكما الأشد، والمحل في اللغة: الشدة. والخامس: شديد الحقد، قاله الحسن البصري فيما سمعناه عنه مسنداً من طرق، وقد رواه عنه جماعة من المفسرين منهم ابن الأنباري، والقاش، ولا يجوز هذا في صفات الله تعالى. قال القاش: هذا قول مُنَكَّرٌ عند أهل الخبر والنظر في اللغة لا يجوز أن تكون هذه صفة من صفات الله ﷻ. والذي اختاره في هذا ما قاله عليّ ؑ: شديد الأخذ، يعني: أنه إذا أخذ الكافر والظالم لم يفلته من عقوباته.

﴿لَمْ دَعَوْهُ لَمْ يَلْتَمِسْ دَعْوَةَ مَنْ دُعِيَ بِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَيْطٍ كَفَىٰ إِلَىٰ الْمَاءِ يُتْلَعُ فَأَهُوَ بِكَلْبِهِ وَمَا دُعَاهُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي سَكَلٍ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿لَمْ دَعَوْهُ لَمْ يَلْتَمِسْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنها كلمة التوحيد، وهي: لا إله إلا الله، قاله عليّ، وابن عباس، والجمهور، فالمعنى: له من خلقه الدعوة الحق، فأضيفت الدعوة إلى الحق، لاختلاف اللفظين. والثاني: أن الله ﷻ هو الحق، فمن دعاه دعا الحق، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: الأصنام يدعونها آلهة. قال أبو عبيدة: المعنى: والذين يدعون غيره من دونه.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ﴾ أي: لا يجيبونهم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَبَيْطٍ كَفَىٰ إِلَىٰ الْمَاءِ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنه العطشان يمدُّ يده إلى البئر ليرتفع الماء إليه وما هو ببالغه، قاله عليّ ؑ، وعطاء. والثاني: أنه الرجل العطشان قد وضع كفَّيه في الماء وهو لا يرفعهما، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أنه العطشان يرى خياله في الماء من بعيد، فهو يريد أن يتناوله فلا يقدر عليه، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والرابع: أنه الرجل يدعو الماء بلسانه ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً، قاله مجاهد. والخامس: أنه الباسط كفَّيه ليقبض على الماء حتى يؤدِّيه إلى فيه، لا يتم له ذلك، والعرب تقول: من طلب ما لا يجد فهو القابض على الماء، وأنشدوا:

وَأَنِّي وَإِيَّاكُمْ وَشَوْقاً إِلَيْكُمْ كَقَابِضٍ مَاءٍ لَمْ تَسِفْهُ أَنَا مِلَّةُ^(٣)
أَي: لم تحمله، والشوق: الجمل، وقال آخر:
فَأَصْبَحْتُ مِمَّا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا

هذا قول أبي عبيدة، وابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَاهُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي سَكَلٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: وما دعاء الكافرين ربهم إلا في ضلال، لأن أصواتهم محجوبة عن الله، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: وما عبادة الكافرين الأصنام إلا في خسران وباطل، قاله مقاتل.

(١) «ديوانه» ٧، ٩، «مجاز القرآن» ١/٣٢٥، «السمط» ٩٠٧، «القرطبي» ٩/٢٩٩، «اللسان» و«التاج»: محل. وقال ابن جرير بعد أن أورد البيت الأول: هكذا كان يشده معمر بن المثنى فيما حدثت عن علي بن المغيرة عنه، وأما الرواية بعد فإنهم ينشدون:

فَرَعُ نَبْعٍ يَهْتَرُ فِي غُصْنِ الْمَجْدِ د كَشِيرُ النَّدى عَظِيمُ الْمِحَالِ
وفسر ذلك معمر بن المثنى، وزعم أنه عن به: العقوبة والمكر والنكال.

(٢) البيت لضأين بن الحارث البرجمي، «الطبري» ١٣/١٢٩، «مجاز القرآن» ١/٣٢٧، «اللسان»: وسق، «الخزانة» ٤/٨٠.

(٣) البيت غير منسوب في «الطبري» ١٣/١٢٩، «مجاز القرآن» ١/٣٢٧، «القرطبي» ٩/٣٠٠.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلُّهُمْ بِالْأَشْجَارِ وَالْأَصْنَانِ﴾ (١)

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: من الملائكة، ومن في الأرض من المؤمنين ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾. وفي معنى سجود الساجدين كرهاً ثلاثة أقوال: أحدها: أنه سجود من دخل في الإسلام بالسيف، قاله ابن زيد. والثاني: أنه سجود ظل الكافر، قاله مقاتل. والثالث: أن سجود الكاره تذلل وانقياده لما يريد الله منه من عافية ومرض وغنى وفقر.

قوله تعالى: ﴿وَظِلُّهُمْ﴾ أي: وتسجد ظلال الساجدين طوعاً وكرهاً، وسجودها: تمايلها من جانب إلى جانب، وانقيادها للتسخير بالطول والقيصر. قال ابن الأنباري: قال اللغويون: الظل ما كان بالعدوات قبل انبساط الشمس، والفيء ما كان بعد انصراف الشمس، وإنما سمي فيئاً، لأنه فاء، أي: رجع إلى الحال التي كان عليها قبل أن تنبسط الشمس، وما كان سوى ذلك فهو ظل، نحو ظل الإنسان، وظل الجدار، وظل الثوب، وظل الشجرة، قال حميد بن ثور:

فلا الظل من بزد الضحى تستطيعه
ولا الفئ من بزد العشي تذوق^(١)
وقال ليبد:

بينما الظل ظليل موزن
طلعت شمس عليه فاضمحل^(٢)
وقال آخر:

أيا أشلات الساع من بطن توضح
حينيني إلى أظلالكن طويل^(٣)

وقيل: إن الكافر يسجد لغير الله، وظله يسجد لله. وقد شرحنا معنى الغدو والآصال في [الأعراف: ١٧].

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلِ أَتَاخَذُكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَعْمَ وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ يَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَفَلْتُمُوهُ فَتَشَبَّهَ الظُّلَمُ عَلَى اللَّهِ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٤)

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ إنما جاء السؤال والجواب من جهة، لأن المشركين لا ينكرون أن الله خالق كل شيء، فلما لم ينكروا، كان كأنهم أجابوا. ثم الزمهم الحجة بقوله: ﴿قُلْ أَتَاخَذُكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: الأصنام توليتهم فعبدتموهم وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً، فكيف لغيرهم؟ ثم ضرب مثلاً للذي يعبد الأصنام والذي يعبد الله بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ يعني المشرك والمؤمن ﴿أَمْ هَلْ يَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «تستوي» بالياء. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «يستوي» بالياء. قال أبو علي: التانيث حسن، لأنه فعل مؤنث، والتذكير سائغ، لأنه تانيث غير حقيقي. ويعني بالظلمات والنور: الشرك والإيمان. ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ قال ابن الأنباري: معناه: أ جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه، فتشابه خلق الله بخلق هؤلاء؟ وهذا استفهام إنكار، والمعنى: ليس الأمر على هذا، بل إذا فكروا علموا أن الله هو المنفرد بالخلق، وغيره لا يخلق شيئاً.

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ قال الزجاج: قُلْ ذلك وبينه بما أخبرت به من الدلالة في هذه السورة مما يدل على أنه خالق كل شيء، وقد ذكرنا في [يوسف: ٣٩] معنى الواحد القهار.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَخْلٍّ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (٥) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا

(١) «ديوانه» ٤٠، و«اللسان»: نيا.

(٢) «ديوانه» ١٨١، وروايته فيه:

طال قمره الشمس لئلا تظلمت

(٣) البيت لمجنون ليلي: «ديوانه» ٢٢١، ولبعض الأعراب في «الزهره» ٢٦٦، وليحيى بن أبي طالب في «الأمالي» ١٢٣/١، ومصارع العشاق ٢٩٤/١، و«معجم البلدان»: قرقي.

فإذا ما خضر الليل اضمحل

لِرَبِّهِمُ الْحَقُّ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ لَوْ أَنَّكُمْ لَمْ تَأْتُوا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمَعَهُ لَأَفْتَدَوْا بِذِهِمُ أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَوَاءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّطْبَقٍ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ وهي جمع وادٍ، وهو كل منفرج بين جبلين يجتمع إليه ماء المطر فيسيل ﴿بِقَدَرِهَا﴾ أي: بمبلغ ما تحمل، فإن صغر الوادي، قل الماء، وإن هو اتسع، كثر. وقرأ الحسن، وابن جبير، وأبو العالية، وأيوب، وابن عمر، وأبو حاتم عن يعقوب: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بإسكان الدال. وقوله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ توسع في الكلام، والمعنى: سالت مياهها، فحذف المضاف، وكذلك قوله: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ أي: بقدر مياهها. ﴿فَاحْتَلَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ أي: عالياً فوق الماء، فهذا مثل ضربه الله ﷻ. ثم ضرب مثلاً آخر، فقال: ﴿وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: ﴿تَوَقِدُونَ عَلَيْهِ﴾ بالناء. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم بالياء. قال أبو علي: من قرأ بالناء، فلما قبله من الخطاب، وهو قوله: ﴿أَفَاتَخَذْتُمْ﴾، ويجوز أن يكون خطاباً عاماً للكافة، ومن قرأ بالياء فلأن ذكر الغيبة قد تقدم في قوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾. ويعني بقوله: ﴿وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ﴾ ما يدخل إلى النار فيذاب من الجواهر ﴿أَيُّهَا حَلِيمٌ﴾ يعني: الذهب والفضة ﴿أَوْ مَتَّعَ﴾ يعني: الحديد والصفير والنحاس والرصاص تتخذ منه الأواني والأشياء التي يُستفَع بها، ﴿زَبَدٌ مِّثْلُ نَيْلٍ﴾ أي: له زَبَدٌ إذا أذيب مثل زَبَد السَّيْلِ، فهذا مثل آخر. وفيما ضرب له هذان المثلان ثلاثة أقوال: أحدها: أنه القرآن، شبه نزوله من السماء بالماء، وشبهه قلوبُ العباد بالأودية تحمل منه على قدر اليقين والشك، والعقل والجهل، فيستكن فيها، فينتفع المؤمن بما في قلبه كانتفاع الأرض التي يستقر فيها المطر، ولا ينتفع الكافر بالقرآن لمكان شكّه وكفره، فيكون ما حصل عنده من القرآن كالزبد وكخبث الحديد لا يُستفَع به. والثاني: أنه الحق والباطل، فالحق شبهه بالماء الباقي الصافي، والباطل شبهه بالزبد الذائب، فهو وإن علا على الماء فإنه سيمحى، كذلك الباطل، وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال، فإن الله سيبيطله. والثالث: أنه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فمثل المؤمن واعتقاده وعمله كالماء المنتفع به، ومثل الكافر واعتقاده وعمله كالزبد.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما ذكر هذا، يضرب الله مثل الحق والباطل، وقال أبو عبيدة: كذلك يمثل الله الحق ويمثل الباطل. فأما الجُفَاء، فقال ابن قتيبة: هو ما رمى به الوادي إلى جنباته، يقال: أجفأت القدر برَبْدِها: إذا ألقت عنها. قال ابن فارس: الجُفَاء: ما فناء السيل، ومنه اشتقاق الجُفَاء. وقال ابن الأنباري: «جُفَاء» أي: بالياً متفوقاً. قال ابن عباس: إذا مَسَّ الزَبَدُ لم يكن شيئاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَبْتَغِ النَّاسُ﴾ من الماء والجواهر التي زال زَبَدُها ﴿فَيَنْتَكُفُّ فِي الْأَرْضِ﴾ فيُنتفع به ﴿كَذَلِكَ﴾ يبقى الحق لأمله.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ يعني: المؤمنين، ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ يعني: الكفار. قال أبو عبيدة: استجبت لك واستجبتك سواء، وهو بمعنى: أجبته. وفي الحسنی ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الجنة، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: أنها الحياة والرزق، قاله مجاهد. والثالث: كل خير من الجنة فما دونها، قاله أبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿لَأَنْتَدُوا بِذِهِمُ﴾ أي: لجعلوه فداء أنفسهم من العذاب، ولا يُقبل منهم. وفي سوء الحساب ثلاثة أقوال: أحدها: أنها المناقشة بالأعمال، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس. وقال النخعي: هو أن يحاسب بذنبه كله، فلا يُغفر له منه شيء. والثاني: أن لا يُقبل منهم حسنة، ولا يُجاوز لهم عن سيئة. والثالث: أنه التوبيخ والتقريع عند الحساب.

﴿أَتَنْبِئُكُمْ أَنَّ الْأَوَّلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَقَدْ كُنَّ هُوَ أَمْرًا إِنَّمَا يَذْكُرُ أَوَّلُوا الْأَنْبِ﴾

قوله تعالى: ﴿أَتَنْبِئُكُمْ أَنَّ الْأَوَّلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَقَدْ كُنَّ هُوَ أَمْرًا﴾ قال ابن عباس: نزلت في حمزة، وأبي جهل. ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ﴾ أي: إنما يُعَظِّدُ ذُوءَ العقول. والتذكُّر: الاتعاظ.

﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ أَلَيْسَ﴾ ٢٧ ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ في هذا العهد قولان: أحدهما: أنه ما عاهدكم عليه حين استخرجهم من ظهر آدم. والثاني: ما أمرهم به وفرضه عليهم. وفي الذي أمر الله به، ﷺ، أن يوصل، ثلاثة أقوال قد نسبناها إلى قائلها في أول سورة البقرة: [٢٧]، وقد ذكرنا سوء الحساب آنفاً.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاجَ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ رِزْقًا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُوكَ آلِمَسْنَةَ الشَّيْطَانِ أَزْوَاجَهُمْ لَمَّا عَفَى الذَّارِ ٢٨ جَنَّتْ عَنْهُ يَنْحَرِبُونَ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمُ الْمَلَائِكَةُ يُدْخِلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ٢٩ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: على ما أمروا به ﴿ابْتِعَاجَ رَبِّهِمْ﴾ أي: طلباً لرضاء ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أتوها ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الأموال في طاعة الله. قال ابن عباس: يريد بالصلاة: الصلوات الخمس، وبالإتفاق: الزكاة. قوله تعالى: ﴿وَيَدْرُوكَ آلِمَسْنَةَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: يدفعون ﴿وَالْمَسْنَةَ الشَّيْطَانَةَ﴾. وفي المراد بهما خمسة أقوال: أحدها: يدفعون بالعمل الصالح الشر من العمل، قاله ابن عباس. والثاني: يدفعون بالمعروف المنكر، قاله سعيد بن جبيرة. والثالث: بالعفو الظلم، قاله جوير. والرابع: بالحلم السفة، كأنهم إذا سُفِه عليهم حُلموا، قاله ابن قتيبة. والخامس: بالتوبة الذنب، قاله ابن كيسان.

قوله تعالى: ﴿أَزْوَاجَهُمْ لَمَّا عَفَى الذَّارِ﴾ قال ابن عباس: يريد: عقابهم الجنة، أي: تصير الجنة آخر أمرهم. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ وقرأ ابن أبي عتبة: «صلح» بضم اللام. ومعنى «صلح»: آمن، وذلك أن الله تعالى الحق بالمؤمن أهل المؤمنين إكراماً له، لتقر عينه بهم. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُدْخِلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ قال ابن عباس: بالتحية من الله والتحية والهدايا.

قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ قال الزجاج: أضمر القول هاهنا، لأن في الكلام دليلاً عليه. وفي هذا السلام قولان: أحدهما: أنه التحية المعروفة، يدخل الملك فيسلم وينصرف. قال ابن الأنباري: وفي قول المسلم: سلام عليكم، قولان: أحدهما: أن السلام: اللّهُ ﷻ، والمعنى: الله عليكم، أي: على حفظكم. والثاني: أن المعنى: السلامة عليكم، فالسلام جمع سلامة. والثاني: أن معناه: إنما سلمكم الله تعالى من أهوال القيامة ونشرها بصبركم في الدنيا. وفيما صبرا عليه خمسة أقوال: أحدها: أنه أمر الله، قاله سعيد بن جبيرة. والثاني: فضول الدنيا، قاله الحسن. والثالث: الدين. والرابع: الفقر، روي عن أبي عمران الجوني. والخامس: أنه فقد المحبوب، قاله ابن زيد.

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أَزْوَاجَهُمْ لَمَّا لَقْنَهُمْ سُوءَ الدَّارِ ٣١﴾ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ قد سبق تفسيره في سورة البقرة: [٢٧]. وقال مقاتل: نزلت في كفار أهل الكتاب.

قوله تعالى: ﴿أَزْوَاجَهُمْ لَمَّا لَقْنَهُمْ﴾ أي: عليهم. ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا لِلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ٣٢﴾ قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوسع على من يشاء ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق. ﴿وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال ابن عباس: يريد مشركي مكة، فرحوا بما نالوا من الدنيا فقطعوا وكذبوا الرسل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ أي: بالقياس إليها ﴿إِلَّا مَتَاعٌ﴾ أي: كالشيء الذي يُتَمَتَع به، ثم يفنى^(١). ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُهْزِلُ مَنْ يَشَاءُ وَهُدًى إِلَيْهِ مِنْ أَنَا ٣٣﴾ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ نزلت في مشركي مكة حين طلبوا من رسول الله ﷺ مثل آيات الأنبياء.. ﴿قُلْ إِنَّ

(١) روى الإمام أحمد في «المستدرك» ٢٢٩/٤ عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبغة هذه في اليم، فليظفر به يرجع، وأشار إلى السبابة»، ورواه مسلم في «صحيحه» ٢١٩٣/٤.

اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ۚ أَي: يرده عن الهدى كما ردكم بعدما أنزل من الآيات وحرّمكم الاستدلال بها، ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي: رجع إلى الحق، وإنما يرجع إلى الحق من شاء الله رجوعه، فكانه قال: ويهدي من يشاء.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا كَانُوا عَمَلِينَ

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا بدل من قوله: ﴿أَنَابَ﴾، والمعنى: يهدي الذين آمنوا، ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ في هذا الذكر قولان: أحدهما: أنه القرآن. والثاني: ذكر الله على الإطلاق. وفي معنى هذه الطمأنينة قولان: أحدهما: أنها الحب له والأنس به. والثاني: السكون إليه من غير شك، بخلاف الذين إذا ذكر الله اشمأزت قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال الزجاج: «ألا» حرف تنبيه وابتداء، والمعنى: تطمئن القلوب التي هي قلوب المؤمنين، لأن الكافر غير مطمئن القلب.

قوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ فيه ثمانية أقوال: أحدها: أنه اسم شجرة في الجنة. روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ «أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما طوبى؟ قال: شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»^(١)، وقال أبو هريرة: طوبى: شجرة في الجنة، يقول الله ﷻ لها: تفقّي لعبدي عما شاء، فتفتق له عن الخيل بسروجها ولجّنها، وعن الإبل بأرمتها، وعما شاء من الكسوة»^(٢). وقال شهر بن حوشب: طوبى: شجرة في الجنة، كل شجر الجنة منها أغصانها، من وراء سور الجنة، وهذا مذهب عطية، وشمر بن عطية، ومغيث بن سُمي، وأبي صالح. والثاني: أنه اسم الجنة بالحشية، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. قال المصنف: وقرأت على شيخنا أبي منصور عن سعيد بن مسروق قال: طوبى: اسم الجنة بالهندية، ومن ذهب إلى أنه اسم الجنة عكرمة، وعن مجاهد كالقولين. والثالث: أن معنى طوبى لهم: فرح وثرة عين لهم، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والرابع: أن معناه: نُعمى لهم، قاله عكرمة في رواية، وفي رواية أخرى عنه: نعم ما لهم. الخامس: غبطة لهم، قاله سعيد بن جبيرة، والضحاك. والسادس: أن معناه: خير لهم، قاله النخعي في رواية، وفي أخرى عنه قال: الخير والكرامة اللذان أعطاهم الله. وروى معمر عن قتادة قال: يقول الرجل للرجل: طوبى لك، أي: أصبت خيراً، وهي كلمة عربية. والسابع: حسنى لهم، رواه سعيد عن قتادة عن الحسن. والثامن: أن المعنى: العيش الطيب لهم. و«طوبى» عند النحويين: فُعلَى من الطيب، هذا قول الزجاج. وقال ابن الأنباري: تأويلها: الحال المستطابة والحلة المستلذذة، وأصلها: «طُيبى» فصارت الياء وأوأسكونها وانضمام ما قبلها كما صارت في «ثوقن» والأصل فيه «مُثِقن» لأنه مأخوذ من اليقين، فغلبت الضمة فيه الياء فجعلتها وأوأسكونها.

قوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ مَا كَانُوا عَمَلِينَ﴾ المآب: المرجع والمثَلَب. ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي آثَرِهِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ أُمَمٌ أَتَلُوتُوا عَلَيْهِمُ الذِّكْرَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَأْبِ ۖ﴾ (٢٩)

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾ أي: كما أرسلنا الأنبياء قبلك.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن النبي ﷺ لما قال لكفار قريش: اسجدوا للرحمن، قالوا: وما الرحمن؟ فنزلت هذه الآية، وقيل لهم: إن الرحمن الذي أنكرتم هو ربي، هذا قول الضحاك عن ابن عباس^(٣). والثاني: أنهم لما أرادوا كتاب الصلح يوم الحديبية، كتب علي ﷺ: بسم الله الرحمن

(١) «الطبري» ١٤٩/١٣، ورواه الإمام أحمد في «مسنده»، وابن حبان من حديث دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد، وخرجه السيوطي في «الدر» ٥٩/٤ وزاد نسبه لأبي يعلى، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والخطيب في «تاريخه».

(٢) «الطبري» ١٤٧/١٣ من حديث شهر بن حوشب عن أبي هريرة. وذكره ابن كثير في «التفسير» ٥١٣/٢، وأورده السيوطي في «الدر» ٥٩/٤ وزاد نسبه لعبد الرزاق، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) «أسباب النزول» للواحدي ١٥٧ بدون سند.

الرحيم، فقال سهيل بن عمرو: ما نعرف الرحمن إلا مسيلمه، فنزلت هذه الآية^(١)، قاله قتادة، وابن جريج، ومقاتل. والثالث: أن رسول الله ﷺ كان يوماً في الحجر يدعو، وأبو جهل يستمع إليه وهو يقول: يا رحمن، فولى مُذْبِرًا إلى المشركين فقال: إن محمداً كان ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إليهن! فنزلت هذه الآية، ذكره علي بن أحمد النيسابوري.

قوله تعالى: ﴿وَالْيَاقِ مَنَابِ﴾ قال أبو عبيدة: هو مصدر ثبت إليه.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلَّ لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِ الْبَاقِينَ الْبَاقِينَ أَمْ أَمَّا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ۖ﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ سبب نزولها أن مشركي قريش قالوا للنبي ﷺ: لو وسَّعت لنا أودية مكة بالقرآن، وسيَّرت جبالها فاحترناها، وأحييت من مات منا، فنزلت هذه الآية^(٢)، رواه العوفي عن ابن عباس. وقال الزبير بن العوام: قالت قريش لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يسير عنا هذه الجبال ويفجر لنا الأرض أنهاراً فنزرع، أو يحيي لنا موتانا فنكلمهم، أو يصير هذه الصخرة ذهباً فتغنيانا عن رحلة الشتاء والصيف فقد كان للأنبياء آيات، فنزلت هذه الآية، ونزل قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الاسراء: ٥٩]. ومعنى قوله: ﴿أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ أي: شققت فجعلت أنهاراً، ﴿أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ﴾ أي: أحيوا حتى كلّموا. واختلفوا في جواب «لو» على قولين: أحدهما: أنه محذوف. وفي تقدير الكلام قولان: أحدهما: أن تقديره: لكان هذا القرآن، ذكره الفراء، وابن قتيبة. قال قتادة: لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم لفعل بقرآنكم. والثاني: أن تقديره: لو كان هذا كله لما آمنوا ودليله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ نَزَّلْنَا إِلَهُنَّ الْكَلِمَةَ...﴾ إلى آخر الآية [الانعام: ١١١]، قاله الزجاج. والثاني: أن جواب «لو» مقدّم، والمعنى: وهم يكفرون بالرحمن، ولو أنزلنا عليهم ما سألوا، ذكره الفراء أيضاً.

قوله تعالى: ﴿بَلَّ لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي: لو شاء أن يؤمنوا لآمنوا، وإذا لم يشأ، لم ينفع ما اقترحوا من الآيات. ثم أكد ذلك بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِ الْبَاقِينَ الْبَاقِينَ﴾ وفيه أربعة أقوال: أحدها: أفلم يتبين، رواه العوفي عن ابن عباس، وروى عنه عكرمة أنه كان يقرؤها كذلك، ويقول: أظن الكاتب كتبها وهو ناعس، وهذا قول مجاهد، وعكرمة، وأبي مالك، ومقاتل. والثاني: أفلم يعلم، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقتادة، وابن زيد. وقال ابن قتيبة: يقال: هي لغة للتحع^(٣) «يأس» بمعنى «يعلم»، قال الشاعر:

أَقُولُ لَهُمْ بِالشَّعْبِ إِذْ يَأْسِرُونَ نِسِي
أَلَمْ تَيَأْسُوا أَنِّي ابْنُ قَارِسٍ زُهْدَمٌ^(٤)

وإنما وقع اليأس في مكان العلم، لأن في علمك الشيء وتيقنك به يأسك من غيره. والثالث: أن المعنى: قد يشس الذين آمنوا أن يهدوا واحداً، ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً، قاله أبو العالية. والرابع: أفلم يأس الذين آمنوا أن يؤمن هؤلاء المشركون، قاله الكسائي. وقال الزجاج: المعنى عندي: أفلم يأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الذين وصفهم الله بأنهم لا يؤمنون، لأنه لو شاء لهدى الناس جميعاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم جميع الكفار، قاله ابن السائب. والثاني: كفار مكة، قاله مقاتل. فأما القارعة، فقال الزجاج: هي في اللغة: النازلة الشديدة تنزل بأمر عظيم. وفي المراد بها هاهنا قولان: أحدهما: أنها عذاب من السماء، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: السرايا والطلائع التي كان يُنفِذُها

(١) أسباب النزول: للواحي ١٥٧ بدون سند. وانظر ابن كثير ٥١٥/٢.

(٢) «الطبري» ١٥١/١٣ وسنده ضعيف، وأوده ابن كثير ٥١٥/٢ من رواية ابن أبي حاتم، وفي سنده بشر بن عمار، وعطية العوفي، وهما ضعيفان.

(٣) قال الطبري ١٥٣/١٣: وذكر عن ابن الكلبي أن ذلك لغة لحى من النخ يقال لهم: وقبيل.

(٤) البيت لسحيم بن وثيل البريعي في «الطبري» ١٥٣/١٣، ومجاز القرآن ١/٣٣٢، و«القرطبي» ٣٢٠/٩، و«اللسان». و«التاج»: يشس، وشواهد

الكشاف ٢٦٨، وانظر الاختلاف في عزو البيت في «اللسان»، و«التاج»: يشس. وزهدم: فرس لعوف جد سحيم.

رسول الله ﷺ، قاله عكرمة. وفي قوله: ﴿أَوْ نَحُلَّ قَبِيًّا مِنْ دَارِهِمْ﴾ قولان: أحدهما: أنه رسول الله ﷺ، فالمعنى: أو نُحَلَّ أنت يا محمد، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة. والثاني: أنها القارعة، قاله الحسن. وفي قوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: فتح مكة، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: القيامة، قاله الحسن.

﴿أَفَنْتُمْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَلْعَلُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُظَاهِرُونَ الْقَوْلَ بِلَ رُؤْيَا لَيْلَيْنِ كَفَرُوا بِكُرْهُمُ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَنْتُمْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ يعني: نفسه ﷺ. ومعنى القيام هاهنا: التولي لأمر خلقه، والتدبير لأرزقهم وأجالهم، وإحصاء أعمالهم للجزاء، والمعنى: أفتن هو مجازي كل نفس بما كسبت، يشيها إذا أحسنت، ويأخذها بما جنت، كمن ليس بهذه الصفة من الأصنام؟ قال الفراء: فترك جوابه، لأن المعنى معلوم، وقد بيّنه بعد هذا بقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ كأنه قيل: كشركانهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: بما يستحقونه من الصفات وإضافة الأفعال إليهم إن كانوا شركاء لله كما يُسمى الله بالخالق، والرازق، والمحيي، والمميت، ولو سمَّوهم بشيء من هذا لكدبوا.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَلْعَلُ فِي الْأَرْضِ﴾ هذا استفهام منقطع مما قبله، والمعنى: فإن سمَّوهم بصفات الله، فقل لهم: أتنبئونه، أي: أتخبرونه بشريك له في الأرض وهو لا يعلم لنفسه شريكاً، ولو كان لعَلِمَهُ؟ قوله تعالى: ﴿أَمْ يُظَاهِرُونَ الْقَوْلَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أم بظن من القول، قاله مجاهد. والثاني: بباطل، قاله قتادة. والثالث: بكلام لا أصل له ولا حقيقة.

قوله تعالى: ﴿بَلْ رُؤْيَا لَيْلَيْنِ كَفَرُوا بِكُرْهُمُ﴾ قال ابن عباس: زين لهم الشيطان الكفر.

قوله تعالى: ﴿وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «وَصَدُّوا» بفتح الصاد، ومثله في: «حم المؤمن» [غافر: ٣٧]. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: «وَصَدُّوا» بالضم فيهما. فمن فتح، أراد: صَدُّوا المسلمين، إما عن الإيمان، أو عن البيت الحرام. ومن ضم، أراد صدهم الله عن سبيل الهدى.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ وهو القتل، والأسر، والسقم، فهو لهم في الدنيا عذاب، وللمؤمنين كفارة، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ أي: أشد «وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ» أي: مانع يقيهم عذابه.

﴿تَنَزَّلُ الْجَنَّةُ أَلَى وَعِدِ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْجَنَّةُ﴾ أي: صفتها أن الأنهار تجري من تحتها، هذا قول الجمهور. وقال ثعلب: خبر المثل مُضَمَّرٌ قبله، والمعنى: فيما نصف لكم مثل الجنة، وفيما نقضه عليكم خبر الجنة «أُكُلُهَا دَائِمٌ» قال الحسن: يريد أن ثمارها لا تنقطع كثمار الدنيا «وِظِلُّهَا» لأنه لا يزول ولا تنسخه الشمس.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: عاقبة أمرهم المصير إليها.

﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ بِفِرْحَتٍ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَخْرَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُرِيتُمْ أَنَّ عَبَدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرَكَ بِهِ إِيَّاهُ أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ مَتَابٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم مسلمو اليهود، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال مقاتل: هم عبد الله بن سلام وأصحابه. والثاني: أنهم أصحاب رسول الله ﷺ. قاله قتادة. والثالث: مؤمنو أهل الكتابين من اليهود والنصارى، ذكره الماوردي. والذي أنزل إليه: القرآن، فرح به المسلمون وصدَّقوه، وفرح به مؤمنو أهل الكتاب، لأنه صدَّق ما عندهم. وقيل: إن عبد الله بن سلام ومن آمن معه من أهل الكتاب، ساءهم قِلَّةُ ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكركه في التوراة، فلما نزل ذكره فرحوا، وكفر المشركون به، فنزلت هذه الآية. فأما

الأحزاب، فهم الكفار الذين تحزّبوا على رسول الله ﷺ بالمعاداة، وفيهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم اليهود والنصارى، قاله قتادة. والثاني: أنهم اليهود والنصارى والمجوس، قاله ابن زيد. والثالث: بنو أمية وبنو المغيرة وآل أبي طلحة بن عبد المطلب، قاله مقاتل. والرابع: كفار قريش، ذكره الماوردي. وفي بعضه الذي أنكره ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ذكر الرحمن والبعث ومحمد ﷺ، قاله مقاتل. والثاني: أنهم عرفوا بعثة الرسول في كتبهم وأنكروا نبوته. والثالث: أنهم عرفوا صدقه، وأنكروا تصديقه، ذكرهما الماوردي.

﴿وَكَذَلِكَ أَرْسَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَرْسَلْنَاهُ﴾ أي: وكما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلغاتهم، أنزلنا عليك القرآن ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ قال ابن عباس: يريد ما فيه من الفرائض. وقال أبو عبيدة: ديناً عربياً.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: في صلاتك إلى بيت المقدس: ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أن قبلتك الكعبة، قاله ابن السائب. والثاني: في قبول ما يدعوك إليه من ملة آبائك، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أي: ما لك من عذاب الله من قريب ينفعك ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ...﴾ الآية، سبب نزولها أن اليهود عيروا رسول الله ﷺ بكثرة التزويج، وقالوا: لو كان نبياً كما يزعم، شغلته النبوة عن تزويج النساء، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس. ومعنى الآية: أن الرسل قبلك كانوا بشرأ لهم أزواج، يعني النساء، وذريئة، يعني: الأولاد. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بأمره، وهذا جواب للذين اقترحوا عليه الآيات.

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لكل أجل من آجال الخلق كتاب عند الله، قاله الحسن. والثاني: أنه من المقدم والمؤخر، والمعنى: لكل كتاب ينزل من السماء أجل، قاله الضحاك والفراء. والثالث: لكل أجل قدره الله ﷻ، ولكل أمر قضاء، كتاب أثبت فيه، ولا تكون آية ولا غيرها إلا بأجل قد قضاه الله في كتاب، هذا معنى قول ابن جرير.

﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِثُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِثُ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم: «ويثبت» ساكنة التاء خفيفة الباء. وقرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي: «ويثبت» مشددة الباء مفتوحة التاء. قال أبو علي: المعنى: ويثبت، فاستغنى بتعديّة الأول من الفعلين عن تعديّة الثاني. واختلف المفسرون في المراد بالذي يمحو ويثبت على ثمانية أقوال: أحدها: أنه عام، في الرزق، والأجل، والسعادة. والشقاوة، وهذا مذهب عمر، وابن مسعود، وأبي وائل، والضحاك، وابن جريج. والثاني: أنه الناسخ والمنسوخ، فيمحو المنسوخ، ويثبت الناسخ، روى هذا المعنى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبيرة، وقاتدة، والقرظي، وابن زيد. وقال ابن قتيبة: «يمحو الله ما يشاء» أي: ينسخ من القرآن ما يشاء «ويثبت» أي: يدهه ثابتاً لا ينسخه، وهو المحكم. والثالث: أنه يمحو ما يشاء، ويثبت، إلا الشقاوة والسعادة، والحياة والموت، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، ودليل هذا القول، ما روى مسلم في «صحيحه»^(١) من حديث حذيفة بن أسيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا مضت على النطفة خمس وأربعون ليلة، يقول الملك الموكل: أذكر أم أنثى؟ فيقضي الله تعالى، ويكتب الملك، فيقول: أشقي، أم سعيد؟ فيقضي الله، ويكتب الملك، فيقول: عمله وأجله؟ فيقضي الله، ويكتب الملك، ثم تطوى الصحيفة، فلا يزداد فيها ولا ينقص منها». والرابع: يمحو ما يشاء ويثبت، إلا الشقاوة والسعادة لا يغيران، قاله مجاهد. والخامس: يمحو من جاء أجله، ويثبت من لم يجر أجله، قاله الحسن. والسادس: يمحو من ذنوب عباده ما يشاء فيغفرها، ويثبت ما يشاء فلا يغفرها، روي عن سعيد بن جبيرة.

(١) مسلم ٢٠٣٧/٤ ورواية المصنف هنا بالمعنى.

والسابع: يمحو ما يشاء بالتوبة، ويثبت مكانها حسنات، قاله عكرمة. والثامن: يمحو من ديوان الحفظه ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب، قاله الضحاك، وأبو صالح. وقال ابن السائب: القول كله يُكتب، حتى إذا كان في يوم الخميس، طُرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قولك: أكلتُ، شربت، دخلت، خرجت، ونحوه، وهو صادق، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب^(١).

قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال الزجاج: أصل الكتاب. قال المفسرون: وهو اللوح المحفوظ الذي أثبت فيه ما يكون ويحدث^(٢). وروى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى في ثلاث ساعات يبتقي من الليل ينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره، فيمحو ما يشاء ويثبت»^(٣). وروى عكرمة عن ابن عباس قال: هما كتابان، كتاب سوى أم الكتاب يمحو منه ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب لا يغير منه شيء.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَقْدُمُ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَقْدُمُ﴾ أي: من العذاب وأنت حي ﴿أَوْ نَتَوَقَّعُكَ﴾ قبل أن نريك ذلك، فليس عليك إلا أن تبلغ، ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ قال مقاتل: يعني الجزاء. وروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس أن قوله: ﴿إِنَّا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ نُسَخ بآية السيف وفرض الجهاد، وبه قال قتادة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَبِّدَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنه ما يفتح الله على نبيه من الأرض، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، والضحاك. قال مقاتل: «أولم يروا» يعني: كفار مكة «أنا نأتي الأرض» يعني: أرض مكة «ننقصها من أطرافها» يعني: ما حولها. والثاني: أنها القرية تخرب حتى تبقى الأبيات في ناحيتها، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال عكرمة. والثالث: أنه نقص أهلها وبركتها، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وقال الشعبي: نقص الأنفس والثمرات. والرابع: أنه ذهاب فقهاؤها وخيار أهلها، رواه عطاء عن ابن عباس. والخامس: أنه موت أهلها، قاله مجاهد، وعطاء، وقاتادة^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَبِّدَ لِحُكْمِهِ﴾ قال ابن قتيبة: لا يتعقبه أحد بتغيير ولا نقص. وقد شرحنا معنى سرعة الحساب في سورة [البقرة: ٢٠٢].

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَ عِلْمُهُ الْكُنُوزَ لِمَنْ عَقِيَ الدَّارِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كفار الأمم الخالية، مكروا بأبنائهم يقصدون قتلهم، كما مكّر قريش برسول الله ﷺ ليقتلوه. ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ يعين: أن مكر الماكرين مخلوق له، ولا يضر إلا بإرادته؛ وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ وتسكين له. ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر، ولا يقع ضرر إلا بإذنه. ﴿وسيعلم الكافر﴾

(١) قال أبو جعفر بن جرير الطبري ١٧٠/١٣: وأولى الأقوال التي ذكرت في ذلك بتأويل الآية، وأشبهها بالصواب، القول الذي ذكرناه عن الحسن، ومجاهد، وذلك أن الله تعالى ذكره، توعّد المشركين الذين سألو رسول الله ﷺ للآيات بالعقوبة، وتهديمهم بها، وقال لهم: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِكَلِمَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعلمهم بذلك أن لقضائهم أجلاً ميثاً في كتاب، هم مؤخرون إلى وقت مجيء ذلك الأجل، ثم قال لهم: فإذا جاء ذلك الأجل، يجيء الله بما شاء من قداً ثناً أجله وانقطع رزقه أو حان هلاكه، أو انتضاعه من رفعة، أو هلاك مال، فيقضي ذلك في خلقه، فذلك محو، ويثبت ما شاء من بقي أجله ورزقه وأكله، فيتركه على ما هو عليه فلا يمحوه.

(٢) قال ابن جرير الطبري ١٧١/١٣: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: وعنده أصل الكتاب وجملته، وذلك أنه تعالى ذكره، أخبر أنه يمحو ما يشاء، ويثبت ما يشاء، ثم عقب ذلك بقوله: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فكان بيناً أن معناه: وعنده أصل الميثت والمحو، وجملته في كتاب لديه.

(٣) «الطبري» ١٧٠/١٣ وفي سنده زيادة بن محمد الأنصاري، قال البخاري والنسائي: منكر الحديث، وأورده السيوطي في «الدر» ٦٥/٤ وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وابن مردويه، والطبراني.

(٤) قال ابن جرير الطبري ١٧٤/١٣: وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب قول من قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بظهور المسلمين من أصحاب محمد ﷺ عليها، وقهرهم أهلها، أفلا يعتبرون بذلك فيخافون ظهورهم على أرضهم وقهرهم ليأهم، وذلك أن الله توعّد الذين سألو رسول الله ﷺ للآيات من مشركي قومه بقوله: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَقْدُمُ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ثم ويخهم تعالى ذكره بسوء اعتبارهم بما يعاينون من فعل الله بضرائهم من الكفار، وهم مع ذلك يسألون الآيات، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بقهر أهلها والغلبة عليها من أطرافها وجوانبها، وهم لا يعتبرون بما يرون من ذلك.

قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «وسيعلم الكافر». قال ابن عباس: يعني: أبا جهل. وقال الزجاج: الكافر هاهنا: اسم جنس. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «الكفار» على الجمع.

قوله تعالى: ﴿لَمَنْ عَقِيَ الدَّارِ﴾ أي: لمن الجنة آخر الأمر.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدُ اللَّهِ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم اليهود والنصارى. والثاني: كفار قريش. ﴿قُلْ

كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: شاهداً ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بما أظهر من الآيات، وأبان من الدلالات على نبوتي.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدُ اللَّهِ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ فيه سبعة أقوال: أحدها: أنهم علماء اليهود والنصارى، رواه العوفي عن

ابن عباس. والثاني: أنه عبد الله بن سلام، قاله الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وابن زيد، وابن السائب، ومقاتل.

والثالث: أنهم قوم من أهل الكتاب كانوا يشهدون بالحق، منهم عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتميم الداري،

قاله قتادة. والرابع: أنه جبريل عليه السلام، قاله سعيد بن جبيرة. والخامس: أنه علي بن أبي طالب، قاله ابن الحنفية.

والسادس: أنه بنيامين، قاله شمر. والسابع: أنه الله تعالى، روي عن الحسن، ومجاهد، واختاره الزجاج واحتج له

بقراءة من قرأ: «وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِيمَ الْكِتَابِ» وبه قراءة ابن السميع، وابن أبي عبيدة، ومجاهد، وأبي حنيفة. ورواية ابن

أبي سريج عن الكسائي: «وَمِنْ» بكسر الميم «عِنْدِهِ» بكسر الدال «عُلِيمَ» بضم الميم وكسر اللام وفتح الميم «الْكِتَابِ»

بالرفع. وقرأ الحسن «وَمِنْ» بكسر الميم «عِنْدِهِ» بكسر الدال «عُلِمَ» بكسر العين وضم الميم «الْكِتَابِ» مضاف، كأنه

قال: أنزل من علم الله ﷻ.



سورة إبراهيم

[عليه السلام]

وهي مكية من غير خلاف علمناه بينهم، إلا ما روي عن ابن عباس، وقتادة أنهما قالا: سوى آيتين منها، وهما^(١) قوله: ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الدِّينِ بَدَلُوا يَقَعَتْ اللَّهُ كُفْرًا﴾ والتي بعدها [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كَتَبْتُ أَزَلَّتْهُ إِيَّاكَ إِشْرَاجُ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِنْ صَرِطَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الرَّ﴾ قد سبق بيانه [يونس: ١]. وقوله: ﴿كَتَبْتُ﴾ قال الزجاج: المعنى: هذا كتاب، والكتاب: القرآن. وفي المراد بالظلمات والنور ثلاثة أقوال: أحدها: أن الظلمات: الكفر، والنور: الإيمان، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أن الظلمات: الضلالة، والنور: الهدى، قاله مجاهد، وقتادة. والثالث: أن الظلمات: الشك، والنور: اليقين، ذكره الماوردي. وفي قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: بأمر ربهم، قاله مقاتل. والثاني: بتوفيق ربهم، قاله أبو سليمان. والثالث: أنه الإذن نفسه، فالمعنى: بما أذن لك من تعليمهم، قاله الزجاج، قال ثم بين ما النور، فقال: ﴿إِنْ صَرِطَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ﴾ قال ابن الأنباري: وهذا مثل قول العرب: جلست إلى زيد، إلى العاقل الفاضل، وإنما تعاد «إلى» بمعنى التعظيم للأمر، قال الشاعر:

إِذَا حَدِثْتُ رَجُلًا تَذَكَّرْتُ مَنْ لَهَا
دَعَوْتُ إِلَيْهِ لَوْ أَنَّ نَفْسِي تُطِيعُنِي
فَنَادَيْتُ لُبِّي بِاسْمِهَا وَدَعَوْتُ^(٢)
لَأَلْقَيْتُهَا مِنْ حُبِّهَا وَقَضَيْتُ
فَاعَاد «دعوت» لتفخيم الأمر.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمة، والكسائي: «الحميد لله» على البدل. وقرأ نافع، وابن عامر، وأبان، والمفضل: «الحميد. الله» رفعا على الاستئناف، وقد سبق بيان ألفاظ الآية.

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي صُلٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوِيمٍ. لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيْمَنِ اللَّهِ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُودُكُمْ سَوْءَ الْعَذَابِ وَيَدْعُوكُمْ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحِبُّونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا﴾ أي: يوثقونها ﴿عَلَى الْآخِرَةِ﴾ قال ابن عباس: يأخذون ما تعجل لهم منها تهاوؤا بأمر الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ﴾ أي: يمنعون الناس من الدخول في دينه، ﴿رَبِّتُونَهَا عِوَجًا﴾ قد شرحناه في [آل عمران: ٩٩].

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ فِي صُلٰلٍ﴾ أي: في ذهاب عن الحق ﴿بَعِيدٍ﴾ من الصواب.

(١) في الأصل: وهي.

(٢) البيان لقيس لبي: «ديوانه» ٦٩، و«الأغاني» ١٩٣/٩، وتزيين «الأسواق» ٤٨.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا يَلْسَنَ قَوْمِهِ﴾ أي: بلغتهم. قال ابن الأنباري: ومعنى اللغة عند العرب: الكلام المنطوق به، وهو مأخوذ من قولهم: لَمَّا الطائر يَلْعُر: إذا صَوَّت في الغلس. وقرأ أبو رجاء، وأبو المتوكّل، والجاحدي: ﴿إِلَّا يَلْسَنَ قَوْمِهِ﴾ برفع اللام والسين من غير ألف. وقرأ أبو الجزاء، وأبو عمران: ﴿يَلْسَنَ قَوْمِهِ﴾ بكسر اللام وسكون السين من غير ألف.

قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي: الذي أرسل به فيفهمونه عنه. وهذا نزل، لأن قريشاً قالوا: ما بال الكتب كلها أعجمية، وهذا عربي!

قوله تعالى: ﴿أَنْتَ أَخْرَجْتَ قَوْمَكَ﴾ قال الزجاج: «أن» مفسر، والمعنى قلنا له: أخرج قومك. وقد سبق بيان الظلمات والنور (البقرة: ٢٥٧). وفي قوله: ﴿وَكَذَرْتُمْ بِآيَاتِنَا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نِعَمُ الله، رواه أبي بن كعب عن النبي ﷺ^(١)، وبه قال مجاهد، وقتادة، وابن قتبية. والثاني: أنها وقائع الله في الأمم قبلهم، قاله ابن زيد، وابن السائب، ومقاتل. والثالث: أنها أيام نِعَمِ الله عليهم وأيام نِقَمِهِ ممن كفر من قوم نوح وعاد وثمود، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يعني: التذكير: ﴿لَا يَبْتَغِي لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على طاعة الله وعن معصيته: ﴿شُكْرٍ﴾ لأنعمه. والصَّبَّار: الكثير الصبر، والشُّكُور: الكثير الشُّكر، وإنما خص بالآيات، لانقضاء بها. وما بعد هذا مشروح في سورة (البقرة: ٤٩).

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٧) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَنَفِيٍّ حَيْدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَلْبَهُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ يَقُولُونَ إِنَّا لَا أَمْحُوهُمْ أَبَداً فَنُفِخَ فِي سُوفِهِمْ فَانفَجَرَتْ مِنْهُمُ أَسَافِيرُ الْغَوَاةِ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ أَسْفَاطٍ فَالَّذِينَ سَكَنُوا الْأَرْضَ غَرَابِلَةٌ مِنَ الْأَنْفَالِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكْفُرُونَ ﴿٩﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنَّكَ أَنتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَانصُرْنِي بِقُدْرِكَ فَإِنِّي مَخْشِيكَ ﴿١٠﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿١٤﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٤٤﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٤٧﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٤٨﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٥١﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٥٢﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٥٦﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٥٧﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٥٨﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٦٠﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٦١﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٦٢﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٦٣﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٦٤﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٦٥﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٢﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٣﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٩﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٨٠﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٨١﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٨٢﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٨٤﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٩٠﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٩٢﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٩٤﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٩٥﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٩٦﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿٩٩﴾ قَالَ رَبُّمُوسَىٰ إِنِّي أَخَافُ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَنَفِيٍّ حَيْدٌ﴾ أي: غني عن خلقه، محمود في أفعاله، لأنه إما متفضل بفعله، أو عادل.

قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ قال ابن الأنباري: أي: لا يحصي عددهم إلا هو، على أن الله تعالى أهلك أمماً من العرب وغيرها، فانقطعت أخبارهم، وعُفَّت آثارهم، فليس يعلمهم أحد إلا الله.

قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَلْبَهُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ فيه سبعة أقوال: أحدها: أنهم عَضُّوا أصابعهم غيظاً، قاله ابن مسعود، وابن زيد. وقال ابن قتبية: «في» هاهنا بمعنى: «إلى»، ومعنى الكلام: عَضُّوا عليها حَقَقاً وغيظاً، كما قال الشاعر:

يَرُدُّونَ فِيهِ عَشْرَ الْحَسُودِ^(٢)

يعني: أنهم يغيظون الحسود حتى يعضّ على أصابعه العشر، ونحوه قول الهذلي:

(١) «الطبري» ١٣/١٨٤، و«المسنَد» ٥/١٢١، وذكره ابن كثير من رواية أحمد ٥٣٢/٢، ثم قال: ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث محمد بن أبان به، ورواه عبد الله ابنه أيضاً موقوفاً، وهو أشبه. وذكره السيوطي في «الدر» ٤/٧٠، وزاد نسبه للنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٢) ذكره ابن قتبية غير منسوب في «المعاني الكبير» ٨٣٤، و«غريب القرآن» ٢٣٠، وشرحه بقوله: «يعني أصابع يديه العشر بعضها غيظاً عليهم وحقاً» وفي «تفسير القرطبي» ٩/٣٤٦:

قَدْ أَفْنَى أَنْامِلَهُ أَرْزُمُهُ فَأَضْحَى يَعْضُ عَلَيَّ الْوُظَيْفَا^(١)

يقول: قد أكل أصابعه حتى أفناها بالعض، فأضحى يعض عليّ وظيف الذراع. والثاني: أنهم كانوا إذا جاءهم الرسول فقال: إني رسول، قالوا له: اسكت، وأشاروا بأصابعهم إلى أفواه أنفسهم، ردّاً عليه وتكديماً، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنهم لما سمعوا كتاب الله، عَجَّوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم، رواه العوفي عن ابن عباس. والرابع: أنهم وضعوا أيديهم على أفواه الرسل. ردّاً لقولهم، قاله الحسن. والخامس: أنهم كذبوهم بأفواههم، وردوا عليهم قولهم، قاله مجاهد، وقتادة. والسادس: أنه مثَلٌ، ومعناه: أنهم كَفُّوا عما أمروا بقبوله من الحق، ولم يؤمنوا به. يقال: رَدَّ فلان يده إلى فمه، أي أمسك فلم يُجِبْ، قاله أبو عبيدة. والسابع: ردُّوا ما لَوْ قَبِلُوهُ لكانَ نِعْماً وأيادي من الله^(٢)، فتكون الأيدي بمعنى: الأيادي، و«في» بمعنى: الباء، والمعنى: ردُّوا الأيادي بأفواههم، ذكره الفراء، وقال: قد وجدنا من العرب من يجعل «في» موضع الباء، فيقول: أدلك الله بالجنة، يريد: في الجنة، وأنشدني بعضهم: وأرْعَبُ فيها عن لَقْبِطٍ ورهْطٍ ولَكُنْني عن سَنْبَسٍ لَسْتُ أَرْعَبُ^(٣) فقال: أرغب فيها، يعني: بتأله، يريد: أرغب بها، وسَنْبَسٌ: قبيلة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي: على زعمكم أنكم أرسلتم، لا أنهم أقرُّوا بإرسالهم. وباتقي الآية قد سبق تفسيره [مود: ٦٢]. ﴿قَالَتْ رَسُولُهُمْ أَفَى اللَّهِ شَكٌّ﴾ هذا استفهام إنكار، والمعنى: لا شك في الله، أي: في توحيدهم ﴿يَذُوكُمْ﴾ بالرسل والكتب ﴿لِيَفْرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ قال أبو عبيدة: «من» زائدة، كقوله: ﴿فَمَا يَكُرُّ مِنْ لَحْدٍ عَنْ حَجْرَيْنِ﴾ [الحاقة: ٤٧]، قال أبو ذؤيب:

جَزَيْتُكَ ضِغْفَ الْحَبِّ لَمَّا شَكَّوْتِهِ
وما إن جزاك الضَّغْفَ مِنْ أَحَدٍ قُبْلِي^(٤)
أي: أخذ. وقوله: ﴿وَوَجَّحَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وهو الموت، والمعنى: لا يعاجلكم بالعذاب. ﴿قَالُوا﴾ للرسل: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أي: ليس لكم علينا فضل، والسلطان: الْحُجَّةُ. قالت الرسل: ﴿إِنْ تَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ فاعترفوا لهم بذلك، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ بَشَرٌ عَلَى مَنْ يَنْتَاهُ﴾ يعنون: بالنبوة والرسالة، ﴿وَمَا كُنَّا أَنْ تَأْتِيَكُمْ سُلَاطِنُ إِلَّا يُؤَذِّنُ اللَّهُ﴾ أي: ليس ذلك من قِبَلِ أنفسنا.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا﴾ فيه قولان: أحدهما: بين لنا رشدنا. والثاني: عرفنا طريق التوكل. وإنما قُصَّ هذا وأمثاله على نبينا ﷺ ليقنّدي بمن قبله في الصبر وليعلم ما جرى لهم.

قوله تعالى: ﴿لَتُكَلِّمَنَّ الَّذِينَ أَتَيْنَاهُمُ﴾ يعني: الكافرين بالرسل. وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: بعد هلاكهم. ﴿ذَلِكَ﴾ الإسكان ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ قال ابن عباس: خاف مقامه بين يدي. قال الفراء: العرب قد تضيف أفعالها إلى أنفسها، وإلى ما أوقعت عليه، فتقول: قد ندمت على ضربي إياك، وندمت على ضربك، فهذا من ذاك، ومثله ﴿وَيَجْمَعُونَ رِزْقَكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٢] أي: رزقي إياكم.

قوله تعالى: ﴿وَنَافَ وَعِيدٍ﴾ أثبت ياء «وعيدي» في الحالي يعقوب، وتابعه ورش في الوُضَل. ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَسُفْتُ مِنْ مَلَأَ صَدِيرُهُ^(٥) يَجْرَعُهُ وَلَا يَكَاذُ يُبَيِّعُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ^(٦) قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ يعني: استنصروا. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وحמיד،

(١) البيت لصخر الغي، كما في «ديوان الهذليين» ٧٣/٢، و«المعاني الكبير» لابن قتيبة ٨٣٤، و«غريب القرآن» ٢٣١، و«الآزم»: العض الشديد، و«الوظيف»: الذراع. يقول: «قد أفنى أصابعه فهو يعض على مفصل بين الساعد والكف».

(٢) قال أبو جعفر الطبري: وأشبه هذه الأقوال عندي بالصواب في تأويل الآية، القول الذي ذكرناه عن عبد الله بن مسعود. أي القول الأول - أنهم ردوا أيديهم في أفواههم، فعضوا عليها غيظاً على الرسل، كما وصف الله ﷺ به إخوانهم من المنافقين فقال: ﴿وَأِذَا كُنَّا عَنْ أَفْعَالِكُمْ آلِفًا يَلِينُ﴾، فهذا هو الكلام المعروف، والمعنى المفهوم من رد اليد إلى الفم.

(٣) «الطبري» ١٨٩/١٣، غير منسوب.

(٤) «مجاز القرآن» ٤٩/١، «ديوان الهذليين» ٣٥/١، و«شرح أشعار الهذليين» ٨٨/١.

وابن مُحيصن: «واستفتحوا» بكسر التاء على الأمر. وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم الرسل، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. والثاني: أنهم الكفار، واستفتحهم: سؤالهم العذاب، كقولهم: ﴿رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَنَا مِنَّا حِطَّةً﴾ [ص: ١٦] وقولهم: ﴿إِنْ كُنَّا هَذَا حَقٌّ مِنْ عِنْدِكَ...﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]، هذا قول ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿وَعَبَّ كُفْرًا عَيْنِي﴾ قال ابن السائب: خسر عند الدعاء، وقال مقاتل: خسر عند نزول العذاب، وقال أبو سليمان الدمشقي: يشس من الإجابة. وقد شرحنا معنى الجَبَّار والعنيد في [عمود: ٥٩].

قوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ جَهَنَّمَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه بمعنى القُدَّام، قال ابن عباس، يريد: أمامه جهنم. وقال أبو عبيدة: «من ورائه» أي: قُدَّامة وأمامه، يقال: الموت من ورائك، وأنشد:

أَتَرْجُو بَنُو مَرْوَانَ سَمْعِي وَطَاعَتِي
وَقَوْمِي تَمِيمٌ وَالْفَلَاةُ وَزَائِيَا^(١)
والثاني: أنها بمعنى: «بُغْد»، قال ابن الأنباري: «من ورائه» أي: من بعد يأسه، فدلَّ «خاب» على اليأس، فكنى عنه، وحملت «وراء» على معنى: «بُغْد» كما قال النابغة:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رَيْبَةً
أَرَادَ: ليس بُغْد الله مذهب. قال الزجاج: والوراء يكون بمعنى الخَلْف والقُدَّام، لأن ما بين يديك وما قُدَّامك إذا توارى عنك فقد صار ورائك، قال الشاعر:

أَلَيْسَ وَرَائِي إِنْ تَرَخْتُ مَنِيَّتِي
لُزُومُ الْعَصَا تُحْنِي عَلَيْهَا الْأَصَابِعُ^(٢)
قال: وليس الوراء من الأضداد كما يقول بعض أهل اللغة. وسئل ثعلب: لم قيل: الوراء للأمام؟ فقال: الوراء: اسم لما توارى عن عينك، سواء أكان أمامك أو خلفك. وقال الفراء: إنما يجوز هذا في المواقيت من الأيام والليالي والدهر، تقول: وراءك برد شديد. وبين يديك برد شديد. ولا يجوز أن تقول للرجل وهو بين يديك: هو وراءك، ولا للرجل وراءك: هو بين يديك.

قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ قال عكرمة، ومجاهد، واللغويون: الصديد: القيقح والدم، قاله قتادة، وهو ما يخرج من بين جلد الكافر ولحمه. وقال القرظي: هو غُسالة أهل النار، وذلك ما يسيل من فروج الزناة. وقال ابن قتيبة: المعنى: يُسقى الصديد مكان الماء، قال: ويجوز أن يكون على التشبيه، أي: ما يُسقى ماءً كأنه صديد^(٣).
قوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ والتجرج: تناول المشروب جُرعة جُرعة، لا في مرة واحدة، وذلك لشدة كراهته له، وإنما يكره على شربه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ قال الزجاج: لا يقدر على ابتلاعه، تقول: ساغ لي الشيء، وأسغته، وروى أبو أمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُقَرَّبُ إِلَيْهِ فَيَكْرَهُهُ، فَإِذَا أَدْنَىٰ مِنْهُ شَوَىٰ وَجْهَهُ وَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأْسِهِ، فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَعَ أَمْعَاءَهُ حَتَّىٰ يَخْرُجَ مِنْ دَبْرِهِ»^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ﴾ أي: هم الموت وكربه وألمه ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: من كل شجرة في جسده، رواه عطاء عن ابن عباس. وقال سفيان الثوري: من كل عِرْق. وقال ابن جريج: تتعلق نفسه عند

(١) البيت من كلمة لسوار بن المضرب في «الكامل» ٤٤٥، وهو في «مجاز القرآن» ١/٣٣٧، و«الطبري» ١/١٦، و«الجمهرة» ١/١٧٧، و ٣/٤٩٥، و«القرظي» ١١/٣٥، و«اللسان»، و«التاج»: «ورى».

(٢) «ديوانه» ١٢، و«مختار الشعر الجاهلي» ١٧٥ من قصيدة يعتذر بها إلى التعمان بن المنذر ويمدحه.

(٣) البيت للبيد بن ربيعة العامري: «ديوانه» ١٧٠.

(٤) كذا الأصل، والذي في «غريب القرآن» لابن قتيبة ٢٣١: أي: يسقى ماءً كأنه صديد.

(٥) «الطبري» ١٣/١٩٦، و«المسند» ٥/٢٦٥، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٢/٥٢٦، من رواية أحمد في «المسند» وقال: وهكذا رواه ابن جرير من حديث عبد الله بن المبارك، ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث بقية بن الوليد عن صقر بن عمرو به. وذكره السيوطي في «الدر» ٤/٧٢ وزاد نسبته للترمذي، والنسائي، وابن أبي الدنيا في «صفة النار»، وأبي يعلى، وابن المنذر، والطبراني، وأبي نعيم في «الحلية» و«صححه»، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث والنشور».

حنجرته، فلا تخرج من فيه فتموت، ولا ترجع إلى مكانها فتجد راحة. والثاني: من كل جهة، من فوقه وتحتة، وعن يمينه وشماله، وخلفه وقُدَّامه، قاله ابن عباس أيضاً. والثالث: أنها البلايا التي تصيب الكفار في النار، سماها موتاً، قاله الأخفش.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِسَيِّئٍ﴾ أي: موتاً تنقطع معه الحياة. ﴿وَرَبِّكَ﴾ أي: من بعد هذا العذاب. قال ابن السائب: من بعد الصديد ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾. وقال إبراهيم التيمي: بعد الخلود في النار. والغليظ: الشديد.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَٰءُ الْبَئِيسُ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ قال الفراء: أضاف المثل إليهم، وإنما المثل للأعمال، فالمعنى: مثل أعمال الذين كفروا. ومثله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]، أي: ترى وجوههم. وجعل العُصُوف تابِعاً لليوم في إعرابه، وإنما العُصُوف للريح، وذلك جائز على جهتين: إحداهما: أن العُصُوف، وإن كان للريح، فإن اليوم يوصف به، لأن الريح فيه تكون، فجاز أن تقول: يوم عاصف، كما تقول: يوم بارد، ويوم حار. والوجه الآخر: أن تريد: في يومٍ عاصفٍ للريح، فتحذف الريح، لأنها قد ذُكرت في أول الكلام، كما قال الشاعر:

وَيُضْحِكُ عِرْفَانُ الدُّرُوعِ جُلُودَنَا
إذا كَانَ يَزُمُ مُظْلِمُ الشَّمْسِ كَاسِفُ
يريد: كاسف الشمس. وروي عن سيبويه أنه قال: في هذه الآية إضمار، والمعنى: ومما نقص عليك مثل الذين كفروا، ثم ابتداء فقال: «أعمالهم كرماد». وقرأ النخعي، وابن عمر، والجحدري: «في يومٍ عاصفٍ» بغير تنوين اليوم. قال المفسرون: ومعنى الآية: أن كل ما يتقرب به المشركون يَحْبُطُ لا ينتفعون به، كالرماد الذي سَفَتَهُ الريح فلا يُقَدَّرُ على شيء منه، فهم لا يقدرون مما كسبوا في الدنيا على شيء في الآخرة، أي: لا يجدون ثوابه، ﴿ذَلِكَ هُوَ الصَّلَٰءُ الْبَئِيسُ﴾ من النجاة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَنْشَأُ بِذِيكُمُ عَلَيْكُمْ جُودِي ۝﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٨﴾
قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن معناه: ألم تُخَبِّرْ، قاله ابن السائب. والثاني: ألم تعلم، قاله مقاتل، وأبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ قال المفسرون: أي: لم يخلقهن عبثاً، وإنما خلقهن لأمر عظيم. ﴿إِنَّ يَنْشَأُ بِذِيكُمُ عَلَيْكُمْ﴾ قال ابن عباس: يريد: يميئتم يا معشر الكفار ويخلق قوماً غيركم خيراً منكم وأطوع، وهذا خطاب لأهل مكة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝﴾ أي: بممتنع متعذر.

﴿وَيَرْزُقُوا يَوْمَ حَيْمًا فَقَالَ الصَّامِتُونَ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُّقْنُونَ عَلَاً مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَّحْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَرْزُقُوا يَوْمَ حَيْمًا﴾ لفظه لفظ الماضي، ومعناه المستقبل، والمعنى: خرجوا من قبورهم يوم البعث، واجتمع التابع والمتبوع، ﴿فَقَالَ الصَّامِتُونَ﴾ وهم الأنبياء ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم المتبوعون: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَاً﴾ قال الزجاج: هو جمع تابع، يقال: تابع وتبع، ومثل: غائب وغيب، والمعنى: تبعناكم فيما دعوتونا إليه.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّقْنُونَ عَلَاً﴾ أي: دافعون عنا ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾. قال القادة: ﴿لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ﴾ أي: لو أرشدنا في الدنيا لأرشدناكم، يريدون: أن الله أضلَّنَّا فَدَعَوْنَاكُمْ إِلَى الضلال، ﴿سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَّحْنَا﴾ قال ابن زيد: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا نكي ونضرع، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببيكانهم وتضرعهم، فَبَكُوا وتضرعوا، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم، قالوا: تعالوا نصبر، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، فصبروا صبراً لم يُر مثله قط، فلم ينفعهم ذلك، فعندنا قالوا: ﴿سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَّحْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾. وروى مالك بن أنس

عن زيد بن أسلم قال: جَزَعُوا مائة سنة، وصبروا مائة سنة. وقال مقاتل: جزعوا خمسمائة عام، وصبروا خمسمائة عام. وقد شرحنا معنى المحيص في سورة [النساء: ١٢١].

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخَتِي إِيَّكُمْ كَفَرْتُ بِمَا أَكْفَرْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٢١) وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحِبُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ قال المفسرون: يعني به إبليس، ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: فُرِغَ منه، فدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فحينئذ يجتمع أهل النار باللوم على إبليس، فيقوم فيما بينهم خطيباً ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ أي: وعدكم كَوْنُ هذا اليوم فَصَدَقَكُمْ ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ أنه لا يكون ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ الوعد ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: ما أظهرت لكم حُجَّةً على ما ادَّعيت. وقال بعضهم: ما كنت أملككم فأكرهكم ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ وهذا من الاستثناء المنقطع، والمعنى: لكن دعوتكم ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ حيث أجبتموني من غير برهان، ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بمغيشكم ﴿وَمَا أَنَا بِمُصْرِخَتِي﴾ أي: بمغيشي. قرأ حمزة «بمُصْرِخِي» فحرك الياء إلى الكسر، وحركها الباقون إلى الفتح. قال قطرب: هي لغة في بني يربوع؛ يعني: قراءة حمزة. قال اللغويون: يقال: استصرخني فلان فأصرخته، أي: استغاثني فأغثته. ﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾ اليوم بإشراككم إياي في الدنيا مع الله في الطاعة، ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: المشركين.

قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بأمر ربهم. وقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ قد ذكرناه في [يونس: ١٠].
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلَهُ كَلِمَةً طَيِّبَةً كُنَجَرَوْ طَيِّبَةً أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (١٢٣) ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ سَنَةٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَتَغْيِرُ اللَّهُ الْأَشْكَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (١٢٤)

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلَهُ﴾ قال المفسرون: ألم تر بعين قلبك فتعلم بإعلامي إياك كيف ضرب الله مثلاً، أي: بين شَبَهًا، ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ قال ابن عباس: هي شهادة أن لا إله إلا الله. ﴿كُنَجَرَوْ طَيِّبَةً﴾ أي: طيبة الشجرة، فتترك ذكر الشجرة اكتفاءً بدلالة الكلام عليه. وفي هذه الشجرة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها النخلة، وهو في «الصحيحين» من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ^(١)، وقد رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وبه قال ابن مسعود، وأنس بن مالك، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك في آخرين. والثاني: أنها شجرة في الجنة، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس. والثالث: أنها المؤمن، وأصله الثابت أنه يعمل في الأرض ويبلغ عمله السماء. وقوله: ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ سَنَةٍ﴾ فالمؤمن يذكر الله كل ساعة من النهار، رواه عطية عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي: في الأرض، ﴿وَفَرْعُهَا عَالٍ﴾ أعلاها عالٍ ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أي: نحو السماء، وأكلها: ثمرها. وفي الحين هاهنا ستة أقوال: أحدها: أنه ثمانية أشهر، قاله علي ؑ. والثاني: ستة أشهر، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وعكرمة، وقتادة. والثالث: أنه بُكْرَة وعشية، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس. والرابع: أنه السنة، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال مجاهد، وابن زيد. والخامس: أنه شهران؛ قاله سعيد بن المسيب. والسادس: أنه عُذْوَة وعشية وكلّ ساعة، قاله ابن جرير. فمن قال: ثمانية أشهر، أشار إلى مُدَّة حملها باطناً وظاهراً، ومن قال: ستة أشهر، فهي مدة حملها إلى حين صرامها، ومن قال: بُكْرَة وعشية، أشار إلى الاجتناء منها، ومن قال: سنة، أشار إلى أنه لا تحمل في السنة إلا مرة، ومن قال: شهران، فهو مدة صلاحها. قال

(١) البخاري ١/١٣٠، ومسلم ٤/٢١٦٥، ولفظه عندهما: عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ؓ قال: قال رسول الله ﷺ إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإني مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البواقي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: فقال: هي النخلة. قال العلماء: شبه النخلة بالمسلم في كثرة خيرها ودوام ظلها وطيب ثمرها، ووجوده على الدوام، فإنه من حين يطلع ثمرها لا يزال يؤكل منه حتى يبیس، وبعد أن يبیس يتخذ منه منافع كثيرة، ومن خشبها وورقها وأغصانها، فيستعمل جذوعاً وحطباً وعصياً ومخاصر وحصراً وجبالاً وأواني وغير ذلك، ثم آخر شيء منها نواها، ويتنفع به علناً للابل، ثم جمال نباتها وحسن هيئة ثمرها، فهي منافع كلها، وخير وجمال، كما أن المؤمن خير كله، من كثرة طاعاته ومكارم أخلاقه.

ابن المسيب: لا يكون في النخلة أكلها إلا شهرين. ومن قال: كل ساعة، أشار إلى أن ثمرتها تؤكل دائماً. قال قتادة: تؤكل ثمرتها في الشتاء والصيف. قال ابن جرير: الطلع في الشتاء من أكلها، والبلح والبُسر والرطب والتمر في الصيف. فأما الحكمة في تمثيل الإيمان بالنخلة، فمن أوجه: أحدها: أنها شديدة الثبوت، فشبه ثبات الإيمان في قلب المؤمن بثباتها. والثاني: أنها شديدة الارتفاع، فشبه ارتفاع عمل المؤمن بارتفاع فروعها. والثالث: أن ثمرتها تأتي في كل حين، فشبه ما يكسب المؤمن من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت بثمرتها المجتناة في كل حين على اختلاف صنوفها، فالمؤمن كلما قال: لا إله إلا الله، صعدت إلى السماء، ثم جاء خيرها ومنفعتا. والرابع: أنها أشبه الشجر بالإنسان، فإن كل شجرة يقطع رأسها تشعب غصونها من جوانبها، إلا هي، إذا قُطع رأسها يبست، ولأنه لا تحمل حتى تلقح، ولأنها فضلة تربة آدم ﷺ فيما يروى^(١).

﴿وَمَثَلُ كَيْفَةِ حَيَاتِهِ كَشَجَرَةٍ خَبِثَتْ مِنْ قَوَى الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَيْفَةِ حَيَاتِهِ﴾ قال ابن عباس: هي الشُّرك. وقوله: ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِثَتْ﴾ فيها خمسة أقوال: أحدها: أنها الحنظلة، رواه أنس بن مالك عن النبي ﷺ^(٢)، وبه قال أنس، ومجاهد. والثاني: أنها الكافر، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وروى العوفي عنه أنه قال: الكافر لا يُقبل عمله، ولا يصعد إلى الله تعالى، فليس له أصل في الأرض ثابت، ولا فرع في السماء. والثالث: أنها الكُشُوْى^(٣) رواه الضحاك عن ابن عباس. والرابع: أنه مثل، وليست بشجرة مخلوقة، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس. والخامس: أنها الثوم، روي عن ابن عباس أيضاً. قوله تعالى: ﴿لَبِثَتْ﴾ قال ابن قتيبة: استؤصلت وقُطعت. قال الزجاج: ومعنى اجثثت الشيء في اللغة: أخذت جثته بكمالها. وفي قوله: ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ قولان: أحدهما: ما لها من أصل، لم تُضرب في الأرض عرقاً. والثاني: ما لها من ثبات. ومعنى تشبيه الكافر بهذه الشجرة أنه لا يصعد للكافر عمل صالح، ولا قول طيب، ولا لقوله أصل ثابت.

﴿يَبِثُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الضَّالِّينَ وَيَقَعُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿يَبِثُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يثبتهم على الحق بالقول الثابت، وهو شهادة أن لا إله إلا الله. قوله تعالى: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن الحياة الدنيا: زمان الحياة على وجه الأرض، والآخرة: زمان المسألة في القبر، وإلى هذا المعنى ذهب البراء بن عازب، وفيه أحاديث تعضده^(٤). والثاني: أن الحياة الدنيا: زمن السؤال في القبر، والآخرة: السؤال في القيامة، وإلى هذا المعنى ذهب طاووس، وقاتدة. قال المفسرون: هذه الآية وردت في فتنة القبر، وسؤال الملكين، وتلقين الله تعالى للمؤمنين كلمة الحق عند السؤال، وتثبيت إياه على الحق. ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الضَّالِّينَ﴾ يعني: المشركين، يضلهم عن هذه الكلمة، ﴿وَيَقَعُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من هداية المؤمن وإضلال الكافر.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَنَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۝ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَنَسُوا الْفَرَارِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَنَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ في المشار إليهم سبعة أقوال: أحدها: أنهم الأفجرون من قريش: بنو أمية، وبنو المغيرة، روي عن عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب. والثاني: أنهم منافقو قريش، رواه أبو الطفيل عن علي. والثالث: بنو أمية، وبنو المغيرة، ورؤساء أهل بدر الذين ساقوا أهل بدر إلى بدر، رواه أبو صالح

(١) هو حديث ضعيف ولفظه: «أكرموا معكم النخلة، فإنها خلقت من فضلة طينة أبيكم آدم». رواه أبو يعلى في «مسنده»، وابن أبي حاتم، والعقيلي في «الضعفاء»، وابن عدي في «الكامل»، وابن السني وأبو نعيم معاً في «الطب»، وابن مردويه من طريق مسرور بن سعيد التميمي عن الأوزاعي عن عروة بن رويم عن علي مرفوعاً. ومسور بن سعيد التميمي غمزاه ابن حبان، وقال العقيلي: حديثه غير محفوظ ولا يعرف إلا به، وقال ابن عساکر: عروة لم يدرك علياً، والحديث غريب، والتبجي مجهول.

(٢) «الطبري» ١٣/٢١٢، من حديث حماد بن سلمة عن شعيب بن الجباب عن أنس بن مالك، وإسناده صحيح.

(٣) الكشوش: نبت يتعلم بالأغصان ولا عرق له في الأرض.

(٤) «الطبري» ١٣/٢١٣ - ٢١٨، وابن كثير ٢/٥٣١ - ٥٣٨ الأحاديث الواردة في ذلك، عند تفسير هذه الآية.

عن ابن عباس. والرابع: أهل مكة، رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. والخامس: المشركون من أهل بدر، قاله مجاهد، وابن زيد. والسادس: أنهم الذين قُتلوا ببدر من كفار قريش، قاله سعيد بن جبير، وأبو مالك. والسابع: أنها عامة في جميع المشركين، قاله الحسن. قال المفسرون: وتبديلهم نعمة الله كفرة، أن الله أنعم عليهم برسوله، وأسكنهم حرمه، فكفروا بالله وبرسوله، ودعوا قومهم إلى الكفر به، فذلك قوله: ﴿وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ أي: الهلاك. ثم فسر الدار بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا﴾ أي يقاسون حرها: ﴿وَيُنَكِّسُ الْقَرَارَ﴾ أي: بشس المقر هي.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ (٢٢)

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ قد بيَّناه في سورة (البقرة: ٢٢)، واللام في «لِيُضِلُّوا» لام العاقبة، وقد سبق شرحها [يونس: ٨٨]، ومن قرأ «لِيُضِلُّوا» بضم الباء، أراد: لِيُضِلُّوا الناس عن دين الله.

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ أي: في حياتكم الدنيا، وهذا وعيد لهم. قال ابن عباس: لو كان الكافر مريضاً لا ينাম، جاعاً لا يأكل ولا يشرب، لكان هذا نعيماً يتمتع به بالقياس إلى ما يصير إليه من العذاب، ولو كان المؤمن في أنعم عيش، لكان بؤساً عندما يصير إليه من نعيم الآخرة.

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَهُمْ يُؤْتُونَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَئِجَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ (٢٣) ﴿لِلَّهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَائِكَ لَتَجَرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْاَنْهَارَ﴾ (٢٤) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (٢٥) ﴿وَاتَذَكَّرُوا مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفُكَّارٌ كَفَّارٌ﴾ (٢٦) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آيَةً وَاجْعَلْنِي مِنْ عِبْدِكَ الْاَصْفَاءَ (٢٧) رَبِّ إِنِّي أَضَلَلْتُ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعَثْ لِي رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَمَنْ عَصَايَ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨)

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أسكن ابن عامر، وحمزة، والكسائي ياء «عبادي».

قوله تعالى: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قال ابن الأنباري: معناه: قل لعبادي: أقيموا الصلاة وأنفقوا، يقيموا وينفقوا، فحذف الأمان، وترك الجوابان، قال الشاعر:

فأَيُّ أَمْرِي أَنْتِ أَيُّ أَمْرِي إِذَا قِيلَ فِي الْحَرْبِ مَنْ يُقَدِّمُ

أراد: إذا قيل: من يُقدِّمُ تُقدِّمُ. ويجوز أن يكون المعنى: قل لعبادي أقيموا الصلاة، وأنفقوا، فصرف عن لفظ الأمر إلى لفظ الخبر. ويجوز أن يكون المعنى: قل لهم ليقيموا الصلاة، ولينفقوا، فحذف لام الأمر، لدلالة «قل» عليها. قال ابن قتيبة: والخلال مصدر خاللت فلاناً غللاً ومخالً، والاسم الخلَّة، وهي الصداقة..

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الْاَنْهَارَ﴾ أي: ذلَّلها، تجري حيث تريدون، وتركبون فيها حيث تشاؤون. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لتنتفعوا بهما وتستضيئوا بضوئهما. ﴿دَائِبَيْنِ﴾ في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره، لا يفتران. ومعنى الدؤوب: مرور الشيء في العمل على عادة جارية فيه. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ﴾ لتسكنوا فيه، راحة لأبدانكم، ﴿وَالنَّهَارَ﴾ لتنتفعوا بعماشكم، ﴿وَاتَذَكَّرُوا مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ وفيه خمسة أقوال: أحدها: أن المعنى: من كل الذي سألتموه، قاله الحسن، وعكرمة. والثاني: من كل ما سألتموه، لو سألتموه، قاله الفراء. والثالث: وآتاكم من كل شيء سألتموه شيئاً، فأضمر الشيء، كقوله: ﴿وَأُوتِيتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] أي، من كل شيء في زمانها شيئاً، قاله الأخفش. والرابع: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه، لأنكم لم تسألوا شمساً ولا قمرأ ولا كثيراً من النعم التي ابتدأكم بها، فاكثفتي بالأول من الثاني، كقوله: ﴿سَرَّيْلٌ تَفِيكُمُ الْهَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، قاله ابن الأنباري. والخامس: على قراءة ابن مسعود، وأبي رزين، والحسن، وعكرمة، وقتادة، وأبان عن عاصم، وأبي حاتم عن يعقوب: من كل ما بالثنتين من غير إضافة، فالمعنى: آتاكم من كل ما لم تسألوه، قاله قتادة، والضحاك.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي: إنعامه ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ لا تطبقوا الإتيان على جميعها بالعَدِّ لكثرتها. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا﴾ قال ابن عباس: يريد أبا جهل. وقال الزجاج: الإنسان اسم للجنس يُقصد به الكافر خاصة.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُفِرْتُمْ كُفْرًا كَبِيرًا﴾ الظُّلُم هاهنا: الشاكر غير من أنعم عليه، والكُفَّار: المجدود لينعم الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَجْمَلْ هَذَا الْبَلَدَ أَيْنَا﴾ قد سبق تفسيره في سورة [البقرة: ١٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ﴾ أي: جنبني وإياهم، والمعنى: ثبتني على اجتناب عبادتها. ﴿رَبِّ إِنِّي أَسْأَلُكَ كَثِيرًا مِنْ الْآثَارِ﴾ يعني: الأصنام، وهي لا توصف بالإضلال ولا بالفعل، ولكنهم لما ضلوا بسببها، كانت كأنها أضلهم. ﴿فَنَجِّنِي﴾ أي: على ديني التوحيد ﴿فَالْتَمِمْ بَنِيَّ﴾ أي: فهو على ملتي، ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَلَا تَكُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ومن عصاني ثم تاب فإنك غفور رحيم، قاله السدي. والثاني: ومن عصاني فيما دون الشرك، قاله مقاتل بن حيان. والثالث: ومن عصاني فكفر فإنك غفور رحيم أن تتوب عليه فتهديه إلى التوحيد، قاله مقاتل بن سليمان. وقال ابن الأنباري: يحتمل أن يكون دعا بهذا قبل أن يعلمه الله تعالى أنه لا يغفر الشرك كما استغفر لآبيه.

﴿وَبَنِيَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ دُرِّيٍّ يَوَادُّ غَيْرِي ذِي رَزَعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَنِيَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ دُرِّيٍّ﴾ في «مِنْ» قولان: أحدهما: أنها للتبعيض، قاله الأخفش، والفراء. والثاني: أنها للتوكيد، والمعنى: أسكنت ذريتي، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿يَوَادُّ غَيْرِي ذِي رَزَعٍ﴾ يعني: مكة، ولم يكن فيها حرث ولا ماء. عند ﴿بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ إنما سمي محرماً، لأنه يحرم استحلال حرماته والاستخفاف بحقه. فإن قيل: ما وجه قوله: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ ولم يكن هناك بيت حيثئذ، إنما بناء إبراهيم بعد ذلك بمدة؟ فالجواب من ثلاثة وجوه: أحدها: أن الله تعالى حرم موضع البيت منذ خلق السموات والأرض، قاله ابن السائب. والثاني: عند بيتك الذي كان قبل أن يُرْفَعَ أيام الطوفان. والثالث: عند بيتك الذي قد جرى في سابق علمك أنه يحدث هاهنا، ذكرهما ابن جرير. وكان أبو سليمان الدمشقي يقول: ظاهر الكلام يدل على أن هذا الدعاء إنما كان بعد أن بُني البيت وصارت مكة بلداً. والمفسرون على خلاف ما قال. وروى ابن أبي نجیح عن مجاهد أن إبراهيم خرج من الشام ومعه ابنه إسماعيل وأمه هاجر ومعه جبريل حتى قدم مكة وبها ناس يقال لهم: العماليق، خارجاً من مكة، والبيت يومئذ ريوه حمراء، فقال إبراهيم لجبريل: أها هنا أمرت أن أضعهما؟ قال: نعم؛ فأنزلهما في مكانٍ من الحجر، وأمر هاجر أن تتخذ فيه عريشاً، ثم قال: ﴿وَبَنِيَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ دُرِّيٍّ﴾ الآية. وفتح أهل الحجاز، وأبو عمرو ياء «إِنِّي أسكنت».

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ في متعلق هذه اللام قولان: أحدهما: أنها تتعلق بقوله: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ تَشْبَدَ الْأَفْئِدَةَ﴾، فالمعنى: جنبهم الأصنام ليقيموا الصلاة، هذا قول مقاتل. والثاني: أنها تتعلق بقوله: ﴿أَسْأَلُكَ﴾، فالمعنى: أسكنتهم عند بيتك ليقيموا الصلاة، لأن البيت قبلة الصلوات، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ﴾ أي: قلوب جماعة من الناس. قال ابن الأنباري: وإنما عبّر عن القلوب بالأفئدة، لقرب القلب من الفؤاد ومجاورته، قال امرؤ القيس:

رَمَتْنِي بِسَهْمٍ أَصَابَ الْفُؤَادَ عَدَاةَ الرَّحِيلِ فَلَمْ أَنْتَصِرْ^(١)
وقال آخر:

كَأَنَّ فُؤَادِي كَلَّمَا مَرَّ رَاكِبٌ جَنَاحُ غُرَابٍ رَامَ نَهْضاً إِلَى وَكْرٍ
وقال آخر:

وإن فُؤَاداً قَادَنِي لِصَبَابَةٍ إِلَيْكَ عَلَى طُولِ الْهَوَى لَصُبُورٌ
يعنون بالفؤاد: القلب.

قوله تعالى: ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ قال ابن عباس: تَجَنُّ إِلَيْهِمْ. وقال قتادة: تنزع إليهم. وقال الفراء: تريدهم، كما تقول: رأيت فلاناً يهوي نحوك، أي: يريذك. وقرأ بعضهم: «تهوى إليهم» بمعنى: تهواهم، كقوله: ﴿رَدِّ لَكُمْ﴾

(١) «ديوانه» ١٥٥. وقوله: رمته بسهم، أي نظرت إلي نظرة فلم انتصر، أي: لم يبلغ حبي من قلبها ما بلغ حبها من قلبي. وقال الطوسي: سهمها هاهنا: عينها.

[النمل: ٧٢]، أي: ردفكم. و «إلى» توكيد للكلام. وقال ابن الأنباري: «تهوى إليهم»: تنحط إليهم وتنحدر. وفي معنى هذا المِيل قولان: أحدهما: أنه المِيل إلى الحج، قاله الأكثرون. والثاني: أنه حُب سُكْنَى مَكَّة، رواه عطية عن ابن عباس. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لو كان إبراهيم قال: فاجعل أئمة الناس تهوي إليه، لحبَّه اليهود والنصارى، ولكنه قال: من الناس.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا يُخْفِي عَلَيَّ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٣٨)

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي﴾ قال أبو صالح عن ابن عباس: ما نخفي من الوجد بمفارقة إسماعيل، وما نعلن من الحب له. قال المفسرون: إنما قال هذا لما نزل إسماعيل الحرم، وأراد فراقه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْ لِي مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا وَرَبَّنَا اقْبَلْ دُعَاءَنَا

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ أي: بعد الكبر ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ قال ابن عباس: وُلد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين، وُلد له إسحاق وهو ابن مائة واثني عشرة سنة.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَقَبَلْ دُعَائِي﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة، وهبيرة عن حفص عن عاصم: «وقبَلْ دعائي» بياء في الوصل. وقال البزي عن ابن كثير: يصل ويقف بياء. وقال قبل عن ابن كثير: يُشِمُّ الباء في الوصل، ولا يشبها، ويقف عليها بالالف. الباقون: «دعاء» بغير ياء في الحالين. قال أبو علي: الوقف والوصل بياء هو القياس، والإشمام جائز، لدلالة الكسرة على الباء.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٤٠)

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ قال ابن الأنباري: استغفر لأبويه وهما حيّان، طمعاً في أن يُهْدِيَا إلى الإسلام. وقيل: أراد بوالديه: آدم، وحواء. وقرأ ابن مسعود، وأبي، والنخعي، والزهري: «ولِوَالِدَيَّ» يعني: إسماعيل وإسحاق، يدل عليه ذكرهما بل ذلك. وقرأ مجاهد: «ولِوَالِدَيَّ» على التوحيد. وقرأ عاصم الجحدري: «ولِوَالِدَيَّ» بضم الواو. وقرأ يحيى بن يعمر، والجوني: «ولِوَالِدَيَّ» بفتح الواو وكسر الدال على التوحيد. ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي: يظهر الجزاء على الأعمال. وقيل: معناه: يوم يقوم الناس للحساب، فاكْتُفِيَ بذكر الحساب من ذكر الناس إذ كان المعنى مفهوماً.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤١) مُهْطِیَاتٍ مُقْنِی رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ مُدْبِرُهُمْ وَأَقْبِلَتْ هَوَاءٌ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ قال ابن عباس: هذا وعيد للظالم، وتعزية للمظلوم. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو رزين، وقاتدة: «نؤخرهم» بالنون، أي: يؤخر جزاءهم ﴿لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: تشخص أبصار الخلائق لظهور الأحوال فلا تغتمض.

قوله تعالى: ﴿مُهْطِیَاتٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن الإهطاع: النظر من غير أن يَظَرِفَ الناظر، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والضحاك، وأبو الضحى. والثاني: أنه الإسراع، قاله الحسن، وسعيد بن جبير، وقاتدة، وأبو عبيدة. وقال ابن قتبية: يقال: أطحط البعير في سيره، واستطح: إذا أسرع. وفي ما أسرعوا إليه قولان: أحدهما: إلى الداعي، قاله قاتدة. والثاني: إلى النار، قاله مقاتل. والثالث: أن المُهْطِط: الذي لا يرفع رأسه، قاله ابن زيد. وفي قوله: ﴿مُقْنِی رُؤُوسِهِمْ﴾ قولان: أحدهما: رافعي رؤوسهم، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وقاتدة، وأبو عبيدة، وأنشد أبو عبيدة:

أَنْفَضَ نَحْوِي رَأْسَهُ وَأَقْنَعَا كَأَنَّمَا أَبْصَرَ شَيْئاً أَظْمَعَا^(١)

(١) البيت غير منسوب في «الطبري» ١٣/٢٣٨، و«القرطبي» ٩/٣٧٧. وأنضض رأسه: حركة كالمنقب، وأقنعه: رفعه، يقول: هز رأسه نحوي، ورفعته يائني كما يتأمل شيئاً فيه مطمع له، وهو شاهد على أن الإقناع: هو الرفع.

وقال ابن قتيبة: المقنع رأسه: الذي رفعه وأقبل بطرفه على ما بين يديه. وقال الزجاج: رافعي رؤوسهم، ملتصقة بأعناقهم. و ﴿مَهْلِكِينَ مَقْبِي رُؤُوسِهِمْ﴾ نصبٌ على الحال، المعنى: ليوم تشخص فيه أبصارهم مهطعين. والثاني: ناكسي رؤوسهم، حكاه الماوردي عن المؤرج.

قوله تعالى: ﴿لَا يَزِيدُ الْيَوْمَ ظَرْفَهُمْ﴾ أي: لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر، فهي شاخصة. قال ابن قتيبة: والمعنى: أن نظرهم إلى شيء واحد. وقال الحسن: وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء، لا ينظر أحد إلى أحد.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ هَوَاءَ﴾ الأفتدة: مساكن القلوب. وفي معنى الكلام أربعة أقوال: أحدها: أن القلوب خرجت من مواضعها فصارت في الحناجر، رواه عطاء عن ابن عباس. وقال قتادة: خرجت من صدورهم فثيبت في حلوقهم، فأفتدتهم هواءً ليس فيها شيء. والثاني: وأفتدتهم ليس فيها شيء من الخير، فهي كالخرقة، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: وأفتدتهم منخرقة لا تعي شيئاً، قاله مرة بن شراحيل. وقال الزجاج: منخرقة لا تعي شيئاً من الخوف. والرابع: وأفتدتهم جوف لا عقول لها، قاله أبو عبيدة، وأشد لحسان:

أَلَا أَبْلُغُ أَبَا سُفْيَانَ عُنِي فَأَنْتَ مُجَوِّفٌ نَجِبٌ هَوَاءٌ^(١)

فعلى هذا يكون المعنى: أن قلوبهم خلت عن العقول، لِمَا رَأَوْا من الهول. والعرب تسمي كل أجوف خاو: هواء. قال ابن قتيبة: ويقال: أفتدتهم منخوبة من الخوف والجبن.

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ أَجْلِ قَرِيبٍ نُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوَّلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ﴾ أي: خوفهم ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ يعني به: يوم القيامة؛ وإنما خصه بذكر العذاب، وإن كان فيه ثواب، لأن الكلام خرج مخرج التهديد للمصاة. قال ابن عباس: يريد بالناس هاهنا: أهل مكة.

قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ أَجْلِ قَرِيبٍ﴾ أي: أمهلنا مدة يسيرة. وقال مقاتل: سألوا الرجوع إلى الدنيا، لأن الخروج من الدنيا قريب. ﴿نُحِبُّ دَعْوَتَكَ﴾ يعني: التوحيد، فيقال لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ﴾ أي: حلفت في الدنيا أنكم لا تبعثون ولا تتقلون من الدنيا إلى الآخرة.

﴿وَسَكُنْتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَنَبَّيْتُكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمَثَالَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَكُنْتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: نزلتم في أماكنهم وقراهم، كالججر ومدین، والقرى التي عذب أهلها. ومعنى «ظلموا أنفسهم» أي: ضرروها بالكفر والمعصية. ﴿وَنَبَّيْتُكُمْ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو المتوكل الناجي «وَنَبَّيْنَا» بضم الناء. ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ يعني: كيف عذبناهم، يقول: فكان ينبغي لكم أن تزجروا عن المخالفة اعتباراً بمساكنهم بعدما علمتم فعلنا بهم، ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمَثَالَ﴾ قال ابن عباس: يريد الأمثال التي في القرآن.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَئَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾^(٢) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ تَوَلَّى عَذْوَهِمْ رَسُولُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ^(٣)

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ في المشار إليهم أربعة أقوال: أحدها: أنه نمرود الذي حاضَّ إبراهيم في ربه، قال: لا أنتهي حتى أنظر إلى السماء، فأمر بفرخي نسر فرّياً حتى سنا واستعلجا، ثم أمر بتابوت فُتحت، ثم جعل في وسطه خشبة، وجعل على رأس الخشبة لحماً شديد الحمرة، ثم جوعهما وربط أرجلها بأوتار إلى قوائم التابوت. ودخل هو وصاحب له في التابوت وأغلق بابه، ثم أرسلهما، فجعلا يريدان اللحم، فضعبدا في السماء ما شاء الله، ثم قال لصاحبه: افتح وانظر ماذا ترى؟ ففتح، فقال: أرى الأرض كأنها الدخان، فقال له: أغلق، ثم صعد ما شاء الله،

(١) «ديوانه» ٧، «مجاز القرآن» ١/ ٣٤٤، «الطبري» ١٣/ ٢٤١، «الطبري» ٩/ ٣٧٧، «اللسان»، «التاج»: هوا، جوف. والمجوف: الخالي الجوف، يريد به الجبان، وكذلك النخب والهواء.

ثم قال: افتح فانظر، ففتح، فقال: ما أرى إلا السماء، وما نزداد منها إلا بُعداً، قال: فصوب خشبتك، فصوبها، فانقضت النور تريد اللحم، فسمعت الجبال هدتها، فكادت تزول عن مراتبها. هذا قول علي بن أبي طالب. وفي رواية عنه: كانت النور أربعة. وروى الشدي عن أشياخه: أنه ما زال يصعد إلى أن رأى الأرض يحيط بها بحر، فكانها قلعة في ماء، ثم صعد حتى وقع في ظلمة، فلم يرَ ما فوقه ولم يرَ ما تحته، ففزع، فصوب اللحم، فانقضت النور، فلما نزل أخذ في بناء الصرح. وروى عن ابن عباس أنه بنى الصرح، ثم صعد منه مع النور، فلما لم يقدر على السماء، اتخذه حصناً، فأتى الله بنيانه من القواعد. وقال عكرمة: كان معه في التابوت غلام قد حمل القوس والنشاب، فرمى بهم فعاد إليه ملطخاً بالدم، فقال: كُفيت إله السماء، وذلك من دم سمكة في بحر معلق في الهواء، فلما هاله الارتفاع، قال لصاحبه: صوب الخشبة، فصوبها، فانحطت النور فظنت الجبال أنه أمر نزل من السماء فزالت عن مواضعها. وقال غيره: لما رأت الجبال ذلك، ظنه أنه قيام الساعة، فكادت تزول، وإلى هذا المعنى ذهب سعيد بن جبير، وأبو مالك. والقول الثاني: أنه يختصر، وأن هذه القصة له جرت، وأن النور لما ارتفعت تطلب اللحم إلى حيث شاء الله، نودي: يا أيها الطاغية، أين تريد؟ ففرق، ثم سمع الصوت فوقه، فنزل، فلما رأت الجبال ذلك، ظنت أنه قيام الساعة فكادت تزول، وهذا قول مجاهد. والثالث: أن المشار إليهم الأمم المتقدمة. قال ابن عباس، وعكرمة: مكروهم: شركهم. والرابع: أنهم الذين مكروا برسول الله ﷺ حين هُموا بقتله وإخراجه. وفي قوله: ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ قولان: أحدهما: أنه محفوظ عنده حتى يجازيهم به، قاله الحسن، وقادة. والثاني: وعند الله جزاء مكروهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ﴾ وقرأ أبو بكر، وعمر، وعلي، وابن مسعود، وأبي، وابن عباس، وعكرمة، وأبو العالية: «وإن كاد مكروهم» بالдал. ﴿لَيَنْزِلَنَّ مِنَ الْجِبَالِ﴾. وقرأ الأكثرون «لَيَنْزِلَنَّ» بكسر اللام الأولى من «لتنزل» وفتح الثانية. أراد: وما كان مكروهم لتنزل منه الجبال، أي: هو أضعف وأوهن، كذلك فسرها الحسن البصري. وقرأ الكسائي «لَيَنْزِلَنَّ» بفتح اللام الأولى وضم الثانية، أراد: قد كادت الجبال تنزل من مكروهم، كذلك فسرها ابن الأباري. وفي المراد بالجبال قولان: أحدهما: أنها الجبال المعروفة، قاله الجمهور. والثاني: أنها ضربت مثلاً لأمر النبي ﷺ، وثبوت دينه كثبوت الجبال الراسية، والمعنى: لو بلغ كيدهم إلى إزالة الجبال، لَمَا زال أمر الإسلام، قاله الزجاج. قال أبو علي؛ ويدل على صحة هذا قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ تَخَلَّفَ وَعَدِيهِ رُسُلَهُ﴾ أي: فقد وعدك الظهور عليهم. قال ابن عباس: يريد بوعده: النصر والفتح وإظهار الدين. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: منيع ﴿ذُو أَنْفَارٍ﴾ من الكافرين، وهو أن يجازيهم بالعقوبة على كفرهم.

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ وروى أبان «يوم تبديل» بالنون وكسر الدال «الأرض» بالنصب، «والسموات» بخفض التاء، ولا خلاف في نصب «غير». وفي معنى تبديل الأرض قولان: أحدهما: أنها تلك الأرض، وإنما يُزَادُ فيها ويُنْقَصُ منها، وتذهب أكامها وجبالها وأوديتها وشجرها، وتُمدَّ مَدَّ الأديم، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس. وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ: «يوم تبدل الأرض غير الأرض، قال: ببسطها ويمدها مَدَّ الأديم»^(١). والثاني: أنها تبدل بغيرها. ثم فيه أربعة أقوال: أحدها: أنها تبدل بأرض غيرها بيضاء كالفضة لم يعمل عليها خطيئة،

(١) «الطبري» ٢٥٢/١٣، وفي سننه جهالة، وهو جزء من حديث الصور المشهور، وقد ذكره الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ١٤٦/٢ من رواية أبي القاسم الطبراني، وقال في آخره: ثم ذكره بطوله، ثم قال: هذا حديث مشهور، وهو غريب جداً، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض الفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع قاضي أهل المدينة. وقد اختلف فيه، فمنهم من وثقه، ومنهم من ضعفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة، كأحمد بن حنبل، وابن أبي حاتم، وعمر بن أبي الفلاس، ومنهم من قال فيه: هو متروك الحديث. وقال ابن عدي: أحاديث كلها فيها نظر، إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء. قلت (أي ابن كثير): وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة قد أوردتها في جزء على حدة. وأما سياقاً فغريب جداً. ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقاً واحداً فأنكر عليه بسبب ذلك. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول: إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفاً قد جمعه كالشواهد لبعض مفردات هذا الحديث، والله أعلم.

رواه عمرو بن ميمون عن ابن مسعود، وعطاء عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والثاني: أنها تُبَدَّلُ ناراً، قاله أبي بن كعب. والثالث: أنها تُبَدَّلُ بأرض من فضة، قاله أنس بن مالك. والرابع: تُبَدَّلُ بخبزة بيضاء، فيأكل المؤمن من تحت قدميه، قاله أبو هريرة، وسعيد بن جبير، والقرظي؛ وقال غيرهم: يأكل منها أهل الإسلام حتى يُفْرَغَ من حسابهم. فأما تبديل السموت، ففيه ستة أقوال: أحدها: أنها تُجَعَلُ من ذهب، قاله علي عليه السلام. والثاني: أنها تصير جناناً، قاله أبي بن كعب. والثالث: أن تبديلها: تكوير شمسها وتناثر نجومها، قاله ابن عباس. والرابع: أن تبديلها: اختلاف أحوالها، فمرة كالمُهْل، ومرة تكون كاللّهان، قاله ابن الأنباري. والخامس: أن تبديلها أن تُطَوَّى كَطَيِّ السَّجَلِ للكتاب. والسادس: أن تنشَقَّ فلا تُظَلُّ، ذكرهما الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي: خرجوا من القبور.

﴿وَنَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ٥١﴾ سَرَابُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ وَتَنَقَّسْنِ وَجُوهَهُمْ النَّارَ ٥٢﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: الكفار ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ يقال: قرنتُ الشيء إلى الشيء: إذا وصلته به. وفي معنى «مُقَرَّنِينَ» ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم يُقَرَّنُونَ مع الشياطين، قاله ابن عباس. والثاني: أن أيديهم وأرجلهم قُرنت إلى رقابهم، قاله ابن زيد. والثالث: يُقَرَّنُ بعضهم إلى بعض، قاله ابن قتبية. وفي الأصفاة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الأغلال، قاله ابن عباس، وابن زيد، وأبو عبيدة، وابن قتبية، والزجاج، وابن الأنباري. والثاني: القيود والأغلال، قاله قتادة. والثالث: القيود، قاله أبو سليمان الدمشقي. فأما السرايل، فقال أبو عبيدة: هي القمص، واحدها سربال. وقال الزجاج: السربال: كل ما لبس. وفي القِطْرَانِ ثلاث لغات: فتح القاف وكسر الطاء، وفتح القاف مع تسكين الطاء، وكسر القاف مع تسكين الطاء. وفي معناه قولان: أحدهما: أنه النحاس المذاب، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أنه قِطْرَانِ الإبل، قاله الحسن، وهو شيء يَتَحَلَّبُ من شجر تُهَنَّا به الإبل ^(١). قال الزجاج: وإنما جعل لهم القِطْرَانِ، لأنه يبالغ في اشتعال النار في الجلود، ولو أراد الله تعالى المبالغة في إحراقهم بغير ذلك لَقَدَّرَ، ولكنه حلوهم ما يعرفون حقيقته. وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، وأبو مجلز، وعكرمة، وقاتدة، وابن أبي عبيدة، وأبو حاتم عن يعقوب: «مِنْ قِطْرٍ» بكسر القاف وسكون الطاء والتنوين «آِنْ» بقطع الهمزة وفتحها ومدّها. والقِطْر: النحاس، وأن: قد انتهى حرّه.

قوله تعالى: ﴿وَتَنَقَّسْنِ وَجُوهَهُمُ النَّارَ﴾ أي: تعلقوا. واللام في «لِيَجْزِيَ» متعلقة بقوله: ﴿وَبَرِّزُوا﴾

﴿هَذَا بَلَلٌ لِّلنَّارِ وَلَيْسَتْ بِهَا أُنْفَاقًا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ وَلْيَذْكُرُوا الْأَنْبِيَاءَ ٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَلٌ لِّلنَّارِ﴾ في المشار إليه قولان: أحدهما: أنه القرآن. والثاني: الإنذار. والبلاغ: الكفاية. قال مقاتل: والمراد بالناس: أهل مكة.

قوله تعالى: ﴿وَلْيُنْذَرُوا بِهِ﴾ أي: أنزل لِيُنْذَرُوا به، وليعملوا بما فيه من الحُجج ﴿أَنَّا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ وَلْيَذْكُرُوا﴾

أي: وليتعضّ ﴿أُولُوا الْأَنْبِيَاءِ﴾



(١) يقال: هنا الإبل يهتذا بهتها هنا وهتاة: طلاها بالهتاء، وهو القطران.

سورة الحجر

وهي مكية كلها من غير خلاف نعلمه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ قد سبق بيانه [يونس: ٤١].

قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن القرآن هو الكتاب، جُمع له بين الاسمين. والثاني: أن الكتاب: هو التوراة والإنجيل، والقرآن: كتابنا. وقد ذكرنا في أول (يوسف) معنى المبين.

﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رُبَّمَا﴾ وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي «رُبَّمَا» مشددة. وقرأ نافع، وعاصم، وعبد الوارث «رُبَّمَا» بالتخفيف. قال الفراء: أسد وتميم يقولون: «رُبَّمَا» بالتشديد، وأهل الحجاز وكثير من قيس يقولون: «رُبَّمَا» بالتخفيف. وتيمم الزيات يقولون: «رُبَّمَا» بفتح الراء. وقيل: إنما قرئت بالتخفيف، لما فيها من التضعيف، والحروف المضاعفة قد تحذف، نحو «إِنَّ» و«لَكِنَّ» فإنهم قد خَفَّفوها. قال الزجاج: يقولون: رَبُّ رَجُلٍ جَاءَنِي، وَرَبُّ رَجُلٍ جَاءَنِي، وأنشد:

رُبَّ هَيْضَلٍ مَرَسٍ لَفَقْتُ بِهِيْضَلٍ

أزهير إن يَشِيبَ الْقَذَالُ فَلِئَنِّي

هذا البيت لأبي كبير الهذلي^(١)، وفي ديوانه:

رُبَّ هَيْضَلٍ لَجِبٍ لَفَقْتُ بِهِيْضَلٍ

والهَيْضَلُ: جمع هَيْضَلَةٍ، وهي الجماعة يُغْزَى بهم، يقول: لففتهم بأعدائهم في القتال. و«رُبَّ» كلمة موضوعة للتقليل، كما أن «كم» للتكثير، وإنما زيدت «ما» مع «رُبَّ» ليلها الفعل، تقول: رَبُّ رَجُلٍ جَاءَنِي، وربما جاءني زيد. وقال الأخفش: أدخل مع «رُبَّ» ما، لِيُتَكَلَّمَ بالفعل بعدها، وإن شئت جعلت «ما» بمنزلة «شيء»، فكأنك قلت: رَبُّ شيء، أي: رَبُّ وَدَّ يَوَدُّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا. وقال أبو سليمان الدمشقي: «ما» هاهنا بمعنى «حين»، فالمعنى: رَبُّ حِينَ يَوَدُّونَ فِيهِ. واختلف المفسرون متى يقع هذا من الكفار، على قولين: أحدهما: أنه في الآخرة. ومتى يكون ذلك؟ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم مَنْ شاء الله من أهل القِبْلَةِ، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها؛ فسمع الله ما قالوا، فأمر بمن كان في النار من أهل القِبْلَةِ فَأُخْرِجُوا، فلما رأى ذلك الكفار، قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فَنُخْرِجَ كما أُخْرِجُوا، رَوَاهُ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ^(٢)، وذهب إليه ابن عباس في رواية وأنس بن مالك، ومجاهد، وعطاء، وأبو العالية، وإبراهيم. والثاني: أنه ما يزال الله يرحم ويشفَعُ حتى يقول: من كان من المسلمين فليدخل الجنة، فذلك حين يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مسلمين، رَوَاهُ مجاهد عن ابن عباس^(٣). والثالث: أن

(١) «ديوان الهذليين» ٨٩/٢.

(٢) «الطبري» ٢/١٤، وفي سنده خالد بن نافع الأشعري، قال الذهبي في «الميزان»: ضعفه أبو زرعة والنسائي. وقال أبو حاتم: ليس بقوي يكتب حديثه، وقال أبو داود: متروك الحديث. قال الذهبي: وهذا تجاوز في الحد، فإن الرجل قد حدث عنه أحمد بن حنبل، ومسلم، فلا يستحق الترك. والحديث ذكره ابن كثير ٥٤٦/٢ عن الطبراني من حديث خالد بن نافع الأشعري. وأورده السيوطي في «الدرر» ٩٢/٤، وزاد نسبه لابن أبي عاصم في «السنن»، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث والنشور».

(٣) «الطبري» ٣/١٤.

الكفار إذا عاينوا القيامة، ودُّوا لو كانوا مسلمين، ذكره الزجاج. والرابع: أنه كلما رأى أهل الكفر حالاً من أحوال القيامة يعذب فيها الكافر ويسلم من مكروهاها المؤمن، ودُّوا ذلك، ذكره ابن الأنباري. والقول الثاني: أنه في الدنيا، إذا عاينوا وتبين لهم الضلال من الهدى وعلّموا مصيرهم، ودُّوا ذلك، قاله الضحاك. فإن قيل: إذا قلت: إن «رُبَّ» للتقليل، وهذه الآية خارجة مخرج الوعيد، فإنما يناسب الوعيد تكثير ما يتواعد به؟ فعنه ثلاثة أجوبة ذكرها ابن الأنباري: أحدهن: أن «ربما» تقع على التقليل والتكثير، كما يقع الناهل على العطشان والريان، والجؤن على الأسود والأبيض. والثاني: أن أحوال القيامة وما يقع بهم من الأحوال تكثر عليهم، فإذا عادت إليهم عقولهم، ودُّوا ذلك. والثالث: أن هذا الذي حُوفوا به، لو كان مما يؤدُّ في حال واحدة من أحوال العذاب، أو كان الإنسان يخاف الندم إذا حصل فيه ولا يتيقنه، لوجب عليه اجتنابه. فإن قيل: كيف جاء بعد «ربما» مستقبل، وسبيلها أن يأتي بعدها الماضي، تقول: ربما لقيت عبد الله؟ فالجواب: أن ما وعد الله حق، فمستقبله بمنزلة الماضي، يدل عليه قوله: ﴿وَلَا قَالَ اللَّهُ يُبَيِّنُ آيَنَ مَرِّمٍ﴾ [المائدة: ١١٦] وقوله: ﴿وَكَاذِبٌ أَصْحَبُ الْمُنَافَةِ﴾ [الأعراف: ٤٤] ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فُتِحُوا فَلَا قُوَّةَ﴾ [سبا: ٥١]، على أن الكسائي والفراء حكيا عن العرب أنهم يقولون: ربما يندم فلان، قال الشاعر:

رَبِّمَا تَجَزَّعَ النَّفُوسُ مِنَ الْأَمْرِ
رِلَهُ فُرْجَةٌ كَحَلِّ الْعِقالِ

﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَتَشْتَبَهُوا وَلَهُمْ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ①

قوله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا﴾ أي: دع الكفار يأخذوا حظوظهم في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ الْأَمَلُ﴾ أي: ويشغلهم ما يأملون في الدنيا عن أخذ حظهم من الإيمان والطاعة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ إذا وردوا القيامة وبأل ما صنعوا، وهذا وعيد وتهديد، وهذه الآية عند المفسرين منسوخة بآية السيف.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَهِيَ كَاثِبٌ مَعْلُومٌ ② مَا تَسْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ③﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي: ما عذبنا من أهل قرية ﴿إِلَّا وَهِيَ كَاثِبٌ مَعْلُومٌ﴾ أي أجل موثقت لا يتقدم ولا يتأخر عنه. ﴿مَا تَسْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ من: صلة، والمعنى: ما تتقدم وقتها الذي قدر لها بلوغه، ولا تستأخر عنه. قال الفراء: إنما قال: «أجلها» لأن الأُمَّةَ لفظها مؤنث، وإنما قال: «يستأخرون» إخراجاً له على معنى الرجال.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ④ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ⑤ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكِ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذْ مُنْظَرِينَ ⑥﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ قال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أبي أمية، والنضر بن الحارث، ونوفل بن خويلد، والوليد بن المغيرة. قال ابن عباس: والذكر: القرآن. وإنما قالوا هذا استهزاء، لو أيقنوا أنه نُزِّلَ عليه الذكر، ما قالوا: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾. قال أبو علي الفارسي: وجواب هذه الآية في سورة أخرى في قوله: ﴿مَا أَنْتَ بِمُتَّبِعِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ⑦﴾ [القلم: ٢].

قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا﴾ قال الفراء: «لو ما» و «لو لا» لغتان معناهما: هلاً، وكذلك قال أبو عبيدة: هما بمعنى واحد، وأنشد لابن مقبل:

لَوْ مَا الْحَيَاءُ وَلَوْ مَا الدِّينُ عِبْتُكُمْ مَا
بِبَغْضٍ مَا فَيْكُمْ مَا إِذْ عِبْتُمَا عَوْرِي ⑧

قال المفسرون: إنما سألوا الملائكة ليشهدوا له بصدقه، وأن الله أرسله، فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَكِ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر «ما ننزل» بالتاء المفتوحة «الملائكة» بالرفع. وروى أبو بكر عن عاصم «ما ننزل» بضم التاء على ما لم يُسم فاعله. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخلف «ما ننزل» بالنون والزاي مشددة «الملائكة» نصباً. وفي المراد بالحق أربعة أقوال: أحدها: أنه العذاب إن لم يؤمنوا، قاله الحسن. والثاني: الرسالة، قاله مجاهد. والثالث: قبض الأرواح عند الموت، قاله ابن السائب. والرابع: أنه القرآن، حكاه الماوردي.

(١) «ديوانه» ٧٦، و«الطبري» ١٦/١٤، و«مجاز القرآن» ٣٤٦/١، و«القرطبي» ٤/١٠، و«البحر» لأبي حيان ٤٤٢/٥، و«شواهد الكشاف» ١٢٦، و«اللسان»: بعض.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا﴾ يعني: المشركين ﴿إِذَا تُنْزِلُ إِلَيْكُمُ الْمَلَائِكَةُ إِذَا نَزَلَتْ﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ١٠

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ من عادة الملوك إذا فعلوا شيئاً، قال أحدهم: نحن فعلنا، يريد نفسه وأتباعه، ثم صار هذا عادة للملك في خطابه، وإن انفرد بفعل الشيء، فخطبت العرب بما تعقل من كلامها. والذِّكر: القرآن، في قول جميع المفسرين. وفي هاء «له» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الذِّكر، قاله الأكثرون. قال قتادة: أنزله الله ثم حفظه، فلا يستطيع إبليس أن يزيد فيه باطلاً، ولا ينقص منه حقاً. والثاني: أنها ترجع إلى النبي ﷺ، فالمعنى: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من الشياطين والأعداء، لقولهم: «إنك لمجنون»، هذا قول ابن السائب، ومقاتل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ ١١

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني: رسلاً، فحذف المفعول، لدلالة الإرسال عليه. والشَّيْع: الفرقة، وحكي عن الفراء أنه قال: الشيعة: الأمة المتابعة بعضها بعضاً فيما يجتمعون عليه من أمر.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ١٢

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ هذا تعزية للنبي ﷺ، والمعنى: إن كل نبي قبلك كان مبتلى بقومه كما ابتليت.

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ١٣ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ ١٤

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ في المشار إليه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الشُّرك، قاله ابن عباس، والحسن، وابن زيد. والثاني: أنه الاستهزاء، قاله قتادة. والثالث: التكذيب، قاله ابن جريج، والفراء. ومعنى الآية: كما سلكنا الكفر في قلوب شيع الأولين، ندخل في قلوب هؤلاء التكذيب فلا يؤمنوا. ثم أخبر عن هؤلاء المشركين، فقال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾. وفي المشار إليه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الرسول. والثاني: القرآن. والثالث: العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: مضت سنة الله في إهلاك المكذبين. والثاني: مضت سنتهم بتكذيب الأنبياء.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَمْرُجُونَ﴾ ١٥ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ ١٦

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنْ السَّمَاءِ﴾ يعني: كفار مكة ﴿فَظَلُّوا فِيهِ يَمْرُجُونَ﴾ أي يصعدون، يقال: ظل يفعل كذا: إذا فعله بالنهار. وفي المشار إليهم بهذا الصعود قولان: أحدهما: أنهم الملائكة، قاله ابن عباس، والضحاك، فالمعنى: لو كشف عن أبصار هؤلاء فأروا باباً مفتوحاً في السماء والملائكة تصعد فيه، لما آمنوا به. والثاني: أنهم المشركون، قاله الحسن، وقاتدة، فيكون المعنى: لو وصلناهم إلى صعود السماء، لم يستشعروا إلا الكفر، لعنادهم.

قوله تعالى: ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ قرأ الأكثرون بتشديد الكاف. وقرأ ابن كثير، وعبد الوارث بتخفيفها. قال الفراء: معنى القراءتين متقارب، والمعنى: حُبْسَتْ، من قولهم: سَكَّرَتِ الرِّيح: إذا سكنت وركدت. وقال أبو عمرو بن العلاء: معنى «سُكِّرَتْ» بالتخفيف، مأخوذ من سُكَّرَ الشراب، يعني: أن الأبصار حارت، ووقع بها من فساد النظر مثل ما يقع بالرجل السكران من تغيير العقل. قال ابن الأنباري: إذا كان هذا معنى التخفيف، فسُكِّرَتْ، بالتشديد، يراد به وقوع هذا الأمر مرة بعد مرة. وقال أبو عبيد: «سُكِّرَتْ» بالتشديد، من السُّكُور التي تمنع الماء الجريئة، فكان هذه الأبصار مُنْعَت من النظر كما يمنع السُّكْرُ الماء من الجري. وقال الزجاج: «سُكِّرَتْ» بالتشديد، فسروها: أغشيت، و«سُكِّرَتْ» بالتخفيف: تحيرت وسكنت عن أن تنظر، والعرب تقول: سَكَّرَتِ الرِّيحُ تَسْكُرُ: إذا سكنت. وروى العوفي عن ابن عباس: «إنما سُكِّرَتْ أبصارنا» قال: أخذنا بأبصارنا وشبه علينا، وإنما سُجِّرْنَا. وقال مجاهد: «سُكِّرَتْ» سُدَّتْ بالسحر، فيتمائل لأبصارنا غير ما ترى.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ ١٧ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ ١٨ إِلَّا مَنْ اسْتَرَفَّ سَتَقِ قَائِمُهُ شِهَابٌ

ثُبِيثٌ﴾ ١٩

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ في البروج ثلاثة أقوال: أحدها: أنها بروج الشمس والقمر، أي: منازلهما، قاله ابن عباس، وأبو عبيدة في آخرين. قال ابن قتيبة: وأسماءها: الحَمَل، والتَّوْر، والجُوزاء، والسَّرَطان، والأسد، والسُّنْبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجُذْي، والدلو، والحوت. والثاني: أنها قصور، روي عن ابن عباس أيضاً. وقال عطية: هي قصور في السماء فيها الحرس. وقال ابن قتيبة: أصل البروج: الحصون. والثالث: أنها الكواكب، قاله مجاهد، وقتادة، ومقاتل. قال أبو صالح: هي النجوم العظام. قال قتادة: سُميت بروجاً، لظهورها.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَهَا﴾ أي: حَسَنَّاها بالكواكب. وفي المراد بالناظرين قولان: أحدهما: أنهم المبصرون. والثاني: المعترفون.

قوله تعالى: ﴿وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ﴾ (١٧) أي: حَفَظْنَاهَا أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا شَيْطَانٌ أَوْ يَعْلَمَ مِنْ أَمْرِهَا شَيْئاً إِلَّا اسْتِرَاقاً، ثم يتبعه الشهاب. والرجيم مشروح في (الك عمران: ٢٣٦). واختلف العلماء: هل كانت الشياطين تُرمى بالنجوم قبل مبعث نبينا ﷺ، أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنها لم تُرْمَ حتى بُعث ﷺ، وهذا المعنى مذكور في رواية سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. وقد أخرج في «الصحاحين» من حديث سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب (١)، وظاهر هذا الحديث أنها لم تكن قبل ذلك. قال الزجاج: ويدل على أنها إنما كانت بعد مولد رسول الله ﷺ أن شعراء العرب الذين يمثلون بالبرق والأشياء المسرعة، لم يوجد في أشعارها ذكر الكواكب المنقضة، فلما حدثت بعد مولد نبينا ﷺ، استعملت الشعراء ذكرها، فقال ذو الرُّمَّة:

كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ فِي إِثْرِ عَفْرِبَةٍ مُسَوِّمٌ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ مُنْقَضِبٍ (٢)

والثاني: أنه قد كان ذلك قبل نبينا ﷺ، فروى مسلم في «صحيحه» من حديث علي بن الحسين عن ابن عباس قال: بينا النبي ﷺ جالس في نفر من أصحابه، إذ رمي بنجم، فاستنار، فقال: «ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية؟» قالوا: كنا نقول: يموت عظيم، أو يولد عظيم، قال: «فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا إذا قضى أمراً، سَبحَ حملة العرش، ثم سَبحَ أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء، ثم يستخبر أهل السماء السابعة حملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ثم يستخبر أهل كل سماء أهل سماء، حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتخطف الجن ويُرْمون، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يقرِّفون فيه ويزيدون» (٣). وروي عن ابن عباس أن الشياطين كانت لا تُحجب عن السموات، فلما وُلد عيسى، مُنعت من ثلاث سموات، فلما وُلد رسول الله ﷺ، مُنعوا من السموات كلها. وقال الزهري: قد كان يرمى بالنجوم قبل مبعث رسول الله، ولكنها غُلِظت حين بُعث ﷺ، وهذا مذهب ابن قتيبة، قال: وعلى هذا وجدنا الشعر القديم، قال بشر بن أبي خازم، هو جاهلي:

(١) البخاري ٢/٢١٠ و ٨/٥١٣، ومسلم ١/٣٣١، ولفظه في البخاري بتمامه: «عن ابن عباس ؓ قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو نهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك حين رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآنًا عجيباً يهدي إلى الرشد فأتنا به، ولن نشرك بربنا أحداً، فأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿قُلْ أَدْنَىٰ إِنْ﴾ وإنما أوحى إليه قول الجن». ورواه الترمذي ٢/١٦٧، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأورد ابن كثير ٢/١٦٢ من رواية البيهقي في «دلائل النبوة».

(٢) «ديوانه» ٣٦ طبع المكتب الإسلامي، و«مجاز القرآن» ٢/٩٥، و«الكامل للمبردة» ٨٣٣، و«الأمالي» للقالبي ٣/٦٥، و«اللسان: قصب، والقروطي» ١٣/٢٠٣. وقوله: في إثر عفربة: أي: شيطان، وقوله: مسوم، أي: معلم، من السومة، وهي العلامة. ومعنى البيت: كان النور كوكب مسوم منقضب في إثر عفربة في سواد الليل.

(٣) مسلم ٤/١٧٥٠ - ١٧٥١، وقد رواه المصنف بالمعنى، ورواه أحمد في «المستند» من حديث ابن عباس رقم (١٨٨٢، ١٨٨٣)، ولفظ المصنف قريب من لفظ أحمد.

وَالْعَبِيرُ يَرْهَقُهَا الْعُبَارُ وَجَحَشُهَا
وقال أوس بن حَجَر، وهو جاهلي:

يَنْقُضُ خَلْفَهُمَا انْقِضَاضَ الْكَوْكَبِ^(١)

فَانْقَضَ كَالدَّرِيِّ يَتَّبِعُهُ

نَقَعَ يَشُورُ تَخَالُهُ طُنْبًا^(٢)

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ أي: اختطف ما سمعه من كلام الملائكة. قال ابن فارس: استرق السمع: إذا سمع مستخفياً. «فَاتَّبَعَهُ» أي: لحقه ﴿يَهَابٌ ثُبِينٌ﴾ قال ابن قتيبة: كوكب مضيء. وقيل: «مبين» بمعنى: ظاهر يراه أهل الأرض. وإنما يسترق الشيطان ما يكون من أخبار الأرض، فأما وحي الله ﷻ، فقد صانه عنهم. واختلفوا، هل يقتل الشهاب، أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنه يحرق ويخبل ولا يقتل، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أنه يقتل، قاله الحسن. فعلى هذا القول، هل يقتل الشيطان قبل أن يخبر بما سمع، فيه قولان: أحدهما: أنه يقتل قبل ذلك، فعلى هذا، لا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء. قال ابن عباس: ولذلك انقطعت الكهانة. والثاني: أنه يقتل بعد إلقائه ما سمع إلى غيره من الجن، ولذلك يعودون إلى الاستراق، ولو لم يصل، لقطعوا الاستراق.

﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿٢١﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَنَ أَنْتُمْ لَكُمْ بِرِزْقَيْنِ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا﴾ أي: بسطناها على وجه الماء ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وهي الجبال الثوابت ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ في المشار إليها قولان: أحدهما: أنها الأرض، قاله الأكثرون. والثاني: الجبال، قاله الفراء. وفي قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ قولان: أحدهما: أن الموزون: المعلوم، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، والضحاك. وقال مجاهد، وعكرمة في آخرين: الموزون: المقدور. فعلى هذا يكون المعنى: معلوم القدر كأنه قد وُزِنَ، لأن أهل الدنيا لما كانوا يعلمون قدر الشيء بوزنه، أخبر الله تعالى عن هذا أنه معلوم القدر عنده بأنه موزون. وقال الزجاج: المعنى: أنه جرى على وُزْنٍ من قَدَرِ الله تعالى، لا يجاوز ما قَدَرَهُ الله تعالى عليه، ولا يستطيع خلق زيادة فيه ولا نقصاناً. والثاني: أنه عني به الشيء الذي يُوزَنُ كالذهب، والفضة، والرصاص، والحديد، والكحل، ونحو ذلك، وهذا المعنى مروي عن الحسن، وعكرمة، وابن زيد، وابن السائب، واختاره الفراء.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ﴾ في المشار إليها قولان: أحدهما: أنها الأرض. والثاني: أنها الأشياء التي أنبتت. والمعاش جمع معيشة. والمعنى: جعلنا لكم فيها أرزاقاً تعيشون بها. وفي قوله: ﴿وَمِنْ أَنْتُمْ لَكُمْ بِرِزْقَيْنِ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أنه الدواب والأنعام، رواه ابن أبي نجيع عن مجاهد. والثاني: الوحوش، رواه منصور عن مجاهد. وقال ابن قتيبة: الوحش، والطير، والسباع، وأشباه ذلك مما لا يرزقه ابن آدم. والثالث: العبيد والإماء، قاله الفراء. والرابع: العبيد، والأنعام، والدواب، قاله الزجاج. قال الفراء: و «مَنْ» في موضع نصب، فالمعنى: جعلنا لكم فيها المعاش، والعبيد، والإماء. ويقال: إنها في موضع خفض، فالمعنى: جعلنا لكم فيها معاش ولمن لستم له برازقين. وقال الزجاج: المعنى: جعلنا لكم الدواب، والعبيد، وكُفَيْتُمْ مَوْنةَ أرزاقها. فإن قيل: كيف قلتم: إن «مَنْ» هاهنا للوحوش والدواب، وإنما تكون لمن يعقل؟ فالجواب: أنه لما وُصِفَتِ الوحوش وغيرها بالمعاش الذي الغالب عليه أن يوصف به الناس، فيقال: للآدمي معاش، ولا يقال: للفرس معاش، جرت مجرى الناس، كما قال: ﴿يَكْفِيكَ أَكْثَلُ أَخْلَوْا سَكِينَتَكُمْ﴾ [النمل: ١٨]، وقال: ﴿رَأَيْتُمْ لِي سَيِّدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، وقال: ﴿كُلٌّ فِي فَكٍّ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وإن قلنا: أريد به العبيد، والوحوش، فإنه إذا اجتمع الناس وغيرهم، غلب الناس على غيرهم، لفضيلة العقل والتمييز.

﴿وَلَنْ يَنْ شَيْءٌ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٣﴾﴾

(١) «ديوانه» ٣٧، و «تأويل مشكل القرآن» ٣٣٣، و «المعاني الكبير» ٣٣٩/٢، و «الحيوان» ٢٧٩/٦. شبه الحمار والجمش بالكوكب المنقض في سرعته وبياضه، وقال الجاحظ في «الحيوان» ٢٧٩/٦: وقد طلعت الرواة في هذا الشعر الذي أضفتموه إلى بشر بن أبي خازم من قوله: «والعير يرهقها...» البيت، فزعموا أنه ليس من عادتهم أن يصفوا عدو الحمار بانقضاض الكوكب، وقالوا: في شعر بشر مصنوع كثير مما قد احتمله كثير من الرواة على أنه من صحيح شعره.

(٢) «ديوانه» ٣، و «المعاني الكبير» ٧٣٨/٢، و «غريب القرآن» ٣٣٤، و «الحيوان» ٢٧٤/٦، و «اللسان»: درأ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: وما من شيء ﴿إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِكُمْ﴾ وهذا الكلام عام في كل شيء. وذهب قوم من المفسرين إلى أن المراد به المطر خاصة، فالمعنى عندهم: وما من شيء من المطر إلا عندنا خزائنه، أي: في حكمنا وتدبيرنا، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ﴾ كل عام ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ لا يزيد ولا ينقص، فما من عام أكثر مطراً من عام، غير أن الله تعالى يصرفه إلى من يشاء، ويمنعه من يشاء.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ مَحْضًا﴾ فَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ غَنِيٌّ وَنُيِّتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ مَحْضًا﴾ وقرأ حمزة؛ وخلف: «الريح». وكان أبو عبيدة يذهب إلى أن «الواقيح» بمعنى ملاقيح، فسقطت الميم منه، قال الشاعر:

لِيُبْنِكَ يَزِيدُ بَائِسٌ لِحْزَارَةً
وَأَشَعْتُ بِمَنْ طَوَّحْتُهُ الطَّوَائِحُ^(١)
أراد: المَطَاوِج، فحذف الميم، فمعنى الآية عنده: وأرسلنا الرياح مُلْقِحَةً، فيكون هاهنا فاعلٌ بمعنى مفعول، كما أتى فاعل بمعنى مفعول، كقوله: ﴿تَمْلُؤْا دَائِي﴾ [الطارق: ٦] أي: مدفوق، و ﴿مِيسِرَةً رَاضِيَةً﴾ [الحاقة: ٢١ والقارة: ٧] أي: مَرْضِيَّةً، وكقولهم: ليل نائم، أي: مَتَوِّمٌ فيه، ويقولون: أبقل النبات، فهو باقل، أي: مُبْقِلٌ. قال ابن قتيبة: يريد أبو عبيدة أنها تُلْقِحُ الشجر، وتُلْقِحُ السحاب كأنها تُتَجِّه. ولست أدري ما اضطره إلى هذا التفسير بهذا الاستكراه وهو يجد العرب تسمي الرياحَ لَوَاقِحَ، والريحَ لَاقِحاً، قال الطِّرِمَاح، وذكر بُزْداً مَدَّهُ على أصحابه في الشمس يستظلُّون به:

قَلِيلٌ لَأَفْنَانِ الرِّيحِ
فَاللَّاحِقُ: الجنوب، والحائل: الشمال، ويسمون الشمال أيضاً: عقيماً، والعقيم: التي لا تحمل، كما سموا الجنوب لاقِحاً، قال كثير:

وَمَرٌّ بِسَفْسَافِ التَّرَابِ عَقِيمِهَا^(٢)

يعني: الشمال. وإنما جعلوا الريح لاقِحاً، أي: حاملاً، لأنها تحمل السحاب وتقلِّبه وتصرفه، ثم تحله فينزل، فهي على هذا حامل، ويدل على هذا قوله: ﴿حَوَّجَ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا﴾ [الأعراف: ٥٧] أي: حملت. قال ابن الأنباري: شبه ما تحمله الريح من الماء وغيره، بالولد الذي تشتمل عليه الناقة، وكذلك يقولون: حرب لاقح، لما تشتمل عليه من الشر، فعلى قول أبي عبيدة، يكون معنى «الواقيح»: أنها مُلْقِحَةٌ لغيرها، وعلى قول ابن قتيبة: أنها لاقحة نفسها، وأكثر الأحاديث تدل على القول الأول^(٣). قال عبد الله بن مسعود: يبعث الله الرياح لتلقح السحاب، فتحمل الماء، فتمجُّه ثم تمرِّيه، فيدُرُّ كما تدرُّ اللقحة. وقال الضحاك: يبعث الله الرياح على السحاب فتلقِّحه فيمتلئ ماءً. قال النخعي: تُلْقِحُ السحاب ولا تُلْقِحُ الشجر. وقال الحسن في آخرين: تُلْقِحُ السحاب والشجر، يعنون أنها تُلْقِحُ السحاب حتى يُمطر والشجر حتى يُثمر^(٤).

قوله تعالى: ﴿فَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعين السحاب ﴿مَاءً﴾ يعني المطر ﴿فَلْيَبِيتْ أَكْبَرُ﴾ أي: جعلناه سقياً لكم. قال الفراء: العرب مجتمعون على أن يقولوا: سقيت الرجل، فإنا أسقيه: إذا سقيته لِسْقَتِهِ، فإذا أجزوا للرجل نهراً

(١) البيت لنهشل بن حري على الأصح، شاعر مخضرم، وقد ينسب إلى غيره، وصوب البغدادى نسبة إلى نهشل. وهو في «الكتاب» ١/١٤٥، و«الطبري» ٢١/٢١، و«مجاز القرآن» ١/٣٤٩، و«الشتري» ١/١٤٥، و«اللسان»، و«التاج»، طبع. و«العيني» ٤٤٣، و«شواهد الكشاف» ٦٥.

(٢) البيت للطرماع «غريب القرآن» ٢٣٦.

(٣) غريب القرآن ٢٣٧، و«اللسان»: سفف.

(٤) وقد روى ابن جرير الطبري ٢٢/١٤ حديثاً مرفوعاً من حديث عيسى بن ميمون عن أبي المهزَّم عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ: «الريح الجنوب من الجنة، وهي الريح اللواقح، وهي التي ذكر الله تعالى في كتابه، وفيها منافع للناس»، وسنده ضعيف.

(٥) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندي أن الرياح لواقح كما وصفها به جل ثناؤه وإن كانت قد تلقح السحاب والأشجار، فهي لاقحة ملقحة، ولقحها: حملها الماء، ولقحها السحاب والشجر: عملها فيه.

[قالوا: أسقيته وسقيته، وكذلك السُّقيا من الغيث، قالوا فيها: سقيت وأسقيت]^(١). وقال أبو عبيدة: كل ما كان من السماء، ففيه لثتان: أسقاء الله، وسقاء الله، قال لبيد:

سَقَى قَوْمِي بَنِي مَجْدٍ وَأَسْقَى
فَجَاءَ بِاللَّغْتَيْنِ. وتقول: سقيت الرجل ماءً وشراباً من لبن وغيره، وليس فيه إلا لغة واحدة بغير ألف، إذا كان في الشُّفة؛ وإذا جعلت له شُرْباً، فهو: أسقيته، وأسقيت أرضه، وإبله، ولا يكون غير هذا، وكذلك إذا استسقيت له، كقول ذي الرمة:

وَقَفْتُ عَلَى رَسْمٍ لِمَيَّةَ نَأْتِي
وَأَسْقِيَةَ حَتَّى كَادَ أَبْثُهُ
فَإِذَا وَهَبَتْ لَهُ إِهَاباً لِيَجْعَلَهُ سَقَاءً، فقد أسقيته إياه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ﴾ يعني: الماء المُنْزَل ﴿بِحَدْرَيْنِ﴾ وفيه قولان: أحدهما: بحافظين، أي: ليست خزائنه بأيديكم، قاله مقاتل. والثاني: بمانعين، قاله سفيان الثوري.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَلْوَدُونَ﴾ يعني: أنه الباقي بعد فناء الخلق.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا لَلْمُسْتَخْرِينَ ﴿١٥﴾ وَلَنْ رَبَّكَ هُوَ بِحَثْرَمٍ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِينَ مِنْكُمْ﴾ يقال: استقدم الرجل، بمعنى: تقدم، واستأخر، بمعنى: تأخر. وفي سبب نزولها قولان: أحدهما: أن امرأة حسناء كانت تصلي خلف رسول الله ﷺ، فكان بعضهم يستقدم حتى يكون في أول الصفِّ لثلا يراها، ويتأخر بعضهم حتى يكون في آخر صفِّ، فإذا ركع نظر من تحت إبطه، فنزلت هذه الآية، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس^(٢). والثاني: أن النبي ﷺ حَضَّ على الصفِّ الأول، فازدحموا عليه، وقال قوم بيوتهم قاصية عن المدينة: لنبيعن دُورنا، ولنشتري دوراً قريبة من المسجد حتى ندرِكَ الصفِّ المتقدم، فنزلت هذه الآية؛ ومعناها: إنما تُجْزَوْنَ على النيات، فاطمأنوا وسكنوا، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وللمفسرين في معنى المستقدمين والمستأخرين ثمانية أقوال: أحدها: لتقدم في الصفِّ الأول، والتأخر عنه، وهذا على القولين المذكورين في سبب نزولها، فعلى الأول: هو التقدُّم للتقوى، والتأخر للخيانة بالنظر، وعلى الثاني: هو التقدم لطلب الفضيلة، والتأخر للعذر. والثاني: أن المستقدمين: من مات، والمستأخرين: من هو حي لم يمت، رواه العوفي عن ابن عباس، وتخصيف عن مجاهد، وبه قال عطاء، والضحاك، والقرظي. والثالث: أن المستقدمين: من خرج من الخلق وكان. والمستأخرين: الذين في أصلاب الرجال، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال عكرمة. والرابع: أن المستقدمين: من مضى من الأمم، والمستأخرين: أمة محمد ﷺ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد. والخامس: أن المستقدمين: المتقدمون في الخير، والمستأخرين: المثبطون عنه، قاله الحسن، وقتادة. والسادس: أن المستقدمين في صفوف القتال، والمستأخرين عنها، قاله الضحاك. والسابع: أن المستقدمين: من قُتل في الجهاد، والمستأخرين: من لم يُقتل، قاله القرظي. والثامن: أن المستقدمين: أول الخلق، والمستأخرين: آخر الخلق، قاله الشعبي.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلَافٍ يَنْ حَمَلٍ مَسْتَوْوٍ ﴿١٧﴾ وَلَكِنْ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّجُورِ ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ إِذْ خَلَقْتُ بَشَرًا يَنْ حَمَلٍ مَسْتَوْوٍ ﴿١٩﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

(١) وفي هامش الأصل ما نصه: هذا سقط من الأصل، لأنه مكتوب بخط جديد، كان سقط منه ورقة، والحقت، ولعله غلط فأسقط ما بين «إلى» وهو الذي وضعناه بين معقنين.

(٢) «ديوانه» ٩٣، و«مجاز القرآن» ٣٥٠/١، و«نوار أبي زيد» ٢١٣، و«الشتومي» ٢٣٥/٢، و«اللسان»، و«التاج»: سقى.

(٣) «ديوانه» طبع المكتب الإسلامي ٥٢، و«مجاز القرآن» ٣٥٠/١، و«نوار أبي زيد» ٢١٣، و«الطبري» ٢٢/١٤، و«التاج»: سقى.

(٤) «الطبري» ٢٦/١٤، وذكره ابن كثير من رواية ابن جرير الطبري ٥٤٩/٢، وقال: حديث غريب جداً، وفيه نكارة شديدة. وأورده السيوطي في «الدرر» ٩٦/٤، وزاد نسبته للطيالسي، وسعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه».

قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتُمْ مِنْ صَلَاسٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِنْ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ يَوْمَ الْآفَاقِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَهُمْ أَجْمِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْخَالِصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا سَأَلْتَهُمْ﴾ أي: عدلت صورته، وأتممت خلقته ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ هذه الروح هي التي يحيي بها الإنسان، ولا تعلم ما هيئتها، وإنما أضافها إليه، تشريفاً لأدم، وهذه إضافة ملوك. وإنما سمي إجراء الروح فيه نفخاً، لأنها جرت في بدنه على مثل جري الريح فيه.

قوله تعالى: ﴿فَتَعَرَّأْ﴾ أمر من الوقوع. وقوله: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ قال فيه سيبويه والخليل: هو توكيد بعد توكيد. وقال المبرد: «أجمعون» يدل على اجتماعهم في السجود، فالمعنى: سجدوا كلهم في حالة واحدة. قال ابن الأنباري: وهذا، لأن «كلأ» تدل على اجتماع القوم في الفعل، ولا تدل على اجتماعهم في الزمان. قال الزجاج: وقول سيبويه أجود، لأن «أجمعين» معرفة، ولا تكون حالاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ﴾ قال المفسرون: معناه: يلعنك أهل السماء والأرض إلى يوم الحساب. قال ابن الأنباري: وإنما قال: ﴿إِنْ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ لأنه يوم له أول وليس له آخر، فجرى مجرى الأبد الذي لا يغنى، والمعنى: عليك اللعنة أبداً.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَوْمَ الْآفَاقِ الْمَعْلُومِ﴾ يعني: المعلوم بموت الخلائق فيه، فأراد أن يذيقه ألم الموت قبل أن يذيقه العذاب الدائم في جهنم.

قوله تعالى: ﴿لَأُزَيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ مفعول التزيين محذوف، والمعنى: لأزين لهم الباطل حتى يقعوا فيه. ﴿وَلَأَغْوِيَنَّهُمْ﴾ أي: ولأضلنهم. والمخلصون: الذين أخلصوا دينهم لله عن كل شائبة تناقض الإخلاص. وما أضلنا به من الكلمات هاهنا، فقد سبق تفسيرها في [الأعراف: ١٦] وغيرها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ اختلفوا في معنى هذا الكلام على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يعني بقوله هذا: الإخلاص، فالمعنى: إن الإخلاص طريق إلي مستقيم، و«علي» بمعنى «إلي». والثاني: هذا طريق علي جواره، لأنني بالمرصاد، فأجازهم بأعمالهم؛ وهو خارج مخرج الوعيد، كما تقول للرجل تخاصمه: طريقك علي، فهو كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]. والثالث: هذا صراط علي استقامته، أي: أنا ضامن لاستقامته بالبيان والبرهان. وقرأ قتادة، ويعقوب: «هذا صراط علي» بكسر اللام ورفع الياء وتوניהا، أي: رفع.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَايِبِينَ﴾ وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمِينَ ﴿٤١﴾ لَمَّا سَبَعُ أَوْوَبَ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ فيهم أربعة أقوال^(١): أحدها: أنهم المؤمنون. والثاني: المعصومون، رُوي عن قتادة. والثالث: المخلصون، قاله مقاتل. والرابع: المطيعون، قاله ابن جرير. فعلى هذه الأقوال، تكون الآية من العام الذي أريد به الخاص. وفي المراد بالسلطان قولان: أحدهما: أنه الحجة، قاله ابن جرير، فيكون المعنى: ليس لك حجة في إغواهم. والثاني: أنه القهر والغلبة؛ إنما له أن يغزو ويغزو، قاله أبو سليمان الدمشقي. وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية، فقال: ليس لك عليهم سلطان أن تلقىهم في ذنب يضيق عفوي عنه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمِينَ﴾ يعني: الذين اتبعوه.

قوله تعالى: ﴿لَمَّا سَبَعُ أَوْوَبَ﴾ وهي دركاتها بعضها فوق بعض، قال علي عليه السلام: أبواب جهنم ليست كأبوابكم هذه، ولكنها هكذا وهكذا وبعضها فوق بعض، ووصف الراوي عنه بيده وفتح أصابعه. قال ابن جرير: لها سبعة أبواب، أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. وقال الضحاك: هي سبعة

(١) وفي نسخة: فيه أربعة أقوال، ويكون الضمير عائداً على القول.

أدراك بعضها فوق بعض، فأعلاها فيه أهل التوحيد يعذبون على قدر ذنوبهم ثم يُخَرَّجون، والثاني فيه النصارى، والثالث فيه اليهود، والرابع فيه الصابئون، والخامس فيه المجوس، والسادس فيه مشركو العرب، والسابع فيه المنافقون. قال ابن الأنباري: لما اتصل العذاب بالباب، وكان الباب من سببه، سمي باسمه للمجاورة، كتسميتهم الحدث غائطاً.

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ﴾ أي: من أتباع إبليس ﴿جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ والجزء: بعض الشيء.

﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَهَنَّمَ وَغُيُوبٍ﴾ (١٥) ادْخُلُوها يَسْكُرِينَ (١٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (١٧) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا نَجْوَىٰ مَنْ هُمْ بِهَا مَبْتَرَجِينَ (١٨)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَهَنَّمَ وَغُيُوبٍ﴾ (١٥) قد شرحنا في سورة [البقرة: ٢ و ٢٥] معنى التقوى والجنات. فأما العيون، فهي عيون الماء، والخمر، والسلسيل، والتنسيم، وغير ذلك مما ذكر أنه من شراب الجنة.

قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوها يَسْكُرِينَ﴾ المعنى: يقال لهم: ادخلوها بسلام، وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: بسلامة من النار. والثاني: بسلامة من كل آفة. والثالث: بتحية من الله. وفي قوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أربعة أقوال: أحدها: آمنين من عذاب الله. والثاني: من الخروج. والثالث: من الموت. والرابع: من الخوف والمرض.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ قد ذكرنا تفسيرها في سورة [الأعراف: ٤٣] فإن المفسرين ذكروا ما هناك هاهنا من تفسير وسبب نزول.

قوله تعالى: ﴿إِخْوَانًا﴾ منصوب على الحال، والمعنى: أنهم متوادون. فإن قيل: كيف نصب «إخواناً» على الحال، فأوجب ذلك أن التأخي وقع مع نزاع الغل، وقد كان التأخي بينهم في الدنيا؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري: فقال: ما مضى من التأخي قد كان تشويه صفات وشحناء، وهذا التأخي بينهم الموجود عند نزاع الغل هو تأخي المصافاة والإخلاص، ويجوز أن ينتصب على المدح، المعنى: اذكر إخواناً. فأما السرر فجمع سرير، قال ابن عباس: على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والذُّر والياقوت، السرير مثل ما بين عدن إلى أيلة^(١)، «مُتَقَابِلِينَ» لا يرى بعضهم قفا بعض، حينما التفت رأى وجهاً يحبه يقابله.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا نَجْوَىٰ﴾ أي: لا يصيبهم في الجنة إعياء وتعب.

﴿يَنْتَقِبُ عِبَادِي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْأَلِيمُ (٢٠) وَيَنْتَقِبُ عَنْ صَنِيعِهِمْ إِزْهَامٌ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجَدُونَ (٢٢) قَالُوا لَا بُدَّ لَنَا بِبَشَرِكَ بِئْسَ الْخَبِيرُ (٢٣)

قوله تعالى: ﴿يَنْتَقِبُ عِبَادِي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ سبب نزولها ما روى ابن المبارك بإسناد له عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: طلع علينا رسول الله من الباب الذي يدخل منه بنو شيبه، ونحن نضحك، فقال: «ألا أراكم تضحكون؟» ثم أدير، حتى إذا كان عند الحجر، رجع إلينا القهقري، فقال: «إني لما خرجت، جاء جبريل ﷺ، فقال: يا محمد، يقول الله تعالى: لم تقط عبادي؟ نبي عبادي أني أنا الغفور الرحيم»^(٢). وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو بتحريك ياء «عبادي» وياء «أني أنا»، وأسكنها الباقون.

قوله تعالى: ﴿وَيَنْتَقِبُ عَنْ صَنِيعِهِمْ إِزْهَامٌ﴾ (٢١) قد شرحنا القصة في [هود: ٦٩] وبيننا هنالك معنى الضيف والسبب في خوفه منهم، وذكرنا معنى الِزْهَال في [الأنفال: ٢].

قوله تعالى: ﴿يُنْكِرُ عَلَيْهِ﴾ أي: إنه يبلغ ويعلم.

﴿قَالَ ابْتَزَّمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَىٰ الْكَبِيرُ فَمَنْ يَبْتَزُّونَ﴾ (٢٤) قَالُوا بِبَشَرِكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٢٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ

(١) أيلة: مدينة على شاطئ البحر بين القساطر ومكة تعد من بلاد الشام.

(٢) «الطبري» ٣٩/١٤ وسنده ضعيف، وذكره ابن كثير في «التفسير» ٥٥٣/٢ من رواية ابن أبي حاتم مرسلاً، وأورده السيوطي في «الدر» ١٠٢/٤، وزاد نسبته لابن مردويه. وجاء في «صحيح مسلم» ٢١٠٩/٤ حديث بصدد هذه الآية دون سبب النزول، عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجهنمه أحد، ولو يعلم الكفار ما عند الله من الرحمة ما قطعت جته أحد».

رَحِمَهُ رَبُّهُ إِلَّا السَّالُونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَال لُّوطٍ إِنَّا لَمَنَجُّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لَوْحِنَ الْقَدِيرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ مَال لُّوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّشْكِرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَمُصَدِّقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَنزِلْ بِأَعْيُنِكَ عَلَى الْكَلْبِ مَقْطُوعَ الْمَنْعِقِ ﴿٦٥﴾ وَأَنصُرُوا حَيْثُ تُمَارُونَ ﴿٦٦﴾ وَفَضِّلْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَذِهِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَبَشِّرْنُمُونِي﴾ أي: بالولد ﴿وَلَعَلَّ أَنْ تَسْقَى الْكَبِيرَ﴾ أي: على حالة الكبر والهرم ﴿فَيَمْدُبَشِّرُونَ﴾ قرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «بَشِّرُونَ» بفتح النون. وقرأ نافع بكسر النون، ووافقه ابن كثير في كسرهما، لكنه شدهما. وهذا استفهام تعجب، كأنه عجب من الولد على كبره. ﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بما قضى الله أنه كائن ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْخَالِطِينَ﴾ يعني: الآيسين. ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحزمة: «ومن يقنط» بفتح النون في جميع القرآن. وقرأ أبو عمرو، والكسائي: «يقنط» بكسر النون. وكلهم قرؤوا ﴿وَمِنْ يَمْدُب مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى: ٢٧٨] بفتح النون. وروى خارجه عن أبي عمرو «ومن يقنط» بضم النون. قال الزجاج: يقال: قنط يقنط، وقنط يقنط، والقنوط بمعنى اليأس، ولم يكن إبراهيم قانطاً، ولكنه استبعد وجود الولد. ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: ما أمركم؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾ أي: بالعذاب. وقوله: ﴿إِلَّا مَال لُّوطٍ﴾ استثناء ليس من الأول. فاما آل لوط، فهم أتباعه المؤمنون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَنَجُّهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «المنجّوهم» مشددة الجيم. وقرأ حمزة، السكائي «المنجّوهم» خفيفة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمْرَانَهُ﴾ المعنى: إنا لمنجّوهم إلا امرأته ﴿قَدَرْنَا﴾ وروى أبو بكر عن عاصم «قَدَرْنَا» بالتخفيف، والمعنى واحد، يقال: قَدَرْتُ وقَدَرْتُ، والمعنى: قضينا ﴿إِنَّمَا لَوْحِنَ الْقَدِيرِينَ﴾ يعني: الباقيين في العذاب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّشْكِرُونَ﴾ يعني: لا أعرفكم، ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ يعنون: العذاب، كانوا يشكون في نزوله. ﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالامر الذي لا شك فيه من عذاب قومك.

قوله تعالى: ﴿وَأَنصُرُوا حَيْثُ تُمَارُونَ﴾ أي: سِرْ خلفهم ﴿وَأَنصُرُوا حَيْثُ تُمَارُونَ﴾ أي: حيث يأمركم جبريل. وفي المكان الذي أُمروا بالمضي إليه قولان: أحدهما: أنه الشام، قاله ابن عباس. والثاني: قرية من قرى قوم لوط، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿وَفَضِّلْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ أي: أوحينا إلي ذلك الامر، أي: الامر بهلاك قومه. قال الزجاج: فسر: ما الامر بباقي الآية، والمعنى: وقضينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين. فاما الدابر، فقد سبق تفسيره [الانعام: ٤٥]، والمعنى: إن آخر من يبقى منكم يهلك وقت الصبح.

﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَذِهِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاقْرَأُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَرْأَيْتُمْ تَنَاهَكَ عَنِ الْمَلِكِ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَذِهِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ نَذِيرِينَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ﴾ وهم قوم لوط، واسمها سدوم، ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بأضياف لوط، طمعاً في ركوب الفاحشة، فقال لهم لوط: ﴿إِنَّ هَذِهِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ أي: بقصدكم إياهم بالسوء، يقال: فضّحه يفضّحه: إذا أبان من أمره ما يلزمه به العار. وقد أثبت يعقوب ياء «تفضحون»، «ولا تخزون» في الوصل والوقف.

قوله تعالى: ﴿أَرْأَيْتُمْ تَنَاهَكَ عَنِ الْمَلِكِ﴾ أي: عن ضيافة العالمين.

قوله تعالى: ﴿بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ نَذِيرِينَ﴾ حرك ياء «بناتي» نافع، وأبو جعفر.

﴿لَمَّا لَبِثَ لَيْسَ سَكْرَتِهِمْ بِمَعْنُورٍ﴾ ﴿٧١﴾ فَاتَّخَذْتُمُ الْعِصَةَ مُشْرِقِينَ ﴿٧٢﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَاباً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَذَكِّرِينَ ﴿٧٤﴾ وَآيَاتٍ لِّسَبِيلِ مُّقِيمٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿لَمَّا لَبِثَ لَيْسَ سَكْرَتِهِمْ بِمَعْنُورٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: وحياتك يا محمد، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس. والثاني: لَمَّا لَبِثَ، وهو ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الأخفش، وهو يرجع إلى معنى الأول. والثالث: أن معناه: وحقك على أمتك، تقول العرب: لَمَّمْتُ الله لا أقوم، يعنون: وحق الله، ذكره ابن الأنباري. قال: وفي العنبر

ثلاث لغات: عُمُرٌ وعُمُرٌ وعُمُرٌ، وهو عند العرب: البقاء. وحكى الزجاج أن الخليل وسيبويه وجميع أهل اللغة قالوا: العُمُرُ والعُمُرُ في معنى واحد، فإذا استعمل في القسم، فُتح لا غير، وإنما آثروا الفتح في القسم، لأن الفتح أخف عليهم، وهم يؤكدون القسم بـ «لعمري» و «لعمرك»، فلما كثر استعمالهم إياه، لزموا الأخف عليهم، قال: وقال التحويون: ارتفع «لعمرك» بالابتداء، والخبر محذوف، والمعنى: لعمرك قسمي، ولعمرك ما أقسم به، وحذف الخبر، لأن في الكلام دليلاً عليه. المعنى: أقسم ﴿إِنَّهُمْ لَيَسَكَنَنَّ يَمَهُنَّ﴾. وفي المراد بهذه السكرة قولان: أحدهما: أنها بمعنى الضلالة، قاله قتادة. والثاني: بمعنى الغفلة، قاله الأعمش. وقد شرحنا معنى العَمَّة في سورة [البقرة: ١٥]. وفي المشار إليهم بهذا قولان: أحدهما: أنهم قوم لوط، قاله الأكثرون. والثاني: قوم نينا ﷺ، قاله عطاء.

قوله تعالى: ﴿فَاغْتَبَّاهُمْ الْقَيْمَةُ﴾ يعني: صيحة العذاب وهي صيحة جبريل ﷺ. ﴿شَرِّقَيْنِ﴾ قال الزجاج: يقال: أشرقنا، فنحن مُشْرِقُونَ: إذا صادفوا شروق الشمس، وهو طلوعها، كما يقال: أصبحنا: إذا صادفوا الصبح، يقال: شَرَّقَتِ الشمس: إذا طلت، وأشرقت: إذا أضاءت وصَفَّت، هذا أكثر اللغة. وقد قيل: شَرَّقَتْ وأشرقت في معنى واحد، إلا أن «مُشْرِقَيْنِ» في معنى مصادفين لطلوع الشمس.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَاطِئًا﴾ قد فسرنا الآية في سورة [هود: ٨٢]. وفي المتوسمين أربعة أقوال: أحدها: أنهم المتفرسون، روى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بَنُورِ اللَّهِ» ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأَشْتَرَّيْنِ﴾^(١) قال: المتفرسين، وبهذا قال مجاهد، وابن قتيبة. قال ابن قتيبة: يقال: توسمت في فلان الخير، أي: تبينته. وقال الزجاج: المتوسمون، في اللغة: النَّظَارُ الْمُتَبَيَّنُونَ في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء، يقال: توسمت في فلان كذا، أي: عرفت وسم ذلك فيه. وقال غيره: المتوسم: الناظر في السَّمة الدالة على الشيء. والثاني: المعتبرون، قاله قتادة. والثالث: الناظرون، قاله الضحاك. والرابع: المتفكرون، قاله ابن زيد، والفراء.

قوله تعالى: ﴿وَأَنبَأَ﴾ يعني: قرية قوم لوط ﴿لِسَبِيلِ ثُبَيْرٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: لِبَطْرِيقٍ واضح، رواه نهشل عن الضحاك عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والزجاج. وقال ابن زيد: لِبَطْرِيقٍ متبين. والثاني: لِبِهْلَاكٍ. رواه أبو رَوْقٍ عن الضحاك عن ابن عباس، والمعنى: إنها بحال هلاكها لم تُعْمَرْ حتى الآن، فالاعتبار بها ممكن، وهي على طريق قريش إذا سافروا إلى الشام.

﴿وَأَن كَانَ أَحَصَبُ الْأَيْكَةِ لَطَلِيلِينَ﴾ ٧٨ ﴿فَانْتَفَعْنَا مِنْهُمْ وَأَنبَأَ لِيَامَارِ ثُبَيْرٍ﴾ ٧٩ قوله تعالى: ﴿وَأَن كَانَ أَحَصَبُ الْأَيْكَةِ لَطَلِيلِينَ﴾ ٧٨ قال الزجاج: معنى «إِنَّ» واللام: التوكيد، والأيك: الشجر الملتف، فالفصل بين واحده وجمعه، الهاء. فالمعنى: أصحاب الشجرة. قال المفسرون: هم قوم شعيب، كان مكانهم ذا شجر، فكذبوا شعيباً فأهلكوا بالحر كما بينا في سورة [هود: ٨٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَنبَأَ﴾ في المكنى عنهما قولان: أحدهما: أنهما الأيكة ومدينة قوم لوط، قاله الأكثرون. والثاني: لوط وشعيب، ذكره ابن الأنباري. وفي قوله: ﴿لِيَامَارِ ثُبَيْرٍ﴾ قولان: أحدهما: لبطريق ظاهر، قاله ابن عباس. قال ابن قتيبة: وقيل للطريق: إمام، لأن المسافرين يأتهم به حتى يصير إلى الموضع الذي يريد. والثاني: لفي كتاب مستبين، قاله السدي. قال ابن الأنباري: «وإنهما» يعني: لوطاً وشعيباً بطريق من الحق يؤتم به.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَحَصَبُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٨٠ ﴿وَأَنبَأَهُمْ ءَايَاتُنَا فَكَفَرُوا بِهَا مَعْزِينَ﴾ ٨١ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَحَصَبُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٨٠ يعني بهم ثمود. قال ابن عباس: كانت منازلهم بالحجر بين المدينة والشام. وفي الحجر قولان: أحدهما: أنه اسم الوادي الذي كانوا به، قاله قتادة، والزجاج. والثاني: اسم

(١) الطبري ٤٦/١٤، ورواه الترمذي ١٤٠/٢ من حديث عمرو بن قيس الملائي عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وذكره ابن كثير في «التفسير» من رواية ابن أبي حاتم ٥٥٥/٢، وابن جرير، وأورده السيوطي في «الدر» ١٠٣/٤ وزاد في نسبه للبخاري في «التاريخ»، وابن السني وأبي نعيم مآ في الطب، وابن مردويه، والخطيب. وانظر الكلام على هذا الحديث في «المقاصد الحسنة» ١٩، و«فيض القدير» ١٤٤/١.

مدينتهم، قاله الزهري، ومقاتل. قال المفسرون: والمراد بالمرسلين: صالح وحده، لأنه من كَذَبَ نبياً فقد كَذَبَ الكل. والمراد بالآيات: الناقة، قال ابن عباس: كان فيها آيات: خروجها من الصخرة، ودنو نتاجها عند خروجها، وعظم خلقها فلم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى كان يكفيهم جميعاً، ﴿كَانُوا عَنْهَا مُنْمَكِينَ﴾ لم يتفكروا فيها ولم يستدلوا بها.

﴿كَانُوا يَتَحَوَّنَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوءُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ ۖ فَآخِذْتَهُمْ مُصْبِحِينَ ۖ ﴿٨٢﴾ قَا أَفَنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۖ ﴿٨٣﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْبِرْ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ ۖ ﴿٨٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۖ ﴿٨٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَانُوا يَتَحَوَّنَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوءُ﴾ قد شرحناه في [الأعراف: ١٧٤]. وفي قوله: ﴿يَبُوءُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: آمنين أن تقع عليهم. والثاني: آمنين من خرابها. والثالث: من عذاب الله ﷻ. وفي قوله: ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ قولان: أحدهما: ما كانوا يعملون من نحت الجبال. والثاني: ما كانوا يكسبون من الأموال والأنعام.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: للحق ولإظهار الحق، وهو ثواب المصدق وعقاب المكذب. ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ أي: وإن القيامة لثاني، فيجازى المشركون بأعمالهم، ﴿فَاصْبِرْ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ﴾ عنهم، وهو الإعراض الخالي من جزع وفحش. قال المفسرون: وهذا منسوخ بآية السيف. فاما: ﴿الْخَلَّاقُ﴾ فهو خالق كل شيء. و ﴿الْعَلِيمُ﴾ قد سبق شرحه [البقرة: ٢٩].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبَإً مِنَ الْمَنَافِ وَالْفَرَسَاتِ الْعَظِيمِ ۖ ﴿٨٦﴾ لَا تَمْدَدُّ عَيْنُكَ إِلَّا مَا مَتَعْنَا بِهِمْ أَزْوَاجًا يَتَنَبَّهُمْ وَلَا تَحَرَّنَ عَلَيْهِمْ وَخَفِضَ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۖ ﴿٨٧﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ۖ ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبَإً مِنَ الْمَنَافِ وَالْفَرَسَاتِ الْعَظِيمِ﴾ سبب نزولها أن سبع قوافل وافت من بصرى وأذعات ليهود قريظة والتضير في يوم واحد، فيها أنواع من البر والطيب والجواهر، فقال: المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله، فأنزل الله هذه الآية، وقال: أعطيتكم سبع آيات هي خير لكم من هذه السبع القوافل، ويدل على صحة هذا قوله: ﴿لَا تَمْدَدُّ عَيْنُكَ...﴾ الآية، قاله الحسين بن الفضل^(١). وفي المراد بالسبع المثاني أربعة أقوال: أحدها: أنها فاتحة الكتاب، قاله عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود في رواية، وابن عباس في رواية الأكثرين عنه، وأبو هريرة، والحسن، وسعيد بن جبيرة في رواية، ومجاهد في رواية، وعطاء، وقتادة في آخرين. فعلى هذا، إنما سميت بالسبع، لأنها سبع آيات. وفي تسميتها بالمثاني سبعة أقوال: أحدها: لأن الله استثنى لامة محمد ﷺ، فلم يعطها أمة قبلهم، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. والثاني: لأنها تُتلى في كل ركعة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. قال ابن الأنباري: والمعنى: آتيك السبع الآيات التي تُتلى في كل ركعة، وإنما دخلت «من» للتوكيد، كقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الْعَرَبِ﴾ [محمد: ١٥]. وقال ابن قتيبة: سمي «الحمد» مثاني، لأنها تُتلى في كل صلاة. والثالث: لأنها ما أنشئ به على الله تعالى، لأن فيها حمد الله وتوحيده وذكر مملكته، ذكره الزجاج. والرابع: لأن فيها «الرحمن الرحيم» مرتين، ذكره أبو سليمان الدمشقي عن بعض اللغويين، وهذا على قول من يرى التسمية منها. والخامس: لأنها مقسومة بين الله تعالى وبين عبده، ويدل عليه حديث أبي هريرة «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي»^(٢). والسادس: لأنها نزلت مرتين، ذكره الحسين بن الفضل. والسابع: لأن كلماتها مثناة، مثل: الرحمن الرحيم، إياك إياك، الصراط صراط، عليهم عليهم، غير غير^(٣)، ذكره بعض المفسرين. ومن أعظم فضائلها أن الله تعالى جعلها في

(١) الواحدي: ١٨٩.

(٢) وهو حديث قدسي رواه مسلم في «صحيحه» ٢٩٦/١، وهو بشماه عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله تعالى: حجبني عبدي، وإذا قال: ﴿الْزَكَاةُ أَطْرَقَ﴾ قال الله تعالى: أنشئ علي عبدي، وإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: مجبني عبدي - (وقال مرة: فوض إلى عبدي) - فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سأل، ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: هذا لعبي ولعبي ما سأل.

(٣) لعله اعتبر تفسير «ولا الضالين» بمعنى: وغير الضالين، فكلية «غير» مكررة بموجب ذلك.

حَيْزٍ، والقرآن كله في حَيْزٍ، وامتنَّ عليه بها كما امتنَّ عليه بالقرآن كله. والقول الثاني: أنها السبع الطُول، قاله ابن مسعود في رواية، وابن عباس في رواية، وسعيد بن جبير في رواية، ومجاهد في رواية، والضحاك. فالسبع الطُول هي: (البقرة)، و (آل عمران)، و (النساء)، و (المائدة)، و (الأنعام)، و (الأعراف)، وفي السابعة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها (يونس)، قاله سعيد بن جبير. والثاني: (براءة) قاله أبو مالك. والثالث: (الأنفال) و (براءة) جميعاً، رواه سفيان عن مسعر عن بعض أهل العلم. قال ابن قتيبة: وكانوا يرون (الأنفال) و (براءة) سورة واحدة، ولذلك لم يفصلوا بينهما. قال شيخنا أبو منصور اللغوي: هي الطُول، ولا تَقْلُها بالكسر، فعلى هذا، في تسميتها بالمثنائي قولان: أحدهما: لأن الحدود والفرائض والأمثال ثُبِتَتْ فيها، قاله ابن عباس. والثاني: لأنها تجاوز المائة الأولى إلى المائة الثانية، ذكره الماوردي. والقول الثالث: أن السبع المثنائي سبع معانٍ أنزلت في القرآن: أمر، ونهي، وإشارة، وإنذار، وضرب الأمثال، وتعداد النعم، وأخبار الأمم، قاله زياد بن أبي مريم. والقول الرابع: أن المثنائي: القرآن كله، قاله طائوس، والضحاك، وأبو مالك، فعلى هذا، في تسمية القرآن بالمثنائي أربعة أقوال: أحدها: لأن بعض الآيات يتلو بعضاً، فتثنى الآخرة على الأولى، ولها مقاطع تفصل الآية بعد الآية حتى تنفضي السورة، قاله أبو عبيدة. والثاني: أنه سمي بالمثنائي لما يتردَّد فيه من الشاء على الله ﷻ. والثالث: لما يتردَّد فيه من ذُكر الجنة والنار، والشواب، والعقاب. والرابع: لأن الأفاضل، والأخبار، والمواعظ، والآداب، ثُبِتَتْ فيه، ذكرهن ابن الأنباري. وقال ابن قتيبة: قد يكون المثنائي سور القرآن كله، قصارها وطوالها، وإنما سمي مثنائي، لأن الأنبياء والقصص تثنى فيه، فعلى هذا القول، المراد بالسبع: سبعة أسباع القرآن، ويكون في الكلام إضمار، تقديره: وهي القرآن العظيم. فاما قوله: ﴿يَنْ الْمَثَانِي﴾ ففي «ين» قولان: أحدهما: أنها للتبعية، فيكون المعنى: آتيناك سبعاً من جملة الآيات التي يثنى بها على الله تعالى، وآتيناك القرآن. والثاني: أنها للصفة، فيكون السبع هي المثنائي، ومنه قول: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهَا كَالْأَنْثَىٰ﴾ [الحج: ٣٠] لا أن بعضها رجس، ذكر الوجهين الزجاج، وقد ذكرنا عن ابن الأنباري قريباً من هذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ يعني: العظيم القُدْر، لأنه كلام الله تعالى، ووحيه. وفي المراد به هاهنا قولان: أحدهما: أنه جميع القرآن، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، والضحاك. والثاني: أنه الفاتحة أيضاً، قاله أبو هريرة، وقد روي في حديثاً في أول تفسير (الفاتحة). قال ابن الأنباري: فعلى القول الأول، يكون قد نُسِقَ الكلُّ على البعض، كما يقول العربي: رأيت جدار الدار والدار، وإنما يصلح هذا، لأن الزيادة التي في الثاني من كثرة العدد أشبه بها ما يغير الأول، فجوز ذلك عطفاً عليه. وعلى القول الثاني، نُسِقَ الشيء على نفسه لَمَّا زِيدَ عليه معنى المدح والثناء، كما قالوا: روي ذلك عن عمر، وابن الخطاب. يريدون بآبِن الخطاب: الفاضل العالم الرفيع المنزلة، فلما دخلته زيادة، أشبه ما يغير الأول؛ فُعْطِفَ عليه. ولما ذكر الله تعالى يثني عليه بالقرآن، نهاء عن النظر إلى الدنيا ليستغني بما آتاه من القرآن عن الدنيا، فقال: ﴿لَا تَدْعُ عِبَادَكَ إِلَا مَا مَنَّا بِهِ أَرْوَجًا مِّنْهُ﴾ أي: أصنافاً من اليهود والمشركين، والمعنى: أنه نهاء عن الرغبة في الدنيا. وفي قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ﴾ قولان: أحدهما: لا تحزن عليهم إن لم يؤمنوا. والثاني: لا تحزن بما أنعمت عليهم في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ صَبْرًا جَدِيدًا﴾ أي: ألين جانبك لهم. وخفض الجناح: عبارة عن السكون وترك التصعُّب والإباء. قال ابن عباس: ارفق بهم ولا تغلظ عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا الْبَرُّ الْبَرُّ الْبَرُّ﴾ أي: حرِّك ياء إني، ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع. وذكر بعض المفسرين أن معناها منسوخ بآية السيف.

﴿كَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمُفْسِيحِينَ﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿قَوْلِكَ لَسَعَلَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ عَمَّا كَانُوا يَمْلِكُونَ ﴿قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمُفْسِيحِينَ﴾ في هذه الكاف قولان: أحدهما: أنها متعلقة بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾. ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: أن المعنى: ولقد آتيناك سبعاً من المثنائي، كما أنزلنا الكتب على

المقتسمين، قاله مقاتل. والثاني: أن المعنى: ولقد شرفناك وكرمناك بالسبع المثاني، كما شرفناك وأكرمناك بالذي أنزلناه على المقتسمين من العذاب، والكاف بمعنى «مثل»، و «ما» بمعنى «الذي»، ذكره ابن الأنباري. والثاني: أنها متعلقة بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ﴾، والمعنى: إني أنا النذير، أنذرتكم مثل الذي أنزل على المقتسمين من العذاب، وهذا معنى قول الفراء. فخرج في معنى «أنزلنا» قولان: أحدهما: أنزلنا الكتب، على قول مقاتل. والثاني: العذاب، على قول الفراء. وفي «المقتسمين» ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود والنصارى، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، ومجاهد. فعلى هذا، في تسميتهم بالمقتسمين ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم آمنوا ببعض القرآن، وكفروا ببعضه، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. والثاني: أنهم اقتسموا القرآن، فقال بعضهم: هذه السورة لي، وقال آخر: هذه السورة لي، استهزاء به، قاله عكرمة. والثالث: أنهم اقتسموا كتبهم، فأمن بعضهم ببعضها وكفر ببعضها، وأمن آخرون بما كفر به غيرهم، قاله مجاهد. والثاني: أنهم مشركو قريش، قاله قتادة، وابن السائب. فعلى هذا، في تسميتهم بالمقتسمين قولان: أحدهما: أن أقوالهم تقسمت في القرآن، فقال بعضهم: إنه سحر، وزعم بعضهم أنه كهانة، وزعم بعضهم أنه أساطير الأولين، منهم الأسود بن عبد يغوث، والوليد بن المغيرة، وعدي بن قيس السهمي، والعاص بن وائل، قاله قتادة. والثاني: أنهم اقتسموا على عقاب مكة، قال ابن السائب: هم رهط من أهل مكة اقتسموا على عقاب مكة حين حضر الموسم، قال لهم الوليد بن المغيرة: انطلقوا ففرقوا على عقاب مكة حيث يمرُّ بكم أهل الموسم، فإذا سألوكم عنه، يعني: رسول الله ﷺ، فليقل بعضهم: كاهن، وبعضكم: ساحر، وبعضكم: شاعر، وبعضكم: غاي، فإذا انتهوا إليَّ صدقْتُكم، ومنهم حنظلة بن أبي سفيان، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل، والعاص بن هشام، وأبو قيس بن الوليد، وقيس بن الفاكه، وزهير بن أبي أمية، وهلال بن عبد الأسود، والسائب بن صيفي، والنضر بن الحارث، وأبو البختري بن هشام، وزمعة بن الحجاج، وأمّية بن خلف، وأوس بن المغيرة. والثالث: أنهم قوم صالح الذين تقاسموا بالله: ﴿لَتَنَيْتَنَّ وَأَهْلَكَ﴾ [النمل: ٤٩]، فكفاه الله شهرهم، قاله عبد الرحمن بن زيد. فعلى هذا، هو من القَسَم، لا من القِسمة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَمَعُوا الْقُرْمَانَ عَيْنِينَ﴾ في المراد بالقرآن قولان: أحدهما: أنه كتابنا، وهو الأظهر، وعليه الجمهور. والثاني: أن المراد به: كتب المتقدمين قبلنا. وفي «عصين» قولان: أحدهما: أنه مأخوذ من الأعضاء. قال الكسائي، وأبو عبيدة: اقتسموا بالقرآن وجعلوه أعضاء. ثم في ما فعلوا فيه قولان: أحدهما: أنهم عضّوه أعضاء، فأمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه. والمعصية: المفروق. والتعضية: تجزئة الذبيحة أعضاء. قال علي رضي الله عنه: لا تُعْصِيَةَ في ميراث، أراد: تفريق ما يوجب تفريقه ضرراً على الورثة كالسيف ونحوه. وقال رؤية:

وَلَيْسَ ذَيْنَ اللَّهِ بِالْمُعْصِي^(١)

وهذا المعنى في رواية سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. والثاني: أنهم عضّوا القول فيه، أي: فرقوا، فقالوا: سحر، وقالوا: سحر، وقالوا كهانة، وقالوا: أساطير الأولين، وهذا المعنى في رواية ابن جريج عن مجاهد، وبه قال قتادة، وابن زيد. والثاني: أنه مأخوذ من العض. والعض، بلسان قريش: السحر، ويقولون للساحرة: عاضه. وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ لعن العاضة والمستعضة^(٢)، فيكون المعنى جعلوه سحراً، وهذا المعنى في رواية عكرمة عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، والفراء.

قوله تعالى: ﴿تَوْرِيكَ لَتَنَلَّهِنَّ أَجْمِينَ﴾ عَنَّا كَأَنَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ هذا سؤال توبيخ، يُسألون عما عملوا في ما أمروا به من التوحيد والإيمان، فيقال لهم: لم عصيتم وتركتم الإيمان؟ فتظهر فضيحتهم عند تعذر الجواب. قال

(١) «ديوانه» ٨١ من أرجوزة له يمدح بها تيمناً وسعداً ونفسه، مطلعها:

دَابِئْتُ أَرَى وَالْيَدِ يَدُونَ تَقْضِي

وهو في «مجاز القرآن» ٣٥٥/١، و«الطبري» ٦٥/١٤، و«اللسان»: عضا.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: رواه أبو يعلى، وابن عدي، من حديث ابن عباس، وفي إسناده زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام، وهما ضعيفان. وله شاهد عند عبد الرزاق من رواية عن ابن جريج عن عطاء. ١ هـ.

أبو العالية: يُسأل العبادُ كُلُّهم يوم القيامة عن خَلَّتَيْن: عما كانوا يعبدون، وعما أجابوا المرسلين. فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية، وبين قوله: ﴿فَيَرْبِذُ لَمْ يَنْتَلِ عَنْ ذَنْبِهِ إِنِشْ وَلَا جَنَآءَ﴾ [الرحمن: ٢٣٩]؟ فتنه جوابان: أحدهما: أنه لا يسألهم: هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم، وإنما يقول: لم عملتم كذا؟ رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أنهم يسألون في بعض مواطن القيامة، ولا يسألون في بعضها، رواه عكرمة عن ابن عباس.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: فامض لما تؤمر، قاله ابن عباس. والثاني: أظهر أمرك، رواه ليث عن مجاهد. قال ابن قتبية: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: أظهر ذلك. وأصله: الفَرَقُ والفتح، يريد: اصدع الباطل بحقك. وقال الزجاج: أظهر بما تؤمر به، أخذ ذلك من الصديق، وهو الصبح، قال الشاعر:

كَأَنَّ بِيضَاضَ غُرَّتِهِ صَدِيعٌ

وقال الفراء: إنما لم يقل: بما تؤمر به، لأنه أراد؛ فاصدع بالأمر. وذكر ابن الأنباري أن «به» مضمرة، كما تقول: مررت بالذي مررت. والثالث: أن المراد به: الجهر بالقرآن في الصلاة، رواه ابن أبي نجیح عن مجاهد. قال موسى بن عبيدة: ما زال رسول الله ﷺ مستخفياً حتى نزلت هذه الآية، فخرج هو وأصحابه. وفي قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: اكفف عن حريمهم. والثاني: لا تبال بهم، ولا تلتف إلى لومهم على إظهار أمرك. والثالث: أعرض عن الاهتمام باستهزائهم. وأكثر المفسرين على أن هذا القدر من الآية منسوخ بآية السيف.

﴿إِنَّا كُنَّا اللَّهُ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [١٥] أَلَيْسَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ سَوْفَ يَكْفُرُونَ [١٦] وَلَقَدْ تَكَلَّمَ أَنَاكَ يَحْيَى صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ [١٧] فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ [١٨] وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ [١٩]

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا اللَّهُ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [١٥] المعنى: فاصدع بأمرى كما كفيك المستهزين، وهم قوم كانوا يستهزون به وبالقرآن. وفي عددهم قولان: أحدهما: أنهم كانوا خمسة: الوليد بن المغيرة، وأبو زمعة، والأسود بن عبد يغوث، والعاص بن وائل، والحارث بن قيس، قاله ابن عباس. واسم أبي زمعة: الأسود بن المطلب. وكذلك ذكرهم سعيد بن جبیر، إلا أنه قال مكان الحارث بن قيس: الحارث بن غيطلة، قال الزهري: غيطلة أمه، وقيس أبوه، فهو واحد. وإنما ذكرته ذلك، لئلا يُظن أنه غيره. وقد ذكرت في كتاب «التلقيح» من يُنسب إلى أمه من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وسميت آباءهم ليُعرفوا إلى أي الأبوين نُسبوا. وفي رواية عن ابن عباس مكان الحارث بن قيس: عدي بن قيس. والثاني: أنهم كانوا سبعة، قاله الشعبي، وابن أبي بزة، وعددهم ابن أبي بزة، فقال: العاص بن وائل، والوليد بن المغيرة، والحارث بن عدي، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، وأصرم وبعكك ابنا عبد الحارث بن السباق. وكذلك عددهم مقاتل، إلا أن قال مكان الحارث بن عدي: الحارث بن قيس السهمي، وقال: أصرم وبعكك ابنا الحجاج بن السباق.

ذَكَرَ مَا أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِهِ وَكَفَى رَسُولَهُ ﷺ أَمْرَهُمْ

قال المفسرون: أتى جبريلُ رسولُ الله ﷺ، والمستهزون يطوفون بالبيت، فمر الوليد بن المغيرة، فقال جبريل: يا محمد، كيف تجد هذا؟ فقال: «بئس عبد الله»، قال: قد كفيت، وأومأ إلى ساق الوليد، فمر الوليد برجلٍ يَرِيشُ نبلاً له، فتعلقت شظية من نبلٍ بإزاره، فمتمعه الكِبَرُ أن يطامن لينزعها، وجعلت تضرب ساقه، فمرض ومات. وقيل: تعلّق سهم بثوبه فأصاب أكحلَه فقطعه، فمات. ومر العاص بن وائل، فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ فقال: «بئس عبد الله»، فأشار إلى أخمص رجله، وقال: قد كفيت، فدخلت شوكه في أخمصه، فانتفخت رجله ومات. ومر الأسود بن المطلب، فقال: كيف تجد هذا؟ قال: «عبد سوء»، فأشار بيده إلى عينيه، فعمي وهلك. وقيل: جعل ينطح برأسه الشجر ويضرب وجهه بالشوك، فاستغاث بغلامه، فقال: لا أرى أحداً يصنع بك هذا غير نفسك، فمات وهو يقول: قتلني ربُّ محمد. ومر الأسود بن عبد يغوث، فقال جبريل: كيف تجد هذا؟ فقال: «بئس عبد الله»، فقال: قد كفيت، وأشار إلى بطنه، فسقى بطنه، فمات. وقيل: أصاب عينه شوك، فسالت حدقته. وقيل: خرج عن أهله فأصابه

السُّموم، فاسودَّ حتى عاد حبشياً، فلما أتى أهله لم يعرفوه، فأغلقوا دونه الأبواب حتى مات. ومر به الحارث بن قيس، فقال: كيف تجد هذا؟ فقال: «عبدٌ سوء»، فأومأ إلى رأسه، وقال: قد كُفيت، فانتفخ رأسه فمات، وقيل: أصابه العطش، فلم يزل يشرب الماء حتى انقَدَّ بطنه. وأما أصرم ويعكك، فقال مقاتل: أخذت أحدهما الدُّبيلة^(١) والآخر ذات الجَنْبِ، فماتا جميعاً. قال عكرمة؛ هلك المستهزون قبل بدر. وقال ابن السائب: أهلكوا جميعاً في يوم ليلة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَمَكَّرُ أَنْتَ يَعْزِيقُ سَدْرَكَ يَمَا يَقُولُونَ﴾^(٢) فيه قولان: أحدهما: أنه التكذيب. والثاني: الاستهزاء. قوله تعالى: ﴿فَسَيَحْ يَحْمَدُ رَبِّكَ﴾ فيه قولان: أحدهما: قل: سبحان الله وبحمده، قاله الضحاك. والثاني: فصلٌ بأمر ربك، قاله مقاتل. وفي قوله: ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ قولان: أحدهما: من المصلين. والثاني: من المتواضعين، روى عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِيْتُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الموت، قاله ابن عباس، ومجاهد، والجمهور. وسمي يقيناً، لأنه موقن به. وقال الزجاج: معنى الآية: اعبد ربك أبداً، ولو قيل: اعبد ربك، بغير توقيت، لجاز إذا عبد الإنسان مرة أن يكون مطيعاً، فلما قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِيْتُ﴾ أمر بالإقامة على العبادة ما دام حياً^(٣). والثاني: أنه الحق الذي لا ريب فيه مِنْ نصرِكَ على أعدائك، حكاه الماوردي.



(١) الدُّبيلة: داء يجتمع في الجوف.

(٢) قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ٥٦٠/٢ عند تفسير هذه الآية: ويستدل بهذه الآية الكريمة، وهي قول: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِيْتُ﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً، فيصلي بحسب حاله، كما ثبت في «صحيح البخاري»، عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب». ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء ﷺ كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله، وأعرفهم بحقوقه وصفاته وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة، وإنما المراد باليقين هاهنا الموت كما قدمناه، والله الحمد والمنة، والحمد لله على الهداية وعليه الاستمانة والتوكل، وهو المسؤول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها، فإنه جواد كريم.

سورة النحل

فصل في نزولها

روى مجاهد، وعطية، وابن أبي طلحة عن ابن عباس: أنها مكية، وكذلك روي عن الحسن، وعكرمة، وعطاء: أنها مكية [كلها]. وقال ابن عباس في رواية: إنه نزل منها بعد قتل حمزة: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال في رواية: هي مكية إلا ثلاث آيات نزلن بالمدينة، وهي قوله: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِمَهْدِ اللَّهِ تَعْنَى قَلِيلًا﴾ إلى قوله: ﴿يَسْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٥، ٩٧]. وقال الشعبي: كلها مكية إلا قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ إلى آخر الآيات [النحل: ١٢٦ - ١٢٨]. وقال قتادة: هي مكية إلا خمس آيات: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِمَهْدِ اللَّهِ تَعْنَى قَلِيلًا﴾ [الآيتين] [النحل: ٩٥، ٩٦]، ومن قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ إلى آخرها [النحل: ١٢٦]. وقال ابن السائب: هي مكية إلا خمس آيات: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ الآية [النحل: ٤١]، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا﴾ [النحل: ١١٠]، وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ إلى آخرها [النحل: ١٢٦]. وقال مقاتل: مكية إلا سبع آيات، قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ الآية [النحل: ١١٠]، وقوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ الآية [النحل: ١٠٦]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ الآية [النحل: ٤١]، وقوله: ﴿وَصَرَفَ اللَّهُ مَالًا قَرِيْبَةً كَانَتْ آيَةً﴾ الآية [النحل: ١١٢]، وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ إلى آخرها [النحل: ١٢٦]. قال جابر بن زيد: أنزل من أول النحل أربعون آية بمكة وبقيتها بالمدينة. وروى حماد عن علي بن زيد قال: كان يقل لسورة النحل: سورة النعم؛ يريد لكثرة تعداد النعم فيها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَقَدْ عَلَّمَ بِشُرُوكِ ۖ يُزِيلُ السَّيِّئَةَ بِالْوَجْهِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۚ خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهُ﴾ قرأ حمزة، والكسائي بالإمالة. سبب نزولها: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ﴾ [الفر: ١]، فقال الكفار بعضهم لبعض: إن هذا يزعم أن القيامة قد اقتربت، فأسيكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى تنظروا، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء؛ قالوا: ما نرى شيئاً! فأنزل الله تعالى: ﴿أَقْرَبَ النَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] فأشفقوا، وانتظروا قرب الساعة، فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به، فأنزل الله تعالى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهُ﴾، فوثب رسول الله ﷺ، ورفع الناس رؤوسهم، فنزل: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فاطمانوا، قاله ابن عباس^(١). وفي قوله: ﴿أَنَّهُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أتى بمعنى: يأتي، كما يقال: أتاك الخير فأبشر، أي: سيأتيك، قاله ابن قتيبة، وشاهدته: ﴿وَكَاذِبٌ أَصْحَبُ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَكْفِي سِيقَ﴾ [المائدة: ١١٦] ونحو ذلك. والثاني: أتى بمعنى: قُرْب، قال الزجاج: أعلم الله تعالى أن ذلك في قربه بمنزلة ما قد أتى. والثالث: أن «أتى» للماضي، والمعنى: أتى بعض عذاب الله، وهو: الجذب الذي نزل بهم، والجوع. ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فينزل بكم مستقبلاً كما نزل ماضياً، قاله ابن الأنباري. وفي المراد بـ «أمر الله» خمسة أقوال: أحدها: أنها الساعة، وقد يخرج على قول ابن عباس الذي قدمناه، وبه قال ابن قتيبة. والثاني: خروج رسول الله ﷺ، رواه الضحاك عن ابن عباس، يعني: أن خروجه من أمارات الساعة. وقال ابن الأنباري: أتى أمر الله من أشرط الساعة، فلا تستعجلوا قيام الساعة. والثالث: أنه الأحكام والفرائض، قاله الضحاك^(٢). والرابع: عذاب الله، ذكره ابن الأنباري. والخامس: وعيد المشركين، ذكره الماوردي.

(١) «أسباب النزول» للواحدي ١٥٩ بدون سند، ورواه بمعناه ابن جرير ٧٥/١٤ عن ابن جريج.

(٢) رد هذا القول ابن جرير في «تفسيره»، فقال: لا نعلم أحداً استعجل بالفرائض وبالشرائع قبل وجودها، بخلاف العذاب، فإنهم استعجلوه قبل كونه، استبعاداً وتكذيباً.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: لا تطلبوه قبل حينه، ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي: تنزيه له وبراءة من سوء عما يشركون به من الأصنام.

قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «يُنْزِلُ» بإسكان النون وتخفيف الزاي. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عمر، وحمزة، والكسائي: «يُنْزِلُ» بالتشديد، وروى الكسائي عن أبي بكر عن عاصم: «يُنْزِلُ» بالياء مضمومة، وفتح الزاي مشددة. «المَلَائِكَةُ» رفع. قال ابن عباس: يريد بالملائكة جبريل ﷺ وحده. وفي المراد بالروح ستة أقوال: أحدها: الوحي، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أنه النبوة، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثالث: أن المعنى: تنزل الملائكة بأمره، رواه العوفي عن ابن عباس. فعلى هذا يكون المعنى: أن أمر الله كله روح. قال [الزجاج]: الروح ما كان فيه من أمر الله حياة النفوس بالإرشاد. والرابع: أنه الرحمة. قاله الحسن، وقتادة. والخامس: أن أرواح الخلق: لا ينزل ملك إلا ومعه روح، قاله مجاهد. والسادس: أنه القرآن، قاله ابن زيد. فعلى هذا سماء روحاً، لأن الدين يحيا به، كما أن الروح تُحيي البدن. وقال بعضهم: الباء في قوله: ﴿يُنْزِلُ﴾ بمعنى: مع، فالتقدير: مع الروح، ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي: بأمره، ﴿عَلَّ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يعني: الأنبياء، ﴿أَن أُنْذِرَ﴾ قال الزجاج: والمعنى: أنذروا أهل الكفر والمعاصي ﴿أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ أي: مروهم بتوحيدي، وقال غيره: أنذروا بأنه لا إله إلا أنا، أي: مروهم بالتوحيد مع تخويفهم إن لم يُقِرُّوا.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ تُطْفَئَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيضٌ مُبِينٌ﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ تُطْفَئَةٍ﴾ قال المفسرون: أخذ أبي بن خلف عظماً رميمًا، فجعل يفتقه ويقول: يا محمد كيف يبعث الله هذا بعدما رُم؟ فنزلت فيه هذه الآية^(١). والخصيم: المخاصم، والمبين: الظاهر الخصومة. والمعنى: أنه مخلوق من نقطة، وهو مع ذلك يخاصم وينكر البعث، أفلا يستدل بأوله على آخره، وأن من قدر على إيجادها أولاً، يقدر على إعادته ثانياً؟! وفيه تنبيه على إنعام الله عليه حين نقله من حال ضعف النطفة إلى القوة التي أمكنه معها الخصام^(٢).

﴿وَالْأَنفُسَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ وَمَتْنَفٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ﴿وَتَحْمِيلٌ أَفْعَالَكُمْ إِلَى بَكَرٍ لَوْ تَكُونُوا بَلِيلِيهِ إِلَّا يَشِقُ الْأَنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوُوفٌ رَحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْأَنفُسَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ الأنعام: الإبل، والبقر، والغنم.

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه ما استدفع به من أوبارها تتخذ ثياباً. وأخيه، وغير ذلك. روى العوفي عن ابن عباس أنه قال: يعني بالدفع: اللباس، وإلى هذا المعنى ذهب الأكثر. والثاني: أنه نسلها. روى عكرمة عن ابن عباس: ﴿فِيهَا دَفٌّ﴾ قال: الدفع: نسل كل دابة، وذكر ابن السائب قال: يقال: الدفع أولادها، ومن لا يحمل من الصغار، وحكى ابن فارس اللغوي عن الأموي، قال الدفع عند العرب: نتاج الإبل وألبانها.

قوله تعالى: ﴿وَمَتْنَفٌ﴾ أي: سوى الدفع من الجلود، والألبان، والنسل، والركوب، والعمل عليها، إلى غير ذلك، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني: من لحوم الأنعام.

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ أي: زينة، ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ أي: [حين] تردونها إلى مراحيها، وهو المكان الذي تأوي إليه، فترجع عظام الضروع والأشيمة، فيقال: هذا مال فلان، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾: ترسلونها بالغداة إلى مراحيها. فإن قيل: لم قدم الرواح وهو مؤخر؟ فالجواب: أنها في حال الرواح تكون أجمل، لأنها قد رعت، وامتلأت ضروعها، وامتدت أسنمتها.

(١) ذكر ذلك ابن كثير في تفسير الآية: ٧٧ من سورة (يس) عن مجاهد، وعكرمة، وعروة بن الزبير، والسدي، وقتادة.

(٢) روى أحمد ٢١٠/٤، وابن ماجه رقم (٢٧٠٧) والحاكم عن بسر بن جعاش، قال: يصفى رسول الله ﷺ في كفه، ثم قال: «يقول الله تعالى: ابن آدم! أتني تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين يديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: أتصدق، وإنني أول الصدقة!».

قوله تعالى: ﴿وَتَحِيلُ أَنْفُسَكُمْ﴾ الإشارة بهذا إلى ما يطبق الحمل منها، والأثقال: جمع ثقل، وهو متاع المسافر. وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِكُرٍّ﴾ قولان: أحدهما: أنه عام في كل بلد يقصده المسافر، وهو قول الأكثرين. والثاني: أن المراد به: مكة، قاله عكرمة، والأول أصح، والمعنى: أنها تحملكم إلى كل بلد لو تكلفتم أنتم بلوغه لم تبلغوه ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾. وفي معنى «شِقِّ الأنفس» قولان: أحدهما: أنه المشقة، قاله الأكثرون. قال ابن قتيبة: يقال: نحن بشق من العيش، أي: بجهد؛ وفي حديث أم زرع: «وجدني في أهل غُثَيْمَةٍ بِشِقٍّ»^(١). والثاني: أن الشق: النصف، فكان الجهد ينقص من قوة الرجل ونفسه كأنه قد ذهب نصفه، ذكره الفراء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوِّفٌ رَحِيمٌ﴾ أي: حين مَنَ عليكم بالنعمة التي فيها هذه المرافق.

﴿وَالْقَيْلُ وَالْيَمَالُ وَالْحَيَرُ لِرَبِّكُمْ أَوْ رَيْبُهُمْ وَمَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿وَالْقَيْلُ﴾ أي: وخلق الخيل ﴿وَالْيَمَالُ وَالْحَيَرُ لِرَبِّكُمْ أَوْ رَيْبُهُمْ﴾ قال الزجاج: المعنى: وخلقه زينة.

فصل

ويجوز أكل لحم الخيل، وإنما لم يُذكر في الآية، لأنه ليس هو المقصود، وإنما معظم المقصود بها: الركوب والزينة، وبهذا قال الشافعي. وقال أبو حنيفة، ومالك: لا تؤكل لحوم الخيل^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذكر قوم من المفسرين: أن المراد به عجائب المخلوقات في السموات والأرض التي لم يُطلع عليها، مثل ما يروى: أن لله ملكاً من صفته كذا، وتحت العرش نهر من صفته كذا. وقال قوم: هو ما أعد الله لأهل الجنة فيها، ولأهل النار. وقال أبو سليمان الدمشقي: في الناس من كره تفسير هذا الحرف. وقال الشعبي: هذا الحرف من أسرار القرآن.

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَبَيْنَهَا جَبَارٌ وَلَوْ شَاءَ لَفَضَّلَكُمْ أَهْمِيَّتَكُمْ﴾^(٤) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ^(٥) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّيْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ^(٦) وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالشُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ^(٧)

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ القصد: استقامة الطريق، يقال: طريق قصد وقاصد: إذا قصد بك ما تريد.

قال الزجاج: المعنى: وعلى الله تبين الطريق المستقيم، والدعاء إليه بالحجج والبرهان.

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهَا جَبَارٌ﴾ قال أبو عبيدة: السبيل لفظه لفظ الواحد، وهو في موضع الجمع، فكأنه قال: ومن السبل سبيل جائر. قال ابن الأنباري: لما ذكر السبيل، دلَّ على السبل، فلذلك قال: ﴿وَبَيْنَهَا جَبَارٌ﴾ كما دلَّ الحدَثان على الحوادث في قول العبدى:

وَلَا يَبْقَى عَلَى الْحَدَثَانِ حَيٌّ فَهَلْ يَبْقَى عَلَيْهِنَّ السَّلَامُ

أراد: فهل يبقى على الحوادث، والسَّلَام: الصَّخُور، قال: ويجوز أن يكون إنما قال: ﴿وَبَيْنَهَا﴾، لأن السبيل توث وتذكر، فالمعنى: من السبيل جائر. وقال ابن قتيبة: المعنى: ومن الطرق جائر لا يهتدون فيه، والجائر: العادل عن القصد، قال ابن عباس: ومنها جائر الأهواء المختلفة. وقال ابن المبارك: الأهواء والبدع.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ وهو ما تشربونه، ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ ذكر ابن الأنباري في معناه قولين: أحدهما: ومنه سقى شجر، وشرب شجر، فخلف المضاف إليه المضاف، كقوله: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْوَجَلَ﴾ [البقرة: ٩٣]. والثاني: أن المعنى: ومن جهة الماء شجر، ومن سقيه شجر، ومن ناحيته شجر، فحذف الأول، وخلفه الثاني، قال زهير:

(١) هو قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري في «صحيحه» ١٧٤/٢٠ بشرح العيني، ومسلم ١٨٩٦/٤ عن عائشة رضي الله عنها. وقوله: «بشق» قال أبو عبيد: هو بالفتح، والمحدثون يكسرونه، قال: وهو موضع، وقال ابن الأنباري: هو بالكسر والفتح، وهو موضع. وقال ابن أبي أويس وابن حبيب: يعني بشق: جبل لقلتهم وقلعة غنهم، وشق الجبل: ناحيته، وتفسير ابن قتيبة الذي نقله المصنف عنه، رجحه القاضي عياض واختاره غيره.

(٢) والأحاديث الصحيحة تدل على جواز أكل لحوم الخيل.

[لَمَنِ الدِّيارُ بِقُنَّةِ الحَجَرِ]

أي: من ممر حجج. قال ابن قتيبة: والمراد بهذه الشجر: المرعى. وقال الزجاج: كل ما نبت على الأرض فهو شجر، قال الشاعر يصف الخيل:

يَغْلِفُهَا اللَّحْمُ إِذَا عَزَّ الشَّجَرُ

والخَيْلُ فِي إِطْعَامِهَا اللَّحْمَ صَرَزَ
يعني: أنهم يسقون الخيل اللبن إذا أجذبت الأرض. و«ثِيْمُونَ» بمعنى: تَرَعُونَ، يقال: سامت الإبل فهي سائمة: إذا رعت، وإنما أخذ ذلك من السُّومة، وهي: العلامة، وتأويلها: أنها تؤثر في الأرض برعيها علامات. قوله تعالى: «يُبَيِّتُ لَكُمْ فِي الزَّرْعِ» وروى أبو بكر عن عاصم: «نبتت» بالنون. قال ابن عباس: يريد الحبوب، وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى: «وَالنَّجْمُ مَسْحَرَتٌ بِأَمْرِهِ» قال الأخفش: المعنى: وجعل النجوم مسخرات، فجاز إضمار فعل غير الأول، لأن هذا المضمرة في المعنى مثل المظهر، وقد تفعل العرب أشد من هذا، قال الرازي:

تَسْمَعُ فِي أَجْوَافِهِنَّ صَرَخًا

وفي اليَدَيْنِ جُشَاءً وَيَدَاً^(١)
المعنى: وترى في اليدين. والجُساء: اليبس. والبَدَد: السَّعة. وقال غيره: قوله تعالى: «مَسْحَرَتٌ» حال مؤكدة، لأن تسخيرها قد عرف بقوله تعالى: «وَسَخَّرَ». وقرأ ابن عامر: والشمس والقمر والنجوم مسخرات، رفعاً كله، وروى حفص عن عاصم: بالنصب، كالجمهور، إلا قوله تعالى: «وَالنَّجْمُ مَسْحَرَتٌ» فإنه رفعها.

﴿وَكَأَ ذَآ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْلِفاً أَوَّهًا﴾^(٢) فِي ذَلِكَ آيَةٌ لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ ﴿٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبّاً تَبْشُرُونَهَا وَتَرْكَبُ الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَكُمْ فِي شُكْرِهِ ﴿٤﴾ وَالْقَلْبُ فِي الْأَرْضِ رَوِيٌّ أَن تَبِيدَ بِكُمْ وَاتُّخِذَ سُبُلًا لَكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥﴾ وَعَلَيْنَا وَإِلَيْهِمْ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٦﴾
قوله تعالى: «وَكَأَ ذَآ لَكُمْ» أي: وسخر ما ذرأ لكم. وذرا بمعنى: خلق. و«سخر البحر» أي: ذلله للركوب والغوص فيه «لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً» يعني: السمك «وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبّاً تَبْشُرُونَهَا» يعني: الدرر، واللؤلؤ، والمرجان، وفي هذا دلالة على أن حالفاً لو حلف: لا يلبس حلياً، فلبس لؤلؤاً، أنه يحنث، وقال أبو حنيفة: لا يحنث.

قوله تعالى: «وَتَرْكَبُ الْفُلْكَ» يعني: السفن. وفي معنى «مَوَاجِرَ» قولان: أحدهما: جوارى، قاله ابن عباس. قال اللغويون: يقال: مخرت السفينة مخرأً؛ إذا شقت الماء في جريانها. والثاني: المواقر، يعني: المملوءة، قاله الحسن. وفي قوله تعالى: «وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» قولان: أحدهما: بالركوب فيه للتجارة ابتغاء الرياح من فضل الله. والثاني: بما تستخرجون من حليته، وتصيدون من حيتانه. قال ابن الأنباري: وفي دخول الواو في قوله تعالى: «وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» وجهان: أحدهما: أنها معطوفة على لام محذوفة، تقديره: وترى الفلك مواخر فيه لتستغوا بذلك ولتبتغوا. والثاني: أنها دخلت لفعل مضمر، تقديره: وفعل ذلك لكي تبتغوا.

قوله تعالى: «وَالْقَلْبُ فِي الْأَرْضِ رَوِيٌّ» أي: نصب فيها جبلاً ثوابت «أَن تَبِيدَ» أي: لثلاً تميد، وقال الزجاج: كراهة أن تميد، يقال: ماد الرجل يميد مَيْدًا؛ إذا أدير به، وقال ابن قتيبة: الميد: الحركة والميل، يقال: فلان يميد في مشيته، أي: يتكفأ.

قوله تعالى: «وَاتُّخِذَ» قال الزجاج: المعنى: وجعل فيها سُبُلًا، لأن معنى «ألقى»: «جعل»، فأما السبل، فهي الطرق. «وَلَكُمْ فِي تَهْتَدُونَ» أي: لكي تهتدوا إلى مقاصدكم.

قوله تعالى: «وَعَلَيْنَا» فيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها معالم الطرق بالنهار، «وَالْيَجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ» بالليل، رواه

(١) تقدم البيت ٦٠٦.

(٢) أنشده الطبري ٩٠/١٤، ورواه فيه:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني: المستكبرين: ﴿تَمَادَّا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على محمد ﷺ؟ قال الزجاج: «ماذا» بمعنى «ما الذي». و «أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ» مرفوعة على الجواب، كأنهم قالوا: الذي أنزل: أساطير الأولين، أي: الذي تذكرون أنتم أنه منزل: أساطير الأولين. وقد شرحنا معنى الأساطير في [الأنعام: ٢٥]. قال مقاتل: الذين بعثهم الوليد بن المغيرة في طرق مكة يصدون الناس عن الإيمان، ويقول بعضهم: إن محمداً ساحر، ويقول بعضهم: شاعر، وقد شرحنا هذا المعنى في [الحجر: ٩٠] في ذكر المقتسمين.

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ هذه لام العاقبة، وقد شرحناها في غير موضع، والأوزار: الآثام، وإنما قال: كاملة، لأنه لم يكفر منها شيء بما يُصيبهم من نكبة، أو بليّة، كما يُكفر عن المؤمن^(١)، ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَهُمْ يَغِيرُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أنهم أضلّوهم بغير دليل، وإنما حملوا من أوزار الأتباع، لأنهم كانوا رؤساء يقتدى بهم في الضلالة، وقد ذكر ابن الأنباري في «مِنْ» وجهين: أحدهما: أنها للتبعض، فهم يحملون ما شَرَكُوهم فيه، فأما ما رَكِبَه أولئك باختيارهم من غير تزيين هؤلاء، فلا يحملونه، فيصح معنى التبعض. والثاني: أن «مِنْ» مؤكدة، والمعنى: وأوزار الذين يضلّونهم. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ﴾ أي: بش ما حملوا على ظهورهم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال المفسرون: يعني به النمرود بن كنعان، وذلك أنه بنى صرحاً طويلاً. واختلفوا في طوله، فقال ابن عباس: خمسة آلاف ذراع، وقال مقاتل: كان طوله فرسخين، قالوا: ورام أن يصعد إلى السماء ليقاتل أهلها بزعمه. ومعنى «المكر» هاهنا: التدبير الفاسد. وفي الهاء والميم من «قبلهم» قولان: أحدهما: أنها للمقتسمين على عقاب مكة، قاله ابن السائب. والثاني: لكفار مكة، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿فَأَفَّ اللَّهُ يَمُوتُهُمْ رَبِّكَ الْفَاقِي﴾ أي: من الأساس. قال المفسرون: أرسل الله ريحاً فألقت رأس الصرح في البحر، وخرّ عليهم الباقي. قال السدي: لما سقط الصرح، تَبَلَّثَ أَلْسُنُ النَّاسِ مِنَ الْفَزَعِ، فتكلموا بثلاثة وسبعين لساناً، فلذلك سميت «بابل»، وإنما كان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية، وهذا قول مردود، لأن التَّبَلُّثَ يُوجِبُ الاختلاط والتكلم بشيء غير مستقيم، فأما أن يوجب إحداث لغة مضبوطة الحواشي، فباطل، وإنما اللغات تعليم من الله تعالى. فإن قيل: إذا كان الماكر واحداً، فكيف قال: «الذين» ولم يقل: «الذي»؟، فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه كان الماكر ملكاً له أتباع، فأدخلوا معه في الوصف. والثاني: أن العرب توقع الجمع على الواحد، فيقول قائلهم: خرجت إلى البصرة على البغال، وإنما خرج على بغل واحد. والثالث: أن «الذين» غير موقع على واحد معين، لكنه يراد به: قد مكر الجبارون الذين من قبلهم، فكان عاقبة مكرهم رجوع البلاء عليهم، ذكر هذه الأجوبة ابن الأنباري. قال: وذكر بعض العلماء: أنه إنما قال: «من فوقهم»، لينبه على أنهم كانوا تحته، إذ لو لم يقل ذلك، لاحتمل أنهم لم يكونوا تحته، لأن العرب تقول: سقط علينا البيت، وخرّ علينا الحانوت، وتداعت علينا الدار، وليسوا تحت ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث ظنوا أنهم آمنون فيه. قال السدي: أخذوا من مأنهم. وروى عطية عن ابن عباس قال: خرّ عليهم عذاب من السماء. وعامة المفسرين على ما حكيناه من أنه بنيان سقط. وقال ابن قتية: هذا مثل، والمعنى: أهلكهم الله، كما هلك من هُدم مسكنه من أسفله، فخر عليه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ﴾ أي: يذلّهم بالعذاب. ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِكَ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي، «شركائي الذين» بهزمة وفتح الياء، وقال البزّي عن ابن كثير: «شركائي» مثل: هداي، والمعنى: أين شركائي على زعمكم؟ هلأ دفعوا عنكم! «الَّذِينَ كُتِبَتْ لَهُمْ فِيهِمْ» أي: تخالفون المسلمين فتعبدونهم وهم يعبدون الله، وقرأ نافع: «تَشَاقُّونَ» بكسر النون، أراد: تشاققوني، فحذف النون الثانية، وأبقى الكسرة تدل عليها، والمعنى: كنتم تنازعوني فيهم، وتخالفون أمري لأجلهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ أَرَأَوْا آلِهَةً﴾ فيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم الملائكة، قاله ابن عباس. والثاني: الحفظة

(١) روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها».

من الملائكة، قاله مقاتل. والثالث: أنهم المؤمنون. فأما «الخزي» فقد شرحناه في مواضع (إك عمران: ١٩٢) و«السوء» هاهنا: العذاب.

﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا النَّارَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ١٧٠ قَادُّوهُمَا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَوْتُ الْمُتَكَبِّرِينَ ١٧١ ﴿

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ قال عكرمة: هؤلاء قوم كانوا بمكة أقروا بالإسلام ولم يُهاجروا، فأخرجهم المشركون كرهاً إلى بدر، فقتل بعضهم. وقد شرحنا هذا في سورة [النساء: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿فَالْقَوْمُ النَّارُ﴾ قال ابن قتيبة: اتقادوا واستسلموا، والتَّسَلَّم: الاستسلام. قال المفسرون: وهذا عند الموت يتبرؤون من الشرك، وهو قولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهو الشرك، فترد عليهم الملائكة فتقول: «بلى». وقيل: هذا ردُّ خزنة جهنم عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الشرك والتكذيب. ثم يقال لهم: ادخلوا أبواب جهنم، وقد سبق تفسير ألفاظ الآية [النساء: ٩٧] و[الحجر: ٤٤].

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَبَرٌ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَبَرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ١٧٢ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَوْنَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ١٧٣﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُوت سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٧٤ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ روى أبو صالح عن ابن عباس أن مشركي قريش بعثوا ستة عشر رجلاً إلى عقاب^(١) مكة أيام الحج على طريق الناس، ففرَّقوهم على كل عَقَبَةٍ أربعة رجال، ليصدُّوا الناس عن رسول الله ﷺ وقالوا لهم: مَنْ أتاكم من الناس يسألكم عن محمد فليقلَّ بعضكم: شاعرٌ، ويغضكم: كاهنٌ، ويغضكم: مجنون، وألَّا تَزُوه ولا يراكم خَيْرٌ لكم، فإذا انتهوا إلينا، صدَّقناكم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فبعث إلى كل أربعة منهم أربعة من المسلمين، فيهم عبد الله بن مسعود، فأمرُوا أن يكتبوهم، فكان الناس إذا مروا على المشركين، فقالوا ما قالوا، ردَّ عليهم المسلمون، وقالوا: كذبوا، بل يدعو إلى الحق، ويأمر بالمعروف، وينهي عن المنكر، ويدعو إلى الخير، فيقولون: وما هذا الخير الذي يدعو إليه؟ فيقولون: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا خَبَرٌ﴾ أي: أنزل خيراً، ثم فسر ذلك الخير فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ قالوا: لا إله إلا الله، وأحسنوا العمل ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي: كرامة من الله تعالى في الآخرة، وهي الجنة، وقيل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ في الدنيا وهي ما رزقهم من خيرها وطاعته فيها، ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ يعني: الجنة ﴿خَيْرٌ﴾ من الدنيا. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ قولان: أحدهما: أنها الجنة، قاله الجمهور. قال ابن الأنباري: في الكلام محذوف، تقديره: ولنعم دار المتقين الآخرة، غير أنه لما ذُكرت أولاً، عرف معناها آخراً، ويجوز أن يكون المعنى: ولنعم دار المتقين جناتٌ عَدْنٌ. والثاني: أنها الدنيا. قال الحسن: ولنعم دار المتقين الدنيا، لأنهم نالوا بالعمل فيها ثواب الآخرة.

قوله تعالى: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ﴾ قد شرحناه في [براءة: ١٧٢].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ وقرأ حمزة «يتوفاهم» بياء مع الإمالة. وفي معنى «طَيِّبِينَ» خمسة أقوال: أحدها: مؤمنين. والثاني: طاهرين من الشرك. والثالث: زاكية أفعالهم وأقوالهم. والرابع: طيبة فائتهم، سهل خروج أرواحهم. والخامسة: طيبة أنفسهم بالموت، ثقة بالثواب.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُوت سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ يعني الملائكة ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾. وفي أي وقت يكون هذا [السلام]؟ فيه قولان: أحدهما: عند الموت. قال البراء بن عازب: يسلم عليه ملك الموت إذا دخل عليه. وقال القرظي: ويقول له: الله ﷻ يقرأ عليك

(١) العقاب: جمع عَقَبَةٍ، وهي طريق في الجبل وعرة.

السلام، ويشره بالجنة^(١). والثاني: عند دخول الجنة. قال مقاتل: هذا قول خزنة الجنة لهم في الآخرة، يقولون: سلام عليكم.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ فَأَمَّا بَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا وَعَدُوا وَحَقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي «يأتِيهم» بالياء، وهذا تهديد للمشركين، وقد شرحناه في [البقرة: ٢١٠] وآخر [الأنعام: ١٥٨]. وفي قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ قولان: أحدهما: أمر الله فيهم، قاله ابن عباس. والثاني: العذاب في الدنيا، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يريد: كفار الأمم الماضية، كذبوا كما كذب هؤلاء. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بإهلاكهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالشرك، ﴿فَأَمَّا بَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا وَعَدُوا﴾ أي: جزاؤها، قال ابن عباس: جزاء ما عملوا من الشرك، ﴿وَوَحَقَّ بِهِمْ﴾ قد بيناه في [الأنعام: ١٠]، والمعنى: أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العذاب.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَتَوْكَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَمِنْهُمْ فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَتَوْكَ﴾ يعني: كفار مكة ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: الأصنام، أي: لو شاء ما أشركنا ولا حرّمنا من دونه من شيء من البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، والحرث، وذلك أنه لما نزل: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الدحر: ٣٠] قالوا هذا، على سبيل الاستهزاء، لا على سبيل الاعتقاد، وقيل: معنى كلامهم: لو لم يأمرنا بهذا ويُرَدِّدْنا، لم نأته.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من تكذيب الرسل وتحريم ما أحل الله، ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ يعني: ليس عليهم إلا التبليغ، فاما الهداية، فهي إلى الله تعالى، وبين ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ أي: كما بعثناك في هؤلاء ﴿أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: وحدوه ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وهو الشيطان ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ أي: أرشده ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ أي: وجبت في سابق علم الله، فأعلم الله ﷻ أنه إنما بعث الرسل بالأمر بالعبادة، وهو من وراء الإضلال والهداية، ﴿فَمِنْهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: معتبرين بآثار الأمم المكذبة. ثم أكد أن من حقت عليه الضلالة لا يهتدي، فقال: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ﴾ أي: [إن] تطلب هداهم بجهدك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وابن عامر، «لا يهدي» برفع الياء وفتح الدال، والمعنى: من أضله، فلا هادي له، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: «يَهْدِي» بفتح الياء وكسر الدال، ولم يختلفوا في «يُضِلُّ» أنها بضم الياء وكسر الصاد، وهذه القراءة تحتل معنيين، ذكرهما ابن الأنباري: أحدهما: لا يهدي من طبعه ضالاً، وخلقه شقيّاً. والثاني: لا يهدي، أي: لا يهتدي من أضله، أي: مَنْ أضله الله لا يهتدي، فيكون معنى يهدي: يهتدي، تقول العرب: قد هُدي فلان الطريق، يريدون: اهتدى.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَكُونَنَّ لَهُمْ فِي الْأُخْرَى آخِرُ الْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَدَقُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ سبب نزولها أن رجلاً من المسلمين كان له على رجل من المشركين

(١) رواه ابن جرير ١٠١/١٤، وخرجه السيوطي في «الدرر» ١١٧/٤ وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في «العظمة»، وأبي القاسم بن منده في كتاب «الأحوال»، والبيهقي في «شعب الإيمان».

دين، فاتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلم به: والذي أرجوه بعد الموت، فقال المشرك: وإنك لتزعم أنك تبعث بعد الموت؟! فأقسم بالله ﴿لَا يَمَعُثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾، فنزلت هذه الآية، قاله أبو العالية. و ﴿جَهَدَ أَيْمَنَهُمْ﴾ مفسر في [المائدة: ٥٣]. وقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ رَدُّ عليهم، قال الفراء: والمعنى: ﴿بَلَىٰ﴾ ليعيشتهم ﴿وَعَدًا عَلَيْهِمْ حَقًّا﴾

قوله تعالى: ﴿لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ بِمَا يَكْفُرُونَ﴾ قال الزجاج: يجوز أن يكون متعلقاً بالبعث، فيكون المعنى: بلى يعيشتهم فيبين لهم، ويجوز أن يكون متعلقاً بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ لِيَبَيِّنَ لَهُمْ. وللمفسرين في قوله: ﴿لِيَبَيِّنَ لَهُمُ﴾ قولان: أحدهما: أنهم جميع الناس، قاله قتادة. والثاني: أنهم المشركون، يبين لهم بالبعث ما خالفوا المؤمنين فيه.

قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ أي: فيما أقسموا عليه من نفي البعث. ثم أخبر بقدرته على البعث بقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿١٥﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وحمزة «فيكون» رفعاً، وكذلك في كل القرآن. وقرأ ابن عامر، والكسائي «فيكون» نصباً. قال مكي بن إبراهيم: من رفع، قطعه عما قبله، والمعنى: فهو يكون، ومن نصب، عطفه على «يقول»، وهذا مثل قوله: ﴿وَإِذَا قَعَقَ أَثَرُهَا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وقد فسرناه في [البقرة: ١١٧]. فإن قيل: كيف سمي الشيء قبل وجوده شيئاً؟ فالجواب: أن الشيء وقع على المعلوم عند الله قبل الخلق، لأنه بمنزلة ما قد عُيِّنَ وشُوِهَدَ.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في ستة من أصحاب رسول الله ﷺ، بلال، وعمار، وصهيب، وخباب بن الارت، وعائش وجبر موليّان لقريش، أخذهم أهل مكة فجعلوا يُعَذِّبُونَهُمْ، ليردوهم عن الإسلام، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنها نزلت في أبي جندل بن سهيل بن عمرو، قاله داود بن أبي هند. والثالث: أنهم جميع المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ، قاله قتادة. ومعنى «هاجروا» في الله، أي: في طلب رضاه وثوابه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ بما نال المشركون منهم، ﴿لَنُبَوِّدَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ وفيها خمسة أقوال: أحدها: لننزلنهم المدينة، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن، والشعبي، وقاتدة، فيكون المعنى: لَنُبَوِّدَنَّهُمْ دَارًا حَسَنَةً وبلدة حسنة. والثاني: لنرزقنهم في الدنيا الرزق الحسن، قاله مجاهد. والثالث: النصر على العدو، قاله الضحاك. والرابع: أنه ما بقي بعدهم من الشقاء الحسن، وصار لأولادهم من الشرف، ذكره الماوردي، وقد روي معناه عن مجاهد، فروى عنه ابن أبي نجيع أنه قال: ﴿لَنُبَوِّدَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال: لسان صادق. والخامس: أن المعنى: لنحسبنَّ إليهم في الدنيا، قال بعض أهل المعاني: فتكون على هذه الأقوال «النبوذتهم»، على سبيل الاستعارة، إلا على القول الأول.

قوله تعالى: ﴿وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةَ أَكْبَرُ﴾ قال ابن عباس: يعني: الجنة، ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: أهل مكة. ونقل عن عمر بن الخطاب ﷺ، أنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء، قال: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ذخر لك في الآخرة أفضل، ثم يتلو هذه الآية^(١). ثم إن الله أثنى عليهم ومدحهم بالصبر فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: على دينهم، لم يتركوه لأذى نالهم، وهم في ذلك واثقون ببرهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَتَتْلُوا مِنْهُ أَمْلَ الذِّكْرِ﴾ إن كُتِبَ لَا تَقَامُونَ ﴿١٦﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ رِشِينَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ قال المفسرون: لما أنكر مشركو قريش نبوة محمد ﷺ وقالوا: الله أعظم من أن يكن رسوله بشراً، فهلاً بعث إلينا ملكاً! فنزلت هذه الآية، والمعنى: أن الرسل كانوا مثلك آدميين، إلا أنهم يُوحَى إليهم. وقرأ حفص عن عاصم: «نوحى» بالنون وكسر الحاء. ﴿فَتَتْلُوا﴾ يا معشر المشركين ﴿أَمْلَ الذِّكْرِ﴾ وفيهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم أهل التوراة والإنجيل، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أهل التوراة، قاله

مجاهد. والثالث: أهل القرآن، قاله ابن زيد. والرابع: العلماء بأخبار من سلف، ذكره الماوردي. وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قولان: أحدهما: لا تعلمون أن الله تعالى بعث رسولاً من البشر. والثاني: لا تعلمون أن محمداً رسول الله، فعلى القول الأول، جائز أن يسأل من آمن برسول الله ومن كفر، لأن أهل الكتاب والعلم بالسيرة متفقون على أن الأنبياء كلهم من البشر، وعلى الثاني إنما يسأل من آمن من أهل الكتاب، وقد روي عن مجاهد ﴿فَتَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ قال: عبد الله بن سلام، وعن قتادة، قال: سلمان الفارسي.

قوله تعالى: ﴿وَالْيَسِينَ وَالزُّبُرُ﴾ في هذه «الباء» قولان: أحدهما: أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: وما أرسلنا من قبلك إلّا رجالاً أرسلناهم بالبينات. والزُّبُرُ: الكتب. وقد شرحنا هذا في (آل عمران: ٢١٨٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ وهو القرآن بإجماع المفسرين ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا قُذِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [فيه] من حلال وحرام، ووعد ووعيد ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ في ذلك فيعتبرون.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْبِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيلِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ قال المفسرون: أراد مشركي مكة. ومكرهم السيئات: شركهم وتكذيبهم، وسمي ذلك مكرًا، لأن المكر في اللغة: السعي بالفساد، وهذا استفهام إنكار، ومعناه: ينبغي أن لا يأتوا العقوبة، وكان مجاهد يقول: عنى بهذا الكلام نمرد بن كنعان.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيلِهِمْ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: في أسفارهم، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة. والثاني: في منامهم، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: في ليلهم ونهارهم، قاله الضحاك، وابن جريج، ومقاتل. والرابع: أنه جميع ما يتقلبون فيه، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: على تنقُص، قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك. قال ابن قتيبة: التَّخَوُّفُ: التَّنْقِصُ، ومثله التَّخَوُّنُ. يقال: تخوفته الدهور وتخوته: إذا نقصته وأخذت من ماله وجسمه. وقال الهيثم بن عدي: التخوف: التنقص، بلغة أزد شنوءة. ثم في هذا التنقص ثلاثة أقوال: أحدها: أنه تنقص من أعمالهم، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أخذ واحد بعد واحد، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: تنقص أموالهم وثمارهم حتى يهلكهم، قاله الزجاج. والثاني: أنه التخوف نفسه، ثم فيه قولان: أحدهما: يأخذهم على خوف أن يعاقب أو يتجاوز، قاله قتادة. والثاني: أنه يأخذ قرية لتخاف القرية الأخرى، قاله الضحاك. وقال الزجاج: يأخذهم بعد أن يخيفهم بأن يهلك قرية فتخاف التي تليها، فعلى هذا، خوفهم قبل هلاكهم، فلم يتوبوا، فاستحقوا العذاب. قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ إذ لم يعجل بالعقوبة، وأمهل للتوبة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ لَئِنْ لَمْ يَنْفَعُوا لِقَوْمِهِمْ أَلَيْسَ لِقَوْمِهِمْ عَلِيمٌ﴾ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَلِلَّهِ الْكِبَرُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فِرْقَتِهِمْ وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «أولم يروا» بالياء، وقرأ حمزة، والكسائي: «تروا» بالياء، واختلف عن عاصم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ لَهُ ظِلٌّ مِنْ جِبَلٍ، أَوْ شَجَرٍ، أَوْ جَسَمٍ قائم﴾ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ قرأ الجماعة بالياء، وقرأ أبو عمرو، ويعقوب بالياء ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْفَعُوا لِقَوْمِهِمْ﴾ وهو جمع ظل، وإنما جمع وهو مضاف إلى واحد، لأنه واحد يُراد به الكثرة، كقوله تعالى: ﴿لِئَسْتَرَأَوْا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: ٢١٣]. قال ابن قتيبة: ومعنى يتفكراً ظلاله: يدور ويرجع من جانب إلى جانب، والفيء: الرجوع، ومنه قيل للظل بالعشي: فيء، لأنه فاء عن المغرب إلى المشرق. قال المفسرون: إذا طلعت الشمس وأنت متوجه إلى القبلة، كان الظل قدامك، فإذا ارتفعت كان عن يمينك، فإذا كان بعد ذلك كان خلفك، وإذا دنت للغروب كان على يسارك، وإنما وحد اليمين، والمراد به: الجمع، إيجازاً في اللفظ كقوله

تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْكَرِيمُ﴾ [القمر: ٤٥]، ودلت «الشمائِل» على أن المراد به الجميع، وقال الفراء: إنما وحد اليمين، وجمع الشمائِل، ولم يقل: الشمال، لأن كل ذلك جازز في اللغة، وأشد:

الْوَارِدُونَ وَتَنِيْم فِي ذُرَى سَبِيلٍ
قد عض أعناقهم جلدُ الجواميس^(١)
ولم يقل: جلود، ومثله:

كُلُّوا فِي نَضْفٍ بَطْنُكُمْ تَعِيْشُوا
فإن زَنَائِكُمْ زَمَنٌ خَمِيْضٌ^(٢)
وإنما جاز التوحيد، لأن أكثر الكلام يواجه به الواحد. وقال غيره: اليمين راجعة إلى لفظ ما، وهو واحد، والشمائِل راجعة إلى المعنى.

قوله تعالى: ﴿سُجَّدًا لِلَّهِ﴾ قال ابن قتيبة: مستسلمة، متقادة، وقد شرحنا هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ السُّجُودُ وَالْقُدُورُ وَالْأَسَالِي﴾ [الرعد: ١٥]. وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ذِكْرٌ﴾ قولان: أحدهما: والكفار صاغرون. والثاني: وهذه الأشياء داخرة مجبولة على الطاعة. قال الأخفش: إنما ذكر من ليس من الإنس، لأنه لما وصفهم بالطاعة أشبهوا الإنس في الفعل.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ الآية. الساجدون على ضربين: أحدهما: من يعقل، فسجوده عبادة. والثاني: من لا يعقل، فسجوده بيان أثر الصنعة فيه، والخضوع الذي يدل على أنه مخلوق، هذا قول جماعة من العلماء، واحتجوا في ذلك بقول الشاعر:

بِحَيْثُ تَضِلُّ الْبُلُتُ فِي حَجَرَاتِهِ
تَرَى الْأَكْمَ فِيهِ سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ^(٣)

قال ابن قتيبة: حَجَرَاتُهُ، أي: جوانبه، يريد أن حوافر الخيل قد قلعت الأكم ووطئتها حتى خشعت وانخفضت. فأما الشمس والقمر والنجوم، فألحقها جماعة بمن يعقل، فقال أبو العالية: سجودها حقيقة، ما منها غارب إلا خَرَّ ساجداً بين يدي الله ﷻ، ثم لا ينصرف حتى يُؤذَنَ له، ويشهد لقول أبي العالية، حديث أبي ذر قال: كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد حين وجبت الشمس، فقال: «يا أبا ذر! تدري أين ذهبَت الشمس؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها ﷻ، فتستأذن في الرجوع، فيؤذن لها، فكانها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت، فترجع إلى مطلعها فلذلك مستقرها، ثم قرأ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ [يس: ٣٨]. أخرجه البخاري ومسلم^(٤). وأما النبات والشجر، فلا يخلو سجوده من أربعة أشياء: أحدها: أن يكون سجوداً لا نعلمه، وهذا إذا قلنا: إن الله يودعه فهماً. والثاني: أنه تغيُّر ظلاله. والثالث: بيان الصنعة فيه. والرابع: الانقياد لما سُخِّرَ له.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ إنما أخرج الملائكة من الدواب، لخروجهم بالأجنحة عن صفة الدبيب. وفي قوله: ﴿وَمَنْ لَا يَسْكُرُونَ﴾ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قَوَّهِمْ وَيَتَمَلَّوْنَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ قولان: أحدهما: أنه من صفة الملائكة خاصة، قاله ابن السائب، ومقاتل. والثاني: أنه عام في جميع المذكورات، قاله أبو سليمان الدمشقي. وفي قوله: ﴿مِنْ قَوَّهِمْ﴾ قولان ذكرهما ابن الأنباري: أحدهما: أنه ثناء على الله تعالى، وتعظيم لشأنه، وتلخيصه: يخافون ربهم عالياً رفيعاً عظيماً. والثاني: أنه حال، وتلخيصه: يخافون ربهم معظمين له عالمين بعظيم سلطانه.

(١) البيت في «الطبري» ١١٧/١٤، وهو في «معاني القرآن» للفراء ٣٠٨/١ لجرير من قصيدة في هجاء تيم بن قيس، من بكر بن وائل، وهو في «ديوانه» ٣٢٥.

(٢) تقدم البيت ٤٠ وهو غير منسوب في «هيوته» ١٥٨/١، و«الخرائفة» ٣٧٩/٣، و«الطبري» ٣٦١/١.

(٣) قاله زيد الخيل، وهو في «تأويل مشكل القرآن» ٣٢٢، و«الكامل» ٥٥٩، و«المعاني الكبير» ٨٩٠، و«اضداد ابن الأنباري» ٢٩٥، و«حماسة ابن الشجري» ١٩، و«مجموعة المعاني» ١٩٢، والباء في قوله بجيش، متعلقة ببيت سالف هو:

بِنَسِي عَامِرٍ هَلْ تَعْرِفُونَ إِذَا غَدَا
أَبُو يَكْنَفٍ قَدْ شَدَّ عَقْدَ الْبُدَايِرِ

والبلق، جمع أبلق، وبلقاء: الفرس يرتفع تجميلها إلى الفخذين، والأكم، جمع إكام، وإكامة، وهي تل يكون أشد ارتفاعاً مما حوله، دون الجبل، غليظ فيه حجارة. قال ابن قتيبة في «المعاني الكبير»: يقول: إذا ضلت البلق فيه مع شهرتها فلم تعرف، فغيرها أخرى أن يضل، يصف كثرة الجيش، ويريد أن الأكم قد خشعت من وقع الحوافر.

(٤) البخاري ٤١٦/٨، ومسلم ١٣٩/١.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَخَّرُوا لِلْهَيْبِ اثْنَيْنِ إِنَّهُمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ فَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ﴾ (٥١) وَلَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الْكَلِمُ وَاصِبًا أَفْقَرُ اللَّهُ نَفَقُونَ (٥٢)

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَخَّرُوا لِلْهَيْبِ اثْنَيْنِ﴾ سبب نزولها: أن رجلاً من المسلمين دعا الله في صلاته، ودعا الرحمن، فقال رجل من المشركين: ليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً، فما بال هذا يدعو ربين اثنين؟ فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. قال الزجاج: ذكر الإثنين توكيد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ﴾ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْكَلِمُ وَاصِبًا﴾ في المراد بالذَيْن أربعة أقوال: أحدها: أنه الإخلاص، قاله مجاهد. والثاني: العبادة، قاله سعيد بن جبیر. والثالث: شهادة أن لا إله إلا الله، وإقامة الحدود، والفرائض، قاله عكرمة. والرابع: الطاعة، قاله ابن قتيبة. وفي معنى «واصباً» أربعة أقوال: أحدها: دائماً، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، والثوري، واللغويون. قال أبو الأسود الدؤلي: لا أَبْتَنِي الحِمْدَ الْقَلِيلَ بَقَاؤُهُ يوماً بِذِمِّ الدَّفْعِ أَجْمَعَ وَاصِباً (٥١)

قال ابن قتيبة: معنى الكلام: أنه ليس من أحد يُدَانُ له ويُطَاعُ إِلَّا انقطع ذلك عنه بزوال أو هلكه، غير الله ﷻ، فإن الطاعة تدوم له. والثاني: واجباً، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثالث: خالصاً، قاله الربيع بن أنس. والرابع: وله الدين موصباً، أي: متعباً، لأن الحق ثقیل، وهو كما تقول العرب: هم ناصب، أي: مُنْصَب، قال النابغة:

كَلِمَتِي لِهَمٍّ يَا أَمْنِمَةً نَاصِبٌ
لَيْلِ أَقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاسِبِ (٥٢)
ذكره ابن الأنباري. قال الزجاج: ويجوز أن يكون المعنى: له الدين، والطاعة، رضي العبد بما يُؤْمَرُ به وسهل عليه، أو لم يسهل، فله الدين وإن كان فيه الوصب، والوصب: شدة التعب. ﴿وَمَا يَكُم مِّن يَّمَعٍ مِّنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِذْ يَكْفُرُونَ﴾ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَشْكُرُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَشْكُرُوا فَمَن يَسْكُرْ يَكْفُرْ (٥٥)

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن يَّمَعٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ قال الزجاج: المعنى: ما حل بكم من نعمة، من صحة في جسم، أو سعة في رزق، أو متاع من مال وولد ﴿وَمِنَ اللَّهِ﴾ وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿فَمَنُ اللَّهُ﴾ بتشديد النون. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ قال ابن عباس: يريد الأسقام، والأمراض، والحاجة. قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ يَكْفُرُونَ﴾ قال الزجاج: «تجارون»: ترفعون أصواتكم إليه بالاستغاثة، يقال: جَارَ يَجَارُ جُورَاراً، والأصوات مبنية على «فُعَالٍ» و«فُعِيلٍ»، فأما «فُعَالٌ» فنحو «الصُّرَاخُ» و«الْحُورَارُ»، وأما «الفُعِيلُ» فنحو «العويل» و«الزُّئير»، والفُعَالُ أكثر.

قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ﴾ قال ابن عباس: يريد أهل النفاق. قال ابن السائب: يعني الكفار. قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ﴾ قال الزجاج: المعنى: ليكفروا بأننا أنعمنا عليهم، فجعلوا نِعْمَتَنَا سبباً إلى الكفر، وهو كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ﴾ إلى قوله: ﴿لِيُحِيلُوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ [يونس: ٨٨]، ويجوز أن يكون «ليكفروا»، أي: ليجحدوا نعمة الله في ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَتَسْمُرُوا﴾ تهذب، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمركم. ﴿وَيَعْلَمُونَ لِمَا لَا يَحْكُمُونَ نِعْمَتًا﴾ رَزَقْنَاهُمْ تِلْكَ لَتَشْكُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَعْلَمُونَ لِمَا ءَاتَيْنَا مِنْ سُبْحَتِهِمْ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بَشِّرْ أَحَدَهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَخَّىٰ مِنَ الْقَوْرِ مِنْ سَوْءِ مَا يُبَشِّرُ بِهِ أَتَمْسِكُمْ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ نَبْذُكُمْ فِي الْأَرَابِ آلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩)

قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ لِمَا لَا يَحْكُمُونَ﴾ يعني: الأوثان. وفي الذين لا يعلمون قولان: أحدهما: أنهم

(١) «مجاز القرآن» ١/ ٣٦١، «الطبري» ١١٨/ ١٤، «القرطبي» ١١٤/ ١٠.

(٢) «ديوانه» ٩، «مختار الشعر الجاهلي» ١٥٩، «مجاز القرآن» ١٨٤/ ٢، وقد فسر قوله: «ناصب» أي: ذو نصب، وبمعنى: منصب.

الجاعلون، وهم المشركون، والمعنى: لما لا يعلمون لها ضرراً ولا نفعاً؛ فمفعول العلم محذوف، وتقديره: ما قلنا، هذا قول مجاهد، وقاتدة. والثاني: أنها الأصنام التي لا تعلم شيئاً، وليس لها حس ولا معرفة، وإنما قال: يعلمون، لأنهم لما نحلوها الفهم، أجراها مجرى مَنْ يعقل على زعمهم، قاله جماعة من أهل المعاني. قال المفسرون: وهؤلاء مشركو العرب جعلوا لأوثانهم جزءاً من أموالهم، كالبحيرة والسائبة وغير ذلك مما شرحناه في [الأنعام: ١٣٩].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِوا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِحْيَايِهِ لَنُغْنِيَنَّهُمْ مِنْ ثَمَرِ الْوَجْدِ وَغَيْرِهَا﴾. رجع عن الإخبار عنهم إلى الخطاب لهم، وهذا سؤال توبيخ.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ قال المفسرون: يعني: خزاعة وكنانة، زعموا أن الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي: تنزه عما زعموا. ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ يعني: البنين. قال أبو سليمان: المعنى: ويتمنون لأنفسهم الذكور.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ﴾ أي: أخبر بأنه قد ولد له بنت ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ قال الزجاج: أي: متغيراً تغير مغتم، يقال لكل من لقي مكروهاً: قد اسود وجهه غمّاً وحزناً.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: يكظم شدة وجده، فلا يظهره، وقد شرحناه في سورة [يوسف: ٨٤].

قوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ مِنْ الْقَوْرِ﴾ قال المفسرون: وهذا صنيع مشركي العرب، كان أحدهم إذا ضرب امرأته المخاض، توارى إلى أن يعلم ما يولد له، فإن كان ذكراً، سر به، وإن كانت أنثى، لم يظهر أياماً يُدَبَّر كيف يصنع في أمرها، وهو قوله: ﴿أَبْتَيْكُم عَلَىٰ هُونٍ﴾ فإلهاء ترجع إلى ما في قوله: ﴿مَا يُبَيِّرُ بَوْدًا﴾، والهون في كلام العرب: الهوان. وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عتبة، والجحدري: «على هوان»، والدس: إخفاء الشيء في الشيء، وكانوا يدفنون البنت وهي حية ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ إذ جعلوا لله البنات اللاتي محلنّ منهم هذا، ونسبوه إلى الولد، وجعلوا لأنفسهم البنين.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّىِّ وَاللَّهُ أَكْبَرُ﴾ وهو التميز الحكيم ﴿١٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّىِّ﴾ أي: صفة السوء من احتياجهم إلى الولد، وكرهتهم للإناث، خوف الفقر والعار. ﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ﴾ أي: الصفة العليا من تنزهه وبرائه من الولد.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤْخِرُكُمْ إِلَهُ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَجِيرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقِيمُونَ﴾ ﴿١٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي: بشرهم ومعاصيهم، كلما وجد شيء منهم أؤخذوا به ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا﴾ يعني: الأرض، وهذه كناية عن غير مذكور، غير أنه مفهوم، لأن الدواب إنما هي على الأرض. وفي قوله: ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه عني جميع ما يدب على وجه الأرض، قاله ابن مسعود. قال قاتدة: وقد فعل ذلك في زمن نوح عليه السلام، وقال السدي: المعنى: لأحط المطر فلم تبق دابة إلا هلكت، وإلى نحوه ذهب مقاتل. والثاني: أنه أراد من الناس خاصة، قاله ابن جريج. والثالث: من الإنس والجن، قاله ابن السائب، وهو اختيار الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤْخِرُكُمْ إِلَهُ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو متهمي آجالهم، وبإقي الآية قد تقدم [الأعراف: ٣٤].

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَصِفَ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ لَحْمٌ لِّمُسْكًى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ ﴿١٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ المعنى: ويحكمون له بما يكرهونه لأنفسهم، وهو البنات، ﴿وَصِفَ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ أي: تقول الكذب، وقرأ أبو العالية، والنخعي، وابن أبي عتبة: «الكذب» بضم الكاف والذال. ثم فسر ذلك الكذب بقوله: ﴿أَنَّ لَهُمُ لَحْمٌ لِّمُسْكًى﴾ وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها البنون، قاله مجاهد، وقاتدة، ومقاتل. والثاني: أنها الجزء الحسن من الله تعالى، قاله الزجاج. والثالث: [أنها] الجنة، وذلك أنه لما وعد الله المؤمنين الجنة، قال المشركون: إن كان ما تقولونه حقاً، لندخلها قبلكم، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ قد شرحناها فيما مضى [هود: ٢٢]. وقال الزجاج: «لا» رد لقولهم، والمعنى: ليس ذلك ما وصفوا «جرم» أن لهم النار، المعنى: جرم فعلهم، أي: كسب فعلهم هذا ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ وفيه أربعة أوجه، قرأ الأكثرون: «مفراطون» بسكون الفاء وتخفيف الراء وفتحها، وفي معناها قولان: أحدهما: مثركون، قاله ابن عباس. وقال الفراء: منسيون في النار. والثاني: معجلون، قاله ابن عباس أيضاً. وقال ابن قتيبة: معجلون إلى

النار. قال الزجاج: معنى «الفرط» في اللغة: المتقدم، فمعنى «مفطون»: مقدّمون إلى النار، ومن فسرها «مُتْرَكُون» فهو كذلك [أيضاً]، أي: قد جُعلوا مقدّمين إلى العذاب أبداً، متروكين فيه. وقرأ نافع، ومحبوب^(١) عن أبي عمرو، وقتيبة^(٢) عن الكسائي «مُفْطُون» بسكون الفاء وكسر الراء وتخفيفها، قال الزجاج: ومعناها: أنهم أفرطوا في معصية الله. وقرأ أبو جعفر وابن أبي عبله «مُفْطُون» بفتح الفاء وتشديد الراء وكسرها، قال الزجاج: ومعناها: أنهم فرطوا في الدنيا فلم يعملوا فيها للأخرة، وتصديق هذه القراءة «بَحْرَتِكَ عَلَيَّ مَا فَرَطْتُ فِي حُبِّي أَلَهُ» [الزمر: ٥٦]. وروى الوليد بن مسلم عن ابن عامر «مُفْطُون» بفتح الفاء والراء وتشديدها، قال الزجاج: وتفسيرها كتفسير القراءة الأولى، فالمفط والمفطر بمعنى واحد.

﴿ثُمَّ أَوَّاهُ فَأَرْسَلْهُ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَقَالَ هُوَ الَّذِي أَخْلَقَكُمْ فَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠] وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوَّاهُ فَأَرْسَلْهُ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ قال المفسرون: هذه تعزية للنبي ﷺ ﴿فَرَأَىٰ لَهُمُ النَّارَ﴾ أي: أَوَّاهُ. كأنهما أرادوا: فهو وليهم يوم تكون لهم النار. والثاني: أنه الدنيا، فالمعنى: فهو مواليتهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ يعني: الكفار ﴿الَّذِي أَخْلَقُوا فِيهِ﴾ أي: ما خالفوا فيه المؤمنين من التوحيد والبعث والجزاء، فالمعنى: أنزلناه بياناً لما وقع فيه الاختلاف.

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَأَ بِهِ الْأَرْضَ بِغَدِّ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٦٢] وَإِنَّ لَكُمُ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر ﴿فَأَنبَأَ بِهِ الْأَرْضَ بِغَدِّ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد يُبْسِئُهَا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: يعتبرون.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمُ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ قرأ أبو عمرو، وابن كثير، وحمزة، والكسائي: «نُسْقِيكُمْ» بضم النون، ومثله في [المؤمنين: ٢١]. وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «نُسْقِيكُمْ» بفتح النون فيهما. وقرأ أبو جعفر: «تُسْقِيكُمْ» بقاء مفتوحة، وكذلك في [المؤمنين: ٢١] وقد سبق بيان الأنعام. وذكرنا معنى «العبرة» في [آل عمران: ١٣]، والفرق بين «سقى» و «أسقى» في [الحجر: ٢٢]. فأما قوله: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ فقال الفراء: التَّعَمُّمُ والأنعام شيء واحد، وهما جمعان، فرجع التذكير إلى معنى «التَّعَمُّمُ» إذ كان يؤدي عن الأنعام، أنشدني بعضهم:

وَطَّابُ الْأَبْنَاءِ اللَّفَّاحِ وَيَرْدُ

فرجع إلى اللبن، لأن اللبن والألبان في معنى؛ قال: وقال الكسائي: أراد: نسقيكم مما في بطون ما ذكرنا، وهو صواب، أنشدني بعضهم:

مَثَلُ الْفَرَاخِ تُبْقِثُ حَوَاصِلُهُ

وقال المبرّد: هذا فاشي في القرآن، كقوله للشمس: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٨] يعني: هذا الشيء الطالع، وكذلك ﴿وَلِإِي مَرْسَلَةٍ إِلَيْهِمْ بِهَدْيِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ﴾ [النمل: ٣٥، ٣٦] ولم يقل: «جاءت» لأن المعنى: جاء الشيء الذي

(١) هو محمد بن الحسن بن هلال بن أبي زئب، فيروز، أبو جعفر، أو أبو الحسن، لقبه محبوب، حدث عنه أحمد بن حنبل، ومحمد بن سنان القزاز، وأخرج له البخاري، وقال ابن معين: لا بأس به.

(٢) هو أبو عبد الرحمن قتيبة بن مهران الأذفاني (قريب من أصبهان) إمام مقرر صالح ثقة، أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن الكسائي، روي عنه أنه قال: قرأت القرآن من أوله إلى آخره على الكسائي، وقرأ الكسائي القرآن من أوله إلى آخره عليّ، وقال: صحبت الكسائي إحدى وخمسين سنة، وشاركته في عامة أصحابه.

(٣) الرجز غير منسوب في «الطبري» ١٣١/١٤، و«اللسان»: كند. (٤) «الطبري» ١٣٢/١٤، و«اللسان»: نعم.

ذكرنا، وقال أبو عبيدة: الهاء في «بطونه» للبعض، والمعنى: نُسقيكم مما في بطون البعض الذي له لبن، لأنه ليس لكل الأنعام لبن، وقال ابن قتيبة: ذهب بقوله: «مما في بطونه» إلى التعم، والتعم تذكر وتؤثث، والفَرث: ما في الكرش، والمعنى: أن اللبن كان طعاماً، فخلص من ذلك الطعام دم، وبقي منه فرث في الكرش، وخلص من ذلك الدم «لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ» أي: سهلاً في الشرب لا يشجى به شارب، ولا يَغص. وقال بعضهم: سائغاً، أي: لا تعافه النفس وإن كان قد خرج من بين فرث ودم، وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: إذا استقر العلف في الكرش، طحنه، فصار أسفله فرثاً، وأعلاه دماً، وأوسطه لبناً، والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة، فيجري الدم في العروق، واللبن في الضرع، ويبقى الفرث في الكرش.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ تقدير الكلام: ولكم من ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون منه سكرًا. والعرب تضمير «ما» كقوله: ﴿وَلَا رَيْبَ لَكَ﴾ [الإنسان: ٢٠] أي: ما ثَمَّ. والكناية في «منه» عائدة على «ما» المضمرة. وقال الأخفش: إنما لم يقل؛ منهما، لأنه أضمر الشيء، كأنه قال: ومنها شيء تتخذون منه سكرًا. وفي المراد بالسُّكَّر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الخمر، قاله ابن مسعود، وابن عمر، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وإبراهيم ابن أبي ليلى، والزجاج، وابن قتيبة. وروى عمرو بن سفيان عن ابن عباس قال: السُّكَّر: ما حُرِّمَ من ثمرتها، وقال هؤلاء المفسرون: وهذه الآية نزلت إذ كانت الخمرة مباحة، ثم نسخ [ذلك] بقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا﴾ [المائدة: ٩٠] وممن ذكر أنها منسوخة، سعيد بن جبير، ومجاهد، والشعبي، والنخعي. والثاني: أن السُّكَّر: الخل، بلغة الحبشة، رواه العوفي عن ابن عباس. قال الضحاك: هو الخل، بلغة اليمن. والثالث: أن السُّكَّر الطُّغْم، يقال: هذا له سكر، أي: طُغْم، وأنشدوا:

جَعَلْتُ عَيْنَبَ الْأَنْثَرِمِيِّنَ سَكْرًا^(١)

قاله أبو عبيدة. فعلى هذين القولين، الآية محكمة. فأما الرزق الحسن، فهو ما أُجِّلَ منهما، كالتمر والعنب، والزبيب، والخل، ونحو ذلك.

﴿وَأَدْنَىٰ ذَٰلِكَ إِلَىٰ أَلْفَإٍ أَنْ أَتَىٰ مِنْ لِبَالٍ يُّرِيكُمُ النَّجْرَ وَمَنْ يَعْرِشُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذَٰلِكَ يَجْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مَخْلُفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَدْنَىٰ ذَٰلِكَ إِلَىٰ أَلْفَإٍ﴾ في هذا الروحي قولان: أحدهما: أنه إلهام، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والضحاك، ومقاتل. والثاني: أنه أمر، رواه العوفي عن ابن عباس. وروى ابن مجاهد عن أبيه قال: أرسل إليها. والنحل: زنابير العسل، واحدها نحلة. و«يعرشون» يجعلونه عريشاً. وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم «يعرشون» بضم الراء، وهما لغتان، يقال: «يعرش» و«يعرش» مثل «يعكف» و«يعكف». ثم فيه قولان: أحدهما: ما يعرشون من الكروم، قاله ابن زيد. والثاني: أنها سقوف البيوت، قاله الفراء. وقال ابن قتيبة: كل شيء عُرِشَ، من كرم، أو نبات، أو سقف، فهو عُرْش، ومعروش. وقيل: المراد بـ «مما يعرشون»: مما يبنون لهم من الأماكن التي تلقى فيها العسل، ولولا التسخير، ما كانت تأوي إليها.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ قال ابن قتيبة: أي: من الثمرات، و«كل» هاهنا ليست على العموم، ومثله قوله: ﴿تَذُقُّ مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ﴾ [الأحاف: ٢٥]. قال الزجاج: فهي تأكل الحامض، والمر، وما لا يوصف طعمه، فيحيل الله على ذلك عسلاً.

قوله تعالى: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ السُّبُل: الطُّرُق، وهي التي يطلب فيها الرعي. و«الذُّلُل» جمع ذلول. وفي الموصوف بها قولان: أحدهما: أنها السُّبُل، فالمعنى: اسلكي السُّبُلَ مُذَلَّلَةً لَكَ، فلا يتوَعَّرَ عليها مكان سلكته، وهذا قول مجاهد، واختيار الزجاج. والثاني: أنها النحل، فالمعنى: إنك مُذَلَّلَةٌ بالتسخير لبني آدم، وهذا قول قتادة، واختيار ابن قتيبة.

(١) «مجاز القرآن» ١/٣٦٣، و«الطبري» ١٤/١٣٨، و«القرطبي» ١٠/١٢٩، و«اللسان»، و«التاج»: سكر.

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِهَا شَرَابٌ﴾ يعني: العسل: ﴿تَخْتَلِفُ اللَّوْنَةُ﴾ قال ابن عباس: منه أحمر، وأبيض، وأصفر. قال الزجاج: [يخرج] من بطونها، إلا أنها تلقيه من أفواهها، وإنما قال: من بطونها، لأن استحالة الأظعمة لا تكون إلا في البطن، فيخرج كالريق الدائم الذي يخرج من فم ابن آدم.

قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ في هاء الكناية ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى العسل، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال ابن مسعود. واختلفوا، هل الشفاء الذي فيه يختص بمرض دون غيره، أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنه عام في كل مرض. قال ابن مسعود: العسل شفاء من كل داء. وقال قتادة: فيه شفاء للناس من الأدوية. وقد روى أبو سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال: «اسقه عسلاً» فسقه، ثم أتى فقال: قد سقيته فلم يزد إلا استطلاقاً، قال: «اسقه، عسلاً»، فذكر الحديث... إلى أن قال: فثبني، إما في الثالثة، وإما في الرابعة، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أخيك» أخرجه البخاري، ومسلم^(١). ويعني بقوله: «صدق الله»: هذه الآية. والثاني: فيه شفاء للأوجاع التي شفاؤها فيه، قاله السدي. والصحيح أن ذلك خرج مخرج الغالب. قال ابن الأنباري: الغالب على العسل أنه يعمل في الأدوية، ويدخل في الأدوية، فإذا لم يوافق أحاد المرضى، فقد وافق الأكثرين، هذا كقول العرب: الماء حياة كل شيء، وقد نرى من يقتله الماء، وإنما الكلام على الأغلب. والثاني: أن الهاء ترجع إلى الاعتبار. والشفاء: بمعنى الهدى، قاله الضحاك. والثالث: أنها ترجع إلى القرآن، قاله مجاهد.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَرْزُقُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: أوجدكم ولم تكونوا شيئاً ﴿ثُمَّ يَرْزُقُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَرْزُقُكُمْ﴾ أي: أوجدكم ولم تكونوا شيئاً ﴿ثُمَّ يَرْزُقُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قاله علي بن أبي طالب: وهو أردؤه، وأذونه، وهي حالة الهرم. وفي مقداره من السنين ثلاثة أقوال: أحدها: خمس وسبعون سنة، قاله علي بن أبي طالب. والثاني: تسعون سنة، قاله قتادة. والثالث: ثمانون سنة، قاله قطرب.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ غَيْرُ شَيْءٍ﴾ قال الفراء: لكي لا يعقل من بعد عقله الأول شيئاً. وقال ابن قتيبة: أي: حتى لا يعلم بعد علمه بالأمور شيئاً، لشدة هرمه. وقال الزجاج: المعنى: أن منكم من يكبر حتى يذهب عقله خرقاً، فيصير بعد أن كان عالماً جاهلاً، ليرىكم من قدرته، كما قيل على إمامته وإحيائه، أنه قادر على نقله من العلم إلى الجهل. وروى عطاء عن ابن عباس أنه قال: ليس هذا في المسلمين، المسلم لا يزداد في طول العمر والبقاء إلا كرامة عند الله، وعقلاً، ومعرفة. وقال عكرمة: من قرأ القرآن، لم يرد إلى أرذل العمر.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْيِ رَبِّهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعَمَلِهِمْ يَفْتَحُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ يعني: فضل السادة على المماليك ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ يعني: السادة ﴿بِرَأْيِ رَبِّهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ فعبرت «ما» عن «من» لأنه موضع إبهام، تقول: ما في الدار؟ فيقول المخاطب: رجلان أو ثلاثة، ومعنى الآية: أن المولى لا يرد على ما ملكت يمينه من ماله حتى يكون المولى والمملوك في المال سواء، وهو مثل ضربه الله تعالى للمشركين الذين جعلوا الأصنام شركاء له، والأصنام ملكاً له، يقول: إذا لم يكن عبيدكم معكم في الملك سواء، فكيف جعلون عبيدي معي سواء، وترضون لي ما تأنفون لأنفسكم منه؟! وروى العوفي عن ابن عباس، قال: لم يكونوا أشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟ وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: نزلت في نصارى نجران حين قالوا: عيسى ابن الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَمَلِهِمْ يَفْتَحُونَ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم: «تَجْعِدُونَ» بالتاء. وفي هذه النعمة قولان: أحدهما: حُجته وهدايته. والثاني: فضله ورزقه.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَلَيْسَ لِطَوْفِ الْمَسْكِينِ مِنْكُمْ رِزْقٌ وَإِنَّ اللَّهَ يَكْفُرُ ۖ﴾ وَيَعْتَدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٢﴾ فَلَا تَقْرَبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ يعني النساء. وفي معنى «من أنفسكم» قولان: أحدهما: أنه خلق آدم، ثم خلق زوجته منه، قاله قتادة. والثاني: «من أنفسكم»، أي: من جنسكم من بني آدم، قاله ابن زيد. وفي الحفدة خمسة أقوال: أحدها: أنهم الأصهار، أختان الرجل على بناته، قاله ابن مسعود، وابن عباس في رواية، ومجاهد في رواية، وسعيد بن جبير، والنخعي، وأنشدوا من ذلك:

لَوْ أَنَّ نَفْسِي طَاوَعْتَنِي لِأَضْبَحَ
لَهَا حَقْدٌ وَمَا يُعَدُّ كَثِيرُ
وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ عَلَيَّ أَبِيَّةٌ
عُيُوفٌ لِأَصْهَارِ اللَّثَامِ قَدُورُ^(١)

والثاني: أنهم الخدم، رواه مجاهد عن ابن عباس، وبه قال مجاهد في رواية الحسن، وطاووس وعكرمة في رواية الضحاك، وهذا القول يحتمل وجهين: أحدهما: أنه يراد بالخدم: الأولاد، فيكون المعنى: أن الأولاد يخدمون. قال ابن قتيبة: الحفدة: الخدم والأعوان، فالمعنى: هم بنون، وهم خدم. وأصل الحفد: مداركة الخطو والإسراع في المشي، وإنما يفعل الخدم هذا، ف قيل لهم: حفدة. ومنه يقال في دعاء الوتر: «إليك نسعى ونحفد». والثاني: أن يراد بالخدم: المماليك، فيكون معنى الآية: وجعل لكم من أزواجكم بنين، وجعل لكم حفدة من غير الأزواج، ذكره ابن الأباري. والثالث: أنهم بنو امرأة الرجل من غيره، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. والرابع: [أنهم] ولد الولد، رواه مجاهد عن ابن عباس. والخامس: أنهم: كبار الأولاد، والبنون: صغارهم، قاله ابن السائب، ومقاتل. قال مقاتل: وكانوا في الجاهلية تخدمهم أولادهم. قال الزجاج: وحقيقة هذا الكلام أن الله تعالى جعل من الأزواج بنين، ومن يعاون على ما يحتاج إليه بسرعة وطاعة.

قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال ابن عباس: يريد: من أنواع الثمار والحبوب والحيوان.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ لِطَوْفِ الْمَسْكِينِ مِنْكُمْ رِزْقٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الأصنام، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الشريك والصاحبة والولد، فالمعنى: يصدقون أن الله ذلك؟ قاله عطاء. والثالث: أنه الشيطان، أمرهم بتحريم البحيرة والسائبة، فصعدوا. وفي المراد بـ «نعمة الله» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها التوحيد، قاله ابن عباس. والثاني: القرآن، والرسول. والثالث: الحلال الذي أحله الله لهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْتَدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا﴾ وفي المشار إليه قولان: أحدهما: أنها الأصنام، قاله قتادة. والثاني: الملائكة، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿مِنَ السَّمَوَاتِ﴾ يعني: المطر، ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ﴾ النبات، والثمر.

قوله تعالى: ﴿شَيْئًا﴾ قال الأخفش: جعل «شيئاً» بدلاً من الرزق، والمعنى: لا يملكون رزقاً قليلاً ولا كثيراً، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: لا يقدرُونَ على شيء. قال الفراء: وإنما قال في أول الكلام: «يملك» وفي آخره: «يستطيعون»؛ لأن «ما» في مذهب: جمع لأهلهم، فوحد «يملك» على لفظ «ما» وتوحيدها، وجمع في «يستطيعون» على المعنى، كقوله: ﴿وَهُمْ مَن يَسْتَمُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْرَبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أي: لا تشبهوه بخلقهم، لأنه لا يشبه شيئاً، ولا يشبه شيء، فالمعنى: لا تجعلوا له شريكاً. وفي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أربعة أقوال: أحدها: يعلم ضرب المثل، وأنتم لا تعلمون ذلك، قاله ابن السائب. والثاني: يعلم أنه ليس له شريك، وأنتم لا تعلمون أنه ليس له شريك، قاله مقاتل. والثالث: يعلم خطأ ما تضربون من الأمثال، وأنتم لا تعلمون صواب ذلك من خطئه. والرابع: يعلم ما كان

ويكون، وأنتم لا تعلمون قدر عظمته حين أشركتم به، ونسبتموه إلى العجز عن بعث خلقه.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي لَاحِمًا لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ذَٰكِلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: بينَ شَبَهًا فيه بيان المقصود، وفيه قولان: أحدهما: أنه مَثَلٌ للمؤمن والكافر. فالذي ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ هو الكافر، لأنه لا خير عنده، وصاحب الرزق هو المؤمن، ابن لما عنده من الخير، هذا قول عباس، وقتادة. والثاني: أنه مَثَلٌ ضربه الله تعالى لنفسه وللأوثان، لأنه مالك كل شيء، وهي لا تملك شيئاً، هذا قول مجاهد، والسدي. وذكر في التفسير أن هذا المَثَلُ ضُربَ يقوم كانوا في زمن رسول الله ﷺ، وفيهم قولان: أحدهما: أن المملوك: أبو الجوار (١)، وصاحب الرزق الحسن: سيده هشام بن عمرو، رواه عكرمة عن ابن عباس. وقال مقاتل: المملوك: أبو الحواجر. والثاني: أن المملوك: أبو جهل بن هشام، وصاحب الرزق الحسن: أبو بكر الصديق ﷺ، قاله ابن جريج. فأما قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ ولم يقل: يستويان، لأن المراد: الجنس. وقال ابن الأنباري: لفظ ﴿مَنْ﴾ لفظ توحيد، ومعناها معنى الجمع، ولم يقع المَثَلُ بعد معيّن، ومالك معيّن، لكن عُيِيَ بهما جماعة عبيد، وقوم مالكون، فلما فارق من تأويل الجمع، جمع عائداً لذلك.

قوله تعالى: ﴿لَاحِمًا لِلَّهِ﴾ أي: هو المستحق للحمد، لأنه المنعم، ولا نعمة للأصنام، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني المشركين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الحمد لله. قال العلماء: وصف أكثرهم بذلك، والمراد: جميعهم.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ذَٰكِلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ قد فسرنا «البكَم» في [البقرة: ١٧٨]. ومعنى ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: من الكلام، لأنه لا يفهم ولا يفهم عنه. ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ قال ابن قتيبة: أي: ثقل على وليه وقربته. وفيمن أريد بهذا المَثَلُ أربعة أقوال: أحدها: أنه مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، فالكافر هو الأبكم، والذي يأمر بالعدل [هو] المؤمن، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنها نزلت في عثمان بن عفان، هو الذي يأمر بالعدل، وفي مولى له كان يكره الإسلام وينهى عثمان عن التفقه في سبيل الله، وهو الأبكم، رواه إبراهيم بن يعلى بن مثنى عن ابن عباس. والثالث: أنه مثل ضربه الله تعالى لنفسه، وللوثن. فالوثن: هو الأبكم، والله تعالى: هو الأمر بالعدل، وهذا قول مجاهد، وقتادة، وابن السائب، ومقاتل. والرابع: أن المراد بالأبكم: أبي بن خلف، وبالذي يأمر بالعدل: حمزة. وعثمان بن عفان، وعثمان بن مظعون، قاله عطاء. فيخرج على هذه الأقوال في معنى «مولاه» قولان: أحدهما: أنه مولى حقيقة، إذا قلنا: إنه رجل من الناس. والثاني: أنه بمعنى الولي، إذا قلنا: إنه الصنم، فالمعنى: وهو ثقل على وليه الذي يخدمه ويزينه. ويخرج في معنى «أينما توجّه» قولان. إن قلنا: إنه رجل، فالمعنى: أينما يرسله. والتوجيه: الإرسال في وجه من الطريق. وإن قلنا: إنه الصنم، ففي معنى الكلام قولان: أحدهما: أينما يدعو، لا يجيبه، قاله مقاتل. والثاني: أينما توجه تأمليه إياه ورجاه له، لا يأتيه ذلك بخير، فحذف التأميل، وخلفه الصنم، كقوله: ﴿مَا وَعَدْنَاهُ عَلَىٰ رَسُولِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] أي: على السنة رسلك. وقرأ البزي عن ابن محيصن «أينما توجّه» بالياء على الخطاب. فأما قوله: ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ فإن قلنا: هو رجل، فإنما كان كذلك، لأنه لا يفهم ما يقال له، ولا يفهم عنه، إما لكفره وجحوده، أو ليكّم به. وإن قلنا: إنه الصنم، فلكونه جماداً. ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ﴾ أي: هذا الأبكم ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أي: ومن هو قادر على التكلم، ناطق بالحق.

﴿وَلَوْ عِيبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْخِ بَٰلَسَمِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَٰكُ اللَّهِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧٦) قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عِيبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قد ذكرناه في آخر [هود: ١٢٣] وسبب نزول هذه الآية أن كفار مكة سألوا رسول الله ﷺ متى الساعة؟ فنزلت هذه، قاله مقاتل. وقال ابن السائب: المراد بالغيب هاهنا: قيام الساعة. قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ يعني: القيامة: ﴿إِلَّا كَنَفْخِ بَٰلَسَمِ﴾ واللمح: النظر بسرعة، والمعنى: إن القيامة

في سرعة قيامها وبعث الخلائق، كلمح العين، لأن الله تعالى يقول: ﴿كَانَ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]. «أَوْ هُوَ أَقْرَبُ» قال مقاتل: بل هو أسرع. وقال الزجاج: ليس المراد أن الساعة تأتي في أقرب من لمح البصر، ولكنه يصف سرعة القدرة على الإتيان بها متى شاء.

﴿وَاللَّهُ أَفْرَحَكُمْ مِنْ بَطُونِ أَهْنِيكُمْ لَا تَقْلُوبُوا فَيَكُنْ لَكُمْ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ وَالْأَفِيدَةُ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَفْرَحَكُمْ مِنْ بَطُونِ أَهْنِيكُمْ﴾ قرأ حمزة «إمهايككم» بكسر الألف والميم، وقرأ الكسائي بكسر الألف وفتح الميم، والباقون بضم الألف وفتح الميم، وكذلك في [النور: ٦١] و [الزمر: ٦١] و [النجم: ٣٢]، ولا خلاف بينهم في الابتداء بضم الهمزة.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ﴾ لفظه لفظ الواحد، والمراد به الجميع، وقد بيّنا علة ذلك في أول [البقرة: ٧]. ﴿وَالْأَفِيدَةُ﴾: جمع فؤاد. قال الزجاج: مثل: غراب وأغربة، ولم يجمع «فؤاد» على أكثر العدد، لم يقل فيه: «فندان» مثل غراب وغربان. وقال أبو عبيدة: وإنما جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة قبل أن يخرجهم، غير أن العرب تقدّم وتؤخّر، وأنشد:

ضَحْمٌ تَعَلَّقَ أَشْنَاقُ الدِّيَاتِ بِهِ إِذَا الْمِؤُونُ أَمِرَتْ فَوْقَهُ حَمَلًا^(١)
[الشُّنْقُ: ما بين الفريضتين]. والمِؤُون أعظم من الشُّنْق، فبدأ بالأقل قبل الأعظم. قال المفسرون: ومقصود الآية: أن الله تعالى أبان نعمه عليهم حيث أخرجهم جهلاً بالأشياء، وخلق لهم الآلات التي يتوصلون بها إلى العلم.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْكَبِيرِ مَسْحَرَتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسْكَنُ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿مَسْحَرَتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ﴾ قال الزجاج: هو الهواء البعيد من الأرض. قوله تعالى: ﴿مَا يُمَسْكَنُ إِلَّا اللَّهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: ما يمسكهن عند قبض أجنتهن ويسطها أن يَقَعْنَ على الأرض إلا الله، قاله الأكثرون. والثاني: ما يمسكهن أن يرسلن الحجارة على شرار هذه الأمة، كما فُعِلَ بغيرهم، إلا الله، قاله ابن السائب.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى خَمْسِينَ﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقَ ظِلَالٍ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْعُ الْمِيتُ ﴿١٩﴾ يَمْزُقُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ شُرًى يَعْرِفُونَهَا وَكَفَرُوا بِالْكَافِرُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ أي: موضعاً تسكنون فيه، وهي المساكن المتخذة من الحجر والمدر تستر العورات والحرم^(٢). وذلك أن الله تعالى خلق الخشب والمدر والآلة التي بها يمكن بناء البيت وتسقيفه، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ وهي القباب والخيم المتخذة من الأدم ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي: يخفُّ عليكم حملها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو «ظَعْنِكُمْ» بفتح العين. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بتسكين العين، وهما لغتان، كالتَّشْعَر والشَّعْر، والنَّهْر والنَّهْر، والمعنى: إذا سافرتُم، ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ أي: لا تنقل عليكم في الحالين. ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ يعني: الضان ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ يعني: الإبل ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ يعني: المعز ﴿أَثْنَا﴾ قال الفراء: الأثاث: لا واحد له، كما أن المتاع لا واحد له. والعرب تقول: جمع المتاع أمتعة، ولو جمعت الأثاث، لقلت: ثلاثة أثاث، وأث: مثل أعة وغث لا غير. وقال ابن قتيبة: الأثاث: متاع البيت من الفرش والأكسية. قال أبو زيد: واحد الأثاث: أثانة. وقال الزجاج: يقال: قد أثَّ يَأْثُ أَثًا: إذا صار ذا أثاث. وروي عن الخليل أنه قال: أصله من الكثرة واجتماع بعض المتاع إلى بعض، ومنه: شَعَرُ أثيث. فأما قوله: ﴿وَمِنْهَا﴾ فقليل: إنما جمع بينه

(١) البيت للأعطل: «ديوانه» ١٤٣، و«مجاز القرآن» ١/ ٣٦٤، و«اللسان»: شُنْق، وفيه: وصفه بتحمل الديات وما دون الديات، فيؤذيها ليصلح بين العشار ويحقن الدماء. وانظر رد ابن قتيبة على تفسير أبي عبيدة للأشفاق في «اللسان».

(٢) حُرْم الرِّجُل: عياله ونسأوه وما يحمي.

وبين الأثاث، لاختلاف اللفظين. وفي قوله: ﴿إِلَّا حِينَ﴾ قولان: أحدهما: أنه الموت، والمعنى: ينتفعون به إلى حين الموت، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: أنه إلى حين البلى، فالمعنى: إلى أن يبلى ذلك الشيء، قاله مقاتل. قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ أي: ما يقيكم حر الشمس، وفيه خمسة أقوال: أحدها: أنه ظلال الغمام، قاله ابن عباس. والثاني: ظلال البيوت، [قاله ابن السائب. والثالث: ظلال الشجر، قاله قتادة، والزجاج. والرابع: ظلال الشجر والجبال] (١)، قاله ابن قتيبة. والخامس: أنه كل شيء له ظل من حائط، وسقف، وشجر، وجبل، وغير ذلك، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنُتًا﴾ أي: ما يَكُنُّكم من الحرِّ والبرد، وهي الغيران والأسراب. وواحد الأكنان «كِنٌّ» وكل شيء وقى شيئاً وستره فهو «كِنٌّ». ﴿وَجَعَلَ لَكُم سُرُبِيلًا﴾ وهي القُمص «فَتَقِيَكُمُ الْحَرَّ» ولم يقل: البرد، لأن ما وقى من الحر، وقى من البرد، وأنشد:

وَمَا أَذْرِي إِذَا يَمُنُّنْتُ أَزْضًا أُرِيدُ الْخَيْرَ إِلَهُمَا يَلِينِي (٢)

وقال الزجاج: إنما خص الحرَّ، لأنهم كانوا في مكاناتهم أكثر معاناةً له من البرد، وهذا مذهب عطاء الخراساني.

قوله تعالى: ﴿وَسَرَّيْلٌ فَنِيَكُم بِأَسَكُم﴾ يريد الدروع التي يَتَّقون بها شدة الطعن والضرب في الحرب.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ فَنَمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: مثلما أنعم الله عليكم بهذه الأشياء، يتم نعمته عليكم في الدنيا ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ والخطاب لأهل مكة، وكان أكثرهم حينئذ كفاراً، ولو قيل: إنه خطاب للمسلمين، فالمعنى: لعلكم تدومون على الإسلام، وتقومون بحقه. وقرأ ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وأبو رجاء: «لعلكم تَسْلَمُونَ» بفتح التاء واللام، على معنى: لعلكم إذا لبستم الدروع تَسْلَمُونَ من الجراح في الحرب.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن الإيمان ﴿فَأَلَمْنَا عَلَيْكَ الْبَلْعُ الْمَيِّنُ﴾ وهذه عند المفسرين منسوخة بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ وفي هذه النعمة قولان: أحدهما: أنها [المساكن] نعم الله ﷻ عليهم في الدنيا. وفي إنكارها ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم يقولون: هذه ورثناها [عن آبائنا]. روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: نِعَمَ الله: المساكن، والأنعام، وسرايل الثياب، والحديد، يعرفه كفار قريش، ثم ينكرونه بأن يقولوا: هذا كان لأبائنا ورثناه عنهم، وهذا عن مجاهد. والثاني: أنهم يقولون: لولا فلان، لكان كذا، فهذا إنكارهم، قاله عون بن عبد الله. والثالث: يعرفون أن النعم من الله، ولكن يقولون: هذه بشفاعه ألهتنا، قاله ابن السائب، والفراء، وابن قتيبة. والثاني: أن المراد بالنعمة هاهنا: محمد ﷺ يعرفون أنه نبيٌّ ثم يكذبونه، وهذا مروى عن مجاهد، والسدي، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَأَكْفَرُكُمْ كُفْرُونَ﴾ قال الحسن: وجميعهم كفار، فذكر الأكثر، والمراد به الجميع.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٣) وَإِنَّمَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤) وَإِنَّمَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٥) وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ الشَّهَادَةُ وَمَضَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٦)

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يعني: يوم القيامة، وشاهد كل أمة نبيُّها يشهد عليها بتصديقها وتكذيبها، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يُطلب منهم أن يرجعوا إلى ما أمر الله به، لأن الآخرة ليست بدار تكليف.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا ﴿الْعَذَابَ﴾ يعني: النار ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ لا يؤخرون، ولا يمهلون. ﴿وَإِنَّمَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ يعني: الأصنام التي جعلوها شركاء لله في

(١) ما بين المعقفين، سقط من نسخة الرباط، واستدركنا من نسخة مكتبة راغب باشا باسطنبول.

(٢) البيت للمقبب العبدى، وقد تقدم ١٠٥، ٢١٨، وهو في «الطبري» ١٥٧/١٤، و«القرطبي» ١٠/١٦٠.

العبادة، وذلك أن الله يبعث كل معبود من دونه، فيقول المشركون: «رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا» أي: نعبد من دونك. فإن قيل: فهذا معلوم عند الله تعالى، فما فائدة قولهم: «هؤلاء شركاؤنا»؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنهم لما كتموا الشرك في قولهم: واللّه ما كنا مشركين، عاقبهم الله تعالى بإصمات السنتهم، وإنطاق جوارحهم، فقالوا عند معاينة آلهتهم: «رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا» أي: قد أقرنا بعد الجحد، وصدّقنا بعد الكذب، التماساً للرحمة، وفراراً من الغضب، وكان هذا القول منهم على وجه الاعتراف بالذنب، لا على وجه إعلام من لا يعلم. والثاني: أنهم لما عاينوا عظم غضب الله تعالى قالوا: هؤلاء شركاؤنا، تقدير أن يعود عليهم من هذا القول روح، وأن تلزم الأصنام إجرامهم، أو بعض ذنوبهم إذ كانوا يدعون لها العقل والتمييز، فأجابتهم الأصنام بما حسم طمعهم.

قوله تعالى: «فَالْقُوا إِلَيْهِ الْقَوْلَ» أي: أجابوهم وقالوا لهم: «إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ» قال الفراء: ردت عليهم آلهتهم قولهم. وقال أبو عبيدة: «فالقوا»، أي: قالوا لهم. يقال: ألقيت إلى فلان كذا، أي: قلت له. قال العلماء: كذبوهم في عبادتهم إياهم، وذلك أن الأصنام كانت جماداً لا تعرف عابديها، فظهرت فضيحتهم يومئذٍ إذ عبدوا من لم يعلم بعبادتهم، وذلك كقوله: «سَيَكْفُرُونَ بِبَاعَتِهِمْ» [مریم: ٨٣].

قوله تعالى: «وَالْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَ» المعنى: أنهم استسلموا له. وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم المشركون، قاله الأكثرون. ثم في معنى استسلامهم قولان: أحدهما: أنهم استسلموا [له] بالإقرار بتوحيده وربوبيته. والثاني: أنهم استسلموا لعذابه. والثاني: أنهم المشركون والأصنام كلهم. قال الكلبي^(١): والمعنى: أنهم استلموا لله متقدين لحكمه.

قوله تعالى: «وَصَلَ عَنْهُمْ مَائًا كَانُوا يَفْزَوْنَ» فيه قولان: أحدهما: بطل قولهم أنها تشفع لهم. والثاني: ذهب عنهم ما زين لهم الشيطان أن الله شريكاً وولداً.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذَنَّهُمْ عَذَابٌ قَوْفَ الْمَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٨﴾
قوله تعالى: «الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» قال ابن عباس: منعوا الناس من طاعة الله والإيمان بمحمد ﷺ.

قوله تعالى: «يَذَنَّهُمْ عَذَابٌ قَوْفَ الْمَذَابِ» إنما نكر العذاب [الأول]، لأنه نوع خاص لقوم بأعيانهم، وعرف العذاب الثاني، لأنه العذاب الذي يعذب به أكثر أهل النار، فكان في شهرته بمنزلة النار في قول القائل: نعوذ بالله من النار، وقد قيل: إنما زيدوا هذا العذاب على ما يستحقونه من عذابهم، بصدّهم عن سبيل الله. وفي صفة هذا العذاب الذي زيدوا أربعة أقوال: أحدها: أنها عقارب كأمثال النخل الطوال، رواه مسروق عن ابن مسعود. والثاني: أنها حيّات كأمثال الفيلة، وعقارب كأمثال البغال، رواه زرّ عن ابن مسعود. والثالث: أنها خمسة أنهار من صُفَرٍ مُذَابٍ تسيل من تحت العرش يعذبون بها، ثلاثة على مقدار الليل، واثنان على مقدار النهار، قاله ابن عباس. والرابع: أنه الزمهرير، ذكره ابن الأنباري. قال الزجاج: يخرجون من حرّ النار إلى الزمهرير، فيتبادرون من شدة برده إلى النار.

قوله تعالى: «وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ» وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم قومه، قاله ابن عباس. والثاني: أمته، قاله مقاتل. وتم الكلام هاهنا. ثم قال: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ» قال الزجاج: التبيان: اسم في معنى البيان. فاما قوله تعالى: «لِكُلِّ شَيْءٍ» فقال العلماء بالمعاني: يعني: لكل شيء من أمور الدين، إما بالنص عليه، أو بالإحالة على ما يوجب العلم، مثل بيان رسول الله ﷺ أو إجماع المسلمين.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالنَّكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْدًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ

مَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَدَنِ قُوَّةٍ أَنكُنَّا نَحْنُ ذُرِّيَّتُكُمْ كَمَا بَيِّنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْثُ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يُلْهِكُهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَلَبِئْسَ لَكُمُ الْيَوْمَ الْقِيَمَةَ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَحْتَلِفُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَمَلَأَكُمْ مِنْهُ وَجِدَةً وَلَكِنْ يَبْدِلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْتَلْزِمُنَّ عَنْكَ كَثْرَةُ مَمْلُوكٍ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه شهادة أن لا إله إلا الله، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أنه الحق، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أنه استواء السريرة والعلانية في العمل لله تعالى، قاله سفيان بن عيينة. والرابع: أنه القضاء بالحق، ذكره الماوردي. قال أبو سليمان: العدل في كلام العرب: الإنصاف، وأعظم الإنصاف: الاعتراف للمتعين بنعمته. وفي المراد بالإحسان خمسة أقوال: أحدها: أنه أداء الفرائض، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: العفو، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: الإخلاص، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: أن تعبد الله كأنك تراه، رواه عطاء عن ابن عباس. والخامس: أن تكون السريرة أحسن من العلانية، قاله سفيان بن عيينة. فأما قوله تعالى: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّ ذِي الْقُرْفِ﴾ فالمراد به: صلة الأرحام. وفي الفحشاء قولان: أحدهما: أنها الزنى، قاله ابن عباس. والثاني: المعاصي، قاله مقاتل. وفي ﴿الْمُنْكَرِ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أنه الشرك، قاله مقاتل. والثاني: أنه ما لا يُعْرَفُ في شريعة ولا سُنَّة. والثالث: أنه ما وعد الله عليه النار، ذكرهما ابن السائب. والرابع: أن تكون علانية الإنسان أحسن من سريته، قاله سفيان بن عيينة. فأما: ﴿الْبَلَى﴾ فقال ابن عباس: هو الظلم، وقد سبق شرحه في مواضع [البقرة: ١٧٣، والأعراف: ٣٣، ويونس: ٢٣، ٩٠].

قوله تعالى: ﴿يُعِظُّكُمْ﴾ قال ابن عباس: وقد ذكرنا معنى الوعظ في [سورة النساء: ٥٨]. و ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بمعنى: تَتَعَطَّوْنَ. قال ابن مسعود: هذه الآية أجمع آية في القرآن لخير أو لشر. وقال الحسن: والله ما ترك العدل والإحسان شيئاً من طاعة [الله] إلا جمعا، ولا تركت الفحشاء والمنكر والبغي شيئاً من معصية الله إلا جمعوه.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في حلف أهل الجاهلية، قاله مجاهد، وقادة. والثاني: أنها نزلت في الذين بايعوا رسول الله ﷺ. قال المفسرون: العهد الذي يجب الوفاء به، هو الذي يحسن فعله، فإذا عاهد العبد عليه، وجب الوفاء به، والوعد من العهد. ﴿وَلَا تُنْفِضُوا الْآيَتِينَ بِمَدِّ تَوَكِيدِهَا﴾ أي: بعد تغليظها وتشديدها بالعزم والعقد على اليمين، بخلاف لغو اليمين، ووكدت الشيء توكيداً، لغة أهل الحجاز. فأما أهل نجد، فيقولون: أكدته تأكيداً. وقال الزجاج: يقال: وكدت الأمر، وأكدت، لغتان جيدتان، والأصل الواو، والهمزة بدل منها.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْلًا﴾ أي: بالوفاء، وذلك أن من حلف بالله، فكأنه أكفل الله بالوفاء بما حلف عليه. وللمفسرين في معنى «كَيْلًا» ثلاثة أقوال: أحدها: شهيداً، قاله سعيد بن جبير. والثاني: وكيلاً، قاله مجاهد. والثالث: حفيظاً مراعياً لعقدكم، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا﴾ قال مجاهد: هذا فعل نساء أهل نجد، تنفض إحداهن حبلها، ثم تنفضه، ثم تخلطه بالصوف فتغزله. وقال مقاتل: هي امرأة من قريش تسمى «رَبِطَةُ» بنت عمرو بن كعب، كانت إذا غزلت، تنفضته. وقال ابن السائب: اسمها «رَابِطَةُ» وقال ابن الأنباري: اسمها «رَبِطَةُ» بنت عمرو المريّة، ولقبها الجعراء، وهي من أهل مكة، وكانت معروفة عند المخاطبين، فعرّفوها بوصفها، ول يكن لها نظير في فعلها ذلك، كانت متناهية الحمق، تغزل الغزل من القطن أو الصوف فتَحْكِمُهُ، ثم تأمر جاريته بتقطيعه. وقال بعضهم: كانت تغزل هي وجواربها، ثم تأمرهن أن ينقضن ما غزلن، فضر بها الله مثلاً لناقضي العهد. و «نقضت»، بمعنى: تنقض، كقوله: ﴿وَكَاذِبٌ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٣] بمعنى: وينادي. وفي المراد بالغزل قولان: أحدهما: أنه الغزل المعروف، سواء كان من قطن أو صوف أو شعر، وهو قول الأكثرين. والثاني: أنه الحَبْلُ، قاله مجاهد. وقوله: ﴿مِنْ بَدَنِ قُوَّةٍ﴾ قال قتادة: من بعد إبرام، وقوله: ﴿أَنكُنَّا﴾ أي: أنقاضاً. قال ابن قتيبة: الأنكاث: ما نُقِضَ من غَزَلِ الشَّعْرِ وغيره.

وواحدها: نكث. يقول: لا تؤكدوا على أنفسكم الأيمان والعهود، ثم تنقضوا ذلك وتحتثوا فيه، فتكونوا كامراً غزلت ونسجت، ثم نقضت ذلك النسيج، فجعلته أنكاثاً.

قوله تعالى: ﴿تَنَجَّدُوا أَتَيْنَكُمْ دَخَلًا يَتَنَكَّمُ﴾ أي: دغلاً، ومكرراً، وخديعة، وكل شيء دخله عيب، فهو مدخول، وفيه دَخَلٌ.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ قال ابن قتيبة: لأن تكون أمة، ﴿هِيَ أَرْبٌ﴾ أي: هي أغنى ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ وقال [الزجاج]: المعنى: بأن تكون أمة هي أكثر، يقال: ربا الشيء يربو: إذ كثر. قال ابن الأنباري: قال اللغويون: «أربي»: أزيد عدداً. قال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعرز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك، فنهوا عن ذلك. وقال الفراء: المعنى لا تغيروا بقوم لقلبتهم وكثرتكم، أو قللتكم وكثرتهم وقد غررتهم بالإيمان.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَلُوكُمُ اللَّهُ يُلُوكُمْ﴾ في هذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الكثرة، قاله سعيد بن جبير، وابن السائب، ومقاتل، فيكون المعنى: إنما يخبركم الله بالكثرة، فإذا كان بين قومين عهد، فكثر أحدهما، فلا ينبغي أن يفسخ الذي بينه وبين الأقل. فإن قيل: إذا كثرت الكثرة، فهلا قيل بها؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري، بأن الكثرة ليس تانيها حقيقياً، فحملت على معنى التذكير، كما حملت الصبيحة على معنى الصباح. والثاني: أنها ترجع إلى العهد، فإنه لدلالة الأيمان عليه، يجري مجرى المظهر، ذكره ابن الأنباري. والثالث: أنها ترجع إلى الأمر بالوفاء، ذكره بعض المفسرين.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قد فسرناه في آخر [مود: ١١٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ صريح في تكذيب القدرة، حيث أضاف الإضلال والهداية إليه، وعلّقهما بمشيئته.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِنَا دَخَلًا يَتَنَكَّمُ﴾ قَرَأَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذَوُّرُهَا الشَّوْءَ بِمَا سَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكَرْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٨﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا بِهَدْيِ اللَّهِ تَسْلًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٩﴾ مَا عِنْدَكَ يَفْعَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِنَا دَخَلًا﴾ هذا استئناف للنهي عن إيمان الخديعة. ﴿قَرَأَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ قال أبو عبيدة: هذا مثل يقال لكل مبتلى بعد عافية، أو ساقط في ورطة بعد سلامة: زلت به قدمه. قال مقاتل: ناقض العهد يَزِلُّ في دينه كما تَزِلُّ قَدَمُ الرَّجُلِ بعد الاستقامة. قال المفسرون: وهذا نهى للذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام ونصرة الدين عن نقض العهد، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَتَذَوُّرُهَا الشَّوْءَ﴾ يعني: العقوبة ﴿بِمَا سَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يريد أنهم إذا نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ، صدوا الناس عن الإسلام، فاستحقوا العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَكَرْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: في الآخرة. ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا بِهَدْيِ اللَّهِ تَسْلًا قَلِيلًا﴾ قال أبو صالح عن ابن عباس: نزلت في رجلين اختصما إلى رسول الله ﷺ في أرض، يقال لأحدهما: «عبدان بن أشوع» وهو صاحب الأرض، وللآخر: «امرؤ القيس» وهو المدعى عليه، فهم امرؤ القيس أن يحلف، فأخذه رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية. وذكر أبو بكر الخطيب أن اسم صاحب الأرض قريظة بن عبدان، وقيل: «عبدان»، بفتح العين وياء معجمة باثنتين. ومعنى الآية: لا تنقضوا عهودكم، تطلبون بنقضها عَرَضاً يسيراً من الدنيا، إن ما عند الله من الثواب على الوفاء هو خير لكم من العاجل. ﴿مَا عِنْدَكَ يَفْعَدُ﴾ أي: يفنى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ في الآخرة ﴿بَاقٍ﴾ وقف بالياء ابن كثير في رواية عنه، ولا خلاف في حذفها في الوصل. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «وَلَنَجْزِيَنَّ» بالياء. وقرأ ابن كثير، وعاصم: «وَلَنَجْزِيَنَّ» بالنون. ولم يختلفوا في ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أنها بالنون، ومعنى هذه الآية: وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا على أمره أجراً أحسن ما كانوا يعملون في الدنيا، ويتجاوزون عن سيئاتهم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتٍ طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧)

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن امرأ القيس المتقدم ذكره أقر بالحق الذي كان هم أن يحلف عليه، فنزلت فيه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾، وهو إقراره بالحق، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن ناساً من أهل التوراة، وأهل الإنجيل، وأهل الأوثان، جلسوا، فتفاضلوا، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح.

قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتٍ طَيِّبَةً﴾ اختلفوا أين تكون هذه الحياة الطيبة على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها في الدنيا، رواه العوفي عن ابن عباس. ثم فيها للمفسرين تسعة أقوال: أحدها: أنها القنعة، قاله علي (عليه السلام)، وابن عباس في رواية، والحسن في رواية، ووهب بن منبه. والثاني: أنها الرزق الحلال، رواه أبو مالك عن ابن عباس. وقال الضحاك: يأكل حلالاً ويلبس حلالاً. والثالث: أنها السعادة، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والرابع: أنها الطاعة، قاله عكرمة. والخامس: أنها رزق يوم بيوم، قاله قتادة. والسادس: أنها الرزق الطيب، والعمل الصالح، قاله إسماعيل بن أبي خالد. والسابع: أنها حلاوة الطاعة، قاله أبو بكر الوراق. والثامن: العافية والكفاية. والتاسع: الرضى بالقضاء، ذكرهما الماوردي. والثاني: أنها في الآخرة، قاله الحسن، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وقتادة، وابن زيد، وذلك إنما يكون في الجنة. والثالث: أنها في القبر، رواه أبو غسان عن شريك.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (١٨) ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَكَلَّمُونَ﴾ (١٩) ﴿إِنَّا سُلْطَانُنَا عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (٢٠) ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ ءَايَةً وَاللَّهُ أَكْبَرُ بِمَا يُزَكَّىٰ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُنْغَرٍ بَلْ أَكْذَرُهم لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢١) ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٢٢)

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن المعنى: فإذا أردت القراءة فاستعذ، ومثله ﴿وَإِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْلُظْوا وُجُوهَكُمْ﴾ (المائدة: ٦) وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتَهُمْ نِعَاءً فَقَالُوا سَافِرُونَ﴾ (الاحزاب: ٥٣) وقوله: ﴿وَإِذَا نَزَّلْنَاهُ بِقُرْآنٍ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْهِ جُنُودَكُمْ صَدَقَاتُ﴾ (المائدة: ١٢). ومثله في الكلام: إذا أكلت، فقل: باسم الله، هذا قول عامة العلماء واللغويين. والثاني: أنه على ظاهره، وأن الاستعاذة بعد القراءة. روي عن أبي هريرة، وداد. والثالث: أنه من المقدم والمؤخر، فالمعنى: فإذا استعذت بالله فاقراً، قاله أبو حاتم السجستاني، والأول أصح.

فصل

والاستعاذة عند القراءة سُنة في الصلاة وغيرها. وفي صفتها عن أحمد روايتان: إحداهما: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم، رواها أبو بكر المروزي. والثانية: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم، رواها حنبل. وقد بيّنا معنى «أعوذ» في أول الكتاب (ص: ٤٧)، وشرحنا اشتقاق الشيطان في (البقرة: ١٤)، والرجيم في (آل عمران: ٣٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في المراد بالسلطان قولان: أحدهما: أنه التسلط. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ليس له عليهم سلطان بحال، لأن الله صرف سلطانه عنهم بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ أَتَاكَ مِنَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الحجر: ٤٢). والثاني: ليس له عليهم سلطان، لاستعاذتهم منه. والثالث: ليس له قُدرة على أن يحملهم على ذنب لا يُغْفَر. والثاني: أنه الحُجَّة. فالمعنى: ليس له حُجَّة على ما يدعوهم إليه من المعاصي، قاله مجاهد. فأما قوله: ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ معناه: يطيعونه. وفي هاء الكناية في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله تعالى، قاله مجاهد، والضحاك. والثاني: أنها ترجع إلى الشيطان، فالمعنى: الذين هم من أجله مشركون بالله، وهذا كما يقال: صار فلان بك عالماً، أي: من أجلك، هذا قول ابن قتيبة. وقال ابن الأباري: المعنى: والذين هم بإشراكهم إبليس في العبادة، مشركون بالله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ سبب نزولها أن الله تعالى كان ينزل الآية، فيعمل بها مدة، ثم ينسخها، فقال كفار قريش: والله ما محمد إلا يسخر من أصحابه، يأمرهم اليوم بأمر، ويأتيهم غدًا بما هو أهون عليهم منه، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والمعنى: إذا نسخنا آية بآية، إما نسخ الحكم والتلاوة، أو نسخ الحكم مع بقاء التلاوة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَخْلُقُ﴾ من ناسخ ومنسوخ، وتشديد وتخفيف، فهو عليم بالمصلحة في ذلك ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي: كاذب: ﴿بَلْ أَكْثَرُكُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يعلمون أن الله أنزله. والثاني: لا يعلمون فائدة النسخ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ﴾ يعني: القرآن ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ يعني: جبريل. وقد شرحنا هذا الاسم في [البقرة: ٨٧].

قوله تعالى: ﴿مِنْ رَزَقِكَ﴾ أي: من كلامه ﴿وَالْحَقُّ﴾ أي: بالأمر الصحيح ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما فيه من البينات فيزدادوا يقيناً.

﴿وَلَقَدْ مَعَلَّمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [١] إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥٦﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَعَلَّمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ يعني: قريشاً ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ أي: آدمي، وما هو من عند الله. وفيمن أرادوا بهذا البشر تسعة أقوال: أحدها: أنه كان لبني المغيرة غلام يقال له «يعيش» يقرأ التوراة، فقالوا: منه يتعلم محمد، فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس. وقال عكرمة في رواية: كان هذا الغلام لبني عامر بن لؤي، وكان رومياً. والثاني: أنه فتي كان بمكة يسمى «بلعام» وكان نصرانياً أعجمياً، وكان رسول الله ﷺ يعلمه، فلما رأى المشركون دخوله إليه وخروجه، قالوا ذلك، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أنه نزلت في كاتب كان يكتب لرسول الله ﷺ، فيملي عليه «سميع عليم» فيكتب هو «عزيز حكيم» أو نحو هذا، فقال له رسول الله ﷺ: «أي ذلك كتبت فهو كذلك»، فافتن، وقال: إن محمداً يَكِلُ ذلك إليّ فأكتب ما شئت، روي عن سعيد بن المسيب (١). والرابع: أنه غلام أعجمي لامرأة من قريش يقال له: «جابر»، وكان جابر يأتي رسول الله ﷺ فيتعلم منه، فقال المشركون: إنما يتعلم محمد من هذا، قاله سعيد بن جبير. والخامس: أنهم غنوا سلمان الفارسي، قاله الضحاك؛ وفيه بُعْدٌ من جهة أن سلمان أسلم بالمدينة، وهذه [الآية] مكية. والسادس: أنهم غنوا به رجلاً حداداً كان يقال له «نُحْس» (٢) النُصْراني، قاله ابن زيد. والسابع: أنهم غنوا به غلاماً لعامر بن الحضرمي، وكان يهودياً أعجمياً، واسمه «يسار»، ويكنى «أبا فُكَيْهَة»، قاله مقاتل. وقد روي عن سعيد بن جبير نحو هذا، إلا أنه لم يقل: إنه كان يهودياً. والثامن: أنهم غنوا غلاماً أعجمياً اسمه «عائش»، وكان مملوكاً لحويطب، وكان قد أسلم، قاله الفراء، والزجاج. والتاسع: أنهما رجلان، قال عبد الله بن مسلم الحضرمي: كان لنا عبدان من أهل عين التمر، يقال لأحدهما: «يسار» وللآخر «جبر» وكانا يصنعان السيوف بمكة، ويقرآن الإنجيل، فربما مرَّ بهما النبي ﷺ وهما يقرآن، فيقف يستمع، فقال المشركون: إنما يتعلم منهما. قال ابن الأنباري: فعلى هذا القول، يكون البشر واقعاً على اثنين، والبشر من أسماء الأجناس، يعبر عن اثنين، كما يعبر «أحد» عن الاثنين والجميع، والمذكر والمؤنث.

قوله تعالى: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: «يُلْحِدُونَ» بضم الياء وكسر الحاء، وقرأ حمزة، والكسائي: «يَلْحَدُونَ» بفتح الياء والحاء. فأما القراءة الأولى، فقال ابن قتيبة: «يُلْحِدُونَ» أي: يميلون إليه (٣)، ويزعمون أنه يعلمه، وأصل الإلحاد الميل، وقال

(١) قال ابن كثير ٥٨٧/٢: قال الزهري عن سعيد بن المسيب: الذي قال ذلك من المشركين، رجل كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فارتد بعد ذلك عن الإسلام، واقترى هذه المقالة قبحه الله.

(٢) كذا في نسخة الرباط بإهمال الحرف الأول، وفي نسخة واغب باشا الاسطنبولية: يحسن، والذي في «البحر المحيط» ٥٣٦/٥: عس. والله تعالى أعلم.

(٣) في الأصل: يؤمنون إليه، والتصحيح من «غريب القرآن» لابن قتيبة ٢٤٩.

الفراء: «يُلجِدُونَ» بضم الياء: يعترضون، ومنه قوله: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْعِصَامِ يُظْلَمْ» [الحج: ٢٥] أي: باعتراض، و«يُلجِدُونَ» بفتح الياء: يميلون. وقال الزجاج: يُلجِدُونَ إليه، أي: يُميلون القول فيه أنه أعجمي. قال ابن قتيبة: لا يكاد عوام الناس يفرقون بين العجمي والأعجمي، والعربي والأعرابي، فالأعجمي: الذي لا يُفصح وإن كان نازلاً بالبادية، والعجمي: منسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً؛ والأعرابي: هو البدوي، والعربي: منسوب إلى العرب وإن لم يكن بدوياً.

قوله تعالى: «وَعَدْنَا لِسَانَ» يعني: القرآن، «عَكْرَتْ» قال الزجاج: أي: أن صاحبه يتكلم بالعربية.

قوله تعالى: «إِنَّمَا يَتَّبِعُ الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ» أي: الذين إذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إلا الله، كذبوا بها، «وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» أي: أن الكذب نعت لازم لهم، وعادة من عاداتهم، وهذا رد عليهم إذ قالوا: «إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ» [التعل: ١٠١]. وهذه الآية من أبلغ الزجر عن الكذب، لأنه خص به من لا يؤمن.

«مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْثَرُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ يُرْسِلُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» [١٠١] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ لَوْ نَبِّهَتْهُمْ وَأَنْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٣﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٤﴾ ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَبَلُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُجْدِلٌ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٠٦﴾

قوله تعالى: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ» قال مقاتل: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي، ومقيس بن ضباب، وعبد الله بن أنس بن خطل، وطعمة بن أبيرق، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وقيس بن الفاكه المخزومي. فاما قوله تعالى: «إِلَّا مَنْ أَكْثَرُ» فاختلفوا فيمن نزل على أربعة أقوال: أحدها: أنه نزل في عمار بن ياسر، أخذه المشركون فعذبوه، فأعطاهم ما أرادوا بلسانه، رواه مجاهد عن ابن عباس، وبه قال قتادة. والثاني: أنه لما نزل قوله: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكُفْرَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ» إلى آخر الآيتين اللتين في [سورة النساء: ٩٦، ٩٧] كتب بها المسلمون الذين بالمدينة إلى من كان بمكة، فخرج ناس ممن أقر بالإسلام، فاتبعهم المشركون، فأدركوهم، فأكروهم حتى أعطوا الفتنة، فنزل «إِلَّا مَنْ أَكْثَرُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ»، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والثالث: أنه نزل في عياش بن أبي ربيعة، كان قد هاجر فحلفت أمه ألا تستظل ولا تشبع من طعام حتى يرجع، فرجع إليها، فأكروه المشركون حتى أعطاهم بعض ما يريدون، قاله ابن سيرين. والرابع: أنه نزل في جبر، غلام ابن الحضرمي، كان يهودياً فأسلم، فضربه سيده حتى رجع إلى اليهودية، قاله مقاتل. وأما قوله: «وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا» فقال مقاتل: هم النفر المسمون في أول الآية. فاما التفسير، فاختلف النحاة في قوله: «مَنْ كَفَرٌ» وقوله: «وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ» فقال الكوفيون: جوابهما جميعاً في قوله: «فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ»، فقال البصريون: بل قوله: «مَنْ كَفَرٌ» مرفوع بالرد على «الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ». قال ابن الأنباري: ويجوز أن يكون خبر «مَنْ كَفَرٌ» محذوفاً، لوضوح معناه، تقديره: من كفر بالله، فالله عليه غضبان.

قوله تعالى: «وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» أي: ساكن إليه راضٍ به. «وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا» قال قتادة: من أتاه بإيثار واختيار. وقال ابن قتيبة: من فتح له صدره بالقبول. وقال أبو عبيدة: المعنى: من تابعته نفسه، وانبط إلى ذلك، يقال: ما ينشرح صدري بذلك، أي: ما يطيب. وجاء قوله: «فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ» على معنى الجميع، لأن «مَنْ» تقع على الجميع.

فصل

الإكراه على كلمة الكفر يبيح النطق بها. وفي الإكراه المبيح لذلك عن أحمد روايتان: إحداهما: أنه يخاف على نفسه أو على بعض أعضائه التلف إن لم يفعل ما أمر به. والثانية: أن التخويف لا يكون إكراهاً حتى يُنال بعذاب. وإذا

ثبت جواز «التَّقِيَّة» فالأفضل ألا يفعل^(١)، نص عليه أحمد، في أسير خَيْر بين القتل وشرب الخمر، فقال: إن صبر على القتل فله الشرف، وإن لم يصبر، فله الرخصة، فظاهر هذا، الجواز. وروى عنه الأثرم أنه سئل عن التَّقِيَّة في شرب الخمر فقال: إنما التَّقِيَّة في القول. فظاهر هذا أنه لا يجوز له ذلك. فأما إذا أكره على الزنى، لم يجز له الفعل، ولم يصح إكراهه، نص عليه أحمد. فإن أكره على الطلاق، لم يقع طلاقه، نص عليه أحمد، وهو قول مالك، والشافعي. وقال أبو حنيفة: يقع.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ في المشار إليه بذلك قولان: أحدهما: أنه الغضب والعذاب، قاله مقاتل. والثاني: أنه شرح الصدر للكفر. و«استحبوا» بمعنى: أحبوا الدنيا واختاروها على الآخرة. قوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ اللَّهُ﴾ أي: وبأن الله لا يريد هدايتهم. وما بعد هذا قد سبق شرحه [البقرة: ٧، والنساء: ١٥٥، والمائدة: ٦٧] إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ففيه قولان: أحدهما: الغافلون عما يراد بهم، قاله ابن عباس. والثاني: عن الآخرة، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ قد شرحناها في [هود: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا قُتِلُوا﴾ اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت فيمن كان يُقْتَل بمكة من أصحاب رسول الله ﷺ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثاني: أن قوماً من المسلمين خرجوا للهجرة، فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة، فنزل فيهم ﴿وَيَنْتَظِرُ الْآخِرَ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَمَلٌ فَتَنَّا الْكَافِرِينَ كَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا، وأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا، وقُتل من قتل، فنزلت فيهم هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثالث: أنها نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح، كان الشيطان قد أزلّه حتى لحق بالكفار، فأمر به رسول الله ﷺ أن يُقْتَلَ يوم الفتح، فاستجار له عثمان بن عفان، فأجاره رسول الله ﷺ، وهذا مروى عن ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وفيه بُعد، لأن المشار إليه وإن كان [قد] عاد إلى الإسلام، فإن الهجرة انقطعت بالفتح. والرابع: أنها نزلت في عيَّاش بن أبي ربيعة، وأبي جندل بن سهيل بن عمرو، وعبد الله بن أسيد الثقفي، قاله مقاتل. فأما قوله تعالى: ﴿وَمِن بَعْدِ مَا قُتِلُوا﴾ فقرأ الأكثرون: «فقتلوا» بضم الفاء وكسر التاء، على معنى: من بعد ما فتنهم المشركون عن دينهم. قال ابن عباس: فقتلوا بمعنى: عُذِّبُوا. وقرأ عبد الله بن عامر: «فقتلوا» بفتح الفاء والتاء، على معنى: من بعد ما فتنوا الناس عن دين الله، يشير إلى من أسلم من المشركين. وقال أبو علي: من بعد ما فتنوا أنفسهم بإظهار ما أظهروا للتقية، لأن الرخصة لم تكن نزلت بعد.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاهِدُوا﴾ أي: قاتلوا مع رسول الله ﷺ ﴿وَمَكْرُورًا﴾ على الدين والجهاد. ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَنِيهَا﴾ في المكني عنها أربعة أقوال: أحدها: الفتنة، وهو مذهب مقاتل. والثاني: الفعلة التي فعلوها، قاله الزجاج. والثالث: المجاهدة، والمهاجرة، والصبر. والرابع: المهاجرة. ذكرهما واللذين قبلهما ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾ قال الزجاج: هو منصوب على أحد شيئين، إما على معنى: إن ربك لغفور يوم تأتي، وإما على معنى: اذكر يوم تأتي. ومعنى ﴿تُجْدِلُ عَنْ نَفْسِكَ﴾ أي: عنها. والمراد: أن كل إنسان يجادل عن نفسه. وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه قال لكعب الأحبار: يا كعب خُوفنا، فقال: إن لجهنم زفرة ما يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا وقع جاثياً على ركبته، حتى إن إبراهيم خليل الرحمن ليدلي بالخلعة فيقول: «يا رب أنا خليلك إبراهيم، لا أسألك إلا نفسي»، وإن تصديق ذلك في كتاب الله ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾^(٢). وقد شرحنا معنى «الجدال» في [هود: ٣٢].

(١) قال الحافظ بن كثير: والأولى والأفضل أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» ١٣٣/٤ ونسبه إلى ابن المبارك، وابن أبي شيبة، وأحمد في «الزهد»، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن كعب الأحبار.

﴿وَصَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ مَأْمَنَةً مَطْمَئِنَّةٌ يَأْتِيهَا رِذْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَصَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ مَأْمَنَةً﴾ في هذه القرية قولان: أحدهما: أنها مكة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والجمهور، وهو الصحيح. والثاني: أنها قرية أوسع الله أهلها حتى كانوا يستنجون بالخبز، فبعث الله عليهم الجوع حتى كانوا يأكلون ما يقعدون^(١)، قاله الحسن. فأما ما يروى عن حفصة أنها قالت: هي المدينة، فذلك على سبيل التمثيل، لا على وجه التفسير، وبيانه: ما روى سليم بن عذر، قال: صدرنا من الحج مع حفصة، وعثمان محصور بالمدينة، فرأت راكبين فسألتهما عنه، فقالا: قُتِلَ، فقالت: والذي نفسي بيده إنها للقرية، تعني المدينة التي قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَصَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ مَأْمَنَةً مَطْمَئِنَّةً﴾، تعني حفصة: أنها كانت على قانون الاستقامة في أيام النبي ﷺ، وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ عند قتل عثمان رضي الله عنه. ومعنى ﴿كَانَتْ مَأْمَنَةً﴾ أي: ذات أمن يأمن فيها أهلها أن يُغَارَ عليهم، ﴿مَطْمَئِنَّةً﴾ أي: ساكنة بأهلها لا يحتاجون إلى الانتقال عنها لخوف أو ضيق. وقد شرحنا معنى الرغد في [البقرة: ٣٥، ٥٨]. وقوله: ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: يجلب إليها من كل بلد، وذلك كله بدعوة إبراهيم عليه السلام، ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ بتكذيبهم رسول الله ﷺ. وفي واحد الأنعم قولان: أحدهما: أن واحدها «نعم» قاله أبو عبيدة، وابن قتيبة. والثاني: «نعمة» قاله الزجاج. قال ابن قتيبة: ليس قول من قال: هو جمع «نعم» بشيء، لأن «فُعْلَةً» لا تجمع على «أفْعُلٍ»، وإنما هو جمع «نعم»، يقال: يوم نعم، ويوم بُؤْسٍ، ويجمع «أُنْعَمًا» و «أَبُؤْسًا».

قوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ وروى عبيد بن عقيل، وعبد الوارث عن أبي عمرو: «والخوف» بنصب الفاء. وأصل الذوق إنما هو بالفم، وهذا استعارة منه، وقد شرحنا هذا المعنى في [آل عمران: ١٠٦، ١٨٥]. وإنما ذكر اللباس هاهنا تجوُّزاً، لما يظهر عليهم من أثر الجوع والخوف، فهو كقوله: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ [الأعراف: ٢٦] وذلك لما يظهر على المتقي من أثر التقوى. قال المفسرون: عذبهم الله بالجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام المحترقة. فأما الخوف فهو خوفهم من رسول الله ﷺ ومن سراياه التي كان يبعثها حولهم. والكلام في هذه الآية خرج على القرية، والمراد أهلها، ولذلك قال: ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ يعني به: بتكذيبهم لرسول الله ﷺ وإخراجهم إياه وما هموا به من قتله.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْمَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾ يعني: محمداً ﷺ، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْمَذَابُ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه الجوع، قاله ابن عباس. والثاني: القتل بيدر، قاله مجاهد. قال ابن السائب: ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي: كافرون.

﴿فَكُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّكُرُوا بِشَمَتِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَكَذَلِكَ رَزَقَكُمْ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَكُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ﴾ في المخاطبين بهذا قولان: أحدهما: أنهم المسلمون، وهو قول الجمهور. والثاني: أنهم أهل مكة المشركون، لما اشتدت مجاعتهم، كلَّم رؤسائهم رسول الله ﷺ فقالوا: إن كنت عادت الرجال، فما بال النساء والصبيان؟! فأذن رسول الله ﷺ للناس أن يحملوا الطعام إليهم، حكاة الثعلبي، وذكر نحوه الفراء، وهذه الآية والتي تليها مفسرتان في [البقرة: ١٧٢، ١٧٣].

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

(١) كذا الأصل: حتى كانوا يأكلون ما يقعدون، ولعله يقصد: ما يقعدون عليه، كالجلود، وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ قال ابن الأنباري: اللام في «لما» بمعنى من أجل، وتلخيص الكلام: ولا تقولوا: هذه الميتة حلال، وهذه البحيرة حرام، من أجل كذبكم، وإقدامكم على الوصف، والتخوُّص لما لا أصل له، فجرت اللام هاهنا مجراها في قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ [المائدة: ٨] أي: وإنه من أجل حب الخير لبخيل، و«ما» بمعنى المصدر، والكذب منصوب بـ«تصف»، والتلخيص: لا تقولوا لوصف الالسنكم الكذب. وقرأ ابن أبي عبيدة: «الكُذْب»، قال ابن القاسم: هو نعت الالسنه، وهو جمع كذوب. قال المفسرون: والمعنى: أن تحليلكم وتحريمكم ليس له معنى إلا الكذب. والإشارة بقوله: ﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ إلى ما كانوا يحلُّون ويحرِّمون، ﴿لَتَقْفُرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ وذلك أنهم كانوا ينسبون ذلك التحليل والتحريم إلى الله تعالى، ويقولون: هو أمرنا بهذا. وقوله: ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ﴾ أي: متاعهم بهذا الذي فعلوه قليل.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَضَحْنَا عَنْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَدِوا الشُّوْةَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٦﴾ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَضَحْنَا عَنْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني به ما ذكر في [الأنعام: ١٧٦] وهو قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَلَّ ذِي قُلُوبٍ﴾، ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾ بتحريمنا ما حرَّمنا عليهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالبغى والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَدِوا الشُّوْةَ بِجَهْلَةٍ﴾ قد شرحناه في سورة [النساء: ١٧]، وشرحناه في [البقرة: ١٦٠] التوبة والإصلاح، وذكرنا معنى قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ آنفًا. ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَكَرَّ بَيْتَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧٧﴾ وَمَا يَنْتَهِ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَئِنْ فِي الْآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ ﴿١٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ قال ابن الأنباري: هذا مثل قول العرب: فلان رحمة، وفلان علامة، ونسابة، ويقصدون بهذا التأنيث قصد التناهي في المعنى الذي يصفونه، والعرب قد توقع الأسماء المبهمة على الجماعة، وعلى الواحد، كقوله: ﴿فَتَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وإنما ناداه جبريل وحده. وللمفسرين في المراد بالأمة هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أن الأمة: الذي يعلم الخير، قاله ابن مسعود، والفراء، وابن قتيبة. والثاني: أنه المؤمن وحده في زمانه، روى هذا المعنى الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والثالث: أنه الإمام الذي يُقْتَدَى به، قاله قتادة، ومقاتل، وأبو عبيد، وهو في معنى القول الأول. فأما القانت فقال ابن مسعود: هو المطيع. وقد شرحناه [الفقوت] في [البقرة: ١٦٦، ٢٣٨] وكذلك الحنيف [البقرة: ١٣٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَرَّ بِكَ﴾ قال الزجاج: أصلها: لم يكن، وإنما حذف التون عند سبويه، لكثرة استعمال هذا الحرف، وذكر الجلة من البصريين أنها إنما احتملت الحذف، لأنه اجتمع فيها كثرة الاستعمال، وأنها عبارة عن كل ما يمضي من الأفعال وما يستأنف، وأنها قد أشبهت حروف اللين، وأنها تكون علامة كما تكون حروف اللين علامة، وأنها غنة تخرج من الأنف، فلذلك احتملت الحذف.

قوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ انتصب بدلاً من قوله: ﴿أُمَّةً قَانِتًا﴾ وقد ذكرنا واحد الأنعم آنفًا، وشرحنا معنى [الاجتناب] في [الأنعام: ٨٧]. قال مقاتل: والمراد بالصراط المستقيم هاهنا: الإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْتَهِ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ فيها ستة أقوال: أحدها: أنها الذُّكْر الحسن، قاله ابن عباس. والثاني: النبوة، قاله الحسن. والثالث: لسان صدق، قاله مجاهد. والرابع: اجتماع المِلل على ولايته، فكلهم يتولونه ويرضونه، قاله قتادة. والخامس: أنها الصلاة عليه مقرونة بالصلاة على محمد ﷺ، قاله مقاتل بن حيان. والسادس: الأولاد الأبرار على الكبر، حكاه الثعلبي. وباقي الآية مفسر في [البقرة: ١٣٠].

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا أَنْتَبِذْ إِلَيْنَا كُلَّ غَافِلٍ﴾ ﴿١٧٩﴾ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا أَنْتَبِذْ إِلَيْنَا كُلَّ غَافِلٍ﴾ مثله: دينه. وفيما أمر باتباعه من ذلك قولان: أحدهما: أنه

أمر باتباعه في جميع ملته، إلا ما أمر بتركه، وهذا هو الظاهر. [والثاني: اتباعه في التبرؤ من الأوثان، والتدين بالإسلام، قاله أبو جعفر الطبري^(١)]. وفي هذه الآية دليل على جواز اتباع المفضول، لأن رسولنا أفضل الرسل، وإنما أمر باتباعه، لسبقه إلى القول بالحق.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ أي: إنما فرض تعظيمه وتحريمه، وقرأ الحسن، وأبو حيوة: «إِنَّمَا جَعَلَ» بفتح الجيم والعين «السبت» بنصب التاء ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ والهاء ترجع إلى السبت. وفي معنى اختلافهم فيه قولان: أحدهما: أن موسى قال لهم: تفرغوا لله في كل سبعة أيام يوماً، فاعبدوه في يوم الجمعة، ولا تعملوا فيه شيئاً من صنعكم، فأبوا أن يقبلوا ذلك، وقالوا: لا نبتغي إلا اليوم الذي فرغ فيه من الخلق، وهو يوم السبت، فجعل ذلك عليهم، وشدد عليهم فيه، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وقال مقاتل: لما أمرهم موسى بيوم الجمعة، قالوا: نتفرغ يوم السبت، فإن الله لم يخلق فيه شيئاً، فقال: إنما أمرت بيوم الجمعة، فقال أحبارهم: انتهوا إلى أمر نبيكم، فأبوا، فذلك اختلافهم، فلما رأى موسى حرصهم على السبت، أمرهم به، فاستحلوا فيه المعاصي. وروى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: رأى موسى رجلاً يحمل قصياً يوم السبت، فضرب عنقه، وعكفت عليه الطير أربعين صباحاً. وذكر ابن قتيبة في «مختلف الحديث»: أن الله تعالى بعث موسى بالسبت، ونسخ السبت بالمسيح. والثاني: أن بعضهم استحلّه، وبعضهم حرّمه، قاله قتادة.

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَخَدِّ لَهُمُ الْبَالِغَ إِحْسَنِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ سَبِيلُهُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْهَكِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ قال ابن عباس: نزلت مع الآية التي بعدها، وسنذكر هناك السبب. فأما السبيل، فقال مقاتل: هو دين الإسلام. وفي المراءد ﴿بِالْحُكْمِ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنها القرآن، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: الفقه، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثالث: النبوة، ذكره الزجاج. وفي: ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ قولان: أحدهما: مواعظ القرآن، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: الأدب الجميل الذي يعرفونه، قاله الضحاك عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَخَدِّ لَهُمُ الْبَالِغَ﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم أهل مكة، قاله أبو صالح. والثاني: أهل الكتاب، قاله مقاتل. وفي قوله: ﴿بِالْبَالِغِ إِحْسَنِ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: جادلهم بالقرآن. والثاني: بـ «لا آله إلا الله»، روي القولان عن ابن عباس. والثالث: جادلهم غير فظ ولا غليظ، وألّن لهم جانبك، قاله الزجاج. وقال بعض علماء التفسير: وهذا منسوخ بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ المعنى: هو أعلم بالفريقين، فهو يأمرك فيهما بما فيه الصلاح.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ وَأَمِيرٌ وَمَا صَبَرْتُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي مَتْنٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن رسول الله ﷺ أشرف على حمزة، فرآه صريعاً، فلم ير شيئاً كان أوجع لقلبه منه، فقال: «والله لأمثلن بسبعين منهم»، فنزل جبريل، والنبي ﷺ واقف، بقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ...﴾ إلى آخرها، فصبر رسول الله وكفّر عن يمينه، قاله أبو هريرة^(٢). وقال ابن عباس: رأى رسول الله ﷺ حمزة قد شق بطنه، وجُدِعت أذناه، فقال: «لولا أن تحزن النساء؛ أو تكون سنة بعدي لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير، ولاقتلن مكانه سبعين رجلاً منهم»، فنزل قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى

(١) ما بين المعقفين سقط من نسخة الرباط، واستدركناه من النسخة الاسطنبولية.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥٩٢/٢ من طريق البزار، وقال: وهذا إسناد فيه ضعف، لأن صالحاً هو ابن بشير المري ضعيف عند الأئمة، وقال البخاري: هو منكر الحديث.

قوله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. وروى الضحاك عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال يومئذ: «لَيْتَن ظَفَرْتُ بِقَاتِلِ حَمْزَةَ لَأَمْلُتُ بِهِ مِثْلَةَ تَتَحَدَّثُ بِهَا الْعَرَبُ»، وكانت هند وآخرون معها قد مثلوا به، فنزلت هذه الآية. والثاني: أنه أصيب من الأنصار يوم أحد أربعة وستون، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة، ومثلوا بقتلاهم، فقالت الأنصار: لَيْتَن أَصَبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ، لتزیدن على عدتهم مرتين، فنزلت هذه الآية، قاله أبي بن كعب^(١). وروى أبو صالح عن ابن عباس أن المسلمين قالوا: لَيْتَن أَمَكَّنَا اللَّهُ مِنْهُمْ، لنمثلن بالأحياء فضلاً عن الأموات، فنزلت هذه الآية. يقول: إن كنتم فاعلين، فمثلوا بالأموات، كما مثلوا بأمواتكم. قال ابن الأنباري: وإنما سمي فعل المشركين معاقبة وهم ابتدؤوا بالمثلثة، ليزدوج اللفظان، فيخف على اللسان، كقوله: ﴿وَعَزَّوْا سَيِّئَ سَيِّئَةٍ يَنْظُرُونَ﴾ [الشورى: ٤٠].

فصل

واختلف العلماء، هل هذه [الآية] منسوخة، أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنها نزلت قبل (براءة) فأمر رسول الله ﷺ أن يقاتل من قاتله، ولا يبدأ بالقتال، ثم نسخ ذلك، وأمر بالجهاد، قاله ابن عباس والضحاك. فعلى هذا يكون المعنى: ﴿وَلَيْتَن صَبْرُكُمْ﴾ عن القتال، ثم نسخ هذا بقوله: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. والثاني: أنها محكمة، وإنما نزلت فيمن ظلم ظُلُمًا، فلا يحل له أن ينال من ظالمه أكثر مما ناله الظالم منه، قاله مجاهد، والشعبي، والنخعي، وابن سيرين، والثوري، وعلى هذا يكون المعنى: ولئن صبرتم عن المثلة، لا عن القتال. قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: بتوقيفه ومعونته. وهذا أمر بالعزيمة. وفي قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ قولان: أحدهما: على كفار مكة إن لم يُسلموا، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: ولا تحزن على قتلى أحد، أنهم أفضوا إلى رحمة الله، ذكره علي بن أحمد النيسابوري.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلُكْ فِي صَيقٍ﴾ قرأ الأكثر بنصب الضاد، وقرأ ابن كثير: «في صَيْقٍ» بكسر الضاد هاهنا وفي [النمل: ٧٠]. قال الفراء: الصَيْق بفتح الضاد: ما ضاق عنه صدرك، والصَيْق: ما يكون في الذي يضيق ويتسع، مثل الدار والثوب وأشياء ذلك. وقال ابن قتيبة: الصَيْق: تخفيف صَيْقٍ، مثل: هَيْنَ وَلَيْتَن، وهو، إذا كان على هذا التأويل: صفة، كأنه قال: لا تك في أمر صَيْقٍ من مكرهم. قال: ويقال: مكان صَيْقٍ وَصَيْقٍ، بمعنى واحد، كما يقال: رَظْلٌ وَرِظْلٌ، وهذا أعجب إليّ. فأما مكرهم المذكور هاهنا، فقال أبو صالح عن ابن عباس: فعلهم وعملهم. قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ما نهاهم عنه، وأحسنوا فيما أمرهم به، بالعون والنصر.



(١) أوردته السيوطي في «الدر» ١٣٣/٤ وقال: أخرجه الترمذي وحسنه، وعبد الله في «زوائد المسند»، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في «الدلائل».

سورة بني إسرائيل

فصل في نزولها

هي مكة في قول الجماعة، إلا أن بعضهم يقول: فيها مدني، فروي عن ابن عباس أنه قال: هي مكة إلا ثمان آيات: من قوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلى قوله: ﴿تَصِيْرًا﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥]، وهذا قول قتادة. وقال مقاتل: فيها من المدني: ﴿وَقُلْ رَبِّيَ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْوَيْلَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ [الإسراء: ١٠٧] وقوله: ﴿وَإِنْ رَأَيْتَ لَكُمْ آيَاتٍ﴾ [الإسراء: ٦٠] وقوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٣] وقوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٦] وقوله: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ تَنْتَنَكَ﴾ والتي تليها [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّافِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ①

قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ﴾ روي عن النبي ﷺ أنه سئل عن تفسير: «سبحان الله»، فقال: «تزيه لله عن كل سوء»، وقد ذكرنا هذا المعنى في [البقرة: ٣٢].

قال الزجاج: «أسرى»: بمعنى: سبَّ عبده، يقال: أسريت وسريت: إذا سرت ليلاً. وقد جاءت اللغتان في القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَلَيْلٍ إِذَا يَسِرُّهُ﴾ [الفجر: ٤]. وفي معنى التسييح هاهنا قولان: أحدهما: أن العرب تسبِّح عند الأمر المعجب، فكان الله تعالى عجب العباد مما أسدى إلى رسوله من النعمة. والثاني: أن يكون خرج مخرج الرد عليهم، لأنه لما حدثهم بالإسراء، كذبوه، فيكون المعنى: تنزه الله أن يتخذ رسولا كذابا. ولا خلاف أن المراد بعبد هاهنا: محمد ﷺ. وفي قوله: ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قولان. أحدهما: أنه أسري به من نفس المسجد، قاله الحسن، وقتادة، ويسنده حديث مالك بن صعصعة، وهو في «الصحيحين»^(١) «بيننا أنا في الحطيم» وربما قال بعض الرواة: «في الحجر». والثاني: أنه أسري به من بيت أم هانئ^(٢)، وهو قول أكثر المفسرين، فعلى هذا يعني بالمسجد الحرام: الحرم. والحرم كله مسجد، ذكره القاضي أبو يعلى وغيره. فاما «الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا» فهو بيت المقدس، وقيل له: الأقصى، لبُعد المسافة بين المسجدين. ومعنى ﴿بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾: أن الله أجرى حوله الأنهار، وأثبت الثمار. وقيل: لأنه مَقَرُّ الأنبياء، ومَهْبِطُ الملائكة. واختلف العلماء، هل دخل بيت المقدس، أم لا، فروى أبو هريرة أنه دخل بيت المقدس، وصلى فيه بالأنبياء^(٣)، ثم عُرج به إلى السماء. وقال خديفة بن اليمان: لم يدخل بيت المقدس ولم يصل فيه، ولا نزل عن البُراق حتى عُرج به. فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ وأنتم تقولون: صعد إلى السماء؟ فالجواب: أن الإسراء كان إلى هنالك، والمعراج كان من هنالك. وقيل: إن الحكمة في ذكر ذلك، أنه لو أخبر بصعوده إلى السماء في بدء الحديث، لاشتد إنكارهم، فلما أخبر ببيت المقدس، وبأن لهم صدقه فيما أخبرهم به من العلامات الصادقة، أخبر بمعراجه.

(١) البخاري ١٥٤/٧، ومسلم ١٥٠/١، وخرجه السيوطي في «الدرة» ١٤٠/٤ وزاد نسبه إلى أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن مردويه. وقوله: «وربما قال بعض الرواة: في الحجر» قال الحافظ ابن حجر: هو شك من قتادة كما بينه أحمد عن عفان عن همام، ولفظه: «بيننا أنا نائم في الحطيم، وربما قال قتادة: في الحجر».

(٢) حديث أم هانئ، رواه محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح، والكلبي متروك بحرة ماقط، ورواه الطبراني في «الكبير» وفيه عبد الأعلى بن أبي المساور. قال الهيثمي في «المجمع» ٧٦/١: متروك كذاب.

(٣) حديث أبي هريرة، رواه مسلم ١٥٧/١، وفي «مسند أحمد»، ومسلم ١٤٥/١، من حديث أنس بن مالك قال: «فركبته حتى أتيت بيت المقدس» قال: «فربطته بالحلقة التي تربط به الأنبياء» قال: «ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين...».

قوله تعالى: ﴿لِيُذَيِّقَ مِنْ مَا كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ يعني: ما رأى، أي: تلك الليلة من العجائب التي أخبر بها الناس. ﴿إِنَّهُمْ هُمُ السَّيِّئُونَ﴾ لمقالة قرش، ﴿الْبَصِيرُ﴾ بها. وقد ذكرنا في كتابنا المسمى بـ«الحدائق» أحاديث المعراج، وكرهنا الإطالة هاهنا.

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ۖ ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانُوا عَبْدًا شَكُورًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ لما ذكر في الآية الأولى إكرام محمد ﷺ، ذكر في هذه كرامة موسى. و﴿الْكِتَابُ﴾: التوراة. ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: دللناهم به على الهدى. ﴿أَلَّا يَتَّخِذُوا﴾ قرأ أبو عمرو: «يتخذوا» بالياء، والمعنى: هديناهم لئلا يتخذوا. وقرأ الباقون بالتاء، قال أبو علي: وهو على الانصراف إلى الخطاب بعد الغيبة، مثل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثم [قال]: ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُكَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكِيلًا﴾ قال مجاهد: شريكاً. وقال الزجاج: رباً. قال ابن الأنباري: وإنما قيل للرب: وكيل، لكفائته وقيامه بشأن عباده، من أجل أن الوكيل عند الناس قد علم أنه يقوم بشؤون أصحابه، وتفقد أمورهم، فكان الرب وكيلاً من هذه الجهة، لا على معنى ارتفاع منزلة الموكل وانحطاط أمر الوكيل.

قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا﴾ قال مجاهد: هو نداء: يا ذرية من حملنا. قال ابن الأنباري: من قرأ: «أَلَّا يَتَّخِذُوا» بالتاء، فإنه يقول: بعد الذرية مضمراً حذف اعتماداً على دلالة ما سبق، تلخيصه: يا ذرية من حملنا مع نوح لا تتخذوا وكيلاً، ويجوز أن يستغني عن الإضمار بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عَبْدًا شَكُورًا﴾ لأنه بمعنى: اشكروني كشكره. ومن قرأ: «لا يتخذوا» بالياء، جمع النداء متصلاً بالخطاب، و«الذرية» تنتصب بالنداء، ويجوز نصبها بالانحياز على أنها مفعول ثانٍ، تلخيص الكلام: أن لا يتخذوا ذرية من حملنا مع نوح وكيلاً. قال قتادة: الناس كلهم ذرية من أنجى الله في تلك السفينة.

قال العلماء: ووجه الإنعام على الخلق بهذا القول، أنهم كانوا في صلب من نجا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عَبْدًا شَكُورًا﴾ قال سلمان الفارسي: كان إذا أكل قال: «الحمد لله» وإذا شرب قال: «الحمد لله»^(١). وقال غيره: كان إذا لبس ثوباً قال: «الحمد لله» فسماه الله عبداً شكوراً.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقَ كَثِيرٍ ۖ وَإِذَا حُلَّةٌ وَعَدُ أُولَئِكَ بَشَرًا عَلَيْهِمْ عِقَابٌ لَّا أُولَىٰ لَهُمْ شَافِعٍ فَمَآ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ الْقَدِيرُ وَكَانَ وَعْدًا مَّعْهُولًا ۖ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَفَرَةَ عَلَيْهِمْ وَأَوْدَعْنَاهُمْ فِي بُيُوتِهِمْ وَأَعْلَنَّا لِلْعَالَمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أخبرناهم، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: قضينا عليهم، رواه العوفي عن ابن عباس. وبه قال قتادة، فعلى الأول: تكون «إلى» على أصلها، ويكون الكتاب: التوراة، وعلى الثاني: تكون «إلى» بمعنى «على»، ويكون الكتاب: الذكر الأول.

قوله تعالى: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: أرض مصر ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ بالمعاصي ومخالفة التوراة.

وفي مَنْ قتلوه من الأنبياء في الفساد الأول قولان. أحدهما: زكريا، قاله السدي عن أشياخه. والثاني: شعيا، قاله ابن إسحاق. فأما المقتول من الأنبياء في الفساد الثاني: فهو يحيى بن زكريا. قال مقاتل: كان بين الفسادين مائتا سنة وعشر سنين. فأما السبب في قتلهم زكريا، فأنهم اتهموه بمرم، وقالوا: منه حملت، فهرب منهم، فافتتحت له شجرة فدخل فيها وبقي من رذائه هذب، فجاءهم الشيطان فدلَّهم عليه، فقطعوا الشجرة بالمنشار وهو فيها. وأما السبب في قتلهم «شعيا»، فهو أنه قام فيهم برسالة من الله ينهاهم عن المعاصي. وقيل: هو الذي هرب منهم فدخل في الشجرة

(١) ابن جرير ١٩/١٥، وخرجه السيوطي في «الدرر» ١٦٢/٤ وزاد نسبه إلى القرطبي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان». وروى الإمام أحمد في «المسند» ١٠٠/٣، ومسلم ٢٠٩٥/٤، والترمذي، والنسائي عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشرية فيحمد الله عليها».

حتى قطعوه بالمنشار، وأن زكريا مات حتف أنفه. وأما السبب في قتلهم يحيى بن زكريا، ففيه قولان. أحدهما: أن ملكهم أراد نكاح امرأة لا تحل له، فنهاه عنها يحيى. ثم فيها أربعة أقوال. أحدها: أنها ابنة أخيه، قاله ابن عباس. والثاني: ابنته، قاله عبد الله بن الزبير. والثالث: أنها امرأة أخيه، وكان ذلك لا يصلح عندهم، قاله الحسين بن علي عليه السلام. والرابع: ابنة امرأته، قاله السدي عن أشياخه، وذكر أن السبب في ذلك: أن ملك بني إسرائيل هوي بنت امرأته، فسأل يحيى عن نكاحها، فنهاه، فحتفت أمها عى يحيى حين نهاه أن يتزوج ابنتها، وعمدت إلى ابنتها فزيتها وأرسلتها إلى الملك حين جلس على شرابه، وأمرتها أن تسقيه، وأن تعرض له، فإن أرادها على نفسها، أبت حتى يؤتى برأس يحيى بن زكريا في طشت، ففعلت ذلك، فقال: ويحك سلمي غير هذا، فقالت: ما أريد إلا هذا، فأمر، فأتي برأسه والرأس يتكلم ويقول: لا تحل لك، لا تحل لك. والقول الثاني: أن امرأة الملك رأت يحيى عليه السلام وكان قد أعطي حسناً وجمالاً، فأرادته على نفسه، فأبى، فقالت لابنتها: سلي أباك رأس يحيى، فأعطاهما ما سألت، قاله الربيع بن أنس. قال العلماء بالسَّيَر: ما زال دم يحيى يغلي حتى قتل عليه من بني إسرائيل سبعون ألفاً، فسكن، وقيل: لم يسكن حتى جاء قاتله، فقال: أنا قتله، فقُتِل، فسكن.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَكُمُ كَيْدًا﴾ أي: لتعظمن عن الطاعة ولتغبن.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي: عقوبة أولى المرتين بمعنا أي: أرسلنا عليكم عبداً لنا وفيهم خمسة أقوال: أحدها: أنهم جالوت وجنوده، قاله ابن عباس، وقادة. والثاني: بختنصر^(١)، قاله سعيد بن المسيب، واختاره الفراء، والزجاج. والثالث: العمالقة، وكانوا كفاراً، قاله الحسن. والرابع: سنحاريب^(٢)، قاله سعيد بن جبير. والخامس: قوم من أهل فارس، قاله مجاهد. وقال ابن زيد: سلط [الله] عليهم سابور ذا الأكتاف^(٣) من ملوك فارس.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: ذوي عدد وقوة في القتال. وفي قوله: ﴿فَجَاسُوا خَلْدَ الذِّيَارِ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: مشوا بين منازلهم، قاله ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وقال مجاهد: يتجسسون أخبارهم، ولم يكن قتال. وقال الزجاج: طافوا خلال الديار ينظرون هل بقي أحد لم يقتلوه؟ والجوس: طلب الشيء باستقصاء. والثاني: قتلهم بين بيوتهم، قاله الفراء، وأبو عبيدة. والثالث: عاثوا وأفسدوا، يقال: جاسوا وحاسوا، فهم يجوسون ويحوسون إذا فعلوا ذلك، قاله ابن قتيبة.

فأما الخلال: فهي جمع خلل، وهو الانفراج بين الشيثين. وقرأ أبو رزين، والحسن، وابن جبير، وأبو المتوكل: «خَلَلَ الديار» بفتح الخاء واللام من غير ألف. وكانت وعداً مفعولاً أي: لا بد من كونه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أظفرناكم بهم. والكرّة، معناها: الرجعة والدولة، وذلك حين قتل داود جالوت وعاد ملكهم إليهم. وحكى الفراء أن رجلاً دعا على بختنصر؛ فقتله الله، وعاد ملكهم إليهم. وقيل: غزوا ملك بابل فأخذوا ما كان في يده من المال والأسرى.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي: أكثر عدداً وأنصاراً منهم. قال ابن قتيبة: النفير والنافر واحد، كما يقال: قدير وقادر، وأصله: مَنْ يَنْفِرُ مع الرجل من عشيرته وأهل بيته.

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وَيُوهَبُوا وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّكُوا مَا عَلُوا النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم عَنِ رُحْمَتِهِ وَإِنَّ عُذَّتُمْ عُنْدَنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا سورة القصص

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ﴾ أي: وقلنا لكم إن أحسنتم فاطعمتم الله أحسنتم لأنفسكم أي: عاقبة الطاعة لكم وإن أسأتم بالفساد والمعاصي فلها وفيه قولان: أحدهما: أنه بمعنى: فإليها. والثاني: فعلية. فإذا جاء وعد

(١) هو ملك الكلدانيين، أغار بحملاته على مصر وفتح القدس، وأحرقها وأجلى بني إسرائيل إلى بابل.

(٢) هو ملك آشور بن منجور وخليفته، حمل على بلاد الكلدانيين واليهودية وأرمينية.

(٣) لقب بذلك، لأنه أمر بفك أكتاف أسرى الحرب، حارب العرب أحلاف الروم.

الْآخِرَةَ ﴿جواب: ﴿فَإِذَا مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: فَإِذَا جَاءَ وَعْدَ عَقُوبَةِ الْمَرَّةِ الْآخِرَةِ مِنْ إِفْسَادِكُمْ، بِعَثَانِهِمْ لِيَسُوْؤُوا وَجُوهَكُمْ، وَهَذَا الْفَسَادُ الثَّانِي، هُوَ قَتْلُهُمْ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا، وَقَصْدُهُمْ قَتْلَ «عِيسَى» فَرْفَعُ، وَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَلُوكَ فَارِسَ وَالرُّومَ فَقَتَلُوهُمْ وَسَبَّوْهُمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لِيَسْكُتُوا وَيُؤْفَكُمْ﴾. قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَنَافِعٌ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ: ﴿لِيَسْكُتُوا﴾. بِالْيَاءِ عَلَى الْجَمْعِ وَالْهَمْزِ بَيْنَ الْوَاوَيْنِ، وَالْإِشَارَةُ إِلَى الْمَبْعُوثِينَ. وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ، وَحُمَزةٌ، وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ: «لِيسُوءَ وَجُوهَكُمْ» عَلَى التَّوْحِيدِ؛ قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: فِيهِ وَجْهَانِ. أَحَدُهُمَا: لِيَسُوءَ اللَّهُ ﷻ. وَالثَّانِي: لِيَسُوءَ الْبَعْثُ. وَقَرَأَ الْكَسَايِيُّ: «لِنِسْءٍ» بِالنُّونِ، وَذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. وَفِيهِمْ بَعَثَ عَلَيْهِمْ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: بِخَنْتَصَرٍ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ. وَكَثِيرٌ مِنَ الرُّوَاةِ يَأْبَى هَذَا الْقَوْلَ، وَيَقُولُونَ: كَانَ بَيْنَ تَخْرِيْبِ «بِخَنْتَصَرٍ» بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَبَيْنَ مَوْلِدِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا زَمَانٌ طَوِيلٌ. وَالثَّانِي: أَنْطَاخُوسُ الرُّومِي، قَالَهُ مُقَاتِلٌ. وَمَعْنَى ﴿لِيَسْكُتُوا وَيُؤْفَكُمْ﴾: أَيُّ لِيُدْخِلُوا عَلَيْكُمْ الْحُزْنَ بِمَا يَفْعَلُونَ مِنْ قَتْلِكُمْ وَسَبِّكُمْ، وَخَصَّتِ الْمَسَاءَةَ بِالْوُجُوهِ، وَالْمَرَادُ: أَصْحَابُ الْوُجُوهِ، لَمَّا يَبْدُو عَلَيْهَا مِنْ أَثَرِ الْحُزَنِ وَالْكَآبَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيَدْخُلُوا السَّبْعَ﴾ يَعْنِي: بَيْتَ الْمَقْدِسِ ﴿كَمَا دَخَلُوا﴾ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى ﴿وَلْيَسْكُتُوا﴾ أَيُّ لِيَدْمُرُوا وَيُخْرِبُوا. قَالَ الزَّجَّاجُ: يُقَالُ لِكُلِّ شَيْءٍ يَنْكَسِرُ مِنَ الزَّجَاجِ وَالْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ: تِيرٌ. وَمَعْنَى «هَذَا عُلُوًّا» أَيُّ لِيَدْمُرُوا فِي حَالِ عُلُوِّكُمْ عَلَيْكُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَرْكُزُ أَنْ يَزْمَكُ﴾ هَذَا مِمَّا وُصِدُوا بِهِ فِي التَّوْرَةِ. وَ«عِيسَى» مِنَ اللَّهِ وَاجِبَةٌ، فَرَحِمَهُمُ [اللَّهُ] بَعْدَ انتِقَامِهِ مِنْهُمْ، وَعَمَرَ بِلَادَهُمْ، وَأَعَادَ نَعْمَهُمْ بَعْدَ سَبْعِينَ سَنَةً. ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ﴾ إِلَى مَعْصِيَتِنَا ﴿عَذَابًا﴾ إِلَى عَقُوبَتِكُمْ. قَالَ الْمَفْسُورُونَ: ثُمَّ إِنَّهُمْ عَادُوا إِلَى الْمَعْصِيَةِ، فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَلُوكًا مِنْ مَلُوكِ فَارِسَ وَالرُّومِ. قَالَ قَتَادَةُ: ثُمَّ كَانَ آخِرَ ذَلِكَ أَنْ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مُحَمَّدًا ﷺ، فَهُمْ فِي عَذَابٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُعْطُونَ الْجَزِيَّةَ عَنْ يَدِهِمْ صَافِرُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: سَجْنًا، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَحْصُرُونَ فِيهَا. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ، وَابْنُ قَتَيْبَةَ: مَحْبَسًا، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: «حَصِيرًا»: حَبْسًا، أَخَذَ مِنْ قَوْلِكَ: حَصَرْتُ الرَّجُلَ، إِذَا حَبَسْتَهُ، فَهُوَ مُحْصُورٌ، وَهَذَا حَصِيرُهُ، أَيُّ: مَحْبَسُهُ، وَالْحَصِيرُ: الْمَنْسُوجُ، سَمِيَ حَصِيرًا، لِأَنَّهُ حَصَرَتْ طَاقَاتُهُ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ، وَيُقَالُ لِلْجَنْبِ: حَصِيرٌ، لِأَنَّهُ بَعْضُ الْأَضْلَاعِ مُحْصُورٌ مَعَ بَعْضٍ. وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: حَصِيرًا: بِمَعْنَى: حَاصِرَةٌ، فَصَرَفَ مِنْ حَاصِرَةٍ إِلَى حَصِيرٍ، كَمَا صَرَفَ «مَوْلَمٌ» إِلَى الْيَمِّ. وَالثَّانِي: فَرَأْشًا وَمِهَادًا، قَالَهُ الْحَسَنُ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ جَهَنَّمُ لَهُمْ مِهَادًا بِمَنْزِلَةِ الْحَصِيرِ، وَالْحَصِيرُ: الْبَسَاطُ الصَّغِيرُ.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُمْ أَقَوْمٌ مَبْتُغًى وَيُبَيِّنُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الْفَلَاحَ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ① وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَفْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ② ﴿

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُمْ أَقَوْمٌ﴾ قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: «الَّذِي» وَصَفَ لِلْجَمْعِ، وَالْمَعْنَى: يَهْدِي إِلَى الْخِصَالِ الَّتِي هِيَ أَقْوَمُ الْخِصَالِ. قَالَ الْمَفْسُورُونَ: وَهِيَ تَوْحِيدُ اللَّهِ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَالْعَمَلُ بِطَاعَتِهِ، ﴿وَيُبَيِّنُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الْفَلَاحَ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا﴾ وَهُوَ الْجَنَّةُ، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أَيُّ: وَيُبَشِّرُهُم بِالْعَذَابِ لِأَعْدَائِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا فِي أَذَى مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ الْبَشْرَى فِي الدُّنْيَا بِعِقَابِ الْكَافِرِينَ.

﴿يَتَّبِعُ الْإِنْسَانُ مَا شَاءَ ثُمَّ يُلْقَى فِي الْعَمَلِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ ③ ﴿

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُ الْإِنْسَانُ مَا شَاءَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَدْعُو فِي حَالِ الضَّجَرِ وَالْغَضَبِ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ بِمَا لَا يَحِبُّ أَنْ يَسْتَجَابَ لَهُ كَمَا يَدْعُو لِنَفْسِهِ بِالْخَيْرِ. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ يَعْبُجُّ بِالْإِدْعَاءِ بِالشَّرِّ عِنْدَ الْغَضَبِ وَالضَّجَرِ عَجَلَتَهُ بِالْإِدْعَاءِ بِالْخَيْرِ. وَفِي الْمَرَادِ بِالْإِنْسَانِ هَاهُنَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ اسْمُ جَنْسٍ يَرَادُ بِهِ النَّاسُ، قَالَهُ الزَّجَّاجُ وَغَيْرُهُ. وَالثَّانِي: آدَمُ، فَانْتَفَى بِذِكْرِهِ مِنْ ذِكْرِ وَلَدِهِ، ذَكَرَهُ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ. وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ النَّصْرُ بْنُ الْحَارِثِ حِينَ قَالَ: ﴿فَأَنْطَلَقَ عَلَيْنَا

جِجَارَةً يَنْ أُنْشَكَوْهُ [الأنفال: ٣٢]، قاله مقاتل. وقال سلمان الفارسي: أول ما خلق الله من آدم رأسه، فجعل ينظر إلى جسده كيف يخلق، قال: فبقيت رجلاه، فقال: يا رب عجل، فذلك قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾^(١).
 ﴿وَجَعَلْنَا آيَاتٍ لِلَّهِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ مَّحَوًّا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَكْدَ آيَاتِنَا وَلِتَحْسَبَ كُلُّ شَيْءٍ فَتَنَّا تَفْصِيلًا﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آيَاتٍ لِلَّهِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ مَّحَوًّا﴾ أي: علامتين يدلان على قدرة خالقهما. ﴿فَحَوًّا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن آية الليل: القمر، ومحوها: ما في بعض القمر من الاسوداد. وإلى هذا المعنى ذهب علي عليه السلام، وابن عباس في آخرين. والثاني: آية الليل محيت بالظلمة التي جعلت ملازمة لليل؛ فنسب المحو إلى الظلمة إذ كانت تمحو الأنوار وتبطلها، ذكره ابن الأنباري. ويروى أن الشمس والقمر كانا في النور والضوء سواء، فأرسل الله جبريل فأمر جناحه على وجه القمر وطمس عنه الضوء.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ﴾ يعني: الشمس «مُبْصِرَةً» فيه ثلاثة أقوال: أحدها: منيرة، قاله قتادة. قال ابن الأنباري: وإنما صلح وصف الآية بالإبصار على جهة المجاز، كما يقال: لعب الدهر ببني فلان. والثاني: أن معنى «مبصرة»: مبصرًا بها، قاله ابن قتيبة. والثالث: أن معنى «مبصرة» مُبْصِرَةٌ، فجري «مفعِل» مجرى «مفعَّل»، والمعنى: أنها تُبْصِرُ الناس، أي: تُرِيهم الأشياء، قاله ابن الأنباري. ومعاني الأقوال تتقارب.

قوله تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: لتبصروا كيف تتصرفون في أعمالكم وتطلبون رزقكم بالنهار ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَكْدَ آيَاتِنَا وَلِتَحْسَبَ كُلُّ شَيْءٍ﴾ بمحو آية الليل، ولولا ذلك، لم يعرف الليل من النهار، ولم يُبين العدد. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ أي: ما يحتاج إليه، ﴿فَتَنَّا تَفْصِيلًا﴾ بيّناه تبيينًا لا يلتبس معه غيره.

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَمَّتْهُ طَعْنُهُ فِي عُنُقِهِ وَخُجِرَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾^(٣) أقرأ كِتَابَكَ كُنْ بِتَفْسِيكِ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا^(٤)
 قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ﴾ وقرأ ابن أبي عبيدة «وكلُّ» برفع اللام. وقرأ ابن مسعود، وأبي، والحسن «أَلَمَّتْهُ طَعْنُهُ» بياء ساكنة من غير ألف. وفي الطائر أربعة أقوال. أحدها: شقاوته وسعاده، قاله أبو صالح عن ابن عباس. قال مجاهد: ما من مولود يولد إلّا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي، أو سعيد. والثاني: عمله، قاله الفراء، وعن الحسن كالقولين. والثالث: أنه ما يصيبه، قاله خصيف. وقال أبو عبيدة: حُظُّهُ. قال ابن قتيبة: والمعنى فيما أرى - والله أعلم -: أن لكل امرئ حظًا من الخير والشر قد قضاه الله [عليه]، فهو لازم عنقه، والعرب تقول: لكل ما لزم الإنسان: قد لزم عنقه، وهذا لك عليّ وفي عنقي حتى أخرج منه، وإنما قيل للحظ من الخير والشر: «طائر» لقول العرب: جرى له الطائر بكذا من الخير، وجرى له الطائر بكذا من الشر، على طريق الفأل والطيرة، فخطبهم الله بما يستعملون، وأعلمهم أن ذلك الأمر الذي يجعلونه بالطائر، هو الذي يلزمه أعناقهم. وقال الأزهري: الأصل في هذا أن الله تعالى لما خلق آدم، علم المطيع من ذريته، والعاصي، فكتب ما علمه منهم أجمعين، وقضى سعادة من علمه مطيعاً، وشقاوة من علمه عاصياً، فصار لكل منهم ما هو صائر إليه عند خلقه وإنشائه، فذلك قوله: ﴿أَلَمَّتْهُ طَعْنُهُ فِي عُنُقِهِ﴾. والرابع: أنه ما يُطَيَّرُ من مثله من شيء عمله، وذكر العنق عبارة عن اللزوم له، كلزوم القلادة العنق من بين ما يلبس، هذا قول الزجاج. وقال ابن الأنباري: الأصل في تسميتهم العمل طائراً، أنهم كانوا يتطيرون من بعض الأعمال.

قوله تعالى: ﴿وُخْجِرَ لَهُ﴾ قرأ أبو جعفر: «وُخْجِرَ» بياء مضمومة وفتح الراء. وقرأ يعقوب، وعبد الوارث: بالياء مفتوحة وضم الراء. وقرأ قتادة، وأبو المتوكل: «وُخْجِرَ» بياء مرفوعة وكسر الراء. وقرأ أبو الجوزاء، والأعرج: «وُخْجِرَ» بياء مفتوحة ورفع الراء، ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا﴾ وقرأ ابن عباس، وعكرمة، والضحاك: «كتاب» بالرفع، ﴿يَلْقَاهُ﴾ وقرأ ابن عامر، وأبو جعفر: «يُلْقَاهُ» بضم الياء وتشديد القاف. وأمال حمزة والكسائي القاف. قال

(١) ابن جرير الطبري ٤٨/١٥، عن سلمان الفارسي، ورواه أيضاً عن ابن عباس.

المفسرون: هذا كتابه الذي فيه ما عمل. وكان أبو السَّوَّارِ الْعَدَوِيُّ إذا قرأ هذه الآية قال: نشرتان وطية، أمّا ما حييت يا ابن آدم، فصحيقتك منشورة، فأمل فيهما ما شئت، فإذا مئت، طويت، ثم إذا بعثت، نُشرت.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَى كِتَابَكَ﴾ وقرأ أبو جعفر: «اقرأ» بتخفيف الهمزة، وفيه إضمار، تقديره، فيقال له: اقرأ كتابك. قال الحسن: يقرؤه أمياً كان أو غير أمي، ولقد عدل عيك من جعلك حسيب نفسك. وفي معنى ﴿حَسِيبًا﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: محاسباً. والثاني: شاهداً. والثالث: كافياً، والمعنى: أن الإنسان يفوض إليه حسابه، ليعلم عدل الله بين العباد، ويرى وجوب حجة الله عليه، واستحقاقه العقوبة، ويعلم أنه إن دخل الجنة، فبفضل الله، لا بعمله، وإن دخل النار، فبذنبه. قال ابن الأنباري: وإنما قال: ﴿حَسِيبًا﴾، والنفس مؤنثة، لأنه يعني بالنفس: الشخص، أو لأنه لا علامة للتأنيث في لفظ النفس، فشبهت بالسماء والأرض، قال تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْقَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٨]، قال الشاعر:

[فَلَا مُزْنَةً وَدَقَّتْ وَذَقَهَا] ولا أرض أبقل إيقالها^(١)

﴿مَنْ آمَنَ فَإِنَّا بِيَدَيْ لِقَائِهِ وَمَنْ سَلَ فَإِنَّا بِيَدَيْ عَذَابٍ وَلَا نُزِرَ وَارِدَةٌ وَزَرُ أَخْرَجْنَا وَمَا كُنَّا مُعْذِرِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ فَإِنَّا بِيَدَيْ لِقَائِهِ﴾ أي: له ثواب اهتدائه، وعليه عقاب ضلاله.

قوله تعالى: ﴿وَلَا نُزِرَ وَارِدَةٌ﴾ أي: نفس وازرة ﴿وَزَرُ أَخْرَجْنَا﴾ قال ابن عباس: إن الوليد بن المغيرة قال: أتبعوني وأنا أحمل أوزاركم، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا نُزِرَ وَارِدَةٌ وَزَرُ أَخْرَجْنَا﴾، قال أبو عبيدة: والمعنى: ولا تأثم أئمة إثم أخرى. قال الزجاج: يقال: زَزِرَ، فهو وازِر، وزَرًا، ووزَرًا، ووزَرَةً، ومعناه: إثم إثمًا. وفي تأويل هذه الآية وجهان: أحدهما: أن الآثم لا يؤخذ بذنب غيره. والثاني: أنه لا ينبغي أن يعمل الإنسان بالإثم، لأن غيره عمله، كما قال الكفار: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَثَرٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]. ومعنى ﴿حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ أي: حتى نُبَيِّنَ ما به نَعَذِّبُ، وما من أجله نُدْخِلُ الجنة.

فصل

قال القاضي أبو يعلى: في هذا دليل على أن معرفة الله لا تجب عقلاً، وإنما تجب بالشرع، وهو بعثة الرسل، وأنه لو مات الإنسان قبل ذلك، لم يقطع عليه بالنار. قال: وقيل معناه: أنه لا يعذب في ما طريقه السمع إلا بقيام حجة السمع من جهة الرسول، ولهذا قالوا: لو أسلم بعض أهل الحرب في دار الحرب ولم يسمع بالصلاة والزكاة ونحوها، لم يلزمه قضاء شيء منها، لأنها لم تلزمه إلا بعد قيام حجة السمع، والأصل فيه قصة أهل قُباة حين استداروا إلى الكعبة ولم يستأنفوا، ولو أسلم في دار الإسلام ولم يعلم بفرض الصلاة، فالواجب عليه القضاء، لأنه قد رأى الناس يصلون في المساجد بأذان وإقامة، وذلك دعاء إليها.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا مِّنْهُمْ فَهَلْ نَسْتَفِئُهُمْ بِمَا فَحَحَّ عَلَيْنَا الْقَوْلَ فَنُدْمِرْنَهَا تَدْمِيرًا﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا﴾ في سبب إرادته لذلك قولان: أحدهما: ما سبق لهم في قضائه من الشقاء. والثاني: عنادهم الأنبياء وتكذيبهم إياهم.

قوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيًّا﴾ قرأ الأكثرون: «أمرنا» مخففة، على وزن «فَعَلْنَا»، وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه من الأمر، وفي الكلام إضمار، تقديره: أمرنا مترفياً بالطاعة، ففسقوا، هذا مذهب سعيد بن جبير. قال الزجاج: ومثله في الكلام: أمرتك ففصيتي، فقد علم أن المعصية مخالفة الأمر. والثاني: «كُتِرْنَا» يقال: أمرت الشيء وأمرته، أي: كثرته، ومنه قولهم: مَهْرَةٌ مأمورة، أي: كثيرة التناج، يقال: أمير بنو فلان يأمرون أمراً: إذا كثروا، هذا قول أبي عبيدة، وابن

(١) قاله عامر بن جوين؛ شاعر جاهلي، كان خليعاً فاتكاً، وشريفاً وفياً، والبيت في «الكتاب» ٢٠٥/١، و«مجاز القرآن» ٦٧/٢، و«الطبري» ١٥٣/١٨، و«القرطبي» ٢٨٩/١٢، و«المعني» ٤٦٤/٢، و«شواهد المغني» ٣١٣، و«الخزانة» ٢١/١. والشاهد فيه حذف التاء من «أبقلت» لأن الأرض بمعنى المكان، فكانه قال: ولا مكان أبقل إيقالها، والمزنة: السحابة، والودق: المطر.

قتيبة. والثالث: أن معن «أَمَرْنَا»: أَمَرْنَا، يقال: أمرت الرجل، بمعنى: أمرته، والمعنى: سَلَطْنَا مترفياً بالإمارة، ذكره ابن الأنباري. وروى خارجه عن نافع: «أمرنا» ممدودة، مثل «أمتنا»، وكذلك روى حماد بن سلمة عن ابن كثير، وهي قراءة ابن عباس، وأبي الدرداء، وأبي رزين، والحسن، والضحاك، ويعقوب. قال ابن قتيبة: وهي اللغة العالية المشهورة، ومعناها: كَثَرْنَا، أيضاً. وروى ابن مجاهد أن أبا عمرو قرأ: «أَمَرْنَا» مشددة الميم، وهي رواية أبان عن عاصم، وهي قراءة أبي العالية، والنخعي، والجحدري. قال ابن قتيبة: المعنى: جعلناهم أمراء. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وابن يعمر: «أَمَرْنَا» بفتح الهمزة مكسورة الميم مخففة. فأما المترفون، فهم المتنعمون الذين قد أبطرتهم النعمة وسعة العيش، والمفسرون يقولون: هم الجبَّارون والمسَّطون والملوك، وإنما خص المترفين بالذكر، لأنهم الرؤساء، ومن عداهم تبع لهم.

قوله تعالى: ﴿فَفَسَحُوا فِيهَا﴾ أي: تمردوا في كفرهم، لأن الفسق في الكفر: الخروج إلى أفحشه. وقد شرحنا معنى «الفسق» في [البقرة: ٢٦، ١٩٧].

قوله تعالى: ﴿ذَحَّىٰ عَلَيْهَا الْفَزْلُ﴾ قال مقاتل: وجب عليها العذاب. وقد ذكرنا معنى «التدمير» في [الأعراف: ١٣٧].
قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنِّي الْقُرُونُ﴾ وهو جمع قُرْن. وقد ذكرنا اختلاف الناس فيه في [الأنعام: ٦]، وشرحنا معنى «الخبير» و«البصير» في [البقرة: ٢٦]. قال مقاتل: وهذه الآية تخويف لأهل مكة.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۝١٩﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالَةَ﴾ يعني: من كان يريد بعمله الدنيا، فعبر بالنتع عن الاسم، ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ من عَرَض الدنيا، وقيل: من البسط والتفتير، ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ فيه قولان: أحدهما: لمن نريد هلكته، قاله أبو إسحاق الفزاري. والثاني: لمن نريد أن نعجل له شيئاً، وفي هذا ذم لمن أراد بعمله الدنيا، وبيان أنه لا ينال مع ما يقصده منها إلا ما قَدَّرَ له، ثم يدخل النار في الآخرة. وقال ابن جرير: هذه الآية لمن لا يوفق بالمعاد. وق ذكرنا معنى «جهنم» في [البقرة: ٢٠٦]، ومعنى: «يصلها» في سورة [النساء: ١٠]، ومعنى «مذموماً مدحوراً» في [الأعراف: ١٨].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ يعني: الجنة ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: عمل لها العمل الذي يصلح لها، وإنما قال: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأن الإيمان شرط في صحة الأعمال، ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ أي: مقبولاً. وشكر الله عز وجل لهم: ثوابه إياهم، وثناؤه عليهم.

﴿كُلًّا نُّبَدِّلُ هَؤُلَاءَ مَهْلُوكًا مِّنْ عِلْمِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عِلْمُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَِّلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ۝٢١ لَا يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّاخَرٌ فَقَدْ مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّبَدِّلُ هَؤُلَاءَ﴾ قال الزجاج: «كلاً» منصوب بـ«نبدل»، «هؤلاء» بدل من «كل»، والمعنى: نمد هؤلاء وهؤلاء «مِنْ عِلْمِ رَبِّكَ». قال المفسرون: كَلَّا نعطي من الدنيا، الجَرَّ والفاجر، والعطاء هاهنا: الرزق، والمحظور: الممنوع، والمعنى: أن الرزق يعم المؤمن والكافر، والآخرة للمتقين خاصة. ﴿أَنْظِرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وفيما فضلوا فيه قولان: أحدهما: الرزق، منهم مقل، ومنهم أكثر. والثاني: الرزق والعمل، فمنهم موفق لعمل صالح، ومنهم ممنوع من ذلك.

قوله تعالى: ﴿لَا يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّاخَرٌ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمعنى عام لجميع المكلفين. والمخذول: الذي لا ناصر له، والخذلان: ترك العون. قال مقاتل: نزلت حين دعوا رسول الله ﷺ إلى ملة آبائه.

﴿وَقَفَّيْ رَبِّكَ أَلَّا تَقْدِرَ إِلَّا إِيَّاهُ وَآلَؤَيْنِي إِحْسَانًا إِنَّمَا يَتَلَفَعُ فِي الْكِبَرِ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لِّمَا أَنِي وَلَا نَهَرُهُمَا وَقُلْ لِّمَا قَوْلَا كَرِيمًا ۝٢٣ وَأَخْفِضْ لَّهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ۝٢٤ زَيْكُ أَغْلَرُ بِمَا فِي نَفْسِيكَ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ غَفُورًا ۝٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْ رَبِّكَ﴾ روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: أمر ربك. ونقل عنه الضحاك أنه قال: إنما

هي «ووصى ربك» فالتصقت إحدى الواوَيْن بـ«الصاد»^(١)، وكذلك قرأ أبي بن كعب، وأبو المتوكل، وسعيد بن جبيل: «ووصى»، وهذا على خلاف ما انعقد عليه الإجماع، فلا يلتفت إليه. وقرأ أبو عمران، وعاصم الجحدري، ومعاذ القارئ: «وقضاء ربك» بقاف وضاد بالمد والهمز والرفع وخفض اسم الرب. قال ابن الأنباري: هذا القضاء ليس من باب الحتم والوجوب، لكنه من باب الأمر والفرض، وأصل القضاء في اللغة: قطع الشيء بإحكام وإتقان، قال الشاعر يرثي عمر:

قضيت أموراً ثم غادرت بعدها
أراد: قطعتها محكماً لها.

بوائق في أكمامها لم تفتق^(٢)

قوله تعالى: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: وأمر بالوالدين إحساناً، وهو البر والإكرام، وقد ذكرنا هذا في [البقرة: ٨٣].
قوله تعالى: ﴿إِنَّا يَلْقُنُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «يلقُن» على التوحيد. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «يلغُن» على التنوين. قال القراء: جعلت «يلقُن» فعلاً لأحدهما وكُرِّت عليهما «كلاهما». ومن قرأ «يلغُن» فإنه ثنى، لأن الوالدين قد ذُكرا قبل هذا، فصار الفعل على عددهما، ثم قال: «أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا» على الاستئناف، كقوله: ﴿فَمَنُوا وَصَلُّوا﴾ [المائدة: ٧١] ثم استأنف فقال: ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَ نَفْسٍ أَمَّا﴾ قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «أف» بالكسر من غير تنوين. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، ويعقوب، والمفضل: «أف» بالفتح من غير تنوين، وقرأ نافع، وحفص عن عاصم: «أف» بالكسر والتنوين. وقرأ أبو الجوزاء، وابن يعمر: «أف» بالرفع والتنوين وتشديد الفاء. وقرأ معاذ القارئ، وعاصم، الجحدري، وحמיד بن قيس: «أفأ» مثل «تعمسا». وقرأ أبو عمران الجوني، وأبو السماك العدوي: «أف» بالرفع من غير تنوين مع تشديد الفاء، وهي رواية الأصمعي عن أبي عمرو. وقرأ عكرمة، وأبو المتوكل، وأبو رجاء، وأبو الجوزاء: «أف» بإسكان الفاء وتخفيفها؛ قال الأخفش: وهذا لأن بعض العرب يقول: أف لك، على الحكاية والرفع قبيح، لأنه لم يجر بعده لام. وقرأ أبو العالية، وأبو حصين الأسدي: «أئي» بتشديد الفاء وبياء. وروى ابن الأنباري أن بعضهم قرأها: «إف» بكسر الهمزة^(٣). وقال الزجاج: فيها سبع لغات، الكسر بلا تنوين، وتنوين، والضم بلا تنوين، وتنوين، والفتح بلا تنوين، وتنوين، واللغة السابعة لا تجوز في القراءة: «أفي» بالياء، هكذا قال الزجاج. وقال ابن الأنباري: في «أف» عشرة أوجه. «أف» لك، بفتح الفاء، و«أف» بكسرها، و«أف»، و«أفأ» لك بالنصب والتنوين على مذهب الدعاء كما تقول: «وَيْلًا لِلْكَافِرِينَ»، و«أف» لك، بالرفع والتنوين، وهو رفع باللام، كقوله تعالى: ﴿يَبْلُغُ لِقَافَيْنِ﴾ [المطففون: ١١] و«أفوه» لك، بالخفض والتنوين، تشبيهاً بالأصوات، كقولك: «صو» و«مو»، و«أفها» لك، على مذهب الدعاء أيضاً، و«أفي» لك، على الإضافة إلى النفس، و«أف» لك، بسكون الفاء، تشبيهاً بالأدوات، مثل: «كم» و«هل» و«بل»، و«إف» لك، بكسر الألف. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي، قال: وتقول: «أف» منه، و«أفأ»، و«أف»، و«أف»، و«أفأ»، و«أف»، و«أفأ»، و«أفأ» بالالف، ولا تقل: «أفي» بالياء فإنه خطأ.

فأما معنى «أف» ففيه خمسة أقوال: أحدها: أنه وسخ الظفر، قاله الخليل. والثاني: وسخ الأذن، قاله الأصمعي.

(١) الخبير رواه ابن جرير ٦٣/١٥ عن الضحاك، وفي سنده أبو إسحاق الكوفي، وهو عبد الله بن ميسرة الحارثي، ضعفه ابن معين، وأحمد بن حنبل، والنسائي، والدارقطني، وقال ابن أبي حاتم: ليس بشيء، وقال ابن حبان: لا يحل الاحتجاج بخبره، وهشيم الراوي عن أبي إسحاق هذا - وإن كان ثقة - موصوف بالتدليس وقد عمن في هذا الخبر.

(٢) البيت من قصيدة تروى للشماخ كما في «حماسة أبي تمام» ١٠٩٠/٣ بشرح التبريزي، و«زهر الآداب» ٩٨٦، وتروى أيضاً لمزرد بن ضرار كما في «البيان والنبين» ٣/٣٦٤، وتروى لجزء بن ضرار. قال التبريزي: وقال أبو رياش: الذي عندي أنه لمزرد أخيه، وفي «الأغاني» ١٥٩/٩: أن هذا الشعر للجن قاله قبل أن يقتل عمر بثلاث، فكان ذلك نعيماً له قبل أن يقتل. والبواقي: جمع باقية وهي الداهية والبلية، وفي «الحماسة»: بوائج، وهي رواية «اللسان»: بوج. والبوائج: البواقي.

(٣) في «القرطبي» ٢٤٣/١: «وإف لك»، بكسر الهمزة.

والثالث: قلامة الظفر، قاله ثعلب. والرابع: أن «الأف» الاحتقار والاستصغار، من «الأف»؛ والأفب عند العرب: القلعة، ذكره ابن الأنباري. والخامس: أن «الأف» ما رفعته من الأرض من عود أو قصبة، حكاه ابن فارس اللغوي. وقرأت على شيخنا أبي منصور قال: معنى «الأف»: التَّنُّ، والتضجر، وأصلها: نفخك الشيء يسقط عليك من تراب ورماد، وللمكان تريد إمطة الأذى عنه، فقلت لكل مستقل. قال المصنف: وأما قولهم: «أف»، فقد جعلها قوم بمعنى «أف»، فروي عن أبي عبيد أنه قال: أصل «الأف» و«الثف»: الوسخ على الأصابع إذا قتله. وحكى ابن الأنباري فرقا، فقال: قال اللغويون: أصل «الأف» في اللغة: وسخ الأذن، و«الثف»: وسخ الأظفار، فاستعملتها العرب فيما يكره ويستقذر ويضجر منه. وحكى الزجاج فرقا آخر، فقال: قد قيل: إن «أف»: وسخ الأظفار، و«الثف»: الشيء الحقيق، نحو وسخ الأذن، أو الشظية تؤخذ من الأرض، ومعنى «أف»: التَّنُّ، ومعنى الآية: لا تقل لهما كلاما تبتئم فيه بهما إذا كبرا وأستا، فينبغي أن تتولى من خدمتهما مثل الذي توليا من القيام بشأنك وخدمتك، «وَلَا تَنْهَرُهُمَا» أي: لا تكلمهما ضجرا صائحا في وجوههما. وقال عطاء بن أبي رباح: لا تنفض يدك عليهما، يقال: نَهَرْتُ أَنْهَرُهُ نَهْرًا، وانتَهَرْتُ انتَهَارًا، بمعنى واحد. وقال ابن فارس: نهث الرجل وانتَهَرْتُه، مثل: زجرته. قال المفسرون: وإنما نهى عن أذاهما في الكبير، وإن كان منهيًا عنه على كل حالة، لأن حالة الكبير يظهر فيها منهما ما يُضجر ويؤذي، وتكثر خدمتهما.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: لئلا لطيفاً أحسن ما تجد. وقال سعيد بن المسيب: قول العبد المذنب للسيد الفظ.

قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: ألن لهما جانبك متذللاً لهما من رحمتك إياهما. وخفض الجناح قد شرحناه في [الحجر: ٨٨]. قال عطاء: جناحك: يداك، فلا ترفعهما على والديك. والجمهور يضمنون الذال من «الذل». وقرأ أبو رزين، والحسن، وسعيد بن جبير، وقادة، وعاصم الجحدري، وابن أبي عبة: بكسر الذال. قال الفراء: الذل: أن تتذلل لهما، من الذل، والذل: أن تتذلل ولست بذليل في الخدمة، والذل والذلة: مصدر الذليل، والذل، بالكسر: مصدر الذلول، مثل الدابة والأرض. قال ابن الأنباري: من قرأ «الذل»، بكسر الذال، جعله بمعنى الذل، بضم الذال، والذي عليه كبراء أهل اللغة أن الذل من الرجل: الذليل، والذل من الدابة: الذلول.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَانَ رَبِّيكَ صَبِيرًا﴾ أي: مثل رحمتها إياي في صغري حتى رباني. وقد ذهب قوم إلى أن هذا الدعاء المطلق نسخ منه الدعاء لأهل الشرك بقوله: ﴿مَا كَانَتْ لِلشَّيْءِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلشَّارِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس، والحسن، وعكرمة، ومقاتل. قال المصنف: ولا أرى هذا نسخاً عند الفقهاء، لأنه عام دخله التخصيص، وقد ذكر قريباً مما قلته ابن جرير.

قوله تعالى: ﴿رَبِّكَ أَفْكَرَ بِمَا فِي صُفُوفِكُمْ﴾ أي: بما تُضمرون من البر والعقوق، فمن بدرت منه بادرة وهو لا يُضير العقوق، غفر له ذلك، وهو قوله: ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ أي: طائعين لله، [وقيل]: بآرين، وقيل: توابين، «فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غُفْرًا»، في الأواب عشرة أقوال: أحدها: أنه المسلم، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنه التواب، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، وأبو عبيدة. وقال ابن قتبية: هو التائب مرة بعد مرة. وقال الزجاج: هو التواب المُقْبِل عن جميع ما نهاه الله عنه، يقال: قد أب يُووب أُوياً، إذا رجع. والثالث: أنه المسبِّح، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والرابع: أنه المطيع لله تعالى، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والخامس: أنه الذي يَذْكُر ذنبه في الخلاء، فيستغفر الله منه، قاله عبيد بن عمير. والسادس: أنه المُقْبِل إلى الله تعالى بقلبه وعمله، قاله الحسن. والسابع: المصلِّي، قاله قتادة. والثامن: هو الذي يصلي بين المغرب والعشاء، قاله ابن المنكدر. والتاسع: الذي يصلي صلاة الضحى، قاله عون العقيلي. والعاشر: أنه الذي يُذِيب سراً ويتوب مبراً، قاله السدي.

﴿وَمَا ذَا الْقَرْيَةِ حَقَّهُ وَالْمُشْكِينَ وَالنَّسِيلِ وَلَا بَذَرَ بَيْرًا﴾ ١٧ إِنَّ الْمَذِينَةَ كَانُوا إِخْوَانَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ النَّبِيُّ لَهُمْ لِرَبِّهِمْ كَقَوْلَا ١٨ وَإِنَّا نَرْضَى عَنْهُمْ إِنِّي أَنَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكَ تَرْجِعُوا قُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيَسُورًا ١٩

وانظروهم فلم يخرج، فشغل قلوب الصحابة، فدخل عليه بعضهم، فأروه غريباً، فنزلت هذه الآية، والمعنى: لا تمسك يدك عن البذل كل الإمساك حتى كأنها مقبوضة إلى عنقك، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ في الإعطاء والتفقة ﴿فَتَقَعْدَ مَلُومًا﴾ تلوم نفسك ويلومك الناس، ﴿تَحْسُورًا﴾ قال ابن قتيبة: تَحْسُورُكَ العطية وتقطعك كما يَحْسِرُ السفر البعير فيبقى منقطعاً به. قال الزجاج: المحسور: الذي قد بلغ الغاية في التعب والإعياء، فالمعنى: فتقعد وقد بلغت في الحَمَل على نفسك وحالك حتى صيرت بمنزلة من قد حَسِر. قال القاضي أبو يعلى: وهذا الخطاب أريد به غيرُ رسول الله ﷺ، لأنه لم يكن يَدْخِرُ شيئاً لغد، وكان يجوع حتى يَشُدَّ الحَجَرَ على بطنه، وقد كان كثير من فضلاء الصحابة ينفقون جميع ما يملكون، فلم ينهم الله، لصحة يقينهم، وإنما نهى من خيف عليه التحسر على ما خرج من يده، فأما من وثق بوعده الله تعالى، فهو غير مراد بالآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسع على من يشاء ويضيّق، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِمَبَادِيهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ حيث أجرى أرزاقهم على ما علم فيه صلاحهم.
قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا أَوْلَدُكُمْ خُسْفًا﴾ قد فسرناه في [الأنعام: ١٥١].

قوله تعالى: ﴿كَانَ خَطَاً كَبِيرًا﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي: «خِطَاءً» مكسورة الخاء ساكنة الطاء مهموزة مقصورة. وقرأ ابن كثير، وعطاء: «خِطَاءً» مكسورة الخاء ممدودة مهموزة. وقرأ ابن عامر: «خَطَأً» بنصب الخاء والطاء وبالهزمة من غير مد. وقرأ أبو رزين كذلك، إلا أنه مدّ، وقرأ الحسن، وقناة: «خِطَاءً» بفتح الخاء وسكون الطاء مهموز مقصور. وقرأ الزهري، وحמיד بن قيس: «خِطَأً» بكسر الخاء وتنوين الطاء من غير همز ولا مدّ. قال الفراء: الخطء: الإثم، وقد يكون في معنى «خِطَأً» كما قالوا: «قُتِبَ» و«قَتَّبَ» و«جَذِرَ» و«حَذَرَ» و«نَجَسَ» و«نَجَسَ»، والخطء، والخطاء، والخطاء، ممدود: لغات. وقال أبو عبيدة: خَطِئْتُ وأَخْطَأْتُ، لغتان. وقال أبو علي: قراءة ابن كثير «خِطَاءً»، يجوز أن تكون مصدر «خاطأ» وإن لم يسمع «خاطأ» ولكن قد جاء ما يدل عليه، أنشد أبو عبيدة:

الْخِطَاءُ وَالْخَطَاءُ وَالْخِطَاءُ

وقال الأخفش: خَطِئَ يَخْطِئُ بمعنى «أَذْنَبَ» وليس بمعنى «أَخْطَأَ»، لأن «أَخْطَأَ»: فيما لم يصنعه عمداً، تقول فيما آتَيْتَهُ عمداً: «خَطِئْتُ»، وفيما لم تتعمده: «أَخْطَأْتُ». وقال ابن الأنباري: «الخطء»: الإثم، يقال: قد خَطِئَ يَخْطِئُ: إذا أثم، وأَخْطَأَ يَخْطِئُ: إذا فارق الصواب. وقد شرحنا هذا في [يوسف: ٩١] عند قوله: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيلِينَ﴾
﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَجْشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلَاهُ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مُضِرًّا ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ﴾ وقرأ أبو رزين، وأبو الجوزاء، والحسن: بالمد. قال أبو عبيدة: وقد يمد «الزنا» في كلام أهل نجد، قال الفرزدق:

أَبَا حَاضِرٍ مِّنْ يَزْنٍ يُعْرِفُ زِنَاؤُهُ. وَمَنْ يَشْرَبِ الْخُرْطُومَ يُضِيحُ مُسَكَّرًا^(١)
وقال أيضاً:

أَخْضَبْتُ فَعَلَّكَ لِلزَّيْنِ وَلَمْ تَكُنْ. يَوْمَ السَّلَاءِ لَتَخْضِبَ الْأَبْطَالَا^(٢)
وقال آخر:

[كانت فريضة ما نقول] كَمَا كَانَ الزَّيْنَاءُ فَرِيضَةَ الرَّجْمِ^(٣)

(١) «مجاز القرآن» ٣٧٧/١، «الجمهرة» ٢٢٥/٣، «اللسان» و«التاج»: زني.

(٢) «مجاز القرآن» ٣٧٧/١.

(٣) البيت للناطقة الجعدي: «ديوانه» ٢٣٥ طبع المكتب الإسلامي، و«مجاز القرآن» ٣٧٨/١، و«أمالي المرتضى» ٢١٦/١، و«الإنصاف في مسائل الخلاف» ١٦٥، و«المبسوط» ٣٦٨/١، «اللسان»: زني. وقوله: «كان الزنا» فريضة الرجم» مقلوب، والأصل: كان الرجم فريضة الزنا.

يعرف الآثار ويتبعها، فكأنه مقلوب عن القافي. وللمفسرين في المراد به أربعة أقوال: أحدها: لا ترم أحداً بما ليس لك به علم، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: لا تقل: رأيت، ولم تَرَ، ولا سمعت، ولم تسمع. رواه عثمان بن عطاء عن أبيه عن ابن عباس، وبه قال قتادة. والثالث: لا تُشرك بالله شيئاً، رواه عطاء أيضاً عن ابن عباس. والرابع: لا تشهد بالزور، قاله محمد بن الحنفية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ﴾ قال الزجاج: إنما قال: ﴿كُلُّ﴾، ثم قال: ﴿كَانَ﴾، لأن كلاً في لفظ الواحد، وإنما قال: ﴿أُولَئِكَ﴾ لغير الناس، لأن كل جمع أشرت إليه من الناس وغيرهم من الموات، تشير إليه بلفظ: «أولئك» قال جرير:

ذُمَّ الْمَنَازِلُ بَعْدَ مَنَزِلَةِ اللَّوَى وَالْعَيْشُ بَعْدَ أَوْلَئِكَ الْإِيَّامِ^(١)

قال المفسرون: الإشارة إلى الجوارح المذكورة، يُسأل العبد يوم القيامة فيما إذا استعملها، وفي هذا زجر عن النظر إلى ما لا يحِلُّ، والاستماع إلى ما يخرم، والعزم على ما لا يجوز.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾^(٢) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا^(٣) ذَلِكَ مِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رَبِّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا^(٤)

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا﴾ وقرأ الضحاک، وابن يعمر: «مَرِحًا» بكسر الراء، قال الأخفش: والكسر أجود، لأن «مَرِحًا» اسم الفاعل؛ قال الزجاج: وكلاهما في الجودة سواء، غير أن المصدر أوكد في الاستعمال، تقول: جاء زيد ركضاً، وجاء زيد ركضاً، فركضاً أوكد في الاستعمال، لأنه يدل على توكيد الفعل، وتأويل الآية: لا تمس في الأرض مختلاً فخوراً، والمرح: الأشر والبطر. وقال ابن فارس: المرح: شدة الفرح.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ فيه قولان: أحدهما: لن تقطعها إلى آخرها. والثاني: لن تنفذها وتتقربها. قال ابن عباس: لن تخرق الأرض يكبرك، ولن تبلغ الجبال طولاً بعظمتك. قال ابن قتيبة: والمعنى: لا ينبغي للعاجز أن يتدخَّل ويستكبر.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «سَيِّئُهُ» منوناً غير مضاف، على معنى: كان خطيئة، فعلى هذا يكون قوله: ﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى المنهية عنه من المذكور فقط. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «سَيِّئُهُ» مضافاً مذكراً، فتكون لفظة «كل» يُشار بها إلى سائر ما تقدم ذكره. وكان أبو عمرو لا يرى هذه القراءة. قال الزجاج: وهذا غلط من أبي عمرو، لأن في هذه الأفاضيص سيئاً وحسناً، وذلك أن فيها الأمر ببر الوالدين، وإيتاء ذي القربى، والوفاء بالعهد، ونحو ذلك، فهذه القراءة أحسن من قراءة مَنْ نصب السيئة، وكذلك قال أبو عبيدة: تدبرت الآيات من قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ . . .﴾ فوجدت فيها أموراً حسنة. وقال أبو علي: من قرأ «سَيِّئُهُ» رأى أن الكلام انقطع عند قوله: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، وأن قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ لا حُسْنَ فيه^(٥).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رَبِّكَ﴾ يشير إلى ما تقدم من الفرائض والسنن، ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ أي: من الأمور المُحكَّمة والأدب الجامع لكل خير. وقد سبق معنى «المدحور» [الأعراف: ٤٨].

﴿أَنفَسِكُمْ رُبُّكُمْ إِنْ أُنْفِذَ مِنَ السَّمَاءِ مِثْرًا لَّذِينَ تَتَّبِعُونَ فَلَا غَافِلًا فِيهِ﴾^(٦)

قوله تعالى: ﴿أَنفَسِكُمْ رُبُّكُمْ إِنْ أُنْفِذَ مِنَ السَّمَاءِ مِثْرًا﴾ قال مقاتل: نزلت في مشركي العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الرحمن. وقال أبو عبيدة: ومعنى «أَنفَسِكُمْ رُبُّكُمْ»: اختصكم. وقال المفضل: أخلصكم. وقال الزجاج: اختار لكم صفوة الشيء. وهذا توبيخ للكفار، والمعنى: اختار لكم البنين دونه، وجعل البنات مشتركة بينكم وبينه، فاختصكم بالأعلى وجعل لنفسه الأدنى؟

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾^(٧)

(١) «ديوانه» ٥٥١، و«الناض» ٢٥٦/١، و«الطبري» ٨٧/١٥، و«القرطبي» ٢٦٠/١٠.

(٢) أي: ليس معطوفاً على الحسن في قوله تعالى: «وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا»، بل هو نهي عن تتبع أثر ما لا نعلم، فيكون ابتداء كلام.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ معنى التصريف هاهنا: التبیین، وذلك أنه إنما يصرف القول ليبين. وقال ابن قتيبة: «صرفنا» بمعنى: وجهنا، وهو من قولك: صرفت إليك كذا، أي: عدلت به إليك، وشدد للتكثير، كما تقول: فتحت الأبواب.

قوله تعالى: ﴿لِيَذْكُرُوا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «لِيَذْكُرُوا» مشدداً. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «لِيَذْكُرُوا» مخففاً، وكذلك قرؤوا في [الفرقان: ٥٠]. والتذكّر: الاتعاظ والتدبر. ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ تصرفنا وتذكيرنا ﴿إِلَّا قُتُورًا﴾ قال ابن عباس: ينفرون من الحق، ويتبعون الباطل.

﴿قُلْ لَوْ كَان مَعَهُ مِائَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَبِثُوا إِلَىٰ ذِي الْمَرْئِي سَبِيلًا﴾ سَبَحْتُمْ وَقَتْلَ عَمَّا يَقُولُونَ عَزَّ كِبَرًا ﴿سَبَّحْ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَنْ يَنْ شَاءَ إِلَّا يَنْصَحَ بِحَيْوَةٍ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَان مَعَهُ مِائَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «تقولون» بالياء. وقرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم: «يقولون» بالياء.

قوله تعالى: ﴿إِذَا لَبِثُوا إِلَىٰ ذِي الْمَرْئِي سَبِيلًا﴾ فيه قولان. أحدهما: لا يتقوا سبيلاً إلى ممانعته وإزالة ملكه، قاله الحسن، وسعيد بن جبير. والثاني: لا يتقوا سبيلاً إلى رضا، لأنهم دونه، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر، وحفص عن عاصم: «يقولون» بالياء. وقرأ حمزة، والكسائي: بالياء.

قوله تعالى: ﴿سَبَّحْ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ﴾ قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «تسبح» بالياء. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «يسبح» بالياء. قال الفراء: وإنما حُسِنَت «الياء» هاهنا، لأنه عدد قليل، وإذا قل العدد من المؤنث والمذكر، كانت الياء فيه أحسن من التاء، قال في المؤنث القليل: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ [يوسف: ٢٠]، وقال في المذكر: ﴿فَإِذَا أَنشَأَ الْأَشْهُرُ لِلْفَرْمِ﴾ [التوبة: ٥٠]. قال العلماء: والمراد بهذا التسبيح: الدلالة على أنه الخالق القادر.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْ شَاءَ إِلَّا يَنْصَحَ بِحَيْوَةٍ﴾ «إن» بمعنى «فما». وهل هذا على إطلاقه، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أنه على إطلاقه، فكل شيء يسبحه حتى الثوب والطعام وصرير الباب، قاله إبراهيم النخعي. والثاني: أنه عام يراذ به الخاص. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كل شيء في الروح، قاله الحسن، وقتادة، والضحاك. والثاني: أنه كل ذي روح، وكل نام من شجر أو نبات؛ قال عكرمة: الشجرة تسبح، والأسطوانة لا تسبح. وجلس الحسن على طعام فقدموا الخوان، فقيل له: أيسبح هذا الخوان؟ فقال: قد كان يسبح مرة. والثالث: أنه كل شيء لم يغير عن حاله، فإذا تغير انقطع تسبيحه؛ روى خالد بن معدان عن المقدم بن معدي كرب قال: إن التراب ليسبح ما لم يتبل، فإذا ابتل ترك التسبيح، وإن الورقة تسبح ما دامت على الشجرة، فإذا سقطت تركت التسبيح، وإن الثوب ليسبح ما دام جديداً، فإذا تومخ ترك التسبيح. فاما تسبيح الحيوان الناطق، فمعلوم، وتسبيح الحيوان غير الناطق، فجاز أن يكون بضوئه، وجزاء أن يكون بدلالته على صانعه. وفي تسبيح الجمادات ثلاثة أقوال: أحدها: أنه تسبيح لا يعلمه إلا الله. والثاني: أنه خضوعه وخشوعه لله. والثالث: أنه دلالة على صانعه، فيوجب ذلك تسبيح مُبْصِرِهِ. فإن قلنا: إنه تسبيح حقيقة، كان قوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لجميع الخلق؛ وإن قلنا: إنه دلالة على صانعه، كان الخطاب للكفار، لأنهم لا يستدلون، ولا يعتبرون. وقد شرحنا معنى «الحليم» و«الغفور» في [البقرة: ٢٢٥].

﴿وَلَقَدْ قَرَأَتِ الْقُرْآنَ حَمَلًا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ وَحَمَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آفَانِهِمْ وَقُرْآنًا وَلَقَدْ ذَكَرْتَ رَيْكَ فِي الْقُرْآنِ وَسَمِعَ الرَّؤُوفَ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ بَيْتِهَا يَسْمَعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَوُونَ إِلَيْكَ وَلَوْ أَنَّ هُمُ يَخْفَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَعْتَمِدُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا عَظَمَاءَ رُفُفْنَا أَوْ كُنَّا لَبِثُوا خَلْقًا جَدِيدًا ﴿قُلْ كُونُوا حِجَابَةً أَوْ حِيدًا﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِهِمْ فَتَسْمَعُونَ مَنْ يُبَيِّنُ قُلُوبَ الَّذِينَ فَعَلْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَتَنْقَضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسُهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن الحجاب: هو الأكنة على قلوبهم، قاله قتادة. والثاني: أنه حجاب يستره فلا ترونه؛ وقيل: إنها نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن؛ قال الكلبي: وهم أبو سفيان، والنضر بن الحارث، وأبو جهل، وأم جميل امرأة أبي لهب، فحجب الله رسوله عن أبصارهم عند قراءة القرآن، فكانوا يأتونه ويمرّون به، ولا يرونه. والثالث: أنه منَعُ الله ﷻ إياهم عن أذاه، حكاه الزجاج. وفي معنى ﴿مَسْتُورًا﴾ قولان: أحدهما: أنه بمعنى سائر؛ قال الزجاج: وهذا قول أهل اللغة. قال الأخفش: وقد يكون الفاعل في لفظ المفعول، كما تقول: إنك مشؤوم علينا، وميمون علينا، وإنما هو شائم ويامن، لأنه من «شَأَمَهُمْ» و«يَمَنُهُمْ». والثاني: أن المعنى: حجاباً مستوراً عنكم لا ترونه، ذكره الماوردي. وقال ابن الأنباري: إذا قيل: الحجاب: هو الطبع على قلوبهم، فهو مستور عن الأبصار، فيكون «مستوراً» باقياً على لفظه.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ قد شرحناه في [الأنعام: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ذُكِّرْتُمْ بَلَّغُوا فِي الْقُرْآنِ وَحَدِّثُوا﴾ يعني: قلت: لا إله إلا الله، وأنت تتلو القرآن ﴿وَلَمَّا ذُكِّرْتُمْ﴾ قال أبو عبيدة: أي: على أعقابهم، ﴿تَقُولُوا﴾ وهو: جمع نافر، بمنزلة قاعد وقعود، وجالس وجُلوس. وقال الزجاج: تحتل مذهبين: أحدهما: المصدر، فيكون المعنى: ولّوا نافرين نفوراً. والثاني: أن يكون «نفوراً» جمع نافر. وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم الشياطين، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم المشركون، وهذا مذهب ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿فَتَنَّا أَهْلَكُمْ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ قال المفسرون: أمر رسول الله ﷺ علياً ﷺ أن يتخذ طعاماً ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين، ففعل ذلك، ودخل عليهم رسول الله ﷺ فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى التوحيد، وكانوا يستمعون ويقولون فيما بينهم: هو ساحر، هو مسحور، فنزلت هذه الآية: ﴿فَتَنَّا أَهْلَكُمْ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾، أي: يستمعونه، والباء زائدة. ﴿إِنَّ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ تُمْحَرُّوا﴾ قال أبو عبيدة: هي مصدر من «تاجَبْتُ» واسم منها، فوصف القوم بها، والعرب تفعل ذلك، كقولهم: إنما هو عذاب، وأنتم غمّ، فجاءت في موضع «متناجين». وقال الزجاج: والمعنى: وإذا هم ذوو نجوى، وكانوا يستمعون من رسول الله ﷺ، ويقولون بينهم: هو ساحر، وهو مسحور، وما أشبه ذلك من القول.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: أولئك المشركون ﴿إِنْ تَنْتَهُتُمْ﴾ أي: ما تتبعون ﴿إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الذي سحر فذهب بعقله، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: مخدوعاً مغروراً، قاله مجاهد. والثالث: له سحر، أي: رقة؛ وكلّ دابة أو طائر أو بشر يأكل فهو: مسحور ومسحر، لأن له سحراً. قال لبيد: فَإِن تَسْأَلِينَا فِيمَ نَحْنُ فَلِنُنَّا عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الْأَنَامِ الْمَسْحُورِ^(١) وقال امرؤ القيس:

أَرَانَا مُرْصِيَيْنَ لِأَمْرِ عَنِيبٍ وَنُسْحَرُ بِالطَّلْعَامِ وَبِالشَّرَابِ^(٢)
أي: نُغْذَى، لأن أهل السماء لا يأكلون، فأراد أن يكون ملكاً. فعلى هذا يكون المعنى: إن تتبعون إلا رجلاً له سحر، خلقه الله كخلقكم، وليس بملك، وهذا قول أبي عبيدة.

قال ابن قتيبة: والقول قول مجاهد، [أي: مخدوعاً]، لأن السحر حيلة وخديعة، ومعنى قول لبيد «المسحر»: المَعْلَل، وقول امرئ القيس: «ونُسحر» أي: نُعَلَّل، وكأننا نُخدَع، والناس يقولون: سحرنتي بكلامك، أي: خدعتني، ويدل عليه قوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾، لأنهم لو أرادوا رجلاً ذا رقة، لم يكن في ذلك مثلاً ضربوه، فلما أرادوا مخدوعاً - كأنه بالخديعة سحر - كان مثلاً ضربوه، وكأنهم ذهبوا إلى أن قوما يعلمونه ويخدعونهم.

(١) «ديوانه» ٥٦، و«مجاز القرآن» ٣٨١/١، و«البيان والتبيين» ١٨٩/١، و«الحيوان» ٢٢٩/٥، و«الطبري» ٩٦/١٥، و«القرطبي» ٣٧٣/١٠، و«اللسان»: سحر.

(٢) «ديوانه» ٩٧، و«مجاز القرآن» ٣٨٢/٨، و«البيان والتبيين» ١٨٩/١، و«الحيوان» ٢٢٩/٥، و«الطبري» ٩٦/١٥، و«أمالى المرتضى» ٥٧٧/١، و«اللسان»: سحر. وفي «الديوان»: «أرانا موضعين... والإيضاح: ضرب من السير السريع.

قال المفسرون: ومعنى ﴿صَرُّوْا لَكَ الْأَشْيَاءَ﴾ يَبْنُوا لك الأشياء، حتى شبهوك بالساحر والشاعر والمجنون ﴿فَقِيلُوا﴾ عن الحق، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا يجدون سبيلاً إلى تصحيح ما يعيبونك به. والثاني: لا يستطيعون سبيلاً إلى الهدى، لانا طبعنا على قلوبهم. والثالث: لا يأتون سبيل الحق، لثقله عليهم؛ ومثله قولهم: لا أستطيع أن أنظر إلى فلان، يعنون: أنا مبغض له، فنظري إليه يثقل، ذكرهن ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿إِذَا كُنَّا عِظَمًا﴾ قرأ ابن كثير: «أإذا» بهمزة ثم يأتي بياء ساكنة من غير مدّ، «أيّنا» مثله، وكذلك في كل القرآن. وكذلك روى قالون عن نافع، إلا أن نافعاً كان لا يستفهم في «أيّنا»، كان يجعل الثاني خبراً في كل القرآن، وكذلك مذهب الكسائي، غير أنه يهزم الأولى همزتين. وقرأ عاصم، وحزمة بهمزتين في الحرفين جميعاً، وقرأ ابن عامر: «إذا كُنَّا» بغير استفهام بهمزة واحدة «أنا» بهمزتين يمد بينهما مدة.

قوله تعالى: ﴿رُفَاتًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه التراب، ولا واحد له، فهو بمنزلة الدُّفَاق والحُطَام، قاله الفراء، وهو مذهب مجاهد. والثاني: أنه العظام ما لم تتحطم، والرُّفَات: الحُطَام، قاله أبو عبيدة. وقال الزجاج: الرُّفَات: التراب. والرُّفَات: كل شيء حُطِمَ وكُسِرَ، و﴿خَلَقْنَا جَدِيدًا﴾ في معنى مجدداً.

قوله تعالى: ﴿أَوْ خَلَقْنَا مِمَّا يَكْفُرُ فِي شُدُورِهِمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الموت، قاله ابن عمر، وابن عباس، والحسن، والأكثر. والثاني: أنه السماء والأرض والجبال، قاله مجاهد. والثالث: [أنه] ما يكبر في صدوركم، من كل ما استعظموه من خلق الله تعالى، قاله قتادة. فإن قيل: كيف قيل لهم: ﴿كُونُوا جِبَارَةً أَوْ حِيدًا﴾ وهم لا يقدرُونَ على ذلك؟ فنه جوابان: أحدهما: إن قدرتم على تغيير حالاتكم، فكونوا حجارة أو أشد منها، فإننا نميتكم، وننفذ أحكامنا فيكم، ومثل هذا قولك للرجل: اصعد إلى السماء فإنني لاحقك. والثاني: تصوّروا أنفسكم حجارة أو أصلب منها، فإننا سنبيدكم، قال الأحوص:

إِذَا كُنْتَ عَزَازَةً عَنِ اللَّيْهِ وَالصُّبْبِ
فَكُنْ حَجَرًا مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جَلَمًا^(١)
معناه: فتصوّر نفسك حجراً، وهؤلاء قوم اعترفوا أن الله خالقهم، وجعلوا البعث، فأعلموا أن الذي ابتدأ خلقهم هو الذي يحييهم.

قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُونَ إِلَيْكَ رُدُّهُمْ﴾ قال قتادة: يحركونها تكذيباً واستهزاء. قال الفراء: يقال: أنغض رأسه: إذا حركه إلى فوق وإلى أسفل. وقال ابن قتيبة: المعنى: يحركونها، كما يحرك الآيس من الشيء والمُسْتَعْد [له] رأسه، يقال: نَغَضْتُ سِنَهُ: إذا تحركت.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ يعنون البعث ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي: هو قريب. ثم بيّن متى يكون فقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ يعني: من القبور بالنداء الذي يُسمعكم، وهو النفخة الأخيرة ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ أي: تجيبون. قال مقاتل: يقوم إسماعيل على صخرة بيت المقدس يدعو أهل القبور في قرن، فيقول: أيتها العظام البالية، وأيتها اللحوم المتمزقة، وأيتها الشعور المتفرقة، وأيتها العروق المتقطعة، اخرجوا إلى فصل القضاء لثجزوا بأعمالكم، فيسمعون الصوت، فيستجيبون إليه. وفي معنى ﴿يَحْكُمُونَ﴾ أربعة أقوال: أحدها: بأمره، قاله ابن عباس، وابن جريج، وابن زيد. والثاني: يخرجون من القبور وهم يقولون: سبحانك وبحمدك، قاله سعيد بن جبيرة. والثالث: أن معنى ﴿يَحْكُمُونَ﴾: بمعرفته، وطاعته، قاله قتادة: قال الزجاج: تستجيبون مُقَرِّين أنه خالقكم. والرابع: تجيبون بحمد الله لا بحمد أنفسكم، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنْ لَمْ يَنْزَلْ عَلَيْنَا لَوْلَا قِيلَ﴾ في هذا الظن قولان: أحدهما: أنه بمعنى اليقين. والثاني: أنه على أصله. وأين يظنون أنهم لبثوا قليلاً؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: بين النفختين، ومقداره أربعون سنة، ينقطع في ذلك

(١) البيت في «الأغاني» ١٥/١٠٠، و«طبقات ابن سلام» ٥٣٩، و«الشعر والشعراء» ٥٠١، و«زهر الآداب» ٣٥٠/١، و«مصابيح المشاق» ٦٢، ورجل عزيمة وعزيمة: وهو الذي لا يقرب النساء ويتقبض عنهن ويعرض، من زهو أو كبر، أو أفة من الضعف والاستكانة لجهن أو سطوتهن على الرجال، وصخرة جلمد: شديدة مجتمعة صلبة.

العذاب عنهم، فيرون لبثهم في زمان الراحة قليلاً، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: في الدنيا، لعلمهم بطول اللبث في الآخرة، قاله الحسن. والثالث: في القبور، قاله مقاتل. فعلى هذا إنما قصر اللبث في القبور عندهم، لأنهم خرجوا إلى ما هو أعظم عذاباً من عذاب القبور. وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية خطاب للمؤمنين، لأنهم يجيئون المنادي وهم يحمدون الله على إحسانه إليهم، ويستقلون مدة اللبث في القبور، لأنهم كانوا غير معذبين.

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (٥٣)

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن المشركين كانوا يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بمكة، بالقول والفعل، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية. قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن رجلاً من الكفار شتم عمر بن الخطاب، فهم به عمر ﷺ، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل؛ والمعنى: قل لعبادي المؤمنين يقولوا الكلمة التي هي أحسن. واختلفوا فيمن تقال له هذه الكلمة على قولين: أحدهما: أنهم المشركون، قال الحسن: تقول له: يهديك الله، وما ذكرنا من سبب نزول هذه الآية يؤيد هذا القول. وذهب بعضهم إلى أنهم أمروا بهذه الآية بتحسين خطاب المشركين قبل الأمر بقتالهم، ثم نُسخت هذه الآية بآية السيف. والثاني: أنهم المسلمون، قاله ابن جرير. والمعنى: قل لعبادي يقول بعضهم لبعض التي هي أحسن من المحاوراة والمخاطبة. وقد روى مبارك عن الحسن قال: «التي هي أحسن» أن يقول له مثل قوله، ولكن يقول له: يرحمك الله، ويغفر الله لك. قال الأخفش: وقوله: ﴿يَقُولُوا﴾ مثل قوله: ﴿يُيَسِّرُوا السُّبُلَ﴾، وقد شرحنا ذلك في سورة [إبراهيم: ٣١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يُفسد ما بينهم، والعدو المبین: الظاهر العداوة.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْسِلْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (٥٤)

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ فيمن خوطب بهذا قولان: أحدهما: أنهم المؤمنون. ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: ﴿إِنْ يَشَأْ يُرْسِلْكُمْ﴾ فينجيكم من أهل مكة، ﴿إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ فيسلطهم عليكم، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: إن يشأ يرحمكم بالتوبة، أو يعذبكم بالإقامة على الذنوب، قاله الحسن. والثاني: أنهم المشركون. ثم في معنى الكلام قولان. أحدهما: إن يشأ يرحمكم، فيهديكم للإيمان، أو إن يشأ يعذبكم، فيميتكم على الكفر، قاله مقاتل. والثاني: أنه لما نزل القبط بالمشركين فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَكَيْفَ عَمَّا أَلْمَذَكُ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ (٥٥) [الدخان: ١٢] قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ من الذي يؤمن، ومن [الذي] لا يؤمن، ﴿إِنْ يَشَأْ يُرْسِلْكُمْ﴾ فيكشف القحط عنكم ﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ فيتركه عليكم، ذكره أبو سليمان الدمشقي. قال ابن الأنباري: «وأو» هاهنا دخلت لسعة الأمرين عند الله تعالى، وأنه لا يرد عنهما، فكانت ملحقة بـ«أو» المبيحة في قولهم: جالس الحسن، أو ابن سيرين، يعنون: قد وسعنا لك الأمر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: كفيلاً تؤخذ بهم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: حافظاً وريثاً، قاله الفراء. والثالث: كفيلاً بهدایتهم وقادراً على إصلاح قلوبهم، ذكره ابن الأنباري. وذهب بعض المفسرين إلى أن هذا منسوخ بآية السيف.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (٥٥)

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأنه خالقهم، فهدى من شاء، وأضل من شاء، وكذلك فضل بعض النبيين على بعض، وذلك عن حكمة منه وعلم، فخلق آدم بيده، ورفع إدريس، وجعل الذرية لنوح، واتخذ إبراهيم خليلًا، وموسى كليمًا، وجعل عيسى روحاً، وأعطى سليمان مُلكاً جسيماً، ورفع محمداً ﷺ فوق السماوات، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ويجوز أن يكون المفضلون أصحاب الكتب، لأنه ختم الكلام بقوله: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾.

وقد شرحنا معنى «الزبور» في سورة [النساء: ١٦٣].

﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَقْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمْ

الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)

قوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن نفراً من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجن والنفر من العرب لا يشعرون، فنزلت هذه الآية والتي بعدها، روي عن ابن مسعود. والثاني: أن المشركين كانوا يعبدون الملائكة، ويقولون: هي تشفع لنا عند الله، فلما ابتلوا بالقحط سبع سنين، قيل لهم: «ادعوا الذين زعمت»، قاله مقاتل، والمعنى: قل ادعوا الذين زعمت أنهم آلهة، ﴿فَلَا يَلِيكَوْكَ كُفَّةٌ﴾ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا له إلى غيركم.

قوله تعالى: ﴿أَتَدْعُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ في المشار إليهم به «أولئك» ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم الجن الذين أسلموا^(١). والثاني: الملائكة. وقد سبق بيان القولين. والثالث: أنهم المسيح، وعزير، والملائكة، والشمس، والقمر، قاله ابن عباس. وفي معنى «يدعون» قولان: أحدهما: يعبدون، أي: يدعونهم آلهة، وهذا قول الأكثرين. والثاني: أنه بمعنى يتضرعون إلى الله في طلب الوسيلة. وعلى هذا يكون قوله: «يدعون» راجعاً إلى «أولئك»، ويكون قوله: «يتبنون» تاماً للكلام. وعلى القول الأول: يكون «يدعون» راجعاً إلى المشركين، ويكون قوله: «يتبنون» وصفاً لـ«أولئك» مستأنفاً. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وأبو عبد الرحمن: «تدعون» بالثاء. قال ابن الأنباري: فعلى هذا، الفعل مردود إلى قوله: ﴿فَلَا يَلِيكَوْكَ كُفَّةٌ﴾ عَنْكُمْ. ومن قرأ «يدعون» بالياء، قال العرب: تنصرف من الخطاب إلى الغيبة إذا أمن اللبس. ومعنى «يدعون»: يدعونهم آلهة. وقد فسرنا معنى «الوسيلة» في [المائدة: ٣٥]. وفي قوله: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ قولان ذكرهما الزجاج: أحدهما: أن يكون «أيهم» مرفوعاً بالابتداء، وخبره «أقرب»، ويكون المعنى: يطلبون الوسيلة إلى ربهم، ينظرون أيهم أقرب إليه فيتوسلون إلى الله به. والثاني: أن يكون «أيهم أقرب» بدلاً من الواو في «يتبنون»، فيكون المعنى: يتبنون أيهم هو أقرب الوسيلة إلى الله، أي: يتقرب إليه بالعمل الصالح.

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ مِنْهُمْ إِلَهٌ إِلَّا هُوَ يُرِيهِمْ أَلْفَاظَهُمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا كَانِ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ مِنْهُمْ إِلَهٌ إِلَّا هُوَ يُرِيهِمْ أَلْفَاظَهُمْ﴾ «إن» بمعنى «ما»، والقرية الصالحة هلاكها بالموت، والعاصية بالعذاب، والكتاب: اللوح المحفوظ، والمسطور: المكتوب.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآيَاتُنَا مُدْأَتُ نَارٍ فَتُجَرُّوْنَ فَطَلَمُوا بِهَا وَمَا تُرِيدُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَحْوِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ سبب نزولها فيه قولان: أحدهما: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعوا^(٢)، فقبل له: إن شئت أن تستاني بهم لعلنا نجتبي منهم، وإن شئت نوتبهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلکوا كما أهلک من كان قبلهم، قال: «لا، بل أستاني بهم»، فنزلت هذه الآية، رواه سعيد بن جبیر عن ابن عباس^(٣). والثاني: قد ذكرناه عن الزبير في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ [الرم: ٢١]، ومعنى الآية: وما مَنَعَنَا إرسال الآيات التي سألوها إلا تكذيب الأولين، يعني: أن هؤلاء سألوا الآيات التي استوجب بتكذيبها الأولون العذاب، فلم يرسلها لئلا يكذب بها هؤلاء، فيهلكوا^(٤) كما هلك أولئك، وسنة الله في الأمم أنهم إذا سألوا الآيات ثم كذبوا بها عذبهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا نُدْأُ نَارٍ فَتُجَرُّوْنَ﴾ قال ابن قتيبة: أي: يبتنة، يريد: مُبْصراً بها. قال ابن الأنباري: ويجوز أن

(١) روى البخاري ٣٠١/٨، ومسلم ٢٣٢١/٤ من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله في قوله: ﴿أَتَدْعُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ إِلَى دُعَاؤِ الْوَسِيلَةِ قَالَ: كَانَ نَاسٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعْبُدُونَ نَاسًا مِنَ الْجِنِّ، فَأَسْلَمَ الْجِنُّ وَتَمَسَّكَ هَؤُلَاءِ بِدِينِهِمْ. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ: أَيُّ: اسْتَمَرَّ الْإِنْسُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ عَلَى عِبَادَةِ الْجِنِّ، وَالْجِنُّ لَا يَرْضَوْنَ بِذَلِكَ لَكُونَهُمْ أَسْلَمُوا، وَهَمَّ الَّذِينَ صَارُوا يَتَبَنُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ. وَرَوَى الطَّبْرِيُّ مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، فَرَادَ فِيهِ: وَالْإِنْسُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِإِسْلَامِهِمْ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْتَدُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ. اهـ.

(٢) في الأصل: فيزرعون.

(٣) «مسند أحمد» ٩٦/٤ وإسناده صحيح، وفيه: «وَأَنْ يَنْحِي عَنْهُمْ الْجِبَالَ فَيُزْرِعُوا» بدل «فيزرعوا». وذكره ابن كثير في «التفسير» ٤٧/٣، و«التاريخ» ٣/ ٥٢ وقال: وهكذا رواه النسائي عن جرير.

(٤) في الأصل: فيهلكون.

المفسرين. وروى ابن الأنباري أن سعيد بن المسيب قال: رأى رسول الله ﷺ قوماً على منابر، فشق ذلك عليه، وفيه نزل: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾، قال: ومعنى قوله: ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾: إلا بلاء للناس. قال ابن الأنباري: فمن ذهب إلى أن الشجرة رجال وآهم النبي ﷺ في منامه يصعدون على المنابر، احتج بأن الشجرة يكنى بها عن المرأة لتانيها، وعن الجماعة لاجتماع أغصانها. قالوا: ووقعت اللعنة بهؤلاء الذين كنى عنهم بالشجرة. قال المفسرون: وفي الآية تقديم وتأخير، تقديره: وما جعلنا الرؤيا والشجرة إلا فتنه للناس. وفي هذه الشجرة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها شجرة الرُّقُوم، رواه عكرمة عن ابن عباس^(١)، وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومسروق، والنخعي، والجمهور. وقال مقاتل: لما ذكر الله تعالى شجرة الرُّقُوم، قال أبو جهل: يا معشر قريش إن محمداً يخوفكم بشجرة الرُّقُوم، أستم تعلمون أن النار تحرق الشجر؟ ومحمد يزعم أن النار تثبت الشجر، فهل تدرون ما الرُّقُوم؟ فقال عبد الله بن الرُّبَيْعِيُّ: إن الرُّقُوم بلسان بَرْبَرٍ: التمر والزُّيد، فقال أبو جهل: يا جارية ابغينا تمراً وزُيْداً، فجاءته به، فقال لمن حوله: تَرَقُّمُوا من هذا الذي يخوفكم به محمد، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْخَفُكُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾. قال ابن قتيبة: كانت فتنهم بالرؤيا قولهم: كيف يذهب إلى بيت المقدس، ويرجع في ليلة؟ وبالشجرة قولهم: كيف يكون في النار شجرة؟^(٢) وللعلماء في معنى «الملعونة» ثلاثة أقوال: أحدها: الملعونة، قاله ابن عباس. والثاني: الملعون أكلها؛ ذكره الزجاج قال: إن لم يكن في القرآن لعناتها ففيه لعن أكلها؛ قال: والعرب تقول لكل طعام مكروه وضار: ملعون؛ فأما قوله: ﴿فِي الْقُرْآنِ﴾ فالمعنى: التي ذكرت في القرآن، وهي مذكورة في قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الرُّقُومِ ﴿٦١﴾ طَعَامٌ الْأَشْيَرِ ﴿٦٢﴾﴾ [الدخان: ٤٣، ٤٤]. والثالث: أن معنى «الملعونة»: المُبْعَدَة عن منازل أهل الفضل، ذكره ابن الأنباري. والقول الثاني: أن الشجرة الملعونة هي التي تلتوي على الشجر، يعني: الكُشُوثي^(٣)، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أن الشجرة كناية عن الرجال على ما ذكرنا عن سعيد بن المسيب.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْخَفُكُمْ﴾ قال ابن الأنباري: مفعول «نخوفهم» محذوف، تقديره: ونخوفهم العذاب، ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي: فما يزيدهم التخويف ﴿إِلَّا طُغْيَانًا﴾؛ وقد ذكرنا معنى الطغيان في [البقرة: ١٥]، وذكرنا هناك تفسير قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَٰى لَدُنِّكَ إِلَٰهَ يَوْمِ الْآخِرَةِ فَذُوبُوا إِلَّا لِقَائِكَ ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ قَدْ بَيْنْتُ بَيْنَهُمَا جَهَنَّمَ بَرَكَةً مِّمَّا جَزَاءُكُمْ مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزَزَ مِنَّهَا آسَافُ بْنُ يَثْرَجَ عَلَيْهِمْ صَلَاتُكَ وَمَلَائِكَتُكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَإِنَّا لَنَاصِرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿اسْجُدْ﴾ قرأه الكوفيون: بهمزة. وقرأه الباقون: بهمة مطوَّلة؛ وهذا استفهام إنكار، يعني به: لم أكن لأفعل.

قوله تعالى: ﴿لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ قال الزجاج: «طيناً» منصوب على وجهين: أحدهما: التمييز، المعنى: لمن خلقت من طين. والثاني: على الحال، المعنى: أنشأته في حال كونه من طين. ولفظ ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ﴾ جاء هاهنا بغير جرف عطف، لأن المعنى: قال أسجد لمن خلقت طيناً، وأرايتك، وهي في معنى: أخبرني، والكاف ذكرت في المخاطبة

(١) روى البخاري ٣٠٢/٨ عن ابن عباس: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ قال: شجرة الرُّقُوم. قال الحافظ ابن حجر: وهذا هو الصحيح، وقره ابن أبي حاتم عن بضعة عشر نفساً من التابعين. وقال أبو جعفر بن جرير الطبري: وأدلى القولين في ذلك ههنا قول من قال: عنى بها شجر الرُّقُوم، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك. ونصبت (الشجرة الملعونة) عطفاً بها على الرؤيا، فتأويل الكلام إذن: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك، والشجرة الملعونة في القرآن، إلا فتنه للناس، فكانت فتنهم في الرؤيا ما ذكرت من ارتداد من ارتد - وتبادي أهل الشرك في شركهم حين أخبرهم رسول الله ﷺ بما أراه الله في مسيره إلى بيت المقدس ليلة أسري به، وكانت فتنهم في الشجرة الملعونة ما ذكرنا من قول أبي جهل والمشركين معه: يخبرنا محمد أن في النار شجرة نابتة، والنار تأكل للشجر، فكيف تثبت فيها؟

(٢) قال الجوهري: الكُشُوث: نبت يعلو بأغصان الشجر، من غير أن يضرب برق في الأرض، قال الشاعر:
هو الكُشُوثُ فلا أضلُّ ولا وُزُّ
ولا نَسِيمٌ ولا ظِلٌّ ولا نَسْرُ

توكيداً، والجواب محذوف، والمعنى: أخبرني عن هذا الذي كَرَّمْتُ عليَّ، لم كَرَّمْتُهُ عليَّ وقد خلقتني من نار وخلقته من طين؟ فحذف هذا، لأن في الكلام دليلاً عليه.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ آخَرَيْنِ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمر: «آخرتي» بياء في الوصل. ووقف ابن كثير بالياء. وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي بغير ياء في وصل ولا في وقف^(١).

قوله تعالى: ﴿لَاخِنَكُمْ ذَرْبَكُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لَأَسْتَوِلِّيَنَّ عليهم، قاله ابن عباس، والفراء. والثاني: لَأُضِلَّيَهُمْ، قاله ابن زيد. والثالث: لَأَسْتَأصِلَنَّهُمْ؛ يقال: اخْتَنَكَ الجرادُ ما على الأرض: إذا أكله؛ وَاخْتَنَكَ فلانٌ ما عند فلان من العلم: إذا استقصاه، فالمعنى: لَأَقُودَنَّهُمْ كيف شئتُ، هذا قول ابن قتيبة. فإن قيل: من أين عَلِمَ الغيب. فقد أجبتنا عنه في سورة [النساء: ١١٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَا قِيلَ﴾ قال ابن عباس: هم أولياء الله الذين عصمهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ﴾ هذا اللفظ يتضمن إنظاره؛ ﴿فَمَنْ يَكَلِّ﴾ أي: تبع أمرك منهم، يعني: ذرية آدم. والموفور: الموفَّر. قال ابن قتيبة: يقال: وفَّرْتُ ماله عليه، ووفَّرْتُهُ، بالتخفيف والتشديد.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِزُ مَنِ اسْتَمْتَكْتَنِي﴾ قال ابن قتيبة: اسْتَمْتَكْتَنِي، ومنه تقول: اسْتَفْزِزْنِي فلان. وفي المراد بصوته قولان: أحدهما: أنه كل دافع دعا إلى معصية الله، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الغناء والمزامير، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَأَتْلَيْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: صَحَّحَ «بِخَيْلِكَ وَرَجُلِكَ» واحشهم عليهم بالإغراء؛ يقال: أجْلَبَ القوم وجلبوا؛ إذا صاحوا. وقال الزجاج: المعنى: اجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكاييد؛ فعلى هذا تكون الباء زائدة. قال ابن قتيبة: والرَّجُلُ: الرَّجَالَةُ؛ يقال: رَجُلٌ وَرَجُلٌ، مثل تاجر وتَجَّرَ، وصاحب وصَحَّب. قال ابن عباس: كلَّ خيل تسير في معصية الله، وكلَّ رَجُلٍ يسير في معصية الله^(٢). وقال قتادة: إن له خيلاً وَرَجُلًا من الجن والإنس. وروى حفص عن عاصم: ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجُلِكَ﴾ بكسر الجيم، وهي قراءة ابن عباس، وأبي رزين، وأبي عبد الرحمن السلمي. قال أبو زيد: يقال: رَجُلٌ رَجُلٌ: للرجل، ويقال: جاءنا حافياً رَجُلًا. وقرأ ابن السميع، والجحدري: «بِخَيْلِكَ وَرَجُلِكَ» برفع الراء وتشديد الجيم مفتوحة وبالف بعدها. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وعكرمة: «وَرَجُلِكَ» بكسر الراء وتخفيف الجيم مع ألف.

قوله تعالى: ﴿وَشَارَكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنها ما كانوا يحرمونه من أنعامهم، رواه عطية عن ابن عباس. والثاني: الأموال التي أصيبت من حرام، قاله مجاهد. والثالث: التي أنفقوها في معاصي الله، قاله الحسن. والرابع: ما كانوا يذبجون لأهلته، قاله الضحاك. فأما مشاركته إياهم في الأولاد، ففيها أربعة أقوال: أحدها: أنهم أولاد الزنا، رواه عطية عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك. والثاني: المؤودة من أولادهم، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أنه تسمية أولادهم عبيداً لأوثانهم، كعبد شمس، وعبد العزى، وعبد مناف، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: ما مَجَسُوا وهَوَّوْا ونَصَّرُوا، وصَبَّغُوا من أولادهم غير صبغة الإسلام، قاله الحسن، وقاتدة.

قوله تعالى: ﴿وَعَذَّبُهُمْ﴾ قد ذكرناه في قوله: ﴿يُعَذِّبُهُمْ وَيُنِيبُهُمْ...﴾ إلى آخر الآية [النساء: ١٢٠]. وهذه الآية لفظها لفظ الأمر، ومعناها التهديد، ومثلها في الكلام أن تقول للإنسان: اجهد جهدك فسترى ما ينزل بك. قال الزجاج: إذا تقدم الأمر نهى عما يؤمر به، فمعناه التهديد والوعيد، تقول للرجل: لا تدخلن هذه الدار؛ فإذا حاول أن يدخلها قلت: ادخلها وأنت رجل، فلست تأمره بدخولها، ولكنك ثورعه وتهذبه، ومثله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقد نُهِوا أن يعملوا بالمعاصي. وقال ابن الأنباري: هذا أمر معناه التهديد، تقديره: إن فعلت هذا عاقبتك وعذبناك، فنقل إلى لفظ الأمر عن الشرط، كقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُزَيْنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

(١) أي: بغير ياء في الوصل والوقف.

(٢) في «الطبري» عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَتْلَيْتَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجُلِكَ﴾ قال: خيله: كل راكب في معصية الله؛ ورجله: كل راجل في معصية الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ قد شرحناه في [الحجر: ٤٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَفَّ يَدَيْكَ وَكَيْلًا﴾ قال الزجاج: كفى به وكيلاً لأوليائه يعصمهم من القبول من إبليس.

﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمْ الْفَلَاحَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ رَجِيماً﴾ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما تنكروا إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً ﴿أَفَأَنْتُمْ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ ﴿أَمْ أَنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِبًا مِنْ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيًا يُوَفِّيكُمْ﴾ ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَفَعْنَاهُمْ مِنْ تَحْتِ الْهَابِ وَجَعَلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِنَا تَفْصِيلاً﴾ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمْ الْفَلَاحَ﴾ أي: يسيئها. قال الزجاج: يقال: زجبت الشيء، أي: قدمته^(١).

قوله تعالى: ﴿لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: في طلب التجارة. وفي «من» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها زائدة. والثاني:

أنها للتبعض. والثالث: أن المفعول محذوف، والتقدير: ليتبعوا من فضله الرزق والخير، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ رَجِيماً﴾ هذا الخطاب خاص للمؤمنين، ثم خاطب المشركين فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ﴾ أي: يضل من يدعون من الآلهة، إلا الله تعالى. ويقال: ضل بمعنى غاب، يقال: ضل الماء في اللبث: إذا غاب، والمعنى: أنكم أخلصتم الدعاء [لله]، ونسيتم الأنداد. وقرأ مجاهد، وأبو المتوكل: «ضَلَّ مَنْ يَدْعُونَ» بالياء. «فَلَمَّا تَخَضَّعُوا لِلَّهِ أَعْرِضْتُمْ» عن الإيمان والإخلاص «وَكَانَ الْإِنْسَانُ» يعني الكافر «كَفُورًا» بنعمة ربه. «أَفَأَنْتُمْ» إذا خرجتم من البحر «أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ» قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «نخسف بكم» أو نرسل، «أَنْ نُعِيدَكُمْ» فنرسل، «فَنُغْرِقَكُمْ» بالنون في الكل. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، بالياء في الكل. ومعنى «يَخِفَّ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ»، أي: نغيبكم ونذهبكم في ناحية البر، والمعنى: إن حكمي نافذ في البر نفوذه في البحر، «أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا» فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن الحاصب: حجارة من السماء، قاله قتادة. والثاني: أنه الريح العاصف تحصب، قاله أبو عبيدة، وأنشد للفرزدق:

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الرِّيحِ تَضْرِبُهُمْ بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ السُّطْنِ مَشْهُورٍ^(٢)

وقال ابن قتيبة: الحاصب: الريح، سميت بذلك لأنها تخصب، أي: ترمي بالحصباء، وهي الحصى الصغار. وقال ابن الأنباري: قال اللغويون: الحاصب: الريح التي فيها الحصى. وإنما قال في الريح: «حاصباً» ولم يقل: «حاصبة» لأنه وصف لزم الريح ولم يكن لها مذکر تنتقل إليه في حال، فكان بمنزلة قولهم: «حائض» للمرأة، حين لم يُقَلَّ: رجل حائض. قال: وفيه جواب آخر، وهو أن نعت الريح عري من علامة التانيث، فأشبهت بذلك أسماء المذكر، كما قالوا: السماء أمطر، والأرض أنبت. والثالث: أن الحاصب: التراب الذي فيه حصباء، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي: مانعاً وناصراً.

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي: في البحر «تَارَةً أُخْرَى» أي: مرة أخرى، والجمع: تارات. «فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِبًا مِنَ الرِّيحِ» قال أبو عبيدة: هي التي تقصف كل شيء. قال ابن قتيبة: القاصف: [الريح التي] تقصف الشجر، أي: تكسره.

قوله تعالى: ﴿فَيُغْرِقَكُمْ﴾ وقرأ أبو المتوكل، وأبو جعفر، وشيبة، ورويس: «فتغرقكم» بالتاء، وسكون الغين، وتخفيف الراء. وقرأ أبو الجوزاء، وأيوب: «فيغرقكم» بالياء، وفتح الغين، وتشديدها^(٣). وقرأ أبو رجاء مثله، إلا أنه بالتاء، «بِمَا كَفَرْتُمْ»، أي: بكفركم حيث نجوتهم في المرة الأولى، «ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيًا يُوَفِّيكُمْ» قال ابن

(١) كلنا الأصل، «قدمته» والذي في كتب اللغة والتفسير «دفعته برفق»، وانظر ما ذكره المؤلف عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمُ الْبَحْرَ﴾ ٧١٥.

(٢) «ديوانه» ٢٦٢، و«مجاز القرآن» ١/٣٨٥، و«الكامل» ٢/٧٧٢ و«الطبري» ١٥/١٢٤، و«القرطبي» ١٠/٢٩٢.

(٣) أي: تشديد الراء.

قتية: أي: من يتبع بدمافكم، أي: يطالبنا. قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: ربح العذاب أربع، اثنتان في البر، واثنتان في البحر، فاللثان في البر: الضَّرَصَر، والعَقِيم، واللثان في البحر: العاصف، والقاصف.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ أي: فضَّلناهم. قال أبو عبيدة: و«كَرَّمْنَا» أشد مبالغة من «أَكْرَمْنَا». وللمفسرين فيما فضَّلوا به أحد عشر قولاً: أحدها: أنهم فضَّلوا على سائر الخلق غير طائفة من الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومَلَك الموت، وأشباههم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. فعلى هذا يكون المراد: المؤمنين منهم، ويكون تفضيلهم بالإيمان. والثاني: أن سائر الحيوان يأكل بفيه، إلا ابن آدم فإنه يأكل بيده، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس. وقال بعض المفسرين: المراد بهذا التفضيل: أكلهم بأيديهم، ونظافة ما يقتاتونه، إذ الجن يقتاتون العظام والرُّوث. والثالث: فضَّلوا بالعقل، روي عن ابن عباس. والرابع: بالنطق والتمييز، قاله الضحاك. والخامس: بتعديل القامة وامتدادها، قاله عطاء. والسادس: بأن جعل محمداً ﷺ منهم، قاله محمد بن كعب. والسابع: فضَّلوا بالمطاعم واللذات في الدنيا، قاله زيد بن أسلم. والثامن: بحسن الصورة، قاله يمان. والتاسع: بتسليطهم على غيرهم من الخلق، وتسخير سائر الخلق لهم، قاله محمد بن جرير. والعاشر: بالأمر والنهي، ذكره الماوردي. والحادي عشر: بأن جعلت اللحي للرجال، والذوائب للنساء، ذكره الثعلبي. فإن قيل: كيف أطلق ذكر الكرامة على الكل، وفيهم الكافر المُهان؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أنه عامل الكل معاملة المكرم بالنعم الوافرة. والثاني: أنه لما كان فيهم من هو بهذه الصفة، أجرى الصفة على جماعتهم، كقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبَرِ﴾ على أكباد رطبة، وهي: الإبل، والخيول، والبغال، والحُمير، (و) في ﴿وَالْبَحْرِ﴾ على أعواد يابسة، وهي: السفن. ﴿وَوَدَّعَيْنَاهُم بِالْعَنَيْتِ﴾ فيه قولان: أحدهما: الحلال. والثاني: المستطاب في الذوق.

قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه على لفظه، وأنهم لم يفضلوا على سائر المخلوقات. وقد ذكرنا عن ابن عباس أنهم فضَّلوا على سائر الخلق غير طائفة من الملائكة. وقال غيره: بل الملائكة أفضل. والثاني: أن معناه: وفضَّلناهم على جميع من خلقنا. والعرب تضع الأكثر والكثير في موضع الجمع، كقوله: ﴿يُلْقُونَ السَّيْفَ وَأَكْرَمُكُمْ كُتُبًا﴾ [الشعراء: ٢٢٣]. وقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المؤمن أكرم على الله ﷻ من الملائكة الذين عنده»^(١).

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْيَمِهِمْ فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابِي يَسِيرْهُ فَالَّذِينَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ آتَمَنَ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَنَ وَأَسْلَىٰ سَبِيلًا ﴿٧١﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا﴾ قال الزجاج: هو منصوب على معنى: اذكر ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْيَمِهِمْ﴾ والمراد به: يوم القيامة. وقرأ الحسن البصري: «يوم يدعو» بالياء ﴿كُلَّ﴾ بالنصب. وقرأ أبو عمران الجوني: «يوم يدعى» بياء مرفوعة، وفتح العين، وبعدها ألف، «كُلَّ» بالرفع. وفي المراد بإمامهم أربعة أقوال: أحدها: أنه رئيسهم، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وروى عنه سعيد بن جبیر أنه قال: إمام هدى، أو إمام ضلالة. والثاني: علمهم، رواه عطية عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وأبو العالية. والثالث: نبئهم، قاله أنس بن مالك، وسعيد بن جبیر، وقادة، ومجاهد في رواية. والرابع: كتابهم، قاله عكرمة، ومجاهد في رواية. ثم فيه قولان: أحدهما: أنه كتابهم الذي فيه أعمالهم، قاله قتادة، ومقاتل. والثاني: كتابهم الذي أنزل عليهم، قاله الضحاك، وابن زيد. فعلى القول الأول يقال: يا متبعي موسى، يا متبعي عيسى، يا متبعي محمداً؛ ويقال: يا متبعي رؤساء الضلالة. وعلى الثاني: يا من عمل كذا وكذا. وعلى الثالث: يا أمة موسى، يا أمة عيسى، يا أمة محمد. وعلى الرابع: يا أهل التوراة، يا أهل الإنجيل، يا أهل القرآن. أو يا صاحب الكتاب الذي فيه عمل كذا وكذا.

(١) عزاء الحافظ في «تخريج أحاديث الكشاف» ١٠٠ لليبي في «الشعب» من رواية حماد بن سلمة عن أبي المهزم عن أبي هريرة موقفاً. وأبو المهزم بتشديد الزاي المكسورة التميمي البصري، اسمه يزيد، وقيل: عبد الرحمن بن سفيان، قال الحافظ في «التقريب»: متروك. ورواه ابن ماجه ٢/ ١٣٠١، من طريق أبي المهزم عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «المؤمن أكرم على الله ﷻ من بعض ملائكته»، وهو ضعيف، لضعف أبي المهزم.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَاكَ بِقُرْآنٍ كَرِيمٍ﴾ معناه: يقرؤون حسنايتهم، لأنهم أخذوا كتبهم بأيمانهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُلَظْظُونَ فِتْنًا﴾ أي: لا يتقصون من ثوابهم بقدر الفتيل، وقد بيناه في سورة [النساء: ٤٩].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: ﴿أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ مفتوحتي الميم. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم بكسر الميمين. وقرأ أبو عمرو: ﴿في هذه أعمى﴾ بكسر الميم، ﴿فهو في الآخرة أعمى﴾ بفتحها. وفي المشار إليها بهذه قولان: أحدهما: أنها الدنيا، قاله مجاهد. ثم في معنى الكلام خمسة أقوال: أحدها: من كان في الدنيا أعمى عن معرفة قدرة الله في خلق الأشياء، فهو عمًا وُصِفَ له في الآخرة أعمى، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: من كان في الدنيا أعمى بالكفر، فهو في الآخرة أعمى، لأنه في الدنيا تُقْبَلُ ثوبته، وفي الآخرة لا تُقْبَلُ، قاله الحسن. والثالث: من عمي عن آيات الله في الدنيا، فهو عن الذي غُيِبَ عنه من أمور الآخرة أشدَّ عمى. والرابع: من عمي عن نعم الله التي بيّنها في قوله: ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْغُلُوكَ فِي الْبَحْرِ﴾ إلى قوله: ﴿تَنْصِيلًا﴾ فهو في الآخرة أعمى عن رشاده وصلاحه، ذكرهما ابن الأنباري. والخامس: من كان فيها أعمى عن الحجّة، فهو في الآخرة أعمى عن الجنة، قاله أبو بكر الوراق. والثاني: أنها النعم. ثم في الكلام قولان. أحدهما: من كان أعمى عن النعم التي تُرى وتُشاهد، فهو في الآخرة التي لم تُرْ أعمى، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: من كان أعمى عن معرفة حق الله في هذه النعم المذكورة في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي مَادٍ﴾ ولم يؤدِّ شكرها، فهو فيما بينه وبين الله مما يُقَرَّبُ به إليه أعمى ﴿وَأَنْتَ سَيِّئٌ﴾، قاله السدي. قال أبو علي الفارسي: ومعنى قوله: ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ أي: أشدَّ عمى، لأنه كان في الدنيا يمكنه الخروج عن عمّاه بالاستدلال، ولا سبيل له في الآخرة إلى الخروج من عمّاه. وقيل: معنى العمى في الآخرة: أنه لا يهتدي إلى طريق الثواب، وهذا كله من عمى القلب. فإن قيل: لم قال: ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ ولم يقل: أشدَّ عمى، لأن العمى خُلِقَ بمنزلة الجمرة، والخُرْقَة، والعرب تقول: ما أشدَّ سواد زيد، وما أبيض زرقة عمرو، وقُلُما يقولون: ما أسود زيداً، وما أزرع عمراً؟ فالجواب: أن المراد بهذا العمى عمى القلب، وذلك يتزايد ويحدث منه شيء بعد شيء، فيخاف الخلق اللازمة التي لا تزيد، نحو عمى العين، واليباض، والحمرة، ذكره ابن الأنباري.

﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ عَنِ الَّذِينَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِلْفَتْرِ عَلَيْنَا عَذْرٌ وَإِذَا لَا تَعْدُكَ غِيلاً﴾ (٧٣) ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَشِّرَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤) ﴿إِذَا لَا تَعْدُكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (٧٥) ﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِخُرُوجِكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧٦) ﴿سُئِلَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (٧٧)

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن وفد ثقيف أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: متعنا باللات سنة، وحرم وادينا كما حُرِّمَتْ مكة، فأبى ذلك، فأقبلوا يُكثرون مسألتهم، وقالوا: إنا نحب أن تعرف العرب فضلنا عليهم، فإن خشيت أن يقول العرب: أعطيتهم ما لم تعطنا، فقل: الله أمرني بذلك؛ فأمسك رسول الله ﷺ [عنهم]، وداخلهم الطمع، فنزلت هذه الآية، رواه عطاء عن ابن عباس. وروى عطية عن ابن عباس أنهم قالوا: أجلنا سنة، ثم نُسلم ونكسر أصنامنا، فهم أن يؤجلهم، فنزلت هذه الآية^(١). والثاني: أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: لا نكف عنك إلا بأن نُلم بألھتنا، ولو بأطراف أصابعك، فقال رسول الله ﷺ: ﴿ما عليّ لو فعلت والله يعلم إني لكاره﴾؟ فنزلت هذه الآية، قاله سعيد بن جبیر، وهذا باطل لا يجوز أن يُظن برسول الله ﷺ، ولا ما ذكرنا عن عطية من أنه هم أن يُظنهم سنة، وكل ذلك مُحال في حقه وفي حق الصحابة أنهم رَوَوْا عنه. والثالث: أن قريشاً خَلَوْا برسول الله ليلة إلى الصباح يكلمونه ويفحّمونه، ويقولون: أنت سيدنا وابن سيدنا، وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون، ثم عصمه الله من ذلك، ونزلت هذه الآية، قاله قتادة. والرابع: أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: اطرده عنك سقّاط الناس، ومواليهم، وهؤلاء الذين راحتهم راحتهم الضان، وذلك أنهم كانوا يلبسون الصوف، حتى نجالتك

وَتَسْمَعُ مِنْكَ، فَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَسْتَدْعِي بِهِ إِسْلَامَهُمْ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ، حَكَاهُ الزَّجَاجُ؛ قَالَ: وَمَعْنَى الْكَلَامِ: كَادُوا يَفْتَنُونَكَ، وَدَخَلْتَ «إِنْ» وَاللَّامُ لِلتَّوَكُّيدِ.. قَالَ الْمَفْسُورُونَ: وَإِنَّمَا قَالَ: «لَيَفْتَنُونَكَ»، لِأَنَّهُ فِي إِعْطَانِهِمْ مَا سَأَلُوا مَخَالَفَةَ لِحُكْمِ الْقُرْآنِ.

قوله تعالى: ﴿لَنَفْتَنَنَّكَ أَي: لَنَخْتَلِقَنَّ عَيْنًا غَيْرَةً﴾ وهو قولهم: قل الله أمرني بذلك، ﴿وَإِذَا﴾ لو فعلت ذلك ﴿وَلَا تَحْزَنْكَ عَلَيْهِ﴾ أَي: وَالْوَكْ وَصَافُوكَ.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ﴾ عَلَى الْحَقِّ، لِعِصْمَتِنَا إِيَّاكَ ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ أَي: هَمَمْتَ وَقَارَبْتَ أَنْ تَمِيلَ إِلَى مَرَادِهِمْ ﴿فَتَيَّا قَلِيلًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَذَلِكَ حِينَ سَكَتَ عَنْ جَوَابِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِنِيَّتِهِ. وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: الْفَعْلُ فِي الظَّاهِرِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَفِي الْبَاطِنِ لِلْمَشْرِكِينَ، وَتَقْدِيرُهُ: لَقَدْ كَادُوا يُرْكِنُونَكَ إِلَيْهِمْ، وَيَنْسِبُونَ إِلَيْكَ مَا يَشْتَهُونَهُ مِمَّا تَكْرَهُهُ، فَتَنْسِبُ الْفَعْلَ إِلَى غَيْرِ فَاعِلِهِ عِنْدَ أَمَنِ النَّبِيِّ، كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ: كَدْتَ تَقْتُلُ نَفْسَكَ الْيَوْمَ، يَرِيدُ: كَدْتَ تَفْعَلُ فَعْلًا يَقْتُلُكَ غَيْرُكَ مِنْ أَجْلِهِ؛ فَهَذَا مِنَ الْمَجَازِ وَالِاتِّسَاعِ. وَشَبَّهَ بِهِذَا قَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وَقَوْلُ الْقَاتِلِ: لَا أَرَيْتَكَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

قوله تعالى: ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ﴾ الْمَعْنَى: لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ الشَّيْءَ الْقَلِيلَ ﴿لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ﴾ أَي: ضِعْفَ عَذَابِ الْحَيَاةِ ﴿وَضِعْفَ﴾ عَذَابِ ﴿الْآلَمَاتِ﴾، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ الشَّاعِرُ:

[نُبِئْتُ أَنَّ النَّارَ بِغَدَاكَ أَوْقَدَتْ] وَاسْتَبَّ بِغَدَاكَ يَا كَلْبُ الْمَجْلِسِ^(١)

أَي: أَهْلُ الْمَجْلِسِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضِعْفُ عَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعْصُومًا، وَلَكِنَّهُ تَخَوَّفَ لَأَمْتَهُ، لِثَلَاثِ رُكْنٍ أَحَدُهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْمَشْرِكِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ وَشَرَائِعِهِ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ فِي سَبَبِ نَزُولِهَا قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ، حَسَدَتْهُ الْيَهُودُ عَلَى مَقَامِهِ بِالْمَدِينَةِ، وَكَرِهُوا قُرْبَهُ، فَأَتَوْهُ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ أَنْبِيَّ أَنْتَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالُوا: فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَذِهِ بَارِضُ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنْ أَرْضُ الْأَنْبِيَاءِ الشَّامُ، فَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا فَاتِّبِ الشَّامَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، قَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٢). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَشْخَصَ عَنِ الْمَدِينَةِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ غَنَمٍ: لَمَّا قَالَتْ لَهُ الْيَهُودُ هَذَا، صَدَّقَ مَا قَالُوا، وَغَزَا غَزْوَةَ تَبُوكَ لَا يَرِيدُ إِلَّا الشَّامَ، فَلَمَّا بَلَغَ تَبُوكَ، نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ^(٣). وَالثَّانِي: أَنَّهُمُ الْمَشْرُكُونَ أَهْلَ مَكَّةَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ بِالْخُرُوجِ، وَأَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ إِنْخِبَارًا عَمَّا هَمُّوا بِهِ، قَالَهُ الْحَسَنُ، وَمُجَاهِدٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: هُمْ أَهْلُ مَكَّةَ بِإِخْرَاجِهِ مِنْ مَكَّةَ، وَلَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ مَا نُوْظَرُوا، وَلَكِنْ اللَّهُ كَفَّهُمْ عَنْ إِخْرَاجِهِ حَتَّى أَمَرَهُ بِالْخُرُوجِ. وَقِيلَ: مَا لَبِثُوا بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ بِيَدِ رَجُلٍ فَعَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ، الْمَشَارِ إِلَى يَهُودِ: وَالْأَرْضُ: الْمَدِينَةُ. وَعَلَى الثَّانِي: هُمُ الْمَشْرُكُونَ، وَالْأَرْضُ: مَكَّةَ. وَقَدْ ذَكَرْنَا مَعْنَى «الاستفزاز» أَنْفًا [الإسراء: ٦٤]، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ هَاهُنَا: الْقَتْلُ، لِيُخْرِجُوهُ مِنَ الْأَرْضِ كُلِّهَا، رَوَى عَنْ الْحَسَنِ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ﴾ قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَنَافِعٌ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَأَبُو بَكْرِ عَنْ عَاصِمٍ: «خَلْفَكَ». وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَحُمَزَةُ، وَالْكَسَائِيُّ، وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ: «خِلَافَكَ». قَالَ الْأَخْفَشُ «خِلَافَكَ» فِي مَعْنَى خَلْفِكَ، وَالْمَعْنَى: لَا يَلْبَثُونَ بَعْدَ خُرُوجِكَ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَي: لَوْ أَخْرَجُوكَ لَأَسْتَأْصَلْتَنَاهُمْ بَعْدَ خُرُوجِكَ بِقَلِيلٍ، وَقَدْ جَازَاهُمْ اللَّهُ عَلَى مَا هَمُّوا

(١) الْبَيْتُ لِمَدِيِّ بْنِ رُبَيْعَةَ فِي «الْأَنْبَاءِ» ٩٥/١، وَ«الْحَمَاسَةِ» ٩٢٩/٢، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «نَبِئْتُ أَنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أَوْقَدَتْ»: أَنَّهُ كَانَ لَا تَوْقُدُ بِحَضْرَتِهِ نَارٌ، لِعَظَمِ نَارِهِ وَعُمُومَةِ بَطْعَامِهِ، وَقِيلَ: إِنَّهُ أَرَادَ نَارَ الْحَرْبِ الَّتِي كَانَتْ ثَارَتْ بَيْنَهُمْ بِقَتْلِ كَلْبٍ فَرَكَدَتْ أَحْقَابًا.

(٢) قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «التفسير» ٥٣/٣: وَهَذَا الْقَوْلُ ضَعِيفٌ، لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ، وَسَكَنَ الْمَدِينَةَ بَعْدَ ذَلِكَ.

(٣) قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ خَبْرَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنَمٍ عَنِ الْبَيْهَقِيِّ: وَفِي هَذَا الْإِسْنَادِ نَظَرٌ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَغْزِ تَبُوكَ عَنْ قَوْلِ الْيَهُودِ، وَإِنَّمَا غَزَاهَا امْتِنَالًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ»، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ سَبِيرُونَ﴾، وَغَزَاهَا لِيَقْتَصِرَ وَيَتَّعَمَّ مِنْ قَتْلِ أَهْلِ مَوْتَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

به، فقتل صناديد المشركين بيد، وقتل من اليهود بني قريظة، وأجلى النضير. وقال ابن الأنباري: معنى الكلام: لا يَلْبَثُونَ على خلافك ومخالفتك، فسقط حرف الخفض. وقرأ أبو رزين، وأبو المتوكل: «خَلَّافُكَ» بضم الخاء، وتشديد اللام، ورفع الفاء.

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا﴾ قال الفراء: نصب السُّنَّةَ على العذاب المُضْمِر، أي: يَعْدُبُونَ كَسُنَّتْنَا فيمن أَرْسَلْنَا. وقال الأخفش: المعنى: سَنَّا سُنَّةً. وقال الزجاج: انتصب بمعنى «لا يلبثون» وتأويله: إِنَّا سَنَّا هذه السُّنَّةَ فيمن أَرْسَلْنَا قبلك أنهم إذا أخرجوا نبيهم أو قتلوه، لم يلبث العذاب أن ينزل بهم.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّذُلَّ الَّذِينَ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَكُنْتُمْ تُكْفَرُونَ﴾ وَمِنْ أَلَيْسَ لَكُمْ بِذُنُوبٍ وَأَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٧٨﴾ وَمِنْ أَلَيْسَ لَكُمْ بِذُنُوبٍ وَأَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٧٩﴾ وَمِنْ أَلَيْسَ لَكُمْ بِذُنُوبٍ وَأَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٠﴾ وَمِنْ أَلَيْسَ لَكُمْ بِذُنُوبٍ وَأَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّذُلَّ﴾ أي: أَدْهًا ﴿لِلَّذُلَّةِ﴾ أي: عند ذلوكها. وذكر ابن الأنباري في «اللام» قولين: أحدهما: أنها بمعنى «في». والثاني: أنها مؤكدة، كقوله: ﴿رَوَى لَكُمْ﴾ [النمل: ٧٢]. وقال أبو عبيدة: ذلوكها: من عند زوالها إلى أن تغيب. وقال الزجاج: مِيلًا وقت الظهيرة ذلوك، ومِيلًا للغروب ذلوك. وقال الأزهري: معنى «الذلوك» في كلام العرب: الزوال، ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار: دالكة، وإذا أفلت: دالكة، لأنها في الحالين زائلة. وللمفسرين في المراد بالذلوك هاهنا قولان: أحدهما: أنه زوالها نصف النهار. روى جابر بن عبد الله قال: دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه، فطعموا عندي، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج رسول الله ﷺ وقال: «اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس»^(١)؛ وهذا قول ابن عمر، وأبي هريرة، وأبي حنيفة، والحسن، والشعبي، وسعيد بن جبيرة، وأبي العالية، ومجاهد، وعطاء، وعبيد بن عمير، وقتادة، والضحاك، ومقاتل، وهو اختيار الأزهري. قال الأزهري: لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس، فيكون المعنى: أقم الصلاة من وقت زوال الشمس إلى غسق الليل، فدخل فيها الأولى، والعصر، وصلاتا غسق الليل، وهما العشاءان، ثم قال: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾، فهذه خمس صلوات. والثاني: أنه غروبها، قاله ابن مسعود^(٢)، والنخعي، وابن زيد، وعن ابن عباس كالقولين. قال الفراء: ورأيت العرب تذهب في الذلوك إلى غيبوبة الشمس، وهذا اختيار ابن قتيبة، قال: لأن العرب تقول: ذلَّك النجم: إذا غاب؛ قال ذو الرمة:

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ بِاللَّوَاتِي تَقْزُودُهَا نُجُومٌ وَلَا بِالْأَفْلَاتِ الدَّوَالِكِ^(٣)

وتقول في الشمس: دلكت بَرَّاح^(٤)، يريدون: غربت، والناظر قد وضع كُفَّهُ على حاجبه ينظر إليها، قال الشاعر:

وَالشَّمْسُ قَدْ كَادَتْ تَكُونُ دَنَفًا أَذْفَعَهَا بِالرَّاحِ كَيْ تَزْخَلَفَ^(٥)

فشبها بالمريض [في] الدَّنَف، لأنها قد هَمَّتْ بالغروب كما قارب الدَّنَف الموت، وإنما ينظر إليها من تحت

(١) رواء الطبري: ١٣٧/١٥، عن ابن أبي ليلى عن رجل عن جابر بن عبد الله، ورواه أيضاً عن نُبَيْحِ الْعَتَزِيِّ عن جابر بن عبد الله، ونُبَيْحِ الْعَتَزِيِّ: مجهول.

(٢) رواء ابن جرير ١٣٤/١٥، والحاكم ٣٦٣/٢، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٥١/٧ وقال: رواء الطبراني ورجاله رجال الصحيح، وخرجه السيوطي في «الدر» ١٩٥/٤ وزاد نسبته إلى عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن مردويه، من طرق عن ابن مسعود.

(٣) «ديوانه» ٥١١ طبع المكتب الإسلامي، و«غريب القرآن» ٢٦٠، و«تفسير القرطبي» ٣٠٣/١٠، و«البحر المحيط» ٦٨/٦، و«اللسان»، و«التاج»: ذلك. مصابيح: يعني الإبل تصبح في مباركها، والأفلات: الغائبات، يقال: أفل النجم: إذا غاب، والدوالك: يقال: دلكت الشمس: إذا غابت أو دنت للمغيب.

(٤) براح، يفتح الباء: اسم للشمس، ومن كسر الباء، فإنه يعني أنه يضع الناظر كفه على حاجبه من شعاعها لينظر.

(٥) البيت للمعراج، «ديوانه» ٨٢، و«تهذيب الألفاظ» ٣٩٣، و«مجاز القرآن» ١/٣٨٨، و«غريب القرآن» ٢٦٠، و«الطبري» ١٣٧/١٥، و«تفسير القرطبي» ٣٠٣/١٠، و«الجمهرة» ٢/٢١٨، وفي «اللسان»: زحلف. يقال للشمس إذا مالت للمغيب، وزالت عن كبد السماء نصف النهار: قد تزحلفت.

الكف ليعلم كم بقي لها إلى أن تغيب، ويتوقى الشعاع بكفه. فعلى هذا، المراد بهذه الصلاة: المغرب. فأما غسق الليل، فظلامه. وفي المراد بالصلاة المتعلقة بغسق الليل ثلاثة أقوال: أحدها: العشاء، قاله ابن مسعود. والثاني: المغرب، قاله ابن عباس. قال القاضي أبو يعلى: فيحتمل أن يكون المراد ببيان وقت المغرب، أنه من غروب الشمس إلى غسق الليل. والثالث: المغرب والعشاء، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ المعنى: وأقم قراءة الفجر. قال المفسرون: المراد به: صلاة الفجر. قال الزجاج: وفي هذا فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة، حين سُميت الصلاة قرآناً. قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾، روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «تشهد ملائكة الليل، وملائكة النهار»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ قال ابن عباس: فَصَّلْ بالقرآن. قال مجاهد، وعلقمة، والأسود: التهجد بعد النوم. قال ابن قتيبة: تهجدت: سهرت، وَهَجَدت: نِمْتُ. وقال ابن الأنباري: التهجد هاهنا بمعنى: التيقظ والسهر، واللغويون يقولون: هو من حروف الأضداد؛ يقال للنائم: هاجد ومتهجد، وكذلك للساهر، قال النابغة:

وَلَوْ أَنَّهَا عَرَضَتْ لِأَشْمَطَ زَاهِبٍ عَبْدَ الْإِلَهِ صَرُورَةَ مُتَهَجِّدٍ
لَرْنَا لِبَهْجَتِهَا وَحُسْنِ حَدِيثِهَا وَلِخَالِهِ رَشْدًا وَإِنْ لَمْ يَرْشُدِ^(٢)

يعني بالمتهجد: الساهر، وقال ليبد:

قَالَ فَجَدْنَا فَقَدْ طَالَ الشَّرَى [وَقَدَرْنَا إِنْ خَنَّا الدَّهْرَ غَفْلًا]^(٣)
أي: تَوَمَّنَا. وقال الأزهري: المتهجد: القائم إلى الصلاة من النوم. وقيل له: متهجد، لإلقائه الهُجُود عن نفسه، كما يقال: تَحْرُج وتَأْتِم.

قوله تعالى: ﴿نَافِلَةٌ لَّكَ﴾ النافلة في اللغة: ما كان زائداً على الأصل. وفي معنى هذه الزيادة في حقه قولان: أحدهما: أنها زائدة فيما فُرض عليه، فيكون المعنى: فريضة عليك، وكان قد فرض عليه قيام الليل، هذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير. والثاني: أنها زائدة على الفرض، وليست فرضاً؛ فالمعنى: تطوعاً وفضيلة. قال أبو أمامة، والحسن، ومجاهد: إنما النافلة للنبي ﷺ خاصة. قال مجاهد: وذلك أنه قد عُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فما زاد على فرضه فهو نافلة له وفضيلة، وهو لغیره كفارة^(٤). وذكر بعض أهل العلم: أن صلاة الليل كانت فرضاً عليه في الابتداء، ثم رُخِّص له في تركها، فصارت نافلة. وذكر ابن الأنباري في هذا قولين: أحدهما: يقارب ما قاله مجاهد، فقال: كان رسول الله ﷺ إذا تنفل لا يقدر له أن يكون بذلك ماحياً للذنوب، لأنه قد عُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وغيره إذا تنفل كان راجياً، ومقدراً محو السيئات عنه بالتنفل، فالنافلة لرسول الله ﷺ زيادة على الحاجة، وهي لغیره

(١) «المسند» ٢٣٨/١٣، وابن ماجه ٢٢٠/١، والسنائي ٢٤١/١، والترمذي ١٤١/٢، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وروى الإمام أحمد في «المسند» ١٧٢/١٢، والبخاري ٣٠٢/٨، و«مسلم» ٤٥٠/١ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تفضل صلاة في الجميع على صلاة الرجل وحده خمسا وعشرين درجة» قال: «وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر» قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

(٢) البيهقي في «دبوانه» ٣١، و«مختار الشعر الجاهلي» ١٨٦/١، وأضداد ابن الأنباري ٥٢. والأشعث: الذي دب في رأسه الشيب، والضرورة: الذي لم يذنب مطلقاً، أو الذي لم يترج.

(٣) «ديوانه» ١٨٢، و«الانتصاب» ١٨٤، و«الخرزانه» ٢٨/٢، وأضداد ابن الأنباري ٥١، وأضداد ابن السكيت ١٩٤، وأضداد الحلبي ٦٧٩، و«اللسان»: هجد، وسرى، وصلة البيت قبله:

وَمَجُودٌ مِنْ ضَبَابَاتِ الْكَرَى عَاطِفُ النَّمْرِ صَدَقِ الْمُبْتَذَلِ
والمجود: الذي يجهد من التعاس وغيره، وقوله: عاطف النمر: يريد عطف نمرقه وثأها فنام، وصدق المبتذل، أي: جلد قوي لا يغير عند ابتذاله نفسه ولا يسقط. قال ابن السيد في شرح البيتين: وصف نفسه بالجلد في السفر، وكثرة السهر حتى يتأذى رفيقه بذلك، فيقول له: خلنا ننام ونستريح... قد قدرنا على ما نريد، ووصلنا إلى ما نحب، إن غفل عنا الدهر ولم يفسد علينا أمرنا، فَلِمَ نهجد أنفسنا بطول السرى، ونمنع أعبتنا لذيذ الكرى؟

(٤) «المسند» ٢٩١/٣، والترمذي ١٤٢/٢، وقال: حديث حسن صحيح، ونقله ابن كثير في «تفسيره» ٥٨/٣، وأقر تصحيح الترمذي إياه، وصححه أيضاً الشيخ أحمد شاكر. وفي سنده قابوس بن أبي ظبيان الجني، ليه الحافظ في «التقريب».

مفتقر إليها، وأمّول بها دفع المكروه. والثاني: أن النافلة للنبي ﷺ وأمته، والمعنى: ومن الليل فتجهّدوا به نافلة لكم، فخطب النبي ﷺ بخطاب أمته.

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ﴾ «عسى» من الله واجبة، ومعنى «يبعثك» يقيمك «مَقَامًا تَحْمَدُوكَ» وهو الذي يحمده لأجله جميع أهل الموقف. وفيه قولان: أحدهما: أنه الشفاعة للناس يوم القيامة، قاله ابن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وابن عمر، وسلمان الفارسي، وجابر بن عبد الله، والحسن، وهي رواية ابن أبي نجيع عن مجاهد^(١). والثاني: يجلسه على العرش يوم القيامة. روى أبو وائل عن عبد الله أنه قرأ هذه الآية، وقال: يُقْعَدُ على العرش، وكذلك روى الضحاك عن ابن عباس، وليث عن مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَوَلَّىٰ رَبِّيَ أَخْلَصِي مَدْخَلَ صِدْقٍ﴾ وقرأ الحسن، وعكرمة، والضحاك، وحמיד بن قيس، وقتادة، وابن أبي عبلّة بفتح الميم في «مَدْخَل» و«مُخْرَج». قال الزجاج: المَدْخَل، بضم الميم: مصدر أدخلته مُدْخَلًا، ومن قال: مَدْخَلٌ صِدْقٌ، فهو على أدخلته، فدخل مَدْخَلٌ صِدْقٌ، وكذلك شرح «مُخْرَج» مثله. وللمفسرين في المراد بهذا المَدْخَل والمُخْرَج أحد عشر قولاً: أحدها: أدخلني المدينة مَدْخَلٌ صِدْقٌ، وأخرجني من مكة مُخْرَجٌ صِدْقٌ. روى أبو ظبيان عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ بمكة، ثم أمر بالهجرة، فنزلت عليه هذه الآية. وإلى هذا المعنى ذهب الحسن في رواية سعيد بن جبيرة، وقتادة، وابن زيد. والثاني: أدخلني القبر مَدْخَلٌ صِدْقٌ، وأخرجني منه مُخْرَجٌ صِدْقٌ، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أدخلني المدينة، وأخرجني إلى مكة، يعني: لفتحها، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: أدخلني مكة مَدْخَلٌ صِدْقٌ، وأخرجني منها مُخْرَجٌ صِدْقٌ، فخرج منها آمناً من المشركين، ودخلها ظاهراً عليها يوم الفتح، قاله الضحاك. والخامس: أدخلني مَدْخَلٌ صِدْقٌ الْجَنَّةَ، وأخرجني مُخْرَجٌ صِدْقٌ من مكة إلى المدينة، رواه قتادة عن الحسن. والسادس: أدخلني في النبوة والرسالة، وأخرجني منها مُخْرَجٌ صِدْقٌ، قاله مجاهد، يعني: أخرجني مما يجب عليّ فيها. والسابع: أدخلني في الإسلام، وأخرجني منه، قاله أبو صالح، يعني: من أداء ما يجب عليّ فيه إذا جاء الموت. والثامن: أدخلني في طاعتك، وأخرجني منها، أي: سالماً غير مقصّر في أدائها، قاله عطاء. والتاسع: أدخلني الفار، وأخرجني منه، قاله محمد بن المنكدر. والعاشر: أدخلني في الدين، وأخرجني من الدنيا وأنا على الحق، ذكره الزجاج. والحادي عشر: أدخلني مكة، وأخرجني إلى حُثَيْنٍ، ذكره أبو سليمان الدمشقي. وأما إضافة الصِدْقِ إلى المَدْخَلِ والمُخْرَجِ، فهو مدح لهما. وقد شرحنا هذا المعنى في سورة [يونس: ٢].

قوله تعالى: ﴿وَنَجْمَلُ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ أي: من عندك «سُلْطَانًا» وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه التسلُّط على الكافرين بالسيف، وعلى المنافقين بإقامة الحدود، قاله الحسن. والثاني: أنه الحجّة البينة، قاله مجاهد. والثالث: المُلْكُ العزيز الذي يُقَهَّرُ به العصاة، قاله قتادة. وقال ابن الأنباري: وقوله: «نَجْمَلُ» يجوز أن يكون بمعنى مُنْصَرًّا، ويصلح أن يكون تأويله ناصراً.

قوله تعالى: ﴿وَوَلَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن الحق: الإسلام، والباطل: الشرك، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن الحق: القرآن، والباطل: الشيطان، قاله قتادة. والثالث: أن الحق: الجهاد، والباطل: الشرك، قاله ابن جريج. والرابع: الحق: عبادة الله، والباطل: عبادة الأصنام، قاله مقاتل. ومعنى «رَهَقَ»: بَطَلَ واضمحَلَّ. وكلُّ شيء هلك وبَطَلَ فقد رَهَقَ. وَرَهَقَتْ نفسه: تلفت. وروى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ

(١) في «صحيح البخاري» عن ابن عمر قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثّاً، كل أمة تتبع نبيّها، تقول يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فلذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود. قال الحافظ ابن حجر في «تخريج أحاديث الكشاف»: وفي الباب عن أنس عند البخاري في التوحيد، وعن ابن مسعود عند النسائي والحاكم، وله طريق آخر عند أحمد والحاكم مطولاً، وعن كعب بن مالك عند الحاكم، وأصله عند مسلم، وعن جابر عند أحمد والحاكم، واختلف في وصله وإرساله عن الزهري عن علي بن الحسين، وعن أبي سعيد عند الترمذي وابن ماجه، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عند ابن مردويه.

دخل مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنهما ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً»^(١). فإن قيل: كيف قلتم: إن «زهق» بمعنى بطل، والباطل موجود معمول عليه عند أهله؟ فالجواب: أن المراد من بطلانه وهلكته: وضوح عيبه، فيكون هالكاً عند المتدبر الناظر.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى: «﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾» (من) هاهنا لبيان الجنس، فجميع القرآن شفاء. وفي هذا الشفاء ثلاثة أقوال: أحدها: شفاء من الضلال، لما فيه من الهدى. والثاني: شفاء من السقم، لما فيه من البركة. والثالث: شفاء من البيان للفرائض والأحكام. وفي «الرحمة» قولان: أحدهما: النعمة. والثاني: سبب الرحمة.

قوله تعالى: «﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ﴾» يعني المشركين «﴿إِلَّا خَسَارًا﴾» لأنهم يكفرون به، ولا ينتفعون بمواعظه، فيزيد خسارهم.

﴿وَإِذَا آمَنَّا عَلَى الْآخِثَةِ أَفْرِضْ وَقَدْ جِئْتَهُ بِآيَاتِنَا وَسَاءَ لَشَرِّ مَا كَانَ يُؤْمَسُ﴾ ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلُّ بِمَلِّ عَلَى شَاكِرِيهِ فَرَحْتُمْ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى: «﴿وَإِذَا آمَنَّا عَلَى الْآخِثَةِ﴾» قال ابن عباس: الإنسان هاهنا: الكافر، والمراد به الوليد بن المغيرة. قال المفسرون: وهذا الإنعام: سعة الرزق، وكشف البلاء. «﴿وَقَدْ جِئْتَهُ بِآيَاتِنَا﴾» قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: «ونأى» على وزن «نعمى» يفتح النون والهمزة. وقرأ ابن عامر: «نأ» مثل «باع». وقرأ الكسائي، وخلف عن سليم عن حمزة: «ونأ» بإمالة النون والهمزة. وروى خلاد عن سليم: «نئ» يفتح النون، وكسر الهمزة؛ والمعنى: تباعد عن القيام بحقوق النعم، وقيل: تعظم وتكبر. «﴿وَإِذَا سَأَلَ أَشَرُّ﴾» أي: نزل به البلاء والفقر «﴿كَانَ يُؤْمَسُ﴾». أي: فنوطاً شديد اليأس، لا يرجو فضل الله.

قوله تعالى: «﴿قُلْ كُلُّ بِمَلِّ عَلَى شَاكِرِيهِ﴾» فيها ثلاثة أقوال: أحدها: على ناحيته، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير. قال الفراء: الشاكلة: الناحية، والجديلة، والطريقة، سمعت بعض العرب يقول: وعبد الملك إذ ذاك على جديلته، وابن الزبير على جديلته، يريد: على ناحيته. وقال أبو عبيدة: على ناحيته وخليقتة. وقال ابن قتيبة: على خليقتة وطبيعته، وهو من الشكل. يقال: لست على شكلي، ولا شاكلي. وقال الزجاج: على طريقته، وعلى مذهبه. والثاني: على نيته؛ قاله الحسن، ومعاوية بن قرة. وقال الليث: الشاكلة من الأمور: ما وافق فاعله. والثالث: على دينه، قاله ابن زيد. وتحرير المعنى أن كل واحد يعمل على طريقته التي تشاكل أخلاقه، فالكافر يعمل ما يشبه طريقته من الإعراض عند النعم واليأس عند الشدة، والمؤمن يعمل ما يشبه طريقته من الشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء، والله يجازي الفريقين. وذكر أبو صالح عن ابن عباس: أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: «﴿وَأَقْبَلُوا لِلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾» [التوبة: ٢٥]، وليس بشيء.

﴿وَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْآيَاتِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٨٥﴾

قوله تعالى: «﴿وَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الرُّوحِ﴾» في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن رسول الله ﷺ مرّ بناس من اليهود، فقالوا: سلوه عن الروح؟ فقال بعضهم: لا تسألوه، فيستقبلكم بما تكرهون. فأناه نفر منهم، فقالوا: يا أبا القاسم: ما تقول في الروح؟ فسكت، ونزلت هذه الآية، قاله ابن مسعود^(٢). والثاني: أن اليهود قالت لقريش: سلوا محمداً عن

(١) البخاري ٣٠٣/٨، ومسلم ١٤٠٨/٣، والترمذي ١٤٢/٢ من طرق عن سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله بن مسعود...

(٢) «المسند» ٢٥٤/٥، والبخاري ٣٠٣/٨، ومسلم ٢١٥٢/٤، والترمذي ١٤٢/٢، وانظر ابن كثير ٦٠/٣ في الكلام على سبب نزول هذه الآية. وأخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن المنذر وابن حبان وصححه عن ابن عباس ؓ قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسال هذا الرجل؟ فقال: سلوه عن الروح، فسألوه، فنزلت: «﴿وَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْآيَاتِ إِلَّا قَلِيلًا﴾» ﴿٨٥﴾ قالوا: أوتينا علماً كثيراً؛ أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً، فأنزل الله تعالى: «﴿هَلْ نَرَاكَ مِنَ الْبَرِّ مَكَانًا لِّكَيْتَ نَقُولَ الْبَرِّ قُلْ أَنْ تَنكَدَ كُنْتَ نَقِيًّا وَكَوْنا يَتَّبِعُهُ مَكِيدًا﴾» ﴿٨٦﴾.

ثلاث، فإن أخبركم عن اثنتين وأمسك عن الثالثة فهو نبي؛ سلوه عن فتية فُقدوا، وسلوه عن ذي القرنين، وسلوه عن الروح. فسألوه عنها، ففسّر لهم أمر الفتية في الكهف، وفسر لهم قصة ذي القرنين، وأمسك عن قصة الروح، فنزلت هذه الآية، رواه عطاء عن ابن عباس. وفي المراد بالروح هاهنا ستة أقوال: أحدها: أنه الروح الذي يحيا به البدن، روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس. وقد اختلف الناس في ماهية الروح، ثم اختلفوا هل الروح النفس، أم هما شيان فلا يحتاج إلى ذكر اختلافهم لأنه لا برهان على شيء من ذلك وإنما هو شيء أخذوه عن الطب والفلاسفة؟ فأما السلف، فإنهم أمسكوا عن ذلك، لقوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، فلما رأوا أن القوم سألوا عن الروح فلم يجابوا، والوحي ينزل، والرسول حي، علموا أن السكوت عما لم يُحفظ بحقيقة علمه أولى. والثاني: أن المراد بهذا الروح: ملك من الملائكة على خلقه هائلة، روي عن عليّ عليه السلام، وابن عباس، ومقاتل. والثالث: أن الروح: خلق من خلق الله ﷻ صورهم على صور بني آدم، رواه مجاهد عن ابن عباس. والرابع: أنه جبريل عليه السلام، قاله الحسن، وقتادة. والخامس: أنه القرآن، روي عن الحسن أيضاً. والسادس: أنه عيسى ابن مريم، حكاه الماوردي. قال أبو سليمان الدمشقي: قد ذكر الله تعالى الروح في مواضع من القرآن، فغالب ظني أن الناقلين نقلوا تفسيره من موضعه إلى موضع لا يليق به، وظنوه مثله، وإنما هو الروح الذي يحيى به ابن آدم. وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: من علمه الذي منع أن يعرفه أحد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْتِيَتْهُنَّ مِنْ آيَاتٍ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في المخاطبين بهذا قولان: أحدهما: أنهم اليهود، قاله الأكثرون. والثاني: أنهم جميع الخلق، علمهم قليل بالإضافة إلى علم الله عز وجل، ذكره الماوردي. فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية، وبين قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكُنْ مِنَ الْبَاطِلِ فَقَدْ أَوْقَىٰ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]؟ فالجواب: أن ما أوتيه الناس من العلم، وإن كان كثيراً، فهو بالإضافة إلى علم الله قليل.

﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَثِيرًا (٨٧)

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ قال الزجاج: المعنى: لو شئنا لمحوناه من القلوب والكتب، حتى لا يوجد له أثر، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أي: لا تجد من يتوكل [علينا] في رد شيء منه، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ هذا استثناء ليس من الأول، والمعنى: لكن الله رحمتك فأثبت ذلك في قلبك وقلوب المؤمنين. وقال ابن الأباري: المعنى: لكن رحمة من ربك تمنع من أن تُسلب القرآن، وكان المشركون قد خاطبوا نساءهم من المسلمين في الرجوع إلى دين آبائهم، فهذههم الله ﷻ بسلب النعمة، فكان ظاهر الخطاب للرسول، ومعنى التهديد للامة. وقال أبو سليمان: ﴿ثم لا تجد لك به﴾ أي: بما نفعله بك، من إذهاب ما عندك «وكيلاً» يدفعنا عما نريده بك. وروي [عن] عبد الله بن مسعود أنه قال: يسرى على القرآن في ليلة واحدة، فيجيء جبريل من جوف الليل، فيذهب به من صدورهم ومن بيوتهم، فيصبحون لا يقرؤون آية، ولا يحسنونها^(١). ورد أبو سليمان الدمشقي صحة هذا الحديث بقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً»^(٢)، وحديث ابن مسعود مروي من طريق حسّان، فيحتمل أن يكون النبي ﷺ أراد بالعلم ما سوى القرآن، فإن العلم ما يزال يتقرب حتى يكون رفع القرآن آخر الأمر^(٣).

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في «الفتح» ١٣/١٣ من رواية الطبراني عن عبد الله بن مسعود قال: «وليزعن القرآن من بين أظهركم. يسرى عليه ليلاً، فيذهب من أجواف الرجال فلا يبقى في الأرض منه شيء»، وقال الحافظ: وسنده صحيح، لكنه موقوف.

(٢) البخاري ١/١٧٤، ومسلم ٤/٢٠٥٨ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، ولفظه في البخاري: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم قبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فاستلوا فأفترقا بفير علم فضلوا وأضلوا».

(٣) روى ابن ماجه رقم (٤٠٤٩) بسند قوي عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدري ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، ويُفسرى على كتاب الله ﷻ في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس، الشيخ الكبير، والمجوز، يقولون: أمركنا أبائنا على هذه الكلمة: «لا إله إلا الله» فنحن نقولها»، فقال له صلة: ما تنفي عنهم «لا إله إلا الله» وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة، فأعرض عنه حذيفة، ثم رداه عليه ثلاثاً، كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال: يا صلة، تنجيهم من النار، ثلاثاً. قال في «الزوائد»: إسناده صحيح.

﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾ قال المفسرون: هذا تكذيب للنضر بن الحارث حين قال: «لو شئنا قلنا مثل هذا». والمثل الذي طُلب منهم: كلام له نظم كنظم القرآن، في أعلى طبقات البلاغة. والظهير: المعين.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُنْزِلَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوتًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعَنْبٌ فَتَقْطَرُ الْأَنْهَارُ جَلَلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زُعمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالَهُ وَالْمَلَائِكَةُ قِيَلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُؤْيَاكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا تُفَرِّدُ بِهِ سُبْحَانَ رَبِّكَ هَذَا كُلُّهُ إِلَّا بِشَرِّ رُسُلٍ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ قد فسرناه في هذه السورة [الإسراء: ٤١]، والمعنى: من كل مثل من الأمثال التي يكون بها الاعتبار ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ يعني أهل مكة ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: جحوداً للحق وإنكاراً.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُنْزِلَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوتًا ۝﴾ سبب نزول هذه الآية وما يتبعها، أن رؤساء قريش، كعتبة، وشيبة، وأبي جهل، وعبد الله بن أبي أمية، والنضر بن الحارث في آخرين، اجتمعوا عند الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعتدوا فيه، فبعثوا إليه: إن أشرف قومك قد اجتمعوا ليكلّموك، فجاءهم سريعاً، وكان حريصاً على رشدكم، فقالوا: يا محمد، إنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومك ما أدخلت على قومك، لقد شمت الآباء، وعبت الدين، وسفّهت الأحلام، وفرّقت الجماعة، فإن كنت إنما جئت بهذا لتطلب مالاً، جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا، سوّدناك علينا، وإن كان هذا الرّئي الذي يأتيك قد غلب عليك، بذلنا أموالنا في طلب الطّب لك حتى تُبْرِئنا منه، أو تُعَذِّرَ فِيك. فقال رسول الله ﷺ: «إِنْ تَقْبَلُوا مِنِّي [ما جئتكم به]، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه^(١) عليّ، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم». قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل مِنّا ما عرضنا، فقد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيّق بلاداً ولا أشدّ عيشاً مِنّا، سل لنا ربك يُسَيِّرَ لنا هذه الجبال التي ضيّقت علينا، ويُجْري لنا أنهاراً، ويبعث من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما نقول: أحق هو؟ فإن فعلت صدّقناك، فقال رسول الله ﷺ: «ما بهذا بعثت، وقد أبغلتكم ما أرسلت به؟» قالوا: فسل ربك أن يبعث ملكاً يصدّقك، وسله أن يجعل لك جناناً، وكنوزاً، وقصوراً من ذهب وفضة تغنيك؛ قال: «ما أنا بالذي يسأل ربه هذا؟» قالوا: فأسقط^(٢) السماء [علينا] كما زعمت بأن ربك إن شاء فعل؛ فقال: «ذلك إلى الله ﷻ»؛ فقال قائل منهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً، وقال عبد الله بن أبي أمية: لا أؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلماً، وترقى فيه وأنا أنظر، وتأتي بنسخة منشورة معك، ونفري من الملائكة يشهدون لك، فانصرف رسول الله ﷺ حزينا لما رأى من مبادئهم إياه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ...﴾ الآيات، رواه عكرمة عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى تُنْزِلَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «حتى تُنْزِلَ» بضم الناء، وفتح الفاء، وتشديد الجيم مع الكسرة. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: «حتى تُفْجِرَ» بفتح الناء، وتسكين الفاء، وضم الجيم مع التخفيف. فمن ثقل، أراد كثرة الانفجار من ينبوع، ومن خفف، فلان ينبوع واحد. فأما ينبوع: فهو عين ينبع الماء منها؛ قال أبو عبيدة: هو يفعل، من نبع الماء، أي: ظهر وفار.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ أي: بستان ﴿فَتَقْطَرُ الْأَنْهَارُ جَلَلَهَا﴾ أي: تفتحها وتجريها ﴿جَلَلَهَا﴾ أي: وسط تلك الجنة. قوله تعالى: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زُعمَتْ عَلَيْنَا﴾ وقرأ مجاهد، وأبو مجلز، وأبو رجاء، وحמיד، والجحدري: «أو تُسْقِطَ» بفتح الناء، ورفع القاف «السما» بالرفع.

قوله تعالى: ﴿كِسْفًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «كِسْفًا» بتسكين السين في جميع القرآن إلا

في الأصل: فتسقط، والتصحيح من «الطبري»، و«ابن كثير»، و«الدر».

(١) في الأصل: تردوا.

في [الروم: ٤٨] فإنهم حركوا السين. وقرأ نافع، وأبو بكر عن عاصم بتحريك السين في الموضعين، وفي باقي القرآن بالتسكين. وقرأ ابن عامر هاهنا بفتح السين، وفي باقي القرآن بتسكينها. قال الزجاج: من قرأ «كِسْفًا» بفتح السين، جعلها جمع كسفة، وهي: القطعة، ومن قرأ «كِسْفًا» بتسكين السين، فكانهم قالوا: أسقطها طبقاً علينا؛ واشتقاقه من كسفت الشيء: إذا غطيته، يعنون: أسقطها عليها قطعة واحدة. وقال ابن الأنباري: من سَكَنَ قال: تأويله: سترًا وتغطية، من قولهم: قد انكسفت الشمس: إذا غطاها ما يحول بين الناظرين إليها وبين أنوارها.

قوله تعالى: ﴿وَرَأَى إِلَهُهُ وَالْمَلَكُ كَيْلًا﴾ فيه ثلاثة أقوال. أحدها: عياناً، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال قتادة، وابن جريج، ومقاتل. وقال أبو عبيدة: معناه. مقابلة، أي: معاينة، وأنشد للأعشى:

نُصَالِحُكُمْ حَتَّى تَبْؤُوا بِمِثْلِهَا كَصَرْخَةِ حُبْلَى يَسْرَتْهَا قَبِيلُهَا^(١)

أي: قابليتها. ويروى: وجَّهتها [يعني بدل: يسرتها]. والثاني: كفيلاً أنك رسول الله، قاله أبو صالح عن ابن عباس، واختاره الفراء، قال: القبيل، والكفيل، والزعيم، سواء؛ تقول: قبلت، وكفلت وزعمت. والثالث: قبيلة، كل قبيلة على جدتها، قاله الحسن، ومجاهد. فأما الزخرف، فالمراد به الذهب، وقد شرحنا أصل هذه الكلمة في [يونس: ٢٤]، و«ترقى»: بمعنى «تصعد»؛ يقال: رَقَيْتُ أَرْقَى رُقْيًا.

قوله تعالى: ﴿حَقُّ نَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا﴾ قال ابن عباس: كتاباً من رب العالمين إلى فلان يصبح عند كل واحد منا يقرؤه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ﴾ قرأ نافع، وعاصم، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «قل». وقرأ ابن كثير، وابن عامر: «قال»، وكذلك هي في مصاحف أهل مكة والشام، «قُلْ كُنْتُ إِلَّا بِشْرًا رَسُولًا»، أي: أن هذه الأشياء ليست في قوى بشر. فإن قيل: لم اقتصر على حكاية «قالوا» من غير إيضاح الرد؟ فالجواب: أنه لما خصهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَنجَمْتُ آيَاتِي وَأَلْجَمُ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾ فلم يكن في وسعهم، عجزهم، فكانه يقول: قد أوضحت لكم بما سبق من الآيات ما يدل على نبوتي، ومن ذلك التحدي بمثل هذا القرآن، فأما عتثكم فليس في وسعي، ولأنهم ألحوا عليه في هذه الأشياء، ولم يسألوه أن يسأل ربه، فرد قولهم بكونه بشراً، فكفى ذلك في الرد.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَتَ اللَّهُ بِشْرًا رَسُولًا﴾ ﴿١٩﴾ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَشْهَدُ مَطْمَئِينَ لَرَأَيْتُمْ إِلَهُكُمْ رَبَّ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٢٠﴾ قُلْ كَفَىٰ بِيَالِهَةٍ سَبِيلاً إِلَهُي وَيَعْتَكِبُ إِلَهُهُ كَانَ يَكُونُ خَيْرًا مِنْكُمْ ﴿٢١﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ قال ابن عباس: يريد أهل مكة. قال المفسرون: ومعنى الآية: وما منعهم من الإيمان «إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ» وهو البيان والإرشاد في القرآن «إِلَّا أَنْ قَالُوا» [أي: إلا] قولهم في التعجب والإنكار: «أَبَتَ اللَّهُ بِشْرًا رَسُولًا؟» وفي الآية اختصار، تقديره: هلا بعث الله ملكاً رسولاً، فأجيبوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَشْهَدُ مَطْمَئِينَ﴾ أي: مستوطنين الأرض. ومعنى الطمأنينة: السكون؛ والمراد من الكلام أن رسول كل جنس ينبغي أن يكون منهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِيَالِهَةٍ سَبِيلاً﴾ قد فسرناه في [الرعد: ٤٣] ﴿إِنَّهُ كَانَ يَكُونُ خَيْرًا مِنْكُمْ﴾ قال مقاتل: حين اختص الله محمداً بالرسالة.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهْ هُدًى فَلَنْ يَضِلَّ فَلَنْ يُجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رُوحِهِمْ عَمِيَ رَبُّكَ وَمَسَّ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ كَيْلًا جَهَنَّمَ يَنْزِلُ مِنْ سَعِيرٍ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ وَأَنْتُمْ كَذَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا لَوْ كُنَّا عِظَمًا لَوَلَّيْنَا لِمَعْبُودُونَ خَلَقًا جَدِيدًا ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ لَهُمْ فِئْلَهُمْ وَيَجْعَلَ لَهُمْ أُولَاءَ لَا رِبَّ فِيهِ فَإِنَّ الظَّالِمِينَ إِلَّا كُفُورًا ﴿١٩﴾ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَسْكُنْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهْ هُدًى﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو بالياء في الوصل، وحذفها في الوقف. وأثبتها

(١) «الطبري» ١٦٢/١٥. وهو في ملحق «ديوان الأعشى» ٢٥٦ برواية «شواهد الكشاف» ٢٤٧، و«اللسان»: قبل. وعجز البيت في «الإصلاح» ١٦٠، وفتح الباري ٢٩٨/٨.

يعقوب في الوقف، وحذفها الأكثرون في الحالتين. «من يهد الله» قال ابن عباس: من يرد الله هداً ﴿فَهُوَ أَلْمُهَتَرٌ وَمِنْ يُضْلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَةً مِنْ دُونِهِ﴾ يهدونهم.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يمشيهم على وجوههم، وشاهده ما روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» من حديث أنس بن مالك أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «إن الذي أمشاه على رجله في الدنيا، قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»^(١). والثاني: أن المعنى: ونحشرهم مسحوبين على وجوههم، قاله ابن عباس. والثالث: نحشرهم مسرعين مبادرين، فعبر بقوله: «على وجوههم» عن الإسراع، كما تقول العرب: قد مرَّ القوم على وجوههم: إذا أسرعوا، قاله ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿عَمِيًّا وَبِكْمًا وَصَمًّا﴾ فيه قولان: أحدهما: عمياً لا يرون شيئاً يسرهم، وبكماً لا ينطقون بحجة، وصماً لا يسمعون شيئاً يسرهم، قاله ابن عباس. وقال في رواية: عمياً عن النظر إلى ما جعل لأوليائه، وبكماً عن مخاطبة الله، وصماً عما مدح به أوليائه، وهذا قول الأكثرين. والثاني: أن هذا الحشر في بعض أحوال القيامة بعد الحشر الأول. قال مقاتل: هذا يكون حين يقال لهم: ﴿أَنْشُرُوا فِيهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فيصيرون عمياً بكماً صماً لا يرون ولا يسمعون ولا ينطقون بعد ذلك.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا حَبَّتْ﴾ قال ابن عباس: أي: سكنت. قال المفسرون: وذلك أنها تأكلهم، فإذا لم تُبق منهم شيئاً وصاروا فحماً ولم تجد شيئاً تأكله، سكنت، فيعادون خلقاً جديداً، فتعود لهم. وقال ابن قتيبة: يقال: خبت النار: إذا سكن لهبها. فاللهب يسكن، والجمر يعمل، فإن سكن اللهب، ولم يُطقأ الجمر، قيل: خمدت تخمُد تخمُوداً، فإن طُفئت ولم يبق منها شيء، قيل: همدت تهمد هُمُوداً. ومعنى ﴿وَيَذَنَّهُمْ سَعِيرًا﴾: ناراً تسعر، أي: تلهب. وما بعد هذا قد سبق تفسيره [الإسراء: ٤٩] إلى قوله: ﴿قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: على أن يخلقهم مرة ثانية، وأراد به «مثلهم» إياهم، وذلك أن مثل الشيء مساو له، فجاز أن يعتبر به عن نفس الشيء، يقال: مثلك لا يفعل هذا، أي: أنت، ومثله قوله: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وقد تم الكلام عند قوله: ﴿وَمِثْلَهُمْ﴾، ثم قال: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَهْلًا لَا رَبَّ فِيهِ﴾ يعني: أجل البعث ﴿فَأَبَى الْأَكْثَرُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: جحوداً بذلك الأجل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ قال الزجاج: المعنى: لو تملكون أنتم، قال المتلمس:

وَلَوْ غَيْرُ أَخْوَالِي أَرَادُوا نَقِيصَتِي نَصَبْتُ لَهُمْ فَوْقَ الْعَرَانِينَ مِيسَمًا^(٢)

المعنى: لو أراد غير أخوالي. وفي هذه الخزائن قولان: أحدهما: خزائن الأرزاق. والثاني: خزائن النعم، فيخرج في الرحمة قولان: أحدهما: الرِّزْق. والثاني: النعمة. وتحريم الكلام: لو ملكتم ما يملكه الله ﷻ لأمسكنكم عن الإنفاق خشية الفاقة. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ﴾ يعني: الكافر ﴿كُفُورًا﴾ أي: بخيلاً مُمسيكاً؛ يقال: قَتَر يَقْتَر، وقَتَر يَفْتَر: إذا قَصَّر في الإنفاق. وقال الماوردي: لو ملك أحد من المخلوقين من خزائن الله تعالى، لما جاد كجود الله تعالى، لأمرين: أحدهما: أنه لا بد أن يُمسك منه لنفقتة ومنفعتة. والثاني: أنه يخاف الفقر، والله تعالى منزّه في جوده عن الحالين. ثم إن الله تعالى ذكر إنكار فرعون آيات موسى، تشبيهاً بحال هؤلاء المشركين، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ﴾ وفيها قولان: أحدهما: أنها بمعنى المعجزات والدلالات، ثم اتفق جمهور المفسرين على سبع آيات منها، وهي: يده، والعصا، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، واختفوا في الآيتين الأخريتين على ثمانية أقوال. أحدها: أنهما لسانه والبحر الذي فلق له، رواه العوفي عن ابن عباس؛ يعني بلسانه: أنه كان فيه عقدة فحلها الله تعالى له. والثاني: البحر والجبل الذي نُقِى فوقهم، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: السُّنُون ونقص الثمرات، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والشعبي، وعكرمة، وقتادة. وقال الحسن: السُّنُون ونقص الثمرات آية واحدة. والرابع: البحر والموت أرسل عليهم، قاله الحسن، ووهب. والخامس: الحَجَر والبحر، قاله سعيد بن جبيرة. والسادس: لسانه وإلقاء العصا مرتين عند فرعون، قاله الضحاك. والسابع: البحر والسُّنُون، قاله محمد بن كعب. والثامن: ذكره [محمد بن إسحاق عن] محمد بن كعب أيضاً،

فذكر السبع الآيات الأولى، إلا أنه جعل مكان يده البحر، وزاد الطمسة والحجر، يعني قوله: ﴿أَطِيسَ عَلَى أَسْوَأِهَا﴾ (يونس: ٨٨). والثاني: أنها آيات الكتاب، روى أبو داود السجستاني من حديث صفوان بن عسال، أن يهودياً قال لصاحبه: تعال حتى نسأل هذا النبي، فقال الآخر لا تقتل: إنه نبي، فإنه لو سمع ذلك، صارت له أربعة أعين؛ فأتياه، فسألاه عن تسع آيات بينات، فقال: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تأكلوا الرِّبا، ولا تمشوا بالبريء إلى السلطان ليقتله، ولا تشحروا، ولا تقذفوا المحصنات، ولا تقربوا من الرُّحف، وعليكم خاصة يهود ألا تغدوا في السبت»، قال: فقَبَلَا يده، وقالوا: نشهد أنك نبي^(١).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى إِسْحَاقَ مَائِدَتِ يَسْتَلِّ بِحَقِّ إِسْرَافِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٥١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافَرٍ بَصِيرٍ ﴿١٥٢﴾ وَلَئِنْ لَأَظُنُّكَ يُفْرَعُونَ مَسْجُورًا ﴿١٥٣﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَقِزَهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمِن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٥٤﴾ وَفَلَّانُ مِنَ بَنِي إِسْرَافِيلَ اسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ فَإِذَا جَاءَهُمْ وَقَدْ آخَرَهُ جِتَانًا يَمَكُّ لِيَمَكَّا ﴿١٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَسْتَلِّ بِحَقِّ إِسْرَافِيلَ﴾ قرأ الجمهور: «فاسأل» على معنى الأمر لرسول الله ﷺ. وإنما أمر أن يسأل من آمن منهم عما أخبر [به] عنهم، ليكون حجة على من لم يؤمن منهم. وقرأ ابن عباس: «فَسَأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ»، [على معنى] الخبر عن موسى أنه سأل فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل. ﴿فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ﴾ أي: لأحسبك ﴿يَمُوسَى مَسْحُورًا﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: مخدوعاً، قاله ابن عباس. والثاني: مسحوراً قد سُحِرَتْ، قاله ابن السائب. والثالث: ساحراً، فوضع مفعولاً في موضع فاعل، هذا مروى عن الفراء، وأبي عبيدة. فقال موسى: ﴿لَقَدْ كُنْتُ﴾ قرأ الجمهور بفتح التاء. وقرأ علي ﷺ بضمها، وقال: والله ما علم عدو الله، ولكن موسى هو الذي علم، فبلغ ذلك ابن عباس، فاحتج بقوله تعالى: ﴿وَمَحَلُّوهُمَا وَاسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسَهُمْ﴾ [النمل: ١٤]. واختار الكسائي وتعلب قراءة علي ﷺ وقد رويت عن ابن عباس، وأبي رزين، وسعيد بن جبيرة، وابن يعمر. واحتج من نصرها بأنه لما نَسَبَ موسى إلى أنه مسحور، أعلمه بصحة عقله بقوله: «لقد علمت»، والقراءة الأولى أصح، لاختيار الجمهور، ولأنه قد أبان موسى من المعجزات ما أوجب علم فرعون بصدقه، فلم يرد عليه إلا بالتعلل والمدافعة، فكانه قال: لقد علمت بالدليل والحجة «ما أنزل هؤلاء» يعني الآيات. وقد شرحنا معنى «البصائر» في [الأعراف: ٢٠٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ لَأَظُنُّكَ﴾ قال أكثر المفسرين: الظن هاهنا بمعنى العلم، على خلاف ظن فرعون في موسى، وسوى بينهما بعضهم، فجعل الأول بمعنى العلم أيضاً. وفي المثلور ستة أقوال: أحدها: أنه الملعون، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. والثاني: المغلوب، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: الناقص العقل، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس. والرابع: المُهْلَك، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال أبو عبيدة، وابن قتيبة. قال الزجاج: يقال: بُر الرجل، فهو مثبور: إذا أهلك. والخامس: الهالك، قاله مجاهد. والسادس: الممنوع من الخير؛ تقول العرب: ما بُرك عن هذا، أي: ما منعك، قاله الفراء.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَقِزَهُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ يعني: فرعون أراد أن يستفز بني إسرائيل من أرض مصر. وفي معنى «يستفزهم» قولان: أحدهما: يستأصلهم، قاله ابن عباس. والثاني: يستخفهم حتى يخرجوا، قاله ابن قتيبة. وقال الزجاج: جائز أن يكون استفزازهم إخراجهم منها بالقتل أو بالتنحية. قال العلماء: وفي هذه الآية تنبيه على نصرة رسول الله ﷺ، لأنه لما خرج موسى فطلبه فرعون، هلك فرعون وملك موسى، وكذلك أظهر الله نبيه بعد خروجه من مكة حتى رجع إليها ظاهراً عليها.

(١) كذا ذكر المؤلف الحديث من رواية أبي داود السجستاني عن صفوان بن عسال، ولم نره في «سنن أبي داود» عن صفوان، بل هو في «مسند أحمد» ٢٣٩/٤، و«سنن الترمذي» ٩٨/٢، والنسائي، وابن ماجه رقم (٣٧٠٥). ولفظه في الترمذي: فقبلوا يديه ورجليه، وقالوا: نشهد أنك نبي، قال: «فما منعكم أن تبصروني؟» قالوا: إن داود ﷺ دعا به أن لا يزال من فريته نبي، وإننا نخاف إن تبصرك أن تقتلنا اليهود. وقال الترمذي في آخره: هذا حديث حسن صحيح. وقال ابن كثير في «تفسيره» ٦٧/٣: وهو حديث مشكل، وعبد الله بن سلمة - أحد الرواة - في حفظه شيء، وقد تكلموا فيه، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعرش الكلمات، فإنها وصايا في التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون، والله أعلم. اهـ. وأما الذي في «سنن أبي داود» فهو من حديث ابن عمر في قصة رقم (٢٦٤٧): فدنونا - يعني من النبي ﷺ - فقبلنا يده، وجاء مختصراً برقم (٥٢٣٣)، وهو في «سنن أبي داود» أيضاً رقم (٥٢٢٥) من حديث زارع وكان في وفد عبد القيس قال: لما قدمنا المدينة، فجعلنا نتبادر من رواحلتنا فنقبل يد النبي ﷺ ورجله... الحديث.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي ثَمُودَ﴾ أي: من بعد هلاك فرعون ﴿لَنَبِيٍّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ أَنْتَكُمُ الْآزْدَقُ﴾، وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: فلسطين والأردن، قاله ابن عباس. والثاني: أرض وراء الصَّين، قاله مقاتل. والثالث: أرض مصر والشام. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ يعني: القيامة ﴿جِئْنَا بِكَ لَيًّا﴾ أي: جميعاً، قاله ابن عباس، ومجاهد، وابن قتبية. وقال الفراء: لفيماً، أي: مِنْ هَاهُنَا وَمِنْ هَاهُنَا. وقال الزجاج: اللفي: الجماعات من قبائل شتى. ﴿وَالْحَقُّ أَزَلَّتْهُ وَكَانَ تَزَلُّ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ فَرْقَنًا لِلْقُرْآنِ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكٍّ وَزَلَّزْنَاهُ نَزِيلًا﴾ ﴿فَلَمْ يَأْتِ بِهُمُ آيَةٌ إِلَّا فِي الْآيَةِ أَوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُشْلَخَ عَلَيْهِمْ يُخْرِجُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ﴿وَقَفُّوا لَهُ سُبْحَانَ رَبِّكَ إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّكَ لَمَفْعُولًا﴾ ﴿وَيُخْرِجُونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُرُونَ وَيَرْزُقُهُمْ خُشُوعًا﴾ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْحَقُّ أَزَلَّتْهُ﴾ الهاء كناية عن القرآن، والمعنى: أنزلنا القرآن بالأمر الثابت والذين المستقيم، فهو حقٌّ، ونزوله حق، وما تضمنه حق. وقال أبو سليمان الدمشقي: «وبالحق أنزلناه» أي: بالتوحيد، «وبالحق نزل» يعني: بالوعد والوعيد، والأمر والنهي.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ فَرْقَنًا﴾ قرأ علي عليه السلام، وسعد بن أبي وقاص، وأبي بن كعب، وابن مسعود، وابن عباس: وأبو رزين، ومجاهد، والشعبي، وقتادة، والأعرج، وأبو رجاء، وابن محيصن: «فرقناه» بالتشديد. وقرأ الجمهور بالتخفيف. فأما قراءة التخفيف، ففي معناها ثلاثة أقوال: أحدها: بيتاً حلاله وحرامه، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: فرقنا فيه بين الحق والباطل، [قاله الحسن]. والثالث: أحكمناه وفصلناه، كقوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤٤]، قاله الفراء. وأما المشددة، فمعناها: أنه أنزل متفرقاً، ولم ينزل جملة واحدة. وقد بينا في أول كتابنا هذا مقدار المدة التي نزل فيها.

قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكٍّ﴾ قرأ أنس، والشعبي، والضحاك، وقتادة، وأبو رجاء، وأبان عن عاصم، وابن محيصن: بفتح الميم؛ والمعنى: على تودة وترسل ليتدبروا معناه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَأْتِ بِهُمُ آيَةٌ إِلَّا فِي الْآيَةِ أَوْتُوا الْعِلْمَ﴾ هذا تهديد لكفار [أهل مكة]، والهاء كناية عن القرآن. ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ﴾ وفيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم ناس من أهل الكتاب، قاله مجاهد. والثاني: أنهم الأنبياء عليه السلام، قاله ابن زيد. والثالث: طلاب الذين، كأبي ذر، وسلمان، وورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو، قاله الواحدي. وفي هاء الكناية في قوله: ﴿بَيْنَهُمَا يُفْرَقُ﴾ قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى القرآن، والمعنى: من قبل نزوله. والثاني: ترجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله ابن زيد. فعلى الأولى ﴿وَإِذَا يُشْلَخَ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن. وعلى قول ابن زيد ﴿وَإِذَا يُشْلَخَ عَلَيْهِمْ﴾ ما أنزل إليهم من عند الله.

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ اللام هاهنا بمعنى «على». قال ابن عباس: قوله «لِلْأَذْقَانِ» للوجوه. قال الزجاج: الذي يَخْرُجُ وهو قائم، إنما يَخْرُجُ لوجهه، والذَّقْن: مُجْتَمِعُ اللَّحْيَيْنِ، وهو عضو من أعضاء الوجه، فإذا ابتداء يَخْرُجُ، فأقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض الذقن. وقال ابن الأنباري: أول ما يلقى الأرض من الذي يَخْرُجُ قبل أن يصوّب وجهه ذقته، فلذلك قال: «لِلْأَذْقَانِ». ويجوز أن يكون المعنى: يَخْرِجُونَ للوجوه، فاكثفى بالذقن من الوجه كما يكتفى بالبعض من الكل، وبالنوع من الجنس.

قوله تعالى: ﴿وَقَفُّوا لَهُ سُبْحَانَ رَبِّكَ إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّكَ﴾ نَزَّهَا اللهُ تعالى عن تكذيب المكذِّبين بالقرآن، وقالوا: ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّكَ﴾ بإنزال القرآن وبعث محمد صلى الله عليه وسلم. وهؤلاء قوم كانوا يسمعون أن الله باعث نبيّاً من العرب، ومُنَزِّل عليه كتاباً، فلما عاينوا ذلك، حمدوا الله تعالى على إنجاز الوعد، ﴿وَيُخْرِجُونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ كرّر القول ليدل على تكرار الفعل منهم. ﴿وَيَرْزُقُهُمْ خُشُوعًا﴾ أي: يزيدهم القرآن تواضعاً. وكان عبد الأعلى التيمي يقول: من أوتي من العم ما لا يبيكه، لخلق أن لا يكون أوتي علماً ينفعه، لأن الله تعالى نعت العلماء فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ...﴾ إلى قوله: «يكون».

﴿هَلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَمْ مَا نَدْعُوا اللَّهَ الْأَسْمَاءَ الْمُسْنَى وَلَا تَهْتَفِرُ بِصَلَاتِهِ وَلَا تَخَافُ يَمَّا وَابَسَ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ﴿وَقُلِ لِمَسَدٍ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذْ وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الدَّلِيلِ وَكَوْنُهُ تَكْبِيرًا﴾ ﴿١٠٦﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ...﴾ الآية. هذه الآية نزلت على سببين. نزل أولها إلى قوله: ﴿الْمُسْنَى﴾

على سبب، وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن رسول الله ﷺ تهجد ذات ليلة بمكة، فجعل يقول في سجوده: «يا رحمن، يا رحيم»، فقال المشركون: كان محمد يدعو إلهاً واحداً، فهو الآن يدعو إلهين اثنين: الله، والرحمن، ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون: مسيلة، فأنزل الله هذه الآية، قاله ابن عباس^(١). والثاني: أن رسول الله ﷺ كان يكتب في أول ما أوحى إليه: باسمك اللهم، حتى نزل: ﴿إِنَّكَ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠]، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال مشركو العرب: هذا الرحيم نعرفه، فما الرحمن؟ فنزلت هذه الآية، قاله ميمون بن مهران. والثالث: أن أهل الكتاب قالوا لرسول الله ﷺ: إِنَّكَ لَتَقُولُ ذِكْرَ الرَّحْمَنِ وَقَدْ أَكْثَرَ اللَّهُ فِي التَّوْرَةِ هَذَا الاسْمَ، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك. فأما قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ فنزل على سبب، وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن رسول الله ﷺ كان يرفع صوته بالقرآن بمكة، فيسبُّ المشركون القرآن ومن أتى به، فخفض رسول الله ﷺ صوته بعد ذلك حتى لم يسمع أصحابه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبُّوا القرآن، ﴿وَلَا تُخَافُ يَكَا﴾ عن أصحابك، فلا يسمعون، قاله ابن عباس^(٢). والثاني: أن الأعرابي كان يجهر في التشهد ويرفع صوته، فنزلت هذه الآية، هذا قول عائشة. والثالث: أن رسول الله ﷺ كان يصلي بمكة عند الصفا، فجهر بالقرآن في صلاة الغداة، فقال أبو جهل: لا تفتِّر على الله، فخفض النبي ﷺ صوته، فقال أبو جهل للمشركين: ألا ترون ما فعلت بآبن أبي كبشة؟ رددته عن قراءته، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. فأما التفسير، فقله: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ المعنى: إن شئتم فقولوا: يا الله، وإن شئتم فقولوا: يا رحمن، فإنهما يرجعان إلى واحد، ﴿لَهُمَا مَا تَدْعُوا﴾ المعنى: أي أسماء الله تدعوا؛ قال الفراء: «وما» قد تكون صلة كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصِيعَنَ تَوْبَهُنَّ﴾ [المؤمنون: ٤٠]، وتكون في معنى: «أي» معادة لما اختلف لفظها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنها الصلاة الشرعية. ثم في المراد بالكلام ستة أقوال: أحدها: لا تجهر بقراءتك، ولا تخافت بها، فكأنه نهي عن شدة الجهر بالقراءة، وشدة المخافة، قاله ابن عباس. فعلى هذا في تسمية القراءة بالصلاة قولان ذكرهما ابن الأنباري: أحدهما: أن يكون المعنى: فلا تجهر بقراءة صلاتك. والثاني: أن القراءة بعض الصلاة، فنابت عنها، كما قيل لعيسى: كلمة الله، لأنه بالكلمة كان. والثاني: لا تصلِّ مراعاة للناس، ولا تدَّعها مخافة الناس، قاله ابن عباس أيضاً. والثالث: لا تجهر بالتشهد في صلاتك، روي عن عائشة في رواية، وبه قال ابن سيرين. والرابع: لا تجهر بفعل صلاتك ظاهراً، ولا تخافت بها شديد الاستتار، قاله عكرمة. والخامس: لا تُحسِّنَ علانيتُها، وتُسيئُ سريرتها، قاله الحسن. والسادس: لا تجهز بصلاتك كلها، ولا تُخافت بجمعها، فاجهر في صلاة الليل، وخافت في صلاة النهار، على ما أمرناك به، ذكره القاضي أبو يعلى. والقول الثاني: أن المراد بالصلاة: الدعاء، وهو قول عائشة، وأبي هريرة، ومجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَافُ يَكَا﴾ المخافة: الإخفاء، يقال: صوت خفيت. ﴿وَأَبَشَّ بَيْنَ ذَلِكَ سَيْبَا﴾ أي: اسلك بين الجهر والمخافة طريقاً. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: نُسخَت هذه الآية بقوله: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَعَرُّجًا وَخَيْفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقال ابن السائب: نُسخَت بقوله: ﴿فَأَصْلَحْ بِمَا تَوَصَّرَ﴾ [الحجر: ٩٤] وعلى التحقيق، وجود النسخ هاهنا بعيد.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكَ شِرْكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ وقرأ أبو المتوكِّل، وأبو الجوزاء، وطلحة بن مصرف: «في الملك» بكسر الميم. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكَ وَلِيٌّ مِنَ الدُّنْيَا﴾ قال مجاهد: لم يحالف أحداً، ولم يبتغ نصر أحد؛ والمعنى: أنه لا يحتاج إلى موالة أحد لئلا يلحقه، فهو مستغن عن الولي والنصير. ﴿وَكَبِيرَةٌ تَبْكُورًا﴾ أي: عظيمة تعظيماً تاماً.



(١) أخرجه ابن جرير الطبري ١٨٢/١٥ عن مكحول أن النبي ﷺ كان يتهجذ بمكة... إلخ، وهو مرسل.

(٢) «الطبري» ١٨٤/١٥، وأحمد في «المستد» ٢١٥/١، والبخاري ٣٠٧/٨، ومسلم.

سورة الكهف

فصل في نزولها

روى أبو صالح عن ابن عباس أن سورة (الكهف) مكية، وكذلك قال الحسن، ومجاهد، وقتادة. وهذا إجماع المفسرين من غير خلاف نعلمه، إلا أنه قد روي عن ابن عباس، وقتادة أن منها آية مدنية، وهي قوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ [الكهف: ٢٨]. وقال مقاتل: من أولها إلى قوله تعالى: ﴿صَبِيحًا جُزْأً﴾ [الكهف: ٨] مدني، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨] الآيتان. مدنية، وباقيها مكية. وروى أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من حفظ عشر آيات من أول (الكهف) ثم أدرك الدجال لم يضره، ومن حفظ خواتيم سورة (الكهف) كانت له نوراً يوم القيامة»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا ۖ ﴿١﴾ قِيمًا مُّثَبِّرَةً بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ﴿٢﴾ مَتَّكِينَ فِيهِ أَبَدًا ۖ ﴿٣﴾ وَيُنذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ ﴿٥﴾ فَلَمَّا كَفَتْ نَجْحُ نَفْسِكَ عَلَى مَا نَرَاهُمْ إِن لَّزَّ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۖ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قد شرحناه في أول «الفتاححة». والمراد بعبده هاهنا: محمد ﷺ، وبالكاتب: القرآن، تمدح بإنزاله، لأنه إنعام على الرسول خاصة، وعلى الناس عامة. قال العلماء باللغة والتفسير: في هذه الآية تقديم وتأخير، تقديرها: أنزل على عبده الكتاب ﴿قِيمًا﴾ أي: مستقيماً عدلاً. وقرأ أبو رجاء، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وابن يعمر، والنخعي، والأعمش: ﴿قِيمًا﴾ بكسر القاف، وفتح الباء، وقد فسرناه في [الأنعام: ١٦٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا﴾ أي: لم يجعل فيه اختلافاً، وقد سبق بيان العوج في [آل عمران: ٩٩].

قوله تعالى: ﴿يُنذِرُ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي: عذاباً شديداً، ﴿مِّنْ لَّدُنْهُ﴾ أي: من عنده، ومن قبيله، والمعنى: لينذر الكافرين ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو الجنة. ﴿مَتَّكِينَ﴾ أي: مقيمين، وهو منصوب على الحال. ﴿وَيُنذِرُ﴾ بعذاب الله ﴿الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ وهم اليهود حين قالوا: عزيز ابن الله، والنصارى حين قالوا: المسيح ابن الله، والمشركون حين قالوا: الملائكة بنات الله، ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ بذلك القول ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ الذين قالوا ذلك، ﴿كَبُرَتْ﴾ أي: عظمت ﴿كَلِمَةً﴾ الجمهور على النصب. وقرأ ابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وأبو رزين، وأبو رجاء، ويحيى بن يعمر، وابن محيصن، وابن أبي عبيدة: «كلمة» بالرفع. قال الفراء: من نصب، أضمر: كُتِبَتْ تلك الكلمة كلمة، ومن رفع، لم يضم شيئاً، كما تقول: عظم قولك. وقال الزجاج: من نصب، فالمعنى: كبرت مقاتلتهم: اتخذ الله ولداً كلمة، و«كلمة» منصوب على التمييز. ومن رفع، فالمعنى: عظمت كلمة هي قولهم: اتخذ الله ولداً.

(١) ذكره بهذا اللفظ السيوطي في «الدر» ٢٠٩/٤ من رواية أبي عبيد، وابن مردويه، عن أبي الدرداء ﷺ. وروى أحمد في «المستد» ٤٤٩/٤، ومسلم في «صحيحه» ٥٥٥/١، وأبو داود في «سننه» رقم (٤٣٣٣) عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة (الكهف) عصم من الدجال» ورواه أحمد ٤٤٦/٤ عن أبي الدرداء بلفظ: «من قرأ عشر آيات من آخر الكهف...» ورواه مسلم وأبو داود من حديث قتادة به، ورواه الترمذي ١١٢/٢ عن أبي الدرداء بلفظ: «من قرأ ثلاث آيات من أول (الكهف) عصم من فتنة الدجال» وقال: هذا حديث حسن صحيح.

قوله تعالى: ﴿خَرَجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: إنها قول بالفم لا صحة لها، ولا دليل عليها، ﴿إِنْ يَقُولُونَ﴾ أي: ما يقولون ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾. ثم عاتبه على حُزْنِهِ لِقَوْلِهِ ما كان يرجو من إسلامهم، فقال: ﴿فَلَمَّا كَبَتْ عَلَيْهِمْ نَفْسُكَ﴾ وقرأ سعيد بن جبير، وأبو الجوزاء، وقتادة: «باخع نفسك» بكسر السين، على الإضافة. قال المفسرون واللغويون: فلعلك مهلك نفسك، وقاتل نفسك، وأنشد أبو عبيدة لذي الرمة:

أَلَا أَيُّهَذَا الْبَاخِعُ الْوَجْدُ نَفْسَهُ لِسَيِّئِهِ نَحْسَهُ عَنِ يَدَيْهِ الْمَقَادِرُ^(١)

أي: نحته. فإن قيل: كيف قال: ﴿فَلَمَّا كَبَتْ﴾ والغالب عليها الشك، والله عالم بالآشياء قبل كونها؟ فالجواب: أنها ليست بشك، إنما هي مقدرة تقدير الاستفهام الذي يعني به التقرير، فالمعنى: هل أنت قاتل نفسك؟! لا ينبغي أن يطول أساك على إعراضهم، فإن من حكمتنا عليه بالشقوة لا تجدي عليه الحسرة، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مَأْتِرِهِمْ﴾ أي: من بعد توليهم عنك ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن ﴿أَسَفًا﴾ وفيه أربعة أقوال. أحدها: حزنًا، قاله ابن عباس، وابن قتيبة. والثاني: جزعًا، قاله مجاهد. والثالث: غصباً، قاله قتادة. والرابع: ندمًا، قاله السدي. وقال أبو عبيدة: ندمًا وتلهفًا وأسى. قال الزجاج: الأسف: المبالغة في الحزن، أو الغضب، يقال: قد أسف الرجل، فهو أسيف، قال الشاعر:

أَرَى رَجُلًا مِنْهُمْ أَسِيفًا كَأَنَّمَا يَضُمُّ إِلَى كَشْحِهِ كَفًّا مُخَضَّبًا^(٢)

وهذه الآية يشير بها إلى نهي رسول الله ﷺ عن كثرة الحرص على إيمان قومه لثلا يؤدي ذلك إلى هلاك نفسه بالأسف.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُثًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنهم الرجال، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثاني: العلماء، رواه مجاهد عن ابن عباس. فعلى هذين القولين تكون «ما» في موضع «مَنْ» لأنها في موضع إبهام، قاله ابن الأنباري. والثالث: أنه ما عليها من شيء، قاله مجاهد. والرابع: النبات والشجر، قاله مقاتل. وقول مجاهد أعظم، يدخل فيه النبات، والماء، والمعادن، وغير ذلك. فإن قيل: قد نرى بعض ما على الأرض سيجاً وليس بزينة. فالجواب: أنا إن قلنا: إن المراد [به] شيء مخصوص، فالمعنى: إنا جعلنا بعضها على الأرض زينة لها، فخرج مخرج العموم، ومعناه الخصوص. وإن قلنا: هم الرجال أو العلماء، فلعبادتهم أو لدلائتهم على خالقهم. وإن قلنا: النبات والشجر، فلأنه زينة لها تجري مجرى الكسوة والحلية. وإن قلنا: إنه عام في كل ما عليها، فلكونه دالاً على خالقه، فكأنه زينة الأرض من هذه الجهة.

قوله تعالى: ﴿لِنَبْلُوهُمْ﴾ أي: لنختبر الخلق، والمعنى: لنعاملهم معاملة المبتلى، قال ابن الأنباري: من قال: إن «ما على الأرض» يعني به النبات، قال: الهاء والميم ترجع إلى سكان الأرض المشاهدين للزينة، ومن قال: «ما على الأرض» الرجال، ردّ الهاء والميم على «ما» لأنها بتأويل الجميع، ومعنى الآية: لنبلوهم فنرى أيهم أحسن عملاً، هذا، أم هذا. قال الحسن: أيهم أزهد في الدنيا. وقد ذكرنا في هذه الآية أربعة أقوال في سورة [مود: ٧]. ثم أعلم الخلق أنه يفني جميع ذلك، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا﴾ قال الزجاج: الصعيد: الطريق الذي لا نبات فيه. وقال ابن الأنباري: قال اللغويون: الصعيد: التراب، ووجه الأرض. فأما الجُرُثُ، فقال الفراء: أهل الحجاز يقولون: أرض جُرُثٌ، وجُرُثٌ. وأسَدُ تقول: جَرَزَ، وجُرَزَ، وتميم تقول: أرض جُرَزٌ، وجُرَزٌ، بالتخفيف، وقال أبو عبيدة: الصعيد الجُرَزُ: الغليظ الذي لا يُثْبِتُ شيئاً. ويقال للسنّة المُجْدِبَةِ: جُرَزٌ، ويسنون أجواز، لجوديتها، وقلة مطرها، وأنشد:

(١) ديوانه طبع المكتب الإسلامي صفحة (٣٣٨)، والطبري ١٥/١٩٤، ومجاز القرآن ١/٣٩٣، والطبري ١٠/٣٤٨، والصحاح، والراغب، والأساس، واللسان، والتاج: بضع، وفتح الباري ٨/٣٠٨.

(٢) قاله الأعشى الكبير ميمون بن قيس: «ديوانه» ١١٥، واللسان: أسف. والأسيف: الحزين والغضبان ومن لا يكاد يسمن، لأن الحقد يأكله.

قَدْ جَرَّ قُوَّاهُمْ السُّنُونُ الْأَجْرَارُ^(١)

وقال الزجاج: الجز: الأرض التي لا ينبت فيها شيء، كأنها تأكل النبت أكلاً. وقال ابن الأنباري: قال اللغويون: الجز: [الأرض] التي لا يبقى بها نبات، تحرق كل نبات يكون بها. وقال المفسرون: وهذا يكون يوم القيامة، يجعل الله الأرض مستوية لا نبات فيها ولا ماء.

﴿أَرَحِيبَتُ أَنْ أَصْحَبَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رِزْقًا وَهَيْئَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَدَأْتَهُمْ لِئَلَّا يَصْطَبُوا لِمَا لَمْ تُشِئُوا أَمَدًا (١٢)

قوله تعالى: ﴿أَرَحِيبَتُ أَنْ أَصْحَبَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ نزلت على سبب قد ذكرناه عند قوله تعالى: ﴿وَسَتَلَوْنَكَ عَنِ الرَّؤُفِ﴾ [الإسراء: ٨٥]. وقال ابن قتيبة: ومعنى «أم حسبت»: أحسبت. فأما «الكهف» فقال المفسرون: هو المغارة في الجبل، إلا أنه واسع، فإذا صغر، فهو غار. قال ابن الأنباري: قال اللغويون: الكهف بمنزلة الغار في الجبل. فأما الرقيم، ففيه ستة أقوال: أحدها: أنه لوح من رصاص كانت فيه أسماء الفتية مكتوبة ليعلم من اطلع عليهم يوماً من الدهر ما قصتهم، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال وهب بن منبه، وسعيد بن جبير في رواية، ومجاهد في رواية. وقال السدي: الرقيم: صخرة كُتِبَ فيها أسماء الفتية، وجُعِلَتْ في سُورِ المدينة. وقال مقاتل: الرقيم: كتاب كتبه رجُلان صالحان، وكانا يكتمان إيمانهما من الملك الذي فَرَّ منه الفتية، كتبَا أمر الفتية في لوح من رصاص، ثم جعلاه في تابوت من نحاس، ثم جعلاه في البناء الذي سَدُّوا به باب الكهف، فقالا: لعل الله أن يُطْلِعَ على هؤلاء الفتية أحداً، فيعلمون أمرهم إذا قرؤوا الكتاب. وقال الفراء: كُتِبَ في اللوح أسماؤهم، وأنسابهم، ودينهم، وممن كانوا. قال أبو عبيدة، وابن قتيبة: الرقيم: الكتاب، وهو فعيل بمعنى مفعول، ومنه: كتاب مرقوم، أي: مكتوب. والثاني: أنه اسم القرية التي خرجوا منها، قاله كعب. والثالث: اسم الجبل، قاله الحسن، وعطية. والرابع: أن الرقيم: الدواة، بلسان الروم، قاله عكرمة ومجاهد في رواية. والخامس: اسم الكلب، قاله سعيد بن جبير. والسادس: اسم الوادي الذي فيه الكهف، قاله قتادة، والضحاك.

قوله تعالى: ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ قال المفسرون: معنى الكلام: أحسبت أنهم كانوا أعجب آياتنا؟! قد كان في آياتنا ما هو أعجب منهم، فإن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصتهم. وقال ابن عباس: الذي آتيتك من الكتاب والسنة والعلم، أفضل من شأنهم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾ قال الزجاج: معنى: أَوَى إليه: صاروا إليه، وجعلوه مأواهم. والفتية: جمع فتى، مثل غلام وغلمة، وصبي وصبية. و«فعلة» من أسماء الجمع، وليس ببناء يقاس عليه؛ لا يجوز غراب وغرته، ولا غني وغنية. وقال بعض المفسرين: الفتية: بمعنى الشبان. وقد ذكرنا عن القتيبي أن الفتى: بمعنى الكامل من الرجال، وبيّناه في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ فِتْيَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ [النساء: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾ أي: من عندك ﴿رِزْقًا﴾ أي: رزقاً ﴿وَهَيْئَ لَنَا﴾ أي: أصلح لنا ﴿مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: أرشدنا إلى ما يقرئنا منك. والمعنى: هَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا مَا نَصِيبُ بِهِ الرِّشْدَ. والرُّشْدُ والرَّشْدُ، والرشاد: نقيض الضلال.

تلخيص قصة أصحاب الكهف

اختلف العلماء في بُدُو أمرهم، وسبب مصيرهم إلى الكهف، على ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم هربوا ليلاً من ملكهم حين دعاهم إلى عبادة الأصنام، فمروا براح له كلب، فتبعهم على دينهم، فأووا إلى الكهف يتعبدون، ورجل منهم يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة، إلى أن جاءهم يوماً فأخبرهم أنهم قد ذُكِرُوا، فبكوا وتَعَوَّذُوا بالله من الفتنة،

(١) «الطبري» ١٥/١٩٧، و«مجاز القرآن» ١/٣٩٤، و«اللسان» جز.

فضرب الله تعالى على آذانهم، وأمر الملك فسد عليهم الكهف، وهو يظنهم أيقاظاً، وقد توفى الله أرواحهم وفاة التَّوَم، وكلَّهم قد غشيهِ ما غشيهم. ثم إن رجلين مؤمنين يكتمان إيمانهما كتباً أسماءهم وأنسابهم وخبرهم في لوح من رصاص، وجعله في تابوت من نحاس في البنيان، وقالوا: لعل الله يُطْلَع عليهم قوماً مؤمنين، فيعلمون خبرهم، هذا قول ابن عباس. وقال عبيد بن عمير: فَقَدَهم قومهم فطلبوهم، فعَمَّى الله عليهم أمرهم، فكتبوا أسماءهم وأنسابهم في لوح: فلان وفلان أبناء ملوكنا فَقَدْنَاهم في شهر كذا، في سنة كذا، في مملكة فلان، ووضعوا اللوح في خزانة الملك، وقالوا: لِيَكُونَنَّ لهذا شأن. والثاني: أن أحد الحواريين جاء إلى مدينة أصحاب الكهف، فأراد أن يدخلها، فقيل له: إن على بابها صنماً لا يدخلها أحد إلا سجد له، فكره أن يدخلها، فأتى حَمَّاماً قريباً من المدينة، فكان يعمل فيه بالأجر، وعلقه فتية من أهل المدينة، فجعل يخبرهم عن خبر السماء والأرض، وخبر الآخرة، فآمنوا به وصدَّقوه، حتى جاء ابن الملك يوماً بامرأة، فدخل معها الحَمَّام، فأنكر عليه الحواريُّ ذلك، فسبَّه ودخل، فمات وماتت المرأة في الحمام، فأتى الملك، فقيل له: إن صاحب الحمام قتل ابنك، فالتَّوَسَّسَ فهرب، فقال: من كان يصحبه؟ فسُمي له الفتية، فالتَّوَسَّسوا فخرجوا من المدينة، فمروا على صاحب لهم في زرع، وهو على مثل أمرهم، فانطلق معهم ومعه كلب حتى آواهم الليل إلى الكهف، فدخلوه فقالوا: نبئت هاهنا، ثم نصيح إن شاء الله فترَوْنَ رأيكم، فضرب الله على آذانهم فناموا؛ وخرج الملك، وأصحابه يتبعونهم، فوجدوهم قد دخلوا الكهف، فكلما أراد رجل أن يدخل [الكهف] أُرْعِب، فقال قائل للملك: أليس قلتُ؟ إن قدرْتُ عليهم قتلُهم؟ قال: بلى، قال: فابن عليهم باب الكهف حتى يموتوا جوعاً وعطشاً، ففعل، هذا قول وهب بن منبّه. والثالث: أنهم كانوا أبناء عظماء المدينة وأشرافهم، خرجوا فاجتمعوا وراء المدينة على غير ميعاد، فقال رجل منهم، هو أسنهم: إني لأجد في نفسي شيئاً ما أظن أحداً يجده، فقالوا: ما تجد؟ قال: أجد في نفسي أن ربي ربُّ السَّمَوَات والأرض، فقاموا جميعاً فقالوا: ربُّنا ربُّ السَّمَوَات والأرض، فأجمعوا أن يدخلوا الكهف، فدخلوا، فلبثوا ما شاء الله، هذا قول مجاهد. وقال قتادة: كانوا أبناء ملوك الروم، فتفرَّدوا بدينهم في الكهف، فضرب الله على آذانهم.

فصل

فأما سبب بعث أصحاب الكهف من نومهم، فقال عكرمة: جاءت أمّة مسلمة، وكان ملكهم مسلماً، فاختلفوا في الروح والجسد، فقال قائل: يُبْعَث الروح والجسد. وقال قائل: يبعث الروح وحده، والجسد تأكله الأرض فلا يكون شيئاً، فشق اختلافهم على الملك، فانطلق فلبس المسوح، وقعد على الرماد، ودعا الله أن يبعث لهم آية تبين لهم، فبعث الله أصحاب الكهف. وقال وهب بن منبّه: جاء راعٍ قد أدركه المطر إلى الكهف، فقال: لو فتحت هذا الكهف، وأدخلته غنمي من المطر، فلم يزل يعالجه حتى فتحه، ورد الله إليهم أرواحهم حين أصبحوا من الغد. وقال ابن السائب: احتاج صاحب الأرض التي فيها الكهف أن يبني حظيرة لغنمه، فهدم ذلك السد، فبنى به، فانفتح باب الكهف. وقال ابن إسحاق: ألقى الله في نفس رجل من أهل البلد أن يهدم ذلك البنيان فيبني به حظيرة لغنمه، فاستاجر عاملين ينزعان تلك الحجارة، فنزعها، وفتح باب الكهف، فجلسوا فرحين، فسَلَّم بعضهم على بعض لا يرون في وجوههم ولا أجسادهم شيئاً يكرهونه، إنما هم على هيئتهم حين رقدوا وهم يرون أن ملكهم في طلبهم، فصلّوا، وقالوا ليمليخا صاحب نفقتهم: انطلق فاستمع، ما نذكرك به، وابتغ لنا طعاماً، فوضع ثيابه، وأخذ الثياب التي كان يتنكر فيها، وخرج فرأى الحجارة قد نزعَت عن باب الكهف، فعجب، ثم مرَّ مستخفياً متخوفاً أن يراه أحد فيذهب به إلى الملك، فلما رأى باب المدينة رأى عليه علامة تكون لأهل الإيمان، فعجب، وخيّل إليه أنها ليست بالمدينة التي يعرف، ورأى ناساً لا يعرفهم، فجعل يتعجب ويقول: لعلي نائم؛ فلما دخلها رأى قوماً يحلفون باسم عيسى، فقام مسنداً ظهره إلى جدار، وقال في نفسه: والله ما أدري ما هذا، عشة أمس لم يكن على [وجه] الأرض من يذكر عيسى إلا قُتل، واليوم أسمعهم يذكرونه، لعل هذه ليست المدينة التي أعرف، والله ما أعرف مدينة قرب مدينتنا، فقام كالحيوان، وأخرج ورقاً

فأعطاه رجلاً وقال: بعني طعاماً، فنظر الرجل إلى نقشه فعجب، ثم ألقاه إلى آخر، فجعلوا يتطارحونه بينهم، ويتعجبون، ويتشاورون، وقالوا: إن هذا قد أصاب كنزاً، ففَرَّقَ منهم، وظنَّهم قد عرفوه، فقال: أمسكوا طعامكم فلا حاجة بي إليه، فقالوا له: من أنت يا فتى؟ والله لقد وجدت كنزاً وأنت تريد أن تخفيه، شاركنا فيه وإلا أتينا بك إلى السلطان فيقتلك، فلم يدر ما يقول، فطرحوا كسائه في عنقه وهو ييكي ويقول: فُرق بيني وبين إخوتي، يا ليتهم يعلمون ما لقيت، فأتوا به إلى رجلين كانا يدبران أمر المدينة، فقالوا: أين الكنز الذي وجدت؟ قال: ما وجدت كنزاً، ولكن هذه وِرَق آبائي، ونقش هذه المدينة وضربها، ولكن والله ما أدري ما شأني، ولا ما أقول لكم، قال مجاهد: وكان وِرَق أصحاب الكهف مثل أخفاف الإبل، فقالوا: من أنت، وما اسم أبيك؟ فأخبرهم، فلم يجدوا من يعرفه، فقالوا له أحدهما: أنظن أنك تسخر منّا وخزائن هذه البلدة بأيدينا، وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار؟! إني سأمر بك فتعذب عذاباً شديداً ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز، فقال يملixa: أنبئوني عن شيء أسألكم عنه، فإن فعلتم صدقتكم، قالوا: سل، قال: ما فعل الملك دقيانوس؟ قالوا: لا نعرف اليوم على وجه الأرض مَلِكاً يسمى دقيانوس، وإنما هذا ملك كان منذ زمان طويل، وهلك بعدة قرون كثيرة، فقال: والله ما يصدقني أحد بما أقوله، لقد كُتِّبَ فتية، وأكرهنا المَلِكُ على عبادة الأوثان والذبح للطواغيت، فهربنا منه عشية أمس فنمنا، فلما انتبهنا خرجت أشتري لأصحابي طعاماً، فإذا أنا كما ترون، فانطلقوا معي إلى الكهف أريكم أصحابي، فانطلقوا معه وسائر أهل المدينة، وكان أصحابه قد ظنوا لإبطائه عليهم أنه قد أخذ، فبينما هم يتخفون ذلك، إذ سمعوا الأصوات وجلبة الخيل، فظنوا أنهم رُسل دقيانوس، فقاموا إلى الصلاة، وسَلَّم بعضهم على بعض، فسبق يملixa إليهم وهو ييكي، فبكوا معه، وسأله عن شأنه، فأخبرهم خبره، وقص عليهم النبأ كله، فعرفوا أنهم كانوا نياماً بأمر الله تعالى، وإنما أوقفوا ليكونوا آية للناس، وتصديقاً للبعث؛ ونظر الناس في المسطور الذي فيه أسماءهم وقصتهم، فعجبوا، وأرسلوا إلى ملكهم، فجاء، واعتنق القوم، وبكى، فقالوا له: نستودعك الله ونقرأ عليك السلام، حفظك الله، وحفظ ملكك، فبينما الملك قائم، رجعوا إلى مضاجعهم، وتوَقَّى الله عز وجل أنفسهم، فأمر الملك أن يجعل لكل واحد منه تابوت من ذهب، فلما أَسَّسُوا رَأْسَهم في المنام، فقالوا: إنا لم نُخلَقْ من ذهب وفضة، ولكن خُلِقْنَا من تراب، فاتركنا كما كُنَّا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله ﷻ منه، وحجبهم الله عز وجل حين خرجوا من عندهم بالرَّعب، فلم يقدر أحد أن يدخل عليهم، وأمر المَلِكُ فُجِّعَ على باب الكهف مسجدٌ يصلى فيه، وجعل لهم عيداً عظيماً يَؤْتِي كل سنة. وقيل: إنه لما جاء يملixa ومعه الناس، قال: دعوني أدخل إلى أصحابي فأبشِّرهم، فإنهم إن رأوكم معي أَرعَبتموهم، فدخل فبشَّرهم، وقبض الله روحه وأرواحهم، فدخل الناس، فإذا أجساد لا ينكرون منها شيئاً، غير أنها لا أرواح فيها، فقال الملك: هذه آيةٌ بعثها الله لكم.

قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ قال الزجاج: المعنى: أنمناهم ومنعناهم السمع، لأن النائم إذا سمع انتبه. و﴿عَدَدًا﴾ منصوب على ضربين: أحدهما: على المصدر، المعنى: تُعَدُّ عدداً. والثاني: أن يكون نعتاً للسنين، المعنى: سنين ذات عدد، والفائدة في ذِكْرِ العدد في الشيء المعداد، توكيد كثرة الشيء، لأنه إذا قُلَّ فُهِمَ مقداره، وإذا كَثُرَ احتيج إلى أن يُعَدَّ العدد الكثير. ﴿ثُمَّ بَشَّرْنَاهُمْ﴾ من نومهم، يقال لكلِّ مَنْ خرج من الموت إلى الحياة، أو من النوم إلى الانتباه: مبعوث، لأنه قد زال عنه ما كان يحبسُه عن التصرف والانبعاث. وقيل: معنى ﴿بَشَّرْنَاهُمْ﴾: ﴿بَشَّرْنَاهُمْ﴾: أنه لم يكن فيها شهور ولا أيام، إنما هي كاملة، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ آتَيْنَا لَٰكُمُ الْكِتَابَ﴾ قال المفسرون: أي: لنرى. وقال بعضهم: المعنى: لتعلموا أنتم. وقرأ أبو الجوزاء، وأبو عمران، والنخعي: «لَيُعَلِّمَ» بضم الياء، على ما لم يُسمَّ فاعله «أَيُّ الْحَزْبَيْنِ»، ويعني بالحزبين: المؤمنين والكافرين من قوم أصحاب الكهف. ﴿أَخَصِّنَا لِمَا إِنَّا كُنَّا﴾ أي: لنعلم أهؤلاء أحصى للامد أو هؤلاء، فكانه وقع بينهم تنازع في مدة لبثهم في الكهف بعد خروجهم من بينهم، فبعثهم الله ليبين ذلك ويظهر. قال قتادة: لم يكن للفريقين عِلْمٌ بلبثهم، لا لمؤمنيهم، ولا لكافريهم. قال مقاتل: لما بُعثوا زال الشك وعُرفت حقيقة

اللبث. وقال القاضي أبو يعلى: معنى الكلام: بعثناهم ليظهر المعلوم في اختلاف الحزبين في مدة لبثهم، لما في ذلك من العبرة.

﴿هَٰؤُلَاءِ نِعَمٌ عَلَيْكَ تَبَاهُمْ يَالْحَيُّ إِنَّهُمْ ذُنُوبُهُمْ وَأَمَّا رَبُّهُمْ وَرَزَقَهُمْ هَٰذِهِ ﴿١٣﴾ وَرَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُوبُهُمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا سَطَطْنَا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَوْلَا بَأْتُوكَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰؤُلَاءِ نِعَمٌ عَلَيْكَ تَبَاهُمْ﴾ أي: خبر الفتية ﴿يَالْحَيُّ﴾ أي: بالصدق.

قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَهُمْ هَٰذِهِ﴾ أي: ثبنتهم على الإيمان، ﴿وَرَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُوبُهُمْ﴾ أي: ألهمناها الصبر ﴿إِذْ قَامُوا﴾ بين يدي ملكهم دقيانوس ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وذلك أنه كان يدعو الناس إلى عبادة الأصنام، فعصم الله هؤلاء حتى عصوا ملكهم. وقال الحسن: قاموا في قومهم فدعواهم إلى التوحيد. وقيل: هذا قولهم بينهم لما اجتمعوا خارج المدينة على ما ذكرنا في أول القصة. فأما الشطط، فهو الجور. قال الزجاج: يقال: شَطَّ الرجل، وأَشْطَطَ: إذا جار. ثم قال الفتية: ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا﴾ يعنون الذين كانوا في زمن دقيانوس ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ أي: عبدوا الأصنام ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿بَأْتُوكَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على عبادة الأصنام ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي: بحجة. وإنما قال: «عليهم» والأصنام مؤنثة، لأن الكفار نحلوها العقل والتمييز، فجرت مجرى المذكرين من الناس.

قوله تعالى: ﴿هَٰؤُلَاءِ نِعَمٌ عَلَيْكَ تَبَاهُمْ﴾ أي: خبر الفتية ﴿يَالْحَيُّ﴾ أي: بالصدق.

﴿إِذْ أَفْتَرْتَهُمْ وَمَا يَسْتَدْرِكُ إِلَّا اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ وَرَبِّي الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَرَوُّهُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَفْتَرْتَهُمْ﴾ قال ابن عباس: هذا [قول] يملخوا، وهو رئيس أصحاب الكهف، قال لهم: وإذ اعتزلتموهم، أي: فارقتموهم، يريد: عبدة الأصنام، ﴿وَمَا يَسْتَدْرِكُ إِلَّا اللَّهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: واعتزلتم ما يعبدون، إلا الله، فإن القوم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه آلهة، فاعتزل الفتية عبادة الآلهة، ولم يعتزلوا عبادة الله، هذا قول عطاء الخراساني، والفراء. والثاني: وما يعبدون غير الله؛ قال قتادة: هي في مصحف عبد الله: «وما يعبدون من دون الله»، وهذا تفسيرها.

قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ إِلَى الْكَهْفِ﴾ أي: اجعلوه مأواكم، ﴿يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: ييسط عليكم من رزقه، ﴿وَيَهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي: «مرفقا» بكسر الميم، وفتح الفاء. وقرأ نافع، وابن عامر: «مرفقا» بفتح الميم، وكسر الفاء. قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: «مرفقا» بفتح الميم وكسر الفاء، في كل مرفق ارتفعت به، ويكسرون مرفق الإنسان، والعرب قد يكسرون الميم منهما جميعاً. قال ابن الأنباري: معنى الآية: ويهيئ لكم بدلاً من أمركم الصَّعب مرفقا، قال الشاعر:

فَلَيْتَ لَنَا مِنْ مَاءٍ زَمَزَمَ شَرِبَةً مُبَرَّدَةً بَاتَتْ عَلَى طَهْيَانٍ^(١)

معناه: فليت لنا بدلاً من ماء زمزم. قال ابن عباس: «ويهيئ لكم»: يسهل عليكم ما تخافون من الملك وظلمه ويأتيكم باليسر والرفق واللطف.

قوله تعالى: ﴿وَرَبِّي الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ﴾ المعنى: لو رأيته لرأيت ما وصفنا. ﴿تَرَوُّهُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «تَرَوُّهُ» بتشديد الزاي. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: «تَرَوُّهُ» خفيفة. وقرأ ابن عامر: «تَرَوُّهُ» مثل: «تَحْمَرُّ». وقرأ أبي بن كعب، وأبو مجلز، وأبو رجاء، والجدري: «تَرَوُّهُ» بإسكان الزاي، وبألف ممدودة بعد الواو من غير همزة، مشددة الراء. وقرأ ابن مسعود، وأبو المتوكل، وابن السميع: «تَرَوُّهُ» بهمزة قبل الراء،

مثل: «تَزَوَّرَ». وقرأ أبو الجوزاء، وأبو السماك: «تَزَوَّرَ» بفتح التاء والزاي وتشديد الواو المفتوحة خفيفة الراء، مثل: «تَكْوَرَّ»، أي: تميل وتعدل. قال الزجاج: أصل «تزاوَر»: تتزاوَر، فأدغمت التاء في الزاي، و«تَقَرَّضَهُمْ» أي: تعدل عنهم وتركهم، وقال ذو الرمة:

إِلَى طَلْعِنِ يَقْرِضُنْ أَجْوَارَ مُشْرِفٍ شِمَالاً وَعَنْ أَيْمَانِهِنَّ الْقَوَارِسُ^(١)

يقرضن: يتركن. وأصل القرض: القطع والتفرقة بين الأشياء، ومنه قولك: أقرضني درهماً، أي: أقطع لي من مالك درهماً. قال المفسرون: كان كهفهم بإزاء بنات نعش في أرض الروم، فكانت الشمس تميل عنهم طالعةً وغاربةً لا تدخل عليهم فتؤذيهم بحرّها وتغير ألوانهم. ثم أخبر أنهم كانوا في متسع من الكهف ينالهم فيه برد الريح، ونسيم الهواء، فقال: «وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ» قال أبو عبيدة: أي: [في] مُتَّسَعٍ، والجميع: فَجَوَاتٍ، وفجاء، بكسر الفاء. وقال الزجاج: إنما صُرِفَتِ الشمس عنهم آيةً من الآيات، ولم يرض قول من قال: كان كهفهم بإزاء بنات نعش.

قوله تعالى: «ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ» يشير إلى ما صنعه بهم من اللطف في هدايتهم، وصرف أذى الشمس عنهم، والرعب الذي ألقى عليهم حتى لم يقدر الملك الظالم ولا غيره على أذاهم. «من آيات الله» أي: من دلائله على قدرته ولطفه. «مَنْ يَدَّ اللَّهُ فَهُوَ أَلْمَهُتٌ» هذا بيان أنه هو الذي تولى هداية القوم، ولولا ذلك لم يهتدوا.

«وَتَحْسَبُهُمْ آيَاطًا وَهُمْ رُؤُودٌ وَتَقْلِبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمْلَمْتَ مِنْهُمْ رُعبًا»^(٢)

قوله تعالى: «وَتَحْسَبُهُمْ آيَاطًا» أي: لو رأيتهم لحسبتهم آيَاطًا. قال الزجاج: الأيَاط: المنتبهون، واحدهم: يَقِظٌ، وَيَقْظَانٌ، والجميع: آيَاطٌ؛ والرقود: النيام. قال الفراء: واحد الأيَاط: يَقِظٌ، وَيَقْظُ. قال ابن السائب: وإنما يُحَسِّبُونَ آيَاطًا، لأن أعينهم مفتحة وهم نيام. وقيل: لتقلبهم يميناً وشمالاً. وذكر بعض أهل العلم: أن وجه الحكمة في فتح أعينهم، أنه لو دام ظنُّهم للذابت.

قوله تعالى: «وَتَقْلِبُهُمْ» وقرأ أبو رجاء: «وَتَقْلِبُهُمْ» ببناء مفتوحة، وسكون القاف، وتخفيف اللام المكسورة. وقرأ أبو الجوزاء، وعكرمة: «وَتَقْلِبُهُمْ» مثلها، إلا أنه بالنون. «ذَاتَ الْيَمِينِ» أي: على أيمانهم وعلى شمائلهم. قال ابن عباس: كانوا يقلبون في كل عام مرتين، ستة أشهر على هذا الجنب، وستة أشهر على هذا الجنب، لئلا تأكل الأرض لحومهم. وقال مجاهد: كانوا ثلاثمائة عام على شِقِّ واحد، ثم قلبوا تسع سنين.

قوله تعالى: «وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ» أخبر أن الكلب كان على مثل حالهم في النوم، وهو في رأي العين منتبه. وفي الوصيد أربعة أقوال: أحدها: أنه الفناء فناء الكهف، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبیر، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والفراء. قال الفراء: يقال: الوَصِيدُ والأَصِيدُ لغتان، مثل الإكفاف والوكاف. وأُرْخَتِ الكتاب وورُخَت، ووكدت الأمر وأكَّدت؛ وأهل الحجاز يقولون: الوَصِيد، وأهل نجد يقولون: الأَصِيد، وهو: الحظيرة والفناء. والثاني: أنه الباب، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال السدي. وقال ابن قتيبة: فيكون المعنى: وكلبهم باسط ذراعيه بالباب، قال الشاعر:

بِأَرْضِ قَصَاءٍ لَا يُسَدُّ وَصِيدُهَا عَلِيٍّ وَمَعْرُوفِي بِهَا غَيْرُ مُنْكَرٍ^(٣)

والثالث: أنه الصعيد، وهو التراب، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبیر، ومجاهد في رواية عنهما. والرابع: أنه عتبة الباب، قاله عطاء. قال ابن قتيبة: وهذا أعجب إليّ، لأنهم يقولون: أوصد بابك، أي: أغلقه، ومنه قوله: «إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ»^(٤) [الهمزة: ٨]، أي: مُطَبَّقَةٌ مُغْلَقَةٌ، وأصله أن تلتصق الباب بالعتبة إذا أغلقت، ومما يوضح هذا أنك إذا جعلت الكلب بالفناء، كان خارجاً من الكهف، وإن جعلته بعتبة الباب،

(١) ديوانه طبع المكتب الإسلامي ٤٠٣، و«مجاز القرآن» ٣٩٦/١، و«الطبري» ٢١١/١٥، ومشرف والفوارس: موضعان بنجد كما في «معجم ما استعجم».

(٢) البيت لعبيد بن وهب العبسي، وهو في «غريب القرآن» ٢٦٥، و«البحر المحيط» ٩٣/٦، و«القرطبي» ٣٥١/١٠، ٣٧٣.

أمكن أن يكون داخل الكهف، والكهف وإن لم يكن له باب وعتبة، فإنما أراد أن الكلب موضع العتبة من البيت، فاستعير.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَلْمَلْتُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [وقرأ الأعمش، وأبو حصين: «لَوْ اطْلَعْتُمْ بِضَمِّ الرَّوَا»] ﴿لَوَلَّيْتُمْ مِنْهُمْ ذُرَارًا﴾ رهبة لهم ﴿وَلَمَلَّيْتُمْ﴾ قرأ عاصم، وابن عامر، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «وَلَمَلَّيْتُمْ» خفيفة مهموزة. وقرأ ابن كثير، ونافع: «وَلَمَلَّيْتُمْ» مشددة مهموزة، ﴿رُبَّيَا﴾ [أي]: فرعاً وخوفاً، وذلك أن الله تعالى منعهم بالرعب لئلا يدخل إليهم أحد. وقيل: إنهم طالت شعورهم وأظفارهم جداً، فلذلك كان الرائي لهم لو رآهم هرب مرعوباً، حكاية الزجاج.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنِسَاءِ لَوْأَ بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَاتَّبَعْنَاهُمْ بِرُوقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرُوا أَيُّ أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْكُلْكُمْ يَرْزُقُ مِنْهُ وَلَا يَسْتَلْفُ وَلَا يَنْشُورَنَّ بِكُمْ أَحَدًا إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَيْتُمْ ۝١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي: وكما فعلنا بهم ما ذكرنا، بعثناهم من تلك النومة ﴿لِنِسَاءِ لَوْأَ﴾ أي: ليكون بينهم تساؤل وتنازع واختلاف في مدة لبثهم، فيفيد تساؤلهم اعتبار المعتبرين بحالهم. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ أي: كم مرر علينا منذ دخلنا هذا الكهف؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وذلك أنهم دخلوا غُدوةً، وبعثهم الله في آخر النهار، فلذلك قالوا: «يوماً»، فلما رأوا الشمس قالوا: «أو بعض يوم» ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ قال ابن عباس: القائل لهذا يملixa رئيسهم، رد علم ذلك إلى الله تعالى. وقال في رواية أخرى: إنما قاله مكسليمن، وهو أكبرهم. قال أبو سليمان: وهذا يوجب أن تكون نفوسهم قد حدثتهم أنهم قد لبثوا أكثر مما ذكروا. وقيل: إنما قالوا ذلك، لأنهم رأوا أظفارهم وأشعارهم قد طالت جداً.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعْنَاهُمْ بِرُوقِكُمْ﴾ قال ابن الأنباري: إنما قال: «أحدكم»، ولم يقل: واحدكم، لئلا يلتبس البعض بالمدح المعظم، فإن العرب تقول: رأيت أحد القوم، ولا يقولون: رأيت واحد القوم، إلا إذا أرادوا المعظم، فأراد بأحدهم: بعضهم، ولم يرد شريفهم.

قوله تعالى: ﴿بِرُوقِكُمْ﴾، قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والكسائي، وحفص عن عاصم: «بِرُوقِكُمْ» الراء مكسورة خفيفة. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم ساكنة الراء. وعن أبي عمرو: «بورقكم» مدغمة يُشْهِمُ شيئاً من الثقيل؛ قال الزجاج: تصوير كافاً خالصة. قال الفراء: الُورِق لغة أهل الحجاز، وتميم يقولون: الُورِق، وبعض العرب يكسرون الواو، فيقولون: الُورِق. قال ابن قتيبة: الُورِق: الفضة، دراهم كانت أو غير دراهم، يدلك على ذلك حديث عُرْفَةَ أَنَّهُ اتَّخَذَ أَنْفًا مِنْ وُرُقٍ^(١).

قوله تعالى: ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ يعنون التي خرجوا منها، واسمها دقوس، ويقال: هي اليوم طرسوس. قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرُوا أَيُّ أَزْكَى طَعَامًا﴾ قال الزجاج: المعنى: أي أهلها ﴿أَزْكَى طَعَامًا﴾ وللمفسرين في معناه ستة أقوال: أحدها: أحلُّ ذبيحة، قاله ابن عباس، وعطاء، وذلك أن عامة أهل بلدهم كانوا كفاراً، فكانوا يذبحون للطواغيت، وكان فيهم قوم يُخْفُونَ إيمانهم. والثاني: أحلُّ طعاماً، قاله سعيد بن جبيرة؛ قال الضحاك: وكانت أكثر أموالهم غصباً. وقال مجاهد: قالوا لصاحبهم: لا تتبغ طعاماً فيه ظلم ولا غصب. والثالث: أكثر، قاله عكرمة. والرابع: خير، أي: أجود، قاله قتادة. والخامس: أطيب، قاله ابن السائب، ومقاتل، والسادس: أرخص، قاله يمان بن رباب. قال ابن قتيبة: وأصل الزكاء: النماء والزيادة.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْكُلْكُمْ يَرْزُقُ مِنْهُ﴾ أي: بما تأكلونه. ﴿وَلْيَسْتَلْفُ﴾ أي: ليدقق النظر فيه، وليحتل لئلا يُقْلَعَ عليه. ﴿وَلَا يَنْشُورَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي: ولا يُخْبِرَنَّ أحداً بمكانكم. ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يظلموا ويُسْرِفُوا عليكم، ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾

(١) رواه أبو داود في «سننه» رقم (٤٢٣٢)، والنسائي ١٦٣/٨، والترمذي في «جامعه» ٢٠٩/١ عن عرفة بن سعد قال: أصيب أنفي يوم الكلاب في الجاهلية، فاتخذت أنفاً من وُرُق، فأتتني علي، فأمرني رسول الله ﷺ أن اتخذ أنفاً من ذهب. قال الترمذي: هذا حديث حسن، وقد روي عن غير واحد من أهل العلم أنهم شدوا أسنانهم بالذهب، وفي هذا الحديث حجة لهم. اهـ.

وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: يقتلوكم، قاله ابن عباس. وقال الزجاج: يقتلوكم بالرجم. والثاني: يرموكم بأيديهم، استكراً لكم، قاله الحسن. والثالث: بالسهم شتماً لكم، قاله مجاهد، وابن جريج.

قوله تعالى: ﴿أَرَيْدُوكُمْ فِي دِينِهِمْ﴾ أي: يردوكم في دينهم، ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَكَا﴾ أي: إن رجعتم في دينهم، لم تسعدوا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿وَكَذَلِكَ أَفْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا أَيْنَا عَلَيْهِمْ بَيِّنَاتٌ وَهُمْ أَهْلُكُمْ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَفْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: وكما أنماهم وبعثناهم، أطلعنا وأظهرنا عليهم. قال ابن قتيبة: وأصل هذا أن من عثر بشيء وهو غافل، نظر إليه حتى يعرفه، فاستعير العثار مكان التبيين والظهور، ومنه قول الناس: ما عثرت على فلان بسوء قط، أي: ما ظهرت على ذلك منه.

قوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ في المشار إليهم بهذا العلم قولان: أحدهما: أنهم أهل بلدهم حين اختصموا في البعث، فبعث الله أهل الكهف ليعلموا ﴿أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث والجزاء ﴿حَقٌّ﴾ وأن القيامة لا شك فيها، هذا قول الأكثرين. والثاني: أنهم أهل الكهف، بعثناهم ليروا بعد علمهم أن وعد الله حق، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ﴾ يعني: أهل ذلك الزمان. قال ابن الأنباري: المعنى: إذ كانوا يتنازعون، ويجوز أن يكون المعنى: إذ تنازعوا. وفي ما تنازعوا فيه خمسة أقوال: أحدها: أنهم تنازعوا في البنيان، والمسجد. فقال المسلمون: نبني عليهم مسجداً، لأنهم على ديننا؛ وقال المشركون: نبني عليهم بنياناً، لأنهم من أهل سُنَّتِنَا، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم تنازعوا في البعث، فقال المسلمون: تُبعث الأجساد والأرواح، وقال بعضهم: تُبعث الأرواح دون الأجساد، فأراهم الله تعالى بعث الأرواح والأجساد ببعثه أهل الكهف، قاله عكرمة. والثالث: أنهم تنازعوا ما يصنعون بالفتية، قاله مقاتل. والرابع: أنهم تنازعوا في قدر مكنتهم. والخامس: تنازعوا في عددهم، ذكرهما الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿أَيْنَا عَلَيْهِمْ بَيِّنَاتٌ﴾ أي: استروهم من الناس بأن تجعلوهم وراء ذلك البنيان. وفي القائلين لهذا قولان: أحدهما: أنهم مشركو ذلك الزمان، وقد ذكرناه عن ابن عباس. والثاني: أنهم الذين أسلموا حين رأوا أهل الكهف، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ قال ابن قتيبة: يعني المطاعين والرؤساء، قال المفسرون، وهم الملك وأصحابه المؤمنون اتخذوا عليهم مسجداً. قال سعيد بن جبير: بنى عليهم الملك بيعة.

﴿سَيَقُولُونَ لَوْلَا رَبُّهُمْ كَلِمَةً وَيَقُولُونَ خَمْسَةَ سَادِسْتُمْ كَلِمَةً رَمَّا بِالْقَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً وَتَأْمِنُهُمْ كَلِمَةً قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَكْتُمُونَ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تَحْزَنْ فِيهِمْ إِلَّا بَرَكَةً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِلَى قَائِلٍ ذَلِكَ عَدًّا ﴿٢١﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا كُنَيْتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لَوْلَا رَبُّهُمْ﴾ قال الزجاج: «ثلاثة» مرفوع بخبر الابتداء، المعنى: سيقول الذين تنازعوا في أمرهم: [هم] ثلاثة. وفي هؤلاء القائلين قولان: أحدهما: أنهم نصارى نجران، ناظروا رسول الله ﷺ في عِدَّةِ أهل الكهف، فقالت الملكة: هم ثلاثة رابعهم كلبهم، وقالت اليعقوبية: هم خمسة سادسهم كلبهم، وقالت النسطورية: هم سبعة وثامنهم كلبهم، فزلت هذه الآية، رواء الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنهم أهل مدينتهم قبل ظهورهم عليهم، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿رَمَّا بِالْقَيْبِ﴾ أي: ظناً غير يقين، قال زهير:

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَدَقُّتُمْ وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرْجَمِ^(١)

فأما دخول الواو في قوله: ﴿وَتَأْمِنُهُمْ كَلِمَةً﴾ ولم تدخل فيما قبل هذا، ففيه أربعة أقوال: أحدها: أن دخولها

وخروجها واحد، قاله الزجاج. والثاني: أن ظهور الواو في الجملة الثامنة^(١) دلالة على أنها مرادة في الجملتين المتقدمتين، فأعلم بذكرها هاهنا أنها مرادة فيما قبل، وإنما حذفت تخفيفاً، ذكره أبو نصر في «شرح اللمع». والثالث: أن دخولها يدل على انقطاع القصة، وأن الكلام قد تمّ، ذكره الزجاج أيضاً، وهو قول مقاتل بن سليمان، فإن الواو تدل على تمام الكلام قبلها، واستئناف ما بعدها؛ قال الثعلبي: فهذه واو الحكم والتحقيق، كأن الله تعالى حكى اختلافهم، فتم الكلام عند قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةً﴾، ثم حكم أن ثامنهم كلبهم. وجاء في بعض التفسير أن المسلمين قالوا عند اختلاف النصارى: هم سبعة، فحقّق الله قول المسلمين. والرابع: أن العرب تعطف بالواو على السبعة، فيقولون: ستة، سبعة، وثمانية، لأن العقد عندهم سبعة، كقوله: ﴿الْمُتَّقِينَ الْكِدْبِينَ...﴾ إلى أن قال في الصفة الثامنة: ﴿وَالْمُكَافِرِينَ عَنِ النَّصَرَةِ﴾ [التوبة: ١١٢]، وقوله في صفة الجنة: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وفي صفة النار: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١-٧٣]، لأن أبواب النار سبعة، وأبواب الجنة ثمانية، ذكر هذا المعنى أبو إسحاق الثعلبي. وقد اختلف العلماء في عددهم على قولين: أحدهما: أنهم كانوا سبعة، قاله ابن عباس. والثاني: ثمانية، قاله ابن جريج، وابن إسحاق. وقال ابن الأنباري: وقيل: معنى قوله: ﴿وَنَائِمَتُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾: صاحب كلبهم، كما يقال: السخاء حاتم، والشعر زهير، أي: السخاء سخاء حاتم، والشعر شعر زهير. وأما أسماؤهم، فقال هُشَيْمٌ: مكسلمينا، ويمليخا، وطرينوس، وسدينوس، وسرينوس، ونواس، ويرانوس، وفي التفسير خلاف في أسمائهم فلم أطل به. واختلفوا في كلبهم لمن كان على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان لراع مرّوا به فتبعهم الراعي والكلب، قاله ابن عباس. والثاني: أنه كان لهم يتصيدون عليه، قاله عبيد بن عمير. والثالث: أنهم مرّوا بكلب فتبعهم، فطردوه، فعاد، ففعلوا ذلك به مراراً، فقال لهم الكلب: ما تريدون مني؟! لا تخشوا جانبي أنا أحبّ أجباء الله، فناموا حتى أحرسكم، قاله كعب الأحبار. وفي اسم كلبهم أربعة أقوال: أحدها: قطمير، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: اسمه الرقيم، وقد ذكرناه عن سعيد بن جبير. والثالث: قطمور، قاله عبد الله بن كثير. والرابع: حُمران، قاله شعيب الجبائي. وفي صفته ثلاثة أقوال: أحدها: أحمر، حكاه الثوري. والثاني: أصفر، حكاه ابن إسحاق. والثالث: أحمر الرأس، أسود الظهر، أبيض البطن، أبلق الذنب، ذكره ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَفَلَمْ يَمْدَحْتَهُمْ﴾ حرك الياء ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأسكنها الباقون.

قوله تعالى: ﴿مَا يَمْلِكُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: ما يعلم عددهم إلا قليل من الناس. قال عطاء: يعني بالقليل: أهل الكتاب. قال ابن عباس: أنا من ذلك القليل، هم سبعة، إن الله عدّهم حتى انتهى إلى السبعة.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُنَّ فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظَهَرَ﴾ قال ابن عباس، وقناة: لا ثَمَارٍ أحداً، حسبك ما قصصت عليك من أمرهم. وقال ابن زيد: لا ثَمَارٍ في عدّتهم إلا مرّة ظاهراً أن تقول لهم: ليس كما تقولون، ليس كما تعلمون: وقيل: «إلا مرّة ظاهراً» بحجة واضحة، حكاه الماوردي. والمرء في اللغة: الجدال؛ يقال: ماري يُماري مُماراة وبراءً، أي: جادل. قال ابن الأنباري: معنى الآية: لا تجادل إلا جدال متيقّن عالم بحقيقة الخبر، إذ الله تعالى ألقي إليك ما لا يشوبه باطل. وتفسير المرء في اللغة: استخراج غضب المجادل، من قولهم: مرّيت الشاة؛ إذا استخرجت لبنها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ﴾ أي: في أصحاب الكهف، قال ابن عباس: يعني: من أهل الكتاب. قال الفراء: أتاه فريقان من النصارى، نسطوري، ويعقوبي، فسألهم النبي ﷺ عن عددهم، فثنى عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ سبب نزولها أن قريشاً سألوا النبي ﷺ عن ذي القرنين، وعن الروح، وعن أصحاب الكهف، فقال: غداً أخبركم بذلك، ولم يقل: إن شاء الله، فأبطل عليه جبريل خمسة عشر يوماً لتركه الاستثناء، فسق ذلك عليه، ثم نزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس. ومعنى الكلام: ولا تقولن لشيء: إني فاعل ذلك غداً، إلا أن تقول: إن شاء الله، فحذف القول.

(١) أي في قوله تعالى: ﴿وَنَائِمَتُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قال ابن الأنباري: معناه: واذكر ربك بعد تقضي النسيان، كما تقول: اذكر لعبد الله - إذا صلى - حاجتك، أي: بعد انقضاء الصلاة. وللمفسرين في معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أن المعنى: إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت، فقل: إن شاء الله، ولو كان بعد يوم أو شهر أو سنة، قاله سعيد بن جبير، والجمهور. والثاني: أن معنى «إذا نسيت»: إذا غضبت، قاله عكرمة، قال ابن الأنباري: وليس ببعيد، لأن الغضب يُتبع النسيان. والثالث: إذا نسيت الشيء فاذكر الله ليذكرك إياه، حكاه الماوردي.

فصل

وفائدة الاستثناء أن يخرج الحالف من الكذب إذا لم يفعل ما حلف عليه، كقوله في قصة موسى: ﴿مَسْجُودِيْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف: ٧٠]، ولم يصبر، فسليم من الكذب لوجود الاستثناء في حقه. ولا تختلف الرواية عن أحمد أنه لا يصح الاستثناء في الطلاق والعناق، وأنه إذا قال: أنت طالق إن شاء الله، وأنت حر إن شاء الله، أن ذلك يقع، وهو قول مالك؛ وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يقع شيء من ذلك. وأما اليمين بالله تعالى؛ فإن الاستثناء فيها يصح، بخلاف الطلاق، وكذلك الاستثناء في كل ما يكفر، كالظهار، والنذر، لأن الطلاق والعناق لفظه لفظ إيقاع، وإذا علق به المشيئة، علمنا وجودها، لوجود لفظ الإيقاع من جهة، بخلاف سائر الأيمان، لأنها ليست بموجبات للحكم، وإنما تتعلق بأفعال مستقبلية. وقد اختلف في الوقت الذي يصح فيه الاستثناء على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه لا يصح الاستثناء إلا موصولاً بالكلام، وقد روي عن أحمد نحو هذا، وبه قال أكثر الفقهاء. والثاني: أنه يصح ما دام في المجلس، قاله الحسن وطاووس، وعن أحمد نحوه. والثالث: أنه لو استثنى بعد سنة، جاز، قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو العالية، وقال ابن جرير الطبري: الصواب للإنسان أن يستثنى ولو بعد حثه في يمينه، فيقول: إن شاء الله، ليخرج بذلك مما ألزمه الله في هذه الآية، فيسقط عنه الحرج، فاما الكفارة فلا تسقط عنه بحال، إلا أن يكون الاستثناء موصولاً بيمينه، ومن قال: له ثنياء ولو بعد سنة، أراد سقوط الحرج الذي يلزمه بترك الاستثناء دون الكفارة.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو: «يهديني ربِّي» بياء في الوصل [دون الوقف]. وقرأ ابن كثير بياء في الحالين. وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي بغير ياء في الحالين. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: عسى أن يعطيني ربِّي من الآيات والدلالات على النبوة ما يكون أقرب في الرشد وأدلى من قصة أصحاب الكهف، ففعل الله له ذلك، وآتاه من علم غيوب المرسلين ما هو أوضح في الحجة وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف، هذا قول الزجاج. والثاني: أن قريشاً لما سألت رسول الله ﷺ أن يخبرهم خبر أصحاب الكهف، قال: «غداً أخبركم» كما شرحنا في سبب نزول هذه الآية^(١)، فقال الله تعالى له: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي﴾ أي: عسى أن يعرفني جواب مسائلكم قبل الوقت الذي حدّدته لكم، ويعجل لي من جهته الرشد، هذا قول ابن الأنباري.

﴿وَلْيَتُوبَ إِلَى رَبِّهِمْ لَبِثُوا فِي هَٰؤُلَاءِ مَنَازِلَ ١٥ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ١٦ لَمْ غِيبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَبَيَّرُ بِيدِهِ ١٧ وَأَسْمِعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَلْيَتُوبَ إِلَى رَبِّهِمْ لَبِثُوا فِي هَٰؤُلَاءِ مَنَازِلَ ١٥﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «ثلاثمائة سنين» مؤنناً. وقرأ حزمة، والكسائي: «ثلاثمائة سنين» مضافاً غير مؤنن. قال أبو علي: العدد المضاف إلى الآحاد قد جاء مضافاً إلى الجميع، قال الشاعر:

وَمَا زُوْدُوْنِيْ غَيْرَ سَخِيْقٍ عِمَامَةٍ وَخَمْسِيْ مِنْهَا قَسِيٌّ وَزَائِفٌ^(٢)

وفي هذا الكلام قولان: أحدهما: أنه حكاية عما قال الناس في حقهم، وليس بمقدار لبثهم، قاله ابن عباس، واستدل عليه فقال: لو كانوا لبثوا ذلك، لما قال: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾، وكذلك قال قتادة، وهذا قول أهل الكتاب.

(١) أورد ابن كثير في «تفسيره» ٧١/٣ من رواية محمد بن إسحاق مطولاً.

(٢) البيت لمزود كما في «الصحاح» و«اللسان»: ماي، و«مجمع البيان» ١٥/١٤٤.

والثاني: أنه مقدار ما لبثوا، قاله عبيد بن عمير، ومجاهد، والضحاك، وابن زيد؛ والمعنى: لبثوا هذا القدر من يوم دخلوه إلى أن بعثهم الله وأطلع الخلق عليهم.

قوله تعالى: ﴿سِنِينَ﴾ قال الفراء، وأبو عبيدة، والكسائي، والزجاج: التقدير: سنين ثلاثمائة. وقال ابن قتيبة: المعنى: أنها لم تكن شهوراً ولا أياماً، وإنما كانت سنين. وقال أبو علي الفارسي: «سنين» بدل من قوله: «ثلاثمائة». قال الضحاك: نزلت: ﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾ فقالوا: أياماً، أو شهوراً، أو سنين؟ فنزلت: «سنين» فلذلك قال: «سنين»، ولم يقل: سنة.

قوله تعالى: ﴿وَأَزَادُوا سِنِيًّا﴾ يعني: تسع سنين، فاستغنى عن ذكر السنين بما تقدّم من ذكرها. ثم أعلم أنه أعلم بقدر مدة لبثهم من أهل الكتاب المختلفين فيها، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ قال ابن السائب: قالت نصارى نجران: أما الثلاثمائة، فقد عرفناها، وأما التسع، فلا علم لنا بها، فنزل قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ وقيل: إن أهل الكتاب قالوا: إن للفتية منذ دخلوا الكهف إلى يومنا هذا ثلاثمائة وتسع سنين، فرد الله تعالى عليهم ذلك، وقال: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ بعد أن قبض أرواحهم إلى يومكم هذا، لا يعلم ذلك غير الله. وقيل: إنما زاد التسع، لأنه تفاوت ما بين السنين الشمسية والسنين القمرية، حكاها الماوردي.

قوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه على مذهب التعجب، فالمعنى: ما أسمع الله به وأبصر، أي: هو عالم بقصة أصحاب الكهف وغيرهم، هذا قول الزجاج، وذكر أنه إجماع العلماء. والثاني: أنه في معنى الأمر، فالمعنى: أبصر بدين الله وأسمع، أي: بصر بهدى الله وسمّع، فترجع الهاء إما على الهدى، وإما على الله ﷻ، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: ليس لأهل السموات والأرض من دون الله من ناصر، ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ ولا يجوز أن يحكم حاكم بغير ما حكم به، وليس لأحد أن يحكم من ذات نفسه فيكون شريكاً لله ﷻ في حكمه. وقرا ابن عامر: ﴿وَلَا تُشْرِكْ﴾ جزماً بالتاء، والمعنى: لا تشرك أيها الإنسان.

﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مِثْلَهُ﴾ ﴿١٧﴾ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدْرَةِ وَالْكِبَرِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قَرْيًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ﴾ في هذه التلاوة قولان: أحدهما: أنها بمعنى القراءة. والثاني: بمعنى الاتباع. فيكون المعنى على الأول: اقرأ القرآن، وعلى الثاني: اتبعه واعمل به. وقد شرحنا في [الأنعام: ١١٥] معنى ﴿لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مِثْلَهُ﴾ قال مجاهد، والفراء: ملجأً. وقال الزجاج: معذراً عن أمره ونهيه. وقال غيرهم: موضعاً تميل إليه في الانتجاع.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ سبب نزولها أن المؤلفة قلوبهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ: عبيدة بن حصن، والأقرع بن حابس، وذو وهب، فقالوا: يا رسول الله: لو أنك جلست في صدر المجلس، ونحيت هؤلاء عتاً، - يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف - جلسنا إليك، وأخذنا عنك، فنزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا﴾، فقام رسول الله ﷺ يلتمسهم، حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله، قال: «الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا ومعكم الممات» هذا قول سلمان الفارسي^(١). ومعنى قوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي: احبسها معهم على أداء الصلوات ﴿وَالْقُدْرَةِ وَالْكِبَرِ﴾. وقد فسرنا هذه الآية في [الأنعام: ٥٢] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تصرف بصرك

(١) «الطبري» ٢٣٦/١٥، وأسباب النزول: للواحدي ١٧١، والقرطبي ٣٩١/١٠، والدرر ٢١٩/٤، وذكره ابن كثير في «التفسير» ٨١/٣ من رواية الطبراني، وقد تقدم الحديث بنحوه ٤٤٠ فارجع إليه.

إلى غيرهم من ذري الغنى والشرف؛ وكان ﷺ حريصاً على إيمان الرؤساء ليؤمن أتباعهم، ولم يكن مريداً لزينة الدنيا قط، فأمر أن يجعل إقباله على فقراء المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْجِ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ سبب نزولها أن أمية بن خلف الجمحي، دعا رسول الله ﷺ إلى طرد الفقراء عنه، وتقريب صناديد أهل مكة، فنزلت هذه الآية، رواه الضحاك عن ابن عباس^(١). وفي رواية أخرى عنه أنه قال: هو عيينة وأشباهه. ومعنى: «أغفلنا قلبه»: جعلناه غافلاً. وقرأ أبو مجلز: «من أغفلنا» بفتح اللام، ورفع باء القلب. «عن ذكرنا»: عن التوحيد والقرآن والإسلام، «وَأَنجَ هَوْنَهُ» في الشرك. «وَكَاثَ أَمْرُهُ قُرْطًا» فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه أفرط في قوله، لأنه قال: إِنَّا رُؤُوسُ مَضْرٍ، وَإِنْ تُسَلِّمْ يُسَلِّمَ النَّاسَ بَعْدَنَا، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: ضياعاً، قاله مجاهد. وقال أبو عبيدة: سَرَفًا وتضييعاً. والثالث: نَدَمًا، حكاه ابن قتيبة عن أبي عبيدة. والرابع: كان أمره التفريط، والتفريط: تقديم العجز، قاله الزجاج.

﴿وَقُلِ الْآخِ مِنْ ذِكْرٍ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاوُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْآخِ مِنْ ذِكْرٍ﴾ قال الزجاج: وقل الذي أتيتكم به، الحق من ربكم.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: فمن شاء الله فليؤمن، روي عن ابن عباس^(٢). والثاني: أنه وعيد وإنذار، وليس بأمر، قاله الزجاج. والثالث: أن معناه: لا تنفخون الله بإيمانكم، ولا تضربونه بكفركم، قاله الماوردي. وقال بعضهم: هذا إظهار للغنى، لا إطلاق في الكفر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أي: هيئنا، وأعدنا، وقد شرحناه في قوله: ﴿وَأَعْتَدْتُ لَكُنْ مَكَا﴾ [يوسف: ٣١]. فأما الظالمون، فقال المفسرون: هم الكافرون. وأما السُّرَادِقُ، فقال الزجاج: السُّرَادِقُ: كلُّ ما أحاط بشيء، نحو الشُّقَّة في المضرب، أو الحائط المشتمل على الشيء. وقال ابن قتيبة: السُّرَادِقُ: الحُجْرَةُ التي تكون حول الفسطاط. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي، قال: السُّرَادِقُ فارسي معرب، وأصله بالفارسية سَرَادَاوْ، وهو الدُّهْلِيْز، قال الفرزدق:

تَمَنَّيْتَهُمْ حَتَّى إِذَا مَا لَقَيْتَهُمْ تَرَكْتُ لَهُمْ قَبْلَ الضَّرَابِ السُّرَادِقَا^(٣)

وفي المراد بهذا السُّرَادِقُ قولان: أحدهما: أنه سُرَادِقُ من نار، قاله ابن عباس. روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «السُّرَادِقُ النار أربعة جُدُرٍ كُتِفَتْ، كلُّ جدار منها مسيرة أربعين سنة»^(٤). وفي رواية أبي صالح عن ابن عباس، قال: السُّرَادِقُ: لسان من النار، يخرج من النار فيحيط بهم حتى يفرغ من حسابهم. والثاني: أنه دخان يحيط بالكفار يوم القيامة، وهو الظِّلُّ ذو ثلاث شعب الذي ذكره الله تعالى في [المرسلات: ٣٠]، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ أي: مما هم فيه من العذاب وشدة العطش ﴿يُغَاوُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ وفيه سبعة أقوال: أحدها: أنه ماءٌ غليظٌ كدُرِّيِّ الزيت، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنه كل شيء أذيب حتى انماع، قاله ابن مسعود. وقال أبو عبيدة، والزَّجَّاج: كل شيء أذبت من نحاس أو رصاص أو نحو ذلك، فهو مُهْل. والثالث: قيح ودم أسود كعكر الزيت، قاله مجاهد. والرابع: أنه الفضة والرصاص يذابان، روي عن مجاهد أيضاً. والخامس: أنه الذي انتهى حرُّه، قاله سعيد بن جبیر. والسادس: [أنه] الصُّدِيد، ذكره ابن الأنباري. قال مُغِيثُ بن سُمي: هذا الماء هو ما يسيل من عَرَقِ أهل الموقف في الآخرة ويكائهم، وما يجري منهم من دم وقيح، يسيل ذلك إلى وإد في جهنم، فتطبخه جهنم، فيكون أول ما يُغَاث به أهل النار. والسابع: أنه الرماد الذي يُنْفَضُ عن الحُبْزَةِ إذا خرجت من الثُّور، حكاه ابن الأنباري.

(١) «أسباب النزول» ١٧٢، و«القرطبي» ٣٩٢/١٠، و«الدر» ٢٢٠/٤.

(٢) قال ابن جرير الطبري: عن ابن عباس: فمن شاء الله له الإيمان آمن، ومن شاء الله له الكفر كفر.

(٣) «ديوانه» ٥٨٦/٢، و«المعرب» ٢٠٠.

(٤) رواه أحمد في «المسنَد» ٢٩/٣ من حديث دراج أبي السَّمْح عن أبي الهيثم، ورواه الترمذي في «جامعه» ٨٢/٢، وابن جرير الطبري في «تفسيره» ١٥/١٥.

٢٣٩ من حديث رشدين بن سعد عن دراج عن أبي الهيثم، ورشدين بن سعد ضعيف، ودراج عن أبي الهيثم ضعيف.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا لَهُمْ مِثْلًا لِّزَلِيلٍ﴾ روى عطاء عن ابن عباس، قال: هما ابنا ملك كان في بني إسرائيل توفي وتركهما، فاتخذ أحدهما الجنان والقصور، وكان الآخر زاهداً في الدنيا، فكان إذا عمل أخوه شيئاً من زينة الدنيا، أخذ مثل ذلك فقدمه لآخرته، حتى نفد ماله، فضربهما الله ^ع مثلاً للمؤمن والكافر الذي أبطرت النعمة. وروى أبو صالح عن ابن عباس: أن المسلم لما احتاج، تعرض لأخيه الكافر، فقال الكافر: أين ما ورثت عن أبيك؟ فقال: أنفقت في سبيل الله، فقال الكافر: لكني ابتعت به جناناً وغنماً، وقرأ، والله لا أعطيتك شيئاً أبداً حتى تتبع ديني، ثم أخذ بيد المسلم فأدخله جنانه يطوف به فيها، ويرغبه في دينه. وقال مقاتل: اسم المؤمن يملخوا، واسم الكافر قرطس، وقيل: قرطس، وقيل: هذا المثل [ضرب] لعينة بن حصن وأصحابه، ولسلمان وأصحابه.

قوله تعالى: ﴿وَصَفَّنَا لِمُتَّبِعِي الْحَقِّ: الإحاطة بالشيء، ومنه قوله: ﴿حَاقَبْتُمْ مِنْ حَوْلِ الْقُرْآنِ﴾ [الزمر: ٧٥]. والمعنى: جعلنا النخل موطئاً بها. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَبْجًا﴾ إعلام أن عمارتهما كاملة.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَإِنِّي نَسِيتُ أَكَلَهُ﴾ قال الفراء: آتتا، لأن «كلتا» نثنان لا تُفرد واحدتهما، وأصله: «كُلٌّ»، كما تقول للثلاثة: «كُلٌّ»، فكان القضاء أن يكون للثنتين ما كان للجمع، وجاز توحيد على مذهب «كُلٌّ»، وتانيته جائز للتانيث الذي ظهر في «كلتا»، وكذلك فاعل بـ«كلا» و«كلتا» و«كُلٌّ»، إذا أضفتهم إلى معرفة وجاء الفعل بعدهن، فوحد واجمع، فمن التوحيد قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْآزِمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٦]، ومن الجمع: ﴿وَكُلُّ أُنثَى ذَخِيرٍ﴾ [النمل: ٨٧]، والعرب قد تفعل ذلك أيضاً في «أي» فيؤثنون ويذكرون، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [القمان: ٣٤]، ويجوز في الكلام «بأيت أرض»، وكذلك ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨]، ويجوز في الكلام «في أيّ أيت»، قال الشاعر:

بأي بلاء أم بأية نعمة تقدم قبلي مسلم والمهلب

قال ابن الأنباري: «كلتا» وإن كان واقعاً في المعنى على اثنتين، فإن لفظه لفظ واحدة مؤنثة، فغلب اللفظ، ولم يستعمل المعنى ثقة بمعرفة المخاطب به؛ ومن العرب من يؤثر المعنى على اللفظ، فيقول: «كلتا الجنتين آتتا أكلاهما»، ويقول آخرون: «كلتا الجنتين آتى أكلاهما»، لأن «كلتا» تفيد معنى «كُلٌّ»، قال الشاعر:

وكلتاها قد خط لي في صحيفتي فلا الموت أهواء ولا العيش أروح

يعني: وكلهما قد خط لي، وقد قالت العرب: كلكم ذاهب، وكلكم ذاهبون. فوحدوا للفظ «كُلٌّ» وجمعوا لتأويلها. وقال الزجاج: لم يقل «آتتا»، لأن لفظ «كلتا» لفظ واحدة، والمعنى: كل واحدة منهما آتت أكلاهما ﴿وَلَوْ تَطَوَّلَ﴾ أي: لم تنقص ﴿مِنَهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا عَلَيْهِمَا نَهْرًا﴾ فأعلمنا أن شريهما كان من ماء نهر، وهو من أغزر الشرب. وقال الفراء: إنما قال: «فَجَرْنَا» بالتشديد، وهو نهر واحد، لأن النهر يمتد، فكان التفجير فيه كله. قرأ أبو رزين، وأبو مجلز، وأبو العالية، وابن يعمر، وابن أبي عبلة: «وَفَجَرْنَا» بالتخفيف. وقرأ أبو مجلز، وأبو المتوكل: «خللهما». وقرأ أبو العالية، وأبو عمران: «نهرًا» بسكون الهاء.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ يَمِينٌ﴾ يعني: للأخ الكافر ﴿ثَمَرٌ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «وكان له ثمر»، وأحيط بثمره بضميتين. وقرأ عاصم: «وكان له ثمر»، وأحيط بثمره بفتح التاء والميم فيهما. وقرأ أبو عمرو: «ثمر» وبضمير واحدة وسكون الميم. قال الفراء: الثمر، بفتح التاء والميم: المأكول، وبضمها: المال. وقال ابن الأنباري: الثمر، بالفتح: الجمع الأول، والثمر، بالضم: جمع الثمر، يقال: ثمر، وثمر، كما يقال: أسد، وأسد، ويصلح أن يكون الثمر جمع الثمار، كما يقال: جمار وحمر، وكتاب وكُتب؛ فمن ضم، قال: الثمر أعم، لأنها تحتل الثمار المأكولة، والأموال المجموعة. قال أبو علي الفارسي: وقراءة أبي عمرو: «ثمر» يجوز أن تكون جمع ثمار، ككتاب، وكُتب، فتخفف، فيقال: كُتب، ويجوز أن يكون «ثمر» جمع ثمرة، كبذنة وبُذُن، وخُشْبَة، وخُشْب، ويجوز أن يكون «ثمر» واحداً، كعُنق، وطُنب. وقد ذكر المفسرون في قراءة من ضم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه المال الكثير من صنوف الأموال، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الذهب، والفضة، قاله مجاهد. والثالث:

أنه جمع ثمرة، قال الزجاج: يقال: ثَمَرَة، وثِمَار، وثمر. فإن قيل: ما الفائدة في ذكر الثمر بعد ذكر الجنتين، وقد علم أن صاحب الجنة لا يخلو من ثمر؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه لم يكن أصل الأرض ملكاً له، وإنما كانت له الثمار، قاله ابن عباس. والثاني: أن ذكر الثمر دليل على كثرة ما يملك من الثمار في الجنتين وغيرهما، ذكره ابن الأنباري. والثالث: إنا قد ذكرنا أن المراد بالثمر الأموال من الأنواع، وذكرنا أنها الذهب، والفضة، وذلك يخالف الثمر المأكول؛ قال أبو علي الفارسي: من قال: هو الذهب، والورق، فإنما قيل لذلك: ثُمُر على التناول، لأن الثمر نماء في ذي الثمر، وكونه هاهنا بالجنى أشبه من الذهب والفضة. ويقوي ذلك: «وَلَحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يُلْقِيهِ كَلْبُهُ عَلَى مَا أَتَقَى فِيهَا»، والإنفاق من الورق، لا من الشجر.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ﴾ يعني الكافر ﴿لِمَكْرِبِهِ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ بِمَا يُؤْمَرُ﴾ أي: يراجعه الكلام ويجاوبه. وفيما تحاورا فيه قولان: أحدهما: أنه الإيمان والكفر. والثاني: طلب الدنيا، وطلب الآخرة. فأما «النفر» فهم الجماعة، ومثلهم: القوم والرهط، [ولا واحد لهذه الألفاظ من لفظها. وقال ابن فارس اللغوي]: نفر: عدة رجال من ثلاثة إلى العشرة. وفيمن أراد بقره ثلاثة أقوال: أحدها: عبيده، قاله ابن عباس. والثاني: ولده، قاله مقاتل. والثالث: عشيرته ورهطه، قاله أبو سليمان.

قوله تعالى: ﴿وَوَحَلَ جَنَّتَهُ﴾ يعني: الكافر ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بالكفر؛ وكان قد أخذ بيد أخيه فأدخله معه؛ ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن يَبْدُ هَٰذَا أَبَدًا﴾ أنكر فناء الدنيا، وفناء جنته، وأنكر البعث والجزاء بقوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ وهذا شك [منه] في البعث، ثم قال: ﴿وَلَكِن رَّيْدَتْ إِلَيَّ رَيْ﴾ أي: كما تزعم أنت. قال [ابن عباس]: يقول: إن كان البعث حقاً ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنَّهَا﴾ قرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي: «خيراً منها»، وكذلك هي في مصاحف أهل البصرة والكوفة. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: «خيراً منهما» بزيادة ميم على التنية، وكذلك هي في مصاحف أهل مكة والمدينة والشام. قال أبو علي: الأفراد أولى، لأنه أقرب إلى الجَنَّة المفردة في قوله: ﴿وَوَحَلَ جَنَّتَهُ﴾، والتننية لا تمتنع، لتقدم ذكر الجنتين.

قوله تعالى: ﴿مُتَلَبِّيًا﴾ أي: كما أعطاني هذا في الدنيا، سيعطيني في الآخرة أفضل منه.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُثٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ۖ لَيْكَآ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۚ وَلَا إِذْ وَحَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِنَّ تَرَكْنَا مَالًا وَوَلَدًا ۚ فَسَوَّىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَيِغَةً زَلَقًا ۚ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُمُ طَلَبًا ۚ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ﴾ يعني: المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ يعني: خلق أباك آدم ﴿ثُمَّ مِنْ نُفُثٍ﴾ يعني: ما أنشئ هو منه، فلما شك في البعث كان كافراً.

قوله تعالى: ﴿لَيْكَآ هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وقالون عن نافع: «لكن» هو الله ربِّي، بإسقاط الألف في الوصل، وإثباتها في الوقف. وقرأ نافع في رواية المُسَيَّبِي بإثبات الألف وصلًا ووقفًا. وأثبت الألف ابن عامر في الحاليين. وقرأ أبو رجاء: «لكن» بإسكان النون خفيفة من غير ألف في الحاليين. وقرأ ابن يعمر: «لكن» بتشديد النون من غير ألف في الحاليين. وقرأ الحسن: «لكن» أنا هو الله ربِّي بإسكان نون «لكن» وإثبات «أنا». قال الفراء: فيها ثلاث لغات: لكنا، ولكن، ولكنه بالهاء، أنشدني أبو ثروان:

وتزْمِينْسِي بِالطَّرْفِ أَي أَنْتَ مَذْنِبٌ وَتَفْلِيْسَيْنِي لَكُنْ إِيَّاكَ لَا أَقْلِي^(١)

وقال أبو عبيدة: مجازة: لكن أنا هو الله ربِّي، ثم حُذفت الألف الأولى، وأدغمت إحدى النونين في الأخرى فشُدَّت. قال الزجاج: وهذه الألف تُحذف في الوصل، وتثبت في الوقف، فأما من أثبتا في الوصل كما ثبتت في الوقف، فهو على لغة من يقول: أنا قمْتُ، فأثبت الألف، قال الشاعر:

أَنَا سَيِّفُ الْعَشِيرَةِ فَاغْرِقُونِي [حُمَيْدًا قَدْ تَذَرَيْتُ السَّنَامَا] (١)

وهذه القراءة جيدة، لأن الهمزة قد حذفت من «أنا»، فصار إثبات الألف عوضاً من الهمزة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ أي: وهلاً؛ ومعنى الكلام التوبيخ. قال الفراء: ﴿مَا سَاءَ اللَّهُ﴾ في موضع رفع، إن شئت رفعته بإضمار هو، يريد: [هو] ما شاء الله؛ وإن شئت أضمرت فيه: ما شاء الله كان؛ وجاز طرح جواب الجزاء، كما جاز في قوله: ﴿إِنِ اسْتَكَلْتُمْ أَن تَتَلَيَّ النَّفْسَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ليس له جواب، لأنه معروف. قال الزجاج: وقوله: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ الاختيار النصب بغير تنوين على النفي، كقوله: ﴿لَا رَبَّ إِلَّا هُوَ﴾ [الكهف: ٢١]، ويجوز: «لا قوة إلا بالله» على الرفع بالابتداء، والخبر «بالله»، المعنى: لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده إلا بالله تعالى، ولا يكون له إلا ما شاء الله.

قوله تعالى: ﴿إِن تَكْرِوْ﴾ قرأ ابن كثير: «إن ترني أنا» و«يؤتيني خيراً» بياء في الوصل والوقف. وقرأ نافع، وأبو عمرو بياء في الوصل. وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، بحذف الياء فيهما وصلًا ووقفًا. «أَنَا أَقْلُ» وقرأ ابن أبي عبلة: «أنا أقل» برفع اللام. قال الفراء: «أنا» هاهنا عماد إن نصبت «أقل»، واسم إذا رفعت «أقل» (٢)، والقراءة بهما جائز.

قوله تعالى: ﴿فَقَسَىٰ رَبِّ أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾ أي: في الآخرة، ﴿وَرُبِّلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا﴾ وفيه أربعة أقوال: أحدها: أنه العذاب، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والضحاك. وقال أبو صالح عن ابن عباس: ناراً من السماء (٣). والثاني: قضاء من الله يقضيه، قاله ابن زيد. والثالث: مرامي من السماء، واحداً؛ حسباناً، قاله أبو عبيدة، وابن قتيبة. قال الثَّعْلَبِيُّ بن شَمِيل: الحُسابان: سهام يرمي بها الرجل في جوف قصبة تُتْرَع في القوس، ثم يرمي بعشرين منها دفعة، فعلى هذا القول يكون المعنى: ويرسل عليها مرامي من عذابه، إما حجارة أو برداً أو غيرها مما يشاء من أنواع العذاب. والرابع: أن الحُسابان: الحساب، كقوله: ﴿الْثَّمَنُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥] أي: بحساب، فيكون المعنى: ويرسل عليها عذاب حساب ما كسبت يدها، هذا قول الزجاج.

قوله تعالى: ﴿فَتَصَيِّحُ صَاحِبًا رَّلًا﴾ (٤) أو يُصَيِّحُ مَاؤَهَا غَوْرًا قال ابن قتيبة: الصعيد: الأملس المستوي، والرَّلَق: الذي تَزَلُّ عنه الأقدام، والغور: الغائر، فجعل المصدر صفة، يقال: ماء غور، ومياه غور، ولا يثنى، ولا يجمع، ولا يؤنث، كما يقال: رجل نَوْم، ورجل صَوْم، ورجل فِظَر، ورجل نَوْم، ونساء نَوْم، ونساء صَوْم. ويقال للنساء إذا نُحِنَ: نَوَح، والمعنى: يذهب ماؤها غائراً في الأرض، أي: ذاهباً فيها. «فَلَن تَسْتَطِيعَ لَكُمْ طَلَبًا» فلا يبقى له أثر تطلبه به، ولا تناله الأيدي ولا الأرضية. وقال ابن الأنباري: «غوراً» إذا غَوَّر، فسقط المضاف، وخلفه المضاف إليه، والمراد بالطلب هاهنا: الوصول، فقام الطلب مقامه لأنه سببه. وقرأ أبو الجوزاء، وأبو المتوكل: «غَوْرًا» برفع الغين والواو [الأولى] جميعاً، [وواو بعدها].

﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَنْصَحَ بِقَلْبِكُمْ كَفِّوْا عَنَّا مَا أَفَقَّ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلَغْتَ لَرَأَيْتُكَ بِرِّقَ لَحْدًا﴾ (٥) وَلَمْ تَكُنْ لَمْ يَفْتَّ يَصْرُوهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ (٦) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (٧)

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾ أي: أحاط الله العذاب بشمره، وقد سبق معنى الشمر. ﴿فَأَنْصَحَ بِقَلْبِكُمْ كَفِّوْا﴾ أي: يضرب بيد على يد، وهذا فعل النادم، ﴿عَنَّا مَا أَفَقَّ فِيهَا﴾ أي: في جنته، و«في» هاهنا بمعنى «على». ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أي: خالية ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ والعروش: السقوف؛ والمعنى: أن حيطانها قائمة والسقوف قد تهدمت فصارت في قرارها، فصارت الحيطان كأنها على السقوف. ﴿وَيَقُولُ بَلَغْتَ لَرَأَيْتُكَ بِرِّقَ لَحْدًا﴾ فأخبر الله تعالى أنه لما سلبه ما أنعم به عليه، وحقق ما أنذره [به] أخوه في الدنيا، ندم على شركه حين لا تنفعا الندامة. وقيل: إنما يقول هذا في

(١) الطبري ٢٤٧/١٥، والقريطي ٤٠٥/١٠، وخزانة الأدب ٣٩٠/٢.

(٢) وكذلك قال الطبري ٢٤٨/١٥.

(٣) في نسخة الرباط: نازل من السماء.

القيامة ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ يَنْتَهَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم: «ولم تكن» بالتاء. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «ولم يكن» بالياء. والفتحة. الجماعة ﴿يَصْرُوفُ﴾ أي: يمنعونه من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَاكَ الْوَلَايَةُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وعاصم: «الْوَلَايَةُ» بفتح الواو ﴿وَاللَّهُ الْخَوَّ﴾ خفضاً. وقرأ حمزة: «الْوَلَايَةُ» بكسر الواو، والله الحق بكسر القاف أيضاً. وقرأ أبو عمرو بفتح الواو، ورفع «الحق»، ووافقه الكسائي في رفع القاف، لكنه كسر «الْوَلَايَةَ»، قال الزجاج: معنى الولاية في [مثل] تلك الحال: تبين نصرة ولي الله. وقال غيره: هذا الكلام عائد إلى ما قبل قصة الرجلين. فأما من فتح واو «الْوَلَايَةُ» فإنه أراد الموالاة والنصرة، ومن كسر، أراد السلطان والملك على ما شرحنا في آخر [الأنفال: ١٧٢]. فعلى قراءة الفتح، في معنى الكلام قولان: أحدهما: أنهم يتولون الله تعالى في القيامة، ويؤمنون به، ويتبرؤون مما كانوا يعبدون، قاله ابن تقيّة. والثاني: هنالك يتولّى الله أمر الخلاق، فينصر المؤمنين ويخذل الكافرين. وعلى قراءة الكسر، يكون المعنى: هنالك السلطان لله. قال أبو علي: من كسر قاف «الحق»، جعله من وصف الله ﷻ، ومن رفعه جعله صفة للولاية. فإن قيل: لم نعت الولاية وهي مؤنثة بالحق وهو مصدر؟ فغنه جوابان ذكرهما ابن الأنباري: أحدهما: أن تأنيثها ليس حقيقياً، فحملت على معنى النصر؛ والتقدير: هنالك النصر لله الحق، كما حملت الصبيحة على معنى الصباح في قوله: ﴿وَأَخَذَ الْأَوَّلُونَ ظُلُمًا صَبِيحَةً﴾ [مرد: ٦٧]. والثاني: أن الحق مصدر يستوي في لفظه المذكر والمؤنث والاثنان والجمع، فيقال: قولك حق، وكلمتك حق، وأقولكم حق. ويجوز ارتفاع الحق على المدح للولاية، وعلى المدح لله تعالى بإضمام «هو».

قوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرُ ثَوَابٍ﴾ أي: هو أفضل ثواباً ممن يرجى ثوابه، وهذا على تقدير أنه لو كان غيره يثيب لكان ثوابه أفضل.

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّ عَقَبٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: «عَقَبًا» مضمومة القاف. وقرأ عاصم، وحمزة: «عَقْبًا» ساكنة القاف. قال أبو علي: ما كان [على] «فَعْلٌ» جاز تخفيفه، كالعُق، والطَّنْب. قال أبو عبيدة: العُقْب، والعُقْب، والعُقْبى، والعاقبة، بمعنى، وهي الآخرة، والمعنى: عاقبة طاعة الله خير من عاقبة طاعة غيره.

﴿وَأَضْرَبَ لَكُم مَّثَلًا الْخَيْزُ الدُّنْيَا كُلُّهَا أَتَرَاهُ مِن السَّمَاءِ فَلَا تَنَظُرُ بِهِ نَبَاتٌ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَكُم مَّثَلًا الْخَيْزُ الدُّنْيَا﴾ أي: في سرعة نفاذها وذهابها، وقيل: في تصرف أحوالها، إذ مع كل فرحة تَرْحَة، وهذا مفسر في سورة [يونس: ٢٤] إلى قوله: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾. قال الفراء: الهشيم: كل شيء كان رطباً فيبس. وقال الزجاج: الهشيم: النبات الجاف. وقال ابن تقيّة: الهشيم من النبات: المتفتت، وأصله من هشمت الشيء: إذا كسرت، ومنه سمي الرجل هاشماً. و﴿تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ تنسفه. وقرأ أبي، وابن عباس، وابن أبي عبيدة: «تَذْرِيهِ» برفع التاء وكسر الراء بعدها ياء ساكنة وهاء مكسورة. وقرأ ابن مسعود كذلك، إلا أنه فتح التاء. والمقتدر: مُقْتَدِرٌ، من قَدَرْتُ. قال المفسرون: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ من الإنشاء والإفناء ﴿مُقْتَدِرًا﴾

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾

قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هذا ردٌّ على المشركين الذين كانوا يفتخرون بالأموال والأولاد، فأخبر الله تعالى أن ذلك مما يُتَزَيَّن به في الدنيا، [لا] مما ينفع في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ مِنَ الْأُولَى﴾ فيها خمسة أقوال: أحدها: أنها «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»؛ روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن عجزتم عن الليل أن تكابدوه، وعن العدو أن تجاهدوه، فلا تعجزوا عن قول «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فقولوها: فإنهن الباقيات الصالحات»^(١)، وهذا قول

(١) أورده السيوطي في «الدر» ٢٢٥/٤ من رواية ابن مردويه عن أبي هريرة ؓ.

ابن عباس في رواية عطاء، وبه قال مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والضحاك. وسئل عثمان بن عفان رضي الله عنه عن الباقيات الصالحات، فقال هذه الكلمات، وزاد فيها: «ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(١). وقال سعيد بن المسيب، ومحمد بن كعب القرظي مثله سواء. والثاني: «أنها لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، ولا قوة إلا بالله»، رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ^(٢). والثالث: أنها الصلوات الخمس، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وبه قال ابن مسعود، ومسروق، وإبراهيم. والرابع: الكلام الطيب، رواه العوفي عن ابن عباس. والخامس: هي جميع أعمال الحسنات، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال قتادة، وابن زيد.

قوله تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ تَوَكَّلْ﴾ أي: أفضل جزاء ﴿وَعِزَّتُكَ أَمَلًا﴾ أي: خير مما تؤملون، لأن آمالكم كواذب، وهذا أمل لا يكذب.

﴿يَوْمَ تُسِيرُ الْجِبَالُ وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ ^(١) وَغَرَضُوا عَلَى رَيْكَ صَمًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ^(٢) وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُتَجَرِّينَ مُشْفِقِينَ وَمِمَّا فِيهِ يَقُولُونَ يَوَلَّيْنَا مَالَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيْنَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رَيْكَ أَحَدًا ^(٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ^(٤) مَا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَعَدِّينَ عُسْيًا ^(٥)

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُسِيرُ الْجِبَالُ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: «ويوم تُسِيرُ» بالياء «الجبال» رفعاً. وقرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي: «تُسِيرُ» بالنون «الجبال» نصباً. وقرأ ابن محيصن: «ويوم تُسِيرُ» بفتح التاء وكسر السين وتسكين الياء «الجبال» بالرفع. قال الزجاج: «ويوم» منصوب على معنى: اذكر، ويجوز أن يكون منصوباً على: والباقيات الصالحات خير يوم تُسِيرُ الجبال. قال ابن عباس: تُسِيرُ الجبال عن وجه الأرض، كما يُسِيرُ السحاب في الدنيا، ثم تكسر فتكون في الأرض كما خرجت منها.

قوله تعالى: ﴿وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ وقرأ عمرو بن العاص، وابن السميع، وأبو العالية: «وُتْرَى الأرض بارزة» برفع التاء والضاد. وقرأ أبو رجاء العطاردي كذلك، إلا أنه فتح ضاد «الأرض». وفي معنى «بارزة» قولان: أحدهما: [ظاهرة] فليس عليها شيء من جبل أو شجر أو بناء، قاله الأكثرون. والثاني: بارزاً أهلها من بطنها، قاله الفراء.

قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ يعني المؤمنين والكافرين ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ قال ابن قتيبة: أي: فلم نُخْلَفْ، يقال: غادرْتُ كذا: إذا خلفته، ومنه سمي الغدير، لأنه ماءٌ تُخْلَفُ السيول. وروى أبان: «فلم تغادر» بالياء.

قوله تعالى: ﴿وَعَرَضُوا عَلَى رَيْكَ صَمًّا﴾ إن قيل: هذا أمر مستقبل، فكيف عُرِ بَر [عنه] بالماضي؟ فالجواب: أن ما قد علم الله وقوعه، يجري مجرى المعاین، كقوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [الاعراف: ٤٣]. وفي معنى قوله: ﴿صَمًّا﴾ أربعة أقوال: أحدها: أنه بمعنى: جميعاً، كقوله: ﴿هَمْ أَتَوْا صَمًّا﴾ [طه: ٦٤]، قاله مقاتل. والثاني: أن المعنى: وعرضوا على ربك مصفوفين، هذا مذهب البصريين. والثالث: أن المعنى: وعرضوا على ربك صفوفاً، فتاب الواحد عن الجميع، كقوله: ﴿هَمْ تُحَرِّمُكُمْ طِفْلاً﴾ [الحج: ٥]. والرابع: أنه لم يَغِبْ عن الله منهم أحد، فكانوا كالصف الذي تسهل الإحاطة بجملته، ذكر هذه الأقوال ابن الأنباري. وقد قيل: إن كُل أمة وزمرة صفٌ.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾، فيه إضمار «فيقال لهم». وفي المخاطبين بهذا قولان: أحدهما: أنهم الكل. والثاني: الكفار، فيكون اللفظ عامّاً، والمعنى خاصّاً. وقوله: ﴿كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ مفسر في [الأنعام: ٩٤]. وقوله: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ خطاب للكفار خاصة، والمعنى: زعمت في الدنيا ﴿أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ للبعث، والجزاء.

قوله تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الكتاب الذي سُطِرَ فيه ما تعمل الخلائق قبل وجودهم،

(١) أورده السيوطي في «الدر» ٢٢٥/٤ من رواية أحمد، وابن جرير، وابن المنذر عن عثمان رضي الله عنه.

(٢) أورده السيوطي في «الدر» ٢٢٥/٤ من رواية ابن مردويه عن علي رضي الله عنه.

قاله ابن عباس. والثاني: أنه الحساب، قاله ابن السائب. والثالث: كتاب الأعمال، قاله مقاتل. وقال ابن جرير: وضع كتاب أعمال العباد في أيديهم، فعلى هذا، الكتاب اسم جنس.

قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ قال مجاهد: [هم] الكافرون. وذكر بعض أهل العلم أن كل مجرم ذكر في القرآن فالمراد به: الكافر.

قوله تعالى: ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أي: خائفين ﴿يَمَّا فِيهِ﴾ من الأعمال السيئة ﴿وَيَقُولُونَ بِرَبِّنَا﴾ هذا قول كل واقع في هلكة. وقد شرحنا هذا المعنى في قوله: ﴿يَحْسَرَتُنَا﴾ [الأنعام: ٢٣١].

قوله تعالى: ﴿لَا يَأْدُرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ هذا على ظاهره في صغير الأمور وكبيرها؛ وقد روى عكرمة عن ابن عباس، قال: الصغيرة: التبسم، والكبيرة: القهقهة. وقد يُتوهم أن المراد بذلك صفات الذنوب وكبائرها، وليس كذلك، إذ ليس الضحك والتبسم، مجرّدهما من الذنوب، وإنما المراد أن التبسم من صفات الأفعال، والضحك فعل كبير، وقد روى الضحاك عن ابن عباس، قال: الصغيرة: التبسم والاستهزاء بالمؤمنين، والكبيرة: القهقهة بذلك؛ فعلى هذا يكون ذنباً من الذنوب لمقصود فاعله، لا لنفسه. ومعنى «أحصاها»: عدّها وأثبتها، والمعنى: وُجِدَتْ مُحْصَاةٌ. ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أي: مكتوباً مُثَبَّتاً في الكتاب، وقيل: رأوا جزاءه حاضراً. وقال أبو سليمان: الصحيح عند المحققين أن صفات المؤمنين الذين وعدوا العفو عنها إذا اجتنبوا الكبائر، إنما يعنى عنها في الآخرة بعد أن يراها صاحبها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَطْمِئِرُ رَبُّكَ لَهْدًا﴾ قال أبو سليمان: لا تنقص حسنات المؤمن، ولا يزداد في سيئات الكافر. وقيل: إن كان للكافر فعل خير، كعتق رقبة، وصدقة، خُفِّفَ عنه به من عذابه، وإن ظلمه مسلم، أخذ الله من المسلم، فصار الحق لله. ثم إن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يذكر هؤلاء المتكبرين عن مجالسة الفقراء قصة إبليس وما أورثه الكبر، فقال: ﴿وَلَوْ قُلْنَا﴾ أي: اذكر ذلك. وفي قوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ قولان: أحدهما: أنه من الجن حقيقة، لهذا النص؛ واحتج قائلوا هذا بأن له ذرية - وليس للملائكة ذرية - وأنه كَفَرَ، والملائكة رسل الله، فهم معصومون من الكفر. والثاني: أنه كان من الملائكة، وإنما قيل: «من الجن»، لأنه كان من قبيل من الملائكة يقال لهم: الجن، قاله ابن عباس؛ وقد شرحنا هذا في [البقرة: ٢٣٤].

قوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: خرج عن طاعة ربه، تقول العرب: فسقت الرُّطبة من قشرها: إذا خرجت منه، قاله الفراء، وابن قتيبة. والثاني: أتاه الفسق لما أمر فعصى، فكان سبب فسقه عن أمر ربه، قال الزجاج: وهذا مذهب الخليل وسيبويه، وهو الحق عندنا. والثالث: فسق عن ردّ أمر ربه، حكاه الزجاج عن قطرب.

قوله تعالى: ﴿أَفَنَسْخُدُّهُمْ دُورًا﴾ [أي]: توالونهم بالاستجابة لهم؟! قال الحسن، وقتادة: ذريته: أولاده، وهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم. قال مجاهد: ذريته: الشياطين، ومن ذريته زَلَّتْ بُرُوحُ صاحب راية إبليس بكل سوق، وثبر، وهو صاحب المصائب، والأعور صاحب الرياء، ومِسْوَطُ صاحب الأخبار يأتي بها فيطرحها على أفواه الناس، فلا يوجد لها أصل، وداسم صاحب الإنسان إذا دخل بيته ولم يسلم ولم يذكر اسم الله، فهو يأكل معه إذا أكل، قال بعض أهل العلم: إذا كانت خطيئة الإنسان في كِبَرٍ فلا تَرَجُّه، وإن كانت في شهوة فارجه، فإن معصية إبليس كانت بالكِبَر، ومعصية آدم بالشهوة.

قوله تعالى: ﴿يَقْسُ الظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: بشس الاتخاذ للظالمين بدلاً. والثاني: بشس الشيطان. والثالث: بشس الشيطان والنوّة، ذكرهن ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ﴾ قرأ أبو جعفر، وشيبة: «ما أشهدناهم» بالنون والألف. وفي المشار إليهم أربعة أقوال: أحدها: إبليس وذريته. والثاني: الملائكة. والثالث: جميع الكفار. والرابع: جميع الخلق؛ والمعنى: إني لم أشاورهم في خلقهن؛ وفي هذا بيان للعناء عن الأعوان، وإظهار كمال القدرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ما أشهدت بعضهم خُلِقَ بعض، ولا استعنت ببعضهم على إيجاد بعض.
قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ مُنْجِدَ الْمُضِلِّينَ﴾ [يعني: الشياطين] ﴿عَصَاكُمْ﴾ أي: أنصاراً وأعواناً. والعَصْد يستعمل كثيراً في معنى العون، لأنه قِوَام [اليد]، قال الزجاج: والاعتصاد: التقوي وطلب المعونة، يقال: اعتصدت بفلان، أي: استعنت به. وفي ما نفى اتخاذهم عضداً فيه قولان: أحدهما: أنه الولايات، والمعنى: ما كنت لأولي المضللين، قاله مجاهد. والثاني: أنه خَلَقَ السموات والأرض، قاله مقاتل. وقرأ الحسن، والجحدري، وأبو جعفر: «وما كنت» بفتح التاء.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۖ ﴿٥١﴾ وَرَزَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ۖ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ وقرأ حمزة: «نقول» بالنون، يعني: يوم القيامة ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾ أضاف الشركاء إليه على زعمهم، والمراد: نادوهم لدفع العذاب عنكم، أو الشفاعة لكم، ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: زعمتموهم شركاء ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أي: لم يجيبوهم، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم المشركون والشركاء. والثاني: أهل الهدى وأهل الضلالة. وفي معنى (مُوبِقًا) ستة أقوال: أحدها: مَهْلِكًا، قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك. وقال ابن قتيبة: مَهْلِكًا بينهم وبين آلهتهم في جهنم، ومنه يقال: أويقت ذنوبه، [أي: أهلكته]. قال الزجاج: [المعنى]: جعلنا بينهم من العذاب ما يوبقهم، أي: يهلكهم، فالمُوبِقُ^(١): المهلك، يقال: وَيَبِقُ، وَيَبِيقُ، وَيَبِاقُ، وَيَقَا، وَوَبَقًا، وَوَبِقًا، وَوَبِقًا، فهو وابق؛ وقال الفراء: جعلنا تواصلهم في الدنيا مُوبِقًا، أي: مَهْلِكًا لهم في الآخرة، فالْبَيْنُ، على هذا القول؛ بمعنى التواصل، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] على قراءة من ضم النون. والثاني: أن المُوبِق: وادٍ عميق يُفَرِّقُ به بين أهل الضلالة وأهل الهدى، قاله عبد الله بن عمرو. والثالث: أنه وادٍ في جهنم، قاله أنس بن مالك، ومجاهد. والرابع: أن معنى المُوبِق: العداوة، قاله الحسن. والخامس: أنه المَحْخِيسُ، قاله الربيع بن أنس. والسادس: أنه المُوعِد، قاله أبو عبيدة. قال ابن الأنباري: إن قيل: لم قال: «مُوبِقًا» ولم يقل: «مُوبِقًا»، بضم الميم، إذ كان معناه عذاباً مُوبِقًا؟ فالجواب: أنه اسم موضوع لمَحْخِيس في النار، والأسماء لا تؤخذ بالقياس، فيعلم أن «مُوبِقًا» مُفْعِل، من أوبقه الله: إذا أهلكه، فتفتتح الميم، كما تفتتح في «مُوعِد» و«مُؤَلَّد» و«مُحْتَد» إذا سَمِيت الشخص بهن.

قوله تعالى: ﴿وَرَزَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ أي: عابوها وهي تنغيظ حقاً عليهم. والمراد بالمجرمين: الكفار. ﴿فَظَنُّوا﴾ أي: أيقنوا ﴿أَنَّهُمْ مُوَافِقُوهَا﴾ أي: داخلوها. ومعنى الواقعة: ملابسة الشيء بشدة ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي: مَغْدِلًا؛ والمَصْرِفُ: الموضع الذي يُصْرَفُ إليه، وذلك أنها أحاطت بهم من كل جانب، فلم يقدرُوا على الهَرَبِ.
﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۖ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ فُبُلًا ۖ ﴿٥٤﴾﴾
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ قد فسرناه في [بني إسرائيل: ٤١].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ فيمن نزلت قولان: أحدهما: أنه النَّصْر بن الحارث، وكان جداله في القرآن، قاله ابن عباس. والثاني: أبي بن خلف، وكان جداله في البعث حين أتى بعظم قد رَمَّ، فقال: أيقدر الله على إعادة هذا؟! قاله ابن السائب. قال الزجاج: كل ما يعقل من الملائكة والجن يجادل، والإنسان أكثر هذه الأشياء جدلاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ قال المفسرون: يعني: أهل مكة ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ وهو: محمد ﷺ، والقرآن، والإسلام ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ﴾ وهو: أنهم إذا لم يؤمنوا عذبوا. وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال:

(١) في الأصل: «فالموضع» بدلاً من كلمة «فالموبق»، ولعله سهو من الناسخ.

أحدها: ما منعهم من الإيمان إلا طلب أن تأتيهم سُنَّةُ الأولين، قاله الزجاج. والثاني: وما منع الشيطان الناس أن يؤمنوا إلا لأن تأتيهم سُنَّةُ الأولين، أي: منعهم رُشْدَهُمْ لكي يقع العذاب بهم، ذكره ابن الأنباري. والثالث: ما منعهم إلا أنني قد قُدِّرَت عليهم العذاب. وهذه الآية فيمن قُتِل بيدر وأُخِذ من المشركين، قاله الواحدي.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ ذكر ابن الأنباري في «أو» [هاهنا] ثلاثة أقوال: أحدها: أنها بمعنى الواو. والثاني: أنها لوقوع أحد الشئين، إذ لا فائدة في بيانه. والثالث: أنها دخلت للتبويض، أي: أن بعضهم يقع به هذا، وهذه الأقوال الثلاثة قد أسلفنا بيانها في قوله ﷻ: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩].

قوله تعالى: ﴿قُبُلًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «قُبُلًا» بكسر القاف وفتح الباء. وقرأ عاصم، وحمره، والكسائي: «قُبَلًا» بضم القاف والباء. وقد بيَّنا علَّةَ القراءتين في [الأنعام: ١١١]. وقرأ أبي بن كعب، وابن مسعود: «قُبَلًا» بوزن فَعِيل. وقرأ أبو الجوزاء، وأبو المتوكل «قُبَلًا» بفتح القاف من غير ياء، قال ابن قتيبة: أراد استثنافاً. فإن قيل: إذا كان المراد بسُنَّةِ الأولين العذاب، فما فائدة التكرار بقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾؟ فالجواب: أن سُنَّةَ الأولين أفادت عذاباً مبهماً يمكن أن يتراخى وقته، وتختلف أنواعه، وإتيان العذاب قُبَلًا أفاد القتل يوم بدر. قال مقاتل: «سُنَّةُ الأولين»: عذاب الأمم السالفة؛ «أو يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبَلًا»، أي: عياناً قتلاً بالسيف يوم بدر.

﴿وَمَا تُرِيدُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ يُجْعِلُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَيْتِ لِتُجْعِلُوا بِهِ لِقَاءَ رَبِّكَ وَأَنْتَ مُبَشِّرٌ وَمُنذِرٌ﴾ [١٨] وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَمَعْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَنَسُوا نَعْمَهُ إِلَى الْهَدْيِ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿١٩﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجِلَ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجْعَدُوا مِن دُونِهِ مَوْعِدًا ﴿٢٠﴾ وَتِلْكَ الْأَفْرُتُ أَخْلَكْنَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِنَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٢١﴾

قوله تعالى: ﴿يُجْعِلُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَيْتِ لِتُجْعِلُوا بِهِ لِقَاءَ رَبِّكَ﴾ قال ابن عباس: يريد: المستهزئين والمقتسمين وأتباعهم. وجدالهم بالباطل: أنهم ألزموه أن يأتي بالآيات على أهوائهم ﴿يُجْعِلُوا بِهِ لِقَاءَ رَبِّكَ﴾ أي: ليُبْطِلُوا ما جاء به محمد ﷺ. وقيل: جدالهم: قولهم: ﴿لَوْذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفَقًا﴾ [الإسراء: ٤٩]، ﴿لَوْذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠]، ونحو ذلك ليبطلوا به ما جاء في القرآن من ذكر البعث والجزاء. قال أبو عبيدة: ومعنى «الْيُجْعِلُوا» ليُزِيلُوا ويذهبوا، يقال: مكان دَخَضَ، أي: مَزَلَّ لا يثبت فيه قدم ولا حافر.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ مُبَشِّرٌ وَمُنذِرٌ﴾ يعني القرآن ﴿وَمَا أَنْذَرُوا﴾ أي: خُوفوا به من النار والقيامة ﴿هَؤُلَاءِ﴾ أي: مهزوءة به. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ قد شرحنا هذه الكلمة في [البقرة: ١١٤]. و﴿ذِكْرٌ﴾ بمعنى: وعظ. وآيات ربه: القرآن، وإعراضه عنها: تهاونه بها. ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: ما سلف من ذنوبه؛ وقد شرحنا ما بعد هذا في [الأنعام: ٢١] إلى قوله: ﴿وَلَنْ نَدْعُهُمْ إِلَى الْهَدْيِ﴾ وهو: الإيمان والقرآن ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا﴾ هذا إخبار عن علمه فيهم.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ إذ لم يعاجلهم بالعقوبة. ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ للبعث والجزاء ﴿لَنْ يَجْعَدُوا مِن دُونِهِ مَوْعِدًا﴾ قال الفراء: الموتل: المنجى، وهو الملجأ في المعنى، لأن المنجى ملجأ، والعرب تقول: إنه لَيُؤَاتِلُ إلى موضعه، أي: يذهب إلى موضعه، قال الشاعر:

لَا رَاءَكَ نَفْسُكَ خَلَّتْهَا

لِلْعَامِرِيِّينَ، وَلَمْ تُكَلِّمْ^(١)

يريد: لا نجت نفسك، وأنشد أبو عبيدة للأعشى:

وَقَدْ أَخَالِسُ رَبِّ الْبَيْتِ عَفْلَةً

أي: ما ينتجو. وقال ابن قتيبة: الموتل: الملجأ. يقال: وأل فلان إلى كذا: إذا لجأ. فإن قيل: ظاهر هذه الآية يقتضي أن تأخير العذاب عن الكفار برحمة الله، ومعلوم أنه لا نصيب لهم في رحمته. فعنه جوابان: أحدهما: [أن]

(١) البيت غير منسوب في «الطبري» ٢٦٩/١٥، و«القرطبي» ٨/١١، و«اللسان»: وأل.

(٢) ديوانه بشرح الدكتور محمد حسين ص ٥٩، و«الطبري» ٢٦٩/١٥، و«مجاز القرآن» ٤٠٨/١، و«القرطبي» ٨/١١.

الرحمة هاهنا بمعنى النعمة، ونعمة الله لا يخلو منها مؤمن ولا كافر. فأما الرحمة التي هي الغفران والرضى، فليس للكافر فيها نصيب. والثاني: أن رحمة الله محظورة على الكفار يوم القيامة، فأما في الدنيا، فإنهم يتألون منها العافية والرزق.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌكَ الْفُرُتِ﴾ يريد: التي قصصنا عليك ذكراً، والمراد: أهلها، ولذلك قال: ﴿أَمَلَكْنَهُمْ﴾ والمراد: قوم هود، وصالح، ولوط، وشعيب. قال الفراء: قوله: ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ معناه: بعدما ظلموا.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِهَٰلِكِهِمْ﴾ قرأ الأكثرون بضم الميم وفتح اللام؛ قال الزجاج: وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون مصدرًا، فيكون المعنى: وجعلنا لإهلاكهم. والثاني: أن يكون وقتًا، فالمعنى: لوقت هلاكهم. وقرأ أبو بكر عن عاصم بفتح الميم واللام، وهو مصدر مثل الهلاك. وقرأ حفص عن عاصم بفتح الميم وكسر اللام، ومعناه: لوقت إهلاكهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَتْنَهُ لَا أَسِيرُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ ﴿١٥﴾ ﴿لَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا بَيَّحَا بَيَّحَا حَتَّىٰ أَتَوْهُمَا بِقُرْبَةٍ سَبِيلُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ ﴿١٦﴾ ﴿لَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْنَهُمَا إِنَّا غَدَاةٌ لَّيْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَضَا﴾ ﴿١٧﴾ ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَبِيْتُ الْمَوْتِ وَمَا أَسْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرُ وَاعْتَدَ سَبِيلُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ ﴿١٨﴾ ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبُغُ فَأَرْسَلْنَا عَنْ أَثَارِهَا فَصَصَا﴾ ﴿١٩﴾ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا رَحِمَةً بَيْنَ عَيْنَيْنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَتْنَهُ...﴾، الآية، سبب خروج موسى ﷺ في هذا السفر، ما روى ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ قال: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عز وجل عليه إذ لم يرِدْ العلم إليه، فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك؛ قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله في مِكتل، فحيثما فُتِدَت الحوت فهو ثَمٌّ. فانطلق معه فتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة، وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المِكتل فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جزيئة الماء، فصار عليه مثل الطاق^(١). فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتها، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: أتنا غداة لنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، فقال فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ...﴾ إلى قوله: ﴿عَجَبًا﴾، قال: فكان للحوت سرباً، ولموسى ولفتاه عجباً، فقال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبُغُ فَأَرْسَلْنَا عَنْ أَثَارِهَا فَصَصَا﴾ قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا هو مسجى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام^(٢)! مَنْ أنت؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم أتيتك لتعلمني مما علّمت زُشدًا، قال: إنك لن تستطيع معي صبراً يا موسى، إني على علم من علم الله لا تعلمه علمني، وأنت على علم من علم الله علمك لا أعلمه؛ فقال موسى: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً؛ فقال له الخضر: فإن أتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أخبرك لك منه ذكراً؛ فانطلقا يمشيان على الساحل، فمرت سفينة فكلّمهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول^(٣)؛ فلما ركبا في السفينة لم يبقا إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدم، فقال له موسى: قوم قد حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم ﴿أَخْرَقْنَاهَا لِتَعْرِفَ أَهْلَهَا...﴾ إلى قوله: ﴿عَجَبًا﴾؟! قال: وقال رسول الله ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسياناً»، وجاء عصفور فوق على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله تعالى إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله، فقال له موسى: ﴿أَنْتَ لَقَسَا ذَرْبَهُ﴾ إلى قوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَمْلِكُنَّ﴾ فقال الخضر بيده [هكذا]^(٤)،

(١) الطاق: عقد البناء، وجمعه: طيقان، وأطواق - وهو الأزج (بيت بيني طولاً، أو السقف) - وما عقد أعلاه من البناء وبقي ما تحته خالياً.

(٢) أي: من أين السلام في هذه الأرض التي لا يعرف فيها السلام. قال العلماء: «أنى» تأتي بمعنى: أين، ومتى، وحيث، وكيف.

(٣) أي: بغير أجر، والنول والنوال: العطاء.

(٤) قوله: فقال الخضر بيده هكذا، أي: أشار بيده فأقامه، وهذا تعبير بالفعل عن القول، وهو شائع.

فأقامه، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا، ولم يضيّفونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَلَخَّدْتَ عَلَيْهِمْ أَجْرًا﴾! ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ...﴾ الآية. هذا حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم في «الصحاحين»^(١)، وقد ذكرنا إسناده في كتاب «الحداثق» فآثرنا الاختصار هاهنا. فأما التفسير، فقوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَ مُوسَى﴾ المعنى: واذكر ذلك. وفي موسى قولان: أحدهما: أنه موسى بن عمران، قاله الأكثرون. ويدل عليه ما روي في «الصحاحين» من حديث سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نَوْفًا الْيَكَالِيَّ يزعم أن موسى بنى إسرائيل ليس هو موسى صاحب الخضر، قال: كذب عدو الله^(٢)، أخبرني أبي بن كعب... فذكر الحديث الذي قدمناه آنفًا^(٣). والثاني: أنه موسى بن ميثا، قاله ابن إسحاق، وليس بشيء، للحديث الصحيح الذي ذكرناه. فأما فتاه فهو يوشع بن نون من غير خلاف. وإنما سمي فتاه، لأنه كان يلازمه، ويأخذ عنه العلم، ويخدمه. ومعنى ﴿لَا أَبْرَحُ﴾: لا أزال. وليس المراد به: لا أزول، لأنه إذا لم يُزَلْ لم يقطع أرضاً، فهو مثل قولك: ما برحت أنظر عبد الله، أي: ما زلت، قال الشاعر:

إذا أنت لم تبرح تؤذي أمانةً وتحملُ أخرى أفرحتك الودائع^(٤)

أي: أثقلتك، والمعنى: لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين، أي: ملتقاهما، وهو الموضع الذي وعده الله بلقاء الخضر فيه، قال قتادة: بحر فارس، وبحر الروم، فبحر الروم نحو المغرب، وبحر فارس نحو المشرق. وفي اسم البلد الذي بمجمع البحرين قولان: أحدهما: إفريقية، قاله أبي بن كعب. والثاني: طنجة، قاله محمد بن كعب القرظي.

قوله تعالى: ﴿أَوْ أَمْنِيْ حُقُبًا﴾ وقرأ أبو رزين، والحسن، وأبو مجلز، وقتادة، والجحدري، وابن يعمر: «حُقْبًا» بإسكان الكاف. قال ابن قتيبة: الحُقْب: الدهر، والجُقب: السُّنُون، واحداً حُقْبَة، ويقال: حُقْبٌ وحُقْب، كما يقال: قُفْلٌ وقُفْلٌ، وهَزْوَ وهَزْوَ، وكُفُو وكُفُو، وأَكْلٌ وأَكْلٌ، وسُخْتُ وسُخْتُ، ورُغْب ورُغْب، ونُكْر ونُكْر، وأُذِنٌ وأُذِنٌ، وسُحِق وسُحِقٌ، وبُعْدٌ وبُعْدٌ، وسُغْل وسُغْلٌ، وثُلثٌ وثُلثٌ، وعُذْرٌ وعُذْرٌ، ونُذْرٌ ونُذْرٌ، وعُغْرٌ وعُغْرٌ. وللمفسرين في المراد بالحُقْب هاهنا ثمانية أقوال: أحدها: أنه الدهر، قاله ابن عباس. والثاني: ثمانون سنة، قاله عبد الله بن عمرو، وأبو هريرة. والثالث: سبعون ألف سنة، قاله الحسن. والرابع: سبعون سنة، قاله مجاهد. والخامس: سبعة عشر ألف سنة، قاله مقاتل بن حيان. والسادس: أنه ثمانون ألف سنة. كل يوم ألف سنة من عدد الدنيا. والسابع: أنه سنة بلغة قيس، ذكرهما الفراء. والثامن: الحُقْب عند العرب وقت غير محدود، قاله أبو عبيدة. ومعنى الكلام: لا أزال أسير، ولو احتجت أن أسير حُقْبًا.

قوله تعالى: ﴿تَلَمَّا بَلَغْنَا﴾ يعني: موسى وفتاه ﴿بِجَمْعٍ بَيْنَهُمَا﴾ يعني: البحرين ﴿نَسِيَا حَوْتَهُمَا﴾ وكانا قد تزودا حوتاً مالحاً في زَبِيل^(٥) فكانا يصيبان منه عند الغداء والعشاء، فلما انتهيا إلى الصخرة على ساحل البحر وضع فتاه المكنل، فأصاب الحوت بللّ البحر. وقيل: توضع يوشع من عين الحياة فانتضخ على الجوت الماء، فعاش، فتحرك في الجُكْتَل، فانسرب في البحر، وقد كان قيل لموسى: تزود حوتاً مالحاً، فإذا فقدته وجدت الرجل. وكان موسى حين ذهب الحوت في البحر قد مضى لحاجة، فعزم فتاه أن يخبره بما جرى فنسي. وإنما قيل: «نسيا حوتهما» توسعاً في الكلام، لأنهما جميعاً تزوداه، كما يقال: نسي القوم زادهم، وإنما نسيه أحدهم. قال الفراء: ومثله قوله: ﴿يَحْيَىٰ نَسِيَهَا الْكَلَامَ وَالْمَرْحَاتُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرج ذلك من الملح، لا من العذب. وقيل: نسي يوشع أن يحمل الحوت، ونسي موسى أن يأمره فيه بشيء، فلذلك أضيف النسيان إليهما.

(١) البخاري ١٥٣/١ و٣٠٨/٦ و٣١٠/٨، ومسلم ١٨٤٧/٤، ورواه الترمذي ١٤٣/٢ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) قوله: كذب عدو الله، قال العلماء: هو على وجه الإغلاظ والزجر عن مثل قوله، لا أنه يمتنع أنه عدو الله حقيقة، إنما قاله مبالغة في إنكار قوله: لمخالفته قول رسول الله ﷺ، وكان ذلك في حال غضب ابن عباس، لشدة إنكاره، وحال الغضب تطلق الألفاظ ولا تتراد بها حقائقها.

(٣) البخاري ٣١٠/٨، ومسلم ١٨٤٧/٤.

(٤) البيت لبهس العذري في «اللسان»: فرح.

(٥) الزبيل: الفُتَّة، والجمع: زَبِيل ومثله الزَّبِيل، والزَّبِيل، والجمع: زنايل.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي: مسلکاً ومذهباً. قال ابن عباس: جعل الحوت لا يمسُّ شيئاً من البحر إلا ييس حتى يكون صخرة. وقال قتادة: جعل لا يسلك طريقاً إلا صار الماء جامداً. وقد ذكرنا في حديث أبي بن كعب أن الماء صار مثل الطاق على الحوت.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاؤُنَا﴾ ذلك المكان الذي ذهب فيه الحوت، أصابهما ما يصيب المسافر من النَّصَب، فدعا موسى بالطعام، فقال: ﴿وَلَيْنَا عُدَّةُنَا﴾ وهو الطعام الذي يؤكل بالغداة. والنَّصَب: الإعياء. وهذا يدل على إباحة إظهار مثل هذا القول عندما يلحق الإنسان من الأذى والتعب، ولا يكون ذلك شكوى. ﴿قَالَ﴾ يوشع لموسى: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ أي: حين نزلنا هناك ﴿فَلَمَّا قُبِيتُ الْخَوْتُ﴾ فيه قولان: أحدهما: نسيْتُ أن أخبرك خبر الحوت. والثاني: نسيْتُ حمل الحوت.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْفَيْتُهُ﴾ قرأ الكسائي: «أنسانيه» بإمالة السين [مع كسر الهاء]. وقرأ ابن كثير: «أنسانيهي» بإثبات ياء في الوصل بعد الهاء. وروى حفص عن عاصم: «أنسانيه إلا» بضم الهاء [في الوصل].

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ الهاء في السبيل ترجع إلى الحوت. وفي المُتَّخِذ قولان. أحدهما: أنه الحوت، ثم في المخبر عنه قولان: أحدهما: أنه الله ﷻ، ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: فاتخذ سبيله في البحر يُري عجباً، ويُحدث عجباً. والثاني: أنه لما قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ﴾، قال: اعجبوا لذلك عجباً، وتبهِوا لهذه الآية. والثالث: أن إخبار الله تعالى انقطع عند قوله: «في البحر» فقال موسى: عجباً، لما شوه من الحوت. ذكر هذه الأقوال ابن الأنباري. والثاني: [أن] المُخْبِر عن الحوت يوشع، وصف لموسى ما فعل الحوت. والقول الثاني: أن المتَّخِذ موسى، اتخذ سبيل الحوت في البحر عجباً، فدخل في المكان الذي مرَّ فيه الحوت، فرأى الخضر. وروى عطية عن ابن عباس قال: رجع موسى إلى الصخرة فوجد الحوت، فجعل الحوت يضرب في البحر، ويتبعه موسى، حتى انتهى به إلى جزيرة من جزائر البحر، فلقي الخضر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ يعني: موسى ﴿وَلَا مَا كُنَّا نَبْعُ﴾ أي: ذلك الذي نطلب من العلامة الدالة على مطلوبنا، قرأ ابن كثير: «نبغي» بياء في الوصل والوقف. وقرأ نافع، وأبو عمرو، والكسائي، بياء في الوصل. وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، بحذف الياء في الحاليين.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا﴾ قال الزجاج: أي: رجعا في الطريق الذي سلكاه، يقصَّان الأثر، والقصص: أثباغ الأثر.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ يعني: الخضر. وفي اسمه أربعة أقوال: أحدها: اليسع، قاله وهب، ومقاتل. والثاني: الخضر بن عاميا. والثالث: أرميا بن حلفيا، ذكرهما ابن المنادي. والرابع: بليا بن ملكان، ذكره علي بن أحمد النيسابوري. فأما تسميته بالخضر، ففيه قولان: أحدهما: أنه جلس في فروة بيضاء فاخضرت، رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ^(١). والفروة: الأرض اليابسة. والثاني: أنه كان إذا جلس اخضرَّ ما حوله، قاله عكرمة. وقال مجاهد: كان إذا صلى اخضرَّ ما حوله. وهل كان الخضر نبياً، أم لا؟ فيه قولان، ذكرهما أبو بكر بن الأنباري، وقال: كثير من الناس يذهب إلى أنه كان نبياً^(٢)، وبعضهم يقول: كان عبداً صالحاً. واختلف العلماء هل هو باقٍ إلى يومنا هذا، على قولين حكاهما الماوردي، وكان الحسن يذهب إلى أنه مات، وكذلك كان ابن المنادي من أصحابنا

(١) روى الإمام أحمد في «المسند» عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ في الخضر قال: «إنما سمي خضرًا، لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من تحت خضراء» وجاء في «صحيح البخاري» ٣٠٩/٦ عن همام عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنما سمي الخضر، لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء». قال ابن كثير: والمراد بالفروة هاهنا: الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات.

(٢) قال ابن كثير ٩٩/٣ عند قوله تعالى على لسان الخضر ؑ: ﴿وَمَا كُنَّا عَنْ أَنْعَمَ﴾: وما فعلته عن أمري، لكني أمرت به، ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبو الخضر ؑ، مع ما تقدم من قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا عَلَيْهِ تَرَصُّعٌ مِّنْ عِلْمِهِ وَكُنَّا لَهُ عِلْمًا﴾. وقال الألوسي في «روح المعاني» ٢٩٣/١٥: الجمهور على أنه نبي.

يقول، ويقبَّح قول من يرى بقاءه، ويقول: لا يثبت حديث في بقاءه^(١). وروى أبو بكر النقاش أن محمد بن إسماعيل البخاري سئل عن الخضر والياس: هل هما في الأحياء؟ فقال: كيف يكون ذلك وقد قال النبي ﷺ: «لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد»^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنزَلْتُ رَحْمَةً مِنِّي عَيْنًا﴾ في هذه الرحمة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها النبوة، قاله مقاتل. والثاني: الرقة والحنو على من يستحقه، ذكره ابن الأنباري. والثالث: النعمة، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿عِلْمًا﴾ قال ابن عباس: أعطاه علماً من علم الغيب. ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْكَ عَلَىٰ أَن تُكَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٧﴾ وَكَيفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِط بِهِ خُبْرًا ﴿٧٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَن تُكَلِّمَنِي﴾ قرأ ابن كثير: «تعلمني مما» بإثبات الياء في الوصل والوقف. وقرأ نافع، وأبو عمرو بياء في الوصل. وقرأ ابن عامر، وعاصم بحذف الياء في الحالين.

قوله تعالى: ﴿مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي: «رُشْدًا» بضم الراء، [وإسكان الشين] خفيفة. وقرأ أبو عمرو: «رُشْدًا» بفتح الراء والشين. وعن ابن عامر بضمهما. والرُّشد، والرُّشد: لغتان، كالنَّحْل والنَّحْل، والعُجْم والعَجْم، والغُرْب والغَرْب، والمعنى: أن تعلمني علماً ذا رشد. وهذه القصة قد حُرِّضت على الرحلة في طلب العلم، وأتباع المفضول للمفاضل طلباً للفضل، وحثت على الأدب والتواضع للمصحوب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ قال ابن عباس: لن تصبر على صناعي، لأنني علمت من غيب علم ربي. وفي هذا الصبر وجهان: أحدهما: على الإنكار. والثاني: عن السؤال.

قوله تعالى: ﴿وَكَيفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِط بِهِ خُبْرًا﴾ ﴿٧٨﴾ الخُبْر: عِلْمك بالشيء؛ والمعنى: كيف تصبر على أمر ظاهره مُنْكَر، وأنت لا تعلم باطنه؟! ظاهره مُنْكَر، وأنت لا تعلم باطنه!؟

قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قال ابن الأنباري: نفي العصيان منسوق على الصبر^(٣). والمعنى: ستجدي صابراً ولا أعصي إن شاء الله.

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْزِمَنِي خَوْفٌ أَوْ حَقٌّ أُخْبِرْتُكَ مِنِّي وَذَكَرْتُكَ﴾ قَاتِلًا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧٩﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَقْلُ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٨٠﴾ قَالَ لَا تُؤْخِذْنِي بِمَا نَسِيتَ وَلَا تُرْهِقْنِي مِن أَمْرِي عُسْرًا ﴿٨١﴾ قَاتِلًا حَتَّىٰ إِذَا لَبِيا غُلَاكُمَا فَتَنَّاكُمَا قَالَ أَفَتُلْقِيَانَا فِي الْغَيِّثِ بِعَذَابٍ مُّتَبَعٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا ثَكْرًا ﴿٨٢﴾ ﴿٨٣﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَقْلُ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٨٤﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتَهُ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصْجِبْهُ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٨٥﴾ قَاتِلًا حَتَّىٰ إِذَا آتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَ أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَن يُعَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَكُونَتْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٨٦﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَلْزِمَنِي﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي: «فلا تسألني» ساكنة اللام. وقرأ نافع: «فلا تسألني» مفتوحة اللام مشددة النون. وقرأ ابن عامر في رواية الداجوني: «فلا تسألن عن شيء» بتحريك اللام من غير ياء، والنون مكسورة. والمعنى: لا تسألني عن شيء مما أفعله ﴿حَتَّىٰ أُخْبِرْتُكَ لَكَ مِنِّي وَذَكَرْتُكَ﴾ أي: حتى أكون أنا الذي أُبَيِّنُهُ لك، لأن علمه قد غاب عنك.

قوله تعالى: ﴿خَرَقَهَا﴾ أي: شقها. قال المفسرون: قلع منها لوحاً، وقيل: لوحين مما يلي الماء، فحشاها موسى

(١) ومن جزم بأنه غير موجود الآن، البخاري، وإبراهيم الحربي، وأبو يعلى بن الفراء، وأبو طاهر العبادي، وأبو بكر بن العربي، وطائفة، وعندهم الحديث الآتي: «لا يبقى على رأس مائة سنة... إلخ». والأخبار التي تدل على بقاءه، ضعيفة.

(٢) البخاري ١/١٨٨، ومسلم ٤/١٩٦٥، باختلاف يسير في الفاظه.

(٣) أي: معطوف على الصبر، والنحوين يسمون حروف العطف: حروف النسق.

بثوبه وأنكر عليه ما فعل بقوله: ﴿أَخْرَجْنَا لِنُقَرِّبَ أَهْلَهَا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «لنُقَرِّق» بالتاء «أهلها» بالنصب. وقرأ حمزة، والكسائي: «لِنُقَرِّق» بالياء «أهلها» برفع اللام. ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾، وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: منكر، قاله مجاهد. وقال الزجاج: عظيماً من المنكر. والثاني: عجباً، قاله قتادة، وابن قتيبة. والثالث: داهية، قاله أبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿لَا تُؤَلِّقْ بِمَا نَبَيْتُ﴾ في هذا النسيان ثلاثة أقوال: أحدها: أنه على حقيقته، وأنه نسي، روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ: «أن الأولى كانت نسياناً من موسى»^(١). والثاني: أنه لم ينس، ولكنه من معاريض الكلام، قاله أبي بن كعب، وابن عباس. والثالث: أنه بمعنى التَّرك. فالمعنى: لا تؤاخذني بما تركته مما عاهدتك عليه، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤَيِّنْ﴾ قال الفراء: لا تُعجلني. وقال أبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج: لا تُغشيني. قال أبو زيد: يقال: أرهقته عسراً: إذا كلفته ذلك. قال الزجاج: والمعنى: عاملني باليسر، لا باليسر.

قوله تعالى: ﴿فَأَنطَلَقَا﴾ يعني: موسى والخضر. قال الماوردي: يحتمل أن يوشع تأخر عنهما، لأن الإخبار عن اثنين، ويحتمل أن يكون معهما ولم يذكر لأنه تبع لموسى، فاقصر على حكم المتبوع.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَبَّيَّا ظُلُمًا﴾ اختلفوا في هذا الغلام هل كان بالغاً، أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنه لم يكن بالغاً، قاله ابن عباس، ومجاهد، والأكثرون. والثاني: أنه كان شاباً قد قبض على لحيته، حكاه الماوردي عن ابن عباس أيضاً، واحتج بأن غير البالغ لم يَجِرْ عليه قلم، فلم يستحق القتل. وقد يُسَمَّى الرجلُ غلاماً، قالت ليلى الأخيلية تملح الحجاج:

[شَفَّاهَا مِنْ الدَّاءِ الْعُضَالِ الَّذِي بِهَا] غُلَامٌ إِذَا هَزَّ الْقِنَاءَ سَقَاهَا^(٢)

وفي صفة قتله له ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اقتلع رأسه، وقد ذكرناه في حديث أبيي. والثاني: كسر عنقه، قاله ابن عباس. والثالث: أضجمه وذبحه بالسكين، قاله سعيد بن جبير.

قوله تعالى: ﴿أَنكَتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ قرأ الكوفيون، وابن عامر: «زَكِيَّة» بغير ألف، والياء مشددة. وقرأ الباقون بالألف من غير تشديد. قال الكسائي: هما لغتان بمعنى واحد، وهما بمنزلة القاسية، والقسيّة. وللمفسرين فيها ستة أقوال: أحدها: أنها التائبة، روي عن ابن عباس أنه قال: الزكية: التائبة، [وبه] قال الضحاك. والثاني: أنها المسلمة، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أنها الزكية التي لم تبلغ الخطايا، قاله سعيد بن جبير. والرابع: أنها الزكية النامية، قاله قتادة. وقال ابن الأنباري: القويمة في تركيبها. والخامس: أن الزكية: المطهرة، قاله أبو عبيدة. والسادس: أن الزكية: البريئة التي لم يظهر ما يوجب قتلها، قاله الزجاج. وقد فَرَّقَ بعضهم بين الزاكية، والزكيّة، فروي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: الزاكية: التي لم تذب قط، والزكية: التي أذنبت ثم تاب. وروي عن أبي عبيدة أنه قال: الزاكية في البدن، والزكية في الدّين.

قوله تعالى: ﴿يَقْرِئُ نَفْسٍ﴾ أي: بغير قتل نفس ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «نُكْرًا» خفيفة في كل القرآن، إلا قوله: ﴿إِلَٰهٌ شَيْءٌ نُكْرٌ﴾ [الفر: ٦]، وخفف ابن كثير أيضاً: «إلى شيء نُكْر». وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «نُكْرًا» و«إلى شيء نُكْر» مثقل. والمخفف إنما هو من المثقل، كالعُنُق، والعُنُق، والنُّكْر، والنُّكْر، قال الزجاج: والمعنى: لقد أتيت شيئاً نكراً. ويجوز أن يكون معناه: جئت بشيء نكر، فلما حذف الباء، أفضى الفعل فنصب نكراً، و«نُكْرًا» أقل منكر من قوله: «إمراً» لأن تغريق مَنْ في السفينة كان عنده أنكر من قتل نفس واحدة.

(١) هذه قطعة من الحديث الطويل الذي تقدم سابقاً في ٨٥٩ - ٨٦٠.

(٢) الأغاني طبع الدار ٢٤٨/١١، والقرطبي ٢١/١١، والبحر المحيط ١٥٠/٦، و«روح المعاني» ٣١٠/١٥، وقوله:

إِذَا نَزَلَ الْحَجَّاجُ أَرْضاً مَرِيضَةً تَتَّبِعُ أَقْصَى دَائِهَا فَشَفَّاهَا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَفَلَا لَكَ﴾. إن قيل: لم ذكر «لك» هاهنا، واختزله من الموضع الذي قبله؟ فالجواب: أن إثباته للتوكيد، واختزله لوضوح المعنى، وكلاهما معروف عند الفصحاء. تقول العرب: قد قلت لك: اتق الله. وقد قلت لك: يا فلان اتق الله، وأنشد ثعلب.

قد كنت حذرْتُك أكل المضطربِ
وقلت: يا هذا أطعني وانطلق
فقوله: يا هذا، توكيد لا يخلت الكلام بسقوطه. وسمعت الشيخ أبا محمد الخشاب يقول: وقره في الأول، فلم يواجه بكاف الخطاب، فلما خالف في الثاني، واجهه بها.

قوله تعالى: ﴿إِنْ سَأَلْتَهُ عَن شَيْءٍ﴾ أي: سؤال توبيخ وإنكار ﴿بَعْدَهَا﴾ أي: بعد هذه المسألة ﴿فَلَا تَصِحِّبْنِي﴾ وقرأ كذلك معاذ القارئ، وأبو نهيك، وأبو المتوكل، والأعرج، إلا أنهم شدّدوا النون. قال الزجاج: ومعناه: إن طلبت صحبتك فلا تتابعني على ذلك. وقرأ أبي بن كعب، وابن أبي عبله، ويعقوب: ﴿فَلَا تَصْحَبْنِي﴾ بفتح التاء من غير ألف. وقرأ ابن مسعود، وأبو العالية، والأعمش كذلك، إلا أنهم شدّدوا النون. وقرأ أبو رجاء، وأبو عثمان النهدي، والنخعي، والجحدري: ﴿تُصْحَبْنِي﴾ بضم التاء، وكسر الحاء، وسكون الصاد والباء. قال الزجاج: فيهما وجهان: أحدهما: لا تتابعني في شيء ألتسه منك. يقال: قد أصحب المهر: إذا انقاد. والثاني: لا تصحبني علماً من علمك. ﴿فَدَلَّتْ مِن لَدُنِّي﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «من لدني» مثقل. وقرأ نافع: «من لدني» بضم الدال مع تخفيف النون. وروى أبو بكر عن عاصم: «من لدني» بفتح اللام مع تسكين الدال. وفي رواية أخرى عن عاصم: «لدني» بضم اللام وتسكين الدال. قال الزجاج: وأجودها تشديد النون، لأن أصل «لدن» الإسكان، فإذا أضفتها إلى نفسك زدت نوناً، ليسلم سكون النون الأولى، تقول: من لدن زيد، فتسكن النون ثم تضيف إلى نفسك، فتقول: من لدني، كما تقول: عن زيد وعني. فاما إسكان دال «لدني» فإنهم أسكنوها، كما تقول في عضد: عضد، فيحذفون الضم. قال ابن عباس: يريد: إنك قد أعذرت فيما بيني وبينك، يعني: أنك قد أخبرتني أنني لا أستطيع معك صبراً.

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ فيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها أنطاكية، قاله ابن عباس. والثاني: الأبلّة، قاله ابن سيرين. والثالث: باجروان، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿أَسْتَلْعَمَ أَهْلُهَا﴾ أي سألهم الضيافة ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهَا﴾ روى المفضل عن عاصم: «يُضَيِّقُوهَا» بضم الياء الأولى وكسر الضاد وتخفيف الياء الثانية. وقرأ أبو الجوزاء كذلك، إلا أنه فتح الياء [الأولى] وقرأ الباقون: «يُضَيِّقُوهَا» بفتح الضاد وتشديد الياء الثانية وكسرها. قال أبو عبيدة: ومعنى يضيّقونها: ينزلونها منزل الأضياف، يقال: ضيفت أنا، وأضافني الذي ينزلي. وقال الزجاج: يقال: ضيف الرجل: إذا نزلت عليه، وأضفته: إذا أنزلته وقرئته. وقال ابن قتيبة: [يقال]: ضيفت الرجل: إذا أنزلته منزلة الأضياف، ومنه هذه الآية، وأضفته: أنزلته وضيّفته: نزلت عليه. وروى أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ قال: «كانوا أهل قرية لثاماً»^(١).

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا﴾ أي: حائطاً. قال ابن فارس: وجمعه جُدُر، والجُدُر: أصل الحائط. ومنه حديث الزبير: «ثم دع الماء يرجع إلى الجُدُر»^(٢)، والجيدر: القصير.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَّ﴾ وقرأ أبي بن كعب، وأبو رجاء: «ينقاض» بألف ممدودة، وضاد معجمة؛ وقرأ ابن مسعود، وأبو العالية، وأبو عثمان النهدي: «ينقاض» بألف ومدة وضاد غير معجمة، وكله بلا تشديد. قال الزجاج: فمعنى: ينقض: يسقط بسرعة، وينقاض - غير معجمة: ينشق طولاً، يقال: انقاضت سيئه: إذا انشقت. قال ابن مقسم: انقاضت سيئه، وانقاضت - بالصاد، والضاد - على معنى واحد. فإن قيل: كيف نسبت الإرادة إلى ما لا يعقل؟ فالجواب: أن هذا على وجه المجاز تشبيهاً بمن يعقل، ويريد: لأن هيئته في التهوي للوقوع قد ظهرت كما يظهر

(١) رواء مسلم ١٨٥٢/٤ بلطف «حتى إذا آتيا أهل قرية لثاماً» وهو قطعة من حديث طويل.

(٢) في البخاري ٢٢٧/٥ «است يا زبير ثم احبس حتى يبلغ الجدر» وهو في «الناسي» ١٣٩/٨، وهو جزء من حديث طويل.

من أفعال المريرين القاصدين، فوصف بالإرادة إذ كانت الصورتان واحدة، وقد أضافت العرب الأفعال إلى ما لا يعقل تجوزاً، قال الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْفَخْصُ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، والغضب لا يسكت، وإنما يسكت صاحبه، وقال: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ [محمد: ٢١]، وأنشدوا من ذلك:

إِنَّ دَفْعاً يُلْفُ شَمْلِي بِجُمْلٍ
وَقَالَ آخِرُ:

يُرِيدُ الرُّمْحُ صَنْدَرُ أَبِي بَرَاءٍ
وَقَالَ آخِرُ:

ضَحِكُوا وَالدَّهْرُ عَنْهُمْ سَاكِتٌ
وَقَالَ آخِرُ:

يَشْكُو إِلَيَّ جَمَلِي طُولُ الشَّرَى
وهذا كثير في أشعارهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَكَاثَمُ﴾ أي: سواه، لأنه وجده ماثلاً. وفي كيفية ما فعل قولان: أحدهما: أنه دفعه بيده فقام. والثاني: هدمه ثم قعد بينه، روي القولان عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «لَتَّخَذْتَ» بكسر الخاء، غير أن أبا عمرو كان يدغم الذال، وابن كثير يظهرها. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «لَا تَتَّخَذْتَ» وكلهم أدغوا، إلا حفصاً عن عاصم، فإنه لم يدغم مثل ابن كثير. قال الزجاج: يقال: تَتَّخَذُ يَتَّخَذُ في معنى: اتَّخَذَ يَتَّخِذُ. وإنما قال له هذا، لأنهم لم يضيئوهما.

قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ يعني: الخضر ﴿هَذَا﴾ يعني: الإنكار عَلَيَّ ﴿فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أي: هو المفروق بيننا. قال الزجاج: المعنى: هذا فراقٌ بيننا، أي: فراق اتصالنا، وكرر «بين» تأكيداً، ومثله في الكلام: أخزى الله الكاذب مني ومنك. وقرأ أبو رزين، وابن السميع، وأبو العالية، وابن أبي عتبة: «هذا فِرَاقٌ» بالتونين «بيني وبينك» بنصب النون.

قال ابن عباس: كان قول موسى في السفينة والغلام، لرأيه، وكان قوله في الجدار، لنفسه، لطلب شيء من الدنيا ﴿أَنَا الْيَتِيمُ فَكَانَتْ لِسَكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدْتُ أَنْ أَمِيبًا وَكَانَ وَدَّاهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ وَأَمَّا الْفُلُّ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٥﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨٦﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا قَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٧﴾

﴿كَانَتْ لِسَكِينٍ﴾ في المراد بمسكنتهم قولان: أحدهما: أنهم كانوا ضعفاء في أكسابهم. والثاني: في أبدانهم. وقال كعب: كانت لعشرة إخوة، خمسة زمنى، وخمسو يعملون في البحر.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَمِيبًا﴾ أي: أجعلها ذات عيب، يعني بخرقها، ﴿وَكَانَ وَدَّاهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أمامهم، قاله ابن عباس، وقتادة، وأبو عبيدة، وابن قتيبة. وقرأ أبي بن كعب، وابن مسعود: «وكان أمامهم ملك». والثاني: خلفهم؛ قال الزجاج: وهو أجود الوجحين. فيجوز أن يكون رجوعهم في طريقهم كان عليه، ولم يعلموا بخبره، فأعلم الله تعالى الخضر خبره.

(١) البيت غير منسوب في «تأويل مشكل القرآن» ١٠٠، و«الطبري» ٢٨٩/١٥، و«القرطبي» ٢٦/١١، و«أمالى المرتضى» ٥٥/٤، و«الصناعتين» ٢١٤، و«اللسان» و«التاج»: دهر، وقد نسب الألوسي في «روح المعاني» ٦/١٦ إلى حسان بن ثابت ولم نجده في ديوانه.

(٢) البيت في «تأويل مشكل القرآن» ١٠٠، و«مجاز القرآن» ٤١٠/١، ونسبه محققه للحارثي، و«الطبري» ٢٨٩/١٥، و«الصناعتين» ٢١٢، و«اللسان»: رود، و«القرطبي» ٢٦/١١، ونسبه الزمخشري في «الكشاف» ٣٩٨/٢ للراعي.

(٣) الرجز غير منسوب في «مجاز القرآن» ٣٠٣/١، و«تأويل مشكل القرآن» ٧٩، و«الطبري» ٢٨٩/١٥، و«القرطبي» ١٥٢/٩، و«اللسان» و«التاج»: شكا.

قوله تعالى: ﴿يَأْخُذْ كُلُّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي: كل سفينة صالحة. وفي قراءة أبيّ [بن كعب]: «كل سفينة صحيحة». قال الخضر: إنما خرقها، لأن الملك إذا رآها منخرقة تركها ورقعها أهلها فانتفعوا بها.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْفُلُّ﴾ روي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «وأما الغلام فكان كافراً». وروى أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً، ولو عاش لأرحق أبويه طغياناً وكفراً»^(١). قال الربيع بن أنس: كان الغلام على الطريق لا يمر به أحد إلا قتله أو غصبه، فیدعو ذلك عليه وعلى أبويه. وقال ابن السائب: كان الغلام لصاً، فإذا جاء من يطلبه حلف أبواه أنه لم يفعل.

قوله تعالى: ﴿فَفَحْشِيًّا﴾ في القائل لهذا قولان: أحدهما: الله عز وجل. ثم في معنى الخشية المضافة إليه قولان: أحدهما: أنها بمعنى: العلم. قال الفراء: معناه: فعلنا. وقال ابن عقيل: المعنى: فعلنا فعل الخاشي. والثاني: الكراهة، قاله الأخفش، والزجاج. والثاني: أنه الخضر، فتكون الخشية بمعنى الخوف للأمر المتوهم، قاله ابن الأنباري. وقد استدلل بعضهم على أنه من كلام الخضر بقوله: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رُحْمًا﴾. قال الزجاج: المعنى: فأراد الله، لأن لفظ الخبر عن الله تعالى هكذا أكثر من أن يحصى. ومعنى ﴿يُرْهِقُهُمَا﴾: يحملهما على الرُّهق، وهو الجهل. قال أبو عبيدة: «يُرْهِقُهُمَا»: يغشيهما. قال سعيد بن جبیر: خشينا أن يحملهما حُبّه على أن يدخلنا في دينه. وقال الزجاج: فرحا به حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فرضي امرؤ بقضاء الله^(٢)، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره، خير له من قضائه فيما يحب.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رُحْمًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم: «أَنْ يُبْدِلَهُمَا» بالتخفيف. وقرأ نافع، وأبو عمرو بالتشديد.

قوله تعالى: ﴿شَبْرًا مِّنْهُ زَكَاةٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ديناً، قاله ابن عباس. والثاني: عملاً، قاله مقاتل. والثالث: صلاحاً، قاله الفراء.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وحزمة، والكسائي: «رُحْمًا» ساكنة الحاء، وقرأ ابن عامر: «رُحْمًا» مثقلة. وعن أبي عمرو كالقراءتين. وقرأ ابن عباس، وابن جبیر، وأبو رجاء: «رُحْمًا» بفتح الراء، وكسر الحاء. وفي معنى الكلام قولان. أحدهما: أوصل للرحم وأبّر للوالدين، قاله ابن عباس، وقتادة. وقال الزجاج: أقرب عطفاً، وأمسّ بالقرابة. ومعنى الرُّحْم والرُّحْم في اللغة: العطف والرحمة، قال الشاعر:

وكيف بظلم جارية
ومنها اللين والرُّحْم^(٣)

والثاني: أقرب أن يُرْحَمَ به، قاله الفراء. وفيما بُدِّلَ به قولان: أحدهما: جارية، قاله الأكثرون. وروى عطاء عن ابن عباس، قال: أبدلها به جارية ولدت سبعين نبياً. والثاني: غلام مسلم، قاله ابن جريج.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمِلَدَارٌ فُكَّانٌ لِّمَلَكَيْنِ يَمَيِّنُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يعني: القرية المذكورة في قوله: ﴿أَنَّا أَهْلُ قَرْيَةٍ﴾، قال مقاتل: واسمها: أصرم، وصريم.

قوله تعالى: ﴿وَكَاكَ تَحْتَهُ كَفَّ لُهَا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان ذهباً وفضة، رواه أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ^(٤). وقال الحسن، وعكرمة، وقتادة: كان مالا. والثاني: أنه كان لوحاً من ذهب، فيه مكتوب: عجباً لمن أيقن بالقدر ثم هو يُنْصَب، عجباً لمن أيقن بالنار كيف يضحك، عجباً لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، عجباً لمن يوقن بالرزق كيف يتعب، عجباً لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، عجباً لمن رأى الدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يطمئن إليها،

(١) رواه مسلم في «صحيحه» ٢٠٥٠/٤، وأبو داود في «سننه» (٤٧٠٥)، والترمذي في «جامعه» ١٤٤/٢، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٣٧/٤ وزاد نسبه لعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند»، وابن مردويه.

(٢) في «الطبري»، وابن كثير عن قتادة: فليرض امرؤ بقضاء الله.

(٣) البيت غير منسوب في «مجاز القرآن» ٤١٣/١، و«القرطبي» ٣٧/١١، و«اللسان» و«التاج»: رحم.

(٤) رواه الترمذي: ١٤٤/٢ من حديث مكحول عن أم الدرداء، ورواه الحاكم أيضاً عن أبي الدرداء ﷺ.

أنا الله الذي لا إله إلا أنا، محمد عبدي ورسولي؛ وفي الشق الآخر: أنا الله لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي، خلقتُ الخير والشَّرَّ، فطوبى لمن خلقتُه للخير وأجرئته على يديه، والويل لمن خلقتُه للشر وأجرئته على يديه، رواه عطاء عن ابن عباس. قال ابن الأنباري: فسُمِّيَ كنزاً من جهة الذهب، وجعل اسمه هو المغنَّب. والثالث: كنز علم، رواه العوفي عن ابن عباس. وقال مجاهد: صُحِفَ فيها عِلْمٌ، وبه قال سعيد بن جبير، والسدي. قال ابن الأنباري: فيكون المعنى على هذا القول: كان تحته مثل الكنز، لأنه يُتَعَجَّلُ من نفعه أفضل مما يُنال من الأموال. قال الزجاج: والمعروف في اللغة: أن الكنز إذا أُفرد، فمعناه: المال المدفون المدخَّر، فإذا لم يكن المال، قيل: عنده كنز علم، وله كنز فهم، والكنز هاهنا بالمال أشبه، وجائز أن يكون الكنز كان مالاً، مكتوب فيه علم، على ما روي، فهو مال وعِلْمٌ عظيم.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ قال ابن عباس: حُفِظَا بِصَلَاحِ آبِيهِمَا، ولم يذكر منهما صلاحاً. وقال جعفر بن محمد: كان بينهما وبين ذلك الأب الصالح سبعة آباء. وقال مقاتل: كان أبوهما ذا أمانة.

قوله تعالى: ﴿فَارَادَ رَبُّكَ﴾ قال ابن الأنباري: لما كان قوله: «فَارَدْتُ» «وَأَرَدْنَا» كل واحد منهما يصلح أن يكون خبراً عن الله ﷻ، وعن الخضر، أتبعهما بما يحصر الإرادة عليه، ويزيلها عن غيره، ويكشف البُغْيَةَ من اللفظتين الأوليين. وإنما قال: «فَارَدْتُ» «فَارَدْنَا» «فَارَادَ رَبُّكَ»، لأن العرب تؤثر اختلاف الكلام على اتِّفَاقه مع تساوي المعاني، لأنه أعذب على الألسن، وأحسن موقعاً في الأسماع، فيقول الرجل: قال لي فلان كذا، وأنبأني بما كان، وخبرني بما نال. فاما «الأشدُّ» فقد سبق ذكره في مواضع [الأنعام: ١٥٢، ويوسف: ٢٢، والإسراء: ٣٤] ولو أن الخضر لم يُقِمِ الحائط لِنَقْضِ وأخذ ذلك الكنز قبل بلوغهما.

قوله تعالى: ﴿رَحِمَهُ يَنْ رَبُّكَ﴾ أي: رحمهما الله بذلك. ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ﴾ قال قتادة: كان عبداً مأموراً^(١).

فأما قوله: ﴿تَطِيلُ﴾ فإن «استطاع» و«اسطاع» بمعنى واحد.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَهَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلًا﴾ ﴿فَاتَّبَعَ سَبِيلًا﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَقْرَبَ الشَّامِ وَجَدَاقًا قَرْيَةٍ فِي غَرْبٍ جُنْفٍ وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْنَذُ الْقُرْنَيْنِ لِمَا أَنْ تَعْلُبَ وَلِمَا أَنْ تُنْجِدَ فِيهِمْ حَسْبًا﴾ ﴿قَالَ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَجْزِيهِ ثُمَّ يَرُدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ لَقْسٍ وَسَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرًا يُسْرًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ قد ذكرنا سبب نزولها عند قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]. واختلفوا في اسم ذي القرنين على أربعة أقوال: أحدها: عبد الله، قاله علي بن عباس، وروي عن ابن عباس أنه عبد الله بن الضحَّاك. والثاني: الإسكندر، قاله وهب. والثالث: عيَّاش، قاله محمد بن علي بن الحسين. والرابع: الصعب بن جابر بن القلمس، ذكره ابن أبي خيثمة. وفي علَّة تسميته بذِي القرنين عشرة أقوال: أحدها: أنه دعا قومه إلى الله تعالى، فضربوه على قرنه فهلك، فغير زماناً، ثم بعثه الله، فدعاهم إلى الله فضربوه على قرنه الآخر فهلك، فذنانك قرناه، قاله علي بن عباس. والثاني: أنه سمي بذِي القرنين، لأنه سار إلى مغرب الشمس وإلى مطلعها، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس. والرابع: لأنه رأى في المنام كأنه امتد من السماء إلى الأرض وأخذ بقرني الشمس، فقَصَّ ذلك على قومه، فسُمِّيَ بذِي القرنين. والخامس: لأنه مَلَكُ الروم وفارس. والسادس: لأنه كان في رأسه شبه القرنين، رويت هذه الأقوال الأربعة عن وهب بن منبه. والسابع: لأنه كانت له غديرتان من شعر، قاله الحسن. قال ابن الأنباري: والعرب تسمي الضفيرتين من الشعر غديرتين، وجميرتين، وقرنين؛ قال: ومن قال: سمي بذلك لأنه ملك فارس والروم، قال: لأنهما عاليان على جانبيين من الأرض يقال لهما: قرنان. والثامن: لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت ذوي شرف. والتاسع: لأنه انقرض في زمانه قرنان من الناس، وهو حي. والعاشر: لأنه سلك الظلمة والنور، ذكر هذه الأقوال الثلاثة أبو إسحاق الثعلبي. واختلفوا هل كان

(١) وهذا يدل على أنه كان نبياً، وأن ما صدر منه كان بوحي من الله ﷻ. قال الطبري: وما فعلت يا موسى جميع الذي رأيته فعلته، عن رأيي ومن تلقاء نفسي، وإنما فعلته عن أمر الله إياي به.

(٢) انظر القول الثاني في الصفحة (٨٢٩).

[الحاقة: ٥١] و﴿وَبَيْنَ الْأَمْنَةِ﴾ [البينة: ٥] و﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ [النحل: ٣٠] قال أبو علي الفارسي: المعنى: فله جزاء الخلال الحسنی، لأن الإيمان والعمل الصالح خلال. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخلف، ويعقوب: «جزاء» بالنصب والتنوين؛ قال الزجاج: وهو مصدر منصوب على الحال، المعنى: فله الحسنی مُجْزِئاً بها جزاءً. وقال ابن الأنباري: وقد يكون الجزاء غير الحسنی إذا تأوّل الجزاء بأنه الثواب؛ والحسنی: الحسنة المكتسبة في الدنيا، فيكون المعنى: فله ثواب ما قدّم من الحسنات.

قوله تعالى: ﴿وَسْتَغْفِرُكُمْ مِنْ أَمْرٍ إِتْرًا﴾ أي: نقول له قولاً جميلاً.

﴿ثُمَّ أَتَى سَبَا﴾ [٨٨] حَقَّ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَوْ لَجَعَلَهُمْ دُونَهَا سَبَا ﴿٨٩﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩٠﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَى سَبَا﴾ [٨٨] أي: طريقاً آخر يوصله إلى المشرق. قال قتادة: مضى يفتح المدائن ويجمع الكنوز ويقتل الرجال إلا من آمن حتى أتى مطلع الشمس فأصاب قوماً في أسراب عراة، ليس لهم طعام إلا ما أحرقت الشمس إذا طلعت، فإذا توسطت السماء خرجوا من أسرابهم في طلب معاشهم مما أحرقتهم الشمس. وبلغنا أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليه بنيان، فيقال: إنهم الزنج. قال الحسن: كانوا إذا غربت الشمس خرجوا يتراعون كما يتراعى الوحش. وقرأ الحسن، ومجاهد، وأبو مجلز، وأبو رجاء، وابن محيصن: «مَطْلَعُ الشَّمْسِ» بفتح اللام. قال ابن الأنباري: ولا خلاف بين أهل العربية في أن المَطْلِع، والمَطْلَع كلاهما يعني بهما المكان الذي تطلع منه الشمس. ويقولون: ما كان على فَعْلٍ يَقْعُل، فالمصدر واسم الموضع يأتيان على المَفْعَل، كقولهم: المَذْخَل، للدخول، والموضع الذي يُدْخَل منه، إلا أحد عشر حرفاً جاءت مكسورة إذا أريد بها المواضع، وهي: المَطْلِع، والمَسْكِن، والمَنْشِك، والمَشْرِق، والمَغْرِب، والمسجد، والمنبت، والمَجْزِر، والمَفْرَق، والمسقط، والمَهْلِل، الموضع الذي تضع فيه الناقة؛ وخمسة من هؤلاء الأحد عشر حرفاً شُع فيهن الكسر والفتح: المَطْلِع، والمَطْلَع، والمنشك، والمَجْزِر، والمَسْكِن، والمَسْكَن. والمَنْبِت، والمَنْبَت؛ فقرأ الحسن على الأصل من احتمال المَفْعَل الوجهين الموصوفين [بفتح العين وكسرها]، وقراءة العامة على اختيار العرب وما كثر على السنتها، وخصت المَوْضِع بالكسر، وآثرت المصدر بالفتح. قال أبو عمرو: المَطْلِع، بالكسر: الموضع الذي تطلع فيه؛ والمَطْلَع، بالفتح: الطلوع؛ قال ابن الأنباري: هذا هو الأصل، ثم إن العرب تتسع فتجعل الاسم نائباً عن المصدر، فيقرون: «حَتَّى مَطْلِعِ النَّجْرِ» [القدر: ٥] بالكسر وهم يعنون الطلوع؛ ويقرأ من قرأ «مَطْلَعُ الشَّمْسِ» بالفتح على أنه موضع بمنزلة المدخل الذي هو اسم للموضع الذي يدخل منه.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: كما بلغ مغرب الشمس بلغ مطلعها. والثاني: أتبع سبياً كما أتبع سبياً. والثالث: كما وجد أولئك عند مغرب الشمس وحكم فيهم، كذلك وجد هؤلاء عند مطلعها وحكم فيهم. والرابع: أن المعنى: كذلك أمرهم كما قصصنا عليك؛ ثم استأنف فقال: «وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ» أي: بما عنده ومعه من الجيوش والعدد. وحكى أبو سليمان الدمشقي: «بما لديه» أي: بما عند مطلع الشمس. وقد سبق معنى الخبر [الكهف: ٦٨].

﴿ثُمَّ أَتَى سَبَا﴾ [٩٠] حَقَّ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّيِّدَيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩١﴾ قَالُوا بِنَا الْفَرَقَيْنِ إِنْ يَأْتِجُ وَمُتَّجٍ مُتَّيْدُونَ فِي الْأَرْضِ قَبْلَ نَحْنُ لَكَ خَرَمًا عَلَا أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ سَبَا ﴿٩٢﴾ قَالَ مَا مَكْنَى فِيهِ رَبِّي خَبْرٌ فَأَعْيُونِي يَقُولُ لَجَعَلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٣﴾ مَاؤُيْ زُبَيْرٍ لِلْيَدِيدِ حَقَّ إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدِيقَيْنِ قَالَ أَنْفَعُوا حَقَّ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ مَاؤُيْ أَفْرَجَ عَلَيْهِ قَطَرًا ﴿٩٤﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ نَقْبَا ﴿٩٥﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاهُ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٦﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَى سَبَا﴾ [٩٠] أي: طريقاً ثالثاً بين المشرق والمغرب «حَقَّ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّيِّدَيْنِ» قال وهب بن منبه: هما جبلان نيفان في السماء، من ورائهما البحر، ومن أمامهما البلدان، وهما بمنقطع أرض الترك مما يلي بلاد أرمينية. وروى عطاء الخراساني عن ابن عباس قال: الجبلان من قِبَل أرمينية وأذربيجان. واختلف القراء في «السَّيِّدَيْنِ»

فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم بفتح السين. وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وحمزة، والكسائي بضمها. وهل المعنى واحد، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أنه واحد. قال ابن الأعرابي: كل ما قابلك فسداً ما وراءه، فهو سَدٌّ، وسُدٌّ، نحو: الضَّعْف، والضَّعْف، والفَقْر والفَقْر. قال الكسائي، وثعلب: السَّد والسُد لغتان بمعنى واحد، وهذا مذهب الزجاج. والثاني: أنهما يختلفان. وفي الفرق بينهما قولان: أحدهما: أن ما هو من فعل الله تعالى فهو مضموم، وما هو من فعل آدميين فهو مفتوح، قاله ابن عباس، وعكرمة، وأبو عبيدة. قال الفراء: وعلى هذا رأيت المشيخة وأهل العلم من النحويين. والثاني: أن السَّد، بفتح السين: الحاجز بين الشيتين، والسُد، بضمها: الغشاوة في العين، قاله أبو عمرو بن العلاء.

قوله تعالى: ﴿وَجَدَ يَت دُونَهَا﴾ يعني: أمام السدين ﴿قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «يَفْقَهُونَ قَوْلًا» بفتح الياء، أي: لا يكادون يفهمونه. قال ابن الأنباري: قال اللغويون: معناه أنهم يفهمون بعد إبطاء، وهو كقوله: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]. قال المفسرون: وإنما كانوا كذلك لأنهم لا يعرفون غير لغتهم. وقرأ حمزة، والكسائي: «يَفْقَهُونَ» بضم الياء، أراد: يُفْهِمُونَ غيرهم. وقيل: كلَّم ذا القرنين عنهم مترجمون ترجموا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ هما: اسمان أعجميان، وقد همزهما عاصم. قال الليث: الهمز لغة رديئة. قال ابن عباس: يأجوج رجل، ومأجوج رجل، وهما ابنا يافث بن نوح ﷺ، فَيَأْجُوج ومَأْجُوج عشرة أجزاء، وولد آدم كلهم جزء، وهم شَبْر وشَبْران وثلاثة أشبار. وقال علي ﷺ: منهم من طوله شَبْر، ومنهم من هو مُفْرِط في الطول، ولهم من الشَّعر ما يواريه من الحَرِّ والبَرْد. وقال الضحاك: هم جيل من الثُّرك. وقال السدي: الثُّرك سرية من يأجوج ومأجوج خرجت تُغِير، فجاء ذو القرنين فضرب السَّد، فبقيت خارجه. وروى شقيق عن حذيفة، قال: سألت رسول الله ﷺ عن يأجوج ومأجوج، فقال: «يَأْجُوج أُمَّة، ومَأْجُوج أُمَّة، كل أُمَّة أربعمائة [ألف] أُمَّة، لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر بين يديه من ضلِّبه كُلُّ قد حمل السلاح؛ قلت: يا رسول الله، صِفْهُمْ لَنَا، قال: «هم ثلاثة أصناف، صنف منهم أمثال الأرز؛ قلت: يا رسول الله: وما الأرز؟ قال: شجر بالشام، طول الشجرة عشرون ومائة ذراع في السماء؛ وصنف منهم عرضه وطوله سواء، عشرون ومائة ذراع، وهؤلاء الذين لا يقوم لهم جبل ولا حديد، وصنف منهم يفتش أحدهم أذنه، ويلتحف بالأخرى ولا يَمُرُّون بفيل ولا وحش ولا جمل ولا خنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه، مقدَّمهم بالشام، وساقطهم بخراسان، يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية»^(١).

قوله تعالى: ﴿مَتَّيْنُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ في هذا الفساد أربعة أقوال: أحدها: أنهم كانوا يفعلون فَعْل قوم لوط، قاله وهب بن منبه. والثاني: أنهم كانوا يأكلون الناس، قاله سعيد بن عبد العزيز. والثالث: يُخْرِجون إلى الأرض الذين شَكَّوْا منهم أيام الربيع، فلا يَدْعُونَ شيئاً أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه إلى أرضهم، قاله ابن السائب. والرابع: كانوا يقتلون الناس، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: «خَرْجًا» بغير ألف. وقرأ حمزة، والكسائي: «خراجاً» بآلف. وهل بينهما فرق؟ فيه قولان: أحدهما: أنهما لغتان بمعنى واحد، قاله أبو عبيدة، والليث. والثاني: أن الخَرْج: ما تبرعت به، والخراج: ما لزمك أداؤه، قاله أبو عمرو بن العلاء. قال المفسرون: المعنى: هل نُخرج إليك من أموالنا شيئاً كالجعل لك؟

قوله تعالى: ﴿هَئِنَّا كُنَّا﴾ وقرأ ابن كثير: «مَكْنِيَّ» بنونين، وكذلك هي في مصاحف مكة. قال الزجاج: من قرأ: «مَكْنِيَّ» بالتشديد، أدغم النون في النون لاجتماع النونين. ومن قرأ: «مَكْنِيَّ» أظهر النونين، لأنهما من كلمتين،

(١) أورده السيوطي في «الدر» ٢٥٠/٤ من رواية ابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عدي، وابن عساكر، وابن النجار عن حذيفة ﷺ.

الأولى من الفعل، والثانية تدخل مع الاسم المضممر. وفي الذي أراد بتمكينه منه قولان: أحدهما: أنه العلم بالله؛ وطلب ثوابه. والثاني: ما ملك من الدنيا. والمعنى: الذي أعطاني الله خير مما تبذلون لي.

قوله تعالى: ﴿فَأَيُّونِي بِقُوَّةٍ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها الرجال، قاله مجاهد، ومقاتل. والثاني: الآلة، قاله ابن السائب. فاما الرِّدْم، فهو: الحاجز؛ قال الزجاج: والرِّدْم في اللغة أكبر من السدِّ، لأن الرِّدْم: ما يجعل بعضه على بعض، يقال: ثوب مُرْدَمٌ: إذا كان قد رُقِعَ رقعة فوق رقعة.

قوله تعالى: ﴿أَتُونِي زَرًّا لِّحَدِيدٍ﴾ قرأ الجمهور: «ردماً أتوني» أي: أعطوني. وروى أبو بكر عن عاصم: «ردم أيتوني» بكسر التثوين، أي: جيتوني بها. قال ابن عباس: أحملوها إليّ. وقال مقاتل: أعطوني. وقال الفراء: المعنى: إيتوني بها، فلما ألقى الياز زيدت ألف. فاما الزُّرِّ، فهي: القِطْع، واحدها: زُرْبَةٌ؛ والمعنى: فأتوه بها فبناها، ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَيْنَا﴾ وروى أبان «إذا سَوَى» بتشديد الواو من غير ألف. قال الفراء: ساوى وسَوَى سواء. واختلف القراء في «الصُّدْفَيْنِ» فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: «الصُّدْفَيْنِ» بضم الصاد والدال، وهي: لغة جَمِيْر. وروى أبو بكر والمفضل عن عاصم: «الصُّدْفَيْنِ» بضم الصاد وتسكين الدال. وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخلف، بفتح الصاد والدال جميعاً، وهي لغة تميم، واختارها ثعلب. وقرأ أبو مجلز، وأبو رجاء، وابن يعمر: «الصُّدْفَيْنِ» بفتح الصاد ورفع الدال. وقرأ أبو الجوزاء، وأبو عمران، والزهري، والجحدري برفع الصاد وفتح الدال. قال ابن الأنباري: ويقال: صُدْفٌ، على مثال نُفَرٌ، وكل هذه لغات في الكلمة. قال أبو عبيدة: الصُّدْفَانِ: جَنْبَا الجبل. قال الأزهري: يقال لجانبى الجبل: صُدْفَانِ، إذا تحاذيا، لتصادفهما، أي: لتلاقيهما. قال المفسرون: حشا ما بين الجبلين بالحديد، ونسج بين طبقات الحديد الحطب والفحم، ووضع عليها المنافخ، ثم ﴿فَنفَخُوا﴾ فنفخوا ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلُوا﴾ يعني: الحديد، وقيل: الهاء ترجع إلى ما بين الصدفين ﴿فَأَزَا﴾ أي: كالنار، لأن الحديد إذا أحمر بالفحم والمنافخ صار كالنار، ﴿فَأَلَّ أَتُونِي﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: «أتوني» ممدودة، والمعنى: أعطوني. وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم: «إيتوني» مقصورة؛ والمعنى: جيتوني به أفرغه عليه. وفي القِطْر أربعة أقوال: أحدها: أنه النحاس، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقادة، والفراء، والزجاج. والثاني: أنه الحديد الذائب، قاله أبو عبيدة. والثالث: الصُّفْر المُذَاب، قاله مقاتل. والرابع: الرصاص، حكاه ابن الأنباري. قال المفسرون: أذاب القِطْر ثم صبَّه عليه، فاختلط والتصق ببعضه ببعض حتى صار جبلاً صلباً من حديد وقِطْر. قال قتادة: فهو كالبرد المحبر، طريقة سوداء وطريقة حمراء.

قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ أصله: فما «استطاعوا» فلما كانت التاء والطاء من مخرج واحد أحبطا التخفيف فحذفوا. قال ابن الأنباري: إنما تقول العرب: استطاع، تخفيفاً، كما قالوا: سوف يقوم، وسيقوم، فأسقطوا الفاء.

قوله تعالى: ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: يعلوه؛ يقال: ظهر فلان فوق البيت: إذا علاه، والمعنى: ما قدروا أن يعلوه لارتفاعه وأملاسه ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَمْ يَقْبَا﴾ من أسفله، لشدته وصلابته. وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج ليحفرن السدَّ كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا، فستحفرونه غداً، فيعودون إليه، فيرونه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله ﷻ أن يبعثهم على الناس، حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا، فستحفرونه غداً إن شاء الله، ويستثنى، فيعودون إليه وهو كهيتته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس» وذكر باقي الحديث^(١١)؛ وقد ذكرت هذا الحديث بطوله وأشباهه في كتاب «الحدائق» فكرهت التطويل هاهنا.

(١١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» عن أبي هريرة ؓ، وتتمة الحديث: «فينشقق الماء، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع وعليها كهية الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نفاقاً (دود يكون في أنوف الإبل والغنم) في راقبهم فيقتلهم بها، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم»، ورواه الترمذي في «جامعه» ١٤٤/٢ وقال: هذا حديث حسن غريب، وإنما نعرفه من هذا الوجه مثل هذا، ورواه ابن ماجه في «سننه» رقم (٤٠٨٠) قال في =

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ لَمَّا فَرَّغَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مِنْ بَنِيَانِهِ قَالَ هَذَا. وفيما أشار إليه قولان: أحدهما: أنه الرِّدْم، قاله مقاتل؛ قال: فالمعنى: هذا نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّي عَلَى الْمُسْلِمِينَ لثَلَا يَخْرُجُوا إِلَيْهِمْ. والثاني: أنه التمكين الذي أدرك به عمل السد، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ فيه قولان: أحدهما: القيامة. والثاني: وعده لخروج يأجوج ومأجوج.

قوله تعالى: ﴿جَعَلَكُمْ دَسَكًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «دَكَا» منوناً غير مهموز ولا ممدود. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: «دكاه» ممدودة مهموزة بلا تنوين. وقد شرحنا معنى الكلمة في [الأعراف: ١٤٣].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي: بالثواب والعقاب.

﴿وَرَزَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي بَعْضٍ وَيُفْعِلُ فِي الْأَشْرَارِ لِمَتَّعْتَهُمْ جَمًّا﴾ ﴿وَرَزَكْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا﴾ ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَهْلِيهِمْ فِي غِلَقٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ مِمَّا﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَزَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ فِي بَعْضٍ﴾ في المشار إليهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم يأجوج ومأجوج. ثم في المراد بـ«يَوْمَئِذٍ» قولان. أحدهما: أنه يوم انقضى أمر السد، تركوا يُموج بعضهم في بعض من ورائه مختلطين لكثرتهم؛ وقيل: ما جوا متعجبين من السد. والثاني: أنه يوم يخرجون من السد تركوا يُموج بعضهم في بعض. والثاني: أنهم الكفار. والثالث: أنهم جميع الخلائق: الجن والإنس يُموجون حيارى. فعلى هذين القولين، المراد باليوم المذكور يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿يُفْعِلُ فِي الْأَشْرَارِ﴾ هذه نفخة البعث. وقد شرحنا معنى «الصُّور» في [الأنعام: ٧٣].

قوله تعالى: ﴿وَرَزَكْنَا جَهَنَّمَ﴾ أي: أظهرناها لهم حتى شاهدوها.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَهْلِيهِمْ﴾ يعني: أعين قلوبهم ﴿فِي غِلَقٍ﴾ أي: في غفلة ﴿عَنْ ذِكْرِي﴾ أي: عن توحيدى والإيمان بي وبكتابي ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ مِمَّا﴾ هذا لعداوتهم وعنادهم وكراحتهم ما يُنْذِرُونَ به، كما تقول لمن يكره قولك: ما تقدر أن تسمع كلامي.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ آلِهَاتِهِ إِذَا هُمْ يَخْلُفُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أَقْطَعُ الْمُشْرِكُونَ ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ في هؤلاء العباد ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم الشياطين، قاله ابن عباس. والثاني: الأصنام، قاله مقاتل. والثالث: الملائكة والمسيح وعزير وسائر المعبودات من دونه، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِ﴾ فتح هذه الياء نافع، وأبو عمرو. وجواب الاستفهام في هذه الآية محذوف، وفي تقديره قولان: أحدهما: أفحسبوا أن يتخذوهم أولياء، كلا بل هم أعداء لهم يتبرؤن منهم. والثاني: أن يتخذوهم أولياء ولا أغضب ولا أعاقبهم. وروى أبان عن عاصم، وزيد عن يعقوب: «أَفَحَسِبُ» بتسكين السين وضم الباء، وهي قراءة علي عليه السلام، وابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وابن يعمر، وابن محيصن؛ ومعناها: أفكيفهم أن يتخذوهم أولياء؟ فأما التَّوَلَّى ففيه قولان: أحدهما: أنه ما يُهَيِّئُ لِلضَّيْفِ والعسكر، قاله ابن قتيبة. والثاني: أنه المنزل، قاله الزجاج.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِ أَعْمَالًا﴾ ﴿الَّذِينَ سَعَوْا فِي لَبِيسِهِمْ فِي لَبِيسِهِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَبَّؤُنَ رَبَّهُمْ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ لِقَاءُهُمْ فَلَا تُعْجِبُهُمْ فِي يَوْمٍ إِلَاقَتِهِمْ﴾ ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَوَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ رَبِّي هَؤُلَاءِ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِ أَعْمَالًا﴾ ﴿فِيهِمْ قَوْلَانِ﴾ أحدهما: أنهم الفُتُوسُ والرهبان، قاله علي عليه السلام، والضحاك. والثاني: اليهود والنصارى، قاله سعد بن أبي وقاص.

= «الزوائد» عنه: إسناده صحيح، ورجالها ثقات. وروى البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فرعاً يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها، فقالت زينب: فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثرت الغيبت». وانظر «صحيح مسلم» ٢٢٥٤/٤ وما ذكر فيه من فتنة يأجوج ومأجوج.

قوله تعالى: ﴿أَعْتَدْنَا﴾ منصوب على التمييز، لأنه لما قال: «بالأخسرين» كان ذلك مبهماً لا يدل على ما خسروه، فيبين ذلك في أي نوع وقع.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ سَلَّ سَلِيمٌ﴾ أي: بطل عملهم واجتهادهم في الدنيا، وهم يظنون أنهم محسنون بأفعالهم، فرؤساؤهم يعلمون الصحيح، ويؤثرون الباطل لبقاء رئاستهم، وأتباعهم مقلدون بغير دليل. ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَلَايَكَ رَبِّيهِمْ﴾ جحدوا دلائل توحيده، وكفروا بالبعث والجزاء، وذلك أنهم بكفروهم برسول الله ﷺ والقرآن، صاروا كافرين بهذه الأشياء ﴿فَحِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بطل اجتهدهم، لأنه خلا عن الإيمان ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ وقرأ ابن مسعود، والجاحدري: «فلا نقيم» بالياء. وفي معناه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إنما يثقل الميزان بالطاعة، وإنما توزن الحسنات والسيئات، والكافر لا طاعة له. والثاني: أن المعنى: لا نقيم لهم قدرًا. قال ابن الأعرابي في تفسير هذه الآية: يقال: ما لفلان عندنا وزن، أي: قدر، لخسته. فالمعنى: أنهم لا يُعَدُّ بهم، ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة. وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يؤتى بالرجل الطويل الأكل الشروب فلا يزن جناح بعوضة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾»^(١). والثالث: أنه قال: «فلا نقيم لهم» لأن الوزن عليهم لا لهم؛ ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾ أي: الأمر ذلك الذي ذكرت من بطلان عملهم وخسة قدرهم، ثم ابتداء فقال: ﴿جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾، وقيل: المعنى: ذلك التصغير لهم، وجزأؤهم جهنم، فاضمرت واو الحال.

قوله تعالى: ﴿يَا كُفْرًا﴾ أي: بكفروهم واتخاذهم ﴿ءَايَاتِي﴾ التي أنزلتها ﴿وَرُسُلِي هُزُؤًا﴾ أي: مهزوءاً به.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغَوْنَ عَنْهَا جَزَاءً﴾

قوله تعالى: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾ قال ابن الأنباري: كانت لهم في علم الله قبل أن يُخْلَقُوا. وروى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «جنان الفردوس أربع، ننتان من ذهب حليتهما وأتيتهما وما فيهما، وثنان من فضة حليتهما وأتيتهما وما فيهما، وليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»^(٢). وروى عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، الفردوس أعلاها، ومنها تفجر أنهار الجنة، فإذا سألت الله تعالى فاسأله الفردوس»^(٣). قال أبو أمامة: الفردوس سرّة الجنة. قال مجاهد: الفردوس: البستان بالرومية. وقال كعب، والضحاك: «جنان الفردوس»: جنان الأعتاب. قال الكلبي، والفراء: الفردوس: البستان الذي فيه الكرم. وقال المبرد: الفردوس فيما سمعت من كلام العرب: الشجر الملتف، والأغلب عليه العنب. وقال ثعلب: كل بستان يحوط عليه فهو فردوس، قال عبيد الله بن راحة:

في جنان الفردوس ليس يخافو ن خروجا عنها ولا تحويلا

وقرأت على شيخنا أبي منصور اللخوي قال: قال الزجاج: الفردوس أصله رومي أعرب، وهو البستان، كذلك جاء في التفسير، وقد قيل: الفردوس تعرفه العرب، وتسمى الموضع الذي فيه كرم: فردوساً. وقال أهل اللغة: الفردوس

(١) ذكره الحافظ في «الفتح» ٣٢٤/٨ من رواية ابن مردويه عن أبي هريرة ﷺ بلفظ «الطويل العظيم الأكل الشروب». وأورده السيوطي في «الدرر» ٤/ ٢٥٤ من رواية ابن عدي، والبيهقي في «شعب الإيمان»، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليؤتى يوم القيامة بالطويل الأكل الشروب، فلا يزن عند الله تبارك وتعالى جناح بعوضة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾». ورواه البخاري ٣٤٢/٨، ومسلم ٢١٤٧/٤ عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة» وقال: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾».

(٢) لفظه في البخاري ٤٧٩/٨، ومسلم ١٦٣/١ من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «جنان من فضة، آتيتهما وما فيهما، وجنان من ذهب، آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن». قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: وفي رواية الحارث بن عبيد عن أبي عمران الجوني في أول هذا الحديث: «جنان الفردوس أربع، ثنتان من ذهب... إلخ».

(٣) أخرجه أحمد في «المسنند»، والترمذي ٧٦٢/٢، وأورده السيوطي في «الدرر» وزاد نسبته لابن أبي شيبه، وعبيد بن حميد، وابن جرير، والحاكم، والبيهقي في «البعث»، وابن مردويه. ورواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة بلفظ: «إذا سألت الله الجنة، فاسأله الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة».

مذكّر، وإنما أنت في قوله تعالى: ﴿يَرْثُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١١] لأنه عنى به الجنة. وقال الزجاج: وقيل: الفردوس: الأودية التي تنبت ضرورياً من النبت، وقيل: هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية، قال: والفردوس أيضاً بالسريانية كذا لفظه: فردوس، قال: ولم نجد في أشعار العرب إلا في شعر حسان، وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين، لأنه عند أهل كل لغة كذلك، وبیت حسان:

فَلَنْ تَوَابَ اللَّهِ كُلَّ مُوَحَّدٍ جَنَّاتٍ مِنَ الْفَرْدَوْسِ فِيهَا يُخَلَّدُ^(١)

وقال ابن الكلبي بإسناده: الفردوس: البستان بلغة الروم، وقال الفراء: وهو عربي أيضاً، والعرب تسمي البستان الذي فيه الكرم فردوساً. وقال السدي: الفردوس أصله بالنبطية «فرداساً». وقال عبد الله بن الحارث: الفردوس: الأعتاب. وقد شرحنا معنى قوله: «نُزُلًا» آنفاً^(٢).

قوله تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ قال الزجاج: لا يريدون عنها تحوُّلاً، يقال: قد حال من مكانه حوَلًا، كما قالوا في المصادر: صَغُرَ صِغْرًا، وَعَظُمَ عِظْمًا، وعادني حُبُّها حِوَدًا؛ قال: وقد قيل أيضاً: إن الحَوَلَ: الجيلة، فيكون المعنى: لا يحتالون مُنْزَلًا غيرها. فإن قيل: قد علم أن الجنة كثيرة الخير، فما وجه مدحها بأنهم لا ييغون عنها حِوَلًا؟ فالجواب: أن الإنسان قد يجد في الدار الأنيقة معنى لا يوافقه، فيحب أن ينتقل إلى دار أخرى، وقد يمل، والجنة على خلاف ذلك.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِثَا بِحْثِلِيهِ مَدَدًا﴾^(٣)

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ سبب نزولها أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِشْتُمْ مِنْ أَلْفٍ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] قالت اليهود: كيف وقد أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء؟ فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. ومعنى الآية: لو كان ماء البحر مداداً يُكْتَبُ به. قال مجاهد: [والمعنى]: لو كان البحر مداداً للقلم، والقلم يكتب. وقال ابن الأنباري: سمي المداد مداداً لإمداده الكاتب، وأصله من الزيادة ومجيء الشيء بعد الشيء. وقرأ الحسن، والأعمش: «مداداً لكلمات ربِّي» بغير ألف.

قوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾، قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم: «تنفد» بالتاء. وقرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي: «ينفد» بالياء. قال أبو علي: التانيث أحسن، لأن المُسَدَّ إليه الفعلُ مؤنث، والتذكير حسن، لأن التانيث ليس بحقيقي، وإنما لم تنفد كلمات الله، لأن كلامه صفة من صفات ذاته، ولا يتطرق على صفاته النفاذ، ﴿وَلَوْ جِثَا بِحْثِلِيهِ﴾ أي: بمثل البحر «مَدَدًا» أي: زيادة؛ والمدد: كل شيء زاد في شيء. فإن قيل: لم قال في أول الآية: «مداداً» وفي آخرها: «مداداً» وكلاهما بمعنى واحد، واشتقاقهما غير مختلف؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري فقال: لما كان الثاني آخر آية، وأواخر الآيات هاهنا أتت على الفعل، والفعل، كقوله: «نُزُلًا» «هُزُؤًا» «حِوَلًا» كان قوله: «مَدَدًا» أشبه بهؤلاء الألفاظ من المداد، واتفاق المقاطع عند أواخر الآي، وانقضاء الأبيات، وتام السجع والنثر، أخف على الألسن، وأحلى موقعاً في الأسماع، فاختلفت اللفظتان لهذه [العلة]. وقد قرأ ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وأبو رجاء، وقتادة، وابن محيصن: «ولو جثنا بمثله مداداً» فحملوها على الأولى، ولم ينظروا إلى المقاطع. وقرأه الأولين آيتين حجة، وأوضح منهاجاً.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَيَدُّ فَنَ كَانَ رِجَؤُا لِقَاءِ رَبِّي. فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّي. إِنَّكُمْ أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾^(٤)

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ قال ابن عباس: علم الله تعالى رسوله التواضع لئلا يزهى على خلقه، فأمره أن يُقَرَّ على نفسه بأنه آدمي كغيره، إلا أنه أكرم بالوحي.

قوله تعالى: ﴿فَنَ كَانَ رِجَؤُا لِقَاءِ رَبِّي﴾ سبب نزولها أن جندب بن زهير الغامدي^(٥) قال لرسول الله ﷺ: إني أعمل

(١) «ديوانه» ١٥٠، «البحر» ٦/١٦٨، و«روح المعاني» ٤٧/١٦، و«اللسان» و«التاج»: فردس.

(٢) قد مر تفسيره.

(٣) في الأصل و«الفرطبي»: «العامري» وما أثبتناه من «الإصابة»، وأسباب النزول للواحدي، وكتب التفسير.

العمل [الله تعالى] فإذا اطلع عليه سرّني، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب، ولا يقبل ما روئي فيه» فنزلت فيه هذه الآية، قاله ابن عباس^(١). وقال طاووس: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أحب الجهاد [في سبيل الله] وأحب أن يرى مكاني، فنزلت هذه الآية^(٢). وقال مجاهد: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني أتصدق، وأصل الرحم، ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى، فيذكر ذلك مني وأحمد عليه فيسرّني ذلك وأعجب به، فسكت رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية^(٣). وفي قوله: «فَمَنْ كَانَ يَتُحَرَّأْ» قولان: أحدهما: يخاف، قاله ابن قتبية. والثاني: يأمل، وهو اختيار الزجاج. وقال ابن الأنباري: المعنى: فمن كان يرجو لقاء ثواب ربّه. قال المفسرون: وذلك يوم البعث والجزاء. «فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا» لا يرائي به «وَلَا يَتَرَفَّعْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَلَا» قال سعيد بن جبير: لا يرائي. قال معاوية بن أبي سفيان: هذه آخر آية نزلت من القرآن^(٤).



(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» عن ابن عباس ١٧٢ بدون سند.

(٢) وكذلك ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٧٢ عن طاووس بدون سند. وقد ذكره الطبري في «تفسيره» ٤٠/١٦ من حديث معمر عن عبد الكريم الجزري عن طاووس مرسلًا، وذكره ابن كثير في «التفسير» ١٠٨/٣ من رواية ابن أبي حاتم عن طاووس مرسلًا بنحوه، وأورده السيوطي في «الدرر» ٤/٢٥٥ كذلك عن طاووس مرسلًا، وزاد نسبه لعبد الرزاق، وابن أبي الدنيا في «الإخلاص»، والطبراني، والحاكم. وقال السيوطي في آخره: وأخرجه الحاكم وصححه، والبيهقي، موصولًا عن طاووس عن ابن عباس.

(٣) الواحدي ١٧٢ عن مجاهد بدون سند.

(٤) قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ١١٠/٣: وهذا أثر مشكل، فإن هذه الآية، آخر سورة (الكهف) و(الكهف) كلها مكية، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها، بل هي مثبتة محكمة، فاشتبه ذلك على بعض الرواة، فروى بالمعنى على ما فهمه، والله أعلم.

سورة مريم

وهي مكية بإجماعهم من غير خلاف علمناه. وقال مقاتل: هي مكية غير سجدتها، فإنها مدنية. وقال هبة الله المفسر: هي مكية غير آيتين منها، قوله: ﴿فَلَقَّ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ والتي تليها [مريم: ٥٩، ٦٠].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كَهَيْصَ ① ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ② إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ حَؤِيَّةً ③ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَاؤِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَثَتِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ⑤ يَرِيتُ أَنْ يَرْثِي مِنْ آلٍ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا ⑥﴾

قوله تعالى: ﴿كَهَيْصَ ①﴾ قرأ ابن كثير: «كهيص ذُكر» بفتح الهاء والياء وتبيين الدال التي في هجاء «صاد». وقرأ أبو عمرو: «كهيص» بكسر الهاء وفتح الياء ويدغم الدال في الدال، وكان نافع يلفظ بالهاء والياء بين الكسر والفتح، ولا يدغم الدال التي في هجاء «صاد» في الدال من «ذُكر». وقرأ أبو بكر عن عاصم، والكسائي، بكسر الهاء والياء، إلا أن الكسائي لا يبين الدال، وعاصم يُبينها. وقرأ ابن عامر، وحزمة، بفتح الهاء وكسر الياء ويدغمان. وقرأ أبي بن كعب: «كهيص» برفع الهاء وفتح الياء. وقد ذكرنا في أول «البقرة» ما يشتمل على بيان هذا الجنس. وقد خصص المفسرون هذه الحروف المذكورة هاهنا بأربعة أقوال: أحدها: أنها حروف من أسماء الله تعالى، قاله الأكثرون. ثم اختلف هؤلاء في الكاف من أي اسم هو، على أربعة أقوال: أحدها: أنه من اسم الله الكبير. والثاني: من الكريم. والثالث: من الكافي، روى هذه الأقوال الثلاثة سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. والرابع: أنه من الملك، قاله محمد بن كعب. فأما الهاء، فكلُّهم قالوا: هي من اسمه الهادي إلا القرظي فإنه قال: من اسمه الله. وأما الياء، ففيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها من حكيم. والثاني: من رحيم. والثالث: من أمين، روى هذه الأقوال الثلاثة سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. فأما العين، ففيها أربعة أقوال: أحدها: أنها من عليم. والثاني: من عالم. والثالث: من عزيز، رواها أيضاً سعيد [بن جبيرة] عن ابن عباس. والرابع: أنها من عدل، قاله الضحاك. وأما الصاد، ففيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها من صادق. والثاني من صدوق، رواها سعيد [بن جبيرة] أيضاً عن ابن عباس. والثالث: من الصمد، قاله محمد بن كعب. والقول الثاني: أن «كهيص» قَسَمَ أقسم الله به، وهو من أسمائه، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وروى عن علي عليه السلام أنه قال: هو اسم من أسماء الله تعالى. وروى عنه أنه كان يقول: [يا] كهيص اغفر لي. قال الزجاج: والقَسَمَ بهذا والدعاء لا يدل على أنه اسم واحد، لأن الداعي إذا علم أن الدعاء بهذه الحروف يدل على صفات الله فدعا بها، فكأنه قال: يا كافي، يا هادي، يا عالم، يا صادق، وإذا أقسم بها، فكأنه قال: والكافي الهادي العالم الصادق، وأُسكنت هذه الحروف لأنها حروف تهجٍّ، النية فيها الوقف. والثالث: أنه اسم للسورة، قاله الحسن، ومجاهد. والرابع: اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة. فإن قيل: لم قالوا: هايا، ولم يقولوا في الكاف: كا، وفي العين: عا، وفي الصاد: صا، لتتفق المباني كما اتفقت العلل؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري، فقال: حروف المعجم التسعة والعشرون تجري مجرى الرسالة والخطبة، فيستقبحون فيها اتفاق الألفاظ واستواء الأوزان، كما يستقبحون ذلك في خطبتهم ورسائلهم، فيغيرون بعض الكلم ليختلف الوزن وتتغير المباني، فيكون ذلك أعذب على الألسن وأحلى في الأسماع.

قوله تعالى: ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ قال الزجاج: الذكر مرفوع بالمُضمر، المعنى: هذا الذي نتلو عليك ذُكر رحمة ربك عبده. قال الفراء: وفي الكلام تقديم وتأخير؛ المعنى: ذُكر ربك عبده بالرحمة، و«ذكرى» في موضع نصب.

قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ النداء هاهنا بمعنى الدعاء. وفي علة إخفاؤه لذلك ثلاثة أقوال: أحدها: ليبعد عن

الرياء، قاله ابن جريج. والثاني: لثلا يقول الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يسأل الولد على الكبر، قاله مقاتل. والثالث: لثلا يعاديه بنو عمه، ويظنوا أنه كره أن يلوا مكانه بعده، ذكره أبو سليمان الدمشقي. وهذه القصة تدل على أن المستحب إسرار الدعاء، ومنه الحديث: «إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ»^(١).

قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي» وقرأ معاذ القارئ، والضحاك: «وَهْنٌ» بضم الهاء، أي: ضَعُف. قال الفراء وغيره: وَهَنَ الْعَظْمُ، وَوَهِنَ، بفتح الهاء وكسرهما؛ والمستقبل على الحالين كليهما: يَهِن. وأراد أن قُوَّة عظامه قد ذهبت لِكَبَرِهِ؛ وإنما خصَّ الْعَظْمَ، لأنه الأصل في التركيب. وقال قتادة: شكا ذهاب أضراسه.

قوله تعالى: «وَأَشْتَلَّ الْأُرْسُ شَيْبًا» يعني: انتشر الشيب فيه، كما ينتشر شعاع النار في الحطب، وهذا من أحسن الاستعارات. «وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ» أي: بدعائي إياك «رَبِّ شَيْبًا» أي: لم أكن أتعب بالدعاء ثم أخيب، لأنك قد عودتني الإجابة؛ يقال: شقي فلان بكذا؛ إذا تعب بسببه، ولم ينل مراده.

قوله تعالى: «وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْتِ» يعني: الذين يلونه في النسب، وهم بنو العم والعصبة «مِنْ وَرَائِي» أي: من بعد موتي، وفي ما خافهم عليه قولان: أحدهما: أنه خاف أن يَرِثوه، قاله ابن عباس. فإن اعترض عليه معترض، فقال: كيف يجوز لنبي أن يَنْفَسَ على قرباته بالحقوق المفروضة لهم بعد موته؟ فعنه جوابان. أحدهما: أنه لما كان نبياً، والنبي لا يرث، خاف أن يرثوا ماله فيأخذوا ما لا يجوز لهم. والثاني: أنه غلب عليه طبع النشر، فأحب أن يتولَّى ماله ولده، ذكرهما ابن الأثير. قلت: وبيان هذا أنه لا بد أن يتولَّى ماله وإن لم يكن ميراثاً، فأحب أن يتولاه ولده. والقول الثاني: أنه خاف تضييعهم للدين ونهبهم إياه، ذكره جماعة من المفسرين. وقرأ عثمان، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمرو، وابن جبير، ومجاهد، وابن أبي شريح عن الكسائي: «خَفْتُ» بفتح الخاء وتشديد الفاء على معنى «قُلْتُ»؛ فعلى هذا يكون إنما خاف على عِلْمِهِ وَنَبُوءَتِهِ أَلَّا يُورَثَا فيموت العِلْمُ. وأسكن ابن شهاب الزهري ياء «الموالي».

قوله تعالى: «مِنْ وَرَائِي» أسكن الجمهور هذه الياء، وفتحها ابن كثير في رواية قبل. وروى عنه شبل: «ورائي» مثل «عصاي».

قوله تعالى: «فَقَبْتُ لِي مِنْ لَدُنْكَ» أي: من عندك «وَلِيَا» أي: ولدًا صالحًا يتولَّاني.

قوله تعالى: «يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة: «يَرِثُنِي وَيَرِثُ» برفعهما. وقرأ أبو عمرو، والكسائي: «يَرِثُنِي وَيَرِثُ» بالجزم فيهما. قال أبو عبيدة: من قرأ بالرفع، فهو على الصفة للولي؛ فالمعنى: هب لي وليًا وارثًا، ومن جزم، فعلى الشرط والجزاء، كقولك: إن وهبته لي ورثني. وفي المراد بهذا الميراث أربعة أقوال: أحدها: يَرِثُنِي مالي، ويرث من آل يعقوب النبوة، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال أبو صالح. والثاني: يَرِثُنِي العِلْمُ، ويرث من آل يعقوب المُلْكُ، فأجابه الله تعالى إلى وراثة العِلْمِ دون المُلْكِ، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً. والثالث: يَرِثُنِي نَبُوءَتِي وَعِلْمِي، ويرث من آل يعقوب النبوة أيضاً، قاله الحسن. والرابع: يَرِثُنِي النبوة، ويرث من آل يعقوب الأخلاق، قاله عطاء. قال مجاهد: كان زكريا من ذرية يعقوب، وزعم الكلبي أن آل يعقوب كانوا أخواله، وأنه ليس بيعقوب أبي يوسف. وقال مقاتل: هو يعقوب بن ماثان، وكان يعقوب هذا وعمران - أبو مريم - أخوين. والصحيح: أنه لم يرد ميراث المال لوجوه: أحدها: أنه قد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»^(٢). والثاني: [أنه] لا يجوز أن يتأسف نبي الله على مصير ماله بعد موته إذا

(١) هو جزء من حديث رواه البخاري في «صحيحه» ٩٤/٦، ومسلم ٢٠٧٦/٤ عن أبي موسى الأشعري ﷺ مرفوعاً، ولفظه في البخاري: «يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنه معكم، إنه سميع قريب». ومعنى «اربعوا على أنفسكم»: ارفقوا بأنفسكم، واخفصوا أصواتكم، فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان ليد من يخاطبه ليسمعه، وأنتم تدعون الله تعالى، وليس هو بأصم ولا غائب، بل هو سميع قريب.

(٢) رواه البخاري ٤/١٢، ومسلم ١٣٧٩/٣، بلفظ: «لا نورث ما تركناه صدقة». ورواه الترمذي باللفظ الذي ذكره المؤلف: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وصل إلى وارثه المستحق له شرعاً. والثالث: أنه لم يكن ذا مال. وقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ «أن زكريا كان نجاراً»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا رَبَّ رَضِيًّا﴾ قال اللغويون: أي: مرضياً، فصرف عن مفعول إلى فَعِيل، كما قالوا: مقتول وقتيل.

﴿يَزْكُرِيَا إِنَّا نَبِّئُكَ بِفُلَانٍ أَسْمُهُ يَحْيَى لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَدًى وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)

قوله تعالى: ﴿يَزْكُرِيَا إِنَّا نَبِّئُكَ﴾ في الكلام إضمار، تقديره: فاستجاب الله له فقال: «يا زكريا إِنَّا نَبِّشُكَ». وقرا حمزة: «نَبِّشُكَ» بالتخفيف. وقد شرحنا هذا في [آل عمران: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لم يُسَمَّ يحيى قبله، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، وقتادة، وابن زيد، والأكثرون. فإن اعترض معترض، فقال: ما وجه البهذخة باسم لم يُسَمَّ به أحد قبله، ونرى كثيراً من الأسماء لم يُسَبَّحْ إليها؟ فالجواب: أن وجه الفضيلة أن الله تعالى تولى تسميته، ولم يكلِّ ذلك إلى أبيه، فسماه باسم لم يُسَبَّحْ إليه. والثاني: لم تلد العواقر مثله ولدًا، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. فعلى هذا يكون المعنى: لم نجعل له نظيراً. والثالث: لم نجعل له من قبل مثلاً وشيئاً، قاله مجاهد. فعلى هذا يكون عدم الشَّبه من حيث أنه لم يعص ولم يهَمَّ بمعصية. وما بعد هذا مفسر في [آل عمران: ٣٩] إلى قوله: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾. وفي معنى «كانت» قولان: أحدهما: أنه توكيد للكلام، فالمعنى: وهي عاقرة، كقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠] أي: أنتم. والثاني: أنها كانت منذ كانت عاقراً، لم يحدث ذلك بها، ذكرهما ابن الأنباري، واختار الأول.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «عَتِيًّا» و«بُكِيًّا» [مریم: ٥٨] و«صَلِيًّا» [مریم: ٧٠] بضم أوائلها. وقرأ حمزة، والكسائي، بكسر أوائلها، وافقهما حفص عن عاصم، إلا في قوله: «بُكِيًّا» فإنه ضم أوله. وقرأ ابن عباس، ومجاهد: «عُصِيًّا» بالسین. قال مجاهد: «عَتِيًّا» هو قُحُولُ العظم. وقال ابن قتيبة: أي: يُيسَأُ؛ يقال: عَتَا وَعَسَا بمعنى واحد. قال الزجاج: كل شيء انتهى، فقد عَتَا يَعْتُو عَتِيًّا، وَعَتُوًّا، وَعُسُوًّا، وَعُصِيًّا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾ أي: الأمر كما قيل لك من هبة الولد على الكبر ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَدًى﴾ أي: خَلَقَ يحيى عليَّ سَهْل. وقرأ معاذ القارئ، وعاصم الجحدري: «هَيْنَ» بإسكان الياء. ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: أوجدتك. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «خَلَقْنَاكَ». وقرأ حمزة، والكسائي: «خَلَقْنَاكَ» بالنون والألف. ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ المعنى: فخلقُ الولد، كخلقك. وما بعد هذا مفسر في [آل عمران: ٣٩]، إلى قوله: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ قال الزجاج: «سَوِيًّا» منصوب على الحال، والمعنى: تُنْتَعَن عن الكلام وأنت سَوِيٌّ. قال ابن قتيبة: أي: سليماً غير أخرس.

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ وهذا في صبيحة الليلة التي حملت فيها امرأته ﴿مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أي: من مصلاه، وقد ذكرناه في [آل عمران: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه كتب إليهم في كتاب، قاله ابن عباس. والثاني: أوماً برأسه ويديه، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ أي: صَلُّوا ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قد شرحناه في [آل عمران: ٣٩]، والمعنى: أنه كان يخرج إلى قومه فيأمرهم بالصلاة بُكْرَةً وَعَشِيًّا، فلما حملت امرأته أمرهم بالصلاة إشارة.

(١) رواه أحمد في «المستند» رقم (٧٩٣٤)، ومسلم ١٨٤٧/٤، وابن ماجه رقم (٢١٥٠).

﴿يَتَّبِعْنِ إِذْ يَمُوتُ يَوْمَئِذٍ الْمَلَائِكَةُ سَبِيحًا ۖ وَنُفُثَتْ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ الصَّوْءُ ۚ وَمِنْ لَدُنْهَا زَكَوَةٌ ۚ وَكَانَ قَبِيلاً ۝ وَيَبْرَأُ بَوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝﴾ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وَلَدَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يَبْعَثُ حَيًّا ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعْنِ﴾ قال الزجاج: المعنى: فوهبنا له يحيى، وقلنا له: يا يحيى ﴿إِذْ يَمُوتُ﴾ يعني: التوراة، وكان مأموراً بالتمسك بها. وقال ابن الأنباري: المعنى: اقبل كُتُبُ الله كُلُّهَا إيماناً بها واستعمالاً لأحكامها. وقد شرحنا في [البقرة: ٦٣] معنى قوله: ﴿يَمُوتُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَنُفُثَتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه الفهم، قاله مجاهد. والثاني: اللب، قاله الحسن، وعكرمة. والثالث: العلم، قاله ابن السائب، والرابع: حفظ التوراة وعلمها، قاله أبو سليمان الدمشقي. وقد زدنا هذا شرحاً في سورة [يوسف: ٢٣]. وروى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: من قرأ القرآن [من] قبل أن يحتلم، فهو ممن أوتي الحكم صبيّاً. فاما قوله: ﴿سَبِيحًا﴾ ففي سنة يوم أوتي الحكم قولان: أحدهما: أنه سبع سنين، رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ^(١). والثاني: ثلاث سنين، قاله قتادة، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ لَدُنْهَا﴾ قال الزجاج: أي: وآتيناه حناناً. وقال ابن الأنباري: المعنى: وجعلناه حناناً لأهل زمانه. وفي الحنان ستة أقوال: أحدها: أنه الرحمة، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وعكرمة، وقاتة، والضحاك، والفراء، وأبو عبيدة: وأشد:

تَحَنُّنٌ عَلَيَّ هَذَاكَ الْمَلِيكِ

قال: وعامة ما يُستعمل في المنطق على لفظ الاثنين، قال طرفة:

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقِي بَعْضُنَا

حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ^(٢)

قال ابن قتبية: ومنه يقال: تحنن عليّ، وأصله من حنين الناقة على ولدها. وقال ابن الأنباري: لم يختلف اللغويون أن الحنان: الرحمة، والمعنى: فعلنا ذلك رحمةً لأبويه، وتزكيةً له. والثاني: أنه التعطف من ربّه عليه، قاله مجاهد. والثالث: أنه اللين، قاله سعيد بن جبيرة. والرابع: البركة، وروي عن ابن جبيرة أيضاً. والخامس: المحبة، قاله عكرمة، وابن زيد. والسادس: التعظيم، قاله عطاء بن أبي رباح. وفي قوله: ﴿وَزَكَوَةٌ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أنها العمل الصالح، قاله الضحاك، وقاتة. والثاني: أن معنى الزكاة: الصدقة، فالتقدير: إن الله تعالى جعله صدقة تصدّق بها على أبويه، قاله ابن السائب. والثالث: أن الزكاة: التطهير، قاله الزجاج. والرابع: أن الزكاة: الزيادة، فالمعنى: وآتيناه زيادة في الخير على ما وُصف وذكر، قاله ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ قَبِيلاً﴾ قال ابن عباس: جعلته يتقيني، ولا يعدل بي غيري.

قوله تعالى: ﴿وَيَبْرَأُ بَوَالِدَيْهِ﴾ أي: وجعلناه برّاً بوالديه، والبرّ بمعنى: البارّ؛ والمعنى: لطيفاً بهما، محسناً إليهما. والعَصِيّ بمعنى: العاصي. وقد شرحنا معنى الجَبَّار في [هود: ٥٩].

قوله تعالى: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه السلام المعروف من الله تعالى. قال عطاء: سلام عليه مِنِّي في هذه الأيام؛ وهذا اختيار أبي سليمان. والثاني: أنه بمعنى: السلامة، قاله ابن السائب. فإن قيل: كيف خَصَّ التسليم عليه بالأيام، وقد يجوز أن يولد ليلاً ويموت ليلاً؟ فالجواب: أن المراد باليوم الحين والوقت، على ما بيّنا في قوله: ﴿أَيُّومَ أَكَلْتُمْ مِنْكُمْ﴾ [المائدة: ٣]. قال ابن عباس: وسلام عليه حين وُلد. وقال الحسن البصري: التقى يحيى وعيسى، فقال يحيى لعيسى: أنت خير مني، فقال عيسى ليحيى: بل أنت خير مني، سلّم الله عليك، وأنا سلّمْتُ على

(١) أورده السيوطي في «الدرر» ٤/٢٦٠ من رواية أبي نعيم، وابن مردويه، والدلمي عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَنُفُثَتْ لَكَ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال: أعطي الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين.

(٢) البيت للحطّية، «ديوانه» ٢٢٢، و«الكامل» ٣٤٨، و«مجاز القرآن» ٣/٢، و«القرطبي» ٨٨/١١، و«الطبري» ٣٨/١٦، و«البحر المحيط» ١٧٧/٦، و«اللسان» و«التاج»: حنن.

(٣) «ديوانه» ٢٠٨، و«مجاز القرآن» ٣/٢، و«الكتاب» ١٤٦، و«الكامل» ٣٤٨، و«الطبري» ٣٨/١٦، و«الجمهرة» ٤٤٩/٣، و«الشتنمري» ١٧٤/١، و«القرطبي» ٨٧/١١، و«البحر المحيط» ١٧٧/٦، و«اللسان» و«التاج»: حنن.

نفسی. وقال سعید بن جبیر مثله، إلا أنه قال: أثنى الله عليك، وأنا أثبت على نفسي. وقال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الإنسان في ثلاثة مواطن، يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يُبعث فيرى نفسه في محشر لم يره، فخص الله تعالى يحيى فيها بالكرامة والسلامة في المواطن الثلاثة.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْمَ إِذْ أَنْبَذْتَ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ ١٦ ﴿فَأَخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ ١٧ ﴿قَالَتْ إِنَّهُ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾ ١٨ ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ ١٩ ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ ٢٠ ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ ٢١

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ يعني: القرآن ﴿مَرْمَ إِذْ أَنْبَذْتَ﴾ قال أبو عبيدة: تنحّت واعتزلت ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ مما يلي المشرق، وهو عند العرب خير من الغربي.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ﴾ يعني: أهلها ﴿حِجَابًا﴾ أي: سترًا وحاجزاً وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ضربت سترًا، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن الشمس أظلتها، فلم يرها أحد منهم، وذلك مما سترها الله به، و[روى] هذا المعنى عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أنها اتخذت حجاباً من الجدران، قاله السدي عن أشياخه. وفي سبب انفرداها عنهم قولان: أحدهما: [أنها] انفردت لتطهر من الحيض وتمتشط، قاله ابن عباس. والثاني: لتفلي رأسها، قاله عطاء.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وهو جبريل في قول الجمهور. وقال ابن الأنباري: صاحب روحنا، وهو جبريل. والروح بمعنى: الرُّوح والفرح، ثم تضم الراء لتحقيق مذهب الاسم، وإبطال طريق المصدر، ويجوز أن يُراد بالروح هاهنا: الوحي وجبريل صاحب الوحي. وفي وقت مجيئه إليها ثلاثة أقوال: أحدها: وهي تغتسل. والثاني: بعد فراغها، ولبسها الثياب. والثالث: بعد دخولها بيتها. وقد قيل: المراد بالروح هاهنا: [الروح] الذي خلق منه عيسى، حكاه الزجاج، والماوردي، وهو مضمون كلام أبي بن كعب فيما سنذكره عند قوله: ﴿فَمَعَلَلَتْ﴾. قال ابن الأنباري: وفيه بُعد، لقوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾، والمعنى: تصوّر لها في صورة البَشَر التام الخلق. وقال ابن عباس: جاءها في صورة شاب أبيض الوجه جعد ققط حين طرّ شارب. وقرأ أبو نهيك: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ بفتح الراء، من الرُّوح.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّهُ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾ ١٨ ﴿المعنى: إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ الله، فستنهي بتعوّذي منك، هذا هو القول عند المحققين. وحكي عن ابن عباس أنه كان في زمانها رجل اسمه تقي، وكان فاجراً، فظفته إياه، ذكره ابن الأنباري، والماوردي. وفي قراءة عليّ عليه السلام، وابن مسعود، وأبي رجاء: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَقِيًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أي: فلا تخافي ﴿لِيَهَبَ لَكَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: ﴿لأهب لك﴾ بالهمز. وقرأ أبو عمرو، وورش عن نافع: ﴿ليهب لك﴾ بغير همز. قال الزجاج: من قرأ ﴿ليهب﴾ فالمعنى: أرسلني ليهب، ومن قرأ ﴿لأهب﴾ فالمعنى: أرسلت إليك لأهب لك. وقال ابن الأنباري: المعنى: أرسلني يقول لك: أرسلت رسولي إليك لأهب لك.

قوله تعالى: ﴿غُلَامًا زَكِيًّا﴾ أي: طاهراً من الذنوب. والبغي: الفاجرة الزانية. قال ابن الأنباري: وإنما لم يقل: ﴿بَغِيًّا﴾ لأنه وصف يغلب على النساء، فقلّما تقول العرب: رجل بغّي، فيجري مجرى حائض، وعافر. وقال غيره: إنما لم يقل: ﴿بَغِيًّا﴾ لأنه مصروف عن وجهه، فهو «فعل» بمعنى: «فاعل». ومعنى الآية: ليس لي زوج، ولستُ بزانية، وإنما يكون الولد من هاتين الجهتين. ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ قد شرحناه في قصة زكريا، والمعنى: أنه يسير عليّ أن أهب لك غلاماً من غير أب. ﴿وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي: دلالة على قدرتنا كونه من غير أب. قال ابن الأنباري: إنما دخلت الواو في قوله: ﴿وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ لأنها عاطفة لما بعدها على كلام مضمّر محذوف، تقديره: قال ربُّك خلّقه عليّ هين لننفعك به، ولنجعل له عبرة.

قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: لمن تبعه وآمن به ﴿وَكَاثَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: وكان خَلْفَهُ أمراً محكوماً به، مفروغاً عنه، سابقاً في عِلْمِ الله تعالى كونه.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ ١٣ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنَاحِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا ١٤ مَنَسِيًّا ١٥ فَادْبَاهَا مِنْ قَهْمٍ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبِّي خَتَمَكَ سَرِيًّا ١٦ وَهَزَنَ إِلَيْكَ جِنَاحُ النَّخْلَةِ سَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ١٧ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَعَيْنًا عَيْنًا فَلَمَّا تَوَقَّيْنَا مِنَ الْبَشَرِ لَكُمَا فُجُورٌ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ١٨

قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ يعني: عيسى. وفي كيفية حملها له قولان: أحدهما: أن جبريل نفخ في جيب درعها، فاستمر بها حملها، رواه سعيد بن جبیر عن ابن عباس. قال السدي: نفخ في جيب درعها وكان مشقوقاً من قُدَامِهَا، فدخلت النفخة في صدرها فحملت من وقتها. والثاني: الذي خاطبها هو الذي حملته، ودخل من فيها، قاله أبي بن كعب. وفي مقدار حَمْلِهَا سبعة أقوال. أحدها: أنها حين حملت وضعت، قاله ابن عباس، والمعنى: أنه ما طال حملها، وليس المراد أنها وضعت في الحال، لأن الله تعالى يقول: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ﴾، وهذا يدل على أن بين الحمل والوضع وقتاً يحتمل الانتباز به. والثاني: أنها حملته تسع ساعات، ووضعت من يومها، قاله الحسن. والثالث: تسعة أشهر، قاله سعيد بن جبیر. وابن السائب^(١). والرابع: ثلاث ساعات، حملته في ساعة، وصوّر في ساعة، ووضعت في ساعة، قاله مقاتل بن سليمان. والخامس: ثمانية أشهر، فعاش، ولم يعيش مولود قط لثمانية أشهر، فكان في هذا آية، حكاه الزجاج. والسادس: في ستة أشهر، حكاه الماوردي. والسابع: في ساعة واحدة، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْتَبَذَتْ بِهِ﴾ يعني بالحمل ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي: بعيداً. وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبله: «قاصياً». قال ابن إسحاق: مشت ستة أميال. قال الفراء: القصي والقاصي بمعنى واحد. وقال غير الفراء: القصي والقاصي بمنزلة الشهيد والشاهد. وإنما بُعِثَتْ، فراراً من قومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج.

قوله تعالى: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ وقرأ عكرمة، وإبراهيم النخعي، وعاصم الجحدري: «المخاض» بكسر الميم. قال الفراء: المعنى: فجاء بها المخاض، فلما أُلْقِيَ الباء، جُعِلَتْ في الفعل ألفاً، ومثله: ﴿إِنَّا عَذَابَنَا﴾ [الكهف: ٦٢] أي: بغدائنا، ومثله: ﴿مَأْثُورٌ زَيْرٌ لِّلَّذِيذِ﴾ [الكهف: ٩٦] أي: بزير الحديد. قال أبو عبيدة: أفعُلها من جاءت هي، وأجاءها غيرها. وقال ابن قتيبة: المعنى: جاء بها، وألجأها، وهو من حيث يقال: جاءت بي الحاجة إليك، وأجاءتني الحاجة إليك، والمَخَاضُ: الحمل. وقال غيره: المخاض: وجع الولادة. ﴿إِلَى جَنَاحِ النَّخْلَةِ﴾ وهو ساق النخلة، وكانت نخلة يابسة في الصحراء، ليس لها رأس ولا سعف. ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا الْيَوْمِ﴾ أو هذا الأمر. وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي، وخلف، وحفص: «مِثُّ» بكسر الميم. وفي سبب قولها هذا قولان: أحدهما: أنها قالتها حياة من الناس. والثاني: لثلا يَأْتُمُوا بقذفها.

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، بكسر النون، وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: «نَسِيًّا» بفتح النون. قال الفراء: وأصحاب عبد الله يقرؤون: «نَسِيًّا» بفتح النون، وسائر العرب بكسرها، وهما لغتان، مثل الجسر والجسر، والوتر والوتر، والفتح أحب إليّ. قال أبو علي الفارسي: الكسر على اللغتين. وقال ابن الأنباري: من كسر النون قال: النسي: اسم لما يُنسى، بمنزلة البغض اسم لما يُبغض، والسب اسم لما يُسب. والنسي بفتح النون: اسم لما يُنسى أيضاً على أنه مصدر تاب عن الاسم، كما يقال: الرجل دَفِيفٌ، ودَفَفَ. فالمكسور: هو الوصف الصحيح، والمفتوح: مصدر سُدَّ مسدّد الوصف. ويمكن أن يكون النسي والنسي اسمين لمعنى، كما يقال: الرُّطْلُ والرُّطْل. وللمفسرين في قوله تعالى: ﴿نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ خمسة أقوال: أحدها: يا ليتني لم أكن شيئاً، قاله الضحاک عن ابن عباس، وبه قال عطاء، وابن زيد. والثاني: «وكننت نسياً منسياً» أي: دم حيضة ملقاة، قاله مجاهد، وسعيد بن جبیر، وعكرمة. قال الفراء: النسي: ما تلقى المرأة من خرق

(١) قال ابن كثير في «تفسيره» ١١٦/٣: المشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر.

اعتلالها. وقال ابن الأنباري: هي خرق الحيض تلقى المرأة فلا تطلبها ولا تذكرها. والثالث: [أنه من] السقط، قاله أبو العالية، والربيع. والرابع: أن المعنى: يا ليتني لا يدرى من أنا، قاله قتادة. والخامس: أنه الشيء النافه يرحل عنه القوم، فيهن عليهم فلا يرجعون إليه، قاله ابن السائب. وقال أبو عبيدة: النسي، والمنسي: ما ينسى من أداة وعصا. يعني أنه ينسى في المنزل، فلا يرجع إليه لاحتقار صاحبه إياه. وقال الكسائي: معنى الآية: ليتني كنت ما إذا ذكر لم يطلب.

قوله تعالى: ﴿فَتَادَّبَهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «مَنْ تَحْتَهَا» بفتح الميم، والتاء. وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «مِنْ تَحْتَهَا» بكسر الميم، والتاء. فمن قرأ بكسر الميم، ففيه وجهان: أحدهما: ناداها الملك من تحت النخلة. وقيل: كانت على شَنْز، فنادها الملك أسفل منها. والثاني: ناداها عيسى لما خرج من بطنها. قال ابن عباس: كلُّ ما رفعت إليه طرفك، فهو فوقك، وكلُّ ما خفضت إليه طرفك، فهو تحتك. ومن قرأ بفتح الميم، ففيه الوجهان المذكوران. وكان الفراء يقول: ما خاطبها إلا الملك على القراءتين جميعاً.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَمَلَ رَبِّي قَتْلَكَ سَرِيًّا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه النهر الصغير، قاله جمهور المفسرين، واللغويون، قال أبو صالح، وابن جريج: هو الجدول بالسريانية. والثاني: أنه عيسى كان سرياً من الرجال، قاله الحسن، وعكرمة، [وابن زيد]. قال ابن الأنباري: وقد رجح الحسن عن هذا القول إلى القول الأول، ولو كان وصفاً لعيسى، كان غلاماً سرياً أو سويماً من الغلمان، وقلماً تقول العرب: رأيت عندك نبياً، حتى يقولوا: رجلاً نبياً. فإن قيل: كيف ناسب تسليتها أن قيل: لا تحزني. فهذا نهر يجري؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أنها حزنت لجذب مكانها الذي ولدت فيه، وعدم الطعام والشراب والماء الذي تنطهر به، فقيل: لا تحزني قد أجرينا لك نهراً، وأطلعنا لك رطباً، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنها حزنت لما جرى عليها من ولادة ولد عن غير زوج، فأجرى الله تعالى لها نهراً، فجاءها من الأردن، وأخرج لها الرطب من الشجرة اليابسة، فكان ذلك آية تدل على قدرة الله تعالى في إيجاد عيسى، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَهَرَجَ إِلَيْكَ﴾ الهَرْج: التحريك. والباء في قوله تعالى: ﴿يَمْحُجُّ الْغُحُورَ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها زائدة مؤكدة، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَسُدُّ سَبَبَ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [الحج: ١٥] قال الفراء: فليمدد سبباً. والعرب تقول: هرَّه، وهرَّ به، وخذ الخطام، وخذ بالخطام، وتعلَّق زيداً، وتعلَّق به. وقال أبو عبيدة: هي مؤكدة، كقول الشاعر:

نَضْرِبُ بالسَّيْفِ ونَرْجُو بالفَرْجِ^(١)

والثاني: أنها دخلت على الجلع لتلصقه بالهَرْج، فهي مفيدة للإلصاق، قاله ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿سَنَقُطْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «تَسَاقُطْ» بالتاء مشددة السين. وقرأ حمزة، وعبد الوارث: «تَسَاقُطْ» بالتاء مفتوحة مخففة السين. وقرأ حفص عن عاصم: «تَسَاقُطْ» بضم التاء وكسر القاف مخففة السين. وقرأ يعقوب، وأبو زيد عن المفضل: «يَسَاقُطْ» بالياء مفتوحة وتشديد السين وفتح القاف. فهذه القراءات المشاهير. وقرأ أبيُّ بن كعب، وأبو حيوة: «تَسَقُطْ» بفتح التاء وسكون السين ورفع القاف. وقرأ عبد الله بن عمرو، وعائشة، والحسن: «يَسَاقُطْ» بالالف وتخفيف السين ورفع الياء وكسر القاف. وقرأ الضحاک، وعمرو بن دينار: «يُسَقِطْ» برفع الياء وكسر القاف مع سكون السين وعدم الالف. وقرأ عاصم الجحدري، وأبو عمران الجوني مثله، إلا أنه بالتاء. وقرأ معاذ القارئ، وابن يعمر مثله، إلا أنه بالنون. وقرأ أبو رزین العقيلي، وابن أبي عبة: «يَسَقُطْ» بالياء مفتوحة مع سكون السين ورفع القاف. وقرأ أبو السماك العدوي، وابن حزام: «تساقط» بتاءين مفتوحين وبالف. وقال الزجاج: من قرأ «يساقط» فالمعنى: يتساقط، فادغمت التاء في السين. ومن قرأ «تساقط»، فكذلك أيضاً، وأنت لأن لفظ النخلة يؤنث. ومن قرأ «تساقط» بالتاء والتخفيف، فإنه حذف من «تساقط» اجتماع

(١) هذا الشطر من الرجز لراجز من بني جعدة، وهو في «الاقضاب» ٤٥٨، وشواهد المغني» ١١٤٠، و«الخزانة» ١٥٩/٤.

التاءین. ومن قرأ «یُساقط» ذهب إلى معنی: یُساقط الجذع عليك. ومن قرأ «تُساقط» بالنون، فالمعنی: نحن نُساقط عليك، فنجعل لك آية، والنحويون يقولون: إن «رطباً» منصوب على التمييز إذا قلت: یُساقط أو يتساقط، المعنی: يتساقط الجذع رطباً. وإذا قلت: تُساقط بالتاء، فالمعنی: تتساقط النخلة رطباً.

قوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ﴾ قال الفراء: الجَنَّةُ: المجتَنُ، وقال ابن الأنباري: هو الطريُّ، والأصل: مجنؤٌ، صُرف من مفعول إلى فعليل، كما يقال: قديد، وطبيخ. وقال غيره: هو الطريُّ بغباره: ولم يكن لتلك النخلة رأس، فأنبته الله تعالى، فلما وضعت يدها عليها، سقط الرطب رطباً. وكان السلف يستحبون للنساء الرطب من أجل مريم عليها السلام.

قوله تعالى: ﴿تَكْلِي﴾ أي: من الرطب ﴿وَأَنْشَرِي﴾ من النهر ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ بولادة عيسى عليه السلام. قال الزجاج: يقال: قررت به عيناً أقر، بفتح القاف في المستقبل، وقررت في المكان أقر، بكسر القاف، و«عيناً»: منصوب على التمييز. وروى ابن الأنباري عن الأصمعي أنه قال: معنى «وقري عيناً»، ولتبرد دمعتك، لأن دمعة الفرح باردة، ودمعة الحزن حارة. واشتقاق «قري» من القُرور، وهو الماء البارد. وقال لنا أحمد بن يحيى: تفسير «قري عيناً» بلغت غاية أملك حتى تفر عينك من الاستشراف إلى غيره، واحتج بقول عمرو بن كلثوم:

بـيـوم كـريهـة ضـرباً وطـعنأ
أقرب به مـوالـيك العـيونأ^(١)

أي: ظفروا وبلغوا منتهى أمنيتهم، فقرت عينهم من تطلع إلى غيره.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَيْنَ﴾ وقرأ ابن عباس، وأبو مجلز، وابن السميع، والضحاك، وأبو العالية، وعاصم الجحدري: «تَرَيْنَ» بهزمة مكسورة من غير ياء. أي: إن رأيت من البشر أحداً قولي؛ وفيه إضمار تقديره: فسالك عن أمر ولدك ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ فيه قولان: أحدهما: صمتاً، قاله ابن عباس، وأنس بن مالك، والضحاك؛ وكذلك قرأ أبي بن كعب، وأنس بن مالك، وأبو رزین العقيلي: «صمتاً» مكان قوله: «صوماً». وقرأ ابن عباس: صياماً^(٢). والثاني: صوماً عن الطعام والشراب والكلام، قاله قتادة. وقال ابن زيد: كان المجتهد من بني إسرائيل يصوم عن الكلام كما يصوم عن الطعام، إلا من ذُكر الله تعالى. قال السدي: فأذن لها أن تتكلم بهذا القدر ثم تسكت. قال ابن مسعود: أمرت بالصمت، لأنها لم تكن لها حُجة عند الناس، فأمرت بالكف عن الكلام ليكفيها الكلام ولدها مما يُبرئ به ساحتها. وقيل: كانت تُكلم الملائكة ولا تكلم الإنس. قال ابن الأنباري: الصوم في لغة العرب على أربعة معاني، يقال: صوم لترك الطعام والشراب، وصوم للصمت، وصوم لضرب من الشجر، وصوم للزرق النعام. واختلف العلماء في مقدار سنِّ مريم يوم ولادتها على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ولدت وهي بنت خمس عشرة سنة، قاله وهب بن منبه. والثاني: بنت اثنتي عشرة سنة، قاله زيد بن أسلم. والثالث: بنت ثلاث عشرة سنة، قاله مقاتل.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ قَالُوا يَحْرِيحُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا قَرِيحًا ﴿٣٧﴾ يَتَأَخَذَ هَنُوزًا مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَيِّعًا ﴿٣٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْحَادِ صَبِيحًا ﴿٣٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٤٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْإِسْلَامِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٤١﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ قال ابن عباس في رواية أبي صالح: انتهت به بعد أربعين يوماً حين طهرت من نفاسها. وقال في رواية الضحاك: انطلق قومها يطلبونها، فلما رأتهم حملت عيسى فتلقتهن به، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾. فإن قيل: «أنت به» يغني عن «تحمله» فلا فائدة للتكرير. فالجواب: أنه لما ظهرت منه آيات، جاز أن يتوهم السامع «فأتت به» أن يكون ساعياً على قدميه، فيكون سعيه آية كنطقه، فقطع ذلك التوهم، وأعلم أنه كسائر الأطفال، وهذا مثل قول العرب: نظرت إلى فلان بعيني، فنقوا بذلك نظر العطف؛ والرحمة، وأنبأوا [أنه] نظرو عيني. وقال ابن السائب: لما دخلت على قومها بكوا، وكانوا قوماً صالحين؛ و﴿قَالُوا يَحْرِيحُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا قَرِيحًا﴾ وفيه ثلاثة أقوال:

(١) «مختار الشعر الجاهلي» ٣٦٢/٢، «اللسان»: قرر.

(٢) وفي النسخة الإستنبولية: وقرأ ابن مسعود: «وصياماً»، والذي في «البحر المحيط» و«روح المعاني»: وقرأ زيد بن علي «صياماً».

أحدهما: شيئاً عظيماً، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. قال الفراء: الفريُّ: العظيم، والعرب تقول: تركته يفري الفري، إذا عمل فأجاد العمل ففُضِّل الناس، قيل هذا فيه، قال النبي ﷺ: «فما رأيت عبقرياً يفري قُزَيَّ عمر»^(١). والثاني: عَجَباً فائقاً، قاله أبو عبيدة. والثالث: شيئاً مصنوعاً، ومنه يقال: فريت الكذب، وافتريته، قاله اليزيدي.

قوله تعالى: ﴿يَتَأَخَذَ هَرُونَ﴾ في المراد بهارون هذا خمسة أقوال: أحدها: أنه أخ لها من أمها، وكان من أمثل فتى في بني إسرائيل، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال الضحاك: كان من أبيها وأمها. والثاني: أنها كانت من بني هارون، قاله الضحاك عن ابن عباس. وقال السدي: كانت من بني هارون أخي موسى ﷺ، فُنُسِبَتْ إليه، لأنها من ولده. والثالث: أنه رجل صالح كان في بني إسرائيل، فشبَّهوها به في الصلاح، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً، وقتادة، ويدل عليه ما روى المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران، فقالوا: ألسنم تقرؤون: ﴿يَتَأَخَذَ هَرُونَ﴾ وقد علمتم ما كان بين موسى وعيسى؟ فلم أدر ما أجيبهم، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»^(٢). والرابع: أن قوم هارون كان فيهم فُسَّاق وزُنَّاء، فنسبوا إليهم، قاله سعيد بن جبيرة. والخامس: أنه رجل من فُسَّاق بني إسرائيل شبَّهوها به، قاله وهب بن منبه. فعلى هذا يخرج في معنى «الأخت» قولان: أحدهما: أنها الأخت حقيقة. والثاني: المشابهة، لا المناسبة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُرِيدُ مِنَ آيَةِ إِلَّا مِنْ أَكْبَرٍ مِنْ أُنْتَبِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ آلُيُوسُفَ﴾ يعنون: عمران «أَمَرَأَ سَوَّ» أي: زانياً «وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ» حنة «بَيْتًا» أي: زانية، فمن أين لك هذا الولد؟

قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ﴾، أي: أومات ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى عيسى فتكلَّم. وقيل المعنى: أشارت إليه أن كلّموه. وكان عيسى قد كلّمها حين أتت قومها، وقال: يا أمه ابشري فإني عبد الله ومسيحه، فلما أشارت أن كلّموه، تعجّبوا من ذلك، و﴿قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ﴾ وفيها^(٣) أربعة أقوال: أحدها: أنها زائدة، فالمعنى: كيف نكلّم صبيّاً في المهد؟ والثاني: أنها في معنى: وقع، وحدث. والثالث: أنها في معنى الشرط والجزاء، فالمعنى: من يكن في المهد صبيّاً، فكيف نكلّمه؟ حكاهما الزجاج، واختار الأخير منها؛ قال ابن الأنباري: وهذا كما تقول: كيف أعظ من كان لا يقبل موعظتي؟ أي: من يكن لا يقبل، والماضي يكون بمعنى المستقبل في الجزاء. والرابع: أن «كان» بمعنى: صار، قاله قطرب. وفي المراد بالمهد قولان: أحدهما: حجرها، قاله نوف، وقتادة، والكلبي، والثاني: سرير الصبي المعروف، حكاه الكلبي أيضاً. قال السدي: فلما سمع عيسى كلامهم، لم يزد على أن ترك الرضاع، وأقبل عليهم بوجهه، فقال: إني عبد الله. قال المفسرون: إنما قدّم ذكر العبودية، ليُبطِلَ قول من ادّعى فيه الربوبية. وفي قوله: ﴿ءَاتَيْنِي الْكِتَابَ﴾ أسكن هذه الباء حمزة. وفي معنى الآية قولان. أحدهما: أنه آتاه الكتاب وهو في بطن أمه، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقيل: علم التوراة والإنجيل وهو في بطن أمه. والثاني: قضى أن يؤتيني الكتاب، قاله عكرمة. وفي «الكتاب» قولان: أحدهما: أنه التوراة. والثاني: الإنجيل.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ يَبِئَ﴾ هذا وما بعده إخبار عما قضى الله له وحكم له به ومنحه إياه مما سيظهر ويكون. وقيل: المعنى: يؤتيني الكتاب ويجعلني نبياً إذا بلغت؛ فحلّ الماضي محلّ المستقبل، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُوسُفُ﴾ [المائدة: ١١٦]. وفي وقت تكليمه لهم قولان: أحدهما: أنه كلّمهم بعد أربعين يوماً. والثاني: في يومه. وهو مبني على ما ذكرنا من الزمان الذي غابت عنهم فيه مريم.

(١) البخاري ٣٦/٧، ومسلم ١٨٦٢/٤، ومعناه: لم أر سيداً يعمل عمله ويقطع قطعه.

(٢) وعلى هامش نسخة الرباط: أخرجه مسلم في «صحيحه» ومن طريقه البخاري في «شرح السنة» في كتاب الاستئذان في باب التسمية باسم النبي ﷺ اهـ. وهو في مسلم في كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم ويان ما يستحب من الأسماء (١٨٦٥/٣) بمعناه، ورواه أحمد في «المستد» ٤/٢٥٢، ولفظه قريب من رواية المصنف، ورواه الترمذي في «التفسير» (١٤٤/٢)، وأورده السيوطي في الدر المنثور وزاد نسبه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل».

(٣) أي: لفظة «كان».

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ في هذه الآية قال: «نفاعاً حيثما توجهت»^(١). وقال مجاهد: معلماً للخير. وفي المراد «بالزكاة» قولان: أحدهما: زكاة الأموال، قاله ابن السائب. والثاني: الطهارة، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْنِي﴾ قال ابن عباس: لما قال هذا، ولم يقل: «بوالدي» علموا أنه ولد من غير بشر. قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ أي: متعظماً ﴿شَقِيًّا﴾ عاصياً لربه ﴿وَالسَّكَنُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ قال المفسرون: السلامة عليّ من الله يوم وُلِدْتُ حتى لم يضربني شيطان. وقد سبق تفسير الآية [مریم: ۱۵]. فإن قيل: لم ذكر هاهنا «السلام» بألف ولام، وذكره في قصة يحيى بلا ألف ولام؟ فنه جوابان: أحدهما: أنه لما جرى ذكر السلام قبل هذا الموضع بغير ألف ولام، كان الأحسن أن يرد ثانية بألف ولام، هذا قول الزجاج. وقد اعترض على هذا القول، فقيل: كيف يجوز أن يعطف هذا وهو قول عيسى، على الأول وهو قول الله ﷻ؟ وقد أجاب عنه ابن الأنباري فقال: عيسى إنما يتعلم من ربه، فيجوز أن يكون سمع قول الله في يحيى، فبنى عليه وألصقه بنفسه، ويجوز أن يكون الله ﷻ عرّف السلام الثاني لأنه أتى بعد سلام قد ذكره، وأجراه عليه غير قاصد به إتباع اللفظ المحكي، لأن المتكلم، له أن يغير بعض الكلام الذي يحكيه، فيقول: قال عبد الله: أنا رجل منصف، يريد: قال لي عبد الله: أنت رجل منصف. والجواب الثاني: أن سلاماً والسلام لغتان بمعنى واحد، ذكره ابن الأنباري.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٢٥) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا فَعَلَّ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢٦) وَلَئِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٢٧)

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ قال الزجاج: أي، ذلك الذي قال: إني عبد الله، هو ابن مریم، لا ما تقول النصارى: أنه ابن الله، وأنه إله.

قوله تعالى: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وحزمة، والكسائي: «قول الحق» برفع اللام. وقرأ عاصم، وابن عامر، ويعقوب: بنصب اللام. قال الزجاج: من رفع «قول الحق» فالمعنى: هو قول الحق، يعني هذا الكلام؛ ومن نصب، فالمعنى: أقول قول الحق. وذكر ابن الأنباري في الآية وجهين: أحدهما: أنه لما وُصف بالكلمة جاز أن يُعت بالقول. والثاني: أن في الكلام إضماراً، تقديره: ذلك نبأ عيسى، ذلك النبأ قول الحق.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: يشكون. قال قتادة: ائترت اليهود فيه والنصارى، فزعم اليهود أنه ساحر، وزعم النصارى أنه ابن الله وثالث ثلاثة. قرأ أبو مجلز، ومعاذ القارئ، وابن يعمر، وأبو رجاء: «تمترون» بالطاء.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ قال الزجاج: المعنى: أن يتخذ ولداً. و«ومن» مؤكدة تدل على نفي الواحد والجماعة، لأن للقاتل أن يقول: ما اتخذت فرساً، يريد: اتخذت أكثر من ذلك، وله أن يقول: ما اتخذت فرسين ولا أكثر، يريد: اتخذت فرساً واحداً؛ فإذا قال: ما اتخذت من فرس، فقد دلّ على نفي الواحد والجميع.

قوله تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ وقرأ أبو عمران الجوني، وابن أبي عبله: «فيكون» بالنصب، وقد ذكرنا وجهه في [البقرة: ۱۱۷].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «وَأَنَّ اللَّهَ» بنصب الألف. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: «وإن الله» بكسر الألف. وهذا من قول عيسى؛ فمن فتح، عطفه على قوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالْحَقِّ وَالزَّكَاةِ﴾ وبأن الله ربي؛ ومن كسر، ففيه وجهان: أحدهما: أن يكون معطوفاً على قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ والثاني: أن يكون مستأنفاً.

﴿فَاتَّخَلَّفَ الْأَخْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مُشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢٧) أَسْبَغَ يَوْمَ وَأَبْصَرَ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٨) وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْقِسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (٣٠)

(١) في «الطبري» و«ابن كثير» عن مجاهد: نفاعاً. وقال السيوطي في «الدرر» ٤/ ٢٧٠: أخرج الإسمايلي في «معجمه» وأبو نعيم في «الحلية» وابن لال في «مكارم الأخلاق»، وابن مردويه، وابن النجار في «تاريخه» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قول عيسى ﷺ: وجعلني مباركاً أينما كنت، قال: جعلني نفاعاً للناس أين اتجهت».

قوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ قال المفسرون: «مِنْ» زائدة، والمعنى: اختلفوا بينهم. وقال ابن الأنباري: لما تمسك المؤمنون بالحق، كان اختلاف الأحزاب بين المؤمنين مقصوراً عليهم. وفي الأحزاب قولان: أحدهما: أنهم اليهود والنصارى، فكانت اليهود تقول: إنه لغير رشد^(١)، والنصارى تدعي فيه ما لا يليق به. والثاني: أنهم فرق النصارى، قال بعضهم: هو الله، وقال بعضهم: ابن الله، وقال بعضهم: ثالث ثلاثة.

قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بقولهم في المسيح ﴿مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: من حضورهم ذلك اليوم للجزاء. قوله تعالى: ﴿أَتَمِيعَ يَوْمٍ وَابَّيْرَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن لفظه لفظ الأمر، ومعناه الخبر، فالمعنى: ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة، سمعوا وأبصروا حين لم ينفعهم ذلك لأنهم شاهدوا من أمر الله ما لا يحتاجون معه إلى نظر وفكر فعلموا الهدى وأطاعوا، هذا قول الأكثرين. والثاني: أسمع بحديثهم اليوم، وأبصر كيف يصنع بهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾، قاله أبو العالية.

قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الْفَالِغُونَ﴾ يعني: المشركين والكفار ﴿الْيَوْمَ﴾ يعني: في الدنيا ﴿فِي سَكَلٍ ثَيْنٍ﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ﴾ أي: خوف كفار مكة ﴿يَوْمَ الْقِسْرَةِ﴾ يعني: يوم القيامة يتحسر المسيء إذ لم يُحْسِن، والمقصر إذ لم يَزِدْ من الخير. وموجبات الحسرة يوم القيامة كثيرة، فمن ذلك ما روى أبو سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، قيل: يا أهل الجنة، فيشرئبون^(٢) وينظرون، وقيل: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيقال لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: هذا الموت، فيذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت؛ ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْقِسْرَةِ إِذْ فُتِنَ الْأَمْرُ وَمَنْ فِي غَفْلَةٍ وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ﴾^(٣)». قال المفسرون: فهذه هي الحسرة إذا ذبح الموت، فلو مات أحد فرحاً مات أهل الجنة، ولو مات أحد حزناً مات أهل النار. ومن موجبات الحسرة، ما روى عدي بن حاتم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يؤتى يوم القيامة بناس إلى الجنة، حتى إذا دَنَوْا منها واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها، نودوا: أن اصرفوهم عنها، لا نصيب لهم فيها، فيرجعون بحسرة ما رَجَعُوا الأُولُونَ بمثلها، فيقولون: يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن تُرَبِّتَنا ما أربتنا كان أهون علينا؛ قال: ذلك أردت بكم، كنتم إذا خَلَوْتُمْ بارزتموني بالعظائم، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين، تراؤون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم، هبتم الناس ولم تهابوني، وأجللتهم الناس ولم تُجَلُّوني، تركتم للناس ولم تتركوا لي، فاليوم أذيقكم العذاب مع ما حرمتكم من الثواب^(٤)». ومن موجبات الحسرة ما روي عن ابن مسعود قال: ليس من نفس يوم القيامة إلا وهي تنظر إلى بيت في الجنة، وبيت في النار، ثم يقال: يعني لهؤلاء: لو عملتم، ولأهل الجنة: لولا أن من الله عليكم. ومن موجبات الحسرة: قطع الرجاء عند إطباق النار على أهلها.

قوله تعالى: ﴿إِذْ فُتِنَ الْأَمْرُ﴾ قال ابن الأنباري: «قضي» في اللغة بمعنى: أتمن وأحكم، وإنما سمي الحاكم قاضياً، لإتقانه وإحكامه ما ينفذ. وفي الآية اختصار، والمعنى: إذ قضي الأمر الذي فيه هلاكهم. وللمفسرين في الأمر قولان: أحدهما: أنه ذبح الموت، قاله ابن جريج، والسدي. والثاني: أن المعنى: قضي العذاب لهم، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي: هم في الدنيا في غفلة عما يصنع بهم ذلك اليوم ﴿وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ﴾ بما يكون في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ﴾ أي: نُمِيت سَكَّانَهَا فنرثها ﴿وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت. فإن قيل: ما

(١) يقال: هذا ولد رشدة: إذا كان لنكاح صحيح، ويقال في ضله: ولد زنية.

(٢) يشرئبون: يرفعون رؤوسهم إلى المنادي.

(٣) رواء أحمد في «المسنَد» ٩/٣، والبخاري ٣٢٥/٨، ومسلم ٢١٨٨/٤، والترمذي ١٤٤/٢ وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأورده السيوطي في «الدرة» ٢٧١/٤ وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والنسائي، وأبي يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٤) ذكره الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» باب الترهيب من الرياء من رواية الطبراني في «الكبير» والبيهقي، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.

الفائدة في «نحن» وقد كفت عنها «إنا»؟ فالجواب: أنه لما جاز في قول المعظم: «إنا نفعل» أن يوهم أن أتباعه فعلوا، أبانت «نحن» بأن الفعل مضاف إليه حقيقة. فإن قيل: فلم قال: «ومن عليها» وهو يرث الآدميين وغيرهم؟ فالجواب: أن «من» تخص أهل التمييز، وغير المميزين يدخلون في معنى الأرض ويجرون مجراها، ذكر الجوابين عن السؤالين ابن الأنباري.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِرَبِّكَ إِنِّي ۖ إِذْ قَالَ لِرَبِّكَ إِنِّي ۖ إِذْ قَالَ لِرَبِّكَ إِنِّي ۖ﴾
 ﴿يَتَأْتِي إِيَّاهُ قَدْ جَاءَهُ مِنَ الْوَلَدِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبَعْنَاهُ أَهْلًا سَوِيًّا ۖ﴾
 ﴿يَتَأْتِي إِيَّاهُ أَهْلًا أَنْ يَسْكَ عَذَابُ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۖ﴾
 ﴿وَأَهْبِزْ فِي مِثْلِكَ ۖ قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ۖ﴾
 ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاؤِ رَبِّي شُعْيًا ۖ فَلَمَّا آخَظْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۖ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: اذكر لقومك قصته. وقد سبق معنى الصديق [في النساء: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْءٌ﴾ أي: لا يدفع عنك ضرراً.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْوَلَدِ﴾ بالله والمعرفة ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ أي: لا تُطعه فيما يأمر به من الكفر والمعاصي. وقد شرحنا معنى «كان» آنفاً.

﴿وَعَصِيًّا﴾ أي: عاصياً، فهو «فعل» بمعنى «فاعل».

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَسْكَ عَذَابُ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ قال مقاتل: في الآخرة؛ وقال غيره: في الدنيا، ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ أي: قريباً في عذاب الله، فجرت المقارنة مجرى الموالاة. وقيل: إنما طمع إبراهيم في إيمان أبيه، لأنه حين خرج من النار قال له: نغم الإله إلهك يا إبراهيم، فحينئذ أقبل يعظه، فأجابه أبوه: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَكْفُرْتُمْ؟﴾ أي: أثارك عبادتها أنت؟ ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ﴾ عن عيبتها وشتمها ﴿لَأَكْرِمَنَّكَ﴾ وفيه قولان: أحدهما: بالشتم والقول، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: بالحجارة حتى تتباعد عني، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿وَأَهْبِزْ فِي مِثْلِكَ﴾ فيه قولان: أحدهما: اهجرني طويلاً، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس، وبه قال الحسن، والفرّاء، والأكثر. قال ابن قتيبة: اهجرني حيناً طويلاً، ومنه يقال: تملّيت حبيك. والثاني: اجتنبني سالماً قبل أن تصيبك عقوبي، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والضحاك؛ فعلى هذا يكون من قولهم: فلان ملئ بكذا وكذا: إذا كان مضطرباً به، فالمعنى: اهجرني وعرضك وافر، وأنت سليم من أذائي، قاله ابن جرير.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ﴾ أي: سلمت من أن أصيبك بمكروه، وذلك أنه لم يؤمر بقتاله على كفره، ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ فيه قولان: أحدهما: أن المعنى: سأسأل الله لك توبة تنال بها مغفرته. والثاني: أنه وعده الاستغفار وهو لا يعلم أن ذلك محظور في حق المصيرين على الكفر، ذكرهما ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لطيفاً، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال ابن زيد، والزجاج. والثاني: رحيماً، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: بارأ عودني منه الإجابة إذا دعوته، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿وَأَعَزَّنَا لَكُم﴾ أي: وأنتحنى عنكم، ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: الأصنام. وفي معنى «تدعون» قولان: أحدهما: تعبدون. والثاني: أن المعنى: وما تدعون ربّاً، ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ أي: وأعبده ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاؤِ رَبِّي شُعْيًا﴾ أي: أرجو أن لا أشقى بعبادته كما شقيتم أنتم بعبادة الأصنام، لأنها لا تنفعهم ولا تجيب دعاءهم ﴿فَلَمَّا آخَظْتَهُمْ﴾ قال المفسرون: هاجر عنهم إلى أرض الشام، فوهب الله له إسحاق ويعقوب، فأأس الله وحشته عن فراق قومه بأولاد كرام. قال أبو سليمان: وإنما وهب له إسحاق ويعقوب بعد إسماعيل.

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا﴾ أي: وكلّاً من هذين. وقال مقاتل: يعني: إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَعَدْنَا لَكُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ قال المفسرون: المال والولد والعلم والعمل، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا﴾ قال ابن قتيبة: أي: ذكرنا حسناً في الناس مرتفعاً، فجميع أهل الأديان يتولون إبراهيم وذريته وثنون عليهم، فوضع اللسان مكان القول، لأن القول يكون باللسان^(١).

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ ﴿٥١﴾ وَتَدْنِيهِ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الْيَمِينِ ﴿٥٢﴾ وَوَعَدْنَا لَكُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا أَنْهَ هَذِهِ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والمفضل عن عاصم: «مُخْلَصًا» بكسر اللام. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم بفتح اللام. قال الزجاج: المُخْلَص، بكسر اللام: الذي وحّد الله، وجعل نفسه خالصة في طاعة الله غير ذنبة، والمُخْلَص، بفتح اللام: الذي أخلصه الله، وجعله مختاراً خالصاً من الدُّنس.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾ قال ابن الأنباري: إنما أعاد «كان» لتضخيم شأن النبي المذكور.

قوله تعالى: ﴿وَتَدْنِيهِ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾ أي: من ناحية الطور، وهو جبل بين مصر ومدين اسمه زبير. قال ابن الأنباري: [إنما] خاطب الله العرب بما يستعملون في لغتهم، ومن كلامهم: عن يمين القيلة وشمالها، يعنون: مما يلي يمين المستقبل لها وشماله، ففعلوا الوصف إلى ذلك أتساعاً عند انكشاف المعنى، لأن الوادي لا يَدُّ لَهُ فيكون له يمين. وقال المفسرون: جاء النداء عن يمين موسى، فلهذا قال: «الأيمن»، ولم يُرد به يمين الجبل.

قوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾ قال ابن الأنباري: معناه: مناجياً، فعبر «فعليل» عن «مفاعل» كما قالوا: فلان خليطي وعشيري: يعنون: مخالطي ومعاشري. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: «وقربناه» قال: حتى سمع صريف القلم حين كتب له في الألواح.

قوله تعالى: ﴿وَوَعَدْنَا لَكُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ أي: من نعمتنا عليه إذا أجابنا دعاءه حين سأل أن نجعل معه أخاه وزيراً له.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ مِنْ رَبِّهِ مَرْغَبًا ﴿٥٥﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ هذا عام فيما بينه وبين الله، وفيما بينه وبين الناس. وقال مجاهد: لم يعد ربه بوعد قط إلا وفى له به. فإن قيل: كيف خص بصدق الوعد إسماعيل، وليس في الأنبياء من ليس كذلك؟ فالجواب: أن إسماعيل عانى [في الوفاء] بالوعد ما لم يعاناه غيره من الأنبياء، فأثني عليه بذلك. وذكر المفسرون: أنه كان بينه وبين رجل ميعاد، فأقام ينتظره مدة فيها لهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أقام حولاً، قاله ابن عباس. والثاني: اثنين وعشرين يوماً، قاله الرقاشي. والثالث: ثلاث أيام، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾ إلى قومه، وهم جُرْهُم. ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾ قال مقاتل: يعني: قومه. وقال الزجاج: أهله: جميع أئمة. فأما الصلاة والزكاة، فهما العبادتان المعروفتان.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ ﴿٥٧﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه في السماء الرابعة، روى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث مالك بن صعصعة عن رسول الله ﷺ في حديث المعراج: أنه رأى إدريس في السماء الرابعة^(٢)، وبهذا قال أبو سعيد الخدري، ومجاهد، وأبو العالية. والثاني: أنه في السما السادسة، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الضحاك^(٣). والثالث: أنه في الجنة، قاله زيد بن أسلم، وهذا يرجع إلى الأول، لأن قد روي أن

(١) في عبارة الأصل هنا تقديم وتأخير، وهذا نصها: [وَجَعَلْنَا لَكُمْ لِسَانَ صِدْقٍ] أي: ذكرنا حسناً في الناس مرتفعاً، فجميع أهل الأديان يتولون إبراهيم وذريته وثنون عليهم، قال ابن قتيبة: فوضع اللسان مكان القول، لأن القول يكون باللسان. أما وابن قتيبة لم يقل سوى هذه العبارة: أي: ذكرنا حسناً في الناس مرتفعاً، فقدّمنا جملة «قال ابن قتيبة» على قوله، حتى تستقيم العبارة.

(٢) البخاري ٢١٧/٦، ومسلم ١/١٥٠.

(٣) وعلى هامش نسخة الرباط بخط مغربي: أخرج الحاكم في «المستدرک» - وقال الذهبي: إنسانه مظلم لا تقوم به حجة - عن الحسن بن سمره أنه قال: كان نبي الله إدريس أبيض طويلاً، ضخم البطن، عريض الصدر، قليل شعر الجسد، كثير شعر الرأس، وكانت إحدى عينيه أعظم من =

الجنة في السماء الرابعة. والرابع: أنه في السماء السابعة، حكاه أبو سليمان الدمشقي^(١). وفي سبب صعوده إلى السماء ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان يصعد له من العمل مثل ما يصعد لجميع بني آدم؛ فأحبّه ملك الموت، فاستأذن الله في خلّته، فأذن له، فهبط إليه في صورة آدمي، وكان يصحبه، فلما عرفه، قال: إني أسألك حاجة، قال: ما هي؟ قال: تذيقي الموت، فلعلّي أعلم ما شدّته فأكون له أشدّ استعداداً؛ فأوحى الله إليه أن قبض روحه ساعة ثم أرسله، ففعل، ثم قال: كيف رأيته؟ قال: كان أشدّ ومّا بلغني عنه، وإني أحب أن تريني النار، قال: فحمله، فأراه إيّاها؛ قال: إني أحب أن تريني الجنة، فأراه إيّاها، فلما دخلها وطاف فيها، قال له ملك الموت: اخرج، فقال: والله لا أخرج حتى يكون الله تعالى يُخرجني؛ فبعث الله ملكاً فحكم بينهما، فقال: ما تقول يا ملك الموت؟ فقض عليه ما جرى؛ فقال: ما تقول يا إدريس؟ قال: إن الله تعالى قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقد دُفّنته، وقال: ﴿وَلَنْ يَنْكُرَ إِلَّا وَاْرِدَهَا﴾ [مریم: ٧١]، وقد وردتها، وقال لأهل الجنة: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، فو الله لا أخرج حتى يكون الله يُخرجني؛ فسمع هاتفاً من فوقه يقول: بإذني دخل، وبأمري فعل، فخلّ سبيله؛ هذا معني ما رواه زيد بن أسلم مرفوعاً إلى النبي ﷺ^(٢). فإن سأل سائل فقال: من أين لإدريس هذه الآيات، وهي في كتابنا؟ فقد ذكر ابن الأنباري عن بعض العلماء، قال: كان الله تعالى قد أعلم إدريس بما ذكر في القرآن من وجوب الورد؛ وامتناع الخروج من الجنة، وغير ذلك، فقال ما قاله بعلم. والثاني: أن ملكاً من الملائكة استأذن ربه أن يهبط إلى إدريس، فأذن له، فلما عرفه إدريس، قال: هل بينك وبين ملك الموت قرابة؟ قال: ذاك أخي من الملائكة، قال: هل تستطيع أن تنفعني عند ملك الموت؟ قال: سأكلّمه فيك، فيرفق بك، اركب بين جناحي، فركب إدريس، فصعد به إلى السماء، فلقي ملك الموت، فقال: إن لي إليك حاجة، قال: أعلم ما حاجتك، تكلمني في إدريس وقد محي اسمه من الصحيفة ولم يبق من أجله إلا نصف طرفة عين؟! فمات إدريس بين جناحي الملك، رواه عكرمة عن ابن عباس^(٣). وقال أبو صالح عن ابن عباس: فقبض ملك الموت روح إدريس في السماء السادسة. والثالث: أن إدريس مشى يوماً في الشمس، فأصابه وهجها، فقال: اللهم خفّف ثقلها عمنّ يحملها، يعني به الملك الموكّل بالشمس، فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرّها ما لا يعرف، فسأل الله ﷻ عن ذلك، فقال: إن عبيدي إدريس سألني أن أخفّف عنك حملها وحرّها، فأجبته، فقال: يا رب اجمع بيني وبينه، واجعل بيننا خلّة، فأذن له، فكان مما قال له إدريس: اشفع لي إلى ملك الموت ليؤخّر أجلي، فقال: إن الله لا يؤخّر نفساً إذا جاء أجلها، ولكن أكلّمه فيك، فما كان مستطيعاً أن يفعل بأحد من بني آدم فعل بك، ثم حمله الملك على جناحه، فرفعه إلى السماء، فوضعه عند مطلع الشمس، ثم أتى ملك الموت فقال: إن لي إليك حاجة صديق لي من بني آدم تشفّع بي إليك لتؤخّر أجله، قال: ليس ذاك إليّ، ولكن إن أحببت أعلمته متى يموت، فنظر في ديوانه، فقال: إنك كلمتني في إنسان ما أراه يموت أبداً، ولا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس، فقال: إني أتيتك وتركته هناك، قال: انطلق، فما أراك تجده إلا ميتاً، فو الله ما بقي من أجله شيء، فرجع الملك فأراه ميتاً. وهذا المعنى مروى عن ابن عباس وكعب في آخرين^(٤). فهذا القول والذي قبله يدلان على أنه ميت، والقول الأول يدل على أنه حي.

﴿أَنْتَكَ الَّذِي أَنْتَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَيْتِ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبَيْنَا إِنْ أَنْتَ عَلَيْنَا مَائِدٌ الْخَرِجِي خَرُوجًا مُجَدًّا وَكَرِيمًا﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿خَلَقَ مِنْ بَعْدِهِ خَلْقًا آخَرَ أَصَاغُرُ الْأَصْلَرِ وَأَتَّبَعُوا الْأَشْهُوتَ فَسَوَوْا يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿لَا مِنْ تَابٍ

= الأخرى، وكان في صدره نكتة بيضاء من غير برص، فلما رأى الله من أهل الأرض ما رأى من جورهم واعتدائهم في أمر الله، رفعه إلى السماء السادسة [فهو] حيث يقول: ﴿وَيَقَعَنَّ نَكَاةً عَلَيْكَ﴾ ﴿٥٧﴾، فهذا يدل على فرض صحته أنه رفع حياً، والله أعلم أتى ذلك كان. اهـ. والحديث في «المستدرک» ٥٤٩/٢.

(١) والقول الأول هو الصحيح.

(٢) ذكر السيوطي في «الدرر» ٢٧٤/٤ بهذا المعنى خبراً طويلاً، من رواية ابن المنذر عن عمر مولى غفرة يروى الحديث إلى النبي ﷺ، والله أعلم بصحته.

(٣) ذكره السيوطي في «الدرر» ٢٧٤/٤ من رواية ابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٤) قال ابن كثير بعد أن ذكر نحوه: هذا من أخبار كعب من الإسرائيليات، وفي بعضه نكارة، والله أعلم.

وَأَمَّا وَعَمَلٌ مَّالِكًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَسْأَلُونَ شَيْئًا ﴿١٦﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِآلِثَابٍ إِنَّهُمْ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴿١٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ فِيهَا زَوْجُهُمْ ذِيَا بَكْرَةٍ وَعَشِيًّا ﴿١٨﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿١٩﴾ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِآيَاتٍ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئًا ﴿٢٠﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاسْطَعِرْ لِعِذَّتِهِ هَلْ تَمْلِكُ لَهُ شَيْئًا ﴿٢١﴾

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّارِ﴾ يعني الذين ذكرهم من الأنبياء في هذه السورة ﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ يعني إدريس ﴿وَمِنْ حَمَلَتَا نُوْحَ﴾ يعني إبراهيم، لأنه من ولد سام بن نوح ﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يريد: إسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: ومن ذرية إسرائيل، وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ مَّالِكًا﴾ أي: هؤلاء كانوا ممن أُرْسِدْنَا، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: واصطفينا.

قوله تعالى: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ قال الزجاج: ﴿سُجَّدًا﴾ حال مقدرة، المعنى: خَرُّوا مُقَدَّرِينَ السُّجُودَ، لأن الإنسان في حال خروجه لا يكون ساجداً، فـ﴿سُجَّدًا﴾ منصوب على الحال، وهو جمع ساجد ﴿وَرَبُّكَ﴾ معطوف عليه، وهو: جمع بال، فقد بين الله تعالى أن الأنبياء كانوا إذا سمعوا آيات الله سجدوا ويكبروا من خشية الله.

قوله تعالى: ﴿فَنَزَّلْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ حُلُوفًا﴾ قد شرحناه في [الأعراف: ١٦٩]. وفي المراد بهذا الحُلُوف ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: اليهود والنصارى، قاله السدي. والثالث: أنهم من هذه الأمة، يأتون عند ذهاب صالح أمة محمد ﷺ يتبارزون بالزنا، ينزو بعضهم على بعض في الأزقة زناة، قاله مجاهد، وقناة.

قوله تعالى: ﴿أَنبِئُوا أَهْلَ الْبُلْدَةِ﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبو رزين العقيلي، والحسن البصري: «الصلوات» على الجمع. وفي المراد بإباضاعتهم إياها قولان: أحدهما: أنهم أخروها عن وقتها، قاله ابن مسعود، والنخعي، وعمر بن عبد العزيز، والقاسم بن مخيمرة. والثاني: تركوها، قاله القرطبي، واختاره الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا الْفُهُورَ﴾ قال أبو سليمان الدمشقي: وذلك مثل استماع الغناء، وشرب الخمر، والزنا، واللهو، وما شاكل ذلك مما يقطع عن أداء فرائض الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ ليس معنى هذا اللقاء مجرد الرؤية، وإنما المراد به الاجتماع والملازمة مع الرؤية. وفي المراد بهذا الغي ستة أقوال: أحدها: أنه واد في جهنم، رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ^(١)، وبه قال كعب. والثاني: أنه نهر في جهنم، قاله ابن مسعود. والثالث: أنه الخسران، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والرابع: أنه العذاب، قاله مجاهد. والخامس: أنه الشر، قاله ابن زيد، وابن السائب. والسادس: أن المعنى: فسوف يلقون مجازاة الغي، كقوله: ﴿يَلْقَى أَشْأَمًا﴾ [الفرقان: ٦٨] أي: مجازاة الآثام، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾ فيه قولان: أحدهما: تاب من الشرك، وآمن بمحمد ﷺ، قاله مقاتل. والثاني: تاب من التقصير في الصلاة، وآمن من اليهود والنصارى.

قوله تعالى: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ وقرأ أبو رزين العقيلي، والضحاك، وابن يعمر، وابن أبي عبيدة: «جنت» برفع التاء. وقرأ الحسن البصري، والشعمي، وابن السميع: «جنت» على التوحيد مع رفع التاء. وقرأ أبو مجلز، وأبو المتوكل الناجي: «جنت» على التوحيد مع نصب التاء. وقوله: ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِآلِثَابٍ﴾ أي: وعدهم بها، ولم يروها، فهي غائبة عنهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ فيه قولان: أحدهما: آتياً، قال ابن قتيبة: وهو «مفعول» في معنى «فاعل»، وهو قليل أن يأتي الفاعل على لفظ المفعول به. وقال الفراء: إنما لم يقل: آتياً، لأن كل ما أتاك، فأنت تأتبه؛ ألا ترى أنك تقول: أتيت على خمسين سنة، وأتت عليّ خمسون سنة؟ والثاني: مبلوغاً إليه، قاله ابن الأنباري. وقال ابن جريج: «وعده» هاهنا: موعوده، وهو الجنة، و«مَأْتِيًا»: يأتيه أولياؤه.

(١) ذكره السيوطي في «الدر» ٢٧٨/٤ رواية ابن مردويه عن طريق نهشل عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه التخالف عند شرب الخمر، قاله مقاتل. والثاني: ما يلغى من الكلام ويؤتم فيه، قاله الزجاج. وقال ابن الأنباري: اللغو في العربية: الفاسد المقطَّرَح.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا سَكَنًا﴾ قال أبو عبيدة: السلام ليس من اللغو، والعرب تستثني الشيء بعد الشيء وليس منه، وذلك أنها تضم فيه، فالمعنى: إلا أنهم يسمعون فيها سلاماً. وقال ابن الأنباري: استثنى السلام من غير جنسه، وفي ذلك توكيد للمعنى المقصود، لأنهم إذا لم يسمعوا من اللغو إلا السلام، فليس يسمعون لغواً البتة، وكذلك قوله: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ لَّئِيمٌ﴾ [الشعراء: ٧٧]، إذا لم يخرج من عداوتهم لي غير رب العالمين، فكُلُّهم عدو. وفي معنى هذا السلام قولان: أحدهما: أنه تسليم الملائكة عليهم، قاله مقاتل. والثاني: أنهم لا يسمعون إلا ما يسلمهم، ولا يسمعون ما يؤثمهم، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال المفسرون: ليس في الجنة بُكْرَةٌ ولا عَشِيَّةٌ، ولكنَّهُم يُؤْتَوْنَ برزقهم - على مقدار ما كانوا يعرفون - في الغداة والعشي. قال الحسن: كانت العرب لا تعرف شيئاً من العيش أفضل من الغداء والعشاء، فذكر الله لهم ذلك. وقال قتادة: كانت العرب إذا أصاب أحدهم الغداء والعشاء أعجب به، فأخبر الله أن لهم في الجنة رزقهم بكرة وعشيّاً على قدر ذلك الوقت، وليس ثمَّ ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور. وروى الوليد بن مسلم، قال: سألت زهير بن محمد عن قوله تعالى: ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فقال: ليس في الجنة ليل ولا نهار، هم في نور أبداً، ولهم مقدار الليل والنهار، يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحُجُب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ الإشارة إلى قوله: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾

قوله تعالى: ﴿نُورٌ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، والشعبي، وقاتدة، وابن أبي عبله: بفتح الواو وتشديد الراء. قال المفسرون: ومعنى «نور» ناطق: ناطق المساكين التي كانت لأهل النار - لو آمنوا - للمؤمنين. ويجوز أن يكون معنى «نور»: ناطق، فيكون كالمرآة لهم من جهة أنها تملك مستأنف. وقد شرحنا هذا في [الأعراف: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وقرأ ابن السميع، وابن يعمر: «وما يَنْزِلُ» بياء مفتوحة. وفي سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن رسول الله ﷺ قال: «يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا»، فنزلت هذه الآية، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس^(١). والثاني: أن الملك أبطأ على رسول الله ﷺ ثم أتاه، فقال: لعلي أبطأ، قال: «قد فعلت»، قال: وما لي لا أفعل، وأنتم لا تتسوكون، ولا تقصون أظفاركم، ولا تَنْقُون براجمكم، فنزلت الآية، قاله مجاهد. قال ابن الأنباري: البراجم عند العرب: الفصوص التي في فصول ظهور الأصابع، تبدو إذا جُمعت، وتغمض إذا بُسِطت. والرواجب: ما بين البراجم، بين كل برجتين راجبة. والثالث: أن جبريل احتبس عن النبي ﷺ حين سأله [قومه] عن قصة أصحاب الكهف، وذو القرنين، والروح، فلم يدر ما يجيبهم، ورجا أن يأتيه جبريل بجواب، فأبطأ عليه، فشق على رسول الله ﷺ مشقة شديدة، فلما نزل جبريل قال له: «أبطأت عليّ - حتى ساء ظني، واشتقت إليك»، فقال جبريل: إني كنت أشوق، ولكنني عبد مأمور، إذا بعثت نزلت، وإذا حُبِسْتُ احتبسْتُ، فنزلت هذه الآية، قاله عكرمة، وقاتدة، والضحاك^(٢). وفي سبب احتباس جبريل عن رسول الله ﷺ قولان: أحدهما: لامتناع أصحابه من كمال النظافة، كما ذكرنا في حديث مجاهد. والثاني: لأنهم سألوه عن قصة أصحاب الكهف، فقال: «غداً أخبركم»، ولم يقل: إن شاء الله؛ وقد سبق هذا في سورة [الكهف: ٢٤]. وفي مقدار احتباسه عنه خمسة أقوال: أحدها: خمسة عشر يوماً؛ وقد ذكرناه في [الكهف] عن ابن عباس. والثاني: أربعون يوماً، قاله عكرمة، ومقاتل. والثالث: اثنتا عشرة ليلة،

(١) رواه أحمد في «المسنَد» رقم (٢٠٤٣)، والبخاري ٣٢٦/٨، والترمذي ١٤٥/٢، وذكره السيوطي في «الدر» ٢٧٨/٤ وزاد نسبه لمسلم، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس، وعند أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم زيادة في آخر الحديث: «فكان ذلك الجواب لمحمد ﷺ ولم نجد الحديث في «صحيح مسلم» كما قال السيوطي.

(٢) «أسباب النزول» للواحدي ١٧٣، وذكره ابن كثير ١٣٠/٣ مختصراً من رواية ابن أبي حاتم عن عكرمة، وقال: هو غريب.

الذال مخففة مرفوعة الكاف، والمعنى: **أَوَلَا يَتَذَكَّرُ هَذَا الْجَاهِدُ أَوَّلَ خَلْقِهِ**، فيستدل بالابتداء على الإعادة؟ ﴿تَوَرَّكَ لَنَحْضِرَنَّهُمْ﴾ يعني: **المَكْدُبِينَ بِالْبَيْتِ «وَالشَّيْطَانِ»** أي: مع الشياطين، وذلك أن كل كافر يُحْشَرُ مع شيطانه في سلسلة، ﴿ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ قال مقاتل: أي: في جهنم، وذلك أن حول الشيء يجوز أن يكون داخله، تقول: جلس القوم حول البيت: إذا جلسوا داخله مطيئين به. وقيل: يجثون حولها قبل أن يدخلوها. فأما قوله: ﴿جَنَّتَا﴾ فقال الزجاج: هو جمع جاث، مثل قاعد وقعود، وهو منصوب على الحال، والأصل ضم الجيم، وجاء كسرهما إتباعاً لكسرة الثاء. وللمفسرين في معناه خمسة أقوال: أحدها: قعوداً، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: جماعات جماعات، روي عن ابن عباس أيضاً. فعلى هذا هو جمع جثوة^(۱) وهي المجموع من التراب والحجارة. والثالث: جثياً على الركب، قاله الحسن، ومجاهد، والزجاج. والرابع: قياماً، قاله أبو مالك. والخامس: قياماً على ركبهم، قاله السدي، وذلك لضيق المكان بهم.

قوله تعالى: ﴿لَنَنْزِعَنَّ مِنَ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي: لنأخذن من كل فرقة وأمة وأهل دين ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى أَرْحَمِنِي عَيْنًا﴾ أي: أعظمهم له معصية، والمعنى: أنه يُبْدَأُ بتعذيب الأعتى فالأعتى، وبالأكابِر جُزْماً، والرؤوس القادة في الشر. قال الزجاج: وفي رفع «أَيُّهُمْ» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه على الاستثنا، ولم تعمل: «لَنَنْزِعَنَّ» شيئاً، هذا قول يونس. والثاني: أنه على معنى الذي يقال لهم: أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا؟ قاله الخليل، واختاره الزجاج، وقال: التأويل: لننزعن الذي من أجل عتوه يقال: أَيُّ هَؤُلَاءِ أَشَدُّ عَيْنًا؟ وأنشد:

وَلَقَدْ أَبَيْتُ عَنِ الْفِتَاءِ بِمَنْزِلٍ فَأَبَيْتُ لَا حَرَجَ وَلَا مَحْرُومٍ^(۲)

المعنى: أبیت بمنزلة الذي يقال له: لا هو حرج ولا محروم. والثالث: أن «أَيُّهُمْ» مبنية على الضم، لأنها خالفت أخواتها، فالمعنى: أَيُّهُمْ هو أفضل. وبيان خلافها لأخواتها أنك تقول: اضرب أَيُّهُمْ أفضل، ولا يَخْسَنُ: اضرب مَنْ أَفْضَلَ، حتى تقول: مَنْ هو أفضل، ولا يَخْسَنُ: كُلُّ مَا أَطِيبَ، حتى تقول: مَا هو أطيب، ولأخذ ما أفضل، حتى تقول: الذي هو أفضل، فلما خالفت «مَا» و«مَنْ» والذی بُنِيَتْ على الضم، قاله سيويه.

قوله تعالى: ﴿هُمْ أَوْلَىٰ بِمَا صِلَيَّا﴾ يعني: أن الأولى بها صلياً الذين هم أَشَدُّ عَيْنًا، فَيُبْتَدَأُ بهم قبل أتباعهم. و«صلياً»: منصوب على التفسير، يقال: ضلّي النار يصلاها: إذا دخها وقاسى حرّها.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْكَرَ إِلَّا وَرِدُّهَا﴾ في الكلام إضمار تقديره: وما منكم أحد إلا وهو واردها. وفيمن غني بهذا الخطاب قولان: أحدهما: أنه عام في حق المؤمن والكافر، هذا قول الأكثرين. وروي عن ابن عباس أنه قال: هذه الآية للكفار. وأكثر الروايات عنه كالقول الأول. قال ابن الأنباري: ووجه هذا أنه لما قال: «لَنَحْضِرَنَّهُمْ» وقال: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى أَرْحَمِنِي عَيْنًا﴾ كان التقدير: وإن منهم، فأبدلت الكاف من الهاء، كما فعل في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُ جَزَاءً﴾ [الإنسان: ۲۲] المعنى: كان لهم، لأنه مردود على قوله: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الإنسان: ۲۱]، وقال الشاعر:

سَطَّطْتُ مَزَارَ الْعَاشِقِينَ فَأَصْبَحْتُ عَسِيراً عَلَيَّ طَلَابُكُ ابْنَةَ مَخْرَمٍ^(۳)

أراد: طلابها. وفي هذا الورد خمسة أقوال: أحدها: أنه الدخول. روى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الورد: الدخول لا يبقى بَرٌّ ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار - أو قال: لجهنم - ضجيجاً من بردهم»^(۴). وروي عن ابن عباس أنه سأل نافع بن الأزرق عن هذه الآية، فقال:

(۱) مثله الجيم.

(۲) البيت في «القرطبي» ۱۱/۱۳۳، و«روح المعاني» ۱۶/۱۱۰ وروايه فيهما: ولقد أبیت من الفتاة، ولفظه في نسخة الریاط:

ولقد أتیت علی الفتاة بمنزل فأتیت لا حرج ولا محروم

المعنى: أتیت... إلخ.

(۳) البيت تقدم ۳۹۳.

(۴) أخرجه أحمد في «المستند» عن جابر بن عبد الله، قال الحافظ ابن كثير: غريب ولم يخرجوه، وذكر السيوطي في «الدر» ۴/۲۸۰ وزاد نسبه لعبد بن حميد، والحكيم الترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «البت».

له: «أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر أخرجنا الله ﷻ منها، أم لا؟ فاحتج بقوله تعالى: ﴿تَأْوِدُهُمُ الْنَارُ﴾ [هود: ٩٨] ويقولو تعالى: ﴿أَشْتَرَكُ لَهَا وَرُودُكُ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. وكان عبد الله بن رواحة يبكي ويقول: أنبت أني وارد، ولم أنبت أني صادر. وحكى الحسن البصري: أن رجلاً قال لأخيه: يا أخي هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم؛ قال: فهل أتاك أنك خارج منها؟ قال: لا؛ قال: ففيم الضحك؟! وقال خالد بن معدان: إذا دخل أهل الجنة الجنة، قالوا: ألم يعدنا ربنا أن نرد النار؟ فيقال لهم: بلى، ولكن مررتم بها وهي خامدة. وممن ذهب إلى أنه الدخول: الحسن في رواية، وأبو مالك. وقد اعترض على أرباب هذا القول بأشياء. فقال الزجاج: العرب تقول: وردت بلد كذا، ووردت ماء كذا: إذا أشرفوا عليه وإن لم يدخلوا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣]، والحجة القاطعة في هذا القول قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ مَتْنَبٌ مُبْعَدُونَ﴾ (١) لَا يَسْمَعُونَ حَيْسَهَا [الأنبياء: ١٠١، ١٠٢]، وقال زهير:

فَلَمَّا وَرَدَنَ الْمَاءَ زُرْقًا جَمَائُهُ وَضَعْنَ عَصِيَّيَ الْحَاضِرِ الْمُتَخَيَّمِ (٢)

أي: لما بلغن الماء قمن عليه. قلت: وقد أجاب بعضهم عن هذه الحجج، فقال: أما الآية الأولى، فإن موسى لما أقام حتى استقى الماء وسقى الغنم، كان بلبثه ومباشرته كأنه دخل؛ وأما الآية الأخرى: فإنها تضمنت الإخبار عن أهل الجنة حين كونهم فيها، وحينئذ لا يسمعون حسيها. وقد روينا اتفاقاً عن خالد بن معدان أنهم يمشون بها، ولا يعلمون. والثاني: أن الورد: الممر عليها، قاله عبد الله بن مسعود، وقتادة. وقال ابن مسعود: يرد الناس النار، ثم يصعدون عنها بأعمالهم، فأولهم كلمح البرق، ثم كالريح، ثم كحضر الفرس (٣) [ثم كالراكب في رحله]، ثم كشذ الرحل، ثم كمشبه (٤). والثالث: أن ورودها: حضورها، قاله عبيد بن عمير. والرابع: أن ورود المسلمين: المرور على الجسر، وورود المشركين: دخولها. قاله ابن زيد. والخامس: أن ورود المؤمن إليها: ما يصيبه من الحمى في الدنيا، روى عثمان بن الأسود عن مجاهد أنه قال: الحمى حظ كل مؤمن من النار، ثم قرأ: ﴿وَلَنْ يَنكَرُوا إِلَّا وَأَرْدُهَا﴾ فعلى هذا من حُم من المسلمين، فقد ورودها.

قوله تعالى: ﴿كَانَ عَلَى رَيْكُ﴾ يعني: الورد (حَتَّى) والحثم: إيجاب القضاء، والقطع بالامر. والمقضي: الذي قضاه الله تعالى، والمعنى: إنه حتم ذلك وقضاه على الخلق.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَبَيَّنَ الَّذِينَ أَتَقُوا﴾ وقرأ ابن عباس، وأبو مجلز، وابن يعمر، وابن أبي ليلى، وعاصم الجحدري: «ثُمَّ» بفتح الثاء. وقرأ الكسائي، ويعقوب: «تُنْجِي» مخففة. وقرأت عائشة، وأبو بحرية، [وأبو الجوزاء الربيعي]: «ثُمَّ يُنْجِي» بياء مرفوعة قبل النون خفيفة الجيم مكسورة. وقرأ أبي بن كعب، وأبو مجلز، وابن السميع، وأبو رجاء: «نُنْجِي» بحاء غير معجمة مشددة. وهذه الآية يحتج بها القائلون بدخول جميع الخلق، لأن النجاة: تخلص الواقع في الشيء، ويؤكد قوله تعالى: ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا﴾ ولم يقل: ونُدخلهم؛ وإنما يقال: نذر ونترك لمن قد حصل في مكانه. ومن قال: إن الورد للكفار خاصة، قال: معنى هذا الكلام: نخرج المتقين من جملة من يدخل النار. والمراد بالمتقين: الذين اتقوا الشرك، وبالظالمين: الكفار. وقد سبق معنى قوله تعالى: ﴿يُنْجِي﴾ [مريم: ٦٨].

﴿وَإِذَا نَادَى عَلَيْهِمْ أَيْنَنَا يَبْنَوتَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَوْبًا﴾ (٥) وَكَوْهُمُ أَهْلُهَا قَبْلَهُمْ يَنْ قَرْنَهُمْ أَحْسَنُ أُنْتَا وَوَيْيَا (٦)

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَى عَلَيْهِمْ﴾ يعني المشركين ﴿أَيْنَنَا﴾ يعني: القرآن ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ كَفَرُوا﴾ يعني: مشركي قريش ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: لفقراء المؤمنين ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر، وحفص عن عاصم [مقاماً] بفتح الميم وقرأ ابن كثير بضم الميم. قال أبو علي الفارسي: المقام: اسم المثوى، إن فتحت الميم أو ضُمَّت.

قوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ نَوْبًا﴾ والتدني والنادي: مجلس القوم ومجتمعهم. وقال الفراء: الندبي والنادي، لغتان.

(١) «شرح ديوان زهير» ١٣، «القرطبي» ١١/١٣٧، «اللسان» و«التاج»: ورق.

(٢) وقد روي مرفوعاً وموقوفاً.

(٣) أي: كعدو الفرس.

ومعنى الكلام: نحن خير، أم أنتم؟ فافتخروا عليهم بالمساكن والمجالس، فأجابهم الله تعالى فقال: ﴿وَكُذِّبْنَا فَمَنْ يَنْصُرُنَا﴾ وقد بينا معنى القرن في [الإنعام: ٦] وشرحنا الأثاث في [النحل: ٨٠]. فأما قوله تعالى: ﴿وَرِيَّاءٌ﴾ فقرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «ورينا» بهمة بين الراء والياء في وزن: «رعياء»؛ قال الزجاج: ومعناها: منظراً من «رأيت». وقرأ نافع، وابن عامر: «ريئاً» بياء مشددة من غير همز، قال الزجاج: لها تفسيران: أحدهما: أنها بمعنى الأولى. والثاني: أنها من الرِّيِّ، فالمعنى: منظرهم مرتوٍ من النعمة، كأن النعيم بيِّنٌ فيهم. وقرأ ابن عباس، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وابن أبي سريج عن الكسائي: «ريئاً» بالزاي المعجمة مع تشديد الياء من غير همز. قال الزجاج: ومعناها: حسن هيئتهم.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِنَّا الْعَذَابَ رِيشًا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ نَّكَالًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَيْعَتِ الْمَلِيحَتِ حَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ نَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ أي: في الكفر والعمى عن التوحيد ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ قال ابن الزجاجة: وهذا لفظ أمر، ومعناه الخبر، والمعنى: أن الله تعالى جعل جزاء ضلالته أن يتركه فيها. قال ابن الأنباري: خاطب الله العرب بلسانها، وهي تقصد التوكيد للخبر بذكر الأمر، يقول أحدهم: إن زارنا عبد الله فلنُكْرِمَهُ، يقصد التوكيد، وينبئ على أنه أكرم نفسي إكرامه؛ ويجوز أن تكون اللام لام الدعاء على معنى: قل يا محمد: مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَاللَّهُمَّ مَدِّ لَهُ فِي النَّعْمِ مَدًّا^(١). قال المفسرون: ومعنى مَدَّ اللَّهُ تعالى له: إمهاله في العي. ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا﴾ يعني الذين مَدَّهم في الضلالة. وإنما أخبر عن الجماعة، لأن لفظ «مَنْ» يصلح للجماعة. ثم ذكر ما يوعدون فقال: ﴿إِنَّا الْعَذَابَ﴾ يعني: القتل، والأسر ﴿وَالْبَيْعَتِ الْمَلِيحَةِ﴾ يعني: القيامة وما وعدوا فيها من الخلود في النار ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ نَّكَالًا﴾ في الآخرة، أهم، أم المؤمنون؟ لأن مكان هؤلاء الجنة، ومكان هؤلاء النار، ﴿وَيَعْلَمُونَ بِالنَّصْرِ وَالْقِتْلِ مَنْ أَضْعَفُ جُنْدًا﴾ جندهم، أم جند رسول الله ﷺ. وهذا ردٌ عليهم في قولهم: ﴿إِنِّي الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدَبًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: يزيد الله الذين اهتدوا بالتوحيد إيماناً. والثاني: يزيدهم بصيرةً في دينهم. والثالث: يزيدهم بزيادة الوحي إيماناً، فكلما نزلت سورة زاد إيمانهم. والرابع: يزيدهم إيماناً بالناسخ والمنسوخ. والخامس: يزيد الذين اهتدوا بالمنسوخ هدى بالناسخ. قال الزجاج: المعنى: إن الله تعالى يجعل جزاءهم أن يزيدهم يقيناً، كما جعل جزاء الكافر أن يمدّه في ضلالته.

قوله تعالى: ﴿وَالْبَيْعَتِ الْمَلِيحَتِ﴾ قد ذكرناها في سورة [الكهف: ٤٦]. قوله تعالى: ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ المرء هاهنا مصدر مثل الرد، والمعنى: وخير ردّاً للثواب على عاملها، فليست كأعمال الكفار التي خسروها فبطلت.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ﴿٧٧﴾ أَلَمَلْعَ الْغَيْبِ أَوْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ ﴿٧٩﴾ وَنَرْثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ ﴿٨٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: ما روى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث مسروق عن خَبَّابِ [بن الأَرث] قال: كنت رجلاً قَتِينًا [أي: حداداً] وكان لي على العاص بن وائل ذَيْن، فأتيتهُ أُنْقَاضَهُ، فقال: [لا] والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت، ثم بُعِثَ. قال: فإني إذا مِثْتُ ثم بُعِثَ جئتني ولي ثُمَّ مال وولد، فأعطيتك، فنزلت فيه هذه الآية، إلى قوله تعالى: ﴿فَرْدًا﴾^(٢). والثاني: أنها نزلت في الوليد بن المغيرة، وهذا مروى عن الحسن. والمفسرون على الأول.

قوله تعالى: ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وعاصم، وابن عامر: بفتح الواو. وقرأ حمزة، والكسائي: بضم الواو. وقال الفراء: وهما لغتان، كالعُدْم، والعَدَم، وليس يجمع، وقيس تجعل الولد جمعاً،

(١) في النسخة الاستبوية: فالله مَدَّ له في العمر مَدًّا.

(٢) [البخاري: ٣٢٦/٨، ومسلم: ٢١٥٣/٤، ورواه أحمد في «المستدرك» ١١٠/٥، والترمذي: ١٤٥/٢، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

والولد، بفتح الواو، واحداً. وأين زعم هذا الكافر أن يؤتى المال والولد؟ فيه قولان: أحدهما: أنه أراد في الجنة على زعمكم. والثاني: في الدنيا. قال ابن الأنباري: وتقدير الآية: رأيته مصيباً؟

قوله تعالى: ﴿أَمَلَّغَ الْفَيْيَ﴾ قال ابن عباس في رواية: أَعْلِمَ ما غاب عنه حتى يعلم أفي الجنة هو، أم لا؟ وقال في رواية أخرى: أَنْظَرَ في اللوح المحفوظ؟

قوله تعالى: ﴿أَرِ أَهْذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أم قال: لا إله إلا الله، فأرحمه بها؟ قاله ابن عباس. والثاني: أم قَدَّمَ عملاً صالحاً، فهو يرجوه؟ قاله قتادة. والثالث: أم عهد إليه أنه يدخله الجنة؟ قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر على ما قال من أنه يؤتى المال والولد. ويجوز أن يكون معنى «كَلَّا» أي: إنه لم يطلع الغيب، ولم يتخذ عند الله عهداً. ﴿سَكُنْتُ مَا يَقُولُ﴾ أي: سنأمر الحفظة بإثبات قوله عليه لنجازه به، ﴿وَنَسْتَدْلُكُم مِّنَ الْعَذَابِ مَذْأً﴾ أي: نجعل بعض العذاب على إثر بعض. وقرأ أبو العالية الرياحي، وأبو رجاء العطاردي: «سيكتب» ويرثه. بياء مفتوحة.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ مَا يَقُولُ﴾ فيه قولان: أحدهما: نرثه ما يقول أنه له في الجنة، فنجعل له غيره من المسلمين، قاله أبو صالح عن ابن عباس، واختاره الفراء. والثاني: نرث ما عنده من المال، والولد، ياهلاكنا إياه، وإبطال ملكه، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال قتادة. قال الزجاج: المعنى: سنسلبه المال والولد، ونجعل له غيره.

قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِينَا قُرْآنًا﴾ أي: لا مال ولا ولد.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرُوا مِن دُوبِ اللَّهِ إِلَهَةً يَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِادِيهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزِمُهُمْ أَنَّا ﴿٨٢﴾ فَلَا تَعْبَلُ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا تَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرُوا مِن دُوبِ اللَّهِ إِلَهَةً﴾ يعني: المشركين عابدي الأصنام ﴿يَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ قال الفراء: ليكونوا لهم شفعاء في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما قَدَرُوا، ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ يعني الأصنام بجحد عبادة المشركين، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا إِلَهًا يُشْرِكُونَ﴾ [القصر: ٦٣] لأنها كانت جماداً لا تعقل العبادة، ﴿وَيَكُونُونَ﴾ يعني: الأصنام ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعني: المشركين ﴿ضِدًّا﴾ أي: أعواناً عليهم في القيامة، يكذبونهم ويلعنونهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ﴾ قال الزجاج: في معنى هذا الإرسال وجهان: أحدهما: خَلِينَا بين الشياطين وبين الكافرين فلم نعصمهم من القبول منهم. والثاني: وهو المختار: سَلَطْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ، وَتَقَبَّلْنَاهُمْ لَهُمْ بكفرهم. ﴿تَؤْزِمُهُمْ أَنَّا﴾ أي: تزعمهم إزعاجاً حتى يركبوا المعاصي. وقال الفراء: تزعمهم إلى المعاصي، وتغريهم بها. قال ابن فارس: يقال: أَرَّه على كذا: إذا أغراه به، وَأَزَّثَ الْقِدْرُ: غَلَّتْ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْبَلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تعجل بطلب عذابهم. وزعم بعضهم أن هذا منسوخ بآية السيف، وليس بصحيح. ﴿إِنَّمَا تَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ في هذا المعداد ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أنفاسهم، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال طاووس، ومقاتل. والثاني: الأيام، والليالي، والشهور، والسنون، والساعات، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أنها أعمالهم، قاله قطرب.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَفْدًا ﴿٨٤﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ أَفْضَدَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٥﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ﴾ قال بعضهم: هذا متعلق بقوله: «ويكونون عليهم ضداً»، يوم نحشر المتقين» وقال بعضهم: تقديره: اذكر لهم يوم نحشر المتقين، وهم الذين اتَّقُوا الله بطاعته واجتناب معصيته. وقرأ ابن مسعود، وأبو عمران الجوني: «يوم يحشر» بياء مفتوحة ورفع الشين «وَيُسَاقُ» بياء مفتوحة ورفع السين. وقرأ أبي بن كعب، والحسن البصري، ومعاذ القارئ، وأبو المتوكل الناجي: «يوم يُحْشَرُ» بياء مرفوعة وفتح الشين «المتقون» رفعاً «وَيُسَاقُ»

بألف وياء مرفوعة «المجرمون» بالواو على الرفع. والوفد: جمع وافد، مثل: ركب، وراكب، وصخب، وصاحب. قال ابن عباس، وعكرمة، والفراء: الوفد: الركبان. قال ابن الأنباري: الركبان عند العرب: ركب الإبل. وفي زمان هذا الحشر قولان: أحدهما: أنه من قبورهم إلى الرحمن، قاله علي بن أبي طالب. والثاني: أنه بعد الحساب، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ الْمَجْرِمِينَ﴾ يعني: الكافرين ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾ قال ابن عباس، وأبو هريرة، والحسن: عطاشاً. قال أبو عبيدة: الورد: مصدر الورد. وقال ابن قتيبة: الورد: جماعة يردون الماء، يعني: أنهم عطاش، لأنه لا يرد الماء إلا العطشان. وقال ابن الأنباري: معنى قوله: «ورثاً»: واردين.

قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ﴾ أي: لا يشفعون، ولا يُشَفَعُ لهم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال الزجاج: جائز أن يكون «مَن» في موضع رفع على البدل من الواو والنون، فيكون المعنى: لا يملك الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً؛ وجائز أن يكون في موضع نصب على استثناء ليس من الأول، فالمعنى: لا يملك الشفاعة المجرمون، ثم قال: «إلا» على معنى «لكن» ﴿مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ فإنه يملك الشفاعة. والعهد هاهنا: توحيد الله والإيمان به. وقال ابن الأنباري: تفسير العهد في اللغة: تقديم أمر يُعْلَمُ ويُحْفَظُ، من قولك: عهدت فلاناً في المكان، أي: عرفته، وشهدته.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿تَكَادُ السَّمَكُوتُ يَنْفَطِرُنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخِزُّ لَيْلَالٍ هَذَا﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ﴿٩١﴾ ﴿وَمَا يَلْبِغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا كَانِيَ الرَّحْمَنُ عَبْدًا﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿لَقَدْ أَحْضَمُّهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْفِتْنَةِ فَرْدًا﴾ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ يعني: اليهود، والنصارى، ومن زعم من المشركين أن الملائكة بنات الله ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ أي: شيئاً عظيماً من الكفر. قال أبو عبيدة: الإذ، والتكر: الأمر المتناهي العظم.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَكُوتُ يَنْفَطِرُنَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم: «تكاد» بالتاء. وقرأ نافع، والكسائي: «يكاد»، بالياء. وقرأ جميعاً: «ينفطرن» بالياء والتاء مشددة الطاء، وافقهما ابن كثير، وحفص عن عاصم في «ينفطرن»، وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: «ينفطرن» بالنون. وقرأ حمزة، وابن عامر في (مريم) مثل أبي عمرو، وفي [سق: ٥] مثل ابن كثير. ومعنى: «ينفطرن منه»: يقاربن الانشقاق من قولكم. قال ابن قتيبة: وقوله تعالى: ﴿هَذَا﴾ أي: سقوطاً.

قوله تعالى: ﴿أَن دَعَا﴾ قال الفراء: من أن دعا، ولأن دعوا. وقال أبو عبيدة: معناه: أن جعلوا، وليس هو من دعاء الصوت، وأنشد:

أَلَا رَبُّ مَنْ تَدْعُو نَصِيحاً وَإِنْ تَغِيبَ تَجِدُهُ بِغَيْبٍ غَيْرِ مُتَّصِحِ الصَّدْرِ^(١)

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَلْبِغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي: ما يصلح له، ولا يليق به اتخاذ الولد، لأن الولد يقتضي مجانسة، وكل متخذ ولدأ يتخذ من جنسه، والله تعالى منزّه عن أن يجانس شيئاً، أو يجانسه، فمحال في حقه اتخاذ الولد، ﴿إِنْ كُلُّ﴾ أي: ما كل ﴿مَنْ فِي السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا كَانِيَ الرَّحْمَنُ﴾ يوم القيامة ﴿عَبْدًا﴾ ذليلاً خاضعاً. والمعنى: أن عيسى وعزيراً والملائكة عبيد له. قال القاضي أبو يعلى: وفي هذا دلالة على أن الولد إذا اشترى ولده، لم يبق ملكه عليه، وإنما يعتق بنفس الشراء، لأن الله تعالى نفى البُتُوَّةَ لأجل العبودية، فدل على أنه لا يجتمع بُتُوَّةٌ وَرِقٌّ.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَحْضَمُّهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ فلا يخفى عليه مبلغ جميعهم مع كثرتهم ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْفِتْنَةِ فَرْدًا﴾ ﴿٩٥﴾ بلا مال، ولا نصير يمنعه. فإن قيل: لآية علّة وحّد في «الرحمن» و«آتيه» وجمع في العائد في

«أحصاهم»، و«عدّهم». فالجواب: أن لكل لفظ توحيد، وتأويل جمع، فالتوحيد محمول على اللفظ، والجمع مصروف إلى التأويل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۝١٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ لِقَائِكَ إِشْرَارًا بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتَنذِيرًا بِهِ قَوْمًا لَّنَّا ۝١٨ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ يُخَشِ مِنْهُمْ يَوْمَ آتٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۝١٩﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال ابن عباس: نزلت في علي عليه السلام، وقال معناه: يحبهم، ويحببهم إلى المؤمنين. قال قتادة: يجعل لهم وُدًّا في قلوب المؤمنين. ومن هذا حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً قال: يا جبريل، إني أحب فلاناً فأحبوه، فينادي جبريل في السموات: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيلقى حبه على أهل الأرض فيحبُّه، وذكر في البغض مثل ذلك»^(١). وقال هرم بن حيان: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله ﷻ، إلا أقبل الله ﷻ بقلوب أهل الإيمان إليه، حتى يرزقه مودّتهم ورحمتهم.

قوله تعالى: ﴿فَلِنَا يَسَّرْنَاهُ لِقَائِكَ﴾ يعني: القرآن. قال ابن قتيبة: أي، سهّلناه، وأنزلناه بلغتك. واللدُّ، جمع ألد، وهو الخَصْمُ الجَدِيل.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ هذا تخويف لكفار مكة ﴿هَلْ يُخَشِ مِنْهُمْ يَوْمَ آتٍ﴾ قال الزجاج: أي: هل ترى، يقال: هل أحسست صاحبك، أي: هل رأيته؟ والرُّكْز: الصوت الخفي؛ وقال ابن قتيبة: الصوت الذي لا يُفْهَم، وقال أبو صالح: حركة، [والله تعالى أعلم].



(١) البخاري ٢٢٠/٦ و ٣٨٦/١٠، وليس فيه ذكر البغض مثل ذلك، ورواه «مسلم» ٢٠٣٠/٤، ولفظه عنده بتمامه: «إن الله إذا أحب عبداً، دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً، فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض الله عبداً، دعا جبريل، فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض».

سورة طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه﴾ ١ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ٢ إِلَّا نَذِيرٌ لِّمَن يَخْشَى ٣ تَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ ٤ الرَّحْمَنُ عَلَ الْفَرْشِ ٥ أَسْتَوَى ٦ لَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ٧ وَإِن يُجْهَرُ بِأَقْوَلٍ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ٨ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ٩﴾

وهي مكية كلها بإجماعهم. وفي سبب نزول (طه) ثلاثة أقوال. أحدها: أن رسول الله ﷺ كان يراوح بين قدميه، يقوم على رجل، حتى نزلت هذه الآية، قاله [علي] عليه السلام^(١). والثاني: أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه القرآن صلى هو وأصحابه فأطال القيام، فقالت قريش: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك^(٢). والثالث: أن أبا جهل، والنضر بن الحارث، والمطعم بن عدي، قالوا لرسول الله ﷺ: إنك لتشقى بترك ديننا، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل^(٣). وفي «طه» قراءات. قرأ ابن كثير، وابن عامر: «طه» بفتح الطاء والهاء. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: بكسر الطاء والهاء. وقرأ نافع: «طه» بين الفتح والكسر، وهو إلى الفتح أقرب؛ كذلك قال خلف عن المسيبي. وقرأ أبو عمرو: بفتح الطاء وكسر الهاء، وروى عنه عباس مثل حمزة. وقرأ ابن مسعود، وأبو رزين العقيلي، وسعيد بن المسيب، وأبو العالية: بكسر الطاء وفتح الهاء. وقرأ الحسن: «طه» بفتح الطاء وسكون الهاء. وقرأ الضحاك، ومورق: «طه» بكسر الطاء وسكون الهاء. واختلفوا في معناها على أربعة أقوال: أحدها: أن معناها: يا رجل، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة؛ واختلف هؤلاء بأي لغة هي، على أربعة أقوال: أحدها: بالنبطية، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير في رواية، والضحاك. والثاني: بلسان عك، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: بالسريانية، قاله عكرمة في رواية، وسعيد بن جبير في رواية، وقتادة. والرابع: بالحبشية، قاله عكرمة في رواية. قال ابن الأنباري: ولغة قريش وافقت هذه اللغة في المعنى. والثاني: أنها حروف من أسماء. ثم فيها قولان: أحدهما: أنها من أسماء الله تعالى. ثم فيها قولان: أحدهما: أن الطاء من اللطيف، والهاء من الهادي، قاله ابن مسعود، وأبو العالية، والثاني: أن الطاء افتتاح اسمه «طاهر» و«طيب» والهاء افتتاح اسمه «هادي» قاله سعيد بن جبير. والقول الثاني: أنها من غير أسماء الله تعالى. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن الطاء من طابة، وهي مدينة رسول الله ﷺ، والهاء من مكة، حكاه أبو سليمان الدمشقي. والثاني: أن الطاء: طرب أهل الجنة، والهاء: هوان أهل النار. والثالث: أن الطاء في حساب الجمل تسعة، والهاء خمسة، فتكون أربعة عشر. فالمعنى: يا أيها البدر ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، حكى القولين الثعلبي. والثالث: أنه قَسَمَ أقسم الله به، وهو من أسمائه، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وقد شرحنا معنى كونه اسماً في فاتحة (مريم). وقال القرطبي: أقسم الله بظوله وهدايته؛ وهذا القول قريب المعنى من الذي قبله. والرابع: أن معناه: طأ الأرض بقدميك، قاله مقاتل بن حيان^(٤). ومعنى قوله «لِتَشْقَى»: لتعب وتبلغ من الجهد ما قد بلغت، وذلك أنه اجتهد في العبادة وبالغ، حتى إنه كان يراوح بين قدميه لطول القيام، فأمر بالتخفيف.

(١) ذكره السيوطي في «الدر» ٢٨٨/٤ من رواية البزار عن علي عليه السلام.

(٢) «أسباب النزول» للواحدي ١٧٤، وذكره السيوطي في «الدر» ٢٨٩/٤ من رواية أبي حاتم عن الضحاك.

(٣) «أسباب النزول» للواحدي ١٧٤.

(٤) قال أبو جعفر بن جرير الطبري: والذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه، قول من قال: معناه: يا رجل، لأنها كلمة معروفة في عك فيما بلغني، وأن معناها فيهم: يا رجل.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا نَنْصُرَهُ﴾ قال الأخفش: هو بدل من قوله: «لننشق»، ما أنزلناه إلا تذكرة، أي: عظة.
قوله تعالى: ﴿تَزِيلًا﴾ قال الزجاج: المعنى: أنزلناه تنزيلاً، و«أَفَلَى» جمع العُلَيَا، تقول: سماء عُلَيَا، وسموات عُلَى، مثل الكُبَرَى، والكُبَر. فأما «الثرى» فهو التراب الندي، والمفسرون يقولون: أراد الثرى الذي تحت الأرض السابعة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِأَقْوَابِهِ﴾ أي: ترفع صوتك ﴿فَإِنَّهُمْ يَكْمُونَ أَلَيْسَ﴾ والمعنى: لا تجهد نفسك برفع الصوت، فإن الله يعلم السر. وفي المراد بـ«السُر» وأخفى، خمسة أقوال: أحدها: أن السر: ما أسرّه الإنسان في نفسه، وأخفى: ما لم يكن يَغْدُو وسيكون، رواه جماعة عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. والثاني: أن السر: ما حدثت به نفسك، وأخفى: ما لم تلتف به، قاله سعيد بن جبيرة. والثالث: أن السر: العمل الذي يُسِرُّه الإنسان من الناس، وأخفى منه: الوسوسة، قاله مجاهد. والرابع: أن معنى الكلام: يعلم إسرار عباده، وقد أخفى سرّه عنهم فلا يُعْلَم، قاله زيد بن أسلم، وابنه. والخامس: يعلم ما أسرّه الإنسان إلى غيره، وما أخفاه في نفسه، قاله الفراء.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ إِذْ رَاكَ تَارِكًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّهِيَ مَا يَكُرُّهَا يَتَّبِعُونَ أَجْدًا عَلَى النَّارِ هُكًى ۖ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْشُوقُ ۖ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَانْخَلْعْ ثَغْلِيكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۖ وَأَنَا أَخَذْتُكَ بِأَسْتَنْجِ لِمَا يُؤْتَى ۖ إِنِّي أَنَا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِلذِّكْرِ ۖ إِنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِشَجَرَةٍ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ۖ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ﴾ هذا استفهام تقرير، ومعناه: قد أتاك. قال ابن الأنباري: وهذا معروف عند اللغويين أن تأتي «هل» معبرة عن «قد»، فقد قال رسول الله ﷺ وهو أفصح العرب: «اللهم هل بلغت؟»^(١)، يريد: قد بلغت. قال وهب بن منبه: استأذن موسى شعبياً ﷺ في الرجوع إلى والدته، فأذن له، فخرج بأهله، فؤلد له في الطريق في ليلة شتية، ففدح فلم يُور الزناد، فبينما هو في مزاوله ذلك، أبصر ناراً من بعيد عن يسار الطريق؛ وقد ذكرنا هذا الحديث بطوله في كتاب «الحدائق» فكرهنا إطالة التفسير بالقصص، لأن غرضنا الاختصار على التفسير ليسهل حفظه^(٢). قال المفسرون: رأى نوراً، ولكن أخبر بما كان في ظن موسى. ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ﴾ يعني: امرأته ﴿امْكُثُوا﴾ أي: أقيموا مكانكم. وقرأ حمزة: «لِأَهْلِهِ امْكُثُوا» بضم الهاء هاهنا وفي «القصص: ٢٩». ﴿إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا﴾ قال الفراء: إني وجدت، يقال: هل آنستُ أحداً، أي: وجدت؟ وقال ابن قتيبة: «آنستُ» بمعنى أبصرت. فأما القَبَس، فقال الزجاج: هو ما أخذته من النار في رأس عود أو في رأس فتيلة.

قوله تعالى: ﴿وَأَجِدُ عَلَى النَّارِ هُكًى﴾ قال الفراء: أراد: هادياً، فذكره بلفظ المصدر. قال ابن الأنباري: يجوز أن تكون: «على» هاهنا بمعنى «عند»، وبمعنى «مع»، وذكر أهل التفسير أنه كان قد ضلَّ الطريق، فعلم أن النار لا تخلو من موقد. وحكى الزجاج: أنه ضل عن الماء، فرجا أن يجد من يهديه الطريق أو يدلّه على الماء.
قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ يعني: النار ﴿يَمْشُوقُ ۖ﴾ إني أَنَا رَبُّكَ ﴿إِنَّمَا كَرَّرَ الْكُنْيَا، لتوكيد الدلالة وتحقيق المعركة وإزالة الشبهة، ومثله ﴿وَبَرَأْنَا الْكَذِبَ الْأَمِيثَ﴾ [الحجر: ٨٩]. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: «أَنِّي» بفتح الألف والياء. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «إِنِّي» بكسر الألف، إلا أن نافعاً فتح الياء. قال الزجاج: من قرأ: «أَنِّي أنا» بالفتح، فالمعنى: نودي «بأنِّي أنا ربك»، ومن قرأ بالكسر، فالمعنى: نودي «يا موسى، فقال الله: إِنِّي أنا ربك».

(١) روى البخاري في «صحيحه» ٤٥٨/٣ عن ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال: «يا أيها الناس أي يوم هذا؟» قالوا: يوم حرام، قال: «فأي بلد هذا؟» قالوا: بلد حرام، قال: «فأي شهر هذا؟» قالوا: شهر حرام. قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، فأعادها مراراً، ثم رفع رأسه فقال: «اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت»، قال ابن عباس ؓ: فوالذي نفسي بيده، إنها لو صيته إلى أمته، «فليبلغ الشاهد الغائب لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»، ورواه أحمد في «المسند» ومسلم بلفظ آخر.

(٢) ذكره بطوله السيوطي في «الدرر» ٢٩٠/٤ من رواية أحمد في «الزهدة»، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن وهب بن منبه.

قوله تعالى: ﴿تَاخُطَّ نَمَلُكَ﴾ في سبب أمره بخلعهما قولان: أحدهما: أنهما كانا من جلدٍ حمائرٍ ميت، رواه ابن مسعود عن رسول الله ﷺ^(١)، وبه قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وعكرمة. والثاني: أنهما كان من جلد بقرة ذُكِيَتْ، ولكنه أمر بخلعهما لياشتر تراب الأرض المقدسة، فتناله بركتها، قاله الحسن، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، وقتادة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِالْأَوَّلِ الْمُقَدِّسِ﴾ فيه قولان قد ذكرناهما في [المائدة: ٢١] عند قوله: ﴿الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ﴾ قوله تعالى: ﴿طَوًى﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «طوى وأنا» غير مُجْرَأة^(٢). وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «طوى» مُجْرَأة^(٣)؛ وكلُّهم ضم الطاء. وقرأ الحسن، وأبو حية: «طوى» بكسر الطاء مع التنوين. وقرأ علي بن نصر عن أبي عمرو: «طوى» بكسر الطاء من غير تنوين. قال الزجاج: في «طوى» أربعة أوجه: طوى، بضم أوله من غير تنوين وبتنوين. فمن نونه، فهو اسم للوادي. وهو مذكّر سمي بمذكّر على فعلٍ نحو حُطِمَ وضُرِدَ، ومن لم ينوّه ترك صرفه من جهتين: إحداهما: أن يكون معدولاً عن طوى، فيصير مثل «عَمَرَ» المعدول عن عامر، فلا ينصرف كما لا ينصرف «عَمَرَ». والجهة الثانية: أن يكون اسماً للبقعة، كقوله: ﴿فِي الْبَقْعَةِ الْبَرْكَاتِ﴾ [القصص: ٣٠]، وإذا كُبر ونُوّن فهو مثل يعي. والمعنى: المقدّس مرّة بعد مرّة، كما قال عدي بن زيد:

أَعَاذِلْ، إِنْ اللَّوْمُ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ
عَلَيَّ طَوًى مِنْ غَيِّكِ الْمُسْتَرْدِّدِ^(٤)

أي: اللوم المكرّر عليّ؛ ومن لم ينوّن جعله اسماً للبقعة. [وللّفسرين في معنى «طوى» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اسم الوادي، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أن معنى «طوى»: طيّ الوادي، رواه عكرمة عن ابن عباس، وعن مجاهد كالقولين. والثالث: أنه قدّس مرتين، قاله الحسن، وقتادة].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا اخْرَجْتُكَ﴾ أي: اصطفيْتُكَ. وقرأ حمزة، والمفضل: «وَأَنَا» بالنون المشددة «اخترناك» بالفتح. ﴿فَأَنْتَنِي لَنَا يُرَى﴾ أي: للذي يوحى. قال ابن الأنباري: الاستماع هاهنا محمول على الإنصات، المعنى: فأُنصِتَ لوحيي، والوحي هاهنا قوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ أي: وحُدني، ﴿وَأَوَّلَ السَّكْوَةِ لِإِكْرِي﴾ فيه قولان: أحدهما: أقم الصلاة متى ذكرت أن عليك صلاة، سواء كنت في وقتها أو لم تكن، هذا قول الأكثرين. وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها، لا كفار لها غير ذلك، وقرأ: ﴿وَأَوَّلَ السَّكْوَةِ لِإِكْرِي﴾»^(٥). والثاني: أقم الصلاة لتذكّرني فيها، قاله مجاهد. وقيل: إن الكلام مردود على قوله: ﴿فَأَنْتَنِي﴾، فيكون المعنى: فاستمع لما يوحى، واستمع للإكاري. وقرأ ابن مسعود: وأبي بن كعب، وابن السميع: «وأقم الصلاة للتذكّر» بلامين وتشديد الدال.

قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أَثْنِيهَا﴾ أكثر القراء على ضم الألف. ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أكاد أخفيها من نفسي، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد في آخرين. وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، ومحمد بن علي: أكاد أخفيها من نفسي، قال القراء: المعنى: فكيف أظهركم عليها؟ قال المبرّد: وهذا على عادة العرب، فإنهم يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء: كتمته حتى من نفسي، أي: لم أطلع عليه أحداً. والثاني: أن الكلام تم عند قوله: «أَكَادُ»، وبعده مضمّر تقديره: أكاد أتّي بها، والابتداء: أخفيها، قال ضابط البرجمي:

هَمَمْتُ وَكَمْ أَفْعَلُ وَكِدْتُ وَلَيْسَنِي
تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِي حَلَالِيْلُهُ^(٦)

أراد: كدْتُ أفعِل. والثالث: أن معنى «أَكَادُ»: أريد، قال الشاعر:

(١) أخرجه الترمذي ٢٠٦/١ وقال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث حميد الأعرج، وحيد هو ابن علي الأعرج الكوفي، منكر الحديث، وذكره الطبري ١٤٤/١٦ وقال: في إسناده نظر يجب التثبت فيه.

(٢) أي: غير مصروفة.

(٣) أي: مصروفة.

(٤) «الطبري» ١٤٥/١٦، و«مجاز القرآن» ١٦/٢، و«اللسان: طوى، و«التاج»: نثر.

(٥) رواه البخاري في كتاب «مواقيت الصلاة»، باب من نسي صلاة فليصل، ورواه مسلم ٤٧٧/١، وأبو داود رقم (٤٤٢).

(٦) «الطبري» ١٥٢/١٦، و«القرطبي» ١٨٣/١١، و«البحر» ٢٣٣/٦.

كَادَتْ وَكَذَتْ وَتِلْكَ خَيْرُ إِزَادَةٍ لُزْعَادَ مِنْ لَهْرِ الصُّبَابَةِ مَا مَضَى^(١)
معناه: أرادت وأردت، ذكرهما ابن الأنباري. فإن قيل: فما فائدة هذا الإخفاء الشديد؟ فالجواب: أنه للتحذير والتخويف، ومن لم يعلم متى يهجم عليه عدوه كان أشد حذراً. وقرأ سعيد بن جبير، وعروة بن الزبير، وأبو رجاء العطاردي، وحמיד بن قيس: «أخفيها» بفتح الألف. قال الزجاج: ومعناه: أكاد أظهرها، قال امرؤ القيس:

فَإِنْ تَدْفِنُوا الدَّاءَ لَا تَخْفِهِ
وَإِنْ تَبْعَثُوا الْحَرْبَ لَا تَقْعُدِ^(٢)
أي: إن تدفنوا الداء لا تُظهره. قال: وهذه القراءة أُبَيِّنُ في المعنى، لأن معنى: «أكاد أظهرها»: قد أخفيتها وكدت أظهرها. «لَتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَتْ» أي: بما تعمل. «وَلَتَجْزَى» متعلق بقوله: «إِنْ السَّاعَةُ آتِيَةٌ لَتَجْزَى»، ويجوز أن يكون على «أقم الصلاة للذكرى» لتجزي.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا﴾ أي: عن الإيمان بها ﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ أي: من لا يؤمن بكونها؛ والخطاب للنبي ﷺ خطاب لجميع أُمَّته، ﴿وَأَتَّبِعْ هَوَاَّ﴾ أي: مُرادَه وخالف أمر الله ﷻ، ﴿فَتَهْلِكْ﴾ أي: فتهلك؛ قال الزجاج: يقال: رَدِي يَزْدِي: إذا هلك.

﴿وَمَا تِلْكَ يَبِيمِينِكَ يَتُومُنُ﴾^(٣) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَوْتَكُفُّا عَلَيْهَا وَأَفْشُ بِهَا عَلَيَّ غَنِيَّ وَلِي فِيهَا مَنَاقِبُ أُخْرِقُ^(٤) قَالَ أَلَيْسَ يَتُومُنُ^(٥) قَالَتْهَا فَلَمَّا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعُ^(٦) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَهْتَفْ سَنُيَبِّدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى^(٧) وَأَنْشُمُ يَدَكَ إِنْ جَنَلِكَ فَخَرَجَ يَبِيسَةً مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ آتٍ أُخْرِقُ^(٨) لِيُؤْتِكَ مِنْ مَائِنَا الْكَبْرَى^(٩)

قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَبِيمِينِكَ﴾ قال الزجاج: «تلك» اسم مبهم يجري مجرى «التي»، والمعنى: ما التي يبيمينك؟

قوله تعالى: ﴿أَوْتَكُفُّا عَلَيْهَا﴾ التوكُّفُ: التحامل على الشيء ﴿وَأَفْشُ بِهَا﴾ قال الفراء: أضرب بها الشجر اليابس ليسقط ورقه فترعاه غنمي: قال الزجاج: واشتقاقه من أتى أحيل الشيء إلى الهشاشة والإمكان. والمآرب: الحاجات، واحدها: مأربة، ومأربة. وروى قتبية، وورش: «مآرب» بإمالة الهمزة. فإن قيل: ما الفائدة في سؤال الله تعالى له: «وما تلك يبيمينك» وهو يعلم؟ فعنه جوابان: أحدهما: أن لفظه لفظ الاستفهام، ومجره مجرى السؤال، ليجيب المخاطب بالإقرار به، فنثبت عليه الحجة باعترافه فلا يمكنه الجحد، ومثله في الكلام أن تقول لمن تخاطبه وعندك ماء: ما هذا؟ فيقول: ماء، فتضع عليه شيئاً من الصبغ، فإن قال: لم يزل هكذا، قلت له: ألسنت قد اعترفت بأنه ماء؟ فنبت عليه الحجة، هذا قول الزجاج. فعلى هذا تكون الفائدة أنه قرَّر موسى أنها عصا لما أراد أن يريه من قدرته في انقلابها حيَّة، فوقع المُعْجِزُ بها بعد التثبيت في أمرها. والثاني: أنه لما أطلع الله تعالى على ما في قلب موسى من الهيبة والإجلال حين التكليم، أراد أن يؤانسه ويخفف عنه يُقَلِّ ما كان فيه من الخوف، فأجرى هذا الكلام للاستئناس، حكاة أبو سليمان الدمشقي. فإن قيل: قد كان يكفي في الجواب أن يقول: «هي عصاي»، فما الفائدة في قوله: «أتوكُّفُّا عليها» إلى آخر الكلام، وإنما يُشرح هذا لمن لا يعلم فوائدها؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه أجاب بقوله: «هي عصاي»، فقيل له: ما تصنع بها؟ فذكر باقي الكلام جواباً عن سؤال ثانٍ، قاله ابن عباس، وهب. والثاني: أنه إنما أظهر فوائدها، وبَيَّن حاجته إليها، خوفاً [من] أن يأمره بإلقائها كالنعلين، قاله سعيد بن جبير. والثالث: أنه بيَّن منافعها لئلا يكون عابثاً بحملها، قاله الماوردي. فإن قيل: فلم اقتصر على ذكر بعض منافعها ولم يُطْلِ الشرح؟ فعنه [ثلاثة] أجوبة: أحدها: أنه كره أن يشتغل عن كلام الله بتعداد منافعها. والثاني: استغنى بعلم الله فيها عن كثرة التعداد. والثالث: أنه اقتصر على اللازم دون العارض. وقيل: كانت تضيء له بالليل، وتدفع عنه الهوام، وتثمر له إذا اشتهى الثمار^(٣). وفي جنسها

(١) البيت غير منسوب في «الطبري» ١٦/١٥١، و«القرطبي» ١١/١٨٤، و«اللسان» و«التاج»: كود.

(٢) البيت لامرؤ القيس، «ديوانه» ١٨٦، و«الطبري» ١٦/١٥٠، و«مجاز القرآن» ٢/١٧، و«القرطبي» ١١/١٨٢، و«اللسان» و«التاج»: خفا. وقوله: لا نُخْفِيهِ، بفتح النون: أي: لا نُظْهِرُهُ، وكذا قرئ قوله تعالى: «أَكَادُ لُنْفِيهَا» أي: أظهرها.

(٣) قال ابن كثير في «تفسيره» ٣/١٤٥: وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهمت، فقيل كانت تضيء بالليل، وتحرم له الغنم إذا نام، =

قولان: أحدهما: أنها كانت من آس الجنة. قاله ابن عباس. والثاني: [أنها] كانت من عوسج. فإن قيل: المآرب جمع، فكيف قال: «أخرى» ولم يقل: «أخر»؟ فالجواب: أن المآرب في معنى جماعة، فكأنه قال: جماعة من الحاجات أخرى، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَاهَا يَتَمَوَّصُونَ﴾ قال المفسرون: ألقاها، ظناً منه أنه قد أمر برفضها، فسمع حساً فالتفت فإذا هي كاعظم ثعبان تمر بالصخرة العظيمة فتبتلعها، فهرب منها. وفي وجه الفائدة في إظهار هذه الآية ليلة المخاطبة قولان: أحدهما: لثلا يخاف منها إذا ألقاها بين يدي فرعون. والثاني: ليريه أن الذي أبعثك إليه دون ما أريتك، فكما ذللت لك الأعظم وهو الحية، أدلل لك الأدنى. ثم إن الله تعالى أمره بأخذها وهي على حالها حيّة، فوضع يده عليها فعادت عصاً، فذلك قوله: ﴿سَنُيَسِّدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ قال الفراء: طريقته، يقول: تردّها عصى كما كانت. قال الزجاج: و«سيرتها» منصوبة على إسقاط الخافض وإفضاء الفعل إليها، المعنى: سنعيدها إلى سيرتها. فإن قيل: إنما كانت العصا واحدة، وكان إلقاؤها مرة، فما وجه اختلاف الأخبار عنها، فإنه يقول في [الأعراف: ١٠٧]: ﴿فَإِذَا هِيَ تُعْبَأُ مُبِينٌ﴾، وهانئ: «حية»، وفي مكان آخر: ﴿كَأَنَّهُ جَاءَ﴾ [النمل: ٢٠]، والجآن ليست بالعظيمة، والثعبان أعظم الحيات؟ فالجواب: أن صفتها بالجان عبارة عن ابتداء حالها، وبالثعبان إخبار عن انتهاء حالها، والحية اسم يقع على الصغير والكبير والذكر والأنثى. وقال الزجاج: خَلَقَهَا خَلَقَ الثَّعْبَانِ الْعَظِيمِ، واهتزازها وحركتها وخِفَّتُهَا كاهتزاز الجآن وخِفَّتُهُ. قوله تعالى: ﴿وَأَضْمَمْنَا يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ قال الفراء: الجناح من أسفل العَضُدِ إلى الإبط. وقال أبو عبيدة: الجناح ناحية الجنب، وأنشد:

أَضْمَمْتُ لِّلصَّادِرِ وَالْجَنَاحِ^(١)

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ بَيْضَاءُ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ﴾ أي: من غير برص. «آيَةُ أُخْرَى» أي: دلالة على صدق سوى العصا. قال الزجاج: ونصب «آية» على معنى: آيتنا آية، أو نوتيك [آية].

قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. إن قيل: لم يقل: «لَمِنَ» فمعناه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه كقولهم: «مَنَارِبُ أُخْرَى» وقد شرحناه، هذا قول الفراء. والثاني: أن فيه إضمار تقديره: لنريك من آياتنا الآية الكبرى. وقال أبو عبيدة: فيه تقديم وتأخير، تقديره: لنريك الكبرى من آياتنا. والثالث: إنما كان ذلك لوفاق رأس الآي، حكى القولين الثعلبي.

﴿أَنفَبَ إِنْ فِرْعَوْنَ إِذْ هُوَ طَافٌ﴾ قَالَ رَبِّي أَنفَجَ لِي صَدْرِي ﴿وَيَبْرَحَ لِيَ أَنزِي﴾ وَأَحْلَلْ عُقْدَةً بَيْنَ لِسَانِي ﴿يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿هَرُونَ أَخِي﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿وَأَشْرَكَ فِي أَنزِي﴾ كَيْ سَجَعَكَ كَيْبَرًا ﴿وَنَذَرُكَ كَيْبَرًا﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ طَافٌ﴾ أي: جاوز الحد في العصيان.

قوله تعالى: ﴿أَنفَجَ لِي صَدْرِي﴾ قال المفسرون: ضاق موسى صدرًا بما كُلف من مقاومة فرعون وجنوده، فسأل الله تعالى أن يوسع قلبه للحق حتى لا يخاف فرعون وجنوده. ومعنى قوله: ﴿وَيَبْرَحَ لِيَ أَنزِي﴾: ﴿سَهَّلْ عَلَيَّ مَا بَعَثَنِي لَهُ﴾. ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً بَيْنَ لِسَانِي﴾ قال ابن قتيبة: كانت فيه رُتَّةٌ^(٢). قال المفسرون: كان فرعون قد وضع موسى في حجره وهو صغير، فجر^(٣) لحية فرعون بيده، فهم بقتله، فقالت له آسية: إنه لا يعقل، وسأريك بيان ذلك، قدّم إليه جمرتين ولؤلؤتين، فإن اجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل، فأخذ موسى جمرة فوضعها في فيه فأحرقت لسانه وصار فيه عقدة،

= وخرسها فتصير شجرة تنقله، وغير ذلك من الأمور الخارقة للمادة، والظاهر أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى ﷺ صيورتها ثعباناً، فما كان يفر منها هارباً، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية، وكذلك قول بعضهم: إنها كانت لأدم ﷺ، وقول الآخر: إنها هي الدابة التي تخرج قبل يوم القيامة.

(١) الرجز غير منسوب في: «الطبري» ١٥٧/١٦، و«مجاز القرآن» ١٨/٢، و«القرطبي» ١٩١/١١.

(٢) الرُتَّةُ، بالضم: عجلة في الكلام، وقلة آناة، وقيل: هو أن يقلب اللام ياء.

(٣) في الأصل: فمد، وسأني بعد قليل «جرا».

فسأل حَلَّها ليفهموا كلامه^(١). وأما الوزير، فقال ابن قتيبة: أصل الوِزارة من الوِزْر وهو الجُمْل، كأن الوزير قد حمل عن السلطان الثُّقل. وقال الزجاج: اشتقاقه من الوِزْر، والوَزْر: الجبل الذي يُعْتَصَم به لِيُنْجى من الهلكة، وكذلك وزير الخليفة، معناه: الذي يعتمد عليه في أموره ويلتجئ إلى رأيه. ونصب «هارون» من جهتين: إحداهما: أن تكون «اجعل» تتعدى إلى مفعولين، فيكون المعنى: اجعل هارون أخي وزيري، فينتصب «وزيراً» على أنه مفعول ثانٍ. ويجوز أن يكون «هارون» بدلاً من قوله: «وزيراً»، فيكون المعنى: اجعل لي وزيراً من أهلي، [ثم] أبدل هارون من وزير؛ والأول أجود. قال الماوردي: وإنما سأل الله تعالى أن يجعل له وزيراً، لأنه لم يُرد أن يكون مقصوراً على الوزارة حتى يكون شريكاً في النبوة، ولولا ذلك لجاز أن يستوزر من غير مسألة. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بفتح ياء «أخي».

قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ بِهِ آتَرَى﴾ قال الفراء: هذا دعاء من موسى، والمعنى: أشد به يا ربّ أزي، وأشركه يا ربّ في أمري. وقرأ ابن عامر: «أشدد» بالالف مقطوعة مفتوحة، «وأشركه» بضم الالف، وكذلك يبتدئ بالالفين. قال أبو علي: هذه القراءة على الجواب والمجازاة، والوجه الدعاء دون الإخبار، لأن ما قِيلَ دعاء، ولأن الإشراف في النبوة لا يكون إلا من الله ﷻ. قال ابن قتيبة: والأزّر: الظهر، يقال: آزرت فلاناً على الأمر، أي: قوّيته عليه وكنت له فيه ظهراً.

قوله تعالى: ﴿وَأَشْرِكْ فِي آتَرَى﴾ أي: في النبوة معي ﴿كَيْ سَحَكَ﴾ أي: نصلي لك ﴿وَنَذْكُرْكَ﴾ بالسنتنا حامدين لك على ما أوليتنا من نعمك ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَعِيْرًا﴾ أي: عالماً إذ خصصتنا بهذه النعم.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوُئِي﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مَا يُوْحِي﴾ ﴿إِنْ أَتَذْبِهُ فِي الثَّابُوتِ فَأَتَذْبِهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَقْبِ إِلَيْهِ﴾ وَالسَّاحِلُ يُلْغِئُهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَمْ وَالْقَيْثُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِنِّي وَلَوْ نَشَاءُ لَنُفِثَنَّكَ فَنَقُولَ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَلْتَ فَنَسَافَتْنِكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَنَشَقَّ ثَوْبًا فَلَيْتَ سَيِّئِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوُئِي ﴿وَأَمْسَلْنَاهُ لِنَفْسِ﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَكُفْرُكَ يَأْتِيَنِي وَلَا نَبَأَ فِي ذِكْرِي ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ قال ابن قتيبة: أي: طَلَبْتِكَ، وهو: «فعل» من «سألت»، أي: أعطيت ما سألت.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ﴾ أي: أنعمنا عليك ﴿مَرَّةً أُخْرَى﴾ قبل هذه المَرَّة. ثم بين متى كانت بقوله: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوْحِي﴾ أي: ألهمناها ما يلهم مما كان سبباً لنجاتك، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿إِنْ أَتَذْبِهُ فِي الثَّابُوتِ﴾ وقذف الشيء: الرمي به. فإن قيل: ما فائدة قوله: «ما يوحى» وقد علم ذلك؟ فقد ذكر عنه ابن الأنباري جوابين: أحدهما: أن المعنى: أوحينا إليها الشيء الذي يجوز أن يوحى إليها، إذ ليس كل الأمور يصلح وحيه إليها، لأنها ليست بنبي، وذلك أنها ألهمت. والثاني: أن «ما يوحى» أفاد توكيداً، كقوله: ﴿فَنَشَقَّهَا مَا غَنَّ﴾ [النجم: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿يَلْقَاهُ إِلَيْهِ﴾ قال ابن الأنباري: ظاهر هذا الأمر، ومعناه معنى الخبر، تأويله: يلقيه [إليهم]، ويجوز أن يكون البحر مأموراً بالآلة ركبها الله تعالى فيه، فسمع وعقل، كما فعل ذلك بالحجارة والأشجار. فأما الساحل، فهو: شط البحر. ﴿بِأَيْدِي عَدُوٍّ لِي وَعَدُوٍّ لَمْ﴾ يعني: فرعون. قال المفسرون: اتخذت أمه تابوتاً وجعلت فيه قطناً محلوجاً، ووضعت فيه موسى وأحكمت بالقار شقوق التابوت، ثم ألقت في النيل، وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون، فبينما هو جالس على رأس البركة مع امرأته آسية، إذا بالتابوت، فأمر الغلمان والجواري بأخذه، فلما فتحوه رأوا صبياً من أصبح الناس وجهاً؛ فلما رآه فرعون أحبه حباً شديداً، فذلك قوله: ﴿وَالْقَيْثُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِنِّي﴾، [قال أبو عبيدة: ومعنى «القيث عليك» أي: جعلت لك مَحَبَّةً مِنِّي]. قال ابن عباس: أحبه وحببه إلى خلقه، فلا يلقاه أحد إلا أحبه من مؤمن وكافر. وقال قتادة: كانت في عينه ملاحه، فما رآه أحد إلا حبه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَنُفِثَنَّكَ بِسُكُونِ اللَّامِ وَالْعَيْنِ وَالْإِدْغَامِ﴾ قال قتادة: لَنُغْذِي عَلَى

(١) وقد استجاب الله له ذلك في قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوُئِي﴾.

محبتي وإرادتي. قال أبو عبيدة: على ما أريد وأحب. قال ابن الأنباري: هو من قول العرب: عُذِي فلان على عيني، أي: على المحبة مني. وقال غيره: لَثَرَيْ وتغذي بمرأى مني، يقال: صنع الرجل جاريته، إذا ربّاهَا؛ وصنع فرسه: إذا داوم على علفه ومراعاته، والمعنى: ولتُصَنِّعَ على عيني، قدّرنا مشي أختك وقولها: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ لأن هذا كان من أسباب تربيته على ما أراد الله ﷻ. فأما أخته، فقال مقاتل: اسمها مريم. قال الفراء: وإنما اقتصر على ذكر المشي، ولم يذكر أنها مشيت حتى دخلت على آل فرعون فدلّتهم على الظئر^(١)، لأن العرب تجتزئ بحذف كثير من الكلام، وبقليله، إذا كان المعنى معروفاً، ومثله قوله: ﴿أَنَا أَنبِثُكُمْ بِأَوَّلِهِ فَأَرْسِلُون﴾ [يوسف: ٤٥]، ولم يقل: فأرسل حتى دخل على يوسف. قال المفسرون: سبب مشي أخته أن أمه قالت لها: قُصِّيهِ، فأتيت موسى على أثر الماء، فلما التقطه آل فرعون جعل لا يقبل ثدي امرأة، فقالت لهم أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ أي: يُرِضِعُهُ ويضمه إليه، فقيل لها: ومن هي؟ فقالت: أمي، قالوا: وهل لها لبن؟ قالت: لبن أخي هارون، وكان هارون أسنً من موسى بثلاث سنين، فأرسلوها، فجاءت بالأم فقبل ثديها، فذلك قوله: ﴿فَرَجَعْتَنِي إِلَىٰ أُمِّي﴾ أي: رددناك إليها ﴿كَأَنَّمَا نَزَرَتْ عَيْنِي﴾ بك وبرؤيتك. ﴿وَوَلَّيْتُ نَفْسًا﴾ يعني: القبطي الذي وكزه فقصى عليه، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى ﴿فَنَجَّيْتُكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ وكان مغموماً مخافة أن يُقَتَلَ به، فنجاه الله بأن هرب إلى مَدْيَن، ﴿وَوَقَّعْتَ فَرْوَانًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: اختبرناك اختباراً. رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أخلصناك إخلاصاً، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والثالث: ابتليناك ابتلاءً، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة. وقال الفراء: ابتليناك بنم القليل ابتلاءً. وروى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: الفتنون: وقوعه في محنة بعد محنة خلّصه الله منها، أولها أن أمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال، ثم إلقاءه في البحر، ثم منعه الرضاع إلا من ثدي أمه، ثم جرّه لحية فرعون حتى همّ بقتله، ثم تناوله الجمرة بدل الدرة، ثم قتله القبطي، ثم خروجه إلى مَدْيَن خائفاً؛ وكان ابن عباس يقصّ هذه القصص على سعيد بن جبيرة، ويقول له عند كل ثلاثة: وهذا من الفتنون يا ابن جبيرة؛ فعلى هذا يكون «فتنّاك» خلّصناك من تلك المحن كما يُقْتَر الذهب بالنار فيخلص من كل خبث. والفتنون: مصدر.

قوله تعالى: ﴿فَلَيْتَ سِينِينَ﴾ تقدير الكلام: فخرجت إلى أهل مدين. ومدين: بلد شعيب، وكان عي ثمان مراحل من مصر، فهرب إليه موسى. وقيل: مدين: اسم رجل، وقد سبق هذا [الأعراف: ٨٦]. وفي قدر لبشه هناك قولان: أحدهما: عشر سنين؛ قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: ثمان وعشرون سنة، عشر منهن مهر امراته، وثمان عشرة أقام حتى وُلد له، قاله وهب.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْت عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ أي: جئت لميقاتٍ قدّرتُه لمجيئك قبل خَلْقِكَ، وكان ذلك على رأس أربعين سنة، وهو الوقت الذي يوحى فيه إلى الأنبياء، هذا قول الأكثرين. وقال الفراء: «على قَدَرٍ» أي: على ما أراد الله به من تكليمه.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْمٰنَتَكَ لِئَنفٰى﴾ أي: اصطفتيك واختصصتك، والاصطناع: اتخاذ الصنيعة، وهو الخير تسديه إلى إنسان. وقال ابن عباس: اصطفتيك لرسالتي ووحىي ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَلَوْكَ بِتَابِتِي﴾ وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها العصا واليد. وقد يُذكر الاثنان بلفظ الجمع. والثاني: العصا واليد وحلّ العقدة التي ما زال فرعون وقومه يعرفونها، ذكرهما ابن الأنباري. والثالث: الآيات التسع. والأول أصح.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلِيَا﴾ قال ابن قتيبة: لا تَضَعُفا ولا تَفْتُرَا؛ يقال: وَنَى بِنِي في الأمر؛ وفيه لغة أخرى: وَنَى، يونى. وفي المراد بالذكر هاهنا قولان: أحدهما: أنه الرسالة إلى فرعون. والثاني: أنه القيام بالفرائض والتسبيح والتهليل.

﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغٰى﴾ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَا لَمَّا يَذْذُرُ أَوْ يَخْشٰى﴾ ﴿فَالَا رَبَّآ إِنَّا نَحْنَا أَن يَقْرٰى عَيْنًا أَوْ أَن يَطْلٰى﴾ ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعْصٰى أَسْمَعُ رَاكِبٌ﴾ ﴿فَأَيَّاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرٰءِيلَ وَلَا تَعْذِبرِهِمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَآئِرٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدٰى﴾ ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَبَ وَتَوَلٰى﴾

(١) الظئر: الماطقة على ولد غيرها المرضعة له في الناس وغيرهم للذكر والأنثى.

قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ فائدة تكرار الأمر بالذهاب، التوكيد. وقد فسرنا قوله: ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَا﴾ وقرأ أبو عمران الجوني، وعاصم الجحدري: «لئنا» بإسكان الياء، أي: لطيفاً رفيقاً. وللمفسرين فيه خمسة أقوال: أحدها: قولاً له: قل: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، رواه خالد بن معدان عن معاذ، والضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنه قوله: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزَّكَ ۖ وَأَلَدِكَ إِلَّا رَبُّكَ فَتَنَحَّيْ ۖ﴾ [التازعات]، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مقاتل. والثالث: كُتِبَ، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال السدي. فأما اسمه، فقد ذكرناه في [البقرة: ٤٩]. وفي كنيته أربعة أقوال: أحدها: أبو مُرَّة، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: أبو مصعب، ذكره أبو سليمان الدمشقي. والثالث: أبو العباس. والرابع: أبو الوليد، حكاهما الثعلبي. والقول الرابع: قولاً له: إِنْ لَكَ رَبًّا، وَإِنْ لَكَ مَعَادًا، وَإِنْ بَيْنَ يَدَيْكَ جَنَّةٌ وَنَارًا، قاله الحسن. والخامس: أَنْ الْقَوْلَ اللَّيْنُ: أَنْ مُوسَى أَنَاهُ، فقال له: تَوْمَنُ بِمَا جِئْتُ بِهِ وَتَعْبُدُ رَبَّ الْعَالَمِينَ، عَلَى أَنْ لَكَ شَبَابُكَ فَلَا تَهْرَمَ، وَتَكُونَ مَلِكًا لَا يُنْزَعُ مِنْكَ حَتَّى تَمُوتَ، فَإِذَا مِتَّ دَخَلْتَ الْجَنَّةَ، فَأَعْجِبْ ذَلِكَ؛ فَلَمَّا جَاءَ هَامَانَ، أَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ مُوسَى، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَرَى أَنْ لَكَ رَأْيًا، أَنْتَ رَبُّ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ مَرْبُوبًا؟ فَقَبِلَهُ عَنْ رَأْيِهِ، قَالَ السَّيِّدِي. وَحَكِي عَنْ يَحْيَى بْنِ مَعَاذٍ أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ، فَقَالَ: إِلَهِي هَذَا رَفَقَكَ بِمَنْ يَقُولُ: أَنَا إِلَهٌ، فَكَيْفَ رَفَقَكَ بِمَنْ يَقُولُ: أَنْتَ إِلَهٌ.

قوله تعالى: ﴿لَمَّا يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ قال الزجاج: «لَمَّا» في اللغة: تَرَجُّ وطمع، تقول: لَعَلِّي أَصِيرَ إِلَى خَيْرٍ، فخطب الله ﷻ العباد بما يعقلون. والمعنى عند سيويه: اذْهَبَا عَلَى رَجَائِكُمَا وَطَمَعِكُمَا. والعلم من الله تعالى من وراء ما يكون، وقد عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَتَذَكَّرُ وَلَا يَخْشَى، إِلَّا أَنْ الْحُجَّةُ إِنَّمَا تَجِبُ عَلَيْهِ بِالْآيَةِ وَالْبِرْهَانِ، وَإِنَّمَا تُبْعَثُ الرِّسَالُ وَهِيَ لَا تَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا تَدْرِي أَتُقْبَلُ مِنْهَا، أَمْ لَا، وَهَمَّ يَرْجُونَ وَيَطْمَعُونَ أَنْ يُقْبَلَ مِنْهُمْ، وَمَعْنَى «لَعَلَّ» مَتَّصِرٌ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَعَلَى تَصَوُّرِ ذَلِكَ تَقُومُ الْحُجَّةُ. قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: وَمَذْهَبُ الْفَرَاءِ فِي هَذَا: كَيْ يَتَذَكَّرُ. وَرَوَى خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ عَنْ مَعَاذٍ قَالَ: وَاللَّهِ مَا كَانَ فِرْعَوْنُ لِيُخْرِجَ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَتَذَكَّرَ أَوْ يَخْشَى، لِهَذِهِ الْآيَةِ، وَإِنَّهُ تَذَكَّرَ وَخَشِيَ لَمَّا أَدْرَكَهُ الْغُرُقُ. وَقَالَ كَعْبٌ: وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ كَعْبٌ، إِنَّهُ لَمَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ: فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا لِّئَا، وَسَأَسْئِلُ قَلْبَهُ فَلَا يُوْثِقُ. قَالَ الْمَفْسُورُونَ: كَانَ هَارُونُ يَوْمُئِذٍ غَائِبًا بِمِصْرَ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى هَارُونَ أَنْ يَتَلَقَّى مُوسَى، فَتَلَقَّاهُ عَلَى مَرَحَلَةٍ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَنِي أَنْ أَتِيَ فِرْعَوْنَ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَجْعَلَكَ مَعِيَ؛ فَعَلَى هَذَا يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَا حِينَ التَّقِيَا قَالَا: رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ. قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْقَائِلُ لِلذَّكَاءِ مُوسَى وَحْدَهُ؛ وَأَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُ بِالتَّشْنِيعِ لَمَّا ضَمَّ إِلَيْهِ هَارُونَ، فَإِنَّ الْعَرَبَ قَدْ تَوَقَّعُ التَّشْنِيعَ عَلَى الْوَاحِدِ، فَتَقُولُ: يَا زَيْدُ قَوْمًا، يَا حَرَسِيَّ اضْرِبَا عَقْبَهُ.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يَفْرَطَ عَيْنًا﴾ وقرأ عبد الله بن عمرو، وابن السميع، وابن يعمر، وأبو العالية: «أَنْ يَفْرَطَ» برفع الياء وكسر الراء. وقرأ عكرمة، وإبراهيم النخعي: «أَنْ يَفْرَطَ» بفتح الياء والراء. وقرأ أبو رجاء العطاردي، وابن محيصن: «أَنْ يَفْرَطَ» برفع الياء وفتح الراء. قال الزجاج: المعنى، أَنْ يَبْدَأَ بِعَقُوبَتِنَا، يَقَالُ: قَدْ فَرَطَ مِنْهُ أَمْرٌ، أَيْ: قَدْ بَدَأَ؛ وَقَدْ أَفْرَطَ فِي الشَّيْءِ: إِذَا اشْتَطَّ فِيهِ؛ وَفَرَطَ فِي الشَّيْءِ: إِذَا قَصُرَ؛ وَمَعْنَاهُ كُلُّهُ: التَّقَدُّمُ فِي الشَّيْءِ، لِأَنَّ الْفَرَطَ فِي اللُّغَةِ: الْمُتَقَدِّمُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ»^(١).

قوله تعالى: ﴿أَوْ أَنْ يَطْفَنَ﴾ فيه قولان: أحدهما: يستعصي، قاله مقاتل. والثاني: يجاوز الحدَّ في الإساءة إلينا. قال ابن زيد: نخاف أن يعجل علينا قبل أن نبلغه كلامك وأمرك.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: بالنصرة والعون «أَنِّي» أقوالكم «وَأَرْبُؤُكُمْ» أفعالكم. قال الكلبي: أَسْمَعُ جَوَابَهُ لَكُمْ، وَأَرَى مَا يَفْعَلُ بِكُمْ.

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» ٣١٣/٤، وَابْنُ خَالٍ ٤١٤/١١، وَمُسْلِمٌ ١٧٩٢/٤ مِنْ حَدِيثِ جَنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَهُ رَوَايَاتُ أُخْرَى بِأَطْوَلِ مِنْهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَحَدِيقَةَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَغَيْرِهِمْ، وَالْفَرَطُ وَالْفَارَطُ: هُوَ الَّذِي يَتَقَدَّمُ الْوَارِدِينَ لِيَصْلَحَ لَهُمُ الْحِيَاظُ وَالِدَلَاءُ وَنَحْوُهَا مِنْ أُمُورِ اسْتِقَاءٍ. فَمَعْنَى فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ: سَابِقُكُمْ إِلَيْهِ كَالْمَهِيءِ لَهُ.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: خلّ عنهم ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ وكان يستعملهم في الأعمال الشاقة، ﴿قَدْ جَعَلْنَاكَ بِأَيْدِي رِبِّكَ﴾ قال ابن عباس: هي العصا. قال مقاتل: أظهر اليد في مقام، والعصا في مقام.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْسَلَكُمْ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ قال مقاتل: على من آمن بالله. قال الزجاج: وليس يعني به التحية، وإنما معناه: أن من اتبع الهدى، سلّم من عذاب الله وسخطه، والدليل على أنه ليس بسلام، أنه ليس بابتداء لقاء وخطاب.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَنِ كَذَّبَ﴾ أي: بما جئنا به وأعرض عنه.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَمُوسَىٰ﴾ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ قال عليهما عند ربّي ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَحِصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ الذي جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمراتاً شتى ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ﴾ ﴿وَمِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نَّحْوِ نُفْسِكُمْ وَمِنَّا يُعِيدُهُ وَمِنَّا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمْ﴾ في الكلام محذوف معناه معلوم، وتقديره: فأتياه فأدّيا الرسالة. قال الزجاج: وإنما لم يقل: فأتياه، لأن في الكلام دليلاً على ذلك، لأن قوله: «فمن ربكم» يدل على أنهما أتياه وقالاه.

قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أعطى كل شيء صورته، فخلق كل جنس من الحيوان على غير صورة جنسه، فصوره ابن آدم لا كصورة البهيمة، وصورة البعير لا كصورة الفرس، روى هذا المعنى الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبير. والثاني: أعطى كل ذكر زوجته، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال السدي، فيكون المعنى: أعطى كل حيوان ما يشاكله. والثالث: أعطى كل شيء ما يضلّحه، قاله قتادة. وفي قوله: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: هدى كيف يأتي الذكر الأنثى، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال ابن جبير. والثاني: هدى للمتكبح والمطعم والمسكن، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: هدى كل شيء إلى معيشته، قاله مجاهد. وقرأ عمر بن الخطاب، وابن عباس، والأعمش، وابن السميع، ونصير عن الكسائي: «أعطى كل شيء خلقه» بفتح اللام. فإن قيل: ما وجه الاحتجاج على فرعون من هذا؟ فالجواب: أنه قد ثبت وجود خلق وهداية، فلا بد من خالق وهاد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ اختلفوا فيما سأل عنه من حال القرون الأولى على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه سأل عن أخبارها وأحاديثها، ولم يكن له بذلك علم، إذ التوراة إنما نزلت عليه بعد هلاك فرعون، فقال: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾، هذا مذهب مقاتل. وقال غيره: أراد: إني رسول، وأخبار الأمم علم غيب، فلا علم لي بالغيب. والثاني: أن مراده من السؤال عنها: لم عُبِدَت الأصنام، ولم لم يُعْبَدَ اللَّهُ إن كان الحق ما وصفت؟! والثالث: أن مراده: ما لها لا تُبْعَث ولا تُحَاسَب ولا تجازى؟! فقال: عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، أي: علم أعمالها. وقيل: الهاء في «عِلْمُهَا» كناية عن القيامة، لأنه سأل عن بعث الأمم، فأجابه بذلك. وقوله: ﴿فِي كِتَابٍ﴾ أراد: اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿لَا يَحِصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ وقرأ عبد الله بن عمرو^(١)، وعاصم الجحدري، وقاتدة، وابن محيصن: «لا يَضِلُّ» بضم الياء وكسر الضاد، أي: لا يضيّع. وقرأ أبو المتوكّل، وابن السميع: «لا يَضِلُّ» بضم الياء وفتح الضاد. وفي هذه الآية تأكيد للجزاء على الأعمال، والمعنى: لا يخطئ ربي ولا ينسى ما كان من أمرهم حتى يجازيهم بأعمالهم. وقيل: أراد: لم يجعل ذلك في كتاب لأنه يضل وينسى.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «مهاداً». وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: «مهداً» بغير ألف. والمهاد: الفراش، والمهد: الفرش. ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ﴾ أي: أدخل لأجلكم في الأرض طرقاً تسلكونها، ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر. وهذا آخر الإخبار عن موسى. ثم أخبر الله تعالى عن نفسه بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ يعني: بالماء ﴿أَنْزَلْنَا مِنَ ثَبَاتٍ شَقًى﴾ أي: أصنافاً مختلفة في الألوان والطعوم، كل صنف

منها زوج. و«شتى» لا واحد له من لفظه. «كُلُوا» أي: مما أخرجنا لكم من الثمار «وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ» يقال: رعى الماشية، برعاها: إذا سرحها في المرعى. ومعنى هذا الأمر: التذكير بالنعم، «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ» أي: لوعبراً في اختلاف الألوان والطعوم «لَأُولِي الْأَلْبَانِ» قال الفراء: لذوي العقول، يقال للرجل: إنه لذو نُهَيْة: إذا كان ذا عقل. قال الزجاج: واحد النُهَيْة: نُهَيْة، يقال: فلان ذو نُهَيْة، أي: ذو عقل ينتهي به عن المقابح، ويدخل به في المحاسن؛ قال: وقال بعض أهل اللغة: ذو النُهَيْة: الذي ينتهي إلى رأيه وعقله، وهذا حسن أيضاً.

قوله تعالى: «وَبَيْنَا خَلَقْنَاهُمْ» يعني: الأرض المذكورة في قوله: «جَعَلْنَا لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا». والإشارة بقوله: «خلقناكم» إلى آدم، والبشر كلهم منه. «وَبَيْنَا نُبَيِّدُكُمْ» بعد الموت «وَبَيْنَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً» أي: مرة «أُخْرَى» بعد البعث، يعني كما أخرجناكم منها أولاً عند خلق آدم من الأرض.

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا عَائِسَةَ كَذِبًا وَأَنَّ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجَعْنَا لِيُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْشُونَ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا أَنْتَبَذْتَ بَسِخْرٍ مِثْلِهِ فَلَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمَا لَآ غِلْفَةَ غَنٍّ وَلَا أَتَتْ مَكَائِ سَوَى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْعَلُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿٦١﴾ فَتَسَبَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُسْرًا أَلَسَ الْبَعْثُ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرُونَ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرَفَيْكُمْ الْقَتْلَ ﴿٦٢﴾ فَأَجْمَعُوا كَيْدَهُمْ ثُمَّ افْتَرَوْا سَفَاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَقْبَلَ ﴿٦٣﴾»

قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا» يعني: فرعون «عَائِسَةَ كَذِبًا» يعني: التسع الآيات، ولم ير كل آية لله، لأنها لا تُحصى. «فَكَذَّبَ» أي: نسب الآيات إلى الكذب، وقال: هذا سحر «وَأَنَّ» أن يؤمن «قَالَ أَجَعْنَا لِيُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا» يعني: مصر «بِسِحْرِكَ» أي: تريد أن تغلب على ديارنا بسحرك فتملكها وتخرجنا منها «فَلَمَّا أَنْتَبَذْتَ بَسِخْرٍ مِثْلِهِ» أي: فلنقابل ما جئت به من السحر بمثله «فَلَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمَا لَآ غِلْفَةَ» أي: اضرب بيننا وبينك أجلاً وميقاناً «وَلَا تَحْزَنْهُمْ» أي: لا نجاوزهم «غَنٍّ وَلَا أَتَتْ مَكَائِ» وقيل: المعنى: اجعل بيننا وبينك موعداً مكاناً تنوعد لحضورنا ذلك المكان، ولا يقع مثلاً خلاف في حضوره. «سَوَى» قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي بكسر السين. وقرأ ابن عامر، وعاصم، بالمد والهمز والنصب والتثنية وفتح السين. وقرأ ابن مسعود مثله، إلا أنه كسر السين. قال أبو عبيدة: هو اسم للمكان النصف فيما بين الفريقين، والمعنى: مكاناً تستوي مسافته على الفريقين، فتكون مسافة كل فريق إليه كمسافة الفريق الآخر. «قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ» قرأ الجمهور برفع الميم. وقرأ الحسن، ومجاهد، [وقتادة]، وابن أبي عبله، وهبيرة عن حفص بنص الميم. وفي هذا اليوم أربعة أقوال: أحدها: يوم عيد لهم، رواه أبو صالح عن ابن عباس، والسدي عن أشياخه، وبه قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد. والثاني: يوم عاشوراء، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. والثالث: يوم النيروز، ووافق ذلك يوم السبت أول يوم من السنة، رواه الضحاك عن ابن عباس. والرابع: يوم سوق لهم، قاله سعيد بن جبيرة. وأما رفع اليوم، فقال البصريون: التقدير: وقت موعدهم يوم الزينة، فتاب الموعد عن الوقت، وارتفع به ما كان يرتفع بالوقت إذا ظهر. فأما نصبه، فقال الزجاج: المعنى: موعدهم يقع يوم الزينة، «وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ» موضع «أَنْ» رفع، المعنى: موعدهم حشر الناس «ضَحَى» أي: إذا رأيت الناس قد حُشروا ضحى. ويجوز أن تكون «أَنْ» في موضع خفض عطفًا على الزينة، المعنى: موعدهم يوم الزينة ويوم حشر الناس ضحى. وقرأ ابن مسعود، وابن عمر، وعاصم الجحدري: «وَأَنْ تُحْشَرَ» بقاء مفتوحة ورفع الشين ونصب «الناس». وعن ابن مسعود، والنخعي: «وَأَنْ يُحْشَرَ» بالياء المفتوحة ورفع الشين ونصب «الناس». قال المفسرون: أراد بالناس: أهل مصر، وبالضحى: ضحى اليوم، وإنما علَّقه بالضحى، ليتكامل ضوء الشمس واجتماع الناس، فيكون أبلغ في الحجة وأبعد من الريبة. «فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ» فيه قولان: أحدهما: أن المعنى: تولى عن الحق الذي أمر به. والثاني: أنه انصرف إلى منزله لاستعداد ما يلقي به موسى، «فَجَمَعَ كَيْدَهُمْ» أي: مكره وحيلته «ثُمَّ أَتَى» أي: حضر الموعد. «قَالَ لَهُمْ مُوسَى» أي: للسحرة. وقد ذكرنا عددهم في [الأعراف: ١١٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ﴾ قال الزجاج: هو منصوب على «الزمكم الله وبلا» ويجوز أن يكون على النداء، كقوله تعالى: ﴿يَكُنَّا مِنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْفِدًا﴾ [يس: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَأُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ قال ابن عباس: لا تشركوا معه أحداً.

قوله تعالى: ﴿فَيَسْحَرُكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «فيسحركم» بفتح الياء، من «سحت». وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «فيسحركم» بضم الياء، من «أسحت». قال الفراء: ويسحت أكثر، وهو الاستئصال، والعرب تقول: سحت الله، وأسحته، قال الفرزدق:

وَعَصَى زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدْعُ
مِنْ الْمَالِ إِلَّا مُسْحَتًا أَوْ مُجْلَفًا^(١)

هكذا أنشد البيت الفراء، والزجاج. ورواه أبو عبيدة: «إلا مسحت أو مجلف» بالرفع.

قوله تعالى: ﴿فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: السحرة تناظروا فيما بينهم في أمر موسى، وتشاوروا ﴿وَأَكْرَأُوا النَّجْوَى﴾ أي: أخفوا كلامهم من فرعون وقومه. وقيل: من موسى وهارون. وقيل: «أسروا» هاهنا بمعنى «أظهروا». وفي ذلك الكلام الذي جرى بينهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم قالوا: إن كان هذا ساحراً، فإننا سنغلبه، وإن يكن من السماء كما زعمتم، فله أمره، قاله قتادة. والثاني: أنهم لما سمعوا كلام موسى قالوا: ما هذا بقول ساحر، ولكن هذا كلام الرب الأعلى، فعرفوا الحق، ثم نظروا إلى فرعون وسلطانه، وإلى موسى وعصاه، فنكسوا على رؤوسهم، وقالوا إن هذان لساحران، قاله الضحاک، ومقاتل. والثالث: أنهم ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَيْنِ...﴾ الآيات، قاله السدي. واختلف القراء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَيْنِ﴾ فقرأ أبو عمرو ابن العلاء: «إن هذين» على إعمال «إن» وقال: «إنني لأستحيي من الله أن أقرأ «إن هذان». وقرأ ابن كثير: «إن» خفيفة «هذان» بتشديد النون. وقرأ عاصم في رواية حفص: «إن» خفيفة «هذان» خفيفة أيضاً. وقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «إن» بالتشديد «هاذان» بآلف ونون خفيفة. فأما قراءة أبي عمرو، فاحتجاجة في مخالفة المصحف بما روي عن عثمان وعائشة، أن هذا من غلط الكاتب على ما حكيناه في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَفْكَلُوا﴾^(٢) في سورة [النساء: ١٦٢]. وأما قراءة عاصم، فمعناها: ما هذان إلا ساحران، كقوله تعالى: ﴿وَلَنْ نُطْنِكَ لَئِنْ الْكَافِرِينَ﴾ [النساء: ١٨٦] أي: ما نظنك إلا من الكافرين، وأنشدوا في ذلك:

نَكَلْشَكَ أَتُكْ إِنْ قَتَلْتَ لِمُسْلِمًا
خَلَّتْ عَلَيْهِ عُقُوبَةُ الْمُتَعَمِّدِ

أي: ما قتلت إلا مسلماً. قال الزجاج: ويشهد لهذه القراءة، ما روي عن أبي بن كعب أنه قرأ: «ما هذان إلا ساحران»، وروي عنه: «إن هذان إلا ساحران»، ورويت عن الخليل: «إن هذان» بالتخفيف، والإجماع على أنه لم يكن أحد أعلم بالنحو من الخليل. فأما قراءة الأكثرين بتشديد «إن» وإثبات الألف في قوله: «هاذان» فروى عطاء عن ابن عباس أنه قال: هي لغة بلحارث بن كعب. وقال ابن الأنباري: هي لغة لبني الحارث بن كعب، وافقتها لغة قريش. قال الزجاج: وحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب، وهو رأس من رؤوس الرواة: أنها لغة لكنانة، يجعلون ألف الاثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد، يقولون: أتاني الزيدان، ورأيت الزيدان، ومررت بالزيدان، وأنشدوا:

فَأَطْرَقَ إِظْرَاقُ الشُّجَاعِ وَلَوْ رَأَى
مَسَاغًا لِنَابِأَةِ الشُّجَاعِ لَصَمَّمَا^(٣)

(١) «ديوانه» ٥٥٦، «الطبري» ١٧٨/١٦، «ومجاز القرآن» ٢١/٢، و«شرح المفضليات» ٣٩٦، «والجمهرة» ١٠٧/٢، «واللسان» و«الناج»: جلف، مسحت، «والقرطبي» ٢١٥/١١، «والخزانة» ٣٤٧/٢، ويروى «إلا مسحت أو مجلف» كما في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة. ومن رواه كذلك، جعل معنى «لم يدع»: لم يتقار، أو يقر، أو يستقر، ومن رواه «إلا مسحتاً» جعل «لم يدع» بمعنى: لم يترك، لم يبق، ورفع قوله: «أو مجلف» بإضمار، كأنه قال: أو هو مجلف. ومال مسحوت، ومسحت: مُلَقِبٌ به، مهلك. والمجلف: الذي بقيت منه بقية. يريد: لم يترك إلا شيئاً مستأصلاً هالِكاً، أو شيئاً بقيت منه بقية.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقد زعم قوم أن قراءة من قرأ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَيْنِ﴾ لحن، وأن عثمان رضي الله عنه قال: إن في المصحف لحنًا سقيمًا العرب بالسنتها، وهذا خبر باطل لا يصح من وجوه. انظر الجزء (٢٥٢/٢ - ٢٥٣) من هذا التفسير، فإنك تجد في التعليق على هذا الخبر كلاماً طويلاً، لشيخ الإسلام ابن تيمية، والحاظ السخاوي، والطبري، وغيرهم، في رد ما نسب إلى عثمان رضي الله عنه.

(٣) البيت للمتلمس، وهو في «الطبري» ١٨٠/١٦، «والقرطبي» ٢١٧/١١، «واللسان»: صمم، ومعنى: أطرق: سكت فلم يتكلم وأرعى عينه ينظر إلى =

ويقول هؤلاء: ضربته بين أذناه. وقال التحويون القدماء: هاهنا هاء مضمرة، المعنى: إنه هذان لساحران. وقالوا أيضاً: إن معنى «إن»: نعم «هذان لساحران»، وينشدون:

وَيَقُولَنَّ شَيْبٌ قَدْ عَلَا
كَ وَقَدْ كَبِرَتْ فَقُلْتُ إِنَّهُ^(١)

قال الزجاج: والذي عندي، وكنتُ عرضته على عالما محمد بن يزيد، وعلى إسماعيل بن إسحاق بن حماد بن زيد، فقبلاه، وذكرنا أنه أجود ما سمعناه في هذا، وهو أن «إن» قد وقعت موقع «نعم»، والمعنى: نعم هذان لهما الساحران، يلي هذا في الجودة مذهب بني كنانة. وأستحسن هذه القراءة، لأنها مذهب أكثر القراء، وبها يُقرأ. وأستحسن قراءة عاصم، والخليل، لأنهما إمامان، ولأنهما وافقا أبي بن كعب في المعنى. ولا أجيز قراءة أبي عمرو لخلاف المصحف. وحكى ابن الأنباري عن الفراء قال: «ألف» «هذان» هي ألف «هذا» والنون فرقت بين الواحد والثنية، كما فرقت نون «الذين» بين الواحد والجمع.

قوله تعالى: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمْ﴾ وقرأ أبان عن عاصم: «ويذهبا» بضم الباء وكسر الهاء. وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عمرو، وأبو رجاء العطاردي: «ويذهبا بالطريقة» بآلف ولام، مع حذف الكاف والميم. وفي الطريقة قولان: أحدهما: بدينكم المستقيم، رواه الضحاك عن ابن عباس. وقال أبو عبيدة: بسنتكم ودينكم وما أنتم عليه، يقال: فلان حسن الطريقة. والثاني: بأمثلكم، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وقال مجاهد: بأولي العقل، والأشراف، والأستان. وقال الشعبي: يصرفان وجوه الناس إليهما. قال الفراء: الطريقة: الرجال الأشراف، تقول العرب للقوم الأشراف: هؤلاء طريقة قومهم، وطرائق قومهم. فأما «المثلى» فقال أبو عبيدة: هي تأنيث الأمثل. تقول في الإناث: خذ المثلى منهما، وفي الذكور: خذ الأمثل. وقال الزجاج: ومعنى المثلى والأمثل: ذو الفضل الذي به يستحق أن يقال: هذا أمثل قومه؛ قال: والذي عندي أن في الكلام محذوفاً، والمعنى: يذهبا بأهل طريقتكم المثلى، وقول العرب: هذا طريقة قومه، أي: صاحب طريقتهم.

قوله تعالى: ﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ﴾ قرأ الأكثرون: «فأجمعوا» بقطع الألف من «أجمعت». والمعنى: ليكن عزمكم مجمعاً عليه، لا تختلفوا فيختل أمركم. قال الفراء: والإجماع: الإحكام والعزيمة على الشيء، تقول: أجمعت على الخروج، وأجمعت الخروج، تريد: أزمعت، قال الشاعر:

يَا لَيْتَ شِغْرِي وَالْمُنَى لَا تَنْفَعُ
هَلْ أَغْدُوْنَ يَوْمًا وَأَمْرِي مُجْمَعُ^(٢)
يريد: قد أحكم وعزم عليه. وقرأ أبو عمرو: «فأجمعوا» بفتح الميم من «جمعت»، يريد: لا تدعوا من كيدكم شيئاً إلا جتتم به. فأما كيدهم، فالمراد به: سحرهم، ومكرهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتَرُوا صَفًّا﴾ أي: مُضْطَفِّينَ مجتمعين، ليكون أنظم لأموركم، وأشدَّ لهيبتكم. قال أبو عبيدة: «صفاً» أي: صفوفاً. وقال ابن قتيبة: «صفاً» بمعنى: جمعاً. قال الحسن: كانوا خمسة وعشرين صفاً، كل ألف ساحر صفاً.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَقَرَّ﴾ قال ابن عباس: فاز من غلب.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَتَوَسَّوْنَ إِنَّمَا أَن تَلَيَّ وَإِنَّمَا أَن تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلَيَّ﴾ ٦٥ قَالَ بَلْ أَقْرَأُ فَإِذَا جَاءَهُمْ وَصِيَّتُهُمْ بِحَلٍّ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ إِنَّمَا تَتَوَسَّوْنَ فِي تَقْيِهِمْ خِيفَةً مُّؤَمَّنِينَ ٦٦ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ٦٧ وَأَلَيَّ مَا فِي بَيْنِكَ لَتَقْفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَكِرٌ وَلَا يَقْنِصُ الْكَلْبُ حَيْثُ أَكَى ٦٨ فَالْيَقِ السَّحَرَةَ جَمْعًا قَالُوا مَا نَكُنَّا رِبِّيْ هُرُونَ وَمَوْسَى ٦٩ قَالَ مَا مَنَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ مَادَدَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَيْدٌ كَرِيمٌ ٧٠ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا ظِعْمَ لَّيُؤَيِّدَكُمُ وَيُزِيلَكُمْ مِنْ تَحْتِ وَلَا مَسِيئَتُكُمْ فِيْ جُذُوعِ النَّخْلِ وَلْتَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَلَيَّ ٧١

= الأرض، والشجاع: ضرب من الحيات. ومساغاً: اسم مكان، من ساع يسوغ: إذا دخل ونفذ. وصمم: غص ونصب فلم يرسل ما غص. والبيت جاري على لغة بني الحارث بن كعب، ومن لفت لفتهم. والشاهد فيه أن قوله: «لناباه» مثنى مجرور اللام، وقد جاء بالآلف.

(١) البيت لعبد الله بن قيس الرقيات، وهو في «القرطبي» ٢١٨/١١، و«روح المعاني» ٢٠١/١٦، و«اللسان»: أن، وقوله.

بَكَّرَتْ عَلَيَّ عَوَاذِلِيْ

يَلْحَقْنِيْ أَلْسُنُهُنَّ

أي: إنه قد كان كما تظن.

(٢) البيت في «معاني القرآن» للفراء ٤٧٣/١ غير منسوب، وهو في «الطبري» ١٨٣/١٦، و«القرطبي» ٢٢١/١١، و«اللسان»: جمع.

﴿بَلِّ الْقَوْلَ﴾ قال ابن الأنباري: دخلت «بل» لمعنى: جحد في الآية الأولى، لأن الآية الأولى إذا تَوَلَّمْتُ وَجَدْتُ شاملة على: إما أن تلقى، وإما أن لا تلقى.

قوله تعالى: ﴿وَعَصِيَّهْم﴾ قرأ الحسن، وأبو رجاء العطاردي، وأبو عمران الجوني، وأبو الجوزاء: «وَعَصِيَّهْم» برفع العين.

قوله تعالى: ﴿يَحْيَىٰ الْيَتَىٰ﴾ وقرأ أبو رزين العقيلي، وأبو عبد الرحمن السُّلَمي، والحسن، وقتادة، والزهري، وابن أبي عبله: «تَحْيَىٰ» بالياء، «إليه» أي: إلى موسى. يقال: حَيَّلَ إليه: إذا شُبَّه له. وقد استدلل قوم بهذه الآية على أن السحر ليس بشيء. وقال: إنما حَيَّلَ إلى موسى، فالجواب: أنا لا ننكر أن يكون ما رآه موسى تخيلاً، وليس بحقيقة، فإنه من الجائز أن يكونوا تركوا التزيين في سلوخوا الحيات حتى جرت، وليس ذلك بحيات. فأما السحر، فإنه يؤثر، وهو أنواع. وقد سَجَرَ رسول الله ﷺ حتى أثر فيه^(١).

(١) فقد روى البخاري في «صحيحه» ١٩٢/١٠، ومسلم في «صحيحه» ١٧١٩/٤ عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر رسول الله ﷺ يهودي من يهود بني زريق يقال له: لبيد بن الأعصم، قالت: حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى إذا كان ذات يوم - أو ذات ليلة - دعا رسول الله ﷺ، ثم دعا، ثم دعا، ثم قال: يا عائشة، أشعرت أن الله أفانني فيما استفتيتني فيه! جاءني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: مغلوب (أي: مسحور) قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان، قالت: فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه - ثم قال: «يا عائشة والله لكان مامها نقاعة الحناء، ولكان نخلها رؤوس الشياطين، قالت: فقلت: يا رسول الله أفلا أحرقة؟ قال: لا، أما أنا فقد عفاني الله، وكرهت أن أثير على الناس شراً، فأمرت بها فدفنت». وفي رواية للبخاري ١٩٩/١٠: «حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن» بدل «حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله»، وهي موضحة ومبيّنة لما قبلها. وحديث السحر هذا، رواه أحمد في «المسند»، والنسائي، وابن سعد، والحاكم، وعبد بن حميد، وابن مردويه، والبيهقي في «دلائل النبوة»، وغيرهم. وقال الإمام ابن القيم في «بدائع الفوائد» بما حاصله: وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث، متفقاً بالقبول بينهم، لا يختلفون في صحته، وقد أنكره كثير من أهل الكلام، وقابلوه بالكذب، وقولهم هذا مسرود عند أهل العلم، وقد اتفق أصحاب «الصحيحين» على تصحيحه، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنة والحديث والتاريخ، والفقهاء، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله ﷺ وأيامه من المتكلمين. ثم قال ابن القيم: وقد دل قوله تعالى: ﴿وَيَنسُو الْفِتْنَتِ فِي الْمَكِيدِ ۝١٠﴾ وحديث عائشة (المتقدم ذكره) على تأثير السحر، وأن له حقيقة، وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، وقالوا: إنه لا تأثير للسحر البتة، وإنما ذلك تخيل لأعين الناظرين لا حقيقة له سوى ذلك، وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة، والسلف، واتفق عليه الفقهاء، وأهل التفسير والحديث...

ثم قال: والسحر الذي أصابه ﷺ كان مرضاً من الأمراض عارضاً - أصابه في بدنه - شفاه الله منه، ولا نقص في ذلك ولا عيب بوجه ما، فإن المرض يجوز على الأنبياء. اهـ.

قال الإمام النووي في «شرح مسلم» ١٧٤/١٤: قال المازري رحمه الله: مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات حقيقة السحر، وأن له حقيقة حقيقية غيره من الأشياء الثابتة، خلافاً لمن أنكره ونفى حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها، وقد ذكره الله في كتابه، وذكر أنه مما يُعَلَّم، وذكر ما فيه إشارة إلى أنه مما يُكْفَر به، وأنه يفرق بين المرم وزوجه، وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له، وهذا الحديث أيضاً مصرح بإثباته، وأنه أشياء دفنت وأخرجت، وهذا كله يبطل ما قالوه، فإحالة كونه من الحقائق محال - ثم قال -: وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث بسبب آخر، فزعم أنه يحط منصب النبوة، ويشكك فيها، وأن تجوز به يمنع الثقة، وهذا الذي ادعاه هؤلاء المبتدعة باطل، لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وصحته وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ، والمعجزة شاهدة بذلك، وتجوز ما قام الدليل بخلافه باطل، فأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث بسببها، ولا كان مفضلاً من أجلها، وهو مما يعرض للبشر، فغير بعيد أن يخيل إليه من أمور الدنيا ما لا حقيقة له.

قال النووي: قال القاضي عياض: وقد جاءت روايات هذا الحديث مبيّنة أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه، لا على عقله وقلبه واعتقاده، ويكون معنى قوله في الحديث: «حتى يظن أنه يأتي أهله ولا يأتيهن» - ويروى «يخيل إليه» - أي: يظهر له من نشاطه ومقدم عادته القدرة عليهن، فإذا دنا منهن أخذته أخته السحر فلم يأتيهن ولم يتمكن من ذلك كما يعتري المسحور، وكل ما جاء من الروايات من أنه يخيل إليه فعل شيء لم يفعله، ونحوه، فمحمول على التخيل بالبصر، لا لخلل تطرق إلى العقل، وليس في ذلك ما يدخل لبساً على الرسالة ولا طعناً لأهل الضلالة، والله أعلم. اهـ.

وقد نقل نحو كلام الإمام النووي الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» شرح صحيح البخاري ١٨٨/١٠، ثم قال عند قوله تعالى: ﴿يَحْيَىٰ الْيَتَىٰ﴾ بن سحيرهم ﴿تَوَى﴾ ١٩١/١٠: هذه الآية عمدة من زعم أن السحر إنما هو تخييل، ولا حجة له بها، لأن هذه الآية وردت في قصة سحرة فرعون، وكان سحروهم كذلك (أي تخيلاً) ولا يلزم منه أن جميع أنواع السحر تخيل. اهـ.

وقال الحافظ أيضاً في «الفتح» ١٩٣/١٠: ووقع في مرسل عبد الرحمن بن كعب عند ابن سعد: فقالت أخت لبيد بن الأعصم: إن يكن نبياً فسيُخبر، وإلا فيضلّه هذا السحر حتى يذهب عقله. قال الحافظ: فوقع الشق الأول كما في الحديث الصحيح، (وهو أنه أخير)، قال: واستدل ابن القصار =

ولعن العاضهة^(١)، وهي الساحرة.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّؤْمِنٍ﴾ قال ابن قتيبة: أضمر في نفسه خوفاً. وقال الزجاج: أصلها «خوفة» ولكن الواو قبلت ياء لانكسار ما قبلها. وفي خوفه قولان: أحدهما: أنه خوف الطبع البشري. والثاني: أنه لما رأى سحرهم من جنس ما أراههم في العصا، خاف أن يلتبس على الناس أمره، ولا يؤمنوا، فقيل له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْآخِزُ﴾ عليهم بالظفر والغلبة. وهذا أصح من الأول.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى مَا فِي بَيْتِكَ﴾ يعني: العصا ﴿تَلْقَفُ﴾ وقرأ ابن عامر: «تَلْقَفُ مَا» برفع الفاء وتشديد القاف. وروى حفص عن عاصم: «تلقف» خفيفة. وكان ابن كثير يشدد التاء من «تلقف» يريد: «تلقف». وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، وسعيد بن جبيرة، وأبو رجاء: «تلقم» بالميم. وقد شرحناها في (الأعراف: ١١٧)، ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرٍ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «كيد سحر». وقرأ الباقون: «كيد ساحر» بآلف، والمعنى: إن الذي صنعوا كيد ساحر، أي: عمل ساحر. وقرأ ابن مسعود، وأبو عمران الجوني: «إنما صنعوا كيد» بنصب الدال. ﴿وَلَا يَفْلُحُ الْكَافِرُ﴾ قال ابن عباس: لا يسعد حيثما كان. وقيل: لا يفوز. وروى جندب بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أخذتم الساحر فاقتلوه، ثم قرأ ﴿وَلَا يَفْلُحُ الْكَافِرُ حَيْثُ أَقَى﴾ قال: لا يأمن حيث وجد»^(٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم، وورش عن نافع: «آمنتم له» على لفظ الخبر. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «آمنتم له» بهزمة ممدودة. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «آمنتم له» بهزتين الثانية ممدودة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَكَيْدٌ كَرِيمٌ﴾ قال ابن عباس: يريد معلّمكم. قال الكسائي: الصبي بالحجاز إذا جاء من عند معلّمه، قال: جئت من عند كبري.

= بأن الذي أصابه من السحر كان من جنس المرض بقوله ﷺ في الحديث: «أما أنا فقد شفاني الله». وقال الحافظ: ولم ينقل عنه ﷺ في خبر من الأخبار أنه قال قولاً فكان بخلاف ما أخبر به. اهـ.

فقد تبين مما سبق من كلام العلماء أن السحر له حقيقة، وإلا لما أمر الله تعالى بالاستعاذة منه في سورة (الفلق) بقوله: ﴿وَمِن سَكْرِ الْكَافِرِ﴾ وهي السواحر اللاتي يسحرن ويغش في العقد كما قال الضرون، وأنه مرض تسلط على جسده كيفية الأمراض، وقد مرض رسول الله ﷺ مرضاً شديداً حتى اغشى عليه، وكان يقول: «كما «الصحيحين»: «إني أوعك كما يوعك رجلان منكم»، وقد ابتلي في قومه، وقاسى صنوفاً من الأذى. فإن احتج أحد على منع السحر بقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنَّكَ بِبَشَرٍ مِّمَّنْ أَنبِئْنَا﴾ فنه جواباً كما قال المصنف ابن الجوزي رحمه الله، أحدهما: أنه عصمه من القتل والأسر وتلف الجملة، فأما عوارض الأذى، فلا تمنع عصمة الجملة. والثاني: أن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ بِبَشَرٍ مِّمَّنْ أَنبِئْنَا﴾ من أواخر ما نزل بالمدينة. وقد سحر وأوذى قبل نزول هذه الآية. وإن احتج آخر بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا بِمُعْجِزِينَ لَكَ بِشَيْءٍ﴾ فنلك مقالة الظالمين، ومراهم: من سحر حتى جن وأصبح زائل العقل لا يعقل ما يقول، فإن المسحور الذي لا يتبع، هو الذي فسده عقله بحيث لا يدري ما يقوله، فهو المجنون - والمسلمون لا يقولون بمقالة الظالمين المفتزين - فأما من أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس، فإنه لا يمنع ذلك من اتباعه، وقولهم: سحر الأنبياء يتنافى مع حماية الله لهم، مردود، فإنه سبحانه وتعالى كما يحميهم ويصورهم يتبليهم ويختبرهم، فيزيلهم ذلك رغبة في درجاتهم، ونيل كرامتهم. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَفْلُحُ الْكَافِرُ حَيْثُ أَقَى﴾ معناه: لا يسعد الساحر حيث كان، ولا يفوز، وليس معنى «لا يفلح»: لا يستطيع السحر، بل إذا سحر فلا يفلح، ولا يأمن حيث وجد، فذلك عدم فلاحه. هذا ما عليه جمهور المسلمين، من المفسرين والمحدثين، والفقهاء المحققين، وهو أنه عليه الصلاة والسلام، سحر وأثر في جسده، ولم يؤثر في عقله، وذلك لا يقدح في مقام النبوة والرسالة.

ومن الناس من يحاول أن يرد بعض النصوص الصحيحة - لقصور فهمه - ظناً منه أنه بذلك لا يذبح مجالاً للطعن في رسالة النبي ﷺ، ولكن العلماء المحققين تلقوا هذه النصوص بالقبول، ويثبوا وجه الحق فيها بعد علم ودراية، وتمحيص وتحليق، فعلى المسلم أن يرجع في تفسير النصوص إلى أربابها، والمحققين من أصحابها، مخافة أن تزل به القدم، والله تعالى تكفل بحفظ شريعته، ورسالة نبيه، فقال في كتابه: ﴿إِنَّا نَحْنُ الرَّكَازُ وَزَكَاةُ كُنُوزِنَا﴾ وقيض لهذا الدين أناساً قال في حقهم رسول الله ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»، والله تعالى ولي التوفيق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

(١) تقدم ٧٢٧ عند تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَاءُوا الْفُرْقَانَ بَيْنَ﴾ قول المصنف: وفي الحديث أن رسول الله ﷺ «لعن العاضهة والمستغضة»، وهو حديث ضعيف. قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ٩٤: رواه أبو يعلى، وابن عدي من حديث ابن عباس، وفي إسناده زمة بن صالح عن سلمة بن وهرام، وهما ضعيفان، وله شاهد عند عبد الرزاق من رواية عن ابن جريج عن عطاء. اهـ كلام ابن حجر. ومعنى العاضهة والمستغضة: الساحرة والمستحسرة.

(٢) ذكره ابن كثير ١٥٨/٣ من رواية ابن أبي حاتم عن جندب بن عبد الله البجلي، وقال: وقد روى أصله الترمذي موقوفاً ومرفوعاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّتُنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ «في» بمعنى «على»، ومثله: ﴿أَمْ لَمْ سَأَلْكُمْ بِتَسْتَعِينُونَ فِيهِ﴾ [الطور: ٣٨].
 ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمْ﴾ أيها السحرة ﴿إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا﴾ لكم ﴿وَأَبْقَيْتُمْ﴾ أي: أدوم، أنا على إيمانكم، أو رب موسى على تركهم الإيمان به؟ ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾ أي: لن نخشاك ﴿عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ﴾ يعنون اليد والعصا. فإن قيل: لم نسبوا الآيات إلى أنفسهم بقولهم: «جاءنا» وإنما جاءت عامة لهم ولغيرهم. فالجواب: أنهم لما كانوا بأبواب السحر ومذاهب الاحتيال أعرف من غيرهم، وقد علموا أن ما جاء به موسى ليس بسحر، كان ذلك في حق غيرهم آيئاً وأوضح، وكانوا هم لمعرفة أخص. وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي فَطَرْنَا﴾ وجهان ذكرهما الفراء، والزجاج: أحدهما: أن المعنى: لن نؤثرك على ما جاءنا من البيئات، وعلى الذي فطرنا. والثاني: أنه قسم، تقديره: وحق الذي فطرنا.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْصِرْ تَا أَنْتَ قَائِمٌ﴾ أي: فاصنع ما أنت صانع. وأصل القضاء: عمل بإحكام ﴿إِنَّمَا تَقْوَى هَذِهِ الْكَيْدَ الدُّنْيَا﴾ قال الفراء: «إنما» حرف واحد، فلهذا نصب: «الحياة الدنيا». ولو قرأ قارئ برفع «الحياة» لجاز، على أن يجعل «ما» في مذهب «الذي»، كقولك: إن الذي تقضي هذه الحياة الدنيا. وقرأ ابن أبي عبلة، وأبو المتوكل: «إنما تقضي» بضم التاء على ما لم يسم فاعله، «الحياة» برفع التاء. قال المفسرون: والمعنى: إنما سلطانتك وملكتك في هذه الدنيا، لا في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿لِيَنْفِرَ لَنَا﴾ يعنون الشرك ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ﴾ أي: والذي أكرهتنا عليه، أي: ويغفر لنا إكراهك إيانا على السحر. فإن قيل: كيف قالوا: أكرهتنا، وقد قالوا: «إن لنا لأجراً»، وفي هذا دليل على أنهم فعلوا السحر غير مكروهين؟ فعنه أربعة أجوبة: أحدها: أن فرعون كان يكره الناس على تعلم السحر، قاله ابن عباس. قال ابن الأنباري: كان يطالب بعض أهل مملكته بأن يعلموا أولادهم السحر وهم لذلك كارهون، وذلك لشغفه بالسحر، ولما خامر قلبه من خوف موسى، فالإكراه على السحر، هو الإكراه على تعلمه في أول الأمر. والثاني: أن السحرة لما شاهدوا موسى بعد قولهم ﴿إِنَّا لَنَا لَأَجْرٌ﴾ ورأوا ذكره الله تعالى وسلوكه منهاج المتقين، جزعوا من ملاقاته بالسحر، وحذروا أن يظهر عليهم فيطلع على ضعف صناعتهم، فتفسد معيشتهم، فلم يقنع فرعون منهم إلا بمعارضة موسى، فكان هذا هو الإكراه على السحر. والثالث: أنهم خافوا أن يغلبوا في ذلك الجمع، فيقدح ذلك في صنعتهم عند الملوك والسُّوق^(١)، وأكرههم فرعون على فعل السحر. والرابع: أن فرعون أكرههم على مفارقة أوطانهم، وكان سبب ذلك السحر، ذكر هذه الأقوال ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ أي: خير منك ثواباً إذا أطيع ﴿وَأَبْقَيْتُمْ﴾ عقاباً إذا عصي، وهذا جواب قوله: ﴿إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَيْتُمْ﴾؛ وهذا آخر الإخبار عن السحرة.

﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۖ﴾ (٧٢) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الَّتِي ۖ جَنَّتْ حَتَّىٰ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ۖ﴾ (٧٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ يعني: مشركاً ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾. فيستريح ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة تنفعه. [أنشد ابن الأنباري في مثل هذا المعنى قوله:

أَلَا مَنْ لَيْفَسَ لَا تَمُوتُ فَيَنْقُضِي شَقَاوًا وَلَا تَحْيَا حَيَاةً لَهَا طَعْمُ^(٢)

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ قال ابن عباس: قد أدى الفرائض، ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الَّتِي﴾ يعني: درجات الجنة، وبعضها أعلى من بعض. والعلى، جمع العليا، وهو تأنيث الأعلى. قال ابن الأنباري: وإنما قال: «فأولئك»، لأن «من» تقع بلفظ التوحيد على تأويل الجمع. فإذا غلب لفظها، وحُدِّدَ الراجح إليها، وإذا بُيِّنَ تأويلها، جُمع المصروف إليها.

(١) السُّوق: جمع سوقة، وهم بمنزلة الرعية التي توسمها الملوك، ومن لم يكن ذا سلطان.

(٢) ما بين المعقنين زيادة من النسخة الإستانبولية، والييت في «القرطبي» ٢٢٧/١١. و«اللسان»: طعم.

قوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ﴾ يعني الثواب ﴿جَزَاءَ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي: تطهر من الكفر والمعاصي.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسِرْ بِعِبَادِي فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا عَشَقًا﴾ ﴿٧٧﴾ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْآلِيِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَصْلُ فِرْعَوْنَ قَوْمُهُ وَمَا هَذِهِ ﴿٧٩﴾ يَبْقَىٰ إِسْرَافُ قَدْ أَجْبَحْتَكَ مِنْ عَذَابِكَ وَوَعَدْتُكَ جَانِبَ الظُّلُمِ الْآثِمِينَ وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْمُنَّ وَالسَّوَئِ ﴿٨٠﴾ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَلَئِنْ لَفَقْنَا لَمَن تَابَ وَآمَنَ وَكَلَّ صَلَاحًا مِّمَّنْ آمَنَّا ﴿٨٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَسِرْ بِعِبَادِي﴾ أي: سِر بهم ليلاً من أرض مصر ﴿فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾ أي: اجعل لهم طريقاً ﴿فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ قرأ أبو المتوكل، والحسن، والنخعي، «يَبَسًا» بإسكان الباء. وقرأ الشعبي، وأبو رجاء، وابن السميع: «يابساً» بالف. قال أبو عبيدة: اليبس، متحرك الحروف، بمعنى اليابس، يقال: شاة يابس، أي: يابسة ليس لها لبن. وقال ابن قتيبة: يقال لليابس: ييس، وييس.

قوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ﴾ قرأ الأكثرون بالف. وقرأ أبان، وحمزة عن عاصم: «لا تخف». قال الزجاج: من قرأ «لا تخاف»، فالمعنى: لست تخاف، ومن قرأ «لا تخف»، فهو نهي عن الخوف. قال الفراء: قرأ حمزة: «لا تخف» بالجزم، ورفع «ولا تخشى» على الاستئناف، كقوله تعالى: ﴿يُولُوكُمُ الْأَذْدَادُ ثُمَّ لَا تُفَرِّجُونَ﴾ [آل عمران: ١١١] استأنف بهم، فهذا مثله، ولو نوى حمزة بقوله: «ولا تخش» الجزم وإن كانت فيه الياء، كان صواباً. قال ابن قتيبة: ومعنى ﴿دَرَكًا﴾ لحاقاً. قال المفسرون: قال أصحاب موسى: هذا فرعون قد أدركننا، وهذا البحر بين أيدينا، فأنزل الله على موسى ﴿لَا تَخَفْ دَرَكًا﴾ أي: من فرعون ﴿وَلَا عَشَقًا﴾ غرقاً في البحر.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾ قال ابن قتيبة: لحقهم. وروى هارون عن أبي عمرو: «فأتبعهم» بالتشديد. وقال الزجاج: تبع الرجل الشيء، وأتبعه، بمعنى واحد. ومن قرأ بالتشديد، ففيه دليل على أنه أتبعهم ومعه الجنود. ومن قرأ «فأتبعهم»، فمعناه: ألحق جنوده بهم، وجائز أن يكون معهم على هذا اللفظ، وجائز أن لا يكون، إلا أنه قد كان معهم. ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْآلِيِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: فغشيهم من ماء البحر ما غرقهم. وقال ابن الأنباري: ويعني بقوله: «ما غشيهم» البعض الذي غشيهم، لأنه لم يغشهم كل ماؤه. وقرأ ابن مسعود، وعكرمة، وأبو رجاء، والأعمش: «فغشاهم من اليم ما غشاهم» بالف فيهما مع تشديد الشين وحذف الياء.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْلُ فِرْعَوْنَ قَوْمُهُ﴾ أي: دعاهم إلى عبادته ﴿وَمَا هَذِهِ﴾ أي: [ما] أرشدكم حين أوردكم موارد الهلكة. وهذا تكذيب له في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿وَوَعَدْتُكَ جَانِبَ الظُّلُمِ الْآثِمِينَ﴾ لأخذ التوراة. وقد ذكرنا في [مريم: ٥٢] معنى: «الآثمين»، وذكرنا في [البقرة: ٥٧] «المن والسلاوي».

قوله تعالى: ﴿كُلُوا﴾ أي: وقلنا لهم: كلوا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا تطغوا في نعمي [فتظلموا]. والثاني: لا تجحدوا نعمي فتكونوا طاغين. والثالث: لا تدخروا منه لأكثر من يوم وليلة.

قوله تعالى: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي: فتجب لكم عقوبيتي. والجمهور قرؤوا «فيحل» بكسر الحاء ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ﴾ بكسر اللام. وقرأ الكسائي: «فيحل» بضم الحاء «ومن يحلل» بضم اللام. قال الفراء: والكسر أحب إليّ، لأن الضم من الحلول، ومعناه: الوقوع، ويحل بالكسر، يجب، وجاء التفسير بالوجوب، لا بالوقوع.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ أي: هلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ لَفَقْنَا﴾ الغفار: الذي يغفر ذنوب عباده مرة بعد أخرى، فكلما تكررت ذنوبهم تكررت مغفرته، وأصل الغفر: الستر، وبه سمي [زجر] الثوب: غفراً، لأنه يستر سداً. فالفغار: الستار للذنوب عباده، المسبل عليهم ثوب عطفه.

قوله تعالى: ﴿لَمَن تَابَ﴾ قال ابن عباس: لمن تاب من الشرك ﴿وَأَمَنَ﴾ أي: وحّد الله وصدّقه، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾

أدى الفرائض. وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفْتَدَى﴾ ثمانية أقوال: أحدها: علم أن لعمله هذا ثواباً، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: لم يشكك، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: علم أن ذلك توفيق من الله [له]، رواه عطاء عن ابن عباس. والرابع: لزم السنة والجماعة، قاله سعيد بن جبير. والخامس: استقام، قاله الضحاك. والسادس: لزم الإسلام حتى يموت عليه، قاله قتادة. والسابع: اهتدى كيف يعمل، قاله زيد بن أسلم. والثامن: اهتدى إلى ولاية بيت النبي ﷺ، قاله ثابت البناني.

﴿وَمَا أَفْجَلَك عَنْ قَوْمِكَ يَنْمُوسَى﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاهُ عَلَى أَثَرِي وَعَظِمْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٣﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَسْلَمْنَا السَّامِرِيُّ ﴿٨٤﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَيَسَافُ قَالَ يَقْوَرُ أَلَمْ يَبْدِكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُمْ مُوسَى ﴿٨٥﴾ قَالُوا مَا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمُلْنَا أَزْدَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٦﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُمُ خُزَاءٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهٗ مُوسَى قَتَلَهُ ﴿٨٧﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ بَرَجَ إِلَى بَيْتِهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرْاً وَلَا نَقْعًا ﴿٨٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفْجَلَك عَنْ قَوْمِكَ يَنْمُوسَى﴾ قال المفسرون: لما نجى الله تعالى بني إسرائيل وأغرق فرعون، قالوا: يا موسى، لو أتيتنا بكتاب من عند الله، فيه الحلال والحرام والفرائض، فأوحى الله [إليه يبعده] أنه ينزل عليه ذلك في الموضع الذي كلمه فيه، فاختار سبعين، فذهبوا معه إلى الطور لأخذ التوراة، فعيّل موسى من بينهم شوقاً إلى ربه، وأمرهم بلحاقه، فقال الله تعالى له: ما الذي حملك على العجلة عن قومك، ﴿قَالَ هُمْ أَوْلَاهُ﴾ أي: هؤلاء [على] أثري، وقرأ أبو رزين العقيلي، وعاصم الجحدري: «على إثري» بكسر الهمزة وسكون الشاء. وقرأ عكرمة، وأبو المتوكل، وابن يعمر، برفع الهمزة وسكون الشاء. وقرأ أبو رجاء، وأبو العالية: بفتح الهمزة وسكون الشاء. والمعنى: هم بالقرب مني يأتون بعدي ﴿وَعَظِمْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ أي: لتزداد رضئ، ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ قال الزجاج: ألقيناهم في فتنة ومحنة، واختبرناهم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ بَعْدَكَ﴾ أي: من بعد انطلاقتك من بينهم ﴿وَأَسْلَمْنَا السَّامِرِيُّ﴾ أي: كان سبباً لإضلالهم. وقرأ معاذ القارئ، وأبو المتوكل، وعاصم الجحدري، وابن السميع: «وأضلهم» برفع اللام. وقد شرحنا في [البقرة: ٥٢] سبب اتخاذ السامري العجل، وشرحنا في [الأعراف: ١٥٠] معنى قوله تعالى: ﴿عَفَيْنَ أَيَسَافُ﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَبْدِكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَا حَسَنًا﴾ أي: صدقاً، وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: إعطاء التوراة. والثاني: قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الْمَسْكَةَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا كُفْرَ عَنْكُمْ سَفَاتِكُمْ...﴾ الآية. [المائدة: ١٣]، وقوله: ﴿لَئِنْ لَفَقْنَا لَنْ تَابَ﴾ [طه: ٨٢]. والثالث: النصر والظفر.

قوله تعالى: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ﴾ أي: مدة مفارقتي إياكم ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أن تصنعوا صنيعاً يكون سبباً لغضب ربكم ﴿فَأَخْلَقْتُمْ مُوسَى﴾ أي: عهدي، وكانوا قد عاهدوه أنه إن فكهم الله من ملكة آل فرعون، أن يعبدوا الله ولا يشركوا به، وقيموا الصلاة، وينصروا الله ورسله. ﴿قَالُوا مَا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: بكسر الميم، وقرأ نافع، وعاصم: بفتح الميم. وقرأ حمزة، والكسائي: بضم الميم. قال أبو علي: وهذه لغات. وقال الزجاج: المُلْكُ، بالضم: السلطان والقدر. والمِلْكُ، بالكسر: ما حوته اليد. والمَلَكُ، بالفتح: المصدر، يقال: ملكت الشيء أملكه ملكاً. وللمفسرين في معنى الكلام أربعة أقوال: أحدها: ما كنا نملك الذي أخذ منه العجل، ولكنها كانت زينة آل فرعون، فخذفناها، قاله ابن عباس. والثاني: بطاقتنا، قاله قتادة، والسدي. والثالث: لم نملك أنفسنا عند الوقوع في البلية، قاله ابن زيد. والرابع: لم يملك مؤمنونا سفهائنا، ذكره الماوردي. فيخرج فيمن قال هذا لموسى قولان: أحدهما: أنهم الذين لم يعبدوا العجل. والثاني: عابده.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَزْدَارًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «حُمِلْنَا» بضم الحاء وتشديد الميم. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «حملنا» خفيفة. والأوزار: الأثقال. والمراد بها: حلي آل فرعون الذي كانوا استعاروه منهم قبل خروجهم من مصر. فمن قرأ «حُمِلْنَا» بالتشديد،

فالمعنى: **حَمَلْنَا [ها]** موسى، أمرنا باستعارتها من آل فرعون، **﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾** أي: طرحناها في الحفيرة. وقد ذكرنا سبب قذفهم إياها في سورة البقرة: ٥٢.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبَكِ آلِي الْأَنْدَالِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه ألقي حلياً كما ألقوا. والثاني: ألقي ما كان معه من تراب حافر فرس جبريل. وقد سبق شرح القصة في البقرة: ٥٢، وذكرنا في الأعراف: ١٤٨ معنى قوله تعالى: **﴿عَجَلَا جَسَدًا لَّمْ يَخُورْ﴾**

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ﴾ هذا قول السامري ومن وافقه من الذين افتنوا.

قوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾ في المشار إليه بالنسيان قولان: أحدهما: أنه موسى. ثم في المعنى ثلاثة أقوال: أحدها: هذا إلهكم وإله موسى فنسي موسى أن يخبركم أن هذا إلهه، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: فنسي موسى الطريق إلى ربه، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: فنسي موسى إلهه عندهم، وخالفه في طريق آخر، قاله قتادة. والثاني: أنه السامري، والمعنى: فنسي السامري إيمانه وإسلامه، قاله ابن عباس. وقال مكحول: فنسي، أي: فترك السامري ما كان عليه من الدين. وقيل: فنسي أن العجل لا يرجع إليهم قولاً، ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً. فعلى هذا القول، يكون قوله تعالى: **﴿فَنَسِيَ﴾** من إخبار الله ﷻ عن السامري. وعلى ما قبله، فيمن قاله قولان: أحدهما: أنه السامري. والثاني: بنو إسرائيل.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ﴾ قال الزجاج: المعنى: أفلا يرون أنه لا يرجع **﴿إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾** **﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقُولُ إِنَّمَا قُتِلْتُمْ بِدُونِ رَبِّكُمْ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾** **﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ عَنِكُمِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوْسَى﴾** **﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَّكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ سَلَوْا﴾** **﴿أَلَا تَتَذَكَّرُ أَمْرِي﴾** **﴿قَالَ يَنْتَوِمُ لَا تَأْخُذْ بِلِجَتِي وَلَا يَرْأَوْهُ إِلَى خَشِيثٍ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي﴾**

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل أن يأتي موسى **﴿يَقُولُ إِنَّمَا قُتِلْتُمْ بِدُونِ﴾** أي: ابتليتكم **﴿وَأِذْ رَجَعُ الرَّحْمَنُ﴾** لا العجل، **﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ عَنِكُمِينَ﴾** أي: لن نزال مقيمين على عبادة العجل **﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوْسَى﴾** فلما رجع موسى **﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَّكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ سَلَوْا﴾** بعبادة العجل **﴿أَلَا تَتَذَكَّرُ﴾** قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «ألا تتبعني» بياء في الوصل ساكنة، ويقف ابن كثير بالياء، وأبو عمرو بغير ياء. وروى إسماعيل بن جعفر عن نافع: «ألا تتبعني أفحصيت» بياء منصوبة. وروى قالون عن نافع مثل أبي عمرو سواء. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: بغير ياء في الوصل، والوقف. والمعنى: ما منعك من اتباعي. و«ألا» كلمة زائدة. وفي المعنى ثلاثة أقوال: أحدها: تسير ورأيت بمن معك من المؤمنين، وتفارقهم. رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. والثاني: أن تناجزهم القتال، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: في الإنكار عليهم، قال مقاتل.

قوله تعالى: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ وهو قوله في وصيته إياه: **﴿اتَّخِذْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾** قال المفسرون: ثم أخذ برأس أخيه ولحيته غضباً منه عليه. وهذا وإن لم يذكر هاهنا، فقد ذكر في الأعراف: ١٥٠ فاكثرتي بذلك، وقد شرحنا هناك معنى «يا ابن أم» واختلاف القراء فيها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْأَوْهُ﴾ أي: بشعر رأسي. وهذا الغضب كان لله ﷻ، لا لنفسه، لأنه وقع في نفسه أن هارون عصى الله بترك اتباع موسى.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ أي: إن فارقتهم واتبعتك **﴿أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾** وفيه قولان: أحدهما: باتباعي إياك ومن معي من المؤمنين. والثاني: بقتالي لبعضهم ببعض. وفي قوله تعالى: **﴿وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي﴾** قولان: أحدهما: لم ترفع قولي لك: **﴿اتَّخِذْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾**. والثاني: لم تنتظر أمري فيهم.

﴿قَالَ فَمَا خُلْبُكَ يَسْمِعُ﴾ **﴿قَالَ بَشَرْتُ بِمَا لَمْ يَحْضُرْ بِدُونِ فَقَضَيْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾** **﴿قَالَ فَأَدَّتْهَا قَلْبُكَ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُغْلَبُوا وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْبُقَنَّ فِي الْآبِئْرِ نَسْفًا﴾** **﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾**

قوله تعالى: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَسِيرٌ﴾ أي: ما أمرك وشأنك الذي دعاك إلى ما صنعت؟ قال ابن الأنباري: وبعض اللغويين يقول: الخطب مشتق من الخطاب. المعنى: ما أمرك الذي تخاطب فيه؟ واختلفوا في اسم السامري على قولين: أحدهما: موسى أيضاً، قاله وهب بن منبه، وقال: كان ابن عم موسى بن عمران. والثاني: ميخا، قاله ابن السائب. وهل كان من بني إسرائيل، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: لم يكن منهم، قاله ابن عباس. والثاني: كان من عظمائهم، وكان من قبيلة تسمى «سامرة»، قاله قتادة. وفي بلدة قولان: أحدهما: كرمان، قاله سعيد بن جبيرة. والثاني: باجرما، قاله وهب.

قوله تعالى: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ وقرأ حمزة والكسائي: «تَبَصَّرُوا»، بالتاء. فعلى قراءة الجمهور أشار إلى بني إسرائيل، وعلى هذه القراءة خاطب الجميع. قال أبو عبيدة: علمت ما لم تعلموا. قال: وقوم يقولون: بصرت، وأبصرت سواء، بمنزلة أسرع، وسرعت. وقال الزجاج: يقال: بصر الرجل يبصر: إذا صار عليمًا بالشيء، وأبصر يبصر: إذا نظر. قال المفسرون: فقال له موسى: وما ذاك؟ قال: رأيت جبريل على فرس، فألقي في نفسي: أن قبض من أثرها ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾، وقرأ أبي بن كعب، والحسن، ومعاذ القارئ: «قبضة» بالصاد. وقال الفراء: والقبض بالكف كلها، والقبضة - بالصاد - بأطراف الأصابع. قال ابن قتيبة: ومثل هذا: الخضم بالفم كله، والقضم بأطراف الأسنان، والنضج أكثر من النضج، والرجز: العذاب، والرجس: التنن، والهلاس في البدن، والسلاس في العقل، والغلط في الكلام، والغلت في الحساب، والخصر: الذي يجد البرد، والخرص: الذي يجد البرد، والجوع، والنار الخامة: التي قد سكن لخبثها ولم يطفأ جمرها، والهامة: التي طفت فتذهبت البتة، والشكد: العطاء ابتداءً، فإن كان جزءاً فهو شكك، والماتح: الذي يدخل فيملا الدلو، والماتح: الذي يزرعها.

قوله تعالى: ﴿فَتَبَذْتُهَا﴾ أي: فقدتها في العجل. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف: «فنبذتها» بالإدغام ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما حدثك ﴿سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ أي: زينت لي ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿أَنفَعَنِي﴾ أي: من بيننا ﴿فَأَمَّا لَكَ فِي الْحَيَاةِ﴾ أي: ما دمت حياً ﴿أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: لا أمس ولا أمس، فصار السامري يهيم في البرية مع الوحش والسباع، لا يمس أحداً، ولا يمس أحداً، ولا يمس أحداً، عاقبه الله بذلك، وألهمه أن يقول: «لا مساس»، وكان إذا لقي أحداً يقول: لا مساس، أي: لا تقرني، ولا تمسني، وصار ذلك عقوبة لولده، حتى إن بقاياهم اليوم، فيما ذكر أهل التفسير، بأرض الشام يقولون ذلك. وحكي أنه إن مس واحد من غيرهم واحداً منهم، أخذتهما الحمى في الحال.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: لعذابك يوم القيامة ﴿أَنْ تَخْلَفَنَّ﴾ أي: لن يتأخر عنك. ومن كسر لام «تخلف» أراد: لن تغيب عنه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ﴾ يعني: العجل ﴿الَّذِي ظَلَمْتَ﴾ قال ابن عباس: معناه: أقمت عليه. وقال الفراء: معنى «ظلمت»: فعلته نهاراً. وقرأ أبي بن كعب، وأبو الجوزاء، وابن يعمر: «ظلمت» برفع الظاء. وقرأ ابن مسعود، وأبو رجا، والأعمش، وابن أبي عتبة: «ظلمت» بكسر الظاء. وقال الزجاج: «ظلمت» و«ظلمت» بفتح الظاء، وكسرها، فمن فتح، فالأصل فيه: «ظلمت» ولكن اللام حذفت لثقل التضعيف والكسر، وبقيت الظاء على فتحها، ومن قرأ: «ظلمت» بالكسر، حوّل كسرة اللام على الظاء. ومعنى ﴿عَاكِفًا﴾ مقيماً، ﴿لَتُحْرِقَنَّهُ﴾ قرأ الجمهور: «لنحرقه» بضم النون وفتح الحاء وتشديد الراء، وقرأ علي بن أبي طالب، وأبو رزين، وابن يعمر: «لنحرقه» بفتح النون وسكون الحاء وزحف الراء مخففة. وقرأ أبو هريرة، والحسن، وقتادة: «لنحرقه» برفع النون وإسكان الحاء وكسر الراء مخففة. قال الزجاج: إذا شدد، فالمعنى: نحرقه مرة بعد مرة. وتأويل «لنحرقه»: لنبردته، يقال: حرقت أحرق وأحرق: إذا بردت الشيء. والنسف: التذرية. وجاء في التفسير: أن موسى أخذ العجل فذبحه، فسال منه دم، لأنه كان قد صار لحماً ودماً، ثم أحرقه بالنار، ثم ذراه في البحر، ثم أخبرهم موسى عن إلههم، فقال: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو الذي يستحق العبادة، لا العجل، ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: وسع علمه كل شيء.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ ﴿٩٩﴾ مِّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَلِيلَيْنِ

يَوْمَ وَسَاءَ لَمَن يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ وَتَنشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَخْفَتُونَ يَتَنَبَّهُونَ إِن لَّيْسَ لَكُم مَّا أَكَلْتُمْ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهِمْ طَرِيقَةً إِن لَّيْسَ لَكُم مَّا يَوْمَا ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي: كما قصصنا عليك يا محمد من نبأ موسى وقومه، نقص عليك ﴿مِنَ الْآلَاءِ مَا قَدَ سَبَقَ﴾ أي: من أخبار من مضى، والذكر هاهنا: القرآن ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ فلم يؤمن، ولم يعمل بما فيه ﴿فَأَنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وقرأ عكرمة، وأبو المتوكل، وعاصم الجحدري: ﴿يُحْمَلُ﴾ برفع الياء وفتح الحاء وتشديد الميم، ﴿وَزُرْقًا﴾ أي: إنمأ ﴿خَلِيلِينَ فِيهِ﴾ أي: في عذاب ذلك الوزر ﴿وَسَاءَ لَمَن﴾ قال الزجاج: المعنى: وساء الوزر لهم يوم القيامة ﴿حَمْلًا﴾، و﴿حملًا﴾ منصوب على التمييز.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ﴾ قرأ أبو عمرو: «انفخ» بالنون، وقرأ الباقون من السبعة: «ينفخ» بالياء، على ما لم يسم فاعله. وقرأ أبو عمران الجوني: «يوم ينفخ» بياء مفتوحة ورفع الفاء، وقد سبق بيانه. ﴿وَتَنشُرُ الْمُجْرِمِينَ﴾ وقرأ أبي بن كعب، وأبو الجوزاء، وطلحة بن مصرف: «ويحشر» بياء مفتوحة ورفع الشين. وقرأ ابن مسعود، والحسن، وأبو عمران: «ويحشر» بياء مرفوعة وفتح الشين «المجرمون» بالواو. قال المفسرون: والمراد بالمجرمين: المشركون. ﴿يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ وفيه قولان: أحدهما: غمياً، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وقال ابن قتيبة: بيض العيون من الغمى، قد ذهب السواد، والناظر. والثاني: زُرْق العيون من شدة العطش، قاله الزهري. والمراد: أنه يشوه خلقهم بسواد الوجوه، وزرق العيون.

قوله تعالى: ﴿يَخْفَتُونَ يَتَنَبَّهُونَ﴾ أي: يسار بعضهم بعضاً ﴿إِن لَّيْسَ لَكُم مَّا﴾ ما لبثتم إلا عشر ليال. وهذا على طريق التقليل، لا على وجه التحديد. وفي مرادهم بمكان هذا اللبث قولان: أحدهما: القبور. ثم فيه قولان: أحدهما: أنهم عَنُوا طول ما لبثوا فيها، روى أبو صالح عن ابن عباس: إن لبثتم بعد الموت إلا عشرًا. والثاني: ما بين النفتين، وهو أربعون سنة، فإنه يخفف عنهم العذاب حيثئذ، فيستقلون مدة لبثهم لهول ما يعاينون، حكاه علي بن أحمد النيسابوري. والقول الثاني: أنهم عَنُوا لبثهم في الدنيا، قاله الحسن، وقاتدة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ أَفْلَهِمْ طَرِيقَةً﴾ أي: أعقلهم، وأعدلهم قولاً ﴿إِن لَّيْسَ لَكُم مَّا﴾ فَنسي القوم مقدار لبثهم لهول ما عاينوا.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٤﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٥﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٦﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا سَمْعَ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ شَيْءٍ ﴿١٠٩﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْبَئِيسِ ﴿١١٠﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَمَسَّلْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَجِدُ آلَافَرَانٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَفْجُرَ لَكُمْ وَجْهًا وَمَلَكُوتُ رَبِّكَ يَذُنُ لَكُمْ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ سبب نزولها أن رجلاً من ثقيف أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد! كيف تكون الجبال يوم القيامة؟ فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس^(١).

قوله تعالى: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ قال المفسرون: النسف: التذرية. والمعنى: يصيرها رمالاً تسيل سيلاً، ثم يصيرها كالصوف المنفوش، تطيرها الرياح فتستأصلها ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: يذع أماكنها من الأرض إذا نسفها ﴿قَاعًا﴾ قال ابن قتيبة: القاع من الأرض: المستوي الذي يعلوه الماء، والصفصف: المستوي أيضاً، يريد: أنه لا نبت فيها.

قوله تعالى: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ في ذلك ثلاثة أقوال: أحدها: أن المراد بالعوَج: الأودية، وبالأمت: الرَوابي، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وكذلك قال مجاهد: العوج: الانخفاض، والأمت، الارتفاع، وهذا مذهب الحسن. وقال ابن قتيبة: الأمت: البُك. والثاني: أن العوج: التميل، والأمت: الأثر مثل الشراك، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أن العوج: الصدع، والأمت، الأكمة.

(١) ذكره السيوطي في «الدر» ٣٠٧/٤ من رواية ابن المنذر عن ابن جريج قال: قالت قريش: يا محمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة؟ فنزلت: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ قال الفراء: أي: يتبعون صوت الداعي للحشر، لا عِوَجَ لهم عن دعائه: لا يقدرون أن لا يتبعوا.

قوله تعالى: ﴿وَحَشَمَ الْأَمْوَاتِ﴾ أي: سكنت وخفيت ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: وظء الأقدام، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد في رواية، واختاره الفراء، والزجاج. والثاني: تحريك الشفاه بغير نطق، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثالث: الكلام الخفي، روي عن مجاهد. وقال أبو عبيدة: الصوت الخفي.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ﴾ يعني: لا تنفع أحدًا ﴿إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ أي: إلا شفاعته من أذن له الرحمن، أي: أذن أن يُشْفَعَ له، ﴿وَرِزْقِي لَكُمْ قَوْلًا﴾ أي: ورزقي للمشفوع فيه قولاً، وهو الذي كان في الدنيا من أهل: «لا إله إلا الله». ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ الكناية راجعة إلى الذين يتبعون الداعي. وقد شرحنا هذه الآية في سورة [البقرة: ٢٥٥]. وفي هاء «به» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله تعالى، قاله مقاتل. والثاني: إلى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ﴾ قال الزجاج: «عَنَت» في اللغة: خضعت، يقال: عنا يعنوا: إذا خضع، ومنه قيل: أُخِذَتِ الْبِلَادُ عُنُوًا: إذا أخذت غلبةً، وأخذت بخضوع من أهلها. والمفسرون على أن هذا في يوم القيامة، إلا ما روي عن طلق بن حبيب: هو وضع الجبهة والأنف والكفين والرُكبتين وأطراف القدمين على الأرض للسجود. وقد شرحنا في آية الكرسي معنى ﴿الْعَالِي الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ قال ابن عباس: خَسِرَ من أشرك بالله.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ «مِنْ» هاهنا للجنس. وإنما شرط الإيمان، لأن غير المؤمن لا يُقْبَلُ عمله، ولا يكون صالحاً، ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ أي: فهو لا يخاف. وقرأ ابن كثير: «فَلَا يَخَفُ» على النهي.

قوله تعالى: ﴿ظُلْمًا وَلَا هُمَا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: لا يخاف أن يُظْلَمَ فيُزَادَ في سيئاته، ولا أن يُهْضَمَ من حسناته، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: لا يخاف أن يُظْلَمَ فيُزَادَ من ذَنْبٍ غيره، ولا أن يُهْضَمَ من حسناته، قاله قتادة. والثالث: أن لا يخاف أن يُوَاضَحَ بما لم يعمل، ولا يُنْقَصَ من عمله الصالح، قاله الضحاك. والرابع: لا يخاف أن لا يُجْزَى بعمله، ولا أن يُنْقَصَ من حَقِّه، قاله ابن زيد. قال اللغويون: الهضم: النقص، تقول العرب: هَضَمْتُ لَكَ مِنْ حَقِّي، أي: حَطَطْتُ، ومنه: فلان هَضِمَ الْكُشْحِينَ، أي: ضامر الجنين، ويقال: هذا شيء يهضم الطعام، أي: ينقص ثقله. وفرق بعض المفسرين بين الظلم والهضم، فقال: الظلم: منع الحق كله، والهضم: منع البعض، وإن كان ظُلْمًا أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَرْسَلْنَاهُ﴾ أي: وكما بَيَّنَّا في هذه السورة، أنزلناه، أي: أنزلنا هذا الكتاب ﴿فَرَعَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ أي: بَيَّنَّا فيه ضروب الوعيد. قال قتادة: يعني: وقائعه في الأمم المكذبة.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: ليكون سبباً لاتقائهم الشرك بالاعتاظ بمن قبلهم ﴿أَوْ يُخَوِّتُ لَهُمْ﴾ أي: يجدد لهم القرآن، وقيل: الوعيد ﴿وَصَعْرًا﴾ أي: اعتباراً، فيذكروا به عقاب الأمم، فيعتبروا. وقرأ ابن مسعود، وعاصم الجحدري: «أَوْ نُخَوِّتُ» بنون مرفوعة.

قوله تعالى: ﴿فَتَنَسَّلَ اللَّهُ﴾ أي: جَلَّ عن إلحاد الملحدين وقول المشركين في صفاته، ﴿الْمَلِكِ﴾ الذي بيده كل شيء، ﴿الْحَقِّ﴾ وقد ذكرناه في [يونس: ٣٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن جبريل كان يأتي النبي ﷺ بالسورة والآي فيتلوها عليه، فلا يفرج جبريل من آخرها حتى يتكلم رسول الله ﷺ بأولها مخافة أن ينساها، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس^(١). والثاني: أن رجلاً لطم امرأته، فجاءت إلى رسول الله ﷺ تطلب القصاص، فجعل

(١) قال السيوطي في «الدرر»: ٣٠٩/٤: أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﷺ في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ يَنْ قِيلُ أَنْ قُضِيَ إِلَيْكَ رِسْمٌ يَقُولُ: لَا تَجْعَلْ حَتَّى يَنْبِيَهُ لَكَ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ ﴿١١٥﴾ قرأ أبي بن كعب: «لا تُجَاع ولا تُعْرَى» بالتاء المضمومة والألف. ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «وَأَنَّكَ» مفتوحة الألف. وقرأ نافع، وأبو بكر عن عاصم: «وَأَنَّكَ» بكسر الألف. قال أبو علي: من فتح، حملة على أن لك أن لا تجوع، وأن لك أن لا تظما، ومن كسر، استأنف.

قوله تعالى: ﴿لَا تَقْطَعُ فِيهَا﴾ أي: لا تعطش. يقال: ظمى الرجل ظمًا، فهو ظمآن، أي: عطشان. ومعنى ﴿وَلَا تَصْحَىٰ﴾ لا تبرز للشمس فيصيبك حرها، لأنه ليس في الجنة شمس.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْغُلْدَاسِ﴾ أي: على شجرة من أكل منها لم يمُتْ ﴿وَمَّا لَا يَبُورُ﴾ جديده ولا يفنى. وما بعد هذا مفسر في [الأعراف: ٢٢]. وفي قوله تعالى: ﴿فَقَوَّيْ﴾ قولان: أحدهما: ضلَّ طريق الخلود حيث أراد من قِبَل المعصية. والثاني: فسد عليه عيشه، لأن معنى الغي: الفساد. قال ابن الأنباري: وقد غلط بعض المفسرين، فقال: معنى «غوى»: أكثر: مما أكل من الشجرة حتى بشم، كما يقال: غوى الفصيل: إذا أكثر من لبن أمه فبشم فكاد يهلك، وهذا خطأ من وجعين: أحدهما: أنه لا يقال من البشم: غَوَى يَغْوِي، وإنما يقال: غَوَى يَغْوِي. والثاني: أن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف: ٢٢] يدل على أنهما لم يَكْثِرا، ولم تتأخر عنهما العقوبة حتى يصلا إلى الإكثار. قال ابن قتيبة: فنحن نقول في حق آدم: عصى وغوى كما قال الله ﷻ، ولا نقول: آدم عاصٍ وغاوى، كما تقول لرجل قطع ثوبه وخاطه: قد قطعه وخاطه، ولا تقول: هذا خياط، حتى يكون معاوداً لذلك الفعل، معروفاً به.

قوله تعالى: ﴿فَمِمَّا كَسَبَتْ﴾ قد بيَّنا الاجتناء في [الأنعام: ٨٧] ﴿فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ أي: هداه للتوبة. ﴿قَالَ أَقْبَلُ﴾ في المشار إليهما قولان: أحدهما: آدم وإبليس، قاله مقاتل. والثاني: آدم وحواء، قاله أبو سليمان الدمشقي. ومعنى قوله تعالى: ﴿بِمُكْرٍ لِّمَعْشَرٍ عَدُوٍّ﴾ آدم وذريته، وإبليس وذريته، والحية أيضاً^(١)؛ وقد شرحنا هذا في [البقرة: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَتَّبِعْ هَٰذَا﴾ أي: رسولي وكتابي ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ قال ابن عباس: من قرأ القرآن وأتبع ما فيه، هداه الله من الضلالة، ووقاه سوء الحساب، ولقد ضمن الله لمن أتبع القرآن أن لا يَضِلَّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَغْرَىٰ عَنْ ذِكْرِي﴾ قال عطاء: عن موعظتي. وقال ابن السائب: عن القرآن ولم يؤمن به ولم يتبعه. قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال أبو عبيدة: معناه: معيشة ضيقة، والضنك يوصف به الأنثى والذكر بغير هاء، وكل عيش أو مكان أو منزل ضيق، فهو ضنك، وأنشد:

وإِنْ نَزَّلُوا بِضَضْنِكَ فَانْزِلْ^(٢)

وقال الزجاج: الضنك أصله في اللغة: الضيق والشدة. وللمفسرين في المراد بهذه المعيشة خمسة أقوال: أحدها: أنها عذاب القبر، روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اتدرون ما المعيشة الضنك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون ثقيلاً ينفخون في جسمه ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم القيامة^(٣). ومن ذهب إلى أنه عذاب القبر ابن مسعود، وأبو سعيد الخدري، والسدي. والثاني: أنه ضغطة القبر حتى تختلف أضلعه فيه، رواه عطاء عن ابن عباس. والثالث: شدة عيشه في النار، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال

(١) انظر التعليق الذي في الصفحة ٥٦.

(٢) هذا جزء من عجز بيت لعنترة بن عمرو بن شداد العبسي، وهو في «مجاز القرآن» ٣٢/٢، و«الطبري» ٢٢٥/١٦، و«القرطبي» ٢٥٨/١١، ومختار الشعر الجاهلي ٣٨٨/١، والبيت بتمامه:

إِنْ يُنْزَلُوا أَكْرَزُوا وَإِنْ يُسَلَّحُوا
وفي «اللسان» مادة «ضنك»: الضنك: الضيق من كل شيء، الذكر والأنثى فيه سواء، ومعيشة ضنك: ضيقة، وفي التنزيل: ﴿إِنَّ لَكُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، أي: غير حلال.

(٣) «الطبري» ٢٢٨/١٦، وأسباب النزول للواحدي ١٧٤، وأورده السيوطي في «الدر» ٣١١/٤، وهو حديث ضعيف، وذكره ابن كثير ١٦٩/٣ وقال: رفعه منكر جداً.

الحسن، وقتادة، وابن زيد. قال ابن السائب: وتلك المعيشة من الضريع والزقوم. والرابع: أن المعيشة الضنك: كسب الحرام، روى الضحاك عن ابن عباس قال: المعيشة الضنك: أن تضيق عيه أبواب الخير فلا يهتدي لشيء منها، وله معيشة حرام يركض فيها. قال الضحاك: فهذه المعيشة هي الكسب الخبيث، وبه قال عكرمة. والخامس: أن المعيشة الضنك: المال الذي لا يتقي الله صاحبه فيه، رواه العوفي عن ابن عباس. فخرج في مكان المعيشة ثلاثة أقوال: أحدها: القبر. والثاني: الدنيا. والثالث: جهنم. وفي قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «أعمى» ﴿لَرَّ حَضَرَتِي أَعْمَى﴾ بفتح الميمين. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم بكسرهما. وقرأ نافع بين الكسر والفتح. ثم في هذا العمى للمفسرين قولان: أحدهما: أعمى البصر، روى أبو صالح عن ابن عباس قال: إذا أخرج من القبر خرج بصيراً، فإذا سيق إلى المحشر عمي. والثاني: أعمى عن الحجة، قاله مجاهد، وأبو صالح. قال الزجاج: معناه: فلا حجة له يهتدي بها، لأنه ليس للناس على الله حجة بعد الرسل.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: الأمر كذلك كما ترى ﴿أَنْتَكَ أَهْلُنَا فَنِيْنَهَا﴾ أي: فتركناها ولم تؤمن بها؛ وكما تركناها في الدنيا تُترك اليوم في النار. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما ذكرنا ﴿تَجْرِي مِنْ أَشْرَفٍ﴾ أي: أشرك، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشدُّ﴾ من عذاب الدنيا ومن عذاب القبر ﴿وَأَبْقَى﴾ لأنه يدوم.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبْدِبْ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿وَلَوْلَا كِتَابُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ أَكَاظِمِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبْدِبْ لَهُمْ﴾ أي: أفلم يبين لكفار مكة إذا نظروا آثار من أهلكنا من الأمم؛ وكانت قريش تشجر وترى مساكن عاد وثمود وفيها علامات الهلاك، فذلك قوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾. وروى زيد عن يعقوب: «أفلم نهدهم بالنون».

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كِتَابُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ في تأخير العذاب عن هؤلاء الكفار إلى يوم القيامة، وقيل: إلى يوم بدر، وقيل: إلى انقضاء آجالهم ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾ أي: لكان العذاب لازماً، أي: لازماً لهم. واللزام: مصدر وُصف به العذاب. قال الفراء وابن قتيبة: في هذه الآية تقديم وتأخير، والمعنى: ولولا كلمة وأجل مستق لكان لازماً. قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أمر الله تعالى نبيه بالصبر على ما يسمع من أذاهم إلى أن يحكم الله فيهم، ثم حكم فيهم بالقتل، ونسخ بآية السيف إطلاق الصبر.

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: صلِّ له بالحمد له والثناء عليه ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾: يريد الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني: العصر ﴿وَمِنْ أَكَاظِمِ اللَّيْلِ﴾ الآناء: الساعات، وقد بيناها في [آ عمران: ١١٣]، ﴿فَسَبِّحْ﴾ أي: فصلِّ. وفي المراد بهذه الصلاة أربعة أقوال: أحدها: المغرب والعشاء، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال قتادة. والثاني: جوف الليل، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: العشاء، قاله مجاهد، وابن زيد. والرابع: أول الليل وأوسطه وآخره، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ المعنى: وسبِّح أطراف النهار. قال الفراء: إنما هما طرفان، فخرجا مخرج الجمع، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا إِلَى اللَّهِ فَذَرْتُمْ ظُهُورَكُمْ﴾ [التحریم: ٤]. وللمفسرين في المراد بهذه الصلاة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الظهر، قاله قتادة؛ فعلى هذا، إنما قيل لصلاة الظهر: أطراف النهار، لأن وقتها عند الزوال، فهو طرف النصف الأول وطرف النصف الثاني. والثاني: أنها صلاة المغرب وصلاة الصبح، قاله ابن زيد؛ وهذا على أن الفجر في ابتداء الطرف الأول، والمغرب في انتهاء الطرف الثاني. والثالث: أنها الفجر والظهر والعصر؛ فعلى هذا يكون الفجر من الطرف الأول، والظهر والعصر من الطرف الثاني، حكاها الفراء.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، وحفص عن عاصم: «ترضى» بفتح التاء. وقرأ الكسائي، وأبو بكر عن عاصم بضمها. فمن فتح، فالمعنى: لعلك ترضى ثواب الله الذي يعطيك. ومن ضمها، ففيه وجهان: أحدهما: لعلك ترضى بما تُعطى. والثاني: لعل الله أن يرضاك.

﴿وَلَا تَدْنُ عَيْنُكَ إِلَّا مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣١﴾ وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْبَحَ عَلَيْهِ لَا تَشْكَلُ رِزْقًا نَحْنُ رَزَقُوكَ وَالْمَلِيقَةُ لِلْفُقَرَى ﴿١٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْنُ عَيْنُكَ﴾ سبب نزولها، ما روى أبو رافع مولى رسول الله ﷺ، قال: نزل ضيف برسول الله ﷺ، فدعاني فارسلي إلى رجل من اليهود يبيع طعاماً، فقال: قل له: إن رسول الله ﷺ يقول: «يعني كذا وكذا من الدقيق، أو أسلفني إلى هلال رجب»، فأتيته فقلت له ذلك، فقال اليهودي: والله لا أبيع ولا أسلف إلا برهن، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «والله لو باعني أو أسلفني لقضيته، وإني لأمين في السماء أمين في الأرض، اذهب بدرهي الحديد إليه»، فنزلت هذه الآية تعزية له عن الدنيا^(١). قال أبي بن كعب: من لم يتعزَّ بعزاء الله تقطعت نفسه حسرات على الدنيا. وقد مضى تفسير هذه الآية في آخر [الحجر: ٨٨].

قوله تعالى: ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقرأ ابن مسعود، والحسن، والزهري، ويعقوب: «زَهْرَة» بفتح الهاء. قال الزجاج: وهو منصوب بمعنى «متعنا»، لأن معنى «متعنا»: جعلنا لهم الحياة الدنيا زهرة، ﴿لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنجعل ذلك فتنة لهم. وقال ابن قتيبة: لنختبرهم. قال المفسرون: زهرة الدنيا: بهجتها وغضارتها وما يروق الناظر منها عند رؤيته، وهو من زهرة النبات وحسنه.

قوله تعالى: ﴿وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه ثوابه في الآخرة. والثاني: القناعة. قوله تعالى: ﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ قال المفسرون: المراد بأهله: قومه ومن كان على دينه، ويدخل في هذا أهل بيته. قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ عَلَيْهِ لَا تَشْكَلُ رِزْقًا﴾. أي: لا تكلفك رزقاً لنفسك ولا لخلقنا، إنما نأمرك بالعباداة ورزقك علينا، ﴿وَالْمَلِيقَةُ لِلْفُقَرَى﴾ أي: وحسن العاقبة لأهل التقوى. وكان بكر بن عبد الله المزني إذا أصاب أهله خصاصة قال: قوموا فصلوا، ثم يقول: بهذا أمر الله تعالى ورسوله، ويتلو هذه الآية. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٣٢﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتِجَ عَيْنُكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَى ﴿١٣٣﴾ قُلْ كُلُّ مُرْصِدٍ مُرْصِدٌ فَتَسْتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَكَى ﴿١٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ يعني: المشركين ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿يَأْتِينَا﴾ محمد ﴿بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: كآيات الأنبياء، نحو الناقة والعصا، ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: «تأتهم» بالطاء. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وحزمة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «يأتهم» بالياء.

قوله تعالى: ﴿بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ أي: أولم يأتهم في القرآن بيان ما في الكتب من أخبار الأمم التي أهلكناها لما سألوا الآيات ثم كفروا بها، فما يؤمنهم أن تكون حالهم في سؤال الآيات كحال أولئك؟! ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ يعني: مشركي مكة ﴿بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ في الهاء قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الكتاب، قاله مقاتل. والثاني: إلى الرسول، قاله الفراء.

قوله تعالى: ﴿لَقَالُوا﴾ يوم القيامة: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ يدعونا إلى طاعتك ﴿فَنُتِجَ عَيْنُكَ﴾ أي: نعمل بمقتضاها ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ﴾ بالعذاب ﴿وَنُخْزَى﴾ في جهنم. وقرأ ابن عباس، وابن السميع، وأبو حاتم عن يعقوب: «نُذِّلَّ» و«نُخْزَى» برفع النون فيهما، وفتح الدال. «قُلْ» لهم يا محمد: «كُلُّ» منا ومنكم «مُرْصِدٌ» أي: نحن نترصد بكم العذاب في الدنيا، وأنتم تترصدون بنا الدوائر «مُرْصِدُونَ» أي: فانتظروا «فَسْتَعْلَمُونَ» إذا جاء أمر الله «مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ» أي: الدين المستقيم «وَمَنِ اهْتَكَى» من الضلالة، أنحن، أم أنتم؟ وقيل: هذه منسوخة بآية السيف، وليس يشيء.



(١) «الطبري» ٢٣٥/١٦، وأورده السيوطي في «الدر» ٣١٢/٤ وزاد نسبه لابن أبي شيبه، وابن راهويه، والبخاري، وأبي يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والخراطي في «مكارم الأخلاق»، وأبي نعيم في «المعرفة» عن أبي رافع.

سورة الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ❶ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُخَدَّبٍ إِلَّا اسْتَمْتَعُوا وَمَنْ يَلْمِزُونَ لَاهِيَةً قُلُوبِهِمْ وَأَسْرَأُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْعِرُونَ﴾ ❷ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ❸ بَلْ قَالُوا أَتُخَدِّعُ أَحَدًا مِنْهُمْ بَلْ أَفْتَرْنَا بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ❹ مَا آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ قُرْبَى أَهْلَكْنَاهَا أَهْمُ يَقُولُونَ ❺ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَتْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ❻ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ❼ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ❽ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ❾

وهي مكية بإجماعهم من غير خلاف تعلمه.

قوله ﴿اقْتَرَبَ﴾: اقترع، من القرب، يقال: قَرُبَ الشيء، واقترب. وهذه الآية نزلت في كفار مكة. وقال الزجاج: اقترب للناس وقت حسابهم. وقيل: اللام في قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ بمعنى «من». والمراد بالحساب: محاسبة الله لهم على أعمالهم. وفي معنى قُرْبَى قولان: أحدهما: أنه آتٍ، وكلُّ آتٍ قريب. والثاني: لأن الزمان - لكثرة ما مضى وقلة ما بقي - قريب.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَلْمِزْهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي: عما يفعل الله بهم ذلك اليوم ﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن التأمل له. وقيل: «اقترب للناس» عام، والغفلة والإعراض خاص في الكفار، بدلالة قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُخَدَّبٍ﴾، وفي هذا الذكر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه القرآن، قاله ابن عباس: فعلى هذا تكون الإشارة بقوله: ﴿مُخَدَّبٍ﴾ إلى إنزاله له، لأنه أنزل شيئاً بعد شيء. والثاني: أنه ذكر من الأذكار، وليس بالقرآن، حكاه أبو سليمان الدمشقي. وقال النقاش: هو ذكر من رسول الله، وليس بالقرآن. والثالث: أنه رسول الله، بدليل قوله في سياق الآية: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، قاله الحسن بن الفضل. قوله تعالى: ﴿إِلَّا اسْتَمْتَعُوا وَمَنْ يَلْمِزُونَ﴾ قال ابن عباس: يستمعون القرآن مستهزئين.

قوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبِهِمْ﴾ أي: غافلة عما يُراد بهم. قال الزجاج: المعنى: إلا استمعوه لاهيين لاهية قلوبهم؛ ويجوز أن يكون منصوباً بقوله: «يلعبون». وقرأ عكرمة، وسعيد بن جبير، وابن أبي عبله: «لاهيّة» بالرفع.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْرَأُوا النَّجْوَى﴾ أي: تناجوا فيما بينهم، يعني المشركين. ثم بيّن مَنْ هُم فقال: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا بالله. والذين في موضع رفع على البدل من الضمير في «وأسرأوا». ثم بيّن سِرَّهُم الذي تناجوا به فقال: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: آدمي، فليس بملك؛ وهذا إنكار لنبوته. وبعضهم يقول: «أسرأوا» هاهنا بمعنى: أظهروا، لأنه من الأضداد.

قوله تعالى: ﴿أَنْتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾ أي: أفتقبلون السحر ﴿وَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أنه سحر؟! يعنون أن متابعة محمد ﷺ متابعة السحر. ﴿قُلْ رَبِّيَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «قل ربي». وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «قال ربي»، وكذلك هي في مصاحب الكوفيين، وهذا على الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: يعلم القول، أي: لا يخفى عليه شيء يقال في السماء والأرض، فهو عالم بما أسررتهم. ﴿بَلْ قَالُوا﴾، قال الفراء: ردّ بـ «ل» على معنى تكذيبهم، وإن لم يظهر قبله الكلام بجحودهم، لأن معناه الإخبار عن الجاحدين، وأعلم أن المشركين كانوا قد تحيروا في أمر رسول الله ﷺ، فاختلقت أقوالهم فيه، فبعضهم يقول: هذا الذي يأتي به سحر، وبعضهم يقول: أضغاث أحلام، وهي الأشياء المختلطة تُرى في المنام؛ وقد شرحناها في [يوسف: ٤٤]، وبعضهم

يقول: افتراء، أي: اختلقه، وبعضهم يقول: هو شاعر فليأتنا بآية كالتافه والعصا، فاقترحوا الآيات التي لا إهمال بعدها.

قوله تعالى: ﴿مَا آتَيْنَتْ قَبْلَهُمْ﴾ يعني: مشركي مكة ﴿مِنْ قَرِيْبَةٍ﴾ وصف القرية، والمراد أهلها، والمعنى: أن الأمم التي أهلكت بتكذيب الآيات، لم يؤمنوا بالآيات لما أتتهم، فكيف يؤمن هؤلاء؟! وهذه إشارة إلى أن الآية لا تكون سبباً للإيمان، إلا أن يشاء الله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ هذا جواب قولهم: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ قوله تعالى: ﴿ثَوَّجْنَا لَهُمْ﴾ قرأ الاكثرون: «يوحى» بالياء. وروى حفص عن عاصم: «نوحى» بالنون. وقد شرحنا هذه الآية في [النحل: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ﴾ يعني الرسل ﴿جَسَدًا﴾ قال الفراء: لم يقل: أجساداً، لأنه اسم الجنس. قال مجاهد: وما جعلناهم جسداً ليس فيهم روح. قال ابن قتيبة: ما جعلنا الأنبياء قبله أجساداً لا تأكل الطعام ولا تموت فتجعله كذلك. قال المبرد وثعلب جميعاً: العرب إذا جاءت بين الكلام بجحدين، كان الكلام إخباراً، فمعنى الآية: إنما جعلناهم جسداً ليأكلوا الطعام. قال قتادة: المعنى: وما جعلناهم جسداً إلا ليأكلوا الطعام.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُ الْوَعْدَ﴾ يعني: الأنبياء أنجزنا وعدهم الذي وعدناهم بإنجائهم وإهلاك مكذبيهم ﴿بِأَنبِيَائِهِمْ وَمِنْ نَّسَائِهِمْ﴾ وهم الذين صدقوهم ﴿وَأَمَّا الشَّرِيفِينَ﴾ يعني: أهل الشرك؛ وهذا تخويف لأهل مكة. ثم ذكر مثله عليهم بالقرآن فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: فيه شرفكم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: فيه دينكم، قاله الحسن، يعني: فيه ما تحتاجون إليه من أمر دينكم. والثالث: فيه تذكرة لكم لما تلقونه من رجة أو عذاب، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُولُوا﴾ ما فضلناكم به على غيركم. ﴿وَكَمْ قَصَصْنَا مِنْ قَبْلِهِ قَدْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: كافرين، والمراد: أهلها ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ لا تركضوا وأرجعوا إلى ما أثروا فيه وسننكم لكم شئونكم ﴿قَالُوا يَوَلَّيْنَا إِيَّاهُ كَمَا ظَلَمُوا﴾ فما زالت تلك دعوتهم حتى جعلناهم حصيداً ﴿خَالِدِينَ﴾.

ثم خوفهم فقال: ﴿وَكَمْ قَصَصْنَا﴾ قال المفسرون واللغويون: معناه: وكما أهلكنا، وأصل القصص: الكسر. وقوله: ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾، أي: كافرة، والمراد: أهلها ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ أي: رأوا عذابنا بحاشة البصر ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي: يقدون، وأصل الركض: تحريك الرجلين، يقال: ركضت القرس: إذا أغديتها بتحريك رجلك فعدا.

قوله تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ قال المفسرون: هذا قول الملائكة لهم: ﴿وَأَرْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾، أي: إلى نعمكم التي أترفتمكم، وهذا توبيخ لهم. وفي قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قولان: أحدهما: تُسالون من دنياكم شيئاً، استهزاء بهم، قاله قتادة. والثاني: تُسالون عن قتل نبيكم، قاله ابن السائب. فلما أيقنوا بالعذاب ﴿قَالُوا يَوَلَّيْنَا إِيَّاهُ كَمَا ظَلَمُوا﴾ بكفرنا، وقيل: بتكذيب نبينا. ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ﴾، أي: ما زالت تلك الكلمة التي هي ﴿قَالُوا يَوَلَّيْنَا إِيَّاهُ كَمَا ظَلَمُوا﴾ قولهم يرددونها ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ بالعذاب، وقيل: بالسيوف ﴿خَالِدِينَ﴾، أي: ميتين كخمود النار إذا طُفِئَتْ.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَمَعِينَ﴾ ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَا لَئِخْذَةً مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَلَعَلَّيْنِ﴾ ﴿بَلْ نَقْذِرُ الْبَلَّ عَلَى الْبَاطِلِ فَإِذَا هُوَ دَافِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ بِمَا نَصِفُونَ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ عِندِهِ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾ ﴿يَسْتَحِيرُونَ أَلَيْسَ الْبَارِئُ أَتَقْوُونَ﴾ ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذْنَا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يَسْتَحِيرُونَ﴾ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبِّحْ لِلَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَظِيمًا﴾ ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يُعْمَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذْنَا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ لَقِيَّ فَهُمْ مَصْرِفُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَمَعِينَ﴾ أي: لم نخلق ذلك عبثاً، إنما خلقناهما دلالة على قدرتنا ووحدةيتنا ليعتبر الناس بخلقه، فيعلموا أن العبادة لا تصلح إلا لخالقه، لنجازي أوليائنا، ونعذب أعداءنا.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن المشركين لما قالوا: الملائكة بنات الله والآلهة بناته، نزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن نصارى نجران قالوا: إن عيسى ابن الله، فنزلت هذه الآية. قاله مقاتل. وفي المراد باللهو ثلاثة أقوال: أحدها: الولد، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال السدي. قال الزجاج: المعنى: لو أردنا أن نتخذ ولدًا لهو نلهي به. والثاني: المرأة، رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقتادة. والثالث: اللعب، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ قال ابن جريج: لا نتخذنا نساءً أو ولدًا من أهل السماء، لا من أهل الأرض. قال ابن قتيبة: وأصل اللهو: الجماع، فكُنِّي عنه باللهو، كما كُنِّي عنه بالسُّر، والمعنى: لو فعلنا ذلك لا نتخذناه من عندنا، لأنكم تعلمون أن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده، لا عند غيره. وفي قوله: ﴿إِنْ كُنَّا قَتِيلَيْن﴾ قولان: أحدهما: أن «إن» بمعنى «ما»، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة. والثاني: أنها بمعنى الشرط. قال الزجاج: والمعنى: إن كنا فعلنا ذلك، ولنا ممن يفعله؛ قال: والقول الأول قول المفسرين، والثاني قول النحويين، وهم يستجيدون القول الأول أيضاً، لأن «إن» تكون في موضع النفي، إلا أن أكثر ما تأتي مع اللام، تقول: إن كنت لصالحاً، معناه: ما كنت إلا صالحاً.

قوله تعالى: ﴿بَلْ﴾ أي: دع ذاك الذي قالوا، فإنه باطل ﴿تَقْذِيفٌ يَأْتِي﴾ أي: نسلط الحق وهو القرآن ﴿عَلَى الْبَاطِلِ﴾ وهو كذبهم ﴿فَيُدْمِئُهُمْ﴾ قال ابن قتيبة: أي: يكسره، وأصل هذا إصابة الدماغ بالضرب، وهو مقتل ﴿فَإِذَا هُوَ رَاكِعٌ﴾ أي: زائل ذاهب. قال المفسرون: والمعنى: إنا نبطل كذبهم بما نبين من الحق حتى يضمحل، ﴿وَلَكُمْ أَلْوِيلٌ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي: من وصفكم الله بما لا يجوز ﴿وَلَكُمْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: هم عبده ومُلكه ﴿وَمَن عِنْدَهُ﴾ يعني: الملائكة. وفي قوله: ﴿وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: لا يرجعون، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: لا يقطعون، قاله مجاهد. وقال ابن قتيبة: لا يعيرون، والخير: المنقطع الواقف إعياء وكلالاً. والثالث: لا يملون، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿لَا يَقْرُؤُونَ﴾ قال قتادة: لا يسمعون. وسئل كعب: أما يشغلهم شأن؟ أما تشغلهم حاجة؟ فقال للسائل: يا ابن أخي، جعل لهم التسيب كما جعل لكم النفس، ألسنت تاكل وتشرب وتقوم وتجلس وتجيء وتذهب وتكلم وأنت تنفس؟! فذلك جعل لهم التسيب. ثم إن الله تعالى عاد إلى توبيخ المشركين فقال: ﴿أَرِ أَتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْآرِضِ﴾ لأن أصنامهم من الأرض هي، سواء كانت من ذهب أو فضة أو خشب أو حجارة ﴿هُمُ﴾ يعني: الآلهة ﴿يَشْرُونَ﴾ أي: يخيرون الموتى. وقرأ الحسن: «ينشرون» بفتح الياء وضم الشين. وهذا استفهام بمعنى الجحد، والمعنى: ما اتخذوا آلهة تنشر ميتاً. ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا﴾ يعني: السماء والأرض ﴿آلِهَةٌ﴾ يعني: معبودين ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ قال الفراء: سوى الله. وقال الزجاج: غير الله.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَأَى﴾ أي: لخربتا وبطلنا وهلك من فيهما، لوجود التمانع بين الآلهة، فلا يجري أمر العالم على النظام، لأن كل أمر صدر عن اثنين فصاعداً لم يسلم من الخلاف.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يُفَعَّلُ﴾ أي: عما يحكم في عباده من هدي وإضلال، وإعزاز وإذلال، لأنه المالك للخلق، والخلق يسألون عن أعمالهم؛ لأنهم عبيد يجب عليهم امتثال أمر مولاهم. ولما أبطل ﴿بَلْ﴾ أن يكون إله سواه من حيث العقل بقوله: ﴿لَقَدْ نَأَى﴾، أبطل ذلك من حيث الأمر فقال: ﴿أَرِ أَتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ وهذا استفهام إنكار وتوبيخ ﴿قُلْ هَآؤُنَا بُرْهَانُنَا﴾ على ما تقولون، ﴿هَآؤُنَا﴾ يعني: القرآن خبر من معي على ديني ممن يتبعني إلى يوم القيامة بما لهم من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ﴿وَذَكَّرَ مِن قَبْلُ﴾ يعني: الكتب المنزل، والمعنى: هذا القرآن، وهذه الكتب التي أنزلت قبله، فانظروا هل في واحد منها أن الله أمر باتخاذ إله سواه؟ فبطل بهذا البيان جواز اتخاذ معبود غيره من حيث الأمر به. قال الزجاج: قيل لهم: هاتوا برهانكم بأن رسولاً من الرسل أخبر أمته بأن لهم إلهاً غير الله.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْذَرُكُمْ﴾ يعني: كفار مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه القرآن، قاله ابن عباس. والثاني: التوحيد، قاله مقاتل ﴿فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن التفكر والتأمل وما يجب عليهم من الإيمان.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا مَبْحُورَةً بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿١٦﴾ لَا يَسْئَلُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿١٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْتِ إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلْنُكَفِّرْ بِهِ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَلِيلِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: «مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحَى» قرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «إِلَّا نُوحَى» بالنون؛ والباقون بالياء.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿١٥﴾ في القائلين لهذا قولان: أحدهما: أنهم مشركو قريش، قاله ابن عباس. وقال ابن إسحاق: القائل لهذا النضر بن الحارث. والثاني: أنهم اليهود، قالوا: إن الله صاهر الجن فكانت منهم الملائكة، قاله قتادة. فعلى القولين، المراد بالولد: الملائكة، وكذلك المراد بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾، والمعنى: بل عباد أكرمهم الله واصطفاهم، ﴿لَا يَسْئَلُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾، أي: لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به. وقال ابن قتيبة: لا يقولون حتى يقول، ثم يقولون عنه، ولا يعملون حتى يأمرهم.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ما قدموا من الأعمال ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما هم عاملون، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ يوم القيامة، وقيل: لا يستغفرون في الدنيا ﴿إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ﴾ أي: لِمَنْ رضي عنه، ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ أي: من خشيتهم منه، فأضيف المصدر إلى المفعول، ﴿مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون. وقال الحسن: يرتعدون. ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ أي: من الملائكة. قال الضحاك في آخرين: هذه خاصة لإبليس، لم يَدْعُ أحد من الملائكة إلى عبادة نفسه سواء؛ قال أبو سليمان الدمشقي: وهذا قول من قال: إنه من الملائكة، فإن إبليس قال ذلك للملائكة الذين هبطوا معه إلى الأرض، ومن قال: إنه ليس من الملائكة^(١)، قال: هذا على وجه التهديد، وما قال أحد من الملائكة ذلك.

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْآلِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ يَقِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفَافًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٢٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَالنَّهَارَ وَاللَّيْلَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْآلِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أولم يعلموا. وقرأ ابن كثير: «ألم ير الذين كفروا» بغير واو بين الألف واللام، وكذلك هي في مصاحف أهل مكة، «أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا» قال أبو عبيدة: السموات جمع، والأرض واحدة، فخرجت صفة لفظ الجمع على لفظ صفة الواحد والعرب تفعل هذا إذا أشركوا بين جمع وبين واحد؛ والرَّقُّ مصدر يوصف به الواحد والاثان والجمع والمذكر والمؤنث سواء، ومعنى الرَّقُّ: الذي ليس فيه ثقب. قال الزجاج: المعنى: كانت ذاتي رَتْقٍ، فجعلهما ذات فتق، وإنما لم يقل: «رَتْقَتَيْنِ» لأن الرَّتْقَ مصدر. وللمفسرين في المراد به ثلاثة أقوال: أحدها: أن السموات كانت رَتْقًا لَا تُنْطَرُ، وكانت الأرض رَتْقًا لَا تُنْبِت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات، رواه عبد الله بن دينار عن ابن عباس، وبه قال عطاء، وعكرمة، ومجاهد في رواية، والضحاك في آخرين. والثاني: أن السموات ولأرض كانتا ملتصقتين، ففتقهما الله تعالى، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير، وقاتدة. والثالث: أنه فتق من الأرض ست أرضين فصارت سبعاً، ومن السماء ست سموات فصارت سبعاً، رواه السدي عن أشياخه، وابن أبي نجيع عن مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ وقرأ معاذ القارئ، وابن أبي عبله، وحמיד بن قيس: «كل شيء حيًّا» بالنصب. وفي هذا الماء قولان: أحدهما: أنه الماء المعروف، والمعنى: جعلنا الماء سبباً لحياة كل حي، قاله الأكثرون. والثاني: أنه النُّطْفة، قاله أبو العالية.

(١) قال الله تعالى: ﴿وَرَبَّنَا إِنَّا أَلْفَقْنَا بَيْنَكَ سُبُلًا لَدَمْ سَجَدًا إِلَّا لِبَاسٍ كَانَ مِنَ الْوَيْلِ فَتَقَى عَنْ آتِي رَبِّهِ﴾، وقال رسول الله ﷺ: «كما في صحيح مسلم»:- «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجن من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»، وقال الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم أصل البشر.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ قد فسرناه في [النحل: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا آيَ﴾ أي: في الرواسي ﴿فِيهَا﴾، قال أبو عبيدة: هي المسالك. قال الزجاج: الفجّاج جمع فجّ، وهو كل منخرق بين جبلين، ومعنى ﴿سُبُلًا﴾ طرقاً. قال ابن عباس: جعلنا من الجبال طُرُقًا كي تهتدوا إلى مقاصدكم في الأسفار. قال المفسرون: وقوله: ﴿سُبُلًا﴾ تفسير للفجّاج، وبيان أن تلك الفجّاج نافذة مسلوكة، فقد يكون الفجّ غير نافذ. ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًّا﴾ أي: هي للأرض كالسقف. وفي معنى ﴿مَحْفُوظًا﴾ قولان: أحدهما: بالنجوم من الشياطين، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: محفوظاً من الوقوع إلا بإذن الله، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ﴾ يعني: كفار مكة ﴿عَنَّا آيَاتِنَا﴾ أي: شمسها وقمرها ونجومها، قال الفراء: وقرأ مجاهد: «عن آياتها» فوَحَّدَهُ، فجعل السماء بما فيها آية؛ وكلُّ صواب.

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ﴾ يعني: الطوالع ﴿فِي فَلَكٍ﴾ قال ابن قتيبة: الفلك: مدار النجوم الذي يضمها.. وَسَمَاءٌ فَلَكًا، لاستدارته. ومنه قيل: فَلَكَةُ البَغْزَلِ، وقد فَلَكَ بُذِّي المرأة. قال أبو سليمان: وقيل: إن الفلك - كهية الساقية من ماء - مستديرة دون السماء وتحت الأرض، فالأرض وسطها، والشمس والقمر والنجوم والليل والنهار يجرون في الفلك، وليس الفلك يُديرها. ومعنى «يَسْبَحُونَ»: يَجْرُونَ. قال الفراء: لَمَّا كَانَتِ السَّابِحَةُ مِنْ أَعْمَالِ الْآدَمِيِّينَ، ذُكِرَتْ بِالنُّونِ، كَقَوْلِهِ: ﴿رَأَيْتُمْ لِي سَمِيرَاتٍ﴾ [يوسف: ٤٤]، لأن السجود من أفعال الآدميين.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِيَشْرَ بَيْنَ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَيَبْلُوكُم بِالسَّيْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَإِذْ رَمَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُوكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الْرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِيَشْرَ بَيْنَ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ سبب نزولها أن ناساً قالوا: إن محمداً لا يموت، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. ومعنى الآية: ما خلّدنا قبلك أحداً من بني آدم؛ والخُلْدُ: البقاء الدائم. ﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ يعني: مشركي مكة، لأنهم قالوا: ﴿تَرْجِعُ بِهِ رَبِّ الْمَوْتُونَ﴾ [الطور: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿وَيَبْلُوكُم بِالسَّيْرِ وَالْخَيْرِ﴾ قال ابن زيد: نخبركم بما تحبون لننظر كيف شكركم، وبما تكرهون لننظر كيف صبركم.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [قرأ ابن عامر: «ترجعون» بناء مفتوحة. وروى ابن عباس عن أبي عمرو: «يرجعون»] بياء مضمومة. وقرأ الباقون بناء مضمومة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ رَمَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال ابن عباس: يعني المستهزئين، وقال السدي: نزلت في أبي جهل، مرَّ به رسول الله، فضحك وقال: هذا نبيّ بني عبد مناف. وإن بمعنى «ملا» ومعنى ﴿هُزُوءًا﴾ مهزوءاً به ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ أي: يعيب أصنامكم، وفيه إضمار «يقولون»، ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الْرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وذلك أنهم قالوا: ما نعرف الرحمن؛ فكفروا بالرحمن.

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَلِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَجِيبُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُونُونَ عَنْ يُسُوفِهِمْ أَلْشَارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُصْرَتُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَشَئَةٌ فَنَسَتْهُمْ فَبَلَا تَسْتَجِيبُونَ رَدْعًا وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ اسْتَبْرَأْنا مِنْ رَبِّكَ فَقَالَ بِالَّذِي وَسَخَرُوا مِنْهُمْ مَا كُنَّا بِهِ يَسْتَبْرِئُونَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ وقرأ أبو رزين العجلي، ومجاهد، والضحاك: «خُلِقَ الْإِنْسَانُ» بفتح الخاء واللام ونصب النون. وهذه الآية نزلت حين امتعجلت قريش بالعذاب. وفي المراد بالإنسان هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: النضر بن الحارث، وهو الذي قال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ...﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]، رواه عطاء عن ابن عباس. والثاني: آدم عليه السلام، قاله سعيد بن جبيرة، والسدي في آخرين. والثالث: أنه اسم جنس، قاله علي بن أحمد النيسابوري؛ فعلى هذا يدخل النضر بن الحارث وغيره في هذا وإن كانت الآية نزلت فيه. فأما من قال: أريد به آدم، ففي معنى الكلام قولان: أحدهما: أنه خُلِقَ عجولاً، قاله الأكثرون. فعلى هذا

يقول: لما طلع آدم على هذا المعنى، وُجد في أولاده، وأورثهم العَجَل. والثاني: خُلِقَ بِعَجَل، استعجل بخلقه قبل غروب الشمس من يوم الجمعة، وهو آخر الأيام الستة، قاله مجاهد. فأما من قال: هو اسم جنس، ففي معنى الكلام قولان: أحدهما: خُلِقَ عَجُولاً؛ قال الزجاج: خوطبت العرب بما تعقل، والعرب تقول للذي يكثر منه اللعب: إنما خُلِقْتَ من لَعب، يريدون المبالغة في وصفه بذلك. والثاني: أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، والمعنى: خُلِقَتِ العجلة في الإنسان، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿سَأُوبِيكُمْ مَائِي﴾ فيه قولان: أحدهما: ما أصاب الأمم المتقدمة؛ والمعنى: إنكم تسافرون فترون آثار الهلاك في الماضين، قاله ابن السائب. والثاني: أنها القتل ببدء، قاله مقاتل. قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾ أثبت الباء في الحاليين يعقوب.

قوله تعالى: ﴿وَقُلُوبُكُمْ مِّنْ هَٰذَا أَلْوَدُ﴾ يعنون: القيامة. ﴿وَلَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جوابه محذوف، والمعنى: لو علموا صدق الوعد ما استعجلوا، ﴿حِينَ لَا يَكْفُرُونَ﴾ أي: لا يدفعون ﴿وَمِنْ وَجْهِهِمْ أُنْزَارٌ﴾ إذا دخلوا ﴿وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ لإحاطتها بهم ﴿وَلَا هُمْ يَصْرُخُونَ﴾ أي: يُمنعون مما نزل بهم، ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ﴾ يعني: الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿فَتَهْتَبُنَّ﴾ تحيرهم، وقد شرحنا هذا عند قوله: ﴿فَهُتِ الْأَوَى كَفَرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ﴿فَلَا يَسْتَظِلُّونَ رَدًّا﴾ أي: صرفها عنهم، ولا هم يُنهَلون لتوبة أو معذرة. ثم عزى نبيه، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَشْرَيْتُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: كما فعل بك قومك ﴿فَمَاتُوا﴾ أي نزل ﴿وَالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: من الرسل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يعني: العذاب الذي كانوا استهزؤا به.

﴿فَلَمَّا مَنَّ بِكُلِّكُم بِالْإِنِّ﴾ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٩﴾ أَرَأَيْتُمْ مَا إِلَٰهَةُ مُنَعِمٌ مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَظِلُّونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٢٠﴾ بَلْ مَنَعْنَا كَلَمَآةً وَوَعَادَهُمْ هَٰذَا طَال عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٢١﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّرُءُ الدُّعَاءَ إِنَّمَا مَا يُنذِرُوكَ وَلَكِنْ مَسْتَهْزِئُونَ نَحْنُ مَذَابُ رَبِّكَ يَقُولُ بِتَوَلَّيْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا مَنَّ بِكُلِّكُم﴾ المعنى: قل لهؤلاء المستعجلين بالعذاب: من يحفظكم من بأس الرحمن إن أراد إزاله بكم؟ وهذا استفهام إنكار، أي: لا أحد يفعل ذلك، ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: عن كلامه ومواعظه ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يفتكرون ولا يعتبرون. ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا إِلَٰهَةُ مُنَعِمٌ مِّن دُونِنَا﴾ فيه تقديم وتأخير، وتقديره: أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم؟ وها هنا تم الكلام، ثم وصف آلهتهم بالضعف، فقال: ﴿لَا يَسْتَظِلُّونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ والمعنى: من لا يقدر على نصر نفسه عما يُراد به، فكيف ينصر غيره؟

قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم الكفار، وهو قول ابن عباس. والثاني: أنهم الأصنام، قاله قتادة. وفي معنى ﴿يُصْحَبُونَ﴾ أربعة أقوال: أحدها: يُجَارُونَ، رواه العوفي عن ابن عباس. قال ابن قتيبة: والمعنى: لا يجيرهم من أحد، لأن المجير صاحب لجاره. والثاني: يُمنعون، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: يُنصرون، قاله مجاهد. والرابع: لا يُصْحَبُونَ بخير، قاله قتادة. ثم بيّن اغترارهم بالإمهال، فقال: ﴿بَلْ مَنَعْنَا كَلَمَآةً وَوَعَادَهُمْ هَٰذَا طَال عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ فاعتسوا بذلك، ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قد شرحناه في [الرعد: ٤١]، ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أي: مع هذه الحال، وهو نقص الأرض، والمعنى: ليسوا بغالبين، ولكنهم المغلوبون. ﴿فَلَمَّا أُنذِرْكُم﴾ أي: أخوفكم ﴿بِالْوَحْيِ﴾ أي: بالقرآن، والمعنى: إنني ما جئت به من تلقاء نفسي، إنما أوتيت فبلغت، ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّرُءُ الدُّعَاءَ﴾ وقرأ ابن عامر: «ولا يُسمع» بالتاء مضمومة «الصُّرُء» نصباً. وقرأ ابن يعمر، والحسن: «ولا يُسمع» بضم الباء وفتح الميم «الصُّرُء» بضم الميم. شبه الكفار بالصُّرُء الذين لا يسمعون نداء مناديهم؛ ووجه التشبيه أن هؤلاء لم ينتفعوا بما سمعوا. كالصُّرُء لا يفيدهم صوت مناديهم. ﴿وَلَكِنْ مَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: أصابتهم «نَحْنُ» قال ابن عباس: طرف. وقال الزجاج: المراد أدنى شيء من العذاب، ﴿يَقُولُونَ بِتَوَلَّيْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ والويل يتادي به كل من وقع فيهلكة.

﴿وَنُفِخَ الْسُورَةُ الْاُولٰٓئِكَ لَا يَسْمَعُونَ فَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ خِزْيٍ اَشَدَّ مِنْ خِزْيِ الْاَوَّلٰٓئِكَ وَكَفٰٓءُ يٰۤاَيُّهَا خٰسِرِيْنَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ قال الزجاج: المعنى: ونضع الموازين ذوات القسط، والقسط: العدل، وهو مصدر يوصف به، يقال: ميزان قسط، وميزانان قسط، وموازين قسط. قال الفراء: القسط من صفة الموازين وإن كان موحدًا، كما تقول: أنتم عدل، وأنتم رضى. وقوله: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وفي يوم القيامة سواء. وقد ذكرنا الكلام في الميزان في أول [الأعراف: ٨]. فلن قيل: إذا كان الميزان واحداً، فما المعنى بذكر الموازين؟ فالجواب: أنه لما كانت أعمال الخلائق توزن وزنة بعد وزنة، سميت موازين.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَطْلُمُ نَفْسٌ سَيْئًا﴾ أي: لا يُنْقَصُ محسن من إحسانه، ولا يُزَادُ مسيء على إساءته ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ﴾ أي: وزن حبة. وقرأ نافع: «مِثْقَالُهُ» برفع اللام. قال الزجاج: ونصب «مِثْقَالُهُ» على معنى: وإن كان العمل مِثْقَالِ حبة. وقال أبو علي الفارسي: وإن كان الطَّلَامَةُ مِثْقَالِ حبة، لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَطْلُمُ نَفْسٌ سَيْئًا﴾. قال: ومن رفع، أسند الفعل إلى المِثْقَالِ، كما أسند في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي: جئنا بها. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وحيد: «أَتَيْنَا» ممدودة، أي: جازئنا بها. قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبٍ﴾ قال الزجاج: هو منصوب على وجهين: أحدهما: التمييز. والثاني: الحال. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذَكَرَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُخْفًوُونَ وَهَذَا ذِكْرُ مَنَازِلِكُمْ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا لِّمَن يَكُونُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه التوراة التي فُرِّقَ بها بين الحلال والحرام، قاله مجاهد، وقتادة، والثاني: البرهان الذي فرق به بين حق موسى وباطل فرعون، قاله ابن زيد. والثالث: النصر والنجاة لموسى، وإهلاك فرعون، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿وَضِيَاءً﴾ روى عكرمة عن ابن عباس أنه كان يرى الواو زائدة؛ قال الزجاج: وكذلك قال بعض النحويين أن المعنى: الفرقان ضياء، وعند البصريين: أن الواو لا تُزَادُ ولا تأتي إلا بمعنى العطف، فهي هاهنا مثل قوله تعالى: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]. قال المفسرون: والمعنى هم استضاءوا بالتوراة حتى اهتدوا بها في دينهم. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أنهم يذكرونه ويعملون بما فيه. ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: يخافونه ولم يروه، قاله الجمهور. والثاني: يخشون عذابه ولم يروه، قاله مقاتل. والثالث: يخافونه من حيث لا يراهم أحد، قاله الزجاج. والرابع: يخافونه إذا غابوا عن أعين الناس كخوفهم إذا كانوا بين الناس، قاله أبو سليمان الدمشقي. ثم عاد إلى ذِكْرِ القرآن، فقال: ﴿وَهَذَا﴾ يعني: القرآن ﴿ذِكْرٌ﴾ لمن تَذَكَّرَ به، وعظة لمن انعط ﴿مَنَازِلِكُمْ﴾ أي: كثير الخير ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ يا أهل مكة ﴿لِّمَن يَكُونُونَ﴾ أي: جاحدون؟! وهذا استفهام توبيخ.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ زَكَّيْتُ رَبِّي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمَا وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٦٣﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ ﴿٦٤﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ جُنَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَّمْ يَلْمَهُمْ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ أي: هُداً وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: من قبل بلوغه، قاله أبو صالح عن ابن عباس، والثاني: آتيناه ذلك في العلم السابق، قاله الضحاك عن ابن عباس. والثالث: من قبل موسى وهارون، قاله الضحاك. وقد أشرنا إلى قصة إبراهيم في [الأنعام: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أي: علمنا أنه موضح لإتيان الرشد. ثم بيّن متى آتاه فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ يعني: الأصنام. والتماثل: اسم للشيء المصنوع مشبهاً بِخَلْقٍ من خَلْقِ الله تعالى، وأصله من مثَّلَ الشيء بالشيء: إذا شبّهته به. وقوله: ﴿الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا﴾ أي: على عبادتها ﴿عَاكِفُونَ﴾ أي: مقيمون، فأجابوه أنهم رأوا آباءهم يعبدونها فاقفوا بهم، فأجابهم بأنهم فيما فعلوا وآباءهم في ضلال مبين، ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٦٢﴾﴾ يعنون: أجاد أنت، أم لاعب!.

قوله تعالى: ﴿لَا كَيْدَ أَتَذَكَّرُ﴾ الكيد: احتيال الكائد في ضرر المكيد. والمفسرون يقولون: لأكيدنها بالكسر ﴿بَعْدَ أَنْ تُولَّوْا﴾ أي: تذهبوا عنها، وكان لهم عيد في كل سنة يخرجون إليه ولا يخلّفون بالمدينة أحدًا، فقالوا لإبراهيم: لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا، فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق، قال: إني سقيم، وألقى نفسه، وقال ميرًا منهم: ﴿وَتَاللَّهِ لَا كَيْدَ أَتَذَكَّرُ﴾، فسمعه رجل منهم، فأفشاه عليه، فرجع إلى بيت الأصنام، وكانت - فيما ذكره مقاتل بن سليمان - اثنتين وسبعين صنماً من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب، فكسرها، ثم وضع الفأس في عتق الصنم الكبير، فذلك قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ قرأ الأكثرون: «جُذَاذًا» بضم الجيم. وقرأ أبو بكر الصديق، وابن مسعود، وأبو رزين، وقتادة، وابن محيصن، والأعمش، والكسائي: «جِذَاذًا» بكسر الجيم. وقرأ أبو رجاء العطاردي، وأيوب السخيتاني، وعاصم الجحدري: «جُذَاذًا» بفتح الجيم. وقرأ الضحّاك، وابن يعمر: «جُذَاذًا» بفتح الجيم من غير ألف. وقرأ معاذ القارئ، وأبو حيوة، وابن وثّاب: «جُذَاذًا» بضم الجيم من غير ألف. قال أبو عبيدة: أي: مستأصلين، قال جرير:

بَنِي الْمَهْلَبِ جَذَّ اللَّهُ ذَابِرَهُمْ اُمْسُوا زَمَادًا فَلَا أَصْلَ وَلَا طَرَفًا^(١)

أي: لم يبقَ منهم شيء، ولفظ «جُذَاذًا» يقع على الواحد والاثنيين والجميع من المذكر والمؤنث. وقال ابن قتبية: «جُذَاذًا» أي: فُتَاتًا، وكلُّ شيء كسرته فقد جَذَذْتُهُ، ومنه قيل للسويق: الجذيد. وقرأ الكسائي: «جِذَاذًا» بكسر الجيم على أنه جمع جذيد، مثل ثَقِيلٍ وثِقَالٍ، وَخَفِيفٍ وَخِفَافٍ. والجذيد بمعنى: المجذوذ، وهو المكسور. ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّمْ﴾ أي: كسر الأصنام إلا أكبرها. قال الزجاج: جائز أن يكون أكبرها في ذاته، وجائز أن يكون أكبرها عندهم في تعظيمهم إياه، ﴿لَمَلَهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾، في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الصنم. ثم فيه قولان. أحدهما: لعلهم يرجعون إليه فيشاهدونه، هذا قول مقاتل. والثاني: لعلهم يرجعون إليه بالتهمة، حكاه أبو سليمان الدمشقي. والثاني: أنها ترجع إلى إبراهيم. والمعنى: لعلهم يرجعون إلى دين إبراهيم بوجوب الحجة عليهم، قاله الزجاج.

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ٨٩ ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ ٩٠ ﴿قَالُوا فَاتُّوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ ٩١ ﴿قَالُوا أَأَتَتْكَ هَذِهِ بَنَاتُنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ٩٢ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كَيْدُهُمْ هَذَا فَتَتْلُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ نَاطِقِينَ﴾ ٩٣

فلما رجعوا من عيدهم ونظروا إلى آلهتهم ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ٨٩ أي: قد فعل ما لم يكن له فعله، فقال الذي سمع إبراهيم يقول: «لأكيدن أصنامكم»: «سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ» قال الفراء: أي: يعيهم؛ تقول للرجل: لئن ذكرتني لتندمن، تريد: بسوء.

قوله تعالى: ﴿فَاتُّوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي: بمرأى منهم، لا تأثوا به خفية. قال أبو عبيدة: تقول العرب إذا أظهر الأمر وشهر: كان ذلك على أعين الناس.

قوله تعالى: ﴿لَمَلَهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: يشهدون أنه قال لآلهتنا ما قال، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقتادة. والثاني: يشهدون أنه فعل ذلك، قاله السدي. والثالث: يشهدون عقابه وما يصنع به، قاله محمد بن إسحاق. قال المفسرون: فانطلقوا به إلى نمرود، فقال له: ﴿أَتَتْكَ هَذِهِ بَنَاتُنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ٩٢ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كَيْدُهُمْ هَذَا﴾ غضب أن تُعبد معه الصغار، فكسرها، ﴿فَتَتْلُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ نَاطِقِينَ﴾ من فعله بهم؟! وهذا إلزام للحجة عليهم بأنهم جماد لا يقدرّون على النطق. واختلف العلماء في وجه هذا القول من إبراهيم عليه السلام على قولين: أحدهما: أنه وإن كان في صورة الكذب، إلا أن المراد به التنبيه على أن من لا قدرة له، لا يصلح أن يكون إلهاً، ومثله قول الملكين لداود: ﴿إِنَّ هَذَا نَجَى﴾ ولم يكن أخاه ﴿لَمْ يَسَّحَّ وَتَوَنَّى نَجَّةً﴾

وَلَيْ نَجْعَهُ ﴿٢٣﴾، ولم يكن له شيء. فجري هذا مجرى التنبيه لداود على ما فعل، وأنه هو المراد بالفعل والمثل المضروب؛ ومثل هذا لا تسميه العرب كذباً. والثاني: أنه من معاريض الكلام؛ فروي عن الكسائي أنه [كان] يقف عند قوله تعالى: ﴿بَلْ نَعْمَكَ﴾ ويقول معناه: فعله من فعله، ثم يبتدئ ﴿كَيْدُهُمْ هَذَا﴾. قال الفراء: وقرأ بعضهم: «بل فعله» بتشديد اللام، يريد: فلعله كبيرهم هذا. وقال ابن قتيبة: هذا من المعارض، ومعناه: إن كانوا ينطقون، فقد فعله كبيرهم، وكذلك قوله: ﴿إِنِّي سَمِعْتُ﴾ [الصلوات: ٨٩] أي: سأسقم، ومثله ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر: ٣٠] أي: ستموت، وقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ [الكهف: ٧٤] قال ابن عباس: لم ينس، ولكنه من معاريض الكلام، والمعنى: لا تؤاخذني بنسياني، ومن هذا قصة الخصمين ﴿إِذْ شَرَوْا آلِيَحْرَابَ﴾ [آمن: ٢١]، ومثله ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَّا لَمَلِكًا مُّتَعَدِّيًا﴾ [سبا: ٢٤]، والعرب تستعمل التعريض في كلامها كثيراً، فتبلغ إرادتها بوجه هو اللطف من الكشف وأحسن من التصريح. وروي أن قوماً من الأعراب خرجوا يمتارون، فلما صدروا، خالف رجل في بعض الليل إلى عكم صاحبه، فأخذ منه بئراً وجعله في عكمه، فلما أراد الرحلة وقاما يتعاکمان، رأى عكمه يشول، وعكم صاحبه يثقل، فأنشأ يقول:

عكم تغشى بعض أعكام القوم
لَمْ أَرِ عَكْمًا سَارِقًا قَبْلَ الْيَوْمِ

فخون صاحبه بوجه هو اللطف من التصريح. قال ابن الأنباري: كلام إبراهيم كان صدقاً عند البحث، ومعنى قول النبي ﷺ: «كذب إبراهيم ثلاث كذبات»^(١): قال قولاً يشبه الكذب في الظاهر، وليس بكذب. قال المصنف: وقد ذهب جماعة من العلماء إلى هذا الوجه، وأنه من المعارض، والمعارض لا تُدْم، خصوصاً إذا احتج إليها، روى عمران بن حصين، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في المعارض لمتلوعة عن الكذب»^(٢)، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما يسرني أن لي بما أعلم من معاريض القول مثل أهلي ومالي، وقال النخعي: لهم كلام يتكلمون به إذا خشوا من شيء يدرؤون به عن أنفسهم. وقال ابن سيرين: الكلام أوسع من أن يكذب ظريف، وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الجنة لا تدخلها المعاجز»^(٣)، أراد قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُ إِنَّا لَكَاذِبٌ﴾ [الواقعة: ٣٥]، وروي عنه ﷺ أنه كان يمازح بلالاً، فيقول: «ما أخت خالك منك؟»، وقال لامرأة: «من زوجك؟» فسئته له، فقال: «الذي

(١) رواه البخاري ٢٧٧/٦، ومسلم ١٨٤٠/٤، ولفظه عند مسلم بتمامه: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم النبي قط إلا ثلاث - كذبات، ننتين في فات الله، وقوله: ﴿إِنِّي سَمِعْتُ﴾، وقوله: ﴿بَلْ نَعْمَكَ كَيْدُهُمْ هَذَا﴾، وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغيبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك اغتبي فذاك اغتبي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيبي وغيرك، فلما دخل أرضه وأما بعض أهل الجبار، أنه فقال له: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك، فأرسل إليها فأتى بها، فقام إبراهيم ﷺ إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن يسط يده إليها، فقبضت يده قبضة شديدة، فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك، ففعلت، فعاد، فقبضت أشد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك، ففعلت، فعاد، فقبضت أشد من القبضتين الأولىين، فقال: ادعي الله أن يطلق يدي، فلك الله أن لا أضرك، ففعلت وأطلقت يده، وهذا الذي جاء بها فقال له: إنك إنما أثبتني بشيطان ولم تأتني بإتسان، فأخرجها من أرضي، وأفظها هاجر. قال: فأقبلت تمشي، فلما رآها إبراهيم ﷺ انصرف، فقال لها: مهيم؟ قالت: خيراً، كف الله يد الفاجر، وأخدم خادماً، قال أبو هريرة: فترك أمكم يا بني ماء السماء. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٢٨٠/٦: وفي الحديث مشروعية أخوة الإسلام، وإباحة المعارض، والرخصة في الانقياد للظالم والغاصب، وقبول صلة الملك الظالم، وقبول هدية المشرك، وإجابة الدعاء بإخلاص النية، وكفاية الرب لمن أخلص في الدعاء بعمله الصالح. اهـ.

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» ٣٣٤/٢ من طريق قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير قال: صحبت عمران بن حصين إلى البصرة، فما أتى علينا يوم إلا أنشدنا فيه الشعر، وقال: إن في معاريض الكلام لمتلوعة عن الكذب. قال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة»: قال البيهقي: رواه داود بن الزبرقان عن عمران بن حصين مرفوعاً، قال: والموقوف هو الصحيح، وكذا هو المرفوع ابن عدي. قال البيهقي: وروي من وجه آخر ضعيف - يعني جداً - مرفوعاً. ثم قال: وبالجمله فقد حسن العراقي هذا الحديث، ورد على الصغاني حكمه عليه بالوضع. اهـ. والمعارض: ما حادث عن الكذب، والمتلوعة: السعة.

(٣) رواه عبد بن حميد عن الحسن مرسلاً، ورواه الترمذي في «الشمائل» عن عبد بن حميد عن الحسن أيضاً، وذكره السيوطي في «الدر» ٦/ ١٥٨ عن الحسن، وزاد نسبة لابن المنذر، والبيهقي في «البعث»، وأورده أيضاً من رواية البيهقي في «الشعب»، والطبراني في «الأوسط». عن عائشة رضي الله عنها.

في عينيه بياض»^(١)؟، وقال لرجل: «إنا حاملوك على ولد ناقة»^(٢)، وقال له العباس: ما ترجو لأبي طالب؟ فقال: «كل خير أرجوه من ربّي». وكان أبو بكر حين خرج من الغار مع رسول الله ﷺ إذا سأل أحد: مَنْ هذا بين يديك؟ يقول: هاد يهديني. وكانت امرأة ابن رواحة قد رآته مع جارية له، فقالت له: وعلى فراشي أيضاً؟! فجدد، فقالت له: فاقرا القرآن، فقال:

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَثْلُو كِتَابَهُ إِذَا انشَقَّ مشهورٌ مِنَ الصُّبْحِ طَالِعُ
يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ إِذَا اسْتَقَلَّتْ بِالْكَافِرِينَ الْمَضَاجِعُ

فقلت: آمَنْتُ بالله، وكذبت بصري، فأتى رسول الله ﷺ، فأخبره، فضحك وأعجبه ما صنع. وعرض شريح ناقة لبيعهما فقال له المشتري: كيف لبنها؟ قال: احلب في أي إناء شئت، قال: كيف الرِطَاء؟ قال: افرش ونم، قال: كيف نجاوها؟^(٣) قال: إذا رأيتهما في الإبل عرفت مكانها، علّق سوطك وبرز، قال: كيف قوَّنها؟ قال: احمل على الحائط ما شئت، [فاستصرها] فلم يَر شيئاً مما وصف، فرجع إليه، فقال: لم أر فيها شيئاً مما وصفتها به، قال: ما كذبتك، قال: أولّني، قال: نعم، وخرج شريح من عند زياد وهو مريض، فقبل له: كيف وجدت الأمير؟ قال: تركته يأمر وينهى، فقبل له: ما معنى يأمر وينهى؟ قال: يأمر بالوصية، وينهى عن التَّوَجُّع. وأخذ محمد بن يوسف حجراً المدري فقال: العن علياً، فقال: إن الأمير أمرني أن العن علياً محمد بن يوسف، فالعنوه، لعنه الله. وأمر بعض الأمراء صعصعة بن صوحان بلعن علي، فقال: لعن الله من لعن الله ولعن علي، ثم قال: إن [هذا] الأمير قد أبى إلا أن العن علياً، فالعنوه، لعنه الله. وامتحن الخوارج رجلاً من الشيعة، فجعل يقول: أنا من علي ومن عثمان بريء. وخطب رجل امرأة وتحتة أخرى، فقالوا: لا نزوّجك حتى تطلق امرأتك، فقال: اشهدوا أنني قد طلقت ثلاثاً، فزوّجوه، فأقام مع المرأة الأولى، فادّعوا أنه قد طلق، فقال: أما تعلمون أنه كان تحتها فلانة فطلقتها، ثم فلانة فطلقتها، ثم فلانة فطلقتها؟ قالوا: بلى، قال: فقد طلقت ثلاثاً. وحكي أن رجلاً عثر به الطائف ليلة، فقال له: من أنت؟ فقال:

أَنَا ابْنُ الَّذِي لَا يُنْزَلُ الدَّهْرُ قَدْرُهُ وَإِنْ نَزَلَتْ يَوْمًا فَسَوْفَ تَعُودُ
تَرَى النَّاسَ أَفْوَاجًا إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ فَمِنْهُمْ قِيَامٌ حَوْلَهَا وَقَعُودُ

فظهر الطائف أنه ابن بعض الأشراف بالبصرة، فلما أصبح سأل عنه، فإذا هو ابن باقلائي. ومثل هذا كثير. «فَرَجَعُوا إِلَيْهِ أَنْفُسَهُمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ»^(٤) ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ^(٥) قَالَ أَتَقْتَبِدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ^(٦) أَوَلَمْ تَكُنْ لَكُمْ تَعْبِيرٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ^(٧) قوله تعالى: «فَرَجَعُوا إِلَيْهِ أَنْفُسَهُمْ» فيه قولان: أحدهما: رجع بعضهم إلى بعض. والثاني: رجع كلُّ منهم إلى نفسه متفكراً.

قوله تعالى: «فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ» فيه خمسة أقوال: أحدها: حين عبدتم من لا يتكلم، قاله ابن عباس. والثاني: حين تتركون آلهتكم وحدها، وتذهبون، قاله وهب بن منبه. والثالث: في عبادة هذه الأصاغر مع هذا الكبير، روي عن وهب أيضاً. والرابع: لإبراهيم حين اتهمتموه والفأس في يد كبير الأصنام، قاله ابن إسحاق، ومقاتل. والخامس: أنتم ظالمون لإبراهيم حين سألتهم، وهذه أصنامكم حاضرة، فاسألوها، ذكره ابن جرير.

قوله تعالى: «ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤُسِهِمْ» وقرأ أبو رزين العقيلي، وابن أبي عبلة، وأبو حيو: «نَكِسُوا» برفع النون وكسر الكاف مشددة. وقرأ سعيد بن جبير، وابن يعمر، وعاصم الجحدري: «نَكِسُوا» بفتح النون والكاف مخففة. قال أبو عبيدة: «نَكِسُوا»: قَلَبُوا، تقول: نَكِسْتُ فلاناً على رأسه: إذا قهرته وعلوته. ثم في المراد بهذا الانقلاب ثلاثة

(١) ذكره ملا علي القاري في «شرح الشامل» للترمذي من رواية ابن أبي حاتم وغيره من حديث عبد الله بن سهم الفهري.

(٢) رواه الترمذي في «الشامل» عن أنس بن مالك ﷺ أن رجلاً استحمل رسول الله ﷺ، فقال: «إني حاملك على ولد ناقة» فقال: يا رسول الله، ما أصنع بولد الناقة؟ فقال: «وهل تلد الإبل إلا التوق؟».

(٣) النجاء: السرعة في السير.

أقوال: أحدهما: أدركتهم حيرة، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطُورُونَ﴾، قاله قتادة. والثاني: رجعوا إلى أول ما كانوا يعرفونها به من أنها لا تنطق، قاله ابن قتيبة. والثالث: انقلبوا على إبراهيم يحتجون عليه بعد أن أقروا له ولاموا أنفسهم في تهمة، قاله أبو سليمان الدمشقي. وفي قوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ إضمار «قالوا»، وفي هذا إقرار منهم بعجز ما يعبدونه عن النطق، فحيثما توجهت لإبراهيم الحجة، فقال مويخاً لهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ﴾ أي: لا يرزقكم ولا يعطيكم شيئاً ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ إذا لم تعبدوه، وفي هذا حث لهم على عبادة من يملك النفع والضّر، ﴿أَفَلَا لَكُمْ﴾ قال الزجاج: معناه: التثنية لكم؛ فلما ألزمهم الحجة غضبوا، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ﴾. وذكر في التفسير أن نمرود استشارهم، بأيّ عذاب أعذبه، فقال رجل: حرّقه، فحسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ قلنا ينشأ كوفي بزاً وسلماً على إبراهيم ﴿٦٩﴾ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ وَإِنَّا لَزَكِيَّةٌ وَإِنَّا لَزَكِيَّةٌ وَإِنَّا لَزَكِيَّةٌ وَكَانُوا لَنَا عِبِيدِينَ ﴿٧٣﴾ قوله تعالى: ﴿وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ أي: بتحريقه، لأنه يعيها ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: ناصريها.

الإشارة إلى القصة

ذكر أهل التفسير أنهم حبسوا إبراهيم عليه السلام في بيت ثم بنوا له خيراً طول جداره ستون ذراعاً إلى سفح جبل منيف، ونادى منادي الملك: أيها الناس احتطبا لإبراهيم، ولا يتخلفن عن ذلك صغير ولا كبير، فمن تخلف ألقي في تلك النار، ففعلوا ذلك أربعين ليلة، حتى إن كانت المرأة لتقول: إن ظفرك بكذا لأحطبتن لنار إبراهيم، حتى إذا كاد الحطب يساوي رأس الجدار سدوا أبواب الخيز وقذفوا فيه النار، فارتفع لهبها، حتى إن كان الطائر ليمر بها فيحترق من شدة حرها، ثم بنوا بنياناً شامخاً، وبنوا فوقه منجنيقاً، ثم رفعوا إبراهيم على رأس البنيان، فرفع إبراهيم رأسه إلى السماء، فقال: اللهم أنت الواحد في السماء، وأنا الواحد في الأرض، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري، حسبي الله ونعم الوكيل؛ فقالت السماء والأرض والجبال والملائكة: ربنا إبراهيم يُحرق فيك، فاذن لنا في نصرته؛ فقال: أنا أعلم به، وإن دعاكم فأغيثوه؛ فقفوه في النار وهو ابن ست عشرة سنة، وقيل: ست وعشرين، فقال: «حسبي الله ونعم الوكيل»^(١). فاستقبله جبريل، فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، قال جبريل: فسل ربك، فقال: «حسبي من سؤالي علمه بحالي»^(٢)، فقال الله ﷻ: ﴿يَنبَأُ كُوفِي بَرَا وَسَلَمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾، فلم تبق نار على وجهه الأرض يومئذ إلا طُفئت وطفئت أنها غُثيت. وزعم السدي أن جبريل هو الذي ناداه. وقال ابن عباس: لو لم يُتبع بردها سلاماً لمات إبراهيم من بردها. قال السدي: فأخذت الملائكة بضبعتي^(٣) إبراهيم فأجلسوه على الأرض، فإذا عين من ماء عذب، وورد أحمر، ونرجس. قال كعب وهب: فما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه، وأقام في ذلك الموضع سبعة أيام، وقال غيرهما: أربعين أو خمسين يوماً، فنزل جبريل بقميص من الجنة وطفقة من الجنة، فألبسه القميص، وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه. وإن أزر أتى نمرود فقال: ائذن لي أن أخرج عظام إبراهيم فأدفنتها، فانطلق نمرود ومعه الناس، فأمر بالحائط فُنقب، فإذا إبراهيم في روضة تهترئ وثيابه تندى، وعليه القميص وتحت الطنفسة والمَلِك إلى جنبه، فناده نمرود: يا إبراهيم، إن الهك الذي بلغت قدرته هذا لكبير، هل تستطيع أن تخرج؟ قال: نعم، فقام إبراهيم يمشي

(١) روى البخاري في «صحيحه» عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: قال: حسبي الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّارَ قَدْ جَعَلْنَا لَكُمْ آيَةً فَاعْبُدُوا اللَّهَ وَحَسْبُكُمْ إِلَهُ﴾ وَقَالُوا حَسْبُكُمْ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. وفي رواية للبخاري عن ابن عباس ﷺ قال: كان آخر قول إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل.

(٢) حديث: «حسبي من سؤالي علمه بحالي» رواه ابن جرير مختصراً، وفي سنده جهالة، وذكره المجولوني في «كشف الخفاء» من رواية البغوي عن كعب الأحبار، ورواه كثير من المفسرين عن أبي بن كعب موقوفاً، ولعله من الإسرائيليات، ولا أصل له في المرفوع، وقال ابن عراق في «تنزيه الشريعة» ١/ ٢٥٠: قال ابن تيمية: موضوع اه. وهذا الخبر لا يصح، لأنه يشير إلى ترك الدعاء، مع أن الدعاء عبادة، وقد جاءت الآيات والأحاديث بالأمر به، والحض عليه.

(٣) الضنح، يسكنون الباء: العفد.

حتى خرج، فقال: مَنْ الذي رأيْتُ معك؟ قال: ملك أرسله إليَّ ربِّي ليؤنسيني، فقال نمروذ: إني مقرَّب لإلهك قرباناً لما رأيْتُ من قدرته، فقال: إذن لا يقبل الله منك ما كنتَ على دينك، فقال: يا إبراهيم، لا أستطيع ترك ملكي، ولكن سوف أذبح له، فذبح القربان وكفَّ عن إبراهيم. قال المفسرون: ومعنى ﴿كُونِ بِرَدَاكِ﴾ أي: ذات برد ﴿وَسَلَّمَا﴾ أي: سلامة. ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ وهو التحريق بالنار ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ وهو أن الله تعالى سلَّطَ البعوض عليهم حتى أكل لحومهم وشرب دماءهم، ودخلت واحدة في دماغ نمروذ حتى أهلكته، والمعنى: أنهم كادوه بسوء، فانقلب السوء عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْنَاهُ﴾ أي: من نمروذ وكيدِه ﴿وَلُوطًا﴾ وهو ابن أخي إبراهيم، وهو لوط بن هاران بن تارح، وكان قد آمن به، فهاجرا من أرض العراق إلى الشام. وكانت سارة مع إبراهيم في قول وهب. وقال السدي: إنما هي ابنة ملك حرَّان، لقيها إبراهيم فتزوجها على أن لا يغيرها، وكانت قد طعنت على قومها في دينهم. فأما قوله تعالى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾، ففيها قولان: أحدهما: أنها أرض الشام، وهذا قول الأكثرين. وبَرَكْتِهَا: أن الله عزَّ وجل بعث أكثر الأنبياء منها، وأكثر فيها الخصب والثمار والأنهار. والثاني: أنها مكة، رواه العوفي عن ابن عباس. والأول أصح.

قوله تعالى: ﴿وَوَيْسًا لَهُ﴾ يعني: إبراهيم ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾، وفي معنى النافلة قولان: أحدهما: أنها بمعنى الزيادة، والمراد بها: يعقوب خاصة، فكانه سأل واحداً، فأعطي اثنين، وهذا مذهب ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، والفراء. والثاني: أن النافلة بمعنى العطية، والمراد بها: إسحاق ويعقوب، وهذا مذهب مجاهد، وعطاء.

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ يعني: إبراهيم وإسحاق ويعقوب. قال أبو عبيدة: «كُلُّ» يقع خبره على لفظ الواحد، لأن لفظه لفظ الواحد، ويقع خبره على لفظ الجميع، لأن معناه معنى الجميع.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً﴾ أي: رؤوساً يُقْتَدَى بهم في الخير ﴿يَهْدُونَ النَّاسَ إِلَى دِينِنَا﴾ بامرنا إياهم بذلك ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ قال ابن عباس: شرائع النبوة. وقال مقاتل: الأعمال الصالحة، ﴿وَلِقَاءَ أَعْلَانِهِ﴾ قال الزجاج: حذف الهاء من «إقامة الصلاة» قليل في اللغة، تقول: أقام إقامة، والحذف جائز، لأن الإضافة عوض من الهاء.

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرَارِ﴾ التي كانت تَعْمَلُ لِلنَّبِيِّاتِ إِنَّهُنَّ كَانُوا قَوْمَ سَوَاقِيتَيْنِ ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ قال الزجاج: انتصب «لوط» بفعل مضمر، لأن قبله فعلاً، فالمعنى: وأوحينا إليهم وآتيناه لوطاً. وذكر بعض النحويين: أنه منصوب على «وَأَذْكُرْ لُوطًا»، وهذا جائز، لأن ذكر إبراهيم قد جرى، فحُمِلَ لوط على معنى: وأذكر. قال المفسرون: لما هاجر لوط مع إبراهيم، نزل إبراهيم أرض فلسطين، ونزل لوط بالموثقة على مسيرة يوم وليلة أو نحو ذلك من إبراهيم، فبعثه الله نبياً. فأما «الحكم» ففيه قولان: أحدهما: أنه النبوة، قاله ابن عباس. والثاني: الفهم والعقل، قاله مقاتل. وقد ذكرنا فيه أقوالاً في سورة [يوسف: ٢٢]. وأما «القرية» هاهنا، فهي سدُوم، والمراد أهلها، والخبائث: أفعالهم المنكرة، فمنها إتيان الذكور وقطع السبيل، إلى غير ذلك مما قد ذكره الله ﷻ عنهم في مواضع [مود: ٧٨، والحجر: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ أي: بانجاهه من بينهم.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ كَبَلٍ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَعَلْنَاهُ وَهْلَةً مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وَصَرَّهٖ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَاقِرَتِهِمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا﴾ المعنى: وأذكر نوحاً، وكذلك ما يأتيك من ذكر الأنبياء ﴿إِذْ نَادَى﴾ أي: دعا على قومه ﴿مِنْ كَبَلٍ﴾ أي: من قبل إبراهيم ولوط. فأما الكرب العظيم، فقال ابن عباس: هو الفرق وتكذيب قومه. قوله تعالى: ﴿وَصَرَّهٖ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي: منعاه منهم أن يصلوا إليه بسوء. وقيل: «من» بمعنى «على».

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَمْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكِيمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمَا بَيْنَهُمَا حُكْمًا وَعَلَّمَاهُ وَاسَحَرْنَاهُ مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرُ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخُذُ حَبِيبَةَ ابْنَتَ أَبِي يَسْرَافَةَ إِذْ يَأْمُرُ بِهَا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانَ الشَّيَاطِينُ مِنْ يَفْعُولِهِ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّكُمْ كُنْتُمْ دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَمْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه كان عبداً، قاله ابن مسعود، ومسروق، وشريح. والثاني: كان زرعاً، قاله قتادة. ﴿إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ قال ابن قتيبة: أي: رَعَتْ لَيْلاً، يقال: نَفَسَتْ الْغَنَمُ بِاللَّيْلِ، وهي إِبِلٌ نَفَسَتْ وَنَفَاشَ وَنَفَاشَ، والواحد: نَافَشَ، وَسَرَحَتْ وَسَرَحَتْ بِالنَّهَارِ. قال قتادة: النَّفَسُ بِاللَّيْلِ، وَالْهَمَلُ بِالنَّهَارِ. وقال ابن السكيت: النَّفَسُ: أَنْ تَتَشَرَّ الْغَنَمُ بِاللَّيْلِ تَرعى بِلا رَاعٍ.

الإشارة إلى القصة

ذكر أهل التفسير أن رجلين كانا على عهد داود عليه السلام، أحدهما صاحب حرث، والآخر صاحب غنم، فتلفتت الغنم ف وقعت في الحرث فلم تُبْقِ منه شيئاً، فاخصموا إلى داود، فقال لصاحب الحرث: لك رقاب الغنم، فقال سليمان: أو غير ذلك؟ قال: ما هو؟ قال: ينطلق أصحاب الحرث بالغنم فيصيرون من ألبانها ومنافعها، ويُقْبِل أصحاب الغنم على الكرم، حتى إذا كان كليلة نفست فيه الغنم، دفع هؤلاء إلى هؤلاء غنمهم، ودفع هؤلاء إلى هؤلاء كرمهم، فقال داود: قد أصيبت القضاء، ثم حكم بذلك، فذلك قوله: ﴿وَكُنَّا لِحَكِيمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: داود وسليمان، فذكرهما بلفظ الجمع، لأن الاثنين جمع، هذا قول الفراء. والثاني: أنهم داود وسليمان والخصوم، قاله أبو سليمان الدمشقي. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وابن أبي عبله: ﴿وَكُنَّا لِحَكِيمِهِمَا﴾ على التثنية. ومعنى «شاهدين»: أنه لم يَغِب عَنَّا مِنْ أَمْرِهِمْ شَيْءٌ. ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ يعني: القضية والحكومة. وإنما كُنِيَ عنها، لِأَنَّهُ قَدْ سَبَقَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهَا مِنْ ذِكْرِ الْحُكْمِ، ﴿وَكَلَّمَا﴾ منهما ﴿بَيْنَهُمَا حُكْمًا﴾ وقد سبق بيانه. قال الحسن: لولا هذه الآية لرأيت أن القضاة قد هلكوا، ولكنه أثنى على سليمان لصوابه، وعَدَّر داود باجتهاده.

فصل

قال أبو سليمان الدمشقي: كان قضاء داود وسليمان جميعاً من طريق الاجتهاد، ولم يكن نصّاً، إذ لو كان نصّاً ما اختلفا. قال القاضي أبو يعلى: وقد اختلف الناس في الغنم إذا نفست ليلاً في زرع رجل فأفسدته، فمذهب أصحابنا أن عليه الضمان، وهو قول الشافعي، وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا ضمان عليه ليلاً ونهاراً، إلا أن يكون صاحبها هو الذي أرسلها، فظاهر الآية يدل على قول أصحابنا، لأن داود حكم بالضمان، وشرع مَنْ قَبْلُنَا شَرَعَ لَنَا مَا لَمْ يَثْبُت نَسْخُهُ. فإن قيل: فقد ثبت نسخ هذا الحكم، لأن داود حكم بدفع الغنم إلى صاحب الحرث، وحكم سليمان له بأولادها وأصوافها، ولا خلاف أنه لا يجب على من نفست غنمه في حرث رجل شيء من ذلك؛ قيل: الآية تضمنت أحكاماً، منها وجوب الضمان وكيفيته، فالتسخ حصل على كيفيته، ولم يحصل على أصله، فوجب التعلّق به، وقد روى حرام بن محبّصة عن أبيه: أن ناقةً للبراء دخلت حائط رجل فأفسدت، فقاضى رسول الله ﷺ على أهل الأموال حفظها بالنهار، وعلى أهل المواشي حفظها بالليل^(١).

قوله تعالى: ﴿وَسَحَرْنَاهُ مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ تقدير الكلام: وسَحَرْنَا الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ مَعَ دَاوُدَ. قال أبو هريرة: كان إذا سَبَّح أجابته الجبال والطير بالتسبيح والذكر، وقال غيره: كان إذا وجد فترة، أمر الجبال فسبّحت حتى يشتاق هو فيسبّح. قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي: لذلك. قال الزجاج: المعنى: وكُنَّا نَقْدِرُ عَلَى مَا نُرِيدُهُ.

(١) رواه أحمد في «المسند» ٢/٢٩٥، وأبو داود في «مسنده» رقم (٣٥٦٩)، وابن ماجه في «مسنده» رقم (٢٣٣٢). قال ابن كثير: وقد علل هذا الحديث، قال: وقد بسطنا الكلام عليه في كتاب «الأحكام»، وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ في المراد باللُّبوس قولان: أحدهما: الدُّرُوع، كانت قبل ذلك صفائح، وكان داود أول من صنع هذه الحلق وسرد، قاله قتادة. والثاني: أن اللُّبوس: السلاح كُلُّهُ من درع إلى رمح، قاله أبو عبيدة. وقرأ أبو المتوكل، وابن السميع: «لُبوس» بضم اللام.

قوله تعالى: ﴿لِيُخَصِّنْكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «لِيُخَصِّنْكُمْ» بالياء. وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم: «لِيُخَصِّنْكُمْ» بالتاء. وروى أبو بكر عن عاصم: «لِيُخَصِّنْكُمْ» بالنون خفيفة. وقرأ أبو الدرداء، وأبو عمران الجوني، وأبو حيو: «لِيُخَصِّنْكُمْ» بتاء مرفوعة وفتح الحاء وتشديد الصاد. وقرأ ابن مسعود، وأبو الجوزاء، وحميد بن قيس: «لِيُخَصِّنْكُمْ» بتاء مفتوحة مع فتح الحاء وتشديد الصاد مع ضمها. وقرأ أبو وزين العقيلي، وأبو المتوكل، ومجاهد: «لِيُخَصِّنْكُمْ» بنون مرفوعة وفتح الحاء وكسر الصاد مع تشديدها. وقرأ معاذ القارئ، وعكرمة، وابن يعمر، وعاصم الجحدري، وابن السميع: «لِيُخَصِّنْكُمْ» بياء مرفوعة وسكون الحاء وكسر الصاد مشددة النون. فمن قرأ بالياء، ففيه أربعة أوجه. قال أبو علي الفارسي: أن يكون الفاعل اسم الله، لتقدم معناه، ويجوز أن يكون اللباس، لأن اللبوس بمعنى اللباس من حيث كان ضرباً منه، ويجوز أن يكون داود، ويجوز أن يكون التعليم، وقد دل عليه «علَّمْنَاهُ». ومن قرأ بالتاء، حملة على المعنى، لأنه الدرع. ومن قرأ بالنون، فلتقدم قوله: «وَعَلَّمْنَاهُ». ومعنى «لِيُخَصِّنْكُمْ»: لِيُخَرِّجَكُمْ وتمنعكم ﴿يَنْ بَأْسَكُمْ﴾ يعني: الحرب.

قوله تعالى: ﴿وَلِيُثَبِّتَ الْآيَةَ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو عمران الجوني، وأبو حيو الحضرمي: «الْآيَةُ» بآلف مع رفع الحاء. وقرأ الحسن، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء: بالآلف ونصب الحاء، والمعنى: وسخرنا لسليمان الريح «عَاصِفَةً» أي: شديدة الهبوب ﴿تَجْرِي بِأَمْرِ﴾ يعني: بأمر سليمان ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض الشام، وقد مرَّ بيان بركتها في هذه السورة [الأنبياء: ٧٢] والمعنى: أنها كانت تسير به إلى حيث شاء، ثم تعود به إلى منزله بالشام.

قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ علمنا أن ما نُعْطِي سليمان يدعوه إلى الخضوع لربِّه.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَقْيَاطِينَ مَن يَبْغُضُكَ لَمْ﴾ قال أبو عبيدة: «مَنْ» تقع على الواحد والاثنين والجمع من المذكر والمؤنث. قال المفسرون: كانوا يغيصون في البحر، فيستخرجون الجواهر، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْكَ ذَلِكَ﴾ قال الزجاج: معناه: سوى ذلك، ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ أن يفسدوا ما عملوا. وقال غيره: أن يخرجوا عن أمره.

﴿وَأَوْرَثَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَفَفْنَا مَا يَبْغُ مِنْ ضَرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِنْهُم مِّمَّهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَإِكْرَامًا لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَرْسَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الْفَاطِكِينَ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ أي: دعا ربه ﴿أَنِّي﴾ وقرأ أبو عمران الجوني: «إني» بكسر الهمزة، ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ وقرأ حمزة: «مَسَّنِيَ» بتشكيل الياء، أي: أصابني الجهد، ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: أكثرهم رحمة، وهذا تعريض منه بسؤال الرحمة إذ أثنى عليه بأنه الأرحم وسكت.

الإشارة إلى قصته

ذكر أهل التفسير أن أيوب عليه السلام كان أغنى أهل زمانه، وكان كثير الإحسان. فقال إبليس: يا رب سلطني على ماله وولده - وكان له ثلاثة عشر ولداً - فإن فعلت رأيت كيف يُطيعني وتعيصك، فقبل له: قد سلطتك على ماله وولده، فرجع إبليس فجمع شياطينه ومردته، فبعث بعضهم إلى دوابه ورعاته، فاحتملوها حتى قذفوها في البحر، وجاء إبليس في صورة قيَّمه، فقال: يا أيوب ألا أراك تصلي وقد أقبلت ريح عاصف فاحتملت دوابك ورعاتها حتى قذفتها في البحر؟ فلم يردَّ عليه شيئاً حتى فرغ من صلاته، ثم قال: الحمد لله الذي رزقني ثم قبله مِنِّي، فانصرف خائفاً، ثم أرسل بعض الشياطين إلى جنانه وزروع، فأحرقوها، وجاء فأخبره، فقال مثل ذلك، فأرسل بعض الشياطين فزلزلوا

منازل أيوب وفيها ولده وخدمه، فأهلكوهم، وجاء فأخبره، فحمد الله، وقال لإبليس وهو يظنه قِيَمَه في ماله: لو كان فيك خير لقبضك معهم، فأنصرف خائباً، فقيل له: كيف رأيت عبيد أيوب؟ قال: يا رب سلطني على جسده فسوف ترى، قيل له: قد سلطتُك على جسده، فجاء فنفخ في إبهام قدميه، فاشتعل فيه مثل النار، ولم يكن في زمانه أكثر بكاء منه خوفاً من الله تعالى، فلما نزل به البلاء لم يبك مخافة الجزع، وبقي لسأله للذكر، وقلبه للمعرفة والشكر، وكان يرى أمعاءه وعروقه وعظامه، وكان مرضه أنه خرج في جميع جسده ثآليل كآليات الغنم، ووقعت به حكة لا يملكها، فحك بأظفاره حتى سقطت، ثم بالمسوح، ثم بالحجارة، فأتنت جسمه وتقطع، وأخرجته أهل القرية فجعلوا له عريشاً على كُتامة، ورفضه الخلق سوى زوجته، واسمها رحمة بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب، فكانت تختلف إليه بما يصلحه^(١). وروى أبو بكر القرشي عن الليث بن سعد، قال: كان ملك يظلم الناس، فكلمه في ذلك جماعة من الأنبياء، وسكت عنه أيوب لأجل خيل كانت له في سلطانه، فأوحى الله إليه: تركت كلامه من أجل خيلك؟! لأطيلن بلاءك^(٢). واختلفوا في مدة لبثه في البلاء على أربعة أقوال: أحدها: ثماني عشرة سنة، رواه أنس بن مالك عن النبي ﷺ^(٣)، والثاني: سبع سنين، قاله ابن عباس، وكعب، ويحيى بن أبي كثير. والثالث: سبع سنين وأشهر، قاله الحسن. والرابع: ثلاث سنين، قاله وهب، وفي سبب سؤاله العافية ستة أقوال: أحدها: [أنه] اشتهى إداماً، فلم تُصبه امرأته حتى باعت قرناً من شعرها، فلما علم ذلك، قال: ﴿سَتَيْ أَلْتَرُ﴾، رواه الضحاك عن ابن عباس، والثاني: أن الله تعالى أنساه الدعاء مع كثرة ذكره الله، فلما انتهى أجل البلاء، يسر له الدعاء، فاستجاب له، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أن نفرأ من بني إسرائيل نفراً به، فقال بعضهم لبعض: ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم، فعند ذلك قال: ﴿سَتَيْ أَلْتَرُ﴾، قاله نوف البكالي. وقال عبد الله بن عبيد بن عمير: كان له أخوان، فأتياه يوماً فوجدوا ريحاً، فقالا: لو كان الله علم منه خيراً ما بلغ به كل هذا، فما سمع شيئاً أشد عليه من ذلك، فقال: اللهم إن كنت تعلم أنني لم أبت ليلة شبعان وأنا أعلم مكان جائع فصّدقني، فصّدق وهما يسمعان، ثم قال: اللهم إن كنت تعلم أنني لم ألبس قميصاً وأنا أعلم مكان عارٍ فصّدقني، فصّدق وهما يسمعان، فخرّ ساجداً، ثم قال: اللهم لا أرفع رأسي حتى تكشف ما بي، فكشف الله ﷻ ما به. والرابع: أن إبليس جاء إلى زوجته بسخلة، فقال: ليذبح أيوب هذه لي وقد برأ، فجاءت فأخبرته، فقال: إن شفاني الله لأجلدك مائة جلدة، أمرتني أن أذبح لغير الله؟! ثم طردها عنه، فذهبت، فلما رأى أنه لا طعام له ولا شراب ولا صديق، خرّ ساجداً وقال: ﴿سَتَيْ أَلْتَرُ﴾، قاله الحسن. والخامس: أن الله تعالى أوحى إليه وهو في عفوان شبابه: إني مبتليك، قال: يا رب، وأين يكون قلبي؟ قال: عندي، فصب عليه من البلاء ما سمعته، حتى إذا بلغ البلاء متهاء، أوحى إليه أنني معافيك، قال: يا رب، وأين يكون قلبي؟ قال: عندك، قال: ﴿سَتَيْ أَلْتَرُ﴾، قاله إبراهيم بن شيبان القرميسي فيما حدثنا به عنه. والسادس: أن الوحي انقطع عنه أربعين يوماً، فخاف هجران ربه، فقال: ﴿سَتَيْ أَلْتَرُ﴾، ذكره الماوردي، فإن قيل: أين الصبر، وهذا لفظ الشكوى؟ فالجواب: أن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما المذموم الشكوى إلى الخلق^(٤)، ألم تسمع قول يعقوب: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحَرْقَ إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]. قال سفيان بن عيينة: وكذلك من شكا إلى الناس، وهو في شكواه راضٍ بقضاء الله، لم يكن ذلك جزعاً، ألم تسمع قول رسول الله ﷺ لجبريل في مرضه: «أجدي مغموماً وأجدي مكروباً»، وقوله: «بل أنا واراها»^(٥).

- (١) روى هذا الخبر وهب بن منبه في قصة طويلة ساقها ابن جرير الطبري في «التفسير» ١٧/٦٥. قال ابن كثير ٣/١٨٨: وقد روي عن وهب بن منبه في غيره قصة طويلة ساقها ابن جرير، وابن أبي حاتم بالسند عنه، وذكرها غير واحد من متأخري المفسرين، وفيها غرابة.
- (٢) ذكر نحو هذا الخبر السيوطي في «الدر» ٤/٣٢٧ من رواية ابن عساکر عن أبي إدريس الخولاني، ولعله من الإسرائيليات.
- (٣) ذكره ابن كثير ٣/١٨٩ من رواية ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك وقال: رفع هذا الحديث غريب جداً.
- (٤) من المتفق عليه أن أيوب ﷺ كان غايه في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك، وقد ابتلي في ماله وولده وجسده، فصبر والتجأ إلى الله تعالى، فذلك قول الله فيه: ﴿وَأَبْرَأَ إِذْ كُنَّا رُجُومًا أَيْ سَتَيْ أَلْتَرُ وَأَلْتَرُ وَأَلْتَرُ﴾ فكشف الله تعالى ما به.
- (٥) رواه البخاري في «صحيحه» ١٠/١٠٥ من حديث عائشة رضي الله عنها، وهو جزء من حديث طويل.

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّتَهُ أَهْلَهُ﴾ يعني: أولاده ﴿وَمَثَلَهُمْ مَثَرٌ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن الله تعالى أحيا له أهله بأعيانهم، وآتاه مثلهم معهم في الدنيا، قاله ابن مسعود والحسن، وقتادة. وروى أبو صالح عن ابن عباس: كانت امرأته ولدت له سبعة بنين وسبع بنات، فثيبروا له، وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات. والثاني: أنهم كانوا قد غُيِّبوا عنه ولم يموتوا، فآتاه إياهم في الدنيا ومثلهم معهم في الآخرة، رواه هشام عن الحسن، والثالث: آتاه الله أجور أهله في الآخرة، وآتاه مثلهم في الدنيا، قاله نوف، ومجاهد. والرابع: آتاه أهله ومثلهم معهم في الآخرة، حكاه الزجاج.

قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: فعلنا ذلك به رحمةً مِنْ عِنْدِنَا، ﴿وَذِكْرٌ لَّكَ﴾ أي: عظة ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ قال محمد بن كعب: من أصابه بلاء فليذكر ما أصاب أيوب، فليقل: إنه قد أصاب من هو خيرٌ مني.

قوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْكُفْلَ﴾ اختلفوا هل كان نبياً، أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنه لم يكن نبياً، ولكنه كان عبداً صالحاً، قاله أبو موسى الأشعري، ومجاهد. ثم اختلف أرباب هذا القول في علته تسميته بذی الكفل على ثلاثة أقوال: أحدها: أن رجلاً كان يصلي كل يوم مائة صلاة فتوفي، فكفل بصلاته، فسُمي: ذا الكفل، قاله أبو موسى الأشعري. والثاني: أنه تكفل للنبى بقومه أن يكفيه أمرهم وقيامه ويقضي بينهم بالعدل، ففعل، فسُمي: ذا الكفل، قاله مجاهد. والثالث: أن ملكاً قُتل في يوم ثلاثمائة نبى، وقرأ منه مائة نبى، فكفلهم ذو الكفل، يطعمهم ويسقيهم حتى أفلتوا، فسُمي: ذا الكفل، قاله ابن السائب. والقول الثاني: أنه كان نبياً، قاله الحسن، وعطاء^(١). قال عطاء: أوحى الله تعالى [إلى] نبي من الأنبياء: إني أريد قبض روحك، فأعرض ملكك على بني إسرائيل، فمن تكفل لك بأنه يصلي الليل لا يفتّر، ويصوم النهار لا يفتّر، ويقضي بين الناس ولا يغضب، فادفع ملكك إليه، ففعل ذلك، فقام شاب فقال: أنا أنكفلك لك بهذا، فتكفل به، فوفى، فشكر الله له ذلك، ونبأه، وسُمي: ذا الكفل. وقد ذكر الثعلبي حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ في الكفل: «أنه كان رجلاً لا ينزع عن ذنب، وأنه خلا بامرأة ليفجر بها، فبكت، وقالت: ما فعلت هذا قط، فقام عنها تائباً، ومات من ليلته، فأصبح مكتوباً على يابه: قد غفر الله للكفل»؛ والحديث معروف^(٢)، وقد ذكرته في «الحقائق»، فجعله الثعلبي أحد الوجوه في بيان ذي الكفل، وهذا غلط، لأن ذلك اسمه الكفل، والمذكور في القرآن يقال له: ذو الكفل، ولأن الكفل مات في ليلته التي تاب فيها، فلم يمض عليه زمان طويل يعالج فيه الصبر عن الخطايا. وإذا قلنا: إنه نبي، فإن الأنبياء معصومون عن مثل هذا الحال. وذكرت هذا لشيخنا أبي الفضل بن ناصر رحمه الله تعالى، فوافقني، وقال: ليس هذا بذلك.

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: على طاعة الله وترك معصيته، ﴿وَأَعْلَنَهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ في هذه الرحمة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الجنة، قاله ابن عباس. والثاني: النبوة، قاله مقاتل. والثالث: النعمة والموالة، حكاه أبو سليمان الدمشقي.

﴿وَرَأَى الْتَوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغْنِيًا فَظَنَّ أَنَّ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٧٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَعَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْتَوْنِ﴾ يعني: يونس بن متى. والتون: السمكة؛ أضيف إليها لا بتلاعها إياه.

قوله تعالى: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْنِيًا﴾ قال ابن قتبية: المغاضبة: مفاعلة، وأكثر المفاعلة من اثنين، كالمناظرة والمجادلة والمخاصمة، وربما تكون من واحد، كقولك: سافرت، وشارفت الأمر، وهي هاهنا من هذا الباب. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وعاصم الجحدري، وابن السميع: «مُغْنِيًا» بإسكان الغين وفتح الضاد من غير ألف. واختلفوا في مغاضبته لمن كانت؟ على قولين: أحدهما: أنه غضب على قومه، قاله ابن عباس، والضحاك. وفي سبب غضبه عليهم ثلاثة أقوال. أحدها: أن الله تعالى أوحى إلى نبي يقال له: شعيا: أن ات فلاتاً الملك، فقل له: يبعث نبياً أميناً إلى

(١) قال ابن كثير ١٩٠/٣: وأما ذو الكفل، فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي.

(٢) رواه أحمد في «المسند» من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب ؓ. قال الحافظ ابن كثير ١٩١/٣: وهذا الحديث لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة، وإنشاده غريب.

بني إسرائيل، وكان قد غزا بني إسرائيل ملك، وسبى منهم الكثير، فأراد النبي والملك أن يبعثا يونس إلى ذلك الملك ليكلّمه حتى يرسلهم، فقال يونس لشعيا: هل أمرك الله بإخراجي؟ قال: لا، قال: فهل سماني لك؟ قال: لا، قال: فها هنا غيري من الأنبياء، فألّحوا عليه، فخرج مغاضباً للنبي والملك ولقومه، هذا مروي عن ابن عباس؛ وقد زدناه شرحاً في (يونس: ٩٨). والثاني: أنه عاني من قومه أمراً صعباً من الأذى والتكذيب، فخرج عنهم قبل أن يؤمنوا ضجراً، وما ظنّ أن هذا الفعل يوجب عليه ما جرى من العقوبة، ذكره ابن الأنباري، وقد روي عن وهب بن منبه، قال: لما حُمِلت عليه أثقال النبوة، ضاق بها ذراً ولم يصبر، فقذفها من يده وخرج هارباً^(١). والثالث: أنه لما أوعدهم العذاب، فتابوا ورفع عنهم، قيل له: ارجع إليهم، فقال: كيف أرجع فيجدوني كاذباً؟ فانصرف مغاضباً لقومه، عاتياً على ربّه. وقد ذكرنا هذا في (يونس: ٩٨). والثاني: أنه خرج مغاضباً لربّه، قاله الحسن، وسعيد بن جببر، والشعبي، وعروة. وقال أبو بكر النقاش: المعنى: مغاضباً من أجل ربّه، وإنما غضب لأجل تمردهم وعصيانهم. وقال ابن قتيبة: كان مغيظاً عليهم لطول ما عاناه من تكذيبهم، مشتتاً أن ينزل العذاب بهم، فعاقبه الله على كراهيته العفو عن قومه.

قوله تعالى: ﴿فَظَنُّوا أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ وقرأ يعقوب: ﴿يُقَدَّرُ﴾ بضم الياء وتشديد الدال وفتحها. وقرأ سعيد بن جببر، وأبو الجوزاء، وابن أبي ليلى: ﴿يُقَدَّرُ﴾ بياء مرفوعة مع سكون القاف وتخفيف الدال وفتحها. وقرأ أبو عمران الجوني: ﴿يُقَدِّرُ﴾ بياء مفتوحة وسكون القاف وكسر الدال خفيفة. وقرأ الزهري، وابن يعمر، وحמיד بن قيس: ﴿تُقَدَّرُ﴾ بنون مرفوعة وفتح القاف وكسر الدال وتشديدها. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن لن نقضي عليه بالعقوبة، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقتادة، والضحاك. قال الفراء: معنى الآية: فظن أن لن نقدر عليه ما قدرنا من العقوبة، والعرب تقول: قَدَّرَ، بمعنى: قَدَّرَ، قال أبو صخر:

ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تُقَدِّرُ يَكُنْ وَلَكَ الشُّكْرُ^(٢)

أراد: ما تقدر، وهذا مذهب الزجاج. والثاني: فظن أن لن نصيّق عليه، قاله عطاء. قال ابن قتيبة: يقال: فلان مُدَّرٌ عليه، ومُتَّرٌ عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدَّرَ عَلَيْهِ يَذْفَرُ﴾ [النجر: ١٦] أي: ضَيَّقَ عليه فيه. قال النقاش: والمعنى: فظن أن لن يصيّق عليه الخروج، فكأنه ظن أن الله قد وسّع له، إن شاء أن يقيم، وإن شاء أن يخرج، ولم يؤدّن له في الخروج. والثالث: أن المعنى: فظن أنه يعجز ربه، فلا يقدر عليه، رواه عوف عن الحسن. وقال ابن زيد، وسليمان التيمي: المعنى: أظنّ أن لن نقدر عليه؛ فعلى هذا الوجه يكون استفهاماً قد حُذفت ألفه؛ وهذا الوجه يدل على أنه من القدرة، ولا يتصور إلا مع تقدير الاستفهام، ولا أعلم له وجهاً إلا أن يكون استفهام إنكار، تقديره: ما ظنّ عجزنا، فأين يهرب منا؟!

قوله تعالى: ﴿فَكَادَىٰ فِي الظَّلَمَةِ أَنْ يَكُونَ﴾ فيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، وظلمة الليل، قاله سعيد بن جببر، وقتادة، والأكثرون. والثاني: أن حوتاً جاء فابتلع الحوت الذي هو في بطنه، فنأى في ظلمة حوت، ثم في ظلمة حوت، ثم في ظلمة البحر، قاله سالم بن أبي الجعد. والثالث: أنها ظلمة الماء، وظلمة معى السمكة، وظلمة بطنها، قاله ابن السائب. وقد روى سعد بن أبي وقاص عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج الله عنه، كلمة أخي يونس: فنأى في الظلمات أن لا إله إلا أنت، سبحانك إني كنت من الظالمين»^(٣). قال الحسن: وهذا اعتراف [من] يونس بذنبه وتوبه من خطيئته.

(١) لعنه من الإسرائيليات التي نقلها وهب بن منبه، وقد تقدم أمثال ذلك.

(٢) شرح أشعار الهذليين ٩٥٨/٢، والقرطبي ٣٣٢/١١.

(٣) رواه بهذا اللفظ ابن السني عن أبي يعلى، وفي سنده عمرو بن الحصين، وهو ضعيف جداً، ورواه أحمد، والترمذي، والنسائي، والحاكم وصححه، بلفظ «دعوه في النون، إذ دعا ربه وهو في بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾» لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب له، وهو حديث حسن.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أي: أجبناه ﴿وَوَعَيْنَتْهُ يَنَ الْفَرْ﴾ أي: من الظلمات ﴿وَكَذَلِكَ نُشِجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا دعونا. وروى أبو بكر عن عاصم أنه قرأ: ﴿نُجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ بنون واحدة مشددة الجيم؛ قال الزجاج: وهذا لُحْنٌ لا وجه له، وقال أبو علي الفارسي: غلط الراوي عن عاصم، ويدل على هذا إسماعيل الباء من ﴿نُجِّي﴾ ونصب «المؤمنين»، ولو كان على ما لم يُسم فاعله ما سكن الباء ولرفع «المؤمنين».

﴿وَزَكَرَيْتَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ٨٩ ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَمْلَلْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ ٩٠ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ بِالنَّخْلِ وَيَتَمَنَّىٰ زَوْجًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خُنُوعًا﴾ ٩١ ﴿وَالَّذِي أَطْمَعْتُ فَرَجَهَا فَنَنفَخُ فِيهَا مِنْ زَوْجِنَا وَمَعْلَنَهَا وَأَبْنَاهَا ءَايَةً لِّلْمُكَلِّمِينَ﴾ ٩٢ ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾ ٩٣ ﴿وَنَقُطِعْ أَسْرَهُم بِأَنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ﴾ ٩٤ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ أُذْيَةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ٩٥ ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ٩٦ أي: أفضل من بقي حياً بعد ميت.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْلَلْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أصلحت للولد بعد أن كانت عقيماً، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقناة. والثاني: أنه كان في لسانها طول، وهو: البذاء، فأصلحت، قاله عطاء. وقال السدي: كانت سليطة فكف عنه لسانها. والثالث: أنه كان خلُقها سيئاً، قاله محمد بن كعب^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ بِالنَّخْلِ﴾ أي: يبادرون في طاعة الله. وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: زكريا، وإمراته، ويحيى. والثاني: جميع الأنبياء المذكورون في هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿وَيَذَعُونَكَ﴾ وقرأ ابن مسعود، وابن محيصن: «ويدعوننا» بنون واحدة.

قوله تعالى: ﴿زَوْجًا وَرَهْبًا﴾ أي: رغباً فيما عندنا، ورهباً منا. وقرأ الأعشى: «رُغْبًا وَرُهْبًا» بضم الراءين وجرم الغين والهاء، وهما لغتان مثل النخل، والنحل، والسقم، والسقم، أي: متواضعين.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعْتُ فَرَجَهَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه مخرج الولد، والمعنى: منعت مما لا يحل. وإنما وُصِفَتْ بالعفاف لأنها قُلِبَتْ بالزنا. والثاني: أنه جيب درعها. ومعنى الفرج في اللغة: كل فرجة بين شيئين، وموضع جيب درع المرأة مشقوق، فهو يسمى فرجاً. وهذا أبلغ في الثناء عليها، لأنها إذا منعت جيب درعها، فهي لنفسها منع.

قوله تعالى: ﴿فَنَنفَخُ فِيهَا﴾ أي: أمرنا جبريل، فنفخ في درعها، فأجرنا فيها روح عيسى كما تجري الرياح بالنفخ. وأضاف الروح إليه إضافة الملك، للتشريف والتخصيص ﴿وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً﴾ قال الزجاج: لما كان شأنهما واحداً، كانت الآية فيهما آية واحدة، وهي ولادة من غير فحل. وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبيدة: «آيتين» على التثنية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ قال ابن عباس: المراد بالأمّة هاهنا: الذين. وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم أمة محمد ﷺ، وهو معنى قول مقاتل. والثاني: أنهم الأنبياء ﷺ، قاله أبو سليمان الدمشقي. ثم ذكر أهل الكتاب، فذمهم بالاختلاف، فقال تعالى: ﴿وَنَقُطِعْ أَسْرَهُم بِأَنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ﴾ أي: اختلغوا في الدين، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ أُذْيَةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ أي: شيئاً من الفرائض وأعمال البر ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ﴾ أي: لا نجحد ما عمل، قاله ابن قتيبة، والمعنى: أنه يقبل منه، ويثاب عليه ﴿وَأَنَا لَمْ كُنْ بِمُؤْمِنٍ﴾ ذلك، نأمر الحفظة أن يكتبوه لنجازه به.

﴿وَحَرَّمْ عَلَىٰ قَرِينِهِ طَلْقَهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ٩٧ ﴿حَقٌّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ٩٨ ﴿وَأَقْرَبَ الرَّعْدُ الْقَافُ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِإِذْنِنَا قَدْ كُنَّا فِي عَفْوَ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ٩٩ ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ ١٠٠ ﴿لَوْ كَانَتْ هَذِهِ ءَالَهُمْ مَا وَدَّعُوا وَكُلَّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ١٠١ ﴿لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ ١٠٢

(١) قال ابن كثير: والأظهر من السياق الأول.

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ عَلَىٰ قَرَبَيْهِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «وحرام» باللف. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «وحُرْم» بكسر الحاء من غير ألف، وهما لغتان. يقال: حُرِمَ وحرام. وقرأ معاذ القارئ، وأبو المتوكل، وأبو عمران الجوني: «حَرْمٌ» بفتح الحاء وسكون الراء من غير ألف والميم مرفوعة منوثة. وقرأ سعيد بن جبير: «وَحَرْمٌ» بفتح الحاء وسكن الراء وفتح الميم من غير تنوين ولا ألف. وقرأ أبو الجوزاء، وعكرمة، والضحاك: «وَحَرِمٌ» بفتح الحاء والميم وكسر الراء من غير تنوين ولا ألف. وقرأ سعيد بن المسيب، وأبو مجلز، وأبو رجاء: «وَحَرْمٌ» بفتح الحاء وضم الراء ونصب الميم من غير ألف. وفي معنى قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ﴾ قولان: أحدهما: واجب، قاله ابن عباس، وأنشدوا في معناه:

فَلِإِنْ حَرَامًا لَا أَرَى الدَّهْرَ بَاكِيًا عَلَى شَخْوِهِ إِلَّا بَكَيْتُ عَلَى عَمْرُو^(١)

أي: واجب. والثاني: أنه بمعنى العزم، قاله سعيد بن جبير. وقال عطاء: حتم من الله. والمراد بالقرية: أهلها. ثم في معنى الآية أربعة أقوال: أحدها: واجب على قرية أهلكتها أنهم لا يتوبون، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: واجب عليها أنها إذا أهلكت لا ترجع إلى دنياها، هذا قول قتادة؛ وقد روي عن ابن عباس نحوه. والثالث: أن «لا» زائدة؛ والمعنى: حرام على قرية مهلكة أنهم يرجعون إلى الدنيا، قاله ابن جريج، وابن قتيبة في آخرين. والرابع: أن الكلام متعلق بما قبله. لأنه لما قال: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدٍ﴾ أعلمنا أنه قد حُرِمَ قبول أعمال الكفار؛ فمعنى الآية: وحرام على قرية أهلكتها أن يُتَقَبَّلَ منهم عمل، لأنهم لا يتوبون، هذا قول الزجاج. فإن قيل: كيف يصح أن يحرم على الإنسان ما ليس من فعله، ورجوعهم بعد الموت ليس إليهم؟ فالجواب: أن المعنى: مُنَعُوا من ذلك، كما يُمنع الإنسان من الحرام وإن قدر عليه، فكان التشبيه بالتحريم للحالتين من حيث المنع.

قوله تعالى: ﴿حَقَّقَ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾^(٢) وقرأ ابن عامر: «فُتِّحَتْ» بالتشديد، والمعنى: فُتِحَ الردم عنهم ﴿وَقَمَّ يَنْ كُلِّ حَدَبٍ﴾ قال ابن قتيبة: من كل نشز من الأرض وأكمة ﴿يَكْسِلُونَ﴾ من النسلان: وهو مقارنة الخطوط مع الإسراع، كمشي الذئب إذا بادر، والعسلان مثله. وقال الزجاج: الحدب: كل أكمة، و«يَنْسِلُونَ»: يُسرعون. وقرأ أبو رجاء العطاردي، وعاصم الجحدري: «يَنْسِلُونَ» بضم السين. وفي قوله تعالى: ﴿وَقَمَّ﴾ قولان: أحدهما: أنه إشارة إلى يأجوج ومأجوج، قاله الجمهور؛ والثاني: إلى جميع الناس؛ فالمعنى: وهم يُحشرون إلى الموقف، قاله مجاهد. والأول أصح. فإن قيل: أين جواب «حتى»؟ ففيه قولان: أحدهما: أنه قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ الزَّوْعِدُ الْحَقُّ﴾ والوإو في قوله تعالى: «واقرب» زائدة، قاله الفراء. قال: ومثله ﴿حَقَّقَ إِذَا جَاءَهُمَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ١٧٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَا وَقَمَّ لِلْجِبِّينِ ۖ وَنَدْبَيْنَهُ﴾ [الصافات: ١٠٣، ١٠٤]، والمعنى: نادينا. وقال عبد الله بن مسعود: الساعة من الناس بعد يأجوج ومأجوج، كالحامل المتمدن، لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولدها ليلاً أو نهاراً. والثاني: أنه قول محذوف في قوله: ﴿يَنْسِلُونَ﴾، فالمعنى: حتى إذا فُتِحَتْ يأجوج ومأجوج واقرب الوعد، قالوا: يا ويلنا. قال الزجاج: هذا قول البصريين. فاما ﴿الزَّوْعِدُ الْحَقُّ﴾ فهو القيامة.

(١) البيت لعبد الرحمن بن جمانة المبحاري الجاهلي، كما في «اللسان»: حرم، وهو في «غريب القرآن» ٢٨٨، ونسب للخنساء في «تفسير القرطبي» ٣٤٠/١١، و«البحر المحيط» ٣٣٩/٦، و«روح المعاني» ٨٤/١٧، وفيها جميعاً: بكيت على صخر، ولا يوجد البيت في «ديوانها».

(٢) تقدم الكلام على يأجوج ومأجوج في سورة (الكهف: ٩٤). قال ابن كثير: وهم من سلالة آدم ﷺ، بل هم من نسل نوح أيضاً من أولاد باث، أي أبي الترك، والترك شُرعة منهم تركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين، قال: وقد حكى النووي في «شرح مسلم» عن بعض الناس أن يأجوج ومأجوج خلقوا من متي خرج من آدم فاختلط بالتراب فخلقوا من ذلك، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم، وليسوا من حواء. قال: وهذا قول غريب جداً، ثم لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل، ولا يجوز الاعتماد هاهنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب، لما عندهم من الأحاديث المفتعلة، والله أعلم. وهم إذا خرجوا من السد يعيشون في الأرض فساداً، ويهلكون الحرث والنسل، وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية، انظر «تفسير ابن كثير» ١٩٥/٣ - ١٩٧.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ في «هي» أربعة أقوال: أحدها: أن «هي» كناية عن الأبصار، والأبصار تفسير لها، كقول الشاعر:

لَعَمْرُو أَبِيهَا لَا تَقُولُ ظَلَمْتَنِي
فذكر الظئينة، وقد كنى عنها في «العمرو أبيها». والثاني: أن «هي» [ضمير فصل، و] ^(٣) عماد، ويصلح في موضعها «هو»، ومثله قوله: ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ﴾ [النمل: ٩]، وقوله: ﴿فَلَيْتَهَا لَا تَمْسَى الْأَبْصَرَ﴾ [الحج: ٤٦]، وأنشدوا:

بِثُوبٍ وَدِينَارٍ وَشَاؤٍ وَدِرْهَمٍ
فَهَلْ هُوَ مَرْفُوعٌ بِمَا هَا هُنَا رَأْسُ

ذكرهما الفراء. والثالث: أن يكون تمام الكلام عند قوله: «هي» على معنى: فإذا هي بارزة واقفة، يعني: من قربها، كأنها آتية حاضرة، ثم ابتداء فقال: ﴿شَخْصَةً﴾، ذكره الثعلبي. والرابع: أن «هي» كناية عن القصة، والمعنى: القصة أن أبصارهم شاخصة في ذلك اليوم، ذكره علي بن أحمد النيسابوري. قال المفسرون: تشخص أبصار الكفار من هول يوم القيامة، ويقولون: ﴿يَوَلَّيْنَا قَدَّ كُنَّا﴾ أي: في الدنيا ﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ أي: عن هذا ﴿كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أنفسنا بكفرنا ومعاصينا. ثم خاطب أهل مكة فقال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: الأصنام ﴿حَصَبٌ جَهَنَّمَ﴾ وقرأ علي بن أبي طالب، وأبو العالية، وعمر بن عبد العزيز: «حطب» بالطاء. وقرأ ابن عباس، وعائشة، وابن السميع: «حَصَبٌ» بالضاد المعجمة المفتوحة. وقرأ عروة، وعكرمة، وابن يعمر، وابن أبي عيلة: «حَصَبٌ جهنم» بإسكان الضاد المعجمة. وقرأ أبو المتوكل، وأبو حيرة، ومعاذ القارئ: «حُضْبٌ» بكسر الحاء مع تسكين الضاد المعجمة. وقرأ أبو مجلز، وأبو رجاء، وابن محيصن: «حَضْبٌ» بفتح الحاء وبضاد غير معجمة ساكنة. قال الزجاج: من قرأ «حَضْبٌ جهنم» فمعناه: كل ما يرمى به فيها، ومن قرأ «حطب» فمعناه: ما تُوقد به، ومن قرأ بالضاد المعجمة، فمعناه: ما تبيح به النار وتذكي به. قال ابن قتيبة: الحَضْبُ: ما ألقي فيها، وأصله من الحَضْبَاءِ، وهو: الحصى، يقال: حصبت فلاناً: إذا رميته، حَضْباً، بتسكين الصاد، وما رُميت به فهو حَضْبٌ، بفتح الصاد.

قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ﴾ يعني: العابدين والمعبودين ﴿لَهَا وَرَدُّكُمْ﴾ أي: داخلون. ﴿لَوْ كَانَتْ هَذِهِ﴾ يعني: الأصنام ﴿آلِهَةً﴾ على الحقيقة ﴿مَّا وَرَدُوكُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إشارة إلى الأصنام، والمعنى: لو كانوا آلهة ما دخلوا النار. والثاني: أنه إشارة إلى عابديها، فالمعنى: لو كانت الأصنام آلهة، منعت عابديها دخول النار. والثالث: أنه إشارة إلى الآلهة وعابديها، بدليل قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني: العابد والمعبود.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ﴾ قد شرحنا معنى الزفير في (هود: ١٠٦). وفي علّة كونهم لا يسمعون ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يوضع في مسامعهم مسامير من نار، ثم يُقذّفون في توابيت من نار مقفلة عليهم، رواه أبو أمامة عن رسول الله ﷺ في حديث طويل. وقال ابن مسعود: إذا بقي في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من نار، ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت أخرى، فلا يسمعون شيئاً، ولا يرى أحدهم أن في النار أحداً يعذب غيره ^(٤). والثاني: أن السماع أنس، والله لا يحب أن يؤنسهم، قاله عون بن عمارة. والثالث: إنما لم يسمعوا لشدة غليان جهنم، قاله أبو سليمان الدمشقي.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾ ١٠١ لَا يَسْمَعُونَ حَبِيبًا وَمِمَّنْ مَا أَفْتَحَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ١٠٢ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ١٠٣ يَوْمَ تَطْوِي السَّكَنَةَ كُلِّي السَّجِلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ ثُمِّدُوا وَعَدْنَا عَلَيْنا إِنَّا كَا فَعَلِيلُونَ ١٠٤ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُرِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ١٠٥ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاءَ لِقَوْمٍ عَلِيلِينَ ١٠٦ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ١٠٧

(١) البيت غير منسوب في «الطبري» ٩٢/١٧، و«البحر» ٣٤٠/٦، و«القرطبي» ٣٤٢/١١، و«روح المعاني» ٨٥/١٧.

(٢) ما بين المعقنين، زيادة من «روح المعاني».

(٣) البيت غير منسوب في «معاني القرآن» للفراء ٥٢/١، و«الطبري» ٩٣/١٧، و«البحر» ٣٤٠/٦، و«روح المعاني» ٨٥/١٧.

(٤) «الطبري» ٩٥/١٧، وذكره السيوطي في «الدرر» وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن أبي الدنيا في «صفة النار»، والطبراني، والبيهقي في «البعث» عن عبد الله بن مسعود.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ سُبُّتَ لَهُمْ مِنَّا الْحَقُّ﴾. سبب نزولها أنه لما نزلت ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ شق ذلك على قريش، وقالوا: شتم آلهتنا، فجاء ابن الزبيري، فقال: ما لكم؟ قالوا: شتم آلهتنا، قال: وما قال؟ فأخبروه، فقال: ادعوه لي، فلما دعي رسول الله ﷺ، قال: يا محمد، هذا شيء لآلهتنا خاصة، أو لكل من عبد من دون الله؟ قال: «لا، بل لكل من عبد من دون الله»، فقال ابن الزبيري: خُصِّمَتْ رَبُّ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ، أَلَسْتُ تَزْعُمُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ عِبَادَ صَالِحِينَ، وَأَنْ عِيسَى عَبْدٌ صَالِحٌ، وَأَنْ عَزِيرًا عَبْدٌ صَالِحٌ، فَهَذِهِ بَنُو مَلِيحٍ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ، وَهَذِهِ النَّصَارَى تَعْبُدُ عِيسَى، وَهَذِهِ الْيَهُودُ تَعْبُدُ عَزِيرًا، فَضَجَ أَهْلُ مَكَّةَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(١). وقال الحسين بن الفضل: إنما أراد بقوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ الأصنام دون غيرها، لأنه لو أراد الملائكة والناس، لقال: «وَمَنْ»، وقيل: «إِنَّ» بمعنى: «إِلَّا»، فتقديره: إلا الذين سبقت لهم منا الحسنى، وهي قراءة ابن مسعود، وأبي نعيم، فإنهما قرأا: «إِلَّا الَّذِينَ». وروى عن علي بن أبي طالب أنه قرأ هذه الآية، فقال: أنا منهم، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن^(٢). وفي المراء «بالحسن» قولان: أحدهما: الجنة، قاله ابن عباس، وعكرمة. والثاني: السعادة، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَنَّا﴾ أي: عن جهنم، وقد تقدم ذكرها ﴿تُعَذَّبُونَ﴾ والبعد: طول المسافة، والحسيس: الصوت تسمعه من الشيء إذا مرَّ قريباً منك. قال ابن عباس: لا يسمع أهل الجنة حسيس أهل النار إذا نزلوا منازلهم من الجنة.

قوله تعالى: ﴿لَا يَخْزِيهِمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾ وقرأ أبو رزين، وقتادة، وابن أبي عبيدة، وابن محيصن، وأبو جعفر الشيزري عن الكسائي: «لَا يَخْزِيهِمْ» بضم الياء وكسر الزاي. وفي الفرع الأكبر أربعة أقوال: أحدها: أنه النخعة الأخيرة، رواه العوفي عن ابن عباس؛ وبهذه النخعة يقوم الناس من قبورهم، ويدل على صحة هذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَنَلَقَّاهُمُ اللَّكَّكَةَ﴾. والثاني: أنه طباق النار على أهلها، رواه سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. والثالث: أنه ذبح الموت بين الجنة والنار، وهو مروى عن ابن عباس أيضاً، وبه قال ابن جريج. والرابع: أنه حين يؤمر بالعباد إلى النار، قاله الحسن البصري. وفي مكان تلقى الملائكة لهم قولان: أحدهما: إذا قاموا من قبورهم، قاله مقاتل. والثاني: على أبواب الجنة، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ﴾ فيه إضمار: «يقولون» هذا يومكم ﴿الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيه الجنة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَطْوَى السَّكَاةُ﴾^(٣) وقرأ أبو العالية، وابن أبي عبيدة، وأبو جعفر: «تَطْوَى» بناء مضمومة «السَّكَاةُ» بالرفع؛ وذلك بمحو رسومها، وتكدير نجومها، وتكوير شمسها، ﴿كَلَّا! السَّجِّلُ لِلْكَثِيرِ﴾ قرأ الجمهور: «السَّجِّلُ» بكسر السين والجيم وتشديد اللام. وقرأ الحسن، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء، ومحبوب عن أبي عمرو: «السَّجِّلُ» بكسر السين وإسكان الجيم خفيفة. وقرأ أبو السماك كذلك، إلا أنه فتح الجيم.

قوله تعالى: «لِلْكِتَابِ» قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «لِلْكِتَابِ». وقرأ حمزة، والكسائي وجفص عن عاصم: «لِلْكِتَابِ» على الجمع. وفي السَّجِّلُ أربعة أقوال: أحدها: أنه ملك، قاله علي بن أبي طالب، وابن عمر، والسدي. والثاني: أنه كاتب كان لرسول الله ﷺ، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس^(٤). والثالث: أن السَّجِّلُ

(١) أسباب النزول: للواحدي ١٧٥، والطبري ١٧/٩٧، وذكر السيوطي في «الدر» ٤/٣٣٨، وزاد نسبة لأبي داود في «ناسخه»، وابن المنذر، وابن مردويه، والطبراني من وجه آخر عن ابن عباس. قال ابن كثير: وهذا الذي قاله ابن الزبيري خطأ كبير، لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل، ليكون ذلك تقيماً وتوبيخاً لعبادها، ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ فكيف يورد على هذا المسيح والزبير ونحوهما ممن له عمل صالح ولم يرض بعبادة من عبده؟ وقد أسلم ابن الزبيري بعد ذلك، واعتذر عما كان يهاجي به المسلمين أولاً.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» من رواية ابن أبي حاتم، وابن عدي، وابن مردويه عن الثعلبي بن بشير.

(٣) روى البخاري في «صحيحه» عن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَرْضِينَ، وَتَكُونُ السَّمَاوَاتُ بِمِثْمَةٍ».

(٤) روى الطبري ١٧/١٠٠، ورواه أبو داود، والنسائي، وغيرهما، قال ابن كثير ٣/٢٠٠ لا يصح، وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه، وإن كان =

بمعنى: الرجل، روى أبو الجوزاء عن ابن عباس، قال: السجل، هو الرجل. قال شيخنا أبو منصور اللغوي: وقد قيل: «السجل» بلغة الحبشة: الرجل. والرابع: أنه الصحيفة. رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والقراء، وابن قتيبة^(١). وقرأت على شيخنا أبي منصور، قال: قال أبو بكر، يعني - ابن دريد -: السجل: الكتاب، والله أعلم؛ ولا ألتفت إلى قولهم: إنه فارسي معرب، والمعنى: كما يطوى السجل على ما فيه من كتاب. و«اللام» بمعنى «على». وقال بعض العلماء: المراد بالكتاب: المكتوب، فلما كان المكتوب ينطوي بانطواء الصحيفة، جعل السجل كأنه يطوي الكتاب. ثم استأنف، فقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ﴾ الخلق هاهنا مصدر، وليس بمعنى المخلوق. وفي معنى الكلام أربعة أقوال: أحدها: كما بدأناهم في بطون أمهاتهم حفاة غرلاً، كذلك نعيدهم يوم القيامة؛ روى عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يحشر الناس يوم القيامة عراة حفاة غرلاً كما خلقوا، ثم قرأ: كما بدأنا أول خلق نعيده»^(٢)؛ وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد. والثاني: أن المعنى: إنا نُهلك كل شيء كما كان أول مرة، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أن السماء تمطر أربعين يوماً كمني الرجال، فينبئون بالمطر في قبورهم، كمن ينبئون في بطون أمهاتهم، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: أن المعنى: قُدرتنا على الإعادة كقُدرتنا على الابتداء، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ﴾ قال الزجاج: هو منصوب على المصدر، لأن قوله تعالى: «نعيده» بمعنى: وعدنا هذا وعداً، ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي: قادرين على فعل ما نشاء. وقال غيره: إنا كنا فاعلين ما وعدنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن الزبور جميع الكتب المنزلة من السماء، والذكر: أُم الكتاب الذي عند الله، قاله سعيد بن جبيرة في رواية، ومجاهد، وابن زيد، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية ابن جبيرة، فإنه قال: الزبور: التوراة والإنجيل والقرآن، والذكر: الذي في السماء. والثاني: أن الزبور: الكتب، والذكر: التوراة، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أن الزبور: القرآن، والذكر: التوراة والإنجيل، قاله سعيد بن جبيرة في رواية. والرابع: أن الزبور: زبور داود، والذكر: ذكر موسى، قاله الشعبي. وفي الأرض المذكورة هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنها أرض الجنة، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وبه قال الأكثرون. والثاني: أرض الدنيا، وهو منقول عن ابن عباس أيضاً. والثالث: الأرض المقدسة، قاله ابن السائب. وفي قوله تعالى: ﴿يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أمة محمد ﷺ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وفي رواية: ترث أمة محمد أرض الدنيا بالفتح. والثاني: بنو إسرائيل، قاله ابن السائب. والثالث: أنه عام في كل صالح، قاله بعض فقهاء المفسرين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ يعني: القرآن ﴿لِبَلَاغَةٍ﴾ أي: لكفاية؛ والمعنى: أن من اتبع القرآن وعمل به، كان القرآن بلاغه إلى الجنة. وقوله تعالى: ﴿لَقَوِيَ عِيسَى﴾ قال كعب: هم أمة محمد ﷺ الذين يصلون الصلوات الخمس ويصومون شهر رمضان.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣) قال ابن عباس: هذا عام للبر والفاجر، فمن آمن به تمت

= في «سنن أبي داود»، منهم شيخنا الحافظ المزي، قال: وقد تصدى ابن جرير للإنكار على هذا الحديث، ورده أتم ردّه وقال: لا يعرف في الصحابة أحد اسمه السجل، وكتاب النبي ﷺ معروفون، وليس فيهم أحد اسمه السجل، قال: وصدق رحمه الله في ذلك، وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث، قال: والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة.

(١) وهو الصواب، كما ذكر ابن كثير.

(٢) رواه البخاري ٢٧٥/٦، ومسلم ٢١٩٤/٤، ولفظه عند مسلم: عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال: «يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة غرلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا﴾ إنا كنا فاعلين». وفي «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة حفاة غرلاً، قلت: يا رسول الله: النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال ﷺ: «يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض».

(٣) روى مسلم في «صحيحه» ٢٠٠٧/٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين، قال: «إني لم أبعث لعناً، وإنما بعثت رحمة».

له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن كفر به صُرفت عنه العقوبة إلى الموت والقيامة^(١). وقال ابن زيد: هو رحمة لمن آمن به خاصة.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُؤْتِيكَ إِلَهٌ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٨) ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ ءَاذَنُكُمُ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَلَئِنْ أَذَرْتُمْ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ (١٠٩) ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهَنَّمَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ (١١٠) ﴿وَإِنْ أَذْرَوْا لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ فَتَنَةً لِّكُمْ وَمَتَّبِعْ إِلَىٰ جِوْنِ﴾ (١١١) ﴿قُلْ رَبِّ أَكْثَرُ بِالْحَقِّ وَرَبَّنَا أَزَجَجْنَاكَ عَلَىٰ مَآ تَصِفُونَ﴾ (١١٢)

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ قال ابن عباس: فهل أنتم مخلصون له العبادة؟ قال أهل المعاني: هذا استفهام بمعنى الأمر.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا ولم يؤمنوا ﴿فَقَدْ ءَاذَنُكُمُ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ في معنى الكلام قولان: أحدهما: نابذتكم وعاديتكم وأعلمتكم ذلك، فصرت أنا وأنتم على سواءٍ قد استوتينا في العلم بذلك، وهذا من الكلام المختصر، قاله ابن قتية. والثاني: أعلمتكم بالوحي إلي لتستروا في الإيمان به، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَرْتُمْ﴾ أي: وما أدري ﴿أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ بنزول العذاب بكم. ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهَنَّمَ﴾ وهو ما يقولونه للنبي ﷺ: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ [يس: ٤٨]، ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ إسرارهم أن العذاب لا يكون.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ في هاء العلة قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى ما آذنتهم به، قاله الزجاج.

والثاني: إلى العذاب؛ فالمعنى: لعل تأخير العذاب عنكم فتنة، قاله ابن جرير، وأبو سليمان الدمشقي. ومعنى الفتنة هاهنا: الاختبار، ﴿وَمَتَّبِعْ إِلَىٰ جِوْنِ﴾ أي: تستمتعون إلى انقضاء آجالكم. ﴿قُلْ رَبِّ﴾ وروى حفص عن عاصم: «قال رب» ﴿أَكْثَرُ﴾ قرأ أبو جعفر: «رب احكم» بضم الباء. وروى زيد عن يعقوب: «رَبِّي» بفتح الياء «أَحْكَمُ» بقطع الهمزة وفتح الكاف ورفع الميم. ومعنى ﴿أَكْثَرُ بِالْحَقِّ﴾ أي بعذاب كفار قومي الذي نزوله حق، فحكم عليهم بالقتل في يوم بدر وفيما بعده من الأيام؛ والمعنى على هذا: افصل بيني وبين المشركين بما يظهر به الحق. ومعنى ﴿عَلَىٰ مَآ تَصِفُونَ﴾ أي: من كذبكم وباطلكم^(٢). وقرأ ابن عامر، والمفضل عن عاصم: «يصفون» بالياء. فإن قيل: فهل يجوز على الله أن يحكم بغير الحق؟ فالجواب: أن المعنى: احكم بحكمك الحق، كأنه استعجل النصر عليهم.



= وروى الدارمي ٩/١ عن أبي صالح مرسلًا قال: كان النبي ﷺ يناديهن يقول: «يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهدلة» وقد وصله الحاكم ٣٥/١ عن أبي هريرة ؓ وصححه، ووافقه الذهبي.

(١) ذكر ابن كثير ٢٠٢/٣ من رواية الطبراني عن ابن عباس ؓ في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢١) قال: من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يتبعه عوفي مما كان يتلى به سائر الأمم من الخسف والسمخ والقذف.

(٢) قال ابن جرير الطبري ١٠٩/١٧: وقوله تعالى: ﴿وَرَبَّنَا أَزَجَجْنَاكَ عَلَىٰ مَآ تَصِفُونَ﴾ يقول جل ثناؤه: وقل يا محمد: وربنا الذي يرحم عباده ويعمهم بنعمته، الذي استعينه عليكم فيما تقولون وتصفون من قولكم لي فيما أتيتكم به من عند الله: ﴿هَلْ مَنَّا إِلَّا بِشَرٍّ مِّمَّا كُفِّرْتُمْ وَنُفَعَّاكُمْ أَيُّسَّرَ تَكُونُ﴾ (٢٢) وفي قوله: ﴿وَرَبَّنَا أَزَجَجْنَاكَ عَلَىٰ مَآ تَصِفُونَ﴾ وفي قوله: ﴿وَرَبَّنَا أَزَجَجْنَاكَ عَلَىٰ مَآ تَصِفُونَ﴾، فإنه حين عليه تغيير ذلك، وفصل ما بيني وبينكم بتعجيل العقوبة لكم على ما تصفون من ذلك.

سورة الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مُرْمِعَةٍ عَمَّا أَرْسَلَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن قَوْلَاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾

فصل في نزولها

روى أبو صالح عن ابن عباس أنها مكية كلها، غير آيتين نزلتا بالمدينة: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغِي اللَّهَ عَلَىٰ حَرْوٍ﴾، والتي تليها [الحج: ١٢، ١٣]. وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنها مدنية إلا أربع آيات نزلت بمكة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ...﴾ إلى آخر الأربع [الحج: ٥٣ - ٥٧]. وقال عطاء بن يسار: نزلت بمكة إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة: ﴿هَٰذَانِ خَصَصَانِ﴾ [الحج: ٢٠ - ٢٢]. وقال أبو سليمان الدمشقي: أولها مدني إلى قوله تعالى: ﴿وَبَيِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٨] وسائرهما مكِّي. وقال الثعلبي: هي مكية غير ست آيات نزلت بالمدينة، وهي قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصَصَانِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٢٠ - ٢٥]. وقال هبة الله بن سلامة: هي من أعاجيب سور القرآن، لأن فيها مكياً، ومدنياً، وحضرياً، وسفرياً، وحربياً، وسلمياً، وليلياً، ونهارياً، وناسخاً، ومنسوخاً؛ فأما المكِّي، فمن رأس الثلاثين منها إلى آخرها. وأما المدني، فمن رأس خمس وعشرين إلى رأس ثلاثين. وأما الليلي، فمن أولها إلى آخر خمس آيات. وأما النهاري، فمن رأس خمس [آيات] إلى رأس تسع. وأما السفري، فمن رأس تسع إلى اثنتي عشرة. وأما الحضري، فإلى رأس العشرين [منها]، نسب إلى المدينة، لقرب مدته.

قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ أي: احذروا عقابه ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ الزلزلة: الحركة على الحالة الهائلة. وفي وقت هذه الزلزلة قولان: أحدهما: أنها يوم القيامة بعد النشور. روى عمران بن حصين عن رسول الله ﷺ أنه قرأ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وقال: تدرّون أي يوم ذلك؟ فإنه يوم ينادي الرَّبُّ ﷻ آدم ﷺ: ابعث بعثاً إلى النار، فذكر الحديث^(١). وروى أبو سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة لآدم: قم، فابعث بعث النار، فيقول: يا رب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار، فحيثما يشيب المولود، وتضع كل ذات حمل حملها»، وقرأ الآية^(٢). وقال ابن عباس: زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ: قِيَامُهَا، يعني أنها تُقَارِبُ قِيَامَ السَّاعَةِ، وتكون معها. وقال الحسن، والسدي: هذه الزلزلة تكون يوم القيامة^(٣). والثاني: أنها تكون في الدنيا قبل القيامة، وهي من أشراف السَّاعَةِ، قاله علقمة، والشعبي، وابن جريج. وروى أبو العالية عن أَبِي بِنِ كَعْبٍ، قال: ست آيات قبل القيامة، بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فيبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فيبينما هم كذلك

(١) رواه أحمد في «المسند» ٤/٤٣٢، والترمذي ١٤٦/٢ وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه الطبري ١٧/١١١، وأورده السيوطي في «الدر» ٤/٤٣٣، وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه من طرق عن الحسن وغيره عن عمران بن حصين ﷺ.

(٢) رواه أحمد في «المسند»، والبخاري ٨/٣٣٥، ومسلم ١/٢٠١ وله بقية عندهما، ورواه الطبري ١٧/١١٢، وأورده السيوطي في «الدر» ٤/٣٤٤ وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) واختار ذلك ابن جرير الطبري وغيره، واحتجوا على ذلك بأحاديث، انظر تفسير ابن كثير ٣/٢٠٤ - ٢٠٥ عند تفسير هذه الآية، فقد ذكر الأحاديث التي تدل على أن الزلزلة تكون يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور.

إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت، واضطربت، ففزع الجن إلى الإنس، والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب، والطير، والوحش، فماج بعضهم في بعض، فقالت الجن للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، فانطلقوا إلى البحور، فإذا هي نار تأجج، فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض إلى الأرض السابعة، والسماء إلى السماء السابعة، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الرياح فماتوا^(١). وقال مقاتل: هذه الزلزلة قبل النفخة الأولى، وذلك أن منادياً ينادي من السماء: يا أيها الناس أتى أمر الله، فيفزعون فزعاً شديداً فيشيب الصغير، وتضع الحوامل.

قوله تعالى: ﴿شَفَّ عَظِيمٌ﴾ أي: لا يوصف لعظمه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْوُهَا﴾ يعني الزلزلة ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ فيه قولان: أحدهما: تسلو عن ولدها، وتركه، قاله ابن قتبية. والثاني: تُشَلُّ عنه، قاله قطرب، ومنه قول ابن رواحة:

يذهل الخليل عن خليله

وقرأ أبو عمران الجوني، وابن أبي عبيدة: ﴿تَذْهَلُ﴾ برفع التاء وكسر الهاء «كل» بضم اللام. قال الأخفش: وإنما قال: «مرضعة»، لأنه أراد - والله أعلم - الفعل، ولو أراد الصفة فيما نرى، لقال: «مرضع». قال الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام، وهذا يدل على أن الزلزلة تكون في الدنيا، لأن بعد البعث لا تكون حبلية.

قوله تعالى: ﴿وَرَى النَّاسُ سُكَرَى﴾ وقرأ عكرمة، والضحاك، وابن يعمر، «وثرى» بضم التاء ومعنى «سكارى»: من شدة الخوف ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَرَى﴾ من الشراب، والمعنى: ترى الناس كأنهم سكارى من ذهول عقولهم، لشدة ما يمرُّ بهم، يضطربون اضطراب السكاران من الشراب. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «سُكْرَى» وما هم بِسُكْرَى، وهي قراءة ابن مسعود. قال الفراء: وهو وجه جيد، لأنه بمنزلة الهللكى والجُرْحَى. وقرأ عكرمة، والضحاك، وابن السميع: «سكارى» وما هم بِسُكَرَى، بفتح السين والراء وإثبات الألف، ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فيه دليل على أن سكرهم من خوف عذابه.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ آتَيْنَا مِنْ يَحْدِلُ فِي اللَّهِ﴾ قال المفسرون: نزلت في النضر بن الحارث^(٢). وفيما جادل فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان كلما نزل شيء من القرآن كذَّب به، قاله ابن عباس. والثاني: أنه زعم أن الملائكة بنات الله، قاله مقاتل. والثالث: أنه قال: لا يقدر الله على إحياء الموتى، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعْ عِلْمٌ﴾ أي: إنما يقوله بإغواء الشيطان، لا بعلم ﴿وَنُحِمْ﴾ ما يسؤل له ﴿كُلُّ شَيْطَانٍ مَرِيدٌ﴾ وقد ذكرنا معنى «المريد» في سورة «الباء» [١١٧].

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ أَنْ تَقُولُوا﴾ «كُتِبَ» بمعنى: قضى والهاء في «عليه» وفي «تولاه» كناية عن الشيطان. ومعنى الآية: قضى على الشيطان أنه يُضِلُّ مَنْ اتَّبَعَهُ. وقرأ أبو عمران الجوني: «كُتِبَ» بفتح الكاف «أنه» بفتح الهمزة [«فإنه» بكسر الهمزة]. وقرأ أبو مجلز، وأبو العالية، وابن أبي ليلى، والضحاك، وابن يعمر: «إنه» بفتح الهمزة [«فإنه» بكسر الهمزة]. وقد بيَّنا معنى «السعير» في سورة «النساء» [١٠].

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ آيَاتِنَا فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُوفٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنُقِذْ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤْكَلُ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَوَرَى الْأَرْحَامَ هَادِئَةً فَإِنَّا أَنْزَلْنَاهَا عَلَيْهَا أَلَمَاءَ مُهَنْذَرَاتٍ وَأَكْبَنَاتٍ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿١﴾ ذَلِكَ يَنْتَظِرُ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَاللَّهُ عَلَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهُ لَأَكْبَرُ﴾

(١) رواه ابن جرير الطبري ٣٠/٦٣ عند قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَتَيْنَاهُمْ أَكْثَرَتْهُمُ﴾، وفي سننه الحسين بن واقد. قال الحافظ في «التحريب»: ثقة له أوام، وفكره ابن كثير ٤/٤٧٥ من رواية ابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٢) «أسباب النزول» للسيوطي ١٥٠ من رواية ابن أبي حاتم، و«الدرر» ٤/٣٤٤.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ يعني: أهل مكة ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْتِ﴾ أي: في شك من القيامة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّوَابٍ﴾ يعني: خلق آدم ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ يعني: خلق ولده، والمعنى: إن شككتهم في بعثكم فتدبروا أمر خلقكم وابتدائكم، فإنكم لا تجدون في القدرة فرقاً بين الابتداء والإعادة. فأما النطفة، فهي المني. والعلة: دم عبيط جامد. وقيل: سميت علة لروطيتها وتعلقها بما تمر به، فإذا جفت فليست علة. والمضغة: لحمه صغيرة. قال ابن قتيبة: وسميت بذلك، لأنها بقدر ما يُمْضَغ، كما قيل: غرفة لقدر ما يُعْرَف.

قوله تعالى: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أن المخلقة: ما خلق سوتاً، وغير المخلقة: ما ألقته الأرحام من النطف، وهو دم قبل أن يكون خلقاً، قاله ابن مسعود. والثاني: أن المخلقة: ما أكمل خلقه بنفخ الروح فيه^(١)، وهو الذي يولد حياً لتمام، وغير المخلقة: ما سقط غير حي لم يكمل خلقه بنفخ الروح فيه، هذا معنى قول ابن عباس. والثالث: أن المخلقة: المصورة، وغير المخلقة: غير مصورة، قاله الحسن. والرابع: أن المخلقة وغير المخلقة: السقط، تارة يسقط نطفة وعلة، وتارة قد صور بعضه، وتارة قد صور كله، قاله السدي. والخامس: أن المخلقة: التامة، وغير المخلقة: السقط، قاله الفراء، وابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿لَنَبَيِّنَ لَكُمْ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: خلقناكم لنبين لكم ما تأتون وما تدرن. والثاني: لنبين لكم في القرآن بدو خلقكم، وتنقل أحوالكم. والثالث: لنبين لكم كمال حكمتنا وقدرتنا في تقلاب أحوال خلقكم. والرابع: لنبين لكم أن البعث حق. وقر أبو عمران الجوني، وابن أبي عبيدة: «لنبين لكم» بالياء.

قوله تعالى: ﴿وَيُقَرَّرُ فِي الْأَرْحَامِ﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبو رجاء: «ويُقَرَّرُ» بياء مرفوعة وفتح القاف ورفع الراء. وقرأ أبو الجوزاء، وأبو إسحاق السبيعي: «ويُقَرَّرُ» بياء مرفوعة ويكسر القاف ونصب الراء. والذي يُقَرَّرُ في الأرحام، هو الذي لا يكون سقطاً، ﴿إِنَّ أَجَلَ مَنِّي﴾ وهو أجل الولادة ﴿ثُمَّ تُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ قال أبو عبيدة: هو في موضع «أطفال»، والعرب قد تضع لفظ الواحد في معنى الجميع، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُكَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: ٤] أي: ظهراء، وأنشد:

فَقُلْنَا أَسْلِمُوا إِنَّا أَخَوَكُم

وَأَنشَدَ أَيضاً:

فِي خَلْقِكُمْ عَظْمٌ وَقَدْ شَجِينَا^(٢)

وقال غيره: إنما قال: «طفلاً» فوجد، لأن الميم في قوله تعالى: ﴿تُخْرِجُكُمْ﴾ قد دلّت على الجميع، فلم يحتج إلى أن يقول: «أطفالاً».

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا﴾ فيه إضمار، تقديره: ثم نَعْمَرُكُمْ لتبلغوا أشدكم، وقد سبق معنى «الأشد» [الأنعام: ١٥٣]، ﴿وَمِنْكُمْ مَن يَرْوَفٌ﴾ من قبل بلوغ الأشد ﴿وَمِنْكُمْ مَن يَرُدُّ إِلَيْنَا أَرْذَلَ الْأُمُورِ﴾ وقد شرحناه في [النحل: ٧٠] ثم إن الله تعالى دلّهم على إحيائه الموتى بإحيائه الأرض، فقال تعالى: ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ كَايِدَةً﴾ قال ابن قتيبة: أي: ميتة يابسة، ومثله: همدت النار: إذا طفت فذهبت.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا أَرْزَلْنَا عَلَيْهَا آلَمًا﴾ يعني: المطر ﴿أَمْزَرَّتْ﴾ أي: تحركت للنبات، وذلك أنها ترتفع عن النبات

(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٢) البيت للعباس بن مرداس، وهو في «مجاز القرآن» ١/٧٩، و٢/٤٤، و«الأغاني» ١٣/٦٢، و«الإصابة» رقم (٤٥١١)، و«الاستيعاب» ١٠١/٣، و«الخواص» ١/٧٣، و«الشمري» ١٠١/٢.

(٣) تقدم ٢٩٩، فانظر هناك.

إذا ظهر، فهو معنى قوله تعالى: ﴿وَرَبَّتْ﴾ أي: ارتفعت وزادت. وقال المبرّد: أراد: اهتزّ نباتها وربا، فحذف المضاف. قال الفراء: وقرأ أبو جعفر المدني: «وربات» بهجمة مفتوحة بعد الباء. فإن كان ذهب إلى الرُبَيْثَة الذي يحرس القوم، أي: أنه يرتفع، وإلا، فهو غلط.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَبْرِجُ﴾ قال ابن قتيبة: من كل جنس حسن يبهج، أي: يسرّ، وهو فعيل في معنى فاعل.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ قال الزجاج: المعنى: الأمر ذلك كما وصف لكم. والأجود أن يكون موضع «ذلك» رفعاً، ويجوز أن يكون نصباً على معنى: فعل الله ذلك بأنه هو الحق.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ﴾ أي: ولتعلموا أن الساعة ﴿مَأْتِيَةٌ﴾ ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٨) ثَانِي عَطْفُهُ يُضَيِّلُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابُ الْخَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْغَافِلِينَ (١٠) قوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ﴾ قد سبق بيانه. وهذا مما نزل في النضر أيضاً. والهدى: البيان والبرهان.

قوله تعالى: ﴿ثَانِي عَطْفُهُ﴾ العطف: الجانب. وعطفا الرجل: جانيه عن يمين وشمال، وهو الموضع الذي يعطفه الإنسان ويلويه عند إعراضه عن المشي. قال الزجاج: «ثاني» منصوب على الحال، ومعناه: التثوين، معناه: ثانياً عطفه. وجاء في التفسير: أن معناه: لاوياً عنقه، وهذا يوصف به المتكبر، والمعنى: ومن الناس من يجادل بغير علم متكبراً.

قوله تعالى: ﴿يُضَيِّلُ﴾ أي: ليصير أمره إلى الضلال، فكأنه وإن لم يقدر أنه يضل، فإن أمره يصير إلى ذلك، ﴿لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو ما أصابه يوم بدر، وذلك أنه قُتل. وما بعد هذا قد سبق تفسيره [يونس: ٧٠] إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَبْغِ اللَّهُ عَلَى حَرْفٍ﴾ وفي سبب نزول هذه الآية قولان: أحدهما: أن ناساً من العرب كانوا يأتون رسول الله ﷺ، فيقولون: نحن على دينك، فإن أصابوا معيشة، وتنجت خيلهم، وكذلك نساؤهم الغلمان اطمأنوا وقالوا: هذا دين حق، وإن لم ينجح الأمر على ذلك قالوا: هذا دين سوء، فيقبلون عن دينهم، فنزلت هذه الآية، هذا معنى قول ابن عباس^(١)، وبه قال الأكثرون. والثاني: أن رجلاً من اليهود أسلم فذهب بصره وماله وولده، فتشام بالاسلام، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: أقلني فقال: «إن الإسلام لا يقال». فقال: إني لم أصب في ديني هذا خيراً، أذهب بصري ومالي وولدي، فقال: «يا يهودي: إن الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والفضة والذهب»، فنزلت هذه الآية، رواه عطية عن أبي سعيد الخدري^(٢).

﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَبْغِ اللَّهُ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْمُسْتَرْكَنُ الْمُمِينُ (١١) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُوا لَمَنْ مَتَرُهُ أَقْرَبُ مِنْ تَقْوَاهُ لَيْسَ الْمَوْلَى وَليُّ الْمَشِيرَةِ (١٣) إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤)﴾

قوله تعالى: ﴿عَلَى حَرْفٍ﴾ قال مجاهد، وقتادة: «على شك»، قال أبو عبيدة: كل شاك في شيء فهو على حرف لا يثبت ولا يدوم. وبيان هذا أن القائم على حرف الشيء غير متمكن منه، فشبه به الشاك، لأنه قلِق في دينه على غير ثبات، ويوضحه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ أي: رخاء وعافية ﴿اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ على عبادة الله ﴿وَأَنَّ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ اختبار بجذب وقلة مال ﴿انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي: رجع عن دينه إلى الكفر. والمعنى: انصرف إلى وجهه الذي توجه منه، وهو الكفر^(٣)، ﴿خَيْرَ الدُّنْيَا﴾ حيث لم يظفر بما أراد منها، ﴿و﴾ خسر ﴿الْآخِرَةَ﴾ بارتداده عن الدين. وقرأ أبو رزين

(١) رواه البخاري ٣٣٦/٨، والطبري ١٧/١٢٢، وذكره السيوطي في «الدر» ٣٤٦/٤ وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٢) «أسباب النزول» للواحي ١٧٦ عن عطية عن ابن عباس، وذكره السيوطي في «الدر» ٣٤٦/٤ عن ابن مردويه من طريق عطية عن أبي سعيد الخدري.

(٣) قال ابن كثير ٢٠٩/٣: وقال عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم: هو المتناقض إن صلحت له دنياه، أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت، =

العقيلي، وأبو مجلز، ومجاهد، وطلحة بن مصرف، وابن أبي عبيدة، وزيد عن يعقوب: «خامس الدنيا» بألف قبل السين، وينصب الراء «والآخرة» بخفض التاء. «يَدْعُوا» هذا المرتد، أي: يعبد «مَا لَا يَسْتُرُ» إن لم يعبد «وَلَا يَنْعَمُ» إن أطاعه «ذَلِكَ» الذي فعل «هُوَ الصَّلَاةُ الْبَعِيدَةُ» عن الحق «يَدْعُوا لَمَنْ حَرَّه» قال بعضهم: اللام صلة، والمعنى: يدعو مَنْ ضره. وحكى الزجاج عن البصريين والكوفيين أن اللام معناها التأخير، والمعنى: يدعو مَنْ لضره «أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ»، قال: وشرح هذا أن اللام لليمين والتوكيد، فحقها أن تكون أول الكلام، فقدّمت لتجعل في حقها، قال السدي: ضره في الآخرة بعبادته إياه أقرب من نفعه. فإن قيل: فهل للنفع من عبادة الصنم وجه؟ فالجواب: أنه لا نفع من قِبَله أصلاً، غير أنه جاء على لغة العرب، وهم يقولون في الشيء الذي لا يكون: هذا بعيد.

قوله تعالى: «لَيْسَ أَمْرُكَ وَلَكِنَّ الْعَشِيرَ» قال ابن قتية: المولى: الولي، والعشير: الصاحب، والخليل. «مَنْ كَانَتْ يَدُّهُ أَنْ لَا يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ» ﴿١٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ فِيهَا مَن يَشَاءُ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآيَاتِ وَالْذِّكْرِ هُمْ هُمُ الَّذِينَ هَادُوا وَأَمْثُلُ الَّذِينَ هَادُوا قُلُوبُهُمْ مُصَدِّقَاتٌ لِّمَا فِي بُحُورِهِنَّ لَا تَحْكُمُونَ أَنَّهُمْ يُخْفُونَ كَيْدَهُمْ فِي كِحْفٍ إِنَّهُ لَا يَأْتِي الْغُيُوبَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: «مَنْ كَانَتْ يَدُّهُ أَنْ لَا يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» قال مقاتل: نزلت في نفر من أسد، وغطفان، قالوا: إنا نخاف أن لا يَنْصُرَ محمدٌ، فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود^(١) وإلى نحو هذا ذهب أبو حمزة الثمالي، والسدي. وحكى أبو سليمان الدمشقي أن الإشارة بهذه الآية إلى الذين انصرفوا عن الإسلام، لأن أرواحهم ما اتسعت، وقد شرحنا القصة في قوله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ». وفي هاء «ينصره» قولان: أحدهما: أنها ترجع على «مَنْ»، والنصر: بمعنى الرزق، هذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء، وبه قال مجاهد. قال أبو عبيدة: وقف علينا سائل من بني بكر، فقال: مَنْ ينصرني نصره الله، أي: من يعطيني أعطاه الله، ويقال: نصر المطر أرض كذا، أي: جادها، وأحياها، قال الراعي:

بلاد تميم وإنْ صُفِرِي أَرْضَ عَايِرٍ^(٢)

لِذَا أَدْبَرَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ فَوَدَعَنِي

والثاني: أنها ترجع إلى رسول الله ﷺ^(٣)، فالمعنى: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً، رواه التميمي عن ابن عباس^(٤)، وبه قال عطاء، وقتادة. قال ابن قتية: وهذه كناية عن غير مذكور، وكان قوم من المسلمين لشدة حقنهم على المشركين يستبطنون ما وعد الله رسوله من النصر، وآخرون من المشركين، يريدون اتباعه، ويخشون أن لا يتم أمره، فقال هذه الآية للمفريقين. ثم في معنى [هذا] النصر قولان: أحدهما: أنه الغلبة، قاله أبو صالح عن ابن عباس، والجمهور. والثاني: أنه الرزق، حكاه أبو سليمان الدمشقي.

= انقلب، فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه، فإن أصابه فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق، ترك دينه ورجع إلى الكفر اه. نعوذ بالله من ذلك.
(١) ذكره الطبري ١٢٨/١٧ بدون سند.

(٢) «مجاز القرآن» ٤٦/٢، و«الجمهرة» ٣٥٩/٢، و«اللسان» و«التاج»: نصر.

(٣) قال ابن جرير الطبري ١٢٨/١٧: وأولى ذلك بالصواب عندي في تأويل ذلك، قول من قال: الهاء من ذُكِرَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ ودينه، وذلك أن الله تعالى ذُكِرَ، ذكر قوماً يعبدونه على حرف، وأنهم يطمنون بالدين إن أصابوا خيراً في عبادتهم إياه، وأنهم يرتدون عن دينهم لشدة تصييم فيها، ثم أتبع ذلك هذه الآية، فمعلوم أنه إنما أتبعه إياها توبيخاً لهم على ارتدادهم عن الدين، أو على شكهم فيه نفاقهم، استبطاء منهم السعة في العيش، أو السبوغ في الرزق، وإذا كان الواجب أن يكون ذلك عقيب الخبر عن نفاقهم، فمعنى الكلام إذن إذا كان ذلك كذلك: من كان يحسب أن لن يبرق الله محمداً ﷺ وأمته في الدنيا، فيوسع عليهم من فضله فيها، ويرزقهم في الآخرة من سني عطايها وكرامته، استبطاء منه فعل الله ذلك به وبهم، فليمد بجبل إلى سماء فوقه، إما سقف بيت، أو غيره مما يعلق به السبب من فوقه، ثم يختنق إذا اغتاض من بعض ما قضى الله فاستعجل انكشاف ذلك عنه، فلينظر هل يذهب كيد - اختناقه كذلك - ما يغيظ، فإن لم يذهب ذلك غيظه حتى يأتي الله بالفرج من عنده فيذهب، فكذلك استعجال نصر الله محمداً ودينه، لن يؤخر ما قضى الله له من ذلك عن ميقاته، ولا يعجل قبل حينه. اه.

(٤) رواء الطبري ٢٢٦/١٧. وقال ابن كثير بعد أن نقل كلام ابن عباس ووجهه: وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى، وأبلغ في التهكم، فإن المعنى: من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غافظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَكَالُوكَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَوَعَدُ الْمُؤْمِنِينَ الْآخِرَةُ» الآية. ولهذا قال: «لْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ» يعني: من شأن محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَسُدُّ سَيْبَ إِلَى السَّمَاءِ﴾ في المراد بالسما قولان: أحدهما: سقف بيته، والمعنى: فليشدد حبلاً في سقف بيته، فليختنق به ﴿ثُمَّ لَيَقَطَعَنَّ﴾ الحبل ليموت مختنقاً، هذا قول الأكثرين. ومعنى الآية: ليصور هذا الأمر في نفسه لا أنه يفعله، لأنه إذا احتق لا يمكنه النظر والعلم. والثاني: أنها السماء المعروفة، والمعنى: فليقطع الوحي عن رسول الله ﷺ إن قدر، قاله ابن زيد^(١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَيَقَطَعَنَّ﴾ قرأ أبو عمرو، وابن عامر: «ثم ليقطع» [الحج: ٢٩] بكسر اللام. زاد ابن عامر «وليوفوا» [الحج: ٢٩] «وليطفوا» [الحج: ٢٩] بكسر اللام أيضاً. وكسر ابن كثير لام «ثم ليقضوا» فحسب. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: بسكون هذه اللامات، وكذلك في كل القرآن إذا كان قبلها واو أو فاء [أو] ثم، قال الفراء: من سكن فقد خفف، وكل لام أمر وصلت بواو أو فاء، فأكثر كلام العرب تسكينها، وقد كسرهما بعضهم. قال أبو علي: الأصل الكسر، لأنك إذا ابتدأت قلت: ليقم زيد.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَذَرُوكَ كَيْدُكُمْ﴾ قال ابن قتيبة: المعنى: هل تذهبن حيلته غيظه، والمعنى: ليجهد جهده.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: ومثل ذلك الذي تقدم من آيات القرآن ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ يعني: القرآن. وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَصْلُحُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: يقضي ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بينهم بإدخال المؤمنين الجنة، والآخرين النار ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أعمالهم ﴿شَهِيدٌ﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [٣١]

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ﴾ أي: ألم تعلم. وقد بيّنا في سورة [النحل: ٤٩] معنى السجود في حق من يعقل، ومن لا يعقل.

قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ يعني: الموحدين الذين يسجدون لله. وفي قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ قولان: أحدهما: أنهم الكفار، وهم يسجدون، وسجودهم سجود ظلمهم، قاله مقاتل. والثاني: أنهم لا يسجدون، والمعنى: وكثير من الناس أبى السجود، فحق عليه العذاب، لتركه السجود، هذا قول الفراء.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ أي: من يُشْهِد الله فما له من مُسْعِدٍ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ في خلقه من الكرامة والإمامة^(٢).

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمَا فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّن نَّارٍ يَصُبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۖ يُصْهِرُ بَرءٌ مَّا فِي بُطُونِهِمْ وَلِلْجُلُودِ ۖ وَلَهُمْ مَقْعٌ مِّنْ حَرِّهِ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [٣٢]

قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في النفر الذين تبارزوا للقتال يوم بدر، حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة، هذا قول أبي ذر^(٣). والثاني: أنها نزلت في أهل الكتاب، قالوا للمؤمنين: نحن أولى بالله، وأقدم منكم كتاباً، ونبينا قبل نبيكم، وقال المؤمنون: نحن أحق بالله، آمنا بمحمد، وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون نبينا، ثم كفرتم به حسداً، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس^(٤)، وقناة. والثالث: أنها في جميع المؤمنين، والكفار، وإلى هذا المعنى ذهب

(١) «الطبري» ١٧/١٢٦، و«الدر» ٤/٣٤٧.

(٢) قال ابن كثير: أخرج ابن أبي حاتم عن علي عليه السلام أنه قيل له: إن هاتين رجلًا يتكلم في المشية، فقال له علي: يا عبد الله خلقك الله كما يشاء، أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء، قال: فيمرضك إذا شاء، أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيشفيك إذا شاء، أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيخلقك حيث شئت، أو حيث شاء؟ قال: بل حيث شاء، قال: والله لو قلت غير ذلك لفريت الذي فيه عينك بالسيف.

(٣) البخاري ٨/٣٣٧، و«الطبري» ١٧/١٣١، وذكره السيوطي في «الدر» ٤/٣٤٨ وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الذلال».

(٤) «الطبري» ١٧/١٣٢، وذكره السيوطي في «الدر» ٤/٣٤٨ وزاد نسبه لابن مردويه.

الحسن، وعطاء، ومجاهد^(١). والرابع: أنها نزلت في اختصام الجنة والنار، فقالت النار: خلقتني الله لعقوبته، وقالت الجنة: خلقتني الله لرحمته، قاله عكرمة^(٢). فأما قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ﴾ وقرأ ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وابن كثير: «هَٰذَانِ» بتشديد النون «خصمان»، فمعناه: جمعان، وليسا برجلين، ولهذا قال تعالى: ﴿أَخْضَصُوا﴾ ولم يقل: اختصما؛ على أنه قرأ ابن مسعود، وابن أبي عتبة: «اختصما». وفي خصوصتهم ثلاثة أقوال: أحدها: في دين ربهم، وهذا على القولين الأولين. والثاني: في البعث، قاله مجاهد. والثالث: أنه خصام مفاخرة، على قول عكرمة. قوله تعالى: ﴿قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ﴾ أي: سُويت وجُعِلت لباساً. قال ابن عباس: قُمْص من نار. وقال سعيد بن جبير: المراد بالنار هاهنا: النحاس. فأما «الحميم» فهو الماء الحارُّ ﴿يُصْهَرُ بِهِ﴾ قال الفراء: يذاب به، يقال: صهرت الشحم بالنار. قال المفسرون: يذاب بالماء الحارُّ ﴿مَا فِي بَطُونِهِمْ﴾ من شحم أو معى حتى يخرج من أديبارهم، وتنضج الجلود فتساقط من حره، ﴿وَلَمْ تَنْفَعِ﴾ قال الضحاك: هي المطارق. وقال الحسن: إن النار ترميهم بلهبها، حتى إذا كانوا في أعلاها، ضُربوا بمقامع فهُوُوا فيها سبعين خريفاً، فإذا انتهوا إلى أسفلها، ضربهم زفير لهبها، فلا يستقرون ساعة. قال مقاتل: إذا جاشت جهنم، ألقتهم في أعلاها، فيريدون الخروج، فتتلقاهم خزنة جهنم بالمقامع، فيضربونهم، فيهوي أحدهم من تلك الضربة إلى قعرها. وقال غيره: إذا دفعتهم النار، ظنوا أنها ستقذفهم خارجاً منها، فتعيدهم الزبانية بمقامع الحديد.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُكَلِّفُ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ﴿٣٣﴾ وَهَدُّوا إِلَى النَّارِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُّوا إِلَى صِرَاطٍ لَقِيدٍ ﴿٣٤﴾ قوله تعالى: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «ولؤلؤ» بالخفض. وقرأ نافع، وأبو بكر عن عاصم: «ولؤلؤاً» بالنصب. قال أبو علي: من خفض، فالمعنى: يحلّون أساور من ذهب ومن لؤلؤ؛ ومن نصب قال: ويحلّون لؤلؤاً^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَهَدُّوا﴾ أي: أرشدوا في الدنيا ﴿إِلَى النَّارِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه «لا إله إلا الله، والحمد لله» قاله ابن عباس. وزاد ابن زيد: «والله أكبر». والثاني: القرآن، قاله السدي. والثالث: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، حكاه المارودي. فأما «صِرَاطٍ لَقِيدٍ» فقال ابن عباس هو طريق الإسلام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْمَكَّنِّي فِيهِ وَالْبَادِي وَمَنْ يُؤَدِّ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمِ نُزُوءُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: يمنعون الناس من الدخول في الإسلام. قال الزجاج: ولفظ «يصدون» لفظ مستقبل عطف به على لفظ الماضي، لأن معنى «الذين كفروا»: الذين هم كافرون، فكأنه قال: إن الكافرين والصّادّين؛ فأما خبر «إن» فمحذوف، فيكون المعنى: إن الذين هذه صفتهم هلكوا. وفي «المسجد الحرام» قولان: أحدهما: جميع الحرم. روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: كانوا يرون الحرم كله مسجداً. والثاني: نفس المسجد، حكاه المارودي.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً﴾ هذا وقف التمام. وفي معناه قولان: أحدهما: جعلناه للناس كلهم، لم نخص به بعضهم دون بعض، هذا على أنه جميع الحرم. والثاني: جعلناه قبله لصلاتهم، ومنسكاً لحجهم، وهذا على أنه نفس المسجد. وقرأ إبراهيم النخعي، وابن أبي عتبة، وحفص عن عاصم: «سواء» بالنصب، فيتوجه الوقف على «سواء»، وقد وقف بعض القراء كذلك. قال أبو علي الفارسي: أبدل العاكف والبادي من الناس من حيث كانا كالشامل لهم، فصار المعنى: الذي جعلناه للعاكف والبادي سواء. فأما العاكف: فهو المقيم، والبادي: الذي يأتيه من غير أهله، وهذا من قولهم: بدا القوم: إذا خرجوا من الحضر إلى الصحراء، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «البادي» بالياء، غير أن

(٢) «الطبري» ١٧/١٣٢٢.

(١) «الطبري» ١٧/١٣٢٢.

(٣) روى مسلم في «صحيحه» ٢١٩/١ عن أبي هريرة ؓ قال: سمعت خليلي ؓ يقول: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء».

ابن كثير وقف بباء، وأبو عمرو بغير ياء. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، والمسيبي عن نافع بغير ياء في الحالتين. ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: أن العاكف والبادي يستويان في سكنى مكة والنزول بها، فليس أحدهما أحق بالمنزل من الآخر، غير أن لا يُخْرَج أحدٌ من بيته، هذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة؛ وإلى نحو هذا ذهب أبو حنيفة وأحمد؛ ومذهب هؤلاء أن كراء دور مكة وبيعها حرام، هذا على أن المسجد: الحرم كله. والثاني: أنهما يستويان في تفضيله وحرمة وإقامة المناسك به، هذا قول الحسن، ومجاهد، و[منهم] من أجاز بيع دور مكة، وإليه يذهب الشافعي، وعلى هذا يجوز أن يراد بالمسجد الحرم، ويجوز أن يراد نفس المسجد.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ﴾ الإلحاد في اللغة: العدول عن القصد، والباء زائدة، كقوله تعالى: ﴿تَبَيَّنْتُ بِالْأَذْهَنِ﴾ [المومن: ٢٠] وأنشدوا:

سَوَادٌ يَمَانٍ يُنْبِئُ الشُّكَّ صَدْرُهُ وَأَسْفَلُهُ يَنْبِئُ الْمَرْخَ

المعنى: وأسفله ينبئ المرخ؛ وقال آخر:

هُنَّ الْحَرَارُ لَرِبَاتٍ أَخْمِرَوْ سَوْدُ الْمَحَاجِرِ لَا يَفْرَأَنَّ بِالسُّوْرِ

وقال آخر:

نَحْنُ بَنُو جَعْفَةَ أَرْبَابُ الْفَلَجِ نَضْرِبُ بِالسَّيْفِ وَنَرْجُو بِالْفَرْجِ

هذا قول جمهور اللغويين. قال ابن قتيبة: والباء قد تزداد في الكلام، كهذه الآية، وكقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَى بِأَيْمٍ رَيْكَ﴾ [العلق: ١] ﴿وَهَزَّتْ لِيْلِكَ يَمْنَعُ الْخَلَاةَ﴾ [مريم: ٢٤] ﴿وَأَيُّكُمْ أَلْفَتُوهُ﴾ [الفلم: ٦] ﴿تَلْفُوتُ إِلَيْهِمْ بِالْوَدُوَّةِ﴾ [المتحنة: ١] ﴿عَيْنَا يَتَرَبَّيَّا﴾ [الإنسان: ٦] أي: يشربها؛ وقد تزداد «من»، كقوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ [الذاريات: ٥٧]، وتزداد «اللام» كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَهْتَفُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، والكاف، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، و«عن»، كقوله تعالى: ﴿يَخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: ٦٣]، و«إن»، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مُلَوِّكُكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]، و«إن» الخفيفة، كقوله تعالى: ﴿فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، و«ما»، كقوله تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَدِيمِينَ﴾ [المومن: ٤٠]، و«الواو»، كقوله تعالى: ﴿وَتَلَكُمُ اللَّجَيْنِ﴾ [الصافات: ١٠٣، ١٠٤]، وفي المراد بهذا الإلحاد خمسة أقوال: أحدها: أنه الظلم، رواه العوفي عن ابن عباس. وقال مجاهد: هو عمل سيئة؛ فعلى هذا تدخل فيه جميع المعاصي، وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه قال: لا تحتكروا الطعام بمكة، فإن احتكار الطعام بمكة إحداد بظلم^(١). والثاني: أنه الشرك، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقتادة. والثالث: الشرك والقتل، قاله عطاء. والرابع: أنه استحلال محظورات الإحرام، وهذا المعنى محكي عن عطاء أيضاً. والخامس: استحلال الحرام تعمداً، قاله ابن جريج. فإن قيل: هل يؤاخذ الإنسان إن أراد الظلم بمكة، ولم يفعله؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أنه إذا هم بذلك في الحرم خاصة، عوقب، هذا مذهب ابن مسعود، فإنه قال: لو أن رجلاً هم بخطيئة، لم تكتب عليه ما لم يعملها، ولو أن رجلاً هم بقتل مؤمن عند البيت، وهو ب«عَدَنِ أَبِينِ»، أذاقه الله في الدنيا من عذاب أليم. وقال الضحاك: إن الرجل ليهم بالخطيئة بمكة وهو بأرض أخرى، فتكتب عليه ولم يعملها. وقال مجاهد: تضاعف السيئات بمكة، كما تضاعف الحسنات. وسئل الإمام أحمد: هل تكتب السيئة

(١) البيت للأحول البشكري واسمه يعلى، وهو في «مجاز القرآن» ٤٨/٢، و«الطبري» ٧٢/١٦، ١٣٨/١٧، و«الجمهرة» ٤٥/١، ٤١٤/٣، و«اللسان»: شت، شبه، و«الاقتضاب» ص ٥٧، و«القرطبي» ٣٦/١٢. والثث: ضرب من الشجر، والمرخ: شجر كثير الوري سريعه، والشبهان: نبت يشبه الشام، أو ضرب من العضاء، والشاهد في البيت زيادة الباء في كلمة «بالمرخ».

(٢) هو في «مجاز القرآن» ٤/١، و«الجمهرة» ٤١٤/٣، و«الصالح» و«اللسان»، و«التاج»: سور، و«القرطبي» ١٥٨/١، و«شواهد المغني» ١١٦ و«الخرانة» ٦٦٨/٣.

(٣) البيت لراجز من بني جملة، وهو في «مجاز القرآن» ٥٦/٢، و«الاقتضاب» ص ٤٥٨، و«شواهد المغني» ص ١١٤، و«الخرانة» ١٥٩/٤.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» ٣٥١/٤ من رواية سعيد بن منصور، والبخاري في «تاريخه»، وابن المنذر عن عمر رضي الله عنه موقوفاً بلفظ: «احتكار الطعام بمكة إلحاد بظلم».

أكثر من واحدة؟ فقال: لا، إلا بمكة لتعظيم البلد. وأحمد على هذا يرى فضيلة المجاورة بها؛ وقد جاور جابر بن عبد الله، وكان ابن عمر يقيم بها. والثاني: أن معنى: «ومن يرد»: من يعمل. قال أبو سليمان الدمشقي: هذا قول سائر من حفظنا عنه.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْءٍ وَطَهَّرَ بَيْتَ الْقَاعَيْنِ وَالرُّكُوعَ السُّجُودَ ۚ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِيكُ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَیْبٍ ۚ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَنْبَاءِ مَعْلُومَتٍ عَلَى مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكْلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ ۚ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾ قال ابن عباس: جعلنا. وقال مقاتل: دللناه عليه. وقال ثعلب: وإنما أدخل اللام، على أن «بَوَّأْنَا» في معنى: جعلنا، فيكون بمعنى «رَدَفْ لَكُمْ» [النمل: ٧٢] أي: ردفكم. وقد شرحنا كيفية بناء البيت في [البقرة: ١٢٩].

قوله تعالى: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْءٍ﴾ المعنى: وأوحينا إليه ذلك ^(١) ﴿وَطَهَّرَ بَيْتَ﴾ حَرَكَ هذه الياء، نافع وحفص عن عاصم. وقد شرحنا الآية في [البقرة: ١٢٥]. وفي المراد بـ «القائمين» قولان: أحدهما: القائمون في الصلاة، قاله عطاء، والجمهور. والثاني: المقيمون بمكة، حكى عن قتادة.

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ قال المفسرون: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت، أمره الله تعالى أن يؤذِّن في الناس بالحج، فقال إبراهيم: يا رب، وما يبلغ صوتي؟ قال: أَذِّنْ، وعليَّ البلاغ، فعلا على جبل أبي قبيس، وقال: يا أيها الناس! إن ربكم قد بنى بيتاً، فحجُّوه، فاسمع من في أصلاب الرجال وأرحام النساء ممن سبق في علم الله أن يحج، فأجابوه: لبيك اللهم لبيك ^(٢). والأذان بمعنى النداء والإعلام، والمأمور بهذا الأذان، إبراهيم في قول الجمهور، إلا ما روي عن الحسن أنه قال: المأمور به محمد ﷺ. والناس هاهنا: اسم يعم جميع بني آدم عند الجمهور، إلا ما روى العوفي عن ابن عباس أنه قال: عنى بالناس أهل القبلة. واعلم أن من أتى البيت الذي دعا إليه إبراهيم، فكانه قد أتى إبراهيم، لأنه أجاب نداه. وواحد الرجال هاهنا: راجل، مثل صاحب، وصحاب، والمعنى: يأتوك مشاةً. وقد روي أن إبراهيم وإسماعيل حجَّا ماشيين، وحج الحسن بن علي خمساً وعشرين حجة ماشياً من المدينة إلى مكة، والنجائب تُقَاد معه. وحج الإمام أحمد ماشياً مرتين أو ثلاثاً ^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: ركبناً على ضَمَرٍ من طول السفر. قال الفراء: «يأتين» فعل للنوق. وقال الزجاج: «يأتين» على معنى الإبل. وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبله: «يأتون» بالواو.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ فَجٍّ عَیْبٍ﴾ أي: طريق بعيد. وقد ذكرنا تفسير الفج عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾ [الأنبياء: ٣١].

قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ أي: ليحضرُوا ﴿مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: التجارة، قاله ابن عباس، والسدي. والثاني: منافع الآخرة، قاله سعيد بن المسيب، والزجاج في آخرين. والثالث: منافع الدارين جميعاً، قاله مجاهد. وهو أصح، لأنه لا يكون القصد للتجارة خاصة، وإنما الأصل قصد الحج، والتجارة تبع. وفي الأيام المعلومات ستة أقوال: أحدها: أنها أيام العشر ^(٤)، رواه مجاهد عن ابن عمر، وسعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال

(١) قال ابن كثير: هذا فيه تفرع وتوخيخ لمن عبد غير الله وأشرك به من قريش في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له.
(٢) قال ابن كثير: هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف، والله أعلم، قال: وأوردها ابن جرير وابن أبي حاتم مطولة. اهـ.
(٣) من المتفق عليه أن الحج جائز راكباً وماشياً، وقد اختلف في الأفضل منهما، فقال بعضهم: المشي أفضل، وقال جمهور الفقهاء: الركوب أفضل، اقتداء بالنبي ﷺ، ولأنه أهون على القيام بوظائف مناسك الحج، فمن هنا نعلم أن من حج بالطائرة مثلاً، ووجد الراحة، وقام بالمناسك كاملة، أفضل ممن ذهب إلى الحج ماشياً وحصلت له مشقة، ففسر، أو لم يستطع القيام بالمناسك على الوجه الكامل.
(٤) أي عشر ذي الحجة، وقد قال رسول الله ﷺ في فضلها: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام» (يعني عشر ذي الحجة) قالوا: =

الحسن، وعطاء، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والشافعي. والثاني: تسعة أيام من العشر، قاله أبو موسى الأشعري. والثالث: يوم الأضحي وثلاثة أيام بعده، رواه نافع عن ابن عمر، ومقسم عن ابن عباس. والرابع: أنها أيام التشريق، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال عطاء الخراساني، والنخعي، والضحاك. والخامس: أنها خمسة أيام، أولها يوم التروية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والسادس: ثلاثة أيام، أولها يوم عرفة، قاله مالك بن أنس. وقيل: إنما قال: «معلومات»، ليحرص على علمها بحسابها من أجل وقت الحج في آخرها. قال الزجاج: والذكر هاهنا يدل على التسمية على ما ينحر، لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنَ بَيْهِيَةِ الْأَنْفُسِ﴾؛ قال القاضي أبو يعلى: ويحتمل أن يكون الذكر المذكور هاهنا: هو الذكر على الهدايا الواجبة، كالدّم الواجب لأجل التمتع والقران، ويحتمل أن يكون الذكر المفعول عند رمي الجمار وتكبير التشريق، لأن الآية عامة في ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنهَا﴾ يعني: الأنعام التي تُنحر؛ وهذا أمر إباحة. وكان أهل الجاهلية لا يستحلون أكل ذبائحهم، فأعلم الله ﷻ أن ذلك جائز، غير أن هذا إنما يكون في الهدى المتطوع به، فأما دم التمتع والقران، فعندنا^(١) أنه يجوز أن يأكل منه، وقال الشافعي: لا يجوز^(٢)، وقد روى عطاء عن ابن عباس أنه قال: من كل الهدى يؤكل، إلا ما كان من فداء أو جزاء أو نذر^(٣). فأما «البائس» فهو ذو البؤس، وهو شدة الفقر.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: حلق الرأس، وأخذ الشارب، وتنف الإبط، وحلق العانة، وقص الأظفار، والأخذ من العارضين، ورمي الجمار، والوقوف بعرفة، رواه عطاء عن ابن عباس. والثاني: مناسك الحج، رواه عكرمة عن ابن عباس، وهو قول ابن عمر؛ والثالث: حلق الرأس، قاله مجاهد. والرابع: الشعر والظفر، قاله عكرمة. والقول الأول أصح، لأن التث: الوسخ، والقذارة: من طول الشعر والأظفار والشعث. وقضاؤه: نقضه، وإذها به. والحاج مغبر شعث لم يدهن، ولم يستحد، فإذا قضى نسكه، وخرج من إحرامه بالخلق، والقلم، وقص الأظفار، ولبس الثياب، ونحو ذلك، فهذا قضاء تفته. قال الزجاج: وأهل اللغة لا يعرفون التث إلا من التفسير، وكأنه الخروج من الإحرام إلى الإحلال.

قوله تعالى: ﴿وَلْيُؤْثِرُوا نَذْرَهُمْ﴾ وروى أبو بكر عن عاصم: «وليؤثروا» بتسكين اللام وتشديد الفاء. قال ابن عباس: هو نحر ما نذروا من البدن. وقال غيره: ما نذروا من أعمال البر في أيام الحج، فإن الإنسان ربما نذر أن يتصدق إن رزقه الله رؤية الكعبة، وقد يكون عليه نذر مطلق، فالأفضل أن يؤذيها بمكة.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْطَرُوا يَلْبِيتَ الْعَتِيقِ﴾ هذا هو الطواف الواجب، لأنه أمر به بعد الذبح، والذبح إنما يكون في يوم النحر، فدل على أنه الطواف المفروض. وفي تسمية البيت عتيقاً أربعة أقوال: أحدها: لأن الله تعالى أعتقه من الجبابرة. روى عبد الله بن الزبير، عن رسول الله ﷺ قال: «إنما سمى الله البيت العتيق، لأن الله أعتقه من الجبابرة، فلم يظهر عليه جبّار قط»^(٤). وهذا قول مجاهد، وقتادة. والثاني: أن معنى العتيق: القديم، قاله الحسن، وابن زيد.

يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء» رواه البخاري في «صحيحه» ٣٨٢/٢، وأبو داود رقم (٢٤٣٨) واللفظ له.

(١) أي: معاشر الحنابلة.
(٢) وكذلك قال الإمام النووي في «الروضة» ١٩١/٣ طبع المكتب الإسلامي، لأنه دم واجب، ولكن الحنابلة - كما ذكر المصنف - أجازوا أن يأكل من هدي التمتع والقران، وهو قول الحنفية بناءً على أصلهم أن دم التمتع والقران، دم نسك، لا دم جبران. وقد صح أن أزواج النبي ﷺ تمتعن معه في حجة الوداع، وأدخلت عائشة ﷺ الحج على العمرة حين حاضت فصارت قارئة، ثم ذبح ﷺ عنهن البقر فأكلن من لحمها، وثبت أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر فأكل ﷺ هو وعلي بن أبي طالب ﷺ من لحمها، وشربا من مرقها. قال الشوكاني في «نيل الأوطار» ١٩٢/٥: والظاهر أنه يجوز الأكل من الهدى من غير فرق بين ما كان منه تطوعاً وما كان فرضاً، لعموم قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنهَا﴾، ولم يفصل.

(٣) في البخاري تعليقاً عن ابن عمر ﷺ: لا يؤكل من جزاء الصيد والنذر، ويؤكل مما سوى ذلك، قال الحافظ ابن حجر: ووصله ابن أبي شيبة بمعناه.

(٤) رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، ثم رواه من وجه آخر عن الزهري مرسلًا. قال ابن كثير: وكذا رواه ابن جرير عن محمد بن سهل المحاربي =

والثالث: لأنه لم يملك قط، قاله مجاهد في رواية، وسفيان بن عيينة. والرابع: لأنه أعتق من الغرق زمان الطوفان، قاله ابن السائب. وقد تكلّمنا في هذه السورة في «ليقضا» و«وليوفوا» و«ليطوفوا».

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لِّمَنْ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآثِمُ إِلَّا مَا يَتَنَلَّ عَلَىكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّيسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٢٢﴾ حَفَاةً لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ السَّمَاءُ فَتَخَفَتْهُ الْعُظَرُ أَوْ تَهَوَّى فِي الْبُحْرِ فِي مَكَانٍ سَجِقٍ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٢٤﴾ لَكُم فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْمَعِينِ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، يعني: ما ذكر من أعمال الحج ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ﴾ فيجتنب ما حرم الله عليه في الإحرام تعظيماً لأمر الله. قال الليث: الحرمة: ما لا يحل انتهاكه. وقال الزجاج: الحرمة: ما وجب القيام به، وحرم التفريط فيه.

قوله تعالى: ﴿ذَهَوٌ﴾ يعني: التعظيم ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ في الآخرة ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآثِمُ﴾ وقد سبق بيانها [المائدة: ١] ﴿إِلَّا مَا يَتَنَلَّ عَلَىكُمْ﴾ تحريره، يعني [به]: ما ذكر في [المائدة: ٣] من المنخقة وغيرها. وقيل: وأحلت لكم الأنعام في حال إحرامكم، إلا ما يتلى عليكم في الصيد، فإنه حرام.

قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّيسَ﴾ أي: دعوه جانباً، قال الزجاج: و«من» هاهنا، لتخليص جنس من أجناس، المعنى: فاجتنبوا الرجس الذي هو وثن. وقد شرحنا معنى الرجس في [المائدة: ٩٠]. وفي المراد بقول الزور أربعة أقوال: أحدها: شهادة الزور، قاله ابن مسعود. والثاني: الكذب، قاله مجاهد. والثالث: الشرك، قاله أبو مالك. والرابع: أنه قول المشركين في الأنعام: هذا حلال، وهذا حرام، قاله الزجاج، قال: وقوله تعالى: ﴿حَفَاةً لِلَّهِ﴾ منصوب على الحال، وتأويله: مسلمين لا يُنسبون إلى دين غير الإسلام. ثم ضرب الله مثلاً للمشرك، فقال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿سَجِقٍ﴾، والسجق: البعيد. واختلفوا في قراءة «فتخطفه» فقرا الجمهور: «فتخطفه» بسكون الباء من غير تشديد الطاء. وقرأ نافع: بتشديد الطاء. وقرأ أبو المتوكل، ومعاذ القارئ: بفتح التاء والحاء وتشديد الطاء ونصب الفاء. وقرأ أبو رزين، وأبو الجوزاء، وأبو عمران [الجوني]: بكسر التاء والحاء وتشديد الطاء ورفع الفاء. وقرأ الحسن، والأعمش: بفتح التاء وكسر الخاء وتشديد الطاء ورفع الفاء. وكلهم فتح الطاء. وفي المراد بهذا المثل قولان: أحدهما: أنه شبه المشرك بالله في بعده عن الهدى وهلاكه، بالذي يَجُرُّ من السماء، قاله قتادة. والثاني: أنه شبه حال المشرك في أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا دفع ضرر يوم القيامة، بحال الهاوي من السماء، حكاة الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر الذي ذكرناه ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ﴾ قد شرحنا معنى الشعائر في [البقرة: ١٥٨]. وفي المراد بها هاهنا قولان: أحدهما: أنها البدن. وتعظيمها: استحسانها، واستسمانها ﴿لَكُم فِيهَا مَنَافِعُ﴾ قبل أن يُسَمِّيَهَا صاحبها هدياً، أو يشعروها ويوجبها، فإذا فعل ذلك لم يكن له من منافعها شيء، روى هذا المعنى مقسم عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقتادة، والضحاك. وقال عطاء بن أبي رباح: لكم في هذه الهدايا منافع بعد إيجابها وتسميتها هدايا إذا احتجتم إلى شيء من ذلك أو اضطررتم إلى شرب ألبانها ﴿إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ وهو أن تُنَحَّرَ. والثاني: أن الشعائر: المناسك ومشاهد مكة؛ والمعنى: لكم فيها منافع بالتجارة إلى أجل مسمى، وهو الخروج من مكة، رواه أبو رزين عن ابن عباس. وقيل: لكم فيها منافع من الأجر والثواب في قضاء المناسك إلى أجل مسمى، وهو انقضاء أيام الحج.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا﴾ يعني الأفعال المذكورة، من اجتناب الرجس وقول الزور، وتعظيم الشعائر. وقال الفراء: «فإنها» يعني الفعللة ﴿وَمَنْ تَقَوَّى الْقُلُوبِ﴾، وإنما أضاف التقوى إلى القلوب، لأن حقيقة التقوى تقوى القلوب. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا﴾ أي: حيث يحل نحرها ﴿إِلَّا الْبَيْتِ﴾ يعني: عند البيت، والمراد به: الحرم كله، لأننا

= عن عبد الله بن صالح به، وقال: إن كان صحيحاً. وذكره السيوطي في «الدرر» ٣٥٧/٤، وزاد نسبه للبخاري في «تاريخه»، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه.

نعلم أنها لا تذبح عند البيت، ولا في المسجد، هذا على القول الأول؛ وعلى الثاني، يكون المعنى: ثم مَحَلَّ الناس من إحرامهم إلى البيت، وهو أن يطوفوا به بعد قضاء المناسك.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَتِهِ الْأَقْنَرِ فَلِلَّهِكَ اللَّهُ وَجَدَ فَلَهُ اسْلِمُوا وَيَشِرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٦) الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُم وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُفْقِرُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ قرا حمزة، والكسائي، وبعض أصحاب أبي عمرو بكسر السين، وقرا الباقون بفتحها. فمن فتح أراد المصدر، من نَسَكَ يَنْسُكُ، ومن كسر أراد مكان النُسك كالمجلس والمطليح. ومعنى الآية: لكل جماعة مؤمنة من الأمم السالفة جعلنا ذبح القرابين ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَتِهِ الْأَقْنَرِ﴾، وإنما خص ببيعة الأنعام، لأنها المشروعة في القُرب. والمراد من الآية: أن الذبائح ليست من خصائص هذه الأمة؛ وأن التسمية عليها كانت مشروعة قبل هذه الأمة.

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِكَ اللَّهُ وَجَدَ﴾ أي: لا ينبغي أن تذكروا على ذباحكم سواء ﴿فَلَهُ اسْلِمُوا﴾ أي: انقادوا واخضعوا. وقد ذكرنا معنى الإخبات في [عود: ٢٣] وكذلك ألفاظ الآية التي تلي هذه.

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعِيرٍ اللَّهُ لَكُم فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِيتُ جُؤْثَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُم لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٨) لَن يَبَالَ اللَّهُ لِحُمْومِهَا وَلَا ذِمَّاتِهَا وَلَكِنَّ يَأْتِيهِمُ الْتَقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِشُكْرِ اللَّهِ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمْ وَيَشِرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ﴾ وقرا الحسن، وابن يعمر برفع الدال. قال الفراء: يقال: بُدْنٌ وبُدْنٌ، والتخفيف أجود وأكثر، لأن كل جمع كان واحده على «فَعْلَةٍ» ثم ضُمَّ أول جمعه، خُفِّفَ، مثل أَكَمَةٍ وأُكْمٍ، وأَجَمَةٍ وأُجْمٍ، وخَشَبَةٍ وخُشْبٍ. وقال الزجاج: «البُدْن» منصوبة بفعل مُضمر يفسره الذي ظهر، والمعنى: وجعلنا البُدْنَ؛ وإن شئت رفعتها على الاستئناف، والنصب أحسن؛ ويقال: بُدْنٌ وبُدْنٌ وبُدْنَةٌ، مثل قولك: ثَمَرٌ وَثَمَرٌ وَثَمَرَةٌ؛ وإنما سُمِّيت بُدْنَةً، لأنها بُدْنٌ، أي: تسمن. وللمفسرين في البُدْن قولان: أحدهما: أنها الإبل والبقر، قاله عطاء. والثاني: الإبل خاصة، حكاها الزجاج، وقال: الأول قول أكثر فقهاء الأمصار. قال القاضي أبو يعلى: البدنة: اسم يختص الإبل في اللغة، والبقرة تقوم مقامها في الحكم، لأن النبي ﷺ جعل البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة^(١).

قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعِيرٍ اللَّهِ﴾ أي: جعلنا لكم فيها عبادة لله، من سَوَّيْهَا إلى البيت، وتقليدها، وإشعارها، ونحرها، والإطعام منها، ﴿لَكُم فِيهَا خَيْرٌ﴾ وهو النفع في الدنيا والآخرة، ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي: على نحرها، ﴿صَوَافٍ﴾ وقرا ابن مسعود، وابن عباس، وقتادة: «صَوَافٍ» بالنون. وقرا الحسن، وأبو مجلز، وأبو العالية، والضحاك، وابن يعمر: «صَوَافِي» بالياء. قال الزجاج: «صَوَافٍ» منصوبة على الحال، ولكنها لا تتَوَّن لأنها لا تتصرف؛ أي: قد صُفَّت قوائمها، والمعنى: اذكروا اسم الله عليها في حال نحرها، والبعر يُنْحَر قائماً، وهذه الآية تدل على ذلك. ومن قرأ: «صَوَافٍ» فالصافن: التي تقوم على ثلاث، والبعر إذا أرادوا نحره، تُعْقِل إحدى يديه، فهو الصافن، والجميع: صوافن. هذا ومن قرأ: «صَوَافِي» بالياء وبالفتح بغير تنوين، فتفسيره: خوالص، أي: خالصة لله لا تشركوا به في التسمية على نحرها أحداً. ﴿فَإِذَا وَجِيتُ جُؤْثَهَا﴾ أي: إذا سقطت إلى الأرض، يقال: وَجَبَ الحائط وجبةً، إذا سقط. وَوَجَبَ القلب وَجِباً: إذا تحرك من فزع. واعلم أن نحرها قياماً سُنَّةً، والمراد بوقوعها على جنوبها: موتها، والأمر بالأكل منها أمر إباحة، وهذا في الأضاحي.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ وقرا الحسن: «الْمُعْتَرَّ» بكسر الراء خفيفة. وفيهما ستة أقوال: أحدها: أن القانع: الذي يَسْأَل، والمُعْتَرَّ: الذي يتعرَّض ولا يَسْأَل، رواه بكر بن عبد الله عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير،

(١) روى مسلم في (صحيحه) ٩٥٥/٢ عن جابر رضي الله عنه قال: نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة. وفي رواية لأحمد، والترمذي، وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ فحضر الأضحية، فذبحنا البقرة عن سبعة، والبعر عن عشرة. قال الشوكاني في «نيل الأوطار» ١٨٥/٥: ويشهد له ما في «الصحيحين» من حديث رافع بن خديج أنه ﷺ قسم فعدل عشرًا من الغنم يبيع.

واختاره الفراء. والثاني: أن القانع: المتعفف، والمعتر: السائل، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والنخعي. وعن الحسن كالقولين. والثالث: أن القانع: المستغني بما أعطيته وهو في بيته، والمعتر: الذي يتعرض لك ويُلِّم بك ولا يسأل، رواه العوفي عن ابن عباس. وقال مجاهد: القانع: جارك الذي يقنع بما أعطيته، والمعتر: الذي يتعرض ولا يسأل، وهذا مذهب القرظي. فعلى هذا يكون معنى القانع: أن يقنع بما أعطي. ومن قال: هو المتعفف، قال: هو القانع بما عنده. والرابع: القانع: أهل مكة، والمعتر: الذي يعتز بهم من غير أهل مكة، رواه خصيف عن مجاهد. والخامس: القانع الجار وإن كان غنياً، والمعتر: الذي يعتز بك، رواه ليث عن مجاهد. والسادس: القانع: المسكين السائل، والمعتر: الصديق الزائر، قاله زيد بن أسلم. قال ابن قتيبة: يقال: قَنَعَ يَقْنَعُ قُنُوعاً: إذا سأل، وقَنَعَ يَقْنَعُ قَنَاعَةً: إذا رضي، ويقال في المعتر: اعترني واعتراني وعَرَاني. وقال الزجاج: مذهب أهل اللغة أن القانع: السائل، يقال: قَنَعَ يَقْنَعُ قُنُوعاً: إذا سأل، فهو قانع، قال الشماخ:

لَمَّا لَ الْمَرْءُ يُضْلِحُهُ قِيْعُنِي

أي: من السؤال؛ ويقال: قَنَعَ قَنَاعَةً: إذا رضي، فهو قَنِع، والمعتر والمعترى واحد.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما وصفنا من نحرها قائمة ﴿سَخَّرْنَا لَكُمُ﴾ نعمة منا عليكم لتتمكنوا من نحرها على الوجه المسنون ﴿لَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لكي تشكروا.

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا﴾ وقرأ عاصم الجحدري، وابن يعمر، وابن أبي عبيدة، ويعقوب: ﴿لَنْ تَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا﴾ بالتاء «ولكن تناله التقوى منكم» بالتاء أيضاً. سبب نزولها أن المشركين كانوا إذا ذبحوا استقبلوا الكعبة بالدماء ينضحون بها نحو الكعبة، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك، فنزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس^(١). قال المفسرون: ومعنى الآية: لن تُرفع إلى الله لحومها ولا دماؤها، وإنما يُرفع إليه التقوى؛ وهو ما أُريد به وجهه منكم. فمن قرأ «تناله التقوى» بالتاء، فإنه أنث للفظ التقوى. ومن قرأ: «يناله» بالياء، فلأن التقوى والتقى واحد. والإشارة بهذه الآية إلى أنه لا يقبل اللحوم والدماء إذا لم تكن صادرة عن تقوى الله، وإنما يقبل ما يتقونه به، وهذا تنبيه على امتناع قبول الأعمال إذا عريت عن نيّة صحيحة.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا﴾ قد سبق تفسيره [الحج: ٣٧]، ﴿لَشَكْرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي: على ما بين لكم وأرشدكم إلى معالم دينه ومناسك حجّه، وذلك أن يقول: الله أكبر على ما هدانا. ﴿وَيَذَرِ الْمُسَيِّئِينَ﴾ قال ابن عباس: يعني: الموحدين.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (٣٨) أَوْنِ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ وَأَنَّهُمْ ظُلُمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغْيَ فَإِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَرْعُهُمْ وَسُخِّرَتْ لَكُمْ فِيهَا أَسْمَاءُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ (٤١)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «يدفع» «ولولا دفع الله» بغير ألف، وهذا على مصدر «دفع». وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «إن الله يدافع» «بألف» «ولولا دفع» بغير ألف، وهذا على مصدر «دافع»، والمعنى: يدفع عن الذين آمنوا غائلة المشركين بمنعهم منهم ونصرهم عليهم. قال الزجاج: والمعنى: إذا فعلتم هذا وخالفتم الجاهلية فيما يفعلونه من نحرهم وإشراكهم، فإن الله يدفع عن حزبه. وال «خَوَّان» فقال من الخيانة، والمعنى: أن من ذكر غير اسم الله، وتقرب إلى الأصنام بذيبحته، فهو خَوَّان.

قوله تعالى: ﴿أَوْنِ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ وَأَنَّهُمْ ظُلُمُوا﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «أَذِنَ» بفتح الألف. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو بكر، وحفص عن عاصم: «أَذِنَ» بضمها.

(١) «مجاز القرآن» ٥١/٢، والطبري ١٦٨/١٧، والقرظي ٦٤/١٢، واللسان: قنع.

(٢) ذكره السيوطي في «الدرر» ٣٣٣/٤ من رواية ابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿لَّذِينَ يَنْتَلُونَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: بكسر التاء. وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: بفتحها. قال ابن عباس: كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فيقول لهم: «اصبروا، فإني لم أؤمر بالقتال» حتى هاجر رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، وهي أول آية أنزلت في القتال^(١). وقال مجاهد: هم ناس خرجوا من مكة مهاجرين، فأدركهم كفار قريش، فأذن لهم في قتالهم. قال الزجاج: معنى الآية: أذن للذين يقاتلون أن يقاتلوا. ﴿يَأْتَهُمْ ظُلُمًا﴾ أي: بسبب ما ظلموا. ثم وعدهم النصر بقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِ لَلْقَدِيرُ﴾ ولا يجوز أن تقرأ بفتح «إن» هذه من غير خلاف بين أهل اللغة، لأن «إن» إذ كانت معها اللام، لم تفتح أبدًا. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ معناه: أخرجوا لتوحيدهم. قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ قد فسرناه في [البقرة: ٢٥٥].

قوله تعالى: ﴿لَهُدًى﴾ قرأ ابن كثير، ونافع: «لَهُدًى» خفيفة، والباقون بتشديد الدال. فأما الصوامع، ففيها قولان: أحدهما: أنها صوامع الرهبان، قاله ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، وابن زيد. والثاني: أنها صوامع الصابئين، قاله قتادة، وابن قتيبة. فأما البيع، فهي جمع بيعة، وهي بيع النصارى. وفي المراد بالصلوات قولان: أحدهما: مواضع الصلوات. ثم فيها قولان: أحدهما: أنها كنائس اليهود، قاله قتادة، والضحاك، وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي، قال: قوله: ﴿وَسَلَوَاتٌ﴾ هي كنائس اليهود، وهي بالعبرانية «صلوات». والثاني: أنها مساجد الصابئين، قاله أبو العالية. والقول الثاني: أنها الصلوات حقيقة، والمعنى: لولا دفع الله عن المسلمين بالمجاهدين، لانقطعت الصلوات في المساجد، قاله ابن زيد. فأما المساجد، فقال ابن عباس: هي مساجد المسلمين. وقال الزجاج: معنى الآية: لولا دفع بعض الناس ببعض لهدمت في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد المساجد. وفي قوله: ﴿يَذْكُرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: أن الكتابة ترجع إلى جميع الأماكن المذكورات، قاله الضحاك. والثاني: إلى المساجد خاصة، لأن جميع المواضع المذكورة، الغالب فيها الشرك، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُنِي﴾ أي: من ينصر دينه وشرعه.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ قال الزجاج: هذه صفة ناجسيه. قال المفسرون: التمكين في الأرض: نصرتهم على عدوهم، والمعروف: لا إله إلا الله، والمنكر: الشرك. قال الأكثرون: وهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ. وقال القرطبي: هم الولاة.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عِيقَةُ الْأُمُورِ﴾ أي: إليه مرجعها، لأن كل ملك يتظل سوى ملكه.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٧٧﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٧٨﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٧٩﴾ فَكَأَنَّمِنْ قَرِينَةٍ مَّوَدَّهَا ظَلَمَةٌ فِيهِ عَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرْوَةِهَا وَيُثِرُ مُعْطَلٌ وَقَصْرٌ مِّنْ مَّشِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي: بالعذاب ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أثبت الباء في «نكير» يعقوب [في الحالين]، ووافقه ورش في إثباتها في الوصل، والمعنى: كيف [أنكرت عليهم ما فعلوا من التكذيب بالإهلاك؟]. والمعنى: إني أنكرت عليهم أبلغ إنكار، وهذا استخفاف معناه التقرير.

قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ قرأ أبو عمرو: «أهْلَكْنَاهَا» بالتاء، والباقون: «أهْلَكْنَاهَا» بالنون.

قوله تعالى: ﴿وَيُثِرُ مُعْطَلٌ﴾ قرأ ابن كثير، [وعاصم]، وأبو عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «ويثر» مهموز. وروى ورش عن نافع بغير همز، والمنهني: نوكم بشر معطلة، أي: متبركة ﴿وَقَصْرٌ مِّنْ مَّشِيدٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: مجصص، قاله ابن عباس، وعكرمة. قال الزجاج: أصل الشيد: الجص والثورة، وكل ما بني بهما

(١) أسباب النزول، للواحدي صفحة ١٧٧ بدون سند، وذكره كثير من المفسرين هكذا بدون سند. وذكره ابن كثير في «اللبابة والنهاية» ١٦٤/٣ في بيعة العبة الثانية من رواية ابن إسحاق عن عبد الله بن كعب بن مالك.

أو بأحدهما فهو متشيد. والثاني: طويل، قاله الضحاك، ومقاتل. وفي الكلام إضمار، تقديره: وقصر مشيد معطل أيضاً ليس فيه ساكن.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آفَافٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۖ وَسَتَجْلِبُكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَئِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۖ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِينٍ أَتَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَا وَلَكَ الْمُصِيرَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ قال المفسرون: أفلم يسير قومك في أرض اليمن والشام ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ إذا نظروا آثار من هلك ﴿أَوْ آفَافٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أخبار الأمم المكذبة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ قال الفراء: الهاء في قوله: «فإنها» عماد، والمعنى: أن أبصارهم لم تعم، وإنما عميت قلوبهم. وأما قوله: «التي في الصدور» فهو تأكيد، لأن القلب لا يكون إلا في الصدر. ومثله: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]، ﴿يُطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الانعام: ٢٣٨]، ﴿يَتَوَلَّوْنَ يَأْتِيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

قوله تعالى: ﴿وَسَتَجْلِبُكَ بِالْعَذَابِ﴾ قال مقاتل: نزلت في النضر بن الحارث القرشي. وقال غيره: هو قولهم له: «مَتَى هَذَا الرَّجُلُ؟» [الملك: ٢٥] ونحوه من استعجالهم، ﴿وَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ في إنزال العذاب بهم في الدنيا، فأنزله بهم يوم بدر، ﴿وَلَئِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: من أيام الآخرة ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ من أيام الدنيا. قرأ عاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «تَعُدُّونَ» بالياء. وقرأ ابن كثير، وحزمة، والكسائي: «يَعُدُّونَ» بالياء. فإن قيل: كيف انصرف الكلام من ذكر العذاب إلى قوله: «وإن يوماً عند ربك»؟ فعنه جوابان. أحدهما: أنهم استعجلوا العذاب في الدنيا، فقبل لهم: لن يخلف الله وعده في إنزال العذاب بكم في الدنيا، وإن يوماً من أيام عذابكم في الآخرة كآلف سنة من سنتي الدنيا، فكيف تستعجلون بالعذاب؟! فقد تضمنت الآية وعدهم بعذاب الدنيا والآخرة، هذا قول الفراء. والثاني: وإن يوماً عند الله وألف سنة سواء في قدرته على عذابهم، فلا فرق بين وقوع ما يستعجلونه وبين تأخيرها في القدرة، إلا أن الله تفضل عليهم بالإمهال، هذا قول الزجاج.

﴿قُلْ يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَصَلُوا الصَّالِحِينَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي مَائِنَتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني به [الرزق] الحسن في الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي مَائِنَتِنَا﴾ أي: عملوا في إبطالها ﴿مُعْجِزِينَ﴾ قرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «مُعْجِزِينَ» بغير ألف. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «مُعَاجِزِينَ» بآلف. قال الزجاج: «مُعَاجِزِينَ» أي: ظانين أنهم يعجزوننا، لأنهم ظنوا أنهم لا يُعْجِزُونَ وأنه لا جنة ولا نار. قال: وقيل في التفسير: مُعَاجِزِينَ: معاندين، وليس هو بخارج عن القول الأول، و«مُعْجِزِينَ» تأويلها: أنهم كانوا يعجزون من اتباع النبي ﷺ ويشطونهم عنه.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّاهُ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُخَصِّمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الَّذِينَ هُمْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَلَئِنَّ الْفَالِغِينَ لَيَبْلُوَنَّ شِقَاقَ بَهِيمٍ ۝ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْفِتَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَكَلِيدُ الْإِيمَانِ آمَنُوا بِآيَاتِهِ وَلَئِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيبٍ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ﴾ الآية. قال المفسرون: سبب نزولها أن رسول الله ﷺ لما نزلت عليه سورة (النجم) قرأها حتى بلغ قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝ وَنَوَّاهُ الْقُلُوبَ الْأَفْرَىٰ ۝﴾ فآلقى الشيطان على لسانه: تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتهن لترجى؛ فلما سمعت قريش بذلك فرحوا، فأتاه جبريل، فقال: ماذا صنعت؟ تلوت على الناس ما لم أتك به عن الله، فحزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً، فنزلت هذه الآية تطيباً لقلبه، وإعلاماً له أن

الأنبياء قد جرى لهم مثل هذا. قال العلماء المحققون: وهذا لا يصح^(١)، لأن رسول الله ﷺ معصوم عن مثل هذا، ولو صح، كان المعنى أن بعض شياطين الإنس قال تلك الكلمات، فإنهم كانوا إذا تلا لغطوا، كما قال الله ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَىٰ فِيهِ﴾ [نصفت: ٢٦]. قال: وفي معنى «تمنى» قولان: أحدهما: تلا، قاله الأكثرون^(٢)، وأنشدوا:

تَمْنَى كِتَابَ اللّٰهِ أَوَّلَ لَيْلٍ وَآخِرَهُ لَاقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ^(٣)
وقال آخر:

تَمْنَى كِتَابَ اللّٰهِ آخِرَ لَيْلٍ تَمْنَى دَاوُدَ الزَّبُورَ عَلَى رِشْلِ^(٤)
والثاني: أنه من الأمنية، وذلك أن رسول الله ﷺ تمنى يوماً أن لا يأتيه من الله شيء ينفر عنه به قومه، فألقى الشيطان على لسانه لما كان قد تمناه، قاله محمد بن كعب القرظي^(٥). قوله تعالى: ﴿فَيَسْخُ اللَّهُ مَا يَلْقَى الشَّيْطَانُ﴾ أي: يُطْلَع وَيُذْهِبُ ﴿ثُمَّ يَخْتَكِمُ اللَّهُ مَا يَلْقَى﴾ قال مقاتل: يُخَكِّمُهَا مِنَ الْبَاطِلِ.

قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُ اللَّامَ مُتَعَلِّقَةً بِقَوْلِهِ﴾: «اللقى الشيطان» والفتنة هاهنا بمعنى البلية والمحنة. والمرص: الشك والنفاق. ﴿وَالْقَائِمَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: الجافية عن الإيمان. ثم أعلمه أنهم ظالمون وأنهم في شقاق دائم، والشقاق: غاية العداوة. قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ أُوتُوا الْوَحْيَ﴾ وهو التوحيد والقرآن، وهم المؤمنون. وقال السدي: التصديق بنسخ الله.

(١) قال ابن كثير ٢٢٩/٣: قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الفرائق، ولكنها من طرق مرسلّة، ولم أرها مستندة من وجه صحيح، والله أعلم، وسرد ابن كثير بعض الروايات في هذه القصة، ثم قال في آخرها: وكلها مراسلات، ومنقطعات والله أعلم. اهـ. والحق أن روايات هذه القصة معلّة بالإرسال والضعف والجهالة، وليس فيها رواية صحيحة تصلح للاحتجاج، بل فيها ما لا يليق بمقام النبوة والرسالة، وذكر في معظمها أن الشيطان تكلم على لسان رسول الله ﷺ بما فيه مدح لأصنام المشركين بهذه الجملة الباطلة: «تلك الفرائق العلى وإن شفاعتن لترتجى» وكيف يكون مثل ذلك مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله ﷺ؟ وذلك مما يدل على عدم صحة مثل هذه الروايات سنداً ومتناً. ومن تكلم من العلماء على هذه القصة وبين بطلانها بكلام طويل، القاضي أبي بكر ابن العربي، والقاضي عياض، والشوكاني، والألوسي، وغيرهم.

(٢) قال الإمام ابن القيم في «إغاثة اللهفان» ٩٣/١ في فصل الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند قراءة القرآن - بعد أن عُدّد وجوهاً -: ومنها أن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي، إلا إذا تمنىلقى الشيطان في أمنيته، ثم قال: والسلف كلهم على أن المعنى: إلا إذا تلالقى الشيطان في تلاوته، ثم قال: فإذا كان هذا فعلم مع الرسل ﷺ، فكيف بغيرهم؟ ولهذا يغلط القارئ تارة، ويخلط عليه القراءة، ويشوشها عليه، فيخط عليه لسانه، أو يشوش عليه ذهنه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة، لم يعدم منه القارئ هذا أو هذا، وربما جمعهما له، فكان من أهم الأمور الاستعاذة بالله تعالى منه. اهـ. وقال الإمام ابن جرير الطبري في «التفسير» ١٧/١٩٠ بعد ما ذكر من الضحك أن معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَسُوءُ﴾: التلاوة والقراءة: وهذا القول أشبه بتأويل الكلام، بدلالة قوله تعالى: ﴿فَيَسْخُ اللَّهُ مَا يَلْقَى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يَخْتَكِمُ اللَّهُ مَا يَلْقَى﴾ على ذلك، لأن الآية التي أخبر الله جل ثناؤه أنه يحكمها لا شك أنها آيات تنزيله، فمعلوم أن الذيلقى فيه الشيطان، هو ما أخبر الله تعالى ذكره أنه نسخ ذلك منه وأبطله، ثم أحكمه بنسخه ذلك منه، فتأويل الكلام إذن: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تلا كتاب الله وقرأ، أو حدث وتكلم،لقى الشيطان في كتاب الله الذي تلاه وقرأه، أو في حديثه الذي حدث وتكلم ﴿فَيَسْخُ اللَّهُ مَا يَلْقَى الشَّيْطَانُ﴾، يقول تعالى: فَيُذْهِبُ اللَّهُ مَا يَلْقَى الشَّيْطَانُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى لِسَانِ نَبِيٍّ وَيُطْلَعُ. اهـ.

فهذا هو المعنى المراد من الآية الكريمة، وليس فيها إلا أن الشيطان يلقي عند تلاوة النبي ﷺ للقرآن ما يفتن به الذين في قلوبهم مرض، ولكن أهداه الإسلام ما فتوا دائماً يلسون في هذا الدين ما ليس منه، وما لم يقله رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام، فيذكرون ما لا يليق بمنصب النبوة ومقام الرسالة، كما فعلوا في كثير من الآيات الواردة في غير نبينا محمد ﷺ، كيوسف، وأيوب، وداود، وسليمان ﷺ، فيذكرون في تفسيرها من الإسرائيليات التي لا يجوز نسبتها لأحد الناس، فضلاً عن نبي مرسل، أو رسول مقدم، فليتنبه المسلمون لذلك، وليأخذوا التفسير من العلماء المحققين حتى لا يروا الأنبياء والمرسلين فيما هم منه معصومون.

(٣) «مجاز القرآن» ٥٤/٢، «واللسان»، «والتاج»: مني.

(٤) «مجاز القرآن» ٥٤/٢، «واللسان»، «والتاج»: مني.

(٥) هذه الرواية من جملة الروايات التي تكلم عليها العلماء المحققون، وبينوا بطلانها، وأنه لا يجوز نسبتها إلى أحد الناس، فضلاً عن رسول الله ﷺ المعصوم. وقد قال القاضي أبو بكر بن العربي المالكي: تأملوا فتح الله أخلاق النظر عنكم إلى قول الرواة - الذين هم بجعلهم أعداء على الإسلام أكثر ممن صرح بعداوتهم - إن النبي ﷺ لما جلس مع قريش تمنى أن لا ينزل عليه من الوحي، فكيف يجوز لمن معه أدنى مسكة أن يخطر بباله أن النبي ﷺ آثر وصل قومه على وصل ربه، وأراد أن لا يقطع أنسه بهم بما ينزل عليه من عند ربه من الوحي الذي كان حياة جسده وقلبه، وأنس وحشته، وغاية أمنيته، وكان رسول الله ﷺ أجود الناس، فإذا جاءه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة، أفؤثر على هذا مجالسته للأعداء؟

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ﴾ إشارة إلى نسخ ما يلقي الشيطان؛ فالمعنى: ليعلموا أن نسخ ذلك وإبطاله حق من الله ﴿فَيُؤْمِنُوا﴾ بالنسخ ﴿فَتُخَيِّتَ لَهُمْ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: تخضع وتذل. ثم بيّن بباقي الآية أن هذا الإيمان والإخبات إنما هو بلطف الله وهديته.

قوله تعالى: ﴿فِي مَرْيَمَ وَنَهْ﴾ أي: في شك. وفي هاء «منه» أربعة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى قوله: تلك الغرائيق العلى^(١). والثاني: أنها ترجع إلى سجوده في سورة (النجم). والقولان عن سعيد بن جبير، فيكون المعنى: إنهم يقولون: ما باله ذكر ألهتنا ثم رجع عن ذكرها ١٩ والثالث: أنها ترجع إلى القرآن، قاله ابن جريج. والرابع: أنها ترجع إلى الذين، حكاه الثعلبي^(٢).

قوله تعالى: ﴿حَقٌّ تَأْيِيَهُمُ الْسَّاعَةُ﴾ وفيها قولان: أحدهما: القيامة تأتي من تقوم عليه من المشركين، قاله الحسن. والثاني: ساعة موتهم، ذكره الراحدي.

قوله تعالى: ﴿أَزَّيَّنَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه يوم بدر، روي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي. والثاني: أنه يوم القيامة، قاله عكرمة، والضحاك. وأصل العقم في الولادة، يقال: امرأة عقيم لا تلد، ورجل عقيم لا يولد له، وأنشدوا:

عُقِمَ النِّسَاءُ فَلَا يَلِدْنَ شَبِيهَهُ
إِنْ النِّسَاءُ بِمَثَلِهِ عُقِمَ^(٣)

وسميت الريح العقيم بهذا الاسم، لأنها لا تأتي بالسحاب الممطر، فقليل لهذا اليوم: عقيم، لأنه لم يأت بخير. فعلى قول من قال: هو يوم بدر، في تسميته بالعقيم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه لم يكن فيه للكفار بركة ولا خير، قاله الضحاك. والثاني: لأنهم لم يُنظَرُوا فيه إلى الليل، بل قُتِلُوا قبل المساء، قاله ابن جريج. والثالث: لأنه لا مثل له في عظم أمره، لقتال الملائكة فيه، قاله يحيى بن سلام. وعلى قول من قال: هو يوم القيامة، في تسميته بذلك قولان: أحدهما: لأنه لا ليلة له، قاله عكرمة. والثاني: لأنه لا يأتي المشركين بخير ولا فرج، ذكره بعض المفسرين.

﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ يَخْتَصِمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾^(٤) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ^(٥) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا بَيْرُفَتَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَأُولَئِكَ لَهُمْ خَيْرُ الرِّزْقِ^(٦) لَيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَانِهِمْ وَلِلَّهِ اللَّهُ لَعَلِيْمٌ حَلِيمٌ^(٧)

قوله تعالى: ﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لِلَّهِ﴾ من غير منازع ولا مدع ﴿يَخْتَصِمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين المسلمين والمشركين؛ وحكمه بينهم بما ذكره في تمام الآية وما بعدها. ثم ذكر فضل المهاجرين فقال: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: من مكة إلى المدينة. وفي الرزق الحسن قولان: أحدهما: أنه الحلال، قاله ابن عباس. والثاني: رزق الجنة، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾ وقرأ ابن عامر: «قُتِلُوا» بالتشديد.

قوله تعالى: ﴿لَيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَانِهِ﴾ [وقرأ نافع بفتح الميم] «رِضْوَانِهِ» يعني: الجنة. والمدخل يجوز أن يكون مصدراً، فيكون المعنى: ليدخلنهم إدخالاً يُكْرَمُونَ به فيرضونه؛ ويجوز أن يكون بمعنى المكان. و«مدخلا» بفتح الميم على تقدير: فيدخلون مدخلا. ﴿وَلِلَّهِ اللَّهُ لَعَلِيْمٌ﴾ بنبأاتهم ﴿حَلِيمٌ﴾ عنهم.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَمَعُوذٌ عَفُوٌّ﴾^(٨) ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ

(١) مضى الكلام على قصة الغرائيق قبل قليل، وأنها باطلة.

(٢) قال ابن جرير الطبري ١٩٢/١٧: وأولى هذه الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هي كناية من ذكر القرآن الذي أحكم الله آياته، وذلك أن ذلك من ذكر قوله: ﴿وَلَيَسَّيْلُنَّ أُولَئِكَ أَلْوَمٌ أَنَّهُ الْحَقُّ بَيْنَ رَبِّكَ﴾ أقرب منه ممن ذكر قوله: ﴿فَنَسَخَ اللَّهُ مَا يَلِيكَ الْفَيْتُنَ﴾ والهاء من قوله: «أنه» من ذكر القرآن، فلحاق الهاء في قوله: ﴿فِي مَرْيَمَ وَنَهْ﴾ بالهاء من قوله: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ بَيْنَ رَبِّكَ﴾ أولى من إلحاقها بـ «ما» التي في قوله: ﴿فَمَا يَلِيكَ الْفَيْتُنَ﴾ مع بعد ما بينهما. اهـ.

(٣) «اللسان»، «التاج»: عقم.

يُولِجُ النَّارَ فِي النَّهَارِ وَيُؤْجِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ يَأْتِيَنَّ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا كُنْتُمْ تَدِينُ
تُؤْيِيهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ قال الزجاج: المعنى: الأمر ذلك، أي: الأمر ما قصصنا عليكم ﴿وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ﴾
يعده والعقوبة: الجزاء؛ والأول ليس بعقوبة، ولكنه سمي عقوبة، لاستواء الفعلين في جنس المكروه، كقوله: ﴿وَمَكَرُوا
سَيِّئًا سَيِّئًا﴾ [الشورى: ٤٠] لما كانت المجازاة إساءة بالمفعول به سميت سيئة، ومثله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهَؤُلَاءِ﴾ [البقرة: ١٥٠]،
قوله الحسن. ومعنى الآية: من قاتل المشركين كما قاتلوه ﴿ثُمَّ بَقِيَ عَلَيْهِ﴾ أي: ظلم بإخراجه عن منزله. وزعم مقاتل
أن سبب نزول هذه الآية أن مشركي مكة لقوا المسلمين لليلة بقيت من المحرم، فقاتلوه، فنأشدهم المسلمون أن لا
يقاتلوه في الشهر الحرام، فأبوا إلا القتال، فثبت المسلمون، ونصرهم الله على المشركين، ووقع في نفوس المسلمين
من القتال في الشهر الحرام، فنزلت هذه الآية^(١)، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَفُورٌ﴾ عنهم ﴿عَفُورٌ﴾ لقتالهم في الحرام.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك النصر ﴿يَأْتِيَنَّ اللَّهُ﴾ القادر على ما يشاء. فمن قدرته أنه ﴿يُولِجُ النَّارَ فِي النَّهَارِ
وَيُؤْجِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعاء المؤمنين ﴿بَصِيرٌ﴾ بهم حيث جعل فيهم الإيمان والتقوى، ﴿ذَلِكَ﴾ الذي
فعل من نصر المؤمنين ﴿يَأْتِيَنَّ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: هو الإله الحق ﴿وَأَنْتَ مَا كُنْتُمْ تَدِينُ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة،
والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿يدعون﴾ بالياء. وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: بالياء، والمعنى: وأن
ما يعبدون ﴿يَنْ دُونَهُ هُوَ الْبَاطِلُ﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَخَسَّبُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر ﴿فَتَخَسَّبُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً﴾ بالنبات. وحكى
الزجاج عن الخليل أنه قال: معنى الكلام التنبيه، كأنه قال: أسمع، أنزل الله من السماء ماء فكان كذا وكذا. وقال
ثعلب: معنى الآية عند الفراء خبر، كأنه قال: أعلم أن الله ينزل من السماء ماء فتصبح، ولو كان استفعالاً والفاء شرطاً
لنصبه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ أي: باستخراج النبات من الأرض رزقاً لعباده ﴿خَبِيرٌ﴾ بما في قلوبهم عند تأخير
المطر. وقد سبق معنى الغني الحميد في [البقرة: ٢٦٧].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَجْعَلُ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَيْفَكَ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ
بِالْأَنبَاءِ لَدُونٌ رَجِيمٌ﴾ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ يريد البهائم التي تُرْكَب ﴿وَسَيْفَكَ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا
بِإِذْنِهِ﴾ قال الزجاج: كراهة أن تقع. وقال غيره: لئلا تقع ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالْأَنبَاءِ لَدُونٌ رَجِيمٌ﴾ فيما سَخَّرَ لهم وفيما حبس
عنهم من وقوع السماء عليهم. ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ بعد أن كنتم نطفاً ميتة ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند آجالكم ﴿ثُمَّ
يُحْيِيكُمْ﴾ للبعث والحساب ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ يعني: المشرك ﴿لَكَفُورٌ﴾ لنعم الله إذ لم يوحده.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُكَ فِي الْأَمْرِ إِلَّا رِزْقٌ إِلَيْكَ لَمَّا هَدَىٰ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ جَدَلُوكَ
فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ قد سبق بيانه في هذه السورة [الحج: ٣٤] ﴿فَلَا يُنْزِعُكَ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: في
الذبائح^(٢)، وذلك أن كفار قريش وخزاعة خاصموا رسول الله ﷺ في أمر الذبيحة، فقالوا: كيف تأكلون ما قتلتم ولا

(١) ذكره السيوطي في [الدرر: ٤/٣٦٩] من رواية ابن أبي حاتم عن مقاتل.

(٢) قال ابن جرير الطبري ١٧/١٩٩: يقول تعالى ذكروه: فلا تنازعكم هؤلاء المشركون بالله يا محمد في ذبلك ومنسكك بقولهم: أأأأأأ ما قتلتم، ولا
تأكلون الميتة التي قتلها الله؟ فإنك أولى بالحق منهم، لأنك حق وهم مبطلون.

تأكلون ما قتله الله^(١)؟ يعنون: الميتة. فإن قيل: إذا كانوا هم المنازعين له، فكيف قيل: «فلا يُنَازِعَنَّكَ في الأمر»؟ فقد أجاب عنه الزجاج، فقال: المراد: النهي له عن منازعتهم، فالمعنى: لا تنازعنَّهم، كما تقول للرجل: لا يخاصمَنَّك فلان في هذا أبداً، وهذا جائز في الفعل الذي لا يكون إلا من اثنين، لأن المجادلة والمخاصمة لا تتم إلا باثنين، فإذا قلت: لا يجادلُكَ فلان، فهو بمنزلة: لا تجادلنَّه، ولا يجوز هذا في قولك: لا يضربَنَّك فلان وأنت تريد: لا تضربنَّه، [ولكن] لو قلت: لا يضاربَنَّك فلان، لكان كقولك: لا تضاربَنَّ، ويدل على هذا الجواب قوله: «وَلَا يَجَادِلُوكَ»

قوله تعالى: «وَرَادَّ إِلَى رَبِّكَ» أي: إلى دينه والإيمان به^(٢). و«جادلوك» بمعنى: خاصموك في أمر الذبائح، «فَقُلْ اللَّهُ أَكْبَرُ مِمَّا تَمَلُّونَ» من التكذيب، فهو يجازيكم به. «اللَّهُ يَخْزِيكُمْ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ» أي: يقضي بينكم «فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» من الدين، أي: تذهبون إلى خلاف ما ذهب إليه المؤمنون؛ وهذا أدب حسن علمه الله عباده ليردوا به من جادل على سبيل التعتُّت، ولا ينجيهم، ولا يناظرهم.

فصل

قال أكثر المفسرين: هذا نزل قبل الأمر بالقتال، ثم نسخ بآية السيف. وقال بعضهم: هذا نزل في حق المنافقين، كانت تظهر من أقوالهم وأفعالهم فلتات تدل على شركهم، ثم يجادلون على ذلك، فوكل أمرهم إلى الله تعالى، فالآية على هذا محكمة.

قوله تعالى: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» هذا استفهام يراد به التقرير؛ والمعنى: قد علمت ذلك، «إِنَّ ذَلِكَ» يعني ما يجري في السموات والأرض «فِي كِتَابٍ» يعني: اللوح المحفوظ^(٣)، «إِنَّ ذَلِكَ» أي: علم الله بجميع ذلك «عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» سهل لا يتعذر عليه العلم به.

«وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَئِذَا بَزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لِيْلَافِيْنَ مِن نَّمِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ مَائِنَتًا يَبِينَتِ تَفْرِيفٌ فِي دُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَيْسَ كَذَلِكَ بَكَاوُتٍ يَكَاوُتُونَ بِالسُّعُوتِ بِالْأَلَمِ يَتَلَوْنَ عَلَيْهِمْ مَائِنَتًا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُنْتُمْ بَشَرًا مِّنْ دَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَرُ الْغَيْبِ ﴿٧٢﴾»

قوله تعالى: «وَيَعْبُدُونَ» يعني: كفار مكة «مَا لَئِذَا بَزَلْ بِهِ سُلْطَانًا» أي: حجة «وَمَا لِيْلَافِيْنَ مِن نَّمِيرٍ» أنه آله، «وَمَا لِلْفَالِافِيْنَ» يعني: المشركين «مِن نَّمِيرٍ» أي: مانع من العذاب. «وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ مَائِنَتًا» يعني القرآن؛ والمنكر هاهنا بمعنى الإنكار، فالمعنى: أثر الإنكار من الكراهة، وتعبيس الوجوه، معروف عندهم. «بَكَاوُتٍ يَكَاوُتُونَ» أي: يبطشون ويوقعون بمن يتلو عليهم القرآن من شدة الغيظ، يقال: سطا عليه، وسطا به؛ إذا تناوله بالنفث والشدة. «قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّد: أَفَأَنْتُمْ كُنْتُمْ بَشَرًا مِّنْ دَلِكُمُ النَّارِ» أي: بأشد عليكم وأكره إليكم من سماع القرآن، ثم ذكر ذلك فقال: «النَّارُ» أي: هو النار.

«يَكَايِبُهَا النَّاسُ ضَرْبٍ مِّثْلٍ فَاسْتَجَمُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالطَّلُوبِ ﴿٧٣﴾ مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ فَكْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَعَزِيزٌ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾» قوله تعالى: «يَكَايِبُهَا النَّاسُ ضَرْبٍ مِّثْلٍ» قال الأخفش: إن قيل: أين المثل؟ فالجواب: أنه ليس هاهنا مثل، وإنما

(١) رواه الطبري بنحو ١٦/٨، ١٧، وذكره السيوطي في «الدر» ٤٢/٣، في سورة الأنعام: ١٢٢ عند قوله تعالى: «وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا زَكَاةً يُؤْتَىٰ بِهَا زُكَاةً لِّتَقْبَلُوا اللَّهَ وَنَحْنُ نَحْمَدُ اللَّهَ».

(٢) قال ابن جرير الطبري ١٧/١٩٩: يقول تعالى ذكره: وادع يا محمد منازعكم بالله في نسكك وذبحك إلى اتباع أمر ربك في ذلك بالآكلوا إلا ما ذبحوه بعد اتباعك، وبعد التصديق بما جنتهم به من عند الله، وتجنبوا الذبح للآلهة والأوثان، وتبرؤوا منها، إنك لعلی طريق مستقيم غير زائل عن محجة الحق والصواب في نسكك الذي جعله لك ولأمته ربك، وهم الضالُّون عن قصد السبيل، لمخالفتهم أمر الله في ذبائحهم ومطاعهم وعبادتهم الآلهة.

(٣) روى مسلم في «صحيحه» ٤/٤٠٤ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة - قال - وعرشه على الماء».

المعنى: يا أيها الناس ضُرب لي مَثَل، أي: شَبَّت بي الأوثان ﴿فَاسْتَمِعُوا﴾ لهذا المثل. وتأويل الآية: جعل المشركون الأصنام شركائي فعبدها معي فاستمعوا حالها؛ ثم بيّن ذلك بقوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ نَجُوتُ﴾ أي: تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، وابن أبي عبلة: «يدعون» بالياء المفتوحة. وقرأ ابن السميع، وأبو رجاء وعاصم الجحدري: «يُدْعُونَ» بضم الياء وفتح العين، يعني: الأصنام، ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ والذباب واحد، والجمع القليل: أذْبَبَهُ، والكثير: الذَّبَابُ، مثل: غُرَابٌ وأُغْرِبَةٌ وغُرْبَانٌ، وقيل: إنما خص الذَّبَابَ لمهانتِهِ واستقذاره وكثرته. ﴿وَلَوْ أَجْتَمَعُوا﴾ يعني: الأصنام ﴿كُلُّهُمْ﴾ أي: لخلقِهِ، ﴿وَلَنْ يَسْلُبَهُمْ﴾ يعني: الأصنام؛ قال ابن عباس: كانوا يطلون أصنامهم بالزعفران فيجف، فيأتي الذباب فيختلسه. وقال ابن جريج: كانوا إذا طَيَّبُوا أصنامهم عجنوا طيبهم بشيء من الحلواء، كالعسل ونحوه، فيقع عليها الذباب فيسلبها إياه، فلا تستطيع الآلهة ولا مَنْ عَبدَها أن يمنعه ذلك. وقال السدي: كانوا يجعلون للآلهة طعاماً، فيقع الذباب عليه فيأكل منه. قال ثعلب: وإنما قال: ﴿لَا يَسْتَفِذُّوهُ مِنْهُ﴾ فجعل أفعال الآلهة كأفعال الآدميين، إذ كانوا يعظمونها ويذبحون لها وتُخاطَب، كقوله: ﴿يَكَايُهَا النَّسْلُ أَذْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨] لما خاطبهم جعلهم كالآدميين، ومثله: ﴿رَأَيْنَهُمْ لِي سَجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، وقد بيّنا هذا المعنى في [الأعراف: ١٩١] عند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُظَلِّفُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿خَعَبُكَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن الطالب: الصنم، والمطلوب: الذباب، رواه عطاء عن ابن عباس. والثاني: الطالب: الذباب يطلب ما يسلبه من الطيب الذي على الصنم، والمطلوب: الصنم يطلب الذباب منه سَلْبٌ ما عليه، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: الطالب: عابد الصنم يطلب التقرب بعبادته، والمطلوب: الصنم، هذا معنى قول الضحاك، والسدي^(١).

قوله تعالى: ﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ فَكْرِهِ﴾ أي: ما عظموه حق عظمتِهِ، إذ جعلوا هذه الأصنام شركاء له ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ لا يقهر ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يرام.
﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَكُوتِ رُسُلًا وَمَنْ أَلَّا نَاسٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَكُوتِ رُسُلًا﴾ كجبريل وميكائيل وإسرافيل ومَلَكُ الموت، ﴿وَعَنِ النَّاسِ﴾ الأنبياء المرسلين، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لمقالة العباد ﴿بَصِيرٌ﴾ بمن يتخذهُ رسولاً. وزعم مقاتل أن هذه الآية نزلت حين قالوا: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨].

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الإشارة إلى الذين اصطفاهم؛ وقد بيّنا معنى ذلك في آية الكرسي [البقرة: ٢٥٥].

﴿يَتَذَكَّرُ أَلَيْسَ آمَنُوا أَنْكَبُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهََ الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ بَلَاً أَيْسَرَ هُوَ سَمَعُكُمْ الْمُتَسْمِعِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا يَكُونُ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاتَّقِمْوُا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ ﴿٧٨﴾
قوله تعالى: ﴿أَنْكَبُوا وَاسْجُدُوا﴾ قال المفسرون: المراد صلُّوا، لأن الصلاة لا تكون إلا بالركوع والسجود، ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: وحُدوه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهََ الْخَيْرَ﴾ يريد: أبواب المعروف ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: لكي تسعدوا وتبقوا في الجنة.

(١) قال ابن جرير الطبري ٢٠٣/١٧: والصواب من القول في ذلك عندنا، ما ذكرته عن ابن عباس من أن معناه: وعجز الطالب، وهو الآلهة، أن تستغنى من الذباب ما سلبها إياه، وهو الطيب وما أشبهه، والمطلوب: الذباب.

قال: وإنما قلت: هذا القول أولى بتأويل ذلك، لأن ذلك في سياق الخبر عن الآلهة والذباب، فإن يكون ذلك خبراً عما هو به متصل، أشبه من أن يكون خبراً عما هو عنه منقطع، وإنما أخبر جل ثناؤه عن الآلهة بما أخبر به عنها في هذه الآية من ضعفها ومهانتها، تقريراً منه بذلك عَبدَتِها من مشركي قريش، يقول تعالى ذكره: كيف يجعل لي مثل في العبادَةِ، ويشرك فيها معي ما لا قدرة له على خلق ذباب، وإن أخذ له الذباب فسلبه شيئاً عليه، لم يقدر أن يمتنع منه ولا يتنصر، وأنا الخالق ما في السموات والأرض، ومالكٌ جميع ذلك، والمحبي من أردت، والمميت ما أردت ومن أردت؟! إن فاعل ذلك لا شك أنه في غاية الجهل.

فصل

لم يختلف أهل العلم في السجدة الأولى من (الحج) واختلفوا في هذه السجدة الأخيرة؛ فروى عن عمر، وابن عمر، وعُمَار، وأبي الدرداء، وأبي موسى، وابن عباس، أنهم قالوا: في (الحج) سجدتان، وقالوا: فضلت هذه السورة على غيرها بسجدتين، وبهذا قال أصحابنا، وهو مذهب الشافعي رحمته الله. وروى عن ابن عباس أنه قال: في (الحج) سجدة، وبهذا قال الحسن، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، وجابر بن زيد، وأبو حنيفة وأصحابه، ومالك؛ ويدل على الأول ما روى عقبه بن عامر، قال: قلت: يا رسول الله أفى (الحج) سجدتان؟ قال: «نعم، ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما»^(١).

فصل

اختلف العلماء في عدد سجود القرآن، فروى عن أحمد روايتان، إحداهما: أنها أربع عشرة سجدة. وبه قال الشافعي. والثانية: أنها خمس عشرة، فزاد سجدة [ص: ٢٤]. وقال أبو حنيفة: هي أربع عشرة، فأخرج التي في آخر (الحج) وأبدل منها سجدة [ص: ٢٤].

فصل

وسجود التلاوة سنة، وقال أبو حنيفة: واجب. ولا يصح سجود التلاوة إلا بتكبيرة الإحرام والسلام، خلافاً لأصحاب أبي حنيفة وبعض أصحاب الشافعي. ولا يجزئ الركوع عن سجود التلاوة، وقال أبو حنيفة: يجزئ. ولا يسجد المستمع إذا لم يسجد التالي، نص عليه أحمد رحمته الله. وتكره قراءة السجدة في صلاة الإخفات، خلافاً للشافعي. قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ في هذا الجهاد ثلاثة أقوال: أحدها: أنه فعل جميع الطاعات، هذا قول الأكثرين. والثاني: أنه جهاد الكفار، قاله الضحاك. والثالث: أنه جهاد النفس والهوى، قاله عبد الله بن المبارك. فأما حق الجهاد، ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الجِدُّ في المجاهدة، واستيفاء الإمكان فيها. والثاني: أنه إخلاص النية لله تعالى. والثالث: أنه فعل ما فيه وفاء لحق الله تعالى.

فصل

وقد زعم قوم أن هذه الآية منسوخة، واختلفوا في ناسخها على قولين: أحدهما: قوله: ﴿لَا يَكْفِيكَ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْمَةً﴾ [البقرة: ٢٨٦]. والثاني: قوله: ﴿قَاتِلُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. وقال آخرون: بل هي مُحْكَمَةٌ، ويؤكد ذلك القولان الأولان في تفسير حق الجهاد، وهو الأصح، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها. قوله تعالى: ﴿هُوَ أَحَبُّكُمْ﴾ أي: اختاركم واصطفاكم لدينه. والخرج: الضيق، فما من شيء وقع الإنسان فيه إلا وجد له في الشرع مخرجاً بتوبة أو كفارة أو انتقال إلى رخصة ونحو ذلك. وروى عن ابن عباس أنه قال: الحرج: ما كان على بني إسرائيل من الإصر والشدائد، وضعه الله عن هذه الأمة. قوله تعالى: ﴿قُلَّةٌ أَيْكُمُ﴾ قال الفراء: المعنى: وسع عليكم كلمة أبيكم، فإذا ألقى الكاف نصبته، ويجوز النصب على معنى الأمر بها، لأن أول الكلام أمر وهو قوله: ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ والزموا ملّة أبيكم. فإن قيل: هذا

(١) رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، من حديث عبد الله بن لهيعة به، وقال الترمذي: ليس بقوي. قال ابن كثير: وفي هذا نظر، فإن ابن لهيعة قد صرح فيه بالسماع، وأكثر ما تقدموا عليه تدليس، ثم قال ابن كثير: وقد رواه أبو داود في «المراسيل» عن خالد بن معدان رحمه الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «فضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين»، ثم قال أبو داود: وقد أسند هذا، يعني من غير هذا الوجه، ولا يصح. قال ابن كثير: وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي: حدثني ابن أبي داود، حدثنا يزيد بن عبد الله، حدثنا الوليد، حدثنا أبو عمرو، حدثنا حفص بن غياث، حدثني نافع، قال: حدثني أبو الجهم أن عمر سجد سجدتين في الحج وهو بالجابية، وقال: إن هذه فضلت بسجدتين، قال: وروى أبو داود، وابن ماجه، من حديث الحارث بن سعيد الثقفى عن عبد الله بن مثنى عن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأ خمس عشرة سجدة في القرآن منها ثلاث في المفضل وفي سورة الحج سجدتان، قال ابن كثير: فهذه شواهد يشد بعضها بعضاً.

الخطاب للمسلمين، وليس إبراهيم أباً لكلهم. فالجواب: أنه إن كان خطاباً عاماً للمسلمين، فهو كالأب لهم، لأن حرمة وحقه عليهم كحق الوالد، وإن كان خطاباً للعرب خاصة، فإبراهيم أبو العرب قاطبة، هذا قول المفسرين. والذي يقع لي أن الخطاب لرسول الله ﷺ، لأن إبراهيم أبوه، وأمة رسول الله ﷺ داخله فيما خوطب به رسول الله.

قوله تعالى: ﴿هُوَ سَنَكُمُ النَّاسِينَ﴾ في المشار إليه قولان: أحدهما: أنه الله ﷻ، قاله ابن عباس، ومجاهد، والجمهور؛ فعلى هذا في قوله: ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ قولان: أحدهما: من قبل إنزال القرآن سماكم بهذا في الكتب التي أنزلها. والثاني: «مِنْ قَبْلُ» أي: في أم الكتاب، وقوله: ﴿وَقَدْ هَمَّكَ﴾ أي: في القرآن. والثاني: أنه إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿وَمِنْ دُونِنَا أَتَىٰ مُسْلِمًا لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]؛ فالمعنى: من قبل هذا الوقت، وذلك في زمان إبراهيم عليه السلام، وفي هذا الوقت حين قال: ﴿وَمِنْ دُونِنَا أَتَىٰ مُسْلِمًا﴾، هذا قول ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿يَكُونُ الرَّسُولُ﴾ المعنى: اجتباكم وسماكم ليكون الرسول، يعني محمداً ﷺ ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة أنه قد بلغكم؛ وقد شرحنا هذا المعنى في [البقرة: ١٤٣] إلى قوله: ﴿وَأَتَاوُا الزَّكَاةَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَتَّصِمُوا بِآلِهِ﴾ قال ابن عباس: سلوه أن يعصمكم من كل ما يسخط ويكره. وقال الحسن: تمسكوا بدين الله^(١). وما بعد هذا مشروح في [الأنفال: ٤٠].



(١). قال ابن كثير: ﴿وَأَتَّصِمُوا بِآلِهِ﴾ أي: اعتضدوا بالله، وتركوا عليه، وتأيدوا به، ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: حافظكم، وناصركم، ومظفركم على أعدائكم، ﴿فَتَعِمَّ الْمَوْلَىٰ وَفَعَلَ الْفَيْرُ﴾ يعني: نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء. وقال ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَعِمَّ الْمَوْلَىٰ وَفَعَلَ الْفَيْرُ﴾: فتعم الولي الله لمن فعل ذلك منكم، فأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وجاهد في سبيل الله حق جهاده، واعتصم به، ونعم النصير، يقول: ونعم الناصر هو له على من بغاه بسوء.

سورة المؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوحِهِمْ خَافِضُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمَادُّونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ ذُرْعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾

سورة المؤمنون مكية في قول الجميع.

روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لقد أنزلت علينا عشر آيات من أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾» إلى عشر آيات، رواه الحاكم أبو عبد الله في «صحيحه»^(١). وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى حاط حائط الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وغرس غرسها بيده فقال لها: تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، فقال لها: طوبى لك منزل الملوك»^(٢). قال الفراء: «قد» هاهنا يجوز أن تكون تأكيداً لفلاح المؤمنين، ويجوز أن تكون تقريباً للماضي من الحال، لأن «قد» تقرب الماضي من الحال حتى تلحقه بحكمه، ألا تراهم يقولون: قد قامت الصلاة، قبل حال قيامها، فيكون معنى الآية: إن الفلاح قد حصل لهم وإنهم عليه في الحال. وقرأ أبي بن كعب، وعكرمة، وعاصم الجحدري، وطلحة بن مصرف: «قد أفْلَحَ» بضم الألف وكسر اللام وفتح الحاء، على ما لم يسم فاعله. قال الزجاج: ومعنى الآية: قد نال المؤمنون البقاء الدائم في الخير. ومن قرأ: «قد أفْلَحَ» بضم الألف، كان معناه قد أصبحوا إلى الفلاح. وأصل الخشوع في اللغة: الخضوع والتواضع. وفي المراد بالخشوع في الصلاة أربعة أقوال: أحدها: أنه النظر إلى موضع السجود. روى أبو هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى رفع بصره إلى السماء، فنزلت: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ فنكس رأسه^(٣). وإلى هذا المعنى ذهب مسلم بن يسار، وقتادة، والثاني: أنه ترك الالتفات في الصلاة، وأن ثلثين كنتك للرجل المسلم، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه. والثالث: أنه السكون في الصلاة، قاله مجاهد، وإبراهيم، والزهري. والرابع: أنه الخوف، قاله الحسن. وفي المراد باللغو هاهنا خمسة أقوال: أحدها: الشُّرك، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: الباطل، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: المعاصي، قاله الحسن. والرابع: الكذب، قاله السدي. والخامس: الشتم والأذى الذي كانوا يسمعون من الكفار، قاله مقاتل. قال الزجاج: واللغو: كل لعب ولهو، وكل معصية فهي مَطْرَحَةٌ مُلْغَاةٌ. فالمعنى: شغلهم الجد فيما أمرهم الله به عن اللغو.

(١) هو جزء من حديث طويل رواه الحاكم ٣٩٢/٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعبه الذهبي فقال: سئل عبد الرزاق (أحد الرواة) عن شيخه ذا وهو يونس بن سليم فقال: أظنه لا شيء، والحديث رواه أحمد في «المستدرك» والتزمه في «الضيق» ١٤٦/٢، والثاني، وهو ضعيف، لأن في سند عندهم، يونس بن سليم، هو مجهول. وقد ذكر هذا الحديث السيوطي في «الدرر» ٢/٥ وزاد نسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والمغلي، والبيهقي في «الدلائل»، والقباء في «المختارة» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) ذكره ابن كثير ٢٣٨/٣ من رواية البزار عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً، قال ابن كثير: ثم قال البزار: لا تعلم أحداً رفعه إلا عدي بن الفضل، وليس هو بالحافظ، وهو شيخ مقدّم الموت.

(٣) رواه الحاكم ٣٩٣/٢ وقال: هذا حديث صحيح لولا خلاف فيه على محمد (يعني محمد بن سيرين) فقد قيل عنه مرسل، ولم يخرجاه. وتعبه الذهبي فقال: الصحيح أنه مرسل، ورواه ابن جرير الطبري ٢/١٨ عن محمد بن سيرين وعطاء بن أبي رباح مرسل.

قوله تعالى: ﴿لِرَزْكَوَةٍ فَعَلُوا﴾ أي: مؤذون، فعبر عن التأدية بالفعل، لأنه فعل.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ قال الفراء: «على» بمعنى «من». وقال الزجاج: المعنى: أنهم يلامون في إطلاق ما حُظر عليهم وأمروا بحفظه، إلا على أزواجهم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ فإنهم لا يلامون^(١).

قوله تعالى: ﴿مَنْ أَبْغَىٰ﴾ أي: طَلَبَ ﴿رَزَاةَ ذَاكَ﴾ أي: سوى الأزواج والمملوكات ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُأْذُونَ﴾ يعني الجائرين الظالمين، لأنهم قد تجاوزوا إلى ما لا يحل، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتَانِهِمْ﴾ قرأ ابن كثير: «لأمانتهم» وهو اسم جنس، والمعنى: للأمانات التي ائتمنوا عليها، فتارة تكون الأمانة بين العبد وبين ربه، وتارة تكون بينه وبين جنسه، فعليه مراعاة الكل. وكذلك العهد. ومعنى ﴿رَعُونَ﴾: حافظون. قال الزجاج: وأصل الرعي في اللغة: القيام على إصلاح ما يتولاه الراعي من كل شيء.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «صلواتهم» على الجمع. وقرأ حمزة، والكسائي: «صلاتهم» على التوحيد، وهو اسم جنس. والمحافظة على الصلوات: أداؤها في أوقاتها.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ذكر السدي عن أشياخه أن الله تعالى يرفع للكفار الجنة، فينظرون إلى بيوتهم فيها لو أنهم أطاعوا، ثم تقسم بين المؤمنين فيرثونها، فذلك قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾. وقد شرحنا هذا في [الأعراف: ٤٣] عند قوله: ﴿أُرْسِنُوهُمْ﴾، وشرحنا معنى الفردوس في [الكهف: ١٠٧].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَافِلَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظًا فَكَسَوْنَا الْعِظَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكَ بِمَدَدِ ذَاكَ لَنَسُوتُ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكَ بِيَوْمِ الْقِسْمَةِ تَمُوتُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه آدم عليه السلام. وإنما قيل: «من سلالة» لأنه استل من كل الأرض، هذا مذهب سلمان الفارسي، وابن عباس في رواية، وقناة. والثاني: أنه ابن آدم، والسلالة: النطفة استلّت من الطين، والطين: آدم عليه السلام، قاله أبو صالح عن ابن عباس^(٢). قال الزجاج: والسلالة: فُعالة، وهي القليل مما يُنسل، وكل مبنئ على «فُعالة» يراد به القليل، من ذلك: الفضالة، والنخاله، والقلامة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ يعني: ابن آدم ﴿نَافِلَةً فِي قَرَارٍ﴾ وهو الرّجَم ﴿مَكِينٍ﴾ أي: حريز، قد هيئ لاستقراره فيه. وقد شرحنا في سورة [الحج: ٥] معنى النطفة والعلق والمضغة.

قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿عِظًا فَكَسَوْنَا الْعِظَ﴾ على الجمع. وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «عِظًا فَكَسَوْنَا الْعِظَ» على التوحيد.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ وهذه الحالة السابعة. قال علي عليه السلام: لا تكون مؤودة حتى تمر على التارات السبع. وفي محل هذا الإنشاء قولان: أحدهما: أنه بطن الأم. ثم في صفة الإنشاء قولان: أحدهما: أنه نفخ الروح فيه، رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال أبو العالية، والشعبي، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك في آخرين. والثاني: أنه جفله ذكراً أو أنثى، قاله الحسن. والقول الثاني: أنه عد خروجه من بطن أمه. ثم في صفة هذا الإنشاء أربعة أقوال: أحدها: أن ابتداء ذلك الإنشاء أنه استهل، ثم دُل على الثدي، وعُلِم كيف ييسر رجله إلى أن قعد، إلى أن قام على رجله، إلى أن مشى، إلى أن فطم، إلى أن بلغ الحُلُم، إلى أن تقلّب في البلاد، رواه العوفي عن ابن

(١) قال ابن كثير ٢٣٩/٣: وقد استدل الإمام الشافعي رحمه الله ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ يَحْظَرُونَ﴾ ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ قال: فهذا الصنيع خارج عن القسمين، وقد قال الله تعالى: ﴿مَنْ أَبْغَىٰ رَزَاةَ ذَاكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُأْذُونَ﴾ اهـ.

(٢) قال ابن جرير الطبري ٨/١٨: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: ولقد خلقنا ابن آدم من سلالة آدم، وهي صفة مائه، وأدم هو الطين، لأنه خلق منه.

عباس. والثاني: أنه استواء الشباب، قاله ابن عمر، ومجاهد. والثالث: أنه خروج الأسنان والشَّعر، قاله الضحاك، ف قيل له: ليس يولد وعلى رأسه الشعر؟ فقال: وأين العانة والإبط؟ والرابع: أنه إعطاء العقل والفهم، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أي: استحق التعظيم والثناء. وقد شرحنا معنى «تبارك» في [الأعراف: ٥٤]، ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أي: المصوِّرين والمقدِّرين. والخلْق في اللغة: التقدير. وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية وعنده عمر، إلى قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا مَآكُرًا﴾، فقال عمر: فتبارك الله أحسن الخالقين، فقال رسول الله ﷺ: «لقد خُتِمَتْ بما تكلمت به يا ابن الخطاب»^(١). فإن قيل: كيف الجمع بين قوله: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ وقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرَ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٢٣]؟ فالجواب: أن الخلق يكون بمعنى الإيجاد، ولا موجد سوى الله، ويكون بمعنى التقدير، كقول زهير: [ولأنت تُفْري ما خَلَقْتَ] وَفَرَّضَ الْقَوْمَ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْري^(٢)

فهذا المراد هاهنا، أن بني آدم قد يصوِّرون ويقدِّرون ويصنعون الشيء، فالله خير المصوِّرين والمقدِّرين. وقال الأخفش: الخالقون هاهنا هم الصانعون، فالله خير الخالقين.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد ما ذُكر من تمام الخلق ﴿لَتَبْتَونَ﴾ عند انقضاء آجالكم. وقرأ أبو رزين العقيلي، وعكرمة، وابن أبي عبيدة: «الماتون» بألف. قال الفراء: والعرب تقول لمن لم يموت: إنك مائت عن قليل، وميت، ولا يقولون للميت الذي قد مات: هذا مائت، إنما يقال في الاستقبال فقط، وكذلك يقال: هذا سيّد قومه اليوم، فإذا أخبرت أنه يسودهم عن قليل، قلت: هذا سائد قومه عن قليل، وكذلك هذا شريف القوم، وهذا شارف عن قليل؛ وهذا الباب كلّه في العربية على ما وصفت لك.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهَا لَقَادِرُونَ ﴿١٧﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْتَبْنَا لَكُمْ فِيهَا فَوْكَةً كُبِرَةً وَإِنَّهَا لَأَكْثَرُ ﴿١٨﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيِّئَةٍ لَّنَبْتُ بِالْهُنِّ وَصَيِّغَ لِلْآكِلِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ يعني: السموات السبع، قال الزجاج: كل واحدة طريقة. وقال ابن قتبية: إنما سميت «طرائق» بالطَّارِق، لأن بعضها فوق بعض، يقال: طارقت الشيء: إذا جعلت بعضه فوق بعض. قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ما غفلنا عنهم إذ بنينا فوقهم سماء أطلعنا فيها الشمس والقمر والكواكب. والثاني: ما كنا تاركين لهم بغير رزق، فأنزلنا المطر. والثالث: لم نغفل عن حفظهم من أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ يعلمه الله، وقال مقاتل: بقدر ما يكفيهم للمعيشة^(٣). قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً﴾ هي معطوفة على قوله: ﴿جَنَّاتٍ﴾. وقرأ أبو مجلز، وابن يعمر، وإبراهيم النخعي: «وشجرة» بالرفع. والمراد بهذه الشجرة: شجرة الزيتون. فإن قيل: لماذا خص هذه الشجرة من بين الشجر؟ فالجواب من أربعة أوجه: أحدها: لكثرة انتفاعهم بها، فذُكرهم من نعيمها ما يعرفون، وكذلك خص النخيل والأعناب في الآية الأولى، لأنهما كانا جُل ثمار الحجاز وما والاها، وكانت النخيل لأهل المدينة، والأعناب لأهل الطائف.

(١) ذكره السيوطي في «الدر» ٦/٥ من رواية ابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن صالح أبي الخليل قال: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَشَكُّلٍ مِّنْ طِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿أَنشَأْنَا خَلْقًا مَّكْرًا﴾ قال عمر: «تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» فقال: «والذي نفسي بيده إنها ختمت بالذي تكلمت يا عمر».

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في «شرح ديوان زهير» ٩٤، و«مختار الشعر الجاهلي» ٢٦٥/١، و«الطبري» ١١/١٨، و«القرطبي» ١١٠/١٢، و«اللسان» و«التاج»: خلق.

(٣) قال ابن كثير: يذكر تعالى نعمته على عبده التي لا تعد ولا تحصى، في إزاله القطر من السماء بقدر، أي: بحسب الحاجة، لا كثير فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزرع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه والسقي والشرب والانتفاع به، حتى أن الأرض التي تحتاج ماء كثيراً لزروعها، ولا تحتمل دمتها إزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، ثم قال: فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور. وقال ابن جرير الطبري في تمام الآية: ﴿وَمَا كُنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهَا لَقَادِرُونَ﴾ يقول جل ثناؤه: وإنا على الماء الذي أسكنناه في الأرض لقادرون أن نذهب به فتهلكوا أيها الناس عطشاً وتخرّب أرضكم فلا تبت زرعاً ولا غرساً، وتهلك مواشيتكم، يقول: فمن نعمتي عليكم تركي ذلك لكم في الأرض جارية.

وَكَاذَ الشُّرُورِ فَاسْتَلَفَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَجْدَجٍ أَتَيْنِي وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخْلِفُنِي فِي الَّذِينَ عَلِمُوا بِهِنَّمْ مُقَرَّبُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَلَائِكَتُكَ عَلَى الْقَابِ فَقُلِ الْمُنَادِي لِلَّذِي بَيْنَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أَرْسِلْ مُنْذِرًا مِثْلَ مَا كَانَ خَيْرَ الْمُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا مَآخِرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ تَقْبَلُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِهِ الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَكِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَلِيتُمْ ﴿٣٤﴾ أَيْدُكُمْ أَنْتُمْ إِنْ شِئْتُمْ وَكُنْتُمْ زُرَّارًا وَعَظَمْنَا أَنْتُمْ مَخْرُجُونَ ﴿٣٥﴾ هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ أَخَذَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤَيَّدِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَدِيمَهُ ﴿٤٠﴾ فَآخَذْنَاهُمُ الصَّبْرَةَ بِالْعَقَى فَجَعَلْنَاهُمْ غُرَّتًا فَبَعَثْنَا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا مَآخِرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِيحٌ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا جَاءَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا نُوحًا كُلَّ مَا جَاءَهُ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَأَتَيْنَاهُ بِمَعْزُومَةٍ فَجَعَلْنَاهُمْ أَصْحَابَ لُجُومٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ قال المفسرون: هذا تعزية لرسول الله ﷺ بذكر هذا الرسول الصابر ليتأسي به في صبره، وليعلم أن الرسل قبله قد كُذِّبوا.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يعلوكم بالفضيلة، فيصير متبوعاً، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن لا يُعْبَدَ شيءٌ سواه ﴿لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ تبلغ عنه أمره، لم يرسل بشراً ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ الذي يدعوننا إليه نوح من التوحيد ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾. فاما الجنة فمعناها: الجنون. وفي قوله: ﴿حَقٌّ جِينٌ﴾ قولان: أحدهما: أنه الموت، فتقديره: انتظروا موته. والثاني: أنه وقت منكر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي﴾ وقرأ عكرمة، وابن محيصن: ﴿قَالَ رَبُّ﴾ بضم الباء، وفي القصة الأخرى [المؤمنون: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَذَّبُونُ﴾ وقرأ يعقوب: ﴿كَذَّبُونِي﴾ بياء، وفي القصة التي تليها أيضاً: ﴿فَاتَّقُونِي﴾ [المؤمنون: ٥٢] ﴿أَنْ يَخْضَرُونِي﴾ [المؤمنون: ٩٨] ﴿رَبِّ ارْجِعُونِي﴾ [المؤمنون: ٩٩] ﴿وَلَا تَكْلُمُونِي﴾ [المؤمنون: ١٠٨] أثبتهم في الحالين يعقوب، والمعنى: انصُرني بتكذيبهم، أي: انصُرني بإهلاكهم جزاء لهم بتكذيبهم. ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ قد شرحناه في [مود: ٢٧] إلى قوله: ﴿فَاسْتَلَفَ فِيهَا﴾ أي: أدخل في سفيتك ﴿مِنْ كُلِّ دَجْدَجٍ أَتَيْنِي﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿مِنْ كُلِّ﴾ بكسر اللام من غير تنوين. وقرأ حفص عن عاصم: ﴿مِنْ كُلِّ﴾ بالتنوين. قال أبو علي: قراءة الجمهور إضافة «كل» إلى «زوجين»، وقراءة حفص تؤول إلى زوجين، لأن المعنى: من كل الأزواج زوجين.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْسِلْ مُنْذِرًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿مُنْذِرًا﴾ بضم الميم. وروى أبو بكر عن عاصم فتحها. والمنزل، بفتح الميم: اسم لكل ما نزلت به، والمنزل، بضمها: المصدر بمعنى الإنزال؛ تقول: أنزلته إنزالاً ومُنْزَلاً. وفي الوقت الذي قال فيه نوح ذاك قولان: أحدهما: عند نزوله في السفينة. والثاني: عند نزوله من السفينة.

قوله تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في قصة نوح وقومه ﴿لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا﴾ أي: وما كنا ﴿لَمُبْتَلِينَ﴾ أي: لمختبرين إياهم بإرسال نوح إليهم. ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا مَآخِرِينَ﴾ يعني عاداً ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ وهو هود، هذا قول الأكثرين؛ وقال أبو سلمان الدمشقي: هم ثمود، والرسول صالح. وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: ﴿أَيْدُكُمْ أَنْتُمْ﴾ قال الزجاج: موضع «أنكم» نصب على معنى: أَيْدُكُمْم [أنكم] مخرجون إذا شئتم، فلما طال الكلام أعيد ذكر «أن» كقوله: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَةً أَنْ يَكُونَ لَكُمْ لُجُومٌ﴾ [البقرة: ٦٣].

قوله تعالى: ﴿هِيَاتَ هِيَاتَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «هيهات هيهات» بفتح التاء فيهما في الوصل، وإسكانها في الوقف. وقرأ أبي بن كعب، وأبو مجلز، وهارون عن أبي عمرو: «هيهاتاً هيهاتاً» بالنصب والتنوين. وقرأ ابن مسعود، وعاصم الجحدري، وأبو حيو

الحضرمي، وابن السميع: «هيهات هيهات» بالرفع والتنوين. وقرأ أبو العالية، وقاتدة: «هيهات هيهات» بالخفض والتنوين. وقرأ أبو جعفر: «هيهات هيهات» بالخفض من غير تنوين، وكان يقف بالهاء. وقرأ أبو المتوكل الناجي، وسعيد بن جبير، وعكرمة: «هيهات هيهات» بالرفع من غير تنوين، وقرأ معاذ القارئ، وابن يعمر، وأبو رجاء، وخارجة عن أبي عمرو: «هيهات هيهات» بإسكان التاء فيهما. وفي «هيهات» عشر لغات قد ذكرنا منها سبعة عن القراء، والثامنة: «إيهات»، والتاسعة: «إيهان» بالنون، والعاشر: «إيه» بغير نون، ذكرهن ابن القاسم؛ وأنشد الأحوص في الجمع بين لغتين منهن:

تسَدُّرُ أَياماً مَضَيْنَ مِنَ الضُّبَا وهيهات هيهاتاً إليك رجوعُها^(١)
قال الزجاج: فأما الفتح، فالوقف فيه بالهاء، تقول: «هيهاه» إذا فتحت ووقفت بعد الفتح، فإذا كسرت ووقفت على التاء كنت ممن ينون في الوصل، أو كنت ممن لا ينون، وتأويل «هيهات»: البعد لما توعدون. وإذا قلت: «هيهات ما قلت»، فمعناه: بعيد ما قلت. وإذا قلت: «هيهات لما قلت»، فمعناه: البعد لما قلت. ويقال: «إيهات» في معنى «هيهات»، وأنشدوا:

وأيها أيتها العقيق وَمَنْ بُو وأيها وصل بالعقيق نواصله^(٢)
قال أبو عمرو بن العلاء: إذا وقفت على «هيهات» فقل: «هيهاه». وقال الفراء: الكسائي يختار الوقف بالهاء، وأنا أختار التاء.

قوله تعالى: ﴿لِمَا تُوْعَدُونَ﴾ قرأ ابن مسعود، وابن أبي عيلة: «ما تُوْعَدُونَ» بغير لام. قال المفسرون: استبعد القوم بعثهم بعد الموت إغفالاً منهم للتفكير في بدو أمرهم وقُدرة الله على إيجادهم، وأرادوا بهذا الاستبعاد أنه لا يكون أبداً، ﴿إِنَّ مِنْ إِلَّا حِكْمَاتِنَا الَّذِينَ﴾ يعنون: ما الحياة إلا ما نحن فيه، وليس بعد الموت حياة. فإن قيل: كيف قالوا: ﴿تَمُوتُ وَيَحْيَا﴾ وهم لا يقرؤون بالبعث؟ فعنه ثلاثة أجوبة ذكرها الزجاج: أحدها: نموت ويحيا أولادنا، فكانهم قالوا: يموت قوم ويحيا قوم. والثاني: نحيا ونموت، لأن الواو للجمع، لا للترتيب. والثالث: ابتداءنا موات في أصل الخلقة، ثم نحيا، ثم نموت.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعنون الرسول. وقد سبق تفسير ما بعد هذا [عود: ٧، النحل: ٣٨] إلى قوله: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ قال الزجاج: معنا: عن قليل، و«ما» زائدة بمعنى التوكيد.

قوله تعالى: ﴿يُصْبِحُونَ نَارِينَ﴾ أي: على كفرهم، ﴿فَلَاخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ أي: باستحقاقهم العذاب بكفرهم. قال المفسرون: صاح بهم جبريل صيحة رجفت لها الأرض من تحتهم، فصاروا لشدة غشاة. قال أبو عبيدة: الغشاء: ما أشبه الرُّيد وما ارتفع على السيل ونحو ذلك مما لا يُتَنَفَّعُ به في شيء. وقال ابن قتيبة: المعنى: فجعلناهم هَلَكَى كالغشاء، وهو ما علا السيل من الرُّيد والقَمْش^(٣)، لأنه يذهب ويفرق. وقال الزجاج: الغشاء: الهالك والبالى من ورق الشجر الذي إذا جرى السيل رأيت مخالطاً زَبْدَه. وما بعد هذا قد سبق شرحه [الحجر: ٥] إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْلَى﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: «تترى كلُّما» منونة والوقف بالالف. وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي: بلا تنوين، والوقف عند نافع وابن عامر بالف. وروى هبيرة، وحفص عن عاصم، أنه يقف بالياء؛ قال أبو علي: يعني بقوله: يقف بالياء، أي: بالالف مُمالة. قال الفراء: أكثر العرب على ترك التنوين، ومنهم من نَوَّن. قال ابن قتيبة: والمعنى: تُتابع بفترة بين كل رسولين، وهو من التواتر، والأصل: وَتَرَى، فقلبت الواو تاءً كما قلبوها في البَقْوَى والتخمة. وحكى الزجاج عن الأصمعي أنه قال: معنى «واترث الخبر»: اتَّبَعْتُ بعضه بعضاً، وبين الخبرين مُتَبَعٌ. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: ومما تضعه العامة غير موضعه قولهم: تواترث كُتُبِي إليك، يعنون: اتصلت من غير انقطاع، فيضعون التواتر في موضع الاتصال، وذلك غلط، إنما التواتر مجيء الشيء ثم انقطاعه ثم مجيئه، وهو

(١) «القرطبي» ١٢/١٢٢، و«اللسان»: هـ. (٢) «القرطبي» ١٢/١٢٢، وفيه: ... وأيها تَجَلَّى بالعقيق نواصله.

(٣) القَمْش: الرديء من كل شيء، وما كان على وجه الأرض من فئات الأشياء، ويقال لَزْدَالَةِ الناس: قماش.

التفاعل من الوتر، وهو الفرد، يقال: واثرت الخبر، اتبعته بعضه بعضاً، وبين الخبرين هُنيئة، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا مَرْثَاكَ قَبْلاً أَصْلَهَا﴾ من المواترة، فأبدلت التاء من الواو، ومعناها: منقطعة متفاوتة، لأن بين كل نبئين دهرًا طويلاً. وقال أبو هريرة: لا بأس بقضاء رمضان تترى، أي: منقطعاً. فإذا قيل: واثرت فلان كتبه، فالمعنى: تابعها، وبين كل كتابين فترة.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ أي: أهلكنا الأمم بعضهم في إثر بعض ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ أَحَادِيثًا﴾ قال أبو عبيدة: أي: يُتمثل بهم في الشر؛ ولا يقال في الخير: جعلته حديثاً.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٥﴾ إِلَهُ فِرْعَوْنَ وَلَعَلَّاهُ فَاغْتَبَرُوا وَكَاوُوا قَوْمًا عَلِيلًا ﴿١٦﴾ فَقَالُوا أَأَتُوتُنَا إِنْشِرَاقًا وَيَوْمَئِذٍ لَنَا عِيدُونَ ﴿١٧﴾ فَكُذِّبُوا فَكَافَرُوا بِرَبِّ الْهَٰكِلِينَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَاغْتَبَرُوا﴾ أي: عن الإيمان بالله وعبادته ﴿وَكَاوُوا قَوْمًا عَلِيلًا﴾ أي: قاهرين للناس بالبغي والتجاوز عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمُهُمْ لَنَا عِيدُونَ﴾ أي: مطيعون. قال أبو عبيدة: كل من دان لمليك فهو عابد له.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَمَّا هَمَّ يَهْدُونَ ﴿١٩﴾ وَحَمَلْنَا إِيَّاهُ مَرْيَمَ وَأَتَيْنَاهُ آيَةً وَوَوَّعْنَا إِلَى يَوْمِ دَرَكٍ قَرَارٍ وَوَعْدٍ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: التوراة، أعطيتها جملة واحدة بعد غرق فرعون ﴿لَمَّا هَمَّ﴾ يعني: بني إسرائيل، والمعنى: لكي يهتدوا.

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَا إِيَّاهُ مَرْيَمَ وَأَتَيْنَاهُ آيَةً﴾ وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبيدة: «آيتين» على التثنية، وهذا كقوله: ﴿وَحَمَلْنَاهَا وَأَتَيْنَاهَا آيَةً﴾ [الأنبياء: ٩١] ^(١). وقد سبق شرحه.

قوله تعالى: ﴿وَوَوَّعْنَا إِلَى يَوْمِ دَرَكٍ قَرَارٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «رُبوة» بضم الراء. وقرأ عاصم، وابن عامر: بفتحها. وقد شرحنا معنى الرُبوة في [البقرة: ٢٦٥]، «ذَاتِ قَرَارٍ» أي: مستوية يستقر عليها ساكنوها، والمعنى: ذات موضع قرار. وقال الزجاج: أي: ذات مستقر «وَمِعِينٍ» وهو الماء الجاري من العيون. وقال ابن قتبية: «ذات قرار» أي: يُستقرُّ بها للعمارة، «وَمِعِينٍ» هو الماء الظاهر، ويقال: هو مفعول من العين، كأن أصله مَعِينُونَ، كما يقال: ثوب مَخِيط، وِبرٌ مَكِيل. واختلف المفسرون في موضع هذه الرُبوة الموصوفة على أربعة أقوال: أحدها: أنها دمشق، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال عبد الله بن سلام، وسعيد بن المسيب. والثاني: أنها بيت المقدس، رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال قتادة. وعن الحسن كالقولين. والثالث: أنها الرملة من أرض فلسطين، قاله أبو هريرة. والرابع: مصر، قاله وهب بن منبه، وابن زيد، وابن السائب ^(٢). فاما السبب الذي لأجله أَوَاتِيَا إلى الرُبوة، فقال أبو صالح عن ابن عباس: فَوَّتَ مريم بابنها عيسى من ملكهم، ثم رجعت إلى أهلها بعد اثنتي عشرة سنة. قال وهب بن منبه: وكان الملك أراد قتل عيسى.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٢٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حَبِيبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٢٣﴾ فَذَرَهُمْ فِي عَقْرِتِهِمْ حَتَّى جَاءَ ﴿٢٤﴾ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا يُنَادِيهِمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَيَتَنَبَّأُ ﴿٢٥﴾ فَجَاءَ كُلٌّ فِي كَفَرٍ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ قال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة في آخرين: يعني بالرسل هاهنا محمداً ﷺ

(١) قال ابن كثير ٢٤٦/٣: يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم ﷺ أنه جعلها آية للناس، أي: حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى. اهـ.

(٢) قال الطبري: وأولى الأقوال بتأويل ذلك أنها مكان مرتفع ذو استواء وماء ظاهر، وليس كذلك صفة الرملة، لأن الرملة لا ماء بها معين، والله تعالى يَجْرُوه وصف هذه الرُبوة بأنها ذات قرار ومعين. وقال ابن كثير عن القول الرابع الذي قاله وهب بن منبه: وهو بعيد جداً. ثم قال: وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه المعرفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَوَوَّعْنَا إِلَى يَوْمِ دَرَكٍ قَرَارٍ وَوَعْدٍ﴾ قال: المعين: الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله تعالى: ﴿فَدَجَّ جَدِّكَ رَبُّكَ تَحْتَهُ سُرًّا﴾ وكذا قال الضحاك وقتادة ﴿إِلَّا يَوْمَ يَأْتِي قَوْمًا قُرْبَرُ وَيَوْمَ﴾: هو بيت المقدس، فهذا - والله أعلم - هو الأظهر، لأنه المذكور في الآية الأخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهذا أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار.

وحده، وهو مذهب العرب في مخاطبة الواحد خطاب الجميع، ويتضمن هذا أن الرسل جميعاً كذا أمروا، وإلى هذا المعنى ذهب ابن قتيبة، والزجاج^(١)، والمراد بالطَّيِّبات: الحلال. قال عمرو بن شرحبيل: كان عيسى ﷺ يأكل من غَزَلِ أمه^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَذَّيْبُ أَنَّكَ قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَنَافِعٌ، وَأَبُو عَمْرٍو: «وَأَنْ» بالفتح وتشديد النون. وافق ابنُ عامر في فتح الألف، لكنه سَكَنَ النون. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: «وَأَنْ» بكسر الألف وتشديد النون. قال الفراء: من فتح، عطف على قوله: ﴿إِنِّي يَسَا تَمَلُّونَ عَلَيْهِمْ﴾ وبأنَّ هذه أَمْتُكُمْ، فموضعها خفض لأنها مردودة على «ما»؛ وإن شئت كانت منصوبة بفعل مضمر، كأنك قلت: واعلموا هذا؛ ومن كسر استأنف. قال أبو علي الفارسي: وأما ابن عامر، فإنه خفف النون المشددة، وإذا خُفِّفَتْ تعلق بها ما يتعلّق بالمشددة. وقد شرحنا معنى الآية والتي بعدها في [الأنبياء: ٩٢] إلى قوله: ﴿زُبَيْرًا﴾ وقرأ ابن عباس، وأبو عمران الجوني: ﴿زُبَيْرًا﴾ برفع الزاي وفتح الباء. وقرأ أبو الجوزاء، وابن السميع: ﴿زُبَيْرًا﴾ برفع الزاي وإسكان الباء. قال الزجاج: من قرأ ﴿زُبَيْرًا﴾ بضم الباء، فتأويله: جعلوا دينهم كُتُبًا مختلفة، جمع زُبُور. ومن قرأ ﴿زُبَيْرًا﴾ بفتح الباء، أراد قطعاً.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَزِمَتْهُمْ فَرْحُونَ﴾ أي: بما عندهم من الدين الذي ابتدعوه مُعْجِبُونَ، يرون أنهم على الحق. وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم أهل الكتاب، قاله مجاهد. والثاني: أنهم أهل الكتاب ومشركو العرب، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿يَذَّكَّرُ فِي عَزَّتِهِمْ﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب: «في غمراتهم» على الجمع. قال الزجاج: في عمايتهم وخيرتهم، «حَقٌّ جِينٌ» أي: إلى حين يأتيهم ما وعدوا به من العذاب. قال مقاتل: يعني كفار مكة.

فصل

وهل هذه الآية منسوخة، أم لا؟ فيها قولان: أحدهما: أنها منسوخة بآية السيف. والثاني: أن معناها التهديد، فهي محكمة.

قوله تعالى: ﴿يَحْسِبُونَ أَنَّكَ تُدْفَرُ بِهِ﴾ وقرأ عكرمة، وأبو الجوزاء: «يُؤَيَّدُهُم» بالياء المرفوعة وكسر الميم. وقرأ أبو عمران الجوني: «تَمُدُّهُمْ» بنون مفتوحة ورفع الميم. قال الزجاج: المعنى: يحسبون أن الذي نمدهم به «يُنْزِلُ» مجازاة لهم؟ إنما هو استدراج، «تُنَاجِيُكُمْ فِي الْفِتَنِ» أي: نساوع لهم به في الخيرات. وقرأ ابن عباس، وعكرمة، وأيوب السخيتاني: «يُسَارِعُ» بياء مرفوعة وكسر الراء. وقرأ معاذ القارئ، وأبو المتوكل مثله، إلا أنهما فتحا الراء. وقرأ أبو عمران الجوني، وعاصم الجحدري، وابن السميع: «يُسْرِعُ» بياء مرفوعة وسكون السين ونصب الراء من غير ألف.

قوله تعالى: ﴿بَلَى لَا يَخْلَعُونَ﴾ أي: لا يعلمون أن ذلك استدراج لهم.

(١) ذكر الطبري أن المراد بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ﴾ عيسى ابن مريم ﷺ، كما تقول في الكلام للرجل الواحد: كُتُوا عنا أذاكم، وكما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ والمراد رجل واحد. وقال القرطبي: قال بعض العلماء: والخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ وأنه أقامه مقام الرسل، وقال: قال الزجاج: هذه مخاطبة للنبي ﷺ، ودل الجمع على أن الرسل كلهم كذا أمروا، أي: كلوا من الحلال. وقال ابن كثير: يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء ﷺ بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير قولاً وعملاً، ودلالة ونصيحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً، قال: وقال الحسن البصري في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ﴾ قال: أما والله ما أمركم بأصغركم ولا أحمركم، ولا حلوكم ولا حاضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه.

(٢) وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة مرفوعاً: لما بعث الله نبياً إلا وهى الغنم قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم»، وأنا كنت أرهاها على قراويط لأهل مكة. وفي «الصحيح» أيضاً «أن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده». وفي «صحيح مسلم» ٧٠٣/٢ عن أبي هريرة عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ﴾ وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ﴾ الآية، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فإني يستجاب للملك؟».

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ﴾ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ يَتَّبِعَتِ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَكِيعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْفَعْلِ رَبِّهِمْ لَهَا سِقُونَ (٦١) ثم ذكر المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ﴾ (٥٧) وقد شحرننا هذا المعنى في قوله: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ﴾ (١) [الأنبياء: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا﴾ وقرأ عاصم الجحدري: «يأتون ما أتوا» بقصر همزة «أتوا». وسألت عائشة رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقالت: يا رسول الله، أهم الذين يذنبون وهم مشفقون؟ فقال: «لا، بل هم الذين يصلون وهم مشفقون، ويصومون وهم مشفقون، ويتصدقون وهم مشفقون أن لا يتقبل منهم» (٢). قال الزجاج: فمعنى «يؤتون»: «يُعطون ما أعطوا وهم يخافون أن لا يتقبل منهم»، «أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَكِيعُونَ» أي: لأنهم يوقنون أنهم يرجعون. ومعنى «يأتون»: يعملون الخيرات وقلوبهم خائفة أن يكونوا مع اجتهادهم مقصرين، ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْفَعْلِ﴾ وقرأ أبو المتوكل، وابن السميع: «يُسْرِعُونَ» برفع الياء وإسكان السين وكسر الراء من غير ألف. قال الزجاج: يقال: أسرعت وسارعت في معنى واحد، إلا أن «سارعت» أبلغ من «أسرعت»، ﴿وَهُمْ لَهَا﴾ أي: من أجلها، وهذا كما تقول: أنا أكرم فلاناً لك، أي: من أجلك. وقال بعض أهل العلم: الوجه المذكور هاهنا واقع على مُضْمَر.

﴿وَلَا تَكُفَّ قَسَا إِلَّا وَسْطَهَا وَلَدَيْنَا كَتَبَ يَبْلُغُ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْلَغُونَ﴾ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَرْقٍ مِنْ هَذَا وَلَمْ أَعْلَمْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ (٦٤) لَا يُجْعَلُوا الْيَوْمَ لِنَاكَ لَعْنَةً وَلَا تُصْرَفُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنْقَلْ عَلَيْكُمْ فَكُثِّرْ عَلَىٰ أَغْيَابِكُمْ نَكْصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِرًّا تَهْجُرُونَ (٦٧)

قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كَتَبَ﴾ يعني: اللوح المحفوظ ﴿يَبْلُغُ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْلَغُونَ﴾ قد أثبت فيه أعمال الخلق، فهو ينطق بما يعملون ﴿وَهُمْ لَا يَبْلُغُونَ﴾ أي: لا يُنْقَضُونَ من ثواب أعمالهم. ثم عاد إلى الكفار، فقال: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَرْقٍ مِنْ هَذَا﴾ قال مقاتل: في غفلة عن الإيمان بالقرآن. وقال ابن جرير: في عمى عن هذا القرآن. قال الزجاج: يجوز أن يكون إشارة إلى ما وصف من أعمال البر في قوله: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْفَعْلِ﴾، فيكون المعنى: بل قلوب هؤلاء في عمية من هذا، ويجوز أن يكون إشارة إلى الكتاب، فيكون المعنى: بل قلوبهم في غمرة من الكتاب الذي ينطق بالحق وأعمالهم مُخَصَّصة فيه. فخرج في المشار إليه بـ «هذا» ثلاثة أقوال: أحدها: القرآن. والثاني: أعمال البر. والثالث: اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ أَعْلَمْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أعمال سيئة دون الشر، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: خطايا من دون ذلك الحق، قاله مجاهد. وقال ابن جرير: من دون أعمال المؤمنين وأهل التقوى والخشية. والثالث: أعمال غير الأعمال التي ذكروا بها سيعملونها، قاله الزجاج. والرابع: أعمال - من قبل الحين الذي قدر الله تعالى أنه يعذبهم عند مجيئه - من المعاصي، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿هُم لَهَا عَمَلُونَ﴾ إخبار بما سيعملونه من أعمالهم الخبيثة التي كُتبت عليهم لا بد لهم من عملها (٣).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ أي: أغنياءهم ورؤساءهم، والإشارة إلى قريش. وفي المراد «بالعذاب» قولان: أحدهما: ضرب السيوف يوم بدر، قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك. والثاني: الجوع الذي عذبوا به سبع سنين، قاله ابن السائب. و «يَجْتَرُونَ» بمعنى: يصيحون. ﴿لَا يُجْعَلُوا الْيَوْمَ لِنَاكَ لَعْنَةً﴾ أي: لا تستغيثوا من العذاب

(١) قال ابن كثير ٣/٤٤٨: أي: هم مع إسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله، خائفون منه، وجلون من مكروه بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأما.

(٢) رواه أحمد في «المسند»، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، وذكره السيوطي في «الدرر» ١١/٥ وزاد نسبه للقرطبي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي الدنيا في «نعت الخافئين»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) قال ابن كثير: أي: قد كُتبت عليهم الأعمال السيئة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة لتحق عليهم كلمة العذاب. اهـ.

نُصْرُونَ» أي: لا تمنعون من عذابنا. «فَدَ كَانَتْ مَآئِقِي ثُلُثَ عَلَيْكُمْ» يعني: القرآن «نُكْتُرُ عَلَى أَفْعَيْكُمْ نُنَكِّسُونَ» أي: ترجعون وتتأخرون عن الإيمان بها، «مُسْتَكْبِرِينَ» منصوب على الحال. وقوله: «يَوْمَ» الكناية عن البيت الحرام، وهي كناية عن غير مذكور؛ والمعنى: إنكم تستكبرون وتفتخرون بالبيت والحرَم، لأنكم فيه مع خوف سائر الناس في مواطنهم. تقولون: نحن أهل الحرَم فلا نخاف أحداً، ونحن أهل بيت الله ووُلائِهِ، هذا مذهب ابن عباس وغيره. قال الزجاج: ويجوز أن تكون الهاء في «به» للكتاب، فيكون المعنى: تُحَدِّثْ لَكُمْ تلاوته عليكم استكباراً.

قوله تعالى: «سَمَرًا» قال أبو عبيدة: معناه: تَهْجُرُونَ سَمَرًا، والسامر بمعنى السَّمَار، بمنزلة طفل في موضع أطفال، وهو من سَمَرَ الليل. وقال ابن قتيبة: «سامراً» أي: متحدثين ليلاً، والسَمَر: حديث الليل. وقرأ أبي بن كعب، وأبو العالية، وابن محيصن: «سَمَرًا» بضم السين وتشديد الميم وفتحها، جمع سامر. وقرأ ابن مسعود، وأبو رجاء، وعاصم الجحدري: «سَمَرًا» برفع السين وتشديد الميم وألف بعدها.

قوله تعالى: «تَهْجُرُونَ» قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحَمْزَةُ، والكسائي: «تَهْجُرُونَ» بفتح التاء وضم الجيم. وفي معناها أربعة أقوال: أحدها: تهجرون ذَكَرَ الله والحق، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: تهجرون كتاب الله تعالى ونبيِّهِ ﷺ، قاله الحسن. والثالث: تهجرون البيت، قاله أبو صالح. وقال سعيد بن جبیر: كانت قريش تَسْمُرُ حول البيت، وتفتخر به ولا تطوف به. والرابع: تقولون مُجْرًا من القول، وهو اللغو والهُدْيَان، قاله ابن قتيبة. قال الفراء: يقال: قد هَجَرَ الرجل في منامه: إذا هذى، والمعنى: إنكم تقولون في رسول الله ﷺ ما ليس فيه وما لا يَصُرُّه. وقرأ ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وقتادة، وابن محيصن، ونافع: «تَهْجُرُونَ» بضم التاء وكسر الجيم. قال ابن قتيبة: وهذا من الهُجْر، وهو السَّبُّ والإفحاش من المنطق^(١)، يريد سبهم للنبي ﷺ ومن أتبعه. وقرأ أبو العالية، وعكرمة، وعاصم الجحدري، وأبو نهيك: «تَهْجُرُونَ» بتشديد الجيم ورفع التاء؛ قال ابن الأنباري: ومعناها معنى قراءة ابن عباس.

«أَفَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ» أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يُكْرَهُوا ﴿٦٨﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَانَتْ كَذِبًا ﴿٦٩﴾

قوله تعالى: «أَفَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ» يعني: القرآن، فيعرفوا ما فيه من الدلالات والعبير على صدق رسولهم «أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ» المعنى: ليس قد أرسل الأنبياء إلى أممهم كما أرسل محمد ﷺ؟! «أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ» هذا توبيخ لهم، لأنهم عرفوا نسبه وصدقه وأمانته صغيراً وكبيراً ثم أعرضوا عنه. والجنَّة: الجنون، «بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ» يعني القرآن.

«رَكِبُوا أَجْنَاحَ أَلْحَقَ أَهْلَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ» بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٠﴾ أَمْ تَقُولُ خَرَجَ رَيْكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّبِّينَ ﴿٧١﴾ وَلَيْكَ لَدَعُومٌ إِنْ يَرْطَبُ مُسْتَقِيمٌ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَرِبُونَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى: «رَكِبُوا أَجْنَاحَ أَلْحَقَ أَهْلَهُمْ» في المراد بالحق قولان: أحدهما: أنه الله ﷻ، قاله مجاهد، وابن جريج، والسدي في آخرين. والثاني: أنه القرآن، ذكره الفراء، والزجاج. فعلى القول الأول يكون المعنى: لو جعل الله لنفسه شريكاً كما يحبون. وعلى الثاني: لو نزل القرآن بما يحبون من جعل شريك لله «لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ» بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ» أي: بما فيه شرفهم وفخرهم، وهو القرآن «فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ» أي: قد تولوا عما جاءهم من شرف الدنيا والآخرة. وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، وأبو رجاء، وأبو الجوزاء: «بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ» بألف فيهما. «أَمْ تَقُولُ خَرَجَ رَيْكَ خَيْرٌ» عما جئتهم به «خَرَجًا» قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم: «خَرَجًا» بغير ألف [فخرج] بألف. وقرأ ابن عامر: «خَرَجًا فَخَرَجَ» بغير ألف في الحرفين. وقرأ حمزة، والكسائي: «خَرَجًا» بألف [فخرج] بألف في الحرفين. ومعنى «خَرَجًا»: أجراً ومالاً، «فَخَرَجَ رَيْكَ» أي: فما يُعطيك

(١) في «غريب القرآن»: وهو السب والإفحاش في المنطق.

ربك من أجره وثوابه ﴿حَبْرٌ وَهْوَ خَيْرُ الزَّانِقِينَ﴾ أي: أفضل من أعطى؛ وهذا على سبيل التنبيه لهم أنه لم يسألهم أجراً، لا أنه قد سألهم. والناكب: العادل؛ يقال: نكَبَ عن الطريق، أي: عدَلَ عنه.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَرِبُكَ﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكُنْتُمْ مَا بِهِمْ مِنْ شَرٍّ لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكْبَرُوا لِرِيبِهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ ﴿٧٦﴾ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكُنْتُمْ مَا بِهِمْ مِنْ شَرٍّ﴾ قال ابن عباس: الضَّرَّ هاهنا: الجوع الذي نزل بأهل مكة حين دعا عليهم رسول الله ﷺ فقال: «اللهم أعطني على قريش بسنين كسيني يوسف»^(١)، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه الضَّرَّ، وأنهم قد أكلوا القَيْدَ^(٢) والعظام، فنزلت هذه الآية والتي بعدها، وهو العذاب المذكور في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يوم بدر، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أنه الجوع الذي أصابهم، قاله مقاتل. والثالث: بابٌ من عذاب جهنم في الآخرة، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُونَ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو المتوكل، وأبو نهيك، ومعاذ القاري: «مبسُون» بفتح اللام. وقد شرحنا معنى المُبْس في [الأنام: ٤٥].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا يَسْئَلُونَ ﴿٨١﴾ بَلْ قَالُوا يَسْئَلُونَ ﴿٨٢﴾ قَالُوا أَوَآدَا يَشْتَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوَآدَا لَنُحْيِيَنَّ ﴿٨٣﴾ لَقَدْ وَعدنا نحنُ وَوَعْدًا حَقًّا وَوَعْدًا حَقًّا هَذَا مِنْ قَبْلِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٤﴾ قَدْ لَبِئَ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٥﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ قال المفسرون: يريد أنهم لا يشكرون أصلاً.

قوله تعالى: ﴿ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: خلقكم من الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ أي: هو الذي جعلهما مختلفين يتعاقبان ويختلفان في السواد والبياض ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما ترون مِنْ صُنْعِهِ؟ وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: ﴿قَدْ لَبِئَ الْأَرْضُ﴾ أي: قل لأهل مكة المكذبين بالبعث: لِمَنِ الْأَرْضُ ﴿وَمَنْ فِيهَا﴾ مِنَ الْخَلْقِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بحالها، ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ قرأ أبو عمرو: «الله» بغير ألف هاهنا، وفي اللذين بعدها بالف. وقرأ الباقر: «الله» في المواضع الثلاثة. وقراءة أبي عمرو على القياس. قال الزجاج: ومن قرأ: «سيقولون الله» فهو جواب السؤال، ومن قرأ «الله» فجيء أيضاً، لأنك إذا قلت: مَنْ صَاحِبُ هَذِهِ الدارِ؟ فقلت: لزيد، جاز، لأن معنى «مَنْ صَاحِبُ هَذِهِ الدارِ؟»: لمن هي؟ وقال أبو علي الفارسي: من قرأ «الله» في الموضوعين الآخرين، فقد أجاب على المعنى دون ما يقتضيه اللفظ. وقرأ سعيد بن جبير، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء: «سيقولون الله» «الله» «الله» بالف فيهن كلهن. قال أبو علي الأهوازي: وهو في مصاحف أهل البصرة بالف فيهن.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فاعلمون أن من قدر على خَلْقِ ذَلِكَ ابتداءً، أقدر على إحياء الأموات؟!

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَكِ الْمَرْبِ وَالْمَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٨٧﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٨﴾ قُلْ مَنْ يَمْلِكُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيبُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِلَّا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: تتقون عبادة غيره. والثاني: تخشون عذابه. فأما الملكوت، فقد شرحناه في [الأنام: ٧٥].

(١) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ١٧٩، وذكره السيوطي في «الدر» ١٢/٥، وأصله في «المصحيحين» أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استصموا فقال: «اللهم أعني عليهم يسع كسيع يوسف».

(٢) قال في «اللسان»: القَيْدُ: السير الذي يُقَدُّ من الجلد، وذكر كثير من المفسرين أنهم أكلوا الملعز، وهو الوبر والدم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِرُّ وَلَا يَحْكَرُ عَلَيْهِ﴾ أي: يمنع [من] السوء من شاء، ولا يمنع منه من أراد به سوء، يقال: أجزت فلاناً أي: حميته، وأجزت عليه أي: حميت عنه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَسْتَحِرُّكَ﴾ قال ابن قتيبة: أنى تُحَدَّثون وتُضَرَّفون عن هذا؟ ﴿بَلْ أَنْتَنَّهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْنَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّْا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتَنَّهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بالتوحيد والقرآن ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما يُضيفون إلى الله من الولد والشريك: ثم نفاهما عنه بما بعد هذا إلى قوله: ﴿إِذَا أَذْنَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ أي: لا نفرد بخلق ولم يرض أن يُضاف خلقه وإنعامه إلى غيره، ولمنع الإله الآخر عن الاستيلاء على ما خلق ﴿وَلَمَّْا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: غلب بعضهم بعضاً.

قوله تعالى: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «عالم» بالخفض. وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «عالم» بالرفع. قال الأخفش: الجر أجود، ليكون الكلام من وجه واحد، والرفع، على أن يكون خبر ابتداء محذوف، ويقوّيه أن الكلام الأول قد انقطع.

﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا رُفِعَ مَا يُوْعَدُونَ﴾ ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوَرِ الْفَلِيلِينَ﴾ ﴿وَأَنَا عَلَىٰ أَنْ تُرِكَ مَا يُوْعَدُهُم لَكَذِبُونَ﴾ ﴿أَدْفَعْ بِلَئِي فِي أَحْسَنِ السَّنَةِ مَنَ أَكَلَمَ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا رُفِعَ﴾ وقرأ أبو عمران الجوني، والضحاك: «ترُفِّي» بالهمز بين الراء والنون من غير ياء. والمعنى: إن أريتني ما يوعدون من القتل والعذاب، فاجعلني خارجاً عنهم ولا تُهلكني بهلاكهم؛ فأراه الله تعالى ما وعدهم بيدر وغيرها، ونجّاه ومن معه.

قوله تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِلَئِي فِي أَحْسَنِ السَّنَةِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: ادفع إساءة المسيء بالصفح، قاله الحسن. والثاني: ادفع الفُحْشَ بالسلام، قاله عطاء، والضحاك. والثالث: ادفع الشُّرك بالتوحيد، قاله ابن السائب. والرابع: ادفع المنكر بالموعظة، حكاه الماوردي. وذكر بعض المفسرين أن هذا منسوخ بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿مَنَ أَكَلَمَ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي: بما يقولون من الشُّرك والتكذيب؛ والمعنى: إِنَّا نجازيهم على ذلك. ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ﴾ أي: ألجأ وأمتنع ﴿بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ قال ابن قتيبة: هو نُحْسُهَا وطرغُهَا، ومنه قيل للعائب: هُمَزَةٌ، كأنه يطعن ويُنَحَسُّ إذا عاب. وقال ابن فارس: الهمز كالعضر، يقال: همزت الشيء في كُفِّي، ومنه الهمز في الكلام، لأنه كأنه يضغط الحرف، وقال غيره: الهمز في اللغة: الدَّفْعُ، وهَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ: دَفْعُهُم بِالْإِغْوَاءِ إِلَى الْمَعَاصِي.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ أي: أن يشهدوا؛ والمعنى: أن يصيبوني بسوء، لأن الشيطان لا يحضر ابن آدم إلا بسوء. ثم أخبر أن هؤلاء الكفار المنكرين للبعث يسألون الرجعة إلى الدنيا عند الموت بالآية التي تلي هذه، وقيل: هذا السؤال منهم للملائكة الذين يقبضون أرواحهم. فإن قيل: كيف قال: «ارجعون» وهو يريد: «ارجعني»؟، فالجواب: أن هذا اللفظ تعرفه العرب للعظيم الشأن، وذلك أنه يخبر عن نفسه [فيه] بما تخبر به الجماعة، كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ [ق: ٤٣]، فجاء خطابه كإخباره عن نفسه، هذا قول الزجاج.

﴿حَقِّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَهٌ يَرَىٰ بَيْتَهُمْ﴾ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا بَسَائِلُونَ﴾ ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ﴿تَلْعَقُ لُجُومُهُمْ أَثَارَ نَارٍ وَهَمَّ فِيهَا كَالْيَحْمَرِّ﴾

قوله تعالى: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ قال ابن عباس: فيما مضى من عمري؛ وقال مقاتل: فيما تركت من العمل الصالح.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: لا يرجع إلى الدنيا ﴿إِنَّهَا﴾ يعني: مسألته الرجعة ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ أي: هو كلام لا

فائدة له فيه ﴿وَمِنْ ذَلِيلِهِمْ﴾ أي: أمامهم وبين أيديهم ﴿بِرِزْقٍ﴾ قال ابن قتيبة: البرزخ: ما بين الدنيا والآخرة، وكل شيء بين شيئين فهو برزخ. وقال الزجاج: البرزخ في اللغة: الحاجز، وهو هاهنا: ما بين موت الميت وبعثه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فُتِحَ فِي الصُّورِ﴾ في هذه النفخة قولان: أحدهما: أنها النفخة الأولى، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. والثاني: أنها الثانية، رواه عطاء عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿فَلَا أَسْأَبَ يَنْهَهُ﴾ في الكلام محذوف، تقديره: لا أنساب بينهم يومئذ يتفاخرون بها أو يتقاطعون بها، لأن الأنساب لا تنقطع يومئذ، إنما يُرْفَعُ التواصل والتفاخر بها. وفي قوله: ﴿وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: لا يتساءلون بالأنساب أن يترك بعضهم لبعض حقّه. والثاني: لا يسأل بعضهم بعضاً عن شأنه، لاشتغال كل واحد بنفسه. والثالث: لا يسأل بعضهم بعضاً من أي قبيل أنت، كما تفعل العرب لتعرف النسب فتعرف قدر الرجل. وما بعد هذا قد سبق تفسيره [الأعراف: ٨] إلى قوله: ﴿تَلْفَحُ وَجُوهَهُمْ النَّارُ﴾ قال الزجاج: تلفح وتنفخ بمعنى واحد، إلا أن التلفح أعظم تأثيراً، والكالنج الذي قد تشمّرت شفته عن أسنانه، نحو ما ترى [من] ^(١) رؤوس الغنم إذا برزت الأسنان وتشمّرت الشفاه. وقال ابن مسعود: قد بدت أسنانهم وتقلّصت شفاههم كالرأس المشيط بالنار. وروى أبو عبد الله الحاكم في «صحيحه» من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال في هذه الآية: «تشويه النار فتقلّص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ شفته» ^(٢).

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تُلْ عَلَيَّ كُفْرًا فَكُنتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا عَلَيْنَا مِثْلُ بَاقِيَتِ الْوَحْيِ ﴿١٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْشَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّكُمْ كَانُمْ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَاْمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهَا سِحْرًا حَرًّا أَتُؤْمِنُونَ بَهَا وَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ المعنى: ويقال لهم: ألم تكن ﴿أَتَيْنِي تُلْ عَلَيَّ كُفْرًا﴾ يعني: القرآن. ﴿قَالُوا رَبَّنَا عَلَيْنَا مِثْلُ بَاقِيَتِ الْوَحْيِ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «شِقُونْنَا» بكسر الشين من غير ألف، وقرأ عمرو ابن العاص، وأبو رزين العقيلي، وأبو رجاء العطاردي كذلك، إلا أنه بفتح الشين. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، والأعمش، وحزمة، والكسائي: «شَقَاوُنَا» بألف مع فتح الشين والقاف؛ وعن الحسن، وقتادة كذلك، إلا أن الشين مكسورة. قال المفسرون: أقرّ القوم بأن ما كُتِبَ عليهم من الشقاء منعهم الهدى.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أي: من النار. قال ابن عباس: طلبوا الرجوع إلى الدنيا ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ أي: إلى الكفر والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿أَخْشَرُوا﴾ قال الزجاج: تباعدوا تباعد سخط، يقال: خَسَأْتُ الكلب أخسؤه: إذا زجرته ليتباعد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ أي: في رفع العذاب عنكم. قال عبد الله بن عمرو: إن أهل جهنم يدعون مالكا أربعين عاماً، فلا يجيبهم، ثم يقول: ﴿إِنَّكُمْ تَكْلُمُونَ﴾ [الزعر: ٧٧]، ثم ينادون ربهم ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ فيدعهم مثل عمر الدنيا، ثم يقول: ﴿إِنَّكُمْ تَكْلُمُونَ﴾ ثم ينادون ربهم ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ فيدعهم مثل عمر الدنيا، ثم يردّ عليهم ﴿أَخْشَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ فما ينبس القوم بعد ذلك بكلمة إن كان، إلا الزفير والشهيق. ثم بيّن الذي لأجله أحسامهم بقوله: ﴿إِنَّكُمْ﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبو عمران الجوني، وعاصم الجحدري: «أَنَّهُ» بفتح الهمزة ﴿كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي﴾ قال ابن عباس: يريد المهاجرين.

(١) زيادة من «اللسان».

(٢) رواه الحاكم في «المستدرک» ٣٩٥/٢ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وهو من رواية أبي السمع دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال الحافظ في «التقريب» عن دراج أبي السمع: صدوق في حديثه، عن أبي الهيثم ضعيف. والحديث رواه أحمد في «المسند»، والترمذي وقال: حسن غريب. وذكره السيوطي في «الدرر» ١٦/٥ وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في «صفة النار»، وأبي يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبي نعيم في «الحلية».

قوله تعالى: ﴿فَأَعْتَدْتُمُ﴾ قال الزجاج: الأجود إدغام الذال في التاء لقرب المخرجين، وإن شئت أظهرت، لأن الذال من كلمة والتاء من كلمة، وبين الذال والتاء في المخرج شيء من التباعد.

قوله تعالى: ﴿يَسْخَرُونَ﴾ قرأ نافع، وحزمة، والكسائي، وأبو حاتم عن يعقوب: «سُخِرَتَا» بضم السين هاهنا وفي [ص: ٤٦٣]، تابعهم المفضل في [ص: ٣٢٢]. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: بكسر السين في السورتين. ولم يختلف في ضم السين في الحرف الذي في [الزخرف: ٣٢]. واختار الفراء الضم، والزجاج الكسر. وهل هما بمعنى؟ فيه قولان: أحدهما: أنهما لغتان ومعناهما واحد، قاله الخليل، وسيبويه، ومثله قول العرب، بحر لُجِّي ولُجِّي، وكوكب دُرِّي ودُرِّي. والثاني: أن الكسر بمعنى الهمز، والضم بمعنى: السُخرة والاستعباد، قاله أبو عبيدة، وحكاه الفراء، وهو مروى عن الحسن، وقناة. قال أبو علي: قراءة من كسر أرجح من قراءة من ضم، لأنه من الهزء، والأكثر في الهزء كسر السين. قال مقاتل: كان رؤوس كفار قريش كأبي جهل وعقبة [والوليد] قد اتخذوا فقراء أصحاب رسول الله ﷺ كعمار وبلال وخبَّاب وصهيب سَخِرَتَا يستهزئون بهم ويضحكون منهم.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ أَسْأَلُكُمْ دِكْرِي﴾ أي: أنساكم الاشتغال بالاستهزاء بهم ذكري، فنسب الفعل إلى المؤمنين وإن لم يفعلوه، لأنهم كانوا السبب في وجوده، كقوله: ﴿إِنِّي أَسْأَلُكَ دِكْرِي﴾ [البراهيم: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَّوْا﴾ أي: على أذاكم واستهزائكم «أَنْتُمْ» قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «أَنْتُمْ» بفتح الألف. وقرأ حمزة، والكسائي: «إِنَّهُمْ» بكسرها. فمن فتح «أَنْتُمْ» فالمعنى: جزيتهم بصبرهم الفؤاد، ومن كسر «إِنَّهُمْ»، استأنف.

﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ يَوْمٍ﴾ ﴿قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّاكَ الْعَادِينَ﴾ ﴿قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنكُم كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَوْبَرِ﴾ ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُجْعَلْ لَهُ جُزْءٌ مِّنْ فَضْلِهِ كَبِيرٌ﴾ ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ﴾ قرأ نافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «قال كم لبستم» وهذا سؤال الله تعالى للكافرين. وفي وقته قولان: أحدهما: أنه يسألهم يوم البعث. والثاني: بعد حصولهم في النار. وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي: «قل كم لبستم» وفيها قولان: أحدهما: أنه خطاب لكل واحد منهم، والمعنى: قل يا أيها الكافر. والثاني: أن المعنى: قولوا، فأخرجه مخرج الأمر للواحد، والمراد الجماعة، لأن المعنى مفهوم. وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي يدغمون ثاء «لبستم»، والباقيون لا يدغمونها؛ فمن أدغم، فلتقارب مخرج التاء والتاء، ومن لم يدغم، فلتباين المخرجين. وفي المراد بالأرض قولان. أحدهما: أنها القبور، والثاني: الدنيا. فاحترق القوم ما لبثوا لما عاينوا من الأهوال والعذاب فقالوا: ﴿لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قال الفراء: والمعنى: لا ندري كم لبثنا. وفي المراد بالعادين قولان: أحدهما: الملائكة، قاله مجاهد. والثاني: الحُساب، قاله قتادة. وقرأ الحسن، والزهري، وأبو عمران الجوني، وابن يعمر: «العادين» بتخفيف الدال.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «قال إن لبستم». وقرأ حمزة، والكسائي: «قل إن لبستم» على معنى: قل أيها السائل عن لبستم. وزعموا أن في مصحف أهل الكوفة «قل» في الموضعين، فقراهما حمزة، والكسائي على ما في مصاحفهم، أي: ما لبستم في الأرض ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لأن مكثهم في الأرض وإن طال، فإنه مُتَنَاءٌ، ومكثهم في النار لا يتناهى. وفي قوله: ﴿لَوْ أَنكُم كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قولان: أحدهما: لو علمتم قدر لبسكم في الأرض. والثاني: لو علمتم أنكم إلى الله ترجعون، فعملتم لذلك.

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ أي: أفظننتم ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أي: للعبث؛ والعبث في اللغة: اللعب، وقيل: هو الفعل لا لغرض صحيح، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم: «لا تُرْجَعُونَ» بضم التاء. وقرأ حمزة، والكسائي بفتحها. ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ عما يَصِفُهُ به الجاهلون من الشُّرك والولد، ﴿الْمَلِكُ﴾ قال الخطابي: هو التام

المُلْك الجامع لأصناف المملوكات. وأما المالك: فهو الخالص المُلْك. وقد ذكرنا معنى «الحق» في (يونس: ٣٢).
 قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَرْثِ الْكَرِيمِ﴾ والكريم في صفة الجماد بمعنى: الحسن. وقرأ ابن محيصن: «الكريم» برفع الميم، يعني الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿لَا بُرْهَانَ لَكُمْ بِهِ﴾ أي: لا حُجَّة له به ولا دليل؛ وقال بعضهم: معناه: فلا برهان له به.
 قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا حِسَابَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي: جزاؤه عند ربه^(١).



(١) قال ابن جرير الطبري في تفسير تمام السورة: ﴿إِنَّهُ لَا يُقْلِحُ الْكَافِرِينَ﴾ يقول: إنه لا ينجح أهل الكفر بالله عنده، ولا يدركون الخلود والبقاء في النعيم، ﴿وَقُلْ رَبِّيَ أَخْفَى وَأَرْحَمُ وَأَنَّهُ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وقل يا محمد: رب استر عليّ ذنوبي بعفوك عنها، وارحمني بقبول توبتك وترك عقابي على ما اجترمت، وأنت خير الراحمين، يقول: وقل: أنت يا رب خير من رحم ذا ذنب، فقبل توبته، ولم يعاقبه على ذنبه. اهـ.

سورة النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةُ النُّورِ أُنزِلَتْهَا وَفُرِضَتْهَا وَأُنزِلَتْ فِيهَا آيَاتٌ يَسْتَعِزُّ بِهَا لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَلَيْهِمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣)

وهي مدنية كلها بإجماعهم.

روى أبو عبد الله الحاكم في «صحيحه» من حديث عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَا تُنْزِلُوهُنَّ الْغُرَفَ وَلَا تَعْلَمُوهُنَّ الْكِتَابَةَ، وَعَلِمُوهُنَّ الْمَغْزَلَ» (١) وسورة النور» (٢)، يعني: النساء.

قوله تعالى: ﴿سُورَةُ﴾ قرأ الجمهور بالرفع. وقرأ أبو رزین العقيلي، وابن أبي عبله، ومحبيب عن أبي عمرو: «سورة» بالنصب. قال أبو عبيدة: من رفع، فعلى الابتداء. وقال الزجاج: هذا قبيح، لأنها نكرة، و﴿أُنْزِلَتْهَا﴾ صفة لها، وإنما الرفع على إضمار: هذه سورة، والنصب على وجهين، أحدهما على معنى: أنزلنا سورة، وعلى معنى: أنزل سورة.

قوله تعالى: ﴿وَفُرِضَتْهَا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالتشديد. وقرأ ابن مسعود، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، وعكرمة، والضحاك، والزهري، ونافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وابن يعمر، والأعمش، وابن أبي عبله بالتخفيف. قال الزجاج: من قرأ بالتشديد، فعلى وجهين: أحدهما: على معنى التكثير، أي: إننا فرضنا فيها فروضاً، والثاني: على معنى: بيّنا وفصلنا ما فيها من الحلال والحرام؛ ومن قرأ بالتخفيف، فمعناه: ألزمتكم العمل بما فُرض فيها. وقال غيره: مَنْ شَدَّدَ، أَرَادَ: فَصَّلْنَا فَرَائِضَهَا، وَمَنْ خَفَّفَ، فَمَعْنَاهُ: فَرَضْنَا مَا فِيهَا.

قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ القراءة المشهورة بالرفع. وقرأ أبو رزین العقيلي، وأبو الجوزاء، وابن أبي عبله، وعيسى بن عمر: «الزانية» بالنصب. واختار الخليل وسيبويه الرفع اختيار الأكثرين. قال الزجاج: والرفع أقوى في العربية، لأن معناه: من زنى فاجلدوه، فتأويله الابتداء، ويجوز النصب على معنى: اجلدوا الزانية. فأما الجَلْدُ، فهو ضرب الجَلْدِ؛ يقال: جَلَدَهُ: إِذَا ضَرَبَ جَلْدَهُ، كَمَا يُقَالُ: بَطَنُهُ: إِذَا ضَرَبَ بَطْنَهُ. قال المفسرون: ومعنى الآية: الزانية والزاني إذا كانا حُرِّينَ بِالْعَيْنِ بِكُرْنِ، ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدٍ﴾.

(١) في الأصل: وعلموهن الغزل، والتصحيح من «المستدرک» للحاكم الذي نقل عنه المؤلف.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرک» ٣٩٦/٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي فقال: قلت: بل موضوع، وأقته عبد الوهاب بن الضحاك، قال أبو حاتم: كذاب. وهذا الخبر رواه أيضاً ابن حبان في «صحيحه»، وفي سنده محمد بن إبراهيم الشامي، وهو منكر الحديث ومن الرضاعين، وقد ذكر المصنف هذا الحديث في «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» وقال: لا يصح، محمد بن إبراهيم الشامي كان يضع الحديث، وقد ألف العلامة المحلل شمس الحق العظيم أبادي رسالة سماها «عقود الجمان في جواز تعليم الكتابة للنسوان» طبعها المكتب الإسلامي، ذكر فيها مؤلفها أن القول المحقق جواز تعليم الكتابة للنسوان، وذكر أحاديث عدم الجواز، منها حديث الحاكم، وابن حبان، اللذين تقدم ذكرهما، وغيرهما، ونقل أقوال العلماء فيها، ثم قال: وأحاديث النهي عن الكتابة كلها من الأباطيل والموضوعات، ولم يصحح العلماء واحداً منها، ما عدا الحاكم أباً عبد الله، وتساهله في التصحيح معروف، وتصحيحه متعقب عليه، ولا يؤخذ كلامه في التصحيح إلا إفا وافق الحفاظ الآخرون في تصحيحه، ثم قال: وخلاصة الكلام أنه لا ريب في جواز تعليم الكتابة للنساء بالغات المشتهيات بواسطة النساء الأخريات، أو بواسطة معارمهن، أما البنات غير البالغات وغير المشتهيات فيتعلمن ممن شئن. ومن أراد الزيادة في ذلك، فليرجع إلى رسالة «عقود الجمان في جواز تعليم الكتابة للنسوان»، فإن المؤلف وفي الموضوع حقه فيها.

فصل

قال شيخنا علي بن عبيد الله: هذه الآية تقتضي وجوب الجَلْدِ على الْبِكْرِ والثَّيِّب. وقد روي عن رسول الله ﷺ في حق الْبِكْرِ زيادة على الْجَلْدِ بتغريب عام، وفي حق الثَّيِّب زيادة على الجَلْدِ بالرجم بالحجارة. فروى عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مائة وتغريب عام، والثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جلد مائة ورجم بالحجارة»^(١). وممن قال بوجوب الثَّغْيِ في حق الْبِكْرِ أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن عمر، وممن بعدهم عطاء، وطاووس، وسفيان، ومالك، وابن أبي ليلى، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وممن قال بالجمع بين الجَلْدِ والرجم في حق الثَّيِّبِ علي بن أبي طالب، والحسن البصري، والحسن بن صالح، وأحمد، وإسحاق. قال: وذهب قوم من العلماء إلى أن المراد بالجلْدِ المذكور في هذه الآية: الْبِكْرُ، فأما الثَّيِّبُ، فلا يجب عليه الْجَلْدُ، وإنما يجب الرجم، روي عن عمر، وبه قال النخعي، والزهرى، والأوزاعي، والثوري، وأبو حنيفة، ومالك، وروي عن أحمد رواية مثل قول هؤلاء.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو رزین، والضحاك، وابن يعمر، والأعمش: «يَأْخُذْكُمْ» بالياء، «يَهَيَّا رَأْفَةً» قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي: «رَأْفَةً» بإسكان الهمزة. وقرأ أبو المتوكل، ومجاهد، وأبو عمران الجوني، وابن كثير: بفتح الهمزة وقصرها على وزن رَعَفَةٍ. وقرأ سعيد بن جبیر، والضحاك، وأبو رجاء العطاردي: «رَأْفَةً» مثل سَامَةٍ وكَاثِبَةٍ. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: لا تأخذكم بهما رَأْفَةً فتعطلوا الحدود ولا تقيموها، قاله مجاهد، والشعبي، وابن زيد في آخرين.

فصل

اختلف العلماء في شدة الضرب في الحدود، فقال الحسن البصري: ضرب الزنى أشد من القذف، والقذف أشد من الشُّرب، ويضرب الشارب أشد من ضرب التعزير، وعلى هذا مذهب أصحابنا. وقال أبو حنيفة: التعزير أشد الضرب، وضرب الزنى أشد من ضرب الشارب، وضرب الشارب أشد من ضرب القذف. وقال مالك: الضرب في الحدود كلها سواء غير مبرح.

(١) رواه أحمد في «المستند» ١٣/٥، ومسلم ١٣١٦/٣، وأبو داود رقم (٤٤١٥)، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، كلهم من حديث عبادة بن الصامت ؓ، ولفظه عند مسلم: عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلوا هني، خذوا هني، قد جعل الله لهن سبيلاً، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جلد مائة ونفي سنة، والثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جلد مائة والرجم». قال ابن كثير: وللعلماء فيه تفصيل ونزاع، فإن الزاني لا يخلو، إما أن يكون بكراً، وهو الذي لم يتزوج، أو محصناً، وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح وهو حرٌّ بالغ عاقل، فأما إذا كان بكراً لم يتزوج، فإن حده مائة جلدة، كما في الآية، ويزاد على ذلك أن يغرب عاماً عن بلده عند جمهور العلماء، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله، فإن عنده أن التغريب إلى رأي الإمام، إن شاء غرب، وإن شاء لم يغرب، وحجة الجمهور في ذلك ما ثبت في «الصحيحين» عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني في الأعرابييين اللذين أتيا رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: يا رسول الله، إن ابني هذا كان سعيماً (يعني أجيراً) على هذا، فزني بامرأته، فافتدت ابني منه بمائة شاة ووليدة، فأسأت أهل العلم، فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام، وإن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى، الوليدة والغنم رد عليك، وعلى ابنتك مائة جلدة وتغريب عام، واغدا يا أنيس (الرجل من أسلم) إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها» ففدا عليها فاعترفت فرجمها، قال: وفي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكراً لم يتزوج.

وقال ابن كثير أيضاً: وأما إذا كان محصناً وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح وهو حرٌّ بالغ عاقل، فإنه يرجم، وذلك للأحاديث الواردة في «الصحيحين» وغيرهما في الرجم، ثم قال: وقد أمر رسول الله ﷺ برجم هذه المرأة وهي زوجة الرجل الذي استاجر الأجير لما زنت مع الأجير، قال: ورجم رسول الله ﷺ ماعزاً، والغامدية، وكل هؤلاء لم ينتقل عن رسول الله ﷺ أنه جلداهم قبل الرجم، وإنما وردت الأحاديث الصحيحة المتعاضدة المتعددة الطرق والألفاظ بالاعتصار على رجمهم، وليس فيها ذكر الجَلْدِ، ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء، وإليه ذهب أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، رحمهم الله. وذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أنه يجب أن يجمع على الزاني المحصن بين الجَلْدِ للآية، والرجم للسنة، كما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؓ لما أتى بسراجة وكانت قد زنت وهي محصنة، فجلدها يوم الخميس، ورجمها يوم الجمعة، فقال: جلدها بكتاب الله، ورجمها بسنة رسول الله ﷺ. قال الإمام النووي في «شرح مسلم» ١١/١٨٩: وقال جماهير العلماء: الواجب الرجم وحده، ثم قال: قالوا: وحديث الجمع بين الجَلْدِ والرجم وهو حديث عبادة المتقدم منسوخ، فإنه كان أول الأمر. اهـ.

فصل

فأما ما يُضْرَب من الأعضاء، فنقل الميموني عن أحمد في جلد الزاني، قال: يجرد، ويعطى كل عضو حقه، ولا يضرب وجهه ولا رأسه. ونقل يعقوب بن بختان^(١): لا يُضْرَب الرأس ولا الوجه ولا المذاكير، وهو قول أبي حنيفة. وقال مالك: لا يُضْرَب إلا في الظهر. وقال الشافعي: يُتْقَى الفرج والوجه.

قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُ اللَّهُ فِيهِ قَوْلَانِ. أَحَدُهُمَا: فِي حُكْمِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: فِي طَاعَةِ اللَّهِ، ذَكَرَهُ الْمَاورِدِي.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهَا طَلَبٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الزجاج: القراءة بإسكان اللام، ويجوز كسرهما. والمراد بعذابيهما ضربيهما. وفي المراد بالطائفة هاهنا خمسة أقوال: أحدها: الرجل فما فوقه، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. وقال النخعي: الواحد طائفة. والثاني: الاثنان فصاعداً، قاله سعيد بن جبيرة، وعطاء؛ وعن عكرمة كالقولين. قال الزجاج: والقول الأول على غير ما عند أهل اللغة، لأن الطائفة في معنى جماعة، وأقل الجماعة اثنان. والثالث: ثلاثة فصاعداً، قاله الزهري. والرابع: أربعة، قاله ابن زيد. والخامس: عشرة، قاله الحسن البصري.

قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ قال عبد الله بن عمرو: كانت امرأة تسافح، وتشترط للذي يتزوجها أن تكفيه النفقة فأراد رجل من المسلمين أن يتزوجها، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية^(٢). وقال عكرمة: نزلت في بغايا، كُنْ بِمَكَّةَ، ومنهن سمع صواحب رايات، وكانت بيوتهن تسمى في الجاهلية: المواخير، ولا يدخل عليهن إلا زاني من أهل القبيلة، أو مشرك من أهل الأوثان، فأراد ناس من المسلمين نكاحهن، فنزلت هذه الآية^(٣). قال المفسرون: ومعنى الآية: الزاني من المسلمين لا يتزوج من أولئك البغايا إلا زانية ﴿أَوْ مُشْرِكَةً﴾ لأنهن كذلك كن ﴿وَأَزَانِيَةً﴾ منهن ﴿لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾^(٤)، ومذهب أصحابنا أنه إذا زنى بامرأة، لم يجز له أن يتزوجها إلا بعد التوبة منها^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ ذَلِكَ﴾ وقرأ أبي بن كعب، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء: «وَحَرَّمَ الله ذلك» بزيادة اسم الله ﷻ مع فتح حروف «حَرَّمَ». وقرأ زيد بن علي: «وَحَرَّمَ ذلك» بفتح الحاء وضم الراء مخففة. ثم فيه قولان. أحدهما: أنه نكاح الزواني، قاله مقاتل. والثاني: الزنا، قاله الفراء.

﴿وَالَّذِينَ يَزْنُونَ يَرْجُونَ التَّصْحِيحَ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِإِعْمَارِ شَيْئَةٍ مِّنْهُ فَتَقَالُوا نَجَسًا فَلَا لَهُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٦) ﴿وَالَّذِينَ يَزْنُونَ يَرْجُونَ التَّصْحِيحَ﴾ شرائط الإحصان في الزنى الموجب للرجم عندنا أربعة: البلوغ، والحرية، والعقل، والوطء في نكاح صحيح. فأما الإسلام، فليس بشرط في الإحصان، خلافاً لأبي حنيفة، ومالك. وأما شرائط إحصان القذف فأربع: الحرية، والإسلام، والعفة، وأن يكون المقدوف ممن يجامع مثله. ومعنى الآية: يرمون المحصنات بالزنا، فاكفى بذكره المتقدم عن إعادته. ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا﴾ على ما مرَّهَّنْ به ﴿بِإِعْمَارِ شَيْئَةٍ﴾ عدول يشهدون أنهم رأوهن يفعلن ذلك ﴿فَتَقَالُوا نَجَسًا﴾ يعني القاذفين.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْنُونَ يَرْجُونَ التَّصْحِيحَ﴾ شرائط الإحصان في الزنى الموجب للرجم عندنا أربعة: البلوغ، والحرية، والعقل، والوطء في نكاح صحيح. فأما الإسلام، فليس بشرط في الإحصان، خلافاً لأبي حنيفة، ومالك. وأما شرائط إحصان القذف فأربع: الحرية، والإسلام، والعفة، وأن يكون المقدوف ممن يجامع مثله. ومعنى الآية: يرمون المحصنات بالزنا، فاكفى بذكره المتقدم عن إعادته. ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا﴾ على ما مرَّهَّنْ به ﴿بِإِعْمَارِ شَيْئَةٍ﴾ عدول يشهدون أنهم رأوهن يفعلن ذلك ﴿فَتَقَالُوا نَجَسًا﴾ يعني القاذفين.

(١) هو يعقوب بن إسحاق بن بختان، أبو يوسف، سمع من الإمام أحمد، ترجمته في «طبقات الحنابلة» ١/ ٤١٥.

(٢) رواه أحمد في «المسند»، والنسائي، والطبري، والحاكم وصححه، وذكره السيوطي في «الدر» ١٦/ ٥ وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه»، وأبي داود في «ناسخه».

(٣) ذكره بنحوه الطبري عن ابن عباس.

(٤) قال ابن جرير الطبري ٧٥/ ١٨: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عني بالنكاح في هذا الموضع: الوطء، وأن الآية نزلت في البغايا المشركات ذوات الرايات، وذلك لقيام الحجة على أن الزانية من المسلمات حرام على كل مشرك، وأن الزاني من المسلمين حرام عليه كل مشركة من عبدة الأوثان، فمعلوم إذا كان ذلك كذلك، أنه لم يُنْصَحْ بالآية أن الزاني من المؤمنين لا يعقد عقد نكاح على عفيفة من المسلمات، ولا ينكح إلا بزانية أو مشركة، وإذا كان ذلك كذلك، فينبى أن معنى الآية: الزاني لا يزني إلا بزانية لا تستحل الزنا، أو بشركة تستحلها. اهـ.

(٥) قال ابن كثير: ومن هاهنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه لا يصح العقد من الرجل الغفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تستتاب، فإن تاب، صح العقد عليها، وإلا فلا، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة، لقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. اهـ.

فصل

وقد أفادت هذه الآية أن على القاذف إذا لم يُقَمِّم البيِّنة الحدَّ وردَّ الشهادة وثبوت الفُسق. واختلفوا هل يُحَكِّم بفسقه وردَّ شهادته بنفس القذف، أم بالحدِّ؟ فعلى قول أصحابنا: إنه يُحَكِّم بفسقه وردَّ شهادته إذا لم يُقَمِّم البيِّنة، وهو قول الشافعي. وقال أبو حنيفة، ومالك: لا يُحَكِّم بفسقه، وتقبل شهادته ما لم يُقَمِّم الحدَّ عليه.

فصل

والتعريض بالقذف - كقوله لمن يخاصمه: ما أنت بزاني، ولا أُمك زانية - يوجب الحدَّ في المشهور من مذهبنا. وقال أبو حنيفة: لا يوجب الحدَّ. وحدَّ العبد في القذف نصف حدَّ الحرِّ، وهو أربعون، قاله الجماعة، إلا الأوزاعي فإنه قال: ثمانون. فأما قاذف المجنون، فقال الجماعة: لا يُحدُّ. وقال الليث: يُحدُّ. فأما الصبي، فإن كان مثله يجامع أو كانت صبيته مثلاً يجامع، فعلى القاذف الحدَّ. وقال مالك: يُحدُّ قاذف الصبيَّة التي يجامع مثلاً، ولا يُحدُّ قاذف الصبي. وقال أبو حنيفة، والشافعي: لا يُحدُّ قاذفهما. فإن قذف رجل جماعة بكلمة واحدة، فعلى حدَّ واحد، وإن أفرد كلَّ واحد بكلمة، فعليه لكل واحد حدَّ، وهو قول الشعبي، وابن أبي ليلى؛ وقال أبو حنيفة وأصحابه: عليه حدَّ واحد، سواء قذفهم بكلمة أو بكلمات.

فصل

وحدَّ القذف حقَّ لآدمي، يصح أن يبرئ منه، ويعفو عنه. وقال أبو حنيفة: هو حقُّ الله. وعندنا [أنه] لا يستوفى إلا بمطالبة المقدوف، وهو قول الأكثرين. وقال ابن أبي ليلى: يحده الإمام وإن لم يطالب المقدوف. قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ أي: من القذف ﴿وَكَلَّمُوا﴾ قال ابن عباس: أظهروا التوبة؛ وقال غيره: لم يعودوا إلى قذف المُحْصَنَات. وفي هذا الاستثناء قولان: أحدهما: أنه نسخ حدَّ القذف وإسقاط الشهادة معاً، وهذا قول عكرمة، والشعبي، وطاووس، ومجاهد، والقاسم بن محمد، والزهري، والشافعي، وأحمد. والثاني: أنه يعود إلى الفسق فقط، وأما الشهادة، فلا تُقبل أبداً، قاله الحسن، وشريح، وإبراهيم، وقتادة. فعلى هذا القول انقطع الكلام عند قوله: «أبداً»؛ وعلى القول الأول وقع الاستثناء على جميع الكلام، وهذا أصح، لأن المتكلم بالفاحشة لا يكون أعظم جرماً من راكمها، فإذا قُبِلَت شهادة المقدوف بعد ثبوته، فالرامي أيسر جرماً، وليس القاذف بأشدَّ جرماً من الكافر، فإنه إذا أسلم قُبِلَت شهادته^(١).

﴿وَالَّذِينَ يَزْنُونَ أَرْوَاهُمْ وَكَرَّ بَيْنَهُمْ شَهَادَةُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَنُفِذَتْ فِيهِمْ آيَاتُ اللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ① ﴿وَالْمُؤَسَّسَةُ أَنْ لَعَنَتْ اللَّهُ عَلَىٰ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ② وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابُ أَنْ تَشْهَدَ آيَاتُ اللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ③﴾ ④ ﴿وَالْمُؤَسَّسَةُ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ⑤﴾ وَلَا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُ اللَّهِ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ⑥

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْنُونَ أَرْوَاهُمْ﴾ سبب نزولها أن هلال بن أمية وجد عند أهله رجلاً، فرأى بعينه وسمع بأذنه، فلم يُهَجِّجْه حتى أصبح، فغدا على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله: إني جئت أهلي، فوجدت عندها رجلاً، فرأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به، واشتد عليه، فقال سعد بن عباد: الآن يَضْرِبُ رسولُ الله ﷺ هلالاً ويُبْطِل شهادته، فقال هلال: والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً، فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه [إذ] نزل عليه الوحي، فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس^(٢). وفي حديث آخر أن الرجل الذي قذفها به

(١) قال ابن كثير: واختلف العلماء في هذا الاستثناء، هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط، فترفع التوبة الفسق فقط، ويبقى مردود الشهادة دائماً وإن تاب، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة؟ وأما الجدل فقد ذهب وانقضى سواء تاب أو أصرَّ ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف. قال: فذهب الإمام أحمد، ومالك، والشافعي إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته، وارتفع عنه حكم الفسق، ونص عليه سعيد بن المسيب سيد التابعين وجماعة من السلف أيضاً. وقال الإمام أبو حنيفة: إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط، فيرتفع الفسق بالتوبة، ويبقى مردود الشهادة أبداً، قال: ومن ذهب إليه من السلف، القاضي شريح، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، ومكحول، وعبد الرحمن بن زيد بن جابر. وقال الشعبي والفحاح: لا تقبل شهادته وإن تاب، إلا أن يعترف على نفسه أنه قد قال البهتان، فيحتجَّ بقبل شهادته، والله أعلم. اهـ.

(٢) رواه أحمد في «المستند»، وهو في «الطبري» ٨٢/١٨، ٨٣، وأسباب النزول للواحدي ١٨٠. قال ابن كثير: ورواه أبو داود عن الحسن بن علي عن =

شريك بن سحماء، وأن رسول الله ﷺ قال لهلال حين قذفها: «اتنني بأربعة شهداء، وإلا فحد في ظهرك»، فنزلت هذه الآية^(١)، فُنسخ حكم الجلد في حق الزوج القاذف.

فصل في بيان حكم الآية

إذا قذف الرجل زوجته بالزنا، لزمه الحد، وله التخلص منه بإقامة البيّنة، أو باللّعان، فإن أقام البيّنة لزمها الحد، وإن لاعنها، فقد حَقَّقَ عليها الزنا، ولها التخلص منه باللّعان؛ فإن نكل الزوج عن اللعان، فعليه حدُّ القذف، وإن نكلت الزوجة، لم تحدّ، وحُبست حتى تُلاعن أو تُقَرَّ بالزنا في إحدى الروايتين، وفي الأخرى: يُخْلَى سبيلُها. وقال أبو حنيفة: لا يُحدُّ واحد منهما، ويُحبس حتى يُلاعن. وقا مالك، والشافعي: يجب الحدُّ على الناكل منهما.

فصل

ولا تصح الملاءنة إلا بحضرة الحاكم. فإن كانت المرأة خفّرة، بعث الحاكم من يُلاعن بينهما. وصفة اللعان أن يبدأ الزوج فيقول: أشهد بالله إنني لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا، أربع مرات، ثم يقول في الخامسة: ولعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم تقول الزوجة أربع مرات: أشهد بالله لقد كذب فيما رماني به من الزنا، ثم تقول: وغضب الله عليها إن كان من الصادقين. والسنة أن يتلاعنا قِياماً، ويقال للزوج إذا بلغ اللعنة: اتق الله فإنها المؤجبة، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وكذلك يقال للزوجة إذا بلغت إلى الغضب. فإن كان بينهما ولد، اقتصر نفيه عن الأب إلى ذكره في اللعان، فيزيد في الشهادة: وما هذا الولد ولدي، وتزيد هي: وإن [هذا] الولد ولده.

فصل

واختلف الفقهاء في الزوجين اللذين يجري بينهما اللعان، فالمشهور عن أحمد كل زوج صح قذفه صح لعانه، فيدخل تحت هذا المسلم والكافر والحر والعبد، وكذلك المرأة، وهذا قول مالك، والشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يجوز اللعان بين الحر والأمة، ولا بين العبد والحرّة، ولا بين الذميين، أو إذا كان أحدهما ذمياً؛ ونقل حرب عن أحمد نحو هذا، والمذهب هو الأول. ولا تختلف الرواية عن أحمد أن فُرقة اللعان لا تقع بلعان الزوج وحده. واختلف هل تقع بلعانهما من غير فُرقة الحاكم على روايتين. وتحريم اللعان مؤيد، فإن أكذب الملاءع نفسه لم تحلّ له زوجته أيضاً، وبه قال عمر، وعلي، وابن مسعود؛ وعن أحمد روايتان، أصحهما: هذا، والثانية: يجتمعان بعد التكذيب، وهو قول أبي حنيفة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَكُنْ لَكُم شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُكُمْ﴾ وقرأ أبو المتوكل. وابن يعمر، والنخعي: «تكن» بالثاء.

قوله تعالى: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «أربع» بفتح العين. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: برفع العين. قال الزجاج: من رفع «أربع»، فالمعنى: فشهادة أحدهم التي تدرأ حدَّ القذف أربع؛ ومن نصب، فالمعنى: فعليهم أن يشهد أحدهم أربع.

قوله تعالى: ﴿وَالْخَوَاسَةُ﴾ قرأ حفص عن عاصم: «والخامسة» نصباً، حملاً على نصب «أربع شهادات».

قوله تعالى: ﴿أَنْ لَعَنَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ قرأ نافع، ويعقوب، والمفضل: «أَنْ لَعَنَ اللَّهُ» و«أَنْ غَضِبَ اللَّهُ» بتخفيف النون فيهما وسكونهما ورفع الهاء من «لعنة» والباء من «غضب» إلا أن نافعاً كسر الضاد من «غَضِبَ» وفتح الباء.

قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُهَا عَتَا﴾ أي: ويدفع عنها «الآذَاب» وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: [أن] الحد. والثاني: الحبس. ذكرهما ابن جرير. والثالث: العار.

^١ يزيد بن هارون به مختصراً، ثم قال: ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة، وذكر منها الحديث الذي ذكره المصنف بعد هذا. والحديث ذكره السيوطي في «الدر» ٢١/٥ وزاد نسبه لعبد الرزاق، والطيايبي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس.

(١) البخاري ٣٤١/٨، والترمذي ١٤٨/٢، وذكره السيوطي في «الدر» ٢٢/٥ وزاد نسبه لابن ماجه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: ستره ونعمته. قال الزجاج: وجواب «لولا» هاهنا، متروك؛ والمعنى: لولا ذلك لنال الكاذب منكم عذاب عظيم. وقال غيره: لولا فضل الله لبين الكاذب من الزوجين فأقيم عليه الحد، «وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ» يعود على من رجع عن المعاصي بالرحمة «حَسْبُكُمْ» فيما فرض من الحدود^(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لِّكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْثَبَ مِنَ الْإِنِّيرِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ أَنفُسَهُمْ خَبْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ١٢ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَذُكِّرُوا وَلَوْلَا تَلَافُؤُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَدُوِّ فَذُكِّرُوا ١٣ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَسَفَّيْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسَّلَامِ وَالْجُنَّةِ وَتَقُولُونَ بِإِفْكِهَا مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيَّا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ١٥ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَشَرٌ مِّثْلُنَا عَظِيمٌ ١٦ يَبْطُلُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَقُولُوا يَلْفِظُهُ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١٧ وَيَنْبَغِي لِلَّهِ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٨ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفِتْنَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ١٩ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ أجمع المفسرون؛ أن هذه الآية وما يتعلق بها بعدها نزلت في قصة عائشة. وفي حديث الإفك أن هذه الآية إلى عشر آيات نزلت في قصة عائشة. وقد ذكرنا حديث الإفك في كتاب «الحدائق» وفي كتاب «المعنى في التفسير» فلم نطل بذكره، لأن غرضنا اختصار هذا الكتاب ليحفظ^(٢). فأما الإفك، فهو الكذب، والعصبة: الجماعة. ومعنى قوله: ﴿يَنْكُرُ﴾ أي: من المؤمنين. وروى عروة عن عائشة أنها قالت: هم أربعة: حسان بن ثابت، وعبد الله بن أبي [بن سلول]، ومسطح بن أثانة، وخمسة بنت جحش، وكذلك عددهم مقاتل^(٣).

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ قال المفسرون: هذا خطاب لعائشة وصفوان بن المعطل، وقيل: لرسول الله ﷺ وأبي بكر وعائشة؛ والمعنى: إنكم توجرون فيه^(٤)، «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ» يعني: من العصبة الكاذبة «مَا أَكْثَبَ مِنَ الْإِنِّيرِ» أي: جزاء ما اجترح من الذنب على قدر خوضه فيه، «وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ» قرأ ابن عباس، وأبو رزين، وعكرمة، ومجاهد، وابن أبي عبله، والحسن، ومحبوب عن أبي عمرو، ويعقوب: «كُتِبَ» بضم الكاف. قال الكسائي: وهما لغتان. وقال ابن تقيية: كِبُرُ الشيء: مُعْظَمُهُ^(٥). ومنه هذه الآية. قال قيس بن الخطيم يذكر امرأة:

(١) قال ابن جرير الطبري ٨٦/١٨: يقول تعالى ذكره: ولولا فضل الله عليكم أيها الناس ورحمته بكم، وأنه عواد على خلقه بلفظه وظلوه، حكيم في تدبيره إياهم وسيات لهم، لما حكم بالعقوبة على معاصيكم، وفضح أهل الذنوب منكم بذنوبهم، ولكنه ستر عليكم ذنوبكم، وترك فضيحتكم بها عاجلاً، رحمةً منه بكم، وتقضياً عليكم، فاشكروا نعمه، وانتهوا عن التقدم بما عنه نهاكم من معاصيه، وترك الجواب في ذلك اكتفاء بمعرفة السامع المراد منه. اهـ.

(٢) حديث الإفك مشهور، رواه أحمد في «المستند»، والبخاري ومسلم في «صحيحيهما»، والترمذي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب» عن عائشة ؓ، وهو حديث طويل، وهذه الآيات العشر نزلت في شأن عائشة ؓ حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والغربة التي غار الله ﷻ لها ولنبيه ﷺ فأنزل الله تعالى براءتها في القرآن صيانة لعرض الرسول ﷺ، وكان الذين جاؤوا بالإفك عصبة، يعني ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، والذي تحمل معظم ذلك الإثم والإفك منهم، هو الذي بدأ بالخوض فيه، وهو عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، فإنه كان يجمعهم ويستوشيه ويلبسه ويشيعه، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين، فتكلموا به، وجزوه آخرون منهم، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر وعائشة ؓ تقول: «تَصَبَّرْ حَيْثُ وَاللَّهِ الشُّكَّانُ عَلَى مَا صَبَّحُوا» حتى نزل القرآن ببراءتها، فقال رسول الله ﷺ لعائشة: «أبشري فقد أنزل الله براءتك» وكانت السيدة عائشة الصديقة تقول: «والله ما كنت أظن أن الله ﷻ ينزل في شأني حياً ينلني، ولشأنني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بامر ينلني، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها». وقد روى قصة الإفك مطولة الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ٣٤٢/٨ - ٣٧٥، وابن كثير في «التفسير» ٢٦٨/٣، وغيرهما.

(٣) وفي «صحيح البخاري» ٣٤٣/٨ عن عروة عن عائشة ؓ: «وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ» قالت: عبد الله بن أبي بن سلول. اهـ. وهو الذي بدأ بالخوض فيه، وأذاعه وأشاعه، فله عذاب عظيم على ذلك.

(٤) قال ابن كثير: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾، أي: يا آل أبي بكر، بل هو خير لكم، أي: في الدنيا والآخرة، لسان صدق في الدنيا، ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بمائشة أم المؤمنين ؓ حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولهذا لما دخل عليها ابن عباس ؓ وعنها وهي في سياق الموت قال لها: أبشري فإنك زوجة رسول الله ﷺ، وكان يحبك ولم يتزوج بكراً غيرك، ونزلت براءتك من السماء. اهـ.

(٥) نقل في «اللسان» هذا القول عن ابن السكيت، وفي «غريب القرآن»: «وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ» أي: عظمه.

تَنَامُ عَنْ كِبَرِ شَأْنِهَا فَإِذَا قَامَتْ رُؤُوداً تَكَادُ تَنْفَرِفُ^(١)

وفي المتولي لذلك قولان: أحدهما: أنه عبد الله بن أبي، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وعروة عن عائشة، وبه قال مجاهد، والسدي، ومقاتل. قال المفسرون: هو الذي أشاع الحديث، فله عذاب عظيم بالنار. وقال الضحاك: هو الذي بدأ بذلك. والثاني: أنه حسان^(٢)؛ روى الشعبي أن عائشة قالت: ما سمعت أحسن من شعر حسان، وما تمثلت به إلا رجوت له الجنة؛ فقل: يا أم المؤمنين، أليس الله يقول: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟ فقالت: أليس قد ذهب بصره؟ وروى عنها مسروق أنها قالت: وأي عذاب أشد من العمى، ولعل الله أن يجعل ذلك العذاب العظيم، ذهاب بصره، تعني: حسان بن ثابت. ثم إن الله عز وجل أنكر على الخائضين في الإفك بقوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: هلاً إذ سمعتم أيتها العصابة الكاذبة فذفت عائشة ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ﴾ من العصابة الكاذبة، وهم حسان ومسطح ﴿وَالَّذِينَ﴾ وهي: حمنة بنت جحش ﴿يَأْتُسُّهُمْ﴾ وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: بأهانتهم. والثاني: بأخواتهم. والثالث: بأهل دينهم، لأن المؤمنين كنفس واحدة، ﴿وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مِّمَّنْ﴾ أي: كذب بين. وجاء في التفسير أن أبا أيوب الأنصاري قالت له أمه: ألا تسمع ما يقول الناس في أمر عائشة؟ فقال: هذا إفك مبين، أكنيت يا أمه فاعلته؟ قالت: معاذ الله، قال: فعائشة والله خير منك؛ فنزلت هذه الآية^(٣).

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءُوا﴾ أي: هلاً جاءت العصابة الكاذبة على قذفهم [عائشة] ﴿يَأْتُسُّهُمْ﴾ وقرأ الضحاك، وعاصم الجحدري: «بأريعة» منونة؛ والمعنى: يشهدون بأنهم عاينوا ما رموها به ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: في حكمه ﴿هُمُ الْكَذِبُونَ﴾. ثم ذكر القاذفين فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: لولا ما من الله به عليكم، ﴿لَسَكَّرَ﴾ أي: لأصابكم ﴿فِي مَا أَفْسَرْتُمْ﴾ أي: أخذتم وخضتم ﴿وَيَوْمَ﴾ من الكذب والقذف ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة^(٤). ثم ذكر الوقت الذي لولا فضله لأصابهم فيه العذاب فقال: ﴿إِذْ تَلْقَوْنَهُ﴾ وكان الرجل منهم يلقي الرجل فيقول: بلغني كذا، فيتلقا بعضهم من بعض. وقرأ عمر بن الخطاب: «إِذْ تَلْقَوْنَهُ» بياء واحدة خفيفة مرفوعة وإسكان اللام وقاف منقوطة بتقطعتين مرفوعة خفيفة؛ وقرأ معاوية، وابن السميع مثله، إلا أنهما فتحا التاء والقاف. وقرأ ابن مسعود: «تَلْقَوْنَهُ» بتياءين مفتوحتين مع نصب اللام وتشديد القاف. وقرأ أبي بن كعب، وعائشة، ومجاهد، وأبو حيو: «تَلْقَوْنَهُ» بتياء واحدة خفيفة مفتوحة وكسر اللام ورفع القاف. وقال الزجاج: «تَلْقَوْنَهُ» يُلْقِيهِ بعضكم إلى بعض وتَلْقَوْنَهُ، ومعناه: إذ تُسرعون بالكذب، يقال: وَلَقَى يَلْقَى: إذا أسرع في الكذب وغيره، قال الشاعر:

جاءت به عننس من الشام تليق^(٥)

أي: تُسرع. وقال ابن قتية: «تَلْقَوْنَهُ» أي: تَقْبَلُونَهُ، ومن قرأ: «تَلْقَوْنَهُ» أخذه من الولق، وهو الكذب.

(١) ديوانه ١٧، ومختار الشعر الجاهلي ٥٦٤/٢، و«غريب القرآن» ٣٠١، و«اللسان» و«التاج»: كبر، قال يعقوب: معناه: تنشئ، وقيل: معناه: تنقص من وقته خصرها.

(٢) قال ابن جرير الطبري ٨٩/١٨: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: الذي تولى كبره من عصابة الإفك، كان عبد الله بن أبي، وذلك أنه لا خلاف بين أهل العلم بالسيرة، أن الذي بدأ بذكر الإفك وكان يجمع أهله ويحدثهم، عبد الله بن أبي بن سلول، ونقله ذلك على ما وصفت، كان تولى كبر ذلك الأمر. اهـ. وقال ابن كثير ٣/٢٧٢: والأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبي بن سلول فبهه الله تعالى ولمعه، وهو الذي تقدم النص عليه في الحديث، وقال ذلك مجاهد وغير واحد. اهـ.

(٣) قال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مِّمَّنْ﴾ أي: كذب ظاهر على أم المؤمنين ﷺ، فإن الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن منجي أم المؤمنين رابية جهرة على راحلة صفوان بن المصطلق في وقت الظهيرة والجيوش بكاماله يشاهدون ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، ولو كان هذا الأمر فيه ريبة، لم يكن هذا جهرة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان هذا يكون لو قدر خفية مستوراً، فتبين أن ما جاء به أهل الإفك مما زعموا به أم المؤمنين، هو الكذب البحت، والقول الزور، والروعة الفاحشة الفاجرة، والصفقة الخاسرة. اهـ.

(٤) قال ابن كثير: وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة، كمسطح، وحسان، وحنمة بنت جحش، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول وأضرابه، فليس أولئك مرادين في هذه الآية، لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه، ومكنا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين، يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه. اهـ.

(٥) الرجز في «الطبري» ٩٨/١٨، و«القرطبي» ٢٠٤/٢٢، و«اللسان»: ولق.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْلُوا لَهُ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: من غير أن تعلموا أنه حق ﴿وَتَحْسَبُونَهُ﴾ يعني: ذلك القذف ﴿مِينًا﴾ أي: سهلاً لا إثم فيه ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في الوزر^(١). ثم زاد عليهم في الإنكار فقال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا﴾ أي: ما يحلُّ وما ينبغي لنا ﴿أَنْ تَتَكَلَّمُوا بِهَذَا سُبْحَنَكَ﴾ وهو يحتمل التنزيه والتعجب. وروت عائشة أن امرأة أبي أيوب الأنصاري قالت له: ألم تسمع ما يتحدث الناس؟ فقال: «ما يكون لنا أن نتكلم بهذا...» الآية، فنزلت الآية. وقد رويتنا أنفاً أن أمه ذكرت له ذلك، فنزلت الآية المتقدمة. وروي عن سعيد بن جبير أن سعد بن معاذ لما سمع ذلك قال: سبحانك هذا بهتان عظيم، فقيل للناس: هلا قلتم كما قال سعد؟

قوله تعالى: ﴿يَعْلُوكُمْ اللَّهُ﴾ أي: ينهاكم الله ﴿أَنْ تَوَدُّوا لِئِيلِهِ﴾ أي: إلى مثله ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لأن من شرط الإيمان ترك قذف المحصنة. ﴿وَيَسِّرْ اللَّهُ لَكُمْ الْأَيْدِيَّ﴾ في الأمر والنهي. ثم هدد القاذفين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَخِجَ الْفَاحِشَةُ﴾ أي: يحبون أن يفسدوا القذف بالفاحشة، وهي الزنى ﴿فِي الْأَيْدِيَّ﴾ مَأْمُورٌ لَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ في الدنيا. يعني: الجلد ﴿وَالْآخِرَةَ﴾ عذاب النار. وروت عُمرة عن عائشة قالت: لما نزل عذري قام رسول الله ﷺ على المنبر، فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين وامرأة، فضربوا حدهم^(٢). وروى أبو صالح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ جلد عبد الله بن أبيي، ومسطح بن أثانة، وحسان بن ثابت، وخمسة بنت جحش^(٣)، فأما الثلاثة فتاوى، وأما عبد الله فمات منافقاً، وبعض العلماء ينكر صحة هذا، ويقول: لم يضرب أحداً.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ شر ما خُصِم فيه وما يتضمن من سخط الله ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك^(٤)، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ جوابه محذوف، تقديره: لعاقبكم فيما قلتم لعائشة. قال ابن عباس: يريد: مسطحاً، وحسان، وخمسة. ﴿يَنَالُ الَّذِينَ مَأْمُرُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَنَبِّئِ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ آدَمَ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: تزيينه لكم قذفت عائشة. وقد سبق شرح «خطوات الشيطان» وبيان «الفحشاء والمنكر» [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

قوله تعالى: ﴿مَا زَكَا مِنْكُمْ﴾ وقرأ الحسن، ومجاهد، وقتادة: «ما زكى» بتشديد الكاف. وفيمن خوطب بهذا قولان: أحدهما: أنه عام في الخلق. والثاني: أنه خاص للمتكلمين في الإفك. ثم في معناه أربعة أقوال: أحدها: ما اهتدى، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: ما أسلم، قاله ابن زيد. والثالث: ما صلح، قاله مقاتل. والرابع: ما طهر، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أي: يطهر من يشاء من الإثم بالتوبة والغفران؛ فالمعنى: وقد شئت أن أتوب عليكم، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ علم ما في نفوسكم من التوبة والندامة. ﴿وَلَا يَأْتِي أُولَ الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالسَّكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِي﴾ وقرأ الحسن، وأبو العالية، وأبو جعفر، وابن أبي عبة: «ولا يئال» بهمة مفتوحة بين التاء واللام وتشديد اللام على وزن يَتَعَلَّ. قال المفسرون: سبب نزولها أن أبا بكر الصديق كان ينفق على مسطح لقربته وفقره، فلما خاض في أمر عائشة قال أبو بكر: والله لا أنفق عليه [شيئاً] أبداً، فنزلت هذه الآية^(٥).

(١) وفي «الصحيحين»: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب».

(٢) رواه أحمد، وأصحاب السنن الأربعة.

(٣) رواه أبو داود في «سننه» رقم (٤٤٧٥).

(٤) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره: والله يعلم كذب الذين جاؤوا بالإفك من صدقهم، وأنتم أيها الناس لا تعلمون ذلك، لأنكم لا تعلمون الغيب، وإنما يعلم ذلك عالم الغيوب، يقول: فلا ترووا ما لا علم لكم به من الإفك على أهل الإيمان بالله، ولا سيما على حلال رسول الله ﷺ فتهلكوا. اهـ.

(٥) روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت عندما نزلت الآيات العشر في براءتها: فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثانة لقربته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِي أُولَ الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ =

فأما الفضل، فقال أبو عبيدة: هو الفضل، والسعة: الجدة. قال المفسرون: والمراد به: أبو بكر.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يُؤْتُوا﴾ قال ابن قتيبة: معناه: أن لا يؤتوا، فحذف «لا». فأما قوله: ﴿أُولَى الْقُرْبَى﴾ فإنه يعني مسطحاً، وكان ابن خالة أبي بكر، وكان مسكيناً، وكان مهاجراً. قال المفسرون: فلما سمع أبو بكر ﴿أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: بلى يا رب، وأعاد نفقته على مسطح.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُسَوِّمَاتِ لَمَّا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ بَعْضُ اللَّهِ مِنْهُمْ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ يعني: العفاف ﴿الْفَاضِلَاتِ﴾ عن الفواحش، ﴿الْمُسَوِّمَاتِ﴾ أي: عُدِّبوا بالجلد، وفي الآخرة بالتار. واختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآية على أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في عائشة خاصة. قال خصيف: سألت سعيد بن جببر عن هذه الآية، فقلت: من قذف محصنة لعنه الله؟ قال: لا، إنما أنزلت هذه الآية في عائشة خاصة^(١). والثاني: أنها في أزواج النبي ﷺ خاصة، قاله الضحاك^(٢). والثالث: أنها في المهاجرات. قال أبو حمزة الثمالی: بلغنا أن المرأة كانت إذا خرجت إلى المدينة مهاجرة، قذفها المشركون من أهل مكة، وقالوا: إنما خرجت تاجر، فنزلت هذه الآية. والرابع: أنها عامّة في أزواج النبي ﷺ وغيرهن، وبه قال قتادة، وابن زيد^(٣). فإن قيل: لم اقتصر على ذكر المحصنات دون الرجال؟ فالجواب: [أن] من رمى مؤمنة فلا بد أن يرمي معها مؤمناً، فاستغني عن ذكر المؤمنين، ومثله: ﴿سَرَّيْلَ قَيْصَكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أراد: والبرد، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «يشهد» بالياء، وهو إقرارها بما تكلموا به من الفرية. قال أبو سليمان الدمشقي: وهؤلاء غير الذين يُخْتَمُ على أفواههم. وقال ابن جرير: المعنى: أن السنة بعضهم تشهد على بعض.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ بَعْضُ اللَّهِ مِنْهُمْ الْحَقَّ﴾ أي: حسابهم العدل، وقيل: جزاءهم الواجب. وقرأ مجاهد، وأبو الجوزاء، وحמיד بن قيس، والأعمش: «دينهم الحق» برفع القاف ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن عبد الله بن أبيّ كان يشك في الدين، فإذا كانت القيامة عليم حيث لا يفتنه.

﴿لَا يَشِئْتُ لِلْخَيْثِثِ وَالْخَيْثِثِ لِلْخَيْثِثِ وَالْخَيْثِثِ لِلْخَيْثِثِ وَالْخَيْثِثِ لِلْخَيْثِثِ أُولَئِكَ مِرْيُوتٌ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَشِئْتُ لِلْخَيْثِثِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: الكلمات الخيثيات لا يتكلم بها إلا الخييث من الرجال والنساء، والكلمات الطييات لا يتكلم بها إلا الطييون من الرجال والنساء. والثاني: الكلمات الخيثيات إنما تلصق بالخيثيين من الرجال والنساء، فأما الطييات والطييون، فلا يصلح أن يقال في حقهم إلا الطييات. والثالث: الخيثيات من النساء للخيثيين من الرجال، والطييات من النساء للطيبين من الرجال. والرابع: الخيثيات من الأعمال للخيثيين من الناس، والخيثيون من الناس للخيثيات من الأعمال، وكذلك الطييات. ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني: عائشة وصفوان ﴿مِرْيُوتٌ﴾ أي: منزهون ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾ من الفرية ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة.

﴿يَمَّا يَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَلِأَهْلِهَا دَلِيلٌ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُذَكَّرُونَ﴾

= رَأَيْتُمْ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى إِلَى قوله: ﴿أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان يتفق عليه وقال: والله لا أنزعها عنه أبداً.

(١) «الطبري» ١٠٣/١٨، وذكره السيوطي في «الدر» ٣٥/٥ وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، والطبراني.

(٢) «الطبري» ١٠٤/١٨، وذكره السيوطي في «الدر» ٣٥/٥ وزاد نسبه لعبد بن حميد.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وأولى هذه الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: نزلت هذه الآية في شأن عائشة، والحكم بها عام في كل من كان بالصفة التي وصفه الله بها فيها. اهـ. وقال ابن كثير: وهو الصحيح، ويعضد العموم ما جاء في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: وما هن؟ يا رسول الله؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

لَرَّ نَجِدُوا فِيهَا آهَكَا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُوْذَنَ لَكُمُ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ ذكر أهل التفسير أن سبب نزولها أن امرأة من الأنصار جاءت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد، فلا يزال يدخل علي رجل من أهلي، فنزلت هذه الآية^(١)؛ فقال أبو بكر بعد نزولها: يا رسول الله، أفرأيت الخانات والمساكن التي ليس فيها ساكن، فنزل قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ...﴾ الآية^(٢). ومعنى قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ أي: بيوت ليست لكم. واختلف القراء في باء البيوت، فقرأ بعضهم بضمها، وبعضهم بكسرهما. وقد بيّنا ذلك في [البقرة: ١٨٩].

قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَسْأَلُوا﴾ قال الفراء: في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: حتى تسلموا وتستأنسوا. قال الزجاج: «وتسأنسوا» في اللغة، بمعنى تستأذنوا، وكذلك هو في التفسير، والاستئذان: الاستعلام، تقول: أذنته بكذا، أي: أعلمته، وأنتت منه كذا، أي: علمت منه، ومثله: ﴿فَإِنَّ مَآسَمَكُمْ يَنْتَهِمُ عَنْكُمْ﴾ [النساء: ٦] أي: علمتم. فمعنى الآية: حتى تستعلموا، يريد أهلها أن تدخلوا، أم لا؟ قال المفسرون: وصفة الاستعلام أن تقول: السلام عليكم، أدخل؟ ولا يجوز أن تدخل بيت غيرك إلا بالاستئذان، لهذه الآية، ﴿ذَلِكَ حَتَّى لَكُمْ﴾ من أن تدخلوا بغير إذن ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تَدْعُونَ﴾ أن الاستئذان خير فتأخذون به، قال عطاء: قلت لابن عباس: أستاذن على أمي وأختي ونحن في بيت واحد؟ قال: أيسرك أن ترى منهن عورة؟ قلت: لا، قال: فاستأذن.

قوله تعالى: ﴿إِنْ لَرَّ نَجِدُوا فِيهَا آهَكَا﴾ أي: إن وجدتموها خالية ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُوْذَنَ لَكُمُ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ أي: إن ردوكم فلا تقفوا على أبوابهم وتلازموها، ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ يعني: الرجوع خير لكم وأفضل ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الدخول بإذن وغير إذن ﴿عَلِيمٌ﴾^(٣).

فصل

وهل هذه الآية منسوخة، أم لا؟ فيها قولان: أحدهما: أن حكمها عام في جميع البيوت، ثم نسخت منها البيوت التي ليس لها أهل يُستأذنون بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾، هذا مروى عن الحسن، وعكرمة. والثاني: أن الآيتين محكمتان، فالاستئذان شرط في الأولى إذا كان للدار أهل، والثانية وردت في بيوت لا ساكن لها، والإذن لا يتصور من غير آذن، فإذا بطل الاستئذان، لم تكن البيوت الخالية داخلة في الأولى، وهذا أصح.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ فيها خمسة أقوال: أحدها: أنها الخانات والبيوت المبنية للسابلة ليأوا إليها، ويؤووا أمتعتهم، قاله قتادة. والثاني: أنها البيوت الخرية، والمتاع: قضاء الحاجة فيها من الغائط والبول، قاله عطاء. والثالث: أنها بيوت مكة، قاله محمد بن الحنفية. والرابع: حوانيت التجار التي بالأسواق، قاله ابن زيد. والخامس: أنها جميع البيوت التي لا ساكن لها، لأن الاستئذان إنما جعل لأجل الساكن، قاله ابن جريج. فيخرج في معنى «المتاع» ثلاثة أقوال: أحدها: الأمتعة التي تباع وتشترى. والثاني: إلقاء الأذى من الغائط والبول. والثالث: الانتفاع بالبيوت لاتقاء الحر والبرد.

(١) «الطبري» ١٨/ ١١١، و«أسباب النزول» للواحدي ١٨٦، وذكره السيوطي في «الدر» ٣٨/٥ وزاد نسبه للفرابي.

(٢) ذكره الراجزي في «أسباب النزول» ١٦٨ بدون سند.

(٣) قال ابن كثير: هذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان. أمرهم أن لا يدخلوا بيوت غير بيوتهم حتى يستأنسوا، أي: يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعلمه، قال: وبني أن يستأذن ثلاث مرات، فإن أذن له، وإلا انصرف، كما ثبت في «الصحيح» أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً فلم يؤذن له، انصرف، ثم قال عمر: ألم اسمع صوت عبد الله بن تيس يستأذن؟ انظروا له، فظنبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما أرجعكم؟ قال: إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليصرف».

﴿قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠) وَقُلِ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِمَوْلَاهِنَّ أَوْ مَا بَيْنَ أَيْدِيَهُنَّ أَوْ مَا بَيْنَ أَيْدِيَهُنَّ أَوْ أَثْنَاهُنَّ أَوْ أَرْجُلَهُنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَاءَهُنَّ أَوْ شِجَابَهُنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّلَبُّوسَ غَيْرَ أُولَى الْأَرْزِقِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْبَطْلَانَ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْدَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا إِنَّهُ يَتُوبُ الْعُثُورَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣١)

قوله تعالى: ﴿قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ في «من» قولان: أحدهما: أنها صلة. والثاني: أنها أصل، لأنهم لم يؤمروا بالغض مطلقاً، وإنما أمروا بالغض عما لا يحل. وفي قوله: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ قولان: أحدهما: عما لا يحل لهم، قاله الجمهور. والثاني: عن أن تُرى، فهو أمر لهم بالاستتار، قاله أبو العالية، وابن زيد.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ﴾ إشارة إلى الغض وحفظ الفروج ﴿أَزْكَى لَكُمْ﴾ أي: خير وأفضل ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ في الأبصار والفروج (١). ثم أمر النساء بما أمر به الرجال.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي: لا يُظهرنَّها لغير محرم. وزينتهن على ضربين. خفية كالسوارين والقرطين والدملج والقلائد ونحو ذلك، وظاهرة وهي المشار إليها بقوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وفيه سبعة أقوال: أحدها: أنها الثياب، رواه أبو الأحوص عن ابن مسعود، وفي لفظ آخر قال: هو الرداء. والثاني: أنها الكف والخاتم والوجه. والثالث: الكحل والخاتم، رواهما سعيد بن جبير عن ابن عباس. والرابع: القلبان، وهما السواران والخاتم والكحل، قاله الميسور بن مخرمة. والخامس: الكحل والخاتم والخضاب، قاله مجاهد. والسادس: الخاتم والسوار، قاله الحسن. والسابع: الوجه والكفان، قاله الضحاك. قال القاضي أبو يعلى: والقول الأول أشبه (٢)، وقد نص عليه أحمد، فقال: الزينة الظاهرة: الثياب، وكل شيء منها عورة حتى الظفر (٣)، ويفيد هذا تحريم النظر إلى شيء من الأجنيات لغير عذر، فإن كان لعذر مثل أن يريد أن يتزوجها أو يشهد عليها، فإنه ينظر في الحالين إلى وجهها خاصة؛ فأما النظر إليها لغير عذر، فلا يجوز لا لشهوة ولا لغيرها، وسواء في ذلك الوجه والكفان وغيرهما من البدن. فإن قيل: فلم لا تبطل الصلاة بكشف وجهها؟ فالجواب: أن في تغطيته مشقة، فغُفِيَ عنه.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ وهي جمع خمار، وهو ما تغطي به المرأة رأسها، والمعنى: ولْيُثَبِّتْنَ مَقَانِعَهُنَّ ﴿عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ ليسترن بذلك شعورهن وقرطهن وأعناقهم. وقرأ ابن مسعود، وأبني بن كعب، وإبراهيم النخعي، والأعمش: «على جُيُوبِهِنَّ» بكسر الجيم، ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ يعني: الخفية، وقد سبق بيانها ﴿إِلَّا لِمَوْلَاهِنَّ﴾ قال ابن عباس: لا يَصْغُرَنَّ الجلباب والخمار إلا لأزواجهن.

(١) قال ابن كثير: هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حُرِّم عليهم، فلا ينظروا إلا ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغمضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرف بصره عنه سرياً، كما روى مسلم في «صحيحه» عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجاءة، فأمرني أن أصرف بصري. وروى أبو داود عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليس لك الآخرة». وفي «الصحيح» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أيكم والجلوس على الطرقات» قالوا: يا رسول الله لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أبيتُم فأعطوا الطريق حقه» قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر».

(٢) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك الوجه والكفان، يدخل في ذلك - إذا كان كذلك -: الكحل، والخاتم، والسوار، والخضاب.

(٣) وقال غيره من الأئمة: الوجه والكفان ليسا بعورة، فيجوز للمرأة أن تظهرهما، وهذا مقيد بما إذا لم يكن على الوجه والكفين شيء من الزينة، أما ما يضعه النساء في زماننا من الأصباغ على وجوههن وأكفهن بقصد التجميل، ويظهرن به أمام الرجال في الطرقات، فلا شك في تحريمه عند جميع الأئمة. ثم الوجه والكفان وإن لم يكونا عورة عند بقية الأئمة، فليس معنى ذلك أنه يجب كشفهما عندهم، أو أنه سنة وسترهما بدعة، بل معناه أنه يجوز كشفهما، وذلك إذا أمنت الفتنة. ثم إن سترهما مشروع وهو الأحسن والأكمل، وخاصة في مثل زماننا، فإنا لا نرى ذلك المجتمع المهذب الذي يصغي لقوله تعالى: ﴿قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ والكثير من الناس لا يدرك معنى قوله صلى الله عليه وسلم لجرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه عندما سأله عن نظر الفجاءة: «أصرف بصرك وقوله لعلي رضي الله عنه: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة» والاحتياط في مثل هذا الأمر أفضل، صوناً للنساء، وحفظاً لعفافهن، وإن يستغفن خير لهن.

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَيْسَ لَهُمْ﴾ يعني: المُسلمات. قال أحمد: لا يَحِلُّ للمسلمة أن تكشف رأسها عند نساء أهل الذمة^(١)، واليهودية والنصرانية لا تقبلان المسلمة.

قوله تعالى: ﴿أَوَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ قال أصحابنا: المراد به: الإمام دون العبيد. وقال أحاب الشافعي: يدخل فيه العبيد، فيجوز للمرأة عندهم أن تظهر لمملوكها ما تُظهر لمحارمها، لأن مذهب الشافعي أنه مُحَرَّم لها، وعندنا أنه ليس بمحرم، ولا يجوز أن ينظر إلى غير وجهها وكفها، وقد نص أحمد على أنه لا يجوز أن ينظر إلى شعر مولاته. قال القاضي أبو يعلى: وإنما ذكر الإمام في الآية، لأنه قد يظن الظأن أنه لا يجوز أن تبدي زينتها للإماء، لأن الذين تقدّم ذكرهم أحراراً، فلما ذكر الإمام زال الإشكال.

قوله تعالى: ﴿أَوِ الْكَاذِبِينَ﴾ وهم الذين يتبعون القوم ويكونون معهم لإرفاقهم إياهم، أو لأنهم نَشَؤُوا فيهم. وللمفسرين في هذا التابع ستة أقوال: أحدها: أنه الأحق الذي لا تشبهه المرأة ولا يغار عليه الرجل، قاله قتادة، وكذلك قال مجاهد: هو الأبله الذي يريد الطعام ولا يريد النساء. والثاني: أنه العتین، قاله عكرمة. والثالث: المخنث كان يتبع الرجل يخدمه بطعامه، ولا يستطيع غشيان النساء ولا يشتهيهن^(٢)، قاله الحسن. والرابع: أنه الشيخ القاني. والخامس: أنه الخادم، قاله ابن السائب. والسادس: أنه الذي لا يكثر بالنساء، إما لكِبَر أو لهرم أو لصغر، ذكره ابن المنادي من أصحابنا. قال الزجاج: «غَيْر» صفة للتابعين. وفيه دليل على أن قوله: ﴿أَوَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ معناه: ﴿غَيْرُ أُولَى الْإِزَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ والمعنى: ولا يبدین زینتهن لمماليكهن، ولا لثباعتهن، إلا أن يكونوا غير أولی الإزبة، والإزبة: الحاجة، ومعناه: غير ذوي الحاجات إلى النساء.

قوله تعالى: ﴿أَوِ الْطِفْلِ﴾ قال ابن قتية: يريد الأطفال، بدليل قوله: ﴿أَوَ يَظْهَرُونَ عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أي: لم يعرفوها^(٣). قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ يَافِئَهُنَّ﴾ أي: بإحدى الرجلين على الأخرى ليضرب الخلخال الخلخال فيعلم أن عليها خلخالين^(٤).

(١) قال ابن كثير: يعني تظهر بزيتها أيضاً للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة لئلا تصفهن لرجالهن، وذلك وإن كان محذوراً في جميع النساء، إلا أنه في نساء أهل الذمة أشد، فإنهن لا يمتنعن من ذلك مانع، فاما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتتجرح عنه، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تباهر المرأة المرأة تتمتها لزوجها كأنه ينظر إليها» أخرجه في «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود.

(٢) وفي الصحيح من حديث الزهري عن عائشة ؓ أن مخنثاً كان يدخل على أهل رسول الله ﷺ، وكانوا يعدونه من غير أولي الإزبة، فدخل النبي ﷺ وهو ينعت امرأة، يقول: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أرى هذا يعلم ما هاتنا لا يدخلن عليكم» فأخرجه، فكان بالبيداء يدخل كل يوم جمعة ليستطعم. وروى الإمام أحمد في «المستند» عن أم سلمة أنها قالت: دخل عليها رسول الله ﷺ وعندها مخنث، وعندها عبد الله بن أبي أمية - يعني أخاهما - والمخنث يقول: يا عبد الله إن فتح الله عليكم الطائف غداً، فليكن بابنة خيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، قال: فسمعه رسول الله ﷺ، فقال لأم سلمة: «لا يدخلن هذا عليك» وهو في «الصحيحين» من حديث هشام بن عروة. ورواه أحمد بنحوه عن عائشة ؓ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أرى هذا يعلم ما هاتنا، لا يدخلن عليكم هذا فحجبه، ورواه مسلم، وأبو داود، والنسائي عن أم سلمة ؓ».

(٣) قال ابن كثير: يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهم الرخيم، وتعلمن في المشية، وحركاتهن وسكناتهن، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك، فلا بأس بدخوله، فاما إذا كان مراهماً أو قريباً منه بحيث يعرف ذلك ويدبره، ويفرق بين الشوهاة والحسنة، فلا يمكن من الدخول على النساء، وقد ثبت في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إياكم والدخول على النساء» قيل: يا رسول الله، أفرأيت الحمى؟ قال: «الحمى الموت».

(٤) قال ابن كثير: كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوتها، ضربت برجلها الأرض فيسمع الرجال طنينه، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك، وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستوراً فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي، دخل في هذا النهي، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ يَافِئَهُنَّ﴾ إلى آخره، ومن ذلك أنها نهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها فيشم الرجال طيبها، قال: وقد روى الترمذي عن أبي موسى الأشعري ؓ عن النبي ﷺ أنه قال: «كل حين ذاتية، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا» يعني ذاتية، قال: وفي الباب عن أبي هريرة، وهذا حديث حسن صحيح، رواه أبو داود، والنسائي من حديث ثابت بن عمار به. وقال: ومن ذلك أيضاً أنهن ينهين عن المشي في وسط الطريق لما فيه من التبرج. اهـ. وقال ابن كثير في تمة الآية: وقوله: ﴿وَوَدَّعَا إِلَى اللَّهِ وَجِئَا إِلَيْهِ الْفُتُورَ﴾ قلنا: أي: افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة، والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الذليلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى عنه، والله تعالى هو المستعان. اهـ.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَقَرٌّ يَتَنَزَّلُونَ﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَقَرٌّ يَتَنَزَّلُونَ﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَقَرٌّ يَتَنَزَّلُونَ﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَقَرٌّ يَتَنَزَّلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ وهم الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء، يقال: رجل أيم وامرأة أيم، ورجل أرمل وامرأة أرمل، ورجل بكر وامرأة بكر: إذا لم يتزوجا، وامرأة ثيب ورجل ثيب: إذا كانا قد تزوجا، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم، يقال: عبد وعبد وعبيد، كما يقال: كلب وكلاب وكليب. وقرأ الحسن، ومعاذ القارئ: «من عبيدكم». قال المفسرون: والمراد بالآية التذنب^(١). ومعنى الصلاح هاهنا: الإيمان. والمراد بالعباد: المملوكون، فالمعنى: زوجوا المؤمنين من عبيدكم وولادكم. ثم رجع إلى الأحرار فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم. ثم رجع إلى الأحرار فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم. ثم رجع إلى الأحرار فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم. ثم رجع إلى الأحرار فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم. ثم رجع إلى الأحرار فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم. ثم رجع إلى الأحرار فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم. ثم رجع إلى الأحرار فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم. ثم رجع إلى الأحرار فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم. ثم رجع إلى الأحرار فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم. ثم رجع إلى الأحرار فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم. ثم رجع إلى الأحرار فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم. ثم رجع إلى الأحرار فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم. ثم رجع إلى الأحرار فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم. ثم رجع إلى الأحرار فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم. ثم رجع إلى الأحرار فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم.

(١) قال ابن كثير: اشتملت هذه الآيات الكريمات العبيية، على جمل من الأحكام المحكمة، والأوامر المبرمة، فقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم. ثم رجع إلى الأحرار فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم. ثم رجع إلى الأحرار فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم.

(٢) روى ابن جرير الطبري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: التمسوا الفتي في النكاح، يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم. ثم رجع إلى الأحرار فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم. ثم رجع إلى الأحرار فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: من عبيدكم وولادكم.

(٣) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أحسن للبصر وأحصن للفرج، فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

(٤) الواحد في «أسباب النزول» ١٨٦، وذكره السيوطي في «الدر» ٤٥/٥ من رواية ابن السكن في «معركة الصحابة».

فقال: اذهب يا أبا أمية فاستعن به في مكاتبتك، قال: يا أمير المؤمنين لو أخرته حتى يكون في آخر النجوم، فقال: يا أبا أمية: إني أخاف أن لا أدرك ذلك، ثم قرأ: ﴿وَأَوْفُوا مَن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي مَاتَكُمْ﴾^(١)، قال عكرمة: وكان ذلك أول نجم أدي في الإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا قَتْلِيكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ روى مسلم في «صحيحه» من حديث أبي سفيان عن جابر، قال: كان عبد الله بن أبي يقول لجارية له: اذهبي فابغينا شيئاً، فنزلت هذه الآية^(٢). قال المفسرون: وكان له جارتان، مُعَاذَةُ ومُسَيِّكَةُ، فكان يكرههما على الزنا، ويأخذ منهما الضريبة، وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية، يؤاجرون إماءهم، فلما جاء الإسلام قالت مُعَاذَةُ لمسيكة: إن هذا الأمر الذي نحن فيه إن كان خيراً فقد استكثرنا منه، وإن كان شراً فقد آن لنا أن ندعه، فنزلت هذه الآية^(٣). وزعم مقاتل أنها نزلت في ست جوارٍ كُنَّ لعبد الله بن أبي، مُعَاذَةُ، ومُسَيِّكَةُ، وأميمة، وقُتَيْلَةُ، وعمره، وأروى. فأما الفتيات، فهن الإمام. والبغاء: الزنا. والتحصن: التعفف. واختلفوا في معنى ﴿إِن أَرَدَ نَحْنُ﴾ على أربعة أقوال: أحدها: أن الكلام ورد على سبب، وهو الذي ذكرناه، فخرج النهي عن صفة السبب، وإن لم يكن شرطاً فيه. والثاني: إنه إنما شرط إرادة التحصن، لأن الإكراه لا يتصور إلا عند إرادة التحصن، فأما إذا لم ترد المرأة التحصن، فإنها تبغي بالطبع. والثالث: أن «إن» بمعنى «إذ»، ومثله: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] ﴿وَأَنْتُمْ أَكْثَرُ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. والرابع: أن في الكلام تقديم وتأخيراً، تقديره: ﴿وَأَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَلَيْكُمْ﴾ ﴿إِن أَرَدَ نَحْنُ﴾ ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء ﴿لَتَبْلُغُوا عَرَضَ الثَّيَبِ الَّذِي﴾ وهو كسبهن وبيع أولادهن ﴿وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ غَفُورٌ﴾ للمُكْرَهَاتِ ﴿زَيْبٌ﴾ وقرأ ابن عباس، وأبو عمران الجوني، وجعفر بن محمد: «من بعد إكراههن لهن غفور رحيم».

قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ مِثْلَ شَيْءٍ﴾ قرأ ابن عامر، وأهل الكوفة غير أبي بكر، وأبان: «مبنيات» بكسر الياء في الموضعين في هذه السورة [التور: ٤٣، ٤٦]، وآخر سورة [الطلاق: ١١].

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الْيَزِيدِ خَلِوَاءُ﴾ أي: شياً من حالهم بحالكم أيها المكذبون، وهذا تخويف لهم أن يلحقهم ما لحق المكذبين قبلهم.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْقَلٍ ذَرَّةٍ فِي يَمٍّ يُضَاحُ الْيَمُّ نَارًا كَوْنًا كَوْنًا ذُرِّيُّ يُوقِدُ مِنْ شَجَرٍ مُّبَارَكٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْفِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٤)

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيه قولان: أحدهما: هادي أهل السموات والأرض، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال أنس بن مالك، وبيان هذا أن النور في اللغة: الضياء، وهو الذي تصل به الأبصار إلى مُبْصِرَاتِهَا، فورد النور مضافاً إلى الله تعالى، لأنه هو الذي يهدي المؤمنين ويبين لهم ما يهتدون به، والخلائق بنوره يهتدون^(٥). والثاني: مدبر السموات والأرض، قاله مجاهد، والزجاج. وقرأ أبي بن كعب، وأبو المتوكل، وابن السميع: «اللَّهُ نُورٌ» بفتح النون والواو وتشديدها ونصب الراء «السموات» بالخفض «والأرض» بالنصب.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ في هاء الكناية أربعة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الله ﷻ، قال ابن عباس: مَثَلُ هَذَا فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ. والثاني: أنها ترجع إلى المؤمن، فتقديره: مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ، قاله أبي بن كعب. وكان أبي وابن

(١) فخر السيوطي في «الدر» ٤٦/٥ من رواية عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، والبيهقي.

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٨٧، والسيوطي في «الدر» ٤٦/٥، وزاد نسبه لابن أبي شيبة، وسعيد بن منصور، والبخاري، والدارقطني، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، من طريق أبي سفيان، عن جابر ﷺ.

(٣) هكذا ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٨٧ بدون سند، وذكره السيوطي في «الدر» ٤٦/٥ ونسبه لسعيد بن منصور، والفرغاني، وعبد بن حميد، وابن جرير عن عكرمة.

(٤) وفي «الصحيحين» عن ابن عباس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول: «اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن... الحديث».

مسعود يقرآن: «مثل نُورٍ مَنْ آمَنَ بِهِ». والثالث: أنها ترجع إلى محمد ﷺ، قاله كعب. والرابع: أنها ترجع إلى القرآن، قاله سفيان. فأما المشكاة، ففيها ثلاثة أقوال: أحدها أنها في موضع الفتيلة من القنديل الذي هو كالأنبوب، والمصباح: الضوء، قاله ابن عباس. والثاني: أنها القنديل، والمصباح: الفتيلة، قاله مجاهد. والثالث: أنها الكوة التي لا منفذ لها، والمصباح: السراج، قاله كعب، وكذلك قال الفراء: المشكاة: الكوة التي ليست بنافذة. وقال ابن قتيبة: المشكاة: الكوة بلسان الحبشة. وقال الزجاج: هي من كلام العرب^(١)، والمصباح: السراج. وإنما ذكر الزُجاجة، لأن النور في الزُجاجة أشد ضوءاً منه في غيره. وقرأ أبو رجاء العطاردي، وابن أبي عبيدة: «في زُجاجة الزُجاجة» بفتح الزاي فيهما. وقرأ معاذ القارئي، وعاصم الجحدري، وابن يعمر: بكسر الزاي فيهما. قال بعض أهل المعاني: معنى الآية: كمثل مصباح في مشكاة، فهو من المقلوب. فأما الدُّرِّيُّ، فقرأ أبو عمرو، والكسائي، وأبان عن عاصم «دُرِّيٌّ» بكسر الدال وتخفيف الياء ممدوداً مهموزاً. قال ابن قتيبة: المعنى على هذا: إنه من الكواكب الدُّراريء، وهي اللاتي يَدُرُّان عليك، أي: يطلعن. وقال الزجاج: هو مأخوذ من دُرأ يدرأ: إذا اندفع منقُصاً فتضاعف نوره، يقال: تدارأ الرجلان: إذا تدافعا. وروى المفضل عن عاصم كسر الدال وتشديد الياء من غير همز ولا مدٍّ، وهي قراءة عبد الله بن عمر، والزهري. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «دُرِّيٌّ» بضم الدال وكسر الراء وتشديد الياء من غير مدٍّ ولا همز، وقرأ عثمان بن عفان، وابن عباس، وعاصم، الجحدري: «دُرِّيٌّ» بفتح الدال وكسر الراء ممدوداً مهموزاً. وقرأ أبي ابن كعب، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، وقتادة، وابن يعمر: بفتح الدال وكسر الراء مهموزاً مقصوراً. قال الزجاج: الدُّرِّيُّ: منسوب إلى أنه كالذَّر في صفاته وحسنه. وقال الكسائي: الدُّرِّيُّ: الذي يشبه الذَّر، والدُّرِّيُّ: جارٍ، والدُّرِّيُّ: يلتصق، وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم، والوليد بن عتبة عن ابن عامر: بضم الدال وتخفيف الياء مع إثبات الهمزة والمد، قال الزجاج: فالنحويون أجمعون لا يعرفون الوجه في هذا؛ وقال الفراء: ليس هذا بجائز في العربية، لأنه ليس في الكلام «فُعِيل» إلا أعجمي، مثل مُرَيْقٍ، وما أشبهه. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي: المُرَيْق: العُصْفُر، أعجمي معرَّب، وليس في كلامهم اسم على زنة فُعِيل. قال أبو علي: وقد حكى سيبويه عن أبي الخطاب: كوكب دُرِّيٌّ: من الصفات، ومن الأسماء: المُرَيْق: العُصْفُر.

قوله تعالى: «تَوَقَّدَ» قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: بالتاء المفتوحة وتشديد القاف ونصب الدال، يريدان المصباح، لأنه هو الذي يوقد. وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «يُوقَّدُ» بالياء مضمومة مع ضم الدال، يريدون المصباح أيضاً. وقرأ حمزة والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «تَوَقَّدَ» بضم التاء والدال، يريدون الزجاجة، قال الزجاج: والمقصود: مصباح الزجاجة، فحذف المضاف.

قوله تعالى: «مِنْ شَجَرَةٍ» أي: من زيت شجرة، فحذف المضاف، يدلُّك على ذلك قوله: «يَكَادُ زَيْتًا يُعَيُّ»؛ والمراد بالشجرة هاهنا: شجرة الزيتون، وَبَرَكْتُهَا من وجوه، فإنها تجمع الأذم واللَّذْن والوقود، فيوقد بحطب الزيتون، ويُغَسَّل برماده الإبريسم، ويُستخرج دهنه أسهل استخراج، ويورق غصنه من أوله إلى آخره. وإنما حُصِّت بالذكر هاهنا دون غيرها، لأن دهنها أصفى وأضوأ.

قوله تعالى: «لَا شَرِيفٌ وَلَا غَرِيبٌ» فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها بين الشجر، فهي خضراء ناعمة لا تصيبها

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: ذلك مثل ضربة الله للقرآن في قلب أهل الإيمان به، فقال: مثل نور الله الذي أثار به لعباده سبيل الرشاد الذي أنزله إليهم فآمنوا به وصدقوا بما فيه، في قلوب المؤمنين، مثل يشكاة، وهي عمود القنديل الذي فيه الفتيلة، وذلك هو نظير الكوة التي في الحيطان التي لا منفذ لها، وإنما جعل ذلك العمود مشكاة، لأنه غير نافذ، وهو أجوف مفتوح الأعلى، فهو كالكرة التي في الحائط التي لا تنفذ، ثم قال: «يَهَا يَصِفَانِ» وهو السراج، وجعل السراج وهو المصباح مثلاً لما في قلب المؤمن من القرآن والآيات المبينات، ثم قال: «يَصِفَانِ فِي كِتَابِي» يعني أن السراج الذي في المشكاة: في القنديل، وهو الزجاجة، وذلك مثل القرآن، يقول: القرآن الذي في قلب المؤمن الذي أثار الله قلبه في صدره، ثم مثل الصدر في خلوصه من الكفر بالله والشك فيه، واستنارته بنور القرآن، واستضاءته بآيات ربه المبينات ومواعظه فيها، بالكوكب الدري، فقال «أَلْيَابِي» وذلك صدر المؤمن الذي فيه قلبه «كَلَّهَا كَرْكَبٌ دُرِّيٌّ». اهـ.

الشمس، قاله أبي بن كعب، ورواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثاني: أنها في الصحراء لا يُظَلُّها جبل ولا كهف، ولا يواربها شيء، فهو أجود لزيته، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والزجاج. والثالث: أنها من شجر الجنة، لا من شجر الدنيا، قاله الحسن^(١).

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ أي: يكاد من صفائه يُضيء قبل أن تصببه النار بأن يوقد به. ﴿ثُمَّ عَلَنَ نُورُ﴾ قال مجاهد: النار على الزيت. وقال ابن السائب: المصباح نور، والزجاجة نور. وقال أبو سليمان الدمشقي: نور النار، ونور الزيت، ونور الزجاجة^(٢)، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: لنور القرآن. والثاني: لنور الإيمان. والثالث: لنور محمد ﷺ. والرابع: لدينه الإسلام^(٣).

فصل

فأما وجه هذا المثل، ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه شبه نور محمد ﷺ بالمصباح النير؛ فالمشكاة جوف رسول الله ﷺ، والمصباح النور الذي في قلبه، والزجاجة قلبه، فهو من شجرة مباركة، وهو إبراهيم ﷺ، سماه شجرة مباركة، لأن أكثر الأنبياء من صلُّبه ﴿لَا شَرْقِيَّ وَلَا غَرْبِيَّ﴾ لا يهودي ولا نصراني، يكاد محمد ﷺ يتبين للناس أنه نبي ولو لم يتكلم. وقال القرطبي: المشكاة: إبراهيم، والزجاجة: إسماعيل، والمصباح: محمد، صلى الله عليه وعليهم وسلّم. وقال الضحاك: شبه عبد المطلب بالمشكاة، وعبد الله بالزجاجة، ومحمداً ﷺ بالمصباح^(٤). والثاني: أنه شبه نور الإيمان في قلب المؤمن بالمصباح، فالمشكاة: قلبه، والمصباح: نور الإيمان فيه. وقيل: المشكاة: صدره، والمصباح: القرآن والإيمان اللذان في صدره، والزجاجة: قلبه، فكأنه مما فيه من القرآن والإيمان كوكب مضيء تَوَقَّد من شجرة، وهي الإخلاص، فمثل الإخلاص عنده كشجرة لا تصببها الشمس، فكذلك هذا المؤمن قد احترس من أن تصببه الفتنة، فإن أعطي شكر، وإن ابتلي صبر، وإن قال صدق، وإن حكم عدل، فقلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدًى على هدًى كما يكاد هذا الزيت يضيء قبل أن تمسه النار، فإذا مشته اشتد نوره، فالمؤمن كلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى نور يوم القيامة. والثالث: أنه شبه القرآن بالمصباح يُستضاء به ولا ينقص، والزجاجة: قلب المؤمن، والمشكاة: لسانه وفمه، والشجرة المباركة: شجرة الوحي، تكاد حُجج القرآن تتضح وإن لم تُقرأ. وقيل: تكاد حُجج الله تضيء لمن فُكِّر فيها وتدبرها ولو لم ينزل القرآن، ﴿ثُمَّ عَلَنَ نُورُ﴾ أي: القرآن نور من الله لخلقه مع ما قد قام لهم من الدلائل والأعلام قبل نزول القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ تَقْرِيباً إِلَى الْأَفْهَامِ وَتَسْهِيلاً لِسَبِيلِ الْإِدْرَاكِ﴾.

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى هذه الأقوال بتأويل ذلك قول من قال: إنها شرقية غريبة، وقال: ومعنى الكلام: ليست شرقية تطلع عليها الشمس بالمعنى دون الغداة، ولكن الشمس تشرق عليها وتغرب، فهي شرقية غريبة، وإنما قلنا: ذلك أولى بمعنى الكلام، لأن الله إنما وصف الزيت الذي يوقد على هذا المصباح بالصفاء والجودة، فإذا كان شجرة شرقياً غريباً، كان زيتُه لا شك أجود وأصفى وأضوأ. اهـ. وقال ابن كثير بعد أن سرد عدة أقوال: وأولى هذه الأقوال أنها في مستوى من الأرض في مكان فسيح باو ظاهر ضاح للشمس تفرقه من أول النهار إلى آخره، ليكون ذلك أصفى لزيته والطف، كما قال غير واحد، قال: ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَنَزَّلْهُ لَكُنْ لَكُمْ نَارٌ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني لضوء إشراق الزيت. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: نور النار ونور الزيت حين اجتماعهما أضاء، ولا يضيء واحد بغير صاحبه، كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتماعهما فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه. اهـ.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ﴾ يقول تعالى ذكره: يوفق الله لاتباع نوره، وهو هذا القرآن من يشاء من عباده. اهـ. فعلى هذا التفسير يعود على القرآن، وهو الصواب.

(٤) هذا تأويل، وليس تفسيراً لظاهر الآيات. قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: ويمثل الله الأمثال والأشياء للناس، كما مثل لهم مثل هذا القرآن في قلب المؤمن بالمصباح في المشكاة ومما في هذه الآية من الأمثال، ﴿وَاللَّهُ يَضْرِبُ لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ يقول: والله يضرب الأمثال وغيرها من الأشياء كلها، ذو علم. وقال ابن كثير: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ أي: يوضح الله للناس ما في هذه الآية من الأمثال، كما ذكر تعالى هذا مثلاً لنور هداية في قلب المؤمن، ختم الآية بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال. اهـ.

﴿ فِي بُيُوتٍ إِذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْقُدُّوسِ وَالْأَصْغَارِ ﴾ (٣٦) بِجَالٍ لَا تَلْمِيزُهُمْ بِعَدَّةٍ وَلَا يَسْجَعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَكَفَّهِ الصَّلَاةَ وَلَيْلَهُ الرُّكُوعُ بِمَا تَنَقَّلَ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَزَيِّدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ بِرُؤُفٍ مِّنْ بَنَاتِهِ بِفَتْرٍ حِسَابٍ (٣٨)

قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ قال الزجاج: «في» من صلة قوله: «كمشكاة»، فالمعنى: كمشكاة في بيوت؛ ويجوز أن تكون متصلة بقوله: «يسبح له فيها» فتكون فيها تكريراً على التوكيد؛ والمعنى: يسبح لله رجال في بيوت. فإن قيل: المشكاة إنما تكون في بيت واحد، فكيف قال: «في بيوت»؟ فنه جوابان: أحدهما: أنه من الخطاب المتلون الذي يفتح بالتوحيد ويختم بالجمع، كقوله: ﴿ يَأْتِيَنَّ النَّبِيَّ إِذَا مَلَكَتُ الرَّسَّاءُ ﴾ [الطلاق: ١]. والثاني: أنه راجع إلى كل واحد من البيوت، فالمعنى: في كل بيت مشكاة. وللمفسرين في المراد بالبيوت هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنها المساجد، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: بيوت أزواج رسول الله ﷺ، قاله مجاهد. والثالث: بيت المقدس، قاله الحسن (٢). فاما ﴿ أَوْفَى ﴾ فمعناه: أتم. وفي معنى ﴿ أَنْ تَرْفَعَ ﴾ قولان: أحدهما: أن تعظم، قاله الحسن، والضحاك. والثاني: أن تبتلى، قاله مجاهد، وقادة. وفي قوله: ﴿ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ ﴾ قولان: أحدهما: توحده؛ رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: يتلى فيها كتابه، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ قرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم، ونافع، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «يُسَبِّحُ» بكسر الباء؛ وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: بفتحها. وقرأ معاذ القارئ، وأبو حيوة: «تُسَبِّحُ» بقاء مرفوعة وكسر الباء ورفع الحاء. وفي قوله: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ قولان: أحدهما: أنه الصلاة. ثم في صلاة العُدُوِّ قولان: أحدهما: أنها صلاة الفجر، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: صلاة الضحى، روى ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال: إن صلاة الضحى لفي كتاب الله، وما يغوص عليها إلا غواص، ثم قرأ ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْقُدُّوسِ وَالْأَصْغَارِ ﴾. وفي صلاة الأصايل قولان: أحدهما: أنها صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، قاله ابن السائب. والثاني: صلاة العصر، قاله أبو سليمان الدمشقي. والقول الثاني: أنه التسييح المعروف، ذكره بعض المفسرين.

قوله تعالى: ﴿ بِجَالٍ لَا تَلْمِيزُهُمْ ﴾ أي: لا تشغلهم ﴿ بِعَدَّةٍ وَلَا يَسْجَعُ ﴾ (٣) قال ابن السائب: الثَّجَّار: الجلابون، والباعة: المقيمون. وقال الواقدي: التجارة هاهنا بمعنى الشراء. وفي المراد بذكر الله ثلاثة أقوال: أحدها: الصلاة المكتوبة، قاله ابن عباس، وعطاء. وروى سالم عن ابن عمر أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة، فأغلغوا حوانيتهم ودخلوا المسجد، فقال ابن عمر: فيهم نزلت ﴿ بِجَالٍ لَا تَلْمِيزُهُمْ بِعَدَّةٍ وَلَا يَسْجَعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ والثاني: عن القيام بحق الله، قاله قتادة. والثالث: عن ذكر الله باللسان، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿ وَكَفَّهِ الصَّلَاةَ ﴾ أي: أداؤها لوقتها وإتمامها. فإن قيل: إذا كان المراد بذكر الله الصلاة، فما معنى إعادتها؟ فالجواب: أنه بين أنهم يقيمونها بأدائها في وقتها.

قوله تعالى: ﴿ تَنَقَّلُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ في معناه ثلاثة أقوال: أحدها: أن من كان قلبه مؤمناً بالبعث والنشور، ازداد بصيرة بروية ما وعد به؛ ومن كان قلبه على غير ذلك، رأى ما يوقن معه بأمر القيامة، قاله الزجاج.

(١) وهذا أيضاً تأويل، فإن المقصود من البيوت هنا: المساجد.

(٢) والقول الأول هو الصواب. قال ابن كثير: لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقد من زيت طيب، وذلك كالتنديل، مثلاً، ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض، وهي بيوت التي يُعبد فيها ويُؤخذ، فقال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ إِذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ ﴾ أي: أمر الله تعالى بتعاهدها وتطهيرها من الدنس واللغو والأقوال والأفعال التي لا تليق فيها. اهـ. وقد ورد في فضل بناء المساجد واحترامها وتوقيرها وتطهيرها وتبخيرها أحاديث كثيرة، منها ما أخرجه البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن عثمان بن عفان ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتاً في الجنة» وروى ابن ماجه في «سننه» بسند صحيح عن جابر ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من بنى مسجداً كمحفص قطاة أو أصغر بنى الله له بيتاً في الجنة»، والأحاديث في ذلك كثيرة.

(٣) قال ابن كثير: يقول تعالى: لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملأه بيمينها وروحها عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم، والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم، لأن ما عندهم ينفذ وما عند الله باقي، ولهذا قال تعالى: ﴿ لَا تَلْمِيزُهُمْ بِعَدَّةٍ وَلَا يَسْجَعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ وَلَيْلَهُ الرُّكُوعُ أي: يقدمون طاعته ومراده ومحبه على مرادهم ومحبتهم. اهـ.

والثاني: أن القلوب تتقلب بين الطمع في النجاة والخوف من الهلاك، والأبصار تتقلب، تنظر من أين يؤتون كتبهم، أين قبل اليمين، أم من قبل الشمال؟ وأي ناحية يؤخذ بهم، أذات اليمين، أم ذات الشمال؟ قاله ابن جرير. والثالث: تتقلب القلوب فتبلغ إلى الحناجر، وتتقلب الأبصار إلى الرزق بعد الكحل والعمى بعد النظر.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهمُ﴾ المعنى: يسبحون الله ليجزيهم ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أي: ليجزيهم بحسانتهم. فاما مساوئهم فلا يجزيهم بها ﴿وَيَزِيدهم مِّن فَضْلِهِ﴾ ما لم يستحقوه بأعمالهم ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قد شرحناه في الآل عمران: [٢٧].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أََعْمَلَهُمْ كُكْرِمٌ يُعْمَوُ يَحْسِبُهُ الظَّالِمَانُ مَاءً حَلَّجًا إِذَا جَاءَهُمْ لَوِ يَجِدُهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِندَهُمْ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أو كطلمت في بحر ليجي يفسده موج من فوقه موج من فوقه. صاحب ظلمت بعضا فوق بعض إذا أخرج يكد لرب يكذب بها ومن لم يعمل الله لم نور كما لم ين نور ﴿١٥﴾

ثم ضرب الله مثلاً للكفار فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أََعْمَلَهُمْ كُكْرِمٌ﴾ قال ابن قتيبة: السراب: ما رأيته من الشمس كالماء نصف النهار، والآل: ما رأيته في أول النهار وآخره، وهو يرفع كل شيء، والقيعة والقاع واحد. وقرأ أبي بن كعب، وعاصم الجحدري، وابن السمين: «بقيعات». وقال الزجاج: القيعة جمع قاع، مثل جارٍ وجيرة، والقيعة والقاع: ما انبسط من الأرض ولم يكن فيه نبات، فالذي يسير فيه يرى كأن فيه ماء يجري، وذلك هو السراب، والآل مثل السراب، إلا أنه يرتفع وقت الضحى - كالماء - بين السماء والأرض يحسبه الظالم - وهو الشديد العطش - ماء، حتى إذا جاء إلى موضع السراب رأى أرضاً لا ماء فيها، فأعلم الله أن الكافر الذي يظن أن عمله قد نفعه عند الله - كظن الذي يظن السراب ماء - وعمله قد حبط.

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِندَهُمُ﴾ أي: قديم على الله ﴿عِندَهُ حِسَابَهُ﴾ أي: جازاه بعمله؛ وهذا في الظاهر خبر عن الظالم، والمراد به الخبر عن الكافر.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ مفسر في [البقرة: ٢٠٢].

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَطَلَمَتٍ﴾ في هذا المثل قولان: أحدهما: أنه لعمل الكافر، قاله الجمهور، واختاره الزجاج. والثاني: أنه مثل لقلب الكافر في أنه لا يثقل ولا يثبیر، قاله الفراء. فأما اللجج، فهو العظيم اللجة، وهو العميق ﴿يَتَشَنَّهُ﴾ أي: يعلو ذلك البحر ﴿مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ﴾ أي: من فوق الموج موج، والمعنى: يتبع الموج موج، حتى كان بعضه فوق بعض، ﴿مِّنْ فَوْقِهِ﴾ أي: من فوق ذلك الموج ﴿سَحَابٌ﴾. ثم ابتداء فقال: ﴿ظَلَمْتُ﴾ يعني: ظلمة البحر، وظلمة الموج [الأول، وظلمة الموج] الذي فوق الموج، وظلمة السحاب. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن: «سحاب ظلمات» مضافاً ﴿إِذَا أُنْفِجَ بَکْدُ﴾ يعني: إذا أخرجها مخرج، ﴿لَرُبَّكَ يَرَهَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه لم يرها، قاله الحسن، واختاره الزجاج. قال: لأن في دون هذه الظلمات لا يرى الكف؛ وكذلك قال ابن الأنباري: معناه: لم يرها البتة، لأنه قد قام الدليل عند وصف تكاثف الظلمات على أن الرؤية معدومة، فبان بهذا الكلام أن «يكد» زائدة للتوكيد، بمنزلة «ما» في قوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيَسْهَنَ لِّلَّذِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠]. والثاني: أنه لم يرها إلا بعد الجهد، قاله المبرد. قال الفراء: وهذا كما تقول: ما كدت أبلغ إليك، وقد بلغت، قال الفراء: وهذا وجه العربية.

فصل

فأما وجه المثل، فقال المفسرون: لما ضرب الله للمؤمن مثلاً بالنور، ضرب^(١) للكافر هذا المثل بالظلمات؛ والمعنى: أن الكافر في حيرة لا يهتدي لرشد. وقيل: الظلمات: ظلمة الشرك وظلمة المعاصي. وقال بعضهم: ضرب الظلمات مثلاً لعمله، والبحر اللجج لقلبه، والموج لما يغشى قلبه من الشرك والجهل والحيرة، والسحاب للرؤى والختم على قلبه، فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة.

(١) في الأصل: وضرب.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ زَرَعَ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُرًّا﴾ فيه قولان. أحدهما: ديناً وإيماناً، قاله ابن عباس، والسدي. والثاني: هداية، قاله الزجاج.

﴿أَزَّرَ نَرًا أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَقَتٌ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَزَّرَ نَرًا أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قد تقدم تفسيره [البقرة: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرِ﴾ أي: وتسبح له الطير ﴿صَفَقَتٌ﴾ أي: باسطات أجنحتها في الهواء. وإنما خص الطير بالذكر، لأنها تكون بين السماء والأرض إذا طارت، فهي خارجة عن جملة مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ﴾ أي: من الجملة التي ذكرها ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ قال المفسرون: الصلاة، لبني آدم، والتسبيح، لغيرهم من الخلق. وفي المشار إليه بقوله: ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ قولان. أحدهما: أنه الله تعالى، والمعنى: قد علم الله صلاة المصلي وتسبيحه، قاله الزجاج. والثاني: أنه المصلي والمُسَبِّح. ثم فيه قولان: أحدهما: قد علم المصلي والمُسَبِّح صلاة نفسه وتسبيحه، أي: قد عرف ما كلف من ذلك. والثاني: قد علم المصلي صلاة الله وتسبيحه، أي: علم أن ذلك لله تعالى وحده. وقرأ قتادة، وعاصم الجحدري، وابن يعمر: ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ﴾ برفع العين وكسر اللام «صلاته وتسبيحه» بالرفع فيهما.

﴿أَزَّرَ نَرًا أَنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَّيِهِ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرٍّ قَصِيْبٍ يَدُهُ مِنْ يَسَاءٍ وَتَصْرِفُهُ عَنْ مَن يَشَاءُ يَكَادُ سَنًا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ۝ يَقْلُبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَزَّرَ نَرًا أَنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ سَحَابًا﴾ أي: يسوقه ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يضم بعضه إلى بعض، فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة. والسحاب لفظه لفظ الواحد، ومعناه الجمع، فلهذا قال: ﴿يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ رُكَّامًا﴾ أي: يجعل بعض السحاب فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدَّكَ﴾ وهو المطر. قال الليث: الوَدَّقُ: المطر كله شديده وهيته.

قوله تعالى: ﴿مِنْ خَلَّيِهِ﴾ وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والضحاك: «من خَلَّيِهِ». والخِلَال: جمع خَلَل، مثل: جبال وجبل. ﴿وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ مفعول الإنزال محذوف، تقديره: وينزل من السماء من جبال فيها من بَرٍّ بَرْدًا، فاستغنى عن ذكر المفعول للدلالة عليه. «وَمِنْ» الأولى، لابتداء الغاية، لأن ابتداء الإنزال من السماء، والثانية: للتبعيض، لأن الذي ينزله الله بعض تلك الجبال، والثالثة، لتبيين الجنس، لأن جنس تلك [الجبال] جنس البَرْد؛ قال المفسرون: وهي جبال في السماء مخلوقة من بَرْد. وقال الزجاج: معنى الكلام: وينزل من السماء من جبال بَرْد فيها، كما تقول: هذا خاتم في يدي من حديد، المعنى: هذا خاتم حديد في يدي.

قوله تعالى: ﴿قَصِيْبٍ يَدُهُ﴾ أي: بالبرْد «مَنْ يَشَاءُ» فيزرعه في زرعه وثمره. والسنا: الضوء، ﴿يَذْهَبُ﴾ وقرأ مجاهد، وأبو جعفر: ﴿يَذْهَبُ﴾ بضم الياء وكسر الهاء. ﴿يَقْلُبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: يأتي بهذا، ويذهب بهذا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الثقلب ﴿لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: دلالة لأهل البصائر والعقول على وحدانية الله وقدرته.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَشَرٍ عَلَى بَشَرٍ وَبَشَرٍ عَلَى بَشَرٍ وَبَشَرٍ عَلَى بَشَرٍ خَلَقَ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي: «والله خالِقُ كُلِّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ» وفي الماء قولان: أحدهما: أن الماء أصل كُلِّ دَابَّةٍ. والثاني: أنه النُطفة، والمراد به: جميع الحيوان المشاهد في الدنيا. وإنما قال: «فمنهم» تغليبا لما يعقل. وإنما لم يذكر الذي يمشي على أكثر من أربع، لأنه في رأي العين كالذي يمشي على أربع، وقيل: لأنه يعتمد في المشي على أربع. وإنما سُمِّي السائر على بطنه ماشياً، لأن كُلَّ سائر مستمرٌّ يقال له: ماشٍ وإن لم يكن حيواناً، حتى إنه يقال: قد مشى هذا الأمر، هذا قول الزجاج. وقال أبو عبيدة: إنما هذا على سبيل التشبيه بالماشي، لأن المشي لا يكون على البطن، إنما يكون لمن له قوائم، فإذا خلطوا ماله قوائم بما لا قوائم له، جاز ذلك، كما يقولون: أكلت خبزاً ولبناً، ولا يقال: أكلت لبناً.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا آدَانِيَّتَيْنِ إِلَى قَوْمٍ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١١﴾ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ١٢ ﴿وَلِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ١٣﴾ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ لَمُفْسِدُونَ فَؤَادًا فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَرْحِ ١٤ ﴿إِنِ قُلُوبُهُمْ مُرَّسَاتٌ بِرَأْسِهِمْ أَرْسَلْنَا إِلَهُ مَخْلُوكَاتِمْ أَنْ يُخَافُوا أَنْ يَحْكُمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ١٥﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١٦ ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ١٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ قال المفسرون: نزلت في رجل من المنافقين يقال له: بشر كان بينه وبين يهودي حكومة، فدعا اليهودي المنافق إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهما، فقال المنافق لليهودي: إن محمداً يَحْيِف علينا، ولكن بيني وبينك كعب بن الأشرف، فنزلت هذه الآية (١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ يعني المنافقين ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد قولهم: آمَنَّا ﴿وَمَا أُولَئِكَ﴾ يعني: الْمُعْرِضِينَ عن حكم الله ورسوله ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَلِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: إلى كتابه ﴿وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الرسول ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ومعنى الكلام: أنهم كانوا يُعْرِضُونَ عن حكم الرسول عليهم. لعلهم أنه يحكم بالحق؛ وإن كان الحق لهم على غيرهم، أسرعوا إلى حكمه مدعين، لثقتهم أنه يحكم بالحق. قال الزجاج: والإدعان في اللغة: الإسراع مع الطاعة، تقول: قد أذعن لي، أي: قد طاعوني لما كنت ألتسمه منه.

قوله تعالى: ﴿إِنِ قُلُوبُهُمْ مُرَّسَاتٌ بِرَأْسِهِمْ﴾ أي: كسر ﴿أَرْسَلْنَا إِلَهُ مَخْلُوكَاتِمْ﴾ أي: شكوا في القرآن؟ وهذا استفهام ذم وتوبيخ، والمعنى: إنهم كذلك، وإنما ذكره بلفظ الاستفهام ليكون أبلغ في ذمهم، كما قال جرير في المدح:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا [وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُونٌ رَاحَ]

أي: أنتم كذلك. فاما الحَيْف، فهو: المِيل في الحكم؛ يقال: حاف في قضيته، أي: جار، ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا يَظْلِمُ الله ورسوله أحداً، بل هم الظالمون لأنفسهم بالكفر، والإعراض عن حكم الرسول. ثم نعت المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الفراء: ليس هذا بخبر ماضٍ، وإنما المعنى: إنما كان ينبغي أن يكون قول المؤمنين إذا دعوا أن يقولوا سمعنا. وقرأ الحسن، وأبو الجوزاء: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بضم اللام. وقرأ أبو جعفر، وعاصم الجحدري، وابن أبي [اليلى]: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ برفع الياء وفتح الكاف. وقال المفسرون والمعنى: سمعنا قول رسول الله ﷺ وأطعنا أمره، وإن كان ذلك فيما يكرهونه.

قوله تعالى: ﴿وَخَشِيَ اللَّهَ﴾ أي: فيما مضى من ذنوبه ﴿وَيَتَّقْهُ﴾ فيما بعد أن يعصيه. وقر ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وورش عن نافع: ﴿وَيَتَّقْهُ﴾ موصولة بياء. وروى قالون عن نافع: ﴿وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ﴾ بكسر الهاء لا يبلغ بها الياء. وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: ﴿وَيَتَّقْهُ﴾ جزماً.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا أَنْفُسُكُمْ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٨﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ ظَلَمْتُمْ فَتَعْدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْبَلِيغُ ١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ قال المفسرون: لما نزل في هؤلاء المنافقين ما نزل من بيان كراهتهم لحكم الله، قالوا للنبي ﷺ: والله لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا، فكيف لا نرضى حكمك؟ فنزلت هذه الآية (٢). وقد بيَّنا معنى ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [المائدة: ٥٣]، ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ من أموالهم وديارهم، وقيل: ليخرجن إلى الجهاد ﴿قُلْ لَا أَنْفُسُكُمْ طَاعَةٌ﴾ هذا تمام الكلام؛ ثم قال: ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ قال الزجاج: المعنى: أمثل من قَسَمِكُم الذي لا تصدقون فيه طاعةً معروفة. قال ابن قتبية: وبعض النحويين يقول: الضمير فيها: لتكن منكم طاعة معروفة، أي: صحيحة لا نفاق فيها.

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٨٨ سبباً لنزول قوله تعالى: ﴿وَلِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ والتي بعدها بدون سند.

(٢) «ديوانه» ٩٨، و«مجاز القرآن» ١١٨/٢، و«الطري» ٢٩٤/١٢.

(٣) ذكره بنحوه مختصراً السيوطي في «الدر» ٥٤/٥ من رواية ابن مردويه عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ هذا خطاب لهم، والمعنى: فإن تتولَّوْا، فحذف إحدى التاءين. ومعنى التولي: الإعراض عن طاعة الله ورسوله، ﴿فَإِنَّا عَلَيْكُمْ﴾ يعني: الرسول ﴿مَّا حِجْلٌ﴾ من التبليغ ﴿وَعَلَيْكُمْ مَّا حِجْلَتُمْ﴾ من الطاعة؛ وذكر بعض المفسرين أن هذا منسوخ بآية السيف، وليس بصحيح.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا﴾ يعني: رسول الله ﷺ ﴿تَهْتَدُوا﴾، وكان بعض السلف يقول: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلًا، نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلًا، نطق بالبدعة، لقوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوا تَهْتَدُوا﴾.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَبْرَارَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيَسْجُذَنَّهُم لَمَّ يَصْلَحُوا﴾ الآية ﴿لَا يَرْضَى لَكُمْ فِي شَيْءٍ وَكَفَّ بَعْدَ ذَلِكَ قَوْلُكَ لَهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاتَّبِعُوا أَمْرَ الرَّسُولِ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٥١)

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ روى أبو عبد الله الحاكم في «صحيحه» من حديث أبي بن كعب قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوهم الأنصار، رمنهم العرب عن قوس واحدة، كانوا لا يبيتون إلا في السلاح، ولا يصبحون إلا في لأمتهم، فقالوا: أترون أنا نعيش حتى نبني آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله ﷻ؟! فنزلت هذه الآية (١). قال أبو العالية: لما أظهر الله ﷻ رسوله على جزيرة العرب، وضعوا السلاح وأمنوا، ثم قبض الله نبيه، فكانوا آمنين كذلك في إمارة أبي بكر، وعمر، وعثمان، حتى وقعوا فيما وقعوا فيه وكفروا بالنعمة، فادخل الله ﷻ عليهم الخوف، فغيروا، فغير الله تعالى ما بهم (٢). وروى أبو صالح عن ابن عباس: أن هذا الوعد وعده الله أمّة محمد في التوراة والإنجيل. وزعم مقاتل أن كفار مكة لما صدّوا رسول الله ﷻ والمسلمين عن العمرة عام الحديبية، قال المسلمون: لو أن الله تعالى فتح علينا مكة، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ أي: ليجعلنهم يخلفون من قبلهم، والمعنى: ليورثنهم أرض الكفار من العرب والعجم، فيجعلهم ملوكها وساستها وسكّانها. وعلى قول مقاتل: المراد بالآرض مكة.

قوله تعالى: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَبْرَارَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وقرأ أبو بكر عن عاصم: «كما استخلف» بضم التاء وكسر اللام؛ يعني: بني إسرائيل، وذلك أنه لما هلكت الجبابرة بمصر، أوردتهم الله أرضهم وديارهم وأموالهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَيَسْجُذَنَّهُم لَمَّ يَصْلَحُوا﴾ وهو الإسلام، وتمكينه: إظهاره على كل دين، ﴿وَلَيَسْجُذَنَّهُم﴾ وقرأ ابن كثير، وأبو بكر، وأبان، ويعقوب: «وَلَيُؤْيِدُنَّهُمْ» بسكون الباء وتخفيف الدال ﴿لَمَّ يَصْلَحُوا﴾ لأنهم كانوا مظلومين مقهورين (٣)، هذا استئناف كلام في الثناء عليهم، ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بهذه النعم، أي: من جحد حقها. قال المفسرون: وأوّل من كفر بهذه النعم قتلة عثمان.

(١) رواه الحاكم في «المستدرک» ٤٠١/١ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه السيوطي في «الدر» ٥٥/٥، وزاد نسيب لابن المنذر، والطبراني في «الأوسط»، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، والضياء في «المختارة» عن أبي بن كعب ﷺ.

(٢) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ١٨٨، وذكره السيوطي في «الدر» ٥٥/٥ عن عبد بن حديد، وابن أبي حاتم.

(٣) قال ابن كثير: هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه، بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أمّة الناس، والولاية عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلهم من بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم، وقد فعله تبارك وتعالى، وله الحمد والمآلة، فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وغيبه البحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكاملها، وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر وإسكندرية، وهو المقوقس، وملوك عُمان، والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحمة رحمه الله وأكرمه. ثم لما مات رسول الله ﷺ، واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فلمْ شعث ما وهى بعد موته ﷺ، وأخذ جزيرة العرب ومهلها، وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صبيحة خالد بن الوليد ﷺ، ففتحوها طرفاً منها وقتلوا خلقاً من أهلها، وجيشاً آخر صبيحة أبي عبيدة ﷺ ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثاً صبيحة عمرو بن العاص ﷺ إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليقها من أراضى حوران وما والاها، وتوفاه الله ﷻ، واختار له ما عنده من الكرامة، ومَنَّ على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق، فقام بالأمر بعده قياماً تاماً، لم يَدْرُ الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيرته وكمال عدله، وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكاملها وديار مصر إلى آخرها وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى وأهان غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر وانتزع يده عن بلاد الشام، وانحدر إلى القسطنطينية، واتفق أموالهما في سبيل الله كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله عليه من ربه أتم سلام وأوْلى صلاة. ثم لما كانت الدولة العثمانية (دولة عثمان بن عفان ﷺ) امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك =

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُتَجَانِبِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أُنْهَتْ عَنْهُمْ الْأَنْدَرُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قرأ ابن عامر، وحمزة عن عاصم: «لا يحسبن» بالياء وفتح السين. وقرأ الباقون: بالياء وكسر السين.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا يَسْتَغْفِرُونَكَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكَ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْفُظُوا الْقَلَمَ يَنْكُرُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَبَيْنَ قَضَاكِمْ مِنَ الظُّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّفُوتٌ عَلَيْكُمْ بِمَضْمَنٍ عَلَى بَعْضِ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَةَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥٨﴾ وَإِنَّا بَلَّغُ الْأَطْفَالُ بِكُمْ الْحُمُ فَلْيَسْتَنْذِرُوا كَمَا اسْتَنْذَرْنَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥٩ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ الْإِسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ يَكَلِّمُ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعُوا يَدَيْكُمْ عَنِ مَتَرَجٍ يَرْسُو وَأَنْ يَسْتَفِيفَ خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْتَغْفِرُونَكَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن رسول الله ﷺ وجه غلاماً من الأنصار يقال له: مُدْلَج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه، فدخل فرأى عمر على حالة كره عمر رؤيته عليها، فقال: يا رسول الله، وددت لو أن الله أمرنا ونهانا في حال الاستئذان، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس^(١). والثاني: أن أسماء بنت مرثد^(٢) كان لها غلام، فدخل عليها في وقت كرهته، فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حالة نكرها، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل^(٣). ومعنى الآية: ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم؛ وفيهم قولان. أحدهما: أنه أراد الذكور دون الإناث، قاله ابن عمر. والثاني: الذكور والإناث، رواه أبو حصين عن أبي عبد الرحمن^(٤). ومعنى الكلام: ليستأذنكم ممالككم في الدخول عليكم. قال القاضي أبو يعلى: والأظهر أن يكون المراد: العبيد الصغار والإماء الصغار، لأن العبد البالغ بمنزلة الحر البالغ في تحريم النظر إلى مولاته، فكيف يضاف إلى الصبيان الذين هم غير مكلفين؟!

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَلْفُظُوا الْقَلَمَ﴾ وقرأ عبد الوارث: «الْحُمُ» بإسكان اللام ﴿يَنْكُرُ﴾ أي: من أحراركم من الرجال والنساء ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ أي: ثلاثة أوقات؛ ثم بيّنها فقال: ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ﴾ وذلك لأن الإنسان قد يبيت غريباً، أو على حالة لا يحب أن يُطلع عليه فيها ﴿وَبَيْنَ قَضَاكِمْ مِنَ الظُّهْرِ﴾ أي: القائلة ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ﴾ حين يأوي الرجل إلى زوجته، ﴿ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «ثلاث عورات» برفع الثاء من «ثلاث»، والمعنى: هذه الأوقات هي ثلاث عورات، لأن الإنسان يضع فيها ثيابه، فربما بدت عورته. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «ثلاث عورات» بنصب الثاء؛ قال أبو علي: وجعلوه بدلاً من قوله: «ثلاث مرّات» والأوقات ليست عورات، ولكن المعنى: أنها أوقات ثلاث عورت، فلما حذف المضاف أعرب [بإعراب المحذوف]. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وسعيد بن جبير، والأعمش: «عَوْرَاتٍ» بفتح الواو، ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: المؤمنين الأحرار ﴿وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: الخدم والغلمان ﴿جُنَاحٌ﴾ أي: حرج ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أي: بعد مضي هذه

= الأندلس وقبرص وبلاد القيروان وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين. وقتل كسرى وولد ملكه بالكلية، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً، وخيل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجُيى الخراج من المشارق والمغرب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن، ولهذا ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسبيل ملك أمي ما زوى لي منها» قال ابن كثير: فما نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، فنسأل الله الإيمان به ورسوله، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا. اهـ.

- (١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٨٩ عن ابن عباس بدون سند.
- (٢) في الأصل: أسماء بنت مرثد، وما أشتبه من «الإصابة» وبعض كتب التفسير.
- (٣) وكذلك ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٨٩ عن مقاتل بدون سند، وخرجه بنحو السيوطي في «الدر» ٥٥/٥ من رواية ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان.
- (٤) قال ابن جرير الطبري: وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عني به الذكور والإناث، لأن الله عم بقوله: ﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ جميع أملاك إيماننا، ولم يخص منهم ذكراً ولا أنثى، فذلك على جميع من عمه ظاهر التنزيل. اهـ.

يتحرّجون من أكل ذلك الطعام لأنه أطعمهم غير مالكة، فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد^(١). والخامس: أنها نزلت في إسقاط الجهاد عن أهل الرّئاسة المذكورين في الآية، قاله الحسن، وابن زيد. فعلى القول الأول يكون معنى الآية: ليس عليكم في الأعمى حرج أن تأكلوا معه، ولا في الأعرج، وتكون «على» بمعنى «في»، ذكره ابن جرير. وكذلك يخرج [معنى الآية] على كل قول بما يليق به. وقد كان جماعة من المفسرين يذهبون إلى أن آخر الكلام «ولا على المريض حرج» وأن ما بعده مستأنف لا تعلّق له به، وهو يقوّي قول الحسن، وابن زيد.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها بيوت الأولاد. والثاني: البيوت التي يسكنونها وهم فيها عيال غيرهم، فيكون الخطاب لأهل الرجل وولده وخادمه ومن يشتمل عليه منزله، ونسبها إليهم لأنهم سكاؤها. والثالث: أنها بيوتهم، والمراد أكْلهم من مال عيالهم وأزواجهم، لأن بيت المرأة كبيت الرجل. وإنما أباح الأكل من بيوت القربات المذكورين، لجريان العادة ببذل طعامهم لهم؛ فإن كان الطعام وراء جِزْزٍ، لم يجز هتك الحرز.

قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ يَمَانُكُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الوكيل، لا بأس أن يأكل اليسير، وهو معنى قول ابن عباس. وقرأها سعيد بن جبير، وأبو العالية: «مُلْكُكُمْ» بضم الميم وتشديد اللام مع كسرهما على ما لم يسمّ فاعله، وفسّرها سعيد فقال: يعني القهرمان الذي بيده المفاتيح. وقرأ أنس بن مالك، وقتادة، وابن عمر: «مِفْتَاحَهُ» بكسر الميم على التوحيد، والثاني: بيت الإنسان الذي يملكه، وهو معنى قول قتادة. والثالث: بيوت العبيد، قاله الضحاك.

قوله تعالى: ﴿أَوْ سَدِيقُكُمْ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه في الحارث بن عمرو، خرج مع رسول الله ﷺ غزياً، وخلف مالك بن زيد على أهله، فلما رجع وجده مجهوداً، فقال: تحرّجْتُ أن أكل من طعامك بغير إذنك، فنزلت هذه الآية^(٢). وكان الحسن وقتادة يريان الأكل من طعام الصديق بغير استئذان جائزاً.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً﴾ في سبب نزول هذه [الآية] ثلاثة أقوال: أحدها: أن حياً من بني كنانة يقال لهم: بنو ليث كانوا يتحرّجون أن يأكل الرجل الطعام وحده؛ فربما قعد الرجل والطعام بين يديه من الصباح إلى الرواح، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة والضحاك^(٣). والثاني: أن قوماً من الأنصار كانوا لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلا مع ضيفهم، فنزلت هذه الآية، ورخص لهم أن يأكلوا جميعاً أو أشتاتاً، قاله عكرمة^(٤). والثالث: أن المسلمين كانوا يتحرّجون من مؤاكلة أهل الضّرّ خوفاً من أن يستأثروا عليهم، ومن الاجتماع على الطعام، لاختلاف الناس في مآكلهم وزيادة بعضهم على بعض؛ فوسّع عليهم، وقيل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً﴾ أي: مجتمعين ﴿أَوْ أَشْتَاتاً﴾ أي: متفرّقين، قاله ابن قتبية.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً﴾ فيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها بيوت أنفسكم، فسلّموا على أهاليكم وعيالكم، قاله جابر بن عبد الله، وطاوس، وقتادة. والثاني: أنها المساجد، فسلّموا على من فيها، قاله ابن عباس. والثالث: بيوت الغير؛ فالمعنى: إذ دخلتم بيوت غيركم فسلّموا عليهم، قاله الحسن^(٥).

(١) الطبري ١٦٩/١٨، وهو عند الواحدي في «أسباب النزول» بدون سند، وذكره السيوطي في «الدر» بنحو ٨٥/٥.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» ٥٨/٥ من رواية الثعلبي عن ابن عباس.

(٣) «أسباب النزول» للواحدي عن قتادة والضحاك بدون سند، وذكره الطبري عن قتادة، والسيوطي في «الدر» من رواية عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٤) الطبري ١٧٢/١٨، و«أسباب النزول» للواحدي ١٩٠، وذكره السيوطي في «الدر» ٥٨/٥ وزاد نسبة لابن المنذر.

(٥) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: فإذا دخلتم بيوتاً من بيوت المسلمين، فليسلم بعضهم على بعض، قال: وإنما قلنا: ذلك أولى بالصواب، لأن الله جل ثناؤه قال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً﴾ ولم يخص من ذلك بيتاً دون بيت، وقال: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني: بعضهم على بعض، فكان معلوماً إذ لم يخص ذلك على بعض البيوت دون بعض، أنه معني به جميعها، مساجدها وغير مساجدها. اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَيَسِّرْ﴾ قال الزجاج: هي منصوبة على المصدر، لأن قوله: ﴿فَسَلِّمُوا﴾ بمعنى: فحيزوا وأيسر^(١) بعضكم بعضاً تحية، ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ قال مقاتل: مباركة بالأجر، ﴿طَسْبَةً﴾ أي: حسنة.

﴿إِنَّا أَلْفَوْهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنَّا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّئِنْ يَدْعُبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا لَئِنْ أَلْفَيْنَا لَنُؤَمِّنَنَّ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَسْتَفْتِيكَ بَعْضُ مَا هُمْ قَائِلُونَ فَادْنِ مِنْهُمْ فَادْنِ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا كَانُوا مَعَهُ﴾ يعني: مع رسول الله ﷺ ﴿عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي: على أمر طاعة يجتمعون عليها، نحو الجهاد والجمعة والعيد ونحو ذلك ﴿لَّئِنْ يَدْعُبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا﴾ قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة، وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر، لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول الله ﷺ حيث يراه، فيعرف أنه إنما قام ليستأذن، فيأذن لمن شاء منهم، فالأمر إليه في ذلك. قال مجاهد: وإذا الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده.

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: لخروجهم عن الجماعة إن رأيت لهم عذراً.

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدَعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنْكُمْ لَوَإِذَا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿آلَا إِنَّ اللَّهَ لَإِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْصِتُهُمْ لَمَّا عُمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدَعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه نهي عن التعرض لإسقاط رسول الله ﷺ، فإنه إذا دعا على شخص فدعوته موجبة، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم أمروا أن يقولوا: يا رسول الله، ونهوا أن يقولوا: يا محمد، قاله سعيد بن جبير، وعلقمة، والأسود، وعكرمة، ومجاهد. والثالث: أنه نهي لهم عن الإبطاء إذا أمرهم والتأخر إذا دعاهم، حكاه الماوردي، وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وأبو المتوكل، ومعاذ القارئ: «دعاء الرسول نبيكم» بياء مشددة ونون قبل الباء.

قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ﴾ التسلل: الخروج في خفية. واللؤاذ: أن يستر بشيء مخافة من يراه. والمراد بقوله «قد يعلم» التهديد بالمجازاة. قال الفراء: كان المنافقون يشهدون الجمعة فيذكرهم رسول الله ﷺ ويعيهم بالآيات التي أنزلت فيهم، فإن خفي لأحدهم القيام قام، فذلك قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنْكُمْ لَوَإِذَا﴾ أي: يلبوذ هذا بهذا، أي: يستتر ذا بذنا^(٢). وإنما قال: «لَوَإِذَا» لأنها مصدر «لاؤذت»، ولو كان مصدراً لـ «لؤذت» لقلت: لؤذت ليأذاً، كما تقول: فُئِئْتُ قِياماً. وكذلك قال ثعلب: وقع البناء على لاؤذ ملاءؤذة، ولو بني على لاؤذ يلود، لقلت: ليأذاً. وقيل: هذا كان في حفر الخندق، كان المنافقون ينصرفون عن غير أمر رسول الله ﷺ مخفين.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله ﷻ، قاله مجاهد. والثاني: إلى رسول الله ﷺ، قاله قتادة. وفي «عن» قولان: أحدهما: [أنها] زائدة، قاله الأخفش. والثاني: أن معنى «يخالفون»: يُعْرِضُونَ عن أمره. وفي الفتنة هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: الضلالة، قاله ابن عباس. والثاني: بلاء في الدنيا، قاله مجاهد. والثالث: كفر، قاله السدي، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: القتل في الدنيا. والثاني: عذاب جهنم في الآخرة^(٣).

(١) في الأصل: تحيزوا ويحيي.

(٢) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره: إنكم أيها المنصرفون عن نبيكم بغير إذنه تسترأ وخفية منه، وإن خفي أمر من يفعل ذلك منكم على رسول الله ﷺ، فإن الله يعلم ذلك، ولا يخفى عليه، فليقتل من يفعل ذلك منكم - الذين يخالفون أمر الله في الانصراف عن رسول الله ﷺ إلا بإذنه - أن يصيبهم فتنة من الله، أو يصيبهم عذاب أليم فيطبع على قلوبهم فيكفروا بالله. اد.

(٣) قال ابن كثير في قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي: عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومتناهجه وطريقته وستته وشريعته، فتوزن الأقوال =

سورة الفرقان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَمْ يَلِكْ أَلْسِنَةٌ وَالْأَرْضُ وَكَلَّمٌ مِّنْجِدٌ وَلَكِن يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ دَعَىٰ نَقِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا تُشْرِكُوا ﴿٣﴾﴾

قال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة في آخرين: هي مكية. وحكي عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا: إلا ثلاث آيات مها نزلت بالمدينة، وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿عَفْوًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ﴾ قد شرحناه في [الأعراف: ٥٤]. والفرقان: القرآن، سمي فرقاناً، لأنه فرق به بين الحق والباطل. والمراد بعبد: محمد ﷺ، ﴿يَكُونُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه كناية عن عبده، قاله الجمهور. والثاني: عن القرآن، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني الجن والإنس ﴿نَذِيرًا﴾ [أي]: مخوفاً من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ دَعَىٰ نَقِيرًا﴾ فيه ثلاث أقوال. أحدها: سؤاه وهيباه لما يصلح له، فلا خلل فيه ولا تفاوت. والثاني: قدر له ما يصلحه ويُقيمه. والثالث: قدر له تقديرًا من الأجل والزرق. ثم ذكر ما صنعه المشركون، فقال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ يعني: الأصنام ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: وهي مخلوقة ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا﴾ أي: دفع ضرر، ولا جر نفع، لأنها جماد لا قدرة لها، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا﴾ أي: لا تملك أن تُميت أحداً، ولأن تحيي أحداً، ولا أن تبث أحداً من الأموات؛ والمعنى: كيف يعبدون ما هذه صفته، ويتركون عبادة مَنْ يقدر على ذلك كله؟!

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَقَامَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَّا خُبِرَتْ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَظُلْمًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا اسْتَطِيرُ الْأُولَىٰ كَتَبَهَا فِيهِ ثَمَلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَجِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّكُمْ كَانُمْ عَقُورًا رَّجِيًا ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: مشركي قريش؛ وقال مقاتل: هو قول النضر بن الحارث من بني عبد الدار ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي: ما هذا، يعنون القرآن ﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾ أي: كذب ﴿أَقَامَهُ﴾ أي: اختلقه من تلقاء نفسه ﴿وَأَقَامَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَّا خُبِرَتْ﴾ قال مجاهد: يعنون اليهود؛ وقال مقاتل: أشاروا إلى عداس مولى حويطب، ويسار غلام عامر بن الحضرمي، وجبر مولى لعامر أيضاً، وكان الثلاثة من أهل الكتاب.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَظُلْمًا﴾ قال الزجاج: المعنى: فقد جاؤوا بظلم وزور، فلما سقطت الباء، أفضى الفعل فنصب، والرؤور: الكذب. ﴿وَقَالُوا اسْتَطِيرُ الْأُولَىٰ﴾ المعنى: وقالوا: الذي جاء به أساطير الأولين؛ وقد بيّنا ذلك في [الأنعام: ٢٥]. قال المفسرون: والذي قال هذا هو النضر بن الحارث. ومعنى ﴿اُكْتُبَهَا﴾ أمر أن تُكتب له. وقرأ ابن مسعود، وإبراهيم النخعي، وطلحة بن مصرف: «اُكْتُبَهَا» برفع التاء الأولى وكسر الثانية، والابتداء على قراءتهم برفع الهمزة، ﴿فِيهِ ثَمَلٌ عَلَيْهِ﴾ أي: نُقِرَ عليه ليحفظها لا ليكتبها، لأنه لم يكن كاتباً، ﴿بُكْرَةً وَأَجِيلًا﴾ أي: عُدة وعشيتا. ﴿قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّد: ﴿أَنزَلَهُ﴾﴾ يعني: القرآن ﴿الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبُ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَتَشَبَّهِ فِي الْأَنْبَاءِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُنْفِثُ إِلَيْهِ كَذِبٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝٨ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيكَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ يعني المشركين ﴿مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ أنكروا أن يكون الرسول بشراً يأكل الطعام ويمشي في الطُّرُق كما يمشي سائر الناس يطلب المعيشة؛ والمعنى: أنه ليس بملك ولا ملك، لأن الملائكة لا تأكل، والملوك لا تبدل في الأسواق، فعجبوا أن يكون مساوياً للبشر لا يتميز عليهم بشيء؛ وإنما جعله الله بشراً ليكون مجانساً للذين أرسل إليهم، ولم يجعله ملكاً يمتنع من المشي في الأسواق، لأن ذلك من فعل الجبابرة، ولأنه أمر بدعائهم، فاحتاج أن يمشي بينهم.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ وذلك أنهم قالوا له: سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك ويجعل لك جناتاً وقصوراً وكنوزاً، فذلك قوله: ﴿أَوْ يُنْفِثُ إِلَيْهِ كَذِبٌ﴾ أي: ينزل إليه كثر من السماء ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي: بستان يأكل من ثماره. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «يأكل منها» بالياء، يعنون النبي ﷺ. وقرأ حمزة، والكسائي: «ناكل» بالنون، قال أبو علي: المعنى: يكون له علينا مزية في الفضل بأكلنا من جنته. وباقي الآية مفسر في [بني إسرائيل: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿أَنْظِرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ حين مثلك بالمسحور، وبالكاهن والمجنون والشاعر ﴿فَضَلُّوا﴾ بهذا عن الهدى ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيكَ﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يستطيعون مخرجاً من الأمثال التي ضربوها، قاله مجاهد، والمعنى أنهم كذبوا ولم يجدوا على قولهم حجة وبرهاناً. وقال الفراء: لا يستطيعون في أمرك حيلة. والثاني: سبيلاً إلى الطاعة، قاله السدي.

﴿يَبَارَكُ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ جَارِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ۝١٠ بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَعَتَدْنَا لِإِمْنٍ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا سَمِيرًا ۝١١ إِذَا رَأَوْهُمْ يَنْ تَكَلِّمُ بَيْنَهُمْ يَتَّبِعُ أَمْرًا مَقْرَرًا وَمَنْعًا مَقْرَرًا وَمَنْعًا مَقْرَرًا وَمَنْعًا مَقْرَرًا ۝١٢ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٣﴾

ثم أخبر أنه لو شاء لأعطاء خيراً مما قالوا في الدنيا، وهو قوله: ﴿خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ يعني: لو شئت لأعطيتك في الدنيا خيراً مما قالوا، لأنه قد شاء أن يعطيه ذلك في الآخرة. ﴿وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «ويجعل لك قصوراً» برفع اللام. وقرأ أبو عمرو، ونافع، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «ويجعل» بجزم اللام. فمن قرأ بالجزم، كان المعنى: إن يشأ يجعل لك جنات ويجعل [لك] قصوراً. ومن رفع، فعلى الاستثنا [المعنى]: ويجعل لك قصوراً في الآخرة. وقد سبق معنى ﴿وَعَتَدْنَا﴾ [النساء: ٣٧] ومعنى ﴿السَّامِرِ﴾ [النساء: ١٠].

قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ يَنْ تَكَلِّمُ بَيْنَهُمْ﴾ قال السدي عن أشياخه: من مسيرة مائة عام. فإن قيل: السعير مذكر، فكيف قال: «إذا رأوهم»؟ فالجواب: أنه أراد بالسعير النار.

قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُوا أَمْرًا مَقْرَرًا وَمَنْعًا مَقْرَرًا﴾ فيه قولان: أحدهما: غلبان تغيط، قاله الزجاج. قال المفسرون: والمعنى أنها تتغيط عليهم، فيسمعون صوت تغيطها وزفيرها كالغضبان إذا غلا صدره من الغيط. والثاني: يسمعون فيها تغيط المعدبين وزفيرهم، حكاه ابن قتبية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَرَبُوا ثُبُورًا ۝١٤﴾ قال المفسرون: تضيق عليهم كما يضيق الزُّجُجُ^(١) على الرُّمَح، وهم قد قُورِنُوا مع الشياطين والثُّبُور: الهلكة. وقرأ عاصم الجحدري، وابن السميع: «ثُبُوراً» بفتح اللام.

(١) الزجاج: الحديدية التي في أسفل الرمح.

قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ قال الزجاج: الثُّبُور مصدر، فهو للقليل والكثير على لفظ الواحد، كما تقول: ضربته ضرباً كثيراً، والمعنى: هلاكهم أكثر من أن يدعوا مرة واحدة. وروى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يُكسى من أهل النار يوم القيامة إبليس، يُكسى خُلَّةً من النار فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريئته خلفه وهو يقول: والثبوره، والثبوره، وهم يتنادون: يا ثبورهم، حتى يبقوا على النار، فينادي: يا ثبوره، ويتنادون: يا ثبورهم، فيقول الله ﷻ: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾» (١).

﴿قُلْ أَتَأْتِكُمْ خَيْرٌ أَمْ جَزَاءُ الْخُلُودِ الَّتِي كُنتُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ (٢) ﴿لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَلِيلٌ كَلَّتْ عَلَى رَيْبِكُمْ وَعَدًّا مَشْهُلًا﴾ (٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَأْتِكُمْ﴾ يعني: السعير ﴿خَيْرٌ أَمْ جَزَاءُ الْخُلُودِ﴾ وهذا تنبيه على تفاوت ما بين المنزلتين، لا على أن في السعير خيراً. وقال الزجاج: قد وقع التساوي بين الجنة والنار في أنهما منزلان، فلذلك وقع التفضيل بينهما (٤). قوله تعالى: ﴿كَانَتْ لَمْ جَزَاءً﴾ أي: ثوابا ﴿وَمَصِيرًا﴾ أي: مَرَجِعاً.

قوله تعالى: ﴿كَانَتْ عَلَى رَيْبِكُمْ﴾ المشار إليه، إما الدخول، وإما الخلود ﴿وَعَدًّا﴾ وعدمهم الله إياه على السنة الرسل. وفي معنى (مسؤولاً) قولان: أحدهما: مطلوباً. وفي الطالب له قولان. أحدهما: أنهم المؤمنون، سألوا الله في الدنيا إنجاز ما وعدهم [به]. والثاني: أن الملائكة سألته ذلك لهم، وهو قوله: ﴿رَبَّنَا وَأَعِظْهُمْ جَحِيمَ عَذَابِ آلِي وَعَدَّتْهُمْ﴾ [غافر: ٤٨]. والثاني: أن معنى المسؤول: الواجب.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَسْتُدُّونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَقُولُوا مَآئِدَةُ أُمْلَتِكُمْ إِحَاوِي هَذِهِ أَمْ هُمْ سَكُوتًا السَّيْلُ﴾ (٥) ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يُبَيِّنُ لَنَا أَنْ تَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَهَمَّاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا آلَ الْاِصْغَرِ وَكَانُوا قَوْمًا يَورِكُ﴾ (٦) ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَغِيثُونَ صَرْفًا وَلَا تَعْمَرًا وَمَنْ يَظْلِمِ نَفْسًا يَنْظِمِ نَفْسَهُ عَذَابًا كَثِيرًا﴾ (٧) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَحَمَلْنَا بَعْضَكُمْ بَعْضًا فِئْتَةً تَضَعُهُمْ فَتَنَةً وَأَنْتُمْ لَا تَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (٨).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم: «يحشرهم» فيقول: بالياء فيهما. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «نحشرهم» بالنون فيقول: بالياء. وقرأ ابن عامر: «نحشرهم» فتقول: بالنون فيهما جميعاً؛ يعني: المشركين ﴿وَمَا يَسْتُدُّونَ﴾ قال مجاهد: يعني عيسى وعزيراً والملائكة. وقال عكرمة، والضحاك: يعني الأصنام، فيأذن الله للأصنام في الكلام، ويخاطبها ﴿فَقِيلُوا مَآئِدَةُ أُمْلَتِكُمْ إِحَاوِي﴾ أي: أمرتموهم بعبادتكهم ﴿أَمْ هُمْ سَكُوتًا السَّيْلُ﴾ أي: أخطأوا الطريق. ﴿قَالُوا﴾ يعني الأصنام: ﴿سُبْحَنَكَ نَرْوَاهُ اللَّهُ تعالى أن يُعْبَدَ غيره﴾ ﴿مَا كَانَ يُبَيِّنُ لَنَا أَنْ تَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ نوالبهم؛ والمعنى: ما كان ينبغي لنا أن نعبد نحن غيرك، فكيف ندعو إلى عبادتنا؟! فدل هذا الجواب على أنهم لم يأمرُوا بعبادتهم (٩). وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وابن جبير، والحسن، وقتادة، وأبو جعفر، وابن يعمر، وعاصم الجحدري: «أَنْ تَتَّخِذَ برفع النون وفتح الخاء. ثم ذكروا سبب تركهم الإيمان، فقالوا: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ﴾ أي: أطلت لهم العمر وأوسعت لهم الرزق ﴿حَتَّى نَسُوا آلَ الْاِصْغَرِ﴾

(١) رواه أحمد في «المسند»، والطبري ١٨/١٨٨، وذكره السيوطي في «الدر» ٥/٦٤ وزاد نسبه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث» عن أنس ﷺ.

(٢) قال ابن كثير: يقول تعالى: يا محمد هذا الذي وصفناه لك من حال الأشياء الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم فتلقاهم بوجه عبوس وتغيظ وزفير، ويقولون في أماكنهم الضيق مفرتين لا يستطيعون حراكاً ولا استتصاراً ولا فكاً مما هم فيه، أمداً خيراً من جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده التي أعد لها وجعلها لهم جزاءً ومصيراً على ما أطاعوه في الدنيا وجعل ما لهم إليها ﴿لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ من الملاذ، من مأكول ومشروب وملابس ومساكن ومزايك ومنظر وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد، وهم في ذلك خالدون أبداً دائماً سرمداً بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء، ولا ينفون عنها حولاً، وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم وأحسن به إليهم، ولهذا قال: ﴿كَانَتْ عَلَى رَيْبِكُمْ وَعَدًّا مَشْهُلًا﴾ أي: لا بد أن يقع وأن يكون. اهـ.

(٣) كما قال تعالى في حق عيسى ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَبُوسَى إِنَّ مَثَبَ مَآئِدَتِكَ لَأَنْتَ لَتَأْتِي الْاِصْغَرُ وَأَنْتَ الْهَيْبُ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَا يُحِبُّ لِي يَحِبُّ إِنْ كُنْتُ لَكُمْ فَقَدْ عَسَيْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَفْئِدَةٍ مَا فِي نَفْسِي إِلَّا أَنْتَ عَلَّمُ الْغَيْبِ﴾ (٤) مَا كُنْتُ لَمْ إِلَّا مَا أَسْرَبُ بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ.

[المائدة: ١١٦، ١١٧].

أي: تركوا الإيمان بالقرآن والأعاظ به ﴿وَكَاذِبًا قَوْلًا بُورًا﴾ قال ابن عباس: هلكى. قال في روايه أخرى، البور: [في] لغة أزد عُمان: الفاسد. قال ابن قتيبة: هو من بَارَ بُور: إذا هلك وبطل، يقال: بار الطعام: إذا كَسَدَ، وبارت الأيِّم: إذا لم يُرْعَبَ فيها، وكان رسول الله ﷺ يتعوذ من بُور الأيِّم، قال: وقال أبو عبيدة: يقال: رجل بُور، وقوم بور، لا يَجْمَع ولا يُشْنَى، واحتج بقول الشاعر:

يَا رَمُوكَ الْمَلِيكَ إِنَّ لِسَانِي رَايْتُ مَا فَتَنْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ^(١)

وقد سمعنا بـ «رجل باثر» ورأيناهم ربما جمعوا «فاعلاً» على «فعل»، نحو عائذ وعوذ، وشارف وشرف. قال المفسرون: فيقال للكفار حينئذٍ ﴿فَقَدْ كَذَّبَكُمْ﴾ أي: فقد كَذَّبكم المعبودون في قولكم: إنهم آلهة. وقرأ سعيد بن جبير، ومجاهد، ومعاذ القارئ، وابن شنيوذ عن قبل: «بما يقولون» بالياء؛ والمعنى: كَذَّبكم بقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَلِكُنِي لَآ...﴾ الآية؛ هذا قول الأكثرين. وقال ابن زيد: الخطاب للمؤمنين؛ فالمعنى: فقد كَذَّبكم المشركون بما تقولون: إن محمداً رسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْقًا وَلَا نَصْرًا﴾ قرأ الأكثرون بالياء. وفيه وجهان: أحدهما: فما يستطيع المعبودون صَرْقًا للعذاب عنكم ولا نصراً لكم. والثاني: فما يستطيع الكفار صَرْقًا لعذاب الله عنهم ولا نصراً لأنفسهم. وقرأ حفص عن عاصم: «يستطيعون» بالياء؛ والخطاب للكفار. وحكى ابن قتيبة عن يونس البصري أنه قال: الصَرْف: الحيلة من قولهم: إنه ليتصرف.

قوله تعالى: ﴿وَنَظْلِمُ بَنِيكُمْ﴾ أي: بالشُّرك ﴿يَذِقُهُ﴾ في الآخرة. وقرأ عاصم الجحدري، والضحاك، وأبو الجوزاء [وقتادة]: «يذقه» بالياء ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أي: شديداً. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال الزجاج: في الآية محذوف، تقديره: وما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ رُسُلًا من المرسلين، فحذفت «رسلاً» لأن قوله: ﴿وَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يدلُّ عليها.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَآكُلُوا الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي: إنهم كانوا على مثل حالك، فكيف تكون يذعاً منهم؟ فإن قيل: لم تُسرت «إنهم» هاهنا، وفتحت في قوله: ﴿أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ﴾ [براء: ٥٤] فقد بينا هنالك علّة فتح تلك؛ فأما كسر هذه، فذكر ابن الأنباري فيه وجهين: أحدهما: أن تكون فيها واو حال مضمرّة، فكسرت بعدها «إن» للاستئناف، فيكون التقدير: إلا وإنهم ليأكلون الطعام، فأضمرت الواو هاهنا كما أضمرت في قوله: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤]، والتأويل: أو وهم قائلون. والثاني: أن تكون كُسرت لإضمار «مَنْ» قبلها، فيكون التقدير: وما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَنْ إِنَّهُمْ لِيَآكُلُونَ، قال الشاعر:

فَظَلُّوا وَمِنْهُمْ دَمْعُهُ سَابِقُ لَهُ
وَأَخْرُ يَشْنِي دَمْعُهُ الْعَيْنِ بِالْمَهْلِ^(٢)
أراد: مَنْ دَمْعُهُ.

قوله تعالى: ﴿وَمَعَلْنَا بَعْضَكُمْ يَتِيمًا فَتَنَّا﴾ الفتنة: الابتلاء والاختبار. وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أنه افتتان الفقير بالغني، يقول: لو شاء لجعلني غنياً، والأعمى بالبصير، والسقيم بالصحيح، قاله الحسن. والثاني: ابتلاء الشريف بالوضيع، والعربي بالمولى، فإذا أراد الشريف أن يُسَلِّمَ فرأى الوضيع قد سبقه بالإسلام أنف فأقام على كفره، قاله ابن السائب. والثالث: أن المستهزلين من قريش كانوا إذا رأوا فقراء المؤمنين، قالوا: انظروا إلى أتباع محمد من موالينا وزدالتنا، قاله مقاتل. فعلى الأول: يكون الخطاب بقوله: ﴿أَنْصَرِيكُمْ﴾ لأهل البلاء. وعلى الثاني: للرؤساء، فيكون المعنى: أنصبرون على سبق الموالي والأتباع. وعلى الثالث: للفقراء؛

(١) البيت لعبد الله بن الزُّبَيْرِ السُّهْمِي قاله حين أسلم عند فتح مكة، وهو في «مجاز القرآن» ٧٣/٢، و«غريب القرآن» ٣١١، و«الطبري» ١٩١/١٨، و«القرطبي» ١١/٣، و«اللسان» و«التاج»: بور.

(٢) المهمل: التؤدة والشكينة، والبيت لذي الرمة وهو في «معاني القرآن» ٣٨٤، وروايته في «ديوانه» طبع المكتب الإسلامي ص ٥٧٠: فظَلُّوا وَمِنْهُمْ دَمْعُهُ غَالِبٌ لَهُ
وَأَخْرُ يَشْنِي غَبْرَةَ الْعَيْنِ بِالْمَهْمَلِ

فالمعنى: أتصبرون على أذى الكفار واستهزائهم، والمعنى: قد علمتم ما وعد الصابرون، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بِصِيرٍ﴾ بمن يصبر ويمن يجزئ^(١).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أُولَٰئِكَ نَوَّلَٰ أَرْسُلًا عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ رَأَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدْ مَنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لا يخافون البعث ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: هؤلاء ﴿أَرْسُلًا عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ فكانوا رُسلاً إلينا وأخبرونا بصدقك، ﴿أَوْ رَأَىٰ رَبَّنَا﴾ فيخبرنا أنك رسوله، ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: تكبروا حين سألوا هذه الآيات ﴿وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ قال الزجاج: العتو في اللغة: مجاوزة القدر في الظلم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ فيه قولان: أحدهما: عند الموت. والثاني: يوم القيامة. قال الزجاج: وانتصب اليوم على معنى: لا بشرى للمجرمين يوم يرون الملائكة، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مؤكّد لـ ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾؛ والمعنى أنهم يُمنعون البُشرى في ذلك اليوم؛ ويجوز أن يكون «يوم» منصوباً على معنى: اذكر يوم يرون الملائكة، ثم أخبر فقال: ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾، والمجرمون هاهنا: الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وقرأ قتادة، والضحاك، ومعاذ القارئ: «حُجْرًا» بضم الحاء. قال الزجاج: وأصل الحجر في اللغة: ما حجرت عليه، أي: منعت من أن يوصل إليه، ومنه حَجَر القضاة على الأيتام. وفي القائلين لهذا قولان: أحدهما: أنهم الملائكة يقولون للكفار: حِجْرًا محجوراً، أي: حراماً محرماً. وفيما حَرَموه عليهم قولان: أحدهما: البُشرى، فالمعنى: حرام محرّم أن تكون لكم البُشرى، قاله الضحاك، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج. والثاني: أن تدخلوا الجنة، قاله مجاهد. والثاني: أنه قول المشركين إذا عابوا العذاب، ومعناه الاستعانة من الملائكة، روي عن مجاهد أيضاً. وقال ابن فارس: كان الرَّجُل إذا لقي مَنْ يخافه في الشهر الحرام، قال: حِجْرًا، أي: حرام عليك أذاي، فإذا رأى المشركون الملائكة يوم القيامة، قالوا: حِجْرًا محجوراً، يظنون أنه ينفعهم كما كان ينفعهم في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَا إِلَىٰ﴾ قال ابن قتيبة: أي: قَصَدْنَا وَعَمَدْنَا، والأصل أنَّ من أراد القُدوم إلى موضع عَمَدَ له وقصده.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ [أي] من أعمال الخير ﴿فَنَجَعْنَاهُ هَبَاءً﴾ لأن العمل لا يُقْبَل مع الشُّرك^(٢). وفي الهباء خمسة أقوال: أحدها: أنه ما رأيته يتطاير في الشمس التي تدخل من الكوة مثل الغبار، قاله عليّ عليه السلام، والحسن، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، واللغويون؛ والمعنى أنَّ الله أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء. والثاني: أنه الماء المُهراق، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أنه ما تنسفه الرياح وتذريه من التراب وحطام الشجر، رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس. والرابع: أنه الشر الذي يطير من النار إذا أضرمت، فإذا وقع لم يكن شيئاً، رواه عطية عن ابن عباس. والخامس: أنه ما يسطع من حوافر الدواب، قاله مقاتل. والمتشور: المتفرق.

قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ أفضل منزلاً من المشركين ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾

(١) قال ابن كثير: يقول الله: لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون لفعلت، ولكني قد أردت أن أبلي العباد بهم وأبليكم بهم، وفي «صحيح مسلم» عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إني مبتليكم ومبتل بك». وفي «المسند» عن رسول الله ﷺ: «لو شئت لأجرى الله مني جبال الذهب والفضة». وفي «الصحيح» أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: أخبر الله تعالى أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة الشرعية فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معاً فتكون أبعد من القبول حينئذٍ. اهـ.

قال الزجاج: المقيّل المّقام وقت القائلة، وهو النوم نصف النهار. وقال الأزهرى: القيلولة عند العرب: الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر وإن لم يكن مع ذلك نوم. وقال ابن مسعود، وابن عباس: لا يتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيّل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.

﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَيْمِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ (١٥) أَلَمَلَكُ يَوْمَئِذٍ أَلَحَقُ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّنُنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سِيبًا﴾ (١٦) يَوَلِّقُ لِيَتِي لَرَأَيْتُ فَلَائًا خَلِيلًا ﴿لَقَدْ أَصَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَعَلَنِي وَكَانَ اللَّعْنَةُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ (١٧)

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَيْمِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ (١٥) هذا معطوف على قوله: ﴿وَيَوْمَ يَوْمَ الْمَلَائِكَةِ﴾، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: «تَشَقَّقُ» بالتشديد، فأدغموا التاء في الشين، لأن الأصل: تتشقق. قال الفراء: المعنى: تتشقق السماء عن الغمام، وتنزل فيه الملائكة، و«على» و«عن» و«الباء» في هذا الموضع بمعنى واحد، لأن العرب تقول: رميت عن القوس، وبالقوس، وعلى القوس؛ والمعنى واحد. وقال أبو علي الفارسي: المعنى: تتشقق السماء وعليها غمام، كما تقول: ركب الأمير بسلحه، وخرج بشيابه، وإنما تتشقق السماء لنزول الملائكة. قال ابن عباس: تتشقق السماء عن الغمام، وهو الغيم الأبيض، وتنزل الملائكة في الغمام. وقال مقاتل: المراد بالسماء: السموات، تتشقق عن الغمام، وهو غمام أبيض كههيئة الضباب، فتتنزل الملائكة عند انشقاقها. وقرأ ابن كثير: «وَنُزِّلُ» بنونين، الأولى مضمومة، والثانية ساكنة، واللام مضمومة، و«الملائكة» نصباً. وقرأ عاصم الجحدري، وأبو عمران الجوني: «وَنُزِّلُ» بنون واحدة مفتوحة ونصب الزاي وتشديدها وفتح اللام ونصب «الملائكة». وقرأ ابن يعمر: «وَنُزِّلُ» بفتح النون واللام والزاي والتخفيف «الملائكة» بالرفع.

قوله تعالى: ﴿أَلَمَلَكُ يَوْمَئِذٍ أَلَحَقُ لِلرَّحْمَنِ﴾ قال الزجاج: المعنى: المَلَكُ الذي هو المَلَكُ حقاً للرحمن^(١). فأما العسير، فهو الصعب الشديد يشتد على الكفار، ويهون على المؤمنين فيكون كمقدار صلاة مكتوبة.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن أبي بن خلف كان يحضر [عند] رسول الله ﷺ ويجالسه من غير أن يؤمن به، فزجره عُقبة بن أبي مُعَيْط عن ذلك، فنزلت هذه الآية، رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس^(٢). والثاني: أن عُقبة دعا قوماً فيهم رسول الله ﷺ لطعام فأكلوا، وأبى رسول الله ﷺ أن يأكل، وقال: «لا أكل حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله»، فشهد بذلك عُقبة، فبلغ ذلك أبي بن خلف، وكان خليلاً له، فقال: صبوت يا عُقبة؟ فقال: لا والله، ولكنه أبى أن يأكل حتى قلت ذلك، وليس من نفسي، فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد^(٣). والثالث: أن عُقبة كان خليلاً لأُمَيَّة بن خلف، فأسلم عُقبة، فقال أُمَيَّة: وجهي من وجهك حرام إن تابعت محمداً، فكفر وارتدّ لرضى أُمَيَّة، فنزلت هذه الآية، قاله الشعبي^(٤). فأما الظالم [المذكور] هاهنا، فهو الكافر، وفيه قولان: أحدهما: أنه أبي بن خلف، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: عُقبة بن أبي مُعَيْط، قاله مجاهد، وسعيد بن جبير، وقائدة. قال عطاء: يأكل يديه حتى تذهباً إلى المرفقين، ثم تنبتان، فلا يزال هكذا كلما نبت يده أكلها ندامة على ما فعل.

قوله تعالى: ﴿يَلَيِّنُنِي أَخَذْتُ﴾ الأكثرون يسكنون «يا ليتني»، وأبو عمرو يحركها؛ قال أبو علي: والأصل التحريك، لأنها بإزاء الكاف التي للخطاب، إلا أن حرف اللين تكره فيه الحركة، ولذلك أسكن من أسكن؛ والمعنى: ليتني أتبعته فأخذت معه طريقاً إلى الهدى.

(١) وفي «الصحيح»: «أن الله تعالى يطوي السموات بيمينه، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى، ثم يقول: أنا الملك، أنا الديان، أين ملوك الأرض، أين الجبارون، أين المنكرون».

(٢) «الطبري» ٨/١٩، وأسباب النزول للواحدى ١٩١، وذكره السيوطي في «الدر» ٦٨/٥ وزاد نسبه لابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٣) «الطبري» ٨/١٩، وذكره السيوطي في «الدر» ٦٩/٥ وزاد نسبه للفريابي، وابن أبي شبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٤) «الطبري» ٨/١٩، وأسباب النزول للواحدى ١٩١.

قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعْ لَوْ أَنَّى فَلَا تَكُنْ فِي الْمَشَارِقِ أَرْبَعَةً أَقْوَالاً: أحدها: أنه عن أبي بن خلف، قاله ابن عباس. والثاني: عقبة بن أبي معيط، قاله أبو مالك. والثالث: الشيطان، قاله مجاهد. والرابع: أمية بن خلف، قاله السدي. فإن قيل: إنما يكتفي من يخاف المبادأة أو يحتاج إلى المداجاة، فما وجه الكناية؟ فالجواب: أنه أراد بالظالم: كل ظالم، وأراد بفلان: كل من أطيع في معصية الله وأرضي بسخط الله، وإن كانت الآية نزلت في شخص، قاله ابن قتيبة. قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي مِنَ الذِّكْرِ﴾ أي: صرفني عن القرآن والإيمان به ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ مع الرسول، وهاتنا تم الكلام. ثم قال الله تعالى: ﴿وَكَاكَ النَّبِيُّ لِلْإِنْسَانِ﴾ يعني: الكافر ﴿خَذُولاً﴾ يتبرأ [منه] في الآخرة. ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ يعني محمداً ﷺ، وهذا عند كثير من العلماء أنه يقوله يوم القيامة؛ فالمعنى: ويقول الرسول يومئذ. وذهب آخرون، منهم مقاتل، إلى أن الرسول قال ذلك شاكياً من قومه إلى الله تعالى حين كذبوه^(١). وقرأ ابن كثير، ونافع، [وأبو عمرو]: «إِنْ قَوْمِي اتَّخَذُوا بِتَحْرِيكِ الْبَاءِ؛ وَأَسْكَنَهَا عَاصِمَ، وَابْنَ عَامَرَ، وَحُمَزَةَ، وَالْكَسَاةَ. وَفِي الْمَرَادِ بِقَوْلِهِ: ﴿مَهْجُورًا﴾ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: مَتْرُوكًا لَا يُلْتَفَتُونَ إِلَيْهِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمِقَاتِلَ. وَالثَّانِي: هَجَرُوا فِيهِ، أَيْ: جَعَلُوهُ كَالْهَذْيَانِ، وَمِنْهُ يُقَالُ: فَلَانٌ يَهْجُرُ فِي مَنَامِهِ، أَيْ: يَهْلِي، قَالَ ابْنُ قَتِيْبَةَ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: الْهَجْرُ: عَمَّا لَا يُنْتَفَعُ بِهِ مِنَ الْقَوْلِ. قَالَ الْمَفْسُورُونَ: فَعَزَّاهُ اللَّهُ ﷻ، فَقَالَ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ أَيْ: كَمَا جَعَلْنَا لَكَ أَعْدَاءً مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِكَ، جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنْ كُفَّارِ قَوْمِهِ؛ وَالْمَعْنَى: لَا يُكْبِرَنَّ هَذَا عَلَيْكَ، فَلَكَ بِالْأَنْبِيَاءِ أَسْوَةٌ، ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ يمنعك من عدوك. قال الزجاج: والباء في قوله: ﴿بِرَبِّكَ﴾ زائدة؛ فالمعنى: كفى ربك هادياً ونصيراً.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ ﴿٣١﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِنْ جَاءَتْهُمْ أَوَّلُ الْآيَةِ شَرًّا مَكَانًا وَأَحْسَلَ سَبِيلًا﴾ ﴿٣٣﴾ قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي: كما أنزلت التوراة والإنجيل والزبور، فقال الله ﷻ: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: أنزلناه كذلك متفرقاً، لأن معنى ما قالوا: لِمَ نُزِّلَ عَلَيْهِ مَتَفَرِّقًا؟ فقيل: إنما أنزلناه كذلك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي: لنثبتي به قلبك فتزداد بصيرة، وذلك أنه كان يأتيه الوحي في كل أمر وحادثة، فكان أقوى لقلبه وأنور لبصيرته وأبعد لاستيحاشه، ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ أي: أنزلناه على الترتيل، وهو التمكث الذي يُضَادُّ الْعَجَلَةَ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾ يعني المشركين ﴿بِمَثَلٍ﴾ يضربونه لك في مخاصمتك وإبطال أمرك ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالذي هو الحق لتزد به كيدهم ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ من مثَلهم؛ والتفسير: البيان والكشف. قال مقاتل: ثم أخبر بمستقرهم في الآخرة، فقال: ﴿الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا: إن محمداً وأصحابه شر خلق الله، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿أَوَّلُ الْآيَةِ شَرًّا مَكَانًا﴾ أي: منزلاً ومصيراً ﴿وَأَحْسَلَ سَبِيلًا﴾ ديناً وطريقاً من المؤمنين. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا﴾ ﴿٣٤﴾ فَقُلْنَا أَهْبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَرَبْنَاهُمْ ذَرِيرًا﴾ ﴿٣٥﴾ وَقَفَّمْ نَوْجَ لَمَّا كَذَبُوا الرَّسُولَ أَشْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿٣٦﴾ وَكَادَا وَكُونُوا وَأَصْحَابُ الرَّسُولِ وَقَوْمًا يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ وَكَانَ مِنْهُمْ نَبِيٌّ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَرَبْنَاهُمْ ذَرِيرًا﴾ ﴿٣٧﴾

(١) قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال: ﴿يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ وذلك أن المشركين كانوا لا يُصْغُونَ لِلْقُرْآنِ وَلَا يَسْمَعُونَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ يَوَاسُ...﴾ الآية [نفصلت: ٢٦]، فكانوا إذا تلاي عليهم القرآن أكثروا للغلط والكلام في غيره حتى لا يسمعون، فهذا من هجرانه، وترك الإيمان به وترك تصديقه، من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه، من هجرانه، وترك العمل به وامتنال أوامره واجتناب زواجره، من هجرانه، والمدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره، من هجرانه. قال: فنسأل الله الكريم المنان، القادر على ما يشاء، أن يخلصنا مما يسخطه، ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه وفهمه والقيام بمقتضاه أثناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يحبه ويرضاه إنه كريم وهاب. اهـ.

قوله تعالى: ﴿أَذْعَبَ إِلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي كَذَّبُوا﴾. إن قيل: إنما عاينوا الآيات بعد [وجود] الرسالة، فكيف يقع التكذيب منهم قبل وجود الآيات؟ فالجواب: أنهم كانوا مكذِّبين أنبياء الله وكُتِبَ المتقدمة، ومن كَذَّبَ نبياً فقد كَذَّبَ سائر الأنبياء، ولهذا قال: ﴿وَقَدْ نُوْحٌ لَّمَّا كَذَّبُوا أُرْسِلُ﴾، وقال الزجاج: يجوز أن يكون المراد به نوح وحده، وقد ذُكِرَ بلفظ الجنس، كما يقال: فلان يركب الدواب، وإن لم يركب إلا دابة واحدة؛ وقد شرحنا هذا في [هود: ٥٩] عند قوله: ﴿وَصَعَوْا رُسُلَهُمْ﴾. وقد سبق معنى التدمير [الأعراف: ١٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الرُّسُلِ﴾ في الرُّسُلِ ثلاثة أقوال: أحدها: أنها بشر كانت تسمى الرُّسُلَ، قاله ابن عباس في رواية العوفي. وقال في رواية عكرمة: هي بشر بأذربيجان. وزعم ابن السائب أنها بشر دون اليمامة. وقال السدي: بشر بأنطاكية. والثاني: أن الرُّسُلَ قرية من قرى اليمامة، قاله قتادة. والثالث: أنها المَعْدِن، قاله أبو عبيدة، وابن قتيبة. وفي تسميتها بالرُّسُل قولان: أحدهما: أنهم رَسُّوا نبيَّهم في البشر، قاله عكرمة. قال الزجاج: رَسُّوه، أي: دَسُّوه فيها. والثاني: أن كل رِكِيَّة لم تطو فهي رَسٌّ، قاله ابن قتيبة. واختلفوا في أصحاب الرُّسُل على خمسة أقوال: أحدها: أنهم قوم كانوا يعبدون شجرة، فبعث الله تعالى إليهم نبياً من ولد يهوذا بن يعقوب، فحفروا له بئراً وألقوه فيها، فهلكوا، قاله علي عليه السلام. والثاني: أنهم قوم كان لهم نبي يقال له: حنظلة بن صفوان، فقتلوا نبيَّهم فأهلكهم الله، قاله سعيد بن جبير. والثالث: أنهم كانوا أهل بئر يتزلون عليها، وكانت لهم مواشٍ، وكانوا يعبدون الأصنام، فبعث الله إليهم شعبياً، فتمادوا في طغيانهم، فانهارت البئر، فحُفِّسَ بهم وبمنازلهم، قاله وهب بن منبه. والرابع: أنهم الذين قتلوا حبيباً النجار، قتلوه في بئر لهم، وهو الذي قال: ﴿يَقْتُولُوا أَتَيْعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، قاله السدي. والخامس: أنهم قوم قتلوا نبيَّهم وأكلوه، وأول من عمل السحر نساؤهم، قاله ابن السائب ^(١).

قوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا﴾ المعنى: وأهلكنا قروناً ﴿بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ أي: بين عاد وأصحاب الرُّسُل. وقد سبق بيان القُرُن [الأنعام: ٦]. وفي هذه القصص تهديد لقریش.

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا صَوَّيْنَا لَهُ الْأَمَنَاتِ﴾ أي: أعذرنا إليه بالموعظة وإقامة الحُجَّة ﴿وَكُلًّا تَبَرَّأْنَا﴾ قال الزجاج: التَّبَيُّر: التدمير، وكل شيء كسرته وفتته فقد تَبَرَّته، وكُسارته: التَّبر، ومن هذا قيل لمكسور الزجاج: التَّبر، وكذلك تَبَر الذهب.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمُطِرَتْ مَطَرُ السَّوَاءِ أَكْثَمَ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتَّبِعُونَ شُورًا﴾ ١٠١ ﴿وَلَا رَأَوْا إِذْ يَخْذَوْنَكُ إِلَّا هُرُورًا أَمَّا الَّذِي بَيْنَكَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ ١٠٢ ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرْوُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا﴾ ١٠٣ ﴿أَوَدَّتْ مِنْ أَمَّاخِ إِلَهُهُمْ هَوْنَهُ فَأَنَّتْ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ ١٠٤ ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْفَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ١٠٥

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ يعني كفار مكة ﴿عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمُطِرَتْ مَطَرُ السَّوَاءِ﴾ يعني قرية قوم لوط التي رُميت بالحجارة ﴿أَكْثَمَ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ في أسفارهم فيعتبروا؟! ثم أخبر بالذي جرَّأهم على التكذيب، فقال: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَتَّبِعُونَ شُورًا﴾ أي: لا يخافون بعثاً، هذا قول المفسرين. وقال الزجاج: الذي عليه أهل اللغة أن الرجاء ليس بمعنى الخوف، وإنما المعنى: بل كانوا لا يرجون ثواب عمل الخير، فركبوا المعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا رَأَوْا إِذْ يَخْذَوْنَكُ﴾ أي: ما يتخذونك ﴿إِلَّا هُرُورًا﴾ أي: مهزوءاً به. ثم ذكر ما يقولون من الاستهزاء: ﴿أَمَّا الَّذِي بَيْنَكَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ ١٠٢ ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا﴾ أي: ليصرفنا عن عبادة آلِهتنا ﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي: على عبادتها؛ قال الله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرْوُونَ الْعَذَابَ﴾ في الآخرة ﴿مَنْ أَضَلَّ﴾ أي: من أخطأ طريقاً عن الهدى، أهم، أم المؤمنون. ثم عَجَّبَ نبيَّه من جهلهم حين عبدوا ما دعاهم إليه الهوى، فقال: ﴿أَوَدَّتْ مِنْ أَمَّاخِ إِلَهُهُمْ هَوْنَهُ﴾ قال ابن عباس: كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر. وقال قتادة: هو الكافر لا يهوى شيئاً إلا ركب. وقال ابن قتيبة: المعنى: يتَّبِعُ هواه ويدع الحقَّ، فهو له كالإله.

(١) واختار ابن جرير الطبري أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ عَلَيَّ وَكِيلًا﴾ أي: حفيظا يحفظه من أتباع هواه. وزعم الكلبي أن هذه الآية منسوخة بآية القتال.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ يعني أهل مكة؛ والمراد: يسمعون سماع طالب الإفهام ﴿أَوْ يَسْمَعُونَ﴾ ما يعاينون من الحجج والأعلام ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ وفي وجه تشبيههم بالأنعام قولان: أحدهما: أن الأنعام تسمع الصوت ولا تفقه القول. والثاني: أنه ليس لها هم إلا المأكل والمشرب.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ لأن البهائم تهتدي لمراعياها وتنقاد لأربابها وتقبل على المحسن إليها، وهم على خلاف ذلك.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْتَهُ إِلَيْنَا فَبَصَّاهُ يَمِينًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْيَوْمَ سُبْحَانَ وَجَعَلَ النَّهَارَ تُشْوَرًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بِذِي رَحْمَةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُخَيِّطَ بِهِ بَلَدَةَ مِثْنًا وَشَقِيقَهُ وَمِمَّا خَلَقْنَا أَنْثًا وَآنَاثًا كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَجَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ تَذَكُّرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَهَنَّمُ يَوْمَ جَهَنَّمَ كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي: إلى فعل ربك. وقال الزجاج: معناه: ألم تعلم، فهو من رؤية القلب، ويجوز أن يكون من رؤية العين؛ فالمعنى: ألم تر إلى الظل كيف مده ربك؟ والظل من وقت طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي: ثابتاً دائماً لا يزول ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ فالشمس دليل على الظل، فلولا الشمس ما عرف أنه شيء، كما أنه لولا الثور ما عرفت الظلمة، فكل الأشياء تُعرف بأضدادها.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْتَهُ إِلَيْنَا﴾ يعني: الظل ﴿فَبَصَّاهُ يَمِينًا﴾ وفيه قولان: أحدهما: سريعاً، قاله ابن عباس. والثاني: خفياً، قاله مجاهد. وفي وقت قبض الظل قولان: أحدهما: عند طلوع الشمس يُقبض الظل وتُجمع أجزاؤه المنبسطة بتسليط الشمس عليه حتى تنسخه شيئاً فشيئاً. والثاني: عند غروب الشمس تُقبض أجزاء الظل بعد غروبها، ويخلف كل جزء منه جزءاً من الظلام.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْيَوْمَ سُبْحًا﴾ أي: سائراً بظلمته، لأن ظلمته تغشى الأشخاص وتشتمل عليها اشتمال اللباس على لابسهِ ﴿وَالْيَوْمَ سُبْحًا﴾ قال ابن قتيبة: أي: راحة، ومنه يوم السبت، لأن الخلق اجتمع يوم الجمعة، وكان الفراغ منه في يوم السبت، فقل لبني إسرائيل: استريحوا في هذا اليوم ولا تعملوا فيه شيئاً، فسُمي يوم السبت، أي: يوم الراحة^(١)، وأصل السبت: التَّمدُّد، ومن تَمَدَّد استراح. وقال ابن الأنباري: أصل السبت: القَطْع؛ فالمعنى: وجعلنا النوم قِطْعاً لأعمالكم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ تُشْوَرًا﴾ فيه قولان: أحدهما: تنتشرون فيه لابتغاء الرزق، قاله ابن عباس. والثاني: تُنشر الروح باليقظة كما تُنشر بالبعث، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ قد شرحناه في [الأعراف: ٥٧] إلى قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ يعني: المطر. قال الأزهري: الطَّهُّور في اللغة: الطاهر المَطْهَر. والطَّهُّور ما يُتَطَهَّر به، كالرَّضْوَة الذي يُتَوَضَّأُ به، والطَّهُّور الذي يُفْطَر عليه.

قوله تعالى: ﴿لِنُخَيِّطَ بِهِ بَلَدَةَ مِثْنًا﴾ وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وأبو جعفر: «مِثْنًا» بالتشديد. قال الزجاج: لفظ البلدة مؤنث، وإنما قيل: «مِثْنًا» لأن معنى البلدة والبلد سواء. وقال غيره: إنما قال: «مِثْنًا»، لأنه أراد بالبلدة المكان. وقد سبق معنى صفة البلدة بالموت [الأعراف: ٥٧]، ومعنى: ﴿وَشَقِيقُهُ﴾ [الحجر: ٢٤]. وقرأ أبو مجلز، وأبو رجاء، والضحاك، والأعمش، وابن أبي عبيدة: «وَشَقِيقُهُ» بفتح النون. فأما الأناسي، فقال الزجاج: هو جمع

(١) الذي في «صحيح مسلم» ٢١٤٩/٤: «خلق التربة يوم السبت... الحديث. وقال الحافظ المنائي في شرحه لهذا الحديث: وفيه ردُّ زعم اليهود أنه ابتداء في خلق العالم يوم الأحد، وفتح يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، قالوا: ونحن نستريح كما استراح الرب، وهذا من غباوتهم وجهلهم، إذ التبع لا يتصور إلا على حادث، ﴿إِنَّمَا تَوَكَّلْنَا عَلَى اللَّهِ وَإِلَى اللَّهِ أَنُفُسُكُمْ أَن تَقُولُوا لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾...»

إنسي، مثل كرسِي وكراسي؛ ويجوز أن يكون جمع إنسان، وتكون الباء بدلاً من النون، الأصل: أناسين مثل سراحين^(١). وقرأ أبو معجلز، والضحاك، وأبو العالية، وعاصم الجحدري: «وأناسي» بتخفيف الباء.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ﴾ يعني المطر ﴿بَيْنَهُمْ﴾ مرة لهذه البلدة، ومرة لهذه ﴿يَذْكُرُوا﴾ أي: ليذكروا في نعم الله عليهم فيحمدوه. وقرأ حمزة، والكسائي: «يَذْكُرُوا» خفيفة الذال. قال أبو علي: يَذْكُرُ في معنى يتذكر، ﴿فَأَنَّى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَثُورًا﴾ وهم الذين يقولون: مُطَرْنَا بنوء كذا وكذا، كفروا بنعمة الله^(٢). ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ تَذَكُّرًا﴾^(٣) المعنى: إنا بعثناك إلى جميع القرى لعظم كرامتك، ﴿فَلَا تَطْغِ الْكَافِرِينَ﴾، وذلك أن كفار مكة دَعَوْهُ إلى دين آبائهم، ﴿وَجَهَنَّمُ يَبِيءُ﴾ أي بالقرآن ﴿جَهَادًا كَبِيرًا﴾ أي: تاماً شديداً.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا يَمِلُحٌ أَحْجَابٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا رَجُورًا﴾^(٤) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُم نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾^(٥) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾^(٦) قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ قال الزجاج: أي: خلّى بينهما؛ تقول: مرجت الدابة وأمرجتها: إذا خلّيتها ترعى، ومنه الحديث: «مَرَجَتْ عهودهم وأماناتهم»^(٧) أي: اختلطت. قال المفسرون: والمعنى أنه أرسلهما في مجاريهما، فما يلتقيان، ولا يختلط المِلْح بالعذب، ولا العذب بالمِلْح، وهو قوله: ﴿هَذَا﴾ يعني: أحد البحرين ﴿عَذْبٌ﴾ أي: طيب؛ يقال: عَذْبُ الماء يَغْدُبُ غُدُوبَةً، فهو عَذْبٌ. قال الزجاج: والفُرَات صفة للعذب، وهو أشد الماء غُدُوبَةً، والأحاج صفة للملح، وهو: المُرُّ الشديد المرارة. وقال ابن قتيبة: هو أشد الماء ملوحة، وقيل: هو الذي يُخالطه مرارة، ويقال: ماءٌ يَمِلُح، ولا يقال: مالح، والبرزخ: الحاجز. وفي هذا الحاجز قولان: أحدهما: أنه مانع من قدرة الله تعالى، قاله الأكثرون. قال الزجاج: فهما في مرأى العين مختلطتان، وفي قدرة الله منفصلتان لا يختلط أحدهما بالآخر. قال أبو سليمان الدمشقي: ورأيت عند عبّادان من سواد البصرة الماء العذب ينحدر في دجلة نحو البحر، ويأتي المَدُّ من البحر، فيلتقيان، فلا يختلط أحد المائين بالآخر، يُرى ماء البحر إلى الخُضرة الشديدة، وماء دجلة إلى الحُمْرة الخفيفة، فيأتي المستقي فيغرف من ماء دجلة عذبا لا يخالطه شيء، وإلى جانبه ماء البحر في مكان واحد. والثاني: أن الحاجز: الأرض واليَّس، وهو قول الحسن؛ والأول أصح.

قوله تعالى: ﴿وَجِبْرًا تَحْجُورًا﴾ قال الفراء: أي: حراماً محرماً أن يغلب أحدهما صاحبه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ أي: من الطُفَّة بَشَرًا، أي: إنساناً ﴿فَجَعَلَهُم نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي: ذا نسب وصِهْر. قال علي عليه السلام: النَّسَبُ: ما لا يحل نكاحه، والصَّهْرُ: ما يحلُّ نكاحه. وقال الضحاك: النسب سبع، وهو قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿وَبَنَاتُ الْأَخْتِ﴾، والصَّهْرُ خمس، وهو قوله: ﴿وَأَنَّهُنَّكُمُ الْأَخْتِ أَرْضَمَنَكُم...﴾ إلى قوله: ﴿مِنْ أُمَّلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]. وقال طاووس: الرِّضَاعَةُ من الصَّهْر. وقال ابن قتيبة: «نَسَبًا» أي: قرابة النَّسَب، «وصِهْرًا» أي: قرابة النكاح. وكل شيء من قِبَل الزوج، مثل الأب والأخ، فهم الأحماء، واحدهم حَمَاءٌ، مثل: قَفَاءٌ، وَحَمُوٌّ مثل أبُو، وَحَمَةٌ مهموز ساكن الميم، وَحَمٌ مثل أب. وَحَمَاءُ المرأة: أُمُّ زوجها، لا لغة فيها غير هذه وكل شيء من قِبَل المرأة، فهم الأختان. والصَّهْرُ يجمع ذلك كله. وحكى ابن فارس عن الخليل، أنه قال: لا يقال لأهل بيت الرجل إلا أختان، ولأهل بيت المرأة إلا أصهار. ومن العرب من يجعلهم

(١) سراحين جمع سِرْحَان، وهو الذئب.

(٢) روى مسلم في «صحيحه» أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابته من الليل: «أتدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بالله كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب».

(٣) هو جزء من حديث طويل، أخرجه أبو داود في «سننه» رقم (٤٣٤٢)، وابن ماجه في «سننه» رقم (٣٩٥٧)، والحاكم في «مستدرکه» ٤/٤٣٥ وصححه، ووافقه الذهبي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يأتي زمان يُغربل فيه الناس غربلة، ويبقى حثالة من الناس قد مَرَجَتْ عهودهم وأماناتهم (أي فسدت) واختلطوا فكانوا هكذا» - وشبك بين أصابعه - قالوا: فكيف تأمرنا يا رسول الله، قال: «تأخّلون ما تعرفون، وتَدْعُونَ ما تتركرون، وتقبلون على أمر خاصّكم، وتَدْعُونَ أمر عامّكم».

أصهاراً كلَّهم. والصَّهْرُ: إذابة الشيء. وذكر الماوردي أن المناكح سُمِّيَتْ صِهْرًا، لاختلاط الناس بها كما يختلط الشيء إذا صُهر.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: مُعِينًا للشيطان على ربِّه، لأن عبادته للأصنام معاونة للشيطان. والثاني: مُعِينًا للمشركين على أن لا يوحِّدوا الله تعالى. والثالث: مُعِينًا على أولياء ربِّه. والرابع: وكان الكافر على ربِّه هَيِّئًا ذليلاً، من قولك: ظَهَرْتُ بفلان: إذا جعلته وراء ظهرك ولم تلتفت إليه. قالوا: والمراد بالكافر هاهنا أبو جهل.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَهًا لَهُ سُبُلًا ﴿٥٧﴾ وَوَكَّلَ عَلَى الْإِلَهِ لَأُبَيِّتَ وَيَسْجُدَ وَسَخَّرَ يَدَيْهِ يُؤْتِيهِ مِمَّا يُنْزِلُ مِنْ دُونِ السَّمَاءِ خَيْرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَبِّحْ لَهُ بِحَمْدِهِ خَيْرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْبُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على القرآن وتبليغ الوحي ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ وهذا تأكيد لصدقه، لأنه لو سألهم شيئاً من أموالهم لأتهموه، ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ﴾ معناه: لكن من شاء ﴿أَنْ يَتَّخِذَ إِلَهًا لَهُ سُبُلًا﴾ بإنفاق ماله في مرضاته، فَعَلَّ ذلك، فكانه قال: لا أسألكم لنفسي. وقد سبق تفسير الكلمات التي تلي هذه (إك عمران: ١٥٩، البقرة: ٣٠، الأعراف: ٥٤) إلى قوله: ﴿سَبِّحْ لَهُ خَيْرًا﴾، و«به» بمعنى: «عنه» قال [عَلَقَمَةُ بن عَبْدِة]:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَمِائِنِي
بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبٌ^(١)

وفي هاء «به» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الله ﷻ. والثاني: إلى اسمه الرحمن، لأنهم قالوا: لا نعرف الرحمن. والثالث: إلى ما ذكر من خَلَقَ السموات والأرض وغير ذلك. وفي «الخير» أربعة أقوال: أحدها: أنه جبريل، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الله ﷻ، والمعنى: سلني فأنأ الخبير، قاله مجاهد. والثالث: [أنه] القرآن، قاله شمر. والرابع: مُسْلِمَةُ أهل الكتاب، قاله أبو سليمان، وهذا يخرج على قولهم: لا نعرف الرحمن، فقل: سَلُوا مُسْلِمَةَ أهل الكتاب، فإن الله تعالى خاطب موسى في التوراة باسمه الرحمن، فعلى هذا، الخطاب للنبي ﷺ والمراد سواه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني كفار مكة ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ قال المفسرون: إنهم قالوا: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، فأنكروا أن يكون من أسماء الله تعالى، ﴿أَنَسْبُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ والكسائي: «بأمرنا» بآباء، أي: لِمَا يأمرنا به محمد، وهذا استفهام إنكار، ومعناه: لا نسجد للرحمن الذي تأمرنا بالسجود له، ﴿وَزَادَهُمْ﴾ ذكر الرحمن ﴿نُفُورًا﴾ أي: تباعداً من الإيمان.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا يَرَبًّا وَجَعَلَ فِيهَا يَزِيدًا﴾ ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا يَرَبًّا﴾ قد شرحناه في [الحجر: ١٦]. والمراد بالسراج: الشمس. وقرأ حمزة، والكسائي: «سُرْجًا» بضم السين والراء وإسقاط الألف. قال الزجاج: أراد: الشمس والكواكب العظام؛ ويجوز «سُرْجًا» بتسكين الراء، مثل رُسُلٍ ورُسُل. قال الماوردي: لما اقترن بضوء الشمس وهج حرّها، جعلها لأجل الحرارة سراجاً، ولَمَّا عدم ذلك في القمر جعله نوراً.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ فيه قولان: أحدهما: أن كل واحد منهما يخالف الآخر في اللون، فهذا أبيض، وهذا أسود، روى هذا المعنى الضحاك عن ابن عباس، وابن أبي نجيع عن مجاهد، وبه قال قتادة. والثاني: أن كل واحد منهما يَخْلُفُ صاحبه، رواه عمرو بن قيس الملائي عن مجاهد، وبه قال ابن زيد وأهل اللغة، وأنشدوا قول زهير:

(١) «ديوانه» ١١، و«مشكل القرآن» ٤٢٧، و«القرطبي» ٦٣/١٣، و«آداب الكاتب» ٥٠٥، والأدواء: جمع داء.

بِهَا الْعَيْنُ وَالْأَرْأَمُ يَمْشِيْنَ خَلْفَةً
أي: إذا ذهبت طائفة جاءت طائفة (١).

قوله تعالى: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكُرَ﴾ أي: يتعظ ويعتبر باختلافهما. وقرأ حمزة: «يَنْكُرُ» خفيفة الذال مضمومة الكاف، وهي في معنى: يتذكر، «أَوْ أَرَادَ» شكر الله تعالى فيهما.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَتَشَرُّونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (٢) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا (٣) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٤) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٥)

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَتَشَرُّونَ﴾ وقرأ علي، وأبو عبد الرحمن السلمي، وابن السميع: «يُمَشُّونَ» برفع الياء وفتح الميم والشين وبالتشديد. وقال ابن قتيبة: إنما نسبهم إليه لاصطفائه إياهم، كقوله: «نَاقَةُ اللَّهِ» (الاعراف: ١٧٣)، ومعنى «هَوْنًا»: مشياً رويداً (٣). ومنه يقال: أخيب حبيبك هَوْنًا ما (٤). وقال مجاهد: يمشون بالوقار والسكينة. «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا» أي: تتدأداً. وقال الحسن: لا يجهلون على أحد، وإن جهل عليهم حَلُمُوا (٥). وقال مقاتل بن حيان: «قَالُوا سَلَامًا» أي: قولاً يَسْلَمُونَ فيه من الإثم. وهذه الآية محكمة عند أكثرين. وزعم قوم أن المراد بها أنهم يقولون للكفار: ليس بيننا وبينكم غير السلام، ثم نُسِخت بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾ قال الزجاج: كل من أدركه الليل فقد بات، نام أو لم ينام؛ يقال: بات فلان قلقاً، إنما المبيت إدراك الليل.

قوله تعالى: ﴿كَانَ غَرَامًا﴾ فيه خمسة أقوال متقارب معانيها: أحدها: دائماً، رواه أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ (٦). والثاني: موجعاً، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: مُلِحّاً، قاله ابن السائب؛ وقال ابن جريج: لا يفارق. والرابع: هلاكاً، قاله أبو عبيدة: والخامس: أن الغرام في اللغة: أشد العذاب، قال الشاعر:

وَيَوْمَ النَّسَارِ وَيَوْمَ الْجِفَا
رِكَائًا عَذَابًا وَكَائًا غَرَامًا (٧)

قاله الزجاج:

قوله تعالى: ﴿سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا﴾ أي: بشئ موضع الاستقرار وموضع الإقامة هي.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «يَقْتُرُوا» مفتوحة الياء مكسورة

(١) «شرح ديوان زهير» ٥، «غريب القرآن» ٣١٤، «مجاز القرآن» ٨٠/٢، «الطبري» ٣٢/١٩، «القرطبي» ٦٥/١٣، «ومختار الشعر الجاهلي» ١/ ٢٢٨، «واللسان» والتاج: خلف. والبعين، جمع أعين وعيناء: بقر الوحش، سميت بذلك لسعة أعينها. والأرام: جمع رَم، وهو الظبي الخالص البياض. ويخلفة: يخلف بعضها بعضاً. والأطلاء: جمع الطلاء، وهو الولد من ذوات الظلف. والمجشم: المريض.

(٢) قال ابن كثير: أي: جعلهما يتعاقبان توفيقاً لعبادة عباده له ﷺ، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل، وقد جاء في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَسِطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مَسِيءُ النَّهَارِ، وَيَسِطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مَسِيءُ اللَّيْلِ». اهـ.

(٣) قال ابن كثير: وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تعثراً ورياء، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صِيب، وكأنما الأرض تطوى له. قال: وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتضع، قال: وإنما المراد بالهَوْنِ هنا: السكينة والوقار، كما قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْتَوْنُ، وَتَأْتُوهَا وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ مِنْهَا فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأْتُوا» اهـ، والحديث متفق عليه.

(٤) هو من كلام علي بن أبي طالب عليه السلام كما في «الأدب المفرد» للبخاري: «أحب حبيبك هَوْنًا ما، عسى أن يكون بغيك يوماً ما، وأبغض بغيك هَوْنًا ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما» ولم يثبت في المرفوع، وإضافة «ما» إلى الهَوْنِ تفيد التقليل، والمعنى: أحب حبيبك حباً مقتصداً لا إفراط فيه، أي: لا تسرف في الحب والبغض، فحسب أن يصير الحبيب بغيضاً، والبغض حبيباً، فلا تكن مسرفاً في الحب فتندم، ولا في البغض فتأسف.

(٥) روى الإمام أحمد في «المسند» ٤٤٥/٥ عن النعمان بن مقرن قال: قال رسول الله ﷺ: «سب رجل رجلاً عنده، قال: فنجعل الرجل المسبوب يقول: عليك السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «أما إن ملكاً بينكما يذب عنك، كلما شتمك هذا قال له: بل أنت أحق به، وإذا قال له: عليك السلام، قال: لا، بل لك، أنت أحق به»، قال ابن كثير: وإسناده حسن.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر» ٧٧/٥ من رواية عبد بن حميد عن أبي سعيد الخدري عليه السلام.

(٧) البيت لبشر بن أبي خازم كما في «مجاز القرآن» ٨٠/٢، «الطبري» ٣٦/١٩، «البحر» ٥١٣/٦، «فروح المعاني» ٤١/١٩، «واللسان»، «والتاج»: غرم. ونسب في «اللسان» للطرماح.

التاء. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: «يَقْتُرُوا» بفتح الياء وضم التاء. وقرأ نافع، وابن عامر: «يَقْتُرُوا» بضم الياء وكسر التاء. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: أن الإسراف: مجاوزة الحد في النفقة، والإقتار: التقصير عما لا بُدَّ منه، ويدل على هذا قول عمر بن الخطاب: كفى بالمرء سرفاً أن يأكل كل ما اشتهى. والثاني: [أن] الإسراف: الإنفاق في معصية الله وإن قلَّ، والإقتار: منع حق الله تعالى، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقناة، وابن جريج في آخرين.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ﴾ يعني الإنفاق ﴿يَبِّدُ ذَلِكَ﴾ أي: بين الإسراف والإقتار ﴿قَوَامًا﴾ أي: عدلاً؛ قال ثعلب: القوام، بفتح القاف: الاستقامة والعدل، وبكسرهما: ما يدوم عليه الأمر ويستقر^(١).

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهْكًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: ما رواه البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود، قال: سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ غَلَقُكَ»، قلت: ثم أي؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مخافة أن يقطع معك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أَنْ تُزَانِيَ حَبِيلَةَ جَارِكَ»، فأنزل الله تعالى تصديقها ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا... آخَرَ﴾ الآية^(٢). والثاني: أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا، ثم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو نُخبرنا أن لِمَا عَمِلْنَا كفارة، فنزلت هذه الآية، إلى قوله: ﴿غَفُورًا رَحِيمًا﴾، أخرجه مسلم من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس^(٣). والثالث: أن وحشياً أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد أتيتك مستجيراً فأجرتني حتى أسمع كلام الله، فقال رسول الله ﷺ: «قد كنت أحب أن أراك على غير جوار، فإما إذا أتيتني مستجيراً فأنت في جوارى حتى تسمع كلام الله»، قال: فإني أشركت بالله وقتلت النفس التي حرم الله وزني، فهل يقبل الله مني توبة؟ فصمت رسول الله ﷺ حتى نزلت هذه الآية، فتلاها عليه، فقال: أرى شرطاً، فعلي لا أعمل صالحاً، أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله، فنزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَمُورُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيُفَرِّقُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فدعاه فتلاها عليه، فقال: ولعلي ممن لا يشاء [الله]، أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُوبِ إِنَّكُمْ لَكُمْ فِيهَا نَفَسٌ لَا تُقَاتِلُوا بَيْنَ يَدَيْهِمْ﴾ الآية [الزمر: ٥٣]، فقال: نعم، الآن لا أرى شرطاً، فأسلم، رواه عطاء عن ابن عباس^(٤)؛ وهذا وحشي هو قاتل حمزة؛ وفي هذا الحديث المذكور عنه نظر، وهو بعيد الصحة، والمحفوظ في إسلامه غير هذا، وأنه قدِم مع رسل الطائف فأسلم من غير اشتراط^(٥). وقوله: ﴿يَدْعُونَ﴾ معناه: يعبدون. وقد سبق بيان قتل النفس بالحق في [الأنعام: ١٥١].

قوله تعالى: ﴿يَلْقَى أَثَامًا﴾ وقرأ سعيد بن جبير، وأبو المتوكل: «يَلْقَى» برفع الياء وفتح اللام وتشديد القاف مفتوحة. قال ابن عباس: يَلْقَى جزاء. وقال مجاهد، وعكرمة: هو واد في جهنم. وقال ابن قتيبة: يَلْقَى عقوبة، وأنشد:

جَزَى الله ابْنَ عُرْوَةَ حَيْثُ أَمْسَى
عُقُوقاً وَالْعُقُوقُ لَهُ أَثَامٌ^(٦)

قال الزجاج: وقوله: ﴿يَلْقَى أَثَامًا﴾ جزماً على الجزاء. قال أبو عمرو الشيباني: يقال: قد لقي أثام ذلك، أي: جزاء ذلك، وسيبويه والخليل يذهبان إلى أن معناه: يلقى جزاء الأثام. قال سيبويه: وإنما جزم ﴿يَضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ﴾ لأن مضاعفة العذاب لِقِي الأثام، فلذلك جزمت، كما قال الشاعر:

(١) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك قول من قال: الإسراف في النفقة الذي عناه الله في هذا الموضع: ما جاوز الحد الذي أباحه الله لعباده إلى ما فوقه، والإقتار: ما قصر عما أمر الله به، والقوام بين ذلك، قال: وإنما قلنا: إن ذلك كذلك، لأن الميسر والمقتدر كذلك، ولو كان الإسراف والإقتار في النفقة مرخصاً فيها، ما كانا مذمومين، ولا كان الميسر ولا المقتدر مذمومين، لأن ما أذن الله في فعله، فغير مستحق فاعله الذم. اهـ.

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ ٣٧٨/٨، وَمُسْلِمٌ ٩٠/١.

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ ١١٣/١، وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ ٤٢٢/٨ سَبَباً لِنَزُولِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُوبِ إِنَّكُمْ لَكُمْ فِيهَا نَفَسٌ لَا تُقَاتِلُوا بَيْنَ يَدَيْهِمْ...﴾ [الزمر: ٥٣].

(٤) هَكَذَا ذَكَرَهُ الْوَاحِدِيُّ فِي «أَسْبَابِ النِّزُولِ» ١٩٣.

(٥) انظر البخاري يشرح «الفتح» ٢٨٤/٧.

(٦) البيت لبهاء بن قيس الكناني، كما في «غريب القرآن» ٣١٥، و«مجاز القرآن» ٨١/٢، و«الطبري» ٤٠/١٩، و«اللسان»: أثم، ونسبه إلى شافع الليثي.

مَتَى تَأْتِيْنَا تُلْمِمُ بِنَا فِي دِيَارِنَا

تَجِدُ حَطْبًا جِزْلًا وَنَارًا تَأْجَجَا^(١)

لأن الإتيان هو الإلمام، فجزم «تُلْمِمُ» لأنه بمعنى «تأتي». وقرأ الحسن: «يُضَعَّفُ»، وهو جيد بالغ؛ تقول: ضاعفت الشيء وضَعَفْتُهُ. وقرأ عاصم: «يُضَاعَفُ» بالرفع على تفسير «يَلْقَى أُنَامًا» كأن قائلًا قال: ما لقي الأثام؟ فقيل: يُضَاعَفُ للآثم العذاب. وقرأ أبو المتوكل، وقتادة، وأبو حيو: «يُضَعَّفُ» برفع الياء وسكون الضاد وفتح العين خفيفة من غير ألف. وقرأ أبو حصين الأسدي، والعمرى عن أبي جعفر مثله، إلا أن العين مكسورة، و«العذاب» بالنصب. قوله تعالى: ﴿وَيُخَلِّدُ﴾ وقرأ أبو حيو، وقتادة، والأعمش: «وَيُخَلِّدُ» برفع الياء وسكون الخاء وفتح اللام مخففة. وقرأ عاصم الجحدري، وابن يعمر، وأبو المتوكل مثله، إلا أنهم شددوا اللام.

فصل

ولعلماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية قولان: أحدهما: أنها منسوخة؛ وفي ناسخها ثلاثة أقوال. أحدها: أنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣]، قاله ابن عباس. وكان يقول: هذه مكية، والتي في «النساء» مدنية. والثاني: أنها نسخت بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ...﴾ الآية [النساء: ٤٨]. والثالث: أن الأولى نسخت بالثانية، وهي قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾. والقول الثاني: أنها محكمة؛ والخلود إنما كان لانضمام الشرك إلى القتل والزنا. وفساد القول الأول ظاهر، لأن القتل لا يوجب تخليدًا عند الأكثرين؛ وقد بيّنه في سورة [النساء: ٩٣]، والشرك لا يُغْفَرُ إذا مات المشرك عليه، والاستثناء ليس بنسخ.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ قال ابن عباس: قرأنا على عهد رسول الله سنتين: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ثم نزلت ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ فما رأيت رسول الله ﷺ فرح بشيء فرحه بها، ويد ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(٢) [الفتح: ١].

قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْذُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ اختلفوا في كيفية هذا التبديل وفي زمان كونه، فقال ابن عباس: يبذل الله شركهم إيمانًا، وقتلهم إمساكًا، وزناهم إحصانًا؛ وهذا يدل على أنه يكون في الدنيا، ومن ذهب إلى هذا المعنى سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد. والثاني: أن هذا يكون في الآخرة، قال سلمان رضي الله عنه، وسعيد بن المسيب، وعلي بن الحسين. وقال عمرو بن ميمون: يبذل الله سيئات المؤمن إذا غفرها له حسنات، حتى إن العبد يتمنى أن تكون سيئاته أكثر مما هي. وعن الحسن كالقولين. وروي عن الحسن أنه قال: ودَّ قومٌ يوم القيامة أنهم كانوا في الدنيا استكثروا من الذنوب؛ فقيل: من هم؟ قال: هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْذُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾، ويؤكد هذا القول حديث أبي ذر عن النبي ﷺ: «يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، فتعرض عليه صغار ذنوبه وتنحى عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا، كذا وكذا، وهو مقرر لا ينكر، وهو مشفق من الكبار، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة»، أخرجه مسلم في «صحيحه»^(٣).

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِالْقَوْمِ مَرُّوا كِرَامًا^(٤)

(١) البيت غير منسوب في «القرطبي» ٧٧/١٣، و«مجمع البيان» ١٢٢/١٩، و«البحر» ٥١٥/٦، و«روح المعاني» ٤٤/١٩.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» ٧٩/٥ من رواية ابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه. وقال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ٨٤: رواه الطبراني من رواية علي بن زيد عن يوسف بن مهران، وقد وثق، وفيهما ضعف، وبقية رجاله ثقات. وقد جاء في صحيح البخاري ٤٨٨/٨ أن رسول الله ﷺ قال عندما نزلت سورة [الفتح]: «لقد أنزلت علي الليلة سورة لم أحب إلي مما طلعت عليه الشمس» ثم قرأ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(١)، ورواه أحمد في «المسند»، والترمذي، والنسائي من طرق عن مالك رحمه الله.

(٣) رواه مسلم في «صحيحه» ١٧٧/١. ولفظه بتمامه عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها، رجل يؤتى به يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا، وكذا كذا، وعملت يوم كذا وكذا، كذا كذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول: رب قد عملت أشياء لا أراها هاتما فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه. ورواه الطبري ٤٧/١٩، وذكره السيوطي في «الدر» ٧٩/٥، وزاد نسبه لأحمد، وهناد، والترمذي، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن أبي ذر رضي الله عنه.

وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قِسْرَةً
أَعْيُوبَ وَأَجْعَلْ لَنَا نَبِيًّا ﴿٧٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ﴾ ظاهر هذه التوبة أنها عن الذنوب المذكورة. وقال ابن عباس: يعني: ممن لم يقتل ولم يزن، ﴿وَعَجَلَ صَبِيحًا﴾ فإني قد قدّمته وفصلته على من قاتل نبي واستحل محارمي.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يُؤْتِبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ قال ابن الأنباري: معناه: من أراد التوبة وقصد حقيقتها، فينبغي له أن يُريد الله بها ولا يخلط بها ما يفسدها؛ وهذا كما يقول الرجل: من تجر فإنه يتجر في البرء. ومن تاجر فإنه يناظر في النحو، أي: من أراد ذلك، فينبغي أن يقصد هذا الفن؛ قال: ويجوز أن يكون معنى [هذه] الآية: ومن تاب وعمل صالحاً، فإن ثوابه وجزاءه يعطمان له عند ربه الذي أراد بتوبته، فلما كان قوله: ﴿فَإِنَّهُ يُؤْتِبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ يؤدي عن هذا المعنى، كفى منه، وهذا كما يقول الرجل للرجل: إذا تكلمت فاعلم أنك تكلم الوزير، أي: تكلم من يعرف كلامك ويجازيك، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ كَرِهَ عَنَّا مَتَابًا وَتَكْبَرَىٰ﴾ [يونس: ٧١]، أي: فإني أتوكل على من ينصرتي ولا يسلمني. وقال قوم: معنى الآية: فإنه يرجع إلى الله مرجعاً يقبله منه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ فيه ثمانية أقوال: أحدها: أنه الصنم؛ روى الضحاك عن ابن عباس أن الزور صنم كان للمشركين. والثاني: أنه الغناء، قاله محمد بن الحنفية، ومكحول؛ وروى ليث عن مجاهد قال: لا يسمعون الغناء. والثالث: الشرك، قاله الضحاك، وأبو مالك. والرابع: لعب كان لهم في الجاهلية، قاله عكرمة. والخامس: الكذب، قاله قتادة، وابن جريج. والسادس: شهادة الزور، قاله علي بن أبي طلحة. والسابع: أعياد المشركين، قاله الربيع بن أنس. والثامن: مجالس الخنا، قاله عمرو بن قيس^(١). وفي المراد باللغو هاهنا خمسة أقوال: أحدها: المعاصي، قاله الحسن. والثاني: أذى المشركين إياهم، قاله مجاهد. والثالث: الباطل، قاله قتادة. والرابع: الشرك، قاله الضحاك. والخامس: إذا ذكروا النكاح كنوا عنه، قاله مجاهد. وقال محمد بن علي: إذا ذكروا الفروج كنوا عنها.

قوله تعالى: ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: مَرُّوا حُلَمَاء، قاله ابن السائب. والثاني: مَرُّوا مَغْرَضِينَ عنه، قاله مقاتل. والثالث: أن المعنى: إذا مَرُّوا باللغو جاوزوه، قاله الفراء^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ قال ابن قتيبة: لم يتغافلوا عنها كأنهم صُمٌّ لم يسمعوها، عُمِيَ لم يروها. وقال غيره من أهل اللغة: لم يثبتوا على حالتهم الأولى كأنهم لم يسمعوها ولم يروها، وإن لم يكونوا خَرُّوا حقيقة؛ تقول العرب: شمت فلاناً فقام يبكي، وقعد يندب، وأقبل يعتذر، وظلَّ يتحير، وإن لم يكن قام ولا قعد.

قوله تعالى: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «وَذُرِّيَّاتِنَا» على الجمع. وقرأ أبو عمرو، وحَمْزَة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «وَذُرِّيَّتِنَا» على التوحيد، «قِسْرَةً أَعْيُوبَ» وقرأ ابن

(١) قال ابن جرير الطبري: وأصل الزور: تحسين الشيء وصفه بخلاف صفته حتى يخيل إلى من يسمعه أو يراه أنه خلاف ما هو به، والشرك قد يدخل في ذلك، لأنه محسن لأهله حتى قد ظنوا أنه حق، وهو باطل، ويدخل فيه الغناء، لأنه أيضاً مما يحسنه ترجيع الصوت حتى يستحلي سامعه سماعه، والكذب أيضاً قد يدخل فيه لتحسين صاحبه إياه حتى يظن صاحبه أنه حق، فكل ذلك مما يدخل في معنى الزور. قال: فإذا كان ذلك كذلك، فأولى الأقوال بالصواب في تأويله أن يقال: والذين لا يشهدون شيئاً من الباطل، لا شركاً، ولا غناء، ولا كذباً، ولا غيره، وكل ما لزمه اسم الزور، لأن الله هم في وصفه إياهم أنهم لا يشهدون الزور، فلا ينبغي أن يخص من ذلك شيء إلا بحجة يجب التسليم لها من خير أو عقل. اهـ. وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْأَنْبِيَاءُ بِكِبَرِ الْكِبَائِرِ ثَلَاثًا، قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الشُّرَكَاءُ، وَهَقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَكَانَ مَتَكًّا فَجَلَسَ فَقَالَ: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ» فَمَا زَالَ يَكْرَهُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَ سَكَتَ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال: إن الله أخبر عن هؤلاء المؤمنين الذين مدحهم بأنهم إذا مروا باللغو مروا كراماً، واللغو في كلام العرب هو كل كلام أو فعل باطل لا حقيقة له ولا أصل، أو ما يستقيم، فسب الإنسان الإنسان بالباطل الذي لا حقيقة له، من اللغو، وذكر النكاح بصريح اسمه مما يستقيم في بعض الأماكن، فهو من اللغو، وكذلك تعظيم المشركين كلها من الباطل الذي لا حقيقة لما عظموه على نحو ما عظموه، وسماع الغناء مما هو مستقيم في أهل الدين، فكل ذلك يدخل في معنى اللغو، فلا وجه - إذا كان كل ذلك يلزمه اسم اللغو - أن يقال: غني به بعض ذلك دون بعض، إذ لم يكن لمخصوص ذلك دلالة من خير أو عقل. اهـ.

مسعود، وأبو حيو: «قُرأت أعين» يعنون: من يعمل بطاعتك فتقر به أعيننا في الدنيا والآخرة. وسئل الحسن عن قوله: «قُرّة أعين» في الدنيا، أم في الآخرة؟ قال: لا، بل في الدنيا، وأي شيء أقرّ لعين المؤمن من أن يرى زوجته وولده يُطيعون الله، والله ما طلب القوم إلا أن يطاع الله فتقرّ أعينهم. قال الفراء: إنما قال: «قُرّة» لأنها فعل، والفعل لا يكاد يُجمع، ألا ترى إلى قوله: «وَأَدْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا» [الفرقان: ١٤] فلم يجمعه؛ والقُرّة مصدر، تقول: قرّت عينه قُرّة، ولو قيل: قُرّة عين أو قُرأت أعين كان صواباً. وقال غيره: أصل القُرّة من البرّد، لأن العرب تتأذى بالحرّ، وتستروح إلى البرّد.

قوله تعالى: «وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا» فيه قولان: أحدهما: اجعلنا أئمة يُقتدى بنا، قاله ابن عباس. وقال غيره: هذا من الواحد الذي يراد به الجمع، كقوله: «إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ» [الشعراء: ١٦]، وقوله: «وَإِنَّمَا عَذْرُ لِي» [الشعراء: ٧٧]. والثاني: اجعلنا مؤتمنين بالمتّقين مقتدين بهم، قاله مجاهد؛ فعلى هذا يكون الكلام من المقلوب، فيكون المعنى: واجعل المتّقين لنا إماماً^(١).

﴿أَوَلَيْكَ يَجْنُونَ الْفُرْقَةَ يَا مَكْرُهَا وَيَلْفُوتُ فِيهَا حِجَّةٌ وَسَلَامٌ ﴿٧٥﴾ خَلِيلِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَسْبُؤُا بِكَ رَبِّي وَلَآ دَعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَانًا ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: «أَوَلَيْكَ يَجْنُونَ الْفُرْقَةَ» قال ابن عباس: يعني الجنة. وقال غيره: الغرفة: كل بناء عالٍ مرتفع، والمراد غرف الجنة، وهي من الزّبرجد واللّؤلؤ والياقوت، «يَا مَكْرُهَا» على دينهم وعلى أذى المشركين.

قوله تعالى: «وَيَلْفُوتُ فِيهَا» قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: «وَيَلْفُوتُ» بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف. وقرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «وَيَلْفُوتُ» بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف، «حِجَّةٌ وَسَلَامٌ» قال ابن عباس: يُحَيِّي بعضهم بعضاً بالسلام، ويرسل إليهم الرّبّ ﷻ بالسلام. وقال مقاتل: «حِجَّة» يعني السلام، «وسلاماً» أي: سلّم الله لهم أمرهم وتجاوز عنهم^(٢).

قوله تعالى: «قُلْ مَا يَسْبُؤُا بِكَ رَبِّي» فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ما يصنع بكم! قاله ابن عباس. والثاني: أي وزن يكون لكم عنده؛ تقول: ما عيأت بفلان، أي: ما كان له عندي وزن ولا قُدْر، قاله الزجاج. والثالث: ما يعبا بعدابكم، قاله ابن قتيبة. وفي قوله: «لَآ دَعَاؤُكُمْ» أربعة أقوال: أحدها: لولا إيمانكم، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: لولا عبادتكم، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: لولا دعاؤه إياكم لتعبده، قاله مجاهد؛ والمراد نفع الخلق، لأن الله تعالى غير محتاج. والرابع: لولا توحيدكم، حكاه الزجاج. وعلى قول الأكثرين ليس في الآية إضمار؛ وقال ابن قتيبة: فيها إضمار تقديره: ما يعبا بعدابكم لولا ما تدعونه من الشريك والولد، ويوضح ذلك [قوله]: «فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَانًا» يعني: العذاب، ومثله قول الشاعر:

مَنْ شَاءَ ذَلَّى النَّفْسَ فِي هُوَةٍ ضَنْكٍ وَلَكِنْ مَنْ لُهُ بِالْمَضِيقِ^(٣)

أي: بالخروج من المضيق. وهل هذا خطاب للمؤمنين، أو للكفار؟ فيه قولان. فأما قوله تعالى: «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ» فهو خطاب لأهل مكة حين كذبوا رسول الله ﷺ، «فَسَوْفَ يَكُونُ» يعني: تكذيبكم «لِزَانًا» أي: عذاباً لازماً [لكم]؛ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه قتلهم يوم بدر فقتلوا يومئذٍ، واتصل بهم عذاب الآخرة لازماً لهم، وهذا مذهب ابن مسعود، وأبي بن كعب، ومجاهد في آخرين. والثاني: أنه الموت، قاله ابن عباس. والثالث: أن اللّزام: القتال، قاله ابن زيد.



(١) قال ابن كثير: وقال غيره: اجعلنا هداة مهتدين دعاة إلى الخير، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم، وأن يكون هدايتهم متصلة إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثر ثواباً وأحسن مأباً. اهـ. وقد ثبت في (صحيح مسلم) عن أبي هريرة ؓ. قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ أَنْفَعُ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

(٢) قال ابن كثير: أولئك يُتَدَبَّرُونَ فِيهَا بِالنَّجَى وَالْإِكْرَامِ، ويلقون التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَدَقْتُمْ وَفِيمَ عَلَى الْأَلْبَابِ».

(٣) (مشكل القرآن: ٣٣٩، «واللسان»: دلا، وأياها في «اللسان» و«التاج»: ضيق، ورواية الشطر الأول فيهما: مَنْ شَاءَ يَذَلِّي النَّفْسَ فِي هُوَةٍ.

سورة الشعراء

وهي مكية كلها، إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة، من قوله: ﴿وَالشَّعْرَاءُ يَبْعُهُمُ الْفَأْوُسُ﴾ [الشعراء: ٢٢٤] إلى آخرها، قاله ابن عباس، وقناة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طس﴾ ١ تلك آيات الكتاب المبين ٢ لعلك تبغ نفسك ألا يكونوا مؤمنين ٣ إن لنا نزل عليهم من السماء آية فلعلك اعتنقهم لما خشيهم ٤ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ٥ فقد كذبوا فسألتهم أينكم ما كانوا به يستهزئون ٦ أولئك برؤا إلى الأرض كزأبنا بها من كل فج كبر ٧ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ٨ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ٩

قوله تعالى: ﴿طس﴾ ١ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «طسّم» بفتح الطاء وإدغام النون من هجاء «سين» عند الميم. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وأبان، والمفضل: «يطسّم» و«طيس» بإمالة الطاء فيهما. وأظهر النون من هجاء «سين» عند الميم حمزة هاهنا وفي (القصص). وفي معنى «طسّم» أربعة أقوال: أحدها: أنها حروف من كلمات، ثم فيها ثلاثة أقوال: أحدها: [ما] رواه علي بن أبي طالب عليه السلام قال: لما نزلت «طسّم» قال رسول الله ﷺ: «الطاء: طور سيناء، والسين: الاسكندرية، والميم: مكة»^(١). والثاني: [أن] الطاء: طيبة، وسين: بيت المقدس، وميم: مكة، [رواه الضحاك عن ابن عباس]. والثالث: الطاء: شجرة طوبى، والسين: سدره المنتهى، والميم: محمد ﷺ، قاله جعفر الصادق. والثاني: أنه قسم أقسم الله به، وهو من أسماء الله تعالى، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وقد بيّنا كيف يكون مثل هذا من أسماء الله تعالى في فاتحة مريم. وقال القرطبي: أقسم الله بطوله وسنائه وملكه. والثالث: أنه اسم للسورة قاله مجاهد. والرابع: أنه اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة، وأبو روق^(٢). وما بعد هذا قد سبق تفسيره [المائدة: ١٥، الكهف: ٦] إلى قوله: ﴿أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ والمعنى: لعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمان. ثم أخبر أنه لو أراد أن ينزل عليهم ما يضطربهم إلى الإيمان لفعل، فقال: ﴿إِن لَّنَا نَزْلٌ﴾ وقرأ أبو رزين، وأبو المتوكل: ﴿إِن يَشَأْ يُنْزِلْ﴾ بالياء فيهما، «مَلَكِهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَلَعَلَّ كُفْرَهُمْ لِمَا كُفِرُوا بِهِ» جعل الفعل أولاً للأعناق، ثم جعل «خاضعين» للرجال، لأن الأعناق إذا خضعت فأربابها خاضعون. وقيل: لما وصف الأعناق بالخضوع، وهو من صفات بني آدم، أخرج الفعل مخرج آدميين كما بيّنا في قوله: ﴿وَالسَّامِرُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتُمْ لِي سَيِّدِيكَ﴾ [يوسف: ٤]، وهذا اختيار أبي عبيدة. وقال الزجاج: قوله: «فَطَلَّتْ» معناه: فَنَظَّلَتْ، لأن الجزء يقع فيه لفظ الماضي في معنى المستقبل، كقولك: إن تأتني أكرمك، معناه: أكرمك؛ وإنما قال: «خاضعين» لأن خضوع الأعناق هو خضوع أصحابها، وذلك أن الخضوع لما لم يكن إلا بخضوع الأعناق، جاز أن يخبر عن المضاف إليه، كما قال الشاعر:

رَأَتْ مَرَّ السَّيِّئِينَ أَخَذْنَ مِنِّي كَمَا أَخَذَ السَّرَارُ مِنَ الْهَلَالِ^(٣)

(١) لم يذكر المفسرون أن معنى هذه الحروف ورد في المرفوع، إلا ما ذكر الطبرسي من علماء الإمامية الشيعية في تفسيره «مجمع البيان» حيث قال: وروي عن ابن الحنفية عن علي بن النعمان عن النبي ﷺ... فذكره من غير سند، فقلل المصنف نقل هذا المعنى عنه أو ممن نقل عنه. وقد نقل القرطبي هذا المعنى من كلام عبد الله بن محمد بن عقيل، ولم يذكره مرفوعاً، وذكر السيربي في «الدرر» ٨٢/٥ عن محمد بن كعب القرطبي في قوله تعالى: ﴿طس﴾ ١ قال: الطاء من ذي الطول، والسين من القدوس، والميم من الرحمن، وكذلك ذكر الآلوسي في «تفسيره» ٥٢/١٩.

(٢) قال ابن كثير عن الحروف التي في أوائل السور: وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، قال: وقد حكى هذا المذهب الرازي في «تفسيره» عن المبرد وجمع من المحققين، قال: وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا، وقرره الزمخشري في «كشفه» ونصره أتم نصر، قال: وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي وحكا له من ابن تيمية. اهـ.

(٣) البيت لجبريل، «ديوانه» ٤٢٦، و«مجاز القرآن» ٨٣/٢، و«الطبري» ٦٢/١٩، و«اللسان»: خضع. والسرار: الليلة يخفى فيها الهلال آخر الشهر.

فلما كانت السنون لا تكون إلا بمر، أخبر عن السنين، وإن كان أضاف إليها المرور. قال: وجاء في التفسير أنه يعني بالأعناق كبراءهم ورؤسائهم. وجاء في اللغة أن أعناقهم جماعاتهم؛ يقال: جاءني عُقٌّ من الناس، أي: جماعة. وما بعد هذا قد سبق تفسيره [الأنبياء: ٢٢] إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ بَرَزُوا إِلَىٰ آثَرِ الْأَرْضِ﴾ يعني المكذبين بالبعث ﴿كَرَّ إِلَيْنَا فِيهَا﴾ بعد أن لم يكن فيها نبات ﴿مِنْ كُلِّ رَجٍّ كَرِيمٍ﴾ قال ابن قتيبة: من كل جنس حسن. وقال الزجاج: الزوج: النوع، والكريم: المحمود.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَإِبْرَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ تدل على وحدانية الله وقدرته ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: ما كان أكثرهم يؤمن في علم الله، ﴿وَرَبُّكَ لَهْوُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المتقم من أعدائه ﴿الْكَرِيمِ﴾ بأوليائه.

﴿وَرَبُّكَ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿قَوْمٌ فَرَعُونَ إِلَّا يَسْتَفْهَمُونَ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْلُغُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ﴾ ﴿وَلَكُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ﴿قَالَ كَلَّا فَإِنِّي نَسِيتُ إِنَّمَا مَعَكُمْ مُّسْتَعِينُونَ﴾ ﴿فَأَنبَأَ فِرْعَوْنَ فَقَوْلَا إِنَّمَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿قَالَ أَلَمْ نَرْسِلْكَ فِيْنَا وَلِيْدًا وَلَيْسَتْ فِيْنَا مِنْ عَمَلِكِ سَيِّئَةٌ﴾ ﴿وَقُلْتَ قَاتِلْكَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿قَالَ قُلْتُنَا إِذَا وَنَا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿فَنَزَرْتُمْ مِنْكُمْ لَنَا خِفَتِكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُتَرَسِّلِينَ﴾ ﴿وَلَكُمْ فِيْمَنْ تَدْعُوْنَ عَلَيَّ عَبْدٌ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ نَادَىٰ﴾ المعنى: واطل هذه القصة على قومك.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ بياء ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ محذوفة، ومثلها ﴿أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤] ﴿سَيِّئِينَ﴾ [الشعراء: ٦٢] ﴿نَهَوَ يَهْدِينَ﴾ [الشعراء: ٧٨] ﴿وَسَيِّئِينَ﴾ [الشعراء: ٧٩] ﴿فَهَرَّ بِشْفِيفٍ﴾ [الشعراء: ٨٠] ﴿ثُمَّ يُخَيِّبِينَ﴾ [الشعراء: ٨١] ﴿كُذِّبُونَ﴾ [الشعراء: ١١٧] ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٨] فهذه ثمان آيات أثبتهن في الحاليين يعقوب^(١).

قوله تعالى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ أي بتكذيبهم إياي ﴿وَلَا يَبْلُغُ لِسَانِي﴾ للحمدة التي كانت بلسانه. وقرأ يعقوب: ﴿وَيَضِيقُ﴾ ولا يَنْطَلِقُ بنصب القاف فيها، ﴿فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ﴾ المعنى: ليُعِينَنِي، فُحِذَفَ، لأن في الكلام دليلاً عليه. ﴿وَلَكُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ وهو القتل الذي وكزه ففضى عليه؛ والمعنى: ولهم عليّ دعوى ذَنْبٍ ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ به. ﴿قَالَ كَلَّا﴾ وهو ردع وزجر عن الإقامة على هذا الظن؛ والمعنى: لن يقتلوك لأنني لا أسلّطهم عليك، ﴿فَأَنبَأَ﴾ يعني: أنت وأخوك ﴿وَيَايُنُسَ﴾ يعني نفسه ﴿إِنَّمَا﴾ يعني نفسه ﴿مَعَكُمْ﴾ فأجراهما مجرى الجماعة ﴿مُسْتَعِينُونَ﴾ نسع ما نقولان وما يجيبونكما به.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال ابن قتيبة: الرسول يكون بمعنى الجميع، كقوله: ﴿هَٰؤُلَاءِ صِِفَتِي﴾ [الحجر: ٦٨] وقوله: ﴿ثُمَّ تُخَيِّبُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥٠]. وقال الزجاج: المعنى: إِنَّمَا رسالَةُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أي: ذوو رسالة رب العالمين، قال الشاعر:

لَقَدْ كَذَّبَ الْوَاثُونَ مَا بُحِثَ عِنْدَهُمْ
بِسَرٍّ وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولٍ^(٢)
أي: برسالة.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَرْسِلْ﴾ المعنى: بأن أرسل ﴿مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: أظْلِفُهُمْ من الاستعباد، فَأَنبَأَهُ فَبَلَّغَاهُ الرسالة، ف ﴿قَالَ أَلَمْ نَرْسِلْكَ فِيْنَا وَلِيْدًا﴾ أي: صبيّاً صغيراً ﴿وَلَيْسَتْ فِيْنَا مِنْ عَمَلِكِ سَيِّئَةٌ﴾ وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: ثماني عشرة سنة، قاله ابن عباس. والثاني: أربعون سنة، قاله ابن السائب. والثالث: ثلاثون سنة، قاله مقاتل، والمعنى: فجازيتنا على أن ربيناك أن كفرت نعمتنا، وقتلت منا نفساً، وهو قوله: ﴿وَقُلْتَ قَاتِلْكَ الْكَافِرِينَ﴾ وهي قتل النفس. قال الفراء: وإنما نُصِبَتْ الفاء، لأنها مرة واحدة، ولو أريد بها مثل الجلسة والوشية جاز كسرهما. وفي قوله: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قولان: أحدهما: من الكافرين لنعمتي، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعطاء، والضحاك، وابن زيد. والثاني: من الكافرين بالهلك، كُنْتُ معنا على ديننا الذي تعيب، قاله الحسن، والسدي. فعلى الأول: وأنت من الكافرين الآن.

(١) عبارة ابن الجزي في كتاب النشر في القراءات العشر ٣٢٣/٢: «أثبت الباء في جميعها يعقوب في الحاليين».

(٢) البيت لكثير عزة، وهو في «مجاز القرآن» ٨٤/٢، و«غريب القرآن» ٣١٦، و«الطبري» ٦٥/١٩، و«القرطبي» ٩٣/١٣، و«اللسان» و«التاج»: رسل.

وعلى الثاني: وكنت. وفي قوله: ﴿وَأَنَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: من الجاهلين، قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة. وقال بعض المفسرين: المعنى: إني كنت جاهلاً لم يأتي من الله شيء. والثاني: من الخاطئين؛ والمعنى: إني قتلت النفس خطأ، قاله ابن زيد. والثالث: من الناسين؛ ومثله: ﴿إِنْ تَبَيَّنَ إِحْدَاهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، قاله أبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿فَنَزَعْتُمْ مِنْكُمْ﴾ أي: ذهبت من بينكم ﴿وَمَا خِفْتُمْ﴾ على نفسي إلى مَدِينٍ، وقرأ عاصم الجحدري، والضحاك، وابن يعمر: ﴿لَمَّا﴾ بكسر اللام وتخفيف الميم، ﴿وَوَصَّىٰ لِي بِهِ حُكْمًا﴾ وفيه قولان: أحدهما: النبوة، قاله ابن السائب. والثاني: العلم والفهم، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُ يَمَّةً تُحْبَبُ عَلَىٰ﴾ يعني التربة ﴿إِنْ عُدَّتْ بِحَىٰ إِسْرَافٍ﴾ أي: اتخذتهم عبيداً؛ يقال: عُدْتُ فلاناً وأعبدته واستعبدته: إذا اتخذته عبداً^(١). وفي «أن» وجهان: أحدهما: أن تكون في موضع رفع على البدل من «نِعْمَةً». والثاني: أن تكون في موضع نصب بنزع الخافض، تقديره: لأن عُدْتُ، أو لتعبيدك. واختلف العلماء في تفسير الآية، ففسرها قوم على الإنكار، وقوم على الإقرار. فمن فسرها على الإنكار قال معنى الكلام: أو تلك نعمة؟ على طريق الاستفهام، ومثله ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ١٧٦]، وقوله: ﴿فَهُمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣٤]، وأنشدوا:

لَمْ أُنْسَ يَوْمَ الرَّحِيلِ وَقَفَّهَا
وَجَفْنَهَا مِنْ دَمْعِهَا شَرِقًا^(٢)
وَقَوْلُهَا وَالرَّكَابُ مَسَاوِرَةٌ
تَتْرَكُنَا هَكَذَا وَتَنْطَلِقُ

وهذا قول جماعة منهم. ثم لهم في معنى الكلام وجهه أربعة أقوال: أحدها: أن فرعون أخذ أموال بني إسرائيل واستعبدهم وأنفق على موسى منها، فأبطل موسى النعمة لأنها أموال بني إسرائيل، قاله الحسن. والثاني: أن المعنى: إنك لو كنت لا تقتل أبناء بني إسرائيل لكفاني أهلي، وكانت أُمِّي تستغني عن قلبي في اليَمِّ، فكانك تمنُّ عليَّ بما كان بلاؤك سبباً له، وهذا قول المبرِّد، والزجاج، والأزهري. والثالث: أن المعنى: تمنُّ عليَّ بإحسانك إليَّ خاصة، وتنسى إساءتك بتعبيدك بني إسرائيل؟ قاله مقاتل. والرابع: أن المعنى: كيف تمنُّ عليَّ بالتربة وقد استعبدت قومي؟ ومن أهيمن قومه فقد ذُلُّ، فقد حَبِطَ إحسانك إليَّ بتعبيدك قومي، حكاه الثعلبي. فأما من فسرها على الإقرار، فإنه قال: علَّمها موسى نعمة حيث رآه ولم يقتله ولا استعبده. فالمعنى: هي لعمري نعمة إذ ربييتي ولم تستعبدني كاستعبادك بني إسرائيل؛ ف «أن» تدل على المحذوف، ومثله في الكلام - أن تضرب بعض عبيدك وترك الآخر، فيقول المتروك -: هذه نعمة عليَّ أن ضربت فلاناً وتركتني، ثم تحلف «وتركتني» لأن المعنى معروف، هذا قول الفراء.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبُّ الْمَسْمُورَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوَّلَهُ آلَ سَمِيعُونَ﴾ ﴿قَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ الْآلَمِينَ﴾ ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَكَاذِبٌ﴾ ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ ﴿قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾﴾ ﴿سأله عن ماهية مَنْ لا ماهية له، فأجابه بما يدل عليه من مصنوعات^(٣). وفي قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ قولان: أحدهما: أنه خلق السموات والأرض. والثاني: إن كنتم موقنين

(١) قال ابن كثير في قوله: ﴿وَمَا خِفْتُمْ مِنْكُمْ أَنْ عُدَّتْ بِحَىٰ إِسْرَافٍ﴾ أي: وما أحسنت إليَّ وربييتي مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل فجعلتهم عبيداً وخدماً تصرفهم في أعمالك ومشاق رحيتك، أَقْبَىٰ إِحْسَانِكَ إِلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا أسأت إلى مجموعهم؟ أي: ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم. اهـ.

(٢) الشطر الأول من هذا البيت زيادة من النسخة الاستبوية، وأثبت البيت بتامه من القرطبي.

(٣) قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وتمرده وطفائه وجوده في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿هَلْ عِشْتُ لَكُم مِّنْ إِدْوٍ غَيْرٍ﴾ ﴿فَلَمَّا خَسَفَ الْقَمَرُ أَلْمَزَهُ﴾ وكانوا يجحدون الصانع جلا وعلا، ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون، فلما قال له موسى: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال له فرعون: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ قال ابن كثير: هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف حتى قال السدي: هذه الآية كقولها تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمْ يُبَشِّرُ﴾ ﴿قَالَ رَبُّكَ الَّذِي أُفْسِدُ كُلَّ شَيْءٍ عِلْفًا ثُمَّ يَخْلُقُ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنَ الْإِنْسَانِ﴾ قال: ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم هذا سؤال عن ماهية، فقد غلط، فإنه لم يكن مقراً بالصانع حتى يسأل عن ماهية، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه، فمعد ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه =

الملائكة من قَتَلَتْ من أبكارهم. قال: ويحتمل أن غيظهم لذهابهم بالعواري التي استعاروها من حُلِيِّهم، ويحتمل أن يكون لفراقهم إياهم وخروجهم من أرضهم على كُرِه منهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِيعُ حَزْرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «حَزْرُونَ» بغير ألف. وقرأ الباقون: «حاذِرُونَ» بألف. وهل بينهما فرق؟ فيه قولان: أحدهما: أن الحاذر: المستعد، والحذر: المتيقظ. وجاء في التفسير أن معنى حاذرين: مُؤَدُّون، أي: ذُوو أداة، وهي السلاح، لأنها أداة الحرب. والثاني: أنهما لغتان معناهما واحد؛ قال أبو عبيدة: يقال: رجل حَزِرٌ وحَزَرٌ وحاذِرٌ. والمقام الكريم: المنزل الحسن. وفي قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ قولان. أحدهما: كذلك أفعل بمن عصاني، قاله ابن السائب. والثاني: الأمر كذلك، أي: كما وصفنا، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وذلك أن الله تعالى رُدِّم إلى مصر بعد غرق فرعون، وأعطاهم ما كان لفرعون وقومه من المساكن والأموال. وقال ابن جرير الطبري: إنما جعل ديار آل فرعون مُلْكاً لبني إسرائيل ولم يردِّدْهم إليها لكنه جعل مساكنهم الشام.

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُتْرِيقِينَ﴾ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا تَرَا الْجَمْعَانِ قَالِ اصْحَبْ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿١٨﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ يَمَاحِلَ الْبَحْرِ فَأَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿١٩﴾ وَأَزَلَّانَا تَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٢٠﴾ وَأَجَبْنَا مُوسَىٰ بِمَعْنَىٰ أَجَبَيْنِ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَفْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِظٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٤﴾ قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ﴾ قال ابن قتيبة: لحقوهم ﴿مُتْرِيقِينَ﴾ أي: حين شَرَقَت الشمس، أي: طلعت، يقال: أَشْرَقْنَا: دخلنا في الشُّرُوق، كما يقال: أمسينا وأصبحنا. وقرأ الحسن، وأيوب السُّخْتِيَانِي: «فَاتَّبَعُوهُمْ» بالتشديد.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَا الْجَمْعَانِ﴾ وقرأ أبو رجاء، والنخعي، والأعمش: «تَرَايَ» بكسر الراء وفتح الهمزة، أي: تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: لن يدركونا ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أي: سيدلني على طريق النجاة. قوله تعالى: ﴿فَأَنْفَلَقَ﴾ فيه إضمار «فَضْرَبَ فَاَنْفَلَقَ»، أي: انشَقَّ الماء اثني عشر طريقاً ﴿كَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ أي: كل جزء انفرق منه. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وعاصم الجحدري: «كُلُّ فَلْيَ» باللام، «كَالطَّوْدِ» وهو الجبل. قوله تعالى: ﴿وَأَزَلَّانَا تَمَّ الْآخَرِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ أي: قَرَّبْنَا الْآخَرِينَ من الغرق، وهم أصحاب فرعون. وقال أبو عبيدة: «أزلنا» أي: جمعنا. قال الزجاج: وكلا القولين حسن، لأن جمعهم تقريب بعضهم من بعض، وأصل الزُلْفَى في كلام العرب: القُرْبَى. وقرأ ابن مسعود، وأبُو بن كعب، وأبو رجاء، والضحاك، وابن يعمر: «أَزَلَّانَا» بقاء، وكذلك قرأوا: «وَأَزَلَّانَا الْجَنَّةَ» [الشعراء: ٩٠] بقاء [أيضاً].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ يعني: في إهلاك فرعون وقومه عبرة لمن بعدهم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: لم يكن أكثر أهل مصر مؤمنين، إنما آمنت آسية، وخيريل^(١) مؤمن آل فرعون، وفَتَّة الماشطة، ومريم - امرأة دَلَّت موسى على عظام يوسف -، هذا قول مقاتل. وما أخللنا به من تفسير كلمات في قصة موسى، فقد سبق بيانها، وكذلك ما يُفقد وَكْرُه في مكان، فهو إما أن يكون قد سبق، وإما أن يكون ظاهراً، فنتبّه لهذا.

﴿وَأَنذَرْنَا عَلَيْهِمْ نَارَ الزَّهْرَةِ﴾ ﴿٢٥﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ وَقَوْمُهُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَظَائِدَ ﴿٢٧﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٢٨﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٠﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٣١﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ عَادُوا لِي إِلَّا رَبَّ الْغَالِبِينَ ﴿٣٣﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يُخَيِّرُ ﴿٣٤﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي ﴿٣٥﴾ وَإِلَهِ مَرْيَمَ فَهُوَ يَخْشِينِي ﴿٣٦﴾ وَالَّذِي يُسَيِّئُ شَرًّا لِّبَنِيَّ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِي أُلْهِمَ أَنْ يَفْعَلَ لِي خَاسِرَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكَ﴾ والمعنى: هل يسمعون دعاءكم. وقرأ سعيد بن جبير، وابن يعمر، وعاصم

(١) قال الألوسي في «روح المعاني» ٥٧/٢٤: واسمه، قيل: شمعان، بشين معجمة، وقيل: خيريل، بخاء معجمة مكسورة وراء مهملة ساكنة، وقيل: حزيل، بخاء مهملة وزاي معجمة، وقيل: حبيب.

الجحدري: «هل يُسمعونكم» بضم الياء وكسر الميم، «إِذْ تَدْعُونَ» قال الزجاج: إن شئت بيّنت الذال، وإن شئت أدغمتها في التاء وهو أجود في العربية، لقرب الذال من التاء.

قوله تعالى: «أَرْ يَفْقَهُونَكُمْ» أي: إن عبدتموهم «أَرْ يَحْشُرُونَ» إن لم تعبدوهم؟ فأخبروا عن تقليد آبائهم.

قوله تعالى: «إِنَّمَا تَدْعُونَ لِي» فيه وجهان: أحدهما: أن لفظه لفظ الواحد والمراد به الجميع؛ فالمعنى: فإنهم أعداء لي. والثاني: فإن كلَّ معبود لكم عدوٌ لي. فإن قيل: ما وجه وصف الجمام بالعداوة؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أن معناه: فإنهم عدوٌ لي يوم القيامة إن عبدتهم. والثاني: أنه من المقلوب؛ والمعنى: فإنني عدوٌ لهم، لأن مَنْ عاديتَه عاداك، قاله ابن قتيبة^(١). وفي قوله: «إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ» قولان: أحدهما: أنه استثناء من الجنس، لأنه عُلِمَ أنهم كانوا يعبدون الله مع آلهتهم، قاله ابن زيد. والثاني: أنه من غير الجنس؛ والمعنى: لكن رب العالمين [ليس كذلك]^(٢)، قاله أكثر النحويين.

قوله تعالى: «وَالَّذِي خَلَقَ فَهَر يُبِينُ» أي: إلى الرشد، لا ما تعبدون، «وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَقْبِرُنِي» أي: هو رازقي الطعام والشراب^(٣). فإن قيل: لم قال: «مرضت»، ولم يقل: «أمرضتني»؟ فالجواب: أنه أراد الثناء على ربه فأضاف إليه الخير المحض، لأنه لو قال: «أمرضتني» لعدَّ قومه ذلك عيباً، فاستعمل حُسن الأدب؛ ونظيره قصة الخضر حين قال في العيب: «فَأَرَدْتُ» [الكهف: ٧٩]، وفي الخير المحض: «فَأَرَادَ رَبُّكَ» [الكهف: ٨٢]. فإن قيل: فهذا يرثه قوله: «وَالَّذِي يُبَيِّنُ». فالجواب: أن القوم كانوا لا يُنكرون الموت، وإنما يجعلون له سبباً سوى تقدير الله ﷻ، فأضافه إبراهيم إلى الله ﷻ، وقوله: «فَرَّحْتُ بِبُحَيْرَةٍ» يعني للبعث، [وهو]^(٤) أمر لا يُقَرُّون به، وإنما قاله استدلالاً عليهم؛ والمعنى: أن ما وافقتموني عليه موجب لصحة قولي فيما خالفتموني فيه.

قوله تعالى: «وَالَّذِي أَلْهَمَ أَنْ يَتَّبِعَ لِي خَطِيئَتِي» يعني: ما يجري على مثلي من الزلل؛ والمفسرون يقولون: إنما عنى الكلمات الثلاث التي ذكرناها في [الأنبياء: ٦٣]، «يَوْمَ الْآزِفِ» يعني: يوم الحشر والحساب؛ وهذا احتجاج على قومه أنه لا تصلحُ الإلهية إلا لِمَنْ قَعَلَ هذه الأفعال.

«رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَالْحَقِيقَ وَالْمُسْلِمِينَ» وَأَجْعَلْ لِي لِسَاناً صِدْقَ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَلَبَّيْكَ مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّبِيِّينَ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِإِنِّي أَنَا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَفْقَهُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى: «مَنْ لِي حُكْماً» فيه ثلاثة أقوال: أحدها: النبوة؛ قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: اللَّبُّ^(٥)، قاله عكرمة. والثالث: الفهم والعلم، قاله مقاتل. وقد بيّنا قوله: «وَالْحَقِيقَ وَالْمُسْلِمِينَ» في سورة يوسف: [١٠١]، وبيّنا معنى «لِسَاناً صِدْقَ» في [مریم: ٥٠] والمراد بالآخرين: الذين يأتون بعده إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: «وَأَغْفِرْ لِإِنِّي» قال الحسن: بلغني أن أمه كانت مسلمة على دينه، فلذلك لم يذكرها. فإن قيل: فقد قال: «أَغْفِرْ لِي وَلَوْلَاكَ» [إبراهيم: ٤١]. قيل أكثر الذُكر إنما جرى لأبيه، فيجوز أن يسأل الغفران لأمه وهي مؤمنة، فأما أبوه فلا شك في كفره. وقد بيّنا سبب استغفاره لأبيه في [براءة: ١١٣]، وذكرنا معنى الخزري في [آل عمران: ١٩٢].

قوله تعالى: «يَوْمَ يُبْعَثُونَ» يعني: الخلائق.

قوله تعالى: «إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» فيه ستة أقوال: أحدها: سليم من الشُّرك، قاله الحسن، وابن زيد. والثاني: سليم من الشُّك، قاله مجاهد. والثالث: سليم، أي: صحيح، وهو قلب المؤمن، لأن قلب الكافر والمنافق مريض، قاله سعيد بن المسيب. والرابع: أن السَّليم في اللغة: اللديغ، فالمعنى: كاللديغ من خوف الله تعالى، قاله

(١) قال ابن كثير: أي: إن كانت هذه الأصنام شيئاً، ولها تأثير، فلتخلص إليَّ بالمساءة، فإني عدوٌ لها لا إلهي بها ولا أفكر فيها. اهـ.

(٢) زيادة من «روح المعاني».

(٣) قال ابن كثير: أي: هو خالقي ورازقي بما سخر ويتر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق الزمن، وأنزل الماء وأحيا به الأرض وآخر به من كل الثمرات رزقاً للعباد، وأنزل الماء عليها زلالاً يسقيه مما خلق أنعاماً وإناساً كثيراً. اهـ.

(٤) زيادة ليست في الأصل. (٥) أي: العقل.

الجنيـد. والخامس: سليم من آفات المال والبنين، قاله الحسين بن الفضل. والسادس: سليم من البدعة، مُظْمَنٌ على الشَّئِ، حكاه الثعلبي.

﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْنَهُمُ الْفَتَنَ﴾ (١٥) ﴿وَرَزَقْنَا لَهُمُ الْغُلَاقَ﴾ (١٦) ﴿وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّا مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (١٧) ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصْرِفُهُمْ أَوْ يَبْخُسُهُمْ﴾ (١٨) ﴿فَكَيْفَ إِذَا هُمْ وَالْفَأْوَنُ﴾ (١٩) ﴿وَهُوَ إِلَّا يَسْأَلُونَ أَجْعُونَ﴾ (٢٠) ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ (٢١) ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَنَرِي ضَلَالِي ثُبُورٍ﴾ (٢٢) ﴿إِذْ تُسَوِّكَمُ رَبِّيَ الْمَلَكَيْنِ﴾ (٢٣) ﴿وَمَا أَهْلَانَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٢٤) ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (٢٥) ﴿وَلَا صِدِّيقٍ جِئَ﴾ (٢٦) ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَّكَرُنَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٨) ﴿وَلَا رَيْكَ لَكَ الْغَرُورُ الْحَرِيدُ﴾ (٢٩)

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْنَهُمُ الْفَتَنَ﴾ (١٥) أي: قُرِئَتْ إليهم حتى نظروا إليها، ﴿وَرَزَقْنَا لَهُمُ الْغُلَاقَ﴾ (١٦) أي: أظهرت لهم الضالون، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ (١٧) على وجه التوبيخ ﴿إِنَّا مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (١٨) من دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصْرِفُهُمْ أَوْ يَبْخُسُهُمْ أي: يمنعونكم من العذاب، أو يمتنعون منه.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا هُمْ وَالْفَأْوَنُ﴾ (١٩) قال السدي: هم المشركين. قال ابن قتيبة: ألقوا على رؤوسهم، وأصل الحرف «كَبِوا» من قولك: كَبَيْتُ الإِنَاءَ، فابْدَلْ من الباء الوسطى كافاً، استقفاً لاجتماع ثلاث باءات، كما قالوا: «كُفِّمُوا» من «الْكُفَّة»، والأصل: «كُفِّمُوا». وقال الزجاج: معناه: طُرِحَ بعضهم على بعض؛ وحقيقة ذلك في اللغة تكرير الانكباب، كأنه إذا أُلْقِيَ بِنَكَبٍ مَرَّةً بعد مَرَّةٍ حتى يَسْتَقِرَّ فيها. وفي الغاوين ثلاثة أقوال: أحدها: المشركون، قاله ابن عباس. والثاني: الشياطين، قاله قتادة، ومقاتل. والثالث: الآلهة، قاله السدي. ﴿وَهُوَ إِلَّا يَسْأَلُونَ أَجْعُونَ﴾ (٢٠) أي: يعني: هم وآلهتهم، ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَنَرِي ضَلَالِي ثُبُورٍ﴾ (٢١) أي: نَعْدِلُكُمْ بالله في العبادة، ﴿وَمَا أَهْلَانَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٢٢) أي: فيهم قولان: أحدهما: الشياطين. والثاني: أولوهم الذين اقتتلوا بهم، قال عكرمة: إبليس وابن آدم القاتل.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (٢٥) هذا قولهم إذا شفع الأنبياء والملائكة والمؤمنون. وروى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الرَّجُلَ يَقُولُ فِي الْجَنَّةِ: مَا فَعَلَ صَدِيقِي فَلَان؟ وَصَدِيقِي فِي الْجَحِيمِ، فيقول الله ﷻ: أَخْرَجُوا لَهُ صَدِيقَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، فيقول من بقي [في النار]: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم؟» (١). والحميم: القريب الذي تَوَدُّهُ وَيُوَدُّكَ والمعنى: ما لنا من ذي قرابة يُهَيِّمُهُ أمرنا، ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ﴾ (٢٦) أي: رجعة إلى الدنيا ﴿فَنُكَفِّرُنَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧) لتحلُّ لنا الشفاعة كما حَلَّتْ للموحِّدين.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ ثُجَّ الْعَرَسِيِّينَ﴾ (٣٠) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ نُوحٌ هُوَ إِلَّا نَنْقُوتَ﴾ (٣١) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (٣٢) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْيَتِيمَ﴾ (٣٣) قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ ثُجَّ﴾ (٣٠) قال الزجاج: القوم مذكورون، والمعنى: كَذَّبَتْ جماعة قوم نوح. قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ نُوحٌ هُوَ إِلَّا نَنْقُوتَ﴾ (٣١) كانت الأخوة من جهة النَّسَبِ بينهم، لا من جهة الدِّينِ، ﴿إِلَّا نَنْقُوتَ﴾ عذاب الله بتوحيده وطاعته، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (٣٢) على الرسالة فيما بيني وبين ربكم (٢). ﴿وَمَا أَنتَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَتْرٍ﴾ (٣٣) أي: على الدعاء إلى التوحيد.

﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَبِّكَ الْأَزْدَلُونَ﴾ (٣٤) ﴿قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَمْلِكُونَ﴾ (٣٥) ﴿إِنِّي خَشِيتُمُ لَا عَلَى رَبِّي لَوْ تَفْعَلُونَ﴾ (٣٦) ﴿وَمَا أَنَا بِمُطْلِقِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٧) ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٣٨) ﴿قَالُوا لَيْنَ لَرَّ تَنْتَهَ يَنْتَهَ لَنُكَفِّرَنَّ مِنَ الْمُتْرَفِينَ﴾ (٣٩)

(١) هذا الحديث ذكره الطبرسي من الإمامية الشيعة في تفسير «مجمع البيان» ولم يخرِّجه لأحد، بل قال: وفي الخبر المأثور عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ ... فذكره، واستدركنا الزيادة التي بين القوسين منه، ولعل المصنف رحمه الله نقله عن الطبرسي أو ممن نقله عنه، وكذلك ذكره القرطبي في «تفسيره» عن جابر ولم يخرِّجه لأحد، ولم نره، والله أعلم.

(٢) قال ابن كثير: هذا إخبار من الله ﷻ عن عبده ورسوله نوح ﷺ، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد، فبعثه الله ناهياً من ذلك ومحللاً من وبل عقابه، فكذب قومه فاستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى، ونزل الله تعالى تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل، فلعلنا قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ ثُجَّ الْعَرَسِيِّينَ﴾ (٣٠) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ نُوحٌ هُوَ إِلَّا نَنْقُوتَ﴾ (٣١) أي: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (٣٢) أي: إني رسول من الله إليكم، آمين فيما بعثني الله به، أبلغكم رسالات ربي ولا أزيد فيها ولا أنقص منها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الْأَرْذَلُونَ﴾ وقرأ يعقوب بفتح الهمزة وتسكين التاء وضم العين: «وَأَتْبَاعُكَ الْأَرْذَلُونَ»، وفيهم ثلاثة أقوال: أحدها: الحاكة، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: الحاكة والأساكفة؛ قاله عكرمة. والثالث: المساكين الذين ليس لهم مال ولا عز، قاله عطاء. وهذا جهل منهم، لأن الصناعات لا تضر في باب الديانات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: لم أعلم أعمالهم وصنائعهم، ولما أكلف ذلك، إنما كلفت أن أدعهم، ﴿إِنْ جَاءَهُمْ﴾ فيما يعملون ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ بذلك ما عبتهم في صنائعهم، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ما أنا بالذي لا أقبل إيمانهم لزعمكم أنهم الأرذلون. وفي قوله: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْبُوتِينَ﴾ ثلاثة أقوال. أحدها: من المشتومين، قاله الضحاك. والثاني: من المضروبين بالحجارة، قاله قتادة. والثالث: من المقتولين بالرجم، قاله مقاتل.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ اللَّهِ مُرْسَلَاتٌ مِنْ رَبِّي وَرَبِّيَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَمَّ وَرَبِّيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فَأَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ السَّحُورِ ﴿ثُمَّ أَفْرَقْنَا بَعْدَ الْبَايِنِ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿وَلَوْ رَكِبَهُ لُحُورُ الْارْتِجَاءِ﴾ قوله تعالى: ﴿فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ﴾ أي: افترق بيني وبينهم قضاء، يعني: بالعذاب ﴿وَرَبِّيَ وَمَنْ مَعِيَ﴾ من ذلك العذاب. والفلك قد تقدم بيانه [البقرة: ١٦٤]. والمشحون: المملوء، يقال: شحنت الإناء؛ إذا ملأته؛ وكانت سفينة نوح قد ملئت من الناس والطيور والحيوان كله، ﴿ثُمَّ أَفْرَقْنَا بَعْدَ﴾ بعد نجات نوح ومن معه ﴿الْبَايِنِ﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ ابْنُهَا هَؤُلَاءِ نَارُ اللَّهِ تَحْمِلُونَهَا فَانْتَبِهُوا ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ فَانْقَرَأُوا إِلَهُهُمُ الْحَقَّ ﴿وَمَا اسْتَكْبَرُوا عَلَيْهِ مِنْ آيَةٍ﴾ إِنَّا نَبِيُّ رَبِّكَ أَعْلَمِينَ ﴿تَتَّبِعُونَ كُلَّ شَيْءٍ مِمَّا يَفْتَنُكُمْ فَانْهَؤُنَّ عَنْ نَفْسِكُمْ﴾ وَلَوْ لَا بَطْشُ رَبِّكَ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَالِينَ ﴿فَاقْرَأُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ وَانْقَرَأُوا إِلَهُهُمُ الْحَقَّ ﴿أَمَّا نَسْوَا فَمَا تَعْلَمُونَ﴾ أَمَّا نَسْوَا فَمَا تَعْلَمُونَ ﴿وَتَعْلَىٰ عَرْشُهُنَّ عِلِّيُّنَ﴾ إِلَىٰ آخَاتٍ عَلَيْكُمْ ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿تَتَّبِعُونَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وقرأ عاصم الجحدري، وأبو حيو، وابن أبي عبلة: «بكل ربيع» بفتح الراء. قال الفراء: هما لغتان. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه المكان المرتفع؛ روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: بكل شرف. قال الزجاج: هو في اللغة: الموضع المرتفع من الأرض. والثاني: أنه الطريق، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال قتادة. والثالث: الفج بين الجبلين، قاله مجاهد. والآية: العلامة. وفيما أراد بهذا البناء ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أراد: تبون مالا تسكنون، رواه عطاء عن ابن عباس؛ والمعنى أنه جعل بناءهم ما يستغنون عنه. عبثاً. والثاني: بروج الحمام، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد. والثالث: أنهم كانوا يبنون في المواضع المرتفعة ليُسرفوا على المرأة فيسخرها منهم ويتعبدوا بهم، وهو معنى قول الضحاك.

قوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: قصور مشيدة، قاله مجاهد. والثاني: مصانع الماء تحت الأرض، قاله قتادة. والثالث: بروج الحمام، قاله السدي^(١). وفي قوله: ﴿لَكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ قولان: أحدهما: كأنكم تخلدون، قاله ابن عباس، وأبو مالك. والثاني: كيما تخلدوا، قاله الفراء، وابن قتبية. وقرأ عكرمة، والنخعي، وقاتدة، وابن يعمر: «تُخْلَدُونَ» برفع التاء وتسكين الخاء وفتح اللام مخففة. وقرأ عاصم الجحدري، وأبو حصين: «تُخْلَدُونَ» بفتح الخاء وتشديد اللام.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا بَطْشُ رَبِّكَ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَالِينَ﴾ المعنى: إذا ضربتم ضربتم بالسياط ضرب الجبارين، وإذا عاقبتم قتلتهم؛ وإنما أنكر عليهم ذلك، لأنه صدر عن ظلم، إذ لو ضربوا بالسيف أو بالسوط في حق ما ليموا. وفي قوله: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قولان: أحدهما: ما عذبوا به في الدنيا. والثاني: عذاب جهنم.

(١) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن المصانع جمع مَصْنَعَة، والعرب تسمي كل بناء مصنعة، وجائز أن يكون ذلك البناء كان قصوراً وحصوناً مشيدة، وجائز أن يكون كان مأخذ للماء، ولا خير يقطع المذرب بأي ذلك كان، ولا هو مما يدرك من جهة العقل، فالصواب أن يقال فيه ما قاله الله أنهم كانوا يتخذون مصانع. اهـ.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَصْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَارِثِينَ﴾ ١٣٦ ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ ١٣٧ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُذْمَذِينَ﴾ ١٣٨ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٣٩ ﴿وَلَذَ ذَنْبٌ لَّهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ١٤٠ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ النَّارِثِينَ﴾ ١٤١ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ ١٤٢ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ١٤٣ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا اللَّهَ﴾ ١٤٤ ﴿وَمَا اسْتَأْذَنُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ بَشَرٍ إِنْ أَجَبْتُمْ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٤٥

قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ ١٣٦: قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: «خُلُقٍ» بفتح الخاء وتسكين اللام؛ قال ابن قتيبة: أرادوا اختلاقهم وكذبهم، يقال: خَلَقْتُ الحديثَ اختلاقته، أي: افتعلته، قال الفراء: والعرب تقول للخرافات: أحاديثُ الخُلُق. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحزمة، [وخلف، ونافع]: «خُلُقِ الأولين» بضم الخاء واللام. وقرأ ابن عباس، وعكرمة، وعاصم الجحدري: «خُلُقٍ» برفع الخاء وتسكين اللام؛ والمعنى: عاداتهم وشأنهم. قال قتادة: قالوا [له]: هكذا كان الناس يعيشون ما عاشوا، ثم يموتون، ولا بعث لهم ولا حساب.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُذْمَذِينَ﴾ ١٣٨: أي: على ما نفعله في الدنيا.

﴿أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ١٣٩ ﴿فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾ ١٤٠ ﴿وَرِزْقٍ وَغُلِّ طَلْمًا هَاضِمًا﴾ ١٤١ ﴿وَتَنَحُّونَ مِنْ أَجْزَالٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ١٤٢ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا اللَّهَ﴾ ١٤٣ ﴿وَمَا اسْتَأْذَنُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ بَشَرٍ إِنْ أَجَبْتُمْ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٤٤

قوله تعالى: ﴿أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ١٣٩: أي: فيما أعطاكم الله في الدنيا «﴿مُؤْمِنِينَ﴾» من الموت والعذاب.

قوله تعالى: ﴿طَلْمًا هَاضِمًا﴾ ١٤٠: الطَّلْع: الثمر. وفي الهضم سبعة أقوال. أحدها: أنه الذي قد أُنِعَ وبلغ، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنه الذي يتهشم تهشماً، قاله مجاهد. والثالث: أنه الذي ليس له نوى، قاله الحسن. والرابع: أنه المذنب من الرطب، قاله سعيد بن جبيرة. والخامس: اللّين، قاله قتادة، والفراء. والسادس: أنه الحمل الكثير الذي يركب بعضه بعضاً، قاله الضحاك. والسابع: أنه الطَّلْع قبل أن ينشَقَّ عنه [القشراً] وينفتح، يريد أنه منضَّم مُكْتَبَرٌ، ومنه قيل: رجل أهضَمَ الكشْحين، إذا كان مُنْضَمَّهما، قاله ابن قتيبة^(١).

قوله تعالى: ﴿وَتَنَحُّونَ مِنْ أَجْزَالٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ١٤٢: قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «فَرِهينَ». وقرأ الباقون: «فَارِهينَ» بالفاء. قال ابن قتيبة: «فَرِهينَ»: أشيرين بَطْرِين، ويقال: الهاء فيه مبدلة من حاء، أي: فَرَجِين، «والفرح» قد يكون السرور، وقد يكون الأسر، ومنه قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [النقص: ٧٦] أي: الأشرين، ومن قرأ: «فَارِهينَ» فهي لغة أخرى، يقال: قَرَّةٌ وفارَّةٌ، كما يقال: فَرِحٌ وفارِحٌ، ويقال: «فَارِهينَ» أي: حاذقين؛ قال عكرمة: حاذقين بنحتها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا اسْتَأْذَنُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ بَشَرٍ إِنْ أَجَبْتُمْ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٤٥: قال ابن عباس: يعني: المشركين. وقال مقاتل: هم التسعة الذي عقرها الناقة.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ١٤٦ ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأَنْتَ بِشَرٌّ مِنْ الْعَالَمِينَ﴾ ١٤٧ ﴿قَالَ هَذِهِ نَافَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ تَمْلُؤُونَ﴾ ١٤٨ ﴿وَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا حَتَّى تَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ١٤٩ ﴿فَمَقْرُوعًا فَاصْبَحُوا نَارِئِينَ﴾ ١٥٠ ﴿فَلَاخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٥١ ﴿وَلَذَ ذَنْبٌ لَّهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ١٥٢ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ النَّارِثِينَ﴾ ١٥٣ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ١٥٤ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ١٥٥ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا اللَّهَ﴾ ١٥٦ ﴿وَمَا اسْتَأْذَنُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ بَشَرٍ إِنْ أَجَبْتُمْ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٥٧

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ١٤٦: قال الزجاج: أي: ممن له سحر، والسحر: الرقة، والمعنى: أنت شر مثلاً. وجائز أن يكون من المفعولين من السحر؛ والمعنى: ممن قد سحر مرة بعد مرة^(٢).

قوله تعالى: ﴿لَهَا شِرْبٌ﴾ ١٤٧: أي: حظ من الماء. قال ابن عباس: لها شرب معروف لا تحضره معها، ولكم شرب

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: الهضم: هو المتكسر من لينة ورطوبته، وذلك من قولهم: هضم فلان حقه: إذا انتقصه وتحيته، فكذلك الهضم في الطلع، إنما هو التفتُّص منه، من رطوبته ولينه، إما بمسّ الأيدي، وإما بركوب بعضه بعضاً، وأصله مفعول صرف إلى فاعل. اهـ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندي أن معناه: إنما أنت من المخلوقين الذين يملأون بالطعام والشراب مثلاً، ولست رباً ولا ملكاً فطيعك وتعلم أنك صادق فيما تقول، قال: والمسحر: المفعول من السحرة، وهو الذي له سحرة. اهـ.

لا تحضر معكم، فكانت إذا كان يومهم حضروا الماء فاقسموه، وإذا كان يومها شربت الماء كله. وقال قتادة: كانت إذا كان يوم شربها، شربت ماءهم أول النهار، وسقتهم اللبن آخر النهار. وقرأ أبي بن كعب، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وابن أبي عبله: «لَهَا شُرْبٌ» بضم الشين.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا نَدِيبِينَ﴾ قال ابن عباس: ندموا حين رأوا العذاب على عقرها، وعذابهم كان بالصيحة. ﴿أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْمَلَكِ﴾ ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ بل أنتم قوم عَادُونَ ﴿قَالُوا لَنْ نَنْتَهُ بِطُلُوتٍ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْزِينَ﴾ ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿لَا عِزَّكَ فِي الْفَنَيْنِ﴾ ثُمَّ دَرَكَا الْآخَرِينَ ﴿وَأَمْلَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنَافِقِينَ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿وَلَوْ رَدُّكَ لَوْ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ﴾ وهو جمع ذكر ﴿مِنَ الْمَلَكِ﴾ أي: من بني آدم، ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [قال الزجاج: وقرأ ابن مسعود: «ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم»] يعني به الفروج. وقال مجاهد: تركتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي: ظالمون معتدون. ﴿قَالُوا لَنْ نَنْتَهُ بِطُلُوتٍ﴾ أي: لئن لم تسكت عن نهينا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْزِينَ﴾ من بلدنا. ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ﴾ يعني: إتيان الرجال ﴿مِنَ الْقَالِينَ﴾ قال ابن قتبية: أي: من المُبْغِضِينَ، يقال: قَالَيْتُ الرجل: إذا أبغضته.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من عقوبة عملهم، ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ وقد ذكرناهم في [هود: ٨٠]، ﴿لَا عِزَّكَ﴾ يعني: امرأته ﴿فِي الْفَنَيْنِ﴾ أي: الباقيين في العذاب. ﴿ثُمَّ دَرَكَا الْآخَرِينَ﴾ أهلكتهم بالحسف والحضب، وهو قوله: ﴿وَأَمْلَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ يعني الحجارة.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْكَرْسِيِّ﴾ لَإِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نَنْتَوْنَ إِلَى لَكُمْ رَسُولُ آيِينَ ﴿فَاقْنُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ﴾ وَمَا أَتَيْنَاكُمْ بِهِ مِنْ آجَرٍ إِنِ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْمَلَكِ

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: «أصحاب لَيْكَةِ» هاهنا، وفي [ص: ١٣] بغير همز والتاء مفتوحة؛ وقرأ الباقون: «الْأَيْكَةِ» بالهمز فيها والالف. وقد سبق هذا الحرف [الحجر: ٧٨]. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ إن قيل: لِمَ لم يقل: أخوهم، كما قال في [الأعراف: ٨٥]؟ فالجواب: أن شعيباً لم يكن من نسل أصحاب الأيكة، فلذلك لم يقل: أخوهم، وإنما أرسل إليهم بعد أن أُرِيسِلَ إلى مَدين، وهو من نسل مَدين، فلذلك قال هناك: أخوهم، هذا قول مقاتل بن سليمان. وقد ذكرنا في سورة [هود: ٩٤] عن محمد بن كعب القرظي، أن أهل مَدين عَذَّبُوا بعذاب الظَّلَّة، فإن كانوا غير أصحاب الأيكة كما زعم مقاتل، فقد تساووا في العذاب، وإن كان أصحاب مَدين هم أصحاب الأيكة^(١)، وهو مذهب ابن جرير الطبري كان حذف ذكر الأخ تخفيفاً، والله أعلم.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ ﴿وَزُوا بِالْقِسَاسِ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُشْرِينَ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَخْلَقُكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أي: من الناقصين للكَيْل، يقال: أخسرتُ الكَيْلَ والوزن: إذا نقصته. وقد ذكرنا القسَاسَ في [بني إسرائيل: ٣٥].

(١) قال ابن كثير: هؤلاء - يعني أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هاهنا: أخوهم شعيب، لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة، وقيل: شجر ملتف كالفيضة، كانوا يعبدها، فلهاذا لما قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْكَرْسِيِّ﴾ لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب، إنما قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه وإن كان أخاهم نسباً. قال: ومن الناس من لم يفتن لهذه الكفة فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيباً بعث الله إلى اثنين، ومنهم من قال: ثلاث أمم. اهـ.

فأهل مدين، وأصحاب الرس، وأصحاب الأيكة، هم قوم شعيب، وما ذكر في بعض الأحاديث أن أصحاب الأيكة وقوم مدين اثنتان بعث الله إليهما شعيباً، قال ابن كثير: هو غريب، وفي رفعه نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً، والصحيح أنهم أمة واحدة وصفوا في كل مقام بشيء، ولهذا وعظ هؤلاء، وأمر بوفاء المكيا والميزان كما في قصة مدين سواء بسواء، فدل على أنهم أمة واحدة. اهـ.

لم تكن» بالثناء «آية» بالنصب، كقوله: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقرأ الشعبي، والضحاك، وعاصم الجحدري: «أَنْ تَعْلَمَهُ» بالثناء. قال ابن عباس: بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمد ﷺ فقالوا: إن هذا لزمانه، وإننا لنجد في التوراة صفته، فكان ذلك آية لهم على صدقه^(١).

قوله تعالى: ﴿عَلَى بَعْضِ الْأَعْجِينَ﴾ قال الزجاج: هو جمع أعجم، والأثنى عجماء، والأعجم: الذي لا يُفصح، وكذلك الأعجمي؛ فاما العجمي: فالذي من جنس العجم، أفصح أو لم يُفصح.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لو قرأه عليهم أعجمي لقالوا: لا نفقه هذا، فلم يؤمنوا.

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُتَكِبِينَ﴾ (١٣) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ. حَتَّىٰ بَرَّأَ الْكَلْبَ الْأَلِيمَ (١٤) فَبَاتِهِمْ بِفَنَاءٍ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٥) يَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (١٦) أَوَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ نَبِيًّا (١٧) قَدْ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (١٨) مَا أَفْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ (١٩) وَمَا أَهْلَكَا مِنْ قَبْلِهِ إِلَّا مَنَ مُذِرُونَ (٢٠) وَكَرِهَ (٢١) وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٢)

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ قد شرحناه في [الحجر: ١٢]. والمجرمون هاهنا: المشركون.

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ قال الفراء: المعنى: كي لا يؤمنوا. فاما العذاب الأليم، فهو عند الموت. ﴿يَقُولُوا﴾ عند نزول العذاب ﴿هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ أي: مؤخرون لنؤمن ونصدق. قال مقاتل: فلما أوعدهم رسول الله ﷺ بالعذاب، قالوا: فمتى هو؟ تكذيباً به^(٢)، فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ نَبِيًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (١٨) قال عكرمة: عُمر الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (١٨) أي: من العذاب. ﴿وَمَا أَهْلَكَا مِنْ قَبْلِهِ﴾ بالعذاب في الدنيا ﴿إِلَّا مَنَ مُذِرُونَ﴾ يعني: رسلاً تذرهم العذاب. ﴿وَكَرِهَ﴾ (٢١) أي: موعظة وتذكيراً.

﴿وَمَا نَزَّلْنَا بِهَذَا الْقُرْآنِ إِلَّا لَنَسِفَةٍ﴾ (٢٢) وَمَا يَلْبِثُ لَمَّْا نَسْفَعْهُ إِلَّا نَسْفَعُ لَكُمْ لُطْفًا (٢٣)

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلْنَا بِهَذَا الْقُرْآنِ إِلَّا لَنَسِفَةٍ﴾ (٢٢) سبب نزولها أن قريشاً قالت: إنما تجيء بالقرآن الشياطين فثلقه على [لسان] محمد، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَلْبِثُ لَمَّْا نَسْفَعْهُ إِلَّا نَسْفَعُ لَكُمْ لُطْفًا﴾ (٢٣) أي: أن ينزلوا بالقرآن ﴿وَمَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أن يأتوا به من السماء، لأنهم قد جيل بينهم وبين السمع بالملائكة والشُّهْب. ﴿إِنَّمَا نَسْفَعُ لَكُمْ لُطْفًا﴾ (٢٣) أي: عن الاستماع للوحي من السماء ﴿لَنَسْفَعْهُ﴾ فكيف ينزلون به؟! وقال عطاء: عن سماع القرآن لمحجوبون، لأنهم يُرْجَمون بالنجوم.

﴿فَلَا تَنْفَعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهِهَا مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٤) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢٥) وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِإِنِّ أَبْعَدُكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٦) فَإِنَّ عَصْرَكَ فَقَدْ إِذٍ بِرَبِّكَ (٢٧) وَمَا تَعْمَلُونَ (٢٨) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْغَيْبِ الرَّحِيمِ (٢٩) الَّذِي يَرِيكَ جِبْنَ تَقَوْمٍ (٣٠) وَقَلْبِكَ فِي السَّنَجِينَ (٣١) إِنَّهُ هُوَ السَّيِّئُ الْعَلِيمُ (٣٢)

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَنْفَعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهِهَا مَا خَلَقَ﴾ قال ابن عباس: يحذر به غيره، يقول: أنت أكرم الخلق علي، ولو اتخذت من دوني إلهاً لعذبك.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٤) روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٤) فقال: «يا مغشّر قريش: اشترؤا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني

(١) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره: أو لم يكن لهؤلاء المعرضين عما يأتيك يا محمد من ذكر ربك دلالة على أنك رسول رب العالمين، أن يعلم حقيقة ذلك وصحته علماء بني إسرائيل. وقال ابن كثير: أو ليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك، أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها، والمراد: العلول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمه، كما أخبر بذلك من آمن منهم، كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي عن أدرکه منهم ومن شاكلهم، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَدْعُوهُمْ مَكُونُوا مِنْهُمْ فِي الْأَرْضِ وَالْأَجْمَلِ ١٥٧﴾. اهـ.

(٢) في «مجمع البيان» للطبرسي: «تكذيباً له» ولعل المصنف رحمه الله نقل قول قتادة هذا من الطبرسي، أو ممن نقل عنه الطبرسي.

(٣) وهو كذلك في «مجمع البيان» للطبرسي.

عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد سليمان ما شئت ما أفني عنك من الله شيئاً^(١). وفي بعض الألفاظ: «سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ»^(٢). وفي لفظ: «غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَجِمًا سَابِلُهَا يَلَالُهَا»^(٣). ومعنى قوله: «عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»: رَهْطُكَ الْأَدْنَى. «فَرَّكَ عَصْرَكَ» يعني: العشيرة «نَقَلَ إِلَى بَرِيَّةٍ مِمَّا تَمَلُّونَ» من الكفر. «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ»^(٤) أي: ثق به وفوض أمرك إليه، فهو عزيز في نعمته، رحيم لم يعجل بالعقوبة. وقرأ نافع، وابن عامر: «فَتَوَكَّلْ بِالْفَاءِ، وكذلك [هواً]^(٥) في مصاحف أهل المدينة والشام. «الَّذِي يَرَبُّكَ يَحْيَى نَقُومُ»^(٦) فيه ثلاثة أقوال: أحدها: حين تقوم إلى الصلاة، قاله ابن عباس، ومقاتل، والثاني: حين تقوم من مقامك، قاله أبو الجوزاء. والثالث: حين تخلو، قاله الحسن.

قوله تعالى: «وَتَقَلِّبُكَ» أي: ونرى تقلبك «فِي السَّجِدِينَ» وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: وتقلبك في أصلاب الأنبياء حتى أخرجك، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: وتقلبك في الركوع والسجود والقيام مع المصلين في الجماعة؛ والمعنى: يراك وحدك ويراك في الجماعة، وهذا قول الأكثرين منهم قتادة. والثالث: وتصرفك في ذهابك ومجيئك في أصحابك المؤمنين، قاله الحسن^(٥).

«هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيْطَانُ»^(٧) نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّخَنَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ»^(٨) قوله تعالى: «هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيْطَانُ»^(٩) هذا ردٌ عليهم حين قالوا: إنما يأتيه بالقرآن الشياطين. فأما الأفاك فهو الكذاب، والأثيم: الفاجر؛ قال قتادة: وهم الكهنة. قوله تعالى: «يُلْقُونَ السَّخَنَ» أي: يلقون ما سمعوه من السماء إلى الكهنة. وفي قوله: «وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ» قولان: أحدهما: أنهم الشياطين. والثاني: الكهنة.

«وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ»^(١٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ»^(١١) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ وَأَنْصَرُوا بِلَا بَدْوٍ مَا ظَلَمُوا وَمَنْعَهُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْغَلِبِينَ يَقْلِبُونَ»^(١٢) قوله تعالى: «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ»^(١٣) وقرأ نافع: «يَتَّبِعُهُمْ» بسكون التاء، والوجهان حسنان، يقال: تَبِعْتُ وَأَتْبَعْتُ، مثل حَقَرْتُ واحْقَرْتُ. وروى العوفي عن ابن عباس، قال: كان رجلاً على عهد رسول الله ﷺ قد تهاجيا، فكان مع كل واحد منهما غواة من قومه، فقال الله: «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ»^(١٤). وفي رواية أخرى عن ابن عباس، قال: هم شعراء المشركين. قال مقاتل: منهم عبد الله بن الزُّبَيْرِ، وأبو سفيان بن حرب، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي في آخرين، قالوا: نحن نقول مثل قول محمد، وقالوا الشعر، فاجتمع إليهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم ويَزُورُونَ عنهم^(١٥). وفي الغاوين ثلاثة أقوال: أحدها: الشياطين، قاله مجاهد، وقاتدة. والثاني: السفهاء، قاله الضحاك. والثالث: المشركون، قاله ابن زيد.

- (١) رواه البخاري ٣٨٦/٨، ومسلم ١٩٢/١، والطبري ١١٩/١٩، وذكره السيوطي في «الدر» ٩٥/٥ وزاد نسبه لأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب» وفي «الدلائل».
- (٢) رواه مسلم في «صحيحه» بهذا اللفظ ١٩٢/١.
- (٣) رواه مسلم أيضاً بهذا اللفظ ١٩٢/١، قال الإمام النووي في «شرح مسلم» ٨٠/٣: «يلالها» ضبطناه بفتح الباء الثانية وكسرها، وهما وجهان مشهوران ذكرهما جماعات من العلماء، وقال: قال القاضي عياض: رويناه بالكسر، قال: ورأيت للخطابي أنه بالفتح، وقال صاحب «المطالع»: رويناه بكسر الباء وفتحها، من بَلَّ يَبْلُغُ، والِبَالُ الماء. ومعنى الحديث: ساقيلها، شبهت قطعة الرحم بالحرارة، ووصلها بإطفاء الحرارة ببرودة، قال: ومنه: بَلُّوا أَرْحَامَكُمْ، أي: صِلوها. اهـ.
- (٤) زيادة من «القرطبي».
- (٥) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بتأويله، قول من قال: تأويله: ويرى تقلبك مع الساجدين في صلاتهم معك، حين تقوم معهم وتركب وتسجد، لأن ذلك هو الظاهر من معناه، ثم قال: فتأويل الكلام إذن: وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم إلى صلاتك، ويرى تقلبك في المؤمنين بك فيها بين قيام وركوع وسجود وجلوس. ثم قال في تسمية الآية: وقوله: «إِنَّهُ هُوَ أَشْيَعُ الْكَلِيمِ» يقول تعالى ذكره: إن ربك هو السميع تلوئك يا محمد وذكرك في صلاتك ما تلو وتذكر، العليم بما تعمل فيها ويعمل فيها من تقلب فيها معك مؤتماً بك، يقول: فرتل فيها القرآن، وأقم حدودها، فإنك بمراءى من ربك ومسمع. اهـ.
- (٦) الطبري ١٢٧/١٩، وذكره السيوطي في «الدر» ٩٩/٥ وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وابن مردويه.
- (٧) ذكر قول مقاتل هذا الطبرسي في «مجمع البيان». وعبد الله بن الزبير أسلم بعد ذلك، وكذلك أبو سفيان.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ هذا مثل بمن يهيم في الأودية؛ والمعنى أنهم يأخذون في كل فن من لغو وكذب وغير ذلك؛ فيمدحون بباطل ويذمّون بباطل، ويقولون: فعلنا، ولم يفعلوا^(١).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال ابن عباس: لما نزل ذمّ الشعراء، جاء كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت، فقالوا: يا رسول الله، أنزل الله هذا وهو يعلم أننا شعراء، فنزلت هذه الآية^(٢). قال المفسرون: وهذا الاستثناء لشعراء المسلمين الذين مدحوا رسول الله ﷺ وذمّوا من هجاه^(٣)، ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ﴾ أي: لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله ولم يجعلوا الشعر همهم. وقال ابن زيد: وذكروا الله في شعرهم. وقيل: المراد بالذکر: الشعر في طاعة الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنصَرُوا﴾ أي: من المشركين ﴿مِنْ بَيْدٍ مَا ظَلَمُوا﴾ لأن المشركين بدؤوا بالهجاء. ثم أوعد شعراء المشركين، فقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا وهجوا رسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿أَيُّ مَثَلٍ يُنْقَلِبُونَ﴾^(٤) قال الزجاج: «أي» منصوبة بقوله: «ينقلبون» لا بقوله: «سيعلم»، لأن «أيّا» وسائر أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها. ومعنى الكلام: إنهم ينقلبون إلى نار يخلّدون فيها. وقرأ ابن مسعود، ومجاهد عن ابن عباس، وأبو المتوكل، وأبو رجا: «أَيُّ مَثَلٍ يُنْقَلِبُونَ» بناءً بين مفتوحتين وبقافين على كل واحدة منهما نقطتان وتشديد اللام فيهما. وقرأ أبي بن كعب، وابن عباس، وأبو العالية، وأبو مجلز، وأبو عمران الجوني، وعاصم الجحدري: «أَيُّ مَثَلٍ يُنْقَلِبُونَ» بالفاء فيهما وبنونين ساكنين وبتاءين. وكان شريح يقول: سيعلم الظالمون حظ من نقصوا، إنّ الظالم ينتظر العقاب، وإنّ المظلوم ينتظر النصر..



(١) قال ابن كثير: قال الحسن البصري: قد والله رأينا أوديتهم التي يخوضون فيها، مرة في شتية فلان، ومرة في مديحة فلان. قال: قال قتادة: الشاعر يمدح قومًا بباطل، ويذم قومًا بباطل. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: هذه السورة مكية، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات في شعراء الأنصار؟! وفي ذلك نظر، ولم يتقدم - أي في سبب النزول - إلا مراسلات لا يعتمد عليها، والله أعلم. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم حتى يدخل فيه من كان متلبسًا من شعراء الجاهلية بدم الإسلام وأهله ثم تاب وأناب ورجع وأقلع وعمل صالحًا وذكر الله كثيرًا في مقابلة ما تقدم من الكلام السيئ - فإن الحسنات يذهبن السيئات - وامتدح الإسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه، كما قال عبد الله بن الزبير حين أسلم:

يا رسول المليك إن لساني

راتق ما فتئت إذ أنا بور

إذ أجاري الشيطان في سنن النفي

ي ومن مال ميبليه مشبور

قال: وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وهو ابن عمه، وأكثرهم له هجواً، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ، وكان يمدح رسول الله ﷺ بعدما كان يهجو، ويتولاه بعدما كان قد عاداه، ثم قال ابن كثير: ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ﴾ قيل: معناه: ذكروا الله كثيراً في كلامهم، وقيل: في شعرهم، قال: وكلاهما صحيح مكفّر لما سبق. اهـ.

(٤) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يقول تعالى ذكره: وسيعلم الذين ظلموا أنفسهم بشركهم بالله من أهل مكة ﴿أَيُّ مَثَلٍ يُنْقَلِبُونَ﴾ يقول: أي مرجع يرجعون إليه، وأي معاد يعودون إليه بعد مماتهم، فإنهم يصيرون إلى نار لا يطفأ سعيها، ولا يسكن لهبها. اهـ. وقال ابن كثير: والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم. اهـ. وفي «صحيح مسلم» عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة».

سورة النمل

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّ بِكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابُ تُبَيِّنَ ۚ هَذِي وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُؤْمِنُونَ ۝ إِنْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا لَمْ أَغْنَلَهُمْ فِتْنَتُنَا عَنْ مَوْتِهِمْ أَلَمْ نَقْتُلْكَ الَّذِينَ ظَنَّمُوا أَنَّهُمُ الْآخِرَةُ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ۝ وَلَئِكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ مَا كُنْتُ بِكَ بِتَنَاهٍ بِخَيْرٍ أَوْ أَمَانٍ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝ فَلَمَّا جَاءَهَا قُوِيَ أَنْ يَرْوِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿طَسَّ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه قسم أقسم الله به، وهو من أسمائه، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وفي رواية أخرى عنه، قال: هو اسم الله الأعظم. والثاني: اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة. والثالث: الطاء من اللطيف، والسين من السميع، حكاه الثعلبي^(١).

قوله تعالى: ﴿وَكِتَابُ تُبَيِّنَ﴾ وقرأ أبو المتوكل، وأبو عمران، وابن أبي عبله: «وكتاب مبين» بالرفع فيهما.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ﴾ أي: بشرى بما فيه من الثواب للمصدقين^(٢).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَمْ أَغْنَلَهُمْ﴾ أي: حبيبتنا إليهم قبيح فعلهم. وقد بيننا حقيقة التزيين والعمه في [البقرة: ١٥، ٢١٢]. وسوء العذاب: شديده.

قوله تعالى: ﴿هُمُ الْآخَسَرُونَ﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وأهلهم وصاروا إلى النار.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ﴾ قال ابن قتيبة: أي: يلقى عليك فتتلقاه أنت، أي: تأخذه. ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى﴾ المعنى: اذكر إذ قال موسى.

قوله تعالى: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ قرأ عاصم، وحزمة، والكسائي، ويعقوب إلا زيداً؛ «بشهاب» بالتثنية. وقرأ الباقون على الإضافة غير منوّن. قال الزجاج: من نوّن الشهاب، جعل القبس من صفة الشهاب، وكل أبيض ذي نور، فهو شهاب. فأما من أضاف، فقال الفراء: هذا مما يضاف إلى نفسه إذا اختلفت الأسماء، كقوله: ﴿وَلَذِكْرُ الْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩]. قال ابن قتيبة: الشهاب: النار، والقبس: النار تُقبس، يقال: قبست النار قبساً، واسم ما قبست: قبس.

قوله تعالى: ﴿تَصْطَلُونَ﴾ أي: تستدفنون، وكان الزمان شتاء.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ أي: جاء موسى النار، وإنما كان نوراً فاعتقده ناراً، ﴿قُوِيَ أَنْ يَرْوِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن المعنى: قدس من في النار، وهو الله ﷻ، قاله ابن عباس، والحسن، والمعنى: قدس من ناداه من النار، لا أن الله ﷻ يحل في شيء. والثاني: أن «من» زائدة؛ والمعنى: بوركت النار، قاله مجاهد. والثالث: أن المعنى: بُورك على من في النار، أو فيمن في النار؛ قال الفراء: والعرب تقول: باركه الله، وبارك عليه، وبارك فيه، بمعنى واحد، والتقدير: بُورك من في طلب النار، وهو موسى، فحذف المضاف. وهذه تحية من الله تعالى لموسى بالبركة، كما حى إبراهيم بالبركة على السنة الملائكة حين دخلوا عليه، فقالوا: ﴿رَحِمْتَ اللَّهُ وَرَكْنَهُ عَلَيْكَ أَهْلَ الْآلِيَّتِ﴾ [هود: ٧٣]. فخرج في قوله: ﴿يَرْوِكَ﴾ قولان: أحدهما: قدس. والثاني: من البركة. وفي قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ثلاثة

(١) انظر التعليق الذي في أول سورة (الشعراء) وما قاله العلماء عن الحروف التي في أوائل السور.

(٢) قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿هَذِي وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به وأتبعه وصدقته وعمل بما فيه وأقام الصلاة المكتوبة وآتى الزكاة المفروضة وأيقن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال خيراً وشرها والجنة والنار. اهـ.

أقواله: أحدها: الملائكة، قاله ابن عباس، والحسن. والثاني: موسى والملائكة، قاله محمد بن كعب. والثالث: موسى؛ فالمعنى: بُوركَ فيمن يطلبها وهو قريب منها.

﴿يَتَوَسَّعُ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) وَأَلَيْ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَنَّرُ كَأَنَّمَا جَاءَهُ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُقَبِّضُ يَدَيْهِ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيْ الْمُرْسَلِينَ (٢) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ يَضَلَّةً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي شَيْءٍ مَّا كُنِيَ إِلَيْكَ رِزْقًا وَفَوَوقَ أَيْمَنِ كَافُوا ثَوْبًا قَرِيفًا (٤) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ أَيْبَانُنَا يُبْعِرُونَ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٥) وَحَمَدُوا بِهَا وَأَسْتَفْتَيْنَاهَا أَنفُسُهُمْ ظَلَمُوا وَعَلَوُوا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَذَابَ الْمُفْسِدِينَ (٦)

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ﴾ الهاء عماد في قول أهل اللغة؛ وعلى قول السدي: هي كناية عن الجنادي، لأن موسى قال: مَنْ هذا الذي يناديني؟ ف قيل: «إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ».

قوله تعالى: ﴿وَأَلَيْ عَصَاكَ﴾ في الآية محذوف، تقديره: فآلقاها فصارت حية، ﴿فَلَمَّا رَآهَا تُهَنَّرُ كَأَنَّمَا جَاءَهُ﴾ قال الفراء: الجآن: الحية التي ليست بالعظيمة ولا بالصغيرة.

قوله تعالى: ﴿وَرَزَّ يَمْوِي﴾ فيه قولان: أحدهما: لم يلتفت، قاله قتادة. والثاني: لم يرجع، قاله ابن قتيبة، والزجاج. قال ابن قتيبة: وأهل النظر يرون أنه مأخوذ من العقب.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيْ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: لا يخافون عندي. وقيل: المراد: في الموضع الذي يوحى إليهم فيه، فكانه نبيه على أن من آمنه الله بالنبوة من عذابه لا ينبغي أن يخاف من حية. وفي قوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه استثناء صحيح، قاله الحسن، و قتادة، ومقاتل؛ والمعنى: إلا من ظلم منهم فإنه يخاف. قال ابن قتيبة: علم الله تعالى أن موسى مُسْتَشْعِرٌ خِيفَةً مِنْ ذَنْبِهِ فِي الرَّجُلِ الَّذِي وَكَّزَهُ، فقال: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا﴾ أي: توبة وندماً، فإنه يخاف، وإني غفور رحيم. والثاني: أنه استثناء منقطع؛ والمعنى: لكن من ظلم فإنه يخاف، قاله ابن السائب، والزجاج^(١). وقال الفراء: «مَنْ» مستثناة من الذين تُرْكُوا في الكلام، كأنه قال: لا يخاف لدي المرسلون، إنما الخوف على غيرهم، إلا من ظلم، فتكون «مَنْ» مستثناة. وقال ابن جرير: في الآية محذوف، تقديره: إلا من ظلم، فمن ظلم ثم بدل حسناً. والثالث: أن «إِلَّا» بمعنى الواو، فهو كقوله: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]، حكاه الفراء عن بعض النحويين، ولم يرضه. وقرأ أبي بن كعب، وسعيد بن جبير، والضحاك، وعاصم الجحلزي، وابن يعمر: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ» بفتح الهمزة وتخفيف اللام. وللمفسرين في المراد بالظلم هاهنا قولان: أحدهما: المعاصي. والثاني: الشرك. ومعنى «حُسْنًا»: توبة وندماً. وقرأ ابن مسعود، والضحاك، وأبو رجاء، والأعمش، وابن السميع، وعبد الوارث عن أبي عمرو: «حُسْنًا» بفتح الحاء والسين. ﴿بَعْدَ سُوءٍ﴾ أي: بعد إساءة. وقيل: الإشارة بهذا إلى أن موسى وإن كان [قد] ظلم نفسه بقتل القبطي، فإن الله يغفر له، لأنه ندم على ذلك وتاب.

قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ الجيب حيث جيب من القميص، أي: قطع. قال ابن جرير: إنما أمر بإدخاله يده في جيبه، لأنه كان عليه حيتضاً مذرعة من صوف ليس لها كم. والسوء: البرص.

قوله تعالى: ﴿فِي شَيْءٍ مَّا كُنِيَ إِلَيْكَ﴾ (٢) قال الزجاج: «في» من صلة قوله: «وَأَلَيْ عَصَاكَ» «وَأَدْخِلْ يَدَكَ»، فالتأويل أظهر هاتين الآيتين في تسع آيات. و«في» بمعنى «من» فتأويله: من تسع آيات؛ تقول: خذ لي عشرة من الإبل فيها فحلان، أي: منها فحلان. وقد شرحنا الآيات في [بني إسرائيل: ١٠١].

(١) قال ابن كثير: هذا استثناء منقطع، وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على عمل سيء، ثم أقبل عنه ورجع وتاب، وإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنَّا ظَالِمِينَ لَإِنَّ رَبَّنَا لَذَلَّلُنَا ثُمَّ لَمَّا أَفْتَكْنَا﴾ [طه: ٨٢] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ...﴾ [النساء: ١١٠] والآيات في هذا كثيرة جداً. اهـ.

(٢) قال ابن كثير عن الآيات التسع: وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والشعبي: هي: يده، وعصاه، والسين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ثم قال: وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي. اهـ. وقد ذكر الله ﷻ في هذه الآيات آيتين من تسع آيات، وهما العصا واليد، وبين الآيات الباقيات في سورة [الأعراف: ١٣٣] وفصلها.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَعَوْنَ قِوَامَهُ﴾ أي: مُرْسَلًا إلى فرعون وقومه، فحذف ذلك لأنه معروف. ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي: بَيِّنَةٌ واضحة، وهو كقوله: ﴿وَأَنبَأْنَاهُمْ قُودَ النَّارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩] وقد شرحناه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا هَذَا﴾ أي: هذا الذي نراه عياناً ﴿يَسْعَىٰ شَيْئٌ﴾. ﴿وَعَمَلُوا بِهَا﴾ أي: أنكروها ﴿وَأَسْتَفْتَيْنَاهَا أَنفُسُهُمْ﴾ أنها من عند الله، ﴿ظَلَمًا﴾ أي: شركاً ﴿وَعُلُوًّا﴾ أي: تكبراً. قال الزجاج: المعنى: وجحدوا بها ظُلماً وعلوًّا، أي: ترفعاً عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى وهم يعلمون أنها من عند الله.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ لِمَسَدٍ إِلَهُ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَبْنَئُهَا إِنَّا شَأْنُ مَنَظِقِ الظِّيرِ وَأَوْرَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْفَضْلِ الْيُمِينِ﴾ ﴿وَحُيِّرَ لِسُلَيْمَانَ جُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالظِّيرِ فَهَمَّ يُرْضِعُونَ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادٍ آتَمَلَّ فَإِنَّمَا أَتَمَلَّ أَذْخَلُوا مَسْكِكُمْ لَا يَحْطِئُكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُودُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿فَنَبَسَ ضَاجِحًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَرْزُقْنِي أَفْ أُنْشِرَ يَمْتَلِكِ إِلَهِي أَنَّمَتَ عَلَىٰ وَادٍ وَلَقَدْ أَنَّمَلَّ صَاحِبًا رَّضَنَهُ وَأَذْخَلِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الْمَكِيلِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ قال المفسرون: علماً بالقضاء وبكلام الطير والدواب وتسبيح الجبال ﴿وَقَالَ لِمَسَدٍ إِلَهُ الَّذِي فَضَّلْنَا﴾ بالنبوة والكتاب وإلانة الحديد وتسخير الشياطين والجن والإنس ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال مقاتل: كان داود أشدَّ تعبدًا من سليمان، وكان سليمان أعظم مُلْكًا منه وأفطن.

قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ أي: ورث نبوته وعلمه ومُلْكه، وكان لداود تسعة عشر ذكراً، فخصَّ سليمان بذلك، ولو كانت وراثته مال لكان جميع أولاده فيها سواء.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ﴾ يعني سليمان لبني إسرائيل ﴿يَبْنَئُهَا إِنَّا شَأْنُ مَنَظِقِ الظِّيرِ﴾ قرأ أبي بن كعب: «عَلَمْنَا» بفتح العين واللام. قال القراء: «مَنَظِقُ الظِّيرِ»: كلام الطير كالمَنَظِقِ إذا فهم، قال الشاعر:

عَجِبْتُ لَهَا أَتَى يَكُونُ عِذَاوَهَا قَصِيحاً وَلَمْ تَفْعَرْ بِمَنَظِقِهَا قَمًا^(١)

ومعنى الآية: فهما ما تقول الظير. قال قتادة: والنمل من الظير. ﴿وَأَوْرَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال الزجاج: أي: من كل شيء يجوز أن يؤتاه الأنبياء والناس. وقال مقاتل: أعطينا المُلْكَ والنبوة والكتاب والرياح ومَنَظِقِ الظِّيرِ، وسُخِّرَتْ لَنَا الْجِنُّ وَالشَّيَاطِينُ. وروى جعفر بن محمد عن أبيه، قال: أعطي سليمان مُلْكُ مشارق الأرض ومغاربها، فملك سبعمئة سنة وستة أشهر، وملك أهل الدنيا كُلَّهُمْ من الجن والإنس والشياطين والدواب والطير والسباع، وأُعطي عِلْمُ كل شيء ومنطق كل شيء، وفي زمانه صُنعت الصنائع المعجبة، فذلك قوله: ﴿عَلَمْنَا مَنَظِقِ الظِّيرِ وَأَوْرَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ يعني: الذي أعطينا ﴿لَمَوْ الْفَضْلِ الْيُمِينِ﴾ أي: الزيادة الظاهرة على ما أعطي غيرنا. ﴿وَحُيِّرَ لِسُلَيْمَانَ جُودُهُ﴾ أي: جمع له كل صِنْف من جُنْدِهِ على جِدَةٍ، وهذا كان في مسير له، ﴿فَهَمَّ يُرْضِعُونَ﴾ قال مجاهد: يُحَبِّسُ أَوْلَهُمْ على آخرهم. قال ابن قتيبة: وأصل الوُزْع: الكَفْ والَمْنَع. يقال: وَزَعْتُ الرَّجُلَ، أي كَفَفْتَهُ، وَوَارِزُ الْجَيْشِ: الذي يكفهم عن التفرُّق، ويرُدُّ مَنْ شَدَّ مِنْهُمْ.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادٍ آتَمَلَّ﴾ أي: أشرفوا ﴿وَعَلَىٰ وَادٍ آتَمَلَّ﴾ وفي موضعه قولان: أحدهما: أنه بِالطَّائِفِ، قاله كعب والثاني: بِالشَّامِ، قاله قتادة^(٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ وقرأ أبو مجلز، وأبو رجاء، وعاصم الجحدري، وطلحة بن مصرف: «نَمْلَةٌ» بضم الميم؛ أي: صاحبت بصوت، فلما كان ذلك الصوت مفهوماً غيَّرَ عنه بالقول؛ وَلَمَّا نَطَقَ النَّمْلُ كما ينطق بنو آدم، أجري

(١) البيت لحُمَيْد بن ثور، وهو في «اللسان» و«التاج»: فغَرَّ؛ ويعني بالمَنَظِقِ بكاءها.

(٢) ذكر هذا المعنى الطبرسي في «مجمع البيان» عن الواحدي، من طريق محمد بن جعفر بن محمد عن أبيه، وذكره السيوطي أيضاً في «الدر» ١٠٣/٥ ونسبه للحاكم ثم قال: قال الذهبي: هذا باطل.

(٣) قال ابن كثير: ومن قال من المفسرين: إن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب أو غير ذلك من الأقاويل فلا حاصل لها.

مجري الآدميين، فقيل: ﴿أَدْخُلُوا﴾، وألهم الله تلك النملة معرفة سليمان مُعْجِزاً له، وقد ألهم الله النمل كثيراً من مصالحها تزيد به على الحيوانات، فمن ذلك أنها تكسر كل حبة تدخرها قطعتين لئلا تثبت، إلا الكُزْبَرَة فإنها تكسرها أربع قطع، لأنها تثبت إذ كُسرت قطعتين، فسبحان من ألهمها هذا! وفي صفة تلك النملة قولان: أحدهما: أنها كانت كهية النعجة، قال نوف الشامي^(١): كان النمل في زمن سليمان بن داود كامثال الذئب. والثاني: كانت نملة صغيرة. ﴿أَدْخُلُوا سَكَنَكُمْ﴾ وقرأ أبي بن كعب، وأبو المتوكل، وعاصم الحذري: «مَسْكَنَكُمْ» على التوحيد.

قوله تعالى: ﴿لَا يَخْطِمَنَّكُمْ﴾ الحَظْمُ الكُشْر. وقرأ أبي بن كعب، وأبو رجاء: «لَيَخْطِمَنَّكُمْ» بغير ألف بعد اللام. وقرأ ابن مسعود: «لَا يَخْطِمَنَّكُمْ» بفتح الياء وسكون الحاء وتخفيف الطاء وسكون الميم وحذف النون. وقرأ عمرو بن العاص، وأبان: «يَخْطِمَنَّكُمْ» بفتح الياء وسكون الحاء والنون ساكنة أيضاً والطاء خفيفة. وقرأ أبو المتوكل، وأبو مجلز: «لَا يَخْطِمَنَّكُمْ» بفتح الياء وكسر الحاء وتشديد الطاء والنون جميعاً. وقرأ ابن السميع، وابن يعمر، وعاصم الجحدري: «يَخْطِمَنَّكُمْ» برفع الياء وسكون الحاء وتخفيف الطاء وتشديد النون. والحَظْمُ: الكُشْر، والحُطَام: ما تحطّم. قال مقاتل: سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال. وفي قوله: ﴿وَمَنْ لَا يَشْعُرْ﴾ قولان: أحدهما: وأصحاب سليمان لم يشعروا كلام النملة، قاله ابن عباس. والثاني: وأصحاب سليمان لا يَشْعُرُونَ بمكانكم، لأنها علمت أنه ملك لا يغي فيه، وأنهم لو علموا بالنمل ما تَوَطَّؤْهُم، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿فَتَسَّرَ مَآجِجًا﴾ قال الزجاج: «ضاحكاً» منصوب، حال مؤدّة، لأن «تَسَمَّ» بمعنى «ضحك». قال المفسرون: تيسم تعجباً ممّا قالت، وقيل: من ثنائها عليه. وقال بعض العلماء: هذه الآية من عجائب القرآن، لأنها بلفظة «يا» نادت «أيها» نهت «النمل» عيئت «ادخلوا» أمرت «مساكنكم» نصّت «لا يحطمنكم» حذرت «سليمان» خصّت «وجنوده» عمت «وهم لا يشعرون» عذرت.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ ارْزُقْنِي﴾ قال ابن قتيبة: ألهمني، أصل الإيزاع: الإغراء بالشيء، يقال: أرزغته بكذا، أي: أغريته به، وهو مُورَقٌ بكذا، ومُورَقٌ بكذا. وقال الزجاج: تأويله في اللغة: كُفِّنِي عن الأشياء إلا عن شكر نعمتك؛ والمعنى: كُفِّنِي عَمَّا يُبَاعِدُ مِنْكَ، ﴿وَأَنْ أَحْكَلْ﴾ أي: وألهمني أن أعمل ﴿مَسْلِحًا تَرْضَاهُ﴾ قال المفسرون: إنما شكر الله لك لأن الريح أبلغت إليه صوتها ففهم ذلك.

﴿وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَائِضِينَ﴾ ١٠ لَأَعْلَبَنَّهُ عَدَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْهَبَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ١١ فَكَانَ عِزُّ بَعِيْبٍ فَقَالَ لَمَّا لَمْ يَحْطِ بِهِ رَسْمُكَ مِنْ سَلَمٍ بَلَرٍ يَقِينٍ ١٢ إِنِّي وَبَدْتُ أَمْرًا تَلِيكَهُمْ وَأَوَيْتُ مِنْ كُلِّ قَوْمٍ وَمَا عَرَفْتُ عَظِيمٌ ١٣ وَبَدَّتْهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَكَا لَهُمُ الشَّقِيْلُ أَفْهَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ١٤ أَلَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُحْفُونَ وَمَا تُلْقُونَ ١٥ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ١٦

قوله تعالى: ﴿وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ﴾ التقفّد: طلب ما غاب عنك؛ والمعنى أنه طلب ما فقد من الطير؛ والطَّيْرُ اسم جامع للجنس، وكانت الطَّيْرُ تصحب سليمان في سفره تُظِلُّه بأجنحتها ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، والكسائي: ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ﴾ بفتح الياء. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة بالسكون، والمعنى: ما للهدهد [لا أراه]؟ تقول العرب: ما لي أراك كئيباً، أي: ما لك؟ فهذا من المقلوب الذي معناه معلوم. قال المفسرون: لما قَصَلَ سليمان عن وادي النمل، وقع في قفر من الأرض، فغطش الجيش فسألوه الماء، وكان الهدهد يدلُّه على الماء، فإذا قال له: ها هنا الماء، شَقَّتْ الشياطين الصَّخْرَ وفَجَّرَتِ العيون قبل أن يضربوا أبنتهم، وكان الهدهد يرى الماء في الأرض كما يرى الماء في الزجاج، فطلبه يومئذ فلم يجده. وقال بعضهم: إنما طلبه لأن الطَّيْرَ كانت تُظِلُّهم من الشمس، فأخلَّ الهدهد بمكانه، فطلعت الشمس عليهم من الخلل.

(١) هو نوف بن فضالة الحميري البجلي، إمام أهل دمشق في عصره، من رجال الحديث، ورد ذكره في «الصحاحين»، وكان راوياً للقصاص، وهو ابن زوجة كعب الأحبار، توفي سنة ٩٥ هـ.

قوله تعالى: ﴿أَمْ كَآنَ﴾ قال الزجاج: معناه: بل كان.

قوله تعالى: ﴿لَا عِزَّكَ عَدَايَا شُكَيْدًا﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: نتف ريشه، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: نتفه وتشميسه، قاله عبد الله بن شداد. والثالث: شد رجله وتشميسه، قاله الضحاك. والرابع: أن يطلبه بالقطران ويشتمه، قاله مقاتل بن حيان. والخامس: أن يودعه القفص. والسادس: أن يفرق بينه وبين إلهه، حكاها الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿أَوْ لِيَأْتِيَنَّ﴾ وقرأ ابن كثير: ﴿لِيَأْتِيَنَّ﴾ بنونين، وكذلك هي في مصاحفهم. فأما السلطان، فهو الحجة، وقيل: العذر. وجاء في التفسير أن سليمان لما نزل في بعض مسيره، قال الهدد: إنه قد اشتغل بالنزول فارتفع أنا إلى السماء فأنظر إلى طول الدنيا وعرضها، فارتفع فرأى بستاناً لبقيس، فمال إلى الخصرة فوقع فيه، فإذا هو بهدد قد لقيه، فقال: من أين أقبلت؟ قال: من الشام مع صاحبي سليمان، فمن أين أنت؟ قال: من هذه البلاد، وملكها امرأة يقال لها: بلقيس، فهل أنت مُنطلق معي حتى ترى مُلكها؟ قال: أخاف أن يتفقدي سليمان وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء، قال: إن صاحبك يسره أن تأتيه بخبر هذه المُلِكة، فانطلق معه، فنظر إلى بلقيس وملكها، ﴿فَمَكَتْ فَجَرَّ بِعِيرِ﴾ قرأ الجمهور بضم الكاف، وقرأ عاصم بفتحها، وقرأ ابن مسعود: ﴿فَتَمَكَّتْ﴾ بزيادة تاء؛ والمعنى: لم يلبث إلا يسيراً حتى جاء، فقال سليمان: ما الذي أبطأ بك؟ ﴿فَقَالَ أَطْعَمْتُ يَمًا لَمْ يُحِطْ بِهَا﴾ أي: علمت شيئاً من جميع جهاته مما لم تعلم [به] ﴿وَشَتَّكَ مِنْ سَكِّ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿سَبًا﴾ نصباً غير مصروف، وقرأ الباقون خفضاً منوناً. وجاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أن سباً رجل من العرب^(١). وقال قتادة: هي أرض باليمن يقال لها: مارب. وقال أبو الحسن الأخفش: إن شتت صرفت «سباً» فجعلته اسم أبيهم، أو اسم الحي، وإن شئت لم تصرف فجعلته اسم القبيلة، أو اسم الأرض. قال الزجاج: وقد ذكر قوم من النحويين أنه اسم رجل. وقال آخرون: الاسم إذا لم يُذكر ما هو لم يُصرف؛ وكلا القولين خطأ، لأن الأسماء حقها الصُرف، وإذا لم يُعلم هل الاسم للمذكر أم للمؤنث، فحقه الصُرف حتى يُعلم أنه لا ينصرف، لأن أصل الأسماء الصرف. وقول الذين قالوا، هو اسم رجل: غلط، لأن سباً هي مدينة تُعرف بمارب من اليمن، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام، فمن لم يصرفه جعله اسم مدينة، ومن صرفه فلأنه اسم البلد، فيكون مذكراً سمي بمذكر.

قوله تعالى: ﴿بَيْتَ يَقِينٍ﴾ أي: بخبر صادق، ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُنَّهُ﴾ يعني بلقيس ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ قال الزجاج: معناه: من كل شيء يعطاه الملوك ويؤتاه الناس. والعرش: سرير الملك. قال قتادة: كان عرشها من ذهب، قواتمه من جوهر مكلل باللؤلؤ، وكان أحد أبويها من الجن، وكان مؤخر أحد قدميها مثل حافر الدابة. وقال مجاهد: كان قدماها كحافر الحمار. وقال ابن السائب: لم يكن بقدميها شيء، إنما وقع الجن فيها عند سليمان بهذا القول، فلما جعل لها الصرح بان له كذبهم. قال مقاتل: كان ارتفاع عرشها ثمانين ذراعاً في عرض ثمانين، وكانت أمها من الجن. قال ابن جرير: وإنما صار هذا الخبر عُذراً للهدد، لأن سليمان كان لا يرى لأحد في الأرض مملكة سواه، وكان مع ذلك يحب الجهاد، فلما دلّه الهدد على مملكة لغيره، وعلى قوم كفرة يجاهدهم، صار ذلك عُذراً له. قوله تعالى: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا﴾ قرأ الأكثرون: «ألا» بالتشديد. قال الزجاج: والمعنى: وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا، أي: فصلّهم لثلاً يسجدوا. وقرأ ابن عباس، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، والزهري، وقاتادة، وأبو العالية، وحميد الأعرج، والأعمش، وابن أبي عبيدة، والكسائي: «ألا يسجدوا» مخففة، على معنى: ألا يا هؤلاء اسجدوا، فيكون في الكلام إضمار «هؤلاء» ويكتفى منها بـ «يا»، ويكون الوقف «ألا يا» والابتداء «اسجدوا»؛ قال الفراء: فعلى هذه القراءة هي سجدة، وعلى قراءة من شدد لا ينبغي لها أن تكون سجدة. وقال أبو عبيدة: هذا أمر من الله مستأنف، يعني: ألا يا أيها الناس اسجدوا. وقرأ ابن مسعود، وأبي: «هلاً يسجدوا» بهاء.

(١) روى الترمذي في «سننه» ١٥٤/٢ عن فروة بن مسيك الرمادي قال: قال رجل: يا رسول الله! وما سباً، أرض أو امرأة؟ قال: «ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب... الحديث». قال الترمذي: هذا حديث غريب حسن. ورواه الطبري ٧٦/٢٢. وقال الحافظ ابن حجر في «الإصابة» في ترجمة فروة بن مسيك عن هذا الحديث: وأخرجه ابن سعد، وأبو داود، والترمذي، وابن السكن مطولاً ومختصراً.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّةَ فِي السَّكُونِ وَالْأَرْضِ﴾ قال ابن قتيبة: أي: المُسْتَر فيهما، وهو من خَبَأَ الشيء: إذا أخففته، ويقال: خَبَأَ السموات: المطر، وخبء الأرض: النبات. وقال الزجاج: كل ما خَبَأَتْ فهو خَبْءٌ، فالخَبْءُ: كُلُّ ما غاب؛ فالمعنى: يعلم الغيب في السموات والأرض. وقال ابن جرير: «في» بمعنى «ومن»، فتقديره: يُخرج الخَبْءَ من السموات.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا شَقَّوْنَ وَمَا شَلَّوْنَ﴾ قرأ حفص [عن] عاصم، والكسائي بالتاء فيهما. وقرأ الباقر بالباء. قال ابن زيد: من قوله: ﴿أَحَطْتُ﴾ إلى قوله: ﴿التَّطِيرِ﴾ كلام الهمد. وقرأ الضحاك، وابن محيصن: «العَظِيمُ» برفع الميم. ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (١٧) أَذْهَبَ بِكَتَبِي هَذَا فَأَلْفَيْهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿قَالَ تَأَنَّبَ الْمَلَأُ إِنَّ إِلَهِي لِكَبِيرٍ﴾ (١٨) إِنَّهُمْ مِنْ شَيْئَتَيْنِ وَلَئِنْ بَشِّرَ اللَّهُ الرَّخِيعَ الرَّجِيمَ ﴿أَلَا تَقْلُوا عَلَى وَأَتُونِي سُتِيلِينَ﴾ (١٩)

فلما فرغ الهمد من كلامه ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ﴾ فيما أخبرتنا به ﴿أَصَدَقْتَ﴾ فيما قلت ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وإنما شك في خبره، لأنه أنكر أن يكون لغيره في الأرض سلطان. ثم كتب كتاباً وختمه بخاتمه ودفعه إلى الهمد وقال: ﴿أَذْهَبَ بِكَتَبِي هَذَا فَأَلْفَيْهِ إِلَيْهِمْ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، والكسائي: «فأَلْفَيْهِ» موصولة بباء. وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر، وحمزة: «فأَلْفَيْهِ» بسكون الهاء، وروى قالون عن نافع كسر الهاء من غير إشباع؛ ويعني إلى أهل سبأ، ﴿ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أعرض. والثاني: انصرف، ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: ماذا يردون من الجواب. فإن قيل: إذا تولى عنهم فكيف يعلم جوابهم؟ فعنه جوابان: أحدهما: أن المعنى: ثم تولى عنهم مستتراً من حيث لا يرونك، فانظر ماذا يردون من الجواب، وهذا قول وهب بن منبه. والثاني: أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: فانظر ماذا يرجعون ثم تولى عنهم، وهذا مذهب ابن زيد. قال قتادة: أتاهم الهمد وهي نائمة فألقى الكتاب على نحرها فقراته وأخبرت قومها. وقال مقاتل: حمله في منقاره حتى وقف على رأس المرأة، فرفرف ساعة والناس ينظرون، فرفعت رأسها فألقى الكتاب في حجرها، فلما رأت الخاتم أزعجت وخضعت وخضع من معها من الجنود. واختلفوا لأي علة سمَّته كريماً على سبعة أقوال: أحدها: لأنه كان مختوماً، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. والثاني: لأنها ظنته من عند الله ﷻ، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أن معنى قولها: «كريمٌ»: حَسَنٌ ما فيه، قاله قتادة، والزجاج. والرابع: لكرَم صاحبه، فإنه كان ملكاً، ذكره ابن جرير. والخامس: لأنه كان مهيباً، ذكره أبو سليمان الدمشقي. والسادس: لتسخير الهمد لحمله، حكاه الماوردي. والسابع: لأنها رأت في صدره «بسم الله الرحمن الرحيم»، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ شَيْئَتَيْنِ﴾ أي: إن الكتاب من عنده ﴿وَلَئِنْ﴾ أي: وإن المكتوب ﴿بِشْرِ أَلَّا تَقْلُوا عَلَى﴾ (٢٠) أَتَقْلُوا عَلَى؟ أي: لا تكبروا. وقرأ ابن عباس: «اتَّقِلُوا» بغين معجمة ﴿وَأَتُونِي سُتِيلِينَ﴾ أي: منقادين طائعين. ثم استشارت قومها، ف ﴿قَالَ تَأَنَّبَ الْمَلَأُ﴾ يعني الأشراف، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر قائداً، كل رجل منهم على عشرة آلاف. وقال ابن عباس: كان معها مائة ألف قَيْلٍ (١)، مع كل قَيْل مائة ألف. وقيل: كانت جنودها ألف ألف ومائتي ألف.

﴿قَالَ تَأَنَّبَ الْمَلَأُ أَتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَائِلَةً أَنْزَحْتُ قَتْلَهُمْ﴾ (٢١) قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْوَءِ الْأَشْرَارِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿قَالَتِ إِنَّ الْمُلُوكَ إِنَّا كُنَّا قَرْبَةً أَنْصَدُوهَا وَجَعَلُوا أَهْلَهَا أَوْلَةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٢٢) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٢٣)

قوله تعالى: ﴿أَتَتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أي: يبتئوا لي ما أفعل، وأشيروا عليّ. قال الفراء: جعلت المشورة قُتْيَا، وذلك جائز لسعة اللغة.

قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتُ قَائِلَةً أَنْزَحْتُ﴾ أي: فاعلته ﴿حَقَّقْتُ قَتْلَهُمْ﴾ أي: تَحَضَّرُون؛ والمعنى: إلا بحضوركم

(١) القَيْل، بفتح فسكون: ملك من ملوك جَبْتٍ دون الملك الأعظم، وجمعه أقبال، وأقبال.

ومشورتكم. ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلَىٰ الْقَوْلِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنهم أرادوا القوة في الأبدان. والثاني: كثرة العدد والبأس والشجاعة في الحرب. وفيما أرادوا بذلك القول قولان: أحدهما: تفويض الأمر إلى رأيها. والثاني: تعريض منهم بالقتال إن أمرتهم. ثم قالوا: ﴿وَالْأَمْرُ لِلَّهِ﴾ أي: في القتال وتركه. ﴿قَالَتْ إِنَّ آلَ لُؤْلُؤٍ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ قال الزجاج: المعنى: إذا دخلوها غثرة عن قتال وغلبة.

قوله تعالى: ﴿أَفَسَدُوا﴾ أي: خربوها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلَهَا أَذِلَّةً﴾ أي: أهانوا أشرافها ليستقيم لهم الأمر. ومعنى الكلام: أنها حذرتهم مسير سليمان إليهم ودخوله بلادها.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه من تصديق الله تعالى لقولها، قاله الزجاج. والثاني: من تمام كلامها؛ والمعنى: وكذلك يفعل سليمان وأصحابه إذا دخلوا بلادنا، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ قال ابن عباس: إنما أرسلت الهدية لتعلم أنه إن كان نبياً لم يرد الدنيا، وإن كان ملكاً فسيرضى بالحمل، وأنها بعثت ثلاث لبنات من ذهب في كل لينة مائة رطل؛ وياقوتة حمراء طولها شبر مثقوبة، وثلاثين وصيفاً وثلاثين وصيفة، والبسنتهم لباساً واحداً حتى لا يعرف الذكر من الأنثى، ثم كتبت إليه: إني قد بعثت إليك بهدية فاقبلها، وبعثت إليك بياقوتة طولها شبر، فأدخل فيها خيطاً واختم على طرفي الخيط بخاتمك، وقد بعثت إليك ثلاثين وصيفاً وثلاثين وصيفة، فميز بين الجواري والغلمان؛ فجاء أمير الشياطين فأخبره بما بعثت إليه، فقال له: انطلق فافرش على طريق القوم من باب مجلسي ثمانية أميال في ثمانية أميال [لبنات] من الذهب؛ فانطلق، فبعث الشياطين، فقطعوا اللين من الجبال وطلّوه بالذهب وفرشوه، ونصبوا في الطريق أساطين الياقوت الأحمر، فلما جاء الرُّسل، قال بعضهم لبعض: كيف تدخلون على هذا الرجل بثلاث لبنات، وعنده ما رأيتم؟ فقال رئيسهم: إنما نحن رُّسل، فدخلوا عليه، فوضعوا اللين بين يديه، فقال: أتيتونني بمال؟ ثم دعا دَرَّةً^(١) فربط فيها خيطاً وأدخلها في ثقب الياقوتة حتى خرجت من طرفها الآخر^(٢)، ثم جمع بين طرفي الخيط فختم عليه ودفعها إليهم، ثم ميز بين الغلمان والجواري، هذا كله مروى عن ابن عباس^(٣). وقال مجاهد: جعلت لباس الغلمان للجواري ولباس الجواري للغلمان، فميزهم ولم يقبل هديتها. وفي عدد الوصائف والوصفاء خمسة أقوال: أحدها: ثلاثون وصيفاً وثلاثون وصيفة، وقد ذكرناه عن ابن عباس. والثاني: خمسمائة غلام وخمسمائة جارية، قاله وهب. والثالث: مائتا غلام ومائتا جارية، قاله مجاهد. والرابع: عشرة غلمان وعشر جوارٍ، قاله ابن السائب. والخامس: مائة وصيف ومائة وصيفة، قاله مقاتل. وفي ما ميزهم به ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أمرهم بالوضوء، فبدأ الغلام من مرقفه إلى كفه، وبدأت الجارية من كفها إلى مرفقها، فميزهم بذلك، قاله سعيد بن جبير. والثاني: أن الغلمان بدؤوا بغسل ظهور السواعد قبل بطونها، والجواري على عكس ذلك، قاله قتادة. والثالث: أن الغلام اغترف بيده، والجارية أفرغت على يدها، قاله السدي. وجاء في التفسير أنها أمرت الجواري أن يكلمن سليمان بكلام الرجال، وأمرت الرجال أن يكلموه كلام النساء، وأرسلت قَدْحاً تسأله أن يملأها ماءً ليس من [ماء] السماء ولا من ماء الأرض، فأجرى الخيل وملاء من عرقها^(٤).

قوله تعالى: ﴿فَتَأْتِرُهُنَّ يَمَّ يَتَّبِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: بقبول أم برد. قال ابن جرير: وأصل «يَمَّ» بما، وإنما أسقطت الألف لأن العرب إذا كانت «ما» بمعنى «أي» ثم وصلوها بحرف خافض، أسقطوا ألفها، تفرقاً بين الاستفهام والخبر، كقوله: ﴿هَمْ يَسْأَلُونَ﴾^(٥)؟ [البا: ١] و﴿قَالُوا يَمَّ كُفَّتْ﴾؟ [النساء: ٩٧]، وربما أثبتوا فيها الألف كما قال الشاعر:

(١) الدر: صغار النمل، واحده دَرَّةٌ.

(٢) وفي بعض النسخ: فجاءت الأرض فأخذت شجرة في فيها ودخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر.

(٣) قال ابن كثير: والله أعلم أكان ذلك، أم لا، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات، والظاهر أن سليمان ﷺ لم ينظر إلى ما جاؤوا به بالكلية، ولا اعتنى به، بل أعرض عنه.

(٤) قال الألوسي عن مثل هذه الأخبار: وكل ذلك أخبار لا يدرى صحتها ولا كذبها، ولعل في بعضها ما يعيل القلب إلى القول بكنبه، والله أعلم.

عَلَى مَا قَامَ يَشْتُمُنَا لَنُؤِمَّ

كَخُنْزِيرٍ تَمَرَّعَ فِي رَمَادٍ^(١)

﴿قَلَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أُنِيدُونِي بِمَا لَمْ أَتَيْنِ: اللَّهُ خَيْرٌ مِنَّا مَا نَدْنِيكَ بَلْ أَنتَ بِهَيْئِكَ تَفْرَحُونَ﴾ [١٥] ﴿أَتَجِدُ الْإِنَّمِ فَتَلْأَيْنَهُمْ بِمُتَوَرِّ لَا يَكُلُ لَمْ بِهَا وَلَتُفَرِّجَهُمْ مِنَّا أَوْلَهُ وَمَنْ مَضَى﴾ [١٦] ﴿قَالَ بَنَاتُكَ الْكَلَا الْإِكْمَ بَأْيِي بِرَمِيهَا قَدْ أَنْ يَأْتُوِي مُسْلِمِينَ﴾ [١٧] ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْإِنِّ أَنَا مَالِيكَ بِهِ، قَدْ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيَّ أَيْنَ﴾ [١٨] ﴿قَالَ أَلَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا مَالِيكَ بِهِ، قَدْ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِي رَبِّي لِيَبْلُوَنَ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّا يَنشُرُهُ لِنَفِيعٍ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَذَابٌ كَرِيمٌ﴾ [١٩] قوله تعالى: ﴿قَلَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ﴾ قال الزجاج: لما جاء رسولها، ويجوز: فلما جاء برها.

قوله تعالى: ﴿أُنِيدُونِي بِمَا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «أُنِيدُونِي» بنونين وياء في الوصل. وروى المسيبي عن نافع: «أُنِيدُونِي» بنون واحدة خفيفة وياء في الوصل والوقف. وقرأ عاصم، وابن عامر، والكسائي: «أُنِيدُونِي» بغير ياء في الوصل والوقف. وقرأ حمزة: «أُنِيدُونِي» بـال، بنون واحدة مشددة ووقف على الياء. قوله تعالى: ﴿فَمَا أَتَيْنِ: اللَّهُ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «فَمَا أَتَانِ» الله بكسر النون من غير ياء. وقرأ أبو عمرو، ونافع، وحفص عن عاصم: «أَتَانِي» بفتح الياء. وكلهم فتحوا التاء غير الكسائي، فإنه أمالها من «أَتَانِي الله»، وأمال حمزة: «أَنَا آتِيكَ بِهِ» أشم النون شيئاً من الكسر، والمعنى: فما أتاني الله، أي: من النبوة والملك «خَيْرٌ مِنَّا مَا نَدْنِيكَ» من المال «بَلْ أَنتَ بِهَيْئِكَ تَفْرَحُونَ» يعني إذا أهدى بعضهم إلى بعض فرح، فأتانا أنا فلا، ثم قال للرسول: ﴿أَتَجِدُ الْإِنَّمِ فَتَلْأَيْنَهُمْ بِمُتَوَرِّ لَا يَكُلُ﴾ أي: لا طاقة «لَمْ بِهَا وَلَتُفَرِّجَهُمْ مِنَّا» يعني بلدتهم. فلما رجعت رسلها إليها بالخبر، قالت: قد علمت أنه ليس بملك وما لنا به طاقة، فبعثت إليه: إني قادمة عليك بملوك قومي لأنظر ما تدعو إليه، ثم أمرت بعرشها فجعل وراء سبعة أبواب، ووكلت به حرساً يحفظونه، وشخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف ملك، تحت يدي كل ملك منهم ألف. وكان سليمان مهيباً لا يُتَدَأ بشيء حتى يسأل عنه، فجلس يوماً على سرير ملكه فرأى رجلاً قريباً منه، فقال: ما هذا؟ قالوا: بلقيس قد نزلت بهذا المكان، وكان قدر فرسخ، وقد كان بلغه أنها احتاطت على عرشها قبل خروجها، ف «قَالَ بَنَاتُكَ الْكَلَا الْإِكْمَ بَأْيِي بِرَمِيهَا»، وفي سبب طلبه له خمسة أقوال: أحدها: ليعلم صدق الهدد، قاله ابن عباس. والثاني: ليجعل ذلك دليلاً على صدق نبوته، لأنها خلفته في دارها واحتاطت عليه، فوجدته قد تقدمها، قاله وهب بن منبه^(٢). والثالث: ليختبر عقلها وفطنتها، أتعرفه أم تتكره، قاله سعيد بن جبيرة. والرابع: لأن صفته أعجبته، فخشي أن تُسْلِمَ فيحرم عليه مالها، فأراد أخذه قبل ذلك، قاله قتادة. والخامس: ليربها قدرة الله تعالى وعظم سلطانه، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْإِنِّ﴾ قال أبو عبيدة: العفريت من كل جن أو إنس: الفائق المبالغ الرئيس. وقال ابن قتيبة: العفريت: الشديد الوثيق. وقال الزجاج: العفريت: النافذ في الأمر، المبالغ فيه مع حُب ودهاء. وقرأ أبي بن كعب، والضحاك، وأبو العالية، وابن يعمر، وعاصم الجحدري: «قَالَ عَفْرِيتٌ» بفتح العين وكسر الراء. وروى ابن أبي شريح عن الكسائي: «عَفْرِيتٌ» بفتح الياء وتخفيفها؛ وروي عنه أيضاً تشديدها وتووين الهاء على التأنيث. وقرأ ابن مسعود، وابن السميع: «عَفْرَاةٌ» بكسر العين وفتح الراء وبألف من غير ياء.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ أي: من مجلسك؛ ومثله ﴿فِي مَقَامٍ أَيْنَ﴾ [٢٠] [الدخان: ٥١]. وكان سليمان يجلس للقضاء بين الناس من وقت الفجر إلى طلوع الشمس، وقيل: إلى نصف النهار. ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ﴾ أي: على حملة «لَقَوِيَّ». وفي قوله: «أَيْنَ» قولان: أحدهما: أمين على ما فيه من الجوهر والدُر وغير ذلك، قاله ابن السائب. والثاني: أمين لا آتيك بغيره بدلاً منه، قاله ابن زيد. قال سليمان: أريد أسرع من ذلك. «قَالَ أَلَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ» وهل هو إنسي أم ملك؟ فيه قولان: أحدهما: إنسي، قاله ابن عباس، والضحاك، وأبو صالح. ثم فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه رجل من بني إسرائيل، واسمه آصف بن برخيا، قاله مقاتل. قال ابن عباس: دعا آصف - وكان آصف يقوم

(١) البيت لحسان بن ثابت، «ديوانه: ١٤٣»، والطبري: ١٥٦/١٩، والقرطبي: ٢٠٠/١٣.

(٢) وهذا هو أولى الأقوال بالصواب كما قال ابن جرير الطبري.

على رأس سليمان بالسيف - فبعث الله الملائكة فحملوا السريز تحت الأرض يَحُدُّونَ الأرضَ حُدًّا، حتى انخرقت الأرض بالسريز بين يدي سليمان. والثاني: أنه سليمان ﷺ، وإنما قال له رجل: أنا أتيتك به قبل أن يترد إليك طَرْفُكَ، فقال: هات، قال: أنت النبي ابن النبي، فإن دعوت الله جاءك، فدعا الله فجاءه، قاله محمد بن المكنندر. والثالث: أنه الخضر، قاله ابن لهيعة^(١). والرابع: أنه عابد خرج يومئذ من جزيرة في البحر فوجد سليمان فدعا فأتى بالعرش، قاله ابن زيد. والقول الثاني: أنه من الملائكة. ثم فيه قولان: أحدهما: أنه جبريل ﷺ. والثاني: ملك من الملائكة أيد الله به سليمان، حكاهما الثعلبي. وفي العلم الذي عنده من الكتاب ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اسم الله الأعظم، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقادة، والجمهور. والثاني: أنه علم كتاب سليمان إلى بلقيس. والثالث: أنه علم ما كتب الله لبني آدم، وهذا على أنه ملك، حكى القولين الماوردي. وفي قوله: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أربعة أقوال: أحدها: قبل أن يأتك أقصى ما تنظر إليه، قاله سعيد بن جبيرة. والثاني: قبل أن ينتهي طرفك إذا مددته إلى مداه، قاله وهب. والثالث: قبل أن يترد طرفك حسيراً إذا أدمت النظر، قاله مجاهد. والرابع: بمقدار ما تفتح عينك ثم تطرف، قاله الزجاج. قال مجاهد: دعا فقال: يا ذا الجلال والإكرام. وقال ابن السائب: إنما قال: يا حي يا قيوم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ في الكلام محذوف، تقديره: فدعا الله [فأتى] به، فلما رآه، يعني: سليمان ﴿سُتِرَ﴾ عندم أي: ثابتاً بين يديه ﴿قَالَ هَذَا﴾ يعني: التمكن من حصول المراد.

قوله تعالى: ﴿أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أشكر على السريز إذ أتيت به، أم أكفر إذا رأيته من هو دوني في الدنيا أعلم مني، قاله ابن عباس. والثاني: أشكر ذلك من فضل الله عليّ، أم أكفر نعمته بترك الشكر له، قاله ابن جرير.

﴿قَالَ تَكْرُرًا لَمَّا عَرَّضَهَا نَظَرَ أَنْتَدَى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا سَائِلِينَ﴾ ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَسُبُّ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَفَّتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُثَمَّرٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ تَكْرُرًا لَمَّا عَرَّضَهَا﴾ قال المفسرون: خافت الشياطين أن يتزوج سليمان بلقيس فتفشي إليه أسرار الجن، لأن أمها كانت جنية، فلا يفتكون من تسخير سليمان وذريته بعده، فأسأوا الثناء عليها وقالوا: إن في عقلها شيئاً، وإن رجلها كحافر الحمار، فأراد سليمان [أن] يختبر عقلها بتذكير عرشها، وينظر إلى قدميها ببناء الصرح. قال ابن قتيبة: ومعنى «نكروا»: غيروا، يقال: نكرت الشيء فتكر، أي: غيرته فتغير. وللمفسرين في كيفية تغييره ستة أقوال: أحدها: أنه زيد فيه ونقص منه، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنهم جعلوا صفائح الذهب التي كانت عليه مكان صفائح الفضة، وصفائح الفضة مكان صفائح الذهب، والياقوت مكان الزبرجد، والبرق مكان اللؤلؤ، وقائمتي الزبرجد مكان قائمتي الياقوت، قاله ابن عباس أيضاً. والثالث: أنهم نزعوا ما عليه من فصوصه وجواهره، روي عن ابن عباس أيضاً. والرابع: أنهم جعلوا ما كان منه أحمر أخضر، وما كان أخضر أحمر، قاله مجاهد. والخامس: أنهم جعلوا أسفله أعلاه، ومقدمه مؤخره، وزادوا فيه، ونقصوا منه، قاله قتادة. والسادس: أنهم جعلوا فيه تماثيل السمك، قاله أبو صالح. وفي قوله: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ قولان: أحدهما: أنها لما رآته جعلت تعرف وتذكر، ثم قالت في نفسها: من أين يخلص إلى ذلك وهو في سبعة أبيات والحرس حوله؟ ثم قالت: كأنه هو، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال قتادة: شبهته بعرشها. وقال السدي: وجدت فيه ما تعرفه فلم تتذكر، ووجدت فيه ما تتذكره فلم تثبت، فلذلك قالت: كأنه هو. والثاني: أنها عرفته، ولكنها شبهت عليهم كما شبهوا [عليها]، فلو أنهم قالوا: هذا عرشك، لقلت: نعم، قاله مقاتل. قال المفسرون: فقيل لها: فإنه عرشك، فما أغنى عنك إغلاق الأبواب؟ وفي قوله: ﴿وَأُوتِينَا

(١) قال ابن كثير عن هذا القول: وهو غريب جداً.

أَلَيْكَ» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه قول سليمان، قاله مجاهد. ثم في معناه قولان: أحدهما: وأوتينا العلم بالله وقدرته على ما يشاء من قبل هذه المرأة. والثاني: أوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وكُنَّا مُسْلِمِينَ لله. والقول الثاني: أنه من قول بلقيس، فإنها لما رأت عرشها، قالت: قد عرفتُ هذه الآية، وأوتينا العلم بصحة نبوة سليمان بالآيات المتقدمة، تعني أمر الهدهد والرُّسُل التي بُعثت من قبل هذه الآية، وكُنَّا مُسْلِمِينَ متقادين لأمرك قبل أن نجيء. والثالث: أنه من قول قوم سليمان، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تُعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال الفراء: معنى الكلام: هي عاقلة، إنما صَدَّهَا عن عبادة الله عبادتها الشمس والقمر، وكان عادة من دين آبائها، والمعنى: وصدَّهَا أن تعبد الله ما كانت تعبد، قال: وقد قيل: صَدَّهَا سليمان، أي: منعها ما كانت تعبد. قال الزجاج: المعنى: صَدَّهَا عن الإيمان العادة التي كانت عليها، لأنها نشأت ولم تعرف إلا قوماً يعبدون الشمس، ويؤمن عبادتها بقوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ وقرأ سعيد بن جبير، وابن أبي عبله: «أنها كانت» بفتح الهمزة.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ قال المفسرون: أمر الشياطين فبنوا له صرحاً كهيئة السطح من زجاج. وفي سبب أمره بذلك ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أراد أن يريها ملكاً هو أعزُّ من ملكها، قاله وهب بن منبه. والثاني: أنه أراد أن ينظر إلى قدمها من غير أن يسألها كشفها، لأنه قيل له: إن رجلها كحافر الحمار، فأمر أن يُهَيَّأَ لها بيت من قوارير فوق الماء، ووضِعَ سرير سليمان في صدر البيت، هذا قول محمد بن كعب القرظي. والثالث: أنه فعل ذلك ليختبرها كما اختبرته بالوصائف، والوصفاء، ذكره ابن جرير. فأما الصَّرْحُ، فقال ابن قتيبة: هو القصر، وجمعه: صُرُوح، ومنه قول الهذلي:

[على طُرُقٍ كَنَحُورِ الرُّكَا ب] تَحْسَبُ أَعْلَامَهُنَّ الصُّرُوحَا^(١)

قال: ويقال: الصَّرْحُ بلاطٌ اتُّخِذَ لها من قوارير، وجُعِلَ تحتها ماءٌ وسَمَكٌ. قال مجاهد: كانت بركة من ماء ضرب عليها سليمان قوارير. وقال مقاتل: كان قصراً من قوارير بني على الماء وتحت السَّمَكِ.

قوله تعالى: ﴿حَبِطَتْ لُجَّةٌ﴾ وهي: معظم الماء ﴿وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾ لدخول الماء، فنادها سليمان ﴿إِنَّهُ صَرَحٌ مُرْدٌ﴾ أي: مملسٌ ﴿بَيْنَ قَوَارِيرٍ﴾ أي: من زجاج؛ فعلمتُ حينئذٍ أن ملكك سليمان من الله تعالى، فـ ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: بعبادة غيرك^(٢). وقيل: ظَلَمْتُ في سليمان أنه يريد تغريقها في الماء، فلما علمت أنه صَرَحٌ مُرْدٌ قالت: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي بذلك الظَّن، وأسلمتُ مع سليمان، ثم تزوجها سليمان. وقيل: إنه ردَّها إلى مملكتها وكان يزورها في كل شهر مرة ويقيم عندها ثلاثة أيام، وأنها ولدت منه. وقيل: إنه زَوَّجَهَا ببعض الملوك ولم يتزوجها هو^(٣).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾^(٤) قَالَ يَتَقَوَّرُونَ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَفْتُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٥) قَالُوا أَلَكُنَّا بِكَ وَمِنْ مَلَكٍ قَالَ طَعْنَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ فَتَنُونَ﴾^(٦) قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ﴾ أي: مؤمن وكافر ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه قولهم: ﴿أَتَمَلَّكَوْا أَنْتَ صَالِحًا تُرْسِلُ مِنْ رَبِّكَ...﴾ الآيات [الأعراف: ٧٥-٨٠]. والثاني: أنه قول كل فريق منهم: الحقُّ معي.

قوله تعالى: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ وذلك حين قالوا: إن كان ما أتينا به حقاً فاثبتنا بالعذاب. وفي السيئة

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في «ديوان الهذليين» ١٣٦/١، و«غريب القرآن» ٣٢٥، و«اللسان» و«التاج»: صرح.

(٢) قال ابن كثير في «التفسير»: والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصراً عظيماً متيناً من زجاج لهذه الملكة ليرىها عظمة سلطانه وتمكُّنه، فلما رأت ما أتاه الله وجلالة ما هو فيه، وتبصَّرت في أمره، انتقادت لأمر الله تعالى، وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، وأسلمت لله ﷻ وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله ﷻ ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ رَبِّ الْغَالِبِينَ﴾ أي: متابعة لدين سليمان في عبادة الله وحده لا شريك له الذي خلق كل شيء بقدره تقديراً. اهـ.

(٣) قال ابن كثير في «البداية والنهاية» ٢٤/٢ بعد أن ذكر القولين: والأول أشهر وأظهر. وقال الألويسي في «روح المعاني» ١٨٩/١٩: والمشهور أنه ﷻ تزوجها، وإليه ذهب جماعة من أهل الأخبار.

والحسنة قولان: أحدهما: أن السيئة: العذاب، والحسنة: الرحمة، قاله مجاهد. والثاني: [أن السيئة: البلاء، والحسنة: العافية، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿لَوْ لَا﴾ أي: هَلَّا ﴿سَتَفْتَرُونَ اللَّهَ﴾ من الشُّرك ﴿لَمَلَكْكُمْ تَرْحُومٌ﴾ فلا تعذبون. ﴿قَالُوا الْحَبْرَاءُ﴾ قال ابن قتبية: المعنى: تطيّرنا وتشاءمنا ﴿بِك﴾، فأدغمت التاء في الطاء، وأثبتت الألف، ليسلم السكون لِمَا بعدها. وقال الزجاج: الأصل: تطيّرنا، فأدغمت التاء في الطاء، واجتلبت الألف لسكون الطاء؛ فإذا ابتدأت قلت: أطيّرنا، وإذا وصلت لم تذكر الألف وتسقط لأنها أليف وصل، [وإنما] تطيّرنا به، لأنهم قحطوا وجاعوا، ف ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿طَيِّرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾، وقد شرحنا هذا المعنى في [الأعراف: ١٣١]. وفي قوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: تُخْتَبِرُونَ بالخير والشر، قاله ابن عباس. والثاني: تُصرفون عن دينكم، قاله الحسن. والثالث: تُبْلِغُونَ بالطاعة والمعصية، قاله قتادة.

﴿وَكَانَ فِي آلِإِبْرَاهِيمَ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصَلِّحُونَ﴾ ﴿١٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلَدِهِ مَا شَغَدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٩﴾ وَيَكُونُوا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَمَنْ لَا يَشْعُرْ ﴿٢٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢١﴾ فَبَالِكَ يُبْثِغُهُمْ غَاوِبَةً يَمَّا ظَلَمُوا لَكَ فِي ذَلِكَ لَأَكِيدَنَّ لِقَوْمٍ يُفْسِدُونَ ﴿٢٢﴾ وَأَنجَيْنَا آلَإِبْرَاهِيمَ فَاغْرَبُوا وَأَكْثَرُوا فَبُغِيتُوا ﴿٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي آلِإِبْرَاهِيمَ﴾ وهي الجحجر التي نزلها صالح ﴿رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يريد: في أرض الجحجر، وفسادهم: كفرهم ومعاصيهم، وكانوا يفسدون الدماء ويبيون على الأموال والفروج، وهم الذين عملوا في قتل الناقة. وروي عن سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح قالا: كان فسادهم كسر الدراهم والدنانير، ﴿قَالُوا﴾ فيما بينهم ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ احلفوا بالله ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ أي: لنقتلن صالحاً ﴿وَأَهْلَهُ﴾ ليلاً ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي: «لنبيته وأهله ثم لنقولن» بالتاء فيهما. وقرأ مجاهد، وأبو رجاء، وحמיד بن قيس: «لنبيته» بياء وتاء مرفوعتين «ثم لنقولن» بياء مفتوحة وقاف مرفوعة وواو ساكنة ولام مرفوعة ﴿لِوَلَدِهِ﴾ أي: لولي دمه إن سألنا عنه ﴿مَا شَغَدْنَا﴾ أي: ما حضرنا ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ قرأ الأكثرون بضم الميم وفتح اللام؛ والمهلك يجوز أن يكون مصدراً بمعنى الإهلاك، ويجوز أن يكون الموضع. وروى أبو بكر، وأبان عن عاصم: بفتح الميم واللام، يريد الهلاك؛ يقال: هلك يهلك مهلكاً. وروى عنه حفص، والمفضل: بفتح الميم وكسر اللام، وهو اسم المكان، على معنى: ما شهدنا موضع هلاكهم؛ فهذا كان مكرمهم، فجازاهم الله عليه فأهلكهم. وفي صفة إهلاكهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم أتوا دار صالح شاهرين سيوفهم، فرمتهن الملائكة بالحجارة فقتلتهن، [قاله ابن عباس. والثاني: رماهم الله بصخرة فقتلتهن، قاله قتادة]. والثالث: أنهم دخلوا غاراً ينتظرون مجيء صالح، فبعث الله صخرة سدّت باب الغار، قاله ابن زيد. والرابع: أنهم نزلوا في سفح جبل ينتظر بعضهم بعضاً ليأتوا دار صالح، فجثم عليهم الجبل فأهلكهم، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: «أنا دمرناهم» بفتح الألف. وقرأ الباقون بكسرهما. فمن كسر استأنف، ومن فتح، فقال أبو علي: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون بدلاً من ﴿عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾^(١). والثاني: أن يكون محمولاً على مبتدأ مضمّر، كأنه قال: هو أنا دمرناهم.

قوله تعالى: ﴿فَبَالِكَ يُبْثِغُهُمْ غَاوِبَةً﴾ قال الزجاج: هي منصوبة على الحال؛ المعنى: فانظر إلى بيوتهم خاوية. ﴿وَلَوْ كُنَّا إِذْ قَالُوا لَقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَتْحَةَ وَأَنْتُمْ تُبْعِرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ أَلَيْسَ لَأَيَّامِ شَهْوَىٰ مِنْ دُونِ الْحِسَابِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِفَهْمِكُمْ ﴿٢٥﴾ فَكَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِذْ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلَا لَوْ لَوْ لَوْ مِنْ قَرَبِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَظَاهِرُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِذْ أَمَرْنَاهُ فَدَرَسْنَا مِنَ الْغَيْبِ ﴿٢٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَتْحَةَ وَأَنْتُمْ تُبْعِرُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: وأنتم تعلمون أنها فاحشة. والثاني: وبعضكم يبصر بعضاً.

(١) في الأصل: عاقبة أمرهم.

فِي ظُلُمَاتٍ لَّيْلٍ وَالْبَحْرِ وَنَازِلٍ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَدْعُوا لِلْفَلَقِ نَذْرًا يُعِيدُهُمْ وَنَزَّلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ الْآلِثِينَ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُلْ لَا يَمْلِكُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْقَيْبُ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلَى أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ فِيهَا عَمَوْنَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَآئُنَا أُنْزِلُوا لِنُعْرَجُ إِلَىٰ رَبِّنَا قُلْ أَكْبَرُ مِنْكُمْ يَوْمَ الْبَعْثِ الْمُرْجُومِينَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَآؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدٌّ لَكُمْ بَعَثَ اللَّهُ الَّذِينَ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ رَجَعْتُمْ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٣﴾ وَلَئِنْ رَجَعْتُمْ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ عَلَاقَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾ وهو: المكروب المجهود؛ ﴿وَيَكْنِيفُ السُّورَةَ﴾ يعني الضَّرَّ^(١) ﴿وَيَجْمَعُ خُلُقَاتِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: يهلك قرناً وينشئ آخرين^(٢)، و﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بمعنى تتعظون. وقرأ أبو عمرو بالياء، والباقون بالثاء. ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ﴾ أي: يُرشدكم إلى مقاصدكم إذا سافرتُمْ ﴿فِي ظُلُمَاتٍ لَّيْلٍ وَالْبَحْرِ﴾ وقد بيَّناها في [الأنعام: ٦٣، ٩٧] وشرحنا ما يليها من الكلمات فيما مضى [الأعراف: ٥٧ ويونس: ٤] إلى قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿إَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: متى يبعثون بعد موتهم.

قوله تعالى: ﴿بَلَى أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿بَلْ أَذْرَكَ﴾ قال مجاهد: ﴿بَلْ﴾ بمعنى «أم»، والمعنى: لم يُذرك عِلْمُهُمْ، وقال الفراء: المعنى: هل أدرك عِلْمُهُمْ عِلْمَ الْآخِرَةِ؟ فعلى هذا يكون المعنى: إنهم لا يقفون في الدنيا على حقيقة العِلْمِ بِالْآخِرَةِ. وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي: ﴿بَلْ أَذْرَكَ﴾ على معنى: بل تدارك، أي: تابع وتلاحق، فأدغمت التاء في الدال. ثم في معناها قولان: أحدهما: بل تكامل عِلْمُهُمْ يوم القيامة لأنهم مبعوثون، قاله الزجاج. وقال ابن عباس: ما جهلوه في الدنيا، عليموه في الآخرة. والثاني: بل تدارك قُلُوبَهُمْ وَخَدَسَهُمْ فِي الْحُكْمِ عَلَى الْآخِرَةِ، فتارة يقولون: إنها كائنة، وتارة يقولون: لا تكون، قاله ابن قتيبة. وروى أبو بكر عن عاصم: ﴿بَلْ أَذْرَكَ﴾ على وزن افتعل من أدركت.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ أي: بل هم اليوم في شك من القيامة ﴿بَلْ هُمْ فِيهَا عَمَوْنَ﴾ قال ابن قتيبة: أي: من عِلْمِهَا. وما بعد هذا قد سبق بيانه [النمل: ١٢٧، المؤمنون: ٣٥، ٤٨] إلى قوله: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ يعنون: العذاب الذي تعدنا. ﴿قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدٌّ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: قُرْبٌ لَكُمْ. وقال ابن قتيبة: تَبَحُّكُمْ، واللام زائدة، كأنه قال: رَدِّكُمْ. وفي ما تبعمم ممَّا استعجلوه قولان: أحدهما: يوم بدر. والثاني: عذاب القبر.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ رَجَعْتُمْ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ قال مقاتل: على أهل مكة حين لا يعجل عليهم بالعذاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ رَجَعْتُمْ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ما تخفيه ﴿وَمَا يَحْشُرُونَ﴾ بالسنتهم من عداوتك وخلافك؛ والمعنى أنه يجازيهم عليه. ﴿وَمَا مِنْ عَلَاقَةٍ﴾ أي: وما من جملة غائبة، ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ يعني اللوح المحفوظ؛ والمعنى: إِنَّ عِلْمَ مَا يَسْتَعْجِلُونَهُ مِنَ الْعَذَابِ بَيِّنٌ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنْ غَابَ عَنِ الْخَلْقِ.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَتْلُوَنَّ عَلَٰنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿وَلَئِنْ رَجَعْتُمْ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي

(١) قال ابن كثير: بيَّنه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال تعالى: ﴿وَرَبَّنَا سَتَكُنُ الْمَثُورُ فِي الْبَيْتِ حَتَّىٰ تَقْرَأَ آيَاتَهُ﴾ وقال تعالى: ﴿فَتَرَىٰ أَنَّ سَتَكُنُ الْمَثُورُ فَكَيْفَ يَخْتَلِفُونَ﴾ وهكذا قال هاهنا: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِيَّاهُ﴾ أي: من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضرر المضروبين سواه؟.

(٢) قال ابن كثير: أي أمة بعد أمة وجيلاً بعد جيل وقوماً بعد قوم، ولو شاء لأوجدكم كلهم في وقت واحد ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، بل لو شاء لأخلفهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ولكن لا يبيت أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد، لكانت تطبيق عنهم الأرض وتضييق عليهم معاشهم وأكسابهم ويتضرر بعضهم ببعض، ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة، ثم يكثرهم غاية الكثرة ويذرهم في الأرض ويجعلهم قروناً بعد قرون وأماماً بعد أمم حتى ينفضي الأجل وتفرغ البرية، كما قدر ذلك تبارك وتعالى وكما أحصاهم وعُدَّهم عدداً، ثم يقيم القيامة ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله، ولهذا قال: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِيَّاهُ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

يَتَّبِعُهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْقَلِيلُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَ وَلَا تَسْمِعُ الْأَعْمَى إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِيَ السُّبْحِيِّ عَنْ صَلَاتِهِمْ إِنْ صَلَّيْتَهُمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴿٨٢﴾ وَلَئِنْ رَفَعَ الْقَوْلَ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَاذِبُونَ ﴿٨٣﴾

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَىٰ بَيِّنٍ مِّمَّا رُفِيَ﴾ وذلك أن أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم فصاروا أحزاباً يظعن بعضهم على بعض، فنزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه، فلو أخذوا به لسلموا. ﴿إِنَّ رَيْكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ يعني بين بني إسرائيل ﴿بِحُكْمِهِ﴾ وقرأ أبو المثل، وأبو عمران الجوني، وعاصم الجحدري: «بِحُكْمِهِ» بكسر الحاء وفتح الكاف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَ﴾ قال المفسرون: هذا مَثَلٌ ضربه الله للكفار فشبههم بالموتى.

قوله تعالى: ﴿لَا تَسْمِعُ الْأَعْمَى﴾ وقرأ ابن كثير: «ولا يَسْمَعُ الصُّمَّ» بفتح ميم «يَسْمَعُ»، وضم ميم «الصُّمَّ».

قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ أي: أن الصُّمَّ إذا أدبروا عنك ثم ناديتهم لم يسمعوا، فكذلك الكافر. ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِيَ السُّبْحِيِّ﴾ أي: [ما أنت] بمُرشد من أعماء الله عن الهدى، ﴿إِنْ تَسْمِعُ﴾ إسماع إفهام ﴿إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ رَفَعَ الْقَوْلَ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ «وقع» بمعنى «وجب». وفي المراد بالقول ثلاثة أقوال: أحدها: العذاب، قاله ابن عباس. والثاني: الغضب، قاله قتادة. والثالث: الحُجَّة، قاله ابن قتيبة. ومتى ذلك؟ فيه قولان: أحدهما: إذا لم يأمرؤا بمعروف، ولم ينهؤا عن منكر، قاله ابن عمر، وأبو سعيد الخدري. والثاني: إذا لم يُرجِ صلاحهم، حكاه أبو سليمان الدمشقي، وهو معنى قول أبي العالية. والإشارة بقوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ إلى الكفار الذين تخرج الدابة عليهم. وللمفسرين في صفة الدابة أربعة أقوال: أحدها: أنها ذات وبر وريش، رواه حذيفة بن اليمان عن رسول الله ﷺ^(١). وقال ابن عباس: ذات زغب وريش لها أربع قوائم. والثاني: أن رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن إيل^(٢)، وصدورها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هرة، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً، رواه ابن جريج عن أبي الزبير. والثالث: أن وجهها وجه رجل، وساثر خلقتها كخلق الطير، قاله وهب. والرابع: أن لها أربع قوائم وزغباً وريشاً وجناحين، قاله مقاتل. وفي المكان الذي تخرج منه خمسة أقوال: أحدها: من الصفا. روى حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ [أنه] قال: «بينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون، تضطرب الأرض تحتهم، وينشق الصفا ممناً يلي المسمى، وتخرج الدابة من الصفا، أول ما يبدو منها رأسها، ملثمعة ذات وبر وريش، لن يدرکہا طالب، ولن يفوتها هارب»^(٣). وفي حديث آخر عن النبي ﷺ أنه قال: «طولها ستون ذراعاً»^(٤)، وكذلك قال ابن مسعود: تخرج من الصفا. وقال ابن عمر: تخرج من صدع في الصفا كجري الفرس ثلاثة أيام وما خرج ثلثها. وقال عبد الله بن عمر: تخرج الدابة فيمَسُّ رأسها السحاب ويرجلاها في الأرض ما خرجتا. والثاني: أنها تخرج من شُعب أجباد، روي عن النبي ﷺ^(٥)، وعن ابن عمر مثله. والثالث: تخرج من بعض أودية تهامة، قاله ابن عباس. والرابع: من بحر سدوم، قاله وهب بن منبه. والخامس: أنها تخرج بتهامة بين الصفا والمروة، حكاه الزجاج. وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «تخرج الدابة معها خاتم سليمان، وعصا موسى، فتجלו وجه المؤمن بالعصا وتحطم أنف الكافر بالخاتم، حتى إن أهل البيت ليجتمعون، فيقول هذا: يا مؤمن، ويقول هذا: يا كافر»^(٦). وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «تسيم المؤمن بين عينيه وتكتب بين عينيه: مؤمن، وتسيم الكافر

(١) «الطبري» ١٥/٢٠، قال ابن كثير: ورواه ابن جرير من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعاً، وأن ذلك في زمن عيسى ابن مريم وهو يطوف بالبيت، ثم قال: وإسناده لا يصح.

(٢) بكسر الهمزة وضمها: ذكر الأرواح.

(٣) هو الحديث الذي تقدم من رواية ابن جرير الطبري الذي قال فيه ابن كثير: إسناده لا يصح.

(٤) ذكره الطبرسي في «مجمع البيان» عن حذيفة مرفوعاً ولم يذكر من رواه، والله أعلم.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر» ١١٧/٥ من رواية ابن مردويه، والبيهقي في «البعث» عن أبي هريرة.

(٦) رواه الطبري: ١٥/٢٠ وفي سننه علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. ورواه الترمذي ١٥٠/٢ وحسنه، وذكره السيوطي في «الدر» ١١٦/٥ وزاد نسبه لأحمد، وأبي داود الطيالسي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث» عن أبي هريرة.

قوله تعالى: ﴿فَنَزَعْنَا مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [قال المفسرون: المعنى: فيفزع مَنْ في السموات ومن في الأرض]، والمراد أنهم ماتوا، بلغ بهم الفزع إلى الموت. وفي قوله: ﴿لَا مَنْ شَكَاهُ اللَّهُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم الشهداء، قاله أبو هريرة، وابن عباس، وسعيد بن جبير. والثاني: جبريل وميكائيل وإسرافيل ومَلَك الموت، ثم إن الله تعالى يميّتهم بعد ذلك، قاله مقاتل. والثالث: أنهم الذين في الجنة من الحور وغيرهن، وكذلك مَنْ في النار، لأنهم مخلوقوا للبقاء، ذكره أبو إسحاق ابن شاقلا من أصحابنا^(١).

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ﴾ أي: من الأحياء الذين ماتوا ثم أحيوا «آتَوْهُ» وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: «آتَوْهُ» بفتح التاء مقصورة، أي: يأتون الله يوم القيامة «ذَخِيرِينَ» قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: صاغرين. قال أبو عبيدة: «كُلُّ» لفظه لفظ الواحد، ومعناه يقع على الجميع، فهذه الآية في موضع جمع.

قوله تعالى: ﴿وَوَرَى الْجِبَالِ﴾ قال ابن قتيبة: هذا يكون إذا نُفخ في الصور، تُجَمَّعُ الجبالُ وتُسَيَّرُ، فهي لكثرتها تُحَسَّبُ «جَاوِدَةً» أي: واقفة «وَبَوَى تَمَرٌ» أي: تسير سير السحاب، وكذلك كُلُّ جيش عظيم يحسبه الناظر من بعيد واقفاً وهو يسير، لكثرتِه، قال الجعدي يصف جيشاً:

بِأَرْعَنَ مِثْلَ الطَّلُودِ تَحْسَبُ أَنَّهُمْ
وُقُوفٌ لِحَاجِ الرُّكَّابِ تَهْمِلُجُ^(٢)
قوله تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ قال الزجاج: هو منصوب على المصدر، لأن قوله: ﴿وَوَرَى الْجِبَالِ تَحْسَبُ جَاوِدَةً﴾ دليل على الصنعة، فكأنه قال: صنع الله ذلك صنعاً، ويجوز الرفع على معنى: ذلك صُنْعُ الله. فاما الإتيان، فهو في اللغة: إحكام الشيء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: «يفعلون» بالياء. وقرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي بالتاء.

قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ قد شرحنا الحسنة والسيئة في آخر [الأنعام: ١٦٠].

قوله تعالى: ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ فيه قولان: أحدهما: فله خير منها يصل إليه، وهو الثواب، قاله ابن عباس، والحسن، وعكرمة. والثاني: فله أفضل منها، لأنه يأتي بحسنة فيعطى عشر أمثالها، قاله زيد بن أسلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ تَنَزَّلَ بِرَبِّكَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «مِنْ قَرْعٍ يَوْمِيذٍ» مضافاً. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: «مِنْ قَرْعٍ» بالتثنية «يومئذٍ» بفتح الميم. وقال الفراء: الإضافة أعجب إليّ في العربية، لأنه فزع معلوم، ألا ترى إلى قوله: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] فصيّره معرفة، فإذا أضفت مكان المعرفة كان أحب إليّ. واختار أبو عبيدة قراءة التثنية وقال: هي أعمُّ التأويلين، فيكون الأمن من جميع فزع ذلك اليوم. قال أبو علي الفارسي: إذا تَوَّنَ جاز أن يُعْنَى به فَزَعٌ واحدٌ، وجاز أن يُعْنَى به الكثرة، لأنه مصدر، والمصادر تدل على الكثرة وإن كانت مفردة الألفاظ، كقوله: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ اللَّعِيرِ﴾ [الفان: ١٩]، وكذلك إذا أضيف جاز أن يُعْنَى به فزع واحد، وجاز أن يُعْنَى به الكثرة؛ وعلى هذا القول، القراءتان سواء، فإن أريد به الكثرة، فهو شامل لكل فزع يكون يوم القيامة، وإن أريد به الواحد، فهو المشار إليه بقوله: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. وقال ابن السائب: إذا أطبقت النَّارُ على أهلها فَرَعُوا فَرَعَةً لم يفرعوا مثلها، وأهل الجنة آمنون من ذلك الفزع.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالْإِثْمِ﴾ قال المفسرون: هي الشُّرْكُ «فَكَتَبُ وَبُيُوتُهُمْ» يقال: كَتَبْتُ الرجل: إذا ألقى له روجه؛ وتقول لهم خزنة جهنم: «هَلْ تُجْزَوْنَكَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أي: إلا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا من الشُّرْكِ.

﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّكَ هَٰذَا بَلَدَةَ اللَّهِ حَرَمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عمر بن حمدان بن شاقلا البزار الحنبلي المتوفى (٣٦٩ هـ) ترجمته في «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى ١٢٨/٢.

(٢) البيت للناطقة الجعدي. وهو في «مشكل القرآن» ٥، و«الطبري» ٢١/٢٠، و«مجمع البيان» ٢٥٧/٢٠، و«القرطبي» ٢٤٢/١٣، و«البحر» ١٠٠/٧.

أَهْتَدَىٰ فَلَمَّا يَتَذَكَّرُ لِقَائِهِ يُعْذِرُ ﴿٩٢﴾ وَمَا رَأَىٰ مِنْ آلِ الْكَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَقُلْ لِّلْمُشْرِكِينَ قُلُوبُهُمْ مُّصْرِفَةٌ وَأَعْيُنُهُمْ كُمْرٌ يُّغْشَىٰ ۖ فَمِثْلُ شِرْبٍ مُّحْمَرٍّ ۚ وَهُمْ يُنْفِقُونَ ۖ فَمِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَدَّسُوا لَهُمْ دَارَهُمْ وَآلَهُمْ فَهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٩٤﴾ وَقُلْ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ لَكُمْ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَكُمْ كَلِمَةً ۚ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ نهارًا وَلاَّ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٩٥﴾ وَقُلْ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ لَكُمْ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَكُمْ كَلِمَةً ۚ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ نهارًا وَلاَّ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ لَكُمْ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَكُمْ كَلِمَةً ۚ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ نهارًا وَلاَّ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٩٧﴾

مسعود، وأبو عمران الجوني: «التي حرّمها»، وهي مكة، وتحريمها: تعظيم حرمتها بالمنع من القتل فيها والسبي والكف عن صيدها وشجرها^(١)، «وَلَا تَرَوْا كَلِمَةً تُخْرَجُ» لأنه خالقه ومالكه، «وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» أي: من المخلصين لله بالترديد، «وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ» عليكم «فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَلَمَّا يَتَذَكَّرُ لِقَائِهِ يُعْذِرُ» أي: فله ثواب اهتدائه «وَمَنْ ضَلَّ» أي: أخطأ [طريق] الهدى «فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ» أي: ليس عليّ إلا البلاغ؛ وذكر المفسرون أن هذا منسوخ بآية السيف. «وَقُلْ لِّلْمُتَدَبِّرِينَ» أي: قُلْ لِمَنْ ضَلَّ: الحمد لله الذي وقّنا لقبول ما امتنعتم منه «سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ نهارًا». ومتى يريهم؟ فيه قولان: أحدهما: في الدنيا. ثم فيها^(٢) ثلاثة أقوال: أحدها: أن منها الدخان وانشقاق القمر، وقد أراهم ذلك، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: سيّركم آياته [فتعرفونها]^(٣) في السماء، وفي أنفسكم، وفي الرُّزق، قاله مجاهد. والثالث: القتل بيد، قاله مقاتل. والثاني: سيّركم آياته في الآخرة فتعرفونها على ما قال في الدنيا، قاله الحسن.

قوله تعالى: «وَمَا رَأَىٰ مِنْ آلِ الْكَافِرِينَ» وقرا نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «تعملون» بالتاء، على معنى: قل لهم. وقرا الباقون بالياء، على أنه، وعيد لهم بالجزاء على أعمالهم.



(١) قال ابن كثير: وقوله: «وَمَا رَأَىٰ مِنْ آلِ الْكَافِرِينَ» أي: الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدراً بتحريمه لها، كما ثبت في «الصحاحين» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا يضر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من حرّمها، ولا يخلط خلاها...» الحديث بتمامه. اهـ. وهو في «البخاري» ٤٢/٤، و«مسلم» ٩٨٦/٢. ومعنى «لا يعضد»: لا يقطع، وقوله: «ولا يخلط خلاها» الخلا: الرطب من النبات، واختلاؤه: قطعه واحتشاشه.

(٢) أي: الآيات.

(٣) زيادة من الطبري.

(٤) قال ابن جرير الطبري: وقوله: «وَمَا رَأَىٰ مِنْ آلِ الْكَافِرِينَ» يقول تعالى ذكره: وما رأى يا محمد بغافل عما يعمل هؤلاء المشركون، ولكن لهم أجل هم بالفوز، فإذا بلغوه فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، قال: يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: فلا يحزنك تكذيبهم إياك، فأنى من وراء إهلاكهم، وإنى لهم بالمرصاد، فأيقن لنفسك بالنصر، ولعلوك بالذل والخزي. اهـ.

خافت عليه صنعت له الثابوت^(١). وفي قوله: ﴿إِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ قولان: أحدهما: إذا خِفْتِ عليه القتل، قاله مقاتل. والثاني: إذا خِفْتِ [عليه] أن يصيح أو يبيكي فيسمع صوته، قاله: ابن السائب. وفي قوله: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ قولان: أحدهما: أن يغرق، قاله ابن السائب. والثاني: أن يضيع، قاله مقاتل^(٢). وقال الأصمعي: قلت لأعرابية: ما أفصحك! فقالت: أربعد هذه الآية فصاحة وهي قوله: ﴿وَأَوْحِيَا إِلَيْكَ أُرْمُوهَا أَنْ أَرْضِيَهُ إِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَكَأَنَّهُ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ جمع فيها بين أمرين ونهيين وخبرين ويشارتين؟!

قوله تعالى: ﴿فَالْتَفَتَهُ الْمَلِكُ مِنْ مَقْعَدِهِ﴾ الالتقاط: إصابة الشيء من غير طلب. والمراد بآل فرعون: الذين تولوا أخذ الثابوت من البحر. وفي الذين التقطوه ثلاثة أقوال: أحدها: جوارى امرأة فرعون، قاله السدي. والثاني: ابنة فرعون، قاله محمد بن قيس. والثالث: أعوان فرعون، قاله ابن إسحاق.

قوله تعالى: ﴿يَكُونُ لَهُمْ عَذَابٌ﴾ أي: ليصير بهم الأمر إلى ذلك، لا أنهم أخذوه لهذا، وهذه اللام تسمى لام العاقبة، وقد شرحناها في [يرسن: ٨٨]. وللمفسرين في معنى الكلام قولان: أحدهما: ليكون لهم عَذَابٌ في دينهم وعَذَابٌ لِمَا يصنعهم بهم. والثاني: عَذَابٌ لرجالهم وعَذَابٌ على نسائهم، فقتل الرجال بالغرق، واستعبد النساء. ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ يُزُورُ﴾ وهي آسية بنت مزاحم، وكانت من بني إسرائيل تزوجها فرعون: ﴿فَرَأَتْهُ عَيْنٌ﴾ قال الزجاج: رفع ﴿فَرَأَتْهُ عَيْنٌ﴾ على إضمار «هو». قال المفسرون: كان فرعون لا يولد له إلا البنات، فقالت: ﴿عَيْنٌ أَنْ يَنْفَعَنِي﴾ فنصيب منه خيراً ﴿أَوْ تَنْجِزَهُمْ وَلَكَّا﴾، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: لا يشعرون أنه عَذَابٌ لهم، قاله مجاهد. والثاني: أن هلاكهم على يديه، قاله قتادة. والثالث: لا يشعر بنو إسرائيل أننا التقطنا، قاله محمد بن قيس. والرابع: لا يشعرون أي فعل ما أريد لا ما يريدون، قاله محمد ابن إسحاق^(٣).

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ قَرِيحًا﴾ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَظُنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْهُ عَنْ حُجُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ نَصِيحَةٌ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أَبِيهِ كَمَا نَقَرْنَا عَلَيْهِمْ وَلَا تَشْعُرُونَ وَلِتَسَلَكَ أَكْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْرَهَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٣﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ قَرِيحًا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقاتدة، والضحاك. والثاني: أصبح فؤادها قزعاً، رواه الضحاك عن ابن عباس، وهي قراءة أبي رزين، وأبي العالية، والضحاك، وقاتدة، وعاصم الجحدري، فإنهم قرؤوا: ﴿قَزَعًا﴾ بزي معجمة. والثالث: فارغاً من وحينا بنسيانه، قاله الحسن، وابن زيد. والرابع: فارغاً من الحزن، لعلها أنه لم يقتل، قاله أبو عبيدة. قال ابن قتيبة: وهذا من أعجب التفسير، كيف يكون كذلك والله يقول: ﴿لَوْلَا أَنْ رَظُنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾؟! وهل يُرَبِّطُ إلّا على قلب الجازع المحزون؟!

قوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ في هذه الهاء قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى موسى. ومتى أرادت هذا؟ فيه ثلاثة أقوال. أحدها: أنه حين فارقتة؛ روى سعيد بن جبير عن ابن عباس [أنه] قال: كادت تقول: يا بُنَيَّاه. قال قتادة: وذلك من شدة وجدها. والثاني: حين حُمِلَتْ لِرَضَاعِهِ ثم كادت تقول: هو ابني، قاله السدي. والثالث: أنه لما كَبُرَ وَسَمِعَتِ النَّاسَ يَقُولُونَ: موسى بن فرعون، كادت تقول: لا بل هو ابني، قاله ابن السائب. والقول الثاني: أنها ترجع إلى الوحي؛ والمعنى: إن كادت لَتُبْدِيَ بالوحي، حكاه ابن جرير.

(١) وألفته في اليم - أي البحر - وهو النيل. قال ابن جرير الطبري: وأولى قول قيل في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أمر أم موسى أن ترضعه، فإذا خافت عليه من عدو الله فرعون وجننه، أن تلقى في اليم، وجاز أن تكون خافتهم عليه بعد أشهر من ولادها بإياه، وأي ذلك كان، فقد فعلت ما أوحى الله إليها فيه، ولا خير قامت به حجة، ولا فطرة في العقل لبیان أي ذلك كان من أي، فأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال كما قال جل ثناؤه. قال: واليم الذي أمرت أن تلقيه فيه هو النيل. اهـ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ يقول: لا تخافي على ولدك من فرعون وجنده أن يقتلوه، ولا تحزني لفراقه.

(٣) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك قول من قال: معنى ذلك: وفرعون وأهله لا يشعرون بما هو كائن من هلاكهم على يديه.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا أَنْ رَّبَّنَا عَلَيَّ قَلْبًا﴾ قال الزجاج: المعنى: لولا ربطنا على قلبها، والربط: إلهام الصبر وتشديد القلب وتقويته.

قوله تعالى: ﴿يَكُونُ مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾ أي: من المُضِلِّينَ بوعده الله. ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيْهِ﴾ قال ابن عباس: قصي أثره وأطليه هل تسمعين له ذكراً، [أي]: أحيى هو، أو قد أكلته الدواب؟ ونسيت الذي وعدنا الله فيه. وقال وهب: إنما قالت لأخته: قصيهِ، لأنها سمعت أن فرعون قد أصاب صبيّاً في تابوت. قال مقاتل: واسم أخته: مريم. قال ابن قتيبة: ومعنى «قُصِّيهِ»: قُصِّيْ أثره واتبعيه «فَصَصَّرَتْ يَدَهُ عَنْ جُنْبٍ» أي: عن بُغْيٍ منها عنه وإعراض، لئلا يُفْطِنُوا، والمجانبة من هذا. وقرأ أبي بن كعب، وأبو مجلز: «عَنْ جَنَابٍ» بفتح الجيم والتون وبألف بعدهما. وقرأ ابن مسعود، وأبو عمران الجوني: «عَنْ جَنَابٍ» بفتح الجيم وكسر التون وبينهما ألف. وقرأ قتادة، وأبو العالية، وعاصم الجحدري: «عَنْ جُنْبٍ» بفتح الجيم وإسكان التون من غير ألف.

قوله تعالى: ﴿وَقُمْ لَا يَتَمَرَّضُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: وهم لا يشعرون أنه عدو لهم، قاله مجاهد. والثاني: لا يشعرون أنها أخته، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿وَرَحِمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَضِينَ﴾ وهي جمع مُرَضِعٍ «مِنْ قَبْلِ» أي: مِنْ قَبْلِ أَنْ تُرُدَّهُ عَلَى أُمِّهِ، وهذا تحريم منع، لا تحريم شرع. قال المفسرون: بقي ثمانية أيام ولياليهن، كلما أتى بمُرَضِعٍ لم يُقبل ثديها، فاهتمهم ذلك واشتد عليهم «فَقَالَتْ» لهم أخته: «هَلْ أَتَاكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتِكُمْ يَكْتُمُونَ لَكُمْ» فقالوا لها: نعم، مَنْ تلك؟ فقالت: أُمِّي، قالوا: وهل لها لبن؟ قالت: لبن هارون. فلما جاءت قَبِلَ ثديها. وقيل: إنها لما قالت: ﴿وَقُمْ لَمْ تَصِيحُوا﴾ قالوا: لعلك تعرفين أهله، قالت: لا، ولكني إنما قلت: وهم للملك ناصحون.

قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ﴾ قد شرحناه في [طه: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا عَلِمَ أَنَّ رَدَّهَا لِلَّهِ﴾ وهذا علم حيان ومشاهدة «وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» أن الله وعدنا أن يرده إليها.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَوَحَّلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ جِبْنٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ مُوْسَىٰ فَاسْتَنَتْهُ أَلْوَىٰ مِنْ شِيعَتِهِ عَلَىٰ أَلْوَىٰ مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوْسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَلِيٍّ الْكَلْبِيِّ لَمْ يَدُؤْ شَيْئًا مِّنْ رَبِّ إِيَّايَ فَلَمَّا تَقَرَّرْتُ نَفْسِي فَأَغْفِرَ لِي فَقَفَرْتُ لَكَ إِسْكَرَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَتَمَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ قد فسرنا هذه الآية في سورة [يوسف: ٢٢]، وكلام المفسرين في لفظ الآيتين متقارب، إلا أنهم فرقوا بين بلوغ الأشد وبين الاستواء؛ فأما بلوغ الأشد، فقد سلف بيانه [الأنعام: ١٥٢]. وفي مدة الاستواء لهم قولان: أحدهما: أنه أربعون سنة، قاله مجاهد، وقطادة، وابن زيد. والثاني: ستون سنة، ذكره ابن جرير. قال المفسرون: مكث عند أمه حتى فطمته، ثم رُدَّته إليهم، فنشأ في حجر فرعون وامراته واتخذاه ولداً.

قوله تعالى: ﴿وَوَحَّلَ الْمَدِينَةَ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها مصر. والثاني: مدينة بالقرب من مصر. قال السدي: ركب فرعون يوماً وليس عنده موسى، فلما جاء موسى ركب في إثره فأدركه المَقِيلُ في تلك المدينة. وقال غيره: لما توهم فرعون في موسى أنه عدوُّه أمر بإخراجه من مدينته، فلم يدخل إلا بعد أن تجر، فدخلها يوماً «عَلَىٰ جِبْنٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا» وفي ذلك الوقت أربعة أقوال: أحدها: أنه كان يوم عيد لهم، وكانوا قد اشتغلوا فيه بلهوهم، قاله عليٌّ عليه السلام. والثاني: أنه دخل نصف النهار، رآه جماعة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير. والثالث: بين المغرب والعشاء، قاله وهب بن منبه. والرابع: أنهم لما أخرجوه لم يدخل عليهم حتى تجر، فدخل على حين غفلة عن ذكره، لأنه قد نسي أمره، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ﴾ أي: من أصحابه من بني إسرائيل «وَكَلَّمَاهُ مَوْسَىٰ» أي: من أعدائه من القبط، والعدو يُذكر للواحد وللجمع. قال الزجاج: وإنما قيل في الغائب: «هَٰذَا» و«هَٰذَا»، على جهة الحكاية للحضرة؛

والمعنى: أنه إذا نظر إليهما الناظر قال: هذا من شيعته، وهذا من عدوه. قال المفسرون: وإن القبطي كان قد سحر الإسرائيلي أن يحمل حطباً إلى مطبخ فرعون ﴿فَانْتَفَتَهُ﴾ أي: فاستنصره، ﴿فَوَكَزَهُ﴾ قال الزجاج: الوَكَزَ: أن يضربه بجميع كفه^(١). وقال ابن قتيبة: «فوكزه» أي: لكزّه، يقال: وكزته وكزته ولهزته: إذا دفنته، ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ أي: قتله؛ وكل شيء فرغت منه فقد قضيته وقضيت عليه. وللمفسرين فيما وكزه به قولان: أحدهما: كفه، قاله مجاهد. والثاني: عصله، قاله قتادة. فلما مات القبطي ندم موسى لأنه لم يرد قتله، ﴿وَقَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: هو الذي هيج غضبي حتى ضربت هذا، ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ لِابْنِ آدَمَ﴾ ﴿ثُمَّ يَلِ﴾ له ﴿ثُمَّ يَلِ﴾: عادوته. ثم استغفر في ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: بقتل هذا، ولا ينبغي لربي أن يقتل حتى يؤمر. ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَتَمَمْتُ عَلَىِّ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ ﴿فَلَنْ أَكُونُ ظَاهِرًا لِلْعَاجِزِينَ﴾ قال ابن عباس: عوناً للكافرين. وهذا يدل على أن الإسرائيلي الذي أعانه موسى كان كافراً.

﴿فَأَمْسَحَ فِي اللَّيْلَةِ حَافِيًا يَرْجُوْهُ فَلَمَّا أَلَى اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبَاطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَى أَخِيدُ أَتُحَدِّثُنِي أَنَّ قَتَلْتَنِي﴾ ﴿١٩﴾ ﴿كَلَّا قَتَلْتُ نَفْسًا وَالْآخَرِينَ إِن تَزِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُزِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ مِنَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْسَا اللَّيْلِئَةِ يَمْوَسَى قَالَ يَمْوَسَى إِنَّكَ أَلَمَّا يَأْتِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَىٰ لَكَ مِنَ الْقُصُوبِ﴾ ﴿٢١﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَمْسَحَ فِي اللَّيْلَةِ﴾ وهي التي قتل بها القبطي ﴿حَافِيًا﴾ على نفسه ﴿يَرْجُوْهُ﴾ أي: ينتظر سوءاً يتاله منهم ويخاف أن يقتل به ﴿فَلَمَّا أَلَى اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ﴾ وهو الإسرائيلي ﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي: يستغيث به على قبطي آخر أراد أن يسخره أيضاً ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى﴾ في هاه الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى القبطي. والثاني: إلى الإسرائيلي، وهو أصح. فعلى الأول يكون المعنى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ﴾ بتسخيرك وظلمك. وعلى الثاني فيه قولان: أحدهما: أن يكون الغوي بمعنى المغوي، كالأليم والوجيع بمعنى المؤلم والموجع؛ والمعنى: إنك لمُضِلٌّ حين قتلت بالأمس رجلاً بسببك، وتذعنوني اليوم إلى آخر. والثاني: أن يكون الغوي بمعنى الغاوي؛ والمعنى: إنك غاوي في قتالك من لا تطيق دفع شره عنك.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبَاطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ أي: بالقبطي ﴿قَالَ يَمْوَسَى﴾ هذا قول الإسرائيلي من غير خلاف علمناه بين المفسرين؛ قالوا: لما رأى الإسرائيلي غضب موسى عليه حين قال [له]: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ورآه قد هم أن يبطش بالفرعوني، ظن أنه يريد فخاف على نفسه في ﴿قَالَ يَمْوَسَى أَخِيدُ أَتُحَدِّثُنِي أَنَّ قَتَلْتَنِي﴾ وكان قوم فرعون لم يعلموا من قاتل القبطي، إلا أنهم اتوا إلى فرعون فقالوا: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً منا فخذ لنا بحقنا، فقال: ابغوني قاتله ومن يشهد عليه لأخذ لكم حَقَّكم، فبينما هم يطوفون ولا يدرون من القاتل، وقعت هذه الخصومة بين الإسرائيلي والقبطي في اليوم الثاني، فلما قال الإسرائيلي لموسى: ﴿أَتُحَدِّثُنِي أَنَّ قَتَلْتَنِي﴾ ﴿كَلَّا قَتَلْتُ نَفْسًا وَالْآخَرِينَ﴾ انطلق القبطي إلى فرعون فأخبره أن موسى هو الذي قتل الرجل، فأمر بقتل موسى، فعلم بذلك رجل من شيعته موسى فأتاه فأخبره، فذلك قوله: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْسَا اللَّيْلِئَةِ يَمْوَسَى﴾. فأما الجبار، فقال السدي: هو القتال، وقد شرحناه في [مرد: ٥٩]، وأقصى المدينة: آخرها وأبعدها، ويسعى، بمعنى يسرع. قال ابن عباس: وهذا الرجل هو مؤمن آل فرعون، وسيأتي الخلاف في اسمه في سورة [المومن: ٢٨]. فأما الملا، فهم الرجوه من الناس والأشراف. وفي قوله: ﴿يَأْتِرُونَ بِكَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: يتشاورون فيك ليقتلوك، قاله أبو عبيدة. والثاني: يهْمُونَ بك، قاله ابن قتيبة. والثالث: يأمر بعضهم بعضاً بقتلك، قاله الزجاج.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿وَلَمَّا رَوَّاهُ مَاءٌ مَدِينَةٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْتَأْذِنُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَئِيءَ شَيْءٍ مُصْدِرَ الرَّجَاءِ وَأَبُوءَا شَيْعَ كَبِيرٍ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿سَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿فَجَاءَهُ إِحْدَهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْبَآءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَتِىَ بِكَ لِيَجْعَلَكَ أَجْرٌ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُمْ وَقَفَّ عَلَيْهِ الْقَصَصُ قَالَ لَا تَخَفْ جَعَلَتْ مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَهُمَا يَأْتِيَنَّكَ اسْتَجِرَّةٌ إِنَّكِ خَيْرٌ مِنَ اسْتَجِرَّتِ الْقَوِيُّ الْأَيُّمُ﴾ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ

(١) كذا الأصل، والذي في «اللسان» عن الزجاج: الوَكَزَ: أن يضرب بجمع كفه، وهو كذلك في كتب اللغة.

إِذْ قَالَ ابْنُ قُرَيْشٍ لِهَؤُلَاءِ مَنْ تَجَرَّبُ نَحْنُ جَمِيعٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَحِينَ عِنْدَكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَجِدْتُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّلَاحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيُّهَا الْأَجْلَلِينَ فَصَبَّحْتَ فَلَا عُدْرَةَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ بَيْنَهُ﴾ أي: من مصر ﴿عَائِلًا﴾ وقد مضى تفسيره [القصاص: ٢١٨].

قوله تعالى: ﴿يَحْيَىٰ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني المشركين أهل مصر. ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ بِلِقَاءِ رَبِّهِ﴾ قال ابن قتيبة: أي: تَجَاهَ مَذِينٍ وَنَحْوَهَا، وأصله: اللِّقَاءُ، وزيدت فيه التاء، قال الشاعر:

[أَمَلْتُ خَيْرَكَ هَلْ تَأْتِي مَوَاعِدُهُ] فاليوم قَصَّرَ عَنْ تِلْقَائِكَ الْأَمَلُ^(١)

أي: عن لقائك. قال المفسرون: خرج خائفًا بغير زاد ولا ظَهْر^(٢)، وكان بين مصر ومَذِين مسيرة ثمانية أيام، ولم يكن له بالطريق عِلْمٌ، فـ ﴿قَالَ عَمَّا رَبِّتَ أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ النَّبِيلِ﴾ أي: قَصَّده. قال ابن عباس: لم يكن له عِلْمٌ بالطريق إِلَّا حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ. وقال السدي: بعث الله له ملكًا فدلَّه، قالوا: ولم يكن له في طريقه طعام إلا ورق الشجر، فورد ماء مَذِينٍ وَخَضِرَةُ الْبَقْلِ تَتَرَاءَى فِي بَطْنِهِ مِنَ الْهَزَالِ؛ وَالْأُمَّةُ: الجماعة، وهم الرعاة، ﴿يَسْقُونَ﴾ مواشيمهم ﴿وَيَجْعَدُونَ دُونَهُمْ﴾ أي: مِنْ سِوَى الْأُمَّةِ ﴿أَمْرَاتَيْنِ﴾ وهما ابنتا شعيب؛ قال مقاتل: واسم الكبرى: صبوراً^(٣) والصغرى: عبراً ﴿تُدَوِّكَيْنِ﴾ قال ابن قتيبة: أي: تَكْفُفَانِ غَنَمَهُمَا، فحذف الغنم اختصاراً. قال المفسرون: وإنما قَعَلْنَا ذَلِكَ لِيَفْرُغَ النَّاسُ وَتَخْلُوَ لَهُمَا الْبِثْرُ، قال موسى: ﴿مَا خَطْبُكُمَا؟﴾ أي: ما شأنكما لا تسقيان؟ ﴿قَالَتَا لَا شَيْءَ﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبو الجوزاء، وابن يعمر، وابن السميع: ﴿لَا نَسْقِي﴾ برفع النون ﴿حَتَّىٰ يَمْدُدَ إِلَيْنَا﴾ وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر: ﴿يُضِلُّنَا﴾ بفتح الياء وضم الدال، أي: حتى يرجع الرعاة. وقرأ الباقر: ﴿يُضِلُّنَا﴾ بضم الياء وكسر الدال، أرادوا: حتى يَزِدُوا الرعاة غنمهم عن الماء. والرعاة: جمع راعٍ، كما يقال: صاحب وصحاب. وقرأ عكرمة، وسعيد بن جبير، وابن يعمر، وعاصم الجحدري: ﴿الرَّعَاءُ﴾ بضم الراء، والمعنى: نحن امرأتان لا نستطيع أن نزاحم الرجال ﴿وَأَبْرَأَنَا شَيْعَ كَيْبَرٍ﴾ لا يَقْدِرُ أَنْ يَشْقِيَ مَا شِئْتَهُ مِنَ الْكَيْبَرِ؛ فَلِذَلِكَ اخْتَجَجْنَا نَحْنُ إِلَى أَنْ نَسْقِيَ، وكان على تلك البئر صخرة عظيمة، فإذا فرغ الرعاة مِنْ سَقْيِهِمْ أعادوا الصخرة، فتأتي المرأتان إلى فضول حياض الرعاة فتسقيان غنمهما. ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ موسى. وفي صفة ما صنع قولان: أحدهما: أنه ذهب إلى بئر أخرى عليها صخرة لا يقتلعها إلا جماعة من الناس، فاقطلعها وسقى لها، قاله عمر بن الخطاب^(٤)، وشريح. والثاني: أنه زاحم القوم على الماء، وسقى لها، قاله ابن إسحاق، والمعنى: سقى غنمهما لأجلهما. ﴿ثُمَّ تَوَجَّهَ﴾ أي: انصرف ﴿إِلَى الْكَلْبِ﴾ وهو ظل شجرة ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَكَلْتُ مِنَ الْغَلَامِ بِمَعْنَى إِلَى، فتقديره: إِنِّي إِلَى مَا أَتَزَلْتُ إِلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ قَبِيرٍ﴾ وأراد بالخير: الطعام^(٥). وحكى ابن جرير أنه أسمع المرأتين هذا الكلام تعريضاً أَنْ تَطْعِمَاهُ. ﴿فَلَمَّا أَتَتْهُمَا ابْنَتُهُمَا﴾ المعنى: فلما شربَتْ غَنَمُهُمَا رَجَعَتَا إِلَى أَبِيهِمَا فَأخبرتاه خبر موسى، فبعث إحداهما تدعو موسى. وفيها قولان: أحدهما: الصغرى. والثاني: الكبرى. فجاءته ﴿تَتَشَىٰ عَلَىٰ آسَتَيْكَو﴾ قد سترت وجهها بِكُمٍ دَرَعَهَا. وفي سبب استحياها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان من صفتها الحياء، فهي تمشي مشي مَنْ لَمْ يَعْتَدِ الْخُرُوجَ وَالْدُخُولَ. والثاني: لأنها دعت له لتكافئه، وكان الأجمل عندها أَنْ تدعوه من غير مكافأة. والثالث: لأنها رسول أبيها.

(١) البيت للراعي النعمري، وهو في «غريب القرآن» ٣٣١، و«الصالح» و«اللسان» و«التاج»: لقي.

(٢) الظَّهْر: الدابة التي يُرَكَّبُ ظهرها من جمل ونحوه.

(٣) في الألويسي: صفوراء، وقيل: صفوريا. وفي «الكشاف» اسم الكبرى: صفراء، واسم الصغرى: صفيراء، والله أعلم بذلك، ولا يتعلق بمعرفة اسميهما حكم شرعي.

(٤) قال السيوطي في «الدرر» ١٢٤/٥: أخرج القرطبي، وابن أبي شيبة في «المصنف» وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطبق رفقها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين، قال: ما خطبكما، فحدثناه، فأتى الصخرة فرفعها وحده، ثم استقى، فلم يستق إلا دلوًّا واحدًا حتى رويت الغنم... الحديث بطوله، وقد ذكره ابن كثير في «تفسيره» من رواية ابن أبي شيبة مختصراً هكذا، وقال: إسناده صحيح.

(٥) قال ابن كثير: قال ابن عباس: سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافياً، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه، وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه وإن بطنه للاحق بظهوره من الجوع، وإن خضرة البقل لتري من داخل جوفه، وأنه لمحتاج إلى شق ثمرة.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ قال المفسرون: لما سمع موسى هذا القول كرهه وأراد أن لا يتبعها، فلم يجد بداً للجهد الذي به من أتباعها، فتبعها، فكانت الريح تضرب ثوبها فيصف بعض جسدها، فناداها: يا أمة الله، كوني خلفي ودليني الطريق^(١) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ﴾ أي: جاء موسى شعبياً ﴿وَوَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أي: أخبره بأمره من حين ولد والسبب الذي أخرجه من أرضه ﴿قَالَ لَا تَخَفْ جَوَّزَ مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا سلطان لفرعون بأرضنا ولنا في مملكته. ﴿قَالَتْ لِحَدَنَهُمَا﴾ وهي الكبرى: ﴿يَكَايَبُ اسْتَجَزَةً﴾ أي: اتخذها أجيراً ﴿إِنَّكَ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَزَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ أي: خير من استعملت على عملك من قوّي على عملك وأدّى الأمانة؛ وإنما سمّته قوتاً، لرفعه الحجر عن رأس البئر، وقيل: لأنه استقى بدلوا لا يُقْلَهُ إلا العدد الكثير من الرجال، وسمّته أميناً، لأنه أمرها أن تمشي خلفه. وقال السدي: قال لها شعيب: قد رأيت قوّته، فما يُدريك بأمانته؟ فحدّثه. قال المفسرون: فرغب فيه شعيب، فقال له: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَكْمَلَكَ﴾ أي: أزوّجك ﴿إِحْدَى ابْنَتَيْ هَنْتَيْ عَلَ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِمَجٍ﴾ قال الفراء: تأجرني وتأجرني، بضم الجيم وكسرهما، لغتان. قال الزجاج: والمعنى: تكون أجيراً لي ثمانين سنين ﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَوْنٌ عِنْدَكَ﴾ أي: فذلك تفضل منك، وليس بواجب عليك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ أي: في العشر ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: في حُسن الصّحبة والوفاء بما قلت. ﴿قَالَ﴾ له موسى ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: ذلك الذي وصفت وشرطت عليّ فلك، وما شرطت لي من تزويج إحداهما فلي، فالأمر كذلك بيننا. وتم الكلام هاهنا. ثم قال: ﴿أَيُّمَا الْأَجْلَيْنِ﴾ يعني: الشمانين والعشر. قال أبو عبيدة: «ما» زائدة.

قوله تعالى: ﴿فَصَبَّيْتُ﴾ أي: أتممت^(٢) ﴿فَلَا عُدُونَكَ عَلَيَّ﴾ أي: لا سبيل عليّ؛ والمعنى: لا تعتد عليّ بأن تُلْزمني أكثر منه ﴿وَاللَّهُ عَلَّ مَا نَقُولُ وَكِبَلٌ﴾ قال الزجاج: أي: والله شاهدنا على ما عقد بعضنا على بعض. واختلف العلماء في هذا الرجل الذي استأجر موسى على أربعة أقوال: أحدها: أنه شعيب نبي الله ﷺ، وعلى هذا أكثر [أهل] التفسير، وفيه أثر عن النبي ﷺ يدل عليه^(٣)، وبه قال وهب، ومقاتل. والثاني: أنه صاحب مَدْيَن، واسمه يثرى، قاله ابن عباس. والثالث: رجل من قوم شعيب، قاله الحسن. والرابع: أنه يثرون ابن أخي شعيب، رواه عمر بن مرة عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، وبه قال ابن السائب^(٤). واختلفوا في التي تزوّجها موسى من الابنتين على قولين: أحدهما: الصغرى، روي عن ابن عباس. والثاني: الكبرى، قاله مقاتل. وفي اسم التي تزوّجها ثلاثة أقوال: أحدها: صفوريا، حكاه أبو عمران الجوني. والثاني: صفورة، قاله شعيب الجبائي. والثالث: صبورا، قاله مقاتل.

(١) قال السيوطي في تمة الحديث الذي تقدم من رواية القرطبي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب ؓ: «فرجعت المرأتان إلى أبيهما، فحدثتا، وتولّى موسى ﷺ إلى الظل فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَتَيْتُكَ لَأَنْ يَنْخَرُ قَبِيرٌ﴾ قال: ﴿لَمَّا أَتَيْتُكَ تَتَنِي عَلَى أَسْوَمَيْتِكُمْ﴾ واضحة ثوبها على وجهها ليست بسلفع من الناس خُرَاجَة ولاجَة، ﴿قَالَتْ إِنَّكَ أَيْ يَتَوَلَّى لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ فقام معها موسى ﷺ، فقال: امشي خلفي وانعتي لي الطريق فإني أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف جسديك... إلخ. وذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم مختصراً إلى قوله: خُرَاجَة ولاجَة، وقال: هذا إسناد صحيح. وقال: قال الجوهرى: السلف من الرجال: الجسور، ومن النساء: الجريئة السليطة، ومن النوق: الشديدة. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: هذا وقد دلّ الدليل على أن موسى ﷺ إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما، قال: وقال البخاري: عن سعيد بن جبير قال: سألت يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على خبر العرب فأسأله، فقدمت على ابن عباس ؓ فسأله، فقال: قضى أكثرهما وأطيهما، إن رسول الله إذا قال فعل. اهـ.

(٣) زيادة ليست في الأصل.

(٤) من رواية ابن أبي حاتم عن عتبة بن المنذر، وسنده ضعيف.

(٥) قال ابن كثير: وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو على أقوال: أحدها: أنه شعيب النبي ﷺ الذي أرسل إلى أهل مدين، وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء. قال: وقال آخرون: بل كان ابن أخي شعيب، وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب، قال: وقال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسى ﷺ بعمدة طويلة، لأنه قال لقومه: ﴿زَكَرْتُمْ لَوْ يُصِيبُكُمْ يَتِيْبُو﴾ وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل ﷺ بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى ﷺ مدة طويلة تزيد على أربعمئة سنة كما ذكره غير واحد، قال: وما قيل: إن شعيباً عاش مدة طويلة، إنما هو - والله أعلم - احتراز من هذا الإشكال، ثم من المعقّو لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن هاهنا، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى، لم يصح إسناده، قال: ثم من الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه يثرون، والله أعلم. اهـ.

﴿قُلْنَا قَمَنْ مَوْسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الثَّوْرِ كَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي مَاتَكُمْ مِنْهَا يُخَوِّرُ أَوْ جَذَوْهُ رَبُّ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿١٩﴾ قُلْنَا أَتَنهَا ثَوْرٌ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْتَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْشِيَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّا أَنْتَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ وَأَنْ أَلْقَى عَصَاكَ قُلْنَا رَاَهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْشِي عَلَى آْقِلٍ وَلَا تَخَفُ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٢١﴾ أَسْأَلُكَ بِكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ يَصْنَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْوٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنْ الرَّقْمِ فَلَذَلِكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِنَّكَ إِذْ يَرْعُوتَ وَمَلَايُوتَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَعَاكَ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٢٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٢٤﴾ قَالَ سَنُنْذِرُ عَصَاكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِإِذْنِنَا أَتَشَاءُ وَمَنْ أَتَبَعُكُمَا أَفْعِلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا قَمَنْ مَوْسَى الْأَجَلَ﴾ روى ابن عباس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه سئل: أي الأجلين قضى موسى، قال: «أوفاهما وأطيهما»^(١). قال مجاهد: مكث بعد قضاء الأجل عندهم عشرين سنة^(٢). وقال وهب بن منبه: أقام عندهم بعد أن أدخل عليه امرأته سنين^(٣)، وقد سبق تفسير هذه الآية [طه: ١٠] إلى قوله: ﴿أَوْ جَذَوْهُ﴾ وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: «جذوة» بكسر الجيم. وقرأ عاصم بفتحها. وقرأ حمزة، وخلف، والوليد عن ابن عامر بضمها، وكلها لغات. قال ابن عباس: الجذوة: قطعة حطب فيها نار، وقال أبو عبيدة: قطعة غليظة من الحطب ليس فيها لهب، وهي مثل الجذمة من أصل الشجرة، قال ابن مقبل:

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَا
جَزْلَ الْجِذَا غَيْرَ خَوَارٍ وَلَا دَعِيرٍ^(٤)
والدعير: الذي قد نخر، ومنه رجل داعر، أي: فاسد.

قوله تعالى: ﴿ثَوْرٌ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ﴾ وهو: جانبه ﴿الْأَيْتَنِ﴾ وهو الذي عن يمين موسى ﴿فِي الْبُقْعَةِ﴾ وهي القطعة من الأرض ﴿الْمُبْرَكَةِ﴾ بتكليم الله موسى فيها ﴿وَمِنْ الشَّجَرِ﴾ أي: من ناحيتها، وفي تلك الشجرة قولان: أحدهما: [أنها] شجرة العناب، قاله ابن عباس. والثاني: عوسجة، قاله قتادة، وابن السائب، ومقاتل. وما بعد هذا قد سبق بيانه [النمل: ١٠] إلى قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ أي: من أن ينالك مكروه.

قوله تعالى: ﴿أَسْأَلُكَ بِكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أي: أدخلها، ﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ قد فسرنا الجناح في [طه: ٢٢] إلا أن بعض المفسرين خالف بين تفسير اللفظين، فشرحناه. وقال ابن زيد: جناحه: الذراع والعضد والكف. وقال الزجاج: الجناح هاهنا: العضد، ويقال لليد كلها: جناح. وحكى ابن الأنباري عن الفراء أنه قال: الجناح هاهنا: العصا. قال ابن الأنباري: الجناح للإنسان مشبه بالجناح للطائر، ففي حال تشبه العرب رجلي الإنسان بجناحي الطائر، فيقولون: قد مضى فلان طائراً في جناحيه، يعنون ساعياً على قدميه، وفي حال يجعلون العضد منه بمنزلة جناحي الطائر، كقوله: ﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾، وفي حال يجعلون العصا بمنزلة الجناح، لأن الإنسان يدفع بها عن نفسه كدفع الطائر عن نفسه بجناحه، كقوله: ﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنْ الرَّقْمِ﴾، وإنما يوقع الجناح على هذه الأشياء تشبيهاً واستعارة؛ كما يقال: قد قص جناح الإنسان، وقد قطعت يده ورجله: إذا وقعت به جائحة أبطلت تصرفه؛ ويقول الرجل للرجل: أنت يدي ورجلي، أي: أنت من به أصل إلى محايي، قال جرير:

سَأَشْكُرُ أَنْ رَدَدْتَ إِلَيَّ رِيْشِي وَأَنْبَتَ الْقَوَادِمَ فِي جَنَاحِي^(٥)

(١) روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه أنه سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ فقال: قضى أكثرهما وأطيهما، إن رسول الله إذا قال فعل. وذكره السيوطي في «الدرر» ١٢٦/٥ وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة في «المصنف» وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه عن طرق عن ابن عباس رضي الله عنه.

قال ابن كثير: وقد يستفاد هذا أيضاً من الآية الكريمة حيث قال تعالى: ﴿قُلْنَا قَمَنْ مَوْسَى الْأَجَلَ﴾ أي: الأكل منها، والله أعلم.
(٢) قال ابن كثير: وهذا القول لم أره لغيره، وقد حكاه عنه ابن أبي حاتم، وابن جرير، فالح أعلم. وذكره السيوطي في «الدرر» ١٢٧/٥، وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٣) في النسخة الاستنبولية: سنين.

(٤) البيت في «مجاز القرآن» ١٠٣، و«الطبري» ٧٠/٢٠، و«مجمع البيان» ٢٨٤/٢٠، و«القرطبي» ٢٨١/١٣، و«اللسان» و«التاج» دعر. والجذا جمع جذوة.

(٥) «ديوانه» ٩٨.

وقالت امرأة من العرب ترثي زوجها الآخر:

يا عَصْمَتِي فِي النَّائِبَاتِ وَيَا
لَا ضَنْتُ وَجْهًا كُنْتُ صَائِنَهُ

رُكْنِي [الْأَغْرَ] وَيَا يَدِي الْيَمْنَى
أَبْدَأُ وَجْهَكَ فِي الشَّرَى يَنْبَلَى

فَأَمَّا الرَّهْبُ، فقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «مِنْ الرَّهْبِ» بفتح الراء والهاء. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «من الرَّهْبِ» بضم الراء وسكون الهاء. وقرأ حفص [وأبان] عن عاصم: «من الرَّهْبِ» بفتح الراء وسكون الهاء [وهي قراءة ابن مسعود، وابن السميع]. وقرأ أبي بن كعب، والحسن، وقتادة: بضم الراء والهاء. قال الزجاج: الرَّهْبُ، والرَّهْبُ بمعنى واحد، مثل الرُّشْد، والرَّشْد. وقال أبو عبيدة: الرَّهْبُ والرَّهْبَةُ بمعنى الخوف والفرق. وقال ابن الأنباري: الرَّهْبُ، والرَّهْبُ، والرَّهْبُ، مثل الشُّغْل، والشُّغْل، والشُّغْل، والشُّغْل، والبُخْل، والبُخْل، وتلك لغات ترجع إلى معنى الخوف والفرق. وللمفسرين في معنى هذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنه لما هرب من الحيَّة أمره الله أن يَضُمَّ إليه جناحه ليذهب عنه الفزع. قال ابن عباس: المعنى: اضمم يدك إلى صدرك من الخوف ولا خوف عليك. وقال مجاهد: كلُّ مَنْ فَرَعَ فَضَمَّ جناحه إليه ذهب عنه الفزع. والثاني: أنه لما هاله بياض يده وشعاعها، أمر أن يُدْخِلَهَا فِي جِيبِهِ، فعادت إلى حالتها الأولى. والثالث: أن معنى الكلام: سَكَنَ رَوْعَكَ، وثَبَّتْ جَأَشَكَ. قال أبو علي: ليس يراد به الضَّمُّ بين الشَّيْئَيْنِ، إنما أمر بالعزم [على ما أمر به] والجُدُّ فيه، ومثله: اشدد حيازيمك للموت.

قوله تعالى: ﴿تَتَذَكَّرُ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «فَذَانُكَ» بالتشديد. وقرأ الباقون: «فَذَانُكَ» بالتخفيف. قال الزجاج: التشديد تشنية «ذلك»، والتخفيف تشنية «ذاك»، فجعل اللام في «ذلك» بدلاً من تشديد النون في «ذَانُكَ»، ﴿وَتَذَكَّرُ﴾ أي: بيانان اثنان. قال المفسرون: «فَذَانُكَ» يعني العصا واليد، حُجَّتَانِ مِنَ اللَّهِ لِمُوسَى عَلَى صِدْقِهِ، ﴿إِنْ فَرَّقْتَهُ﴾ أي: أرسلنا بهاتين الآيتين إلى فرعون^(١). وقد سبق تفسير ما بعد هذا [الشعر: ١٤] إلى قوله: ﴿فَرَّقْتَهُ أَفَصَحَّ مِنِّي لِسَاكَ﴾ أي: أحسنُ بيانا، لأن موسى كان في لسانه أثر الجمرة التي تناولها، ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ قرأ الأكثرون: «رِدْءًا» بسكون الدال وبعدها همزة. وقرأ أبو جعفر: «رِدَا» بفتح الدال وألف بعدها من غير تنوين ولا همز؛ وقرأ نافع كذلك إلا أنه نُونٌ. وقال الزجاج: الرِّدْءُ: العون، يقال: رَدَأَهُ أَرَدُوهُ رِدْءًا: إذا أَعْتَمَهُ.

قوله تعالى: ﴿يُضْذَقُنِي﴾ قرأ عاصم، وحمزة: «يُضْذَقُنِي» بضم القاف. وقرأ الباقون بسكون القاف. قال الزجاج: من جزم «يُضْذَقُنِي» فعلى جواب المسألة: أَرْسِلْهُ يُضْذَقُنِي؛ ومن رفع، فالمعنى: رِدْءًا مُضْذَقًا لِي. وأكثر المفسرين على أنه أشار بقوله: «يُضْذَقُنِي» إلى هارون؛ وقال مقاتل بن سليمان: لكي يُضْذَقُنِي فرعون.

قوله تعالى: ﴿هَنَكْتُ عَضْدَكَ بِأَخِيكَ﴾ قال الزجاج: المعنى: سَتَعِينُكَ بِأَخِيكَ، ولفظ العَضْدُ على جهة المثل، لأن اليد قوامها عَضْدُهَا، وكلُّ مُعِينٍ فَهُوَ عَضْدٌ، ﴿وَجَعَلْتُ لَكُمْ سُلْطَانًا﴾ أي: حُجَّةً بَيِّنَةً. وقيل لِلزَّيْتِ: السَّلِيطُ، لأنه يُسْتَضَاءُ به؛ والسُّلْطَانُ: آتِيْنُ الْحُجَجِ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: بقتل ولا أذى. وفي قوله: ﴿وَيَا أَيُّهَا الْمَلَأَئِكَةُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن المعنى: تمتنعان منهم بآياتنا وحُجَجِنَا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا. والثاني: أنه متعلِّقٌ بما بعده، فالمعنى: بآياتنا أنتما ومن أتبعكما الغالبون، أي: تَقْلِبُونَ بآياتنا. والثالث: أنَّ في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: ونجعل لكم سلطانًا بآياتنا فلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا.

﴿هَلَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا يَنْتَبِهُونَ﴾ قَالَ مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُتَقَرَّى وَمَا سَكَمْنَا بِهِكَ إِلَّا مَا بَكَيْنَا الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّهِ أَكْبَرُ مِنْ جَاءَةِ الْهَدْيِ مِنْ عِبَادِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ النَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿هَلَّا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُتَقَرَّى﴾ أي: ما هذا الذي جئتنا به إلا سِحْرٌ افتريته مِنْ قَبْلِ نَفْسِكَ وَلَمْ تُبْعَثْ بِهِ

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿تَتَذَكَّرُ﴾ بفتح النون، يعني إلقاء العصا وجعلها حية تسمى، وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، دليلان قاطعان واضحا على قدرة الفاعل المختار وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ فَرَّقْتَهُ أَفَصَحَّ مِنِّي لِسَاكَ﴾ أي: وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع، ﴿يَنْتَبِهُونَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ودينه. اهـ.

لذلك الأمر؛ وفي هذا بيان لصحة نبؤة نبيِّنا ﷺ، لأنهم يعلمون أنه لم يقرأ الكتب، ولم يشاهد ما جرى، فلولا أنه أوحى إليه ذلك، ما علم^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا﴾ أي: خَلَقْنَا أُمَمًا من بعد موسى ﴿فَنَطَوَّلُوا عَنْهُمْ الْأُمُورَ﴾ أي: طَالَ إِمَهَالُهُمْ فَنَسُوا عَهْدَ اللَّهِ وَتَرَكُوا أَمْرَهُ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ عُهِدَ إِلَى مُوسَى وَقَوْمِهِ عَهْدٌ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَمَرُوا بِالْإِيمَانِ بِهِ، فَلَمَّا طَالَ إِمَهَالُهُمْ، أَعْرَضُوا عَنْ مِرَاعَاةِ الْعَهْدِ، ﴿وَمَا كُنْتُمْ نَارِيًا﴾ أي: مُقِيمًا ﴿وَلَا أَهْلَ مَيْمَنٍ﴾ فَتَعَلَّمَ خَيْرُ مُوسَى وَشُعَيْبٍ وَابْتَدِئُوا ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ ^(٢) ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أَرْسَلْنَاكَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ وَأَخْبَرْنَاكَ خَيْرَ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا عَلِمْتَهُ. ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الثَّوْرِ﴾ أي: بِنَاحِيَةِ الْجَبَلِ الَّذِي كَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى ﴿إِذْ نَادَيْتَا﴾ مُوسَى وَكَلَّمْنَاهُ، هَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ؛ وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: كَانَ هَذَا النِّدَاءُ: يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، أُعْطِيْتُمْكَ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُونِي، وَاسْتَجِيبَ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي ^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ قال الزجاج: المعنى: لم تشهد قصص الأنبياء، ولكننا أوحيناها إليك وقصصناها عليك، رحمة من ربك.

﴿رَأَوْا أَن نُّصِيبَهُمْ مُّصِيبَةً﴾ جواب «لولا» محذوف، تقديره: لولا أنهم يحتجّون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة. وقيل: لولا ذلك لم نَحْتَجْ إلى إرسال الرسل ومؤاثره الاحتجاج.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ نَبِيٌّ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ إِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ١٥٠﴾ قُلْ قَالُوا بِكَذِبٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا أُهْدِيَ لَنَا سَبِيلٌ قَبْلَ هَٰذَا سَبِيلُ آبَائِنَا لَئِنْ كُنَّا لَهُمْ مُشِيرِينَ ١٥١﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٥٢﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ١٥٣﴾ الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ الْكِتَابُ مِنْ قَبْلِهِمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ١٥٤﴾ وَلَقَدْ نَزَّلْنَاهُ قَالُوا مَآءٌ مِثْلُ هَٰذَا إِنَّ كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُنْكَرِينَ ١٥٥﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ فَاعْتَلَكُمْ بِطَٰغُوتٍ ذُنُوبُهُمْ يَسْتَكْبِرُونَ ١٥٦﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ فَاعْتَلَكُمْ بِطَٰغُوتٍ ذُنُوبُهُمْ يَسْتَكْبِرُونَ ١٥٧﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ فَاعْتَلَكُمْ بِطَٰغُوتٍ ذُنُوبُهُمْ يَسْتَكْبِرُونَ ١٥٨﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ فَاعْتَلَكُمْ بِطَٰغُوتٍ ذُنُوبُهُمْ يَسْتَكْبِرُونَ ١٥٩﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ فَاعْتَلَكُمْ بِطَٰغُوتٍ ذُنُوبُهُمْ يَسْتَكْبِرُونَ ١٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ وهو محمد ﷺ والقرآن ﴿قَالُوا لَوْلَا آيُ: هَلَّا أُرِي﴾ محمد من الآيات ﴿وَيُرَى مَا أُرِي﴾ كالعصا واليد. قال المفسرون: أمرت اليهود قريشاً أن تسأل محمداً مثل ما أوتي موسى، فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُرِي﴾ أي: فقد كفروا بآيات موسى، و﴿قَالُوا﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: اليهود. والثاني: قريش. ﴿يَسْحَرُونَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «ساحران» ﴿تَنكَّرَ﴾ أي: تعاونوا. وروى العباس الأنصاري عن أبي عمرو: «تَنَظَّهَرَا» بتشديد الظاء. وفيمن عَنُوا ثلاثة أقوال: أحدها: موسى ومحمد، قاله ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبيرة؛ فعلى هذا هو من قول مشركي العرب.

(١) قال ابن كثير: يقول تعالى مبنيًا على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خيراً كان سامعته شاهدًا وراؤه لما تقدم، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتَّبِعُ إِلَّا بِغُلُوٍّ أَنتَ وَلَمْ تُكَلِّمْهَا وَفَوَيْكَ مِنَ الْبَنَاتِ مَا كُنْتَ تَعْلَمُ إِنَّهُنَّ أَتْلِفْنَ﴾ [النجم: ٢٠] وقومه وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه، ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ فِي بَيْنِ الْمَاءِ عَلَى نَارٍ فَخُذْ حِيلَكَ﴾ [الأنعام: ٩٦] والآية، وقال في آخر السورة: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُقَيِّنُهُ عَلَيْكَ لَعَلَّكَ تُدْرِكُونَ بِهِ لَوْ كَانَ لِشَيْءٍ عِلْمٌ إِلَّا غَيْرُكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ فَيَفْضَحُهُمْ أَيْنَمَا يُرِيدُ وَلَا يَدْرِي عَنْ يَوْمَانِ أَتَأْتِنَا آلُكُمْ وَلَا بَرْقُومٌ وَلَا نَبْعَثُ الرُّسُلَ لَهُ الْأَنَّامُ وَالْأَنْعَامُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [الأنعام: ٥٨] والآية، وقال في سورة (طه): ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ...﴾ الآية، وقال هاهنا بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها وكيف كان ابتداء إحياء الله إليه وتكليمه له: ﴿وَكَانَتْ جِبَالٌ سَائِقَةٌ زَلًّا لَوْلَا دَرَسُوا هَالِكًا إِذَا رَأَى السَّمَاءَ تَزاحُ حُدُودُهَا وَنَادَىٰ أَرْضَهَا طَرَجًا﴾ [الحاقة: ١-٤] يعني: ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقُبُورِ﴾ [الحاقة: ١٧] لذلك، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدنا ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاهم من الأنبياء المفضلين. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: وما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبئها شعيب وما قال لقومه وما ردُّوا عليه، ولكن نحن أوحينا إليك ذلك.

(٣) رواه الطبري والنسائي، وفي سنده حمزة الزيات، قال الحافظ ابن حجر عنه: صدوق زاهد ربما وهم، وذكره السيوطي في «الدرة» وزاد نسبه للفريابي، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، وأبي نعيم والبيهقي معاً في «الدلائل».

والثاني: موسى وهارون، قاله مجاهد؛ فعلى هذا هو من قول اليهود لهما في ابتداء الرسالة. والثالث: محمد وعيسى^(١)، قاله قتادة؛ فعلى هذا هو من قول اليهود الذين لم يؤمنوا بنبينا. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: «سُخْرَان» وفيه ثلاثة أقوال. أحدها: التوراة والفرقان، قاله ابن عباس، والسدي. والثاني: الإنجيل والقرآن، قاله قتادة. والثالث: التوراة والإنجيل، قاله أبو مجلز، وإسماعيل ابن أبي خالد. ومعنى الكلام: كلُّ سُخْرٍ منهما يقوِّي الآخر، فنُسبَ التظاهر إلى السخرين توسعاً في الكلام، «وَقَالُوا إِنَّا يَكْفُرُونَ» يعنون ما تقدّم ذكره على اختلاف الأقوال، فقال الله لنبيه «قُلْ لَكُمْ مَكَّةٌ قَاتِلُوا يَكْتَسِبُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ يَتِمَّ» أي: من التوراة والقرآن، «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» أنهما ساحران. «فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ» أي: فإن لم يأتوا بمثل التوراة والقرآن، «فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُعْمِرُكُمُ آهِلُهَا هُمْ» أي: أن ما ركبه من الكفر لم يحملهم عليه حجة، وإنما آثروا فيه الهوى «وَمَنْ أَضَلُّ» أي: ولا أحد أضل «وَمَنْ أَتَتْهُ مَوَدَّةٌ بِمَكْرٍ هُدًى» أي: بغير رشاد ولا بيان جاء «بِرَبِّكَ اللَّهُ». «وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ» وقرأ الحسن، وأبو المتوكل، وابن يعمر: «وَصَلَّاتُنَا» بتخفيف الصاد. وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم قريش، قاله الأكثرون، منهم مجاهد. والثاني: اليهود، قاله رفاعة القرظي. والمعنى: أنزلنا القرآن يتبع بعضه بعضاً، ويُخبر عن الأمم الخالية كيف عُذِّبُوا لَعَلَّهُمْ يَتَعَذَّبُونَ. «الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ» وفيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم مؤمنو أهل الكتاب، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والثاني: مسلمو أهل الإنجيل، روى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أن أربعين من أصحاب النجاشي قدّموا على رسول الله ﷺ فشهدوا معه أحدًا، فنزلت فيهم هذه الآية^(٢). والثالث: مسلمو اليهود، كعبد الله بن سلام وغيره، قاله السدي.

قوله تعالى: «مِنْ قَبْلِهِ» أي: من قبل القرآن «هُمْ يَدُ» في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى محمد ﷺ، لأن ذكره كان مكتوباً [عندهم] في كتبهم، فآمنوا به، والثاني: إلى القرآن. قوله تعالى: «وَلَقَدْ يَلَّنَّ عَتَمُهُ» يعني القرآن «قَالُوا آمَنَّا بِهِ»، «إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ» أي: من قبل نزول القرآن «شُعَلِينَ» أي: مُخْلِصِينَ لله مصدّقين بمحمد، وذلك لأن ذكره كان في كتبهم فآمنوا به «أَوَّلَيْكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ تَرْتِيْن» في المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم مؤمنو أهل الكتاب، وهذا قول الجمهور، وهو الظاهر^(٣)، وفيما صبروا عليه قولان: أحدهما: أنهم صبروا على الكتاب الأوّل، وصبروا على اتّباعهم محمداً، قاله قتادة، وابن زيد. والثاني أنهم صبروا على الإيمان بمحمد قبل أن يُنَبِّئَ، ثم على اتّباعه حين بُعث، قاله الضحاك. والقول الثاني: أنهم قوم من المشركين أسلموا، فكان قومهم يؤذونهم، فصبروا على الأذى، قاله مجاهد. قوله تعالى: «وَيَذَرُونِ بِالْأَمْسِئَةِ السَّيِّئَةِ» فيه أقوال قد شرحناها في [الرعد: ٢٢].

قوله تعالى: «وَلَقَدْ سَكَبُوا بِاللَّغْوِ» فيه ثلاثة أقوال: أحدهما: الأذى والسب، قاله مجاهد. والثاني: الشرك، قاله الضحاك. والثالث: أنهم قوم من اليهود آمنوا، فكانوا يسمعون ما غير اليهود من صفة رسول الله ﷺ فيكفرون ذلك ويُغَرِّضُونَ عنه، قاله ابن زيد. وهل هذا منسوخ، أم لا؟ فيه قولان. وفي قوله: «وَقَالُوا لَنَا آمَنَّا وَلَكُمُ الْغُلُوكُ» قولان: أحدهما: لنا ديننا ولكم دينكم. والثاني: لنا جِلْمُنَا ولكم سَفْهُكُمْ. «سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ» قال الزجاج: لم يريدوا التحية، وإنما أرادوا: بيننا وبينكم المُتَارَكَةُ، وهذا قيل أن يؤمر المسلمون بالقتال. وذكر المفسرون أن هذا منسوخ بآية السيف. وفي قوله: «لَا تَبْنِي الْجِبَلِينَ» ثلاثة أقوال: أحدها: لا نبني دين الجاهليين. والثاني: لا نطلب مجاورتهم. والثالث: لا نريد أن نكون جُهَاًلاً.

(١) قال ابن كثير: وهذا فيه بُعد، لأن عيسى لم يجر له ذكر هاهنا، والله أعلم. اهـ.

(٢) قال السيوطي في «أسباب النزول» ٢١٠: رواه الطبراني في «الأوسط» بسند فيه من لا يُعرف عن ابن عباس ﷺ.

(٣) عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وألرك النبي ﷺ فأمن به وأتبعه وصدّقه، فله أجران، وعبد مملوك أتى حق الله تعالى وحق سيده، فله أجران، ورجل كانت له أمة ففعلها فأحسن غذاها، ثم ألقاها فأحسن أدبها، ثم اعتقها وتزوجها، فله أجران» متفق عليه، واللفظ لمسلم. وذكر السيوطي في «الدرر» ١٣٣/٥، وزاد نسبه لأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبِيتَ فِي أُنْهَارٍ يُنَادُوا عَلَيْهَا لَإِيتَانَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (١) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الرُّسُلِ إِلَّا رِجَالًا مِنْ نَفْسِهِ وَمَا جَعَلْنَا مِنَ الْخَلْقِ لَكُمْ لَقِيَةً وَلَا يَخَفُكُمْ بَلْ يَخَافُكُمْ أَكْثَرُهُمْ فَلَا تَقُولُوا هَلْ نَحْمِلُ الْعَذَابَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَحْمِلُونَهُمْ إِنْ يَنْظُرُوا مِنْكُمْ نَعْمَةً فَظَنُّوا أَنْ يَكُونَ مِنْكُمْ رُسُلٌ يَخْلِقُونَ﴾ (٢)

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾ يعني القرى الكافرة أهلها ﴿حَتَّىٰ يَبِيتَ فِي أُنْهَارٍ﴾ أي: في أعظمها ﴿رُسُلًا﴾، وإنما حصل الأعظم ببعثة الرسول، لأن الرسول إنما يبعث إلى الأشراف، وأشراف القوم ملوكهم، وإنما يسكنون المواضع التي هي أم ما حولها. وقال قتادة: أم القرى: مكة، والرسول: محمد.

قوله تعالى: ﴿يُنَادُوا عَلَيْهَا لَإِيتَانَا﴾ قال مقاتل: يخبرهم الرسول أن العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ أي: بظلمهم أهلهم. وظلمهم: شركهم. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلٍ إِلَّا رِجَالًا مِنْ نَفْسِهِ﴾ أي: ما أعطينا من مال وخير ﴿فَمَنْعَ الْخَلْقِ الْإِنْفِ﴾ تتمعون به أيام حياتكم ثم يفنى ويتقضي، ﴿وَمَا جَعَلْنَا مِنَ الْخَلْقِ لَكُمْ لَقِيَةً﴾ أفضل وأدوم لأهلهم ﴿إِلَّا يَقُولُونَ﴾ أن الباقي أفضل من الفاني؟

قوله تعالى: ﴿أَفَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًا حَسَنًا﴾ اختلف فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في رسول الله ﷺ وأبي جهل^(١). والثاني: في علي وحمزة^(٢). وأبي جهل^(٣). والقولان مرويان عن مجاهد. والثالث: في المؤمن والكافر. قاله قتادة^(٤). والرابع: في عمار والوليد بن المغيرة، قاله السدي^(٥). وفي الوعد الحسن قولان: أحدهما: الجنة. والثاني: النصر.

قوله تعالى: ﴿فَهُوَ لَقِيَّةٌ﴾ أي: مُصِيبُهُ وَمُذَكِّرُهُ ﴿كَيْنَ مَنَعْتَهُ مَنَعَ الْخَلْقِ الْإِنْفِ﴾ أي: كمن هو مَنَعٌ بشيء يفنى ويزول عن قريب ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: من المُحْضَرِينَ في عذاب الله، قاله قتادة. والثاني: من المُحْضَرِينَ للجزاء، حكاه الماوردي.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٣) ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَشْكُرُونَ﴾ (٤) ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ (٥) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٦) ﴿فَمَعِيتَ عَلَيْهِمُ الْآلِيَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٧) ﴿فَأَمَّا مَنْ قَابَ نَقَبٍ وَحَمَلَ صِلَةً فَسَقَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ (٨)

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: ينادي الله تعالى المشركين يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ هذا على حكاية قولهم؛ والمعنى: أين شركائي في قولكم؟ ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليهم العذاب، وهم رؤساء الضلالة، وفيهم قولان: أحدهما: أنهم رؤوس المشركين. والثاني: أنهم الشياطين ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ يعنون الاتباع ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي: أضللناهم كما ضللنا ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: تبرأنا منهم إليك؛ والمعنى أنهم يبرأ بعضهم من بعض ويصيرون أعداء. ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي: استغيثوا بالكهنتكم لتخلصكم من العذاب ﴿فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أي: فلم يجيبوهم إلى نصرهم ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ قال الزجاج: جواب «لو» محذوف؛ والمعنى: لو [أنهم] كانوا يهتدون لما اتبعوهم ولما رأوا العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: ينادي الله الكفار ويسألهم ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾. ﴿فَمَعِيتَ عَلَيْهِمُ الْآلِيَاءُ﴾ وقرأ أبو رزين العقيلي، وقتادة، وأبو العالية، وأبو المتوكل، وعاصم الجحدري: ﴿فَمَعِيتَ﴾ برفع العين وتشديد الميم.

(١) «الطبري» ٩٧/٢٠ عن مجاهد، وفي سننه الحكم بن عبد الله المعجلي، ثقة له أوام، وأبان بن تغلب، ثقة تكلم فيه للشيخ.

(٢) «الطبري» ٩٧/٢٠ عن مجاهد، والوادي في «أسباب النزول» ١٩٤. وفي سننه أبان بن تغلب.

(٣) ذكر ذلك البغوي والخازن عن قتادة، ولم ينسبها إلى أحد. وذكر نحوه بأطول منه السيوطي في «المروء» ١٣٥/٥ عن قتادة عن رواية يهذه حميد، وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٩٤ عن السدي، ولم يخرجه لأحد. قال القرطبي: قال القشيري: والصحيح أنها نزلت في المؤمنين والكافرين على التعميم، ونقل عن المعلى أنه قال: وبالجملة فإنها نزلت في كل كافر مع في الدنيا بالعافية والغنى وله في الآخرة النار، وفي كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله، وله في الآخرة الجنة. وقال ابن كثير: والظاهر أنها عامة.

قال المفسرون: خفيت عليهم الحجج، وسببت أنباء، لأنها أخبار يُخبر بها. قال ابن قتيبة: والمعنى: عُمُوا عنها - من شدة الهول - فلم يُجيئوا، و«الأنباء» هاهنا: الحجج.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَسْكَتُونَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا يسأل بعضهم بعضاً عن الحجّة، قاله الضحاك. والثاني: أن المعنى: سكتوا فلا يتساءلون في تلك الساعة، قاله الفراء. والثالث: لا يسأل بعضهم بعضاً أن يحمل عنه شيئاً من ذنوبه، حكاه الماوردي. «فَأَمَّا مَنْ تَابَ» من الشُّرك «وَأَمَّنْ» أي: صدّق بتوحيد الله «وَعَمِلَ صَالِحًا» أدى الفرائض «فَسَقَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ» و«عسى» من الله واجب.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ وَرَبُّكَ بِمَا تَعْمَلُونَ مَبْدُورٌ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ روى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ قال: كانوا يجعلون لألهتهم خير أموالهم في الجاهلية. وقال مقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة حين قال: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَبَلَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (١) [الزحرف: ٣١]؛ والمعنى أنه لا تُبْعَثُ الرسل باختيارهم. قال الزجاج: والوقف الجيد على قوله: «ويختار» وتكون «ما» نفعياً؛ والمعنى: ليس لهم أن يختاروا على الله؛ ويجوز أن تكون «ما» بمعنى «الذي»، فيكون المعنى: ويختار الذي لهم فيه الخيرة ممّا يتعبد لهم به ويدعوهم إليه (٢)؛ قال الفراء: والعرب تقول لما تختاره: أعطني الخيرة والخيرة، قال ثعلب: كلها لغات.

قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتُمْ مَبْدُورِينَ﴾ أي: ما تُخفي من الكفر والعداوة ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بالسّهم.

قوله تعالى: ﴿لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ [أي]: يَحْمَدُهُ أولياؤه في الدنيا وَيَحْمَدُونَهُ في الجنة ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ وهو الفصل بين الخلائق. والسرد: الدائم.

﴿قُلْ أَوَيْتُمْ إِلَىٰ جَعَلِ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ أَوَيْتُمْ إِلَىٰ جَعَلِ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَا تَعْبُرُونَ﴾ ﴿٧٩﴾ وَمَنْ رَحِمْنَاهُ جَعَلْ لَكَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِنَشْكُرُوا فِيهِ وَلِنَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٠﴾ وَيَوْمَ يُبَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٨١﴾ وَزَعَفْنَا مِنْ كُلِّ امْتَةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ أي: سماع فهم وقبول فتستدلوا بذلك على وحدانية الله تعالى؟ ومعنى ﴿تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾: تستريحون من الحركة والنصب ﴿أَمْ لَا تَعْبُرُونَ﴾ ما أنتم عليه من الخطأ والضلالة؟ ثم أخبر أن الليل والنهار رحمة منه. وقوله: ﴿لِنَشْكُرُوا فِيهِ﴾ يعني في الليل ﴿وَلِنَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: لتلتبسوا من رزقه بالمعاش في النهار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الذي أنعم عليكم بهما.

قوله تعالى: ﴿وَزَعَفْنَا مِنْ كُلِّ امْتَةٍ شَهِيدًا﴾ أي: أخرجنا من كل أمة رسولها الذي يشهد عليها بالتبليغ ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حجتكم على ما كنتم تعبدون من دوني ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي: علموا أنه لا إله إلا هو ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: بطل في الآخرة ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا من الشركاء.

﴿إِنَّ قَدَرُونَ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ فَفِي عِلِّيِّينَ وَآيَاتُهُ مِنَ الْكُتُبِ مَا إِنَّ مَفَاحَهُ لَنُورٍ بِالْمُصْبِحِ أُولَى الْقُدْوَةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٨٤﴾

(١) ذكره السيوطي في «أسباب النزول» ١٩٣ من رواية ابن المنذر عن قتادة، والله أعلم.

(٢) قال ابن كثير: وقد اختار ابن جرير أن «ما» هاهنا بمعنى الذي، تقديره: ويختار الذي لهم فيه خيرة، قال: وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح، ثم قال ابن كثير: والصحيح أنها نافية كما نقله ابن أبي حاتم عن ابن عباس وغيره أيضاً، فإن المقام في بيان انفراد تعالى بالخلق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له في ذلك، ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً. اهـ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرَيْشَ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: من عشيرته؛ وفي نسبه إلى موسى ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان ابن عمه، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال عبد الله بن الحارث، وإبراهيم، وابن جريج. والثاني: ابن خالته، رواه عطاء عن ابن عباس. والثالث: أنه كان عمّ موسى، قاله ابن إسحاق^(١). قال الزجاج: «قارون» اسم أعجمي لا ينصرف، ولو كان «فاعولاً» من العربية من «قرئت الشيء» لانصرف.

قوله تعالى: ﴿فَبَقِيَ عَلَيْهِمْ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنه جعل لِيَنْفِي جُغَلًا على أن تقذف موسى بنفسها، ففعلت، فاستحلفها موسى على ما قالت، فأخبرته بقصتها، فكان هذا بغية، قاله ابن عباس. والثاني: أنه بغى بالكفر بالله تعالى، قاله الضحّاك. والثالث: بالكِبَر، قاله قتادة. والرابع: أنه زاد في طول ثيابه شبراً، قاله عطاء الخراساني، وشهر بن حوشب. والخامس: أنه كان يخدم فرعون فتعدّى على بني إسرائيل وظلمهم، حكاه الماوردي. وفي المراد بمفاته قوله: «أحدهما»: أنها مفاتيح الخزائن التي تفتح بها الأبواب، قاله مجاهد، وقاتدة. وروى الأعمش عن خيشمة قال: كانت مفاتيح قارون وقر ستين بغلاً، وكانت من جلود، كل مفتاح مثل الأصبع. والثاني: أنها خزائنه، قاله السدي، وأبو صالح، والضحّاك. قال الزجاج: وهذا الأشبه أن تكون مفاته خزائن ماله؛ وإلى نحو هذا ذهب ابن قتيبة. قال أبو صالح: كانت خزائنه تُحمل على أربعين بغلاً.

قوله تعالى: ﴿لَتَنُوتُوا بِالْمُغْصَةِ﴾ أي: تُثقلهم وتُميلهم. ومعنى الكلام: لتُثنيء العصبه، فلمّا دخلت الباء في «المُغْصَةِ» انفتحت التاء، كما تقول: هذا يَذْهَبُ بالأبصار، وهذا يُذْهِبُ الأبصارَ، وهذا اختيار الفراء، وابن قتيبة، والزجاج في آخرين. وقال بعضهم: هذا من المقلوب، وتقديره: ما إن العصبه لَتَنُوتَ بمفاته، كما يقال: إنها لَتَنُوتَ بها عجيزتها، أي: هي تنوء بعجيزتها، وأنشدوا:

فَدَيْتُ بِنَفْسِي وَمَالِي وَمَا أَلَوْكَ إِلَّا مَا أَطْبِقُ^(٢)

أي: فديتُ بنفسي ومالي نفسه، وهذا اختيار أبي عبيدة، والأخفش. وقد بيّنا معنى المُغْصَةِ في سورة [يوسف: ٨]، وفي [المراد بها [هاهنا] ستة أقوال: أحدها: أربعون رجلاً، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: ما بين الثلاثة إلى العشرة، رواه الضحّاك عن ابن عباس. والثالث: خمسة عشر، قاله مجاهد. والرابع: فوق العشرة إلى الأربعين، قاله قتادة. والخامس: سبعون رجلاً، قاله أبو صالح. والسادس: ما بين الخمسة عشر إلى الأربعين، حكاه الزجاج.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ في القائل له قولان: أحدهما: أنهم المؤمنون من قومه، قاله السدي. والثاني: أنه قول موسى له، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿لَا تَنْجُ﴾ قال ابن قتيبة: المعنى: لا تأخر، ولا تَبْطُرْ، قال الشاعر:

ولست بمفراح إذا الدهر سَرَّني ولا جسازع من صَرْفِ الْمُتَحَوِّلِ^(٣)

أي: لست بأشير، فأما السرور، فليس بمكروه. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ وقرأ أبو رجاء، وأبو حيوة، وعاصم الجحدري، وابن أبي عيلة: «الفارجين» [بألف].

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ يَمًا أَتَىكَ اللَّهُ﴾ أي: اطلب فيما أعطاك الله من الأموال. وقرأ أبو المتوكل، وابن السميع: «وَاتَّبَعَ» بتشديد التاء وكسر الباء بعدها وعين ساكنة غير معجمة «أَتَىكَ» وهي: الجنة؛ وذلك يكون بإنفاقه في رضى الله تعالى وشكر المُنعم به «وَلَا تَسْكُ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا» فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن يعمل في الدنيا للآخرة، قاله ابن عباس، ومجاهد، والجمهور. والثاني: أن يُقدِّم الفضل ويُمسك ما يُغنيه، قاله الحسن. والثالث: أن يستغني بالحلال عن الحرام، قاله قتادة. وفي معنى: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ ثلاثة أقوال حكاه

(١) قال ابن كثير: قال ابن جريج: وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه، والله أعلم.

(٢) البيت في «مجاز القرآن» ٧٩/٢، و«الطبري» ١٠٨/٢٠.

(٣) البيت لهذبة بن خُشْرَمِ الغُدْرِي، وهو في «غريب القرآن» ٣٣٥، و«البحر المحيط» ١٣٢/٧، و«القرطبي» ٣١٣/١٣، و«الكامل» ١٢٤٨/٣، و«عيون

الأخبار» ١٧٦/٢، و«حاشية البحري» ١٢٠، و«حاشية ابن الشجري» ١٣٧.

الماوردي: أحدها: أعط فضل مالك كما زادك على قدر حاجتك. والثاني: أحسن فيما افترض عليك كما أحسن في إنعامه إليك. والثالث: أحسن في طلب الحلال كما أحسن إليك في الإحلال^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا فِي الْأَرْضِ﴾ فتعمل فيها بالمعاصي.
﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَلَمْ يَعْلَم بِمَا آثَفَهُ اللَّهُ وَلَهُ أَهْلًا كَثِيرٌ﴾
﴿يَسْتَلْ عَنْ دُؤَيْبِهِ الْمُجْرِمُونَ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ يعني المال ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: على علم عندي بصناعة الذهب، رواه أبو صالح عن ابن عباس؛ قال الزجاج: وهذا لا أصل له، لأن الكيمياء باطل لا حقيقة له. والثاني: برضى الله عني، قاله ابن زيد^(٣). والثالث: على خير عِلْمُهُ الله عندي، قاله مقاتل. والرابع: إنما أعطيته لفضل علمي، قاله الفراء. قال الزجاج: ادّعى أنه أعطاني المال لعلمه بالثروة. والخامس: على علم عندي بوجود المكاسب، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِمَا آثَفَهُ اللَّهُ وَلَهُ أَهْلًا كَثِيرٌ﴾ يعني قارون ﴿بِمَا آثَفَهُ اللَّهُ وَلَهُ أَهْلًا كَثِيرٌ﴾ في الدنيا حتى كذبوا رسلهم ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمًّا﴾ للأموال. وفي قوله: ﴿وَلَا يَسْتَلْ عَنْ دُؤَيْبِهِ الْمُجْرِمُونَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: لا يُسألون ليعلم ذلك من قِبلهم وإن سئلوا سؤال توبيخ، قاله الحسن. والثاني: أن الملائكة تعرفهم بسيماهم فلا تسألهم عن ذنوبهم، قاله مجاهد. والثالث: يدخلون النار بغير حساب، قاله قتادة. وقال السدي: يعذبون ولا يُسألون عن ذنوبهم.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَبِيتَ لَنَا يَوْمَ آثَفَهُ اللَّهُ وَلَهُ أَهْلًا كَثِيرٌ﴾
﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ قُرْبَىٰ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَحَمَلَ صَالِحًا وَلَا يَقْتُلْهُنَّ إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾^(٤)
قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ قال الحسن: في ثياب حمر وصفر؛ وقال عكرمة: في ثياب مُعَصْفَرَة. وقال وهب بن منبه: خرج على بغلة شهباء عليها سرج أحمر من أَرْجوان، ومعه أربعة آلاف مقاتل، وثلاثمائة وصيفة عليهن الحلبي والزينة على بغال بيض. قال الزجاج: الأَرْجوان في اللغة: صبغ أحمر.

قوله تعالى: ﴿لَبِيتَ لَنَا يَوْمَ آثَفَهُ اللَّهُ وَلَهُ أَهْلًا كَثِيرٌ﴾ [وقوله]: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ قال ابن عباس: يعني الإخبار من بني إسرائيل، وقال مقاتل: الذين أوتوا العلم بما وَعَدَ اللَّهُ في الآخرة قالوا للذين تَمَتُّوا ما أُوتِيَ [قارون]: ﴿وَيَلَكُمْ قُرْبَىٰ اللَّهِ﴾ أي: ما عنده من الجزاء ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ﴾ مما أعطى قارون^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلْهُنَّ﴾ قال أبو عبيدة: لا يوقق لها ويُرْزَقُها. وقرأ أبي بن كعب، وابن أبي عتبة: ﴿وَلَا يَلْقَاهَا﴾ بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف. وفي المشار إليها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الأعمال الصالحة، قاله مقاتل. والثاني: أنها الجنة، والمعنى: لا يُعطاها في الآخرة إلا الصابرون على أمر الله، قاله ابن السائب. والثالث: أنها الكلمة التي قالوها، وهي قولهم: ﴿قُرْبَىٰ اللَّهِ خَيْرٌ﴾، قاله الفراء^(٦).

(١) قال ابن جرير الطبري: وأحسن في الدنيا إنفاق مالك الذي آتاك الله في وجهه وشمله، كما أحسن الله إليك فوشع عليك منه وبسط لك فيها. وقال ابن كثير: أي: أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك.

(٢) قال ابن كثير: وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فإنه قال في قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ قال: لولا رضى الله عني ومعرفته بقضائي، ما أعطاني هذا المال، وقرأ ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِمَا آثَفَهُ اللَّهُ وَلَهُ أَهْلًا كَثِيرٌ﴾ ﴿يَسْتَلْ عَنْ دُؤَيْبِهِ الْمُجْرِمُونَ﴾ الآية، قال: وهكذا يقول من قل عليه إذا رأى من بطلع الله عليه: ﴿قُولُوا أَنْ يَسْتَعِظَ ذَلِكَ لَنَا عَطِيءٌ﴾. وقال ابن جرير الطبري: ولو كان الله يوتي الأموال لمن يوفيه لفضل فيه وغيره عنه، ورضاه عنه، لم يكن يهلك من يهلك من أرباب الأموال الذين كانوا أكثر منه مالا، لأن من كان الله عنه راضياً، فمحال يهلكه الله وهو عنه راض، وإنما يهلك من كان عليه ساخطاً. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: أي جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة غير مما ترون، قال: كما جاء في الحديث الصحيح: ﴿يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَعَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَقْلُمُ قِسْ مَا أَخْفَىٰ لَكُمْ مِنْ قُوَّةِ اللَّهِ يَوْمَ تَكُونُ الْكُلُوبُ﴾﴾. اهـ.

(٤) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَلَا يَقْتُلْهُنَّ إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ يقول: ولا يلقاها، أي: ولا يوقق لغير هذه الكلمة، وهي قوله: ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَحَمَلَ صَالِحًا وَلَا يَقْتُلْهُنَّ إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾. اهـ.

﴿حَسَفْنَا بِهٖ وَيَدَارِوْهُ ۖ الْأَرْضُ فَمَا حَسَنَآ لَهُ مِنْ يَدَوِّ يَحْشُرُوْهُ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْغَنِيِّ ۖ وَأَصْحَٰبُ الْاَلَيْتِ تَمَتَّوْا مَكَانَهُ بِالْاَيْمِيْنِ يَقُوْلُوْنَ وَيَكَاكُ اللَّهُ يَسْطُرُ الزُّزْفَ لِمَنْ يَّتْلُوْهُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا اَنْ مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَنَسْفَعُ بِثَنَآءِكَ لَوْلَا اَنْ يَّخْلُقَ الْكَافِرُوْنَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿حَسَفْنَا بِهٖ وَيَدَارِوْهُ ۖ الْأَرْضُ﴾^(١) لَمَّا أَمَرَ قَارُونَ الْبَغِيَّ بِقَذْفِ مُوسَى عَلَى مَا سَبَقَ شَرْحُهُ [الفصل: ٨١] غضب موسى فدعا عليه، فأوحى الله تعالى إليه: إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ الْأَرْضَ أَنْ تُطْبِعَكَ قُمْرَهَا؛ فقال موسى: يَا أَرْضُ خُذِيهِ، فَأَخَذَتْهُ حَتَّى غَشِيَتْ سَرِيرَهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ نَاشِدَهُ بِالرَّحْمِ، فَقَالَتْ: خُذِيهِ، فَأَخَذَتْهُ حَتَّى غَشِيَتْ قَدَمَيْهِ؛ فَمَا زَالَ يَقُولُ: خُذِيهِ، حَتَّى غَشِيَتْهُ، فَأَرَحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ: يَا مُوسَى مَا أَفْظُكَ، وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَوْ اسْتَغَاثَ بِي لِأَعْتَه^(٢). قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَحَسَفَتْ بِهِ الْأَرْضُ إِلَى الْأَرْضِ السُّفْلَى. وَقَالَ سَمُرَةُ بْنُ جُنْدَبٍ: إِنَّهُ يُخَسِفُ بِهِ كُلَّ يَوْمٍ قَامَةً، فَيُتْبَلِغُ بِهِ الْأَرْضَ السُّفْلَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(٣). وَقَالَ مُقَاتِلٌ: فَلَمَّا هَلَكَ قَارُونَ قَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ: إِنَّمَا أَهْلَكَهُ مُوسَى لِأَخْذِ مَالِهِ وَدَاوَاهُ، فَحَسَفَ اللَّهُ بِدَارِهِ وَمَالِهِ بَعْدَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ.

قوله تعالى: ﴿يَحْشُرُوْهُ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ﴾ أَي: يَمْنَعُونَهُ مِنَ اللَّهِ ﴿وَمَا كَانَتْ مِنَ الْغَنِيِّ﴾ أَي: مِنَ الْمَمْتَعِينَ مِمَّا نَزَلَ بِهِ. ثُمَّ أَعْلَمَنَا أَنَّ الْمَتَمِّينَ مَكَانَهُ نَدِمُوا عَلَى ذَلِكَ التَّمَنِّيِّ بِالْآيَةِ الَّتِي تَلِيَ هَذِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَنَسْفَعُ بِثَنَآءِكَ﴾ الْكَافِرُونَ عَلَى ضَمِّ الْخَاءِ وَكسر السَّيْنِ. وَقَرَأَ يَعْقُوبُ، وَالْوَلِيدُ عَنْ ابْنِ عَامِرٍ، وَحَفْصٌ، وَأَبَانٌ عَنْ عَاصِمٍ: بِفَتْحِ الْخَاءِ وَالسَّيْنِ، فَمَا قَوْلُهُ: ﴿وَيْكَ﴾ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَعْنَاهُ: أَلَمْ تَرَ، وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَالْكَسَائِيُّ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: ﴿وَيْكَ أَنْ﴾ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ تَقْرِيزٌ، يَقُولُ الرَّجُلُ: أَمَا تَرَى إِلَى صَنْعِ اللَّهِ وَإِحْسَانِهِ، أَنَشِدْنِي بَعْضَهُمْ:

وَيْكَ أَنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَسَبٌ يُخَدِّ
بَبْ وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعْشُ عَيْشٌ ضَرُّ
وقال ابن الأثيري: فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيْكَ أَنْهُ﴾ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ. إِنْ شِئْتَ قُلْتَ: ﴿وَيْكَ﴾ حَرْفٌ، وَ﴿أَنْهُ﴾ حَرْفٌ؛ وَالْمَعْنَى: أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ، وَالِدَلِيلِ عَلَى هَذَا قَوْلُ الشَّاعِرِ:

سَأَلْتَانِي الطَّلَاقَ أَنْ رَأَيْتَانِي
وَيْكَ أَنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَسَبٌ يُخَدِّ
وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ ﴿وَيْكَ﴾ حَرْفًا، وَ﴿أَنْهُ﴾ حَرْفًا. وَالْمَعْنَى: وَبِئْسَ أَعْلَمَ أَنَّهُ، فَحَذَفَ اللَّامَ، كَمَا قَالُوا: قَمِ لَا أَبَاكَ، يَرِيدُونَ: لَا أَبَاكَ، وَأَنْشَدُوا:

أَبَايَمُوتِ الَّذِي لَا بُدَّ أُنِّي
مُلَاقٍ لَا أَبَاكَ تُخَوِّفُنِي^(٤)
أَرَادَ: لَا أَبَاكَ، فَحَذَفَ اللَّامَ. وَالثَّلَاثُ: أَنْ يَكُونَ ﴿وَيْ﴾ حَرْفًا، وَ﴿أَنْهُ﴾ حَرْفًا، فَيَكُونُ مَعْنَى ﴿وَيْ﴾ التَّعَجُّبُ، كَمَا تَقُولُ: وَيٍّ لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا، وَيَكُونُ مَعْنَى ﴿أَنْهُ﴾: أَظُنُّهُ وَأَعْلَمُهُ، كَمَا تَقُولُ فِي الْكَلَامِ: كَأَنَّكَ بِالْفَرَجِ قَدْ أَقْبَلْتَ؛ فَمَعْنَاهُ: أَظُنُّ الْفَرَجَ مُقْبِلًا. وَإِنَّمَا وَضَعُوا الْيَاءَ بِالْكَافِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيْكَأَنْهُ﴾ لِأَنَّ الْكَلَامَ بَهُمَا كَثُرَ، كَمَا جَعَلُوا ﴿يَنْتَزِمُ﴾ فِي

(١) مَكْنًى، قَالَ: وَالْيَاءُ وَالْأَلِفُ كِتَابِيَّةٌ مِنَ الْكَلِمَةِ، وَقَالَ: ﴿لَا تَكْشُرُوهُ﴾ بِمَعْنَى: بَذَلِكِ الَّذِينَ صَبَرُوا عَنْ طَلَبِ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَقْرَبُوا مَا هَدَى اللَّهُ مِنْ تَحْوِيلِ ثَوْبِهِ عَلَى صَالِحَاتِهِ لِأَعْيَالٍ، عَلَى الْمَذَاتِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا، فَجَلُّوا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَفَضَّلُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. اهـ.

(٢) وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» ٢٨١/٦، عَنْ خَمْرِيٍّ فِي الْخُطَابِ ﷺ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجْرُ إِزَارَهُ مِنَ الْعِيَالِ، خَسِفَتْ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» ١٦٥٩/٥، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَخَبَّرُ بِمِثْقَلِ فِي بُرْدِهِ قَدْ أَصَابَتْهُ نَفْسُهُ، فَخَسَفَتْ بِهِ الْأَرْضُ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

(٣) رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ بِنَحْوِ ١١٧/٢٠ وَفِي سَنَدِهِ رَجُلٌ مَجْهُولٌ، وَذَكَرْتُهُ السُّيُوطِيُّ فِي «الدُّرَرِ» مَطْرُوفًا مِنْ رَوَايَةِ عَبْدِ الْوَزَّاقِ وَلِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ، وَمُخْتَصَرًا مِنْ رَوَايَةِ أَحْمَدَ فِي «الزُّجَيْدِ» عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَارِي، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٤) وَذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ فِي «الدُّرَرِ» ١٣٨/٥ مِنْ رَوَايَةِ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ غَنَادَةَ عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي «الْفَتْحِ»: «رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ فِي «الْتَّوْبَةِ» مِنْ طَرِيقِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي جَرِيَّةٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: فَكَّرْنَا... فَلَمْ نَجِدْ».

(٥) الْبَيْتَانِ لَزِيدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ نَفِيلِ الْقُرَشِيِّ، وَهُمَا فِي «مَجَازِ الْقُرْآنِ» ١١٢/٢، وَ«الطَّبْرِيُّ» ١٢٠/٢٠، وَ«الْقُرْطُبِيُّ» ٣١٨/١٣، وَ«مِيسَرَةُ» ٢٩٠/١، وَالْبَيْتُ الثَّانِي فِي «مَشْكَلِ الْقُرْآنِ» ٤٧٨، وَفِي «الصَّحَاحِ» وَ«اللسان» وَ«التَّاج»: وَيَا، وَنَسَبَتْ فِيهَا لَزِيدُ بْنُ عَمْرٍو، أَوْ لَزِيدُ بْنُ الْحَجَّاجِ.

(٥) الْبَيْتُ لِأَبِي حَلِيَةَ التَّمِيمِيِّ، وَهُوَ فِي «الصَّحَاحِ» وَ«اللسان» وَ«التَّاج»: أَيْ: نَسَبَتْ فِيهَا لَزِيدُ بْنُ عَمْرٍو، أَوْ لَزِيدُ بْنُ الْحَجَّاجِ.

المصحف حرفاً واحداً، وهما حرفان [طه: ١٩٤]. وكان جماعة منهم يعقوب، يقفون على «وَلَكَّ» في الحرفين، ويتدوون «أَن» وأنه في الموضعين. وذكر الزجاج عن الخليل أنه قال: «وَيَ» مفصولة من «كَانَ»، وذلك أَنَّ القوم تندموا فقالوا: «وَيَ» متدمين على ما سلف منهم، وكلُّ مَنْ نَدِمَ فَاظْهَرِ نَدَامَتَهُ قَالَ: وَيَ. وحكى ابن قتيبة عن بعض العلماء أَنَّهُ قال: معنى «ويكان»: رحمة لك، بلغة جَمِير^(١).

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: بالرحمة والمعافة والإيمان ﴿لَكُنْصَفَ بِنَا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ الَّتِي هِيَ لَكُمْ سَبِيلُ الْفِتْنَةِ وَالْغَيْبِ﴾ (٨٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ الَّتِي هِيَ لَكُمْ سَبِيلُ الْفِتْنَةِ وَالْغَيْبِ﴾ (٨٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ الَّتِي هِيَ لَكُمْ سَبِيلُ الْفِتْنَةِ وَالْغَيْبِ﴾ (٨٣)

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ الَّتِي هِيَ لَكُمْ سَبِيلُ الْفِتْنَةِ وَالْغَيْبِ﴾ (٨٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ الَّتِي هِيَ لَكُمْ سَبِيلُ الْفِتْنَةِ وَالْغَيْبِ﴾ (٨٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ الَّتِي هِيَ لَكُمْ سَبِيلُ الْفِتْنَةِ وَالْغَيْبِ﴾ (٨٣)

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ الَّتِي هِيَ لَكُمْ سَبِيلُ الْفِتْنَةِ وَالْغَيْبِ﴾ (٨٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ الَّتِي هِيَ لَكُمْ سَبِيلُ الْفِتْنَةِ وَالْغَيْبِ﴾ (٨٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ الَّتِي هِيَ لَكُمْ سَبِيلُ الْفِتْنَةِ وَالْغَيْبِ﴾ (٨٣)

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ الَّتِي هِيَ لَكُمْ سَبِيلُ الْفِتْنَةِ وَالْغَيْبِ﴾ (٨٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ الَّتِي هِيَ لَكُمْ سَبِيلُ الْفِتْنَةِ وَالْغَيْبِ﴾ (٨٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ الَّتِي هِيَ لَكُمْ سَبِيلُ الْفِتْنَةِ وَالْغَيْبِ﴾ (٨٣)

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ الَّتِي هِيَ لَكُمْ سَبِيلُ الْفِتْنَةِ وَالْغَيْبِ﴾ (٨٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ الَّتِي هِيَ لَكُمْ سَبِيلُ الْفِتْنَةِ وَالْغَيْبِ﴾ (٨٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ الَّتِي هِيَ لَكُمْ سَبِيلُ الْفِتْنَةِ وَالْغَيْبِ﴾ (٨٣)

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ الَّتِي هِيَ لَكُمْ سَبِيلُ الْفِتْنَةِ وَالْغَيْبِ﴾ (٨٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ الَّتِي هِيَ لَكُمْ سَبِيلُ الْفِتْنَةِ وَالْغَيْبِ﴾ (٨٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ الَّتِي هِيَ لَكُمْ سَبِيلُ الْفِتْنَةِ وَالْغَيْبِ﴾ (٨٣)

﴿إِنَّ إِلَهِي فَرْصُ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأَيْكَ إِنْ مَعَاوُ قُلْ رَبِّهِ أَطَمَ مِنْ جَلَّةٍ بِالْمَدَنِيِّ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٨٤) ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ (٨٥) ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ عَابِدِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَ إِلَيْكَ الْوَحْيَ وَإِلَىٰ رَبِّكَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٨٦) ﴿وَلَا تَتَّبِعْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً غَيْرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْفَتْحُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٧)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهِي فَرْصُ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ قال مقاتل: خرج رسول الله ﷺ من الغار ليلاً، فمضى من وجهه إلى المدينة فسار في غير الطريق مخافة الطلب؛ فلما أَمِنَ رجع إلى الطريق فنزل الجُحفة بين مكة والمدينة، فعرف الطريق إلى مكة، فاشتاق إليها، وذكر مولده، فاتاه جبريل فقال: اشتاق إلى بلدك ومولدك؟ قال: نعم؛ قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ إِلَهِي فَرْصُ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأَيْكَ إِنْ مَعَاوُ﴾، فنزلت هذه الآية بالجُحفة^(٣). وفي معنى «فَرْصُ عَلَيْكَ» ثلاثة أقوال: أحدها: فرض عليك العمل بالقرآن، قاله عطاء بن أبي رباح، وابن قتيبة. والثاني: أعطاك القرآن، قاله

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصحة، أن معناه: ألم تر، ألم تعلم، ثم قال: وإذا كان ذلك هو الصواب، فتأويل الكلام: وأصبح الذين تمسوا مكان قارون وموضع من الدنيا بالأسس، يقولون لما عابروا ما أحل الله به من نعمته: ألم تر يا هذا أن الله يسطر الرزق لمن يشاء من عباده فيوسع عليه لا لفضل منزلته عنده ولا لكرامته عليه، كما كان بسط من ذلك لقارون، لا لفضله ولا لكرامته عليه ﴿وَيَذَرُ﴾ يقول: ويضيئ على من يشاء من خلقه ذلك ويكثر عليه لا لهوانه ولا لسطوته عمله. اهـ. وقد ضعف ابن جرير قول من قال: معناه: أولئك أعلم أن، وقال ابن كثير: والظاهر أنه قوي، ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة «ويكان» وقال: والكتابة أمر وضعي اصطلاحى، والرجوع إلى اللفظ العربي، والله أعلم. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علواً في الأرض، أي: ترعفاً على خلق الله وتواضعاً عليهم وتجبراً بهم، ولا فساداً فيهم. اهـ. وروى ابن جرير الطبري عن علي عليه السلام: قال: إن الرجل ليعجب من شراك نعله أن يكون أجود من شراك صاحبه، فيدخل في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ الَّتِي هِيَ لَكُمْ سَبِيلُ الْفِتْنَةِ وَالْغَيْبِ﴾ (٨٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ الَّتِي هِيَ لَكُمْ سَبِيلُ الْفِتْنَةِ وَالْغَيْبِ﴾ (٨٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ الَّتِي هِيَ لَكُمْ سَبِيلُ الْفِتْنَةِ وَالْغَيْبِ﴾ (٨٣)

(٣) ذكر ذلك القرطبي في «تفسيره» من مقاتل أيضاً، وخرجه السيوطي في «الدر» ١٣٩/٥ من رواية ابن أبي حاتم عن الضحاك بنحوه. وقال ابن كثير بعد أن أورد رواية ابن أبي حاتم عن الضحاك: وهذا من كلام الضحاك يقتضي أن هذه الآية مدنية وإن كان مجموع السورة مكية، والله أعلم. اهـ.

مجاهد. والثالث: أنزل عليك القرآن، قاله مقاتل، والفراء، وأبو عبيدة. وفي قوله: ﴿لَرَأَيْتُكَ إِنِّي مَعَاذُ﴾ أربعة أقوال: أحدها: إلى مكة، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد في رواية، والضحاك. قال ابن قتيبة: مَعَاذُ الرَّجُلِ: بلده، لأنه يتصرف في البلاد ويضرب في الأرض^(١) ثم يعود إلى بلده. والثاني: إلى معادك من الجنة، رواه عكرمة عن ابن عباس^(٢)، وبه قال الحسن، والزهري. فإن اعترض على هذا قيل: الرَّدُّ يقتضي أنه قد كان فيما رُدَّ إليه؛ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه لما كان أبوه آدم في الجنة ثم أخرج، كان كأنَّ ولده أخرج منها، فإذا دخلها فكانه أعيد. والثاني: أنه دخلها ليلة المعراج، فإذا دخلها يوم القيامة كان ردًّا إليها، ذكرهما ابن جرير. والثالث: أن العرب تقول: رجع الأمر إلى كذا، وإن لم يكن له كَوْنٌ فيه قط، وأنشدوا:

[وما المرء إلا كالشَّهابِ وضوؤه]
يَحُورُ زَمَاداً بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعٌ^(٣)

وقد شرحنا هذا في قوله: ﴿وَلِلَّهِ تَسْبِيحُ الْأُمُورِ﴾ [البقرة: ٢١٠]. والثالث: لَرَأَيْتُكَ إلى الموت، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وبه قال أبو سعيد الخدري^(٤). والرابع: لَرَأَيْتُكَ إلى القيامة بالبعث، قاله الحسن، والزهري، ومجاهد في رواية، والزجاج^(٥). ثم ابتداء كلاماً يَرُدُّ به على الكفار حين نسبوا النبي ﷺ إلى الضلال، فقال: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْمَدَنِيِّ؟ وَالْمَعْنَى: قد علم أنني جئت بالهدى، وأنكم في ضلال مبين. ثم ذكَّره نعمته، فقال: ﴿وَمَا كُنْتُ تَرْجُو أَنِّي لَقَدْ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي: أن تكون نبياً وأن يوحى إليك القرآن ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ قال الفراء: هذا استثناء منقطع، والمعنى: إلا أن ربك رحيمك فأنزله عليك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: عوناً لهم على دينهم، وذلك أنهم دَعَوْهُ إلى دين آباءه فأمر بالاحتراز منهم؛ والخطاب بهذا وأمثاله له، والمراد أهل دينه لئلا يظاهروا الكفار ولا يوافقوهم. قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: إلا ما أريد به وجهه، رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال الثوري. والثاني: إلا هو، قاله الضحاك، وأبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿لَهُ الْمَكْرُ﴾ أي: الفصل بين الخلائق في الآخرة دون غيره ﴿وَلِلَّهِ تُسْمِعُونَ﴾ في الآخرة^(٦).



(١) زيادة من «مشكل القرآن».

(٢) رواه الطبري: ١٢٤/٢٠ وفي سنده ضعف.

(٣) البيت لليد بن ربيعة العامري، وهو في «ديوانه» ١٦٩، و«البحر» ٤٤٤/٨، و«اللسان» و«التاج»: حور.

(٤) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندي قول من قال: لראدك إلى عادتك من الموت، أو إلى عادتك حيث وُلدت. اهـ.

(٥) قال ابن كثير: وجه الجمع بين هذه الأقوال، أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة، وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمانة على اقتراب أجل النبي ﷺ، كما فسر ابن عباس سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آخر السورة: أنه أجل رسول الله ﷺ نعي إليه، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب ﷺ، ووافقه عمر على ذلك وقال: لا أعلم منها غير الذي تعلم، ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله: ﴿لَرَأَيْتُكَ إِنِّي مَعَاذُ﴾ بالموت، وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت، وتارة بالجنة التي هي جزاءه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقليين: الإنس والجن، ولأنه أكمل خلق الله، وأفضح خلق الله، وأشرف خلق الله على الإطلاق. اهـ.

(٦) قال ابن جرير الطبري: وإليه تردون من بعد مماتكم فيقضي بينكم بالعدل فيجازي مؤمنكم جزاءهم، وكفاركم ما وعدهم. اهـ.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ أي: أَيْحَسَبُ ﴿الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الشَّيَآتِ﴾ يعني الشُّرك ﴿أَن يَسْفُتُوا﴾ أي: يَفُوتُوا وَيُعْجِزُوا ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بش ما حكموا لأنفسهم حين ظنوا ذلك. قال ابن عباس: عنى بهم الوليد بن المغيرة، وأبا جهل، والعاص بن هشام، وغيرهم.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١) وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٢) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَمْلِكُونَ (٣)

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ قد شرحناه في آخر (الكهف) ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ يعني الأجل المضروب للبعث؛ والمعنى: فليعمل لذلك اليوم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقول ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يعمل. ﴿وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ أي: إن ثوابه إليه يرجع.

قوله تعالى: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: لَنُبْطِلَنَّهَا حَتَّى تَصِيرَ بِمَنْزِلَةِ مَا لَمْ يُعْمَلْ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَمْلِكُونَ﴾ أي: بأحسن أعمالهم، وهو الطاعة، ولا نجزيهم بمساوئ أعمالهم.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنْصِرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٢)﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ وقرأ أبي بن كعب، وأبو مجلز: وعاصم الجحدري: «إحساناً» بالف. وقرأ ابن مسعود، وأبو رجاء: «حُسْنًا» بفتح الحاء والسين. روى أبو عثمان التُّهَدِيُّ عن سعد بن أبي وقاص، قال: في أنزلت هذه الآية، كنت رجلاً بَرًّا بِأُمِّي، فَلَمَّا أَسْلَمْتُ قَالَتْ: يَا سَعْدُ مَا هَذَا الدِّينَ الَّذِي قَدْ أَهْدَيْتَ بِكَ هَذَا أَوْ لَا أَكُلْ وَلَا أَشْرَبْ حَتَّى أَمُوتَ فُتَعْمِرَ بِي فَيَقَالَ: يَا قَاتِلَ أُمِّهِ، قُلْتُ: لَا تَفْعَلِي يَا أُمُّهُ، إِنِّي لَا أَذْغُ دِينِي هَذَا لِشَيْءٍ، قَالَ: فَمَكُثْتُ يَوْمًا وَلَيْلَةً لَا تَأْكُلُ، فَاصْبَحْتُ قَدْ جُهِدْتُ، ثُمَّ مَكُثْتُ يَوْمًا آخَرَ وَلَيْلَةً لَا تَأْكُلُ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قُلْتُ: تَعْلَمِينَ وَاللَّهِ يَا أُمُّهُ لَوْ كَانَتْ لِي مِائَةُ نَفْسٍ فَخَرَجْتُ نَفْسًا نَفْسًا مَا تَرَكْتُ دِينِي هَذَا لِشَيْءٍ، فَكُلِّي، وَإِنْ شِئْتَ لَا تَأْكُلِي، فَلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ أَكَلَتْ، فَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (١). وقيل: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي عِيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ، وَقَدْ جَرَى لَهُ مَعَ أُمِّهِ نَحْوُ هَذَا (٢). وذكر بعض المفسرين أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ، وَالتِّي فِي (الْقَمَان: ١٥) وَفِي (الْإِحْسَان: ١٥) نَزَلَتْ فِي قِصَّةِ سَعْدٍ (٣). قَالَ الزَّجَّاجُ: مَنْ قَرَأَ: «حُسْنًا» فَمَعْنَاهُ: وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ أَنْ يَفْعَلَ بِوَالِدَيْهِ مَا يَحْسُنُ، وَمَنْ قَرَأَ: «إِحْسَانًا» فَمَعْنَاهُ: وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ أَنْ يُخَيِّنَ إِلَى وَالِدَيْهِ، وَكَانَ «حُسْنًا» أَعْمٌ فِي الْبَرِّ. ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ﴾ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: مُجَازٌ هَذَا الْكَلَامُ مُجَازُ الْمُخْتَصَرِ الَّذِي فِيهِ ضَمِيرٌ، وَالمعنى: وَقُلْنَا لَهُ: وَإِنْ جَاهَدَاكَ.

قوله تعالى: ﴿إِشْرَكَ بِي﴾ معناه: لِتُشْرِكَ بِي شَرِيكًا لَا تَعْلَمُهُ لِي وَلَيْسَ لِأَحَدٍ بِذَلِكَ عِلْمٌ، ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.

قوله تعالى: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ أي: فِي زُمْرَةِ الصَّالِحِينَ فِي الْجَنَّةِ. وَقَالَ مَقَاتِلُ: «فِي» بِمَعْنَى «مَعَ». ﴿وَرَبِّهِ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ بِاللَّهِ جَمَلَ فِئْتَةً النَّاسِ كُذَّابٌ اللَّهُ وَلَكِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٢)﴾

قال: ولهذا قال هاتين: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (١) أي: الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه. والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة. اهـ.

(١) رَوَاهُ بِهَذَا السِّيَاقِ الْوَاحِدِي فِي «أَسْبَابِ النُّزُولِ» ١٩٥ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي عُمَانَ التُّهَدِيِّ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ، وَفِي سَنَدِهِ ضَعْفٌ، وَذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي سُورَةِ (الْقَمَان) مِنْ رِوَايَةِ أَبِي الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيِّ، وَفِي سَنَدِهِ ضَعْفٌ وَانْقِطَاعٌ، وَأَوْرَدَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرَجَاتِ» ١٦٥/٥ فِي سُورَةِ (الْقَمَان) زَادَ نَسْبَتَهُ لِأَبِي يَنْبُلَى، وَابْنُ مَرْوَدٍ، وَابْنُ عَسَاكِرَ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ (الْمَكِّيَّةِ) ١٥٠/٢ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ قَالَ: أُنْزِلَتْ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ، فَذَكَرْتُ قِصَّتَهُ، وَقَالَتْ أُمُّ سَعْدٍ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِالْبَرِّ، وَاللَّهُ لَا أَطْعِمُ طَعَامًا، وَلَا أَشْرَبُ شَرَابًا حَتَّى أَمُوتَ أَوْ تَكْفُرَ، قَالَ: فَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَطْمَحُوهَا شَجَرُوا فَاها، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي...﴾ الْآيَةُ. وَمَعْنَى: شَجَرُوا فَاها: فَتَحَوْهُ، وَهَذَا الْحَدِيثُ قَالَ عَنْهُ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَرَوَاهُ بَنُو أَحْمَدَ، وَمُسْلِمٌ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتَّيَمِيُّ.

(٢) قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «تَخْرِيجِ الْكُشَافِ» ٤٧: ذَكَرَ الْقِصَّةَ بِطَوَّلِهَا التَّعْلِيلِي بِدُونِ سَدَنِ، وَالوَاحِدِيُّ عَنْ ابْنِ الْكَلْبِيِّ، وَالتَّيَمِيُّ عَنْ السَّيِّدِي.

(٣) قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «تَخْرِيجِ الْكُشَافِ» ١٢٧: ذَكَرَهُ الْوَاحِدِيُّ، وَالتَّيَمِيُّ، وَالوَاقِدِيُّ هَكَذَا بِغَيْرِ سَدَنِ، وَالْقِصَّةُ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ بِغَيْرِ هَذَا السِّيَاقِ. اهـ. يَعْنِي بِهِ الْحَدِيثَ الَّذِي تَقَدَّمَ: أُنْزِلَتْ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ...

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ اختفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في المؤمنين الذين أخرجهم المشركون إلى بدر فارتدوا، رواه عكرمة عن ابن عباس^(١). والثاني: نزلت في قوم كانوا يؤمنون بالسنتهم، فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة في أنفسهم وأموالهم افتتنوا، قاله مجاهد^(٢). والثالث: نزلت في ناس من المنافقين بمكة، كانوا يؤمنون، فإذا أودوا وأصابهم بلاء من المشركين رجعوا إلى الشرك، قاله الضحاك^(٣). والرابع: أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة، كان أسلم، فخاف على نفسه من أهله وقومه، فخرج من مكة هارباً إلى المدينة، وذلك قبل قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة، فجزعت أمه فقالت لأخويه أبي جهل والحارث ابني هشام - وهما أخواه لأمه -: والله لا أوي بيتاً ولا أكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تأتاني به، فخرجنا في طلبه فظفرا به، فلم يزلوا به حتى تابعهما وجاء به إليهما، فقيدته، وقالت: والله لا أحلك من وثاقتك حتى تكفر بمحمد، ثم أقبلت تجلبد بالسياط وتعذبه حتى كفر بمحمد ﷺ جزعاً من الضرب، فنزلت [فيه] هذه الآية، ثم هاجر بعد وحسن إسلامه، هذا قول ابن السائب، ومقاتل. وفي رواية عن مقاتل أنهما جلداه في الطريق مائتي جلدة، فتيراً من دين محمد، فنزلت هذه الآية^(٤).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ أي: ناله أذى أو عذاب بسبب إيمانه ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ أي: ما يصيبه من عذابهم في الدنيا ﴿كَذَّابَ اللَّهِ﴾ في الآخرة، وإنما ينبغي للمؤمن أن يصبر على الأذى في الله تعالى لما يرجو من ثوابه^(٥) ﴿وَلَكِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني دولة للمؤمنين ﴿يَقُولُونَ﴾ يعني المنافقين للمؤمنين ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ على دينكم، فكذبهم الله ﷻ وقال: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْكَافِرِينَ﴾ من الإيمان والنفاق. وقد فسرنا الآية التي تلي هذه في أول السورة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾
﴿وَلْيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَفْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْتَخْلَنَ يَوْمَ الْآفِكَةِ عَمَّا كَانُوا يَقْتُرُونَ﴾^(٦)

قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ يعنون: ديننا. قال مجاهد: هذا قول كفار قريش لمن آمن من أهل مكة، قالوا لهم: لا نبعث نحن ولا أنتم فأتبعونا، فإن كان عليكم شيء فهو علينا.

قوله تعالى: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ قال الزجاج: هو أمر في تأويل الشرط والجزاء، يعني: إن أتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم. وقال الأخفش: كأنهم أمروا أنفسهم بذلك. وقرأ الحسن: «ولنحمل» بكسر اللام. قال ابن قتيبة: الواو زائدة، والمعنى: لنحمل خطاياكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ أي: فيما ضمنوا من حمل خطاياهم.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ﴾ أي: أوزار أنفسهم ﴿وَأَفْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أي: أوزاراً مع أوزارهم، وهي أوزار الذين أضلّوهم، وهذا كقوله: ﴿لْيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُبْغِلُونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] ﴿وَلَيَسْتَخْلَنَ يَوْمَ الْآفِكَةِ﴾ سؤال توبيخ وتقريع ﴿عَمَّا كَانُوا يَقْتُرُونَ﴾ من الكذب على الله ﷻ؛ وقال مقاتل: عن قولهم: نحن الكفلاء بكل تبعة تصيبكم من الله ﷻ.

(١) ذكره الواحدي بدون سند ١٩٦، وهو في «الطبري» بأطول منه ١٣٣/٢٠ عن عكرمة عن ابن عباس مستنداً، وذكره السيوطي في «أسباب النزول» بنحو رواية الطبري ٢٠٥/٢، وزاد نسبة لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «سنة» عن ابن عباس.

(٢) «الطبري» ١٣٢/٢٠، وذكره السيوطي في «الدر» ١٤٢/٥، وزاد نسبة للقرطبي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) «الطبري» ١٣٢/٢٠.

(٤) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ٤٧: ذكر القصة بطولها للعلبي بدون سند، والواحدي عن ابن الكلبي، ورواها الطبري من طريق أسباط عن السدي بشيء يسير ولم يسم الحارث، فقال: ومعه رجل من بني عامر.

(٥) قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بالسنتهم ولم يثبت في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا، اعتقدوا أن هذا من نعمة الله تعالى بهم، فارتدوا عن الإسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَلَآ أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَذَّابَ اللَّهِ﴾ ثم قال: قال ابن عباس: يعني فتنة أن يرتد عن دينه إذا أُوذِيَ في الله، وكلنا قال غيره من علماء السلف. اهـ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَاثَمَ فِيهِمْ أَلَفَ سَنَةً إِلَّا خَشِيَ عَاقِبَةَ أُولَئِكَ فَوَعَدْنَاهُ إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١١﴾ فَلَنَبْلُوَنَّهٗ وَأَنصَبْنَا السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا دَابَّةً لِّلْغَالِيَةِ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا نُوحًا إِذْ قَاوَاهُ﴾ في هذه القصة تسليّة للنبي ﷺ حيث أعلم أن الأنبياء قد ابتلوا قبله، وفيها وعيد شديد لمن أقام على الشرك، فإنهم وإن أمهلوا، فقد أمهل قوم نوح أكثر ثم أخذوا.

قوله تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ اختلفوا في عمر نوح على خمسة أقوال: أحدها: بُعِثَ بعد أربعين سنة، وعاش في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم، وعاش بعد الطوفان ستين سنة، رواه يوسف بن مهران عن ابن عباس^(١). والثاني: أَنَّهُ لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، وعاش بعد ذلك سبعين عاماً، فكان مبلغ عُمره ألف سنة وعشرين سنة، قاله كعب الأحبار. والثالث: أَنَّهُ بُعِثَ وهو ابن خمسين وثلاثمائة، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلاثمائة، قاله عون بن أبي شداد^(٢). والرابع: أَنَّهُ لَبِثَ فِيهِمْ قَبْلَ أَنْ يَدْعُوهُمْ ثَلَاثِمِائَةَ سَنَةٍ، [ودعاهم ثلاثمائة سنة]^(٣) ولَبِثَ بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة، قاله قتادة^(٤). وقال وهب بن منبّه: بُعِثَ لخمسين سنة. والخامس: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ بَيَّنَّتْ مِقْدَارَ عُمرِهِ كُلَّهُ، حكاها الماوردي^(٥). فإن قيل: ما فائدة قوله: ﴿إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾، فهَلْ قَالَ: تسعمائة وخمسين؟ فالجواب: أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ تَكْثِيرُ الْعِدَدِ، وَذِكْرُ الْأَلْفِ أَفْخَمُ فِي اللَّفْظِ، وَأَعْظَمُ لِلْعِدَدِ. قال الزجاج: تأويل الاستثناء في كلام العرب: التوكيد، تقول: جاءني إخوانك إلا زيدا، فتؤكد أَنَّ الْجَمَاعَةَ جَاءُوا، وَتَنْقُصُ زَيْدًا. واستثناء نصف الشيء قبيح جداً لا تتكلم به العرب، وإنما تتكلم بالاستثناء كما تتكلم بالنقصان، تقول: عندي درهم ينقُصُ قيراطاً، فلو قلت: ينقُصُ نصفه، كان الأولى أن تقول: عندي نصف درهم، ولم يأت الاستثناء في كلام العرب إلا قليلاً من كثير.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: الموت، روت عائشة عن رسول الله ﷺ في قوله: «فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ» قال: «الموت»^(٦). والثاني: المطر، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة. قال ابن قتيبة: هو المطر الشديد. والثالث: الغرق، قاله الضحاك. قال الزجاج: الطُّوفَانُ من كل شيء: ما كان كثيراً مطيئاً بالجماعة كلها، فالغرق الذي يشتمل على المدن الكثيرة: طوفان، وكذلك القتل الذريع، والموت الجارف: طوفان.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ قال ابن عباس: كافرون.

قوله تعالى: ﴿وَجَلَّتْهَا﴾ يعني السفينة، قال قتادة: أبقاها الله آية للناس بأعلى الجودي. قال أبو سليمان الدمشقي: وجاز أن يكون أراد: الفعلة التي فعلها بهم من الغرق «أي»، أي عبرة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ [بعدهم].

[illegible]

قوله تعالى: ﴿وَلِإِبْرَاهِيمَ﴾ قال الزجاج: هو معطوف على نوح، والمعنى: أرسلنا إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ يعني عبادة الله ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من عبادة الأوثان، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما هو خير لكم

(١) قال السيوطي في الدرر ١٤٣/٥: أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: بعث الله نوحاً وهو ابن أربعين سنة، ولبت فيه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا.

(۲) قال ابن كثير عن هذا القول: غريب رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير.

(۳) زیادة من تفسیر ابن کثیرؒ .

(٤) قال ابن كثير: وهذا قول غريب، وظاهر السياق من الآية أنه مكث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً.

(٥) قال ابن كثير: وقول ابن عباس أقرب، والله أعلم اهـ. يريد به القول الأول هنا.

(٦) رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ: ٥١/١٣، وَفِي سَنَدِهِ الْمُنْهَالُ بْنُ خَلِيفَةَ الْعَجَلِي، وَهُوَ ضَعِيفٌ، وَفِيهِ الْحِجَاجُ بْنُ أَرْطَاةَ، وَهُوَ صَدُوقٌ كَثِيرُ الْخَطَا وَالتَّدْلِيسِ، وَالْحَدِيثُ ذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ ٢٤٠/٢ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ مَرْدُوَيْهِ بِنَحْوِهِ، وَقَالَ عَنْهُ: حَدِيثٌ غَرِيبٌ. اهـ.

مما هو شر لكم؛ والمعنى: ولكنكم لا تعلمون. ﴿إِنَّمَا تَقْبَلُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ قال الفراء: «إنما» في هذا الموضع حرف واحد، وليست على معنى «الذي»، وقوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْكَارًا﴾ مردود على «إنما»، كقولك: إنما تفعلون كذا، وإنما تفعلون كذا. وقال مقاتل: الأوثان: الأصنام. قال ابن قتيبة: واحدها وثن، وهو ما كان من حجارة أو حصص.

قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْكَارًا﴾ وقرأ ابن السميع، وأبو المتوكل: «وتختلقون» بزيادة تاء. ثم فيه قولان: أحدهما: تختلقون كذباً في زعمكم أنها آلهة. والثاني: تصنعون الأصنام^(١) والمعنى: تعبدون أصناماً أنتم تصنعونها. ثم بين عجزهم بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُ لَكُمْ رَيْفًا﴾ أي: لا يقدر على أن يرزقكم ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أي: فاطلبوا من الله، فإنه القادر على ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْذِبُوا﴾ هذا تهديد لقريش ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أَئِمَّةٌ مِنَ بَنِيكُمْ﴾ والمعنى: فأهلكوا. ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُعِيدُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكِيدُونَ اللَّهَ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ [قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر «يَرَوُا»] بالياء وقرأ حمزة، والكسائي: بالطاء. [وعن عاصم كالقراءتين]. وعنى بالكلام كفار مكة ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ أي: كيف يخلقهم ابتداء من تطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة إلى أن يتم الخلق ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: ثم هو يُعيد في الآخرة عند البعث. وقال أبو عبيدة: مجازة: أو لم يَرَوْا كيف استأنف الله الخلق الأول ثم يعيده. وفيه لغتان: أبداً وأعاد، وكان مُبدئاً ومُعيداً، وبدأ وعاد، وكان بادئاً وعائداً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني الخلق الأول والخلق الثاني.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: انظروا إلى المخلوقات التي في الأرض، وابحثوا عنها هل تجدون لها خالقاً غير الله، فإذا علموا أنه لا خالق لهم سواه، لزمهم الحجة في الإعادة، وهو قوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُعِيدُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ أي: ثم الله ينشئهم عند البعث نشأة أخرى. وأكثر القراء قروا: «النشأة» بتسكين الشين وترك المد. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «النشأة» بالمد.

قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه في الآخرة بعد إنشائهم. والثاني: أنه في الدنيا. ثم فيه خمسة أقوال حكاهما الماوردي: أحدها: يعذب من يشاء بالحرص، ويرحم من يشاء بالقناعة. والثاني: يعذب بسوء الخلق ويرحم بحسن الخلق. والثالث: يعذب بمتابعة البدعة، ويرحم بملزمة السنة. والرابع: يعذب بالانقطاع إلى الدنيا، ويرحم بالإعراض عنها. والخامس: يعذب من يشاء بيفض الناس له، ويرحم من يشاء بحب الناس له.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَقْلِبُونَ﴾ أي: تُردُّون. ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه قولان حكاهما الزجاج: أحدهما: وما أنتم بمعجزين في الأرض، ولا أهل السماء بمعجزين في السماء. والثاني: وما أنتم بمعجزين في الأرض، ولا لو كنتم في السماء. وقال قطرب: هذا كقولك: ما يفوتني فلان لا هاهنا ولا بالبصرة، أي: ولا بالبصرة لو صار إليها. قال مقاتل: والخطاب لكفار مكة؛ والمعنى: لا تسبقون الله حتى يجزيكم بأعمالكم السيئة. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: قريب ينعكم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يمنعكم من الله.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكِيدُونَ اللَّهَ وَلِقَائِهِ﴾ أي: بالقرآن والبعث ﴿أُولَئِكَ يَكُونُ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الرحمة قولان: أحدهما: الجنة، قاله مقاتل. والثاني: العفو والمغفرة، قاله أبو سليمان. قال ابن جرير: وذلك في الآخرة عند رؤية العذاب.

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك قول من قال: منما: وتصنعون كذباً.

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٦) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ يَتَّبِعُ الْبَغْضَاءَ بَيْنَكُمْ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ تَنْصِيرٍ (١٧)

ثم عاد الكلام إلى قصة إبراهيم، وهو قوله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ أي: حين دعاهم إلى الله ونهاهم عن الأصنام ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وهذا بيان لسفه أحلامهم حين قابلوا احتجابه عليهم بهذا. قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَاهُ اللَّهُ﴾ المعنى: فحرّقه فأنجاه الله ﴿مِنْ النَّارِ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يشير إلى إنجائه إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ﴾ يعني إبراهيم ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ» بالرفع والإضافة. قال الزجاج: «مَوَدَّة» مرفوعة بإضمار «هي»، كأنه قال: تلك مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ، أي: ألفتكم واجتماعكم على الأصنام مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ؛ والمعنى: إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ هَذِهِ الْأَوْثَانَ لِتَتَوَادَّوا بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. ويجوز أن تكون «ما» بمعنى الذي. وقرأ ابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعكرمة، وابن أبي عبيدة: «مَوَدَّة» بالرفع «بَيْنِكُمْ» بالنصب. وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ» قال أبو علي: المعنى: اتَّخَذْتُمْ الْأَصْنَامَ لِلْمَوَدَّةِ، «وَبَيْنَكُمْ» نصب على الظرف، والعامل فيه المَوَدَّةُ. وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: «مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ» بنصب «مَوَدَّة» مع الإضافة، وهذا على الاتساع في جعل الظرف اسماً لما أضيف إليه. قال المفسرون: معنى الكلام: إِنَّمَا اتَّخَذْتُمُوهَا لِتَتَّصِلَ الْمَوَدَّةُ بَيْنَكُمْ وَاللِّقَاءُ وَالاجْتِمَاعُ عِنْدَهَا، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهَا لَا تَنْصُرُ وَلَا تَنْفَعُ، ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: يتبرأ القادة من الاتباع ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ يلعن الاتباع القادة لأنهم زبنا لهم الكفر.

﴿فَقَامَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨) وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَنَزَّلْنَاهُ فِي الْآخِرَةِ لَئِنْ الصَّالِحِينَ (١٩) وَلَوْ كُنَّا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّمَا كُنْتُ نَذِيرٌ لَكُمْ تَأْتُونَ الْقِسْطَ مَا مَنَّكُمْ بِكَ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٠) أَمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمُ الشُّكْرَ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّخِذْنَا بَعْدَ اللَّهِ مِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢١) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٢٢)

قوله تعالى: ﴿فَقَامَ لَهُ لُوطٌ﴾ أي: صدّق بإبراهيم ﴿وَقَالَ﴾ يعني إبراهيم ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ فيه قولان: أحدهما: إلى رضا ربي. والثاني: إلى حيث أمرني ربي، فهاجر من سواد العراق إلى الشام وهجر قومه المشركين. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ بعد إسماعيل ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ من إسحاق ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكِتَابَ﴾ وذلك أن الله تعالى لم يبعث نبياً بعد إبراهيم إلّا من صلبه ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: الذّكر الحسن، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: الثناء الحسن والولد الصالح، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: العافية والعمل الحسن والثناء، فلست تلقى أحداً من أهل الملأ إلّا يتولّاه، قاله قتادة، والرابع: أنه أرى مكانه من الجنة، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ فِي الْآخِرَةِ لَئِنْ الصَّالِحِينَ﴾ قد سبق بيانه [البقرة: ١٣٠] قال ابن جرير: له هناك جزاء الصالحين غير منقوص من الآخرة بما أعطي في الدنيا من الأجر. وما بعد هذا قد سبق بيانه [الأعراف: ٨٠] إلى قوله: ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم كانوا يعترضون مَنْ مَرَّ بِهِمْ لَعَلَّهُمْ الْخَبِيثَ، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنهم كانوا إذا جلسوا في مجالسهم يرمون ابن السبيل بالحجارة، فيقطعون سبيل المسافرين، قاله مقاتل. والثالث: أنه قطع النسل للعدول عن النساء إلى الرجال، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمُ الشُّكْرَ﴾ قال ابن قتيبة: النادي: المجلس، والمُنْكَرُ يجمع الفواحش من القول والفعل. وللمفسرين في المراد بهذا المُنْكَرُ أربعة أقوال: أحدها: أنهم كانوا يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم، فذلك المنكر، روته أم هانئ بنت أبي طالب عن رسول الله ﷺ^(١). وقال عكرمة، والسدي: كانوا يَحْذِفُونَ كُلَّ

(١) رواه أحمد في «المسند» ٣٤١/٦، والطبري ١٤٥/٢٠، والترمذي ١٥٠/٢ وحسنه، وأورده السيوطي في «الدر» ١٤٤/٥، وزاد نسبه للقرطبي، =

مَنْ مَرَّ بِهِمْ. والثاني: لَفَّ القميص على اليد، وجرَّ الإزار، وحلَّ الأزار، والحذف والرمي بالبندق، ولعب الحمام، والصَّفير، في خصال أخر رواها ميمون بن مهران عن ابن عباس. والثالث: أنه الضُّرَّاط، رواه عروة عن عائشة، وكذلك فسَّره القاسم بن محمد. والرابع: أنه إتيان الرجال في مجالسهم، قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد^(١). وهذه الآية [تدل] على أنه لا ينبغي للمجتمعين أن يتعاشروا إلا على ما يقرب من الله ﷻ، ولا ينبغي أن يجتمعوا على الهزء واللعب^(٢).

قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي﴾ أي: بتصديق قولي في العذاب.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلًا مِنْ رَبِّهِمْ يَأْتِيهِمْ قَالُوا إِنَّا مِنْكُمْ كَافِرُونَ أَمْ لَكُمْ آيَاتٌ أَنْ تُبَيِّنُوا بَيْنَ يَمِينٍ وَشِمَالٍ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّكَ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا لَكَ كَانَتْ مِنْكَ الْفِتْنَةُ ۚ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ رُكِّنَّا بِهِمَا وَاسِيَةً يُنْزِلُ يُغْوِي يَقُولُونَ ﴿٧٧﴾﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنْجُوكَ أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ يعنون قرية لوط.

قوله تعالى: ﴿لَتَنْجِيَنَّ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: «لَتَنْجِيَنَّ» وإِنَّا مُنْجُوكَ» بتشديد الحرفين، وخفَّفهما حمزة، والكسائي. وروى أبو بكر عن عاصم: «لَتَنْجِيَنَّ» مشددة، وإِنَّا مُنْجُوكَ» مخففة ساكنة النون. وقد سبق شرح ما أخللنا بذكره [عرد: ٧٧] إلى قوله: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ وهو الحَصْب والخسف.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رُكِّنَّا بِهِمَا﴾ في المكني عنها قولان: أحدهما: أنها الفَعْلَةُ التي فعل بهم؛ فعلى هذا في الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الحجارة التي أدركت أوائل هذه الأئمة، قاله قتادة. والثاني: الماء الأسود على وجه الأرض، قاله مجاهد. والثالث: الخبر عما صُنِعَ بهم. والثاني: أنها القرية؛ فعلى هذا في المراد بالآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنها آثار منازلهم الحَرَبِ، قاله ابن عباس. والثاني: أن الآية في قريتهم إلى الآن أن أساسها أعلاها وسقوفها أسفلها، حكاه أبو سليمان الدمشقي. والثالث: أن المعنى: تركناها آية، تقول: إن في السماء آية، تريد أنها هي الآية، قاله الفراء.

﴿وَلَا يَدْرِكُ أَهْلَهُمْ شَعَبًا فَقَالَ يَغْوِي رَبُّهُمُ اللَّهُ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ قال المفسرون: اخشوا البعث الذي فيه جزاء الأعمال.

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ يُنَادُّكَ لَكُمْ مِنَ مَسَكِينِهِمْ وَرَزَقَ لَهُمُ الشَّيْءَ لَكُنْ أَهْلُهُمْ فَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَعْصِفِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَدْ رُكِّنَّا بِهِمَا وَاسِيَةً يُنْزِلُ يُغْوِي رَبُّهُمُ اللَّهُ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٩﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ قال المفسرون: اخشوا البعث الذي فيه جزاء الأعمال.

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا﴾ قال الزجاج: المعنى: وأهلنا عاداً وثموداً، لأن قبل هذا ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾

= وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن أبي الدنيا في كتاب «الصمت»، وابن المنذر، والشاشي في «مسنده»، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وابن عساکر، عن أم هانئ بنت أبي طالب ﷺ. وفي «السند» والترمذي «يخذفون»، بالخاء المعجمة، وكذلك هو في «الدرر»، وفي الأصل «يخذفون» بالخاء المعجمة، والحذف يستعمل في الرمي والضرب معاً، والحذف - بالخاء المعجمة - ريك حصاة أو نواة تأخذها بين سبائك وترمي بها، أو تتخذ يخذف من خشب ثم ترمي بها الحصاة بين إبهامك والسبابة، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الخذف - بالخاء المعجمة - وقال عنه: «إِنَّهُ لَا يَقْتُلُ الصَّيْدَ، وَلَا يَنْكَا الْعُلُوَّ، وَإِنَّهُ يَفْقَأُ الْعَيْنَ وَيَكْسِرُ السَّرَّ» متفق عليه.

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: وتحذفون في مجالسكم المأزاة بكم، وتسخرون منهم، لما ذكرنا من الرواية بذلك عن رسول الله ﷺ. اهـ. يريد به حديث أم هانئ.

(٢) في النسخة الاستبوابية: ولا ينبغي أن يجتمعوا على الهزل واللعب.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ﴾ أي: ظهر لكم يا أهل مكة من منازلهم بالجحاز اليمن آية في هلاكهم، ﴿وَكَاثُرًا مُتَّبِعِينَ﴾ قال الفراء: أي: ذوي بصائر. وقال الزجاج: أتوا ما أتوه وقد تبين لهم أن عاقبته عذابهم. وقال غيره: كانوا عند أنفسهم مستبصرين، يظنون أنهم على حق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَاثُرًا مَكِيدِينَ﴾ أي: ما كانوا يفوتون الله أن يفعل بهم ما يريد.

قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ أي: عاقبتنا بتكذيبه ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ حَاصِبًا﴾ يعني قوم لوط ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ يعني ثموداً وقوم شعيب ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ يعني قارون وأصحابه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ يعني قوم نوح وفرعون ﴿وَمَا كَانَتْ آتِيَةً لِطُلُوعِهَا﴾ فيعذبهم على غير ذنب ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالإقامة على المعاصي.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَشَلِ الْمَكُوبِينَ أَخَذَتْ يَسْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْيَبُوتِ لَبَيْتُ الْمَكُوبِينَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢) ﴿وَلَقَدْ الْأَمْتَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِيُونَ﴾ (٣)

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني الأصنام يتخذها المشركون أولياء يرجون نفعها ونصرها، فمثلهم في ضعف احتيالهم ﴿كَشَلِ الْمَكُوبِينَ أَخَذَتْ يَسْتًا﴾ (١) قال ثعلب: والعنكبوت أنثى، وقد يذكرها بعض العرب، قال الشاعر:

[على مَطْلِهم منهم بُيُوتٌ] كَأَنَّ الْعَنْكَبُوتَ هُوَ ابْنَتَاهَا (٢)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: هو عالم بما عبده من دونه، لا يخفى عليه ذلك؛ والمعنى أنه يجازيهم على كفرهم. ﴿وَلَقَدْ الْأَمْتَلُ﴾ يعني أمثال القرآن التي شبه بها أحوال الكفار؛ وقيل: «تلك» بمعنى «هذه»، و«الْمَكُوبِينَ»: الذين يعقلون عن الله ﷻ.

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ (١) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) ﴿أَنْتَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرِمُ الصَّكَاةَ﴾ (٣) ﴿إِنَّ الصَّكَاةَ تُغْنِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (٤) ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: للحق، ولإظهار الحق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّكَاةَ تُغْنِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ في المراد بالصلاة قولان: أحدهما: أنها الصلاة المعروفة، قاله الأكثرون. وروى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ لَمْ تُغْنِهِ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، لَمْ يَزِدْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بَعْدًا» (٣). والثاني: أنَّ المراد بالصلاة: القرآن، قاله ابن عمر؛ ويدل على هذا قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ [الإسراء: ١١٠]. وقد شرحنا معنى الفحشاء والمنكر فيما سبق [البقرة: ١٦٨، النحل: ٩٠]. وفي معنى هذه الآية

(١) قال ابن كثير: هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ووزعهم ويتمسكون بهم في الشدايد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يهدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما أخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المومن قلبه لله وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه يتمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقرنها وثباتها. اهـ.

(٢) البيت غير منسوب في «مجمع البيان» ٣٦٣/٢٠، و«البحر المحيط» ١٥٢/٧، و«روح البيان» ١٤٠/٢٠، و«اللسان» و«التاج»: حنك. قال في «التاج»: ههنا: جبل.

(٣) هذا الحديث رواه الطبراني، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق ليث بن أبي سليم عن عطاء عن ابن عباس مرفوعاً، وهو حديث ضعيف، من أجل ليث بن أبي سليم، وقد أخرجه الطبري من رواية ابن عباس موقوفاً عليه، ومن رواية ابن مسعود موقوفاً عليه أيضاً، وهو الصواب. قال ابن كثير: والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وقتادة، والأعمش، وغيرهم. اهـ. فالحديث إذن ضعيف السند في المرفوع. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في بعض فتاويه: هذا الحديث ليس بثابت عن النبي ﷺ، لكن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر كما ذكر الله في كتابه، وبكل حال فالصلاة لا تزيد صاحبها بعداً، بل الذي يعلي خير من الذي لا يعلي وأقرب إلى الله منه وإن كان فاسقاً. اهـ. فكانه يشير إلى تضعيف منته أيضاً. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ لما قيل له: إن فلاناً يصلي الليل كله، فإذا أصبح سرق، فقال: «سيئها ما تقول» أو قال: «استعصمته صلاته» رواه أحمد، والبخاري، وابن حبان، وغيرهم، وصنده صحيح. يريد عليه الصلاة والسلام أن الصلاة إذا كانت على الوجه الأكمل، تنهى صاحبها عن الفحشاء، ولا تزيد بعداً، بل تزيد قرباً منه.

للعلماء ثلاثة أقوال: أحدها: أن الإنسان إذا أدَّى الصلاة كما ينبغي وتدبَّر ما يتلو فيها، نهته عن الفحشاء والمنكر، هذا مقتضاها وموجبها. والثاني: أنها تنهاه ما دام فيها. والثالث: أن المعنى: ينبغي أن تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر.

قوله تعالى: ﴿وَلِذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: وَلِذِكْرِ اللَّهِ إِثَّاكُمْ أَكْبَرُ من ذِكْرِكُمْ لِيَّاهُ، رواه ابن عمر عن رسول الله ﷺ^(١)، وبه قال ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد في آخرين. والثاني: وَلِذِكْرِ اللَّهِ أَفْضَلُ من كل شيء سواه، وهذا مذهب أبي الدرداء، وسلمان، وقتادة. والثالث: وَلِذِكْرِ اللَّهِ في الصلاة أَكْبَرُ ممَّا نَهَاكَ عَنْهُ من الفحشاء والمنكر، قاله عبد الله بن عون. والرابع: وَلِذِكْرِ اللَّهِ الْعَبْدَ - ما كان في صلاته - أَكْبَرُ من ذِكْرِ الْعَبْدِ لله، قاله ابن قتيبة.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَلَهُمَّا وَلَانَهُمْ رَيْدٌ وَمَنْ لَمْ يُسْلِمْ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ في التي هي أحسن ثلاثة أقوال: أحدها: أنها لا إله إلا الله، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: أنها الكُفُّ عنهم إذا بذلوا الجزية، فإن أَبَوْا قَاتِلُوا، قاله مجاهد. والثالث: أنها القرآن والدُّعَاء إلى الله بالآيات والحُجج.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ وهم الذين نصبوا الحرب وأَبَوْا أن يؤدُّوا الجزية، فجادلوا هؤلاء بالسيف حتى يُسْلِمُوا أو يُعْطُوا الجزية ﴿وَقُولُوا﴾ لِمَنْ أَدَّى الجزية منهم إذا أخبركم بشيء ممَّا في كتبهم ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [الآية]. وقد روى أبو هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [الآية]^(٢).

فصل

واختلف في نسخ هذه الآية على قولين: أحدهما: أنها نُسخَتْ بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] قاله قتادة، والكلبي. والثاني: أنها ثابتة الحكم، وهو مذهب ابن زيد. ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ فَلَا يَنْتَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ تَحْتِهَا مَن يَكْفُرُ وَمَا يَحْجِدُ بِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾^(٣) وَمَا كُنْتَ تَقُولُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُ بِرِسَالَةٍ إِذَا تَرَانَا الْمَكِيدُونَ ﴿٤﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَ فِي صُورِ الْآيَاتِ أَوْفُوا الْوَعْدَ وَمَا يَحْجِدُ بِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَّا الْكَاذِبُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما أنزلنا الكتاب عليهم ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ فَلَا يَنْتَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾

(١) ذكره السيوطي في الدرر: ١٤٦/٥ من رواية ابن السني، وابن مردويه، والديلمي عن ابن عمر رضي الله عنهما، وذكر الطبري هذا المعنى في «ال تفسير» من قول ابن عباس. قال ابن كثير: وقد روي هذا من غير وجه عن ابن عباس، وروي أيضاً عن ابن مسعود، وأبي الدرداء، وسلمان الفارسي، وغيرهم، واختاره ابن جرير. اهـ.

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» ١٢٩/٨. قال ابن كثير: إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه، فهنا لا نقدم على تكذيبه، لأنه قد يكون حقاً، ولا تصديقه، فلمله أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيماناً مجملاً معلقاً على شرط، وهو أن يكون منزلاً، لا مبذلاً ولا مؤزلاً. وقال أيضاً: ثم لنعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان، لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل، وما أقل الصدق فيه، ثم ما أقل فائدة كثير من لو كان صحيحاً. اهـ. وقال ابن كثير: قال البخاري عن ابن عباس: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث تقرؤونه محضاً لم يُنسخ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب يبلّغوا ويقرؤوا وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم من مسالتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم. وقال ابن كثير أيضاً: قال البخاري: وقال أبو الهيثم: أخبرنا شعب عن الزهري، أخبرني حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رجلاً من قريش بالمدينة وذكر كتب الأحبار فقال: إن كان من أصلك هؤلاء المحذونين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب، قال ابن كثير: معناه: أنه يقع منه الكذب لفة من غير قصد، لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن، وفيها أشياء موضوعة، ومكذوبة، لأنهم لم يكن في ملئهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة، ومع ذلك وقرب العهد وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة لا يعلمها إلا الله ﷻ، ومن منحه الله تعالى علماً بذلك كل بحسبه، والله الحمد والمنة. اهـ.

يعني مؤمني أهل الكتاب ﴿زَمَنَ هَذَلِكَ﴾ يعني أهل مكة ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ وهم الذين أسلموا ﴿وَمَا يَحْكُدُ بِعَيْنِنَا إِلَّا الْقُلُوبُ﴾ قال قتادة: إنما يكون الجحد بعد المعرفة. قال مقاتل: وهم اليهود.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْمُرُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ قال أبو عبيدة: مجازة: ما كنت تقرأ قبله كتاباً، و«مين» زائدة. فاما الهاء في «قَبْلِهِ» فهي عائدة إلى القرآن. والمعنى: ما كنت قارئاً قبل الوحي ولا كتاباً، وهكذا كانت صفته في التوراة والإنجيل أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب^(١)، وهذا يدل على أن الذي جاء به من عند الله تعالى. قوله تعالى: ﴿إِذَا لَزَأْتَ أَلْمُظِلُّونَ﴾ أي: لو كنت قارئاً كتاباً لشك اليهود فيك، وقالوا: ليست هذه صفته في كتابنا. والمُظِلُّون: الذين يأتون بالباطل، وفيهم هاهنا قولان: أحدهما: كفار قريش، قاله مجاهد. والثاني: كفار اليهود، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ في المكني عنه قولان: أحدهما: أنه النبي محمد ﷺ، ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: أن المعنى: بل وجدنا أهل الكتاب في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يكتب ولا يقرأ، وأنه أمي، آيات بيّنات في صدورهم، وهذا مذهب ابن عباس، والضحاك، وابن جريج. والثاني: أن المعنى: بل محمد ذو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب، لأنهم يجدونه بنعته وصفته، قاله قتادة. والثاني: أنه القرآن، والذين أوتوا العلم: المؤمنون الذين حملوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ وحملوه بعده. وإنما أعطي الحفظ هذه الأمة، وكان من قبلهم لا يقرؤون كتابهم إلا نظراً، فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه سوى الأنبياء، وهذا قول الحسن. وفي المراد بالظالمين هاهنا قولان: أحدهما: المشركون، قاله ابن عباس. والثاني: كفار اليهود، قاله مقاتل.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ آيَاتٌ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا بِمَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ يعني كفار مكة ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «آيات» على الجمع. وقرأ ابن كثير، وحمره، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «آية» على التوحيد. وإنما أرادوا: كآيات الأنبياء ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: هو القادر على إرسالها، وليست بيدي. وزعم بعض علماء التفسير أن قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ منسوخ بآية السيف. ثم بين الله ﷻ أن القرآن يكفي من الآيات التي سألوها بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ آيَاتٌ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾؟ وذكر يحيى بن جعدة أن ناساً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ بكتب قد كتبوها، فيها بعض ما يقول اليهود، فلما نظر إليها ألقاها وقال: «كفى بها حمالة قوم، أو ضلالة قوم، أن يرغبوا عما جاء به نبئهم إلى قوم غيرهم»، فنزلت: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ آيَاتٌ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾^(٣)

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ قال المفسرون: لما كذبوا بالقرآن نزلت: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ يشهد لي أنني رسول الله، ويشهد عليكم بالكذب، وشهادة الله له: إثبات المعجزة له بإزالة الكتاب عليه، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ قال ابن عباس: بغير الله. وقال مقاتل: بعبادة الشيطان.

(١) قال ابن كثير: ومن زعم من متأخري الفقهاء، كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنه ﷺ كتب يوم الحديبية: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله»، فلما حمله على ذلك رواية في «صحيح البخاري»: «ثم أخذ فكتب»، وهذه محاولة على الرواية الأخرى: «ثم أمر فكتب»، ولهذا اشدت التكرار من فقهاء المشرق والمغرب على من قال يقول الباجي، وتبرؤوا منه. ثم قال ابن كثير: وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة، فضعيف لا أصل له. اهـ.

(٢) رواه الطبري ٧/٢١، قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٢٨: رواه الطبري، وأبو داود في «المراسيل» من طريق يحيى بن جعدة. وقال ابن حجر في «التقريب» من جعدة: ثقة وقد أرسل عن ابن مسعود ونحوه. وذكر هذا الخبر السيوطي في «الدر» ١٤٨/٥، وزاد نسبه للدارمي، وابن المنذرة، وابن أبي حاتم، عن يحيى بن جعدة ﷺ، وأورده السيوطي في «الدر» أيضاً من رواية الإسماعيلي في «معجمه»، وابن مردويه من طريق يحيى بن جعدة عن أبي هريرة ﷺ بنحوه.

ابن قتبية: ومعنى الآية: كم من دابة لا ترفع شيئاً لغد، قال ابن عيينة: ليس شيء يخبأ إلا الإنسان والفأرة والنملة. قال المفسرون: وقوله: ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ أي: حيثما توجهت ﴿وَلِيَاكُمُ﴾ أي: ويرزقكم إن هاجرتم إلى المدينة ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولكم: لا نجد ما ننفق بالمدينة ﴿الكثير﴾ بما في قلوبكم.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَحَرَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ أَشَاءَ كُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ﴾ ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ زَلَّ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ﴾ يعني كفار مكة، وكانوا يقولون بأنه الخالق والرازق؛ وإنما أمره أن يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إقرارهم، لأن ذلك يلزمهم الحجة فيوجب عليهم التوحيد ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ توحيد الله مع إقرارهم بأنه الخالق. والمراد بالأكثر: الجميع.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَيْبٌ وَلِلَّكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ لَهِيَ الْحَيَوةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَاُ اللَّهَ تَحْصِينَ لَهُ الْيَوْمَ فَلَمَّا بَلَغْتَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلَيَسْتَعْمِلُنَّ﴾ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَيْبٌ﴾ والمعنى: وما الحياة في هذه الدنيا إلا غرور ينقضي عن قليل ﴿وَلِلَّكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ يعني الجنة ﴿لَهِيَ الْحَيَوةُ﴾ قال أبو عبيدة: اللام في ﴿لَهِيَ﴾ زائدة للتوكيد، والحيوان والحياة واحد؛ والمعنى: لهي دار الحياة التي لا موت فيها، ولا تنغيص يشوبها كما يشوب الحياة في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو علموا لرغبوا عن الفاني في الباقي، ولكنهم لا يعلمون.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ﴾ يعني المشركين ﴿دَعَاُ اللَّهَ تَحْصِينَ لَهُ الْيَوْمَ﴾ أي. أفردوه بالدعاء. قال مقاتل: والذين بمعنى التوحيد؛ والمعنى أنهم لا يدعون من يدعونه شريكاً له ﴿فَلَمَّا بَلَغْتَهُمْ﴾ أي: خلّصهم من أهوال البحر، وأفضوا ﴿إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ في البر، وهذا إخبار عن عنادهم. ﴿يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ هذه لام الأمر، ومعناه التهديد والوعيد كقوله: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [نصحت: ٤٠]؛ والمعنى: ليتجحدوا نعمة الله في إنجائه إياهم ﴿وَلَيَسْتَعْمِلُنَّ﴾ قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي بإسكان اللام على معنى الأمر؛ والمعنى: ليمتعوا بباقي أعمارهم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم. وقرأ الباقون بكسر اللام في ﴿لَيَسْتَعْمِلُنَّ﴾، فجعلوا اللامين بمعنى «كي»، فتقديره: لكي يكفروا، ولكي يتمتعوا، فيكون معنى الكلام: إذا هم يشركون ليكفروا وليتمتعوا، أي: لا فائدة لهم في الإشراك إلا الكفر والتمتع بما يتمتعون به في العاجلة من غير نصيب لهم في الآخرة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَكَمًا مِثْلًا وَيَخْطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَتِيَابَ الْأَبْطَالِ يَوْمُونَ وَيَنْعَمُ اللَّهُ بِكَفَرُونَ﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني كفار مكة ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَكَمًا مِثْلًا﴾ يعني مكة؛ وقد شرحنا هذا المعنى في [القصاص: ٥٧] ﴿وَيَخْطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ أي: أن العرب ينسب بعضهم بعضاً وأهل مكة آمنون ﴿أَتِيَابَ الْأَبْطَالِ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: الشرك، قاله قتادة. والثاني: الأصنام، قاله ابن السائب. والثالث: الشيطان، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿يَوْمُونَ﴾ ﴿وَيَنْعَمُ اللَّهُ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وعاصم الجحدري: ﴿تُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمُ اللَّهُ تَكْفُرُونَ﴾ بالتاء فيهما.

= رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط من التمر، ويأكل، فقال لي: «يا ابن عمر مالك لا تأكل؟» قلت: لا أشتهي يا رسول الله، قال: «لكني أشتهي، وهله صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً، ولم أجده، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقبصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبؤون رزقك ستمهم ويضغف اليقين؟» قال: فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت: ﴿وَكُلٌّ مِنْ ذَلِكَ لَا يَحِيلُ يَرْزُقُهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَيَاكُمُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٤﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا ولا بتابع الشهوات، إلا واني لا أكنز ديناراً ولا درهماً، ولا أدر زرقاً لغد». قال ابن كثير: وهذا حديث غريب، وأبو العطف الجزري ضعيف اه، يعني أحد رجال السند، وهو الجراح بن منهال الجزري.

قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُ اللَّهُ﴾ يعني: محمداً والإسلام؛ وقيل: بإنعام الله عليهم حين أطعمهم وأمنهم ﴿يَكْفُرُونَ﴾، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي: زعم أن له شريكاً وأنه أمر بالفواحش ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ يعني محمداً والقرآن ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾؟! وهذا استفهام بمعنى التقرير، كقول جرير: *هذا الذي يسمون بالجنة* [وَأَنذَى الْعَالَمِينَ يُطِونَ رَاحاً] ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِتْنًا﴾ أي: قاتلوا أعداءنا لأجلنا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: لنوفقنهم لإصابة الطريق المستقيمة؛ وقيل: لنزيدنهم هداية ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصرة والعون. قال ابن عباس: يريد بالمُحْسِنِينَ: الموحدين؛ وقال غيره: يريد المجاهدين. وقال ابن المبارك: من اعتاضت عليه مسألة، فليسأل أهل الثغور عنها، لقوله: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.



سورة الروم

وهي مَكِّيَّة كُلُّهَا بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَلَمَ ۝ غَلَبَ الرُّومَ ۝ فِي آدَنَى الْأَرْضِينَ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَوَلُّونَ ۝﴾ في يَضَعُ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْثَرُ مِنْ قَبْلِ وَيُنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَقْرَأُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿غَلَبَ الرُّومَ ۝﴾ ذكر أهل التفسير في سبب نزولها أنه كان بين فارس والروم حرب فغلبت فارس الروم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه، فشق ذلك عليهم، وفرح المشركون بذلك، لأن فارس لم يكن لهم كتاب وكانوا يجحدون البعث ويعبدون الأصنام، والروم أصحاب كتاب، فقال المشركون لأصحاب رسول الله ﷺ: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم، فإن قاتلتمونا لَنُظْهِرَنَّ عليكم، فنزلت هذه الآية، فخرج بها أبو بكر الصديق إلى المشركين، فقالوا: هذا كلام صاحبك، فقال: الله أنزل هذا، فقالوا لأبي بكر: نراهنك على أن الروم لا تغلب فارس، فقال أبو بكر: البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فقالوا: الوسط من ذلك ست، فوضعوا الرهان، وذلك قبل أن يُحْرَمَ الرهان، فرجع أبو بكر إلى أصحابه فأخبرهم، فلاموه وقالوا: هَلَّا أَفَرَرْتَهَا كَمَا أَفَرَّهَا اللهُ! لو شاء أن يقول: ستاً، لقال: فلماً كانت سنة ست، لم تظهر الروم على فارس، فأخذوا الرهان، فلماً كانت سنة سبع ظهرت الروم على فارس^(١). وروى ابن عباس قال: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿الْعَلَمَ ۝ غَلَبَ الرُّومَ ۝﴾ نأحب^(٢) أبو بكر قريشاً، فقال له رسول الله ﷺ: «ألا احتطت»، فَإِنَّ الْبُضْعَ مَا بَيْنَ السَّيْعِ^(٣) وَالتَّسْعِ^(٤). وذكر بعضهم أنهم ضربوا الأجل خمس سنين^(٥)، وقال بعضهم: ثلاث سنين، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا الْبُضْعُ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى التَّسْعِ»، فخرج أبو بكر فقال لهم: أزايدكم في الخطر وأمد في الأجل إلى تسع سنين، ففعلوا، فقهرهم أبو بكر، وأخذ رهانهم^(٦). وفي الذي تَوَلَّى وضع الرهان من المشركين قولان: أحدهما: أبي بن خلف، قاله قتادة. والثاني: أبو سفيان بن حرب، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿فِي آدَنَى الْأَرْضِينَ﴾ وقرأ أبي بن كعب، والضحاك، وأبو رجاء، وابن السميع: «في أداني الأرض» بألف مفتوحة الدال؛ أي: أقرب الأرض أرض الروم إلى فارس. قال ابن عباس: وهي طرف الشام. وفي اسم هذا المكان ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الجزيرة، وهي أقرب أرض الروم إلى فارس، قاله مجاهد. والثاني، أذِرْعَات وَكُسْكُر^(٧)، قاله عكرمة. والثالث: الأردن وفلسطين، قاله السدي.

(١) ذكره بنحوه الترمذي في التفسير ١٥٠/٢ عن نيار بن مكرم، والطبري ١٧/٢١ عن عكرمة، وذكره البغوي والخازن، وأورده السيوطي في «الدر» ٥/١٥١ وعزاه إلى الترمذي، وزاد نسبه للدارقطني في «الأفراد»، والطبراني، وابن مردويه، وأبي نعيم في «الدلائل»، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن نيار بن مكرم الأسلمي.

(٢) المناحية: المخاطرة والمراعاة.

(٣) كذا الأصل: «فإن البضع ما بين السبع والتسع» والذي في «الطبري»، و«الترمذي»: «فإن البضع ما بين الثلاث إلى التسع».

(٤) ذكره بنحوه الطبري ١٧/٢١، و«الترمذي» ١٥٠/٢، عن ابن عباس ؓ. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، من حديث الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس. ورواه الطبري عن عبد الله بن عمرو من قوله، والله أعلم.

(٥) ذكر ذلك الطبري ١٦/٢١. (٦) ذكره بنحوه الطبري ١٨/٢١.

(٧) قال ياقوت الحموي في «معجم البلدان»: كُسْكُرٌ: معناه: عامل الزرع، وهي كورة واسعة تنسب إليها الفرائج الكسكورية، لأنها تكثر بها جدّاً، وقال: قصبتها اليوم «واسط» القصبة التي بين الكوفة والبصرة، وكانت قصبتها قبل أن يَمْضِيَ الْحِجَابَ واسطاً. خسرو سابور. قال: وسميت كسكر بكسكر بن طهمورث الملك الذي هو أصل الفرس، وقال آخرون: معنى كسكر: بلد الشعير، بلغة أهل هراة.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ﴾ يعني الروم ﴿وَبَعْدَ عَلَيْهِمْ﴾ وقرأ أبو الدرداء، وأبو رجاء، وعكرمة، والأعمش: «غلبهم» بتسكين اللام؛ أي: من بعد غلبة فارس إياهم. والغلب والغلبة لغتان، «يَغْلِبُونَ» فارس «فِي يَضْعَ سِنِينَ» في البضع تسعة أقوال قد ذكرناها في [يوسف: ٤٢] قال المفسرون: وهي هاهنا سبع سنين، وهذا من علم الغيب الذي يدل على أن القرآن حق، ﴿لَقَدْ أَنتَرْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي: من قبل أن تغلب الروم ومن بعد ما غلبت؛ والمعنى أن غلبة الغالب وخذلان المغلوب، بأمر الله وقضائه ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ يعني يوم غلبت الروم فارس «يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ» للروم. وكان اللقاء الفريقين في السنة السابعة من غلبة فارس إياهم، فغلبتهم الروم، وجاء جبريل يُخبر بنصر الروم على فارس، فوافق ذلك يوم بدر، وقيل: يوم الحديبية.

﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِآلْحَقٍّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ أي: وعد الله ذلك وعداً ﴿لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أن الروم يظهرهم على فارس ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ يعني كفار مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله لا يخلف وعده في ذلك. ثم وصف كفار مكة، فقال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال عكرمة: هي المعاش. وقال الضحاك: يعلمون ببيان قصورها وتشقيق أنهارها. وقال الحسن: يعلمون متى زرعهم ومتى حصادهم، ولقد بلغ والله من علم أحدهم بالدنيا أنه ينقر الدرهم بظفره فيخبرك بوزنه ولا يحسن يصلي.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰفِلُونَ﴾ لأنهم لا يؤمنون بها. قال الزجاج: وذكرهم ثانية يجري مجرى التوكيد، كما تقول: زيد هو عالم، وهو أوكد من قولك: زيد عالم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ قال الزجاج: معناه: أو لم يتفكروا فيعلموا، فحذف «فيعلموا» لأن في الكلام دليلاً [عليه]. ومعنى ﴿إِلَّا بِآلْحَقٍّ﴾: إلا للحق، أي: لإقامة الحق ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو وقت الجزاء ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ﴾ المعنى: لكافرون بقاء ربهم، فقدمت الباء، لأنها متصلة بـ «كافرون»؛ وما اتصل بخير «إن» جاز أن يقدم قبل اللام، ولا يجوز أن تدخل اللام بعد مضي الخبر من غير خلاف بين النحويين، لا يجوز أن تقول: إن زيدا كافر لبالله، لأن اللام حقه أن تدخل على الابتداء أو الخبر، أو بين الابتداء والخبر، لأنها تؤكد الجملة. وقال مقاتل في قوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: للسموات والأرض أجل ينتهيان إليه، وهو يوم القيامة، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ يعني كفار مكة ﴿بِلِقَائِ رَبِّهِمْ﴾ أي: البعث ﴿لَكٰفِرُونَ﴾

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِمَّنْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَمَنَّا نُهُمْ بِالْإِنْسَانِ مِمَّا كَانَتْ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَتَوْا السَّوَاءَ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِمَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٦﴾ اللَّهُ يَذَرُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَمِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ رُجُوعُهُمْ ﴿١٧﴾﴾ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أو لم يسافروا فينظروا مصارع الأمم قبلهم كيف أهلکوا بتكذيبهم فيعتبروا.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَارُوا الْأَرْضَ﴾ أي: قلبوها للزراعة، ومنه قيل للبقرة: مثيرة. وقرأ أبي بن كعب، ومعاذ القارئ، وأبو حية: «وَأَنَارُوا الأرض» بمد الهمزة وفتح الناء مرفوعة الراء، «وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا» أي: أكثر من عمارة أهل مكة، لطول أعمار أولئك وشدة قوتهم ﴿وَمَنَّا نُهُمْ بِالْإِنْسَانِ﴾ أي: بالدلالات ﴿مِمَّا كَانَتْ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾ بتعذيبهم على غير ذنب ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر والتكذيب؛ ودل هذا على أنهم لم يؤمنوا فأهلكوا. ثم أخبر عن عاقبتهم فقال: ﴿ثُمَّ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَتَوْا السَّوَاءَ﴾ يعني الخلعة السيئة؛ وفيها قولان: أحدهما: أنه العذاب، قاله الحسن. والثاني: جهنم، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿أَن كَذَّبُوا﴾ قال الفراء: معناه: لأن كذبوا فلما أُلقيت اللام كان نصباً. وقال الزجاج: لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم. وقيل: السَّوَاءُ مصدر بمنزلة الإساءة؛ فالمعنى: ثم كان التكذيب آخر أمرهم، أي: ماتوا على

ذلك، كأنَّ الله تعالى جازاهم على إساءتهم أن طبع على قلوبهم حتى ماتوا على التكذيب عقوبة لهم. وقال مكي بن أبي طالب النحوي: «عاقبة» اسم كان، و«السَّوْأى» خبرها، و«أن كَذَّبُوا» مفعول من أجله؛ ويجوز أن يكون «السَّوْأى» مفعولة بـ «أسأؤوا»، و«أن كَذَّبُوا» خبر كان؛ ومن نصب «عاقبة» جعلها خبر «كان»، و«السَّوْأى» اسمها، ويجوز أن يكون «أن كَذَّبُوا» اسمها. وقرأ الأعمش: «أسأؤوا السَّوْءَ» برفع «السَّوْءَ».

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: يخلقهم أولاً، ثم يعيدهم بعد الموت أحياء كما كانوا، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «تُرْجَعُونَ» بالثاء؛ فعلى هذا يكون الكلام عائداً من الخبر إلى الخطاب. وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: بالياء، لأن المتقدم ذكره غيبة، والمراد بذكر الرجوع: الجزاء على الأعمال، والخلق بمعنى المخلوقين، وإنما قال: «يُعِيدُهُ» على لفظ الخلق.

﴿وَبِمَ نَقُومُ السَّاعَةَ بَلِيسَ السَّجِرُونَ﴾ ❶ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ❷ وَبِمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ❸ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْحَةٍ يُخْبَرُونَ ❹ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ❺

قوله تعالى: ﴿بَلِيسَ السَّجِرُونَ﴾ قد شرحنا الإبلان في [الأنعام: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ شُرَكَائِهِمْ﴾ أي: [من] أوثانهم التي عبدوها ﴿شُفَعَاءُ﴾ في القيامة ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ يتبرؤون منها وتبرأ منهم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ وذلك بعد الحساب ينصرف قوم إلى الجنة، وقوم إلى النار.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْحَةٍ الرَّوْضَةِ﴾ المكان المخضر من الأرض؛ وإنما خصَّ الروضة، لأنها كانت أعجب الأشياء إلى العرب؛ قال أبو عبيدة: ليس شيء عند العرب أحسن من الرياض المُعْشِبَةِ ولا أطيب ريحاً، قال الأعرابي:

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْحَزَنِ مُعْشِبَةٌ خَضِرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَاطِلٌ
يَوْمًا بِأَطْيَبِ مِنْهَا نَشْرَ رَائِحَةٍ وَلَا بِأَحْسَنَ مِنْهَا إِذْ ذَا الْأُصْلُ ❶

قال المفسرون: والمراد بالروضة: رياض الجنة. وفي معنى «يُخْبَرُونَ» أربعة أقوال: أحدها: يُكْرَمُونَ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: يَنْعَمُونَ، قاله مجاهد، وقناة. قال الزجاج: والخبرة في اللغة: كل نعمة حسنة. والثالث: يفرحون، قاله السدي. وقال ابن قتيبة: «يُخْبَرُونَ»: يُسْرُونَ، والخبرة: السرور. والرابع: أن الخبر: السماع في الجنة، فإذا أخذ أهل الجنة في السماع، لم تبق شجرة إلا وُردت، قاله يحيى بن أبي كثير. وسئل يحيى بن معاذ: أي الأصوات أحسن؟ فقال: مزامير أنس، في مقاصير قُذس، بالحن تحميد، في رياض تمجيد ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدِّرٍ﴾ ❷ [القمر: ٥٥].

قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: هم حاضرون العذاب أبداً لا يخفف عنهم.

﴿فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُسْجُدُ وَحِينَ تَقُومُ﴾ ❶ وَحِينَ تَضِيحُونَ ❷ وَهُوَ الْاَحَدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ❸ يُخْرِجُ اللَّيْلَ مِنَ النَّهَارِ وَالنَّهَارَ مِنَ اللَّيْلِ وَيَخْتَرِجُ اللَّيْلَ مِنَ اللَّيْلِ وَيَخْتَرِجُ اللَّيْلَ مِنَ اللَّيْلِ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ❹

ثم ذكر ما تذكرك به الجنة وتباعد به من النار فقال: ﴿فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُسْجُدُ﴾ قال المفسرون: المعنى: فصلوا لله حين تُسْجُدُونَ، أي: حين تدخلون في المساء ﴿وَحِينَ تَضِيحُونَ﴾ أي: تدخلون في الصباح، و﴿تُظْهِرُونَ﴾ تدخلون في الظهيرة، وهي وقت الزوال، ﴿وَعَشِيًّا﴾ أي: وسبحوه عشياً. وهذه الآية قد جمعت الصلوات الخمس، فقله: ﴿حِينَ تُسْجُدُ﴾ يعني [به] صلاة المغرب والعشاء، ﴿وَحِينَ تَضِيحُونَ﴾ يعني به صلاة الفجر، ﴿وَعَشِيًّا﴾ العصر، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الظهر.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْاَحَدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يَحْمَدُهُ أهل السموات وأهل الأرض ويصلون له.

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ فيه أقوال قد ذكرناها في [الكهملين: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: يجعلها مُنْبِئَةً بعد أن كانت لا تُنْبِت، وتلك حياتها ﴿وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَنَافِعٌ، وَعَاصِمٌ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَابْنُ عَامِرٍ: «نُخْرِجُونَ» بضم الناء، وفتحها حمزة والكسائي؛ والمراد: تخرجون يوم القيامة من الأرض، أي: كما أحيا الأرض بالنبات يُحييكم بالبعث.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَاسِكُ الْبَآئِلِ وَالنَّهَارِ وَأَنْتُمْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرْسِلُ الْغُلَامَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ فَرَجَافُونَ (٢٤) وَلَكُمْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَبِضُونَ (٢٥) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَعْفَوْنَهُمْ كَيْفَ تَعْفَوْنَ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٧) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَسَاءَ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٨)

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: من دلائل قدرته ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ يعني آدم، لأنه أصل البشر ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ﴾ من لحم ودم، يعني ذريته ﴿تَنْتَشِرُونَ﴾ أي: تنبسطون في الأرض.

قوله تعالى: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه يعني بذلك آدم، خلق حواء من ضلعه، وهو معنى قول قتادة. والثاني: أن المعنى: جعل لكم آدميات مثلكم، ولم يجعلهن من غير جنسكم، قاله الكلبي.

قوله تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ أي: لتأوا إلى الأزواج ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ وذلك أن الزوجين يتوادان ويتراحمان من غير رَجَم بينهما ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذكره من صنعه ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ في قدرة الله وعظمته.

قوله تعالى: ﴿وَأَخْلَقْنَا أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني اللغات من العربية والعجمية وغير ذلك ﴿وَأَلْوَيْنَاكُمْ﴾ لأن الخلق بين أسود وأبيض وأحمر، وهم ولد رجل واحد وامرأة واحدة. وقيل: المراد باختلاف الألسنة: اختلاف النغمات والأصوت، حتى إنه لا يشتبه صوت أخوين من أب وأم، والمراد باختلاف الألوان: اختلاف الصور، فلا تشبه صورتان مع التشاكل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَنَافِعٌ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَابْنُ عَامِرٍ، وَحَمْزَةُ، [وَالْكَسَائِيُّ]، وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ: «لِلْعَالَمِينَ» بفتح اللام. وقَرَأَ حَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ: «لِلْعَالَمِينَ» بكسر اللام.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَاسِكُ الْبَآئِلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: نومكم. قال أبو عبيدة. المنام من مصادر النوم، بمنزلة قام يقوم قياماً ومقاماً، وقال يقول مقالاً. قال المفسرون: وتقدير الآية: منامكم بالليل ﴿وَأَنْتُمْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ سماع اعتبار [وتذكروا] وتدبر. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرْسِلُ الْغُلَامَ﴾ قال اللغويون: إنما حذف «أَنْ» لدلالة الكلام عليه، وأنشدوا:

وما الدُّفْرُ إلا تارتان فتارة أموت أخرى أبغني العيش أكدح^(١)

ومعناه: فتارة أموت فيها، وقال طرفة:

ألا أيُّهَذَا السَّجَّاجِي أَحْضَرَ الْوَعَى [وَأَنْ أَشْهَدُ اللَّذَاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدي]^(٢)

أراد: أن أحضر. وقد شرحنا معنى الخوف والطمع في رؤية الْبَرَقِ في سورة [الرعد: ١٢].

(١) البيت لعميم بن مقبل، وقد سبق تخريجه ٢٨٨، وهو أيضاً في «الطبري» ٣٣/٢١، و«البحر» ١٦٧/٧، و«روح المعاني» ٢٩/٢١، و«اللسان» و«التاج»: كدح.

(٢) البيت لطرفة بن عبد البكري من معلقته، وهو في «الطبري» ٣٣/٢١، و«روح المعاني» ٢٩/٢١، و«مختار الشعر الجاهلي» ٣١٧/١.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُومَ السَّعَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: تدوما قائمتين ﴿بِأَمْرِي﴾، ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً﴾ وهي نفخة إسرائيل الأخيرة في الصُّور بأمر الله ﷻ ﴿مِنْ الْأَرْضِ﴾ أي: من قبوركم ﴿إِذَا أَنْتُمْ تَعْرُجُونَ﴾ منها. وما بعد هذا قد سبق بيانه (البقرة: ١١٦، النكيت: ١٩) إلى قوله: ﴿وَهُوَ أَمَرْتُ عَلِيَّةً﴾ وفيه أربعة أقوال: أحدها: أن الإعادة أهون عليه من البداية، وكلُّ هَيْنٍ عليه، قاله مجاهد، وأبو العالية. والثاني: أن «أهون» بمعنى «هين»، فالمعنى: وهو هينٌ عليه، وقد يوضع «أفعل» في موضع «فاعل»، ومثله قولهم في الأذان: الله أكبر، أي: الله كبير، قال الفرزدق:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَظْوَلُ^(١)
وقال معن بن أوس المزني:

لَعَنُوكَ مَا أَذْرِي وَإِنِّي لَأَوْجِلُ عَلَى إِيْنَا تَغْدُو الْمَنِيَّةُ أَوَّلُ^(٢)
أي: وإني لَوَجِلٌ، وقال غيره:

أَصْبَحْتُ أَمْنُحُكَ الصُّدُودَ وَإِنِّي قَسَمًا إِلَيْكَ مَعَ الصُّدُودِ لَأَمِيلُ^(٣)
وأنشدوا أيضاً:

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أُمْتُ قَتَلَكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحِدٍ^(٤)

أي: بواحد، هذا قول أبي عبيدة، وهو مروى عن الحسن، وقتادة. ولقد قرأ أبيُّ بن كعب، وأبو عمران الجوني، وجعفر بن محمد: «وهو هَيْنٌ عليه». والثالث: أنه خاطب العباد بما يعقلون، فأعلمهم أنه يجب يكون عندهم البعث أسهل من الابتداء في تقديرهم وحكمهم، فمن قَدَّر على الإنشاء كان البعث أهون عليه، هذا اختيار الفراء، والمبرد، والزجاج، وهو قول مقاتل. وعلى هذه الأقوال الثلاثة تكون الهاء في «عليه» عائدة إلى الله تعالى. والرابع: أن الهاء تعود على المخلوق، لأنه خلقه نطفة ثم علقه ثم مضغه، ويوم القيامة يقول له كن فيكون، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وهو اختيار قطرب.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ قال المفسرون: أي: له الصفة العليا ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهي أنه لا إله غيره. قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً﴾ سبب نزولها أن أهل الجاهلية كانوا يلبثون فيقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، فنزلت هذه الآية، قاله سعيد بن جبير، ومقاتل^(٥). ومعنى الآية: يبين لكم أيها المشركون شبهاً، وذلك الشبه ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، ثم بيّنه فقال: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: من عبيدكم ﴿مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْتَكُمْ﴾ من المال والأهل والعبيد، أي: هل يشارككم عبيدكم في أموالكم ﴿فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي: أنتم وشركاؤكم من عبيدكم سواء ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: كما تخافون أمثالكم من الأحرار، وأقرباءكم كالآباء والأبناء؟ قال ابن عباس: تخافونهم أن يَرِثُوكم كما يَرِثُ بعضكم بعضاً؟ وقال غيره: تخافونهم أن يقاسموكم أموالكم كما يفعل الشركاء؟ والمعنى: هل يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكه في ماله وأهله حتى يساويه في التصرف في ذلك، فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه كما يخاف غيره من الشركاء الأحرار؟ فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم، فلم عدلتم بي من خلقي من هو مملوك لي؟ ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما بيّنا هذا المَثَلَ ﴿تَقْصِلُ﴾

(١) «ديوانه» ٧١٤، «مجاز القرآن» ١٢١/٢، «الطبري» ٣٧/٢١، «والكامل» ٦٩٧.

(٢) البيت في «الطبري» ٣٧/٢١، «والحماسة البصرية» ١٤٢، «والكامل» ٦٩٦، «والباب الآداب» ٣٩٩. قال الشيخ أحمد محمد شاكر في تعليقه على «الباب الآداب»: «وتغدو» بالفتن المعجمة في الروايات كلها، وحكى التبريزي أن في رواية: «تغدو» بالفتن المهملة. اهـ.

(٣) البيت للأحوص، وهو في «مجاز القرآن» ١٢١/٢، «والقرطبي» ٢١/١٤، «والخزانة» ٢٤٨/١، «والكتاب» ١٩٠/١، «واللسطة» ٢٥٩. وكان الشطر الثاني من البيت في الأصل: «قسم إليك مع الصدود لأميل». قال الشنتمري في «الكتاب» في تعليقه على البيت: الشاهد فيه نصب قوله: «قسماً» ونصبه على المصدر المؤكد لما قبله من الكلام الدال على القسم، لأنه لما قال: «إني لأمنحك الصدود، وإني إليك لأميل» علم أنه محقق مقسم، فقال: «قسماً» مؤكداً لذلك. اهـ.

(٤) البيت في «مجاز القرآن» ١٦/٢، «والطبري» ٣٧/٢١، «والقرطبي» ٢١/١٤، «والنجاح»: وحد.

(٥) ذكره ابن كثير من رواية أبي القاسم الطبراني عن ابن عباس ؓ، وفي سننه ضعف، وأورده السيوطي في «الدر» ١٥٥/٥ وزاد نسبه لابن مرفويه عن ابن عباس ؓ.

الَّذِينَ يَقُولُونَ ﴿عَنِ اللَّهِ﴾ عن الله. ثم بين أنهم إنما اتبعوا الهوى في إشراكهم، فقال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا بالله ﴿أَهْوَاءَهُمْ يَنْتَرِ عَلَيْهِمْ قَسْرٌ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ وهذا يدل على أنهم إنما أشركوا بإضلال الله إياهم ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ﴾ أي: مانعين من عذاب الله.

﴿فَأَنذَرْتُهُمْ لَإِنَّ لِي لِذِينَ حَبِطَ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٧٠﴾ ﴿مُذِيبِينَ إِلَيْهِ وَأَتَمُّوا الصَّلَاةَ وَلَا كُفُّوا مِنْ التَّسْبِيحِ﴾ ﴿١٧١﴾ ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْمًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿١٧٢﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٧٣﴾ ﴿يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٧٤﴾ ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٧٥﴾ ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْتُلُونَ﴾ ﴿١٧٦﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٧٧﴾ ﴿فَأَنذَرْتُهُمْ لَإِنَّ لِي لَذِينَ حَبِطَ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا وَأُزَوِّجُهُمْ الْمُتَفِلِّحِينَ﴾ ﴿١٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُهُمْ لَإِنَّ لِي لَذِينَ حَبِطَ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ قال مقاتل: أخلص دينك الإسلام ﴿لِلَّذِينَ﴾ أي: للتوحيد. وقال أبو سليمان الدمشقي: استقم بدينك نحو الجهة التي وجهك الله إليها. وقال غيره: سدّد عملك. والوجه: ما يتوجّه إليه، وعمل الإنسان ودينه: ما يتوجّه إليه لتسديده وإقامته.

قوله تعالى: ﴿حَبِطًا﴾ قال الزجاج: الحنيف: الذي يميل إلى الشيء ولا يرجع عنه، كالحنف في الرجل، وهو ميلها إلى خارجها خلقة، لا يقدر الأحنف أن يردّ حنفته. وقوله: ﴿فَطَرَ اللَّهُ﴾ منصوب، بمعنى: أتبع فطرة الله، لأن معنى «فأتم وجهك»: أتبع الدين القيم، وأتبع فطرة الله، أي: دين الله. والفطرة: الخلقة التي خلق الله عليها البشر. وكذلك قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»^(١)، أي: على الإيمان بالله. وقال مجاهد في قوله: ﴿فَطَرَ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ قال: الإسلام، وكذلك قال قتادة. والذي أشار إليه الزجاج أصح، وإليه ذهب ابن قتيبة، فقال: فرق ما بيننا وبين أهل القدر في هذا الحديث، أن الفطرة عندهم: الإسلام، والفطرة عندنا: الإقرار بالله والمعرفة به، لا الإسلام، ومعنى الفطرة: ابتداء الخلقة، والكل أقروا حين قوله: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى» [الاعراف: ١٧٢] ولست واجداً أحداً إلا وهو مُقَرَّبٌ بأنّه لا صانعاً ومدبراً وإن عبد شيئاً دونه وسماه بغير اسمه؛ فمعنى الحديث: إن كل مولود في العالم على ذلك العهد وذلك الإقرار الأول، وهو الفطرة، ثم يهود اليهود أبناءهم، أي: يعلمونهم ذلك، وليس الإقرار الأول ممّا يقع به حكم ولا ثواب؛ وقد ذكر نحو هذا أبو بكر الأثرم، واستدل عليه بأن الناس أجمعوا على أنه لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم، ثم أجمعوا على أن اليهودي إذا مات له ولد صغير ورثه، وكذلك النصراني والمجوسي، ولو كان معنى الفطرة الإسلام، ما ورثه إلا المسلمون، ولا دُفن إلا معهم؛ وإنما أراد بقوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة» أي: على تلك البداية التي أقروا له فيها بالوحدانية حين أخذهم من صلب آدم، فمنهم من جحد ذلك بعد إقراره^(٢). ومثل هذا الحديث حديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ قال: «قال الله ﷻ: إني خلقت عبادي

(١) رواد البخاري في «صحيحه» ١٩٧/٣ عن أبي هريرة ﷺ، ولفظه بتسامه: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، أو يمجسانه، كمثل البهيمة تُنتج البهيمة، هل ترى فيها جدهاء» وذكره السيوطي في «الجامع الصغير» بلفظ: «كل مولود يولد على الفطرة، حتى يُعرب عنه لسانه، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، وعزاه لأبي يعلى في «مسنده»، والطبراني في «الكبير» والبيهقي في «السنن» عن الأسود بن سريح. ورواه البخاري ١٧٦/٣، ومسلم ٢٠٤٧/٤ عن أبي هريرة ﷺ بلفظ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة... الحديث، ولفظه في «مسلم» بتسامه: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسّون فيها من جدهاء» ثم يقول أبو هريرة: «واقروا إن شئتم: ﴿فَطَرَ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ...﴾ الآية. وأورده السيوطي في «الدرر» بهذا اللفظ ١٥٥/٥، وزاد نسبته، لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ١٩٧/٣: «وقد اختلف السلف في المراد بالفطرة في هذا الحديث على أقوال كثيرة، ثم قال: وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة: الإسلام، قال: قال ابن عبد البر: وهو المعروف عند عامة السلف، وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فَطَرَ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾: الإسلام، واحتجوا بقول أبي هريرة في آخر حديث الباب: اقروا إن شئتم: ﴿فَطَرَ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، وبحديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتاتهم الشياطين من دينهم...» الحديث، وقد رواه غيره فزاد فيه «حنفاء مسلمين» ورجحه بعض المتأخرين بقوله تعالى: ﴿فَطَرَ اللَّهُ﴾، لأنها إضافة مدح، وقد أمر نبيه بلزومها، فعلم أنها الإسلام. وقال الحافظ: وقد قال أحمد: من مات أبواه =

حفاء^(١)، وذلك أنه لم يدعهم يوم الميثاق إلا إلى حرف واحد، فأجابوه.

قوله تعالى: ﴿لَا يَذِيرُ لِيَخَاتِي اللَّهُ﴾ لفظه لفظ النفي، ومعناه النفي؛ والتقدير: لا تبدلوا خلق الله. وفيه قولان: أحدهما: أنه خصاء البهائم، قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والثاني: دين الله، قاله مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، والنخعي في آخرين. وعن ابن عباس وعكرمة كالقولين.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْبَرُءُ الْقَبِيحُ﴾ يعني التوحيد المستقيم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ يعني كفار مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد الله.

قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قال الزجاج: زعم جميع النحويين أن معنى هذا: فأقيموا وجوهكم منيبين، لأن مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم تدخل معه فيها الأمة. ومعنى «منيبين»: راجعين إليه في كل أمر، فلا يخرجون عن شيء من أمره. وما بعد هذا قد سبق تفسيره [البقرة: ٣، الأنعام: ١٥٩] إلى قوله: ﴿وَإِذَا مَنَّ النَّاسُ سُرَّ دَعْوَاهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه القحط، والرحمة: المطر. والثاني: أنه البلاء، والرحمة: العافية، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ وهم المشركون. والمعنى: إن الكل يلتجئون إليه في شدائدكم، ولا يلتفت المشركون حيثنذ إلى أوثانهم.

قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ قد شرحناه في آخر [النكبت: ٦٧]، وقوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ خطاب لهم بعد الإخبار عنهم. قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على هؤلاء المشركين ﴿سُلْطَانًا﴾ أي: حُجَّةً وكتاباً من السماء ﴿فَهُوَ يَكْفُمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْكُرُونَ﴾ أي: يأمرهم بالشُّكْر؟! وهذا استفهام إنكار، معناه: ليس الأمر كذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ﴾ قال مقاتل: يعني كفار مكة ﴿رَحْمَةً﴾ وهي المطر. والسيئة: الجوع والقحط. وقال ابن قتبية: الرحمة: النعمة، والسيئة: المصيبة. قال المفسرون: وهذا الفرح المذكور هاهنا، هو فرح البطر الذي لا شُكر فيه، والقنوط: اليأس من فضل الله، وهو خلاف وصف المؤمن، فإنه يشكر عند النعمة، ويرجو عند الشدة؛ وقد شرحناه في [بني إسرائيل: ٢٦] إلى قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ يعني إعطاء الحق ﴿حَيْرٌ﴾ أي: أفضل من الإمساك ﴿لَلَّذِينَ بُرِيدُونَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: يطلبون بأعمالهم ثواب الله.

﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ رِيبٍ لِيَرْبُؤُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيؤُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ دَكَّوْرٍ فَرِيدُونَ﴾ وَبِهِ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْمِرُونَ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يَرْجِعْكُمْ ثُمَّ يُنصِّبُكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا وَنَحْنُ سَوَاءٌ لِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ رِيبٍ﴾ في هذه الآية أربعة أقوال: أحدها: أن الربا هاهنا: أن يهدي الرجل للرجل الشيء يقصد أن يُثبِّه عليه أكثر من ذلك، هذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وطاووس، [والضحك]، وقتادة، والقرظي. قال الضحاك: فهذا ليس فيه أجر ولا وزر. وقال قتادة: ذلك الذي لا يقبله الله ولا يجزي به، وليس فيه وزر. والثاني: أنه الربا المحرم، قاله الحسن البصري. والثالث: أن الرجل يُعطي قرابته المال ليصير به غنياً، لا يقصد بذلك ثواب الله تعالى، قاله إبراهيم النخعي. والرابع: أنه الرجل يُعطي من يخدمه لأجل خدمته، لا لأجل الله تعالى، قاله الشعبي.

قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ رِيبٍ لِيَرْبُؤُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ وقرأ نافع، ويعقوب: [لَتَرْبُؤُوا] بالتاء وسكون الواو، أي: [في] اجتلاب أموال الناس، واجتذابها ﴿فَلَا يَرِيؤُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: لا يزكو ولا يضاعف، لأنكم قصدتم زيادة

وهما كافران حكم بإسلامه، واستدل بحديث الباب، فدل على أنه فسر الفطرة بالإسلام، قال: وحكى محمد بن نصر أن آخر قولني أحمد، أن المراد بالفطرة: الإسلام، ثم قال: وقال ابن القيم: سبب اختلاف العلماء في معنى الفطرة في هذا الحديث، أن القدرة كان يحتاجون به على أن الكفر والمعصية ليسا بقضاء الله، بل مما ابتدأ الناس إحداثه، فحاول جماعة من العلماء مخالفتهم بتأويل الفطرة على غير معنى الإسلام، ولا حاجة لذلك، لأن الآثار المنقولة عن السلف تدل على أنهم لم يفهموا من لفظ الفطرة إلا الإسلام، ولا يلزم من حملها على ذلك موافقة مذهب القدرة، لأن قوله: «فأبواه يهودانه... إلخ»، محمول على أن ذلك يقع بتقدير الله تعالى، ومن ثم احتج عليهم مالك بقوله في آخر الحديث: «الله أعلم بما كانوا عاملين». اهـ.

(١) هو جزء من حديث طويل رواه مسلم في «صحيحه» ٢١٩٧/٤ عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبه: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا: كل مال نحلته عبداً، حلال (أي: قال الله: كل مال... إلخ) وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم اتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربتهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب (المراد بهم: السابقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل)، وقال: إنما بعثتك لأبليتك وأبليتك بك... إلخ» الحديث.

العوض، ولم تقصدوا القربة. ﴿وَمَا يَنْبَغُ مِنْ ذِكْرِ﴾ أي: ما أعطيتم من صدقة لا تطلبون بها المكافأة، إنما تريدون بها ما عند الله، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْمِرُونَ﴾ قال ابن قتيبة: الذين يجدون التضعيف والزيادة. وقال الزجاج: أي: ذوو الأضعاف من الحسنات، كما يقال: رجل مُقْوٍ، أي: صاحب قُوَّة، ومُؤمِر: صاحب يسار.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿فَاقْرَءْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدٍّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدَّعُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ في هذا الفساد أربعة أقوال: أحدها: نقصان البركة، قاله ابن عباس. والثاني: ارتكاب المعاصي، قاله أبو العالية. والثالث: الشرك، قاله قتادة، والسدي. والرابع: قحط المطر، قاله عطية. فأما البرّ، فقال ابن عباس: البرّ: البرية التي ليس عندها نهر. وفي البحر قولان: أحدهما: أنه ما كان من المداين والقرى على شطّ نهر، قاله ابن عباس. وقال عكرمة: لا أقول: بحرّكم هذا، ولكن كل قرية عامرة. وقال قتادة: المراد بالبرّ: أهل البوادي، وبالبحر: أهل القرى. وقال الزجاج: المراد بالبحر: مدن البحر التي على الأنهار، وكل ذي ماء فهو بحر. والثاني: أن البحر: الماء المعروف. قال مجاهد: ظهور الفساد في البر: قتل ابن آدم أخاه، وفي البحر: مَلِك جائر يأخذ كل سفينة غصباً^(١). وقيل لعطية: أيّ فساد في البحر؟ فقال: إذا قُلّ المطر قُلّ الغوص.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي: بما عملوا من المعاصي ﴿لِيُذِيقَهُمْ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وعكرمة، وقاتدة، وابن محيصن، وروح [عن يعقوب]، وقنبل عن ابن كثير: «لِيُذِيقَهُمْ» بالنون ﴿بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي: جزاء بعض أعمالهم؛ فالقحط جزاء، ونقصان البركة جزاء، ووقوع المعصية منهم جزاء معجل لمعاصيهم أيضاً. قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم الذين أذيقوا الجزاء. ثم في معنى رجوعهم قولان. أحدهما: يرجعون عن المعاصي، قاله أبو العالية. والثاني: يرجعون إلى الحق، قاله إبراهيم. والثاني: أنهم الذين يأتون بعدهم؛ فالمعنى: لعلهم يرجع من بعدهم، قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافروا ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: الذين كانوا قبلكم؛ والمعنى: انظروا إلى مساكنهم وآثارهم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ المعنى: فأهلكوا بشركهم^(٢). ﴿فَاقْرَءْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي: أقم قصدك لاتباع الدين ﴿الْقَدِيمِ﴾ وهو الإسلام المستقيم ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدٍّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ يعني [يوم] القيامة لا يقدر أحد على رد ذلك اليوم، لأن الله تعالى قد قضى كونه ﴿يَوْمَئِذٍ يُصَدَّعُونَ﴾ أي: يتفرون إلى الجنة والنار.

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ يَمْهَدُونَ﴾ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِثُّ الْكَافِرِينَ﴾

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: جزاء كفره ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ يَمْهَدُونَ﴾ أي: يُوطئُون. وقال مجاهد: يسوون المضاجع في القبور، قال أبو عبيدة: «مَنْ» يقع على الواحد والاثنين والجمع من المدكّر والمؤنث، ومجازها هاهنا مجاز الجميع، و«يَمْهَد» بمعنى يكتسب ويعمل ويستعد.

﴿زَيْنَ الْآيَاتِ أَنْ يُبَيِّنَ الْوَيْلَ لِلْبَاطِلِ وَيُذِيقَ الْإِنْسَانَ دَجَائِهِ وَيَنصُرَ الْفَلَاحَ بِأَمْرِهِ وَلِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَتَشْكُرُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَآمَنُوا بِالْآيَاتِ فَانْتَفَخْنَا مِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن الله تعالى ذكره، أخبر أن الفساد قد ظهر في البر والبحر، والبرّ عند العرب: الأرض القفار، والبحر بحران: بحر ملح، وبحر عذب، فهما جميعاً عندهم بحر، ولم يخص جلا ثناؤه الخبر عن ظهور ذلك في بحر دون بحر، فذلك على ما وقع عليه اسم بحر، عذباً كان أو ملحاً، وإذا كان ذلك كذلك، دخل القرى التي على الأنهار والبحار، فتأويل الكلام إذن: إذ كان الأمر كما وصفت، ظهرت معاصي الله في كل مكان من بر وبحر بما كسبت أيدي الناس، أي: بذنوب الناس، وانتشر الظلم فيها. اهـ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره لئيبه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله من قومك: سيروا في البلاد، فانظروا إلى مساكن الذين كفروا بالله من قبلكم، وكذبوا رسله، كيف كان آخر أمرهم وعاقبة تكذيبهم رسل الله وكفرهم، ألم نهلكهم بعذاب منا، ونجعلهم عبرة لمن بعدهم؟ كان أكثرهم مشركين، يقول: فلما ذلك بهم، لأن أكثرهم كانوا مشركين بالله مثلهم. اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرِينَ﴾ تبشّر بالمطر ﴿وَلِيَذْكُرَ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ وهو الغيث والخصب ﴿وَلِيَجْزِيَ الْفُلُوكَ﴾ في البحر بتلك الرياح ﴿بِأَمْرِهِ﴾ ﴿وَلِيَنْفُخَ﴾ بالتجارة في البحر ﴿مِنْ فَصْلِهِ﴾ وهو الرزق؛ وكلُّ هذا بالرياح.

قوله تعالى: ﴿فَاجْأَوْهُمْ بِالْآيَاتِ﴾ أي: بالدلالات على صدقهم ﴿فَافْتَقَمْنَا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: عذبنا الذين كذبوهم ﴿وَكُنَّا حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أي: واجباً هو أوجه على نفسه ﴿نَصَرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إنجأوهم مع الرُّسل من عذاب المكذِّبين.

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ تَثِيرَ سَحابًا فَيُبْسِطُ فِي السَّمَاوَاتِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَعْلَمُ كَيْفَ يَقَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلِيلِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾ (٤٨) ﴿لَنْ كَاوُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبَشِّرٌ﴾ (٤٩) ﴿فَانْظُرْ إِلَى مَائِرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ آيَاتِ الْحَقِّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥٠) ﴿لَوْ أَنَّ أَرْسَلْنَا رِيحًا قَرَارًا مَصْفُورًا لَفُتِلُوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ (٥١) ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْوَدْقَ وَلَا تَسْمِعُ الْمُمْسِرَ الْأَعْمَى إِذَا وَلَّى مَدْيَنَ﴾ (٥٢) ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ لِلْمَنِيِّ عَنْ صَلَاتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٥٣) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعِفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (٥٤) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ (٥٥) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثُوا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَاقِ فَكَذَلِكَ يَوْمَ الْبَاقِ وَلِكُلِّكُمْ كُتُبٌ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٥٦) ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٥٧)

قوله تعالى: ﴿يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبو رجا، والنخعي، وطلحة بن مصرف، والأعمش: «يُرْسِلُ الرِّيحَ» بغير ألف.

قوله تعالى: ﴿تَثِيرُ سَحابًا﴾ أي: تُزججه ﴿فَيُبْسِطُ﴾ الله ﴿فِي السَّمَاوَاتِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ إن شاء بسطه مسيرة يوم أو يومين أو أقل أو أكثر ﴿وَيَعْلَمُ كَيْفَ﴾ أي: قطعاً متفرقة. والاكثرون فتحوا سين «كَيْفًا»؛ وقرأ أبو رزين، وقتادة، وابن عامر، وأبو جعفر، وابن أبي عبيدة؛ بتسكينها؛ قال أبو علي: يمكن أن يكون مثل بيذرة وبيذر، فيكون معنى القراءتين واحداً ﴿فَقَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلِيلِهِ﴾ وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية: «مِنْ خَلِيلِهِ»؛ وقد شرحناه في (النور: ٤٣) ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ أي: بالوَدْقِ؛ ومعنى «يَسْتَبِشِرُونَ» يفرحون بالمطر، ﴿لَنْ كَاوُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ﴾ المطر ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ وفي هذا التكرير ثلاثة أقوال: أحدها: أنه للتأكيد، كقوله: ﴿سَجَدَ لِلْكَافَّةِ كُلُّهُمْ أَعْمُونَ﴾ (الحجر: ٣٠)، قاله الأخفش في آخرين. والثاني: أن «قَبْلَ» الأولى للتنزيل، والثانية للمطر، قاله قطرب. قال ابن الأنباري: والمعنى: من قَبْلِ نزول المطر، من قَبْلِ المطر، وهذا مثلما يقول القائل: أتيت من قبل أن تتكلم، من قبل أن تظمن في مجلسك، فلا تُنكر الإعادة، لاختلاف الشيتين. والثالث: أن الهاء في قوله: «مِنْ قَبْلِهِ» ترجع إلى الهدى وإن لم يتقدم له ذُكر، فيكون المعنى: كانوا يقنطون من قبل نزول المطر، من قبل الهدى، فلما جاء الهدى والإسلام زال القنوط، ذكره ابن الأنباري عن أبي عمر الدُّوري وأبي جعفر بن قادم. والمبلسون: الآيسون. وقد سبق الكلام في هذا (الأنعام: ٤٤). ﴿فَافْتَقَمْنَا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: عذبنا من كفر عن عاصم: «إلى آخر». وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «إلى آخر» على الجمع. والمراد بالرحمة هاهنا: المطر، وأثرها: النبت؛ والمعنى: انظر إلى حسن تأثيره في الأرض ﴿كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ﴾ أي: كيف يجعلها تبت بعد أن لم يكن فيها نبت. وقرأ عثمان بن عفان، وأبو رجا، وأبو عمران الجوني، وسليمان التيمي: «كيف تُخَيِّ» بناء مرفوعة مكسورة الباء «الأرض» بفتح الضاد.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ [أي: ريحاً] باردة مُضِرَّةً، والريح إذا أتت على لفظ الواحد أريد بها العذاب، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول عند هبوب الريح: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها رياحاً» (١) ﴿فَقَرَأَهُ مُصْفًى﴾ يعني

(١) قال الإمام النووي في «الأذكار»: وروى الإمام الشافعي رحمه الله في كتابه «الأم» بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما هبت الريح إلا جئت النبي ﷺ على ركبتيه وقال: «اللهم اجعلها رحمة، ولا تجعلها عذاباً، اللهم اجعلها رياحاً، ولا تجعلها ريحاً...». وقال الشيخ محمد بن علان الصديقي الشافعي في كتابه «الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية» في هذا الحديث: قال الحافظ: (أي ابن حجر) بعد تخريج: هذا حديث حسن. أخرجه البيهقي في «المعرفة»، قال: وشيخ الشافعي ما عرفته، وكنت أظنه ابن يحيى، لكن لم يذكره في الرواة عن العلاء بن راشد، والعلاء موثق، قال الحافظ: لابن عباس حديث آخر، ثم أخرج من طريق الطبراني في كتاب «الدعاء» أيضاً عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا هاجت الريح استقبلها وجهاً على ركبتيه وقال: «اللهم اجعلها... إلخ» فذكر الحديث مثله إلى قوله: «ريحاً» وزاد: «اللهم إني أسألك من غير هذه الريح، وغير ما تُرسل به، وأعوذ بك -

النبت، والهاء عائدة إلى الأثر. قال الزجاج؛ المعنى: فراؤوا النبت قد اصفرّ وجفّ ﴿ظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ ومعناه: كَيْظَلُّنَ، لأن معنى الكلام الشرط والجزاء، فهم يستبشرون بالغيث، ويكفرون إذا انقطع عنهم الغيث وجف النبت. وقال غيره: المراد برحمة الله: المطر. و«ظَلُّوا» بمعنى صاروا «من بعده» أي: من بعد اصفرار النبت يجحدون ما سلف من النعمة. وما بعد هذا مفسّر في سورة [النمل: ٨٠، ٨١] إلى قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ وقد ذكرنا الكلام فيه في [الأنفال: ٦٦]، قال المفسرون: المعنى: خلقكم من ماء ذي ضَعْف، وهو المني ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ يعني ضعف الطفولة قوّة الشباب، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قوّة الشباب ضعف الكبر، وشيئة، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: من ضعف وقوّة وشباب وشيئة ﴿وَهُوَ أَلَكِيمٌ﴾ بتدبير خلقه ﴿أَلَكِيمٌ﴾ على ما يشاء. ﴿وَيَوْمَ نُقَمُ السَّاعَةَ﴾ قال الزجاج: الساعة في القرآن على معنى الساعة التي تقوم فيها القيامة، فلذلك لم تُعرف أي ساعة هي.

قوله تعالى: ﴿يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يَخْلِفُ المشركون ﴿مَا لَيْسُوا﴾ في القبور ﴿عَبْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يَقُولُونَ﴾ قال ابن قتيبة: يقال: أَفَكَ الرجلُ: إذا عُذِلَ به عن الصّدق، فالمعنى أنهم قد كَذَّبُوا في هذا الوقت كما كَذَّبُوا في الدنيا. وقال غيره: أراد الله تعالى أن يفضحهم يوم القيامة بين المؤمنين، فحلفوا على شيء يبين للمؤمنين كذبهم فيه، ويستدلون على كذبهم في الدنيا. ثم ذكر إنكار المؤمنين عليهم بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا إِلَهُمَ وَالْإِنِّينَ﴾ وفيهم قولان: أحدهما: أنهم الملائكة. والثاني: المؤمنون.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَاقِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن فيه تقدماً وتأخيراً، تقديره: وقال الذين أوتوا العلم بكتاب الله والإيمان بالله، قاله ابن جريج في جماعة من المفسرين. والثاني: أنه على نظمه. ثم في معناه قولان: أحدهما: لقد لَبِثْتُمْ في عِلْمِ الله، قاله الفراء. والثاني: لقد لَبِثْتُمْ في خَبَرِ الكتاب، قاله ابن قتيبة. قوله تعالى: ﴿فَهَكَذَا يَوْمَ الْبَاقِ﴾ أي: اليوم الذي كنتم تُنْكِرُونَهُ ﴿وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ في الدنيا أنه يكون ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعِدَّتُهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «لا تَنْفَعُ» بالياء. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي. بالياء، لأن التانيث غير حقيقي. قال ابن عباس: لا يُقْبَلُ من الذين أشركوا عُذْر ولا توبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يُطْلَبُ منهم العتبي والرجوع في الآخرة. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَكِنْ حَسَبَهُمْ بَيَاسًا يُفَوَّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتَ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ كَذَلِكَ يَطَّيْعُ اللَّهُ عَنْ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَسَبَهُمْ بَيَاسًا﴾ أي: كعصا موسى ويده ﴿يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتَ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ وأصحابك ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: أصحاب أباطيل، وهذا بيان لعنادهم. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما طَّيْعَ على قلوبهم حتى لا يصدّقون الآيات ﴿يَطَّيْعُ اللَّهُ عَنْ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد الله؛ فالسبب في امتناع الكفار من التوحيد، الطَّيْعَ على قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بنصرك وإظهارك على عدوك ﴿حَقٌّ﴾. ﴿وَلَا يَسْتَخِفُّكَ﴾ وقرأ يعقوب إلا روحاً وزيداً: «يَسْتَخِفُّكَ» بسكون النون. قال الزجاج: لا يَسْتَغْفِرُكَ عن دينك ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: هم ضلال شاكّون. وقال غيره: لا يُؤْمِنُونَ بالبعث والجزاء^(١). وزعم بعض المفسرين أن هذه الآية منسوخة.



= من شرها وما تُرسل به، قال الحافظ: أخرجه مسند في «مسند الكبير»، وفي سننه جبر بن عبد الله، وهو ضعيف، وجده عبيد الله - بالتصغير - ابن العباس، وفي نسخة من «المسند»: حسين بن قيس أبو علي المجري، وهو ضعيف أيضاً، وقد اعتضد بالمтаبعة. اهـ. والحديث في «مسند الشافعي» (٤٧) وفيه ابن أبي يحيى، وهو إبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي الذي يروي عن العلاء بن راشد، منهم.

(١) قال ابن كثير: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: اصبر على مخالفتهم وعنادهم، فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك من نصره إياك عليهم، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بل أثبت على ما بعثك الله به، فإنه الحق الذي لا مرية فيه، ولا تعدل عنه، وليس فيما سواه هدى يُضِلُّ، بل الحق كله منحصَر فيه. اهـ.

سورة لقمان

وهي مكية في قول الأكثرين. وروى عن عطاء أنه قال: هي مكية سوى آيتين منها نزلنا بالمدينة، وهما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ والتي بعدها [لقمان: ٢٧، ٢٨]؛ وروى عن الحسن أنه قال: إلا آية نزلت بالمدينة، وهي قوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [لقمان: ٤٤]، لأن الصلاة والزكاة مدينتان^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا جَعَلْنَا الْكَافِرَ سَعِيرًا ۖ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ۝﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَإِذَا نُنَادَىٰ عَلَيْهِمْ إِبْرَاهِيمُ أَنْ لَا تَأْمُرُوا بِغَيْرِ اللَّهِ وَأَنَا أَنذَرُكُمْ كِتَابًا عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَذُنُوبُهُمْ قَبْلَ هَٰذَا ۚ أَذْنَبُوا غَيْرَ الْمَعْصِيَةِ ۖ فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ ثَلَاثِينَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۚ وَإِنَّهُمْ لَكَافِرُونَ ۝ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْإِنسَانُ أَنْ يَقُولَ رَبِّهِمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا إِتْرَافًا ۚ وَكَانُوا قَوْمًا يَفْقَهُونَ ۝ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْإِنسَانُ أَنْ يَقُولَ رَبِّهِمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا إِتْرَافًا ۚ وَكَانُوا قَوْمًا يَفْقَهُونَ ۝ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْإِنسَانُ أَنْ يَقُولَ رَبِّهِمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا إِتْرَافًا ۚ وَكَانُوا قَوْمًا يَفْقَهُونَ ۝ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْإِنسَانُ أَنْ يَقُولَ رَبِّهِمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا إِتْرَافًا ۚ وَكَانُوا قَوْمًا يَفْقَهُونَ ۝

قوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ وقرأ حمزة وحده: «ورحمة» بالرفع. قال الزجاج: القراءة بالنصب على الحال؛ والمعنى تلك آيات الكتاب في حال الهداية والرحمة؛ ويجوز الرفع على إضمار «هو هدى ورحمة» وعلى معنى: «تلك هدى ورحمة». وقد سبق تفسير مفتتح هذه السورة (البقرة: ١-٥) إلى قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في رجل اشترى جارية مغنية^(٢). وقال مجاهد: نزلت في شراء القيان والمغنيات^(٣). وقال ابن السائب ومقاتل: نزلت في النضر بن الحارث، وذلك أنه كان تاجراً إلى فارس، فكان يشتري أخبار الأعاجم فيحدث بها قريشاً ويقول لهم: إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم وإسفنديار وأخبار الأكاسرة، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن، فنزلت فيه هذه الآية^(٤). وفي المراد بلهو الحديث أربعة أقوال: أحدها: [أنه] الغناء. كان ابن مسعود يقول: هو الغناء والذي لا إله إلا هو، يرددها ثلاث مرات^(٥)؛ وبهذا قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، وقتادة. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد، قال: اللهو: الطبل^(٦). والثاني: أنه ما ألهى عن الله، قاله الحسن، وعنه مثل القول الأول. والثالث: أنه الشُّرك، قاله الضحاك. والرابع: الباطل، قاله عطاء^(٧). وفي معنى «يشترى» قولان: أحدهما: يشتري بماله؛ وحديث النضر

(١) من المعلوم أن الصلاة فرضت بمكة ليلة الإسراء، كما في «صحيح البخاري» وغيره، والزكاة فرضت بالمدينة، فلعن القائل بذلك يريد أن يجابهها معاً تحقّق بالمدينة، أو أنها فرضت ليلة الإسراء ركعتين ركعتين إلا المغرب، ثم زيدت بعد الهجرة، إلا الصحيح، فكان ذلك تمام فرضيتها.

(٢) «الطبري» ٦٣/٢١ من رواية العوفي عن ابن عباس بمعناه، وذكره السيوطي في «الدر» ١٥٩/٥، وزاد نسبه للفرابي، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٣) «الطبري» ٦٢/٢١ عن مجاهد بمعناه، وذكره السيوطي في «الدر» ١٦٠/٥، وزاد نسبه لأدم، والبيهقي في «سننه» عن مجاهد.

(٤) «أسباب النزول» للواحدي ١٩٧ عن الكلبي ومقاتل بدون سند.

(٥) «الطبري» ٦١/٢١، وذكره السيوطي في «الدر» ١٥٩/٥ مختصراً، وزاد نسبه لابن أبي شيبه، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٦) «الطبري» ٦٣/٢١ عن مجاهد.

(٧) قال ابن جرير الطبري: والصبوب من القول في ذلك أن يقال: عنى به كل ما كان من الحديث ملهياً عن سبيل الله مما نهى الله عن استماعه، أو رسوله، لأن الله تعالى عمّ بقوله: (لهو الحديث) ولم يخص بعضاً دون بعض، فذلك على عموم، حتى يأتي ما يدل على خصوصه، والغناء والشرك من ذلك. اهـ.

يعضده. والثاني: يختار ويستحب، قاله قتادة، ومطر^(١). وإنما قيل لهذه الأشياء: لهُو الحديث، لأنها تُلهي عن ذكر الله.

قوله تعالى: «لِيُضِلَّ» المعنى: ليصير أمره إلى الضلال. وقد بيّنّا هذا الحرف في [الحج: ٩]. وقرأ أبو رزين، والحسن، وطلحة بن مصرف، والأعمش، وأبو جعفر: «لِيُضِلَّ» بضم الياء، والمعنى: لِيُضِلَّ غيره، وإذا أَضَلَّ غيره فقد ضَلَّ هو أيضاً.

قوله تعالى: «وَيَتَّخِذَهَا» قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «وَيَتَّخِذَهَا» برفع الذال. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: بنصب الذال. قال أبو علي: من نصب عطف على «لِيُضِلَّ» «وَيَتَّخِذَهَا» ومن رفع عطفه على «من يشتري» «ويتخذ». وفي المشار إليه بقوله: «وَيَتَّخِذَهَا» قولان: أحدهما: أنها الآيات. والثاني: السبيل. وما بعد هذا مفسر في مواضع قد تقدّمت [الإسراء: ٤٦، الأنعام: ٢٥، البقرة: ٢٥، الرعد: ٢، النحل: ١٥، الشعراء: ٢٧]، إلى قوله: «وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ» وفيها قولان: أحدهما: الفهم والعقل، قاله الأكثرون. والثاني: النبوة. وقد اختلف في نبوته على قولين: أحدهما: أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً، قاله سعيد بن المسيب، ومجاهد، وقتادة. والثاني: أنه كان نبياً، قاله الشعبي، وعكرمة، والسدي. هكذا حكاه عنهم الواحدي، ولا يعرف إلا أن هذا ممّا تفرّد به عكرمة؛ والقول الأول أصح^(٢). وفي صناعته ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان خياطاً، قاله سعيد بن المسيب. والثاني: راعياً، قاله ابن زيد. والثالث: نجاراً، قاله خالد الربيعي. فأما صفته، فقال ابن عباس: كان عبداً حبشياً. وقال سعيد بن المسيب: كان لقمان أسود من سودان مصر. وقال مجاهد: كان غليظ الشفتين مشفقاً للقدمين، وكان قاضياً على بني إسرائيل.

قوله تعالى: «إِنِ اشْكُرْ لِلَّهِ» المعنى: وقلنا له: أن اشكر الله [على] ما أعطاك من الحكمة «وَمَنْ يَشْكُرْ فَلِإِنَّمَا يَشْكُرْ لِنَفْسِهِ» أي: إنما يفعل لنفسه «وَمَنْ كَفَرَ» الثُّمَّة، فإن الله لغني عن عبادة خلقه.

«وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَضَّلَهُ فِي عَمَلَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدِكَ إِلَى الْعَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَآتَى سَيْلَ مَنْ آتَاهُ إِلَى نَدْرٍ إِلَى مَرْجَمِكُمْ فَأَنْتُمْ كُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْقَى لَهَا إِنْ تَكُ شِقَالٌ حَبْرٌ مِّنْ حَرَكِ نَفْسِكَ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَكِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنْ أَلَّهَ لَطِيفٌ حَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْقَى أَعْيُنُ الْمَرْئِيَّةِ وَالْمَرْئِيَّةُ وَاللَّهُ عَنِ الشُّكْرِ وَأَصْبَرَ عَلَى مَا آصَابَكَ إِنْ ذَلِكَ مِنْ عِزِّ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾»

قوله تعالى: «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ» قال مقاتل: نزلت في سعد بن أبي وقاص، وقد شرحنا ذلك في [المنكوت: ٨].

قوله تعالى: «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ» وقرأ الضحّاك، وعاصم الجحدري: «وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ» بفتح الهاء فيهما. قال الزجاج: أي: ضَعُفًا عَلَى ضَعْفٍ. والمعنى: لزمها بحملها إياه أن تَضَعُفَ مَرَّةً بعد مَرَّةً. وموضع «أَنْ» نصب بـ «وَصَّيْنَا»؛ المعنى: ووصينا الإنسان أن اشكر لي ولوالدك، أي: وصينا به بشكرنا وشكر والديه.

قوله تعالى: «وَفَضَّلَهُ فِي عَمَلَيْنِ» أي: فطامه يقع في انقضاء عامين. وقرأ إبراهيم النخعي، وأبو عمران، والأعمش: «وَفَضَّالَهُ» بفتح الفاء. وقرأ أبي بن كعب، والحسن، وأبو رجاء، وطلحة بن مصرف، وعاصم

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى التأويلين عندي بالصواب تأويل من قال: معناه: الشراء الذي هو باليمن، وذلك أن ذلك هو أظهر معنييه، قال: فإن قال قائل: وكيف يشتري لهو الحديث؟ قيل: يشتري ذات لهو الحديث، أو ذا لهو الحديث، فيكون مشترياً لهو الحديث. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: اختلف السلف في لقمان، هل كان نبياً، أو عبداً صالحاً من غير نبوة؟ على قولين، الأكثرون على الثاني (يعني أنه لم يكن نبياً) ثم ذكر بعض الآثار، منها ما هو مصرح فيه بنفي كونه نبياً، ومنها ما هو مشعر بذلك، وفي بعضها ما يشعر أنه كان عبداً قد مَّسَّه الرق، فقال: وكونه عبداً قد مَّسَّه الرق ينافي كونه نبياً، لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها، قال: ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً، قال: وإنما ينقل كونه نبياً من عكرمة إن صح السند إليه، قال: فإنه رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة، قال: كان لقمان نبياً، قال: وجابر هذا، هو ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، والله أعلم. ثم قال ابن كثير: والذي رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ» أي: الفقه في الإسلام، ولم يكن نبياً، ولم يوح إليه. اهـ، فهذا يدل على أنه كان عبداً صالحاً، ولم يكن نبياً.

الجحدري، وقتادة؛ «وَفَضَّلُهُ» بفتح الفاء وسكون الصاد من غير ألف. والمراد: التنبيه على مشقة الوالدة بالرضاع بعد الحمل.

قوله تعالى: ﴿رَبِّانِ جَهْدَالَهُ﴾ قد فسرنا ذلك في سورة [العنكبوت: ٨] إلى قوله: ﴿وَسَاجِدَتُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ قال الزجاج: أي: مُصَاحِبًا معروفاً، تقول صاحبه مُصَاحِبًا وَمُصَاحِبَةً؛ والمعروف: ما يُستحسن من الأفعال.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيْنَا﴾ أي: مَنْ رَجَعَ إِلَيْنَا؛ وأهل التفسير يقولون: هذه الآية نزلت في سعد، وهو المخاطب بها. وفي المراد بمن أناب ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أبو بكر الصديق، قيل لسعد: أتبع سبيله في الإيمان، هذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء^(١). وقال ابن إسحاق: أسلم على يدي أبي بكر [الصديق]: عثمان بن عفان، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف. والثاني: أنه رسول الله ﷺ، قاله ابن السائب. والثالث: مَنْ سلك طريق محمد وأصحابه، ذكره الثعلبي^(٢). ثم رجع إلى الخبر عن لقمان فقال: ﴿يَبْنَئِي﴾. وقال ابن جرير: وجه اعتراض هذه الآيات بين الخبرين عن وصية لقمان أن هذا ممّا أوصى به لقمان ابنه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِنَّ تَكَّ يَنْفَقَالَ حَبَّةً﴾ وقرأ نافع وحده: «مِنْفَقَالَ حَبَّةً» برفع اللام. وفي سبب قول لقمان لابنه هذا قولان: أحدهما: أن ابن لقمان قال لأبيه: أرايت لو كانت حبة في قمر البحر أكان الله يعلمها؟ فأجابه بهذه الآية، قاله السدي. والثاني: أنه قال: يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد، كيف يعلمها؟ فأجابه بهذا، قاله مقاتل. قال الزجاج: من قرأ برفع المنفقال مع تأنيث «تَكَّ» فلا ن «مِنْفَقَالَ حَبَّةً» من خردل» راجع إلى معنى: خردلة، فهي بمنزلة: إن تَكَّ حَبَّةً من خردل؛ ومن قرأ: «مِنْفَقَالَ حَبَّةً» فعلى معنى: إن التي سألتني عنها إن تَكَّ مِنْفَقَالَ حَبَّةً. وعلى معنى: إن فَعَلَهُ الإنسان وإن صَغُرَتْ يات بها الله. وقد بيّنا معنى ﴿يَنْفَقَالَ حَبَّةً مِنْ خَرْدَلٍ﴾ في [الأنبياء: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿فَتَكُنْ فِي سَخَرَةٍ﴾ قال قتادة: في جبل. وقال السدي: هي الصخرة التي تحت الأرض السابعة، ليست في السموات ولا في الأرض^(٣). وفي قوله: ﴿يَأْتِيهَا اللَّهُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: يعلمها الله، قاله أبو مالك. والثاني: يظهرها، قاله ابن قتية. والثالث: يات بها الله في الآخرة للجزاء عليها. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ قال الزجاج: لطيف باستخراجها ﴿خَيْرٌ﴾ بمكانها. وهذا مثل لأعمال العباد. والمراد أن الله تعالى يأتي بأعمالهم يوم القيامة، مَنْ يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ أي: في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأذى. وباقي الآية مفسر في [آل عمران: ١٨٦].

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ﴾ ﴿وَأَقْبِضْ فِي مَشِيكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْمُبْعِيرِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وعاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: «تُصَعِّرُ» بتشديد العين من غير ألف. وقرأ نافع، [وأبو عمرو]، وحمزة، والكسائي: بألف من غير تشديد. قال الفراء: هما لغتان، ومغناهما: الإعراض عن الكبر. وقرأ أبي بن كعب، وأبو رجاء، وابن السميع، وعاصم الجحدري: «وَلَا تُصَعِّرُ» بإسكان الصاد وتخفيف العين من غير ألف. وقال الزجاج: معناه: لا تُعْرِضْ عن الناس تكبراً؛ يقال: أصاب البعير صَعَرًا: إذا أصابه داءٌ يُلَوِي منه عُقْفُه. وقال ابن عباس: هو الذي إذا سُلِمَ عليه لوى عُقْفُه كالمتكبر. وقال

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٨٩.

(٢) قال الآلوسي في «روح المعاني»: والظاهر هو العموم. وقال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَأَتَيْنَا سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيْنَا﴾ يقول: واسلك طريق من تاب من شركه ورجع إلى الإسلام، واتبع محمداً ﷺ. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله: ﴿فَتَكُنْ فِي سَخَرَةٍ﴾ أنها صخرة تحت الأرضين السبع، قال: وذكره السدي بإسناد ذلك المطروق عن ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة إن صح ذلك، ويروى هذا عن عطية العوفي وأبي مالك والثوري والمنهال بن عمرو، وغيرهم، وهذا - والله أعلم - كأنه منطلق من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، والظاهر - والله أعلم - أن المراد أن هذه الحبة في حقارتها لو كانت داخل صخرة، فإن الله سيديها ويظهرها بلطف علمه. اهـ.

أبو العالية: ليكن الغني والفقير عندك في العلم سواء. وقال مجاهد: هو الرجل يكون بينه وبين أخيه الجنة^(١)، فيراه فيعرض عنه. وباقى الآية بعضه مفسر في [بني إسرائيل: ٣٧] وبعضه في سورة [النساء: ٣٦].
قوله تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: ليكن مشيك قصداً، لا تخيلاً ولا إسراعاً. قال عطاء: امش بالوقار والسكينة.

قوله تعالى: ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أي: انقص منه. قال الزجاج: ومنه قولهم: غضضت بصري، وفلان يغض من فلان، أي: يقصر به. ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ وقرأ أبو المتوكل، وابن أبي عبيدة: «أَنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ» بفتح الهمزة. ومعنى «أنكر»: أقبح، تقول: أنا فلان بوجوه منكراً، أي: قبيح. وقال المبرد: تأويله: أن الجهر بالصوت ليس بمحمود، وأنه داخل في باب الصوت المنكر. وقال ابن قتيبة: عَرَفَهُ قُبْحُ رَفْعِ الْأَصْوَاتِ فِي الْمَخَاطَبَةِ وَالْمُلَاحَاةِ^(٢) بقبح أصوات الحمير، لأنها عالية. قال ابن زيد: لو كان رفع الصوت خيراً، ما جعله الله للحمير. وقال سفيان الثوري: صياح كل شيء تسبيح لله ﷻ، إلا الحمار، فإنه ينهق بلا فائدة. فإن قيل: كيف قال: «لَصَوْتُ» ولم يقل: «لأصوات الحمير»؟ فالجواب: أن لكل جنس صوتاً، فكانه قال: إن أنكر أصوات الأجناس صوت هذا الجنس.
﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا نَشَاءُ عَلَى آبَاءِنَا أَوْ لَوِ كُنَّا شَاطِئِينَ بِدَعْوِهِمْ إِلَيْنَا عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أوسع وأكمل ﴿نِعَمَهُ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: «نِعَمَهُ»، أرادوا جميع ما أنعم به. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وحزمة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «نِعْمَةً» على التوحيد. قال الزجاج: هو ما أعطاهم من توحيده. وروى الضحاك عن ابن عباس، قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! ما هذه النعمة الظاهرة والباطنة؟ فقال: «أَنَا مَا ظَهَرَ» فالإسلام، وما سوى الله مِنْ خَلْقِكَ، وما أفضل عليك من الرزق. وَأَنَا مَا بَطَنَ: فستر مساوي صملك، ولم يفضحك^(٣). وقال الضحاك: الباطنة: المعرفة، والظاهرة: حسن الصورة، وامتداد القامة، وتسوية الأعضاء.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا نَشَاءُ عَلَى آبَاءِنَا أَوْ لَوِ كُنَّا شَاطِئِينَ بِدَعْوِهِمْ إِلَيْنَا عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عِيقَةُ الْأُمُورِ﴾ ﴿١٩﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُمْ إِلَيْنَا رَجْعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٠﴾ نُنَبِّئُهُمْ لَيْلًا أَوْ نَضَطَّعُهُمْ لَيْلًا أَوْ نَصَطَّرُهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غِلَظٍ ﴿٢١﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٣﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرٍ أَكَلَتْهُ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ آبِحُرٍ مَا نَبَذْتَ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤﴾

(١) قال في «تاج العروس»: «أحن»: الجنة بالكسر لغة في الإحنة، وقد أنكرها الأصمعي والفراء وابن الفرج، وفي «الصحاح»: ولا تقل: جنة، قال الزبيدي: قلت: والحق أنها لغة قليلة. اهـ. والإحنة: الحقد.

(٢) المُلَاحَاة: المخاصمة والمنازعة.

(٣) ذكره السيوطي في «الدرر» ١٦٧/٥ من رواية البيهقي في شعب الإيمان عن عطاء عن ابن عباس بمعناه، ومن رواية ابن مردويه، والبيهقي، والديلمي، وابن النجار عن ابن عباس، والله أعلم. وذكره الطبري في تفسيره عن ابن عباس من قوله، أنه قرأها ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا﴾ وفسرها بالإسلام، وذكر البهقي والخازن نحو هذا المعنى موقوفاً على ابن عباس. وقال الألويسي في «روح المعاني» بعد أن ذكر هذين الحديثين مرفوعين: فإن صح ما ذكر، غير جازم بهما، والله أعلم.

فقالوا: ألسنت تلو فيما جاءك أننا قد أوتينا التوراة فيها نبيان كل شيء؟ فقال: «إنها في علم الله قليل»، فنزلت هذه الآية، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس^(١). والثاني: أن المشركين قالوا في القرآن: إنما هو كلام [يوشك أن] ينفذ وينقطع، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة^(٢). ومعنى الآية: لو كانت شجر الأرض أقلاماً، وكان البحر ومعه سبعة أبحر مِدَاداً - وفي الكلام محذوف تقديره: فكتب بهذه الأقلام وهذه البحور كلمات الله - لتكسرت الأقلام ونفذت البحور، ولم تنفذ كلمات الله، أي: لم تنقطع^(٣). فأما قوله: «وَالْبَحْرُ» فقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحمة، والكسائي: «وَالْبَحْرُ» بالرفع، ونصبه أبو عمرو. وقال الزجاج: من قرأ: «وَالْبَحْرُ» بالنصب، فهو عطف على «ما»؛ والمعنى: ولو أن ما في الأرض، ولو أن البحر؛ والرفع حسن على معنى: والبحر هذه حاله. قال اليزيدي: ومعنى «يَمْدُ مِنْ بَدْرٍ»: يزيد فيه؛ يقال: مُدَّ قِزْلُكَ، أي: زُدَّ في مائه، وكذلك قال ابن قتيبة: «يَمْدُهُ» من المِداد، لا من الإمداد، يقال: مَدَدْتُ دَوَاتِي بِالْمِدادِ، وأمددته بالمال والرجال.

﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْصِيكُمْ إِلَّا كَفَتٌ وَجِدَّةٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُبْلِعُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُبْلِغُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَالَكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَبْعَثُ اللَّهُ لِرَبِّكَ مِنْ ءَايَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٤) وَلَئِنْ غَشَيْتُمْ مَوْجَ الْكَافُلِ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ كُفُورٍ (٥)

قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْصِيكُمْ إِلَّا كَفَتٌ وَجِدَّةٌ﴾ سبب نزولها أن أبي بن خلف في آخرين من قريش قالوا للنبي ﷺ: إن الله خلقنا أطواراً: نطفة، علقه، مضغة، عظاماً، لحماً، ثم تزعم أننا نُبعث خلقاً جديداً جميعاً في ساعة واحدة؟! فنزلت هذه الآية^(٤) ومعناها: ما خلقكم أيها الناس جميعاً في القدرة إلا كخلق نفس واحدة، ولا يبعثكم جميعاً في القدرة إلا كبعث نفس واحدة، قاله مقاتل. وما بعد هذا قد تقدم تفسيره [آل عمران: ٢٧، الرعد: ٢، الحج: ٦٢] إلى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَالَكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَبْعَثُ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس: من نعمه جريان الفلك ﴿لِرَبِّكَ مِنْ ءَايَاتِهِ﴾ أي: ليربيكم من صنعته عجائبه في البحر، وابتغاء الرزق ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ قال مقاتل: أي: لكل صبور على أمر الله ﴿شَكُورٍ﴾ في نعمه.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ غَشَيْتُمْ مَوْجَ الْكَافُلِ﴾ يعني الكفار؛ وقال بعضهم: هو عام في الكفار والمسلمين ﴿مَوْجَ الْكَافُلِ﴾ قال ابن قتيبة: وهي جمع ظُلة، يراد أن بعضه فوق بعض، فله سواد من كثرته.

(١) «الطبري» ٨١/٢١ وفي سنده رجل مجهول، وذكره ابن كثير من رواية ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، ومحمد بن أبي محمد، شيخ لعبد الرزاق، مجهول، كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب». قال ابن كثير: وهذا يقتضي أن هذه الآية مدنية، لا مكية، والمشهور أنها مكية، والله أعلم. اهـ. والحديث أورده السيوطي في «الدر» ١٦٧/٥، وزاد نسبه لابن أبي حاتم.

(٢) «الطبري» ٨١/٢١، وأورده السيوطي في «الدر» ١٦٨/٥، وزاد نسبه لعبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في «العظمة»، وأبي نصر السجزي في «الإبانة» عن قتادة.

(٣) قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبرياته وجلاله وأسمائه الحسنى وصفاته العلى وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد ولا اطلاع لبشر على كلها وإحصائها كما قال سيد البشر وخاتم الرسل: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَدٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُ مِنْ يَدَيْهِ سَعَةً أَمْحُرَ مَا نَقَدَتْ كَيْدَ اللَّهِ﴾ أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً، وجعل البحر مِدَاداً، وأمدته سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله، لتكسرت الأقلام ونفذ ماء البحر ولو جاء أمثالها مِدَاداً، قال: وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر، ولا أن ثم سبعة أبحر موجودة محيطة بالعالم كما يقوله من تلقاه من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، بل كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ثُمَّ لَوْ كَانُ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَيْفَتَ رَبِّي قَدَ الْبَحْرِ لَقَدْ أَفْنَدْتُ كَيْدَ رَبِّي وَلَوْ جِثَا بِرَبِّيهِ مَدًا﴾، فليس المراد بقوله: «بمثله» آخر فقط، بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله جراً، لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته. اهـ.

(٤) قال الألوسي في «روح المعاني» ٩١/٢١: وعن مقاتل أن كفار قريش قالوا: إن الله خلقنا أطواراً: نطفة، علقه، مضغة، لحماً، فكيف يبعثنا خلقاً جديداً في ساعة واحدة؟! فنزلت، قال: وذكر النقاش أنها نزلت في أبي بن خلف، وأبي الأسود، ونبيه ومنه ابني الحجاج، وذكر في سبب نزولها فيهم نحو ما ذكر، ثم قال الألوسي: وعلى كون سبب النزول ذلك قيل: المعنى أنه تعالى سمح بقولهم ذلك، بصير بما يضررونه، وهو كما ترى. اهـ. وذكر مثل هذا القول الطبرسي في «مجمع البيان» عن مقاتل، والله أعلم.

مكسورة. والمعنى: ليس أحد يعلم [أين] مضجعه من الأرض حتى يموت، أفي برّ أو بحر أو سهل أو جبل. وقال أبو عبيدة: [يقال]: بأيّ أرض كنت، وبأيّة أرض كنت، لغتان. قال الفراء: من قال: بأيّ أرض، اجتراً بتأنيث الأرض من أن يُظهر في «أيّ» تأنيثاً آخر. قال ابن عباس: هذه الخمس لا يعلمها مَلَكٌ مقرب ولا نبيّ [مرسل] مصطفى. قال الزجاج: فمن ادّعى أنه يعلم شيئاً من هذه كفر بالقرآن لأنه خالفه^(١).



= اللَّهُ عِنْدَهُ يَلْمُ الشَّاعِرَ وَيَنْزِلُ الْقَيْدَ وَيَسْجُرُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَنَا تَذِي نَفْسٍ مَادَا تَحْكِيهِ عَلَّامًا وَنَا تَذِي نَفْسٍ بَاطِنًا تَشَوُّقُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٣﴾ قال: ورواه البخاري. اهـ.

(١) قال الألوسي في تنمّة الآية: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ» مبالغ في العلم، فلا يعزب عن علمه سبحانه شيء من الأعيان، «خَبِيرٌ» يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها، قال: فالجمع بين الوصفين للإشارة إلى التسوية بين علم الظاهر والباطن عنده ﷻ. اهـ.

سورة السجدة

وتسمى سورة المضاجع، وهي مكية بإجماعهم

وقال الكلبي: فيها من المدني ثلاث آيات، أولها قوله: ﴿أَفَنُكِّنْ كَانَ مُؤْمِنًا...﴾ [السجدة: ١٨] وقال مقاتل: فيها آية مدنية، وهي قوله: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ...﴾ الآية [السجدة: ١٦]. وقال غيرهما: فيها خمس آيات مدنيات، أولها ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ...﴾ [السجدة: ١٦] (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىكَ الْكِتَابَ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُكِّنْ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ إِنَّا نُنْزِلُ الْقُرْآنَ نَزْلًا مِّنْ ذُرِّيَّتِهِ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٢) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٣)

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىكَ الْكِتَابَ لَا رَبَّ فِيهِ﴾ قال مقاتل: المعنى: لا شك فيه أنه تنزيل ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون، يعني المشركين ﴿أَفَنُكِّنْ﴾ محمد من تلقاء نفسه، ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ إِنَّا نُنْزِلُ الْقُرْآنَ نَزْلًا مِّنْ ذُرِّيَّتِهِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني العرب الذين أدركوا رسول الله ﷺ لم يأتهم نذير من قبل محمد ﷺ. وما بعده قد سبق تفسيره [الأعراف: ٥٤] إلى قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يعني الكفار؛ يقول: ليس لكم من دون عذابه من ولي، أي: قريب يمتكم فيرد عذابه عنكم ﴿وَلَا شَفِيعَ﴾ يشفع لكم ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتؤمنوا.

﴿يَذْكُرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ يِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٤) ذَلِكَ عَلِيمُ الْغُيُوبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٦) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ (٧) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِ رَبِّهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٨)

قوله تعالى: ﴿يَذْكُرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ في معنى الآية قولان: أحدهما: يقضي القضاء من السماء فينزل مع الملائكة إلى الأرض ﴿ثُمَّ يَرْجِعُ﴾ الملك ﴿إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ﴾ من أيام الدنيا، فيكون الملك قد قطع في يوم واحد من أيام الدنيا في نزوله وصعوده مسافة ألف سنة من مسيرة الآدمي. والثاني: يذبح أمر الدنيا مدة أيام الدنيا، فينزل القضاء والقدر من السماء إلى الأرض ﴿ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ﴾ أي: يعود إليه الأمر والتدبير حين ينقطع أمر الأمراء وأحكام الحكام وينفرد الله تعالى بالأمر ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ يِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وذلك في [يوم] القيامة، لأن كل يوم من أيام الآخرة كآلف سنة. وقال مجاهد: يقضي أمر ألف سنة في يوم واحد، ثم يلقى إلى الملائكة، فإذا مضت قضى لألف سنة أخرى، ثم كذلك أبداً. وللمفسرين في المراد بالأمر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الروحي، قاله السدي. والثاني: القضاء، قاله مقاتل. والثالث: أمر الدنيا. و«يعرج» بمعنى يصعد. قال الزجاج: يقال: عَرَجْتُ فِي السُّلْمِ أَعْرَجُ، وَعَرَجَ (٢) الرَّجُلُ يَعْرُجُ: إِذَا صَارَ أَعْرَجَ. وقرأ معاذ القارئ، وابن السميع، وابن أبي عبلة: «ثُمَّ يَعْرجُ إِلَيْهِ» بباء مرفوعة وفتح الراء. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء: «يَعْرُجُ» بياء مفتوحة وكسر الراء. وقرأ أبو عمران الجوني، وعاصم الجحدري: «ثُمَّ تَعْرُجُ» بياء مفتوحة ورفع الراء.

(١) روى البخاري في «صحيحه» في كتاب الجمعة عن أبي هريرة ؓ قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىكَ الْكِتَابَ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي﴾ [السجدة: ١٦]، ورواه مسلم أيضاً.

(٢) قال في «المصباح»: عَرَجَ فِي شَيْءٍ عَرَجًا مِنْ بَابِ تَعَبٍ: إِذَا كَانَ مِنْ عِلَّةٍ لَازِمَةٍ، فَهُوَ أَعْرَجٌ، وَالْأَنَى عَرَجَاءُ، فَإِنْ كَانَ مِنْ عِلَّةٍ غَيْرِ لَازِمَةٍ، بَلْ مِنْ شَيْءٍ أَصَابَهُ حَتَّى غَمَزَ فِي شَيْءٍ، قِيلَ: عَرَجَ يَنْعَرُجُ، مِنْ بَابِ قَتْلٍ، فَهُوَ عَارِجٌ.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: جعله حسناً. والثاني: أحكم كل شيء، روي عن ابن عباس، وبالأول قال قتادة، وبالثاني: قال مجاهد. والثالث: أحسنه، لم يتعلمه من أحد، كما يقال: فلان يُحسِن كذا: إذا غلِمه، قاله السدي، ومقاتل. والرابع: أن المعنى: ألهم خَلَقَهُ كُلَّ ما يحتاجون إليه، كأنه أعلمهم كل ذلك وأحسنهم، قاله الفراء. والخامس: أحسن إلى كل شيء خَلَقَهُ، حكاه الماوردي. وفي قوله: «خَلَقَهُ» قراءتان: قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: «خَلَقَهُ» ساكنة اللام. وقرأ الباقر بتحرك اللام. وقال الزجاج: فتحها على الفعل الماضي، وتسكينها على البدل، فيكون المعنى: أحسن خَلَقَ كُلَّ شيء خَلَقَهُ. وقال أبو عبيدة: المعنى: أحسن خَلَقَ كُلَّ شيء، والعرب تفعل مثل هذا، يقدمون ويؤخرون.

قوله تعالى: ﴿وَبِعَاقِبَةِ الْإِنْسَانِ﴾ يعني آدم، ﴿ثُمَّ جَعَلْ سَلَمًا﴾ أي: ذريته وولده؛ وقد سبق شرح الآية [المؤمنون: ١٢]. ثم رجع إلى آدم فقال: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ وقد سبق بيان ذلك [الحجر: ٢٩]. ثم عاد إلى ذريته فقال: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ أي: بعد كونكم نطفاً.

﴿وَقَالُوا أَوَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴿قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ ثَمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تَتَجَمَّعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُتَجَمِّعُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ يعني منكري البعث ﴿أَوَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ وقرأ علي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين، وجعفر بن محمد، وأبو رجا، وأبو مجلز، وحמיד، وطلحة: «ضَلَلْنَا» بضاد معجمة مفتوحة وكسر اللام الأولى. قال الفراء: ضَلَلْنَا وَضَلَلْنَا لغتان، والمعنى: إذا صارت عظامنا ولحومنا تراباً كالأرض؛ تقول: ضَلَّ الماء في اللَّبْنِ، وضل الشيء في الشيء: إذا أخفاه وغلب عليه. وقرأ أبو نهيك، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وأبو حيوة، وابن أبي عبل: «ضَلَلْنَا» [بضم] الضاد المعجمة وتشديد اللام الأولى وكسرها. وقرأ الحسن، وقتادة، ومعاذ القاري: «ضَلَلْنَا» بصاد غير معجمة مفتوحة، وذكر لها الزجاج معنيين: أحدهما: أَتُتْنَا وَتَغَيَّرْنَا وَتَغَيَّرَتْ صُورُنَا؛ يقال: ضَلَّ اللحم وأصل: إذا أنتن وتغير. والثاني: صرنا من جنس الصَّلَّة، وهي الأرض اليابسة.

قوله تعالى: ﴿أَوَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾!؟ هذا استفهام إنكار. قوله تعالى: ﴿الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ﴾ أي: بقبض أرواحكم ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تَتَجَمَّعُونَ﴾ يوم الجزاء. ثم أخبر عن حالهم في القيامة فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُتَجَمِّعُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ أي: مطأطئوها حياةً وندماً، ﴿رَبَّنَا﴾ فيه إضمار «يقولون ربنا» ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: عَلِمْنَا صِحَّةَ ما كنَّا به مكذَّبين «فَارْجِعْنَا» إلى الدنيا؛ وجواب «لو» متروك، تقديره: لو رأيت حالهم لرأيت ما يُعتبر به، ولشاهدت العَجَب.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أي: وجب وسبق؛ والقول هو قوله لإبليس ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنِّي وَمَنْ يَمْلِكُ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥].

قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: من كفار الفريقين. ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ قال مقاتل: إذا دخلوا النار قالت لهم الخزنة: فذوقوا العذاب. وقال غيره: إذا اضطرخوا فيها قيل لهم: ذوقوا بما نسيتم، أي: بما تركتم العمل للقاء يومكم هذا، ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ أي: تركناكم من الرحمة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾ أي: سقطوا على وجوههم ساجدين. وقيل: المعنى: إِنَّمَا يُؤْمِنُ بفرائضنا من الصلوات الخمس الذين إذا ذُكِّرُوا بها بالأذان والإقامة خَرُّوا سُجَّدًا.

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ﴾ اختلفوا فيمن نزلت وفي الصلاة التي تتجافى لها جنوبهم على أربعة أقوال: أحدها: أنها نزلت في المتهجدين بالليل؛ روى معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ في قوله: «تتجافى جنوبهم» قال: «قيام العبد من الليل»^(١). وفي لفظ آخر أنه قال لمعاذ: «إن شئت أنبأتك بأبواب الخير»، قال: قلت: أجل يا رسول الله، قال: «الصَّوْمُ جُفَةٌ، والصدقة تكفر الخطيئة، وقيام الرجل في جوف الليل يتغنى وجه الله»، ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾^(٢). وكذلك قال الحسن، ومجاهد، وعطاء، وأبو العالية، وقتادة، وابن زيد أنها في قيام الليل. وقد روى العوفي عن ابن عباس قال: تتجافى جنوبهم لذكر الله، كلما استيقظوا ذكروا الله، إما في الصلاة، وإما في قيام، أو في قعود، أو على جنوبهم، فهم لا يزالون يذكرون الله ﷻ. والثاني: أنها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يصلُّون ما بين المغرب والعشاء، قاله أنس بن مالك. والثالث: أنها نزلت في صلاة العشاء [كان أصحاب رسول الله ﷺ لا ينامون حتى يصلُّوها، قاله ابن عباس. والرابع: أنها صلاة العشاء والصبح في جماعة، قاله أبو الدرداء، والضحاك. ومعنى «تتجافى»: ترتفع. والمضاجع جمع مضجع، وهو الموضع الذي يضطجع عليه. «يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا» من عذابه «وَكَلَمًا» في رحمته [وثوابه] «وَمِمَّا زَكَّيْتَهُمْ يُنِيقُونَ» في الواجب والتطوع. «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ» وأسكن ياء «أُخْفِيَ» حمزة، ويعقوب. قال الزجاج: في هذا دليل على أن المراد بالآية التي قبلها: الصلاة في جوف الليل، لأنه عمل يستسر الإنسان به، فجعل لفظ ما يُجَازَى به «أُخْفِيَ لَهُمْ»، فإذا فتحت ياء «أُخْفِيَ»، فعلى تأويل الفعل الماضي، وإذا أسكنتها، فالمعنى: ما أُخْفِيَ أنا لهم، إخبار عن الله تعالى؛ وكذلك قال الحسن البصري: أخفى لهم، بالتحفية خفية، وبالعلانية علانية. وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، اقروا إن شئتم: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ»^(٣).

قوله تعالى: ﴿مِنْ قَرَّةٍ أَعْيَنَ﴾ وقرأ أبو الدرداء، وأبو هريرة، وأبو عبد الرحمن السلمي، والشعبي، وقتادة: «من قُرَاتٍ أَعْيَنَ» [بألف] على الجمع.

(١) رواء أحمد في «المسند» ٢٣٢/٥ من حديث حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن شهر بن حوشب عن معاذ بن جبل ﷺ، وفي سنده ضعف. قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: ورواية شهر بن حوشب عن معاذ مرسله يقيناً. وكذلك رواء الطبري ١٠٣/٢١ به، وأورد السيوطي في «الدرر» ١٧٥/٥ وزايشه لابن مردويه عن معاذ ﷺ. وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٣١: رواء أحمد، وابن أبي شيبة، وإسحاق، والحاكم من رواية أبي واثل عن معاذ في أثناء حديث مرفوع قال: «فوصلة الرجل في جوف الليل» ثم قرأ ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾. اهـ. يريد به الرواية التي بعد هذه، وأبو واثل لم يثبت سماعه من معاذ.

(٢) هو جزء من حديث طويل، رواء بهذا اللفظ الحاكم في «المستدرک» ٤١٣/٢ من حديث حبيب بن أبي ثابت والحكم بن عتبة، عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ بن جبل ﷺ، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم»: وميمون بن أبي شبيب لم يسمع من معاذ. والحديث رواء الطبري ١٠٢/٢١ مختصراً كما ساقه المؤلف عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ، ورواه مطولاً بنحو رواية الحاكم أحمد في «المسند» ٢٣١/٥، والترمذي في «جامعه» ٨٦/٢، وابن ماجه في «سننه» رقم (٣٩٧٣) من رواية معمر عن عاصم بن أبي النجود عن أبي واثل عن معاذ بن جبل ﷺ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وهذا الحديث هو الحديث التاسع والعشرون من «الأربعين النووية» وقد قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في شرحه لهذا الحديث في كتابه «جامع العلوم والحكم»: وفيما قاله الترمذي رحمه الله نظر من وجهين، أحدهما: أنه لم يثبت سماع أبي واثل من معاذ وإن كان قد أدركه بالسّر، والثاني: أنه قد رواء حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن شهر بن حوشب عن معاذ، خرجه الإمام أحمد مختصراً - يريد به الحديث الذي قبل هذا - ثم قال: قال الدارقطني: وهو أشبه بالصواب، لأن الحديث معروف من رواية شهر على اختلاف عليه فيه، قلت - أي الحافظ ابن رجب الحنبلي -: رواية شهر عن معاذ مرسله يقيناً، وشهر مختلف في توثيقه وتضعيفه، قال: وقد خرجه الإمام أحمد من رواية شهر عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ، وخرجه الإمام أحمد أيضاً من رواية عروة بن الزّوال، أو الزّوال بن عروة، وميمون بن أبي شبيب، كلاهما عن معاذ، ولم يسمع عروة ولا ميمون من معاذ، قال: وله طرق أخرى عن معاذ كلها ضعيفة، والحديث ذكره السيوطي في «الدرر» ١٧٥/٥ وزاد نسبة لابن نصر في كتاب الصلاة، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن معاذ بن جبل ﷺ. اهـ. وبعض فقرات الحديث شواهد، والله أعلم.

(٣) رواء البخاري في «صحيحه» ٣٩٦/٨، ومسلم في «صحيحه» ٢١٧٤/٤، ورواه الترمذي ١٥١/٢، وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه ابن جرير الطبري في «التفسير» ١٠٥/٢١، وذكره السيوطي في «الدرر» ١٧٦/٥ وزاد نسبه، لابن أبي شيبة، وأحمد وهناد كلاهما في «الزهد»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن الأباري عن أبي هريرة ﷺ.

﴿أَتَمَنَ كَانَ مُؤْمِنًا كُنَّ كَالْفَاسِقِ لَا يَسْتَوُونَ﴾ (١) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ دُفِعُوا فِي النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٣﴾ وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَسْخَرَهُمْ بِرِجْزِهِمْ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿أَتَمَنَ كَانَ مُؤْمِنًا كُنَّ كَالْفَاسِقِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن الوليد بن عتبة بن أبي مُعيط قال لعلي بن أبي طالب: أنا أحد منك سنناً، وأبسط منك لساناً، وأملأ للكتيبة منك، فقال له علي: اسكت فإنما أنت فاسق، فنزلت هذه الآية (١)، فعني بالمؤمن علياً، وبالفاسق الوليد، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وبه قال عطاء بن يسار، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، ومقاتل. والثاني: أنها نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل، قاله شريك.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ قال الزجاج: المعنى: لا يستوي المؤمنون والكافرون (٢)، ويجوز أن يكون لاثنتين، لأن معنى الاثنتين جماعة؛ وقد شهد الله بهذا الكلام لعلي عليه السلام بالإيمان وأنه في الجنة، لقوله: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾. وقرأ ابن مسعود، وطلحة بن مصرف: «جنة المأوى» على التوحيد.

قوله تعالى: ﴿نُزُلًا﴾ وقرأ الحسن، والنخعي، والأعمش، وابن أبي عتبة: «نُزُلًا» بتسكين الزاي. وما بعد هذا قد سبق بيانه [الحج: ٢٢] إلى قوله: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى﴾ وفيه ستة أقوال: أحدها: أنه ما أصابهم يوم بدر، رواه مسروق عن ابن مسعود، وبه قال قتادة، والسدي. والثاني: سنون أخذوا بها، رواه أبو عبيدة عن ابن مسعود، وبه قال النخعي. وقال مقاتل: أخذوا بالجوع سبع سنين. والثالث: مصائب الدنيا، قاله أبي بن كعب، وابن عباس في رواية ابن أبي طلحة، وأبو العالية، والحسن، وقاتدة، والضحاك. والرابع: الحدود، رواه عكرمة عن ابن عباس. والخامس: عذاب القبر، قاله البراء. والسادس: القتل والجوع، قاله مجاهد (٣).

قوله تعالى: ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ أي: قبل العذاب الأكبر؛ وفيه قولان: أحدهما: أنه عذاب يوم القيامة، قاله ابن مسعود. والثاني: أنه القتل بيد، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿لَأَسْخَرَهُمْ بِرِجْزِهِمْ﴾ قال أبو العالية: لعلمهم يتوبون. وقال ابن مسعود: لعلى من بقي منهم يتوب. وقال مقاتل: لكي يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ قد فسرناه في [الكهف: ٥٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ قال زيد بن ربيع (٤): هم أصحاب القدر. وقال مقاتل: هم كفار مكة انتقم الله منهم بالقتل بيد، وضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم، وعجل أرواحهم إلى النار.

﴿وَلَقَدْ مَأْنَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي رَيْبٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٥) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَنَا صَبْرًا وَكَانُوا يُفَوِّتُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِفِعْلِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَمَّا كَانُوا فِيهِ يَخْتَفُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢٠٠، عن ابن عباس عليه السلام، وفي سنده ضعف. وقال السيوطي في «أسباب النزول» ١٧٤: وأخرج ابن عدي، والخطيب في «تاريخه» من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مثله، وذكره ابن جرير الطبري في «التفسير» ١٠٧/٢١ عن عطاء بن يسار بمثله، وفي سنده جهالة. وذكره السيوطي عن عطاء بن يسار، وزاد نسبه لابن إسحاق. قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٣١ بعد أن خرجه من رواية ابن مردويه والواحدي عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس: وله طريق أخرى عند ابن مردويه من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. اهـ.

(٢) وكذلك قال أكثر المفسرين.

(٣) قال ابن جرير الطبري ١١٠/٢١: وأولى الأقوال في ذلك أن يقال: إن الله وحده هولاة الفسقة المكذبين بوعده في الدنيا العذاب الأدنى أن يذيقهموه دون العذاب الأكبر. والعذاب: هو ما كان في الدنيا من بلاء أصابهم، إما شدة من سحابة، أو قتل، أو مصائب يصابون بها، فكل ذلك من العذاب الأدنى، ولم يخص الله تعالى ذكره إذ وعدهم ذلك أن يعذبهم بنوع من ذلك دون نوع، وقد عليهم بكل ذلك في الدنيا، بالقتل، والجوع، والشدة، والمصائب في الأموال، فأوفى لهم بما وعدهم. اهـ. وقال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال ابن عباس: يعني بالعذاب الأدنى: مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتنا وما يخل بأهلها مما يتلي الله به عباده ليتوبوا إليه. اهـ.

(٤) كذا الأصل، والذي في «الطبري»، و«البحر»: «يزيد بن ربيع».

أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الشُّرُورِ بِمَشُورَةٍ فِي سَكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿١٧١﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا لَآلِ الْأَرْضِ الْجُبْنَ فَتَحْنِي بِهِ رَزَقًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَمْثَلُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧٢﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧٣﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٧٤﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مُتَنَظِّرُونَ ﴿١٧٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: فلا تكون في مرية من لقاء موسى ربه، رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ^(١). والثاني: من لقاء موسى ليلة الإسراء، قاله أبو العالية، ومجاهد، وقتادة، وابن السائب. والثالث: فلا تكن في شك من لقاء الأذى كما لقي موسى، قاله الحسن. والرابع: لا تكن في مرية من تلقى موسى كتاب الله بالرضى والقبول، قاله السدي. قال الزجاج: وقد قيل: فلا تكن في شك من لقاء موسى الكتاب، فتكون الهاء للكتاب. وقال أبو علي الفارسي: المعنى: من لقاء موسى الكتاب، فأضيف المصدر إلى ضمير الكتاب، وفي ذلك مدح له على امتثاله ما أمر به، وتنبيه على الأخذ بمثل هذا الفعل. وفي قوله: ﴿وَمَعَلَنَّهُ هَذِي﴾ قولان: أحدهما: الكتاب، قاله الحسن. والثاني: موسى، قاله قتادة. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿أَيَمَّةً﴾ أي: قادة في الخير ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يدعون الناس إلى طاعة الله ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ [قرأ ابن كثير، وعاصم، ونافع، وأبو عمرو، وابن عمرو: «يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا» بفتح اللام وتشديد الميم. وقرأ حمزة، والكسائي: «لَمَّا» بكسر اللام خفيفة. وقرأ ابن مسعود: «بِمَا» بياء مكان اللام؛ والمراد: صبرهم] على دينهم وأذى عدوهم ﴿وَكُنَّا أُولَىٰ بِإِيمَانِهِمْ مِنْهُمْ﴾ أي: فيها من المؤمنين والمشركين. ثم خوف كفار مكة بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: «فَهْدِي» بالنون. وقد سبق تفسيره في [طه: ١٢٨]. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا لَآلِ الْأَرْضِ الْجُبْنَ﴾ وهي التي لا تُنبت - وقد ذكرناها في أول [الكهف: ٨] - فإذا جاء الماء أنبت فيها ما يأكل الناس والأنعام. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني كفار مكة ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ وفيه أربعة أقوال: أحدها: أنه ما فتح يوم بدر؛ روى عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية قال: يوم بدر فتح للنبي ﷺ، فلم ينفع الذين كفروا إيمانهم بعد الموت. والثاني: أنه يوم القيامة، وهو يوم الحكم بالثواب والعقاب، قاله مجاهد. والثالث: أنه اليوم الذي يأتيهم فيه العذاب في الدنيا؛ قاله السدي. والرابع: فتح مكة، قاله ابن السائب، والفراء، وابن قتيبة^(٢)؛ وقد اعترض على هذا القول، فقيل: كيف لا ينفع الكفار إيمانهم يوم الفتح، وقد أسلم جماعة منهم وقيل إسلامهم يومئذ؟ فنه جوابان: أحدهما: لا ينفع من قتل من الكفار يومئذ إيمانهم بعد الموت؛ وقد ذكرناه عن ابن عباس. وقد ذكر أهل السير أن خالداً دخل يوم الفتح من غير الطريق التي دخل منها رسول الله ﷺ، فلقبه صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو في آخرين فقاتلوه، فصاح خالد في أصحابه وقتلهم، فقتل أربعة وعشرين من قريش، وأربعة من هذيل، وانهزموا، فلما ظهر رسول الله ﷺ قال: «ألم أنه عن القتال؟» فقيل: إن خالداً قوتل فقاتل^(٣). والثاني: لا ينفع الكفار ما أعطوا من الأمان، لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَهْلَقَ

(١) رواه الطبري ١١٢/٢١ مطولاً من حديث سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أبي العالية عن ابن عباس مرفوعاً، وذكره ابن كثير في «التفسير» ٤٦٣/٣ من رواية الطبراني به مرفوعاً، وأورده السيوطي في «الدر» ١٧٩/٥ وزاد نسبة للفياء في «المختارة» عن ابن عباس عن النبي ﷺ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك قول من قال: معناه: ويقولون: متى يجيء هذا الحكم بيننا وبينكم؟ يعنون العذاب، يدل على أن ذلك معناه قوله: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾، ولا شك أن الكفار قد كان جعل الله لهم التوبة قبل فتح مكة وبعد، ولو كان معنى قوله: ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ على ما قاله من قال: يعني به فتح مكة، لكان لا توبة لمن أسلم من المشركين بعد فتح مكة، ولا شك أن الله قد تاب على كثير من المشركين بعد فتح مكة، ونفعهم بالإيمان به وبرسوله، فمعلوم بذلك صحة ما قلنا من التأويل وفساد ما خالفه. قال: وقوله: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾ يقول لئيب محمد ﷺ: قل لهم يا محمد: يوم الحكم ومجيء العذاب لا ينفع من كفر بالله وآياته إيمانهم الذي يُحْدِثُونَهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. وقال: وقوله: ﴿وَلَا تُمْ يَنْظَرُونَ﴾ يقول: ولا هم يُؤَخَّرُونَ للتوبة والمراجعة. اهـ.

(٣) ذكره ابن هشام ٤٠٧/٢ عن ابن إسحاق بدون سند، وذكره الحافظ ابن كثير في «البلدية والنهاية» ٢٩٧/٤ من رواية الطبراني بنحوه.

بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»^(١). قال الزجاج: يقال: آمنتُ فلاناً إيماناً، فعلى هذا يكون المعنى: لا يدفع هذا الأمانُ عنهم عذابُ الله. وهذا القول الذي قد دافعنا عنه ليس بالمختار، وإنما بيئنا وجهه لأنه قد قيل. وقد خرج بما ذكرناه في الفتح قولان: أحدهما: أنه الحكم والقضاء، وهو الذي نختاره. والثاني: فتح البلد.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ﴾ أي: انتظر عذابهم ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ بك حوادث الدهر^(٢). قال المفسرون: وهذه الآية منسوخة بآية السيف.



(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ١٤٠٨/٣ بلفظ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابَه فهو آمن» وأخرجه ابن هشام في «السيرة» عن ابن إسحاق معضلاً، ولكن وصله ابن جرير الطبري، ورواه أبو داود عن ابن إسحاق بإسناد آخر له عن ابن عباس، وفي سننه رجل مجهول، وله عن أبي داود إسناد ثالث ورجاله ثقات، لكن لم يصرح فيه ابن إسحاق بالسماع، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٦/١٦٦ وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) قال ابن كثير: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ﴾ أي: أعرض عن هؤلاء المشركين، وبلغ ما أنزل إليك من ربك، وانتظر فإن الله سينزل لك ما وعدك، وسينصرك على من خالفك، إنه لا يخلف الميعاد. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ أي: أنت منتظر وهم منتظرون، ويترئصون بكم الدوائر، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله في نصرك وتأيدك، وسيجدون غيباً ما ينتظرون فيك وفي أصحابك من وبيل عقاب الله لهم وحلول عذابه بهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل. اهـ.

سورة الأحزاب

وهي مدنيّة بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّزِ الرَّحْمَ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُطِيعُوا الْكُفْرَانَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَاتَّقُوا مَا بَوَّعْتُمْ لِأَيْتِلَ مِنْ رَبِّكُم مِّنْ شَيْءٍ إِنَّكُمْ أَعْيُنُكُمْ عَلَى النَّاسِ فَاحْشَوْهُمْ كَمَا حْشَوْهُمْ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنَّهُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ خَيْرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَكْنُهُنَّ مِثْنًا أَتَمَّكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ إِنَّكُمْ قَوْلِكُمْ يَأْثُرُكُمْ ۝ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ سبب نزولها أن أبا سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وأبا الأعور السلمي، قَدِمُوا على رسول الله ﷺ في المواعدة التي كانت بينهم، فنزلوا على عبد الله بن أبي، ومعتب بن قشير، والجَدُّ بن قيس، فتكلموا فيما بينهم، وأتوا رسول الله ﷺ فدعوه إلى أمرهم وعرضوا عليه أشياء كرهها، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. قال مقاتل: سألوا رسول الله ﷺ أن يرفض ذكر اللات والعزى ويقول: إن لها شفاعا، فكَرِهَ ذلك، ونزلت [هذه] الآية^(١). وقال ابن جرير: ﴿وَلَا تُطِيعُوا الْكُفْرَانَ﴾ الذين يقولون: اطرد عنا أتباعك من ضعفاء المسلمين، ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ فلا تقبل منهم رأيا. فإن قيل: ما الفائدة في أمر الله تعالى رسوله بالتقوى، وهو سيّد المتّقين؟! فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن المراد بذلك استدامة ما هو عليه. والثاني: الإكثار مما هو فيه. والثالث: أنه خطاب ووجه به، والمراد أمته. قال المفسرون: وأراد بالكافرين في هذه الآية: أبا سفيان، وعكرمة، وأبا الأعور، وبالمنافيقين: عبد الله بن أبي، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وطعمة بن أبيرق. وما بعد هذا قد سبق بيانه [النساء: ٨١] إلى قوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ وفي سبب نزولها قولان: أحدهما: أن المنافقين كانوا يقولون: لمحمد قلبان، قلب معنا، وقلب مع أصحابه، فأكذبهم الله تعالى، ونزلت هذه الآية، قاله ابن عباس^(٢). والثاني: أنها نزلت في جميل بن مَعْمَرٍ الفهري - كذا نسبة جماعة من المفسرين. وقال الفراء: جميل بن أسد، ويكنى: أبا مَعْمَرٍ. وقال مقاتل: أبو مَعْمَرٍ بن أنس الفهري - وكان لبيبا حافظا لِمَا سمع، فقالت قريش: ما حفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان في جوفه، وكان يقول: إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد، فلمّا كان يوم بدر وهُزِمَ المشركون وفيهم يومئذ جميل بن معمر، تلقاه أبو سفيان وهو معلق إحدى نعليه بيده، والأخرى في رجله، فقال له: ما حال الناس؟ فقال: انهزموا، قال: فما بالك إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟ قال: ما شعرتُ إِلَّا أَنَّهُمَا فِي رِجْلَيْ، فعرّفوا [يومئذ] أنه لو كان له قلبان لَمَّا نسي نعله في يده^(٣)؛ وهذا قول جماعة من المفسرين. وقد قال الزهري في هذا قولاً عجيباً، قال: بلغنا أن ذلك في زيد بن حارثة ضُرب له مثل يقول: ليس ابنُ رجل آخر ابْنَكَ^(٤). قال الأخفش: «مِنْ» زائدة في قوله: «مِنْ قَلْبَيْنِ». قال الزجاج: أكذب الله ﷻ هذا الرجل الذي قال: لي

(١) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٢٠١ بغير سند، وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٣٢: هكذا ذكره الثعلبي والواحدي بغير سند.

(٢) «الطبري» ١١٨/٢١، وفي مسنده قايوس بن أبي ظبيان، قال الحافظ ابن حجر عنه في «التقريب»: فيه لين. ورواه الترمذي في «جامعه» ١٥١/٢ وقال: حديث حسن، وفي مسنده أيضاً قايوس بن أبي ظبيان، ورواه الحاكم في «المستدرک» ٤١٥/٢، وضححه، ولكن قال الذهبي في تعقيب عليه: قلت: قايوس ضعيف. وأورد الحديث السيوطي في «الدر» ١٨٠/٥، وزاد نسبة لأحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياء في «المختارة» عن ابن عباس ﷺ.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢٠١ بدون سند، وذكره الطبري ١١٨/٢١، مختصراً عن ابن عباس أنها نزلت في رجل من قريش يسمى من ذُفِيه: ذا القلبن، وذكر عن مجاهد أن رجلاً من بني فهر قال: إن في قلبي جوفين.. الخ، وذكره السيوطي في «الدر» ١٨٠/٥، من رواية ابن أبي حاتم مختصراً عن السدي أنها نزلت في رجل من قريش من بني جمح يقال له: جميل بن معمر.

(٤) ذكره الطبري ١١٩/٢١، عن الحسن بن يحيى قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن الزهري. وأورده السيوطي في «الدر» ١٨١/٥ من ..

قلبان، ثم قرر بهذا الكلام ما يقوله المشركون وغيرهم ممّا لا حقيقة له، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظْهَرُونَ مِنْكُمْ أَهْنِيَكُمْ﴾ فأعلم الله تعالى أن الزوجة لا تكون أمّاً، وكانت الجاهلية تطلق بهذا الكلام، وهو أن يقول لها: أنت عليّ كظهر أمي، وكذلك قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَوْصِيَاءَكُمْ إِتْنَاءَكُمْ﴾ أي: ما جعل من تدعونه ابناً - وليس بولد في الحقيقة - ابناً ﴿ذَلِكَمَ قَوْلُكُمْ بِأَوْصِيَاءِكُمْ﴾ أي: نسب من لا حقيقة لنسبه قول بالضم لا حقيقة تحته ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أي: لا يجعل غير الابن ابناً ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أي: للسبيل المستقيم^(١). وذكر المفسرون أن قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظْهَرُونَ مِنْكُمْ﴾ نزلت في أوس بن الصامت وامرأته خولة بنت ثعلبة. ومعنى الكلام: ما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهنّ كأمهاتكم في التحريم، إنّما قولكم معصية، وفيه كفارة، وأزواجكم لكم حلال؛ وسنشرح هذا في سورة (المجادلة) إن شاء الله. وذكروا أن قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَوْصِيَاءَكُمْ إِتْنَاءَكُمْ﴾ نزل في زيد بن حارثة، أعتقه رسول الله ﷺ وتبناه قبل الوحي، فلما تزوّج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش قال اليهود والمنافقون: تزوّج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عنها، فنزلت هذه الآية^(٢).

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلَاخَرْهُمْ﴾ في الذين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تصدّدت قلوبكم وكان الله عفواً رحيماً ﴿الَّذِينَ أُولَا بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ وَأُولَا الْأَرْحَامِ بِمَعْشَرِ أَولَى يَمَسُّونَ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا لَهُمْ أَوْلَايَاكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾^(٣)

قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ قال ابن عمر: ما كنّا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد، حتى نزلت ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾^(٤).

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَقْسَطُ﴾ أي: أعدل، ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ أي: إن لم تعرفوا آباهم ﴿فَلَاخَرْهُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم، فليقل أحدكم: يا أخي، ﴿وَمَوْلَايَاكُمْ﴾ قال الزجاج: أي: بنو عمكم. ويجوز أن يكون «مواليكم» أولياءكم في الدين. ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ يَمَّا أخطأتم به﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: فيما أخطأتم به قبل النهي، قاله مجاهد؛ والثاني: في دعائكم من تدعونه إلى غير أبيه وأنتم تزوّنه كذلك، قاله قتادة. والثالث: فيما سهوتم فيه، قاله حبيب بن أبي ثابت. فعلى الأول يكون معنى قوله: ﴿وَلَكِنْ مَا تَصَدَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: بعد النهي. وعلى الثاني والثالث: ما تصدّدت في دعاء الرجل إلى غير أبيه.

= رواية عبد الرزاق، وابن جرير الطبري عن الزهري، وكذا قال مجاهد، وقاتة، وابن زيد: إنها نزلت في زيد بن حارثة ﷺ. قال الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: ذلك تكذيب من الله تعالى قول من قال: لرجل في جوفه قلبان يعقب بهما، على النحو الذي روي عن ابن عباس، وجائز أن يكون ذلك تكديماً من الله لمن وصف رسول الله ﷺ بذلك، وأن يكون تكديماً لمن سمي القرشي الذي ذكر أنه سُعيّ ذا القلبين من ذُفيع، رأي الأمرين كان، فهو نفي من الله عن خلقه من الرجال أن يكونوا بتلك الصفة. اهـ.

(١) قال ابن كثير في هذه الآيات: ﴿جَعَلَ اللَّهُ لِرَبِّهِ بْنِ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ...﴾ إلى آخره: يقول تعالى موطناً قبل المقصود المعنوي أمراً معروفاً حياً، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه، ولا نصير زوجته التي يظاهر منها بقوله: أنت عليّ كظهر أمي أمّاً له، كذلك لا يصير الدعي ولداً للرجل إذا تبناه فدعا ابناً له، فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَبِّهِ بْنِ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظْهَرُونَ مِنْكُمْ أَهْنِيَكُمْ﴾ كقوله ﷺ: ﴿مَا هَكَأَ أَهْنِيكُمْ إِنْ أَهْنَيْتُمْ إِلَّا إِلَى زَلَّتْهُمْ...﴾ الآية، ثم قال: وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَوْصِيَاءَكُمْ إِتْنَاءَكُمْ﴾ هذا هو المقصود بالنفي، فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة ﷺ مولى النبي ﷺ، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة فكان يقال له: زيد بن محمد، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَوْصِيَاءَكُمْ إِتْنَاءَكُمْ﴾ كما قال تعالى في أثناء السورة: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ جُنَاكُمَ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَبَنَاتُهُ الْأَنْثَى وَكَانَ اللَّهُ يَكْفِي قَوْلَهُ يَكُنَا﴾ وقال هاتنا: ﴿ذَلِكَمَ قَوْلُكُمْ بِأَوْصِيَاءِكُمْ﴾ يعني: تبنيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان، ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ قال سعيد بن جبير: «يقول الحق» أي: العدل، وقال قتادة: «هو يهدي السبيل» أي: الصراط المستقيم. اهـ.

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢٠١ بدون سند، وذكره السيوطي في «الدر» ١٨١/٥، من رواية الغريابي، وابن أبي شيبه، وابن المنذر، عن مجاهد ﷺ.

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» ٣٩٧/٨، ومسلم في ١٨٨٤/٤، وأخرجه الترمذي، والنسائي، من طرق، ورواه الواحدي في «أسباب النزول» ٢٠١، وأوردته السيوطي في «الدر» ١٨١/٥ وزاد نسبته لابن أبي شيبه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه» عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: أحق، فله أن يحكم فيهم بما يشاء، قال ابن عباس: إذا دعاهم إلى شيء، ودعاهم أنفسهم إلى شيء، كانت طاعته أولى من طاعة أنفسهم؛ وهذا صحيح، فإن أنفسهم تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم، والرسول يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم^(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي: في تحريم نكاحهن على التأيد، ووجوب إجلالهن وتعظيمهن؛ ولا تجري عليهن أحكام الأمهات في كل شيء، إذ لو كان كذلك لَمَا جاز لأحد أن يتزوج بناتهن، ولَوَرُفُنَ المسلمين، ولجازت الخلوة بهن^(٢). وقد روى مسروق عن عائشة أن امرأة قالت: يا أمّاه، فقالت: لست لك بأُم؛ إنما أنا أُم رجالكم^(٣)؛ فبان بهذا الحديث أن معنى الأمومة تحريم نكاحهن فقط. وقال مجاهد: ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ وهو أب لهم. وما بعد هذا مفسر في آخر (الأنفال) إلى قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ والمعنى أن ذوي القربات بعضهم أولى بميراث بعض من أن يَرثُوا بالإيمان والهجرة كما كانوا يفعلون قبل النسخ^(٤) ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا لَكُنْ أَوْلَىٰ بِكُم مَّعْرُوفًا﴾ [وهذا استثناء ليس من الأول، والمعنى: لكن فعلكم إلى أولياتكم معروفاً] جائز، وذلك أن الله تعالى لَمَّا نسخ التوارث بالحلف والهجرة، أباح الوصية للمعاقدن، فلإنسان أن يوصي لمن يتولاه بما أحب من ثلثه. فالمعروف هاهنا: الوصية.

قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ يعني نسخ الميراث بالهجرة وردّه إلى ذوي الأرحام ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ يعني اللوح المحفوظ ﴿سَطُورًا﴾ أي: مكتوباً.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْوَدَّاعَةَ وَتُؤْمِنُونَ بِرَبِّكُمْ وَأَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ﴾ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١﴾ لَيَسْئَلَنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢﴾ يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا أَزْوَاجًا وَلَهُمْ أَوْلَىٰ لِمَن يَخْتَرُونَ وَلَا يُجْزَىٰ عَنْهُمْ جُزْءٌ مِّمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَجُودًا لَّمْ يَرْوِهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾ المعنى: واذكر إذا أخذنا ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ أي: عهدهم؛ وفيه قولان: أحدهما: أخذ ميثاق النبيين: أن يصدّق بعضهم بعضاً، قاله قتادة. والثاني: أن يعبدوا الله ويدعوا إلى عبادته، ويصدّق بعضهم بعضاً، وأن ينصحو لقومهم، قاله مقاتل. وهذا الميثاق أخذ منهم حين أخرجوا من ظهر آدم كالذُرّ. قال أيّ بن كعب: لَمَّا أخذ ميثاق الخلْق خَصَّ النبيين بميثاق آخر^(٥). فإن قيل: لِمَ خَصَّ الأنبياء الخمسة بالذكر دون غيرهم من الأنبياء؟ فالجواب: أنه نَبّه بذلك على فضلهم، لأنهم أصحاب الكتب والشرائع؛ وقُدّم نبينا ﷺ بيانا لفضله عليهم.

(١) قال ابن كثير: قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم كان مقدماً على اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا وَرَبِّكَ لَا يُدْرِكُكَ حَتَّىٰ يَسْأَلَكَ بِمَا شِئْتَ ثُمَّ لَا يُجَادُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ مَتَا فَتَنَتْ وَرُسُلُوا سَلِيلًا﴾ ﴿١﴾ قال: وفي الصحيح: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين»، قال: وفي «الصحيح» أيضاً أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله! أنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال ﷺ: «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال: يا رسول الله! والله لأن أحب إليّ من كل شيء حتى من نفسي، فقال ﷺ: «الآن يا عمر» ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾. قال: وقال البخاري عند هذه الآية الكريمة: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فأياها مؤمن ترك ما لا يضره عصيته من كانوا، وإن ترك ديناً أو ضيعاً فليأتني فأنا مولاها» اهـ.

(٢) قال ابن كثير: ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي: في الحرمة والاحترام والتوقير والإكرام والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع، وإن سمي بعض العلماء بناتهن: أخوات المؤمنين، كما هو متصوص الشافعي رضي الله عنه في «المختصر» وهو من باب إطلاق العبارة، لا لإثبات الحكم، ثم قال: وهل يقال لمعاوية وأمثلة: خال المؤمنين؟ فيه قولان للعلماء رضي الله عنه، ونص الشافعي رضي الله عنه على أنه لا يقال ذلك، قال: وهل يقال لهن: أمهات المؤمنات فيدخل النساء في جمع المذكر السالم تغليظاً؟ فيه قولان، صح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لا يقال ذلك، وهذا أصح الوجهين في مذهب الشافعي رضي الله عنه. اهـ.

(٣) أورده السيوطي في «الدرر» ١٨٢/٥ بنحو من رواية ابن سعد، وابن المنذر، والبيهقي في «مسننه» عن عائشة رضي الله عنها.

(٤) قال ابن كثير: أي القربات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار، قال: وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمواخاة التي كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجري يرث الأنصاري دون قرباته وذوي رحمه للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ، وكذا قال سعيد بن جبير وغير واحد من السلف والخلف. اهـ.

(٥) قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن أولي العزم الخمسة (وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين) وبقيّة الأنبياء: أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله تعالى، وإبلاغ رسالته، والتعاون والتناصر والاتفاق. اهـ.

قال قتادة: كان نبينا أول النبيين في الخلق^(١). وقوله: ﴿يَتَنَفَّسُ فِي ظَنِّكَ﴾ أي: شديداً على الوفاء بما حُمِّلوا. وذكر المفسرون أن ذلك العهد الشديد: اليمين بالله ﷺ. ﴿لَسْتَ لَآئِدٌ لِّمَنَّا﴾ يقول: أخذنا ميثاقهم لكي نسال الصادقين، وهم الأنبياء ﴿عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ في تبليغهم. ومعنى سؤال الأنبياء - وهو يعلم صدقهم - تبكيت مكذبيهم. وها هنا تم الكلام. ثم أخبر بعد ذلك عما أعد للكافرين بالرسول.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ وهم الذين تحزَّبوا على رسول الله ﷺ أيام الخندق.

الإشارة إلى القصة

ذكر أهل العلم بالسيرة أن رسول الله ﷺ لما أجلى بني النضير، ساروا إلى خيبر، فخرج نفر من أشرفهم إلى مكة فألبوا قريشاً ودعَّوهم إلى الخروج لقتاله، ثم خرجوا من عنده فاتوا غطفان وسُليم، ففارقوهم على مثل ذلك. وتجهزت قريش ومن تبعهم من العرب، فكانوا أربعة آلاف، وخرجوا يقودهم أبو سفيان، ووافتهم بنو سليم بـ «مر الظهران»، وخرجت بنو أسد، وفزارة، وأشجع، وبنو مرة، فكان جميع من وافى الخندق من القبائل عشرة آلاف، وهم الأحزاب؛ فلما بلغ رسول الله ﷺ خروجهم من مكة، أخبر الناس خبرهم، وشاورهم، فأشار سلمان بالخندق، فأعجب ذلك المسلمين، وعسكر بهم رسول الله ﷺ إلى سفح «سَلْع»^(٢)، وجعل سَلْعاً خلف ظهره؛ ودسَّ أبو سفيان بن حرب حِيَّيَّ ابن أخطب إلى بني قريظة يسألهم أن ينقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ ويكونوا معهم عليه، فأجابوا، واشتد الخوف، وعظم البلاء، ثم جرت بينهم مناوشة وقاتل، وحُصِر رسول الله ﷺ وأصحابه بضع عشرة ليلة حتى خلع إليهم الكرب، وكان نعيم بن مسعود الأشجعي قد أسلم، فمشى بين قريش وقريظة وغطفان فخلَّ بينهم، فاستوحش كل منهم من صاحبه، واعتلت قريظة بالسبت فقالوا: لا نقابل فيه، وهبت ليلة السبت ريح شديدة، فقال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله لستم بدار مقام، لقد هلك الخُفَّ والحافر، وأجذب الجَنَاب^(٣)، وأخلقتنا قريظة، ولقينا من الريح ما تُرون، فارتجلوا فإني مرتجل؛ فأصبحت العساكر قد أقشعت كلها^(٤). قال مجاهد: والريح التي أرسلت عليهم هي الصَّبا^(٥)، حتى أكفأت قُدورهم، ونزعت فساطيطهم. والجنود: الملائكة، ولم تقاتل يومئذ^(٦). وقيل: إن الملائكة جعلت تقلع أوتادهم وتطفئ نيرانهم وتكبر في جوانب عسكرهم، فاشتدت عليهم، فانهزموا من غير قتال.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَرَوْهَا﴾ وقرأ النخعي، والجدري، والجوني، وابن السميع: «لم يَرَوْهَا» بالياء ﴿وَكَاَنَّ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ وقرأ أبو عمرو: «[يعملون]» بالياء.

(١) هذا الكلام ذكره بعضهم عن قتادة موقوفاً عليه، ورواه ابن جرير الطبري ١٢٥/٢١، من طريق سعيد بن بشير الأزدي عن قتادة مرسلاً قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث» وسعيد بن بشير الأزدي، ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب»، والحديث ذكره ابن كثير ٤٦٩/٣، من رواية ابن أبي حاتم من حديث بشير بن سعيد قال: حدثني قتادة عن الحسن عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث، فبدأ بي قبلهم» ثم قال ابن كثير: وسعيد بن بشير فيه ضعف، قال: ورواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة مرسلاً، وهو الأشبه، قال: ورواه بعضهم عن قتادة موقوفاً، والله أعلم. وقال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة»: حديث «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث» رواه أبو نعيم في «الدلائل»، وابن أبي حاتم في «تفسيره»، وابن لال، ومن طريقه الديلمي، كلهم من حديث سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة به مرفوعاً. اهـ. وسعيد بن بشير ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر، وللحديث رواية أخرى من حديث ميسرة الفجر بلفظ: «كنت نبياً وألم بين الروح والجسد» وهو صحيح الإسناد، أخرجه أحمد، والبخاري في «تاريخه» وأبو نعيم في «الحلية» والحاكم وصححه، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح. ولكن ليس معناه كما يتوهم بعض الناس أن نبينا محمداً ﷺ كان موجوداً بذاته قبل آدم، وأن ذاته خلقت قبل الذوات، ومن يقول بذلك فلنما يعتمد على أحاديث غير صحيحة في هذا الموضوع.

(٢) قال في «معجم البلدان»: سَلْع: جبل يسوق المدينة.

(٣) قال في «الصحاح»: الجَنَاب: الفناء، وما قَرَّبَ من مَحَلِّه القوم، والجمع أجنية.

(٤) أَقَشَعَ القَوْمُ وتَشَعَّوْا واتَشَعَّوْا: ذهبوا وافترقوا.

(٥) عن ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «نُفِرتُ بالصَّبا وأهلكْتُ عَادَ بالبُثور» رواه أحمد، والبخاري، ومسلم. والصَّبا: الريح تهب من مطلع الشمس، والديبور: الريح تهب من جهة المغرب، تقابل الصَّبا.

(٦) انظر تفسير ابن كثير ٤٧٠/٣، وسيرة ابن هشام ٢١٤/٢ والبداية والنهاية لابن كثير ٩٢/٤.

﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظَرُوا بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۝ هَٰلِكَ أَصْحَابُ الْأَيْمُونِ ۚ وَاُولَٰئِكَ شَرِيدٌ ۝ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَآ وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أي: من فوق الوادي ومن أسفله ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: مالت وعدلت، فلم تنظر إلى شيء إلا إلى عدوها مقبلاً من كل جانب ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ وهي جمع حَنَجْرَةٌ. والحَنَجْرَةُ: جوف الحُلُقُوم. قال قتادة: شَخَصَتْ عن مكانها، فلولا أَنَّهُ ضاق الحُلُقُوم عنها أن تخرج لخرجت. وقال غيره: المعنى أنهم جَبُنُوا وَجَزَع أكثرهم؛ وسبيل الجبان إذا اشتدَّ خوفه أن تنتفخ رثته فيرتفع حينئذ القلب إلى الحَنَجْرَةِ، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس والفراء. وذهب ابن قتيبة إلى أن المعنى: كادت القلوب تبلغ الحُلُقُوم من الخوف وقال ابن الأنباري: «كاد» لا يُضَمَّر ولا يُعْرَف معناه إذا لم يُنْطَق به.

قوله تعالى: ﴿وَنَظَرُوا بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ قال الحسن: اختلفت ظنونهم، فظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يستأصلون، وظن المؤمنون أنه يُنْصَر. قرأ ابن كثير، والكسائي، وحفص عن عاصم: «الظُّنُونَا» [والرسولَا] [الأحزاب: ٦٦] و«السَّيْلَا» [الأحزاب: ٦٧] بألف إذا وقفوا عليهن، وبطرحها في الوصل. وقال هبيرة عن حفص عن عاصم: وصل أو وقف بألف. وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: بالألف فيهن وصلًا ووقفًا. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي: بغير ألف في وصل ولا وقف. قال الزجاج: والذي عليه خُذَّاق النحويين والمُتَّبِعُونَ الشُّعْثَة من قُرَّانهم أن يقرؤوا: «الظُّنُونَا» ويقفون على الألف ولا يَصِلُون؛ وإنما فعلوا ذلك، لأن أواخر الآيات عندهم فواصل يُبَيِّنُون في آخرها الألف في الوقف.

قوله تعالى: ﴿هَٰلِكَ﴾ أي: عند ذلك ﴿أَبْصَارُ الْمُنَافِقِينَ﴾ أي: اخْبَرُوا بالقتال والحصر ليتبين المُخْلِص من المنافق ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ أي: أزعجوا وخُزِّكُوا بالخوف، فلم يوجدوا إلا صابرين. وقال الفراء: خُزِّكُوا إلى الفتنة تحريكاً، فعضموا. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الشُّرْك، قاله الحسن. والثاني: النفاق، قاله قتادة، ﴿مَآ وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ قال المفسرون: قالوا يومئذ: إن محمداً يَعِدُنَا أن نفتح مدائن كسرى وقبصر وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله! هذا والله الغرور. وزعم ابن السائب أن قاتل هذا معتب بن قُشَيْر.

﴿وَإِذْ قَالَتْ غُلَامَةُ مِنْهُمْ إِنَّا جَاءَنَا نَارٌ مِّنَ الْمَقَامِ لَكُنَّ قَارِعَاتٌ وَاسْتَنْزِدْنَ فِيهِنَّ مِنْهُنَّ النَّارُ يَقُولْنَ إِنَّا نَبُوءَاتُ عَوْنَةٍ وَمَا هِيَ بِعَوْنَةٍ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْدَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْنَهَا وَمَا تَلَاَوْهَا بِهَا إِلَّا نَصِيرًا ۝ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلِّفُ الْأَدْبُرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ۝ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذْ لَا تَنْتَعِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُنَّ لَهْمَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكُمْ وَلَا نَصِيرًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ غُلَامَةُ مِنْهُمْ﴾ يعني من المنافقين. وفي القائلين لهذا منهم قولان: أحدهما: عبد الله بن أبي وأصحابه، قاله السدي. والثاني: بنو سالم من المنافقين، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿يَأْتَاكُمُ الْبَرْبُ﴾ قال أبو عبيدة: يَثْرِب: اسم أرض، ومدينة النبي ﷺ في ناحية منها^(١).

قوله تعالى: ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ وقرأ حفص عن عاصم: «لَا مَقَامَ» بضم الميم. قال الزجاج: من ضمَّ الميم، فالمعنى: لا إقامة لكم؛ ومن فتحها، فالمعنى: لا مكان لكم تُقيمون فيه. وهؤلاء كانوا يثبطون المؤمنين عن النبي ﷺ. قوله تعالى: ﴿قَارِعَاتٌ﴾ أي: إلى المدينة، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج بالمسلمين حتى عسكروا بـ«سَلْع»، وجعلوا الخندق بينهم وبين القوم، فقال المنافقون للناس: ليس لكم هاهنا مَقَام، لكثرة العدو، وهذا قول الجمهور. وحكى

(١) قال ياقوت الحموي في «معجم البلدان»: يثرب: قال أبو القاسم الزجاجي: مدينة رسول الله ﷺ. وقال: وقال آخرون: بل يثرب ناحية من مدينة النبي ﷺ. وقال ابن كثير في «التفسير» في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ غُلَامَةُ مِنْهُمْ إِنَّا جَاءَنَا نَارٌ مِّنَ الْمَقَامِ لَكُنَّ قَارِعَاتٌ وَاسْتَنْزِدْنَ فِيهِنَّ مِنْهُنَّ النَّارُ يَقُولْنَ إِنَّا نَبُوءَاتُ عَوْنَةٍ وَمَا هِيَ بِعَوْنَةٍ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾: «أُرِيتَ دَارَ هَجْرَتِكُمْ، أَرْضَ بَيْنَ حَرَمَيْنِ، فَلَعِبَ وَغَلِي (وهي واصطفاي) أنها هجر، فإنما هي يثرب، وفي لفظ «المدينة»، ثم قال: فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن البراء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سعى المدينة يثرب فليستغفر الله تعالى، إنما هي طابة، إنما هي طابة، تفرد به الإمام أحمد، وفي إسناده ضعف، والله أعلم، قال: ويقال: إنما كان أصل تسميتها يثرب برجل تزلها من العماليق يقال له: يثرب. اهـ.

الماوردي قولين [آخَرِينَ]: أحدهما: لا مقام لكم على دين محمد فارجعوا إلى دين مشركي العرب، قاله الحسن. والثاني: لا مقام لكم على القتال، فارجعوا إلى طلب الأمان، قاله الكلبي.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفِيزُونَ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ بَنُو حَارِثَةَ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بَنُو حَارِثَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ. وَقَالَ السَّيِّدِيُّ: إِنَّمَا اسْتَأْذَنَهُ رَجُلَانِ مِنْ بَنِي حَارِثَةَ. وَالثَّانِي: بَنُو حَارِثَةَ، وَبَنُو سُلَيْمَةَ بْنِ جَشْمٍ، قَالَه مُقَاتِلٌ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَبُوتَنَا عَوْرَةً﴾ قَالَ ابْنُ قَتِيْبَةَ: أَيُّ: خَالِيَّةٌ، فَقَدْ أَمَكَّنَ مِنْ أَرَادَ دَخُولَهَا، وَأَصْلُ الْعَوْرَةِ: مَا ذَهَبَ عَنْهُ السُّتْرُ وَالْحِفْظُ، فَكَأَنَّ الرِّجَالَ سَبَرُوا وَحَفِظُوا لِلْبُيُوتِ، فَإِذَا ذَهَبُوا أَغَوْرَتِ الْبُيُوتُ، تَقُولُ الْعَرَبُ: أَغَوْرَ مَنْزِلِي: إِذَا ذَهَبَ سِتْرُهُ، أَوْ سَقَطَ جِدَارُهُ، وَأَغَوْرَ الْفَارِسُ: إِذَا بَانَ مِنْهُ مَوْضِعُ خَلَلٍ لِلضَّرْبِ وَالطَّعْنِ، يَقُولُ اللَّهُ: ﴿وَمَا هِيَ بِمَوْرَةٍ﴾ لِأَنَّ اللَّهَ يَحْفَظُهَا، وَلَكِنْ يَرِيدُونَ الْفِرَارَ. وَقَالَ الْحَسَنُ، وَمُجَاهِدٌ: قَالُوا: بَيْوتُنَا ضَائِعَةٌ نَخْشَى عَلَيْهَا السَّرَاقَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: قَالُوا: بَيْوتُنَا مَمَّا يَلِي الْعَدُوَّ، وَلَا نَأْمَنُ عَلَى أَهْلِنَا، فَكَذَّبَهُمُ اللَّهُ وَأَعْلَمَ أَنَّ قَصْدَهُمُ الْفِرَارَ.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا﴾ يَعْنِي الْمَدِينَةَ؛ وَالْأَقْطَارُ: النُّوَاحِي وَالْجَوَانِبُ، وَاحِدُهَا: قُطْرٌ، ﴿ثُمَّ سَلُّوا السِّينَ وَكَسَرُوا الْيَاءَ مِنْ غَيْرِ هَمْزٍ. وَقَرَأَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ كَعْبٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَأَبُو الْجَوَازِ: «ثُمَّ سَوَّلُوا» بَرْفَعِ السِّينَ وَمَدِّ الْوَائِ بِهَمْزَةٍ مَكْسُورَةٍ بَعْدَهَا. وَقَرَأَ الْحَسَنُ، وَأَبُو الْأَشْهَبِ: «ثُمَّ سَوَّلُوا» بَرْفَعِ السِّينَ وَسَكُونِ الْوَائِ مِنْ غَيْرِ هَمْزٍ وَلَا هَمْزٍ. وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ، وَعَاصِمُ الْجَحْدَرِيُّ: «ثُمَّ سَبَّلُوا» بِكَسْرِ السِّينِ سَاكِنَةٍ الْيَاءَ مِنْ غَيْرِ هَمْزٍ وَلَا وَائٍ. وَمَعْنَى: «سَلُّوا الْفِتْنَةَ»، أَيُّ: سَلُّوا فَعْلَهَا [وَالْفِتْنَةُ: الشُّرْكُ، ﴿لَا تَوْهَا﴾] قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَنَافِعٌ، وَابْنُ عَامِرٍ: «لَا تَوْهَا» بِالْقَصْرِ، أَيُّ: لِقَصْدِهَا، وَلَفَعْلُهَا. وَقَرَأَ عَاصِمٌ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَحُمَازَةُ، وَالْكَسَائِيُّ: «لَا تَوْهَا» بِالْمَدِّ، أَيُّ: لَاعْطُوهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي مَعْنَى الْآيَةِ: لَوْ أَنَّ الْأَحْزَابَ دَخَلُوا الْمَدِينَةَ ثُمَّ أَمْرُوهُمْ بِالشُّرْكِ لِأَشْرَكُوا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا﴾ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: وَمَا احْتَبَسُوا عَنِ الْإِجَابَةِ إِلَى الْكُفْرِ إِلَّا قَلِيلًا، قَالَه قَتَادَةُ. وَالثَّانِي: وَمَا تَلَبَّثُوا بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ الْإِجَابَةِ إِلَّا بَسِيرًا حَتَّى يَعْذُبُوا، قَالَه السَّيِّدِيُّ. وَحَكَى أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّمَشَقِيُّ فِي الْآيَةِ قَوْلًا عَجِيبًا، وَهُوَ أَنَّ الْفِتْنَةَ هَاهُنَا: الْحَرْبُ، وَالْمَعْنَى: وَلَوْ دُخِلَتْ الْمَدِينَةُ عَلَى أَهْلِهَا مِنْ أَقْطَارِهَا، ثُمَّ سُئِلَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الْحَرْبَ لِأَتَوْهَا مَبَادِرِينَ، وَمَا تَلَبَّثُوا - يَعْنِي الْجِيُوشَ الدَّاخِلَةَ عَلَيْهِمْ بِهَا - إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يُخْرِجُوهُمْ مِنْهَا؛ وَإِنَّمَا مَنَعَهُمُ مِنَ الْقِتَالِ مَعَكُمْ مَا قَدْ تَدَاخَلَهُمْ مِنَ الشُّكِّ فِي دِينِكُمْ^(١)؛ قَالَ: وَهَذَا الْمَعْنَى حَفِظْتُهُ مِنْ كِتَابِ الْوَاقِدِيِّ^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ فِي وَاقْتِ مَعَاهِدَتِهِمْ ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ نَاسٌ غَابُوا عَنْ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَلَمَّا عَلِمُوا مَا أَعْطَى اللَّهُ أَهْلَ بَدْرٍ مِنَ الْكِرَامَةِ قَالُوا: لَنْ نَشْهَدَ قِتَالًا لِنُقَاتِلَنَّ، قَالَه قَتَادَةُ. وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ أَهْلُ الْعَقَبَةِ، وَهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَنُصْرَةِ رَسُولِهِ، قَالَه مُقَاتِلٌ. وَالثَّلَاثُ: أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ بِالْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أَحَدٍ مَا نَزَلَ، عَاهَدَ اللَّهُ مَعْتَبَ بْنَ قُشَيْرٍ وَثَعْلَبَةَ بْنَ حَاطِبٍ: لَا نُوَلِّي دُبْرًا قَطُّ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْأَحْزَابِ نَافِقًا، قَالَه الْوَاقِدِيُّ، وَاخْتَارَهُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّمَشَقِيُّ، وَهُوَ أَلْيَقُ مِمَّا قَبْلَهُ. وَإِذَا كَانَ الْكَلَامُ فِي حَقِّ الْمُنَافِقِينَ، فَكَيْفَ يُطْلَقُ الْقَوْلُ عَلَى أَهْلِ الْعَقَبَةِ كُلِّهِمَا

(١) رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّ الْفِتْنَةَ: الشُّرْكُ، وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّ الْفِتْنَةَ: الشُّرْكُ، وَكَذَلِكَ قَالَ الْبُخَارِيُّ وَالْخَازَنُ، وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: الْفِتْنَةُ: هِيَ الدَّخُولُ فِي الْكُفْرِ. وَقَالَ الشُّرْكَانِيُّ فِي «فَتْحِ الْقَدِيرِ» الْفِتْنَةُ هُنَا: إِمَّا الْقِتَالُ فِي الْمَصِيبَةِ كَمَا قَالَ الضَّحَّاكُ، أَوْ الشُّرْكُ بِاللَّهِ وَالرَّجْعَةُ إِلَى الْكُفْرِ الَّذِي يَطْنُونَهُ وَيُظْهِرُونَ خِلَافَهُ كَمَا قَالَه الْحَسَنُ. وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ فِي «رُوحِ الْمَعَانِي»: الْفِتْنَةُ: أَيُّ الْقِتَالِ كَمَا قَالَ الضَّحَّاكُ، ثُمَّ قَالَ: كَأَنَّهُ شَبَّهَ الْفِتْنَةَ الْمَطْلُوبَ اتِّبَاعِهِمْ فِيهَا بِأَمْرِ نَفْسٍ يَطْلُبُ مِنْهُمْ بِذَلِكَ، وَنَزَلَ إِطَاعَتَهُمْ وَاتِّبَاعَهُمْ بِمَنْزِلَةِ بَذْلِ مَا سَلَّوْهُ وَأَعْطَاهُ، ثُمَّ قَالَ: وَالْمُرَادُ: أَنَّهُمْ لَوْ سَأَلَهُمْ غَيْرُكَ الْقِتَالَ وَهُمْ فِي أَشَدِّ حَالٍ وَأَعْظَمَ لِبَالٍ، لَأَسْرَعُوا جَدًّا، فَضْلًا عَنِ التَّعَلُّلِ بِاخْتِلَالِ بَيْوتِهِمْ مَعَ سَلَامَتِهَا كَمَا فَعَلُوا الْآنَ، قَالَ: وَالْحَاصِلُ أَنَّ طَلِبَهُمُ الْإِذْنَ فِي الرَّجُوعِ لَيْسَ بِاخْتِلَالِ بَيْوتِهِمْ، بَلْ لِفَاقِهِمْ وَكَرَاهَتِهِمْ نَصْرَتِكَ. اهـ.

(٢) الْوَاقِدِيُّ: هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ وَاقِدٍ السَّهْمِيُّ الْأَسْلَمِيُّ الْمَدَنِيُّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْوَاقِدِيُّ، مِنْ أَقْدَمِ الْمُؤَرِّخِينَ فِي الْإِسْلَامِ وَمِنْ أَشْهُرِهِمْ، وَمِنْ حِفَافِ الْحَدِيثِ، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ عَنْهُ فِي «التَّقْرِيبِ»: «مُتْرُوكٌ مَعَ سَعَةِ عِلْمِهِ. لَهُ تَصَانِيفٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا «تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ».

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ أي: يُسألون عنه في الآخرة. ثم أخبر أن الفرار لا يزيد في آجالهم، فقال: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذْ لَا تَنْتَعُونَ﴾ بعد الفرار في الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهو باقي آجالكم. ثم أخبر أن ما قدره عليهم لا يُدفع، بقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: يجيركم ويمنعكم منه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ وهو الإهلاك والهزيمة والبلاء ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ وهي النصر والعافية والسلامة ﴿وَلَا يَحِذُونُ لِمَنْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَيْكًا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: لا يجدون موالياً ولا ناصراً يمنعهم من مراد الله فيهم.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٨﴾ أَسْحَبَةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْغَوْفَ رَأَيْتَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذُكِبَ لِقَوْفٌ مَلَكُوكُمْ بِالْأَيْدِي جَدَاوٍ أَسْحَبَةٌ عَلَى الْخَبَرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْشُوا فَلَحَبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بَيِّنًا ﴿١٩﴾ يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَلَئِنْ بَأَتِ الْأَحْزَابُ يَدُودًا لَوْ أَنَّهُمْ بَادَرُكَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَأْذِنُكَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن رجلاً انصرف من عند رسول الله ﷺ يوم الأحزاب، فوجد أخاه لأُمِّه وأبيه وعنده شياء ونبيذ، فقال له: أنت هاهنا ورسول الله بين الرماح والسيوف؟! فقال: هلم إلي، لقد أحبط بك وبصاحبك؛ والذي يُخلفُ به لا يستقبلها محمدٌ أبداً، فقال له: كذبت، والذي يُخلفُ به، أما والله لأخبرن رسول الله ﷺ بأمرك، فذهب إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجده قد نزل جبريل بهذه الآية إلى قوله: ﴿يَبَيِّنَا﴾، هذا قول ابن زيد^(١). والثاني: أن عبد الله بن أبي مُعَتَبٍ بن قُثَيْرٍ والمنافقين الذين رجعوا من الخندق إلى المدينة، كانوا إذا جاءهم منافق قالوا له: ويحك اجلس فلا تخرج، ويكتبون بذلك إلى إخوانهم الذين في العسكر أن اتنونا بالمدينة فلئنا نتنظركم - يبطونهم عن القتال - وكانوا لا يأتون العسكر إلا أن لا يجدوا بدءاً، فيأتون العسكر ليرى الناس وجوههم، فإذا غفل عنهم عادوا إلى المدينة، فنزلت هذه الآية، قاله ابن السائب^(٢). والمعوق: المبط؛ تقول: عاقني فلان، واعتاقني، وعوقني: إذا منعتك عن الوجه الذي تريده. وكان المنافقون يعوقون عن رسول الله ﷺ نُصَارَهُ^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمْ إِلَيْنَا﴾ فيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه المنافق الذي قال لأخيه ما ذكرناه في قول ابن زيد. والثاني: أنهم اليهود دعوا إخوانهم من المنافقين إلى ترك القتال، قاله مقاتل. والثالث: أنهم المنافقون دعوا المسلمين إليهم عن رسول الله ﷺ، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ﴾ أي: لا يحضرون القتال في سبيل الله ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ للرياء والسُّمعة من غير احتساب، ولو كان ذلك [القليل]^(٤) لله لكان كثيراً.

قوله تعالى: ﴿أَسْحَبَةٌ عَلَيْكُمْ﴾ قال الزجاج: هو منصوب على الحال. المعنى: لا يأتون الحرب إلا تعذيراً^(٥)، بخلاء عليهم. وللمفسرين فيما شُخِّوا به أربعة أقوال: أحدها: أشعة بالخير، قاله مجاهد. والثاني: بالنفقة في سبيل

(١) ذكره الطبري ١٣٩/٢١، عن ابن زيد، وأورده السيوطي في «الدر» ١٨٨/٥، من رواية ابن أبي حاتم عن ابن زيد.

(٢) ذكره الألويسي في «تفسير» مختصراً عن ابن السائب بدون سند.

(٣) قال الشوكاني في «فتح القدير»: قال الواحدي: قال المفسرون: هؤلاء قوم من المنافقين كانوا يبطون أنصار النبي ﷺ. اهـ. يقال: أنصار، ونصار، كما في «اللسان».

(٤) زيادة من «تفسير البغوي».

(٥) قال في «اللسان»: والتعذير في الأمر: التفسير فيه، وأعذر: قُصِرَ ولم يبلغ وهو يُرى أنه مبالغ. وعذر الرجل فهو معذر: إذا اعتذر ولم يأت بعذر. وقوله ﷺ: ﴿رَبِّةَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ هم الذين لا عذر لهم ولكن يتكلمون علراً، قال: قال الأزهرى: ويكون المعذرون بمعنى المقصّرين على مغلّين من التعذير وهو التفسير. اهـ. وقال ابن جرير الطبري: ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾، قال: يقول تعالى ذكروه للمؤمنين: ولو كانوا أيضاً فيكم ما نفوكم، وما قاتلوا المشركين إلا قليلاً، يقول: إلا تعذيراً، لأنهم لا يقاتلون حسبة ولا رجاء ثواب. اهـ.

الله. والثالث: بالغنيمة، روي عن قتادة. وقال الزجاج: بالطَّفر والغنيمة. والرابع: بالقتال معكم، حكاها المارودي^(١). ثم أخبر عن جُبنهم فقال: ﴿إِذَا جَاءَ لِقَاؤُكُمْ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا حَضَرَ الْقِتَالُ﴾ أي: إذا حضر القتال ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدْرُؤُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنِي عَنْهُ قَبْلُهَا﴾ أي: كدوران عين الذي يُغْنِي عليه من الموت، وهو الذي دنا موته وغشيته أسبابه، فإنه يخاف ويذهل عقله ويشخص بصره فلا يَظُفر، فكَذلك هؤلاء، لأنهم يخافون القتال. ﴿إِذَا ذَهَبَ لِقَاؤُكُمْ سَلَقُوكُمُ﴾ قال الفراء: أدَّوكم بالكلام في الأمن ﴿وَالْيَسَنَةُ جِدَارٌ﴾ سليطة ذرية^(٢)، والعرب تقول: صَلَّقوكم، بالصاد، ولا يجوز في القراءة؛ وهذا قول الفراء. وقد قرأ بالصاد أبي بن كعب، وأبو الجوزاء، وأبو عمران الجوني، وابن أبي عبيدة في آخرين. وقال الزجاج: معنى «سَلَّقوكم»: خاطبوكم أشدَّ مخاطبة وأبلغها في الغنيمة، يقال: خطيبٌ سَلَّاقٌ: إذا كان بليغاً في خطبته ﴿أَيْحَةَ عَلَى الْغَبَرِ﴾ أي: خاطبوكم وممَّ أشجع على المال والغنيمة. قال قتادة: إذا كان وقت قسمة الغنيمة، بسطوا ألسنتهم فيكم، يقولون: أعطونا فلستم أحقَّ بها ممَّا؛ فأثماً عند البأس، فأجبن قوم وأخذله للحق، وأثماً عند الغنيمة، فأشع قوم. وفي المراد بالخير هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الغنيمة. والثاني: على المال أن يُنفقوه في سبيل الله تعالى. والثالث: على رسول الله ﷺ بظفَره.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَصُفُّوا﴾ أي: هم وإن أظهروا الإيمان فليسوا بمؤمنين، لنفاقهم ﴿فَلَعَلَّ اللَّهُ أَهْلَهُمْ﴾ قال مقاتل: أبطل جهادهم، لأنه لم يكن في إيمان ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الإحباط ﴿عَلَى اللَّهِ بَيِّنًا﴾. ثم أخبر عنهم بما يدل على جُبنهم، فقال: ﴿يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي: يحسب المنافقون من شدة خوفهم وجُبنهم أن الأحزاب بعد انهزامهم وذهابهم لم يذهبوا، ﴿لَئِنْ بَاتِ الْأَحْزَابُ﴾ [أي]: يرجعوا إليهم كَرَّةً ثانية للقتال ﴿يُودُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادَوْتُمْ فِي الْأَحْزَابِ﴾ أي: يتمنوا لو كانوا في بادية الأعراب من خوفهم، ﴿يَسْتَلُوكَ عَنْ آبَائِكُمْ﴾ أي: ودوا لو أنهم بالبعد منكم يسألون عن أخباركم، فيقولون: ما فعل محمد وأصحابه، ليعرفوا حالكم بالاستخبار لا بالمشاهدة، قَرَقًا وجُبْنًا؛ وقيل: بل يسألون شماتة بالمسلمين وفرحاً بِنِجَابَتِهِمْ ﴿وَلَوْ كُنَّا فِيكُمْ﴾ أي: لو كانوا يشهدون القتال معكم ﴿مَّا قُتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيه قولان: أحدهما: إلا رمياً بالحجارة، قاله ابن السائب. والثاني: إلا رياء من غير احتساب، قاله مقاتل. ثم عاب من تخلف بالمدينة بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: قُدوة صالحة. والمعنى: لقد كان لكم به اقتداء لو اقتديتم به في الصبر [مع] كما صبر يوم أُحُد حتى كُثِرَت رِيَابُتُهُ وَشُجَّ جَبِينُهُ وَقُتِلَ عُمُهُ، وأساكم مع ذلك بنفسه. وقرأ عاصم: «أسوة» بضم الألف؛ والباقيون بكسر الألف؛ وهما لغتان. قال الفراء: أهل الحجاز وأسد يقولون: «أسوة» بالكسر، وتميم وبعض قيس يقولون: «أسوة» بالضم. وخَصَّ الله تعالى بهذه الأسوة المؤمنين، فقال: ﴿لَئِنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ والمعنى أن الأسوة برسول الله إنما كانت لِمَن كان يرجو الله [واليوم الآخر]؛ وفيه قولان: أحدهما: يرجو ما عنده من الثواب والنعيم، قاله ابن عباس. والثاني: يخشى الله ويخشى البعث، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اللَّهُ كِبَرًا﴾ أي: ذكراً كثيراً، لأن ذاكر الله متَّبِع لأوامره، بخلاف الغافل عنه^(٣). ثم وصف حال المؤمنين عند لقاء الأحزاب، فقال: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وفي ذلك الوعد قولان: أحدهما: أنه قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ...﴾ الآية، [البقرة: ٢١٤] فلما عاينوا البلاء يومئذ قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، قاله ابن عباس، وفتادة في آخرين. والثاني: أن رسول الله ﷺ وعدهم النصر والظهور على مدائن كسرى وقصور الحيرة، ذكره المارودي وغيره.

(١) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله وصف هؤلاء المنافقين بالجبن والشح، ولم يخص وصفهم من معاني الشح بمعنى دون معنى، فهم كما وصفهم الله به أشجع على المؤمنين بالغنيمة، والخير، والنفقة في سبيل الله على أهل مسكنة المسلمين. اهـ.

(٢) أي: فاحشة. وقرَّب اللسان: حدَّثه.

(٣) قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر الله تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومجاهدته وانتظار الفرج من ربه ﷻ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، قال: ولهذا قال تعالى للذين تَلَفُوا وَتَضَاعَوْا وَتَزَلَّزَلُوا وَاضْطَرُّوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، أي: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ! ولهذا قال تعالى: ﴿لَئِنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهُ كِبَرًا﴾. اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ يعني ما رآوه ﴿إِلَّا إِيْمَانًا﴾ بوعده الله ﴿وَسَلِيمًا﴾ لأمره.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَأْتُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿١٦﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَافِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿١٧﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْغَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في أنس بن النضر، قاله أنس بن مالك. وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك قال: غاب عُمَيَّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالِ قَاتِلِهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَشْرِكِينَ، لِنِ اسْهَدَنِي اللَّهُ ﷻ قِتَالًا كَرِيهًا لِلَّهِ مَا أَصْنَعُ^(١)، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْكَشَفَ النَّاسُ^(٢)، فَقَالَ: االلَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ هَؤُلَاءِ، يَعْنِي الْمَشْرِكِينَ، وَأَعْتَرْتُكَ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ، يَعْنِي الْمُسْلِمِينَ^(٣)؛ ثُمَّ مَشَى بِسَيْفِهِ، فَلَقِيَ سَعْدَ بْنَ مَعَاذٍ، فَقَالَ: أَيُّ سَعْدٍ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لِأَجِدَ رِيحَ الْجَنَّةِ دُونَ أَحَدٍ، وَاهَا لَرِيحِ الْجَنَّةِ^(٤). قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعْتُ؛ قَالَ: أَنَسُ: فَوَجَدْنَاهُ بَيْنَ الْقَتْلَى بِهِ يَضَعُ وَثْمَانُونَ جِرَاحَةً، مِنْ ضَرْبَةِ سَيْفٍ، وَطَعْنَةٍ بِرِمْحٍ، وَزَمِيَّةٍ بِسَهْمٍ، قَدْ مَثَلُوا بِهِ؛ قَالَ: فَمَا عَرَفْتَاهُ حَتَّى عَرَفْتَهُ أَخْتَهُ بِسَنَانِهِ^(٥)؟ قَالَ أَنَسُ: فَكُنَّا نَقُولُ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ^(٦). وَالثَّانِي: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ. رَوَى النَّزَّالُ بْنُ سَبْرَةَ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ: حَدِّثْنَا عَنْ طَلْحَةَ، قَالَ: ذَاكَ أَمْرٌ نَزَلَتْ فِيهِ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ^(٧). وَقَدْ جَعَلَ بَعْضُ الْمُقْسِرِينَ هَذَا الْقَدْرَ مِنَ الْآيَةِ فِي طَلْحَةَ، وَأَوَّلَهَا فِي أَنَسٍ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَمَعْنَى الْآيَةِ: وَقَوَّاهُ اللَّهُ بِمَا عَاهَدُوهُ عَلَيْهِ. وَفِي ذَلِكَ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ عَاهَدُوا لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالنَّصْرَةِ. وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَمْ يَشْهَدُوا بَدْرًا، فَعَاهَدُوا اللَّهَ أَنْ لَا يَتَخَرَّجُوا بَعْدَهَا. وَالثَّالِثُ: أَنَّهُمْ عَاهَدُوا أَنْ لَا يَفِرُوا إِذَا لَاقُوا، فَصَدَقُوا. وَالرَّابِعُ: أَنَّهُمْ عَاهَدُوا عَلَى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ.

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: فَمِنْهُمْ مَنْ مَاتَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ عَهْدَهُ قُتِلَ أَوْ عَاشَ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ أَنْ يَقْضِيَهُ بِقِتَالٍ أَوْ صَدَقَ لِقَاءً،

(١) قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الْفَتْحِ» ٢٧٤/٧: وَمَرَادُهُ أَنْ يَبَالِغَ فِي الْقِتَالِ وَلَوْ زَهَقَتْ رُوحُهُ، قَالَ: وَقَالَ أَنَسُ فِي رِوَايَةٍ ثَابِتٍ: وَخَشِيَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا، أَيْ غَيْرَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْأَدَبِ مِنْهُ، وَالْخَوْفُ، لِثَلَا يَعْزِضُ لَهُ عَارِضٌ فَلَا يَفِي بِمَا يَقُولُ، فَيُصِيرُ كَمَنْ وَعَدَ فَأَخْلَفَ. أ.هـ. وَلَقَدْ سَلَّمَ «لِيُرَانِي» اللَّهُ مَا أَصْنَعُ، قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ فِي «شَرْحِ مُسْلِمٍ» وَيَكُونُ «مَا أَصْنَعُ» بَدَلًا مِنَ الضَّمِيرِ فِي «يُرَانِي» أَيْ: لِيُرَى اللَّهُ مَا أَصْنَعُ.

(٢) فِي الْبُخَارِيِّ ١٦/٦ «وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ» وَفِيهِ: ٢٧٤/٧ «فَهَزَمَ الْبَأْسُ».

(٣) قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الْفَتْحِ» ١٨/٦: قَالَ الزَّيْنُ ابْنُ الْمُنِيرِ: مَنْ أَبْلَغَ الْكَلَامَ وَأَفْصَحَهُ قَوْلُ أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ فِي حَقِّ الْمُسْلِمِينَ: أَعْتَرْتُكَ إِلَيْكَ، وَفِي حَقِّ الْمَشْرِكِينَ: أَبْرَأُ إِلَيْكَ، فَأَشَارَ إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَرْضِ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا مَعَ تَغَايُرِهِمَا فِي الْمَعْنَى.

(٤) وَاهَا لَرِيحِ الْجَنَّةِ، قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ: «وَاهَا» كَلِمَةٌ تَحْتَنُّ وَتَلْهُفُ. أ.هـ.

(٥) قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ: فِي رِوَايَةٍ ثَابِتٍ، فَقَالَتْ عَمَتِي الرَّبِيعُ بِنْتُ النَّضْرِ أَخْتَهُ: فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِسَنَانِهِ، قَالَ: زَادَ النَّسَائِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ: وَكَانَ حَسَنَ الْبَنَانِ، قَالَ: وَالْبَنَانُ: الْأَصْبَحُ، وَقِيلَ: طَرَفُ الْأَصْبَحِ. أ.هـ.

(٦) الْبُخَارِيُّ ١٦/٦، وَمُسْلِمٌ ١٥١٢/٣، وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْمَغَازِي» ٢٧٤/٧، وَلَمْ يَذْكُرْ سَبَبَ التَّزْوُلِ، وَرَوَاهُ أَيْضًا فِي «التَّضْيِيرِ» ٣٩٨/٨ مُقْتَصِرًا عَلَى سَبَبِ التَّزْوُلِ، وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ ١٥١/٢، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَرَوَاهُ أَيْضًا أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ»، وَابْنُ جَرِيرٍ فِي «التَّضْيِيرِ» ١٤٧/٢١، وَذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ» ١٩٠/٥، وَزَادَ نَسْبَتَهُ لَابْنِ سَعْدٍ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ مَرْدُوَيْهِ، وَأَبِي نَعِيمٍ فِي «الْحَلَبِيِّ»، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «الدَّلَالَةِ».

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الْفَتْحِ» ١٧/٦: وَفِي قِصَّةِ أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ مِنَ الْفَوَائِدِ: جَوَّازُ بَلْغِ النَّفْسِ فِي الْجِهَادِ، وَفَضْلُ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَلَوْ شَقَّ عَلَى النَّفْسِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى إِهْلَاكِهَا، وَأَنْ طُلِبَ الشَّهَادَةُ فِي الْجِهَادِ لَا يَتَأَوَّلُ النِّهْيَ عَنِ الْإِلْقَاءِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، قَالَ: وَفِيهِ فَضِيلَةٌ ظَاهِرَةٌ لِأَنَسِ بْنِ النَّضْرِ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ مَحَبَّةِ الْإِسْلَامِ وَكَثْرَةِ التَّوْقِي وَالْتِرَوُّعِ وَقُوَّةِ الْيَقِينِ. أ.هـ.

(٧) أَوْرَدَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ» ١٩١/٥ بِرِوَايَةِ أَبِي الشَّيْخِ، وَابْنِ عَسَاكِرٍ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ. وَاهُ اللَّهُ أَعْلَمُ. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الْفَتْحِ» ٣٩٧/٢١: ثَبِتَ عَنْ عَائِشَةَ ﷺ أَنَّ طَلْحَةَ دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «أَنْتَ يَا طَلْحَةُ مَعْنَى قَضَىٰ نَحْبَهُ»، وَقَالَ: أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهٍ، وَالْحَاكِمُ، أ.هـ. وَرَوَاهُ الطَّبْرِيُّ بِنَحْوِهِ ١٤٧/٢١.

قاله مجاهد والثالث: فمنهم من قضى نذره الذي كان نذر، قاله أبو عبيدة. فيكون النخب على القول الأول: الأجل؛ وعلى الثاني: العهد؛ وعلى الثالث: التلوي. وقال ابن قتيبة: «قضى نخبه» أي: قُتل، وأصل النخب: التلوي، كان قوماً نذروا^(١) أنهم إن لقوا العدو قاتلوا حتى يقتلوا أو يفتح الله عليهم، فقتلوا، فقيل: فلان قضى نخبه، أي: قُتل، فاستعبر النخب مكان الأجل، لأن الأجل وقع بالنخب، وكان النخب سبباً له، ومنه قيل للعطية: «من»، لأن من أعطى فقد من. قال ابن عباس: ممن قضى نخبه: حمزة بن عبد المطلب، وأنس بن النضر وأصحابه. وقال ابن إسحاق: «فمنهم من قضى نخبه» من استشهد يوم بدر وأحد، «وممن من ينظر» ما وعد الله من نصره، أو الشهادة على ما مضى عليه أصحابه «وما يدور» أي: ما غيروا العهد الذي عاهدوا ربهم عليه، كما غير المنافقون.

قوله تعالى: ﴿يَجْزِي اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ وهم المؤمنون الذين صدقوا فيما عاهدوا [الله] عليه ﴿وَيُؤْتِيهِمُ الْغَنَاءَ﴾ بنقض العهد «إن شئت» وهو أن يحييهم على نفاقهم ﴿أَوْ يُؤْتِيَهُمُ الْغَنَاءَ﴾ في الدنيا، فيخرجهم من النفاق إلى الإيمان، فيغفر لهم. ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني الأحزاب، صدهم ومنعهم عن الظفر بالمسلمين ﴿بِطَيْفِهِمْ﴾ أي: لم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا ﴿فَرَبَّانَا أَخِرًا﴾ أي: لم يظفروا بالمسلمين، وكان ذلك عندهم خيراً، فخطبوا على استعمالهم ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بالربيع والملائكة^(٢)، «وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُ» أي: عاونوا الأحزاب، وهم بنو قريظة، وذلك أنهم نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد، وصاروا مع المشركين بدأ واحدة.

وهذه الإشارة إلى قصتهم

ذكر أهل العلم بالسيرة أن رسول الله ﷺ لما انصرف من الخندق وضع عنه اللأمة واغتسل، فتبذى له جبريل، فقال: ألا أراك وضعت اللأمة، وما وضعت الملائكة سلاحها منذ أربعين ليلة؟! إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة فأني عاهد إليهم فمزّلزل بهم حصونهم^(٣)؛ فدعا علياً فدفع لواءه إليه، وبعث بلالاً فنادى في الناس: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن لا تصلوا العصر إلا ببني قريظة^(٤)، ثم سار إليهم فحاصرهم خمسة عشر يوماً أشد الحصار، وقيل عشرين ليلة^(٥)، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: أرسِلْ إلينا أبا ثابة بن عبد المنذر، فأرسله إليهم، فشاوروه في أمرهم، فأشار إليهم بيده: إنه الذنبح، ثم ندم فقال: جئت الله ورسوله، فأنصرف فارتبط في المسجد حتى أنزل الله توبته^(٦)، ثم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأمر بهم رسول الله محمد بن مسلمة، وكُتفوا، ونُحُوا ناحية، وجعل النساء والذرية ناحية. وكلمت الأوس رسول الله ﷺ أن يهبهم لهم، وكانوا حلفاءهم، فجعل رسول الله ﷺ الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ؛

(١) الذي في «عرب القرآن»: وكان قوم نذروا.
(٢) قال ابن كثير: وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾، أي: لم يحتاجوا إلى منازلهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم، بل كفى الله وحده، ونصر عبده، وأمر جنده، قال: ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأمر جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده» أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: وفي «الصحيحين» عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم». قال ابن كثير: وفي قوله ﷺ: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾: إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش، وهكذا وقع بعدها، لم يهزمهم المشركون، بل غزاهم المسلمون في بلادهم، قال ابن كثير في تمة الآية: قوله تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ قَوْمَ الْفُكْرَاءِ﴾ أي: بحوله وقوته وهزم خائنين لم يتالوا خيراً، وأمر الله الإسلام وأهله، وصدق وعده، ونصر رسوله وعبده، فله الحمد والمنة. اهـ.

(٣) ذكره بنحوه ابن هشام في «السيرة» ٢٣٣/٢، وذكره ابن كثير في «الابتداء والنهاية» بنحوه ١١٦/٤ من رواية محمد بن إسحاق. وأمر جبريل للنبي ﷺ بالمسير ثابت في «صحيح البخاري» ٣١٣/٧ من حديث عائشة رضي الله عنها. ورواه أحمد في «المسنند» ٥٦/٦، ١٣١، ٤٤١، ٢٨٠ من حديث عائشة أيضاً.

(٤) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» ٣١٣/٧، وَمُسْلِمٌ ١٣٩١/٣ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُمَرٍ رضي الله عنه، وَلَفْظُ مُسْلِمٍ: نَادَى فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ انْصَرَفَ الْأَحْزَابُ: «أَنْ لَا يَصِلَ أَحَدُ الظُّفَرِ إِلَّا بِنِي قَرْيَظَةَ». الحديث.

(٥) الذي في «مسند أحمد» و«الطبري»، و«هشام» ابن هشام أن رسول الله ﷺ حاصرهم خمساً وعشرين ليلة.

(٦) ذكر هذا الخبر بنحوه الطبري في «التفسير»، وابن هشام في «السيرة» ٢٣٦/٢، ٢٣٧، وابن كثير في «التفسير» ٣٠٠/٢ من رواية الزمري مرسلاً. وانظر «البيان والنهاية» لابن كثير ١٢٠/٤.

هكذا ذكر محمد بن سعد^(١). وحكى غيره: أنهم نزلوا أولاً على حكم سعد بن معاذ، وكان بينهم وبين قومه حلف، فَرَجَوْا أن تأخذهم فيههم هودة، فحكم فيههم أن يُقتل كلٌّ مَنْ جَرَتْ عليه المَوَاسِي^(٢)، وتُسبي النساء والذراري، وتُقسَم الأموال. فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»^(٣)؛ وانصرف رسول الله ﷺ، وأمر بهم فأدخلوا المدينة، وخُفِرَ لهم أخدود في السوق، وجلس رسول الله ﷺ معه أصحابه، وأخرجوا إليه فُضِرَت أعناقهم، وكانوا ما بين السماء إلى السبعمة.

قوله تعالى: «مِنْ صَيَاصِيهِمْ» قال ابن عباس وقتادة: من حصونهم؛ قال ابن قتيبة: وأصل الصيافي: قرون البقر، لأنها تمتنع بها، وتدفع عن أنفسها؛ فقيل للحصون: الصيافي، لأنها تمتنع، وقال الزجاج: كل قرن صيصية، وصيصية الديك: شوكة يتحصن بها.

قوله تعالى: «وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ» أي: ألقى فيها الخوف «فَرِيقًا تَقْتُلُونَ» وهم المُقَاتِلَةُ «وَأُخْرَى» وابن عمر، وابن أبي عبله: «وتأسرون» برفع السين «فَرِيقًا» وهم النساء والذراري، «وَأُخْرَى لَكُمْ أَرْسَنَهُمْ وَيُؤَيِّنُكُمْ» يعني عقارهم ونخلهم ومنازلهم «وَأُخْرَى لَكُمْ» من الذهب والفضة والحلي والعييد والإماء «وَأُخْرَى لَمْ تَقْطَعُوا» أي: لم تطووها بأقدامكم بعد، وهي مما سفتحتها عليكم؛ وفيها أربعة أقوال: أحدها: أنها فارس والروم، قاله الحسن. والثاني: ما ظهر عليه المسلمون إلى يوم القيامة، قاله عكرمة. والثالث: مكة، قاله قتادة. والرابع: خيبر، قاله ابن زيد، وابن السائب، وابن إسحاق، ومقاتل^(٤).

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الدِّينَ وَرَبِّهَا فَمَعَالِكُكُمْ وَأَمْرُكُمْ مَعَكُمْ حَيْثُمَا كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا» يَنْسَاءُ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِي مِنْكُمْ يَفْجَشُوهُ شَيْئًا يَضَعُفَ لَهَا أَلْمَذَابُ ضَعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَفْعَلْ مِثْلًا نَفْسًا لَهَا مِثْلًا مِثْلًا كَرِيمًا يَنْسَاءُ النَّبِيُّ لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَفْعَلْتُ فَلَا تُخْصَمُ بِالْقَوْلِ قَطِيعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُمْ وَلَا تَخْرُجْنَ تَبَرُّجَ الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ...» الآية، ذكر أهل التفسير أن أزواج النبي ﷺ سألته شيئاً من عرض الدنيا، وطلبن منه زيادة النفقة، وأذنيه بغيرة بعضهن على بعض، فألقى رسول الله ﷺ منهن شهرًا^(٥)، وضج إلى غرفة له فمكث فيها، فنزلت هذه الآية، وكُنَّ أزواجه يومئذ تسعاً: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وصفيّة الخبيرية، وميمونة الهلالية، وزينب بنت جحش، وجويرية بنت الحارث، فنزل رسول الله ﷺ فعرض الآية عليهن، فبدأ بعائشة، فاخترت الله ورسوله، ثم قالت: يا رسول الله لا تخبر أزواجك أنني اخترتك؛ فقال: «إن الله بعثني مُبَلِّغاً ولم يبعثني متعنتاً» وقد ذكرت حديث التخيير في كتاب «الحدثائق» وفي «المغني» بطوله^(٦). وفي ما خيبرهن فيه قولان:

(١) هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري، صاحب طبقات الصحابة المشهورة بـ «طبقات ابن سعد» مؤرخ ثقة، صدوق فاضل، من حفاظ الحديث، (١٦٨ - ٢٣٠ هـ).

(٢) قال في «اللسان» مادة موس: من جرت عليه المواسي، أي: مَنْ نَبَت عاتته، لأن المواسي إنما تجري على من أنبت، أراد: مَنْ بَلَغَ الحُلُم من الكُفَّار.

(٣) أخرجه ابن إسحاق، وعنه ابن هشام ٢/ ٢٤٠ عن علقمة بن وقاص الليثي مرسلاً، لكن أخرجه الشيخان في «صحيحهما» عن أبي سعيد الخدري دون قوله: «من فوق سبعة أرقعة» والأربعة: السموات، الواحدة: ربيع، فجا به على لفظ التكثير، كأنه ذهب به إلى السقف.

(٤) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أنه أورد المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ أرض بني قريظة، وديارهم وأموالهم، وأرضاً لم يطووها يومئذ، ولم تكن مكة ولا خيبر ولا أرض فارس والروم ولا اليمن مما كان وطووه يومئذ، ثم وطووا ذلك بعد وأورثهموه الله، وذلك كله داخل في قوله: «وَأُخْرَى لَمْ تَقْطَعُوا» لأنه تعالى ذكره، لم يخصص من ذلك بعضاً دون بعض. اهـ.

(٥) قال في «اللسان» «الآ»: ألى من نساها شهراً، أي: حلف لا يدخل عليهن، وإنما غداه بـ «ين» حملاً على المعنى، وهو الامتناع من الدخول، وهو يتعدى بـ «ين».

(٦) روى مسلم في «صحيحه» ٢/ ١١٠٤ عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوساً يبابه لم يؤذن لأحد =

أحدهما: أنه خيرهن بين الطلاق والمقام معه، هذا قول عائشة رضي الله عنها. والثاني: أنه خيرهن بين اختيار الدنيا فيفارقهن، أو اختيار الآخرة فيمسهكن، ولم يخيّرهن في الطلاق، قاله الحسن، وقناة. وفي سبب تخييره إياهن ثلاثة أقوال: أحدها: أنهن سألته زيادة الثقة. والثاني: أنهن آذيتهن بالغيرة. والقولان مشهوران في التفسير. والثالث: أنه لما خيّر بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة فاختار الآخرة، أمر بتخيير نسائه ليكون على مثله حاله، حكاه أبو القاسم الصيمري. والمراد بقوله: ﴿أَمْسِكْنَ﴾: مُتَمِّعَةُ الطَّلَاق. والمراد بالسراح: الطلاق، وقد ذكرنا ذلك في [البقرة: ٢٣١]. والمراد بالدار الآخرة: الجنة. والمُحْسِنَات: المؤثرات للآخرة. قال المفسرون: لما اختزنه أثابهن الله ﷻ ثلاثة أشياء: أحدها: التفضيل على سائر النساء بقوله: ﴿لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾، والثاني: أن جعلهن أمهات المؤمنين، والثالث: أن حظر عليه طلاقهن والاستبدال بهن بقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءَ مِنْ بَعْدُ﴾ [الأحزاب: ٥٢]. وهل أبيح له بعد ذلك التزويج عليهن؟ فيه قولان سيأتي ذكرهما إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَأْتِ بِكِفْأٍ يَصِحُّهُ فَبِحَرِّهِ مَصَرٌّ﴾ أي: بمعصية ظاهرة. قال ابن عباس: يعني النشوز وسوء الخلق يُصْنَعُ لَهَا كَلِمَاتٌ صِغْفَرٌ أي: يجعل عذاب جرمها في الآخرة كعذاب جرّمين، كما أنها تؤتي أجرها على الطاعة مرتين. وإنما ضوعف عقابهن، لأنهن يشاهدن من الزواجر الرادعة ما لا يشاهد غيرهن، فإذا لم يمتنعن استحققن تضعيف العذاب، ولأن في معصيتهن أذى لرسول الله ﷺ؛ وجرم من آذى رسول الله ﷺ أكبر من جرم غيره.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: وكان عذابها على الله هيناً. ﴿وَمَنْ يَنْتَ﴾ أي: تُطع، و﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ قد سبق بيانه [النساء: ٣٧]، والرزق الكريم: الحسن، وهو الجنة. ثم أظهر فضيلتهن على النساء بقوله: ﴿لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قال الزجاج: لم يقل: كواحدة من النساء، لأن «أحداً» نفي عام للمذكر والمؤنث والواحد والجماعة. قال ابن عباس: يريد: ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات، أنتن أكرم علي، وثوابكن أعظم ﴿إِنَّ أَتْقَيْنَ﴾، فشرط عليهن التقوى بياناً أن فضيلتهن إنما تكون بالتقوى، لا بنفس اتصالحهن برسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ أي: لا تُلنّ بالكلام ﴿يُطْعَمُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَرٌ﴾ أي: فُجور؛ والمعنى: لا تَقُلْنَ قولاً يجد به منافق أو فاجر سبيلاً إلى موافقتك له؛ والمرأة مندوبة إذا خاطبت الأجانب إلى الغلظة في المقالة، لأن ذلك أبعد من الطمع في الرية. ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي: صحيحاً عفيفاً لا يطعم فاجراً^(١). ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ قرأ نافع، وعاصم إلا أبان، وهبيرة، والوليد بن مسلم عن ابن عامر: ﴿وَقَرْنَ﴾ بفتح القاف؛ وقرأ الباقون بكسرها. قال الفراء: من قرأ بالفتح، فهو من قَرَزَتْ في المكان، فحُقِّفَتْ، كما قال: ﴿ظَلَمْتُ عَلَيْهِ عَاكِمًا﴾ [طه: ٩٧]، ومن قرأ بالكسر، فهو من الوقار، يقال: قَرِ في منزلك. وقال ابن قتيبة: من قرأ بالكسر، فهو من الوقار، يقال: وَقَرِ في منزله يَقَرُّ وَقُوراً. ومن قرأ بنصب القاف جعله من القرار. وقرأ أبي بن كعب، وأبو المتوكل: ﴿وَأَقْرَرْنَ﴾ بإسكان القاف وبراءين الأولى مفتوحة والثانية ساكنة. وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبيدة مثله، إلا أنهما كسرا الراء الأولى. قال المفسرون: ومعنى الآية: الأمر لهن بالتوقر والسكون في بيوتهن وأن لا يَخْرُجْنَ^(٢).

منهم، قال: فأذن لأبي بكر يدخل، ثم أقبل همر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي ﷺ جالساً، حوله نسائه، واجماً، ساكناً، قال: فقال: لأقولن شيئاً أضحك النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة (بريد زوجته) سألني النفقة، ففقت إليها فوجات عنقها (طعنت عنقها) ففحك رسول الله ﷺ، وقال: فمن حولي كما ترى يسألني النفقة فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، فقام همر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده، فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده، ثم اعتزلن شهراً، أو تسعاً وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَا يَصْرِفُهُ إِلَهُكُمْ﴾ حتى بلغ ﴿لَتُخَذِّلَنَّكُمْ﴾ كَبُرَ عَلَيْهِمَا. قال: فبدأ بعائشة فقال: يا عائشة إني أريد أن أمرض عليك امرأة أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيرني أبويك، قالت: وما هو يا رسول الله، فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله استشير أبوي؟ بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نساءك بالذي قلت، قال: ﴿لَا تَسْأَلُنِي أَمْرًا مِنْهُنَّ إِلَّا أَخْبَرْتَهَا﴾، إن الله لم يعطني مُعْتَاً ولا مُعْتَاً (أي: لم يعطني مشدداً على الناس ولا طالباً زلتهم) ولكن بعثني معلماً ميسراً. ولقد أورد هذا الحديث السيوطي في «الدرر» ١٩٤/٥، وزاد نسبه لأحمد، والنسائي، وابن مردويه عن جابر رضي الله عنه. وانظر «صحيح مسلم» باب الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن ١١٠٥/٢ - ١١١٣.

(١) قال ابن كثير: ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: الزَّوْنُ يُؤْتِكُنَّ فلا تَخْرُجْنَ لغير حاجة، قال: ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه =

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّحْ﴾ قال أبو عبيدة: التبرُّح: أن يبرزن مجاسنهن. وقال الزجاج: التبرُّح: إظهار الزينة وما يستدعى به شهوة الرجل. وفي «الجهينة الأولى» أربعة أقوال. أحدها: أنها كانت بين إدريس ونوح، وكانت ألف سنة، رواء عكرمة عن ابن عباس^(١). والثاني: أنها كانت على عهد إبراهيم عليه السلام، وهو قول عائشة رضي الله عنها. والثالث: بين نوح وآدم، قاله الحكم. والرابع: ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، قاله الشعبي^(٢). قال الزجاج: وإنما قيل: «الأولى»، لأن كل متقدم أول، وكل متقدمة أولى، فتأويله: أنهم تقدموا أمة محمد صلى الله عليه وسلم. وفي صفة تبرُّح الجاهلية الأولى ستة أقوال. أحدها: أن المرأة كانت تخرج تمشي بين الرجال، فهو التبرُّح، قاله مجاهد. والثاني: أنها مشية فيها تكسر وتغشج، قاله قتادة. والثالث: أنه التبختر، قاله ابن أبي نجيح. والرابع: أن المرأة منهن كانت تتخذ اللُّدع من اللؤلؤ فتلبسه ثم تمشي وسط الطريق ليس عليها غيره، وذلك في زمن إبراهيم عليه السلام، قاله الكلبي. والخامس: أنها كانت تُلقي الخمار عن رأسها ولا تشده، فيرى قُرطها وقلائدها، قاله مقاتل. والسادس: أنها كانت تلبس الثياب تبلغ المال، لا توراي جسدتها، حكاه الفراء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيسَ﴾ وفيه للمفسرين خمسة أقوال: أحدها: الشرك، قاله الحسن. والثاني: الإثم، قاله السدي. والثالث: الشيطان، قاله ابن زيد. والرابع: الشك. والخامس: المعاصي، حكاهما الماوردي. قال الزجاج: الرِّيس: كل مستقذر من مأكول أو عمل أو فاحشة. ونصب «أَهْلَ الْبَيْتِ» على وجهين: أحدهما: على معنى: أعني أهل البيت، والثاني: على النداء، فالمعنى: يا أهل البيت. وفي المراد بأهل البيت هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنهن في بيته، رواء سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، وابن السائب، ومقاتل. ويؤكد هذا القول أن ما قبله ويَعده متعلق بأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعلى أرياب هذا القول اعتراض، وهو أن جمع المؤنث بالنون، فكيف قيل: «عنكم» ويطهركم؟ فالجواب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهن، فنُلِبَ المذكر. والثاني: أنه خاص في رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه وفاطمة والحسن والحسين، قاله أبو سعيد الخدري. وروي عن أنس وعائشة وأم سلمة نحو ذلك. والثالث: أنهم أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه^(٣)، قاله الضحاک. وحكى الزجاج أنهم نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم والرجال الذين هم آله؛ قال: واللغة تدل على أنها للنساء والرجال جميعاً، لقوله: «عنكم» بالميم، ولو كانت للنساء، لم يجز إلا «عنكن» ويطهركن.

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخترجن ثيابهن» (تاركات للطَّبِّ والأدهان) وفي رواية: «ويوبهتن خير لهن». اهـ. ومن الحوائج الشرعية: الخروج للحج والعمرة، وزيارة الوالدين، وعبادة المرضى، وغير ذلك.

(١) رواء الطبري ٤/٢٢ عن عكرمة عن ابن عباس، وذكره الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٣٩٩/٨ من رواية ابن أبي حاتم وقال: إسناده قوي. وأورده السيوطي في «الدر» ١٩٧/٥ وزاد نسبه لابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في «مشعب الإيمان».

(٢) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى نساء النبي أن يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وجائز أن يكون ذلك ما بين آدم وعيسى، فيكون معنى ذلك: ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى التي قبل الإسلام. فإن قال قائل: أو في الإسلام جاهلية حتى يقال: عنى بقوله (الجاهلية الأولى) التي قبل الإسلام؟ قيل: فيه أخلاق من أخلاق الجاهلية، ثم قال: وجائز أن يكون ذلك ما بين آدم ونوح، وجائز أن يكون ما بين إدريس ونوح، فتكون الجاهلية الأخيرة ما بين عيسى ومحمد، قال: وإذا كان ذلك مما يحتمله ظاهر التنزيل، فالصواب أن يقال في ذلك كما قال الله، إنه نهى عن تبرج الجاهلية الأولى. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ نص في دخول أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في أهل البيت هاهنا، لأنهن سبب نزول هذه الآية، قال: وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً، إما وحده على قول، أو مع غيره على الصحيح، ثم قال: وقال عكرمة: من شاء بأهله أنها نزلت في شأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم، قال ابن كثير: فإن كان المراد أنهم كن سبب النزول دون غيرهن، فصحيح، وإن أريد أنهم المراد فقط دون غيرهن، ففي هذا نظر، فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أهم من ذلك. وسرد بعض تلك الأحاديث ثم قال: الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم داخلات في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَشَأُ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ بَيْنَتِ اللَّهِ وَبَيْنَكُمْ﴾ ثم قال: ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته، ففياضه أحق بهذه التسمية. اهـ. وفي «صحيح مسلم» ١٨٧٣/٤ من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لما بعدهم إلا ألبها الناس، فإتلفا بشراً يوشك أن يأتيهم رسول يبي فاجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله في الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فبحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال: «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي» فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل حفص، وآل جعفر، وآل عباس، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم.

والجمهور^(١). وذكر بعض المفسرين أن عبد الله بن جحش أخا زينب كره ذلك كما كرهته زينب، فلمَّا نزلت الآية رضىا وسلمًا^(٢). قال مقاتل: والمراد بالمؤمن: عبد الله بن جحش، والمؤمنة: زينب بنت جحش. والثاني: أنها نزلت في أمّ كلثوم بنت عُقبة بن أبي مُعَيْط، وكانت أول امرأة هاجرت، فوهبت نفسها لرسول الله ﷺ، فقال: «قد قبلتك»، وزوّجها زيد بن حارثة، فسخطت هي وأخوها، وقالوا: إنّما أردنا رسول الله، فزوّجها عبده! فنزلت هذه الآية، قاله ابن زيد^(٣). والأول عند المفسرين أصح.

قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ رِسْوَئَهُ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن سَمَاءٍ مِّن لَّخِيْرَةٍ﴾ وقرأ أبو مجلز، وأبو رجا: «الْخَيْرَةُ» بإسكان الياء؛ فجمع في الكناية في قوله: «لهم»، لأن المراد جميع المؤمنين والمؤمنات، والخيرة: الاختيار، فأعلم الله ﷺ أنه لا اختيار على ما قضاه الله ورسوله. فلمَّا زوّجها رسول الله ﷺ زيداً مكثت عنده حيناً، ثم إن رسول الله ﷺ أتى منزل زيد فنظر إليها وكانت بيضاء جميلة من أتم نساء قريش، ف وقعت في قلبه، فقال: «سبحان مقلب القلوب»، وفطن زيد، فقال: يا رسول الله ائذن لي في طلاقها^(٤). وقال بعضهم: أتى رسول الله ﷺ منزل زيد، فرأى زينب، فقال: «سبحان مقلب القلوب»، فسمعت ذلك زينب، فلمَّا جاء زيد ذكرت له ذلك، فعلم أنها قد وقعت في نفسه، فاتاه فقال: يا رسول الله ائذن لي في طلاقها^(٥). وقال ابن زيد: جاء رسول الله ﷺ إلى باب زيد - وعلى الباب ستر من شعر - فرفعت الريح الستر، فرأى زينب، فلمَّا وقعت في قلبه كرهت إلى الآخر، فجاء فقال: يا رسول الله أريد فراقها، فقال له: «اتق الله»^(٦). وقال مقاتل: لمَّا فطن زيد لتسبيح رسول الله ﷺ، قال: يا رسول الله ائذن لي في طلاقها، فإن فيها كِبَرًا، فهي تعظم عليّ وتؤذي بلسانها، فقال له النبي ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتق الله». ثم إن زيداً طلقها بعد ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَیْهِ بِالْإِسْلَامِ «وَأَنْتَ عَلَیْهِ بِالْعِتَىٰ»

قوله تعالى: ﴿وَأَتَىٰكَ اللَّهُ﴾ أي: في أمرها فلا تطلقها ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ أي: تُسِرُّ وتُضمِر في قلبك ﴿مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: مُظْهِرُهُ؛ وفيه أربعة أقوال: أحدها: حُبّها، قاله ابن عباس. والثاني: عهد عهده الله إليه أن زينب ستكون له زوجة، فلمَّا أتى زيد يشكوها، قال له: «أمسك عليك زوجك واتق الله»، وأخفى في نفسه ما الله مبديه، قاله علي بن الحسين^(٨). والثالث: إشارته لطلاقها، قاله قتادة، وابن جريج، ومقاتل. والرابع: أن الذي أخفاه: إن طلقها زيد تزوّجها، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿وَتَخْفَىٰ النَّاسُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه خشي اليهود أن يقولوا: تزوّج محمد امرأة ابنه، رواه عطاء عن ابن عباس. والثاني: أنه خشي لوم الناس أن يقولوا: أمر رجلاً بطلاق امرأته، ثم نكحها.

(١) رواه الطبري ١١/٢٢ من رواية العوفي عن ابن عباس، وابن لهيعة عن ابن أبي عمرة عن عكرمة عن ابن عباس، ورواه عن مجاهد وقتادة، وذكره السيوطي في «الدر» عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

(٢) ذكره البغوي والخازن وغيرهما بدون سند.

(٣) رواه الطبري ١٢/٢٢ عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وذكره السيوطي في «الدر» ٢٠١/٥ من رواية ابن أبي حاتم عن ابن زيد. وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٣٤: رواه الثعلبي بهذا غير سند.

(٤) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: ذكره الثعلبي بدون سند. اهـ. وكذلك ذكر مثل هذا المعنى الخازن والبغوي وغيرهما بدون سند.

(٥) وهذا أيضاً من المرسلات والمنقطعات التي ليس لها سند صحيح، وقد أورد مثلها السيوطي في «الدر» من طريق عبد بن حميد، وابن المنذر، عن عكرمة، ومن طريق ابن سعد والحاكم عن محمد بن يحيى بن حبان.

(٦) رواه الطبري عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف.

(٧) ذكره بنحوه الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» عن الثعلبي بدون سند.

(٨) رواه الطبري ١٣/٢٢ وفي سنده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. ورواه ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين، وفي سنده أيضاً علي بن زيد بن جدعان، ورواه ابن أبي حاتم أيضاً من طريق السدي، قال الحافظ ابن حجر عنه في «الفتح»: وهو أوضح سياقاً وأصح إسناداً إليه. اهـ. وقال الألويسي في «تفسيره» عن هذا المعنى: وإلى هذا ذهب أهل التحقيق من المفسرين، كالزهري، ويكر بن الملاء، والقشيري، والفاضي أبي بكر بن العربي، وغيرهم. اهـ. وقد رأيت كلام الحافظ ابن حجر قبل قليل، وهو قوله: والحاصل أن الذي كان يخفيه النبي ﷺ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته. اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ أي: أولى أن تخشى في كل الأحوال. وليس المراد أنه لم يخش الله في هذه الحال، ولكن لما كان لخشيته بالخلق نوع تعلق، قيل له: الله أحق أن تخشى منهم. قالت عائشة: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية هي أشد عليه من هذه الآية، ولو كنتم شيئاً من الوحي لكنتمها^(١).

فصل

وقد ذهب بعض العلماء إلى تنزيه رسول الله ﷺ من حُبِّها وإيثاره طلاقها. وإن كان ذلك شائعاً في التفسير^(٢). قالوا: وإنما عوتب في هذه القصة على شيئين: أحدهما: أنه أخبر بأنها ستكون زوجة له، فقال لزيد: «أمسك عليك زوجك» فكنتم ما أخبره الله به من أمرها حياةً من زيد أن يقول له: إنَّ زوجك ستكون امرأتي؛ وهذا يخرج على ما ذكرنا عن علي بن الحسين، وقد نصره الثعلبي، والواحدي. والثاني: أنه لما رأى اتصال الخصومة بين زيد وزينب، ظن أنهما لا يتفقان وأنه سيفارقها، وأضمر أنه إن طلقها تزوجها صِلَةً لرحمها، وإشفاقاً عليها، لأنها كانت بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب، فعاتبه الله على إضمار ذلك وإخفائه حين قال لزيد: «أمسك عليك زوجك»، وأراد منه أن يكون ظاهره وباطنه عند الناس سواء كما قيل له في قصة رجل أراد قتله: هَلَا أومأت إلينا بقتله؟ فقال: «ما ينبغي لنبئ أن تكون له خاتنة الأعين»^(٣)، ذكر هذا القول القاضي أبو يعلى رحمة الله عليه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَّ زَيْدٌ نِتْنًا وَطَرًا﴾ قال الزجاج: الوطر: كل حاجة لك فيها همّة، فإذا بلغها البالغ قيل: قد قضى وطره، وقال غيره: قضاء الوطر في اللغة: بلوغ متبته ما في النفس من الشيء، ثم صار عبارة عن الطلاق، لأن الرجل إنما يطلق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجة. والمعنى: لما قضى زيد حاجته من نكاحها ﴿زَوْجَتُكُمَا﴾، وإنما ذكر

(١) رواه الطبري بهذا اللفظ: ١٣/٢٢ من قول الحسن، ورواه أيضاً عن عائشة بلفظ: لو كنتم رسول الله ﷺ شيئاً ما أوحى إلي من كتاب الله لكنتم ﴿رَحْمَتِي فِي تَقْلِيدِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِي وَتَقْنَى النَّاسِ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ ورواه الترمذي: ١٥٣/٢ بنحوه وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأورده السيوطي في «الدرة»، ٢٠٢/٥، وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن عائشة. وروى مسلم في «صحيحه» ١٦٠/١ عن عائشة ﷺ قالت: ولو كان محمد ﷺ كاتباً شيئاً ما أنزل عليه لكنتم هذه الآية: ﴿وَلَا تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْتُمْ عَلَيْهِ تُفْسِدُونَ أَنْفُسَكُمْ إِنَّكَ كَانَ لِإِذَا تُنْفَذَ مَا اللَّهُ مُبْدِي وَتَقْنَى النَّاسِ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾. اهـ.

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية ﴿رَحْمَتِي فِي تَقْلِيدِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِي وَتَقْنَى النَّاسِ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾: ذكر ابن أبي حاتم والطبري هاتين آثاري عن بعض السلف ﷺ أحبتنا أن تضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردنا. اهـ. يريد بذلك أمثال «وقعت في قلبه» و«سبحان مقلب القلوب».

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني ٤٠٣/٨ بعدما ذكر أن الآية نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة مختصراً كما في حديث البخاري، ثم ذكر حديثاً للبخاري في كتاب التوحيد أطول منه، وليس فيها ما تقدم من أنها وقعت في قلبه، وغير ذلك، قال: وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السدي فساقها سياقاً واضحاً حسناً، ولفظه: بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمه رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوجه زيد بن حارثة مولاه، فكرهت ذلك، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله ﷺ، فزوجها إياه، ثم أعلم الله ﷻ نبيه ﷺ بعد أنهما من أزواجه، فكان يستحي أن يأمر بطلاقها، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس، فأمره رسول الله ﷺ أن يمسك زوجته وأن يتقي الله، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا: تزوج امرأة ابنه وكان قد تبني زيداً. ثم قال ابن حجر: ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم، والطبري، ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغي التماثل بها، قال: والذي أوردته هو المعتمد، ثم قال: والحاصل أن الذي كان يخفيه النبي ﷺ هو إخبار الله إياه أنها تستصير زوجته، قال: والذي كان يحمل على إخفاء ذلك خشية قول الناس: تزوج امرأة ابنه، وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني بأمر لا يبلغ في الإبطال منه، وهو تزوج امرأة الذي يُدعى ابناً، قال: ووقع ذلك من إمام المسلمين، ليكون أدعى لقبولهم، قال: وإنما وقع الخطب في تأويل متعلق الخشية، والله أعلم. وقال الألوسي في «تفسيره»: وللخصائص في هذه القصة كلام لا ينبغي أن يجعل في حيز القول، منه ما أخرجه ابن سعد والحاكم عن محمد بن يحيى بن خُبَّان، ثم قال: وفي «شرح المواقف»: أن هذه القصة مما يجب صيانة النبي ﷺ عن مثله. اهـ. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: وروى أحمد، ومسلم، والنسائي، من طريق سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب، قال رسول الله ﷺ لزيد: «اذكروا علي» قال: فانطلقت، فقلت: يا زينب أبشري أرسل رسول الله ﷺ يذكرك، فقالت: ما أنا بصانعة - حتى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ حتى دخل عليها بغير إذن. قال ابن حجر: وهذا أيضاً من أبلغ ما وقع في ذلك، وهو أن يكون الذي كان زوجها هو الخاطب، لئلا يظن أحد أن ذلك وقع قهراً بغير رضاه، قال: وفيه أيضاً اختيار ما كان عنده منها، هل بقي منه شيء، أم لا؟ وفيه استحباب فعل المرأة الاستخارة، ودعائها عند الخطبة قبل الإجابة، وأن من وكل أمره إلى الله ﷻ يسر الله له ما هو الأحظ له والأفنع دنياً وأخراً. اهـ.

(٣) رواه أبو داود في «سننه» رقم (٢٦٨٣) (٤٣٥٩) من حديث أحمد بن المفضل قال: ثنا أسباط بن نصر، قال: زعم السدي عن مصعب بن سعد عن سعد... فذكره، وذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» ٢٩٨/٤ من رواية البيهقي من حديث أحمد بن المفضل به نحوه، ورواه النسائي في «المحاربة».

قضاء الوطر هاهنا ليبيّن أن امرأة المتبنّى تجلّ وإن وطئها، وهو قوله: ﴿لَكُمْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَاجِ أَهْلِيهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾؛ والمعنى: زوجناك زينب - وهي امرأة زيد الذي تبنيته - لكيلا يُظنّ أن امرأة المتبنّى لا يحلّ نكاحها. وروى مسلم في أفرادهِ من حديث أنس بن مالك قال: لما انقضت عدّة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: «أذهب فاذكرها عليّ»، قال زيد: فانطلقت، فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها، لأن رسول الله ﷺ ذكرها، فولّيتها ظهري، ونكضت على عقيبِي، وقلت: يا زينب، أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربّي، فقامت إلى مسجدِها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن^(١). وذكر أهل العلم أن من خصائص رسول الله ﷺ أنه أجيز له التزويج بغير مهر ليخلص قُصْدُ زوجاته لله دون العوض، وليخفف عنه، وأجيز له التزويج بغير وليٍّ، لأنه مقطوع بكفائه، وكذلك هو مستغن في نكاحه عن الشهود. وكانت زينب تفاخر نساء النبي ﷺ وتقول: زوّجك أهلكك، وزوّجني الله ﷻ^(٢).

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ فَعَدَا مَقْدُودًا﴾ (١٨) ﴿الَّذِينَ يَمْلِكُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَ وَلَا يُخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَانَ يَأْتِيهِمْ حَيَاتًا﴾ (١٩) ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَرَ النَّبِيِّنَّ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (٢٠)

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ قال قتادة: فيما أحلّ الله له من النساء.

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ هي منصوبة على المصدر، لأن معنى «ما كان على النبي من حرج»: سنّ الله سنّة واسعة لا حرج فيها. والذين خلّوا: هم النبيون؛ فالمعنى: أن سنّة الله في الترسعة على محمد فيما فرض له، كسنته في الأنبياء الماضين. قال ابن السائب: هكذا سنّة الله في الأنبياء، كداود، فإنه كان له مائة امرأة، وسليمان كان له سبعمائة امرأة وثلاثمائة سريّة^(٣)، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ فَعَدَا مَقْدُودًا﴾ أي: قضاء مقضيّاً. وقال ابن قتيبة: «سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا» معناه: لا حرج على أحد فيما لم يخرم عليه. ثم أتى الله على الأنبياء بقوله: ﴿الَّذِينَ يَمْلِكُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَ وَلَا يُخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: لا يخافون لائمة الناس وقولهم فيما أجلّ لهم. وباقي الآية قد تقدم بيانه [النساء: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ قال المفسرون: لمّا تزوّج رسول الله ﷺ زينب، قال الناس: إن محمداً قد تزوّج امرأة ابنه، فنزلت هذه الآية^(٤)، والمعنى: ليس باب لزيد فتخرم عليه زوجته ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ قال

(١) رواه مسلم في «صحيحه» ١٠٤٨/٢، ورواه أحمد في «مسنده»، والنسائي في «سننه»، وأورد السيوطي في «الدر» ٢٠١/٥ وزاد نسبه لابن سعد، وأبي يعلى، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن أنس بن مالك ﷺ.

(٢) رواه البخاري رحمه الله ٢٤٨/١٣ عن أنس بن مالك ﷺ قال: فكانت زينب تغفر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجك أهلكك، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات. وذكره السيوطي في «الدر» ٢٠١/٥ وزاد نسبه لأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه» عن أنس ﷺ.

(٣) كذا الأصل، والذي في «مجمع البيان» للطبرسي، والخازن عكس ما هاهنا: وكان لسليمان ثلاثمائة امرأة، وسبعمائة سريّة. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٣٣١/٦: وقد حكى وهب بن منبه في «الجبته» أنه كان لسليمان ألف امرأة، ثلاثمائة مهيّرة، وسبعمائة سريّة، قال: ونحوه مما أخرج الحاكم في «المستدرک» من طريق أبي معشر عن محمد بن كعب قال: بلغنا أنه كان لسليمان ألف بيت من قوارير على الخشب، فيها ثلاثمائة صريجة، وسبعمائة سريّة. اهـ.

والذي في «صحيح البخاري» ٣٣٠/٦ في كتاب أحاديث الأنبياء عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تعمل كل امرأة فائداً يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله، فلم يقل، ولم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقّي، فقال النبي ﷺ: فلو قلها لجعلها في سبيل الله. وفي بعض روايات البخاري تسعين، ورجعها البخاري على سبعين، قال الحافظ ابن حجر: وعند مسلم سبعين. وأخرج الإسمايلي والنسائي عن أبي الزناد، قال: مائة امرأة، ورواه أحمد وأبو عوانة من طريق هشام عن ابن سيرين فقال: مائة امرأة، قال: ومن طريق جعفر بن ربيعة عن الأخرج: مائة امرأة أو تسع وتسعون على الشك. قال الحافظ ابن حجر: فمحصل الروايات ستون، وسبعون، وتسعون، وتسعون، ومائة، والجمع بينهما أن السنتين كن حرائر، وما زاد عليهن كن سراري، أو بالعكس، وأما السبعون، فللمبالغة، وأما التسعون والمائة، فكن دون المائة وفوق التسعين، فمن قال: تسعون ألفي الكسر، ومن قال: مائة، جبره، ومن ثم وقع التردد في رواية جعفر، قال: وأما قول بعض الشراح: ليس في ذكر القليل نفي الكثير، وهو من مفهوم العدد، وليس بحجة عند الجمهور، فليس بكافي في هذا المقام، وذلك أن مفهوم العدد معتبر عند كثيرين، والله أعلم. اهـ.

(٤) رواه الترمذي ١٥٢/٢ عن عائشة ﷺ.

الزواج: من نصبه، فالمعنى: ولكن كان رسول الله، وكان خاتَمَ النبيين؛ ومن رفعه، فالمعنى: ولكن هو رسول الله؛ ومن قرأ: «خاتَمَ» بكسر التاء، فمعناه: وختم النبيين؛ ومن فتحها، فالمعنى: آخر النبيين. قال ابن عباس: يريد: لو لم أختم به النبيين، لَجَعَلْتُ له ولداً يكون بعده نبياً^(١).

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ حُكْمُهَا بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ نهى أن يقال بعد هذا: زيد ابن محمد، أي: لم يكن أباه وإن كان قد نبأ، فإنه لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم، فإنه عليه السلام ولد له: القاسم، والطيب، والطاهر، من خديجة عليها السلام، فماتوا صغارا، وولد له عليه السلام إبراهيم من مارية القبطية، فمات أيضاً صغيراً، وكان له عليه السلام من خديجة أربع بنات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، رضي الله تعالى عنهم أجمعين، فمات في حياته عليه السلام ثلاث، وتآخرت فاطمة عليها السلام حتى أصيبت به عليه السلام، ثم ماتت بعده لسنة أشهر، قال: وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ كقوله عليه السلام: ﴿اللَّهُ أَهْلُهُ حَيْثُ يَهْتَمُّ وَكَانَتْهُ﴾ قال: فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده، فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأخرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كان رسول نبي، ولا يتعكس، قال: وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله عليه السلام من حديث جماعة من الصحابة عليه السلام. اهـ. وذكر ابن كثير كثيراً من الأحاديث التي تدل على ختم النبوة والرسالة به عليه السلام، منها ما أخرجه البخاري في «صحيحه» ٤/٤٠٨، ومسلم في «صحيحه» ٤/١٧٩١، عن أبي هريرة عليه السلام أن رسول الله عليه السلام قال: «إِنَّمَا أَنَا نَبِيٌّ وَمِثْلُ الْأَنْبِيَاءِ مِن قَبْلِي، كَمِثْلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيُعْبَدُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وَضَعْتَ هَذِهِ اللَّبَةَ؟» قال: «فَأَنَا اللَّبَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ» واللفظ للبخاري. ومنها ما رواه مسلم في «صحيحه» ١/٣٧١، عن أبي هريرة عليه السلام أن رسول الله عليه السلام قال: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جِوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِّرْتُ بِالرَّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهْرًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ»، ومنها ما رواه البخاري في «صحيحه» ٦/٤٠٤، ومسلم في «صحيحه» ٤/١٨٢٨، عن جبير بن مطعم عليه السلام قال: قال رسول الله عليه السلام: «إِن لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْحَاقِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُعْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ» واللفظ لمسلم - والعاقب: الذي ليس بعده نبي - وغير ذلك من النصوص الكثيرة الدالة على ختم باب النبوة برسولنا ونبينا محمد عليه السلام.

قال ابن كثير: والأحاديث في هذا كثيرة، فمن رحمة الله تعالى بالعباد: إرسال محمد ﷺ إليهم، ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له، قال: وقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه، ورسوله ﷺ في السُّنة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده، ليعلموا أن كل من ادَّعى هذا المقام بعده، فهو كذاب، أَفْكَ، دَجَال، ضالٌّ، مضِلٌّ، ولو تخرق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم والتنجنيات، فكلها محال وضلال عند أولي الأبصار، كذا أجرى الله سبحانه وتعالى على يد الأسود العنسي باليمن ومسيلمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ما علم كل ذي لُبٍّ وفهم وجيبي، أنهما كاذبان ضالان، لعنهما الله، وكذلك كل مدَّعٍ لذلك إلى يوم القيامة حتى يختصموا بالمسيح الدجال، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله تعالى معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها، هذا من تمام لطف الله تعالى بخلقهم، فإنهم بفسرورة الواقع لا يأمرون معروف ولا يهتدون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره، ويكون في غاية الإفك والجنون في أقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿عَلَّ أَفْئُكُم مِّنَ تَزَكِّي السَّالِطِينَ﴾ تَزَكَّى عَلَى كُلِّ مَقَالٍ أُجِيرَ ﴿...﴾ الآية، وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنهم في غاية البرِّ والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات، والأدلة الواضحات، والبراهين الباهرات، فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستعراً ما دامت الأرض والسموات. اهـ.

هذا وقد ظهر في هذا القرن (القرن الثالث عشر الهجري) دجال في «قاديان» إحدى بلاد باكستان يدعى النبوة، يسمى: ميرزا غلام أحمد (١٣٥٢ - ١٣٢٦ هـ) وأتباعه يسمون أنفسهم «الأحمدية» نسبة إلى دجال قاديان، وهم المعروفون عندنا بالقادريين، وهم يعتبرون ميرزا غلام أحمد القادياني إمام هذا الزمان، والمسيح الموعود، ويدعون أن النبوة لا تنقطع، وأن إمامهم من جملة الأنبياء، ويفسرون قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُ الْكَافِرِينَ﴾ بأنه طابعهم، وليس آخرهم، وأن كل نبي يظهر بعده ﷺ تكون نبوته مطبوعاً عليها بخاتمه تصديقه، مخالفين بذلك تفسير الصحابة والتابعين والمفسرين والمجتهدين والفقهاء والمحدثين وجهود المسلمين من السلف والخلف، ويستشهدون بقول مسيحيهم المزموم في كتاب «ملفوظات أحمدية» صفحة (٢٩٠): أن المزاب به أنه لا يمكن أن تصدق الآن نبوة أي نبي من الأنبياء إلا بخاتمه ﷺ ويقول مسيحيهم بناءً على ذلك مدعياً الرسالة في كتابه «التبليغ» صفحة (٤٣ - ٤٥): «أرسلني ربي لدعوة الخلق، وآتاني من آيات بيئة لأدعو خلقه إلى دينه، فطوبى للذين يقبلونني ويذكرون الموت أو يطلبون الآيات وبعد رؤيتها يؤمنون» والحق أنه رسول من قبل دولة الانكليز، يدل على ذلك قوله في كتابه «ضرورة الإمام» صفحة (٣٨) في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَآدَمَ وَآلَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾: المراد من أولي الأمر جسمانيات الملك (ملك بريطانيا) وروحانيات إمام الزمان (يعني نفسه) وإن الشخص الجسماني الذي لا يخالفنا في مقاصدنا، ويمكننا أن نحصل لنا منه الفائدة الدينية فهو يكون منا، ولذلك ففسيحتي لجماعتي هي أن يعطوا ملك الانكليز من أولياء أمرهم ويطيعوهم بصدق القلب، لأن هؤلاء لا يخرجوننا في مقاصدنا الدينية. اهـ. ويقول منير الحصري من أتباعه في دمشق في شرح كلامه هذا في كتابه «الجماعة الأحمدية والانكليز» صفحة (١٨): ومن هذا الكلام الواضح يفهم كل قارئ أن المسيح الموعود ﷺ (يريد دجال قاديان) بين حكماً من أحكام القرآن المجيد، وهو إطاعة غير المسلمين إذا منحوا الحرية الدينية سواء أكانوا انكليز أم غير انكليز، وبما أن الانكليز كانوا في وقته ﷺ هم الحاكمين، كانوا لا يتعرضون للدين، لذلك قال بوجوب طاعتهم. ويقول المسيح الكذاب مبيئاً نعمة الانكليز عليه وعلى أتباعه في كتابه «بركات الخلافة» صفحة (٦٥): «إن إحسان للحكومة الانكليزية إلينا هو كبير ونحن نعيش براحة واطمئنان كبيرين، وتم مقاصدنا، إن أعظم مقصد لنا هو إشاعة الدين (دين دجال قاديان) ولأجل تميم هذا المقصد نجد كل حرية، ويمكننا التبليغ في كل ركن من المملكة (الانكليزية) حيث نشاء، وإذا ذهبنا للتبليغ في الممالك الأخرى، فهناك أيضاً تساعدنا الحكومة البريطانية». اهـ كلام هذا الدجال، وهو واحد من الذين ظهروا، وسيظهر أمثاله، وذلك مصداق قول نبينا محمد ﷺ فيما رواه مسلم في «صحيحه» ٤/ ٢٢٤٠ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون، قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾
 قوله تعالى: ﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا﴾ قال مجاهد: هو أن لا ينساه أبداً. وقال ابن السائب: يقال: «ذُكِّرَ كثيراً» بالصلوات الخمس. وقال مقاتل بن حيان: هو التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير على كل حال: وقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول ربكم: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ قال أبو عبيدة: الأصيل: ما بين العصر إلى الليل. وللمفسرين في هذا التسبيح قولان: أحدهما: أنه الصلاة، واتفق أرباب هذا القول على أن المراد بالتسبيح بكرة: صلاة الفجر. واختلفوا في صلاة الأصيل على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها صلاة العصر، قاله أبو العالية، وقتادة. والثاني: أنها الظهر والعصر والمغرب والعشاء. قاله ابن السائب. والثالث: أنها الظهر والعصر، قاله مقاتل. والقول الثاني: أنه التسبيح باللسان، وهو قول: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله»، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ في صلاة الله علينا خمسة أقوال: أحدها: أنها رحمته، قاله الحسن. والثاني: مغفرته، قاله سعيد بن جبير. والثالث: ثناؤه، قاله أبو العالية. والرابع: كرامته، قاله سفيان. والخامس: بركته، قاله أبو عبيدة. وفي صلاة الملائكة قولان: أحدهما: أنها دعاؤهم، قاله أبو العالية. والثاني: استغفارهم، قاله مقاتل. وفي الظلمات والنور هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: الضلالة والهدى، قاله ابن زيد. والثاني: الإيمان والكفر، قاله مقاتل. والثالث: الجنة والنار، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ الهاء والميم كناية عن المؤمنين. فأما الهاء في قوله: ﴿يَلْقَوْنَهُ﴾ ففيها قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله ﷻ. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: تحييتهم من الله يوم يلقونه سلام. وروى صهيب عن النبي ﷺ «أن الله يسلم على أهل الجنة». والثاني: تحييتهم من الملائكة يوم يلقون الله: سلام، قاله مقاتل. وقال أبو حمزة الثمالي: تسلم عليهم الملائكة يوم القيامة، وتبشروهم حين يخرجون من قبورهم. والثالث: تحييتهم بينهم يوم يلقون ربهم: سلام، وهو أن يحيي بعضهم بعضاً بالسلام، ذكره أبو سليمان الدمشقي. والقول الثاني: أن الهاء ترجع إلى ملك الموت، وقد سبق ذكره في ذكر الملائكة. قال ابن مسعود: إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال له: ربك يقرئك السلام^(٢). وقال البراء بن عازب: في قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ قال: ملك الموت، ليس مؤمن

(١) رواه البخاري معلقاً ٤١٧/١٣، قال: وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «قال الله تعالى: أنا مع عبدي إذا ذكرني وتحركت بي شفتاه». ورواه أحمد في «المسند» عن أبي هريرة ﷺ، وابن ماجه في «مسنده» رقم ٣٧٩٢ عن أبي هريرة ﷺ، ورواه ابن حبان في «صحيحه» وهو في «موارد الظمان» للحافظ الهيثمي صفحة ٥٦٧، ورواه الحاكم في «المستدرک» ٤٩٦/١ عن أبي الدرداء ﷺ، وصححه، ووافقه الذهبي. والأحاديث في فضل الذكر كثيرة، منها ما رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم بسند صحيح عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بغير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «ذكر الله». ومنها ما رواه مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «سبق المفردون» قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات». ومنها ما رواه البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت». وعن عبد الله بن بسر أن رجلاً قال يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أنشئت به، قال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله تعالى»، رواه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي. وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «من قعد مقعداً لم يذكر الله تعالى فيه، كانت عليه من الله تعالى ترة، ومن اضطجع مضطجعاً لا يذكر الله تعالى فيه، كانت عليه من الله ترة» - أي: نقص وتبعة وحسرة - رواه أبو داود، وهو حديث صحيح. والآيات والأحاديث والآثار في البحث على ذكر الله تعالى كثيرة جداً، وفي هذه الآية الكريمة حث على الإكثار من ذلك، وقد صنف العلماء في الأذكار المتملقة بأناء الليل والنهار مصنفات كثيرة، ومن أحسنها في ذلك كتاب «الأذكار» للإمام النووي رحمه الله، وقد اختصره شيخ الإسلام ابن تيمية وسماه بـ «الكلم الطيب» وطبعه المكتب الإسلامي طباعة جيدة محققة، ليكون في متناول أيدي الناس - وخاصة الشباب منهم - وليجلوا بذلك عوناً لهم على ذكر الله ﷻ.

(٢) ذكره السيوطي في «الدرة» ٢٠٦/٥ من رواية المروزي في «الجنائز» وابن أبي الدنيا وأبي الشيخ عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

يقبض روحه إلا سلم عليه^(١). فأما الأجر الكريم، فهو الحسن في الجنة^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُبِيرًا ﴿٤٦﴾ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُلَاحِظْ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِكَ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ أي: على أمتك بالبلاغ ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ بالجنة لمن صدقك ﴿وَنَذِيرًا﴾ أي: منذرًا بالنار لمن كذبك^(٣)، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: إلى توحيده وطاعته ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بأمره، لا أنك فعلته من تلقاء نفسك ﴿وَسِرَاجًا مُبِيرًا﴾ أي: أنت لمن أتبعك «سراجًا»، أي: كالسراج المضيء في الظلمة يهتدى به.

قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ﴿٤٧﴾ وهو الجنة. قال جابر بن عبد الله: لما أنزل قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا ثَمَنًا﴾ ﴿٤٨﴾... الآيات [الفتح] قال الصحابة: هنيئًا لك يا رسول الله، فما لنا؟ فنزلت هذه الآية^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلَاحِظْ الْكَافِرِينَ﴾ قد سبق في أول السورة.

قوله تعالى: ﴿وَدَعْ أَذُنَهُمْ﴾ قال العلماء: معناه: لا تجازهم عليه ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في كفاية شرهم^(٥)؛ وهذا منسوخ بآية السيف.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهَا فَمَعَهُنَّ وَسِرَّوَهُنَّ سِرًّا جَمِيلًا﴾ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾^(٦) قال الزجاج: معنى «نَكَحْتُمُ» تزوجتم. ومعنى «تَسُوهُنَّ» تفرهون. وقرأ حمزة، والكسائي: «تُمَاسُوهُنَّ» بالف.

(١) ذكره السيوطي في «الدر» ٢٠٦/٥ من رواية ابن أبي شيبة في «المصنف»، وابن أبي الدنيا في «ذكر الموت»، وعبد بن حميد، وأبي يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن البراء بن عازب.

(٢) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿فَيَسْتَنْهَضُهُمْ يَوْمَ يَقُومُ الْحُكْمُ﴾ الظاهر أن المراد - والله أعلم - تحيتهم، أي من الله تعالى يوم يلقونه: سلام، أي: يسلم عليهم، كما قال: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّي رَسُولٍ﴾، قال: وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ يعني الجنة وما فيه من المأكول والمشروب والملابس والسكان والمناجك والملاذ والمناظر مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. اهـ.

(٣) روى أحمد في «المسند» والبخاري في «صحيحه» عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف ببعض صفته في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ وجزرًا للأمين، أنت عبيدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس يفظ، ولا غليظ، ولا سحاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعين عبيد، وأذنًا صمًا، وقلوبًا غلفًا.

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري عن عكرمة والحسن البصري قالوا: لما نزلت ﴿يُنَبِّئُكَ اللَّهُ تَعَالَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَلِكَ وَتَا فُلُوحٌ﴾ قال رجال من المؤمنين: هنيئًا لك يا رسول الله قد علمنا ما يفعل بك، فمأذا يفعل بنا؟ فأنزل: ﴿يُنَبِّئُكَ اللَّهُ تَعَالَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَلِكَ وَتَا فُلُوحٌ﴾... الآية، وأنزل في سورة (الأحزاب): ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ﴿٤٧﴾.

(٥) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يقول: وفوض إلى الله أمورك، وثق به، فإنه كافيك جميع من دونه حتى يأتيك أمره وقضاه، ﴿وَكَفَى بِكَ وَكِيلًا﴾ يقول: وحسبك بالله ثيمًا بأمورك، وحافظًا لك وكائنًا. اهـ.

(٦) قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة، منها إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها، وقد اختلفوا في النكاح، هل هو حقيقة في العقد وحده، أو في الوطء، أو فيهما؟ على ثلاثة أقوال، واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده، إلا في هذه الآية، فإنه استعمل في العقد وحده، لقوله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوهُنَّ﴾ وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها، وقوله تعالى: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ خرج مخرج الغالب، إذ لا فرق في الحكم بين المومنة والكتانية في ذلك بالاتفاق. وقد استدلل ابن عباس، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري، وعلي بن الحسين زين العابدين، وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدم نكاح، لأن الله تعالى قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ فعقب النكاح بالطلاق، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله، وهذا مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من السلف والخلف رحمهم الله تعالى، قال: وذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى إلى صحة الطلاق قبل النكاح فيما إذا قال: إن تزوجت فلانة فهي طالق، فعندهما متى تزوجها طلقت منه، واختلفا فيما إذا قال: كل امرأة أتزوجها فهي طالق، فقال مالك: لا تطلق حتى يعين المرأة، وقال أبو حنيفة رحمه الله: كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه. قال: فأما الجمهور، فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية، قال: وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك»، رواه أحمد وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وهو أحسن شيء روي في هذا الباب، قال: وهكذا روى ابن ماجه عن علي والسور بن مخزومة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا طلاق قبل النكاح». اهـ.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدْوٍ مَنَعْتُمْوهَا﴾ أجمع العلماء أنه إذا كان الطلاق قبل الميسيس والخلوة فلا عِدَّة^(١)؛ وعندنا^(٢) أن الخلوة توجب العِدَّة وتقرر الصِّدَاق، خلافاً للشافعي.

قوله تعالى: ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ﴾ المراد به من لم يُسَمِّ لها مهرًا، لقوله في [البقرة: ٢٣٦]: ﴿أَوْ تَقْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ وقد بيَّنا المتعة هنالك، وكان سعيد بن المسيَّب وقناة يقولان: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿فَصِصْتُ مَا فَرَضْتُ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَكَاً جَيِّلاً﴾ أي: من غير إضرار. وقال قتادة: هو طلاقها طاهراً من غير جماع. وقال القاضي أبو يعلى: الأظهر أن هذا التيسير ليس بطلاق، لأنه قد ذكر الطلاق، وإنما هو بيان أنه لا سبيل له عليها، وأن عليه تخليتها من يده وجباً.

فصل

واختلف العلماء فيمن قال: إن تزوجت فلانة فهي طالق، ثم تزوجها؛ فعندنا أنها لا تطلق، وهو قول ابن عباس، وعائشة، والشافعي، واستدل أصحابنا بهذه الآية، وأنه جعل الطلاق بعد النكاح. وقال سماك بن الفضل: النكاح عَقْدٌ، والطلاق يَحُلُّها، فكيف يحلُّ عَقْدٌ لم تُعَقَّدْ؟ فجعل بهذه الكلمة قاضياً على «صنعاء». وقال أبو حنيفة: يتعقد الطلاق، فإذا وُجد النكاح وقع. وقال مالك: يتعقد ذلك في خصوص النساء، وهو إذا كان في امرأة بعينها، ولا يتعقد في عمومهن. فاما إذا قال: إن ملكت فلانة فهو حُرٌّ، ففيه عن أحمد روايتان.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَاةَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَنَوَاتٍ عَلَيْكَ وَنَوَاتٍ حَقَّكَ وَنَوَاتٍ خَالَكَ وَنَوَاتٍ خَلَّكَ الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥٠﴾ ﴿تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتَقْوِي إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ وَمَنْ أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَذْنُكَ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَرَضَّيْكَ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ٥١﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ ذكر الله تعالى أنواع الأنكحة التي أحلها له، فقال: ﴿أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهنَّ، وهُنَّ اللواتي تزوجتهنَّ بصدقٍ ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ يعني الجواري ﴿مِمَّا آفَاةَ اللَّهِ عَلَيْكَ﴾ أي: ردَّ عليك من الكفار، كصفية وجويرية، فإنه أعتقهما وتزوجهما ﴿وَنَوَاتٍ عَلَيْكَ وَنَوَاتٍ حَقَّكَ﴾ يعني نساء قريش ﴿وَنَوَاتٍ خَالَكَ وَنَوَاتٍ خَلَّكَ﴾ يعني نساء بني زُهرة^(٣) ﴿الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ﴾ إلى المدينة. قال القاضي أبو يعلى: و[ظاهراً] هذا يدلُّ على أن من لم تهاجر معه من النساء لم يحلَّ له نكاحها. وقالت أم هانئ: خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه بعدو، ثم أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ﴾، قالت: فلم أكن لأجلَّ له، لأنني لم أهاجر معه، كنتُ من الطَّلَفاء^(٤)؛ وهذا يدلُّ من مذهبا أن تخصيصه بالمهاجرات قد أوجب حظر من لم تهاجر. وذكر

(١) قال ابن كثير: هذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها، لا عدة عليها، فتزوج في فورها من شاءت، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها، فإنها تمتد منه أربعة أشهر وعشراً وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً. اهـ.

(٢) أي: معاشرة الحناطة.

(٣) قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَنَوَاتٍ عَلَيْكَ وَنَوَاتٍ حَقَّكَ وَنَوَاتٍ خَالَكَ وَنَوَاتٍ خَلَّكَ...﴾ الآية: هذا عدلٌ وسط بين الإفراط والتفريط فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهم إفراط النصارى - فأباح بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة - وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت، وهذا شيع نظيم. اهـ.

(٤) رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ: ٢٢ / ٢٠ من طريق السدي عن أبي صالح عن أم هانئ رضي الله عنها، والسدي وأبو صالح ضعيفان. ورواه الترمذي في «جامعه» ٢ / ١٥٣ به وقال: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث السدي، ورواه الحاكم في «المستدرک» ٢ / ٤٢٠ به، وصححه، ووافقه الذهبي، والحديث أخرجه الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٣٥ وقال: رواه الترمذي، والحاكم، وابن أبي شيبه، وإسحاق، والطبري، والطبراني، وابن أبي حاتم، كلهم من رواية السدي عن أبي صالح عن أم هانئ، وأورده السيوطي في «الدرر» ٥ / ٢٠٨، وزاد نسبه لابن سعد، وعبد بن حميد، وابن مردويه، والبيهقي. قال ابن كثير: وقد رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح عن أم هانئ بنحوه.

بعض المفسرين: أن شرط الهجرة في التحليل منسوخ، ولم يذكر ناسخه، وحكى الماوردي في ذلك قولين: أحدهما: أن الهجرة شرط في إحلال النساء له على الإطلاق. والثاني: أنه شرط في إحلال قراباته المذكورات في الآية دون الأجنيات.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْمُؤْمِنَةُ﴾ أي: وأحللنا لك امرأة مؤمنة ﴿إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لَكَ﴾، ﴿إِنْ أَرَادَ الْكَافِرُ أَنْ يُسَلِّمَ﴾ أي: إن أتى نكاحها ﴿خَالَصَ لَكَ﴾ أي: خاصة. قال الزجاج: وإنما قال: ﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾، ولم يقل: «لك»، لأنه لو قال: «لك»، جاز أن يُتوهم أن ذلك يجوز لغير رسول الله ﷺ كما جاز في بنات العم وبنات العمات. وخالصة منسوب على الحال. وللمفسرين في معنى «خالصة» ثلاثة أقوال: أحدها: أن المرأة إذا وهبت له نفسها، لم يلزمه صداقها دون غيره من المؤمنين، قاله أنس بن مالك، وشعيب بن المسيب. والثاني: أن له أن ينكحها بلا ولي ولا مهر دون غيره، قاله قتادة. والثالث: خالصة لك أن تملك عقد نكاحها بلفظ الهبة دون المؤمنين، وهذا قول الشافعي، وإمام أحمد^(١). وفي المرأة التي وهبت له نفسها أقوال: أحدها: أم شريك. والثاني: خولة بنت حكيم. ولم يدخل بواحدة منهما. وذكروا أن ليلى بنت الخطوم وهبت نفسها له فلم يقبلها. قال ابن عباس: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له^(٢). وقد حكى عن ابن عباس أن التي وهبت نفسها له ميمونة بنت الحارث، وعن الشعبي: أنها زينب بنت خزيمة. والأول: أصح^(٣).

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المؤمنين غيرك ﴿فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أن لا يجاوز الرجل أربع نسوة، قاله مجاهد. والثاني: أن لا يتزوج الرجل المرأة إلا بولي وشاهدين وصدائق، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: وما أباحنا لهم من ملك اليمين مع الأربع الحرائر من غير عدد محصور^(٤).

قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ هذا فيه تقديم، المعنى: أحللنا لك أزواجك، إلى قوله: «خالصة لك من دون المؤمنين» لكيلا يكون عليك حرج.

قوله تعالى: ﴿تَرَى مِنْ نِكَاحٍ مِثْرًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «تُرْجِي» مهموزاً، وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي، وحفص عن عاصم: بغير همز. وسبب نزولها أنه لما نزلت آية التخيير المتقدمة، أشفق أن يظن أن نبي الله، اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت، ودعنا على حالنا، فنزلت هذه الآية، قاله

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿خَالَصَ لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال عكرمة: أي: لا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل، لم تحل له حتى يعطيها شيئاً، وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما، أي أنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل، فإنه متى دخل بها وجب عليه لها مهر مثلها، كما حكم به رسول الله ﷺ في تزويج بنت واشق لما فوضت، فحكم لها رسول الله ﷺ بصدق مثلها لما توفي عنها زوجها، قال: والموت والدخول سواء في تقرير المهر، وثبت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ، فأما هو عليه الصلاة والسلام، فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء، ولو دخل بها، لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولي ولا شهود، كما في قصة زينب بنت جحش^(١)، ولهذا قال قتادة في قوله: ﴿خَالَصَ لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر، إلا للنبي ﷺ. اهـ.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/٢٣ من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس^(٢)، قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٤٠٤/٨: وإسناده حسن، والمراد: أنه لم يدخل بواحدة ممن وهبت نفسها له، وإن كان مباحاً له، لأنه راجع إلى إرادته، لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ الْكَافِرُ أَنْ يُسَلِّمَ﴾.

(٣) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٤٠٤/٨: وممن (يعني الموهوبات) زينب بنت خزيمة، جاء عن الشعبي، وليس ثابت، وقال: وعند ابن أبي حاتم من طريق قتادة عن ابن عباس قال: التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، هي ميمونة بنت الحارث، قال: وهذا منقطع، وقال: وأورده من وجه آخر مرسل، وإسناده ضعيف. اهـ. وقد ثبت أن بعض النساء وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ. وقد قال ابن كثير: اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كثير، كما قال البخاري عن عائشة^(٣) قالت: كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول: اتعب المرأة نفسها؟! فلما أنزل الله تعالى: ﴿تَرَى مِنْ نِكَاحٍ مِثْرًا﴾ وثبتت إليه من نكاحه وثبتت ميثاقه^(٤) قلت: ما أرى ذلك إلا يسارع في هواك.

(٤) قال ابن كثير: وقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال أبي بن كعب، ومجاهد، والحسن، وقاتدة، وابن جرير في قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ أي: من حصروهم في أربع نسوة حرائر وما شأوا من الإماء، واشترط الولي والمهر والشهود عليهم، وهم الأمة، وقد رخصنا لك في ذلك فلم نوجب عليك شيئاً منه ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن تطلق زوجاتك وتستبدل بهنَّ سيواهنَّ^(١)، قاله الضحاك. والثاني: أن تبدل بالمسلمات المشركات، قاله مجاهد في آخرين. والثالث: أن تُعطى الرجل زوجته وتأخذ زوجته، وهذه كانت عادة للجاهلية، قاله أبو هريرة، وابن زيد.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ يعني الإمام. وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: إلا أن تملك بالسبي، فيحل لك وطؤها وإن كانت من غير الصنف الذي أحلَّته لك؛ وإلى هذا أوما أبي بن كعب في آخرين. والثاني: إلا أن تصيب يهودية أو نصرانية فتطأها بملك اليمين، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثالث: إلا أن تبدل أمتك بأمة غيرك، قاله ابن زيد. قال أبو سليمان الدمشقي: وهذه الأقوال جائزة، إلا أننا لا نعلم أن رسول الله ﷺ نكح يهودية ولا نصرانية بتزويج ولا ملك يمين، ولقد سبى ربحانة القرظية فلم يذُن منها حتى أسلمت.

فصل

واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على قولين: أحدهما: أنها منسوخة بقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا لَكَ آيَاتِكَ﴾، وهذا مروى عن علي، وابن عباس، وعائشة، وأم سلمة، وعلي بن الحسين، والضحاك. وقالت عائشة: ما مات رسول الله ﷺ حتى أجل له النساء^(٢)، قال أبو سليمان الدمشقي: يعني نساء جميع القبائل من المهاجرات وغير المهاجرات. والقول الثاني: أنها محكمة؛ ثم فيها قولان: أحدهما: أن الله تعالى أثاب نساء حين اخترنه بأن قصره عليهن، فلم يُحلَّ له غيرهن، ولم ينسخ هذا، قاله الحسن، وابن سيرين، وأبو أمامة بن سهل، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث^(٣). والثاني: أن المراد بالنساء هاهنا: الكافرات، ولم يُجزَّ له أن يتزوج كافرة، قاله مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وجابر بن زيد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبْطِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْصَرِفُوا وَلَا تَسْتَمْتِمْ لِحَدِيثِ اللَّهِ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَعِزُّ بِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَجْهِ جَبَّارٍ ذَلِكَكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُجُجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ...﴾ الآية^(٤). في سبب نزولها ستة أقوال: القول الأول: أخرجه في «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ لما تزوج زينب بنت جحش دعا القوم

(١) قال ابن كثير: فنها عن الزيادة عليهن إن طلق واحدة منهن واستبدل غيرها بها إلا ما ملكت يمينه. اهـ.

(٢) رواه أحمد في «المسند» والترمذي في «جامعه» والنسائي في «مسنده» عن عائشة ؓ.

(٣) قال ابن كثير: ذكر غير واحد من العلماء، كابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وابن جرير، وغيرهم، أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ، ورضي عنهن على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن رسول الله ﷺ كما تقدم في الآية، فلما اخترن رسول الله ﷺ، كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدل بهن أزواجا غيرهن ولو أعجبه حسنهن، إلا الإمام والسراي، فلا حرج عليه فيهن، ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج، لتكون الجنة لرسول الله ﷺ عليهن، وذكر ابن كثير بعض الأدلة على ذلك، ثم قال: وذلك قوله تعالى: ﴿تَزَوَّجَ مَنْ نَكَحَهُ يُتَزَوَّجُ...﴾ الآية، قال: فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة، كآيتي علة الوفاة في (البقرة) الأولى ناسخة للتي بعدها، والله أعلم. قال: وقال آخرون: بل معنى الآية: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْيَتِيمَ بِرَبِّهِ﴾ أي: من بعد ما فُكِّرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللتنا لك من نسائك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك وبنات المم والمعات والخال والخالات، والواحدة، وما سوى ذلك من أصناف النساء، فلا يحل لك. وذكر بعض أقوال السلف في ذلك، ثم قال: واختار ابن جرير رحمه الله أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء، وفي النساء اللواتي في عصمتهم وكن تسعاً، قال: وهذا الذي قاله جيد، ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف، فإن كثيراً منهم روي عنه هذا وهذا، ولا منافاة، والله أعلم. اهـ.

(٤) قال ابن كثير: هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وآداب شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب ؓ، كما ثبت ذلك في «الصحيحين» عنه أنه قال: وافقت ربي ﷺ في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخلت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ نَقَارِ زَيْبِ مَمْلُ﴾ وقلت: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو حجبتين، فأنزل الله آية الحجاب، وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تمالان عليه في الغيرة: ﴿عَمَّ زَيْبُكَ إِنْ مَلَكَتْ أَنْ يَبْلُغَكَ أَنْ يَبْلُغَكَ أَنْ يَبْلُغَكَ أَنْ يَبْلُغَكَ﴾ فنزلت كذلك. قال: وفي رواية لمسلم ذكر أسارى بدر، وهي قضية رابعة. اهـ.

فَطَعِمُوا ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ، فَأَخَذَ كَأَنَّهُ يَتِيهًا لِلْقِيَامِ، فَلَمَّ رَأَى ذَلِكَ قَامَ وَقَامَ مِنَ الْقَوْمِ مَنْ قَامَ، وَقَعَدَ ثَلَاثَةً، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلَ فَلِذَا الْقَوْمِ جُلُوسٌ، فَرَجَعَ، وَإِنَّهُمْ قَامُوا فَانْطَلَقُوا، وَجِئْتُ فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدْ انْطَلَقُوا، فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ، وَذَهَبْتُ أَدْخُلُ فَأَلْقَى الْحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ^(١). والثاني: أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَتَحَيَّيُونَ طَعَامَ النَّبِيِّ ﷺ فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِ قَبْلَ الطَّعَامِ إِلَى أَنْ يُدْرِكَ^(٢)، ثُمَّ يَأْكُلُونَ وَلَا يَخْرُجُونَ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَأَذَى بِهِمْ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٣). والثالث: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ نِسَاءكَ يَدْخُلْنَ عَلَيْكَ الْبَرَّ وَالْفَاجِرَ، فَلَوْ أَمَرْتَهُنَّ أَنْ يَخْتَجِبْنَ، فَتَزَلَّتْ آيَةُ الْحِجَابِ، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ، كِلَاهُمَا عَنْ عُمَرَ^(٤). والرابع: أَنَّ عُمَرَ أَمَرَ نِسَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْحِجَابِ، فَقَالَتْ زَيْنَبُ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، إِنَّكَ لَتَغَارُ عَلَيْنَا وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ فِي بَيْوتِنَا؟! فَتَزَلَّتْ الْآيَةُ، قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ^(٥). والخامس: أَنَّ عُمَرَ كَانَ يَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: احْجُبْ نِسَاءكَ، فَلَا يَفْعَلُ، فَخَرَجَتْ مَوْدَّةٌ لَيْلَةً، فَقَالَ عُمَرُ: قَدْ عَرَفْنَاكَ يَا مَوْدَّةُ - حَرَصًا عَلَى أَنْ يَنْزَلَ الْحِجَابُ - فَتَزَلَّتْ الْحِجَابُ، رَوَاهُ عِكْرَمَةُ عَنْ عَائِشَةَ^(٦). والسادس: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَطْعَمُ مَعَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ، فَأَصَابَتْ يَدُ رَجُلٍ مِنْهُمْ يَدَ عَائِشَةَ، وَكَانَتْ مَعَهُمْ، فَكَرِهَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ، فَتَزَلَّتْ آيَةُ الْحِجَابِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ^(٧).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ﴾ أي: أَنْ تُدْعَوْا إِلَيْهِ ﴿غَيْرَ تَطْيِئِينَ﴾ أي: مُنْتَظَرِينَ ﴿إِنَّهُ﴾. قال الزَّجَّاجُ: مَوْضِعُ «أَنْ» نَسْبٌ؛ والمعنى: إِلَّا بَأْنٍ يُؤْذَنُ لَكُمْ، أَوْ لِأَنْ يُؤْذَنَ، وَ«غَيْرَ» مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْحَالِ؛ والمعنى: إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ غَيْرَ مُنْتَظَرِينَ. وَإِنَّمَا: نُضْجُهُ وَيُلُوغُهُ.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْتَرُوا﴾ أي: فَأَخْرَجُوا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا مُسْتَقْبِلِينَ لِيُحْيِيَ﴾ المعنى: وَلَا تَدْخُلُوا مُسْتَأْنِسِينَ، أي: طَالِبِي الْأَنْسِ لِحَدِيثٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَجْلِسُونَ بَعْدَ الْأَكْلِ فَيَتَحَدَّثُونَ طَوِيلًا، وَكَانَ ذَلِكَ يُؤْذِيهِ، وَيَسْتَحْيِي أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: قُومُوا، فَعَلَّمَهُمُ اللَّهُ الْأَدَبَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْخَيْرِ﴾ أي: لَا يَبْرُكُ أَنْ يَبَيِّنَ لَكُمْ مَا هُوَ الْحَقُّ ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَا﴾ أي: شَيْئًا يُسْتَمْتَعُ بِهِ وَيُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ آلَةِ الْمَنْزِلِ ﴿فَسَلُّوهُنَّ مِنْ دُونِهِ جَابٍ ذَلِكَ أَطَهَرُ﴾ أي: سَأَلَكُمْ إِيَّاهُنَّ الْمَتَاعَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَطَهَرُ ﴿لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ مِنَ الرِّبَا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: مَا كَانَ لَكُمْ إِذَا هُوَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ. قال أَبُو عُبَيْدَةَ: وَ«كَانَ» مِنْ خُرُوفِ الزَّوَاوِدِ. والمعنى: مَا لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴿وَلَا أَنْ تَنْكَبُوا أَرْجُلَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾.

- (١) البخاري ٤٠٦/٨، ٤٠٧، ومسلم ١٠٥٠/٢، ورواه ابن جرير الطبري بنحو ٢٧/٢٢، وأوردته السيوطي في «الدرة» ٢١٣/٥، وزاد نسبه لأحمد، وعبد بن حديد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه» من طرق عن أنس.
- (٢) أي: إِلَى أَنْ يَضْجَ الطَّعَامُ.
- (٣) ذكره البيهقي في «تفسيره» عن ابن عباس بدون سند.
- (٤) البخاري ٤٠٦/٨، ومسلم ١٨٦٥/٤ وهو طرف من حديث أوله: «ووافقت ربي في ثلاث...» وقد تقدم.
- (٥) «الطبري» ٤٠/٢٢ من طريق عطاء بن السائب، عن أبي وائل عن ابن مسعود، وذكره السيوطي في «الدرة» ٢١٤/٥ من رواية ابن مرجويه عن ابن مسعود.
- (٦) قال الحافظ ابن حجر في «تفريغ الكشف» ١٣٧: رواه الثعلبي من رواية مجاهد عن الشعبي.
- (٧) رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ ٤٠/٢٢ مِنْ طَرِيقِ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: هَكَذَا وَقَعَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ، وَالْمَشْهُورُ أَنَّ هَذَا كَانَ بَعْدَ نَزُولِ الْحِجَابِ، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: خَرَجْتُ سُودَةً بَعْدَمَا ضَرَبَ الْحِجَابُ لِحَاجَتِهَا، وَكَانَتْ أَمْرًا جَسِيمَةً لَا تَخْفَى عَلَى مَنْ يَعْرِفُهَا، فَأَرَادَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا سُودَةُ أَمَا وَاللَّهِ مَا تَخْفِينِ عَلَيْنَا، فَانْظُرِي كَيْفَ تَخْرُجِينَ، قَالَتْ: فَانْكَفَأْتُ رَاجِعَةً وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِي وَإِنَّهُ لَيَتَشَى وَفِي يَدِهِ عِرْقٌ، فَدَخَلْتُ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي خَرَجْتُ لِبَعْضِ حَاجَتِي فَقَالَ لِي عُمَرُ كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ: فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ، ثُمَّ رَفَعَ عَنْهُ وَإِنَّ الْعِرْقَ فِي يَدِهِ مَا وَضَعَهُ، فَقَالَ: «إِنَّهُ قَدْ أَذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ» وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ. اهـ. وقال ابن كثير أيضًا: فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ حُظِرَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْخُلُوا مَنَازِلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِغَيْرِ إِذْنٍ كَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ يَصْنَعُونَ فِي بُيُوتِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَابْتِدَاءَ الْإِسْلَامِ، حَتَّى غَارَ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، فَأَمَرَهُمْ بِذَلِكَ، وَذَلِكَ مِنْ إِكْرَامِهِ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ، قَالَ: وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِيَاكُمُ الدُّخُولُ عَلَى النِّسَاءِ...» الْحَدِيثُ، قَالَ: ثُمَّ اسْتَنْتَى مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ تَطْيِئَةٍ إِنَّهُ﴾ قَالَ: قَالَ مُجَاهِدٌ وَتَوَادَّ وَغَيْرُهُمَا، أَي: غَيْرَ مُتَحَيِّينَ نُضْجُهُ وَاسْتَوَاهُ، أَي: لَا تَرْقُبُوا الطَّعَامَ إِذَا طَبَخَ حَتَّى إِذَا قَارَبَ الْاِسْتَوَاءَ تَمَرَضْتُمْ لِلدُّخُولِ، فَإِنَّ هَذَا مِمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُ، قَالَ: وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ التَّطْيِيلِ، وَهُوَ الَّذِي تَسْمِيهِ الْعَرَبُ: «الضَّيْفُ». اهـ.
- (٨) رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ ٣٩/٢٢ عَنْ مُجَاهِدٍ مَرْسَلًا، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «تَفْرِيقِ الْكَشَافِ» ١٣٦: رَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَالتَّبْرِيُّ مِنْ طَرِيقِ مُجَاهِدٍ مَرْسَلًا.

فقال: قولوا: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك^(٢) على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»، أخرجه البخاري ومسلم^(٣). ومعنى قوله «قد علمنا التسليم عليك»: ما يقال في التشهد: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته». وذهب ابن السائب إلى أن معنى التسليم: سلّموا لِمَا يأمركم به.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: في الذين طعنوا على رسول الله ﷺ حين اتخذ صفية بنت حيي، قاله ابن عباس^(٤). والثاني: نزلت في المصوريين، قاله عكرمة^(٥). والثالث: في المشركين واليهود والنصارى، وصفوا الله بالولد وكذبوا رسوله وشجّوا وجهه وكسروا ربابيته وقالوا: مجنون شاعر ساحر كذاب^(٦). ومعنى أذى الله: وصفه بما هو مثزه عنه، وعصيان^(٧)؛ ولعنهم في الدنيا: بالقتل والجلاء، وفي الآخرة: بالنار.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن عمر بن الخطاب رأى جارية متبرجة فضربها وكف ما رأى من زينتها، فذهبت إلى أهلها تشكو، فخرجوا إليه فأذوه، فنزلت هذه الآية، رواه عطاء عن ابن عباس^(٨). والثاني: أنها نزلت في الرثاة الذين كانوا يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن، فيرون المرأة فيدنون منها فيغمزونها؛ وإنما كانوا يؤذون الإمام، غير أنه لم تكن الأمة تُعرف من الحرة، فشكون ذلك إلى أزواجهن، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، قاله السدي^(٩). والثالث: أنها نزلت فيمن تكلم في عائشة وصفوان بن المعطل بالأنك، قاله الضحاك^(١٠). والرابع: أن ناساً من المنافقين أدوا علي بن أبي طالب، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل^(١١). قال المفسرون: ومعنى الآية: يرمونهم بما ليس فيهم.

(١) ما بين المعقنين زيادة من «البخاري» ومسلم من حديث كعب بن عجرة.

(٢) في حديث كعب بن عجرة في البخاري ومسلم: «اللهم بارك».

(٣) البخاري ٤١٠/٨ ومسلم ٣٠٥/١، ولهذا الحديث صيغ أخرى بألفاظ مختلفة تراجع في محلها من كتب الحديث، انظر «فتح الباري» ١٢٨/١١ - ١٤٧. قال ابن كثير: والمقصود من هذه الآية - ﴿إِنَّ اللَّهَ وَلَهُ يَكْفُرُ عَلَى النَّبِيِّ يَكْفُرُ الْكُفْرُ كَمَا كَفَرُوا بِرَسُولِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ - أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملا الأعلى بأنه يشي عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، قال: ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً. اهـ. وقال ابن كثير أيضاً: ذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجب على المصلي أن يصلي على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير، فإن تركه لم تصح صلاته، ثم قال: وقد روينا وجوب ذلك والأمر بالصلاة كما هو ظاهر الآية ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة، منهم: ابن مسعود، وأبو مسعود البصري، وجابر بن عبد الله، ومن التابعين: الشعبي، وأبو جعفر الباقر، ومقاتل بن حيان، قال: وإليه ذهب الشافعي، لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضاً، قال: وإليه ذهب الإمام أحمد أخيراً فيما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقي، وبه قال إسحاق بن راهويه، والفقهاء الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن المؤاز المالكي رحمهم الله، ثم قال: وللقول بوجوبه ظواهر الحديث والله أعلم. قال: وما يؤيد ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن خزيمة وابن حبان في «صحيحيهما» عن فضالة بن عبيد الله قال: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته، لم يمجّد الله، ولم يصل على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «جعل هذا ثم دعاه فقال له أو لغيره: إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد الله ﷻ والثناء عليه، ثم ليصل على النبي، ثم ليدع بما شاء». اهـ.

(٤) رواه الطبري: ٤٥/٢٢ من راية عطية العوفي عن ابن عباس، وذكره السيوطي في «الدرر»: ٢٢٠/٥، وزاد نسبة لابن أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ.

(٥) ذكره البغوي عن عكرمة بدون سند، وقال ابن كثير: قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نزلت في المصوريين. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: الذين يؤذون الله ورسوله هم أصحاب التصاوير.

(٦) ذكره المعنى البغوي والخازن عن ابن عباس بدون سند، وذكره السيوطي في «الدرر»: ٢٢٠/٥ من رواية ابن المنذر عن ابن جريج قال: أدوا الله فيما يدعون معه، وأقروا رسول الله ﷺ قالوا: إنه ساحر مجنون. قال ابن كثير: والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء، ومن آذاه فقد آذى الله، كما أن من أطاعه فقد أطاع الله. اهـ.

(٧) ومن إيلاءه الله تعالى، ما جاء في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله ﷻ: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر ألطب ليله ونهاره» ومعنى هذا أن الجاهلية كانوا يقولون: يا خيبة الدهر فعل بنا كذا وكذا، فيستدعون أعمال الله تعالى إلى الدهر ويسبونه، وإنما الناقص لذلك هو الله ﷻ.

(٨) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢٠٧، ٢٠٨ عن عطاء عن ابن عباس بدون سند.

(٩) الواحدي في «أسباب النزول» ٢٠٨ عن الضحاك والسدي والكلبي بدون سند.

(١٠) ذكره السيوطي في «الدرر»: ٢٢٠/٥ من رواية ابن جرير عن ابن عباس قال: أنزلت في عبد الله بن أبي وناس معه فأنفوا عائشة ﷺ.

(١١) الواحدي في «أسباب النزول» ٢٠٨ عن مقاتل بدون سند، وكذلك البغوي.

﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ قُلْ لَأَزِيدَنَّكَ وِسَالَةً وَسَيَاكُ وَتُؤَيِّنُ يَدَيْكَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلِيْبِيهِنَّ ذَلِكَ أَذَقَهُ أَنْ يُمْرَقَ فَلَا يُؤْذِنُ وَكَانَ اللَّهُ عَزُورًا رَحِيمًا ٥٩﴾ ﴿لَنْ تَرَى بِئْسَ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُفَرِّقَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ٦٠﴾ ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا نَتَبَيَّلًا ٦١﴾ ﴿سُئِنَ اللَّهُ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ قُلْ لَأَزِيدَنَّكَ...﴾ الآية، سبب نزولها أن الفُسَّاق كانوا يؤذون النساء إذا خرجن بالليل، فإذا رآوا المرأة عليها فتاح تركوها وقالوا: هذه حُرَّة، وإذا رآوها بغير فتاح قالوا: أمة، فأذوها، فنزلت هذه الآية، قاله السدي^(١).
قوله تعالى: ﴿يُؤَيِّنُ يَدَيْكَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلِيْبِيهِنَّ﴾^(٢) قال ابن قتبية: يَلْبَسُنَ الأزدية. وقال غيره: يَغْطِيْنَ رؤوسهن وجوههن ليعلم أنهن حرائر. أي: أخرى وأقرب ﴿أَنْ يُمْرَقَ﴾ أنهن حرائر ﴿فَلَا يُؤْذِنُ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَنْ تَرَى بِئْسَ الْمُنْفِقُونَ﴾ أي: عن نفاقهم ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: فجور، وهم الزناة ﴿وَالْمُرْجُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ بالكذب والباطل، يقولون: أتاكم العدو، وقتلت سراياكم وهزمت ﴿لَنُفَرِّقَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: لنُسَلِّطَنَّك عليهم بأن نأمرك بقتالهم. قال المفسرون: وقد أغري بهم، فقيل له: ﴿جَهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُنْفِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩]، وقال يوم الجمعة «اخرج يا فلان من المسجد فإنك منافق، قم يا فلان فإنك منافق»^(٣) ﴿ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا﴾ أي: في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ حتى يهلكوا، ﴿مَلْعُونِينَ﴾ منصوب على الحال؛ أي: لا يجاورونك إلا وهم ملعونون ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ أي: وُجِدوا وأدركوا ﴿أُخِذُوا وَقُتِلُوا نَتَبَيَّلًا﴾ معنى الكلام: الأمر، أي: هذا الحكم فيهم، ﴿سُئِنَ اللَّهُ﴾ أي: سن في الذين ينافقون الأنبياء وُرجفون بهم أن يفعل بهم هذا.

﴿يَسْتَأْذِنُ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عَلِمْتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدِيرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ٦٣﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَنَّ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ٦٤﴾ ﴿خَالِبِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَخْرُجُونَ فِيهَا وَلَا يَمُوتُونَ ٦٥﴾ ﴿يَوْمَ تَقُصُّ عَنْهُمْ فِي الْعَارِ يَقُولُونَ تِلْكَائِنا أَلْعَنَّا اللَّهُ وَأَلْعَنَّا الرَّسُولَ ٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَ ٦٧ رَبَّنَا ءَاتِنَهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَنَابِ وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَبِيرًا ٦٨﴾
قوله تعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ قال عروة: الذي سأله عنها عتبة بن ربيعة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدِيرُكَ﴾ أي: أي شيء يُعْلِمُكَ أمر الساعة ومتى تكون؟ والمعنى: أنت لا تعرف ذلك؛ ثم قال: ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾. فإن قيل: هلا قال: قريبة؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه أراد الظرف، ولو أراد صفة الساعة بعينها، لقال: قريبة، هذا قول أبي عبيدة. والثاني: أن المعنى راجع إلى البعث، أو إلى مجيء الساعة. والثالث: أن تأنيث الساعة غير حقيقي، ذكرهما الزجاج. وما بعد هذا قد سبق بيان ألفاظه [البقرة: ١٥٩، النساء: ١٠، الإسراء: ٤٧]. فاما قوله: ﴿وَأَلْعَنَّا الرَّسُولَ﴾ فقال الزجاج: الاختيار الوقف بالف، لأن أواخر الآي وفواصلها تجري مجرى أواخر الآيات، وإنما خطبوا بما يعقلونه من الكلام المؤلف ليدل بالوقف بزيادة الحرف أن الكلام قد تم؛ وقد أشرنا إلى هذا في قوله: ﴿الطَّلُوتَا﴾ [الأحزاب: ٢١].

قوله تعالى: ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ أي: أشرافنا وعظماءنا. قال مقاتل: هم المظلمون في غزوة بدر. وكلهم قرأوا: «سادتنا» على التوحيد، غير ابن عامر، فإنه قرأ: «سادتنا» على الجمع مع كسر التاء، ووافقه المفضل، ويعقوب، إلا أبا حاتم ﴿فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَ﴾ أي: عن سبيل الهدى، ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَهُمْ﴾ يعنون السادة ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي: ضعفي عذابنا، ﴿وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَبِيرًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «كثيراً» بالثاء. وقرأ عاصم، وابن عامر: «كبيراً» بالباء. وقال أبو علي: الكثرة أشبه بالمرار المتكررة من الكبير.

(١) ذكره السيوطي في «الدرر» ٢٢٢/٥ من رواية ابن أبي حاتم عن السدي. وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢٠٨ عن السدي بدون سند.

(٢) قال ابن كثير: يقول تعالى أمراً رسول الله ﷺ، أن يأمر النساء المؤمنات - خاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يلبس عليهن من جلابيهن، ليميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماماء، قال: والجلباب: هو الرداء فوق الخمار، قاله ابن مسعود، وعبيدة، وقتادة، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، وعطاء الخراساني، وغير واحد، وهو بمنزلة الإزار اليرم، وقال: قال الجوهري: الجلباب: الملحفة.

(٣) هو جزء من حديث طويل رواه الطبري ١٠/١١، وابن أبي حاتم، والطبراني في «الأوسط» عن ابن عباس، وفي سننه الحسين بن عمرو العتقزي، وهو ضعيف.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجْهًا ۖ ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۖ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ﴾ أي: لا تؤذوا محمداً كما آذى بنو إسرائيل موسى فينزل بكم ما نزل بهم. وفي ما آذوا به موسى أربعة أقوال: أحدها: أنهم قالوا: هو أكرم، فذهب يوماً يغتسل، ووضع ثوبه على حجر، فمر الحجر بشوبه، فخرج في طلبه، فأروه فقالوا: والله ما به من بأس. والحديث مشهور في الصحاح كلها من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «وقد ذكرته بإسناده في «المعاني» و«المعاني»^(١). قال ابن قتيبة: والأدرك: عظيم الخصميتين. والثاني: أن موسى صعيد الجبل. ومعه هارون، فمات هارون، فقال بنو إسرائيل: أنت قتلت، فأذوه بذلك، فأمر الله تعالى الملائكة فحملته حتى مرت به على بني إسرائيل، وتكلمت الملائكة بموته حتى عرف بنو إسرائيل أنه مات، فبرأه الله من ذلك، قاله علي بن أبي حمزة^(٢). والثالث: أن هارون استأجر بغياً^(٣) لتقذير موسى بنفسها على ملأ من بني إسرائيل فعصمها الله ويزراً موسى من ذلك، قاله أبو العالية^(٤). والرابع: أنهم رموه بالسحر والجنون، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجْهًا﴾ قال ابن عباس: كان عند الله حظاً لا يسأله شيئاً إلا أعطاه. وقد بينا معنى الوجه في (آل عمران: ٤٥)^(٥). وقرأ ابن مسعود والأعمش، وأبو حنيفة: «وَكَانَ عِندَ اللَّهِ» بالتونين والياء، وكسر اللام.

قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: صواباً، قاله ابن عباس. والثاني: صادقاً، قاله الحسن. والثالث: عدلاً، قاله السدي. والرابع: تمسداً، قاله ابن قتيبة. ثم في المراد بهذا القول ثلاثة أقوال: أحدها: أنه «لا إله إلا الله»، قاله ابن عباس، وعكرمة. والثاني: أنه «العدل في جميع الأقوال والأعمال»، قاله قتادة. والثالث: في شأن زينب وزيد، ولا تنسوا رسول الله ﷺ إلى ما لا يصلح، قاله مقاتل بن حيان.

قوله تعالى: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ فيه قولان. أحدهما: يتقبل حسناتكم، قاله ابن عباس. والثاني: يزكي أعمالكم، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: تال الخير وظفر به.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۖ ﴿٧٢﴾ يُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ ﴿٧٣﴾﴾

(١) روى البخاري في «صحيحه» ٣١٢/٦ عن أبي هريرة ﷺ: قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حياً، شبراً، لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فأنله من كلفه من بني إسرائيل فقال: ما يستر هذا السر إلا من حجب بجلده، إما برص، وإما أفة، وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلع يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أتبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بشوبه، فأخذ موسى عصاه، وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه حريفاً أحسن ما خلق الله، وأبراه مما يقولون، وقام حجر فأخذ بثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بمصاه، فوالله إن بالحجر لندياً من أثر ضربه ثلاثاً، أو أربعاً أو خمساً، فذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجْهًا ۖ ﴿٦٩﴾﴾. قال ابن كثير عن هذا الحديث بعدما ذكره في «تفسيره»: وهذا سياق حسن مطول، قال: وهذا الحديث من أفراد البخاري دون مسلم. اهـ. والحديث أورد السيوطي في «الدرة» ٢٢٣/٥، وزاد نسبه لعبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حنيد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طرق عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) «الطبري» ٥٢٢/٢٢، قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٤١١/٨: وروى أحمد بن منيع في «مسنده» والطبري، وابن أبي حاتم، بإسناد قوي عن علي بن عيسى... فذكره، وأورد السيوطي في «الدرة» ٢٢٣/٥، وزاد نسبه لابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن علي بن عيسى. قال ابن كثير: وجائز أن يكون هذا هو المراد بالأذى، وجائز أن يكون الأول هو المراد، فلا قول أولى من قول الله ﷻ، قال ابن كثير: قلت: يحتل أن يكون الكل مراداً، وأن يكون معه غيره والله أعلم. اهـ. وقال الحافظ ابن حجر: وما في «الصحيح» أصح من هذا، لكن لا مانع أن يكون للشيء سببان فأكثر كما تقدم تقريره غير مرة. اهـ.

(٣) في الأصل: بغية. وفي «اللسان» و«التاج» مادة «بغى»: ولا يقال للمرأة: بغية.

(٤) روى السيوطي في «الدرة» ١٣٦/٥ من رواية ابن أبي شيبة في «المصنف»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس ﷺ مطولاً. والقصة نقلت بنحوها في الصفحة (١٧٣).

(٥) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجْهًا﴾ أي: له وجاعة وجاءه عند ربه ﷻ، قال: قال الحسن البصري: كل من مستجاب الدعوة عند الله، وقالة غيره من السلف: لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، ولكن منع الروية لما يشاء الله ﷻ، قال: وقال بعضهم: من وجاعته العظيمة عند الله، أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه، فأجاب الله سؤاله فقال: ﴿وَرَبُّكَ لَمِنْ رَحِيمٍ ۖ إِنَّهُ مُرْسِلٌ بَيْنَهُمَا﴾. اهـ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها الفرائض، عرضها الله على السموات والأرض والجبال، إن أدت بها، وإن ضيعتها عذبها، فكرهت ذلك؛ وعرضها على آدم فقيلها بما فيها، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس^(١)؛ وكذلك قال سعيد بن جبير: عرضت الأمانة على آدم فقيل له: تأخذها بما فيها، إن أطعت غفرت لك، وإن عصيت عذبك، فقال: قُبلت، فما كان إلا كما بين صلاة العصر إلى أن غربت الشمس حتى أصاب الذئب^(٢). وممن ذهب إلى أنها الفرائض قتادة، والضحاك، والجمهور. والثاني: أنها الأمانة التي يأتين الناس بعضهم بعضاً عليها. روى السدي عن أشياخه أن آدم لما أراد الحج قال للسماء: احفظي ولدي بالأمانة، فأبت، وقال للأرض: فأبت، وقال للجبال: فأبت، فقال لقابيل، فقال: نعم، تذهب وتجيء وتجد أهلك كما يسرك، فلما انطلق آدم قتل قابيل هابيل، فرجع آدم فوجد ابنه قد قتل أخاه، فذلك حيث يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ إلى قوله: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ وهو ابن آدم، فما قام بها^(٣). وحكى ابن قتيبة عن بعض المفسرين أن آدم لما حضرته الوفاة قال: يا رب، من أستخلف من بعدي؟ فقيل له: اعرض خلافتك على جميع الخلق، فعرضها، فكل أباه غير ولد. وللمفسرين في المراد بعرض الأمانة على السموات والأرض قولان: أحدهما: أن الله تعالى ركب العقل في هذه الأعيان، وأفهمهم خطابها، وأنطقهم بالجواب حين عرضها عليهم، ولم يرد بقوله: «أبَيْنَ» المخالفة، ولكن أبين للخشية والمخافة، لأن العرض كان تخييراً لا إلزاماً، و«أشفقن» بمعنى خفن منها أن لا يؤديها فيلحقهن العقاب، هذا قول الأكثرين. والثاني: أن المراد بالآية: إننا عرضنا الأمانة على أهل السموات وأهل الأرض وأهل الجبال من الملائكة، قاله الحسن، وفي المراد بالإنسان أربعة أقوال: أحدها: آدم في قول الجمهور. والثاني: قابيل في قول السدي. والثالث: الكافر والمنافق، قاله الحسن. والرابع: جميع الناس، قاله ثعلب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَانْتَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ظلوماً لنفسه، غرّاً بأمر ربّه، قاله ابن عباس، والضحاك. والثاني: ظلوماً لنفسه، جهولاً بعاقبة أمره، قاله مجاهد. والثالث: ظلوماً بمعصية ربّه، جهولاً بعقاب الأمانة، قاله ابن السائب. وذكر الزجاج في الآية وجهاً يخالف أكثر الأقوال، وذكر أنه موافق للتفسير فقال: إن الله تعالى اتّمن بني آدم على ما افترضه عليهم من طاعته، واتّمن السموات والأرض والجبال على طاعته والخضوع له، فأما السموات والأرض فقالتا: ﴿أَيْنَا ظَالِمِينَ﴾ [فصلت: ٤١١]، وأعلمنا أن من الحجارة ما يهبط من خشية الله، وأن الشمس والقمر والنجوم والجبال والملائكة يسجدون لله، فعرفنا الله تعالى أن السموات والأرض لم تحتمل الأمانة، لأنها أدتها، وأداها: طاعة الله وترك معصيته، وكل من خان الأمانة فقد احتملها، وكذلك كل من أثم فقد احتمل الإثم^(٤)، وكذلك قال الحسن: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ أي: الكافر والمنافق حملاًها، أي: خانا ولم يطيعها؛ فأما من أطاع، فلا يقال: كان ظلوماً جهولاً.

قوله تعالى: ﴿لَعَذَابُ اللَّهِ أَشَدُّ مِنَ النَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَتَوَبَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ قال ابن قتيبة: المعنى: عرضنا ذلك ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذبهم الله، ويظهر إيمان المؤمنين فيتوب الله عليهم، أي: يعود عليهم بالرحمة والمغفرة إن وقع منهم تقصير في الطاعات^(٥).



(١) «الطبري» ٥٤/٢٢، وذكره السيوطي في «الدر» ٢٢٤/٥، وزاد نسبه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأثير في كتاب «الأضداد» عن ابن عباس.

(٢) «الطبري» ٥٤/٢٢ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وذكره السيوطي في «الدر» ٢٢٥/٥، وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأثير في كتاب «الأضداد» والحاكم وصححه، عن ابن عباس.

(٣) روى هذا الخبر مطولاً الطبري ٥٦/٢٢، ٥٧ من رواية السدي في خبر ذكره عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ.

(٤) قال الأوسي عن قول الزجاج هذا: ولا يخفى بطله، ولم نر في المأثور ما يؤيده. اهـ.

(٥) قال الأوسي في تمة الآية: «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» أي: مبالغة في المغفرة والرحمة حيث تاب على المؤمنين والمؤمنات وغفر لهم فرطاتهم، وأثابهم بالفوز العظيم على طاعاتهم، نسال الله تعالى أن يتوب علينا ويغفر لنا ويثيبنا بالفوز العظيم، إنه - جل جلاله وعظم نواله - غفور رحيم. اهـ.

سورة سبا

وهي مكية بإجماعهم

وقال الضحاك، وابن السائب، ومقاتل: فيها آية مدنية، وهي قوله: ﴿وَبَرِّىَ الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْعِلْمَ﴾ [سبا: ٦].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ① ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ ② ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلَى الْغَيْبِ لَا يُغْرِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ③ ﴿لِيَجْزِيََ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَثْلَ مَا لَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْفِذَ رِزْقَ كَرِيمٍ﴾ ④ ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ يَنْزِلُ يُجْزَى أَلِيًّا ⑤ وَبَرِّىَ الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَهُوَ يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُبِينٍ الْحَمِيدِ ⑥﴾

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ يَحْمَدُهُ أُولَآئِهِ إِذَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ، فيقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُوكُمْ﴾ [الزمر: ٧٤] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤] ①. ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ من بذر أو مطر أو كثر أو غير ذلك ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من زرع ونبات وغير ذلك ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من مطر أو رزق أو ملك ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من ملك أو عمل أو دعاء. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني مُكْثِرِي الْبَعْث ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ أي: لَا تُبْعَثُ ②.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ الْغَيْبِ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو: «عَالِمِ الْغَيْبِ» بكسر الميم؛ وقرأ نافع، وابن عامر: برفعها. وقرأ حمزة، والكسائي: «عَلَامِ الْغَيْبِ» بالكسر ولام قبل الألف. قال أبو علي: من كسر، فعلى معنى: الحمد لله عالم الغيب؛ ومن رفع، جاز أن يكون «عَالِمِ الْغَيْبِ» خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو عالم الغيب، ويجوز أن يكون ابتداءً، خبره ﴿لَا يُغْرِبُ عَنْهُ﴾؛ و«عَلَام» أبلغ من «عالم». وقرأ الكسائي وحده: «لَا يُغْرِبُ» بكر الزاي؛ وهما لثتان.

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ وقرأ ابن السميع، والنخعي، والأعمش: «ولا أصغر من ذلك ولا أكبر» بالنصب فيهما.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيََ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال الزجاج: المعنى: بلى ورثي لتأنيثكم المُجَازَاة. وقال ابن جرير: المعنى: أثبت مثقال الذرة وأصغر منه في كتاب مبين، لِيَجْزِيََ الَّذِينَ آمَنُوا، ولِيُرِيَ الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْعِلْمَ.

قوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ يُجْزَى أَلِيًّا﴾ قرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم، ويعقوب، [والمفضل]: «يَنْزِلُ يُجْزَى أَلِيًّا» رفعا؛

(١) قال ابن كثير: يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة، لأنه الممنع المفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، والحاكم في جميع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخُسُوفُ وَالْأَفْجَارُ وَلَهُ السُّكُوتُ وَاللَّيْلُ وَالنَّجْمُ﴾ ①. ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملكه وعبيده وتحت تصرفه وقهره، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ لَا تُلْكَرُ وَلَا أُولَئِكَ﴾ ②. ثم قال ③: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ فهو المعبود أبداً، المحمود على طول المدى، قال: وقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْحَكِيمُ﴾ أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ﴿الْخَبِيرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ولا ينبغي عنه شيء. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لها من أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد، قال: فأحدها في سورة يونس ④، وهي قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَفْتِيهِمْ كَيْفَ مَرَّ قَوْلُ إِي وَرَبِّكَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَمَا يُشْعِرُونَ﴾ ⑤. والثانية هي: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ والثالثة في سورة (التغابن) وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَلَيْسَ كَذُوبًا لَنْ يَبُوءَ قَوْلَ بَلَى وَرَبِّي لَأَتِيَنَّكُمْ بِمَا وَعَدْتُمْ وَكَذَلِكَ عَلَى كُلِّ بَصِيرَةٍ ⑥﴾. فقال تعالى: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَأَتِيَنَّكُمْ﴾. اهـ.

والباقون بالخفض فيهما^(١). وفي ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ قولان: أحدهما: أنهم مؤمنوا أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأصحابه، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أصحاب محمد ﷺ، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا إِلَيْكَ مِنَ الرِّبَا﴾ يعني القرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ قال الفراء: «هو» عماد، فلذلك انتصب الحق. وما أخللنا به فقد سبق في مواضع [الحج: ٥١، ٥٢، البقرة: ١٣٠، ٢٢٧].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نُنَبِّئُكَ عَلَىٰ هَٰذَا مُبْتَلًىٰ كَبِيرٌ﴾ إذا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَعِندَ اللَّهِ بِئْسَ الْفِتْنَةُ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالْعَذَابِ الْبَعِيدِ ﴿١﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا أَنَّ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ يَرَكُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ إِن شَاءَ غَفِيفٌ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ شَقِيطٌ عَلَيْهِمْ كَيْفَا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم مُنْكَرُو البعث، قال بعضهم لبعض: «هَلْ نُنَبِّئُكَ عَلَىٰ هَٰذَا مُبْتَلًىٰ كَبِيرٌ﴾ أي: يقول لكم: إِنَّكُمْ ﴿إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ﴾ أي: فُرِّقْتُمْ كل تفریق، والممرِّق هاهنا مصدر بمعنى التمزيق ﴿إِنَّكُمْ لَعِندَ اللَّهِ بِئْسَ الْفِتْنَةُ﴾ أي: يَجِدُّ خَلْفَكُمْ للبعث. ثم أجاب بعضهم فقالوا: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ حين زعم أنا بُعِثُ؟ أالف «أفترى» ألف استفهام، وهو استفهام تعجب وإنكار، «أَمْ بِهِ جِنَّةٌ» أي: جنون؟ فردَّ الله عليهم فقال: ﴿بَلِ﴾ أي: ليس الأمر كما تقولون من الاتراء والجنون، بل ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وهم الذين يجحدون البعث ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ إذا بُعِثُوا فِي الْآخِرَةِ ﴿وَالْعَذَابُ الْبَعِيدُ﴾ من الحق في الدنيا^(٢). ثم وعظهم فقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا أَنَّ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ يَرَكُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ﴾ وذلك أن الإنسان حيثما نظر رأى السماء والأرض قُدَّامَهُ وخلفه وعن يمينه وعن شماله؛ فالمعنى أنهم أين كانوا فارضي وسمائي محيطه بهم؛ وأنا القادر عليهم، إن شئتُ خَسَفْتُ بهم الأرض، وإن شئتُ أَسْقَطْتُ عليهم قطعة من السماء، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما يَرَوْنَ من السماء والأرض ﴿لَآيَةً﴾ تدلُّ على قدرة الله تعالى على بعثهم والخسف بهم ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: راجع إلى طاعة الله، متأملٍ لِمَا يرى.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالِ أَوِىَ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَنَّا لَهُ الْخَلِيدُ﴾ ﴿٣﴾ أِنْ أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ فَذَرِّ فِي التَّوْبَةِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ وهو الثبوة والزبور وتسخير الجبال والطير، إلى غير ذلك مما أنعم الله به عليه^(٣) ﴿يَاجِبَالِ أَوِىَ مَعَهُ﴾ وروى الحلبي عن عبد الوارث: «أُوْبِي» بضم الهمزة وتخفيف الواو. قال الزجاج: المعنى: وقلنا: يا جبال أُوْبِي معه، أي: رَجَّعِي معه. والمعنى: سَبَّحِي معه وَرَجَّعِي التسبيح. ومن قرأ: «أُوْبِي»، معناه: عودي في التسبيح معه كلما عاد. وقال ابن قتيبة: «أُوْبِي» أي: سَبَّحِي، وأصل التأويب في السير، وهو أن يسير النهار كله، ويتزل ليلًا، فكانه أراد: ادأبي النهار [كله] بالتسبيح إلى الليل.

قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ﴾ وقرأ أبو رزين، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو العالية، وابن أبي عبله: «وَالطَّيْرُ» بالرفع. فأما قراءة النصب، فقال أبو عمرو بن العلاء: هو عطف على قوله: «ولقد آتينا داود مِنَّا فَضْلًا» «وَالطَّيْرُ» أي: وسَخَّرْنَا له الطَّيْرَ. قال الزجاج: ويجوز أن يكون نصبا على النداء، كأنه قال: دَعَوْنَا الْجِبَالَ وَالطَّيْرَ، فالطير معطوف على موضع الجبال، وكل منادى عند البصريين فهو في موضع نصب؛ قال: وأما الرفع، فمن جهتين، إحداهما: أن يكون نسقًا على ما في «أُوْبِي»، فالمعنى: يا جبال رَجَّعِي التسبيح معه أنتِ والطير؛ والثانية^(٤): على النداء، المعنى: يا جبال ويا أيُّها

(١) أي هنا وفي سورة [الجاثية: ١١]، قال في [تحاف فضلاء البشر] ٢١٩: واختلف في «من رجز اليم» هنا [والجاثية]، فابن كثير، وحفص، ويعقوب: برغ اليم فيها نعتًا لـ «عذاب»، واقفهم ابن محيصن، والباقون: بخفضه فيها نعتًا لـ «رجز» وهو العذاب السيئ. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: ليس الأمر كما زعموا، ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البارُّ الراشد الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء ﴿فِي النَّبِيِّ﴾ أي: الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله تعالى ﴿وَالْعَذَابُ الْبَعِيدُ﴾ من الحق في الدنيا. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام مما أتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن والجنود ذوي القُدَّة والقُدَّة، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم الذي كان إذا سبَّح به تسبَّح معه الجبال الراسيات الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات، قال: وفي [الصحيح] أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري عليه السلام يقرأ من الليل، فاستمع لقراءته، ثم قال ﷺ: «لَقَدْ أَوْتِيَ هَٰذَا مَزْمَرًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ». اهـ.

(٤) في الأصل: والثاني.

الطير أُوَي [معه]. قال ابن عباس: كانت الطير تسبح معه إذا سبَح، وكان إذا قرأ لم تبق دابة إلا استمعت لقراءته وبكت لبكائه. وقال وهب بن منبه: كان يقول للجبال: سُبَّحي، وللطير أُجيبِي، ثم يأخذ هو في تلاوة الزبور بين ذلك بصوته الحسن، فلا يرى الناس منظرًا أحسن من ذلك، ولا يسمعون شيئًا أُطِيب منه.

قوله تعالى: ﴿وَأَلَّا لَهُ الْفَوْزُ﴾ أي: جعلناه لئنا. قال قتادة: سَحَّر الله له الحديد بغير نار، فكان يسويه بيده، لا يدخله النار، ولا يضره بحديدة، وكان أول من صنع الدروع، وكانت قبل ذلك صفائح.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَحْمَلَ﴾ قال الزجاج: معناه: وقتلنا له: اغمَل، ويكون في معنى «لأن يعمل» ﴿سَيَعْنِي﴾ أي: دروعًا سابغات، فذكر الصفة لأنها تدل على الموصوف. قال المفسرون: كان يأخذ الحديد بيده فيصير كأنه عجيب يعمل به ما يشاء، فيعمل الدرع في بعض يوم فيبيعه بمال كثير، فيأكل ويتصدق. والسابغات: الدروع الكوامل التي تغطي لابسها حتى تفضل عنه فيجرها على الأرض. ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: اجعله على قدر الحاجة. قال ابن قتيبة: السرد: النسيج، ومنه يقال لصانع الدروع: سَرَّدَ وَزَرَّدَ، تبدل من السنين الزاي، كما يقال: سَرَّاطٌ^(١) وَزَرَّاطٌ. وقال الزجاج: السرد في اللغة: تقدمة الشيء إلى الشيء تأتي به متسقا بعضه في إثر بعض متتابعًا. ومنه قولهم: سَرَّدَ فلان الحديث. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: عدل المسمار في الحلقة ولا تصغره فيقلق، ولا تعظمه فتفتصم الحلقة، قاله مجاهد. والثاني: لا تجعل حلقة واسعة فلا تقى صاحبها، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْمَلُوا صَلَاحًا﴾ خطاب لداود وآله.

﴿وَلْيَسْتَكُنَّ الرِّيحُ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الطَّيْرِ وَمَنْ أَلَيْنَ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَبْغِ يَنْتَهُمْ عَنْ آمْرِئَا نَفْسُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ٧﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْدُودٍ وَنَمْشِيلٍ وَهَكَذَا كَلِّبُوا وَتَقْدِيرُ رَأْسِيئِثٍ أَعْمَلُوا مَالِ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَدَّرَ لَنَا مِنْ يَدَيْهِ الشُّكْرَ ٨﴾ فَلَمَّا فَصَّيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِثَّةُ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَكُنَّ الرِّيحُ﴾ قرأ الأكثرون بنصب الرِّيح على معنى: وسَحَّرنا لسليمان الرِّيح. وروى أبو بكر، والمفضل عن عاصم: «الرِّيحُ» رفعًا، أي: له تسخير الرِّيح. وقرأ أبو جعفر: «الرِّيحُ» على الجمع. «غَدُوها شَهْرٌ» قال قتادة: تغدو مسيرة شهر إلى نصف النهار، وتروح مسيرة شهر إلى آخر النهار، فهي تسير في اليوم الواحد مسيرة شهرين. قال الحسن: لما شغلت نبي الله سليمان الخيل عن الصلاة ففقرها^(٢)، أبدله الله خيرًا منها وأسرع وهي الرِّيح، فكان يغدو من دمشق فيقبل باضطخُر وبينهما مسيرة شهر للمسرع، ثم يروح من اضطخُر فيبيت بكابل، وبينهما مسيرة شهر للمسرع.

قوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الطَّيْرِ﴾ قال الزجاج: القِطْر: النُّجاس، وهو الصُّفْر، أذيب مَذْذَكَ وكان قبل سليمان لا يذوب. قال المفسرون: أجرى الله لسليمان عين الصُّفْر حتى صنع منها ما أراد من غير نار، كما أَلَيْنَ لداود الحديد بغير نار، فبقيت تجري ثلاثة أيام ولياليهن كجري الماء؛ وإنما يعمل الناس اليوم مما أعطي سليمان.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَلَيْنَ﴾ المعنى: وسَحَّرنا له من الجن ﴿مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: بأمره؛ سَحَّرهم الله له، وأمرهم بطاعته؛ والكلام يدل على أن منهم من لم يسحَّر له ﴿وَمَنْ يَبْغِ يَنْتَهُمْ﴾ أي: يغول ﴿عَنْ آمْرِئَا﴾ له بطاعة

(١) في الأصل: صراط، وما أثبتناه من «غريب القرآن» ٣٥٤، والبحر ٧/ ٢٥٥، واللسان: زوط.

(٢) قال ابن كثير: لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود، عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام من تسخير الرِّيح له تحمل بساطه، غَدُوها شهر ورواحها شهر. اهـ.

(٣) قال ابن جرير الطبري في سورة [ص: ٢٣] عند قوله تعالى: ﴿فَلَقَدْ مَسَّكَ بِالْشَّرْقِ وَالْأَمْسِ﴾: واختلف أهل التأويل في معنى مسح سليمان بسوق هذه الخيل الجياد وأعتاقها، فقال بعضهم: معنى ذلك: أنه عقرها وضرب أعتاقها، وقال آخرون: جعل يمسح أعرافها وعراقيبها بيده حيًّا لها، ونقل ذلك عن ابن عباس، ثم قال: وهذا القول الذي ذكرناه عن ابن عباس أشبه بتأويل الآية، لأن نبي الله ﷺ (يريد سليمان) لم يكن إن شاء الله ليعذب حيوانًا بالعربية، ويهلك مالا من ماله بغير سبب سوى أن اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها. اهـ. وسيأتي ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى من سورة (ص).

سليمان ﴿ثُلُثَهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾: وهل هذا في الدنيا، أم في الآخرة؟ فيه قولان: أحدهما: في الآخرة، قاله الضحاك. والثاني: في الدنيا، قاله مقاتل. وقيل: إنه كان مع سليمان مَلَكٌ بيده سوط من نار، فمن زاع من الجن ضربه الملك بذلك السوط. ﴿يَعْمَلُونَ لَكَ مَا يُغْنِيكَ مِنْ مَخْرِبٍ﴾ وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها المساجد، قاله مجاهد، وابن قتيبة. والثاني: القصور، قاله عطية. والثالث: المساجد والقصور، قاله قتادة. وأما التماثيل، فهي الصُور؛ قال الحسن: ولم تكن يومئذ محرمة^(١)؛ ثم فيها قولان: أحدهما: أنها كانت كالطَّوْأيس والعُقْبَان والنُّسور على كرميه ودرجات سريره لكي يهابها من أراد الذُّنُوء منه، قاله الضحاك. والثاني: أنها كانت صُورُ النَّبِيِّينَ والملائكة لكي يراهم الناس مصُورين، فيعبُدوا مثل عبادتهم ويتشبهوا بهم، قاله ابن السائب. وفي ما كانوا يعملونها منه قولان: أحدهما: من النُّحاس، قاله مجاهد. والثاني: من الرُّخام والشَّبه^(٢)، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ كَأَلْبُرَاقٍ﴾ الجفان: جمع جفنة، وهي القصعة الكبيرة؛ والجوابي: جمع جابية، وهي الحوض الكبير يُجَبَى فيه الماء، أي: يُجمع. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «كالجوابي» بياء، إلا أن ابن كثير يثبت الياء في الوصل والوقف، وأبو عمرو يثبتها في الوصل دون الوقف. قال الزجاج: وأكثر القراء على الوقف بغير ياء، وكان الأصل الوقف بالياء، إلا أن الكسرة تنوب عنها. قال المفسرون: كانوا يصنعون [له] القِصَاع كحياض الإبل، يجتمع على القصعة الواحدة ألف رجل يأكلون منها.

قوله تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ أي: ثوابت؛ يقال: رسا يرسو: إذا ثبت. وفي علّة ثبوتها في مكانها قولان: أحدهما: أن أثافيها منها^(٣)، قاله ابن عباس. والثاني: أنها لا تُنْزَلُ لِِعِظْمِهَا، قاله ابن قتيبة. قال المفسرون: وكانت القُدُور كالجبال لا تحرك من أماكنها، يأكل من القُدُر ألف رجل.

قوله تعالى: ﴿أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ المعنى: وقلنا: اعملوا بطاعة الله شكراً له على ما آتاكم^(٤).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَّيْنَا عَلَيْهِ الْأَمْرَ﴾ يعني على سليمان. قال المفسرون: كانت الإنس تقول: إن الجن تعلم الغيب الذي يكون في غد، فوقف سليمان في محرابه يصلي متوكئاً على عصاه، فمات، فمكث كذلك حولاً والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة ولا تعلم بموته حتى أكلت الأرض^(٥) عصا سليمان، فخرّ فعلموا بموته، وعلم الإنس أن الجن لا تعلم الغيب^(٦). وقيل: إن سليمان سأل الله تعالى أن يعمي على الجن موته، فأخفاه الله عنهم حولاً. وفي سبب سؤاله قولان: أحدهما: لأن الجن كانوا يقولون للإنس: إِنَّا نَعْلَمُ الْغَيْبَ، فأراد تكذيبهم. والثاني: لأنه كان قد بقي من عمارة بيت المقدس بقية. فأما «دَابَّةُ الْأَرْضِ» فهي: الأَرَضَةُ. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وعاصم الجحدري: «دَابَّةُ الْأَرْضِ» بفتح الراء. المِنْسَاء: العصا. قال الزجاج: وإنما سُمِّيت مِْنْسَاءً، لأنه يُنْسَأُ بها، أي: يُطْرَدُ ويُزَجَر. قال الفراء: أهل الحجاز لا يهزمون المِنْسَاء، وتميم وفصحاء قيس يهزمونها.

(١) قال الآكوسي: وإنما هي في شرعنا حرام، ولا فرق عندنا بين أن تكون الصورة ذات ظل، وأن لا تكون كذلك. اهـ.

(٢) الشَّبه والشَّبه: ضرب من النحاس يلقى عليه دواء يصفى، يسمي به، لأنه إذا فعل به ذلك أشبه الذهب بلونه.

(٣) الأثافي: الحجارة التي تُصَب وتُجَمَل القُدُر عليها.

(٤) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ يقول تعالى ذكره: اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكراً له على ما أنعم عليكم من النعم التي خصكم بها عن سائر خلقه، مع الشكر له على سائر نعمه التي عَمَّكم بها مع سائر خلقه. اهـ. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير عمله لله شكر، وأفضل الشكر الحمد. وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال: الشكر: توى الله تعالى والعمل الصالح، قال ابن كثير: وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل، قال: وقد كان آل داود ﷺ كذلك قائمين بشكر الله تعالى قولاً وعملاً.

(٥) الأرض: جمع أَرَضَة، وهي دويبة تأكل الخشب.

(٦) قال ابن كثير: يذكر الله تعالى كيفية موت سليمان ﷺ، وكيف عسى الله موته على الجانِّ المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئاً على عصاه - وهي منسأة كما قال ابن عباس ﷺ، ومجاهد، والحسن، وقاتدة، وغير واحد - مدة طويلة نحواً من سنة، فلما أكلتها دابة الأرض وهي الأَرَضَةُ ضغمت وسقط إلى الأرض وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة، وتبيئت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوَقَّعون ويوهمون الناس ذلك. اهـ.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: سقط ﴿تَبَيَّنَ لِلْإِنْسَانِ﴾ أي: ظهرت، وانكشف للناس أنهم لا يعلمون الغيب، ولو علموا ﴿مَا يَكُونُ فِي الْأَعْدَابِ الْآلِهِينَ﴾ أي: ما عملوا مسخرين وهو ميت وهم يظنونونه حيّاً. وقيل: تبَيَّنَ الجن، أي: عِلِمَتْ، لأنها كانت تَتَوَهَّمُ باستراقها السمع أنها تعلم الغيب، فعلمت حينئذٍ خطأها في ظنّها. وروى رويس عن يعقوب: «تَبَيَّنَتْ» برفع التاء والباء وكسر الباء.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلٌّ مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَمْ بَلَدًا طَيِّبَةً وَرَبِّ غَفُورٍ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْمَرْمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ يَفَوِّسُ مِنْ شِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرُوا وَعَلَىٰ عَجْرٍ إِلَّا الْكَفُورُ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قَرْيَةً ظَهَرَتْ فِيهَا الشَّجَرُ سِمَةً فِيهَا لِيَأْتِيَ الْبَايَنَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَصْفَارِنَا وَطَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَزَفَقْنَاهُمْ كُلَّ مَرْزُقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ حَافِظٌ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾^(١) قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «في مساكينهم». وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: «مسكينهم» بفتح الكاف من غير ألف. وقرأ الكسائي، وخلف: «مسكينهم» بكسر الكاف، وهي لغة. قال المفسرون: المراد بسبأ هاهنا: القبيلة التي هم من أولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان؛ وقد ذكرنا في سورة (النمل: ٢٢) الخلاف في هذا، وأن قوماً يقولون: هو اسم بلدة، وليس باسم رجل^(٢). وذكر الزجاج في هذا المكان أن مَنْ قَرَأ: «لِسَبَأٍ» بالفتح وترك الضم، جعله اسماً للقبيلة، ومن صرف وكسر ونون، جعله اسماً للحي واسماً لرجل؛ وكلٌّ جائزٌ حسن. و«آيَةٌ» رفع، اسم «كان»، و«جَنَّتَانِ» رفع على نوعين: أحدهما: أنه بدل من «آية»، والثاني: على إضمار، كأنه لما قيل: «آية»، قيل: الآية جَنَّتَانِ.

الإشارة إلى قصتهم

ذكر العلماء بالتفسير والسِّير أن بلقيس لما ملكت [قومها] جعل قومها يفتنون على ماء واديههم، فجعلت تنهاهم فلا يطيعونها، فتركت ملكها وانطلقت إلى قصرها فتزله، فلما كثر الشر بينهم وندموا، أتوها فأرادوها على أن ترجع إلى ملكها، فابت: فقالوا: لَنَرْجِعَنَّ أَوْ لَنَكْفُلَنَّكَ، فقالت: إنكم لا تطيعونني وليست لكم عقول، فقالوا: فإننا نطيعك، فجاءت إلى واديههم - وكانوا إذا مطروا أتاه السيل من مسيرة أيام - فأمرت به، فسُدَّ ما بين الجبلين بمُسْنَاة^(٣)، وجبست الماء من وراء السد، وجعلت له أبواباً بعضها فوق بعض، وبنت من دونه بركة وجعلت فيها اثني عشر مخرجاً على عِدَّة أنهارهم، فكان الماء يخرج بينهم بالسوية، إلى أن كان من شأنها مع سليمان ما سبق ذكره (النمل: ٢٩-٤٤)، وبقوا بعدها على حالهم. وقيل: إنما بنوا ذلك البنيان لئلا يغشى السيل أموالهم فيهلكها، فكانوا يفتحون من أبواب السد ما يريدون، فيأخذون من الماء ما يحتاجون إليه، وكانت لهم جَنَّتَانِ عن يمين واديههم وعن شماله، فأخصبت أرضهم، وكثرت فواكههم، وإن كانت المرأة لتَمُرُّ بين الجنتين واليكنتل على رأسها، فترجع وقد امتلأ من الثمر ولا تَمَسُّ بيدها شيئاً منه، ولم يكن ليرى في بلدهم حيَّة ولا عقرب ولا بعوضة ولا ذباب ولا برغوث، ويمرُّ الغريب ببلدتهم وفي ثيابه القمل، فيموت القمل لطيب هوائها. وقيل لهم: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَمْ بَلَدًا طَيِّبَةً﴾ أي: هذه بلدة طيبة، أو

(١) قال ابن كثير: كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانت التباية منهم، وبلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام من جملتهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم وأتاسع أرزاقهم ووزوجهم وثمارهم، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى، ثم أعرضوا عما أمروا به، فعزبوا بإرسال السيل والفرق في البلاد أيدي سبأ، شذر مذر.

(٢) روى الترمذي في «سننه» ١٥٤/٢ عن فروة بن مسيك المرادي قال: قال رجل يا رسول الله، وما سبأ؟ أرض أو امرأة؟ قال: «ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب... الحديث»، ورواه أحمد والطبري وهو حديث حسن، وقد سبق تخريجه صفحة (١٠٤٤). وأورده السيوطي في

«الدر» ٢٣١/٥ وزاد نسبه لعبد بن حميد، والبخاري في «تاريخه»، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه.

(٣) قال في «المصباح» مادة «سنن»: المُسْنَاة: حائط يُبْنَى في وجه الماء، ويسمى السَّد.

بلدتكم بلدة طيبة، ولم تكن سبخة^(١) ولا فيها ما يؤذي ﴿وَرَبِّيَ غَفُورٌ﴾ أي: والله رب غفور، وكانت ثلاثة عشرة قرية، فبعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً، فكذبوا الرُّسل، ولم يُقِرُّوا بِنعم الله، فذلك قوله: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أي: عن الحق، وكذبوا أنبياءهم^(٢) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ وفيه أربعة أقوال: أحدها: أن العَرِم: الشديد، رواه علي بن أبي طالب عن ابن عباس. وقال ابن الأعرابي: العَرِم: السَّيل الذي لا يُطاق. والثاني: [أنه] اسم الوادي، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والضحاك، ومقاتل، والثالث: أنه المُسْنَاة، قاله مجاهد، وأبو ميسرة، والفراء، وابن قتيبة. وقال أبو عبيدة: العَرِم: جمع عَرِمَة، وهي: السُّكَّر والمُسْنَاة. والرابع: أن العَرِم: الجُرَذ الذي نقب عليهم السُّكَّر، حكاه الزجاج. وفي صفة إرسال هذا السيل عليهم قولان: أحدهما: أن الله تعالى بَعَثَ على سِكْرهم دابةً من الأرض فنقبت فيه نقباً، فسال ذلك الماء إلى موضع غير الموضع الذي كانوا ينتفعون به، رواه العوفي عن ابن عباس. وقال قتادة والضحاك في آخرين: بعث الله عليهم جُرَذاً يسمَّى الخُلْد - والخُلْد: الفأر الأعمى - فنقبه من أسفله، فأغرق الله [به] جَنَاتهم، وخَرَّبَ به أرضهم. والثاني: أنه أرسل عليهم ماءً أحمر، أرسله في السدِّ فنفسه وهدمه وحفر الوادي، ولم يكن الماء أحمر من السد، وإنما كان سيلاً أرسل عليهم، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَيَذَلُّهُمْ بِحَبَّتِهِمْ﴾ يعني اللتين تُطعمان الفواكه. ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْثَلٍ حَمَظٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: ﴿أَكْثَلٍ﴾ بالنون. وقرأ أبو عمرو: ﴿أَكْلٍ﴾ بالإضافة. وخُفَّ الكاف ابن كثير ونافع، وثقلها الباقون. أمَّا الأكل، فهو الثمر. وفي المراء بالخَمْط ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الأراك، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والجمهور؛ فعلى هذا، أَكَلَهُ: ثمره؛ ويسمَّى ثمر الأراك: البربر. والثاني: أنه كل شجرة ذات شوك، قاله أبو عبيدة، والثالث: أنه كل نبت قد أخذ طعاماً من المرارة حتى لا يمكن أكله، قاله المبرد والزجاج. فعلى هذا القول، الخَمْط: اسم للمأكول، فيَحْسُنُ على هذا قراءة من نَوَّن الأكل؛ وعلى ما قبله، هو اسم شجرة، والأكل ثمرها، فيحسن قراءة من أضاف. فأما الأثل، ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الطَّرْفاء^(٣)، قاله ابن عباس. والثاني: أنه السَّمَر^(٤)، حكاه ابن جرير. والثالث: أنه شجر يشبه الطَّرْفاء إلا أنه أعظم منه.

قوله تعالى: ﴿وَوَقَّوْا مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ فيه تقديم، وتقديره: وشيء قليل من سدر، وهو شجر التَّبَق^(٥). والمعنى أنه كان الخَمْط والأثل في جَنَّتَيْهم أكثر من السدر. قال قتادة: بينا شجرهم من خير الشجر، إذ صيره الله من شرِّ الشجر^(٦). قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ﴾ أي: ذلك التبديل جزيناهم ﴿بِمَا كَفَرُوا وَمَكَرَ عَجْرٌ إِلَّا الْكَذَرُ﴾. فإن قيل: قد يجازى المؤمن والكافر، فما معنى هذا التخصيص؟ فعنه جوابان: أحدهما: أن المؤمن يُجْزَى ولا يُجْزَى، فيقال في أفصح اللغة: جزى الله المؤمن، ولا يقال: جازاه، لأن «جازاه» بمعنى كافأه، فالكافر يُجْزَى بسَيِّئِهِ مثلها، مكافأة له، والمؤمن يُزاد في الثواب ويُفَضَّلُ عليه، هذا قول الفراء. والثاني: أن الكافر ليست له حسنة تكفَّر ذنوبه، فهو يُجْزَى

(١) أرض سبخة: أي: ملحة.

(٢) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أي: عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله، كما قال الهدمد لسليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿وَيُشَاكُ مِنْ سَيِّئٍ بِكَرٍّ قَبِيحٍ﴾ إلى وَبَدَتْ أَمْرًا تَلْبِغُهُمْ وَأُوقِيَتْ مِنْ كُلِّ قَوْمٍ وَكَأَنَّ مَرْثَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَدَتْهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلْأَشْيَاءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَكَذَلِكَ لَهُمْ اشْتِكَاؤُكُمْ أَفْئَتَهُمْ فَصَدَّقَهُمْ عَنْ أَنْ يُبَدِّلَ فَعَمَّ لَا يَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾. اهـ.

(٣) قال في «القاموس» الطرفاء: شجر، وهي أربعة أصناف، منها الأثل، الواحدة طرفاءة وطَرْفَة، وقال في «المصباح»: قال سيبويه: الطرفاء واحد وجميع. قال في «اللسان»: قال أبو حنيفة (يعني الدُّيُونُورِي): الطرفاء: من الغضاء، وهُدْبُهُ مثل هُدْب الأثل، وليس له خشب، وإنما يخرج عَصِيّاً سمحة في السماء، وقد تتحمض بها الإبل إذا لم تجد حمضاً غيره.

(٤) قال في «المصباح»: السَّمَر، وزان زَجَل وسَمِعَ: شجر الطلح، وهو نوع من البغضاء، الواحدة سَمْرَة، وبها سُمِّيَ.

(٥) قال في «المصباح»: وإذا أطلق السدر في الغسل، فالمراد: الورق المطحون، والسدر نوعان: أحدهما ينبت في الأرياف فينتفع بورقه في الغسل، وثمرته طيبة، والآخر ينبت في البر ولا ينتفع بورقه في الغسل، وثمرته قَبِيضَة، قال: وقد تقدم في حرف الزاي أن الزُّعْرور ثمرة تنبت في البر، وهي بهذه الصفة، فيجوز أن يكون هو التَّبَق البرِّي. اهـ.

(٦) قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَوَقَّوْا مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ قال: لما كان أجود هذه الأشجار المبدل هو السدر، قال: ﴿وَوَقَّوْا مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ فهذا الذي صار أمر تَبَق الجنتين إليه بعد التمار التضيعة، والمانظر الحسنة، والظلال العميقة، والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والتمر القليل، وذلك بسبب كفرهم بالله وتكذيبهم الحق، وعدولهم عنه إلى الباطل.

بجميع الذنوب، والمؤمن قد أحبطت حسناته سيئاته، هذا قول الزجاج. وقال طاووس: الكافر يُجازى ولا يُعْفَر له، والمؤمن لا يُناقش الحساب^(١).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ هذا معطوف على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسُلَيمَ﴾؛ والمعنى: كان من قصصهم أنا جعلنا بينهم ﴿وَبَيْنَ الْقَرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾^(٢) وهي: قرى الشام؛ وقد سبق بيان معنى البركة فيها [الآيات: ٧١]، هذا قول الجمهور. وحكى ابن السائب أن الله تعالى لما أهلك جثثهم قالوا للرسول: قد عرفنا نعمة الله علينا، فلئن رد إلينا ما كنّا عليه لنُعْبُدَهُ عبادة شديدة، فردّ عليهم النعمة، وجعل لهم قرى ظاهرة، فعادوا إلى الفساد وقالوا: باعد بين أسفارنا، فمُرّقوا.

قوله تعالى: ﴿قُرَى ظَلِيمَةٍ﴾ أي: متواصلة ينظر بعضها إلى بعض ﴿وَوَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ فيه قولان. أحدهما: أنهم كانوا يَغْدُونَ فيقِيلون في قرية، ويَزُوحون فيبيتون في قرية، قاله المحسن، وقناة. والثاني: أنه جعل ما بين القرية والقرية مقداراً واحداً، قاله ابن تقيّة.

قوله تعالى: ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ والمعنى: وقلنا لهم: سيروا فيها ﴿لَيْلًا وَلَيَالًا﴾ أي: ليلاً ونهاراً ﴿مَائِينَ﴾ من مخاوف السفر من جوع أو عطش أو سُبُع أو تعب. وكانوا يسIRON أربعة أشهر في أمان، فبَطَرُوا النعمة وملّوها كما ملّ بنو إسرائيل المَنّ والسَّلوى ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «بَعْدَ» بتشديد العين وكسرهما. وقرأ نافع، وعاصم، وحزمة: «بَاعِدَ» بآلف وكسر العين. وعن ابن عباس كالقراءتين. قال ابن عباس: إنهم قالوا: لو كانت جثثنا أبعد ممّا هي، كان أجدر أن يُسْتَهْنَى جثثنا. قال أبو سليمان الدمشقي: لما ذُكِرَتْهُمْ الرُّسُلُ نِعَمَ الله، أنكروا أن يكون ما هم فيه نعمة، وسألوا الله أن يُبَاعِدَ بَيْنَ أَسْفَارِهِمْ. وقرأ يعقوب: [«رَبَّنَا» برفع الباء] «بَاعِدَ» بفتح العين والدال، جعله فعلاً ماضياً على طريق الإخبار للناس بما أنزله الله ﷻ بهم. وقرأ علي بن أبي طالب، وأبو عبد الرحمن [السلمي]، وأبو رجاء، وابن السميع، وابن أبي عبلّة: «بَعْدَ» برفع العين وتخفيفها وفتح الدال من غير ألف، على طريقة الشكاية إلى الله ﷻ. وقرأ عاصم الجحلي، وأبو عمران الجوني: «بُوعِدَ» برفع الباء ويواو ساكنة مع كسر العين.

قوله تعالى: ﴿وَوَلَّكُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: بالكسر وتكذيب الرُّسُل. والثاني: بقولهم: «بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا». ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لمن بعدهم يتحدثون بما فعل بهم ﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَرْقٍ﴾ أي: فرّقناهم في كل وجه من البلاد كلّ التفريق، لأن الله لما غرّق مكانهم وأذهب جثثهم تبدّدوا في البلاد، فصارت العرب تتمثل في الفُرقة بسبب^(٣) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: فيما فعل بهم ﴿لَايِنَ﴾ أي: لغير^(٤) ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن معاصي الله ﴿شُكْرٍ﴾ لنعمة^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ «عليهم» بمعنى «فيهم»، وصدّقه في ظنه أنّه ظنّ بهم أنّهم يتبعونه إذ أغواهم، فوجدهم كذلك. وإنما قال: ﴿وَلَاؤَلَّيْنَهُمْ وَلَا يَنِينَهُمْ﴾ [النساء: ١١٩] بالظنّ، لا بالعلم، فمن قرأ: «صَدَّقَ» بتشديد الدال، فالمعنى: حقّق ما ظنّه فيهم بما فعل بهم؛ ومن قرأ بالتخفيف، فالمعنى: صدّق عليهم في ظنّه بهم^(٥). وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم أهل سبأ. والثاني: سائر المطيعين لإبليس.

(١) قال السيوطي في «الدرة» ٢٢٣/٥: وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن طاووس «وَقَدْ نَجَّيْهِ إِلَّا الْكَافِرَ» قال: هو المناقشة في الحساب، ومن نوقش الحساب غُذِبَ، وهو الكافر لا يغرّر له.

(٢) قال ابن كثير: يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغلبة والعيش الهنيء الرغيد والبلاد الرخيّة، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزروعها ونعاريها، بحيث أن مسافرتهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمرًا، ويقيل في قرية ويبست في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: أي: جعلناهم حديثاً للناس، وسمرّاً يتحدثون به من خيرهم، وكيف مكر الله بهم وفرّق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء، تفرّقوا في البلاد هاهنا وهاهنا، قال: ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرّقوا: تفرّقوا أيدي سبأ، وأيادي سبأ، وتفرّقوا شذر مذر. اهـ.

(٤) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن في هذا الذي حلّ بهؤلاء من النعمة والعداب وتبدّل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام، لعبارة ودلالة لكل عبّد صَبَّارٍ على المصائب، شكور على النعم. اهـ. وروى مسلم في «صحيحه» ٤/ ٢٢٩٥ عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صَبَّارٌ لَأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

(٥) قال ابن كثير: لما ذكر الله تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتّباعهم الهوى والشيطان، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتّبع إبليس والهوى وخالف =

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ قد شرحناه في قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٩٢]. قال الحسن: والله ما ضربهم بعضاً ولا قهرهم على شيء، إلا أنه دعاهم إلى الأمان والغرور.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي: ما كان تسلطاننا إياه إلا لنعلم المؤمنين من الشاكين. وقرأ الزهري: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ بياء مرفوعة على ما لم يُسم فاعله. وقرأ ابن يعمر: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ بفتح الياء. وفي المراد بعلمه هاهنا ثلاثة أقوال قد شرحناها في أول (العنكبوت). ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الشك والإيمان ﴿حَافِظٌ﴾، وقال ابن قتيبة: والحفيظ بمعنى الحفاظ. قال الخطابي: وهو فيعل بمعنى فاعل، كالقدير، والعليم، فهو يحفظ السموات والأرض بما فيها لبقى مدة بقائها، ويحفظ عباده من المهالك، ويحفظ عليهم أعمالهم، ويعلم نياتهم، ويحفظ أوليائهم عن موقعة الذنوب، ويحرسهم من مكاييد الشيطان.

﴿قُلْ ادْعُوا إِلَهِكُمْ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ يَتَقَالُ دَرَرٌ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَوِيرٍ﴾ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أدرك له حق إنا فرغ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو المثل الكبير ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا إِلَهِكُمْ زَعَمْتُمْ﴾ المعنى: قل للكفار: ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة لنتيموا عليكم بنعمة، أو يكشفوا عنكم بليّة. ثم أخبر عنه فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ يَتَقَالُ دَرَرٌ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: من خير وشر ونفع وضرر ﴿وَمَا لَكُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ﴾ لم يشاركونا في شيء من خلقهما، ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ أي: وما الله ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من الآلهة ﴿مِنْ ظَوِيرٍ﴾ أي من معين على شيء. ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: ﴿أَذِنَ لَهُ﴾ بفتح الالف. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿أَذِنَ لَهُ﴾ برفع الالف. وعن عاصم كالقراءتين. أي: لا تنفع شفاعة ملك ولا نبي حتى يؤذن له في الشفاعة^(١)، وقيل: حتى يؤذن له فيمن يشفع. وفي هذا رد عليهم حين قالوا: إن هذه الآلهة تشفع لنا. ﴿حَقٌّ إِنْ فَرِغَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ قرأ الأكثرون: ﴿فَرِغَ﴾ بضم الفاء وكسر الزاي. قال ابن قتيبة: خُفَّتْ عنها الفزع. وقال الزجاج: معناه: كُثِفَ الفزع عن قلوبهم. وقرأ ابن عامر، ويعقوب، وآبان: ﴿فَرِغَ﴾ بفتح الفاء والزاي، والفعل الله ﷻ. وقرأ الحسن، وقتادة، وابن يعمر: ﴿فرغ﴾ بالراء غير معجمة، وبالفين معجمة، وهو بمعنى الأول، لأنها فرغت من الفزع. وقال غيره: بل فرغت من الشك والشرك. وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم الملائكة. وقد دلّ الكلام على أنهم يفزعون لأمر يطرأ عليهم من أمر الله، ولم يذكره في الآية، لأن إخراج الفزع يدل على حصوله. وفي سبب فزعهم قولان: أحدهما: أنهم يفزعون لسماع كلام الله تعالى. روى عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجرجر السلسلة على الصفا، فيصمقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، فإذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم، فيقولون: يا جبريل: ماذا قال ربك؟ قال: فيقول: الحق، فينادون: الحق الحق^(٢)». وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قضى الله عز وجل الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله^(٣)، كأنه سلسلة على صفوان^(٤)، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم، قالوا: للذي قال الحق^(٥)» ﴿وَهُوَ الْمَوْلَى الْكَبِيرُ﴾^(٦). والثاني: أنهم يفزعون من قيام

الرشاد والهدى، فقال: ﴿وَلَقَدْ سَدَدَ عَلَيْهِمْ عَيْنَهُمْ﴾ قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس حين امتنع من السجود لأدم عليه الصلاة والسلام، ثم قال: «أَنِّي بَيْنَكَ هَذَا الَّذِي كَرِهْتَ عَلَى كَيْفِ لَمَرَّتِي إِنْ يَوَّرَ الْيَكُونَةَ لَأَشْكُرَنَّكَ ذُرِّيَّتِي إِلَّا قَلِيلًا» وقال: ﴿ثُمَّ قَفَّيْتُمْ يَنَّا بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ وَبَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَبَيْنَ أَعْيُنِهِمْ وَبَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَا يُدْرِكُهُمْ شَيْءٌ﴾^(٧)، قال: والآيات في هذا كثيرة. اهـ.

(١) قال ابن كثير: ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ - وهو سيد ولد آدم وأكبر شقيق عند الله تعالى - أنه حين يقوم المقام المحمود يشفع في الخلق كلهم أن يأتيهم بهم لفصل القضاء قال: «فأسجد تعالى ليذمني ما شاء الله أن يذمني، ويفتح علي بمحامد لا أحصيتها الآن، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل سميع، واملأ فمك، واشفع ترفع... الحديث بتمامه.

(٢) رواه أبو داود في مسنده، رقم (٤٧٣٨)، وأورده السيوطي في (الدرة) ٢٣٦/٥، وزاد نسبت لسميد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في (المعجم)، وابن مردويه، والبيهقي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أي: تواضعاً وتواضعاً وانقياداً لحكمه.

(٤) أي: حجر أبيض.

(٥) أي: للذي قال القول الحق، وهو الله سبحانه وتعالى.

(٦) رواه البخاري في (صحيحه) ٤١٤/٨ عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه عنه أيضاً أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وغيرهم.

الساعة. وفي السبب الذي ظنوه بدنؤ الساعة ففزعوا، قولان: أحدهما: أنه لما كانت الفترة التي بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، ثم بعث الله محمداً، أنزل الله جبريل بالوحي، فلما نزل ظنّت الملائكة أنه نزل بشيء من أمر الساعة، فصعقوا لذلك، فجعل جبريل يمرّ بكل سماءٍ ويكشف عنهم الفزع ويخبرهم أنه الوحي، قاله قتادة، ومقاتل، وابن السائب. وقيل: لما علموا بالإحياء إلى محمد ﷺ، فزعوا، ليعلمهم أنّ ظهوره من أشراط الساعة. والثاني: أن الملائكة المعقبات الذين يختلفون إلى أهل الأرض ويكتبون أعمالهم إذا أرسلهم الله تعالى فانحدروا، يُسمع لهم صوتٌ شديد، فيخسب الذين هم أسفل منهم من الملائكة أنه من أمر الساعة، فيخرون سُجداً، ويضعقون حتى يعلموا أنه ليس من أمر الساعة، وهذا كلّما مروا عليهم، رواه الضحاك عن ابن مسعود. والقول الثاني: أن الذي أُشير إليهم المشركون^(١)؛ ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: أن المعنى: حتى إذا كُشف الفزع عن قلوب المشركين عند الموت - إقامة للحجة عليهم - قالت لهم الملائكة: ماذا قال ربكم في الدنيا؟ قالوا: الحق، فأقروا حين لم ينفعهم الإقرار، قاله الحسن، وابن زيد. والثاني: حتى إذا كُشف الغطاء عن قلوبهم يوم القيامة، قيل لهم: ماذا قال ربكم؟ قاله مجاهد.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَلَيْلًا أَوْ يَئَاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿قُلْ لَا تَسْتَوُونَ عَمَّا أَعْزَمْنَا وَلَا تَسْتَوُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا وَالْحَقُّ وَهُوَ الْفَتْحُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَنْعَمْتَ بِهِمْ شُرَكَاءَ كُلًّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ﴾ يعني المطر، ﴿وَالْأَرْضِ﴾ يعني النبات والشمس. وإنما أمر أن يسأل الكفار عن هذا، احتجاجاً عليهم بأن الذي يرزق هو المستحق للعبادة، وهم لا يُثبتون رازقاً سواه، ولهذا قيل له: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ لأنهم لا يُجيبون بغير هذا؛ وهاهنا تم الكلام. ثم أمره أن يقول لهم: ﴿وَلَيْلًا أَوْ يَئَاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ مذهب المفسرين أن «أو» هاهنا بمعنى الواو. وقال أبو عبيدة: معنى الكلام: وإنا لعلّى هدى، وإنكم لفي ضلال مبين^(٢). وقال الفراء: معنى «أو» عند المفسرين معنى الواو، وكذلك هو في المعنى، غير أن العربية على غير ذلك، لا تكون «أو» بمنزلة الواو، ولكنها تكون في الأمر المفوض، كما تقول: إن شئت فخذ درهماً أو اثنين، فله أن يأخذ واحداً أو اثنين، وليس له أن يأخذ ثلاثة، وإنما معنى الآية: وإنا لضالون أو مهتدون، وإنكم أيضاً لضالون أو مهتدون، وهو يعلّم أن رسوله المهتدي، وأن غيره الضال، كما تقول للرجل تكذبه: والله إن أحداً لكاذب - وأنت تعنيه - فكذبته تكذيباً غير مكشوف؛ ويقول الرجل: والله لقد قديم فلان، فيقول له من يعلّم كذبه: قل: إن شاء الله، فيكذبه بأحسن من تصريح التكذيب؛ ومن كلام العرب أن يقولوا: قاتله الله، ثم يستقبحونها، فيقول: قاتعه الله، ويقول بعضهم: كاته الله؛ ويقولون: جوعاً، دعاء على الرجل، ثم يستقبحونها فيقولون: جوداً، وبعضهم يقول: جوساً؛ ومن ذلك قولهم: ويحك وويسك، وإنما هي في معنى «ويلك» إلا أنها دونها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تَسْتَوُونَ عَمَّا أَعْزَمْنَا﴾ أي: لا تواخذون به ﴿وَلَا تَسْتَوُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب؛ والمعنى إظهار التبرّي منهم^(٣). وهذه الآية عند أكثر المفسرين منسوخة بآية السيف، ولا وجه لذلك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا﴾ يعني عند البعث في الآخرة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ أي يقضي ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل ﴿وَهُوَ الْفَتْحُ الْعَلِيمُ﴾ القاضي ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يقضي ﴿قُلْ﴾ للكفار ﴿أَرُونِي الَّذِينَ أَنْعَمْتَ بِهِمْ شُرَكَاءَ﴾ أي: أعلموني من أي

(١) وقد اختار ابن جرير الطبري القول الأول، وهو أن الضمير عائد إلى الملائكة، وهم المشار إليهم، وقال ابن كثير: وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه، لصحة الأحاديث فيه والآثار. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَلَيْلًا أَوْ يَئَاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ هذا من باب اللفظ والنشر، أي: واحد من الفريقين مبطل، والآخر معق، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: أي: لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيد وإفراد العبادة له، فإن أجبت فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبت فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا، كما قال تعالى: ﴿وَأَن كَذَّبْتُمْ فَلَا تَكُونُوا لِلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا شُرَكَاءَ فِي مَا كَذَّبُوا بِهَا فَيَكُونُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا بِهَا شُرَكَاءَ فِيهَا﴾ ﴿وَأَن كَذَّبْتُمْ فَلَا تَكُونُوا لِلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا شُرَكَاءَ فِي مَا كَذَّبُوا بِهَا فَيَكُونُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا بِهَا شُرَكَاءَ فِيهَا﴾ اهـ.

وجه الحقمتهم وهم لا يخلقون ولا يرزقون؛ ﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه؛ والمعنى: ارتدعوا عن هذا القول، وتنبهوا عن ضلالكم، فليس الأمر على ما أنتم عليه^(١).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩﴾ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَعِجُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِرُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: عامَّة لجميع الخلائق. وفي الكلام تقديم، تقديره: وما أرسلناك إِلَّا للناس كافَّة. وقيل: معنى «كافة للناس»: تكفهم عمَّا هم عليه من الكفر، والهاء فيه للمبالغة^(٢). ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ يعنون العذاب الذي يعدُّهم به في يوم القيامة؛ وإنما قالوا هذا، لأنهم يُنكرون البعث، ﴿قُلْ لَّكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه يوم الموت عند النَّزْعِ والسيِّاق، قاله الضحاك. والثاني: يوم القيامة، قاله أبو سليمان الدمشقي.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ رَزَقْنَاهُ إِلَّا الظَّالِمُونَ مَوْفُوتُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِيعُوا لِّلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِّلَّذِينَ اسْتَضِيعُوا أَفَنَرَكُنَّ كَذِبًا عَنِ الْمُتَكِّينَ يَوْمَ إِذْ جَاءَكُم بَلٌّ كُنْتُمْ تُخْرِبُونَ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِيعُوا لِّلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ آلِيلٍ وَالنَّهَارُ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأُوا التَّدَامَةَ لَنَا رَأَوْنَا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني مشركي مكة ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعنون التوراة والإنجيل، وذلك أن مؤمني أهل الكتاب قالوا: إنَّ صفة محمد في كتابنا، فكفر أهل مكة بكتابتهم. ثم أخبر عن حالهم في القيامة فقال: ﴿وَلَوْ رَزَقْنَاهُ إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ يعني مشركي مكة ﴿مَوْفُوتُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ أي: يَرُدُّ بعضهم على بعض في الجدل واللُّوم. ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِيعُوا﴾ وهم الأتباع ﴿لِّلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم الأشراف والقادة: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: مصدِّقين بتوحيد الله؛ والمعنى: أنتم منعتمونا عن الإيمان؛ فاجابهم المتبوعون فقالوا: ﴿أَفَنَرَكُنَّ كَذِبًا عَنِ الْمُتَكِّينَ﴾ أي: منعناكم عن الإيمان ﴿يَوْمَ إِذْ جَاءَكُم﴾ به الرسول؟ ﴿بَلْ كُنْتُمْ تُخْرِبُونَ﴾ بترك الإيمان - وفي هذا تنبيه الكفار على أن طاعة بعضهم لبعض في الدنيا تصير سبباً للعداوة في الآخرة - فردَّ عليهم الأتباع فقالوا: ﴿بَلْ مَكْرٌ آلِيلٍ وَالنَّهَارُ﴾ أي: بل مكرٌكم بنا في الليل والنهار. قال الفراء: وهذا ممَّا تتوسع فيه العرب لوضوح معناه، كما يقولون: ليله قائم، ونهاره صائم، فضييف الفعل إلى غير آدميين، والمعنى لهم. وقال الأخفش: وهذا كقوله: ﴿وَمِنْ قَرِينِكَ أَلَيَّْ أَفْرَحُكَ﴾ [محمد: ١٣]، قال جرير:

لَقَدْ لُمْنَا يَا أُمَّ عَيْلَانَ فِي السُّرَى وَنَمِيتَ وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِسَائِمٍ^(٣)

وقرأ سعيد بن جبير، وأبو الجوزاء، وعاصم الجحدري: «بل مكرٌ» بفتح الكاف والراء «الليل والنهار» برفعهما. وقرأ ابن يعمر: «بل مكرٌ» بإسكان الكاف ورفع الراء وتنوينها «الليل والنهار» بنصبهما.

(١) قال ابن كثير في تلمة الآية: ﴿بَلْ قُرْآنٌ﴾ أي: الواحد الأحد الذي لا شريك له، ﴿الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ﴾ أي: ذو العزة الذي قد فخر بها كل شيء. وغلبيت كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، تبارك وتعالى وتقديسهما يقولون علواً كبيراً، والله أعلم. اهـ.

(٢) وهو تأويل بعيد، وإن كان أصلها من الكف بمعنى المنع، والمراد هنا أن الله تعالى أرسله إلى جميع الخلائق من المكلفين، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ بِحَسْبِ الْعِلْمِ﴾ وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نُبُوءًا﴾، وروى البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فليما رجل من امتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة». وفي «صحيح مسلم»: «وبعثت إلى كل أحمر وأسود»، أي: إلى الجن والإنس. وهذا من جملة ما امتاز به نبينا محمد ﷺ. قال ابن عباس رضي الله عنه: إن الله فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء، قالوا: يا ابن عباس، فم فضله على الأنبياء؟ قال: إن الله تعالى قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا بِلِسَانِ قُرْيُونٍ﴾ وقال النبي ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس.

(٣) ديوانه: ٥٥٤، ومجاز القرآن: ٢٧٩/١، والطبري: ٩٨/٢٢، ومجمع البيان: ٢٢/٢١٠.

هذه، وتفسيرها ظاهر^(١). ثم أخبر أنهم لم يقولوا ذلك عن بيّنة، ولم يكذبوا محمداً عن يقين، ولم يأتهم قبله كتاب ولا نبي يخبرهم بفساد أمره، فقال: ﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ قال قتادة: ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن ولا بعث إليهم نبياً قبل محمد؛ وهذا محمول على الذين أنذرهم نبياً [محمد] ﷺ؛ وقد كان إسماعيل نذيراً للعرب. ثم أخبر عن عاقبة المكذّبين قبلهم مخوفاً لهم، فقال: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني الأمم الكافرة، ﴿وَمَا بَلَغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: ما بلغ كفار مكة معشار ما آتينا الأمم التي كانت قبلهم من القوة والمال وطول العمر، قاله الجمهور. والثاني: ما بلغ الذين من قبلهم معشار ما أعطينا هؤلاء من الحجة والبرهان. والثالث: ما بلغ الذين من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم، حكاها الماوردي. والمعشار: العشر. والتكثير: اسم بمعنى الإنكار. قال الزجاج: والمعنى: فكيف كان تكيري، وإنما حذفت الياء، لأنه آخر آية.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيَكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ قُرْدَيْ ثَمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (١) قُلْ مَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرِ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٢) قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَ الْفُتُوبِ (٣) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُبِيدُ (٤) قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ فَأَنَا آيَةٌ عَلَى نَفْسٍ وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ فَمَا يُوحِي إِلَيَّ رَحْمَةٌ لَكُمْ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥)

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيَكُمْ﴾ أي: أمركم وأوصيكم ﴿بِوَاحِدَةٍ﴾ وفيها ثلاثة أقوال. أحدها: أنها «لا إله إلا الله»، رواه ليث عن مجاهد. والثاني: طاعة الله، رواه ابن أبي نجيع عن مجاهد. والثالث: أنها قوله: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ قُرْدَيْ﴾، قاله قتادة. والمعنى: أن التي أعطاكم بها، قيامكم وتشميركم لطلب الحق، وليس بالقيام على الأقدام^(١). والمراد بقوله: «مثنى» أي: يجتمع اثنان فيتناظران في أمر رسول الله ﷺ. والمراد بـ «فردى»: أن يتفكر الرجل وحده، ومعنى الكلام: ليتفكر الإنسان منكم وحده، وليخلُ بغيره، وليناظر، وليستشير، فيستدلل بالمصنوعات على صانعها، ويصدق الرسول على اتباعه، ويُقل الرجل لصاحبه: هَلُمَّ لِنَتَصَادَقْ هل رأينا بهذا الرجل جنة قط، أو جرئنا عليه كذباً قط. وتم الكلام عند قوله: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾، وفيه اختصار تقديره: ثم تتفكروا لتعلموا صحة ما أمركم به وأن الرسول ليس بمجنون، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ في الآخرة^(٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرِ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾. والمعنى: ما أسألكم شيئاً؛ ومثله قول القائل: ما لي في هذا فقد وهبته لك، يريد: ليس لي فيه شيء^(٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي: يُلقِي الوحي إلى أنبيائه ﴿عَلَّمَ الْفُتُوبِ﴾ وقرأ أبو رجاء: «عَلَّامٌ» ينصب الميم. ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ وهو الإسلام والقرآن. وفي المراد بالباطل ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الشيطان، لا يخلق أحداً ولا يبعثه، قاله قتادة^(٤). والثاني: أنه الأصنام، لا تبدئ خلقاً ولا تحيي، قاله الضحاك. وقال أبو سليمان: لا يتبدئ الصنم

(١) وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ ثَمَّ عَلَيْهِمْ نَبِيًّا يَتْلُو مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُبَدِّلُ أَنْ يَهْجُرَ عَنَّا كَذِبَهُمْ﴾ قالوا: مَا هَذَا إِلَّا نَبِيٌّ مُتَقَدِّمٌ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَحِقَ لَنَا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ شَيْءٌ (١٠٠).

(٢) قال ابن كثير: يقول الله تبارك وتعالى: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون: ﴿إِنَّمَا أُعْطِيَكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ أي: إنما أمركم بواحدة، وهي ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ قُرْدَيْ ثَمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أي: تقوموا قياماً خالصاً لله ﷻ من غير هوى ولا عصبية فيسأل بفضلكم بعضاً: هل يمتدح من جنون؟ فينصح بفضلكم بعضاً.

(٣) روى البخاري في «صحيحه» ٤١٥/٨ عن ابن عباس ؓ قال: ضجّد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال: «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش، قالوا: مالك؟ قال: «أرايتم لو أخبرتكم أن العدو يبعثكم أو يسبيكم أما كنتم تصدقوني؟» قالوا: بلى، قال: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تباً لك ألهذا جعنتا، فأنزل الله: ﴿كَذَّبْتَ بِكَ يَا لَهَبٌ﴾.

(٤) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لقومك المكذّبين الرادّين عليك ما أنتم به من عند ربك: ما أسألكم من أجل على إنذاركم عذاب الله وتخويفكم به بأسه، ونصيحتي لكم في أمري بإيمان بالله والعمل بطاعته، فهو لكم لا حاجة لي به، قال: وإنما معنى الكلام: قل لهم: إني لم أسألكم على ذلك جملاً فتهمونني وتظنوا أنني إنما دعوتكم إلى أتباعي لما أخذ منكم. اهـ.

(٥) قال ابن كثير: وزعم قتادة والسدي أن المراد بالباطل هاهنا: إبليس، أي: إنه لا يخلق أحداً ولا يبعثه ولا يقدر على ذلك، قال: وهذا وإن كان حقاً، ولكن ليس هو المراد هاهنا، والله أعلم. اهـ.

من عنده كلاماً فيجابه، ولا يردُّ ما جاء من الحقِّ بحُجَّة. والثالث: أنه الباطل الذي يُضادُّ الحق؛ فالمعنى: ذهب الباطل بمجيء الحق، فلم يبقَ منه بقيَّة يُقْبَل بها أو يُدبَّر أو يُعَدَّ، ذكره جماعة من المفسرين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُمْ فَلَمَّا أُنْذِرْ عَلَى نَفْسِي﴾ أي: إثم ضلالتني على نفسي، وذلك أن كُفَّار مكَّة زعموا أنه قد ضلَّ حين ترك دين آبائه ﴿وَلِنْ أَهْتَدَيْتُمْ فَمَا يُوجِئُ إِلَيَّ رَيْتٌ﴾ من الحكمة والبيان.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فُزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۖ وَقَالُوا ءَأَمَّا إِلَهُهُمُ أَنَّكَ تَأْتِنَا مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۖ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذُفُونَ بِالْعَلِيِّ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۖ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُذِيبٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فُزِعُوا﴾ في زمان هذا الفزع قولان: أحدهما: أنه حين البعث من القبور، قاله الأكثرون. والثاني: أنه عند ظهور العذاب في الدنيا، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة. وقال سعيد بن جبير: هو الجيش الذي يُخسف به بالبيداء، يبقى منهم رجل فيخبر الناس بما لقوا^(١)، وهذا حديث مشروح في التفسير، وأن هذا الجيش يؤمُّ البيت الحرام لتخريبه، فيُخسف بهم^(٢). وقال الضحاك وزيد بن أسلم: هذه الآية فيمن قُتل يوم بدر من المشركين.

قوله تعالى: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ المعنى: فلا قُوَّة لهم، أي: لا يمكنهم أن يفوتونا ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: من مكانهم يوم بدر، قاله زيد بن أسلم. والثاني: من تحت أقدامهم بالخسف، قاله مقاتل. والثالث: من القبور، قاله ابن قتيبة. وأين كانوا، فهم من الله قريب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: حين عاينوا العذاب ﴿ءَأَمَّا إِلَهُهُمُ﴾. في هاء الكناية أربعة أقوال: أحدها: أنها تعود إلى الله ﷻ، قاله مجاهد. والثاني: إلى البعث، قاله الحسن. والثالث: إلى الرسول، قاله قتادة، والرابع: إلى القرآن، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لَهُمُ النَّشْأَةَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «النَّشْأَةُ» غير مهموز. وقرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي، والمفضل عن عاصم: بالهمز. قال الفراء: من همز جعله من «نَاشَتْ»، ومن لم يهمز، جعله من «نُشْتُ»، وهما متقاربان؛ والمعنى: تناولت الشيء، بمنزلة: ذُمْتُ الشيء وذامته؛ إذا عبَّته؛ وقد تناوش

(١) «الطبري» ١٠٧/٢٢.

(٢) ذكر الطبري عند تفسير هذه الآية ١٠٧/٢٢ حديثاً طويلاً عجيباً لا يصح، عن الجيش الذي يخسف به، ونصه بتمامه: حدثنا عصام بن رواد بن الجراح، قال: ثنا أبي، قال: ثنا سفيان بن سعيد، قال: ثنا منصور بن المعتمر، عن ربيع بن جراح، قال: سمعت حذيفة بن اليمان يقول: قال رسول الله ﷺ، وذكر فتنة تكون بين أهل المشرق والمغرب، قال: فبينما هم كذلك، إذ خرج عليهم السفيناني من الوادي اليابس في قُوَّره ذلك حتى ينزل دمشق، فيبعت جيشين، جيشاً إلى المشرق، وجيشاً إلى المدينة، حتى ينزلوا بأرض «بابل» في المدينة الملعونة، والبقعة الخبيثة، فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف، ويقتلون بها مائة امرأة، ويقتلون بها ثلاثمائة كيش من بني العباس، ثم ينحدرون إلى الكوفة فيخربون ما حولها، ثم يخرجون متوجهين إلى الشام، فتخرج راية من الكوفة، فتحلق ذلك الجيش منها على الفنتين فيقتلونهم لا يُفْلَت منهم مخبر، ويستقذون ما في أيديهم من السبي والغنائم، ويخلي جيشه التالي بالمدينة فينتهبونها ثلاثة أيام ولياليها، ثم يخرجون متوجهين إلى مكة، حتى إذا كانوا بالبيداء، بعث الله جبريل فيقول: يا جبرائيل اذهب فأُذِنِّمُ، فيضربها برجله ضربة يخسف الله بهم، فذلك قوله في سورة (سبأ): ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فُزِعُوا فَلَا فَوْتَ...﴾ الآية، ولا يفلت منهم إلا رجلان، أحدهما بشير، والآخر نذير، وهما من جهنة، فلذلك جاء القول: «وعند جهنة الخبر اليقين». اهـ. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وحكى ابن جرير عن بعضهم قال: إن المراد بذلك جيش يخسف بهم بين مكة والمدينة في أيام بني العباس ﷺ، قال: ثم أورد في ذلك حديثاً موضوعاً بالكلية (يريد هذا الحديث)، قال: ثم لم يبقَ على ذلك، هذا أمر عجيب غريب منه. اهـ. ولكن قال الطبري بعد هذه الرواية: حدثنا محمد بن خلف العقلائي، قال: سألت رواد بن الجراح عن الحديث الذي حدث به عنه عن سفيان الثوري عن منصور عن ربيع عن حذيفة عن النبي ﷺ، عن قصة ذكرها في الفتن، قال: فقلت له: أخبرني عن هذا الحديث، سمعته من سفيان الثوري؟ قال: لا، قلت: فقرأته عليه؟ قال: لا، قلت: فقرأه عليه وأنت حاضر؟ قال: لا، قلت: فما قصته؟ فما خبره؟ قال: جامعي قوم فقالوا: معنا حديث عجيب، أو كلام هذا معناه، نقرأه وتسععه، قلت لهم: هاتوه، فقرأوه عليَّ ثم ذهبوا فحذُّوا به عني، أو كلام هذا معناه. اهـ. فهذا يدل على أن الطبري نفسه براه غريباً.

وقد روى البخاري في «صحيحه» ٢٨٤/٤ حديث الجيش الذي يفرز الكعبة فيخسف به: عن عائشة ؓ قالت: قال رسول الله ﷺ: «يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض (مكان معروف بين مكة والمدينة) يخسف بأولهم وآخرهم» قالت: يا رسول الله كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أمواقهم ومن ليس منهم؟ قال: «يخسف بأولهم وآخرهم ثم يُعِثُّونَ على نياهم»، ولكن لا علاقة لهذا الحديث بتفسير هذه الآية، ولذلك قال ابن كثير: والصحيح أن المراد بذلك (أي بوقت الفزع): يوم القيامة، وهو الطامة العظمى. اهـ.

القوم في القتال: إذا تناول بعضهم بعضاً بالرماح، ولم يتدأروا كُلُّ التداني، وقد يجوز همز «التناوش» وهي من «نَشْتُ» لانضمام الواو، مثل قوله: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ﴾ [المرسلات: ١١]. وقال الزجاج: من همز «التناوش» فلأن واو التناوش مضمومة، وكُلُّ واو مضمومة ضُمَّتْها لازمة، إن شئت أبدلت منها همزة، وإن شئت لم تبدل، نحو: أدور^(١). وقال ابن قتيبة: معنى الآية: وأتى لهم التناوش لما أرادوا بلوغه وإدراك ما طلبوا من التوبة ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وهو الموضع الذي تُقْبَل فيه التوبة. وكذلك قال المفسرون: أتى لهم بتناول الإيمان والتوبة وقد تركوا ذلك في الدنيا والدنيا قد ذهبت؟!

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهٖ﴾ في هاء الكناية أربعة أقوال قد تقدمت في قوله: ﴿هَٰؤُلَاءِ بِهٖ﴾ [سبا: ٥٢]. ومعنى ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ أي: في الدنيا من قبل معاينة أهوال الآخرة ﴿وَيَقْدُرُوكَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: يَرْمُون بِالظَّنِّ ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وهو بعدهم عن العلم بما يقولون. وفي المراد بمقاتلتهم هذه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم يظنون أنهم يُرَدُّون إلى الدنيا، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنه قولهم في الدنيا: لا بعث لنا ولا جنة ولا نار، قاله الحسن، و قتادة. والثالث: أنه قولهم عن رسول الله ﷺ هو ساحر، هو كاهن، هو شاعر، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَجِلَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي: مُنِعَ هؤلاء الكفار مما يشتهون، وفيه ستة أقوال: أحدها: أنه الرجوع إلى الدنيا، قاله ابن عباس. والثاني: الأهل والمال والولد، قاله مجاهد. والثالث: الإيمان، قاله الحسن. والرابع: طاعة الله، قاله قتادة. والخامس: التوبة^(٢)، قاله السدي. والسادس: حيل بين الجيش الذي خرج لتخريب الكعبة وبين ذلك بأن خُسف بهم، قاله مقاتل^(٣).

قوله تعالى: ﴿كَمَا قُوتِلَ﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، وأبو عمران: «كما فَعَلَ» بفتح الفاء والعين ﴿بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلِ﴾ قال الزجاج: أي: بمن كان مذهبه مذهبهم^(٤). قال المفسرون: والمعنى: كما فَعَلَ بِظُرَائِهِمْ من الكفار من قبل هؤلاء، فإنهم حيل بينهم وبين ما يشتهون. وقال الضحاك: هم أصحاب الفيل حين أرادوا خراب الكعبة ﴿لَا يَهْتُمُّ كَانُوا فِي شَكٍّ﴾ من البعث ونزول العذاب بهم ﴿شَيْئاً﴾ أي: مُوَقِعَ لِلرَّيْبِ وَالتَّهْمَةِ^(٥).



(١) قال في «الصحاح» مادة «هوى»: الدار مؤنثة، وأدى العدد: أَدُوْرُ، فالهمزة فيه مُبْدَلَةٌ من واو مضمومة، ولك أن لا تهجر.

(٢) قال ابن كثير: وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله، قال: وقال مجاهد: ﴿وَجِلَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل، قال: وروي نحوه عن ابن عمر، وابن عباس، والربيع بن أنس رضى الله عنه، قال: وهو قول البخاري وجماعة، ثم قال: والصحيح أنه لا منافاة بين القولين، فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه في الآخرة فتمنوا منه. اهـ.

(٣) هذا التأويل متعلق بما ذكر في حديث الجيش الذي يخسف به عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرَىٰ إِذْ قُرْعَةُ فَكَّرَتْ﴾ وقد علمت أنه لا يصح.

(٤) قال ابن كثير: أي: كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسول لما جاءهم بأمر الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم. اهـ.

(٥) قال ابن كثير: أي: كانوا في الدنيا في شك وريبة، فلها لم يُقْبَل منهم الإيمان عند معاينة العذاب، وقال: قال قتادة: ليأكم والشك والريبة، فإن من مات على شك بُعِث عليه، ومن مات على يقين بُعِث عليه. اهـ.

سورة فاطر

وتسمى سورة الملائكة، وهي مكية ياجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَ الْأَجْنَ مَتَّقٍ وَتِلْكَ رُبِّعٌ بَرِيدٌ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَدْيِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢)

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما مبتدأ على غير مثال. قال ابن عباس: ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى اختصم أعرابيَان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتهما، أي: ابتدأتهما^(١).

قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾ وروى الحلبي والقرطبي عن عبد الوارث: «جاعِلٌ» بالرفع والتثنية «الملائكة» بالنصب «رُسُلًا» يرسلهم إلى الأنبياء وإلى ما شاء من الأمور «أُولَ الْأَجْنَ مَتَّقٍ» أي: أصحاب أجنحة «تِلْكَ رُبِّعٌ» «تِلْكَ رُبِّعٌ» فبعضهم له جناحان، وبعضهم [له] ثلاثة، وبعضهم له أربعة، و«بَرِيدٌ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ» فيه خمسة أقوال: أحدها: أنه زاد في خلق الملائكة الأجنحة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: يزيد في الأجنحة ما يشاء، رواه عباد بن منصور عن الحسن، وبه قال مقاتل^(٢). والثالث: أنه الخلق الحسن، رواه عوف عن الحسن. والرابع: أنه حُسن الصوت، قاله الزهري، وابن جريج. والخامس: الملاحاة في العينين، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: من خير ورزق. وقيل: أراد بها المطر «فَلَا مُمْسِكَ لَهَا» وقرا أبي بن كعب، وابن أبي عتبة: «فَلَا مُمْسِكُ لَهَا». وفي الآية تنبيه على أنه لا إله إلا هو، إذ لا يستطيع أحد إمساك ما فتح وفتح ما أمسك^(٣).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَلْهَوْا تَفَكُّورًا﴾ (٣) وَإِنْ يَكُذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلِلَّهِ اللَّهُ رُجْعُ الْأُمُورِ﴾ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمُ الْهَوَى الَّذِينَ لَا يَرْجِعُكُمْ بِاللَّهِ الْقُرْآنُ﴾ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حَزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَصَلُوا الصَّلَاتِ كَمْ مَعْرِفَةٍ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٧)

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ قال المفسرون: الخطاب لأهل مكة، «واذكروا» بمعنى «احفظوا»، ونعمة الله عليهم: إسمائهم الحَرَمَ ومنع الغارات عنهم. «هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ» وقرا حمزة والكسائي: «غير الله» بخفض الراء؛ قال أبو علي: جعلناه صفة على اللفظ، وذلك حسن لإتباع الجر. وهذا استفهام تقرير وتوبيخ؛ والمعنى: لا خالق سواه «يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» من «الارض» النبات. وما بعد هذا قد سبق بيانه [الانعام: ٩٥، آل عمران: ١٨٤، البقرة: ٢١٠، لقمان: ٢٣] إلى قوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أي: إنه يريد هلاككم «فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا» أي: أنزلوه من أنفسكم منزلة الأعداء، وتجنَّبوا طاعته «إِنَّمَا يَدْعُو حَزْبَهُ» أي: شيعته إلى الكفر «لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ».

﴿أَمَنْ زَيْنَ لَمْ يَسُوءْ عَلَيْهِ فَوَاءَ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَنْهُمْ حَرَكَةً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٨) وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرٌ مَحَابٍ فَصَفَّتْهُ إِنْ بَلَوِ مَتَرٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ (٩)

(١) قال ابن كثير: وقال ابن عباس: «فاطر السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» أي: بديع السموات والأرض، قال: وقال الضحاك: كل شيء في القرآن «فاطر السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» فهو خالق السموات والأرض. اهـ.

(٢) وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن مسعود: قال: «لَقَدْ كَانَ مِنْ تِلْكَ رُبِّعٍ الْكَرْبُ» قال: رأى جبريل في صورته له ستائة جناح.

(٣) قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾^(١) اختلفوا فمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في أبي جهل ومشركي مكة، قاله ابن عباس. والثاني: في أصحاب الأهواء والبلل التي خالفت الهدى، قاله سعيد بن جبيرة. والثالث: أنهم اليهود والنصارى والمجوس، قاله أبو قلابة^(٢). فإن قيل: أين جواب «أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ»؟ فالجواب من وجهين ذكرهما الزجاج: أحدهما: أن الجواب محذوف؛ والمعنى: أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ كَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ؟! ويدل على هذا قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. والثاني: أن المعنى: أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَاضْلَهُ اللَّهُ ذَهَبَتْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حسرات؟! ويدل على هذا قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾. وقرأ أبو جعفر: «فلا تَذْهَبْ» بضم التاء وكسر الهاء «نَفْسُكَ» بنصب السين. وقال ابن عباس: لا تَغْتَمَّ ولا تُهْلِكَ نَفْسُكَ حَسْرَةً على تركهم الإيمان.

قوله تعالى: ﴿فَتَنِيَّ سَبَاحًا﴾ أي: تُرْجِعُهُ مِنْ مَكَانِهِ؛ وقال أبو عبيدة: تَجْمَعُهُ وَتَجِيءُ بِهِ، وَ«سَبَّحْنَاهُ» بمعنى «نَسَبْنَاهُ»؛ والعرب قد تضع «فَعَلْنَاهُ» في موضع «فَعَّلْنَاهُ»، وأنشدوا:

إِنْ يَسْمَعُوا رِيْبَةً طَارُوا بِهَا قَرَحًا
مَنْعِي وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا^(٣)
المعنى: يَطِيرُوا وَيَذْفُونَا.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْكُفُّورُ﴾ وهو الحياة. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: كما أحيا الله الأرض بعد موتها يُحْيِي الْمَوْتَى يَوْمَ الْبَعْثِ. روى أبو رزين العقيلي، قال: قلت: يا رسول الله: كيف يُحْيِي الله الموتى؟ وما آيَةُ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ؟ فقال: «أهل مَرُوتٍ بوادي أهلك مَحَلًّا، ثم مَرُوتٌ به يَهْتَرُ خَضِرًا؟» قلت: نعم، قال: «فكَذَلِكَ يُحْيِي الله الموتى، وتلك آيَتُهُ فِي خَلْقِهِ»^(٤). والثاني: كما أحيا الله الأرض الميتة بالماء، كذلك يُحْيِي الله الموتى بالماء. قال ابن مسعود: يرسلُ الله تعالى ماءً من تحت العرش كمنِّي الرجال، قال: فتنبت لُحْمَانُهُمْ وَجُسْمَانُهُمْ من ذلك الماء، كما تنبت الأرض من الثرى، ثم قرأ هذه الآية. وقد ذكرنا في [الأعراف: ٥٧] نحو هذا الشرح.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الْكَلِيبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾^(٥)

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: من كان يريد العزَّةَ بعبادة الأوثان ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، قاله مجاهد. والثاني: من كان يريد العزَّةَ فليتعزَّزْ بطاعة الله، قاله قتادة. وقد روى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ رِيَكُمْ يَقُولُ كُلُّ يَوْمٍ: أَنَا الْعَزِيزُ، فَمَنْ أَرَادَ عِزَّ الدَّارَيْنِ فَلْيَطِيعِ الْعَزِيزَ»^(٥). والثالث: من كان يريد عِلْمَ الْعِزَّةِ لِمَنْ هِيَ، فإنها لله جميعاً، قاله الفراء^(٦).

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الْكَلِيبُ﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبو عبد الرحمن السلمي، والنخعي، والجحدري،

(١) قال السيوطي في «الدر» ٢٤٥/٥: أخرج ابن جرير من طريق جوير عن الضحاك ﷺ قال: أنزلت هذه الآية ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ قُرْآنَهُ حَسَنًا﴾ حيث قال النبي ﷺ: «اللهم أعز دينك بعمر بن الخطاب، أو بأبي جهل ابن هشام، فهدى الله عمر ﷺ، وأضل أبا جهل، ففيهما أنزلت.

وقال في «أسباب النزول» ١٨٥: أخرج جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال: أنزلت هذه الآية... فذكره بنحوه.
(٢) قال السيوطي في «الدر» ٢٤٥/٥: أخرج ابن أبي حاتم عن أبي قلابة أنه سئل عن هذه الآية ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ قُرْآنَهُ حَسَنًا﴾: أهم عَمَلَانِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَضْمَنُونَ؟ قال: ليس هم، إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسَ أَحَدُهُمْ يَأْتِي شَيْئًا مِمَّا لَا يَحِلُّ لَهُ إِلَّا قَدْ عَرَفَ أَنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ عَلَيْهِ، إِنَّ أَوَّلَ الزُّنَى فَهُوَ حَرَامٌ، أَوْ قَتْلُ النَّفْسِ فَهُوَ حَرَامٌ، إِنَّمَا أَوَّلُكَ أَهْلُ الْمَلَلِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ... إلخ.

(٣) سبق تخريج البيت ٥٠٩، وهو أيضاً في «مجاز القرآن» ١٥٢/٢، و«اللسان» و«التاج»: أذن.

(٤) رواه الإمام أحمد في «المستند» ١١/٤ من حديث حماد بن سلمة قال: أنبأنا يعلى بن عطاء عن وكيع بن حُدَس عن عمه أبي رزين العقيلي. قال ابن كثير: ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث حماد بن سلمة به، ثم قال: ورواه أحمد أيضاً بسند آخر قال: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا ابن المبارك، أنبأ عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن سليمان بن موسى، عن أبي رزين العقيلي... فذكره بنحوه. والحديث أورده السيوطي في «الدر» ٢٤٥/٥، وزاد نِسْبَةَ لِلطَّائِسِي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن أبي رزين العقيلي ﷺ.

(٥) ذكره الطبرسي في «مجمع البيان» بدون سند.

(٦) قال ابن جرير الطبري: والذي هو أولُ الأقوال بالصواب عندي قول من قال: من كان يريد العزَّةَ فبالله فليتعزَّزْ، فله العزَّةُ جميعاً دون كُلِّ ما دونه من الآلهة والأوثان. وقال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة، فليطاع طاعة الله تعالى، فإنه يحصل له مقصوده، لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة، وله العزَّةُ جميعاً. اهـ.

والشيزري عن الكسائي: «يُضَعَدُ الْكَلَامُ الطَّيِّبُ» وهو توحيد، وذُكِرَ^(١) «وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ» قال علي بن المديني: الكَلِمُ الطَّيِّبُ: لا إله إلا الله، والعمل الصالح: أداء الفرائض واجتناب المحارم^(٢). وفي هاء الكناية في قوله: «يرفعه» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الكَلِمِ الطَّيِّبِ؛ فالمعنى: والعمل الصالح يرفع الكَلِمِ الطَّيِّبِ، قاله ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك. وكان الحسن يقول: يُغَرِّضُ الْقَوْلُ عَلَى الْفِعْلِ، فإن وافق القول الفعل قِيلَ، وإن خالف رُدُّ. والثاني: أنها ترجع إلى العمل الصالح، فالمعنى: والعمل الصالح، يرفع الكَلِمِ الطَّيِّبِ، فهو عكس القول الأول، وبه قال أبو صالح، وشهر بن حوشب. فإذا قلنا: إن الكَلِمِ الطَّيِّبِ هو التوحيد، كانت فائدة هذا القول أنه لا يُقْبَلُ عَمَلٌ صَالِحٌ إِلَّا مِنْ مُوَحِّدٍ. والثالث: أنها ترجع إلى الله ﷻ؛ فالمعنى: والعمل الصالح يرفعه الله إليه، أي: يَقْبَلُهُ، قاله قتادة.

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ» قال أبو عبيدة: يَمْكُرُونَ: بمعنى: يكتسبون ويجتريحون. ثم في المشار إليهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم الذين مكروا برسول الله ﷺ في دار الندوة، قاله أبو العالية. والثاني: أنهم أصحاب الرِّبَا، قاله مجاهد، وشهر بن حوشب. والثالث: أنهم الذين يعملون السَّيِّئَاتِ، قاله قتادة، وابن السائب. والرابع: أنهم قاتلو الشُّرْكِ، قاله مقاتل^(٣). وفي معنى «يَمْكُرُونَ» قولان: أحدهما: يَنْظُرُ، قاله ابن قتيبة. والثاني: يَفْسُدُ، قاله الزجاج.

«وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» (١) وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ مُتَعَدِّ شَرَاهُ وَهَذَا مَتْلَعُ أَلْبَاحٍ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيحًا وَتَسْتَفْرِخُونَ فِيهِ تَلْسَمُوهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لِيَنْتَفِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَكُلَّمْ تَشْكُرُونَ (٢) يُؤْتِي الْبَلَدَ النَّهَارَ وَيُؤْتِي النِّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ (٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِنِيعَتِكُمْ وَلَا يَبْنِيَنَّكُمْ مِثْلَ خَبِيرٍ (٤)

قوله تعالى: «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ» يعني آدم «ثُمَّ مِنْ نُفُفَةٍ» يعني نسله «ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا» أي: أصنافاً، ذكوراً وإناثاً؛ قال قتادة: رُؤِجَ بعضهم ببعض.

قوله تعالى: «وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعْمَرٍ» أي: ما يطول عمر أحد «وَلَا يَنْقُصُ» وقرأ الحسن، ويعقوب: «يَنْقُصُ» بفتح الياء وضم القاف «مِنْ عُمرِهِ» في هذه الهاء قولان: أحدهما: أنها كناية عن آخر، فالمعنى: ولا يُنْقُصُ من عمر آخر؛ وهذا المعنى في رواية العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد في آخرين^(٤). قال الفراء: وإنما كنى عنه كانه الأول، لأن لفظ الثاني لو ظهر كان كالأول، كانه قال: ولا يُنْقُصُ من عمر مُعْمَرٍ، ومثله في الكلام: عندي درهم ونصفه؛ والمعنى: ونصف آخر. والثاني: أنها ترجع إلى المُعْمَرِ المذكور؛ فالمعنى: ما يذهب من عمر هذا المُعْمَرِ يوم أو ليلة إلا وذلك مكتوب؛ قال سعيد بن جبير: مكتوب في أول الكتاب: عمره كذا وكذا سنة، ثم يُكْتَبُ أسفل من ذلك: ذهب يوم، ذهب يومان، ذهبت ثلاثة، إلى أن ينقطع عُمره؛ وهذا المعنى في رواية ابن جبير عن ابن عباس، وبه قال عكرمة

(١) قال ابن كثير: وقوله: «إِلَيْهِ يَسْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ» يعني الذكر والتلاوة والدعاء، قاله غير واحد من السلف.

(٢) الذي في «الطبري»: عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: قوله: «إِلَيْهِ يَسْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ» قال: الكلام الطيب: ذِكْرُ اللَّهِ، والعمل الصالح: أداء فرائضه، فمن ذكر الله سبحانه في أداء فرائضه، حمل عليه ذِكْرُ اللَّهِ فصعد به إلى الله، ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه، رُدَّ كلامه على عمله فكان أولى به. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: وقوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ» قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وشهر بن حوشب: هم المرازون بأعمالهم، يعني يَمْكُرُونَ بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله تعالى، وهم بغضاء إلى الله ﷻ، يراؤون بأعمالهم «وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا عِيَالًا»، قال: وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المشركون، ثم قال ابن كثير: والصحيح أنها عامة، والمشركون داخلون بطريق الأولى، ولهذا قال تعالى: «كُلُّكُمْ لَدَيْهِ وَسُحُورٌ وَلَقَدْ كُفِرْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ» أي: يفسد ويضل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهي، فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلنات لسانه، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى رداءه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، قال: فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على غيب، أما المؤمنون المتفرضون، فلا يروج ذلك عليهم، بل يتكشف لهم عن قريب، قال: وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية. اهـ.

(٤) وهذا الذي اختاره ابن جرير الطبري، وقال عنه ابن كثير: وهو كما قال.

وأبو مالك في آخرين^(١). فأما الكتاب، فهو اللوح المحفوظ. وفي قوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ قولان: أحدهما: أنه يرجع إلى كتابة الآجال. والثاني: إلى زيادة العمر ونقصانه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ يعني العذب والمالح؛ وهذه الآية وما بعدها قد سبق بيانه [الفرقان: ٥٣، النحل: ١٤، آل عمران: ٢٧، الرعد: ٢٢] إلى قوله: ﴿مَا يَمْلِكُوكُمْ مِنْ فُلْمِجٍ﴾ قال ابن عباس: هو القشر الذي يكون على ظهر النواة.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ﴾ لأنهم جماد ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ بأن يخلق الله لهم أسماعاً ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أي: لم يكن عندهم إجابة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾ أي: يتبرؤون من عبادتكم ﴿وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِمَا اسْتَجَابُوا﴾ أي: عالم بالأشياء، يعني نفسه ﷻ؛ والمعنى أنه لا أخير منه عز جل بما أخبر أنه سيكون.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ إن يَتَأَذِّنْ بِذِيكُمُكَمُ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَلَةٍ لَا يُخْلَصُ مِنْهُ فَيُوقَ وَكَانَ ظَرْفًا لِّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَشْرُونَ نَفْسَهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ وَلَا الظُّلُمُتُ وَلَا النُّورُ ﴿وَلَا الظُّلُّ وَلَا النُّورُ﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَجَلُ وَلَا الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ يَسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِسَمِيعٍ مِّنْ فِي الْقُبُورِ ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿وَإِنْ يَكْفُرْ بِكَ فَكُذِّبْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: المحتاجون إليه ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن عبادتكم ﴿الْحَمِيدُ﴾ عند خلقه بإحسانه إليهم^(٢). وما بعد هذا قد تقدم بيانه [إبراهيم: ١٩، الأنعام: ١٦٤] إلى قوله: ﴿وَلَنْ تَدْعُ مَثْقَلَةٌ﴾ أي: نفس مثقلة بالذنوب ﴿إِنْ جِئَهَا﴾ الذي حملت من الخطايا ﴿لَا يُخْلَصُ مِنْهُ فَيُوقَ وَكَانَ ظَرْفًا لِّمَا تُنذِرُ﴾ الذي تدعوه ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي: نفس مثقلة بالذنوب ﴿يَشْرُونَ نَفْسَهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ أي: يخشونه ولم يبروه؛ والمعنى: إنما تنفع بإنذارك أهل الخشية، فكانك تُنذرهم دون غيرهم لمكان اختصاصهم بالانتفاع، ﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ﴾ أي: تطهر من الشرك والفواحش، وفعل الخير ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ أي: فصلاحه لنفسه ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ فيجزى بالأعمال، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ يعني المؤمن والمشرك، ﴿وَلَا الظُّلُمُتُ﴾ يعني الشرك والضلالات ﴿وَلَا النُّورُ﴾ الهدى والإيمان، ﴿وَلَا الظُّلُّ وَلَا النُّورُ﴾ فيه قولان: أحدهما: ظل الليل وسُوم النهار، قاله عطاء. والثاني: الظل: الجنة، والحرور: النار، قاله مجاهد. قال الفراء: الحرور بمنزلة السُوم، وهي الرياح الحارة. والحرور تكون بالنهار وبالليل، والسُوم لا تكون إلا بالنهار. وقال أبو عبيدة: الحرور تكون بالنهار مع الشمس، وكان رؤية يقول: الحرور بالليل، والسُوم بالنهار.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَجَلُ وَلَا الْأَمْرُ﴾ فيهم قولان: أحدهما: أن الأحياء: المؤمنون، والأموات: الكفار. والثاني: أن الأحياء: العقلاء، والأموات: الجُحَال. وفي «لا» المذكورة في هذه الآية قولان: أحدهما: أنها زائدة مؤكدة. والثاني: أنها نافية لاستواء أحد المذكورين مع الآخر. قال قتادة: هذه أمثال ضربها الله تعالى للمؤمن والكافر، يقول: كما لا تستوي هذه الأشياء، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن^(٣). ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يُفهم من يريد.

(١) قال ابن كثير: وقال النسائي عند تفسير هذه الآية الكريمة: حدثنا أحمد بن يحيى بن أبي زيد بن سليمان، قال: سمعت ابن وهب يقول: حدثني يونس عن ابن شهاب عن أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَأَلَ أَنْ يُسَلَّمَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَفَسَّاهُ لَهُ فِي آثَرِهِ فَلْيُعِصِلْ رَحِمَهُ»، قال ابن كثير: وقد رواه البخاري ومسلم وأبو داود من حديث يونس بن يزيد الأيلي به. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: يخبر تعالى بصفاته عما سواه، وبافتقار المخلوقات كلها إليه وتلذذها به، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو تعالى الغني عنهم بالذات، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أي: هو المنفرد بالغي وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقره ويشعره، ثم قال في تمة الآية: «وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَتَأَذِّنْ بِذِيكُمُكَمُ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: لو شاء لأذهبكم أبها الناس وأنى يقوم غيركم، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾»، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي يوم القيامة.

(٣) وذلك لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَلَةٍ لَا يُخْلَصُ مِنْهُ فَيُوقَ وَكَانَ ظَرْفًا لِّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَشْرُونَ نَفْسَهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ. وقال: ﴿يَوْمَ تَرَىٰ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ يَمْعَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. ﴿وَلَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ يعني المؤمن والمشرك، ﴿وَلَا الظُّلُمُتُ وَلَا النُّورُ﴾ الهدى والإيمان، ﴿وَلَا الظُّلُّ وَلَا النُّورُ﴾ فيه قولان: أحدهما: ظل الليل وسُوم النهار، قاله عطاء. والثاني: الظل: الجنة، والحرور: النار، قاله مجاهد. قال الفراء: الحرور بمنزلة السُوم، وهي الرياح الحارة. والحرور تكون بالنهار وبالليل، والسُوم لا تكون إلا بالنهار. وقال أبو عبيدة: الحرور تكون بالنهار مع الشمس، وكان رؤية يقول: الحرور بالليل، والسُوم بالنهار.

(٤) قال ابن كثير: هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين وهم الأحياء، وللکافرين وهم الأموات، كقوله تعالى: ﴿إِنْ مِنْكُمْ شَيْءٌ فَاعْلَمْتُمْ وَتَسْمَعُونَ لَكُمْ شُرَكَاءُ يَتَّبِعُونَ﴾

إفهامه ﴿وَمَا أَتَى بِمُتَمِّعٍ مَّنْ فِي الْقُبُورِ﴾^(١) وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، والجحدري: «بِمُتَمِّعٍ مَّنْ» على الإضافة؛ يعني الكفار، شبههم بالموتى، ﴿إِنَّ أَتَى إِلَّا نَذِيرٌ﴾^(٢) قال بعض المفسرين: نُسخ معناها بآية السيف^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَمُنَّ أَنَّهُ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: ما من أمّة إلا قد جاءها رسول^(٤). وما بعد هذا قد سبق بيانه لآل عمران: ١٨٤، الحج: ٤٤ إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَتْ تَكْبِيرُ﴾^(٥) أثبت فيها الباء في الحالين يعقوب، وافقه في الوصل ورش.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرِيبٌ مُّوَدَّدٌ وَمِمَّا الثَّنَائِبُ وَالذَّوَابِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِن عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾^(٦)

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ﴾ أي: ومِمَّا خَلَقْنَا مِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ. قال ابن قتيبة: الجُدَدُ: الخُطُوط والطَّرَاق تكون في الجبال، فبعضها بيض، وبعضها حمر، وبعضها غرايب سود، والغرايب جمع غريب، وهو الشديد السواد، يقال: أسود غريب، وتماثل الكلام عند قوله: «كذلك»، يقول: من الجبال مختلف ألوانه^(٧)، ﴿وَمِمَّا الثَّنَائِبُ وَالذَّوَابِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ أي: كاختلاف الثمرات. قال الفراء: وفي الكلام تقديم وتأخير، تقديره: وسود غرايب، لأنه يقال: أسود غريب، وقلما يقال: غريب أسود. وقال الزجاج: المعنى: ومن الجبال غرايب سود، وهي ذوات الصخر الأسود. وقال ابن دريد: الغريب: الأسود، أحسب أن اشتقاقه من الغراب. وللمفسرين في المراد بالغرايب ثلاثة أقوال: أحدها: الطرائق السود، قاله ابن عباس. والثاني: الأودية السود، قاله قتادة. والثالث: الجبال السود، قاله السدي. ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِن عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ يعني العلماء بالله عز وجل. قال ابن عباس: يريد: إِنَّمَا يَخَافُنِي مِنْ خَلْقِي مَنْ عِلِمَ جبروتي وعزّتي وسلطاني^(٨). وقال مجاهد والشعبي: العالم من خاف الله. وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله فليس بعالم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾^(٩) يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾^(١٠)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ يعني قُرَّاء القرآن، فأنشئ عليهم بقراءة القرآن؛ وكان مطرّف يقول: هذه آية القُرَّاء. وفي قوله: ﴿يَتْلُونَ﴾ قولان: أحدهما: يقرؤون. والثاني: يتبعون. قال أبو عبيدة: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ بمعنى يقيمون، وهو إدامتها لمواقيتها وحدودها.

يو. في آتاي كن مثله في الكائنات ليس يحتاج إليها. وقال: ﴿نَزَلَ الْفَهْرِيُّ كَالْأَمْرِ وَالْجَبْرِ وَالسَّيِّئِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ نَزَلَ؟﴾ فالؤمن بصير سميع في نور، يمشي على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة حتى يستقر في الحال في الجنات ذات الظلال والميرون، والكافر أعمى وأصم في ظلمات يمشي لا خروج له منها، بل هو بينه في غيّه وضلاله في الدنيا والآخرة حتى يفضي به ذلك إلى الحروز والسّموم والحميم وظل من يحوم لا يابو ولا كريم. اهـ.

(١) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُتَمِّعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَتَى بِمُتَمِّعٍ مَّنْ فِي الْقُبُورِ﴾ يقول تعالى ذكره: كما لا يقدر أن يسمع من في القبور كتاب الله فيهديهم به إلى سبيل الرشاد، فكذلك لا يقدر أن ينفع بمواعظ الله وبيان حججه من كان ميت القلب من إحياء عباده عن معرفة الله وفهم كتابه وتنزيله وروايع حججه. اهـ.

(٢) قال ابن جرير: وقوله: ﴿إِنَّ أَتَى إِلَّا نَذِيرٌ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ما أنت إلا نذير تنذر هؤلاء المشركين بالله الذين طبع الله على قلوبهم، ولم يُزِيلْ ريبك إليهم لا لتبلغهم رسالتك، ولم يكلّفك من الأمر ما لا سبيل لك إليه، فأما اعتدائهم وقبولهم منك ما جتهد به، فإن ذلك بيد الله لا بيدك ولا بيد غيرك من الناس، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن هم لم يستجيبوا لك. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: أي: وما من أمة حلت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر، وأزاح عنهم الغل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَتَى مُنَادٍ لِّكُلِّ قَوْمٍ مَّارٍ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوبَ فَمِنْهُمْ مَّنْ مَّكَى اللَّهَ وَنَهَاهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ السُّكُوتُ...﴾ الآية، قال: والآيات في هذا كثيرة. اهـ.

(٤) قال ابن جرير الطبري: ﴿فَكَيْفَ كَانَتْ تَكْبِيرُ﴾: فانظر يا محمد كيف كان تغييرهم بهم، وحلول عقوبتي بهم.

(٥) في «غريب القرآن»: ألوانها.

(٦) قال ابن كثير: أي: إِنَّمَا يَخْشَاءُ حق خشية العلماء العارفين به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كان المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكبر. اهـ.

قوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ عِذْرَكَ﴾ قال الفراء: هذا جواب قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ﴾. قال المفسرون: والمعنى: يرجون بفعلهم هذا تجارة لن تفسد ولن تهلك ولن تنكس. ﴿لِيُفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ﴾ أي: جزاء أعمالهم ﴿وَيَرْبِذُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال ابن عباس: سوى الثواب ما لم تر عين ولم تسمع أذن. فأما الشكور، فقال الخطابي: هو الذي يشكر اليسير من الطاعة، فيثيب عليه الكثير من الثواب، ويُعطي الجزيل من النعمة، ويرضى باليسير من الشكر؛ ومعنى الشكر المضاف إليه: الرضى بيسير الطاعة من العبد، والقبول له، وإعظام الثواب عليه؛ وقد يحتمل أن يكون معنى الشاء على الله بالشكور ترغيب الخلق في الطاعة قلت أو كثرت، لئلا يستحلوا القليل من العمل، ولا يتركوا اليسير منه.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ جئت عند بدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولياسمهم فيها حرير ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ في ﴿ثُمَّ﴾ وجهان: أحدهما: أنها بمعنى الواو، والثاني: أنها للترتيب. والمعنى: أنزلنا الكتب المتقدمة، ثم أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ. ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ وفيهم قولان: أحدهما: أنهم أمة محمد ﷺ، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم الأنبياء وأتباعهم، قاله الحسن. وفي الكتاب قولان: أحدهما: أنه اسم جنس، والمراد به الكتب التي أنزلها الله ﷻ، وهذا يخرج على القولين. فإن قلنا: الذين اصطفوا أمة محمد، فقد قال ابن عباس: إن الله أورث أمة محمد ﷺ كل كتاب أنزله. وقال ابن جرير الطبري: ومعنى ذلك: أورثهم الإيمان بالكتب كلها - وجميع الكتب تأمر باتباع القرآن - فهم مؤمنون بها عاملون بمقتضاها؛ واستدل على صحة هذا القول بأن الله تعالى قال في الآية التي قبل هذه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾ واتباعه بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ فعلمنا أنهم أمة محمد، إذ كان معنى الميراث: انتقال شيء من قوم إلى قوم، ولم تكن أمة على عهد نبينا انتقل إليهم كتاب من قوم كانوا قبلهم غير أمتهم. فإن قلنا: هم الأنبياء وأتباعهم، كان المعنى: أَوْرَثْنَا كُلَّ كِتَابٍ أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّ ذَلِكَ النَّبِيِّ وَأَتْبَاعِهِ. والقول الثاني: أن المراد بالكتاب القرآن^(١). وفي معنى «أَوْرَثْنَا» قولان: أحدهما: أعطينا، لأن الميراث عطاء، قاله مجاهد. والثاني: أخَرْنَا، ومنه الميراث، لأنه تأخر عن الميت؛ فالمعنى: أَخَرْنَا الْقُرْآنَ عَنِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَأَعْطَيْنَاهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ، إكراماً لها، ذكره بعض أهل المعاني.

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه صاحب الصغائر؛ روى عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له»^(٢). وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في هذه الآية، قال: «كلهم في الجنة»^(٣). والثاني: أنه الذي مات على كبيرة ولم يثب منها، رواه عطاء عن ابن عباس. والثالث: أنه الكافر، رواه عمرو بن دينار عن ابن عباس، وقد رواه ابن عمر مرفوعاً إلى النبي ﷺ^(٤). فعلى هذا يكون الاصطفاء لجملة من أنزل عليه الكتاب، كما قال: ﴿وَأَمَّا لِكُلِّ لَكَ وَقَوْلِيكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي: لكشرف لكم، وكمن مكرم لم يقبل الكرامة! والرابع: أنه المنافق، حكى عن الحسن^(٥). وقد روي عن الحسن أنه قال: الظالم: الذي ترجع

(١) قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ يقول تعالى: ثم جعلنا القاتنين بالكتاب العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب، الذين اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمة. اهـ.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٣٩: رواه سعيد بن منصور عن فرج بن فضالة عن أزهر بن عبد الله الحرازي عن سمع عمر، فذكره موقوفاً. وذكره السيوطي في «الدرر» من رواية سعيد بن منصور، وزاد نسبه لابن أبي شيبه، وابن المنذر، والبيهقي في «البعث» عن عمر بن الخطاب موقوفاً، ولم يثبت في المرفوع.

(٣) رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري موقوفاً عنه بلفظ: هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة، وكلهم في الجنة؛ قال ابن كثير: هذا حديث غريب، وفي إسناده من لم يسم، ثم قال: ومعنى قوله: «بمنزلة واحدة» أي: في أنهم من هذه الأمة وأنهم من أهل الجنة وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة. اهـ. والحديث قد رواه ابن جرير الطبري بنحو حديث أحمد، وللحديث شواهد يشد بعضها بعضاً. ورواه بنحو الترمذي وقال: هذا حديث غريب حسن، وقد أورده السيوطي في «الدرر» ٢٥١/٥ عن أبي سعيد الخدري موقوفاً، وزاد نسبه للطيالسي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي.

(٤) ذكره السيوطي في «الدرر» ٢٥٢/٥ من رواية ابن مردويه عن عمر مرفوعاً، والله أعلم.

(٥) قال ابن كثير: والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة، وهو اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضاً. اهـ. يريد بذلك أمثال حديث أبي سعيد الخدري وغيره.

سيئاته على حسناته، والمقتصد: الذي قد استوت حسناته وسيئاته، والسابق: من رجحت حسناته. وروي عن عثمان بن عفان أنه تلا هذه الآية، فقال: سابقنا أهل جهادنا، ومقتصدنا أهل حَضْرنا، وظالمنا أهل بدونا^(١).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ سَائِقٌ﴾ وقرأ أبو المتوكل، والجحدري، وابن السميع: «سَبَاقٌ» مثل: فقال ﴿بِالْخَيْرَاتِ﴾ أي: بالأعمال الصالحة إلى الجنة، أو إلى الرَّحمة ﴿يَاذَنُ اللَّهُ﴾ أي: بإرادته وأمره ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ يعني إيراثنهم الكتاب^(٢). ثم أخبر بشوابهم، فجمعهم في دخول الجنة فقال: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا﴾^(٣) قرأ أبو عمرو وحده: «يَدْخُلُونَهَا» بضم الياء؛ وفتحها الباقون، وقرأ نافع، وأبو بكر عن عاصم: ﴿وَلَوْوُلُوا﴾ بالنصب. وروى أبو بكر عن عاصم أنه كان يهزم الواو الثانية ولا يهزم الأولى؛ وفي رواية أخرى أنه كان يهزم الأولى ولا يهزم الثانية. والآية مفسرة في سورة [الحج: ٢٣]. قال كعب: تحاكت مناكبهم ورب الكعبة، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم.

﴿وَقَالُوا لَمَسْنَا لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾^(٤) الَّذِي لَحَنَّا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ تَقْلِيلِهِ لَا يَسْتَأْ فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَسْتَأْ فِيهَا لُغُوبٌ^(٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَاذِبٍ^(٦) وَهُمْ يَصْطَرِّفُونَ فِيهَا رَمًا أَفْرَحًا نَعْمَلُ مَصْلَعًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَّلَ تَعْمِيرِكُمْ مَا تَذَكَّرْتُمْ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَمَا كُنْتُمْ تَلَذُّرُ فَذُقُوا مَعَ الْغُلَّيْلِينَ مِنْ قَيْسِرٍ^(٧) إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَيْبِ السَّعَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ^(٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مَنْ كَفَرَ فَلْيُؤْمَرْ كَفَرًا وَلَا يَزِدَّ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا^(٩)

ثم أخبر عما يقولون عند دخولها، وهو قوله: ﴿لَمَسْنَا لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ الْحَزْنَ وَالْحُزْنَ واحد، كالبخل والبُخل. وفي المراد بهذا الحزن خمسة أقوال: أحدها: أنه الحزن لطول المقام في المحشر. روى أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أما السابق، فيدخل الجنة بغير حساب، وأما المقتصد، فيحاسب حساباً يسيراً، وأما الظالم لنفسه، فإنه حزين في ذلك المقام»، فهو الحزن والغم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَمَسْنَا لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾^(٤). والثاني: أنه الجوع، رواه أبو الدرداء أيضاً عن رسول الله ﷺ، [ولا يصح]، وبه قال شمر بن عطية^(٥). وفي لفظ عن شمر أنه قال: الحزن: هُمُ الْحُزْبُ. وكذلك روي عن سعيد بن جبيرة أنه قال: الحزن: هُمُ الْحُزْبُ فِي الدُّنْيَا. والثالث: أنه حزن النار، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس^(٦). والرابع: حزنهم في الدنيا على ذُنُوب سلفت منهم، رواه عكرمة عن ابن عباس^(٨). والخامس: حزن الموت، قاله عطية^(٩). والآية عامّة في هذه الأقوال وغيرها^(١٠)، ومن القبيح تخصيص هذا الحزن بالخبز وما يشبهه، وإنما حزنوا على ذُنُوبهم وما يوجب الخوف.

(١) ذكره السيوطي في «الدر» ٢٥٢/٥ من رواية سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، ابن مردويه، عن عثمان بن عفان ؓ موقوفاً.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ يقول تعالى ذكره: سُبُوقُ هَذَا السَّابِقِ مِنْ سَبْقِهِ بِالْخَيْرَاتِ يَأْذَنُ اللَّهُ، هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ الَّذِي فَضَّلَ بِهِ مَنْ كَانَ مُقْضًى عَنْ مَزَلَةٍ فِي طَاعَةِ اللَّهِ مِنَ الْمَقْتَصِدِ وَالظَّالِمِ لِنَفْسِهِ. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة، ما أراهم جنات عدن، أي: جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدرهم على الله ﷻ ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْوُلُوا﴾ كما ثبت في «الصحیح» عن أبي هريرة ؓ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ولهذا كان محظوراً عليهم في الدنيا، فأباح الله تعالى لهم في الآخرة، وثبت في «الصحیح» أن رسول الله ﷺ قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة» وقال: «هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة». اهـ.

(٤) رواه أحمد في «المستند»، وذكره السيوطي في «الدر» ٢٥١/٥، وزاد نسبة للفرابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي الدرداء ؓ.

(٥) لم نر الحزن بمعنى الجوع عن أبي الدرداء مرفوعاً ولا موقوفاً عليه، وإنما ذكره السيوطي في «الدر» ٢٥٣/٥ من رواية ابن أبي حاتم عن شمر بن عطية من قوله.

(٦) ذكره الطبري ١٣٨/٢٢.

(٧) «الطبري» ١٣٨/٢٢، وذكره السيوطي في «الدر» ٢٥٣/٥، وزاد نسبة لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس ؓ.

(٨) ذكره السيوطي في «الدر» ٢٥٣/٥ من رواية عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ؓ.

(٩) «الطبري» ١٣٨/٢٢.

(١٠) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء القوم الذين أكرمهم بما أكرمهم به، أنهم قالوا =

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أنزلنا ﴿فَارَ الْمَقَاتِلَ﴾ قال الفراء: المقامة هي الإقامة، والمقامة: المجلس، بالفتح لا غير، قال الشاعر:

يَوْمَانِ يَوْمٌ مَقَامَاتٍ وَأَنْدِيَةٌ وَيَوْمٌ سَيْرٍ إِلَى الْأَعْدَاءِ تَأْوِيلٌ^(١)
قوله تعالى: ﴿بَيْنَ هَٰؤُلَاءِ﴾ قال الزجاج: أي: بتفضله، لا بأعمالنا. والتَّصَبُّ: التَّعَب. واللُّغُوب: الإعياء من التَّعَب. ومعنى «لُغُوب»: شيء يُلْغَب؛ أي: لا تتكلف شيئاً نَعَتَى منه.

قوله تعالى: ﴿لَا يَفْضَنَ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ أي: لا يهلكون فيستريحوا ممّا هُمْ فيه^(٢)، ومثله: ﴿فَوَكَّرَهُ مَوْتَيْنِ فَفَضْنَ عَلَيْهِ﴾ [القصاص: ٥١].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ وقرأ أبو عمرو: «يُجْزَى» بالياء «كُلُّ» برفع اللام. وقرأ الباقون: «نَجْزِي» بالنون «كُلُّ» بنصب اللام.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا﴾ وهو افتعال من الصَّراخ: والمعنى: يستغيثون، فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِمَّا مَكَلَّمْنَا﴾ أي: نوحلك ونطيعك ﴿عَبْرَ الَّذِي كُنَّا نَمَلُ﴾ من الشُّرك والمعاصي؛ فويخرجهم الله تعالى بقوله: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ﴾ قال أبو عبيدة: معناه التقرير، وليس باستفهام؛ والمعنى: أو لم نعمركم عُمرًا تَذَكَّرُ فيه من تَذَكَّر؟ وفي مقدار هذا التعمير أربعة أقوال: أحدها: أنه سبعون سنة، قال ابن عمر: هذه الآية تعبير لأبناء السبعين. والثاني: أربعون سنة. والثالث: ستون سنة، رواهما مجاهد عن ابن عباس^(٣)، وبالأول منهما قال الحسن، وابن السائب. والرابع: ثمان عشرة سنة، قاله عطاء، ووهب بن منبه، وأبو العالية، وقناة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَدْرِكُونَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه الشيب، قاله ابن عمر، وعكرمة، وسفيان بن عيينة؛ والمعنى: أو لَمْ نَعْمَرْكُمْ حتى شَبِيتُمْ؟^(٤). والثاني: النبي ﷺ، قاله قتادة، وابن زيد، وابن السائب، ومقاتل^(٥). والثالث: موت الأهل والأقارب. والرابع: الحتمي، ذكرهما الماوردي.

قوله تعالى: ﴿مَذُوقُوا﴾ يعني: العذاب ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَاصِرٍ﴾ أي: من مانع يمنع عنهم. وما بعد هذا قد تقدم بيانه [المائدة: ٧] إلى قوله: ﴿خَلَقْتَ فِي الْأَرْضِ﴾ وهي الأمة التي خَلَقْتَ مِنْ قَبْلُهَا ورأت فيمن تقدّمها ما ينبغي أن تعتبر به ﴿فَنَ كَرَّ فَلْيَكُ كَفَرًا﴾ أي: جزاء كفره^(٦).

حين دخلوا الجنة: ﴿لَمَّا دَخَلُوا الْجَنَّةَ لِلَّهِ أَتَقَبَّ عَنَّا لَكَرَةً﴾ قال: وخوف دخول النار من الحزن، والجزع من الموت من الحزن، والجزع من الحاجة إلى المطعم من الحزن، ولم يخص الله إذ أخبر عنهم أنهم حملوه على إذهابه الحزن عنهم نوعاً دون نوع، بل أخبر عنهم أنهم عمّوا جميع أنواع الحزن بقولهم ذلك، وكذلك ذلك، لأن من دخل الجنة فلا حزن عليه بعد ذلك، فحملهم على إذهابه عنهم جميع معاني الحزن. اهـ.

(١) البيت سلامة بن جندل كما في «مجاز القرآن» ١٠/٢، و«الطبري» ١٤٠/٢٢، و«اللسان» و«الناج»: أوب.

(٢) قال ابن كثير: لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء، شرع في بيان مال الانقياء فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ قال: وثبت في «صحيح مسلم» أن رسول الله ﷺ قال: «أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون» وقال ﷺ: ﴿وَكَاذِبًا يَكْتُمُونَ عَنَّا رَبَّنَا أَلِ لَّنكَ فِرَاقُكَ﴾ فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُحْيَىٰ فَتَنْفَعُ عَنْهُمْ إِذْ كُنْتُمْ فِي حَافَاتِهِ﴾ كما قال ﷺ: ﴿إِنَّ النَّبِيَّ فِي عِلَاقِ جَهَنَّمَ كَحِشَّةٍ لَا يُقَرَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُونَ﴾ وقال جل وعلا: ﴿كُلَّمَا حَتَّىٰ ذُكِّرُوا بِهِ عَاثُوا﴾ ﴿مَذُوقُوا قُلُوبُكُمْ لَا تُبَدِّلُكُمْ﴾، ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ أي: هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق. اهـ.

(٣) روى البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة ﷺ قال: «أهل الله ﷻ إلى امرئ أضر عمره حتى بلغ ستين سنة»، ورواه أحمد وغيره، ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله تعالى إلى عباده به ويذهب به عنهم العلل، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة. وقد ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثاً وستين سنة.

(٤) وروى الطبري قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَدْرِكُونَ﴾ قال: النضير: النبي. وقرأ: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾، قال ابن كثير: وهذا هو الصحيح عن قتادة فيما رواه شيان عنه أنه قال: احتج عليهم بالعمر والرسول، قال: وهذا اختيار ابن جرير، وهو الأظهر، لقوله تعالى: ﴿وَكَاذِبًا يَكْتُمُونَ عَنَّا رَبَّنَا أَلِ لَّنكَ فِرَاقُكَ﴾ قال: لقد بينا لكم الحق على السنة الرسل فأبَيْتُمْ وخالفتم. اهـ.

(٥) قال ابن كثير في تسمية الآية: ﴿وَلَا يَرِيدُ الْكَافِرِينَ كَرْهَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَنًّا﴾ أي: كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، بخلاف المؤمنين، فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ارتفعت درجته ومنزله في الجنة وزاد أجره وأجبه خالفه وباراه رب العالمين. اهـ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ لَهُنَّ ثَوْنٌ مِمَّا يَدْعُونَ﴾ ١٩ ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ أَلْفٌ أُفٍّ وَلَا عَشْرُ أَلْفٍ﴾ ٢٠ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمْلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَكِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْهُنَّ يَوْمٌ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ٢١

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُم﴾ المعنى: أخبروني عن الذين عبدتم من دون الله واتخذتموهم شركاء بزعمكم، بأي شيء أوجبتم لهم الشراكة في العبادة؟ أبشروهم بخلقهم من الأرض، أم شاركوا خالق السموات في خلقها؟ ثم عاد إلى الكفار فقال: ﴿أَمْ لَهُنَّ ثَوْنٌ مِمَّا يَدْعُونَ﴾ أي: يأمروهم بما يفعلون ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ يَنْتَهِ﴾ ١٩ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُنَّ ثَوْنٌ مِمَّا يَدْعُونَ﴾ ٢٠ ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ أَلْفٌ أُفٍّ وَلَا عَشْرُ أَلْفٍ﴾ ٢١ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمْلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَكِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْهُنَّ يَوْمٌ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ٢٢

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمْلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ أي: يمنعهما من الزوال والذهاب والوقوع. قال الفراء: ﴿وَلَكِنْ﴾ بمعنى «ولو»، و«إِنْ» بمعنى «ما»، فالتقدير: ولو زالتا ما أمسكهما من أحد. وقال الزجاج: لما قالت النصراني: المسيح ابن الله، وقالت اليهود: عزيز ابن الله، كادت السموات يتفطرن والجبال أن تزول والأرض أن تشتق، فأمسكها الله ﷻ، وإنما وحّد الأرض مع جمع «السموات»، لأن الأرض تدل على الأرضين. ﴿وَلَكِنْ زَالَتَا﴾ تحتمل وجهين: أحدهما: زوالهما يوم القيامة. والثاني: أن يقال تقديرًا: وإن لم تزولا، وهذا مكان يدل على القدرة، غير أنه ذكر الجلم فيه، لأنه لما أمسكهما عند قولهم: ﴿أَتَتَّخِذُ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨]، حُلم فلم يُعْجَلْ لهم العقوبة (٢٢).

﴿وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْتِنِهِمْ لَيْتَ جَلَّتُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِبْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا تَوَدُّوا ۖ أَسْكِبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَعْيُنِنَا ۖ فَبَلِّغْ نَبَأَهُ لِقَوْمٍ يُظَاهِرُونَ﴾ ٢٣ ﴿إِنَّمَا سَلَّتْ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ يَحْدُ إِلَهُ تَبَدُّلًا وَلَنْ يَحْدُ إِلَهُ تَبَدُّلًا﴾ ٢٤

قوله تعالى: ﴿وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْتِنِهِمْ﴾ يعني كفار مكة حلفوا بالله قبل إرسال محمد ﷺ ﴿لَيْتَ جَلَّتُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: رسول ﴿لِيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِبْدَى الْأُمَمِ﴾ يعني: اليهود والنصارى والصابئين ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا تَوَدُّوا﴾ مجيئه ﴿إِلَّا تَوَدُّوا﴾ أي: تباعدوا عن الهدى، ﴿أَسْكِبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: عتوا على الله وتكبروا عن الإيمان به (٢٣). قال الأخفش: نصب «استكباراً» على البذل من النور. قال الفراء: المعنى: فعلوا ذلك استكباراً ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾، فأضيف المكر إلى السَّيِّئِ، كقوله: ﴿وَلَقَدْ لَعَنَّ الَّذِينَ﴾ [الحاقة: ٥١]، وتصديقه في قراءة عبد الله: ﴿وَمَكْرًا سَيِّئًا﴾، والهمزة في «السَّيِّئِ» مخفوضة، وقد جزمها الأعمش وحمزة، لكثرة الحركات؛ قال الزجاج: وهذا عند النحويين الحَذَاقُ لَحْنٌ، إنما يجوز في الشعر اضطراباً. وقال أبو جعفر النحاس: كان الأعمش يقف على «مَكْرَ السَّيِّئِ» فيترك الحركة، وهو وقف حسن تام، فغلط الراوي؛ فروى أنه كان يخذف الإعراب في الوصل،

(١) أي: الإتيان بيينة تدل بأن مع الله شريكاً، قال الألوسي: وهو ضرب من التهكم. قال ابن جرير الطبري: ﴿أَمْ لَهُنَّ ثَوْنٌ مِمَّا يَدْعُونَ﴾ ١٩ يقول: أم أتينا هؤلاء المشركين كتاباً أنزلناه عليهم من السماء بأن يشركوا بالله الأوثان والأصنام ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ يَنْتَهِ﴾، فهم على برهان مما أمرتهم فيه من الإشراك بي؟ ١٩ وقال ابن كثير: وقوله: ﴿أَمْ لَهُنَّ ثَوْنٌ مِمَّا يَدْعُونَ﴾ ١٩ أي: أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولونه من الشرك والكفر؟ ليس الأمر كذلك ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ أَلْفٌ أُفٍّ وَلَا عَشْرُ أَلْفٍ﴾ ٢٠ أي: بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيتهم التي تمتلئها لأنفسهم، وهي غرور وباطل وزور. اهـ. وقال الألوسي: والمعنى أن عبادة هؤلاء إما بالمقل، ولا عقل يحكم بصحة عبادة من لا يخلق جزءاً ما من الأرض دلالة شرك في السماء، وإما بالقل، ولم نزل المشركين كتاباً في الأمر بعبادة هؤلاء. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمْلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ أي: أن تضطربا عن أماكنهما، كما قال ﷻ: ﴿وَيَسِّرُ الْكَلِمَةَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يَقُولَ أَمْسِكْ أَرْضُ وَاسْكِنِي أَهْلُهَا وَالْجِبَالُ خضرة﴾ ١١٠ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يَقُولَ أَمْسِكْ أَرْضُ وَاسْكِنِي أَهْلُهَا وَالْجِبَالُ خضرة﴾ ١١٠ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يَقُولَ أَمْسِكْ أَرْضُ وَاسْكِنِي أَهْلُهَا وَالْجِبَالُ خضرة﴾ ١١٠

(٣) قال ابن كثير: ﴿أَسْكِبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: استكبروا عن اتباع آيات الله ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أي: ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم. اهـ.

فتابع حمزة الغالط، فقرأ في الإدراج بترك الحركة^(١). وللمفسرين في المراد بـ «مكر السَّيِّئ» قولان: أحدهما: أنه الشُّرك^(٢). قال ابن عباس: عاقبة الشُّرك لا تَحُلُّ إلا بمن أشرك. والثاني: أنه المَكْر برسول الله ﷺ، حكاه الماوردي^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: إلا أن يَنْزِلَ العذاب بهم كما نَزَلَ بالأمم المكذبة قبلهم. ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ﴾ في العذاب ﴿تَبْدِيلًا﴾ وإن تأخر ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي: لا يقدِّر أحد أن يحول العذاب عنهم إلى غيرهم.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَكُونِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاكِيرًا﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبٍ وَلَا يَكُنْ يُوْخِرُهُمْ إِلَّا أَجَلٌ مُسَمًّى فَلَمَّا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَانَ اللَّهُ كَانَ يَمْكِيدُوهُمُ بُصِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ هذا عام، وبعضهم يقول: أراد بالناس المشركين. والمعنى: لو واخذهم بأفعالهم لعجل لهم العقوبة^(٤). وقد شرحنا هذه الآية في [النحل: ٦١]. وما أخللنا به فقد سبق بيانه [يوسف: ١٠٩، الروم: ٩، الأعراف: ٣٤، النحل: ٦١].

قوله تعالى: ﴿فَلَانَ اللَّهُ كَانَ يَمْكِيدُوهُمُ بُصِيرًا﴾ قال ابن جرير: بصيراً بمن يستحقُّ العقوبة ومن يستوجب الكرامة^(٥).



(١) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القراءة ما عليه قراء الأمصار من تحريك الهمزة فيه إلى الخفض، وغير جائز في القرآن أن يُقرأ بكل ما جاز في العربية، لأن القراءة إنما هي ما قرأت به الأمة الماضية وجاء به السلف على النحو الذي أخذوا عن قبلهم. اهـ.

(٢) ذكره الطبري عن قتادة.

(٣) قال الألوسي: هو الخداع الذي يرومونه برسول الله ﷺ والكيد له.

(٤) قال ابن كثير: ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ، ويوفي كل عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهل الطاعة، وبالعقاب أهل المعصية. اهـ.

(٥) ونص كلام ابن جرير بتمامه: وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَانَ اللَّهُ كَانَ يَمْكِيدُوهُمُ بُصِيرًا﴾ يقول تعالى ذكره: فلَمَّا جاء أجل عقابهم، فإن الله كان بمبادء بصيراً من الذي يستحق أن يعاقب منهم، ومن الذي يستوجب الكرامة، ومن الذي كان منهم في الدنيا له مطيعاً، ومن كان فيها به مشركاً، لا يخفى عليه أحد منهم، ولا يعزب عنه علم شيء من أمرهم. اهـ.

سورة يس

وفيها قولان: أحدهما: أنها مكِّيَّة، قاله ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وقتادة، والجمهور. وروي عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا: إنها مكِّيَّة إلا آية منها، وهي قوله: ﴿وَلِذَا فِئْلٌ لَّهُمْ أَنْ يَقْرَأُوا مِنَّا رَفَعَهُ اللَّهُ﴾ [يس: ٤٥]. والثاني: أنها مدنية، حكاه أبو سليمان الدمشقي، وقال: ليس بالمشهور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسَ ١﴾ وَالْقُرْآنَ الْكَبِيرَ ٢ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤ ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥﴾ لِشُنْذَرٍ قَوْمًا تَأْأَنُذِرَ ٦ مَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ٧﴾

وفي قوله: ﴿يَسَ ١﴾ خمسة أقوال: أحدها: أن معناها: يا إنسان، بالحبشية، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومقاتل. والثاني: أنها قَسَمُ أقسم الله به، وهو من أسماؤه، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أن معناها: يا محمد، قاله ابن الحنفية، والضحاك. والرابع: أن معناها: يا رجل، قاله الحسن. والخامس: اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة^(١). وقرأ الحسن، وأبو الجوزاء: «يَسَن» بفتح الياء وكسر النون. وقرأ أبو المتوكل، وأبو رجاء، ابن أبي عبلة: بفتح الياء والنون جميعاً. وقرأ أبو حصين الأسدي: بكسر الياء وإظهار النون. قال الزجاج: والذي عند أهل العربية أن هذا بمنزلة افتتاح السُّور، وبعض العرب يقول: «يَسَنَ والقرآن» بفتح النون، وهذا جائز في العربية لوجهين: أحدهما: أن «يَسَ» اسم للسورة، فكانه قال: أتُلِ يَسَ، وهو على وزن هابيل وقابل لا يتصرف. والثاني: أنه فُتِحَ لالتقاء الساكنين، والتسكين أجود، لأنه حرف هجاء.

قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ الْكَبِيرَ ٢﴾ هذا قَسَمٌ، وقد سبق معنى «الحكيم» [البقرة: ٣٢]، قال الزجاج: وجوابه: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣﴾؛ وأحسن ما جاء في العربية أن يكون ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ خبر «إِنَّ»، ويكون قوله: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤﴾ خبراً ثانياً، فيكون المعنى: إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. ويجوز أن يكون «على صراط» من صلة «المرسلين»، فيكون المعنى: إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ أُرْسِلُوا عَلَى طَرِيقَةٍ مُسْتَقِيمَةٍ.

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «تنزيل» برفع اللام. وقرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي: «تنزيل» بتصب اللام. وعن عاصم كالفراءتين. قال الزجاج: من قرأ بالنصب، فعلى المصدر، على معنى: نَزَلَ اللَّهُ ذَلِكَ تَنْزِيلًا، ومن قرأ بالرفع، فعلى معنى: الذي أَنْزَلَ إِلَيْكَ تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ. وقال الفراء: من نصب، أراد إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ تَنْزِيلًا حَقًّا مُنْزَلًا، ويكون الرفع على الاستثنا، كقوله: ذلك تنزيل العزيز. وقرأ أبي بن كعب، وأبو رزين، وأبو العالية، والحسن، والجاحدري: «تنزيل» بكسر اللام. وقال مقاتل: هذا القرآن تنزيل العزيز في ملكه، الرحيم بخلقه.

قوله تعالى: ﴿لِشُنْذَرٍ قَوْمًا تَأْأَنُذِرَ ٦﴾ في «ما» قولان: أحدهما: أنها نفي، وهو قول قتادة والزجاج في الأكثرين. والثاني: أنها بمعنى «كما»، قاله مقاتل. وقيل: هي بمعنى «الذي». قوله تعالى: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ ٧﴾ أي: عن حُجَج التوحيد وأدلة البعث.

(١) قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل سورة (البقرة)، وسورة (طه) وانظر التعليق الذي في أول سورة (العنكبوت). وكلمة (يس) هنا من الحروف المقطعة أمثال (طه) وغيرها، وقد قال ابن جرير الطبري في تفسير كلمة (طه) بعدما ذكر في معناها عدة أقوال: والذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه، قول من قال: معناه: يا رجل، وتأويل الكلام: يا رجل ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، ما أنزلناه عليك فنكفك ما لا طاقة لك به من العمل. اهـ. وكلمة (يس) هنا معناها قريب من (طه) كأنه قال: يا رجل والقرآن الحكيم إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ بوحى الله ﷻ إلى عباده، يريد به محمداً ﷺ.

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَامِهِمْ فِتْنَةً أَفْتَنَهُمُ افْتِنَالَهُ فَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِنَا أَفْئِدَتُهُ مُتَمَرِّضَةٌ وَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَبْأًا وَمَنْ خَلْفَهُمْ مَدْجًا فَاغْتَبَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَا تُنذِرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُشَدُّ مِنْ أَتْبَعِ الذِّكْرِ وَخَوَى الرَّحْمَنُ بِالْفِتْنَةِ يَفْتِنُهُ يَمْفِقُهُ وَأَجْرُ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنُصْخِبُ مَا قُلَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَارٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ﴾ فيه قولان: أحدهما: وجب العذاب. والثاني: سبق القول بكفرهم.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ يعني أهل مكة، وهذه إشارة إلى إرادة الله تعالى السابقة لكفرهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لما سبق من القدر بذلك. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَامِهِمْ فِتْنَةً﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها مثل، وليس هناك غُلٌّ حقيقة، قاله أكثر المحققين، ثم لهم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها مثل لمنعهم عن كل خير، قاله قتادة. والثاني: لحبسهم عن الإنفاق في سبيل الله، بموانع كالأغلال، قاله الفراء، وابن قتيبة. والثالث: لمنعهم من الإيمان بالله، قاله أبو سليمان الدمشقي. والقول الثاني: أنها موانع حسية منعت كما يمنع الغُلُّ؛ قال مقاتل بن سليمان: حلف أبو جهل لئن رأى النبي ﷺ يصلي ليذمته، فجاهد وهو يصلي، فرفع حجراً فبست يده والتصق الحجر بيده، فرجع إلى أصحابه فأخبرهم الخبر، فقام رجل منهم فأخذ الحجر، فلما دنا من رسول الله ﷺ طمس الله ﷻ على بصره فلم يره، فرجع إلى أصحابه فلم ينصروهم حتى نادوه، فنزل في أبي جهل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَامِهِمْ فِتْنَةً...﴾ الآية، ونزل في الآخر: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَبْأًا﴾ (١٠). والقول الثالث: أنه على حقيقته، إلا أنه وصفت لما سينزل الله تعالى بهم في النار، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالْآيَاتِ﴾ قال الفراء: «فهي» كناية عن الأيمان، ولم تذكر، لأن الغُلُّ لا يكون إلا في اليمين والعنق جامعاً لهما، فاكفئي بذكر أحدهما عن صاحبه. وقال الزجاج: «هي» كناية عن الأيدي، ولم يذكرهما إيجازاً، لأن الغُلُّ يتضمن اليد والعنق، وأنشد:

وما أدري إذا يُمُنْتُ أرضاً أريدُ الخيرَ أيُّهما يَلِينِي^(١)

وإنما قال: أيُّهما، لأنه قد علم أن الخير والشر معروضان للإنسان. قال الفراء: والدُّنُّ: أسفل اللِّخَيْنِ، والمُفْمَحُ: الغاضُّ بصره بعد رفع رأسه. قال أبو عبيدة: كُلُّ رَافِعٍ رَأْسَهُ فَهُوَ مُفْمَحٌ وَقَامِحٌ، والجمع: قِمَاحٌ، فإن قُلَّ ذلك بإنسان فهو مُفْمَحٌ، ومنه هذه الآية. وقال ابن قتيبة: يقال: بَعِيرٌ قَامِحٌ، وإِبِلٌ قِمَاحٌ: إذا رَوَيْتَ من الماء فَمَحَحَتْ، قال الشاعر - وذكر سفينة -:

ونحنُ على جَوَانِبِهَا قُفُودٌ نَغْضُ الطَّرْفَ كَالِإِبِلِ الْقِمَاحِ^(٢)

وقال الأزهري: المراد أن أيديهم لما غُلَّتْ عند أعناقهم، رَفَعَتْ الأغلال أذقانهم ورؤوسهم، فهم مرفوعو الرؤوس برفع الأغلال إِيَّاهَا.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَبْأًا﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: بفتح السين، والباقون: بضمها، وقد تكلمنا على الفرق [بينهما] في [الكهف: ٩٤]. وفي معنى الآية قولان: أحدهما: منعناهم عن الإيمان بموانع، فهم لا يستطيعون الخروج عن الكفر. والثاني: حجبتناهم عن أذى رسول الله ﷺ بالظلمة لما قصده بالآذى.

(١) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٣٩، ١٤٠: رواه ابن إسحاق في «السيرة» في كلام طويل، قال: ورواه أبو تميم في «الدلائل» من طريق ابن إسحاق: حدثني محمد بن محمد بن سعيد، أو عكرمة عن ابن عباس، أن أبا جهل قال: «إني أعاهد الله لأجلسن غداً لمحمد بحجر ما أطيق حملة، فإذا سجد في صلاته فقبضت به رأسه...» فلما نحوه إلى قوله: «قد يست بداه على حجره حتى قلب الحجر بين يديه». وقد ذكر سبب النزول هذا مختصراً الطبري عن عكرمة قال: قال أبو جهل لئن رأيت محمداً لأفعلن ولأفعلن، فانزلت: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَامِهِمْ فِتْنَةً﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ قال: فكانوا يقولون: هذا محمد، فيقول: أين هو؟ أين هو؟ لا يبصره. اهـ. وأصله في «البخاري» ٥٥٧/٨ في سورة (افرا) عند قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَتَنَّا بِالْقُرْآنِ﴾ غَيْرَ كَثِيرٍ عَالِمِينَ ﴿١١﴾ عن عكرمة قال ابن عباس: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لو فعله لأخذته الملائكة»، وسأني ذلك في محله من سورة (افرا) إن شاء الله تعالى.

(٢) تقدم البيت ١٠٥ وتخرجه ٢١٨، وهو أيضاً في «معاني القرآن» ٢٣١، و«مشكل القرآن» ١٧٦، و«الطبري» ١٥١/٢٢.

(٣) البيت لبشر بن أبي خازم الأسدي، وهو في «مجاز القرآن» ١٥٧/٢، «وغريب القرآن» ٣٦٣، و«القرطبي» ٨/١٥، و«البحر المحيط» ٣٢٤/٧، و«روح المعاني» ١٩٧/٢٢، و«الصحاح» و«اللسان»، و«التاج»: قمع.

قوله تعالى: ﴿فَاعْشَيْتَهُمْ﴾ قال ابن قتيبة: أغشينا عيونهم وأعميناهم عن الهدى. وقرأ ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، ويحيى بن يعمر: «فأعشيناهم» بعين غير معجمة. ثم ذكر أن الإنذار لا ينفعهم لإضلاله إياهم بالآية التي بعد هذه. ثم أخبر عن ينفعه الإنذار بقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ أي: إنما ينفع إنذارك ﴿مَنْ أَتَّبَعَ الْكُفْرَ﴾ وهو القرآن، فعمل به ﴿وَحِثَّى الرَّحْمَنَ بِالْقَبْرِ﴾ وقد شرحناه في (الأنبياء: ٤٩)، والأجر الكريم: الحسن، وهو الجنة. ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتُ﴾ للبعث ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ من خير وشر في دنياهم. وقرأ النخعي، والجمهري: «وَيُكْتُبُ» بياء مرفوعة وفتح التاء «وَأَنَارُهُمْ» برفع الراء. وفي آثارهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنها خطاهم بأرجلهم، قاله الحسن، ومجاهد، وقتادة. قال أبو سعيد الخدري: شكك بنو سلمة إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد، فأنزل الله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾، فقال النبي ﷺ: «عليكم منازلكم، فإنما تكتب آثاركم»^(١)، وقال قتادة وعمر بن عبد العزيز: لو كان الله مغفلاً شيئاً، لأغفل ما تعفَى الرياح من أثر قدم ابن آدم. والثاني: أنها الخطأ إلى الجمعة، قاله أنس بن مالك^(٢). والثالث: ما أثروا من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها بعدهم، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، واختاره الفراء، وابن قتيبة، والزجاج^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ وقرأ ابن السميع، وابن أبي عبله: «وكل» برفع اللام، أي: من الأعمال «أَحْصَيْتَهُ» أي: حفظناه ﴿فِي إِمَارٍ ثِيْبِيْنِ﴾ وهو اللوح المحفوظ.

﴿وَأَضْرَبَ لَهم مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اتِّبَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَهَبْنَا بِهِنَّ نَارًا فَجَاوَزُوا فِيهَا وَكُنْتُمْ تُرْسِلُونَ ﴿١﴾ قَالُوا مَا أَشَرُ لَنَا بِهِنَّ وَمَا أَتَيْنَا بِهِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِذْ أَتَيْنَا بِهِنَّ نَارًا فَكُنْتُمْ تُرْسِلُونَ ﴿٢﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣﴾ قَالُوا إِنَّا نَطَّلِعُكُمْ بِكُمْ لَيْنَ لَمْ تَنْهَوْا لَتَرْجِعُنَّو لَيَمَسَّنَّكُمُ عَذَابُ إِلَهٍ ﴿٤﴾ قَالُوا لَطَرَكُمْ مَعَكُمْ إِنْ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَتَتْكُمْ قَوْمٌ مُتْرِفُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهم مَثَلًا﴾ المعنى: صف لأهل مكة مثلاً؛ أي: شيئاً. وقال الزجاج: المعنى: مثل لهم مثلاً ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ وهو بدل من مثل، كأنه قال: اذكر لهم أصحاب القرية. وقال عكرمة، وقتادة: هذه القرية هي أنطاكية^(١). ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اتِّبَيْنِ﴾ وفي اسميهما ثلاثة أقوال: أحدها: صادق وصادق، قاله ابن عباس، وكعب. والثاني: يوحنا ويولس، قاله وهب بن منبه. والثالث: تومان ويولس، قاله مقاتل.

(١) رواه الترمذي ١٥٥/٢ وقال: هذا حديث حسن غريب، ورواه الطبري ١٥٤/٢٢، والحاكم ٤٢٨/٢ وصححه ووافقه الذهبي، ورواه الواحدي في أسباب النزول ٢٠٩، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٦٠/٥، وزاد نسبه لعبد الرزاق، والبزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي سعيد الخدري ﷺ. قال ابن كثير: وفيه غرابة من حيث ذكر نزول هذه الآية والسورة بكما لها مكية، فالله أعلم. اهـ. والحديث رواه مسلم في «صحيحه» ٤٦٢/١ دون سبب النزول من حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال: خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن يتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم: «إنه قد بلغني أنكم تريدون أن تتقلوا قرب المسجد؟» قالوا: نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك، فقال: «يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم».

(٢) قال الحافظ السيوطي في «الدر» ٢٦٠/٥: أخرج ابن أبي حاتم عن أنس ﷺ في قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ قال: هذا في الخطر يوم الجمعة. اهـ. وروى الترمذي في «جامعه» عن أوس بن أوس الثقفي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من غسل يوم الجمعة واغتسل، وبكر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودفا من الإمام واستمع ولم يلغ، كان له بكل خطوة يخطوها عمل سنة، أجر صيامها وقيامها» قال: حديث حسن. ورواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم وصححه، وابن خزيمة وابن حبان في «صحيحهما» وهو حديث صحيح.

(٣) روى مسلم في «صحيحه» ٧٥٥/٢ عن جرير بن عبد الله البجلي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سأل في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء». وروى مسلم في «صحيحه» ١٢٥٥/٣ عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

(٤) قال ابن كثير: ذكر أبو سعيد الخدري ﷺ وغير واحد من السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بمذابح يبعث عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، قال: فذكره عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّا شُرَى الْكِتَابِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ الْفُتُورَ الْأَوَّلَ﴾ قال: فعلى هذا يتبين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية كما أطلق ذلك غير واحد من السلف، أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم. اهـ.

خاطب قومه بذلك، وطئوه بأرجلهم. وقال السدي: رمّوه بالحجارة، وهو يقول: اللّهم اهْدِ قومي.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ لَمَّا قَتَلُوهُ فَلَقِيَ اللَّهَ، قيل له: «ادْخُلِ الْجَنَّةَ»، فلَمَّا دَخَلَهَا ﴿قَالَ بَلَيْتَ قَوْمِي بِمَا عَفَّرَ لِي رَبِّي﴾، وفي «ما» قولان: أحدهما: أنها مع «عَفَّرَ» في موضع مصدر؛ والمعنى: بؤفّران الله لي. والثاني: أنها بمعنى «الذي»، فالمعنى: ليتهم يعلمون بالذي عَفَّرَ لي [به] رَبِّي فيؤمنون، فنصحبهم حيًّا وميتًا. فلَمَّا قَتَلُوهُ عَجَّلَ اللَّهُ لَهُمُ الْعَذَابَ، فذلك قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْ قَوْمِهِ﴾ يعني قوم حبيب ﴿وَمِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد قتله ﴿وَمِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ يعني الملائكة، أي: لم ينتصر منهم بَجُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴿وَمَا كُنَّا﴾ نُنْزِلُهُمْ عَلَى الْأُمَمِ إِذَا أَهْلَكْنَاهُمْ. وقيل: المعنى: ما بعثنا إليهم بعده نبيًّا، ولا أنزلنا عليهم رسالة. ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ قال المفسرون: أخذ جبريل عليه السلام بعصا داني باب المدينة، ثم صاح بهم صيحة واحدة، فإذا هم ميتون لا يُسْمَعُ لَهُمْ حِسٌّ، كالنَّارِ إِذَا طُفِئَتْ، وهو قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ تَحِيذُونَ﴾ أي: ساكنون كهيئة الرماد الخامد^(١).

﴿يَحْشَرُهُ عَلَى الْيَسَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَرِهَ اللَّهُ لَنَا قَتْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿وَأَن كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ﴿وَأَيُّهُ لَمَّا الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَفْرَجْنَا مِنْهَا حَيًّا فَيَنبُتُ يَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَحَمَلْنَا فِيهَا جَنَّتٍ مِّن تَحْيِيلٍ وَأَعْتَبْنَا وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ ﴿يَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِن أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَحْشَرُهُ عَلَى الْيَسَادِ﴾ قال الفراء: المعنى: يا لها حَسْرَةٍ عَلَى الْعِبَادِ. وقال الزجاج: الحَسْرَةُ أَنْ يَرْكَبَ الْإِنْسَانُ مِنْ شِدَّةِ النَّوْمِ مَا لَا نَهَايَةَ لَهُ حَتَّى يَبْقَى قَلْبُهُ حَيِّرًا. وفي المتحسر على العباد قولان: أحدهما: أنهم يتحسرون على أنفسهم، قاله مجاهد والزجاج: استهزأهم بالرُّسُلِ كَانَ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ. وقال أبو العالية: لَمَّا عَايَنُوا الْعَذَابَ، قالوا: يا حسرتنا على المرسلين، كيف لنا بهم الآن حتى نؤمن. والثاني: أنه تحسّر الملائكة على العباد في تكذيبهم الرُّسُلَ، قاله الضحاك. ثم خَوْفٌ كُفَّارٌ مَكَّةَ فَقَالَ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴿كَرِهَ اللَّهُ لَنَا قَتْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ﴾ فيعتبروا ويخافوا أن نعجل لهم الهلاك كما عجل لمن أهلك قبلهم ولم يرجعوا إلى الدنيا؟ قال الفراء: وألف ﴿أَنَّهُمْ﴾ مفتوحة، لأن المعنى: أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ وَقَدْ كَسَرَهَا الْحَسَنُ، كَأَنَّهُ لَمْ يُوقِعِ الرُّوْيَةَ عَلَى «كَمْ»، فلم يوقعها على «أَنْ»، وإن استأنفتها كسرتها.

قوله تعالى: ﴿وَأَن كُلُّ لَمَّا﴾ وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة: «لَمَّا» بالتشديد، ﴿جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي: إن الْأُمَمَ يُحْضَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيجأزون بأعمالهم^(٢). قال الزجاج: من قرأ «لَمَّا» بالتخفيف، ف «ما» زائدة مؤكدة، والمعنى: وَأَن كُلُّ لَجَمِيعٍ، ومعناه: وما كُلُّ إِلَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ. ومن قرأ «لَمَّا» بالتشديد، فهو بمعنى «إِلَّا»، تقول: «سَأَلْتُكَ لَمَّا فَعَلْتَ» وإِلَّا فَعَلْتَ». ﴿وَأَيُّهُ لَمَّا الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ﴾ وقرأ نافع: «الْمَيِّتَةُ» بالتشديد، وهو الأصل، والتخفيف أكثر، وكلاهما جائز؛ و«آيَةُ» مرفوعة بالابتداء، وخبرها «لهم»، ويجوز أن يكون خبرها «الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ»؛ والمعنى: وعلامة تدلُّهم على التوحيد وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ الْمُتَوَاتِي أَحْيَاءَ: الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ.

قوله تعالى: ﴿فَيَنبُتُ يَأْكُلُونَ﴾ يعني ما يُنْبِتُ مِنَ الْحَبُوبِ.

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَا فِيهَا﴾ وقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ يعني في الأرض.

قوله تعالى: ﴿يَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ يعني النخيل، وهو في اللفظ مذكّر. ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «عَمِلَتْهُ» بهاء. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «عَمِلَتْ» بغير هاء. والهاء مُثَبِّتَةٌ فِي مَصَاحِفِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَالشَّامِ وَالْبَصْرَةِ، ومحدوفة من مصاحف أهل الكوفة. قال الزجاج: موضع «ما» خفض؛ والمعنى: لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمِمَّا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ؛ ويجوز أن يكون «ما» نفعاً؛ المعنى: ولم عمله

(١) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ تَحِيذُونَ﴾: فإذا هم هالكون.

(٢) قال ابن كثير: وإن جميع الأمم الماضية والآية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جل وعلا فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرا وشرها، قال: ومعنى هذا قوله جل وعلا: ﴿وَأَن كُلُّ لَمَّا يَرْجِعُهُمْ رَبُّكَ أَتَعْلَمُونَ﴾. اهـ.

أيديهم، وهذا على قراءة من أثبت الهاء، فإذا حُذفت الهاء، فالاختيار أن تكون «ما» في موضع خفض، وتكون بمعنى «الذي»، فيحسُن حذف الهاء؛ وكذلك ذكر المفسرون القولين، فمن قال بالأول، قال: لياكلوا ممّا عملت أيديهم، وهو الثُّرُوس والحُرُوث التي تعبوا فيها، ومن قال بالثاني، قال: لياكلوا ما ليس من صنعمهم، ولكنه من فعل الحق ﷻ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى فيؤخّده؟ ثم نزه نفسه بقوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ يعني الأجناس كلها ﴿وَمِمَّا تَبَيَّنَتِ الْأَرْضُ﴾ من الفواكه والحبوب وغير ذلك ﴿وَمِنَ أَنْفُسِهِمْ﴾ وهم الذكور والإناث ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ من دواب البر والبحر وغير ذلك ممّا لم يَفْقَوا على عِلْمِهِ.

﴿وَأَيَّاهُمْ أَتَيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ (١) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) وَالْقَمَرَ فَدَرْتَهُ مَوَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْشُونِ الْقَدِيرِ (٣) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آتِلُ سَائِقَ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤)

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّاهُمْ أَتَيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أي: وعلامة لهم تدل على توحيدنا وقدرتنا الليل نسلخ منه النهار؛ قال الفراء: نرمي بالنهار عنه، و«منه» بمعنى «عنه». وقال أبو عبيدة: نُخْرِجُ منه النهار ونمِيزُهُ منه فتجيء الظلمة، قال الماوردي: وذلك أن النهار يتداخل في الهواء فيضيء، فإذا خرج منه أظلم. وقوله: ﴿إِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ أي: داخلون في الظلام. ﴿وَالشَّمْسُ﴾ أي: وآية لهم الشمس ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ وفيه أربعة أقوال: أحدها: إلى موضع قرارها؛ روى أبو ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قال: «مُسْتَقَرُّهَا تحت العرش»، وقال: «إنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها، فتستأذن في الطلوع، فيؤذن لها» (١). والثاني: أن مُسْتَقَرَّهَا مَغْرِبُهَا لا تجاوزه ولا تقصر عنه، قاله مجاهد. والثالث: لوقت واحد لا تعدوه، قاله قتادة. وقال مقاتل: لوقت لها إلى يوم القيامة. والرابع: تسير في منازلها حتى تنتهي إلى مُسْتَقَرَّهَا الذي لا تجاوزه، ثم ترجع إلى أول منازلها، قاله ابن السائب. وقال ابن قتيبة: إلى مُسْتَقَرٍّ لها، وَمُسْتَقَرُّهَا: أقصى منازلها في الغروب، [وذلك] لأنها لا تزال تتقدم إلى أقصى مغاربها، ثم ترجع. وقرأ ابن مسعود، وعكرمة، وعلي بن الحسين، والشيزري (٢) عن الكسائي: «لا مُسْتَقَرٌّ لها» والمعنى أنها تجري أبداً، لا تثبت في مكان واحد.

(١) رواه البخاري في «صحيحه» ٢١٤/٦ و٤١٦/٨ و٣٥٠/١٣، ومسلم ١٣٩/١، والترمذي ١٥٥/٢، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٦٣/٥ وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في «العظمة»، وابن مردويه، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن أبي ذر رضى الله عنه. قال ابن كثير: في معنى قوله تعالى: «المستقر لها» قولان: أحدهما: أن المراد مستقرها المكاني، وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب، وهي أينما كانت فهي تحت العرش هي وجميع المخلوقات، لأنه سقفا، والقول الثاني: أن المراد بمستقرها، هو منتهى سيرها، وهو يوم القيامة يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكوز وينتهي هذا العالم إلى غايته، وهذا هو مستقرها الزماني. وقال الامام النووي في «شرح مسلم» ٢/١٩٥: وأما قوله ﷺ في الحديث الآخر في الشمس: «مستقرها تحت العرش فتختر ساجدة»: فهذا مما اختلف المفسرون فيه، فقال جماعة بظاهر الحديث، قال الواحدي: وعلى هذا القول، إذا غربت كل يوم استقرت تحت العرش إلى أن تطلع من مغربها، وقال قتادة ومقاتل: معناه: تجري إلى وقت لها وأجل لا تعداه، قال الواحدي: وعلى هذا مستقرها انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا، وهذا اختيار الزجاج، وقال الكلبي: تسير في منازلها حتى تنتهي إلى آخر مستقرها الذي لا تجاوزه ثم ترجع إلى أول منازلها، واختار ابن قتيبة هذا القول، والله أعلم. وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: قال الخطابي: يحتمل أن يكون المراد باستقرارها تحت العرش: أنها تستقر تحته استقراراً لا تحيط به نحن، ويحتمل أن يكون المعنى: أو علم ما سألت عنه من مستقرها تحت العرش في كتاب فيه ابتداء أمور العالم ونهايتها، فينقطع دوران الشمس وتستقر عند ذلك ويبطل فعلها، وليس في سجودها كل ليلة تحت العرش ما يعين عن دورانها في سيرها. قلت (أي الحافظ ابن حجر): وظاهر الحديث أن المراد بالاستقرار: وقوعه في كل يوم وليلة عند سجودها، ومقابل الاستقرار السير الدائم المبرر عنه بالجري، والله أعلم. قال الامام النووي في «شرح مسلم»: وأما سجود الشمس، فهو بتميز وإدراك بخلق الله تعالى فيها، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: قال ابن العربي: أنكر قوم سجودها، وهو صحيح ممكن، وتأوله قوم على ما هي عليه من التشجير الدائم، قال ابن حجر: ويحتمل أن يكون المراد بالسجود سجود من هو موكل بها من الملائكة، أو تسجد بصورة الحال، فيكون عبارة عن الزيادة في الانقياد والخضوع في ذلك العين. وقال ابن حجر: قال ابن بطال: استئذان الشمس معناه أن يخلق فيها حياة بوجد القول عندها، لأن الله قادر على إحياء الجماد والموات، قال: وقال غيره: يحتمل أن يكون الاستئذان أسند إليها مجازاً، والمراد من هو موكل بها من الملائكة. اهـ.

(٢) هو عيسى بن سليمان أبو موسى الحجازي المعروف بالشيزري الحنفي، قال ابن الجزري في «طبقات القراء»: أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن الكسائي، وله عنه انفرادات.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر من أمر الليل والنهار والشمس ﴿تَقْدِيرُ الْقَرِينِ﴾ في ملكه ﴿الْقَلِيلِ﴾ بما يقدر.
قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «والقمر» بالرفع. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «والقمر» بالنصب. قال الزجاج: من قرأ بالنصب. فالمعنى: وقدّرنا القمر قدرناه منازل، ومن قرأ بالرفع، فالمعنى: وآية لهم القمر قدرناه، ويجوز أن يكون على الابتداء، وقدّرناه «الخبر»^(١). قال المفسرون: ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً ينزلها من أول الشهر إلى آخره، وقد سمّيناها في سورة [يونس: ٥]، فإذا صار إلى آخر منزله، دَقَّ فعاد كالمرجوج، وهو عود العذق الذي تركته الشماريخ^(٢)، فإذا جفَّ وقَدُم يشبه الهلال. قال ابن قتيبة: «والقديم» هاهنا: الذي قد أتى عليه حَوْلٌ، شُبّه القمر آخر ليلة يطْلُع به. قال الزجاج: وتقدير «مرجوج»: فُعلون، من الانعراج. وقرأ أبو مجلز، وأبو رجاء، والضحاك، وعاصم الجحدري، وابن السميع: «كالمرجوج» بكسر العين.

قوله تعالى: ﴿لَا السَّمْسُ يَنْبِيئُ لِمَا أَنْ تَدْرِيكَ الْقَمَرَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهما إذا اجتمعا في السماء، كان أحدهما بين يدي الآخر، فلا يشتركان في المنازل، قاله ابن عباس. والثاني: لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر، قاله مجاهد. والثالث: لا يجتمع ضوء أحدهما مع الآخر، فإذا جاء سلطان أحدهما ذهب سلطان الآخر، قاله قتادة؛ فيكون وجه الحكمة في ذلك أنه لو اتصل الضوء، لم يُعرف الليل.

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَيْلُ سَابِقِ الْآثَرِ﴾ وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وأبو عمران، وعاصم الجحدري: «سابق» بالتثنية «الآثر» بالنصب، وفيه قولان: أحدهما: لا يتقدم الليل قبل استكمال النهار. والثاني: لا يأتي ليل بعد ليل من غير نهار فاصل بينهما. وباقي الآية مفسر في سورة [الأنبياء: ٢٣].

﴿وَأَيَّةٌ لِّمَنْ آمَنَّا حَمَلًا ذُرِّيَّتُهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ نَجْمِهِ مَا يَنْجِيهِمْ ۝ وَمَا يَكُونُ ۝ وَلَنْ تَنَالَهُمُ الْفُتُورُ ۝ وَلَا لَهُمْ يَفْذُونَ ۝ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لِّمَنْ آمَنَّا حَمَلًا ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ قرأ نافع، وابن عامر: «ذُرِّيَّاتِهِمْ» على الجمع؛ وقرأ الباقون من السبعة: «ذُرِّيَّتُهُمْ» على التوحيد. قال المفسرون: أراد: في سفينة نوح، فنسب الذُرِّيَّةَ إلى المخاطبين، لأنهم من جنسهم، كأنه قال: ذُرِّيَّةُ الناس. وقال الفراء: أي: ذُرِّيَّةٌ مِنْ هُوَ منهم، فجعلها ذُرِّيَّةً لهم، وقد سبقتهم. وقال غيره: هو حَمَلُ الأنبياء في أصلاب الآباء حين ركبوا السفينة، ومنه قول العباس:

بَلْ نُظِفَّةٌ تَرْكَبُ السُّفِينِ وَقَدْ أَلْجَمَ نَسْراً وَأَهْلَهُ الْغَرْقُ^(٣)

قال المفضل بن سلمة: الذُرِّيَّةُ: النسل، لأنهم مِنْ ذُرَاهِمِ الله منهم، والذُرِّيَّةُ أيضاً: الآباء، لأن الذرَّ وقع منهم، فهو من الأضداد، ومنه هذه الآية، وقد شرحنا هذا في قوله: ﴿ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ٣٤]؛ والمشحون: المملوء.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ نَجْمِهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: مثل سفينة نوح، وهي الشُّنْ، روى هذا المعنى سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال الضحاك، وأبو مالك، وأبو صالح، والمراد بهذا ذُكْرُ مِثْنِهِ بَأَن خَلَقَ الخشب الذي تُعْمَلُ منه الشُّنْ. والثاني: أنها الإبل، خَلَقَهَا لهم للركوب في البرِّ مثل الشُّنْ المركوبة في البحر، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعكرمة، وعن الحسن وقاتة كالقولين^(٤).

(١) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندنا أنها قراءتان مشهورتان صحيحتا المعنى، فأبهما قرأ القارئ فمصيب.

(٢) الشماريخ: الشعب التي على العلق، واحدها شِمَارِخٌ وشَمْرُوخٌ، وكل فِصْنٌ له شعب فهي شماريخ، والشمراخ: الذي عليه يسر وأصله في العلق.

(٣) البيت للعباس بن عبد المطلب عليه السلام عم النبي صلى الله عليه وآله في شعر يمدح به رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو في «اللسان» و«التاج»: نسر. قال ابن الأثير: يريد (أي بالنسر) الصنم الذي كان يعبد قوم نوح، على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

(٤) قال ابن جرير الطبري: وأشبه القولين بتأويل ذلك قول من قال: عنى بذلك السفن، وذلك لدلالة قوله: ﴿وَلَنْ تَنَالَهُمُ الْفُتُورُ﴾ على أن ذلك كذلك، وذلك أن الفرق معلوم أنه لا يكون إلا في الماء، ولا غرق في البرِّ. اهـ. وقال ابن كثير: ويقوّي هذا المذهب في المعنى قوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَأْكُلْ أَمْوَالَكُم مِّنْ أَمْوَالِكُمْ لَتَكُونُوا رِجْزًا ذُرِّيَّةً ۝﴾. اهـ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَرِيحَ لَهْمٍ﴾ أي: لا مُغِيثَ ولا مُجِيرَ ﴿وَلَا هُمْ يَقْدُونَ﴾ أي: ينجون من الغرق، يقال: أنقذه واستنقذه، إذا خلّصه من المكروه، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ المعنى: إلا أن نرحمهم ونمنّهم إلى آجالهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني الكُفَّارَ ﴿انْفِقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: «ما بين أيديكم»: ما مضى من الذنوب، «وما خلفكم»: ما يأتي من الذنوب، قاله مجاهد. والثاني: «ما بين أيديكم»^(١) ما تقدّم من عذاب الله للأمام، «وما خلفكم» من أمر الساعة، قاله قتادة. والثالث: «ما بين أيديكم» من الدنيا، «وما خلفكم» من عذاب الآخرة. قاله سفيان. والرابع: «ما بين أيديكم» من أمر الآخرة، «وما خلفكم» من أمر الدنيا فلا تفتشوا بها، قاله ابن عباس والكلبي. ﴿فَلَمَّا كُنْتُمْ تُحْشَرُونَ﴾ أي: لتكونوا على رجاء الرحمة من الله. وجواب «إذا» محذوف، تقديره: إذا قيل لهم هذا، أعرضوا؛ ويدلّ على هذا المحذوف قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِن مَّاءٍ﴾ أي: من دلالة تدل على صدق الرسول.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُلْهِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَلَمَعَ لَهُ إِن أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّسُونَ (٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ قَوْلِيَهُ وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُرْسِلُ (١٠) وَيُفْعِلُ فِي السَّاعَةِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِذْ يَرْجِعُ يَمْسِلُونَ (١١) قَالُوا بَلْأَنَّا مِن بَعْثِنَا مِن مَّرْقَدٍ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (١٢) إِن كُنْتُمْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُخَضَّرُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْفُكْ نَفْسَ سَيِّئِنَا وَلَا تُحْشَرُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) إِنَّا مَنَحْنَبُ الْجَنَّةِ الْيَمَنَ فِي شُكْلٍ فَكَيْهُونَ (١٥) ثُمَّ وَأَوْبَجُ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَكِبُونَ (١٦) لَمْ يَفِيَّا فَنَكَبَتْهُ وَلَمْ تَأْ يَدْعُونَ (١٧) سَلَّمَ قَوْلًا يَنْ رَبِّي رَجِيمٍ (١٨)

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها: في اليهود، قاله الحسن. والثاني: في الزنادقة، قاله قتادة. والثالث: في مشركي قريش، قاله مقاتل؛ وذلك أن المؤمنين قالوا لكفار مكة: أنفقوا على المساكين النصيب الذي زعمتم أنه لله من الحرث والأنعام، فقالوا: ﴿أَنُلْهِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَلَمَعَ لَهُ﴾. وقال ابن السائب: كان العاص بن وائل إذا سأله مسكين، قال: اذهب إلى ربك فهو أولى بك مني، ويقول: قد منعه الله، أطمعه أنا؟^(٢) ومعنى الكلام أنهم قالوا: لو أراد الله أن يرزقهم لرزقهم، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم فلا نُطْعِمُهُمْ؛ وهذا خطأ منهم، لأن الله تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعضاً، ليلو الغني بالفقير فيما فرض له في ماله من الزكاة، والمؤمن لا يعترض على المشيئة، وإنما يوافق الأمر. وقيل: إنما قالوا هذا على سبيل الاستهزاء. وفي قوله: ﴿إِن أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ قولان: أحدهما: أنه من قول الكفار للمؤمنين، يعنون: إنكم في خطأ من أتباع محمد. والثاني: أنه من قول الله للكفار لما ردّوه من جواب المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ يعنون القيامة؛ والمعنى: متى إنجاز هذا الوعد ﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ يعنون محمداً وأصحابه. ﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ وهي النفخة الأولى. و﴿يَخِصِّسُونَ﴾ بمعنى يختصمون، فأدغمت التاء في الصاد. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿يَخِصِّسُونَ﴾ بفتح الباء والخاء وتشديد الصاد. وروي عن أبي عمرو اختلاس حركة الخاء. وقرأ عاصم، وابن عامر، والكسائي: ﴿يَخِصِّسُونَ﴾ بفتح الباء وكسر الخاء. وعن عاصم كسر الباء والخاء. وقرأ نافع بسكون الخاء وتشديد الصاد. وقرأ حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد، أي: يَخِصِّمُ بعضهم بعضاً. وقرأ أبي بن كعب: «يختصمون» بزيادة تاء؛ والمعنى أن الساعة تأتيهم أغفل ما كانوا عنها وهم متشاغلون في متصرفاتهم وبيعهم وشراهم، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ قَوْلِيَهُ﴾ قال مقاتل: أعجلوا عن الوصية فماتوا، ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُرْسِلُ﴾ أي: لا يعودون من الأسواق إلى منازلهم؛ فهذا وصف ما يُلْقُونَ في النفخة الأولى. ثم ذكر ما يُلْقُونَ في النفخة الثانية

(١) زيادة ليست في الأصل.

(٢) ذكر هذا المعنى الخازن في «تفسيره»، ولم ينسبه لابن السائب ولا غيره، بل قال: قيل: كان العاص بن وائل إذا سأله مسكين... إلخ، والله أعلم. قال الألوسي: وظاهر ما تقدم يقتضي أنها نزلت في كفار مكة، أمروا بالإفئاق مما رزقهم الله تعالى، وهو عام في الإطعام وغيره، فأجابوا بنفي الإطعام الذي لم يزالوا يفتخرون به، دلالة على نفي غيره بالطريق الأولى. اهـ.

فقال: ﴿وَيُفْعَلُ فِي الصُّورِ فَلَمَّا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ يعني القبور؛ ﴿إِلَّا رَيْبَهُمْ يَسْأَلُونَ﴾ أي: يخرجون بسرعة^(١)، وقد شرحنا هذا المعنى في سورة [الأنبياء: ٩٦]. ﴿قَالُوا يَوَدُّكَ مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدًا﴾^(٢) وقرأ علي بن أبي طالب، وأبو رزين، والضحاك، وعاصم الجحدري: «من بعثنا» بكسر الميم والثاء وسكون العين. قال المفسرون: إنما قالوا هذا، لأن الله تعالى رفع عنهم العذاب فيما بين النفختين. قال أبي بن كعب: ينامون نومة قبل البعث، فإذا بعثوا قالوا هذا.

قوله تعالى: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ في قاتلي هذا الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أنه قول المؤمنين، قاله مجاهد، وقتادة، وابن أبي ليلى. قال قتادة: أول الآية للكافرين، وآخرها للمؤمنين. والثاني: أنه قول الملائكة لهم، قاله الحسن. والثالث: أنه قول الكافرين، يقول بعضهم لبعض: هذا الذي أخبرنا به المرسلون أننا نُبعث ونجازى، قاله ابن زيد^(٣). قال الزجاج: «من مرقدا» هو وقف التمام، ويجوز أن يكون «هذا» من نعت «مرقدنا» على معنى: مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هذا الذي كنا راقيدين فيه؟ ويكون في قوله: «ما وعد الرحمن» أحد إضمارين، إما «هذا»، وإما «حق»، فيكون المعنى: حق ما وعد الرحمن^(٤). ثم ذكر النفخة الثانية، فقال: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾، وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: ﴿إِنْ أَصْحَبَ الْجَنَّةَ الْيَوْمَ﴾ يعني في الآخرة ﴿فِي شُغْلٍ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «في شُغْلٍ» بإسكان الغين. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «في شُغْلٍ» بضم الشين والغين. وقرأ أبو هريرة، وأبو رجاء، وأيوب السخيتاني: «في شُغْلٍ» بفتح الشين والغين. وقرأ أبو مجلز، وأبو العالية، وعكرمة، والضحاك، والنخعي، وابن يعمر، والجحدري: «في شُغْلٍ» بفتح الشين وسكون الغين^(٥)، وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن شغلهم اقتضاها العذاري، رواه شقيق عن ابن مسعود، ومجاهد عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن المسيب، وقتادة، والضحاك. والثاني: ضرب الأوتار، رواه عكرمة عن ابن عباس^(٦)؛ وعن عكرمة كالقولين، ولا يثبت هذا القول. والثالث: النعمة، قاله مجاهد. وقال الحسن: شغلهم: نعيمهم عما فيه أهل النار من العذاب.

قوله تعالى: ﴿فَنُكَلِّهُنَّ﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو المتوكل، وقتادة، وأبو الجوزاء، والنخعي، وأبو جعفر: «فَنُكَلِّهُنَّ». وهل بينهما فرق؟ فيه قولان: أحدهما: أن بينهما فرقا. فاما «فاكهون» ففيه أربعة

(١) روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون» قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أُنْبِئْتُ، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أُنْبِئْتُ، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أُنْبِئْتُ، ثم يُنْزَلُ الله من السماء ماء فينبعثون كما ينبت البقل» قال: «وليس من الإنسان شيء إلا يبل، إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة» متفق عليه، واللفظ للسلم، ومعنى قول أبي هريرة: «أُنْبِئْتُ»: امتنعت عن الجواب لأنني لا أدري ما هو الصواب. وأعجب الذنب هو العظم الذي في أسفل الصلب، وهو رأس المُصَمَّم، ويقال له: «عجم» بالميم، وهو أول ما يخلق من آدمي، وهو الذي يبقى من الإنسان ليعاد تركيب الخلق عليه.

(٢) قال ابن كثير: يمتنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها، فلما عاينوا ما كُذِّبوا به في محشرهم ﴿قَالُوا يَوَدُّكَ مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدًا﴾؟ قال: وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد. اهـ.

(٣) قال ابن جرير الطبري: والقول الأول أشبه بظاهر التنزيل، ولذلك من جهلهم استنبطوا، ومحال أن يكون من كلام المؤمنين، لأن الكفار في قبيلهم: ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدًا﴾ هذا؟ دليل على أنهم كانوا بمن بعثهم من مرقدهم جهلاً، ولذلك من جهلهم استنبطوا، ومحال أن يكونوا استنبطوا ذلك إلا من غيرهم ممن خالفت صفته صفته في ذلك. اهـ. قال ابن كثير: وهذا أصح، وذلك كقوله تبارك وتعالى في (الصفافات): ﴿قَالُوا يَوَدُّكَ هَذَا يَوْمَ الْآخِرَةِ﴾ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَثُرَ بِهِ تَكْذِيبُكَ ﷺ وقَالَ الله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُغْرِبُونَ مَا إِشْرَأَ عَمِيرَ سَاعَهُ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْكَفُونَ﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ أَرَأَيْتُمْ لَئِنْ لَفِئَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَيَّ يَوْمَ الْآخِرَةِ فَهَذَا يَوْمَ الْآخِرَةِ وَلَكِنْ كُنْتُمْ كَثُرَ لَا تَلْمِزُونَ ﷻ. اهـ.

(٤) قال ابن جرير الطبري: وفي قوله: «هذا» وجهان، أحدهما: أن تكون إشارة إلى «ما» ويكون ذلك كلاماً مبتدأ بعد تنافي الخبر الأول بقوله: ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدًا﴾ فتكون «ما» حبيطة مرفوعة بـ «هذا»، ويكون معنى الكلام: هذا وَغْدُ الرَّحْمَنِ، وصدق المرسلون؛ والوجه الآخر: أن تكون من صفة المرقد، وتكون خفصاً رداً على المرقد، وعند تمام الخبر الأول؛ فيكون معنى الكلام: مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هذا؟ ثم يبتدأ الكلام فيقال: ما وعد الرحمن، بمعنى: بكم وَغْدُ الرَّحْمَنِ، فتكون «ما» حبيطة رفعاً على هذا المعنى. اهـ.

(٥) قال ابن جرير الطبري: والصواب في ذلك عندي قراءة بضم الشين والغين، أو بضم الشين وسكون الغين، بأي ذلك قرأ القارئ فهو مصيب، لأن ذلك هو القراءة المعروفة في قراء الأمصار مع تقارب معنيهما، قال: وأما قراءته بفتح الشين والغين، ففيه جائزة عندي، لإجماع الحجة من القراء على خلافها. اهـ.

(٦) قال ابن كثير: وقال ابن عباس رضي الله عنه في رواية عنه: ﴿فِي شُغْلٍ فَكَهُنَّ﴾ أي: بسماع الأوتار، قال: وقال أبو حاتم: لعله غلط من المستمع، وإنما هو اقتضاها الأوتار. اهـ. والاقتضاها والاقتضاها بمعنى واحد.

أقول: أحدهما: فَرَحون، قاله ابن عباس. والثاني: مُعْجَبون، قاله الحسن، وقتادة. والثالث: ناعمون، قاله أبو مالك، ومقاتل. والرابع: ذرو فاكهة، كما يقال: فلان لا يبر تامر، قاله أبو عبيدة، وابن قتيبة. وأما «فَكِهون» ففيه قولان: أحدهما: أن الفكه: الذي يتفكه، تقول العرب للرجل إذا كان يتفكه بالطعام أو بالفاكهة أو بأعراض الناس: إن فلاناً لفكه بكذا، ومنه يقال للمزاح: فُكاهة، قاله أبو عبيدة. والثاني: فَكِهين بمعنى فَرَحين، قاله أبو سليمان الدمشقي. والقول الثاني: أن فاكِهين وفَكِهين بمعنى واحد، كما يقال: حاذِرٌ وحَذِرٌ، قاله الفراء. وقال الزجاج: فاكِهون وفَكِهون بمعنى فَرَحين. وقال أبو زيد: الفكه: الطيب النفس الضحوك، يقال: رجل فاكِه وفكه^(١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ زُلْزِلَتْ﴾ يعني حلاتهم ﴿فِي ظُلَالٍ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «فِي ظُلَالٍ». قال الفراء: الظلال جمع ظل، والظلال جمع ظلة، وقد تكون الظلال جمع ظلة أيضاً، كما يقال: حُلَّةٌ وحُلَلٌ، فإذا كثرت فهي الخلال والجلال والجلال. قال مقاتل: والظلال: أكتان القصور. قال أبو عبيدة: والمعنى أنهم لا يضحون. فاما الأرائك، فقد بيّناها في سورة [الكهف: ٣١].

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَأْذَعُون﴾ قال ابن قتيبة: ما يَتَمَنُّونَ، ومنه يقول الناس: هو في خير ما ادعى، أي: ما تمنى، والعرب تقول: ادع ما شئت، أي: تمن ما شئت. وقال الزجاج: هو مأخوذ من الدعاء، والمعنى: كل ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم. وقوله: ﴿سَلِّمْ﴾ بدل من «ما»؛ المعنى: لهم ما يتمنون سلام، أي: هذا منى أهل الجنة أن يسلم الله عليهم^(٢). و﴿قَوْلًا﴾ منصوب على معنى: سلام يقوله الله قولاً. قال أبو عبيدة: «سلام» رفع على «لهم»؛ فالمعنى: لهم فيها فاكهة ولهم فيها سلام. وقال الفراء: معنى الكلام: لهم ما يدعون مسلم خالص، ونصب القول، كأنك قلت: قاله قولاً، وإن شئت جعلته نصباً من قوله: ولهم ما يدعون قولاً، كقولك: عِدَّةٌ من الله. وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، والجدري: «سلاماً قولاً» بنصبها جميعاً.

﴿وَأَسْتَفْهَمُوا إِلَهُهُمْ﴾ ١٠١ ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْيَوْمَ إِلَهُاتٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ ١٠٢ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا نِسْمَ الْجِبِلِّ﴾ ١٠٣ ﴿وَأَمْحَاكُمْ﴾ ١٠٤ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا نِسْمَ الْجِبِلِّ﴾ ١٠٥ ﴿وَأَمْحَاكُمْ﴾ ١٠٦ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا نِسْمَ الْجِبِلِّ﴾ ١٠٧ ﴿وَأَمْحَاكُمْ﴾ ١٠٨ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا نِسْمَ الْجِبِلِّ﴾ ١٠٩ ﴿وَأَمْحَاكُمْ﴾ ١١٠ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا نِسْمَ الْجِبِلِّ﴾ ١١١ ﴿وَأَمْحَاكُمْ﴾ ١١٢ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا نِسْمَ الْجِبِلِّ﴾ ١١٣ ﴿وَأَمْحَاكُمْ﴾ ١١٤ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا نِسْمَ الْجِبِلِّ﴾ ١١٥ ﴿وَأَمْحَاكُمْ﴾ ١١٦ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا نِسْمَ الْجِبِلِّ﴾ ١١٧ ﴿وَأَمْحَاكُمْ﴾ ١١٨ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا نِسْمَ الْجِبِلِّ﴾ ١١٩ ﴿وَأَمْحَاكُمْ﴾ ١٢٠

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْهَمُوا إِلَهُهُمْ﴾ ١٠١ قال ابن قتيبة: أي: انقطعوا عن المؤمنين وتميزوا منهم، يقال: يزث الشيء من الشيء: إذا عزلته عنه، فانماز وامتاز، وميزته فتميز. قال المفسرون: إذا اختلط الإنسان والجن في الآخرة، قيل: ﴿وَأَسْتَفْهَمُوا إِلَهُهُمْ﴾ ١٠١، فيقال للمجرمين: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْيَوْمَ إِلَهُاتٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ ١٠٢؟ أي: ألم أمركم، أو أوصيكم؟ «وتعبدوا» بمعنى تطيعوا، والشيطان هو إبليس، زين لهم الشرك فاطاعوه، ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ١٠٣ ظاهر العداوة، أخرج أبيكم من الجنة. ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي﴾ ١٠٤ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والكسائي: «وَأَنْ أَعْبُدُونِي» بضم النون. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحمزة: «وَأَنْ أَعْبُدُونِي» بكسر النون، والمعنى: وحُدُونِي «هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» يعني التوحيد. «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا نِسْمَ الْجِبِلِّ» ١٠٥ قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف: «جِبَلًا» بضم الجيم والباء وتخفيف اللام. وقرأ أبو عمرو، وابن عامر: «جِبَلًا» بضم الجيم وتسكين الباء مع تخفيف اللام. وقرأ نافع، وعاصم: «جِبَلًا» بكسر الجيم والباء مع تشديد اللام. وقرأ علي بن أبي طالب، وابن عباس، وأبو عبد الرحمن السلمي، والزهري، والأعمش: «جِبَلًا» بضم الجيم والباء مع تشديد اللام. وقرأ عبد الله بن عمرو، وابن السميع: «جِبَلًا» بكسر الجيم وسكون الباء وتخفيف اللام. وقرأ أبو العالية: «جِبَلًا» بضم الجيم وفتح الباء مع تشديد اللام. وقرأ أبو عمران الجوني، وعمرو بن دينار: «جِبَلًا» مكسورة الجيم مفتوحة الباء وبألف. ومعنى الكلمة كيف تصرفت في هذه اللغات: الخلق والجماعة؛ فالمعنى: ولقد أضل منكم

(١) قال ابن جرير: والصواب من القراءة في ذلك عندي قراءة من قرأ بالألف «فَكِهون» لأن ذلك هو القراءة المعروفة. اهـ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: والذي هو أولى بالصواب على ما جاء به الخبر عن محمد بن كعب القرظي أن يكون «سَلِّمْ» خبراً لقوله: ﴿وَلَمْ تَأْذَعُون﴾ فيكون معنى ذلك: ولهم فيها ما يدعون، وذلك هو سلام من الله عليهم. اهـ.

خَلَقًا كَثِيرًا ﴿أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾؟؛ فالمعنى: قد رأيتم آثار الهالكين قبلكم بطاعة الشيطان، أفلم تعقلوا ذلك؟! وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو رجاء، ومجاهد، وابن يعمر: «أفلم يكونوا يعقلون» بالياء فيها، فإذا أدنوا إلى جهنم قيل لهم: ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها في الدنيا ﴿أَسَلُّوْهَا﴾ أي: قاسوا حرَّها.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ آلِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتِيهِمْ فَمَا اسْتَبَقُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿وَمَنْ تُصَوِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْغَلَقِ أَفَلَا يَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ آلِهِمْ﴾ وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء: «نُخْتِمُ» بياء مضمومة وفتح التاء ﴿وَتُكَلِّمُنَا﴾ قرأ ابن مسعود: «وَلِتُكَلِّمُنَا» بزيادة لام مكسورة وفتح الميم وواو قبل اللام. وقرأ أبي بن كعب، وابن أبي عبلة: «لِتُكَلِّمُنَا» بلام مكسورة من غير واو قبلها وينصب الميم؛ وقرأوا جميعاً: «وَلِتُشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ» بلام مكسورة وينصب الدال. ومعنى «نُخْتِمُ»: نطبع عليها، وقيل: منعها من الكلام هو الختم عليها، وفي سبب ذلك أربعة أقوال: أحدها: أنهم لما قالوا: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ختم الله على أفواههم ونطقت جوارحهم، قاله أبو موسى الأشعري. والثاني: ليعلموا أن أعضاءهم التي كانت أعواناً لهم على المعاصي صارت شهوداً [عليهم]. والثالث: ليعرفهم أهل الموقف، فيمتزوا منهم بذلك. والرابع: لأن إقرار الجوارح أبلغ في الإقرار من نطق اللسان، ذكره الماوردي. فإن قيل: ما الحكمة في تسمية نطق اليد كلاماً ونطق الرجل شهادة؟ فالجواب: أن اليد كانت مباشرة والرجل حاضرة، وقول الحاضر على غيره شهادة بما رأى، وقول الفاعل على نفسه إقرار بما فعل.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ولو نشاء لأذهبنا أعينهم حتى لا يبدو لها شئ ولا جفن. والمطموس: الذي لا يكون بين جفنيه شئ، ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ أي: فتبادروا إلى الطريق ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ [أي]: فكيف يبصرون وقد أعمينا أعينهم؟! وقرأ أبو بكر الصديق، وعروة بن الزبير، وأبو رجاء: «فاستبقوا» بكسر الباء فأتى يبصرون بالتاء. وهذا تهديد لأهل مكة، وهو قول الأكثرين. والثاني: ولو نشاء لأضللناهم وأعميناهم عن الهدى، فأتى يبصرون بالحق؟! رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: ولو نشاء لفقنا أعيُنَ ضلالتهم وأعميناهم عن غيهم وحوّلنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى فابصروا رشدهم، فأتى يبصرون ولم أفعل ذلك بهم؟! روي عن جماعة منهم مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتِيهِمْ﴾ وروى أبو بكر عن عاصم: «على مكاناتهم»؛ وقد سبق بيان هذا [البقرة: ٦٥]، وفي المراد بقوله: «لَمَسَخْنَاهُمْ» أربعة أقوال: أحدها: لأهلكتناهم، قاله ابن عباس. والثاني: لأعمدناهم على أرجلهم، قاله الحسن، وقتادة. والثالث: لجعلناهم حجارة، قاله أبو صالح، ومقاتل. والرابع: لجعلناهم قرده وخنازير لا أرواح فيها، قاله ابن السائب. وفي قوله: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: فما استطاعوا أن يتقدموا ولا أن يتأخروا، قاله قتادة. والثاني: فما استطاعوا مضياً عن العذاب، ولا رجوعاً إلى الخلقة الأولى بعد المسخ، قاله الضحاك. والثالث: مضياً من الدنيا ولا رجوعاً إليها، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تُصَوِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْغَلَقِ﴾ قرأ حمزة: «نُنَكِّسْهُ» مشددة مع ضم النون الأولى وفتح الثانية؛ والباقون: بفتح النون الأولى وتسكين الثانية من غير تشديد^(١)؛ وعن عاصم كالقراءتين. ومعنى الكلام: من نطّل عمره ننكس خلقه، فنجعل مكان القوة الضعيف، وبدل الشباب الهرم، فترده إلى أرذل العمر. ﴿أَفَلَا يَعْلَمُونَ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو: «أفلا يعقلون» بالتاء، والباقون بالياء. والمعنى: أفلا يعقلون أن من فعل هذا قادر على البعث؟!

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَلْقَىٰ لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ ﴿يُنذِرُ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْيِي الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ قال المفسرون: إن كفار مكة قالوا: إن هذا القرآن شِعْر وإن محمداً شاعر،

(١) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان في قراء الأماص، فأبتهما قرأ القارئ فمصبوب. غير أن التي عليها عامة قراء الكوفيين أعجب إليّ، لأن التنكير من الله في الخلق إنما هو حال بعد حال، وشيء بعد شيء، فلذلك تأييد للتشديد. اهـ.

فقال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الْفِطْرَةَ وَالَّتِي يُكَلِّفُ لَكُمْ﴾ أي: ما يتسهل له ذلك. قال المفسرون: ما كان يترنن له بيت شعر، حتى إنه روي عنه ﷺ أنه تمثّل يوماً فقال:

«كَفَى بِالْإِسْلَامِ وَالشَّيْبِ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا»

فقال أبو بكر: يا رسول الله، إنما قال الشاعر:

«كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا»^(١)

أشهد أنك رسول الله، ما علمك الله الشعر، وما ينبغي لك^(٢). ودعا يوماً عبّاس بن مرداس فقال: «أنت القائل: أَتَجْعَلُ نَهْيِي وَنَهْيَ الْعَبِيدِ دَبيْنِ الْأَفْرِعِ وَعَيْنِيَّة؟»^(٣)

فقال أبو بكر: بأبي أنت وأمي، لم يقل كذلك، فأنشده أبو بكر، فقال رسول الله ﷺ: «لَا يَضُرُّكَ بَأْيُهُمَا بَدَأَ» فقال أبو بكر: والله ما أنت بشاعر، ولا ينبغي لك الشعر^(٤). وتمثّل يوماً، فقال:

«وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْهُ بِالْأَخْبَارِ»^(٥)

فقال أبو بكر: ليس هكذا يا رسول الله، فقال: «إني لسْتُ بشاعر، ولا ينبغي لي»^(٦). وإنما مُنِعَ من قول الشعر،

(١) البيت لسحيم عبد بني الحسحاس، وهو في «ديوانه» ١٦، و«مجمع البيان» ٣٧/٢٣، و«البحر المحيط» ٣٤٥/٧، و«القرطبي» ٥٢/١٥، و«اللسان»: نهى، وهو بتمامه:

عَمِيرَةٌ وَدَعُ إِذَا تَجَهَّزْتَ غَادِيَا كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا

(٢) ذكر هذا الحديث ابن كثير في «التفسير» من رواية ابن أبي حاتم عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن الحسن البصري قال: إن رسول الله ﷺ كان يتمثّل بهذا البيت «كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً» فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً» قال أبو بكر أو عمر ﷺ: أشهد أنك رسول الله، يقول تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الْفِطْرَةَ وَالَّتِي يُكَلِّفُ لَكُمْ﴾. اهـ. وهذا الحديث مرسل، وفي سننه علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. والحديث ذكره السيوطي في «الدرر» ٢٦٨/٥ من رواية ابن أبي حاتم، وزاد نسبه لابن سعد، والرمزاني في «معجم الشعراء» عن الحسن ﷺ مرسلًا أن النبي ﷺ كان يتمثّل بهذا البيت.

(٣) البيت لعبّاس بن مرداس، وهو في «البحر المحيط» ٣٤٥/٧، و«القرطبي» ٥٢/١٥، و«اللسان» ٤٥/٢٣، و«التاج»: نهى، وصوابه موزونًا:

أَتَجْعَلُ نَهْيِي وَنَهْيَ الْعَبِيدِ دَبيْنِ عَيْنِيَّةَ وَالْأَفْرِعِ؟

(٤) ذكره ابن كثير في «التفسير» من رواية البيهقي في «الدلائل»، وأورده السيوطي في «الدرر» ٢٦٨/٥ من رواية ابن سعد عن عبد الرحمن بن أبي الزناد ﷺ أن النبي ﷺ قال للعبّاس بن مرداس: «أرأيت قولك؟» «أصبح نهبي ونهيب العبيد بين الأفراع وعيينة... إلخ، وفيه انقطاع، وعبد الرحمن بن أبي الزناد، ويقال له: عبد الله بن ذكوان المدني، صدوق تغير حفظه لما قدم بغداد كما قال الحافظ بن حجر في «التقريب».

(٥) البيت لطرفة بن العبد البكري، وهو في «مختار الشعر الجاهلي» ١/٣٢٣، و«مجمع البيان» ٤٥/٢٣، و«البحر المحيط» ٣٤٥/٧، و«القرطبي» ١٥/٢١، ونصه بتمامه:

سُئِلْتُ لَكَ الْإِيَّامَ مَا كُنْتُ جَاوِلَا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ

(٦) رواه الإمام أحمد في «المسند» من حديث هشيم عن مغيرة عن الشعبي عن عائشة ؓ، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا استراب الخبر تمثّل فيه بيت طرفة «ويأتيك بالأخبار من لم تزوده»، وذكره السيوطي في «الدرر» ٢٦٨/٥ من رواية ابن أبي شيبة عن عائشة ؓ بهذا اللفظ. قال ابن كثير: وهكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة» من طريق إبراهيم بن مهاجر عن الشعبي عنها، قال: ورواه الترمذي والنسائي أيضاً من حديث المقدم بن شريح بن هانئ عن أبيه عن عائشة ؓ كذلك، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. اهـ. والحديث رواه الطبري في «التفسير» ٢٧/٢٣، من حديث سميد بن أبي عروة عن قتادة قال: قيل لعائشة ؓ: هل كان رسول الله ﷺ يتمثّل بشيء من الشعر؟ قالت: كان أبض الحديث إليه، غير أنه كان يتمثّل ببيت أخي بني قيس، فيجعل آخره أوله، وأوله آخره، فقال له أبو بكر: إنه ليس هكذا، فقال نبي الله: «إني والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي» وذكره السيوطي في «الدرر» ٢٦٨/٥ بهذا اللفظ عن عائشة وزاد نسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأورده أيضاً من رواية ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عباس ؓ قال: كان رسول الله ﷺ يتمثّل من الأشعار «ويأتيك بالأخبار من لم تزوده». اهـ. قال ابن كثير: وثبت في الصحيح أنه ﷺ تمثّل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة ؓ، ولكن تبعاً لقول أصحابه ؓ، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون فيقولون:

لَا كُمْ لَسُوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزَلْنَ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَتَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَأَلَّيْنَا

إِنْ أَلَّيْنَا تَدْبَغُوا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فَتْنَتَنَا أَبْيَيْنَا

ويرفع صوته ﷺ بقوله: «أبينا» ويملأها... قال: وكذا ثبت أنه ﷺ قال يوم حنين وهو راكب البغلة يقدم بها في تحور العدو:

أَنَا النَّسِيبُ لَا كَذِبُ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ

لثلا تدخل الشبهة على قوم فيما أتى به من القرآن فيقولون: قوي على ذلك بما في طبعه من الفطنة للشعر.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني القرآن ﴿لَا ذِكْرُ﴾ إلا موعظة ﴿وَوَعْدَانٌ مُّبينٌ﴾ فيه الفرائض والسُنن [والأحكام].

قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «لِيُنذِرَ» بالياء، يعنون القرآن. وقرأ نافع، وابن عامر، ويعقوب: «لِيُنذِرَ» بالياء، يعنون النبي ﷺ، أي: لِيُنذِرَ يا محمد بما في القرآن. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وابن السميع: «لِيُنذِرَ» بياء مرفوعة وفتح الذال والراء جميعاً.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ وفيه أربعة أقوال: أحدها: حي القلب حتى البصر، قاله قتادة. والثاني: من كان عاقلاً، قاله الضحاك. قال الزجاج: من كان يَعْقِلُ ما يَخْطُبُ به، فإن الكافر كالميت في ترك النذير. والثالث: مهتدياً، قاله السدي وقال مقاتل: من كان مهتدياً في عِلْمِ الله. والرابع: من كان مؤمناً، قاله يحيى بن سلام؛ وهذا على المعنى الذي قد سبق في قوله: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [فاطر: ١٨]، ويجوز أن يريد: إنما ينفع إنذارك من كان مؤمناً في علم الله.

قوله تعالى: ﴿وَيَحْيَى الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ معناه: يجب. وفي المراد بالقول قولان: أحدهما: أنه العذاب. والثاني: الحجة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ أَنْفُسًا لَهُمْ مَلَكُوتٌ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَمَسَارِيبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّهُمْ يَبْصُرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَخْرُجُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُبْشِرُونَ وَمَا يُوعَدُونَ ﴿٧٦﴾﴾

ثم ذكرهم قدرته فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ أَنْفُسًا﴾ قال ابن قتيبة: يجوز أن يكون المعنى: مما عملناه بقوتنا وقدرتنا، وفي اليد القدرة والقوة على العمل، فاستعار اليد فتوضّع موضعها، هذا مجاز للعرب يحتمله هذا الحرف، والله أعلم بما أراد. وقال غيره: ذكر الأيدي هاهنا يدل على انفراده بما خلق، والمعنى: لم يشاركنا أحد في إنشائنا؛ والواحد مِمَّا إذا قال: عملت هذا بيدي، دل ذلك على انفراده بعمله. وقال أبو سليمان الدمشقي: معنى الآية: مما أوجدناه بقدرتنا وقوتنا؛ وهذا إجماع أنه لم يُرد هاهنا إلا ما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَلِكُوتٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: ضابطون، قاله قتادة، ومقاتل. قال الزجاج: ومثله في الشعر:

أصبحت لا أحمل السِّلَاحَ ولا
أصْبَحْتُ رَأْسَ البَعِيرِ إِنْ نَقَرَا^(١)

أي: لا أضبط رأس البعير. والثاني: قادرون عليها بالتسخير لهم، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أي: سخرناها، فهي ذليلة لهم ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ قال ابن قتيبة: الرُّكُوب: ما يَرْكَبُونَ، والحلُوب: ما يَحْلُبُونَ. قال الفراء: ولو قرأ قارئ: «فمنها رُكُوبُهُم»، كان وجهاً، كما تقول: منها أكلهم وشربهم وركوبهم. وقد قرأ بضم الراء الحسن، وأبو العالية، والأعمش، وابن يعمر في آخرين. وقرأ أبي بن كعب، وعائشة: «رُكُوبَتُهُمْ» بفتح الراء والياء وزيادة تاء مرفوعة. قال المفسرون: يركبون من الأنعام الإبل، ويأكلون الغنم، ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا

= لكن قالوا: هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لزوم شعر، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه، قال: وكذلك ما ثبت في «الصحيحين» عن جندب بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غار فكبنت أصبعه، فقال ﷺ:

هَلْ أَنْتَ إِلَّا أَصْبَعٌ ذُمِيَّةٌ
وفي سبيل الله ما لقيت

قال ابن كثير: وكل هذا لا يتأني كونه ﷺ ما علم شعراً ولا يتأني له، فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَيْكَةِ جِبْرِيلَ ﴿١٧﴾﴾ وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش، ولا كهانة ولا مفتعل، ولا سحر يؤثر كما تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجهال، قال: وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشعراً. ثم قال ابن كثير: على أن الشعر فيه ما هو مشروع، وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة وأمثالهم وأضرابهم ﷺ أجمعين، ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية، ثم قال: وقد روى أبو داود، من حديث أبي بن كعب، وبريدة بن الخصيب، وعبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان جحماً»، وإن من الشعر جحماً. اهـ.

(١) البيت للربيع بن منبج الفزاري، وهو في «البحر المحيط» ٣٤٧/٧، و«روح المعاني» ٤٧/٢٣.

مَنْعُجٌ» من الأصواف والأوبار والأشعار والنسل «وَسَارِبٌ» [من] البانها، «أَنَّا يَشْكُرُونَ» ربّ هذه النعم فيوحّدونه؟! ثم ذكر جهلهم فقال: «وَأَتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يَبْصُرُونَ ﴿٧٦﴾» أي: لتمنعهم من عذاب الله؛ ثم أخبر أن ذلك لا يكون بقوله: «لَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفَهُمْ» أي: لا تقدر الأصنام على منعهم من أمر أراد الله بهم «وَهُمْ» يعني الكفار «لَمْ» يعني الأصنام «يُجْنَدُ تُحْضَرُونَ» وفيه أربعة أقوال. أحدها: جند في الدنيا محضرون في النار، قاله الحسن. والثاني: مُحَضَّرُونَ عند الحساب، قاله مجاهد. والثالث: المشركون جُنْدٌ للأصنام، يَغْضِبُونَ لها في الدنيا، وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم شراً، قاله قتادة^(١). وقال مقاتل: الكفار يَغْضِبُونَ للآلهة وَيَحْضَرُونَهَا في الدنيا. وقال الزجاج: هم للأصنام ينتصرون، وهي لا تستطيع نصرهم. والرابع: هم جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ عند الأصنام يعبدونها، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: «فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ» يعني قول كفار مكة في تكذيبك «إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُبْرُونَ» في ضمايرهم من تكذيبك «وَمَا يُلْقُونَ» بالسبّ من ذلك؛ والمعنى: إنا نثبّك ونجازيهم.

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِزُّ الْعَظِيمَ وَهِيَ رَبِّيهِ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِمَّا أَنتُم إِذْ أَرَادَ سَيِّئًا أَن يَقُولَ لَئِمَّا كُنَّا فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَدْيُهِ مَلَكُوتٌ كُلُّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: «أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ» اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية والتي بعدها على خمسة أقوال: أحدها: أنه العاص بن وائل السهمي، أخذ عَظْماً من البطحاء ففقه بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أَيُحْيِي اللَّهُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرَى؟ فقال: «نعم، يُحْيِيكَ اللَّهُ ثُمَّ يُخَيِّكَ ثُمَّ يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّمَ»، فنزلت هذه الآيات، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس^(٢). والثاني: أنه عبد الله بن أبي بن سلول، جرى له نحو هذه القصة، رواه العوفي عن ابن عباس^(٣). والثالث: أنه أبو جهل بن هشام، وأن هذه القصة جرت له، رواه الضحاك عن ابن عباس^(٤). والرابع: أنه أُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ، قاله الحسن^(٥). والخامس: أنه أبي بن خلف الجُمَحِيّ^(٦)، وهذه القصة جرت له، قاله مجاهد، وقاتدة، والجمهور، وعليه المفسرون. ومعنى الكلام: التعجّب من جهل هذا المخاصم في إنكاره البعث؛ والمعنى: ألا يعلم أنه مخلوق فيتنفكر في بده خلقه فيترك خصوصته؟! وقيل: هذا تنبيه له على نعمة الله عليه حيث أنشأ من نطفة فصار مجادلاً. «وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا» في إنكار العث بالعظم البالي حين فقه بيده، وتعجّب ممن يقول: إن الله يُخَيِّهِ «وَكَيْسَ خَلْقَهُ» أي: نسي خلقنا له،

(١) قال ابن جرير الطبري: وهذا الذي قاله قتادة أولى عندنا بالصواب في تأويل ذلك، لأن المشركين عند الحساب تبتيراً منهم الأصنام وما كانوا يعبدونه، فكيف يكونون لها جنداً حينئذ؟! ولكنهم في الدنيا لهم جند يَغْضِبُونَ لهم ويقاتلون دونهم، وقال ابن كثير: وهكذا قال الحسن البصري، وهذا القول حسن، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله تعالى. اهـ.

(٢) رواه ابن جرير الطبري ٢٣/٣٠ من رواية سعيد بن جبيرة مرسلاً، ورواه ابن أبي حاتم من رواية سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه الحاكم عن ابن عباس وصححه، وأورده السيوطي في «الدر» ٥/٢٦٩، وزاد نسبة لابن المنذر، والإسماعيلي في «معجمه»، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث»، والفضاء في «المختارة» عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه الطبري ٢٣/٣١ من رواية عطية العوفي عن ابن عباس، قال ابن كثير: وهذا منكر، لأن السورة مكية، وعبد الله بن أبي بن سلول إنما كان بالمدينة.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» ٥/٢٧٠ من رواية ابن مردويه عن ابن عباس. والله أعلم.

(٥) وهكذا ذكره الشوكاني في «فتح القدير» عن الحسن ولم يستد له أحد.

(٦) رواه الطبري: ٢٣/٣٠ من مجاهد وقاتدة، والواحدي في «أسباب النزول» ٢٠٩ من طريق حصين عن أبي مالك، قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٤٠: ورواه البيهقي في «الشعب» من طريق حصين عن أبي مالك. وأورده السيوطي في «الدر» ٥/٢٦٩ من رواية ابن مردويه عن ابن عباس، ومن رواية سعيد بن منصور، وابن المنذر، والبيهقي في «البعث» عن أبي مالك، ومن رواية عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد، ومن رواية عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة، ومن رواية ابن أبي حاتم عن السدي، ومن رواية ابن أبي حاتم عن عكرمة. قال ابن كثير: وعلى كل تقدير، سواء كانت هذه الآيات نزلت في أبي بن خلف، أو العاص بن وائل، أو فيهما، فهي عامة في كل من أنكر البعث، قال: والألف واللام في قوله تعالى: «أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ» للجنس، يعم كل منكر للبعث. اهـ.

أي: تَرَكَ النَّظَرَ فِي خَلْقِ نَفْسِهِ إِذْ خُلِقَ مِنْ نُطْفَةٍ ﴿قَالَ مَنْ يُعْنِي الْعَظَمُ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ١٩ أي: بالية، يقال: رَمَّ الْعَظْمُ، إِذَا بَلِيَ، فَهُوَ رَمِيمٌ، لِأَنَّهُ مَعْدُولٌ عَنْ فَاعِلِهِ، وَكُلُّ مَعْدُولٍ عَنْ وَجْهِهِ وَوزنه فهو مصروف عن إعرابه، كقوله: ﴿وَمَا كَأَنَّ أَثْمَكِ بَيْتًا﴾ [مریم: ٢٨]، فَاسْقَطَ الْهَاءَ لِأَنَّهُا مَصْرُوفَةٌ عَنْ «بَاغِيَةٍ»؛ فَقَاسَ هَذَا الْكَافِرُ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى بِقُدْرَةِ الْخَلْقِ، فَانْكَرَ إِحْيَاءَ الْعَظْمِ الْبَالِي لِأَنَ ذَلِكَ لَيْسَ فِي مَقْدُورِ الْخَلْقِ. ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا﴾ أي: ابْتَدَأَ خَلْقَهَا ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ وَالْإِعَادَةِ عَلِيمٌ﴾. ﴿الَّذِي جَمَعَ لَكَ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ: أَرَادَ الزُّنُودَ الَّتِي تُورِي بِهَا الْأَعْرَابُ مِنْ شَجَرِ الْمَرْخِ وَالْعَفَّارِ. فَإِنْ قِيلَ: لِمَ قَالَ: «الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ»، وَلَمْ يَقُلْ: الشَّجَرِ الْخُضْرُ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّ الشَّجَرَ جَمْعٌ، هُوَ يُؤْتَى وَيَذْكَرُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَتَالِئِينَ يَمَتَا الْبَطُونِ﴾ [الواقعة: ٥٣]، وَقَالَ: ﴿فَإِذَا أَشْرَقَتْهُ نُفُودُونَ﴾. ثُمَّ ذَكَرَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، فَقَالَ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ﴾ وَقَرَأَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَعَاصِمُ الْجَحْدَرِيُّ: يَقْدِرُ بِيَاءٍ مِنْ غَيْرِ أَلِفٍ ﴿عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْ لَهْمٍ﴾ ١٩ وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيرٌ؛ وَالْمَعْنَى: مَنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ الْعَظِيمِ، قَدَرَ عَلَى هَذَا الْبَاسِ. وَقَدْ فَسَّرْنَا مَعْنَى «أَنْ يَخْلُقَ مِنْ لَهْمٍ» فِي [بَنِي إِسْرَائِيلَ: ٩٩]؛ ثُمَّ أَجَابَ هَذَا الاسْتِفْهَامَ فَقَالَ: ﴿بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ﴾ يَخْلُقُ خَلْقًا بَعْدَ خَلْقٍ. وَقَرَأَ أَبِي بَنْ كَعْبٍ، وَالْحَسَنُ، وَعَاصِمُ الْجَحْدَرِيُّ: «وَهُوَ الْخَالِقُ» ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ. وَالْمَلَكُوتُ وَالْمُلْكُ وَاحِدٌ. وَبَاقِي السُّورَةِ قَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُهُ (٢) [البقرة: ٣٢، ١١٧، الأنعام: ٧٥].



(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: يَقُولُ تَعَالَى مُثَبِّهًا عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ بِمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ وَالنُّجُومِ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَرِمَالٍ وَبَحَارٍ وَغَفَّارٍ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ، وَمُرْشِدًا إِلَى اسْتِدْلَالٍ عَلَى إِعَادَةِ الْأَجْسَادِ بِخَلْقِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْعَظِيمَةِ، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَكِوتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وَقَالَ ۞ هَامَنَا: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكِوتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِنْ لَهْمٍ بَلَى﴾ ١٩ أي: مِثْلَ الْبَشَرِ فَيُعِيدُهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ ١٩ قَالَ: وَهَذِهِ آيَةُ الْكَرِيمَةِ، كقوله ۞: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَلَّهَ الْآلِي خَلَقَ السَّمَكِوتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُقُهُمْ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخْرِجَ الْمَوْتَةَ بَلَى إِنَّهُ عَلَيَّ قَدِيرٌ قَدِيرٌ﴾ وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَامَنَا: ﴿بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ۞ إِمَّا أَمْرُهُمْ بِمَا أَرَادَ حَتَّى أَنْ يَقُولَ لَمْ يَكُنْ فَيَسْكُوتُ ۞ أي: إِنَّمَا يَأْمُرُ بِالشَّيْءِ أَمْرًا وَاحِدًا لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَكَرُّارٍ وَتَاكِيدٍ. اهـ.

(٢) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَسْبِخُونَ الَّذِي يَدْبِرُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ رَبُّكُمْ﴾ ۞ أي: تَتَزَيَّدُ وَتَقْدِيسُ وَتَبَرُّةٌ مِنَ السُّوءِ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، وَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، وَإِلَيْهِ تَرْجِعُ الْعِبَادَةُ يَوْمَ الْمَعَادِ فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، وَهُوَ الْعَادِلُ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ. اهـ.

سورة الصفات

وهي مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا بِإِجْمَاعِهِمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْقَائِلَتِ مَنَا ۝ فَالْقَائِلَتِ نَعَرَ ۝ فَالْقَائِلَتِ ذَكَرَ ۝ إِنَّ إِلَهَهُمْ لَوَاحِدٌ ۝ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْقَائِلَتِ مَنَا ۝﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها الملائكة، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، وقادة، والجمهور. قال ابن عباس: هم الملائكة صُفُوفٌ في السماء، لا يَعْرِفُ مَلَكٌ مِنْهُمْ مَنْ إِلَى جَانِبِهِ، لَمْ يَلْقُفْ مِنْذُ خَلَقَهُ اللهُ ﷻ. وقيل: هي الملائكة تُصَفُّ أَجْنَحَتَهَا فِي الْهَوَاءِ وَاقِفَةً إِلَى أَنْ يَأْمُرَهَا اللهُ ﷻ بِمَا يَشَاءُ. والثاني: أنها الطَّيْرُ، كقوله: ﴿وَالطَّيْرُ صَفَّتْ﴾ [النور: ٤١]، حكاه الثعلبي. وفي الزاجرات قولان: أحدهما: أنها الملائكة التي تَزُجِرُ السَّحَابَ، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: أنها زواجر القرآن وكلُّ ما يَنْهَى وَيُزَجِّرُ عَنِ الْقَبِيحِ، قاله قتادة^(١). وفي التاليات ذُكِرَ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أحدها: أنها الملائكة تَقْرَأُ كِتَابَ اللهِ تَعَالَى، قاله ابن مسعود، [والحسن]، والجمهور. والثاني: أنهم الرسل، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: ما يُتْلَى فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَخْبَارِ الْأُمَمِ، قاله قتادة. وهذا قَسَمٌ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ، وجوابه: ﴿إِنَّ إِلَهَهُمْ لَوَاحِدٌ ۝﴾^(٢). وقيل: معناه: وربُّ هذه الأشياءِ إِنَّهُ وَاحِدٌ.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ قال السدي: المَشَارِقُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ مَشْرِقًا، والمَغَارِبُ مِثْلُهَا، عَلَى عِدَدِ أَيَّامِ السَّنَةِ. فَإِنْ قِيلَ: لِمَ تَرَكَ ذِكْرَ الْمَغَارِبِ؟ فالجواب: أَنَّ الْمَشَارِقَ تَذَلُّ عَلَى الْمَغَارِبِ، لِأَنَّ الشُّرُوقَ قَبْلَ الْغُرُوبِ.

﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۝ لَا يَسَّمَعُونَ إِلَى الْأَمْرِ الْأَعْلَى وَيَقْدِرُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝ مُمْسِكًا بِقُلُوبِ الْعَالَمِينَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ يعني التي تلي الأرض، وهي أدنى السموات إلى الأرض ﴿بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو، والكسائي: «بزينة الكواكب» مضافاً، أي: بحُسْنِهَا وَضُوءِهَا. وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: «بزينة» متونة وخفض «الكواكب» [وجعل «الكواكب» بدلاً من الزينة لأنها هي، كما تقول: مررتُ بأبي عبد الله زيدٍ، فالمعنى: إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِالْكَوَاكِبِ. وقرأ أبو بكر عن عاصم: «بزينة» بالتثنية وينصب «الكواكب»؛ والمعنى: زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِأَنَّ زَيْنَا الْكَوَاكِبِ فِيهَا حِينَ أَلْقَيْنَاهَا فِي مَنَازِلِهَا وَجَعَلْنَاهَا ذَاتَ نُورٍ. قال الزجاج: ويجوز أن يكون «الكواكب» في التَّصْبِ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ: «بزينة» لأن قوله: «بزينة» في موضع نصب. وقرأ أبي بن كعب، ومعاذ القاري، وأبو نهيك، وأبو حصين الأسدي في آخرين: «بزينة» بالتثنية «الكواكب» برفع الباء؛ قال الزجاج: والمعنى: إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِأَنَّ زَيْنَتَهَا الْكَوَاكِبُ وَبِأَنَّ زَيْنَتِ الْكَوَاكِبِ. ﴿وَحِفْظًا﴾ أي: وَحَفِظْنَاهَا حِفْظًا. فَأَمَّا الْمَارِدُ، فَهُوَ الْعَاتِي، وَقَدْ شَرَحْنَا هَذَا فِي قَوْلِهِ: ﴿سَيَطِلَنَّ مَرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧].

(١) قال ابن جرير الطبري: والذي هو أولى بتأويل الآية عندنا، ما قال مجاهد ومن قال: هم الملائكة، لأن الله تعالى ذُكِرَ ابتداءً الْقَسَمِ بِنَوْحٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَهَمِ الصَّافُونَ بِإِجْمَاعٍ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ، فَلَأَن يَكُونَ الَّذِينَ بَعْدَهُ قَسَمًا بِسَائِرِ أَصْنَافِهِمْ أَشْبَهَ. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: هذا هو المقسم عليه أنه تعالى لا إله إلا هو رب السموات والأرض وما بينهما، أي: من المخلوقات، ورب المشارق، أي: هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات تدور من المشرق وتغرب من المغرب، قال: واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالته عليه، وقد صرح بذلك في قوله ﷻ: ﴿لَا أُنَمِّيَنَّ لِلشَّمْسِ وَلِلْقَمَرِ لِكُلِّ نَبْذَةٍ﴾ [النجم: ١٠] وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ زَيْنًا لِلْقَمَرِ ۝﴾ يعني في الشتاء والصيف للشمس والقمر. اهـ.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ قال الفراء: «لا» هاهنا كقوله: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ النَّبِيِّينَ﴾ لا يؤمنون به. [الشراء: ٢٠٠، ٢٠١]؛ ويصلح في «لا» على هذا المعنى الجزم، فإن العرب تقول: ربطت الفرس لا ينفلت. وقال غيره: لكي لا يسمعوا إلى الملا الأعلى، وهم الملائكة الذين في السماء. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم وخلف: «لا يسمعون» بتشديد السين، وأصله: يسمعون، فأدغمت التاء في السين. وإنما قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأن العرب تقول: سمعت فلاناً، وسمعت من فلان، وإلى فلان. ﴿وَيَقْدُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ بالشُّبُّ «دُحُوراً» قال قتادة: أي: قدفاً بالشُّبُّ. وقال ابن قتيبة: أي: طرداً، يقال: دَحَرْتُ دُحُوراً ودُحُوراً، أي: دفعته. وقرأ علي بن أبي طالب، وأبو رجاء، وأبو عبد الرحمن، والضحاك، وأيوب السختياني، وابن أبي عبيدة: «دُحُوراً» بفتح الدال. وفي «الواصب» قولان: أحدهما: أنه الدائم، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقاتدة، والفراء، وابن قتيبة. والثاني: أنه الموجع، قاله أبو صالح، والسدي. وفي زمان هذا العذاب قولان: أحدهما: أنه في الآخرة. والثاني: [أنه] في الدنيا، فهم يُخْرَجُونَ بالشُّبُّ ويُخْبَلُونَ إلى النَّفْخَةِ الأولى في الصُّور.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَلَفَ لَلْخَفَةِ﴾ قرأ ابن السميع: «خَطَفَ» بفتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها. وقرأ أبو رجاء، والجدري: بكسر الخاء والطاء جميعاً والتخفيف. قال الزجاج: خَطَفَ وَخَطِفَ، بفتح الطاء وكسرها، يقال: خَطَفْتُ أَخِطَفُ، وَخَطِفْتُ أَخْطَفُ: إذا أخذت الشيء بسرعة، ويجوز «إِلَّا مَنْ خَطَفَ» بفتح الخاء وتشديد الطاء، ويجوز «خَطَفَ» بكسر الخاء وفتح الطاء؛ والمعنى: اختطف، فأدغمت التاء في الطاء، وسقطت الألف لحركة الخاء؛ فمن فتح الخاء، ألقى عليها فتحة التاء التي كانت في «اختطف»، ومن كسر الخاء، فليسكونها وسكون الطاء. فأما من روى [«خَطَفَ»] بكسر الخاء والطاء، فلا وجه لها إلا وجهاً ضعيفاً جداً، وهو أن يكون على إتيان الطاء كسرة الخاء. قال المفسرون: والمعنى: إلا مَنْ اختطف الكلمة من كلام الملائكة مُسَارَقَةً «فَاتَّبَعَهُ» أي: لِحَقِّهِ «يَتَابَعُ تَأْتِبُ» قال ابن قتيبة: أي كوكبٌ مُضِيءٌ، يقال: أَتَيْتُ نَارَكَ، أي: أَضِيئَهَا، والتَّقُوبُ: ما تُذَكِّي به النار.

﴿فَأَسْتَفْهِمُ أَمْ أَنَا خَلَقْتُ أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٨﴾ وَإِنَّا رَأَوْا إِلَهُكَ يَسْخَرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَنسَ رَأَاكَ وَهَاطَاكَ لَعْنَتُهُ أَلَمْ يَسْمَعْ وَهَلَّاكًا ﴿٢١﴾ قُلْ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَأَنْزَلُوا إِلَهُكَ فِي السَّمَاءِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ السَّمَاءَ بِذَاتِ طَلَلٍ ﴿٢٣﴾ لَنَنزِيلُ الْكُتُبَ وَنَنزِيلُ الْمِلَّةِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾ وَنَنزِيلُ الْفُلْكِ بِأَمْرِ رَبِّكَ عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٥﴾ وَنَنزِيلُ الْغَاسِقِ إِذْ وَقَعَهَا عَلَى الْمَدِينِ ﴿٢٦﴾ وَنَنزِيلُ الْفُلْكِ بِأَمْرِ رَبِّكَ عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٧﴾ وَنَنزِيلُ الْفُلْكِ بِأَمْرِ رَبِّكَ عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٨﴾ وَنَنزِيلُ الْفُلْكِ بِأَمْرِ رَبِّكَ عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٩﴾ وَنَنزِيلُ الْفُلْكِ بِأَمْرِ رَبِّكَ عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَفْهِمُ﴾ أي: فَسَلِّطْهُمْ سؤال تقرير ﴿أَمْ أَنَا خَلَقْتُ﴾ أي: أَخْصَمُ صُنْعُهُ ﴿أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أن المعنى: أَمْ مَنْ عَدَدْنَا خَلْقَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالشَّيَاطِينِ وَالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، قاله ابن جرير. والثاني: أَمْ مَنْ خَلَقْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، والمعنى: إنهم ليسوا بأقوى من أولئك وقد أهلكناهم بالكذب، فما الذي يؤمن هؤلاء؟! ثم ذكر خلق الناس فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ قال الفراء، وابن قتيبة: أي: لاصقٌ لازم، والباء تَبْدِيلُ مِنَ الْمِيمِ لِقَرَبِ مَحَرَجَيْهِمَا. قال ابن عباس: هو الطين الحُرُّ الْجِدُّ اللَّزِقُ. وقال غيره: هو الطين الذي يُنْكَشِفُ عَنْهُ الْمَاءُ وتبقى رطوبته في باطنه فيُلْصَقُ باليد كالشمع. وهذا إخبار عن تساوي الأصل في خلقهم وخلق مَنْ قَبْلَهُمْ؛ فمن قَدَر على إهلاك الأقوياء، قَدَر على إهلاك الضُّعَفَاءِ.

قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ «بل» معناه: ترك الكلام الأول والأخذ في الكلام الآخر، كأنه قال: دع يا محمد ما مضى. وفي «عَجِبْتَ» قراءتان: قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «بَلْ عَجِبْتَ» بفتح التاء. وقرأ علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عباس، وأبو عبد الرحمن السلمي، وعكرمة، وقاتدة، وأبو مجلز، والنخعي، وطلحة بن مصرف، والأعمش، وابن أبي ليلى، وحمزة، والكسائي في آخرين: «بَلْ عَجِبْتَ» بضم التاء، [واختارها الفراء]. فمن فتح، أراد: بل عَجِبْتَ يا محمد، ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ هم. قال ابن السائب: أنت تُعْجِبُ مِنْهُمْ، وهم يَسْخَرُونَ مِنْكَ. وفي ما عَجِبَ منه قولان: أحدهما: من الكفار إذ لم يؤمنوا بالقرآن. والثاني: إذ كفروا بالبعث. ومن ضَمَّ، أراد

الإخبار عن الله ﷻ أنه عَجِبَ، قال الفراء: وهي قراءة عليّ، وعبد الله، وابن عباس، وهي أحبُّ إليّ؛ وقد أنكر هذه القراءة قوم، منهم شريح القاضي، فإنه قال: إن الله لا يَعْجَب، إنما يَعْجَب مَنْ لا يَعْلَم. قال الزجاج: وإنكار هذه القراءة غلط، لأن الْعَجَبَ من الله خلاف الْعَجَبِ من آدميين، وهذا كقوله: ﴿وَيُنَكِّرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٢٣٠] وقوله: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٢٧٩]، وأصل الْعَجَبِ في اللغة: أن الإنسان إذا رأى ما يُنَكِّرُهُ وَيَقِلُّ مِنْهُ، قال: قد عَجِبْتُ من كذا، وكذلك إذا قَعَلَ الْآدَمِيُّونَ ما يُنَكِّرُهُ الله ﷻ، جاز أن يقول: عَجِبْتُ، والله قد عَلِمَ الشيء قبل كونه. وقال ابن الأنباري: المعنى: جازيتهم على عجبهم من الحق، فسَمِيَ الجزء على الشيء باسم الشيء الذي له الجزء، فسَمِيَ فعله عَجَبًا وليس بَعْجَبَ في الحقيقة، لأن المتعجب يدهش ويتحير، والله عزَّ وجلَّ قد جَلَّ عن ذلك؛ وكذلك سَمِيَ تعظيم الثواب عَجَبًا، لأنه إنما يُعَجَّبُ من الشيء إذا كان في النهاية، والعرب تسمي الفعل باسم الفعل إذا دأبه من بعض وجوه وإن كان مخالفاً له في أكثر معانيه، قال عدي:

نُصِّمُ أَضْحَوْا لِعِيبِ الدُّفْرِ بِهِمْ

[وَكَذَلِكَ الدُّفْرُ يُودِي بِالرُّجَالِ] ^(١)

فجعل إهلاك الدهر وإفساده لعباً، وقال ابن جرير: من ضم التاء، فالمعنى: بل عَظُمَ عندي وكَبُرَ اتِّخَاذُهُمْ لي شريكاً وتكذيبهم تنزيلي. وقال غيره: إضافة الْعَجَبِ إلى الله على ضربين: أحدهما: بمعنى الإنكار والذم، كهذه الآية، والثاني: بمعنى الاستحسان والإخبار عن تمام الرضى، كقوله ﷻ: ﴿عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ شَأْنِ لَيْسَ لَهُ صَبُوءٌ﴾ ^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرْ لَا تَكْفُرْ﴾ ^(٣) أي: إذا وُعِظُوا بالقرآن لا يَذْكُرُونَ ولا يَنْتَعِظُونَ. وقرأ سعيد بن جببر، والضحاك، وأبو المتوكل، وعاصم الجحدري، وأبو عمران: «ذُكِرُوا» بتخفيف الكاف. ﴿وَلَا تُلَاقُوا عَائِدَةً﴾ قال ابن عباس: يعني انشاق القمر ﴿يَنْتَحِرُونَ﴾ قال أبو عبيدة: يَنْتَشِرُونَ وَيَسْخَرُونَ سواء. قال ابن قتيبة: يقال: سَخِرَ واستَسَخَرَ، كما يقال: قَرَّ واستَقَرَّ، وعَجِبَ واستَعْجَبَ، ويجوز أن يكون: يسألون غيرهم من المشركين أن يَسْخَرُوا من رسول الله ^(٤)، كما يقال: استَعْتَبْتُهُ، أي: سألتُه العُتْبَى، واستَوَهَبْتُهُ، أي: سألتُه الهَبَةَ، واستَعَفَيْتُهُ: سألتُه العَفْوَ. ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا انشاقاق القمر﴾ ^(٥) أي: بَيِّنْ لِمَنْ تَأْمَلُ أَنَّهُ سَخِرَ. ﴿لَوْ لَا مِتْنَا﴾ قد سبق بيان [هذه] الآية [لمريم: ٤٦٦]. ﴿أَوْ مَاتَ آدَمُ﴾ هذه ألف الاستفهام دخلت على حرف العطف، كقوله: ﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ [الأعراف: ٩٨]. وقرأ نافع، وابن عامر: «أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ» يسكون الواو هاءنا وفي [الواقعة: ٤٤٨]. ﴿قُلْ نَسَمٌ﴾ أي: نَعَمٌ تُبْعَثُونَ ﴿وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ﴾ أي: صاغِرُونَ. ﴿فَالَمَّا هِيَ بَرْيَةٌ كَيْدًا﴾ أي: فإِذَا قَصَّةُ البعث صبيحةً واحدة من إسرافيل، وهي نفخة البعث، وَسُمِّيَتْ زَجْرَةً، لأن مقصودها الزَّجْرُ ﴿فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ قال الزجاج: أي: يُحْيَوْنَ وَيُبْعَثُونَ بُصْرَاءَ يَنْظُرُونَ، فإذا عَايَنُوا بعثهم، ذكروا إخبار الرُّسُلِ عن البعث، ﴿وَقَالُوا بَلْئَئِنَّا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ^(٦) أي: يوم الحساب والجزاء، فتقول الملائكة: ﴿هَذَا يَوْمُ الْقِسْطِ﴾ أي: يوم القضاء الذي يُفْصَلُ فيه بين الْمُحْسِنِينَ والمُسِيءِ؛ ويقول الله ﷻ يومئذٍ للملائكة: ﴿يَحْمُرُوا﴾ أي: اجتمعوا ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من حيث هم، وفيهم قولان: أحدهما: أنهم المشركون. والثاني: أنه عامٌ في كل ظالم. وفي أزواجهم أربعة أقوال: أحدها: أمثالهم وأشباههم، وهو قول عمر، وابن عباس، والنعمان بن بشير، ومجاهد في آخرين. وروي عن عمر قال: يُخْشَرُ صاحبُ الرِّبَا مع صاحبِ الرِّبَا، وصاحبُ الرِّبَا مع صاحبِ الرِّبَا، وصاحبُ الخمر مع صاحبِ الخمر. والثاني: أنَّ

(١) البيت لعدي بن زيد العبادي، وهو في «الأغاني» طبعة الدار ١٣٥/٢.

(٢) روى أحمد في «المسند» ١٥١/٤ من حديث ابن لهيعة عن أبي عثانة عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ﷻ يحب من الشاب ليست له صبوة»، قال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة»: ولتنام في «فوائده» والقضاعي في «مسنده» من حديث ابن لهيعة: حدثنا أبو عثانة عن عقبة بن عامر مرفوعاً: «إن الله يحب من الشاب الذي ليست له صبوة» قال: وكذا هو عند أحمد وأبي يعلى، وسنده حسن، قال: وضعفه شيخنا (يعني الحافظ ابن حجر) في فتاويه لأجل ابن لهيعة. اهـ. والحديث ذكره الحافظ السيوطي في «الجامع الصغير» من رواية أحمد والطبراني عن عقبة بن عامر، قال الحافظ المناوي في «فيض القدير شرح الجامع الصغير»: وكذا رواه أبو يعلى عن عقبة بن عامر (أي الجهمي) قال: قال الهيثمي: وإسناده حسن، وضعفه ابن حجر في «فتاويه» لضعف ابن لهيعة. اهـ.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَلَا تُلَاقُوا عَائِدَةً يَنْتَحِرُونَ﴾ ^(١) يقول: وإذا رأوا حجة من حجج الله عليهم ودلالة على نبوة محمد ﷺ يستسخرون، يقول: يسخرون ويستنهضون. اهـ.

أزواجهم، المشركاء، قاله الحسن. والثالث: أشياعهم، قاله قتادة. والرابع: قرناؤهم من الشياطين الذين أضلّوهم، قاله مقاتل. وفي قوله: ﴿وَمَا كَانُوا بِبَيْتِكَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: الأصنام، قاله عكرمة، وقاتدة. والثاني: إبليس وحده، قاله مقاتل. والثالث: الشياطين، ذكره المارودي وغيره.

[قوله تعالى: ﴿فَأَقْصِرْ إِلَىٰ صِرَاطِكَ الْحَقِّ﴾ أي: ذلّوهم على طريقها؛ والمعنى: اذهبوا بهم إليها. قال الزجاج: يقال: هدّيت الرجل: إذا دلّته، وهدّيت العروس إلى زوجها، وأهديت الهدية، فإذا جعلت العروس كالهدية، قلت: أهديتها].

قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْ﴾ أي: احبسوهم ﴿إِنَّهُمْ سَخِرُون﴾ وقرأ ابن السميع: «أنهم» بفتح الهمزة. قال المفسرون: لما سيقوا إلى النار حبسوا عند الصراط، لأن السؤال هناك. وفي هذا السؤال ستة أقوال: أحدها: أنهم سئلوا عن أعمالهم وأقوالهم في الدنيا. والثاني: عن «لا إله إلا الله»، روي جميعاً عن ابن عباس. والثالث: عن خطاياهم، قاله الضحاك والرابع: سألتهم خزنة جهنم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨] ونحو هذا، قاله مقاتل. والخامس: أنهم يسألون عما كانوا يعبدون، ذكره ابن جرير. والسادس: أن سؤالهم قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ﴾ [١٩] [ذكره المارودي]. قال المفسرون: المعنى: ما لكم لا ينصّر بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا؟ وهذا جواب أبي جهل حين قال يوم بدر: ﴿مَنْ جِئَ مَنصِيراً﴾ [النسر: ٤٤]، فقبل لهم ذلك يومئذ توبيخاً. والمُستَسَلِم: المُتَقَادِ الدَّلِيل، والمعنى أنهم متقادون لا حيلة لهم.

﴿وَأَقْبَلْ بِمُنْجًى عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ قَالَوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿١٨﴾ قَالُوا بَلْ لَرَّ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ وَمَا كَانَ لَكَ عَلَيْكَ مِنْ سُلْطَانٍ بِلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ ﴿٢٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٢١﴾ فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنبَتْنَاهُمْ يَوْمَهُ فِي الْعَذَابِ مُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٢٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَ بَشَرِنَا ﴿٢٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٧﴾ إِنَّكَ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٢٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٣٠﴾ أَفَلَيْكَ لَمْ يَرَوْا مَلَكُوتَ رَبِّكَ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٣١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٢﴾ عَلَىٰ مَرَرٍ مُّتَعَلِّينَ ﴿٣٣﴾ يُفَاكُّ عَلَيْهِمْ كَبُاشٍ مِنْ مَّعِينٍ ﴿٣٤﴾ يَبْتَغِي لَكَوُ الشَّرِيبِينَ ﴿٣٥﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٣٦﴾ وَعِندَهُمْ نَضْرِبُ الْأَرْفَاقَ ﴿٣٧﴾ كَأَنَّهُمْ يَبْتَغُونَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلْ بِمُنْجًى عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ فيهم قولان: أحدهما: الإنس على الشياطين. والثاني: الاتباع على الرؤساء ﴿يَسْأَلُونَ﴾ تسأل توبيخ وتأنيب ولوم، فيقول الاتباع للرؤساء: [لِمَ غررتمونا؟ ويقول الرؤساء: لِمَ قَبِلْتُمْ مِنَّا؟] فذلك قوله: ﴿قَالُوا﴾ يعني الاتباع للمتبعين ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: كنتم تفهرونا بفقدركم علينا، لأنكم كنتم أعزّ مِنَّا، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: من قَبِلَ الدِّينَ فَتَضَلُّوا عَنْهُ، قاله الضحاك. وقال الزجاج: تأتوننا من قِبَلِ الدِّينِ فتخدعوننا بأقوى الأسباب. والثالث: كنتم تؤثّقون ما كنتم تقولون بأيمانكم، فتأتوننا من قِبَلِ الأيمان التي تخلفونها، حكاه علي بن أحمد النيسابوري. فيقول المتبعون لهم: ﴿بَلْ لَرَّ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لم تكونوا على حَقٍّ فَتَضَلُّوا عَنْهُ، إنما الكفر من قبلكم. ﴿وَمَا كَانَ لَكَ عَلَيْكَ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه القهر. والثاني: الحجّة. فيكون المعنى على الأول: وما كان لنا عليكم من قُوّة تفهروكم بها ونكرهكم على متابعتنا، وعلى الثاني: لم نأتكم بحجّة على ما دعَوْنَاكُمْ إِلَيْهِ كما أنت الرُّسُل.

قوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾ أي: فوجبت علينا كلمة العذاب، وهي قوله: ﴿لَأَنذَرْتُكُمْ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨] إِنَّا لَذَائِقُونَ العذاب جميعاً نحن وأنتم، ﴿فَأَعْوَيْنَاكُمْ﴾ أي، أضللناكم عن الهدى بدعائكم إلى ما نحن عليه، وهو قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾. ثم أخبر عن الاتباع والمتبعين يقوله: ﴿فَأَنبَتْنَاهُمْ يَوْمَهُ فِي الْعَذَابِ مُشْرِكُونَ﴾، والمجرمون هاهنا: المشركون، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: قولوا هذه الكلمة ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يتعظّمون عن قولها، ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَ بَشَرِنَا﴾ المعنى: أنشرك عبادة الهتنا [إِسْرَءِيلَ] أي: لأتباع شاعر؟ يعنون رسول الله ﷺ، فردّ الله عليهم فقال: ﴿بَلْ﴾ أي: ليس الأمر على ما قالوا، بل ﴿جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ وهو التوحيد والقرآن، ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الذين كانوا قبله؛ والمعنى أنه أتى بما أنزّل به. ثم خاطب المشركين بما بعد هذا إلى قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ يعني الموحدين. قال أبو عبيدة: والعرب تقول: إنكم لذاهبون إلّا زبداً. وفي ما استثناهم منه قولان: أحدهما: من

الجزاء على الأعمال، فالمعنى: إنا لا نؤاخذهم بسوء أعمالهم، بل نَغْفِرُ لهم، قاله ابن زيد. والثاني: من دون العذاب؛ فالمعنى: فإنهم لا يذوقون العذاب، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَرَوْا رِزْقَ مَلَكُوتِ اللَّهِ﴾ في قولان: أحدهما: أنه الجنة، قاله قتادة. والثاني: أنه الرزق في الجنة، قاله السدي. فعلى هذا، في معنى «معلوم» قولان: أحدهما: أنه بمقدار الغداة والعشي، قاله ابن السائب. والثاني: أنهم حين يشتهون يؤتون به، قاله مقاتل. ثم بين الرزق فقال: ﴿فَرَكَّةٌ﴾ [وهي جمع فاكهة] وهي الثمار كلها، رَظَبُها ويابسها ﴿وَهُمْ يُكْرَمُونَ﴾ بما أعطاهم الله. وما بعد هذا قد تقدم تفسيره [الحجر: ٤٧] إلى قوله: ﴿يُطَاوَعُ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مِّنَ الدُّنْيَا﴾ قال الضحاك: كل كاس ذُكِرَتْ في القرآن، فإنما عُني بها الخمر، [قال أبو عبيدة: الكاس: الإناء بما فيه، والمعين: الماء الطاهر الجاري. قال الزجاج: الكاس: الإناء الذي فيه الخمر]، ويقع الكأس على كل إناء مع شرابه، فإن كان فارغاً فليس بكأس. والمعين: الخمر تجري كما يجري الماء على وجه الأرض من العيون.

قوله تعالى: ﴿بِضَاءٍ﴾ قال الحسن: خمر الجنة أشدُّ بياضاً من اللبن. قال أبو سليمان الدمشقي: ويدل على أنه أراد بالكأس الخمر، أنه قال: «بيضاء»، فأثت، ولو أراد الإناء على انفراده، أو الإناء والخمر، لقال: أبيض. وقال ابن جرير: إنما أراد بقوله: «بيضاء» الكأس، ولتأنيث الكأس أثت البيضاء.

قوله تعالى: ﴿لَذَّوْا﴾ قال ابن قتيبة: أي: لذينة، يقال: شراب لذاذ: إذا كان طيباً. وقال الزجاج: أي: ذات لذَّة^(١). ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ فيه سبعة أقوال: أحدها: ليس فيها صداع، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: ليس فيها وجع بطن، [رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وابن زيد]. والثالث: ليس فيها صداع رأس، قاله قتادة. والرابع: ليس فيها أذى ولا مكروه، قاله سعيد بن جبيرة. والخامس: لا تغتال عقولهم، قاله السدي. وقال الزجاج: لا تغتال عقولهم فتذهب بها ولا يُصيبهم منها وجع. والسادس: ليس فيها إثم، حكاه ابن جرير. والسابع: ليس فيها شيء من هذه الآفات، لأن كل من ناله شيء من هذه الآفات، قيل: قد غالته غَوْل، فالصواب أن يكون نفي الغَوْل عنها يُعمِّم جميع هذه الأشياء، هذا اختيار ابن جرير.

قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَلُونَ﴾ قرأ حمزة، والكسائي: بكسر الزاي هاهنا وفي [الواقعة: ١٩]. وفتح عاصم الزاي هاهنا، وكسرها في [الواقعة: ١٩]. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: بفتح الزاي في السورتين. قال الفراء: فمن فتح، فالمعنى: لا تذهب عقولهم بشربها. يقال للسكران: تزيّف وتزوف؛ [ومن]^(٢) كسر، ففيه وجهان: أحدهما: لا يُؤفدون شرايبهم، أي: هو دائم أبداً. والثاني: لا يسكرون، قال الشاعر:

لَمَسْمَرِي لَيْسَ أَنْزَفْتُمْ أَوْ صَحَوْتُمْ
لَيْسَ السُّدَامَى كُنْتُمْ آلَ أَبَجْرَا^(٣)

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَصِيرَتُ اللَّيْلِ﴾ في قولان: أحدهما: أنهم النساء قد قصرن طُرُفَهُنَّ على أزواجهن فلا يُنْظَرْنَ إلى غيرهم. وأصل القَصْر: الحبس، قال ابن زيد: إن المرأة منهم لَتَقُولَ لزوجها: وعِزَّةُ رَبِّي ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، فالحمد لله الذي جعلني زوجك وجعلك زوجي. والثاني: أنهم قد قصرن طُرُفَ الأزواج عن غيرهم، لكمال حُسْنِهِمْ، سمعته من الشيخ أبي محمد ابن الخشاب النحوي. وفي العين ثلاثة أقوال: أحدها: حَسَانُ العيون، قاله مجاهد. والثاني: عِظَامُ الأعين، قاله السدي، وابن زيد. والثالث: كبار العيون حَسَانُها، وواحدتهن عَيْنَاء، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ في المراد بالبَيْض هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اللؤلؤ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال أبو عبيدة. والثاني: بَيْضُ النِّعَام، قاله الحسن، وابن زيد، والزجاج. قال جماعة من

(١) قال ابن كثير: وقوله ﴿لَذَّوْا﴾ أي: طعمها طيب كلونها، قال: وطيب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك. اهـ.

(٢) زيادة ليست في الأصل.

(٣) البيت للأبيد الرياحي من بني مخجل، كما في «مجاز القرآن» ١٦٩/٢، و«الطبري» ٥٥/٢٣، و«الصحيح» و«اللسان» و«التاج»: نذف.

أهل اللغة: والعرب تُشَبِّه المرأةَ الحسناءَ في بياضها وحُسن لونها بِنَيْضَةِ الثَّعْمَةِ، وهو أحسن ألوان النساء، وهو أن تكون المرأةُ بياضاً مُشْرِبَةً صُفْرَةً. والثالث: أنه البَيْضُ حين يُقَشَّرُ قبل أن تَمْسَهُ الأيدي، قاله السدي، وإلى هذا المعنى ذهب سعيد بن جبير، وقتادة، وابن جرير^(١). فاما المكنون، فهو المصون. فعلى القول الأول: هو مكنون في صدقه، وعلى الثاني: هو مكنون بريش الثَّعْمِ، وعلى الثالث: هو مكنون بقشره.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَهْلَكَ لَئِنْ الْمَصِيئِينَ ﴿٥٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَمَّا لَكِيدُونُ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطْلَعَ قَرْنَاهُ فِي سَوَاءِ الْحَجِيرِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتَزُولِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا بِنْتُهُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا تَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلُ وَمَا تَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْقَوْمِ الْعَظِيمِ ﴿٦٠﴾ لِيُثْلِقَ هَذَا قَلْبَهُمُ الْعَمِلُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يعني أهل الجنة ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ عن أحوال كانت في الدنيا^(٢). ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ (٥١) فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه الصَّاحِبُ في الدنيا. والثاني: أنه الشريك، روي عن ابن عباس. والثالث: أنه الشيطان، قاله مجاهد. والرابع: أنه الأخ؛ قال مقاتل: وهما الأخوان المذكوران في سورة [الكهف: ٣٢] في قوله: ﴿وَأَتَرَبْتُمْ لَهُمْ مَثَلًا لِكَيْتَنَ﴾؛ والمعنى: كان لي صاحب أو أخ يُنْكِرُ البعث، ﴿يَقُولُ أَهْلَكَ لَئِنْ الْمَصِيئِينَ﴾ (٥٢) قال الزجاج: هي مخففة الصاد، من صَدَّقَ يَصْدُقُ فهو مصدَّق، ولا يجوز هاهنا تشديد الصاد. قال المفسرون: والمعنى: أَتُنْكِرُ لِمَنْ الْمُصَدِّقِينَ بالبعث؟ وقرأ بكر بن عبد الرحمن القاضي عن حمزة: «المُصَدِّقِينَ» بتشديد الصاد.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا لَكِيدُونُ﴾ أي: مَجْزُؤُونَ بأعمالنا؛ يقال: دَنَيْتُهُ بِمَا صَنَعَ، أي: جازيته. فأحبُّ المؤمنين أن يرى قَرِينَهُ الكافر، فقال لأهل الجنة: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ﴾ أي: هل تَحْبُونُ الاطلاع إلى النَّارِ لِتَعْلَمُوا أَيْنَ مَنْزِلُكُمْ من منزلة أهلها؟ وقرأ ابن عباس، والضحاك، وأبو عمران، وابن عمر: «هل أنتم مُطْلِعُونَ» باسكان الطاء وتخفيفها «فَأَطْلَعَ» بهجمة مرفوعة وسكون الطاء. وقرأ أبو رزين، وابن أبي عبيدة: «مُطْلِعُونَ» بكسر النون. قال ابن مسعود: أَطْلَعَ ثم التفت إلى أصحابه فقال: لقد رأيتُ جماجم القوم تغلي؛ قال ابن عباس: وذلك أن في الجنة كُوى ينظر منها أهلها إلى النار.

قوله تعالى: ﴿قَرْنَاهُ﴾ يعني قَرِينَهُ الكافر ﴿فِي سَوَاءِ الْحَجِيرِ﴾ أي: في وسطها. وقيل: إنما سمي الوسط سَوَاءً، لاستواء المسافة منه إلى الجوانب. قال خُلَيْدُ الْعَضْرِي: والله لولا أَنَّ الله عَرَفَهُ إِثْمَهُ، ما عرفه، لقد تَغَيَّرَ حَبْرُهُ وَسَبْرُهُ^(٣). فعند ذلك ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتَزُولِينَ﴾ (٥٦). قال المفسرون: معناه: والله ما كِدْتَ إِلَّا تُهْلِكُنِي؛ يقال: أَرَدَيْتُ فَلَانًا، أي: أَهْلَكْتَهُ. ﴿وَلَوْلَا بِنْتُهُ رَبِّي﴾ أي: إِنْ نَعِمَ عَلَيَّ بِالإِسْلَامِ ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ معك في النار.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَا تَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ (٥٨) فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إذا ذُبِحَ الموت^(٤)، قال أهل الجنة: ﴿أَفَمَا تَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ (٥٨) إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَ التي كانت في الدنيا ﴿وَمَا تَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾؟ فيقال لهم: لا؛ فعند ذلك قالوا: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْقَوْمِ الْعَظِيمِ﴾ (٦٠)، فيقول الله تعالى: ﴿لِيُثْلِقَ هَذَا قَلْبَهُمُ الْعَمِلُونَ﴾ (٦١)، قاله ابن السائب. وقيل: يقول ذلك للملائكة.

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال: شَبَّهَهُنَّ فِي بَيَاضِهِنَّ وَأَنَّهُنَّ لَمْ يَسْهَوْا قَبْلَ أَزْوَاجِهِنَّ إِنْسَ وَلَا جَانَّ بَيَاضَ الْبَيْضِ الَّذِي هُوَ دَاخِلُ الْقَشْرِ، وَذَلِكَ هُوَ الْجِلْدَةُ الْمَلِيسَةُ الْمَخْ قَبْلَ أَنْ تَمْسَهُ يَدُ أَوْ شَيْءٍ غَيْرِهَا، وَذَلِكَ لَا شَكَّ هُوَ الْمَكْنُونُ، فَمَا الْقَشْرَةُ الْعَلِيَا، فَإِنَّ الطَّائِرَ يَمْسُهَا، وَالْإِيْدِي تَبَاشِرُهَا، وَالْمَعْنَى يَلْقَاهَا، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِكُلِّ مَصُونٍ: مَكْنُونٌ، مَا كَانَ ذَلِكَ الشَّيْءُ، لَوْلَا كَانَ، أَوْ بَيَضًا، أَوْ مَتَاعًا. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، أي: عن أحوالهم، وكيف كانوا في الدنيا، وماذا كانوا يعانون منها، وذلك من حديثهم على شرايبهم واجتماعهم في تاديبهم ومعاشرتهم في مجالسهم وهم جلوس على السُرُرِ والخدم بين أيديهم يَسْتَقُونَ ويجنون بكل خير عظيم من مأكَل ومشارب وملابس وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. اهـ.

(٣) قال في «اللسان»: أي: لونه وهيته.

(٤) روى البخاري في «صحيحه» ٣٢٥/٨، ومسلم في «صحيحه» ٢١٨٨/٤ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فِيَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَيْشٌ أَمْلَعُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيُشِيرُونَ (أَيَ يَرْمَعُونَ رُؤُوسَهُمْ إِلَى الْمَنَادِي) وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، قَالَ: وَيَقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيُشِيرُونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، قَالَ: فَيُؤْتَرُ بِهِ فَيُلْجَعُ، قَالَ: ثُمَّ يَقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خَلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خَلُودٌ فَلَا مَوْتَ، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَيُّزُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذْ قُتِيَ الْأَمْرُ يَوْمَ فِي غَلَوِ رَمِّ لَا يُبْشَرُونَ» (٦١) وأشار بيده إلى الدنيا، واللفظ لمسلم.

والثاني: أنه قول المؤمن لأصحابه، فقالوا له: إنك لا تموت، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ﴾، قاله مقاتل. وقال أبو سليمان الدمشقي: إنما خاطب المؤمن أهل الجنة بهذا على طريق الفرح بدوام النعيم، لا على طريق الاستفهام، لأنه قد عَلِمَ أنهم ليسوا بمتيّن، ولكن أعاد الكلام ليزداد بتكراره على سمعه سروراً. والثالث: أنه قول المؤمن لقرينه الكافر على جهة التوبيخ بما كان يُتَكَبَّرُ، ذكره الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿لِيُثْلَ هَذَا﴾ يعني النعيم الذي ذكره في قوله: ﴿أَوَلَيْكَ لَمْ يَرْزُقْ مَمْلُوءٌ﴾ [الصفات: ٤١] ﴿فَلْيَعْمَلِ الْفَالِغُ﴾، وهذا ترغيب في طلب ثواب الله ﷻ بطاعته^(١).

﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّرْقُمِ﴾ [٣٧] ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [٣٨] ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [٣٩] ﴿طَلَمُهَا كَانَتْ رُؤُوسَ الشَّيَاطِينِ﴾ [٤٠] ﴿فَاتَّبَعُوا لَآكُوفٍ مِنْهَا فَكَالُوا مِنْهَا الظُّلُمُ﴾ [٤١] ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهِمْ لَشَوْأَيْنَ جَحِيمٍ﴾ [٤٢] ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجَهُمْ لَكُلُّ الْجَحِيمِ﴾ [٤٣] ﴿إِنَّهُمْ أَقْوَا عَائِدَةً مِّنْ سَائِلِينَ﴾ [٤٤] ﴿فَتَمَّ عَلَى عَذَابِهِمْ يَهْرُورُونَ﴾ [٤٥] ﴿وَلَقَدْ سَلَ قَلْبَهُمْ أَكْثَرَ الْأَوَّلِينَ﴾ [٤٦] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ [٤٧] ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [٤٨] ﴿إِلَّا جَادَ اللَّهُ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [٤٩]

﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ﴾ يشير إلى ما وصف لأهل الجنة ﴿نُزُلًا﴾ قال ابن قتيبة: أي: رزقاً، ومنه: إقامة الأنزال، وأنزال الجنود: أرزأفها. وقال الزجاج: النزل هاهنا: الرّيح^(٢)، والفضل، يقال: هذا طعام له نُزْلٌ ونُزْلٌ، بتسكين الزاي وضمة، والمعنى: أذلك خير في باب الأنزال التي تُنْقَوُتُ ويمكن معها الإقامة، أم نُزْلُ أهل النار؟ وهو قوله: ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزُّرْقُمِ؟﴾^(٣). واختلف العلماء هل هذه الشجرة في الدنيا، أم لا؟ فقال قطرب: هي شجرة مُرَّة تكون بأرض تهامة من أخبت الشجر. وقال غيره: الزُّرْقُم: ثمرة شجرة كريمة الطعم. وقيل: إنها لا تُعرف في شجر الدنيا، وإنما هي في النار، يكره أهل النار على تناولها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [٣٨] يعني للكافرين. وفي المراد بالفتنة ثلاثة أقوال: أحدها: أنه لما ذكر أنها في النار، افْتَنُوا وكَلَبُوا، فقالوا: كيف يكون في النار شجرة، والنار تأكل الشجر؟ فنزلت هذه الآية، قاله قتادة^(٤). وقال السدي: فتنة لأبي جهل وأصحابه. والثاني: أن الفتنة بمعنى العذاب، قاله ابن قتيبة. والثالث: أن الفتنة بمعنى الاختبار، اختبروا بها فكلبوا، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أي: في قعر النار. قال الحسن: أضلُّها في قعر النار، وأغصانها ترتفع إلى ذرّاتها. ﴿طَلَمُهَا﴾ أي: ثمرها، وسُمِّيَ طلعاً، لطلوعه ﴿كَانَتْ رُؤُوسَ الشَّيَاطِينِ﴾. فإن قيل: كيف شبهها بشيء لم يشاهد؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه قد استقرّ في النفوس قُبْحُ الشياطين - وإن لم تُشاهد - فجاز تشبيهها بما قد عَلِمَ قُبْحُه، قال امرؤ القيس:

أَيْفُئْتُ لِنِي وَالْمَشْرِفِي مُضَاجِجِي وَمَسْنُونَةُ زُرْقٍ كَأَنِّيَابِ أَغْوَالِ^(٥)

قال الزجاج: هو لم ير الغول ولا أنيابها، ولكن التمثيل بما يُسْتَقْبَحُ أبلغ في باب المذكر أن يُمثَّلَ بالشياطين، وفي باب المؤنث أن يشبّه بالغول. والثاني: أن بين مكة واليمن شجر يسمى: رؤوس الشياطين، فشبهها بها، قاله ابن السائب. والثالث: أنه أراد بالشياطين: حَيَاتُ لها رؤوس ولها أعراف، فشبه طلعها برؤوس الحيات، ذكره

(١) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿لِيُثْلَ هَذَا تَلَيَّلَ الْفَالِغُ﴾ [٣٧] يقول تعالى ذكره: لمثل هذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة، فيعمل في الدنيا لأنفسهم العاملون ليدرّكوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم.

(٢) قال في «اللسان»: الرّيح: النّماء والزيادة.

(٣) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره: أهذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين الذين وصفت صفتهم من كرامتي في الجنة، ورزقتهم فيها من النعيم خير، أو ما أعددت لأهل النار من الزُّرْقُمِ؟

(٤) روى ابن جرير الطبري عن قتادة قال: لما ذكر شجرة الزُّرْقُمِ افْتَنَتِ الْمُظَلَمَةُ فقالوا: يثبّتكم صاحبكم هذا أن في النار شجرة والنار تأكل الشجر؟ فأنزل الله ما تسمعون أنها شجرة تخرج في أصل الجحيم عُذِيَّتْ بالنار ومنها خلقت. وأورده السيوطي في «الدر» ٢٧٧/٥، وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٥) «ديوانه» ٣٣، ومختار الشعر الجاهلي» ٣٩/١، و«مجمع البيان» ٦٢/٢٣، و«روح المعاني» ٨٧/٢٣، و«اللسان»: غول.

الزجاج. قال الفراء: والعرب تسمي بعض الحيات شيطاناً، وهو حية ذو عُرْف قبيح الوجه.

قوله تعالى: ﴿فَأَنبَأَهُمُ لَأَكَلُونَ مِنهَا﴾ أي: من ثمرها ﴿فَمَالَيْنَ مِنهَا الظُّلُمُ﴾ وذلك أنهم يُكْرَهُونَ على أكلها حتى تمتلئ بطونهم^(١). ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمُ عَلَيْكَ لَشَوْكاً مِن جَبَرٍ﴾ قال ابن قتيبة: أي: لخلطاً من الماء الحار يشربونه عليها. قال أبو عبيدة: تقول العرب: كل شيء خلطته بغيره فهو مشوب. قال المفسرون: إذا أكلوا الرُّقُومَ ثم شربوا عليه الحميم، شاب الحميم الرُّقُومَ في بطونهم فصار شوباً له. ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمُ﴾ أي: بعد أكل الرُّقُومِ وشرب الحميم ﴿لَكِلَى اللَّجِيمِ﴾ وذلك أن الحميم خارج من الجحيم، فهم يوردونه كما تورد الإبل الماء، ثم يُرْدُونَهُ إلى الجحيم؛ ويدل على هذا قوله: ﴿يَلْقَوْنَ فِيهَا رِجّاً ذَبَحُوا بِهَا وَرِجّاً قَهِقًا﴾ [الرحمن: ٤٤]. و﴿الْقُلُوبُ﴾ بمعنى وجدوا. و﴿يَهْرَعُونَ﴾ مشروح في [هود: ٧٨]، والمعنى أنهم يتبعون آباءهم في سرعة^(٢). ﴿وَلَقَدْ حَكَّ قَبْلَهُمُ﴾ أي: قبل هؤلاء المشركين ﴿أَكْثَرَ الْأَوَّلِينَ﴾ من الأمم الخالية.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ يعني الموحدين، فإنهم نجوا من العذاب. قال ابن جرير: وإنما حسن الاستثناء، لأن المعنى: فانظر كيف أهلكنا المنذرين إلا عباد الله.

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَنصَحْ الْمُجْرِبُونَ﴾ وَتَحْتَهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿وَمَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ مِرًّا الْبَاقِينَ﴾ وَوَكَّلْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوْحٍ فِي الْغَابِ﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿إِنَّ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ ثُمَّ أَفْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا﴾ أي: دعانا. وفي دعائه قولان: أحدهما: أنه دعا مستنصراً على قومه. والثاني: أن^(٣) ينجيهِ من الغرق ﴿فَلْيَنصَحْ الْمُجْرِبِينَ﴾ نحن؛ والمعنى: إِنَّا أَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَكْنَا قَوْمَهُ. وفي ﴿الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ قولان: أحدهما: [أنه] الغرق. والثاني: أذى قومه. ﴿وَمَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ مِرًّا الْبَاقِينَ﴾ [وذلك] أن نسل [أهل] السفينة انقراضوا غير نسل ولده، فالناس كلهم من ولد نوح^(٤). ﴿وَوَكَّلْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: تركنا عليه ذكراً جميلاً ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ وهم الذين جاؤوا بعده إلى يوم القيامة. قال الزجاج: وذلك الذكور الجميل قوله: ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوْحٍ فِي الْغَابِ﴾ وهم الذين جاؤوا من بعده؛ والمعنى: تركنا عليه أن يُصَلِّيَ عليه في الآخرين إلى يوم القيامة. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ قال مقاتل: جزاء الله بإحسانه النِّسَاءَ الْحَسَنَ في العالمين.

﴿وَكَانَ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ إِذْ جَاءَهُ نَذِيرٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ فَأُقْبِلْ سَلِيمٌ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أَيْفَاكَ عَالِمُهُ دُونَ اللَّهِ يُرِيدُونَ ﴿فَمَا تَكُنْ لَهُمْ رَبًّا أَلْتَدِينُهُمْ﴾ فَتَنَظَّرْ نَظْرَةً فِي الشُّجُورِ ﴿فَقَالَ إِنِّي سَعِيمٌ﴾ فَنُفُوذُوا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿فَرَاغَ إِلَهُ الْإِلَهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْظُرُونَ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَبْرًا بِأَلْيَيْنَ﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرَوْنَ ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجُسُونَ﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تُمْلِكُونَ ﴿قَالُوا إِنَّمَا بُنِيَنا فَلْنَعْبُدُ الْقُوَّةَ فِي الْجَبْرِ﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَبِّحِينَ﴾ رَبِّي هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ أي: من أهل دينه وملتته. والهاء في «شيعته» عائدة على نوح في قول الأكرين؛ وقال ابن السائب: تعود إلى محمد ﷺ، واختاره الفراء^(٥). فإن قيل: كيف يكون من شيعته، وهو قبله؟

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿فَأَنبَأَهُمُ لَأَكَلُونَ مِنهَا﴾ أي: لَأَكَلُونَ مِنهَا الظُّلُمُ ﴿ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَكُلُونَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الَّتِي لَا أَبْشَعُ مِنْهَا، وَلَا أَقْبَحُ مِنْ مَنَظَرِهَا، مَعَ مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الطَّعْمِ وَالرَّيْحِ وَالطَّبَعِ، فَهَئِنَّمَا لِيَضَعُوا إِلَى الْأَكْلِ مِنْهَا، لِأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ إِلَّا إِيَّاهَا وَمَا هُوَ فِي مَعْنَاهَا، مَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَكُم مِّنْهُ شَيْءٌ﴾ لَا يَبِينُ وَلَا يَتَّبِعُ مِنْ شَيْءٍ. اهـ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿فَأَنبَأَهُمُ لَأَكَلُونَ مِنهَا الظُّلُمُ﴾ يقول: إن هؤلاء المشركين الذين إذا قيل لهم: قولوا: لا إله إلا الله يستكبرون، وجدوا آباءهم ضلالاً عن قصد السبيل، غير سالكين محبة الحق ﴿فَهُمْ عَلَى ظُلْمٍ يَهْرَعُونَ﴾ يقول: فهؤلاء يسرع بهم في طريقهم ليقضوا آثارهم وسئتهم. اهـ. في الأصل: داهية.

(٣) قال ابن كثير: لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلاً فذكر نوحاً عليه الصلاة والسلام وما لقى من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة فدعا ربه أني مغلوب فانتصر، فغضب الله تعالى لغضبه عليهم، ولهذا قال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَنصَحْ الْمُجْرِبُونَ﴾ أي: فلنصم المجيبون له، ﴿وَتَحْتَهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وهو التكذيب والاذى، ﴿وَمَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ مِرًّا الْبَاقِينَ﴾. اهـ.

(٤) قال ابن جرير الطبري: وقد زعم بعض أهل العربية أن معنى ذلك: وإن من شيعته محمد لإبراهيم، وقال: ذلك مثل قوله: ﴿وَأَنبَأَهُمُ لَأَكَلُونَ مِنهَا الظُّلُمُ﴾ أي: أنا حملنا ذرية من هم منه، فجعلها ذرية لهم وقد سبقتهم. اهـ. وقال الألويسي: ﴿وَكَانَ مِنْ شِيعَتِهِ﴾ أي: ممن شابع نوحاً وتابعه في أصول =

فالجواب: أنه مثل قوله: ﴿حَلَّكَ دُرَيْتَهُمْ﴾ [يس: ٤١]، فجعلها دُرَيْتَهُمْ وقد سبقتهم، وقد شرحنا هذا فيما مضى [يس: ٤١].
قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَيْدُ﴾ أي: صدق الله وأمن به ﴿يَقْلِبُ سُلَيْمٍ﴾ من الشُّركِ وكلِّ دَنَسٍ، وفيه أقوال ذكرناها في [الشعراء: ٨٩].
قوله تعالى: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ؟﴾ هذا استفهام توبيخ، كأنه ويخهم على عبادة غير الله. ﴿أَفَبُكَّا؟﴾ أي: أتأفكون إفكاً وتعبدون آلهة سوى الله؟ ﴿فَمَا تُلْكَرُ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٧٧] إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ كأنه قال: فما ظنكم أن يصنع بكم؟ ﴿تَنْظُرُ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ [٨٨] فيه قولان: أحدهما: [أنه] نظر في علم النجوم، وكان القوم يتعاطون علم النجوم، فعاملهم من حيث هم، وأراهم أنني أعلم من ذلك تعلمون، لئلا يُنكروا عليه ذلك. قال ابن المسيب: رأى نجماً طالعاً، فقال: إني مريض غداً. والثاني: أنه نظر إلى النجوم، لا في علمها. فإن قيل: فما كان مقصوده؟ فالجواب: أنه كان لهم عيد، فأراد التخلف عنهم ليكيده أصنامهم، فاعتل بهذا القول.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ من معاريف الكلام. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: سأسقم، قاله الضحاك. قال ابن الأنباري: أعلمه الله ﷻ أنه يمتحنه بالسقم إذا طلع نجم يعرفه، فلما رأى النجم، علم أنه سيقم. والثاني: إني سقيم القلب عليكم إذ تكهنتم بنجوم لا تضر ولا تنفع، ذكره ابن الأنباري. والثالث: أنه سقم لعل عرضت له، حكاه الماوردي. وذكر السدي أنه خرج معهم إلى يوم عيدهم، فلما كان ببعض الطريق، ألقى نفسه وقال: إني سقيم أشكي رجلي^(١)، ﴿فَقَوْلًا عَنْهُ مَتَّيْنِ﴾ [١٠٠] ﴿فَرَأَى إِلَاهُ الْيَتِيمَ﴾ أي: مال إليها - وكانوا قد جعلوا بين يديها طعاماً لتبارك فيه على زعمهم - ﴿فَقَالَ﴾ إبراهيم استهزاء بها ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ؟﴾ وقوله: ﴿حَرَبًا بِالْأَيْمِينَ﴾ في اليمين ثلاثة أقوال: أحدها: أنها اليد اليمنى، قاله الضحاك^(٢). والثاني: بالقوة والقدر، قاله السدي، والفراء. والثالث: باليمين التي سبقت منه، وهي قوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، حكاه الماوردي. قال الزجاج: «حَرَبًا» مصدر، والمعنى: فمال على الأصنام يضربها ضرباً باليمين؛ وإنما قال: «عليهم»، وهي أصنام، لأنهم جعلوها بمنزلة ما يُمَيِّزُ. ﴿فَأَقْبَلَ بِلَايِهِ يَرْفُونَ﴾ [١٠١] قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: «يَرْفُونَ» بفتح الياء وكسر الزاي وتشديد الفاء. وقرأ حمزة، والمفضل عن عاصم: «يَرْفُونَ» برفع الياء وكسر الزاي وتشديد الفاء. وقرأ ابن السميع، وأبو المتوكل، والضحاك: «يَرْفُونَ» بفتح الياء وكسر الزاي وتخفيف الفاء. وقرأ ابن أبي عيلة، وأبو نهيك: «يَرْفُونَ» بفتح الياء وسكون الزاي وتخفيف الفاء^(٣). قال الزجاج: أعرب القراءات فتح الياء وتشديد الفاء، وأصله من زيف الطعام، وهو ابتداء غدو الطعام، يقال: زَفَ الطعامُ يَرْفُ؛ وأما ضم الياء، فمعناه: يصيرون إلى الرِّيف، وأنشدوا:

[تَمَنَّى حُصَيْنٌ أَنْ يَسُودَ جِذَاعَهُ] فاضحى حُصَيْنٌ قَدْ أَذَلَّ وَأَقْهَرَ^(٤)

= الدين ﴿لِيَرْفُونَ﴾ وإن اختلفت فروع شريعتيهما، أو ممن شايعة في التصلب في دين الله تعالى ومصايرة المكذبين، قال: ونقل هذا عن ابن عباس. قال: وذهب الفراء إلى أن ضمير «شيعته» لبني محمد ﷺ، قال: والظاهر ما أشرنا إليه، وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد وقادة والسدي، قال: وقُلما يقال للمتقدم: هو شيعة للمتأخر. اهـ.

(١) قال ابن كثير: إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أزعج خروجهم إلى عيد لهم، فأحب أن يختلي بالكهنة ليكرسها، فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه ﴿فَقَوْلًا عَنْهُ مَتَّيْنِ﴾ [١٠٠] قال: قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظري في النجوم، يعني قتادة أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يليهم به فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف، قال ابن كثير: فأما الحديث الذي رواه ابن جرير عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات، ثنتين في ذات الله تعالى، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِكُفْرِهِمْ هَذَا﴾ وقوله في سارة: «هي أختي» قال: فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن من طرق، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يُدْمُ فاعله، حاشا وكلأ ولما، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوُّزاً، وإنما هو من المعاريف لمقصود شرعي ديني، كما جاء في الحديث: «إن في المعاريف لمنودحة عن الكذب». اهـ.

(٢) قال ابن كثير: وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى، ولهذا تركهم جذافاً إلا كبيراً لهم لعلمهم إليه يرجعون، كما تقدم في سورة (الأنبياء) عليهم الصلاة والسلام تفسير ذلك. اهـ. وقال الألوسي: ﴿وَرَفَعَ عَلَيْهِمْ شَرِّاً بِالْأَيْمِينَ﴾، أي: باليد اليمنى كما روي عن ابن عباس، قال: وتقييد الضرب باليمين، للدلالة على شدته وقوته، لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما في الغالب، قال: وقوة الآلة تقتضي شدة الفعل وقوته. اهـ.

(٣) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القراءة في ذلك عندنا قراءة من قرأ بفتح الياء وتشديد الفاء، لأن ذلك هو الصحيح المعروف من كلام العرب والذي عليه قراءة الفصحاء من القراء. اهـ.

(٤) البيت للشَّجَلِ السَّنَدِي كما في «الطبري» ٧٤/٢٣، «واللسان» و«التاج»: قهر، جذع، وروي: قَدْ أَذَلَّ وَأَقْهَرَ، مبنياً للمجهول.

أي: صار إلى الفهر. وأما كسر الزاي مع تخفيف الفاء، فهو من: وَرَفَتْ يَرْفُ، بمعنى أَسْرَعَ يُسْرِع، ولم يَعْرِفه الكسائي ولا الفراء، وعَرَفَه غيرهما. قال المفسرون: بلغهم ما صنع إبراهيم، فأسرعوا، فلَمَّا انْتَهَوْا إليه، قال لهم محتجاً عليهم: ﴿أَتَبَدِّلُونَ مَا تَتَّخِذُونَ﴾ بأيديكم ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٩)، قال ابن جرير: في «ما» وجهان: أحدهما: أن تكون بمعنى المصدر، فيكون المعنى: والله خَلَقَكُمْ وَعَمَلَكُمْ. والثاني: أن تكون بمعنى «الذي»، فيكون المعنى: والله خَلَقَكُمْ. وَخَلَقَ الذي تعملونه بأيديكم من الأصنام (١)؛ وفي هذه الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة [للـه]. فلَمَّا لَزِمَتْهُمْ الْحُجَّةُ ﴿قَالُوا إِنَّا لَم بَشَرًا﴾ وقد شرحنا قصته في سورة [الأنبياء: ٥٢ - ٧٤]، وبيننا معنى الجحيم في [البقرة: ١١٩]، والكيد الذي أرادوا به: إحراقه. ومعنى قوله: ﴿جَعَلْنَاهُمْ الْأَشْقِيَاءَ﴾ أن إبراهيم عليهم السلام بالْحُجَّة حيث سلمه الله من كيدهم وحل الهلاك بهم (٢). ﴿وَقَالَ﴾ يعني إبراهيم ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ في هذا الذهاب قولان: أحدهما: أنه ذاهب حقيقة، وفي وقت قوله هذا قولان: أحدهما: أنه حين أراد هجرة قومه؛ فالمعنى: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى حيث أمرني ربي ﷻ ﴿سَيَّبِينَ﴾ إلى حيث أمرني، وهو الشام، قاله الأكثرون. والثاني: حين أُلقي في النار، قاله سليمان بن صُرد؛ فعلى هذا، في المعنى قولان: أحدهما: ذاهب إلى الله بالموت، سيهدين إلى الجنة. والثاني: [ذاهب] إلى ما قضى [به] ربي، سيهدين إلى الخلاص من النار. والقول الثاني: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي بقلبي وعملي ونيتي، قاله قتادة (٣). فلما قَدِم الأرض المقدسة، سأل ربه الولد فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٤) أي: ولدًا صالحًا من الصالحين، فاجتزأ بما ذكر عما ترك، ومثله: ﴿وَكَاوُوا فِيهِ مِنَ الرَّحْمِيِّينَ﴾ [يوسف: ٢٠]، فاستجاب له، وهو قوله: ﴿بَنَيْنَاهُ بِكُلِّ كَلِيمٍ﴾ (٥) وفيه قولان: أحدهما: أنه إسحاق. والثاني: أنه إسماعيل. قال الزجاج: هذه البشارة تَدُلُّ على أنه مبشّر بآبَن ذَكَرَ، وأنه يبقى حتى ينتهي في السن ويوصف بالجلم.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَى قَالَ يَبْنَؤُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُ فَأَنْظَرْ مَاذَا رَزَقْتُ قَالَ يَبْنَؤُ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٦) فَلَمَّا أَسْلَمْنَا وَكُنَّا لِلْجَنَّةِ وَتَدَبَّرْتَهُ أَنْ يَتَابِعَهُ (٧) قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨) إِنَّ هَذَا لَمَوْ أَلْبَسُوا النَّبِيِّ (٩) وَقَدَبْنَاهُ بِذَنبٍ عَظِيمٍ (١٠) وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١١) سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٢) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣) إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْكَافِرِينَ (١٤) وَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ نَبِيٍّ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٥) وَبَشَّرْنَاهُ عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ دُرَّتِيهِمَا مُحَمَّدٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِيتٌ (١٦)

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَى﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن المراد بالسعي هاهنا: العمل، قاله ابن عباس. والثاني: أنه المشي، والمعنى: مشى مع أبيه، قاله قتادة. قال ابن قتيبة: بلغ أن ينصرف معه ويُعيَّنه. قال ابن السائب: كان ابن ثلاث عشرة سنة. والثالث: أن المراد بالسعي: العبادة، قاله ابن زيد؛ فعلى هذا، يكون قد بلغ.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُ﴾ أكثر العلماء على أنه لم ير أنه ذبحه في المنام، وإنما المعنى أنه أَمِر في المنام بذبحه، ويدل عليه قوله: ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾. وذهب بعضهم إلى أنه رأى أنه يعالج ذبحه، ولم ير إراقة الدَّم. قال قتادة: وروى الأنبياء حقًّا، إذا رأوا شيئًا، فعلموه. وذكر السدي عن أشياخه أنه لما بَشَّرَ جبريلُ سارة بالولد، قال إبراهيم: هو إذاً لله ذبيح، فلَمَّا فَرَّغَ مِنْ بُيُوتِ الْبَيْتِ، أتى في المنام، فقيل له: أَوْفَ بَنَدُوكَ (١٧). واختلفوا في الذبيح على قولين: أحدهما: [أنه] إسحاق، قاله عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وابن مسعود، وأبو موسى الأشعري، وأبو هريرة، وأنس، وكعب الأحبار، وهب بن منبه، [ومسروق]، وعبيد بن عُمر، والقاسم ابن أبي بزة، ومقاتل بن سليمان، واختاره ابن جرير. وهؤلاء يقولون: كانت هذه القصة بالشام. وقيل: طويت له

(١) قال ابن كثير: والأول أظهر، لما رواه البخاري في كتاب «أفعال العباد» عن علي بن المديني عن مروان بن معاوية عن أبي مالك عن ربيعي بن جراح عن حذيفة رَفُوعًا قال: «إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعه» اهـ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: يقول الله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أي: فجعلنا قوم إبراهيم ﴿الْأَشْقِيَاءَ﴾ يعني الأولين حجة، وغلبنا إبراهيم عليهم بالحجة، وأقلعناهم مما أرادوا به من الكيد. اهـ.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّبِينَ﴾ يقول: وقال إبراهيم لما ألهجه الله على قومه ونجاء من كيدهم: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ يقول: إني مهاجر من بلدة قومي إلى الله، أي: إلى الأرض المقدسة، ومفارقهم فمعتزلهم لعبادة الله. اهـ.

(٤) ذكر ذلك البغوي في «تفسيره» بدون سند والله أعلم.

الأرض حتى حمله إلى المَنَحَرِ بَيْنِي فِي سَاعَةٍ. والثاني: أنه إسماعيل، قاله ابن عمر، وعبد الله بن سلام، والحسن البصري، وسعيد بن المسيَّب، والشَّعْبِي، ومجاهد، ويوسف بن مهران، وأبو صالح، ومحمد بن كعب القرظي، والربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن سابط^(١). واختلفت الرواية عن ابن عباس، فروى عنه عكرمة أنه إسحاق، وروى عنه عطاء، ومجاهد، والشَّعْبِي، وأبو الجوزاء، ويوسف بن مهران أنه إسماعيل، وروى عنه سعيد بن جبير كالقولين. وعن سعيد بن جبير، وعكرمة، والزهري، وقتادة، والسدي روايتان. وكذلك عن أحمد رحمته الله روايتان. ولكل قوم حجة ليس هذا موضعها، وأصحابنا ينصرون القول الأول^(٢).

الإشارة إلى قصة الذَّبْحِ

ذكر أهل العلم بالسَّيَر والتفسير أن إبراهيم لما أراد ذبح ولده، قال له: انطلق فاقرب قرباناً إلى الله تعالى، فآخذ سكيناً وخيلاً، ثم انطلق، حتى إذا ذهب بين الجبال، قال له الغلام: يا أبت أين قربانك؟ قال: يا بني إني رأيت في المنام أني أذبحك، فقال له: اشتدَّ رباطي حتى لا أضطرب، واكثف عني ثيابك حتى لا ينتضح عليك من دمي فتراه أمي فتحنن، وأسرع مَرَّ السَّكِينِ على خَلْقِي ليكون أهون للموت علي، فإذا أتيت أمي فاقرأ عليها السلام مني؛ فأقبل عليه إبراهيم يقبله ويكي ويقول: نعم العون أنت يا بني على أمر الله تعالى، ثم [إنه] أَمَرَ السَّكِينِ على خَلْقِهِ فلم يَخْلُ شيئا^(٣). وقال مجاهد: لما أمرها على خَلْقِهِ انقلبت، فقال: مالك؟ قال: انقلبت، قال: اظعن بها طغناً. وقال السدي: ضرب الله على خَلْقِهِ صفيحة من نحاس؛ وهذا لا يحتاج إليه، بل منعها بالقُدْرَةِ أبلغ. قالوا: فلما طعن بها، نبت، وعلم الله منهما الصدق في التسليم، فنودي: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، هذا فدأ ابنك؛ فنظر إبراهيم، فإذا جبريل معه كبش أملح.

قوله تعالى: ﴿فَأَنظَرْنَا مَاذَا تَرْوِي﴾ لَمْ يَقُلْ له ذلك على وجه المؤامرة في أمر الله تعالى، ولكن أراد أن ينظر ما عنده من الرأي. وقرأ حمزة، والكسائي، وتخلف: «ماذا تُري» بضم التاء وكسر الراء؛ وفيها قولان: أحدهما: ماذا تُريني من صبرك أو جَزَعك، قاله الفراء. والثاني: ماذا تُبين، قاله الزجاج؛ وقال غيره: ماذا تُشير.

قوله تعالى: ﴿أَفَعَلَ مَا تُؤْمَرُ﴾ قال ابن عباس: أفعل ما أوحى إليك من ذبحي ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ على البلاء.

- (١) قال الحافظ ابن حجر في ترجمته في «تقريب التهذيب»: عبد الرحمن بن سابط، ويقال: ابن عبد الله بن سابط، وهو الصحيح. اهـ.
- (٢) قال ابن كثير: قال الله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ فِيكُمْ لَقِيَرٍ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أول ولد يُسَرُّ به إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، قال: بل في نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام ولد لإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وحُشِرَ إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة، قال: وعندهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحده، وفي نسخة أخرى: «يُحَرِّمُهُ» قال: فأقحموا هاهنا كذباً وبهتاناً إسحاق، قال: ولا يجوز هذا، لأنه مخالف لنص كتابهم، قال: وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوه، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم فزادوا ذلك، وحرفوا «وحيدك» بمعنى «الذي ليس عندك غيره»، فإن إسماعيل كان ذُوبٍ به وبأُمِّه إلى مكة، وهو تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: وحيدك إلا لمن ليس له غيره، قال: وأيضاً فإن أول ولد، له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار، قال: وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة عليهم السلام أيضاً. ثم قال: وليس ذلك في كتاب ولا سنَّة، وما أُظْهِرَ ذلك ثَلَاثِي إِلَّا عن أحيار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مُسَلِّماً من غير حجة، قال: وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بغلام حلیم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَيَتَذَكَّرُ فِيكُمْ لَقِيَرٍ﴾ وقال: ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق فقلوا: ﴿فَأَنظَرْنَا مَاذَا تَرْوِي﴾. وقال ابن كثير في قوله تعالى عن امرأة إبراهيم عليه السلام: ﴿فَتَنَزَّلُهَا بِإِسْحَاقَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ من سورة (هود: ٧١) أي: بولد لها يكون له ولد وعقب نسل، فإن يعقوب ولد لإسحاق، قال: ومن هاهنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق، لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، قال: فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده، ووعد الله حق لا خلف فيه؟ قال: فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، قال: فتعين أن يكون هو إسماعيل، قال: وهذا من أحسن الاستدلال وأصح وأبين، والله الحمد. اهـ.

وقد قال الحافظ ابن قيم الجوزية في «الهدى النبوي»: إسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأما القول بأنه إسحاق، فمردود بأكثر من عشرين وجهاً، ونقل عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذا القول متلقى من أهل الكتاب مع أنه باطل في كتابهم، لأن فيه أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه يَحَرِّمُهُ، وفي لفظ: «وحيد» وقد حُرفوا ذلك في التوراة التي بأيديهم. اهـ.

(٣) ذكر نحو هذا المعنى البهوي والمغازن عن ابن عباس بدون سند، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمُوا﴾ أي: استسلموا لأمر الله ﷻ فأطاعوا ورضوا. وقر علي، وابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، والأعمش، وابن أبي عتبة: ﴿فَلَمَّا سَلَمُوا﴾ بتشديد اللام من غير همز قبل السين. والمعنى: سَلَمُوا لأمر الله ﷻ. وفي جواب بقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمُوا﴾ قولان: أحدهما: أن جوابه: «فوناديناها»، والوار زائدة، قاله الفراء. والثاني: أن الجواب محذوف لأن في الكلام دليلاً عليه؛ والمعنى: فلما فعل ذلك، سَعِدَ وأُجِرَ ثوابه، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَتَكَلَّمَ لِلْجِبِينِ﴾ قال ابن قتيبة: أي: صَرَعَهُ على جبينه فصار أحد جبينيه على الأرض، وهما جبينان، والجهة بينهما، وهي ما أصاب الأرض في السجود، والناس لا يكادون يفرقون بين الجبين والجهة، فالجهة مسجد الرجل الذي يصيبه نَدَبُ السُّجُود، والجبينان يكتفاهما، من كل جانب جبين.

قوله تعالى: ﴿وَتَكَلَّمَ لِلْجِبِينِ﴾ قال المفسرون: نودي من الجبل: ﴿أَنْ يَتَّزِيَهُمْ﴾ ﴿١٣٠﴾ قَدْ صَدَقْتَ الرُّؤْيَا﴾ وفيه قولان: أحدهما: قد عُولِتْ ما أَمُرْتُ، وذلك أنه قصد الذَّبْحَ بما أمكنه، وطاوعه الابن بالتمكين مع الذَّبْحِ، إلّا أن الله ﷻ صرف ذلك كما شاء، فصار كأنه قد ذَبَحَ وإن لم يتحقَّق الذَّبْحُ. والثاني: أنه رأى في المنام معالجة الذَّبْحِ، ولم ير إراقة الدَّم، فلما فَعَلَ في اليقظة ما رأى في المنام، قيل له: ﴿قَدْ صَدَقْتَ الرُّؤْيَا﴾. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وأبو عمران، والجحدري: ﴿قَدْ صَدَقْتَ الرُّؤْيَا﴾ بتخفيف الدال، وهاتنا تم الكلام. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا كَذَّبُكَ﴾ أي: كما دَكَّرْنَا من العفو من ذبح ولده ﴿يَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(١). ﴿إِنَّ هَذَا لَهُ الْبَلَاءُ الْبَهِيمُ﴾ ﴿١٣١﴾ في ذلك قولان: أحدهما: النعمة البينة، قاله ابن السائب، ومقاتل. والثاني: الاختبار العظيم، قاله ابن زيد، وابن قتيبة. فعلى الأول، يكون قوله هذا إشارة إلى العفو عن الذَّبْحِ. وعلى الثاني، يكون إشارة إلى امتحانه بذبح ولده.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ يَنْتَهَى﴾ يعني: الذَّبْحُ ﴿بِذَبْحٍ﴾ وهو بكسر الدال: اسم ما ذُبِحَ، ويفتح الدال: مصدر ذَبَحْتُ، قاله ابن قتيبة. ومعنى الآية: خلصناه من الذَّبْحِ بأن جعلنا الذَّبْحَ فداءً له. وفي هذا الذَّبْحُ ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان كبشاً أقرن قد رعى في الجنة قبل ذلك أربعين عاماً، قاله ابن عباس في رواية مجاهد، وقال في رواية سعيد بن جبير: هو الكبش الذي قرّبه ابنُ آدم فتقبَّل منه، كان في الجنة حتى فُدي به. والثاني: أن إبراهيم فدى ابنه بكبشين أبيضين أعينين أقرنين، رواه أبو الطفيل عن ابن عباس^(٢). والثالث: [أنه] ما فُدي إلّا بتيس من الأوزى^(٣)، أهبط عليه من ثبير، قاله الحسن^(٤). وفي معنى «عظيم» أربعة أقوال: أحدها: لأنه كان قد رعى في الجنة، قاله ابن عباس، وابن جبير. والثاني: لأنه ذُبِحَ على دين إبراهيم وسُنَّته، قاله الحسن. والثالث: لأنه مُتَقَبَّلٌ، قاله مجاهد. وقال أبو سليمان الدمشقي: لما قرّبه ابنُ آدم، رُفِعَ حيّاً، فرعى في الجنة، ثم جعل فداء الذَّبْحِ، فقُبِلَ مرتين. والرابع: لأنه عظيم الشخص والبركة، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَرَكَّعَا عَلَيْهِ﴾ قد فسرناه في هذه السورة [الصفات: ٧٨].

قوله تعالى: ﴿وَتَكَلَّمَ لِلْجِبِينِ﴾ من قال: إن إسحاق الذَّبِيحُ، قال: بُشِّرَ إبراهيم بنبوة إسحاق، وأُثِيبَ إسحاق بصبره

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَّبُكَ يَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٣٠﴾ أي: هكذا نصرف عن أطاعنا المكارة والشداد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنْ حَيْثُ لَا يَحْسِبُ وَمَنْ يُؤْتَكَ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ يَكْفِي أَمْرَهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرًا ﴿١٣١﴾ قال: وقد استدلل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل، خلافاً لطائفة من المعتزلة، قال: والدلالة من هذه الظاهرة، لأن الله تعالى شرع لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ذبح ولده، ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء، قال: وإنما كان المقصود من شرعه أولاً، إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك، قال: ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُ الْبَلَاءُ الْبَهِيمُ﴾ ﴿١٣١﴾ أي: الاختبار الواضح الجلي حيث أمر بلبيح ولده، فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله تعالى، متقاداً لطاعته، قال: ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّيْتُمُ الرِّزْقَ﴾ ﴿١٣٢﴾ اهـ.

(٢) (الطبري) وابن كثير من رواية أبي الطفيل عن علي عليه السلام: كبش أبيض أقرن أعين.

(٣) الأوزى: الرهول.

(٤) قال ابن كثير في «التاريخ» بعد أن ذكر نحوه من هنا: ثم غالب ما هاتنا من الآثار مأخوذ من الإسرائيليات، وفي القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم والاختبار الباهر، وأنه فُدي بلبيح عظيم، قال: وقد رُذِّدَ في الحديث أنه كان كبشاً. اهـ. وقال في «التفسير»: والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه فُدي بكبش. اهـ. و«تيس»: جبل بمكة.

النبوة، وهذا قول ابن عباس في رواية عكرمة، وبه قال قتادة، والسدي^(١). ومن قال: الذبيح إسماعيل، قال: بشر الله إبراهيم بولد يكون نبياً بعد هذه القصة، جزاء لطاعته وصبره، وهذا قول سعيد بن المسيب.

قوله تعالى: ﴿وَرَكَّعَا عَلَيْكَ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ يعني بكثرة ذرئتهما، وهم الأسباط كلهم ﴿وَبَيْنَ ذُرِّيَّتِهِمَا عِمْرَئِيلَ﴾ أي: مطيع لله ﴿وَعَلَّامَ﴾ وهو العاصي له. وقيل: الْمُخْصِيْنُ: المؤمن، والظالم: الكافر.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٥٦﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١٥٧﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١٥٨﴾ وَآتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١٥٩﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا أَمْصَافَ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٦٠﴾ وَرَكَّعَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١٦١﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٦٢﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٣﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّ إِلَهًا لَّيَنَاسَ لِّمَنِ الْمُسْلِكُ ﴿١٦٥﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٦﴾ أَتَدْعُونَ بَلَاً ﴿١٦٧﴾ وَلَقَدْ رَأَيْتُمْ أَكْثَرَ الْمُخَلَّفِينَ ﴿١٦٨﴾ اللَّهُ رَزَقَكُمْ الْأَرْزَاقَ ﴿١٦٩﴾ فَكَذَّبُوهٗ فَاتَمَّتْ لِمُحْضَرِّوهُ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٧١﴾ وَرَكَّعَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٧٢﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ أي: أنعمنا عليهما بالنبوة. وفي ﴿الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ قولان: أحدهما: استبعاد فرعون وبلأوه، وهو معنى قول قتادة. والثاني: الفرق، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: [أنه] يرجع إلى موسى وهارون وقومهما. والثاني: [أنه] يرجع إليهما فقط، فجميعاً، لأن العرب تذهب بالرئيس إلى الجمع، لجنوده وأتباعه، ذكرهما ابن جرير. وما بعد هذا قد تقدم بيانه [الأنبياء: ٤٨] إلى قوله: ﴿وَإِنَّ إِلَهًا لَّيَنَاسَ لِّمَنِ الْمُسْلِكُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه نبي من أنبياء بني إسرائيل، قاله الأكثرون. والثاني: أنه إدريس، قاله ابن مسعود، وقتادة، وكذلك كان يقرأ ابن مسعود، وأبو العالية، وأبو عثمان النهدي: [وإن إدريس] مكان [إلياس].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تخافون الله فتوحّدونه وتعبدونه؟! ﴿أَتَدْعُونَ بَلَاً﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه بمعنى الرّب، قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو عبيدة، وابن قتيبة. وقال الضحاك: كان ابن عباس قد أعياه هذا الحرف، فبينما هو جالس، إذ مرّ أعرابي قد ضلّت ناقته وهو يقول: من وجد ناقة أنا بعلها؟ فنبهه الضبيان يصيحون به: يا زوج الناقة، يا زوج الناقة، فدعاه ابن عباس فقال: ويحك، ما عنيّت ببلها؟ قال: أنا ربّها، فقال ابن عباس: صدق الله ﴿أَتَدْعُونَ بَلَاً﴾: ربّاً. وقال قتادة: هذه لغة يمانية. والثاني: أنه اسم صنم كان لهم، قاله الضحاك، وابن زيد. وحكى ابن جرير أنه به سُمّيَت «بعلبك». والثالث: أنها امرأة كانوا يعبدونها، حكاه محمد بن إسحاق^(٢).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ رَزَقَكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «الله ربكم» بالرفع. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخلف، ويعقوب: «الله» بالنصب.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهٗ فَاتَمَّتْ لِمُحْضَرِّوهُ﴾ النار، ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين لم يكذبوه، فإنهم لا يُحْضَرُونَ النار.

(١) قال ابن كثير في «التاريخ»: وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم، قال: وإنما أخذه - والله أعلم - من كتب الأخبار أو صحف أهل الكتاب، قال: وليس في ذلك حديث صحيح من المصنوع حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز، قال: ولا يفهم هذا القرآن، بل المفهوم، بل المنطوق، بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل، قال: وما أحسن ما استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل وليس بإسحاق من قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمَا بِإِسْحَاقَ وَبَيْنَ ذُلُوهُ إِسْحَاقُ بِمَقُورٍ﴾ قال: فكيف البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له؟ هذا لا يكون لأنه يناقض البشارة بالمعصية، والله أعلم.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿لِمَنِ الْمُسْلِكُ﴾ يقول جل ثناؤه: لمرسل من المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ يقول حين قال لقومه من بني إسرائيل: ألا تتقون الله أيها القوم فتخافونه وتحذرون عقوبته على عبادتكم ربّاً غير الله وإلهاً سواه ﴿وَلَقَدْ رَأَيْتُمْ أَكْثَرَ الْمُخَلَّفِينَ﴾؟ يقول: وتدعون عبادة أحسن من قبل له خالقي؟ ثم قال ابن جرير: وللبلع في كلام العرب أرجح، يقولون لرب الشيء: هو بئله، يقال: هذا بعل هذه الدار، يعني ربّها، ويقولون لزوج المرأة: بعلها، ويقولون لما كان من الغروس والزرع مستغنياً بماء السماء ولم يكن سقيّاً: بعل. اهـ. وقال ابن كثير: وقوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَلَاً﴾ أي: اتعبدون صنماً ﴿وَلَقَدْ رَأَيْتُمْ أَكْثَرَ الْمُخَلَّفِينَ﴾ الله رَزَقَكُمْ رَبّاً وَرَبّاً أَتَايَكُمُ الْأَرْزَاقَ ﴿١٦٩﴾؟ أي: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

الإشارة إلى القصة

ذكر أهل العلم بالتفسير والسيرة أنه لما كثرت الأحداث بعد قبض حزقيال النبي ﷺ، وعُدت الأوثان، بَعَثَ الله تعالى إليهم إلياس. قال ابن إسحاق: وهو إلياس بن تشبي بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران، فجعل يدعوهم فلا يسمعون منه، فدعا عليهم بجبس المطر، فجهدوا جهداً شديداً، واستخفى إلياس خوفاً منهم على نفسه. ثم إنه قال لهم يوماً: إنكم قد هلكتم جهداً، وهلكت البهائم والشجر بخطاياكم، فاحرجوا بأصنامهم واذعوها، فإن استجابت لكم، فالأمر كما تقولون، وإن لم تفعل، علمتم أنكم على باطل فنزعتم عنه، ودعوت الله ففرج عنكم، فقالوا: أنصفت، فخرجوا بأصنامهم وأوثانهم، فدعوا فلم يستجب لهم، فعرفوا ضلالهم، فقالوا: ادع الله لنا، فدعا لهم، فأرسل المطر وعاشت بلادهم، فلم ينزعوا عما كانوا عليه، فدعا إلياس ربّه أن يقضه إليه ويربّحه منهم، فقيل له: اخرج يوم كذا إلى مكان كذا، فما جاءك من شيء فاركبه ولا تهبطه، فخرج، فأقبل قرس من نار، فوثب عليه، فانطلق به، وكساه الله الريش وألبسه النور وقطع عنه لذّة المَطْعَمِ والمَشْرَبِ، فطار في الملائكة، فكان إنسياً ملكياً، أرضياً سماوياً^(١).

قوله تعالى: ﴿سَلَّمَ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «إلياسين» موصولة مكسورة الألف ساكنة اللام، فجعلوها كلمة واحدة؛ وقرأ الحسن مثلهم، إلا أنه فتح الهمزة. وقرأ نافع، وابن عامر، وعبد الوارث، ويعقوب إلّا زيداً: «إل ياسين» مقطوعة، فجعلوها كلمتين. وفي قراءة البرصل قولان: أحدهما: أنه جُمِعَ لهذا النبي وأُمَّته المؤمنين به، وكذلك يُجْمَع ما يُنسَب إلى الشيء بلفظ الشيء، فتقول: رأيت المهالبة، تريد: بني المهلب، والمسامعة، تريد: بني مسمع. والثاني: أنه اسم النبي وحده، وهو اسم عبراني، والعجمي من الأسماء قد يُفَعَّل به هكذا، [كما] تقول: ميكال وميكايل، ذكر القولين الفراء والزجاج. فأما قراءة من قرأ: «إل ياسين» مفصولة، ففيها قولان: أحدهما: أنهم آل هذا النبي المذكور، وهو يدخل فيهم، كقوله ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى»^(٢)، فهو داخل فيهم، لأنه هو المراد بالدعاء. والثاني: أنهم آل محمد ﷺ، قاله الكلبي: وكان عبد الله بن مسعود يقرأ:

(١) ذكر نحو هذا المعنى مطولاً الطبري في «تفسيره» من رواية ابن إسحاق عن وهب بن منبه وغيره، وذكر نحوه ابن كثير في «التفسير» و«التاريخ» وقال في «التفسير»: هكذا حكاه وهب بن منبه عن أهل الكتاب، والله أعلم بصحته. وقال في «التاريخ»: فني هذا نظري، وهو من الإسرائيليات التي لا تصلّق ولا تكذب، بل الظاهر أن صاحبها بعيدة، والله أعلم. اهـ.

(٢) رواء البخاري في «صحيحه» ٢٨٦/٣، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة، وهو في «البخاري» أيضاً ١٤٥/١١ باب هل يصلى على غير النبي ﷺ، ورواه مسلم ٧٥٧/٢ ولفظه يتنامى عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «اللهم صل على آل أبي أوفى». قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٢٨٦/٣: قوله «على آل أبي أوفى» يريد أبا أوفى نفسه، لأن الآل يطلق على ذات الشيء، كقوله ﷺ في قصة أبي موسى (الأشعري): «لقد أوتي مزاراً من مزارير آل داود» قال: واسم أبي أوفى: علقمة بن خالد بن الحارث الأسلمي، شهد هو وابنه عبد الله بيعة الرضوان تحت الشجرة، وعمر عبد الله إلى أن كان آخر من مات من الصحابة بالكوفة، وذلك سنة سبع وثمانين. قال ابن حجر: واستدل به (أي الحديث) على جواز الصلاة على غير الأنبياء، قال: وكرهه مالك والجمهور، قال: قال ابن التين: وهذا الحديث يعكّر عليه، قال: وقد قال جماعة من العلماء: يدعو أخذ الصدقة للمتصدق بهذا الدعاء، لهذا الحديث، قال: وأجاب الخطابي عنه قديماً بأن أصل الصلاة: الدعاء، إلا أنه يختلف بحسب المدعو له، فصلاة النبي ﷺ على أمته: دعاء لهم بالمغفرة، وصلاة أمته عليه: دعاء له بزيادة القربى والزلفى، ولذلك كان لا يليق بغيره. انتهى. قال: واستدل به على استحباب دعاء أخذ الزكاة لمعطئها، قال: وأوجبه بعض أهل الظاهر، وحكاه الحنطاي وجهاً لبعض الشافعية، وتعلّق بأنه لو كان واجباً لعلمه النبي ﷺ السعاة، ولأن سائر ما يأخذه الإمام من الكفارات والديون وغيرهما لا يجب عليه فيها الدعاء، فكذلك الزكاة، قال: وأما الآية (يريد قوله تعالى: ﴿هَذَا مِنْ أَمْرِهِمْ صَدَقَةٌ فَطُفِّرْهُمْ وَزَكِّرْهُمْ﴾) فيحتل أن يكون الوجوب خاصاً به ﷺ لكون صلاته سكتاً لهم، بخلاف غيره. اهـ.

هذا وقد اختلف العلماء في الصلاة على غير الأنبياء استقلالاً، فقال الإمام التتوي في «شرح مسلم» ١٨٥/٧: قال أصحابنا: لا يصلى على غير الأنبياء إلّا تبعاً، لأن الصلاة في لسان السلف مخصوصة بالأنبياء صلاة الله وسلامه عليهم، قال: واختلف أصحابنا في النهي عن ذلك هل هو نهي تنزيه، أم محرم، أم مجرد أدب؟ على ثلاثة أوجه، الأصح الأشهر أنه مكروه، قال: واتفقوا على أنه يجوز أن يجعل غير الأنبياء تبعاً لهم في ذلك، فيقال: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأزواجه وذريته وأتباعه» لأن السلف لم ينعموا منه، وقد أمرنا به في التشهد وغيره. اهـ.

وقال ابن حجر في «الفتح» ١٤٦/١١، في حكم الصلاة على الأنبياء من المؤمنين: اختلف فيه، قيل: لا تجوز إلّا على النبي ﷺ خاصة، وحكي عن مالك، قال: وقالت طائفة: لا تجوز مطلقاً استقلالاً، وتجوز تبعاً فيما ورد فيه النص أو الحق به، لقوله تعالى: ﴿لَا تَجْمَلُوا ذُنُوبَكُمْ لِأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ كذّاهم بتوحيكهم بئساً قال: ولأنه لما علمهم السلام قال: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» ولما علمهم الصلاة قصر ذلك عليه وعلى أهل بيته. قال: وهذا القول اختاره القرطبي في «المفهم» وأبو المعالي من الحنابلة، قال: وقالت طائفة: تجوز تبعاً مطلقاً، ولا تجوز استقلالاً، قال: وهذا قول =

«سلام على آذريسين» وقد بينا مذهبه في أن إلياس هو إدريس. فإن قيل: كيف قال: «إدراسين» وإنما الواحد إدريس، والمجموع إدريسي، لا إدراش ولا إدراسي؟ فالجواب: أنه يجوز أن يكون لغة، كإبراهيم وإبراهيم، ومثله:

﴿قَدْ نَبِيٍّ مِنْ نَضْرِ الْحَبَشِيِّينَ قَلِيدٍ﴾^(١)

وقرأ أبي بن كعب، وأبو نهيك: «سلام على ياسين» بحذف الهزة واللام^(٢).

﴿وَلَيْكُمُ الْبِرَّاءُ﴾ إِذْ بَخَّيْتُمْ وَأَهْلُكُمْ أَجْمَعُونَ ﴿١٧١﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٧٢﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَكْثَرِينَ ﴿١٧٣﴾ وَلَكُمْ لَشْرُونَ عَلَيْهِمْ مُصِيبَاتٌ ﴿١٧٤﴾ وَإِلَيْكَ أَمَّا تَقُولُكَ ﴿١٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ بَخَّيْتُمْ﴾ «إذ» هاهنا لا يتعلق بما قبله، لأنه لم يرسل إذ نجى، ولكنه يتعلق بمحذوف، تقديره: واذكرا يا محمد إذ نجينا^(٣). وقد تقدم تفسير ما بعد هذا [الشعراء: ١٧١] إلى قوله: ﴿وَلَكُمْ لَشْرُونَ عَلَيْهِمْ مُصِيبَاتٌ﴾ هذا خطاب لأهل مكة، كانوا إذا ذهبوا إلى الشام وجاؤوا، مروا على قرى قوم لوط صباحاً ومساءً، ﴿أَمَّا تَقُولُكَ﴾ فتعتبرون؟!

﴿وَلَيْكُمُ الْبِرَّاءُ﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٧٦﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٧٧﴾ فَالْتَقَمَهُ الْمَوْتُ وَمُوَّصِيَهُ ﴿١٧٨﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٧٩﴾ لَكُنَّ فِي بَطْنِهِ إِذْ يَوْمَ يُنْفَخُ ﴿١٨٠﴾ تَبَدَّدَتْهُ بِالْعَمَلِ وَمُوَّصِيَهُ ﴿١٨١﴾ وَأَلْبَسْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٨٢﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى يَاقَتِ أَخِيهِ أَوْ يُرِيدُكَ ﴿١٨٣﴾ فَاسْتَأْذَنَ فَتَقَبَّلْنَاهُ إِلَى حِينٍ ﴿١٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾^(٤) قال المبرد: تأويل «أبقى»: تباعد؛ وقال أبو عبيدة: فرغ؛ وقال الزجاج: هرب؛ وقال بعض أهل المعاني: خرج ولم يؤذن له، فكان بذلك كالهارب من مولا. قال الزجاج: والفلك: السفينة، والمشحون: المملوء، وساهم بمعنى [قارع]، «مِنَ الْمُدْحَضِينَ» أي: المغلوبين؛ قال ابن قتيبة: يقال: أذخض الله حجتَهُ، فَدَحَضَتْ، أي: أزالها [فزال]، وأصل الدخض: الرُّلُز.

الإشارة إلى قصته

قد شرحنا بعض قصته في آخر (يونس) وفي [الأنبياء: ٨٦] على قدر ما تحتمله الآيات، ونحن نذكر هاهنا ما تحتمله. قال عبد الله بن مسعود: لما وعد يونس قومه بالعذاب بعد ثلاث، جأروا إلى الله ﷻ واستغفروا، فكفت عنهم العذاب، فانطلقت مغاضباً حتى انتهى إلى قوم في سفينة، فعرفوه فحملوه، فلما ركب السفينة وقفت، فقال: ما لسفيتكم؟ قالوا: لا ندري، قال: لكني أدري، فيها عبد أبى من ربه، وإنها والله لا تسير حتى تُلْقَوْهُ، فقالوا: أما أنت يا نبي الله فوالله لا نُلْقِيكَ، قال: فاقترعوا، فمن قرع فلقيع، فاقترعوا، فقرع يونس، فأبوا أن يُمَكِّنُوهُ مِنَ الْوُقُوعِ، فعادوا إلى

أبي حنيفة وجماعة، قال: وقالت طائفة: تكره استقلالاً لا تبعاً، قال: وهي رواية عن أحمد، قال: وقال النووي: هو خلاف الأولى، قال: وقالت طائفة: تجوز مطلقاً، قال: وهو مقتضى صريح البخاري، فإنه صدر بالآية، وهي قوله تعالى: ﴿رَبِّكَ عَلَيْهِمْ﴾، ثم حلق الحديث الدال على الجواز مطلقاً، وعقبه بالحديث الدال على الجواز تبعاً، ثم قال الحافظ ابن حجر: وقال ابن القيم: المختار أن يصلى على الأنبياء والملائكة وأزواج النبي ﷺ وأله وذريته وأهل الطاعة على سبيل الإجمال، وتكره في غير الأنبياء لشخص مفرد بحيث يصير شعاراً، ولا سيما إذا ترك في حق مثله أو أفضل منه، كما يفعله الرافضة، فلو اتفق وقوع ذلك مفرداً في بعض الأحيان من غير أن يتخذ شعاراً، لم يكن به بأس، ولهذا لم يرد في حق غير من أمر النبي ﷺ يقول ذلك لهم وهم من أدنى زكاته إلا نادراً. اهـ.

(١) الرجز لحيد الأرقط كما في «المصباح» و«اللسان»: قد، والقراطي: ١١٨/١٥.

(٢) قال الطبري: والصواب من القراءة في ذلك حتمنا قراءة من قرأه «سَلَّمَ عَلَى إِلَهٍ كَبِيرٍ» بكسر ألفها، على مثال «إدراسين» لأن الله تعالى ذكره إنما أخبر عن كل موضع ذكر فيه نبياً من أنبيائه صلوات الله عليهم في هذه السورة، بأن عليه سلاماً، لا على آله، فذلك السلام في هذا الموضع، ينبغي أن يكون على إلياس، سلامه على غيره من أنبيائه، لا على آله على نحو ما بينا من معنى ذلك، ثم قال: فإن ظن ظان أن إلياسين غير إلياس، فإن فيما حكينا من احتجاج من احتج بأن إلياسين هو إلياس غش عن الزيادة فيه. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: ويخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط ﷺ أنه بعث إلى قومه فكذبوه، فنجاه الله تعالى من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها، فإن الله تعالى أهلهم بأنواع من العقوبات وجعل محلهم من الأرض بحيرة متنة قيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسيل مقيم يمر بها المسافرون ليلاً ونهاراً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ لَشْرُونَ عَلَيْهِمْ مُصِيبَاتٌ﴾ ﴿١٧٤﴾ وَإِلَيْكَ أَمَّا تَقُولُكَ ﴿١٧٥﴾ أَي: أفلا تعتبرون بهم كيف دمر الله عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها؟!

(٤) قال ابن جرير الطبري: وإن يونس لمرسل من المرسلين إلى أقوامهم إذ أبى إلى الفلك المشحون. اهـ.

الفرعة حتى قرع يونس ثلاث مرات. وقال طاووس: إن صاحب السفينة هو الذي قال: إنما يمنعها أن تسير أن فيكم رجلاً مشووماً، فاقترعوا لثقتي أحداً، فاقترعوا، فقرع يونس ثلاث مرات. قال المفسرون: وكل الله به حوتاً، فلما ألقى نفسه في الماء التقمه، وأمر أن لا يضره ولا يكلّمه، وسارت السفينة حيثئذ. ومعنى التقمه: ابتلعه. ﴿وَمَوْ يَلِيمُ﴾ قال ابن قتيبة: أي: مُذنب، يقال: ألأم الرجل: إذا أتى ذنباً يلام عليه، قال الشاعر:

[قَسَدٌ مَعَاذِرًا لَا عُذْرَ فِيهَا] وَمَنْ يَخْذُلُ أَخَاهُ فَقَدْ آلَمَا^(١)

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانَتْ مِنَ الْمُسِيحِينَ﴾^(٢) فيه ثلاثة أقوال: أحدها: من المصلين، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبيرة. والثاني: من العابدين، قاله مجاهد، وهب بن منبه. والثالث: قول ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ مُبْخَبَكْ لِي كُنْتُ مِنَ الْفَالِغِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، قاله الحسن. وروى عمران القطان عن الحسن قال: والله ما كانت إلا صلاة أحدها في بطن الحوت؛ فعلى هذا القول، يكون تسيخه في بطن الحوت. وجمهور العلماء على أنه أراد: لولا ما تقدم له قبل التقام الحوت إتياء من التسيخ، ﴿لَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَّا يَوْمَ يُنْتَوْنَ﴾^(٣) قال قتادة: لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة، ولكنه كان كثير الصلاة في الرخاء، فنجاه الله تعالى بذلك^(٤). وفي قنر مكثه في بطن الحوت خمسة أقوال: أحدها: أربعون يوماً، قاله أنس بن مالك، وكعب، وأبو مالك، وابن جريج، والسدي. والثاني: سبعة أيام، قاله سعيد بن جبيرة، وعطاء. والثالث: ثلاثة أيام، قاله مجاهد، وقاتدة. والرابع: عشرون يوماً، قاله الضحاك. والخامس: بعض يوم، التقمه ضحى، وبذره قبل غروب الشمس، قاله الشعبي^(٥).

قوله تعالى: ﴿تَبَدَّدَتْهُ﴾ قال ابن قتيبة: أي: ألقيناه ﴿وَالْعَرَاءُ﴾ وهي الأرض التي لا يتوآزى فيها بشجر ولا غيره، وكأنه من عري الشيء.

قوله تعالى: ﴿وَمَوْ سَقِيمٌ﴾ أي: مريض؛ قال ابن مسعود: كهينة الفرخ الممعوط الذي ليس له ريش. وقال سعيد بن جبيرة: أوحى الله تعالى إلى الحوت أن ألقه في البر، فآلقه لا شعر عليه ولا جلد ولا ظفر.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَيَّ سَكْرَةً يَنْ يَقِطِينَ﴾^(٦) قال ابن عباس: هو القرع، وقد قال أمية بن أبي الصلت قبل الإسلام: فَأَنْبَتَ يَقِطِينًا عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ أُلْفِي صَاحِبًا^(٧)

قال الزجاج: كل شجرة لا تنبت على ساق وإنما تمتد على وجه الأرض نحو القرع والبطيخ والحنظل، فهي يقطين، واشتقاقه من: قَطَنَ بالمكان: إذا أقام، فهذا الشجر ورقه كله على وجه الأرض، فلذلك قيل له: يقطين. قال ابن مسعود: كان يستظل بها ويصيب منها فيست فبكي عليها، فأوحى الله إليه: أتبكي على شجرة أن ييست، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردت أن تهلكهم؟! قال يزيد بن عبد الله بن قسيط: قُيِّضَ [الله] له أروية من الوحش تروح عليه بكرة وعشياً فيشرب من لبنها حتى نبت لحمه. فإن قيل: ما الفائدة في إنبات شجرة اليقطين عليه دون غيرها؟ فالجواب: أنه خرج كالفرخ على ما وصفنا، وجلده قد ذاب، فأدنى شيء يمر به يؤذيه، وفي ورق اليقطين خاصية، وهو أنه إذا ترك على شيء، لم يقربه ذباب، فأنبته الله ليغطي ورقها ويمنع الذباب ريحه أن يسقط عليه فيؤذيه^(٨).

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مَادَّةِ آلَيْهِ﴾ اختلفوا، هل كانت رسالته قبل التقام الحوت إتياء، أم بعد ذلك؟ على قولين: أحدهما: أنها كانت بعد نبذ الحوت إتياء، على ما ذكرنا في [يونس: ٩٨]، وهو مروى عن ابن عباس. والثاني:

(١) البيت لأم عمير بن سلمى الحنفي، وهو في «غريب القرآن» ٤٢٢، و«الصحاح» و«اللسان» و«التاج»: لوم.

(٢) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره: ﴿فَلَوْلَا أَنْتُمْ﴾ يعني يونس «كَانَتْ مِنَ الْمُسِيحِينَ» من المصلين لله قبل البلاء الذي ابتلي به من العقوبة بالحبس في بطن الحوت ﴿لَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَّا يَوْمَ يُنْتَوْنَ﴾ يقول: لبي في بطنه إلى يوم القيامة يوم يبعث الله فيه خلقه محبوساً، ولكنه كان من الذاكرين الله قبل البلاء، فذكره الله في حال البلاء فأنقذه ونجّاه. اهـ.

(٣) قال ابن كثير، بعد أن ذكر هذه الأقوال: والله أعلم بمقدار ذلك. اهـ.

(٤) البيت في «الطبري» ١٠٣/٢٣، و«مجمع البيان» ٨٤/٢٣، و«البحر المحيط» ٣٧٥/٧.

(٥) قال ابن كثير: وذكر بعضهم في القرع فوائد: منها سرعة نباته، وتظليل ورقه لكبره ونعمته. وأنه لا يقربها الذباب، وجودة تغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئاً ومطبوخاً بله وقشره أيضاً، قال: وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب اللبأ ويتبته من حواشي الصفحة. اهـ.

أنها كانت قبل التقام الحوت له، وهو قول الأكثرين، منهم الحسن، ومجاهد، وهو الأصح. والمعنى: وكُنَّا أرسلناه إلى مائة ألف، فلَمَّا خرج من بطن الحوت، أُمِر أن يرجع إلى قومه الذين أرسل إليهم^(١). وفي قوله: ﴿أَنَّهُ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهَا بِمَعْنَى «بَل» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْفَرَاءُ. وَالثَّانِي: أَنَّهَا بِمَعْنَى الْوَاوِ، قَالَ ابْنُ قَتِيبَةَ. وَقَدْ قَرَأَ أَبِي بَنْ كَعْبٍ، وَمَعَاذُ الْقَارِئِ، وَأَبُو الْمُتَوَكِّلِ، وَأَبُو عَمْرَانَ الْجَوْنِيُّ: «وَيَزِيدُونَ» مِنْ غَيْرِ أَلْفٍ. وَالثَّلَاثُ: أَنَّهَا عَلَى أَصْلِهَا، وَالْمَعْنَى: أَوْ يَزِيدُونَ فِي تَقْدِيرِكُمْ، إِذَا رَأَاهُمُ الرَّائِي قَالَ: هَؤُلَاءِ مِائَةُ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. وَفِي زِيَادَتِهِمْ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ كَانُوا مِائَةَ أَلْفٍ يَزِيدُونَ عَشْرِينَ أَلْفًا، رَوَاهُ أَبِي بَنْ كَعْبٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٢). وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ كَانُوا مِائَةَ أَلْفٍ وَثَلَاثِينَ أَلْفًا. وَالثَّلَاثُ: مِائَةُ أَلْفٍ وَبِضْعَةُ وَثَلَاثِينَ أَلْفًا، رَوَاهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَالرَّابِعُ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَزِيدُونَ سَبْعِينَ أَلْفًا، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ، وَنُوفٍ.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتَوْهُ﴾ فِي وَقْتِ إِيْمَانِهِمْ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: عِنْدَ مَعَايِنَةِ الْعَذَابِ. وَالثَّانِي: حِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ يُونُسُ ﴿فَسْتَفْتَيْهِمْ إِنْ حَيٌّ﴾ إِلَى مَتْنِهِمْ أَجَالَهُمْ.

﴿فَاسْتَفْتَوْهُ أَلَزَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُنَّ الْبَنَاتُ﴾ ١٤٩ ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ ١٥٠ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ لَدُنْهُمْ يَقُولُونَ﴾ ١٥١ ﴿وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ١٥٢ ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ ١٥٣ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ١٥٤ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ١٥٥ ﴿لَمْ تَكُنْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ ١٥٦ ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ١٥٧ ﴿وَعَمَلُوا يَتَزَوَّجُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَلْفَتِهِمْ نَسَبًا وَقَدْ عَلِمَتْ الْيَتَةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ ١٥٨ ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ١٥٩ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ١٦٠ ﴿فَالَّذِي رَمَى النَّبِيَّ﴾ ١٦١ ﴿مَا أَشْرَ عَلَيْهِ يَفْتَنِينَ﴾ ١٦٢ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَمْعِ﴾ ١٦٣

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتَيْهِمْ﴾ أَي: سَلِ أَهْلَ مَكَّةَ سُؤَالَ تَوْبِيخٍ وَتَقْرِيرٍ، لِأَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ. ﴿وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ أَي: حَاضِرُونَ. ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ لَدُنْهُمْ يَقُولُونَ﴾ أَي: كَذِبُهُمْ ﴿يَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ﴾ حِينَ زَعَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُهُ.

قوله تعالى: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ﴾ قَالَ الْفَرَاءُ: هَذَا اسْتِفْهَامٌ فِيهِ تَوْبِيخٌ لَهُمْ، وَقَدْ تُطْرَحُ أَلْفُ الاسْتِفْهَامِ مِنَ التَّوْبِيخِ، وَمَثَلُهُ: ﴿أَذَقْتُمُ طَبِيبَكُمْ﴾ [الاحقاف: ٢٠]، وَأَذْهَبْتُمْ يُسْتَفْهَمُ بِهَا وَلَا يُسْتَفْهَمُ، وَمَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ. وَقَرَأَ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَابْنُ الْمُنْثَبِّبِ، وَالزَّهْرِيُّ، وَابْنُ جُمَازٍ عَنْ نَافِعٍ، وَأَبُو جَعْفَرٍ، وَشَيْبَةَ: «وَأَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى» بِالْوَصْلِ غَيْرِ مُهْمُوزٍ وَلَا مَمْدُودٍ؛ قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: وَهُوَ عَلَى [وَجْهِ] الْخَبَرِ، كَأَنَّهُ قَالَ: أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ كَمَا يَقُولُونَ، كَقَوْلِهِ: ﴿ذَقَّ إِنَّكَ أَنتَ الْعَذِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ١٥٤ ﴿لِلَّهِ بِالْبَنَاتِ وَلَا أَنْفُسِكُمْ بِالْبَنِينَ؟!﴾ ١٥٥ ﴿لَمْ تَكُنْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ ١٥٦ ﴿أَي: حُجَّةً [بَيِّنَةً] عَلَى مَا تَقُولُونَ، ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ١٥٧ الَّذِي فِيهِ حُجَّتُكُمْ. ﴿وَعَمَلُوا يَتَزَوَّجُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَلْفَتِهِمْ نَسَبًا﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ قَالُوا: هُوَ وَإِبْلِيسُ أَخَوَانٌ، رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ قَالَ الْمَوَارِدِيُّ: وَهُوَ قَوْلُ الزَّنَادِقَةِ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ: الْخَيْرُ مِنَ اللَّهِ، وَالشَّرُّ مِنْ إِبْلِيسَ. وَالثَّانِي: أَنَّ كُفَارَ قَرِيشٍ قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، وَالْجِنَّةُ صِنْفٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يُقَالُ لَهُمْ: الْجِنَّةُ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَالثَّلَاثُ: أَنَّ الْيَهُودَ قَالَتْ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَزَوَّجَ إِلَى الْجَنِّ فَخَرَجَتْ مِنْ بَيْنِهِمُ الْمَلَائِكَةُ، قَالَهُ قَتَادَةُ، وَابْنُ السَّائِبِ. فَخَرَجَ فِي مَعْنَى الْجِنَّةِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ. وَالثَّانِي: الْجَنُّ. فَعَلَى الْأَوَّلِ، يَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْيَتَةُ﴾ أَي: عَلِمَتْ الْمَلَائِكَةُ ﴿إِنَّهُمْ﴾ أَي: إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُوكِينَ ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ النَّارِ. وَعَلَى الثَّانِي، ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْيَتَةُ﴾ أَي: إِنَّ الْجَنِّ أَنْفُسَهَا «لَمُحْضَرُونَ» الْحِسَابِ^(٣).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ١٦٠ يَعْنِي الْمُوَحِّدِينَ. وَفِيمَا اسْتَفْتَوْا مِنْهُ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ اسْتَفْتَوْا مِنْ حُضُورِ النَّارِ، قَالَهُ مَقَاتِلُ. وَالثَّانِي: مِمَّا يَصِفُ أَوَّلُكَ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ السَّائِبِ.

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: قُلْتُ: وَلَا مَانِعَ أَنْ يَكُونَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أَوَّلًا، أَمْرًا بِالْقَوْلِ إِلَيْهِمْ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الْحَوْتِ فَصَدَّقُوهُ كُلَّهُمْ. اهـ.

(٢) رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ ١٠٤/٢٣، وَالتِّرْمِذِيُّ ١٥٥/٢ وَقَالَ: حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَذَكَرَهُ السَّيْوطِيُّ فِي «الدَّر» ٢١٩/٥، وَزَادَ نَسْبَةَ لَابِنِ الْمَنْفَرِ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنَ مَرْدَوَيْهِ عَنْ أَبِي بَنْ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ: وَأَوَّلَى الْقَوْلَيْنِ فِي ذَلِكَ بِالْصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ الْعَذَابِ، لِأَنَّ سَائِرَ الْآيَاتِ الَّتِي ذُكِرَ فِيهَا الْإِحْضَارُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ إِنَّمَا عُنِيَ بِهِ الْإِحْضَارُ فِي الْعَذَابِ، فَكَذَلِكَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ. اهـ.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ﴾ يعني المشركين ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ من دون الله، ﴿مَا أَنْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما تعبدون ﴿وَيَقْتَتِلُونَ﴾ أي: بمُضِلِّينَ أحداً، ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَنَّةِ﴾ أي: مَنْ سبق له في عِلْمِ الله أنه يدخل النار.

﴿وَمَا يَنْتَ إِلَّا لَمْ مَقَامٌ مَقْلُومٌ﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِيحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُنَّا لِعِبَادِنَا الْغَرِيبِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَمُ الْمُصَوِّرُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّا جُنْدًا لَّهُمُ الْغَالِيُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى جِئَ ﴿١٧٤﴾ وَأَنْصَرْنَاهُمْ فَسَوْفَ يُصِيرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَلَيْعَادِنَا يَسْتَعْبِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى جِئَ ﴿١٧٨﴾ وَأَنْصَرْنَاهُمْ فَسَوْفَ يُصِيرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَلَقَدْ لَبَّاهُ رَبِّي الْعَلَمِيكَ ﴿١٨٢﴾

ثم أخبر عن الملائكة بقوله: ﴿وَمَا يَنْتَ﴾ والمعنى: ما مِنَّا مَلَكٌ ﴿إِلَّا لَمْ مَقَامٌ مَقْلُومٌ﴾ أي: مكان في السموات مخصوص بعباد الله فيه، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ قال قتادة: صفوف في السماء. وقال السدي: هو الصلاة. وقال ابن السائب: صفوفهم في السماء كصفوف أهل الدنيا في الأرض^(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِيحُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: المَصْلُون. والثاني: المنزهون لله ﷻ عن السوء. وكان عمر بن الخطاب إذا أقيمت الصلاة أقبل على الناس بوجهه وقال: يا أيها الناس استووا، فإنما يريد الله بكم هدي الملائكة، وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ، وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِيحُونَ. ثم عاد إلى الإخبار عن المشركين، فقال: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾ اللام في «لَيَقُولُونَ» لام توكيد؛ والمعنى: وقد كان كفار قريش يقولون قبل بعثة النبي ﷺ: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا﴾ أي: كتاباً ﴿مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: مثل كتب الأولين، وهم اليهود والنصارى، ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ أي: لأخلصنا العبادة لله ﷻ. ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ فيه اختصار، تقديره: فلما آتاهم ما طلبوا، كفروا به، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم، وهذا تهديد لهم. ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُنَّا﴾ أي: تقدّم وعَدْنَا للمُرسَلِينَ بنصرهم. والكلمة قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلُنَا﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿إِنَّهُمْ لَمُ الْمُصَوِّرُونَ﴾ بالحجّة، ﴿وَلَكِنْ جُنْدًا﴾ يعني حزبنا المؤمنين ﴿لَهُمُ الْغَالِيُونَ﴾ بالحجّة أيضاً والظفر. ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عن كفار مكة ﴿حَتَّى جِئَ﴾ أي: حتى تنقضي مدّة إِمهالهم. وقال مجاهد: حتى نامرك بالقتال؛ فعلى هذا، الآية مُحْكَمَةٌ. وقال في رواية: حتى الموت؛ وكذلك قال قتادة. وقال ابن زيد: حتى القيامة؛ فعل هذا، يتطرق نسخها. وقال مقاتل بن حيان: نسخها آية القتال.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْصَرْنَاهُمْ﴾ أي: أنظر إليهم إذا نزل العذاب. قال مقاتل بن سليمان: هو العذاب بيدرس؛ وقيل: أنصبر حالهم بقلبك ﴿فَسَوْفَ يُصِيرُونَ﴾ ما أنكروا، وكانوا يستعجلون بالعذاب تكديماً به، فقول: ﴿أَلَيْعَادِنَا يَسْتَعْبِلُونَ﴾؟ ﴿إِنَّا نَزَّلَ﴾ يعني العذاب. وقرأ ابن مسعود، وأبو عمران، والجحدري، وابن يعمر: ﴿إِذَا نَزَلَ﴾ برفع النون وكسر الزاي وتشديد هاء ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي: بيفنائهم وناحيتهم. والساحة: فناء الدار. قال الفراء: العرب تكفي بالساحة والعقوة من القوم، فيقولون: نزل بك العذاب وبساحتك. قال الزجاج: فكان عذاب هؤلاء القتل ﴿فَسَاءَ الْمُنْذِرِينَ﴾ أي: بشس صباح الذين أُنذروا العذاب^(٢). ثم كرّر ما تقدم توكيداً لوعده بالعذاب، فقال: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ...﴾ الآيةتين. ثم نزه نفسه عن قولهم بقوله: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ قال مقاتل: يعني عزّة مَنْ يتعزّز من ملوك الدنيا.

قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: من اتّخاذ النساء والأولاد. ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: تسليمه عليهم إكراماً لهم. والثاني: إخباره بسلامتهم. ﴿وَلَقَدْ لَبَّاهُ رَبِّي الْعَلَمِيكَ﴾ على هلاك المُشْرِكِينَ ونُصرة الأنبياء والمرسلين^(٣).

(١) روى مسلم في «صحيحه» ٣٧١/١ عن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «فَعَلْنَا عَلَى النَّاسِ ثَلَاثًا: جَعَلْنَا صُفُوفًا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجَعَلْنَا لَنَا الْأَرْضَ كُلَّهَا مَسْجِدًا، وَجَعَلْنَا ثُرْبَهَا لَنَا طَهْرًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ».

(٢) قال ابن كثير: «كَتَبَ سَبَاحُ الْكَذِبِ» أي: فيس ما يصبحون، أي: بش الصباح صباحهم، قال: ولهذا ثبت في «الصحيحين» عن أنس بن مالك ﷺ قال: صَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرٌ، فلما خرجوا بفؤوسهم ومسايحهم ورأوا الجيش رجعوا وهم يقولون: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». اهـ.

(٣) قال ابن جرير الطبري: «وَلَقَدْ لَبَّاهُ رَبِّي الْعَلَمِيكَ» يقول تعالى ذكره: والحمد لله ربّ العالمين الجين والإنس خالصاً دون ما سواه، لأن كل نعمة لعباده، فمنه، فالحمد له خالص لا شريك له، كما لا شريك له في نعمته عناهم، بل كلّها من قبّله ومن عنده. اهـ.

سورة ص

ويقال لها: سورة داود، وهي مَكِّيَّة [كُلُّهَا] بإجماعهم

فأما سبب نزول أولها، فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن قريشاً شكوا رسول الله ﷺ إلى أبي طالب، فقال: يا ابن أخي، ما تريد من قومك؟ فقال: «يا عم، إنما أريد منهم كلمة تَدُلُّ لهم بها العرب وتؤدِّي إليهم الجزية بها العجم»، قال: كلمة؟ قال: «كلمة واحدة»، قال: ما هي؟ قال: «لا إله إلا الله»، فقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ فنزلت فيهم: ﴿ص وَالْقُرْآنِ﴾ إلى قوله: ﴿إِن هَذَا إِلَّا آتِيقٌ﴾^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ١ بِلِئْلِيٍّ كَذَرَا فِي عَزِّزٍ وَشَقَاقٍ ٢ كَرَّ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَجِئْ مَنَّا ٣

واختلفوا في معنى «ص» على سبعة أقوال: أحدها: أنه قَسَمَ أقسم الله به، وهو من أسماه، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أنه بمعنى: صَدَقَ محمدٌ، رواه عطاء عن ابن عباس. والثالث: صَدَقَ الله، قاله الضحاك. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: معناه: صادق فيما وَعَدَ. وقال الزجاج: معناه: الصادقُ الله تعالى. والرابع: أنه اسم من أسماء القرآن، أقسم الله به، قاله قتادة. والخامس: أنه اسم حَيَّةٍ رأسها تحت العرش وذنبها تحت الأرض السفلى، حكاه أبو سليمان الدمشقي، وقال: أظنه عن عكرمة. والسادس: أنه بمعنى: حادث القرآن، أي: انظر فيه، قاله الحسن، وهذا على قراءة من كسروا، منهم ابن عباس، [وَالْحَسَنُ]، وابن أبي عبيدة. قال ابن جرير: فيكون المعنى: صَادِ بِعَمَلِكَ الْقُرْآنَ^(٢)، أي: عَارِضُهُ. وقيل: عَارِضُهُ على عملك^(٣)، فانظر أين هو [منه]. والسابع: أنه بمعنى: صَادَ محمدٌ قلوبَ الخلق واستمالها حتى آمنوا به وأحبوه، حكاه الثعلبي^(٤)، وهذا على قراءة من فتح، وهي قراءة أبي رجاء، وأبي الجوزاء، وحמיד، ومحبوب عن أبي عمرو. قال الزجاج: والقراءة «صَادَ» بتسكين الدال، لأنها من حروف التَّهْجِي. وقد قُرِئَتْ بالفتح وبالكسر؛ فمن فتحها، فعلى ضربين: أحدهما: لالتقاء الساكنين. والثاني: على معنى: أثَلُ «صَادَ»، ويكون [صَادَ] اسماً للسورة لا ينصرف؛ ومن كسر، فعلى ضربين: أحدهما: لالتقاء الساكنين أيضاً. والثاني: على معنى: صَادَ القرآن بعملك، من قولك: صَادَى يُصَادِي: إذا قَابَلَ وعَادَلَ، يقال: صَادَيْتُهُ: إذا قَابَلْتُهُ^(٥).

قوله تعالى: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ في المراد بالذِّكْر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الشَّرَفُ، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، والسدي. والثاني: البيان، قاله قتادة. والثالث: التذكير، قاله الضحاك^(٥). فإن قيل: أين جواب القسم بقوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ﴾

(١) روله أحمد، والترمذي ١٥٥/٢ عن ابن عباس، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم في «مستدرکه» ٤٣٢/٢ وصححه، ووافقه الذهبي. ورواه الطبري ١٢٥/٢٣، والواحدي: ٢٠٩، وذكره السيوطي في «الدر» ٢٩٥/٥، وزاد نسبه لابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس.

(٢) في الأصل: صَادَ بعلمك القرآن، ولعله سهو من الناسخ، وقد كتب على الصواب بعد قليل، وما أثبتاه من «الطبري» وكتب التفسير «واللسان»: صدي.

(٣) تقدم الكلام على الحروف التي في أوائل السور في التعليق الذي في أول سورة (العنكبوت) وغيرها بما أغنى عن إعادته هاهنا، وقد تكلم المصنف على ذلك في أول سورة (البقرة).

(٤) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القراءة في ذلك عندنا السكون في كل ذلك، لأن ذلك القراءة التي جاءت بها قراء الأمصار مستفيضة فيهم، وأنها حروف هجاء لأسماء المسميات، فَيُعْرَبُ إعراب الأسماء والأدوات والأصوات، فَيُسَلِّكُ بِهِمْ مسالكهم، فتأويلها إذ كانت كذلك تأويل نطائرها التي قد تقدم بيانها فيما مضى. اهـ.

(٥) رجح الطبري القول الثالث، وهو أنه بمعنى التذكير، قال: لأن الله تعالى أتبع ذلك قوله: ﴿بِلِئْلِيٍّ كَذَرَا فِي عَزِّزٍ وَشَقَاقٍ﴾ فكان معلوماً بذلك أنه إنما أخبر عن القرآن أنه أنزله ذِكْراً لعباده ذَكَّرهم به، وأن الكُفَّار من الإيمان به في عَزَّةٍ وشَقَاقٍ. اهـ. وقال ابن كثير: إن في هذا القرآن للذكرى لمن يتذكر وعبرة لمن يعتبر، وإنما لم يتفع به الكافرون، لأنهم ﴿بِلِئْلِيٍّ﴾ أي: استكبار عنه وحمية ﴿وَشَقَاقٍ﴾ أي: ومخالفة له ومعاندة ومفارقة. اهـ.

وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ فعنه خمسة أجوبة: أحدها: أن «ص» جواب لقوله: «والقرآن»، فـ «ص» في معناها، كقولك: وَجَبَ والله، نَزَلَ والله، حَقَّ والله، قاله الفراء، وثعلب. والثاني: أن جواب «ص» قوله: ﴿كَرَّ أَهْلُكُمَا بَيْنَ قَبْلِهِمْ يَنْ قَرَّبَهُ﴾، ومعناه: لكم، فلما طال الكلام، حذفت اللام، ومثله: ﴿وَالْقَتِيرَ وَحَنَهَا ۖ﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ [الشعر: ١، ٢٩]، فإن المعنى: لقد أَفْلَحَ، غير أنه لما اعترض بينهما كلام، تبعه قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾، حكاه الفراء، وثعلب أيضاً. والثالث: أنه قوله: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُولَ﴾ [ص: ١٤]، حكاه الأخفش. والرابع: أنه قوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَافُ أَهْلَ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤]، قاله الكسائي، وقال الفراء: لا نجده مستقيماً في العربية، لتأخره جداً عن قوله: «والقرآن». والخامس: أن جوابه محذوف، تقديره: والقرآن ذي الذِّكْرِ ما الأثر كما يقول الكُفَّار، ويدل على هذا المحذوف قوله: ﴿يَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ١١]، ذكره جماعة من المفسرين، وإلى نحوه ذهب قتادة^(١). والبرقة: الحمية والتكبر عن الحق. وقرأ عمرو بن العاص، وأبو رزين، وابن يعمر، وعاصم الجحدري، ومحبوب عن أبي عمرو: «في غِرَّة» بغين معجمة وراء غير معجمة. والشقاق: الخلاف والعداوة لرسول الله ﷺ، وقد سبق بيان الكلمتين مشروحاً [البرقة: ١٣٨، ٢٠٦]. ثم حوِّفهم بقوله: ﴿كَرَّ أَهْلُكُمَا بَيْنَ قَبْلِهِمْ يَنْ قَرَّبَهُ﴾ يعني الأمم الخالية ﴿فَنَادُوا﴾ عند وقوع الهلاك بهم. وفي هذا النداء قولان: أحدهما: أنه الدعاء. والثاني: الاستغاثة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحِينَ﴾ وقرأ الضحاك، وأبو المتوكل، وعاصم الجحدري، وابن يعمر: «ولات حين» بفتح التاء ورفع النون. قال ابن عباس: ليس حين يرويه فرار. وقال عطاء: في لغة أهل اليمن «لات» بمعنى «ليس». وقال وهب بن منبه: هي بالسريانية. وقال الفراء: «لات» بمعنى «ليس»، والمعنى: ليس بحين فرار. ومن القراء من يخفّض «لات»، والوجه التَّضْبُّب، لأنها في معنى «ليس»، أنشدني المفضل:

نَذْكُرُ حُبَّ لَيْلَى لَا تَحِينَا وَأَضْحَى الشَّيْبُ قَدْ قَطَعَ الْقَرِينَا^(٢)

قال ابن الأنباري: كان الفراء والكسائي والخليل وسيبويه والأخفش وأبو عبيدة يذهبون إلى أن التاء في قوله: «ولات» منقطعة من «حين»، قال: وقال أبو عبيدة: الوقف عندي على هذا الحرف «ولا»، والابتداء «تحين» لثلاث حُجج: إحداهن: أن تفسير ابن عباس يشهد لها، لأنه قال: ليس حين يَرَوْهُ فرار؛ فقد عَلِمَ أَنَّ «ليس» هي أخت «لا» وفي معناه. والحجة الثانية: أننا لا نجد في شيء من كلام العرب «ولات»، إنما المعروفة «لا». والحجة الثالثة: أن هذه التاء، إنما وجدناها تلتحق مع «حين» ومع «الآن» ومع الـ «أوان»، فيقولون: كان هذا تحين كان ذلك، وكذلك: «تأوان»، ويقال: اذهب تَلَان، ومنه قول أبي وجزة السعدي:

السَّاطِفُونَ تَحِينَ مَا مِنْ عَاطِفِ وَالْمُظْهِمُونَ زَمَانَ مَا مِنْ مُظْهِمِ^(٣)

وذكر ابن قتيبة عن ابن الأعرابي أن معنى هذا البيت: «العاطفونة» بالهاء، ثم تبدى: «حين» ما مِنْ عَاطِفٍ؛ قال ابن الأنباري: وهذا خلط، لأن الهاء إنما تُفَحَّم على الثَّوْن في مواضع القطع والسكون، فأما مع الاتصال، فإنه غير موجود. وقال علي بن أحمد التيسابوري: النحويون يقولون في قوله: «ولات»: «هي «لا» زيدت فيها التاء، كما قالوا: تُمَّ وَتُمَّتْ، وَرُبَّ وَرُبَّتْ، وأصلها هاءٌ وَصِلَتْ بـ «لا»، فقالوا: «لاه»، فلما وصلوها، جعلوها تاءً؛ والوقف عليها بالتاء عند الزجاء: «وأيي علي»، وعند الكسائي بالهاء، وعند أبي عبيد الوقف على «لاه»^(٤). فأما المناس، فهو الفرار. قال الفراء: التَّوَصُّن في كلام العرب: التأخُّرُ والبُوصُ: التَّقدُّم، قال امرؤ القيس:

(١) وهو الذي رجحه الطبري في تفسيره.

(٢) البيت في «الطبري» ١٢٢/٢٣، و«مجمع البيان» ٩٥/٢٣، و«القرطبي» ١٤٧/١٥.

(٣) البيت في «مشكل القرآن» ٤٠٤، و«الطبري» ١٢٣/٢٣، و«اللسان» و«التاج»: حين.

(٤) قال ابن كثير: وهذه الكلمة، وهي «لات» هي «لا» التي للنفى زيدت معها التاء كما تزداد في «ثم» فيقولون: «النت» و«رب» فيقولون: «رربت» - وهي مفصولة (بمعنى كلمة «لاه»)، والوقف عليها، قال: ومنهم من حكى عن المصحف الإمام فيما ذكره ابن جرير أنها متصلة بـ «حين» «ولا تحين مناص» قال: والمشهور الأول، قال: ثم قرأ الجمهور بنصب «حين» تقديره: وليس الحين حين مناص. اهـ.

شاووا؟ والمعنى: ليست بأيديهم، ولا مُلْكُ السموات والأرض لهم، فإن ادَّعَوْا شيئاً من ذلك ﴿فَلْيَرْتَفِئُوا فِي الْأَنْبِيَاءِ﴾ قال سعيد بن جبیر: أي: في أبواب السماء. وقال الزجاج: فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم إلى السماء.

قوله تعالى: ﴿جُنْدٌ﴾ أي: هُم جُنْدٌ. والجُنْد: الأتباع، فكانه قال: هُم أتباع مقلدون ليس فيهم عالمٌ راشد. و﴿مَّا﴾ زائدة، و﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى بدر. والأحزاب: جميع مَنْ تقدَّمهم من الكفار الذين تحزَّبوا على الأنبياء. قال قتادة: أخبر الله نبيّه وهو بمكة أنه سيَهْزِمُ جُنْدَ المشركين، فجاء تأويلها يوم بدر.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَكَانَ رَسُولُهُ ذُو الْأَرْوَاحِ ۖ وَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَهُكَ الْخُرَابُ ۖ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُولَ فَحَقَّ عِقَابُ ۖ وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾^(١) قال أبو عبيدة: قَوْمٌ من العرب يؤثنون «القوم»، وقوم يذكرون، فإن احتجَّ عليهم بهذه الآية، قالوا: وقع المعنى على العشيرة، واحتجُّوا بقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [عبس: ١١]، قالوا: والمضمَّر مذكَّر.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا ذُرِّيَّتَهُ﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: أنه كان يعذب الناس بأربعة أوتاد يشدُّهم فيها، ثم يرفع صخرة فتلقى على الإنسان فتشدُّه، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وكذلك قال الحسن، ومجاهد: كان يعذب الناس بأوتاد يُوتدُها في أيديهم وأرجلهم. والثاني: أنه ذو البناء المُحكَّم، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال الضحاك، والقرطبي، واختاره ابن قتيبة، قال: والعرب تقول: هُم في عزٍّ ثابتٍ الأوتاد، ومُلْكٌ ثابتٍ الأوتاد، يريدون أنه دائم شديد، وأصل هذا، أن البيت [من بيوتهم] يثبت بأوتاد، قال الأسود بن يَغْفَر:

[وَلَقَدْ عَثُوا فِيهَا بِأَنْعَمِ عَيْشَةٍ] فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتٍ الْأُوتَادِ^(٢)

والثالث: أن المراد بالأوتاد: الجنود، رواه عطية عن ابن عباس، وذلك أنهم كانوا يشدُّون مُلكه ويقوُّون أمره كما يقوِّي الزوتد الشيء. والرابع: أنه كان يبني مناراً يذبح عليها الناس. والخامس: أنه كان له أربع أسطوانات، فيأخذ الرَّجُلُ فيُشدُّ كلَّ قائمة إلى أسطوانة فيعذب، روي القولان عن سعيد بن جبیر. والسادس: أنه كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يلعب له عليها، قاله عطاء، وقاتدة^(٣). ولما ذكر المكذِّبين، قال: ﴿أُولَٰئِكَ الْخُرَابُ﴾ فأعلمنا أن مشركي قريش من هؤلاء، وقد عذبوا وأهلكوا، ﴿فَحَقَّ عِقَابُ ۖ﴾^(٤)، أثبت الباء في الحاليين يعقوب. ﴿وَمَا يَنْظُرُ﴾ أي: وما ينتظر ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ يعني كفار مكة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ وفيها قولان: أحدهما: أنها النفخة الأولى، قاله مقاتل. والثاني: النفخة الأخيرة، قاله ابن السائب^(٥). وفي الفَواقِ قراءتان: قرأ حمزة، وخلف، والكسائي: بضم الفاء. وقرأ الباقون:

(١) قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية وما حلَّ بهم من العذاب والثكال والنقمات في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قال: وقد تقدمت قصصهم ببسطة في أماكن متعددة. اهـ.

(٢) البيت في «غريب القرآن» ٣٧٧، و«البحر المحيط» ٣٨٦/٧، و«القرطبي» ١١٥/١٥، و«المفضليات» ٢١٧. ومعنى «عَثُوا»: أقاموا، يقال: غَنِينَا بِمَكَانٍ كذا وكذا.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وأشبه الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عَثَى بذلك الأوتاد، إما لتعذيب الناس، وإما للعب كان يُلعبُ له بها، وذلك أن ذلك هو المعروف من معنى الأوتاد (وشمود وقوم لوط) قود ذكرنا أخبار كلِّ هؤلاء فيما مضى قبل من كتابنا هذا، قال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَهُكَ﴾ يعني: وأصحاب الغيضة. اهـ.

(٤) في الأصل: فكيف كان عقاب، ولعل المصنف رحمه الله اشتبهت عليه هذه الآية بآية سورة [الرعد: ٣٢]. قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الْخُرَابُ﴾ يقول تعالى ذكره: هؤلاء الجماعات المجتمعة والأحزاب المتحزِّبة على معاصي الله والكفر به، الذين منهم يا محمد مشركو قومك، وهم مسلوكون بهم سيلهم ﴿إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُولَ﴾ يقول: ما كل هؤلاء الأمم إلا كذب رسل الله ﴿فَحَقَّ عِقَابُ﴾ يقول: فوجب عليهم عقاب الله إياهم. اهـ. وقال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الْخُرَابُ﴾ أي: كانوا أكثر منكم، وأشدَّ قوة، وأكثر أموالاً وأولاداً، فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك، قال: ولهذا قال ﴿إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُولَ فَحَقَّ عِقَابُ ۖ﴾ فجعل علته إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسول، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر. اهـ.

(٥) قال ابن كثير: وهذه الصيحة، هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى إسرائيل أن يطولها فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع، إلا من استثنى الله ﷻ. اهـ.

بفتحها. وهل بينهما فرق، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أنهما لغتان بمعنى واحد، وهو معنى قول الفراء، وابن قتيبة، والزجاج. قال الفراء: والمعنى: ما لها من راحة ولا إفاقة، وأصله من الإفاقة في الرضاع إذا ارتضعت البهيمة أمها ثم تركتها حتى تنزل شيئاً من اللبن، فتلک الإفاقة. وجاء عن النبي ﷺ أنه قال: «العبادة قُلُوبُ فُوقِ نَاقَةٍ»^(١). ومن يفتح الفاء، فهي لغة جيدة عالية. وقال ابن قتيبة: الفُوق والفُوق واحد، وهو أن تُحَلِّبَ النَّاقَةُ وتُتْرَكَ سَاعَةً حتى تُنْزَلَ شيئاً من اللَّبَنِ، ثم تُحَلِّبَ، فما بين الحَلْبَتَيْنِ فُوق، فاستعير الفُوق في موضع المكث والانتظار. وقال الزجاج: الفُوق: ما بين حَلْبَتَيِ النَّاقَةِ، وهو مشتق من الرُّجُوع، لأنه يَعُودُ اللَّبَنُ إِلَى الضَّرْعِ بين الحَلْبَتَيْنِ، يقال: أفاق من مرضه، أي: رَجَعَ إلى الصَّحَّةِ. والثاني: أن مَنْ فتحها، أراد: ما لها مِنْ راحة، ومن ضَمَّها، أراد: فُوقِ النَّاقَةِ، قاله أبو عبيدة. وللمفسرين في معنى الكلام أربعة أقوال: أحدها: ما لها من رجعة، ثم فيه قولان: أحدهما: مالها من ترداد، قاله ابن عباس، والمعنى أن تلك الصيحة لا تُكَرَّرُ. والثاني: ما لها من رجوع إلى الدنيا، قاله الحسن، وقتادة، والمعنى أنهم لا يعودون بعدها إلى الدنيا. والثالث: ما لها من قُتُور ولا انقطاع، قاله ابن جرير. والرابع: ما لها من راحة، حكاها جماعة من المفسرين.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْعًا قَلِيلًا يَوِّرُ الْحِسَابَ﴾^(٢) أَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَذْكُرْ عِبَدَكَ قَائِدًا الْاَيُّهُ إِنَّهُ أَوَّلُ ﴿٣٧﴾ إِنَّا سَعَرْنَا لِحَالِ الْاَيُّهُ مَعَهُ يَسْبَحُونَ وَالْمَلِكِ وَالْإِنْتِزَاقِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَلْبِ مَحْشُورًا كُلُّ لَهْ أَوَّلُ ﴿٣٩﴾ وَكَذَلِكَ مَلَكُومًا وَكَانَتْهُ الْحِكْمَةُ وَفَصَلَ لِلطَّيَابِ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْعًا﴾ في سبب قولهم هذا قولان: أحدهما: أنه لما ذُكر لهم ما في الجنة، قالوا هذا، قاله سعيد بن جبير، والسدي. والثاني: أنه لما نزل قوله: ﴿فَأَنَّا مِّنْ أَوْفَكٍ كَذِبَتِ يَسِينِهِ...﴾^(٤) الآيات [الحاقة: ١٩-٢٧]، قالت قريش: زعمت يا محمد أننا نؤتي كتبنا بشمالنا؟! فعجل لنا قِطْعًا، يقولون ذلك تكذيباً له، قاله أبو العالية، ومقاتل^(٥). وفي المراد بالقِطْع أربعة أقوال: أحدها: أنه الصحيفة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. قال الفراء: القِطْع في كلام العرب: الصِّلْك، وقال أبو عبيدة: القِطْع: الكتاب، والقُطُوط: الكتب بالجواز، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن، ومقاتل، وابن قتيبة. والثاني: أن القِطْع: الحساب، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أنه القضاء، قاله عطاء الخراساني، والمعنى أنهم لما وُعِدوا بالقضاء بينهم، سألوا ذلك. والرابع: أنه النصيب، قاله سعيد بن جبير^(٦). [قال الزجاج: القِطْع: النصيب، وأصله: الصحيفة يُكْتَبُ لِلْإِنْسَانِ^(٧) فيها شيء يُصَلُّ إِلَيْهِ، واشتقاقه من قَطَعْتُ، أي: قَطَعْتُ، فالتَّصْيِب: هو القطعة من الشيء. ثم في هذا القول للمفسرين قولان: أحدهما: أنهم سألوه نصيبهم من الجنة، قاله سعيد بن جبير. والثاني: سألوه نصيبهم من العذاب، قاله قتادة. وعلى جميع الأقوال، إنما سألوا ذلك استهزاء، لتكذيبهم بالقيامة. ﴿أَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أي: من تكذيبهم وأذاهم؛ وفي هذا قولان: أحدهما: أنه أمر بالصبر، سلوكاً لطريق أولي العزم، وهذا مُحْكَم. والثاني: أنه منسوخ بآية السيف فيما زعم الكلبي.

- (١) هذا الحديث ذكره الحافظ السيوطي في «الجامع الصغير» من رواية البيهقي في «شعب الإيمان» عن أنس بن مالك ﷺ بلفظ: «العبادة قُورَاقِ نَاقَةٍ» ولم يتكلم عليه الحافظ المناوي في «فيض القدير» شرح الجامع الصغير بشيء، بل قال: «ورواه عنه البيهقي بلا سند. اهـ».
- (٢) ذكر هذين القولين الطبرسي في «مجمع البيان» كما هما هنا بدون سند، وكذلك ذكر هذا المعنى البيهقي والخازن بدون سند.
- (٣) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن القوم سألوا ربه تعجيل صكاكهم بحظوظهم من الخير أو الشر الذي وعد الله عباده أن يؤتيهموها في الآخرة قبل يوم القيامة في الدنيا، استهزاءً بوعيد الله، قال: وإنما قلنا: إن ذلك كذلك، لأن القِطْع هو ما وصفت من الكتب بالجواز والحظوظ، وقد أخبر الله عن هؤلاء المشركين أنهم سألوه تعجيل ذلك لهم، ثم أتبع ذلك قوله لنبيه: ﴿أَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ فكان معلوماً بذلك أن سألوا الله ﷻ، لو لم تكن على وجه الاستهزاء منهم، لم يكن بالذي يتبع الأمر بالصبر عليه، ولكن لما كان ذلك استهزاءً وكان فيه لزوم الله ﷻ أدى، أمر الله بالصبر عليه منهم حتى يأتيه قضاءه فيهم، ولما لم يكن في قوله: ﴿عَجَلْ لَنَا قِطْعًا﴾ بيان أي القِطُوط إرادتهم، لم يكن لنا توجيه ذلك إلى أنه معني به القِطُوط بيمض معاني الخير أو الشر، فلذلك قلنا: إن سألهم كانت بما ذكرت من حظوظهم من الخير والشر. اهـ.
- (٤) في الأصل: الإنسان.

زال يجتهد في العبادة حتى يَرَزَّ له قرناؤه من الملائكة وكانوا يصلُّون معه ويُسعدونه بالبكاء، فلما استأنس بهم، قال: أخبروني بأي شيء أنتم موكلون؟ قالوا: ما نكتب عليك ذنباً، بل نكتب صالح عملك ونثبتك ونوقِّك ونصْرِفُ عنك السوء، فقال في نفسه: ليت شعري، كيف أكون لو خلوني ونفسي؛ وتمنَّى أن يُخلى بينه وبين نفسه ليَعْلَمَ كيف يكون، فأمر الله تعالى قرناؤه أن يعتزلوه ليَعْلَمَ أنه لا غَنَاءَ به عن الله ﷻ، فلما فقدهم، جَدَّ واجتهد ضَعُفَ عبادته إلى أن ظَنَّ أنه قد غَلَبَ نَفْسَهُ، فأراد الله تعالى أن يُعَرِّفَهُ ضَعْفَهُ، فأرسل إليه طائراً من طيور الجنة، فسقط في محرابه، فقطع صلاته ومَدَّ يده إليه، ففتح عن مكانه، فأَتْبَعَهُ بَصَرُهُ، فإذا امرأة أوريا، هذا قول وهب بن منبه^(١). والثالث: أنه تذاكر هو وبنو إسرائيل، فقالوا: هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنباً؟ فأضمر داود في نفسه أنه سيطيق ذلك، فلما كان يوم عبادته، أغلق أبوابه وأمر أن لا يدخل عليه أحد وأكبَّ على قراءة الزُّبور، فإذا حمامة من ذهب، فأهوى إليها فطارت، فتبعها فرأى المرأة، رواه مطر عن الحسن^(٢). والرابع: أنه قال لبني إسرائيل حين ملك: والله لأغيدَنَّ بينكم، ولم يستثن، فابتنى، رواه قتادة عن الحسن. والخامس: أنه أعجبه كثرة عمله، فابتنى، قاله أبو بكر الوراق^(٣).

الإشارة إلى قصة ابتلائه

قد ذكرنا عن وهب أنه قال: كانت الحمامة من طيور الجنة. وقال السدي: تصوّر له الشيطان في صورة حمامة. قال المفسرون: إنه لما تبع الحمامة، رأى امرأة في بستان على شطِّ بركة لها تغتسل، وقيل: بل على سطح لها، فعجب من حسنها، فحانت منها التفاتة فرأت ظُلَّهُ، ففقتضت شعرها، فغطى بدنهما، فزاده ذلك إعجاباً بها، فسأل عنها، فقيل: هذه امرأة أوريا، وزوجها في غزاة، فكتب داود إلى أمير ذلك الجيش أن ابعث أوريا إلى موضع كذا وكذا، وقدمه قبل التابوت، وكان مَنْ قُدِّمَ على التابوت لا يَجِلُّ له أن يرجع حتى يُفْتَحَ عليه أو يستشهد، ففعل ذلك، ففتّح عليه، فكتب إلى داود يخبره، فكتب إليه أن ابعث إلى عدو كذا وكذا، ففتّح له، فكتب إليه أن ابعث إلى عدو كذا وكذا، فقتل في المرأة الثالثة، فلما انقضت عِدَّةُ المرأة تزوجها داود، فهي أم سليمان، فلما دخل بها لم^(٤) يلبث إلا يسيراً حتى بعث الله ﷻ ملكين في صورة إنسيين، وقيل: لم يأت المَلَكُانَ حتى جاء منها سليمان وشبَّ، ثم أتياه فوجداه في محراب عبادته، فمنعهما الحرس من الدخول إليه، فتسورا المحراب عليه؛ وعلى هذا الذي ذكرناه من القصة أكثر المفسرين^(٥)، وقد روى نحوه العوفي عن ابن عباس، وروي عن الحسن، وقاتدة، والسدي، ومقاتل في آخرين. وذكر جماعة من المفسرين أن داود لما نظر إلى المرأة، سأل عنها، وبعث زوجها إلى الغزاة مرة بعد مرة إلى أن قُتل، فتزوجها؛ وروي ومُثِّلُ [هذا] عن ابن عباس، ووهب، والحسن في جماعة. قال المصنّف: وهذا لا يصح من طريق النقل، ولا يجوز من حيث المعنى، لأن الأنبياء منزّهون عنه. وقد اختلف المحقّقون في ذنبه الذي عُوتِبَ عليه على أربعة أقوال: أحدها: أنه لما هَوِيَهَا، قال لزوجها: تحوّل لي عنها، فعُوتِبَ على ذلك. وقد روى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: ما زاد داود على أن قال لصاحب المرأة: أَكْثَلْنِيهَا وتحوّل لي عنها؛ ونحو ذلك روي عن ابن مسعود^(٦). وقد حكى أبو سليمان

(١) ذكر الطبري ١٤٩/٢٣ بسند فيه جهالة من رواية ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه، والله أعلم.

(٢) رواه الطبري ١٤٨/٢٣ من رواية مطر عن الحسن، ومطر هو ابن طهمان الوراق، أبو رجاء، قال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: صدوق كثير الخطأ.

(٣) قال ابن كثير عن تفسير هذه الآية: قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب أتباعه، قال: ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده، لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ﷺ، ويزيد وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، قال: فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يُرَدَّ علمها إلى الله ﷻ، فإن القرآن حق وما تضمن فهو حق أيضاً. اهـ. وغير يزيد الرقاشي، ذكره بطوله الطبري في «تفسيره» من رواية ابن لهيعة عن أبي صخر عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك ﷺ، وهو خبر لا يصح سنده كما قال الحافظ ابن كثير.

(٤) في الأصل: فلم.

(٥) وقد رأيت قول ابن كثير قبل قليل: قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب أتباعه.

(٦) «الطبري» ١٤٤/٢٣، وذكره السيوطي في «الدر» ٣٠٣/٥ من رواية عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، ومن رواية ابن جرير عن ابن مسعود.

الدمشقي أنه بعث إلى أوريا فأقدمه من غزاته، فأدناه وأكرمه جدًّا، إلى أن قال له يوماً: انزل لي عن امرأتك؛ وانظر أي امرأة شئت في بني إسرائيل أزواجكها، أو أي امرأة شئت أتباعها لك، فقال: لا أريد بامرأتي بديلاً؛ فلما لم يُجِبْهُ إلى ما سأل، أمره أن يرجع إلى غزاته. والثاني: أنه تمنى تلك المرأة حلالاً، وحدث نفسه بذلك، فاتفق غزو أوريا وهلاكه من غير أن يسعى في سبب قتله ولا في تعريضه للهلاك، فلما بلغه قتله، لم يجزع عليه كما جزع على غيره من جنده، ثم تزوج امرأته، فعوتب على ذلك. وذنوب الأنبياء ﷺ وإن صغرَتْ، فهي عظيمة عند الله ﷻ. والثالث: أنه لما وقع بصره عليها، أشبع النظر إليها حتى غلقت بقلبه^(١). والرابع: أن أوريا كان قد خطب تلك المرأة، فخطبها داود مع علمه بأن أوريا قد خطبها، فتزوجها، فاعتم أوريا، وعاتب الله تعالى داود إذ لم يتركها لخطبها الأول؛ واختار القاضي أبو يعلى هذا القول، واستدل عليه بقوله: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ﴾، قال: فدلَّ هذا على أن الكلام إنما كان بينهما في الخطبة، ولم يكن قد تقدّم تزوج الآخر، فعوتب داود ﷺ لشئني ينبغي للأنبياء التزوّع عنهما، أحدهما: خطبته على خطبته غيره، والثاني: إظهار الحرّص على التزويج مع كثرة نسائه، ولم يعتقد ذلك معصية، فعاتبه الله تعالى عليها؛ قال: فأما ما روي أنه نظر إلى المرأة فهويها وقدم زوجها للقتل، فإنه وجه لا يجوز على الأنبياء، لأن الأنبياء لا يأتون المعاصي مع العلم بها^(٢). قال الزجاج: إنما قال: «الخصم» بلفظ الواحد، وقال: «تسوّروا المحراب» بلفظ الجماعة، لأن قولك: خصم، يصلح للواحد والاثني والجماعة والذكر والأنثى، تقول: هذا خصم، وهي خصم، وهما خصم، وهم خصم؛ وإنما يصلح لجميع ذلك لأنه مصدر، تقول: خصمته أخصمته خصماً. والمحراب هاهنا كالغرفة، قال الشاعر:

رَبِّةٌ مِّمَّحْرَابٍ إِذَا جِئْتُهَا لَمْ أَلْقَها أَوْ أَرْتَقِي سُلْمًا^(٣)

و«تسوّروا» يدل على علو. قال المفسرون: كانا ملكين، وقيل: هما جبريل وميكائيل ﷺ، أتياه لينبها على التوبة. وإنما قال: «تسوّروا» وهما اثنان، لأن معنى الجمع ضم شيء إلى شيء، والاثنان فما فوقهما جماعة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ﴾ قال الفراء: يجوز أن يكون معنى «تسوّروا»: دخلوا، فيكون تكراراً؛ ويجوز أن تكون «إذ» بمعنى «لما»، فيكون المعنى: إذ تسوّروا المحراب لما دخلوا، ولما تسوّروا إذ دخلوا.

قوله تعالى: ﴿فَفَزَعَ بِمَنْتِهِ﴾ وذلك أنهما أتيا على غير صفة مجيء الخصوم، وفي غير وقت الحكومة، ودخلا تسوّراً من غير إذن^(٤). وقال أبو الأحوص: دخلّا عليه وكل واحد منهما أخذ برأس صاحبه. و«خصمان» مرفوع بإضمار «نَحْنُ»، قال ابن الأنباري: [المعنى]: نحن كخصمين، ومثل خصمين، فسقطت الكاف، وقام الخصمان مقامهما، كما تقول العرب: عبد الله القمرُ حسناً، وهم يريدون: ومثل القمر، قالت هند بنت عتبة ترثي أباهما وعمّها:

(١) وكذلك ينزه عن مثل هذا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما قال المصنف قبل قليل.

(٢) قال القاضي عياض في «الشفاء»: وأما قصة داود ﷺ، فلا يجب أن يلتفت إلى ما سطره الإخباريون على أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا، ونقله بعض المفسرين، قال: ولم ينص الله على شيء من ذلك، ولا ورد في حديث صحيح، قال: والذي نص الله عليه قوله: ﴿وَلَقَدْ دَاوُدُ أَتَانَا فَتَنَّتْهُ فَاِنتَقَرْنَا لَهُ رَجُلًا رَأَيْنَاهُ﴾ وقوله فيه: ﴿أَرَأَيْتَ﴾، فمعنى (فتنّا): أي: اختبرناه، و(أواب) قال قتادة: مطيع، قال: وهذا التفسير أولى، قال: قال ابن عباس وابن مسعود: ما زاد على أن قال للرجل: انزل لي عن امرأتك وأقبلتها، فعاتبه الله على ذلك وبهيه عليه، وأكره عليه شغله بالدنيا. ثم قال: وإلى نفي ما أضيف في الأخبار إلى داود من ذلك ذهب أحمد بن نصر، وأبو تمام وغيرهما من المحققين، قال: قال الداودي: ليس في قصة داود وأوريا خبر يثبت، ولا يظن ينبي محبة قتل مسلم. اهـ. وقال الخازن في «تفسيره»: اعلم أن من خصه الله بنبوته، وأكرمه برسالته، وشرفه على كثير من خلقه، واثمنه على وحيه، وجعله واسطة بينه وبين خلقه، لا يليق أن ينسب إليه ما لو نسب إلى آحاد الناس لاستنكف أن يحدث به عنه، فكيف يجوز أن ينسب إلى بعض أعلام الأنبياء والصفوة الأمتاء ذلك. اهـ. قال الخازن: وقال الإمام فخر الدين الرازي: حاصل القصة يرجع إلى أمرين: إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق، وإلى الطمع في زوجته، قال: وكلاهما منكر عظيم، فلا يليق بمعاقل أن يظن بدادو ﷺ هذا. اهـ. وقال القاضي اليفساوي: وما قيل: أنه أرسل أوريا إلى الجهاد مراوياً، وأمر أن يقدم حتى قتل فتزوجها (بمعنى امرأته)، هراء واقتراء. اهـ.

(٣) البيت لوضاح اليمن: وهو في «مجاز القرآن» ١٤٤/٢، و«الأغانى» ٢٣٧/٦، و«الصحاح» و«اللسان» و«التاج»: حرب. وقد سبق البيت صفحة ١٩١.

(٤) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿فَفَزَعَ بِمَنْتِهِ﴾ إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين، قد تسوّرا عليه المحراب، أي: احتاطا به يسألانه عن شأنهما. اهـ.

مَنْ حَسَّ لِي الْأَخَوَيْنِ كَالْـ
أَسَدَيْنِ فِي عَيْلٍ يَجِيدُ الـ
صَفْرَيْنِ لَا يَتَذَلُّ
زَمَحَيْنِ خَطِيئَيْنِ فِي
مُضْنَيْنِ أَوْ مَن رَأَمَا
قُؤْمٌ عَن غُرَوَاهُمَا
وَلَا يُبَاخُ جِمَامَا
كَبِدِ السَّمَاءِ تَرَامَا^(١)

أرادت: ومثل أسدين، ومثل صقرين، فأسقطت مثلاً وأقامت الذي بعده مقامه، ثم صرف الله ^{تعالى} النون والألف في «بعضنا» إلى «نحن» المضمر، كما تقول العرب: نحن قوم شرف أبونا، ونحن قوم شرف أبوهـم، والمعنى واحد. والحق هاهنا: العدل. «وَلَا تَشْطَطُ» أي: لا تتجر، يقال: شَطَّ وأَشْطَطَ: إذا جار. وقرأ ابن أبي عبله: «وَلَا تَشْطَطُ» بفتح التاء وضم الطاء. قال الفراء: وبعض العرب يقول: شَطَطْتُ عليّ في السَّوْمِ، وأكثر الكلام «أشططت» بالألف، وشَطَطْتُ الدَّارُ: تباعدت.

قوله تعالى: «وَأَمَّا إِلَى سَرَاةٍ أَلْبَرْتُ» أي: إلى قصد الطريق^(٢)؛ والمعنى: أخجلنا على الحق. فقال داود: تَكَلَّمَا، فقال أحدهما: «إِنَّ هَذَا أَخِي» قال ابن الأنباري: المعنى: قال أحد الخصمين اللذين شُبِّهَ الْمَلَكَانِ بهما: إِنَّ هَذَا أَخِي، فأضمر القول لوضوح معناه «لَمْ يَتَّعْ وَتَعَوَّنَ نَجَّةً» قال الزجاج: كُتِبَ عن المرأة بالنَّجَّةِ. وقال غيره: العرب تشبِّه النساء بالنعاج، وتورِّي عنها بالشاء والبقر. قال ابن قتيبة: ورى عن ذكر النساء بذكر النعاج، كما قال عترة: يَا شَاءَ مَا قَنَصِ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ حَرُمْتُ عَلَيَّ وَلَيْسَتْهَا لَمْ تَحْرُمُ^(٣) يعرض بجارية، يقول: أي صيد أنت لِمَنْ حَلَّ له أن يصيدك فأما أنا، فإن حُرْمَةَ الجوار قد حرمتك عليّ. وإنما دَكَرَ الْمَلَكُ هذا العدد لأنه عدد نساء داود.

قوله تعالى: «وَلِي نَجَّةً وَجِدَةً» فتح الياء حفص عن عاصم، وأسكنها الباقون. «فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا» قال ابن قتيبة: أي: ضُمَّهَا إِلَيَّ واجعلني كافلاً لها. وقال الزجاج: انزَلْ أنت عنها واجعلني أنا أكفلاً لها. قوله تعالى: «وَعَزَّيْنِي فِي الْخَطَابِ» أي: عَلَّبْنِي في القول. وقرأ عمر بن الخطاب، وأبو رزين [العقيلي]، والضحاك، وابن يعمر، وابن أبي عبله: «وَعَارَّيْنِي» بآلف، أي: غَالَبْنِي. قال ابن مسعود، وابن عباس في قوله «وَعَزَّيْنِي فِي الْخَطَابِ»: ما زاد على أن قال: انزَلْ لي عنها. وروى العوفي عن ابن عباس قال: إن دعوتُ ودعا كان أكثر، وإن بَطَشْتُ وَبَطَشَ كان أشد مني. فإن قيل: كيف قال الْمَلَكُ هذا، وليس شيء منه موجوداً عندهما؟ فالجواب: أن العلماء قالوا: إنما هذا على سبيل المثل والتشبيه بقصة داود، وتقدير كلامهما: ما تقول إن جاءك خصمان فقللا كذا وكذا؟ وكان داود لا يرى أن عليه نَجَّةً فيما فَعَلَ، فنبَّهه الله بالملكين. وقال ابن قتيبة: هذا مثل ضربه الله [له] ونبهه على خطيئته. وقد ذكرنا آنفاً أن المعنى: نحن كَحُصَمَيْنِ.

قوله تعالى: «قَالَ» يعني داود «لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِنْ يَأْمُرُكَ» قال الفراء: أي: بسؤاله نعتجتك، فإذا أَلْقَيْتَ الهَاءَ من السؤال، أضفت الفعل إلى النَّجَّةِ، ومثله: «لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ» [فصلت: ٤٩]، أي: من دعائه بالخير، فلَمَّا أَلْقَى الهَاءَ، أضاف الفعل إلى الخير، وألقى من الخير الباء، وأنشدوا:
فَلَسْتُ مُسْلِمًا مَا دُمْتُ حَيًّا
عَلَى زَيْدٍ بِتَسْلِيمِ الْأَمِيرِ^(٤)
أي: بتسليم على الأمير.

(١) الأبيات في «شاهرات العرب في الجاهلية والإسلام» ١٣٠، و«الأغاني» «ثقافة» ٢١٢/٤. حَسَّ، من باب نصر، كَأَحَسَّ، وأصل «فراهما»: وآمها، فخفضت فيه الهمزة.

(٢) أي: بحيث لا تميل عن الحق أصلاً.

(٣) البيت من مملقته، وهو في «ديوانه» ١٥٢، و«مشكل القرآن» ٢٠٦، و«العمدة» ٢٨١/١، و«مختار الشعر الجاهلي» ٣٧٨/١، و«شرح شواهد المعاني» ٢٥٢.

(٤) البيت غير منسوب في «معاني القرآن» ١٠٠، وانظر خبر الأعرابي قائل البيت لمعن بن زائدة في «بحر الآداب» ٢٩٣/٣.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَأْجُذْ﴾ أي: لِيَضْمَهَا إِلَى نَعَاجِهِ. قال ابن قتيبة: المعنى: بسؤال نعتك مضمومةً إلى نعاجه، فاختصر. قال: ويقال «إلى» بمعنى «مع». فإن قيل: كيف حكم داود قبل أن يسمع كلام الآخر؟ فالجواب: أن الخصم الآخر اعترف، فحكم عليه باعترافه، وحذف ذكر الاعتراف اكتفاءً بفهم السامع، والعرب تقول: امرئك بالتجارة فكسبت الأموال، أي: فالتجرت فكسبت، ويذلل عليه قول السدي: إن داود قال للخصم الآخر: ما تقول؟ قال: نعم، أريد أن أخذها منه فأكمل بها نعاجي وهو كاره، قال: إذا لا ندعك، وإن رُمْتُ هذا ضررنا منك هذا - ويشير إلى أنفه وجهته - فقال: أنت يا داود أحق أن يضرب هذا منك حيث لك تسع وتسعون امرأة، ولم يكن لأوريا إلا واحدة، فنظر داود فلم ير أحداً، فعرف ما وقع فيه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ كَيْدَ بَيْنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني الشركاء، واحد: خليط، وهو المخالط في المال وإنما قال هذا، لأنه ظنهما شريكين، ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: فإنهم لا يظلمون أحداً، ﴿وَقَلِيلٌ تَأْتَمُّهُمْ﴾ «ما» زائدة، والمعنى: وقليل هم، وقيل: المعنى: هم قليل، يعني الصالحين الذين لا يظلمون.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ دَاوُدُ﴾ أي: أيقن وعلم ﴿أَنَّا فَتَنَّا﴾ فيه قولان: أحدهما: اختبرناه. والثاني: ابتليناه بما جرى له من نظره إلى المرأة وافتتن بها^(١). وقرأ عمر بن الخطاب: «أَنَّا فَتَنَّا» بتشديد التاء والنون جميعاً. وقرأ أنس بن مالك، وأبو رزين، والجسن، وقتادة، وعلي بن نصر عن أبي عمرو: «أَنَّا فَتَنَّا» بتخفيف التاء والنون جميعاً، يعني المَلَكِينَ، قال أبو علي الفارسي: يريد: صمداً له. وفي سبب علمه وتبينه على ذلك ثلاثة أقوال: أحدها: أن المَلَكِينَ أفصحاً له بذلك، على ما ذكرناه عن السدي. والثاني: أنهما عرجا وهما يقولان: قضى الرجل على نفسه، فعلم أنه غيى بذلك، قاله وهب. والثالث: أنه لما حكم بينهما، نظر أحدهما إلى صاحبه وضحك، ثم صعدا إلى السماء وهو ينظر، فعلم أن الله تعالى ابتلاه بذلك، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتَى بِهِ﴾ قال المفسرون: لما فطن داود بذنبه خَرَّ رَاكِعاً، قال ابن عباس: أي: ساجداً، وعبر عن السجود بالركوع، لأنهما بمعنى الانحناء. وقال بعضهم: المعنى: فخرَّ بعد أن كان راکعاً.

فصل

واختلف العلماء هل هذه من عزائم السجود؟ على قولين: أحدهما: ليست من عزائم السجود، قاله الشافعي. والثاني: أنها من عزائم السجود، قاله أبو حنيفة. وعن أحمد روايتان^(٢). قال المفسرون: فبقى في سجوده أربعين ليلة، لا يرفع رأسه إلا لوقت صلاة مكتوبة أو حاجة لا بُدَّ منها، ولا يأكل ولا يشرب، فأكلت الأرض من جبينه، وَبَكَتِ الثُّشْبُ من دموعه، ويقول في سجوده: ربِّ داود، زَلْ داود زَلَّةً أبعدَ ممَّا بين المشرق والمغرب. قال مجاهد: نبت البقل من دموعه حتى غطى رأسه، ثم نادى: ربِّ قَرِحِ الجبين وَجَمَدَتِ العينُ وداود لم يَرْجِعْ إليه في خطيئته شيء، فتودي: أجائع فَنُظِّعَم، أم مريض فَنُشْفَى، أم مظلوم فَيُنْصَرِّك؟ فَتَحَبَّ نَحِيحاً هاج كلُّ شيء بَكَتْ، فعند ذلك غفر له^(٣). وقال ثابت البناني: اتخذ داود سبع حشايا من شَعْر وحشاهنَّ من الرَّمَاد، ثم بكى حتى أنفذها دموعاً، ولم يشرب شراباً إلا ممزوجاً بدموع عينيه^(٤). وقال وهب بن منبه: نودي: يا داود ارفع رأسك فإنَّا قد غَفَرْنَا لَكَ، فرفع رأسه وقد زَمِنَ

(١) تقدم القول في مثل هذا لا يليق بالأنبياء ﷺ، والصواب هو القول الأول وهو أنه بمعنى اختبرناه.

(٢) قال ابن كثير: اختلف الأئمة في سجدة (ص) هل هي من عزائم السجود؟ على قولين، الجديد من مذهب الشافعي ﷺ: أنها ليست من عزائم السجود، بل هي سجدة شكر، قال: والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد من حديث أيوب عن عكرمة عن ابن عباس ﷺ أنه قال في السجدة في (ص): ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها، قال: ورواه البخاري، وأبو داود، والترمذي، والنسائي في «تفسيره» من حديث أيوب به، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) ذكر هذا المعنى السيوطي في «الدرر» ٣٠٣/٥ من رواية أحمد وعبد بن حميد عن يونس بن خباب ﷺ، قال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: يونس بن خباب الأسدي الكوفي: صدوق يخطئ ورمي بالرفض. اهـ.

(٤) ذكره السيوطي من رواية أحمد عن ثابت البناني، والله أعلم.

وصار مرعشاً. فأما قوله: ﴿وَأَنَابَ﴾ فمعناه: رَجَعَ مِنْ ذَنْبِهِ تَائِباً إِلَى رَبِّهِ، ﴿فَقَرَأَ لَهُ ذَلِكَ﴾ يعني الذَّنْبَ ﴿وَأَنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزْلَى﴾ [قال ابن قتيبة]: أي: تَقْدُومٌ وَقُرْبَةٌ.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ مَتَّحِ﴾ قال مقاتل: حُسْنُ مَرْجِعٍ، وهو ما أعدَّ الله له في الجنة.

قوله تعالى: ﴿يَذَاوُدُ﴾ المعنى: وقلنا له يا داود ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ﴾ أي: صَيَّرْنَاكَ ﴿خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تُدَبِّرُ أَمْرَ الْعِبَادِ مِنْ قِبَلِنَا بِأَمْرِنَا، فكانت خليفة عنا ﴿فَأَخَذَ بَيْنَ الْأَيْدِي بِأَلْحَقٍ﴾ أي: بالعدل ﴿وَلَا تَنجِعُ الْهَوَى﴾ أي: لا تَجُلُ مع ما تشتهي إذا خالف أمر الله ﷻ ﴿فَيُضِلُّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: عن دينه ^(١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ﴾ وقرأ أبو نهيك، وأبو حيوة، وابن يعمر: ﴿يُضِلُّونَ﴾ بضم الياء.

قوله تعالى: ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ فيه قولان: أحدهما: بما تَرَكُوا العمل ليوم الحساب، قاله السدي. قال الزجاج: لما تركوا العمل لذلك اليوم، صاروا بمنزلة الناسين. والثاني: أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا، أي: تَرَكُوا القضاء بالعدل، وهو قول عكرمة ^(٢).

﴿وَمَا خَلَقْنَا النُّسَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ ﴿أَمْ يَحْمِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَحْمِلُ الْمُنَافِقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ ﴿كُتِبَ إِلَيْنَا الْكِتَابُ أَنَّكَ مُبْرَكٌ لِيَدْعُوا بِأَنبِيَائِهِمْ وَلِيَذْكُرُوا الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا النُّسَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ أي: عَبَثًا ﴿ذَلِكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أن ذلك خلقٌ لغير شيء، وإنما خلق للشواب والعقاب. ﴿أَمْ يَحْمِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قال مقاتل: قال كفار قريش للمؤمنين: إِنَّا نُعْطَى في الآخرة مثل ما نُعْطَوْنَ، فنزلت هذه الآية ^(٣). وقال ابن السائب: نزلت في الستة الذين تبارزوا يوم بدر، عليٌّ ﷺ، وحزمة ﷺ، وعبيدة بن الحارث ﷺ، وعتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة ^(٤)، فذكر أولئك بالفساد في الأرض ليعملهم فيها بالمعاصي، وسَمَّى المؤمنين بالمتقين لانتقامهم الشرِّ، وحُكِمَ الآية عامًّا.

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ﴾ أي: هذا كتاب، يعني القرآن، وقد بينا معنى بَرَكَتِهِ في سورة [الأنعام: ٩٧]. ﴿لِيَذْكُرُوا أَنبِيَائِهِمْ﴾ وقرأ عاصم في رواية: ﴿لِيَذْكُرُوا آيَاتِهِ﴾ بالناء خفيفة الدال، أي: ليتفكروا فيها فيقرر عندهم صحتها ﴿وَلِيَذْكُرُوا﴾ بما فيه من المواعظ ﴿أَوَّلُوا الْأَنْبِيَاءِ﴾، وقد سبق بيان هذا [الرعد: ١٩] ^(٥).

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿٢٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْحَنِيِّ الْمَسْنُونَةَ لِيَلْجَأَ ﴿٢١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٢٢﴾ رُؤُوسًا عَلَى نَفُوسٍ مَسْنُونًا بِالْحَنِيِّ وَالْأَفْصَافِ ﴿٢٣﴾ وَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ عَلَى كُرْسِيِّهِ جَدًّا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ آفِزْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَخِي مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٥﴾ فَفَتَنَّا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُفَاتًا حَيْثُ أَسَابَ ﴿٢٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَخَوَّاسٍ ﴿٢٧﴾ وَمَا خَيْرٌ مِنْهُمَا فِي الْإِسْفَادِ ﴿٢٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَكَافٍ ﴿٣٠﴾ وَادْعُ صِدْقًا أُوتِيَ إِذْ دَاوُدُ رَبُّهُ أَتَى مَسْجِدَ الشُّعْرَانِ يَنْسِفُ وَغَدَابَ ﴿٣١﴾ أَرْكَبُ بِرَحْمَتِكَ هَذَا غَزَاً بَارِدًا وَشَرَّابًا ﴿٣٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمَنْ لَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَنْبِيَاءِ ﴿٣٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَامْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا بَصِيرَةٌ صَالِحَةٌ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٤﴾

(١) قال ابن كثير: هذه وصية من الله ﷻ لداود لولا: الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يبدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله، قال: وقد توفد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعد الأكيد والعذاب الشديد.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ يقول تعالى ذكره: وإن الذين يميلون عن سبيل الله وذلك الحق الذي شرعه لعباده وأمرهم بالعمل به فيجورون عنه في الدنيا، لهم في الآخرة يوم الحساب عذاب شديد على ضلالهم عن سبيل الله بما نسوا أمر الله. اهـ.

(٣) ذكر سبب النزول هذا البغوي من مقاتل بدون سند، وكذلك ذكره الخازن والألوسي بدون سند ولم ينسبوا لأحد، قال الألوسي: وأنت تعلم أن العبرة لعموم اللفظ، لا لخصوص السبب.

(٤) ذكر سبب النزول هذا السيوطي في «الدرر» ٣٠٨/٥ من رواية ابن عساكر عن ابن عباس ﷺ في قوله: ﴿أَمْ يَحْمِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: «الذين آمنوا»: علي، وحزمة، وعبيدة بن الحارث، والمفسدين في الأرض: عتبة، وشيبة، والوليد، قال: وهم الذين تبارزوا يوم بدر.

(٥) قال ابن جرير الطبري: ﴿وَلِيَذْكُرُوا الْأَوَّلِينَ﴾ يقول: وليعتبر أولو العقول والحجج ما في هذا الكتاب من الآيات فيرتدعوا عما هم عليه مقيمين من الضلالة، ويتنهدوا إلى ما دلهم عليه من الرشاد وسبيل الصواب. اهـ.

قوله تعالى: ﴿يَنْمَ الْعَبْدُ﴾ يعني به سليمان^(١). وفي الأواب أقوال قد تقدمت في [بني إسرائيل: ٢٥] أَلْيَقُهَا بهذا المكان أنه رَجَّاعٌ بالتوبة إلى الله تعالى مما يقع منه من السهو والغفلة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَاقِبَةِ﴾ وهو ما بعد الزوال ﴿الْعَاقِبَةُ﴾ وهي الخيل. وفي معنى الصافات قولان: أحدهما: أنها القائمة على ثلاث قوائم، وقد أقامت الأخرى على طرف الحافر من يد أو رجل؛ وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد، وابن زيد، واختاره الزجاج، وقال: هذا أكثر قيام الخيل إذا وقفت كأنها تراوح بين قوائمها، قال الشاعر:

أَلِفَ الصُّفُونِ فَمَا يَزَالُ كَانَهُ
مِمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرًا^(٢)

والثاني: أنها القائمة، سواء كانت على ثلاث أو غير ثلاث، قال الفراء: على هذا رأيت العرب، وأشعارهم تدلُّ على أنه القيام خاصة. وقال ابن قتيبة: الصافن في كلام العرب: الواقف من الخيل وغيرها، ومنه قوله ﷺ: «مَنْ سَرَّه أَنْ يَقُومَ لَهُ الرِّجَالُ صُفُونًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٣)، أي: يُدِيمُونَ الْقِيَامَ لَهُ^(٤). فأما الجيادُ، فهي السَّراعُ في الجَرْي. وفي سبب عرضها عليه أربعة أقوال: أحدها: أنه عَرَضَهَا لأنه أراد جهاد عدو له، قاله علي بن أبي طالب ﷺ. والثاني: أنها كانت من دواب البحر. قال الحسن: بلغني أنها كانت خيلاً خرجت من البحر لها أجنحة. وقال إبراهيم التيمي: كانت عشرين فرساً ذات أجنحة. وقال ابن زيد: أخرجتها له الشياطين من البحر. والثالث: أنه وَرَّثَهَا من أبيه داوود ﷺ، فَعَرَضَتْ عليه، قاله وهب بن منبه، ومقاتل. والرابع: أنه غزا جيشاً، فظَفِرَ به وغنمها، فدعا بها فَعَرَضَتْ عليه، قاله ابن السائب. وفي عددها أربعة أقوال: أحدها: ثلاثة عشر ألفاً، قاله وهب. والثاني: عشرون ألفاً، قاله سعيد بن مسروق. والثالث: ألف فرس، قاله ابن السائب، ومقاتل. والرابع: عشرون فرساً، وقد ذكرناه عن إبراهيم التيمي^(٥). قال المفسرون: ولم تزل تُعَرَضُ عليه إلى أن غابت الشمس، ففاتته صلاة العصر، وكان مهيباً لا يبيتده أحد بشيء، فلم يذْكُرْوه، ونسي هو، فلما غابت الشمس ذكر الصلاة، «فَقَالَ إِنْ أَحْبَبْتُ» فتح الباء^(٦) أهل الحجاز وأبو عمرو «حُبَّ الْخَيْرِ» وفيه قولان: أحدهما: أنه المال، قاله سعيد بن جبيرة، والضحاك. والثاني: حُبُّ الخيل، قاله قتادة والسدي. والقولان يرجعان إلى معنى واحد، لأنه أراد بالخير الخيل، وهي مال. وقال الفراء: العرب تسمي الخيل: الخير. قال الزجاج: وقد سَمَّى رسولُ الله ﷺ زَيْدَ الخيل: زَيْدَ الخير^(٧)، ومعنى «أَحْبَبْتُ»: أَتَرْتُ حُبَّ الْخَيْرِ على ذِكْرِ رَبِّي، وكذلك قال غير الزجاج: «عن» بمعنى «على». وقال بعضهم: يحتمل المعنى: فَشَغَلَنِي عن ذِكْرِ رَبِّي. وقال أبو عبيدة: ومعنى [الكلام]: أَحْبَبْتُ حُبًّا، ثم أضاف الحُبَّ إلى الخير. وقال ابن قتيبة: سَمَّى الْحَيْلَ خَيْرًا، لما فيها من

(١) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره: ﴿وَيَنْمَ الْعَبْدُ﴾ يقول: نعم العبد سليمان «إِنَّهُ أَرَادَ» يقول: إنه رَجَّاعٌ إلى طاعة الله، تَوَابَ إِلَيْهِ مما يكرهه منه، وقيل: إنه عَنِي به أنه كثير الذكر لله والطاعة. اهـ. وقال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان، أي نبياً، كما قال ﷺ: «وَرَبِّكَ سَيَكُنُ دَاوُدُ» أي في النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر. اهـ.

(٢) البيت في «مجمع البيان» ١١١/٢٣، و«البحر المحیط» ٣٨٨/٧، و«القرطبي» ١٩٣/١٥، و«روح المعاني» ١٧٢/٢٣، و«اللسان» و«التاج» صفح.

(٣) لم نره بهذا اللفظ، ورواه الترمذي ١٠٠/٢ من حديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ بلفظ: «مَنْ سَرَّه أَنْ يَنْتَهَلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» وقال: هذا حديث حسن، قال: وفي الباب عن أبي أمامة، ورواه أبو داود رقم (٥٢٢٩) من حديث معاوية بلفظ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَمْثَلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» ورواه أحمد في «السنن» ٩١/٤ بلفظ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَمْثَلَ لَهُ عِبَادُ اللَّهِ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»، وهو حديث صحيح.

(٤) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَاقِبَةِ الْكَيْدَ﴾ أي: إذ عرض على سليمان عليه الصلاة والسلام في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافات، قال: قال مجاهد: وهي التي تنقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، قال: والجياد: السراع، قال: وكذا قال غير واحد من السلف. اهـ.

(٥) ذكر القول الرابع الطبري ١٥٤/٢٣ عن إبراهيم التيمي، وذكره السيوطي في «الدرر» ٣٠٩/٥، وزاد نسبه للفريابي، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي ﷺ.

(٦) يعني الباء من كلمة «إِنْ».

(٧) قال الحافظ ابن حجر في «الإصابة» في ترجمة زيد الخيل: وفد في سنة تسع، وسماه النبي ﷺ: زيد الخير، قال: وروى ابن شاهين من طريق بشير مولى بني هاشم عن الأعشى عن أبي وائل عن عبد الله قال: كنا عند النبي ﷺ، فأقبل راكب حتى أتانا، فقال: يا رسول الله إني أتيتك من مسيرة تسع أسالك من خصلتين، فقال: «ما أسالك؟» قال: أنا زيد الخيل، قال: «بل أنت زيد الخير، سل» قال: أسالك من علامة الله فيمن يريد، وعلامته فيمن لا يريد... الحديث. قال ابن حجر: وأخرجه ابن عدي في ترجمة بشير (يعني بشير مولى بني هاشم) وضعفه. اهـ. وكان زيد الخيل شاعراً خطيباً شجاعاً كريماً، يكنى أبا مكثف ﷺ.

الخَيْر. والمفسرون على أن المراد بِذِكْرِ رَبِّهِ: صلاة العصر، قاله عليّ، وابن مسعود، وقناة في آخرين. وقال الزجاج: لا أدري هل كانت صلاة العصر مفروضة، أم لا! إلا أن اعتراضه الخيل شغلَه عن وقت كان يذكر الله فيه ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ قال المصنف: وأهل اللغة يقولون: يعني الشمس، ولم ينجر لها ذكر، ولا أحسبهم أعطوا في هذا الفكر حقّه، لأن في الآية دليلاً على الشمس، وهو قوله: «بالعشي» ومعناه: عُرِضَ عليه بعد زوال الشمس حتى توارت الشمس بالحجاب، ولا يجوز الإضمار إلا أن يجري ذكر، أو دليل ذكر فيكون بمنزلة الذّكر، وأما الحجاب، فهو ما يحجبها عن الأبصار^(١).

قوله تعالى: ﴿رُؤُوسًا عَلَيَّ﴾ قال المفسرون: لما شغلَه عَرْضُ الخيل عليه عن الصلاة، فصلّاها بعد خروج وقتها، اغتمّ وغضب، وقال: ﴿رُؤُوسًا عَلَيَّ﴾، يعني: أعيدوا الخيل عَلَيَّ ﴿تَلَفُّنَ﴾ قال ابن قتيبة: أي: أقبل ﴿سَنًا﴾ قال الأخفش: أي: يَمْسُحُ مَسْحاً. فأما السُّوق، فجمع ساق، مثل دُور ودار. وهمز السُّوق ابن كثير، قال أبو علي: وغيرُ الهمز أحسن منه. وقرأ أبو عمران الجوني، وابن محيصن: «بالسُّوق» مثل الرُّوس. وفي المراد بالمسح هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ضربها بالسيف. روى أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿تَلَفُّنَ سَنًا يَالشُّرِيقَ وَالْأَعْنَاقَ﴾ قال: «بالسيف»^(٢). وروى مجاهد عن ابن عباس قال: مسح أعناقها وسوقها بالسيف. وقال الحسن، وقناة، وابن السائب: قطع أعناقها وسوقها، وهذا اختيار السدي، ومقاتل، والفراء، وأبي عبيدة، والزجاج، وابن قتيبة، وأبي سليمان الدمشقي، والجمهور^(٣). والثاني: أنه جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حباً لها، رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس. وقال مجاهد: مسحها بيده، وهذا اختيار ابن جرير^(٤)، والقاضي أبي يعلى. والثالث: أنه كَرَى سَوْقَهَا وأعناقها وحسبها في سبيل الله تعالى، حكاه الثعلبي. والمفسرون على القول الأول، وقد اعترضوا [على] القول الثاني، وقالوا: أي مناسبة بين شغلها إِيَّاهُ عن الصلاة وبين مسح أعرافها حباً لها؟! ولا أعلم قوله: «حباً لها» ثبت عن ابن عباس. وحملوا قول مجاهد «مسحها بيده» أي: تولّى صَرْبَ أعناقها. فإن قيل: فالقول الأول يفسد بأنه لا ذَنْبَ للحيوان، فكيف وجه العقوبة إليه وقصد التَّشْفِي بقتله، وهذا يشبه فِعْلَ الجَّارِينَ، لا فِعْلَ الأنبياء؟ فالجواب: أنه لم يكن لِيَفْعَلْ ذلك إلا وقد أُبِيحَ له، وجائز أن يُيَاحَ له ما يُمْنَعُ منه في شرعنا، على أنه إذا ذبحها كانت قرباناً، وأكل

(١) قال ابن كثير: وقوله تبارك وتعالى: ﴿تَكَالَ إِلَى لَمْتَتِكُمْ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، ثم قال ابن كثير: والذي يَقْطَعُ به أنه لم يتركها عمداً، بل نسياناً، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب، قال: وذلك ثابت في «الصحاحين» من غير وجه، قال: من ذلك حديث جابر ﷺ قال: جاء عمر ﷺ يوم الخندق بعدما غربت الشمس، فجعل يسبُ كفار قريش ويقول: يا رسول الله، والله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب، فقال رسول الله ﷺ: «والله ما صليتها» فقال: فقمنا إلى بطحان، فترضنا نبي الله ﷺ للصلاة، وتروضنا لها، فصلى العصر بعدما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب. اهـ.

(٢) ذكره السيوطي في «الدرر» ٣٠٩/٥ من رواية الطبراني في «الأوسط»، والإسماعيلي في «معجمه»، وابن مردويه عن أبي بن كعب ﷺ. قال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٩٩/٨: رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه سعيد بن بشير، وثقه شعبة وغيره، وضمه ابن معين وغيره، قال: وثقه رجاله ثقات. اهـ. وقد ضعف سعيد بن بشير الحافظ ابن حجر في «التقريب».

(٣) قال البغوي في «تفسيره»: ﴿تَلَفُّنَ سَنًا يَالشُّرِيقَ وَالْأَعْنَاقَ﴾ فجعل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف، قال: هذا قول ابن عباس، والحسن، وقناة، ومقاتل، وأكثر المفسرين، قال: وكان ذلك مباحاً له، لأن نبي الله ﷺ لم يكن يقدم على محرم، ولم يكن يتوب من ذنب بئس آخر. اهـ. وقال ابن كثير: قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضباً لله تعالى، بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة، قال: ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عَوْضُهُ الله ﷻ ما هو خير منها، وهو الريح التي تجري بأمره رُخَاءً حيث أصاب، فغفوا شهر ورواحها شهر، قال: فهذا أسرع وخير من الخيل. اهـ. وقال الشوكاني في «فتح القدير» من هذا القول: وهذا أولى بسياق الكلام، فإنه ذكر أنه أتراها على ذكر ربه حتى فاتته صلاة العصر، ثم أمرهم بردها عليه ليعاقب نفسه بإنساد ما ألهاه عن ذلك، وما صده عن عبادة ربه، وشغلَه عن القيام بما فرضه الله عليه. اهـ. وقال آخرون غير هذا، منهم، الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبري، وسيأتي في التعليق الذي بعد هذا، والله أعلم.

(٤) قال ابن جرير الطبري ١٥٦/٢٣: حدثني عليّ قال: ثنا أبو صالح، قال: ثني معاوية عن علي (يعني ابن أبي طلحة) عن ابن عباس قوله: ﴿تَلَفُّنَ سَنًا يَالشُّرِيقَ وَالْأَعْنَاقَ﴾ يقول: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حباً لها، قال الطبري: وهذا القول الذي ذكرناه عن ابن عباس، أشبه بتأويل الآية، لأن نبي الله ﷺ لم يكن أن شاء الله ليعذب حيواناً بالعقوبة (يعني ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف) ويهلك ماله من ماله بغير سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها. اهـ.

لحمها جائز، فما وقع تفريط. قال وهب بن منبه: لما ضَرَبَ سوقها وأعناقها، شكر الله تعالى له ذلك، فسَخَّرَ له الرِّيح مكانها، وهي أَحْسَنُ في المنظر، وأسْرَعُ في السَّير، وأعَجَبُ في الأُخْدُوثة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا شَيْطَانًا أَي: ابْتَلَيْنَاهُ وَامْتَحَنَاهُ بِسَلْبِ مُلْكِهِ﴾ ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ﴾ أَي: على سريره ﴿جَدًّا﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه شيطان، قاله ابن عباس، والجمهور. وفي اسم ذلك الشيطان ثلاثة أقوال. أحدها: صخر، رواه العوفي عن ابن عباس. وذكر العلماء أنه كان شيطاناً مَرِيداً لم يُسَخَّرْ لسليمان. والثاني: آصف، قاله مجاهد، إلا أنه ليس بالمؤمن الذي عنده الاسم الأعظم، إلا أن بعض ناوِلي التفسير حكى أنه آصف الذي عنده عِلْمٌ من الكتاب، وأنه لما فُتِنَ سليمان سقط الخاتم من يده فلم يثبت، فقال آصف: أنا أقوم مقامك إلى أن يتوب الله عليك، فقام في مقامه، وسار بالسيرة الجميلة، وهذا لا يَصِحُّ، ولا ذكره مَنْ يوثق به. والثالث: حقيق، قاله السدي، والمعنى: أجلسنا على كُرْسِيِّهِ في مُلْكِهِ شيطاناً. ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أَي: رَجَعَ. وفيما رجع إليه قولان: أحدهما: تاب من ذَنْبِهِ، قاله قتادة. والثاني: رَجَعَ إلى مُلْكِهِ، قاله الضحاك. وفي سبب ابتلاء سليمان بهذا خمسة أقوال: أحدها: أنه كانت له امرأة يقال لها: جرادة، وكان بين بعض أهلها وبين قوم خصومة، ففُضِيَ بينهم بالحق، إلا أنه ودَّ أن الحق كان لأهلها، فعوقب حين لم يكن هواه فيهم واحداً، وأوحى الله تعالى إليه أنه سَيُصِيبُكَ بلاءٌ، فكان لا يدري آياتيه من السماء، أو من الأرض، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. والثاني: أن زوجته جرادة كانت آوَى النَّسَاءِ عنده، فقالت له يوماً: إن أخي بينه وبين فلان خصومة، وأني أُحِبُّ أن تُقْضِيَ له، فقال: نعم، ولم يفعل، فابْتَلِيَ لأجل ما قال، قاله السدي. والثالث: أن زوجته جرادة كان قد سبَّاهَا في غَزَاةٍ له، وكانت بنتٌ مَلِكٍ فأسلمت، وكانت تبكي عنده بالليل والنهار، فسألها عن حالها، فقالت: أذكُرُ أبي وما كنتُ فيه، فلو أنك أَمَرْتَ الشياطينَ فصوروا صورته في داري فأتسَلَّى بها، [ففعل]، فكانت إذا خرج سليمان، تسجد له هي وولادتها [أربعين صباحاً، فلما عَلِمَ سليمان، كسر تلك الصورة، وعاقب المرأة وولادتها] ثم تَضَرَّعَ إلى الله تعالى مستغفراً مما كان في داره، فَسَلَّطَ الشيطانُ على خاتمه، [هذا قول وهب بن منبه. والرابع: أنه احتجب عن الناس ثلاثة أيام، فأوحى الله تعالى إليه: يا سليمان، احتجب^(١) عن الناس ثلاثة أيام فلم تنظر في أمور عبادي ولم تُنْصِفْ مظلوماً من ظالم؟] فَسَلَّطَ الشيطانُ على خاتمه، قاله سعيد بن المسيب. والخامس: أنه قَارَبَ امرأةً من نساته في الحيض أو غيره، قاله الحسن^(٢). والقول الثاني: أن المراد بالجسد الذي أُلْقِيَ على كُرْسِيِّهِ: أنه ولد [له ولد] فاجتمعت الشياطين، فقال بعضهم لبعض: إن عاش له ولد، لم ننفك من البلاء، فسيئلاً أن نقتل ولده أو نُخْلِعَ، فَعَلِمَ بذلك سليمان، [فأمر السُّحَابَ] فحمله، وعدا ابنه في السحاب خوفاً من الشياطين، فعاتبه الله تعالى على تخوُّفه من الشياطين، ومات الولد، فأُلْقِيَ على كُرْسِيِّهِ ميتاً جسداً، قاله الشعبي. والمفسرون على القول الأول^(٣). ونحن نذكر قصة ابتلائه على قول الجمهور.

(١) في الأصل: اجحجج.

(٢) قال ابن كثير بعد أن ذكر بعض هذه الروايات في سبب ابتلاء سليمان ﷺ: وهذه كلها من الإسرائيلية، ثم ذكر أن من أنكرها ما رواه ابن أبي حاتم من رواية المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وسرد الرواية بطولها بنحو القول الأول الذي ذكره المؤلف هنا في سبب ابتلاء سليمان ﷺ، ولكن بأطول منه. وقال الحافظ ابن حجر في إخراج أحاديث الكشاف: ١٤٣: وأما ما يحكى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان ﷺ، فإله أعلم بصحته، ثم قال: وروى النسائي من رواية المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس وإسناده قوي، وكذلك قال الحافظ السيوطي في «الدرر»: ٣١٠/٥: وأخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم بسند قوي عن ابن عباس ﷺ قال: أراد سليمان ﷺ أن يدخل الخلافة فأعطى لجرادة خاتمه، وكانت جرادة امرأته، وكانت أحب نساته إليه. وسرد القصة بطولها. قال ابن كثير بعد أن سرد هذا القول بطوله من رواية ابن أبي حاتم: إسناده إلى ابن عباس قوي، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس ﷺ - إن صح عنه - من أهل الكتاب، قال: وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه، قال: ولهذا كان في هذا السياق منكرات، من أشدها ذكر النساء، فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من أئمة السلف أن ذلك الجني لم يسلط على نساء سليمان، بل عصمه الله ﷻ منه تشريفاً وتكريماً لنبية ﷺ، قال: وقد رويت هذه القصة مطوّلة عن جماعة من السلف، كسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم، وجماعة آخرين، قال: وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب. اهـ.

(٣) يريد به القول الأول الذي ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ قال: وفيه قولان. أحدهما: أنه شيطان، قاله ابن عباس والجمهور.

الإشارة إلى ذلك

اختلف العلماء في كيفية ذهاب خاتم سليمان على قولين: أحدهما: أنه كان جالساً على شاطئ البحر، فوقع منه في البحر، قاله علي عليه السلام. والثاني: أن شياطيناً أخذته، وفي كيفية ذلك أربعة أقوال: أحدها: أنه دخل ذات يوم الحمام ووضع الخاتم تحت فراشه، فجاء الشيطان فأخذه وألقاه في البحر، وجعل الشيطان يقول: أنا نبي الله، قاله سعيد بن المسيب. والثاني: أن سليمان قال للشيطان: كيف تفتنون الناس؟ قال: أرني خاتمك أخبرك، فأعطاه إياه، فنبذه في البحر، فذهب ملك سليمان، وقعد الشيطان على كرسيه، قاله مجاهد. والثالث: أنه دخل الحمام، ووضع خاتمه عند أوثق نسائه في نفسه، فأتاها الشيطان فتمثل لها في صورة سليمان وأخذ الخاتم منها، فلما خرج سليمان، طلبه منها، فقالت: قد دفعته إليك، فهرب سليمان، وجاء الشيطان فجلس على ملكه، قاله سعيد بن جبير. والرابع: أنه دخل الحمام، وأعطى الشيطان خاتمه فألقاه الشيطان في البحر، فذهب ملك سليمان، وألقي على الشيطان شبيهه، قاله قتادة. فأما قصة الشيطان، فذكر أكثر المفسرين أنه لما أخذ الخاتم رمى به في البحر، وألقي عليه شبيه سليمان، فجلس على كرسيه، وتحكم في سلطانه. وقال السدي: لم يلقه في البحر حتى فر من مكان سليمان. وهل كان يأتي [نساء] سليمان؟ فيه قولان: أحدهما: أنه لم يقدر عليهن، قاله الحسن، وقتادة. والثاني: أنه كان يأتيهن في زمن الحيض، فأكثرته، قاله سعيد بن المسيب؛ والأول أصح^(١). قالوا: وكان يقضي بقضايا فاسدة، ويحكم بما لا يجوز، فانكره بنو إسرائيل، فقال بعضهم لبعض: إما أن تكونوا قد هلكتم أنتم، وإما أن يكون ملككم قد هلك، فاذهبوا إلى نساءه فاسألوهن، فذهبن، فقلن: إنا والله قد أنكرنا ذلك؛ فلم يزل على حاله إلى أن انقضى زمن البلاء. وفي كيفية بُعد الشيطان عن مكان سليمان أربعة أقوال: أحدها: أن سليمان وجد خاتمه ففتح به، ثم جاء فأخذ بناصية الشيطان، قاله سعيد بن المسيب. والثاني: أن سليمان لما رجع إلى ملكه وجاءته الرُّيح والطَّير والشيَّاطين، فر الشيطان حتى دخل البحر، قاله مجاهد. والثالث: أنه لما مضى أربعون يوماً، طار الشيطان من مجلسه، قاله وهب. والرابع: أن بني إسرائيل لما أنكروه، أتوه فأحرقوا به، ثم نَشَرُوا الثَّورَةَ فقرأوا، فطار من بين أيديهم حتى ذهب إلى البحر، فوقع الخاتم منه في البحر فابتلعه حوت، قاله السدي. وفي قدر مكث الشيطان قولان: أحدهما: أربعون يوماً، قاله الأكثرون. والثاني: أربعة عشر يوماً، حكاه الثعلبي. وأما قصة سليمان عليه السلام، فإنه لما سلب خاتمه، ذهب ملكه، فانطلق هارباً في الأرض. قال مجاهد: كان يَسْتَظْعِمُ فلا يَظْعَمُ، فيقول: لو عَرَفْتُمُونِي أعطيتموني، أنا سليمان، فيطردونه، حتى أعطته امرأة حوتاً، فوجد خاتمه في بطن الحوت. وقال سعيد بن جبير: انطلق سليمان حتى أتى ساحل البحر، فوجد صيادين قد صادوا سمكاً كثيراً وقد أنتن عليهم بعضه، فأتاهم يستطعم، فقالوا: اذهب إلى تلك الحيتان فخذ منها، فقال: لا، أظعموني من هذا، فأبوا عليه، فقال: أظعموني فإني سليمان، فوثب إليه رجل منهم فضربه بالعصا غَضَباً لسليمان، فأتى تلك الحيتان فأخذ منها شيئاً، فشق بطن حوت، فإذا هو بالخاتم. وقال الحسن: ذكر لي أنه لم يؤوه أحد من الناس، ولم يُعرف أربعين ليلة، وكان يأوي إلى امرأة مسكينة، فبينا هو يوماً على شط نهر، وجد سمكة، فأتى بها المرأة فشقتها فإذا بالخاتم. وقال الضحاك: اشترى سمكة من امرأة فشق بطنها فوجد خاتمه. وفي المدة التي سلب فيها الملك قولان: أحدهما: أربعون ليلة، كما ذكرنا عن الحسن. والثاني: خمسون ليلة، قاله سعيد بن جبير. قال المفسرون: فلما جعل الخاتم في يده، ردَّ الله عليه بهاءه وملكه، فأظلمت الطَّير، وأقبل لا يستقبله جني ولا طائر ولا حجر ولا شجر إلا سجد له، حتى انتهى إلى منزله. قال السدي: ثم أرسل إلى الشيطان، فجاء به، فأمر به فجعل في صندوق من حديد، ثم أطبق عليه وأقفل، وختم عليه بخاتمه، ثم أمر به فألقي في البحر، فهو فيه إلى أن تقوم الساعة. وقال وهب: جاب^(٢) صخرة فأدخله فيها، ثم أوثقها بالحديد والرصاص، ثم قذفه في البحر.

(١) وقد رأيت قبل قليل كيف قال ابن كثير: فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من أئمة السلف أن ذلك الجني لم يسلط على نساء سليمان، بل عصمهن الله ﷻ منه تشريعاً وتكريماً لنبيه ﷺ، قال: وقد رويت هذه القصة عن جماعة من السلف، ثم قال: وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب، والله أعلم بالصواب. اهـ.

(٢) جاب: قطع.

قوله تعالى: ﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَلْبِسُنِي لِبَاسًا مِنْ بَدِينِي﴾ فتح الياء^(١) نافع، وأبو عمرو. وفيه قولان: أحدهما: لا يكون لأحد بعدي، قاله مقاتل، وأبو عبيدة. وقد أخرج البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ جَفْرِيَّ مِنَ الْجِنِّ تَلَعْتُ عَلَيْهِ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي، فَأَمَكَّنِي اللَّهُ مِنْهُ، فَأَخَذَنِي، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَلْبِسُنِي لِبَاسًا مِنْ بَدِينِي﴾، فَفَرَدْتُهُ خَاسِتًا»^(٢). والثاني: لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني في حياتي، كما فعل الشيطان الذي جلس على كرسيه، قاله الحسن، وقناة^(٣). وإنما طلب هذا الملك، ليعلم أنه قد غُفِرَ له، ويعرف منزلته بإجابة دعوته، قاله الضحاك. ولم يكن في ملكه حين دعا بهذا الرِّيحَ ولا الشياطينَ ﴿فَسَحَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾^(٤) وقرأ أبو الجوزاء، وأبو جعفر، وأبو المتوكل: «الرِّيح» على الجمع.

قوله تعالى: ﴿رُفَّاءٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: مُطِيعَةٌ، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، والضحاك. والثاني: أنها الطيبة، قاله مجاهد. والثالث: اللينة، مأخوذ من الرِّخاوة، قاله اللُّغَوِيُّونَ. فإن قيل: كيف وصفها بهذا بعد أن وصفها في سورة الأنبياء: [٨١] بأنها عاصفة؟ فالجواب: أن المفسرين قالوا: كان يأمر العاصف تارةً ويأمر الرِّخاءَ أخرى. وقال ابن قتيبة: كأنها كانت تشتدُّ إذا أراد، وتلين إذا أراد.

قوله تعالى: ﴿حِثُّ أَسَافٍ﴾ أي: حيث قصد وأراد. قال الأصمعي: تقول العرب: أصاب فلان الصَّوَابَ فأخطأ الجواب، أي: أراد الصَّوَابَ.

قوله تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينُ﴾ أي: وسحَّرْنَا له الشياطينَ ﴿كُلَّ بَلَاءٍ﴾ ينون له ما يشاء ﴿وَعَوَاصٍ﴾ يغوصون له في البحار فيستخرجون الدرَّ^(٥)، ﴿وَوَحْشِينَ﴾ أي: وسحَّرْنَا له آخرين، وهم مَرَدَّةُ الشياطين، سحَّروهم له حتى قرَّنههم في الأصفاة ليكفرهم. قال مقاتل: أوتقهم في الحديد. وقد شرحنا معنى ﴿مُفَرِّقِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ في سورة نبي الله إبراهيم ﷺ [١٤٩]: ﴿هَكَذَا عَصَاؤُنَا﴾ المعنى: قلنا له: هذا عطاؤنا. وفي المشار إليه قولان: أحدهما: أنه جميع ما أعطي، ﴿فَنَسْنِ أَوْ أَمِينًا﴾ أي: أعطِ مَنْ شئتَ من المال، وامْنَعْ مَنْ شئتَ. والمَنْ: الإحسان إلى من لا يطلب ثوابه. والثاني: أنه إشارة

(١) أي: ياء بعدي.

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» ٦/٣٢٩، ٨/٤٢٠، ومسلم: ١/٣٨٤، والحديث ذكره السيوطي في «الدر» ٥/٣١٣، وزاد نسبه لعبد بن حميد، والنسائي، والحكيم الترمذي في «توابع الأصول»، وابن مردويه عن أبي هريرة ﷺ. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: وقوله: «تَلَعْتُ عَلَيْهِ» أي: تعرَّضَ لي قلعة، أي: بقتة، وقوله: «البارحة» أي: الليلة الخالية الزائلة، قال: والبارح: الزائل، قال: ويقال من بعد الزوال إلى آخر النهار: البارحة، قال: وقوله: «فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ» أي: قوله: ﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَلْبِسُنِي لِبَاسًا مِنْ بَدِينِي﴾ قال: وفي هذا إشارة إلى أنه ﷺ كان يقدر على ذلك، إلا أنه تركه رعاية لسليمان ﷺ، قال: ويحتمل أن تكون خصوصية سليمان استخدام الجن في جميع ما يريد لا في هذا القدر فقط، قال: واستدل الخطابي بهذا الحديث على أن أصحاب سليمان كانوا يرون الجن في أشكالهم وهيئتهم حال تصرفهم، قال: وأما قوله: ﴿إِنَّمَا يَرِيكُمْ هُوَ رُفَّاءٌ يَنْ حِثُّ لَوْحَتِهِمْ﴾ فالمراد: الأكثر الأغلب من أحوال بني آدم، قال: وتُعَقَّبُ بأن نفي رؤية الإنس للجن على هيئتهم ليس بقاطع من الآية، بل ظاهرها أنه ممكن، فإن نفي رؤيتنا إياهم مقيد بحال رؤيتهم لنا، قال: ولا ينفي إمكان رؤيتنا لهم في غير تلك الحالة، قال: ويحتمل العموم، وهو الذي فهمه أكثر العلماء، حتى قال الشافعي: من زعم أنه يرى الجن، أبطلنا شهادته، واستدل بهذه الآية. اهـ.

(٣) قال ابن جرير الطبري: قوله: ﴿قَالَ رَبِّي أَفْزَى لِي رَهَبًا لِي مَلَكًا لَا يَلْبِسُنِي لِبَاسًا مِنْ بَدِينِي﴾ يقول تعالى ذكره: قال سليمان راعياً إلى ربه: رب استر عليّ ذنبي الذي أذنبت بيني وبينك فلا تعاقبني به ﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَلْبِسُنِي لِبَاسًا مِنْ بَدِينِي﴾ لا يسلبني أحد كما سلبني قبل هذه الشيطان. اهـ. وقال ابن كثير: قال بعضهم: معناه: لا ينبغي لأحد من بعدي، أي: لا يصلح لأحد أن يسلبني بعدي، كما كان من قضية الجسد الذي أُلقي على كرسيه، لا أنه يحجر على مَنْ بعده من الناس، قال: والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله، قال: وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ. اهـ.

(٤) قال ابن جرير الطبري: فاستجيب له دعاءه فأعطيناه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فسحَّرنا له الريح.

(٥) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَلَاءٍ وَمَوَاسٍ﴾ يقول تعالى ذكره: وسحَّرْنَا له الشياطينَ فسُلِّطْنَا عليها مكان ما ابتليناه بالذي ألقينا على كرسيه منها، يستعملها فيما شاء من أعماله، من بِنَاءٍ وَغَوَاضٍ، فالبُتَّةُ منها يصنعون محاريب وتماثيل، والغَاضَةُ يستخرجون له الحُلِيَّ من البحار، وآخرون ينحتون له جفاناً وقُدُوراً، والمرتدة في الأغلال مقرَّنون. اهـ. وقال ابن كثير: وقوله جل جلاله: ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَلَاءٍ وَمَوَاسٍ﴾ أي: منهم من هو مستعمل في الأتنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقُدُورَ راسيات إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر، قال: وطائفة غواصون في البحار يستخرجون ما فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها. اهـ.

إلى الشياطين المسخرين له؛ فالمعنى: فامتنن على مَنْ شئت بإطلاقه، وأمسك مَنْ شئت منهم. وقد روي معنى القولين عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿يَتَرَحَّبُ﴾ قال الحسن: لا تبعه عليك في الدنيا ولا في الآخرة. وقال سعيد بن جبير: ليس عليك حساب يوم القيامة. وقيل: في الكلام تقليد وتأخير، تقديره: هذا عطاؤنا بغير حساب فامتنن أو أمسك^(١). وما بعد هذا قد سبق تفسيره (سبأ: ٣٧، الرعد: ٢٩، الأنبياء: ٨٣)^(٢) إلى قوله: ﴿مَسَى السَّيْلُ﴾ وذلك أن الشيطان سلط عليه، فأضاف ما أصابه إليه.

قوله تعالى: ﴿يُنْصَبُ﴾ قرأ الأكثرون بضم النون وسكون الصاد؛ وقرأ الحسن، وابن أبي عبيدة، وابن السميع، والجحدري، ويعقوب: بفتحهما. وهل بينهما فرق؟ فيه قولان: أحدهما: أنهما سواء. قال الفراء: هما كالرشد والرشد، والغدوم والغدوم، والحزن والحزن؛ وكذلك قال ابن قتيبة، والوجاج. قال المفسرون: والمراد بالنصب: الضرب الذي أصابه. والثاني: أن النصب بتسكين الصاد: الشر، وتحريكها: الإعياء؛ قاله أبو عبيدة. وقرأت عائشة، ومجاهد، وأبو عمران، وأبو جعفر، وشيبة، وأبو عمار عن حفص: «يُنْصَبُ» بضم النون والصاد جميعاً. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو الجوزاء، وهيرة عن حفص: «يُنْصَبُ» بفتح النون وسكون الصاد^(٣). وفي المراد بالعذاب قولان: أحدهما: أنه العذاب الذي أصاب جسده. والثاني: أنه أخذ ماله وولده.

قوله تعالى: ﴿ارْكُضْ﴾ أي: اضرب الأرض «بِرَجْلِكَ»^(٤)، ومنه: رَكَضْتُ الْقَرَسَ^(٥). فَرَكَضَ فَنَبَعَتْ عَيْنُ ماءٍ، فذلك قوله ﷺ: «هَكَذَا مَسَّسَ بَارِدٌ وَتَرَكَّ». قال ابن قتيبة: الْمُغْتَسَلُ: الماء، وهو الغسول أيضاً. قال الحسن: رَكَضَ بِرَجْلِهِ فَنَبَعَتْ عَيْنٌ [فاغْتَسَلَ مِنْهَا، ثم مشى نحواً من أربعين ذراعاً، ثم رَكَضَ بِرَجْلِهِ فَنَبَعَتْ عَيْنٌ] فَشَرِبَ مِنْهَا؛ وعلى هذا جمهور العلماء أنه رَكَضَ ركضتين فَنَبَعَتْ له عينان، فاغْتَسَلَ من واحدة، وشرب من الأخرى.

قوله تعالى: ﴿رَحِمْتُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا﴾ كان قد حَلَفَ لئن شفاه الله لَيَجْلِدَنَّ زَوْجَتَهُ مائة جلدة^(٦). وفي سبب هذه اليمين ثلاثة أقوال: أحدها: أن إبليس جلس في طريق زجة أيوب كأنه طيب، فقالت له: يا عبد الله: إن هاهنا إنساناً مهتلياً، فهل لك أن تدأويه؟ قال: نعم، إن شاء شفيته، على أن يقول إذا برأ: أنت شفيتني، فجاءت فأخبرته، فقال: ذاك الشيطان، لله عليّ إن شفاني أن أجلك مائة جلدة، رواه يوسف بن مهرا عن ابن عباس^(٧). والثاني: أن إبليس لقيها

(١) قال ابن جرير الطبري: أخبر تعالى أنه سخر له ما لم يسخر لأحد من بني آدم، وذلك تسخيره له الريح والشياطين قال: ثم قال عز ذكرو: هذا الذي أعطيناك من الملك وتسخيرنا ما سخرنا لك، عطاؤنا، ووهبنا لك ما سألتنا أن نهبه من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعدك، ثم قال: والله لا يحاسب على ما أعطى من ذلك الملك والسلطان. اهـ. وقال ابن كثير: وقوله ﷺ: «هَكَذَا مَسَّسَ بَارِدٌ وَتَرَكَّ أَوْ أَتَيْتُ بِتَرَحَّبٍ» أي: هذا الذي أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا، فأعطى من شئت واحرم من شئت، لا حساب عليك مهما فعلت، فهو جائز لك، احكم بما شئت فهو صواب. اهـ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكرو لنيه محمد ﷺ: «وَأَذْكُرْ» أيضاً يا محمد «جَنَّتَا أَيْبُؤَ إِذْ تَأَذَّنَا رَبُّهُ» مستغنياً به فيما نزل به من البلاء يا رب «إِنَّ مَسَى السَّيْلُ يَنْصَبُ» اهـ.

(٣) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القراءة في ذلك عنتنا ما عليه قراء الأمصار، وذلك الضم في النون والسكون في الصاد. اهـ.

(٤) قال القاسمي: أي: استجينا له قلنا: اركض برجلك، أي: اعد بها وامش فقد برئت وشفيت من مرضك وقوي جسمك ووهج بدنك «ارْكُضْ بِرَجْلِكَ هَكَذَا مَسَّسَ بَارِدٌ وَتَرَكَّ» أي: ماءً تغتسل به وتشرب منه، قال: والإشارة إلى عين أو نهر أو نحوهما. وقال الطبري: فاغسل وشرب، ففرجنا عنه ما كان فيه من البلاء، ووهبنا له أهله من زوجة وولد «وَنَهْنَهُمْ نَهْنَهُ رَحْمَةً يَكُنْ لَكَ وَزَكْرَى» يقول: وتذكيراً لأولي العقول ليمعروا بها فيستظفوا. اهـ.

(٥) في «الصالح» واللسان: «وَرَكَضْتُ الْقَرَسَ بِرَجْلِي» إذا استغتننته ليغسلو، ثم كثر حتى قيل: رَكَضَ الْقَرَسَ: إذا غدا، وليس بالأصل، والصواب: رَكَضَ الْقَرَسَ، على ما لم يُسَمَّ فاعله، فهو مَرْكُوضٌ.

(٦) قال ابن كثير: وقوله: «وَلَوْلَا يَدُكَ يَنْفَكُ تَأْتِرُ بِي وَلَا تَحْتَفُ» وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قد غضب على زوجته ووجد عليها في أمر فعله - قيل: باعت صغيرتها بخير فأطعمته إياه - فلأما على ذلك وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربها مائة جلدة، وقيل لغير ذلك من الأسباب، فلما شفاه الله ﷻ وعافاه، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله ﷻ أن يأخذ ضغناً وهو الشمراخ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة وقد برئت يمينه وخرج من حنثه ووفى بيمينه، قال: وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأتاب إليه. اهـ.

(٧) ذكره السيوطي في «الدرر» ٣١٦/٥ من رواية أحمد في «الزهد»، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ.

فقال: إني أنا الذي فعلتُ بأبيوب ما به، وأنا إله الأرض، وما أخذته منه فهو بيدي، فانطلقني أريك، فمشى بها غير بعيد، ثم سَحَرَ بَصَرَهَا، فأراها وادياً عميقاً فيه أهلها وولدها ومألها، فأتت أيوب فأخبرته، فقال: ذاك الشيطان، ويحك كيف وعى قوله سَمْعُكَ؟ والله لئن شغاني الله ﷻ لأَجْلِدَنَّكَ مائة، قاله وهب بن منبه. والثالث: أن إبليس جاء إلى زوجته بسخلة، فقال: لِيَذْبَحْ لي هذه وقد بَرَأَ؛ فأخبرته، فَحَلَفَ لِيَجْلِدَنَّهَا، وقد ذكرنا هذا القول في سورة [الأنبياء: ٨٣] عن الحسن. فأما الضُّعْثُ، فقال الفراء: هو كُلُّ ما جمعتَه من شيءٍ مثل الحُزْمَةِ الرُّطْبَةِ، قال: وما قام على ساق واستطال ثم جمعتَه، فهو ضِعْثٌ. وقال ابن قتيبة: هو الحُزْمَةُ من الخلال والعيدان. قال الزجاج: هو الحُزْمَةُ من الحشيش والزَّيْحَان وما أشبهه. قال المفسرون: جَزَى الله زوجته بِحُسْنِ صبرها أن أفتاه في ضربها فسَقَلَ الأمر، فجمع لها مائة عود، وقيل: مائة سنبله، وقيل: كانت أسلاً^(١)، وقيل: من الإذْخِر^(٢)، وقيل: كانت شماريح، فضربها بها ضربةً واحدةً ولم يَخْشَفْ في يمينه. وهل ذلك خاصٌّ له، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أنه عامٌّ، وبه قال ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، [وابن أبي ليلى]. والثاني: أنه خاصٌّ لأيوب، قاله مجاهد.

فصل

وقد اختلف الفقهاء فيمن حلف أن يَضْرِبَ عبده عشرة أسواط فجمعها كلها وضربه بها ضربة واحدة، فقال مالك، والليث بن سعد: لا يَبْرُ، وبه قال أصحابنا. وقال أبو حنيفة والشافعي: إذا أصابه في الضربة الواحدة كُلُّ واحدٍ منها، فقد بَرَأَ، واحتجوا بعموم قصة أيوب عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ مُلَيِّئًا﴾ أي: على البلاء الذي ابتليناه به^(٣).

﴿وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَنْصَارِ﴾ (١) ﴿إِنَّا أَخْلَقْنَاهُمْ بِحَالَمَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ﴾ (٢) ﴿وَأَنَّهُمْ عِنْدَنَا لَبَنٌ الْمَصْلُوعَيْنِ الْخَبِيرِ﴾ (٣) ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْآخْيَارِ﴾ (٤) ﴿هَذَا وَكَرُّهُ وَإِنَّ لِلْمُتَّيْنِ لَحُسْنَ مَكَابٍ﴾ (٥) ﴿جَنَّتِي حَدِيدٌ مِّنَ الْأُيُوبِ﴾ (٦) ﴿مُكَيِّبِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا يَنْكَبُهُمْ كَثِيرٌ وَكَرِبٌ﴾ (٧) ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الظَّرْفِ أَرْبَابٌ﴾ (٨) ﴿هَذَا مَا نُوْعِدُونَ لِيُؤْوِي الْحِسَابِ﴾ (٩) ﴿إِنَّا هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَمْ يَنْفَادِ﴾ (١٠)

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا﴾ وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وحמיד، وابن محيصن، وابن كثير: «عِبْدَنَا»، إشارة إلى إبراهيم، وجعلوا إسحاق ويعقوب عطفاً عليه، لأنه الأصل وهما ولداه، والمعنى: اذْكُرْ صبرهم، فإبراهيم ألقى في النار، وإسحاق أضجع للذبح^(٤)، ويعقوب صبر على ذهاب بصره وابتلى بفقد ولده؛ ولم يُذَكَّرْ إسماعيل معهم، لأنه لم يُتَبَلَّى كما ابتلوا^(٥). ﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾ يعني القوة في الطاعة ﴿وَالْأَنْصَارِ﴾ البصائر في الدين والعلم. قال ابن جرير: وذُكِرَ الأيدي مَثَلٌ، وذلك لأن باليد البطش، وبالبطش تُعرف قُوَّةُ القوي، فلذلك قيل للقوي: ذو يد؛ وعنى بالبصر: بصر القلب، وبه تُنال معرفة الأشياء. وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وابن أبي عبله: «أُولَى الأيدي» بغير ياء في الحاليين. قال الفراء: ولها وجهان: أحدهما: أن يكون القارئ لهذا أراد الأيدي، فحذف الياء، وهو صواب، مثل الجَوَارِ والمناد. والثاني: أن يكون من القُوَّة والتأييد، من قوله: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَقْنَاهُمْ﴾ أي: اصطفيناهم وجعلناهم لنا خالصين، فأفردناهم بمُفْرَدَةٍ من خصال الخير؛ ثم أبان

(١) قال في «الصحاح»: الأسَلُ: شجر، ويقال: كل شجر له شوك طويل فتوَّكُهُ أسَلٌ.

(٢) قال في «المصباح»: الإذْخِر، بكسر الهمزة والحاء: نبات معروف ذُوُّ الرِّيح، وإذا جَفَّتْ أبيض.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ مُلَيِّئًا﴾ يقول: إنا وجدنا أيوبَ هابِراً على البلاء، لا يحمله البلاء على الخروج عن طاعة الله والدخول في معصيته ﴿وَنَبِّئْهُمُ اللَّهُ أَرْبَابٌ﴾ يقول: إنه إلى طاعة الله مقل، وإلى رضا رجاء. اهـ.

(٤) هذا على رأي من قال بأن النبي هو إسحاق، وبذلك قال المصنف، وقد رجح ذلك الطبري، وقد تقدم أن الصواب في ذلك أن النبي إسماعيل ﷺ، لا إسحاق، وعليه الجمهور.

(٥) قال ابن كثير: يقول تبارك وتعالى مخبراً عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين ﴿وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَنْصَارِ﴾ (١) يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع، والقوة في العبادة والبصيرة النافذة. اهـ.

عنها بقوله: ﴿ذَكَرَى الدَّارَ﴾. وفي المراد بالدار هاهنا قولان: أحدهما: الآخرة. والثاني: الجنة. وفي الذكرى قولان: أحدهما: أنها من الذكر، فعلى هذا يكون المعنى: أخلصناهم بذكر الآخرة، فليس لهم ذكر غيرها، قاله مجاهد، وعطاء، والسدي. وكان الفضيل بن عياض رحمة الله عليه يقول: هو الخوف الدائم في القلب. والثاني: أنها التذكير، فالمعنى أنهم يذعنون الناس إلى الآخرة وإلى عبادة الله تعالى، قاله قتادة. وقرأ نافع: «بخالصة ذكرى الدار»، فأضاف «خالصة» إلى «ذكرى الدار» قال أبو علي: تحتل قراءة من نون وجهين: أحدهما: أن تكون «ذكرى» بدلاً من «خالصة»، والتقدير: أخلصناهم بذكر الدار، والثاني: أن يكون المعنى: أخلصناهم بأن يذكروا الدار بالتأهب للآخرة والزهد في الدنيا. ومن أضاف، فالمعنى: أخلصناهم بإخلاصهم ذكرى الدار بالخوف منها. وقال ابن زيد: أخلصناهم بأفضل ما فيه الجنة^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمُ الْغُلَّاقُ﴾ أي: من الذين اتخذهم الله صفوة فصفاهم من الأدناس ﴿الْغُلَّاقُ﴾ الذين اختارهم. ﴿وَأَذْكُرُ لِمَنْ شَاءَ وَاسْمُ الْكُفْلِ﴾ أي: اذكرهم بفضلهم وصبرهم لئلا تسلك طريقهم. واليسع نبي، واسمه أعجمي معرب، وقد ذكرناه في [الأنعام: ٨٥]، وشرحنا في سورة [الأنبياء: ٨٥] قصة ذي الكفل، وتكلمنا في [البقرة: ١٢٥] في اسم إسماعيل، وزعم مقاتل أن إسماعيل هذا ليس بابن إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرُكُمْ﴾ أي: شرف وثناء جميل يذكرون به أبداً ﴿وَإِنَّ لِلنَّاسِ لَشَيْئاً لَّيُسْنَ مَكَّابَ﴾ أي: حسن مرجع يرجعون إليه في الآخرة. ثم بين ذلك المرجع، فقال: ﴿جَنَّتْ عَدْنِي مُنْقَضَةً لَّهُمُ الْأَكْوَافُ﴾ قال الفراء: إنما رُفعت «الأبواب» لأن المعنى: مفتحة لهم أبوابها، والعرب تجعل الألف واللام خلفاً من الإضافة، فيقولون: مررت على رجلٍ حسن العين، قبيح الأنف، والمعنى: حسنة عينه، قبيح أنفه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْبَيْمِ هِيَ الْأَوَّافُ﴾ [الزعامات: ٣٩] والمعنى: مأواه. وقال الزجاج: المعنى: مفتحة لهم الأبواب منها، فالألف واللام للتعريف، لا للبدل. قال ابن جرير: والفائدة في ذكر تفتيح الأبواب، أن الله ﷻ أخبر عنها أن أبوابها تفتح لهم بغير فتح سكرانها لها بيد، ولكن بالأمر، قال الحسن: هي أبواب تكلم، فتكلم: انفتحت، انغلق.

قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قُورٌ كَرِيمٌ﴾ قد مضى بيانه في [الصافات: ٤٨]. قال الزجاج: والأترب: اللواتي أسنأنهن واحدة وهن في غاية الشباب والحسن.

قوله تعالى: ﴿هَذَا مَا نُوعِدُكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو، وابن كثير بالياء. والباقون بالتاء. قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ الْيَاسَ﴾ اللام بمعنى «في». والثفاد: الانقطاع. قال السدي: كلما أخذ من رزق الجنة شيء، عاد مثله.

﴿هَذَا وَارِثُ الْيَتَامَى لَكَرَّ مَكَّابَ﴾ ﴿جَهَنَّمَ يَسْلَوْنَهَا وَلَقَدْ أَلْهَمْتُ﴾ ﴿هَذَا فَلْيَذوقُوا حَيْثُ وَصَّافُ﴾ ﴿وَأَخَّرَ مِنْ شَكْلِهِ أَرْبَعُ﴾ ﴿هَذَا وَجَّهٌ مُنْقَضٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَا يَوْمَ يَنْهَمُ النَّارُ﴾ ﴿قَالُوا بَلْ أَشْرَ لَا مَرْجَا يَكُونُ أَشْرَ قَدْ مَشَوْا لَكَ يَلَسَ الْفَكَارُ﴾ ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَكَ هَذَا فَرْدَةً عَذَابًا حَقًّا فِي النَّارِ﴾ ﴿وَقَالُوا مَا لَكَ لَا تَرَى بِحَالٍ كُنَّا نَعُدُّكَ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ ﴿أَفَقَدْ نَهَمْتَ سِغَرًا أَمْ رَأَيْتَ عَنْهُمْ الْأَنْصَارَ﴾ ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاسُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَإِنِّي إِلَّا إِلَهُ الْوَيْدِ الْقَهَادُ﴾ ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْفَقْدَرُ﴾

قوله تعالى: ﴿هَذَا﴾ المعنى: هذا الذي ذكرناه ﴿وَإِلَّا لِلْيَتَامَى﴾ يعني للكافرين. ﴿لَكَرَّ مَكَّابَ﴾^(٣)، ثم بين ذلك

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال بالصواب في ذلك على قراءة من قرأه بالتونين أن يقال: معناه: إنا أخلصناهم بخالصة هي ذكرى الدار الآخرة، فعملوا لها في الدنيا فأطاعوا الله وراقبوه. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: أي: هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة، هي التي وعدنا لعباده المتقين الذين يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار. اهـ.

(٣) قال ابن جرير الطبري: يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿هَذَا﴾ الذي وصفت لهؤلاء المتقين، قال: ثم استأنف جل وعز الغبر عن الكافرين به الذين طغوا عليه ونفوا فقال: ﴿وَإِلَّا لِلْيَتَامَى﴾ وهم الذين تمردوا على ربهم فقصوا أمرهم مع إحصائهم إليهم ﴿لَكَرَّ مَكَّابَ﴾، يقول: لشراً مرجع ومصير يصيرون إليه في الآخرة بعد خروجهم من الدنيا. اهـ.

بقوله: ﴿جَهَنَّمَ﴾ والجهاد: الفراش. ﴿هَذَا فَلْيَذُقُوهُ﴾ قال الفراء: في الآية تقديم وتأخير، تقديره: هذا حميمٌ وعَسَاقٌ فَلْيَذُقُوهُ؛ وإن شئت جعلت الحميم مستأنفاً، كأنك قلت: هذا فَلْيَذُقُوهُ، ثم قلت: منه حميمٌ، ومنه عَسَاقٌ، كقول الشاعر:

حَتَّى إِذَا مَا أَضَاءَ الضُّبْحُ فِي غَلَسٍ وَغَوَّزَ الْبَقْلُ مَلَوِيٍّ وَمَخْصُودٍ^(١)

فأما الحميم، فهو الماء الحار. وأما العَسَاق، ففيه لغتان، قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وحفص: بالتشديد، وكذلك في (عم يتساءلون: ٢٥)، تابعهم المفضل في ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، وقرأ الباقون بالتخفيف. وفي العَسَاق أربعة أقوال: أحدها: الزمهرير، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وقال مجاهد: العَسَاق لا يستطيعون أن يذوقوه من برده. والثاني: أنه ما يجري من صديد أهل النار، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال عطية، وقتادة، وابن زيد. والثالث: أن العَسَاق: عَيْنٌ في جهنم يسيل إليها حُمَةٌ كُلُّ ذَاتِ حُمَةٍ من حَيٍّ أو عَرَبٍ أو غيرها، فيستقع، فيؤتى بالآدمي فيُقَمَّس فيها غَمَسَةً، فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام، وَيَجُرُّ لَحْمَهُ جَرَّ الرَّجُلِ ثَوْبَهُ، قاله كعب. والرابع: أنه ما يسيل من دموعهم، قاله السدي. قال أبو عبدة: العَسَاق: ما سال، يقال: عَسَقَتِ العين والجرح. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي عن ابن قتيبة قال: لم يكن أبو عبيدة [يذهب] إلى أن في القرآن شيئاً من غير لغة العرب، وكان يقول: هو اتفاق يقع بين اللغتين، وكان [غيره] يزعم أن العَسَاق: البارد المُنْتِن بلسان الترك. وقيل: فَعَالٌ، من عَسَقَ يُعَسِّقُ؛ فعلى هذا يكون عربياً. وقيل في معناه: إنه الشديد البرد، يخرق من برده. وقيل: هو ما يسيل من جلود أهل النار الصديد^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجُ﴾ قرأ أبو عمرو، والمفضل: «وأخرجُ» بضم الهمزة من غير مدٍّ، فجمعاً لأجل نعتة بالأزواج، وهي جمع. وقرأ الباقون بفتح الالف ومدّه على التوحيد، واحتجوا بأن العرب تنعت الاسم إذا كان فعلاً بالقليل والكثير؛ قال الفراء: تقول: عذابُ فلانٍ ضروبٌ شتى، وضربان مختلفان؛ وإن شئت جعلت الأزواج نعتاً للحميم والفساق والآخر، فهنّ ثلاثة، والأشبه أن تجعله صفة لواحد. وقال الزجاج: من قرأ «وأخرجُ» بالمدّ، فالمعنى: وعذاب آخر «من شكَّله» أي: مثل الأول. ومن قرأ: «وأخرجُ»، فالمعنى: وأنواعٌ آخر، لأن قوله: ﴿أَزْوَاجٌ﴾ بمعنى أنواع. وقال ابن قتيبة: «وَأَخْرَجُ مِنْ شَكْلِهِ» أي: من نحوه، «أَزْوَاجٌ» أي: أصناف. وقال ابن جرير: «مِنْ شَكْلِهِ» أي: من نحوه الحميم. قال ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَخْرَجُ مِنْ شَكْلِهِ﴾: هو الزمهرير. وقال الحسن: لما ذكر الله تعالى العذاب الذي يكون في الدنيا، قال: ﴿وَأَخْرَجُ مِنْ شَكْلِهِ﴾ أي: وأخرج لم ير في الدنيا^(٣).

قوله تعالى: ﴿هَذَا قَوْلُ رَبِّهِ الَّذِي يُتَقَالُ فِي السُّبُحِ وَالْمُحَامِدِ﴾ هذا قول الربانية للقادة المتقدمين في الكفر إذا جاؤوهم بالاتباع. وقيل: بل هو قول الملائكة لأهل النار كلما جاؤوهم بأمة بعد أمة^(٤). والفوج: الجماعة من الناس، وجمعه: أفواج. والمُتَقَالُ: الدّاخل في الشيء رمياً بنفسه. قال ابن السائب: إنهم يُضْرَبُونَ بِالْمَقَامِعِ، فَيُلْقَوْنَ أَنْفُسَهُمْ فِي النَّارِ وَيَتَبَوَّنَ فِيهَا خَوْفاً من تلك المقامع. فلما قالت الملائكة ذلك لأهل النار، قالوا: ﴿لَا مَرَجَ لِيهِمْ﴾، فاتصل الكلام كأنه قول واحد، وإنما الأول من قول الملائكة، والثاني من قول أهل النار؛ وقد بيّنا مثلاً هذا في قوله: ﴿لِيَعْلَمَ أَفٍّ لَمْ أَكُنْهُ بِالْقَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢]. والمَرْحَبُ والرُّحْبُ: السَّعة. والمعنى: لا اتسعت بهم مساكنهم. قال أبو عبيدة: تقول العرب للرجل: لا مَرْحَباً [بك] أي: لا رَحْبَتْ عليك الأرض. وقال ابن قتيبة: معنى قولهم: «مَرْحَباً وأهلاً» أي: آتيت رُحْباً، أي: سعة، وأهلاً، أي: آتيت

(١) البيت من شواهد الفراء، وهو في (معاني القرآن) ١٩٣، و(الطبري) ١٧٦/٢٣، والفلس: ظلام آخر الليل. والمَلَوِيّ: اليابس الذابل.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: هو ما يسيل من صديدهم، قال: لأن ذلك هو الأغلب من معنى السُّوق، وإن كان للأخر وجه صحيح. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ ألوان من العذاب، قال: وقال غيره: كالزمهرير والسموم وشراب الحميم وأكل الرُّؤْم والصدود والهوى، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة، قال: والجميع مما يعدُّون به ويهانون بسببه. اهـ.

(٤) قال ابن كثير: وقوله: ﴿هَذَا قَوْلُ رَبِّهِ الَّذِي يُتَقَالُ فِي السُّبُحِ وَالْمُحَامِدِ﴾ يعني بدل السلام يتلاعنون ويتكادبون ويكفر بعضهم ببعض. تعالى: ﴿لَمَّا كُنْتُ أَهْلًا﴾ يعني بدل السلام يتلاعنون ويتكادبون ويكفر بعضهم ببعض.

أهلاً لا غرباء، فائس ولا تستوحش، وسهلاً، أي: أتيت سهلاً لا حزنًا، وهو في مذهب الدعاء، كما تقول: لقيت خيرًا. قال الزجاج: «ومزجاً» منصوب بقوله: رَحِبْتُ بِلَاذِكْ مَرْجَبًا، وصادفت مَرْجَبًا، فأدخلت «لا» على ذلك المعنى. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سَأَلُوا النَّارَ﴾ أي: داخلوها كما دخلناها، ومقاسون حرها. فأجابهم القوم، ف: ﴿قَالُوا بَلْ أَشْتَرُ لَا مَرْجَبًا بِكَ أَشْتَرُ قَدَسْتَهُ لَنَا﴾. إن قلنا: إن هذا قول الأتباع للرؤساء، فالمعنى: أنتم زينتُم لنا الكفر، وإن قلنا: إنه قول الأئمة المتأخرة للأئمة المتقدمة، فالمعنى: أنتم شرعتم لنا الكفرًا وبدأنتم به قبلنا، فدخلتم النار قبلنا ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾ أي: يشس المُسْتَقَرَّ والمنزل. ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ أي: مَنْ سَنَّهُ وشرعه ﴿فَرِذَّةً عَلَذَاءًا يَنْفِقُ فِي النَّارِ﴾ وقد شرحناه في (الأعراف: ٢٨). وفي القائلين لهذا قولان: أحدهما: أنه قول جميع أهل النار، قاله ابن السائب. والثاني: قول الأتباع. قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ يعني أهل النار ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كَمَا تَدْعُمُ بَيْنَ الْأَشْرَارِ﴾ قال المفسرون: إذا دخلوا النار، نظروا فلم يروا مَنْ كان يخالفهم من المؤمنين، فيقولون ذلك. قال مجاهد: يقول أبو جهل في النار: أين صُهَيْب، أين عتار، أين خباب، أين بلال؟

قوله تعالى: ﴿أَتَذَكَّرُمْ نَحِيرًا﴾ قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «مِنَ الْأَشْرَارِ اتَّخَذْنَاهُمْ» بالوصل على الخبر؛ أي: [إنَّا] اتَّخَذْنَاهُمْ، وهؤلاء يبتدون بكسر الهمزة. وقرأ الباقون بقطع الالف وفتحها على معنى الاستفهام، وهؤلاء يبتدون بفتح الهمزة. وقال الفراء: وهذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ، والمعنى أنهم يؤنبون أنفسهم على ما صنعوا بالمؤمنين. «وسخرنا» يقرأ بضم السين وكسرها. وقد شرحناها في آخر سورة [المؤمنين: ١١٠] «أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ» أي: وهم ممنا في النار ولا نراهم؟ وقال أبو عبيدة: «أم» هاهنا بمعنى «بل».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ﴾ قال الزجاج: [أي]: إن الذي وصفناه عنهم لحق. ثم بين ما هو، فقال: هو «تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ»^(١) وقرأ أبو الجوزاء، وأبو الشعثاء، وأبو عمران، وابن أبي عبيدة: «تَخَاصُمَ» برفع الصاد وفتح الميم، وكسر اللام من «أهل» وقرأ أبو مجلز، وأبو العالية، وأبو المتوكل، وابن السميع: «تَخَاصُمَ أَهْلَ» بفتح الصاد والميم ورفع اللام.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ (٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِاللَّيْلِ الْأَوَّلِ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٩) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَا تَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرٌ مِّنْ طِينٍ (١١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَجِدِينَ (١٢) فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (١٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٤) قَالَ يَا آدَمُ اسْكُنْ مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيدِي أَسْكَنْتُكَ أَثَرًا كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (١٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ ذَلِكَ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٦) قَالَ فَخَرَّجْنَاهُ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (١٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي لَئِنْ بَرَّيْتَنِ (١٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٢٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٢١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٢٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٢٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ (٢٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ يَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٢٥) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ نَبَأَ بَعْدِ جِبْرِ (٢٨)

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ (٧) الباء: الخبر. وفي المشار إليه قولان: أحدهما: أنه القرآن، قاله ابن عباس، ومجاهد، والجمهور. والثاني: أنه البعث بعد الموت، قاله قتادة^(٢)، «أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ» (٨) أي: لا تتفكرون فيه فتعلمون صدقي في نبوتي، وأن ما جئت به من الأخبار عن قصص الماضين لم أعلمه إلا بوحي من الله. ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِاللَّيْلِ الْأَوَّلِ﴾ يعني الملائكة «إِذْ يَخْتَصِمُونَ» في شأن آدم حين قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] والمعنى: إِنِّي ما عَلِمْتُ هذا إلا بوحي، «إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ» أي: ما يوحى إليّ «إِلَّا أَنَا تَذِيرٌ»

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (٢٦) أي: إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض، ولعن بعضهم لبعض، لَحَقٌّ لا مرة فيه ولا شك. اهـ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لقومك المكليين فيما جنتهم به من عند الله من هذا القرآن القائلين لك فيه: إن هذا إلا اختلاق: ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ يقول: هذا القرآن خبر عظيم. اهـ.

[أي]: **إِلَّا أَنِّي نَبِيٌّ أُنْزِلَ لَكُمْ وَأُبَيِّنْ لَكُمْ مَا تَأْتُونَهُ وَتَجْتَنِبُونَهُ^(١)**. ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ هذا متصل بقوله: «يَخْتَصِمُونَ»، وإنما اعترضت تلك الآية بينهما. قال ابن عباس: اختصموا حين شُوروا في خَلْقِ آدَمَ، فقال الله لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وهذه الخصومة منهم إنما كانت مُنَاطَرَةً بينهم. وفي مُنَاطَرَتِهِمْ قولان: أحدهما: أنه قولهم: ﴿أَجْعَلْ فِيهَا مَنْ يُشِيدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أنهم قالوا: لَنْ يَخْلُقَ اللهُ خَلْقًا إِلَّا كُنَّا أَكْرَمَ مِنْهُ وَأَعْلَمَ، قاله الحسن؛ هذا قول الأكثر من المفسرين. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «رَأَيْتُ رَبِّي ﷻ، فقال لي: يَمِمْ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قلت: أَنْتَ أَعْلَمُ يَا رَبِّ، قال: فِي الْكُفَّارَاتِ وَالدرجاتِ، فَأَمَّا الْكُفَّارَاتِ، فَلِإِسْبَاغِ الْوُضُوءِ فِي السَّيَرَاتِ^(٢)، وَنَقْلِ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَانْتِظَارِ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ. وَأَمَّا الدَّرَجَاتِ، فَأَفْشَاءُ السَّلَامِ، وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسِ نِيَامًا^(٣)».

قوله تعالى: ﴿لَسْتَ كَبِيرٌ﴾ أي: اسْتَكْبَرْتَ بِنَفْسِكَ حِينَ أُبَيِّنْتَ السُّجُودَ ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: من قوم يتكبرون؟ فَتَكَبَّرْتَ عَنِ السُّجُودِ لِكَوْنِكَ مِنْ قَوْمٍ يَتَكَبَّرُونَ!

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: مرجومٌ بِالذَّمِّ وَاللَّعْنِ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْوَعْدِ أَكْثَرُ عِلَافًا﴾ وهو وقت النَّفْثَةِ الْأُولَى، وهو حين موت الخلائق. وقوله: ﴿فَمِعْرَافٌ﴾ يعين بمعنى: فَوْعِرَافٌ. وما أَخْلَلْنَا بِهِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ فَهِيَ مَذْكُورٌ فِي [الأعراف: ١٢] و[الحجر: ٣٤] وغيرهما مما تقدم.

(١) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿مَا كَانَ لِي بِهِ خِلَافٌ أَبَدًا﴾ يقول لنبية محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك: ﴿مَا كَانَ لِي بِهِ خِلَافٌ أَبَدًا﴾ فِي شَأْنِ آدَمَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَوْحِيَ إِلَيَّ رَبِّي فَيُعَلِّمَنِي ذَلِكَ، يقول: ففي إخباري لكم عن ذلك دليل واضح على أن هذا القرآن وحى من الله، وتنزيل من عنده، لأنكم تعلمون أن علم ذلك لم يكن عندي قبل نزول هذا القرآن، ولا هو مما شاهدته فعايته، ولكنني علمت ذلك بأخبار الله إياي به. اهـ.

(٢) السَّيَرَاتِ: جمع سيرة يسكون الباء، وهي الغداة الباردة.

(٣) لهذا الحديث طرق متعددة، وروايات مختلفة ذكرها السيوطي في «الدرر» ٣١٩/٥ - ٣٢٠، وقد رواه أحمد في «المسند» ٢٤٣/٥ مطولاً من حديث عبد الرحمن بن عياش الحضرمي عن مالك بن يخامر أن معاذ بن جبل ﷺ قال: احتسب علينا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نترامى قرن الشمس، فخرج رسول الله ﷺ سريعاً، فثوب بالصلاة وصلى وتجوَّزَ في صلاته، فلما سلم قال: «كما أنتم على مصالحتكم»، ثم أقبل إلينا فقال: «إِنِّي سَأَلْتُكُمْ مَا حَسْبِي عِنْدَ الْغَدَاةِ، إِنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّيْتُ مَا قَدَّرَ لِي، فَتَعَسَّتُ فِي صَلَاتِي حَتَّى اسْتَقِفْتُ، فَإِنَّمَا أَنَا بِرَبِّي ﷻ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قلت: لَا أَدْرِي يَا رَبِّ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قلت: لَا أَدْرِي يَا رَبِّ، فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفِي حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ صَدْرِي، فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ، وَعُرِفْتُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قلت: فِي الْكُفَّارَاتِ، قَالَ: وَمَا الْكُفَّارَاتُ؟ قلت: نَقْلُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَجُلُوسٌ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عِنْدَ الْكُرْهِيَاتِ، قَالَ: وَمَا الدَّرَجَاتُ؟ قلت: إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَلَبِنُ الْكَلَامِ، وَالصَّلَاةُ وَالنَّاسِ نِيَامًا، قَالَ: سَلِّ، قلت: اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسْكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ قِتَّةً فِي قَوْمٍ تَوَفَّنِي غَيْرَ مَقْتُولٍ، وَأَسْأَلُكَ حَيْكَ وَحُبَّ مَنْ يَحْبُكَ وَحُبَّ عَمَلٍ يَظْرُقُنِي إِلَى حَبْكِ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهَا حَقٌّ فَادْرُسُوهَا وَتَعْلَمُوهَا»، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: فَهُوَ حَدِيثُ الْمَنَامِ الْمَشْهُورِ، قَالَ: وَمَنْ جَعَلَهُ يَقْطَعَةً، فَقَدْ غَلَطَ، قَالَ: وَهُوَ فِي «السَّنَنِ» مِنْ طَرُقٍ، قَالَ: وَهَذَا الْحَدِيثُ بَعِيْثُهُ قَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ جَهْظَمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْيَمَامِيِّ بِهِ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، قَالَ: وَلَيْسَ هَذَا الْاِخْتِصَامُ هُوَ الْاِخْتِصَامُ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ، فَإِنَّ هَذَا قَدْ نُشِرَ، وَأَمَّا الْاِخْتِصَامُ الَّذِي فِي الْقُرْآنِ، فَقَدْ نُشِرَ بَعْدَ هَذَا، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِ الْاِخْتِصَامُ إِنِّي خَلِّقُ بَنِينَ لِيُؤْتِيَكَ سُوْرَتُهُمْ رَفَعْتُ فَيَوْمَ رُؤُوسٍ فَتَقَرَّأَ لَمْ سَكِينٌ ۝ سَجَدَ لِلْمَلَائِكَةِ كُلِّمَهُمْ أَمْرًا ۝ إِلَّا إِلَيسَ اسْتَكْبَرَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝ كَانَ يُجَاهِدُ مَا اسْتَكْبَرَهُ أَنْ تَقْبَلَ لِمَا كُنْتُ يَدْعُو...﴾ [الآيات]. اهـ. وقد شرح هذا الحديث الحافظ ابن رجب الحنبلي في رسالة سماها «اختيار الأولى» في شرح حديث اختصاص الملا الأعلى، وقال عنه بعد ما ذكره من رواية أحمد في «المسند» عن معاذ بن جبل ﷺ: وخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، قال (يعني الترمذي): وسألت محمد بن إسماعيل البخاري عن هذا؟ فقال: هذا حديث حسن صحيح. قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: قلت: وفي إسناد اختلاف، وله طرق متعددة، وفي بعضها زيادة، وفي بعضها نقصان، ثم قال: ففي الحديث دلالة على أن النبي ﷺ لم يكن من عادته تأخير صلاة الصبح إلى قريب طلوع الشمس، وإنما كانت عادته التغلب بها، وكان أحياناً يسفر بها عند انتشار الضوء على وجه الأرض، قال: وأما تأخيرها إلى قريب طلوع الشمس، فلم يكن من عادته، قال: ولهذا اعتدل لهم عنه في هذا الحديث، قال: وفي الحديث دلالة على أن من أخر الصلاة إلى آخر الوقت لعجز أو غيره، وخاف خروج الوقت في الصلاة إن طوَّلها، أن يخفُّها حتى يدركها كلها في الوقت، قال: وفي حديث معاذ دليل على أن من رأى رؤيا تسره، فإنه يقبضها على أصحابه وإخوانه المحبين له، ولا سيما إن تضمنت رؤياه بشاراً لهم وتعلماً لما ينفعهم، قال: وقد كان النبي ﷺ إذا صلى الفجر يقول لأصحابه: «من رأى منكم الليلة رؤيا...»، قال: وفيه أيضاً أن من استقبل نومه في تهجده بالليل حتى رأى رؤيا تسره، فإن في ذلك بشرى له، قال: وفيه دلالة على أن الملا الأعلى وهم الملائكة أو المقربون منهم يختصمون فيما بينهم ويتراجعون القول في الأعمال التي تقرب بني آدم إلى الله ﷻ وتكفر بها عنهم خطاياهم... إلى غير ما هنالك من الفوائد، ومن أراد الزيادة، فليرجع إلى رسالته «اختيار الأولى» في شرح حديث اختصاص الملا الأعلى، فإنها ثمينة في هذا الباب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ (٨١) قرأ عاصم إلا حسنون عن هبيرة، وحمزة، وخلف، وزيد عن يعقوب: «فالْحَقُّ» بالرفع في الأول ونصب الثاني، وهذا مروى عن ابن عباس، ومجاهد؛ قال ابن عباس في معناه: فانا الحقُّ وأقولُ الحقُّ؛ وقال غيره: خير الحقُّ محذوف، تقديره: الحقُّ مِنِّي. وقرأ محبوب عن أبي عمرو بالرفع فيهما؛ قال الزجاج: من رفعهما جميعاً، كان المعنى: فانا الحقُّ والحقُّ أقولُ. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: بالنصب فيهما. قال الفراء: وهو على معنى قولك: حَقًّا لَا يَتَيْنُكَ، ووجودُ الألف واللام وطرحهما سواء، وهو بمنزلة قولك: حمداً لله. وقال مكِّي بن أبي طالب: انتصب الحق الأول على الإغراء، أي: اتَّبِعُوا الْحَقَّ، واسْمَعُوا وَالزَّمُوا الْحَقَّ. وقيل: هو نصب على الْقَسَم، كما تقول: الله لَا فَعَلَنْ، فَتَنْصِبُ حينَ حَذَفْتَ الْجَارَ، لأن تقديره: فبالْحَقِّ؛ فَاَمَّا الْحَقُّ الثَّانِي، فيجوز أن يكون الأول، وكَرَّرَهُ توكيداً، ويجوز أن يكون منصوباً بـ «أقولُ» كأنه قال: وأقولُ الحقُّ. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو رجاء، ومعاذ القارئ، [والأعمش]: «فالْحَقُّ» بكسر القاف «والْحَقُّ» بنصبها. وقرأ أبو عمران [الجوني] بكسر القافين جميعاً. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وأبو نهيك: «فالْحَقُّ» بالنصب «والْحَقُّ» بالرفع.

قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ﴾ أي: مِنْ نَفْسِكَ وَذُرِّيَّتِكَ. ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: على تبليغ الوحي ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ أي: لم أتكلف إتيانكم من قِبَلِ نَفْسِي، إنما أمرتُ أن أتيتكم، ولم أَقُلْ القرآنَ من تلقاء نفسي، إنما أوحى إليَّ^(١). ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ﴾ يعني القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي: موعظة ﴿لِلْمُتَذَكِّرِينَ﴾. ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ﴾ يا معاشِرَ الْكُفَّارِ ﴿تَبَّأُ﴾ أي: خبر صدق القرآن ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: بعد الموت. والثاني: يوم القيامة^(٢)، روى عن ابن عباس، وبالأول يقول قتادة، وبالثاني يقول عكرمة. والثالث: يوم بدر، قاله السدي، ومقاتل. وقال ابن السائب: من بقي إلى أن ظَهَرَ أمرُ رسول الله ﷺ عَلِمَ ذلك، ومن مات عَلِمَهُ بعد الموت. وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولا وجه لذلك.



(١) قال ابن كثير: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ أي: وما أزيد على ما أرسلني الله تعالى به ولا أبتغي زيادة عليه، بل ما أمرت به أدبته، لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله ﷻ والدار الآخرة، قال: قال سفيان الثوري عن الأعمش ومنصور عن أبي الضحى عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود ﷺ فقال: يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله ﷻ قال لنبيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ (٨١) قال: أخرجه من حديث الأعمش به. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: ولا منافاة بين القولين، فإن من مات فقد دخل في حكم القيامة، قال: وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ تَبَّأُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (٨٢) قال الحسن: يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين. اهـ.

سورة الزمر

وتسمى سورة الغُرف

فصل في نزولها

روى العوفي وابن أبي طلحة عن ابن عباس أنها مَكِّيَّة، وبه قال الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وجابر بن زيد. وروي عن ابن عباس أنه قال: فيها آيتان نزلتا بالمدينة: قوله: ﴿اللَّهُ زَلَّ الْحَدِيثَ﴾ [الزمر: ٢٣] قوله: ﴿يَكِيدَ الَّذِينَ أَشْرَفُوا﴾ [الزمر: ٥٣]. وقال مقاتل: فيها من المدني ﴿قُلْ يَكِيدَ الَّذِينَ الَّذِينَ أَشْرَفُوا...﴾ الآية [الزمر: ٥٣]، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [الزمر: ١٠]. وفي رواية أخرى عنه قال: فيها آيتان مدينتان ﴿يَكِيدَ الَّذِينَ الَّذِينَ أَشْرَفُوا﴾ [الزمر: ٥٣] وقوله: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَتَقُوا رَبَّكُمْ﴾^(١) [الزمر: ١٠]. وقال بعض السلف: فيها ثلاث آيات مدينتان ﴿قُلْ يَكِيدَ الَّذِينَ الَّذِينَ أَشْرَفُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنشُرْ لَا تَعْمُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣ - ٥٥].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ① إِنْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ② أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ③ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ④ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ⑤ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَلَىٰ بِمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ⑥

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ﴾ قال الزجاج: الكتاب هاهنا القرآن، ورفع «تنزيل» من وجهين: أحدهما: الابتداء، ويكون الخبر ﴿مِنَ اللَّهِ﴾، فالمعنى: نزل من عند الله. والثاني: على إضمار: هذا تنزيل الكتاب؛ و﴿مُخْلِصًا﴾ منصوب على الحال؛ فالمعنى: فاعبد الله موحدًا لا تُشْرِكْ به شيئاً.

قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ يعني: الخالص من الشُّرك، وما سواه ليس بدين الله الذي أمر به؛ [وقيل: المعنى: لا يَسْتَحِقُّ الدِّينَ الْخَالِصَ إِلَّا اللَّهُ. وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ] يعني آلهة، ويدخل في هؤلاء اليهود حين قالوا: ﴿عِزُّ رَبِّي أَكْبَرُ﴾ والنصارى لقولهم: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وجميع عُبَاد الأصنام، ويدلُّ عليه قوله بعد ذلك: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [الزمر: ٤].

قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ أي: يقولون ما نعبدهم ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أي: لِيَسْقِفُونَا لَنَا إِلَى اللَّهِ. والزُّلْفَى: القُرْبَى، وهو اسم أقيم مقام المصدر، فكانه قال: إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ تَقْرِيبًا. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين أهل الأديان فيما كانوا يختلفون فيه من أمر الدِّين. وذهب قوم إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولا وجه لذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لا يُرْشِدُ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ. في قوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ، أي: كافر بآخِذًا آلهة، وهذا إخبار عما سبق عليه القضاء بحرمان الهداية^(٢). ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [أي: على ما يزعم من ينسب ذلك إلى الله ﴿لَاصْطَلَىٰ﴾ أي: لا اختار ممَّا يخلق. قال مقاتل: أي: من الملائكة^(٣).

(١) قال في «إتحاف فضلاء البشر»: وانتفوا على حلف الباء من ﴿يَكِيدَ الَّذِينَ الَّذِينَ أَشْرَفُوا﴾ إِلَّا مَا انفرد به أبو العلاء عن رويس من إثباتها وقفًا، فخالف سائر الناس كما مر في المرسوم.

(٢) قال ابن كثير: وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لا يرشد إلى الهداية من قصد الكذب والافتراء على الله تعالى وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَلَىٰ بِمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: لكان الأمر على خلاف ما يزعمون، قال: وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، قال: وإنما قصد تجهيلهم فيما ادَّعَوْه وزعموه، كما قال ﴿لَوْ أَرَادَ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَلَىٰ بِمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [أي: على ما يزعم من ينسب ذلك إلى الله ﴿لَاصْطَلَىٰ﴾ أي: لا اختار ممَّا يخلق. قال: ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لمقصد المتكلم. اهـ.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ إِلَيْكَ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ اللَّيْلُ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْفَعْلُ ⑤﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [أي]: لم يخلقهما لغير شيء. ﴿يَكُونُ إِلَيْكَ عَلَى النَّهَارِ﴾ قال أبو عبيدة: يُدْخِلُ هذا على هذا. قال ابن قتيبة: وأصل التَّكْوِين: اللَّفْثُ، ومنه كَوْنُ العِمَامَةِ. وقال غيره: التَّكْوِينُ: طَرُحُ الشيء بعضه على بعض. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: ذَلَّلَهُمَا لِلسَّيْرِ عَلَى مَا أَرَادَ ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى الأجل الذي وَفَّتَ الله للذُّنْيَا. وقد شرحنا معنى العزيز في [البقرة: ١٢٩] ومعنى الغفار في [طه: ٨٢].

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَارْتَلَّ لَكُمْ مِنْ الْأَنْثَرِ نَسَبًا أَرْوَجُ بَخْلَقَكُمْ فِي بَطُونٍ أَمْهَنَكُمْ خَلَقًا مِنْ بَدِيدٍ خَلَقَ فِي ظُلُمَاتٍ تَلَكُّمُ اللَّهِ رَيْبُكُمْ لَهُ الْمَلَأَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْ تُصَرِّفُونَ ⑥﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني آدم ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: قَبْلَ خَلْقِكُمْ جعل منها زوجها، لأنَّ حَوَاءَ خُلِقَتْ قَبْلَ الذَّرِيَّةِ، ومثله في الكلام أن تقول: قد أعطيتك اليوم شيئاً، ثُمَّ الذي أعطيتك أمس أكثر؛ هذا اختيار الفراء. وقال غيره: ثم أخبركم أنه خلق منها زوجها ﴿وَارْتَلَّ لَكُمْ مِنَ الْأَنْثَرِ﴾ أي: خَلَقَ ﴿نَسَبًا أَرْوَجُ﴾، وقد بيَّناها في سورة [الأنعام: ١٤٣]. ﴿خَلَقًا مِنْ بَدِيدٍ﴾ أي: نَفْطًا ثُمَّ عَلَقًا ثُمَّ مَضْغًا ثُمَّ عَظْماً ثُمَّ لَحْماً ثُمَّ أَنْبَتَ الشَّعْرَ، إلى غير ذلك من تقلُّب الأحوال إلى إخراج الأطفال، هذا قول الجمهور. وقال ابن زيد: خَلَقًا فِي الْبُطُونِ مِنْ بَدِيدٍ خَلَقَكُمْ فِي ظَهْرِ آدَمَ.

قوله تعالى: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ تَلَكُّمُ اللَّهِ﴾ ظُلْمَةُ الْبَطْنِ، وَظُلْمَةُ الرَّجَمِ، وَظُلْمَةُ الْمَشِيمَةِ^(١)، قاله الجمهور، وابن زيد معهم. وقال أبو عبيدة: إنها ظُلْمَةُ صُلْبِ الْآبِ، وَظُلْمَةُ بَطْنِ الْمَرَاةِ، وَظُلْمَةُ الرَّجَمِ.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ تُصَرِّفُونَ﴾ أي: من أين تُصَرِّفُونَ عن طريق الحق بعد هذا البيان؟!

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑦﴾

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ عَنكُمْ﴾ أي: عن إيمانكم وعبادتكم ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يرضاه للمؤمنين، قاله ابن عباس. والثاني: لا يرضاه لأحد وإن وقع بإرادته، وفرق بين الإرادة والرِّضَا، وقد أشرنا إلى هذا في [البقرة: ٢٠٥] عند قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقَ﴾. ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يرضى ذلك الشكر لكم^(٢)، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما في القلوب.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُبِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسِيَ مَا كَانَ يُدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ⑧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: في عتبة بن ربيعة، قاله عطاء. والثاني: في أبي حذيفة بن المغيرة، قاله مقاتل^(٣). والضَّرُّ: البلاء والشَّدَّة. ﴿مُبِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي: راجعاً إليه من شركه. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ﴾ أي: أعطاه وملَّكه ﴿نِعْمَةً مِنْهُ﴾ بعد البلاء الذي أصابه، كَالصَّحَّةِ بعد المرض، والغنى بعد الفقر ﴿نِسِيَ﴾ أي: ترك ما كان يدعو إليه، وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: نسي الدُّعَاءَ الذي كان يتضرَّع به إلى الله تعالى. والثاني: نَسِيَ الضَّرَّ الذي [كان] يدعو [الله] إلى كُشْفِهِ. والثالث: نَسِيَ الله الذي [كان] يتضرَّع إليه. قال الزجاج: وقد تَذَلَّ «ما» على الله ﷻ، كقوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑨﴾ [الكاغرون: ٣]. وقال الفراء: تَرَكَ ما كان يدعو إليه. وقد سبق معنى الأنداد [البقرة: ٢٢] ومعنى ﴿يُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٩].

(١) المشيمة وزان كريمة: غشاء ولد الإنسان، وقال ابن الأعرابي: يقال لما يكون فيه الوليد: المشيمة والكيس والغلاف.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ يقول: وإن تؤمنوا بربكم وتطيعوه يرضى شكركم له، وذلك هو إيمانهم به وطاعتهم إياه، فكنى عن الشكر ولم يُدْخِلْ، وإنما ذُكِرَ الفعل الدال عليه، وذلك نظير قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَبَلُوا لَكُمْ فَاغْتُزِمُوا فَادَّبَهُمُ رَبُّهُمْ﴾ [يونس: ٩٨] فزادهم قول الناس لهم ذلك إيماناً. اهـ.

(٣) ذكر سبب النزول هذا: البغوي والخازن بدون سند.

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَسْمَعُ بِكَفَرِكُمْ﴾ لفظه لفظ الأمر ومعناه التهديد، ومثله: ﴿فَتَسْمَعُوا قَسْوَتَ قَلْمُونٍ﴾ [النحل: ٥٥].
 ﴿أَمَنْ هُوَ قَيْتٌ مَائَةً أَيْلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْدُرُ الْآخِرَةَ وَرَجُلًا رَحِمَةً رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمْلِكُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَنْدَكُرُ
 أُولُو الْأَلْبَابِ ١﴾ قُلْ يَبْعَادُ الَّذِينَ آمَنُوا الْفُؤَا رِيكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يَوْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ
 بِغَيْرِ حِسَابٍ ٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَيْتٌ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وحزمة، وأبو جعفر، والمفضل عن عاصم، وزيد عن يعقوب: «أَمَنْ» بالتخفيف، وقرأ الباقون: بالتشديد. فاما المشددة، فمعناها: هذا الذي ذكرنا خير، أَمَنْ هُوَ قَانَتْ؟ والأصل في «أَمَنْ»: أَمَ مَنْ، فأدغمت اليم في الميم. وأما المخففة، ففي تقديرها ثلاثة أوجه: أحدها: أنها بمعنى النداء. قال الفراء: فسرها الذين قرؤوا بها فقالوا: يا مَنْ هُوَ قَانَتْ، وهو وجه حسن، والعرب تدعو بالالف كما تدعو بياء، فيقولون: يا زيد أَقْبِلْ، و: أَزِيدُ أَقْبِلْ، فيكون المعنى: أنه ذَكَرَ النَّاسِي الكافر، ثم قَصَّ قِصَّةَ الصَّالِح بالنداء، كما تقول: فلان لا يصوم ولا يصلي، فيا مَنْ يصوم أبشِرْ. والثاني: أن تقديرها: أَمَنْ هُوَ قَانَتْ كمن ليس بقانت؟ والثالث: أَمَنْ هُوَ قانت كمن جعل الله أندادا؟ وقد ذكرنا معنى القنوت في [البقرة: ١٩٦]. ومعنى «مَائَةً أَيْلٍ»

في [آل عمران: ١١٣].

قوله تعالى: ﴿سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ يعني في الصلاة^(١). وفيمن نزلت فيه هذه الآية خمسة أقوال: أحدها: أنه أبو بكر الصديق، رواه عطاء عن ابن عباس^(٢). والثاني: عثمان بن عفان، قاله ابن عمر^(٣). والثالث: عمار بن ياسر، قاله مقاتل^(٤). والرابع: ابن مسعود، وعمار، وصهيب، وأبو ذر، قاله ابن السائب^(٥). والخامس: أنه رسول الله ﷺ، حكاه يحيى بن سلام^(٦).

قوله تعالى: ﴿يَحْدُرُ الْآخِرَةَ﴾ أي: عذاب الآخرة. وقد قرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، وابن عباس، وعروة، وسعيد بن جبيرة، وأبو رجاء، وأبو عمران: «يَحْدُرُ عَذَابَ الْآخِرَةِ» بزيادة «عذاب». «وَرَجُلًا رَحِمَةً رَبِّهِ» فيها قولان: أحدهما: أنها المغفرة، قاله ابن السائب. والثاني: الجنة، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمْلِكُونَ أَنَّا مَا وَعَدَ اللَّهُ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ حَقٌّ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ؟ وَبِاتِي الْآيَةَ قَدْ تَقَدَّمَ فِي [الرعد: ١٩]^(٧)، وكذلك قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قد تقدم في [النحل: ٢٣٠]. وفي قوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾ قولان: أحدهما: أنه حَتَّ لهم على الهجرة من مكة إلى حيث يأمنون. والثاني: أنها أرض الجنة رغبهم فيها. «إِنَّمَا يَوْفَى الصَّابِرُونَ» الذين صبروا لأجل الله تعالى على ما نالهم «بِغَيْرِ حِسَابٍ» أي: يُعْطَوْنَ عِظَاءً كَثِيرًا أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يُحْسَبَ وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ، لا على قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ.

(١) قال ابن كثير: يقول ﷺ: أَمَنْ هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أندادا؟ لا يستون عند الله، كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً بَيْنَ أَمَلٍ الْكِتَابِ أَنَّهُ قَاهِيَةٌ يَمْلِكُونَ مَالِكِي اللَّهِ مَائَةً أَيْلٍ وَهَمْ يَسْتَجِدُونَ ١﴾ وقال تبارك وتعالى هاهنا: ﴿أَمَنْ هُوَ قَيْتٌ مَائَةً أَيْلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ أي: في حال سجوده وفي حال قيامه، ولهذا استدلل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة، ليس هو القيام وحده كما ذهب إليه آخرون. اهـ.

(٢) الراحدي في «أسباب النزول»، والبغوي في «الخصير» بدون سند.
 (٣) قال السيوطي في «الدرر» ٣٢٣/٥: أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم في «الحلية»، وابن عساكر عن ابن عمر ﷺ أنه تلا هذه الآية: ﴿أَمَنْ هُوَ قَيْتٌ مَائَةً أَيْلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْدُرُ الْآخِرَةَ وَرَجُلًا رَحِمَةً رَبِّهِ ١﴾ الآية، قال: ذاك عثمان بن عفان، وفي لفظ: نزلت في عثمان بن عفان. وذكر سبب النزول هذا الراحدي والبغوي والخازن عن ابن عمر بدون سند.

(٤) الراحدي في «أسباب النزول» عن مقاتل بدون سند، وقال السيوطي في «الدرر» ٣٢٣/٥: أخرج ابن سعد في «طبقاته»، وابن مردويه عن ابن عباس ﷺ في قوله: ﴿أَمَنْ هُوَ قَيْتٌ مَائَةً أَيْلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ قال: نزلت في عمار بن ياسر.

(٥) قال السيوطي في «الدرر» ٣٢٣/٥: أخرج جوير عن ابن عباس ﷺ قال: نزلت هذه الآية في ابن مسعود، وعمار، وسالم مولى حليفه ﷺ. وذكر البغوي عن الكلبي بدون سند أنها نزلت في ابن مسعود وعمار وسلمان. وذكر الآلوسي عن مقاتل بدون سند أن المراد بمن هو قانت: عمار وصهيب وابن مسعود وأبو ذر.

(٦) ذكره الآلوسي عن يحيى بن سلام بدون سند. والآية عامة في كل من اتصف بما تقدم.

(٧) قال ابن كثير: أي: هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل الله أندادا ليعضل عن سبيله ﴿إِنَّمَا يَنْدَكُرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل، والله أعلم. اهـ.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۚ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۚ﴾ قُلْ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْمَكِيدِينَ ﴿١١﴾ قُلْ اللَّهُ أَفْعَدُّ مَخْلَصًا لَمْ يَبْنِ قَاعِبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنِّي لَفَرِحْتُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَاهْلَكُوا بِمِصْرَ الْفِتْنَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْمَسْرُورُ عَلَيْهِ ۖ لَمْ يَنْ يَنْ قَوْمَهُمْ ظُلْمًا مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلْمٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يَكِيدُوا فَاقْتُولُوا ۖ وَالَّذِينَ لَبِثُوا الْكُفْرَ أَنْ يَسْتَبَدُّوا وَلَقَدْ آتَيْنَا آلَ فِرْعَوْنَ الْوَحْيَ فَيَتَّبِعُونَ الْحَقَّ فَيسْمِعُونَ ۚ وَالَّذِينَ يَسْمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أَزْوَاجُ الْأَنْبِيَاءِ ۚ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ﴾ قال مقاتل: وذلك أن كُفَّار قريش قالوا لرسول الله ﷺ: ما حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي آتَيْنَا بِهِ؟! أَلَا نَنْتَظِرُ إِلَى مِلَّةِ آبَائِكَ فَتَأْخُذَ بِهَا؟ فنزلت هذه الآية (١١)؛ والمعنى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۚ﴾ أي: أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَهُ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ السَّالِمِ مِنَ الشِّرْكِ، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۚ﴾ من هذه الأُمَّة. ﴿قُلْ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْمَكِيدِينَ﴾ بالرجوع إلى دين آبائي ﴿عَلَّابَ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ وقد اختلفوا في نسخ هذه الآية كما بيَّنا في نظيرتها في [الأنعام: ١٥]. ﴿قُلْ اللَّهُ أَفْعَدُّ مَخْلَصًا لَمْ يَبْنِ قَاعِبُدُوا مَا شِئْتُمْ﴾، وهذا تهديد، وبعضهم يقول: هو منسوخ بآية السيف، وهذا باطل، لأنه لو كان أمراً، كان منسوخاً، فأما أن يكون بمعنى الوعيد، فلا وجه لِنَسْخِهِ. ﴿قُلْ إِنِّي لَفَرِحْتُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بأن صاروا إلى النار ﴿و﴾ خسروا ﴿أهلهم﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم خسروا الحُورَ العين اللواتي أُغْوِدْنَ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ لَوْ أَطَاعُوا، قاله الحسن، وقناة. والثاني: خسروا الأهل في النَّارِ، إذ لا أهل لهم فيها، قاله مجاهد، وابن زيد. والثالث: خسروا أهلهم الذين كانوا في الدنيا، إذ صاروا إلى النار بكُفْرِهِمْ، وصار أهلهم إلى الْجَنَّةِ بإيمانهم، قاله الماوردي.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَنْ يَنْ قَوْمَهُمْ ظُلْمًا مِّنَ النَّارِ﴾ وهي الأطباق من النار. وإنما قال: ﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلْمٌ﴾ لأنَّهَا ظُلْمٌ لِمَنْ تَحْتَهُمْ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي وصف الله من العذاب ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَبِثُوا الْكُفْرَ﴾ روى ابن زيد عن أبيه أن هذه الآية والتي بعدها نزلت في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يوحّدون الله تعالى: زيد بن عمرو بن نُقَيْل، وأبي ذَرٍّ، وسلمان الفارسي، رضي الله عنهم (٢)؛ قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ بغير كتاب ولا نبي. وفي المراد بالطاغوت هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: الشياطين، قاله مجاهد. والثاني: الكهنة، قاله ابن السائب. والثالث: الأوثان، قاله مقاتل، فعلى قول مقاتل هذا (٣)؛ إنما قال: «يعبدوها» لأنها مؤنثة. وقال الأخفش: إنما قال: «يعبدوها» لأن الطاغوت في معنى جماعة، وإن شئت جعلته واحداً مؤنثاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا آلَ فِرْعَوْنَ الْوَحْيَ فَيَتَّبِعُونَ الْحَقَّ فَيسْمِعُونَ﴾ أي: رجعوا إليه بالطاعة ﴿لَمْ يَبْنِ قَاعِبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ بالجنة ﴿فَبَشَّرْنَا عِبَادِي﴾ ببياء، وحرّك الياء أبو عمرو. ثم نعتهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَسْمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: [أنه] القرآن، قاله الجمهور. فعلى هذا، في معنى ﴿فَيَسْمِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أقوال قد شرحناها في [الأعراف: ١٤٥] عند قوله: ﴿وَأُمِرْتُ قَوْمَكَ بِأَخْذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾. والثاني: أنه جميع الكلام. ثم في المعنى قولان: أحدهما: [أنه الرَّجُلُ] يجلس مع القوم فيسمع كلامهم، فيعمل بالمحاسن ويحذّر بها، ويكفّ عن المساوئ ولا يظهرها، قاله ابن السائب. والثاني: [أنه] لما ادّعى مسيلمة أنه قد أتى بقرآن، وأتت الكهنة بالكلام المزخرف في الأباطيل، فرّق المؤمنون بين ذلك وبين كلام الله، فاتّبعوا كلام الله، ورفضوا أباطيل أولئك، قاله أبو سليمان الدمشقي (٤).

﴿أَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كِتَابُ الْعَذَابِ فَأَتَى تُؤَدَّ مِنْ فِي النَّارِ ۚ لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَوْا رَّبَّهُمْ لَمْ يَرْوُفْ مِنْ قَوْمِهَا عَرَفَ مَنِيَّةَ نَجْوَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلُفُ اللَّهُ الْوَعْدَ ۚ﴾

(١) ذكر سبب النزول هذا الخازن في «التفسير» بدون سند.

(٢) «الطبري» ٢٠٧/٢٣ عن زيد بن أسلم. وأورده السيوطي في «الدر» ٣٢٤/٥ من رواية ابن جرير، وزاد نسبه لابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم. وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢١٠ عن عبد الرحمن بن زيد بدون سند، وكذلك ذكر ابن كثير سبب النزول هذا عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بدون سند، ثم قال: والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان وأتاب إلى عبادة الرحمن، فهؤلاء هم الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة. اهـ.

(٣) عبارة الأصل: فعلى هذا قول مقاتل.

(٤) لم يذكر المصنف سوى قولين، ولعله اكتفى بهما عن القول الثالث.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ قال ابن عباس: سبق في علم الله أنه في النار. فإن قيل: كيف اجتمع في هذه الآية استفهامان بلا جواب؟ قيل: أما الفراء، فإنه يقول: هذا مما يُراد به استفهام واحد، فسبق الاستفهام إلى غير موضعه فَرَدَّ إلى موضعه الذي هو له، فيكون المعنى: أفأنت تُثَقِّدُ مَنْ في النار مَنْ حَقَّتْ عليه كلمة العذاب؟ ومثله: ﴿أَيُّدْرِكُ أَكْثَرُ إِذَا يَشْمُ وَكَثُرَ تَرْكَا وَعَظَلْنَا أَكْثَرَ مَخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥] فَرَدَّ «أَنْتُمْ» مرتين، والمعنى: أَيْدْرِكُكُمْ أَنْكُمْ مَخْرَجُونَ إِذَا يَشْمُ؟ ومثله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَاكُمْ﴾ ثم قال: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٨] فَرَدَّ «تَحْسَبَنَّ» مرتين، والمعنى: لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بمفازة من العذاب. وقال الزجاج: يجوز أن يكون في الكلام محذوف، تقديره: أفمن حَقَّ عليه كلمة العذاب فيتحلَّص منه أو ينجو، أفأنت تتقذه؟ قال المفسرون: أفأنت تخلصه مما قُدِّرَ له فتجعله مؤمناً؟ والمعنى: ما تقدر على ذلك. قال عطاء: يريد بهذه الآية أبا لهب وولده ومن تخلف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان.

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَكُنَّ اللَّيْنُ أَفْقَا﴾ وقرأ أبو المتوكل، وأبو جعفر: «لَكِنَّ» بتشديد النون [وفتحها]. قال الزجاج: والعُرف: هي المنازل الرفيعة في الجنة، ﴿بَيْنَ قَوْعِهَا عَرْقٌ﴾ أي: منازل أرفع منها. ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ منصوب على المصدر؛ فالعنى: وعدهم الله عرفاً وعداً. ومن قرأ: «وَعَدَّ اللَّهُ» بالرفع؛ فالعنى: ذلك وَعْدُ اللَّهِ. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَعَرَّى مَصْفَرًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاءً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ قال الشعبي: كُلُّ مَا في الأرض فمن السماء ينزل ﴿فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ﴾ قال ابن قتبية: أي: أدخله فجعله ينبيع، أي: عُيُونًا تَنْبِيعُ، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: يَنْبَسُ. قال الأصمعي: يقال للنبت إذا تَمَّ جفافه: قد هَاجَ يَهِيجُ هَيْجًا. فأما الحُطَام، فقال أبو عبيدة: هو ما يَنْسُ فَتَحَاتْ من الثَّبات، ومثله الرُّفَات. قال مقاتل: هذا مَثَلٌ ضَرْبٌ لِلدُّنْيَا، بينا ترى النبت أخضر، إذ تَغَيَّرَ فَيَسُّ ثُمَّ هَلَكَ، وكذلك الدُّنْيَا وزينتها. وقال غيره: هذا البيان للدلالة^(١) على قدرة الله ﷻ.

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِإِسْمَائِيلَ فَهَوَّ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ قَوْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ﴾ قال الزجاج: جوابه متروك، لأن الكلام دالٌّ عليه، تقديره: أفمن شَرَحَ الله صدره فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يَهْتَدِ؟ ويُذَلُّ على هذا قوله: ﴿قَوْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾؛ وقد روى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، فقلنا: يا رسول الله وما هذا الشَّرْحُ؟ فذكر حديثاً قد ذكرناه في قوله: ﴿فَمَنْ يُرِيدُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِإِسْمَائِيلَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

قوله تعالى: ﴿فَهَوَّ عَلَى نُورٍ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: اليقين، قاله ابن عباس. والثاني: كتاب الله يأخذ به ويستهي إليه، قاله قتادة. والثالث: البيان، قاله ابن السائب. والرابع: الهدى، قاله مقاتل. وفيمن نزلت هذه الآية؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها نزلت في أبي بكر الصديق وأبي بن خلف، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: في عليٍّ وحمة

(١) في الأصل: الدلالة.

(٢) قال ابن كثير في تمة الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسناء، ثم تعود عجوزاً شوهاء، قال: والشاب يعود شيخاً هرمًا كبيراً ضعيفاً، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، قال: وكثيراً ما يضرب الله تعالى مَثَلُ الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء وينبت به زروعاً وثماراً ثم يكون بعد ذلك حطاً.

(٣) انظر ٤٦٦، والحديث بتسامه: روى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿فَمَنْ يُرِيدُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِإِسْمَائِيلَ﴾ فقيل له: يا رسول الله، وما هذا الشرح؟ قال: «نور يقذفه الله في القلب فيفتح القلب» قالوا: فهل لذلك من أماره؟ قال: «نعم» قيل: وما هي؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله». رواه الطبري من طريقين عن عبد الله بن مسعود، وكلاهما ضعيف، وذكره ابن كثير في «التفسير» مرسلاً ومتصلاً، وقال: فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة بشد بعضها بعضاً، وقد قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: رواه الثعلبي والحاكم والبيهقي في «الشعب» من حديث ابن مسعود، وفيه أبو فروة الرهاوي، فيه كلام، ثم ذكر أنه رواه الحكيم الترمذي في «نواهد الأصول» وفي سنده رجل ضعيف. اهـ.

وأبي لهب وولده، قاله عطاء. والثالث: في رسول الله ﷺ وفي أبي جهل، قاله مقاتل^(١).

قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ بَيْنَ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قد بينّا معنى القساوة في [البقرة: ٧٤]. فإن قيل: كيف يقسو القلب من ذكر الله ﷻ؟ فالجواب: أنه كلما تلي عليهم ذكر الله الذي يكذبون به، قَسَت قلوبهم عن الإيمان به. وذهب مقاتل في آخرين إلى أن «مِنْ» هاهنا بمعنى «عَنْ»، قال الفراء: كما تقول: أَتَخَضَّعْتُ عَنْ طعام أكلته، وَمِنْ طعام أكلته؛ وإنما قَسَت قلوبهم مِنْ ذِكْرِ الله، لأنهم جعلوه كذباً فأقسى قلوبهم؛ ومن قال: قَسَت قلوبهم عنه، أراد: أعرضت عنه. و[قد] قرأ أبي بن كعب، وابن أبي عبيدة، وأبو عمران: «قُلُوبُهُمْ عَنْ ذِكْرِ الله» مكان قوله: «مِنْ».

﴿اللَّهُ زَلَّ الْحَدِيثَ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ الْحَدِيثَ﴾ يعني القرآن؛ وقد ذكرنا سبب نزولها في أول (يوسف)^(٢).

قوله تعالى: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أن بَعْضَهُ يُشَبِّهُ بَعْضًا فِي الْآيِ وَالْحُرُوفِ، فالآية تُشَبِّهُ الْآيَةَ، وَالْكَلِمَةُ تُشَبِّهُ الْكَلِمَةَ، وَالْحَرْفُ يُشَبِّهُ الْحَرْفَ. والثاني: أن بَعْضَهُ يَصْدُقُ بَعْضًا، فليس فيه اختلاف ولا تناقض. وإنما قيل له: ﴿مَثَابًا﴾ لأنه كُرِّرَتْ فِيهِ الْقَصَصُ وَالْفَرَائِضُ وَالْحُدُودُ وَالْثَوَابُ وَالْعِقَابُ. فإن قيل: ما الحكمة في تكرار القصص، والواحدة قد كانت تكفي؟ فالجواب: أن وفود العرب كانت تَرُدُّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَيُقَرِّئُهُمُ الْمَسْلُومُونَ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ كَافِيًا لَهُمْ، وَكَانَ يَبْعَثُ إِلَى الْقَبَائِلِ الْمُتَفَرِّقَةِ بِالسُّورِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَلَوْ لَمْ تَكُنِ الْأَنْبَاءُ وَالْقَصَصُ مَثَابَةً مَكْرُورَةً، لَوَقَعَتْ قِصَّةُ مُوسَى إِلَى قَوْمٍ، وَقِصَّةُ عِيسَى إِلَى قَوْمٍ، وَقِصَّةُ نُوحٍ إِلَى قَوْمٍ، فَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُشِيرَ هَذِهِ الْقَصَصُ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ وَيُلْقِيَهَا إِلَى كُلِّ سَمْعٍ. فَأَمَّا فَائِدَةُ تَكَرُّرِ الْكَلَامِ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّورَ الَّتِي تَنَزَّلَتْ بِهَا الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ٢٤، ٢٥] وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا يَقُولُ الَّذِينَ ﴿لَا أَقْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَكَا قَاتِلٌ﴾ [القيامة: ٣٤، ٣٥] وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا يَقُولُ الَّذِينَ ﴿لَا تَقْرَأُ﴾ [الانفطار: ١٧، ١٨] فنسندكرها في سورة (الرحمن) ﷻ.

قوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: تَأْخُذُهُمْ قَشَعِيرَةٌ، وَهُوَ تَغْيِيرٌ يَحْدُثُ فِي جِلْدِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْوَجَلِ. وَرَوَى الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا اقْشَعَرَ جِلْدُ الْعَبْدِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، تَحَاتَّتْ ذُنُوبُهُ كَمَا يَتَحَاتُّ مِنَ الشَّجَرَةِ الْيَابِسَةِ وَرَقُهَا»^(٣). وَفِي مَعْنَى الْآيَةِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: تَقْشَعِرُّ مِنْ وَعِيدِهِ، وَتَلِينُ عِنْدَ وَعْدِهِ، قَالَهُ السَّيِّدِي. وَالثَّانِي: تَقْشَعِرُّ مِنَ الْخَوْفِ، وَتَلِينُ مِنَ الرَّجَاءِ. وَالثَّالِثُ: تَقْشَعِرُّ الْجُلُودُ لِإِعْظَامِهِ، وَتَلِينُ عِنْدَ تَلَاوَتِهِ، ذَكَرَهُمَا الْمَاورِدِي. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْمَعَانِي: مَفْعُولُ الذِّكْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ مَحْذُوفٌ، لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ؛ وَالْمَعْنَى: تَقْطَعْنَ قُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ الْجَنَّةِ وَالثَّوَابِ. قَالَ قَتَادَةُ: هَذَا نَعَتْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، تَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ [وَتَلِينُ قُلُوبُهُمْ]، وَلَمْ يَنْتَعِمُوا بِذَهَابِ غُفُولِهِمْ وَالْغَشْيَانِ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا هَذَا فِي أَهْلِ الْبَدْعِ، وَهَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ. وَقَدْ رَوَى أَبُو حَازِمٍ، قَالَ: مَرَّ ابْنُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِبَنَاتٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فَقَالَ: مَا شَأْنُهُنَّ؟ فَقَالُوا: إِنَّهُ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ يُصِيبُهُ هَذَا، قَالَ: إِنَّا لَنَخْشَى اللَّهَ ﷻ، وَمَا نَسْفُطُ. وَقَالَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ: جِئْتُ أَبِي، فَقَالَ لِي: أَيْنَ كُنْتَ؟ فَقُلْتُ: وَجَدْتُ قَوْمًا، مَا رَأَيْتُ خَيْرًا مِنْهُمْ قَطُّ، يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﷻ فَيُرْعَدُ وَاحِدُهُمْ حَتَّى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﷻ، فَقَعْدَتْ مَعَهُمْ، فَقَالَ: لَا تَقْعُدْ مَعَهُمْ بَعْدَهَا [أَبَدًا]، قَالَ: فَرَأَيْتُ كَأَنِّي لَمْ يَأْخُذْ ذَلِكَ مِنِّي، فَقَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتْلُو الْقُرْآنَ، وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يَتْلُوَانِ الْقُرْآنَ فَلَا يُصِيبُهُمَا هَذَا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، أَفَتَرَى أَنَّهُمْ أَخْشَى اللَّهَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ؟ قَالَ: فَرَأَيْتُ ذَلِكَ ذَلِكَ. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: سَمِعْتُ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ: هَلْ كَانَ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْخَوْفِ؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْهُمْ كَانُوا

(١) ذكر سبب النزول هذا الخازن بدون سند، والله أعلم. (٢) انظر ٦٧٩.

(٣) ذكره السيوطي في «الدرة» ٣٢٦/٥ من رواية الحكيم الترمذي في «نوارد الأصول» عن العباس بن عبد المطلب ﷺ، وقد ذكره في «الجامع الصغير» أيضاً من رواية سمويه في «فوائد»، والطبراني في «الكبير»، قال الحافظ المناوي في «فيض القدير شرح الجامع الصغير»: وكذا رواه البزار والبيهقي في «الشعب» عن العباس بن عبد المطلب، قال: قال المنذري والعراقي: سند ضعيف، قال: وبينه الهيشي فقال: فيه أم كلثوم بنت العباس ﷺ، لم أمرها، وفيه رجاله ثقات.

يكون. وقال عبد الله بن عروة بن الزبير: قلت لجَدَّتِي أسماء بنت أبي بكر، كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله تعالى، تَذْمَعُ أَعْيُنُهُمْ وَتَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ. فقلت لها: إِنَّ نَاسًا الْيَوْمَ إذا قرئ عليهم القرآن، خَرَّ أَحَدُهُمْ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وكان جَوَابَ يُرْعَدُ عِنْدَ الذِّكْرِ، فقال له إبراهيم النخعي: إِنْ كُنْتَ تَمْلِكُهُ، فَمَا أَبَالِي أَنْ لَا أَعْتَدَ بِكَ، وَإِنْ كُنْتَ لَا تَمْلِكُهُ، فَقَدْ خَالَفْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ^(١).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَىٰ آلِهِ﴾ في المشار إليه قولان: أحدهما: أنه القرآن، قاله مقاتل. والثاني: أنه ما ينزل بالمؤمنين عند تلاوة القرآن من اقشعرار الجلود عند الوعيد، ولينها عند الوعد، قاله ابن الأنباري.

﴿أَفَنَنْتَنِي بِوَجْهِهِ سَوَاءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنذَرْتَهُمُ الْعَذَابَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِجَجٍ لَعَلَّهُمْ يَسْمَعُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَنَنْتَنِي بِوَجْهِهِ سَوَاءَ الْعَذَابِ﴾ أي: شِدَّتِهِ. قال الزجاج: جوابه محذوف، تقديره: كَمْثٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟ وجاء في التفسير أن الكافر يلقى في النار مغلولاً، ولا يتهيأ له أن يتقيها إلا بوجهه. ثم أخبر عما يقول الْخَزَنَةُ للكفار بقوله: ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ يعني الكافرين ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: جزاء كسبكم.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من قبل كفار مكة ﴿فَأَنذَرْتَهُمُ الْعَذَابَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وهم آمنون غافلون عن العذاب، ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ﴾ يعني الهوان والعذاب، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ مما أصابهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، ولكنهم لا يعلمون ذلك. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ أي: وَصَفْنَا لَهُمْ ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل شبه يشبه أحوالهم.

قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ قال الزجاج: «عربياً» منصوب على الحال، المعنى: صرنا للناس في هذا القرآن في حال عربيته وبيانه، فذكر «قرآنًا» تأكيداً، كما تقول: جاءني زيد رجلاً صالحاً، وجاءني عمرو إنساناً عاقلاً، فذكر رجلاً وإنساناً تأكيداً.

قوله تعالى: ﴿غَيْرَ ذِي عِجَجٍ﴾ روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: غير مخلوق. وقال غيره: مستقيم غير مختلف^(٢).

﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ذِكْرًا مُنْذَرًا لِّرَجُلٍ هَلَّ بِسِتْرَيْنِ مِثْلًا لِّلْحَمْدِ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إِنَّكَ مِثْلٌ وَابْنُ مَرْثُونَ ﴿٢٩﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْفَضُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ ثم بيَّنه فقال: ﴿ذِكْرًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُنْذَرُونَ﴾ قال ابن قتبية: أي: مختلفون، يتنازعون ويتشاحون فيه، يقال: رجلٌ شَكِسَ. وقال البيهقي: الشكس من الرجال: الضيق الخلق. قال المفسرون: وهذا مثل

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ يَلْبِثُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف ﴿ثُمَّ يَلْبِثُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لما يرجون ويؤملون من رحمة ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه. أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أهلك نعمات الآيات من أصوات القينات. والثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سُجُودًا وَبُكْيًا بَادِبَ وَخَشْيَةٍ وَرَجَاءٍ وَمَحَبَةٍ وَفهم وعلم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَّتْ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ قَالُوا يَلْبِثُ عَلَيْنَا مَا أَتَيْنَاهُمْ إِلَّا مَا كُنَّا وَعَلَىٰ رَبِّنَا يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ يُبَشِّرُوكَ بِالسَّعَةِ وَمَا يَخِفُّهُمْ مِنْهُ يَوْمَ يُنْفَخُ الْكَوْكَبُ﴾ أَوَّلِيكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَمْ يَخَفْ مِنْ رَبِّهِمْ وَتَقْوَاهُ وَوَدَّ كَرِيمٌ ﴿٣٠﴾ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِفُوا مِنْهَا شَيْئًا وَهُمْ يَرْجُوا بَلَائًا﴾ أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغيين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها، فلهاذا إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة، لا عن جهل ومتابعة لغيرهم. والثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة ﷺ عند سماعهم كلام الله تعالى، من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم ثم تلبس مع قلوبهم إلى ذكر الله، لم يكونوا يتصارعون ولا يتكلمون ما ليس فيهم، بل عندهم من البتات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك، ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: أي: هو قرآن بلسان عربي مبين لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، قال: وإنما جعله الله تعالى كذلك، وأثّر به بذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما فيه من الوعد. اهـ.

ضربه الله للمؤمن والكافر، فإن الكافر يعبدُ آلهةً شتى، فمثله بعيد يملكه جماعة يتنافسون في خدمته، ولا يقدر أن يبلغ رضاهم أجمعين؛ والمؤمن يعبدُ الله وحده، فمثله بعيد لرجل واحد، قد عَلم مقاصده وعَرَف الطريق إلى رضاه، فهو في راحة من تشاكس الخلطاء فيه، فذلك قوله: «سَالِمًا لِرَجُلٍ» قرأ ابن كثير، وأبو عمرو إلا عبد الوارث في غير رواية القزّاز، وأبان عن عاصم: «ورجلاً سالماً» بآلف وكسر اللام وبالنصب والتنوين فيهما؛ والمعنى: ورجلاً خالصاً لرجلٍ قد سَلِمَ له من غير مُنازع. ورواه عبد الوارث إلا القزّاز كذلك، إلا أنه رفع الاسمين، فقال: «ورجلاً سَالِمٍ لِرَجُلٍ» وقرأ ابن أبي عبلة: «سَلِمٌ لِرَجُلٍ» بكسر السين ورفع الميم. وقرأ الباقون: «ورجلاً سَلَمًا» بفتح السين واللام [وبالنصب] فيهما والتنوين. والسَلَم، بفتح السين واللام، معناه الصُّلح، والسَلَم، بكسر السين مثله. قال الزجاج: من قرأ: «سَلَمًا» و«سَلَمًا» فهما مصدران وُصِفَ بهما، فالمعنى: ورجلاً ذا سَلَمٍ لرجلٍ وذا سَلَمٍ لرجلٍ، فالمعنى: ذا سَلَمٍ؛ والسَلَم: الصُّلح، والسَلَم، بكسر السين مثله. وقال ابن قتيبة: [من قرأ]: «سَلَمًا لِرَجُلٍ» أراد: سَلِمَ إليه فهو سَلِمٌ له. وقال أبو عبيدة: السَلَم والسَلَم الصُّلح^(١).

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ هذا استفهام معناه الإنكار، أي: لا يستويان، لأن الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وإحسانه ما لا يستحقه صاحب الشركاء المتشاكسين. وقيل: لا يستويان في باب الراحة، لأن هذا قد عرف الطريق إلى رضا مالكة، وذلك متحيز بين الشركاء. قال ثعلب: وإنما قال: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ ولم يقل: مَثَلَيْنِ، لأنهما جميعاً ضرباً مَثَلًا واحداً، ومثله: ﴿وَنَحْنُ أَتَنَ مَرِيَمَ وَأَسَدُ مَائِدَةَ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، ولم يقل: آيتين، لأن شأنهما واحد. وتم الكلام هاهنا، ثم قال: ﴿أَلَسَدُ اللَّهِ﴾ أي: له الحمد دون غيره من المعبودين ﴿بَلْ أَكْذَرُكُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والمراد بالأكثر الكل. ثم أخبر نبيه بما بعد هذا الكلام أنه يموت، وأن الذين يكذبونه يموتون، وأنهم يجتمعون للخصومة عند الله ﷻ، المُحِقُّ والمُبْطِلُ، والمظلوم والظالم. وقال ابن عمر: نزلت هذه الآية وما ندري ما تفسيرها، وما نرى أنها نزلت إلا فينا وفي أهل الكتابين، حتى قُتِل عثمان، فعرُفَتْ أنها فينا نزلت. وفي لفظ آخر: حتى وقعت الفتنة بين علي ومعاوية^(٢).

﴿فَنَنْظُرُ مَنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثَلٌ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٥﴾ يُكْفِرُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿فَنَنْظُرُ مَنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ بأن دعا له ولداً وشريكاً ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ وهو التوحيد والقرآن ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثَلٌ لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي: مَقَامٌ للجاحدين؟! وهذا استفهام بمعنى التقرير، يعني: إنه كذلك.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه رسول الله ﷺ، قاله علي بن أبي طالب، وابن عباس، وقتادة، وابن زيد. ثم في الصِّدْق الذي جاء به قولان: أحدهما: أنه «لا إله إلا الله»، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال [سعيد] بن جبير. والثاني: [أنه] القرآن، قاله قتادة. [وفي الذي صَدَّقَ به ثلاثة أقوال. أحدها: أنه رسول الله ﷺ أيضاً، هو جاء بالصِّدْق، وهو صَدَّقَ به، قاله ابن عباس، والشعبي. والثاني: أنه أبو بكر، قاله علي بن

(١) في «فتح الباري» ٤٢٢/٨: وعن أبي عبيدة: «ورجلاً سالماً»، الرجل سالم وسَلِمَ واحد، وهو من الصلح. فعلى هذا التفسير، السَلَم: مصدر أريد به اسم الفاعل.

(٢) قال ابن كثير: وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ يَتُونَ﴾ [٣٥] هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق ﷺ عند موت الرسول ﷺ حتى تحقّق الناس موته مع قوله ﷺ: ﴿وَمَا تَحْدُثُ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنِّي كُنْتُ أَوْ قِيلَ أَتَقَبَّلْتُمْ عَلَى لِقَائِكُمْ وَمِنْ يَتَقَبَّلُ عَنْ يَسَرٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ شَيْئًا وَسِعَ بِهِ اللَّهُ الشَّكْرَ﴾ [٣٤] قال: ومعنى هذه الآية: إنكم ستقتلون من هذه الدار لا محالة وستجتمعون عند الله تعالى في الدار الآخرة وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله ﷻ فيفصل بينكم ويفتح بالحق وهو الفتح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذّبين، قال: ثم إن هذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة، فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة. اهـ.

أبي طالب. والثالث: أنهم المؤمنون، قاله قتادة^(١)، والضحاك، وابن زيد. والقول الثاني: [أن] الذي جاء بالصدق: أهل القرآن، وهو الصدق الذي يُجيبون به يوم القيامة، وقد أدوا حقّه، فُهم الذين صدّقوا به قاله مجاهد. والثالث: أن الذي جاء بالصدق الأنبياء، قاله الربيع، فعلى هذا، يكون الذي صدّق به: المؤمنون. والرابع: أن الذي جاء بالصدق: جبريل، وصدق به: محمد، قاله السدي^(٢).

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: الذين اتَّقَوْا الشرك^(٣)؛ وإنما قيل: «هُم»، لأن معنى «الذي» معنى الجمع، كذلك قال اللغويون، وأنشد أبو عبيدة، والزجاج:

فَلَنْ الَّذِي حَانَتْ بِفُلَجٍ دِمَاؤُهُمْ
هُمُ الْقَوْمُ، كُلُّ الْقَوْمِ، يَا أُمَّ خَالِدٍ^(٤)
قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ المعنى: أعطاهم ما شاؤوا ليكفر عنهم ﴿أَسْأَأُ إِلَٰهِي عَمِلُوا﴾، أي: ليسر ذلك بالمغفرة ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ بمحاسن أعمالهم، لا بمساوئها.

﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْكَ بِالْذِّكْرِ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُبِلٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَهُ عِلْمٌ غَيْبٍ ۚ﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِي قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْكَ بِالْذِّكْرِ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُبِلٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَهُ عِلْمٌ غَيْبٍ ۚ﴾ ذكر المفسرون أن مشركي مكة قالوا: يا محمد، ما نزال تذكر آلهتنا وتعيبها، فأتى أن تصيبك بسوء، فنزلت هذه الآية^(٥). والمراد بعبد هاهنا: محمد ﷺ. وقرأ حمزة، والكسائي: «عبادة» على الجمع، وهم الأنبياء، لأن الأمم قصدتهم بالسوء؛ فالمعنى أنه كما كفى الأنبياء قبلك، يكفيك. وقرأ سعد بن أبي وقاص، وأبو عمران الجوني: «يكافي» مثبته الياء «عبدو» بكسر الدال والهاء من غير ألف. وقرأ أبي بن كعب، وأبو العالية، وأبو الجوزاء، والشعبي مثله، إلا أنهم أثبتوا الألف في «عبادو». وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو جعفر، وشيبة، والأعمش: «يكافي» بالثنتين، «عبادة» على الجمع. وقرأ ابن مسعود، وأبو رجاء العطاردي: «يكافيني» بياء مرفوعة قبل الكاف وياء ساكنة بعد الفاء «عبادة» على الجمع. ﴿وَيُضِلُّكَ بِالذِّكْرِ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: بالذين يعبدون من دونه، وهم الأصنام. ثُمَّ أَعْلَمَ بما بعد هذا أن الإضلال والهداية إليه تعالى، وأنه منتقم ممن عصاه. ثم أخبر أنهم مع عبادتهم، يَقْرُونَ أنه الخالق. ثم أمر أن يُحْتَجَّ عليهم بأن ما يعبدون لا يملك كشف ضر ولا جلب خير. وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: «كاشفات ضره» و«ممسكات رحمته» منوئا. والباقون: «كاشفات ضره» و«ممسكات رحمته» على الإضافة.

﴿قُلْ يَتَوَكَّرُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَايِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَا فَسَوْفَ جَنَّتْ نَفْسُهُ وَمَنْ سَلَ قَاتِمًا يَعِظُ عَلَيْهِ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٣٨﴾
قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَكَّرُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَايِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ﴾ ذكر بعض المفسرين أنها الآية التي تليها نُسخَتْ بِآيَةِ السِّيفِ.
قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني القرآن ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: لجميع الخلق ﴿بِالْحَقِّ﴾ ليس فيه باطل. وتمام الآية مفسر في آخر [يونس: ٤١٠٨]، وذكرنا أنه منسوخ بآية السيف.

(١) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره عنى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْكَ بِالْذِّكْرِ وَرَسُولَهُ﴾ كل من دعا إلى توحيد الله وتصديق رسوله، والعمل بما ابتهت به رسوله ﷺ من بين رسول الله وأتباعه والمؤمنين به، وأن يقال: الصلح هو القرآن وشهادة أن لا إله إلا الله، والمصدق به: المؤمنون بالقرآن من جميع خلق الله كائنًا من كان من نبي الله وأتباعه. اهـ.

(٢) قال ابن جرير: وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ يقول جل ثناؤه: هؤلاء الذين هذه صفتهم، هم الذين اتَّقَوْا الله بتوحيده والبراءة من الأوثان والأنداد، وأداء فرائضه واجتناب معاصيه فخافوا عقابه. اهـ.

(٣) البيت للشهيد بن رُمَيْلة، وهو في «الكتاب» ٩٦/١، و«مجاز القرآن» ١٩٠/٢، و«مشكل القرآن» ٢٨١، و«الصالح» و«اللسان» و«التاج»: فليج.

(٤) قال الحافظ السيوطي في «الدرر» ٣٢٨/٥: أخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عن قتادة قال: قال لي رجل: قالوا للنبي ﷺ: لتكفرن عن شتم آلهتنا أو لنامرئها فلتخيبك، فنزلت: ﴿وَيُضِلُّكَ بِالذِّكْرِ مِنْ دُونِهِ﴾.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَاسِكِهَا فِيمِنْكُمْ أَلَىٰ فَتَنَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ وَرَّسِلَ الْأُخْرَىٰ إِلَهُ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٢)

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي: يَقْبِضُ الأرواح حين موت أجسادها ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ﴾ أي: ويتوفى التي لم تمُت ﴿فِي مَنَاسِكِهَا﴾ أي: عن الجسد [والنفس] ﴿أَلَىٰ فَتَنَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي: «قُضِيَ» بضم القاف وفتح الياء، «الموت» بالرفع. ﴿وَرَّسِلَ الْأُخْرَىٰ﴾ إلى الجسد ﴿إِلَهُ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو انقضاء العمر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في أمر البعث (١). وروى [سعيد] بن جبيرة عن ابن عباس قال: تلقي أرواح الأحياء وأرواح الأموات في المنام، فيتعارفون ويتساءلون، ثم تُرَدُّ أرواح الأحياء إلى أجسادها، فلا يُخطأ بشيء منها، فذلك قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقال ابن عباس في رواية أخرى: في ابن آدم نفسٌ وروح، فبالنفس العقل والتمييز، وبالروح النفس والحريك، فإذا نام العبد، قَبِضَ اللَّهُ نَفْسَهُ ولم يَقْبِضْ روحه. وقال ابن جريج: في الإنسان روح ونفس، بينهما حاجز، فهو تعالى يَقْبِضُ النَّفْسَ عند النوم ثم يَرُدُّهَا إلى الجسد عند الانتباه، فإذا أراد إِمَاتَةَ العبد في نومه، لم يَرُدِّ النَّفْسَ وَقَبِضَ الرُّوحَ. وقد اختلف العلماء، هل بين النفس والروح فرق؟ على قولين قد ذكرتهما في «الوجوه والنظائر»، وزدث هذه الآية شرحاً في باب التوقي في كتاب «النظائر». وذهب بعض العلماء إلى أن التوقي المذكور في حق النائم هو نومه، وهذا اختيار القراء وابن الأنباري؛ فعلى هذا، يكون معنى توقي النائم: قبض نفسه عن التصرف، وإرسالها: إطلاقها باليقظة للتصرف.

﴿أَرِ أَخْذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَةً قُلْ أَوَّلُو كَأَنَّا لَا تَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقُولُونَ﴾ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَمْ تَكُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤)

قوله تعالى: ﴿أَرِ أَخْذُوا﴾ يعني تَمَارَكَةً. وفي المراد بالشُّفَعَاء قولان: أحدهما: أنها الأصنام، زعموا أنها تشفع لهم في حاجاتهم، قاله الأكثرون. والثاني: الملائكة، قاله مقاتل. ﴿قُلْ أَوَّلُو كَأَنَّا لَا تَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ من الشفاعة ﴿وَلَا يَقُولُونَ﴾ أنكم تعبّدونهم؟ وجواب هذا الاستفهام محذوف، تقديره: أولو كانوا بهذه الصفة تتخذونهم؟ ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: لا يملكها أحدٌ إلا بتملكه، ولا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه.

﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٥) قُلْ أَلَلَّهُمْ قَائِلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَيْهِ الْقَتَبُ وَالشَّهَادَةُ أَنْتُمْ تَعْبُدُونَهُمْ بَيْنَ يَدَيْكَ مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَيَا لَهُم مِّنَ سَعَاتِ مَا كَسَبُوا وَهَآؤَ يَوْمَ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨)

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: انقبضت عن التوحيد، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: استكبرت، قاله قتادة. والثالث: تَفَرَّتْ، قاله أبو عبيدة، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ يعني الأصنام ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون. وما بعد هذا قد تقدم تفسيره [الأنعام: ١٤، ٧٣، البقرة: ١١٣، الرعد: ١٨] إلى قوله: ﴿وَيَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾. قال السدي: ظَنُّوا أَنَّ أعمالهم حسنة، فبدت لهم سيئات. وقال غيره: عملوا أعمالاً ظَنُّوا أنها تنفعهم، فلم تنفع مع شركهم. قال مقاتل: ظهر لهم حين بُعِثُوا ما لم يَحْتَسِبُوا أنه نازل بهم؛ فهذا القول يحتمل وجهين: أحدهما: أنهم كانوا يرجون القرب من الله بعبادة الأصنام، فلَمَّا غَوِیُوا عليها، بدا لهم ما لم يكونوا يَحْتَسِبُونَ. والثاني: أَنَّ البعث والجزاء لم يكن في حسابهم.

(١) قال ابن كثير: قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَلْوَىٰ يَرْزُقْكُمْ يَأْتِي وَيَسْلُمُ مَا أَجْتَحِدُ بِالْبَآرِئِ ثُمَّ يَتَّخِذُ مِنِّي لُفْظًا أَنَا شَهِيدٌ ثُمَّ إِلَيْهِ رَاجِعُكُمْ ثُمَّ يُنْفِخُ فِي بَنَاتِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَمَلُكُونَ﴾ ﴿وَمَنْ الْقَائِلُ قَوْلَ يَسْأَلُونَ وَرَّسِلَ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَنتُمْ السَّوْتُ تَوَفَّتْهُ مُثَلَّكُمْ وَيَعْمَلُ لَا يَرْطَلُونَ﴾ فذكر الوفاتين الصغرى ثم الكبرى، قال: وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَاسِكِهَا أَلَىٰ فَتَنَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ وَرَّسِلَ الْأُخْرَىٰ إِلَهُ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. اهـ.

وروي عن محمد بن المنكدر أنه جزع عند الموت وقال: أخشى هذه الآية أن يبدولي ما لا أحسب.

قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي: نزل بهم ﴿مَا كَانُوا بِمَشْتَرِكٍ أَمْ ذَلَّلُونَهُمْ﴾ أي: ما كانوا يُشْكِرُونَهُ وَيَكْذِبُونَهُ بِهِ.

﴿فَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَانُ ضُرَّ دَعَاكَ ثُمَّ إِذَا حَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مَنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فَتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١)
 قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٢) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٤)

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَانُ ضُرَّ دَعَاكَ﴾ قال مقاتل: هو أبو حذيفة بن المغيرة، وقد سبق في هذه السورة نظيرها [الزمر: ٨]. وإنما كتبت عن النعمة بقوله: ﴿أُوتِيتُهُ﴾، لأن المراد بالنعمة: الإنعام. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عندي، أي: على خير عِلْمَةٍ الله عندي. وقيل: على علم من الله بأنني له أهل، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هِيَ﴾ يعني النعمة التي أنعم [الله] عليه بها ﴿فِتْنَةٌ﴾ أي: بلوى يُتَلَّىٰ بها العبد لِشُكْرٍ أو كِبَفَرٍ، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك استدراج لهم وامتحان. وقيل: «بل هي» أي: المقالة التي قالها «فتنة». ﴿قَدْ قَالُوا﴾ يعني تلك الكلمة، وهي قوله: «إنما أُوتِيتُهُ على علم» ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وفيهم قولان: أحدهما: أنهم الأمم الماضية، قاله السدي. والثاني: قارون، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ أي: ما دفع عنهم العذاب ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: من الكفر. والثاني: من عبادة الأصنام. والثالث: من الأموال. ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: جزاء سيئاتهم، وهو العذاب. ثم أورد كُفَّارَ مَكَّةَ، فقال: ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: إنهم لا يُعْجِزُونَ الله ولا يَقْوَتُونَهُ. قال مقاتل: ثم وعظهم لِيَعْلَمُوا وحدانيته حين مُطِرُوا بعد سبع سنين، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في بسط الرزق وتقديره ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قُلْ يَحْيَايَا الَّذِينَ أَتَرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥)
 وَأَيُّهَا لَيْلَىٰ رَيْكَمَ وَأَسْلِمُوا لَمْ يَنْزِلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ (٦) وَأَيُّهَا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّيْكَم مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٧)

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَحْيَايَا الَّذِينَ أَتَرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن ناساً من المشركين كانوا قد قَتَلُوا فَاكْتَرُوا، وَزَنُوا فَاكْتَرُوا، ثُمَّ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فقالوا: إن الذي تدعو إليه لَحَسَنٌ، لو تُخَيِّرْنَا أَنْ لِمَا عَمَلْنَا كَفَّارَةً، فنزلت هذه الآية، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس^(١). والثاني: أنها نزلت في عِيَّاش بن أَبِي رِيعة والوليد بن الوليد ونَفَرٍ من المسلمين كانوا قد أسلموا، ثم عُدُّبُوا فَاغْتَنَبُوا، فكان أصحاب رسول الله يقولون: لا يَقْبَلُ الله من هؤلاء صَرْفًا وَلَا عَذْلًا، قوم تركوا دينهم بعذاب عُدُّبُوهُ! فنزلت هذه الآية، فكتبها عمر إلى عِيَّاش والوليد وأولئك النَّفَرِ، فَأَسْلَمُوا وَهَاجَرُوا؛ وهذا قول ابن عمر^(٢). والثالث: أنها نزلت في وحشي؛ وهذا القول ذكرناه مشروحاً في آخر [الفرقان: ٦٨] عن ابن عباس^(٣). والرابع: أن أهل مَكَّةَ قالوا: يزعم محمد أن مَنْ عَبَدَ الْأَوْثَانَ وَقَتَلَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله لم يُغْفَرْ لَهُ، فكيف نُهاجِرُ ونُسَلِّمُ وقد قَعَلْنَا ذَلِكَ؟! فنزلت هذه الآية؛ وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً^(٤). ومعنى «أَسْرَفُوا على أنفسهم» ارتكبوا الكبائر. والقنوط بمعنى اليأس^(٥). ﴿وَأَيُّهَا﴾ بمعنى ارجعوا إلى الله من الشُّرْكِ وَالذُّنُوبِ،

(١) رواه البخاري ٤٢٢/٨ من حديث ابن جريج عن يعلى بن مسلم المكي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، و«الطبري» ٤١/١٩، وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي من حديث ابن جريج عن يعلى بن مسلم المكي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وكذلك رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٢١١، ورواه البخاري أيضاً ٣٨٠/٨ في سورة الفرقان مختصراً. والحدِيثُ أوردَه السُّيُوطِيُّ في «الدر» ٧٧/٥، وزاد نسبته لابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٢) رواه ابن جرير الطبري ١٥/٢٤، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢١١ عن عبد الله بن عمر بن الخطاب بدون سند.

(٣) قال السُّيُوطِيُّ في «الدر» ٣٣٠/٥: أخرج الطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» بسند فيه لين عن ابن عباس.

(٤) «الطبري» ١٤/٢٤، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢١١ عن ابن عباس بدون سند، وأوردَه السُّيُوطِيُّ في «الدر» ٣٣١/٥، وزاد نسبته لابن مردويه عن ابن عباس.

(٥) قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب =

﴿وَأَسْلُوا لَمْ﴾ أي: أخلصوا له التوحيد. و«تُنْصَرُونَ» بمعنى تُنْمَعُونَ. ﴿وَأَلَيْمًا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ قد بيناه في قوله: ﴿يَا عِزُّوهُ بِأَحْسَنِي﴾ [الأعراف: ١٤٥].

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّقْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّخِرِينَ﴾ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْشَرِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩)

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾ قال المبرِّد: المعنى: بادروا قَبْلَ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ، وَحَذَرًا مِنْ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ. وقال الزجاج: خوف أن تصيروا إلى حال تقولون فيها هذا القول ومعنى ﴿بِحَسْرَتِي﴾ يا ندامتا ويا حزنا. والتحسر: الاعتظام على ما فات. والأي في «يا حسرتا» هي [أياء] المتكلم، والمعنى: يا حسرتي^(١)، على الإضافة. قال الفراء: والعرب تحول الباء إلى الألف في كل كلام معناه الاستغاثه ويخرج على لفظ الدعاء، وربما أدخلت العرب الهاء بعد هذه الألف، فيخفونها مرة، ويرفعونها أخرى. وقرأ الحسن، وأبو العالية، وأبو عمران، وأبو الجوزاء: «يا حسرتي» بكسر التاء، على الإضافة إلى النفس. وقرأ معاذ القارئ، وأبو جعفر: «يا حسرتاي»، بألف بعد التاء وياء مفتوحة. قال الزجاج: وزعم الفراء أنه يجوز «يا حسرتاه» على كذا «بفتح الهاء، و«يا حسرتاه» بالضم والكسر، والنحويون أجمعون لا يجيزون أن تُثَبَّتَ هذه الهاء مع الوصل.

قوله تعالى: ﴿فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: في طاعة الله تعالى، قاله الحسن. والثاني: في حق الله، قاله سعيد بن جبیر. والثالث: في أمر الله، قاله مجاهد، والزجاج. والرابع: في ذكر الله، قاله عكرمة، والضحاك. والخامس: في قُرب الله؛ روي عن الفراء أنه قال: الجَنبُ: القُربُ، أي: في قُرب الله وجواره؛ يقال: فلان يعيش في جَنب فلان، أي: في قُربه وجواره؛ فعلى هذا يكون المعنى: [على] ما فَرَّقْتُ في طلب قُرب الله تعالى، وهو الجنة. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّخِرِينَ﴾ أي: وما كنتُ إِلَّا من المستهزئين بالقرآن وبالمؤمنين في الدنيا. ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ أي: أرشدني إلى دينه ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ الشُّرك؛ فيقال لهذا القائل: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي﴾ قال الزجاج: و«بلى» جواب النفي، وليس في الكلام لفظ النفي، غير أن معنى «لو أن الله هداني»: ما هُديتُ، فقل: «بلى قد جاءتك آياتي». وروى ابن أبي سريج [عن الكسائي]: «جاءتلك»، «فكذبت»، «واستكبرت»، و«كُنْتُ»، بكسر التاء فيهن، مخاطبة للنفس. ومعنى «استكبرت»: تكبرت عن الإيمان بها.

﴿وَيَوْمَ الْيَوْمِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَوُحُّهُمْ مُسَوِّدَةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٥٦) وَيَتَجَنَّبُ اللَّهُ الَّذِينَ آتَقُوا بِمَقَانِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ الْبُزْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٥٧)

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْيَوْمِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ فزعموا أن له ولداً وشريكاً ﴿وُحُّهُمْ مُسَوِّدَةٌ﴾. وقال الحسن: هم الذين يقولون: إن شئنا فعلنا، وإن شئنا لم نفعل. وباقي الآية قد ذكرناه آنفاً [الزمر: ٣٢]. قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُ اللَّهُ الَّذِينَ آتَقُوا بِمَقَانِهِمْ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «بمفازاتهم». قال الفراء: وهو كما قد تقول: قد تبين أمر القوم وأمورهم، وارتفع الصوت والأصوات، والمعنى واحد. وفيها للمفسرين ثلاثة أقوال. أحدها: بفنائهم، قاله السدي. والثاني: بأعمالهم، قاله ابن السائب، ومقاتل. والثالث: بفوزهم من النار. قال المبرِّد: المفازة: مَفْعَلَةٌ من الفوز، وإن جُمع فحسن، كقولك: السعادة والسعادات، والمعنى: ينجيهم الله بفوزهم، أي: بنجاتهم من النار وفوزهم بالجنة.

= منها ورجع عنها وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زيد البحر، قال: ولا يصح حمل هذه الآية على غير توبة، لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه، وسرد بعض الأحاديث المتعلقة بهذه الآية التي تدل على سعة رحمة الله وفضله، ثم قال: وهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد أنه يغفر جميع الذنوب مع التوبة، قال: ولا يقطع عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإن باب الرحمة واسع، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَسْلَمْ لَكَ اللَّهُ مَوْ يَبْدُلُ الْفُتُورَةَ عَنْ يَأْوِيٍّ﴾ وقال ﷻ: ﴿وَمَنْ يَسْلَمْ سَوْءًا أَوْ يَكْلَمْ نَفْسُهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٥٨). ثم ذكر عدة أحاديث في نفي القنوط، واعتقاد أن الله تعالى غفور رحيم لمن تاب إليه وأتاب.

(١) في الأصل: «يا حسرتا».

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ٦٢ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَهُ الْفَرْقَدُ الْأَلَمِيُّ﴾ ٦٣ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَهُ الْفَرْقَدُ الْأَلَمِيُّ﴾ ٦٤ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَهُ الْفَرْقَدُ الْأَلَمِيُّ﴾ ٦٥ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَهُ الْفَرْقَدُ الْأَلَمِيُّ﴾ ٦٦ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَهُ الْفَرْقَدُ الْأَلَمِيُّ﴾ ٦٧

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ قال ابن قتيبة: أي: مفاتيحها وخزائنها، لأن مالِك المفاتيح مالِك الخزان، واحدها: إقليد، وجمع على غير واحد، كما قالوا: مذاكير جمع ذُكْر، ويقال: هو فارسي معرَّب. [وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي: الإقليد: المفتاح، فارسي معرَّب]، قال الراجز:

لَمْ يُؤْذِهَا الذِّكُّ بِصَوْتِ تَغْرِيدٍ وَلَمْ تُعَالِجْ عَلَقاً بِأَثْلِيدٍ^(١)

والأَثْلِيدُ: لغة في الإثْلِيد، والجمع: مَقَالِيد. وللمفسرين في المَقَالِيد قولان: أحدهما: المفاتيح، قاله ابن عباس. والثاني: الخزان، قاله الضحاك. وقال الزجاج: تفسيره أن كل شيء في السموات والأرض، فهو خالقه وفتح بابه. قال المفسرون: مفاتيح السموات: المطر، ومفاتيح الأرض: النبات.

﴿قُلْ أَفَعَبَرُ اللَّهَ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ٦٨ ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَلَيْكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ٦٩ ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ٧٠

قوله تعالى: ﴿أَفَعَبَرُ اللَّهَ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ﴾ قرأ نافع، وابن عامر: «تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ» مخففة، غير أن نافعاً فتح الياء، ولم يفتحها ابن عامر. وقرأ ابن كثير: «تَأْمُرُونِي» بتشديد النون وفتح الياء، وقرأ الباقر بسكون الياء. وذلك حين دَعَوهُ إلى دين أبائه ﴿إِنِّي الْجَاهِلُونَ﴾ أي: فيما تأْمُرُون.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فيه تقديم وتأخير، تقديره: ولقد أَوْحَى إِلَيْكَ لئن أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَلَيْكَ، وكذلك أَوْحَى إلى الذين مِنْ قَبْلِكَ. قال أبو عبيدة: ومجازها مجاز الأمرين اللَّذَيْنِ يُخْبِرُ عَنْ أَحَدِهِمَا وَيُكْفَى عَنْ الْآخَرِ، قال ابن عباس: هذا أدب من الله تعالى لنبيه ﷺ وتهديد لغيره، لأن الله ﷻ قد عصمه من الشُّرك. وقال غيره: إنما خاطبه بذلك، لِيَعْرِفَ مَنْ دُونَهُ أَنَّ الشُّرْكَ يُحِيطُ الْأَعْمَالِ الْمُتَقَدِّمَةِ كُلُّهَا ولو وقع من نبي. وقرأ أبو عمران، وابن السميع، ويعقوب: «لَتَحْطَبَنَّ» بالنون، «عَمَلُكَ» بالنصب. ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ أي: وَحْدًا.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٧١

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ سبب نزولها أن رجلاً من أهل الكتاب أتى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم، بلغك أن الله تعالى يَحْمِلُ الْخَلَائِقَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالشَّجَرِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ؟ فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، قاله ابن مسعود^(٢). [وقد أخرج البخاري ومسلم في «الصحيحين» نحوه عن ابن مسعود^(٣). وقد فسرنا أول هذه الآية في «الإنعام» ٩١] قال ابن عباس: هذه الآية في الكفار، فأما مَنْ آمَنَ بأنه على كل شيء قدير، فقد قَدَّرَ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ. ثم ذكر عَظَمَتَهُ بقوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ﴾ وقد أخرج البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مَلُوكُ الْأَرْضِ؟»^(٤)؛ وأخرجنا من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يَطْوِي اللَّهُ ﷻ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِبِيَدِهِ الْيَمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا

(١) الرجز في «المعرب» للجواليقي ٢٠.

(٢) روى سبب النزول هذا بهذا اللفظ الواحد في «أسباب النزول» ٢١٢ عن عبد الله بن مسعود ﷺ، وهو في «الصحيحين» دون سبب النزول.

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» ٤٢٣/٨، وَمُسْلِمٌ ٢١٤٨/٤ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، وَرَوَاهُ الطَّبْرِيُّ ٢٧/٢٤، وَالحديث أورده السيوطي في «الدر» وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، والدارقطني في «الأسماء والصفات» عن عبد الله بن مسعود ﷺ. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» في قوله: «حتى بدت نواجذه»: وليس ذلك منافياً للحديث الآخر أن ضحكه كان تبساً كما سيأتي في تفسير سورة (الأحقاف). اد.

(٤) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» ٤٢٣/٨، وَمُسْلِمٌ ٢١٤٨/٤، وَرَوَاهُ الطَّبْرِيُّ ٢٧/٢٤، وَذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدر» ٣٣٥/٥، وَزَادَ نَسْبَهُ لِابْنِ الْمُنْذَرِ، وَعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَالنَّسَائِيِّ، وَابْنِ مَاجَةَ، وَابْنِ مَرْدَوَيْهِ، وَابْنِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ.

عاصم، وحزمة، والكسائي: بالتخفيف. وفي هذه الواو ثلاثة أقوال^(١): أحدها: أنها زائدة، روي عن جماعة من اللغويين منهم الفراء. والثاني: أنها واو الحال؛ فالمعنى: جاؤوها وقد فُتحت أبوابها، فدخلت الواو لبيان أن الأبواب كانت مفتحة قبل مجيئهم، وحذفت من قصة أهل النار لبيان أنها كانت مُغلقة قبل مجيئهم، ووجه الحكمة في ذلك من ثلاثة أوجه: أحدها: أن أهل الجنة جاؤوها وقد فُتحت أبوابها ليستعجلوا السرور والفرح إذا رأوا الأبواب مفتحة، وأهل النار يأتونها وأبوابها مُغلقة ليكون أشدَّ لحرها، ذكره أبو إسحاق ابن شاذل من أصحابنا^(٢). والثاني: أن الوقوف على الباب المغلق نوعٌ ذلٌّ، فصين أهل الجنة عنه، وجعل في حق أهل النار، ذكره لي بعض مشايخنا. والثالث: أنه لو وجد أهل الجنة بابها مُغلقة لأثر انتظار فتحه في كمال الكرم، ومن كمال الكرم غلق باب النار إلى حين مجيء أهلها، لأن الكريم يعجل المشوبة، ويؤخر العقوبة، وقد قال ﷺ: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]؛ قال المصنف: هذا وجهٌ خطر لي. والقول الثالث: أن الواو زيدت، لأن أبواب الجنة ثمانية، وأبواب النار سبعة، والعرب تُعطي في العدد بالواو على ما فوق السبعة على ما ذكرناه في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَاتَّيْنَاهُمْ كُلِّهِمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، حكى هذا القول والذي قبله الثعلبي. واختلف العلماء أين جواب هذه الآية على ثلاثة أقوال: أحدها: أن الجواب محذوف، قاله أبو عبيدة، والمبرد، والزجاج في آخرين. وفي تقدير هذا المحذوف قولان. أحدهما: أن تقديره: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ...﴾ إلى آخر الآية... سَعِدُوا، قاله المبرد. والثاني: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ...﴾ دخلوها، وإنما حذف، لأن في الكلام دليلاً عليه، وهذا اختيار الزجاج. والقول الثاني: أن الجواب: قال لهم خزنتها، والواو زائدة، ذكره الأخفش، قال: ومثله في الشعر:

فإذا وذلك يا كُبَيْشَةُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا كَلِمَةً حَالِمٍ بِحَيَالٍ^(٣)

أي: فإذا ذلك. والثالث: الجواب: حتى إذا جاؤوها فُتحت أبوابها، والواو زائدة، حكاه الزجاج عن قوم من أهل اللغة. وفي قوله: ﴿يَلْبِثُ﴾ خمسة أقوال: أحدها: أنهم إذا انتهوا إلى باب الجنة وجدوا عند بابها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فيشربون من إحداهما، فلا يبقى في بطونهم أذى ولا قذى إلا خرج، ويفتسلون من الأخرى، فلا تغبر جلودهم ولا تشعث أشعارهم أبداً، حتى إذا انتهوا إلى باب الجنة قال لهم عند ذلك خزنتها: ﴿سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ يَلْبِثُ﴾، رواه عاصم بن ضمرة عن علي ﷺ^(٤)، وقد ذكرنا في [الأعراف: ٤٤] نحوه عن ابن عباس. والثاني: طاب لكم المقام، قاله ابن عباس. والثالث: طِبْتُمْ بطاعة الله، قاله مجاهد. والرابع: أنهم طُيِّبُوا قَبْلَ دخول الجنة بالمغفرة، واقتُص من بعضهم ليغض، فلما هُذِّبُوا قالت لهم الخَزَنَةُ: طِبْتُمْ، قاله قتادة. والخامس: كنتم طيبين في الدنيا، قاله الزجاج. فلما دخلوها قالوا: ﴿أَلْحَسَنُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُوهُ﴾ بالجنة ﴿وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ﴾ أي أرض الجنة ﴿نَتَبَرَّأَ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَأُ﴾ أي: نتخذ فيها من المنازل ما نشاء. وحكى أبو سليمان الدمشقي أن أمة محمد ﷺ يدخلون الجنة قبل الأمم، فينزلون منها حيث شاؤوا، ثم تنزل الأمم بعدهم فيها، فلذلك قالوا: ﴿نَتَبَرَّأَ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَأُ﴾، يقول الله ﷻ: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ أي: نعم ثواب المطيعين في الدنيا الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمَلِكَةَ حَافِيَةً مِنْ حَوْلِ الْمَرْيَةِ﴾: أي مُخْدِقِينَ به، يقال: حَفَّ القومُ بفلان: إذا أخذوا به؛

(١) وهي الواو في قوله تعالى: ﴿وَوُحِّتَ إِلَيْهَا وَقَالَ لَنْتُ خَزَنَتَهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ﴾.

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عمر بن حمدان بن شاذل البزار الحنبلي، جليل القدر، كثير الرواية، حسن الكلام في الأصول والفروع، توفي رحمه الله سنة (٣٦٩ هـ).

(٣) البيت لتميم بن مقبل، «ديوانه» ٢٥٩ من قصيدة مطلعها:

سَائِلٌ بِكُبَيْشَةٍ دَارِسَ الْأَطْلَالِ قَدْ مَيَّبَجَشَكَ رُسُومُهَا لِشَوَالِ

وهو في الطبري ٣٦/٢٤، «المصاحح» و«اللسان» و«التاج»: لم. ورواية البيت في الديوان: إِلَّا تَحَلَّمَتْ... والتَحَلَّمْتُ: التَّوَدَّ من «حَلَمَ»: إذا رأى شيئاً في المنام، وقال ابن بري: قوله: «فإذا وذلك مبتداً، والواو زائدة، كذا ذكره الأخفش، ولم يكن خبره.

(٤) «الطبري» ٣٥/٢٤. وذكره السيوطي في «الدرر» ٣٤٢/٥، وزاد نسبته لابن المبارك في «الزهد»، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة»، والبيهقي في «البعث»، والضياء في «المختارة» عن علي ﷺ.

ودخلت «من» للتوكيد، كقولك: ما جاءني من أحد. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قال السدي، ومقاتل: بأمر ربهم. وقال بعضهم: يُسَبِّحُونَ بالحمد له حيث دخل الموحدون الجنة. وقال ابن جرير: التَّسْبِيح هاهنا بمعنى الصَّلَاة. قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الخلائق ﴿وَالْحَقُّ﴾ أي: بالعدل ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْمَالِكِينَ﴾ هذا قول أهل الجنة شُكْرًا لله تعالى على إنعامه. قال المفسرون: ابتداء الله ذِكْرَ الْخَلْقِ بِالْحَمْدِ فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] وختم^(١) غاية الأمر - وهو استقرار الفريقين في منازلهم - بالحمد لله بهذه الآية، فنبّه على تحميده في بداية كل أمرٍ وخاتمته.



(١) في الأصل: وخاتم.

سورة المؤمن

قال أبو سليمان الدمشقي: ويقال لها: سورة الطُّؤْل^(١). وهي مَكِّيَّة، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة. وحكي عن ابن عباس وقتادة أن فيها آيتين نزلتا بالمدينة: قوله: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ والتي بعدها [المؤمن: ٣٥، ٣٦]. قال الزجاج: وذكر أنَّ الحواميم كلُّها نزلت بمكة. قال ابن قتيبة: يقال: إن «حَم» اسم من أسماء الله أُضيفت هذه السُورة إليه، كأنه قيل: سُورَةُ الله، لِشَرَفِهَا وَفَضْلِهَا، فقيل: آل حَامِيم، وإن كان القرآن كلُّهُ سُورَةَ الله، وإن هذا كما يقال: بَيْتُ الله، وَحَرَمُ الله، وَنَاقَةُ الله، قال الكمي:

وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيمٍ آيَةً تَأُولُهَا مِنَّا قِسِيٌّ وَمُغْرِبٌ^(٢)

وقد نُجِّل «حَم» اسماً للسورة، ويدخل الإعراب ولا يُضَرَف، ومن قال هذا في الجميع: الحواميم، كما يقال: «طَس» والطواسين. وقال محمد بن القاسم الأنباري: العرب تقول: وقع في الحواميم، وفي آل حميم، أنشد أبو عبيدة:

حَلَفْتُ بِالسَّبْعِ اللّٰوَاتِي طُوْلَتْ
وَبِمَثَانٍ تُنْثِيَتْ فَكُرِّرَتْ
وبالحواميم اللّٰوَاتِي سُبِعَتْ
وبالمفصل اللّٰوَاتِي فَصِّلَتْ^(٣)

فمن قال: وقع في آل حَامِيم، جعل حَامِيم اسماً لِكُلِّهِنَّ؛ ومن قال: وقع في الحواميم، جعل «حَم» كأنه حرف واحد بمنزلة قاييل وهابيل. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللخوي قال: من الخطأ أن تقول: قرأت الحواميم، وليس من كلام العرب، والصواب أن تقول: قرأت آل حَامِيم. وفي حديث ابن مسعود «إذا وقعت في آل حَم» وقعت في روضات ديثات^(٤)، وقال الكمي:

وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيمٍ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَم﴾ ① نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ② غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْوَحْدِ ③

وفي ﴿حَم﴾ ① أربعة أقوال: أحدها: قَسَمَ أَقْسَمَ الله به وهو من أسمائه ﷻ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. قال أبو سليمان: وقد قيل: إن جواب القَسَم قوله: ﴿إِنَّ الَّذِي كَفَرُوا يُكَادُونَ﴾ [المؤمن: ١٠]. والثاني: أنها حروف من أسماء الله ﷻ، ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن «الر» و«حَم» و«نُون» حروف الرحمن، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: أن الحاء مفتاح اسمه «حميد»، والميم مفتاح اسمه «مجيد»، قاله أبو العالية. والثالث: أن الحاء مفتاح كل اسم لله ابتداءه حاء، مثل «حكيم»، و«حليم»، و«حي»، والميم مفتاح كل اسم له، ابتداءه ميم مثل «ملك»، و«متكبر»، و«مجيد»، حكاه أبو سليمان الدمشقي. وروي نحوه عن عطاء الخراساني. والثالث: أن معنى «حَم»: قُضِيَ ما

(١) ويقال لها أيضاً: سورة غافر.

(٢) البيت في «الكتاب» ٣٠/٢، و«مجاز القرآن» ١٩٣/٢، و«غريب القرآن» ٣٦، و«الطبري» ٤٠/٢٤، و«الصالح» و«اللسان» و«التاج»: عرب.

(٣) «مجاز القرآن» ٧/١ والزيادة بين المعقفين منه.

(٤) كذا في الأصول وكتب التفسير، وفي «النهاية» و«اللسان» و«التاج»: «قرأت آل حَامِيم» بدل «وقعت في آل حَامِيم».

(٥) قال السيوطي في «الدر» ٣٤٤/٥: أخرج أبو عبيد، ومحمد بن نصر، وابن المنذر عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: إذا وقعت في الحواميم وقت في روضات أناتئ فيهن.

هو كائن، رواه أبو صالح عن ابن عباس. ورُوي عن الضحاك والكسائي مثل هذا كأنهما أرادا^(١) الإشارة إلى حَمٍّ، بضم الحاء وتشديد الميم. قال الزجاج: وقد قيل في «حَمٍّ»: حَمٌّ الأمر. والرابع: أن «حَمٍّ» اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة. وقرأ ابن كثير: «حَمٍّ» بفتح الحاء؛ وقرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي: بكسرهما؛ واختلف عن الباقيين. قال الزجاج: أما الميم، فساكنة في قراءة القراء كلهم إلا عيسى بن عمر، فإنه فتحها؛ وفتحها على ضربين. أحدهما: أن يجعل «حَمٍّ» اسماً للسورة، فينصبه ولا ينوّه، لأنه على لفظ الأسماء الأعجمية نحو هابيل وقابيل. والثاني: على معنى: ائِثْلُ حَمٍّ؛ والأجود أن يكون فتح لالتقاء الساكنين حيث جعله اسماً للسورة، ويكون حكاية حروف الهجاء^(٢).

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ أي: هذا تنزيل الكتاب. والتَّوْبُ: جمع تَوْبَةٍ، وجائز أن يكون مصدراً من تاب يَتُوبُ تَوْباً. والظُّلُ: الفضل. قال أبو عبيدة: يقال: فلان ذو طُولٍ على قومه، أي: ذو فَضْلٍ. وقال ابن قتيبة: يقال: طُلُّ عليٍّ يرحمك الله، أي: تَفَضُّلٌ. قال الخطابي: ذو: حرف النسبة، والنسبة في كلامهم على ثلاثة أوجه. بالياء، كقولهم: أسدي، ويكري، والثاني: على الجمع، كقولهم: المَهَالِبَةُ، والمسامعة، والأزارقة، والثالث: بـ «ذِي» و«ذات»، كقولهم: رجل مال، أي: ذو مال، وكبش صاف، أي: ذو صوف، وناقصة ضامر، أي: ذات ضَمَرٍ؛ فقوله: ذو الطُّول، معناه: أهل الطُّول والفضل.

﴿مَا يَجِدُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزِلُهُ تَقْلُبُهُمْ فِي الْيَدِ ۝ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدُوا لِابْتِلَائِهِمْ يَدْعُوهُمْ بِهِ الْحَقُّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ ۝ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿مَا يَجِدُ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: ما يُخَاصِمُ فيها بالكذب لها ودفعها بالباطل ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وباقي الآية في (ال عمران: ١٩٦)؛ والمعنى: إن عاقبة أمرهم إلى العذاب كعاقبة مَنْ قَبْلَهُمْ.

قوله تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ فيه قولان: أحدهما: ليقبضوه، قاله ابن عباس، وقاتدة. والثاني: ليحبسوه ويعذبوه، ويقال للأسير: أخِذْ، حكاية ابن قتيبة. قال الأخفش: وإنما قال: «لِيَأْخُذُوهُ» فجمع على الكل، لأن الكل مذكر ومعناه معنى الجماعة. وما بعد هذا مفسر في [الكهف: ٥٦] إلى قوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي: عاقبتهم وأهلكتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ﴾ استفهام تقرير لعقوبتهم الواقعة بهم. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: ومثل الذي حَقَّ على الأمم المكذبة ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بالعذاب، وهي قوله: ﴿لَأَنلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨] على الذين كفروا من قومك. وقرأ نافع، وابن عامر: «حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ»، ﴿أَنَّهُمْ﴾ قال الأخفش: لأنهم أو بأنهم ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ عِبَادِكَ يَدْخُلُوهَا وَدَرَسْتَهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَ وَكَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝﴾

ثم أخير بفضل المؤمنين فقال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ وهم أربعة أملاك، فإذا كان يوم القيامة جعلوا ثمانية ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ قال وهب بن منبه: حَوْلُ العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به، ومن وراء هؤلاء مائة ألف صف من الملائكة ليس فيهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبحه الآخر. وقال غيره: الذين حول العرش هم الكروبيون وهم سادة الملائكة. وقد ذكرنا في السورة المتقدمة معنى قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾ أي يقولون: رَبَّنَا ﴿وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ قال الزجاج: هو منصوب على التمييز. وقال غيره: المعنى: وَسِعَتْ رَحْمَتُكَ وَعِلْمُكَ كُلَّ شَيْءٍ ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ من الشرك ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ وهو

(١) في الأصل: أراد.

(٢) قال ابن جرير الطبري: والقول في ذلك عندي نظير القول في أخواتها، قال: وقد بينا ذلك في قوله: ﴿الَّذِينَ﴾ ففي ذلك كفاية من إعادته في هذا الموضع، إذ كان القول في ﴿حَتَّى﴾ وجميع ما جاء في القرآن على هذا الوجه، أعني حروف التهجى قولاً واحداً، اهـ.

دين الإسلام. وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: ﴿وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ قال قتادة: يعني العذاب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَادَوْنَ لَمَقَتِ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَتَيْنَا نَسْرَتَكَ وَأَمَّيْنَّا فَقَاتِلْنَا فَاغْرَبْنَا بِأُفُوقِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَلَنْ يَشْرَكَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ فَلَكُمْ لِلَّهِ الْمُلْكُ الْكَبِيرُ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَادَوْنَ لَمَقَتِ اللَّهِ﴾ قال المفسرون: لما رأوا أعمالهم وأدخلوا النار مَقَتُوا أَنْفُسَهُمْ لِسُوءِ فِعْلِهِمْ، فناداهم مُنَادٍ: لَمَقَتِ اللَّهُ إِيَّاكُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ أَكْبَرُ مِنْ مَقَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ. ثم أخبر عما يقولون في النار بقوله: ﴿رَبَّنَا أَتَيْنَا نَسْرَتَكَ وَأَمَّيْنَّا فَقَاتِلْنَا فَاغْرَبْنَا بِأُفُوقِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ وهذا مثل قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَشْوَكَأْتُمْ ثُمَّ يُبَيِّنُكُمْ ثُمَّ يُبَيِّنُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] وقد فسّرناه هنالك.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ﴾ أي: من النار إلى الدنيا لنعمل بالطاعة ﴿وَمِنْ سَبِيلٍ﴾؟ وفي الكلام اختصار، تقديره: فأجيبوا أن لا سبيل إلى ذلك؛ وقيل لهم: ﴿ذَلِكُمْ﴾ يعني العذاب الذي نزل بهم ﴿بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ أي: إذا قيل ﴿لا إله إلا الله﴾ أنكرتم، وإن جعل له شريكاً آمستم، ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ فهو الذي حكم على المشركين بالنار. وقد بيّنا في سورة [البقرة: ٢٥٥] معنى العليّ، وفي [الرعد: ٩] معنى الكبير.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ ﴿١٣﴾ فَأَدْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْزِلَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ يُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: مصنوعاته التي تُدَلُّ على وحدانيته وقدرته. والرِّزْقُ هاهنا: المطر، سُمِّيَ رِزْقًا، لأنه سبب الأرزاق. و﴿يَتَذَكَّرُ﴾ بمعنى يَتَعَطَّ، و﴿يُنِيبُ﴾ بمعنى يَرْجِعُ إلى الطاعة. ثم أمر المؤمنين بتوحيده فقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: موحدين.

قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ قال ابن عباس: يعني رافع السموات. وحكى الماوردي عن بعض المفسرين قال: معناه: عظيم الصفات.

قوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أي: خالقه ومالكه.

قوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنه القرآن. والثاني: النبوة. والقولان مرويان عن ابن عباس. وبالأول قال ابن زيد، وبالثاني قال السدي. والثالث: الوحي، قاله قتادة. وإنما سُمِّيَ القرآن والوحي روحاً، لأن قِوَامَ الدِّينِ به، كما أن قِوَامَ البدن بالروح. والرابع: جبريل، قاله الضحاك. والخامس: الرحمة، حكاه إبراهيم الحربي.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَمْرِهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: من قضاائه، قاله ابن عباس. والثاني: بأمره، قاله مقاتل. والثالث: من قوله، ذكره الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يعني الأنبياء. ﴿لِيُنْزِلَ﴾ في المشار إليه قولان: أحدهما: أنه الله ﷻ. والثاني: النبي الذي يوحى إليه. والمراد بـ ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾: يوم القيامة. وأثبت ياء «التلاقي» في الحاليين ابن كثير ويعقوب، وأبو جعفر وافقهما في الوصل؛ والباقيون بغير ياء في الحاليين، وفي سبب تسميته بذلك خمسة أقوال: أحدها: أنه يلتقي فيه أهل السماء والأرض، رواه يوسف بن مهران عن ابن عباس. والثاني: يلتقي فيه الأولون والآخرون، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: يلتقي فيه الخلق والخالق، قاله قتادة ومقاتل. والرابع: يلتقي المظلوم والظالم، قاله ميمون بن مهران. والخامس: يلتقي المرء بعمله، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ﴾ أي: ظاهرون من قبورهم ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾. فإن قيل: فهل يخفى عليه منهم اليوم شيء؟ فالجواب: أن لا، غير أن معنى الكلام التهديد بالجزاء؛ وللمفسرين فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا

يَخْفَى عَلَيْهِ مِمَّا عَمِلُوا شَيْءٌ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ. والثاني: لَا يَسْتَرُونَ مِنْهُ بِجِبِلٍّ وَلَا مَدَرٍ، قَالَه قتادة. والثالث: أَنْ الْمَعْنَى: أَبْرَزَهُمْ جَمِيعاً، لِأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ، حَكَاهُ الماوردي.

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَمْلَكُ الْيَوْمَ﴾ اتفقوا على أَنَّ هَذَا يَقُولُهُ اللَّهُ ﷻ بَعْدَ فَنَاءِ الْخَلَائِقِ. واختلفوا فِي وَقْتِ قَوْلِهِ لَهُ عَلَى قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: [أَنَّهُ] يَقُولُهُ عِنْدَ فَنَاءِ الْخَلَائِقِ إِذَا لَمْ يَبْقَ مُجِيبٌ، فَيَرُدُّهُ عَلَى نَفْسِهِ فَيَقُولُ: ﴿لِلَّهِ الْوَيْلُ الْقَهَّارُ﴾، قَالَه الأكثرُونَ. والثاني: أَنَّهُ يَقُولُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَفِيهِمْ يُجِيبُهُ حِينَئِذٍ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يُجِيبُ نَفْسَهُ وَقَدْ سَكَتَ الْخَلَائِقُ لِقَوْلِهِ، قَالَه عطاء. والثاني: أَنَّ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ يُجِيبُونَهُ فَيَقُولُونَ: ﴿لِلَّهِ الْوَيْلُ الْقَهَّارُ﴾ قَالَه ابْنُ جَرِيرٍ.

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِسِيرٍ وَلَا لَشَيْعٍ يُطَاغُ﴾ ﴿١٨﴾ يَتْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تَخْفَى الصُّدُورُ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، قَالَه الجمهور. قال ابن قتيبة: وسميت القيامة بذلك لقربها، يقال: أَزِفَ شَخْصٌ فَلَانٌ، أَي: قُرْبٌ. والثاني: أَنَّهُ يَوْمُ حُضُورِ الْمَنِيِّ، قَالَه قطرب^(١).

قوله تعالى: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهَا تَرْتَقِي إِلَى الْحَنَاجِرِ فَلَا تَخْرُجُ وَلَا تَعُودُ، هَذَا عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ وَعَلَى الثَّانِي: الْقُلُوبُ هِيَ النُّفُوسُ تَبْلُغُ الْحَنَاجِرَ عِنْدَ حُضُورِ الْمَنِيِّ؛ قَالَ الزَّجَاجُ؛ وَ﴿كَظِيمِينَ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ، وَالْحَالُ مَحْمُولَةٌ عَلَى الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ الْقُلُوبَ لَا يُقَالُ لَهَا: كَاطِمِينَ، وَإِنَّمَا الْكَاطِمُونَ أَصْحَابُ الْقُلُوبِ؛ فَالْمَعْنَى: إِذْ قُلُوبُ النَّاسِ لَدَى الْحَنَاجِرِ فِي حَالِ كَظْمِهِمْ. قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: «كَاطِمِينَ» أَي: مَغْمُومِينَ مَمْتَلِينَ خَوْفًا وَحُزْنًا، وَالكَاطِمُ: الْمُتَمَسِّكُ لِلشَّيْءِ عَلَى مَا فِيهِ؛ وَقَدْ أَشْرْنَا إِلَى هَذَا عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْفَيْضُ﴾ [إِلَ عَمْرًا: ١٣٤]. «مَا لِلظَّالِمِينَ» يَعْنِي الْكَافِرِينَ «وَمِنْ حِسِيرٍ» أَي: قَرِيبٍ يَنْفَعُهُمْ «وَلَا شَيْعٍ يُطَاغُ» فِيهِمْ فَتَقَبَّلَ شَفَاعَتَهُ. «يَتْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ» قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: الْخَائِنَةُ وَالْخِيَانَةُ وَاحِدٌ. وَلِلْمُفَسِّرِينَ فِيهَا أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ الرَّجُلُ يَكُونُ فِي الْقَوْمِ فِتْنَةً بِهَ الْمَرَأَةِ فَيُرِيهِمْ أَنَّهُ يَغْضُ بَصْرَهُ، فَإِذَا رَأَى مِنْهُمْ غَفْلَةً لَحَظَ إِلَيْهَا، فَإِنْ خَافَ أَنْ يَغْضُ بَصْرَهُ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ. والثاني: أَنَّهُ نَظَرَ الْعَيْنَ إِلَى مَا نُهِيَ عَنْهُ، قَالَه مجاهد. والثالث: الْغَمَزُ بِالْعَيْنِ، قَالَه الضَّحَّاكُ وَالسَّدي. قال قتادة: هُوَ الْغَمَزُ بِالْعَيْنِ فِيمَا لَا يُجِيزُهُ اللَّهُ وَلَا يَرْضَاهُ. والرابع: النِّظَرَةُ بَعْدَ النِّظَرَةِ، قَالَه ابْنُ السَّائِبِ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَخْفَى الصُّدُورُ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: مَا تُضْمِرُهُ مِنَ الْفِعْلِ أَنْ لَوْ قَدَّرْتَ عَلَى مَا تَنْظُرُتَ إِلَيْهِ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ. والثاني: الْوُسُوسَةُ، قَالَه السَّدي. والثالث: مَا يُبْرِئُهُ الْقَلْبُ مِنْ أَمَانَةٍ أَوْ خِيَانَةٍ، حَكَاهُ الماوردي^(٢).

﴿وَاللَّهُ يَقْنِصُ بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿٢٠﴾ أَوَّلَمَ يَبْهَتُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ عِتْمَةً وَأَنكَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَلْخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ رَافٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاكْفَرُوا فَأَلْخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِنْ فِرْعَوْنَ وَهِنَّ وَفَدَّرَتْ فَقَالُوا سَجِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي سَكَلٍ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْنِصُ بِالْحَقِّ﴾ أَي: يَحْكُمُ بِهِ فَيَجْزِي بِالْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ» مِنَ الْأَلْهَةِ. وَقَرَأَ نَافِعٌ، وَابْنُ عَامِرٍ: «تَدْعُونَ» بِالتَّاءِ، عَلَى مَعْنَى: قُلْ لَهُمْ: ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ أَي: لَا يَحْكُمُونَ بِشَيْءٍ وَلَا يُجَاوِزُونَ بِهِ؛ وَقَدْ تَبَّهَ اللَّهُ ﷻ بِهَذَا عَلَى أَنَّهُ حَيٌّ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَأْمُرُ وَيَقْضِي مَنْ كَانَ حَيًّا، وَأَيْدِ ذَلِكَ بِذِكْرِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ، لِأَنَّهُمَا إِنَّمَا يَشْتَانُ لِحَيٍّ، قَالَه أَبُو سَلِيمَانَ الدَّمَشَقِيُّ. وَمَا بَعْدَ هَذَا قَدْ تَقَدَّمَ بَعْضُهُ (يوسف: ١٠٩) وَبَعْضُهُ ظَاهِرٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ

(١) قال ابن كثير: يَوْمَ الْآزِفَةِ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ: وَاسْمٌ بِذَلِكَ لِاقْتِرَابِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ ﴿١٨﴾ لَئِنْ كُنَّا مِنْكُمْ لَأَكِيدُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالَ ﷻ: ﴿أَتَدْعُونَ كُتَابَةً أَتَقْرَأُ وَآتَقْرَأُ الْقُرْآنَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ جَل وَعَلَا: ﴿اتَّقِرْبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ وَقَالَ: ﴿اللَّهُ أَمْرٌ أَهْوَىٰ لَا تَتَّبِعُوا لَهُ﴾ وَقَالَ جَل جلاله: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَنَّهُ يَبِيتُ وَيُؤْمِرُ الْوَيْلَ كَفَرًا...﴾ الآية. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿يَتْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تَخْفَى الصُّدُورُ﴾ ﴿١٨﴾ يخبر ﷻ عَنْ عِلْمِهِ التَّامِ الْمَحِيطِ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا، دَقِيقِهَا وَلَطِيفِهَا، لِيَحْذَرَ النَّاسَ عِلْمَهُ فِيَسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى حَقَّ الْحَيَاءِ، وَيَتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَاهِ، وَيَرَاقِبُوهُ مِرَاقِبَةً مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَرَاهُ، فَإِنَّهُ ﷻ يَعْلَمُ الْعَيْنَ الْخَائِنَةَ وَإِنْ أَبَدَتْ أَمَانَةً، وَيَعْلَمُ مَا تَطْوِي عَلَيْهِ خِيَابِ الصُّدُورِ مِنَ الضَّمَائِرِ وَالسَّرَائِرِ. اهـ.

مِنْهُمْ قُوَّةٌ ﴿٢٦﴾ وقرأ ابن عامر: «أَشَدَّ مِنْكُمْ» بالكاف، وكذلك هو في مصاحفهم، وهو على الانصراف من الغيبة إلى الخطاب، ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: من عذاب الله ﴿بَيْنَ رَاقٍ﴾ بقي العذاب عنهم. ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك العذاب الذي نزل بهم ﴿يَأْتُهُمْ كَأَن تَأْتِيَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ...﴾ إلى آخر الآية. ثم ذكر قصة موسى وفرعون ليُعتبروا. وأراد بقوله: ﴿أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكُمْ﴾ أعيذوا القتل عليهم كما كان أولاً، قاله ابن عباس. وقال قتادة: كان فرعون قد كَفَّ عن قتل ولدان، فلما بعث الله موسى، أعاد عليهم القتل ليصُدَّهم بذلك عن متابعة موسى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: إنه يذهب باطلاً ويحقيق بهم ما يريده الله ﷻ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَبُّهُ لِيَا مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بَيُّوتِ الْحِسَابِ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ رَبُّهُ لِيَا مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بَيُّوتِ الْحِسَابِ ﴿٢٩﴾ وَأَن يَكُنْ صَادِقًا يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٣٠﴾ يَقُولُ لَكُمْ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَضُرُّنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ ﴿٣٢﴾ يَتْلُو دَابَّ قَوْيَ تُجِجُ وَقَارٍ وَمُؤَمَّدٍ وَقَلْبٍ مِنَ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلُمًا لِّلْبَإِذِ ﴿٣٣﴾ وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْأَنْبَادِ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ تُؤَلَّفُ مَدِينُونَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ قَدْ رَلَّمْتُ فِي سَلَكِ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَكْتَ فُلْتُمْ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٦﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ وإنما قال هذا، لأنه كان في خاصَّة فرعون مَنْ يَمْنَعُهُ مِنْ قَتْلِهِ خوفاً من الهلاك ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ الذي يزعم أنه أرسله فلمنعه من القتل ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي: عبادتكم إياي ﴿أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «وأن» بغير ألف. وقرأ عاصم، وحمره، والكسائي: «أو أن» بالف قبل الواو، على معنى: إن لم يبدل دينكم أوقع الفساد، إلا أن نافعا وأبا عمرو قرأ: «يُظْهِرَ» بضم الياء «الفساد» بالنصب. وقرأ الباقون: «يُظْهِرَ» بفتح الياء «الفساد» بالرفع، والمعنى: يظهر الفساد بتغيير أحكامنا، فجعل ذلك فساداً بزعمه، وقيل: يقتل أبناءكم كما تفعلون بهم. فلما قال فرعون هذا، استعاذ موسى بربه فقال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر: «عُذْتُ» مبيئة الدال، وأدغمها أبو عمرو، وحمره، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف ﴿بَيْنَ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: متعظم عن الإيمان فقصده فرعون قتل موسى، فقال حينئذٍ ﴿رَجُلٌ تُؤْمِنُ مِن آلِ فِرْعَوْنَ...﴾ وفي الآل هاهنا قولان: أحدهما: [أنه] بمعنى الأهل والنسب؛ قال السدي ومقاتل: كان ابن عم فرعون، وهو المراد بقوله: ﴿رَجُلٌ يُؤْمِنُ مِن آلِ الْكَافِرِينَ﴾ [الفصل: ٢٠]. والثاني: أنه بمعنى القبيلة والعشيرة؛ قال قتادة ومقاتل: كان قبطياً. وقال قوم: كان إسرائيلياً، وإنما المعنى: قال رجل مؤمن بكنتم إيمانه من آل فرعون؛ وفي اسمه خمسة أقوال: أحدها: حزيل، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: حبيب، قاله كعب. والثالث: سمعون، بالسين المهملة، قاله شعيب الجبائي. والرابع: جبريل^(١). والخامس: شمعان، بالشين المعجمة، روي عن ابن إسحاق، وكذلك حكى الزجاج «شمعان» بالشين، وذكره ابن ماكولا بالشين المعجمة أيضاً. والأكثرون على أنه آمن بموسى لما جاء. وقال الحسن: كان مؤمناً قبل مجيء موسى^(٢)، وكذلك امرأة فرعون. قال مقاتل: كنتم إيمانه من فرعون مائة سنة.

قوله تعالى: ﴿أَقْتُلُوا رَبَّيَا أَنْ يَقُولَ﴾ أي: لأن يقول ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ وهذا استفهام إنكار ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بما يدل على صدقه، ﴿وَأَن يَكُنْ صَادِقًا فَلْيَعْلَمِ كَذِبُهُ﴾ أي: لا يضركم ذلك ﴿وَأَن يَكُنْ صَادِقًا يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي

(١) في الأصل: جبرك، والتصحيح من كتب التفسير.

(٢) قال ابن كثير: المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون، قال: قال السدي: كان ابن عم فرعون، قال: ويقال: إنه الذي نجا مع موسى عليه الصلاة والسلام، قال: واختاره ابن جرير ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً، لأن فرعون اتفعل لكلامه واستمعه وكث عن قتل موسى ﷺ، قال: ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالمقوبة لأنه منهم.

يَعِدُّكُمْ» من العذاب.. وفي «بَعْضُ» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها بمعنى «كُلٌّ»، قاله أبو عبيدة، وأنشد للبيد:

تَرَاكَ أَمَكِنَةً إِذَا لَمْ أَرْضَها
أَوْ يَغْتَلِقُ بَعْضُ النَّفْسِ حَمَامُها^(١)

أراد: كُلَّ النفوس. والثاني: أنها صِلَةٌ؛ والمعنى: يُصِيبُكُمْ الذي يَعِدُّكُمْ، حُكي عن الليث. والثالث: أنها على أصلها، ثم في ذلك قولان: أحدهما: أنه وعدهم النجاة إن آمنوا، والهلاك إن كفروا، فدخل ذكر البعض لأنهم على أحد الحالين. والثاني: أنه وعدهم على كفرهم الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، فصار هلاكهم في الدنيا بعض الوعد، ذكرهما الماوردي. قال الزجاج: هذا باب من النظر يذهب فيه المناظر إلى إلزام الحجة بأيسر ما في الأمر، وليس في هذا نفي إصابة الكل، ومثله قول الشاعر:

قَدْ يَذْرُوكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ
وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ^(٢)

وإنما ذكر البعض ليجب الكل، لأن البعض من الكل، ولكن القائل إذا قال: أقل ما يكون للمتأني إدارك بعض الحاجة، وأقل ما يكون للمستعجل الزلل، فقد أبان فضل المتأني على المستعجل بما لا يقدر الخصم أن يدفعه، فكان المؤمن قال لهم: أقل ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض الذي يَعِدُّكُمْ، وفي بعض ذلك هلاككم؛ قال: وأما بيت لبيد، فإنه أراد ببعض النفوس: نفسه وحدها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْقَاسِيَ﴾ أي: لا يوفق للصواب ﴿مَنْ هُوَ مَسْرُوفٌ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه المشرك، قاله قتادة. والثاني: أنه الشفأك للذم، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ فِي الْآزِثِ﴾ أي: عاين في أرض مصر ﴿فَمَنْ يَضُرُّكَ﴾ أي: من يَمُنُّنا ﴿مِنْ بَاسِ اللَّهِ﴾ أي: من عذابه؛ والمعنى: لا تتعرضوا للعذاب بالكذب وقتل النبي؛ فقال فرعون عند ذلك: ﴿مَا أُرِيكُمْ﴾ من الرأي والنصيحة ﴿إِلَّا مَا أَنَا لِنَفْسِي﴾ ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ﴾ أي: أدعوكم إلا إلى طريق الهدى في تكذيب موسى والإيمان بي، وهذا يدل على أنه انقطع عن جواب المؤمنين. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَتْلُو آيَاتِ اللَّهِ لَكُمْ لِيُذَكِّرَ الْآخِرَةَ﴾ قال الزجاج: أي: يثُلِّ يوم حزب حزب؛ والمعنى: أخاف أن تقيموا على كفركم فينزل بكم من العذاب مثل ما نزل بالأمم المكذبة رسلهم^(٣).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ النَّارِ﴾ قرأ عاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «النَّادِ» بغير ياء. وأثبت الياء في الوصل والوقف ابن كثير، ويعقوب، وافقهم أبو جعفر في الوصل. وقرأ أبو بكر الصديق، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وابن جبر، وأبو العالية، والضحاك: «النَّادِ» بتشديد الدال. قال الزجاج: أما إثبات الياء فهو الأصل، وحذفها حسن جميل، لأن الكسرة تدل على الياء، وهو رأس آية، وأواخر هذه الآيات على الدال، ومن قرأ بالتشديد، فهو من قولهم: نَدَّ فلان، ونَدَّ البعير: إذا هرب على وجهه، ويدل على هذا قوله: ﴿يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ يَرَى الْكَافِرُ مِنْ آيَاتِهِ﴾ [عبس: ٣٤]؛ قال أبو علي: معنى الكلام: إني أخاف عليكم عذاب يوم النَّداء. قال الضحاك: إذا سمع الناس زفير جهنم وشبهقها نَدُّوا فراراً منها في الأرض، فلا يتوجهون قطراً من أقطار الأرض إلا رأوا ملائكة، فيرجعون من حيث جاؤوا. وقال غيره: يُؤَمَّرُ بهم إلى النار فيَقْرُونَ ولا عاصم لهم. فأما قراءة التخفيف، فهي من النَّداء، وفيها للمفسرين أربعة أقوال: أحدها: أنه عند نفخة الفزع ينادي الناس بعضهم بعضاً، روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يَأْمُرُ اللَّهُ ﷻ إسرأئيل بالنفخة الأولى فيقول: انْفُخْ نفخة الفزع، فيفزع أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، فتسير

(١) البيت للبيد بن ربيعة العامري من معلقته، وهو في «دبرائه» ٣١٣، و«مجاز القرآن» ٢/ ٢٠٥، و«شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» ٥٧٣، و«مختار الشعر الجاهلي» ٢/ ٣٩٤، و«اللسان» بعض.

(٢) البيت للقطامي، وهو في «البحر المحيط» ٧/ ٤٦١.

(٣) قال ابن كثير: هذا إخبار من الله ﷻ عن هذا الرجل الصالح مؤمن آل فرعون أنه حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَتْلُو آيَاتِ اللَّهِ لَكُمْ لِيُذَكِّرَ الْآخِرَةَ﴾ أي: الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة كيف حل بهم بأس الله وما رده عنهم راد، ولا صدق عنهم صاد ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ﴾ أي: إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره فانفذ فيهم قدره، ثم قال: ﴿وَيَتَذَكَّرُ لَكُمْ يَوْمَ النَّارِ﴾ يعني يوم القيامة. اهـ.

الجبال، وترج الأرض، وتذهل المراضع، وتضع الحوامل، ويولي الناس مذبرين ينادي بعضهم بعضاً (وهو قوله: «يوم التثاق»^(١)). والثاني: أنه نداء أهل الجنة والنار بعضهم بعضاً كما ذكر في [الأعراف: ٤٤، ٥٠]، وهذا قول قتادة. والثالث: أنه قولهم: يا حسرتنا يا ويلتنا، قاله ابن جريج. والرابع: أنه ينادي فيه كل أناس بإمامهم بسعادة السعداء وشقاوة الأشقياء.

قوله تعالى: «يَوْمَ تُولَىٰ مُذْبِرِينَ» فيه قولان: أحدهما: هرباً من النار. والثاني: أنه انصرفهم إلى النار.

قوله تعالى: «مَا لَكُمْ يَنْ آتِي عَاصِرٍ» أي: من مانع.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ» وهو يوسف بن يعقوب، ويقال: إنه ليس به، وليس بشيء.

قوله تعالى: «مِنْ قَبْلُ» أي: مِنْ قَبْلِ مُوسَى «بِالْبَيِّنَاتِ» وهي الدلالات على التوحيد، كقوله: «أَرْكَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ...» الآية (يوسف: ٣٩)، وقال ابن السائب: البيئات: تعبير الرؤيا وشق القميص، وقيل: بل بعثه الله تعالى بعد موت ملك مصر إلى القبط.

قوله تعالى: «فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ» أي: من عبادة الله وحده «حَقَّ إِذَا هَلَكَ» أي: مات «فَلْتَرَوْا أَنَّ يَجْعَلَ اللَّهُ مِنْ بَيْنِهِ رَسُولًا» أي: إنكم أقمتهم على كفرهم وظننتم أن الله لا يجدد لإيجاب الحجة عليكم «كَذَلِكَ» أي: ومثل هذا الضلال «يُفِئِلُ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِئٌ» أي: مُشْرِكٌ «مُزْنًا» أي: شاكٌ في التوحيد وصدق الرسل^(٢).

«الَّذِينَ يَجْتَدِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِحُجَّتِهِمْ أَنْتَهُمْ كَبَرُ مَقَامًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ ۝٣٥ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَكَبَّرُونَ إِنِّي بِي صَرْمًا لَعَلِّي أَتْلُعُ ۝٣٦ أَسْتَبِ السَّمَكَاتِ فَأَطْلُعَ إِلَيْهَا إِلَهُ مُوسَى وَإِنِّي لَأَكْظِمُهُ كَذِبًا ۝٣٧ وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سَوْءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ۝٣٨»

قوله تعالى: «الَّذِينَ يَجْتَدِلُونَ» قال الزجاج: هذا تفسير المسرف المرتاب، والمعنى هم الذين يجادلون في آيات الله. قال المفسرون: يجادلون في إبطالها والتكذيب بها بغير سلطان، أي: بغير حجة أنتهم من الله. «كَبَرُ مَقَامًا» أي: كَبَرُ جَدَالُهُمْ مَقَامًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا، والمعنى: يَمْتَقِنُهُمُ اللَّهُ وَيَمْتَقِنُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ الْجِدَالِ. «كَذَلِكَ» أي: كما طمع الله على قلوبهم حتى كذبوا وجادلوا بالباطل، يطع «عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ» عن عبادة الله وتوحيده. وقد سبق بيان معنى الجبار في [هود: ٥٩]. وقرأ أبو عمرو: «على كل قلب» بالتثنية، وغيره من القراء السبعة يضيفه. وقال أبو علي: المعنى: يطع على جملة القلب من المتكبر. واختار قراءة الإضافة الزجاج، قال: لأن المتكبر هو الإنسان، لا القلب. فإن قيل: لو كانت هذه القراءة أصوب لتقدم القلب على الكل؟ فالجواب: أن هذا جائز عند العرب، قال الفراء: تقدم هذا وتأخره واحد، سمعت بعض العرب يقول: هو يرجل شعره يوم كل جمعة، يريد: كل

(١) هذا جزء من حديث الصور الطويل، وقد ذكره الحافظ ابن كثير في «تفسيره» - عند قوله تعالى: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ» من سورة [الأنعام: ٧٣] - بطوله من رواية الحافظ أبي القاسم الطبراني في كتابه «المطولات» ثم نقل عن الطبراني قوله عقب الحديث: هذا حديث مشهور، وهو غريب جداً، ولبعض شواهد في الأحاديث المطرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع قاضي أهل المدينة، وقد اختلف فيه، فمنهم من وثقه، ومنهم من ضعفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة، كأحمد بن حنبل، وأبي حاتم الرازي، وعمر بن علي الفلام، ومنهم من قال فيه: هو متروك، وقال ابن عدي: أحاديث كلها فيها نظر، إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء، قال ابن كثير: قلت: وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجه كثيرة قد أفردتها في جزء على حدة، وأما سياقه فغريب جداً، ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقاً واحداً فأنكر عليه بسبب ذلك، ثم قال ابن كثير: وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول: إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفاً قد جمعه كالشواهد لبعض مفردات هذا الحديث، قاله أعلم. اهـ. والحديث أورده السيوطي في «الدرر» ٣٣٩/٥ - ٣٤٢، بطوله، وزاد نسبه لعبد بن حميد، وعلي بن سعيد في كتاب «الطاعة والمصيان»، وأبي يعلى، وأبي الحسن القنطاري في «المطولات»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي موسى المديني في «المطولات»، وأبي الشيخ في «المعظمة»، والبيهقي في «البعث والنشور» عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) قال ابن كثير: وقوله تبارك وتعالى: «وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْيُونُسَ» يعني أهل مصر قد بعث الله فيهم رسولاً من قبل موسى عليه الصلاة والسلام، وهو يوسف عليه الصلاة والسلام، كان عزيز أهل مصر وكان رسولاً يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط، فما أطاعوه تلك الطاعة إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوي، ولهذا قال تعالى: «فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَقَّ إِذَا هَلَكَ فَلْتَرَوْا أَنَّ يَجْعَلَ اللَّهُ مِنْ بَيْنِهِ رَسُولًا» أي: يشتتم فقلتم طامعين: «أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ مِنْ بَيْنِهِ رَسُولًا» وذلك لكفرهم وتكذيبهم «كَذَلِكَ يُفِئِلُ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِئٌ مُزْنًا» أي: كحالكم هذا يكون حال من يفضل الله لإسرافه في أفعاله وأرتيابه قلبه.

يوم الجمعة، والمعنى واحد. وقد قرأ ابن مسعود، وأبو عمران الجوني: «على قلب كل متكبر» بتقديم القلب. قال المفسرون: فلما وعظ المؤمنُ فرعونَ وزجره عن قتل موسى، قال فرعونُ لوزيره: ﴿يَهَيِّئْ لِي مَرَاتًا﴾ وقد ذكرناه في [الفصل: ٣٨].

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّيْ أَتْلُجَ الْأَسْبَبَ أَشَدَّ السَّمَوَاتِ﴾ قال ابن عباس وقتادة: يعني أبوابها. وقال أبو صالح: طرقها. وقال غيره: المعنى: لعلِّي أبلغُ الطُّرُقَ من سماءٍ إلى سماءٍ. وقال الزجاج: لعلِّي أبلغُ ما يؤدِّني إلى السموات. وما بعد هذا مفسَّر في [الفصل: ٣٨] ^(١) إلى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: ومثلُ ما وصفنا ﴿رُبَّنْ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ﴾ عن سبيل الهدى. قرأ عاصم، وحزمة والكسائي: «وصُدَّ» بضم الصاد، والباقون بفتحها، ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ في إبطال آيات موسى ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: في بطلان وخسران.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَتْلُو آيَاتِهِمْ لِقَوْمِهِمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ﴾ يَقْوَرُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِنْهَا وَلَا يَتْلُو سَبِيلَ الرِّشَادِ﴾ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ دُونِ ذَلِكَ أَوْ نَفْسٍ فَهُوَ مُؤْتٍ بِهَا فَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِنَبِيِّهُمْ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِخَيْرٍ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

ثم عاد الكلام إلى نصيحة المؤمن لقومه، وهو قوله: ﴿آيَاتِهِمْ لِقَوْمِهِمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ﴾ أي: طريق الهدى، ﴿يَقْوَرُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ﴾ يعني الحياة في هذه الدار متاع يُمتَّعُ بها أياماً ثم تنقطع ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ التي لا زوال لها ^(٢). ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها الشُّرك، ومثلها جهنم، قاله الأكثرون. والثاني: المعاصي، ومثلها: العقوبة بمقدارها، قاله أبو سليمان الدمشقي. فعلى الأول، العمل الصالح: التوحيد، وعلى الثاني هو [على] الإطلاق.

قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِنَبِيِّهِمْ يَقُولُوا بَعْثُوا مُنْقِذًا بِأَيِّ آلَاءِ رَبِّهِمْ أَكْثَرُ﴾ وفي قوله: ﴿بَعْثُوا مُنْقِذًا﴾ قولان: أحدهما: أنهم لا تبعثوا عليهم وحزمة، والكسائي: بالفتح، وعن عاصم كالقراءتين. وفي قوله: ﴿بَعْثُوا مُنْقِذًا﴾ قولان: أحدهما: أنه يُصَبُّ عليهم الرُّزْقُ صَبًّا بغير تقدير، قاله أبو سليمان الدمشقي.

﴿وَيَقُولُوا مَا لِيَ آدَعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَيَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْقُدُّوسِ ﴿لَا جَوْلَ لَنَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَمْ دَعَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَسْحَبُ النَّارِ﴾ سَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَقْرَبُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَعِثَ فِي الْبَاطِلِ رَسُولًا لَّهُ أَشَدُّ الْعَذَابِ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُوا مَا لِيَ آدَعُوكُمْ﴾ أي: مالكم، كما تقول: مالي أراك حزينا، معناه: مالك، ومعنى الآية: أخبروني كيف هذه الحال، أدعوكم ﴿إِلَى النَّجْوَى﴾ من النار بالإيمان، ﴿وَيَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ أي: إلى الشُّرك الذي يوجب النار؟! ثم فسَّر الدُّعوتين بما بعد هذا. ومعنى ﴿لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: لا أعلم هذا الذي أدعوه شريكاً له. وقد سبق بيان ما بعد هذا [البقرة: ١٢٠، ط: ٨٢] إلى قوله: ﴿لَيْسَ لَمْ دَعَا﴾ وفيه قولان: أحدهما: ليس له استجابة دعوة، قاله السدي. والثاني: ليس له شفاعة، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: مَرَجَعْنَا، والمعنى أنه يجازينا بأعمالنا. وفي المُسْرِفِينَ قولان قد ذكرناهما عند قوله: ﴿مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

(١) قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن فرعون وعنه وتمرده وإفترائه في تكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحاً - وهو القصر العالي المنيف الشامخ - وكان اتخاذه من الأجر المضروب من الطين المشوي، كما قال تعالى: ﴿فَأَوْذَى بِهِ يُهَضِّنْ عَلَى الْطِينِ فَالْمَسَّ فِي مَرْجَاةٍ﴾.

(٢) قال ابن كثير: يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطفى وأثر الحياة الدنيا ونسي الجبار الأعلى فقال لهم: ﴿يَقْوَرُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ﴾ لا كما كذب فرعون في قوله: ﴿وَمَا آيَاتِي إِلَّا سَبِيلُ الرِّشَادِ﴾ ثم زُهِدَ في الدنيا التي قد آثروها على الأخرى وصدَّتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿يَقْوَرُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ﴾ أي: قليلة زائلة فانية، عن قريب تذهب وتضمحل ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أي: الدار التي لا زوال لها ولا انتقال منها ولا ظن عنها إلى غيرها، بل، إما نعيم، وإما جحيم. اهـ.

قوله تعالى: ﴿سَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبو العالية، وأبو عمران الجوني، وأبو جاء: «فستذكرون» بفتح الذال وتخفيفها وتشديد الكاف وفتحها؛ وقرأ أبي بن كعب، وأيوب السخيتاني: بفتح الذال والكاف وتشديدهما جميعاً. أي: إذا نزل العذاب بكم، ما أقول لكم في الدنيا من النصيحة؟! ﴿وَأَفْرِضْ أَثَرَتِ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: أرده^(١)، وذلك أنهم تواعدوه لمخالفتي دينهم ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعَمَالِ﴾ أي: بأوليائه وأعدائه. ثم خرج المؤمن عنهم، فطلبوه فلم يقدروا عليه، ونجا مع موسى لما عبر البحر، فذلك قوله: ﴿فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أي: ما أرادوا به من الشر ﴿وَنَجَّى بِكَالٍ فِرْعَوْنَ﴾ لما لجوا في البحر ﴿سَوْءَ الْعَذَابِ﴾ قال المفسرون: هو الغرق^(٢).

قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾^(٣) قال ابن مسعود وابن عباس: إن أرواح آل فرعون في أجواف طير سود يُعْرَضُونَ على النار كُلَّ يومٍ مرتين فيقال: يا آل فرعون هذه داركم. وروى ابن جرير قال: حدثنا عبد الكريم بن أبي عمير، قال: حدثنا حماد بن محمد البلخي قال: سمعت الأوزاعي، وسأله رجل، فقال: رأينا طيوراً^(٤) تخرج من البحر فتأخذ ناحية الغرب يَبْضًا، فزجاً فزجاً، لا يعلم عددها إلا الله، فإذا كان العشي رجع مثلها سوداً، قال: وقطنتم إلى ذلك؟ قال: نعم، قال: إن تلك الطير في حواصلها أرواح آل فرعون يُعْرَضُونَ على النار غُدُوًّا وَعَشِيًّا، فترجع إلى وكورها وقد احترقت رياشها وصارت سوداء، فينبئت عليها من الليل رياش يَبْضٍ، وتتأثر السود، ثم تغدو ويعرضون^(٥).

(١) قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره مبرراً عن قيل المؤمن من آل فرعون لفرعون وقومه: فستذكرون أيها القوم - إذا عاينتم عقاب الله قد حلَّ بكم، ولقيتم ما لقيتموه - صديقاً ما أقول، وحقيقة ما أخبركم به من أن المسرفين هم أصحاب النار، ثم قال: وقوله: ﴿وَأَفْرِضْ أَثَرَتِ إِلَى اللَّهِ﴾ يقول: وأسلم أمري إلى الله وأجعله إليه وأتركه عليه فإنه الكافي من توكل عليه. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: ﴿وَنَجَّى بِكَالٍ فِرْعَوْنَ سَوْءَ الْعَذَابِ﴾ وهو الغرق في اليم ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّكَّةَ أَنْظِرْنَا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي: أشدَّ ألماً، وأعظمه تكالاً.

(٣) قال ابن كثير: وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ قال: ولكن هنا سؤال، وهو أنه لا شك أن هذه الآية مكية، وقد استدلوا بها على عذاب القبر في البرزخ، وقد قال الإمام أحمد: ثنا هاشم - هو ابن القاسم أبو النصر - ثنا إسحاق بن سعيد - هو ابن عمرو بن سعيد بن العاص - ثنا سعيد - يعني أباه - عن عائشة ؓ أن يهودية كانت تخدمها فلا تصنع عائشة ؓ إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاك الله عذاب القبر، قالت عائشة ؓ: فدخل رسول الله ﷺ عليّ فقلت: يا رسول الله هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال ﷺ: «لا، من زعم ذلك؟» قالت: هذه اليهودية لا أصنع معها شيئاً من المعروف إلا قالت: وقاك الله عذاب القبر، قال ﷺ: «كذبت يهودية، وهم على الله أكذب، لا عذاب دون يوم القيامة» ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتماً بثوبه محمراً عيناه وهو ينادي بأعلى صوته: «القبر قطع الليل المظلم، أيها الناس لو تعلمون ما أعلم بكتم كثيراً وضحكتم قليلاً، أيها الناس استعملوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق» قال: وهذا إسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم، ولم يخرجاه، قال: وروى أحمد ومسلم: ثنا يزيد، ثنا سفيان، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة ؓ قالت: سألتها امرأة يهودية فأعطتها، فقالت لها: وقاك الله من عذاب القبر، فأكثرت عائشة ؓ ذلك، فلما رأت النبي ﷺ قالت له، فقال ﷺ: «لا» قالت عائشة ؓ: ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك: «فإنه أرحم إلي أنكم تفتنون في قبوركم» قال: وهذا أيضاً على شرطهما. قال: فيقال: فبما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية وفيها الدلالة على عذاب البرزخ؟ قال: والجواب أن الآية دلت على مرض الأرواح على النار غُدُوًّا وَعَشِيًّا في البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها في القبور، إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح، فأما حصول ذلك للجسد في البرزخ وتألمه بسببه، فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث المرضية الآتي ذكرها. قال: وقد يقال: إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره بنبذ، قال: ومما يدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد: ثنا عثمان بن عمر، ثنا يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة ؓ أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود وهي تقول: أشعرت أنكم تفتنون في قبوركم؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنما يفتن يهود» قالت عائشة ؓ: فلبنا لبالي، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشعرت أنه أوحى إلي أنكم تفتنون في القبور؟» وقالت عائشة ؓ: فكان رسول الله ﷺ يمدّ يستميز من عذاب القبر، قال: وهكذا رواه مسلم عن هارون بن سعيد، وحمرلة، كلاهما عن ابن وهب، عن يونس بن يزيد الأيلي عن الزهري به. قال: وقد يقال: إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح في البرزخ، قال: ولا يلزم من ذلك أن يتصل في الأجساد في قبورها، فلما أوحى إلى النبي ﷺ في ذلك بخصوصه، استعاذ منه، والله سبحانه وتعالى أعلم. قال: وقد روى البخاري من حديث شعبة عن أشعث عن ابن أبي الشئمة عن أبيه عن مسروق عن عائشة ؓ أن يهودية دخلت عليها فقالت: نموذ بالله من عذاب القبر، فسألت عائشة ؓ رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال ﷺ: «نعم عذاب القبر حق» قالت عائشة ؓ: فما رأيت رسول الله ﷺ يمدّ صلى صلاة إلا تمؤد من عذاب القبر. قال ابن كثير: فهذا يدل على أنه يادر ﷺ إلى تصديق اليهودية في هذا الخبر، وقَرَّرَ عليه، قال: وفي الأخبار المتقدمة أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحي، قال: ففعلهما قضيتان، والله سبحانه أعلم، قال: وأحاديث عذاب القبر كثيرة جداً.

(٥) في الأصل: «يعرضون» بغير واو، والتصويب من «الطبري».

(٤) في الأصل: «طيراً» والتصويب من «الطبري».

على النار غدواً وعشيا، لثم ترجع إلى وكورها^(١)، فذلك دأبها^(٢) في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قال الله ﷻ: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾. وقد روى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ أَحَدُكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْقَدَةِ وَالْعَشِي، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ [أَهْلِ] الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ [أَهْلِ] النَّارِ، يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣). وهذه الآية تدل على عذاب القبر، لأنه بين ما لهم في الآخرة فقال: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا قُرْأَ ابْنِ كَثِيرٍ، وَابْنَ عَامِرٍ، [وَأَبُو عَمْرٍو]، وَأَبُو بَكْرِ وَأَبَانُ عَنْ عَاصِمٍ: «السَّاعَةُ أَدْخِلُوا» بِالضَّمِّ وَضَمَّ الْخَاءِ عَلَى مَعْنَى الْأَمْرِ لَهُمْ بِالْدُخُولِ، وَالْإِبْتِدَاءُ عَلَى قِرَاءَةِ هَؤُلَاءِ بِضَمِّ الْأَلْفِ. وَقُرْأَ الْبَاقُونَ: بِالْفَتْحِ مَعَ كَسْرِ الْخَاءِ عَلَى جِهَةِ الْأَمْرِ لِلْمَلَائِكَةِ بِإِدْخَالِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ يَبْتَغُونَ بِفَتْحِ الْأَلْفِ.

﴿وَإِذْ يَتَجَفَّوْنَ فِي النَّارِ يُقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّْا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾^(٤) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْيَسَادِ^(٥) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُحْجِبْ عَنَّْا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ^(٦) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ^(٧) إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ^(٨) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الْفَالِطِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ^(٩)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَجَفَّوْنَ فِي النَّارِ﴾ المعنى: واذكر لقومك يا محمد إذ يختصمون، يعني أهل النار، والآية مفسرة في [سورة] [إبراهيم: ٢١]، والذين استكبروا هم القادة. ومعنى ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أي: نحن وأنتم، ﴿إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْيَسَادِ﴾ أي: قضى هذا علينا وعليكم^(١٠). ومعنى قول الخزنة لهم: ﴿فَادْعُوا﴾ أي: نحن لا ندعو لكم ﴿وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: إن ذلك يبطل ولا ينفع^(١١). ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن ذلك بإثبات حُججهم. والثاني: بإهلاك عدوهم. والثالث: بأن العاقبة تكون لهم. وفصل الخطاب: أن نصرهم حاصل لا بد منه، فتارة يكون بإعلاء أمرهم كما أعطى داود وسليمان من المُلْك ما قهرا به كل كافر، وأظهر محمداً ﷺ على مكذبيه، وتارة يكون بالانتقام من مكذبيهم بإنجاء الرسل وإهلاك أعدائهم، كما فعل بنوح وقومه وموسى وقومه، وتارة يكون بالانتقام من مكذبيهم بعد وفاة الرسل، كسليطه بختنصر على قتلة يحيى بن زكريا. وأما نصرهم يوم يقوم الأشهاد، فإن الله منجهم من العذاب، وواحد الأشهاد شاهد، كما أن واحد الأصحاب صاحب. وفي الأشهاد ثلاثة أقوال: أحدها: الملائكة، شهدوا للأنبياء بالإبلاغ وعلى الأمم بالكذب، قاله مجاهد، والسدي. قال مقاتل: وهم الحفظة من الملائكة. والثاني: الملائكة والأنبياء، قاله قتادة. والثالث: أنهم أربعة: الأنبياء والملائكة والمؤمنون والجوارح، قاله ابن زيد^(١٢).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «تَنْفَعُ» بالناء، والباقون بالياء؛ لأن المعذرة والاعتذار بمعنى. «الْفَالِطِينَ مَعَذِرَتُهُمْ» أي: لا يقبل منهم إن اعتذروا ﴿وَلَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: البعد من الرحمة. وقد بينا في [الرد: ٢٥] أن «لهم» بمعنى «عليهم»، و«سوء الدار»: النار.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهَدًى وَأَرْسَلْنَا بِنِي إِسْرَافِيلَ أَنِ كَتِبْ^(١٣) هَذِي وَذَكَرِي لِأَوَّلِي الْأَنْبِيَاءِ^(١٤) فَاصْبِرْ إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَفِيزْ لِذِيكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْغُشِيِّ وَالْإِنْكَارِ^(١٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَعْتَدِلُونَ^(١٦) إِنَّهُمْ لَنُحْشَرُنَّ لَهُمْ فِي

(٢) في الأصل: «دأبهم» والتصويب من «الطبري».

(١) زيادة من «الطبري».

(٤) رواء البخاري ١٩٣/٣، ومسلم ٢١٩٩/٤.

(٣) زيادة من «البخاري» ومسلم.

(٥) قال ابن جرير الطبري ﴿إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْيَسَادِ﴾ بفصل فضائه، فأسكن أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فلا نحن مما نحن فيه من البلاء خارجون، ولا هم مما فيه من النعيم متقلون. اهـ.

(٦) قال ابن جرير: وقوله: ﴿وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ يقول: قد دعوا، وما دعاؤهم إلا في ضلال، لأنه دعاء لا ينفعهم ولا يستجاب لهم، بل يقال لهم: اخسروا فيها ولا تكلمون. اهـ. وقال ابن كثير: ﴿وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ إلا في ذهاب لا يقبل ولا يستجاب. اهـ.

(٧) قال ابن كثير: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي: يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل. اهـ.

الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي فِيهِ قَوْلَان: أحدهما: عن توحيدِي، والثاني: عن دعائي ومسالتي ﴿سَيَذَخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾^(١) قرأ ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم، وعباس بن الفضل^(٢) عن أبي عمرو: «سَيَذَخُلُونَ» [بضم الياء]، والباقون بفتحها. والدأخر: الضأغر. وما بعد هذا قد سبق في مواضع متفرقة [يونس: ٦٧، القصص: ٧٣، الأنعام: ٩٥، النمل: ٦١، الأعراف: ٥٤، الحج: ٤٥] إلى قوله: ﴿وَلَبِئْسَ أَجْلاً مَسْئَةً﴾ وهو أجل الحياة إلى الموت ﴿وَلَمَّا كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ توحيد الله وقدرته.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَمْجِدُونَ فِي عِبَادَتِي اللَّهُ أَنَّهُمْ بُصُرُونَ﴾^(٣) الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَمُوتُونَ ﴿٥٧﴾ إِذِ الْأَغْطَالُ فِي أَغْتَابِهِمْ وَالْأَسْلَافُ يَسْجُونَ ﴿٥٨﴾ فِي اللَّيْمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٥٩﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ إِنَّ مَا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَوْ كُنَّا نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٦١﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمُرَّحُونَ ﴿٦٢﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَلِيسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٣﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْفَا نُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي فَدَعْتُمْ أَوْ تَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْبَاطِلُونَ ﴿٦٥﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْفَ لِيَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُلُوبِكُمْ وَعَلَيْهَا وَكَلِ الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَتُرِيكُمْ آيَاتِنَا فَاتَى عِبَادَتِي اللَّهُ تَشْكُرُونَ ﴿٦٨﴾ أَفَلَمْ يَبْسُرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ مِمَّا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَنَافَتْ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِمْ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧٠﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَنَعَدُكُمْ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٧١﴾ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَفْصَلٌ مِنْهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَكَتَ اللَّهُ الْيَوْمَ قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادَتِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٧٢﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَمْجِدُونَ فِي عِبَادَتِي اللَّهُ﴾ يعني القرآن، يقولون: ليس من عند الله، ﴿أَنَّهُمْ بُصُرُونَ﴾ أي: كيف صُرفوا عن الحق إلى الباطل؟! وفيهم قولان: أحدهما: أنهم المشركون، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم القدرية، ذكره جماعة من المفسرين. وكان ابن سيرين يقول: إن لم تكن نزلت في القدرية فلا أدري فيمن نزلت^(٣). وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وأبو رزين، وأبو مجلز، والضحاك، وابن عمر، وابن أبي عبيدة: «والسلاسل يسحبون» بفتح اللام والياء. وقال ابن عباس: إذا سحبوها كان أشد عليهم.

قوله تعالى: ﴿يَسْجَرُونَ﴾ قال مجاهد: ترقد بهم النار فصاروا وقودها. قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ مفسر في [الأعراف: ١٩٠]. وفي قوله: ﴿لَوْ كُنَّا نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ قولان: أحدهما: أنهم أرادوا أن الأصنام لم تكن شيئاً، لأنها لم تكن تُضَر ولا تنفع، وهو قول الأكثرين. والثاني: أنهم قالوه على وجه الجحود، قاله أبو سليمان الدمشقي، ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما أضل الله هؤلاء يضل الكافرين. ﴿ذَلِكُمْ﴾ العذاب الذي نزل بكم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: بالباطل ﴿وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمُرَّحُونَ﴾ وقد شرحنا المَرَح في [ابن إسرائيل: ٣٧]. وما بعد هذا قد تقدم بشامه [النمل: ٢٩، يونس: ١٠٩، النساء: ١٦٤] إلى قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وذلك لأنهم كانوا يقتربون عليه الآيات ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو قضاؤه بين الأنبياء وأممهم، و﴿الْمُطِيلُونَ﴾: أصحاب الباطل.

١ - إليه من سأله فأكثر سؤاله، وبما من أبغض عباده إليه من لم يسأله، وليس أحد كذلك غيرك يا رب، رواه ابن أبي حاتم، قال: وفي هذا المعنى يقول الشاعر:
الله يفضض إن تركت سؤاله
ويضيئ آدم حين يسأل يفضض
٢ - وروى الإمام أحمد في «المستدرك» ٢٧١/٤ عن الثعالب بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة» ثم قرأ: ﴿أَتَدْعُونَ شَيْئًا لَكُمْ إِنْ

الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَرْيَةً﴾ ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وهو كما قال. والحديث ذكره السيوطي في «الدرة» ٣٥٥/٥، وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري في «الأدب المفرد» وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبي نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن الثعالب بن بشير رضي الله عنه.

٣ - قال ابن الجزري في «طبقات القراء»: العباس بن الفضل بن عمرو بن عبيد بن الفضل بن حنظلة أبو الفضل الواقفي الأنصاري البصري، قاضي الموصل، أستاذ حاذق ثقة، قال الحافظ أبو العلاء: وكان من أكابر أصحاب أبي عمرو في القراءة.

٤ - «الطبري» ٨٣/٢٤ من رواية سفيان عن داود بن أبي هند عن محمد بن سيرين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا عِلَّتِيَّ حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي: حوائجكم في البلاد^(١).

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّى آيَاتِ اللَّهِ تُكْفِرُونَ﴾ استفهام توبيخ^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ في «ما» قولان: أحدهما: أنها للنفي. والثاني: [أنها] للاستفهام، ذكرهما ابن جرير^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: [أنهم] الأمم المكذبة، قاله الجمهور؛ ثم في معنى الكلام قولان. أحدهما: أنهم قالوا: نحن أعلم منهم لن نُبْعَثَ ولن نُحَاسَبَ، قاله مجاهد. والثاني: فرحوا بما كان عندهم أنه عِلْمٌ^(٤)، قاله السدي. والقول الثاني: أنهم الرُّسُلُ؛ والمعنى: فرح الرُّسُلُ لما هلك المكذِّبون وَنَجَّوْا بما عندهم من العلم بالله إذ جاء تصديقُه، حكاه أبو سليمان وغيره.

قوله تعالى: ﴿وَوَافَّ بِهِمْ﴾ يعني بالمكذِّبين العذاب الذي كانوا به يستهزؤون^(٥). والباس: العذاب. ومعنى ﴿سَلَّتْ اللَّهُ﴾: أنه سَنَّ هذه السُّنَّةَ في الأمم، أي: أن إيمانهم لا ينفعهم إذا رأوا العذاب، ﴿وَوَحَّرَ هُنَالِكَ الْكَافِرِينَ﴾. فإن قيل: كأنهم لم يكونوا خاسرين قبل ذلك؟ فنعته جوابان: أحدهما: أن «خسر» بمعنى «هلك»، قاله ابن عباس. والثاني: أنه إنما بيَّن لهم تحسراتهم عند نزول العذاب، قاله الزجاج.



(١) قال ابن جرير: وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا عِلَّتِيَّ حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ يقول: وتلبغوا بالخمولة على بعضها - وذلك الإبل - حاجة في صدوركم لم تكونوا بالغيها لولا هي إلا بشق لأنفس، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَتَقْبِلُوا نَسْتَأْذِنُكُمْ إِلَىٰ بَكْرٍ لَّا تُكْفِرُوا بِلَيْلِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَفْئِدِ﴾. اهـ.

(٢) قال ابن جرير: يقول: فأي حجج الله التي يريكم أيها الناس في السماء والأرض تنكرون صحتها فكذبون من أجل فسادها توحيد الله وتدعون من دونه إلها. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسول في قديم الدهر وماذا حلَّ بهم من العذاب الشديد مع شدة قواهم وما أثروا في الأرض وجمعوا من الأموال، قال: فما أغنى عنهم ذلك شيئا، ولا ردَّ عنهم ذرة من بأس الله، قال: وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلقنوا إليهم ولا أقبلوا عليهم، واستغفروا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل.

(٤) الذي في «الطبري» و«ابن كثير» عن السدي: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بجهالتهم.

(٥) قال ابن كثير: ﴿وَوَافَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي يكذبون ويستبعدون وقوعه. ثم قال في تسمية الآية: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عاينوا وقوع العذاب بهم ﴿فَالَمَّا بَاءَنَا اللَّهُ وَصَدَّقَ مَا كُنَّا بِهِ يَسْتَكْبِرِينَ﴾ أي: وَخَذُوا اللَّهَ عِذًّا، وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تُغَالِ العشرات ولا تنفع المعلدة، قال: وهذا كما قال فروعون حين أدركه الفرق: ﴿مَا كُنْتُ أَتَىٰ لَآ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مَا كُنْتُ بِهِ بَرًّا بِرَبِّكَ وَلَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ وَقَدِ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١) أي: فلم يقل الله منه، لأنه قد استجاب لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام دعاءه عليه حين قال: ﴿رَأَيْتُكَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرْوِيَ اللَّهُ أَلْيَمُ﴾ قال: وهكذا قال تعالى هاهنا: ﴿فَلَمَّا يَكُنْ لَهُمْ لَبَاسٌ رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ سَلَّتْ اللَّهُ أَلْيَ قَدِ كُنْتَ فِي عِبَادِيَّةٍ، أي: هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاناة العذاب أنه لا يقبل، قال: ولهذا جاء في الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغفر» أي: فإذا غفر غفر وبلغت الروح الحنجرة وعابن الملك، فلا توبة حيثئذ، قال: ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَحَّرَ هُنَالِكَ الْكَافِرِينَ﴾. اهـ.

سورة السجدة

مَكِّيَّة [كُلُّهَا] ياجماعهم، ويقال لها: سجدة المؤمن، ويقال لها: المصابيح^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ عَنْهُ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا فُلُونَا فِي أَكْتَرٍ مِمَّا نَحْنُ وَإِلَيْهِ وَفِي مَآقَاتِنَا وَفَرٍّ مِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا مَا عَمِلُوا ۝ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۝ وَرَبِّ لِلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ﴾ قال الفراء: يجوز أن يرتفع «تَنْزِيلٌ» بـ ﴿حَمْدٌ ۝﴾، ويجوز أن يرتفع بإضمار «هذا». وقال الزجاج: «تَنْزِيلٌ» مبتدأ، وخبره، ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾، هذا مذهب البصريين. و﴿قُرْآنًا﴾ منصوب على الحال، المعنى: يَبْتَثُّ آيَاتُهُ فِي حَالِ جَمْعِهِ، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لِمَنْ يَعْلَمُ.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ تكبراً عنه، ﴿وَقَالُوا فُلُونَا فِي أَكْتَرٍ﴾ أي: في أغلبية فلا نفقه قولك. وقد سبق بيان «الأكثرة» وال«وَفَرٍّ» في [الانعام: ٢٥]. ومعنى الكلام: إنا في ترك القبول منك بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم، ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ أي: حاجز في النحلة والذين. قال الأخفش: «ومن» هاهنا للتوكيد. قوله تعالى: ﴿فَأَعْمَلُوا﴾ فيه قولان: أحدهما: اعمل في إبطال أمرنا إنا عاملون على إبطال أمرك. والثاني: اعمل على دينك إنا عاملون على ديننا. ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: لولا الوحي لَمَا دَعَوْتُكُمْ. ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي: تَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ، واستغفروه من الشرك^(٢).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: لا يشهدون أن «لا إله إلا الله»، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، والمعنى: لا يظهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد. والثاني: لا يؤمنون بالزكاة ولا يُقِرُّون بها، قاله الحسن، وقناة. والثالث: لا يزكُّون أعمالهم، قاله مجاهد، والرابع: لا يتصدقون، ولا يُنفِقون في الطاعات، قاله الضحاک، ومقاتل. والخامس: لا يُعْطُونَ زكاة أموالهم، قال ابن السائب: كانوا يُحْجَبُونَ ويعتمرون ولا يزكُّون^(٣).

(١) ويقال لها: فُصِّلَتْ.

(٢) قال ابن كثير: يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾، لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد، ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي: اخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على السنة الرسل ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: لسالف الذنوب، ثم قال: ﴿رَبِّ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: دمار لهم وهلاك عليهم.

(٣) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك ما قاله الذين قالوا: معناه: لا يؤدون زكاة أموالهم، قال: وذلك أن ذلك هو الأشهر من معنى الزكاة، وأن في قوله: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ دليلاً على أن ذلك كذلك، لأن الكفار الذين غنوا بهذه الآية كانوا لا يشهدون أن لا إله إلا الله، فلو كان قوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ مراد به الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله، لم يكن لقولهم: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ معنى، لأنه معلوم أن من لا يشهد أن لا إله إلا الله لا يؤمن بالآخرة، قال: وفي اتباع الله قوله: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ قوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ ما يبين عن الزكاة في هذا الموضع معنى بها زكاة الأموال. وقال ابن كثير: ﴿رَبِّ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال قتادة: الذين يمنعون زكاة أموالهم، قال: وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير، قال: وفيه نظر، لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة على ما ذكره غير واحد، قال: وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الصدقة والزكاة كان مأموراً به في ابتداء البعثة، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَكُنَّا حَتَّى يَوْرَ حَسَكَايَا﴾ قال: فأما الزكاة ذات النُصُب والمقادير، فإنما يبين أمرها بالمدينة، قال: ويكون هذا جمعاً بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجباً قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة، فلما كانت ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف، فرض الله تعالى على رسوله ﷺ الصلوات الخمس، وفُضِّلَ شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك شيئاً فشيئاً، والله أعلم. اهـ.

[الماء] أرسل عليه الريح فتار منه دخان فارتفع وسما، فسماه سماء. والثاني: أنه لما خلق الأرض أرسل عليها ناراً، فارتفع منها دخان فسما.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: قال للسماء: أظهري شمسك وقمرك ونجومك، وقال للأرض: شققي أنهارك، وأخرجي ثمارك، ﴿طَوَّيَا أَوْ كَرَّيَا﴾ قالنا أئبنا طليبين^(١) قال الزجاج: هو منصوب على الحال، وإنما لم يقل: طائعات، لأنهن جريّن مجرى ما يعقل ويميز، كما قال في النجوم: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، قال: وقد قيل: أئبنا نحن ومن فينا طائعين. ﴿فَقَضَّيْنَهُنَّ﴾ أي: خلقهن وصنعهن. قال أبو ذؤيب الهذلي:
وعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا
داوُدُ أَوْ صَنَعَ السَّوَابِغِ تُبْعُ^(٢)
معناه: عَمِلَهُمَا وَصَنَعَهُمَا.

قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ قال ابن عباس وعبد الله بن سلام: وهما يوم الخميس ويوم الجمعة. وقال مقاتل: الأحد والاثنين، لأن مذهبه أنها خلقت قبل الأرض. وقد بيّنا مقدار هذه الأيام في [الأعراف: ٥٤]. ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أوحى ما أراد، وأمر بما شاء، قاله مجاهد، ومقاتل. والثاني: خلق في كل سماء خلقتها، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَلَمَلْنَاكَ الْغَافِلِينَ﴾ أي: الغُفْرَى إلى الأرض ﴿بِمَصْنُوعٍ﴾ وهي الشجوم، والمصاييح: الشرج، فسَمِي الكوكب مصباحاً، لإضاءته ﴿رَجَفْنَا﴾ قال الزجاج: معناه: وحفظناها^(٣) من استماع الشياطين بالكواكب حفظاً.
﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صِغَةً مِثْلَ صِغَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدَمَ وَمِنْ خَلْقِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مِنْ سَمَاءٍ مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ فَمَا تَسْتَغْنَوْنَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْمَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ لِّنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْغُرَىٰ فِي الْمَكِينِ الذُّنُوبَ وَالْعَذَابَ الْآخِرُ أَخْرَجْنَاهُمْ لَا يُصْرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْمَذْنِ فَاخَذَتْهُمْ صِغَةً الْعَذَابِ الْخَلْقِ مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَبَيْنَمَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَنَفَّسُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صِغَةً﴾ الصاعقة: المهلك من كل شيء؛ والمعنى: أنذرتكم عذاباً مثل عذابهم^(٣). وإنما خصّ القبيلتين، لأن قريشاً يُمُرُونَ على قري القوم في أسفارهم. ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدَمَ وَمِنْ خَلْقِهِمْ﴾ أي: من خلف الآباء، وهم الذين أرسلوا إلى هؤلاء المهلكين ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ أي: بأن لا تعبدوا ﴿إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾ أي: لو أراد دعوة الخلق ﴿لَأَنْزَلَ مِنْ سَمَاءٍ مَّائِدَةً﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْنُوا﴾ أي: تكبروا عن الإيمان وعملوا بغير الحق. وكان هود قد تهذّبهم بالعذاب فقالوا: نحن نقدر على دفعه بفضل قوتنا. والآيات هاهنا: الحُجيج. وفي الرِّيح الصَّرصر أربعة أقوال: أحدها: أنها الباردة، قاله ابن عباس، وقنادة، والضحاك. وقال الفراء: هي الرِّيح الباردة تحرق كالنار، وكذلك قال الزجاج: هي الشديدة البرد جداً، فالصَّرصر متكرر فيها البرد، كما تقول: أقلّث الشيء وقلقلته، فأقلّثه بمعنى رفعته، وقلقلته: كرّرت رفعه. والثاني: أنها الشديدة السُّموم^(٤)، قاله مجاهد. والثالث: الشديدة الصُّوت، قاله السدي، وأبو عبيدة، وابن قتيبة. والرابع: الباردة الشديدة، قاله مقاتل^(٥).

(١) البيت في شرح أشعار الهذليين: ٣٩٩/١، و«مجاز القرآن»: ٢٧٥/١، و«غريب القرآن»: ٣٨٨، و«مشكل القرآن»: ٣٤٢، و«الطبري»: ٦٧/٢٢، و«الصحاح»: ١٠١٠٠، و«اللسان»: ١٠١٠٠، و«التاج»: قفى.

(٢) في الأصل: وحفظناه.

(٣) قال ابن كثير: يقول تعالى، قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذّبين بما جنتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جنتكم به من عند الله تعالى، فإنني أنذرکم حلول نعمة الله بكم كما حلّت بالأمم الماضية من المكذّبين بالمرسلين.. اهـ.

(٤) السُّوم: الريح الحارة.

(٥) قال ابن كثير: والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحاً شديدة قوية لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة =

كثيرٌ شَحْمٌ يُطُونُهُمْ، قَلِيلٌ فَقَهُ قُلُوبُهُمْ، فَتَكَلَّمُوا بِكَلَامٍ لَمْ أَسْمَعْهُ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتُرَوْنَ اللَّهَ يَسْمَعُ كَلَامَنَا هَذَا؟ فَقَالَ الْآخَرَانِ: إِنَّا إِذَا رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا سَمِعَهُ، وَإِنْ لَمْ تَرْفَعْ لَمْ يَسْمَعْ، وَقَالَ الْآخَرُ: إِنْ سَمِعَ مِنْهُ شَيْئًا سَمِعَهُ كُلُّهُ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ بِمَعَكُمْ...﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(١). وَمَعْنَى «تَسْتَوُونَ»: تَسْتَحْفُونَ «أَنْ يَشْهَدَ» أَي: مِنْ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ لَأَنْكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى الْإِسْتِخْفَاءِ مِنْ جَوَارِحِكُمْ، وَلَا تَقْضُونَ أَنَّهَا تَشْهَدُ «وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَمْلِكُ كَيْفًا وَمَا مَلَكُونُ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ الْكُفَّارُ يَقُولُونَ: إِنْ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِنَا، وَلَكِنَّهُ يَعْلَمُ مَا يَظْهَرُ، «وَذَلِكَ ظَنُّكُمْ» أَي: أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ، «أَزْدَنْتُمْ» أَهْلَكْتُمْ^(٢). «فَلَمَّا يَصْبِرُوا» أَي: عَلَى النَّارِ، فَمِنْهُمْ مَسْكَنُهُمْ، «لَنْ يَسْتَعْتَبُوا» أَي: يَسْأَلُوا أَنْ يُرْجَعَ لَهُمْ إِلَى مَا يَحْتَوْنَ، لَمْ يُرْجَعْ لَهُمْ^(٣)، لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَحْقُونَ ذَلِكَ. يَقَالُ: أَعْتَبَنِي فَلَان، أَي: أَرْضَانِي بَعْدَ إِسْخَاطِهِ إِنِّي. وَاسْتَعْتَبَهُ، أَي: طَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يُعْجِبَ، أَي: يَرْضَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَضَيْنَا لَهُمْ قُرْآنًا﴾ أَي: سَبَّحْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ «فَرَضَيْنَا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ» فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ: مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ أَنَّهُ لَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ وَلَا بَعثَ وَلَا حِسَابَ، وَمَا خَلْفَهُمْ: مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا، فَزَيَّنَّا لَهُمُ اللَّذَاتِ وَجَمَعَ الْأَمْوَالَ وَتَرَكَ الْإِنْفَاقَ فِي الْخَيْرِ. وَالثَّانِي: مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ: مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا، وَمَا خَلْفَهُمْ: مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ، عَلَى عَكْسِ الْأَوَّلِ. وَالثَّالِثُ: مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ: مَا فَعَلُوهُ، وَمَا خَلْفَهُمْ: مَا عَزَمُوا عَلَى فَعْلِهِ. وَبَاقِي الْآيَةِ [قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ] [الْإِسْرَاءُ: ١٦، الْأَعْرَافُ: ٢٨].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْعَوَّا فِيهِ لَمَلَكُوا تَقْلِيلًا﴾^(٤) فَلْيَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَتَجْزِيَنَّهُمْ أَثْمَارُ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٥) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ بِحَدِيثِ اللَّهِ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ أَي: لَا تَسْمَعُوهُ «وَالْعَوَّا فِيهِ» أَي: عَارِضُوهُ بِاللَّغْوِ، وَهُوَ الْكَلَامُ الْخَالِي عَنْ فَائِدَةٍ. وَكَانَ الْكُفَّارُ يَوْصِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا: إِذَا سَمِعْتُمُ الْقُرْآنَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ فَارْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ حَتَّى تُثَبِّسُوا عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: وَالْعَوَّا فِيهِ بِالْمُكَاءِ وَالصَّفِيرِ وَالتَّخْلِيطِ مِنَ الْقَوْلِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا قُرِئَ «لَمَلَكُوا تَقْلِيلًا» فَيَسْكُتُونَ..

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ يَعْنِي الْعَذَابَ الْمَذْكُورَ. وَقَوْلُهُ: «النَّارُ» بَدَلَ مِنَ الْجَزَاءِ «لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ» أَي: دَارُ الْإِقَامَةِ. قَالَ الزَّجَّاجُ: النَّارُ هِيَ الدَّارُ، وَلَكِنَّهُ كَمَا تَقُولُ: لَكَ فِي هَذِهِ الدَّارِ دَارُ الشُّرُورِ، وَأَنْتَ تَعْنِي الدَّارَ بَعِينَهَا، قَالَ الشَّاعِرُ:

أَخُو رَغَائِبٍ يُعْطِيهَا وَيَسْأَلُهَا يَأْبَى الظُّلَامَةَ مِنْهُ النَّوْزِلُ الرُّقْرُ^(٦)

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ ٤٣١/٨، ٤٣٢، وَمُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَرَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» رَقْم (٣٦١٤) وَ(٣٨٧٥) وَ(٤٠٤٧) وَاللَّفْظُ لَهُ، وَالتِّرْمِذِيُّ ١٥٢/٢ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَ«الطَّبْرِيُّ» ١٠٩/٢٤، وَالْوَاهِدِيُّ فِي «أَسْبَابِ النُّزُولِ» ٢١٣، وَأَوْرَدَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرَجَاتِ» ٣٦٢/٥، وَزَادَ نِسْبَةَ لِسَعِيدِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَالثَّانِي، وَابْنُ الْمُنْثَرِ، وَابْنُ مَرْدُوَيْهِ، وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ فِي «الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ.

(٢) رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» ٢٢٠٦/٤ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ: «لَا يَمُوتُنَ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يَحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ» وَرَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» عَنْ جَابِرٍ بِالْفُطْحِ «لَا يَمُوتُنَ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يَحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ، فَإِنْ قَوْمًا قَدْ أَرَادَهُمْ سُوءٌ ظَنَّهُمْ بِاللَّهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَذَلِكَ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ مِنْكُمْ أَنْ تَنْتَقِبُوا مِنْ الْقَتِيلِينَ» وَأَوْرَدَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرَجَاتِ» ٣٦٢/٥، وَزَادَ نِسْبَةَ لِلطَّبْرَانِيِّ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ دَاوُدَ، وَابْنُ مَاجَةَ، وَابْنُ حِبَّانَ، وَابْنُ مَرْدُوَيْهِ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) عِبَارَةُ الطَّبْرِيِّ: «لَنْ يَسْتَعْتَبُوا» وَإِنْ يَسْأَلُوا الْعَتَبَى، وَهِيَ الرِّجْعَةُ لَهُمْ إِلَى الدِّينِ يَحْتَوْنَ «فَلَمَّا هُمْ مِنَ الْقَتِيلِينَ» فَلْيَسْأَلُوا بِالْقَوْمِ الَّذِينَ يُرْجِعُ بِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ.

(٤) الْبَيْتُ لِأَعْنَى بَاهِلَةٍ مِنْ مَرْثِيَةِ الْمُفَضَّلَةِ الْمَشْهُورَةِ يَرْتِي بِهَا أَخَاهُ لِأَنَّهُ الْمَشْتَرِكُ بَيْنَ وَهْبٍ، وَمُطْلَعُهَا:

قَدْ جَاءَ مِنْ غُلٍّ أَنْبَاءُ أَنْبَاءٍ وَأَنْبَاءُ أَنْبَاءٍ

وَهِيَ فِي «الْأَصْمِيَّاتِ» ٨٩ وَاجْمَعَةُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ، وَاصْخَارَاتُ ابْنِ الشَّجَرِيِّ، وَ«أَمَالِي الشَّرِيفِ الْمَرْتَضَى» وَ«خَزَانَةُ الْأَدَبِ» ٨٩/١. وَالرَّغَائِبُ: الْعَطَايَا الْوَاسِعَةُ، وَالتَّوَقُّلُ: الْكَثِيرُ التَّوَافُلِ، أَي: الْمَطَايَا، وَالرُّقْرُ: السَّيْدُ، لِأَنَّهُ يَزْدَفُ بِالْأَمْوَالِ فِي الْخِمَالَاتِ مُطِيقًا لَهَا. وَفِي «اللسان»: زَفَرٌ، وَقَوْلُهُ: «مِنْهُ» مُؤَكَّدَةٌ لِلْكَلامِ، وَالْمَعْنَى: يَأْبَى الظُّلَامَةَ لِأَنَّهُ النَّوْزِلُ الرُّقْرُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «يَتَوَقَّرُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وَالسَّخَرُ، بِفَتْحَتَيْنِ وَبِضْمَتَيْنِ: السَّخَرِيَّةُ.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِن الْآلَةِ وَالْأَنفَالِ يَكُونَانِ أَقْدَامًا يَحْمِلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا يَكُونَانِ ۝١٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا عَنْهُمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَلْبَسُوا بِالْمَوْتِ الْآتِي كَثْرَةً تُؤْكَدُونَ ۝١٤ تَحْنُ أُولَئِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ۝١٥ تَزَلَا مِن عَفْوَهِمْ رَحِمَ ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لما دخلوا النار ﴿رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وقرا ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «أَرْنَا» بسكون الراء. قال المفسرون: يغثون إبليس وقابيل، لأنهما سنا المعصية، ﴿يَحْمِلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا يَكُونَانِ﴾ [أي: وحده] في الدرك الأسفل، وهو أشد عذاباً من غيره. ثم ذكر المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ [أي: وحده] ﴿ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: استقاموا على التوحيد، قاله أبو بكر الصديق، ومجاهد، والثاني: على طاعة الله وأداء فرائضه، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة. والثالث: على الإخلاص والعمل إلى الموت، قاله أبو العالية، والسدي^(١). وروى عطاء عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق، وذلك أن المشركين قالوا: ربنا الله، والملائكة بنائه، وهؤلاء شفعائنا عند الله، فلم يستقيموا، وقالت اليهود: ربنا الله، وعزير ابنه، ومحمد ليس بنبي، فلم يستقيموا، وقالت النصارى: ربنا الله، والمسيح ابنه، ومحمد ليس بنبي، فلم يستقيموا، وقال أبو بكر: ربنا الله وحده، ومحمد عبده ورسوله، فاستقام^(٢).

قوله تعالى: ﴿تَحْنُ أُولَئِكَ﴾ [أي: بأن لا تخافوا]. وفي وقت نزولها عليهم قولان: أحدهما: عند الموت، قاله ابن عباس، ومجاهد؛ فعلى هذا في معنى «لا تخافوا» قولان: أحدهما: لا تخافوا الموت، ولا تحزنوا على أولادكم، قاله مجاهد. والثاني: لا تخافوا ما أمامكم، ولا تحزنوا على ما خلفكم، قاله عكرمة، والسدي. والقول الثاني: تنزل عليهم إذا قاموا من القبور، قاله قتادة؛ فيكون معنى «لا تخافوا»: أنهم يشيرونهم بزوال الخوف والحزن يوم القيامة^(٣).

قوله تعالى: ﴿تَحْنُ أُولَئِكَ﴾ قال المفسرون: هذا قول الملائكة لهم، والمعنى: نحن [الذين] كنا ننزولكم في الدنيا، لأن الملائكة تتولى المؤمنين وتحبهم لما ترى من أعمالهم المرفوعة إلى السماء، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [أي: ونحن معكم في الآخرة لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة]. وقال السدي: هم الحفظة على ابن آدم، فلذلك قالوا: ﴿تَحْنُ أُولَئِكَ﴾ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ؛ وقيل: هم الملائكة الذين يأتون لقبض الأرواح^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ [أي: في الجنة]. ﴿تَزَلَا﴾ قال الزجاج: معناه: أبشروا بالجنة تنزلونها [نزلًا]. وقال الأخفش: لكم فيها ما تشتهي أنفسكم أنزلناه نزلًا.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝١٧﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْمُسْتَسْتَأْذِنُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعَ بِأَلْفِي حِي أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝١٨﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝١٩﴾ وَإِنَّمَا يَرْفَعُكَ مِنَ السُّحُوطِ نَزْعٌ فَاسْتَوِدْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٢٠﴾

(١) روى مسلم في «صحيحه» ٦٥/١ عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: «قل: آمَنَّا بالله ثم استقم» والحديث ذكره السيوطي في «الدرر» ٣٦٣/٥، وزاد نسباً لأحمد، وعبد بن حميد، والدارمي، والبخاري في «تاريخه»، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان.

(٢) ذكر سبب النزول هذا الواحدي في «أسباب النزول» ٢١٣ من رواية عطاء عن ابن عباس بدون سند.

(٣) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿تَحْنُ أُولَئِكَ﴾ قال مجاهد والسدي وزيد بن أسلم وابنه: يعني عند الموت قائلين ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ قال مجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم: أي: مما تقدمون عليه من أمر الآخرة ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو ذن، فإنما خلفكم فيه ﴿وَأَلْبَسُوا بِالْمَوْتِ الْآتِي كَثْرَةً تُؤْكَدُونَ﴾ فيشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير، قال: وهذا كما جاء في حديث البراء رضي الله عنه قال: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرين، اخرجي إلي روح وربحان ورب غير غضبان». اهـ.

(٤) قال ابن كثير: وقوله تبارك وتعالى: ﴿تَحْنُ أُولَئِكَ﴾ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ [أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أي: قرناكم في الحياة الدنيا نسفدكم ونوقمكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة، نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النسخة في الصور، ونؤنسكم يوم البعث والنشور، ونجاز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم] ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ﴾ [أي: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهي النفوس وتقرب به العيون] ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [أي: مهما طلبتم وجدتم وحضر بين أيديكم كما اخترتم].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ فيمن أريد بهذا ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم المؤذنون. روى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نزلت في المؤذنين»^(١)، وهذا قول عائشة، ومجاهد، وعكرمة. والثاني: أنه رسول الله ﷺ دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله، قاله ابن عباس، والسدي، وابن زيد. والثالث: أنه المؤمن أجاب الله إلى ما دعاه، ودعا الناس إلى ذلك ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ في إجابته، قاله الحسن. وفي قوله: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ ثلاثة أقوال. أحدها: صلى ركعتين بعد الأذان، وهو قول عائشة، ومجاهد، وروى إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ قال: الأذان ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ قال: الصلاة بين الأذان والإقامة. والثاني: أدى الفرائض وقام لله بالحق، قاله عطاء. والثالث: صام وصلى، قاله عكرمة^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ لَكُمْ سُنَّةٌ وَلَا نَبِيَّةٌ﴾ قال الزجاج: «لا» زائدة مؤكدة؛ والمعنى: ولا تستوي [الحسنة] والسيئة. وللمفسرين فيهما ثلاثة أقوال. أحدها: أن الحسنة: الإيمان، والسيئة: الشرك، قاله ابن عباس. والثاني: الجلم والفحش، قاله الضحاك. والثالث: الثفور والصبر، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿أَدْفَعْ يَأْتِي مَنِ أَحْسَنُ﴾ وذلك كدفع الغضب بالصبر، والإساءة بالعفو، فإذا فعلت ذلك صار الذي بينك وبينه عداوة كالصديق القريب. وقال عطاء: هو السلام على من تعاديه إذا لقيته. قال المفسرون: وهذه الآية منسوخة بآية السيف^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا﴾ أي: ما يُعطاهما. قال الزجاج: ما يُلقى هذه الفعلة: وهي دفع السيئة بالحسنة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَرَفُوا﴾ على كظم الغيظ ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من الخير. وقال السدي: إلا ذو جد. وقال قتادة: الحظ العظيم: الجنة؛ فالمعنى: ما يُلقاها إلا من وجبت له الجنة^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَرِئًا يَرِغُنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَّ﴾ قد فسرناه في [الأعراف: ٢٠٠]^(٥).

(١) الذي في كتب التفسير وأسباب النزول عن عائشة وعكرمة موقوفاً عليهم أن هذه الآية نزلت في المؤذنين، وقد قال السيوطي في «الدرر» ٥/ ٣٦٤: أخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما أرى هذه الآية نزلت إلا في المؤذنين ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾. ولم نر رواية جابر بن عبد الله التي ذكرها المؤلف في المرفوع، والله أعلم. وقد قال ابن كثير في «التفسير»: والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم، قال: فأما حال نزول هذه الآية، فإنه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية، لأنها مكية، والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة حين أريه عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري رضي الله عنه في منامه فقصه على رسول الله ﷺ فأمره أن يلقه على بلال رضي الله عنه فإنه أئدى صوتاً كما هو مقرر في موضعه. ثم قال ابن كثير: فالصحيح إذن أنها عامة، كما قال عبد الرزاق عن يعمر عن الحسن البصري أنه تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحاً في إجابته وقال إنني من المسلمين، هذا خليفة الله. اهـ.

وقال الشوكاني في تفسيره «فتح القدير»: ويجاب عن هذا بأن الآية مكية، والأذان إنما شرع بالمدينة، والأولى حمل الآية على العموم كما يقتضيه اللفظ، ويدخل فيها من كان سبباً لنزولها دخولاً أولياً، فكل من جمع بين دعاء العباد إلى ما شرعه الله، وعمل عملاً صالحاً، وهو تادية ما فرضه الله عليه مع اجتناب ما حرمه عليه، وكان من المسلمين ديناً لا من غيرهم، فلا شيء أحسن منه ولا أوضح من طريقته، ولا أكثر ثواباً من عمله. اهـ.

وقال الخازن في «تفسيره»: وقيل: إن كل من دعا إلى الله تعالى بطريق من الطرق فهو داخل في هذه الآية، قال: والدعوة إلى الله مراتب، الأولى: دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والثانية: دعوة العلماء، والثالثة: دعوة المجاهدين في سبيل الله، والرابعة: دعوة المؤمنين إلى الصلاة، قال: فهم أيضاً دعاة إلى الله تعالى وإلى طاعته.

(٢) والصحيح أنها عامة في كل ذلك.

(٣) قال ابن جرير: وقوله: ﴿وَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَانَهُ يَكُونُ خَيْرًا﴾ يقول تعالى ذكره: افعل هذا الذي أمرك به يا محمد، من دفع سيئة المسيء إليك بإحسانك الذي أمرك به إليه، فيصير المسيء إليك الذي بينك وبينه عداوة، كأنه من ملاطفته إياك ويبره لك، ولي لك من بني أعمامك، قريب النسب بك، قال: والحميم: هو القريب. اهـ.

(٤) قال ابن كثير: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَرَفُوا﴾ أي: وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يثبث على النفوس ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة، قال: قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم. اهـ.

(٥) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَرِئًا يَرِغُنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَّ﴾ أي: إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن، فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالفه الذي سلطه عليك، فإذا استعملت بالله والتجأت إليه، كلفه عنك ورد كيد، قال: وقد كان رسول الله ﷺ إذا

﴿وَمِن مَّا يَدْعُو أَتَيْلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِتَاءَهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنْ أَسْكَنْتُمْ أَتَيْنَ عَنْ رَبِّكَ يَاسِتُونَ لَمْ يَأْتِيَلْ وَالنَّهَارُ وَمَنْ لَا يَتَضَوُّ ﴿٣٨﴾ وَمِن مَّا يَدْعُو أَنَّهُ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَتَاكَ عَلَيْهِمَ اكْفَرَتْ وَبَرَّتْ إِنَّ اللَّهَ أَحْبَبَا لِمَنِ الْوَيْفُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْكَنْتُمْ﴾ [أي: تكبروا عن التوحيد والعبادة] ﴿فَالَّذِينَ عَنْ رَبِّكَ﴾ يعني الملائكة ﴿يَسْتَعْبُدُونَ﴾ أي: يصلون. و«يسأمون» بمعنى يملئون. وفي موضع السجدة قولان: أحدهما: أنه عند قوله: «يسأمون»، قاله ابن عباس، ومسروق، وقتادة، واختاره القاضي أبو يعلى، لأنه تمام الكلام. والثاني: [أنه] عند قوله: ﴿إِنْ كُنتُمْ إِتَاءَهُ تَعْبُدُونَ﴾^(١)، روي عن أصحاب عبد الله، والحسن، وأبي عبد الرحمن.

قوله تعالى: ﴿وَمِن مَّا يَدْعُو أَنَّهُ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ قال قتادة: غبراء متهشمة. قال الأزهري: إذا يَسَتْ الأرض ولم تُنظر، قيل: خَشَتْ.

قوله تعالى: ﴿اَهْرََّتْ﴾ أي: تحركت بالنبات ﴿وَوَرَّتْ﴾ أي: عُلَتْ، لأن النبات إذا أراد أن يظهر ارتفعت له الأرض؛ وقد سبق بيان هذا [الحج: ٥].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَحْكُمُونَ عَلَيْنَا أَفَنُيْلَقَ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي مَائِمًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَغْلَوْا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّ لَهُمْ لَكُتُبًا عَزِيزًا ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَبِيرٍ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قال مقاتل: نزلت في أبي جهل^(٢). وقد شرحنا معنى الإلحاد في [النحل: ١٠٣]؛ وفي المراد به هاهنا خمسة أقوال: أحدها: أنه وضع الكلام على غير موضعه، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنه المكاء والصفير عند تلاوة القرآن، قاله مجاهد. والثالث: أنه التكذيب بالآيات، قاله قتادة. والرابع: أنه المعاندة، قاله السدي. والخامس: أنه التمليل عن الإيمان بالآيات، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿لَا يَحْكُمُونَ عَلَيْنَا﴾ هذا وعيد بالجزاء ﴿أَفَنُيْلَقَ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي مَائِمًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وهذا عام. غير أن المفسرين ذكروا فيمن أريد به سبعة أقوال: أحدها: أنه أبو جهل وأبو بكر الصديق، رواه الضحاك عن ابن عباس^(٣). والثاني: أبو جهل وعمار بن ياسر، قاله عكرمة^(٤). والثالث: أبو جهل ورسول الله ﷺ، قاله ابن السائب،

= قام إلى الصلاة يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»، قال: وقد قلنا أن هذا المقام لا نظير له في القرآن إلا في سورة (الأعراف) عند قوله تعالى: ﴿خُذِ الْقُرْآنَ وَأُعْرِضْ عَنْ الْمُتَكِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَإِنَّا بِفِرْعَوْنَ مِنْ السَّحَابِ نَزَعْنَا فَاسْتَدْرَكَ مَا وَدَّ أَنْ يَسْجُدَ عَلَيْهِ ﴿٣٩﴾﴾ وفي سورة (المؤمنين) عند قوله: ﴿أَدْعُ بِلَاقِي يَوْمَ أَسْأَلُ الْمَشِيئَةَ مَنْ أَعْلَمَ بِمَا يَتَّبِعُونَ ﴿٣٩﴾ وَقَدْ رَبَّ أَعْوَدُ بِكَ مِنْ مَّزْمَرَاتِ الْكَافِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَعْوَدُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَصْبُرُوا ﴿٤١﴾﴾. اهـ.

(١) يريد بذلك الآية التي قبل قوله: ﴿فَإِنْ أَسْكَنْتُمْ﴾... الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِن مَّا يَدْعُو أَتَيْلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِتَاءَهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ وقد حذفها المؤلف ولم يفسرها لوضوح معناها. قال القرطبي في «تفسيره»: هذه الآية آية سجدة بلا خلاف، واختلفوا في موضع السجود منها، فقال مالك: موضعه ﴿إِنْ كُنتُمْ إِتَاءَهُ تَعْبُدُونَ﴾ لأنه متصل بالأمر، وكان علي وابن مسعود وغيرهم يسجدون عند قوله: «تعبدون»، وقال ابن وهب والشافعي: موضعه ﴿وَمَنْ لَا يَتَضَوُّ﴾ لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامتثال، وبه قال السلمي وإبراهيم النخعي وأبي صالح ويحيى بن وثاب، وطلحة وزيد اليامين (نسبة إلى يامة بطن من همدان) والحسن وابن سيرين، وكان أبو وائل وقتادة وبكر بن عبد الله يسجدون عند قوله: «يسأمون» قال ابن العربي: والأمر قريب. اهـ. وقال الخازن في «تفسيره»: فصل: وهذه السجدة من عزائم سجد التلاوة، وفي موضع السجود فيها قولان للعلماء، وهما وجهان لأصحاب الشافعي، أحدهما: أنه عند قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنتُمْ إِتَاءَهُ تَعْبُدُونَ﴾ وهو قول ابن مسعود والحسن، وحكاها الرافعي عن أبي حنيفة وأحمد، لأن ذكر السجدة قبله، والثاني وهو الأصح عند أصحاب الشافعي وكذلك نقله الرافعي: أنه عند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَا يَتَضَوُّ﴾ وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب وقتادة، وحكاها الزمخشري عن أبي حنيفة، لأن عنده يتم الكلام. اهـ.

(٢) ذكر ذلك البغوي عن مقاتل بدون سند.

(٣) قال السيوطي في «الدرر» ٣٦٦/٥: أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس ؓ في قوله: ﴿أَفَنُيْلَقَ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي مَائِمًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ قال: أبو بكر الصديق ؓ.

(٤) قال السيوطي في «الدرر» ٣٦٦/٥: أخرجه ابن عساکر عن عكرمة ؓ في قوله: ﴿أَفَنُيْلَقَ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي مَائِمًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل.

ومقاتل. والرابع: أبو جهل وعثمان بن عفان، حكاة الثعلبي. والخامس: أبو جهل وحمزة، حكاة الواحدي. والسادس: أبو جهل وعمر بن الخطاب. والسابع: الكافر والمؤمن، حكاها الماوردي.

قوله تعالى: ﴿أَسْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ قال الزجاج: لفظه الأمر، ومعناه الوعيد والتهديد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ يعني القرآن؛ ثم أخذ في وصف الذِّكْر؛ وترك جواب «إِنَّ»، وفي جوابها هاهنا قولان: [أحدهما]: أنه ﴿أُولَئِكَ يَكْفُرُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾، ذكره الفراء. والثاني: أنه متروك، وفي تقديره قولان: أحدهما: إن الذين كفروا بالذِّكْر لما جاءهم كفروا به. والثاني: إن الذين كفروا يجازون بكفرهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ لَعْنَةُ عَزِيزٍ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: مَنَعَ من الشيطان لا يجد إليه سبيلاً، قاله السدي. والثاني: كريم على الله، قاله ابن السائب. والثالث: مَنَعَ من الباطل، قاله مقاتل. والرابع: يمتنع على الناس أن يقولوا مثله، حكاها الماوردي.

قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطُلُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: التكذيب، قاله سعيد بن جبير. والثاني: الشيطان. والثالث: التبديل، روى عن مجاهد. قال قتادة: لا يستطيع إبليس أن ينقص منه حقاً، ولا يزيد فيه باطلاً. وقال مجاهد: لا يدخل فيه ما ليس منه. وفي قوله: ﴿وَبَيْنَ يَدَيْهِ ذِكْرُ خَلْقِهِ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: بين يَدَيْ تزيهه، وبعد نزوله. والثاني: أنه ليس قبله كتاب يُبَيِّنُه، ولا يأتي بعده كتاب يُبَيِّنُه. والثالث: لا يأتيه الباطل في إخباره عما تقدم، ولا في إخباره عما تأخر.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ يَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا فَغَيَّبْنَا لَآتُوا لَوْلَا نُفِصَتْ مَائِنَتُهُ فَاغْيَبْ وَغَرِّبْ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبُشْرًا وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَآ يُؤْمِنُونَ فِي مَا آذَانُهُمْ وَفَرُّهُمْ عَلَيْهِمْ عَمَّا أُولَئِكَ يَنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾

قوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه قد قيل فيمن أُرْسِلَ قبلك: ساحر وكاهن ومجنون، وكُذِّبوا كما كُذِّبَتْ، هذا قول الحسن، وقاتدة، والجمهور. والثاني: ما تُخْبِرُ إِلَّا بما أخبر الأنبياء قبلك من أن الله غفور، وأنه ذو عقاب، حكاها الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ يعني الكتاب الذي أنزل عليه ﴿قُرْءَانًا فَغَيَّبْنَا﴾ أي: بغير لغة العرب ﴿لَآتُوا لَوْلَا نُفِصَتْ مَائِنَتُهُ﴾ أي: هَلَّا بَيَّنَّتْ آيَاتُهُ بالعربية حتى نفهمه؟! ﴿فَاغْيَبْ وَغَرِّبْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عمر، وحفص عن عاصم: «أعجمي» [بهمزة] ممدودة. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «أعجمي» بهمزتين، والمعنى: أكتب أعجمي ونبي عربي؟! وهذا استفهام إنكار؛ أي: لو كان كذلك لكان أشد لتكذيبهم. ﴿قُلْ هُوَ﴾ يعني القرآن ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبُشْرًا﴾ من الضلالة ﴿وَبُشْرًا﴾ للشكوك والأوجاع. والوُفْرُ: الصَّمَمُ؛ فهم في ترك القبول بمنزلة مَنْ في أذنه صمم. ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي: ذو عَمًى. قال قتادة: صَمُّوا عن القرآن وَعَمُّوا عنه ﴿أُولَئِكَ يَنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: إنهم لا يسمعون ولا يفهمون كالذي يُنادي من بعيد.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَتَشْتَفِ فِيهِ وَكُلُوا كُلَّمَا سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقِئُوا بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ ﴿عَمِلَ صَالِحًا فَلْيَنصِرْ وَمَنْ آسَأَ فَلْيُصِبْ﴾ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لَقِيْبٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ؛ والمعنى: كما آمن بكتابك قوم وكُتِبَ به قوم، فكذلك كتاب موسى، ﴿وَكُلُوا كُلَّمَا سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ في تأخير العذاب إلى أجل مسمى وهو القيامة ﴿لَقِئُوا بَيْنَهُمْ﴾ بالعذاب الواقع بالمكذِّبين ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْ صِدْقِكَ وَكِتَابِكَ﴾ أي: مُرِيبٍ أي: موضع لهم الريبة.

﴿إِلَيْهِ يَرْجِعُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ يَدَيْهِ مِنْ أَكْمَامٍ وَمَا يَحْمِلُ مِنْ أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا مَا أَذْنُكَ مَا بَيْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿وَصَلَّى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجْصٍ﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَرْجِعُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: أَخْبِرْنَا عن الساعة إن كنت رسولاً كما

تزعم، قاله مقاتل^(١). ومعنى الآية: لا يُعَلِّمُ قِيَامَهَا إِلَّا هُوَ، فإذا سُئِلَ عنها فَعَلِمَهَا مردودٌ إليه. «وَمَا تُخْرِجُ مِنْ ثَمَرَةٍ» قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «من ثمره». وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «من ثمرات» على الجمع «مِنْ أَكْثَامِهَا» أي: أوعيتها. قال ابن قتيبة: أي: من المواضع التي كانت فيها مستترّة، وغلاف كل شيء؛ كُتْمُهُ، وإنما قيل: كُتْمُ القميص، من هذا. قال الزجاج: الأكمام: ما غُطِّيَ^(٢)، وكلُّ شجرة تُخْرِجُ ما هو مُكْتَمٌ فهي ذات أكمام، وأكمام النخلة: ما غُطِّيَ جُذُوعُهَا مِنَ السَّعْفِ واللِّيفِ والجذع، وكلُّ ما أخرجته النخلة فهو ذو أكمام، فالظَّلْعَةُ كُتْمُها قشرها، ومن هذا قيل للقلنسوة: كُتْمٌ، لأنها تُغَطِّي الرأس، ومن هذا كُتْمُ القميص، لأنهما يغطيان اليدين^(٣).

قوله تعالى: «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ» أي: ينادي الله تعالى المشركين «أَيْنَ شُرَكَائِي» الذين كنتم تزعمون «قَالُوا أَأُتْرَكُ» قال الفراء، وابن قتيبة: أعلمناك، وقال مقاتل: أسمعناك «وَمَا مِنَّا مِنْ شَيْءٍ» فيه قولان: أحدهما: أنه من قو، المشركين؛ والمعنى: ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ بَأَنَّ لَكَ شَرِيكًا، فينبِرون يومئذٍ بما كانوا يقولون، هذا قول مقاتل. والثاني: [أنه] من قول الآلهة التي كانت تُعبد؛ والمعنى: ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ لَهم بما قالوا، قاله الفراء، وابن قتيبة.

قوله تعالى: «وَصَلَّ عَنْهُمْ» أي: بطل عنهم في الآخرة «مَا كَانُوا يَدْعُونَ» أي: يعبدون في الدنيا، «وَعَلَّوْا» أي: أيقنوا «مَا لَكُمْ مِنْ نَجْوٍ» وقد شرحنا المنعص في سورة [النساء: ١٢١].

«لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاؤِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَدْعُو قُتُوبًا» ﴿٤٩﴾ وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ عَذَابٍ مَسَّاهُ لِيَقُولَ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ فَلَنُنْزِلَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَمْسْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَغْرَضَ وَكُنَّا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَدُو دُعَاؤِ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى: «لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ» قال المفسرون: المراد به الكافر؛ فالمعنى: لا يَمَلُّ الكافر «مِنْ دُعَاؤِ الْخَيْرِ» أي: من دعائه بالخير، وهو المال والعافية. «وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ» وهو الفقر والشدة؛ والمعنى: إذا أُخْطِرَ بذلك ينس من رَوْحِ الله، وقُطِعَ من رحمته. وقال أبو عبيدة: اليوس، قُفُول من يأس^(٤)، والقُفُوط، قُفُول من قُتِطَ.

قوله تعالى: «وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا» أي: خيراً وعافية وغيثاً، «لِيَقُولَ هَذَا لِي» أي: هذا واجب لي بعملتي وأنا محقوق به، ثم يشك في البعث فيقول: «وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً» أي: لست على يقين من البعث «وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ» يعني الجنة، أي: كما أعطاني في الدنيا يعطيني في الآخرة «فَلَنُنْزِلَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» أي: لنُنْخِرَنَّهُمْ بمسائير أعمالهم. وما بعده قد سبق [إبراهيم: ١٧، الإسراء: ٨٣] إلى قوله تعالى: «وَكُنَّا بِجَانِبِهِ». قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «وَنَائِي» مثل «نعمي». وقرأ ابن عامر: «وَنَاء» مفتوحة النون ممدودة والهمزة بعد الألف. وقرأ حمزة: «نئي» مكسورة النون والهمزة^(٥). «فَدُو دُعَاؤِ عَرِيضٍ» قال الفراء، وابن قتيبة: معنى العريض: الكثير، وإن وصفته بالطول أو بالعرض جاز في الكلام. «قُلْ» يا محمد لأهل مكة «أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ» القرآن «وَمِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ» أي: خلاف للحق «بَعِيدٍ» عنه؟! وهو اسم؛ والمعنى: فلا أحد أضل منكم. وقال ابن

(١) قال الشوكاني في «فتح القدير»: وقد روي أن المشركين قالوا: يا محمد إن كنت نبياً فخيرنا متى تقوم الساعة؟ فنزلت. وقد تقدم في سورة [الأعراف: ١٨٧] عند قوله تعالى: «يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ رُحْسَهُ عَلَىٰ إِمَامٍ وَلَهَا وَدَّ لَا يُجِيبَا رَدًّا إِلَّا قَوْلًا فِي سَبِّ نَزْلِهَا: أعلمهما: أن قوماً من اليهود قالوا: يا محمد أخبرنا متى الساعة؟ فنزلت، والثاني: أن قريشاً قالت: يا محمد بيننا وبينك قرابة فينبئ لنا متى الساعة؟ فنزلت، وقد قال ابن جرير الطبري هناك: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن قوماً سألوا رسول الله ﷺ عن الساعة، فأنزله الله هذه الآية، وجائز أن يكون كانوا من قريش، وجائز أن يكون كانوا من اليهود، ولا خير بذلك عندنا يجوز قطع القول على أي ذلك كان. اهـ.

(٢) عبارة «اللسان»: وقال الزجاج في قوله: «ذات الأكمام» قال: عنى بالأكمام ما غُطِّيَ...

(٣) في الأصل: اليد، والتصويب من «اللسان».

(٤) في «مجاز القرآن»: «يوس» فعول من يسط؛ وفي «اللسان»: قال سيبويه: يَسُّ يَتَأَسُّ ويَأَسُّ يَتَيْسُّ لغتان ثم يركَّب منهما لغة.

(٥) سبق ذكره القراءات في قوله تعالى: «وَلِذَا أَمْسْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَغْرَضَ وَكُنَّا بِجَانِبِهِ» في سورة [الإسراء: ٨٣].

جرير: معنى الآية: ﴿تُمْ﴾ كُفِرْتُمْ بِهِ، السُّمُّ في شقائي للحق ويُعد عن الصواب! فجعل مكان هذا باقي الآية.

﴿سُرِّيهِمْ مَا بَيْنَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُنْ يَرِيكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا لَيْتَهُمْ فِي يَرِيكٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا يَكُنْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سُرِّيهِمْ مَا بَيْنَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: في الأفاق: فتح أقطار الأرض، وفي أنفسهم: فتح مكة، قاله الحسن، ومجاهد، والسدي. والثاني: أنها في الأفاق: وقائع الله في الأمم الخالية، وفي أنفسهم: يوم بدر، قاله قتادة، ومقاتل. والثالث: أنها في الأفاق: إمساك القطر عن الأرض كلها، وفي أنفسهم: البلايا التي تكون في أجسادهم، قاله ابن جرير. والرابع: أنها في الأفاق: آيات السماء كالشمس والقمر والنجوم، وفي أنفسهم: حوادث الأرض، قاله ابن زيد. وحكي عن ابن زيد أن التي في أنفسهم: سبيل الغائط والبول، فإن الإنسان يأكل ويشرب من مكان واحد، ويخرج من مكانين. والخامس: أنها في الأفاق: آثار من مضى قبلهم من المكذبيين، وفي أنفسهم: كونهم خلُقوا نطفًا ثم عُلِقُوا ثم مُضِغًا ثم عظامًا إلى أن نُقِلُوا إلى العقل والتمييز، قاله الزجاج^(١).

قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى القرآن. والثاني: إلى جميع ما دعاهم إليه الرسول. وقال ابن جرير: معنى الآية: حتى يعلموا حقيقة ما أنزلنا على محمد وأوحينا إليه من الوعد له بأننا مُظهِرُو دينه على الأديان كلها. ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ يَرِيكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: أَوَلَمْ يَكُنْ يَكْفِي به أنه شاهدٌ على كل شيء! قال الزجاج: المعنى: أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ شهادة ربك!؟ ومعنى الكفاية هاهنا: أنه قد بيّن لهم ما فيه كفاية في الدلالة على توحيده وتثيت رسله^(٢).



(١) قال ابن كثير: ﴿سُرِّيهِمْ مَا بَيْنَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: سنظهر لهم دلائلنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية في الأفاق من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان، قال مجاهد والحسن والسدي: ودلائل في أنفسهم، قالوا: وقعة بدر وفتح مكة ونحو ذلك من الوقائع التي حُلَّتْ بهم، نصر الله فيها محمداً ﷺ وصحبه، وخذل فيها الباطل وحزبه، ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاق والهيئات المعجبة كما هو مبسوط في علم التفسير الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى، وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباعدة من حسن وقبح وغير ذلك، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله وقوته وحيله وحلره أن يجرها ولا يتعداها. اهـ.

(٢) قال ابن كثير في تمة الآية: وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَيْتَهُمْ فِي يَرِيكٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: في شك من قيام الساعة، ولهذا لا يشكرون فيه ولا يعملون له ولا يحذرون منه، بل هو عندهم هدر لا يعيرون به، وهو كائن لا محالة، وواقع لا ريب في، قال: ثم قال تعالى مقررًا أنه على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى: ﴿أَلَا لَيْتَهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ أي: المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته وتحت طغي علمه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا إله إلا هو. اهـ.

سورة حم عسق

واسمها سورة الشورى

وهي مَكِّيَّة، رواه العوفي وغيره عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والجمهور. وحكي عن ابن عباس وقتادة قالا: إلا أربع آيات نزلن بالمدينة، أولها: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الشورى: ٢٣]. وقال مقاتل: فيها من المدني قوله: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يَنْبِئُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الشورى: ٢٣] إلى قوله: ﴿يَذَاتِ الْأَصْدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ [الشورى: ٣٩] إلى قوله: ﴿فَيْن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝ عَسَقٌ ۝ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ يَنْبِئُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الشورى: ٢٣] ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۚ إِنَّا نَحْنُ الْمُغْنَوْنَ﴾ [الشورى: ٢٤] ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ [الشورى: ٣٩] ﴿فَيْن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١].

قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ ۝ عَسَقٌ ۝﴾ قد سبق تفسيره [المؤمن].

قوله تعالى: ﴿عَسَقٌ ۝﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه قَسَمَ أقسم الله به، وهو من أسمائه، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أنه حروف من أسماء؛ ثم فيه خمسة أقوال: أحدها: أن العين عِلْمُ الله، والسين سناؤه، والقاف قُدرته، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال الحسن. والثاني: أن العين فيها عذاب، والسين فيها مسخ، والقاف فيها قذف، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس. والثالث: أن الحاء من حرب، والميم من تحويل مُلك، والعين من عدو مهجور، والسين استئصال بَسِينِ كِسْفِي يوسف، والقاف من قُدرة الله في ملوك الأرض، قاله عطاء. والرابع: أن العين من عالم، والسين من قُدوس، والقاف من قاهر، قاله [سعيد] بن جبيرة. والخامس: أن العين من العزيز، والسين من السلام، والقاف من القادر، قاله السدي. والثالث: أنه اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة^(١).

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه كما أوحيت ﴿حَمْدٌ عَسَقٌ﴾ إلى كل نبي، كذلك نوحيا إليك، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: كذلك نوحى إليك أخبار الغيب كما أوحينا إلى مَنْ قَبْلَكَ، رواه عطاء عن ابن عباس. والثالث: أن ﴿حَمْدٌ عَسَقٌ﴾ نزلت في أمر العذاب، فقيل: كذلك نُوحِي إِلَيْكَ أن العذاب نازل بمن كَذَبَكَ كما أوحينا ذلك إلى مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، قاله مقاتل. والرابع: أن المعنى: هكذا نوحى إليك، قاله ابن جرير. وقرأ ابن كثير: ﴿يُوحَىٰ﴾ بضم الياء وفتح الحاء. كأنه إذا قيل: من يوحى؟ قيل: الله. وروى أبان عن عاصم: ﴿نوحى﴾ بالنون وكسر الحاء. ﴿كَذَلِكَ أُنَبِّئُكَ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وحزمة: ﴿كَذَلِكَ﴾ بالياء ﴿يُنَبِّئُكَ﴾ مثل قراءة ابن كثير. وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: ﴿كَذَلِكَ﴾ بالياء ﴿يُنَبِّئُكَ﴾ بالنون وكسر الطاء وتخفيفها، أي: يَنْشَقُّقُ ﴿يُنَبِّئُكَ﴾ أي: من فوق الأرضين من عظمة الرحمن؛ وقيل: من قول المشركين: ﴿أَنُكِّدُ اللَّهَ وَلَدًا﴾. ونظيرها [التي] في [مريم: ٩٠]. ﴿وَالْمَلَكُ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قال بعضهم: يصلون بأمر ربهم؛ وقال بعضهم: ينزهونه عما لا يجوز في صفته، ﴿يَسْتَفْتُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه أراد المؤمنين، قاله قتادة، والسدي. والثاني: أنهم كانوا يستغفرون للمؤمنين، فلما ابتلي هاروت

(١) قال الشوكاني في تفسيره «فتح القدير»: واختلفوا في ﴿حَمْدٌ ۝ عَسَقٌ ۝﴾ فقيل: معناها: حَمْدٌ، أي: قضي، وقيل: إن «ح» حمله، و«م» مجله، و«ع» علمه، و«س» سناؤه، و«ق» قدرته، أقسم الله بها، وقيل غير ذلك منها هو متكلف متعسف لم يدل عليه دليل، ولا جاءت به حجة ولا شبهة حجة، قال: وقد ذكرنا قبل هذا ما روي في ذلك ما لا أصل له. اهـ. وقد تقدم الكلام على أوائل الحروف في (العنكبوت) وغيرها بما فيه كفاية.

وماروت استغفروا لِمَن في الأرض. ومعنى استغفارهم: سؤالهم الرزق لهم، قاله ابن السائب. وقد زعم قوم منهم مقاتل أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧]، وليس بشيء، لأنهم إنما يستغفرون للمؤمنين دون الكفار، فلفظ هذه الآية عام، ومعناها خاص، ويدل على التخصيص قوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧]، لأن الكافر لا يستحق أن يستغفر له.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني كفار مكة اتَّخَذُوا آلَهم فعبدها من دونه؛ ﴿اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: حافظ لأعمالهم ليجازيهم بها ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: لم نؤكلك بهم فتوخذ بهم. وهذه الآية عند جمهور المفسرين منسوخة بآية السيف، ولا يصح.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ ﴿٧﴾ وَكَوْنًا شَآءَ اللَّهُ لِحَسَبِهِمْ أُمَّةً وَجِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَن بَشَاةً فِي رَحْمَةٍ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتُمْ إِن تَتَّخِذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَالَهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: ومثل ما ذكرنا ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ ليفهموا ما فيه ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ يعني مكة، والمراد: أهلها^(١)، ﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ أي: وتنذرهم يوم الجمع، وهو يوم القيامة، يجمع الله فيه الأولين والآخرين، وأهل السموات والأرضين ﴿لَا رَبَّ فِيهِ﴾ أي: لا شك في هذا الجمع أنه كائن، ثم بعد الجمع يتفرقون، وهو قوله: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾. ثم ذكر سبب افتراقهم فقال: ﴿وَكُوْنًا شَآءَ اللَّهُ لِحَسَبِهِمْ أُمَّةً وَجِدَةً﴾ أي: على دين واحد، كقوله: ﴿لَجَمْعِهِمْ عَلَىٰ آلِهَتِهِ﴾ [الأنعام: ٣٥] ﴿وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَن بَشَاةً فِي رَحْمَةٍ﴾ أي: في دينه ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ وهم الكافرون ﴿وَمَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ﴾ يدفع عنهم العذاب ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يمنعهم منه. ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن تَتَّخِذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: بل اتخذ الكافرون من دون الله ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ يعني آلهة يتولونها ﴿قَالَهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ أي: ولي أوليائه، فليتخذوه ولياً دون الآلهة؛ وقال ابن عباس: وليك يا محمد ولي من اتبعك.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكِّمُوْهُ إِلَى اللَّهِ فَالِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْثَمِ أَزْوَاجًا يَدْخُلُوكُم فِيهِ لَيْسَ كُفَيْلُهُ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَمْ يَخْلُقْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِسَطِّ الرِّزْقِ لَيْسَ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ عِلْمٌ ﴿١٢﴾ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيِّنَاتٌ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّفُصِّفَتْ بَيِّنَاتٌ وَلَئِنَّ الَّذِينَ أُرْسِلُوا إِلَى الْكِتَابِ مِن بَعْدِهِمْ لَنَنصَرِكَنَّهُ لَقَدْ كُنَّا مِنكُمْ شُرَكَاءَ مِن قَبْلِهِ ثُمَّ تَوَكَّلْنَا عَلَى اللَّهِ وَكُنَّا لَهُ قُلُوبًا هَامِيَةً ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: من أمر الدين؛ وقيل: بل هو عام ﴿تَوَكَّلْنَا عَلَى اللَّهِ﴾ فيه قولان. أحدهما: علمه عند الله. والثاني: هو يحكم فيه. قال مقاتل: وذلك أن أهل مكة كفر بعضهم بالقرآن، وآمن بعضهم، فقال الله: أنا الذي أحكم فيه. ﴿ذَلِكَ كُمُ اللَّهُ﴾ الذي يحكم بين المختلفين، هو ﴿رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في مهماتي، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجع في المعاد. ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ﴾ قد سبق بيانه [الأنعام: ٤١٤]، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من مثل خَلْقِكُمْ ﴿أَزْوَاجًا﴾ نساء، ﴿وَمِنَ الْأَنْثَمِ أَزْوَاجًا﴾ أصنافاً ذكوراً، وإنثاءً، والمعنى أنه خلق لكم الذكر، والأنثى من الحيوان كله، ﴿يَدْخُلُوكُم﴾ فيها ثلاثة أقوال: أحدها: يخلقكم، قاله السدي. والثاني: يعيشكم، قاله مقاتل. والثالث: يكثركم، قاله الفراء. [وفي قوله] ﴿فِيهِ﴾ قولان: أحدهما: أنها على أصلها، قاله الأكثرون. فعلى هذا في هاء الكناية

(١) قال ابن كثير: يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: واضعاً جليلاً بيناً ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وهي مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: من سائر البلاد شرقاً وغرباً، قال: وسُميت مكة أم القرى لأنها أشرف من سائر البلاد، لأللة كثيرة مذكورة في مواضعها، قال: ومن أوجز ذلك وأدله ما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، حدثنا أبو سلمة بن عبد الرحمن قال: إن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أخبره أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحزورة في سوق مكة: «إِنَّهُ لَنُفَخَزُ أَرْضَ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أَخْرَجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ» قال ابن كثير: هكذا رواية الترمذي، والنسائي، وابن ماجه من حديث الزهري به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْجِ أَمْوَالَكُمْ﴾ يعني أهل الكتاب، لأنهم دعوه إلى دينهم.

قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ قال بعض النحويين: المعنى: أُمِرْتُ كي أَعْدِلَ. وقال غيره: المعنى: أُمِرْتُ بِالْعَدْلِ. وتقع «أُمِرْتُ» على «أن»، وعلى «كي»، وعلى «اللام»؛ يقال: أُمِرْتُ أَنْ أَعْدِلَ، وكَيِّ أَعْدِلَ، ولأَعْدِلَ. ثم في ما أُمِرَ أَنْ يَغْدِلَ فيه قولان: أحدهما: في الأحكام إذا تراءفوا إليه. والثاني: في تبليغ الرسالة.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: هو إلهنا وإن اختلفنا، فهو يجازينا بأعمالنا، فذلك قوله: ﴿لَا أَعْتَكَا﴾ أي: جزاؤها. ﴿لَا حُبَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ قال مجاهد: لا خصوصية بيننا وبينكم.

فصل

وفي هذه الآية قولان: أحدهما: أنها اقتضت الاختصار على الإنذار، وذلك قبل القتال، ثم نزلت آية السيف فنسختها، قاله الأكثرون. والثاني: أن معناها: إن الكلام - بعد ظهور الحجج والبراهين - قد سقط بيننا، فعلى هذا هي مُحْكَمَةٌ، حكاه شيخنا علي بن عبيد الله عن طائفة من المفسرين.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُخَاجِرُونَ فِي اللَّهِ﴾ أي: يُخَاصِمُونَ في دينه، قال قتادة: هم اليهود، قالوا: كُتِبْنَا قَبْلَ كِتَابِكُمْ، وَنَبِيْنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ، فَنَحْنُ خَيْرٌ مِنْكُمْ. وعلى قول مجاهد: هم المشركون، طمعوا أن تعود الجاهلية.

قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ﴾ أي: من بعد إجابة الناس إلى الإسلام؛ ﴿مِنْهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ أي: خصومتهم باطلة.

﴿اللَّهُ الَّذِي أُنْزِلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَمَلَّ السَّاعَةُ قَرِيبٌ ۝١٧ يَسْتَعِجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۝١٨ إِنَّ الَّذِينَ يُكَاوِرُونَ فِي السَّاعَةِ لَكُلِّ مَكَلِّمٍ بَعِيدٌ ۝١٩ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الزَّوْجُ ۝٢٠ مَنْ كَانَتْ يَدَاكَ حَرَتْ فِي الْآخِرَةِ رَزَقْ لَهُ فِي حَرْبِهِ وَمَنْ كَانَتْ يَدَاكَ حَرَتْ الدُّنْيَا تَزِيدُ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ۝٢١﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أُنْزِلَ الْكِتَابَ﴾ يعني القرآن ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: لم ينزله لغير شيء، ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه العدل، قاله ابن عباس، وقاتدة، والجمهور. والثاني: أنه الذي يوزن به، حكى عن مجاهد. ومعنى إنزاله: إلهام الخلق أن يعملوا به، وأمر الله ﷻ إياهم بالإنصاف، وسُمِّيَ الْعَدْلُ ميزاناً، لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الخلق. وتام الآية مشروح في [الأحزاب: ٤٦٣].

قوله تعالى: ﴿يَسْتَعِجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ لأنهم لا يخافون ما فيها، إذ لم يؤمنوا بكونها، فهم يطلبون قيامها استبعاداً واستهزاء، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون ﴿مِنْهَا﴾ لأنهم يعلمون أنهم مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ، ولا يدرون ما يكون منهم، ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي: أنها كائنة لا محالة. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُكَاوِرُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ أي: يخاضعون في كونها ﴿لِكُلِّ مَكَلِّمٍ بَعِيدٍ﴾ حين لم يفكروا، فَعَمِلُوا قدرة الله على إقامتها. ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ قد شرحنا معنى [اسمه] اللطيف في [الأنعام: ٤١٠٣]. وفي عباده هاهنا قولان: أحدهما: أنهم المؤمنون. والثاني: أنه عام في الكل. ولطفه بالفاجر: أنه لا يهلكه. ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوسع له الرزق.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يَدَاكَ حَرَتْ فِي الْآخِرَةِ﴾ قال ابن قتيبة: أي: عَمَلُ الْآخِرَةِ، يقال: فلان يَحْرُثُ لِلدُّنْيَا، أي: يعمل لها ويجمع المال؛ فالمعنى: من أراد بعمله الآخرة ﴿يَرْزُقْ لَهُ فِي حَرْبِهِ﴾ أي: نُضَاعِفْ لَهُ الحسنات. قال

= العمل به، ولا تَرَحُّ عنه، وأثبت عليه كما أمرك ربك بالاستقامة. اهـ.

وقال ابن كثير: اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستغلات كل منها منفصلة عن التي قبلها، حُكِمَ بِرَأْسِهَا، قال: قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضاً عشرة فصول كهذه، قال: وقوله: ﴿فَلْيَذَلِكُنَّ فَأَذْنُ﴾ أي: فالذي أوحينا إليك من الدين الذي وَحَّيْنَا به جميع المرسلين قبل أصحاب الشرائع الكبار المثبتة كأولي المزم وغيرهم قاذع الناس إليه، قال: وقوله ﷻ: ﴿وَأَسْتَقِيمَ صَكًّا أُمِرْتُ﴾ أي: واستقم أنت ومن أتبعك على عبادة الله تعالى كما أمركم الله ﷻ. اهـ.

المفسرون: من أراد العمل لله بما يُرضيه، أعانه الله على عبادته، ومن أراد الدنيا مؤثراً لها على الآخرة لأنه غير مؤمن بالآخرة، يؤته منها، وهو الذي قسم له، ﴿وَمَا لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ حَاسِبٍ ۝﴾ لأنه كافر بها لم يعمل لها^(١).

فصل

اتفق العلماء على أن أول هذه الآية إلى «حرثه» مُحْكَم، واختلفوا في باقيها على قولين: أحدهما: [أنه] منسوخ بقوله: ﴿عَجَلْنَا لَهُمُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]، وهذا قول جماعة منهم مقاتل. والثاني: أن الآيتين مُحْكَمَتَانِ متفقَتان في المعنى، لأنه لم يقل في هذه الآية: نؤته مُراد، فَعُلِمَ أنه إنما يؤتيه الله ما أراد، وهذا موافق لقوله: ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾، ويحقق هذا أن لفظ الآيتين لفظ الخبر ومعناها معنى الخبر، وذلك لا يدخله النسخ، وهذا مذهب جماعة منهم قتادة.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِنَ بِهِمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَقَعُ فِيهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝ ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَتْلُوكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْرَبْ حَسَنَةً زِدْ لَهُمُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝ أَمْ يَقُولُونَ أَتَدْعُو عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَتَمْحُ اللَّهُ الْبَيِّنَاتِ وَيُحْمِلَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّكُمْ عَلَيْكُمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يعني كفار مكة؛ والمعنى: أَلَهُمْ آلَةٌ ﴿شَرَعُوا﴾ أي: ابتدعوا ﴿لَهُمْ﴾ دينا لم يأذن به الله؟^(٢) ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ وهي: القضاء السابق بأن الجزاء يكون في القيامة ﴿لَفُتِنَ بِهِمْ﴾ في الدنيا بتزول العذاب على المكذِبين. والظالمون في هذه الآية والتي تليها: يراد بهم المشركون. والإشفاق: الخوف. والذي كَسَبُوا: هو الكفر والتكذيب، ﴿وَهُمْ وَقَعُ فِيهِمْ﴾ يعني جزاءه. وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ يعني: ما تقدم ذكره من الجنات ﴿الَّذِي يُبَيِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ﴾ قال أبو سليمان الدمشقي: «ذلك» بمعنى: هذا الذي أخبركم به بشرى يشر الله بها عباده. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمره، والكسائي: «يُبَيِّرُ» بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَتْلُوكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ في سبب نزول هذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أن المشركين كانوا يؤذون رسول الله ﷺ بمكة، فنزلت هذه الآية، رواه الضحاك عن ابن عباس^(٣). والثاني: أنه لما قَدِمَ المدينة كانت تتوهم نوابه وليس في يده سعة، فقال الأنصار: إن هذا الرجل قد هداكم الله به، وليس في يده سعة، فاجتمعوا له من أموالكم ما لا يضرهم، ففعلوا ثم أنزوه به، فنزلت هذه الآية، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً^(٤). والثالث: أن المشركين اجتمعوا في مجمع لهم، فقال بعضهم لبعض: أترؤن محمداً يسأل على ما يتعاطاه أجراً، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة^(٥). والهاء في «عليه» كناية عما جاء به من الهدى. وفي الاستثناء هاهنا قولان: أحدهما: أنه من الجنس، فعلى هذا يكون سائلاً

(١) قال ابن كثير: أي: ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا، وليس له إلى الآخرة هم البيت بالكليّة، حرمه الله الآخرة، والدنيا إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصل له هذه ولا هذه، وفاز الساعي بهذه النية بالصفة الخاسرة في الدنيا والآخرة، قال: والدليل على هذا أن هذه الآية هاهنا مقيدة بالآية التي في ﴿مَنْ﴾ وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْفَاحِشَةَ عَمَلًا لَمْ يَفْعَلْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ جَهَنَّمُ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَتَحَرِّكًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۝ كَلَّا لَبِئْسَ هَؤُلَاءِ وَكَهَؤُلَاءِ مِنْ عَمَلِكُمْ رَبِّهِ وَمَا كَانَ عَمَلُكُمْ رَبِّكَ مَحْشُورًا ۝ أَنْتُمْ كَذَّبْتُمْ عَنْ سَعْيِكُمْ وَلَئِنَّ الْآخِرَةَ لَآتِيَةٌ أَكْبَرُ مِنْكُمْ وَأَكْبَرُ تَقْوِيكُمْ ۝﴾ [الإسراء: ١٨].

(٢) قال ابن كثير: وقوله جل وعلا: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم من التحليل والتحریم والعبادات الباطلة والأموال الفاسدة. اهـ.

(٣) قال السيوطي في «الدرر» ٦/٦: أخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس ﷺ قال: نزلت هذه الآية بمكة، وكان المشركون يؤذون رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ لَهُمْ مَا أَدْعُوهُمْ إِلَىٰ﴾ يعني على ما أَدْعُوكم إليه ﴿أَجْرًا﴾ عوضاً من الدنيا ﴿وَلَا التَّوْبَةَ﴾ إلى الآخرة. إلا الحفظ في قرابتي فيكم.

(٤) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢١٣ عن ابن عباس بدون سند. (٥) وكذلك ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢١٣ عن قتادة بدون سند.

الذُنُوبِ ﴿وَيَعْتَفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ من ذنوبهم، فيُنْجِيهِم من الهلاك. ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُحْدِلُونَ﴾ قرأ نافع، وابن عامر: «وَيَعْلَمُ» بالرفع على الاستئناف وقطعه من الأول؛ وقرأ الباقون بالنصب. قال الفراء: هو مردود على الجزم، إلا أنه صُرف، والجزم إذا صُرف عنه معطوفه نُصب. وللمفسرين في معنى الآية قولان: أحدهما: ويعلم الذين يخاصمون في آيات الله حين يؤخذون بالفرق أنه لا ملجأ لهم. والثاني: أنهم يعلمون بعد البعث أنه لا مهرب لهم من العذاب.

قوله تعالى: ﴿فَأُوتِيتُمْ مِّنْ فَضْلٍ﴾ أي: ما أعطيتكم من الدنيا فهو متاع تَتَمَتَّعون به، ثم يزول سريعاً، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لَّابِقِينَ لِّلْآزِلِينَ﴾ لا للكَافِرِينَ، لأنه إنما أعد لهم في الآخرة العذاب.

﴿وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفُرْجِ وَإِذَا مَا عَصَبُوا مُمْ يُفَرُّونَ﴾ (٣٧) ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَرُوا مَعَهُمْ مَّرَّةً وَمَرَّةً يَفُوقُونَ﴾ (٣٨) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا اسْتَجَبُوا لِلَّهِ مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَنَّا لَهُمْ مِّنْ غَفَاةٍ وَفُتْنٍ لَّئِيْلٌ لَّا يَحِثُّ الْفَاسِدِينَ﴾ (٣٩) ﴿وَلَمَّا أَتَوْا بَعْدَ عَذَابِهِم بِأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ (٤٠) ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤١) ﴿وَلَمَّا سَبَّ وَظَنَّ لَهُ ذَلِكَ لَمَّا عَزَزَ الْأَكْمَرُ﴾ (٤٢)

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي: «كَبِيرِ الْإِثْمِ» على التوحيد من غير ألف، والباقون بآلف. وقد شرحنا الكبائر في سورة [النساء: ٣١] (١). وفي المراد بالفواحش هاهنا قولان: أحدهما: الزنا. والثاني: موجبات الحدود.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا عَصَبُوا مُمْ يُفَرُّونَ﴾ أي: يَفُوقُونَ عَمَّنْ ظَلَمَهُم طلباً لثواب الله تعالى (٢). ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: أجابوه فيما دعاهم إليه. ﴿وَأَنفَرُوا مَعَهُمْ مَّرَّةً وَمَرَّةً يَفُوقُونَ﴾ قال ابن قتيبة: أي: يتشاورون فيه [بينهم]. وقال الزجاج: المعنى أنهم لا يفردون برأي حتى يجتمعوا عليه (٣).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا اسْتَجَبُوا لِلَّهِ مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَنَّا لَهُمْ مِّنْ غَفَاةٍ وَفُتْنٍ لَّئِيْلٌ لَّا يَحِثُّ الْفَاسِدِينَ﴾ (٣٩) اختلَفوا في [هذا] البَيْغِي على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه بَغْيِي الكفار على المسلمين. قال عطاء: هم المؤمنون الذين أخرجهم الكفار من مكة وَبَغَوْا عليهم، ثم مكَّتهم الله منهم فانتصروا. وقال زيد بن أسلم: كان أصحاب رسول الله ﷺ فِرَقَتَيْنِ بمكة، فرقة كانت تُؤَذِّي فتَعَفُو عن المشركين، وفرقة كانت تُؤَذِّي فتنتصر، فأتى الله ﷻ عليهم جميعاً، فقال في الذين لم ينتصروا: ﴿وَإِذَا مَا عَصَبُوا مُمْ يُفَرُّونَ﴾، وقال في المنتصرين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا اسْتَجَبُوا لِلَّهِ مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَنَّا لَهُمْ مِّنْ غَفَاةٍ وَفُتْنٍ لَّئِيْلٌ لَّا يَحِثُّ الْفَاسِدِينَ﴾. أي: من المشركين. وقال ابن زيد: ذكر المهاجرين، وكانوا صنفين، صنفاً عفواً، وصنفاً انتصر، فقال: ﴿وَإِذَا مَا عَصَبُوا مُمْ يُفَرُّونَ﴾، فبدأ بهم، وقال في المنتصرين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا اسْتَجَبُوا لِلَّهِ مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَنَّا لَهُمْ مِّنْ غَفَاةٍ وَفُتْنٍ لَّئِيْلٌ لَّا يَحِثُّ الْفَاسِدِينَ﴾. أي: من المشركين؛ وقال: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَفُوقُونَ﴾ وهم الأنصار؛ ثم ذكر الصَّنَف الثالث فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا اسْتَجَبُوا لِلَّهِ مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَنَّا لَهُمْ مِّنْ غَفَاةٍ وَفُتْنٍ لَّئِيْلٌ لَّا يَحِثُّ الْفَاسِدِينَ﴾ من المشركين. والثاني: أنه بَغْيِي المسلمين على المسلمين خاصة. والثالث: أنه عام في جميع البُغَاة، سواء كانوا مسلمين أو كافرين.

فصل

واختلف في هذه الآية علماء الناسخ والمنسوخ، فذهب بعض القائلين بأنها في المشركين إلى أنها منسوخة بآية السيف، فكانهم يشيرون إلى أنها أثبتت الانتصار بعد بَغْيِي المشركين، فلما جاز لنا أن نبدأهم بالقتال، دَلَّ على أنها منسوخة. وللقائلين بأنها في المسلمين قولان: أحدهما: أنها منسوخة بقوله: ﴿وَلَمَّا سَبَّ وَظَنَّ لَهُ ذَلِكَ لَمَّا عَزَزَ الْأَكْمَرُ﴾ (٤٣) فكانها نُهِتْ على مدح المنتصر، ثم أعلمنا أن الصبر والغفران أمدح، فبان وجه النسخ. والثاني: أنها محكمة، لأن الصبر

(١) انظر ٢٧٥.

(٢) قال ابن كثير: أي: سَجَّيْهم تفتي الصفح والعفو عن الناس، ليس سَجَّيْهم الانتقام من الناس.

(٣) قال ابن كثير: أي: لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه ليتساعدوا بأرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَتَشَاوَرُكُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ الآية، قال: ولهذا كان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ليطيب بذلك قلوبهم، قال: وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب رضي الله عنه الوفاة حين طعن جمل الأمر بعده شورى في ستة نفر، وهم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهم، فاجتمع رأي الصحابة كلهم ﷺ على تقديم عثمان عليهم، رضي الله عنه.

والغفران فضيلة، والانتصار مباح، فعلى هذا تكون محكمة، [وهو الأصح]. فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية - وظاهرها مدح المنتصر - وبين آيات الحثّ على العفو؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه انتصار المسلمين من الكافرين، وتلك رتبة الجهاد كما ذكرنا عن عطاء. والثاني: أن المنتصر لم يخرج عن فعل أبيح له، وإن كان العفو أفضل، ومَنْ لم يخرج من الشرع بفعله، حسنّ مدحه. قال ابن زيد: جعل الله المؤمنين صنفين، صنف يعفو، فبدأ بذكره، وصنف ينتصر. والثالث: أنه إذا بغى على المؤمن فاسق، فلائله اجتراء الفساق عليه، وليس للمؤمن أن يذلل نفسه، فينبغي له أن يكثر شوكه الثمينة لتكون العزة لأهل الدين. قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون للمؤمنين أن يذللوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق، فإذا قدروا عفوًا. وقال القاضي أبو يعلى: هذه الآية محمولة على من تعدّى وأصرّ على ذلك، وآيات العفو محمولة على أن يكون الجاني نادماً.

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا سَيِّئًا يَبْلُغُونَ﴾ قال مجاهد والسدي: هو جواب القبيح، إذا قال له كلمة أجابه بمثلها من غير أن يعتدي. وقال مقاتل: هذا في القصاص في الجراحات والدماء. ﴿فَمَنْ عَنَّا﴾ فلم يقتصّ ﴿وَأَمَّا﴾ العمل ﴿فَأَمْرٌ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَجِدُ الْكَافِرِينَ﴾ يعني من بدأ بالظلم. وإنما سُمي المجازاة سيئة، لما بيّنّا عند قوله: ﴿فَمَنْ عَنَّا﴾ عَلَيْهِمْ فَأَعْدَلْنَا عَلَيْهِ. [البقرة: ١٧٩]. قال الحسن: إذا كا يوم القيامة نادى مُنادٍ. لِيَقُمْ مَنْ كَانَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، فلا يقوم إلّا مَنْ عفا. ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَدَّ ظُلْمِهِ﴾ أي: بعد ظلم الظالم إياه؛ والمصدر هاهنا مضاف إلى المفعول، ونظيره: ﴿بَيْنَ دُعَاؤِ الْغَيْرِ﴾ [فصلت: ٤٩] و﴿سُؤَالِ قَوْمِكَ﴾^(١) [ص: ٢٤]، يعني المنتصرين ﴿مِمَّا عَلَيْهِمْ بَيْنَ سَبِيلٍ﴾ أي: من طريق إلى لَوْمٍ ولا حَدٍّ، ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ أي: يبتدون بالظلم ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: يعملون فيها بالمعاصي.

وَلَكِنْ صَبْرٌ : فلم ينتصر ﴿وَقَفَّرَ إِنَّ ذَلِكَ﴾ الصبر والتجاوز ﴿لَيْنَ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وقد شرحناه في الآل

عمران: ۱۸۶].

[illegible]

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَارٍ﴾ أي: من أحذ يلي هدايته بعد إضلال الله إياه. ﴿وَرَوَى الْقَلِيلُونَ﴾ يعني المشركين ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ في الآخرة يسألون الرجعة إلى الدنيا ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾؟ ﴿وَرَوَاهُمْ يَمْزُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار ﴿خَشْيُونَ﴾ أي: خاضعين متواضعين ﴿مِنَ الدَّلِيلِ يَنْظُرُونَ﴾ من طَرْفٍ خَفِيٍّ وفيه أربعة أقوال. أحدها: من طَرْفٍ ذليل، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. وقال الأخفش: ينظرون من عين ضعيفة. وقال غيره: «مِنْ» بمعنى «الباء». والثاني: يسارقون النظر، قاله قتادة، والسدي. والثالث: ينظرون ببعض العين، قاله أبو عبيدة. والرابع: أنهم ينظرون إلى النار بقلوبهم، لأنهم قد حُشروا عُيَا، فلم يَرَوْها بأعينهم، حكاه الفراء، والزجاج. وما بعد هذا قد سبق بيانه [الأنام: ١٢، مود: ٣٩] إلى قوله: ﴿يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: يمنعونهم من عذاب الله.

[illegible]

قوله تعالى: ﴿أَسْتَجِيبُ لِرَبِّكُمْ﴾ أي: أجيبوه، فقد دعاكم برسوله ﴿يَمِّنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وهو يوم القيامة ﴿لَا مَرَدَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ﴾ أي: لا يقدر أحد على رده ودفعه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلَكٍ﴾ تلجؤون إليه، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ قال مجاهد:

من ناصر ينضركم. وقال غيره: من فُدره على تغيير ما نزل بكم^(١). «فَإِنْ أَعْرَضُوا» عن الإجابة «فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا» لحفظ أعمالهم «إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاءُ» أي: ما عليك إلا أن تبلغهم. وهذا عند المفسرين منسوخ بآية السيف.

قوله تعالى: «وَأَيُّهَا إِذَا أَقْبَا الْإِنْسَانُ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا» قال المفسرون: المراد به: الكافر؛ والرحمة: الغنى والصحة والمطر ونحو ذلك، والسببة: المرض والفقر والقحط [ونحو ذلك]. والإنسان هاهنا: اسم جنس، فلذلك قال: «وَلَنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» أي: بما سلف من مخالفتهم «فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ» بما سلف من النعم. «لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» أي: له التصرف فيها بما يريد، «يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً» يعني النبات ليس فيه ذكراً، كما وهب للوط عليه السلام، فلم يولد له إلا البنات «وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ» يعني البنين ليس معهم أنثى، كما وهب لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، فلم يولد له إلا الذكور. «أَوْ يَرْزُقْهُمْ» يعني الإناث والذكور. قال الزجاج: ومعنى «يَرْزُقْهُمْ»: يقرئهم. وكل شيئين يقترون أحدهما بالآخر، فهما زوجان، ويقال لكل واحد منهما: زوج، تقول: عندي زوجان من الخفاف، يعني اثنين. وفي معنى الكلام للمفسرين قولان: أحدهما: أنه وضع المرأة غلاماً ثم جارية ثم غلاماً ثم جارية، قاله مجاهد والجمهور. والثاني: [أنه] وضع المرأة جاريةً وغلاماً توأمين، قاله ابن الحنفية. قالوا: وذلك كما جمع لمحمد ﷺ، فإنه وهب له بنين وبنات، «وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً» لا يولد له، كبحي بن زكريا عليه السلام. وهذه الأقسام موجودة في سائر الناس، وإنما ذكروا الأنبياء تمثيلاً.

﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُلْغِيَهُ اللَّهُ إِلَّا رَحِمًا أَوْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أَوْ بِرِيسَلٍ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ذَكِيرٌ﴾ (٥١) «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُحْمًا مِنْ أَمْرًا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَفِي ظُلُمَاتٍ مُتَّقِيَةٍ ۖ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» (٥٢) صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣)

قوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُلْغِيَهُ اللَّهُ إِلَّا رَحِمًا» قال المفسرون: سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ألا تكلم الله وتنتظر إليه إن كنت نبياً صادقاً كما كلمه موسى ونظر إليه؟ فقال لهم: «لم ينظر موسى إلى الله»، ونزلت هذه الآية^(٢). والمراد بالوحي هاهنا: الوحي في المنام. «أَوْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أَوْ بِرِيسَلٍ» كما كلم موسى^(٣). «أَوْ بِرِيسَلٍ» قرأ نافع، وابن عامر: «فِي رِيسَلٍ» بالرفع «فَيُوحِيَ» بسكون الياء. وقرأ الباقون: «فِي رِيسَلٍ» بنصب اللام «فيوحي» بتحريك الياء، والمعنى: «أو يرسل رسولاً» كجبرائيل «فيوحي» ذلك الرسول إلى المرسل إليه «بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ». قال مكِّي بن أبي طالب: من قرأ «أو يرسل» بالنصب، عطفه على معنى قوله: «إِلَّا رَحِمًا» لأنه بمعنى: «إِلَّا أَنْ يُوْحِيَ». ومن قرأ بالرفع، فعلى الابتداء، كأنه قال: أو هو يرسل. قال القاضي أبو يعلى: وهذه الآية محمولة على أنه لا يكلم بشراً إلّا من وراء حجاب في دار الدنيا.

قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ» أي: وكما أوحينا إلى الرُّسُل «أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ»، وقيل: الواو عطف على أول السورة، فالمعنى: كذلك نوحى إليك وإلى الذين من قبلك. «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُحْمًا مِنْ أَمْرًا» قال ابن عباس: هو القرآن. وقال

(١) قال ابن كثير: لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأحوال والأمور العظام الهائلة، حذر منه، وأمر بالاستعداد له فقال: «أَنْتَجِبُوا زِينَتَكُمْ يَوْمَ تَبْلُغُ يَوْمَ لَا مَرَدٍّ لَهُ مِنْكُمْ اللَّهُ» أي: إذا أمر بكونه، فإنه كملح البصر يكون وليس له فافع ولا مانع، قال: وقوله ﷻ: «مَا لَكُمْ يَوْمَ تَبْلُغُ يَوْمَ تَبْلُغُ لَكُمْ مِنْ كَيْسٍ» أي: ليس لكم حصن تتحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتكبرون فيه فتفنيون عن بصره تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته فلا ملجأ منه إلا إليه ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْكُمْ كُنُوزُهُمْ أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَا بِكُفْرٍ كَثِيرٍ ۖ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٥٢) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْهَرُكَ أَشْعَثُ﴾ (٥٣) اهـ.

(٢) ذكر سبب النزول هذا الواحد في «أسباب النزول» ٢١٤ بدون سند، وكذلك ذكره البغوي والخازن وغيرهما بدون سند. وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكتاب»: حديث أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ألا تكلم الله وتنتظر إليه، فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك، فنزلت: «وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُلْغِيَهُ اللَّهُ إِلَّا رَحِمًا» لم أجده. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله ﷻ، وهو أنه تبارك وتعالى تارة يلقف في رُوح النبي ﷺ شيئاً لا يتماهى فيه أنه من الله ﷻ، كما جاء في «صحيح ابن حبان» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوحِي أَنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رُزُقَهَا وَأَجْلُهَا تَأْتِهَا» الله وأجملوا في الطلب، قال: وقوله تعالى: «أَوْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أَوْ بِرِيسَلٍ» كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام فإنه سأل الروية بعد التكلم فحجب عنها. ثم قال: «أَوْ بِرِيسَلٍ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ» كما ينزل جبريل عليه الصلاة والسلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

مقاتل: وَحْيًا بَأْمَرًا^(١).

قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾ وذلك أنه لم يكن يعرف القرآن قبل الوحي ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه بمعنى الدعوة إلى الإيمان، قاله أبو العالية. والثاني: أن المراد به شرائع الإيمان ومعالمه، وهي كلها إيمان؛ وقد سُمِّيَ الصلاة إيماناً بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُخَيِّجَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، هذا اختيار ابن قتيبة، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة. والثالث: أنه ما كان يعرف الإيمان حين كان في المهد وإذ كان طفلاً قبل البلوغ، حكاه الواحدي. والقول ما اختاره ابن قتيبة، وابن خزيمة، وقد اشتهر في الحديث عنه ﷺ أنه كان قبل النبوة يوحد الله، وَيُخْفِضُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى، وَيُحْجُ وَيُعْتَمِر، وَيَتَّبِعُ شَرِيعَةَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ. قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: من زعم أن النبي ﷺ كان على دين قومه، فهو قول سوء، ليس كان لا يأكل ما ذُبِحَ على التُّصْب؟ وقال ابن قتيبة: قد جاء في الحديث أنه كان على دين قومه أربعين سنة. ومعناه: أن العرب لم يزالوا على بقايا من دين إسماعيل، من ذلك حُجُّ البيت، والختان، وإيقاع الطلاق إذا كان ثلاثاً، وأن للزوج الرجعة في الواحدة والاثنين، ودية النفس مائة من الإبل، والغسل من الجنابة، وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والصُّهر. وكان عليه الصلاة والسلام على ما كانوا عليه من الإيمان بالله والعمل بشرائعهم في الختان والغسل والحج، وكان لا يقرب الأوثان، ويعيها. وكان لا يعرف شرائع الله التي شرعها لعباده على لسانه، فذلك قوله: ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾ [يعني القرآن] ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾ يعني شرائع الإيمان؛ ولم يُردِ الإيمان الذي هو الإقرار بالله، لأن آباءه الذين ماتوا على الشرك كانوا يؤمنون بالله ويحجُّون له [البيت] مع شركهم. قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى القرآن. والثاني: إلى الإيمان. ﴿وَمَا كُنَّا﴾ أي: ضياءً ودليلاً على التوحيد ﴿تَهْدِي بِمَنْ نَشَاءُ﴾ [من عبادنا] إلى دين الحق^(٢). ﴿وَأِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ أي: لتدعو ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام^(٣).



(١) في الأصل: هو وحياً بأمرنا.

(٢) قال البغوي في تفسيره: ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي﴾ قبل الوحي ﴿مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ يعني شرائع الإيمان ومعالمه، قال: وقال محمد بن خزيمة: الإيمان في هذا الموضع: الصلاة، ودليله قوله ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُخَيِّجَ إِيمَانَكُمْ﴾ قال: وأهل الأصول على أن الأنبياء ﷺ كانوا مؤمنين قبل الوحي، وكان النبي ﷺ يعبد الله قبل الوحي على دين إبراهيم ولم يثبت له شرائع دينه. اهـ.

وقال ابن كثير: ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي: على التخصيص الذي شرع لك في القرآن. اهـ. وقال الشوكاني في تفسيره «فتح القدير»: ذكر سبحانه صفة رسوله قبل أن يوحى إليه، فقال: ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾ أي: أي شيء هو؟ لأنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وذلك أدخل في الإعجاز وأدل على صحة نبوته، قال: ومعنى ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أنه كان ﷺ لا يعرف تفاصيل الشرائع ولا يهتدي إلى معالمها، قال: وخص الإيمان، لأنه رأسها وأساسها، قال: وقيل: أراد بالإيمان هنا: الصلاة، قال بهذا جماعة من أهل العلم، منهم إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة، قال واحتج بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُخَيِّجَ إِيمَانَكُمْ﴾ يعني الصلاة، فساها إيماناً، قال: وذهب جماعة إلى أن الله سبحانه لم يبعث نبياً إلا وقد كان مؤمناً به، وقالوا: معنى الآية: ما كنت تدري قبل الوحي كيف تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ﴾ أي: يا محمد ﴿تَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو الحق القويم، ثم قال في تنمة الآية: ثم فسره بقوله تعالى: ﴿صِرَاطُ اللَّهِ﴾ أي: شرعه الذي أمر به الله ﴿الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ فِي الْأَشْيَاءِ﴾ أي: ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما والحاكم الذي لا معقب لحكمه ﴿إِلَّا إِلَهُ تَحِيَّتِ الْأُمَمِ﴾ أي: ترجع الأمور فيفصلها ويحكم فيها، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً. اهـ.

سورة الزخرف

وهي مَكِّيَّة بإجماعهم

وقال مقاتل: هي مَكِّيَّة، إلا آية، وهي ^(١) قوله: ﴿وَمَثَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ [الزخرف: ٤٥].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الزَّيْجِ

﴿حَمَّ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ②﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ③ وَإِنَّمَا فِي أَرْكِ الْكِتَابِ لَعْنًا لِمَنْ حَكِيمُهُ ④ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ⑤ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ⑥ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَاثُورًا ⑦ يَسْتَهْزِئُونَ ⑧ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَعْنَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ⑨ وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْمَزِيدُ الْعَلِيُّ ⑩ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ⑪

قوله تعالى: ﴿حَمَّ ①﴾ قد تقدم بيانه [المؤمن: ١١]. ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ②﴾ قسم بالقرآن. ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ ③﴾ قال سعيد بن جبير: أنزلناه. وما بعد هذا قد تقدم بيانه [النساء: ٨٢، يوسف: ٢٢] إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ ④﴾ يعني القرآن ﴿فِي أَرْكِ الْكِتَابِ ⑤﴾ قال الزجاج: أي: في أصل الكتاب، وأصل كل شيء: أمه، والقرآن مُبَيَّنٌّ عند الله ﷻ في اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿لَدَيْنَا ⑥﴾ أي: عندنا ﴿لَمَثَلٍ ⑦﴾ أي: رفيع. وفي معنى الحكيم قولان: أحدهما: مُحْكَمٌ، أي: ممنوع من الباطل، قاله مقاتل. والثاني: حاكم لأهل الإيمان بالجنة ولأهل الكفر بالنار، ذكره أبو سليمان الدمشقي، والمعنى: إن كذبتم به يا أهل مكة فإنه عندنا شريف عظيم المَحَلُّ.

قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا ⑧﴾ قال ابن قتيبة: أي: نُمِسُّكُ عَنْكُمْ فلا نذكركم صفحاً، أي: إعراضاً، يقال: صَفَحْتُ عَنْ فلان: إذا عرضت عنه، والأصل في ذلك أن تُؤْلِيَهُ صَفْحَةَ عَقَبِكَ، قال كثير يصف امرأة: صَفُوحاً فَمَا تُلْفَاكَ إِلَّا بِخَيْلَةٍ

أي: مُعْرِضَةً بوجهها، يقال: صَرَفْتُ عَنْ فلان كذا: إذا أمسكته وأضربت عنه. ﴿أَنْ كُنْتُمْ ⑨﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «أن كنتم» بالنصب ^(٣)، أي: لأن كنتم قوماً مسرفين. وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي: «إن كنتم» بكسر الهمزة. قال الزجاج: وهذا على معنى الاستقبال، أي: إن تكونوا مسرفين نَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ. وفي المراد بالذكر قولان: أحدهما: أنه ذِكرُ العذاب، فالمعنى: أَفَنُمِسُّكُ عَنْ عَذَابِكُمْ وَنَتْرُكُكُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ؟! وهذا معنى قول ابن عباس، ومجاهد، والسدي. والثاني: أنه القرآن، فالمعنى: أَفَنُمِسُّكُ عَنْ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ مِنْ أَجْلِ أَنْكُمْ لَا تَوْمِنُونَ بِهِ؟! وهو معنى قول قتادة، وابن زيد. وقال قتادة: «مُسْرِفِينَ» بمعنى مشركين. ثم أعلم نبيي أنني قد بعثت رُسُلًا فَكُذِّبُوا فَأَهْلَكْتُ الْمَكْذِبِينَ بِالآيَاتِ الَّتِي تَلِي هَذِهِ.

قوله تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ ⑧﴾ أي: من قريش ﴿بَطْشًا ⑨﴾ أي: قُوَّةً ﴿وَمَعْنَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ⑩﴾ أي: سبق وصف عقابهم فيما أنزل عليك. وقيل: سبق تشبيه حال أولئك بهؤلاء في التكذيب، فستقع المشابهة بينهم في الإهلاك. ثم أخبر عن جهلهم حين أقروا بأنه خالق السموات والأرض ثم عبدوا غيره بالآية التي تلي هذه؛ ثم التي تليها مفسرة في [طه: ٥٣] إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ⑪﴾ أي: لكي تهتدوا في أسفاركم إلى مقاصدكم.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ⑫﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ

(١) في الأصل: وهو.

(٢) «غريب القرآن» ٣٩٥، «اللسان» والتاج: صفح. وفي «غريب القرآن» والتاج: «إلا بخيلة» بدل «بخيلة».

(٣) أي: بفتح الهمزة.

الَّذِينَ وَالْآخِذِينَ مَا تَرَكُوا ۖ لِيَتَّبِعُوا عَنْ ظُهُورِهِمْ ۖ ثُمَّ تَذَكَّرُوا بِعَمَلِهِمْ رَبِّكُمْ ۚ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿٣٧﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَرَكُوا مِمَّا رَكَبُوا﴾ قال ابن عباس: يريد أنه ليس كما أنزل على قوم نوح بغير قدر فأغرقهم، بل هو بقدر ليكون نافعاً. ومعنى «أنشأنا» أحيينا.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَحْزِيحُكُمْ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وابن عامر: «نَحْزِيحُونَ» بفتح التاء. وضم الراء، والباقون بضم التاء وفتح الراء. وما بعد هذا قد سبق [يس: ٣٦، ٤٢] إلى قوله تعالى: ﴿لِيَتَّبِعُوا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ قال أبو عبيدة: هاء التذكير لـ «ما». ﴿ثُمَّ تَذَكَّرُوا بِعَمَلِهِمْ رَبِّكُمْ﴾ إذ سخر لكم ذلك المركب في البر والبحر، ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: أي: مُطِيقين، قال ابن قتيبة: يقال: أنا مُقَرَّنٌ لك، أي: مُطِيق لك، ويقال: هو من قولهم: أنا قَرَنٌ لفلان: إذا كنت مثله في الشدة، فإن قلت: أنا قَرَنٌ لفلان - بفتح القاف - فمعناه: أن تكون مثله بالسَّخَر. وقال أبو عبيدة: «مُقَرَّنِينَ» أي: ضابطين، يقال: فلان مُقَرَّنٌ لفلان، أي: ضابط له.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي: راجعون في الآخرة^(١).

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْأً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أَرِ أَخَذَ وَمِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿٣٩﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَوْمِنُ يُنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿٤١﴾ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْأً﴾ أما الجعل هاهنا، فمعناه: الحكم بالشيء، وهم الذين زعموا أن الملائكة بنات الله؛ والمعنى: جعلوا له نصيباً من الولد، قال الزجاج: وأنشدني بعض أهل اللغة بيتاً يدل على أن معنى «جزء» معنى الإناث - ولا أدري البيت قديم أو مصنوع -:

إِنْ أَجْزَأَتْ حُرَّةٌ، يَزُمُا، فَلَا عَجَبُ
أَي: أَتَتْ، وَلَدَتْ أَثَى^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفُورٌ﴾ أي: جحوداً لنعيم الله ﷻ ﴿مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر الكُفْرِ. ثم أنكر عليهم فقال: ﴿أَرِ أَخَذَ وَمِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ وهذا استفهام توبيخ وإنكار ﴿وَأَصْفَنَكُمْ﴾ أي: أخلصكم ﴿بِالْبَنِينَ﴾. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ أي: بما جعل لله شبهاً، وذلك أن ولد كل شيء شبهه وجنسه. والآية مفسرة في [النحل: ٥٨].

قوله تعالى: ﴿أَوْمِنُ يُنْشَأُ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وحفص: «يُنْشَأُ» بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين؛ وقرأ الباقر: بفتح الياء وسكون النون. قال المبرد: تقديره: أو يجعلون من ينشأ ﴿فِي الْحِلْيَةِ﴾ قال أبو عبيدة: الحليّة: الحلي. قال المفسرون: والمراد بذلك: البنات، فإنهن رُبِّين في الحلي. والخصام بمعنى المُخَاصَمة، ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ حُجَّة. قال قتادة: فلما تكلم امرأة بحُجَّتِها إلّا تكلمت بالحجة عليها. وقال بعضهم: هي الأصنام.

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكَبُّ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْتَلُونَ﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَعْزِمُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ أَلَيْسَ كَتَبْنَا مِنْ قَبْلِهِ لَهُمْ يَوْمَ السَّيِّئِينَ ﴿٤٣﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَوَلَمْ يَجْعَلْ يَدَيْهِ وَمَتْنَهُ خَلْقًا قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلُوا بِهِ كَاذِبُونَ ﴿٤٦﴾ فَانْقَضَتْ وَتَرَاهُمْ قَائِلِينَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٤٧﴾

(١) روى مسلم في «صحيحه» عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر، كبر ثلاثاً، ثم قال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البرّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هَوِّنْ علينا سفرنا هذا، واطوِّعْ عَنَّا بَعْدَهُ، اللهم أنت صاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من زَفَاءِ السفر، وكآبة المنظر، وسوء المقلب في المال والأهل، وإذا رجع قالهنّ، وزاد فيهنّ «أيون تائبون، عابدون، لربنا حامدون».

(٢) البيت غير منسوب في «غريب القرآن» ٣٩٦، و«القرطبي» ٦٩/١٦، و«البحر المحيط» ٨/٨، و«اللسان» و«التاج»: جزأ.

(٣) قال في «غريب القرآن» نقلًا عن الزجاج: معنى «إن أجزاء» أي: أتت، أي: أنت باتى.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا آلِهَتَهُمْ كَالَّذِينَ كَانُوا يُشْرِكُونَ﴾ قال الزجاج: الجَعْلُ هاهنا بمعنى القول والحكم على الشيء، تقول: قد جعلت زيدا أعلم الناس، أي: قد وصفته بذلك وحكمت به. قال المفسرون: وجعلهم الملائكة إناثاً قولهم: هُنَّ بناتُ الله.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَارِهِونَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، ويعقوب، وأبان عن عاصم، والشيبي عن الكسائي: «عند الرحمن» بنون من غير ألف، وقرأ الباقون: «عبادُ الرحمن»، ومعنى هذه القراءة: جعلوا له من عبادته بنات^(١) والقراءة الأولى موافقة لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وإذا كانوا في السماء كان أبعد للعلم بحالهم. «أشهدوا خلقهم» قرأ نافع، والمفضل عن عاصم: «أشهدوا» بهمزة، الأولى مفتوحة والثانية مضمومة. وروى المسيبي عن نافع: «أشهدوا» ممدودة من أشهدت، والباقون لا يمدون. «أشهدوا» من شهدت، أي: أحضروه فعرّفوا أنهم إناث؟ وهذا توبيخ لهم إذ قالوا فيما يعلم بالمشاهدة من غير مشاهدة. «سكتك شهدتهم» على الملائكة أنها بناتُ الله. وقال مقاتل: لما قال الله ﷻ: «أشهدوا خلقهم»، سئلوا عن ذلك قالوا: [لا]، فقال النبي ﷺ: «فما يدرىكم أنها إناث؟» فقالوا: سمعنا من آبائنا، ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا، فقال الله: «سكتك شهدتهم ورسولهم» عنها في الآخرة^(٢). وقرأ أبو رزين، ومجاهد: «سكتك» بنون مفتوحة «شهادتهم» بنصب التاء، ووافقهم ابن أبي عبله في «سكتك» وقرأ: «شهاداتهم» بآلف.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ في المكني عنهم قولان. أحدهما: أنهم الملائكة، قاله قتادة، ومقاتل في آخرين. والثاني: الأوثان، قاله مجاهد. وإنما عوّزوا بهذا أنه لو لم يرزض عبادتنا لها لعجل عقوبتنا، فردّ عليهم قولهم بقوله: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾. وبعض المفسرين يقول: إنما أشار بقوله: «ما لهم بذلك من علم» إلى ادّعائهم أن الملائكة إناث؛ قال: ولم يتعرّض لقولهم^(٣): «لو شاء الرحمن ما عبدناهم»^(٤) لأنه قول صحيح؛ والذي اعتمدنا عليه أصح، لأن هذه الآية كقوله: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقوله: ﴿أَنْتُمْ مَن لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَطَعْتُمُ﴾ [يس: ٤٧] وقد كشفنا عن هذا المعنى هنالك. ويخروصون بمعنى: يكذبون. وإنما كذبهم، لأنهم اعتقدوا أنه رضي منهم الكفر ديناً. «أَمْ أَنْتُمْ كَتِبَ لَكُمْ فِي الْقُرْآنِ» أي: من قبل هذا القرآن، أي: بأن يعبدوا غير الله ﴿فَهُمْ يَدْعُونَ مُشْتَبِهِينَ﴾ يأخذون بما فيه^(٥). ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ هَذَا﴾ أي: على سنة ويلة ودين ﴿وَلَنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ شُكُّونٌ﴾ فجعلوا أنفسهم مهتدين بمجرد تقليد الآباء من غير حجة^(٦)؛ ثم أخبر أن غيرهم قد قال هذا القول، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما قالوا قال مثرفو القرى من قبلهم، ﴿وَلَنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ شُكُّونٌ﴾ بهم. «قُلْ أُولَئِكَ جِثَّتْكُمْ» وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿قُلْ أُولَئِكَ جِثَّتْكُمْ﴾ [بآلف]. قال أبو علي: فاعل «قال» النذير، المعنى: فقال لهم النذير. وقرأ أبو جعفر: «أُولَئِكَ جِثَّتْكُمْ» بآلف ونون ﴿بَاهْتِئ﴾ أي: بأصوب وأرشد. قال الزجاج: ومعنى الكلام: قُلْ: أَتُتَّبِعُونَ ما وجدتم عليه آباءكم وإن جِثَّتْكم بأهلى منه؟! وفي هذه الآية إبطال القول بالتقليد. قال مقاتل: فردّوا على النبي ﷺ فقالوا: ﴿إِنَّا يَمَّا أَتَيْنَاهُمْ بِهِ كُفْرُونَ﴾؛ ثم رجع إلى الأمم الخالية، فقال: ﴿فَأَنقَضْنَا بِهِمَّ﴾ الآية^(٧).

(١) في الأصل: من عباد بنات.

(٢) ذكر هذا الحديث البيهقي في «تفسيره» عن الكلبي ومقاتل بدون سند، وهو مقطوع. وذكره الخازن أيضاً من غير سند، ولم يعزّه لأحد.

(٣) في الأصل: بقولهم.

(٤) في الأصل: لو شاء الله ما عبدناهم، ولفظ الآية كما أثبتناه.

(٥) قال ابن كثير: يقول تعالى منكراً على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة: ﴿أَمْ أَنْتُمْ كَتِبَ لَكُمْ فِي الْقُرْآنِ﴾ أي: من قبل شركهم ﴿فَهُمْ يَدْعُونَ مُشْتَبِهِينَ﴾ أي فيما هم فيه، أي: ليس الأمر كذلك، كقوله ﷻ: ﴿أَمْ أَنْتُمْ لَدَيْهِمْ عَلِيمُونَ﴾ [النمل: ٢٤]، أي: لم يكن ذلك. اهـ.

(٦) قال ابن كثير: أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أمة، قال: والمراد بها الدين هاهنا وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَدْعُونَ﴾، قال: وقولهم: ﴿وَلَنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ شُكُّونٌ﴾ أي: وراهم ﴿فَهُمْ يَدْعُونَ﴾ قال: دعوى منهم بلا دليل. اهـ.

(٧) قال ابن كثير: بين جل وعلا أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل تشابهت قلوبهم فقالوا مثل مقالته: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ يَنْزِيلُ إِلَهُكُمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِحْرٌ أَوْ كِبْرٌ﴾ [الأنعام: ١٠٨] ﴿أَنزَلْنَاهُ بِدَلِيلٍ وَمِنْ قَدَمٍ مَّشْهُودٍ﴾ [النمل: ٢٤]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ يَنْزِيلُ إِلَهُكُمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِحْرٌ أَوْ كِبْرٌ﴾ [النمل: ٢٤]، أي: يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أُولَئِكَ جِثَّتْكُمْ﴾ بآلف وفتح جيم وألفهم عليه ﴿قَالُوا إِنَّا يَمَّا أَتَيْنَاهُمْ بِهِ كُفْرُونَ﴾ أي: ولو علموا وتيقنوا صحة ما جِثَّتْكم به لما انفادوا لذلك، لسوء قصدهم =

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿١٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿١٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيْدِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ بَلْ مَنَعْتُكَ هَؤُلَاءَ وَآلِهَتَهُمْ حَقٌّ جَاهَهُمْ الْحَقُّ وَرَسُولُهُ مُبِينٌ ﴿١٩﴾ وَلَكِنْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ﴾ قال الزجاج: البراء بمعنى البريء، والعرب تقول للواحد: أنا البراء منك، وكذلك للآخرين والجماعة، وللذكر والأنثى، يقولون: نحن البراء منك والخلاء منك، لا يقولون: نحن البراءان منك، ولا البراءون منك، وإنما المعنى: أنا ذو البراء منك، ونحن ذو البراء منك، كما يقال: رجل عدل، وامرأة عدل. وقد بينا استثناء إبراهيم ربه ﷺ مما يعبدون عند قوله: ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٧].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ يعني كلمة التوحيد، وهي «لا إله إلا الله» ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيْدِهِ﴾ أي: فيمن يأتي بعده من ولده، فلا يزال فيهم موحد ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى التوحيد كلهم إذا سمعوا أن أباهم نبياً من الأصنام ووحد الله ﷻ. ثم ذكر نعمته على قريش فقال: ﴿بَلْ مَنَعْتُكَ هَؤُلَاءَ وَآلِهَتَهُمْ﴾ والمعنى: إِنِّي أَجَزَلْتُ لَهُمُ النِّعَمَ وَلَمْ أُعَاجِلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ ﴿حَقٌّ جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ وهو القرآن ﴿وَرَسُولُهُ مُبِينٌ﴾ وهو محمد ﷺ، فكان ينبغي لهم أن يقابلوا النِّعَمَ بالطاعة للرسول، فخالفوا. ﴿وَلَكِنْ جَاءَهُمُ﴾ يعني قريشاً في قول الأكثرين. وقال قتادة: هم اليهود. و﴿الْحَقُّ﴾ القرآن.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ أَفَرَأَيْتُمُ مَّا كَانَتْ يَدَاكَ تُعْمَلُ حَتَّىٰ تَصِفَ أَعْيُنُ النَّاسِ لِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُثْبِتَنَّهُمْ سُلُوفًا مِّنْ فَضْلِهِ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٢٣﴾ وَلِيُثْبِتَنَّهُمْ أَمْرًا وَسُورًا عَلَيْهَا يُتُكَّوْنُ ﴿٢٤﴾ وَخُرُقًا وَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا﴾ أي: هلاً ﴿نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أما الفريقان، فمكة والطائف، قاله ابن عباس، والجماعة؛ وأما عظيم مكة، ففيه قولان: أحدهما: الوليد بن المغيرة القرشي، رواه العوفي وغيره عن ابن عباس، [وبه قال قتادة، والسدي]. والثاني: عتبة بن ربيعة، قاله مجاهد. وفي عظيم الطائف خمسة أقوال: أحدها: حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: مسعود بن عمرو بن عبيد الله، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أنه أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفي، رواه ليث عن مجاهد، وبه قال قتادة. والرابع: [أنه] ابن عبد ياليل^(١)، رواه ابن أبي نجيع عن مجاهد. والخامس: كنانة بن عبد [بن]^(٢) عمرو بن عمير الطائفي، قاله السدي. فقال الله ﷻ رداً عليهم وإنكاراً: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ مَّا كَانَتْ يَدَاكَ تُعْمَلُ حَتَّىٰ تَصِفَ أَعْيُنُ النَّاسِ لِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني النبوة، فيضعونها حيث شاؤوا، لأنهم اعترضوا على الله بما قالوا^(٤). ﴿حَتَّىٰ تَصِفَ أَعْيُنُ النَّاسِ لِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ المعنى أنه إذا كانت الأرزاق بقدر الله، لا بحول المحتال - وهو دون النبوة - فكيف تكون النبوة؟! قال قتادة: إنك لتلقى ضعيف الحيلة عبي اللسان قد بسيط له الرزق، وتلقى شديد الحيلة بسيط اللسان^(٥) وهو مقتور عليه.

ومكابرتهم للحق وأهله. قال الله تعالى: ﴿فَأَنقَضَتْ يَدَهُمْ﴾ أي: من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب كما فصله تبارك وتعالى في قصصهم: ﴿فَأَنظَرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ﴾ أي: كيف بادوا وهلكوا وكيف نَجَّى اللهُ المؤمنين. اهـ.

(١) قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليفه إمام الحنفاء ووالد من بعث بعده من الأنبياء الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها أنه نبياً من أبيه وقومه في هبائهم الأوثان فقال: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿١٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيْدِهِ﴾ أي: هذه الكلمة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان، وهي «لا إله إلا الله»، أي: جعلها دائمة في ذمته يقتدي به فيها من هداة الله تعالى من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إليها. اهـ.

(٢) هو كنانة بن عبد ياليل الثقفي، شاعر جاهلي، من أهل الطائف (في الحجاز)، كان رئيس ثقيف في زمانه، مدح النعمان بن المنذر، وأدرك الإسلام، وقدم على النبي ﷺ في وفد ثقيف بعد حصار الطائف، فأسلم الوفد إلا كنانة، فخرج إلى بلاد الروم فمات فيها.

(٣) زيادة من «الطبري» و«القرطبي».

(٤) قال ابن كثير: قال الله تبارك وتعالى رداً عليهم في هذا الاعتراض: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ مَّا كَانَتْ يَدَاكَ تُعْمَلُ حَتَّىٰ تَصِفَ أَعْيُنُ النَّاسِ لِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ليس الأمر مردوداً إليهم، بل إلى الله ﷻ، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فإنه لا ينزلها إلا على أذكى الخلق قلباً ونفساً، وأشرهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً. اهـ.

(٥) كذا الأصل «بسيط اللسان» والذي في الطبري «بسيط اللسان».

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: بالغنَى والفقر. والثاني: بالحرية والرق ﴿إِن تَجِدَ بَعْضُهُمْ بِضَاعًا لِّسُوءٍ﴾ وقرأ ابن السميع، وابن محيصن: «سُوءِيًّا» بكسر السين. ثم فيه قولان: أحدهما: يستخدم الأغنياء الفقراء بأموالهم، فَيَلْتَمِثُ قِوَامَ الْعَالَمِ، وهذا على القول الأول. والثاني: ليملك بعضهم بعضاً بالأموال فيُخَذُّونَهُمْ عِبَاداً، وهذا على الثاني^(١).

قوله تعالى: ﴿وَرَوَّحْتُمْ رَيْكَ﴾ فيها قولان: أحدهما: الثبوة خير من أموالهم التي يجمعونها، قاله ابن عباس. والثاني: الجنة خير مما يجمعون في الدنيا، قاله السدي^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُ كَانَ الْإِنْسَانُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فيه قولان: أحدهما: لولا أن يجتمعوا على الكفر، قاله ابن عباس. والثاني: على إشار الدنيا على الدين، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرْ بِالرَّحْمَنِ لِيُوقِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ﴾ لهوان الدنيا عندنا. قال الفراء: إن شئت جعلت اللام في «لِيُوقِيَهُمْ» مكررة، كقوله: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْكَلْبِ فَقَالَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وإن شئت جعلتها بمعنى «على»، كأنه قال: جعلنا لهم على بيوتهم، تقول للرجل: جعلت لك لقومك الأعطية، أي: جعلتها من أجلك لهم. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «سُقْفًا» على التوحيد. وقرأ الباقون: «سُقْفًا» بضم السين والقاف جميعاً. قال الزجاج: والسقف واحد يدل على الجمع؛ فالمعنى: جعلنا لبيت كل واحد منهم سقفاً من فضة «وَمَتَّاعٍ» وهي الدراج؛ والمعنى: وجعلنا معارج من فضة، وكذلك «وَلِيُوقِيَهُمْ آتِيًا» أي: من فضة «وَسَرَّارًا» أي: من فضة.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ يَظْهَرُونَ﴾ قال ابن قتيبة: أي: يغلون، يقال: ظهَرْتُ على البيت: إذا علَوْتُ سطحه.

قوله تعالى: ﴿وَرُحْرُقًا﴾ وهو الذهب؛ والمعنى: ويجعل لهم مع ذلك ذهباً وغنى ﴿وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ لِلْعَيَّةِ الدُّنْيَا﴾ المعنى: لَمَتَّاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وما زائدة وقرأ عاصم، وحزمة: «لَمَّا» بالتشديد، فجعله بمعنى «إلا»؛ والمعنى: إن ذلك يُمتَّع به قليلاً ثم يزول ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ خاصة لهم^(٣).

﴿وَمَن يَشَأْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيْضُ لَّهُ مَنَ شَاءَ فَهُوَ لَمْ يَقِرَّ﴾ [١٦] ﴿وَأَنَّهُمْ لِيَصُدُّنَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَنَحْبُسُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [١٧] حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُنَّ قَالَ يَأْتِيَنَّكَ بِنِيٍّ وَيَبْئُوكَ بِذُنُوبِكُنَّ بَعْدَ التَّوْبَةِ قِيلَ إِنَّهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ بِنُفُسِكُنَّ أَكْثَرُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ [١٨] أَفَأَن تَسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَن كَانَ فِي مِثْلِي مَثِيرٌ [١٩]

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَشَأْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: يُعْرِضُ، قاله الضحاك عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والفراء، والزجاج. والثاني: يَغْمُ، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال عطاء، وابن زيد. والثالث: أنه البَصَرُ الضعيف، حكاه الماوردي. وقال أبو عبيدة: تُظْلِمُ عينه عنه. وقال الفراء: من قرأ: «يَفْشُ»، فمعناه: يُعْرِضُ، ومن نصب الشين،

(١) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿فَمَنْ قَسَمْنَا بِيَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُ لَنَحْشُرَنَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يقول تعالى ذكره: بل نحن نقسم رحمتنا وكرامتنا بين من شئنا من خلقنا، فنجعل من شئنا رسولا، ومن أردنا صديقا، ونشخذ من أردنا خليلا، كما قسمنا بينهم معيشتهم التي يعيشون بها في حياتهم الدنيا من الأرزاق والأقوات، فجعلنا بعضهم لها أرفع من بعض درجة، بل جعلنا هذا غنيا، وهذا فقيرا، وهذا ملكا، وهذا مملوكا ﴿إِن تَجِدَ بَعْضُهُمْ بِضَاعًا لِّسُوءٍ﴾.

وقال ابن كثير: قال الله سبحانه مبينا أنه قد فارت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والمقولات والفهم وغير ذلك من القرى الظاهرة والباطنة فقال: ﴿فَمَنْ قَسَمْنَا بِيَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُ لَنَحْشُرَنَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ الآية، قال: وقوله جئت عظمت: ﴿إِن تَجِدَ بَعْضُهُمْ بِضَاعًا لِّسُوءٍ﴾ قيل: معناه: ليسر بعضهم بعضاً في الأعمال، لاحتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، قاله السدي وغيره، وقال قتادة والضحاك: ليملك بعضهم بعضاً.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَرَوَّحْتُمْ رَيْكَ نَبَأًا يَمَسُّوهُ﴾ يقول تعالى ذكره: ورحمة ربك يا محمد بإدخالهم الجنة خير لهم مما يجمعون من الأموال في الدنيا. اهـ. وقال ابن كثير: أي: ورحمة الله خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا. اهـ.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ لِلْعَيَّةِ الدُّنْيَا﴾ يقول تعالى ذكره: وما كل هذه الأشياء التي ذكرت، من السقف من الفضة والمعارج والأبواب والشُر من الفضة والزخرف، إلا متاع يستمتع به أهل الدنيا في الدنيا ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وذُئِن الدار الآخرة وبهاؤها عند ربك للمتقين - الذين اتقوا الله فخافوا عقابه، فجدوا في طاعته وحذروا معاصيه - خاصة، دون غيرهم من خلق الله. اهـ. وفي «الصحيحين» عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافهما، فإنها لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة». وروي الترمذي عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء» قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

أراد: يَغْم عنه؛ قال ابن قتبية: لا أرى القول إلا قول أبي عبيدة، ولم نر أحداً يَجِيز «عَشَوْتُ عن الشيء»: أعرضْتُ عنه، إنما يقال: «تَعَاشَيْتُ عن كذا»، أي: تغافلْتُ عنه، كَأَنِّي لم أره، ومثله: تعامَيْتُ، والعرب تقول: «عَشَوْتُ إلى النار»: إذا استدللت إليها بصر ضعيف، قال الحطية:

مَتَى تَأْتِيهِ تَغَشُّو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدٍ^(١)

ومنه حديث ابن المسيب: «أن إحدى عينيه ذهب، وهو يَغَشُّو بالأخرى»، أي: يُبْصِرُ بها بصراً ضعيفاً. قال المفسرون: «وَمَنْ يَغَشُّ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ» فلم يَخَفْ عقابه ولم يلتفت إلى كلامه «نَقِصَ لَهُ» أي: نسب له «مَنْطَلَا» فنجعل ذلك جزاءه «فَهُوَ لَمْ يَرَيْنِ» لا يفارقه^(٢). «وَأَتَتْ» يعني الشياطين «لَيَسُدُّنَّ» يعني الكافرين، أي: يمنعونهم عن سبيل الهدى؛ وإنما جمع، لأن «مَنْ» في موضع جمع، «وَيَحْسَبُونَ» يعني كفار بني آدم «أَتَتْ» على هدى. «حَتَّى إِذَا جَاءَنَا» قرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «جاءنا» واحد، يعني الكافر. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «جاءنا» بالفتحة على الثنية، يعنون الكافر وشيطانه. وجاء في التفسير أنهما يُجعلان يومَ البعث في سلسلة، فلا يفترقان حتى يُصَيِّرَهما الله إلى النار، «قَالَ» الكافر للشيطان: «يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِيقَيْنِ» أي: بُعْدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِيقَيْنِ؛ وفيهما قولان: أحدهما: أنهما مَشْرِقُ الشمس في أقصر يوم في السنة، ومَشْرِقُهَا في أطول يوم، قاله ابن السائب، ومقاتل. والثاني: أنه أراد الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ، فغلبَ ذِكْرُ الْمَشْرِقِ، كما قالوا: سُنَّةُ الْعُمَرَيْنِ، يريدون: أبا بكر وعمر، وأنشدوا من ذلك:

أَخَذْنَا بِأَفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْنَا لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُومُ الطُّوَالِغُ^(٣)

يريد: الشمس والقمر؛ وأنشدوا:

فَبَضْرَةُ الْأَزْدِ وَمِنَّا وَالْعِرَاقُ لَنَا وَالْمَوْصِلَانِ وَمِنَّا وَمِضْرُ وَالْحَرَمِ^(٤)

يريد: الجزيرة والموصل، [وهذا اختيار الفراء، والزجاج].

قوله تعالى: «يَنْقَسُ الْقَرْنُ» أي: أنت أيها الشيطان. ويقول الله ﷻ يومئذٍ للكفار: «وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ» أي: أشركتم في الدنيا «أَنْتُمْ فِي الْغَدَابِ مُتَوَكِّفُونَ» أي: لن ينفعكم الشُّرْكة في العذاب، لأن لكل واحد منه الحِطُّ الأوفر. قال المبرد: مُنِعُوا روح النَّاسِ، لأن النَّاسِ يُسَهِّلُ الْمُصِيبَةَ، وأنشد للخنساء أخت صخر بن مالك في هذا المعنى:

وَلَوْ لَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَزَلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَعَزَّتِي النَّفْسُ عَنْهُ بِالنَّاسِ^(٥)

وقرأ ابن عامر: «إِنَّكُمْ» بكسر الالف. ثم أخبر عنهم بما سبق لهم من الشقاوة بقوله: «أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الشَّدَّ...» الآية. «فَأَمَّا نَذَهَبَ بِكَ فَأَمَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ» ١١ أو نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَأَنَا عَلَيْهِمْ مُنْقِمُونَ ١٢ فَاسْتَيْسَرَ بِالَّذِي أَوْحَى إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٣ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَاكَ وَسَوْفَ تُنْكَلُونَ ١٤

قوله تعالى: «فَأَمَّا نَذَهَبَ بِكَ» قال أبو عبيدة: معناها: فإن نَذَهَبَنَّ؛ وقال الزجاج دخلت «ما» توكيداً للشرط، ودخلت النون الثقيلة في «نَذَهَبَنَّ» توكيداً أيضاً؛ والمعنى: إِنَّا نَنْقِمُ مِنْهُمْ إِنْ تَوَفَّيْتُ أَوْ نُرِيَنَّكَ مَا وَعَدْنَاهُمْ وَوَعَدْنَاكَ فِيهِمْ

(١) «ديوانه» ١٦١، و«مجاز القرآن» ٢/٢٠٤، و«غريب القرآن» ٣٩٨، و«الكتاب» ١/٤٤٥، و«الخرزاة» ٣/٦٦٢، و«روح المعاني» ٢٥/٧٤، و«الصالح» و«اللسان» و«التاج»: عشا.

(٢) قال ابن كثير: يقول تعالى: «وَمَنْ يَغَشُّ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ» قال: والعشا في العين: ضعف بصرها، والمراد هاهنا: عشا البصيرة «نَقِصَ لَهُ مَنْطَلَا» فهو لَمْ يَرَيْنِ» كقوله تعالى: «وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا يَبَيِّنْ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ التَّوْبَةِ قُلُوبُهُ مَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا» ١٥. اهـ.

(٣) البيت للرزق، «ديوانه» ٥١٩، و«الكامل» ١٢٤، و«الطبري» ٢٥/٧٤.

(٤) البيت غير منسوب في «الطبري» ٢٥/٧٤، و«الصالح» و«اللسان» و«التاج»: وصل.

(٥) «ديوانها» ٨٤، و«الكامل»: ١٥، و«البحر المحيط» ٨/١٧، و«روح المعاني» ٢٥/٧٧، و«الناسي»: التصير.

من النصر. قال ابن عباس: ذلك يوم بدر. وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله: ﴿فَإِنَّمَا تَدْعِيَنَ بِكَ﴾ منسوخ بآية السيف، ولا وجه [له].

قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتُكُمْ﴾ يعني القرآن ﴿لَذِكْرُكُمْ﴾ أي: شَرَفْتُ لَكُمْ بما أعطاك الله ﴿وَلَقَوْلُكُمْ﴾ في قومه ثلاثة أقوال: أحدها: العرب قاطبة. والثاني: قريش. والثالث: جميع من آمن به. وقد روى الضحاك عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان إذا سئل: لِمَنْ هذا الأمر من بعدك؟ لم يُخبر بشيء، حتى نزلت هذه الآية، فكان بعد ذلك إذا سئل قال: «لقريش»^(١) وهذا يُدلُّ على أن النبي ﷺ فهم من هذا أنه يلي على المسلمين بحُكم النبوة وشرف القرآن، وأن قومه يَخْلُفُونَهُ من بعده في الولاية لشرف القرآن الذي أنزل على رجلٍ منهم. ومذهب مجاهد أن القوم هاهنا: العرب، والقرآن شَرَفْتُ لهم إذ أنزل بلغتهم. قال ابن قتيبة: إنما وُضع الذكر موضع الشرف، لأن الشرف يُذكر. وفي قوله: ﴿وَسَوْفَ تَنظُرُونَ﴾ قولان: أحدهما: عن شكر ما أعطيتهم من ذلك. والثاني: عما لزمكم فيه من الحقوق.

﴿وَسَلِّ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجْمَلًا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ ؕ إِلَهِهُ يُعْبَدُونَ ۝١٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ فَجَاءَ بِرُسُلِهِ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ ۝١٦ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنهَا يَحْضَكُونَ ۝١٧ وَمَا يُرِيدُ رَبُّ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِرَبِّهِمْ إِنَّا نَمُنُّ بِكُمْ عِندَ رَبِّكَ إِنَّا كَفَتْكُمْ عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُرُونَ ۝١٨ وَكَأَذَىٰ فِرْعَوْنَ فِي قَوْمِهِ قَالَ يُغْوِي النَّاسَ لِي مَلِكُ ۖ وَهَؤُلَاءِ الْآفَتُونَ فَجَرَىٰ مِن تَحْتِهِمْ أَفْلا يَعْبُرُونَ ۝١٩ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ بَيْنُ ۝٢٠ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جِلَّةٌ مَّعَهُ الْمَلَكُ الْكَافَّةُ مُتَعَرِّينَ ۝٢١ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝٢٢ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَفَعْنَا مِنْهُنَّ فَأَعْرَفْنَهُنَّ أَجْمَعِينَ ۝٢٣ فَجَعَلْنَهُنَّ سُلَافًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ۝٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَلِّ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ إن قيل: كيف يسأل الرُّسل وقد ماتوا قبله؛ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه لما أسري به جُمع له الأنبياء فصلَّى بهم، ثم قال [له] جبريل: سَلِّ مَن أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ... الآية^(٢). فقال: لا أسأل، قد اكتفيت، رواء عطاء عن ابن عباس، وهذا قول سعيد بن جبير، والزهري، وابن زيد؛ قالوا: جُمع له الرُّسل ليلة أسري به، فلقتهم، وأمر أن يسألهم، فما شك ولا سأل. والثاني: أن المراد [أسأل] مؤمني أهل الكتاب [من] الذين أرسلت إليهم الأنبياء، روي عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقاعدة، والضحاك، والسدي في آخرين. قال ابن الأنباري: والمعنى: سَلِّ أَتْبَاعَ مَن أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ، كما تقول: السخاء حاتم، أي: سخاء حاتم، والشعر زهير، أي: شعر زهير. وعند المفسرين أنه لم يسأل على القولين. وقال الزجاج: هذا سؤال تقرير، فإذا سأل جميع الأمم، لم يأتوا بأن في كتبهم: أن اعبدوا غيري. والثالث: [أن] المراد بخطاب النبي ﷺ: خطاب أُمَّتِهِ، فيكون المعنى: سَلُّوا، قاله الزجاج^(٣). وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: ﴿إِذَا هُمْ مِنهَا يَحْضَكُونَ﴾ استهزاء بها وتكديها. ﴿وَمَا يُرِيدُ رَبُّ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِرَبِّهِمْ إِنَّا نَمُنُّ بِكُمْ عِندَ رَبِّكَ إِنَّا كَفَتْكُمْ عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُرُونَ﴾ يعني ما ترادف عليهم من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس، فكانت كُلُّ آية أكبر من التي قبلها، وهي العذاب المذكور في قوله: ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾، فكانت عذاباً لهم، ومعجزات لموسى ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا بَيِّنَاتٌ مِّنْ آيَاتِ الْآخِرِ﴾ في خطابهم له بهذا ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم أرادوا: يا أيها العالم، وكان

(١) ذكره البخوي من رواية الضحاك عن ابن عباس بدون سند، وكذلك ذكره البخوي عن ابن عباس بدون سند. قال السيوطي في «الدر»: ١٨/٦: أخرج ابن عدي، وابن مردويه عن علي وابن عباس قالا: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل بمكة، ويُعْجِمُ الظهور، فإذا قالوا: لمن الملك بعدك؟ أمسك فلم يجبه بشيء، لأنه لم يؤمر في ذلك بشيء، حتى نزلت: ﴿وَأَنذَرْتُكُمْ لَذِكْرُكُمْ﴾ فكان بعد ذلك إذا سئل، قال: «لقريش» فلا يجيبوه، حتى قبله الأنصار على ذلك. وروى البخاري في «صحيحه» عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديه أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الذين». قال ابن كثير: ومعناه: أنه شرف لهم من حيث أنه أنزل بلغتهم، فهم أهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعلمهم بمقتضاه، قال: وهكذا كان خيارهم وصنوتهم من الخُلف من المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابهم. اهـ.

(٢) وهذا تفسير لآية، ولفظها: ﴿وَسَلِّ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾. (٣) رجع القول الثاني ابن جرير الطبري في «تفسيره».

الساحر فيهم عظيماً، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنهم قالوه على جهة الاستهزاء، قاله الحسن. والثالث: أنهم خاطبوه بما تقدم له عندهم من التسمية بالساحر، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُهْذَوْنَ﴾ أي: مؤمنون بك. فدعا موسى، فكشف عنهم، فلم يؤمنوا. وقد ذكرنا ما تركناه هاهنا في [الأعراف: ١٣٥].

قوله تعالى: ﴿عَجَزَىٰ مِّنْ نَّجْوَىٰ﴾ أي: من تحت قصوري^(١) ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ عظمتي وشدة ملكي! ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾ قال أبو عبيدة: أراد: بل أنا خير. وحكى الزجاج عن سيبويه والخليل أنهما قالوا: عطف «أنا» بـ «أَمْ» على «أَفَلَا تُبْصِرُونَ» [فكانه قال: أفلا تبصرون! أم أنتم بضراء! لأنهم إذا قالوا: أنت خير منه، فقد صاروا عنده بضراء. قال الزجاج: والمهين: القليل؛ يقال: شيء مهين، أي: قليل. وقال مقاتل: «مهين» بمعنى ذليل ضعيف^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يَبِينُ﴾ أشار إلى عقدة لسانه التي كانت به ثم أذهبها الله عنه، فكانه عبثه بشيء قد كان وزال، ويدل على زواله قوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوتُونَ﴾ [طه: ٣٦]، وكان في سؤاله: ﴿وَأَحْلَلْ عَقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ [طه: ٢٧]. وقال بعض العلماء: ولا يكاد يبين الحجة ولا يأتي ببيان يفهم^(٣). ﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهلا «أَلْفِي عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ» وقرأ حفص عن عاصم: «أَسْوِرَةٌ» بغير ألف. قال الفراء: واحد الأساورة: إسوار، وقد تكون الأساورة جمع أسورة، كما يقال في جمع الأسقية: الأساقبي، وفي جمع الأكرع: الأكارع، وقال الزجاج: يصلح أن تكون الأساورة جمع الجمع تقول: أسورة وأساورة، كما تقول: أقوال وأقاول، ويجوز أن تكون إسوار، وإنما صرفت أساورة لأنك ضمنت الهاء إلى أساور، فصار اسماً واحداً، وصار له مثال في الواحد، نحو «علانية». قال المفسرون: إنما قال فرعون هذا، لأنهم كانوا إذا سودوا الرجل منهم سؤروه يسوار. ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلِكُ مَقَرَّرِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: متتابعين، قاله قتادة. والثاني: يمشون معه، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ﴾ قال الفراء: استفرهم؛ وقال غيره: استحفت أحلامهم وحملهم على خفة الجلم بكيد وغروره ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ في تكذيب موسى. ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا﴾ قال ابن عباس: أغضبونا. قال ابن قتيبة: الأسف: الغضب، يقال: أسفت أسفاً، أي: غضبت^(٤). ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ أي: قوماً تقدموا. وقرأها أبو هريرة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وحמיד الأعرج: «سلفاً» بضم السين وفتح اللام، كان واحدته سلفة من الناس، مثل القطعة، يقال: تقدمت سلفة من الناس، أي: قطعة منهم. وقرأ حمزة، والكسائي: «سلفاً» بضم السين واللام، وهو جمع «سلف»، كما قالوا: خُشِبَ وخُشِبَ، وثُمِرَ وثُمِرَ، ويقال: هو جمع «سليف»، وكلُّه من التقدم. وقال الزجاج: «السليف» جمع قد مضى؛ والمعنى: جعلناهم سلفاً متقدمين ليُعْظَ بهم الآخرون.

قوله تعالى: ﴿وَمَكَلَّا﴾ أي: عبثاً [وعظة].

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنهُ يَعُدُّونَ﴾ ﴿وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَرَهُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُوَ

(١) قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده أنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحاً مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها ﴿أَتَيْتَ لِيَ ذَلِكَ بِمَثَلٍ وَكَذَلِكَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ قُلُوبِهِمْ﴾.

(٢) قال ابن كثير: يعني فرعون - لعنه الله - بذلك أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام، قال: وقد كذب في قوله هذا كذباً بيناً واضحاً، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، قال: ويعني بقوله: «مهين» كما قال سفيان: حفير، وقال قتادة والسدي: يعني ضعيف، قال: وقال ابن جرير: يعني لا ملك له ولا سلطان ولا مال. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يَبِينُ﴾ افتراء أيضاً (يعني من فرعون لعنه الله) فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله ﷻ أن يحلَّ عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، قال: وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك في قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوتُونَ﴾ قال: ويتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته كما قاله الحسن البصري، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاب والإفهام، قال: فالأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذمُّ عليها، قال: وفرعون وإن كان يفهم وله عقل، فهو يدري هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته، فإنهم كانوا جهلة أغبياء. اهـ.

(٤) قال ابن جرير الطبري: قال ابن زيد في قوله: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا﴾ قال: أغضبونا ﴿أَنفَعْنَا نَبَهُزَ﴾ يقول: انتقمنا منهم بعاجل العذاب الذي عجلناه لهم، فأغرقتهم جميعاً في البحر. اهـ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمْتَرُوا بِهَا﴾ أي: فلا تسكن فيها ﴿وَأَتَّبِعُوا﴾ على التوحيد ﴿هَذَا﴾ الذي أنا عليه ﴿مِرْطُ مُسْتَقِيمٍ﴾. ﴿وَلَنَا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قد شرحنا هذا في [البقرة: ٨٧]. ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ وفيها قولان: أحدهما: النبوة، قاله عطاء، والسدي. والثاني: الإنجيل، قاله مقاتل. ﴿وَلَا يَنْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْلِفُونَ فِيهِ﴾ [أي: من أمر دينكم؟ وقال مجاهد: ﴿بَعْضَ الَّذِي تَخْلِفُونَ فِيهِ﴾ من تبديل التوراة؟ وقال ابن جرير: من أحكام التوراة. وقد ذهب قوم إلى أن البعض هاهنا بمعنى الكل. وقد شرحنا ذلك في [ختم المومن: ٢٨]؛ قال الزجاج: والصحيح أن البعض لا يكون في معنى الكل، وإنما بين لهم عيسى بعض الذي اختلفوا فيه مما احتاجوا إليه؛ وقد قال ابن جرير: كان بينهم اختلاف في أمر دينهم ودنياهم، فبين لهم أمر دينهم فقط. وما بعد هذا قد سبق بيانه [النساء: ١٧٥، مريم: ٣٧] إلى قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ يعني كفار مكة.

﴿الْأَخْلَاقَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿يَعْبَادُ لَا حَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿أَنخَلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَفَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَكَذَلِكَ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿وَلَا يَكُنْ لَكُمْ فِيهَا خَلِيلُونَ﴾ ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿الْأَخْلَاقَ﴾ أي: في الدنيا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: في القيامة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لأن الخلّة إذا كانت في الكفر والمعصية صارت عداوة يوم القيامة؛ وقال مقاتل: نزلت في أمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ يعني الموحدين^(١). فإذا وقع الخوف يوم القيامة نادى مناد ﴿يَعْبَادُ لَا حَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، فيرفع الخلائق رؤوسهم، فيقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، فينكس الكفار رؤوسهم^(٢). قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «يا عبادي» بإثبات الباء في الحاليين وإسكانها، وحذفها في الحاليين ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وحفص، والمفضل عن عاصم، وخلف. وفي أزواجه قولان: أحدهما: زوجاتهم. والثاني: قرناؤهم. وقد سبق معنى ﴿تُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥].

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَفَافٍ﴾ قال الزجاج: واحدا صَحْفَةً، وهي القُصْعَة. والأكواب، واحدا: كُوبٌ، وهو إناء مستدير لا عُرْوَةً له؛ قال الفراء: الكُوب: [الكوز]^(٣) المستدير الرأس الذي لا أذن له، وقال عدي: مُتَّكِئاً تَضْفُفُ أَبْوَابُهُ

وقال ابن قتيبة: الأكواب: الأباريق التي لا عُرَى لها. وقال شيخنا أبو منصور اللغوي: وإنما كانت بغير عُرَى ليُشرب الشارب من أين شاء، لأن العُرْوَة تُرَدُّ الشارب من بعض الجهات.

قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «تشتيه» بزيادة هاء. وحذف الهاء كإثباتها في المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ الْأَعْيُنُ﴾ يقال: لَدَدْتُ الشيء، واستلذذته، والمعنى: ما من شيء اشتتهه نفس أو استلذذته

= الأخرى ﴿وَلَهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ أي: أمانة ودليل على وقوع الساعة، قال: قال مجاهد: ﴿وَلَهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ أي: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة، قال: هكذا روي عن أبي هريرة، وابن عباس، وأبي العالية، وأبي مالك، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغيرهم، قال: وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى ابن مريم ﷺ قبل يوم القيامة بإماماً عادلاً وحكماً مقسطاً. اهـ.

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿الْأَخْلَاقَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ أي: كل صداقة وصحابة لغير الله، فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة، إلا ما كان لله ﷻ، فإنه دائم بدوامه، قال: وهذا كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ نَارًا تَأْكُلُ مِنْكُمْ فَافْلِتُوا مِنْهَا﴾ وفي هذا الكلام محذوف استغني بدلالة ما ذكر عليه، قال: ومعنى الكلام: الأخلاء يَوْمَئِذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين، فإنهم يقال لهم: يا عبادي لا خوف عليكم اليوم من عقابي، فإنني قد أمنتكم منه برضاي عنكم، ولا أنتم تحزنون على فراق الدنيا، فإن الذي قدمت عليه خير لكم مما فارقتموه منها. اهـ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿يَعْبَادُ لَا حَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ وفي هذا الكلام محذوف استغني بدلالة ما ذكر عليه، قال: ومعنى الكلام: الأخلاء يَوْمَئِذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين، فإنهم يقال لهم: يا عبادي لا خوف عليكم اليوم من عقابي، فإنني قد أمنتكم منه برضاي عنكم، ولا أنتم تحزنون على فراق الدنيا، فإن الذي قدمت عليه خير لكم مما فارقتموه منها. اهـ.

(٣) زيادة من «اللسان».

(٤) البيت لعدي بن زيد، وهو في مجاز القرآن ٢٠٦/٢، والقرطبي ١٦/١٤، والصالح «واللسان» و«التاج»: كوب.

عين إلا وهو في الجنة، وقد جمع الله تعالى جميع نعيم الجنة في هذين الوصفين، فإنه ما من نعمة إلا وهي نصيب النفس أو العين، وتمام النعيم الخلود، لأنه لو انقطع لم تطيب. ﴿وَيْلَكُمْ لَبِئْسَ الَّذِي تَذْكُرْهَا فِي قَوْلِهِ﴾ «أَنْخَلُوا الْجَنَّةَ» ﴿أَلَيْسَ أُورِثُوهَا﴾ قد شرحنا هذا في [الأعراف: ٤٣] عند قوله: ﴿أُورِثُوهَا﴾.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّتَخِلِفٍ﴾ لا يَغْتَرُّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَكَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَقْرَبُوا أَنْقَارًا مَّا مَرِئُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلًا لَدَيْهِمْ يَكْفُرُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ﴿٨١﴾ مُبِينٌ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَبْغُضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي بُوْعِدُوا ﴿٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني الكافرين، ﴿لَا يَغْتَرُّ﴾ أي: لا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ يعني في العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾ قال ابن قتيبة: آيسون من رحمة الله. وقد شرحنا هذا في [الأنعام: ٤٤] ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾ أي: ما عذبتناهم على غير ذنب ﴿وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بما جَنُّوا عليها. قال الزجاج: والبصريون يقولون: «هم» هاهنا فصل، كذلك يسمونها، ويسمونها الكوفيين: العباد.

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ وقرأ علي بن أبي طالب عليه السلام، وابن مسعود، وابن عمر: [ويا مال] بغير كاف مع كسر اللام. قال الزجاج: وهذا يسميه النحويون: [الترخيم]، ولكني أكرهها لمخالفة المصحف. قال المفسرون: يَدْعُونَ مَالَكَا خَاوَنَ النَّارِ فيقولون: ﴿لَيْتُنَا عَيْنًا رَّكَّ﴾ [أي: لَيْتُنَا^(١)] والمعنى: أنهم توسلوا به لیسأل الله تعالى لهم الموت فيستريحوا من العذاب؛ فيسكت عن جوابهم مُدَّةً، فيها أربعة أقوال: أحدها: أربعون عاماً، قاله عبد الله بن عمرو، ومقاتل. والثاني: ثلاثون سنة، قاله أنس. والثالث: ألف سنة، قاله ابن عباس. والرابع: مائة سنة، قاله كعب. وفي سكوتهم عن جوابهم هذه المدة قولان: أحدهما: أنه سكت حتى أوحى الله إليه أن أجبه، قاله مقاتل. والثاني: لأن بُعِدَ ما بين النداء والجواب أخزى لهم وأدُلَّ. قال الماوردي: فَرَّدَ عليهم مالك فقال: ﴿إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ أي: مقيمون في العذاب. ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: أرسلنا رسلنا بالتحديد ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ﴾ قال ابن عباس: يريد: كُلَّكُمْ ﴿كَارِهُونَ﴾ إما جاء به محمد ﷺ^(٢).

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَقْرَبُوا أَنْقَارًا﴾ في «أم» قولان: أحدهما: أنها للاستفهام. والثاني: بمعنى «بل». والإبرام: الإحكام. وفي هذا الأمر ثلاثة أقوال: أحدها: المَكْرُ برسول الله ﷺ ليقنطروه أو يُخْرِجوه حين اجتمعوا في دار الندوة؛ وقد سبق بيان القصة [الأنعام: ٣٠]، قاله الأكثرون. والثاني: أنه إحكام أمرهم في تكذيبهم، قاله قتادة. والثالث: أنه إبرام أمرهم يُنجيهم من العذاب، قاله الفراء. ﴿وَإِنَّا مُرِئُونَ﴾ أي: مُحْكِمُونَ أمراً في مجازاتهم. ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ يسرونه من غيرهم ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ ما يتناجون به بينهم ﴿بَلَىٰ﴾ والمعنى: إِنَّا نَسْمَعُ ذَلِكَ ﴿رُسُلًا﴾ يعني [من] الحَفَظَةِ ﴿لَدَيْهِمْ يَكْفُرُونَ﴾. ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ في «إن» قولان: أحدهما: أنها بمعنى الشرط؛ والمعنى: إن كان له ولد في قولكم وعلى زعمكم^(٣)، فعلى هذا في قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ أربعة أقوال: أحدها: فانا أول الجاحدين، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وفي رواية أخرى عن ابن عباس: أن أعرابيين اختصما إليه، فقال أحدهما: إن هذا كانت لي في يده أرض، فعبديها، فقال ابن عباس: الله أكبر، فانا أول العابدين الجاحدين أن الله ولداً. والثاني: فانا أول من عَبَدَ الله مخالفاً لقولكم، هذا قول مجاهد. وقال الزجاج: معناه: إن كنتم ترعون للرحمن ولداً، فانا أول الموحدين.

(١) في الأصل: يميننا، والتصويب من كتب الضمير.

(٢) قال ابن كثير: ﴿لَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ أي: ولكن كانت سجاياكم لا تقبله، ولا تُقْبَلُ عليه، وإنما تنقاد للباطل وتمنعه وتصد عن الحق وتابا، ويتبغض أهله، ففودوا على أنفسهم بالملامة واندعوا حيث لا تنفعكم الندامة. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ أي: لو فرض هذا لعبدته على ذلك لأنني عبد من عبده مطيع لجميع ما بأمرني به، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض هذا لكان هذا، ولكن هذا ممتنع في حق تعالى، قال: والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً، كما قال ﷺ: ﴿قُلْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ وَلَكِنْ لَمْ يَخْلُقْ وَمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. اهـ.

والثالث: فأننا أول الآنفين لله مما قُلتُم، قاله ابن السائب، وأبو عبيدة. قال ابن قتيبة: يقال: عَيْدْتُ من كذا، أَعَيْدُ عَبْدًا، فأننا عَيْدٌ وعَايِدٌ، قال الفرزدق:

[أولُكَ قَوْمٌ إِنْ هَجَوْنِي هَجَوْنُهُمْ] وأَعْبَدُ أَنْ تُهْجَى تَمِيمٌ بِسَدَارِمٍ^(١)
أي: آتَف. وأنشد أبو عبيدة:

وَأَعْبَدُ أَنْ أَشْبَهُهُمْ بِقَوْمِي وَأَوْثَرُ دَارِمًا وَبَنِي زَزَاح
والرابع: أن معنى الآية: كما أَنِّي لَسْتُ أول عابِدٍ لله، فكذلك ليس له ولد؛ وهذا كما تقول: إِنْ كُنْتُ كَاتِبًا فأنَا حَاسِبٌ، أي: لَسْتُ كَاتِبًا وَلَا أَنَا حَاسِبٌ؛ حكى هذا القول الواحدي عن سفيان بن عيينة. والقول الثاني: أَنَّ «إِنْ» بمعنى «مَا»، قاله الحسن، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد؛ فيكون المعنى: مَا كَانَ لِلرَّحْمَنِ [ولد]، فأننا أولٌ من عَبَدَ الله على يقين أَنَّهُ لَا وَلَدَ لَهُ. وقال أبو عبيدة: الفاء على [هذا القول] بمعنى الواو^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ﴾ يعني كفار مكة ﴿يَجْزُوا﴾ في باطلهم ﴿وَيَلْبَسُوا﴾ في دنياهم ﴿حَقَّ يَلْقَا﴾ وقرأ أبو المتوكّل، وأبو الجوزاء، وابن محصن، وأبو جعفر: «حَتَّى يَلْقَا» بفتح الياء والقاف وسكون اللام من غير ألف. والمراد: يلاقوا [يوم] القيامة وهذه الآية [عند الجمهور] منسوخة بآية السيف.

﴿وَمَنْ أَلَدَى فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْقَلِيلُ﴾ (٨٤) ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ الشَّيْءُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٥) ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ (٨٦) وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَيَقِيلُ يَكَرِبُ إِنَّهُ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْبِرْ لَهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَلَدَى فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ قال مجاهد، وقتادة: يُعْبَدُ فِي السَّمَاءِ وَيُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ. وقال الزجاج: هو الموحد في السماء وفي الأرض. وقرأ عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وابن عباس، وابن السميع، وابن يعمر^(٣)، والجلحدي: «في السماء الله وفي الأرض الله» بألف ولام من غير تنوين ولا همز فيهما. وما بعد هذا قد سبق بيانه [الأعراف: ٥٤، لقمان: ٢٤]^(٤) إلى قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ﴾ سبب نزولها أن النضر بن الحارث ونفراً معه قالوا: إِنْ كَانَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ حَقًّا، فَنَحْنُ نَتَوَلَّى الْمَلَائِكَةَ، فَهَمْ أَحَقُّ بِالشَّفَاعَةِ مِنْ مُحَمَّدٍ، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل^(٥). وفي معنى الآية قولان: أحدهما: أَنَّهُ أَرَادَ بِالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ: إِلَهُهُمْ، ثُمَّ اسْتَشَى عِيسَى وَعَزِيرَ وَالْمَلَائِكَةَ، فَقَالَ: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ وهو أن يشهد أن لا إله إلا الله ﴿وَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ بقلوبهم ما شهدوا به بالسنتهم، وهذا مذهب الأكثرين، منهم قتادة. والثاني: أن المراد بالذين يَدْعُونَ: عِيسَى وَعَزِيرَ وَالْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ عِبَدَهُمُ الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ لَا يَمْلِكُ هَؤُلَاءِ الشَّفَاعَةَ لِأَحَدٍ ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ﴾ أي: [إِلَّا] لِمَنْ شَهِدَ ﴿بِالْحَقِّ﴾ وهي كلمة الإخلاص ﴿وَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ أن الله ﷻ خلق عيسى وعزير والملائكة، وهذا مذهب قوم، منهم مجاهد. وفي الآية دليل على أن شرط جميع الشهادات أن يكون الشاهد عالماً بما يشهد به.

قوله تعالى: ﴿وَيَقِيلُ يَكَرِبُ﴾ قال قتادة: هذا نبيكم يشكو قومه إلى ربّه. وقال ابن عباس: شكا إلى الله تخلّف

(١) البيت في «مجاز القرآن» ٢/٢٠١، و«غريب القرآن» ٤٠١، و«البحر المحيط» ٢٨/٨، و«القرطبي» ١٦/١٢٠، «الصحيح» و«اللسان» و«التاج»: عبد.

(٢) قال ابن جرير الطبري: أولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: معنى «إِنْ»: الشرط الذي يقتضي الجزاء.

(٣) في النسخة الاستنبولي: «وأبو الجوزاء» بدل «وابن يعمر».

(٤) قال ابن كثير: وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَلَدَى فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ أي: هو إله من في السماء، وإله من في الأرض، يعبداه أهلها وكلهم خاضعون له أذلاء بين يديه، وهو الحكيم العليم، قال: وهذه الآية كقولها سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَلَدَى فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ يَسْمَعُونَ وَهُمْ يَسْمَعُونَ وَهُمْ يَسْمَعُونَ مَا شَهِدُوا بِهِ بِالسَّنَةِ، وَهَذَا مَذْهَبُ أَكْثَرِ النَّاسِ، وَفِيهِمَا بَلَاءٌ مَدَافِعٌ وَلَا مَمَانَعَةٌ، فَسَبَّحَ تَعَالَى عَنْ الْوَلَدِ، وَتَبَارَكَ، أَي: اسْتَقَرَّ لَهُ السَّلَامَةُ مِنَ الْعُيُوبِ وَالنَّقَاصِ، لِأَنَّهُ الرَّبُّ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ الْمَالِكُ لِلْأَشْيَاءِ الَّذِي بِيَدِهِ أَرْزُقَةُ الْأُمُورِ نَقْصًا وَإِبْرَامًا، ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أَي: لَا يَجْلِيهَا لَوْفُهَا إِلَّا هُوَ ﴿وَيَكْرِبُ﴾ أَي: فِيحَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ. اهـ.

(٥) ذكر سبب النزول هذا الخازن في «تفسيره» بدون سند، ولم يعزه لأحد، بل قال: قيل: سبب نزولها أن النضر بن الحارث ونفراً معه قالوا... إلخ.

قومه عن الإيمان. قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو: «وَقِيلَ» بنصب اللام؛ وفيها ثلاثة أوجه: أحدها: أنه أضمر معها قولاً، كأنه قال: وقال قِيلَ، وشكا شكواه إلى رَبِّهِ. والثاني: أنه عطف على قوله: «أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ يَرْهَقُمْ» وقِيلَ؛ فالمعنى: ونسمع قِيلَ، ذكر القولين الفراء، والأخفش. والثالث: أنه منصوب على معنى: وعنده عِلْمُ الساعة وَيَعْلَمُ قِيلَ، لأن معنى «وَعِنْدُ عِلْمِ السَّاعَةِ»: يَعْلَمُ الساعة وَيَعْلَمُ قِيلَ، هذا اختيار الزجاج. وقرأ عاصم، وحمزة: «وقِيلَ» بكسر اللام والهاء حتى تبلغ إلى الباء؛ والمعنى: وعنده عِلْمُ الساعة وَعِلْمُ قِيلَ. وقرأ أبو هريرة، وأبو رزين، وسعيد بن جبير، وأبو رجاء، والجحدري، وقتادة، وحميد: برفع اللام؛ والمعنى: ونداؤه هذه الكلمة: يا رب؛ ذكر عِلَّةُ الخفض والرفع الفراء والزجاج.

قوله تعالى: «فَأَصْحَعْ عَنْهُمْ» أي: فأعرض عنهم «وَقُلْ سَلِّمْ» فيه ثلاثة أقوال: أحدها: قُلْ خيراً بدلاً من سُرِّهم، قاله السدي. والثاني: ارْزُدْ [عليهم] معروفاً، قاله مقاتل. والثالث: قُلْ ما تَسَلِّمُ به من سُرِّهم، حكاه الماوردي. «فَسَوْفَ يَكْمُلُونَ» فيه ثلاثة أقوال: أحدها: يَعْلَمُونَ عاقبة كفرهم. والثاني: أنك صادق. والثالث: حلول العذاب بهم، وهذا تهديد لهم: «فَسَوْفَ يَكْمُلُونَ»^(١). وقرأ نافع، وابن عامر: «تَعْلَمُونَ» بالياء. ومن قرأ بالياء، فعلى الأمر للنبي ﷺ بأن يخاطبهم بهذا، قاله مقاتل؛ فَتَسَخَّتْ آيَةُ السِّيفِ الإِعْرَاضَ وَالسَّلَامَ.



(١) قال ابن كثير: «فَسَوْفَ يَكْمُلُونَ» هذا تهديد من الله تعالى لهم. قال: ولهذا أحلَّ بهم بأسه الذي لا يرد، وأعلى دينه وكلمته، قال: وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد حتى دخل الناس في دين الله أفواجا، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب، والله أعلم.

سورة الدخان

وهي مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا باجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ ۝٣ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٤ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٥ أَمَّا يَنْزِيلُ الْكِتَابِ ۝٦ نَزَّلَهُ مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٧ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُوزَ ثَوَابِكُمْ ۝٨ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝٩ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝١٠﴾

قوله ۝١: ﴿حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ قد تقدم بيان [المؤمن، والزخرف]، وجواب القسم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، والهاء كناية عن الكتاب، وهو القرآن ﴿فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ﴾ وفيها قولان: أحدهما: أنها ليلة القدر، وهو قول الأكثرين. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: أنزل القرآن من عند الرحمن ليلة القدر جملة واحدة، فوضع في السماء الدنيا، ثم أنزل نجوماً. وقال مقاتل: نزل القرآن كله في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا. والثاني: أنها ليلة النصف من شعبان، قاله عكرمة^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي: مخوفين عقابنا^(٢). ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك الليلة ﴿يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: ينفصل^(٣). وقرأ أبو المتوكل، وأبو نهيك، ومعاذ القاري: ﴿يُفْرَقُ﴾ بفتح الباء وكسر الراء «كُلُّ» بنصب اللام «أَمْرٍ حَكِيمٍ» أي: مُحْكَم. قال ابن عباس: يُكْتَبُ من أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والأرزاق والآجال، حتى الحاج، وإنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى. وعلى ما روي عن عكرمة أن ذلك في ليلة النصف من شعبان، والرواية عنه بذلك مضطربة قد خولف الراوي لها، فروي عن عكرمة أنه قال: في ليلة القدر، وعلى هذا المفسرون^(٤).

قوله تعالى: ﴿أَمَّا يَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ قال الأخفش: «أمرأ» و«رحمة» منصوبان على الحال؛ المعنى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ آمريْنِ أمرأ وراحمين رحمة. قال الزجاج: ويجوز أن يكون منصوباً بـ «يُفْرَقُ» بمنزلة يُفْرَقُ فَرْقاً، لأن «أمرأ» بمعنى «فَرْقاً». قال الفراء: ويجوز أن تُنْصَبَ الرحمة بوقوع «مرسلين» عليها، فتكون الرحمة هي النبي ﷺ. وقال مقاتل: «مرسلين» بمعنى منزّلين هذا القرآن، أنزلناه رحمةً لِمَنْ آمَنَ به. وقال غيره: «أَمَّا يَنْزِيلُ الْكِتَابِ» أي: إِنَّا نَأْمُرُ بِنَسْخِ مَا يُنْسَخُ من

(١) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك قول من قال: عني بها ليلة القدر. وقال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم أنه أنزل في ليلة مباركة، وهي ليلة القدر، كما قال ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝﴾ وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال تبارك وتعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، ثم قال: ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان - كما روي عن عكرمة - فقد أهدى الشجرة، فإن نص القرآن أنها في رمضان.

(٢) قال ابن كثير: وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي: معلّمين الناس ما يفهم ويضرم شعراً لتقوم حجة الله على عباده.

(٣) قال ابن كثير: وقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٥﴾ أي: في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون إلى آخرها، قال: وهكذا روي عن ابن عمر، ومجاهد، وأبي مالك، والضحاك، وغير واحد من السلف. اهـ. وكذلك ذكر غيره من المفسرين أن الضمير في قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٥﴾ يعود على الليلة المباركة التي نزل فيها القرآن، وهي ليلة القدر، وهو الحق الذي لا معدل عنه، ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان، فحجته في ذلك بعض الآثار الضعيفة التي لا تقوم بها حجة، ومن ذلك تعلم خطأ الدعاء الذي يقرؤه بعض الناس في ليلة النصف من شعبان: «... إلهي بالتجلي الأعظم في ليلة النصف من شهر شعبان المكرّم التي يفرق فيها كل أمر حكيم ويبرم...» فإن الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم، هي ليلة القدر المقصودة في هذه السورة، وليست ليلة النصف من شعبان.

(٤) قال ابن كثير: والحديث الذي رواه عبد الله بن صالح عن الليث عن عقيل عن الزهري: أخبرني عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس قال: إن رسول الله ﷺ قال: «تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينتج ويولد له وقد أخرج اسمه في الموتى» قال: فهو حديث مرسل، ومثله لا يعارض به النصوص. اهـ.

اللوح^(١) ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ الأنبياء، ﴿رَحْمَةً﴾ مِنَّا بِخَلَقْنَا ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «رُبَّ» بالرفع. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «رُبَّ» بكسر الباء. وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: ﴿بَلْ هُمْ﴾ يعني الكفار ﴿فِي سُلَيْ﴾ مما جئناهم به ﴿يَلْمِزُونَ﴾ يهزؤون به.

﴿فَارْتَبَّتْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَكَ الْبَطْشَةُ لَمَّا تَلَوْنَا مِثْقَلًا ذَرَّةً فَأَنشَأْنَا لَكَ سُبْحَانَكَ قَبْلَ هَذَا دُخَانًا فَظَنُّوا أَنَّهُ مَدَانُ غَيْرَ مُبِينٍ ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُنْجُوهُ مُخَيَّوْنٌ﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكَ عَائِدُونَ ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾

﴿فَارْتَبَّتْ﴾ أي: فانتظر ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ اختلفوا في هذا الدخان ووقته على ثلاثة أقوال: أحدها: [أنه] دخان يجيء قبل قيام الساعة، فروى عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الدخان يجيء فيأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام»^(٢). وروى عبد الله بن أبي مليكة قال: غدوث على ابن عباس ذات يوم، فقال: ما نمث الليلة حتى أصبحت، قلت: لم؟ قال: طلع الكوكب ذو الذئب، فخشيت أن يطرق الدخان^(٣)، وهذا المعنى مروى عن علي، وابن عمر، وأبي هريرة، والجسن. والثاني: أن قريشاً أصابهم جوع، فكانوا يرون بينهم وبين السماء دخاناً من الجوع؛ فروى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث مسروق، قال: كنا عند عبد الله، فدخل علينا رجل، فقال: جئتكم من المسجد وتركتم رجلاً يقول في هذه [الآية] ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾: يغشاهم يوم القيامة دخان يأخذ بأنفاسهم حتى يصيبهم منه كهيئة الزكام؛ فقال عبد الله: من علم علماً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، إنما كان [هذا] لأن قريشاً لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد، حتى أكلوا العظام والميتة، وجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فقالوا: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكَ عَائِدُونَ﴾، فكشف عنهم، ثم عادوا إلى الكفر، فأخذوا يوم بدر، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾^(٤)، وإلى نحو هذا ذهب مجاهد، وأبو العالية، والضحاك، وابن السائب، ومقاتل. والثالث: أنه يوم فتح مكة لما حُجبت السماء بالغبرة، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿هَذَا عَذَابٌ﴾ أي: يقولون: هذا عذاب. ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ﴾ فيه قولان: أحدهما: الجوع. والثاني: الدخان ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ بمحمد ﷺ والقرآن. ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكَ الْبَطْشَةُ﴾ أي: من أين لهم التذكر والانتعاض بعد نزول هذا

(١) عبارة الطبرسي في «مجمع البيان» والشوكاني في «فتح القدير»: «إننا نأمر ببيان ذلك ونسخه من اللوح المحفوظ.

(٢) ذكر الطبري بنحوه عن عبد الله بن مسعود موقوفاً عليه من رواية أبي الضحى عن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً وهو مضطجع بيننا، فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن إن قاصاً عند أبواب كندة يقص ويزعهم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام... الخ.

(٣) «الطبري» ١١٣/٢٥، قال ابن كثير: وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن ابن عمر عن سفیان عن عبد الله بن أبي مليكة عن ابن عباس ﷺ... فذكره، قال: وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ﷺ حبر الأمة وترجمان القرآن، قال: وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين أجمعين، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما التي أوردوها مما فيه منقطع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَارْتَبَّتْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: بين واضح يراه كل أحد، قال: وعلى ما فسر به ابن مسعود ﷺ (أي في الحديث الذي يند هذا من رواية البخاري ومسلم عن مسروق) إنما هو تخيال رآه في أعينهم من شدة الجوع والجهد. اهـ.

قال الشوكاني في «فتح القدير»: قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح (يريد بذلك سند رواية ابن أبي حاتم)، وكذا صححه السيوطي، ولكن ليس فيه أنه سبب نزول الآية، قال: وقد عرفناك أنه لا منافاة بين كون هذه الآية نازلة في الدخان الذي كان يترامى لقريش من الجوع، وبين كون الدخان من آيات الساعة وعلاماتها وأشراتها، فقد وردت أحاديث صحاح وحسان وضعاف بذلك، وليس فيها أنه سبب نزول الآية، فلا حاجة بنا إلى التويليل بذكرها، والواجب التمسك بما ثبت في «الصحيحين» وغيرهما أن دخان قريش عند الجهد والجوع هو سبب النزول، قال: وبهذا تعرف اندفاع ترجيح من رجح أنه الدخان الذي هو من أشرط الساعة، كابن كثير في «تفسيره» وغيره، قال: وهكذا يندفع قول من قال: إنه الدخان الكائن يوم فتح مكة، متمسكاً بما أخرجه ابن سعد عن أبي هريرة قال: كان يوم فتح مكة دخان، وهو قول الله: ﴿فَارْتَبَّتْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾، قال: فإن هذا لا يعارض ما في «الصحيحين» على تقدير صحة إسناده، مع احتمال أن يكون أبو هريرة ﷺ ظن من وقوع ذلك الدخان يوم الفتح أنه المراد بالآية، قال: ولهذا لم يصرح بأنه سبب نزولها. اهـ.

(٤) ذكره البخاري بالفاظ مختلفة: ٣٩٤/٨، ٤٢٠، ٤٤٠، ورواه مسلم أيضاً، وذكره السيوطي في «الدرر» ٢٨/٦، وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبي نعيم والبيهقي معاً في «الدلائل».

البلاء، ﴿و﴾ حالهم أنه ﴿قد جاءهم رسول مبين﴾ أي: ظاهر الصدق؟! ﴿يَوْمَ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي: أعرضوا ولم يقبلوا قوله ﴿وَقَالُوا مُنْجِئُنَا مِنْ يَدَيْهِمْ قَوْمٌ﴾ أي: هو معلّم يعلمهم بشر مجنون بادعائه النبوة؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا﴾ أي: زماناً يسيراً. وفي العذاب قولان: أحدهما: الضّر الذي نزل بهم كُشف بالخصب، هذا على قول ابن مسعود. قال مقاتل: كشفه إلى يوم بدر. والثاني: أنه الدخان، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَائِدُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: إلى الشرك، قاله ابن مسعود. والثاني: إلى عذاب الله، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبُطُّشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ وقرأ الحسن، وابن يعمر، وأبو عمران: «يَوْمَ تَبُطُّشُ» ببناء مرفوعة وفتح الطاء «الْبَطْشَةُ» بالرفع. قال الزجاج: المعنى: واذكر يوم تَبُطُّشُ، ولا يجوز أن يكون منصوباً بقوله: «منتقمون»، لأن ما بعد «إِنَّا» لا يجوز أن يعمل فيما قبلها. وفي هذا اليوم قولان: أحدهما: يوم بدر، قاله ابن مسعود، وأبى بن كعب، وأبو هريرة، وأبو العالية، ومجاهد، والضحاك. والثاني: يوم القيامة، قاله ابن عباس، والحسن. والبش: الأخذ بقوة.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿٧﴾ أَنْ أَذْوَا إِلَيْكَ عِبَادَ اللَّهِ إِي لَكَ رَسُولٌ أَيْتٌ ﴿٨﴾ وَأَنْ لَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِيَّائِيكَ سُلْطَانٌ بَيْنِي ﴿٩﴾ وَإِيَّيْ عَذْثُ بَرِّي وَرَبِّي أَنْ تَرْجُونَ ﴿١٠﴾ وَإِنْ لَرُّ قَوْمِي لِي فَاعْمَلُوا لِي ﴿١١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتَكَ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ فَأَسْرَ بِبَايَ لَيْلَا إِيكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴿١٣﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوَ إِيَّاهُمْ جُنْدٌ مُعْرِفُونَ ﴿١٤﴾ كَرَّ تَرْكُوا مِنْ جَنَّتِ وَيَعُونِي ﴿١٥﴾ وَزُدُّعٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾ وَتَسْمَرُ كَاثُوا فِيهَا فَيَكِينُ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ أي: ابتلينا ﴿قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل قومك ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ بإرسال موسى إليهم ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ وهو موسى بن عمران. وفي معنى «كريم» ثلاثة أقوال: أحدها: حسن الخلق، قاله مقاتل. والثاني: كريم على ربه، قاله الفراء. والثالث: شريف وسيط النسب، قاله أبو سليمان.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَذْوَا﴾ أي: بأن أدوا ﴿إِلَيْكَ عِبَادَ اللَّهِ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أدوا إلي ما أدعوكم إليه من الحق باتباعي، روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس. فعلى هذا ينتصب «عباد الله» بالنداء. قال الزجاج: ويكون المعنى: أن أدوا إلي ما أترككم به يا عباد الله. والثاني: أرسلوا معي بني إسرائيل، قاله مجاهد، وقتادة، والمعنى: أطلقوهم من تسخيركم، وسلموهم إلي. ﴿وَأَنْ لَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا تفوتوا عليه، قاله ابن عباس. والثاني: لا تعتوا عليه^(١)، قاله قتادة. والثالث: لا تعظموا عليه، قاله ابن جريج ﴿إِيَّائِيكَ سُلْطَانٌ بَيْنِي﴾ أي: بحجة تدل على صدقي. فلما قال هذا تواعدوه بالقتل فقال: ﴿وَإِيَّيْ عَذْثُ بَرِّي وَرَبِّي أَنْ تَرْجُونَ ﴿١٠﴾﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه رجم القول، قاله ابن عباس؛ فيكون المعنى: أن يقولوا: شاعر أو مجنون. والثاني: القتل، قاله السدي. ﴿وَإِنْ لَرُّ قَوْمِي لِي فَاعْمَلُوا لِي ﴿١١﴾﴾ أي: فاتركوني لا معي ولا علي، فكفروا ولم يؤمنوا، ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتَكَ﴾ قال الزجاج: من فتح «أَنْ»، فالمعنى: بأن هؤلاء؛ ومن كسر، فالمعنى: قال: إن هؤلاء، وإن «إِنْ» بعد القول مكسورة. وقال المفسرون: المجرمون هاهنا: المشركون. فأجاب الله دعاءه، وقال: ﴿فَأَسْرَ بِبَايَ لَيْلَا﴾ يعني بالمؤمنين ﴿إِيَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وقومه؛ فأعلمهم أنهم يتبعونهم، وأنه سيكون سبباً لغرقهم. ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوَ﴾ أي: ساكتاً على حاله بعد أن انفرد لك، ولا تأمره أن يرجع كما كان حتى يدخله فرعون وجنوده. والرّهو: مشي في سكون. قال قتادة: لما قطع موسى البحر، عطف يضرب البحر بعصاه ليلتئم، وخاف أن يتبعه فرعون وجنوده، فقبل [له]: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوَ﴾، أي كما هو - طريقاً يابساً^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِيَّاهُمْ جُنْدٌ مُعْرِفُونَ﴾ أخبره الله ﷻ بغرقهم لِيُظْمِرَنَّ قَلْبُهُ فِي تَرْكِ الْبَحْرِ عَلَى حَالِهِ. ﴿كَرَّ تَرْكُوا﴾ أي:

(١) كذا الأصل: «لا تعتوا» بتامين، والذي في الطبري عن قتادة: «لا تبغوا».

(٢) قال ابن كثير: وقوله ﷻ: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوَ إِيَّاهُمْ جُنْدٌ مُعْرِفُونَ﴾ ذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاوز هو وبني إسرائيل البحر أراد موسى أن يفرقه بعصاه حتى يعود كما كان ليصير حالاً بينهم وبين فرعون فلا يصل إليهم، فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكتاً، ويشره بأنهم جند مغرورون فيه، وأنه لا يخاف هركاً ولا يخشى. اهـ.

بعد غرقهم ﴿مِنْ جَنَّتٍ﴾ وقد فسرنا الآية في [الشراء: ٥٧]. فأما «التَّعْمَةُ» فهو العيش اللين الرغد. وما بعد هذا قد سبق بيانه [يس: ٥٥] إلى قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا قَوْمًا لَّا خَرِينَ﴾ يعني بني إسرائيل. ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ﴾ أي: على آل فرعون؛ وفي معناه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه على الحقيقة؛ روى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ إِلَّا وَلَهُ فِي السَّمَاءِ بَابَانِ، بَابٌ يَصْعَدُ فِيهِ عَمَلُهُ، وَبَابٌ يَنْزِلُ مِنْهُ رِزْقُهُ، فَإِذَا مَاتَ بِكَيَا عَلَيْهِ» وتلا ﷺ هذه الآية (١). وقال علي عليه السلام: إن المؤمن إذا مات بكى عليه مُصَلَّاهُ مِنَ الْأَرْضِ وَمُصْعَدُ عَمَلِهِ مِنَ السَّمَاءِ (٢)، وإن آل فرعون لم يكن لهم في الأرض مُصَلَّى وَلَا فِي السَّمَاءِ مُصْعَدُ عَمَلٍ، فقال الله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾، وإلى نحو هذا ذهب ابن عباس، والضحاك، ومقاتل. وقال ابن عباس: الحُمرَةُ التي في السماء: بكاؤها. وقال مجاهد: ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، فقليل له: أو تبكي؟ قال: وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود؟! وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسيحه وتكبيره فيها دَوِيٌّ كَدَوِيٍّ النَّحْلُ (٣)؟! والثاني: أن المراد: أهل السماء وأهل الأرض، قاله الحسن، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَسُفَ لَكُمُ الْأَرْضَ﴾ [محمد: ٤٤]، أي: أهل الحرب. والثالث: أن العرب تقول إذا أرادت تعظيم مهلك عظيم: أَظْلَمَتِ الشَّمْسُ لَهُ، وَكَسَفَتِ الْقَمَرَ لِفَقْدِهِ، وَبَكَتِ الرِّيحُ وَالْبَرْقُ وَالسَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، يريدون المبالغة في وصف المصيبة، وليس ذلك بكذب منهم، لأنهم جميعاً متواطئون عليه، والسامع له يعرف مذهب القائل فيه؛ ويثبتهم في قولهم: أَظْلَمَتِ الشَّمْسُ: كَادَتْ تُظْلِمُ، وَكَسَفَتِ الْقَمَرَ: كَادَ يَكْسِفُ، ومعنى «كاد»: هَمٌّ أَنْ يَفْعَلَ وَلَمْ يَفْعَلْ؛ قال ابن مفرغ يريث رجلاً:

الرَّيْحُ تَبْكِي شَجْوَهُ وَالْبَرْقُ يَلْمَعُ فِي غَمَامَةٍ (٤)
وقال الآخر:

الشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ - تَبْكِي عَلَيْكَ - نُجُومُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا (٥)

أراد: الشمس طالعة تبكي عليه، وليست مع طلوعها كاسفة النجوم والقمر، لأنها مظلمة، وإنما تكسف بضوئها، فنجوم الليل بادية بالنهار، فيكون معنى الكلام: إن الله لما أهلك قوم فرعون لم يترك عليهم باك، ولم يجرع جازع، ولم يوجد لهم قفد، هذا كله كلام ابن قتيبة.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا نَحْمَ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْقَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (١٥) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُتَرَفِّعِينَ (١٦) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْمَلَكَيْنِ (١٧) وَآلَيْتَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ كَثِيرٌ (١٨) إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ (١٩) إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلُ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٢٠) فَأَنَّا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٢١) كَثُرَ صِدْقِي (٢٢) أَهْمَ حَبْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٢٣) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَمَعِينَ (٢٤) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) إِنَّ يَوْمَ الْقِسْفِ لَمِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٢٦) يَوْمَ لَا يَنْفِي مَوْلًى عَنْ مَوْتٍ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُصْرَفُونَ (٢٧) إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٢٨)

قوله تعالى: ﴿مِنْ الْقَذَابِ الْمُهِينِ﴾ يعني قتل الأبناء واستخدام النساء والتعب في أعمال فرعون، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا﴾ أي: جباراً. ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ علمه الله فيهم على عالمي زمانهم، ﴿وَأَلَيْتَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ﴾ كافتراق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، إلى غير ذلك ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ كَثِيرٌ﴾ أي: نعمة ظاهرة. ثم رجع إلى ذكر كفار مكة، فقال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ﴾ (١٩) إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلُ يعنيون التي تكون في الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾

(١) رواه الترمذي في «سننه» ١٥٨/٢ من حديث موسى بن عبيدة عن يزيد بن أبان الرقاشي عن أنس بن مالك عليه السلام، قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وموسى بن عبيدة، ويزيد بن أبان الرقاشي يصفهان في الحديث. والحديث ذكره السيوطي في «الدر» ٣٠/٦، وزاد نسبه لابن أبي الدنيا في «ذكر الموت»، وأبي يعلى، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبي نعيم في «الحلية»، والخطيب عن أنس بن مالك عليه السلام.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» ٣١/٦ من رواية ابن المبارك، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر من طريق المسيب بن رافع عن علي عليه السلام.

(٣) أورده السيوطي في «الدر» ٣٠/٦ من رواية عبد بن حميد، وأبي الشيخ في «العظمة» عن مجاهد بن نحو.

(٤) البيت ليزيد بن مفرغ الحميري، وهو في «مشكل القرآن» ١٢٨، و«الأضداد» للأبنباري ٤٢٤، و«الأغاني» ١٨٧/١٨.

(٥) البيت لجريج يريث عمر بن عبد العزيز، «فيوه» ٣٠٤، و«مشكل القرآن» ١٢٨، و«الصحاح»، و«اللسان»، و«التاج»: بكى. ورواية البيت في «الديوان»:

فَالشَّمْسُ كَاسِفَةٌ لَيْسَتْ بِطَالِعَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا

أي: بمبعوثين، ﴿فَأَنزَلْنَا يُبَاقِلَهُ﴾ أي: ابتعهم لنا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في البعث. وهذا جهل منهم من وجهين: أحدهما: أنهم قد رأوا من الآيات ما يكفي في الدلالة؛ فليس لهم أن ينتظروا. والثاني: أن الإعادة للجزاء؛ وذلك في الآخرة، لا في الدنيا. ثم خوفهم عذاب الأسم قبلهم، فقال: ﴿أَنَّمْ حَيَّرُ﴾ أي: أشد وأقوى ﴿أَمْ قَوْمٌ تُبْعُ﴾؟ أي: ليسوا خيراً منهم. روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أدري تبعاً، نبي، أو غير نبي»^(١). وقالت عائشة: لا تسبوا تبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً، ألا ترى أن الله تعالى ذم قومه ولم يذمه^(٢). وقال وهب: أسلم تبع ولم يُسلم قومه، فلذلك ذكر قومه ولم يذكر. وذكر بعض المفسرين أنه كان يعبد النار، فأسلم ودعا قومه - وهم جئير - إلى الإسلام، فكذبوه. فأما تسميته بـ «تبع» فقال أبو عبيدة: كل ملك من ملوك اليمن كان يسمى: تبعاً، لأنه يتبع صاحبه، فموضع «تبع» في الجاهلية موضع الخليفة في الإسلام، وقال مقاتل: إنما سمي تبعاً لكثرة أتباعه، واسمه: مَلَكِيَكِرْب^(٣). إنما ذكر قوم تبع، لأنهم كانوا أقرب في الهلاك إلى كفار مكة من غيرهم. وما بعد هذا قد تقدم [الأنبياء: ١٦، الحجر: ٨٥] إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامِ﴾ وهو يوم يفصل الله ﷻ بين العباد ﴿بِمَقْتَدَرِهِ﴾ أي: بميعادهم ﴿أَجْعِلُكُمْ﴾ يأتيه الأولون والآخرين. ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْتَ عَنْ مَوْتَيْ شَيْئًا﴾ فيه قولان: أحدهما: لا ينفع قريب قريباً، قاله مقاتل. وقال ابن قتيبة: لا يُغني ولي عن وليه بالقرابة أو غيرها. والثاني: لا ينفع ابن عم ابن عمه، قاله أبو عبيدة. ﴿وَلَا هُمْ يُصْرُوكَ﴾ أي، لا يُمنعون من عذاب الله، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ وهم المؤمنون، فإنه يشفع بعضهم في بعض.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّزْقِ﴾ طَعَامُ الْأَيَّامِ ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبَطْنِ﴾ كَفَلُ الْحَمِيرِ ﴿خَذُوهُ فَاغْلِيُوهُ لَكُمْ سَوَاءُ الْجَحِيمِ﴾ ثُمَّ صُبُّوا قَوْلَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيرِ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿لِأَنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامِ آمِينَ﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ كَذَلِكَ وَوَجَّهْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِينَ﴾ لَا يَدْخُلُوهَا فِيهَا الْمَوْتُ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَى وَوَقَدْ هَدَاكَ الْحَمِيرِ ﴿فَضَلَّ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فَلَمَّا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿فَأَنقَبْ إِلَهُهُمُ مُرْتَبِعُونَ﴾

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّزْقِ﴾ قد ذكرناها في [الصافات: ٦٢]. و«الأيام»: الفاجر؛ وقال مقاتل: هو أبو جهل. وقد ذكرنا معنى «المهل» في [الكهف: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿يَغْلِي فِي الْبَطْنِ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «يغلي» بالياء؛ والباقون: بالطاء. فمن قرأ [«تغلي»] بالطاء، فلتأنيث الشجرة؛ ومن قرأ بالياء، حملة على الطعام. قال أبو علي الفارسي: ولا يجوز أن يُحمَلَ الغَلْيُ على المَهْلِ. لأن المهمل ذكر للتشبيه في الذوب، وإنما يغلي ما شُبَّه به «كَفَلُ الْحَمِيرِ» وهو الماء الحار إذا اشْتَدَّ غَلْيَانُهُ.

قوله تعالى: ﴿خَذُوهُ﴾ أي: يقال للزبانية: خذوه «فَاغْلِيُوهُ» وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، ويعقوب: بضم التاء؛ وكسرهما الباقيون؛ قال ابن قتيبة: ومعناه: قودوه بالعنف، يقال: جيء بفلان يُغْتَلُّ إلى السلطان، و«سَوَاءُ الْجَحِيمِ»: وسط النار. قال مقاتل: الآيات في أبي جهل يضربه الملك من خُزَّانِ جهنم على رأسه بمقعدة من حديد فتتقب عن دماغه، فيجري دماغه على جسده، ثم يصبُّ الملك في الثقب ماءً حميماً قد انتهى حره، فيقع في بطنه، ثم يقول [له] الملك: ﴿ذُقْ﴾ العذاب ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ هذا توبيخ له بذلك؛ وكان أبو جهل يقول: أنا أعزُّ قريش وأكرمها. وقرأ الكسائي: ﴿ذُقْ أَنْكَ﴾ بفتح الهمزة؛ والباقون: بكسرهما. قال أبو علي: من كسرهما، فالمعنى: أنت

(١) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٤٨: رواه الثعلبي عن طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة ؓ، قال: والمعروف بهذا الإسناد: «ما أدري العيني هو، أم لا؟ وما أدري أمزير نبي، أم لا؟»، أخرجه أبو داود، والحاكم، لكن قال: «هو القرين» بدل «عزير» قال: قال الدارقطني: تفرد به عبد الرزاق، وغيره أرسله. اهـ.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرک» ٤٥٠/٢ عن عائشة ؓ وصححه، ووافقه الذهبي. قال ابن كثير: وكأنه - والله أعلم - كان كافراً ثم أسلم وتابع دين الكليم على يدي من كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح ﷺ، وحج البيت في زمن الجرهميين وكساء الملاء والوصائل من الحرير والحبر ونحوه عند ستة آلاف بدنة، وعظمه وأكرمه ثم عاد إلى اليمن. اهـ.

(٣) الذي في «القرطبي»: وقال الكلي: تبع: هو أبو كرب أسعد بن ملكيكر.

العزیز فی زعمک، ومن فتح، فالمعنى: بَأَنَّكَ. فَإِنْ قِيلَ: كيف سُمِّيَ بالعزیز وليس به؟ فالجواب من ثلاثة أوجه: أحدها: أنه قيل ذلك استهزاء به، قاله سعيد بن جبیر، ومقاتل. والثاني: أنت العزیز [الکریم] عند نَفْسِكَ، قاله قتادة. والثالث: أنت العزیز فی قومک، الکریم علی أهلک، حکاه الماوردي. ويقول الخزان لأهل النار: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تُنْتَرَوْنَ﴾ (٥٥) أي: تَشْكُون في كونه. ثم ذكر مستقرَّ الْمُتَّقِينَ فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَارِ أَيْمِينَ﴾ (٥٦) قرأ نافع، وابن عامر: «في مقام» بضم الميم؛ والباقون: بفتحها. قال الفراء: المقام، بفتح الميم: المكان، وضمها: الإقامة.

قوله تعالى: ﴿أَيُّنَ﴾ أي: أينوا فيه الْغَيْرِ والحوادث. وقد ذكرنا «الْجَنَاتِ» في [البقرة: ٣٥] و[ذكرنا] معنى «الْعُيُونِ» ومعنى «مَقَابِلِينَ» في [الحجر: ٤٥، ٤٧] وذكرنا «السُّنْدُسَ وَالْإِسْتِبرْقَ» في [الكهف: ٣١].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر كما وَصَفْنَا وَوَدَّعَيْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ قال المفسرون: المعنى: قَرَنَاهُمْ بِهِنَّ، وليس من عقد التزويج. قال أبو عبيدة: المعنى: جَعَلْنَا ذَكَرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَزْوَاجاً ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ من النساء، تقول للرجل: زَوْجٌ هذه التعلُّل الفرد بالتعلُّل الفرد، أي: اجعلهما زَوْجاً، والمعنى: جَعَلْنَاهُمْ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ. وقال يونس: العرب لا تقول: تزوّج بها، إنما يقولون: تزوّجها. ومعنى ﴿وَدَّعَيْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾: قَرَنَاهُمْ. وقال ابن قتيبة: يقال: زَوَّجْتُ امرأة، وزَوَّجْتُه بامرأة. وقال أبو علي الفارسي: والتزويل على ما قال يونس، وهو قوله تعالى: ﴿وَزَيَّجْنَاهُمْ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وما قال: زَوَّجْنَاكَ بها. فأما الحُور، فقال مجاهد: الحُور: النساء النقيّات البياض. وقال الفراء: الحُوراء: البياض من الإبل؛ قال: وفي «الحُور العين» لغتان: حُور عِين، وجِير عِين، وأنشد:

أزْمَانٌ عَيْنَاءُ سرور المسير وحُوراء عِينَاءُ مِنَ الْعَيْنِ الْجِيرِ

وقال أبو عبيدة: الحوراء: الشديدة بياض بياض الْعَيْنِ، الشديدة سواد سوادها. وقد بيّنا معنى «العين» في [الصفات: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنَكَحَةٍ مُّأْمِنَةٍ﴾ (٥٧) فيه قولان: أحدهما: آمنين من انقطاعها في بعض الأزمنة. والثاني: آمنين من التَّحَمُّمِ والأسقام والآفات.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَرْثَةَ الْآلُونَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها بمعنى «سوى»، فتقدير الكلام: لا يلدقون في الجنة الموت سوى المورثة التي ذاقوها في الدنيا؛ ومثله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]، وقوله: ﴿حَدِيثُكُمْ فِيهَا مَا كُنْتُمْ أَتَمَرْتُمْ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكُمْ﴾ [هود: ١٠٧] أي: سوى ما شاء لهم ربُّكم من الزيادة على مقدار الدنيا، هذا قول الفراء، والزجاج. والثاني: أن السعداء حين يموتون يصيرون إلى الرُّوحِ والرَّيحانِ وأسباب من الجنة يَرَوْنَ منازلهم منها، وإذ ماتوا في الدنيا، فكانهم ماتوا في الجنة، لاتصالهم بأسبابها، ومشاهدتهم إيّاها، قاله ابن قتيبة. والثالث: أن «إِلَّا» بمعنى «يُبَدِّلُ»، كما ذكرنا في أحد الوجوه في قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]، وهذا قول ابن جرير^(١).

قوله تعالى: ﴿فَضَلَّ يَنْ رَبِّكَ﴾ أي: فعل الله ذلك بهم فضلاً منه^(٢). ﴿فَأَنَّمَا يَسْتَرْزِقُ﴾ أي: سَهَّلْنَاهُ، والكناية عن القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي: بِلُغَةِ الْعَرَبِ ﴿لَمَّا هُمْ يَنْتَكِرُونَ﴾ أي: لكي يَتَعَبَّطُوا فَيُؤْمِنُوا، ﴿فَأَنزِلَتْ﴾ أي: انْتَقِطَرُ بِهِم الْعَذَابُ ﴿إِنَّهُمْ مُّرْتَابُونَ﴾ هلاكك^(٣)، وهذه عند أكثر المفسرين منسوخة بآية السيف، وليس بصحيح.



(١) قال ابن كثير: وقوله: ﴿لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَرْتَةَ إِلَّا الْمَرْتَةَ الْآلُونَ﴾ هذا استثناء يؤكد النفي، فإنه استثناء منقطع، ومعناه: أنهم لا يلدقون فيها الموت أبداً، كما ثبت في «الصححين» أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت في صورة كبش أبيض فيوقف بين الجنة والنار، ثم يلبس ثم يقال: يا أهل الجنة خلوه فلا موت، ويا أهل النار خلوه فلا موت».

(٢) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَوَدَّعَيْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ يقول تعالى ذكره: ووفى هؤلاء المتقين رُءُوسَهُمْ بِمِثْلِ عَذَابِ النَّارِ، تفضلاً يا محمد من ربك عليهم، وإحساناً منه إليهم بذلك، ولم يعاقبهم بجرم سلف منهم في الدنيا، قال: ولولا تفضُّله عليهم بصفحة لهم عن العقوبة لهم على ما سلف منهم من ذلك، لم يَقيَمَ عَذَابُ الْجَحِيمِ، ولكن كان ينالهم ويصيبهم ألمه ومكرمه. اهـ.

(٣) قال ابن كثير: ثم لما كان مع هذا الموضوع والبيان من الناس من كفر وخالف وعاند، قال الله تعالى لرسوله ﷺ مُسْتَلِياً له وواعداً له بالنصر ومتوعداً لمن كذب بالمعطي والهلاك ﴿فَأَنزِلَتْ﴾ أي: انتظر ﴿إِنَّهُمْ مُّرْتَابُونَ﴾ أي: فيعلمون لمن تكون النصرة والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لك وإخوانك من النبيين والمرسلين ومن أتبعكم من المؤمنين. اهـ.

سورة الجانية

وتسمى سورة الشريعة

روى العوفي وابن أبي طلحة عن ابن عباس أنها مكِّيَّة، وهو قول الحسن، [وعكرمة]، ومجاهد، وقتادة، والجمهور. وقال مقاتل: هي مكِّيَّة كُلُّهَا. وحكي عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا: هي مكِّيَّة إلا آية، وهي قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ [الجانية: ١٤].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ ٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابِّهِمْ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٤ وَتَخْلِفُ أَيْلٌ وَالنَّهَارُ وَمَا أَرْسَلَ اللَّهُ مِنْ سَمَاءٍ مِنْ رِزْقٍ فَآخِياً بِدِ الْاَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٥ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ الْحَقُّ يَا أَيُّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَمَا يَنْبِئُهُ يَوْمُونَ ٦ وَيَلْ لَكُمْ أَفَّاكٌ آيَةٌ ٧ يَسْمَعُ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزِيلٌ عَلَيْهِ ثُمَّ يُغَيِّرُ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا فَيَكْثُرْ بِمَلَأِ أَلِيمٍ ٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا مَرْوَةً أَوَّلَ لَيْلٍ لَمْ يَدَأْ مُهَيِّئًا ٩ مِنْ دَرَابِهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْشَ آيَةُ اللَّهِ ١١ اللَّهُ إِلَهٌ سَعَى لَكُمْ الْبَحْرَ يَتَجَرَّى الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ رَبُّنَا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٢ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَاءً فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٣﴾

قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴿١﴾ قد شرحناه في أول (المؤمن).

قوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابِّهِمْ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٣﴾ أي: من تراب ثم من نطفة إلى أن يتكامل خلق الإنسان ﴿وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابِّهِمْ آيَ﴾ أي: وما يفرق في الأرض من جميع ما خلق على اختلاف ذلك في الخلق والصور ﴿آيَاتٌ ٣﴾ تدل على وحدانيته. قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿آيَاتٌ﴾ رفعاً ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٌ﴾ رفعاً أيضاً. وقرأ حمزة، والكسائي: بالكسر فيها. والرزق هاهنا بمعنى المطر.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ أي: هذه حجج الله ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ الْحَقُّ يَا أَيُّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ﴾ أي: بعد حديثه ﴿وَمَا يَنْبِئُهُ يَوْمُونَ ٦﴾ يؤمن هؤلاء المشركون!

قوله تعالى: ﴿وَيَلْ لَكُمْ أَفَّاكٌ آيَةٌ ٧﴾ روى أبو صالح عن ابن عباس أنها نزلت في النضر بن الحارث ^(١) وقد بينا معناها في [الشراء: ٢٢٢]، والآية التي تليها مفسرة في [لقمان: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾ قال مقاتل: معناه: إذا سمع. وقرأ ابن مسعود: «وَإِذَا عَلِمَ» برفع العين وكسر اللام وتشديدها.

قوله تعالى: ﴿أَخَذَهَا مَرْوَةً ٨﴾ أي: سخر منها، وذلك كفعل أبي جهل حين نزلت: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّبُورِ ٩﴾ طَعَامُ الْأَثِيرِ ١٠﴾ [الدخان: ٤٣، ٤٤] فدعا بتمر وؤبد، وقال: تَزَقَّمُوا فَمَا يَعِدُكُمْ مُحَمَّدٌ إِلَّا هَذَا. وإنما قال: ﴿أَوَّلَ لَيْلٍ ٩﴾ لأنه ردَّ الكلام إلى معنى «كُلْ». ﴿مِنْ دَرَابِهِمْ جَهَنَّمَ ٩﴾ قد فسرناه في [إبراهيم: ١٦] ﴿وَلَا يَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ من الأموال، ولا ما عبدوا من الآلهة.

قوله تعالى: ﴿هَذَا هُدًى ١٠﴾ يعني القرآن ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا ١١﴾ به، ﴿لَمْ يَخْشَ آيَةُ اللَّهِ ١١﴾ قرأ ابن كثير، وحفص عن

(١) قال البغوي: ﴿وَيَلْ لَكُمْ أَفَّاكٌ آيَةٌ ٧﴾ كَذَابُ صَاحِبِ إِيْم، يعني النضر بن الحارث. وقال الألوسي: والآية نزلت في أبي جهل، وقيل في النضر بن الحارث، وكان يشتري حديث الأعاجم ويشغل به الناس عن استماع القرآن، قال: لكنها عامة كما هو مقتضى «كُلْ»، ويدخل من نزلت فيه دخولاً أولياً. اهـ.

عاصم: «اليم» بالرفع على نعت العذاب. وقرأ الباقون: بالكسر على نعت الرجز. والرجز بمعنى العذاب، وقد شرحناه في [الأعراف: ١٣٤].

قوله تعالى: ﴿جِيءًا بِهِ﴾ أي: ذلك التسخير منه لا من غيره، فهو من فضله. وقرأ عبد الله بن عمرو، وابن عباس، وأبو مجلز، وابن السميع، وابن محيصن، والجحدري: «جميعاً» بفتح النون وتشديدها وتاء منصوبة متونة. وقرأ سعيد بن جبير: «مئة» بفتح الميم ورفع النون والهاء مشددة النون.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَفْعَلُوا لِلَّذِيكَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٧) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ (٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَعْلَمُوا أَنَّمَا أَلِيقُوا فِي يَدَيْهِمْ وَأَنَّا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ يَكُونُوا فَعْلًا يُفْعَلُونَ (٩) ثُمَّ جَعَلْنَا عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبَعُوهَا وَلَا تَنْجُوا أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٠) إِنَّهُمْ كَانُوا يُفَعَّلُونَ مِمَّا كَانُوا يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنَّ الْفَالِغِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ وَاللَّهُ وَكِيُّ الْفَالِغِينَ (١٢) هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا السَّمْعَاتِ أَن يُنْفِذَهُمُ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَا يَحْكُمُونَ (١٤) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمْعَاتِ وَالْأَنْفُسَ الْيَاقِيَّةَ وَلِيَجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٥)﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَفْعَلُوا...﴾ [الآية] في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أنهم نزلوا في غزاة بني المصطلق على بشر يقال لها: المريسي، فأرسل عبد الله بن أبي غلامه ليستقي الماء، فأبطأ عليه، فلما أتاه قال له: ما حبسك؟ قال: غلام عمر، ما ترك أحداً يستقي حتى ملا قُرب النبي ﷺ وقُرب أبي بكر، وملا لمولاه، فقال عبد الله: ما مَلْنَا وَمَلُّ هَوْلًا إِلَّا كَمَا قِيلَ: سَمْنُ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ، فبلغ قوله عمر، فاشتمل سيفه يريد التوجه إليه، فنزلت هذه الآية، رواه عطاء عن ابن عباس^(١). والثاني: [أنها] لما نزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَرْمِي اللَّهُ قُرْآنًا كَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال يهوديٌّ بالمدينة يقال له فنحاص: احتاج ربُّ محمد، فلما سمع بذلك عمر، اشتمل [على] سيفه وخرج في طلبه، فنزل جبريل ﷺ بهذه الآية، فبعث النبي ﷺ في طلب عمر، فلما جاء، قال: يا عمر، ضَعْ سَيْفَكَ وتلا عليه الآية، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس^(٢). والثالث: أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل مكة كانوا في أذى شديد من المشركين قبل أن يؤمروا بالقتال، فشكروا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، قاله القرطبي، والسدي^(٣). والرابع: أن رجلاً من كفار قريش شتم عمر بن الخطاب، فهمَّ عمر أن يبطش به، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل^(٤). ومعنى الآية: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا: اغفروا، ولكن شبه بالشرط، والجزاء، كقوله: ﴿قُلْ لِّمَنَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُصَلُّوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وقد مضى بيان هذا. وقوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ أي: لا يخافون وقائع الله في الأمم الخالية، لأنهم لا يؤمنون به، فلا يخافون عقابه. وقيل: لا يذرون أنعم الله عليهم، أم لا. وقد سبق بيان معنى «أَيَّامَ اللَّهِ» في سورة [إبراهيم: ٥].

فصل

وجمهور المفسرين على أن هذه الآية منسوخة، لأنها تضمنت الأمر بالإعراض عن المشركين. واختلفوا في ناسخها على ثلاثة أقوال: أحدها: [أنه] قوله: ﴿فَأَقْضُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾^(٥) [التوبة: ٥]، رواه معمر عن قتادة. والثاني: أنه قوله في [الأنفال: ٥٧]: ﴿إِنَّا نَتَقَرَّبُ إِلَى الْحَرْبِ﴾، وقوله في [براءة: ٣٦]: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾، رواه سعيد عن قتادة.

(١) ذكر سبب النزول هذا الألويسي بدون سند، قال: قيل: إن النبي ﷺ وأصحابه نزلوا في غزوة بني المصطلق... إلخ.

(٢) الواحد في «أسباب النزول» ٢١٥.

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» عن القرطبي والسدي بدون سند، وقال: ثم نسختها آية القتال. وكذلك ذكره الخازن بدون سند، ولم يعزه لأحد.

(٤) ذكره البغوي عن ابن عباس ومقاتل بدون سند، وكذلك ذكره الخازن بدون سند.

(٥) في الأصل: «أَقْضُوا الْمُشْرِكِينَ» بدون فاء.

الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ هَذَا كَيْفَ يُطَوُّ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَاتِيَنِي تَتْلُو عَلَيَّ كُتُبَكُمْ فَنُفِثَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ قد شرحناه في [الفرقان: ٤٣]. وقال مقاتل: نزلت هذه الآية في الحارث بن قيس السهمي^(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ اللَّهَ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على علمه السابق فيه أنه لا يهتدي^(٢) ﴿وَرَحَّمَ عَلَىٰ سَمِيعٍ﴾ أي: طبع عليه فلم يسمع الهدى ﴿و﴾ على ﴿قلبه﴾ فلم يعقل الهدى. وقد ذكرنا الغشاوة والخشم في [البقرة: ١٧]. ﴿فَنَنْبِذِي بِيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من بعد إضلاله إياه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعرفوا قدرته على ما يشاء^(٣). وما بعد [هذا] مفسر في سورة [المؤمنين: ٣٧]^(٤) إلى قوله: ﴿وَمَا يُبَدِّلُكَ إِلَّا الْقَدَرُ﴾ أي: اختلاف الليل والنهار ﴿وَمَا لَكُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ما قالوه عن علم، إنما قالوه شاكين فيه. ومن أجل هذا قال نبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿لَا تَسْبُوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ﴾^(٥)، أي: هو الذي يهلككم، لا ما تتوهمونه من مرور الزمان. وما بعد هذا ظاهر، وقد تقدم بيانه [البقرة: ٢٨، الشورى: ١٧] إلى قوله: ﴿يَحْشُرُ السَّيْلُوتُ﴾ يعني المكذبين الكافرين أصحاب الأباطيل؛ والمعنى: يظهر خسراهم يومئذ. ﴿وَرَبِّي كُلُّ أَتَوْ﴾ قال الفراء: ترى أهل كل دين ﴿جَانِيَةً﴾ قال الزجاج: أي: جالسة على الركب، يقال: قد جئنا فلان جئشاً؛ إذا جلس على ركبته، ومثله: جئنا يجئذو. والجئذو أشد استيفازاً من الجئو، لأن الجئذو: أن يجلس صاحبه على أطراف أصابعه. قال ابن قتيبة: والمعنى أنها غير مطمئنة.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ أَتَوْ تَدْعُ إِلَىٰ كَيْفٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كتابها الذي فيه حسناتها وسيئاتها، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنه حسابها^(٦)، قاله الشعبي، والفراء، وابن قتيبة. والثالث: كتابها الذي أنزل على رسوله، حكاه الماوردي. ويقال لهم: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وهذا كَيْفٍ: وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كتاب الأعمال الذي تكتبه الحفظة، قاله ابن السائب. والثاني: اللوح المحفوظ، قاله مقاتل؛ والثالث: القرآن، والمعنى أنهم يقرؤونه فيذلهم ويذكروهم، فكانه يطبق عليهم، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم، أي: بكتبها وإثباتها. وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ، من اللوح المحفوظ، نَسْتَنْسِخُ الملائكة كل عام ما يكون من أعمال بني آدم، فيجدون ذلك موافقاً ما يعملونه. قالوا: والاستنساخ لا يكون إلا من أصل. قال الفراء: يرفع الملكان العمل كله،

(١) ذكر سبب النزول هذا القرطبي بدون سند، قال: قال مقاتل: نزلت في الحارث بن قيس السهمي أحد المستهزين، لأنه كان يعبد ما تنوء نفسه. اهـ. وقال الألوسي: والآية نزلت على ما روي عن مقاتل في الحارث بن قيس السهمي، كان لا يهوى شيئاً إلا ركبته، قال: وحكمها عام، قال: وفيها من ذم اتباع هوى النفس ما فيها. اهـ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَأَسْأَلُ اللَّهَ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يقول تعالى ذكره: وخذله عن محجة الطريق وسبيل الرشاد في سابق علمه على علم منه بأنه لا يهتدي ولو جاءت كل آية. اهـ.

(٣) قال ابن جرير: وقوله: ﴿فَنَنْبِذِي بِيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: يقول تعالى ذكره: فمن يوقفه لإصابة الحق وإبصار محجة الرشاد بعد إضلال الله إياه؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أيها الناس فتعلموا أن من فعل الله به ما وصفنا، فلن يهتدي أبداً، ولن يجد لنفسه ولياً مرشداً؟ اهـ.

(٤) في الأصل: «المؤمن».

(٥) رواه بهذا اللفظ مسلم في «صحيحه» ١٧٦٣/٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال الامام النووي في «شرح مسلم»: أي لا تسبوا فاعل التوازل، فإنكم إذا سببتم فاعلها وقع السب على الله تعالى، لأنه هو فاعلها ومزيلها، قال: وأما الدهر الذي هو الزمان، فلا فعل له، بل هو مخلوق من جملة خلق الله تعالى، قال: ومعنى «فإن الله هو الدهر» أي: فاعل التوازل والحوادث وخالق الكائنات، والله أعلم. اهـ. وقال ابن كثير: قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»: كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة، قالوا: يا خيبة الدهر، فيستندون تلك الأفعال إلى الدهر، ويسبونه، قال: وإنما فاعلها هو الله تعالى، فكأنهم إنما سبوا الله ﷻ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويستندون إليه تلك الأفعال. قال ابن كثير: هذا أحسن ما قيل في تفسيره، وهو المراد، والله أعلم. اهـ. وللحديث ألفاظ آخر، منها ما رواه أحمد في «المستند» والبخاري ومسلم في «صحيحيهما» وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يؤفني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقبل ليله ونهاره».

(٦) في الأصل: «حسناتها» والتصويب من «غريب القرآن».

فَبَيَّنَ اللهُ مِنْهُ مَا فِيهِ ثَوَابٌ أَوْ عِقَابٌ، وَيُطْرَحُ مِنْهُ اللَّغْوُ. وقال الزجاج: نستسخن ما نكتبه الحَقْفَةُ، ويثبت عند الله ﷻ. قوله تعالى: ﴿فِي رَحْمَةٍ﴾ قال مقاتل: في جَنَّتِهِ.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي﴾ فيه إضمار، تقديره: فيقال لهم ألم تكن آياتي، يعني آيات القرآن ﴿تُنَلِّقُ عَلَيْهِمْ﴾ فَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴿عَنِ الْإِيمَانِ﴾ بِهَا ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمُونَ﴾؟! قال ابن عباس: كافرين.

﴿وَإِنَّا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا فَلْتُمَّ مَا تَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ إِنَّ نَظْنُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا عَنَّا بِمُسْتَقِيرِينَ ﴿٢٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكَ كَمَا نَبِشَرُ لِقَاءَ يَوْمِكَ هَذَا وَمَا وَدَّكَ النَّارُ وَمَا لَكُ مِنْ نَصِيرِينَ ﴿٢٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخَذُوا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَغَرَّبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٢٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَّةُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْمُسَوِّرُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾ أي: كائن ﴿وَالسَّاعَةُ﴾ قرأ حمزة: «والساعة» بالنصب ﴿لَا رَبَّ فِيهَا﴾ أي: كائنة بلا شك ﴿فَلْتُمَّ مَا تَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أي: أنكرتموها ﴿إِنَّ نَظْنُ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: ما نعلم ذلك إلا ظناً وحُذْساً، ولا نَسْتَقِينُ كَوْنَهَا. وما بعد هذا قد تقدم [الزم: ٤٨] إلى قوله: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكَ﴾ أي: نترككم في النار ﴿كَمَا نَبِشَرُ لِقَاءَ يَوْمِكَ هَذَا﴾ أي: كما تركتم الإيمان والعمل للقاء هذا اليوم ^(١). ﴿ذَلِكَ﴾ الذي فعلنا بكم ﴿وَأَنَّهُ أَخَذْتُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا﴾ أي: مهزوءاً بها ﴿وَغَرَّبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ حتى قلتم: إنه لا بعث ولا حساب ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿لَا يُخْرَجُونَ﴾ بفتح الياء وضم الراء. وقرأ الباقون: ﴿لَا يُخْرَجُونَ﴾ بضم الياء وفتح الراء ﴿وَبَدَا﴾ أي: من النار ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يطلب منهم أن يرجعوا إلى طاعة الله ﷻ، لأنه ليس بحين توبة ولا اعتذار.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَّةُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: السلطان، قاله مجاهد. والثاني: الشرف، قاله ابن زيد. والثالث: العظمة، قاله يحيى بن سلام، والزجاج ^(٢).



(١) ثبت في «صحيح مسلم» ٢٢٧٩/٤ عن أبي هريرة ؓ عن رسول الله ﷺ أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أكرمك وأسودك؟!» (أي أجعلك سيداً على غيرك) وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأفرك تراساً (أي تكون رئيس القوم) وترتج؟! (أي: تأخذ المرباع الذي كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنمة، أي أخذت ريع أموالهم. ومعناه: ألم أجعلك رئيساً مطاعاً؟) فيقول: بلى، قال: فيقول: أفطقت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتي (أي: أمنتك الرحمة كما امتنت من طاعتي).

(٢) قال ابن كثير: ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَّةُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: قال مجاهد: يعني السلطان، أي: هو العظيم الممجّد الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه، قال: وقد ورد في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء رفاي، فمن نازعني واحداً منهما أسكتته ناري». ثم قال في تمة الآية: ﴿وَهُوَ الْمُسَوِّرُ﴾ أي الذي لا يغالب ولا يمانع ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره تعالى وتقدس لا إله إلا هو. اهـ.

سورة الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا مُسَوِّدُ الْوَجْهِ كَرُّوْا عَمَّا أَنْزَلْنَا مُنْذَرُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَنْتَرُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْزِلْ بَيِّنَاتٍ عَلَيَّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾

فصل في نزولها

روى العوفي وابن أبي طلحة عن ابن عباس أنها مكية، وبه قال الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والجمهور. وروي عن ابن عباس وقتادة أنها قالا: فيها آية مدنية، وهي قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ١٠]. وقال مقاتل: نزلت بمكة غير آيتين: قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ١٠] وقوله: ﴿فَأَسْبِرْ كَمَا سَبَّرَ أُولُو الْأَعْرَابِ مِنَ الْأُمَلِّ﴾ [الأحقاف: ٣٥] نزلتا بالمدينة. وقد تقدم تفسير فاتحتها [المومن، الحجر: ٨٥] إلى قوله: ﴿وَلَبِئْسَ مِثْقَالُ﴾ وهو أجل فناء السموات والأرض، وهو يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ مفسر في [فاطر: ٤٠] إلى قوله: ﴿أَنْتَرُونِي بِكِتَابٍ﴾، وفي الآية اختصار، تقديره: فإن ادَّعُوا أن شيئاً من المخلوقات صنعتهم، فقل لهم: إيتوني بكتاب ﴿مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي: مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ فيه برهان ما تدَّعون من أن الأصنام شركاء الله، ﴿أَوْ أَنْزِلْ بَيِّنَاتٍ عَلَيَّ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الشيء يشيره مستخرجه، قاله الحسن. والثاني: بقیة مِنْ عِلْمٍ تَوَثَّرَ عَنْ الْأَوَّلِينَ، قاله ابن قتيبة، وإلى نحوه ذهب الفراء، وأبو عبيدة. والثالث: علامة مِنْ عِلْمٍ، قاله الزجاج^(١). وقرأ ابن مسعود، وأبو رزين، وأيوب السخيتاني، ويقعوب: «أَنْزَرَةُ» بفتح الراء، مثل شجرة. ثم ذكروا في معناها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحُطُّ، قاله ابن عباس؛ وقال: هو حُطُّ كانت العرب تحُطُّ في الأرض، قال أبو بكر بن عتاش: الحُطُّ هو العيافة. والثاني: أو عِلْمٌ تَأَثَّرُونَهُ عَنْ غَيْرِكُمْ، قاله مجاهد. والثالث: خاصَّة مِنْ عِلْمٍ، قاله قتادة. وقرأ أبي بن كعب، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، وقتادة، والضحاك، وابن يعمر: «أَنْزَرَةُ» بسكون الراء من غير ألف بوزن نَظَرَةٌ^(٢). وقال الفراء: قرئت «أَنْزَرَةُ» و«أَنْزَرَةُ»، وهي لغات، ومعنى الكل: بقیة مِنْ عِلْمٍ، ويقال: أو شيء متأثر من كتب الأولين، فمن قرأ «أَنْزَرَةَ» فهو المصدر، مثل قولك: السماحة والشجاعة، ومن قرأ «أَنْزَرَةَ» فإنه بناء على الآخر، كما قيل: قَتَرَةٌ، ومن قرأ «أَنْزَرَةَ» فكانه أراد مثل قوله: «الْحُطُّفَةُ» [الصفات: ١٠] و«الرَّجُفَةُ» [الأعراف: ٧٨]. وقال البيهقي: الأَنْزَرَةُ: البقیة؛ والأَنْزَرَةُ، مصدر أَنْزَرَهُ يَأْزُرُهُ، أي: يذكُرُهُ وَيُروِيهِ، ومنه: حديث ماثور.

﴿وَمَنْ أَسْأَلَ يَمْنَنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِسَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ مَا يَتْلُونَ بَيْنَهُمْ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ شَيْئٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا لِيُفْعِلُونَ فَبِئْسَ كُفْرًا بِئْسَ شَيْئًا بَنِي إِسْرَافٍ وَبِئْسَ كُفْرًا بِئْسَ شَيْئًا بَنِي إِسْرَافٍ وَبِئْسَ كُفْرًا بِئْسَ شَيْئًا بَنِي إِسْرَافٍ﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ﴾ يعني الأصنام^(٣) ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ لأنها جماد لا تسمع، فإذا قامت

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: الأَنْزَرَةُ: البقیة من علم، قال: لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب. اهـ.

(٢) قال ابن جرير: والقراءة التي لا أستجيز غيرها «أَوْ أَنْزَلْ بَيِّنَاتٍ عَلَيَّ» بالالف، لإجماع قراء الأمصار عليها. اهـ.

(٣) وأول الآية: ﴿وَمَنْ أَسْأَلَ يَمْنَنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: وإي عبد أضل من عبد يدعو من دون الله ألهة ﴿لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يقول: لا يجيب دعاءه أبداً، لأنها حجر أو خشب أو نحو ذلك.

القيامة صارت الآلهة أعداء لعابديها في الدنيا^(١). ثم ذكر [بما] بعد هذا أنهم يسمون القرآن سحرًا وأن محمداً افتراه.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونُوا لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لا تقفرون على أن تردوا عني عذابه، أي: كيف أفترى من أجلكم وأنتم لا تقفرون على دفع عذابه عني؟! ﴿هُوَ أَكْبَرُ بِمَا يُفَيْضُونَ فِيهِ﴾ أي: بما تقولون في القرآن وتخوضون فيه من التكذيب والقول بأنه يسخر ﴿كَفَى بِهِ شَيْئًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أن القرآن جاء من عند الله ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ في تأخير العذاب عنكم. وقال الزجاج: إنما ذكر هاهنا الغفران والرحمة ليغلبهم أن من أتى ما أتيت ثم تاب فإن الله تعالى غفور له رحيم به.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدَعَا مَنْ أَرْسَلَ وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ إِنْ أُنِيعَ إِلَّا مَا يُوْحِي إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿قُلْ أَرَبَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى نَفْسِهِ فَقَاتَنَ وَاسْتَغْثَرْتُ لَكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدَعَا مَنْ أَرْسَلَ﴾ أي: ما أنا بأول رسول^(٢). واليدع والبديع من كل شيء: المبتدأ ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ﴾ وقرأ ابن يعمر، وابن أبي عبله: «ما يُفَعَّلُ» بفتح الياء، ثم فيه قولان: أحدهما: أنه أراد بذلك ما يكون في الدنيا. ثم فيه قولان: أحدهما: [أنه] لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ، رأى في المنام أنه هاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء، فقصها على أصحابه، فاستبشروا بذلك لما يلقون من أذى المشركين. ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك، فقالوا: يا رسول الله متى تهاجر إلى الأرض التي رأيت؟ فسكت رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ﴾، يعني لا أدري، أخرج إلى الموضع الذي رأيته في منامي أم لا؟ ثم قال: «إنما هو شيء رأيته في منامي، وما «أُنِيعَ إِلَّا مَا يُوْحِي إِلَيَّ»، رواء أبو صالح عن ابن عباس^(٣) وكذلك قال عطية: ما أدري هل يتركني بمكة أو يخرجني منها. والثاني: ما أدري هل أخرج كما أخرج الأنبياء قبلي، أو أقتل كما قُتلوا، ولا أدري ما يُفَعَّلُ بكم، أتعذبون أم تؤخرون؟ أئصدقون أم تكذبون؟ قاله الحسن. والقول الثاني: أنه أراد ما يكون في الآخرة^(٤). روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية، نزل بعدها ﴿لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وقال: ﴿لَيُنْجِلَ الْأَنْفِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ جَنَّاتٍ...﴾. الآية [الفتح: ٥] فأعلم ما يُفَعَّلُ به وبالمؤمنين^(٥). وقيل: إن المشركين فرحوا عند نزول هذه الآية وقالوا: ما أمرنا وأمر محمد إلا واحد، ولولا أنه ابتدع ما يقوله لأخبره الذي بعثه بما يفعل به، فنزل^(٦) قوله: ﴿لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ...﴾ الآية [الفتح: ٢]، فقال الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله، فماذا يُفَعَّلُ بنا؟ فنزلت: ﴿لَيُنْجِلَ الْأَنْفِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ جَنَّاتٍ...﴾ الآية [الفتح: ٥]؛ وممن ذهب إلى هذا القول أنس، وعكرمة، وقتادة، وروى عن الحسن ذلك.

(١) قال ابن جرير: وقوله: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ﴾ يقول تعالى ذكره: وألهمهم التي يدعونهم عن دعائهم إياهم في غفلة، لأنها لا تسمع ولا تنطق ولا تعقل، قال: وإنما عني بوصفها بالغفلة تمثيلها بالإنسان السامي عما يقال له، إذ كانت لا تفهم مما يقال لها شيئاً، كما لا يفهم الغافل عن الشيء ما غفل عنه، قال: وإنما هذا توبيخ من الله لهؤلاء المشركين لسوء رأيهم وقبح اختيارهم في عبادتهم من لا يعقل شيئاً ولا يفهم، وتركهم عبادة من جميع ما بهم من نعمته، ومن به استغاثتهم عندما ينزل بهم من الجوائح والمصائب. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: أي لست بأول رسول طرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظر له حتى تستكروني وتستبعدون بعثي إليكم، فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم. اهـ.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢١٥ هكذا بدون سند عن أبي صالح عن ابن عباس. وكذلك ذكره البغوي والخازن عن ابن عباس بدون سند، والله أعلم.

(٤) قال ابن كثير: قال أبو بكر الهذلي عن الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ﴾ قال: أما في الآخرة، فمعاذ الله، وقد علم أنه في الجنة، ولكن قال: لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، أخرج كما أخرج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبلي؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة؟ قال: وهذا القول هو الذي عول عليه ابن جرير الطبري، وإنه لا يجوز غيره، قال: ولا شك أن هذا هو اللائق به ﷺ، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن أتبعه، وأما في الدنيا، فلم يدر ما كان يقول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا، أبومنون، أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم؟ اهـ.

(٥) رواء بنحوه مختصراً الطبري ٧/٢٦، وذكره السيوطي في «الدرر» ٣٨/٦ بنحوه، وزاد نسبته لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس. اهـ.

(٦) في الأصل: فنزلت.

(٧) هكذا ذكره البغوي والخازن بدون سند، وذكره بنحوه مختصراً أحمد في «المسند» والبخاري ومسلم عن أنس بن مالك. اهـ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنذَرْتُ إِنْ كَانِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني القرآن ﴿وَكُفِّرْتُ بِهِ﴾ وشهد شاهدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وفيه قولان: أحدهما: أنه عبد الله بن سلام، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد. والثاني: أنه موسى بن عمران عليه السلام، قاله الشعبي، ومسروق. فعلى القول الأول يكون ذلك المثل صلة، فيكون المعنى: وشهد شاهد من بني إسرائيل عليه، أي: على أنه من عند الله، ﴿فَأَمَّنَ﴾ الشاهد، وهو ابن سلام ﴿وَأَسْتَغْفِرُكُمْ﴾ يا معشر اليهود. وعلى الثاني يكون المعنى: وشهد موسى على التوراة التي هي مثل القرآن أنها من عند الله، كما شهد محمد على القرآن أنه كلام الله، ﴿فَأَمَّنَ﴾ مَنْ آمَنَ بموسى والتوراة ﴿وَأَسْتَغْفِرُكُمْ﴾ أنتم يا معشر العرب أن تؤمنوا بمحمد والقرآن. فإن قيل: أين جواب «إِنْ»؟ قيل: هو مُضْمَرٌ؛ وفي تقديره ستة أقوال: أحدها: أن جوابه: فَمَنْ أَصْلُ مِنْكُمْ، قاله الحسن. والثاني: أن تقدير الكلام: وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن، أتؤمنون؟ قاله الزجاج. والثالث: أن تقديره: أتأمنون عقوبة الله؟ قاله أبو علي الفارسي. والرابع: أن تقديره: أفما تهلكون؟ ذكره الماوردي. والخامس: مَنْ الْمُحِقُّ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَمَنْ الْمُبْطِلُ؟ ذكره الثعلبي. والسادس: أن تقديره: اليس قد ظَلَمْتُمْ؟ ويدل على هذا المحذوف قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، ذكره الواحدي.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ سَبَقُوا لَكُمْ هَذَا الْفِكْرُ قَبِيضٌ ۖ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرِيبٍ يُنْذِرُ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرِي لِلْمُحْسِنِينَ ۖ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا فَلَا حَوَافٍ عَلَيْهِمْ وَلَا يُحْزِنُ فِيهِمْ ۚ أُولَٰئِكَ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَجْزَاءِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَحْمِلَ صِلَاةً تَرْسُلَهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دِينِي إِنَّي أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۖ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ الْأَمْرِ ۖ وَعَدَ الْيَمِينُ الَّذِينَ كَانُوا يُوعَدُونَ ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا...﴾ الآية، في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها: أن الكفار قالوا: لو كان دين محمد خيراً ما سبقنا إليه اليهود، فنزلت هذه الآية، قاله مسروق. والثاني: أن امرأة ضعيفة البصر أسلمت، وكان الأشراف من قريش يهزؤون بها ويقولون: والله لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقتنا هذه إليه، فنزلت هذه الآية، قاله أبو الزناد. والثالث: أن أبا ذر الغفاري أسلم واستجاب به قومه إلى الإسلام، فقالت قريش: لو كان خيراً ما سبقونا إليه، فنزلت هذه الآية، قاله أبو المتوكل. والرابع: أنه لما اهدت مُزَيْنَةُ وَجْهَته وأسلمت، قالت أسد وَعُظْفَان: لو كان خيراً ما سبقنا إليه رِءَاءُ الشَّاء، يعنون مُزَيْنَةَ وَجْهَته، فنزلت هذه الآية، قاله ابن السائب. والخامس: أن اليهود قالوا: لو كان دين محمد خيراً ما سبقتمونا إليه، لأنه لا عِلْمَ لكم بذلك، ولو كان حقاً لدخلنا فيه، ذكره أبو سليمان الدمشقي وقال: [هو قول مَنْ يَقُولُ: إن الآية نزلت بالمدينة؛ ومن قال: هي مكية، قال: هو قول المشركين. فقد خرج في «الذين كفروا» قولان: أحدهما: أنهم المشركون. والثاني: اليهود. وقوله: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا﴾ أي: لو كان دين محمد خيراً ﴿مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾. فمن قال: هم المشركون، قال: أرادوا: إِنَّا أَعَزُّ وَأَفْضَلُ؛ ومن قال: هم اليهود، قال: أرادوا: لَنَا أَعْلَمُ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿سَبَقُوا لَكُمْ هَذَا الْفِكْرُ قَبِيضٌ﴾ أي: كذب متقدم، يعنون أساطير الأولين. ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ﴾ أي: مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ التَّوْرَةَ. وفي الكلام محذوف، تقديره: فَلَمْ يَهْتَدُوا، لأن المشركين لم يهتدوا بالتوراة. ﴿إِمَامًا﴾ قال الزجاج: هو منصوب على الحال ﴿وَرَحْمَةً﴾ عطف عليه ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ المعنى: مُصَدِّقٌ لِلتَّوْرَةِ ﴿لِّسَانِ عَرِيبٍ﴾ منصوب على الحال؛ المعنى: مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ عَرِيبًا؛ وذكر «لساناً» تأكيداً، كما تقول: جاءني زيد رجلاً صالحاً، تريد: جاءني زيد صالحاً.

قوله تعالى: ﴿يُنْذِرُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قرأ عاصم، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «يُنْذِرُهُ» بالياء. وقرأ تافع، وابن عامر، ويعقوب: «يُنْذِرُ» بالياء. وعن ابن كثير كالقراءتين. «والذين ظلموا» المشركون ﴿وَيُشْرِي﴾ أي: وهو يُشْرِي لِلْمُحْسِنِينَ وهم الموحدون يبشرونهم بالجنة. وما بعد هذا قد تقدم تفسيره [فصلت: ٣٠] إلى قوله: ﴿يُرَادُّهُ حُسْنًا﴾ وقرأ

عاصم، وحمزة، والكسائي: «إحساناً» بآلف. «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا» قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «كَرْهًا» بفتح الكاف؛ وقرأ الباقون: بضمها. قال الفراء: والنحويون يستحبون الضَّمَّ هاهنا، ويكرهون الفتح، للعلَّة التي بيَّناها عند قوله: «وَهُوَ كَرْهُ لَكُمْ» [البقرة: ٢١٦]. قال الزجاج: والمعنى: حملته على مشقة «وَوَضَعَتْهُ» على مشقة^(١). «وَوَضَعَتْهُ» أي: فطامه. وقرأ يعقوب: «وَفَضَّلَهُ» بفتح الفاء وسكون الصاد من غير ألف «ثَلَاثُونَ شَهْرًا»^(٢). قال ابن عباس: «وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا» يريد به شِدَّةُ الطَّلُق. واعلم أن هذه المدة قُدِّرَتْ لأقلِّ الحَمَلِ وأكثرِ الرُّضَاع؛ فأما الأشدُّ، ففيه أقوال قد تقدَّمت؛ واختار الزجاج أنه بلوغ ثلاث وثلاثين سنة، لأنه وقت كمال الإنسان في بدنه وقوته واستحكام شأنه وتمييزه^(٣). وقال ابن قتيبة: أشدُّ الرُّجُل غير أشدُّ اليتيم، لأن أشدَّ الرُّجُل: الاتكتهال والخبثكة وأن يشتدَّ رأيه وعقله، وذلك ثلاثون سنة، ويقال: ثمان وثلاثون سنة، وأشدُّ الغلام: أن يشتدَّ خلقه ويتناهى نَبَاهُهُ^(٤). وقد ذكرنا بيان الأشد في [الإنعام: ١٥٣] وفي [يوسف: ٢٢] وهذا تحقيقه. واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على ثلاثة أقوال: أحدها: [أنها] نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك أنه صحَّب رسول الله ﷺ وهو ابن ثمان عشرة سنة ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة وهم يريدون الشام في تجارة، فنزلوا منزلاً فيه ميذرة، ففقد رسول الله ﷺ في ظلِّها، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين، فقال [له]: مَنْ الرُّجُل الذي في ظلِّ السِّدْرَةِ؟ فقال: ذاك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فقال: هذا والله نبي، وما استظلَّ تحتها أحدٌ بعد عيسى إلا محمدٌ نبي الله، فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق، فكان لا يفارق رسول الله ﷺ في أسفاره وحضره، فلَمَّا بُنِيَ رسول الله ﷺ - وهو ابن أربعين سنة وأبو بكر ابن ثمان وثلاثين سنة - صدَّق رسول الله ﷺ، فلَمَّا بلغ أربعين سنة قال: ربِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أنعمت عليّ، رواه عطاء عن ابن عباس^(٥)، وبه قال الأكثرون؛ قالوا: فلما بلغ أبو بكر أربعين سنة، دعا الله ﷻ بما ذكره في هذه الآية، فأجابه الله، فأسلم والداه وأولاده ذكورهم وإناثهم، ولم يجتمع ذلك لغيره من الصحابة. والقول الثاني: أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص، وقد شرحنا قصته في سورة [العنكبوت: ٨]، وهذا مذهب الضحَّاك، والسدي^(٦). والثالث: أها نزلت على العموم، قاله الحسن. وقد شرحنا في سورة [النمل: ١٩] معنى قوله: «أَوْزِعْنِي».

قوله تعالى: «وَأَنْ أَحْمَلَ صَليحًا رَضْنَهُ» قال ابن عباس: أجابه الله - يعني أبا بكر - فأعنت تسعة من المؤمنين كانوا يُعَذِّبون في الله ﷻ، ولم يُرَدِّ شيئاً من الخير إلا أعانه الله عليه، واستجاب له في دُرَيْتِهِ فَأَمَنُوا، «إِنِّي نَبْتُ لِيَاك» أي: رَجَعْتُ إلى كل ما تُحِبُّ^(٧).

قوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ تَنَّبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ» قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «يَتَقَبَّلُ» و«يَتَجَاوَزُ» بالياء المضمومة فيهما. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخلف: «تَتَقَبَّلُ» و«تَتَجَاوَزُ» بالتون فيهما. وقرأ أبو المتوكِّل، وأبو رجاء، وأبو عمران الجوني: «يَتَقَبَّلُ» و«يَتَجَاوَزُ» بياء

(١) قال ابن كثير: «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا» أي: قاست بسببه في حال حمل مشقة وتعباً من رحم وغشيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة «وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا» أي: بمشقة أيضاً من الطلق وشدته. اهـ.

(٢) «وَوَضَعَتْهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا» قال ابن كثير: وقد استدلل عليّ ﷺ بهذه الآية مع التي في لقمان «وَوَضَعَتْهُ فِي عَمَلَيْنِ» وقوله تبارك وتعالى: «وَالَّذِينَ يَرْضَخْنَ آلَهُنَّ كَأَنَّهُنَّ كَوَاتِدٌ لِلْجُنَّةِ» على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، قال: وهو استنباط قوي صحيح، قال: ووافقه عليه عثمان رضي الله عنهما وجماعة من الصحابة. اهـ.

(٣) «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا» قال ابن كثير: أي: قوي وشب وارتعج «وَوَضَعَتْهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا» أي: تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه. اهـ.

(٤) في النسخة الاستبوية: بنيه، والذي في [اللسان] و[التاج]: ويتبي شبابه.

(٥) هكذا ذكره الواحدي بتمامه في [أصناف النزول] ٢١٦ رواية عطاء عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بدون سند. وقال السيوطي في [الدرر] ٤٠/٦: أخرج ابن عساکر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه «وَوَضَعَتْهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا» إلى قوله: «وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا» الذي كَانُوا يُعَذِّبُونَ.

(٦) قال البقوي: قال السدي والضحاك: نزلت في سعد بن أبي وقاص، وقال الخازن: قيل: نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص.

(٧) قال ابن كثير: «إِنِّي نَبْتُ لِيَاك» أي: وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله ﷻ ويعزم عليها. اهـ.

مفتوحة فيهما، يعني أهل هذا القول. والأحسن بمعنى الحسن. ﴿فِي أَحْصَىٰ لِلنَّبِيِّ﴾ أي: في جملة من يتجاوز عنهم، وهم أصحاب الجنة. وقيل: ﴿فِي﴾ بمعنى «مع». ﴿وَعَدَ الصِّدِّيقُ﴾ قال الزجاج: هو منصوب، لأنه مصدر مؤكد لما قبله، لأن قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَنَقَّلَ عَنْهُمْ﴾ بمعنى الوعد، لأنه وعدهم القبول بقوله: ﴿وَعَدَ الصِّدِّيقُ﴾، يؤكد ذلك قوله: ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي: على السنة الرُّسل في الدنيا^(١).

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلِيِّهِ أُفٍّ لَّكَمَا أَتَيْدَانِ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَنْبِئَانِ اللَّهَ وَبِكَ آمَيْنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ قَيُّوْلُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِطِرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ بَيِّنَاتٌ وَالْإِنشَاءُ إِنَّهُمْ كَانُوا خَيْرِينَ ﴿٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴿٩﴾ وَيَوْمَ يَرَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبَتْهُمْ طَبَقًا فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَنْعَمْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُعْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُدُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلِيِّهِ أُفٍّ لَّكَمَا﴾ قرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «أف لكما» بالخفض من غير تنوين. وقرأ ابن كثير، وابن عامر: بفتح الفاء. وقرأ نافع، وحفص عن عاصم: «أف» بالخفض والتنوين. وقرأ ابن يعمر: «أف» بتشديد الفاء مرفوعة منوثة. وقرأ حميد، والجدري: «أفًا» بتشديد الفاء وبالنصب والتنوين. وقرأ عمرو بن دينار: «أف» بتشديد الفاء وبالرفع من غير تنوين. وقرأ أبو المتوكّل، [وعكرمة]، وأبو رجاء: «أف لكما» بإسكان الفاء خفيفة. وقرأ أبو العالية، وأبو عمران: «أفني» بتشديد الفاء وباء ساكنة مُمالاة. وروي عن ابن عباس أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه، كان أبواه يدعوانه إلى الإسلام، وهو يأبى، وعلى هذا جمهور المفسرين. وقد روي عن عائشة أنها كانت تُنكر أن تكون الآية نزلت في عبد الرحمن، وتُخلف على ذلك وتقول: لو شئت لسميت الذي نزلت فيه. قال الزجاج: وقول من قال: إنها نزلت في عبد الرحمن، باطل بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾، فأعلم الله أن هؤلاء لا يؤمنون، وعبد الرحمن مؤمن؛ والتفسير الصحيح أنها نزلت في الكافر العاق. وروي [عن] مجاهد أنها نزلت في عبد الله بن أبي بكر، وعن الحسن [أنها] نزلت في جماعة من كفار قريش قالوا ذلك لأبائهم^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ خَلَتْ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾^(٣) فيه قولان: أحدهما: مضت القرون فلم يرجع منهم أحد، قاله مقاتل. والثاني: مضت القرون مكذبة بهذا، قاله أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿وَهُمَا يَسْتَنْبِئَانِ اللَّهَ﴾ أي: يدعوان الله له بالهدى، ويقولان له: ﴿وَبِكَ آمَيْنَ﴾ أي: صدق بالبعث، ﴿قَيُّوْلُ مَا هَذَا﴾ الذي تقولان ﴿إِلَّا أَسْطِطِرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وقد سبق شرحها [الأنعام: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني الكفار ﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليهم قضاء الله أنهم من أهل النار ﴿فِي أُمِّرٍ﴾ أي: مع أمم. فذكر الله تعالى في الآيتين قبل هذه مَنْ بَرَّ والديه وعَمِلَ بوصية الله ﷻ، ثم ذكر مَنْ لَمْ يَعْمَلْ بالوصية ولم يُطِيع ربه ولا والديه، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَيْرِينَ﴾ وقرأ ابن السميع، وأبو عمران: «أنهم» بفتح الهمزة. ثم قال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي: منازل ومراتب بحسب ما اكتسبوه من إيمان وكفر، فيفاضل أهل الجنة في الكرامة، وأهل

(١) قال ابن كثير: قال الله ﷻ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَنَقَّلَ عَنْهُمْ لَمَنْ مَا عَمِلُوا وَتَجَارَوْا عَنْ سَبِيلِهِمْ فِي أَحْصَىٰ لِلنَّبِيِّ﴾ أي: هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، النابون إلى الله، المنيبون إليه، المستلكون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين تنقّل عنهم أحسن ما عملوا، وتجاوز عن سيئاتهم، فنفر لهم الكثير من الرُّسل، وتنقّل منهم اليسير من العمل «في أصحاب الجنة» أي: هم في جملة أصحاب الجنة، قال: وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله ﷻ من تاب إليه وآناب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلِيِّهِ أُفٍّ لَّكَمَا﴾: هذا عام في كل من قال هذا، قال: ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ﷺ، فقله ضعيف، لأن عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه، قال: وروي العوفي عن ابن عباس ﷺ أنها نزلت في ابن أبي بكر الصديق ﷺ، قال: وفي صحة هذا نظر، والله تعالى أعلم، قال: وقال ابن جرير عن مجاهد: نزلت في عبد الله بن أبي بكر ﷺ، قاله ابن جرير، وقال آخرون: عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ، وهذا أيضاً قول السدي، قال: وإنما هذا عام في كل مَنْ عَقَّ والديه وكذب بالحق فقال لوالديه: أف لكما، عفيهما. اهـ.

(٣) وأول الآية: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلِيِّهِ أُفٍّ لَّكَمَا أَتَيْدَانِ أَنْ أُخْرَجَ﴾ أي: أن أبعث ﴿وَعَدَ خَلَتْ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾.

النار في العذاب ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أُهْلَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو: «وَلِيُوَفِّيَهُمْ» بالياء، وقرأ الباقون: بالنون، أي: جزاء أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿رَبِّمْ يَمْرُؤُ﴾ المعنى: واذكر لهم يوم يعرض ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ﴾ أي: ويقال لهم: أذهبتهم، قرأ ابن كثير: «أَذْهَبْتُمْ» بهزمة مطوَّلة^(١). وقرأ [ابن عامر: «أَأْذْهَبْتُمْ» بهمزة. وقرأ نافع، وعاصم، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: «أَذْهَبْتُمْ» على الخبر، وهو توبيخ لهم. قال الفراء والزجاج: [العرب] توبَّخ بالالف وبغير الالف، فتقول: أَذْهَبْتُ وفعلت كذا؟! و: ذهبت ففعلت؟! قال المفسرون: والمراد بطيئانهم: ما كانوا فيه من اللذات مشتغلين بها عن الآخرة مُعرِّضين عن شكرها. ولما وبَّخهم الله بذلك، أثار النبي ﷺ وأصحابه والصالحون بعدهم اجتناب نعيم العيش ولذته ليتكامل أجْرهم ولئلا يُلْهِمَهم عن معادهم. وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على خَصْفَةٍ وبعضه على التراب وتحت رأسه وسادة محشوة ليفاً، فقال: يا رسول الله: أنت نبي الله وصفوته، وكسرى وقبصر على سرر الذهب وثرش الديباج والحريز؟! فقال ﷺ: «يا عمر، إن أولئك قوم عُجِّلَتْ لهم طيئانهم، وهي وشيكة الانقطاع، وإنَّا نُحَرِّثُ لَنَا طَيِّبَاتِنَا»^(٢). وروى جابر بن عبد الله قال: رأى عمر بن الخطاب لحماً معلّقاً في يدي، فقال: ما هذا يا جابر؟ فقلت: اشتيت لحماً فاشتريته، فقال: أو كلّمَا اشتيت اشتريت يا جابر؟! أما تخاف هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾^(٣). وروي عن عمر أنه قيل له: لو أمرت أن نصنع لك طعاماً ألين من هذا، فقال: إني سمعت الله عيّر أقواماً فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾.

قوله تعالى: ﴿تَسْكُرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تتكبرون عن عبادة الله والإيمان به.

﴿وَأَذْكُرْ لَنَا عَادَ إِذْ أَنْذَرْنَاهُمْ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّى النَّارُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قالوا أجبناكنا إننا فأننا فأننا بما نؤدنا إن كنت من الصديقين ﴿١٦﴾ قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلتكم به ولكن أرى أنكم قوماً تجهلون ﴿١٧﴾ فلما رأوه عاصياً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ﴿١٨﴾ نذرت كل قوم بأنهم فأنسبوا لا يربح إلا مسكنهم كذلك تجزي القوم المجرمين ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ لَنَا عَادَ﴾ يعني هوداً ﴿إِذْ أَنْذَرْنَاهُمْ بِالْأَحْقَافِ﴾ قال الخليل: الأحقاف: الرمال العظام. وقال ابن قتيبة: واحد الأحقاف: جحف، وهو من الرَّمْل: ما أشرف من كُشْبَانِه واستطال وانحنى. وقال ابن جرير: هو ما استطال من الرَّمْل ولم يبلغ أن يكون جبلاً. واختلفوا في المكان الذي سُمِّي بهذا الاسم على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه جبل بالشام، قاله ابن عباس، والضحاك. والثاني: أنه واد، ذكره عطية. وقال مجاهد: هي أرض. وحكى ابن جرير أنه واد بين عُمان ومهرة. وقال ابن إسحاق: كانوا ينزلون ما بين عُمان وحَضْرَمَوْت، واليمن كله. والثالث: أن الأحقاف: رمال مشرفة على البحر بأرض يقال لها: الشَّحْر، قاله قتادة^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَّى النَّارُ مِنْ قَبْلُ هُودَ وَمِنْ بَعْدِهِ بِإِنْذَارِ أُمَمٍ﴾ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾؛ والمعنى: لم يُبْعَثْ رسولٌ قَبْلَ هُودَ ولا بعده إلا بالأمر بعبادة الله وحده. وهذا كلام اعترض بين إنذار هود وكلامه لقومه. ثم عاد إلى كلام هود فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِنَأْيِكُنَّا﴾ أي: لتصرفنا عن عبادة آلهتنا بالإفك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: هو يَعْلَمُ متى يأتيكم العذاب. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ يعني ما يوعدون في قوله: «بما تَعِدُّنَا» ﴿عَارِضًا﴾ أي: سحب يعرض من ناحية السماء. قال ابن قتيبة: العارض: السحاب. قال المفسرون: كان المطر

(١) قال في «إتحاف فضلاء البشر»: وقرأ ابن كثير والداجوني عن هشام من طريق النهرواني ورويس بهمزة محققة فسهلة مع عدم الفصل.

(٢) روه الحاكم في «المستدرک» من حديث ابن عباس ؓ وقال: صحيح على شرط مسلم، ورواه ابن ماجه في «سننه» بنحوه من حديث ابن عباس أيضاً بإسناد صحيح، وابن حبان في «صحيحه» من حديث أنس بن مالك ؓ بنحوه.

(٣) ذكره بنحوه البهوي والخازن من رواية جابر بن عبد الله عن عمر بدون سند.

(٤) قال ابن جرير: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تبارك وتعالى أخبر أن عاداً أنذرهم هوداً بالأحقاف، قال: والأحقاف ما وصفت من الرمال المستطيلة المشرفة. اهـ.

قد حُسِنَ عن عاد، فساق الله إليهم سحابةً سوداء، فلما رأوها فرحوا و﴿قَالُوا هَذَا عَارِشٌ مِثْرَانَا﴾، فقال لهم هود: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾، ثم بين ما هو فقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فشأت الريح من تلك السحابة، ﴿تَذِيرٌ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: تُهْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ مَرَّتَ بِهِ من الناس والدواب والأموال. قال عمرو بن ميمون: لقد كانت الريح تحتل القطعنة تفرغها حتى تُرى كأنها جرادة، ﴿فَأَسْبَحُوا﴾ يعني عاداً ﴿لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ قرأ عاصم، وحزمة: ﴿لَا يُرَى﴾ برفع الياء ﴿إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ برفع النون. وقرأ علي، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، وقتادة، والجاحدي: ﴿لَا تُرَى﴾ ببناء مضمومة. وقرأ أبو عمران، وابن السميع: ﴿لَا تُرَى﴾ ببناء مفتوحة ﴿إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ على التوحيد: وهذا لأن الشكان هلكوا، فقيل: أصبحوا. وقد غطتهم الريح بالمثل فلا يُرَوْنَ.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيهَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ سَمًا وَلْنَمَكَّنَّا أَفَأَنْتُمْ عَنْهُمْ سَاهُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾

ثم خوف كفار مكة، فقال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيهَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ في «إن» قولان: أحدهما: أنها بمعنى «لَمْ»، فتقديره: فيما لم نمكنكم فيه، ^(١) قاله ابن عباس، وابن قتيبة. وقال الفراء: هي بمنزلة «ما» في الجحد، فتقدير الكلام: في الذي لم نمكنكم فيه. والثاني: أنها زائدة؛ والمعنى: فيما مكناكم فيه، وحكاه ابن قتيبة أيضاً. ثم أخبر أنه جعل لهم آلات الفهم، فلم يتدبروا بها، ولم يتفكروا فيما يدلهم على التوحيد. قال المفسرون: والمراد بالأفئدة: القلوب؛ وهذه الآلات لم ترد عنهم عذاب الله ^(٢). ثم زاد كفار مكة في التخويف، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾ كديار عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم من الأمم المهلكة ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: بيناها ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ يعني أهل القرى ﴿يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم. وهاتان محذوف، تقديره: فما رجعوا عن كفرهم. ﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهلا ﴿نَصْرُهُمْ﴾ أي: منعه من عذاب الله ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾؟ أي: يعني الأصنام التي تقربوا بعبادتها إلى الله على زعمهم؛ وهذا استفهام إنكار، معناه: لم ينصروهم ﴿بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ﴾ أي: لم ينفعوهم عند نزول العذاب ﴿وَذَلِكَ﴾ يعني دعاءهم الآلهة ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي: كذبهم. وقرأ سعد بن أبي وقاص، وابن يعمر، وأبو عمران: ﴿وَذَلِكَ أَفْكُهُمْ﴾ بفتح الهمزة وقصرها وفتح الفاء وتشديدها ونصب الكاف. وقرأ أبي بن كعب، وابن عباس، وأبو رزين، والشعبي، وأبو العالية، والجاحدي: ﴿أَفْكُهُمْ﴾ بفتح الهمزة وقصرها ونصب الكاف والفاء [وتخفيفها]. قال ابن جرير: أي: أضلهم. وقال الزجاج: معناها: صرفهم عن الحق فجعلهم ضالاً. وقرأ ابن مسعود، وأبو المتوكل: ﴿أَفْكُهُمْ﴾ بفتح الهمزة ومدّها وكسر الفاء وتخفيفها ورفع الكاف، أي: مضلهم.

﴿وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَافَرًا مِنَ الْوَيْلِ فَقُلْ أَوْ لَوْ أَنَّ صَرْفَهُ قُلْنَا صَرْفَهُ قَالُوا أَنصُرُوكُمْ فَلَمَّا كُفُوا قُلْنَا قُلُوبُهُمْ مُثْزَوِيَةٌ فَلَوْلَا﴾ ﴿يَقُولُونَ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَّا طَرِيقٌ مُضِلٌّ﴾ ﴿يَقُولُونَ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَدَاعِيَ الْيَوْمِ﴾ ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَزِيلَةٌ أُولَئِكَ فِي سَلَاطٍ مُبِينٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَافَرًا مِنَ الْوَيْلِ﴾ ويخ الله ﷻ بهذه الآية كفار قريش بما آمنتم به الجحش. وفي سبب صرفهم إلى النبي ﷺ ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم صُرفوا إليه بسبب ما حدث من رجوعهم بالشُّب. روى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث ابن عباس قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد

(١) في الأصل: قال، والتصويب من كتب التفسير.

(٢) قال ابن كثير: يقول تعالى: ولقد مكناكم في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناكم منها ما لم تعطكم مثله ولا قريباً منه، وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمُهُمْ وَلَا أَنْفَعَهُمْ مِنْهُ﴾ إذ كانوا يجحدون بآيات الله وساق بهم ما كانوا يؤمنون به، وأحاط بهم العذاب والكمال الذي كانوا يكذبون به ويستبدلون وقوه، أي: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة. اهـ.

حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَيْرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَجَعَلَتْ الشَّيَاطِينُ، فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ قَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَيْرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، قَالُوا: مَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ شَيْءٍ حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانظُرُوا مَا هَذَا الْأَمْرُ، فَمَرَّ النَّفَرُ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ بَالِنَبِيِّ ﷺ وَهُوَ بِـ «نَخْلَةٍ»^(١) وَهُوَ يَصْلِي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَسَمَّعُوا لَهُ، فَقَالُوا: هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَيْرِ السَّمَاءِ، فَهَنَّاكَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ «فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿يَهْدِي إِلَى الْكُرْنِيِّ﴾ [الجن: ١-٢] فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ نَقَرْتُمْ مِنْ الْجِنِّ» [الجن: ٤١].^(٢)

وروى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن، ولا رآهم، وإنما أتوه وهو بـ «نخلة» فسمعوا القرآن. والثاني: أنهم ضُربوا إليه لِيُنْزِرَهُمْ، وأمر أن يقرأ عليهم القرآن، هذا مذهب جماعة، منهم قتادة. وفي أفراد مسلم من حديث علقمة قال: قلت لعبد الله: من كان منكم مع النبي ﷺ ليلة الجن؟ فقال: ما كان منّا معه أحد، فقدناه ذات ليلة ونحن بمكة، فقلنا: اغتيل رسول الله ﷺ أو استطير، فانطلقنا نطلبه في الشَّعَابِ، فلقيناه مُقْبِلًا مِنْ نَحْوِ حِجْرَاءَ، فقلنا: يا رسول الله، أين كنت؟ لقد أشفقنا عليك، وقلنا له: بَيْنَا اللَّيْلَةُ بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ حِينَ فَقَدْنَاكَ، فقال: «إنه أتاني داعي الجن، فذهبت أُقْرِئُهُمُ الْقُرْآنَ»، فذهب بنا، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم^(٣). وقال قتادة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنِّي أُبْزْتُ أَنْ أَقْرَأَ عَلَى الْجِنِّ، فَأَيْكُمْ يَتَّبِعُنِي؟» فَأَطْرَقُوا، ثُمَّ اسْتَبَعَهُمْ فَاطْرَقُوا، ثُمَّ اسْتَبَعَهُمُ الثَّالِثَةُ فَاطْرَقُوا، فَاتَّبَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، فَدَخَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ شَيْعًا يُقَالُ لَهُ: «شَيْعُ الْحَجُونِ»، وَخَطَّ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ حَقْلًا لِيُثَبِّتَهُ بِهِ، قَالَ: فَسَمِعْتُ لَغَطًا شَدِيدًا حَتَّى خِفْتُ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا رَجَعَ قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَا اللَّغَطُ الَّذِي سَمِعْتُ؟ قَالَ: «اجْتَمَعُوا إِلَيَّ فِي قَتِيلٍ كَانَ بَيْنَهُمْ، فَقَضَيْتُ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ»^(٤). والثالث: أنهم مَرُّوا بِهِ وَهُوَ يَقْرَأُ، فَسَمِعُوا الْقُرْآنَ. فذكر بعض المفسرين أنه لما يس من أهل مكة أن يجيبوه، خرج إلى الطائف ليدعوهم إلى الإسلام - وقيل: ليلتمس نصرهم - وذلك بعد موت أبي طالب، فلما كان ببطن نخلة قام يقرأ القرآن في صلاة الفجر، فمرَّ به نفرٌ من أشرفِ جُنِّ نَصِيبِينَ، فَاسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ. فعلى هذا القول والقول الأول، لم يعلم بحضورهم حتى أخبره الله تعالى؛ وعلى القول الثاني، عَلِمَ بِهِمْ حِينَ جَاءُوا^(٥). وفي المكان الذي سمعوا فيه تلاوة النبي ﷺ قولان: أحدهما: الْحَجُونِ، وقد ذكرناه عن ابن مسعود، وبه قال قتادة. والثاني: بطن نخلة، وقد ذكرناه عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. وأما النَّفَرُ، فقال ابن قتيبة: يُقَالُ: إِنْ النَّفَرُ مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشْرَةِ. وللمفسرين في عدد هؤلاء النَّفَرِ ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم كانوا سبعة، قاله ابن مسعود، ويزُّرُّ بن حبَّيش، ومجاهد، ورواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: تسعة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: اثني عشر ألفًا، روي عن عكرمة، ولا يصح، لأن النَّفَرُ لَا يُطْلَقُ عَلَى الْكَثِيرِ.

قوله تعالى: «فَلَمَّا حَضَرُوهُ» أَي: حَضَرُوا اسْتِمَاعَهُ، وَ«فُتِنَ» يَعْنِي: فُرِغَ مِنْ تِلَاوَتِهِ «وَلَوْ أَنَّ قَوْمَهُمْ مُنْذِرِينَ» أَي: مُحْذِرِينَ عَذَابِ اللَّهِ ﷻ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا. وَهَلْ أَنْذَرُوا قَوْمَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْفُسِهِمْ، أَمْ جَعَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ؟

(١) موضع بين مكة والطائف، وهي التي ينسب إليها، «بطن نخلة» قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: ووقع في رواية مسلم «بنخل» بلا هاء، والصواب إثباتها. اهـ.

(٢) رواه البخاري ٢/٢١٠، و٨/٥١٣، ومسلم ١/٣٣١، والحديث أورده السيوطي في «الدر» ٦/٢٧٠، وزاد نسبه لأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي والنسائي، وابن المنذر، والحاكم، والطبراني، وابن مردويه، وأبي نعيم، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس.

(٣) رواه مسلم ١/٣٣٢، ورواية المصنف له عن مسلم بالمعنى. والحديث رواه أيضاً أحمد في «المسنَد» رقم (٤١٤٩). وأورده السيوطي في «الدر» وزاد نسبه لعبد بن حميد، والترمذي.

(٤) هذه الرواية مرسلّة، رواها ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٥) هذا الخبر من رواية ابن إسحاق عن يزيد بن رومان عن محمد بن كعب القرظي. قال ابن كثير بعد أن سرد كثيراً من الروايات حول هذا الموضوع: فهذه الطرق كلها تدلُّ على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصدًا، فتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله ﷻ، وشرع الله تعالى لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت، قال: وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم كما قاله ابن عباس، ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود. قال: وأما ابن مسعود، فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم، قال: وإنما كان بعيداً منه، ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه، ومع هذا لم يشهد حال مخاطبته، قال: هذه طريقة البيهقي، قال: وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ﷺ ابن مسعود ولا غيره، ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لُنَّ﴾ يعني العذاب. قال بعض المفسرين: كان النبي ﷺ صَجِرَ بعض الصَّجَرِ، وأحب أن ينزل العذاب بمن أبي من قومه، فأمر بالصَّبر.

قوله تعالى: ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: من العذاب ﴿لَوْ يَلْبَثُونَ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً يَوْمَ نَهَارٍ﴾ لأن ما مضى كأنه لم يكن وإن كان طويلاً. وقيل: لأن مقدار مكثهم في الدنيا قليل في جناب مكثهم في عذاب الآخرة. وهاهنا تم الكلام. ثم قال: ﴿بَلِّغْ﴾ أي: هذا القرآن وما فيه من البيان بلاغ عن الله إليكم. وفي معنى وصف القرآن بالبلاغ قولان: أحدهما: أن البلاغ بمعنى التبليغ. والثاني: أن معناه: الكفاية، فيكون المعنى: ما أخبرناهم به لهم فيه كفاية وغنى. وذكر ابن جرير وجهاً آخر، وهو أن المعنى: لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً من نهار، ذلك بُت بلاغ، أي: ذلك بلاغ لهم في الدنيا إلى آجالهم، ثُمَّ حُذِفَتْ «ذلك بُت» اكتفاءً بدلالة ما ذُكِرَ في الكلام عليها. وقرأ أبو العالية، وأبو عمران: «بَلِّغْ» بكسر اللام وتشديد هاء وسكون الغين من غير ألف.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَهْلِكُ﴾ وقرأ أبو رزين، وأبو المتوكل، وابن محيصن: «يَهْلِكُ» بفتح الياء وكسر اللام، أي: عند رؤية العذاب ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن أمر الله ﷻ!؟^(١).



(١) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: فهل يهلك الله بعذابه إذا أنزله إلا القوم الذين خالفوا أمره وخرجوا عن طاعته وكفروا به؟! قال: ومعنى الكلام: وما يهلك الله إلا القوم الفاسقين. اهـ.

يكون دينٌ إلّا دين الإسلام. وقال سعيد بن جبير: حتى يخرج المسيح. وقال الفراء: حتى لا يبقى إلّا مُسلم أو مُسلم. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: حتى يضع أهل الحرب سلاحهم؛ قال الأعشى:

وَأَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا: رِمَاحاً طَوَالاً وَخَيْلاً ذُكُوراً^(١)

وأصل «الوزر» ما حملته، فسمي السلاح «أوزاراً» لأنه يُحمل، هذا قول ابن قتيبة. والثاني: حتى تضع حربكم وتقاتلكم أوزار المشركن وقبائح أعمالهم بأن يُسلموا ولا يُعبدوا إلّا الله، ذكره الواحدي.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك الذي ذكرنا ﴿وَلَوْ نَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرْنَا مِنْهُمْ﴾ بإهلاكهم أو تعذيبهم بما شاء ﴿وَلَكِنَّ﴾ أمرهم بالحرب ﴿يَبْتَغُوا بِمَعْصِكُمْ يَتَقِينَ﴾ فيئيب المؤمن ويكرمه بالشهادة، ويخزي الكافر بالقتل والعذاب.

قوله تعالى: ﴿رَالَيْنِ يُبْلَا﴾ قرأ أبو عمرو، وحفص عن عاصم: «قُتِلُوا» بضم القاف وكسر التاء؛ والباقون: «قَاتِلُوا» بالف.

قوله تعالى: ﴿سَيَذَرِيهِمْ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: يهديهم إلى أرشد الأمور، قاله ابن عباس. والثاني: يحقق لهم الهداية، قاله الحسن. والثالث: إلى مُحاجة منكر ونكير. والرابع: إلى طريق الجنة، حكاها الماوردي. وفي قوله: ﴿عَرَفَهَا لَمْ﴾ قولان: أحدهما: عرفهم منازلهم فيها فلا يستدلّون عليها ولا يُخطئونها، هذا قول الجمهور، منهم مجاهد، وقتادة، واختاره الفراء، وأبو عبيدة. والثاني: طيّبها لهم، رواه عطاء عن ابن عباس. قال ابن قتيبة: وهو قول أصحاب اللغة، يقال: طعامٌ معروف، أي: مطيّب. وقرأ أبو مجلز، وأبو رجاء، وابن محيصن: «عَرَفَهَا لَمْ» بتخفيف الراء^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَصْرَفُوا اللَّهُ يَصْرَفْكُمْ وَيُغْنِي أَفْئَاكُمْ﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلُ أَهْلِكُمْ﴾ ﴿ذَلِكَ يَأْتُهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطُ أَفْعَالَهُمْ﴾ ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَهْلُكُنَّ﴾ ﴿ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَغَلَبُوا الصَّالِحِينَ جَنَّتِ نَجْمٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَصَّرُونَ وَيَكُونُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْتَمُ وَالنَّارُ مَوْتَى لَمْ﴾ ﴿وَكَايُنْ مِنْ قَرْنٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْنِكَ الْإِنِّي أَخَرْتُكَ أَهْلَكْتُمْ فَلَا تَأْمُرْ لَهُمْ﴾ ﴿أَفَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمْ زَيْنَ لَمْ سَوْهُ عَلَيْهِمْ وَابْتِغَا أَوْدَهُمْ﴾ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَصْرَفُوا اللَّهُ﴾ أي: تنصرفوا دينه ورسوله «يَصْرَفْكُمْ» على عدوكم «وَيُغْنِي أَفْئَاكُمْ» عند القتال. وروى المفضل عن عاصم: «وَيُغْنِي» بالتخفيف. «وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ» قال الفراء: المعنى: فانتعسهم الله، والدُّعاء قد يجري مجرى الأمر والنهي. قال ابن قتيبة: هو من قولك: تَعَسْتُ، أي: عَثَرْتُ وَسَقَطْتُ. وقال الزجاج: التَّعَسُّ في اللغة: الانحطاط والعثور. وما بعد هذا قد سبق بيانه [الكهف: ١٠٥، يوسف: ١٠٩] إلى قوله: ﴿دَمَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أهلكهم [الله: ٣٣] ﴿وَالِلْكَافِرِينَ أَهْلُكُنَّ﴾ أي: أمثال تلك العاقبة. «ذَلِكَ» الذي فعله بالمؤمنين من النصر، وبالكافرين من الدمار «يَأْتِي اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا» أي: وليهم. وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: ﴿وَيَكُونُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْتَمُ﴾^(٤) أي: إن الأنعام تأكل وتشرّب، ولا تدري ما في غد، فكذلك الكفار لا يلتفتون إلى الآخرة. «وَالْمَمْتَوَى»: المَنَزَل. «وَكَايُنْ» مشروح في لسان عمران: ١٤٦^(٥) والمراد بقريته: مكة؛ وأضاف القوة والإخراج إليها، والمراد أهلها، ولذلك قال: «أَهْلَكْتُمْ». قوله تعالى: ﴿أَفَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه رسول الله ﷺ، قاله أبو العالية. والثاني: أنه

(١) «ديوانه» ٩٩، و«غريب القرآن» ٤٠٩، و«القرطبي» ٢٢٩/١٦، و«الصحاح» و«اللسان» و«التاج»: ووزر.

(٢) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره: سيوفق الله تعالى ذكره للمعمل بما يرى ويحبّ هؤلاء الذين قاتلوا في سبيله ﴿يَسْتَبِيحُ بَكْلَهُمْ﴾ ويصلح أمرهم وحالهم في الدنيا والآخرة ﴿وَيُغْنِيَهُمْ لَمَّةً عَنْهُمْ﴾ ﴿١٦﴾ يقول: ويدخلهم الله جنته عرفها ويغنيها لهم، قال: حتى إن الرجل ليأتي منزله منها إذا دخلها كما كان يأتي منزله في الدنيا لا يشكّل عليه ذلك. اهـ. وروى البخاري في «صحيحه» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار، حسبوا بقطرة بين الجنة والنار يتقاضون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيده إن أحلهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا».

(٣) قال ابن كثير: يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني المشركين بالله المكذّبين لرسوله ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: عاقبهم بتكذيبهم وقهرهم.

(٤) وأول الآية: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَصَّرُونَ وَيَكُونُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْتَمُ﴾. (٥) وأول الآية: ﴿وَكَايُنْ مِنْ قَرْنٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْنِكَ الْإِنِّي أَخَرْتُكَ﴾.

أشراط الساعة، وانشقاق القمر والدخان وغير ذلك^(١). «فَأَنذَرْتُكُمْ أَي: فمن أين لهم ﴿إِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ الساعة ﴿ذَكَرْتُمْ﴾؟ قال قتادة: أتى لهم أن يَدْكُرُوا ويتوبوا إذا جاءت!؟

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذُنُوبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ تُحْكَمُ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ فَظَنُّوا أَنَّهُ مَتَّطِعٌ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ حَيْزًا لَهُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ قال بعضهم: أثبت على علمك، وقال قوم: المراد بهذا الخطاب غيره؛ وقد شرحنا هذا في فاتحة (الأحزاب). وقيل: إنه كان يضيق صدره بما يقولون، فقيل له: اعلم أنه لا كاشف لما بك إلا الله. فأما قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذُنُوبِكُمْ﴾ فإنه كان يستغفر في اليوم مائة مرة^(٢)، وأمر أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات إكراماً لهم لأنه شفيح مجاب^(٣). ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: مُتَقَلَّبَكُمْ في الدنيا ومثواكم في الآخرة، وهو معنى قول ابن عباس. والثاني: مُتَقَلَّبَكُمْ في أصلاب الرجال إلى أرحام النساء، ومقامكم في القبور، قاله عكرمة. والثالث: مُتَقَلَّبَكُمْ بالنهار ومثواكم أي: ما واكم بالليل، قاله مقاتل^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ قال المفسرون: سألوا ربهم أن ينزل سورة فيها ثواب القتال في سبيل الله، اشتياقاً منهم إلى الوحي وجرصاً على الجهاد، فقالوا: «لولا» أي: هلا؛ وكان أبو مالك الأشجعي يقول: «لا» هاهنا صلة، فالمعنى: لو أنزلت سورة، شوقاً منهم إلى الزيادة في العلم، ورغبة في الثواب والأجر بالاستكثار من الغنائم. وفي معنى «تُحْكَمُ» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها التي يُدْكَر فيها القتال، قاله قتادة. والثاني: أنها التي يُدْكَر فيها الحلال والحرام. والثالث: التي لا منسوخ فيها، حكاهما أبو سليمان الدمشقي. ومعنى قوله: ﴿وَوَدَّعَزَمَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أي: قُرِضَ فيها الجهاد. وفي المراد بالمرض قولان: أحدهما: النفاق، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والجمهور. والثاني: الشك، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يَشْخَصُونَ نحوك بأبصارهم ينظرون نظراً شديداً كما ينظر الشاخص ببصره عند الموت، لأنهم يكرهون القتال، ويخافون إن قعدوا أن يتبين نفاقهم. ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ قال الأصمعي: معنى قولهم في التهديد: «أُولَئِكَ لَكَ» أي: وَلَيْكَ وقَارَبَكَ ما تكزّه. وقال ابن قتيبة: هذا وعيد وتهديد، تقول للرجل - إذا أردت به سوءاً، فَنَاتَكَ - أُولَئِكَ لَكَ، ثم ابتداً، فقال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ...﴾ وقال سيبويه والخليل: المعنى: طاعة وقول معروف أمثل. وقال الفراء: الطاعة معروفة^(٥) في كلام العرب، إذا قيل لهم: افعلوا كذلك، قالوا: سَمِعَ طَاعَةً، فوصف [الله] قولهم قبل أن تنزل السورة أنهم يقولون: سَمِعَ طَاعَةً، فإذا نزل الأمر كرهوا. وأخبرني حبان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: قال الله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ﴾، ثم قال: «كَلِمَةً» أي: للذين آمنوا منهم «طَاعَةً»، فصارت «أُولَئِكَ» وعيداً

(١) قال ابن كثير: فبعث رسول الله ﷺ من أشراط الساعة، لأنه خاتم الرسل الذين أكمل الله تعالى به الدين، وأقام به الحجة على العالمين، قال: وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله، قال: ولهذا جاء في أسمائه ﷺ أنه نبي التوبة، ونبي الملحمة، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه، والمقاب الذي ليس بعده نبي. اهـ. وروى البخاري في «صحيحه» عن سهل بن سعد ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا، بالوسطى والتي تليها: «بعثت أنا والساعة كهاتين».

(٢) روى مسلم في «صحيحه» عن الأغر بن يسار المزني ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليغان على قلبي، وإنني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة» والمراد بليغان: أن يفتر عن الذكر الذي في شأنه أن يداوم عليه، فإذا فتر عنه لأمر ما عد ذلك ذنباً فاستغفر منه. وروى البخاري في «صحيحه» عن شداد بن أوس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» قال: «ومن قالها في النهار موثقاً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موثق بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة».

(٣) روى أحمد في «مسنده» من حديث شعبة عن عاصم الأحول قال: سمعت عبد الله بن سرجس قال: أتيت رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله، فقال ﷺ: «فولك» فقلت (أي شعبة): استغفر لك؟ قال: «نعم ولكم»، وقرأ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذُنُوبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾. قال ابن كثير: ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن عاصم الأحول به.

(٤) والقول الثالث أولى كما قال ابن كثير. (٥) في الأصلين: مرفوعة.

لِمَنْ كَرِهَهَا، واستأنف الطاعة بـ «لهم»؛ والأول عندنا كلام العرب، وهذا غير مردود، يعني حديث أبي صالح. وذكر بعض المفسرين أن الكلام متصل بما قبله؛ والمعنى: فأولَى لهم أن يُطيعوا وأن يقولوا معروفاً بالإجابة.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ قال الحسن: جدُّ الأمر. وقال غيره: جدُّ رسول الله ﷺ وأصحابه في الجهاد، ولَزِمَ فرضُ القتال، وصار الأمر معروفاً عليه. وجواب «إذا» محذوف، تقديره: فإذا عَزَمَ الْأَمْرُ نَكَلُوا؛ يدلُّ على المحذوف ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أي: في إيمانهم وجهادهم ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من المعصية والكرامة.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (١٧) أَوَلَيْكَ الَّذِينَ لَسَنَهُمُ اللَّهُ فَوَسَّعَ وَأَعَمَّى أَبْصَرْتُمْ (١٨) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَمَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (١٩) إِنْ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَ لَهُمْ (٢٠) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطِيمُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُ (٢١) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اجْتَبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٣)

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ في المخاطب بهذا أربعة أقوال: أحدها: المنافقون، وهو الظاهر. والثاني: منافقو اليهود، قاله مقاتل. والثالث: الخوارج، قاله بكر بن عبد الله المزني. والرابع: قريش، حكاه جماعة منهم الماوردي. وفي قوله: ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ قولان: أحدهما: أنه بمعنى الإعراض. فالمعنى: إن أعرضتم عن الإسلام ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأن تعودوا إلى الجاهلية يقتل بعضكم بعضاً، ويغير بعضكم على بعض، ذكره جماعة من المفسرين. والثاني: أنه من الولاية لأمر الناس، قاله القرطبي. فعلى هذا يكون معنى «أن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ»: بالجور والظلم. وقرأ يعقوب: «وَتَقَطَّعُوا» بفتح التاء والطاء وتخفيفها وسكون القاف (١). ثم ذم من يريد ذلك بالآية التي بعد هذه. وما بعد هذا قد سبق (النساء: ٨٢) إلى قوله: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ «أم» بمعنى «بل»، وذكر الأقفال استعارة، والمراد أن القلب يكون كالبيت المُقفل لا يصل إليه الهدى. [قال مجاهد]: الرآن أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشدُّ ذلك كله. وقال خالد بن معدان: ما من آدمي إلا وله أربع أعين، عَيْنَانِ في رأسه لِذُنْيَاهُ وما يُضِلُّه من معيشته، وعَيْنَانِ في قلبه لِدينه وما وَعَدَ الله من العَيْبِ، فإذا أراد الله بعد خيراً أبصرَتْ عيناه اللتان في قلبه، وإذا أراد به غير ذلك طمس عليهما، فذلك قوله: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾ أي: رَجَعُوا كُفَّاراً؛ وفيهم قولان: أحدهما: أنهم المنافقون، قاله ابن عباس، والسدي، وابن زيد. والثاني: أنهم اليهود، قاله قتادة، ومقاتل. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي: من بعد ما وَضَحَ لهم الحق. ومن قال: هم اليهود، قال: من بعد أن تبين لهم وصفُ رسول الله ﷺ ونعته في كتابهم. و﴿سَوَّلَ﴾ بمعنى زَيَّنَ. و﴿وَأَمْلَ لَهُمْ﴾ قرأ أبو عمرو، وزيد عن يعقوب: «وأُمْلِي لَهُمْ» بضم الهمزة وكسر اللام وبعدها ياء مفتوحة. وقرأ يعقوب إلا زيدا، وأبان عن عاصم كذلك، إلا أنهما أسكنا الياء. وقرأ الباقر بفتح الهمزة واللام. وقد سبق معنى الإيملاء [آل عمران: ١٧٨، الأعراف: ١٨٣].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ قال الزجاج: المعنى: الأمرُ ذلك، أي: ذلك الإضلال بقولهم ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ وفي الكارهين قولان: أحدهما: أنهم المنافقون، فعلى هذا في معنى قوله: ﴿سَطِيمُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ﴾ ثلاثة

(١) أي: وتقطعوا الأرحام. قال ابن كثير: وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض، وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال، قال: وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجوه كثيرة. اهـ. روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه». وروى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعته الله». وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة؟ قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلك لك» ثم قال رسول الله ﷺ: «الروا إن شئتم» ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (١٧) أَوَلَيْكَ الَّذِينَ لَسَنَهُمُ اللَّهُ فَوَسَّعَ وَأَعَمَّى أَبْصَرْتُمْ (١٨).

(٢) رواه الطبري ٥٧/٢٦ وفي سنده ضعف.

أقوال: أحدها: في القعود عن نصرة محمد ﷺ، قاله السدي. والثاني: في الميل إليكم والمظاهرة على محمد ﷺ. والثالث: في الارتداد بعد الإيمان، حكاهما الماوردي. والثاني: أنهم اليهود، فعلى هذا في الذي أطاعوهم فيه قولان: أحدهما: في أن لا يصدقوا شيئاً من مقالة رسول الله ﷺ، قاله الضحاك. والثاني: في كنتم ما علموه من نبوته، قاله ابن جريج^(١). «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ» قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وحفص عن عاصم، والوليد عن يعقوب: بكسر الألف على أنه مصدر أسررت؛ وقرأ الباقون: بفتحها على أنه جمع سر، والمعنى أنه يعلم ما بين بين اليهود والمنافقين من السر. قوله تعالى: «فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ؟» أي: فكيف يكون حالهم حينئذ؟ وقد بينا في [الأنفال: ٥٠] معنى قوله: «يَضْرِبُونَ وَجْهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ».

قوله تعالى: «وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ» أي: كرهوا ما فيه الرضوان، وهو الإيمان والطاعة. «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَشْقَانَهُمْ» ﴿١٧﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَمَرْنَا لَمَسَّهُمْ لَفَرْقَنَهُمْ بِمِيقَاتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿١٨﴾ وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّعِيفِينَ وَتَبْلُوا لِفِتَارِكُمْ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْطِ بِأَعْمَالِهِمْ ﴿٢٠﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْغُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٢١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ كَفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» أي: نفاق «أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَشْقَانَهُمْ» قال الفراء: أي لن يبيدي الله عداوتهم ويغضهم لمحمد ﷺ. وقال الزجاج: أي: لن يبيدي عداوتهم لرسوله ﷺ ويظهره على نفاقهم^(٢). «وَلَوْ نَشَاءُ لَأَمَرْنَا لَمَسَّهُمْ» أي: لتعرفناكم، تقول: قد أريتك هذا الأمر، أي: قد عرفتك إياه، المعنى: لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة، وهي السيمة «لَتَعْرِفَنَّهُمْ بِمِيقَاتِهِمْ» أي: بتلك العلامة «وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» أي: في فحوى القول، فدل بهذا على أن قول القائل وفعله يدل على نيته. وقول الناس: قد لحن فلان، تأويله: قد أخذ في ناحية عن الصواب، وعَدَلَ عن الصواب إليها، وقول الشاعر:

مَنْ طَلَّقَ صَائِبَ وَتَلَحَّنَ أَخِيأ
نَأ، وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَخْنَا^(٣)

تأويله: خير الحديث من مثل هذه ما كان لا يعرفه كل أحد، إنما يُعرف قولها في أنحاء قولها. قال المفسرون: ولتعرّفنهم في فحوى الكلام ومعناه ومقصده، فإنهم يتعرّضون بتهجين أمرك والاستهزاء بالمسلمين. قال ابن جرير: ثم عرفه الله إياهم.

قوله تعالى: «وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ» أي: ولتعاينكم معاملة المختبر بأن تأمركم بالجهاد «حَتَّى تَعْلَمَ» العلم الذي هو علم وجود، وبه يقع الجزاء؛ وقد شرحنا هذا في [المنكوت: ٣].

قوله تعالى: «وَتَبْلُوا لِفِتَارِكُمْ» أي: نطهرها ونكشفها بإبائه من أبى القتال ولا يضبر على الجهاد. وقرأ أبو بكر عن عاصم: «وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ» بالياء حتى يعلم بالياء «وَيَبْلُوا» بالياء فيه. وقرأ معاذ القاري، وأيوب السخيتاني: «أخياركم» بالياء جمع «خير»^(٤).

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا...» [الآية]^(٥) اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها في المظفرين

(١) قال ابن كثير: أي: ما لؤومهم وناصحوهم في الباطن على الباطل، قال: وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يطنون، ولهذا قال الله ﷻ: «وَاللَّهُ يَسَّرُ إِسْرَارَهُمْ» أي: ما يسرون وما يخفون، والله مطلع على عوالمهم، كقوله تبارك وتعالى: «وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُكْسِرُونَ». اهـ.

(٢) قال ابن كثير: يقول تعالى: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَشْقَانَهُمْ»؟ أي: أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لمبادء المؤمنين؟! بل سيوضح أمرهم وجليته حتى يفهم ذوو البصائر، قال: وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة (براءة) فيبين فيها فضائحهم وما يمتدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم، قال: ولهذا كانت تسمى «الفاحشة»، قال: والأشغان جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره. اهـ.

(٣) البيت لمالك بن أسماء بن خارجة الفزاري، وهو في «البيان والتبيين» ١/١٤٧، و«الأمالي» ١/٥٠، و«الصحاح» و«اللسان» و«التاج»: لحن. قال في «اللسان»: تأويله: وخير الحديث من مثل هذه الجارية ما كان لا يعرفه كل أحد، إنما يُعرف أمرها في أنحاء قولها.

(٤) قال في «اللسان»: ورجلٌ خَيْرٌ وخَيْرٌ، مشدد ومخفف، وامرأة خَيْرَةٌ وخَيْرَةٌ، والجمع أخيارٌ وخِيَارٌ.

(٥) وتامها: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْطِ بِأَعْمَالِهِمْ».

يوم بدر، قاله ابن عباس^(١). والثاني: أنها نزلت في الحارث بن سويد، ووحوش الأنصاري، أسلما ثم ارتدّا، فتاب الحارث ورجع إلى رسول الله ﷺ، وأبى صاحبه أن يرجع حتى مات، قاله السدي. والثالث: أنها في اليهود، قاله مقاتل. والرابع: أنها في قريظة [والنضير]، ذكره الواحدي^(٢).

قوله تعالى: ﴿لَا تَبُولُوا أَمْثَلَكُمْ﴾^(٣) اختلفوا في مَبُولها على أربعة أقوال: أحدها: المعاصي والكبائر، قاله الحسن. والثاني: الشُّكُّ والتُّفَّاق، قاله عطاء. والثالث: الرِّياء والسُّمعة، قاله ابن السائب. والرابع: بِالْمَنْ^(٤)، وذلك أن قوماً من الأعراب قَدِموا على رسول الله ﷺ فقالوا: أتيناك طائعين، فلنا عليك حق، فنزلت هذه الآية، ونزل قوله: ﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [الحجرات: ١٧]، هذا قول مقاتل^(٥). قال القاضي أبو يعلى: وهذا يدلُّ على أن كُلَّ مَنْ دخل في فُرْجة لم يُجْزَ له الخُروج منها قبل إتمامها، وهذا على ظاهره في الحج، فأما في الصلاة والصيام، فهو على سبيل الاستحباب^(٦).

﴿لَا تَهْتَفُوا إِلَى السِّلَهِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرْكَزَ أَمْرُكُمْ﴾^(٧) إِنَّمَا لِلنَّبِيِّ الدُّنْيَا لَبْسٌ وَلَهُمْ وَلَيْدٌ تَوَمُّوا وَتَنَقَّوْا يُؤَيِّدُكُمْ لَكُمْ وَلَا يَسْئَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾^(٨) إِنْ يَسْئَلُكُمْ فَيُخَوِّفْكُمْ تَبَخَّلُوا وَخُذْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ ﴿٩﴾ كَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُخَوِّفُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَنْكُفُّ مَنْ يَخْشَى وَلَنْ يَسْئَلَ فَلَئِنْ يَسْأَلَ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَلَنْ تَتَزَلَّجُوا بِسَبِيلِ قَوْمٍ غَيْرِكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾^(١٠)

قوله تعالى: ﴿لَا تَهْتَفُوا﴾ أي: فلا تَضَعُفُوا ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السِّلَهِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وحفص عن عاصم: «إلى السِّلْم» بفتح السين؛ وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم: بكسر السين، والمعنى: لا تَدْعُوا الكفار إلى الصلح ابتداء. وفي هذا دلالة على أنه لا يجوز طلب الصلح من المشركين، ودلالة على أن النبي ﷺ لم يدخل مكة صلحاً، لأنه نهاه عن الصلح.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي: أنتم أَعَزُّ مِنْهُمْ، وَالْحُجَّةُ لَكُمْ، وَآخِرُ الْأَمْرِ لَكُمْ وَإِنْ غَلَبَكُمْ فِي بَعْضِ الْأَوَاقِ^(١١) ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بِالْعَوْنِ وَالنُّصْرَةِ ﴿وَلَنْ يَرْكَزَ﴾ قال ابن قتيبة: أي: لن يَنْقُصَكُمْ ولن يَظْلِمَكُمْ، يقال: وَتَرْتَنِي حَقِّي، أي: بَحْثَتِيهِ. قال المفسرون: المعنى: لن يَنْقُصَكُمْ من ثواب أعمالكم شيئاً. قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾^(١٢) أي: لن يَسْأَلَكُمْ أَمْوَالَكُمْ.

قوله تعالى: ﴿يُخَوِّفُكُمْ﴾ قال الفراء: يُجْهِدُكُمْ. وقال ابن قتيبة: يُلَيِّحُ عَلَيْكُمْ بما يوجب في أموالكم ﴿تَبَخَّلُوا﴾، يقال: أَخْفَانِي بِالْمَسْأَلَةِ وَالْحَفِّ: إِذَا أَلَحَّ. وقال السدي: إِنْ يَسْأَلُكُمْ جَمِيعٌ مَا فِي أَيْدِيكُمْ تَبَخَّلُوا. ﴿وَتُخْرِجُ أَمْوَالَكُمْ﴾ وقرأ سعد بن أبي وقاص، وابن عباس، وابن يعمر: «وَتُخْرِجُ» بياء مرفوعة وفتح الراء «أَضْفَانُكُمْ» بالرفع. وقرأ أبي بن كعب، وأبو رزين، وعكرمة، وابن السميع، وابن محيصن، والجحدري: «وَتُخْرِجُ» بقاء مفتوحة ورفع الراء.

(١) ذكره البغوي والخازن عن ابن عباس بدون سند.

(٢) قال ابن كثير: يخبر تعالى عمن كفر وصّد عن سبيل الله وخالف الرسول وشاقّه وارتدّ عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى، أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه، ويضرها يوم معادها، وسيحيط الله عمله فلا يشبه على سالف ما تقدم من عمله الذي عبّه برده مقال بوعضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات. اهـ.

(٣) والآية بتمامها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُذْهِبْ اللَّهُ عَنْكُمْ الْكُفْرَ وَالْظُلْمَ وَالْجَاهِلِيَّةَ لَا يَبُولُوا أَمْثَلَكُمْ﴾.

(٤) قال الشوكاني في «فتح القدير»: والظاهر النهي عن كل سبب من الأسباب التي توصل إلى بطلان الأعمال كأنها ما كان من غير تخصيص بنوع معين. اهـ.

(٥) ذكره البغوي عن مقاتل بدون سند.

(٦) روى أحمد والبيهقي بسند جيد عن أم هانئ رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ شرب شرباً، فناولها لتشرب، فقالت: إني كنت صائمة، ولكنني كرهت أن أرد سورك، فقال: «إِنْ كَانَ قَضَاءٌ مِنْ رَمَضَانَ، فَاقْضِي يَوْمًا مَكَانَهُ، وَإِنْ كَانَ تَطَوُّعًا، فَإِنْ شِئْتَ فَاقْضِي، وَإِنْ شِئْتَ فَلَا تَقْضِي».

(٧) قال ابن كثير: أي: لا تضعفوا عن الأعداء ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السِّلَهِ﴾ أي: إلى المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قُوَّتكم وكثرة عددكم وعُدَّتكم، قال: ولهذا قال: ﴿لَا تَهْتَفُوا وَتَدْعُوا إِلَى السِّلَهِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي: في حال علوّكم على عدوكم، قال: فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المهادنة والمعاودة مصلحة، فله أن يفعل ذلك كما فعل رسول الله ﷺ حين صدّه كفار قريش عن مكة ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم ﷺ إلى ذلك. اهـ.

(٨) والآية بتمامها: ﴿إِنَّمَا لِلنَّبِيِّ الدُّنْيَا لَبْسٌ وَلَهُمْ وَلَيْدٌ تَوَمُّوا وَتَنَقَّوْا يُؤَيِّدُكُمْ لَكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾.

«أضغائنكم» بالرفع. وقرأ ابن مسعود، والوليد عن يعقوب: «ونُخرج» بنون مرفوعة وكسر الراء، «أضغائنكم» بنصب النون، أي: يُظهر بُغضكم وعداوتكم لله ولرسوله ﷺ، ولكنه فرض عليكم يسيراً. وفيمن يضاف إليه هذا الإخراج وجهان: أحدهما: إلى الله ﷻ. والثاني: البخل، حكاهما الفراء. وقد زعم قوم أن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة، وليس بصحيح، لأننا قد بينّا أن معنى الآية: إن يسألكم جميع أموالكم؛ والزكاة لا تنافي ذلك.

قوله تعالى: ﴿هَآئِنْتَ هَؤُلَاءِ نَذَعُونَ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني ما فرض عليكم في أموالكم ﴿فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلْ﴾ بما فرض عليه من الزكاة ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ﴾ أي: على نفسه بما ينفعها في الآخرة ﴿وَاللَّهُ الْتَوَّابُ﴾ عنكم وعن أموالكم ﴿وَأَنشُرَ الْفَقْرَاءَ﴾ إليه وإلى ما عنده من الخير والرحمة، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾ عن طاعته ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أطوع له منكم ﴿فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ لَكُمْ عُدَاوَةٌ﴾ بل خيراً منكم. وفي هؤلاء القوم ثمانية أقوال: أحدها: أنهم العجم، قاله الحسن. وفيه حديث يرويه أبو هريرة قال: لما نزلت ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ كان سلمان إلى جنب رسول الله ﷺ، فقالوا^(١): يا رسول الله، مَنْ هؤلاء الذين إذا تولّينا استبدلوا بنا؟ فضرب رسول الله ﷺ [يده] على منكب سلمان، فقال: «هذا وقومُه، والذي نفسي بيده، لو أن الذين معلقٌ بالثريا لتناولوه رجال من فارس»^(٢). والثاني: فارس والروم، قاله عكرمة. والثالث: من يشاء من جميع الناس، قاله مجاهد. والرابع: يأتي بخلق جديد غيركم، وهو معنى قول قتادة. والخامس: كندة والنخع، قاله ابن السائب. والسادس: أهل اليمن، قاله راشد بن سعد، وعبد الرحمن بن جبير، وشريح بن عبيد. والسابع: الأنصار. قاله مقاتل. والثامن: أنهم الملائكة، حكاها الزجاج وقال: فيه بُعْدٌ [لأنه] لا يقال للملائكة «قوم»، إنما يقال ذلك للآدميين؛ قال: وقد قيل: إن تولّى أهلُ مكة استبدل الله بهم أهلَ المدينة، وهذا [معنى] ما ذكرنا عن مقاتل^(٣).



(١) في الأصل: فقال.

(٢) رواه ابن جرير الطبري ٦٦/٢٦، وفي سننه مسلم بن خالد المخزومي المعروف بالزنجي، قال الحافظ ابن حجر عنه في «التقريب»: فقيه صدوق كثير الأوهام، وذكره ابن كثير في التفسير من رواية ابن جرير وابن أبي حاتم، وقال: تفرد به مسلم بن خالد الزنجي، ورواه عنه غير واحد، وقد تكلم فيه بعض الأئمة رحمة الله عليهم، والله أعلم. ورواه الترمذي في «سننه» ١٥٨/٢ وفي سننه جعفر بن عبد الله بن نجيع، قال الحافظ ابن حجر عنه في «التقريب»: ضعيف. وأورده السيوطي في «الدر» ٦٧/٦، وزاد نسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، والطبراني في «الأوسط»، والبيهقي في «الدلائل» عن أبي هريرة ﷺ. وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٥٢: رواه الترمذي، وابن حبان، والحاكم، والطبري، وابن أبي حاتم وغيرهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة، وله طرق عنه وعن غيره. ورواه البخاري في «صحيحه» ٤٩٢/٨، ومسلم ١٩٧٢/٤ بسبب نزول سورة (الجمعة)، ولفظه عند مسلم: عن أبي هريرة ﷺ قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نزلت سورة (الجمعة) فلما قرأ: ﴿وَتَاخَّرَ يَتَنَّهُمْ كَتَا يَلْعَنُوا يَوْمَ﴾ قال رجل: مَنْ هؤلاء يا رسول الله؟ فلم يراجعه النبي ﷺ حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثاً، قال: وفيها سلمان الفارسي، قال: فوضع النبي ﷺ يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لثاله رجال من هؤلاء» قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: وفي بعض طرق الحديث عند أبي نعيم عن أبي هريرة أن ذلك كان عند نزول قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ قال: ويحتمل أن يكون ذلك صدر عند نزول كل من الآيتين (بريد آية سورة «الجمعة» وآية سورة «محمد»). اهـ. والحديث رواه مسلم في «صحيحه» دون سبب النزول عن أبي هريرة بلفظ: «لو كان الذين عند الثريا للهب به رجل من فارس (أو قال: من أبناء فارس) حتى يتناولوه». ورواه أحمد في «المستد» عن أبي هريرة بلفظ: «لو كان العلم معلقاً بالثريا لتناولوه ناس من أولاد فارس» وفي سننه شهر بن حوشب، وهو صدوق كثير الإرسال والأوهام كما قال عنه الحافظ ابن حجر في «التقريب».

(٣) قال ابن جرير الطبري: وقوله تعالى ذكره: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: وإن تتولّوا أيها الناس عن هذا الدين الذي جاءكم به محمد ﷺ فترتدّوا راجعين عنه ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، يقول: يهلككم، ثم يجيء بقوم آخرين غيركم بدلاً منكم، يصدّقون به، ويعملون بشرائعه ﴿فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ لَكُمْ عُدَاوَةٌ﴾، يقول: ثم لا يبخلوا بما أمروا به من النفقة في سبيل الله، ولا يضيّعون شيئاً من حدود دينهم، ولكنهم يقومون بذلك كله على ما يؤمرون به. اهـ.

سورة الفتح

وهي مدنيّة كُلُّهَا بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكْبِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَفْهَرَّ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ۚ وَبِئْسَ مِثْقَالُ مَن يُضْمِرُ عَلَيْكَ وَهْدِيكَ مِرْكَبًا مُّشْتَرِكًا ۝﴾ وَنُفِّرَكَ اللَّهُ نَفْرًا عَزِيزًا ﴿١﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ...﴾ [الآية] سبب نزولها أنه لما نزل قوله: ﴿وَمَا آدْرَى مَا يَفْعَلُ بِِي وَلَا يَهْدِي﴾ [الحافات: ٩] قال اليهود: كيف نتبع رجلاً لا يهدي ما يفعل به؟ فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، رواه عطاء عن ابن عباس^(١). وفي المراد بالفتح أربعة أقول: أحدها: أنه كان يوم الحديبية، قاله الأكثرون. قال البراء بن عازب: نحن نمُدُّ الفتح بيعة الرضوان^(٢). وقال الشعبي: وهو فتح الحديبية، غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، وأطعموا نخل خيبر، وبلغ الهديّ محلّه، وظهرت الروم على فارس، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس. قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكّن الإسلام في قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير وكثر بهم سواد الإسلام. قال مجاهد: يعني بالفتح ما قضى الله له من نجر الهديّ بالحديبية وحلّق رأسه. وقال ابن قتيبة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾ أي: قَضَيْنَا لك قضاءً عظيمًا، ويقال للقاضي: الفُتّاح. قال الفراء: والفتح قد يكون صلحًا، ويكون أخذ الشيء عتوةً، ويكون بالقتال. وقال غيره: معنى الفتح في اللغة: فتح المغلق، والصلح الذي يجعل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً متعلّداً حتى فتحه الله تعالى.

الإشارة إلى قصة الحديبية^(٣)

روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ رأى في النّوم كأن قائلًا يقول [له]: لَتَدْخُلَنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين، فأصبح فحدث الناس برؤياه، وأمرهم بالخروج للعمرة^(٤)؛ فذكر أهل العلم بالسيرة أنه خرج واستنفر أصحابه للعمرة،

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢١٧ من رواية عطاء عن ابن عباس بدون سند.

(٢) روى البخاري في «صحيحه» ٣٤٠/٧ عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «تعدّون أتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نمُدُّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية». وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: قوله: «ونحن نمُدُّ الفتح بيعة الرضوان» يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾ قال: وهذا موضع وقع فيه اختلاف قديم، والتحقيق أنه يختلف ذلك باختلاف المراد من الآيات، فقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾ المراد بالفتح هنا: الحديبية، لأنها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين، لما ترتّب على الصلح الذي وقع منه الأمن ووقع الحرب، وتمكّن من يخشى الدخول في الإسلام والوصول إلى المدينة من ذلك، كما وقع لحالك بن الوليد، وعمرو بن العاص، وغيرهما، ثم تبعته الأسباب بعضها بعضاً إلى أن كمل الفتح. ثم قال: وأما قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَأَكْتَفَمْنَا كَتَمًا قَرِيبًا﴾ فالمراد بها فتح خيبر على الصحيح، لأنها هي التي وقعت فيها المغنم الكثيرة للمسلمين، قال: وقد روى أحمد وأبو داود والحاكم من حديث مجمع بن جارية قال: شهدنا الحديبية، فلما انصرفنا وجدنا رسول الله ﷺ واقفاً عند كراع الغميم وقد جمع الناس قرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾... الآية، فقال رجل: يا رسول الله، أو فتح هو؟ قال: «أَيُّ والذي نفسي بيده إنه الفتح»، ثم قسمت خيبر على أهل الحديبية، قال: وروى سعيد بن منصور بإسناد صحيح عن الشعبي في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾ قال: صلح الحديبية، وغفر له ما تقدم وما تأخر، وتباعدوا بيعة الرضوان، وأطعموا نخل خيبر، وظهرت الروم على فارس، وفرح المسلمون بنصر الله. قال: وأما قوله تعالى: ﴿فَتَمَكَّنَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ فالمراد الحديبية. وأما قول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾ وقوله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح» فالمراد به فتح مكة باتفاق، قال: فهذا يرتفع الإشكال وتجتمع الأقوال بعون الله تعالى. اهـ.

(٣) الحُدَيْبِيَّةُ: قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت ببر عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها، أو بشجرة حذباء كانت في ذلك الموضع، وبين الحديبية ومكة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل.

(٤) قال الواحدي: قال المفسرون: إن الله سبحانه أرى نبيه ﷺ في المدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية كأنه هو وأصحابه حلّقوا وقصّروا، فأخبر بذلك «

وذلك في سنة ست، ولم يخرج بسلام إلا السيوف في القُرْب. وساق هو وأصحابه البُذَن، فصلى الظهر به «ذي الحليفة»، ثم دعا بالبُذَن فُجِّلَتْ، ثم أشعرها وقُلِّدْها، وفعل ذلك أصحابه، وأحرم ولبي، فبلغ المشركين خروجه، فاجتمع رأيهم على صده عن المسجد الحرام، وخرجوا حتى عسكروا به «بُلْدَح»^(١)، وقَدَّمُوا مائتي فارس إلى كُرَاع الغميم، وسار رسول الله ﷺ حتى دنا من الحديدية؛ قال الزجاج: وهي بئر، فسُمِّي المكان باسم البئر؛ قالوا: وبين مكة تسعة أميال، فوقفت يَدَا راحلته، فقال المسلمون: حَلَّ حَلَّ^(٢) يَزْجُرُونَهَا، فَأَبَتْ، فقالوا: خَلَّاتِ الْقَضَاءُ^(٣) - وَالْخَلَاءُ فِي النَّاقَةِ مِثْلُ الْجِرَانِ فِي الْفَرَسِ - فقال: «مَا خَلَّاتُ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ، أَمَا وَاللَّهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً فِيهَا تَعْظِيمُ حُرْمَةِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»، ثم جَرَّهَا فقامت، فوَلَّى راجعاً عَوْدَهُ عَلَى بَذْنِهِ حَتَّى نَزَلَ عَلَى تَمَدٍّ مِنْ أُمْدَادِ الْحَدِيدِيَّةِ قَلِيلِ الْمَاءِ^(٤)، فانتزع سهماً من كنانته فغرز فيه، فجاشت لهم بالرَّوَاءِ^(٥)، وجاءه بُذَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ فِي رَكْبٍ فَسَلَّمُوا وَقَالُوا: جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ قَوْمِكَ وَقَدْ اسْتَفَرُّوا لَكَ الْأَحَابِيشَ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، يُقْسِمُونَ، لَا يُخْلُونُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْبَيْتِ حَتَّى تُبَيِّدَ خَضْرَاءَهُمْ^(٦)، فقال رسول الله ﷺ: «لَمْ نَأْتِ لِقَاتِ أَحَدٍ إِنَّمَا جِئْنَا لِنَطُوفَ بِهَذَا الْبَيْتِ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتِلُنَا»، فَرَجَعَ [بِدَيْلٍ] فَأَخْبَرَ قَرِشاً، فَبِعَثُوا عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ، فَكَلَّمَهُ بِنَحْوِ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَ قَرِشاً، فقالوا: نَرُدُّهُ مِنْ عَامِنَا هَذَا، وَيَرْجِعُ مِنْ قَابِلٍ فَيَدْخُلَ مَكَةَ وَيَطُوفَ بِالْبَيْتِ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ، قَالَ: «اذْهَبْ إِلَى قَرِشٍ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّا لَمْ نَأْتِ لِقَاتِ أَحَدٍ وَإِنَّمَا جِئْنَا زُوراً لِهَذَا الْبَيْتِ»، معناه الهدي ننحره وننصرف، فَأَتَاهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ، فقالوا: لَا كَانَ هَذَا أَبَداً، وَلَا يَدْخُلُهَا الْعَامَ، وَيَلْعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ عِثْمَانَ قَدْ قُتِلَ، فقال: «لَا تَبْرَحْ حَتَّى تُنَاجِزَهُمْ»، فذاك حين دعا المسلمين إلى بيعة الرضوان، فبايعهم تحت الشجرة^(٧). وفي عددهم يومئذ أربعة أقوال: أحدها: ألف وأربعمائة، قاله البراء، وسلمة بن الأكوع، وجابر، ومعل بن يسار. والثاني: ألف وخمسمائة، روي عن جابر أيضاً، وبه قال قتادة. والثالث: ألف وخمسمائة وخمس وعشرون، رواه العوفي عن ابن عباس. والرابع: ألف وثلاثمائة، قاله عبد الله بن أبي أوفى. قال: وَضَرَبَ يَوْمَئِذٍ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسِمَالِهِ عَلَى يَمِينِهِ لِعِثْمَانَ، وَقَالَ: إِنَّهُ ذَهَبَ فِي حَاجَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَجَعَلَتْ الرُّسُلُ تَخْتَلِفُ بَيْنَهُمْ، فَاجْمَعُوا عَلَى الصُّلْحِ، فَبِعَثُوا سَهِيلَ بْنَ عَمْرٍو فِي عِدَّةِ رِجَالٍ، فَصَالَحَهُ كَمَا ذَكَرْنَا فِي [إِبْرَاهِيمَ] ١٧، فَأَقَامَ بِالْحَدِيدِيَّةِ بَضْعَةَ عَشْرَ يَوْماً، وَيُقَالُ: عَشْرِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمَّا كَانَ بِـ «صَحْجَانَ»^(٨) نَزَلَ عَلَيْهِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، فقال جبريل: يَهَيْئْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهَنَاهُ الْمُسْلِمُونَ. والقول الثاني: أَنَّ هَذَا الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَةَ، رَوَاهُ مَسْرُوقٌ عَنْ عَائِشَةَ، وَبِهِ قَالَ السَّيِّدِي. وَقَالَ بَعْضُ مَنْ ذَهَبَ إِلَى هَذَا: إِنَّمَا وُعِدَ بَفَتْحِ مَكَةَ بِهَذِهِ الْآيَةِ. والثالث: أَنَّهُ فَتَحَ خَبِيرَ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَالْعُوفِيُّ وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ كَالْقَوْلَيْنِ. والرابع: أَنَّهُ الْقَضَاءُ لَهُ بِالْإِسْلَامِ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ. وَقَالَ غَيْرُهُ: حَكَمْنَا لَكَ بِإِظْهَارِ دِينِكَ وَالتُّصْرَةِ عَلَى عَدُوِّكَ.

= أصحابه، ففرحوا وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم ذاك، فلما رجعوا من الحديدية ولم يدخلوها مكة، فقال المنافقون: والله ما حلقتنا، ولا قُصِّرْنَا، وَلَا دَخَلْنَا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، فَأَنَزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ. اهـ.

- (١) قال في «معجم البلدان»: «بلدح»: آخره حاء مهملة والدال قبله: وإد قبل مكة من جهة المغرب.
- (٢) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: «حل حل، بفتح المهملة وسكون اللام: كلمة يقال للثقة إذا تركت الشئ. قال الخطابي: إن قلت: «حل» واحدة، فالسكون، وإن أعدتها، نُزِّتٌ في الأولى، وسُكِّنَتْ في الثانية. قال: حكى غيره السكون فيها والتونين، كنظيره في: «بيح بيح» يقال: خَلَّحْتُ فَلَانًا: إِذَا أَرْجَعْتَهُ عَنْ مَوْضِعِهِ. اهـ.
- (٣) قال الحافظ ابن حجر: القصواء، بفتح القاف بعدها مهملة ومدّ: اسم ناقة رسول الله ﷺ، وزعم الداودي أنها كانت لا تسبق، فقيل لها: القصواء، لأنها بلغت من السبق أقصاء.
- (٤) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: التمدّ: حفيرة فيها ماء مثمود، أي قليل، قال: وقوله: قليل الماء، تأكيد لدفع توهم أن يراد لغة من يقول: إن التمد: الماء الكثير. قال: وقيل: التمد: ما يظهر من الماء في الشتاء ويذهب في الصيف.
- (٥) قال في «اللسان»: وماء زواء، ممدود مفتوح الراء، أي: غذب.
- (٦) قال في «اللسان»: وقولهم: أباد الله خضراءهم، أي سوادهم ومُغْظَمَهُمْ.
- (٧) حديث قصة الحديدية، ذكره أهل السُّنَنِ، وهو في «مسند أحمد» و«صحيح البخاري» وأبي داود، والنسائي، وابن جرير، وغيرهم مختصراً ومطولاً، بالفاظ مختلفة، وانظر «صحيح البخاري» ٢٤١/٥، ٣٤٨/٧، و«البداية والنهاية» لابن كثير ١٧٣/٤، و«الدر المنثور» ٧٦/٦، وتفسير ابن كثير ١٩٤/٤.
- (٨) قال في «معجم البلدان»: صَحْجَان: جبل بناحية تهامة.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ ذِكْرُ السَّوْءِ﴾^(١) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: بضم السين؛ والباقون: بفتحها.
قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أي: ذلك الودع بإدخالهم الجنة وتكفير سيئاتهم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: في حكمه ﴿قَوْرًا عَظِيمًا﴾ لهم؛ والمعنى: أنه حكم لهم بالفوز، فلذلك وعدمه إدخال الجنة.
قوله تعالى: ﴿الطَّاغُوتِ بِاللَّهِ طَرَفَ السَّوْءِ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنهم ظنوا أن الله شريكاً. والثاني: أن الله لا ينصر محمداً وأصحابه. والثالث: أنهم ظنوا به حين خرج إلى الحديبية أنه سيقتل أو يُهْزَم ولا يعود ظافراً. والرابع: أنهم ظنوا أنهم رسول الله ﷺ بمنزلة واحدة عند الله. والخامس: ظنوا أن الله لا يبعث الموتى. وقد بينا معنى «دائرة السوء» في [براءة: ٩٨]. وما بعد هذا قد سبق بيانه [الفتح: ٤، الأحزاب: ٤٥] إلى قوله: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «لَيُؤْمِنُوا» بالياء «وَيُعْزَرُوهُ وَيُوقِرُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ» كلهن بالياء؛ والباقون: بالتاء؛ على معنى: قل لهم: إنا أرسلناك، لتؤمنوا. وقرأ علي بن أبي طالب: وابن السميع: «وَيُعْزَرُوهُ» بزاءين. وقد ذكرنا في [الأعراف: ١٥٧] معنى «وَيُعْزَرُوهُ» عند قوله: ﴿وَعَزَّزُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتُؤَقِّرُوهُ﴾ أي: يعظموه ويبجلوه. واختار كثير من القراء الوقف هاهنا، لاختلاف الكناية فيه وفيما بعده.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَيُجَنَّبُوكُمُوهُ﴾ هذه الهاء ترجع إلى الله ﷻ^(٢). والمراد بتسييحه هاهنا: الصلاة له. قال المفسرون: والمراد بصلاة البكرة: الفجر، وبصلاة الأصل: باقي الصلوات الخمس.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَلَدِيكَ يَأْبَعُونَكَ﴾ يعني ببيعة الرضوان بالحديبية. وعلى ماذا بايعوه؟ فيه قولان: أحدهما: أنهم بايعوه على الموت، قاله عبادة بن الصامت. والثاني: على أن لا يفروا، قاله جابر بن عبد الله. ومعناها متقارب، لأنه أراد: على أن لا تفروا ولو متهم. وسميت بيعة، لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة، وكان العقد مع رسول الله ﷺ، فكانهم بايعوا الله ﷻ، لأنه ضمن لهم الجنة بوفائهم. ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: يد الله في الوفاء فوق أيديهم. والثاني: يد الله في الثواب فوق أيديهم. والثالث: يد الله عليهم في المنة بالهداية فوق أيديهم بالطاعة، ذكر هذه الأقوال الزجاج. والرابع: قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم، ذكره ابن جرير، وابن كيسان.

قوله تعالى: ﴿تَمَنَّى تَكُنْ﴾ أي: تنقض ما عقده من هذه البيعة ﴿فَإِنَّمَا يَنْتَكُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: يرجع ذلك النقص عليه ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ﴾^(٣) من البيعة ﴿سَيُؤْتِيهِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبان عن عاصم: «فسنؤتيه» بالنون. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: بالياء ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو الجنة. قال ابن السائب: فلم ينتك العهد منهم غير رجل واحد يقال له: الجذ بن قيس، وكان منافقاً^(٤).

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلَتِنَاهُمْ تَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قَلْ فَمَنْ يَبْلُغُكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(٥) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَذُكِرَتْ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ طَرَفَ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾^(٦) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾^(٧) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَتَغَفَّرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَمِزْجُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٨)

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قال ابن إسحاق: لما أراد العمرة استنفر من حوز المدينة من أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه، خوفاً من قومه أن يعرضوا له بحرب أو بضد، فتناقل عنه كثير منهم، فهم الذين

(١) هذه الفقرة من الآية الكريمة تمت لقوله تعالى: ﴿الطَّاغُوتِ بِاللَّهِ طَرَفَ السَّوْءِ﴾ الذي سيأتي بعد قليل، وكان حق المؤلف أن يذكرها في محلها، ولعله ذكرها هنا ليتكلم عن الخلاف في قراءتها فقط، لأنه لم يرد أن يفسرها في محلها حيث قال: وقد بينا معنى «ذِكْرُ السَّوْءِ» في [براءة].

(٢) وذكر ابن جرير عن قتادة أن في بعض القراءات: «وَيُسَبِّحُوا الله بكرة وأصيلاً».

(٣) قال الألوسي في «روح المعاني»: قرأ الجمهور «عليه» بكسر الهاء كما هو الشائع، وضمها حفص هنا. ثم قال: وحسن الضم في الآية، للتوصل به إلى تخفيف لفظ الجلالة الملائم لتخفيف أمر العهد المشعر به الكلام. اهـ.

(٤) ونقل الزمخشري في «الكشاف» نحوه عن جابر بن عبد الله ﷺ، والذي في «صحيح مسلم» ١٤٨٣-٨٤ عن جابر: فبايعناه، غير جذ بن قيس اختبأ تحت بطن بعيره. ولأبي يعلى: بايعناه كلنا إلا الجذ بن قيس، فإنه اختبأ تحت بطن بعيره، فهذا ليس فيه أنه بايع ونكت، بل فيه أنه لم يبايع أصلاً.

عن الله بقوله: ﴿سَبِّحُوا لِلَّهِ الْمَخْلُوقِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾، قال أبو صالح [عن ابن عباس]: وهم غفار ومزينة وجهينة وأشجع والدليل وأسلم. قال يونس النحوي: الدليل في عبد القيس ساكن الباء. والدلول من حنيفة ساكن الواو، والدليل في كنانة رهط أبي الأسود الدؤلي^(١). فأما المخلفون، فإنهم تخلّفوا مخافة القتل. ﴿سَقَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَقْلَوْنَا﴾ أي: خِفْنَا عليهم الضئيلة ﴿فَأَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ أي: ادْعُ [الله] أَنْ يَغْفِرَ لَنَا تَخَلُّفَنَا عَنْكَ ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ما يباليون استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ بِرَأْسِ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرْبًا﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «ضَرْبًا» بضم الصاد؛ والباقون: بالفتح. قال أبو علي: «الضَرْبُ» بالفتح: خلاف النفع، وبالضم: سوء الحال، ويجوز أن يكونا لغتين كالْفَقْرُ والفقر، وذلك أنهم ظنوا أن تخلّفهم يدفع عنهم الضَّرَّ، ويعجل لهم النفع بسلامة أنفسهم وأموالهم، فأخبرهم الله تعالى أنه إذا أراد بهم شيئاً، لم يقدّر أحد على دفعه [عنهم]، ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَمَلُّونَ خَبِيرًا﴾ من تخلّفهم وقولهم عن المسلمين أنهم سيهلكون، وذلك قوله: ﴿بَلْ لَنْتَمَّ﴾ أي: توهمتم ﴿أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَيْكُمْ﴾ أي لا يرجعون إلى المدينة، لاستئصال العدو إناهم، ﴿وَرَبُّكَ فَالِقَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وذلك من تزيين الشيطان.

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ قد ذكرناه في [الفرقان: ١٨]. ﴿سَبِّحُوا لِلَّهِ الْمَخْلُوقِينَ إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ مِنْ مَكَائِلِكُمْ لَتَأْخُذُوا بِهِمْ دَرُوبَكُمْ تَنَبَّعَكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُسْأَلُوا عَنْكُمْ اللَّهُ﴾ قال لَنْ تَنَبَّعُوا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَبِّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: ﴿سَبِّحُوا لِلَّهِ الْمَخْلُوقِينَ﴾ الذين تخلّفوا عن الحديبية ﴿إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ مِنْ مَكَائِلِكُمْ﴾ وذلك أنهم لما انصرفوا عن الحديبية بالصلح وعذّبهم الله ففتح خيبر، وخصّ بها من شهد الحديبية فانطلقوا إليها، فقال هؤلاء المخلفون: ﴿دَرُوبَكُمْ تَنَبَّعَكُمْ﴾، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُسْأَلُوا عَنْكُمْ اللَّهُ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «أَنْ» ببدلوا كليم الله بكسر اللام. وفي المعنى قولان: أحدهما: أنه مواعيد الله بغنيمة خيبر لأهل الحديبية خاصة، قاله ابن عباس. والثاني: أمر الله نبيه أن لا يسير معه منهم أحد، وذلك أن الله وعده وهو بالحديبية أن يفتح عليه خيبر، ونهاه أن يسير معه أحد من المتخلفين، قاله مقاتل. وعلى القولين: قصدوا أن يجيز لهم رسول الله ﷺ ما يخالف أمر الله، فيكون تبديلاً لأمره.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ فيه قولان. أحدهما: قال: إن غنائم خيبر لمن شهد الحديبية، وهذا على القول الأول. والثاني: قال: لن تنبئونا، وهذا قول مقاتل. ﴿فَسَبِّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ﴾ أي: يمنعكم الحسد من أن تُصيب معكم الغنائم.

﴿قُلْ لِلْمُتَّقِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرَةٌ إِنْ قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ لَنُغْنِيَنَّهُمْ أَوْ يُسَلِّتُوهُ فَإِنْ تَطَبَّعُوا بِقُوتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يَمْذِبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سِتْرَةٌ إِنْ قَوْمٍ﴾ المعنى: إن كنتم تريدون الغزو والغنيمة فستدعون إلى جهاد قوم ﴿أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾. وفي هؤلاء القوم ستة أقوال: أحدها: أنهم فارس، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال عطاء بن أبي رباح، وعطاء الخراساني، وابن أبي ليلى، وابن جريج في آخرين. والثاني: فارس والروم، قاله الحسن، ورواه ابن أبي نجيح عن مجاهد. والثالث: أنهم أهل الأوثان، رواه ليث عن مجاهد. والرابع: أنهم الروم، قاله كعب. والخامس: أنهم هوازن وغطفان، وذلك يوم حنين، قاله سعيد بن جبير، وقناة. والسادس: بنو حنيفة يوم اليمامة، وهم أصحاب مسيلمة الكذاب، قاله الزهري، وابن السائب، ومقاتل^(٢). قال مقاتل: خلافة أبي بكر في هذه بيئة مؤكدة. وقال رافع بن خديج: كنا نقرأ هذه الآية ولا نعلم من هم حتى دُعِيَ أبو بكر إلى قتال بني حنيفة، فعلمنا أنهم هم. وقال بعض أهل

(١) قال أبو العباس المبرد: الدؤلي مضمومة الدال مفتوحة الواو من الدليل بضم الدال وكسر الباء: وهو فاية.

(٢) قال ابن كثير: اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم، الذين هم أولي بأس شديد على أقوال، ثم قال: وعن مجاهد: هم رجال أولو بأس شديد، قال: ولم يبين فرقة، وبه يقول ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير. اهـ.

العلم: لا يجوز أن تكون هذه الآية إلا في العرب، لقوله: ﴿فَتَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوا﴾، وفارس والروم إنما يقاتلون حتى يُسلموا أو يؤدوا الجزية. وقد استدلل جماعة من العلماء على صحة إمامة أبي بكر وعمر بهذه الآية، لأنه إن أريد بها بنو حنيفة، فأبو بكر دعا إلى قتالهم، وإن أريد بها فارس والروم، فعمرو دعا إلى قتالهم، والآية تلزمهم اتباع طاعة من يدعوه، وتتوعددهم على التخلف بالعقاب. قال القاضي أبو يعلى: وهذا يدل على صحة إمامتهما إذا كان المتولي عن طاعتهما مستحقاً للعقاب^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنْ تُطِيعُوا﴾ قال ابن جريج: فإن طيعوا أبا بكر وعمر، ﴿وَلَنْ تَنَازِلُوا﴾ عن طاعتهما ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن طاعة محمد ﷺ في المسير إلى الحديبية. وقال الزجاج: المعنى: إن تُبتم وتركتم نفاقكم وجهادكم، يؤتكم الله أجراً حسناً، وإن تولَّيتم فأتتكم على نفاقكم، وأعرضتم عن الإيمان والجهاد كما تولَّيتم على عهد رسول الله ﷺ يعذبكم عذاباً أليماً^(٢).

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ قال المفسرون: عذر الله أهل الزمانة الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية^(٣).

قوله تعالى: ﴿يَذِخُّكَ جَنَّاتُ﴾^(٤) قرأ نافع، وابن عامر: ﴿فَذِخُّكَ﴾ و«تُذِيبُهُ» بالنون فيهما؛ والباقون: بالياء.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَنَازِلَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(٥) وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَنَازِلَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾^(٦) وَأَخْرَجَ لَكُمْ نَقِيرًا عَلَيْهِمَا فَذَاحَاكَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿وَلَوْ فَتَنَّاكَ لِلدِّينِ لَكُنَّا لَوَلَا الْأَذَى ثُمَّ لَا يُحْدِثُكَ وَيَا وَلَا يُغِيرُ﴾^(٧) سُبْحَةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿وَمَنْ أَلَدَّى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَانِ نَكَّةٍ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾^(٨)

ثم ذكر الذين أخلصوا نيتهم وشهدوا ببيعة الرضوان بقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقد ذكرنا سبب هذه البيعة آنفاً. وإنما سميت بيعة الرضوان، لقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ روى إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه، قال: بينما نحن قائلون زمن الحديبية، نادى منادى رسول الله ﷺ: أيها الناس، البيعة، البيعة، نزل روح القدس، قال: فثرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمره، فبايعناه^(٩). وقال عبد الله بن مغفل: كان رسول الله ﷺ تحت الشجرة يبيع الناس، وإني لأرفع أغصانها عن رأسه^(١٠). وقال بكير بن الأشج: كانت الشجرة بفتح نحو مكة^(١١). قال نافع: كان الناس يأتون تلك الشجرة فيصلون عندها، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فأوعدهم فيها، وأمر بها فقطعت^(١٢).

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿فَتَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوا﴾ يعني شرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم، ولكم النصرة عليهم، أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار.

(٢) قال ابن كثير: ﴿إِنْ تُطِيعُوا﴾ أي تستجبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه ﴿يَذِخُّكُمْ اللَّهُ ابْرَ حَسَنًا وَلَنْ تُنَازِلُوا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ بَيْنَ قَبْلُ﴾ يعني زمن الحديبية حيث دعيتهم فتخلفتم ﴿يَذِخُّكُمْ مَعَاذَ أَلِيمًا﴾.

(٣) قال ابن كثير: ذكر تعالى الأعداء في ترك الجهاد، فمنها لازم كالمعى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطرا أياً ما ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعداء اللازمة حتى يبرأ. اهـ.

(٤) والآية بنماهما: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَذِخْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ مَوْلَاهُ فَلَا أَلِيمًا﴾ وذلك ترغيب في الجهاد وطاعة الله ورسوله، وأن من نكل عن الجهاد وأقبل على المعاش يعذبه عذاباً أليماً في الدنيا بالملأة، وفي الآخرة بالنار.

(٥) رواه ابن جرير الطبري ٨٦/٢٦ وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف، وعند مسلم ١٤٨٦/٣ من حديث مولى سلمة بن الأكوع قال: قلت لسلمة: على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت. والسمر: وزان زجل وسيع: شجر الطلع، وهو نوع من الغضاء، الواحدة: سمره.

(٦) رواه الطبري ٩٣/٢٦، ٩٤ وإسناده حسن، وهو في مسلم ١٤٨٥/٣ بمعناه من حديث مغفل بن يسار.

(٧) رواه الطبري: ٨٦/٢٦ عن بكير بن الأشج أنه بلغه أن الناس بايعوا رسول الله ﷺ على الموت، فقال رسول الله ﷺ: «هل ما استطعتم» والشجرة التي ببيع تحتها بفتح نحو مكة.

(٨) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٣٤٥/٧ رواه ابن سعد بإسناد صحيح.

قوله تعالى: ﴿فَلَيْمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من الصدق والوفاء، والمعنى: عَلِمَ أَنَّهُمْ مُخْلِصُونَ ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني الظُّمَانِيَّةَ والرُّضَى حتى بايعوا على أن يقاتلوا ولا يَفِرُّوا ﴿وَأَنبِئَهُمْ﴾ أي: عَوَّضَهُمْ عَلَى الرُّضَى بِقَضَائِهِ وَالصَّبْرَ عَلَى أَمْرِهِ ﴿فَتَمَّ قَوْلُ بَيْعِهِ﴾ وهو خير، ﴿وَمَعَانِدَ كَثِيرَةٍ يَأْخُذُونَهَا﴾ أي: من خير، لأنها كانت ذات عقار وأموال. فأمَّا قوله بعد هذا: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانِدَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُونَهَا﴾ فقال المفسرون: هي الفتوح التي تُفْتَحُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ﴿فَمَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها غنيمة خير، قاله مجاهد، وقناة، والجمهور. والثاني: أنه الصِّلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش، رواه العوفي عن ابن عباس^(١).

قوله تعالى: ﴿كَذَكَ أَيُّيَ النَّاسِ عَنَكُمْ﴾ فيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود همُّوا أن يغتالوا عيال المسلمين الذين خلفوهم في المدينة، فكفَّهم الله عن ذلك، قاله قتادة. والثاني: أنهم أسد وغطفان جاؤوا لينصروا أهل خير، فقذَّبَ الله في قلوبهم الرُّعْبَ، فانصرفوا عنهم، قاله مقاتل. وقال الفراء: كانت أسد وغطفان [مع أهل خير، فقصدهم رسول الله ﷺ فصالحوه وخلَّوا بينه وبين خير. وقال غيرهما: بل هُمَّتْ أسد وغطفان] باغتيال [أهل] المدينة، فكفَّهم الله عن ذلك. والثالث: أنهم أهل مكة كفَّهم الله بالصِّلح، حكاهما الثعلبي وغيره. ففي قوله: «عنكم» قولان: أحدهما: أنه على أصله، قاله الأكثرون. والثاني: عن عيالكم، قاله ابن قتيبة، وهو مقتضى قول قتادة. ﴿وَلَسَكُونُ مَأْبَأَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في المشار إليها قولان: أحدهما: أنها الفعلة التي فَعَلَهَا بكم من كَفَّ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ كَانَتْ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَتَوَلَّى حِرَاسَتَهُمْ فِي مَشْهَدِهِمْ وَمَعْيِهِمْ. والثاني: أنها خير كان فتحها علامةً للمؤمنين في تصديق رسول الله ﷺ فيما وعدهم به.

قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ فيه قولان: أحدهما: طريق التوكل عليه والتفويض إليه، وهذا على القول الأول. والثاني: يَزِيدُكُمْ هُدًى بِالتَّصَدِيقِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فيما جاء به من وعد الله تعالى بالفتح والغنيمة.

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى﴾ المعنى: وعدكم الله مَغَانِمَ أُخْرَى؛ وفيها أربعة أقوال: أحدها: أنها ما فُتِحَ لِلْمُسْلِمِينَ بَعْدَ ذَلِكَ. روى سماك الحنفي عن ابن عباس ﴿وَأُخْرَى لَرَّ نَقَرُوا عَلَيْهَا﴾ قال: ما فتح لكم من هذه الفتوح، وبه قال مجاهد. والثاني: أنها خير، رواه عطية، والضحاك عن ابن عباس، وبه قال ابن زيد. والثالث: فارس والروم، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال الحسن، وعبد الرحمن بن أبي ليلى. والرابع: مكة، ذكره قتادة، وابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ حَاطَ اللَّهُ بِكُمْ بَيْعًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أحاط بها علماً أنها ستكون من فتوحكم. والثاني: حَفِظَهَا لَكُمْ وَمَنَعَهَا مِنْ غَيْرِكُمْ حَتَّى فَتَحْتُمُوهَا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا لَكُمُ الْيَمِينَ كَفْرًا﴾ هذا خطاب لأهل الحديبية، قاله قتادة؛ والذين كفروا مشركو قريش. فعلى هذا يكون المعنى: لو قاتلوكم يَوْمَ الْحَدِيبَةِ ﴿لَوَلَوْ أَلْدَبَرْنَا﴾ إما في قلوبهم من الرُّعْبِ ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوكَ وَيَتَّكُونَ﴾ لأن الله قد خذلهم. قال الزجاج: المعنى: لو قاتلك من لم يقاتلك لَنُصِرْتَ عَلَيْهِ، لأن سُنَّةَ اللَّهِ النُّصْرَةَ لأوليائه. و﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ منصوبة على المصدر، لأن قوله: ﴿لَوَلَوْ أَلْدَبَرْنَا﴾ معناه: سَنَّ اللَّهُ ﷻ خِذْلَانَهُمْ سُنَّةً. وقد مرَّ ومثْلُ هذا في قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، وقوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٨٨].

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا أَلْزَى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ روى أنس بن مالك أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غِرَّةً^(٢) النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سِلْماً^(٣)، فاستحياهم، وأنزل الله

(١) قال ابن جرير: وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب ما قاله مجاهد، وهو أن الذي أتاهم الله من مسيرهم ذلك مع الفتح القريب: المغانم الكثيرة من مغانم خير، وذلك أن المسلمين لم يفتحوا بعد الحديبية غنيمة، ولم يفتحوا فتحاً أقرب من بيعتهم رسول الله ﷺ بالحديبية إليها من فتح خير وغنائمها. اهـ.

(٢) الغِرَّة: هي الغفلة، أي: يريدون أن يصادفوا منه ومن أصحابه غفلة عن التأهب لهم ليمكثوا من غدرهم والفتك بهم.

(٣) قال الإمام النووي في «شرح مسلم» ١٨٧/١٢: «سِلْماً» ضبطه بوجهين: أحدهما: سَلَمًا، والثاني: سَلْمًا، قال الحميدي: ومعناه: الصلح. قال القاضي في «المشارق»: هكذا ضبطه الأكثرون، قال فيه وفي الشرح: والرواية الأولى أظهر. والمعنى: أسرمهم. والسلام: الأسر. وجزم الخطابي بفتح اللام والسین، قال: والمراد به: الاستسلام والإذعان، كقوله تعالى: ﴿وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ النَّاسُ﴾ أي: الانقياد، وهو مصدر يقع على الواحد والاثنتين.

هذه الآية^(١). وروى عبد الله بن مغفل قال: كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة، فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله بأبصارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «هل جنتم في عهد؟» أو «هل جعل لكم أحد أماناً؟» قالوا: اللهم لا، فخلّى سبيلهم، ونزلت هذه الآية^(٢). وذكر قتادة أن رسول الله ﷺ بعث خيلاً، فأتوه بانثي عشر فارساً من الكفار، فأرسلهم^(٣)، وقال مقاتل: خرجوا يقاتلون رسول الله ﷺ، فهزمهم النبي ﷺ بالطعن والنبل حتى أدخلهم بيوت مكة. قال المفسرون: ومعنى الآية: إن الله تعالى ذكره منته إذ حجز بين الفريقين فلم يقتل حتى تم الصلح بينهم. وفي بطن مكة ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحديبية، قاله أنس. والثاني: وادي مكة، قاله السدي. والثالث: التنعيم، حكاه أبو سليمان الدمشقي. فأما «مكة» فقال الزجاج: «مكة» لا تنصرف لأنها مؤنثة، وهي معرفة، ويصلح أن يكون اشتقاقها كاشتقاق «بكة»، والميم يُبدل من الباء، يُقال: ضربة لازم، ولا زب، ويصلح أن يكون اشتقاقها من قولهم: ائمتك الفصيل ما في ضرع الناقة: إذا مَصَّ مَصّاً شديداً حتى لا يبق في شئنا، فيكون سمي بذلك لشدّة الازدحام فيها؛ قال: والقول الأول أحسن. وقال قطرب: مكة من تَمَكَّكْتُ المَحَّ: إذا أكلته. وقال ابن فارس: تَمَكَّكْتُ العظم: إذا أخرجت مُحَّه؛ والتمكك: الاستقصاء؛ وفي الحديث: «لا تُمَكِّكُوا على غُرمانكم»^(٤). وفي تسمية «مكة» أربعة أقوال: أحدها: لأنها مثابة يؤمها الخلق من كل فج، وكأنها هي التي تجذبهم إليها، وذلك من قول العرب: ائمتك الفصيل ما في ضرع الناقة. والثاني: أنها سُميت (مكة) من قولك: بَكَكْتُ الرجل: إذا وضعت منه وَرَدَدْتَ نَحْوَهُ^(٥)، فكانها تَمَكُّ من ظلم فيها، أي: تُهلكه وتُنْقِصه، وأنشدوا: يا مَكَّةُ، الفاجر مُكِّي مَكَّا ولا تُكِّي مَذْجَجاً وَعَكَّا^(٦)

والثالث: [أنها] سُميت بذلك لجهد أهلها. والرابع: لِقَلَّةِ الماء بها. وهل مكة وبكة واحد؟ قد ذكنا في (آل عمران: ٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ أَنْ تَنْفِرَ عَنْهُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بهم؛ يقال: ظَفِرْتُ بفلان، وظَفِرْتُ عليه.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ قرأ أبو عمرو: [يعملون] بالياء؛ والباقون: بالتاء.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَى مَعَكُوا أَنْ يَبْلُغَ إِلَيْكُمْ يَوْمَهُمْ وَأَنْ تَكُونُوا مِنْهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَرَّةٌ يَوْمَ يَخْلُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَمَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ اللَّيْمَةَ حِيَةً لِلْإِيمَانِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني أهل مكة ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أن تطوفوا به وتحلوا من غمرتكم ﴿وَالْمَدَى﴾ قال الزجاج: أي: وصدوا الهدي ﴿مَعَكُوا﴾ أي: محبوساً ﴿أَنْ يَبْلُغَ﴾ أي: عن أن يبلغ ﴿يَوْمَهُمْ﴾ قال المفسرون: «محلّه» منخره، وهو حيث يجلب نخره ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾ وهم المستضعفون بمكة ﴿لَوْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي: لم تعرفوهم ﴿أَنْ تَكُونُوا مِنْهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَرَّةٌ﴾ بالقتل. ومعنى الآية: لولا أن تطوفوا رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات بالقتل، وتوقعوا بهم ولا تعرفونهم، ﴿فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَرَّةٌ﴾ وفيها أربعة أقوال: أحدها: إثم، قاله ابن زيد. والثاني: غرم

= والجمع، قال ابن الأثير: هذا هو الأشبه بالقصة، فإنهم لم يؤخذوا صلحاً، وإنما أخذوا قهراً، وأسلموا أنفسهم عجزاً، قال: وللقول الآخر وجه، وهو أنه لما لم يجر معهم قتال، بل عجزوا عن دفعهم والنجاة منهم، فرضوا بالأسر، فكانهم قد صولحوا على ذلك. اهـ.

(١) رواء مسلم ١٤٤٢/٣، والطبري ٩٤/٢٦، وذكره السيوطي في «الدرر» ٧٥/٦، وزاد نسبه لأحمد، وعبد بن حديد، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن أنس بن مالك ؓ.

(٢) رواء الطبري ٩٤/٢٦ وإسناده حسن، والحاكم ٤٦٠/٢، وصححه، والواحد في «أسباب النزول» ٢١٨، وذكره السيوطي في «الدرر» ٧٨/٦، وزاد نسبه لأحمد، والنسائي، وأبي نعيم في «الدلائل»، وابن مردويه، عن عبد الله بن مغفل ؓ.

(٣) «الطبري» ٩٤/٢٦ وهو مرسل، وذكره السيوطي في «الدرر» ٧٥/٦، وزاد نسبه لعبد بن حميد عن قتادة.

(٤) هذا الحديث ذكره ابن الأثير في «النهاية» في غريب الحديث، ولم نره في كتب الحديث.

(٥) كانت العبارة في الأصل هكذا (مَكَّكْتُ الرجل: إذا أردت نخوته) وقد صوبناها كما ترى نقلاً عن المصنف كما مر سابقاً عن البيهقي وقطرب، ومن كتب اللغة.

(٦) الرجز غير منسوب في «اللسان» و«التاج»: مكك.

الدِّية، قاله ابن إسحاق. والثالث: كفارة قتل الخطأ، قاله ابن السائب. والرابع: عيب بقتل مَنْ هو على دينكم، حكاة جماعة من المفسرين. وفي الآية محذوف، تقديره: لأدخلتكم من عامكم هذا؛ وإنما حُلَّتْ بينكم وبينهم ﴿لِيُبْدِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي: في دينه ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من أهل مكة، وهم الذين أسلموا بعد الصُّلح ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ قال ابن عباس: لو تفرَّقوا. وقال ابن قتيبة، والزجاج: لو تميَّزوا. قال المفسرون: لو انماز المؤمنون من المشركين ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والسَّيِّئ بأيديكم. وقال قوم: لو تزيَّل المؤمنون من أصلاب الكُفَّار لعَذَّبْنَا الكفار. وقال بعضهم: قوله: «لَعَذَّبْنَا» جواب لكلامين: أحدهما: «لولا رجال»، والثاني: «لو تزيَّلوا»، وقوله: ﴿إِذْ جَعَلْنَا﴾ من صلة قوله: «لَعَذَّبْنَا». والحمية: الأتفة والجبرية. قال المفسرون: وإنما أخذتهم الحمية حين أراد رسول الله ﷺ دخول مكة، فقالوا: يدخلون علينا [وقد قتلوا] أبناءنا وإخواننا فتحدث العرب بذلك والله لا يكون ذلك، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلم يدخلهم ما دخل أولئك فيخالفوا الله في قتالهم. وقيل: الحمية ما تداخل سهيل بن عمرو من الأتفة أن يكتب في كتاب الصُّلح ذُكر «الرحمن الرحيم» وذُكر «رسول الله ﷺ».

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ كَلِمَةً تَنْقُذُ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: «لا إله إلا الله»، قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، والسدي، وابن زيد في آخرين، وقد روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ^(١)؛ فعلى هذا يكون معنى: «الزَّمِيم» حَكَمَ لهم بها، وهي التي تنفي الشُّرك. والثاني: «لا إله إلا الله والله أكبر»، قاله ابن عمر. وعن علي بن أبي طالب كالقولين. والثالث: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»، قاله عطاء بن أبي رباح. والرابع: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، قاله عطاء الخراساني. والخامس: «بسم الله الرحمن الرحيم» قاله الزهري. فعلى هذا يكون المعنى أنه لما أبى المشركون أن يكتبوا هذا في كتاب الصُّلح، ألزمه الله المؤمنين ﴿وَكُنَّا لَأَعْيُنَ بَنِي﴾ من المشركين ﴿و﴾ كانوا «أهلها» في علم الله تعالى.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ مَائِمِينَ لَئِيْلَينَ رُءُوسُكُمْ وَمَقْرَصَينَ لَا تَخَافُونَ قَوْمَ مَا لَمْ تَمْلِكُوا فَمَعَلَمٍ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَمَّا قَرِيباً ﴿٧٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكُنَّا لِلَّهِ شَهِيداً ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبَا بِالْحَقِّ﴾ قال المفسرون: سبب نزلها أن رسول الله ﷺ كان أري في المنام قبل خروجه إلى الحديبية قائلاً يقول له: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ ورأى كأنه هو وأصحابه يدخلون مكة وقد حلقوا وقصروا، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، فلما خرجوا إلى الحديبية حسبوا أنهم يدخلون مكة في عامهم ذلك، فلما رجعوا ولم يدخلوا قال المنافقون: أين رؤياه التي رأى؟! فنزلت هذه الآية^(٢)، فدخلوا في العام المقبل. وفي قوله: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ ستة أقوال: أحدها: أن «إن» بمعنى «إذ»، قاله أبو عبيدة، وابن

(١) روى الترمذي في مسته ١٥٩ قال: حدثنا الحسن بن قزعة البصري، حدثنا سفيان بن حبيب عن شعبة عن ثور بن أبي فاخنة عن أبيه عن الطفيل بن أبي كعب عن أبيه عن النبي ﷺ: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ كَلِمَةً تَنْقُذُ﴾ قال: «لا إله إلا الله» قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسن بن قزعة، قال: وسألت أبا زرعة عن هذا الحديث فلم يعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه. اهـ. وثور بن أبي فاخنة ضعيف، ورواه الطبري ٢٦/ ١٠٤ بنفس السند، وذكره السيوطي في «الدر» ٨٠/ ٦ وزاد نسبه لعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند»، والبارقطني في «الأفراد»، وابن مردويه، والبيهقي في «الأسماء والصفات»، عن أبي بن كعب مرفوعاً، وذكر السيوطي أيضاً من رواية ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً، ومن رواية ابن مردويه عن سلمة بن الأكوع مرفوعاً.

(٢) روى سبب النزول هذا البغوي والخازن هكلاً بغير سند. ورواه الطبري ٢٦/ ١٠٧ من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبَا بِالْحَقِّ﴾ إلى آخر الآية، قال: قال لهم النبي ﷺ: «إني قد رأيت أئكم ستدخلون المسجد الحرام محللين رؤوسكم ومقصرين»، فلما نزل بالحديبية، ولم يدخل ذلك العام، طعن المنافقون في ذلك فقالوا: أين رؤياه؟ فقال الله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبَا بِالْحَقِّ﴾ فقرأ حتى بلغ «وَيَنْقُضِينَ لَئِيْلَينَ» إني لم أره يدخلها هذا العام، وليكن ذلك.

وروى الطبري أيضاً من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: ﴿الرُّبَا بِالْحَقِّ﴾ قال: أري بالحديبية أنه يدخل مكة وأصحابه محللين، فقال أصحابه حين نحر بالحديبية: أين رؤيا محمد ﷺ. وذكره السيوطي في «الدر» ٨٠/ ٦ وزاد نسبه للقرطبي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي في «الدلائل» عن مجاهد.

قتية. والثاني: أنه استثناء من الله، وقد علمه، والخلق يستنون فيما لا يعلمون، قاله ثعلب؛ فعلى هذا يكون المعنى أنه علم أنهم سيدخلونه، ولكن استثنى على ما أمر الخلق به من الاستثناء. والثالث: أن المعنى: لتدخلن المسجد الحرام إن أمركم الله به، قاله الزجاج. والرابع: أن الاستثناء يعود إلى دخول بعضهم أو جميعهم، لأنه علم أن بعضهم يموت، حكاه الماوردي. والخامس: أنه على وجه الحكاية لما رآه النبي ﷺ في المنام أن قائلاً يقول: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَا بَيْنَكُمْ﴾، حكاه القاضي أبو يعلى. والسادس: أنه يعود إلى الأمن والخوف، فأما الدخول، فلا شك فيه، حكاه الثعلبي^(١).

قوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَكُمْ مِنَ الْعَدُوِّ﴾. ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ من الشعر^(٢) ﴿لَا تَقَاتُوا﴾ عدواً. ﴿تَقْلِمَ مَا لَمْ تَمْلِكُوا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: علم أن الصلاح في الصلح. والثاني: أن في تأخير الدخول صلاحاً. والثالث: فعلم أن يفتح عليكم خير قبل ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَتَمَكِّنْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ قَتَاً قَرِيباً﴾ فيه قولان: أحدهما: فتح خيبر، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال عطاء، وابن زيد، ومقاتل. والثاني: صلح الحديبية، قاله مجاهد، والزهري، وابن إسحاق. وقد بينا كيف كان فتحاً في أول السورة. وما بعد هذا مفسر في [براء: ٣٣] إلى قوله^(٣): ﴿وَكُنْ يَأْتِيهِ شَهِيداً﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه شهيد له على نفسه أنه يظهره على الدين كله، قاله الحسن. والثاني: كفى به شهيداً أن محمداً رسولاً، قاله مقاتل.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سَاجِدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَاهُ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزَجٍ أُخْرِجَ شَقْلُهُمْ فَتَارَهُ فَاسْتَقْلَطُوا فَاسْتَوَى عَلَى سَوْفِهِ يَجْمَعُ الزَّوْجَ لِيُخَيِّطَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَقْفَرَةً وَاجْعَلْ عَظِيمًا﴾^(٤)

قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وقرأ الشعبي، وأبو رجاء، وأبو المتوكل، والجحدري: «محمداً رسول الله» بالنصب فيها. قال ابن عباس: شهد له بالرئاسة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ يعني أصحابه، والأشداء: جمع شديد. قال الزجاج: والأصل: أشيداء، نحو نصيب وأنصاء، ولكن الدالّين تحركتا، فأدغمت الأولى في الثانية، [ومثله] «مَنْ يَرْتَدَّ يَنْكُرُ» [المائدة: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ الرُّحَمَاءُ جمع رحيم، والمعنى أنهم يُغْلِظُونَ على الكفار، ويتواذون بينهم^(٥) ﴿تَرَاهُمْ رُكَّامًا سَاجِدًا﴾ يَصِفُ كَثْرَةَ صَلَاتِهِمْ ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ﴾ وهو الجنة ﴿وَرِضْوَانًا﴾ وهو رضا الله عنهم. وهذا الوصف لجميع الصحابة عند الجمهور^(٦) وروى المبارك بن فضالة عن الحسن البصري أنه قال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أبو بكر ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ عمر ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ عثمان ﴿تَرَاهُمْ رُكَّامًا سَاجِدًا﴾ علي بن أبي طالب ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ طلحة والزبير

(١) قال ابن كثير: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء.

(٢) قال ابن كثير: وقوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ حال مقدرة، لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلّقين ومقصرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال، كان منهم من حلق رأسه، ومنهم من قصره. اهـ. وقد روى مسلم في «صحيحه» ٩٤٦/٢ عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر للمحلّقين» قالوا: يا رسول الله! وللمقصرين، قال: «اللهم اغفر للمحلّقين» قالوا: يا رسول الله! وللمقصرين، قال: «وللمقصرين».

(٣) قال ابن كثير: ﴿تَقْلِمَ مَا لَمْ تَمْلِكُوا﴾ أي: فعلم الله ﷻ من خيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿فَتَمَكِّنْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أي: قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ ﴿قَتَاً قَرِيباً﴾ وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين. اهـ.

(٤) قال ابن كثير: وهذه صفة المؤمنين، أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار رحيماً براً بالأخيار، غضوباً عسوفاً في وجه الكافر، ضحكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قِيلَ لَكُمُ الْكُفْرُ الَّذِي كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ بِهِ أَكْبَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتُمْ تُكْفِرُونَ بِهِ﴾ [النور: ٢٩] وقال النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في توافيقهم وتزاميمهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداهى له سائر الجسد بالحمى والسهر» وقال ﷺ: «والؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشك ﷺ بين أصابعه، قال: وكلا الحديثين في الصحيح.

(٥) قال ابن كثير: وقوله سبحانه وتعالى: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّامًا سَاجِدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله ﷻ، والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب وهو الجنة المشتملة على فضل الله ﷻ، وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم، وهو أكبر من الأول، كما قال جل وعلا: ﴿وَرِضْوَانٌ لَكُمُ اللَّهُ أَكْبَرُ﴾. اهـ.

وعبد الرحمن وسعد وسعيد وأبو عبيدة^(١).

قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ﴾ أي: علامتهم ﴿فِي وُجُوهِهِمْ﴾، وهل هذه العلامة في الدنيا، أم في الآخرة؟ فيه قولان: أحدهما: في الدنيا. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها السُّنَمُ الحسن، قاله ابن عباس في رواية ابن أبي طلحة؛ وقال في رواية مجاهد: أما إنه ليس بالذي ترون، ولكنه سيما الإسلام وَسُمُّهُ وَخُشُوعُهُ، وكذلك قال مجاهد: ليس يَنْدَبُ التراب في الوجه، ولكنه الخُشُوعُ والوقار والتواضع. والثاني: أنه نَدَى الظُّهُور وترى الأرض، قاله سعيد بن جبيرة. وقال أبو العالية: لأنهم يسجدون على التراب لا على الأثواب. وقال الأوزاعي: بلغني أنه ما حَمَلَتْ جباههم من الأرض. والثالث: أنه السُّهُوم^(٢)، فإذا سهم وجه الرجل من الليل أصبح مُصَفَّارًا. قال الحسن البصري: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾: الصُّفْرَةُ؛ وقال سعيد بن جبيرة: أثر السهر؛ وقال شمر بن عطية: وهو تَهْيِيجُ في الوجه من سهر الليل. والقول الثاني: أنها في الآخرة^(٣). ثم فيه قولان: أحدهما: أن مواضع السجود من وجوههم يكون أشدَّ وجوههم بياضاً يوم القيامة، قاله عطية العوفي، وإلى نحو هذا ذهب الحسن، والزهري. وروى العوفي عن ابن عباس قال: صلاتهم تبدو في وجوههم يوم القيامة. والثاني: أنهم يُعْيَثُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ من أثر الظُّهُور^(٤)، ذكره الزجاج.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ﴾ أي: صِفَتُهُمْ؛ والمعنى أن صفة محمد ﷺ وأصحابه ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ هذا. فاما قوله: ﴿وَنُكِّلَ فِي الْإِنجِيلِ﴾ ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن هذا المَثَلُ المذكور أنه في التوراة هو مَثَلُهُمْ في الإنجيل. قال مجاهد: مَثَلُهُمْ في التوراة والإنجيل واحد. والثاني: أن المتقدم مَثَلُهُمْ في التوراة فاما مَثَلُهُمْ في الإنجيل فهو قوله: ﴿كَزَرَ﴾، وهذا قول الضحَّاك، وابن زيد^(٥). والثالث: أن مَثَلُهُمْ في التوراة والإنجيل كزَرَ، ذكره هذه الأقوال أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَجَ سَقَمَهُمْ﴾ وقرأ ابن كثير، وابن عامر: «سَقَطَاهُ» بفتح الطاء والهمزة. وقرأ نافع، وعاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «سَقَطَاهُ» بسكون الطاء. وكلهم يقرأ بهمزة مفتوحة. وقرأ أبيُّ بن كعب، وأبو العالية، وابن أبي عبله: «سَقَطَاهُ» بفتح الطاء [وبالمد] والهمزة وبالف. قال أبو عبيدة: أي: فراخه يقال: أَشْطَا الزَّرْعُ فهو مُشْطِيٌّ؛ إذا فَرَخَ ﴿فَنَزَرَهُ﴾ أي: ساواه، وصار مثل الأم. وقرأ ابن عامر: «فَأَزَرَهُ» مقصورة الهمزة مثل فَعَلَهُ. وقال ابن قتيبة: آزره: أعانه وقواه ﴿فَأَسْتَقَلَّ﴾ أي: غَلَطَ ﴿فَأَسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ وهي جمع «ساق»، وهذا مَثَلُ ضربه الله ﷻ للنبي ﷺ إذ خرج وحده، فأيد به أصحابه، كما قَوَّى الطَّاقَةَ من الزَّرْع بما نبت منها حتى كَثُرَتْ^(٦) وَغَلَطَتْ واستحكمت. وقرأ ابن كثير: «على سُوقِهِ» مهموزة؛ والباقون: بلا همزة. وقال قتادة: في الإنجيل: سَيَخْرُجُ قَوْمٌ يَنْبُتُونَ نَبَاتَ الزَّرْعِ^(٧). وفيمن أريد بهذا المَثَلُ قولان: أحدهما: أن أصل الزَّرْع: عبد المطلب ﴿أَفَرَجَ سَقَمَهُ﴾: أخرج محمداً ﷺ ﴿فَنَزَرَهُ﴾: بأبي بكر ﴿فَأَسْتَقَلَّ﴾: بعمر ﴿فَأَسْتَوَى﴾: بعثمان ﴿عَلَى سُوقِهِ﴾: علي بن طالب، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس^(٨). والثاني: أن المراد بالزَّرْع:

(١) اللغة لا تحتل هذا التأويل، وليس مع الحسن نقل يثبت عن رسول الله ﷺ. ومبارك بن فضالة الراوي عن الحسن موصوف بالتلipsis.

(٢) قال في «اللسان»: الشَّهَامُ والشَّهَامُ: الشَّعْرُ وتغير اللون وذُيُوبُ الشَّفَتَيْنِ. سَهَمٌ، بالفتح، يَسْتَهَمُ شَهَامًا وشَهَامًا، وسَهْمٌ أيضاً، بالضم، يَسْتَهَمُ شَهَامًا فيهما، وسَهْمٌ يَسْتَهَمُ، فهو سَهْمٌ: إذا ضَمُرَ.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك الصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبرنا أن سيما هؤلاء القوم الذي وصف صفتهم في وجوههم من أثر السجود، قال: ولم يخص ذلك على وقت دون وقت، قال: وإذا كان ذلك كذلك، فذلك على كل الأوقات، فكان سيماهم الذي كانوا يعرفون به في الدنيا أثر الإسلام، وذلك خشوعه وهدية وهدى وَسُمُّهُ وآثار أداء فرائضه وتلوّعه، وفي الآخرة ما أخبر أنهم يعرفون به، وذلك الثَّغْرَةُ في الوجه، والتجليل في الأيدي والأرجل من أثر الوضوء وبياض الوجوه من أثر السجود. اهـ.

(٤) روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أمي يأتون يوم القيامة غُرًّا مُحَجَّلِينَ من أثر الوضوء» والنظ لمسلم.

(٥) وهو الذي اختار ابن جرير الطبري وابن كثير وغيرهما.

(٦) قال ابن كثير: أي: فكل ذلك أصحاب رسول الله ﷺ آزره وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطط مع الزرع.

(٨) هنا تأويل بعيد، وليس تفسيراً لظاهر لفظ القرآن، وقد ذكر مثل هذا المعنى السيوطي في «الدر» ٨٣/٦ من رواية ابن مردويه، والخطيب، وابن عسَّار عن ابن عباس، والله أعلم بصحته، وكذلك الخبر الذي بعد هذا من رواية الضحَّاك عن ابن عباس، ومبارك عن الحسن، والأولى في ذلك أن يكون هذا مثلاً لأصحاب رسول الله ﷺ في الإنجيل على العموم، ولا شك أن هؤلاء أفضل من غيرهم، فهم داخلون بطريق الأولى.

محمد^(١) ﷺ «أَفْرَجَ سَقَطَهُ»: أبو بكر «فَأَزْدَهُ»: بعمر «فَأَسْتَقَلَّطَهُ»: بعثمان «فَأَسْتَوَى عَلَى سَوْفِهِ»: بعلي. «يَتَجَبَّبُ الرَّزَاقُ»: يعني المؤمنين «يَغِيظُ بِهِمُ الْكُفَّارُ» وهو قول عمر لأهل مكة: لا يُعْبَدُ الله سِوَاَ بعد اليوم، رواه الضحاك عن ابن عباس، ومبارك عن الحسن.

قوله تعالى: «يَغِيظُ بِهِمُ الْكُفَّارُ» أي: إِنَّمَا كَثُرَهم وَقَوَّاهُم لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ. وقال مالك بن أنس: من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية. وقال ابن إدريس: لا أَمَرُ أَنْ يَكُونُوا قَدْ ضَارَعُوا الْكُفَّارَ، يعني الرافضة، لأن الله تعالى يقول: «يَغِيظُ بِهِمُ الْكُفَّارُ»^(٢).

قوله تعالى: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا» قال الزجاج: في «مِنْ» قولان: أحدهما: أن يكون تخلصاً للجنس من غيره، كقوله: «فَأَجْزِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ» [الحج: ٣٠]، ومثله أن تقول: أَنْفَقَ مِنَ الدَّرَاهِمِ، أي: اجعل نفقتك من هذا الجنس. قال ابن الأنباري: معنى الآية: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ هَذَا الجنس، أي: من جنس الصحابة. والثاني: أن يكون [هذا] الوَعْدُ لِمَنْ أَقَامَ مِنْهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ^(٣).



(١) في الأصل: «محمدًا».

(٢) ولا يجوز لمسلم أن يظن في الصحابة رضوان الله عليهم، أو يتعرض لهم بسوء، أو يضرهم في قلبه بغضاً لأحد منهم، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدَّ أحدكم ولا تصيفه» وروى مسلم عن أبي بردة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «أصحابي أمة لا متي، فإذا ذهب أصحابي أتاهم ما يوعدون»، أي من الفتن.

(٣) قال ابن كثير في تلمة الآية: «مَغْفِرَةً» أي للذنوبهم «وَأَجْرًا عَظِيمًا» أي ثواباً جزيلاً، ورزقاً كريماً، قال: ووعده الله حقاً وصدق، لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتضى أثر الصحابة ﷺ، فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة ﷺ وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل. اهـ.

سورة الحجرات

وهي مدنيّة بإجماعهم

روى ثوبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله أعطاني السبع الطول»^(١) مكان التوراة، وأعطاني المئين مكان الإنجيل، وأعطاني مكان الزبور المثاني، وفضلني ربّي بالمفضل»^(٢). أما السبع الطول فقد ذكرناها [«عند قوله»]^(٣)؛ «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْكِتَابِ» [الحجر: ٨٧]. وأما المئون، فقال ابن قتيبة: هي ما ولي الطول، وإنما سميت بالمئين، لأن كل سورة تزيد على مائة آية أو تقاربها، والكتاني: ما ولي المئين من السور التي دون المائة، كأن المئين مباد، وهذه مثاني، وأما المفضل، فهو ما يلي المثاني من قصار السور، وإنما سميت مفضلًا لِقصرها وكثرة الفصول فيها بسطر: بسم الله الرحمن الرحيم. وقد ذكر الماوردي في أول «تفسيره» في المفضل ثلاثة أقوال: أحدها: أنه من أول سورة (محمد) إلى آخر القرآن، قاله الأكثرون. والثاني: من سورة (قاف) إلى آخره، حكاه عيسى بن عمر عن كثير من الصحابة. والثالث: من (الضحى) إلى آخره، قاله ابن عباس^(٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّاتِ الْتَمِيزِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْعُدُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ

(١) السبع الطول، بضم الطاء وفتح الواو، جمع «الطولى» مثل «الكبرى» و«الجبرى». قال ابن جرير الطبري: والسبع الطول: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس» في قول سعيد بن جبير، قال: وإنما سميت هذه السور: السبع الطول، لطولها على سائر سور القرآن. اهـ. وقال ابن كثير: قال سعيد ابن جبير: بين فهن الفرائض والحلود والقصص والأحكام، وقال ابن عباس بين الأشال والخبر واليَيز. اهـ.

(٢) أخرجه البيهقي في «التفسير» بإسناد الثعلبي عن ثوبان رضي الله عنه، وفيه ضعف، ورواه أحمد في «المستند» ١٠٧/٤، والطبري ١٠٠/١ عن وثالة بن الأسقع رضي الله عنه من طريق أبي داود الطيالسي عن أبي العوام عن قتادة عن أبي المليح عن وثالة، وإسناده صحيح. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ١٥٨ من حديث وثالة، وقال: رواه أحمد، والطبراني بنحوه.

(٣) زيادة ليست في الأصل.

(٤) قال ابن كثير في أول سورة (ق) هذه السورة هي أول الحزب المفضل، وقيل: من (الحجرات)، قال: وأما ما يقول العوام: إنه من (عم) فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء رضي الله عنهم، فبما تعلم، قال: والدليل على أن هذه السورة (يعني سورة ق) هي أول المفضل، ما رواه أبو داود في «سننه» «باب تحزيب القرآن» ثم قال: حدثنا مسدد، أخبرنا قُرْآن (الأصل: قراب وهو خطأ) ابن تمام - ح - وحدثنا عبد الله بن سعيد أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، ثنا سليمان بن حبان، وهذا لفظه عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى، عن عثمان بن عبد الله بن أوس عن جده، قال عبد الله بن سعيد: حدثني أوس بن حذيفة، ثم اتفقا، قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقف، قال: فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وأنزل رسول الله ﷺ بني مالك في قبّة له، قال مسدد: وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا، قال أبو سعيد: قائماً على رجله حتى يراوح بين رجله من طول القيام، فأكثر ما يحدثنا ﷺ ما لقي من قومه قريش، ثم يقول ﷺ: «لا سواء (في ابن كثير: «لا أساء» وفي «تهذيب السنن» «لا أنسى» وكلاهما خطأ) وكنا مستضعفين مستذلّين، قال مسدد: بمكة - فلما خرجنا إلى المدينة كانت الحرب سجالاً بيننا وبينهم، نذال عليهم، ويذالون علينا، فلما كانت ليلة أبطأ عنا ﷺ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، قلنا: لقد أبطأت علينا الليلة، قال ﷺ: «إنه طرا عليّ حزبي من القرآن، فكهرت أن أجبي» حتى أتته، قال أوس (يعني ابن حذيفة) سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف يحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفضل وحده. قال ابن كثير: رواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي خالد الأحمر به. قال: ورواه الامام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي عن عبد الله بن عبد الرحمن - هو ابن يعلى الطائفي - به. ثم قال ابن كثير: إذا علم هذا، فإذا عدت ثمانياً وأربعين سورة، فالتى بعدهن سورة (ق) بيانه: «ثلاث: البقرة، وآل عمران، والنساء، وخمس: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة. «سبع: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل. «تسع: سبحان، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والتور، والفرقان. «إحدى عشرة: الشعراء، والنمل، والقصص، والمنكبات، والروم، ولقمان، وآكم السجدة، والأحزاب، وسبا، وفاطر، ويس. «ثلاث عشرة: الصافات، وهن، والزمر، وغافر، وحج السجدة، وحج عسق، والمزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، والقتال، والفتح، والحجرات. ثم بعد ذلك الحزب المفضل، كما قاله الصحابة رضي الله عنهم، قال: فتبين أن أوله سورة (ق) وهو الذي قلنا، والله الحمد والمعة. اهـ.

صَوَّرَ النَّبِيُّ وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها: أن رُكْبًا من بني تميم قَدِمُوا على رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: أُمِرُ القَعْقَاعُ بِنِ مَعْبِدٍ، وقال عمر: أُمِرُ الْأَقْرَعُ بِنِ حَابِسٍ، فقال أبو بكر: مَا أَرَدْتُ إِلَّا خِلَافِي، وقال عمر: مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾، فما كان عمر يُسْمِعُ رسولَ الله ﷺ [بعد هذه الآية] حتى يستفهمه، رَوَاهُ عبد الله بن الزبير^(١). والثاني: أن قومًا ذَبَحُوا قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ رسولُ الله ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ، فَأَمَرَهُمْ رسولُ الله ﷺ أَنْ يُعِيدُوا الذَّبْحَ، فنزلت هذه الآية، قاله الحسن^(٢). والثالث: أنها نزلت في قوم كانوا يقولون: لو أنزل الله في كذا وكذا فكَرِهَ الله ذلك، وقَدَّمَ فيه، قاله قتادة^(٣). والرابع: [أنها] نزلت في عمرو بن أمية الضمري، وكان قد قتل رجلين من بني سليم قبل أن يستأذن رسولَ الله ﷺ، قاله ابن السائب^(٤). وروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة^(٥). وروى العوفي عنه قال: نُهِيَ أَنْ يَتَكَلَّمُوا بَيْنَ يَدَيِ كَلَامِهِ^(٦). وروى عن عائشة رضي الله عنها في هذه الآية قالت: لا تصوموا قبل أن يصومَ نبيكم^(٧). ومعنى الآية على جميع الأقوال: لا تعجلوا بقول أو فعل قبل أن يقولَ رسولُ الله ﷺ أو يفعل. قال ابن قتيبة: يقال فلان يُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيِ الإمام وبين يَدَيِ أبيه، أي: يُعَجِّلُ بالأمر والنهي دونه. فأما «تَقَدَّمُوا» فقرأ ابن مسعود، وأبو هريرة، وأبو رزين، وعائشة، وأبو عبد الرحمن السلمي، وعكرمة، والضحاك وابن سيرين، وقاتدة، وابن يعمر، ويعقوب: بفتح التاء والذال؛ وقرأ الباقون: بضم التاء وكسر الذال. قال الفراء: كلاهما صواب، يقال: قَدَّمْتُ، وَتَقَدَّمْتُ؛ وقال الزجاج: كلاهما واحد؛ فأما «بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» فهو عبارة عن الإمام، لأن ما بين يَدَيِ الإنسان أمامه؛ فالمعنى: لا تَقَدَّمُوا قُدَّامَ الْأَمِيرِ.

قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَأُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن أبا بكر وعمر رفعَا أصواتهما فيما ذكرناه آنفًا في حديث ابن الزبير، وهذا قول ابن أبي مليكة^(٨). والثاني: [أنها] نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وكان

(١) رواه البخاري في «صحيحه» ٤٥٤/٨ عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، باب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ما دون قوله: «فما كان عمر يُسْمِعُ رسولَ الله ﷺ حتى يستفهمه» فإنه ذكره في الباب الذي قبله من سورة الحجرات ٤٥٢/٨ باب: ﴿لَا تَقْرَأُوا أَصْوَاتَكُمْ قَوْلَ صَوْتِ النَّبِيِّ...﴾ الآية من حديث ابن أبي مليكة، ثم قال: قال ابن الزبير: فما كان عمر يُسْمِعُ رسولَ الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، يريد بذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَأُوا أَصْوَاتَكُمْ قَوْلَ صَوْتِ النَّبِيِّ...﴾ الآية. والحديث ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢١٨ بسنده، دون قول ابن الزبير: «فما كان عمر يُسْمِعُ رسولَ الله ﷺ حتى يستفهمه» وأورده السيوطي في «الدرر» ٨٣/٦ بنحوه من رواية البخاري، وزاد نسبه لابن المنذر، وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه.

(٢) ذكره الطبري عن الحسن بن سعيد ١١٧/٢٦، وأورده السيوطي في «الدرر» ٨٤/٦ وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر عن الحسن.

(٣) رواه الطبري ١١٧/٢٦ عن قتادة، وذكره السيوطي في «الدرر» ٨٤/٦ وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٤) ذكره الألويسي بمعناه بغير سند ولم يمهز لأحد.

(٥) رواه الطبري ١١٦/٢٦، وذكره السيوطي في «الدرر» ٨٤/٦ وزاد نسبه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبي تميم في «الحلية» عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٦) «الطبري» ١١٦/٢٦، وذكره السيوطي في «الدرر» ٨٤/٦ وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٧) ذكره السيوطي في «الدرر» ٨٤/٦ من رواية الطبراني في «الأوسط» وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها.

(٨) رواه البخاري في «صحيحه» ٤٥٢/٨ باب: ﴿لَا تَقْرَأُوا أَصْوَاتَكُمْ قَوْلَ صَوْتِ النَّبِيِّ...﴾ الآية، من حديث نافع عن ابن أبي مليكة قال: كاذِبُ الْغُبَرَانِ أَنْ يَهْلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رضي الله عنهما، رفعَا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرب بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر بـرجل آخر، قال نافع: لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَأُوا أَصْوَاتَكُمْ...﴾ الآية، قال ابن الزبير: فما كان عمر يُسْمِعُ رسولَ الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه، يعني أبا بكر. اهـ. وفي رواية الترمذي: وما ذكر ابن الزبير جده. وفي رواية الطبري: وما ذكر ابن الزبير جده، يعني أبا بكر. اهـ. والحديث أورده السيوطي في «الدرر» ٨٤/٦ وزاد نسبه لابن المنذر، والطبراني عن ابن أبي مليكة.

جَهْزَرِي الصَّوْت، فربما كان إذا تكلم تأدَّى رسول الله ﷺ بصوته، قاله مقاتل^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن الجهر بالصَّوْت في المخاطبة، قاله الأكثرون. والثاني: لا تَدْعُوهُ باسمه: يا محمد، كما يدعو بعضكم بعضاً، ولكن قولوا: يا رسول الله، ويا نبي الله، وهو معنى قول سعيد بن جبير، والضحاك، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَحْبَطَ﴾ قال ابن قتيبة: لثلاث تحبَط. وقال الأخفش: مَخَافَةُ أَنْ تَحْبَطَ. قال أبو سليمان الدمشقي: وقد قيل معنى الإحباط هاهنا: نقص المَنْزِلَة، لا إسقاط العمل من أصله كما يسقط بالكفر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُفَضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾ قال ابن عباس: لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ تَأَلَّى أَبُو بَكْرٍ أَنْ لَا يَكْلُمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَّا كَأَخِي السَّرَّارَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي بَكْرٍ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُفَضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾، وَالْقَصُّ: النِّقْصُ^(٢) كَمَا بَيَّنَّا عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْشُوا﴾ [النور: ٣٠]. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اتَّخَذَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ قال ابن عباس: أَخْلَصَهَا: أَخْلَصَهَا لِلتَّقْوَى^(٣) مِنَ الْمَعْصِيَةِ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: اخْتَبَر قُلُوبَهُمْ فَوَجَدَهُمْ مُخْلِصِينَ، كَمَا تَقُولُ: قَدْ امْتَحَنَتْ هَذَا الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، أَي: اخْتَبَرْتَهُمَا بِأَنْ أَذْبَنَهُمَا حَتَّى خَلَصَا، فَعَلِمْتَ حَقِيقَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: اخْتَبَرَهَا بِامْتِحَانِهِ إِيَّاهَا، فَاصْطَفَاهَا وَأَخْلَصَهَا لِلتَّقْوَى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَادُونَكَ مِنْ وَدَّكَ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ① وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ②

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَادُونَكَ مِنْ وَدَّكَ الْحُجُرَاتِ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن بني تميم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فنادَوْا عَلَى الْبَابِ: يَا مُحَمَّدُ اخْرُجْ إِلَيْنَا، فَإِنَّ مَذْحَنًا زَيْنَ وَإِنْ دَمْنَا شَيْنَ، فخرج وهو يقول: «إنما ذلكم الله»، فقالوا: نحن ناس من بني تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك، فقال: «ما بالشعر بُعِثْتُ وَلَا بِالْفَخَارِ أُمِرْتُ، وَلَكِنْ هَاتُوا»، فقال الزبيرقان بن بدر لشابٍ منهم: قُمْ فَادْكُرْ فَضْلَكَ وَفَضْلَ قَوْمِكَ، فقام فذكر ذلك، فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس، فأجابه: وقام شاعرهم، فأجابه حسان، فقال الأقرع بن حابس: والله ما أدري ما هذا الأمر؟! تَكَلَّمَ خَطِيبُنَا فَكَانَ خَطِيبُهُمْ أَحْسَنَ قَوْلًا، وَتَكَلَّمَ شَاعِرُنَا فَكَانَ شَاعِرُهُمْ أَشْعَرَ، ثُمَّ دَنَا فَاسْلَمَ، فَأَعْطَاهُم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَسَاهُمْ، وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ وَكَثُرَ اللَّعْطُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، هَذَا قَوْلُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي آخِرِينَ^(٣). وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: نَزَلَتْ فِي جُفَاءِ بَنِي تَمِيمٍ، وَكَانَ فِيهِمُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ، وَعَبِيْنَةُ بْنُ حَصْنٍ، وَالزُّبَيْرِقَانُ بْنُ بَدْرِ، [وقيس بن عاصم المنقرى]، وَخَالِدُ بْنُ مَالِكٍ، وَسُوَيْدُ بْنُ هِشَامٍ، وَهَمَّا نَهْشَلِيَّانِ، وَالْقَعْقَاعُ بْنُ مَعْبُدٍ، وَعُطَاءُ بْنُ حَابِسٍ، وَوَكَيْعُ بْنُ وَكَيْعٍ^(٤). وَالثَّانِي: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ سَرِيَّةً إِلَى بَنِي الْعَنْبَرِ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَيْنَةَ بْنَ حَصْنٍ الْفَزَارِي، فَلَمَّا عَلِمُوا بِذَلِكَ هَرَبُوا وَتَرَكُوا عِيَالَهُمْ، فَسَبَّاهُمْ عَيْنَةُ، فَجَاءَ رَجَالُهُمْ يَتَّقِدُونَ الدَّرَارِي، فَقَدِمُوا وَقْتُ الظَّهِيرَةِ

(١) رَوَاهُ الْوَاحِدِيُّ فِي «أَسْبَابِ النَّزُولِ» ٢١٨ بِغَيْرِ سَنَدٍ، وَلَمْ يَعْزُدهُ لِأَحَدٍ. وَحَدِيثُ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ بْنِ شِمَاسٍ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «مُصَحِّحِهِ» ٤٥٤/٨ مِنْ حَدِيثِ مُوسَى بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اخْتَفَدَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ، فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ جَالِسًا فِي بَيْتِهِ مَتَكِّيًا رَأْسَهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: شَرٌّ، كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَتَى الرَّجُلَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ مُوسَى (يعني ابن أنس) فَرَجَعَ إِلَيْهِ الْمَرَّةَ الْآخِرَةَ بِبَشَارَةِ عَظِيمَةٍ، فَقَالَ: «أَذْهَبَ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ رِوَايَةِ حَمَّادٍ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتِ الْبَنَانِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، وَأَوْرَدَهُ السُّيُوطِيُّ فِي «الدرر» ٨٤/٦ وَزَادَ نَسْبَتَهُ لِأَحْمَدَ، وَأَبِي يَعْلَى فِي «مَعْجَمِ الصَّحَابَةِ» وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَالطَّبْرَانِيُّ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ، وَابْنُ أَبِي عَرَبٍ فِي «الدلائل» عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ.

(٢) ذَكَرَهُ الْوَاحِدِيُّ فِي «أَسْبَابِ النَّزُولِ» ٢١٩ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ بِغَيْرِ سَنَدٍ، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «تَفْخِيرِ الْكُشَافِ»: وَأَخْرَجَهُ الْبَزَّازُ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْتَ أَلَا أَكَلِمَتُكَ إِلَّا كَأَخِي السَّرَّارَ حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ، قَالَ: وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ وَابْنُ أَبِي عَرَبٍ فِي «الْمَدْخَلِ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿الَّذِينَ يُفْشُونَ...﴾ الْآيَةُ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا أَكَلِمَتُكَ إِلَّا كَأَخِي السَّرَّارَ حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ ﷻ، وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ.

(٣) رَوَاهُ الْوَاحِدِيُّ فِي «أَسْبَابِ النَّزُولِ» ٢٢٠ مَطْوَلًا، مِنْ رِوَايَةِ مَعْلَى بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ جَعْفَرٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْحَكَمِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَفِي سَنَدِهِ مَعْلَى بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْوَاسِطِيُّ، ضَعْفُهُ الدَّارِقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُ، وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ: أَرْجُو أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ.

(٤) ذَكَرَهُ الْوَاحِدِيُّ فِي «أَسْبَابِ النَّزُولِ» ٢١٩ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ بِغَيْرِ سَنَدٍ.

ورسولُ الله ﷺ قائل، فجعلوا ينادون يا محمد اخرج إلينا، حتى أيقظوه، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس^(١). والثالث: أن ناساً من العرب قال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبياً نكن أسعد الناس به، وإن يكن ملكاً نعش في جناحه، فجاؤا، فجعلوا ينادون يا محمد، يا محمد، فنزلت هذه الآية، [قاله زيد بن أرقم]^(٢). فأما «الحجرات» فقراً أبي بن كعب، وعائشة، وأبو عبد الرحمن السلمي، ومجاهد، وأبو العالية، وابن يعمر، وأبو جعفر، وشيبة: [بفتح الجيم؛ وأسكنها أبو رزين، وسعيد بن المسيب، وابن أبي عبيدة؛ وضمها الباقر]. قال الفراء: وجه الكلام أن تُضمَّ الحاء والجيم، وبعض العرب يقول: الحُجرات والرُّكبات، وربما خَفَّفوا فقالوا: «الحُجرات»، والتخفيف في تميم، والتثقيف في أهل الحجاز. وقال ابن قتيبة: واحد الحُجرات حُجرة، مثل ظُلْمة وظُلُمات. قال المفسرون: وإنما نادوا من وراء الحُجرات، لأنهم لم يعلموا في أي الحُجَر رسولُ الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ قال الزجاج: أي: لكان الصبر خيراً لهم. وفي وجه كونه خيراً لهم قولان: أحدهما: لكان خيراً لهم فيما قَدِموا له من فداء ذراريهم، فلو صَبَرُوا خَلَّى سَبِيلَهُمْ بِغَيْرِ فِدَاءٍ، قاله مقاتل. والثاني: لكان أحسنَ لآدابهم في طاعة الله ورسوله، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: لمن تاب منهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهْلِكِهِمْ فَتَصِفُوهُمْ عَلَى مَا مُنَعْتُمْ تَدْرِيبًا ۚ﴾ وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُبَيِّنُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنُرْسِلْكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿١٨﴾ فَضَلَّكَ يَزِيدُ اللَّهُ رِزْقَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ نزلت في الوليد بن عتبة، بعثه رسولُ الله ﷺ إلى بني المصطلق لِيَقْبِضَ صدقاتهم، وقد كانت بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فسار بعض الطريق، ثم خاف فرجع فقال: إنهم قد منعوا الصدقة وأرادوا قتلي، فصرف رسولُ الله ﷺ الْبَغْتَ إليهم، فنزلت هذه الآية^(٣). وقد ذكرتُ القصة في كتاب «المُغْنِي» وفي «الحدائق» مستوفاة، وذكرْتُ معنى «تَبَيَّنُوا» في سورة [النساء: ٩٤]، والنِّبَأُ: الخبر، و«أن» بمعنى «لئلا»، والجهالة هاهنا: أن يجهل حال القوم، ﴿فَتَصِفُوهُمْ عَلَى مَا مُنَعْتُمْ﴾ من إصابتهم بالخطأ «تَدْرِيبًا». ثم خوفهم فقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: إن كَذَّبْتُمُوهُ أَخْبَرَهُ اللَّهُ فَاتَّضَحَّتُمْ، ثم قال: ﴿لَوْ يُبَيِّنُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي: مما تخبرونه فيه بالباطل «لَنُرْسِلْكُمْ» أي: لَوْعَنْتُمْ فِي عَنَتٍ. قال ابن قتيبة: وهو الضَّرُّ والفساد. وقال غيره: هو الإثم والهلاك، وذلك أن المسلمين لما سَمِعُوا أن أولئك القوم قد كَفَرُوا قالوا: ابْتَغِ إِلَيْهِمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاغْزِهِمْ وَأَقْتُلْهُمْ؛ ثم خاطب المؤمنين فقال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْعِصْيَانَ﴾، ثم عاد إلى الخبر عنهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي: المَهْتَدُونَ إلى محاسن الأمور، ﴿فَضَلَّكَ يَزِيدُ اللَّهُ رِزْقَهُ﴾ قال الزجاج: المعنى: ففعل بكم ذلك فضلاً أي: للفضل والنعمة.

﴿وَلَن مَّا يَفْتَنَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَتَنَبَّأُوا بِالْبَاطِلِ وَفَتَنَّاكَ فُتْنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۚ﴾ ﴿وَلَن مَّا يَفْتَنَانِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَن مَّا يَفْتَنَانِ...﴾. الآية، في سبب نزولها قولان: أحدهما: ما روى البخاري ومسلم في

(١) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: أخرجه ابن مردويه من رواية إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وهو إسناد تالف.

(٢) رواه الطبري ٢٢٦/١٢١، وذكره السيوطي في «الدرر» ٨٦/٦ وزاد نسبه لابن راهويه، ومسدد، وأبي يعلى، والطبراني، وابن أبي حاتم عن زيد بن أرقم.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢٢٢ بغير سند، ورواه الطبري من حديث أم سلمة، وفي سننه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف، ورواه أحمد في «المسند» من حديث الحارث بن ضرار الخزاعي، قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: رواه ابن إسحاق، والطبراني من حديث أم سلمة، وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف. قال: ونحوه رواه أحمد والطبراني أيضاً من حديث الحارث بن ضرار الخزاعي. وأخرجه ابن مردويه من طريق عبد الله بن عبد القدوس عن الأعمش عن موسى بن المسيب عن سالم بن أبي الجعد عن جابر. قال الحافظ ابن كثير: وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عتبة بن أبي معيط حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق، قال: ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في «مسنده» من رواية مالك بن المصطلق وهو الحارث بن ضرار والد جويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضي الله عنها، ثم قال: وكذا ذكر غير واحد من السلف، منهم ابن أبي ليلى، ويزيد بن رومان، والضحاك، ومقاتل بن حيان وغيرهم في هذه الآية أنها نزلت في الوليد بن عتبة، والله أعلم.

«الصحيحين» من حديث أنس بن مالك قال: قيل لرسول الله ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبي، فركب حماراً وانطلق معه المسلمون يمشون، فلما أتاه النبي ﷺ، قال: إليك عني، فوالله لقد آذاني نكث حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجلاً من قومه، وغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهم ضربٌ بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ...﴾ الآية^(١). وقد أخرجنا جميعاً من حديث أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ خرج يعود سعد بن عباد، فمرَّ بمجلس فيهم عبد الله بن أبي، وعبد الله بن رواحة، فخمَّر ابنُ أبي وجهه بردائه، وقال: لا تغبروا علينا، فذكر الحديث، وأن المسلمين والمشركين واليهود استَبَوُوا^(٢). وقد ذكرت الحديث بطوله في «المغني» والحدائق. وقال مقاتل: وقف رسول الله ﷺ على الأنصار وهو على حمار له، فبال الحمار، فقال عبد الله بن أبي: أف، وأمسك على أنفه، فقال عبد الله بن رواحة: والله لهُوَ أطيب ريحاً منك، فكان بين قوم ابن أبي وابن رواحة ضرب بالنعال والأيدي والسَّعَف، ونزلت هذه الآية. والقول الثاني: أنها نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مُمَاراة في حقِّ بينهما، فقال أحدهما: لَأَخْذَنَّ حَقِّي قَنَوةً، وذلك لكثرة عشيرته، ودعاه الآخر ليحاكمه إلى رسول الله ﷺ، فلم يزل الأمر بينهما حتى تناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال، قاله قتادة^(٣). وقال مجاهد: المراد بالطائفتين: الأوس والخزرج؛ اقتتلوا بالعصي بينهم. وقرأ أبي بن كعب، وابن مسعود، وأبو عمران الجوني: «اقتلا» على فعل اثنين مذكَّرين. وقرأ أبو المتوكل الناجي، وأبو الجون، وابن أبي عبة: «اقتلتنا» بناءً وألف بعد اللام على فعل اثنين مؤنثتين. وقال الحسن وقتادة والسدي «فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا» بالدعاء إلى حكم كتاب الله ﷺ والرضى بما فيه لهما وعليهما ﴿فَإِنْ بَقِيَ لِحَدِيثِهِمَا﴾ طلبت ما ليس لها، ولم ترجع إلى الصلح، «فَقَبِّلُوا آلِي تَيْفٍ حَقَّ نَفْسَةٍ» أي: تَرْجِعْ ﴿إِلَّا أَمَرَ اللَّهُ﴾ أي: إلى طاعته في الصلح الذي أمر به.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمْ وَاسْأَلُوا﴾ أي: اعدلوا في الإصلاح بينهما^(٤).
قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ قال الزجاج: إذا كانوا متفقين في دينهم رجَّعوا باتفاقهم إلى أصل النسب، لأنهم لآدم وحواء، فإذا اختلفت أديانهم افرقوا في النسب^(٥).

قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ قرأ الأكثرون: [بين أخويكم] بياء على الشنية، وقرأ أبي بن كعب، ومعاوية، ومسعود بن المسيب، وابن جبير، [وقتادة]، وأبو العالية، وابن يعمر، وابن أبي عبة، ويعقوب: «بين إخوانكم» بناءً مع كسر الهمزة على الجمع. وقرأ علي بن أبي طالب، وأبو رزين، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، والشعبي، وابن سيرين: «بين إخوانكم» بالنون وألف قبلها. قال قتادة: ويعني بذلك الأوس والخزرج.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحْزَنَ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا يَسَاءُ عَسَىٰ أَن يَكُنْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا تَلْوِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّغَالِبِ يُبْسَ الْإِلَهُمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ اللَّعِينُونَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزَنَ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ هذه الآية نزلت على ثلاثة أسباب؛ فأما أولها إلى قوله تعالى: ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾

(١) رواه البخاري ٢١٨/٥، ومسلم ١٤٢٤/٣، وذكره السيوطي في «الدرر» ٩٠/٦، والحديث رواه أيضاً أحمد في «المسند» وابن جرير الطبري في «التفسير»، وذكره السيوطي في «الدرر» ٩٠/٦، وزاد نسجه لابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه» عن أنس بن مالك ﷺ.

(٢) رواه البخاري ١٧٣/٨، ومسلم ١٤٢٤/٣.

(٣) ذكره السيوطي في «الدرر» ٩٠/٦ من رواية عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة قال: ذكر لنا هذه الآية نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مُمَاراة... الخ.

(٤) وثمة الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُغْتَرِبِينَ﴾ أي: إن الله يحب العادلين في أحكامهم، الفاضلين بين خلقه بالقسط اهـ. وهو العدل، وروى مسلم في «صحيحه» ١٤٥٨/٣ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُقْسَطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكُلُّنَا يَدِيهِ يَمِينٍ. الَّذِينَ يَمْلِكُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَعْلِيهِمْ مَا وُلُّوا».

(٥) قال ابن كثير، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي الجمع إخوة في الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» وفي «الصحيح»: «والله في عون العبد ما كان في عون أخيه» وفي «الصحيح» أيضاً: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين ولك بمثل» والأحاديث في هذا كثيرة. قال: وفي «الصحيح»: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواضعهم كمثل الجسد إذا اشتكى من عضو تلهى له سائر الجسد بالحسنى والسهر». وفي «الصحيح» أيضاً: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه ﷺ. اهـ.

فنزلت على سبب، وفيه قولان: أحدهما: أن ثابت بن قيس بن شماس جاء يوماً يريد الذئب من رسول الله ﷺ، وكان به صمم، فقال لرجل بين يديه: افسح، فقال له الرجل: قد أصبت مجلساً، فجلس مُغَضِّباً، ثم قال للرجل: من أنت؟ قال: أنا فلان. فقال ثابت: أنت ابن فلانة! فذكر أمّا له كان يعيّرها في الجاهلية، فأغضى الرجل ونكس رأسه، ونزل قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، قاله أبو صالح عن ابن عباس^(١). والثاني: أن وفد تميم استهزؤوا بفقراء أصحاب رسول الله ﷺ لما رأوا من رثائه حالهم، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك ومقاتل^(٢). وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ مِّن سَأَلٍ﴾ فنزلت على سبب، وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن نساء رسول الله ﷺ عيّرْنَ أم سلمة بالقصر، فنزلت هذه [الآية]، قاله أنس بن مالك^(٣). وزعم مقاتل أن عائشة استهزأت من قصر أم سلمة. والثاني: أن امرأتين من أزواج رسول الله ﷺ سخرتا من أم سلمة زوج رسول الله ﷺ، وكانت أم سلمة قد خرجت ذات يوم وقد ربطت أحد طرفي جلبابها على حَقْوِها، وأرخت الطرف الآخر خلفها، ولا تعلم، فقالت إحداهما للأخرى: انظري، ما خَلَفَ أم سلمة كأنه لسان كلب، قاله أبو صالح عن ابن عباس^(٤). والثالث: أن صفية بنت حيّ بن أخطب أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن النساء يعيّرُنني ويَقُلْنَ: يا يهودية بنت يهوديين، فقال رسول الله ﷺ: «هَلَا قُلْتُ: إن أبي هارون، وإن عمّي موسى، وإن زوجي محمد» فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس^(٥). وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ فنزلت على سبب، وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن رسول الله ﷺ قَدِمَ المدينة ولهم الألقاب يُدْعَوْنَ بها، فجعل الرجل يدعو الرجل بلقبه، فقيل له: يا رسول الله: إنهم يكرهون هذا، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، قاله أبو جيرة بن الضحاك^(٦). والثاني: أن أبا ذر كان بينه وبين رجل منازعة، فقال له الرجل: يا ابن اليهودية، فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، قاله الحسن. والثالث: أن كعب بن مالك الأنصاري كان بينه وبين عبد الله بن أبي حلدرد الأسلمي كلام، فقال له: يا أعرابي، فقال له عبد الله: يا يهودي، فنزلت فيهما ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ قاله مقاتل. وأما التفسير، فقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ أي: لا يستهزئ غنيّ بفقر، ولا مستور عليه ذنبه بمن لم يُسَرَّ عليه، ولا ذو حَسَبٍ بليثم الحَسَبِ، وأشياء ذلك ممّا ينتقصه به، عسى أن يكون عند الله خيراً [منه]. وقد بيّنا في [البقرة: ٥٤] أن القوم اسم الرجال دون النساء، ولذلك قال: ﴿وَلَا يَسْأَلُ مِّن سَأَلٍ﴾ و«تَلْمِزُوا» بمعنى تعييبوا، وقد سبق بيانه [التوبة: ٥٨]. والمراد بالأنفُس هاهنا: الإخوان. والمعنى: لا تعييبوا إخوانكم من المسلمين لأنهم كأنفسكم. والتنابر: التفاعل من التَبَرَّ، وهو مصدر، والتَبَرَّ الاسم. والألقاب جمع لقب، وهو اسم يُدعى به الإنسان سوى الاسم الذي سُمِّيَ به. قال ابن قتيبة: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: لا تتداعروا بها. و«الألقاب» و«الأنباز» واحد، ومنه الحديث: «تَبَرُّهُمُ الرافضة» أي: لقبهم^(٧). وللمفسرين في المراد بهذه الألقاب أربعة أقوال: أحدها: تعيير التائب بسِيئَاتٍ قد كان عملها، رواه عطية العوفي عن ابن عباس^(٨). والثاني: أنه تسميته بعد إسلامه بدينه قبل الإسلام، كقوله

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢٢٣ بغير سند ولم يعزه لأحد. وذكره البغوي والخازن عن ابن عباس بدون سند. وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: ذكره العلبي ومن تبعه عن ابن عباس بغير سند.

(٢) ذكر البغوي والخازن عن الضحاك بغير سند. وأورده السيوطي في «الدر» ٩١/٦ من رواية ابن أبي حاتم عن مقاتل.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» عن أنس بن مالك بغير سند، وكذلك البغوي والخازن.

(٤) ذكره الآلوسي بغير سند ولم يعزه لأحد.

(٥) ذكره البغوي والخازن في «التفسير»، والواحدي في «أسباب النزول» عن عكرمة عن ابن عباس بلا سند.

(٦) رَوَاهُ الترمذي ١٥٩/٢ وقال: حديث حسن، ورواه الطبري ١٣٢/١٦، والواحدي في «أسباب النزول»، وأورده السيوطي في «الدر» ٩١/٦ وزاد نسبة لأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في «الأدب المفرد»، والنسائي، وابن ماجه، وأبي يعلى، وابن المنذر، والبغوي في «معجمه»، وابن حبان، والشيخاني في «الألقاب»، والطبراني، وابن السني في «صلى اليوم والليلة»، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي جيرة بن الضحاك.

(٧) قال ابن قتيبة في «غريب القرآن»: ومن قيل في الحديث: «قوم تَبَرُّهُمُ الرافضة» أي لقبهم، قال الفقيه شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي في مقدمة كتابه «الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة». أخرج الدارقطني عن علي عن النبي ﷺ: «سَيِّئِي من بعدي قوم لهم نَبَزٌ يقال لهم: الرافضة». الحديث، ولم نَعثر عليه، والله أعلم بصحته.

(٨) «الطبري» ١٣٣/٢٦.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بَعْضُ الْأَقْلَىٰ أَتَرَىٰ﴾ قال المفسرون: هو ما تكلم به مما ظنّه من السوء بأخيه المسلم، فإن لم يتكلم به فلا بأس، وذهب بعضهم إلى أنه يائم بنفس ذلك الظن وإن لم ينطق به.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّوْا﴾ وقرأ أبو رزین، والحسن، والضحاك، وابن سيرين، وأبو رجاء، وابن يعمر: بالحاء. قال أبو عبيدة: التجسس والتجسس واحد، وهو التُّبُّحُثُ، ومنه الجاسوس. وروى عن يحيى بن أبي كثير أنه قال: التجسس، بالجيم: البحث عن عورات الناس، وبالحاء: الاستماع لحديث القوم. قال المفسرون: التجسس: البحث عن عيب المسلمين وعوراتهم؛ فالمعنى: لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه ليطلع عليه إذ ستره الله. وقيل لابن مسعود: هذا الوليد بن عتبة تقطر لحيته خمرًا، فقال: إنا نُهينَا عن التجسس، فإن يظهر لنا شيء نأخذ به.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّبِعْ أَتْسُكُم بَعْضًا﴾ أي: لا يتناول بعضكم بعضاً بظُهر الغَيْبِ بما يَسُوؤه. وقد روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ سئل ما الغيبة؟ قال: «ذَكَرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ». قال: «أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ». قال: «إِنْ كَانَ فِي أَخِيكَ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَيْبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَهُ»^(١). ثم صَرَّبَ الله للغيبة مثلاً، فقال: «أَيُّهُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا» وقرأ نافع «مَيْتًا» بالتشديد. قال الزجاج: وبيانه أن ذَكَرَكَ بسوء مَنْ لَمْ يَخْضُرْ، بمنزلة أكل لحمه وهو ميت لا يُحْسَرُ بذلك. قال القاضي أبو يعلى: وهذا تأكيد لتحريم الغيبة، لأن أكل لحم المسلم محظور، ولأن النفوس تعافه من طريق الطَّبع، فينبغي أن تكون الغيبة بمنزلته في الكراهة.

قوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ وقرأ الضحاك، وعاصم الجحدري: «فَكَرِهْتُمُوهُ» برفع الكاف وتشديد الراء. قال الفراء: أي: وقد كرهتموه فلا تفعلوه، ومن قرأ «فَكَرِهْتُمُوهُ» أي: فقد بُغِضَ إليكم، والمعنى واحد. قال الزجاج: والمعنى: كما تكرهون أكل لحمه ميتاً، فكذلك تجتنبوا ذكْرَهُ بالسوء غائباً.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْفُوا اللَّهَ﴾ أي: في الغيبة ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ على من تاب ﴿رَجِيمٌ﴾ به. ﴿يَتْلِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُ شُعْبًا وَفَصَّلَ لَتَعَارَفُوا إِنَّا كَرَّمَكُم بِأَنَّهُ أَنْفَكُم بِأَنَّهُ عَلَّمَكُمْ حَيْثُ﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿يَتْلِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: نزلت في ثابت بن قيس وقوله في الرجل الذي لم يفسح له: أنت ابن فلانة، وقد ذكرناه عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١]^(٣). والثاني: أنه لما كان يوم الفتح أمر رسول الله ﷺ بلالاً فصعد على ظهر الكعبة فأذّن، وأراد أن يذلل المشركين بذلك، فلما أذّن، قال عتاب بن أسيد: الحمد لله الذي قبض أسيداً قبل اليوم، وقال الحارث بن هشام: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً؟! وقال سهيل بن عمرو: إن يَكْرَهُ الله شيئاً يغيّره، وقال أبو سفيان: أما أنا فلا أقول شيئاً، فأني إن قُلْتُ شيئاً لَتَشْهَدَنَّ عَلَيَّ السماء، وَلَتُخْبِرَنَّ عَنِّي الأرض، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل^(٤). والثالث: أن عبداً أسود مرض فعاده رسول الله ﷺ، ثم قبض فتولّى غسله وتكفينه ودفنه، فأثر ذلك عند الصحابة، فنزلت هذه الآية، قاله يزيد بن شجرة^(٥). فأما المراد بالذكر والأنثى، فأدم وحواء. والمعنى: إنكم تتساوون في النسب؛ وهذا زجر عن التفاخر بالأنساب. فأما الشعوب، فهي جمع شعب. وهو الحي العظيم، مثل مضر وربيعة، والقبائل دونها، كبكر من ربيعة، وتميم من مضر، هذا قول الجمهور من المفسرين وأهل اللغة. وروى عطاء عن ابن عباس قال: يريد بالشعوب: الموالي، وبالقبائل: العرب. وقال أبو رزین: الشعوب: أهل الجبال الذين لا يَغْتَرُّون

(١) رواه أبو داود في «سننه» رقم (٤٨٧٤)، والترمذي في «جامعه» ١٥/٢ وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه ابن جرير ١٣٧/٢٦. وأورده السيوطي في «الدر» ٩٤/٦ وزاد نسبه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه، كلهم عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. ورواه مسلم في «صحيحه» ٤/٢٠٠. ولغظه: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «اتَّبِعُوا مَا الْغَيْبَةُ» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذَكَرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قيل: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قال: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَيْبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَهُ». أي: قلت فيه البهتان، وهو الباطل.

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢٢٣ بلا سند، ولم يعزه لأحد، وذكره البغوي والخازن عن ابن عباس بلا سند أيضاً. وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: ذكره الثعلبي ومن قبله عن ابن عباس بغير سند.

(٣) ذكره. الواحدي في «أسباب النزول» ٢٢٤ عن مقاتل.

(٤) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٥٩: هكذا ذكره الثعلبي والواحدي بغير سند.

لأحد، والقبائل: قبائل العرب. وقال أبو سليمان الدمشقي: وقد قيل: إن القبائل هي الأصول، والشُعوب هي البُطون التي تتشعب منها، وهذا ضد القول الأول.

قوله تعالى: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ أي: ليعرف بعضكم بعضاً في قرب النسب وبعده. قال الزجاج: المعنى: جعلناكم كذلك لتعارفوا، لا لتفارقوا. ثم أعلمهم أن أرفعهم عنده منزلة اتقاهم. وقرأ أبي بن كعب، وابن عباس، والضحاك، وابن عمر، وأبان عن عاصم: ﴿لِتَعْرِفُوا﴾ بإسكان العين وكسر الراء من غير ألف. وقرأ مجاهد، وأبو المتوكل، وابن محيصن: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ بقاء واحدة مشددة وبألف مفتوحة الراء مخففة. وقرأ أبو نهيك، والأعمش: ﴿لِتَعْرِفُوا﴾ بقاءين مفتوحة الراء ويشديدها من غير ألف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، ومجاهد، وأبو الجوزاء: ﴿أَنَّ﴾ بفتح الهمزة. قال الفراء: من فتح ﴿أَنَّ﴾ فكانه قال: لتعارفوا أَنَّ الكريمَ الثَّقِيَّ، ولو كان كذلك لكانت ﴿لِتَعْرِفُوا﴾، غير أنه يجوز ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ على معنى: ليعرف بعضكم بعضاً أن أكرمكم عند الله اتقاكم^(١).

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُبْطِلُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلَيْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْءٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ عَزِيزٌ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٢﴾ قُلْ أَتَمْلِكُونَ اللَّهُ يَبْدِئُكُمْ وَاللَّهُ يَتْلُمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكِلُ شَيْءَهُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴿٣﴾ يَسْتَوِ عَلَى اللَّهِ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُوتُوا عَلَى أَيْمَانِكُمْ إِنَّ اللَّهَ يَمُرُّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ يَمُرُّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥﴾ وَالْأَرْضُ وَاللَّهُ بَعِيدٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ قال مجاهد: نزلت في أعراب بني أسد بن خزيمة. ووصف غيره حالهم، فقال: قَدِمُوا المدينة في سنة مُجْبِيَةٍ، فأظهروا الإسلام ولم يكونوا مؤمنين، وأَسَدُوا طرق المدينة بالعذرات، وأَغْلُوا أسعارهم، وكانوا يُمْنُونَ على رسول الله ﷺ يقولون: أتيناك بالأنفال والعيال، وَلَمْ تُفَاتِلْكَ، فنزلت فيهم هذه الآية^(٢). وقال السدي: نزلت في أعراب مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار [وهم الذين ذكرهم الله تعالى في سورة (الفتح)] وكانوا يقولون: آمنا بالله، ليأمنوا على أنفسهم، فلما استنَفَرُوا إلى الحديبية تخلفوا، فنزلت فيهم هذه الآية^(٣). وقال مقاتل: كانت منازلهم بين مكة والمدينة، فكانوا إذا مَرَّتْ بهم سرية من سرايا رسول الله ﷺ قالوا: آمنا، ليأمنوا على دمائهم وأموالهم، فلما سار رسول الله ﷺ إلى الحديبية استنفرهم فلم يُنْفِرُوا معه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ أي: لَمْ تَصَدَّقُوا ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ قال ابن قتيبة: أي: استسلمنا من خوف السيف، واتقنا. قال الزجاج: الإسلام: إظهار الخضوع والقبول لما أتى به رسول الله ﷺ، وبذلك يُخَفَّنَ الدَّمُ، فإن

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُمْ﴾ أي: إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى، لا بالأحساب. قال: وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ، فقد روى البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة ؓ قال: سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله اتقاهم». وروى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» وروى أبو داود في «مسنده» والترمذي وحسنه عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ أَفْعَبَ عَنْكُمْ فَبَيْتِ الْجَاهِلِيَّةِ (كبرها ونغوتها) وفخرها بالأباء، مؤمن نقي، وفاجر شقي، أتم بنو آدم وأدم من تراب، لِيُخَفَّنَ رِجَالٌ فُخْرُهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ نَعَمٌ مِنْ نَعَمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لِيَكُونُوا لَعْنَةً عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجَمَلَانِ الَّتِي تَلْعَقُ بِأَنْفُسِهَا النَّاسُ».

وروى أحمد في «المسند» بسند صحيح أن رسول الله ﷺ قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ لَا رِيكَمَ وَاحِدٌ، وَإِنْ لَا بَأْسَ وَاحِدٌ، أَلَا لَا تَفْعَلْ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لَأَحْمَرٍ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا لَأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرٍ إِلَّا بِالتَّقْوَى» ثم قال ابن كثير في تكملة الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَكِلُ شَيْءَهُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي: علم بكم، غير بأموركم، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله، قال: واستدل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة من ذهب من العلماء إلى أن الكفاة في النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُمْ﴾ قلت: ويؤيده الحديث المرفوع: «إِذَا أَتَاكُمْ مِنْ تَرْضُونُ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ فَرُجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِضٌ» رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم، وهو حديث حسن.

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» والبيهقي والخازن في «التفسير» بلا سند.

(٣) ذكره البيهقي والخازن عن السدي بغير سند، ولم يعزوا لأحد.

كان معه اعتقاد وتصديق بالقلب، فخرجَ الله هؤلاء من الإيمان بقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لَمْ تُصَدِّقُوا، إنما أسلمتم تعوذاً من القتل، وقال مقاتل: «ولمّا» بمعنى «ولم» يدخل التصديق في قلوبكم^(١). قوله تعالى: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ تَفُوتُوا اللَّهَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَقُلُوا سُبْحَانَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا عَلَيْهِمْ إِيمَانًا﴾ قال ابن عباس: إن تُخْلِصُوا الإيمان ﴿لَا يَنْتُكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو: «يَا لَيْتُكُمْ» بآلف وهمز؛ وروي عنه بآلف ساكنة مع ترك الهمزة: وقرأ الباقون: «يَلَيْتُكُمْ» بغير آلف ولا همز. فقرأه أبي عمرو من أَلَتْ يَالَيْتُ، وقرأه الباقيين من لَات يَلَيْتُ، قال الفراء: وهما لغتان، قال الزجاج: معناهما واحد. والمعنى: لا يَنْقُصُكُمْ. وقال أبو عبيدة: فيها ثلاث لغات: أَلَتْ يَالَيْتُ، تقديرها: أَفْكَ يَأْفُكُ، وَأَلَات يَلَيْتُ، تقديرها: أَقَالَ يُقِيلُ، وَلَات يَلَيْتُ، قال رؤية:

وَلَيْلَةٌ ذَاتُ نَسْدٍ سَرَرْتُ وَلَمْ يَلَيْسَنِي عَنْ سُورَاهَا لَيْتٌ^(٢)

قوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ أَعْيُنَكُمْ﴾ أي: من ثوابها. ثم نعت الصادقين في إيمانهم بالآية التي تلي هذه^(٣). ومعنى: ﴿رَبَّنَا﴾ يَشْكُوا. وإنما ذكر الجهاد، لأن الجهاد مع رسول الله ﷺ كان فرضاً في ذلك الوقت، ﴿أَوَلَيْكَ هُمُ الْمُكَذِّبُونَ﴾ [في إيمانهم]. فلما نزلت هاتان الآيتان أتوا رسول الله ﷺ يحلفون أنهم مؤمنون صادقون [فتزلت [هذه الآية]]. قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ أَطِيعُوا رَسُولَهُ﴾ و«علم» بمعنى «أعلم»، ولذلك دخلت الباء في قوله: «بدينكم» والمعنى: أُنْخَبِرُونَ [الله] بالدين الذي أنتم عليه؟ أي: هو عالمٌ بذلك لا يحتاج إلى إخباركم؛ وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿يَسْتَوُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ قالوا: أسلمنا ولم نُعَاتِلْكَ^(٤) [والله أعلم].



(١) قال ابن كثير: يقول تعالى متكرراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادَّعَوْا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يشكوا الإيمان في قلوبهم بعد ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ قال: وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، قال: ويدل عليه حديث جبريل ﷺ حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه. اهـ.

(٢) الرجز في «مجاز القرآن» ٢/٢٢١، و«الطبري» ٢/١٥، ٢٦/١٤٣، و«الصالح» و«اللسان» و«التاج»: ليت.

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَاطِلٌ شَيْءٌ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

(٤) قال الحافظ السيوطي في «الدرر» ١٠٠/٦: أخرج ابن المنذر، والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن أبي أوفى أن ناساً من العرب قالوا: يا رسول الله أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأنزل الله ﴿يَسْتَوُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا...﴾ الآية، قال الحافظ الهيثمي في «المجمع» ١١٢/٧: رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» وفيه الحجاج بن أرمطة وهو ثقة، ولكنه منلس، وفيه رجاله رجال الصحيح. وذكره ابن كثير عن البزار من طريق أبي عون عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، ثم قال: قال البزار: لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه، ولا نعلم روى أبو عون محمد بن عبد الله غير هذا الحديث. وذكره السيوطي في «أسباب النزول» من رواية النسائي والبزار وابن مردويه عن ابن عباس، ومن رواية سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن سعيد بن جبير، ومن رواية ابن أبي حاتم وابن مردويه عن الحسن. والله أعلم اهـ.

سورة ق^(١)

ويقال لها: سورة الباسقات

روى العوفي [وغيره] عن ابن عباس أنها مكّية، وكذلك قال الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والجمهور. وحكي عن ابن عباس وقتادة أن فيها آية مدنية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية [ق: ٢٣٨].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ١ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجَبٌ ٢ أَوَلَمْ يَسْتَأْذِنُوا رَبًّا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ٤ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ ٥﴾

قوله تعالى: ﴿ق﴾ قرأ الجمهور بإسكان الفاء، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو المتوكل، وأبو رجاء، وأبو الجوزاء: «قاف» بنصب الفاء، وقرأ أبو رزين، وقتادة: «قاف» برفع الفاء. وقرأ الحسن، وأبو عمران: «قاف» بكسر الفاء. وفي «ق» خمسة أقوال: أحدها: أنه قسم أقسم الله به، وهو من أسمائه، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أنه جبل من زُرْجَدَة خضراء، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: خَلَقَ اللَّهُ جِبَلًا يقال له: «ق» محيط بالعالم، وعروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض، فإذا أراد الله ﷻ أن يزلزل قرية، أمر ذلك الجبل فحرك العرق الذي يلي تلك القرية. وقال مجاهد: هو جبل محيط بالأرض. وروى عن الضحاك أنه من زمردة خضراء، وعليه كَفَأَ^(٢) السماء، وخُضِرَ السماء منه. والثالث: أنه جبل من نار في النار، قاله الضحاك في رواية عنه عن ابن عباس. والرابع: أنه اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة. والخامس: أنه حرف من كلمة. ثم فيه خمسة أقوال. أحدها: أنه افتتاح اسمه «قدير»، قاله أبو العالية. والثاني: أنه افتتاح أسمائه: القدير والقاهر والقريب ونحو ذلك، قاله القرطبي. والثالث: أنه افتتاح «قُضِيَ الأمر»، وأنشدوا:

قُلْنَا لَهَا قُفِي فَقَالَ ثَقَافُ^(٣)

معناه: أقف، فاكثفت بالقف من «أقف»، حكاه جماعة منهم الزجاج. والرابع: قف عند أمرنا ونهينا، ولا تُعْذِرْهُمَا، قاله أبو بكر الوراق. والخامس: قُلْ يا محمد، حكاه الثعلبي^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ قال ابن عباس، وابن جبير: المَجِيد: الكريم. وفي جواب هذا القسم أربعة أقوال: أحدها: أنه مضمَر، تقديره: لَيُبْعَثَنَّ بَعْدَ الْمَوْتِ. قاله الفراء، وابن قتيبة، ويُدُلُّ عليه قول الكفار: ﴿هَذَا شَيْءٌ

(١) وهي أول الفصل على الصحيح، وقد تقدم الكلام على ذلك في أول سورة (الحجرات) فليراجع، وقد كان رسول الله ﷺ يقرأ هذه السورة في المجمع الكبار كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب.

(٢) في الأصلين: كفا بالناء وهو تصحيف.

(٣) الرجز في «الطبري» ١٤٧/٢٦، و«القرطبي» ٢/١٧، و«اللسان»: وقف.

(٤) قال ابن كثير: روي عن بعض السلف أنهم قالوا: (ق) جبل محيط بجميع الأرض يقال له: جبل قاف، وكان هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، إما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدق ولا يكذب، وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم يلبسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى في هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها - أحاديث عن النبي ﷺ وما بالهد من يَدَم، فكيف بامة بني إسرائيل مع طول المدى وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمر، وتحريف علمائهم الكلم من مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته، وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» فيما قد يجوز العقل، فأما فيما تحيله العقول ويحكم فيه بالبطان ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القليل والله أعلم، قال: وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، وعلى الله الحمد والمآة، ثم قال: والذي ثبت عن مجاهد أن (ق) حرف الهجاء، كقوله: (ص، ذ، طس، ظم) ونحو ذلك. قال: وقد أسلفنا الكلام عليها في أول سورة (البقرة) اهـ. وقد ذكرنا نحن الكلام على ذلك في أول سورة (الشعراء) فليراجع.

يَجِبُ . والثاني: أنه قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، فيكون المعنى: [قاف] والقرآن المجيد لقد عَلِمْنَا، فحذفت اللام لأن ما قبلها عوضٌ منها، كقوله: ﴿وَالْقَيْنِ وَصَحْهَا... قَدْ أَفْلَحَ﴾ [الشمس: ١-٩] أي: لقد أَفْلَحَ، أجاز هذا القول الزجاج. والثالث: أنه قوله: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ﴾، حكى عن الأخفش. والرابع: أنه في سورة أخرى، حكاه أبو سليمان الدمشقي، ولم يبين في أي سورة.

قوله تعالى: ﴿بَلْ يَحْسَبُونَ﴾ مفسر في [ص: ٤] إلى قوله: ﴿تُخْءُ يَجِبُ﴾ أي: مُعْجِبٌ. ﴿أَوْفَا يَشَا﴾ قال الأخفش: هذا الكلام على جواب، كأنه قيل لهم: إنكم ترجعون، فقالوا: أنذا متنا وكنا تراباً؟ وقال غيره: تقدير الكلام: قَ والقرآن ليُبْعَثُنَّ، فقال: أنذا متنا وكنا تراباً، والمعنى: أنُبْعَثَ إذا كنا كذلك؟ وقال ابن جرير: لما تعجبوا من وعيد الله على تكذيبهم بمحمد ﷺ فقالوا: هذا شيء عجيب، كان كأنه قال لهم: ستعلمون إذا بُعِثْتُمْ ما يكون حالكم في تكذيبكم محمداً، فقالوا: أنذا متنا وكنا تراباً؟!

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ﴾ أي: ردٌ إلى الحياة ﴿بَعِيدٌ﴾ قال ابن قتيبة: أي: لا يكون. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكل من لحومهم ودمائهم وأشعارهم إذا ماتوا، يعني أن ذلك لا يَغُزُبُ عن علمه، ﴿وَعِدْنَا﴾ مع علمنا بذلك ﴿كِتَابٌ حَزِينٌ﴾ أي: حافظ لعددهم وأسمائهم ولما تَنْقُصُ الأرضُ منهم، وهو اللوح المحفوظ قد أُبْتُت فيه ما يكون. ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ وهو القرآن. والمريخ: المختلط، قال ابن قتيبة: يقال: مَرَجَ [أمر] الناس، وَمَرَجَ الدِّينُ، وأصل هذا أن يَفْلُقَ الشيء، ولا يستقر، يقال: مَرَجَ الخاتم في يدي: إذا قلق، للهزال. قال المفسرون: ومعنى اختلاط أمرهم: أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ مرّة: ساحر، ومرّة: شاعر، ومرّة: مُعَلِّمٌ، ويقولون للقرآن مرّة: سحر، ومرّة: مُفْتَرَى، ومرّة: رَجَزٌ، فكان أمرهم ملتبساً مختلطاً عليهم.

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ١ ﴿وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ٢ ﴿تَبِيرُهُ وَذَرَكُنْ لِكُلِّ عَذَابٍ نُسَيْبٍ﴾ ٣ ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْدَرًا فَأَلْبَسْنَا بِهٖ جَبَلًا وَحَبَّ الْخَمِيرِ﴾ ٤ ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ ٥ ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهٖ بَلَدَةً مِّثْلًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ ٦ ﴿كَذَّبَتْ قُلُوبُهُمْ فَوَيْلٌ لِّهٖم مِّنْ نَّوْجٍ وَأَحْصَى الرَّيْنَ رَشَدُوهٗمُ﴾ ٧ ﴿وَعَادُوا فِرْعَوْنَ وَلَئِن لَّوِ لَظَلِمُوا لَمَنْظُورٌ﴾ ٨ ﴿وَأَحْصَى الْآيَاتِ وَقَوْمٌ يَّسُوعُ كُلُّ كَذَّبٍ أُرْسِلَ لَهٗ وَعِيدٌ﴾ ٩ ﴿أَفَمِنَ الْخَلْقِ الْآلَافُ بِلَ هُرٍ فِي لَيْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ١٠

ثم دلّهم على قدرته على البعث بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ بغير عمد ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بالكواكب ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ أي: من صدوع وشقوق. والزّوج: الجنس. والبهيج: الحسن، قاله أبو عبيدة. وقال ابن قتيبة: البهيج: الذي يَبْهَجُ به.

قوله تعالى: ﴿تَبِيرُهُ وَذَرَكُنْ لِكُلِّ عَذَابٍ نُسَيْبٍ﴾ ٣ قال الزجاج: أي: فعلنا ذلك لِنُبَصِّرَ وَنُدُلَّ على القدرة. والمُنْبِيع: الذي يَرْجِعُ إلى الله ويفكر في قدرته.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو المطر ﴿مُبَارَكًا﴾ أي: كثير الخير، فيه حياة كل شيء، ﴿فَأَلْبَسْنَا بِهٖ جَبَلًا﴾ وهي البساتين ﴿وَحَبَّ الْخَمِيرِ﴾ أراد: الحبّ الحصيد، فأضافه إلى نفسه، كقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْيَقِينُ﴾ [الواقعة: ٩٥] وقوله: ﴿وَمِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] فالْحَبْلُ هو الوريد، وكما يقال: صلاة الأولى، يراد: الصلاة الأولى، ويقال: مسجد الجامع، يراد: المسجد الجامع، وإنما تضاف هذه الأشياء إلى أنفسها لاختلاف لفظ اسمها، وهذا قول الفراء، وابن قتيبة. وقال غيرهما: أراد حَبَّ النَّبْتِ الحصيد. ﴿وَالنَّخْلَ﴾ أي: وأنشأنا النخل: ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ و«بُسُوقها»: طولها. قال ابن قتيبة: يقال: نَسَقَ الشيء يَنْسِقُ نُسُوقًا: إذا طال، والنَّضِيد: المنضود بعضه فوق بعض، وذلك قبل أن يَفْتَحَ، فإذا انشَقَّ جُفْتُ طَلْعِهِ وَفَرَّقَ فليس بنضيد.

قوله تعالى: ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: أنبأنا هذه الأشياء للرزق ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهٖ﴾ أي: بالمطر ﴿بَلَدَةً مِّثْلًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ من القُبُور. ثم ذكر الأمم المكذبة بما بعد هذا، وقد سبق بيانه إلى قوله: ﴿لَهٗمُ رَعِيدٌ﴾ أي: وجب عليهم عذابي. ﴿أَفَمِنَ الْخَلْقِ الْآلَافُ﴾ هذا جواب لقولهم: ذلك رَجْعٌ بَعِيدٌ، والمعنى: أعجزنا عن ابتداء الخلق، وهو الخلق الأول، فنعيا بالبعث وهو الخلق الثاني؟! وهذا تقرير لهم، لأنهم اعترفوا أنه الخالق، وأنكروا البعث ﴿بَلْ هُرٍ فِي لَيْسٍ﴾ أي: في شك ﴿وَمِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو البعث.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسُّوهُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١٧) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ ﴿١٨﴾ مَا يُلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٩﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿٢٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢١﴾ وَجَعَلَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَنَهِيدٌ ﴿٢٢﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَفَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَيِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ يعني ابن آدم ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسُّوهُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ أي: ما تحدثه به نفسه. وقال الزجاج: نعلم ما يكته في نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي: بالعلم ﴿بِمَنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ الحبل هو الوريد، وإنما أضافه إلى نفسه لما شرحناه آنفاً في قوله: ﴿وَحَبَّ الْقَبْرِ﴾ [ق: ٩] قال الفراء: والوريد: عِرْقٌ بين الحلقوم والعلباوين. وعنه أيضاً قال: عرق بين اللبّة والعلباوين. وقال الزجاج: الوريد: عِرْقٌ في باطن العنق، (وهما وريدان)، والعلباوان: العصبان الصفراوان في مَنْ عِنَقِ، واللَّبَتَانِ: مَجْرَى الْقُرْطِ فِي الْعُنُقِ. وقال ابن الأنباري: اللَّبَّةُ حَيْثُ يَتَذَبَذَبُ الْقُرْطُ مِمَّا يَقْرُبُ مِنْ شَحْمَةِ الْأُذُنِ. وحكى بعض العلماء أن الوريد: عِرْقٌ مَتَفَرِّقٌ فِي الْبَدَنِ مُخَالِطٌ لِجَمِيعِ الْأَعْضَاءِ، فَلَمَّا كَانَتْ أَبْعَاضُ الْإِنْسَانِ يَحْبِجُ بَعْضُهَا بَعْضًا، أَغْلَمَ أَنْ عِلْمُهُ لَا يَحْبِجُهُ شَيْءٌ. والمعنى: ونحن أقرب إليه حين يتلقى المتلقيان، وهما الملكان الموكَّلتان بابن آدم يتلقيان عمله^(١). وقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي: يأخذان ذلك ويُثَبِّتانه ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ كاتب الحسنات ﴿وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ كاتب السيئات. قال الزجاج: والمعنى: عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، فدلّ أحدهما على الآخر، فحذف المدلول عليه، قال الشاعر:

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَ

ذَلِكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفٌ^(٢)

وقال آخر:

رَمَانِي بِأَمْرِ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي

بَرِيشاً، وَمِنْ أَجْلِ الطَّوِيِّ رَمَانِي^(٣)

المعنى: كنتُ منه بريشاً. وقال ابن قتيبة: القعيد بمعنى قاعد، كما يقال: «قدير» بمعنى «قادر»، ويكون القعيد بمعنى مقاعد، كالأكيل والشرب بمنزلة: المؤاكل والمشارب.

قوله تعالى: ﴿مَا يُلْفِظُ﴾ يعني الإنسان، أي: ما يتكلم من كلام فيلفظه، أي: يرميه من فمه، ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ أي: حافظ، وهو الملك الموكَّل به، إمّا صاحب اليمين، وإمّا صاحب الشمال ﴿عَتِيدٌ﴾ قال الزجاج: العتيد: الثابت اللازم، وقال غيره: العتيد: الحاضر معه أينما كان. وروى أبو أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «كَاتِبُ الْحَسَنَاتِ عَلَى يَمِينِ الرَّجُلِ، وَكَاتِبُ السَّيِّئَاتِ عَلَى يَسَارِهِ، فَكَاتِبُ الْحَسَنَاتِ أَمِينٌ عَلَى كَاتِبِ السَّيِّئَاتِ، فَإِذَا عَمِلَ حَسَنَةً كَتَبَهَا لَهُ صَاحِبُ الْيَمِينِ عَشْرًا، وَإِذَا عَمِلَ سَيِّئَةً، وَأَرَادَ صَاحِبُ الشَّمَالِ أَنْ يَكْتُبَهَا، قَالَ صَاحِبُ الْيَمِينِ: أَمْسِكْ، فَيُمْسِكُ عَنْهُ سَبْعَ سَاعَاتٍ، فَإِنْ اسْتَغْفَرَ مِنْهَا لَمْ يَكْتُبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَغْفِرْ كُتِبَ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةً»^(٤). وقال ابن عباس: جَعَلَ اللَّهُ

(١) قال ابن كثير: وقوله ﷺ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يعني ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، ومن تأوله على العلم، فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس. ولكن اللفظ لا يقتضيه، فإنه لم يقل: «وأنا أقرب إليه من حبل الوريد» وإنما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ كما قال في المحضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢٥) يعني ملائكته. وكما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ رَبُّكَ الْأَكْبَرُ رَبًّا لَمْ يَكُنْ لَكَ مِنْهُ حَافِظٌ﴾ (٢١) قال: فالملائكة نزلت بالذكر وهو القرآن، بإذن الله ﷻ، وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله جل وعلا لهم على ذلك، قال: فللملك لمة من الإنسان كما أن للشيطان لمة، قال: وكذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق، ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعني الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان: ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ كاتب الحسنات، أي مترصد. اهـ. وقد سبقه إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وأوضحه في كتابه «شرح حديث التزول».

(٢) سبق تخريج البيت في ٥٨٠ و ١١٥٢، وانظر «اللسان»: قد.

(٣) البيت لمعمر بن أحمز بن العمره الباهلي، أو للأزرق بن طرفة، وهو في «الكتاب» ٣٨٠/١، و«معاني القرآن» ٤٥٨/١، و«معجاز القرآن» ١٦١/٢، و«شواهد الكشاف» ١٢٨، و«الصالح» و«اللسان» و«التاج»: حول.

(٤) رواه البيهقي والثعلبي من طريق حماد بن سلمة عن جعفر بن الزبير عن القاسم بن محمد عن أبي أمامة وفيه ضعف، قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: ومن هذا الوجه أخرجه الطبراني، وأخرجه البيهقي من هذا الوجه ومن رواية بشر بن نعيم عن القاسم نحوه، وأخرجه الطبراني من رواية ثور بن يزيد عن القاسم نحوه، وروى أبو نعيم في «الحلية» وابن مردويه، من طريق إسماعيل بن عياش، عن حاصم بن رجا عن هروث بن رويم عن القاسم عن أبي أمامة، وعند الطبري من طريق علي بن جرير عن حماد بن سلمة عن عبد الحميد بن جعفر عن كنانة قال: دخل عثمان بن عفان على

على ابن آدم حافظين في الليل، وحافظين في النهار. واختلفوا هل يكتبان جميع أفعاله وأقواله على قولين: أحدهما: أنهما يكتبان عليه كل شيء حتى أنينه في مرضه، قاله مجاهد. والثاني: أنهما لا يكتبان إلا ما يؤجر [عليه]، أو يؤزر، قاله عكرمة. فأما مجلسهما، فقد نطق القرآن بأنهما عن اليمين وعن الشمال، وكذلك ذكرنا في حديث أبي أمامة. وقد روى علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ قال: «إن مقعد ملكيك على ثنيتيك، ولسانك قلمهما، وريقك مدادهما، وأنت تجري فيما لا يعنك»^(١) وروي عن الحسن والضحاك قالا: مجلسهما تحت الشعر على الحنك.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ وَهِيَ غَمْرُهُ وَشِدَّتُهُ الَّتِي تَغْشَى الْإِنْسَانَ وَتَغْلِبُ عَلَى عَقْلِهِ وَتَذَلُّهُ عَلَى أَنَّهُ مَيِّتٌ، بِالْحَقِّ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: أن معناه: جاءت بحقيقة الموت. والثاني: بالحق من أمر الآخرة، فأبانت للإنسان ما لم يكن بيناً له من أمر الآخرة. ذكر الوجهين الفراء، وابن جرير. وقرأ أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾، قال ابن جرير: ولهذه القراءة وجهان: أحدهما: أن يكون الحق هو الله تعالى، فيكون المعنى: وجاءت سكرة الله بالموت. والثاني: أن تكون السكرة هي الموت، أضيفت إلى نفسها، كقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، فيكون المعنى: وجاءت السكرة الحق بالموت، بتقديم «الحق». وقرأ ابن مسعود، وأبو عمران: «وَجَاءَتْ سَكْرَاتُ» على الجمع «الحق بالموت» بتقديم «الحق». وقرأ أبي بن كعب، وسعيد بن جبيرة: «وَجَاءَتْ سَكْرَاتُ الْمَوْتِ» على الجمع «بالحق» بتأخير «الحق».

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: فيقال للإنسان حينئذ: «ذلك» أي: ذلك الموت ﴿مَا كُنْتَ بِتَعْدٍ﴾ أي: تهرب وتفر^(٢). وقال ابن عباس: تكبر.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يعني نفخة البعث ﴿ذَلِكَ﴾ اليوم ﴿يَوْمَ الْوَعْدِ﴾ أي: يوم وقوع الوعيد. قوله تعالى: ﴿مِمَّا سَاءَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن السائق: ملك يسوقها إلى محشرها، قاله أبو هريرة^(٣). والثاني: أنه قرينها من الشياطين، سمي سائقاً لأنه يتبعها وإن لم يحثها. وفي الشهيد ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ملك يشهد عليها بعملها، قاله عثمان بن عفان، والحسن. وقال مجاهد: المَلَكُ: سائق، وشهيد. وقال ابن السائب: السائق: الذي كان يكتب عليه السيئات، والشهيد: الذي كان يكتب الحسنات. والثاني: أنه العمل يشهد على الإنسان، قاله أبو هريرة. والثالث: الأيدي والأرجل تشهد عليه بعمله، قاله الضحاك. وهل هذه الآيات عامة، أم خاصة؟ فيها قولان: أحدهما: أنها عامة، قاله الجمهور. والثاني: خاصة في الكافر، قاله الضحاك، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ﴾ أي: ويقال له: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ اليوم. وفي المخاطب بهذه الآيات ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الكافر، قاله ابن عباس، وصالح بن كيسان في آخرين. والثاني: أنه عام في البر والفاجر، قاله حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس، واختاره ابن جرير. والثالث: أنه النبي ﷺ، وهذا قول ابن زيد^(٤). فعلى القول الأول يكون المعنى: لقد كنت في غفلة من هذا اليوم في الدنيا بكفرك به؛ وعلى الثاني: كنت غافلاً عن أهوال القيامة، ﴿فَكُنْفَتَا عَنْكَ غِطَاءُكَ﴾ الذي كان في الدنيا يغشى قلبك وسمعك وبصرك. وقيل معناه: أريت أنك ما كان مستوراً

= رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كم مع العبد ملك؟... الحديث. وقد ذكره السيوطي في «الدر» ١٠٤/٦ من رواية الطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب» عن أبي أمامة رضي الله عنه.

(١) ذكره السيوطي في «الدر» ١٠٣/٦ عن علي مرفوعاً قال: أخرج ابن أبي الدنيا في «الصمت» عن علي قال: لسان الإنسان قلم الملك، وريقه مداد. وذكره مرفوعاً من رواية أبي نعيم، والديلمي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «إن الله لطف الملكين الحافظين حتى أجلسهما على الناجدين وجعل لسانه قلمهما، وريقه مدادهما» والله أعلم.

(٢) قال ابن كثير: أي: هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك فلا محيد ولا مناص ولا فكاك ولا خلاص.

(٣) قال ابن كثير: هذا هو الظاهر من الآية الكريمة، وهو اختيار ابن جرير.

(٤) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: غُني بها البر والفاجر، لأن الله اتبع هذه الآيات قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْإِنْسَانَ مَا تَوْسَّوْنَ بِهِ تَسْتَعْتِفُونَ﴾ والإنسان في هذا الموضع بمعنى الناس كلهم، غير مخصوص بهم بعضهم دون بعض، فمعلوم إذا كان ذلك كذلك أن معنى قوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ وجاءت أيها الإنسان سكرة الموت بالحق ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ بِتَعْدٍ﴾ وإذا كان ذلك كذلك، كانت بينة صحة ما قلنا. اهـ.

عنك؛ وعلى الثالث: لقد كنت قبل الوحي في غفلة عما أوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بالوحي ﴿فَمَرَكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ وفي المراد بالبصر قولان: أحدهما: البصر المعروف، قاله الضحاک. والثاني: العِلْم، قاله الزجاج. وفي قوله: «اليوم» قولان: أحدهما: أنه يوم القيامة، قاله الأكثرون. والثاني: أنه في الدنيا، وهذا على قول ابن زيد. فأما قوله: «حديد» فقال ابن قتيبة: الحديد بمعنى الحاد. أي: فأنت ثاقب البصر. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: فبصرك حديد إلى لسان الميزان حين تُوزَن حسناتك وسيئاتك، قاله مجاهد. والثاني: أنه شاخص لا يطرف لمعاينة الآخرة، قاله مقاتل. والثالث: أنه العِلْم النافذ، قاله الزجاج.

﴿وَقَالَ فَرَيْتُمْ هَذَا مَا لَدَى عَيْنٍ ﴿٢٣﴾ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عِنْدَ ﴿٢٤﴾ نَجَّاحٍ لِلْخَيْرِ مُتَّبِعٍ مَرْبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْفَيْتُمْ فِي الْغَدَابِ النَّفِيرِ ﴿٢٦﴾ قَالَ فَرَيْتُمْ رَبَّنَا مَا آَلَيْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا فِي سَكَلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْشَوْا لَدَىٰ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْبَعِيدِ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فَرَيْتُمْ﴾ قال مقاتل: هو ملكه الذي كان يكتب عمله السعي في دار الدنيا، يقول لربه: قد كتبت ما وُكِّلْتُ به، فهذا عندي مُعَدَّ حاضر من عمله الخيث، فقد أتيتك به وبعمله. وفي «ما» قولان: أحدهما: أنها بمعنى «من» قاله مجاهد. والثاني: أنها بمعنى الشيء، فتقديره: هذا شيء لديّ عتيد، قاله الزجاج. وقد ذكرنا معنى العتيد في هذه السورة [ق: ٢٨]، فيقول الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ﴾ وفي معنى هذا الخطاب ثلاثة أقوال: أحدها: أنه مخاطبة للواحد بلفظ الخطاب للثنتين، قال الفراء: والعرب تأمر الواحد والقوم بأمر الاثنين، فيقولون للرجل: ويلك ارحلها وازجرها، سمعتها من العرب، وأنشدني بعضهم:

فَقُلْتُ لِصَاحِبِي لَا تَخِيسَانَا
وَأَنْشَدَنِي أَبُو ثُرَوَانَ:

فَلَمَّا تَزَجَّرَانِي يَا ابْنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرَ
وَنَرَى أَنْ ذَلِكَ مِنْهُمْ، لِأَنَّ أَدْنَىٰ أَعْوَانَ الرَّجُلِ فِي إِبْلِهِ وَغَنَمِهِ اثْنَانِ، وَكَذَلِكَ الرَّفْقَةُ أَدْنَىٰ مَا تَكُونُ ثَلَاثَةً، فَجَرَى الْكَلَامُ عَلَىٰ صَاحِبِهِ، أَلَا تَرَى الشَّعْرَ أَكْثَرَ شَيْءٍ قِيلًا: يَا صَاحِبِي وَيَا خَلِيلِي. قال امرؤ القيس:

خَلِيلِي مُرَّا بِي عَلَىٰ أُمِّ جُنْدَبٍ
ثُمَّ قَالَ:

أَلَمْ تَرَ أَنِّي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا
وَجَذْتُ بِهَا طَيْبًا وَإِنْ لَمْ تَطْيَبِ^(١)
فرجع إلى الواحد، وأول كلامه اثنان، وإلى هذا المعنى ذهب مقاتل، وقال: «ألقيا» خطاب للخاص، يعني خازن النار. والثاني: أنه فعل ثُنِّي توكيداً، كأنه لما قال: «ألقيا»، ناب عن أَلْقَى أَلْقَى، وكذلك: قَفَا بَنِي^(٢)، معناه: قَفَّ وَفَتَّ، فلما ناب عن فعلين، ثُنِّي، قاله المبرد. والثالث: أنه أمر للملكين، يعني السائق والشهيد، وهذا اختيار الزجاج. فأما «الكَفَّارُ»، فهو أَشَدُّ مُبَالَعَةً مِنَ الْكَافِرِ. و «العنيد» قد فسرناه في [مرد: ٥٩].

(١) البيت لشُعْرَبْنِ بْنِ رُبَيْعٍ الْأَسَدِيِّ، وهو في «مشكل القرآن» ٢٢٤، و«الطبري» ١٦٥/٢٦، و«الصحاح»، و«اللسان»، و«التاج»: جز، ونسبه الجوهري ليزيد ابن الطرية. وقوله: «فقلت لصاحبي» أراد بالصاحب من يحتطب له، يقول لصاحبه: لا تحبسا عن شيء اللحم بأن تغلق أصول الحطب وهرقه، بل اكتب بقطع الشيع فو أسهل وأسرع.

(٢) البيت في «مشكل القرآن» ٢٢٥، و«الطبري» ١٦٥/٢٦، وقوله: «وإن تدعاني» أي: إن تركتاني حميت عرضي ممن يؤذيني، وإن زجرتاني أنزجرت وصبرت.

(٣) في الأصل: يَقْضِي، والتصويب من «الديوان».

(٤) «ديوانه» ٤١، و«الطبري» ١٦٦/٢٦، و«مختار الشعر الجاهلي» ٤٣/١. واللُّبَّاتَانِ: جمع لُبَّاتَةٍ، وهي الحاجة، والطارق: الذي يأتي ليلاً، يعني أنها طيبة الريح وإن لم تمش طيباً، وخاصة في الوقت الذي تتغير فيه الأنواء.

(٥) جزء من أول بيت في معلقة امرئ القيس، والبيت بتمامه:

قُلْنَا نَبِيكَ مِنْ ذَمْرَى حَسِبٍ وَمَنْزِلٍ
بِسِطِ السَّوَى بَيْنِ الدُّخُولِ فَحَزَمَلٍ

قوله تعالى: ﴿مَنْعَ لِّلْخَيْرِ﴾ في المراد بالخير هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: الزكاة المفروضة، قاله قتادة. والثاني: أنه الإسلام، يمنع الناس من الدخول فيه، قاله الضحاك، ومقاتل، وذكر أنها نزلت في الوليد بن المغيرة، منع بني أخيه عن الإسلام^(١). والثالث: أنه عامٌ في كل خير من قول أو فعل، حكاه الماوردي^(٢).

قوله تعالى: ﴿مُتَمَرِّ﴾ أي: ظالم لا يَتَوَقَّرُ بالتوحيد^(٣) ﴿مُتَمَرِّ﴾ أي: شاكٌ في الحق، من قولهم: أَرَأَبَ الرَّجُلُ: إذا صار ذا رُبٍّ.

قوله تعالى: ﴿كَأَلَيْسَ فِيهِ قَوْلَانٌ: أَحَدُهُمَا: شَيْطَانُهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالْجُمْهُورُ. وَفِي الْكَلَامِ اخْتِصَارُ تَقْدِيرِهِ: إِنَّ الْإِنْسَانَ أَدْعَى عَلَى قَرِينِهِ مِنَ الشَّيَاطِينِ أَنَّهُ أَضَلُّهُ فَقَالَ: ﴿رَبَّنَا مَا لَلَّيْتَهُ﴾ أي: لم يكن لي قُوَّةٌ على إضلاله بالإكراه، وإنما طغى هو بضلاله. والثاني: أنه المَلَكُ الذي كَانَ يَكْتُبُ السَّيِّئَاتِ. ثُمَّ فِيمَا يَدْعِيهِ الْكَافِرُ عَلَى الْمَلَكِ قَوْلَانٌ: أَحَدُهُمَا: [أنه] يَقُولُ: زَادَ عَلَيَّ فِيمَا كُتِبَ، فَيَقُولُ الْمَلَكُ: مَا أَطْعَيْتَهُ، أَي: مَا زِدْتُ عَلَيْهِ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ يَقُولُ: كَانَ يُعْجِلُنِي مِنَ التَّوْبَةِ، فَيَقُولُ: رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتَهُ، هَذَا قَوْلُ الْفَرَاءِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ كَانَ فِي سَكَلِكِ بَعِيدٍ﴾ أي: بعيد من الهدى، فيقول الله تعالى: ﴿لَا تَحْتَسِبُوا لَدَيْ﴾. فِي هَذَا الْخِصَامِ قَوْلَانٌ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ اعْتَذَرَهُمْ بِغَيْرِ عَذْرٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ خَصَّامُهُمْ مَعَ قَرَنَائِهِمُ الَّذِينَ أَغْوَوْهُمْ، قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ. فَأَمَّا اخْتِصَامُهُمْ فِيمَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْمِظَالِمِ فِي الدُّنْيَا، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُهْمَلَ، لِأَنَّهُ يَوْمُ التَّنَاصُفِ.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكَ بِالْوَيْدِ﴾ أي: قد أخبرتكم على ألسن الرُّسُلِ بعذابي في الآخرة لمن كفر. ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيْ﴾ فِيهِ قَوْلَانٌ: أَحَدُهُمَا: مَا يَبْدُلُ [القول] فِيمَا وَعَدْتُهُ مِنْ ثَوَابٍ وَعِقَابٍ، قَالَ الْأَكْثَرُونَ. وَالثَّانِي: مَا يَكْذِبُ عِنْدِي وَلَا يَغَيِّرُ الْقَوْلَ عَنْ جِهَتِهِ، لِأَنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَأَعْلَمُ كَيْفَ ضَلُّوا وَكَيْفَ أَضَلَلْتُهُمْ، هَذَا قَوْلُ ابْنِ السَّائِبِ وَاخْتِيَارُ الْفَرَاءِ وَابْنِ قَتَيْبَةَ، وَبَدَّلَ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: مَا يَبْدُلُ قَوْلِي ﴿وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْبَيِّتِ﴾ فَأَزِيدُ عَلَى إِسَاءَةِ الْمُسِيءِ، أَوْ أَنْقُصُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِ.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ وَأَنزَلَتْ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ مَن حَفِظَ أَوَّابَتَيْنِ بِالْبَيْتِ وَبِمَا يَقْبَلُ شَيْئًا ﴿أَدْخَلُوهَا يَوْمَ الْفُلُوحِ﴾ لَمْ تَأْتِكُمْ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْلًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحْمُودٍ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ﴾

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَابْنُ عَامِرٍ، وَحَمِزَةٌ، وَالْكَسَائِيُّ: «يَوْمَ نَقُولُ» بِالنُّونِ الْمَفْتُوحَةِ وَضَمَّ الْقَافَ. [وَقَرَأَ أَبُو بَكْرٍ، وَالْمُفَضَّلُ عَنْ عَاصِمٍ: «يَوْمَ يَقُولُ» بِالْبَاءِ الْمَفْتُوحَةِ وَضَمَّ الْقَافَ]. وَقَرَأَ أَبُو بَكْرٍ، وَالْحَسَنُ، وَعَبْدُ الْوَارِثِ عَنْ أَبِي عَمْرٍو: «يَوْمَ يُقَالُ» بِيَاءٍ مَضْمُومَةٍ وَفَتْحِ الْقَافِ وَإِثْبَاتِ أَلِفٍ. قَالَ الزَّجَّاجُ: وَانْتِصَابِ «يَوْمَ» عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: عَلَى مَعْنَى: مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ. وَالثَّانِي: عَلَى مَعْنَى: وَأَنْذِرُهُمْ يَوْمَ نَقُولُ لَجَهَنَّمَ. فَأَمَّا فَائِدَةُ سُؤَالِهِ إِيَّاهَا، وَقَدْ عَلِمَ هَلِ امْتَلَأَتْ أَمْ لَا، فَإِنَّهُ تَوَيْخٌ لِمَنْ أَدْخَلَهَا. وَزِيَادَةٌ فِي مَكْرُوهِهِ، وَدَلِيلٌ عَلَى تَصْدِيقِ قَوْلِهِ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨]. وَفِي قَوْلِهَا: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ قَوْلَانٌ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا تَقُولُ ذَلِكَ بَعْدَ امْتِلَائِهَا، فَالْمَعْنَى: هَلْ بَقِيَ فِي مَوْضِعٍ لَمْ يَمْتَلَأْ؟ أَي: قَدْ امْتَلَأَتْ. وَالثَّانِي: أَنَّهَا تَقُولُ تَغِيظًا عَلَى مَنْ عَصَى اللَّهَ

(١) ذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ وَالْخَازَنُ فِي «تَفْسِيرِهِمَا» بِنَحْوِهِ بِغَيْرِ سَدِّ وَلَمْ يَعْزَوْاهُ لِأَحَدٍ.

(٢) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ: وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي أَنَّهُ كُلُّ حَقٍّ وَجِبَ اللَّهُ تَعَالَى أَوْ لَأَدَمِي فِي مَالِهِ، قَالَ: وَالْخَيْرُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ هُوَ الْمَالُ، وَإِنَّمَا قُلْنَا: ذَلِكَ هُوَ الصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ عَمَّ بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْعَ لِّلْخَيْرِ﴾ أَنَّهُ يَمْنَعُ الْخَيْرَ، وَلَمْ يَخْصُصْ مِنْهُ شَيْئًا دُونَ شَيْءٍ، فَذَلِكَ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ يُمْكِنُ مِنْهُ تَطْلُبُهُ. اهـ.

(٣) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ: وَقَوْلُهُ: «مَعْتَدٌ» يَقُولُ: مَعْتَدٌ عَلَى النَّاسِ بِلِسَانِهِ، بِالْبَدَاءِ وَالْفَحْشِ فِي الْمَنْطِقِ، وَبِيَدِهِ بِالسُّطُورَةِ وَالْبَطْشِ ظَلَمًا. اهـ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: «مَعْتَدٌ» أَي: فِيمَا يَفْقَهُ وَيَصْرِفُهُ يَنْجَاوِزُ فِيهِ الْحَدَّ، قَالَ: وَقَالَ قَتَادَةُ: مَعْتَدٌ فِي مَنْطِقِهِ وَسِيرِهِ وَأَمْرِهِ. اهـ.

تعالى، وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهَا أَنْ تَمَيَّزَ وَتَخَاطَبَ، كَمَا جَعَلَ فِي النَّمْلَةِ أَنْ قَالَتْ: ﴿أَذْهَبُوا مَسْكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨] وفي المخلوقات أَنْ تَسْبَحَ بِحَمْدِهِ.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْزَقْنَاهُ لَبَنَةً لَسْتَيْنَ﴾ (١) أي: قُرِبَتِ لِلْمُتَّقِينَ [الشرك] ﴿غَيْرَ بَيْدٍ﴾ أي: جُعِلَتْ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ حَيْثُ يَرَاهَا أَهْلُ الْمَوْقِفِ، وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿هَذَا﴾ الَّذِي تَرَوْنَهُ ﴿مَا تُرْمَكُونَ﴾ وقرأ عثمان بن عفان، وابن عمر، ومجاهد، وعكرمة، وابن محيصن: «يُوعِدُونَ» بِالْيَاءِ ﴿لِكُلِّ آوَابٍ﴾ وفيه أقوال قد ذكرناها في [ابن إسرائيل: ٢٥]. وفي ﴿حَفِيفٌ﴾ قولان: أحدهما: الحافظ لذنبه حتى يرجع عنها، قاله ابن عباس. والثاني: الحافظ لأمر الله تعالى، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَشِيَ الْآرِضِينَ﴾ (٢) قد بَيَّنَّاهُ فِي [الأنبياء: ٤٩] ﴿وَجَاءَ يَقْلِبُ تُبَيِّدٌ﴾ أي: رَاجَعَ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ. ﴿أَذْهَبُوا﴾ أي: يُقَالُ لَهُمْ: أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ ﴿وَسَلِّمُوا﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ سَلِمُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَسَلِمُوا فِيهَا مِنَ الْعُومِ وَالتَّغْيِيرِ وَالزُّوَالِ، وَسَلَّمَهُ اللَّهُ وَمَلَأَتْهُ عَلَيْهِمْ ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْقُلُوبِ﴾ فِي الْجَنَّةِ، لِأَنَّهُ لَا مَوْتَ فِيهَا وَلَا زَوَالَ. ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ اللَّهَ حَتَّى تَنْتَهِيَ مَسْأَلَتُهُمْ، فَيُعْطُونَ مَا شَاءُوا، ثُمَّ يَزِيدُهُمْ مَا لَمْ يَسْأَلُوا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾. وَلِلْمُفْسِّرِينَ فِي الْمَرَادِ بِهَذَا الْمَزِيدِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ النَّظَرُ إِلَى اللَّهِ ﷻ؛ رَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قَالَ: يَتَجَلَّى لَهُمُ اللَّهُ ﷻ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ السَّحَابُ يُمُرُّ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَمَطُرُهُمُ الْحَوْرَ، فَتَقُولُ الْحَوْرُ: نَحْنُ اللَّوَاتِي قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، حِكَاةَ الزَّجَاجِ. وَالثَّالِثُ: أَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى مَا تَمَتُّوهُ وَسَلَّوْهُ مِمَّا لَمْ تَسْمَعْ بِهِ أَذْنَ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ذَكَرَهُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّمَشَقِيُّ. ثُمَّ خَوْفُ كَفَارِ مَكَّةَ بِمَا بَعْدَ هَذَا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَتَقَبَّوْا فِي الْإِلْدَادِ﴾ قَرَأَ الْجُمْهُورُ «فَتَقَبَّوْا» بَفَتْحِ النُّونِ وَالْقَافِ مَعَ تَشْدِيدِهَا. وَقَرَأَ أَبُو بَنِي بَنِ كَعْبٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنُ، وَابْنُ السَّمِيعِ، وَبُحَيْشُ بْنُ يَعْمَرَ كَذَلِكَ، إِلَّا أَنَّهُمْ كَسَرُوا الْقَافَ عَلَى جِهَةِ الْأَمْرِ تَهْدِئاً. وَقَرَأَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَقَتَادَةُ، وَابْنُ أَبِي عِبِلَةَ، وَعَبِيدُ بْنُ أَبِي عَمْرٍو: «فَتَقَبَّوْا» بَفَتْحِ الْقَافِ وَتَخْفِيفِهَا. قَالَ الْفَرَاءُ: وَمَعْنَى «فَتَقَبَّوْا»: سَارُوا فِي الْبِلَادِ، فَهَلْ كَانَ لَهُمْ مِنَ الْمَوْتِ «بَيْنَ عَجَمِينَ» فَأَضْمَرْتُ «كَانَ» هَاهُنَا، كَقَوْلِهِ: ﴿أَهْلُكُنَّهِنَّ فَلَا تَأْخِذَنَّ بِهِمْ﴾ [محمد: ١٣] أي: فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ نَاصِرٌ. وَمَنْ قَرَأَ «فَتَقَبَّوْا» بِكَسْرِ الْقَافِ، فَإِنَّهُ كَالْوَعِيدِ؛ وَالْمَعْنَى: أَذْهَبُوا فِي الْبِلَادِ وَجِئُوا فَهَلْ مِنَ الْمَوْتِ مِنْ مَحِيصٍ؟ وَقَالَ الزَّجَاجُ: «تَقَبَّوْا»: طَوَّقُوا وَفَتَّشُوا، فَلَمْ تَرَوْا مَحِيصاً مِنَ الْمَوْتِ. قَالَ أَمْرُو الْقَيْسِ:

لَقَدْ نَقَبْتُ فِي الْأَفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْعَنِينَةِ بِالْإِيَابِ (٣)

فَأَمَّا الْمَحِيصُ فَهُوَ الْمَغْدِيلُ؛ وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَا شَرْحَهُ فِي سُورَةِ [النساء: ١٢١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكََ﴾ يَعْنِي الَّذِي ذَكَرَهُ مِنْ إِهْلَاكِ الْقُرَى ﴿لِذِكْرٍ﴾ أي: تَذَكُّرَةٍ وَعِظَةٍ ﴿لِإِنْ كَانَ لَمْ قَلْبٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيُّ عَقْلٍ. قَالَ الْفَرَاءُ: وَهَذَا جَائِزٌ فِي اللَّغَةِ أَنْ تَقُولَ: مَا لَكَ قَلْبٌ، وَمَا مَعَكَ قَلْبُكَ، تَرِيدُ الْعَقْلَ. وَقَالَ ابْنُ قَتِيْبَةَ: لَمَّا كَانَ الْقَلْبُ مَوْضِعاً لِلْعَقْلِ كُنِيَ بِهِ [عنه]. وَقَالَ الزَّجَاجُ: الْمَعْنَى: لَمَنْ صَرَفَ قَلْبَهُ إِلَى التَّفَهُمِ ﴿أَزْ أَلْفَى السَّمْعِ﴾ أَي: اسْتَمَعَ وَتَنَّى ﴿وَقَرَّ شَهِيدٌ﴾ أَي: وَقَلْبُهُ فِيمَا يَسْمَعُ. وَقَالَ الْفَرَاءُ: «وَهُوَ شَهِيدٌ» أَي: شَهِيدٌ لَيْسَ بِغَائِبٍ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ذَكَرَ الْمُفْسِّرُونَ أَنَّ الْيَهُودَ قَالَتْ: خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، آخِرُهَا يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَاسْتَرَاخَ يَوْمَ السَّبْتِ، فَلِذَلِكَ لَا نَعْمَلُ فِيهِ شَيْئاً، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ،

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيُّ مَنْ خَافَ اللَّهَ فِي سِرِّهِ حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهَ ﷻ، كَقَوْلِهِ ﷻ: «وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ».

(٢) ذَكَرَهُ الْأَكْثَرُ فِي «رُوحِ الْمَعْنَى» ١٧٣/٢٧ مِنْ رِوَايَةِ الْيَهُودِيِّ فِي «الرُّوْيَةِ» وَالدَّبْلَمِيِّ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قَالَ: يَتَجَلَّى لَهُمُ اللَّهُ ﷻ.

(٣) ذَكَرَهُ الْأَكْثَرُ فِي «رُوحِ الْمَعْنَى» ١٧٣/٢٧ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ الْمُنْذَرِ وَجَمَاعَةٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ فِي ذَلِكَ أَيْضاً: يَتَجَلَّى لَهُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ جُمُعَةٍ.

(٤) «دِيَوَانُهُ» ٩٩، وَفِجَازُ الْقُرْآنِ ٢/٢٢٤، وَ«الطَّبْرِي» ١٧٦/٢٦، وَ«مِخْتَارُ الشُّعْرِ الْجَاهِلِيِّ» ٨٠/١، وَ«اللِّسَانُ» وَ«النَّجَاحُ»: تَقَبَّ. وَفِي «الدِّيَوَانِ»: «وَقَدْ طَوَّفَتْ» بِدَلِّ «لَقَدْ تَقَبَّتْ».

فأكذبهم الله ﷻ بقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُثُوبٍ﴾^(١). قال الزجاج: واللُثوب: التعب والإعياء.

قوله تعالى: ﴿فَاضْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: من بهتهم وكذبهم. قال المفسرون: ونسخ معنى قوله: «فاضبر» بآية السيف، «وَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» أي: صلِّ بالثناء على ربك والتنزيه [له] ممَّا يقول المُبْطِلُونَ ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ وهي صلاة الفجر. «وَبَقْلِ الْغُرُوبِ» فيها قولان: أحدهما: صلاة الظهر والعصر، قاله ابن عباس. والثاني: صلاة العصر، قاله قتادة. وروى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث جرير بن عبد الله، قال: كُنَّا عند رسول الله ﷺ ليلة البدر، فقال: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبِّكُمْ حِينَئِذَا كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تَضَامُونَ^(٢)» في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ فافعلوا» وقرأ: «وَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ»^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَلْيَلٍ فَسَبِّحْهُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها صلاة الليل كله، أي وقت صلى منه، قاله مجاهد. والثاني: صلاة العشاء، قاله ابن زيد. والثالث: صلاة المغرب والعشاء، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ الشُّجُورَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وحزمة، وخلف: بكسر الهمزة؛ وقرأ الباقر بفتحها. قال الزجاج: من فتح ألف «أدبار» فهو جمع دُبر، ومن كسرهما فهو مصدر: أدبر يُدبر إدباراً. وللمفسرين في هذا التسييح ثلاثة أقوال: أحدها: أنه^(٤) الرُّكْعَتَانِ بعد صلاة المغرب، روي عن عمر، وعلي، والحسن بن علي ﷺ، وأبي هريرة، والحسن، ومجاهد، والشعبي، والنخعي، وقاتدة في آخرين، وهو رواية العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنه^(٥) النوافل بعد المفروضات، قاله ابن زيد. والثالث: أنه التسييح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات، رواه مجاهد عن ابن عباس. وروي عن أبي الأحوص أنه قال في جميع التسييح المذكور في هاتين الآيتين كذلك.

﴿وَأَسْتَبِيعُ يَوْمَ يَأْتِي السَّادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾^(٦) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ^(٧) إِنَّا نَحْنُ غَنِيٌّ وَنُئِثُ وَإِنَّا الْكَصِيرُ^(٨) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ^(٩) نَحْنُ أَغْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ جَفَا فَعِيدٌ^(١٠)

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَبِيعُ يَوْمَ يَأْتِي السَّادِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر «ينادي المنادي» بباء في الوصل. ووقف ابن كثير بياء، ووقف نافع وأبو عمرو بغير ياء. ووقف الباقر ووصلوا بياء. قال أبو سليمان الدمشقي: المعنى: واستمع حديث يوم ينادي المنادي. قال المفسرون: والمنادي: إسرأفيل، يقف على صخرة بيت المقدس فينادي: يا أيها الناس هلمُّوا إلى الحساب، إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء؛ وهذه هي النفخة الأخيرة. والمكان القريب: صخرة بيت المقدس. قال كعب ومقاتل: هي قرب الأرض إلى السماء ثمانية عشر ميلاً. وقال ابن السائب: باثني عشر ميلاً. قال الزجاج: ويقال: إن تلك الصخرة في وسط الأرض^(١١).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ وهي [هذه] النفخة الثانية «بِالْحَقِّ» أي: بالبعث الذي لا شك فيه «ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ» من القبور. ﴿إِنَّا نَحْنُ غَنِيٌّ وَنُئِثُ﴾ أي: نُئِثُ في الدنيا ونُحْيِي للبعث «وَإِنَّا الْكَصِيرُ» بعد البعث، وهو قوله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: «تَشَقَّقُ» بتشديد الشين؛ وقرأ الباقر بتخفيفها: «سِرَاعًا» أي: فيخرجون منها سراعاً. «ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ» أي: هَيِّنْ. ثم عزى نبيّه فقال: «نَحْنُ أَغْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ» في تكذيبك، يعني كفار مكة «وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ» قال ابن عباس: لم تبعث لتجبرهم على الإسلام إنما بعثت مذكراً،

(١) ذكره الطبري عن قتادة، وأورده السيوطي في «الدر» ١١٠/٦ وزاد نسبه لعبد الرزاق، وابن المنذر عن قتادة، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٢٢٦ عن الحسن وقاتدة.

(٢) «لا تضامون» يجوز ضم التاء وفتحها. وهو بتشديد الميم من الضم، أي: لا ينضم بعضهم إلى بعض، ولا يقول: أرنيه، بل كل ينفر برويته. وروي بتخفيف الميم من الضم، وهو الظلم، يعني: لا ياتلكم ظلم بأن يرى بعضكم دون بعض، بل تستون كلكم في رؤيته تعالى.

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» ٤٥٨/٨، ومسلم ٤٣٩/١، ورواه أحمد في «المستد» وأصحاب «السنن» عن جرير بن عبد الله ﷺ.

(٤) في الأصل: أنها.

(٥) ذكره البغوي عن مقاتل بغير سند، والغازن بغير سند ولم يعزه لأحد، وذكره ابن جرير الطبري ١٨٣/٢٦ عن قتادة عن كعب الأحبار مطولاً، ومختصراً عن بريدة ﷺ، وأورده السيوطي في «الدر» ١١٠/٦ من رواية ابن عساكر والواسطي في «فضائل بيت المقدس» عن يزيد بن جابر.

وذلك قبل أن يؤمر بقتالهم؛ وأنكر الفراء هذا القول فقال: العرب لا تقول: «فَعَّالٌ من أَفَعَلْتُ» لا يقولون: «خَرَّاجٌ» يريدون «مُخْرِجٌ» ولا «دَحَّالٌ» يريدون «مُدْخِلٌ»، إنما يقولون «فَعَّالٌ» من «فَعَّلْتُ»، وإنما الجَبَّارُ هنا في موضع السلطان من الجبرية، وقد قالت العرب في حرف واحد: «دَرَّأَكَ» من «أَذَرَكْتُ» وهو شاذ، فإن جعل هذا على هذه الكلمة فهو وجه. وقال ابن قتية: «يَجْبَارُ» أي: بمسلط، والجَبَّار: الملك، سمي بذلك لِتَجْبِرُهُ، يقول: لستَ عليهم بملك مُسلَّط. قال اليزيدي: لستَ بمسلط فتفهرهم على الإسلام. وقال مقاتل: لِنَقْتُلَهُمْ. وذكر المفسرون أن قوله: «وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ» منسوخ بآية السيف.

قوله تعالى: «فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ» أي: فَعِظْ بِهِ «مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدَ» [وقرأ يعقوب: «وعبيدي» بياء في الحالين]، أي: ما أوعدْتُ مَنْ عَصَانِي مِنَ الْعَذَابِ^(١).



(١) قال ابن كثير: «فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدَ» أي: بلغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر من يخاف الله وعبيده، ويرجو وعده كقوله تعالى: «إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَمَكَانُ الْمَوَاقِفِ» وقوله جل جلاله: «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَوِّدٍ»، «لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَوِّدٍ» أي: لستَ عليهم بمسود، «وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدَ» اهـ.

سورة الذاريات

مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْأَنزِلَ دُورًا ۝ فَالْحِيلَتِ دُورًا ۝ فَالْمَرْيَتِ بِنَرًا ۝ فَالْمَقْنَنَتِ أَمْرًا ۝ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الْإِنِّ لَرِيفٌ ۝ وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْمَكْبِ ۝ إِنَّكَ لَنَ قَوْلٍ مِّنْ خَلْفٍ ۝ يُؤْتِيكَ عَنْهُ مَنَ أَيْك ۝ قِيلَ الْمَرْصُور ۝ الْإِنِّ مَنَ فِي عَمَرٍ سَاهُوت ۝ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الْإِنِّ ۝ يَوْمَ مَنَ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝ ذُرُوقًا يَنْتَكِرُ هَذَا الَّذِي كُتِبَ بِهِ سَسْمِلُونَ ۝ إِنَّ السَّمَوْنَ فِي جَنَّتٍ وَخَبْرُونَ ۝ مَلِيذِينَ مَا بَأْسُهُمْ رَمَهُمْ لَهُمْ كَأَنَّا قَبْلَ ذَلِكَ نَحْنِينَ ۝ كَأَنَّا قَبْلَكَ مِنَ الْبَلِّ مَا يَهْجُونَ ۝ وَالْأَخْصَارُ مَنَ يَسْتَفْتُونَ ۝ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ۝ وَفِي الْأَرْضِ مَائِدَةٌ لِلْعَرِيقِينَ ۝ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ قَرِيبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَعَنَ يُنَالُ مَا أَتَاكُمْ نَبِطُورَةٌ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْأَنزِلَ دُورًا ۝﴾ يعني الرِّيح، يقال: ذَرَّتْ الرِّيحُ التُّرابَ تَذُرُّهُ ذُرًّا، إذا فَرَّقَتْهُ. قال الزجاج: يقال: ذَرَّتْ فِيهِ ذَارِيَةٌ، وَذَرَّتْ فِيهِ مُذَرِيَةٌ، بمعنى واحد. ﴿وَالْأَنزِلَ دُورًا﴾، مجرور على القَسَمِ، المعنى: أَخْلِفَ بِالذَّارِيَّاتِ وَهَذِهِ الْأَشْيَاءِ، والجواب ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝﴾، قال قوم: المعنى: رَبُّ الذَّارِيَّاتِ، وَرَبُّ الْجَارِيَّاتِ.

قوله تعالى: ﴿فَالْحِيلَتِ دُورًا ۝﴾ يعني السحاب التي تحمل وقرها من الماء. ﴿فَالْمَرْيَتِ بِنَرًا ۝﴾ يعني السُّفُنَ تجري ميسرة [في الماء] جرياً سهلاً. ﴿فَالْمَقْنَنَتِ أَمْرًا ۝﴾ يعني الملائكة تقسم الأمور على ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ^(١). قال ابن السائب: والمقسّمات أربعة، جبريل، وهو صاحب الرُّوحِ والغلظة، وميكائيل، وهو صاحب الرُّزْقِ والرَّحْمَةِ، وإسرافيل، وهو صاحب الصُّورِ واللُّوحِ، وعزرائيل، وهو قابض الأرواح. وإنما أقسم بهذه الأشياء لما فيها من الدلالة على صنّعه وقُدْرته. ثم ذكر المُقَسِّمَ عليه فقال: ﴿إِنَّا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: من الثواب والعقاب يومَ القيامة ﴿لَصَادِقٌ﴾ أي: لَحَقٌّ. ﴿وَإِنَّ الْإِنِّ لَرِيفٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: الحساب. والثاني: الجزاء ﴿رِيفٌ﴾ أي: لَكَائِن. ثم ذكر قَسَمًا آخر فقال: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْمَكْبِ ۝﴾ وقرأ عمر بن الخطاب، وأبو رزين: «الحَبْكُ» بكسر الحاء والباء جميعاً. وقرأ عثمان بن عفان، والشعبي، وأبو العالية، وأبو حيوة: «الحَبْكُ» بكسر الحاء وإسكان الباء. وقرأ أبيُّ بن كعب، وابن عباس وأبو رجاء، وابن أبي عبيدة: «الحَبْكُ» برفع الحاء وإسكان الباء. وقرأ ابن مسعود، وعكرمة: «الحَبْكُ» بفتح الحاء والباء جميعاً. وقرأ أبو الدرداء، وأبو الجوزاء، وأبو المتوكل، وأبو عمران الجوني، وعاصم الجحدري: «الحَبْكُ» بفتح الحاء وكسر الباء. ثم في معنى «الحبك» أربعة أقوال: أحدها: ذات الخَلْقِ الحَسَنِ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال قتادة. والثاني: البُيَّانُ المُتَّفَقُ، قاله مجاهد. والثالث: ذات الرِّينَةِ، قاله سعيد بن جبيرة. وقال الحسن: حُبْكُهَا: نُجُومُهَا. والرابع: ذات الطرائق، قاله الضحاك واللغويون^(٢). وقال الفراء: الحُبْكُ: تَكْشُرُ كُلُّ شَيْءٍ كَالرَّمْلِ إِذَا مَرَّتْ بِهِ الرِّيحُ السَّاكِنَةُ، والماء القائم إِذَا مَرَّتْ بِهِ الرِّيحُ، والشَّعْرَةُ الجَعْدَةُ تَكْشُرُهَا حُبْكٌ، وواحد الحُبْكُ: جِبَاكُ وَحَبِيكَةُ. وقال الزجاج: أهل اللغة يقولون: الحُبْكُ: الطرائق الحسنة، والمَخْبُوكُ في اللغة: ما أُجِيدَ عَمَلُهُ، وكل ما تراه من الطرائق

(١) قال السيوطي في «الدرر»: ١١١/٦: أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، والحارث بن أبي أسامة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في «المصاحف» والحاكم وصححه، والبيهقي في «شعب الإيمان» من طرق عن علي بن أبي طالب عليه السلام في قوله: ﴿وَالْأَنزِلَ دُورًا ۝﴾ قال: الرياح ﴿فَالْحِيلَتِ دُورًا ۝﴾ قال: السحاب ﴿فَالْمَرْيَتِ بِنَرًا ۝﴾ قال: السفن ﴿فَالْمَقْنَنَتِ أَمْرًا ۝﴾ قال: الملائكة.

(٢) قال ابن كثير: وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس عليه السلام، فإنها من حسنها مرتفعة شفاقة صفيقة شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات.

في الماء وفي الرَّمْل إذا أصابته الرِّيح فهو حُبْك. وروى عن عبد الله بن عمرو أنه قال: هذه هي السماء السابعة. ثم ذكر جواب القَسَم الثاني، قال: ﴿إِنكُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿لَبِئْسَ قَوْلُ غَثَلٍ﴾ في أمر محمد ﷺ، بعضكم يقول: شاعر، وبعضكم يقول: مجنون. وفي القرآن [بعضكم] يقول: يسخر، وبعضكم يقول: كهانة ورجز، إلى غير ذلك. ﴿يُؤَلِّكُ عَنْهُ مَن أَيْكُ﴾ أي: يُصَرِّفُ عن الإيمان [به] مَن صَرَفَ [فحُرِّمَهُ]، [والهاء في «عنه» عائدة إلى القرآن، وقيل: يُصَرِّفُ عن هذا القول، أي: من أجله وسببه عن الإيمان من صَرَفَ]. وقرأ قتادة: «مَنْ أَيْكُ» بفتح الألف والفاء. وقرأ عمرو بن دينار: «مَنْ أَيْكُ» بفتح الألف وكسر الفاء. ﴿يُنَزِّلُ الْمَرْصُومَ﴾ قال الفراء: يعني [لعن] الكذَّابون الذين قالوا: إن النبي ﷺ ساحر وكذاب وشاعر، خَرَصُوا ما لا علم لهم به. وفي رواية العوفي عن ابن عباس: أنهم الكهنة. وقال ابن الأباري: والقتل إذ أخبر عن الله به فهو بمعنى اللعنة، لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي عَذْرٍ﴾ أي: في عَمَى وجهالة بأمر الآخرة: ﴿سَاهَوْنَ﴾ أي: غافلون. والسَّهْو: الغفلة عن الشيء. وذهاب القلب عنه. ﴿يَسْتَقُولُونَ يَوْمَ الْآزِلِ﴾ أي: يقولون: يا محمد متى يومُ الجزاء؟! تكذِّباً منهم واستهزاء. ثم أخبر عن ذلك اليوم، فقال: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى أَنْارٍ﴾ قال الزجاج: «اليوم» منصوب على معنى: يقع الجزاء يومَ هُمْ على النار ﴿يَسْتَقُولُونَ﴾ أي: يُحَرِّقُونَ ويمدَّبُونَ، ومن ذلك يقال للحجارة السود التي كأنها قد أحرقت بالنار: القَتِين.

قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا﴾ المعنى: يقال لهم: ذوقوا ﴿يَسْتَقُولُونَ﴾ وفيها قولان: أحدهما: تكذيبكم، قاله ابن عباس. والثاني: حريقكم، قاله مجاهد. قال أبو عبيدة: هاهنا تم الكلام، ثم انتنف، فقال: ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعِجِلُونَ﴾ قال المفسرون: يعني الذي كنتم تستعجلونه في الدنيا استهزاء. ثم ذكر ما وعد الله لأهل الجنة فقال: ﴿إِنَّ السَّاعِثِينَ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾ وقد سبق شرح هذا [البقرة: ٢٥، الحجر: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿مَنْزِلِينَ﴾ قال الزجاج؛ هو منصوب على الحال، فالمعنى: في جنات وعيون في حال أخذ ﴿مَا أَنْتُمْ بِهِمْ﴾ قال المفسرون: أي ما أعطاهم الله من الكرامة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَدْ ذُكِّرُوا بِحَسَنَاتِهِمْ﴾ في أعمالهم. وفي الآية وجه آخر: ﴿مَنْزِلِينَ مَا أَنْتُمْ بِهِمْ﴾ أي: عاملين بما أمرهم به من الفرائض ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَدْ ذُكِّرُوا بِحَسَنَاتِهِمْ﴾ أن تفرض الفرائض عليهم، ﴿مَنْزِلِينَ﴾ أي: مطيعين، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية مسلم البطين^(١). ثم ذكر إحسانهم فقال: ﴿كَانُوا قَدْ ذُكِّرُوا بِحَسَنَاتِهِمْ﴾ والهُجُوع: التَّوَمُّ بالليل دون النهار^(٢). وفي «ما» قولان: أحدهما: النفي. ثم في المعنى قولان: أحدهما: كانوا يسهرون قليلاً من الليل. قال أنس بن مالك، وأبو العالية: هو ما بين المغرب والعشاء. والثاني: كانوا ما ينامون قليلاً من الليل. واختار قوم الوقف على قوله: «قليلاً» على معنى: كانوا من الناس قليلاً، ثم ابتدأ فقال: «من الليل ما يهجعون» على معنى نفي النوم عنهم البتة، وهذا مذهب الضحَّاك، ومقاتل. والقول الثاني: أن «ما» بمعنى الذي، فالمعنى: كانوا قليلاً من الليل الذي يهجعونه، وهذا مذهب الحسن، والأحنف بن قيس، والزهري، وعلى هذا يحتمل أن تكون «ما» زائدة.

قوله تعالى: ﴿وَيَا لَأَسْمَارٍ هُمْ يَسْتَفْتِرُونَ﴾ وقد شرحناه في [آل عمران: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ هَيْ﴾ أي: نصيب، وفيه قولان: أحدهما: أنه ما يصلون به رَجْماً، أو يَقْرُون به ضيفاً، أو يحملون به كلاً، أو يعينون به محروماً، وليس بالزكاة، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الزكاة، قاله قتادة، وابن سيرين.

(١) رَوَاهُ ابن جرير ١٩٦/٢٦ وفي سننه ضعف وانقطاع، وذكره ابن كثير عن عثمان بن أبي شيبة بسند حسن. وقد رد ابن كثير على ابن جرير هذا التفسير الذي أورده في «تفسيره» واتصّر عليه بقوله: والذي فسّر به ابن جرير، فيه نظر، لأن قوله تبارك وتعالى: ﴿مَنْزِلِينَ﴾ حال من قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ هَيْ﴾ فالمتقون في حال كونهم في الجنان والعيون آخذين ما آتاهم ربهم، أي: من النعم والسرور والغبطة. وقوله ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَدْ ذُكِّرُوا بِحَسَنَاتِهِمْ﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿مَنْزِلِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَتَيْنَا بِكَ إِلَّا الْآيَاتِ الْآلِيَّةَ﴾.

(٢) رَوَى أحمد في «المسند» والترمذي وابن ماجه في «مستهم» بسند صحيح عن عبد الله بن سلام قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة انجفل الناس عليه (أي: ذهبوا)، مسرعين إليه فكتكت فيمن انجفل، فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يقول: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَآتٍ﴾ وهو الطالب. وفي: «المَحْرُوم» ثمانية أقوال: أحدها: أنه الذي ليس له سهم في شيء المسلمين، وهو الْمُحَارَفُ^(١)، قاله ابن عباس. وقال إبراهيم: هو الذي لا سهم له في الغنيمة. والثاني: أنه الذي لا ينمى له شيء، قاله مجاهد، وكذلك قال عطاء: هو المحروم في الرزق والتجارة. والثالث: أنه المسلم الفقير، قاله محمد بن علي. والرابع: أنه المتعفف الذي لا يسأل شيئاً، قاله قتادة، والزهري. والخامس: أنه الذي يجيء بعد الغنيمة، وليس له فيها سهم، قاله الحسن بن محمد ابن الحنفية. والسادس: أنه المصاب ثمرته وزرعه أو نسل ماشيته، قاله ابن زيد. والسابع: أنه المملوك، حكاه الماوردي. والثامن: أنه الكلب، روي عن عمر بن عبد العزيز. وكان الشعبي يقول: أعياني أن أعلم ما المحروم. وأظهر الأقوال قول قتادة والزهري، لأنه قرنه بالسائل، والمتعفف لا يسأل - ولا يكاد الناس يعطون من لا يسأل - ثم يتحفظ بالمتعفف من ظهور أثر الفاقة عليه، فيكون محروماً من قبل نفسه حين لم يسأل، ومن قبل الناس حين لا يعطونه، وإنما يفطن له متيقظ. وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة، ولا يصح.

قوله تعالى: ﴿وَرَبِّ الْأَرْضِ أَرْبَتٌ﴾ كالجبال والأنهار والأشجار والثمار وغير ذلك ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ بالله ﷻ الذين يعرفونه بصنعه. ﴿وَرَبِّ أَمْشِكُ﴾ آيات إذ كنتم نطفة، ثم عظاماً، ثم علقاً، ثم مضغاً، إلى غير ذلك من أحوال الاختلاف، ثم اختلاف الصور والألوان والطباع، وتقويم الأدوات، والسمع والبصر والعقل، وتسهيل سبيل الحدث، إلى غير ذلك من العجائب المودعة في ابن آدم. وتم الكلام عند قوله: «وفي أنفسكم»، ثم قال: «أَفَلَا تُبْصِرُونَ» قال مقاتل: أفلا تبصرون كيف خلقكم فتعرفوا قدرته على البعث^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَرَبِّ السَّعْدِ زُفْرُكُ﴾ وقرأ أبي بن كعب، وحמיד، وأبو حصين الأسدي: «أزرافكم» براء ساكنة وبألف بين الزاي والقاف. وقرأ ابن مسعود، والضحاك، وأبو نهيك: «أزرافكم» بفتح الراء وكسر الزاي وبألف بينهما. وعن ابن محيصن^(٣) كهاتين القراءتين. وفيه قولان: أحدهما: أنه المطر، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وليث عن مجاهد، وهو قول الجمهور. والثاني: الجنة، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد. وفي قوله: ﴿مَا تُرْكُوتُ﴾ قولان: أحدهما: أنه الخير والشر كلاهما يأتي من السماء، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وابن أبي نجيح عن مجاهد. والثاني: الجنة، رواه ليث عن مجاهد. قال أبو عبيدة: في هذه الآية مضمهر مجازة: عند من في السماء زركم، وعنده ما توعدون، والعرب تضمر، قال نابغة [ذبيان]:

كَأَنَّكَ مِنْ جَمَالِ بَنِي أَقْيَشٍ

يُقَفِّعُ خَلْفَ رِجْلَيْهِ بِشْنٌ^(٤)

أراد: كأنك جمل من جمال بني أقيش.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَحَقُّ﴾ قال الزجاج: يعني ما ذكره من أمر الآيات والرزق وما توعدون وأمر النبي ﷺ ﴿يَنْتَلِ مَا أَنْتُمْ تَلْفُونَ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «مِثْلُ» برفع اللام. وقرأ الباقر بنصب اللام. قال الزجاج: فمن رفع «مِثْلُ» فهي من صفة الحق، والمعنى: إنه لَحَقٌّ مِثْلُ نَطْقِكُمْ؛ ومن نصب فعلى ضربين: أحدهما: أن يكون في موضع رفع، إلا أنه لما أضيف إلى «أَنْ» فُتِحَ. والثاني: أن يكون منصوباً على التأكيد، على معنى: إنه لَحَقٌّ حَقًّا مِثْلُ نَطْقِكُمْ، وهذا الكلام كما تقول: إنه لَحَقٌّ كما أنك تتكلم.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُرْسَمٍ﴾ إِنْ دَعَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿١٥﴾ ذَرَأَ لَكَ الْغُلَاقَ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَبِينٍ ﴿١٦﴾ فَفَرَّغَتْ إِلَيْهِمْ قَالَتْ لَا تَأْكُلُوهَا ﴿١٧﴾ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَنْفَخُوا فِيْهِمْ عِلْيَسٌ ﴿١٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْزَانُ فِي صَرَرٍ فَصَكَّتْ

(١) قال في «الصحاح»: ورجل محارف، بفتح الراء، أي محدود محروم، وهو خلاف قولك: مبارك، وقد حورف كسب فلان: إذا شدد عليه في معاشه، كأنه ميل برزقه عنه.

(٢) قال ابن جرير الطبري: ﴿وَرَبِّ أَمْشِكُ﴾ أيضاً أيها الناس آيات وعبر لتدلكم على وحدانية صانعكم، وأنه لا إله لكم سواه، إذ كان لا شيء يقدر على أن يخلق مثل خلقه إياكم ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يقول: أفلا تنظرون في ذلك فتذكروا فيه فتعلموا حقيقة وحدانية خالقكم؟

(٣) في الأصل: «محيصن».

(٤) تقدم البيت ٥٥٨.

وَجَهَنَّا وَقَاتَ عَجْرٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّنَا إِنَّهُ هُوَ الْعَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكُمْ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ جِبَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَانْفِرْحَا مِنْ كَانٍ فِيهَا مِنْ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَرَكَّعًا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ صَبِيبٍ يُرَبِّعُ الْمُكَرَّمِينَ﴾ (٣٦) «هل» بمعنى «قد» في قول ابن عباس، ومقاتل، فيكون المعنى: قد أتاك فاستمع نقضه عليك، وصيغه: هم الذين جاؤوا بالبشرى. وقد ذكرنا عددهم في [هود: ٧٠]، وذكرنا هناك معنى الضَّيْف. وفي معنى «المُكَرَّمِينَ» أربعة أقوال: أحدها: لأنه أكرمهم بالعِجْل، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والثاني: بأن خدمهم هو وامراته بأنفسهما، قاله السدي. والثالث: أنهم مُكْرَمُونَ عند الله، قاله عبد العزيز بن يحيى. والرابع: لأنهم أضياف، والأضياف مُكْرَمُونَ، قاله أبو بكر الورَّاق.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا سَلَكُوا﴾ قد ذكرناه في [هود: ٧٠].

قوله تعالى: ﴿قَوْمٌ شُكِرُوا﴾ قال الزجاج: ارتفع على معنى: أنتم قومٌ مُنْكَرُونَ. وللمفسرين في سبب إنكارهم أربعة أقوال: أحدها: لأنه لم يعرفهم، قاله ابن عباس. والثاني: لأنهم سلموا عليه، فأنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض، قاله أبو العالية. والثالث: لأنهم دخلوا [عليه] من غير استئذان. والرابع: لأنه رأى فيهم صورة البشر وضورة الملائكة.

قوله تعالى: ﴿فَرَأَى إِلَهُ الْكَافِرِينَ﴾ قال ابن قتيبة: أي: عدل إليهم في خفية، ولا يكون الرواغ إلا أن تُخْفِيَ ذهابك ومجيئك.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا يَبْغِطُ سَيِّئٌ﴾ وكان مشورتاً ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ قال الزجاج: والمعنى: فقرَّبه إليهم ليأكلوا منه، فلم يأكلوا، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ؟﴾ على التكثير، أي: أمرُكم في ترك الأكل مما أنكره^(١).

قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَسَ مِنْهُمْ خَبِيثَةً﴾ قد شرحناه في [هود: ٧٠]، وذكرنا معنى: «غلام عليم» في [الحجر: ٥٤]. ﴿فَأَنْجَسَ أَمْرَانَهُمْ﴾ وهي: سارة. قال الفراء وابن قتيبة: لم تُقْبَلِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ، وإنما هو كقولك: أقبل يَشْتُمْنِي، وأقبل يَصْبِحُ ويتكلم، أي: أخذ في ذلك، والصَّرة: الصبيحة. وقال أبو عبيدة: الصَّرة: شدة الصوت. وفيما قالت في صبيحتها قولان: أحدهما: أنها تأوَّهت، قاله قتادة. والثاني: أنها قالت: يا ويلتا، ذكره الفراء.

قوله تعالى: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ فيه قولان: أحدهما: لطمت وجهها، قاله ابن عباس. والثاني: ضربت جبينها تعجباً، قاله مجاهد. ومعنى الصَّكُّ: ضَرْبُ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ العريض^(٢). ﴿وَقَاتَ عَجْرٌ﴾ قال الفراء: هذا مرفوع بإضمار «أَتَلَدُ عَجْرٌ». وقال الزجاج: المعنى: أنا عجوز عقيم، فكيف ألد؟ وقد ذكرنا معنى «الْعَقِيمِ» في [هود: ٧٢]. ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّنَا﴾ أنك ستلدين غلاماً؛ والمعنى: إنما نُخْبِرُكَ عن الله ﷻ وهو حكيم عليم يَقْدِرُ أن يجعل العقيم ولوداً، فعَلِمَ [حيثما] إبراهيم أنهم ملائكة. ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ مفسر في [الحجر: ٥٧].

قوله تعالى: ﴿جِبَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ قال ابن عباس: هو الأجر.

قوله تعالى: ﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ قد شرحناه في [هود: ٨٣].

قوله تعالى: ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ قال ابن عباس: للمشركين.

قوله تعالى: ﴿فَانْفِرْحَا مِنْ كَانٍ فِيهَا﴾، أي: من قُرى لوط ﴿وَمِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَنْتَرِ بِأَهْلِكَ﴾ الآية.

[هود: ٨٢].

(١) قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ؟﴾: تَلَطَّفَ في العبارة وعرض حسن، وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة، فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولاً فقال: تأنيتكم بطعام. بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله وهو عجل فتي سمين مشوي. فقرَّبه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ؟﴾ على سبيل العرض والتلطُّف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تفضل وتحسن وتصدق فافعل.

(٢) قال في، «اللسان»: الصك: الضرب الشديد بالشئ العريض، وقيل: هو الضرب عامة بأي شيء كان، صكه يصكه صكاً.

﴿فَمَا يَصَدَّقُ فِيهَا مَعَرَّةٌ بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ السَّالِفِينَ﴾ وهو لوط وابنتاه، وصفهم الله ﷻ بالإيمان والإسلام، لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم.

﴿وَرَبَّكَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: علامة للخائفين من عذاب الله تذكُّلهم على أن الله أهلهم. وقد شرحنا هذا في [المنكوت: ٣٥] وبيننا المكني عنها.

﴿وَفِي مَوْجٍ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى رِجْوَى يَسْلُطُونَ ثِيَابًا﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿وَقَالَ سَكِرٌ أَوْ جَحُونٌ﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُ وَهْوَ وَهْوَ وَهْوَ قَبْذَتَهُمْ فِي الْيَمِّ وَهْوَ ثِيَابٌ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿وَفِي مَوْجٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْرِ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَسْبَحُوا حَقَّ حِينٍ﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ يَمَارٍ وَمَا كَانُوا مُتَسِمِّعِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿وَقَوْمٌ شُجَّ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿وَالسَّامَةِ بَيْنَتْهَا آيَاتُهُ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿وَالْأَرْضُ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَوْجِدُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿فَقُرْآءَ إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرِهُنَّ ذِكْرٌ لِيُتِيَنِّي﴾ ﴿٥١﴾ ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكَرِهُنَّ ذِكْرٌ لِيُتِيَنِّي﴾ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَفِي مَوْجٍ﴾ أي: وفيه أيضاً آية ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى رِجْوَى يَسْلُطُونَ ثِيَابًا﴾ أي: بحجة ظاهرة ﴿فَتَوَلَّى﴾ أي: أعرض ﴿بِرُكْبِهِ﴾ قال مجاهد: بأصحابه. وقال أبو عبيدة: «بركته» و «بجانبه» سواء، إنما هي ناحيته ﴿وَقَالَ سَكِرٌ﴾ أي: وقال لموسى: هذا ساحر ﴿أَوْ جَحُونٌ﴾ وكان أبو عبيدة يقول: «أو» بمعنى الواو. فأما «الْيَمُّ» فقد ذكرناه في [الأعراف: ١٣٦] و «ثِيَابٌ» في [الصافات: ١٤٢].

قوله تعالى: ﴿وَفِي مَوْجٍ﴾ أي: في إهلاكهم آية أيضاً ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ^(١) وهي التي لا خير فيها ولا بركة، لا تُلْقِحُ شَجَرًا وَلَا تَحْمِلُ مَطَرًا، وإنما هي للإهلاك. وقال سعيد بن المسيب: هي الجنوب. ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: من أنفسهم وأموالهم، ﴿إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْرِ﴾ أي: كالشيء الهالك البالي. قال الفراء: الرميم: نبات الأرض إذا يَبَسَ وَوَيْسَ. وقال الزجاج: الرميم: الورق الجاف المتحطم مثل الهشيم. ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ آية أيضاً ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَسْبَحُوا حَقَّ حِينٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه قيل لهم: تَسْبَحُوا في الدنيا إلى وقت انقضاء آجالكم تهتدأ لهم. والثاني: أن صالحاً قال لهم بعد عَشْرِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ: فَمَنْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا إِلَى وَقْتِ انْقِضَاءِ آجَالِكُمْ تَهْتَدُوا لَهُمْ. والثاني: أن صالحاً قال لهم بعد عَشْرِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ: تَسْبَحُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ؛ فكان الجين وقت فناء آجالهم، ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ قال مقاتل: عصوا أمره ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ﴾ يعني العذاب، وهو الموت من صيحة جبريل. وقرأ الكسائي وحده: «الصَّيْقَةُ» [بسكون العين من غير ألف]؛ وهي الصَّوْت الذي يكون عن الصاعقة.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: يَرَوْنَ ذلك عَيْنًا. والثاني: وهم يَنْتَظِرُونَ العذاب، فاتاهم صيحة يوم السبت.

قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ يَمَارٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: ما استطاعوا نُهوضاً من تلك الصَّرعَة. والثاني: ما أطافوا ثُبوتاً لعذاب الله ﴿وَمَا كَانُوا مُتَسِمِّعِينَ﴾ أي: ممتنعين من العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ شُجَّ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ قرأ أبو عمرو إلا عبد الوارث، وحمزة، والكسائي: بخفض الميم، وروى عبد الوارث رفع الميم، والباقون بنصبها. قال الزجاج: من خفض القوم فالمعنى: وفي قوم نوح آية، ومن نصب فهو عطف على معنى قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ فإن معناه: أهلكتناهم، فيكون المعنى: وأهلكتنا قوم نوح، والأحسن - والله أعلم - أن يكون محمولاً على قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُ وَهْوَ وَهْوَ قَبْذَتَهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ لأن المعنى: أغرقناه، وأغرقنا قوم نوح. ﴿وَالسَّامَةِ بَيْنَتْهَا﴾ المعنى: وبيننا السماء بنيانها ﴿بِأَيُّوْهُ﴾ أي بقوة، وكذلك قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وسائر المفسرين واللغويين: «بأيد» أي بقوة. وفي قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ خمسة أقوال: أحدها: لموسعون الرِّزْقَ بالمطر، قاله الحسن. والثاني: لموسعون السماء، قاله ابن زيد. والثالث: لقادرون، قاله ابن قتيبة. والرابع: لموسعون ما بين السماء والأرض، قاله الزجاج. والخامس: للوسع لا يضيق عما يريد، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَوْجِدُونَ﴾ قال الزجاج: هذا عطف على ما قبله منصوب بفعل مُضْمَر

(١) وفي الديور، فقد روى مسلم في «صحيحه» ٦١٧/٢ عن عبد الله بن عباس ؓ عن النبي ﷺ أنه قال: «نصرت بالصبا، وأهلكت هاد بالديور».

محذوف يدل عليه قوله: «فرشناها»، فالمعنى فرشنا الأرض فرشناها «فَعَمَّ الْكَهْدُونَ» أي: فيعم الماهدون نحن. قال مقاتل: «فرشناها» أي: بسطانها مسيرة خمسمائة عام، وهذا بعيد، وقد قال قتادة: الأرض عشرون ألف فرسخ^(١)، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: «وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ»، أي: صنفين ونوعين كالذكر والأنثى، والبر والبحر، والليل والنهار، والحلو والمُر، والثور والغنم، وأشياء ذلك «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» فتعلموا أن خالق الأزواج واحد. «فَتَوَرَّأَ إِلَى اللَّهِ» بالتوبة من ذنوبكم؛ والمعنى: اهتروا مما يوجب العقاب من الكفر والعصيان إلى ما يوجب الثواب من الطاعة والإيمان.

«كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رُّسُلٍ إِلَّا قَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَالُوا مَآرٍ أَوْ بَحْرُونٌ» ﴿٥٢﴾ «أَتَأْمُرُوا بِمَا كُنَّا نَأْمُرُ بِمَا كُنَّا نَنْهَىٰ عَنْهُ» ﴿٥٣﴾ «وَمَا خَلَقْنَا الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَهُ» ﴿٥٤﴾ «مَا أُرِيدُ بِهِمْ مِن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطِيعُونِي» ﴿٥٥﴾ «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْتَبَّ» ﴿٥٦﴾ «فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا تَبْلُغُ أَصْحَابَهُمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ» ﴿٥٧﴾ «قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ» ﴿٥٨﴾

قوله تعالى: «كَذَلِكَ» أي: كما كذبت قومك وقالوا: ساحر أو مجنون، كانوا من قبلك يقولون للأنبياء. قوله تعالى: «أَتَأْمُرُوا بِمَا كُنَّا نَأْمُرُ بِمَا كُنَّا نَنْهَىٰ عَنْهُ» أي: أوصى أولهم آخرهم بالكذب؟ وهذا استفهام توبيخ. وقال أبو عبيدة: أنواطوا عليه فأخذ بعضهم من بعض؟

قوله تعالى: «بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ» أي يحملهم الطغيان فيما أعطوا من الدنيا على التكذيب؛ والمشار إليهم أهل مكة. «فَقَدْ بَلَغْتَهُمْ» «فَمَا أَتَىٰ» عليهم «يَسْأَلُونَ» لأنك قد أدت الرسالة. ومذهب أكثر المفسرين أن هذه الآية منسوخة، ولهم في ناسخها قولان: أحدهما: أنه قوله: «وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَ نَفَعَ الْمُؤْمِنِينَ» ﴿٥٥﴾. والثاني: آية السيف. وفي قوله: «وَذَكَرَ» قولان: أحدهما: عطف، قاله مقاتل. والثاني: ذكرهم بأيام الله وعذابه ورحمته، قاله الزجاج.

قوله تعالى: «وَمَا خَلَقْنَا الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَهُ» ﴿٥٤﴾ أثبت الباء في «يعبدون» و «يطيعون» و «لا يستعجلون» في الحاليين يعقوب. واختلفوا في هذه الآية على أربعة أقوال: أحدها: إلا لأمرهم أن يعبدوني، قاله علي بن أبي طالب، واختاره الزجاج. والثاني: إلا ليُقرَّبوا بالعبودية طوعاً وكرهاً، قاله ابن عباس؛ وبيان هذا قوله: «وَكَيْنَ سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِهِمْ لِيَقُولَ اللَّهُ» [الزعر: ٨٧]. والثالث: أنه خاص في حق المؤمنين. قال سعيد بن المسيب: ما خلقت من يعبدني إلا ليعبديني. وقال الضحاك، والفراء، وابن قتيبة: هذا خاص لأهل طاعته، وهذا اختيار القاضي أبي يعلى فإنه قال: معنى هذا الخصوص لا العموم، لأن البهائم والأطفال والمجانين لا يدخلون تحت الخطاب وإن كانوا من الإنس، فكذلك الكفار يخرجون من هذا بدليل قوله: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كُفْرًا بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ» [الاعراف: ١٧٩]، فمن خلق للشقاء ولجهنم، لم يخلق للعبادة. والرابع: إلا ليخضعوا إلي وتذلَّلوا. ومعنى العبادة في اللغة: الذلُّ والانقياد. وكلُّ الخلق خاضع ذليل لقضاء الله ﷻ لا يملك خروجاً عما قضاه الله ﷻ، هذا مذهب جماعة من أهل المعاني.

قوله تعالى: «مَا أُرِيدُ بِهِمْ مِن رِّزْقٍ» أي: ما أريد أن يرزقوا أنفسهم «وَمَا أُرِيدُ أَن يُطِيعُونِي» أي: أن يطيعوا أحداً من خلقي، لأنني أنا الرزاق. وإنما أسند الإطعام إلى نفسه، لأن الخلق عيال الله، ومن أطعم عيال أحد فقد أطعمه. وقد جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله ﷻ يوم القيامة: يا ابن آدم: استطعنتك فلم تطعمني»، أي: لم تطعم عبيدي^(٢). فأما «الرَّزَّاقُ» فقرأ الضحاك، وابن محيصن: «الرازق» بوزن «العالم». قال الخطابي: هو المشكَّلُ بالرزق القائم على كل نفس بما يقيمها من قوتها. «الَّتِي» الشديد القوة الذي لا تنقطع قوته ولا يلحقه في

(١) ليس في هذا خبر عن الشارع، وإنما هو ضرب من الظن والتخمين.

(٢) وهو قطعة من حديث طويل رواه مسلم في «صحيحه» ١٩٩٠/٤، ونصه: عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ﷻ يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعطني، يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال أما علمت أن عبيدي فلا تأمرني فلم تعمد، أما علمت أنك لو عدتني لوجدتني عندك؟ يا ابن آدم استطعنتك فلم تطعمني، قال: يا رب وكيف أطعمتك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعنتك عبيدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيت فلم تسقيني، قال: يا رب وكيف أسقيت وأنت رب العالمين؟ قال: استسفاك عبيدي فلان فلم تسقه، أما إنك لم تسقيته ووجدت ذلك عندي».

أفعاله مَشَقَّة. وقد روى قتبية عن الكسائي أنه قرأ: «المتين» بكسر النون. وكذا قرأ أبو رزين، وقتادة، وأبو العالية، والأعمش. قال الزجاج: «ذُو الْقُوَّةِ المتين» أي: ذو الاقتدار الشديد، ومن رفع «المتين» فهو صفة الله ﷻ، ومن خفضه جعله صفة للقوة، لأن تانيث القوة تأنيث الموعظة، فهو كقوله: «فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ» [البقرة: ٢٧٥].

قوله تعالى: «كَانَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا» يعني مشركي مكة «ذُنُوبًا» أي: نصيباً من العذاب «يُنْزَلُ ذُنُوبُ الْمُصْحَفِ» الذين أهلكوا، كقوم نوح وعاد وثمود. قال الفراء: الذُّنُوبُ في كلام العرب: الدَّلُوءُ العظيمة، ولكن العرب تذهب بها إلى النَّصِيبِ والحِظِّ: ^(١)، قال الشاعر:

لَنَا ذُنُوبٌ وَلَكُمْ ذُنُوبٌ فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيلُ ^(٢)
والذُّنُوبُ يُذَكَّرُ ويؤنث. وقال ابن قتيبة، أصل الذُّنُوب: الدَّلُوءُ العظيمة، وكانوا يَسْتَقُونَ، فيكون لكل واحد ذُنُوبٌ، فجعل «الذُّنُوب» مكان «الحِظِّ والنَّصِيب».

قوله تعالى: «فَلَا يَسْتَعْمِلُونَ» أي: بالعذاب إن أُخِرُوا إلى يوم القيامة، وهو يومهم الذي يوعدون، ويقال: هو يوم بدر.



(١) وتعام كلام الفراء: وبذلك أتى الضمير، فإن للذين ظلموا حظاً من العذاب كما نزل بالذين من قبلهم.

(٢) البيت في معاني القرآن الورقة ٣١٣، والطبري ٢٧/٤٤، والبحر ٨/١٣٢، واللسان والتاج: ذنب. والقلوب: البشر.

سورة الطور

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورُ ١﴾ وَكَتَبْنَا مَسْطُورًا ٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ٣﴾ وَاللَّيْلِ الْمَعْمُورِ ٤﴾ وَالسَّجِّفِ الْوَرُوعِ ٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧﴾ مَا لَمْ يَنْ دَافِعٌ ٨﴾ يَوْمَ تُغْشَى السَّمَكَةُ مَوْرًا ٩﴾ وَتُسَبَّرُ الْجِبَالُ سَبْرًا ١٠﴾ قَوْلٌ لَّيْمٌ لِلْكَافِرِينَ ١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ لَّيْمُونٍ ١٢﴾ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا ١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ١٥﴾ أَصَلَوْا فَأَصْبَحُوا أَوْ لَا صَبِيحًا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَالطُّورُ ١﴾ هذا قَسَمٌ بالجبل الذي كُلَّمُ اللَّهُ ﷻ عليه موسى ﷺ، وهو بأرض مَدْيَنَ [واسمه زَبِيرًا] (١). ﴿وَكُتِبَ مَسْطُورًا ٢﴾ أي: مكتوب، وفيه أربعة أقوال: أحدها: أنه اللوح المحفوظ، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: كتب أعمال بني آدم، قاله مقاتل، والزجاج. والثالث: التوراة. والرابع: القرآن، حكاهما الماوردي.

قوله تعالى: ﴿فِي رَقٍّ﴾ قال أبو عبيدة: الرُّقُّ: الورَق. فأما المنشور: فهو المبسوط.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ الْمَعْمُورِ ٣﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه بيت في السماء. وفي أي سماء هو؟ [فيه] ثلاثة أقوال: أحدها: [أنه] في السماء السابعة، رواه أنس عن النبي ﷺ (٢). وحديث مالك بن صعصعة الذي أخرج في «الصحيحين» يدل عليه (٣). والثاني: أنه في السماء السادسة، قاله علي ﷺ (٤). والثالث: أنه في السماء الدنيا، رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ (٥). وقال ابن عباس: هو حيال الكعبة يُحْجَّه كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، يَسْمَى الضُّرَّاحُ. وقال الربيع بن أنس: كان البيت المعمور مكان الكعبة في زمان آدم، فلَمَّا كَانَ زَمَنُ نُوحٍ أَمَرَ النَّاسَ بِحُجَّهِ، فَعَصَوْهُ، فَلَمَّا طَغَى الْمَاءُ رُفِعَ فُجِّلَ بِحِذَاءِ الْبَيْتِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا (٦). والثاني: أنه البيت الحرام، قاله الحسن. وقال أبو عبيدة: ومعنى «المعمور»: الكثير الغاشية.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّجِّفِ الْوَرُوعِ ٥﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه السماء، قاله علي ﷺ والجمهور. والثاني: العرش، قاله الربيع.

(١) قال ابن كثير: يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم، قال. فالطور: هو الجبل الذي يكون فيه أشجار مثل الذي كلم الله عليه موسى وأرسل منه عيسى، قال: وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طوراً، إنما يقال له جبل. اهـ.

(٢) روى ابن جرير الطبري ١٧/٢٧ من حديث حماد عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ قال: «البيت المعمور في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة» ورواه الحاكم ٤٦٨/٢ وصححه ووافقه الذهبي، وأوردته السيوطي في «الدرر» ١١٦/٦ وزاد نسبه لابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٣) حديث مالك بن صعصعة رواه البخاري في «صحيحه» ٢١٩/٦، ومسلم ١٥٠/١ وهو حديث طويل، والشاهد منه هنا قوله ﷺ «فأُتِنَا السَّمَاءُ السَّابِعَةَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قِيلَ: جبريل، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قِيلَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ مَرَحِبًا بِهِ وَلِنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ، فَأُتِنَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ فَسَلِمَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ: مَرَحِبًا بِكَ مِنْ ابْنِ وَثْقَى، فَرَفَعَ لِي الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ، فَسَأَلْتُ جَبْرِيْلَ، فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَصْلِي فِيهِ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ، أَخْرَجَ مَا عَلَيْهِمْ...» واللفظ للبخاري.

(٤) رواه ابن جرير الطبري ١٦/٢٧ وفي سنده خالد بن عرعة وهو مجهول، وهو معارض للحديث الصحيح.

(٥) ذكره السيوطي في «الدرر» ١١٧/٦ ونسبه إلى ابن المنذر، والعقيلي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وضعف إسناده. وقال ابن كثير: والذي في السماء الدنيا يقال له: بيت العزة، والله أعلم.

(٦) والقول الأول، وهو أن البيت المعمور في السماء السابعة هو الصواب كما ثبت ذلك في «الصحيحين» وغيرهما.

قوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرُ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه بحر تحت العرش ماؤه غليظ يُنْظَرُ العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحاً فينبئون في قبورهم، قاله علي عليه السلام. والثاني: أنه بحر الأرض^(١)، ذكره الماوردي. وفي ﴿الْأَشْجُرُ﴾ أربعة أقوال: أحدها: المملوء، قاله الحسن، وأبو صالح، وابن السائب، وجميع اللغويين^(٢). والثاني: أنه الموقد، قاله مجاهد، وابن زيد. وقال شمر بن عطية: هو بمنزلة التنور المسجور. والثالث: أنه اليباس الذي قد ذهب ماؤه ونضب، قاله أبو العالية. وروي عن الحسن قال: تسجر، يعني البحار، حتى يذهب ماؤها، فلا يبقى فيها قطرة. وقول هذين يرجع إلى معنى قول مجاهد. وقد نقل في الحديث «أن الله تعالى يجعل البحار كلها ناراً، فتزاد في نار جهنم»^(٣). والرابع: أن «المسجور» المختلط عذبه بملحه، قاله الربيع بن أنس. فأقسم الله تعالى بهذه الأشياء للتنبيه على ما فيها من عظيم قدرته على أن تعذيب المشركين حتى، فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾^(٤) أي: لكائن في الآخرة. ثم بين متى يقع، فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوَرًا﴾^(٥) وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: تدور دوراً، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وهو اختيار الفراء وابن قتيبة والزجاج. والثاني: تحرك تحركاً، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال قتادة. وقال أبو عبيدة: «تمور» أي: تكفأ، وقال الأعشى:

كَأَنَّ مَشْيَتْهَا مِنْ بَيْتٍ جَارَتْهَا
مَوْرُ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلٌ^(٦)

والثالث: يمرج بعضها في بعض لأمر الله تعالى، قاله الضحاك. وما بعد هذا قد سبق بيانه [النمل: ٨٨] إلى قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ لَيَمُونُ﴾^(٧) أي: يخوضون في حديث محمد ﷺ بالكذب والاستهزاء، ويلهون بذكره، فالويل لهم. ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ﴾ قال ابن قتيبة: أي: يُدْعَوْنَ، يقال: دَعَعْتُهُ أَذْعُهُ، أي: دفعته، ومنه قوله: ﴿يَدْعُ الْيَمِينُ﴾ [الماعون: ٢]. قال ابن عباس: يُدْفَعُ في أعناقهم حتى يردوا النار. وقال مقاتل: تُغْلُ أَيْدِيهِمْ إلى أعناقهم وتُجْمَعُ نواصيهم إلى أقدامهم، ثم يُدْفَعُونَ إلى جهنم على وجوههم، حتى إذا دنوا منها قالت لهم خزنتها: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾^(٨) في الدنيا «فَاسْأَلُوا هَذَا» العذاب الذي ترون؟ فإنكم زعمتم أن الرُّسُلَ سحرة «لَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ» النار؟ فلما ألقوا فيها قال لهم خزنتها: «أَسْأَلُكُمْ». وقال غيره: لما نسبوا محمداً ﷺ إلى أنه ساحر يغطي على الأبصار بالسحر، ويخون عند رؤية النار بهذا التوبيخ، وقيل: «أَسْأَلُكُمْ» أي: قاسوا شِدَّتَهَا «فَأَصْبِرُوا» على العذاب «أَوْ لَا صَبْرًا سِوَاكَ عَلَيْكُمْ» الصبر والجزع «إِنَّمَا تَجْرُونَ» جزاء «مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» من الكفر والتكذيب.

﴿وَإِنَّ الْآلِفِينَ فِي جَهَنَّمَ لَمِيعٌ﴾^(٩) فكيفهم بما ءَانَتْهُمْ رَيْثُهم وَوَقَعَتْهُمْ رَيْثُهم عَذَابُ الْجَحِيمِ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَيْثَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١٠) فكيفهم على سُوءِ مَصْئُولَةٍ وَزَجْنَةٍ بِحُورٍ عِينٍ ﴿﴾^(١١)

ثم وصف ما للمؤمنين بما بعد هذا، وقوله: ﴿فَنُكَبِّهِمْ﴾ قرئت بآلف ويغير ألف، وقد شرحناها في [يس: ٥٥]، «وَوَقَعَتْهُمْ» أي: صرف عنهم و «الْجَحِيمِ» مذكور في [البقرة: ١١٩]. «كُلُوا» أي: يقال لهم: كُلُوا «وَاشْرَبُوا هَيْثَا» تأمنون حدوث المرض عنه. قال الزجاج: المعنى: ليهنكم ما صيرتم إليه، وقد شرحنا هذا في سورة [النساء: ٤]. ثم ذكر حالهم عند أكلهم وشربهم، فقال: ﴿مُنْكَبِّينَ عَلَى سُرُرٍ﴾ وقال ابن جرير: فيه محذوف تقديره: على تمارق على سُرُرٍ، وهي جمع سرير «مَصْئُولَةٍ» قد وُضِعَ بعضها إلى جنب بعض. وباقي الآية مفسر في سورة [الدخان: ٥٤].

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِذْنِ اللَّهِ لَنُفِئَنَّ لَهُمْ دُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾^(١٢) وَلَمَّا دَنَّتْهُمْ فَنُكَبِّهِمْ وَلَعْنَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿يَا كَايَا لَا تُفَرِّقْ بَيْنَ مَا يَشَاءُ اللَّهُ وَبَيْنَ أَرْوَاحَ الَّذِينَ هُمُ يَكْتُمُونَ﴾^(١٣) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَلَّوْنَ ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي ءَاقِلَاءٍ مُتَقِفِينَ ﴿فَمَنْ أَتَى اللَّهَ عَلَى شَيْءٍ وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾^(١٤) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلَ نَدْعُوهُ إِنَّهُمْ هُمُ الْآخِرُ الرَّحِيمُ ﴿﴾^(١٥)

(١) وهو قول الجمهور، والأول لا يصح.

(٢) وهو الذي اختاره الطبري ووجهه بأنه ليس موقداً اليوم فهو مملوء.

(٣) لم نقف على هذا الحديث مستنداً فيما بين أيدينا من المصادر، وقد أورده بعض المفسرين كالمتصف بلا سند.

(٤) «ديوانه» ٥٥، و«مجاز القرآن» ٢/ ٢٣١، و«الطبري» ٢٧/ ٢٠، و«مختار الشعر الجاهلي» ٧/ ٩٧، و«اللسان» و«التاج»: مور. وفي «الديوان»: «مَرَّ» بدل «مور».

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وحزمة، والكسائي: «وَاتَّبَعْتَهُمْ» بالناء «ذُرِّيَّتَهُمْ» واحدة ﴿بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ واحدة أيضاً. وقرأ نافع: «وَاتَّبَعْتَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» واحدة «بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» جمعاً. وقرأ ابن عامر: «وَاتَّبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» «بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» جمعاً في الموضعين. واختلفوا في تفسيرها على ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناها: اتَّبعْتَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بإيمان الحقنا بهم [ذُرِّيَّتَهُمْ] من المؤمنين في الجنة، وإن كانوا لم يبلِّغوا أعمال آبائهم، تكملةً من الله تعالى لأبائهم المؤمنين باجتماع أولادهم معهم. روى هذا المعنى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. والثاني: وَاتَّبَعْتَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بإيمان، أي: بلغت أن آمنث، الحقنا بهم ذُرِّيَّتَهُمْ الصغار الذين لم يبلِّغوا الإيمان. وروى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. ومعنى هذا القول، أن أولادهم الكبار تبعوهم بإيمان منهم، وأولادهم الصغار تبعوهم بإيمان الآباء، [لأن الولد يُحكم له بالإسلام تبعاً لوالده. والثالث: «وَاتَّبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» بإيمان الآباء] فأدخلناهم الجنة، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكُنْهُمْ﴾ قرأ نافع: وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي: «وما أَلْتَنَاهُمْ» بالهمزة وفتح اللام. وقرأ ابن كثير: «وما أَلْتَنَاهُمْ» بكسر اللام. وروى ابن شنيوذ عن قتيل عنه «وما أَلْتَنَاهُمْ» بإسقاط الهمزة مع كسر اللام. وقرأ أبو العالية، وأبو نيك، ومعاذ القارئ بإسقاط الهمزة مع فتح اللام. وقرأ ابن السميع «وما أَلْتَنَاهُمْ» بمد الهمزة وفتحها. وقرأ الضحاك، وعاصم الجحدري: «وما وَلْتَنَاهُمْ» بواو مفتوحة من غير همزة وينصب اللام. وقرأ ابن مسعود، وأبو المتوكل: «وما أَلْتَنَهُمْ» مثل جَعَلْتَهُمْ. وقد ذكرنا هذه الكلمة في [الحجرات: ١٤٠] والمعنى: ما نَقَضْنَا الآباء بما أَعْطَيْنَا الذُرِّيَّةَ. ﴿كُلُّ امْرِئٍ يَمَّا كَسَبَ زَهْنٌ﴾ أي: مُرْتَهَنٌ بعمله لا يؤاخذ أحدٌ بذنب أحد. وقيل: هذا الكلام يختص بصفة أهل النار، وذلك الكلام قد تَمَّ.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا أَتَتْهُمْ﴾ قال ابن عباس: هي الزيادة على الذي كان لهم.

قوله تعالى: ﴿يَتَنَزَّعُونَ﴾ قال أبو عبيدة: أي: يتعاطون ويتداولون. وأنشد الأخطل:

نَارَ غُثَّةٍ طَلَبَ الرِّيحُ السُّمُولَ وَنَدَّ صَاحَ الدَّجَاجِ وَحَانَتْ وَقَعَةُ السَّارِي^(١)

قال الرَّجَّاجُ: يتناول هذا الكأس من يد هذا، وهذا من يد هذا. فأما الكأس فقد شرحناها في [المصافات: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿لَا تَقُوْا فِيْهَا وَلَا تَأْتِيْهِمْ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «لَا تَقُوْا فِيْهَا وَلَا تَأْتِيْهِمْ» نصباً، وقرأ الباقون: «لَا تَقُوْا فِيْهَا وَلَا تَأْتِيْهِمْ» رفعاً منوَّناً. قال ابن قتيبة: أي: لا تذهب بقولهم فَيَلْقَوْا وَيَرْفُقُوا فَيَأْتُوا، كما يكون ذلك في خمر الدنيا. وقال غيره: التائب: تفعل من الإثم، يقال: آثمه: إذا جعله ذا إثم. والمعنى أن تلك الكأس لا تجعلهم آثمين. ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للخدمة ﴿فَلَمَّا لَهَرُ كَانَتْهُمْ﴾ في الحُسْن والبياض ﴿لَوْزُلُوْا مَكْكُوْا﴾ أي: مصوَّون لم تَمَسَّ الأيدي. وسئل رسول الله ﷺ ف قيل: يا نبي الله، هذ الخادم، فكيف المخدم؟ فقال: «إِنَّ فَضْلَ المخدم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا بِمُؤْمِنٍ عَلَى بَعْضِ بَنَاتِنَا﴾ قال ابن عباس: يتذكرون ما كانوا فيه في الدنيا من الخوف والتعب، وهو قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا بِمُؤْمِنٍ عَلَى بَعْضِ بَنَاتِنَا﴾ أي: في دار الدنيا «مُتَّقِينَ» أي: خائفين من العذاب، ﴿نَمَسَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالمغفرة ﴿وَوَكَّنَا عَذَابَ السُّمُورِ﴾ أي: عذاب النار. وقال الحسن: السُّمُوم من أسماء جهنم. وقال غيره: سُمُوم جهنم: وهو ما يوجد من نَفْحِهَا وَحَرِّهَا، ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي: نوحده ونُخْلِص له ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ وقرأ نافع، والكسائي: «أَنَّهُ» بفتح الهمزة. وفي معنى «البر» ثلاثة أقوال: أحدها: الصادق فيما وعد، رواه أبو صالح عن

(١) «ديوانه» ١١٦، و«مجاز القرآن» ٢/٢٣٢، و«الطبري» ٢٧/٢٨.

(٢) روى ابن جرير الطبري ٢٧/٢٩ عن قتادة قوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ فِلَانٌ لَهُمْ كَانَتْهُمْ لَوْزُلُوْا مَكْكُوْا﴾ ذكر لنا أن رجلاً قال: يا نبي الله هذا الخادم، فكيف المخدم؟ قال: «والذي نفس محمد بيده، إن فضل المخدم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» وهو مرسل، وأورده السيوطي في «الدر» ١١٩/٦ وزاد نسبته لعبد الرزاق، وابن المنذر وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٦٠: رواه عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة به.

ابن عباس. والثاني: اللطيف، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: العطف على عباده المحسن إليهم الذي عمَّ بصره جميع خلقه، قاله أبو سليمان الخطابي.

﴿فَذَكِّرْ مَا أَنْتَ بِمَعْتَرٍ﴾ أي: فذكر ما أنت بمعتريهم ولا يحزنون ﴿١٨﴾ أم يقولون شاعرٌ نثرى به ربُّه المنون ﴿١٩﴾ قل ترصُّوا فإني معكم مِنَ الْمُتَرَصِّينَ ﴿٢٠﴾ أم تأمرهم أَلْتَدْعُهُمْ بِهَذَا أم هم قومٌ طاعونٌ ﴿٢١﴾ أم يقولون فقولْ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٢﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: فَعِظْ بالقرآن ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَعْتَرٍ﴾ أي: بإنعامه عليك بالنبوة ﴿يَكَاهِنُ﴾ وهو الذي يوهم أنه يعلم الغيب ويخبر عما في غد من غير وحي. والمعنى: إنما تنطق بالوحي لا كما يقول [فيك] كفار مكة. ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ أي: هو شاعر. وقال أبو عبيدة: «أم» بمعنى «بل»، قال الأخطل:

كَذَّبْتُكَ عَيْنُكَ أَمْ زَأَيْتَ بِوَسَائِطٍ
عَلَسَ الظُّلَامُ مِنَ الرِّبَابِ خَيْالاً^(١)
لم يستفهم، إنما أوجب أنه رأى.

قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ بِهِ رَبَّ الرَّسُولِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الموت، قاله ابن عباس. والثاني: حوادث الدهر، قاله مجاهد، قال ابن قتيبة: حوادث الدهر وأوجاعه ومصائبه، و «المنون» الدهر، قال أبو ذؤيب:

أَمِنَ الْمُنُونِ وَرَبِّهِ نَسْوَجُجُ
وَالدَّهْرِ لَيْسَ بِمُعْتَبَرٍ مِّنْ يَخْرُجُ^(٢)
هكذا أشدناه أصحاب الأصمعي عنه، وكان يذهب إلى أن المنون الدهر، قال: وقوله: «والدهر ليس بمُعْتَبَرٍ» يدلُّ على ذلك، كأنه قال: «أَمِنَ الدهرَ وَرَبِّهِ تَوَجُّعٌ؟» قال الكسائي: العرب تقول: لا أكلِّمك آخِرَ المنون، أي: آخِرَ الدهر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَصُّوا﴾ أي: انظروا بي ذلك ﴿فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَصِّينَ﴾ أي: من المُتَظَرِّينَ عذابكم، فعذبوا يومٌ بدر بالسيف. وبعض المفسرين يقول: هذا منسوخ بآية السيف، ولا يصح، إذ لا تضاد بين الآيتين.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَلْتَدْعُهُمْ بِهَذَا﴾ قال المفسرون: كانت عظماء قريش توصف بالأحلام، وهي العقول، فازرى الله بخلوهم، إذ لم تُشجِّرْ لهم معرفة الحق من الباطل. وقيل لعمر بن العاص: ما بال قوميك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله تعالى بالعقول؟! فقال: تلك عقول كادها بارئها، أي: لم يَضَحِّبْها التوفيق. وفي قوله: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ﴾ وقوله: ﴿أَمْ هُمْ﴾ قولان: أحدهما: أنها بمعنى «بل»، قاله أبو عبيدة. والثاني: بمعنى ألف الاستفهام، قاله الزجاج، قال: والمعنى: أناأمُرهم أحلامهم بترك القبول ممن يدعوهم إلى التوحيد ويأتيهم على ذلك بالدلائل، أم يكفرون طغياناً وقد ظهر لهم الحق؟! وقال ابن قتيبة: المعنى: أم تدلُّهم عقولهم على هذا؟! لأن الجلم يكون بالعقل، فكفي عنه به.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ فَقَوْلُهُ﴾ أي: افتعل القرآن من تلقاء نفسه؟ والتقول: تكلف القول، ولا يستعمل إلا في الكذب ﴿بَلْ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن، استكباراً. ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ في نظمهم وحسن بيانه. وقرأ أبو رجاء، وأبو نهيك، ومورق المجلي، وعاصم الجحدري: «بحدِيثٍ مِثْلِهِ» بغير تنوين ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أن محمداً يقول.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٥﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُغْضِبُونَ ﴿٢٦﴾ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ يَتَّخِذُونَ فِيهِ وَلَيَاتٍ مُّسْتَعِمَّةٌ بِشَاطِئِ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٢٨﴾ أَمْ تَتْلُوهُمْ أُجْرًا فَهُمْ يَنْفَرُونَ مُتَقَلِّبُونَ ﴿٢٩﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٣٠﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٣١﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٢﴾ قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أَمْ خُلِقُوا من غير رب خالق؟ والثاني: أَمْ خُلِقُوا من غير آباء ولا أمهات، فهم كالجماد لا يعقلون؟ والثالث: أَمْ خُلِقُوا من غير شيء كالسموات والأرض؟ أي: إنهم ليسوا بأشياء خُلِقُوا من السموات والأرض، لأنها خُلِقَتْ من غير شيء، وهم خُلِقُوا من آدم، وآدم من تراب. والرابع: أَمْ

(١) سبق تخريج البيت ٤٥٠.

(٢) البيت مطلع مرثية الجيلة، وهو في «ديوانه» ١/١، و«غريب القرآن» ٤٢٥، و«المفضليات» ٤٢١، و«ديوان الهذليين» ١/١، و«اللسان» و«التاج»:

خُلِقُوا لغير شيء؟ فتكون «مِنْ» بمعنى اللام. والمعنى: ما خُلِقُوا عَبَثًا فلا يؤمرون ولا يُنهَوْنَ.

قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فلذلك لا يَأْتَمرون ولا يَتَهَوْنَ؟ لأن الخالق لا يؤمر ولا يُنهى.

قوله تعالى: ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالحق، وهو توحيد الله وقدرته على البعث.

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: المطر والرِّزْق، قاله ابن عباس. والثاني: النبوة،

قاله عكرمة. والثالث: عِلْم ما يكون من الغيب، ذكره الثعلبي. وقال الزجاج: المعنى: أعندهم ما في خزائن ربك من العلم، وقيل: من الرِّزْق، فهم مُعْرِضُونَ عن ربهم لاستغنائهم؟!

قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمُ الْمُتَعَبِّطُونَ﴾ قرأ ابن كثير: «المُسيطرون» بالسین. وقال ابن عباس: المُسلطون^(١). قال أبو عبيدة: «المُسيطرون»: الأرباب. يقال: تسيطر عليّ، أي: اتَّخَذْتَنِي حَوْلًا، قال: ولم يأت في كلام العرب اسم على «مُفْعِل» إلا خمسة أسماء: مُهَيِّم، ومُجَبِّر، ومُسيطر، ومُبيِّط، ومُبيِّق، فالمُهَيِّم: الله الناظر المُحصي الذي لا يفوته شيء؛ ومُجَبِّر: جبل؛ والمُسيطر: السلطان؛ ومُبيِّط: يَبْطِط؛ والمُبيِّق: الذي يخرج من أرض إلى أرض، يقال: يَبْطِط: إذا خرج من بلد إلى بلد، قال امرؤ القيس:

أَلَا هَلْ أَتَاهَا، وَالْحَوَادِثُ جَمَّةٌ بَأَنَّ أَمْرًا الْقَيْسَ ابْنَ تَمْلِكٍ بَيَّقَرَا^(٢)؟

قال الزجاج: المسيطرون: الأرباب المُسلطون، يقال: قد تسيطر علينا وتسيطر: بالسین والصاد، والأصل السین، وكل سین بعدها طاء، فيجوز أن تُقلب صادًا، تقول: سطر واطر، وسطا علينا واطط. قال المفسرون: معنى الكلام: أم هم الأرباب فيفعلون ما شاؤوا ولا يكونون تحت أمر ولا نهى؟!

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ نَكُنْ سَاءَ﴾ أي: مَرَقَى ومضعد إلى السماء ﴿سَتِيمُونَ فِدَى﴾ أي: عليه الوحي، كقوله: ﴿فِي جُدُرِ الْغُلِيِّ﴾ [طه: ٧١]، فالمعنى: يستمعون [الوحي] فيعلمون أن ما هُم عليه حق ﴿فَلْيَايُ سَتِيمٌ﴾ إن ادَّعى ذلك ﴿يَسْطَلِكِي نِيْلِينَ﴾ أي، بحجة واضحة كما أتى محمد بحجة على قوله. ﴿أَمْ لَمْ نَكُنْ وَلَكُمْ الْبُتُونُ﴾ هذا إنكار عليهم حين جعلوا لله البنات. ﴿أَمْ تَتَكَلَّمُنَّ لَجْرًا فَمِنْ يَنْ تَقَرَّرُ مُتَقَلَّرُونَ﴾ أي: هل سألتهن أجراً على ما جئت به، فأثقلهن ذلك الذي تطلبه منهم فمنعهن عن الإسلام؟ والمعرَّم بمعنى العُرْم، وقد شرحناه في [براءة: ٩٨].

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ هذا جواب لقولهم: ﴿تَنَزَّلُ بِهِ رَبِّي الْأَتُونُ﴾؟ والمعنى: أعندهم الغيب؟ وفيه قولان: أحدهما: أنه اللوح المحفوظ، ﴿فَمَنْ يَكْتُمُونَ﴾ ما فيه ويخبرون الناس. قاله ابن عباس. والثاني: أعندهم عِلْم الغيب فيعلمون أن محمداً يموت قبلهم ﴿فَمَنْ يَكْتُمُونَ﴾ أي، يحكمون فيقولون: سَفَهَرُكَ. والكتاب: الحكم؛ ومنه قول النبي ﷺ: «سأقضي بينكما بكتاب الله»^(٣) أي: بحكم الله ﷻ؛ وإلى هذا المعنى: ذهب ابن قتية.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ وهو ما كانوا عزموا عليه في دار النَّدوة؛ وقد شرحنا ذلك في قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ كَيْدًا﴾ [الأنفال: ٣٠] ومعنى ﴿هُمْ أَلْمَكِيدُونَ﴾ هم المَجْرِيُونَ بكيدهم، لأن ضرر ذلك عاد عليهم فقتلوا بيداً وغيرها. ﴿أَمْ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ غَيْرُ اللَّهِ﴾ أي أَلْهُم إله يرزقهم ويحفظهم غير الله؟ والمعنى أن الأصنام ليست بآلهة، لأنها لا تنفع ولا تدفع. ثم نزه نفسه عن شركهم بباقي الآية.

(١) روى البخاري في «صحيحه» ٤٦٣/٨ عن جبير بن مطعم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا الْأَشْيَاءُ بِدَلِيلٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمُ الْمُتَعَبِّطُونَ؟ كاد قلبي أن يطير.

(٢) «دبرانه» ٣٩٢، «واللسان» و«التاج»: بقر. و«تملك»: أمه.

(٣) هو قطعة من حديث أخرجه البخاري ومسلم وأصحاب «السنن» من حديث أبي هريرة، ولفظه عند مسلم ١٣٢٤/٣: عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني أنهما قالوا: إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال: أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله، فقال الخصم الآخر وهو أقره منه: نعم فاقض بيننا بكتاب الله، واذن لي، فقال رسول الله ﷺ: «قل» قال: إن ابني كان عسيفاً (أجيراً) على هذا فزني بامراته، وإنني أخبرت أن على ابني الرجم، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أنما على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لأقضي بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم رد (مردودة إليك) وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغدا يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها» قال: ففدا عليها فاعترفت، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَءُوا حَتَّى يَذْكُرَ حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ١٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ١٦ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٧ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ١٨ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ١٩﴾

ثم ذكر عنادهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَءُوا حَتَّى يَذْكُرَ حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ والمعنى: لو سقط بعضُ السماء عليهم لَمَا انتهوا عن كفرهم، ولَقَالُوا: هذه قطعة من السحاب قد رُكِمَ بعضُه على بعض. ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي خَلَّ عنهم ﴿حَتَّى يَلْقُوا﴾ قرأ أبو جعفر «يَلْقُوا» بفتح الياء والقاف وسكون اللام من غير ألف ﴿يَوْمَهُمُ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يوم موتهم. والثاني: يوم القيامة. والثالث: يوم النَّفْثَةِ الأولى.

قوله تعالى: ﴿يُصْعَقُونَ﴾ قرأ عاصم، وابن عامر: «يُصْعَقُونَ» برفع الياء، من أَصْعَقَهُمْ غَيْرُهُمْ؛ والباقون بفتحها، من صَعَقُوهُمْ. وفي قوله: ﴿يُصْعَقُونَ﴾ قولان: أحدهما: يموتون. والثاني: يُغشى عليهم، كقوله: ﴿وَحَرَّ ثَوْبِي صَوْفًا﴾ [الاعراف: ١٤٣]، وهذا يخرج على قول من قال: هو يوم القيامة، فإنهم يُغشى عليهم من الأحوال. وذكر المفسرون أن هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولا يصح، لأن معنى الآية الوعيد.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ هذا اليوم الأول؛ والمعنى: لا ينفعهم مكرهم ولا يدفع عنهم العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: يُنصرون من العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي، قبل ذلك اليوم؛ وفيه أربعة أقوال: أحدها: أنه عذاب القبر، قاله البراء، وابن عباس. والثاني: عذاب القتل يوم بدر، وروي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال مقاتل. والثالث: مصائبهم في الدنيا، قاله الحسن، وابن زيد. والرابع: عذاب الجوع، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون ما هو نازلٌ بهم. ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لما يحكُمُ به عليك ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ قال الزجاج: فإنك بحيث نراك ونحفظك ونرعاك، فلا يصلون إلى مكروهك. وذكر المفسرون: أن معنى الصبر نُسْخُ بآية السيف، ولا يصح، لأنه لا تضاد. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: صلِّ لله حين تقوم من منامك، قاله ابن عباس. والثاني: قل: «سبحانك اللهم وبحمدك» حين تقوم من مجلسك، قاله عطاء، وسعيد بن جبير، ومجاهد في آخرين. والثالث: قل: «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك» حين تقوم في الصلاة، قاله الضحاك. والرابع: سبح الله إذا قُمْتَ من نومك، قاله حسان بن عطية. والخامس: صلِّ صلاة الظهر إذا قُمْتَ من نوم القائلة، قاله زيد بن أسلم^(١). والسادس: اذكر الله بلسانك حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل في الصلاة، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ قال مقاتل: صلِّ المغرب وصلِّ العشاء ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ قرأ زيد عن يعقوب، وهارون عن أبي عمرو، والجعفي عن أبي بكر: «وأدبار النجوم» بفتح الهمزة؛ و[قرأ] الباقر بكسرها. وقد شرحناها في لُق: ٤٠؛ والمعنى: صلِّ له في إدبار النجوم، أي: حين تَذِير، أي: تغيب بضوء الضُجْح. وفي هذه الصلاة قولان: أحدهما: أنها الرُّكْعَتَانِ قَبْلَ صلاة الفجر، رواه عليٌّ عليه السلام عن النبي ﷺ، وهو قول الجمهور^(٢). والثاني: أنها صلاة الغداة، قاله الضحاك، وابن زيد.



(١) رجح هذا القول ابن جرير الطبري في «تفسيره».

(٢) أخرجه مسند في «مسنده»، وابن المنذر، وابن مردويه كما في «الدر» ١١٠/٦ عن علي بن أبي طالب قال: سألت رسول الله ﷺ عن إدبار النجوم والسجود، فقال: «إدبار السجود: الركعتان بعد المغرب، وإدبار النجوم: الركعتان قبل الغداة».

سورة النجم

وهي مَكِّيَّة بإجماعهم

إلا أنه قد حُكي عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا إلا آية منها، وهي ﴿الَّذِينَ يَخْتَفُونَ كَثِيرًا مِنَ الْآثِرِ﴾ [النجم: ٣٢] وكذلك قال مقاتل؛ [قال]: وهذه أول سورة أعلنها رسول الله ﷺ بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَبْطِئُ عَنِ الْمَوْتِ ۝ إِن مَوْءَاظٌ يَّوْمَىٰ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝﴾ هذا قسم. وفي المراد بالنجم خمسة أقوال: أحدها: أنه الشريتا، رواه العوفي عن ابن عباس، وابن أبي نجيح عن مجاهد^(١). قال ابن قتيبة؛ والعرب تسمي الشريا - وهي ستة أنجم - نجماً. وقال غيره: هي سبعة، فسنة ظاهرة، وواحد خفي يمتحن به الناس أبصارهم. والثاني: الرُّجُوم من النُّجُوم، يعني ما يرمى به الشياطين، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثالث: أنه القرآن نزل نجوماً متفرقة، قاله عطاء عن ابن عباس، والأعمش عن مجاهد. وقال مجاهد: كان ينزل نجوماً ثلاث آيات وأربع آيات ونحو ذلك. والرابع: نجوم السماء كلها، وهو مروي عن مجاهد أيضاً. والخامس: أنها الزُّهرة؛ قاله السدي. فعلى قول من قال: النجم: الشريا، يكون «هوى» بمعنى «غاب»؛ ومن قال: هو الرُّجُوم، يكون هَوِيَّهَا في رمي الشياطين، ومن قال: القرآن، يكون معنى «هوى»: نزل، ومن قال: نجوم السماء كلها، ففيه قولان: أحدهما: أن هَوِيَّهَا أن تغيب. والثاني: أن تنتشر يوم القيامة. قرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر هذه السورة كلها بفتح أو آخر آياتها. وقرأ أبو عمرو ونافع بين الفتح والكسر. وقرأ حمزة والكسائي ذلك كله بالإمالة.

قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ هذا جواب القسم؛ والمعنى: ما ضلَّ عن طريق الهدى، والمراد به: رسول الله ﷺ. ﴿وَمَا يَبْطِئُ عَنِ الْمَوْتِ ۝﴾ أي: ما يتكلم بالباطل. وقال أبو عبيدة: «عن» بمعنى الباء. وذلك أنهم قالوا: إنه يقول القرآن من تلقاء نفسه. ﴿إِن مَوْءَاظٌ يَّوْمَىٰ﴾ أي: ما القرآن ﴿إِلَّا وَءَاظٌ﴾ من الله ﴿يَّوْمَىٰ﴾ وهذا مما يحتج به من لا يُجيز للنبي أن يجتهد، وليس كما ظنوا، لأن اجتهاد الرأي إذا صدر عن الوحي، جاز أن يُنسب إلى الوحي.

﴿مَلَكُهُ شَيْدُ النَّوَىٰ ۝ دُوْرٌ مَّرْرٌ فَاسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِالْأُفْقِ الْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْخَىٰ إِلَىٰ عِزِّهِ مَا أَوْخَىٰ ۝ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝ أَفَتَضَرَّبُونَ عَلَىٰ مَا رَأَىٰ ۝ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِنْدَ يَدَيْهِ الْمُتَنَنِّ ۝ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝ إِذْ يَنْفَىٰ الصُّدُورُ مَا يُنْفَىٰ ۝ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿مَلَكُهُ شَيْدُ النَّوَىٰ ۝﴾ وهو جبريل عليه السلام، علم النبي ﷺ؛ قال ابن قتيبة: وأصل هذا من «قَوَى الحبل» وهي طاقاته، الواحدة: قُوَّة؛ ﴿دُوْرٌ مَّرْرٌ﴾ أي: ذو قُوَّة، وأصل المِرَّة: القتل. قال المفسرون: وكان من قُوَّته أنه قلع قُرَيَات لوط وحملها على جناحه قلبها، وصاح بشمود فأصبحوا خامدين.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِالْأُفْقِ الْأَعْلَىٰ﴾ فيه قولان: أحدهما: فاستوى جبريل، وهو يعني النبي ﷺ؛ والمعنى أنهما استويا بالأفق الأعلى لما أُسري برسول الله ﷺ، قاله الفراء^(٢). والثاني: فاستوى جبريل، وهو - يعني جبريل -

(١) قال ابن كثير: وكلما روي عن سفيان الثوري، واختاره ابن جرير الطبري.

(٢) قال ابن كثير: وقد قال ابن جرير هاتنا قولاً لم أره لغيره، ولا حكاة هو عن أحد، وحاصله أنه ذهب إلى أن المعنى: ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ أي هذا الشديد القوي ذو المِرَّة هو ومحمد ﷺ بالأفق الأعلى، أي: استويا جميعاً بالأفق الأعلى، وذلك ليلة الإسراء، كذا قال. ولم يوافق أحد على ذلك، ثم شرع يوجه ما قال من حيث العربية، فقال: وهو كقولهم: ﴿أَيُّهَا كَأَنَّ ذُرِّيَّتَهُنَّ أَزْوَاجٌ﴾ فغطف بالأباء على المكني في «كنا» من غير إظهار «نحن» فكذلك قوله: ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ وهو، قال: وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده:

بالأفق الأعلى على صورته الحقيقية، لأنه كان يَتَمَثَّلُ لرسول الله ﷺ إذا هبط عليه بالوحي في صورة رجل، وأحب رسول الله ﷺ أن يراه على حقيقته، فاستوى في أفق المشرق، فملاً الأفق؛ فيكون المعنى: فاستوى جبريلُ بالأفق الأعلى في صورته، هذا قول الزجاج. قال مجاهد: والأفق الأعلى: هو مَظْلِعُ الشمس. وقال غيره: إنما قيل له: «الأعلى» لأنه فوق جانب المغرب في صعيد الأرض لا في الهواء.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ قال الفراء: المعنى: ثم تدلَّى فدنا، ولكنه جائز أن تقدّم أيّ الفعلين شئت إذا كان المعنى فيهما واحداً، فنقول: قد دنا فقرَّب، وقرَّب فدنا، وشتم فأساء، وأساء فشتم، ومنه قوله: ﴿اقتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، المعنى - والله أعلم -: انشق القمر واقتربت الساعة. قال ابن قتيبة، المعنى: تدلَّى فدنا، لأنه تدلَّى للدنو، ودنا بالتدلي. وقال الزجاج: دنا بمعنى قرَّب، وتدلَّى: زاد في القرَّب، ومعنى اللفظتين واحد. وقال غيرهم: أصل التدلَّى: النزول إلى الشيء حتى يقرب منه، فوضع موضع القرَّب. وفي المشار إليه بقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ: أحدها: أنه الله ﷻ. روى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث شريك بن أبي نمر عن أنس بن مالك قال: «دنا الجبار رب العزة فتدلَّى حتى كان منه قَابُ قَوْسَيْنِ أو أدنى»^(١). وروى أبو سلمة عن ابن عباس: «ثم دنا» قال: دنا ربه فتدلَّى، وهذا اختيار مقاتل. قال: دنا الرَّبُّ من محمد ليلة أُسْرِي به، فكان منه قَابُ قَوْسَيْنِ أو أدنى. وقد كشفت هذا الوجه في كتاب «المعني» وبيَّنت أنه ليس كما يخطر بالبال من قُرْبِ الأجسام وقطع المسافة، لأن ذلك يختص بالأجسام، واللَّه منزَّه عن ذلك. والثاني: أنه محمد دنا من ربه، قاله ابن عباس، والقرظي. والثالث: أنه جبريل. ثم في الكلام قولان: أحدهما: دنا جبريلُ بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض، فنزل إلى رسول الله ﷺ، قاله الحسن، وقناة. والثاني: دنا جبريلُ من ربه ﷻ فكان منه قَابُ قَوْسَيْنِ أو أدنى، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبو رزين: «فكان قَادِ قَوْسَيْنِ» بالدال. وقال أبو عبيدة: القَابُ والقَادُ: القَدْر. وقال ابن فارس: القَابُ: القدر. ويقال: بل القَابُ: ما بين المَقْبِضِ والسَّيَةِ، ولكل قوس قَابان. وقال ابن قتيبة: سِيَةِ الْقَوْسِ: ما عُطِفَ من طَرَفَيْهَا. وفي المراد بالقوسين قولان: أحدهما: أنها القوس التي يُرمى بها، قاله ابن عباس، واختاره ابن قتيبة، فقال: قَدَّرَ قَوْسَيْنِ. وقال الكسائي: أراد بالقوسين: قوساً واحداً. والثاني: أن القوس: الذراع؛ فالمعنى: كان بينهما قَدْرُ ذراعين، حكاه ابن قتيبة، وهو قول ابن مسعود، وسعيد بن جبير، والسدي. قال ابن مسعود: دنا جبريلُ منه حتى كان قَدْرُ ذراع أو ذراعين.

قوله تعالى: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ فيه قولان: أحدهما: أنها بمعنى «بل»، قاله مقاتل. والثاني: أنهم خوطبوا على لغتهم؛ والمعنى: كان على ما تقدرونه أنتم قَدْرُ قَوْسَيْنِ أو أقل، هذا اختيار الزجاج.

الم تر أن السبع يصلب عودَه ولا يستوي والخروج المستقص

وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه، لكن لا يساعده المعنى على ذلك، فإن هذه الرؤية لجبريل، لم تكن ليلة الإسراء، بل قبلها ورسول الله ﷺ في الأرض، فهبط عليه جبريل ﷺ، وتدلَّى إليه فاقترَب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سلوة المنتهى يعني ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعد ما جاءه جبريل ﷺ أول مرة، فأوحى الله إليه صدر سورة «الزَّازِ» ثم فتر الرحي... حتى تبدى له جبريل ورسول الله ﷺ بالأبصار في صورته التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح قد سد عظم خلقه الأفق، فاقترَب منه وأوصى إليه عن الله ﷻ ما أمر به، فعرف عند ذلك عظمة الملك الذي جاءه بالرسالة، وجلالة قدره، وعلو مكانته عند خالقه الذي بعثه إليه. اهـ.

(١) حديث شريك أخرجه البخاري في «صحيحه» ٣٩٩/١٣، وذكر مسلم ١٤٨/١ قطعة منه، ثم قال: «قدم وأخر وزاد وتقص». وقد جاء في رواية شريك في هذا الحديث أرواهم أنكرها عليه الحفاظ، وغلطوه فيها. منها ما نقله ابن كثير عن الحافظ أبي بكر البيهقي أنه قال: في حديث شريك زيادة تفرد بها على مذهب من زعم أنه ﷻ رأى الله ﷻ يعني قوله: «ثم دنا الجبار رب العزة فتدلَّى فكان قَابُ قَوْسَيْنِ أو أدنى» قال البيهقي: وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل أصبح. قال الحافظ ابن كثير: وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله في هذه المسألة هو الحق، فإن أبا ذر قال: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: «نور أُنِي أراه» وفي رواية فَرَأَيْتُ نُورَهُ أخرجه مسلم. وقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ إنما هو جبريل ﷺ كما ثبت ذلك في «الصحيحين» عن عائشة أم المؤمنين، وعن ابن مسعود، وكذلك هو في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية بهذا، قلت: وهذا القول هو الصواب وما عداه من الأقوال لا يصح. وإذا أردت الاطلاع على بقية ما أخطأ فيه شريك في هذا الحديث فانظر «شرح مسلم» ٢/٢١٠، وفتح البازي ٤٠٢/١٣، ٤٠٥.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا عَبْدُكَ مَا أَوْحَى﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أوحى الله إلى محمد كفاً^(١) بلا واسطة، وهذا على قول من يقول: إنه كان في ليلة المعراج. والثاني: أوحى جبريل إلى النبي ﷺ ما أوحى الله إليه، رواه عطاء عن ابن عباس. والثالث: أوحى [الله] إلى جبريل ما يوحى، روي عن عائشة رضي الله عنها، والحسن، وقادة.

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾^(٢) قرأ أبو جعفر، وهشام عن ابن عامر، وأبان عن عاصم: «ما كَذَّبَ» بتشديد الذال؛ وقرأ الباقون بالتخفيف. فمن شدد أراد: ما أنكر فؤاده ما رآه عينه؛ ومن خفف أراد: ما أوهمه فؤاده أنه رأى، ولم ير، بل صدق^(٣) الفؤاد رؤيته. وفي الذي رأى قولان: أحدهما: أنه رأى ربه ﷻ، قاله ابن عباس، [وأنس] والحسن، وعكرمة^(٤). والثاني: أنه رأى جبريل في صورته التي خلق عليها، قاله ابن مسعود وعائشة.

قوله تعالى: ﴿أَفْتَمَرُوكَ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، والمفضل، وخلف، ويعقوب: «أَفْتَمَرُوكَ». قال ابن تقيية: معنى «أَفْتَمَرُوكَ»: أفتجادلونه، من المراء، ومعنى «أَفْتَمَرُوكَ»: أفتجحدونه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾^(٥) قال الزجاج: أي: رآه مرة أخرى. قال ابن عباس: رأى محمد ربه؛ وبيان هذا أنه تردّد لأجل الصلوات مراراً، فرأى ربه في بعض تلك المرات مرة أخرى. قال كعب: إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين محمد وموسى، فرآه محمد مرتين، وكلمه موسى مرتين. وقد روي عن ابن مسعود أن هذه الرؤية لجبريل أيضاً، رآه على صورته التي خلق عليها^(٦). فأما سيرة المنتهى، فالسيرة: شجرة النبق، وقد صح في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نَبِّهْهَا مِثْلَ قِلَالِ هَجْرٍ، وَوَرِّقُهَا مِثْلُ أَذَانِ الْفَيْلَةِ»^(٧). وفي مكانها قولان: أحدهما: أنها فوق السماء السابعة، وهذا مذكور في «الصحاحين» من حديث مالك بن صعصعة^(٨). قال مقاتل: وهي عن يمين العرش. والثاني: أنها في السماء السادسة، أخرجه مسلم في أفراد^(٩) عن ابن مسعود، وبه قال الضحاك. قال المفسرون: وإنما سُمِّيَتْ سيرة المنتهى، لأنه إليها مُنتهى ما يُصْعَدُ به من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يُهْبَطُ به من فوقها فيقبض منها، وإليها ينتهي علم جميع الملائكة.

قوله تعالى: ﴿عِنْدَهَا﴾ وقرأ معاذ القارئ، وابن يعمر، وأبو نهيك: «عِنْدَهُ» بهاء مرفوعة على ضمير مذكر ﴿جَنَّةٍ الْكَوْكَبِ﴾ قال ابن عباس: هي جنة يأوي إليها جبريل والملائكة. وقال الحسن: هي التي يصير إليها أهل الجنة. وقال مقاتل: هي جنة إليها تأوي أرواح الشهداء. وقرأ سعيد بن المسيّب، والشعبي، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وأبو العالية: «جَنَّةُ الْمَأْوَى» بهاء صحيحة مرفوعة. قال ثعلب: يريدون أجنته، وهي شاذة. وقيل: معنى «عندها»: أدركه المبيت، يعني رسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَبَّأُ الْكَوْكَبُ مَا يَنْفَعُ﴾^(١٠) روى مسلم في أفراد^(١١) من حديث ابن مسعود قال: غَشِيَهَا قَرَأَشٌ مِنْ ذَهَبٍ^(١٢). وفي حديث مالك بن صعصعة عن رسول الله ﷺ قال: «لَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَهَا، تَغَيَّرَتْ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِفَهَا مِنْ حُسْنِهَا»^(١٣). وقال الحسن، ومقاتل: تَغَشَّاها الملائكة أمثال الغُرَيَّان حين يَقَعْنَ على الشجرة. وقال الضحاك: [غَشِيَهَا] نور رب العالمين.

(١) كفاً، أي: مواجهة. (٢) في الأصل: صدقه.

(٣) روى مسلم في «صحيحه» عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾^(١) «وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى»^(٢) قال: رآه بفؤاده مرتين. قال ابن كثير: وكذا رواه سماك عن عكرمة عن ابن عباس مثله، وكذا قال أبو صالح والسدي وغيرهما: إنه رآه بفؤاده مرتين، قال: وقد خالفه ابن مسعود وغيره، وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية، قال: وهي محمولة على المقيدة بالفؤاد، قال: ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب، فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة رضي الله عنهم، وقول البغوي في «تفسيره»: وذهب جماعة إلى أنه وآء بعينه، وهو قول أنس والحسن وعكرمة، فيه نظر، والله أعلم.

(٤) وهو الذي عليه أكثر المحققين. قال ابن كثير: هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء.

(٥) رواه البخاري في «صحيحه» ١٦٤/٧، ومسلم ١٥٠/١، وهو جزء من حديث الإسراء الطويل.

(٦) البخاري ١٦٤/٧، ومسلم ١٥٠/١.

(٧) البخاري ١٥٧/١.

(٨) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: ولا يعارض قوله: إنها في السادسة ما دلت عليه بقية الأخبار أنه وصل إليها بعد أن دخل السماء السابعة، لأنه يحتمل على أن أصلها في السادسة وأعضاؤها وفروعها في السابعة، وليس في السادسة منها إلا أصل ساقها.

(٩) هذا اللفظ في رواية ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه في «صحيحه» ١٤٦/١.

قوله تعالى: ﴿مَا نَزَعَ الْبَصَرُ﴾ أي: ما عدلَ بصرُ رسولِ الله ﷺ يميناً ولا شمالاً ﴿وَمَا لَكَ﴾ أي: ما زاد ولا جاوز ما رأى؛ وهذا وصف أدبه ﷺ في ذلك المقام. ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ مَلَائِكَةِ رَبِّهِ الْكَبْرَى﴾ فيه قولان: أحدهما: [لقد رأى من آياتِ ربِّه العظام. والثاني: لقد رأى من آياتِ ربِّه [الآية] الكبرى^(١) وللمفسرين في المراد بما رأى من الآيات ثلاثة أقوال: أحدها: أنه رأى رفراً أخضر من الجنة قد سدَّ الأفق، قاله ابن مسعود. والثاني: أنه رأى جبريل في صورته التي يكون عليها في السماوات، قاله ابن زيد. والثالث: أنه رأى من أعلام ربِّه وأدلته [الأعلام والأدلة]^(٢) الكبرى، قاله ابن جرير^(٣).

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ٨ وَنَزَّاتُكَ الْأَخْرَىٰ ٩ أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰكَ اللَّهُ الْأَنْفُ ١٠ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَمْنَةٌ مِمَّنْ شَبَّهَ أُمَّتَكَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ مَلَكٍ لَنْ يَلْعَنَ إِلَّا الظَّلْمَ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْغَدَىٰ ١١ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَفَعَّى ١٢ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ١٣ وَكَرِهَ مِنْ مَلَائِكَةٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُفْقِي سَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ١٤

قال الزجاج: فلما قصَّ الله تعالى هذه الأفاصيص قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ المعنى: أخبرونا عن هذه الآلهة التي تعبدونها هل لها من القدرة والعظمة التي وُصف بها ربُّ العزَّة شيء؟ فأما «اللات» فقرأ الجمهور بتخفيف التاء، وهو اسم صنم كان لثقيف اتخذوه من دون الله، وكانوا يشقون لأصنامهم، من أسماء الله تعالى، فقالوا من «الله»: اللات، ومن «العزى»: العزى. قال أبو سليمان الخطابي: كان المشركون يتعاطون «الله» اسماً لبعض أصنامهم، فصرفه الله إلى اللات صيانةً لهذا الاسم ودُّباً عنه. وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، وأبو عبد الرحمن السلمي، والضحاك، وابن السميع، ومجاهد، وابن يعمر، والأعمش، وورش عن يعقوب^(٤): «اللات» بتشديد التاء؛ ورد في تفسير ذلك عن ابن عباس ومجاهد أن رجلاً كان يُلْتُ السَّويق ويبيعه عند ذلك الصنم، فسُمِّي الصنم: اللات. وكان الكسائي يقف عليها الزجاج: زعموا أن رجلاً كان يُلْتُ السَّويق ويبيعه عند ذلك الصنم، فسُمِّي الصنم: اللات. وكان الكسائي يقف عليها بالهاء، فيقول: «اللاة»؛ وهذا قياس، والأجود الوقوف بالتاء، لاتباع المصحف. وأما «العزى» ففيها قولان: أحدهما: أنها شجرة لغطفان كانوا يعبدونها، قاله مجاهد. والثاني: صنم لهم، قاله الضحاك. قال: وأما «مناة» فهو صنم لهذيل وخزاعة يعبداه أهل مكة. وقال قتادة: بل كانت للأنصار. وقال أبو عبيدة: كانت اللات والعزى ومناة أصناماً من حجارة في جوف الكعبة يعبدونها. وقرأ ابن كثير: «ومناة» ممدودة مهموزة. فأما قوله: ﴿النَّارُ لَ» فإنه نعت لـ «مناة»، هي ثلاثة الصنمين في الذكر، و «الأخرى» نعت لها. قال الثعلبي: العرب لا تقول للثالثة: الأخرى، وإنما الأخرى نعت للثانية؛ فيكون في المعنى وجهان: أحدهما: أن ذلك لوفاق رؤوس الآي، كقوله: ﴿مَتَارِبُ أُخْرَىٰ﴾ (طه: ١٨) ولم يقل، آخر، قاله الخليل. والثاني: أن في الآية تقديمًا وتأخيرًا تقديره: أفرايتم اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة، قاله الحسين بن الفضل.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰكَ اللَّهُ الْأَنْفُ﴾ قال ابن السائب: إن مشركي قريش قالوا للأصنام والملائكة: بناتُ الله، وكان الرجل منهم إذا بُشِّرَ بالأنثى كره، فقال الله تعالى مُنْكَرًا عليهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰكَ اللَّهُ الْأَنْفُ﴾ ١٠؟ يعني الأصنام وهي [بنات] في أسمائها. ﴿وَلَقَدْ رَأَىٰ مِنْ مَلَائِكَةِ رَبِّهِ الْكَبْرَىٰ﴾ ١١ ﴿قَرَأَ عَاصِمٌ﴾ ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحَمْزَة، والكسائي: [ضَمِيْزَى] بكسر الضاد من غير همز؛ وافقه ابن كثير [في] كسر الضاد، لكنه همز. وقرأ أبيُّ بن كعب، ومعاذ القاربي: «ضَمِيْزَى»

(١) قال في البحر المحيط: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ مَلَائِكَةِ رَبِّهِ الْكَبْرَىٰ﴾ قيل: «الكبرى» مفعول «رأى» أي: رأى الآيات الكبرى والعظمى التي هي بعض آيات ربِّه، أي: حين رقي إلى السماء رأى عجائب الملكوت، وتلك بعض آيات الله. وقيل: «من آيات» هو في موضع المفعول، و«الكبرى» صفة لـ «آيات ربِّه»، ومثل هذا الجمع يوصف بوصف الواحدة، وحسن ذلك هنا، كونها فاصلة كما في قوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ مَلَائِكَةِ رَبِّهِ الْكَبْرَىٰ﴾ عند من جعلها صفة لـ «آيات ربِّه».

(٢) زيادة من «الطبري».

(٣) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ مَلَائِكَةِ رَبِّهِ الْكَبْرَىٰ﴾ ١٠ كقوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ مَلَائِكَةٍ﴾ أي الدالة على قدرتنا وعظمتنا، قال: وهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة إلى أن الرؤية تلك الليلة لم تقع، لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ مَلَائِكَةِ رَبِّهِ الْكَبْرَىٰ﴾ ولو كان رأى ربِّه لأخبر بذلك، ولقال ذلك للناس. اهـ.

(٤) في النسخة الاستنبولية: وروى عن يعقوب.

يفتح الضاد من غير همز. قال الزجاج: الضيبي في كلام العرب: الناقصة الجائرة، يقال: ضازه يضيئه إذا نقصه حقه، ويقال: ضازه يضاؤه^(١) بالهمز. وأجمع النحويون أن أصل ضيبي: ضوزي، وحجته أنها نقلت من «فعلى» من ضوزي إلى ضيبي، لتسلم الياء، كما قالوا: أبيض ويبيض، وأصله: بوض، فنقلت الضمة إلى الكسرة. وقرأت على بعض العلماء باللغة: في «ضيبي» لغات يقال: ضيبي، وضوزي، وضوزي، وضازي على «فعلى» مفتوحة؛ ولا يجوز في القرآن إلا «ضيبي» بياء غير مهموزة؛ وإنما لم يقل النحويون: إنها على أصلها لأنهم لا يعرفون في الكلام «فعلى» صفة، إنما يعرفون الصفات على «فعلى» بالفتح، نحو سكرى وغضبي، أو بالضم، نحو خبلى وفضلى.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ﴾ يعني الأوثان ﴿إِلَّا أَشْهَاءُ﴾ والمعنى: إن هذه الأوثان التي سموها بهذه الأسماء لا معنى تحتها، لأنها لا تضر ولا تنفع، فهي تسميات ألقيت على جمادات، ﴿مَّا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: لم ينزل كتاباً فيه حجة بما يقولون: إنها آلهة. ثم رجع إلى الإخبار عنهم بعد الخطاب لهم فقال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ في أنها آلهة، ﴿إِلَّا الظَّنُّ وَمَا هَؤُلَاءِ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾^(٢) وهو ما زين لهم الشيطان، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْفُتْنَةُ﴾ وهو البيان بالكتاب والرسول، وهذا تعجيب من حالهم إذ لم يتركوا عبادتها بعد وضوح البيان. ثم أنكر عليهم تمنّيه شفاعتها فقال: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ﴾ يعني الكافر ﴿مَا تَتَنَّبَّ﴾ من شفاعاة الأصنام، ﴿فَاللَّهُ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾^(٣) أي لا يملك فيهما أحد شيئاً إلا بإذنه. ثم أكد هذا بقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُفِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ فجمع في الكناية، لأن معنى الكلام الجمع ﴿إِلَّا مَنْ يَبْدَأَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ في الشفاعة ﴿لِمَنْ يَشَاءُ وَرَضِيَ﴾؛ والمعنى أنهم لا يشفعون إلا لمن رضي الله عنهم.

﴿إِنْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّنَ الْمَلَائِكَةَ نِسَاءً الْأُنثَىٰ﴾^(٤) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُفِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْخِطَابَةَ الْأُنثَىٰ﴾^(٥) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَصْلَوْنَ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا أَهْنَدُوا

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: بالبعث ﴿لَيُسَمُّنَ الْمَلَائِكَةَ نِسَاءً الْأُنثَىٰ﴾ وذلك حين زعموا أنها بنات الله، ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ بذلك، ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ما يستيقنون أنها إناث ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُفِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ أي: لا يقوم مقام العلم^(٦)، فالحق هاهنا بمعنى العلم ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ يعني القرآن؛ وهذا عند المفسرين منسوخ بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ قال الزجاج: إنما يعلمون ما يحتاجون إليه في معاشهم، وقد نبذوا أمر الآخرة.

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَشَدُّ بِمَنْ مَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الآية؛ والمعنى أنه عالم بالفرقين فيجازيهم. ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾^(٧) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ كَثِيرَ الْإِنْتِ وَالْفَوْحِ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ وَبِيعَ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْتُمْ مِمَّنْ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَتَقَىٰ﴾^(٨)

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا إخبار عن قدرته وسعة ملكه، وهو كلام معترض بين الآية الأولى وبين قوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا﴾ لأن اللام في «ليجزى» متعلقة بمعنى الآية الأولى، لأنه إذا كان أعلم بهما، جازى كل بما يستحقه، وهذه لام العاقبة، وذلك أن علمه بالفرقين أدى إلى جزائهم باستحقاقهم، وإنما يقرر على مجازاة الفردين إذا كان واسع الملك، فلذلك أخبر به في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. قال المفسرون: و «أسأوا» بمعنى أشركوا، و «أحسنوا» بمعنى وحدوا. والحسنى: الجنة. والكبائر مذكورة في سورة [النساء: ٣١]. وقيل: كبائر الإثم: كل ذنب حُتم بالتار، والفواحش: كل ذنب فيه الحد. وقرأ حمزة، والكسائي، والمفضل، وخلف:

(١) في الأصل: ضازه يضيئه بالهمز، والتصويب من كتب اللغة. (٢) ما بين المعنيين زيادة سقطت من الأصل. (٣) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسوا، ولا تجسوا، ولا تفتشوا، ولا تحاسدوا، ولا تبافضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً».

«يَجْتَنِبُونَ كِبِيرَ الْإِثْمِ» وَاللَّمَمُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْمُقَارَبَةُ لِلشَّيْءِ. وَفِي الْمَرَادِ بِهِ هَاهُنَا سِتَّةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: مَا أَلْمُوا بِهِ مِنَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّهُ يُغْفَرُ فِي الْإِسْلَامِ، قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ. وَالثَّانِي: أَنْ يُلَمَّ بِالذَّنْبِ مَرَّةً ثُمَّ يَتُوبُ وَلَا يَعُودُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنُ، وَالسَّدي. وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ صِغَارُ الذُّنُوبِ، كَالنُّظَرَةِ وَالْقُبْلَةِ وَمَا كَانَ دُونَ الرُّنَا، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ، وَالشَّعْبِيُّ، وَمَسْرُوقٌ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَقْلَهُ مِنَ الرُّنَا، فَرِنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظْرَ، وَزِنَا اللِّسَانِ النَّطْقَ، وَالنَّفْسَ تَشْتَهِي وَتَتَمَنَّى، وَيَصْدُقُ ذَلِكَ وَيَكْذِبُهُ الْفَرْجُ»^(١)، فَإِنْ تَقَدَّمَ بَفَرْجِهِ كَانَ الرُّنَا، وَإِلَّا فَهُوَ اللَّمَمُ. وَالرَّابِعُ: أَنَّهُ مَا يَهْمُ بِهِ الْإِنْسَانُ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ. وَالْخَامِسُ: أَنَّهُ أَلَمٌ بِالْقَلْبِ، أَيْ: خَطَرٌ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ. وَالسَّادِسُ: أَنَّهُ النَّظَرُ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّدٍ، قَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ. فَعَلَى الْقَوْلَيْنِ [الْأَوَّلَيْنِ] يَكُونُ الْإِسْتِثْنَاءُ مِنَ الْجِنْسِ، وَعَلَى بَاقِي الْأَقْوَالِ لَيْسَ مِنَ الْجِنْسِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَبِعِ الْمَنَافِرَةِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ثُمَّ تَابَ، وَهَاهُنَا تَمَّ الْكَلَامُ. ثُمَّ قَالَ: ﴿هُوَ أَكْثَرُ يَكْرًا﴾ يَعْنِي قَبْلَ خَلْقِكُمْ ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ يَعْنِي آدَمَ ﷺ ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةُ﴾ جَمْعُ جَنْجِينٍ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ عَلِمَ مَا تَفْعَلُونَ وَإِلَى مَاذَا تَصِيرُونَ، ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أَيْ: لَا تَشْهَدُوا لَهَا أَنَّهَا زَكِيَّةٌ بَرِيَّةٌ مِنَ الْمَعَاصِي. وَقِيلَ: لَا تَمْدَحُوهَا بِحُسْنِ أَعْمَالِهَا. وَفِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ آيَةِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا هَلَكَ لَهُمْ صَبِيٌّ، قَالُوا: صِدِّيقٌ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ آيَةُ، هَذَا قَوْلُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا^(٢). وَالثَّانِي: أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَالُوا: قَدْ صَلَّيْنَا وَصُمْنَا وَفَعَلْنَا، يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ آيَةُ، قَالَه مَقَاتِلٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَكْثَرُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: عَمَلٌ حَسَنَةٌ وَارَعَوْى عَنْ مَعْصِيَةٍ، قَالَه عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ. وَالثَّانِي: أَخْلَصَ الْعَمَلَ لِلَّهِ، قَالَه الْحَسَنُ. وَالثَّالِثُ: اتَّقَى الشَّرْكَ فَاَمَنَ، قَالَه الثَّعْلَبِيُّ.

﴿أَنزَلَتْ إِلَى قَوْلٍ﴾ (٣٧) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثَرًا (٣٨) أَعْنَدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٩) أَمْ لَمْ يَلْبَسْ يَمًا فِي صُحُوفِ مُوسَى (٤٠) وَإِزْهِيَماً إِلَى وَفَى (٤١) أَلَا نَزِدُّهُ ذِكْرًا لِّقَوْمٍ (٤٢) وَأَنْ لِّمَنِ الْإِنْسَانُ إِلَّا مَا سَعَى (٤٣) وَأَنْ سَعِيَهُمْ سَوْفَ يَرَى (٤٤) ثُمَّ يَجْزِيهِ الْجَزَاءَ الْآخِرَ (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنزَلَتْ إِلَى قَوْلٍ﴾ اخْتَلَفُوا فِيمَنْ نَزَلَتْ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ، وَكَانَ قَدْ تَبَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى دِينِهِ، فَعَبَّرَهُ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ، وَقَالَ: تَرَكْتَ دِينَ الْأَشْيَاحِ وَضَلَلْتَهُمْ؟ قَالَ: إِنِّي خَشِيتُ عَذَابَ اللَّهِ، فَضَمِنَ لَهُ إِنْ هُوَ أَعْطَاهُ شَيْئًا مِنْ مَالِهِ وَرَجَعَ إِلَى شِرْكِهِ أَنْ يَتَحَمَّلَ عَنْهُ عَذَابُ اللَّهِ ﷻ فَفَعَلَ، فَأَعْطَاهُ بَعْضَ الَّذِي ضَمِنَ لَهُ، ثُمَّ بَخِلَ وَمَنَعَهُ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ آيَةُ، قَالَه مُجَاهِدٌ، وَابْنُ زَيْدٍ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ أَعْطَى بَعْضَ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ خَمْسَ قَلَانِصٍ حَتَّى ارْتَدَّ عَنْ إِسْلَامِهِ. وَضَمِنَ لَهُ أَنْ يَحْمِلَ عَنْهُ إِثْمَهُ، قَالَه الضَّحَّاكُ. وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ أَبُو جَهْلٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ: وَاللَّهِ مَا يَأْمُرُنَا مُحَمَّدٌ إِلَّا بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، قَالَه مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ. وَالرَّابِعُ: أَنَّهُ الْعَاصُ بْنُ وَائِلِ السَّهْمِيِّ، وَكَانَ رِبًّا وَافِقَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ، قَالَه السَّدي. وَمَعْنَى «قَوْلِي»: أَعْرَضَ عَنِ الْإِيمَانِ. ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا﴾ فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَطَاعَ قَلِيلًا ثُمَّ عَصَى. قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: أَعْطَى قَلِيلًا مِنْ نَفْسِهِ بِالِاسْتِمَاعِ ثُمَّ أَكْدَى بِالْإِنْقِطَاعِ، قَالَه مُجَاهِدٌ. وَالثَّالِثُ: أَعْطَى قَلِيلًا مِنْ مَالِهِ ثُمَّ مَنَعَ، قَالَه الضَّحَّاكُ. وَالرَّابِعُ: أَعْطَى قَلِيلًا مِنَ الْخَيْرِ بِلِسَانِهِ ثُمَّ قَطَعَ، قَالَه مَقَاتِلٌ. قَالَ ابْنُ قَتِيْبَةَ: وَمَعْنَى «أَكْدَى»: قَطَعَ، وَهُوَ مِنْ كُذْيَةِ الرِّكْبَةِ، وَهِيَ الصَّلَابَةُ فِيهَا، وَإِذَا بَلَغَهَا الْحَافِرُ يَسُ مِنْ حَفَرِهَا، فَقَطَعَ الْحَفَرَ، فَقِيلَ لِكُلِّ مَنْ طَلَبَ شَيْئًا فَلَمْ يَلْبِغْ آخِرَهُ، أَوْ أَعْطَى وَلَمْ يُبَيِّنْ: أَكْدَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَعْنَدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: فَهُوَ يَرَى حَالَهُ فِي الْآخِرَةِ، قَالَه الْفَرَاءُ. وَالثَّانِي: فَهُوَ يَعْلَمُ مَا غَابَ عَنْهُ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ وَغَيْرِهَا، قَالَه ابْنُ قَتِيْبَةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَمْ يَلْبَسْ يَمًا فِي صُحُوفِ مُوسَى﴾ يَعْنِي التَّوْرَةَ، ﴿وَإِزْهِيَماً﴾ أَيْ: وَصَحْفَ إِبْرَاهِيمَ. وَفِي حَدِيثٍ

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» ٢٢/١١، وَمُسْلِمٌ ٢٠٤٦/٤ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رَوَاهُ الْوَاحِدِيُّ فِي «أَسْبَابِ النُّزُولِ» ٢٢٦ عَنْ ثَابِتِ بْنِ الْحَارِثِ الْأَنْصَارِيِّ وَفِي سَنَدِهِ ابْنُ لَهْيَعَةَ، وَفَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرَرِ» ١٢٨/٦ وَزَادَ نَسْبَتَهُ لِابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَالتَّطَرُّنِيِّ، وَأَبِي نَعِيمٍ فِي «الْمَعْرِفَةِ»، وَابْنِ مَرْدُوَيْهِ عَنْ ثَابِتِ بْنِ الْحَارِثِ الْأَنْصَارِيِّ.

أبي ذر عن النبي ﷺ «أن الله تعالى أنزل على إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف»^(١). قوله تعالى: ﴿الَّذِي وَفَّى﴾ قرأ سعيد بن جبير، وأبو عمران الجوني، وابن السميع البماني «وفى» بتخفيف الفاء. قال الزجاج: قوله: «وفى» أبلغ من «وفى»، لأن الذي امتحن به من أعظم المحن. وللمفسرين في الذي وفى عشرة أقوال: أحدها: أنه وفى عمل يومه بأربع ركعات في أول النهار، رواه أبو أمامة عن رسول الله ﷺ^(٢). والثاني: أنه وفى في كلمات كان يقولها. روى سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم لم سُمي الله إبراهيم خليله [الذي وفى]؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى: ﴿قَسْبَحَنَّا اللَّهَ حِينَ تَسْبُحُونَ وَرَبِّكُمْ تَصْبِحُونَ﴾» وختتم الآية [الروم: ١٧]^(٣). والثالث: أنه وفى الطاعة فيما فعل بابنه، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال القرظي. والرابع: أنه وفى ربه جميع شرائع الإسلام، روى هذا المعنى عكرمة عن ابن عباس. والخامس: أنه وفى ما أمر به من تبليغ الرسالة، روي عن ابن عباس أيضاً. والسادس: أنه عمل بما أمر به، قاله الحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، وقال مجاهد: وفى ما فرض عليه. والسابع: أنه وفى بتبليغ هذه الآيات، وهي: ﴿أَلَا نُرَدِّدُكَ وَرَدًّا لَنُرَدِّدَ﴾^(٤) وما بعدها، وهذا مروي عن عكرمة، ومجاهد، والنخعي. والثامن: وفى شأن المناسك، قاله الضحاك. والتاسع: أنه عاهد أن لا يسأل مخلوقاً شيئاً، فلما قُذِفَ في النار قال له جبريل، ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا^(٥)، فوفى بما عاهد، ذكره عطاء بن السائب. والعاشر: أنه أدى الأمانة، قاله سفيان بن عيينة. ثم بين ما في صحفهما فقال: ﴿أَلَا نُرَدِّدُكَ وَرَدًّا لَنُرَدِّدَ﴾^(٦) أي: لا تحویل نفس حاملة جمل أخرى؛ والمعنى: لا تؤخذ بإثم غيرها. «وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى»^(٧) قال الزجاج: هذا في صحفهما أيضاً. ومعناه: ليس للإنسان إلا جزاء سعيه، إن عمل خيراً جزي عليه خيراً، وإن عمل شراً جزي شراً. واختلف العلماء في هذه الآية على ثمانية أقوال: أحدها: أنها منسوخة بقوله: «وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان»^(٨) [الطور: ٢١] فأدخل الأبناء الجنة بصلاح الآباء، قاله ابن عباس، ولا يصح، لأن لفظ الآيتين لفظ خير، والأخبار لا تُنسخ. والثاني: أن ذلك كان لقوم إبراهيم وموسى، وأما هذه الأمة فلم يمتنعوا وما سعى غيرهم، قاله عكرمة، واستدل بقول النبي ﷺ للمرأة التي سألت: إن أبي مات ولم يحج، فقال: «حجني عنه»^(٩). والثالث: أن المراد بالإنسان هاهنا: الكافر، فأما المؤمن، فله ما سعى وما سعى له، قاله الربيع بن أنس. والرابع: أنه ليس للإنسان إلا ما سعى من طريق العدل، فأما من باب الفضل، فجائز أن يزيد الله ﷻ ما يشاء، قاله الحسين بن الفضل. والخامس: أن معنى «ما سعى»: ما نوى، قاله أبو بكر الوراق. والسادس: ليس للكافر من الخير إلا ما عمله في الدنيا، فيُثَاب عليه فيها حتى لا يبقى له في الآخرة خير، ذكره الثعلبي. والسابع: أن اللام بمعنى «على»، فتقديره: ليس على الإنسان إلا ما سعى. والثامن: أنه ليس له إلا سعيه، غير أن الأسباب مختلفة، فتارة يكون سعيه في تحصيل قرابة وولد يترحم عليه وصديق، وتارة يسعى في خدمة الدين والعبادة، فيكتسب محبة أهل الدين، فيكون ذلك سبباً حصل بسعيه، حكى

(١) قال السيوطي في «الدر» ٣٤١/٦: أخرجه عبد بن حميد، وابن مردويه، وابن حساكر عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب؟ قال: «مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل على شيت خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف... إلخ».

(٢) رواه ابن جرير الطبري ٧٣/٢٧ وفي سننه جعفر بن الزبير الباهلي، قال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: متروك الحديث، وكان صالحاً في نفسه، وذكره السيوطي في «الدر» ١٢٩/٦ وزاد نسبته لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والشيرازي في «الألقاب» والديلمي بسند ضعيف عن أبي أمامة رضي الله عنه.

(٣) رواه أحمد في «المسند» ٣٣٩/٣ عن معاذ بن أنس، وابن جرير الطبري ٧٣/٢٧، وفي سننه زيان بن قائد وهو ضعيف. وأورده السيوطي في «الدر» ١٥٤/٥ وزاد نسبته لابن المنثور، وابن أبي حاتم، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في «الدعوات» عن معاذ بن أنس رضي الله عنه.

(٤) قد تقدم الكلام على هذا الأمر ٩٣٤ فانظر فيه.

(٥) قراءة حفص «وَأَكْبَرْتَهُمْ قُرْبَانًا» وهذه قراءة ابن عامر.

(٦) رواه البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ونصه: أن امرأة من خثعم قالت: يا رسول الله إن أبي أدرته فريضة الله في الحج شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يتوي على ظهر بعيره، قال: «فحجني عنه».

القولين شيخنا علي بن عبيد الله الزاغوني^(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ سَتِمْ سَوَّكُ رِيَّ﴾^(٢) فيه قولان: أحدهما: سوف يُعْلَم، قاله ابن قتيبة. والثاني: سوف يرى العبد سعيه يوم القيامة، أي: يرى عمله في ميزانه، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿يُجَزِّئُهُ﴾ الهاء عائدة على السعي ﴿الْجَزَاءُ الْأَوَّلُ﴾ أي: الأكمل الآتم.

﴿وَأَنْ لَكَ رَبِّكَ الشَّيْنُ﴾^(٣) وَأَنْتُمْ هُوَ أَصْحَابُكَ وَأَبْنُكَ^(٤) وَأَنْتُمْ هُوَ أَمَاتٌ وَلَكِنَّا^(٥) وَأَنْتُمْ عَلَّقَ الرَّزِيَّةَ الْذَكَرَ وَالْأُنْثَى^(٦) مِنْ تَلْفَافٍ إِذَا تَنَفَّسَ^(٧) وَأَنْ عَلَيْهِ الشَّأَةُ الْآخِرَى^(٨) وَأَنْتُمْ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى^(٩) وَأَنْتُمْ هُوَ رَبُّ الْيَقَرَى^(١٠) وَأَنْتُمْ أَهْلُكَ عَادَا الْأَوَّلَ^(١١) وَتَوَسَّوْا مَا أَهْنُ^(١٢) وَقَوْمٌ تُوجِ مِنْ قَبْلِ إِبْنِهِمْ كَأَنَّهُمْ أَهْلُكُمْ وَأَطْنَى^(١٣) وَالْمُؤَنَّفَكَةُ أَهْوَى^(١٤) فَتَنَّتْهَا مَا عَشَى^(١٥) فَبَايَ مَا لَكَ رَبِّكَ تَسَاكَيْ^(١٦)

﴿وَأَنْ لَكَ رَبِّكَ الشَّيْنُ﴾^(١٧) أي: مُتَمَتَّى العباد وَمَرَجُعُهُمْ. قال الزجاج: هذا كُلُّهُ في صحف إبراهيم وموسى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ أَصْحَابُكَ وَأَبْنُكَ﴾^(١٨) قالت عائشة: مرَّ رسولُ الله ﷺ بقوم يضحكون، فقال: «لو تَغْلَمُونَ ما أَغْلَمَ لَضَحِكْتُمْ قليلاً، ولَبَكَيْتُمْ كثيراً، فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآية، فرجع إليهم، فقال: ما غَطَوْتُ أربعين خطوة حتى أتاني جبريل، فقال: انت هؤلاء فقل لهم: إن الله يقول: وأنت هو أضحك وأبكى»^(١٩)، وفي هذا تنبيه على أن جميع الأعمال بقضاء الله وقدره حتى الضحك والبكاء. وقال مجاهد: أضحك أهل الجنة، وأبكى أهل النار. وقال الضحاك: أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ أَمَاتٌ﴾ في الدنيا ﴿وَلَكِنَّا﴾ للبعث ﴿وَأَنْتُمْ عَلَّقَ الرَّزِيَّةَ﴾ أي: الصنفين ﴿الذَكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ من جميع الحيوانات ﴿مِنْ تَلْفَافٍ إِذَا تَنَفَّسَ﴾^(٢٠) فيه قولان: أحدهما: إذا تَرَأَّقَ في الرَّجَم، قاله ابن السائب. والثاني: إذا تَخَلَّقَ وَتَقَدَّرَ. ﴿وَأَنْ عَلَيْهِ الشَّأَةُ الْآخِرَى﴾^(٢١) وهي الخلق الثاني للبعث يوم القيامة. ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ أَغْنَى﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أغنى بالكفاية، قاله ابن عباس. والثاني: بالمعيشة، قاله الضحاك. والثالث: بالأموال، قاله أبو صالح. والرابع: بالقناعة، قاله سفيان. وفي قوله: ﴿وَأَقْنَى﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أَرْضَى بما أعطى، قاله ابن عباس. والثاني: أخدم، قاله الحسن، وقتادة، وعن مجاهد كالقولين. والثالث: جعل للإنسان قَنِيَّةً، وهو أصل مال، قاله أبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ رَبُّ الْيَقَرَى﴾^(٢٢) قال ابن قتيبة: هو الكوكب الذي يَطْلُعُ بعد الجُزْءِ، وكان ناس من العرب يعبُدونها.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَهْلُكَ عَادَا الْأَوَّلَ﴾^(٢٣) قرأ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «عاداً الأولى» منونة. وقرأ نافع، وأبو عمرو: «عاداً لولى» موصولة مدغمة. ثم فيهم قولان: أحدهما: أنهم قوم هود، وكان لهم عقب فكانوا عاداً الأخرى، هذا قول الجمهور. والثاني: أن قوم هود هم عاد الأخرى، وهم من أولاد عاد الأولى، قاله كعب الأحبار. وقال الزجاج: وفي «الأولى» لغات، أجودها سكن اللام وإثبات الهمز، والتي تليها في الجودة ضم اللام وطرح الهمزة، ومن العرب من يقول: لولى، يريد: الأولى، فتطرح الهمزة لتحرك اللام.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ تُوجِ مِنْ قَبْلِ إِبْنِهِمْ كَأَنَّهُمْ أَهْلُكُمْ وَأَطْنَى﴾ من غيرهم، لطول دعوة نوح إليهم، وعتوهم، ﴿وَالْمُؤَنَّفَكَةُ﴾ قرأ قوم لوط ﴿أَهْوَى﴾ [أي]: أسقط، وكان الذي تولى ذلك جبريل بعد أن رفعها، وأتبعهم الله بالحجارة، فذلك قوله: ﴿فَتَنَّتْهَا﴾ أي: ألبسها ﴿مَا عَشَى﴾ يعني الحجارة ﴿فَبَايَ مَا لَكَ رَبِّكَ تَسَاكَيْ﴾^(٢٤) هذا خطاب للإنسان، لما عَدَّدَ الله ما فعله مما يَدُلُّ على وحدانيته قال: فَبَايَ يعم ربك التي تدلُّ على وحدانيته تشكك؟ وقال ابن عباس: فَبَايَ آلاء ربك تكذب يا وليد، يعني [الوليد] بن المغيرة.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِمَّنْ أَنْذَرُ الْأَوَّلَ﴾^(٢٥) أَرَزَيْتَ الْآزِيَّةَ^(٢٦) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَافِيَةٌ^(٢٧) أَفَرَنْ هَذَا لِلَّذِينَ قَصَبُونَ^(٢٨) وَتَضَعُونَ رُلَا^(٢٩) تَكُونُ^(٣٠) وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ^(٣١) فَاسْمُدُوا لِلَّهِ وَاسْمُدُوا^(٣٢)

(١) هو علي بن عبيد الله بن نصر بن السري البغدادي مؤرخ فقيه من أعيان الحنابلة، قال ابن رجب: كان متفتناً في علوم شتى من الأصول والفروع والحديث والوعظ وصف في ذلك كله. توفي سنة ٥٢٧هـ.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» ١٣٠/٦ من رواية ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه القرآن، نذيرٌ بما أُنذرت الكتبُ المتقدمة، قاله قتادة. والثاني: أنه رسول الله ﷺ، نذيرٌ بما أُنذرت به للإنبياء، قاله ابن جريج.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِكَ الْأَرْزَاقُ﴾ (٤٧) أي: دنت القيامة، ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ (٤٨) فيه قولان: أحدهما: إذا غَشِيَتِ الْخَلْقَ شِدَائُهَا وَأَهْوَالُهَا لَمْ يَكْشِفْهَا أَحَدٌ وَلَمْ يَرُدِّهَا، قاله عطاء، وقاتدة، والضحاك. والثاني: ليس لعلَّها كاشفٌ دونَ الله، أي: لا يعلم علَّها إلا الله، قاله الفراء، قال: وتأنيت «كاشفة» كقوله: ﴿فَهَلْ رَزَقْنَا لَهُمْ مِنْ بَاقِئِكُمْ﴾ (١) [الحاقة: ٨]، يريد: من بقاء؛ والمعافية والباقية والناحية كُلُّها في معنى المصدر. وقال غيره: تأنيت «كاشفة» على تقدير: نفس كاشفة.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِكَ الْمَوْتُ﴾ قال مقاتل: يعني القرآن «تَجَبُّونَ» تكذيباً به، «وَتَسْتَكْبِرُونَ» استهزاء «وَلَا تَكُونُ» مما فيه من الوعيد؟ ويعني بهذا كفار مكة، «وَأَنْتُمْ سَوِيدُونَ» (١١) فيه خمسة أقوال: أحدها: لاهون، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الفراء والزجاج. قال أبو عبيدة: يقال: دَغَ عنك سُمُودُكَ، أي: لَهُوك. والثاني: مُعْرِضُونَ، قاله مجاهد. والثالث: أنه الغناء، وهي لغة يمانية، يقولون: اسْمُدْ لَنَا، أي: تَعَرَّ لَنَا، رواه عكرمة عن ابن عباس. وقال عكرمة: هو الغناء بالجمرية. والرابع: غافلون، قاله قتادة. والخامس: أشيرون بِطُرُون، قاله الضحاك.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه سُجُودُ التَّلَاوةِ، قاله ابن مسعود. والثاني: سُجُودُ الْفَرَضِ فِي الصَّلَاةِ. قال مقاتل: يعني بقوله: «فَأَسْجُدُوا»: الصَّلَاةُ الْخَمْسُ. وفي قوله: «وَأَعْبُدُوا» قولان: أحدهما: أنه التوحيد. والثاني: العبادة (٢).



(١) الآية في التلاوة: ﴿فَهَلْ رَزَقْنَا لَهُمْ مِنْ بَاقِئِكُمْ﴾ وقد سوغ المتقدمون حذف الواو والفاء عند ذكر الآية للاستدلال، انظر «الرسالة» للشافعي ٣٦١ بتحقيق العلامة أحمد شاكر رحمه الله.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا﴾ يقول تعالى ذكروه: فأسجدوا لله أيها الناس في صلاتكم دون من سواه من الآلهة والأنداد، وإياه فاعبدوا دون غيره، فإنه لا ينبغي أن تكون العبادة إلا له، فأخلصوا له العبادة والسجود، ولا تجعلوا له شريكاً في عبادتكم إياه. وروى البخاري في «صحيحه» ٤٧٢/٨ عن ابن عباس ؓ قال: سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. وروى البخاري أيضاً عن ابن مسعود قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة «وَالَّذِينَ» قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه إلا رجلاً رأته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فراهته بعد ذلك قتل كافراً، وهو أمية بن خلف.

سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

﴿اَقْرَبَ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتَبٌ ۝ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَعْتَبٌ ۝ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْآيَةِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأَنْذُرُ ۝﴾.

وهي مكية بإجماعهم، وقال مقاتل: مكية غير آية ﴿سَبِّحْ لِلْمُنْعِ﴾ [القمري: ٤٤ - ٤٦]، وحكي عنه أنه قال: إلا ثلاث آيات، أولها: ﴿أَنْ يَبُولُونَ عَنْ جَمِيعِ مُنْعِمٍ ۝﴾ إلى قوله: ﴿وَأَمْرٌ﴾ [القمري: ٤٤ - ٤٦]، قال ابن عباس: اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن فعلتُ تؤمنون؟» قالوا: نعم، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعطيه ما قالوا، فانشق القمر فرقتين، ورسول الله ﷺ ينادي: «يا فلان يا فلان اشهدوا»، وذلك بمكة قبل الهجرة^(١). وقد روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» من حديث ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقّتين، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا»^(٢). وقد روى حديث الانشقاق جماعة، منهم عبد الله بن عمر، وحذيفة، وجبير بن مطعم، وابن عباس، وأنس بن مالك^(٣)، وعلى هذا جميع المفسرين، إلا أن قوماً شذّوا فقالوا: سينشق يوم القيامة. وقد روى عثمان بن عطاء عن أبيه نحو ذلك، وهذا القول الشاذ لا يقاوم الإجماع، ولأن قوله: ﴿وَأَنْشَقَّ﴾ لفظ ماضٍ، وحمل لفظ الماضي على المستقبل يفتقر إلى قرينة تنقله ودليل، وليس ذلك موجوداً^(٤). وفي قوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ دليل على أنه قد كان ذلك. ومعنى ﴿اَقْرَبَ﴾: دَنَتْ؛ و﴿السَّاعَةُ﴾: القيامة. وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير، تقديره: انشق القمر واقتربت الساعة. وقال مجاهد: انشق القمر فصار فرقتين، فثبت فرقة، وذهبت فرقة وراء الجبل. وقال ابن زيد: لما انشق القمر كان يرى نصفه على قُيعِقَانٍ، والنصف الآخر على أبي قُبَيْسٍ - قال ابن مسعود: لما انشق القمر قالت قريش: سحرهم ابن أبي كبشة، فاسألوا السُّفَّارَ، فسألوه، فقالوا: نعم قد رأيته، فأنزل الله ﷻ: ﴿اَقْرَبَ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۝﴾^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً﴾ أي: آية تدلّهم على صدق الرسول، والمراد بها هاهنا: انشقاق القمر ﴿يُعْرِضُوا﴾ عن التصديق ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتَبٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ذاهب، من قولهم: مرّ الشيء واستمرّ: إذا ذهب، قاله مجاهد، وقتادة، والكسائي، والفراء؛ فعلى هذا يكون المعنى: هذا سحر، والسحر يذهب ولا يثبت. والثاني: شديد قوي، قاله أبو العالية، والضحاك، وابن قتيبة، قال: وهو مأخوذ من المِرَّة، والمِرَّة: القتل^(٦). والثالث: دائم، حكاه الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا﴾ يعني كذبوا النبي ﷺ وما عاينوا من قدرة الله تعالى ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ما زلّ لهم الشيطان ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَعْتَبٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن كلّ أمر مستقرّ بأهله، فالخير يستقرّ بأهل الخير، والشر يستقرّ بأهل

(١) رواه البخاري ٤٦٤/٦ بمعناه مختصراً، وذكره السيوطي في «الدرر» ١٣٣/٦ ونسبه إلى أبي نعيم في «الحلية» من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس.

(٢) البخاري ٤٧٤/٨، ومسلم ٢١٥٨/٤.

(٣) حديث عبد الله بن عمر رواه مسلم والترمذي والبيهقي: وحديث حذيفة أخرجاه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» وابن جرير، وابن مردويه. وحديث جبير بن مطعم رواه أحمد والبيهقي. وحديث ابن عباس رواه البخاري في «صحيحه». وحديث أنس بن مالك رواه أحمد والبخاري ومسلم.

(٤) في الأصل: موجود.

(٥) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٢٢٢، وابن جرير الطبري ٨٥/٢٧، وذكره السيوطي في «الدرر» ١٣٣/٦ وزاد نسبه لابن المنذر، وابن مردويه، وأبي نعيم والبيهقي كلاهما في «الدلائل» من طريق مسروق عن ابن مسعود ﷺ.

(٦) في الأصل: القتل، وهو تصحيف، والتصويب من «غريب القرآن».

الشر، قاله قتادة. والثاني: لكل حديث مُنتَهَى وحقيقة، قاله مقاتل. والثالث: أن قرار تكذيبهم مستقر، وقرار تصديق المصدقين مستقر حتى يعلموا حقيقته بالثواب والعقاب، قاله الفراء.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿بِآيَاتِنَا الْأُنْبِيَاءِ﴾ أي: من أخبار الأمم المكذبة في القرآن ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ قال ابن قتيبة: أي: مُتَعَطِّ ومُتَهَي.

قوله تعالى: ﴿حِكْمَةً بِلِقَاءِ﴾ قال الزجاج: هي مرفوعة لأنها بدل من «ما»، فالمعنى: ولقد جاءهم حكمة بالغة [وإن شئت رفعتها بإضمار: هو حكمة بالغة]. و «ما» في قوله: ﴿فَمَا تَتَنَزَّلُ﴾ جائز أن يكون استفهاماً بمعنى التوبيخ، فيكون المعنى: أي شيء تُغني التَّنَزُّلُ؟ وجائز أن يكون نفيًا، على معنى، فليست تُغني التَّنَزُّل. قال المفسرون: والمعنى: جاءهم القرآن وهو حكمة تامة قد بلغت الغاية، فما تُغني التَّنَزُّل إذا لم يؤمنوا؟.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكَرٍ﴾ ① خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْنَادِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ② مُهْطِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَرِ ③﴾

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ قال الزجاج: هذا وقف التمام، و ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بقوله: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْنَادِ﴾. وقال مقاتل: فتول عنهم [إلى] يوم [يَدْعُ الدَّاعِ] أثبت هذه الباء في الحاليين يعقوب؛ ووافقه أبو جعفر، وأبو عمرو في الوصل، وحذفها الأكثرون في الحاليين. و «الداعي»: إسرأيل ينفخ النفخة الثانية. ﴿إِلَى شَيْءٍ نَّكَرٍ﴾ وقرأ ابن كثير: «نُكْرٍ» خفيفة؛ أي: إلى أمر فظيع. وقال مقاتل: «النُّكْر» بمعنى المُنْكَر، وهو القيامة، وإنما يُنْكَرُونه إعظاماً له. والتَّوَلَّى المذكور في الآية منسوخ عند المفسرين بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ قرأ أهل الحجاز، وابن عامر، وعاصم: «خُشْعًا» بضم الخاء وتشديد الشين من غير ألف. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «خَاشِعًا» بفتح الخاء وألف بعدها وتخفيف الشين. قال الزجاج المعنى: يخرجون خُشْعًا، و «خَاشِعًا» منصوب على الحال، وقرأ ابن مسعود: «خَاشِعَةً»؛ ولك في أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد والتأنيث والجمع؛ تقول: مررت بشبانٍ حَسَنٍ أوجههم، وجسانٍ أوجههم، وحَسَنَةً أوجههم، قال الشاعر:

وَسَبَابٍ حَسَنٍ أَوْجُهُهُمْ

قال المفسرون: والمعنى أن أبصارهم ذليلة خاضعة عند رؤية العذاب. والأحداث: القبور، وإنما شبههم بالجراد المنتشر، لأن الجراد لا جهة له يُقْصِدها، [فهو أبداً مختلف بعضه في بعض]، فهم يخرجون فزعين ليس لأحد منهم جهة يُقْصِدها. والدَّاعِي: إسرأيل. وقد أثبت ياء «الداعي» في الحاليين ابن كثير، ويعقوب؛ تابعهما في الوصل نافع، وأبو عمرو؛ والباقيون بحذفها في الحاليين. وقد بينا معنى «مُهْطِينَ» في سورة إبراهيم: [٤٣] والعير: الصَّعْب الشديد.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ① فَذَمَّا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرَ ② فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاوُ مُنْهَرِ ③ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ وُدِّرَ ④ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُوسَى ⑤ فَجَرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفِرَ ⑥ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مَّنْذُرٍ ⑦ فَكَفَّ كَانَ عَدَاوِي وَنَذَر ⑧ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مَّنْذُرٍ ⑨ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَاوِي وَنَذَر ⑩ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا مَّرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ⑪ يَنْزِعُ النَّاسَ أَنتَارًا ظَلِمْ مُنْقَعِرٍ ⑫ فَكَيْفَ كَانَ عَدَاوِي وَنَذَر ⑬﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل أهل مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نوحاً ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ قال أبو عبيدة: افتعل من زَجِر. قال المفسرون: زجره عن مقالته ﴿فَذَمَّا﴾ عليهم نوح ﴿رَبِّهِ﴾ بـ ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرَ﴾ أي: فانتقم لي ممن كذبني. قال الزجاج: وقرأ عيسى بن عمر النحوي: «إِنِّي» بكسر الألف، وفسرها سيبويه فقال: هذا على إرادة القول، فالمعنى: قال: إني مغلوب؛ ومن فتح، وهو الوجه، فالمعنى: دعا ربّه بـ ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾.

(١) البيت للمحارث بن دوس الإيادي، ويروى لأبي داود الإيادي «هاشم القرطبي» ١٢٩/١٧. وهو في «الطبري» ٩٠/٢٧. والبيت من شواهد الفراء في «معاني القرآن» الورقة ٣١٧ قال: إذا تقدم الفعل قبل اسم مؤنث وهو له، أو قبل جمع مؤنث، مثل الأنصار والأعمار وما أشبهها، جاز تأنيث الفعل وتذكيره وجمعه.

قوله تعالى: ﴿فَنَنْحِتَ أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ قرأ ابن عامر «فَنَنْحِتُنَا» بالتشديد. فأما المُنْهَجِر، فقال ابن قتيبة: هو الكثير السريع الانصباب، ومنه يقال: هَمَرَ الرجلُ: إذا أكثر من الكلام وأسرع. وروى عليّ عليه السلام أن أبواب السماء فُتحت بالماء من المجرّة، وهي شُرُجُ السماء. وعلى ما ذكرنا من القصة في [هـ: ٤٤] أن المطر جاءهم، يكون هو المراد بقوله: ﴿فَنَنْحِتَ أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ قال المفسرون: جاءهم الماء من فوقهم أربعين يوماً، وفُجِّرَت الأرض من تحتهم عيوناً أربعين يوماً. ﴿فَالْنَفَى الْمَاءُ﴾ وقرأ أبي بن كعب، وأبو رجاء، وعاصم الجحدري: «الماءان» بهمزة وألف ونون مكسورة. وقرأ ابن مسعود: «المايان» بياء وألف ونون مكسورة من غير همز. وقرأ الحسن، وأبو عمران: «الماوان» بواو وألف وكسر النون. قال الزجاج: يعني بالماء: ماء السماء وماء الأرض، ويجوز الماءان، لأن اسم الماء اسم يجمع ماء الأرض وماء السماء.

قوله تعالى: ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ فيه قولان: أحدهما: كان قُدِرَ ماء السماء كقُدِرَ ماء الأرض، قاله مقاتل. والثاني: قد قُدِرَ في اللوح المحفوظ، قاله الزجاج. فيكون المعنى: على أمر قد قُضِيَ عليهم، وهو الغرق.

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾ يعني نوحاً ﴿عَلَى ذَاتِ الْوَجِّ وَدُسْرِ﴾ قال الزجاج. أي: على سفينة ذات ألواح. قال المفسرون: ألواحها: خشباتها العريضة التي منها جُمِعت. وفي الدُّسُر أربعة أقوال: أحدها: أنها المسامير، رواه الوالي عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والقرطبي، وابن زيد. وقال الزجاج: الدُّسُر: المسامير والشُّرُط التي تُشَدُّ بها الألواح، وكل شيء نحو السُّمُر أو إدخال شيء في شيء بقوة وشدة قَهَر فهو دُسُر، يقال: دَسَرْتُ المسمار أذسُرُهُ وأذسِرُهُ. والدُّسُر: واحداه دِسَار، نحو جمار، وحُمُر. والثاني: أنه صُلُر السفينة، سُمِّيَ بذلك لأنه يَدُسُر الماء، أي: يدفعه، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن وعكرمة؛ ومنه الحديث في العنبر أنه شيء دسره البحر، أي: دفعه^(١). والثالث: أن الدُّسُر: أضلاع السفينة، قاله مجاهد. والرابع: أن الدُّسُر: طرفاها وأصلها، والألواح: جانبها، قاله الضحّاك.

قوله تعالى: ﴿نَجَرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بِمَنْظَرٍ وَمَرَأَى مِنَّا ﴿جَزَاءً﴾ قال الفراء: فعَلْنَا بِهِ وَبِهِمْ مَا فَعَلْنَا مِنْ إِنْجَاتِهِ وَإِغْرَاقِهِمْ ثَوَاباً لِمَنْ كَفَرَ بِهِ. وفي المراد بـ «مَنْ» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الله تعالى، وهو مذهب مجاهد، فيكون المعنى: عوقبوا الله ولكفروهم به. والثاني: أنه نوحٌ كُفِرَ به وَجُحِدَ أَمْرُهُ، قاله الفراء. والثالث: أن «مَنْ» بمعنى «ما»؛ فالمعنى: اجزاء لما كان كُفِرَ من نعم الله عند الذين أغرقهم، حكاه ابن جرير. وقرأ قتادة: «لِمَنْ كَانَ كَفَرٌ» بفتح الكاف والفاء.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَكَنَّا﴾ في المشار إليها قولان: أحدهما: أنها السفينة، قال قتادة: أبقاها الله على الجودي حتى أدركها أوائل هذه الأمة. والثاني: أنها الفُغلة، فالمعنى: تركنا هذه الفُغلة وأمر سفينة نوح آية، أي: علامة ليعتبر بها، ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ وأصله مُدْتَكِر، فأبدلت التاء دالاً على ما بيّنا في قوله: ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أَثْوَى﴾ [يوسف: ٤٥]. قال ابن قتيبة؛ أصله: مُدْتَكِر، فأدغمت التاء في الدال، ثم قلبت دالاً مشددة. قال المفسرون: والمعنى: هل من متذكّر يعتبر بذلك؟ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِي﴾ وفي هذه السورة «ونذير» ستة مواضع، أثبت الباء فيهن في الحاليين يعقوب، تابعه في الوصل ورش، والباقيون بحذفها في الحاليين. وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ استفهام عن تلك الحالة، ومعناه التعظيم لذلك العذاب. قال ابن قتيبة: والنَّذْر هاهنا جمع نذير، وهو بمعنى الإنذار، ومثله التَّكْبِير بمعنى الإنكار. قال المفسرون: وهذا تخويف لمشركي مكة. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ﴾ أي: سَهَّلْنَاهُ ﴿لِلذِّكْرِ﴾ أي: للحفظ والقراءة ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ أي: من ذاكر يذكره ويقرؤه؛ والمعنى: هو الحث على قراءته وتعلّمه^(٢) قال سعيد بن جبير: ليس من كتب الله كتاب يُقْرَأ كُلُّهُ ظاهراً إِلَّا الْقُرْآن. وأما الرُّبُوع الضَّرُور، فقد ذكرناها في [عَم السجدة].

(١) قال الشيخ محمد السفاريني في «شرح ثلاثيات مستند الإمام أحمد»: جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن زكاة العنبر؟ فقال: «إنما هو شيء دسره البحر».

(٢) قال ابن كثير: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراد، لينذكر الناس، كما قال: ﴿كَتَبْنَا الْقُرْآنَ إِلَيْكَ مَكَّةَ لِقَاءِ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ قال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ يعني هوئنا أولاً الآية سورة وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ يَسَّرْنَا لِسَانَكَ لِيُذَكِّرَ بِهِ الَّذِينَ تُكَذِّبُونَ وَتُذَكِّرَ بِهِ قَوْمًا لَنَا﴾ قال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ يعني هوئنا =

قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ نَخَسُ مَسْتَكِرًّا﴾ قرأ الحسن: «في يوم» بالتثوين، على أن اليوم منعوت بالتحس. والمستمر: الدائم الشوم، استمر عليهم نحوسه. وقال ابن عباس: كانوا يتشاءمون بذلك اليوم. وقيل: إنه كان يوم أربعاء في آخر الشهر^(١). ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾ أي: تقلعهم من الأرض من تحت أقدامهم فنصرعهم على رقابهم فتدق رقابهم فتبين الرأس عن الجسد، فـ ﴿كَأَنَّهُمْ أَصْحَابُ نُحُلٍ﴾ وقرأ أبي بن كعب، وابن السميع: «أعجز نُحُلٍ» برفع الجيم من غير ألف بعد الجيم. وقرأ ابن مسعود، وأبو مجلز، وأبو عمران: «كأنهم عُجُرُ نُحُلٍ» بضم العين والجيم. ومعنى الكلام: كأنهم أصول نُحُلٍ ﴿شُعَيْرٍ﴾ أي: مُنْقَلِعٍ. وقال الفراء: المُنْقَعِرُ: المُنْصَرَعُ مِنَ النُّحْلِ. قال ابن قتيبة: يقال: قَعَرْتُهُ فَأَنْقَعَرُ، أي قلعته فسقط. قال أبو عبيدة: والنُّحْلُ يُذَكَّرُ وَيؤنَّثُ، فهذه الآية على لغة من ذكّر، وقوله: ﴿أَصْحَابُ نُحُلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨] على لغة من أنث. وقال مقاتل: شبههم حين وقعوا من شدة العذاب بالنُّحْلِ الساقطة التي لا رؤوس لها، وإنما شبههم بالنُّحْلِ ليطولهم، وكان طول كل واحد منهم اثني عشر ذراعاً.

﴿وَلَقَدْ بَيَّنَّا الْفُرْقَانَ لِلَّذِي هُوَ مِنْ مُذَكِّرٍ﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿١٦﴾ فَقَالُوا أَبَشَرٌ مِمَّا وَجَدْنَا نُلْعَمُ مِنْهَا إِذَا لَيْلَى مَسَلَّى وَسُمِرُ ﴿١٧﴾ لَيْلَى الْإِذْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَثِيرٌ ﴿١٨﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَثِيرِ ﴿١٩﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فَمَنْ تَبِعَهَا لَئِيْلَ لَبِيذٍ فَتَقَبَّلْنَاهُ مِنْ بَيْنِنَا لَئِيْلَ لَبِيذٍ ﴿٢٠﴾ قَاتِلَا صَاحِبِ قَتْلَاهُمَا مَقَرٌّ ﴿٢١﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢٢﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً وَجِدَّةً فَعَاوُوا كَهَيِّئِ اللَّحْمِزِ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ بَيَّنَّا الْفُرْقَانَ لِلَّذِي هُوَ مِنْ مُذَكِّرٍ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه جمع نذير. وقد بينّا أن من كذب نبياً واحداً فقد كذب الكل. والثاني: أن النُّذُرَ بمعنى الإنذار كما بينّا في قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾؛ فكانهم كذبوا الإنذار الذي جاءهم به صالح، ﴿فَقَالُوا أَأَبَشَرٌ مِمَّا﴾ [قال الزجاج: هو منصوب بفعل مُضْمَرٌ والذي ظهر تفسيره، المعنى: اتبع^(٢) بشرأ منّا ﴿وَجِدَّةً﴾]، قال المفسرون: قالوا: هو آدمي وفلّنا، وهو واحد فلا نكون له تبعاً ﴿إِنَّا إِذَا﴾ إن فعلنا ذلك ﴿لَيْلَى مَسَلَّى﴾ أي: خطأ وذهاب عن الصواب ﴿وَسُمِرُ﴾ قال ابن عباس: أي: جنون. قال ابن قتيبة: هو من: تَسَمَّرْتُ^(٣) التَّارُ: إذا التَّهَيْتُ، يقال: نَاقَةٌ مَسْعُورَةٌ، أي: كأنها مجنونة من النشاط. وقال غيره: لَيْلَى شِقَاءٌ وَعَنَاءٌ لأجل ما يلزمنا من طاعته. ثم أنكروا أن يكون الوحي يأتيه فقالوا: ﴿لَيْلَى الْإِذْرُ﴾؟ أي: أنزل الوحي ﴿عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾؟ أي: كيف خُصَّ من بيننا بالنبوة والوحي؟ ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَثِيرٌ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه المَرِحُ المتكبر، قاله ابن قتيبة. والثاني: البَطَرُ، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ قرأ ابن عامر وحزمة: «سيعلمون» بالتاء «غداً» فيه قولان: أحدهما: يوم القيامة، قاله ابن السائب. والثاني: عند نزول العذاب بهم، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾ وذلك أنهم سألوا صالحاً أن يُظْهِرَ لهم ناقةً من صخرة، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾ أي: مُخْرِجُهَا كما أرادوا ﴿فَمَنْ تَبِعَهَا لَئِيْلَ لَبِيذٍ﴾ أي: وحنة واختباراً ﴿فَاتَّبَعْنَاهُمْ﴾ أي فانتظر ما هم صانعون ﴿وَأَصْلَحَ﴾ على ما يصيبك من الأدنى، ﴿وَبَيَّنَّا أَنْ اللَّاءَ فَسَمَاءُ يَتَّبِعُهُمْ﴾ أي: بين ثمود وبين الناقة، يوم لها ويوم لهم، فذلك قوله: ﴿كُلُّ شَرِيرٍ مُخْتَلِفٍ﴾ يحضره صاحبه ويستحقه.

قوله تعالى: ﴿قَاتِلَا صَاحِبِ قَتْلَاهُمَا مَقَرٌّ﴾ واسمه ثدار بن سالف ﴿تَعَاطَى﴾ قال ابن قتيبة: تعاطى عَفْرُ الناقة ﴿فَمَقَرٌّ﴾ أي: قتل؛ وقد بينّا هذا في [الأعراف: ٧٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً وَجِدَّةً﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام صاح بهم؛ وقد أشرنا إلى قصتهم في [هود: ٦١]

١ - قراءته، وقال السدي: يسرنا تلاوته على الألسن. وقال الضحاك عن ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان الأديمين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله ﷻ. وقوله: ﴿فَهَلْ يَنْ مُذَكِّرٍ﴾ أي: فهل من مذكّر بهذا القرآن الذي قد يسر الله حفظه ومعناه؟ وقال محمد بن كعب القرظي: فهل منجز عن المعاصي؟ ١٢.

(١) الشوم من معتقدات الجاهلية المقيية التي أبطلها الإسلام، وما يروى مرفوعاً من أن «يوم الأربعاء يوم نحس مستمر» فلا يصح منه شيء.

(٢) في الأصل: اتبع، والتصويب من «القرطبي». (٣) في الأصل: تسعر، والتصويب من «غريب القرآن».

﴿فَكَانُوا كَهَشِيمٍ الْحَطِيطِ﴾ قال ابن عباس: هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك دون السباع، فما سقط من ذلك وداسته الغنم، فهو الهشيم. وقد بينا معنى «الهشيم» في [الكهف: ٤٥] وقال الزجاج: الهشيم: ما ييس من الورق وتكسر وتحطم، والمعنى: كانوا كالهشيم الذي يجمعه صاحبُ الحظيرة بعد أن بلغ الغاية في الجفاف، فهو يجمع ليوقد. وقرأ الحسن: «المُحْتَظَرُ» بفتح الظاء، وهو اسم الحظيرة؛ والمعنى: كهشيم المكان الذي يُحْتَظَرُ فيه الهشيم من الحطب. وقال سعيد بن جبيرة: هو التراب الذي يتناثر من الحيطان. وقال قتادة: كالعظام النخرة المحترقة. والمراد من جميع ذلك: أنهم بادوا وهلكوا حتى صاروا كالشيء المتحطم.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِينَ﴾ [١] ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا مَالُ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُ نَسْرَ﴾ [٢] ﴿نِعْمَةً مِنَّا عِندَ ذَلِكَ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ [٣] ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَكَارَرُوا إِلَى الذَّنْدَرِ﴾ [٤] ﴿وَلَقَدْ رَدَدُوهُ عَن صَيِّبِهِ﴾ [٥] ﴿فَلَمَسْنَا أَفْئِدَتَهُمْ فَنُذِرُوا عَلَىٰ وَتَدَّرُ﴾ [٦] ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [٧] ﴿فَنُذِرُوا عَلَىٰ وَتَدَّرُ﴾ [٨] ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾ [٩] ﴿

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ قال المفسرون: هي الحجارة التي قُدِفُوا بها ﴿إِلَّا مَالُ لُوطٍ﴾ يعني لوط وابنتيه ﴿نَجَّيْنَاهُمْ﴾ من ذلك العذاب ﴿وَسَحَرِ﴾ قال الفراء: «سَحَرِ» هاهنا يجري^(١) لأنه نكرة، كقوله: نجيناها من بئيل، فإذا ألقت العرب منه الباء لم يجر، لأن لفظهم به بالألف واللام، يقولون: ما زال عندنا منذ السحر، لا يكادون يقولون غيره، فإذا حذف منه الألف واللام لم يضرَف. وقال الزجاج: إذا كان السحر نكرة يراد به سحر من الأسحار، انصرف، فإذا أردت سحر يومك، لم ينصرف.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ قال مقاتل: من وحَّد الله تعالى لم يُعَذَّب مع المشركين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَدَدُوهُ عَن صَيِّبِهِ﴾ أي: طلبوا أن يسلم إليهم أضيافه، وهم الملائكة ﴿فَلَمَسْنَا أَفْئِدَتَهُمْ﴾ وهو أن جبريل ضرب أعينهم بجنّاحه فأذهبها. وقد ذكرنا القصة في سورة [هود: ٨١]. وتم الكلام هاهنا، ثم قال: ﴿فَنُذِرُوا﴾ أي: فقلنا لقوم لوط لما جاءهم العذاب: ذوقوا ﴿عَذَابِي وَتَدَّرُ﴾ أي: ما أنذرهم به لوط، ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً﴾ أي: أتاهم صباحاً ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: نازل بهم. قال مقاتل: استقر بهم العذاب بُكْرَةً. قال الفراء: والعرب تُجري «عُدوة» و «بُكرة» ولا تُجريهما، وأكثر الكلام في «عُدوة» ترك الإجراء، وأكثر في «بُكرة» أن تُجري، فمن لم يُجرها جعلها معرفة، لأنها اسم يكون أبداً في وقت واحد بمنزلة «أمس» و «غدي»، وأكثر ما تُجري العرب «عُدوة» إذا قُرنت بعشيّة، يقولون: إني لأتيهم عُدوة وعشيّة، [وبعضهم يقول: «عُدوة»، فلا يُجريها، و «عشيّة» فيجريها، ومنهم من لا يُجري «عشيّة» لكثرة ما صحبت «عُدوة». وقال الزجاج: العُدوة والبُكرة إذا كانتا نكرتين نُوتتا وضرِفتا، فإذا أردت بهما بُكرة يومك وغداة يومك، لم تصرفهما، والبُكرة هاهنا نكرة، فالصرف أجود، لأنه لم يثبت رواية في أنه كان في يوم كذا في شهر كذا.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ مَالُ رَعُونَ الذَّنْدَرِ﴾ [١٠] ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَلَنَنْهَضَنَّهُمْ أَنذَرِ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [١١] ﴿أَكْفَارُكَ حَيْرٌ مِّنْ أَوْلَئِكَ أَمْ لَكَ بَرَاءَةٌ فِي الذَّنْدَرِ﴾ [١٢] ﴿أَمْ يَقُولُونَ غَنٍّ جَمِيعٌ مِّنْهُمْ﴾ [١٣] ﴿سَيَبْرَهُمْ لَجَمْعٌ وَيُؤَلِّقُونَ الذَّنْدَرِ﴾ [١٤] ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَأَمْرٌ﴾ [١٥] ﴿

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ مَالُ رَعُونَ الذَّنْدَرِ﴾ يعني القَيْظُ ﴿الذَّنْدَرِ﴾ فيهم قولان: أحدهما: [أنه] جمع نذير، وهي الآيات التي أنذرهم بها موسى. والثاني: أن الذَّنْدَر بمعنى الإنذار؛ وقد بيناه أنفأ، ﴿فَلَنَنْهَضَنَّهُمْ﴾ بالعذاب ﴿أَنذَرِ عَزِيزٍ﴾ أي: غالب في انتقامه ﴿مُقْتَدِرٍ﴾ قادر على هلاكهم. ثم خوف أهل مكة فقال: ﴿أَكْفَارُكَ﴾ يا معشر العرب ﴿حَيْرٌ﴾ أي: أشد وأقوى ﴿مِّنْ أَوْلَئِكَ﴾ ١٢ وهذا استفهام معناه الإنكار، والمعنى: ليسوا بأقوى من قوم نوح وعاد وثمود، وقد أهلكناهم ﴿أَمْ لَكَ بَرَاءَةٌ فِي الذَّنْدَرِ﴾ من العذاب أنه لا يصيبكم ما أصابهم ﴿فِي الذَّنْدَرِ﴾ أي: في الكتب المتقدمة، ﴿أَمْ يَقُولُونَ غَنٍّ جَمِيعٌ مِّنْهُمْ﴾ [١٣] والمعنى: أيقولون: نحن يدٌ واحدة على من خالفنا فننتصر منهم؟ وإنما وحَّد المُنتَصِر للفظ الجميع، فإنه على لفظ «واحد» وإن كان اسماً للجماعة ﴿سَيَبْرَهُمْ لَجَمْعٌ﴾ وروى أبو حاتم بن يعقوب: «سنهزم» بالنون، «الجمع» بالنصب،

«وتُولُون» بالناء، ويعني بالجمع: جمع كفار مكة «وَيُولُونُ الذُّبُرَ» ولم يقل: الأدبار، وكلاهما جائز؛ قال الفراء: ويثله أن يقول: إن فلاناً لكثير الدِّينار والدُّرهم. وهذا مما أخبر الله به نبيه من علم الغيب، فكانت الهزيمة يوم بدر.

قوله تعالى: «وَالسَّاعَةُ أَذَى» قال مقاتل: هي أفضع «وَأَمْرٌ» من القتل. قال الزجاج: ومعنى اللّاهية: الأمر الشديد الذي لا يهتدى لدوائه؛ ومعنى «أمرٌ»: أشدّ مرارة من القتل والأسر.

﴿إِنَّ الْمُبْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُورٍ﴾ (٧) بِمَ يَسْجُونَ فِي النَّارِ عَلَى نُجُوبِهِمْ دُورُهَا مَسَّ سَقَرٌ ﴿٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٩﴾ وَمَا أَمْرًا إِلَّا رَجَدَةً كَلِمَةٍ بِالْبَصَرِ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١١﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿١٢﴾ وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ الْكَلْبَيْنِ فِي جَحِّمٍ وَنَهْرٍ ﴿١٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُورٍ﴾ (٧) في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن مشركي مكة جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يُخاصمون في القدر، فنزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ انفرد بإخراجه مسلم من حديث أبي هريرة^(١) وروى أبو أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذه الآية نزلت في القدرية»^(٢). والثاني: أن أشقف نجران جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد تزعم أن المعاصي بقدر، وليس كذلك، فقال رسول الله ﷺ: «أنتم خُصماء الله»، فنزلت: ﴿إِنَّ الْمُبْرِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿بِقَدَرٍ﴾، قاله عطاء.

قوله تعالى: ﴿رُسُومٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: الجنون. والثاني: العناء، وقد ذكرناهما في صدر السورة. والثالث: أنه نار تستعير عليهم، قاله الضحاك. فأما «سَقَرٌ» فقال الزجاج: هي اسم من أسماء جهنم لا ينصرف لأنها معرفة، وهي مؤنثة. وقرأت على شيخنا أبي منصور قال: سَقَرٌ: اسم لنار الآخرة أعجمي، ويقال: بل هو عربي، من قولهم: سَقَرَتُهُ الشمس: إذا أذا به، سميت بذلك لأنها تُذِيبُ الأجسام. وروى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْرٌ مَنَادِيًا فَنادى نداءً يسمعه الأولون والآخرون: أَيْنَ خُصْمَاءُ اللَّهِ؟ فتقوم القدرية، فيؤمر بهم إلى النار، يقول الله تعالى: ﴿دُورُهَا مَسَّ سَقَرٌ﴾ ﴿٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٩)، وإنما قيل لهم: «خُصْمَاءُ اللَّهِ» لأنهم يُخاصمون في أنه لا يجوز أن يُقدَّر المعصية على العبد ثم يعذبه عليها. وروى هشام بن حسان عن الحسن قال: واللّه لو أنّ قديراً صام حتى يصير كالحيّل، ثم صلى حتى يصير كالوتر، ثم أخذ ظملاً وزوراً حتى دُبِحَ بين الرُّكن والمقام لكَبُّه الله على وجهه في سَقَرٍ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾. لوروى مسلم في أفرادهِ من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ»^(٤). وقال ابن عباس: كل شيء بقدر حتى وضع يدك على خذك. وقال الزجاج: معنى «بِقَدَرٍ» أي: كل شيء خلقناه بقدر مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه، ونصب «كُلُّ شَيْءٍ» بفعل مضمر؛ المعنى: إِنَّا خَلَقْنَا كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَانَهُ بِقَدَرٍ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرًا إِلَّا رَجَدَةً﴾ قال الفراء: أي: إلا مرة واحدة، وكذلك قال مقاتل: مرة واحدة لا مشنوية لها. وروى عطاء عن ابن عباس قال: يريد: إن قضائي في خلقي أسرع من لمح البصر. وقال ابن السائب: المعنى: وما أمرنا بمجيء الساعة في السرعة إلا كلمح البصر. ومعنى اللُّمَحُّ بالبصر: النَّظَرُ بسرعة. «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ» أي: أشباهكم ونظراءكم في الكفر من الأمم الماضية «فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ» أي مُنَعِّظٍ «وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ» يعني الاسم. وفي «الزُّبُرِ» قولان: أحدهما: أنه كُتِبَ الْحَقْفَةُ. والثاني: اللُّوحُ المحفوظ. «وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ» أي: من الأعمال المتقدمة «مُسْتَطَرٍ» أي: مكتوب، قال ابن قتيبة: هو «مُتَعَلِّقٌ» من «سَطَرَتْ» إذا كتبت، وهو مثل «مُسْطُور».

(١) ٢٠٤٦/٤، ورواه أحمد في «المستند»، والترمذي، وابن ماجه، والواحد في «أسباب النزول» ٢٢٨، وابن جرير الطبري، وذكره السيوطي في «الدر» ١٣٦/٦ وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» ١٣٧/٦ ونسبه إلى ابن عدي، وابن مردويه، والديلمي، وابن عساكر، بسند ضعيف عن أبي أمامة رضي الله عنه.

(٣) ذكره بنصه الخازن في «تفسيره» نقلاً عن المؤلف، وذكر السيوطي في «الدر» ١٣٨/٦ نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما بأطول منه من رواية ابن مردويه.

(٤) «صحيح مسلم» ٢٠٤٥/٤، والكي: ضد العجز، وهو النشاط والحلق بالأمر، ومعناه أن العاجز قد قدر عجزه والكي: قد قدر كيسه. والحديث رواه أيضاً أحمد في «المستند».

قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ قال الزجاج: المعنى: في جئات وأنهار، والاسم الواحد يدُلُّ على الجميع، فيجتزأ به من الجميع. أنشد سيويه والخليل:

بِهَا جَيْفُ الْحَسْرَى، فَأَمَّا عِظَامُهَا فَبَيْضٌ وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبٌ^(١)
يريد: وأما جلودها، ومثله:

فِي خَلْقِكُمْ عَظْمٌ وَقَدْ شَجِينَا^(٢)

ومثله:

كُلُّوا فِي يَضْفٍ بَطْنِكُمْ تَوَيْشُوا^(٣)

وحكى ابن قتبية عن الفراء أنه وُحِدَ لأنه رأسُ آية، فقابل بالتوحيد رؤوس الآي، قال: ويقال: النَّهْرُ: الضَّيَاءُ والسَّعَةُ، من قولك: أَنَهَزْتُ الطَّعْنَ: إِذَا وَسَعْتَهَا، قال قيس بن الخطيم يصف طعنة:

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَزْتُ فَتَقَّهَا يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا^(٤)
أي: أوسعت فتقها. قلت: وهذا قول الضحاك. وقرأ الأعمش «وَنَهْرٍ».

قوله تعالى: ﴿فِي مَقْعٍ صِدْقٍ﴾ أي: مجلس حسن؛ وقد نبهنا على هذا المعنى في قوله: ﴿أَنَّ لَهُمَا قَدَمَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٢]. فأما المَلِيك، فقال الخطابي: المَلِيك: هو المالك، وبناء فَعِيل للمبالغة في الوصف، ويكون المَلِيك بمعنى المَلِك، ومنه هذه الآية. والمُقْتَدِر مشروح في [الكهف: ٤٥].



(١) تقدم تخريجه ٢٩٩.

(٢) سبق الرجز ٢٩٩.

(٣) سبق الشطر ١٣٣ و ٥٥٥ والبيت بكامله ٧٨٠.

(٤) «ديوانه» ٨، «غريب لقرآن» ٤٣٥، «مشكل القرآن» ١٣٢، «الصاحح»، «اللسان» و«التاج»: نهر.

سورة الرحمن

وفي نزولها قولان: أحدهما: أنها مكية، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وعطاء، ومقاتل، والجمهور، إلا أن ابن عباس قال: سوى آية، وهي قوله: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرحمن: ٢٩]. والثاني: أنها مدنية، رواه عطية عن ابن عباس. وبه قال ابن مسعود.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الْإِنْسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ④ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ⑤ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ⑥ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْبِرَاقَ ⑦ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْغِيَاقِ ⑧ وَأَنفِثَ الْوُزْنَ بِالْقَبْطِ وَلَا تُغَيِّرُوا الْبِرَاقَ ⑨ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ⑩ فِيهَا فَنَكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ⑪ وَلَهُمْ فِي الْقَبْرِ وَالرَّحْمَانِ ⑫ فَيَا مَالِئِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ⑬﴾
قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ②﴾ قال مقاتل: لما نزل قوله: ﴿أَسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ ③﴾ [الفرقان: ٦٠] قال كفار مكة: وما الرَّحْمَنُ؟ فأنكروه وقالوا: لا نعرف الرَّحْمَنَ، فقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ④﴾ الذي أنكروه هو الذي ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ ②﴾. وفي قوله: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ ②﴾ قولان: أحدهما: علّمه محمداً، وعلّم محمد أمته، قاله ابن السائب. والثاني: يسر القرآن، قاله الزجاج^(١).

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ③﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه اسم جنس، فالمعنى: خلق الناس جميعاً، قاله الأكثرون. فعلى هذا، في «البيان» ستة أقوال: أحدها: النطق والتّمييز، قاله الحسن^(٢). والثاني: الحلال والحرام، قاله قتادة. والثالث: ما يقول وما يُقال له، قاله محمد بن كعب. والرابع: الخير والشر، قاله الضحاك. والخامس: [طرق] الهدى، قاله ابن جريج. والسادس: الكتابة والخط، قاله يمان. والثاني: أنه آدم، قاله ابن عباس، وقاتدة. فعلى هذا في «البيان» ثلاثة أقوال: أحدها: أسماء كل شيء. والثاني: بيان كل شيء. والثالث: اللغات. والقول الثالث: أنه محمد ﷺ، علّمه بياناً ما كان وما يكون، قاله ابن كيسان.

قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ⑤﴾ أي: بحساب ومنازل، لا يَعْدُونَهَا؛ وقد كشفنا هذا المعنى في [الأنعام: ٩٦]. قال الأخفش: أضمر الخبر، وأظنه - والله أعلم - أراد: يجريان بحُسابان.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ⑥﴾ في النجم قولان: أحدهما: أنه كُلُّ نَبْتٍ ليس له ساق، وهو مذهب ابن عباس، والسدي، ومقاتل، واللّغويين. والثاني: أنه نَجْمُ السَّمَاءِ، والمُرَاد به: جميع النُّجُوم، قاله مجاهد. فأما الشَّجَرُ: فكلُّ ما له ساق. قال الفراء: سُجُودُهُما: أَنَّهُمَا يَسْتَقْبِلَانِ الشَّمْسَ إِذَا أَشْرَقَتْ، ثُمَّ يَمِيلَانِ مَعَهَا حَتَّى يَنْكَسِرَ الْفَيْءُ. وقد أشرت في [النحل: ٤٩] إلى معنى سُجُودِ ما لا يَقُول. قال أبو عبيدة: وَتَمَّا ثِي فَعَلَهُمَا عَلَى لَفْظِهِمَا.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ⑧﴾ وإنما فعل ذلك ليحيا الحيوان وتمتد الأنفاس، وأجرى الرّيح بينها وبين الأرض، كما يتروّح^(٣) [الخلق]. ولولا ذلك لماتت الخلائق كَرْباً.

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ الْبِرَاقَ ⑧﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه العَدَلُ، قاله الأكثرون، منهم مجاهد والسدي

(١) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذِكره: الرحمن أيها الناس برحمته إياكم علمكم القرآن، فأنعم بذلك عليكم، إذ بصركم به ما فيه رضا ربكم، وعرفكم ما فيه سخطه، لتطيعوه باتباعكم ما يرضيه عنكم وعملكم بما أمركم به، وتجنبكم ما يسخط عليكم فتسرعوا بذلك جزيل ثوابه، وتنجوا من أليم عقابه. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: وقول الحسن هاهنا أحسن وأقوى، لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق، وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفيتين على اختلاف مخارجها وأنواعها. اهـ.

(٣) في الأصل: يتروّج.

واللغويون. قال الزجاج: وهذا لأن المعادلة: مُوازنة الأشياء. والثاني: أنه الميزان المعروف، ليتناصف الناس في الحقوق، قاله الحسن، وقتادة، والضحاك. والثالث: أنه القرآن، قاله الحسين بن الفضل.

قوله تعالى: ﴿أَلَا تَنْظُرُونَ﴾ ذكر الزجاج في «أن» وجهين: أحدهما: أنها بمعنى اللام؛ والمعنى: لثلاً تَنْظُرُوا. والثاني: أنها للتفسير، فتكون «لا» للنهي؛ والمعنى: أي: لا تَنْظُرُوا، أي لا تُجاوِزُوا العَدْلَ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُحْسِرُوا آلَ يَرْبِئَانَ﴾ قال ابن قتيبة، أي: لا تنقصوا الوزن. فأما الأنام، ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم الناس، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: كل ذي رُوح، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والشعبي، وقتادة، والسدي، والفراء. والثالث: الإنس والجن، قاله الحسن، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا تَنْكِهُونَ﴾ أي، ما يُتَفَكَّهُ [به] من ألوان الثمار. ﴿وَأَكْثَلَ ذَاتِ الْأَكْثَارِ﴾ والأكمام: الأوعية والغُلْف؛ وقد استوفينا شرح هذا في (أحم السجدة: ٤٧).

قوله تعالى: ﴿وَالْحَبُّ﴾ يريد: جميع الحبوب، كالبر والشعير وغير ذلك. وقرأ ابن عامر: «والْحَبُّ» بنصب الباء «ذا العصف» بالالف «والرَّيْحَانُ» بنصب النون. وقرأ حمزة، والكسائي إلا ابن أبي سُرَيْج، وخلف: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ بخفض النون؛ وقرأ الباقون بضم النون. وفي «العصف» قولان: أحدهما: أنه بين الرُّع وورقه الذي تنصفه الرياح، قاله ابن عباس. وكذلك قال مجاهد: هو ورق الرُّع، قال ابن قتيبة: العصف: ورق الرُّع، ثم يصير إذا جفَّ ويبس ويبس تبناً. والثاني: أن العصف: المأكول من الحب، حكاه الفراء. وفي «الرَّيْحَانُ» أربعة أقوال: أحدها: أنه الرُّزْق، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، والسدي. قال الفراء: الرَّيْحَانُ في كلام العرب: الرُّزْق، تقول: خرجنا نطلب رَيْحَانُ الله، وأنشد الزجاج للثور بن ثَوْلَب:

سَلامُ الإلهِ وَزِيحائِهِ وَرَحْمَتُهُ وَسَمَاءُ دِرْزِ^(١)

والثاني: أنه خُضرة الرُّع، رواه الوابي عن ابن عباس. قال أبو سليمان الدمشقي: فعلى هذا، سُمِّي رَيْحَاناً، لاستراحة النَّفس بالنظر إليه. والثالث: أنه رَيْحانكم هذا الذي يُسَمُّ، روى العوفي عن ابن عباس قال: «الرَّيْحَانُ»: ما أنبتت الأرض من الرَّيْحَان، وهذا مذهب الحسن، والضحاك، وابن زيد. والرابع: أنه ما [لم] يؤكل من الحب، والعصف: المأكول منه، حكاه الفراء.

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن قيل: كيف خاطب اثنين، وإنما ذكر الإنسان وحده؟ فعنه جوابان ذكرهما الفراء: أحدهما: أن العرب تخاطب الواحد بفعل الاثنين كما بيَّنا في قوله: ﴿فَبِأَيِّ جَهَنَّمَ﴾ [ق: ٢٤]. والثاني: أن الذكر أريد به: الإنسان والجان، فجرى الخطاب لهما من أول السورة إلى آخرها. قال الزجاج: لما ذكر الله تعالى في هذه السورة ما يدلُّ على وحدانيته من خلق الإنسان وتعليم البيان وخلق الشمس والقمر والسماء والأرض، خاطب الجن والإنس قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي نعم ربكما تُكذِّبان من هذه الأشياء المذكورة، لأنها كلها مُنعم بها عليكم في دلائلها إيتاكم على وحدانيته وفي رزقه إيتاكم ما به قوامكم. وقال ابن قتيبة: الآلاء: النعم، واحدها: آلاء، مثل: قفأ، وإلأ، مثل: ومعن.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ ١ ﴿وَعَزَّزَ الْجَنَّةَ مِنْ مَّاءٍ مِنْ تَارٍ﴾ ٢ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٣ ﴿رَبُّ الشَّرِيفِينَ﴾ ٤ ﴿رَبُّ الْمَرْفُوعِينَ﴾ ٥ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٦ ﴿مَجَّ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ ٧ ﴿بَيْنَهُمَا بَرْجٌ لَا يَبِيدَانِ﴾ ٨ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٩ ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الْوُثْقُ وَالْخِثَّاءُ﴾ ١٠ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ١١ ﴿وَلَهُ الْخَازِنُ الْغُتَّتْ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ﴾ ١٢ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ١٣

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ يعني آدم ﴿مِنْ صَلْصَلٍ﴾ قد ذكرنا في [الحجر: ٢٦، ٢٧] الصَّلْصال والجان، فأما قوله: ﴿كَالْفَخَّارِ﴾ فقال أبو عبيدة: خلق من طين يابس لم يُطْبَخ، فله صوت إذا نُقِر، فهو من يُبْسِه كالْفَخَّار. والفَخَّار: ما

(١) البيت في (غريب القرآن: ٤٣٧)، و(الطبري: ٢٧/١٢٣)، و(القرطبي: ١٧/١٥٧)، و(الصالح: ١٥٧)، و(اللسان: ١٣٧)، و(الناج: ١٣٧)، و(معجم: ١٣٧)

طَبِخَ بِالنَّارِ. فَأَمَّا المَارِجُ، فقال ابن عباس: هو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهب. وقال مجاهد: هو المختلط بَعْضُهُ ببعض من اللهب الأحمر والأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أُوقِدَتْ. وقال مقاتل: هو لهب النار الصافي من غير دخان. وقال أبو عبيدة: المَارِجُ: خَلَطٌ من النار. وقال ابن قتيبة: المَارِجُ: لهب النار، من قولك: قد مَرَجَ الشيءُ: إذا اضطرب ولم يستقر. وقال الزجاج: هو اللَّهَبُ المختلط بسواد النار. فإن قيل: قد أخبر الله تعالى عن خَلْقِ آدم ﷺ بالفاظ مختلفة، فتارة يقول: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وتارة: ﴿مِنْ سَلَمَلٍ﴾، وتارة: ﴿مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [الصافات: ١١]، وتارة: ﴿كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]، وتارة: ﴿مِنْ حَكَمٍ مُسْتَوْزٍ﴾ [الحجر: ٢٩]؛ فالجواب: [أن الأصل التراب فجعل طيناً، ثم صار كالحمى المسنون، ثم صار صلصلاً كالْفَخَّارِ، هذه أخبار عن حالات أصله. فإن قيل: ما الفائدة في تكرار قوله: ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ كَذَبَانِ﴾] [الجواب] أن ذلك التكرير لتقرير التَّعْمِ وتأكيد التذكير بها. قال ابن قتيبة: من مذاهب العرب التكرار للتوكيد والإنهاض، كما أن من مذاهبهم الاختصار للتخفيف والإيجاز، لأن افتتان المتكلم والخطيب في الفنون أحسن من اقتصاره في المقام على فنٍّ واحدٍ، يقول القائل منهم: واللَّو لا أفعله، ثم واللَّو لا أفعله، إذا أراد التوكيد وحسم الأطماع مِنْ أَنْ يفعله، كما يقول: واللَّو أفعله، بإضمار «لا» إذا أراد الاختصار، ويقول القائل المستعجل: اغْجَلْ اغْجَلْ، وللرامي: ارم ارم، قال الشاعر:

كَمْ زِفْمَةٍ كَانَتْ لَهُ وَكَمْ وَكَمْ

وقال الآخر:

فَلَا سَأَلْتُ جُمُوعَ كِنْدٍ

لَذَّةَ يَوْمٍ وَلَوْ أَتَيْنَا

وربما جاءت الصفة فأرادوا توكيدها، واستوحشوا من إعادتها ثانية لأنها كلمة واحدة، فغيروا منها حرفاً ثم أتبعوها الأولى، كقولهم: عَقْشَانُ نَطْشَانٍ، وَشَيْطَانُ لَيْطَانٍ، وَحَسَنٌ بَسَنٌ. قال ابن دريد: ومن الإتياع: جائع نائع، ومليح قريح، وقبيح شقيح، وشحيح نخيح، وَغَيْثٌ نَبِثٌ، وكثير بثير: وَسَيْغٌ لَيْغٌ، وسائغ لائغ، وَخَقِيرٌ نَقِيرٌ، وَضَيْلٌ بَيْلٌ، وخضر مضر^(٣)، وعفريت نفريت، وَثَقَّةٌ نَقَّةٌ، وَكِنٌّ إِنْ، وواحدٌ فاحدٌ، وحائرٌ بائرٌ، وَسَمَحٌ لَمَحٌ. قال ابن قتيبة: فلما عَدَدَ الله تعالى في هذه السورة نعماءه، وأذَكَرَ عِبَادَهُ آله، وَبَثَّهَمُ عَلَى قُدْرَتِهِ، جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين كل نعمتين، لِيُتَّهِمَهُمُ التَّعْمِ وَيُفَرِّغَهُمُ بِهَا، كقولك للرجل: ألم أَبُوءَكَ مَنَزَلاً وَكَنتَ طَرِيداً؟ أَفَتُنْكِرُ هَذَا؟ ألم أَحِجَّ بِكَ وَأَنْتَ صَرُورَةٌ^(٤)؟ أَفَتُنْكِرُ هَذَا؟ وروى الحاكم أبو عبد الله في «صحيحه» من حديث جابر بن عبد الله قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها [ثم] قال: «ما لي أراكم سكوتاً؟ لَلْجَنِّ كَانُوا أَحْسَنَ مِنْكُمْ رَدّاً: ما قرأت عليهم هذه الآية من مَرَّةٍ ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ كَذَبَانِ﴾» [٣١]، إِلَّا قَالُوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد^(٥). قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ قرأ أبو رجاء، وابن أبي عبيدة: «رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ» بالخفض، وهما مشرق الصَّيْفِ ومشرق الشتاء ومغرب الصَّيْفِ ومغرب الشتاء للشمس والقمر جميعاً. قوله تعالى: ﴿مَجَّ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أرسل العذب والمِلْحَ وخلاهما وجعلهما: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾، ﴿يَنْهَمَا بَرْنَجٌ﴾ أي: حاجز

(١) الرجز غير منسوب في «مشكل القرآن» ١٨٣ وفيه:

كَمْ نَعْمَةٍ كَانَتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وَكَمْ

وهو أيضاً في «أمالى المرتضى» ٨٤/١ و«الصناعين» ١٤٤، و«الصاحبي» ١٧٧.

(٢) البيت لعبيد بن الأبرص، «ديوانه» ١٤٢، و«مشكل القرآن» ١٤٣، و«مختارات ابن الشجري» ٣٩/٢، و«الشعر والشعراء» ١/٢٢٤.

(٣) قال في «اللسان»: مضر: أخذ الشيء خَضْرَاءً يَضْرأُ وخَضْرَاءً مَضْراً، أي: غصاً طرياً.

(٤) في «اللسان»: صرر: ورجل صرور وصرورة: لم ينج قط.

(٥) رواه الترمذي ١٦١/٢، والحاكم في «المستدرک» ٤٧٣/٢ من حديث الوليد بن مسلم ثنا زهير بن محمد عن محمد بن المنكدر عن جابر ﷺ... وصححه ووافقه الذهبي. وقال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من حدث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد. قلت: وزهير بن محمد هذا وإن أخرج له الشيخان فقد قال البخاري كما في «التلخيص» ٣/٣٤٩: ما روى عنه أهل الشام، فإنه متاكير، وما روى عنه أهل البصرة فإنه صحيح، قلت: وهذا الحديث مما رواه عنه الوليد بن مسلم وهو من أهل الشام.

من قدرة الله تعالى: ﴿لَا يَبْيِغَانِ﴾ أي: لا يختلطان فيبغى أحدهما على الآخر. وقال ابن عباس: بحر السماء وبحر الأرض يلتقيان كل عام. قال الحسن: ﴿مَجَّ الْبَحْرَيْنِ﴾ يعني [بحر] فارس والروم، بينهما برزخ، يعني الجزائر؛ وقد سبق بيان هذا في [الفرقان: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ قال الزجاج: إنما يخرج من البحر الملح، وإنما جمعهما، لأنه إذا خرج من أحدهما فقد أخرج منهما، ومثله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُجُومًا﴾ [نوح: ١٦]. قال أبو علي الفارسي: أراد: يخرج من أحدهما، فحذف المضاف. وقال ابن جرير: إنما قال «منهما» لأنه يخرج من أضداد البحر عن قطر السماء. فأما اللؤلؤ والمرجان، ففيهما قولان: أحدهما: أن المرجان: ما صغر من اللؤلؤ، واللؤلؤ: العظام، قاله الأكثرون. منهم ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والفراء. وقال الزجاج: اللؤلؤ: اسم جامع للحب الذي يخرج من البحر، والمرجان: صغاره. والثاني: أن اللؤلؤ: الصغار، والمرجان: الكبار، قاله مجاهد، والسدي، ومقاتل. قال ابن عباس: إذا أمطرت السماء، فتحت الأصداف أفواهاها، فما وقع فيها من مطر فهو لؤلؤ؛ قال ابن جرير: حيث وقعت قطرة كانت لؤلؤة. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: ذكر بعض أهل اللغة أن المرجان أعجمي معرب. قال أبو بكر، يعني ابن دريد: ولم أسمع فيه بفعل منصرف، وآخر به أن يكون كذلك. قال ابن مسعود: المرجان: الخرز الأحمر. وقال الزجاج: [المرجان] أبيض شديد البياض. وحكى القاضي أبو يعلى أن المرجان: ضرب من اللؤلؤ كالقضبان.

قوله تعالى: ﴿وَالْأَمْوَاجُ﴾ يعني السفن ﴿الْمُتَنَثِّثَاتُ﴾ قال مجاهد: هو ما قد رُفِعَ قَلْعُهُ من السفن دون ما لم يُرَفَع قَلْعُهُ. قال ابن قتيبة: هُنَّ اللواتي أنشئن، أي: ابتدئ بهنَّ ﴿فِي الْبَحْرِ﴾، وقرأ حمزة: «الْمُتَنَثِّثَاتُ»، فجعلهن اللواتي ابتدئان، يقال: أنشأت السحابة تمطر: إذا ابتدأت، وأنشأ الشاعر يقول. والأعلام: الجبال، وقد سبق هذا [الشورى: ٣٢].

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿وَبَقِيَ رَبُّكَ ذُو الْمَلَكِطِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ﴿يَأْتِي مَالَهُ رِيَقًا مُدْغِجًا﴾ ﴿يَسْتَلْهُم مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿يَأْتِي مَالَهُ رِيَقًا مُدْغِجًا﴾ ﴿وَبَقِيَ رَبُّكَ ذُو الْمَلَكِطِ وَالْإِكْرَامِ﴾

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أي: على الأرض، وهي كناية عن غير المذكور، «فانٍ»: أي؛ هالك. ﴿وَبَقِيَ رَبُّكَ ذُو الْمَلَكِطِ وَالْإِكْرَامِ﴾ قال أبو سليمان الخطابي: الجلال: مصدر الجليل، يقال: جليل بين الجلالة والجلال. والإكرام: مصدر أكرم يُكْرَم إكراماً؛ والمعنى أن الله تعالى مستحق أن يُجَلَّ ويُكْرَم، ولا يُجْحَد ولا يُكْفَر به؛ وقد يحتمل أن يكون المعنى: أنه يُكْرَم أهل ولايته ويرفع درجاتهم؛ وقد يحتمل أن يكون أحد الأمرين - وهو الجلال - مضافاً إلى الله تعالى بمعنى الصفة له، والآخر مضافاً إلى العبد بمعنى الفعل منه، كقوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ الْجَلَالِ وَأَهْلُ الْمُنَافَرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦]. فانصرف أحد الأمرين إلى الله وهو المغفرة، والآخر إلى العباد وهو التقوى.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَلْهُم مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ المعنى أن الكل يحتاجون إليه فيسألونه وهو غني عنهم ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ مثل أن يُحْيِي ويميت، ويؤزِّع ويؤدِّب، ويشفي مريضاً، ويُعْطِي سائلاً، إلى غير ذلك من أفعاله. وقال الحسين بن الفضل: هو سَوِّق المقادير إلى المواقيت. قال مقاتل: وسبب نزول هذه الآية أن اليهود قالت: إن الله لا يقضي في يوم السبت شيئاً، فنزلت: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

﴿سَنُرِيهِمْ لَكُمْ آيَةً الْفَلَاحِ﴾ ﴿يَأْتِي مَالَهُ رِيَقًا مُدْغِجًا﴾ ﴿يَسْتَلْهُم مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿يَسْتَلْهُم مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿يَسْتَلْهُم مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿يَسْتَلْهُم مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾

قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ لَكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: «سَنُرِيهِمْ» بنون مفتوحة. وقرأ ابن مسعود، وعكرمة، والأعمش، وحمزة، والكسائي، وعبد الوارث: [«سَيُرِيهِمْ»] بياء مفتوحة. وقرأ ابن السميع، وابن يعمر، وابن أبي عبلة، وعاصم الجحدري، عن عبد الوارث: «سَيُرِيهِمْ» بضم الياء وفتح الراء. قال الفراء: هذا وعبد من الله تعالى، لأنه لا يشغله شيء عن شيء، تقول للرجل الذي لا شغل له: قد فرغت لي؛ قد فرغت تشمتني؟! أي: قد أخذت في هذا وأقبلت عليه؟! قال الزجاج: الفراغ في اللغة على ضربين. أحدهما: الفراغ من شغل. والآخر:

القصد للشيء، تقول: قد فرغت مما كنت فيه، أي: قد زال شغلي به، وتقول: سأفرغ لفلان، أي: سأجعله قصدي، ومعنى الآية: ستفقد لحسابكم. فأما «القلان» فهما الجن والإنس، شئياً بذلك لأنهما ثقل الأرض.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقْدُرُوا﴾ أي: تخرجوا؛ يقال: نفذ الشيء من الشيء: إذا خلص منه، كالسهم ينفذ من الرمية؛ والأقطار: النواحي والجوانب. وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض فاعلموا، قاله ابن عباس. والثاني: إن استطعتم أن تهربوا من الموت بالخروج من أقطار السموات والأرض فاهربوا واخرجوا منها؛ والمراد: أنكم حينما كنتم أدرككم الموت، هذا قول الضحاك ومقاتل في آخرين. والثالث: إن استطعتم أن تجوزوا أطراف السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم فجوزوا؛ وإنما يقال لهم هذا يوم القيامة، ذكره ابن جرير.

قوله تعالى: ﴿لَا تَقْدُرُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا تنفذون إلا في سلطان الله وملكه، لأنه مالك كل شيء، قاله ابن عباس. والثاني: لا تنفذون إلا بحجة، قاله مجاهد. والثالث: لا تنفذون إلا بملك، وليس لكم ملك، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿يُرْسِلُ عَلَيْكَ﴾ فثنى على اللفظ. وقد جمع في قوله: ﴿إِنْ أَسْتَقْتُمْ﴾ على المعنى. فأما «الشواظ» ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه لهب النار، قاله ابن عباس. وقال مجاهد: هو اللهب الأخضر المنقطع من النار. والثاني: الدخان، قاله سعيد بن جبير. والثالث: النار المحضة، قاله الفراء. وقال أبو عبيدة: هي النار التي تأجج لا دخان فيها، ويقال: شواظ وشواظ. وقرأ ابن كثير بكسر الشين؛ وقرأ أيضاً هو وأهل البصرة: «وُنحاس» بالخفض، والباقون برفعهما. وفي «النحاس» قولان: أحدهما: أنه دخان النار، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، والفراء وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج، ومنه قول الجعدي يذكر امرأة:

نُضِيءُ كَضَوْءِ سِرَاجِ السَّلِيلِ
طَلَمَ يَجْعَلِي اللَّئُ فِيهِ نُحَاساً^(١)

وذكر الفراء في السليط ثلاثة أقوال: أحدها: أنه ذهن السنام، وليس له دخان إذا استصبح به. والثاني: أنه ذهن السمسم. والثالث: الزيت. والثاني: أنه الصُفْرُ المُذاب يُصبُّ على رؤوسهم، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقاتل. قال مقاتل: والمراد بالآية: كفار الجن والإنس، يرسل عليهما في الآخرة لهب النار والصُفْرُ اللذائب، وهي خمسة أنهار تجري من تحت العرش على رؤوس أهل النار، ثلاثة أنهار على مقدار الليل، ونهران على مقدار نهار الدنيا^(٢)، ﴿فَلَا تَنْفِرَانِ﴾ أي: فلا تمتنعان من ذلك.

﴿إِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ ١٧ ﴿فَإِذَا مَاءَ الْوَيْدِ كَانَ رِيًّا كَالْهَيَاءِ﴾ ١٨ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ١٩ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٢٠ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٢١ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٢٢ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٢٣ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٢٤ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٢٥ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٢٦ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٢٧ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٢٨ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٢٩ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٣٠ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٣١ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٣٢ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٣٣ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٣٤ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٣٥ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٣٦ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٣٧ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٣٨ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٣٩ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٤٠ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٤١ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٤٢ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٤٣ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٤٤ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٤٥ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٤٦ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٤٧ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٤٨ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٤٩ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٥٠ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٥١ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٥٢ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٥٣ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٥٤ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٥٥ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٥٦ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٥٧ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٥٨ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٥٩ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٦٠ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٦١ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٦٢ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٦٣ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٦٤ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٦٥ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٦٦ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٦٧ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٦٨ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٦٩ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٧٠ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٧١ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٧٢ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٧٣ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٧٤ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٧٥ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٧٦ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٧٧ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٧٨ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٧٩ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٨٠ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٨١ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٨٢ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٨٣ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٨٤ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٨٥ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٨٦ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٨٧ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٨٨ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٨٩ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٩٠ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٩١ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٩٢ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٩٣ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٩٤ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٩٥ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٩٦ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٩٧ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٩٨ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ٩٩ ﴿وَنُفُوسٌ كَالْغِيَاءِ﴾ ١٠٠

قوله تعالى: ﴿إِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ أي: انفرجت من المجرة لتزول من فيها يوم القيامة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ وفيها قولان: أحدهما: كلون الفرس الوردة، قاله أبو صالح، والضحاك. وقال الفراء: الفرس الوردة، تكون في الربيع وردة إلى الصفرة، فإذا اشتد الحر كانت وردة حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت وردة إلى الغبرة، فشبه تلون السماء بتلون الوردة من الخيل؛ وكذلك قال الزجاج: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ أي: كلون فرس وردة؛ والكُميت: الورد يتلون، فيكون لونه في الشتاء خلاف لونه في الصيف، ولونه في الصيف خلاف لونه في الشتاء، فالسما تتلون من الفزع الأكبر. وقال ابن قتيبة: المعنى: فكانت حمراء في لون الفرس الورد. والثاني: أنها وردة النبات؛ وقد تختلف ألوانها، إلا أن الأغلب عليها الحمرة، ذكره الماوردي. وفي الدهان قولان: أحدهما: أنه واحد، وهو الأديم الأحمر، قاله ابن عباس. والثاني: أنه جمع دهن، والدهن تختلف ألوانه بخضرة وحمرة وصفرة، حكاه اليزيدي، وإلى نحوه ذهب

(١) البيت في «معجم القرآن» ٢/ ٢٤٥، و«غريب القرآن» ٤٣٨، و«الطبري» ٢٧/ ١٤١، و«اللسان» و«التاج»: نحس.

(٢) هذا الخبر لا سند له، ورواه مقاتل - وهو ابن سليمان الأزدي المفسر - كذبوه وهجروه ورموه بالتجسيم كما في «التقريب».

وقال قتادة: البطائن: هي الظواهر بلغة قوم. وكان الفراء يقول: قد تكون البطانة ظاهرة، والظاهرة بطانة، لأن كل واحد منهما قد يكون وجهاً، والعرب تقول: هذا ظَهَرُ السماء، وهذا بَطْنُ السماء، لظاهرها، وهو الذي نراه، وقال ابن الزبير يعيب قَتْلَ عثمان: خرجوا عليه كاللصوص من وراء القرية، فقتلهم الله كل قتلة، ونجا منهم من نجا تحت بطون الكواكب. يعني هربوا ليلاً؛ فجعلوا ظهور الكواكب بطوناً، وذلك جائز في العربية. وأنكر هذا القول ابن قتيبة جداً، وقال: إنما أراد الله أن يعرفنا - من حيث نفهم - فضل هذه الفُرش وأن ما ولي الأرض منها إِسْتَبْرَقٌ، وإذا كانت البطانة كذلك، فالظاهرة أعلى وأشرف. وهل يجوز [لأحد] أن يقول لوجه مصل: هذا بطانته، ولما ولي الأرض منه: هذا ظهارته؟^(١) وإنما يجوز هذا في ذي الوجهين المتساويين، تقول لما وليك من الحائط: هذا ظَهَرُ الحائط، ويقول جارك لما وليه: هذا ظَهَرُ الحائط، وكذلك السماء ما وليتنا منها: ظَهَر، وهي لِمَنْ قَوْفُها: بَطْن^(٢). وقد ذكرنا الإِسْتَبْرَق في [سورة] [الكهف: ٣١].

قوله تعالى: ﴿وَمَعَ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ قال أبو عبيدة: أي: ما يُجتنى قريب لا يُعني الجاني.

قوله تعالى: ﴿فَبَيْنَ قَمِيرَتِ الْأَرْفَافِ﴾ قد شرحناه في [المصافات: ٤٨]. وفي قوله: ﴿فَبَيْنَ﴾ قولان: أحدهما: أنها تعود إلى الجنتين وغيرهما مما أعد لصاحب هذه القصة، قاله الزجاج. والثاني: أنها تعود إلى الفُرش، ذكره علي بن أحمد النيسابوري.

قوله تعالى: ﴿لَرَّ يَلْبُثْتَنَ﴾ قرأ الكسائي بضم الميم، والباقون بكسرهما، وهما لغتان: يَطْمِثُ وَيَطْمُثُ، مثل يَغْكُفُ وَيَغْكُفُ. وفي معناه قولان: أحدهما: لم يَنْقَضِضْهُنَّ؛ والظْمُثُ: النُّكاح بالثُدْمَةِ، ومنه قيل للحائض: طامِثٌ، قاله الفراء. والثاني: لَمْ يَمَسْسْنَهُنَّ؛ يقال: ما طَمَثَ هذا البعيرَ حَبْلٌ [قَطَطَ]، أي: ما مَسَّهُ، قاله أبو عبيد. قال مقاتل: وذلك لأنهن خُلِقْنَ من الجنة؛ فعلى قوله، هذا صفة الحور. وقال الشعبي: هُنَّ من نساء الدنيا لَمْ يَمَسْسْنَهُنَّ مذ أنشئن خُلِقْنَ. وفي الآية دليل على أن الجنة يَغْشَى المرأة كالإنسي.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ قال قتادة: هُنَّ في صفاء الياقوت وبياض المَرْجَان. وذكر الزجاج أن أهل التفسير وأهل اللغة قالوا: هُنَّ في صفاء الياقوت وبياض المَرْجَان^(٣)، والمَرْجَان: صغار اللؤلؤ، وهو أشدُّ بياضاً. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: «الياقوت» فارسيٌّ معربٌ، والجمع «اليواقيت»، وقد تكلّمت به العرب، قال مالك بن نويرة اليربوعي:

لَنْ يَذْهَبَ اللَّؤْلُومُ تَاجٌ قَدْ حُبِيتْ بِهِ
مِنَ الزُّبَرْجَدِ وَالْيَاقُوتِ وَالذُّهَبِ^(٤)

قوله تعالى: ﴿مَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ قال الزجاج، أي: ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة. وقال ابن عباس: هل جزاء من قال: «لا إله إلا الله» وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة. وروى أنس بن مالك قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية، وقال: «هل تدرون ما قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن ربكم يقول: هل جزاء من أتبعنا عليه بالتوحيد إلا الجنة؟»^(٥)

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۖ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ﴾ مَدَامَتَانِ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ﴾ فِيهِمَا عِثَانِ تَصْلَحَانِ ﴿

(١) في الأصل «بطانته»، والتصويب من «غريب القرآن». (٢) في «غريب القرآن»: وهو لمن فوقها - من الملائكة - بطن.

(٣) روى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول زمره تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضواء كوكب دوي في السماء، لكل امرئ منه زوجتان اثنتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب».

(٤) البيت في «المعرب» ٣٥٦.

(٥) روى البغوي في «تفسيره» وفي إسناده ضعف، وذكره السيوطي في «الدر» ١٤٩/٦ وزاد نسبه للحكيم الترمذي في «نوارد الأصول» والدبلي في «مسند الفردوس» وابن النجار في «تاريخه» عن أنس بن مالك ﷺ. وقال السيوطي في «الدر» ١٤٩/٦: أخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» وضعفه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿مَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ قال: «ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة». قال: وأخرج عبد حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قوله: ﴿مَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ قال رسول الله ﷺ: «هل جزاء من أنعمت عليه ممن قال: لا إله إلا الله في الدنيا إلا الجنة في الآخرة».

يَأْتِي مَالَهُ رَيْكُمَا كُذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهَا لَكُمْ مَرْكَاتٌ وَنَحْلٌ وَرِيَّانٌ ﴿٦٨﴾ يَأْتِي مَالَهُ رَيْكُمَا كُذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِ خَيْرٌ حَسَنٌ ﴿٧٠﴾ يَأْتِي مَالَهُ رَيْكُمَا كُذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُرٌّ مَقْصُورٌ فِي الْبَيْتِ ﴿٧٢﴾ يَأْتِي مَالَهُ رَيْكُمَا كُذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَيْهِمْ قَلَمٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ يَأْتِي مَالَهُ رَيْكُمَا كُذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُشْكِينَ عَلَى رَفْرِفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حَسَانٍ ﴿٧٦﴾ يَأْتِي مَالَهُ رَيْكُمَا كُذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ بَرَكَ أَمْرُ رَبِّكَ ذِي الْمَلَكِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ﴿٧٦﴾ قال الزجاج: المعنى: ولَمَنْ خاف مقام ربه جَنَّتان، وله مِنْ دُونِهِمَا جَنَّتان. وفي قوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا﴾ قولان: أحدهما: دُونِهِمَا فِي الدَّرَجِ، قاله ابن عباس. والثاني: دُونِهِمَا فِي الْفَضْلِ كما روى أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «جَنَّتان من ذهب وجَنَّتان من فضة»^(١)، وإلى نحو هذا ذهب ابن زيد، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿مُدَّاهَتَانِ﴾ ﴿٧٧﴾ قال ابن عباس [وابن الزبير]: خضراوان من الرِّيِّ. وقال أبو عبيدة: من خُضِرْتِهما قد اسودَّتا. قال الزجاج: يعني أنهما خضراوان تضرب خضرتُهما إلى السَّوَادِ، وكل نبت أخضر فتمام خُضِرْتِه وِوَيْه أن يضرب إلى السَّوَادِ.

قوله تعالى: ﴿صَلَاحَتَانِ﴾ قال أبو عبيدة: فَوَارَتَانِ. وقال ابن قتيبة: تفوران. و «النَّضْحُ» أكثر من «النَّضْحُ». وفيما يفوران به أربعة أقوال: أحدها: بالمسك والكافور، قاله ابن مسعود. والثاني: بالماء، قاله ابن عباس. والثالث: بالخير والبركة، قاله الحسن. والرابع: بأنواع الفاكهة، قاله سعيد بن جبيرة.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْلٌ وَرِيَّانٌ﴾ قال ابن عباس: نَحْلُ الْجَنَّةِ: جذوعها زمرد أخضر، وكَرَبُهَا: ذهب أحمر^(٢)، وسَعَفُهَا: كُسوة أهل الجنة، منها مَقْطَعَاتُهم وحُلُلم. وقال سعيد بن جبيرة: نخل الجنة: جذوعها من ذهب، وعروقها من ذهب، وكرانيها من زمرد، ورُطْبُهَا كالدَّلاءِ أشد بياضاً من اللَّبَنِ، وألبن من الرُّبْدِ، وأحلى من العسل، ليس له عَجَمٌ^(٣). قال أبو عبيدة: الكرائيف: أصول السَّعَفِ الغلاظ، الواحدة: كَرْنَاةٌ^(٤). وإنما أعاد ذكر النَّحْلِ والرُّيَّانِ - وقد دخلا في الفاكهة - ليبيان فضلُهما كما ذكرنا في قوله: ﴿وَنَلَّيْكَ كَيْدٌ وَرُسُلُهُ وَجَنِّيَلٌ وَمَيْكَنَدٌ﴾ [البقرة: ٩٨]، هذا قول جمهور المفسرين واللُّغَوِيِّين. وحكى الفراء والزجاج أن قوماً قالوا: ليسا من الفاكهة؛ قال الفراء: وقد ذهبوا مذهباً، ولكن العرب تجعلهما فاكهة. قال الأزهري: ما علمتُ أحداً من العرب قال في النخيل والكرام وثمارها: إنها ليست من الفاكهة، وإنما قال من قال، لِقَلَّةِ عِلْمِهِ بكلام العرب، فالعرب تذكرُ أشياء جملة ثم تحْصِي شيئاً منها بالتسمية تنبيهاً على فضل فيه، كقوله: ﴿وَجَنِّيَلٌ وَمَيْكَنَدٌ﴾ [البقرة: ٩٨]؛ فمن قال: ليسا من الملائكة كفر، ومن قال: ثمر النخل والرمان ليسا من الفاكهة جهل.

قوله تعالى: ﴿فِيهِمْ﴾ يعني في الجنان الأربع: ﴿خَيْرَتٌ﴾ يعني الحور. وقرأ معاذ القارئ، وعاصم الجحدري، وأبو نهيك؛ «خَيْرَاتٌ» بتشديد الياء. قال اللغويون: أصله «خَيْرَاتٌ» بالتشديد، فُخِّفَ، كما قيل: هَيْنٌ لَيْنٌ. وَهَيْنٌ لَيْنٌ. وروى أم سلمة عن النبي ﷺ أنه قال: «خَيْرَاتُ الْأَخْلَاقِ حَسَنُ الْوُجُوهِ»^(٥).

قوله تعالى: ﴿حُرٌّ مَقْصُورٌ﴾ قد بيَّنا في سورة [الدخان: ٥٤] معنى الحور. وفي المقصورات قولان: أحدهما: المحبوسات في الحِجَالِ، قاله ابن عباس، وهو مذهب الحسن، وأبي العالية، والقرظي، والضحاك، وأبي صالح. والثاني: المقصورات الطَّرف على أزواجهن، فلا يرفعن طَرْفاً إلى غيرهم، قاله الربيع. وعن مجاهد كالقوليين. والأول أصح، فإن العرب تقول: امرأة مَقْصُورة وقَصِيْرة وقَصُورة: إذا كانت ملازمة خدرها، قال كثير:

لَمَمَرِي لَقَدْ حَبَّبَتْ كُلَّ قَصِيْرَةٍ
إِلَيَّ، وَمَا تَذَرِي بِذَاكَ الْقَصَصَائِرِ^(٦)

(١) رواه البخاري في «صحيحه» ٤٧٩/٨ ومسلم ١/١٦٣ ولفظه بتمامه: «جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

(٢) قال في «النهاية»: وفي صفة نخل الجنة: كَرَبُها ذهب، وهو بالتحريك أصل السَّعَفِ، وقيل: ما يبيت من أصوله في النخلة بعد القطع كالمراتي.

(٣) المعجم بالتحريك: النوى، الواحدة: عجمة، مثل قصبة وقصب.

(٤) كرنافة: بكسر الكاف وضمة.

(٥) رواه ابن جرير الطبري ١٥٨/٢٧ وفي سنده ضعف، وذكره السيوطي في «الدر» ١٥٠/٦ وزاد نسبة للطبراني، وابن مردويه عن أم سلمة رضي الله عنها.

(٦) البيتان في «غريب القرآن» ٤٤٣، و«القرطبي» ١٧/١٨٩، و«البحر» ٨/١٨٦، و«اللسان» و«التاج»: قصر.

عَنَيْتُ قَصِيرَاتِ الْجِبَالِ، وَلَمْ أَرِدْ
 وبعضهم ينشده: قَصُورَةٌ، وَقُصُورَاتُ؛ والبَاحِثُ الْقِصَارُ. وفي «الخيام» قولان: أحدهما: أنها البيوت. والثاني: خيام
 تضاف إلى القصور. وقد روى البخاري ومسلم في «الصححين» من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ [أنه] قال: «إن
 للمؤمن في الجنة لَحِيمَةً من لؤلؤة واحدة مَجُوفَةٌ، طُولُهَا فِي السَّمَاءِ سِتُونَ مِيلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُونَ عَلَيْهِمْ
 [المؤمنين]، فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا»^(١). وقال عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وابن عباس: الخيام: دُرٌّ مُجَوَّفٌ. وقال
 ابن عباس: الخيمة: لؤلؤة واحدة أربعة فراسخ في أربعة فراسخ، لها أربعة آلاف مصراع من ذهب.

قوله تعالى: «مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ» وقرأ عثمان بن عفان، وعاصم الجحدري، وابن محيصن: «على رَفَارَفٍ» جمع
 غير مصروف. وقرأ الضحاك، وأبو العالية، وأبو عمران الجوني مثلهم، إلا أنهم صرفوا «رفارف» قال ثعلب: إنما لم
 يقل: أخضر، لأن الرِّفْرَفَ جمع، وأحدته: رفرفة، كقوله: «الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا» [يس: ٨٠] ولم
 يقل: الخَضَرُ، لأن الشجر جمع، تقول: هذا حصي أبيض، وحصي أسود، قال الشاعر:
 أَحَقَّ عَبْدَ اللَّهِ أَنْ لَسْتُ مَا شِئَا
 بِهَزْجَابٍ مَا دَامَ الْأَرَاكُ بِهِ خُضْرًا^(٢)

واختلف المفسرون في المراد بالرِّفْرَفِ على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها فضول المحابس [والْبُسْطُ]، رواه العوفي
 عن ابن عباس. وقال أبو عبيدة: هي: الفُرُش والبُسْط. وحكى الفراء، وابن قتيبة: أنها المحابس^(٣). وقال النقاش:
 الرِّفْرَفُ: المحابس الخَضَرُ فوق الفُرُش. والثاني: أنها رياض الجنة، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن
 جبير. والثالث: أنها الوسائد، قاله الحسن.

قوله تعالى: «وَعَبَقَرِيَّ حَسَنًا» فيه قولان: أحدهما: أنها الزُّرَابِيَّةُ، قاله ابن عباس، وعطاء، وقتادة، والضحاك،
 وابن زيد، وكذلك قال ابن قتيبة: العبقرية: الطَّنَافِسُ النَّحَانُ. قال أبو عبيدة: يقال لكل شيء من البُسْط: عبقرية.
 والثاني: أنه الذَّبْيَاجُ الغليظ، قاله مجاهد. قال الزجاج: أصل العبقرية في اللغة أنه صفة لكل ما بُولِغَ في وصفه، وأصله
 أن عبقر: بلد كان يوشى فيه البُسْط وغيرها، فَنُسِبَ كل شيء جيد إليه، قال زهير:

بَحْنِيلٍ عَلَيْهَا جِنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ
 جَدِيدُونَ يَوْمًا أَنْ يَنَالُوا فَيَسْتَعْلُوا^(٤)

وقرأ عثمان بن عفان، وعاصم الجحدري، وابن محيصن: «وَعَبَاقِرِيَّ» بآلف مكسورة القاف مفتوحة الياء من غير
 تنوين؛ قال الزجاج: ولا وجه لهذه القراءة في العربية، لأن الجمع الذي بعد ألفه حرفان، نحو: مساجد ومفاتح، لا
 يجوز أن يكون فيه مثل عباقري، لأن ما جاوز الثلاثة لا يُجمع بياء التَّسْبِ، فلو جمعت «عبقرية» كان جمعُه «عباقرة»،
 كما أنك لو جمعت «مُهَلِّي» كان جمعه «مُهَالِيَّة»، ولم تقل: «مُهَالِيَّة»، قال: فإن قيل: «عبقرية» واحد، و«حَسَنًا»
 جمع، فكيف جاز هذا؟ فالأصل أن واحد هذا «عبقرية» والجمع «عبقرية»، كما تقول: ثَمَرَةٌ، وَثَمَرٌ، وَلَوْزَةٌ، وَلَوْزٌ،
 ويكون أيضاً «عبقرية» اسماً للجنس. وقرأ الضحاك، وأبو العالية، وأبو عمران: «وَعَبَاقِرِيَّ» بآلف مع التنوين.

قوله تعالى: «يَذْكُرُهُ أَنْتُمْ رَبِّكَ» فيه قولان: أحدهما: أن يَذْكُرَ «الاسم» صِلَةً، والمعنى: تبارك ربُّكَ. والثاني: أنه
 أصل. قال ابن الأنباري: المعنى: تفاعل من البَرَكَةِ، أي: البَرَكَةُ تَنَالُ وَتُكْتَسَبُ بِذِكْرِ اسْمِهِ. وقد بَيَّنَّا معنى «تبارك» في
 [الأعراف: ٥٤]، وذكرنا في هذه السورة معنى «ذِي الْمَلَكِطِ وَالْإِكْرَامِ» [الرحمن: ٢٧]، وكان ابن عامر يقرأ: «ذُو الْجَلَالِ» وكذلك
 هي في مصاحف أهل الشام؛ والباقون: «ذِي الْجَلَالِ» وكذلك هي في مصاحف أهل الحجاز والعراق، [وهم] متفقون
 على الموضع الأول أنه «ذو».



(١) رواه البخاري ٤٧٩/٨، ومسلم ٢١٨٢/٤.

(٢) الشطر الثاني من البيت في «اللسان» و«التاج»: هرجب. و«هرجاب»: اسم موضع.

(٣) المحابس: جمع محبس، وهو الثوب يطرح عن ظهر الفراش للنوم عليه.

(٤) «ديوانه» ١٠٣، و«مجاز القرآن» ٢٤٦/٢، و«القرطبي» ١٩٢/١٧، و«اللسان»: عبقر.

سورة الواقعة

وفيها قولان: أحدهما: أنها مكِّيَّة، قاله الأكثرون، منهم ابن عباس، والحسن، وعطاء، وعكرمة، وقتادة، وجابر، ومقاتل. وحكي عن ابن عباس أن فيها آية مدنيَّة وهي قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣]. والثاني: أنها مدنيَّة، رواه عطية عن ابن عباس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ۝ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۝ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۝ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۝ كَانَتْ هِبًا نَبِيلًا ۝ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝ فَأَصْحَبُ الِأَيْمَنَةِ مَا أَصْحَبُ الِأَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَبُ الِأَسْأَمَةِ مَا أَصْحَبُ الِأَسْأَمَةِ ۝ وَالسَّيِّئُونَ الشَّرِيفُونَ ۝ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ قال أبو سليمان الدمشقي: لما قال المشركون: متى هذا الوعد، متى هذا الفتح؟ نزل قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾، فالمعنى: يكون إذا وقعت الواقعة. قال المفسرون: والواقعة: القيامة، وكل آت يتوقع، يقال له إذا كان: قد وقع، والمراد بها هاهنا: النفخة في الصور لقيام الساعة. ﴿لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي: لظهورها ومجيئها «كاذبة» أي: كذب، بقوله: ﴿لَا تَسْعَ فِيهَا نَجِيَّةٌ﴾ [الغاشية: ١١] أي: لغوا. قال الزجاج: و«كاذبة» مصدر، كقولك: عافاه الله عافيةً، وكذب كاذبةً، فهذه أسماء في موضع المصدر. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: لا رجعة لها ولا ارتداد، قاله قتادة. والثاني: ليس الإخبار عن وقوعها كذباً، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ أي: هي خافضة «رافعة» وقرأ أبو رزين^(١)، وأبو عبد الرحمن، وأبو العالية، والحسن، وابن أبي عبيدة، وأبو حيو، واليزيدي في اختياره: «خافضة رافعة» بالنصب فيهما. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: أنها خفضت فأسمعت القريب، ورفعت فأسمعت البعيد، رواه العوفي عن ابن عباس. وهذا يدل على أن المراد بالواقعة: صيحة القيامة. والثاني: أنها خفضت ناساً، ورفعت آخرين، رواه عكرمة عن ابن عباس. قال المفسرون: تخفض أقواماً إلى أسفل السافلين في النار، وترفع أقواماً إلى عليين في الجنة.

قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ أي: حُرِّكَتْ حركةً شديدةً وزلزَلَتْ، وذلك أنها ترتج حتى ينهدم ما عليها من بناء، ويشتت ما عليها من جبل. وفي ارتجاجها قولان: أحدهما: أنه لإماتة من عليها من الأحياء. والثاني: لإخراج من في بطنها من الموتى.

قوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ فيه قولان: أحدهما: قُتِلَتْ قَتْلًا، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. قال ابن قتيبة: قُتِلَتْ حتى صارت كالذئبق والسويق المبسوس. والثاني: لُتَّتْ، قاله قتادة. وقال الزجاج: خُلِطَتْ وَلُتَّتْ. قال الشاعر:

لَا تَخْخَبُ زَوْا خَبُزًا وَبُسًّا بَسًّا^(٢)

وفي «الهباء» أقوال قد ذكرناها في [الفرقان: ٢٣]. وذكر ابن قتيبة أن الهباء المُنْبَتُّ: ما سطع من ستابك الخيل، وهو من «الهبوة»، والهبوة: الغبار. والمعنى: كانت تراباً منشوراً.

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: أصنافاً «ثلاثَةً». ﴿فَأَصْحَبُ الِأَيْمَنَةِ﴾ فيهم ثمانية أقوال: أحدها: [أنهم] الذين كانوا على يمين آدم حين أخرجت ذُرِّيَّتُهُ مِنْ صُلْبِهِ، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم الذين يُعْطَوْنَ كتبهم بأيمانهم، قاله

(١) في النسخة الاستنبولية: أبو المتوكل.

(٢) الرجز في «مجاز القرآن» ٢/٢٤٨، والطبري ٢٧/١٦٧، والقرطبي ١٧/١٩٦، والصحاح «واللسان» و«التاج»: بسس.

الضحاك، والقرظي. والثالث: أنهم الذين كانوا يمامين على أنفسهم، أي: مباركين، قاله الحسن، والربيع. والرابع: أنهم الذين أخذوا من شئ آدم الأيمن، قاله زيد بن أسلم. والخامس: أنهم الذين منزلتهم عن اليمين، قاله ميمون بن مهران. والسادس: أنهم أهل الجنة، قاله السدي. والسابع: أنهم أصحاب المنزل الرفيعة، قاله الزجاج. والثامن: أنهم الذين يؤخذ بهم] ذات اليمين إلى الجنة، ذكره علي بن أحمد النيسابوري.

قوله تعالى: ﴿مَا أَحْضَبُ اللَّيْمَةَ﴾ قال الفراء: عَجِبَ نَبِيَّهُ ﷺ مِنْهُمْ؛ والمعنى: أي شيء هُم؟ قال الزجاج: وهذا اللفظ في العربية مجراه مجرى التعجب، ومجراه من الله ﷻ في مخاطبة العباد ما يعظم به الشأن عندهم، ومثله: ﴿مَا لَكُمُ اللَّيْمَةُ﴾ [الحاقة: ٢٢]، ﴿مَا الْفَارُغَةُ﴾ [الفارقة: ٢٢]؛ قال ابن قتيبة: ومثله أن يقول: زَيْدٌ مَا زَيْدًا أَي: أَيُّ رَجُلٍ هُوَ! ﴿وَأَحْضَبُ اللَّيْمَةَ مَا أَحْضَبُ اللَّيْمَةَ﴾ [أي: أصحاب] ^(١) الشمال، والعرب تسمي اليد اليسرى: الشؤمي، والجانب الأيسر: الأشام، ومنه قيل: البُئْسَ والشُّؤْم، فالْيَمِينُ: كأنه [ما] ^(٢) جاء عن اليمين، والشُّؤْم [ما جاء] عن الشمال، ومنه سُمِّيَت «الْيَمِين» و «الشَّام» لأنها عن يمين الكعبة وشمالها. قال المفسرون: أصحاب الميمنة: هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين، ويعطون كتبهم بأيمانهم؛ وتفسير أصحاب المشأمة على ضد تفسير أصحاب الميمنة سواء؛ والمعنى: أي قوم هم؟ ماذا أعد لهم من العذاب؟.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيهم خمسة أقوال: أحدها: أنهم السابقون إلى الإيمان من كل أمة، قاله الحسن، وقتادة. والثاني: أنهم الذين صلوا [إلى] القيلتين، قاله ابن سيرين. والثالث: أهل القرآن، قاله كعب. والرابع: الأنبياء، قاله محمد بن كعب. والخامس: السابقون إلى المساجد وإلى الخروج في سبيل الله، قاله عثمان بن أبي سودة. وفي إعادة ذكرهم قولان: أحدهما: أن ذلك للتوكيد. والثاني: أن المعنى: السابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله، ذكرهما الزجاج.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ قال أبو سليمان الدمشقي: يعني عند الله في ظل عرشه وجواره. ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١﴾ عَلَى سُورِ مَوْصُونَ ﴿٢﴾ مُتَكَبِّينَ عَلَيَّا مُتَنَبِّلِينَ ﴿٣﴾ يَلُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿٤﴾ بِأَكْرَابٍ وَأَبَارِقٍ وَعَيْنٌ مُنِينٌ ﴿٥﴾ لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يُرْفَوْنَ ﴿٦﴾ وَكَفَّهَتْ مِنَّا يَتَحَبَّرَتُ ﴿٧﴾ وَلَقَدْ عَلِمُوا مِنَّا يَتَحَبَّرُونَ ﴿٨﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٩﴾ كَأَمْثَلِ الثَّوَالِي الْمَكْنُونِ ﴿١٠﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأَلِيمًا ﴿١٢﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ الثَّلَاة: الجماعة غير محصورة العدد. وفي الأولين والآخريين هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أن الأولين: الذين كانوا من زمن آدم إلى زمن نبينا ﷺ، والآخرون: هذه الأمة. والثاني: [أن الأولين]: أصحاب رسول الله ﷺ، والآخريين: التابعون. والثالث: أن الأولين [والآخريين]: من [أصحاب نبينا محمد ﷺ]. فعلى الأول يكون المعنى: إن الأولين السابقين جماعة من الأمم المتقدمة الذين سبقوا بالتصديق لأنبيائهم مَنْ جاء بعدهم مؤمنًا، وقليل من أمة محمد ﷺ، لأن الذين عاينوا الأنبياء أجمعين وصدّقوا بهم أكثر ممّن عاين نبينا وصدّق به. وعلى الثاني: أن السابقين: جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم الأولون من المهاجرين والأنصار، وقليل من التابعين وهم الذين اتّبعوهم بإحسان. وعلى الثالث: أن السابقين: الأولون من المهاجرين والأنصار، وقليل ممّن جاء بعدهم لعجز المتأخّرين أن يلحقوا الأولين، فقليل منهم من يقاربهم في السّبق. وأما «الموضونة»، فقال ابن قتيبة: هي المنسوجة، كان بعضها أدخِلَ في بعض، أو تُصَدُّ بعضها على بعض، ومنه قيل للدرع: موضونة، ومنه قيل: وَضِئُ النَّاقَةِ، وهو بَطَانٌ مِنْ سُيُورٍ يُدْخَلُ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: الأَجْرُ موضُونٌ بِعُضِهِ عَلَى بَعْضٍ، أي: مُشْرَح. وللمفسرين في معنى «مَوْضُونَةٌ» قولان: أحدهما: مرمولة بالذهب ^(١)، رواه مجاهد عن ابن عباس. وقال عكرمة: مشبكة بالدرّ والياقوت، وهذا معنى ما ذكرناه عن ابن قتيبة، وبه قال الأكثرون. والثاني: مصفوفة، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وما بعد هذا قد تقدم بيانه [الكهف: ٣٠] إلى قوله: ﴿وَلَدَانٌ مُخَلَّدَانِ﴾ الولدان:

(١) زيادة من «غريب القرآن».

(٢) مرمولة: منسوجة.

الْعُلَمَان. وقال الحسن البصري: هؤلاء أطفال لم يكن لهم حسنات فُجِرَوزُون بها، ولا سيئات فيعاقبون عليها. فوضعوا بهذا الموضع. وفي المخلّدين قولان: أحدهما: أنه من الخُلْد؛ والمعنى: أنهم مخلوقون للبقاء لا يتغيرون، وهم على سنٍّ واحد. قال الفراء: والعرب تقول للإنسان إذا كَبُرَ ولم يَشْمَط: أو لم تذهب أسنانه عن الكِبَر: إنه لمخلّد، هذا قول الجمهور. والثاني: أنهم الْمُقَرَّبُونَ، ويقال: المُسَوَّرُونَ، ذكره الفراء، وابن قتيبة، وأنشدوا في ذلك:

مُحَلَّدَات بِاللُّجَيْنِ كَأَنَّمَا أَعْجَازُهُنَّ أَقَاوِرُ الْكُثْبَانِ^(١)

قوله تعالى: ﴿هَآؤُلَآئِكَ الْبَآرِقُونَ﴾ الكوب: إناء لا عروة له ولا خُرطوم، وقد ذكرناه في [الزخرف: ٧٢]؛ والأباريق: آنية لها عُرَى وخراطيم؛ وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: الإبريق: فارسيّ معرب، وترجمته من الفارسية أحد شيتين، إمّا أن يكون: طريق الماء، أو: صب الماء على هيئة، وقد تكلّمت به العرب قديماً، قال عدي بن زيد:

وَدَعَا بِالصَّبُوحِ يَوْمًا فَجَاءَتْ قَيْنَةً فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ^(٢)

وباقى الآيات في [الصفات: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿لَا يَصْغُرُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾^(٣) فيه قولان: أحدهما: لا يَلْحَقُهُم الصَّدَاع الذي يلحق شاربِي خمر الدنيا. و«عنها» كناية عن الكأس المذكور، والمراد بها: الخمر، وهذا قول الجمهور. والثاني: لا يَتَفَرَّقُونَ عنها، من قولك: صَدَعْتُه فأنْصَدَع، حكاه ابن قتيبة. «ولا يُزْفُونَ» مفسر في [الصفات: ٤٧].^(٤)

قوله تعالى: ﴿حِينَئِذٍ يَخْتَارُونَ﴾ أي: يختارون، تقول: تَخَيَّرْتُ الشيء: إذا أخذت خيره.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْشَى الْكَيْدَ﴾ قال ابن عباس: يخطر على قلبه الطير، فيصير ممثلاً بين يديه على ما اشتهى. وقال مغيب بن سمي: تقع على أغصان شجرة طوبى طير كأمثال البُخْتِ^(٥)، فإذا اشتهى الرجل طيراً دعاه، فيجيء حتى يقع على خوانه^(٦)، فيأكل من أحد جانبيه قديداً والآخر شواءً، ثم يعود طيراً فيطير فيذهب.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَيْنٌ﴾^(٧) قرأ ابن كثير، وعاصم، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «وَهُوَ عَيْنٌ» بالرفع فيهما. وقرأ أبو جعفر، وحزمة، والكسائي، والمفضل عن عاصم: بالخفض فيهما. وقرأ أبي بن كعب، وعائشة، وأبو العالية، وعاصم الجحدري: «وَهُوَ عَيْنًا» بالنصب فيهما. قال الزجاج: والذين رفعوا كرهوا الخفض، لأنه معطوف على قوله: ﴿يُطَوَّلُونَ عَيْنًا﴾، قالوا: والحور ليس ممّا يُطَاف به، ولكنه مخفوض على غير ما ذهب إليه هؤلاء، لأن المعنى: يطوف عليهم ولدانٌ مخلّدون بأكوابٍ ينعمون بها، كذلك ينعمون بلحم طير، فكذلك ينعمون بخور عَيْنٍ، والرفع أحسن، والمعنى: ولهم حورٌ عَيْنٌ؛ ومن قرأ «وَهُوَ عَيْنًا» حمّله على المعنى، لأن المعنى: يُعْطَوْنَ هذه الأشياء ويُعْطَوْنَ حوراً عَيْنًا، إلّا أنها تُخَالِفُ المصحف فتُكْرَهُ. ومعنى «كَأَنَّهِنَّ اللَّوْلُؤُ» أي: صفاوهنّ وتلاوهنّ كصفاء اللؤلؤ وتلاؤه. والممكنون: الذي لم يغيّر الزمان واختلاف أحوال الاستعمال، فهنّ كاللؤلؤ حين يخرج من صدفة. «جَزَاءً» منصوب مفعول له؛ والمعنى: يُفْعَلُ بهم ذلك جزاءً بأعمالهم، ويجوز أن يكون منصوباً على أنه مصدر، لأن معنى «يُطَوَّلُونَ عَيْنًا وَلَدَنَ عُلْدَنَ»: يُجَازَوْنَ جزاءً بأعمالهم؛ وأكثر النحويّين على هذا الوجه.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً﴾ قد فسرنا معنى اللّغو والسلام في سورة [مریم: ٦٢] ومعنى التأثيم في [الطور: ٢٣] ومعنى «مَا أَتَتْهُمُ آيَاتِينَ» في أول هذه السورة [الواقعة: ٩]. فإن قيل: التأثيم لا يُسْمَعُ فكيف ذكره مع المسموع؟ فالجواب: أن العرب يَتَّبِعُونَ آخر الكلام أوّلّه، وإن لم يحسن في أحدهما ما يحسن في الآخر، فيقولون: أكلتُ خبزاً ولَبَنًا، واللّين لا يؤكل، إنما حَسُنَ هذا لأنه كان مع ما يؤكل، قال الفراء: أنشدني بعض العرب:

(١) البيت غير منسوب في «غريب القرآن» ٤١٧، و«القرطبي» ٢٠٢/١٧، و«اللسان» و«التاج»: قوز. والأقاز: جمع قَوْز، وهو كثيب من الرمل صغير شبه به أرداف النساء، فالإضافة لليبان.

(٢) البيت في «المعرب» للجواليقي ٢٣.

(٣) قال ابن كثير: وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال: في الخمر أربع خصال: الشُّكْر، والمُبداع، والقيء، والبول، فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزّهاها عن هذه الخصال. اهـ.

(٤) البُخْت: الإبل الخُراسانية. (٥) الخوان، بضم الخاء وكسرهما: الذي يؤكل عليه.

روي عن ابن عباس. والثالث: لا مقطوعة بالفناء، ولا ممنوعة بالفساد، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَرُفِعَ مَرْفَعُهُ﴾ (١١) فيها قولان: أحدهما: أنها الحشايا المفروشة للجلوس والنوم، وفي رفعها قولان: أحدهما: [أنها] مرفوعة فوق السرر. والثاني: أن رفعها: زيادة حشوها لطيب الاستمتاع بها. والثاني: أن المراد بالفراش: النساء؛ والعرب تسمي المرأة: فراشاً وإزاراً ولباساً؛ وفي معنى رفعهن ثلاثة أقوال: أحدها: أنهن رُفِعْنَ بالجمال على نساء أهل الدنيا. والثاني: رُفِعْنَ عن الأدناس. والثالث: في القلوب لثيثة الميل إليهن.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثًا﴾ (١٥) يعني النساء. قال ابن قتيبة: اكتفى بذكر الفُرْش لأنها محل النساء عن ذكرهن. وفي المشار إليهن قولان: أحدهما: أنهن نساء أهل الدنيا المؤمنات؛ ثم في إنشائهن قولان: أحدهما: أنه إنشأوهن من القبور، قاله ابن عباس. والثاني: إعادتهن بعد الشَّمْط^(١) والكِبَر أبقاراً صغاراً، قاله الضحاك. والثاني: أنهن الحُور العين، وإنشأوهن: إيجادهن عن غير ولادة، قاله الزجاج. والصواب أن يقال: إن الإنشاء عَمَهُنَّ كُلَّهُنَّ، فالْحُورُ أنشئن ابتداءً، والمؤمنات أنشئن بالإعادة وتغيير الصفات؛ وقد روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ مِنَ الْمُنْشَأَاتِ اللَّاتِي كُنَّ فِي الدُّنْيَا عَجَائِزَ عُمُشًا رُفُصًا»^(٢).

قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾ (١٦) أي: عذارى. وقال ابن عباس: لا يأتيها زوجها إلا وجدها بكرًا.

قوله تعالى: ﴿عُرْيًا﴾ قرأ الجمهور: بضم الراء. وقرأ حمزة، وخلف: بإسكان الراء؛ قال ابن جرير: هي لغة تميم وبكر. وللمفسرين في معنى «عُرْيًا» خمسة أقوال: أحدها: أنهن المتحبات إلى أزواجهن، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، وابن قتيبة، والزجاج. والثاني: أنهن العواشي، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقتادة، ومقاتل، والمبرد؛ وعن^(٣) مجاهد كالتقولين. والثالث: الحسنه التبطل، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال أبو عبيدة. والرابع: الغَنَجَات، قاله عكرمة. والخامسة: الحسنه الكلام، قاله ابن زيد. فأما الأثراب فقد ذكرناهن في [ص: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةَ أَلْفِينَ﴾ (١٧) وَثَلَاثَةَ أَلْفَيْنِ ﴿ثَلَاثَةَ أَلْفَيْنِ﴾ هذا من نعت أصحاب اليمين. وفي الأولين والآخرين خلاف، وقد سبق شرحه [الواقعة: ٤١٣]. وقد زعم مقاتل أنه لما نزلت الآية الأولى، وهي قوله: ﴿وَكُلِّلَ ثَلَاثَةَ أَلْفَيْنِ﴾ وجد المؤمنون من ذلك وَجْدًا شديدًا حتى أنزلت ﴿وَكُلِّلَ ثَلَاثَةَ أَلْفَيْنِ﴾ فنسختها. وروي عن عروة بن رُويم نحو هذا المعنى. قلت: وأدعاء النَّسْخ هاهنا لا وجه له ثلاثة أوجه: أحدها: أن علماء الناسخ والمنسوخ لم يوافقوا على هذا. والثاني: أن الكلام في الآيتين خبر، والخبر لا يدخله النسخ، [فهو هاهنا لا وجه له]. والثالث: أن الثَّلَّة بمعنى الفُرْقَة والفتنة؛ قال الزجاج: اشتقاقهما من القطعة، والثَّل: الكسر والقطع. فعلى هذا قد يجوز أن تكون الثَّلَّة في معنى القليل.

﴿وَأَحَبُّ إِلَيْهِمَا مَا أَحَبَّ الْإِنْسَانُ﴾ (١٨) فِي سُبُورٍ وَحَمِيرٍ (١٩) وَطَلٌّ يَنْ يَحْمُورُ (٢٠) لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ (٢١) إِنَّهُمْ كَانُوا بَقْلَ ذَلِكَ مَتَرَفِينَ (٢٢) وَكَانُوا يُقُولُونَ أَيْدَا وَنَنَا وَكُنَّا شُرَكَاءَ وَعِظْلَمَا أَوْنَا لَنَبْعُوثُونَ (٢٣) أَوْ مَا بَاؤُنَا الْأَرْكَانَ (٢٤) قُلْ لَيْتَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٢٥) لَنَجْوَغُونَ إِلَيْكَ بِقَدَرِ يَوْمٍ مُّتَمَوِّدٍ (٢٦) ثُمَّ لَكُمْ إِلَيْهَا السَّالُوكُونَ الْكَذَّابُونَ (٢٧) لَأَكُونَنَّ مِنْ شَجَرٍ تَنْزُورٍ (٢٨) فَالِقُونَ بَيْنَا الْبُلُوكَ (٢٩) فَتَشْرُونَ عَلَيْنَا مِنَ الْقَمِيمِ (٣٠) فَتَشْرُونَ شَرِبَ الْبِيرِ (٣١) هَذَا تَزَلُّمٌ يَوْمَ الْقِيَامِ (٣٢)

قوله تعالى: ﴿مَا أَحَبَّ الْإِنْسَانُ﴾ قد بينّا أنه بمعنى التعجب من حالهم؛ والمعنى: ما لهم، وما أعد لهم من الشر؟ ثم بين لهم سوء مُتَقَلِّبِهِمْ فقال: ﴿فِي سُبُورٍ﴾ قال ابن قتيبة: هو حَرُّ النَّارِ.

قوله تعالى: ﴿وَطَلٌّ يَنْ يَحْمُورُ﴾ (٢٠) قال ابن عباس: ظلٌّ من دخان. قال الفراء: الِيَحْمُومُ: الدُّخَانُ الْأَسْوَدُ، ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ (٢١) فوجه الكلام الخفض تبعاً لما قبله، ومثله ﴿يَتَزَوَّرُ لَا شَرِيفٌ وَلَا غَرِيبٌ﴾ [النور: ٣٥]، وكذلك قوله:

(١) الشَّمْط: الثَّيْب.

(٢) رواه ابن جرير ١٨٥/٢٧، ١٨٦، والترمذي في «جامعه» ١٦٤/٢ من رواية موسى بن عبيدة الرليذي عن يزيد بن أبان الرقاشي عن أنس ﷺ، قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث موسى بن عبيدة، قال: وموسى بن عبيدة وي زيد بن أبان الرقاشي يضعفان في الحديث.

(٣) في الأصل: عن.

﴿وَفَكَهَرُ كَبِيرٌ﴾ (١٦) لَا مَقْطُوعَةً وَلَا مَتَّوَعَةً، ولو رفعت ما بعد «لا» كان صواباً، والعرب تجعل الكريم تابِعاً لكل شيء نفث عنه فعلاً يُنَوَّى [به] الدم، فتقول: ما هذه الدار بواسعة ولا كريمة، وما هذا بسمين ولا كريم. قال ابن عباس: لا بارد المدخل ولا كريم المنظر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَاذِبُونَ﴾ أي: في الدنيا ﴿مُتَرَبِّعُونَ﴾ أي: متنعِّمين في ترك أمر الله، فشغلهم ترَفُّهم عن الاعتبار والتعبُّد. ﴿كَافَرًا يُصْرَفُونَ﴾ أي: يُقيمون ﴿عَلَىٰ لَيْثٍ﴾ وفيه أربعة أقوال: أحدها: أنه الشُّرك، قاله ابن عباس، والحسن، والضحاك، وابن زيد. والثاني: الذَّنْبُ العظيم الذي لا يتوبون منه. قاله مجاهد. وعن قتادة كالقولين. والثالث: أنه اليمين الغموس، قاله الشعبي. والرابع: الشُّرك والكفر بالبعث، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا أَلَّاؤُنَا﴾ (١٧) قال أبو عبيدة: الواو متحركة لأنها ليست بواو «أَوْ» إنما هي «وَأَبَاؤُنَا»، فدخلت عليها ألف الاستفهام فتركت مفتوحة. وقرأ أهل المدينة، وابن عامر: «أَوْ أَبَاؤُنَا» بإسكان الواو. وقد سبق بيان ما لم يُذكَر هاهنا [مورد: ١٠٣، الصفات: ٦٢، الأنعام: ٧٠] إلى قوله: ﴿فَتَرْوُونَ شَرِبَ الْبَيْرِ﴾ (١٨) قرأ أهل المدينة، وبُجَّاص، وحزمة: «شَرِبَ» بضم الشين؛ والباقون بفتحها. قال الفراء: والعرب تقول: شَرِبْتُهُ شَرِباً، وأكثر أهل نجد يقولون شَرِباً بالفتح، أنشدني عامتهم:

تَكْفِيهِ حَزَّةٌ فَلَيْدٌ إِنْ أَلِّمَ بِهَا

مِنَ الشَّوَاءِ وَيَكْفِيهِ شَرِبَةُ الْعَمَرِ (١٩)

وزعم الكسائي أن قوماً من بني سعد بن تميم يقولون: «شَرِبَ الْبَيْرِ» بالكسر. وقال الزجاج: «الشُّرب» المصدر، و«الشُّرب» بالضم: الاسم، قال: وقد قيل: إنه مصدر أيضاً. وفي «اللب» قولان: أحدهما: الإبل العطاش، رواه ابن أبي طلحة. والعمري عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، وقاتدة. قال ابن قتيبة: هي الإبل يُصِيبُهَا دَاءٌ فَلَا تَرْوِي مِنَ الْمَاءِ، يقال: بعيرٌ أَهْيَمٌ، وناقَةٌ هَيْمَاءٌ. والثاني: أنها الأرض الرَّمْلَةُ التي لا تَرْوِي مِنَ الْمَاءِ، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً. قال أبو عبيدة: البير: ما لا يَرْوِي من زَمَلٍ أو بعير.

قوله تعالى: ﴿هَكَذَا تَزَلُّمٌ﴾ أي: رزقهم. ورواه عباس عن أبي عمرو: «تَزَلُّمٌ» بسكون الزاي، أي: رزقهم وطعامهم. وفي «الدين» قولان قد ذكرناهما في (الفاتحة).

﴿تَحْنُ خَلْقَتُكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ (٢٠) أَفَرَأَيْتُمْ تَا تَمْنُونَ (٢١) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٢٢) تَحْنُ قَدَرْنَا يَتَنَكَّرُ الْمَوْتُ وَمَا تَحْنُ بِمَسْتَوِينَ (٢٣) عَلَنَ أَنْ يَكُونَ أَسْأَلُكُمْ وَتُسَبِّحُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٤) وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الْقُرْآنَ الْأَوَّلَ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٢٥)

قوله تعالى: ﴿تَحْنُ خَلْقَتُكُمْ﴾ أي: أوجدناكم ولم تكونوا شيئاً، وأنتم تَقْرُونَ بهذا ﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهَلَا ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ بالبعث؟ ثم احتجَّ على بعثهم بالقدرة على ابتدائهم فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ تَا تَمْنُونَ﴾ (٢١) قال الزجاج: أي: ما يكون منكم من المتني، يقال: أمني الرجل يُمني، ومنى يمني، فيجوز على هذا «تَمْنُونَ» بفتح التاء إن ثبت به رواية.

قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (٢٢) أي: تَخْلُقُونَ ما تُمْنُونَ بِشَرِّهِ؟ وفيه تنبيه على شيئين: أحدهما: الامتتان، إذ خلق من الماء المهيمن بشراً سوياً. والثاني: أن من قَدَّرَ على خَلْقٍ ما شاهدتموه من أصل وجودكم كان أَقْدَرَ على خَلْقٍ ما غاب عنكم من إعادتكم.

قوله تعالى: ﴿تَحْنُ قَدَرْنَا يَتَنَكَّرُ الْمَوْتُ﴾ وقرأ ابن كثير: «قَدَرْنَا» بتخفيف الدال. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: قضينا عليكم بالموت. والثاني: سَوَّيْنَا بينكم في الموت ﴿وَمَا تَحْنُ بِمَسْتَوِينَ﴾ (٢٣) عَلَنَ أَنْ يَكُونَ أَسْأَلُكُمْ قال الزجاج: المعنى: إن أردنا أن نَخْلُقَ خَلْقاً غيركم لم يسبقنا سابق، ولا يفوتنا ذلك. وقال ابن قتيبة: لسنا مغلوبين على أن نُسْتَبَدَّ بكم أمثالكم.

(١) البيت لأعشى باهلة من قصيدته الجيدة التي يرثي بها أخاه المشر بن وهب الباهلي ومطلها:

قَدْ جَاءَ مِنْ غُلٍّ أَنْبَاءٌ أَنْبَاهُهَا

إِلَّيَّ لَا عَجَبَ مِنْهَا وَلَا سَعَرُ

وهي في «الأصمعيات» ٨٩، و«جمهرة أشعار العرب» ٢٥٤، و«مختارات ابن الشجري» ١٩، و«أمالى المرتضى» ١٥٥/٣ وغيرها، والحِزَّة: ما قطع من اللحم طولاً، والقلد: كبد البعير، والغمر: أصفر الأندلاج.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِثَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وفيه أربعة أقوال: أحدها: نبذل صفاتكم ونجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بمن كان قبلكم، قاله الحسن. والثاني: ننشكهم في حواصل طير سود تكون بـ «برهوت» كأنها الخطاطيف، قاله سعيد بن المسيب^(١). والثالث: نخلقكم في أي خلق شئنا، قاله مجاهد. والرابع: نخلقكم في سوى خلقكم، قاله السدي. قال مقاتل: نخلقكم سوى خلقكم في ما لا تعلمون من الصور.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِثَ اللَّهُ مِيثَاقَ الْبَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ ذُرِّيَّةً إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وهي ابتداء خلقكم من نطفة وعلقه ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فهلاً تعتبرون فتعلموا قدرة الله فتتقوا بالبعث.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ١٧ ﴿أَأَنْتُمْ زَرْعُونَهُ أَمْ غَيْرُ النَّاسِ﴾ ١٨ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَتَنَلَّكَ تَفْكُهُونَ﴾ ١٩ ﴿إِنَّا لَمَعْرِضُونَ﴾ ٢٠ ﴿بَلْ غَيْرُ زَرْعٍ﴾ ٢١ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ ٢٢ ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ غَيْرُ الْمُنْزِلِ﴾ ٢٣ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ نَاحِلاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ ٢٤ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ ٢٥ ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ غَيْرُ الْمُنْشِئِينَ﴾ ٢٦ ﴿غَيْرُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَنَسْأَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ ٢٧ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ٢٨

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ١٧: أي: ما تعملون في الأرض من إنارتها، وإلقاء البذور فيها، ﴿أَأَنْتُمْ زَرْعُونَهُ﴾ أي: تبنونه؟ وقد نبه هذا الكلام على أشياء منها إحياء الموتى، ومنها الامتنان بإخراج القوت، ومنها القدرة العظيمة الدالة على التوحيد.

قوله تعالى: ﴿لَجَعَلْنَاهُ﴾ يعني الزرع ﴿حُطَبًا﴾ قال عطاء: تبناً لا قمح فيه. وقال الزجاج: أبطلناه حتى يكون محتطاً لا حنطة فيه، ولا شيء.

قوله تعالى: ﴿تَفْكُهُونَ﴾ وقرأ الشعبي، وأبو العالية، وابن أبي عبيدة: «فَظْلُتُمْ» بكسر الظاء؛ وقد بيناه في قوله: ﴿ظَلَّكَ عَلَيْكَ مَا كَفَاكَ﴾ [طه: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿تَفْكُهُونَ﴾ وقرأ أبي بن كعب، وابن السميع، والقاسم بن محمد، وعروة: «تَفْكُتُونَ» بالنون. وفي المعنى أربعة أقوال: أحدها: تتعجبون، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، ومقاتل. قال الفراء: تتعجبون مما نزل بكم في زرعكم. والثاني: تتدومون، قاله الحسن، والزجاج. وعن قتادة كالقولين. قال ابن قتيبة: يقال: «تَفْكُهُونَ»: تتدومون، ومثلهما: تَفْكُتُونَ، وهي لغة لمكلى. والثالث: تتلاومون، قاله عكرمة. والرابع: تتفجعون، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَعْرِضُونَ﴾ ٢٠ قال الزجاج: أي: تقولون: قد غررنا وذهب زرعنا. وقال ابن قتيبة: «لَمَعْرَمُونَ» أي: لمعدبون^(٢).

قوله تعالى: ﴿بَلْ غَيْرُ زَرْعٍ﴾ ٢١: أي: حُرْمنا ما كنّا نطلبه من الزرع في الزرع. وقد نبه بهذا على أمرين: أحدهما: إنعامه عليهم إذ لم يجعل زرعهم حطاً. والثاني: قدرته على إهلاكهم كما قدر على إهلاك الزرع. فأما المُنْز، فهي السحاب، وأحدثها: مُزْنَةٌ. وما بعد هذا ظاهر إلى قوله: ﴿فُورُونَ﴾ قال أبو عبيدة: تستخرجون، من أَوْزَيْت، وأكثر ما يقال: وَزَيْت. وقال ابن قتيبة: التي تستخرجون من الرُّنود. قال الزجاج: «تورون» أي: تقدحون، تقول: أوريث النار: إذا قدحها.

قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ في المراد بشجرتها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الحديد، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنها الشجرة التي تتخذ منها الرُّنود، وهو خشب يُحْكُ بعضه ببعض فتخرج منه النار، هذا قول ابن قتيبة، والزجاج. والثالث: أن شجرتها: أصلها، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿غَيْرُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا﴾ قال المفسرون: إذا رآها الرائي ذكر نار جهنم، وما يخاف من عذابها، فاستجار بالله منها ﴿وَنَسْأَةً﴾ أي: منفعة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ وفيهم أربعة أقوال: أحدها: أنهم المسافرون، قاله ابن عباس،

(١) برهوت: واد باليمن، وقد روي أن أرواح الكفار تجتمع فيه، وأن أرواح المؤمنين بالجابية من أرض الشام، ولكن لا دليل عليه من الكتاب والسنة الصحيحة، ولعل ذلك من الإسرائيليات.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: إنا لمعدبون، وذلك أن الغرام عند العرب: المذاب.

وقتادة، والضحاك. قال ابن قتيبة: سمو بذلك لنزلهم القَوَى، وهو القفر. وقال بعض العلماء: المسافرون أكثر حاجة إليها من المقيمين، لأنهم إذا أوقدوها هربت منهم السباع واهتدى بهم الضال. والثاني: أنهم المسافرون والحاضرون، قاله مجاهد. والثالث: أنهم الجائعون، قال ابن زيد: المقوي: الجائع في كلام العرب. والرابع: أنهم الذين لا زاد معهم ولا مرد لهم، قاله أبو عبيدة^(١).

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال الزجاج: لما ذكر ما يدل على توجيده، وقدرته، وإنعامه، قال: «فسبح» أي: برء الله ونزهه عما يقولون في وصفه. وقال الضحاك: معناه: فصل باسم ربك، أي: استفتح الصلاة بالتكبير. وقال ابن جرير: سبح بذكر ربك وتسميته. وقيل: الباء زائدة. والاسم يكون بمعنى الذات، والمعنى: فسبح ربك.

﴿فَلَا أَمْسَهُ يَمَوْعِ الْجُبْرِ﴾ وَإِنَّهُ لَقَسْرٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِعَدَا الْحَوِيثِ أَنْتُمْ مُدْهَوُونَ ﴿٨١﴾ وَتَعْلَمُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا أَمْسَهُ﴾ في «لا» قولان: أحدهما: أنها دخلت توكيداً. والمعنى: فأقسم، ومثله ﴿إِنَّمَا يَمْلِكُ﴾ أَهْلُ الْكِتَابِ [الحشر: ٢٩] قال الزجاج: وهو مذهب سعيد بن جبيرة. والثاني: أنها على أصلها. ثم في معناها قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى ما تقدم، ومعناها: النهي، تقدير الكلام: فلا تكذبوا، ولا تجحدوا ما ذكرته من النعم والحجج، قاله الماوردي. والثاني: أن^(٢) «لا» رد لما يقوله الكفار في القرآن: إنه سحر، وشعر، وكهانة. ثم استأنف القسم على أنه قرآن كريم، قاله علي بن أحمد النيسابوري: وقرأ الحسن: فلا قسم بغير ألف بين اللام والهمزة.

قوله تعالى: ﴿يَمَوْعِ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي: «بموقع» على التوحيد. قال أبو علي: مواقعها: مساقطها. ومن أفرد، فلأنه اسم جنس. ومن جمَعَ، فلاختلاف ذلك. وفي «النجوم» قولان: أحدهما: نجوم السماء، قاله الأکثرون. فعلى هذا في مواقعها ثلاثة أقوال: أحدها: انكدارها وانتشارها يوم القيامة، قاله الحسن. والثاني: منازلها، قاله عطاء وقتادة. والثالث: مغيبها في المغرب، قاله أبو عبيدة. والثاني: أنها نجوم القرآن، رواه ابن جبيرة عن ابن عباس. فعلى هذا سميت نجومًا لنزولها متفرقة، ومواقعها: نزولها ﴿وَإِنَّهُ لَقَسْرٌ﴾ الهاء كناية عن القسم. وفي الكلام تقديم وتأخير، تقديره: وإنه لقسم عظيم لو تعلمون عظيمه. ثم ذكر المقسم عليه فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ والكريم: اسم جامع لما يحمد، وذلك أن فيه البيان، والهدى، والحكمة، وهو مُعْظَم عند الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس. والثاني: أنه المصحف الذي بأيدينا، قاله مجاهد، وقتادة. وفي «المكنون» قولان: أحدهما: مستور عن الخلق، قاله مقاتل، وهذا على القول الأول. والثاني: مصون، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ من قال: إنه اللوح المحفوظ. فالمطهرون عنده: الملائكة، وهذا قول ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة. فعلى هذا يكون الكلام خبراً. ومن قال: هو المصحف، ففي المطهرين أربعة أقوال: أحدها: أنهم المطهرون من الأحداث، قاله الجمهور. فيكون ظاهر الكلام النفي، ومعناه النهي. والثاني: المطهرون من الشرك، قاله ابن السائب. والثالث: المطهرون من الذنوب والخطايا، قاله الربيع بن أنس. والرابع: أن معنى الكلام: لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به، حكاه الفراء^(٣).

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال: غني بذلك المسافر الذي لا زاد معه ولا شيء له، وأصله من قولهم: أقوت الدار: إذا خليت من أهلها وسكانها. اهـ.

(٢) في الأصل: أنه.

(٣) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندنا أن الله جل ثناؤه أخبر أنه لا يمس الكتاب المكنون إلا المطهرون، فعم بغيره المطهرين، ولم يخص بعضاً دون بعض، قال: فالملائكة من المطهرين، والرسل والأنبياء من المطهرين، قال: وكل من كان مطهراً من الذنوب، فهو ممن استثنى وعني بقوله: ﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ اهـ.

قال ابن كثير: وقال آخرون: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ أي من الجنابة والحدث، قالوا: ولفظ الآية خبر، ومعناها الطلب، قالوا: والمراد بالقرآن =

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ﴾ أي: هو تنزيل. والمعنى: هو منزل، فسمي المنزل تنزيلاً في اتساع اللغة، كما تقول للمقدور: قدر، وللمخلوق: خلق.

قوله تعالى: ﴿أَنبِئَا لِّلْكَاثِبِ﴾ يعني: القرآن ﴿أَنْتُمْ تُنْهَوْنَ﴾ فيه قولان: أحدهما: مكذبون، قاله ابن عباس، والضحاك، والفراء. والثاني: ممالئون الكفار على الكفر به، قاله مجاهد. قال أبو عبيدة: المدمن: المداهن، وكذلك قال ابن قتيبة: «مدهنون» أي: مداهنون. يقال: أدهن في دينه، وداهن ﴿وَيَقْتُلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ (١) روى مسلم في «صحيحه» (١) من حديث ابن عباس قال: مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «أصبح من الناس شاكراً، ومنهم كافر». قالوا: هذه رحمة وضعها الله حيث شاء. وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا، وكذا، فنزلت هذه الآية ﴿فَلَا أَقْسِ بِمِيقَاتِ الْخَبَرِ﴾ حتى بلغ ﴿أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾. وروى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث زيد بن خالد الجهني، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة بالحديبية على إثر سماء (٢) كانت من الليل. فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر. فأما المؤمن فقال: مطرنا بفضل الله وبرحمته فذلك مؤمن بي، كافر بالكواكب. وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بي مؤمن بالكواكب» (٣). وللمفسرين في معنى هذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أن الرزق هاهنا بمعنى الشكر. روت عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿وَيَقْتُلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ قال: «شكركم» (٤)، وهذا قول علي بن أبي طالب، وابن عباس. وكان علي يقرأ «وتجعلون شكركم» (٥). والثاني: أن المعنى: وتجعلون شكر رزقكم تكذيبكم، قاله الأكثرون. وذلك أنهم كانوا يمحطون، فيقولون: مطرنا بنوء كذا. والثالث: أن الرزق بمعنى الحظ. فالمعنى: وتجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون، ذكره الثعلبي. وقرأ أبي بن كعب، والمفضل عن عاصم «تَكْذِبُونَ» بفتح التاء، وإسكان الكاف، مخففة الذال.

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْمُلُوكُومَ﴾ (٦) وَأَنْتُمْ جَبِلْتُمْ تَتْلُونَ (٧) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُدَّ لَهُمْ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْهِمْ (٨) تَرْجِعُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩) فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١٠) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَبِيْرٌ (١١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (١٢) فَسَلَّ لَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (١٣) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ فَسَالَوْا (١٤) فَزَلَّ مِنْ جَمِيرٍ (١٥) وَتَصْلِيَةٌ لَهُمْ (١٦) إِنَّ هَذَا لَمَوْحٌ (١٧) أَلْبِينٌ (١٨) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (١٩)

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهلاً ﴿إِذَا بَلَغَتِ الْمُلُوكُومَ﴾ يعني: النفس، فترك ذكرها لدلالة الكلام، وأنشدوا من ذلك: إِذَا حَشْرَجْتَ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصُّنْدُرُ (٦)

ها هنا: المصحف، كما روى مسلم في «صحيحه» عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو، واحتجوا في ذلك بما رواه الإمام مالك في «موطئه» عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمر بن حزم أن لا يمس القرآن إلا طاهر، قال: وروى أبو داود في المراسيل من حديث الزهري قال: قرأت في صحيفة عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمس القرآن إلا طاهر» اهـ. قلت: وقد روي الحديث موصولاً عن كثير من الصحابة، وهو صحيح بمجموع طرقه اهـ.

(١) ٨٣/١، ٨٤.

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» ٤٣٤/٢، ومسلم ٨٤/١، واللفظ للبخاري. قال أبو عمرو بن الصلاح: النوء في أصله ليس هو نفس الكوكب، فإنه مصدر تاء بنوء، أي: سقط وغاب، وقيل: أي نهض وطلع. اهـ.

(٤) لم نقف على هذا الحديث من طريق عائشة وإنما هو من طريق علي بن النعمان كما رواه الطبري ٢٧/٢٠٧ وفي سننه عبد الأعلى بن هاشم الثعلبي وهو ضعيف، ورواه أحمد أيضاً ٧٧/٢ من حديث عبد الأعلى عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن النعمان قال: ﴿وَيَقْتُلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ (١) قال: «شكركم» (وفي السنن شكركم وهو خطأ). فطربنا بنوء كذا وكذا: بنجم كذا وكذا.

وروى ابن جرير في «تفسيره» ٢٠٨/٢٧ بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: ما مطر قوم قط إلا أصبح بعضهم كافراً يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا وقرأ ابن عباس «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون».

(٥) أخرجه ابن جرير ٢٠٨/٢٧ عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: كان علي بن النعمان يقرأ «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون» وفي سننه عبد الأعلى الثعلبي، وقد حمل بعض الشراح هذه القراءة على التفسير، من غير قصد للتلاوة.

(٦) البيت لحاتم الطائي، «ديوانه» ٥٠ وصدوره:

أماوي ما يفتني الشراء عن النفس

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ﴾ يعني أهل الميت ﴿تَنْظُرُونَ﴾ إلى سلطان الله وأمره. والثاني: تنظرون إلى الإنسان في تلك الحالة، ولا تملكون له شيئاً ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: ملك الموت أدنى إليه من أهله ﴿وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْهُ﴾ الملائكة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: ونحن أقرب إليه منكم بالعلم والقدرة والرؤية ﴿وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْهُ﴾ أي: لا تعلمون، والخطاب للكفار، ذكره الواحدي.

قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مَدِينٍ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: محاسبين، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وابن جبير، وعطاء، وعكرمة. والثاني: موقنين، قاله مجاهد. والثالث: مبعوثين، قاله قتادة. والرابع: مجزيين. ومنه يقال: دنته، وكما تدن تدان، قاله أبو عبيدة. والخامس: مملوكين أذلاء من قولك: دنت له بالطاعة، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ أي: تردون النفس. والمعنى: إن جحدتم الإله الذي يحاسبكم ويجازيكم، فهلاً تردون هذه النفس؟! فإذا لم يمكنكم ذلك، فاعلموا أن الأمر لغيركم. قال الفراء: وقوله تعالى: ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ هو جواب لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْمَلَائِكَةُ الْهَيْلَةَ﴾ ولقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ (البقرة: ٢٨) ثم ذكر طبقات الخلق عند الموت فقال قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكَ مِنْهُ هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ (البقرة: ٢٨) ثم ذكر طبقات الخلق عند الموت فقال قوله تعالى: ﴿فَلَا تَنْفِرْ إِنْ كُنْتَ مِنَ الَّذِينَ﴾ يعني: الذي بلغت نفسه الحلقوم ﴿مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ عند الله. قال أبو العالية: هم السابقون ﴿فَرَجٍ﴾ أي: قلته رَوْحٌ. والجمهور يفتحون الراء. وفي معناها ستة أقوال: أحدها: الفرح، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثاني: الراحة، رواه أبو طلحة عن ابن عباس. والثالث: المغفرة والرحمة، رواه العوفي عن ابن عباس. والرابع: الجنة، قاله مجاهد. والخامس: رَوْحٌ من الغم الذي كانوا فيه، قاله محمد بن كعب. والسادس: رَوْحٌ في القبر، أي: طيب نسيم، قاله ابن قتيبة^(١). وقرأ أبو بكر الصديق، وأبو رزين، والحسن، وعكرمة، وابن يعمر، وقاتدة، ورويس عن يعقوب، وابن أبي سريج عن الكسائي: «فَرُوحٌ» برفع الراء. وفي معنى هذه القراءة قولان: أحدهما: أن معناها: فرحة، قاله قتادة. والثاني: فحياة وبقاء، قاله ابن قتيبة. وقال الزجاج: معناه: فحياة دائمة لا موت معها. وفي «الريحان» أربعة أقوال: أحدها: أنه الرزق، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثاني: أنه المستراح، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: أنه الجنة، قاله مجاهد، وقاتدة. والرابع: أنه الريحان المشموم. وقال أبو العالية: لا يخرج أحد من المقربين من الدنيا حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة، فيشمه، ثم تقبض فيه روحه، وإلى نحو هذا ذهب الحسن، وقال أبو عمران الجوني: بلغنا أن المؤمن إذا قبض روحه تلقى بضباثر^(٢) الريحان من الجنة، فتجعل روحه فيه.

قوله تعالى: ﴿سَلَّمَ لَكَ مِنْ أَحْسَنِ الْبَشَرِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: فسلامة لك من العذاب، قاله أبو صالح

= والحشرجة: الفرجة عند الموت، وتردد النفس، وهو في «أمالى المرتضى» ٦٣/٤، و«المعتمد» ٢٦٣/٢، و«مجموعة المعاني» ٣١، و«العقد الفريد» ٣٣٦/١، و«أمالى ابن الشجري» ٥٠/١.

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال: عنى بالرَّوح: الفرح والرحمة والمغفرة، وأصله من قولهم: وجدت رَوْحاً: إذا وجد نسيماً يستروح إليه من كرب الحر. وروى الإمام أحمد في «المسند» أن أم هانئ أنها سألت رسول الله ﷺ: أنتزاور إذا متنا ويرى بعضنا بعضاً؟ فقال رسول الله ﷺ: فيكون النسيم طيراً يعلق بالشجر حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسدها وفي سنده ابن لهيعة، قال ابن كثير: هذا الحديث فيه بشارة لكل مؤمن. ومعنى يعلق: يأكل، ويشهد لهذا الحديث بالصحة ما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي، عن الإمام مالك بن أنس، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه» قال: وهذا إسناد عظيم ومتن قوي، قال: وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في رياض الجنة حيث شاءت ثم تأتي إلى قتاديل معلقة بالعرش...» الحديث. اهـ. وروى البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن عباد بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» فقالت عائشة أو بعض أزواجه ﷺ: إنا نكره الموت، قال: «ليس ذلك، ولكن المؤمن إذا حضر الموت بشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه».

(٢) الضباثر - كما في «اللسان»: الجماعات في تفرقة، وفي الحديث: أنته الملائكة بحريرة فيها مسك، ومن ضباثر الريحان. قلت: أخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» عن أبي عمران الجوني في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَنْفِرْ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢٨) «فَرَجٍ وَرَحْمَةٍ» قال: بلغني أن المؤمن إذا نزل به الموت يلقى بضباثر الريحان من الجنة فتجعل روحه فيها. انظر «الدر المنثور» ١٦٧/٦.

عن ابن عباس . والثاني: تسلّم عليه الملائكة، وتخبره أنه من أصحاب اليمين، قاله عطاء . والثالث: أن المعنى: أنك ترى فيهم ما تحب من السلامة . وقد علمت ما أعدّ لهم من الجزاء، قاله الزجاج .

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: بالبعث ﴿الضَّالِّينَ﴾ عن الهدى ﴿فَنَزَّلُ﴾ وقد بيّناه في هذه السورة [الواقعة: ٥٦] .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ يعني ما ذكر في هذه السورة ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي: هو اليقين حقاً، فأضافه إلى نفسه، كقولك: صلاة الأولى، وصلاة الغصن، ومثله: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩] وقد سبق هذا المعنى . وقال قوم: معناه: وإنه للمتقين حقاً . وقيل للحق: اليقين .

قوله تعالى: ﴿فَسَيَحْيِي بِأَسْرِ رَبِّكَ﴾ قد ذكرناه في هذه السورة [الواقعة: ٧٤] ^(١) .



(١) روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿فَسَيَحْيِي بِأَسْرِ رَبِّكَ الْطَّيِّبِ﴾ قال: «اجعلوها في ركوعكم» ولما نزلت ﴿سَيَحْيِي بِأَسْرِ رَبِّكَ الْكَافِرِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في سجودكم» ورواه أيضاً أبو داود وابن ماجه . وإسناده صحيح . وروى البخاري في آخر «صحيحه» عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» .

سورة الحديد

وفيها قولان: أحدهما: أنها مدنية، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وجابر بن زيد، وقتادة، ومقاتل. والثاني: أنها مكية، قاله ابن السائب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ① لَمْ تَلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بَيْتَهُ. وَبُيُتٌ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ② هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ③ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ④ لَمْ تَلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ وَلَكِ اللَّهُ أَلَمٌ ⑤ يُلَاجُ الْإِثْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي الْإِثْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑥

قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أما تسبيح ما يعقل، فمعلوم، وتسبيح ما لا يعقل، قد ذكرنا معناه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ قال أبو سليمان الخطابي: هو السابق للأشياء ﴿وَالْآخِرُ﴾ الباقي بعد فناء الخلق ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ بحججه الباهرة، وبراهينه النيرة، وشواهد الدالة على صحته وحدانيته. ويكون: الظاهر فوق كل شيء بقدرته. وقد يكون الظهور بمعنى العلو، ويكون بمعنى الغلبة. والباطن: هو المحتجب عن أبصار الخلق الذي لا يستولي عليه توهم الكيفية. وقد يكون معنى الظهور والبطون: احتجابه عن أبصار الناظرين، وتجليه لبصائر المتفكرين. ويكون معناه: العالم بما ظهر من الأمور، والمطلع على ما بطن من الغيوب ① ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ مفسر في [الأعراف: ٥٤] إلى قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ وهو مفسر في [سبا: ٢] إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ أي: يعلمه وقدرته ②. وما بعده ظاهر إلى قوله تعالى: ﴿ءَايَاتُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال المفسرون: هذا الخطاب لكفار قريش ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَسَلِّطِينَ فِيهِ﴾ يعني: المال الذي كان بأيدي غيرهم، فأهلكهم الله، وأعطى قريشاً ذلك المال، فكانوا فيه خلفاء من مضى.

﴿ءَايَاتُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَسَلِّطِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَمْ يُجْرَ كَيْدٌ ⑦ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِيُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ⑧ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبْتَغِي لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

(١) قال ابن كثير: وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولاً، وقال البخاري: قال يحيى: (يريد به يحيى بن زياد الفراء صاحب «معاني القرآن») الظاهر على كل شيء علماً، والباطن على كل شيء علماً. اهـ. وروى مسلم في «صحيحه» ٢٠٨٤/٤ عن سهيل بن أبي صالح قال: كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحد أن ينم أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول: «اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر» قال: وكان (يعني أبا صالح) يروي ذلك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ يقول: وهو شاهد لكل أيها الناس، أينما كنتم يعلمكم ويعلم أعمالكم ومتقلبكم ومتواكم، وهو على عرشه فوق سماواته السبع، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يقول: والله بأعمالكم التي تعملونها من حسن وسير، وطاعة ومعصية، ذو بصير، وهو لها محصن، ليجازي المحسن منكم بإحسانه، والسيئ بإساءته. اهـ. وقال ابن كثير: وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي رقيب عليكم، شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر في ليل أو نهار، في البيوت أو في القفار، الجميع في علمه على السواء، وتحت بصره وسمعه، فيسمع كلامكم، ويرى مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّشْرِكُونَ يُسْتَفْهِمُونَ إِلَهُهُ أَلَا إِنَّهُمْ يَمْتَرُونَ مَا يُنَزَّلُ مِنْ عِندِ رَبِّهِمْ إِلَّا أَسْبَابٌ مِّنْ سَآئِلِهِمْ يُنَزَّلُ مِنْ سَعْدٍ أَوْ عَذَابٍ﴾ وقال تعالى: ﴿مَرْسَاةٌ يُنْزَلُ عَنْ سُرِّ الْقَوْلِ وَمِنْ جَهَنَّمَ وَهُوَ شَتَّىٰ عَنِ الْإِلَهِ وَكَوَارِثِهِ يَنْتَابُ ⑧﴾ فلا إله غيره ولا رب سواه. قال: وقد ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال لجبريل لما سأله عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، لأن لم تكن تراه فأنه يراك». اهـ.

أَلْتَرَىٰ إِنْ أَلَّفَ الْبُكَزَ لَرَوْفَ رَجِيمٍ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَرْثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ لَا يَسْتَوِيٰ مَنكَرٌ مِّنْ أَنتَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلَيْكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَلَوْلَا وَعْدُ اللَّهِ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَمْ يَلَمْهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذا استفهام إنكار، والمعنى: أي شيء لكم من الثواب في الآخرة إذا لم تؤمنوا بالله ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِثْقَلَكُمْ﴾؟ قرأ أبو عمرو «أخذ» بالرفع. وقرأ الباقون «أخذ» بفتح الخاء ﴿مِثْقَلَكُمْ﴾ بالفتح. والمراد به: حين أخرجتم من ظهر آدم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ بالفتح والدلائل.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَرْزُقُكَ عَلَىٰ عِبْوَةٍ﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿ءَايَاتِي يَنْتَظِرُ﴾ يعني: القرآن ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ يعني الشرك ﴿إِلَىٰ﴾ نور الإيمان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُم لَرَوْفٌ رَّحِيمٌ﴾ حين بعث الرسول ونصب الأدلة. ثم حثهم على الإنفاق فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَرْثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ﴾ أي: أي شيء لكم في ترك الإنفاق مما يقرب إلى الله ﷻ وأنتم ميتون تاركون أموالكم؟! ثم بين فضل من سبق بالإنفاق فقال: ﴿لَا يَسْتَوِيٰ مَنكَرٌ مِّنْ أَنتَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه فتح مكة، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: أنه فتح الحديبية، قاله الشعبي. والمعنى: لا يستوي من أنفق قبل ذلك ﴿وَقَتْلَ﴾ ومن فعل ذلك بعد الفتح^(١). قال المفسرون: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق^(٢). ﴿أَوْلَيْكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً﴾ قال ابن عباس: أعظم منزلة عند الله. قال عطاء: درجات الجنة تتفاضل، فالذين أنفقوا من قبل الفتح في أفضلها. قال الزجاج: لأن المتقدمين كانت بصائرهم أنفذ، ونالهم من المشقة أكثر ﴿وَلَوْلَا وَعْدُ اللَّهِ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: وكلا الفريقين وعده الله الجنة. وقرأ ابن عامر «وَكُلُّ» بالرفع.

قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَمْ يَلَمْهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر «فَيُضْعِفُهُ» مشددة بغير ألف، إلا أن ابن كثير يضم الفاء، وابن عامر يفتحها. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي «فيضاعف» بالالف وضم الفاء، وافقهم عاصم، إلا أنه فتح الفاء. قال أبو علي: يضاعف ويضعف بمعنى واحد، إلا أن الرفع في «يضاعف» هو الوجه، لأنه محمول على «يقترض». أو على الانقطاع من الأول، كأنه [قال]: فهو يضاعف. ويحمل قول الذي نصب على المعنى، لأنه إذا قال: من ذا الذي يقترض الله، معناه: يقترض الله أحداً قرضاً فيضاعفه. والآية مفسرة في البقرة: ٢٤٥ والأجر الكريم: الجنة^(٣).

﴿يَوْمَ تَرَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْفُسِهِمْ بَشْرِكُمْ﴾ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجَرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ لَئِذَا آمَنَّا أَفْزَلْنَا نَفْقَسَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا ذُنُوبَكُمْ قُلْ صَغِيرٌ يَّتِمُّ لَهُمْ كَبُؤٌ بِأَيْدِيهِمْ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظُهُورُهُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُبَادُوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّبْتُمْ الْأَمَانِي حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ

(١) أي: لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديداً، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون، وأما بعد الفتح، فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً ودخل الناس في دين الله أفواجا، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوْلَيْكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَلَوْلَا وَعْدُ اللَّهِ الْحُسْنَىٰ﴾ والجمهور على أن المراد بالفتح هاهنا: فتح مكة، وعن الشعبي وغيره: أن المراد بالفتح هاهنا: صلح الحديبية.

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٣٠٣ عن محمد بن فضال بن غزوان عن الكلبي، والكلبي متهم بالكلب، ورواه الواحدي بسنده عن ابن عمر، وفي سننه ضعف. وذكره ابن كثير وقال: هذا الحديث ضعيف الإسناد من هذا الوجه. اهـ. ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر ﷺ له الحظ الأوفر من هذه الآية، فإنه سيد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله ﷻ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها.

(٣) قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال عمر بن الخطاب: هو الإنفاق في سبيل الله، وقيل: هو النفقة على العيال. قال ابن كثير: والصحيح أنه أهم من ذلك، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة، دخل في عموم هذه الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَمْ يَلَمْهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿أَشْمَأَزًا صَغِيرَةً﴾ وله أجر كريم أي: جزاء جميل، ورزق باهر، وفي الجنة يوم القيامة. اهـ. وقال الألوسي: القرض الحسن: الإنفاق بالإخلاص، وتحري أكرم المال وأفضل الجهات قال: وذكر بعضهم أن القرض الحسن: ما يجمع عشر صفات: أن يكون من الحلال، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وأن يكون من أكرم ما يملكه المرء، وأن يكون المرء صحيح شخيت يأمل العيش ويخشى الفقر، وأن يضعه في الأحوج الأولى، وأن يكتم ذلك، وألا يتبعه بالعلن والأذى، وأن يقصد به وجه الله تعالى، وأن يستحق ما يعطى وإن كثر، وأن يكون من أحب أمواله إليه، وأن يتوخى في إيصاله للفقير ما هو أسر لديه من الوجوه كحمله إلى بيته، قال: ولا يخفى أنه يمكن الزيادة والنقص فيما ذكر. اهـ.

اللَّهُ وَعَزَّكُمْ بِاللَّهِ الرَّحْمَنُ ﴿١٤﴾ قَالَتِمْ لَا يُؤْخَذُ بِكُمْ فِيْهِ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَاؤُنْكُمْ أَنَاذَرُ مِنْ مَوْلَانَكُمْ وَيَقْسُ الْمَعِيْدُ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿يَقْسُ تَوْرُكُمْ﴾ قال المفسرون: يضيء لهم نور عملهم على الصراط على قدر أعمالهم. قال ابن مسعود: منهم من نوره مثل الجبل، وأدناهم نوراً نوره على إبهامه يطفى مرة، ويتقد أخرى. وفي قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيَهُمْ﴾ قولان: أحدهما: أنه كتبهم يعطونها بأيامهم، قاله الضحاك. والثاني: أنه نورهم يسمى، أي: يمضي بين أيديهم، وعن أيامهم، وعن شمائلهم. والباء بمعنى: «في». و«في» بمعنى «عن»، هذا قول الفراء.

قوله تعالى: ﴿يَشْرِكُكُمْ أَلِيمٌ﴾ هذا قول الملائكة لهم.

قوله تعالى: ﴿أَنْظُرُونَا نَقْتَضِ﴾ وقرأ حمزة: «أَنْظُرُونَا» بقطع الهمزة، وفتحها، وكسر الظاء. قال المفسرون: يغشى الناس يوم القيامة ظلمة شديدة، فيعطى المؤمنون النور، فيمشي المنافقون في نور المؤمنين، فإذا سبقهم المؤمنون قالوا: انظرونا نقتبس من نوركم ﴿قِيلَ أَرَجِعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ في القائل قولان: أحدهما: أنهم المؤمنون، قاله ابن عباس. والثاني: الملائكة، قاله مقاتل. وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: ارجعوا إلى المكان الذي قسمتم فيه النور، فيرجعون، فلا يرون شيئاً. والثاني: ارجعوا فاعملوا عملاً يجعله الله لكم نوراً. والثالث: أن المعنى: لا نور لكم عندنا. ﴿فَشَرِبَ يَبْتِمُ سُورٍ﴾ قال ابن عباس: هو الأعراف، وهو سورٌ بين الجنة والنار ﴿بِالْمِثْلِ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ وهي: الجنة ﴿وَكُلُّهُمْ﴾ يعني: من وراء السور ﴿وَمِنْ يَبْلُغُ أَفْئَابُ﴾ وهو جهنم. وقد ذهب قوم إلى أن هذا السور يكون بيت المقدس في مكان السور الشرقي بين الوادي الذي يسمى: وادي جهنم، وبين الباب الذي يسمى: باب الرحمة، وإلى نحو هذا ذهب عبادة بن الصامت، وعبد الله بن عمرو، وكعب^(١).

قوله تعالى: ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين من وراء السور: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أي: على دينكم نصلي بصلاتكم، ونغزو معكم؟! فيقول لهم المؤمنون: ﴿بَلَى وَلَكِنْ كُنْتُمْ تَقْتَرُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال الزجاج: استعملتموها في الفتنة. وقال غيره: أتمتموها بالنفاق ﴿وَوَرِثْتُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: ترصمت بالتوبة. والثاني: ترصمت بمحمد الموت، وقتلت: يوشك أن يموت فنستريح ﴿وَأَرَبَّيْتُمْ﴾ شككتهم في الحق ﴿وَعَزَّكُمْ الْأَلْبَانِ﴾ يعني: ما كانوا يتمنون من نزول الدوائر بالمؤمنين ﴿حَتَّى جَاءَهُمْ أَثَرُ اللَّهِ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه الموت. والثاني: إلقاؤهم في النار ﴿وَعَزَّكُمْ بِاللَّهِ الرَّحْمَنُ﴾ أي: غركم الشيطان بحكم الله وإمهاله. ﴿قَالَتِمْ لَا يُؤْخَذُ بِكُمْ فِيْهِ﴾ وقرأ أبو جعفر، وابن عامر، ويعقوب «لا تؤخذ» بالياء، أي: بدل وعوض عن عذابكم. وهذا خطاب للمنافقين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

قوله تعالى: ﴿مِنْ مَوْلَانَكُمْ﴾ قال أبو عبيدة: أي: أولى بكم.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَبِيرٌ مِنْهُمْ فَسُفُوتٌ﴾ ﴿١٥﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِي قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: أنها نزلت في المؤمنين. قال ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا، وبين أن عوتبتنا بهذه الآية إلا أربع سنين^(٢)، فجعل المؤمنين يعاتب بعضهم بعضاً. والثاني: أنها نزلت في المنافقين، قاله أبو صالح عن ابن عباس^(٣). قال مقاتل: سأل المنافقون سلمان الفارسي فقالوا:

(١) قال ابن كثير: وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى، ومثلاً لذلك، لا أن هذا هو الذي أريد من القرآن هذا الجدار المعين ونفس المسجد وما وراءه من الرادي المعروف بـ«وادي جهنم» فإن الجنة في السموات في أعلى عِلِينَ، والنار في الدركات أسفل سافلين، قال: وقول كعب الأحبار: إن الباب المذكور في القرآن هو باب الرحمة الذي هو أحد أبواب المسجد، فهذا من إسرائيلياته وتزهاته، وإنما المراد بذلك: سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من وراءه في الحيرة والظلمة والعذاب كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة. اهـ.

(٢) رواه مسلم في (صحيحه) ٢٣١٩/٤ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ورواه أيضاً النسائي وابن ماجه، وذكره السيوطي في «الدر» ١٧٥/٦ وزاد نسبته لابن المنذر، وابن مردويه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) هذا غير صحيح، لأن الآية صريحة في الذين آمنوا.

حدثنا عن التوراة، فإن فيها العجائب، فنزلت هذه الآية^(١). وقال الزجاج: نزلت هذه الآية في طائفة من المؤمنين حثوا على الرقة والخشوع. فاما من كان وصفه الله ﷻ بالخشوع، والرقة، فطبعة من المؤمنين فوق هؤلاء. فعلى الأول: يكون الإيمان حقيقة. وعلى الثاني: يكون المعنى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالسستهم. قال ابن قتيبة: المعنى: ألم يحن، تقول: أنى الشيء: إذا حان.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَشْعَقَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ترقق وتلين لذكر الله^(٢). المعنى: أنه يجب أن يورثهم الذكر خشوعاً ﴿وَمَا نَزَلَ مِنْ آلِهَةٍ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمة، والكسائي ﴿وما نزل﴾ بفتح النون، والزاي، مع تشديد الزاي. وقرأ نافع، وحفص، والمفضل عن عاصم «نزل» بفتح النون، وتخفيف الزاي. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو العالية، وابن يعمر، ويونس بن حبيب عن أبي عمرو، وأبان عن عاصم «نزل» برفع النون، وكسر الزاي، مع تشديدها. وقرأ ابن مسعود، وأبو رجاء «وما أنزل» بهزمة مفتوحة، وفتح الزاي. وقرأ أبو مجلز، وعمر بن دينار مثله، إلا أنه بضم الهمزة، وكسر الزاي. و «الحق» القرآن، ﴿وَلَا يَكُونُوا﴾ قرأ رويس عن يعقوب «لا تكونوا» بالتاء ﴿كَأَنَّهُمْ أَوْفُوا بِالْكِتَابِ﴾ يعني: اليهود، والنصارى، ﴿فَلَا يَحْلِفُونَ بِالْأَمْرِ﴾ وهو: الزمان. وقال ابن قتيبة: الأمد: الغاية. والمعنى: أنه بعد عهدهم بالأنبياء والصالحين ﴿فَمَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكِبَرَتْ رَبِّهِمْ فَتَفَوَّتْ﴾ وهم الذين لم يؤمنوا بعبسى ومحمد ﷺ^(٣) ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهِ﴾ أي: يخرج منها النبات بعد يسها، فكذاك يقدر على إحياء الأموات^(٤) ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على وحدانيته وقدرته ﴿لَكُمُ تَقُولُونَ﴾، أي: لكي تأملوا.

﴿إِنَّ الْمَصْدِقِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَنْصَرِفُونَ﴾ وألشبهه عند ربهم لهم أجرهم وثوبهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم^(٥). قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمَصْدِقِينَ وَالْمُتَّقِينَ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم إلا حفصاً بتخفيف الصاد فيهما على معنى التصديق وقرأ الباقون، بالتشديد على معنى الصدقة^(٥).

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَنْصَرِفُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَنْصَرِفُونَ﴾ ثم ابتداء فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَنْصَرِفُونَ﴾ هذا قول ابن عباس، ومسروق، والفراء في آخرين. والثاني: أنها على نظمها. والواو في «الشهداء» واو النسق. ثم في معناها قولان: أحدهما: أن كل مؤمن صديق شهيد، قاله ابن مسعود، ومجاهد. والثاني: أنها نزلت في قوم مخصوصين، وهم ثمانية نفر سبقوا إلى

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٣٣ عن الكلبي ومقاتل بغير سند، وكذلك ذكره البغوي، والصحيح الأول كما جاء في «صحيح مسلم» وغيره عن ابن مسعود.

(٢) قال ابن كثير: يقول تعالى: أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله والموعظة وسماع القرآن فتفهم وتنقاد له وتسمع له وتطيعه. اهـ. وقال الألوسي: المعنى: ألم يأن لهم أن ترقق قلوبهم لأجل ذكر الله تعالى وكتابه الحق النازل فيسارعوا إلى الطاعة على أكمل وجوهها؟ اهـ.

(٣) قال ابن كثير: نهى الله تعالى المؤمنين أن يشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمناً قليلاً ونبدوه وراء ظهورهم وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المتوفكة وقلدوا الرجال في دين الله واتخذوا أخبارهم وروايتهم أرباباً من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد. اهـ.

(٤) قال ابن كثير: فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضللتها، ويفرج الكرب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجيدة الهامدة بالنيث الهتان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراكين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد أن كانت مغلقة لا يصل إليها الرواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال، والمفضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فقال، وهو الحكيم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال. اهـ.

(٥) قال ابن جرير الطبري: قرأه عامة قراء الأمصار خلا ابن كثير وعاصم بتشديد الصاد والدال، بمعنى: إن المتصدقين والمتصدقات، قال: ثم تدغم التاء في الصاد فتعملها صاداً شديدة، كما قيل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ﴾ يعني: المتزمل: قال: وقرأ ابن كثير وعاصم: ﴿إِنَّ الْمَصْدِقِينَ وَالْمُتَّقِينَ﴾ بتخفيف الصاد وتشديد الدال، بمعنى: إن الذين صدقوا الله ورسوله. قال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال: إنها قراءتان معروفتان صحيح معنى كل واحدة منهما، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب. قال: فتأويل الكلام إذن على قراءة من قرأ ذلك بالتشديد في الحرفين أعني في الصاد والدال: إن المتصدقين من أموالهم والمتصدقات ﴿وَأَقْرَبُوا اللَّهَ قَرَبًا سَكَنًا﴾ بالنفقة في سبيله، وفيما أمر بالنفقة فيه، أو فيما ندب إليه ﴿يَسْتَكْفِفُ لَهُمْ زُلْفَتَهُمْ﴾ يقول: يضاعف الله لهم قروضهم التي أقرضوها إياه، فيوفيه ثوابها يوم القيامة ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ يقول: ولهم ثواب من الله على صدقهم وقروضهم إياه كريم، وذلك الجنة. اهـ.

الإسلام: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وحزمة بن عبد المطلب، وطلحة، والزبير، وسعد، وزيد، قاله الضحاك. وفي الشهداء قولان: أحدهما: أنه جمع شاهد. ثم فيهم قولان: أحدهما: أنهم الأنبياء خاصة، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم الشاهدون عند ربهم على أنفسهم بالإيمان لله، قاله مجاهد. والقول الثاني: أنه جمع شهيد، قاله الضحاك، ومقاتل.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَمِزَةٌ وَلَكُمْ دَارٌ أُخْرَىٰ وَتَفَاضَرُ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَزْوَاجِ كَثَلٌ غَيْثٌ أَجَبَ الْكَفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ يعني: الحياة في هذه الدار ﴿لَمِزَةٌ وَلَكُمْ﴾ أي: غرور ينقضي عن قليل. وذهب بعض المفسرين إلى أن المشار بهذا إلى حال الكافر في دنياه، لأن حياته تنقضي على لهو ولعب وتزين الدنيا، ويفخر قرناه وجيرانه، ويكاثروهم بالأموال والأولاد، فيجمع من غير حلّه، ويتناول على أولياء الله بماله، وخدمه، وولده، فيفني عمره في هذه الأشياء، ولا يلتفت إلى العمل للآخرة. ثم بين لهذه الحياة شبيهاً، فقال: ﴿كَثَلٌ غَيْثٌ﴾ يعني: مطراً ﴿أَجَبَ الْكَفَّارَ﴾ وهم الزُّرَّاع، وسموا كفاراً، لأن الزارع إذا ألقي البذر في الأرض كفره، أي: غطاه. ﴿نَبَاتُهُ﴾ أي: ما نبت من ذلك الغيث ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: يبس ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد خضرته ورَّبه ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ أي: ينحطم، وينكسر بعد يسه^(١). وشرح هذا المثل قد تقدم في «يونس» عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (آية: ٢٤)، وفي «الكهف» عند قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَّمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (آية: ٤٥).

قوله تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: لأعداء الله ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ لأوليائه وأهل طاعته. وما بعد هذا مذكور في (آل عمران: ١٨٥) إلى قوله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾ فيبين أنه لا يدخل الجنة أحد إلا بفضل الله^(٢).

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ لِلَّذِينَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَغْيِ وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْبَغْيِ فَلَا مَكْرَهَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: قحط المطر، وقلة النبات، ونقص الثمار، ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ من الأمراض، وفقد الأولاد ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ. ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ أن نخلقها، يعني: الأنفس ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إثبات ذلك على كثرته هيئ على الله ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ أي: تحزنوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ وقرأ أبو عمرو - إلا اختيار البيهقي - بالقصر على معنى: جاءكم من الدنيا. وقرأ الباقر بالمد على معنى: أعطاكم الله منها. وأعلم أنه من علم أن ما قضي لا بد أن يصيبه قل حزنه وفرحه. وقد روى قتبية بن سعيد قال: دخلت بعض أحياء العرب، فإذا بفضاء من الأرض فيه من الإبل ما لا يحصى عدده، كلُّها قد مات، فسألت عجوزاً: لمن كانت هذه الإبل؟ فأشارت إلى شيخ على تل يغزل الصوف، فقلت له: يا شيخ ألك كانت

(١) قال ابن كثير: هكذا الحياة الدنيا، تكون أولاً شابة، ثم تكهل، ثم تكون عجوزاً شوهاء، قال: والإنسان يكون كذلك في أول عمره وعصفوان شبابه غصاً طرياً، لين الأعطاف بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة فتغير طبعه ويفقد بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ضعيف القوى قليل الحركة يعجزه الشيء اليسير، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَيْنِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَيْنِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَفَرُّ الْقَدِيرِ الْقَدِيرِ ﴿٢٠﴾﴾ قال: ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضاءها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة، حذر من أمرها، ورغب فيما فيها من الخير فقال: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ أي: وليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا، وإما هذا، إما عذاب شديد، وإما مغفرة من الله ورضوان، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ أي هي متاع فانٍ غارٍ لمن ركن إليه فإنه يغتر بها وتمعجه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراعها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة. اهـ.

(٢) وذلك مصداق قول رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري وسلم عن أبي هريرة ؓ: قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يدخل أحدكم عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة» متفق عليه واللفظ لمسلم.

أنفسهم في الامتناع عن المطعم والمشرب والملبس والنكاح والتعبد في الجبال ﴿مَا كَتَبْنَا عَلَيْهَا﴾ أي: ما فرضناها عليهم. وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا آيَةً رَّضَوْنَ اللَّهُ﴾ قولان: أحدهما: أنه يرجع إلى قوله تعالى: ﴿ابتدعوها﴾، وتقديره: ما كتبناها عليهم إلا أنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله، ذكره علي بن عيسى، والرامي عن قتادة، وزيد بن أسلم. والثاني: أنه راجع إلى قوله تعالى: ﴿ما كتبناها﴾. ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: ما كتبناها عليهم بعد دخولهم فيها تطوعاً إلا ابتغاء رضوان الله. قال الحسن: تطوعوا بابتداعها ثم كتبها الله عليهم. وقال الزجاج: لما ألزموا أنفسهم ذلك التطوع لزمهم إتمامه، كما أن الإنسان إذا جعل على نفسه صوماً لم يفترض عليه، لزمه أن يتمه^(١). قال القاضي أبو يعلى: والابتداع قد يكون بالقول، وهو ما ينذر ويوجهه على نفسه، وقد يكون بالفعل بالدخول فيه. وعموم الآية تتضمن الأمرين، فاقضى ذلك أن كل من ابتدع قربة، قولاً، أو فعلاً، فعليه رعايتها وإتمامها. والثاني: أن المعنى: ما أمرناهم منها إلا بما يرضي الله ﷻ، لا غير ذلك، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿فَكَارِعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم الذين ابتدعوا الرهبانية، قاله الجمهور. ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم ما رَعَوْها لتبديل دينهم وتغييرهم له، قاله عطية العوفي. والثاني: لتقصيرهم فيما ألزموه أنفسهم. والثالث: لكفرهم برسول الله ﷺ لما بُعث، ذكر القولين الزجاج. والثاني: أنهم الذين اتبعوا مبتدعي الرهبانية في رهبانيتهم، ما رَعَوْها بسلوك طريق أوليهم، روى هذا المعنى سعيد بن جبير عن ابن عباس^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَنَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ فيهم ثلاثة أقوال: أحدها: الذين آمنوا بمحمد ﴿وَكَبُرَ بِهِمْ فَيْتُورُ﴾ وهم الذين لم يؤمنوا به. والثاني: أن الذين آمنوا: المؤمنون بعيسى، والفاسقون: المشركون. والثالث: أن الذين آمنوا: مبتدعو الرهبانية، والفاسقون: متبعوهم على غير القانون الصحيح.

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْتُمَا رُسُلَاهُ يُؤَيِّمُ كِلَانِي مِنْ رَحْمَةٍ وَبَعَثَ لَكُمْ نُورًا تَشُونَ بِهِ وَيَفَرُّ لَكُمْ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَبَ﴾^(٣) لَمْ يَلْزَمْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٨﴾ قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْتُمَا رُسُلَاهُ﴾ عامة المفسرين على أن هذا الخطاب لليهود والنصارى. والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله، وآمنوا برسوله محمد ﷺ ﴿يُؤَيِّمُ كِلَانِي﴾ أي: نصيبين، وحظين ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾^(٤) قال الزجاج: الكفل: كساء يمنع الراكب أن يسقط، فالمعنى: يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصي. وقد بينا معنى «الكفل» في سورة [النساء: ٨٥] وفي المراد بالكفلين هاهنا قولان: أحدهما: لإيمانهم بمن تقدم من الأنبياء، والآخر: لإيمانهم بمحمد ﷺ، قاله ابن عباس. والثاني: أن: أحدهما: أجر الدنيا، والثاني: أجر الآخرة، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿وَبَعَثَ لَكُمْ نُورًا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: القرآن، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. والثاني: نوراً تمشون به على الصراط، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: الهدى، قاله مجاهد. والرابع: الإيمان، قاله ابن السائب.

(١) وهو مذهب الحنفية والمالكية، وأما عند الشافعية فلم يوجبوا الإتمام، ففي «المجموع» ٦/٣٩٢: قال الشافعي والأصحاب رحمهم الله تعالى: فإذا دخل في صوم تطوع، أو صلاة تطوع، استحب له إتمامها، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْهِوا أَسْمَانَكُمْ﴾ وللخروج من خلاف العلماء، فإن خرج منهما بغيره أو بغير عذر، لم يحرم عليه ذلك، ولا قضاء عليه، لكن يكره الخروج منهما بلا عذر، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْهِوا أَسْمَانَكُمْ﴾ هذا هو المذهب.

(٢) جاء في «تفسير القاسمي» ١٦/٥٦٩٨: ﴿فَكَارِعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا﴾ أي: ما قاموا بما التزموا منها حق القيام من التزهد والتخلي للعبادة وعلم الكتاب، بل اتخذوها آلة للتروس والسود وإخضاع الشعب لأموالهم.

(٣) حمل ابن عباس هذه الآية على مؤمني أهل الكتاب وأنهم يؤتون أجراً مرتين، كما في الآية التي في (القصص)، وكما في حديث «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجراً مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنية وأمن بي لله أجراً، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه لله أجراً، ورجل أذب أمة فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها لله أجراً». ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك وعتبة ابن أبي حكيم وغيرهما، وهو اختيار ابن جرير. وقال سعيد بن جبير: لما اختر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجراً مرتين، أنزل الله تعالى هذه الآية في حق هذه الأمة ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْتُمَا رُسُلَاهُ يُؤَيِّمُ كِلَانِي﴾ أي ضعفين «فِي رَحْمَتِهِ». وزادهم ﴿وَبَعَثَ لَكُمْ نُورًا تَشُونَ بِهِ﴾ يعني هدى يتبصر به من العمى والجهالة، ﴿وَيَفَرُّ لَكُمْ﴾، ففضلهم بالنور والمغفرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَمْلِكُ﴾ «لا» زائدة. قال الفراء: والعرب تجعل «لا» صلة في كل كلام دخل في آخره أو أوله جحد، فهذا مما جعل في آخره جحد. والمعنى: ليعلم ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ الذين لم يؤمنوا بمحمد ﴿أَلَا يَقْدِرُونَ﴾ أي: أنهم لا يقدرُونَ ﴿عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ والمعنى: أنه جعل الأجرين لمن آمن بمحمد ﷺ ليعلم من لم يؤمن به أنه لا أجر لهم ولا نصيب في فضل الله ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ فاتاه المؤمنين. هذا تلخيص قول الجمهور في هاتين الآيتين. وقد ذهب قوم إلى أنه لما نزل في مسلمة أهل الكتاب ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤] افتخروا على المسلمين بزيادة الأجر، فشق ذلك على المسلمين، فنزلت هاتان الآيتان، وهذا المعنى في رواية أبي صالح عن ابن عباس، وبه قال مقاتل. فعلى هذا يكون الخطاب للمسلمين، ويكون المعنى: يؤتكم أجرين ليعلم مؤمنو أهل الكتاب أنهم لا يقدرُونَ على شيء من فضل الله الذي خصَّكم، فإنه فضلكم على جميع الخلائق. وقال قتادة: لما نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ...﴾ الآية، حسد أهل الكتاب المسلمين عليها، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَمْلِكُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ الآية.



سورة المجادلة

وهي مدنية في قول ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، والجمهور. وروي عن عطاء أنه قال: العشر الأول منها مدني، والباقي مكّي. وعن ابن السائب: أنها مدنية سوى آية، وهي قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١﴾
قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ أما سبب نزولها، فروي عن عائشة أنها قالت: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة فكلّمت رسول الله ﷺ، وأنا في جانب البيت أسمع كلامها، ويخفي عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها وتقول: يا رسول الله: أبلى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات^(١). فأما تفسيرها، فقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ قال الزجاج: إدغام الدال في السين حسن لقرب المخرجين، لأنهما من حروف طرف اللسان، وإظهار الدال جاتر، لأنه وإن قرب من مخرج السين، فله حيز على حدة، ومن موضع الدال الطاء والتاء، فهذه الأحرف الثلاثة موضعها واحد، والسين والزاي والصاد من موضع واحد، وهي تسمى: حروف الصفير. وفي اسم هذه المجادلة ونسبتها أربعة أقوال: أحدها: خولة بنت ثعلبة، رواه مجاهد، عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، وقتادة، والقرظي. والثاني: خولة بنت خويلد، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثالث: خولة بنت الصامت، رواه العوفي عن ابن عباس. والرابع: خولة بنت الدليج، قاله أبو العالية. واسم زوجها: أوس بن الصامت، وكانا من الأنصار. قال ابن عباس: كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية: أنت عليّ كظهر أمي، حرّمت عليه، فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس، ثم ندم، وقال لامرأته: انطلقني إلى رسول الله ﷺ فسله، فاتته، فنزلت هذه الآيات^(٢). فأما مجادلتها رسول الله ﷺ، فإنه كان كلما قال لها: قد حرّمت عليك، تقول: والله ما ذكر طلاقاً، فقال: ما أوحى إليّ في هذا شيء، فجعلت تشتكي إلى الله. وتشتكي بمعنى: تشكو. يقال: اشتكت ما بي، وشكوت. وقالت: إن لي صبية صغيراً، إن ضمنتهم إليه ضاعوا، وإن ضمنتهم إليّ جاعوا. فأما التحاور، فهو مراجعة الكلام. قال عترة في فرسه:

لو كان يذري ما المحاورَةُ اشتكى
ولو كان لو علم الكلام مُكَلِّمِي^(٣)

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ۝٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَأَ دَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَأَ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِطْلَعَامَ سِتِّينَ سِكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو «يُظَاهِرُونَ» بفتح الباء، وتشديد

(١) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٣٠٤، و«الطبري» ٦٠٥/٢٨، والحاكم في «المستدرک» ٤٨١/٢، وصححه، ووافقه الذهبي، وابن ماجه في «سننه» رقم (٢٠٦٣) وسنده صحيح، والبيهقي في «سننه» ٣٨٢/٧.

(٢) رواه البيهقي في «سننه» ٣٨٣/٧ من طريق عكرمة عن ابن عباس، وفي سننه أبو حمزة الثمالي، وهو ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب». والخبر ذكره السيوطي في «الدرر» ١٧٩/٦ وزاد نسبه للحماس، وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس.

(٣) هو من مملته المشهورة. وفي «شرح القصائد السبع» لابن الأنباري: أو كان لو علم الكلام مكلمي. وفي «مختار الشعر الجاهلي» ٣٧٩/١: أو كان يذري ما جواب تكلمي.

الظاء والهاء وفتحهما من غير ألف. وقرأ أبو جعفر، وابن عامر، وحزمة، والكسائي بفتح الياء، وتشديد الظاء، وبألف، وتخفيف الهاء. وقرأ عاصم «يُظَاهِرُونَ» بضم الياء، وتخفيف الظاء والهاء، وكسر الهاء في الموضعين مع إثبات الألف. وقرأ ابن مسعود «يُظَاهِرُونَ» بياء، وتاء، وألف. وقرأ أبي بن كعب «يُظَاهِرُونَ» بياء، وتاء، وتخفيف الياء، وتشديد الهاء من غير ألف. وقرأ الحسن، وقتادة، والضحاك «يُظَاهِرُونَ» بفتح الياء، وفتح الظاء، مخففة، مكسورة الهاء مشددة. والمعنى: تقولون لهم: أنتم كظهور أمهاتنا. «مَا هُنَّ أَهْمُهُنَّ» قرأ الأكثرون بكسر التاء. وروى المفضل عن عاصم رفعها. والمعنى: ما اللواتي تجعلن كالأهيات بأهيات لهم «إِنَّ أَهْمَهُنَّ» أي: ما أمهاتهم «إِلَّا إِلَهٌ وَكَذَهُنَّ» قال الفراء: وانتصاب «الأمهات» هاهنا بإلقاء الباء، وهي قراءة عبد الله «ما هُنَّ بأهياتهم»، ومثله: «مَا هَذَا بِشَرٍّ» [يوسف: ٢٣]، المعنى: ما هذا ببشر، فلما ألقى الباء أبقى أثرها، وهو: النصب، وعلى هذا كلام أهل الحجاز. فأما أهل نجد، فإنهم إذا ألغوا الباء رفعوا، وقالوا: «ما هن أمهاتهم» و«ما هذا بشر» أنشدني بعض العرب: رَكَابُ حُسَيْلٍ آخِرَ الصَّيْفِ بُدُنٌ وَمَا أَنْتَ فَرْعٌ قَوْمِهِ وَنَاقَةٌ عَمْرٍو مَا يُحَلُّ لَهَا رَحْلٌ^(١) وَمَا أَنْتَ فَرْعٌ يَا حُسَيْلٌ وَلَا أَصْلُ

قوله تعالى: «وَلِنْ هُمْ» يعني: المظاهرين «لَيَقُولَنَّ مُكْرَرًا يَنْ الْقَوْلِ» لتشبيههم الزوجات بالأمهات، والأمهات محرمات على التأيد، بخلاف الزوجات. «وَرَوَّأَ» أي: كذباً «وَلَيْتَ اللَّهُ لَمَنَعُ غَوْرًا» إذ شرع الكفارة لذلك^(٢).

قوله تعالى: «يَوْمَ يَدْعُونَ لَنَا قَالُوا» اللام في «لما» بمعنى «إلى» والمعنى: ثم يعودون إلى تحليل ما حرّموا على أنفسهم من وطء الزوجة بالعزم على الوطء. قال الفراء: معنى الآية: يرجعون عما قالوا، وفي نقض ما قالوا. وقال سعيد بن جبير: المعنى: يريدون أن يعودوا إلى الجماع الذي قد حرّموه على أنفسهم. وقال الحسن، وطاووس، والزهرى: العود: هو الوطء. وهذا يرجع إلى ما قلناه. وقال الشافعي: هو أن يمسكها بعد الظهار مدة يمكنه طلاقها فيه فلا يطلقها. فإذا وجد هذا، استقرت عليه الكفارة، لأنه قصد بالظهار تحريمها، فإن وصل ذلك بالطلاق فقد جرى على ما ابتدأه، وإن سكت عن الطلاق، فقد ندم على ما ابتدأ به، فهو غود إلى ما كان عليه، فحينئذ تجب الكفارة. وقال داود: هو إعادة اللفظ ثانياً، لأن ظاهر قوله تعالى: «يَوْمَ يَدْعُونَ» يدل على تكرير اللفظ. قال الزجاج: وهذا قول من لا يدري اللغة. وقال أبو علي الفارسي: ليس في هذا كما ادّعوا، لأن العود قد يكون إلى شيء لم يكن الإنسان عليه قبل، وسميت الآخرة معاداً، ولم يكن فيها أحد ثم عاد إليه. قال الهذلي:

وَعَادَ الْفَتَى كَالْكَهْلِ لَيْسَ بِقَائِلٍ سِوَى الْحَقِّ شَيْئاً وَاسْتَرَاحَ الْعَوَاذِلُ^(٣)

وقد شرحنا هذا في قوله تعالى: «وَلَيْتَ اللَّهُ رَبَّيْضُ الْأُمُورِ» [البقرة: ٢١٠] قال ابن قتيبة: من توهم أن الظهار لا يقع حتى يلفظ به ثانية، فليس بشيء، لأن الناس قد أجمعوا أن الظهار يقع بلفظ واحد. وإنما تأويل الآية: أن أهل الجاهلية كانوا يطلقون بالظهار، فجعل الله حكم الظهار في الإسلام خلاف حكم عندهم في الجاهلية، وأنزل قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ» يريد في الجاهلية «يَوْمَ يَدْعُونَ لَنَا قَالُوا» في الإسلام، أي: يعودون لما كانوا يقولونه من هذا الكلام^(٤)، «فَتَنَزَّوْا رَبَّيْكُمْ» قال المفسرون: المعنى: فعليتهم، أو فكفارتهم تحرير ربة، أي: عتقها. وهل

(١) أنشد البيهقي صاحب «الإيضاح في مسائل الخلاف» ٦٩٤ ولم يعزمها لقائل، والشاهد في قوله: «وما أنت فرع يا حُسَيْلٌ ولا أصل» فإنه أحمل «ما» الناقية فلم يرفع بها الاسم وينصب الخبر، وإعمالها لغة تميم، وإعمالها لغة الحجاز.

(٢) قال ابن كثير: أصل الظهار: شقق من الظهر، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها: أنت عليّ كظهر أمي، ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء قياساً على الظهر، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً، فأرخص الله لهذه الأمة، وجعل فيه كفارة، ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يمتدونه في جاهليتهم، هكذا قال غير واحد من السلف. اهـ.

(٣) في الأصلين: كالطفل، وهو خطأ، وقائل البيت أبو خراش خويلد بن مرة الهذلي، وهو في «شرح أشعار الهذليين» ١٢٢٣/٣، و«ديوان الهذليين» ٢/ ١٥٠، و«سيرة ابن هشام» ١٧٣/٢، و«الطبري» ١٦٣/٢، و«الأغاني» ٤١/٢١، و«الكامل» ٢٦٦/١، و«مشكل القرآن» ١١٢، و«شرح الحماسة» للمرزوقي ١٣١٤ من أبيات جاد في رثاء صديق له. وفي «ديوان الهذليين» يقول: رجع الفتى عما كان عليه من قوته. وصار كأنه كهل. قوله. فاستراح العواذل، لأنهن لا يجدن ما يعذلن فيه سوى العدل، أي: سوى الحق.

(٤) قال ابن كثير: اختلف السلف والأئمة في المراد بقوله تعالى: «يَوْمَ يَدْعُونَ لَنَا قَالُوا» فقال بعض الناس: العود: هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره، =

يشترط أن تكون مؤمنة؟ فيه عن أحمد روايتان^(١).

قوله تعالى: ﴿يَنْقَلِبُ إِلَى قَبْلِ أَنْ يَنْتَظِرَ﴾ وهو: كناية عن الجماع على أن العلماء قد اختلفوا: هل يباح للمظاهر الاستمتاع باللمس والقبلة؟ وعن أحمد روايتان. وقال أبو الحسن الأخفش: تقدير الآية «والذين يظهرون من نساءهم فتحرير رقبة لما قالوا ثم يعودون إلى نساءهم».

فصل

إذا وطئ المظاهر قبل أن يكفر أثم، واستقرت الكفارة. وقال أبو حنيفة: يسقط الظهار والكفارة. واختلف العلماء فيما يجب عليه إذا فعل ذلك، فقال الحسن، وسعيد بن المسيب، وطاوس، ومجاهد، وإبراهيم، وابن سيرين: عليه كفارة واحدة، وقال الزهري، وقتادة في آخرين: عليه كفارتان. فإن قال: أنت عليّ كظهر أمي اليوم، بطل الظهار بمضي اليوم، هذا قول أصحابنا، وأبي حنيفة، والثوري، والشافعي. وقال ابن أبي ليلى، ومالك، والحسن بن صالح: هو مظاهر أبداً.

واختلفوا في الظهار من الأمة، فقال ابن عباس: ليس من أمة ظهار، وبه قال سعيد بن المسيب، والشعبي، والنخعي، وأبو حنيفة، والشافعي. وقال سعيد بن جبیر، وطاوس، وعطاء، والأوزاعي، والثوري، ومالك: هو ظهار. ونقل أبو طالب عن أحمد أنه قال: لا يكون مظاهراً من أمته، ولكن تلزمه كفارة الظهار، كما قال في المرأة إذا ظهرت من زوجها لم تكن مظاهرة، وتلزمها كفارة الظهار.

واختلفوا فيمن ظاهر مراراً، فقال أبو حنيفة، والشافعي: إن كان في مجالس، فكفارات، وإن كان في مجلس واحد، فكفارة. قال القاضي أبو يعلى: وعلى قول أصحابنا: يلزمه كفارة واحدة، سواء كان في مجلس، أو في مجالس، ما لم يكفر، وهذا قول مالك.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نُفُوسُكَ يُؤْتِيكَ يَدُكَ﴾ قال الزجاج: ذلكم التغليب توعظون به. والمعنى: أن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تركوا الظهار.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَجِدْ﴾ يعني: الرقبة «فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ» أي: فعليه صيام شهرين «ثُمَّ لَا يَمَسُّهُ فَرْجٌ» أي: كفارته «فَلَعَلَّامٌ سَيِّئٌ يَسْكِنُهُ ذَلِكَ» أي: الفرض ذلك الذي وصفنا «لِيُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ» أي: تصدقوا بأن الله أمر بذلك وتصدقوا بما أتى به الرسول «وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ» يعني: ما وصفه الله من الكفارات في الظهار «وَالَّذِينَ عَدَّابٌ أَلِيمٌ» قال ابن عباس: لمن جحد هذا وكذب به.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبُرًا كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَفَدَّ أَرْثًا أَبْنَيْ يَنْتَبِذَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ مُهِينٍ ۖ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَسَوَاءٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِمَّا كَسَبَتْ ۚ وَتِلْكَ الْآيَاتُ لِلَّذِينَ يَتْلُونَهَا فِي الْفُرُجِ وَالْغِيَانِ ۚ وَمَنْ يُضِلَّهُمْ فِي الْفُرُجِ وَالْغِيَانِ فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ قد ذكرنا معنى المحادّة في [التوبة: ٦٣] ومعنى «كُتِبُوا» في [آل عمران: ١٧٧]

= وهذا القول باطل، وهو اختيار ابن حزم وقول داود. حكاه أبو عمر بن عبد البر عن بكير بن الأشج والفراء وفرقة من أهل الكلام. وقال الشافعي: هو أن يمسكها بعد المظاهرة زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق. وقال أحمد بن حنبل: هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا تحل له حتى يكفر بهذه الكفارة، وقد حكى عن مالك أنه العزم على الجماع أو الإنساک، وعنه: أنه الجماع. وقال أبو حنيفة: هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية، فمتى ظاهر الرجل من امرأته فقد حرّمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة، وإليه ذهب أصحابه واللبث بن سعد. وقال ابن لهيعة: حدثني عطاء عن سعيد بن جبیر «يَوْمَ يَرْجِعُونَ إِلَى قُلُوبِهِمْ» يعني يريدون أن يعودوا في الجماع الذي حرّموه على أنفسهم. قال الحسن البصري: يعني الغياني في الفرج، وكان لا يرى بأساً أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفر.

(١) قال ابن كثير: هاهنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان، فحمل الشافعي رحمه الله ما أطلق هاهنا على ما ثبت هناك، لاتحاد الموجب، وهو حتى الرقبة، واعتقد في ذلك بما رواه عن مالك بسنده عن معاوية بن الحكم السلمي في قصة الجارية السوداء، وأن رسول الله ﷺ قال: «احتقها فإنها مؤمنة» وقد رواه أحمد في «مسنده» ومسلم في «صحيحه».

عند قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكْتُمُهُمْ﴾. وقال ابن عباس: أخزوا يوم الخندق بالهزيمة كما أخزي الذين من قبلهم ممن قاتل الرسل.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَمُوتُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: من قبورهم ﴿فَيُنْشِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ من معاصيه، وتضييع فرائضه. ﴿أَحْصَنَهُ اللَّهُ﴾ أي: حفظه الله عليهم ﴿وَسُوَّهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من أعمالهم في السر والعلانية ﴿شَهِيدٌ﴾. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم.

قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ خَلْقٍ ثَلَاثَةَ يَسْرُونَ شَيْئًا، وَيَتَنَاجَوْنَ بِهِ﴾ ﴿إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ﴾ أي: عالم به. و «نجوى» مشتق من النجوة، وهو ما ارتفع. وقرأ يعقوب «ولا أكثر» بالرفع. وقال الضحاك: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ أي: علمه معهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُتُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَمُوتُونَ لِمَا هُتُوا عَنْهُ وَيَنْتَجِبُونَ بِالْآثِرِ وَالْمَذَلِّ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَهُمْ حَيَوتُهَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَيَاةٌ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ بَصُلُونَهَا فَنَلْسَ الْمَعِيدُ ﴿٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْكَ تَنْتَجِبُونَ فَلَا تَنْتَجِبُوا بِالْآثِرِ وَالْمَذَلِّ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنْجَرُوا بِالْآثِرِ وَالْقَوَى وَأَنْقُوا اللَّهُ الَّذِينَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنْكَ النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ يَحْزُنُكَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِصَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا يَبْذُرُهُمُ اللَّهُ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُتُوا عَنِ النَّجْوَى﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: نزلت في اليهود والمنافقين، وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين، وينظرون إلى المؤمنين، ويتغامزون بأعينهم، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا: ما نراهم إلا قد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السرايا، قتل أو موت، أو مصيبة، فيقع ذلك في قلوبهم، ويحزنهم، فلا يزالون كذلك حتى تقدم أصحابهم. فلما طال ذلك وكثر، شكا المؤمنون إلى رسول الله ﷺ، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس^(١). والثاني: نزلت في اليهود، قاله مجاهد. قال مقاتل: وكان بين اليهود وبين رسول الله موادة، فإذا رأوا رجلاً من المسلمين وحده تناجوا بينهم، فيظن المسلم أنهم يتناجون بقتله، أو بما يكره، فيترك الطريق من المخافة، فيبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنهاهم عن النجوى، فلم ينتهوا، وعادوا إليها، فنزلت هذه الآية. وقال ابن السائب: نزلت في المنافقين. والنجوى: بمعنى المناجاة. ﴿ثُمَّ يَمُوتُونَ﴾ إلى المناجاة التي نهوا عنها ﴿وَيَنْتَجِبُونَ﴾ قرأ حمزة، ويعقوب إلا زيدا، وروحاً «وينتجون» وقرأ الباقون «ويتناجون» بالفتح. وفي معنى تناجيهم ﴿بِالْآثِرِ وَالْمَذَلِّ﴾ وجهان: أحدهما: يتناجون بما يسوء المسلمين، فذلك الإثم والعدوان، ويوصي بعضهم بعضاً بمعصية الرسول. والثاني: يتناجون بعد نهى الرسول، ذلك هو الإثم والعدوان ومعصية الرسول.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ حَيَوتُهَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَيَاةٌ﴾ اختلَفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: نزلت في اليهود. قالت عائشة رضي الله عنها: جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقلت: السام عليكم، وفعل الله بكم، فقال رسول الله ﷺ: «مه يا عائشة، فإن الله لا يحب الفحش، ولا الثَّقُش، فقلت: يا رسول الله! ترى ما يقولون؟ فقال: أليس تربني أرء عليهم ما يقولون، وأقول: وعليكم، قالت: فنزلت هذه الآية في ذلك»^(٢). قال الزجاج: والسام: الموت. والثاني: أنها نزلت في المنافقين، رواه عطية عن ابن عباس. قال المفسرون: ومعنى «حيوتك» سلموا عليك بغير سلام الله عليك، وكانوا يقولون: سام عليك. فإذا خرجوا يقولون في أنفسهم، أو يقول بعضهم لبعض: لو كان نبياً عذبنا بقولنا له ما نقول.

(١) هو في «أسباب النزول» ٣٠٦ عن ابن عباس ومجاهد بغير سند.

(٢) رواه ابن أبي حاتم من حديث الأعمش عن مسروق عن عائشة وإسناده صحيح، وهو أيضاً في «صحيح مسلم» ١٧٠٧/٤ عن عائشة رضي الله عنها. ورواه أحمد في «المسند» رقم (٦٥٨٩) عن عبد الله بن عمر أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: سام عليك، ثم يقولون في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ حَيَوتُهَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَيَاةٌ﴾. وقال ابن كثير: إسناده حسن، وهو في «مجمع الزوائد» ١٢١/٧، وقال: رواه أحمد والبخاري والطبراني، وإسناده جيد، لأن حماداً سمع من عطاء في حالة الصحة..

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا تَنَجَّيْنَاهُمْ فِيهَا قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ، فَالْمَعْنَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِزَعْمِهِمْ، وَهَذَا قَوْلٌ عَطَاءٌ وَمَقَاتِلٌ. وَالثَّانِي: أَنَّهُمَا فِي الْمُؤْمِنِينَ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ نَهَاوَهُمْ عَنِ فِعْلِ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ، وَهَذَا مَذْهَبُ جَمَاعَةٍ، مِنْهُمْ الزَّجَاجُ.

قوله تعالى: ﴿تَنَجَّيْنَاهُمْ﴾ هَكَذَا قَرَأَ الْجَمَاعَةُ بِأَلْفٍ. وَقَرَأَ يَعْقُوبُ وَحْدَهُ «فَلَا تَنَجَّيْنَاهُمْ». فَأَمَّا «الْبِرُّ» فَقَالَ مَقَاتِلٌ: هُوَ الطَّاعَةُ، وَ «التَّقْوَى» تَرَكَ الْمَعْصِيَةَ. وَقَالَ أَبُو سَلِيمَانَ الدَّمَشَقِيُّ: «الْبِرُّ» الصَّدَقُ، وَ «التَّقْوَى» تَرَكَ الْكَذِبَ. ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ مَا يَفْعَلُهُ الْيَهُودُ وَالْمُنَافِقُونَ، مِنَ الشَّيْطَانِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أَي: مِنْ تَزْيِينِهِ، وَالْمَعْنَى: إِنَّمَا يَزِينُ لَهُمْ ذَلِكَ ﴿لِيُخْرِجَنَّكَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَقَدْ بَيَّنَّا اتِّقَاءَ مَا كَانَ يَحْزَنُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذِهِ النَّجْوَى ﴿وَلَيْسَ بِضَاوَاهُمْ شَيْئًا﴾ أَي: وَلَيْسَ الشَّيْطَانُ بِضَاوٍ الْمُؤْمِنِينَ شَيْئًا ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أَي: بِإِرَادَتِهِ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أَي: فَلْيَكِلُوا أُمُورَهُمْ إِلَيْهِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَقَسَّعُوا فِي الْمَجَالِسِ وَقَرَأَ عَاصِمٌ «فِي الْمَجَالِسِ» عَلَى الْجَمْعِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كُلُّ جَالِسٍ لَهُ مَجْلِسٌ، فَالْمَعْنَى: لِيَفْسَحَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ فِي مَجْلِسِهِ. قَالَ الْمَفْسُورُونَ: نَزَلَتْ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَسَاقِبُونَ إِلَى مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا أَقْبَلَ الْمُهَاجِرُونَ وَأَهْلُ السَّابِقَةِ، لَمْ يَجِدُوا مَوْضِعًا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَحِبُّ أَنْ يَلِيَهُ أَوَّلُو الْفَضْلِ لِيَحْفَظُوا عَنْهُ، فَبَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ جُمُعَةٍ جَالِسٌ فِي ضِفَّةٍ ضَبَقَتْ فِي الْمَسْجِدِ، جَاءَ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ فِيهِمْ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ بْنُ شِمَاسٍ، فَسَلَّمُوا وَانْتَظَرُوا أَنْ يُوسَّعُوا لَهُمْ، فَأَوْسَعُوا لِبَعْضِهِمْ، وَبَقِيَ بَعْضُهُمْ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: قُمْ يَا فُلَانُ، قُمْ يَا فُلَانُ، حَتَّى أَقَامَ مِنَ الْمَجْلِسِ عَلَى عِدَّةٍ مِنْ هُوَ قَائِمٌ مِنْ أَهْلِ السَّابِقَةِ، فَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي وَجْهِهِ مِنْ أَقَامِهِمُ الْكَرَاهَةَ، وَتَكَلَّمَ الْمُنَافِقُونَ فِي ذَلِكَ وَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا عَدَلَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانُوا يَتَنَافَسُونَ فِي مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا أَقْبَلَ مَقْبَلُ ضُتُورِهِمْ بِمَجْلِسِهِمْ، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَفْسَحَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، قَالَ الْمَفْسُورُونَ: وَمَعْنَى «تَفَسَّحُوا» تَوَسَّعُوا وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَجْلِسُونَ مُتَضَافِينَ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَا يَجِدُ غَيْرَهُمْ مَجْلِسًا عَنْدهُ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يُوسَّعُوا لِبَعْضِهِمْ لِيَتَسَاوَى النَّاسُ فِي الْحِظِّ مِنْهُ، وَيُظْهَرَ فَضِيلَةُ الْمُقَرَّبِينَ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ وَغَيْرِهِمْ. وَفِي الْمُرَادِ «بِالْمَجْلِسِ» هَاهُنَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ مَجْلِسُ الْحَرْبِ، وَمَقَاعِدُ الْقِتَالِ، كَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي الْقَوْمَ فِي الصَّفِّ، فَيَقُولُ لَهُمْ: تَوَسَّعُوا، فَيَأْتُونَ عَلَيْهِ لِحَرْصِهِمْ عَلَى الْقِتَالِ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنِ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَالْقُرْظِيِّ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ مَجْلِسُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ هَذَا لِلنَّبِيِّ ﷺ وَمِنْ حَوْلِهِ خَاصَّةً. وَالثَّلَاثُ: مَجَالِسُ الذِّكْرِ كُلِّهَا، رَوَى عَنْ قَتَادَةَ أَيْضًا^(١). وَقَرَأَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَبُو رَزِينٍ، وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَمُجَاهِدٌ، وَالْحَسَنُ، وَعُكْرَمَةُ، وَقَتَادَةُ، وَابْنُ أَبِي عُبَيْلَةَ، وَالْأَعْمَشُ: ﴿تَقَسَّعُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ بِأَلْفٍ عَلَى الْجَمْعِ.

قوله تعالى: ﴿يَسَّجَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أَي: يُوسِّعُ اللَّهُ لَكُمْ الْجَنَّةَ، وَالْمَجَالِسَ فِيهَا. ﴿وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا﴾ قَرَأَ نَافِعٌ، وَابْنُ عَامِرٍ، وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ «أَنْشُرُوا فَانْشُرُوا» بِرَفْعِ الشَّيْنِ. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَحَمْزَةُ، وَالْكَسَائِيُّ: بِكَسْرِ الشَّيْنِ فِيهِمَا. وَمَعْنَى «أَنْشُرُوا» قَوْمُوا. قَالَ الْفَرَاءُ: وَهُمَا لُغَتَانِ. وَفِي الْمُرَادِ بِهَذَا الْقِيَامُ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ الْقِيَامُ إِلَى الصَّلَاةِ، وَكَانَ رِجَالٌ يَتَاقَلَبُونَ عَنْهَا، فَقِيلَ لَهُمْ: إِذَا نَوَدِيَ لِلصَّلَاةِ فَانْهَضُوا، هَذَا قَوْلُ عُكْرَمَةَ، وَالضَّحَّاكِ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ الْقِيَامُ إِلَى قِتَالِ الْعَدُوِّ، قَالَهُ الْحَسَنُ. وَالثَّلَاثُ: أَنَّهُ الْقِيَامُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ، مِنْ قِتَالٍ، أَوْ أَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَالرَّابِعُ: أَنَّهُ الْخُرُوجُ مِنْ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانُوا إِذَا جَلَسُوا فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَطَالُوا لِيَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ آخِرَهُمْ عَهْدًا بِهِ، فَأَمَرُوا أَنْ يَنْشُرُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ: أَنْشُرُوا، قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ. وَالْخَامِسُ: أَنَّ الْمَعْنَى: قَوْمُوا

قوله تعالى: ﴿يَسَّجَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أَي: يُوسِّعُ اللَّهُ لَكُمْ الْجَنَّةَ، وَالْمَجَالِسَ فِيهَا. ﴿وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا﴾ قَرَأَ نَافِعٌ، وَابْنُ عَامِرٍ، وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ «أَنْشُرُوا فَانْشُرُوا» بِرَفْعِ الشَّيْنِ. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَحَمْزَةُ، وَالْكَسَائِيُّ: بِكَسْرِ الشَّيْنِ فِيهِمَا. وَمَعْنَى «أَنْشُرُوا» قَوْمُوا. قَالَ الْفَرَاءُ: وَهُمَا لُغَتَانِ. وَفِي الْمُرَادِ بِهَذَا الْقِيَامُ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ الْقِيَامُ إِلَى الصَّلَاةِ، وَكَانَ رِجَالٌ يَتَاقَلَبُونَ عَنْهَا، فَقِيلَ لَهُمْ: إِذَا نَوَدِيَ لِلصَّلَاةِ فَانْهَضُوا، هَذَا قَوْلُ عُكْرَمَةَ، وَالضَّحَّاكِ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ الْقِيَامُ إِلَى قِتَالِ الْعَدُوِّ، قَالَهُ الْحَسَنُ. وَالثَّلَاثُ: أَنَّهُ الْقِيَامُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ، مِنْ قِتَالٍ، أَوْ أَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَالرَّابِعُ: أَنَّهُ الْخُرُوجُ مِنْ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانُوا إِذَا جَلَسُوا فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَطَالُوا لِيَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ آخِرَهُمْ عَهْدًا بِهِ، فَأَمَرُوا أَنْ يَنْشُرُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ: أَنْشُرُوا، قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ. وَالْخَامِسُ: أَنَّ الْمَعْنَى: قَوْمُوا

(١) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ: وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ أَنْ يَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ، أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِسِ. وَلَمْ يَخْصُصْ بِذَلِكَ مَجْلِسَ النَّبِيِّ ﷺ دُونَ مَجْلِسِ الْقِتَالِ، وَكُلَا الْمَوْضِعَيْنِ يَقَالُ لَهُ: مَجْلِسٌ، فَذَلِكَ عَلَى جَمِيعِ الْمَجَالِسِ مِنْ مَجَالِسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَجَالِسِ الْقِتَالِ. اهـ.

وتحرّكوا وتوسّعوا لإخوانكم، قاله الثعلبي^(١).

قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: يرفعهم بإيمانهم على من ليس بمنزلتهم من الإيمان ﴿و﴾ يرفع ﴿الذين أتوا العلم﴾ على من ليس بعالم. وهل هذا الرفع في الدنيا، أم في الآخرة؟ فيه وجهان: أحدهما: أنه إخبار عن ارتفاع درجاتهم في الجنة. والثاني: أنه ارتفاع مجالسهم في الدنيا، فيكون ترتيبهم فيها بحسب فضائلهم في الدين والعلم. وكان ابن مسعود يقول: أيها الناس: افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم، فإن الله يرفع المؤمن العالم فوق من لا يعلم درجات^(٢).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣) مَا شَقَقْتُمْ أَنْ تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةٌ فَإِذَا لَمْ تَقْدِمُوا وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن الناس سألوا رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه، فأنزل هذه الآية، قاله ابن عباس^(٣). والثاني: أنها نزلت في الأغنياء، وذلك أنهم كانوا يكثر من مناجاة رسول الله ﷺ، ويغلبون الفقراء على المجالس، حتى كره رسول الله ﷺ ذلك، فنزلت هذه الآية، فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئاً، وأما أهل الميسرة فدخلوا، واشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فنزلت الرخصة، قاله مقاتل بن حيان، وإلى نحوه ذهب مقاتل بن سليمان، إلا أنه قال: فقدر الفقراء حينئذٍ على مناجاة رسول الله ﷺ، ولم يقدم أحد من أهل الميسرة صدقة غير علي بن أبي طالب. وروى مجاهد عن علي ﷺ قال: آية في كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلي، ولن يعمل بها أحد بعدي، آية النجوى. كان لي دينار، فبعته بعشرة دراهم، فكلما أردت أن أتاجي رسول الله ﷺ قدمت درهماً فنسختها الآية الأخرى ﴿مَا شَقَقْتُمْ أَنْ تَقْدِمُوا﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي: تقديم الصدقة على المناجاة خير لكم، لما فيه من طاعة الله، وأطهر لذنوبكم ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا﴾ يعني: الفقراء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. إذ عفا عمن لا يجد.

قوله تعالى: ﴿مَا شَقَقْتُمْ﴾ أي: خفتم بالصدقة الفاقة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فتجاوز عنكم، وخفف بنسخ إيجاب الصدقة. قال مقاتل بن حيان: إنما كان ذلك عشر ليال. قال قتادة: ما كان إلا ساعة من نهار.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَدْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَتَعْدُوا أَنْتَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٨﴾ لَنْ تَنفِي عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَؤْتَدُهُمْ

(١) روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا». وروى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به». قال ابن كثير: وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال، فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث: «قوموا إلى سيدكم» ومنهم من منع من ذلك محتجاً بحديث: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار» ومنهم من فصل فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في محل ولايته، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ، فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة، فرأه مقبلاً قال للمسلمين: «قوموا إلى سيدكم» وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه، والله أعلم. قال: فأما اتخاذه ديدناً، فإنه من شعار المعجم، قال: وقد جاء في «السنن» أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكان إذا جاء لا يقومون له لما يعلمون من كراهيته لذلك. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: لا تعتقدوا أنه إذا فسح أحد منكم لأخيه إذا قبل، أو إذا أمر بالخروج فخرج، أن يكون ذلك نقصاً في حقه، بل هو رفعة ورتبة عند الله، والله تعالى لا يضيع ذلك له، بل يجزيه بها في الدنيا والآخرة، فإن من تواضع لأمر الله رفع الله قدره ونشر ذكوره، ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي خبير بمن يستحق ذلك ومن لا يستحقه. اهـ.

وروى مسلم في «صحيحه» ٥٥٩/١ عن عامر بن وائلة أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن عفان وكان عمر يستعمله على مكة. فقال: من استعملت على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبيزى، قال: ومن ابن أبيزى؟ قال: مولى من موالينا، قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارى لكتاب الله ﷺ، وأنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين».

(٣) ذكر سبب النزول هذا البخاري في «تفسيره» عن ابن عباس بغير سند، وأورده السيوطي في «الدرر» ١٨٥/٦ من رواية ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس وقال في آخره: فأنزل الله بعد هذا ﴿مَا شَقَقْتُمْ﴾ الآية، فوسع الله عليهم ولم يضيق.

يَنْ أَللهُ شَيْئًا أَوْلَيْكَ أَحَبُّكَ الْكَافِرُ هُمْ فِيهَا خَلِيدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَرِيمًا يَخْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكَ وَيَسْبِرُونَ أَيْمَهُمْ عَلَى فَوْقِهِمْ أَلَّا يَأْتِيَهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَلْسَنَهُمْ وَكَّرَ اللهُ أَوْلَيْكَ جَزَبَ الشَّيْطَانُ أَلَّا إِنَّ جَزَبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ أَللهُ وَرَسُولَهُ أَوْلَيْكَ فِي الْآذِلِينَ ﴿٢٠﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَرَى إِلَى الَّذِينَ قَوْلًا مِّمَّا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ نزلت في المنافقين الذين تولّوا اليهود، ونقلوا إليهم أسرار المؤمنين. وقال السدي، ومقاتل: نزلت في عبد الله بن نبتل المنافق، وذلك أنه كان يجالس رسول الله ﷺ، ويرفع حديثه إلى اليهود، فدخل عليه يوماً، وكان أزرق، فقال له رسول الله ﷺ: «علام تشتمني أنت وأصحابك؟» فحلف بالله ما فعل، فقال له النبي ﷺ: «فعلت» فانطلق فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما سبّوه، فأنزل الله هذه الآيات. وروى الحاكم أبو عبد الله في «صحيحه» من حديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ كان في ظل حُجرة من حجّره، وعنده نفر من المسلمين، فقال: إنه سيايتكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا أتاكم فلا تُكلموه، فجاء رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ، فقال: «علام تشتمني أنت وفلان وفلان؟» فانطلق الرجل فدعاهم، فحلفوا بالله، واعتذروا إليه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَرِيمًا يَخْلِفُونَ﴾ الآية^(١). فأما التفسير، فالذين تولّوا: هم المنافقون، والمغضوب عليهم: هم اليهود ﴿وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾ وهو ما ذكرنا في سبب نزولها. وقال بعضهم: حلفوا أنهم ما سبّوا رسول الله ﷺ، ولا تولّوا اليهود ﴿وَهُمْ يَمْلِكُونَ﴾ أنهم كذبة ﴿أَفَقَدْ آتَيْنَهُمْ بَيِّنَاتٌ﴾ أي: ستره يثبثون بها القتل. قال ابن قتيبة: المعنى: استتروا بالحلف، فكلما ظهر لهم شيء يوجب معاقبتهم حلفوا كاذبين، ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: صدّوا النَّاسَ عن دين الإسلام، قاله السدي. والثاني: صدّوا عن جهادهم بالقتل وأخذ مالهم.

قوله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ لَهُمْ﴾ قال مقاتل، وقناة: يحلفون لله في الآخرة أنهم كانوا مؤمنين، كما حلفوا لأوليائه في الدنيا ﴿وَيَسْبِرُونَ أَيْمَهُمْ عَلَى فَوْقِهِمْ﴾ من أيمانهم الكاذبة ﴿أَلَّا يَأْتِيَهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ في قولهم وأيمانهم.

قوله تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ قال أبو عبيدة: غلب عليهم، وحاذهم، وقد بينا هذا في سورة [النساء: ١٤١] عند قوله تعالى: ﴿تَسْتَحْوِذُ عَلَيْهِمْ﴾، وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى: ﴿أَوْلَيْكَ فِي الْآذِلِينَ﴾ أي: في المغلوبين، فلمهم في الدنيا ذُلٌّ، وفي الآخرة جزاء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ أَللهُ وَرَسُولَهُ أَوْلَيْكَ فِي الْآذِلِينَ﴾ ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَخْلِفَنَّ أَنَا وَرُسُلِي لَكَ اللهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ أَللهُ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أَوْلَيْكَ﴾ ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أَوْلَيْكَ جَزَبَ اللهُ أَلَّا إِنَّ جَزَبَ اللهُ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ﴾ أي: قضى الله ﴿لَأَخْلِفَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ وفتح الياء نافع، وابن عامر. قال المفسرون: من بُعث من الرسل بالحرب، فعاقبة الأمر له، ومن لم يبعث بالحرب، فهو غالب بالحجة ﴿إِنَّ اللهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: مانع حربه من أن يذل.

قوله تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا﴾ الآية. اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال: أحدها: نزلت في أبي عبيدة بن الجراح، قتل أباه يوم أحد، وفي أبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز، فقال: يا رسول الله دعني أكون في الرُّعلة الأولى^(٢)، فقال: متعنا بنفسك يا أبا بكر، وفي مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن حمزة يوم أحد، وفي عمرو قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر. وفي علي وحزمة قتلا عتبة وشيبة يوم بدر، قاله ابن مسعود^(٣). والثاني: أنها نزلت في

(١) الحاكم في «المستدرک» ٢/ ٤٨٢ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، ورواه أحمد في «المستند» رقم (٣٢٧٧)، وإسناده جيد كما قال ابن كثير.

(٢) الرُّعلة والرَّهِيل: القطعة المتقدمة من الخيل، يريد: الفوج الأول المتقدم ليقاتل في سبيل الله.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٣١٠ بغير سند، وروى الحاكم في «المستدرک» ٣/ ٢٦٥ عن عبد الله بن شاذب قال: جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينصب الأُلَّ (وهي الحرية الرعيضة النصل) لأبي عبيدة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجراح قصده أبو عبيدة، فقتله، فأنزل الله فيه هذه الآية حين قتل أباه. ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا﴾ وقال الحافظ في «الإصابة» ٢/ ٢٤٤: وأخرجه الطبري بسند جيد عن عبد الله بن شاذب.

أبي بكر الصديق، وذلك أن أبا قحافة سب رسول الله ﷺ، فصغّه أبو بكر صغّةً شديدةً سقط منها، ثم ذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أو فعلته؟» قال: نعم. قال: فلا تعدّ إليه، فقال أبو بكر: والله لو كان السيف قريباً مني لقتلته، فنزلت هذه الآية، قاله ابن جريج^(١). والثالث: نزلت في عبد الله بن عبد الله بن أبي، وذلك أنه كان جالساً إلى جنب رسول الله، فشرب رسول الله ماءً، فقال عبد الله: يا رسول الله أبق فضلة من شرابك، قال: وما تصنع بها؟ قال: أسقيها أبي، لعل الله سبحانه يطهر قلبه، ففعل، فأتى بها أباه، فقال: ما هذا؟ قال: فضلة من شراب رسول الله جئتكم بها لتشربها، لعل الله يطهر قلبك، فقال: هلا جئتني ببول أمك! فرجع إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله: ائذن لي في قتل أبي، قال: فقال رسول الله ﷺ: ارفق به، وأحسن إليه، فنزلت هذه الآية، قاله السدي. والرابع: أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى أهل مكة يخبرهم أن رسول الله ﷺ قد عزم على قصدهم، قاله مقاتل، واختاره الفراء، والزجاج. وهذه الآية قد بينت أن مودة الكفار تقدر في صحة الإيمان، وأن من كان مؤمناً لم يوال كافراً وإن كان أباه أو ابنه أو أحداً من عشيرته.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين، يعني: الذين لا يوادّون من حادّ الله ورسوله ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ وقرأ المفضل عن عاصم «كُتِبَ» برفع الكاف والنون من «الإيمان». وفي معنى «كتب» خمسة أقوال: أحدها: أثبت في قلوبهم الإيمان، قاله الربيع بن أنس. والثاني: جعل، قاله مقاتل. والثالث: كتب في اللوح المحفوظ أن في قلوبهم الإيمان، حكاه الماوردي. والرابع: حكم لهم بالإيمان. وإنما ذكر القلوب، لأنها موضع الإيمان، ذكره الثعلبي. والخامس: جمع في قلوبهم الإيمان حتى استكملوه، قاله الواحدي.

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم﴾ أي: قوّاهم ﴿بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ وفي المراد «بالروح» ها هنا خمسة أقوال: أحدها: أنه النصر، قاله ابن عباس، والحسن. فعلى هذا سمي النصر روحاً، لأن أمرهم يحيا به. والثاني: الإيمان، قاله السدي. والثالث: القرآن، قاله الربيع. والرابع: الرحمة، قاله مقاتل. والخامس: جبريل عليه السلام، أيدهم به يوم بدر، ذكره الماوردي. فأما ﴿جَزَبَ اللَّهُ﴾ فقال الزجاج: هم الداخلون في الجمع الذين اصطفاهم وارتضاهم، و«ألا» كلمة تنبيه وتوكيد للقصة.



(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٣١٠ عن ابن جريج قال: حدث أن أبا قحافة... إلخ، وقال الحافظ في «تخريج أحاديث الكشاف» ١٦٦: نقله الثعلبي عن ابن جريج قال: حدث أن أبا قحافة... فذكره.

سورة الحشر

وهي مدنية كلها بإجماعهم

وذكر المفسرون أن جميعها أنزلت في بني النضير^(١). وكان ابن عباس يسمي هذه السورة «سورة بني النضير»^(٢) وهذه الإشارة إلى قصتهم.

ذكر أهل العلم بالتفسير والسيرة: أن رسول الله ﷺ خرج إلى مسجد قباء، ومعه نفر من أصحابه، فصلّى فيه، ثم أتى بني النضير، فكلمهم أن يعينوه في دية رجلين كان قد أمتنهما، فقتلها عمرو بن أمية الضمري وهو لا يعلم، فقالوا: نفعل، وهُمُوا بِالْعَدْرِ به، وقال عمرو بن جحاش: أنا أظهر على البيت، فأطرح عليه صخرة، فقال سلام بن مشكم: لا تفعلوا، والله ليُخْبِرَن بما هممتم به، وجاء رسول الله ﷺ الخبر، فنهض سريعا، فتوجه إلى المدينة، فلحقه أصحابه، فقالوا: قمت ولم نشعر! فقال: هَمَّتْ يَهُودُ بِالْعَدْرِ، فأخبرني الله بذلك، فقامت، وبعث إليهم رسول الله محمد بن مسلمة: أن اخرجوا من بلدتي، فلا تساكنوني، وقد هممت بما هممت به، وقد أَجَلْتُكُمْ عَشْرًا^(٣). فمن رثي بعد ذلك ضربت عنقه، فمكثوا أياماً يتجهّزون، فأرسل إليهم ابنُ أبيّ: لا تخرجوا، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم، وَتَمَدُّكُمْ قَرِيطَةً، وحلفاؤكم من غطفان، وطمع حُيَيّ فيما قال ابن أبيّ، فأرسل إلى رسول الله ﷺ: إنا لا نخرج، فاصنع ما بدا لك، فكَبَّرَ رسول الله ﷺ، وكَبَّرَ المسلمون لتكبيره، وقال: حاربت يهود، ثم سار إليهم في أصحابه، فلما رأوه، قاموا على حصونهم معهم النبل والحجارة، فاعتزلتهم قريظة، وخذلهم ابن أبيّ وحلفاؤهم من غطفان، وكان رئيسهم كعب بن الأشرف قد خرج إلى مكة فعاقد المشركين على التظاهر على رسول الله، فأخبر الله رسوله بذلك، فبعث محمد بن مسلمة فاعتزّه فقتله، وحاصره رسول الله، وقطع نخلهم، فقالوا: نحن نخرج عن بلادك، فأجلاهم عن المدينة، فمضى بعضهم إلى الشام، وبعضهم إلى خيبر، وقَبَضَ سلاحهم وأموالهم، فوجد خمسين درعاً، وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفاً^(٤). فأما التفسير فقد ذكرنا فاتحة هذه السورة في [الحديد: ١].

(١) وهم طائفة من اليهود أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة بعدما تقضوا العهد الذي بينه وبينهم على رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبل وقعة أحد كما ذكر ذلك عبد الرزاق في «مصنفه» عن معمر عن الزهري عن عروة.

(٢) روى البخاري في «صحيحه» ٢٥٦/٧ عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس سورة الحشر؟ قال: قل: سورة النضير. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٤٨٣/٨: كأنه كره تسميتها بالحشر، لتلاظن أن المراد: يوم القيامة، وإنما المراد به هنا: إخراج بني النضير.

(٣) هكذا رواية ابن سعد: «وقد أَجَلْتُكُمْ عَشْرًا». والذي في «دلائل النبوة» للبيهقي كما في «فتح الباري» ٢٥٤/٧ من حديث محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ بعث إلى بني النضير وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاثة أيام.

(٤) روى هذا الخبر ابن سعد في «الطبقات» ٥٧/٢، ٥٨ في غزوة بني النضير، وذكره ابن هشام في «السيرة» ١٩٠/٢ بنحوه من رواية ابن إسحاق، وانظر «البداية والنهاية» لابن كثير الدمشقي ٧٥/٤، وشرح المواهب اللدنية للزرقاني ٩٥/٢، ٩٦. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٢٥٥/٧: وروى ابن مردويه قصة بني النضير بإسناد صحيح إلى معمر عن الزهري: أخبرني عبد الله بن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: كتب كفار قريش إلى عبد الله بن أبي وغيره ممن يعبد الأوثان قبل بدر يهدّدونهم بإيوانهم النبي ﷺ وأصحابه ويتعهدونهم أن يغزومهم بجميع العرب، فهمُ ابن أبي ومن معه بقتال المسلمين، فاتاهم النبي ﷺ فقال: ما كادكم أحد بمثل ما كادتكم قريش، يريدون أن تلقوا بأسكم بيئكم، فلما سمعوا ذلك عرفوا الحق فترقوا، فلما كانت وقعة بدر كتب كفار قريش بعدها إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون يتهدّدونهم، فأجمع بنو النضير على العذر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ: اخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك وملكك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنا بك آتيناك، ففعل، فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر، فأرسلت امرأة من بني النضير إلى أخ لها من الأنصار مسلم تخبره بأمر بني النضير، فأخبر أخوها النبي ﷺ قبل أن يصل إليهم، فرجع وصحبهم بالكتاب فحصرهم يومه، ثم غذا على بني قريظة، فحاصره، فعاهدوه، فأنصرف عنهم إلى بني النضير، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا السلاح، فاحتملوا حتى أبواب بيوتهم، فكانوا يخربون بيوتهم فيهدمونها ويحملون ما يوافقهم من خشبها. وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام، قال الحافظ: وكذا أخرجه عبد بن حميد في «تفسيره» عن عبد الرزاق، قال: وفي ذلك رد على ابن التين في زعمه أنه ليس في هذه القصة حديث بإسناد. قلت (القاتل ابن حجر): فهذا أقوى مما ذكر ابن إسحاق من أن سبب غزوة بني النضير طلبه ﷺ أن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ① هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلَقْنَاهُمْ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَلْنَا فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاقْتَبِرُوا يَكْفُلُوا الْأَنْفُسَ ② وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ③ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ④ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِمَنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفُلُوفِينَ ⑤

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: يهود بني النضير ﴿مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أي: من منازلهم ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنهم أول من حُشر وأخرج من داره، قاله ابن عباس. وقال ابن السائب: هم أول مَنْ نفي من أهل الكتاب. والثاني: أن هذا كان أول حشرهم، والحشر الثاني: إلى أرض المحشر يوم القيامة، قاله الحسن. قال عكرمة: من شك أن المحشر إلى الشام فليقرأ هذه الآية، وأن النبي ﷺ قال لهم يومئذ: اخرجوا، فقالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر^(١). والثالث: أن هذا كان أول حشرهم. والحشر الثاني: نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، قاله قتادة. والرابع: أن هذا كان أول حشرهم من المدينة، والحشر الثاني: من خيبر^(٢)، وجميع جزيرة العرب إلى أذرعات^(٣)، وأريحا^(٤) من أرض الشام في أيام عمر بن الخطاب، قاله مرة الهمداني.

قوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ﴾ يخاطب المؤمنين ﴿أَنْ يَخْرُجُوا﴾ من ديارهم لعزهم، ومنعتهم، وحصونهم ﴿وَظَنُّوا﴾ يعني: بني النضير أن حصونهم تمنعهم من سلطان الله ﴿فَأَلَقْنَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ وذلك أنه أمر نبيه بقتالهم وإجلائهم، ولم يكونوا يظنون أن ذلك يكون، ولا يحسبونه، ﴿وَقَذَلْنَا فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ لخوفهم من رسول الله ﷺ، وقيل: لقتل سيدهم كعب بن الأشرف ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ أبو عمرو «يُخْرِبُونَ» بالتشديد. وقرأ الباقون «يُخْرِبُونَ». وهل بينهما فرق، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أن المشددة معناها: النقص والهدم. والمخففة معناها: يخرجون منها ويتركونها خراباً معطلة، حكاه ابن جرير. روي عن أبي عمرو أنه قال: إنما اخترت التشديد، لأن بني النضير نقضوا منازلهم، ولم يتركوها خراباً وهي معمورة. والثاني: أن القراءتين بمعنى واحد. والتخريب والإخراب لغتان بمعنى، حكاه ابن جرير عن أهل اللغة^(٥). وللمفسرين فيما فعلوا بمنزلهم أربعة أقوال: أحدها: أنه كان المسلمون كلما ظهروا على دارٍ من دُورهم هدموها ليتسع لهم مكان القتال، وكانوا هم يبقون دورهم، فيخرجون إلى ما يليها، قاله ابن عباس. والثاني: أنه كان المسلمون كلما هدموا شيئاً من حصونهم نقضوا ما يبنون به الذي خربه المسلمون، قاله الضحاك. والثالث: أنهم كانوا ينظرون إلى الخشبة في منازلهم، أو العمود، أو الباب، فيستحسنونه، فيهدمون البيوت، وينزعون ذلك منها، ويحملونه معهم، ويخرب المؤمنون باقيها، قاله الزهري. والرابع: أنهم كانوا يخربونها لئلا يسكنها المؤمنون، حسداً منهم وبغياً، قاله ابن زيد.

= يعنيه في دية الرجلين، لكن وافق ابن إسحاق جلَّ أهل المغازي، فإله أعلم. اهـ.

(١) روى ابن أبي حاتم عن أبيه حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن أبي سعد عن عكرمة عن ابن عباس ؓ. (٢) وذلك أن رسول الله ﷺ لما أجلى يهود بني النضير من المدينة لغدرهم، ذهبوا إلى خيبر، وأذرعات، وخبير مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على ثمانية بروج (٩٦ ميلاً) من المدينة إلى جهة الشام، فتحها رسول الله ﷺ سنة سبع من الهجرة. وقد روى البخاري في «صحيحه» عن أنس بن مالك ؓ قال: صبحتنا خيبر بكرة، فخرج أهلها بالمساحي (آلات الحرب) فلما بصروا بالنبي ﷺ قالوا: محمد والله، محمد والخميس (الجيش) فقال النبي ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»، وكذلك روى مسلم، ثم بعدما فتحها رسول الله ﷺ قسم غنائمها، فأعطى الرجال سهماً، والفارس ثلاثة أسهم، بعد أن خسمها خمسة أجزاء، ثم دفعها لأهل خيبر ليعملوا فيها بشل ما يخرج منها من ثمر أو زرع على أن يخرجهم منها إذا شاء، فاستمروا على ذلك إلى خلافة عمر بن الخطاب ؓ، إلى أن وقعت منهم خيانة وغدر لبعض المسلمين فأجلاهم إلى الشام بعد أن استشار في ذلك الصحابة ؓ.

(٣) أذرعات: بفتح الهجمة، وسكون الذال، وكسر الراء، وعين مهملة، وألف، وتاء: بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعَمَّان، والنسب إليها أذرعي، وقد خرج منها طائفة من أهل العلم.

(٤) أريحا: بفتح الهجمة وكسر الراء وياء ساكنة وهاء مهملة وألف بالقصر: مدينة في الغور من أرض الأردن بالشام.

(٥) قال ابن جرير الطبري: وأولى القرامتين في ذلك بالصواب عندي قراءة من قرأ بالتخفيف لإجماع الحجة من القراء عليه. اهـ.

قوله تعالى: ﴿فَاعْتَرُوا بِكَأُولِ الْأَبْصَارِ﴾ الاعتبار: النظر في الأمور، ليعرف بها شيء آخر من جنسها، و«الأبصار» العقول. والمعنى: تدبروا ما نزل بهم ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ﴾ أي: قضى ﴿عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ وهو خروجهم من أوطانهم. وذكر الماوردي بين الإخراج والجلء فرقين: أحدهما: أن الجلء: ما كان مع أهل الولد، والإخراج: قد يكون مع بقاء أهل الولد. والثاني: أن الجلء لا يكون إلا لجماعة. والإخراج: قد يكون لواحد ولجماعة. والمعنى: لولا أن الله قضى عليهم بالخروج ﴿لَمَذَبْتُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل والسبي، كما فعل بقرينة ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ مع ما حل بهم في الدنيا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ذلك الذي أصابهم ﴿وَأَنَّهُمْ شَاوُوا اللَّهَ﴾ وقد سبق بيان الآية [الأنفال: ١٣] و [محمد: ٣٢]. قال القاضي أبو يعلى: فقد دلت هذه الآية على جواز مصالحة أهل الحرب على الجلء من ديارهم من غير سبي ولا استرقاق، ولا جزية، ولا دخول في ذمة، وهذا حكم منسوخ إذا كان في المسلمين قوة على قتالهم، لأن الله تعالى أمر بقتال الكفار حتى يسلموا، أو يؤدوا الجزية. وإنما يجوز هذا الحكم إذا عجز المسلمون عن مقاومتهم فلم يقدروا على إدخالهم في الإسلام أو الذمة، يجوز لهم حينئذ مصلحتهم على الجلء من بلادهم. وفي هذه القصة دلالة على جواز مصلحتهم على مجهول من المال، لأن النبي ﷺ صالحهم على أرضهم، وعلى الحلقة، وترك لهم ما أكلت الإبل، وذلك مجهول.

قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ﴾ سبب نزولها أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير، وقطع، فنزلت هذه الآية، أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر^(١). وذكر المفسرون أنه لما نزلت ببني النضير تحصنوا في حصونهم، فأمر بقطع نخيلهم، وإحراقها، فجزعوا، وقالوا: يا محمد زعمت أنك تريد الإصلاح، أفمن الصلاح عقر الشجر، وقطع النخل؟ وهل وجدت فيما أنزل عليك الفساد في الأرض؟ فشق ذلك على رسول الله ﷺ، ووجد المسلمون في أنفسهم من قولهم. واختلف المسلمون، فقال بعضهم: لا تقطعوا، فإنه مما آفأ الله علينا. وقال بعضهم: بل نغيظهم بقطعها، فنزلت هذه الآية بتصديق من نهى عن قطعه، وتحليل من قطعه من الإثم، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله تعالى^(٢). وفي المراد «باللينة» ستة أقوال: أحدها: أنه النخل كله ما خلا العجوة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وبه قال عكرمة، وقتادة، والفراء. والثاني: أنه النخل والشجر، رواه عطاء عن ابن عباس. والثالث: أنها ألوان النخل كلها إلا العجوة، والبرنية، قاله الزهري، وأبو عبيدة، وابن قتيبة. وقال الزجاج: أهل المدينة يسمون جميع النخل: الألوان، ما خلا البرني والعجوة. وأصل «لينة»: لؤنة، فقلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها. والرابع: أنها النخل كله، قاله مجاهد وعطية، وابن زيد. قال ابن جرير: معنى الآية: ما قطعتم من ألوان النخل. والخامس: أنها كرام النخل، قاله سفيان. والسادس: أنها ضرب من النخل يقال لتمرها: اللون، وهي شديدة الصفرة، ترى نواه من خارج، وكان أعجب ثمرهم إليهم^(٣)، قاله مقاتل^(٤). وفي عدد ما قطع المسلمون ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم قطعوا وأحرقوا ست نخلات، قاله الضحاك. والثاني: أحرقوا نخلة وقطعوا نخلة، قاله ابن إسحاق. والثالث: قطعوا أربع نخلات، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال يزيد بن رومان ومقاتل: بأمر الله.

قوله تعالى: ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ يعني اليهود. وخزيمهم: أن يزيهم أموالهم يتحكم فيها المؤمنون كيف أحبوا. والمعنى: وليخزي الفاسقين، أذن في ذلك، ودل على المحذوف قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

﴿وَمَا آفَأَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجِعْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَبْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١﴾ مَا آفَأَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْيَتَامَى وَالْأَسْفَلِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا ذُوًّا فَضْلٍ ﴿٢﴾ وَمَا مَنَعَكُمْ أَلَّا تَتَّقُوا اللَّهَ إِذْ أَنْتُمْ تُخْفَوْنَ أَعْيُنَكُمْ عَنْ تَحَوُّلِهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ مَنْ حَقَّ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْكُمْ فَرْحَاكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُرْجَوْنَ ﴿٣﴾

(١) البخاري في «صحيحه» ٧/٢٥٦ و ٨/٤٨٣، ومسلم ٣/١٣٦٥، ١٣٦٦.

(٢) الواحدي في «أسباب النزول» ٣١٢، ورواه الطبري ٢٨/٣٤ من رواية ابن إسحاق، ثنا يزيد بن رومان.

(٣) في الأصل: إليه.

(٤) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك قول من قال: اللينة: النخلة، وهو من ألوان النخل ما لم تكن عجوة.

مِنْ يَدِيهِمْ وَأَمْرُ اللَّهِ يَنْتَوْنُ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَرَضُوا اللَّهَ وَأَمْرُكَ اللَّهُمَّ الْمَدِيدُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخَيِّبُونَ مَنْ هَامَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي شُغْرِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أَوْفَرُوا وَيُؤَدِّبُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾

أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ» قال المفسرون: يعني بهم المهاجرين «يَتَّبِعُونَ قَسْلًا يَزِيلُ اللَّهُ» أي: رزقاً يأتيهم «وَرِضْوَانًا» رضا ربهم حين خرجوا إلى دار الهجرة «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» في إيمانهم. ثم مدح الأنصار حين طابت أنفسهم عن الفيء، فقال تعالى: «وَأُولَئِكَ تَبَرُّوا الدَّارَ» يعني: دار الهجرة، وهي المدينة «وَالْإِيمَانُ مِنْ قَبْلِهِمْ» فيها تقديم وتأخير، تقديره: والذين تبوءوا الدار من قبلهم، أي: من قبل المهاجرين، والإيمان عطف على «الدار» في الظاهر، لا في المعنى، لأن «الإيمان» ليس بمكان يتبوء، وإنما تقديره: وآثروا الإيمان، وإسلام المهاجرين قبل الأنصار، وسكنى الأنصار المدينة قبل المهاجرين. وقيل: الكلام على ظاهره، والمعنى: تبوءوا الدار والإيمان قبل الهجرة «يُخَيِّرُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ» وذلك أنهم شاركهم في منازلهم، وأموالهم، «وَلَا يَحْدُونُ فِي ضُدُورِهِمْ حَاجَةً» أي: حسداً وغيظاً مما أوتي المهاجرون. وفيما أوتوه قولان: أحدهما: مال الفيء، قاله الحسن. وقد ذكرنا آنفاً أن النبي ﷺ قسم أموال بني النضير بين المهاجرين، ولم يعط من الأنصار غير ثلاثة نفر. والثاني: الفضل والتقدم، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: «وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ» بأموالهم ومنازلهم «وَكُلُّهُمْ كَانَ يَتَمَنَّى حَاجَةً» أي فقر وحاجة، فبين الله ﷻ أن إيثارهم لم يكن عن غنى^(١). وفي سبب نزول هذا الكلام قولان: أحدهما: أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ، وقد أصابه الجهد، فقال: يا رسول الله؛ إني جائع فأطعمني، فبعث رسول الله ﷺ إلى أزواجه: هل عندكن شيء؟ فكلهن قلن: والذي بعثك بالحق ما عندنا إلا الماء، فقال: ما عند رسول الله ﷺ ما يطعمك هذه الليلة. ثم قال: «مَنْ يَضِيفُ هَذَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ؟» فقام رجل فقال: أنا يا رسول الله، فأتى به منزله، فقال لأهله: هذا ضيف رسول الله ﷺ، فأكرمه ولا تدخري عنه شيئاً، فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبية، فقال: قومي فعللهم عن قوتهم حتى يناموا ولا يطعموا شيئاً، ثم أصبحي سراجك^(٢)، فإذا أخذ الضيف ليأكل، فقومي كأنك تصلحين السراج، فأطفئيه، وتعالني نمضخ ألسنتنا لأجل ضيف رسول الله ﷺ حتى يشبع، ففعلت ذلك، وظن الضيف أنهما يأكلان معه، فشبع هو، وباتا طائرين، فلما أصبحا غدوا إلى رسول الله ﷺ، فلما نظر إليهما تبسم، ثم قال: ضحك الله الليلة، أو عجب من فعالكما^(٣)، فأنزل الله تعالى: «وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَكُلُّهُمْ كَانَ يَتَمَنَّى حَاجَةً» الآية. أخرجه البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة^(٤). وفي بعض اللفاظ عن أبي هريرة: أن الضيف كان من أهل الصفة، والمضيف كان من الأنصار، وأن

شيء يأتي به رسول الله ﷺ من أمر أو نهى أو قول أو فعل، وإن كان السبب خاصاً، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكل شيء أتانا به من الشرع، عند أطلنا إياه وأوصلنا إليه، قال: وما أنفع هذه الآية وأكثر فائدتها! ثم لما أمرهم يأخذ ما أمرهم به الرسول وترك ما نهاهم عنه، أمرهم بتقواه وخوفهم شدة عقوبته فقال: «وَكُنُّوا لِلَّهِ إِنْ شَاءَ الْقَائِلُ» فهو معاقب من لم يأخذ ما آتاه الرسول ولم يترك ما نهاه عنه. اهـ. وقد روى الإمام أحمد في «المستند»، والبخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن علفمة قال: قال عبد الله بن مسعود ﷺ: لمن الله الواشحات والمستوشحات، والتمتمصات والمقلجات للحسن المثيرات خلق الله ﷻ، فبلغ ذلك امرأة من بني أمية يقال لها: أم يعقوب، فجاءت إليه فقالت: إنه يلغني أنك لعنت كيت وكيت، قال: وما لي لا ألن من لمن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله ١٩؟ قالت: لقد قرأت ما بين لوعي المصحف فما وجدت فيه شيئاً من هذا؟ قال: لكن كنت قرأته لقد وجدتني، أما قرأت: «وَمَا تَأْتِيَكُمْ الرِّزْقُ فَحُذَرُوا وَمَا تَأْتِيَكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا» ١٩؟ قالت: بلى، قال: فإن رسول الله ﷺ قد نهى عنه... وروى البخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه».

(١) ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الصدقة جهد المقل» وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله تعالى بقوله: «وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ» وقوله: «وَمَا تَأْتِيَكُمْ الرِّزْقُ فَحُذَرُوا وَمَا تَأْتِيَكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا» فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوا، من هذا الباب تصدق الصديق ﷺ بجميع ماله، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» فقال ﷺ: أبقيت لهم الله ورسوله، وهكذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك. فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه وهو جريح مثل أحوج ما يكون إليه، فرده الآخر إلى الثالث، حتى وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم، وأرضاهم.

(٢) أي أوقديه.

(٣) قال الحافظ ابن حجر: نسبة الضحك والتعجب إلى الله مجازية، والمراد بهما: الرضا بصنيعهما؛ وقوله «فعالكما» وفي رواية «فعالكما» بالإفراد، قال في «البارع»: الفعال بالفتح: اسم الفعل الحسن، مثل الجود والكرم، قال: وفي «التهذيب»: الفعال بالفتح: فعل الواحد في الخير خاصة، يقال: هو كريم الفعال يفتح الفاء، وقد يستعمل في الشر. والفعال بالكسر: إذا كان الفعل بين اثنين، يعني أنه مصدر فاعل، مثل قاتل قتلاً.

(٤) البخاري في «صحيحه» ٩٠/٧، ٩١ و ٤٨٤/٨، ومسلم ١٦٢٤/٣.

النبي ﷺ قال: «لقد عجب من فعالكما أهل السماء»^(١). والثاني: أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ أهدي له رأس شاة، فقال: إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منا، فبعث به إليه، فلم يزل يبعث به واحد إلى واحد حتى تداولها سبعة أهل أبيات، حتى رجعت إلى أولئك، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عمر^(٢). وروي نحو هذه القصة عن أنس بن مالك قال: أهدي لبعض الصحابة رأس شاة مشوي، وكان مجهوداً، فوجّه به إلى جاري له فتناوله تسعة أنفس، ثم عاد إلى الأول، فنزلت هذه الآية^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ وقرأ ابن السمين، وأبو رجاء «ومن يُوقِ» بتشديد القاف. قال المفسرون: هو أن لا يأخذ شيئاً مما نهاه الله عنه، ولا يمنع شيئاً أمره الله بأدائه. والمعنى: أن الأنصار ممن وقى شُحَّ نفسه حين طابت أنفسهم بترك الفتي للمهاجرين.

فصل

وقد اختلف العلماء في الشح والبخل، هل بينهما فرق، أم لا؟ فقال ابن جرير: الشح في كلام العرب: هو منع الفضل من المال. وقال أبو سليمان الخطابي: الشح أبلغ في المنع من البخل، وإنما الشح بمنزلة الجنس والبخل بمنزلة النوع، وأكثر ما يقال في البخل: إنما هو في أفراد الأمور وخواص الأشياء، والشح عام، فهو كالوصف اللازم للإنسان من قبل الطبع والجيلة. وحكى الخطابي عن بعضهم أنه قال: البخل: أن يفضّل بماله، والشح: أن يبخل بماله ومعروفه. وقد روى أبو الشعثاء أن رجلاً أتى ابن مسعود فقال: إني أخاف أن أكون قد هلك، قال: وما ذاك؟ قال: أسمع الله يقول: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء، فقال: ليس ذلك بالشح الذي ذكره الله في القرآن، الشح: أن تأكل مال أخيك ظلماً، إنما ذلك البخل، وبش الشيء البخل^(٤). وروى أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «برئ من الشح من أدّى الزكاة، وقزى الضيف، وأعطى في النائة»^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني التابعين إلى يوم القيامة. قال الزجاج: والمعنى: ما أفاء الله على رسوله فله وللرسول ولهؤلاء المسلمين، وللذين يجيئون من بعدهم إلى يوم القيامة ما أقاموا على محبة أصحاب رسول الله ﷺ، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: الذين جاؤوا في حال قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾ فمن ترحم على أصحاب رسول الله ﷺ ولم يكن في قلبه غلّ لهم، فله حظ من فيء المسلمين، ومن شتمهم ولم يترحم عليهم، وكان في قلبه غلّ لهم، فما جعل الله له حقاً في شيء من فيء المسلمين بنص الكتاب. وكذلك روى عن مالك بن أنس رحمه الله أنه قال: من تنقص أصحاب رسول الله ﷺ، أو كان في قلبه عليهم غلّ، فليس له حق في فيء المسلمين، ثم تلا هذه الآيات.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ

(١) كذا لفظ الحديث في «أسباب النزول» للواحدي ٣١٣، ٣١٤، وكون المضيف من الأنصار ثابت في «الصحيحين». وأهل الصفة: أضياف الإسلام من فقراء المهاجرين، ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه، كانوا يبيتون في مسجد رسول الله ﷺ، والصفة: موضع مظلل من المسجد كانوا يأوون إليه.

(٢) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٣١٤ عن عبد الله بن عمر، وفي سننه عبيد الله بن الوليد الوصافي، قال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: ضعيف. والحديث رواه الحاكم في «المستدرک» ٤٨٤/٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي فقال: قلت: عبيد الله بن الوليد، ضعفاء. وأورده السيوطي في «الدرر» ١٩٥/٦ وزاد نسبه لابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» في رواية البخاري الأولى: هذا هو الأصح في سبب نزول هذه الآية، ثم ذكر رواية ابن مردويه هذه وقال: ويحتمل أن تكون نزلت بسبب ذلك كله. اهـ.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» ٢٥/١٨ ونسبه إلى الثعلبي عن أنس، بلفظ: «فتناولته سبعة أنفس في سبعة أبيات» بدل «فتناولته تسعة أنفس».

(٤) رواه ابن جرير: ٤٣/٢٨، وذكره ابن كثير ٣٣٩/٤ ونسبه إلى ابن أبي حاتم، وإسناده صحيح، إلا أن المسعودي أحد رواة اختلط قبل موته.

(٥) رواه ابن جرير الطبري ٤٤/٢٨ وفي سننه ضعف، وذكره السيوطي في «الدرر» ١٩٧/٦ وزاد نسبه لابن مردويه، والبيهقي عن أنس رضي الله عنه. اهـ. وقد روى مسلم في «صحيحه» ١٩٦٦/٤ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم».

أَمَّا أَهْلُ الْإِيمَانِ فَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَيْنَ أَخْرَجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيَأْكُلُنَّ مِنْ أُكْحُوتِهِمْ أَلًّا ﴿١٢﴾ وَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَنْتَظِرُونَكَ جِيئًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَادٍّ جُدُرٍ بِأَسْهُرٍ بَيْنَهُمْ سَبِيلٌ تَحْشَبُهُمْ جِيئًا وَقُلُوبُهُمْ شَقَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُ أَوَالٍ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَكِنْ عَذَابُ آلِيمٍ ﴿١٥﴾ كَذَّبَ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْخُفْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنْ بَرِئْتُ مِنْكَ إِلَّا خَافَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَقِبُهُمَا آتَاكُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْفَاسِقِينَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ يعني: عبد الله بن أبي وأصحابه ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ في الدين، لأنهم كفار مثلهم، وهم اليهود ﴿لَئِنْ أَخْرَجَنا﴾ من المدينة ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ أي: في خذلانكم ﴿أَمَّا أَهْلُ الْإِيمَانِ﴾ فكذبهم الله تعالى في ذلك بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ثم ذكر أنهم يُخلفونهم ما وعدوهم من الخروج والنصر بالآية التي تلي هذه، فكان الأمر على ما ذكره الله تعالى، لأنهم أخرجوا فلم يخرج معهم المنافقون، وقُوتلوا فلم ينصروهم، ومعنى ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ﴾: لئن قُدر وجود نصرهم، لأن الله نفى نصرهم، فلا يجوز وجوده. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَنْصُرُوهُمْ﴾ يعني: بني النضير.

قوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ﴾ يعني: المؤمنين أشد ﴿رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ﴾ وفيهم قولان: أحدهما: أنهم المنافقون، قاله مقاتل. والثاني: بنو النضير، قاله الفراء.

قوله تعالى: ﴿لَا يَنْتَظِرُونَكَ جِيئًا﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم اليهود، قاله الأكثرون. والثاني: اليهود والمنافقون، قاله أبو سليمان الدمشقي. والمعنى: أنهم لا يبرزون لحربكم، إنما يقاتلون مُتَحَصِّنِينَ ﴿فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَادٍّ جُدُرٍ﴾ وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبان «جدار» بآلف. وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي «جُدُر» بضم الجيم والذال. وقرأ أبو بكر الصديق، وابن أبي عبيدة «جُدُر» بفتح الجيم والذال جميعاً، وقرأ عمر بن الخطاب، ومعاوية، وعاصم الجحدري «جُدُر» بفتح الجيم وسكون الدال. وقرأ علي بن أبي طالب، وأبو عبد الرحمن السلمي، وعكرمة، والحسن، وابن سيرين، وابن عمر «جُدُر» بضم الجيم وإسكان الدال. ﴿بِأَسْهُرٍ بَيْنَهُمْ سَبِيلٌ﴾ فيما وراء الحصون شديد، وإذا خرجوا إليكم فهم أجبن خلق الله.

قوله تعالى: ﴿تَحْشَبُهُمْ جِيئًا﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم اليهود والمنافقون، قاله مقاتل. والثاني: بنو النضير، قاله الفراء.

قوله تعالى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَقَّى﴾ قال الزجاج: أي: هم مختلفون لا تستوي قلوبهم، ولا يتعاونون بنيات مجتمعة، لأن الله تعالى ناصر حزبه، وخاذل أعدائه.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ يعني: ذلك الاختلاف ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما فيه الحطُّ لهم. ثم ضرب لليهود مثلاً، فقال تعالى: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: بنو قينقاع، وكانوا وادعوا رسول الله، ثم غدروا، فحصرهم، ثم نزلوا على حكمه أن له أموالهم، ولهم النساء والذرية. فالمعنى: مثل بني النضير فيما فعل بهم كبنى قينقاع فيما فعل بهم. والثاني: أنهم كفار قريش يوم بدر، قاله مجاهد. والمعنى: مثل هؤلاء اليهود كمثل المشركين الذين كانوا من قبلهم قريباً، وذلك لقرب غزاة بني النضير من غزاة بدر. والثالث: أنهم بنو قريظة، فالمعنى: مثل بني النضير كبنى قريظة ﴿ذَاتُ أَوَالٍ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ بأن قُتل مقاتلتهم، وسُبيت ذراريهم، وهؤلاء أجلاو عن ديارهم فذاقوا وبال أمرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلاً فقال تعالى: ﴿كَذَّبَ الشَّيْطَانُ﴾. والمعنى: مثل المنافقين في غرورهم بني النضير، وقولهم: لئن أخرجتم لنخرجن معكم، ولئن قُوتلتم لننصرنكم، كمثل الشيطان: ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْخُفْ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه مثلَّ ضربه الله تعالى للكافر في طاعة الشيطان، وهو عام في جميع الناس، قاله مجاهد. والثاني: أنه مثلَّ ضربه الله لشخص معين، وعلى هذا جمهور المفسرين، وهذا شرح قصته. ذكر أهل التفسير أن عابداً من بني إسرائيل كان يقال له: برصيصا تبعَّد في صومعة له أربعين سنة لا يقدر عليه الشيطان، فجعم إبليس يوماً مرده الشياطين، فقال: ألا أحد منكم يكفيني برصيصا، فقال الأبيض، وهو صاحب الأنبياء: أنا

أَكْفِيكَه، فَانْطَلَقَ عَلَى صِفَةِ الرِّهْبَانِ، وَأَتَى صَوْمَعَتَهُ، فَنَادَاهُ فَلَمْ يَجِبْهُ، وَكَانَ لَا يَنْفَتِلُ عَنْ صَلَاتِهِ إِلَّا فِي كُلِّ عَشْرَةِ أَيَّامٍ، وَلَا يَفْطِرُ إِلَّا فِي كُلِّ عَشْرَةِ أَيَّامٍ، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَا يَجِيبُهُ أَقْبَلَ عَلَى الْعِبَادَةِ فِي أَصْلِ صَوْمَعَتِهِ، فَلَمَّا انْفَتَلَ بِرَصِيصًا، أَطْلَعَ فَرَاهُ مُتَّصِبًا يَصْلِي عَلَى هَيْئَةٍ حَسَنَةٍ، فَنَادَاهُ: مَا حَاجَتُكَ؟ فَقَالَ: إِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ مَعَكَ، أَتَبَسَّ مِنْ عَمَلِكَ، وَأَتَأَدَّبُ بِأَدَبِكَ، وَنَجْتَمِعُ عَلَى الْعِبَادَةِ، فَقَالَ بِرَصِيصًا: إِنِّي لَفِي شُغْلٍ عَنْكَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، وَأَقْبَلَ الْأَبْيَضُ يَصْلِي، فَلَمْ يُقْبَلْ إِلَيْهِ بِرَصِيصًا أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ انْفَتَلَ، فَرَاهُ يَصْلِي، فَلَمَّا رَأَى شِدَّةَ اجْتِهَادِهِ قَالَ: مَا حَاجَتُكَ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ الْقَوْلَ، فَأَذْنَّ لَهُ، فَصَعِدَ إِلَيْهِ، فَأَقَامَ مَعَهُ حَوْلًا لَا يَفْطِرُ إِلَّا كُلَّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَلَا يَنْفَتِلُ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا فِي كُلِّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَرَبَّمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا رَأَى بِرَصِيصًا اجْتِهَادَهُ، أَعْجَبَهُ شَأْنُهُ وَتَقَاصَّرَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ، فَلَمَّا حَالَ الْحَوْلُ قَالَ الْأَبْيَضُ لِبِرَصِيصًا: إِنِّي مُنْطَلِقٌ عَنْكَ، فَإِنْ لِي صَاحِبًا غَيْرُكَ ظَنَنْتُ أَنَّكَ أَشَدَّ اجْتِهَادًا مِمَّا أَرَى، وَكَانَ يَبْلُغُنَا عَنْكَ غَيْرَ الَّذِي أَرَى، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى بِرَصِيصًا، وَكَرِهَ مَفَارَقَتَهُ، فَلَمَّا وَدَّعَهُ قَالَ لَهُ الْأَبْيَضُ: إِنَّ عِنْدِي دَعَوَاتٍ أَعْلَمُكَهَا، يَشْفِي اللَّهُ بِهَا السَّقِيمَ، وَيَعَافِي بِهَا الْمَبْتَلَى، فَقَالَ بِرَصِيصًا: إِنِّي أَكْرَهُ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ، لِأَنَّ لِي فِي نَفْسِي شُغْلًا، أَخَافُ أَنْ يَعْلَمَ النَّاسُ بِهَذَا، فَيُشْغَلُونِي عَنْ الْعِبَادَةِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى عَلِمَهُ إِيَّاهَا، ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى إِبْلِيسَ فَقَالَ: قَدْ وَاللَّهِ أَهْلَكْتُ الرَّجُلَ، فَانْطَلَقَ الْأَبْيَضُ، فَتَعَرَّضَ لِرَجُلٍ فَخَنَقَهُ، ثُمَّ جَاءَ فِي صُورَةِ رَجُلٍ مُتَطَبِّبٍ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِنْ بِصَاحِبِكُمْ جُنُونًا فَأَعَالِجْهُ؟ قَالُوا نَعَمْ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي لَا أَقْوَى عَلَى جَنِّهِ، وَلَكِنْ سَأُرْشِدُكُمْ إِلَى مَنْ يَدْعُو لَهُ فَيَعَافِي، فَقَالُوا لَهُ: دُنُّنَا، قَالَ: انْطَلِقُوا إِلَى بِرَصِيصِ الْعَابِدِ، فَإِنْ عِنْدَهُ اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمِ، فَانْطَلِقُوا إِلَيْهِ، فَدَعَا بِتِلْكَ الْكَلِمَاتِ، فَذَهَبَ عَنْهُمْ الشَّيْطَانُ، وَكَانَ الْأَبْيَضُ يَفْعَلُ بِالنَّاسِ ذَلِكَ، ثُمَّ يَرْشُدُهُمْ إِلَى بِرَصِيصًا، فَيُعَافُونَ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ انْطَلَقَ إِلَى جَارِيَةٍ مِنْ بَنَاتِ مُلُوكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لَهَا ثَلَاثَةُ إِخْوَةٍ، فَخَنَقَهَا، ثُمَّ جَاءَ إِلَيْهِمْ فِي صُورَةِ مُتَطَبِّبٍ، فَقَالَ: أَعَالِجْهَا؟ قَالُوا: نَعَمْ. فَقَالَ: إِنْ الَّذِي عَرَضَ لَهَا مَارِدٌ لَا يَطَاقُ، وَلَكِنْ سَأُرْشِدُكُمْ إِلَى رَجُلٍ تَدْعُونَهَا عِنْدَهُ، فَإِذَا جَاءَ شَيْطَانُهَا دَعَا لَهَا، قَالُوا، وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: بِرَصِيصًا، قَالُوا: فَكَيْفَ لَنَا أَنْ يَقْبَلَهَا مَتًّا، وَهُوَ أَعْظَمُ شَأْنًا مِنْ ذَلِكَ؟! قَالَ: إِنْ قَبَلَهَا، وَإِلَّا فَضَعُوهَا فِي صَوْمَعَتِهِ، وَقُولُوا لَهُ: هِيَ أَمَانَةٌ عِنْدَكَ، فَانْطَلِقُوا إِلَيْهِ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ، فَوَضَعُوهَا عِنْدَهُ. وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّهُ قَالَ: ضَعُوهَا فِي ذَلِكَ الْغَارِ، وَهُوَ غَارٌ إِلَى جَنْبِ صَوْمَعَتِهِ، فَوَضَعُوهَا، فَجَاءَ الشَّيْطَانُ فَقَالَ لَهُ: انْزِلْ إِلَيْهَا فَاْمَسَحْهَا بِيَدِكَ تَعَافَى، وَتَتَصَرَّفُ إِلَى أَهْلِهَا، فَتَزِلْ، فَلَمَّا دَنَا إِلَى بَابِ الْغَارِ دَخَلَ الشَّيْطَانُ فِيهَا، فَإِذَا هِيَ تَرْكُضُ، فَسَقَطَتْ عَنْهَا ثِيَابُهَا، فَنَظَرَ الْعَابِدُ إِلَى شَيْءٍ لَمْ يَرِ مِثْلَهُ حَسَنًا وَجَمَالًا، فَلَمْ يَتِمَّاكَلْ أَنْ وَقَعَ عَلَيْهَا، وَضَرَبَ عَلَى أَذْنِهِ، فَجَعَلَ يَخْتَلِفُ إِلَيْهَا إِلَى أَنْ حَمَلَتْ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْطَانُ: وَيْحَكَ يَا بِرَصِيصًا قَدْ افْتَضَّحْتَ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تَقْتُلَ هَذِهِ وَتَتَوَبَّ؟ فَإِنْ سَأَلُوكَ عَنْهَا فَقُلْ: جَاءَ شَيْطَانُهَا فَذَهَبَ بِهَا، فَلَمْ يَزَلْ بِهَا حَتَّى قَتَلَهَا، وَدَفَنَهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ إِذْ جَاءَ إِخْوَتُهَا يَسْأَلُونَ عَنْهَا، فَقَالُوا: يَا بِرَصِيصًا! مَا فَعَلْتَ أَخْتَنَا؟ قَالَ: جَاءَ شَيْطَانُهَا فَذَهَبَ بِهَا، وَلَمْ أَطْعَمْهُ، فَصَدَّقُوهُ، وَانْصَرَفُوا. وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّهُ قَالَ: دَعَوْتُ لَهَا، فَعَافَاهَا اللَّهُ، وَرَجَعْتُ إِلَى الْيَكِيمِ، فَتَفَرَّقُوا يَنْظُرُونَ لَهَا أَثْرًا، فَلَمَّا أَمْسَوْا جَاءَ الشَّيْطَانُ إِلَى كَبِيرِهِمْ فِي مَنَامِهِ، فَقَالَ: وَيْحَكَ: إِنْ بِرَصِيصًا فَعَلَ بِأَخْتِكَ كَذَا وَكَذَا، وَإِنَّهُ دَفَنَهَا فِي مَوْضِعٍ كَذَا مِنْ جَبَلٍ كَذَا، فَقَالَ: هَذَا حِلْمٌ، وَبِرَصِيصًا خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ، فَتَتَابِعْ عَلَيْهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَلَا يَكْتَرِثْ، فَانْطَلِقْ إِلَى الْأَوْسَطِ كَذَلِكَ، ثُمَّ إِلَى الْأَصْغَرِ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ الْأَصْغَرُ لِإِخْوَتِهِ: لَقَدْ رَأَيْتُ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ الْأَوْسَطُ، وَأَنَا وَاللَّهِ، فَقَالَ الْأَكْبَرُ: وَأَنَا وَاللَّهِ، فَاتَّوَا بِرَصِيصًا، فَسَأَلُوهُ عَنْهَا، فَقَالَ: قَدْ أَعْلَمْتُمْ بِحَالِهَا، فَكَانَكُمْ أَنْتُمْ تَمُونِي، قَالُوا: لَا وَاللَّهِ، وَاسْتَحْيَا، وَانْصَرَفُوا، فَجَاءَهُمُ الشَّيْطَانُ فَقَالَ: وَيْحَكُمْ إِنَّهَا لَمَدْفُونَةٌ فِي مَوْضِعٍ كَذَا وَكَذَا، وَإِنْ إِزَارَهَا لَخَارَجَ مِنَ التُّرَابِ، فَانْطَلِقُوا، فَحَفَرُوا عَنْهَا، فَرَأَوْهَا، فَقَالُوا: يَا عَبْدُ اللَّهِ لَمْ تَقْتُلْتَهَا؟ اهْبِطْ، فَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، ثُمَّ أَوْثَقُوهُ، وَجَعَلُوا فِي عُنُقِهِ حَبْلًا، ثُمَّ قَادُوهُ إِلَى الْمَلِكِ فَأَقْرَأَ عَلَى نَفْسِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ الشَّيْطَانَ عَرَضَ لَهُ، فَقَالَ: تَقْتُلَهَا ثُمَّ تَكَابِرُ، فَاعْتَرَفَ، فَأَمَرَ الْمَلِكُ بِقَتْلِهِ وَصَلْبِهِ، فَعَرَضَ لَهُ الْأَبْيَضُ، فَقَالَ: أَنْتَ عَرَفْتَنِي؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أَنَا صَاحِبُكَ الَّذِي عَلَّمْتِكَ الدَّعَوَاتِ، وَيْحَكَ مَا اتَّقَيْتَ اللَّهَ فِي أَمَانَةِ خَنْتِ أَهْلِهَا، أَمَا اسْتَحْيَيْتَ مِنْ اللَّهِ؟! أَلَمْ يَكْفِكَ ذَلِكَ حَتَّى أَقْرَدْتَ فَفَضَّحْتَ نَفْسَكَ وَأَشْبَاهَكَ بَيْنَ النَّاسِ؟! فَإِنْ مِتُّ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ لَمْ تَفْلَحْ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ نَظَرَانِكَ، قَالَ: فَكَيْفَ أَصْنَعُ؟ قَالَ: تَطِيعَنِي فِي خَصْلَةٍ حَتَّى أَنْجِيكَ، وَأَخَذَ بِأَعْيُنِهِمْ، وَأَخْرَجَكَ مِنْ مَكَانِكَ، قَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَ: تَسْجُدُ لِي، فَسَجَدَ لَهُ،

فقال: هذا الذي أردت منك صارت عاقبة أمرك أن كفرت ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ ثم قتل^(١). فغضب الله هذا المثل لليهود حين غرَّهم المنافقون، ثم أسلموهم.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ ونصب ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو بـاء «إني» وأسكنها الباقون. وقد بيَّنا المعنى في [الأنعام: ٤٨] ﴿كَذَٰلِكَ عَفَيْتُمَا﴾ يعني: الشيطان وذلك الكافر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَاتَّقُوا نَفْسَ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ سَوَّا اللَّهُ فَأَنفُسَهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٨﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا نَفْسَ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي: لينظر أحدكم أي شيء قدَّم؟ أعمالاً صالحاً يُنجيه؟ أم سيئاً يُوقيه؟ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ سَوَّا اللَّهُ﴾ أي: تركوا أمره ﴿فَأَنفُسَهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: أنساهم حظوظ أنفسهم، فلم يعملوا بالطاعة، ولم يقدموا خيراً. قال ابن عباس: يريد قريظة، والنضير، وبني قينقاع.

﴿هُوَ أَنزَلَ هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَافِئًا مُّتَضَعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَذَٰلِكَ الْأَمْتَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْقِيَامُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٠﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْمَزِيدُ الْجَبَّارُ التَّكَوُّنُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنزَلَ هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ أخبر الله بهذا عن تعظيم شأن القرآن، وأنه لو جعل في جبل - على قساوته وصلابته - تمييزاً، كم جعل في بني آدم، ثم أنزل عليه القرآن لتشقُّق من خشية الله، وخوفاً أن لا يؤدي حق الله في تعظيم القرآن. و«الخاص»: المتطاطع الخاضع، و«المتصدع»: المتشقق. وهذا توبيخ لمن لا يحترم القرآن، ولا يؤثر في قلبه مع الفهم والعقل، ويذلل على هذا المثل قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ الْأَمْتَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ ثم أخبر بعظمته وربوبيته، فقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال الزجاج: قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ ردٌّ على قوله تعالى في أول السورة: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. فاما هذه الأسماء، فقد سبق ذكر «الله»، و«الرحمن»، و«الرحيم» في [الفاتحة] وذكرنا معنى «عالم الغيب والشهادة» في [الأنعام: ٧٣]. و«الملك» في سورة [المؤمنين: ١١٦]. فاما «القدوس» فقرأ أبو الأشهب، وأبو نهيك، ومعاذ القارئ بفتح القاف. قال أبو سليمان الخطابي:

(١) الخبر بطوله أخرجه ابن جرير الطبري ٥٠/٢٨ وغيره عن ابن عباس موقوفاً عليه وإسناده ضعيف جداً، وأخرجه الحاكم في «المستدرک» ٤٨٤/٢ عن علي بن أبي طالب: قال: كان راهب يتعبد في صومته وامرأة زينت له نفسها، فوقع عليها، فحملت، فجماع الشيطان فقال: اقتلها فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت، فقتلها فدفنها، فجاءوه فأخذوه فدفنوها به، فبينما هم يمشون، إذ جاءه الشيطان فقال: أنا الذي زينت لك، فاسجد لي سجدة أنجيك، فسجد له، فأنزل الله ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ الْفِتْنَةُ الَّتِي قَالَ الْإِنْسَانُ أَكْفَرُ مِمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ الآية. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأورده السيوطي في «الدرر» ١٩٩/٦ وزاد نسبته لعبد الرزاق وابن راهويه، وأحمد في «الزهد»، والبخاري في «تاريخه»، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن علي بن أبي طالب. وما رواه ابن أبي الدنيا وغيره عن عبيد بن رفاع الزرقني يبلغ به النبي ﷺ في قصة هذا الراهب، فلا يصح رفعها، بل الصحيح أنها موقوفة على علي بن أبي طالب، وغيره، ولعلها من الإسرائيليات، والله أعلم. وقد أورد هذه القصة ابن كثير في «تفسيره» من رواية ابن جرير الطبري عن ابن مسعود ثم قال: وكلنا روي عن ابن عباس وطاووس ومقاتل بن حيان نحو ذلك، قال: واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو «برصيصا» فانه أعلم.

وجاء في هامش نسخة الرباط بخط مغربي ما يلي:

له در الحافظ ابن الجوزي، إذ لم ينص على ضعف هذه القصة، إذ نسبها صاحب «الدرر المنثور» لعبد الرزاق، وابن راهويه، وأحمد في «الزهد» وعبيد بن حميد، والبخاري في «تاريخه»، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححها، وسلمه الذهبي في «التلخيص» وابن مردويه، والبيهقي عن علي موقوفاً. ثم أوردناه أيضاً من عند ابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفاً، ثم عن ابن مسعود كذلك، أخرجه ابن جرير، ثم عن ابن أبي الدنيا، وابن مردويه، والبيهقي عن عبد الله بن رفاع الزرقني مرفوعاً، لكن رفعها لا يصح، إنما الصحيح فيها الوقف على علي، خلافاً لقول ابن عطية لما علفها: منسوبة للقصاص ضعيفة. اهـ. فلان كاتبه محمد بن جبر إسلام. وقال الشوكاني في «فتح القدير»: والمراد بالإنسان هنا: «كَذَٰلِكَ الْفِتْنَةُ الَّتِي قَالَ الْإِنْسَانُ أَكْفَرُ مِمَّا كَفَرَ» - جنس من أطاع الشيطان من نوع الإنسان. وقيل: هو عابد كان في بني إسرائيل حمل الشيطان على الكفر فاطاعه، فلما كفر قال: إني بريء منك. وقيل: المراد بالإنسان هنا: أبو جهل، قال: والأول أولى. اهـ. يريد بذلك عموم جنس الإنسان. وقال الرازي في «تفسيره»: أي مثل المنافقين الذين غرَّوا بني النضير بقولهم: ﴿إِنِّي أَخْبَشْتُ لِغَيْرِكَ مِمَّا كَفَرَ﴾ «كَذَٰلِكَ الْفِتْنَةُ الَّتِي قَالَ الْإِنْسَانُ أَكْفَرُ مِمَّا كَفَرَ» ثم تبرأ منه في العاقبة. اهـ.

«القدوس»: الطاهر من العيوب، المنزه عن الأنداد والأولاد. و القدس: الطهارة. ومنه سمي: بيت المقدس، ومعناه: المكان الذي يُنظَّهُر فيه من الذنوب. وقيل للجنة: حظيرة القدس، لطهارتها من آفات الدنيا. والقدس: السطل الذي يتطهر فيه، ولم يأت من الأسماء على فُعُول بضم الفاء إلا «قُدُوس»، و «سُبُوح» وقد يقال أيضاً: قُدُوس، وسُبُوح بالفتح فيهما، وهو القياس في الأسماء، كقولهم: سَفُود، وكُلُوب. فأما «السلام» فقال ابن قتيبة: سمي نفسه سلاماً، لسلامته مما يلحق الخلق من العيب والنقص والفناء. وقال الخطابي: معناه: ذو السلام. والسلام في صفة الله سبحانه: هو الذي سَلِمَ من كل عيب، وبرئ من كل آفة ونقص يلحق المخلوقين. قال: وقد قيل: هو الذي سَلِمَ الخلق من ظلمه. فأما «المؤمن»، ففيه ستة أقوال: أحدها: أنه الذي آمَنَ الناسُ ظلمَهُ، وأَمِنَ مَنْ آمَنَ به عَذَابُهُ، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: أنه المجبر، قاله القرظي. والثالث: الذي يصدّق المؤمنون إذا وحّدوه، قاله ابن زيد. والرابع: أنه الذي وحّد نفسه، لقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] ذكره الزجاج. والخامس: أنه الذي يُصدّق عباده وعده، قاله ابن قتيبة. والسادس: أنه يصدّق ظنون عباده المؤمنين، ولا يُخيّب آمالهم، كقول النبي عليه الصلاة والسلام فيما يحكيه عن ربه ﷻ: «أنا عند ظن عبدي بي»^(١) حكاه الخطابي. فأما «المهيمن» ففيه أربعة أقوال: أحدها: أنه الشهيد، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والكسائي. قال الخطابي: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيَّ﴾ [المائدة: ٤٨]، فالله الشاهد على خلقه بما يكون منهم من قول أو فعل. والثاني: أنه الأمين، قاله الضحاك، قال الخطابي: وأصله: مؤيمن، فقلبت الهمزة هاء، لأن الهاء أخفُّ عليهم من الهمزة. ولم يأت مُفَيِّلٌ في غير التصغير، إلا في ثلاثة أحرف «مسيطر» و «مُبيطر» و «مهيمن». وقد ذكرنا في سورة [الطور: ٣٧] عن أبي عبيدة، أنها خمسة أحرف. والثالث: المصدّق فيما أخبر، قاله ابن زيد. والرابع: أنه الرقيب على الشيء، والحافظ له، قاله الخليل. قال الخطابي: وقال بعض أهل اللغة. الهيمنة: القيام على الشيء، والرعاية له، وأنشد:

أَلَا إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ نَبِيِّهِ مُهَيِّمُهُ التَّالِيهِ فِي الْعُرْفِ وَالنُّكْرِ

يريد القائم على الناس بعده بالرعاية لهم. وقد زدنا هذا شرحاً في [المائدة: ٤٨] وبيّنا معنى «العزیز» في [البقرة: ١٢٩]. فأما «الجبار»، ففيه أربعة أقوال: أحدها: أنه العظيم، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الذي يقهر الناس ويجبرهم على ما يريد، قاله القرظي والسدي. وقال قتادة: جبر خلقه على ما شاء. وحكى الخطابي: أنه الذي جبر الخلق على ما أراد من أمره ونهيه. يقال: جبره السلطان، وأجبره. والثالث: أنه الذي جبر مفاقر الخلق، وكفاهم أسباب المعاش والرزق. والرابع: أنه العالي فوق خلقه، من قولهم: تجبر النبات: إذا طال وعلا، ذكر القولين الخطابي. فأما «المتكبر» ففيه خمسة أقوال: أحدها: أنه الذي تكبر عن كل سوء، قاله قتادة. والثاني: أنه الذي تكبر عن ظلم عباده، قاله الزجاج. والثالث: أنه ذو الكبرياء، وهو الملك، قاله ابن الأنباري. والرابع: أنه المتعالي عن صفات الخلق. والخامس: أنه الذي يتكبر على عتاة خلقه إذا نازعوه العظمة، فقسمهم، ذكرهما الخطابي. قال: والتاء في «المتكبر» تاء التفرد، والتخصّص، لأن التعاطي والتكلف والكبر لا يليق بأحد من المخلوقين، وإنما سمة العبد الخضوع والتذلّل. وقيل: إن المتكبر من الكبرياء الذي هو عظمة الله، لا من الكبر الذي هو مذموم في الخلق^(٢). وأما «الخالق» فقال

(١) هذه قطعة من حديث قدسي رواه البخاري في «صحيحه» ٣٢٥/١٣، ومسلم ٢١٠٢/٤، ولفظه عند البخاري بتمامه: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: يقول الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا مع إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملا ذكرته في ملا غير منهم، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة». والحديث يرشد إلى تحسين الظن بالله ﷻ، ولكن حسن الظن إنما يكون لمن تاب وندم وأقلع ويدل السيئة بالحسنة، واستقبل بقية عمره بوسائل النجاة، فمن فعل ذلك، ثم أحسن الظن، فقد أحسن، وحله محله، وأما من أساء وأصر على الكبائر، فوحشة المعاصي لا يجامعها إحسان الظن بالله تعالى. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٤٢٧/١٣: قال صاحب «المشارك»: والمراد بما جاء في الحديث سرعة قبول توبة الله للعبد، أو تيسير طاعته وتقويته عليها، وتمام هدايته وتوقيفه، والله أعلم بمراده. اهـ.

(٢) روى مسلم في «صحيحه» ١٧٣/١٦ عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «المز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن يتنازعني حليته قال النووي: هكذا هو في جميع النسخ «المز إزاره والكبرياء رداؤه» فالضمير في «إزاره وردائه» يعود إلى الله تعالى، للملم به، وفيه محذوف =

الخطابي: هو المبتدئ للخلق المخترع لهم على غير مثال سبق، فأما في نعوت الأدميين، فمعنى الخلق: كقول زهير:
 وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَيَغْضُ الْقَوْمُ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي^(١)
 يقول: إذا قدرت شيئاً قطعته، وغيرك يقدر ما لا يقطعه، أي: يتمنى ما لا يبلغه. و«الْبَارِئُ» الخالق. يقال:
 بَرَأَ اللهُ الخلقَ يَبْرِؤُهُمْ. و«المصوِّر»: الذي أنشأ خلقه على صُورٍ مختلفة ليتعارفوا بها. ومعنى: التصوير: التخطيط
 والتشكيل. وقرأ الحسن، وأبو الجوزاء، وأبو عمران، وابن السميع «البارئ المصور» بفتح الواو والراء جميعاً، يعني:
 آدم ﷺ. وما بعد هذا قد تقدم بيانه [الأعراف: ١٨٠، والإسراء: ١١٠] إلى آخر السورة.



= تقديره، قال الله تعالى: ومن ينازعني ذلك أعليه، ومعنى ينازعني: يتخلق بذلك فيصير في معنى المشارك.

(١) «ديوانه»: ٩٤ «ومختار الشعر الجاهلي» ١/ ٢٦٥ و«الأضداد» لابن السكيت: ٢٠٥، و«شرح شواهد الشافية»: ٢٢٩، و«الكتاب» ٢/ ٢٨٩ و«الحيوان»: ٣/ ٣٨٣. والخالق هنا: الذي يقدر الجلد ويهيئه لأن يقطعه ويخرزه. والفري: القطع، يريد أنك إذا تهيأت لأمر مضيت له وأنفذته ولم تعجز عنه كما يعجز بعض القوم عن إتمامه.

سورة الممتحنة

وهي مدنية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَجِدُوا عَدُوَّيَّ وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ثَلُثْتُمْ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِ وَآيَاتِنَا مَرَضَانٍ يُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْ مَا يَكُنْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالْبُشَى وَوَدُّوا أَنْ تَكْفُرُوا ﴿٢﴾ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهِ يَمَا تَمَلُّونَ بَصِيرَةً ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَجِدُوا عَدُوَّيَّ وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ ذكر أهل التفسير أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صفية بن هاشم أنت رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، ورسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة، فقال لها: «أسلمة جئت؟» قالت: لا، قال: «فما جاء بك؟» قالت: أنتم الأهل والعشيرة والموالي، وقد احتجت حاجة شديدة، فقدمت إليكم لتعطوني. قال لها رسول الله ﷺ: «فأين أنت من شباب أهل مكة؟» وكانت مغنية، فقالت: ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر، فحث رسول الله ﷺ بني عبد المطلب، فكسوها، وحملوها، وأعطوها، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة، فكتب معها كتاباً إلى أهل مكة، وأعطاهما عشرة دنانير على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة، [وكتب في الكتاب: من حاطب إلى أهل مكة] إن رسول الله ﷺ يريدكم، فخذوا حذركم، فخرجت به سارة، ونزل جبريل فأخبر رسول الله ﷺ بما فعل حاطب، فبعث رسول الله ﷺ علياً، وعماراً، والزبير، وطلحة، والمقداد، وأبا مرثد، وقال: «انطلقوا حتى تأتوا «روضة خاخ»^(١)، فإن فيها ظعينة^(٢) معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها، وغلوا سبيلها، فإن لم تدفعه إليكم فاضربوا عنقه» فخرجوا حتى أدركوها، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، ففتشوا متاعها فلم يجدوا شيئاً، فهتموا بالرجوع، فقال علي: والله ما كذبتنا ولا كذبنا، وسل سيفه، وقال: أخرجني الكتاب، وإلا ضربت عنقك، فلما رأت الجذأ أخرجته من ذواتها^(٣)، فغلوا سبيلها، ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ فأرسل إلى حاطب، فأتاه، فقال له: «هل تعرف الكتاب؟» قال: نعم. قال: «فما حملك على ما صنعت؟» فقال: يا رسول الله والله ما كفر منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلّا ولّه بمكة من يمنع عشيرته، وكنت [غريباً] فيهم، وكان أهلي بين ظهرانيهم، فخشيت على أهلي، فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه، وكتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصداه رسول الله ﷺ وعذره، ونزلت هذه السورة تنهى حاطباً عما فعل، وتنهى المؤمنين أن يفعلوا كفعله، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر لعل الله أطلع على أهل بدر، فقالوا: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(٤). وقد أخرج هذا الحديث في «الصحيحين» مختصراً، وفيه ذكر علي، وابن الزبير، وأبي مرثد فقط^(٥).

(١) «روضة خاخ»: موضع بين مكة والمدينة، شرفهما الله تعالى، بقرب المدينة.

(٢) الظعينة هنا: الجارية، وهي في الأصل: الهودج، وسميت بها الجارية لأنها تكون فيه.

(٣) اللوابة: الناصية، أو منبتها من الرأس، وشعر في أعلى ناصية الفرس، والمراد هنا: الشعر المظفور من شعر الرأس.

(٤) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٣١٥ ولم ينسبه لأحد، بل قال: قال جماعة من المفسرين: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة... فذكره.

(٥) انظر «صحيح البخاري» ٤٠٠/٧ و ٤٨٦/٨، و«مسلم» ١٩٤١/٤، والحديث أورده السيوطي في «الدر» ٢٠٢/٦ من رواية «الصحيحين» وزاد نسبة لأحمد في «المسند»، والحميدي، وعبد بن حميد، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، وأبي عوانة، وابن حبان، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي

قوله تعالى: ﴿تَلْقَوْنَ إِيَّاهُمْ بِالْمُودَةِ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أن الباء زائدة، والمعنى: تلقون إليهم المودة، ومثله ﴿وَنَزَّلْنَا فِيهِ بِالْحَكَمِ يُقْلَبُ﴾ [الحج: ٢٥]، هذا قول الفراء، وأبي عبيدة، وابن قتيبة، والجمهور. والثاني: تلقون إليهم أخبار النبي ﷺ وبشره بالمودة التي بينكم وبينه، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا﴾ الواو للحال، وحالهم أنهم كفروا بما جاءكم من الحق، وهو القرآن ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُلَ وَإِيَّاكُمْ﴾ من مكة ﴿أَنْ تُوْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ﴾ هذا شرط، جوابه متقدم، وفي الكلام تقديم وتأخير. قال الزجاج: معنى الآية: إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء.

قوله تعالى: ﴿يُزَوِّنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾ الباء في «المودة» حكمها حكم الأولى. قال المفسرون: والمعنى: تُبَشِّرُونَهُم النصيحة ﴿وَأَنَا أَغْلَى بِمَا أَغْنَيْتُمْ﴾ من المودة للكفار ﴿رَبَّنَا أَغْنِنِي﴾ أي: أظهرتم بالاستتكم. وقال ابن قتيبة: المعنى: كيف تستسرون بمودتكم لهم مني وأنا أعلم بما تضرعون وما تظهرون؟

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقَعْ يَنْكَمْ﴾ يعني: الأسرار والإلقاء إليهم ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: أخطأ طريق الهدى. ثم أخبر بعداوة الكفار فقال تعالى: ﴿إِنْ يَنْقُضْكُمْ﴾ أي: يظفروا بكم ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ لا موالين ﴿وَيَسْطُرُوا إِلَيْكُمْ فِيهِمُ﴾ بالضرب والقتل ﴿وَالْيَتِيمَ الْيَأْسَرُ﴾ وهو: الشتم ﴿وَرَدُّوْا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ فترجعون إلى دينهم. والمعنى: أنه لا ينفعكم التقرب إليهم بنقل أخبار رسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُهُمْ﴾ أي: قراباتهم. والمعنى: ذوو أرحامكم، أراد: لن ينفعكم الذين عصيتهم الله لأجلهم، ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَقُولُ يَنْكَمْ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «يُفْضَلُ» برفع الياء، وتسكين الفاء، ونصب الصاد. وقرأ ابن عامر: «يُفْضَلُ يَنْكَمْ» برفع الياء، والتشديد، وفتح الصاد، وافقه حمزة، والكسائي، وخلف، إلا أنهم كسروا الصاد. وقرأ عاصم، غير المفضل، ويعقوب بفتح الياء وسكون الفاء وكسر الصاد، وتخفيفها. وقرأ أبي بن كعب، وابن عباس، وأبو العالية: «تُفْضَلُ» بنون مرفوعة، وفتح الفاء، مكسورة الصاد مشددة. وقرأ أبو رزين، وعكرمة، والضحاك: «تُفْضِلُ» بنون مفتوحة، ساكنة الفاء، مكسورة الصاد خفيفة، أي: تفصل بين المؤمن والكافر وإن كان ولده. قال القاضي أبو يعلى: في هذه القصة دلالة على أن الله تعالى فرض الهجرة، ولم يعذرهم في التخلف لأجل أموالهم وأولادهم. وإنما ظن حاطب أن ذلك يجوز له ليدفع به عن ولده، كما يجوز له أن يدفع عن نفسه بمثل ذلك عند التقية، وإنما [قال] (١) عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق لأنه ظن أنه فعل ذلك عن غير تأويل.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِنَّا قَوْلُ الْإِبْرَاهِيمَ لَا يَكُونُ لَكُمْ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَكُمْ وَمَا أَتَاكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ①﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ ②﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ③﴾ إِنَّ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ ④﴾ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ⑤﴾ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ⑥﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوا عَنْ دِينِكُمْ وَظَلَمُوا عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَكُمْ أَنْ تُتْلَوْهُمْ وَبَرِّئُوا مِنْهُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ⑦﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ وقرأ عاصم: «أسوة» بضم الألف، وهما لغتان، أي: اقتداء

حاتم، وابن مردويه، والبيهقي وأبي نعيم في «الدلائل» عن علي ؓ. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٨/ ٤٨٧ في شرح قوله ﷺ: «وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»: قال القرطبي: وقد ظهر لي أن هذا الخطاب خطاب إكرام وتشريف، فضمن أن هؤلاء، حصلت لهم حالة غفرت بها ذنوبهم السابقة، وتأملوا أن يغفر لهم ما يستأن من الذنوب اللاحقة، ولا يلزم من وجود الصلاحية للشيء وقوعه، وقد أظهر الله صلوقه في كل من أخبر عنه بشيء من ذلك، فإنهم لم يزالوا على أعمال أهل الجنة إلى أن فارقوا الدنيا، ولو قدر صدور شيء من أحدهم لبادر إلى التوبة ولازم الطريق المثلى، ويعلم ذلك من أحوالهم بالقطع من اطلع على سيرهم. اهـ.

(١) زيادة ليست في الأصل والسياق يقتضيها.

حَسَنَ بِهِ وَبِمَنْ مَعَهُ. وَفِيهِمْ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمُ الْأَنْبِيَاءُ. وَالثَّانِي: الْمُؤْمِنُونَ، ﴿إِذْ قَالُوا لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ قَالَ الْفَرَاء: يَقُولُ: أَفَلَا تَأْسَيْتَ يَا حَاطِبُ بِإِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ فَبَرَأْتَ مِنْ أَهْلِكَ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنْ قَوْمِهِمْ؟!

قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ قَالَ الْمَفْسُورُونَ: وَالْمَعْنَى: تَأَسَّوْا بِإِبْرَاهِيمَ إِلَّا فِي اسْتِغْفَارِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ فَلَا تَأَسَّوْا بِهِ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ كَانَ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴿وَمَا أَتَيْكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَي: مَا أَدْفَعَ عَنْكَ عَذَابَ اللَّهِ إِنْ أَشْرَكَتَ بِهِ، وَكَانَ مِنْ دَعَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِهِ: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قَالَ الْفَرَاء: قَوْلُوا أَنْتُمْ: رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا. وَقَدْ بَيَّنَّا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فِي (يُونُسَ: ٤٨٥). ثُمَّ أَعَادَ الْكَلَامَ فِي ذِكْرِ الْأَسْوَةِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ﴾ أَي: فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ مَعَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَبْغِضُونَ مَنْ خَالَفَ اللَّهَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ كَانَ يَزِيدُ اللَّهَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَكُمْ﴾ وَبَيَّانُ أَنَّ هَذِهِ الْأَسْوَةَ لِمَنْ يَخَافُ اللَّهَ، وَيَخْشَى عِقَابَ الْآخِرَةِ.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَزَلْ﴾ أَي: يَعْرِضُ عَنِ الْإِيمَانِ وَيُوَالِ الْكُفَّارَ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عَنْ خَلْقِهِ ﴿الْحَكِيمُ﴾ إِلَى أَوْلِيَائِهِ. فَلَمَّا أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِعِدَاوَةِ الْكُفَّارِ عَادُوا أَقْرَبَاءَهُمْ، فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَكُمْ مَخْرَجًا﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ: مِنْ كُفَارِ مَكَّةَ ﴿مَوْدَّةً﴾ ففعل ذلك، بَأَنَ أَسْلَمَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَوْمَ الْفَتْحِ، وَتَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُمَ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سَفْيَانَ، فَانْكَسَرَ أَبُو سَفْيَانَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ حَتَّى هَدَاهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ ﴿وَاللَّهُ قَبِيرٌ﴾ عَلَى جَعْلِ الْمَوْدَةِ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لَهُمْ ﴿رَحِيمٌ﴾ بِهِمْ بَعْدَمَا أَسْلَمُوا.

قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُبَيِّنْ لَكُمْ فِي الْآيَاتِ﴾ اخْتَلَفُوا فِيْمَنْ نَزَلَتْ عَلَى خَمْسَةِ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهَا فِي أَسْمَاءَ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، وَذَلِكَ أَنَّ أُمَهَا قَتِيلَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْعُزَّى، قَدِمَتْ عَلَيْهَا الْمَدِينَةُ بِهَدَايَا، فَلَمْ تَقْبَلْ هَدَايَاهَا، وَلَمْ تَدْخُلْهَا مَنْزِلَهَا، فَسَأَلَتْ لَهَا عَائِشَةُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَأَمَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تَدْخُلَ مَنْزِلَهَا، وَتَقْبَلَ هَدِيَّتَهَا، وَتُكْرِمَهَا، وَتُحَسِّنَ إِلَيْهَا، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ^(١). وَالثَّانِي: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي خِزَاعَةَ وَبَنِي مَدْلَجٍ، وَكَانُوا صَالِحُوا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَنْ لَا يَقَاتِلُوهُ، وَلَا يَعِينُوا عَلَيْهِ أَحَدًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي خِزَاعَةَ، وَبَنِي الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَكَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ، فَدَامُوا عَلَى الْوَفَاءِ بِهِ. وَالثَّلَاثُ: نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ مِنْهُمْ الْعَبَّاسُ، قَالَهُ عَطِيَّةُ الْعَوْفِي وَمَرَّةً. وَالرَّابِعُ: أَنَّهَا عَامَةٌ فِي جَمِيعِ الْكُفَّارِ، وَهِيَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التَّوْبَةُ: ٥]، قَالَهُ قَتَادَةُ. وَالْخَامِسُ: نَزَلَتْ فِي النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ، حَكَاهُ الزَّجَّاجُ. قَالَ الْمَفْسُورُونَ: وَهَذِهِ الْآيَةُ رَخِصَةٌ فِي صَلَةِ الَّذِينَ لَمْ يَنْصَبُوا الْحَرْبَ لِلْمُسْلِمِينَ، وَجَوَّازُ بَرِّهِمْ، وَإِنْ كَانَتْ الْمَوَالَاةُ مُنْقَطَعَةً مِنْهُمْ.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَخْرِجُكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أَي: مِنْ مَكَّةَ ﴿أَنْ تَبْرُؤَهُ وَتَقْطِعُوا إِلَيْهِمْ﴾ أَي: تَعَامَلُوهُمْ بِالْعَدْلِ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَمْنَا بِالْإِسْرَافِ﴾ أَي: عَاوَنُوا عَلَى ذَلِكَ ﴿أَنْ تَزُولُوا﴾ وَالْمَعْنَى: إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ عَنْ أَنْ تَزُولُوا هَؤُلَاءِ، لِأَنَّ مَكَاتِبَهُمْ بِإِظْهَارِ مَا أَسْرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوَالَاةً. وَذَكَرَ بَعْضُ الْمَفْسُورِينَ أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ وَالَّتِي قَبْلُهَا مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ السِّيفِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: لَا وَجْهَ لِادِّعَاءِ النَّسْخِ، لِأَنَّ بَرَّ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُحَارِبِينَ سَوَاءٌ كَانُوا قَرَابَةً أَوْ غَيْرَ قَرَابَةٍ، غَيْرَ مُحَرَّمٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ تَقْوِيَةٌ لَهُمْ عَلَى الْحَرْبِ بِكَرَاعٍ أَوْ سِلَاحٍ، أَوْ دَلَالَةٌ لَهُمْ عَلَى عَوْرَةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ. وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ أَسْمَاءَ وَأُمُّهَا الَّذِي سَبَقَ.

(١) رَوَاهُ الْوَاحِدِيُّ فِي «أَسْبَابِ النُّزُولِ» ٣١٧ مِنْ رَوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ عَنْ مَصْعَبِ بْنِ ثَابِتٍ عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ أَبِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ. وَمَصْعَبُ بْنُ ثَابِتٍ لَيْسَ الْحَدِيثُ كَمَا قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «التَّقْرِيبِ». وَرَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» ٤/٤ مِنْ رَوَايَةِ ابْنِ الْمُبَارَكِ، وَالطَّبْرِيِّ، وَالْحَاكِمِ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» ٤٨٥/٢ وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَاءُ وَلَمْ يَخْرُجْهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَالِدِ» ١٢٣/٧ مِنْ رَوَايَةِ أَحْمَدَ وَالطَّبْرَانِيِّ وَالْبَزَارِ، وَقَالَ: وَفِيهِ مَصْعَبُ بْنُ ثَابِتٍ، وَثِقَةُ ابْنِ حَبَانَ، وَضَعَفَهُ جَمَاعَةٌ، وَبَقِيَ رِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ، وَأَوْرَدَهُ السَّيوطِيُّ فِي «الدَّرَرِ» ٢٠٤/٦ وَزَادَ نِسْبَةَ لِلطَّلَاسِيِّ، وَأَبِي يَحْيَى، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالنَّحَّاسُ فِي «تَارِيخِهِ»، وَابْنُ مَرْدُوَيْهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ﷺ. وَرَوَى أَحْمَدُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ» وَابْنُ خَالَوَيْهِ وَمُسْلِمٌ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» يَنْبَغِي هَذَا السِّيَاقُ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ ﷺ قَالَتْ: قَدِمْتُ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدُوا، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصْلَحُهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ صَلِّي أُمَّكَ».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا يَحْمِلُونَهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآوَاهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُفَّارِ وَاسْتَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ بِهِ جُنَاحٌ اللَّهُ يَغْفِرُ لَكُمْ إِنَّكُمْ بِبَيْنَتِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَانَكَ عَنْهُ يَنْ أَرْسَلَكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَانْكُحُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاحُهُمْ يَتْلُ مَا أَنْفَقُوا وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ قال ابن عباس: إن مشركي مكة صالحوا رسول الله ﷺ عام الحديبية على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم. ومن أتى أهل مكة من أصحابه، فهو لهم، وكتبوا بذلك الكتاب، وختموه، فجاءت سُبَيْعَةُ بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب والنبي بالحديبية، فأقبل زوجها وكان كافراً، فقال: يا محمد: اردد علي امرأتي، فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا، وهذه طينة الكتاب لم تَجِفْ بعد، فنزلت هذه الآية (١). وذكر جماعة من العلماء منهم محمد بن سعد (٢) كاتب الواقدي (٣) أن هذه الآية نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وهي أول من هاجر من النساء إلى المدينة بعد هجرة رسول الله ﷺ، فَقَدِشَتْ المدينة في هدنة الحديبية، فخرج في أثرها أخواها الوليد وعُمارَةُ ابنا عقبة، فقالا: يا محمد، أوف لنا بشرطنا، وقالت أم كلثوم: يا رسول الله، أنا امرأة، وحال النساء إلى الضعف ما قد علمت، فتردني إلى الكفار يفتنونني عن ديني، ولا صبر لي؟! فنقض الله عز وجل العهد في النساء، وأنزل فيهن المحنة، وحكم فيهن بحكم رضوهن كلهن، ونزل في أم كلثوم ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ فامتحنها رسول الله ﷺ، وامتحن النساء بعدها، يقول: والله ما أخرجكن إلا حب الله ورسوله، وما خرجتن لزوج ولا مال؟ فإذا قلن ذلك تركن، فلم يردن إلى أهلهن (٤). وقد اختلف العلماء في المرأة التي كانت سبياً لنزول هذه الآية على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها سبيعة، وقد ذكرناه عن ابن عباس. والثاني: أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وقد ذكرناه عن جماعة من أهل العلم، وهو المشهور. والثالث: أُمَيَّة بنت بشر من بني عمرو بن عوف، ذكره أبو نعيم الأصبهاني. قال الماوردي: وقد اختلف أهل العلم هل دخل رد النساء في عقد الهدنة لفظاً أو عموماً؟ فقالت طائفة: قد كان شرط ردهن في لفظ الهدنة لفظاً صريحاً، فنسخ الله تعالى ردهن من العقد، ومنع منه، وأبى في الرجال على ما كان. وقالت طائفة: لم يشرط ردهن في العقد صريحاً، وإنما أطلق العقد، وكان ظاهر العموم اشتماله مع الرجال، فبين الله ﷻ خروجهن عن عمومهم، وفرق بينه وبين الرجال لأمرين: أحدهما: أنهن ذوات فروج تحرم عليهن. والثاني: أنهن أرق قلوباً، وأسرع تقلباً منهم. فاما المقيمة على شركها فمردودة عليهم. وقال القاضي أبو يعلى: وإنما لم ير النساء عليهم، لأن النسخ جائز بعد التمكن من الفعل، وإن لم يقع الفعل (٥). قال المفسرون: والمراد

(١) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الشكاف» ١٦٨: هكذا ذكره البغوي عن ابن عباس بغير سند.

(٢) هو محمد بن سعد بن منيع الزهري، مولاهم أبو عبد الله (١٦٨ - ٢٣٠هـ) صاحب «الطبقات الكبرى»: مؤرخ ثقة ومن حفاظ الحديث الثقات، ولد في البصرة، وسكن بغداد فتوفي فيها وصحب الواقدي المؤرخ زماناً، فكتب له وروى عنه، وعرف بـ «كاتب الواقدي» المؤرخ. قال الحافظ ابن حجر عنه في «التقريب»: صدوق فاضل.

(٣) هو محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله الواقدي (١٣٠ - ٢٠٧هـ) من أقدم المؤرخين في الإسلام ومن أشهرهم ومن حفاظ الحديث، ولد بالمدينة، ثم انتقل إلى العراق، وولي قضاء بغداد، واستمر فيها إلى أن توفي، وهو الذي ينسب إليه كتاب «فتح الشام» وأكثر مما لا تصح نسبة إليه، له مؤلفات كثيرة، ولكنه مع سعة علمه متروك، كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب»، وأشهر من روى عنه كاتبه محمد بن سعد الزهري، صاحب «الطبقات».

(٤) ذكره ابن سعد في «الطبقات» ٨/ ٢٣٠ بغير سند. وخرجه السيوطي في «الدر» ٦/ ٢٠٦ من رواية ابن سعد عن ابن شهاب بنحوه وهو مقطوع. وذكره بنحوه الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٢٢/ ٧ من رواية الطبراني عن عبد الله بن أبي أحمد، وقال: وفيه عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف، وأورد بنحوه الحافظ السيوطي في «الدر» ٦/ ٢٠٦ قال: أخرج الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن عبد الله بن أبي أحمد... فذكره.

(٥) قال القرطبي في «تفسيره» ١٨/ ٦٣: أكثر العلماء على أن هذا ناسخ لما كان عليه الصلاة والسلام عاهد عليه قريشاً، من أنه يرد إليهم من جاء منهم مسلماً، فنسخ من ذلك النساء، قال: وهذا مذهب من يرى نسخ الستة بالقرآن. وقال ابن كثير في «تفسيره» ٤/ ٣٥٠: تقدم في سورة (الفنح) ذكر صلح الحديبية الذي وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، فكان فيه: على أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا. وفي رواية: على أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، قال: وهذا قول عروة، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد، والزهري، ومقاتل بن حيان، والسدي، قال: فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصصة للستة، وهذا من أحسن أمثلة ذلك، قال: وعلى طريقة بعض السلف ناسخة، فإن الله ﷻ =

بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ رسول الله ﷺ، لأنه هو الذي تولّى امتحانهم، ويراد به سائر المؤمنين عند غيبته ﷺ. قال ابن زيد: وإنما أمرنا بامتحانهم، لأن المرأة كانت إذا غضبت على زوجها بمكة، قالت: لالحقن بمحمد. وفيما كان يمتحنهن به ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان يمتحنهن بـ «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله» رواه العوفي عن ابن عباس^(١). والثاني: أنه كان يستحلف المرأة بالله: ما خرجت من بغض زوج، ولا رغبة عن أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، وما خرجت إلا حباً لله ولرسوله، روي عن ابن عباس أيضاً^(٢). والثالث: أنه كان يمتحنهن بقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَّكَ﴾ فمن أقرت بهذا الشرط قالت: قد بايعتك، هذا قول عائشة^(٣).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَكْبَرُ يَسْتَبِينَ﴾ أي: إن هذا الامتحان لكم، والله أعلم بهن، ﴿وَإِنْ عَشِمُوهُنَّ مُمِيتُوا﴾ وذلك يعلم بإقرارهن، فحينئذ لا يحل ردهن ﴿إِلَى الْكُفَّارِ﴾ [لأن الله تعالى لم يبيح مؤمنة لمشرك ﴿وَأَوْثُومٌ﴾ يعني أزواجهن الكفار] ﴿مَّا أَنْفَقُوا﴾ يعني: المهر. قال مقاتل: هذا إذا تزوجها مسلم. فإن لم يتزوجها أحد، فليس لزوجها الكافر شيء ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ﴾ وهي المهور.

فصل

عندنا إذا هاجرت الحرة بعد دخول زوجها بها، وقعت الفرقة على انقضاء عدتها. فإن أسلم الزوج قبل انقضاء عدتها فهي امرأته، وهذا قول الأوزاعي، والليث، ومالك، والشافعي. وقال أبو حنيفة: تقع الفرقة باختلاف الدارين^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا بِصِمِّ الْكَافِرِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «تُمْسِكُوا» بضم التاء، والتخفيف. وقرأ أبو عمرو، ويعقوب: «تُمْسِكُوا» بضم التاء، وبالتشديد. وقرأ ابن عباس، وعكرمة، والحسن، وابن يعمر، وأبو حية: «تُمْسِكُوا» بفتح التاء، والميم، والسين مشددة. و «الكوافر» جمع كافرة، والمعنى: إن الله تعالى نهى المؤمنين عن المقام على نكاح الكوافر، وأمرهم بفراقهن. وقال الزجاج: المعنى: أنها إذا كفرت، فقد زالت العصمة بينها وبين المؤمن، أي: قد انبثَّ عقد النكاح. وأصل العصمة: الحبل، وكلُّ ما أمسك شيئاً فقد عصمه.

قوله تعالى: ﴿وَتَنَقُّوا مَّا أَنْفَقْتُمْ﴾ أي: إن لحقت امرأة منكم بأهل العهد من الكفار مرتدة، فاسألوهما ما أنفقتم من المهر إذا لم يدفعوها إليكم ﴿وَتَسْأَلُوا مَّا أَنْفَقُوا﴾ يعني: المشركين الذين لحقت أزواجهن بكم مؤمنات إذا تزوجن منكم، فليسأل أزواجهن الكفار من تزوجهن «ما أنفقوا» وهو المهر. والمعنى: عليكم أن تغرموا لهم الصداق كما يغرمون لكم. قال أهل السير: وكانت أم كلثوم حين هاجرت عاتقاً لم يكن لها زوج فبيعت إليه قدر مهرها، فلما هاجرت تزوجت زيد بن حارثة.

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ حُكْمُ اللَّهِ﴾ يعني ما ذكر في هذه الآية.

= أمر عباد المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن، فإن علموهن مؤمنات فلا يرجعوهن إلى الكفار، لا هن حل لهم، ولا هم يحلون لهن. اهـ.

(١) رواء الطبري ٦٨/٢٨ بإسناد مسلسل بالضعفاء عن ابن عباس.

(٢) رواء الطبري ٦٧/٢٨ من حديث قيس بن الربيع عن الأغر بن الصباح عن خليفة بن حصين، عن أبي نصر الأسدي قال: سئل ابن عباس... وقيس بن الربيع الأسدي قال الحافظ: صدوق تغير لما كبر، أدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به، وأبو نصر الأسدي وثقه أبو زرعة، وقال البخاري: لم يعرف سماعه من ابن عباس.

(٣) رواء الطبري ٦٨/٢٨ من رواية ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها، والترمذي ١٦٤/٢ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) قال القرطبي عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْكُفَّارَ لَا حَرْجٌ لَّكُمْ وَلَا تُمْ يَحِلُّ لَكُمْ﴾ هذا أول دليل على أن الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها إسلامها، لا هجرتها. وقال أبو حنيفة: الذي فرق بينهما هو اختلاف الدارين، قال: والصحيح الأول، لأن الله تعالى قال: ﴿لَا حَرْجٌ لَّكُمْ وَلَا تُمْ يَحِلُّ لَكُمْ﴾ فبين أن العلة عدم الحل بالإسلام، وليس باختلاف الدار. والله أعلم.

فصل

وذكر بعضهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسِيكِرُوا بَعْصَ الْكُفَّارِ﴾ أنه نسخ ذلك في حرائر أهل الكتاب بقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْإِيمَانِ أَوْثَرُ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: ٥]، وهذا تخصيص لا نسخ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ قال الزجاج: أي: أصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنتم. وقرأ ابن مسعود، والأزهري، والنخعي: «فَعَقَبْتُمْ» بغير ألف، وفتح العين والقاف، وتخفيفها. وقرأ ابن عباس، وعائشة، وحמיד، والأعمش مثل ذلك، إلا أن القاف مشددة. قال الزجاج: المعنى في التشديد والتخفيف واحد، فكانت العقوبة لكم بأن غلبتم. وقرأ أبي بن كعب، وعكرمة، ومجاهد: «فَاعَقَبْتُمْ» بهمزة ساكنة العين، مفتوحة القاف خفيفة. وقرأ معاذ القارئ، وأبو عمران الجوني: «فَعَقَبْتُمْ» بفتح العين، وكسر القاف وتخفيفها من غير ألف ﴿فَكَانُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاجُهُمْ يَتَلَمَّزُونَ﴾ أي: أعطوا الأزواج من رأس الغنيمة ما أنفقوا من المهر. وذكر بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت في عياض بن غنم^(١)، كانت زوجته مسلمة، وهي أم الحكم بنت أبي سفيان، فارتدت، فلهقت بمكة، فأمر الله المسلمين أن يعطوا زوجها من الغنيمة بقدر ما ساق إليها من المهر، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿بِرَّاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ١] إلى رأس الخمس.

فصل

قال القاضي أبو يعلى: وهذه الأحكام في أداء المهر، وأخذ من الكفار، وتعويض الزوج من الغنيمة، أو من صدق قد وجب رده على أهل الحرب، منسوخة عند جماعة من أهل العلم. وقد نص أحمد على هذا. قلت: وكذا قال مقاتل: كل هؤلاء الآيات نسختها آية السيف.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَتَرَفَّنَّ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْيِينَ بِنِهْنَيْنِ بَقَرَتَيْنِ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلَيْهِنَّ وَلَا يَمْسِيَنَّكَ فِي مَرْوَفٍ فَبَايَعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرَ لَكُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ﴾ قال المفسرون: لما فتح رسول الله ﷺ مكة جاءته النساء يبايعنه، فنزلت هذه الآية، وشرط في مبايعتهن الشرائط المذكورة في الآية، فبايعهن وهو على الصفاء، فلما قال: ولا يزنين، قالت هند^(٢): أو تزني الحرة؟ فقال: ولا يقتلن أولادهن، فقالت: ريبتناهم صغاراً فقتلتهم كباراً، فأنتم وهم أعلم^(٣). وقد صح في الحديث أن النبي ﷺ لم يصفح في البيعة امرأة، وإنما يبايعهن بالكلام^(٤). وقد سئمتنا من أحصينا من المبايعات

(١) هو عياض بن غنم بن زهير بن أبي شداد الفهري، شهد بدرأً وأحدأً والخندق والمشاهد، وكان يقال له: زاد الراكب، لأنه كان يطعم رفيقه ما كان عنده، وإذا كان مسافراً آثرهم بزاده، فإن نفذ نحر لهم جملة.

(٢) هي هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان.

(٣) ذكره بنحوه البغوي في «تفسيره» وكذلك الخازن، قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: لم أره بسياقه، لكن أخرجه الطبري بمعنى، وأخص منه من طريق العوفي عن ابن عباس، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق مقاتل بن حيان، وفيه قول هند: ريبتناهم صغاراً وقتلتهم كباراً، فضحك عمر بن الخطاب ﷺ حتى استلقى.

(٤) روى البخاري في «صحيحه» ٤٨٨/٨ عن عروة بن الزبير أن عائشة ﷺ زوج النبي ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ﴾ إلى قوله: ﴿عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال عروة: قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات: قال لها رسول الله ﷺ: «قد يابعتك كلاماً» والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعات، ما يبايعن إلا بقوله: «قد يابعتك على ذلك». والحديث أورده السيوطي في «الدرر» ٢٠٩/٦ وزاد نسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مردويه عن عائشة ﷺ.

وروى الإمام أحمد من حديث سفيان عن محمد بن المنكدر عن أمية بنت ربيعة قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسائي لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن: أن لا نشرك بالله شيئاً... الآية. وقال: «ليما استطعتم وأطقن» قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله، ألا تصافحنا؟ قال: «إني لا أصافح النساء، إنما قولتي لامرأة واحدة قولتي لمائة امرأة» قال ابن كثير: هذا إسناد صحيح، قال: وقد رواه الترمذي، والنسائي وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة، والنسائي أيضاً من حديث الثوري، ومالك بن أنس، كلهم عن محمد بن المنكدر به، وقال الترمذي: حسن صحيح، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن المنكدر، وقد رواه أحمد أيضاً من حديث محمد بن إسحاق عن محمد بن المنكدر عن أمية به، وزاد: «لم يصفح منا امرأة» قال: وكذا رواه ابن جرير من طريق موسى بن عقبة عن محمد بن المنكدر به.

والمبايعات عبارة عن المعاهدة، سميت بذلك تشبيهاً بالمعاوضة المالية.

في كتاب «التلقيح» على حروف المعجم، وهن أربعمائة وسبع وخمسون امرأة، والله الموفق.
 قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْنَلْنَ أَوْلَدَهُنَّ﴾ قال المفسرون: هو الوأد الذي كانت الجاهلية تفعله.
 قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ يَهُنَّتِي بِفَتْرَيْتِهِ بَيْنَ أَيْدِيَّ وَأَرْجُلَيْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم، قاله ابن عباس، والجمهور، وذلك أن المرأة كانت تلتقط المولود، فتقول لزوجها: هذا ولدي منك، فذلك البهتان المقتري. وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيَّ وَأَرْجُلَيْ﴾ لأن الولد إذا وضعت الأم سقط بين يديها ورجليها. وقيل: معنى ﴿بِفَتْرَيْتِهِ بَيْنَ أَيْدِيَّ﴾: يأخذنه لقيطاً ﴿وَأَرْجُلَيْ﴾ ما ولدته من زنى. والثاني: السحر. والثالث: المشي بالنميمة، والسعي في الفساد، ذكرهما الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْسِئَنَّكَ فِي مَرْوَفٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه النوح، قاله ابن عباس، وروي مرفوعاً عن النبي ﷺ^(١). والثاني: أنه لا يذعن ويأ، ولا يخذش وجهاً، ولا يشترن شعراً، ولا يشقق ثوباً، قاله زيد بن أسلم. والثالث: جميع ما يأمرهن به رسول الله ﷺ من شرائع الإسلام وأدابه، قاله أبو سليمان الدمشقي. وفي هذه الآية دليل على أن طاعة الولاة إنما تلزم في المباح دون المحظور.

قوله تعالى: ﴿فَبَايَعَهُنَّ﴾ المعنى: إذا بايعتك على هذه الشروط فبايعهن.
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِيسُ الْكُنَّازُ مِنْ أَحْصَابِ الْقُبُورِ ۗ﴾
 قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وهم اليهود، وذلك أن ناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين، يتقربون إليهم بذلك ليصيروا من ثمارهم وطعامهم، فنزلت هذه الآية^(٢).
 قوله تعالى: ﴿قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ وذلك أن اليهود بتكذيبهم محمداً، وهم يعرفون صدقه، قد يسؤوا من أن يكون لهم في الآخرة خير، والمعنى: قد يسؤوا من ثواب الآخرة، هذا قول الجمهور، وهو الصحيح. وقال قتادة: قد يسؤوا أن يبعثوا، ﴿كَمَا يَبِيسُ الْكُنَّازُ﴾ فيه قولان: أحدهما: كما يشس الكفار من بعث من في القبور، قاله ابن عباس. والثاني: كما يشس الكفار الذين ماتوا من ثواب الآخرة، لأنهم أيقنوا بالعذاب، قاله مجاهد.



قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٤٨٨/٨: قوله: «قد بايعتك كلاماً» أي يقول ذلك كلاماً فقط، لا مصافحة باليد، كما جرت العادة بمصافحة الرجال عند المبايعة.

وقال الشيخ محمد السفاريني الحنبلي في كتابه «شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد» طبع المكتب الإسلامي ٩٢٨/٢: وما جاء عن ابن خزيمة، وابن حبان، والبخاري، وابن مردويه، من طريق إسماعيل بن عبد الرحمن عن جدته أم عطية ؓ في قصة المبايعة، قالت: فمد يده من خارج البيت، ومدنا أيدينا من داخل البيت ثم قال: «اللهم اشهد» وكذا حديثها الذي في «البخاري» وغيره: فقبضت منا امرأة يدها، فإنه يشعر بأنهن كن يبايعنه بأيديهن، والتي قبضت يده هي أم عطية أبيهم نفسها. قال: وأجيب عن الأول بأن مد الأيدي من وراء الحجاب، إشارة إلى وقوع المبايعة وإن لم تقع مصافحة، وعن الثاني بأن المراد بقبض الأيدي: التأخر عن القبول. وأم عطية التي قبضت يدها وتأخرت عن المبايعة، رجعت بعد ذلك وبايعها رسول الله ﷺ. فهذه النصوص التي تقدمت تدل على أن المبايعة كانت كلاماً، ولم تكن مصافحة باليد، وأن الرسول ﷺ ما مست يده يد امرأة قط.

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» ٦٤٦/٢ من حديث أم عطية قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِيسُ الْكُنَّازُ مِنْ أَحْصَابِ الْقُبُورِ ۗ﴾... ولا يمسئتك في مَرْوَفٍ قالت: كان منه النجاسة... وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم من حديث أم سلمة الأنصارية قالت امرأة من هذه النسوة: ما هذا المعروف الذي لا ينبغي أن نعصيك فيه؟ فقال ﷺ: «لا تتعن...» الحديث.

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٣١٨ غير سند ولم يعزه لأحد، وكذلك البغوي والخازن في تفسيريهما، وقال الحافظ السيوطي في «الدرر» ٦/٢١١: أخرجه ابن إسحاق وابن المنذر، عن ابن عباس ؓ قال: كان عبد الله بن عمر، وزيد بن حارثة، يوافون رجالاً من يهود، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية.

سورة الصف

ويقال لها: سورة الحواريين

وفيها قولان: أحدهما: مدنية، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والجمهور. والثاني: مكية، قاله ابن يسار.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُبْتَغَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُتَيْنَ مَرْضُوسٍ﴾ ﴿١﴾

قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها: ما روى أبو سلمة عن عبد الله بن سلام، قال: قعدنا نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله ﷻ عملناه، فأنزل الله: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ إلى آخر السورة^(١). والثاني: أن الرجل كان يجيء إلى النبي ﷺ، فيقول: فعلت كذا وكذا، وما فعل، فنزلت: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ رواه عكرمة عن ابن عباس^(٢)، وكذلك قال الضحاك: كان الرجل يقول: قاتلت، ولم يقاتل، وطعنت، ولم يطعن، وصبرت، ولم يصبر، فنزلت هذه الآية. والثالث: أن ناسًا من المسلمين كانوا يقولون قبل أن يفرض الجهاد: لوددنا أن الله تعالى دلنا على أحب الأعمال إليه، فلما نزل الجهاد، كرهه ناس من المؤمنين، فنزلت هذه الآية، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس^(٣). والرابع: أن صهيبيًا قتل رجلًا يوم بدر، فجاء رجل فادعى أنه قتله وأخذ سلبه، فقال صهيبي: أنا قتلته يا رسول الله، فأمره أن يدفع سلبه إلى صهيبي، ونزلت هذه الآية، رواه سعيد بن المسيب عن صهيبي. والخامس: أن المنافقين كانوا يقولون للنبي وأصحابه: لو قد خرجتم خرجنا معكم، ونصرتناكم. فلما خرج النبي ﷺ نكصوا عنه، فنزلت هذه الآية، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال الزجاج: «مقتًا» منصوب على التمييز، والمعنى: كَبُرَ قولُكم ما لا تفعلون مقتًا عند الله^(٤). ثم أعلم ﷻ ما الذي يحبه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُبْتَغَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُتَيْنَ مَرْضُوسٍ﴾ أي: بئان لاصق بعضهم ببعض، فأعلم أنه يحب من ثبت في الجهاد، ويلزم مكانه كشبوت البنيان

(١) رواه الدارمي في «سننه» ٢/٢٠٠، والواحدي في «أسباب النزول»، ورواه بمعناه أحمد في «المسند» ٥/٤٥٢، والحاكم في «المستدرک» ٢/٤٨٦ مسلسلًا وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والترمذي ٢/١٦٤، وذكره السيوطي في «الدر» ٦/١١٢ وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وابن حبان، ثم قال: وأخرجه ابن المنذر مسلسلًا، والبيهقي في «الشعب» و«السنن» مسلسلًا، قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٨/٤١٩: وقد وقع لنا سماع هذه السورة مسلسلًا في حديث ذكر في أوله سبب نزولها وإسناده صحيح قل أن وقع في المسلسلات مثله مع مزيد علوه.

(٢) ذكره السيوطي بنحوه في «الدر» ٦/١١٢ من رواية ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس ﷺ.

(٣) رواه ابن جرير الطبري ٨٤/٢٨ من رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ، وابن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس، وذكره السيوطي في «الدر» ٦/١١٢ من رواية ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ﷺ. وهذا القول اختاره ابن جرير الطبري.

(٤) وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ فيه إنكار على من يعد وعدًا أو يقول قولًا لا يفهمه، ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقًا، سواء ترتب عليه عزم للموعد، أم لا، واحتجوا أيضًا بما ثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا أؤتمن خان» وفي الحديث الآخر في الصحيح: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه واحدة منها كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها...» فذكر منهم إخلاف الوعد، ولهذا أكد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. وذهب الإمام مالك رحمه الله تعالى إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعد، وجب الوفاء به، كما لو قال لغيره: تزوج ولك علي كل يوم كذا، فتزوج، وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك، لأنه تعلق به حق آدمي، وهو مبني على المضائق، وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقًا، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمتوا بفريضة الجهاد عليهم، فلما فرض نكل عنه بعضهم، وهكذا هذه الآية معناها، وهذا اختيار ابن جرير.

المرصوص. ويجوز أن يكون عنى أن يستوي ثباتهم في حرب عدوهم حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنين المرصوص. وللمفسرين في المراد بـ «المرصوص» قولان: أحدهما: أنه الملتصق ببعضه ببعض، فلا يرى فيه خلل لإحكامه، قاله الأكثرون. والثاني: أنه المنيئ بالرصاص، وإلى نحو هذا ذهب الفراء، وكان أبو بحرية يقول: كانوا يكرهون القتال على الخيل، ويستحبون القتال على الأرض لهذه الآية^(١). اسم أبي بحرية: عبد الله بن قيس التراغمي، يروي عن معاذ^(٢)، وكأنه أشار بذلك إلى أن الفرسان لا يصطفون في الغالب إنما يصفط الرجال^(٣).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوِّمُ لِمَ تَقُودُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُعْذِرًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الذَّنْبِ وَمِمَّا يَنْتَهِى إِلَيَّ مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُمْ أَحَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٢) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اتَّخَذَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ (٣) يُرِيدُونَ لِيُكْفِّرُوا نُوْرَ اللَّهِ بِأَقْوَامِهِمْ وَاللَّهُ مُنِمْ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٤) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٥)

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ المعنى: اذكر لمن يؤذيك من المنافقين ما صنعتُ بالذين آذوا موسى. وقد ذكرنا ما آذوا به موسى في [الاحزاب: ٦٩] (٤).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ أي: مالوا عن الحق: ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: أمالها عن الحق جزاء لما ارتكبهوا، وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى: ﴿يَأْتِي مِنْ بَعْدِي﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم «من بعدى اسمه» بفتح الياء. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم «من بعدى اسمه» بإسكان الياء^(٥) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اتَّخَذَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ وفيهم قولان: أحدهما: أنهم اليهود، قاله مقاتل. والثاني: النصاري حين قالوا: عيسى ابن الله، قاله أبو سليمان الدمشقي. وقرأ ابن مسعود، وعاصم الجحدري، وطلحة بن مصرف «يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ» بفتح الياء، والదال، وتشديدها، ويكسر العين، وما بعد هذا في [براء: ٣٢] إلى قوله تعالى: ﴿مُتِمُّ نُورِهِ﴾ قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم وخلف «مُتِمُّ نُورِهِ» مضاف. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم «مُتِمُّ» رفع منون.

﴿يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَوْلَئِكَ عَلَى عِزِّهِمْ شَيْخَرٌ مِنْ عَذَابِ آلِهِمْ﴾ (١) تَوَسَّلَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَاتِلُوكَ وَالْفَيْسُكُمْ ذَلِكُمْ عِزٌّ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ (٢) يَنْفِرُ لَكُمْ دُونُكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَيَسْكِنُونَ فِيهَا بَنَاتٌ ذَوَاتُ أَفْئِدَةٍ كَأَفْئِدَةِ ذَاكِ الْقَوْمِ الْعَظِيمِ (٣) وَلَتَرَى يُصِيبُهَا نَعْرٌ مِنَ اللَّهِ وَنَجْعٌ مِنْهُ وَنَبِيرٌ مُنِيرٌ (٤) يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا كُوفُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّا نَبَاةٌ مِنْ بَنَاتِ إِسْرَءِيلَ وَكَثُرَتْ عَالِمَةٌ فَأَلَدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَذَابِهِمْ فَأَصْبَحُوا نَاطِقِينَ (٥)

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَخْرَجٍ﴾ قال المفسرون: نزلت هذه الآية حين قالوا: لو علمنا أي الأعمال أحب إلى الله

(١) رواه الطبري في «تفسيره» ٨٦/٢٨ وفي سنده بقية بن الوليد، وهو صدوق كثير التدليس عن الضعفاء، وقد عنعن في هذا الخبر.

(٢) هو عبد الله بن قيس الكندي السكوني التراغمي أبو بحرية الحمصي، شهد خطبة عمر بالجابية، روى عن معاذ بن جبل وأبي عبيدة بن الجراح وأبي الدرداء وأبي هريرة ومالك بن يسار السكوني وحمزة بن ثعلبة، وعنه ابنه بحرية، ويزيد بن قطيب السكوني، وخالد بن معدان، ويزيد بن أبي زياد مولى ابن عباس، وأبو ظبية الكلاحي، وعبد الملك بن مروان، وأبو بكر بن عبيد الله بن أبي مريم، قال ابن عبد البر: تابعي ثقة، وذكر أبو الحسن بن سميع أنه أدرك الجاهلية. قال الحافظ في «التقريب»: حمصي مشهور مخضرم ثقة، مات سنة سبع وسبعين.

(٣) الرِّجَالَةُ، جمع راجل، وهو الذي يمشي على رجله، وله جموع كثيرة، قال في «القاموس»: وَرَجَلٌ - فَرَجٌ - فهو راجل، وَرَجُلٌ، وَرَجْلٌ، وَرَجْلٌ، وَرَجْلٌ، وَرَجْلَانٌ إذا لم يكن له ظهر يركبه، والجمع رِجَالٌ، وَرَجَالَةٌ، وَرَجَالٌ، وَرَجَالِي، وَرَجَالِي، وَرَجْلَانٌ، وَرَجْلَةٌ، وَرَجْلَةٌ، وَأَرَجَلَةٌ، وَأَرَجِلٌ، وَأَرَجِلٌ.

(٤) قال ابن كثير: وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر، قال: ولهذا قال: «رحمة الله على موسى، لقد أودى بأكثر من هذا فصير» قال: وفيه نهى للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ أو يصلوا إليه أدنى، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا كُوفُوا أَنْصَارًا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ قَبَلْتُمْ أَنْ قَالُوا كَانَ عِنْدَ اللَّهِ حَبِيبًا﴾.

(٥) قال ابن كثير: نفسي ﷺ هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملا بني إسرائيل مبشراً بمحمد وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة. وانظر (١١٦٦) من كتابنا هذا.

سورة الجمعة

وهي مدنية كلها بإجماعهم

وقد سبق شرح فاتحتها. وقرأ أبو الدرداء، وأبو عبد الرحمن السلمي، وعكرمة، والنخعي، والوليد عن يعقوب «الملك القدوس والعزیز الحكيم» بالرفع فيهن. فإن قيل: فما الفائدة في إعادته ذكر التسبيح في هذه السورة؟ فالجواب: أن ذلك لاستفتاح السور بتعظيم الله ﷻ، كما تفتح بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» وإذا جل المعنى في تعظيم الله، حسن الاستفتاح به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّاتِ الْثَلَاثِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَكَ الْقُدُّوسُ الَّذِي لَكَ الْحَكِيمُ ۝ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَیْسَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ۝ وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَئِنْ يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ يعني: العرب، وكانوا لا يكتبون وقد شرحنا هذا المعنى في [البقرة: ٧٨] ﴿رَسُولًا﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من جنسهم ونسبهم. فإن قيل: فما وجه الامتنان في أنه بعث نبياً أمياً؟^(١) فغنه ثلاثة أجوبة: أحدها: لموافقة ما تقدمت البشارة [به في كتب] الأنبياء. والثاني: لمشاكلته حاله لأحوالهم، فيكون أقرب لموافقتهم. والثالث: لثلاث يظن به أنه يعلم كتب من قبله. وما بعد هذا في سورة [البقرة: ١٢٩]. إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾، أي: وما كانوا قبل بعثته إلا في ﴿شَكَلٍ مُبِينٍ﴾، بين، وهو الشرك^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَآخِرِينَ مِنْهُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: وبعث محمداً في آخرين منهم، أي: من الأميين. والثاني: ويعلم آخرين منهم، ويزكّيهم. وفي المراد بالآخرين أربعة أقوال: أحدها: أنهم العجم، قاله ابن عمر، وسعيد بن جببر، وهي رواية ليث عن مجاهد^(٣). فعلى هذا إنما قال: «منهم»، لأنهم إذا أسلموا صاروا منهم، إذ المسلمون يد

(١) قال ابن كثير: وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر، كما قال تعالى في قوله: ﴿رَأَيْتُمْ لَيْكُرَ اللَّهِ وَلَقُرَيْشَ﴾ وهو ذكر لغيرهم يذكرون به، وكذا قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ الْآزْهَقَ﴾ وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جِيئَ﴾ وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ بِهِ زَمْرًا﴾ وقوله إخباراً عن القرآن: ﴿وَمَنْ يَكْثُرْ بِهِ مِنَ الْأَرْبَابِ فَأَلْهَاقًا تَوَعَّدُهُ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثه صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق أحمرهم وأسودهم.

(٢) وهذه الآية، هي مصداق إجابة الله لخليل إبراهيم حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فيبعث الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة على حين فترة من الرسل وطموس من السبل وقد اشتدت الحاجة إليه وقد مقت الله أهل الأرض عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، أي: نزرأ يسيراً ممن تمسك بما بعث الله به عيسى ابن مريم ﷺ. وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم الخليل ﷺ، فيبدلوه وغيروه، وقلبو، وغالفوه، واستبدلوا بالترديد شركاً، وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتاب قد بدّلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها، فيبعث الله محمداً ﷺ بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ﷻ، والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى، حاكم فاضل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع، وجمع الله تعالى - وله الحمد والمنة - جميع المحاسن ممن كان قبله، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين ولا يعطيه أحداً من الآخرين، فضلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

(٣) روى البخاري في «صحيحه» ٤٩٢/٨ عن أبي هريرة ﷺ قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ، فأنزلت عليه سورة (الجمعة) ﴿وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَئِنْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قال: قلت: من هم يا رسول الله، فلم يراجع حتى سألت ثلاثاً وفيها سلمان الفارسي، وضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لثله رجال - أو رجل - من هؤلاء».

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» تعليقاً على قوله: فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَئِنْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾: كأنه يريد أنزلت عليه هذه الآية من سورة (الجمعة) وإلا فقد نزل منها قبل إسلام أبي هريرة الأمر بالسعي، قال: ووقع في رواية الدراوردي عن ثور عند مسلم: نزلت عليه سورة (الجمعة) فلما قرأ ﴿وَآخِرِينَ مِنْهُمْ﴾.

واحدة، وملة واحدة. والثاني: أنهم التابعون، قاله عكرمة، ومقاتل. والثالث: جميع من دخل في الإسلام إلى يوم القيامة، قاله ابن زيد، وهي رواية ابن أبي نجيج عن مجاهد. والرابع: أنهم الأطفال، حكاه الماوردي^(١).

قوله تعالى: ﴿لَنَا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي: لم يلحقوا بهم.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ﴾ يعني: الإسلام والهدى ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْغَظِيرِ﴾ بإرسال محمد ﷺ.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا يَسْأَلُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ قل يأتينا الذين هادوا إن رجعتم أنكم أولياء لله من دون الناس ففتنوا الموت إن كنتم صديقين ﴿١﴾ ولا يمتنعون أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴿٢﴾ قل إن الموت الذي تفتنون بمتنه فإنه ملكيكم ثم تؤذون إن عليه الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴿٣﴾

ثم ضرب لليهود الذين تركوا العمل بالتوراة مثلاً، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُلُوا الثَّورَةَ﴾ أي: كلّفوا العمل بما فيها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي: لم يعملوا بموجبها، ولم يؤدوا حقها ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ وهي جمع سفر. والسفر: الكتاب، فشبههم بالحمار لا يعقل ما يحمل، إذ لم ينتفعوا بما في التوراة، وهي دالة على الإيمان بمحمد [وهذا المثل يلحق من لم يعمل بالقرآن ولم يفهم معانيه ﴿يَسْأَلُ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ ذم مثلهم، والمراد ذمهم، واليهود كذبوا بالقرآن وبالتوراة حين لم يؤمنوا بمحمد] ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بتكذيب الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿إِنْ رَجَعْتُمْ أَلَيْكُمُ أَوْلِيَاةُ لِلَّهِ﴾ وذلك أن اليهود، قالوا: نحن ولد إسرائيل الله، ابن ذبيح الله، ابن خليل الله، ونحن أولى بالله ﷻ من سائر الناس، وإنما تكون النبوة فينا. فقال الله ﷻ لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿قُلْ لَّهِ إِنْ كُنْتُمْ أَوْلِيَاةُ لِلَّهِ... فَتَنُوا الْمَوْتَ﴾ لأن الموت خير لأولياء الله من الدنيا. وقد بينا هذا وما بعده في [البقرة: ١٤٤] إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تُفْتَنُونَ بِهِ﴾ وذلك أن اليهود علموا أنهم أفسدوا على أنفسهم أمر الآخرة بتكذيبهم محمداً، وكانوا يكرهون الموت، فقيل لهم: لا بد من نزوله [بكم] بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ مُلَيْقِكُمْ﴾ قال الفراء: العرب تدخل الفاء في كل خير كان اسمه مما يوصل، مثل «من» و «الذي» فمن أدخل الفاء هاهنا ذهب «بالذي» إلى تأويل الجزاء. وفي قراءة عبد الله «إن الموت الذي تفتنون منه ملائكتكم» وهذا على القياس، لأنك تقول: إن أحاك قائم، ولا تقول: فقامم، ولو قلت: إن ضاربك فظالم، لجاز، لأن تأويله: إن من يضربك فظالم. وقال الزجاج: إنما جاز دخول الفاء، لأن في الكلام معنى الشرط والجزاء. ويجوز أن يكون تمام الكلام عند قوله تعالى «تفتنون منه» كأنه قيل: إن فرتم من أي موت كان من قتل أو غيره «فإنه ملائكتكم» وتكون «فإنه» استئنافاً بعد الخبر الأول.

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّعَ لِلصَّلَاةِ مِنْ بَوَّابِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٢﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذَا تَوَدَّعَ لِلصَّلَاةِ﴾ وهذا هو النداء الذي ينادى به إذا جلس الإمام على المنبر، ولم يكن في عهد رسول الله ﷺ نداء سواه، كان إذا جلس على المنبر أدن بلال على باب المسجد، وكذلك كان على عهد أبي بكر، وعمر، فلما كثرت الناس على عهد عثمان أمر بالتأذين على دار له بالسوق، يقال لها: «الزوراء»^(٢) وكان إذا

- قال ابن كثير: والحدث رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن جرير، من طرق عن ثور بن يزيد الديلمي عن سالم أبي الغيث عن أبي هريرة به، قال: ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية، وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس، لأنه فسر قوله تعالى: ﴿وَتَاخِرِينَ يَتَّبِعُهُمُ الْغَايَةُ﴾ وقال: وللهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم يدعوهم إلى الله ﷻ وإلى اتباع ما جاء به، ولهذا قال مجاهد وغيره في قوله تعالى: ﴿وَتَاخِرِينَ يَتَّبِعُهُمُ الْغَايَةُ﴾ قال: هم الأماجم وكل من صدق النبي ﷺ من غير العرب.

(١) ذكر ابن جرير الطبري أن أولى الأقوال بالصواب قول من قال: عنى بذلك كل لاحق لحق بالذين كانوا أصحابوا النبي ﷺ في إسلامهم من أي الأجناس، لأن الله ﷻ هم بقوله: ﴿وَتَاخِرِينَ يَتَّبِعُهُمُ الْغَايَةُ﴾ كل لاحق بهم من آخرين، ولم يخصص منهم نوعاً دون نوع، فكل لاحق بهم فهو من الآخرين الذين لم يكونوا في عداد الأولين الذين كان رسول الله ﷺ يتلو عليهم آيات الله.

(٢) روى البخاري في «صحيحه» ٣٢٦/٢ عن السائب بن يزيد ﷺ قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد النبي ﷺ -

جلس أذن أيضاً^(١).

قوله تعالى: ﴿الصَّلَاةُ﴾ أي: لوقت الصلاة. وفي «الجمعة» ثلاث لغات: ضم الجيم والميم، وهي قراءة الجمهور. وضم الجيم مع إسكان الميم، وبها قرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو رجاء، وعكرمة، والزهري، وابن أبي ليلى، وابن أبي عبلة، والأعمش. وبضم الجيم مع فتح الميم، وبها قرأ أبو مجلز، وأبو العالية، والنخعي، وعدي بن الفضل عن أبي عمرو. قال الزجاج: من قرأ بتسكين الميم، فهو تخفيف الجمعة لثقل الضميتين. وأما فتح الميم، فمعناها: الذي يجمع الناس، كما تقول: رجل لُغَنَ: يكثر لعنة الناس، وَضَحَكَ: يكثر الضحك. وفي تسمية هذا اليوم بيوم الجمعة ثلاثة أقوال: أحدها: لأن فيه جُمع آدم. روى سلمان قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أتدري ما الجمعة؟» قلت: لا. قال: «فيه جُمع أبوك» يعني: تمام خلقه في يوم^(٢). والثاني: لاجتماع الناس فيه للصلاة. والثالث: لاجتماع المخلوقات فيه، لأنه اليوم الذي منه فرغ من خلق الأشياء^(٣). وفي أول من سماها بالجمعة قولان: أحدهما: أنه كعب بن لؤي سماها بذلك، وكان يقال ليوم الجمعة: العروبة، قاله أبو سلمة. وقيل: إنما سماها بذلك لاجتماع قريش فيه. والثاني: أول من سماها بذلك الأنصار، قاله ابن سيرين^(٤).

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَوُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ وفي هذا السعي ثلاثة أقوال: أحدها: أنه المشي، قاله ابن عباس. وكان ابن مسعود يقرؤها «فامضوا» ويقول لو قرأتها «فاستووا» لسعيت حتى يسقط ردائي^(٥). وقال عطاء: هو الذهاب والمشي إلى الصلاة. والثاني: أن المراد بالسعي: العمل، قاله عكرمة، والقرطبي، والضحاك، فيكون المعنى: فاعملوا على

وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما كان عثمان رضي الله عنه وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء. وفي رواية أخرى للبخاري عن السائب بن يزيد زيادة «فتبت الأمر على ذلك». قال ياقوت في «معجم البلدان»: الزوراء: موضع عند سور المدينة قرب المسجد. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: قوله: «زاد النداء الثالث» في رواية وكيع عن ابن أبي ذئب «فأمر عثمان بالأذان الأول» ونحوه للشافعي من هذا الوجه. قال: ولا منافاة بينهما، لأنه باعتبار مزيداً يسمى ثالثاً، وباعتبار كونه جعل مقدماً على الأذان والإقامة يسمى أولاً، قال: وللفظ رواية عقيل: (يعني في البخاري) أن التأذين بالتاني أمر به عثمان، قال: وتسميته ثانياً أيضاً متوجه بالنظر إلى الأذان الحقيقي لا الإقامة. والمقصود من الأذان الثالث، الإقامة.

(١) أي إذا جلس على المنبر أذن الأذان الثاني.

(٢) هو جزء من حديث طويل رواه أحمد في «المسند» ٤٤٠/٥ وتتمته قال النبي ﷺ: «ألا أحدثك عن يوم الجمعة، لا يظهر رجل مسلم ثم يمضي إلى المسجد، ثم ينصت حتى يقضي الإمام صلاته إلا كان كفارة لما بيننا وبين الجمعة التي بعد ما اجتنبت المغنلة». وهو حديث حسن، قال الحافظ الهيثمي في «معجم الزوائد» ١٧٤/٢: رواه الطبراني في «الكبير» وإسناده حسن، قال: وروى النسائي بضعه، وأورده السيوطي في «الدرر» ٢١٦/٦ وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، وابن مردويه. وروى مسلم في «صحيحه» ٥٨٥/٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة». وروى مالك في «الموطأ» ١٠٨/١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أهب من الجنة، وفيه نيب عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهي مصيخة (مصينة لنفخة الساعة) يوم الجمعة، من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة، إلا الإنسان والجن، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه» وسنده صحيح، ورواه بنحوه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، قال الترمذي ٣٦٣/٢: هذا حديث صحيح. وروى أبو داود في «سننه» رقم (١٠٤٧) عن أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصمعة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي»، قالوا: يا رسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ يقولون: بليت، فقال: «إن الله ﷻ حرم على الأرض أن تاكل أجساد الأنبياء». وسنده صحيح. ورواه النسائي وابن ماجه وغيرهما.

(٣) قال ابن كثير: إنما سميت الجمعة جمعة، لأنها مشتقة من الجمع، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار، قال: وفيه كمل جميع الخلائق، فإنه اليوم السادس من الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض.

(٤) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٣٩٤/٢: روى عبد الرزاق بإسناد صحيح عن محمد بن سيرين قال: جمع أهل المدينة قبل أن يقدمها رسول الله ﷺ وقبل أن تنزل الجمعة، فقال الأنصار: إن لليهود يوماً يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى كذلك، فسلم فلنجعل يوماً نجتمع فيه فنذكر الله تعالى ونصلي ونشكر. فجمعوه يوم القروية.

(٥) رواء الطبري ١٠٠/٢٨ من رواية إبراهيم عن ابن مسعود، وفي سنده انقطاع. قال الحافظ الهيثمي في «المعجم» ١٢٤/٧: رواه الطبراني، وإبراهيم لم يدرك ابن مسعود، ورجاله ثقات، وأورده السيوطي في «الدرر» ٢١٩/٦ وزاد نسبه لعبد الرزاق، والقرطبي، وأبي عبيد، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن الأباري من طرق عن عبد الله بن مسعود. وصح عن عمر أنه قرأها كذلك. ونقل القرطبي عن ابن شهاب أنه قرأها كذلك، ثم قال: وهو كله تفسير منهم. وقال البخاري في «صحيحه» (باب فرض الجمعة) لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَعَلْنَا لَكُمْ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ مَقَامًا مَّشْرُوعًا﴾ قال: فاستووا. فامضوا. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: وهو تفسير منه للمراد بالسعي، بخلاف قوله في الحديث: «فلا تأتوها تسعون» فالمراد به: الجري، وقد جاء أن عمر قرأ «فامضوا» وهو يؤيد ذلك.

المضي إلى ذكر الله بالتفرض له، والاشتغال بالطهارة ونحوها. والثالث: أنه النية بالقلب، قاله الحسن. وقال ابن قتيبة: هو المبادرة بالنية والجد. وفي المراد «بذكر الله» قولان: أحدهما: أنه الصلاة، قاله الأكثرون. والثاني: موعظة الإمام، قاله سعيد بن المسيب.

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أي: دعوا التجارة في ذلك الوقت. وعندنا: أنه لا يجوز البيع في وقت النداء، ويقع البيع باطلاً في حق من يلزمه فرض الجمعة. وبه قال مالك^(١) خلافاً للأكثرين^(٢).

فصل

تجب الجمعة على من سمع النداء من المصر، إذا كان المؤذن صَيِّتاً، والريح ساكنة. وقد حذَّه مالك بفسخ، ولم يحذَّه الشافعي. وعن أحمد في التحديد نحوهما. وتجب الجمعة على أهل القرى^(٣). وقال أبو حنيفة: لا تجب إلا على أهل الأمصار. ويجوز لأهل المصر أن يقيموا الجمعة في الصحراء القريبة من المصر خلافاً للشافعي. ولا تنعقد الجمعة بأقل من أربعين. وعن أحمد: أقله خمسون. وعنه: أقله ثلاثة. وقال أبو حنيفة تنعقد بثلاثة والإمام، والعدد شرط في الجمعة^(٤) وقال أبو حنيفة في إحدى الروايتين: يصح أن يخطب منفرداً. وهل تجب الجمعة على العبيد؟ فيه عن أحمد روايتان. وعندنا: تجب على الأعمى إذا وجد قائداً، خلافاً لأبي حنيفة: ولا تنعقد الجمعة بالعبيد والمسافرين، خلافاً لأبي حنيفة. وهل تجب الجمعة والعيدان من غير إذن سلطان؟ فيه عن أحمد روايتان. وتجاوز الجمعة في موضعين في البلد مع الحاجة. وقال مالك، والشافعي، وأبو يوسف: لا تجوز إلا في موضع واحد. وتجاوز إقامة الجمعة قبل الزوال خلافاً لأكثرهم، وإذا وقع العيد يوم الجمعة أجزأ حضوره عن يوم الجمعة، وبه قال الشعبي، والنخعي، خلافاً للأكثرين. والمستحب لأهل الأعذار أن يصلوا الظهر في جماعة. وقال أبو حنيفة: يكره. ولا يجوز السفر يوم الجمعة بعد الزوال. وقال أبو حنيفة: يجوز. وهل يجوز السفر بعد طلوع الفجر؟ فيه عن أحمد روايتان. ونقل عن أحمد: أنه لا يجوز الخروج في الجمعة إلا للجهاد. وقال أبو حنيفة: يجوز لكل سفر. وقال الشافعي: لا يجوز أصلاً. والخطبة شرط في الجمعة. وقال داود: هي مستحبة. والطهارة لا تشترط في الخطبة، خلافاً للشافعي في أحد قوليه. والقيام ليس بشرط في الخطبة، خلافاً للشافعي. ولا تجب القعدة بين الخطبتين، خلافاً له أيضاً. ومن شرط الخطبة: التحميد، والصلاة على النبي ﷺ، وقراءة آية، والموعظة. وقال أبو حنيفة: يجوز أن يخطب بتسبيحة.

وقال ابن كثير: أي: أقصدوا واعدوا واهتموا في سيركم إليها، قال: وليس المراد بالسعي هاهنا: المشي السريع، وإنما هو الاهتمام بها، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ قال: وكان عمر بن الخطاب وابن مسعود، رضي الله عنهما، يقرأنها «فامضوا إلى ذكر الله» قال: فاما المشي السريع إلى الصلاة، فقد نهي عنه، لما أخرجه في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ، وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، وَلَا تَسْرَعُوا، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا».

(١) قال القرطبي في تفسير الآية: وملعب مالك أن يترك البيع إذا نودي للصلاة، ويفسخ عنده ما وقع من ذلك من البيع في ذلك الوقت، ولا يفسخ العتق والنكاح والطلاق وغيره، إذ ليس من عادة الناس الاشتغال به كاشتغالهم بالبيع، قالوا: وكذلك الشركة والهبة والصدقة نادر لا يفسخ. قال: قال ابن العربي: والصحيح فسخ الجميع، لأن البيع إنما منع منه للاشتغال به، فكل أمر يشغل عن الجمعة من العقود كلها، فهو حرام شرعاً منسوخ ودعاً.

(٢) كأبي حنيفة، والشافعي، وغيرهما، فإن البيع عندهم يتعقد مع الحرمة بعد النداء ولا يفسخ. قال ابن كثير: اتفق العلماء على تحريم البيع بعد النداء الثاني، واختلفوا: هل يصح إذا تعاطاه متعاط، أم لا؟ على قولين، قال: وظاهر الآية عدم الصحة كما هو مقرر في موضعه، والله أعلم.

(٣) قال الحافظ ابن حجر: من عمر أنه كتب إلى أهل البحرين أن جُئوا حيثما كنتم. قال: وهذا يشمل المدن والقرى، أخرجه ابن أبي شيبة عن طريق أبي رافع عن أبي هريرة عن عمر، وصححه ابن خزيمة، قال: وعند عبد الرزاق بإسناد صحيح عن ابن عمر أنه كان يرى أهل المياه بين مكة والمدينة يجتمعون فلا يعيب عليهم.

(٤) لا خلاف بين العلماء في أن الجماعة شرط من شروط صحة الجمعة، ولكن اختلفوا في العدد الذي تنعقد به الجمعة إلى عدة أقوال ذكرها الحافظ ابن حجر في «الفتح»، والراجح أنها تصح باثنين فأكثر، قال الشوكاني في «نيل الأوطار»: وقد انعدت سائر الصلوات بالاثنتين بالإجماع، والجمعة صلاة، فلا تختص بحكم يخالف غيرها إلا بديل، ولا دليل على اعتبار عدد فيها زائد على المعتبر في غيرها، وقد قال عبد الحق الإشبيلي: إنه لا يثبت في عدد الجمعة حديث، وكذلك قال السيوطي: لم يثبت في شيء من الأحاديث تبين عدد مخصوص، ومن ذهب إلى هذا: الطبري، وداود، والنخعي، وابن حزم.

والخطبتان واجبتان. وأما القراءة في الخطبة الثانية، فهي شرط، خلافاً للشافعي. والسنة للإمام إذا صعد المنبر، واستقبل الناس: أن يسلم، خلافاً لأبي حنيفة، ومالك. وهل يحرم الكلام في حال سماع الخطبة؟ فيه عن أحمد روايتان. ويحرم على المستمع دون الخاطب، خلافاً للأكثرين. ولا يكره الكلام قبل الابتداء بالخطبة، وبعد الفراغ منها، خلافاً لأبي حنيفة. ويستحب له أن يصلي تحية المسجد والإمام يخطب، خلافاً لأبي حنيفة، ومالك^(١). وهل يجوز أن يخطب واحد، ويصلي آخر، فيه عن أحمد روايتان.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ حَيْثُ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كان لكم علم بالأصلح ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ أي: فرغتم منها ﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا أمر بإباحة ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ إباحة لطلب الرزق بالتجارة بعد المنع منها بقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ وقال الحسن، وابن جبير: هو طلب العلم.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَزَكَّوْكَ قَالِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ الْبَيْعِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزِقِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً﴾ سبب نزولها أن رسول الله ﷺ كان يخطب يوم الجمعة، إذ أقبلت غير قد قَدِمَتْ، فخرجوا إليها حتى لم يبق معه إلا اثنا عشر رجلاً، فنزلت هذه الآية، أخرجه البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث جابر بن عبد الله^(٢)، قاله الحسن. وذلك أنهم أصابهم جوع، وغلاء سعر، فلما سمعوا بها خرجوا إليها، فقال النبي ﷺ: «لو اتبع آخرهم أولهم التهب عليهم الوادي ناراً»^(٣). قال المفسرون: كان الذي قدم بالتجارة دحية بن خليفة الكلبي، قال مقاتل: وذلك قبل أن يسلم. قالوا: قَدِمَ بها من الشام، وضرب لها طبل يُؤذن الناس بقدمها. وهذه كانت عادتهم إذا قدمت غير^(٤). قال جابر بن عبد الله: كانت التجارة طعاماً. وقال أبو مالك: كانت زيتاً. والمراد باللهو: ضرب الطبل. «وَنَفَضُوا» بمعنى: تفرقوا عنك، فذهبوا إليها. والضمير للتجارة. وإنما خصت برد الضمير إليها، لأنها كانت أهم إليهم، هذا قول الفراء، والمبرد. وقال الزجاج: المعنى: وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها، أو لهواً انفضوا إليه، فحذف خبر أحدهما، لأن الخبر الثاني يدل على الخبر المحذوف. وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عتبة «انفضوا إليهما» على التثنية. وعن ابن مسعود، وابن أبي عتبة «انفضوا إليه» على ضمير مذكر ﴿وَزَكَّوْكَ قَالِمًا﴾ وهذا القيام كان في الخطبة ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من ثواب الصلاة والثبات مع رسول الله ﷺ ﴿خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ الْبَيْعِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزِقِينَ﴾ لأنه يرزق من يؤمن به ويعبده، ومن يكفر به ويجحده، فهو يعطي من سأل، ويتبدئ من لا يسأل، وغيره إنما يرزق من يرجو منفعة، ويُقبل على خدمته^(٥).



(١) وذهب الشافعي إلى الاستحباب أيضاً. وحجتها في ذلك ما رواه البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن جابر ﷺ قال: دخل رجل يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب، فقال: «صليت؟ قال: لا، قال: «فصل ركعتين» والرجل هو: سليك الغطفاني ﷺ. وروى مسلم في «صحيحه» عن جابر ﷺ قال: جاء سليك الغطفاني يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب، فجلس، فقال له: «يا سليك قم فأرك ركعتين وتجاوز فيهما» ثم قال: «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليرك ركعتين وليتجاوز فيهما».

(٢) البخاري ٤٩٣/٨، ومسلم ٥٩٠/٢.

(٣) ذكره بنحوه البغوي والخازن عن الحسن بغير سند. وذكره السيوطي في «الدرر» ٢٢١/٤ من رواية عبد بن حميد عن الحسن مرسلًا بنحوه. قال ابن كثير: وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زكريا بن يحيى، حدثنا هشيم، عن حصين، عن سالم بن أبي الجعد وأبي سفيان، عن جابر بن عبد الله قال: بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فلنمت غير إلى المدينة، فابتدأ أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو تناهتكم حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادي ناراً» ونزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَزَكَّوْكَ قَالِمًا﴾.

(٤) ذكره السيوطي في «الدرر» ٢٢١/٦ من رواية البيهقي عن قتادة مرسلًا.

(٥) قال ابن جرير الطبري: «وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزِقِينَ» يقول: والله خير رازق، فإليه فارغبوا في طلب أرزاقكم، وإياه فاسألوا أن يوسع عليكم من فضله دون غيره.

سورة المنافقون

وهي مدنية بإجماعهم

وذكر أهل التفسير أنها نزلت في عبدالله بن أبي ونظرائه. وكان السبب أن عبد الله خرج مع النبي ﷺ في خَلْقٍ كثير من المنافقين إلى المُرَيْسِع، وهو ماء لبني المصطلق طلباً للغنيمة، لا للرغبة في الجهاد، لأن السفر قريب. فلما قضى رسول الله ﷺ غزوه، أقبل رجل من جهينة، يقال له: سنان، وهو حليف لعبد الله بن أبي، ورجل من بني غفار يقال له: جهجاه بن سعيد، وهو أجير لعمر بن الخطاب لاستقاء الماء، فدار بينهما كلام، فرفع الغفاري يده فطمم الجهني، فأدماه، فنادى الجهني: يا آل الخزرج، فأقبلوا، ونادى الغفاري: يا آل قريش، فأقبلوا، فأصلح الأمر قوم من المهاجرين. فبلغ الخبرُ عبد الله بن أبي، فقال وعنده جماعة من المنافقين: والله ما مثلكم ومثل هؤلاء الرهط من قريش إلا مثل ما قال الأول: سَمَنْ كَلْبِكَ يَا كُذَّاب، ولكن هذا فلعلمكم بأنفسكم، أو يتموهم في منازلكم، وأنفقتم عليهم أموالكم، فقوموا وَصَعْتُمْ. وإيم الله؛ لو أمسكتهم أيديكم لتفرقت عن هذا جموعه، ولئن رجعنا إلى المدينة لُيُخْرِجَنَّ الأعرُء منها الأذَل، وكان في القوم زيد بن أرقم، وهو غلام يومئذ لا يؤبهُ له، فقال عبد الله: أنت والله اللذليل القليل، فقال: إنما كنت ألعِب، فأقبل زيد بالخبر إلى رسول الله ﷺ، فقال: دعني أضرب عنقه. فقال: إذن ترعد له آنف كبيرة، قال: فإن كرهت أن يقتله رجل من المهاجرين، فمر سعد بن عباد، أو محمد بن مسلمة، أو عبَّاد بن بشر فليقتله، فقال: إذن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي، فأناه، فقال: أنت صاحب هذا الكلام؟ فقال: والذي أنزل عليك ما قلت شيئاً من هذا، وإن زيدا لكذَّاب، فقال من حضر: لا يصدق عليه كلام غلام، عسى أن يكون قد وهم، فعذره رسول الله ﷺ، وفشت الملامة من الأنصار لزيد، وكذبوه، وقال له عمه: ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ والمسلمون، ومقتوك! فاستحيا زيد، وجلس في بيته. فبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي ما كان من أمر أبيه، فأتى رسول الله ﷺ فقال: بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي، لما بلغك عنه. فإن كنت فاعلاً فمُرني، فأنأ أحمل إليك رأسه، فإني أخشى أن يقتله غيري، فلا تدعني نفسي حتى أقتل قاتله، فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «بل تحسن صحبته ما بقي معنا»، وأنزل الله سورة (المنافقين) في تصديق زيد، وتكذيب عبد الله، فأرسل رسول الله ﷺ فقرأها عليه، فقال: إن الله قد صدقك. ولما أراد عبد الله بن أبي أن يدخل المدينة جاء ابنه، فقال: ما وراءك، قال: مالك ويلك؟ قال: والله لا تدخلها أبداً إلا بإذن رسول الله ﷺ ليعلم اليوم مَنِ الأعرُء، وَمَنِ الأذَل، فشكا عبد الله إلى رسول الله ﷺ ما صنع، فأرسل إليه رسول الله ﷺ أن خلَّ عنه حتى يدخل، فلما نزلت السورة وبان كذبه قيل له: يا أبا حباب: إنه قد نزلت فيك آيات شداد، فاذهب إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لك، فلو به رأسه، فذلك قوله تعالى: ﴿أَوْرَا وَوَسْمُ﴾^(١) وقيل: الذي قال له هذا عبادة بن الصامت^(٢).

(١) رَوَاهُ الْوَاحِدِيُّ فِي «أَسْبَابِ النَّزُولِ» ٣٢١، ٣٢٢ بِنَحْوِهِ مُخْتَصَرًا. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «تَخْرِيجِ الْكُشَافِ»: حَدِيثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ لَقِيَ بَنِي الْمِصْلَقِ عَلَى الْمَرْيَسِ، وَهُوَ مَاءٌ لَهُمْ وَهَزَمَهُمْ، وَقَتْلَ مِنْهُمْ، أَزْدَحَمَ عَلَى الْمَاءِ جِهَاهُ بَنُ سَعِيدٍ - أَجِيرُ عُمَرَ - يَقُودُ فَرَسَهُ، وَسَنَانَ الْجُهَنِيَّ حَلِيفَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَاقْتَنَلَا... الْحَدِيثُ، وَفِيهِ قِصَّةُ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ فِي قَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي: لِيُخْرِجَنَّ الْأَعْرُءَ مِنْهَا الْأَذَلَّ، وَغَيْرَ ذَلِكَ إِلَى قَوْلِهِ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ وَكَذَّبَ الْمُنَافِقُ... هَكَذَا ذَكَرَهُ الْوَاقِدِيُّ فِي «الْمَغَازِي» بِغَيْرِ إِسْنَادٍ، وَغَزَاهُ إِلَى الثُّمَالِيِّ وَالْوَاحِدِيِّ وَأَصْحَابِ السَّيْرِ، قَالَ: وَأَخْرَجَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي «السِّيَرَةِ»: حَدِيثُ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ حَبَانَ، كُلُّ قَدْ حَدَّثَنِي بَعْضُ حَدِيثِ بَنِي الْمِصْلَقِ، فَذَكَرَ الْغَزْوَةَ بِطَوْلُهَا، وَالْقِصَّةَ الْمَذْكُورَةَ بِاخْتِلَافٍ بِسِيرٍ، وَكُنَّا أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ مِنْ طَرِيقِهِ، وَأَصْلُ الْقِصَّةِ فِي «الصَّحِيحِينَ» مِنْ طَرِيقِ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَمِّي فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي يَقُولُ... الْحَدِيثُ. وَأَوَّلُهُ عِنْدَهُمَا أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ عُمَرَ بْنِ دِينَارٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: كُنَّا فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمِصْلَقِ، فَتَبِعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ... قَالَ: رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَالْحَاكِمُ مِنْ طَرِيقِ أَبِي سَعْدٍ الْأَوْدِيِّ: حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ مَعَنَا أَنَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، فَكُنَّا نَبْتَدِرُ الْمَاءَ، وَكَانَ الْأَعْرَابُ يَسْبِقُونَا، سَبَقَ أَعْرَابِي فَمَلَأَ الْحَوْضَ فَذَكَرَ الْقِصَّةَ بِطَوْلُهَا، وَفِي سِيَاقِهَا اخْتِلَافٌ.

(٢) يعني قوله: يا أبا حباب إنه قد نزلت فيك آيات شداد فاذهب إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لك، والصحيح الأول.

يَتَّهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْمِرَّةُ وَرَسُولُهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ قد بيّنا سببه في نزول السورة ﴿لَوْزًا رُؤُسَهُمْ﴾ وقرأ نافع، والمفضل عن عاصم، ويعقوب: ﴿لَوْزًا﴾ بالتخفيف. واختار أبو عبيدة التشديد. وقال: لأنهم فعلوا ذلك مرّة بعد مرّة. قال مجاهد: لما قيل لعبد الله بن أبيّ: تعال يستغفر لك رسول الله لوى رأسه، قال: ماذا قلت؟ وقال مقاتل: عطفوا رؤوسهم رغبة عن الاستغفار. وقال الفراء: حركوها استهزاء بالنبي وبدعائه.

قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ أي: يعرضون عن الاستغفار. ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: متكبرون عن ذلك. ثم ذكر أن استغفاره لهم لا ينفعهم بقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ وقرأ أبو جعفر: ﴿أَسْتَغْفَرْتَ﴾ بالمد.

قوله تعالى: ﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُبْعَثُوا عَلَيَّ عَبْدُ رَسُولِ اللَّهِ﴾ قد بيّنا أنه قول ابن أبيّ. و ﴿يَسْتَفْشِرُونَ﴾ بمعنى: يترقبوا. ﴿وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال المفسرون: خزائن السموات: المطر، وخزائن الأرض: النبات. والمعنى: أنه هو الرزاق لهؤلاء المهاجرين، لا أولئك، ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَقْهَهُونَ﴾ أي: لا يعلمون أن الله رازقهم في حال إنفاق هؤلاء عليهم. ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا﴾ من هذه الغزوة. وقد تقدم ذكرها وهذا قول ابن أبيّ ﴿لِنُخْرِجَنَّ الْأَعَزَّ﴾ يعني: نفسه، وعن بـ ﴿الْأَذَلَّ﴾ رسول الله ﷺ. وقرأ الحسن: ﴿لِنُخْرِجَنَّ﴾ بالنون مضمومة وكسر الراء ﴿الْأَعَزَّ﴾ بنصب الزاي [والأذل منصوب] على الحال [بناء على جواز تعريف الحال، أو زيادة (ال) فيه، أو بتقدير (مثل)]. المعنى: لنخرجنه ذليلاً على أي حال ذل. والكل نصبوا ﴿الْأَذَلَّ﴾ فرد الله ﷻ عليه فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْمِرَّةُ﴾ وهي: المنعة والقوة ﴿وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بإعزاز الله ونصره إياهم ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ يَقُولَ رَبِّ لَوْلَا الَّذِي نَزَّلْتَنِي إِلَهُ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَلَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ﴾ أي: لا تشغلكم. وفي المراد بذكر الله هاهنا أربعة أقوال: أحدها: طاعة الله في الجهاد، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: الصلاة المكتوبة، قاله عطاء، ومقاتل. والثالث: الفرائض من الصلاة، وغيرها، قاله الضحاك. والرابع: أنه على إطلاقه. قال الزجاج: حضّم بهذا على إدامة الذكر.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ في هذه النفقة ثلاثة أقوال: أحدها: أنه زكاة الأموال، قاله ابن عباس. والثاني: أنه النفقة في الحقوق الواجبة بالمال، كالزكاة والحج، ونحو ذلك، وهذا المعنى مروى عن الضحاك. والثالث: أنه صدقة التطوع، ذكره الماوردي. فعلى هذا يكون الأمر ندباً، وعلى ما قبله يكون أمر وجوب.

قوله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ قال الزجاج: أي: من قبل أن يعاين ما يعلم منه أنه ميت.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا الَّذِي نَزَّلْتَنِي إِلَهُ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ يعني بذلك الاستزادة في أجله ليتصدق ويذكرني، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَقَ﴾ قال أبو عبيدة: «فأصدق» نصب، لأن كل جواب بالفاء للاستفهام منصوب. تقول: مَنْ عِنْدَكَ فَأَتَيْكَ. هَلَّا فَعَلْتَ كَذَا فَأَفْعَلَ كَذَا، ثم تبعها ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بغير واو. وقال أبو عمرو: إنما هي، وأكون، فذهبت الواو من الخط. كما يكتب أبو جاد أبجد هجاء، وهكذا يقرؤها أبو عمرو «وأكون» بالواو، ونصب النون. والباقون يقرؤون «وأكن» بغير واو. قال الزجاج: من قرأ «وأكون» فهو على لفظ فأصدق. ومن جزم «أكن» فهو على موضع «فأصدق» لأن المعنى: إن أخبرتني أصدق وأكن. وروى أبو صالح عن ابن عباس «فأصدق» أي: أركني مالي «وأكن» من الصالحين، أي: أخرج مع المؤمنين، وقال في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ والمعنى: بما تعملون من التكذيب بالصدقة. قال مقاتل: يعني المنافقين. وروى الضحاك عن ابن عباس: ما من أحد يموت، وقد كان له مال لم يتركه، وأطاق الحج فلم يحج، إلا سأل الله الرجعة عند الموت، فقالوا له: إنما يسأل الرجعة الكفار، فقال: أنا أتلو عليكم به قرآنا، ثم قرأ هذه الآية (١).

(١) في سنده انقطاع كما قال ابن كثير، والله أعلم.

سورة التغابن

وفيها قولان: أحدهما: أنها مدنية، قاله الجمهور، منهم ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقناة.
والثاني: أنها مكية، قاله الضحاك. وقال عطاء بن يسار: هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة قوله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِهِمْ﴾ واللذان بعدها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ يَلْقَىٰ وُجُوهَكُمْ فَاسْخَرُوكُمْ صُورَكُمْ ﴿٣﴾ وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُظْهِرُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَذَفْنَا وَكَالَ أَمْرِهِمْ وَلَمْ نَعْلَمْ أَلَيْمٌ ﴿٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكُفِّرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَفْتَى اللَّهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧﴾﴾

وقد سبق تفسير فاتحتها إلى قوله تعالى: ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أن الله خلق بني آدم مؤمناً وكافراً، رواه الوابي عن ابن عباس. والأحاديث تعضد هذا القول، كقوله عليه الصلاة والسلام: «خلق فرعون في بطن أمه كافراً، وخلق يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً»^(١)، وقوله: «فيؤمر الملك بأربع كلمات: بكتب رزقي، وأجله، وعملي، وشقي أم سعيد»^(٢). والثاني: أن تمام الكلام عند قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ ثم وصفهم، فقال تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾، واختلف أرباب هذا القول فيه على أربعة أقوال: أحدها: فمنكم كافر يؤمن، ومنكم مؤمن يكفر، قاله أبو الجوزاء عن ابن عباس. والثاني: فمنكم كافر في حياته مؤمن في العاقبة، ومنكم مؤمن في حياته كافر في العاقبة، قاله أبو سعيد الخدري. والثالث: فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب، ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب، قاله عطاء بن أبي رباح، وعنى بذلك شأن الأنواء. والرابع: فمنكم كافر بالله خلقه، ومؤمن بالله خلقه، حكاه الزجاج^(٣). والكفر بالخلق مذهب الدهرية، وأهل الطباع. وما بعد هذا قد سبق إلى قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ قال الزجاج: أي: خلقكم أحسن الحيوان كله. وقرأ الأعمش «صورك» بكسر الصاد. ويقال في جمع صورة: صُور، وصور، كما يقال في جمع لحية: لِحَى، وَلُحَى. وذكر ابن السائب أن معنى ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أحكمها. وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ﴾ روى المفضل عن عاصم «يسرون» و«يعلمون» بالياء فيهما: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ هذا خطاب لأهل مكة خوفهم ما نزل بالكفار قبلهم، فذلك قوله تعالى: ﴿قَذَفْنَا وَكَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: جزاء أعمالهم، وهو ما أصابهم من العذاب في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة ﴿ذَلِكَ﴾ الذي أصابهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فينكرون ذلك، ويقولون: ﴿أَبَشَرٌ﴾ أي: فاس مثلنا ﴿يَهْدُونَا﴾؟! والبشر اسم جنس معناه الجمع، وإن كان

(١) ذكر هذا الحديث السيوطي في «الجامع الصغير» من رواية ابن عدي، والطبراني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ: «خلق الله يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً، وخلق فرعون في بطن أمه كافراً» قال الحافظ المناوي في «فيض القدير»: وكذا رواه الديلمي عن ابن مسعود، وفي سننه محمد بن سليم العبدي الراسبي، قال النسائي: ليس بالقوي في الحديث، وقال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: صدوق فيه لين.

(٢) هو قطعة من حديث طويل رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدمكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، فوالله الذي لا إله غيره إن أحدمكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها». وإن أحدمكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها.

(٣) جاء في «القرطبي» ١٣٣/١٨: وقال الزجاج - وهو أحسن الأقوال، والذي عليه الأمة والجمهور من الأمة -: إن الله خلق الكافر، وكفره فنزل له وكسب، مع أن الله خلق الكفر، وخلق المؤمن، لإيمانه فعلم له وكسب، مع أن الله خلق الإيمان.

سورة الطلاق

وتسمى سورة النساء القُصْرَى^(١)، وهي مدنية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِيَدْنِهِنَّ وَاحِصًا إِلَيْدَهُنَّ وَأَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ لَا تَجْرِمُوهُنَّ مِنْ بَيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَتْحٍ شَهِيدٍ مُبَيَّنٍّ وَتَلَكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ قال الزجاج: هذا خطاب للنبي ﷺ، والمؤمنون داخلون معه فيه. ومعناه: إذا أردتم طلاق النساء، كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُتِلَ إِلَى الْكَبَاكِبِ﴾ [المائدة: ٦٦]. وفي سبب نزول هذه الآية قولان: أحدهما: أنها نزلت حين طلق رسول الله ﷺ حفصة، وقيل له: راجعها، فإنها صَوَامَةٌ قَوَّامَةٌ، وهي من إحدى زوجاتك في الجنة، قاله أنس بن مالك. والثاني: أنها نزلت في عبد الله بن عمر، وذلك أنه طلق امرأته حائضاً فأمره النبي ﷺ أن يراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، قاله السدي^(٢).

قوله تعالى: ﴿لِيَدْنِهِنَّ﴾ أي: لزمان عدتهن، وهو الطهر. وهذا للمدخل بها، لأن غير المدخول بها لا عدّة عليها. والطلاق على ضربين: سُتِّي، ويدعي. فالسُتِّي: أن يطلقها في طهر لم يراجعها فيه، وذلك هو الطلاق لِلْعِدَّةِ، لأنها تمتدّ بذلك الطهر من عدّة، وتقع في العدة عقيب الطلاق، فلا يطول عليها زمان العدة. والطلاق البدعي: أن يقع في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه، فهو واقع، وصاحبه آثم. وإن جمع الطلاق الثلاث في طهر واحد، فالمنصور من مذهبنا أنه بدعة.

قوله تعالى: ﴿وَاحِصًا إِلَيْدَهُنَّ﴾ أي: زمان العدة. وفي إحصائها فوائد. منها: مراعاة زمان الرجعة، وأوان النفقة، والسكنى، وتوزيع الطلاق على الإقرار إذا أراد أن يطلق ثلاثاً، وَلِيَعْلَمَ أَنَّهَا قَدْ بَانَتْ، فيتزوج بأختها، وأربع سواها. قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: فلا تعصوه فيما أمركم به. ﴿لَا تَجْرِمُوهُنَّ مِنْ بَيُوتِهِنَّ﴾ فيه دليل على وجوب السكنى. ونسب البيوت إليهن، لسكناهن قبل الطلاق فيهن، ولا يجوز لها أن تخرج في عدتها إلا لضرورة ظاهرة. فإن خرجت أئمت، ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَتْحٍ مُبَيَّنٍّ﴾ وفيها أربعة أقوال: أحدها: المعنى: إلا أن يخرجن قبل انقضاء المدة، فخرجهن هو الفاحشة المبيّنة، وهذا قول عبد الله بن عمر، والسدي، وابن السائب. والثاني: أن الفاحشة: الزنى، رواه مجاهد عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والشعبي، وعكرمة، والضحاك. فعلى هذا يكون المعنى: إلا أن يزني فَيُخْرِجْنَ لإقامة الحدّ عليهن. والثالث: الفاحشة: أن تبدؤ على أهلها، فيحلّ لهم إخراجها، رواه محمد بن إبراهيم عن ابن عباس. والرابع: أنها إصابة حدّ، فتخرج لإقامة الحدّ عليها، قاله سعيد بن المسيب^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَتَلَكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ يعني: ما ذكر من الأحكام ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ التي بينها، وأمر بها ﴿فَقَدْ ظَلَمَ

(١) سماها بذلك عبد الله بن مسعود ﷺ كما في «صحيح البخاري» ٥٠٢/٨.

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٣٢٣ عن السدي بغير سند. وأخرج البخاري ومسلم من حديث سالم أن عبد الله بن عمر أخبره أنه طلق امرأة له وهي حائض، فذكر عمر لرسول الله ﷺ، فتعيط رسول الله ﷺ، ثم قال: «ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسه»، فتلك العدة التي أمر بها الله ﷻ، ولفظ مسلم: «فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء» وفي رواية لمسلم قال ابن عمر: وقرأ النبي ﷺ: «يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن».

(٣) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَتْحٍ مُبَيَّنٍّ﴾ أي: لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبيّنة فتخرج من المنزل، قال: الفاحشة المبيّنة، تشمل الزنى كما قاله ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، والشعبي، والحسن، وابن سيرين، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو قلابة، وأبو صالح، والضحاك، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، والسدي، وسعيد بن أبي هلال، وغيرهم. قال: وتشمل ما إذا نشزت المرأة، أو بلّذت على أهل الرجل، وأذنتهم في الكلام والفعال، كما قاله أبي بن كعب، وابن عباس، وعكرمة وغيرهم.

نَفْسُهُ أَي: أثم فيما بينه وبين الله تعالى ﴿لَا تَدْرِي لِمَ لَكَ اللَّهُ يَحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ أَي: يُوقِع في قلب الزوج المحبة لرجعتها بعد الطَّلَاق والطلاقين. وهذا يدل على أن المستحب في الطلاق تفرقه، وأن لا يجمع الثلاث.

﴿إِذَا بَلَغَ الْإِنْسَانُ نِكَاحًا فَلَيْسَ كَلِمَةٌ مِنْهُ بِعَدْوٍ إِلَّا قَدْ أَخْلَعَهُ اللَّهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالْإِنْسَانُ عَلَيْهِ يَفْضُلُ مِنْ نَفْسِهِ﴾

كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا بَلَغَ الْإِنْسَانُ نِكَاحًا﴾ أَي: قارب انقضاء العدة ﴿فَلَيْسَ كَلِمَةٌ مِنْهُ بِعَدْوٍ﴾ وهذا مبين في [البقرة: ٢٣١] ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ قال المفسرون: أشهدوا على الطلاق، أو المراجعة. واختلف العلماء: هل الإشهاد على المراجعة واجب، أم مستحب؟ وفيه عن أحمد روايتان، وعن الشافعي قولان^(١) ثم قال للشهداء: ﴿وَأَقِيمُوا أَشْهَادَكُمْ لِلَّهِ﴾ أَي: أشهدوا بالحق، وأدوها على الصحة، طلباً لمرضاة الله، وقياماً بوصيته. وما بعده قد سبق بيانه [البقرة: ٢٣٢] إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ فذكر أكثر المفسرين أنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، أسر العدو ابناً له، فذكر ذلك للنبي ﷺ، وشكا إليه الفاقة، فقال: اتق الله، واصبر، وأكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، ففعل الرجل ذلك، فغفل العدو عن ابنه، فساق غنمهم، وجاء بها إلى أبيه، وهي أربعة آلاف شاة، فنزلت هذه الآية^(٢). وفي معناها للمفسرين خمسة أقوال: أحدها: ومن يتق الله يُنْجِه من كل كرب في الدنيا والآخرة، قاله ابن عباس. والثاني: بأن مَخْرَجَه: علمه بأن ما أصابه من عطاء أو منْع، من قِبَل الله، وهو معنى قول ابن مسعود. والثالث: ومن يتق الله، فيطلق للسُّنَّة، ويراجع للسُّنَّة، يَجْعَلْ له مخرجاً، قاله السدي. والرابع: ومن يتق الله بالصبر عند المصيبة، يجعل له مخرجاً من النار إلى الجنة، قاله ابن السائب. والخامس: يجعل له مخرجاً من الحرام إلى الحلال، قاله الزجاج. والصحيح أن هذا عام، فإن الله تعالى يجعل للثقي مخرجاً من كل ما يضييق عليه. ومن لا يتقي، يقع في كل شدة. قال الربيع بن خثيم: يجعل له مخرجاً من كل ما يضييق على الناس ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أَي: من حيث لا يأمل، ولا يرجو. قال الزجاج: ويجوز أن يكون: إذا اتقى الله في طلاقه، وجرى في ذلك على السُّنَّة، رزقه الله أهلاً بدل أهله ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أَي: مَنْ وَتَّقَ به فيما نابه، كناه الله ما أمته ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالْعِزِّ أَمْرُهُ﴾ وروى حفص، والمفضل عن عاصم «بالع أمره» مضاف. والمعنى: يقضي ما يريد ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أَي: أجلاً ومنتهاً ينتهي إليه، قدر الله ذلك كله، فلا يقدّم ولا يؤخر^(٣). قال مقاتل: قد جعل الله لكل شيء من الشدة والرخاء قدراً، فقدر متى يكون هذا الغني فقيراً، وهذا الفقير غنياً.

﴿وَالَّذِي يَسْتَنْ مِنَ الْخَبِيثِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِذَا انْقَضَتْ قَعْدَتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي تَرَى بِحَضْنٍ وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۖ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۖ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾

(١) وقال عطاء: لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجاء إلا شاهداً عدل، كما قال الله ﷻ: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ إلا أن يكون من عدل. وروى أبو داود في «سننه» رقم (٢١٨٦)، وابن ماجه (٢٠٢٥) عن عمران بن حصين ﷺ سئل عن رجل يطلق امرأته ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها؟ فقال: طلقت لغير سنة، وراجعت لغير سنة، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تُقَدَّر. وإسناده صحيح كما قال الحافظ في «بلوغ المرام».

(٢) رَوَاهُ الْوَاحِدِيُّ فِي «أَسْبَابِ النُّزُولِ» ٣٢٤ بِغَيْرِ سَنَدٍ. وَأَوْرَدَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرَجَاتِ» ٢٣٣/٦ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ الْكَلْبِيِّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَنَحْوَهُ مِنْ رِوَايَةِ الْخَطِيبِ الْبَغْدَادِيِّ فِي تَارِيخِهِ، مِنْ طَرِيقِ جَوْبِرٍ عَنْ الضَّحَّاكِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ مِنْ طَرِيقِ سَالِمِ أَبِي الْجَعْدِ مَرْسُلاً قَالَ: نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ مِنْ أَشْجَعٍ، فَذَكَرَهُ نَحْوُهُ. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «تَخْرِيجِ الْكُشَافِ» ١٧٤: رَوَاهُ الثَّعْلَبِيُّ مِنْ طَرِيقِ الْكَلْبِيِّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. قَالَ: وَرَوَى الْحَاكِمُ مِنْ طَرِيقِ سَالِمِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ فِي رَجُلٍ مِنْ أَشْجَعٍ... فَذَكَرَهُ. قَالَ: وَفِيهِ عِيدٌ بَيْنَ كَثِيرٍ تَرَكَهُ الْأَزْدِيُّ.

(٣) رَوَى أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ»، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «سُنَنِهِ» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ لِي: «يَا هَلَامُ إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكَ، رَفَعْتَ الْأَقْلَامَ، وَجَفَتِ الصُّفُوفُ، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَهُوَ كَمَا قَالَ. وَرَوَى أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ مَاجَةٍ، وَابْنُ حِبَّانَ، وَالحَاكِمُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنْتُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا» قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ وَأَفْرَهُ الذَّهَبِيُّ. وَمَعْنَى خِمَاصًا: جِيَاعًا، وَبُطَانًا: شِبَاعًا.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي يَتَمَنَّي مِنَ الْمَحْضِ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أنها لما نزلت عِدَّة المطلقَّة، والمتوفَّى عنها زوجها في [البقرة: ٢٢٧، ٢٢٨] قال أبي بن كعب: يا رسول الله: إن نساء من أهل المدينة يقلن: قد بقي من النساء ما لم يذكر فيه شيء. قال: «وما هو؟» قال: الصغار والكبار، وذوات الحمل، فنزلت هذه الآية، قاله عمرو بن سالم^(١). والثاني: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرَضْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ الآية [البقرة: ٢٢٨] قال خلاد بن النعمان الأنصاري: يا رسول الله، فما عِدَّة التي لا تحيض، وعِدَّة التي لم تحض، وعِدَّة الحُبلى؟ فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل^(٢). ومعنى الآية: ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ، أَي: شككتكم فلم تذكروا ما عِدَّتِهِنَّ﴾ ﴿فَمِذَّتْهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّذِي لَا يَحِضُّ﴾ كذلك^(٣).

فصل

قال القاضي أبو يعلى: المراد بالارتباب هاهنا: ارتباب المخاطبين في مقدار عِدَّة الآيسة والصغيرة كم هو؟ وليس المراد به ارتباب المعتدلات في اليأس من المحيض، أو اليأس من الحمل للسبب الذي ذكر في نزول الآية. ولأنه لو أريد بذلك النساء لتوجَّه الخطاب إليهن، فقيل: إن ارتبتين، أو ارتبتين، لأن الحيض إنما يعلم من جهتهن. وقد اختلف في المرأة إذا تأخر حيضها لا لعارض كم تجلس؟ فمذهب أصحابنا أنها تجلس غالب مدة الحمل، وهو تسعة أشهر، ثم ثلاثة. والعدة: هي الثلاثة التي بعد التسعة. فإن حاضت قبل السنة بيوم، استأنفت ثلاث حيض، وإن تَمَّتْ السَّنَةُ من غير حيض، حَلَّتْ، وبه قال مالك. وقال أبو حنيفة، والشافعي في الجديد: تمكث أبداً حتى يعلم براءة رحمها قطعاً، وهي أن تصير في حد لا يحيض مثلها، فتعتد بعد ذلك ثلاثة أشهر.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي لَا يَحِضُّ﴾ يعني: عدتهن ثلاثة أشهر أيضاً، لأنه كلام لا يستقل بنفسه، فلا بدَّ له من ضمير، وضميره تقدَّم ذكره مظهراً، وهو العِدَّة بالشهور. وهذا على قول أصحابنا محمول على من لم يأت عليها زمان الحيض: أنها تعتد ثلاثة أشهر. فأما من أتى عليها زمان الحيض، ولم تحض، فإنها تعتد سنة.

قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَتْلَهُنَّ أَنْ يَصْنَحَ حَمْلُهُنَّ﴾ عامٌّ في المطلقات، والمتوفَّى عنهن أزواجهن، وهذا قول عمر، وابن عمر، وابن مسعود، وأبي مسعود البدر، وأبي هريرة، وفقهاء الأمصار. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: تعتد آخر الأجلين. ويدل على قولنا عموم الآية. وقول ابن مسعود: من شاء لاعتته ما نزلت ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ﴾ إلا بعد آية المتوفَّى عنها زوجها^(٤)، وقول أم سلمة: إن سُبَيْعَةَ وضعت بعد وفاة زوجها بأيام، فأمرها رسول الله ﷺ أن تتزوج^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ بَيَّتَ اللَّهَ﴾ أي: فيما أمر به ﴿بِجَعْلٍ لَّكَ مِنْ أَمْرِهِ يَسْرَ﴾ يُسَهِّلُ عليه أمر الدنيا والآخرة، وهذا قول

(١) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٣٢٤ عن عمرو بن سالم، ورواه بنحوه ابن جرير الطبري ١٤١/٢٨، والحاكم ٤٩٢/٢ وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٣٤/٦ وزاد نسبته لإسحاق بن راهويه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «مسته» عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٢) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٣٢٤ عن مقاتل بغير سند. وكذلك ذكره البغوي والخازن عن قتادة.

(٣) قال ابن كثير: وهذا مروى عن سعيد بن جبير، وهو اختيار ابن جرير وهو أظهر في المعنى. وذكر أنه يحتج لذلك بحديث عمرو بن سالم الذي تقدَّم ذكره.

(٤) قال السيوطي في «الدر» ٢٣٥/٦: أخرجه عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وسعيد بن منصور، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه من طرق عن ابن مسعود أنه بلغه أن علياً يقول: تعتد آخر الأجلين، فقال: من شاء لاعتته، إن الآية التي نزلت في سورة النساء القصص (يريد بذلك سورة الطلاق) نزلت بعد سورة [البقرة] ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَتْلَهُنَّ أَنْ يَصْنَحَ حَمْلُهُنَّ﴾ بكذا وكذا شهراً، فكل مطلقة أو متوفى عنها زوجها فأجلها أن تضع حملها.

رواه البخاري في «صحيحه» ٥٠١/٨ عن أم سلمة قالت: قتل زوج سُبَيْعَةَ الأسلمية وهي حبلى فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت، فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها. قال ابن كثير: هكذا أورد البخاري هذا الحديث هاهنا مختصراً، وقد رواه مسلم وأصحاب الكتب مطولاً من وجوه أخر، وذكره من رواية أحمد ثم قال: ورواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من طرق عن أم سلمة رضي الله عنها. وأورده السيوطي في «الدر» ٢٣٦/٦ وزاد نسبته لعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه.

الأكثرين. وقال الضحاك: ومن يتق الله في طلاق الشئنة، يجعل الله له من أمره يسراً في الرجعة ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ أي: يمحى عنه خطاياه: ﴿وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرَهُ﴾ في الآخرة. ﴿أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ دُونِهَا وَلَا تُنْكَحُوا عَنْهُنَّ لِتَضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ إِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَمَلَ حَبْلًا فَلْيَضَعْنَ لِكُلِّ نَفْسٍ بِحُجَّتِ أُولَئِكَ بِمَا عَصَوْا وَإِنَّ فِتْنَةَ السَّامِرَةِ لَكَ أَكْبَرُ ۖ فَتَرَضَّعْ لَهُمْ أَفَ يُرْضَوْنَ مِنْهُ وَبِذَلِكَ يَتَضَوُّونَ﴾ ١ ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِمَّنْ سَعَىٰ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفْسَقْ بِمَا أَنَاءَ اللَّهُ لَا يَكْفُلُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَيْنَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ ٢

قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ و «من» صلة قوله: ﴿مِنْ دُونِهَا﴾ قرأ الجمهور بضم الواو. وقرأ أبو هريرة، وأبو عبد الرحمن، وأبو رزين، وقادة، وزوج عن يعقوب بكسر الواو. قرأ ابن يعمر، وابن أبي عبله، وأبو حيوية: بفتح الواو. قال ابن قتيبة: أي: يقدّر وسعيكم. والوجد: المقدرة والغنى، يقال: افتقر فلان بعد وجب. قال الفراء: يقول: على ما يجد، فإن كان مؤسعاً عليه، وسّع عليها في المسكن والنفقة، وإن كان مقترراً عليه، فعلى قدر ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنْكَحُوا عَنْهُنَّ﴾ بالتضييق عليهن في المسكن والنفقة، وأنتم تجدون سعة. قال القاضي أبو يعلى: المراد بهذا: المطلقة الرجعية دون المبتوتة، بدليل قوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لِمَا لَكُمُ اللَّهُ يَخْرِجُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]. وقوله: ﴿إِذَا بَلَغَ الْأُنثَىٰ مِنْ أَهْلِهَا فَأَسْكِنُهَا مِنْ دُونِهَا أَوْ قَارِئُوهَا بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢] فدل ذلك على أنه أراد الرجعية. وقد اختلف الفقهاء في المبتوتة: هل لها سكنى، ونفقة في مدة العدة، أم لا؟ فالمشهور عند أصحابنا: أنه لا سكنى لها ولا نفقة، وهو قول ابن أبي ليلى. وقال أبو حنيفة: لها السكنى، والنفقة. وقال مالك والشافعي: لها السكنى، دون النفقة. وقد رواه الكوسج^(١) عن أحمد. ويدل على الأول حديث فاطمة بنت قيس أن النبي ﷺ قال لها: «إنما النفقة للمرأة على زوجها ما كانت له عليها الرجعة، فإذا لم يكن له عليها، فلا نفقة ولا سكنى»^(٢). ومن حيث المعنى: إن النفقة إنما تجب لأجل التمكين من الاستمتاع، بدليل أن الناشز لا نفقة لها. واختلفوا في الحامل، والمتوفى عنها زوجها، فقال ابن مسعود، وابن عمر، وأبو العالية، والشعبي، وشريح، وإبراهيم: نفقتها من جميع المال، وبه قال مالك، وابن أبي ليلى، والثوري. وقال ابن عباس، وابن الزبير، والحسن، وسعيد بن المسيب، وعطاء: نفقتها في مال نفسها، وبه قال أبو حنيفة، وأصحابه. وعن أحمد كالقولين.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَتَتْكُمْ لَكَ فَنَافِلُهُنَّ أَجْرُهُنَّ﴾ يعني: أجرة الرضاع. وفي هذا دلالة على أن الأم إذا رضيت أن ترضعه بأجرة مثلاً، لم يكن للاب أن يسترضع غيرها ﴿وَأَتُوا بِتَنَكَّرٍ مَعْرُوفٍ﴾، أي: لا تشتط المرأة على الزوج فيما يطلبه من أجرة الرضاع، ولا يقصر الزوج عن المقدار المستحق ﴿وَإِنْ تَمَاسَرْتُمْ﴾ في الأجرة، ولم يتراض الوالدان^(٣) على شيء ﴿فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَىٰ﴾ لفظه لفظ الخبر، ومعناه: الأمر، أي: فليسترضع الوالد غير والده الصبي. ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِمَّنْ سَعَىٰ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي: ضيق عليه من المطلقين. وقرأ أبي بن كعب، وحמיד «قُدِرَ» بضم القاف، وتشديد الدال. وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبله «قُدِرَ» بفتح القاف وتشديد الدال «رِزْقُهُ» بنصب القاف ﴿فَلْيُنْفِقْ بِمَا أَنَاءَ اللَّهُ﴾ على قدر ما أعطاه ﴿لَا يَكْفُلُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَيْنَاهَا﴾ أي: على قدر ما أعطاه من المال ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي: بعد ضيق وشدة، غنى وسعة، وكان الغالب عليهم حيثئذ الفقر، فأعلمهم أنه سيفتح عليهم بعد ذلك.

﴿وَكَيْفَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ رِزْقٌ وَرُسُلُهُمْ فَاسْتَبَيَّنْهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَلَيْهَا عَذَابٌ لَكْرًا﴾ ٣ ﴿فَذَاتُ أَسْمَاءَ وَكَانَ عَلَيْهِمْ أَهْلُهَا خُسْرًا﴾ ٤ ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَٰٓأُولَئِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْنَا ذِكْرًا﴾ ٥ ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُمِيتَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ

(١) هو إسحاق بن منصور بن بهرام أبو يعقوب المرزوي المعروف بالكوسج، وهو الذي درن المسائل الفقهية عن الإمام أحمد بن حنبل، روى عنه البخاري ومسلم والترمذي وأبو دارد، وهو ثقة ثبت من رجال الحديث، توفي رحمه الله سنة (٢٥١هـ).

(٢) رواه أحمد في «المسند» ٣٧٣/٦ فاطمة بنت قيس وهو جزء من حديث طويل. قال الشوكاني في «نيل الأوطار» ١٠٨/٧: تفرد برفعه مجالد بن سعيد، وهو ضعيف، قال: وقد تابعه في رفته بعض الرواة، قال في «الفتح»: ولكنه أضعف من مجالد، وهو في أكثر الروايات موقوف عليها، والرفع زيادة يعمين قبولها لما ببناء في غير موضع، ورواية الضعيف مع الضعيف توجب الارتفاع عن درجة السقوط إلى درجة الاعتبار.

(٣) في الأصل: الولدان.

مَأْتُوا وَحَلُّوا الصَّلَاحَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ كَسَبَ اللَّهُ لَهُمْ رِزْقًا ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُونَ﴾ أي: وكمن ﴿بَيْنَ قَرْيَةٍ عَنَتَ عَنْ آسَرِهَا رُسُلًا﴾، أي: عن أمر رسوله. والمعنى: عتا أهلها. قال ابن زيد: عنت، أي: كفرت، وترك أمر ربها، فلم تقبله. وفي باقي الآية قولان: أحدهما: أن فيها تقديمًا، وتأخيرًا. والمعنى: عذبناها عذاباً نكراً في الدنيا بالجوع، والسيف، والبلايا، وحاسبناها حساباً شديداً في الآخرة، قاله ابن عباس، والفراء في آخرين. والثاني: أنها على نظمها، والمعنى: حاسبناها بعملها في الدنيا، فجازيتها بالعذاب على مقدار عملها، فذلك قوله تعالى: «وَعَذَّبْنَاهَا» فجعل المجازاة بالعذاب محاسبة. والحساب الشديد: الذي لا عفو فيه، والنكر: المنكر ﴿فَنَافَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي: جزاء ذنبها ﴿وَكَانَ عَقِبُهَا أَمْرًا حَشَرًا﴾ في الدنيا، والآخرة، وقال ابن قتيبة: الخسر: الهلكة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَرْسَلْنَا اللَّهُ إِلَيْنَكَ ذِكْرًا﴾ أي: قرآننا ﴿رُسُلًا﴾ أي: وبعثه رسولا، قاله مقاتل. وإلى نحوه ذهب السدي. وقال ابن السائب: الرسول هاهنا: جبرائيل، فعلى هذا: يكون الذكر والرسول جميعاً مترئلين. وقال ثعلب: الرسول: هو الذكر. وقال غيره: معنى الذكر هاهنا: الشرف. وما بعده قد تقدم [البقرة: ٢٥٧، والأحزاب: ٤٣، والتغابن: ٩] إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ كَسَبَ اللَّهُ لَهُمْ رِزْقًا﴾ يعني: الجنة التي لا ينقطع نعيمها.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَبْزُلُ الْأَرْضَ بَيْنَهُنَّ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿١٢﴾

قوله: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: وخلق الأرض بعددهن^(١). وجاء في الحديث: كثافة كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وما بينها وبين الأخرى كذلك، وكثافة كل أرض خمسمائة عام، وما بينها وبين الأرض الأخرى كذلك^(٢). وقد روى أبو الضحى عن ابن عباس قال: في كل أرض آدم مثل آدمكم، ونوح مثل نوحكم، وإبراهيم مثل إبراهيمكم، وعيسى كعيسى، فهذا الحديث [تارة] يرفع إلى ابن عباس، وتارة يوقف على أبي الضحى^(٣)، وليس له معنى إلا ما حكى أبو سليمان الدمشقي، قال: سمعت أن معناه: إن في كل أرض خلقاً من خلق الله لهم سادة، يقوم كبيرهم ومتقدمهم في الخلق مقام آدم فينا، وتقوم ذرئته في السنن والقديم كمقام نوح. وعلى هذا المثال سائرهم. وقال كعب:

(١) قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: سبعاً أيضاً، كما ثبت في «الصحاحين»: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوفه من سبع أرضين» وفي «صحيح البخاري»: «خسف به الله سبع أرضين» قال: ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم، فقد أبعد النجعة، وأغرق في النزاع، وخالف القرآن والحديث بلا مستند. وقد صح من رواية البخاري وغيره قوله ﷺ: «اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما اتللن...» الحديث.

(٢) روى ابن جرير الطبري ١٥٣/٢٨، وعثمان بن سعيد الدارمي في كتاب «الرد على الجهمية» ص ٢٦ طبع المكتب الإسلامي من طريق عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود ﷺ موقوفاً عليه قال: خلق الله سبع سموات، غلط كل واحدة مسيرة خمسمائة عام، وبين كل واحدة منها خمسمائة عام، وفوق السبع السموات الماء، والله جل ثناؤه فوق الماء، ولا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم، والأرض سبع، وبين كل أرضين خمسمائة عام، وغلط كل أرض خمسمائة عام. وإسناده حسن ولكنه موقوف. ورواه مرفوعاً أحمد في «المستند» رقم (١٧٧٠) و (١٧٧١)، وأبو داود رقم (٤٧٢٣)، وعثمان بن سعيد الدارمي في «الرد على الجهمية» ص ٢٤، وفي سننه عندهم عبد الله بن عميرة وهو مجهول، وفي أسطورة الأرواح. ورواه الترمذي ١٦٢/٢ من رواية الحسن عن أبي هريرة وليس فيه ذكر الأرواح وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه، ويروى عن أيوب ويونس وعلي بن زيد قالوا: لم يسمع الحسن من أبي هريرة. وروى شريك بعض هذا المعنى عن سماك ووقفه، فالحديث لا يصح مرفوعاً، وهو حسن موقوفاً والله أعلم.

(٣) قال ابن كثير في «التفسير» ٢٨٥/٤: وروى البيهقي في كتاب «الأسماء والصفات» هذا الأثر عن ابن عباس فقال: أنا أبو عبد الله الحافظ، ثنا أحمد بن يعقوب، ثنا عبيد بن غنام الحنفي، أنا علي بن حكيم، ثنا شريك، عن عطاء بن السائب عن أبي الضحى عن ابن عباس في قول الله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ قال: في كل أرض نبي كنيكم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى. قال: ثم رواه البيهقي من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي الضحى عن ابن عباس في قول الله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ قال: في كل أرض نحو إبراهيم ﷺ، قال: ثم قال البيهقي: إسناده هذا عن ابن عباس صحيح، وهو شاذ بمرّة، لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعا، والله أعلم.

وقال ابن كثير أيضاً في «اللباية والنهاية» ٢١/١: وهو محمول - إن صح نقله عن ابن عباس - على أنه أخذه ﷺ عن الإسرائيليات، والله أعلم.

ساكن الأرض الثانية: البحر العقيم، وفي الثالثة: حجارة جهنم، والرابعة: كبريت جهنم، والخامسة: حيات جهنم، والسادسة: عقارب جهنم، والسابعة: فيها إبليس^(١).

قوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بِبَيْنِهِ﴾، في الأمر قولان: أحدهما: قضاء الله وقدره، قاله الأكثرون. قال قتادة: في كل أرض من أرضه وسماؤه من سمائه خلق من خلقه، وأمر من أمره، وقضاء من قضاؤه. والثاني: أنه الوحي، قاله مقاتل^(٢). قوله تعالى: ﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أعلمكم بهذا لتعلموا قدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء^(٣).



(١) وهذا أيضاً - والله أعلم - من الإسرائيليات التي نقلها كعب وغيره عن أهل الكتاب.

(٢) قال ابن جرير: وقوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بِبَيْنِهِ﴾ يقول تعالى ذكره: ينزل أمر الله بين السماء السابعة والأرض السابعة.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول تعالى ذكره: ينزل قضاء الله وأمره بين ذلك، كي تعلموا أيها الناس كنه قدرته وسلطانه، وأنه لا يتعذر عليه شيء أراد، ولا يمتنع عليه أمر شاء، ولكنه على ما يشاء قدير ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ يقول جل ثناؤه: ولتعلموا أيها الناس أن الله بكل شيء من خلقه محيط علماً، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. يقول جل ثناؤه: فخافوا أيها الناس المخالفون أمر ربكم عقوبته، فإنه لا يمنعه من عقوبتكم مانع، وهو على كل شيء قدير، ومحيط أيضاً بأعمالكم، فلا يخفى عليه منها خاف، وهو محصيا عليكم ليجازيكم بها، يوم تجزى كل نفس ما كسبت.

سورة التحريم^(١)

وهي مدنية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَوْلِيكَ وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّمَ رَجِيمٌ ۝ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَوْلِيَائِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا بَيَّاتَ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُمْ وَأَعْرَفَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الطَّلِيحُ الْحَدِيثُ ۝ إِنْ نَبَأْنَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَفَتْ قُلُوبُنَا وَإِنْ تَلَّهَا عَلَيْنَا أَلَا اللَّهُ هُوَ مَوْلَانَا وَجَنَابُ صَلَاحِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَكَةِ بِمَا ذَكَكَ عَلَيْهِمْ ۝ عَنْ رَبِّهِ إِنْ طَلَّقْتُكَ أَنْ يَبْدُلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُتَمِلِينَ مَوَاشِي قَيْدٍ تَجِبُكَ عَيْدَاتُ سَبْعِينَ قَبْلَتٍ وَأَكْبَارًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ في سبب نزولها قولان: أحدهما: أن حفصة ذهبت إلى أبيها تَتَحَدَّثُ عنده، فأرسل النبي ﷺ إلى جاريته، فظلت معه في بيت حفصة، وكان اليوم [الذي] يأتي فيه عائشة، فرجعت حفصة، فوجدتها في بيتها، فجعلت تنتظر خروجها، وغارت غيرة شديدة. فلما دخلت حفصة قالت: قد رأيت من كان عندك. والله لقد سؤتني، فقال النبي ﷺ: «والله لأرضيتك»، وإني مُبَرِّئُ إِيَّاكَ سِرًّا فاحفظيه، قالت: وما هو؟ قال: «إني أشهدك أن سيِّرتي هذه علي حرام رضى لك»، وكانت عائشة وحفصة متظاهرتين على نساء النبي ﷺ، فانطلقت حفصة إلى عائشة، فقالت لها: أبشري، إن النبي ﷺ قد حرم عليه فاته، فنزلت هذه الآية، رواه العوفي عن ابن عباس^(٢). وقد روي عن عمر نحو هذا المعنى، وقال فيه: فقالت حفصة: كيف تحرمها عليك، وهي جاريته؟! فحلف لها أن لا يقربها، فقال لها: «لا تذكره لأحد»، فذكرته لعائشة، فألَى أن لا يدخل على نساءه شهراً، فنزلت هذه الآية^(٣) وقال الضحاك: قال لها: «لا تذكري لعائشة ما رأيت»، فذكرته، فغضبت عائشة، ولم تزل بنبي الله حتى حلف أن لا يقربها، فنزلت هذه الآية^(٤)، وإلى هذا المعنى: ذهب سعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء، والشعبي، ومسروق، ومقاتل، والأكثر. والثاني: ما روى عروة عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحُلُوءَ والعسل^(٥)، وكان إذا انصرف من صلاة العصر دخل على نساءه، فدخل على حَفْصَةَ بنت عمر، احتبس عندها، فسألت عن ذلك، فقيل: أهدت لها امرأة من قومها عَجَةً من عسل^(٦)، فسقت رسول الله ﷺ، فقلت: أما والله لنحتالَنَّ له^(٧)، فقلت لسودة: إنه سيدنو منك إذا دخل عليك، فقولي له: يا رسول الله أكلت مغافير، فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة عسل، فقولي؛

(١) ويقال لها: سورة التحريم، وسورة «لم تحرم». قال الألويسي: ويقال لها «سورة النبي ﷺ» وعن ابن الزبير: سورة النساء.

(٢) رواه ابن جرير الطبري ١٥٧/٢٨ عن محمد بن سعد صاحب «الطبقات» من رواية عطية العوفي عن ابن عباس، وعطية ضعيف. وأورده السيوطي في «الدرر» ٢٣٩/٦ وزاد نسبته لابن مردويه عن ابن عباس ﷺ.

(٣) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٣٢٥، قال ابن كثير: وقال الهيثم بن كليب في «مسنده»: ثنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي، ثنا مسلم بن إبراهيم، ثنا جرير بن حازم، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، عن عمر قال: قال النبي ﷺ لحفصة: «لا تخبري أحداً، وإن أم إبراهيم علي حرام» فقالت: أتحرّم ما أحل الله لك؟ قال: «فوالله لا أقربها»، قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة، قال: فأنزل الله: ﴿قَدْ رَضِيَ اللَّهُ لَكُمْ مَخْلَعًا أَبْنَيْكُمْ﴾ قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة، قال: وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المسنخرج».

(٤) رواه الطبري ١٥٦/٧٨ وفي آخره: وأمره أن يكفر عن يمينه ويأتي جاريته، وفي سنده انقطاع.

(٥) المراد بالحُلُوءَ هنا: كل شيء حلّ، وذكر العسل بعد ما تنبيه على شرفه ومزيته، وهو من باب ذكر الخاص بعد العام، وفيه جواز أكل للبهذ الأطلعة والطيّات من الرزق، وأن ذلك لا يتنافى الزهد والمراقبة، لا سيما إذا حصل اتفاقاً.

(٦) قال الجوهري: المُكَّة: آتية السمن، أو القرية الصغيرة.

(٧) أي لتطلين له الحيلة، وهي الحذق في تدبير الأمور وتقلب الفكر حتى يهتدي إلى المقصود.

جَرَسَتْ نَحْلُهُ الْعُرْفُطُ^(١) وسأقول ذلك، وقولي أنت يا صفة ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله أسقيك منه؟ قال: لا حاجة لي فيه قالت: تقول سنودة: سبحان الله، والله لقد حَرَمَنَاهُ^(٢) قلت لها: اسكتي، أخرجه البخاري ومسلم في «الصحيحين»^(٣). وفي رواية ابن أبي مليكة عن ابن عباس: أن النبي شرب عندها العسل سودة، فقالت له عائشة: إني لأجد منك ريحاً، ثم دخل على حفصة فقالت: إني أجد منك ريحاً، فقال: «إني أراه من شراب شربته عند سودة، والله لا أشربه»، فنزلت هذه الآية^(٤). وفي حديث عبيد بن عمير عن عائشة أن النبي شرب عندها العسل زينب بنت جحش، فتواطأت حفصة وعائشة أن تقولاً له ذلك القول^(٥). قال أبو عبيد: المغافير: شيء شبيه بالصمغ فيه حلاوة. وخرج الناس يتمغفرون: إذا خرجوا يجتنونوه. ويقال: المغافير بالشاء، مثل جدث، وجدف. وقال الزجاج: المغافير: صمغ متغير الرائحة. فخرج في المراد بالذي أحل الله له قولان: أحدهما: أنه جاريته. والثاني: العسل^(٦).

قوله تعالى: ﴿تَبَيَّنَ مَرَاتَ أَزْوَاجٍ﴾ أي: تطلب رضاها بتحريم ذلك. ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ غفر الله لك التحريم ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال مقاتل: قد بين الله لكم ﴿عَجَلَةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ أي: كفارة أيمانكم، وذلك البيان في [المائدة: ٨٩]. قال المفسرون: وأصل «تَجَلَّلَ» تَحَلَّلَ على وزن تَفَعَّلَ، فأدغمت، والمعنى: قد بين الله لكم تحليل أيمانكم بالكفارة، فأمره الله أن يكفر يمينه، فأعتق رقبة^(٧). واختلفوا هل حرم مارية على نفسه يمين، أم لا؟ على قولين: أحدهما: حرمها من غير ذكر يمين، فكان التحريم موجباً لكفارة اليمين، قاله ابن عباس^(٨). والثاني: أنه حلف يميناً حرمها بها، قاله الحسن. والشعبي، وقتادة^(٩)، ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: وليكم وناصركم.

(١) أي: رعت نحل هذا العسل الذي شربته، يقال: جرس النحل تجرس جرماً: إذا أكلت لتصل، ويقال للنحل: جوارس، والعرفط: مفعول جرس، وهو شجر ينضج الصمغ المعروف بالمغافير، أي لكونها رغته وأخذت منه حصلت هذه الرائحة.

(٢) حرمانه، هو تخفيف الرءاء، أي: منعه، يقال فيه: حرمة وأحرمت، والأول أنصح.

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» ١١/ ٢٩٥-٢٩٧ ومسلم ١١٠١/٢ من حديث عروة عن عائشة رضي الله عنها.

(٤) وقال السيوطي في «الدرر» ٦/ ٢٣٩: أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يشرب من شراب عند سودة من العسل، فدخل على عائشة فقالت: إني أجد منك ريحاً، فدخل على حفصة فقالت: إني أجد منك ريحاً، فقال: أراه من شراب شربته عند سودة، والله لا أشربه، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا مَا لَكُمْ بِهِ حُرْمٌ مَّا لَكُمْ بِهِ حُرْمٌ مَّا لَكُمْ بِهِ حُرْمٌ مَّا لَكُمْ بِهِ حُرْمٌ﴾ الآية. وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ١١/ ٢٩٢: وأخرج ابن مردويه من طريق ابن أبي مليكة عن ابن عباس أن شرب العسل كان عند سودة... والراجح أن صاحبة العسل زينب لا سودة، لأن طريق عبيد بن عمير أثبت من طريق ابن أبي مليكة بكثير.

(٥) رواه البخاري ١١/ ١٩٣، ومسلم ١١٠١/ ٢، قال ابن كثير بعد أن ساق حديث عبيد بن عمير وحديث عروة: وقد يقال: إنهما واقعتان، ولا بُدَّ في ذلك، إلا أن كونهما سبباً لنزول هذه الآية فيه نظر، والله أعلم، قال: وما يدل على أن عائشة وحفصة رضي الله عنهما هما المتظاهرتان، الحديث الذي رواه أحمد عن ابن عباس، وفيه أنه سأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِنَّ تَوْبَةَ إِبْنِ آدَمَ نَزَلَتْ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، فقال: هي عائشة وحفصة. والحديث بطوله أخرجه البخاري ٥٠٣/ ٨ وغيره.

(٦) قال الحافظ في «الفتح» ١١/ ١٩٩: وقد اختلف في الذي حرم على نفسه وعوقب على تحريمه كما اختلف في سبب حلفه على أن لا يدخل على نساءه على أقوال، فالذي في «الصحيحين» أنه العسل، وقول آخر: إنه في تحريم جاريته مارية، ووقع في رواية يزيد بن رومان عن عائشة عند ابن مردويه ما يجمع القولين، وذكر غيره، ثم قال: والراجح من الأقوال كلها قصة مارية، لاختصاص عائشة وحفصة بها، بخلاف العسل، فإنه اجتمع فيه جماعة منهن، قال: ويحتمل أن تكون الأسباب جميعها اجتمعت فأشير إلى أمها، ويؤيده شمول الحلف للجميع، ولو كان مثلاً في قصة مارية فقط لاختص بحفصة وعائشة.

(٧) ذكر الحافظ السيوطي في «الدرر» ٦/ ٢٤٠ من رواية ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه: فأعتق رسول الله ﷺ رقية. قال القرطبي: وقد قال جماعة من أهل التفسير: إنه لما نزلت هذه الآية كفر عن يمينه بعنق رقية وعاد إلى مارية رضي الله عنها، قاله زيد بن أسلم وغيره. وكذلك ذكر الزمخشري والخازن، والشوكاني، والآلوسي. وأخرج النسائي ٦/ ١٥١ من طريق سالم الأفلح عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رجلاً جاءه فقال: إني جعلت امرأتي علي حراماً، قال: كلبت ما هي عليك بحرام، ثم تلا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا مَا لَكُمْ بِهِ حُرْمٌ مَّا لَكُمْ بِهِ حُرْمٌ مَّا لَكُمْ بِهِ حُرْمٌ مَّا لَكُمْ بِهِ حُرْمٌ﴾ الآية. قال له: عليك رقية. وإسناده صحيح. قال الحافظ: وكأنه أشار عليه بالرقية لأنه عرف أنه موسر، فأراد أن يكفر بالأغلظ من كفارة اليمين، لا أنه تعين عليه عتق الرقية. وذكره السيوطي في «الدرر» ٦/ ٣٤١ من رواية ابن المنذر، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٨) رواه ابن جرير ٢٨/ ١٥٧ من طريق العوفي عن ابن عباس، وذكره السيوطي في «الدرر» ٦/ ٢٣٩ من رواية ابن سعد، وابن مردويه عن ابن عباس. قال: «ابن كثير: ومن ههنا ذهب من ذهب من الفقهاء ممن قال بوجود الكفارة على من حرم جارية أو زوجة أو طعاماً أو شراباً أو ملبساً أو شيئاً من المباحات، وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة، قال: وذهب الشافعي إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية إذا حرم يمينيهما أو أطلق التحريم فيهما في قول، فاما إن نوى طلاق الزوجة أو عتق الأمة نفذ فيهما.

(٩) قال السيوطي في «الدرر»: أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن الشعبي وقتادة رضي الله عنهما، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا مَا لَكُمْ بِهِ حُرْمٌ مَّا لَكُمْ بِهِ حُرْمٌ مَّا لَكُمْ بِهِ حُرْمٌ مَّا لَكُمْ بِهِ حُرْمٌ﴾ قال: حرم جاريته، قال =

قوله تعالى: ﴿وَرَأَى أَسْرَ النَّبِيِّ إِلَى بَيْتِ أَزْوَاجِهِ حَبِيبًا﴾ يعني: حفصة من غير خلاف علمناه. وفي هذا السر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه قال لها: إني مُسِيرٌ إليك سيراً فاحفظيه، سرّيتي هذه عليّ حرام، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال عطاء، والشعبي، والضحاك، وقتادة، وزيد بن أسلم، وابنه، والسدي. والثاني: أنه قال لها: «أبوك، وأبو عائشة، وإليها الناس من بعدي، فليأكل أن تخبري أحداً»، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس^(١). والثالث: أنه أسر إليها أن أبا بكر خليفة من بعدي، قاله ميمون بن مهران^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مِنْهُ أَي: أخبرت به عائشة ﴿وَأَظْهَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: أطلع الله نبيه على قول حفصة لعائشة، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، لأنه استكنم حفصة ذلك، ثم دعاها، فأخبرها ببعض ما قالت، فذلك قوله تعالى: ﴿عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَفَ عَنْ بَعْثٍ﴾ وفي الذي عرفها إياه قولان: أحدهما: أنه حدثها ما حدثتها عائشة من شأن أبي بكر وعمر، وسكت عما أخبرت عائشة من تحريم مارية، لأنه لم يبال ما أظهرت من ذلك، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن الذي عرف: تحريم مارية، والذي أعرض عنه: ذكر الخلافة لثلاث ينتشر، قاله الضحاك^(٣)، وهذا اختيار الزجاج. قال: ومعنى «عرف بعضه» عرف حفصة بعضه. وقرأ الكسائي، «عَرَفَ» بالتخفيف. قال الزجاج: على هذه القراءة قد عرف كل ما أسره، غير أن المعنى جارٍ على بعضه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْصِرُوا مِنْ خَيْرٍ يَسْمَعُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٧٩]، أي: يعلمه ويجازي عليه، وكذلك: ﴿فَمَنْ يَسْكَلْ يَسْكَلْ يَشْقَالْ دَرَّةً خَيْرًا يَرَى﴾ [الزولقة: ٧] أي: يرى جزاءه. فقيل: إن النبي ﷺ طلق حفصة تطليقة، فكان ذلك جزاءها عنده، فأمره الله أن يراجعها. وقال مقاتل بن حيان: لم يطلقها، وإنما هم بطلاقها، فقال له جبريل: لا تطلقها، فإنها صوامة قوامة^(٤). وقال الحسن: ما استقصى كريم قط، ثم قرأ ﴿عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَفَ عَنْ بَعْثٍ﴾ وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، وابن السميع «عُرِّاف» برفع العين، وتشديد الراء وبالف «بعضه» بالخفض.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مِنْهُ أَي: أخبر حفصة بإفشاءها السرّ ﴿فَأَنَّ مِنَ آبَائِكَ هَذَا﴾؟ أي: من أخبرك بأني أفشيت سرّك؟ ﴿قَالَ بَلَّغْتُ الْكَلِمَةَ الْخَيْرَ﴾ ثم خاطب عائشة وحفصة، فقال: ﴿إِنْ نَوَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: من التعاون على رسول الله ﷺ بالإيذاء «فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ قال ابن عباس: زاغت، وأثمت. قال الزجاج: عدلت، وزاغت عن الحق. قال مجاهد: كنا نرى قوله تعالى: «فقد صغت قلوبكما» شيئاً هيناً حتى وجدناه في قراءة ابن مسعود: «فقد زاغت قلوبكما». وإنما جعل

الشعبي: وحلف يميناً على التحريم، فعاتبه الله في التحريم، وجعل له كفارة اليمين، وقال قتادة: حرما كانت يميناً.

(١) ذكر الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٢٠٠/١١ من رواية ابن مردويه عن الضحاك عن ابن عباس قال: دخلت حفصة على النبي ﷺ بيتها فوجدت معه مارية فقال: «لا تخبري عائشة حتى أبشرك بإشارة، إن ليأكل يلي هذا الأمر بعد أبي بكر إفاثاً ثامت...» قال: وفي سننه ضعف.

(٢) قال السيوطي في «الدرة» ٣٤١/٦: أخرج ابن عساكر عن ميمون بن مهران في قوله: ﴿وَرَأَى أَسْرَ النَّبِيِّ إِلَى بَيْتِ أَزْوَاجِهِ حَبِيبًا﴾ قال: أسر إليها أن أبا بكر خليفة من بعدي. وهذا الأثران مختلفان للأحاديث الصحيحة، فإنها ليس فيها التصريح بإمارة أبي بكر وعمر ﷺ، وإلا لما حصل خلاف في ذلك أبداً، ولكنها تشير إلى أن أحق الناس بالخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ أبو بكر ﷺ، من ذلك ما رواه مسلم في «صحيحه» عن عائشة ﷺ قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: «أوهي لك أبوك وأهلك حتى أكتب كتاباً فإني أعلم أن يمتحن متحن ويقول قائل: أنا أولي، وبأي الله والمؤمنون إلا أبا بكر». وروى البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم قال: أتت النبي ﷺ امرأة، فكلت في شيء، فأمرها أن ترجع إليه، قالت: يا رسول الله أرايت إن جئت ولم أجده - كأنها تريد الموت - قال: «فأني أبا بكر». وروى الترمذي بسند جيد عن عمر ﷺ قال: أبو بكر وسيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ. وقال ﷺ في أبي بكر وعمر فيما رواه الترمذي عن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لا أعرفي ما يقاني فيكم؟ فانتدوا بالثلثين من بعدي أبي بكر وعمر، وهو حديث حسن، وروى الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين» وهو حديث صحيح. وروى الترمذي عن عتبة بن عامر قال: قال النبي ﷺ: «لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب وهو خليف حسن. وروى البخاري عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ قال: كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحداً، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نزل أصحاب النبي ﷺ لا تقاضل فيهم.

(٣) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: أخرج ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: دخلت حفصة على النبي ﷺ بيتها فوجدت معه مارية، فقال: لا تخبري عائشة، فعاتبتها ولم يعاتبها على أمر الخلافة، فلها قال الله تعالى: ﴿عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَفَ عَنْ بَعْثٍ﴾. قاله: وأخرج الطبراني في «الأسط» وفي «عشرة النساء» عن أبي هريرة نحوه بتمامه، وفي كل منهما ضعف.

(٤) تقدم الحديث في الصفحة ١٤٥٠ بلفظ: «فراجعها فيها صوامة قوامة» هو يدل على أنه ﷺ طلقها، ويؤيده ما رواه أبو داود ٣٨٢/٢ والنسائي ٢١٣/٦ عن عمر بن الخطاب أن النبي ﷺ طلق حفصة ثم راجعها. وإسناده صحيح.

القلبين جماعة لأن كل اثنين فما فوقهما جماعة. وقد أشرنا إلى هذا في قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. قال المفسرون: وذلك أنهما أحبا ما كره رسول الله ﷺ من اجتناب جاريته، ﴿وَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (١) وقرأ ابن مسعود، وأبو عبد الرحمن، ومجاهد، والأعمش «تظاهرا» بتخفيف الظاء، أي: تعاونوا على النبي ﷺ بالإيذاء ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: وليه في العون والنصرة ﴿وَيَنْزِيلُ﴾ وليه ﴿وَمَصْلِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وفي المراد بصالح المؤمنين ستة أقوال: أحدها: أنهم أبو بكر وعمر، قاله ابن مسعود، وعكرمة، والضحاك. والثاني: أبو بكر، رواه مكحول عن أبي أمامة. والثالث: عمر، قاله ابن جبير، ومجاهد. والرابع: خيار المؤمنين، قاله الربيع بن أنس. والخامس: أنهم الأنبياء، قاله قتادة، والعلاء بن زياد العدوي، وسفيان. والسادس: أنه علي ﷺ، حكاه الماوردي. قاله الفراء: «وصالح المؤمنين» موحد في مذهب جميع، كما تقول: لا يأتيني إلا سائس الحرب، فمن كان ذا ساسة للحرب، فقد أمر بالمجيء، ومثله قوله تعالى: ﴿وَالشَّارِقُ وَالشَّارِقَةُ﴾ [الناجمة: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ﴾ [النساء: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا كَافِرٌ﴾ [المعارج: ١٩] في كثير من القرآن يؤدي معنى الواحد عن الجميع (٢).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ كَذَلِكَ ظَاهِرٌ﴾ أي: ظهراً، وهذا مما لفظه لفظ الواحد، ومعناه الجميع، ومثله ﴿يَجْعَلُكُمْ لِقَاءَ﴾ [غافر: ٦٧]، وقد شرحناه هناك. ثم خوف نساءه، فقال تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ وسبب نزولها ما روى أنس عن عمر بن الخطاب قال: بلغني بعض ما آذى به رسول الله نساؤه، فدخلت عليهن، فجعلت أستقرنهن واحدة واحدة، فقلت: والله لتسهن، أو ليلدنه الله أزواجاً خيراً منكن، فزلت هذه الآية (٣). والمعنى واجب من الله ﴿إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ رسوله ﴿أَنْ يَبْلُغَهُ أَزْوَاجٌ خَيْرٌ مِنْكُمْ سُلَيْمٌ﴾ أي: خاضعات لله بالطاعة ﴿مُؤْتَنِي﴾ مصدقات بتوحيد الله ﴿قَتِينٌ﴾ أي: طائعات ﴿سَبِيحٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: صائمات، قاله ابن عباس، والجمهور. قد شرحنا هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿السَّابِقُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]. والثاني: مهاجرات، قاله زيد بن أسلم، وابنه. والثالث: جمع ثيب، وهي المرأة التي قد تزوجت، ثم ثابت إلى بيت أبيها، فعادت كما كانت غير ذات زوج. «والأبكار»: العذارى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَصُونُونَ اللَّهُ مَا أَمَرَهُمْ وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَتَّبِعُوا لِلْبَاطِلِ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ثُبُورًا إِلَى اللَّهِ قُوبَةً نَفْسًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَكْفُرَ عَنْكُمْ سِجَانِكُمْ وَيَدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ يَوْمَ تُرْزَقُونَ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ وقاية النفس: بامتنال الأوامر، واجتناب النواهي، ووقاية الأهل: بأن يؤمروا بالطاعة، ويُنهوا عن المعصية. وقال علي ﷺ: علمهم وأدبهم (٤): ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ وقد ذكرناه في

(١) يحذف إحدى التامين وتخفيف الظاء وهي قراءة حاصم ونافع في رواية، وقرأ الجمهور «تظاهرا» بتشديد الظاء.

(٢) قال ابن جرير الطبري: والصراب من القول في ذلك عندي أن قوله: ﴿وَمَصْلِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وإن كان في لفظ واحد، فإنه بمعنى الجميع، وهو بمعنى قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا كَافِرٌ﴾ فالإنسان وإن كان في لفظ واحد، فإنه بمعنى الجميع، وهو نظير قول الرجل: لا تقربن إلا قارئ القرآن، يقال: قارئ القرآن، وإن كان في اللفظ واحداً، فمعناه الجميع، لأنه قد أذن لكل قارئ القرآن أن يقربه واحداً كان أو جماعة.

(٣) ورواه ابن جرير الطبري ١٦٤/٢٨ وسنده صحيح، وذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم.

(٤) روى ابن جرير عن قتادة في قوله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ قال: يقهم: أن يأمرهم بطاعة الله، وينهاهم عن معصيته، وأن يقوم عليهم بأمر الله، يأمرهم به، ويساعدهم عليه، فإذا رأيت له معصية ودعوتهم عنها، وزجرتهم عنها. وقد قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنْزَلَ أَمَلَكَ بِالْأَسْوَءِ وَالْأَشَدِّ عَذَابًا﴾ أي: استغفمهم من عذاب الله بإقامة الصلاة وأصبر أنت على مثلها.

وفي معنى هذه الآية الحديث الذي رواه أحمد في «مسنده» ١٨٧/٢، وأبو داود في «سننه» رقم (٤٩٥) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «أمروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضامع» وهو حديث حسن. ومعنى: فرقوا بينهم في المضامع: أي: ذكروا كانوا أو إناثاً، وهو من باب سد الذرائع، ومن محاسن هذه الشريعة الفراء. قال ابن كثير: وهكذا في الصوم ليكون ذلك تمريناً له على العبادة، لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر، والله الموفق. ويدخل هذا في قوله تعالى: ﴿وَتَزَكُّوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ والإنسان مسؤول يوم القيامة عن أهله ووعيته، فقد روى البخاري =

ضرب فرعون لامرأته أوتاداً في يديها ورجليها، وكانوا إذا تفرّقوا عنها أظلتها الملائكة، فقالت: ﴿رَبِّ آتِنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فكشف الله لها عن بيتها في الجنة حتى رآته قبل موتها^(١) ﴿وَيُخَيِّبُنِي مِنَ رَحْمَتِكَ وَيَعْلَمُ لِي فِي الْآخِرَةِ عَمَلًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أن عمله: جماعه. والثاني: أنه دينه^(٢) روي عن ابن عباس، ﴿وَيُخَيِّبُنِي مِنَ الْفَوْرِ الْفَوْرِ﴾ يعني: أهل دين المشركين. قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَمْتَنَ فَرْجَهَا﴾ قد ذكرنا فيه قولين في سورة [الأنبياء: ٩٢] فمن قال: هو فرج ثوبها، قال «الهاء» في قوله تعالى: ﴿فَنَنْفَخَنَا فِيهِ﴾ يرجع إليه، وذلك أن جبريل مدّ جيب درعها، فدخل فيه. ومن قال: هو مخرج الولد، قال: «الهاء» كناية عن غير مذكور، لأنه إنما نفخ في درعها لا في فرجها^(٣). قوله تعالى: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنها قول جبريل ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩]. والثاني: أن الكلمات هي التي تضمنتها كتب الله المنزل. وقرأ أبي بن كعب، وأبو مجلز، وعاصم الجحدري «بكلمة ربها» على التوحيد. و«كُتِبَ»، قرأ ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم «وكتابه» على التوحيد، وقرأ أبو عمرو، وحفص عن عاصم، وخارجة عن نافع «وكتبه» جماعة، وهي التي أنزلت على الأنبياء، ومن قرأ «وكتابه» فهو اسم جنس على ما بيّنا في خاتمة [البقرة: ٢٨٥] وقد بيّنا فيها القنوت مشروحاً [البقرة: ١١٦]. ومعنى الآية: وكانت من القانتين، ولذلك لم يقل: من القانتات^(٤).



- (١) قال السيوطي في «الدر» ٢٤٥/٦: أخرج أبو يعلى والبيهقي بسند صحيح عن أبي هريرة أن فرعون ود لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها، فكانوا إذا تفرّقوا عنها أظلتها الملائكة ﷺ، فقالت: ﴿رَبِّ آتِنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فكشف لها عن بيتها في الجنة.
- (٢) أي: شره وكفره، وهذا القول أولى، والمعنى: نجني من نفس فرعون الخيثة وخصوصاً من عمله وهو الكفر وعبادة غير الله والتعذيب بغير جرم وغير ذلك من قبائحه.
- (٣) قال ابن كثير: ﴿فَنَنْفَخَنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ أي: بواسطة الملك وهو جبريل، فإن الله بعث إليها فتمثل لها في صورة بشر سوي، وأمره الله أن ينفخ فيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعيسى ﷺ.
- (٤) روى البخاري وسلم في «صحيحهما» عن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، ولفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

سورة الملك

وهي مكية ياجماعهم

قال ابن مسعود: هي المانعة من عذاب القبر^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿بَتَرَكِ الْإِلَهِ يَدِيهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ الْإِلَهِ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝﴾ الْإِلَهِ خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَاتَّجِبْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝﴾ ثُمَّ أُنْجِ الْعَصَرَ كَرِهْتَ يَنْقَلِبَ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَائِبًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝﴾ وَلَقَدْ زَكَّاهُ أَكْثَرُ النَّفَسِ الْأَذْيَا بِمَصْلِحٍ وَّجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ يُوَسِّسُ لِلْعَصِيرِ ۝﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْقَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْشَأْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝﴾ فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَحَقًّا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿بَتَرَكِ﴾ قد شرحناه في [الأعراف: ٥٤].^(٢)

قوله تعالى: ﴿الْإِلَهِ يَدِيهِ الْمُلْكُ﴾ قال ابن عباس: يعني: السلطان يُعْرَى ويُذَلُّ.

قوله تعالى: ﴿الْإِلَهِ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ قال الحسن: خلق الموت المزيل للحياة، والحياة التي هي ضد الموت ﴿يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قد شرحناه في [هود: ٧] قال الزجاج: والمعلق بـ ﴿أَيُّكُمْ﴾ مضمَر تقديره: ليبلوكم، فيعلم أيكم أحسن عملاً، وهذا علم وقوع. وارتفعت «أي» بالابتداء، ولا يعمل فيها ما قبلها، لأنها على أصل الاستفهام، ومثله ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحْسَنُ﴾ [الكهف: ١٧]. والمعنى: خلق الحياة لِيُخَبِّرَكُمْ فيها، وخلق الموت لِيَعْتَكِبَكُمْ ويجازيكم. وقال غيره: اللام في «ليبلوكم» متعلق بخلق الحياة دون خلق الموت، لأن الابتلاء بالحياة، ﴿الْإِلَهِ خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي: خلقهن مطابقات، أي: بعضها فوق بعض ﴿مَا تَرَى﴾ يا ابن آدم ﴿فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «من تَفَوْتٍ» بتشديد الواو من غير ألف. وقرأ الباقون بألف. قال الفراء: وهما بمنزلة واحدة، كما تقول: تعاهدت الشيء، وتعهدته. والتفاوت: الاختلاف. وقال ابن قتيبة: التفاوت: الاضطراب والاختلاف، وأصله من الفوت، وهو أن يفوت شيء شيئاً، فيقع الخلل، ولكنه متصل ببعضه ببعض.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّجِبْ الْبَصَرَ﴾ أي: كَرَّرَ البصر ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي «هل ترى» بإدغام اللام في التاء، أي: هل ترى فيها فروجاً وصُدوعاً.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أُنْجِ الْعَصَرَ كَرِهْتَ﴾ أي: مرة بعد مرة ﴿يَنْقَلِبَ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَائِبًا﴾ قال ابن قتيبة: أي: مبعداً من قولك: خَسَأْتُ الْكَلْبَ: إذا باعدته ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كليل منقطع عن أن يلحق ما نظر إليه. وقال الزجاج: قد أعيا من قبل أن يرى في السماء خَلَلاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَكَّاهُ أَكْثَرُ النَّفَسِ الْأَذْيَا بِمَصْلِحٍ﴾ وقد شرحناه في [آدم السجدة: ١٧] ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ أي: يرمم بها مسترقو السمع. وقد سبق بيان هذا المعنى [الحجر: ١٨] ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ وهذا وما بعده قد سبق بيانه إلى قوله تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ أي: صوتاً مثل صوت الحمام. وقد بينا معنى الشهيق في [هود: ١٠٦]

(١) ذكره السيوطي في «الدر» ٢٤٦/٦ من رواية ابن مردويه عن ابن مسعود موقوفاً عليه، وقد ورد هذا المعنى عن ابن عباس مرفوعاً، وهو ضعيف.

(٢) روى أحمد في «المسند»، وأصحاب «السنن» الأربعة بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ سُورَةَ فِي الْفُرْقَانِ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا حَتَّى فُكِّرَ لَهُ، وَهِيَ «بَتَرَكِ الْإِلَهِ يَدِيهِ الْمُلْكُ».

﴿وَيَقُولُ تَوَرُّ أَي: تغلي بهم كفلي الرجل ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ أي: تنقطع من تعيظها عليهم ﴿كَلَّمَآ أَنفَىٰ فِيهَا فَوْجٌ﴾ أي: جماعة منهم ﴿سَلَّمَ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْكُذْ نَذِيرٌ﴾ ١٩ وهذا سؤال توبيخ.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: قلنا للرسول: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: في ذهاب عن الحق بعيد. قال الزجاج: ثم اعترفوا بهلهم فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ أي: سماع من يعي ويفكر ﴿أَوْ نَنْقُلُ﴾ عقل من يُعَيِّرُ وينظر ﴿مَا كُنَّا﴾ من أهل النار ﴿نَسْحَقًا﴾ أي: بُغْدًا. هو منصوب على المصدر، المعنى: أسحقهم الله سحقاً، أي: باعدهم الله من رحمته مباعداً، والسحق: البعيد. وكذلك روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس «فسحقاً» أي: بُغْدًا. وقال سعيد بن جبير، وأبو صالح: الشحق: واو في جهنم يقال له: شحق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ٢٠ وَأَيُّرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلَيْهِ يَدَاتُ الشُّدُورِ ﴿٢١﴾ أَلَا يَتْلُمَنَّ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿٢٢﴾ هُوَ الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَاتَّشُوا فِي مَنَازِكِهَا وَكَلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿٢٣﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ قد شرحناه في سورة (الأنبياء: ٤٩) ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو: الجنة. ثم عاد إلى خطاب الكفار، فقال تعالى: ﴿وَأَيُّرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ﴾ قال ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من رسول الله ﷺ، فيخبره جبرائيل بما قالوا، فيقول بعضهم: أسروا قولكم حتى لا يسمع إله محمد.

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَتْلُمَنَّ مَنْ خَلَقَ﴾ ١٩ أي: ألا يعلم ما في الصدور خالقها؟ ١ و «اللطيف» مشروح في (الأنعام: ١٠٣) و «الخبير» في (البقرة: ٢٣٤).

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ أي: مُدَلَّلَةً سَهْلَةً لم يجعلها ممتعة بالحزونة والغلظ.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّشُوا فِي مَنَازِكِهَا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: طرقاتها، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد. والثاني: جبالها، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال قتادة، واختاره الزجاج، قال: لأن المعنى: سهل لكم السلوك فيها، فإذا أمكنكم السلوك في جبالها، فهو أبلغ في التذليل. والثالث: في جوانبها، قاله مقاتل، والفراء، وأبو عبيدة، واختاره ابن قتيبة^(١)، قال: ومنكبا الرجل: جانباه.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أي: إليه يُبْعَثُونَ من قبوركم.

﴿أَإِنَّمَا مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَحْيِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ ٢١ أَمْ إِنَّمَا مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَلْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبَ كَانْ كَثِيرٌ ﴿٢٣﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْفُلَيْهِ قَوْمَهُمْ مَّتَلَبْتُمْ وَيَقْبِضُنَّ مَا يُمِصُكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿٢٤﴾.

ثم خوف الكفار فقال: ﴿أَإِنَّمَا﴾ قرأ ابن كثير: «إليه النشور وأمتهم» وقرأ نافع، وأبو عمرو: «النشور أمتهم» بهمزة ممدودة. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: «أأمتهم» بهمزتين ﴿مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ قال ابن عباس: أمتهم عذاب مَن في السماء، وهو الله عز وجل ١٩ و «تمور» بمعنى: تدور. قال مقاتل: والمعنى: تدور بكم إلى الأرض السفلى.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ وهي: الحجارة، كما أرسل على قوم لوط، ﴿فَسَتَلْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾ أي: كيف كانت عاقبة إنذاري لكم في الدنيا إذا نزل بكم العذاب، ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كفار الأمم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَذِيرٌ﴾ أي: إنكاري عليهم بالعذاب. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْفُلَيْهِ قَوْمَهُمْ مَّتَلَبْتُمْ﴾ أي: تصف أجنتها في الهواء، وتقبض أجنتها بعد البسط، وهذا معنى الطيران، وهو بسط الجناح وقبضه بعد البسط ﴿مَا يُمِصُكُهُنَّ﴾ أن يقعن: ﴿إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾.

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصْمُرُكَ بَيْنَ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّا الْكَافِرُونَ﴾ ٢٢ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٣﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَزِيدُكَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢٤﴾ أَمَّنْ يَبْنِي مِثْلًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَبْنِي سَوَاءً عَلَىٰ حِرْطٍ مُّسْتَفِيمٍ ﴿٢٥﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ

(١) وهو اختيار ابن جرير الطبري أيضاً.

وَالْأَنْصَرُ وَالْأَمِّيَّةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْوَعْدُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ﴾ هذا استفهام إنكار. ولفظ «الجُنْد» مُوحَّد، فلذلك قال تعالى: «هذا الذي هو» والمعنى: لا جُنْدَ لكم «يُشْرِكُكم» أي: يمنعكم من عذاب الله إن أَرَادَهُ بكم «إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضُرٍّ» وذلك أن الشيطان يغرهم، فيقول: إن العذاب لا ينزل بكم «إِنَّمَا هَذَا الَّذِي بَرَزْتُمْ لَهُ» المطر وغيره «إِنْ أَنْسَكَ» الله ذلك عنكم «بَلْ لَحُورًا فِي عُتُوٍّ» أي: تماد في كفر «وَتُفْقَرُ» عن الإيمان. ثم ضرب مثلاً، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَّبِعُ مُبِيتًا عَلَى وَجْهِهِ» قال ابن قتيبة: أي: لا يبصر يميناً، ولا شمالاً، ولا من بين يديه. يقال: أَكْبَ فُلَانٌ عَلَى وَجْهِهِ بِالْأَلْفِ، وَكَبِهَ اللهُ لَوَجْهِهِ، وَأَرَادَ: الْأَعْمَى. قال المفسرون: هذا مثل للمؤمن، والكافر. و«السوي»: المعتدل، أي: الذي يبصر الطريق. وقال قتادة: هذا في الآخرة يحشر الله الكافر مُبِيتاً على وجهه، والمؤمن يمشي سواً.

قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنهم لا يشكرون، قاله مقاتل. والثاني: يشكرون قليلاً، قاله أبو عبيد.

قوله تعالى: ﴿ذَرَأَكُمْ﴾ أي: خلقكم «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ» يعنون بالوعد: العذاب «فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً» أي: رأوا العذاب قريباً منهم «سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا» قال الزجاج: أي: تبين فيها الشؤم. وقال غيره: قُبِحت بالسواد «وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ» فيه قولان: أحدهما: أن «تَدَّعُونَ» بالتشديد، بمعنى تدعون بالتخفيف، وهو «تفتعلون» من الدعاء. يقال: دعوت، وأدعيت، كما يقال: حَبَزْتُ وَاخْتَبَزْتُ، ومثله: يَذْكُرُونَ، وَيَذْكُرُونَ، هذا قول الفراء، وابن قتيبة. والثاني: أن المعنى: هذا الذي كنتم من أجله تَدَّعُونَ الْإِبَاطِيلَ وَالْأَكَاذِيبَ، تَدَّعُونَ أَنْكُمْ إِذَا مَثُمَ لَا تُبْعَثُونَ؟ وهذا اختيار الزجاج. وقرأ أبو رزين، والحسن، وعكرمة، وقاتدة، والضحاك، وابن أبي عبيدة، ويعقوب: «تَدَّعُونَ» بتخفيف الدال، وسكونها، بمعنى تَفْعَلُونَ من الدعاء. وقال قتادة: كانوا يَدَّعُونَ بالعذاب.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَتَسْتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَلٍّ مُعِينٍ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ﴾ بعذابه «وَمَنْ مَعِيَ» من المؤمنين. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «معي» بفتح الباء. وقرأ أبو بكر عن عاصم، والكسائي: «معي» بالإسكان، «أَوْ رَحِمَنَا» فلم يعدُّبْنَا «فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ» أي يمنهم ويؤمنهم «مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ» ومعنى الآية: إنا مع إيماننا، بين الخوف والرجاء: فمن يجيركم مع كفركم من العذاب؟ أي: لأنه لا رجاء لكم كرجاء المؤمنين، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ» الذي نَعْبُدُ «فَتَسْتَعْلَمُونَ» وقرأ الكسائي: «فسيعلمون» بالياء عند معاينة العذاب من الضالِّ نحن أم أنتم.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ قد بيَّناه في [الكهف: ٤١] «فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَلٍّ مُعِينٍ»؟ أي: بماءٍ ظاهر تراه العيون، وتنااله الأرضية.

سورة القلم

وهي مكية كلها بإجماعهم

إلا ما حكى عن ابن عباس وقتادة أن فيها من المدني قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَمْلِكُونَ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُورُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِمَعْنَى رَبِّكَ يَمْحُورُونَ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلُقِي عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَبِّحْهُ وَرَعِّبْهُ وَبَارِكْهُ الْفُتُونِ ﴿٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ مَنَّلَ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، وحفص: ﴿نَ﴾ والقلم: النون في آخر الهجاء من نون ظاهرة عند الواو، وهذا اختيار الفراء. وروى أبو بكر عن عاصم أنه كان لا يبين النون من (نون). وبها قرأ الكسائي، وخلف، ويعقوب، وهو اختيار الزجاج. وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، وقتادة، والأعمش: «نون والقلم» بكسر النون. وقرأ الحسن، وأبو عمران، وأبو نهيك: ﴿نَ﴾ والقلم: برفع النون. وفي معنى نون سبعة أقوال: أحدها: أنها الدواة. روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أول ما خلق الله القلم، ثم خلق النون، وهي الدواة»^(١) وهذا قول ابن عباس في رواية سعيد بن جبير، وبه قال الحسن وقتادة. والثاني: أنه آخر حروف الرحمن، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثالث: أنه الحوت الذي على ظهر الأرض، وهذا المعنى في رواية أبي ظبيان عن ابن عباس^(٢)، وهو مذهب مجاهد، والسدي، وابن السائب، ومقاتل. والرابع: أنه لُوح من نور، قاله معاوية بن قرة. والخامس: أنه افتتاح اسمه «نصير»، و «ناصر»، قاله عطاء. والسادس: أنه قَسَمٌ بِنُصْرَةِ الله للمؤمنين، قاله القرظي. والسابع: أنه نهر في الجنة، قاله جعفر الصادق^(٣). وفي «القلم» قولان: أحدهما: أنه الذي كتب به في اللوح المحفوظ. والثاني: أنه الذي يكتب به الناس^(٤). وإنما أقسم به، لأن كتبه إنما تكتب، و «يَسْطُورُونَ» بمعنى: يكتبون. وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم الملائكة. وفيما أرادوا بما يكتبونه قولان: أحدهما: أنه الذكر، قاله مجاهد، والسدي. والثاني: أعمال بني آدم، قاله مقاتل. والقول الثاني: أنهم جميع الكتبة، حكاه الثعلبي. ﴿مَا أَنتَ بِمَعْنَى رَبِّكَ يَمْحُورُونَ﴾ أي: ما أنت بإنعام ربك عليك بالإيمان والنبوة بمجنون. قال الزجاج: هذا جواب قولهم: إنك لمجنون. وتأويله: فارقك الجنون بتعمة الله.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ بصبرك على افترائهم عليك، ونسبتهم إليك إلى الجنون ﴿لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع ولا منقوص، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلُقِي عَظِيمٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: دين الإسلام، قاله ابن عباس. والثاني:

(١) رواه ابن مسافر ١٧/٢٤٧ عن الحسن بن يحيى الخثمي عن أبي عبد الله مولى بني أمية عن أبي صالح عن أبي هريرة ﷺ بأطول منه، وتماه: «ثم قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما يكون - أو ما هو كائن من عمل أو رزق أو أجل، فكتب ذلك إلى يوم القيامة، فللك قوله: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُورُونَ﴾» ثم ختم على القلم فلم يتكلم إلى يوم القيامة، ثم خلق العقل وقال: وعزتي لأكملنك فيمن أحببت، ولأنقصنك ممن أبغضت. والحسن بن يحيى صدوق كثير الغلط كما قال الحافظ في «التقريب»، والحديث رواه أحمد في «المستدرك» ٣١٧/٥ من طرق عن الوليد بن عباد عن أبيه عباد بن الصامت ﷺ، وليس فيه ذكر النون في أوله، ولا ذكر العقل في آخره، ورواه الترمذي ١٦٢/٢ بنحو رواية أحمد وقال: حديث حسن صحيح غريب، ورواه أيضاً أبو داود في «مسننه» رقم (٤٧٠٠)، والطبري ١٧/٢٩ وهو حديث صحيح بهذا القدر.

(٢) رواه الطبري ١٤/٢٩، وأبو ظبيان قابوس، فيه لين كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب».

(٣) والصواب أن (نون) من الحروف الهجائية التي ذكرت في أوائل السور بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معاوضته، وقد تقدم ذلك.

(٤) قال ابن كثير: والظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَهَبْنَا الْأَلَمَ﴾ ﴿أَلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿عَلَى الْإِنْسَانِ مَا يُبْتَلَى﴾ فهو قسم منه تعالى وتبنيه لخلقته على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَسْطُورُونَ﴾.

أدب القرآن، قاله الحسن. والثالث: الطبع الكريم. وحقيقة «الخُلُق»: ما يأخذ به الإنسان نفسه من الآداب، فسمي خُلُقاً، لأنه يصير كالخُلُقَة في صاحبه. فأما ما طبع عليه فيسمى: «الخيَم» فيكون الخيَم: الطبع الغريزي، والخُلُق: الطبع المُتَكَلَّف. هذا قول الماوردي. وقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خُلُقِ رسول الله ﷺ، فقالت: كان خُلُقُه القرآن^(١). تعني: كان على ما أمره الله به في القرآن.

قوله تعالى: ﴿مَسْبُورٌ وَيُمْرُونَ﴾ يعني: أهل مكة. وهذا وعيد لهم بالعذاب. والمعنى: سترى ويرون إذا نزل بهم العذاب يَذَرُ ﴿بِأَيْتِكُمُ الْفُتُونُ﴾ وفيه أربعة أقوال: أحدها: الضال، قاله الحسن. والثاني: الشيطان، قاله مجاهد. والثالث: المجنون، قاله الضحاك. والمعنى: الذي قد فتن بالجنون. والرابع: المعذب، حكاه الماوردي. وفي الباء قولان: أحدهما: أنها زائدة، قاله أبو عبيدة، وابن قتيبة. وأنشدوا:

لَا حُنَّ بَنُو جَفَلَةَ أَصْحَابُ الْفَلَجِ
نَضْرِبُ بِالسَّيْفِ وَنَرْجُو بِالْفَرْجِ^(٢)

والثاني: أنها أصلية، وهذا قول الفراء، والزجاج. قال الزجاج: ليس كونها لغواً بجائز في العربية في قول أحد من أهلها. وفي الكلام قولان للنحويين: أحدهما: أن «الفتون» هاهنا: الفتون. والمصادر تجيء على المفعول. تقول العرب: ليس هذا معقود رأي، أي: عقد رأي، وتقول: دعه إلى مسوره، أي: يسره. والمعنى: بأيكم الجنون. والثاني: بأيكم الفتون بالفرقة التي أنت فيها، أم بفرقة الكفار؟ فيكون المعنى: في أي الفرقتين المجنون. وقد ذكر الفراء نحو ما شرحه الزجاج. وقد قرأ أبي بن كعب، وأبو عمران، وابن أبي عبيدة: «في أي الفتون». ثم أخبر أنه عالم بالفرقتين بما بعد هذا.

﴿وَلَا تَطِيعُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ^(٣) وَدُّوا لَوْ تَدْرُكُهُمْ يَدُهُنَّ ^(٤) وَلَا تَطِيعُ كُلَّ حَلَائِي مَهِينٍ ^(٥) هَازِلٌ مَثَلٌ وَيَسِيرٌ ^(٦) تَنَاجَى لِلنَّعْرِ مَعْتَدٍ أَيْبَرُ ^(٧) عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبِرٌ ^(٨) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ^(٩) إِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِ مَا نَسْنَا قَالَ أَسْطِطُ الْأَوَّلِينَ ^(١٠) مَسِيئَةٌ عَلَى الْقُرْطُوبِ ^(١١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطِيعُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ^(٣) وذلك أن رؤساء أهل مكة دَعَوْهُ إلى دين آبائه، فنهاه الله أن يطيعهم ﴿وَدُّوا لَوْ تَدْرُكُهُمْ يَدُهُنَّ﴾ ^(٤) فيه سبعة أقوال: أحدها: لو ترخص فيرخصون، قاله ابن عباس. والثاني: لو تُصَاحِبُهُمْ في دينك فَيَصَاحِبُونَ في دينهم، قاله الحسن. والثالث: لو تكفر فيكفرون، قاله عطية، والضحاك، ومقاتل. والرابع: لو تَلِينُ فَيَلِينُونَ لك، قاله ابن السائب. والخامس: لو تنافق وترائي فيناقفون ويرأفون، قاله زيد بن أسلم. والسادس: ودُّوا لو تَلَدَّاهُ في دينك فيداهن في أديانهم. وكانوا أرادوه على أن يعبد آلهم مَدَّةً، ويعبدوا الله مدة، قاله ابن قتيبة. وقال أبو عبيدة: هو من المداينة. والسابع: لو تقاربهم فيقاربونك، قاله ابن كيسان^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطِيعُ كُلَّ حَلَائِي﴾ وهو كثير الحلف بالباطل «مَهِينٌ» وهو الحقير الدنيء. وروى العوفي عن ابن عباس قال: المَهِين: الكذاب. واختلفوا فيمن نزل هذا على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الوليد بن المغيرة، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: الأخنس بن شريق، قاله عطاء، والسدي. والثالث: الأسود بن عبد يغوث، قاله مجاهد^(٦).

(١) هو قطعة من حديث طويل رواه الإمام أحمد في «مسنده» ٥١/٦، ٥٢، ورواه مسلم ٥١٢/١ بنحو حديث أحمد. ورواه الحاكم في «المستدرک» ٢/ ٤٩٩ مختصراً، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأورده السيوطي في «الدرر» ٢٥٠/٦ مختصراً، وزاد نسيه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها. قال ابن كثير: ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجية له وخُلُقاً تطبعه وترك طبعه الجبلي، فنهما أمره القرآن ففعله، ونهياها عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء، والكرم، والشجاعة، والصفح، والحلم، وكل خلق جميل.

(٢) هو لراجز من بني جملة، كما في «مجاز القرآن» ٥/٢، و«الخرزانة» ١٦٠/٤، و«الانقباض» ٤٥٨، وشواهد «المغني» ١٦٤، و«الطبري» ١٤/١٨ و ٢٩/ ٢٠، و«القرطبي» ٣٥/١٢. والفعل بتحريك اللام: موضع لبني جملة بن قيس بنجد، وهو في أعلى بلاد قيس، والبيت شاهد على زيادة الباء في قوله «بالفرج»، أي: ونرجو الفرج، وهي زائدة في المفعول به سماعاً، ويروى البيت: نضرب بالبيض وندعو بالفرج. وكلا الروايتين بمعنى واحد.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: وُدُّ هؤلاء المشركون يا محمد لو تلين لهم في دينك بإجابتك إياهم إلى الركود إلى آلهم فيلينون لك في عبادتك إلهك، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَلَوْ أَنَّ بَنِيكَ لَقَدْ رَكِبَتْكَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّكَ قِيلًا﴾ ^(١) إِنْكَ لَا تَدْرُكُهُمْ يَدُهُنَّ ^(٢) لَمْ تَزَلْ تَحْتَضِرُ الْكُفْرَانَ ^(٣) قال: وإنما هو مأخوذ من المُنْ، شبه التلين في القول بتلين المُنْ.

(٤) روى البخاري في «صحيحه» ٥٠٧/٨ عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبِرٌ﴾ ^(١) قال: رجل من قريش له زئمة مثل زئمة الشاهد قال الحافظ -

قوله تعالى: ﴿هَكَازٍ﴾ قال ابن عباس: هو المغتاب. وقال ابن قتيبة: هو العيَّاب.

قوله تعالى: ﴿تَشْتَمُ بِبَيْبَرٍ﴾ أي: يمشي بين الناس بالنميمة، وهو نقل الكلام السيئ من بعضهم إلى بعض ليفسد بينهم^(١) ﴿تَنَاجٍ لِلتَّنَجْرِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه منع ولده وعشيرته الإسلام، قاله ابن عباس. والثاني: مَنَاجٍ للحقوق في ماله، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿تَمْتَدُّ﴾ أي: ظلموم ﴿أَبْيَرٍ﴾ فاجر ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: مع ما وصفناه به^(٢). وفي «العُتْلُ» سبعة أقوال: أحدها: أنه العاني الشديد المناق، قاله ابن عباس. والثاني: أنه المتوَقَّرُ الجسم، قاله الحسن. والثالث: الشديد الأَشِيرُ. قاله مجاهد. والرابع: القوي في كفره، قاله عكرمة. والخامس: الأكل الشروب القوي الشديد، قاله عبيد بن عمير. والسادس: الشديد الخصومة بالباطل، قاله الفراء. والسابع: أنه الغليظ الجافي، قاله ابن قتيبة. وفي «الزَّيْمِ» أربعة أقوال: أحدها: أنه الدَّعِي في قریش وليس منهم، رواء عطاء عن ابن عباس، وهذا معروف في اللغة أن الزَّيْمِ هو الملتصق في القوم وليس منهم، وبه قال الفراء. وأبو عبيدة، وابن قتيبة. قال حسان:

وَأَلَّتْ زَيْنِمٌ نَيْسِطٌ فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نَيْسِطٌ خَلْفَ الرَّائِبِ الْقَدْحُ الْفَرْدُ^(٣)

والثاني: أنه الذي يعرف بالشَّرِّ، كما تعرف الشاة بِزَمَتِهَا^(٤)، رواء سعيد بن جبیر عن ابن عباس. والثالث: أنه الذي له زَمَةٌ مثل زَمَةِ الشاة. وقال ابن عباس: نُعت قلم يعرف حتى قيل: زَيْنِمٌ، فعرف، وكانت له زَمَةٌ في عنقه يعرف بها. ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه من ذكر عيوب الوليد، لأنه وصفه بالحلف، والمهانة، والعيب للناس، والمشي بالنميمة، والبخل، والظلم، والإثم، والجفاء، والدُّعْوَةُ، فالحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة. والزَّمَتَانِ: المعلقتان عند حلوق المعزى. وقال ابن فارس: يعني التي تتعلق من أذنها. والرابع: أنه الظلوم، رواء الزوايلي عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَنَبِينَ﴾ ﴿قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَنَافِعٌ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَالْكَسَائِيُّ، وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ: «أَنْ كَانَ» عَلَى الْخَبَرِ، أَيْ: لِأَنَّ كَانَ. وَالْمَعْنَى: لَا تَطْعَمَ لِمَالِهِ وَبَنِيهِ. وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ بِهَمْزَيْنِ، الْأُولَى: مُخَفَّفَةٌ. وَالثَّانِيَةُ: مُلِينَةٌ، وَفَصْلٌ بَيْنَهُمَا بِالْفِ أَبُو جَعْفَرٍ. وَقَرَأَ حَمْزَةً: «أَنَّ كَانَ» بِهَمْزَيْنِ مُخَفَّفَتَيْنِ عَلَى الْإِسْتِفْهَامِ، وَلَهُ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: لِأَنَّ كَانَ ذَا مَالٍ تَطْعِمُهُ؟ وَالثَّانِي: أَلَا كَانَ ذَا مَالٍ وَنَبِيْنِ؟ ﴿إِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِ أَكِنَّتٌ﴾ يَكْفُرُ بِهَا؟ فَيَقُولُ: ﴿أَسْتَطِيعُ الْأَوَّلِينَ﴾ ذَكَرَ الْقَوْلَيْنِ الْفَرَاءُ. وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «أَنْ كَانَ» بِهَمْزَةٍ وَاحِدَةٍ مَقْصُورَةٍ. ثُمَّ أَوْعَدَهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَنَبِّئُهُ عَلَى الظُّلُمِ﴾ ﴿الْخُرُطُومُ: الْأَنْفُ. وَفِي هَذِهِ السُّمَّةِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: سَنَسَمُهُ بِالسَّيْفِ، فَجَعَلَ ذَلِكَ عَلَامَةً عَلَى أَنْفِهِ مَا عَاشَ، فَقَاتَلَ يَوْمَ بَدْرٍ فَخَطَمَ بِالسَّيْفِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَالثَّانِي: سَتَلَحَّقَ بِهِ شَيْئاً لَا يَفَارِقُهُ، قَالَ قَتَادَةُ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ. وَالثَّلَاثُ: أَنْ الْمَعْنَى: سَنَسُودُ وَجْهَهُ. قَالَ الْفَرَاءُ: وَ «الْخُرُطُومُ» وَإِنْ كَانَ قَدْ خَصَّ بِالسُّمَّةِ، فَإِنَّهُ فِي مَذْهَبِ الْوَجْهِ، لِأَنَّ بَعْضَ الْوَجْهِ يُؤْذِي عَنْ الْبَعْضِ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: سَنَجَعَلُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ الْعِلْمَ الَّذِي يَعْرِفُ بِهِ أَهْلَ النَّارِ مِنْ أَسْوَدَادٍ وَجُوهِهِمْ. وَجَائِزٌ - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَنْ يَفْرِدَ بِسْمَةِ لِمَبَالِغَتِهِ فِي عِدَاوَتِهِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ يَنْبِئُ بِهَا عَنْ غَيْرِهِ.

ابن حجر في «الفتح»: اختلف في الذي نزلت فيه، قليل: هو الوليد بن المغيرة. وذكره يحيى بن سلام في «تفسيره». وقيل: الأسود بن عبد يغوث، ذكره سديد بن داود في «تفسيره»، وقيل: الأخنس بن شريق، وذكره السهيلي عن القتيبي. وحكى هذين القولين الطبري، فقال: يقال: هو الأخنس، وزعم قوم أنه الأسود، وليس به، وأبعد من قال: إنه عبد الرحمن بن الأسود، فإنه يصغر عن ذلك، وقد أسلم، وذكر في الصحابة.

(١) وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث ابن عباس ؓ قال: مرُّ رسول الله ﷺ بقرين، فقال: «إنهما ليمْلَبَانِ، وما يعلَبَانِ في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة». وفي «الصحيحين» أيضاً من حديث حذيفة ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتاتٌ أي: نمام»، كما في رواية أخرى لمسلم.

(٢) في «الصحيحين» عن حارثة بن وهب الخزاعي ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أتيتكم بأهل الجنة، كل ضعيف متطعم لو أقسم على الله لأبره، ألا أتيتكم بأهل النار كل ختل جَوَاطٍ مستكبر». والجَوَاطُ: الجموع المنوع.

(٣) «ديوانه» ١٦٠، «مجاز القرآن» ٢/ ٢٦٥، «الطبري» ٢٩/ ٢٥، «القرطبي» ١٨/ ٢٣٤.

(٤) قال في «المصباح»: الزَّمَةُ مثال قصبة: المتدلية من الحلق.

﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْكَلْبِ إِذْ اتَّقَمُوا لَيْسَمَتَهُمْ مُّصِيبِينَ ﴿٧﴾ وَلَا يَسْتَنْقِذُونَ ﴿٨﴾ فَلَمَّا عَلَيَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ قَائِمُونَ ﴿٩﴾ فَاصْبَحْتَ كَالْمَرِيضِ ﴿١٠﴾ فَتَنَادَا مُّصِيبِينَ ﴿١١﴾ أَيْنَ أَقْدُمَا عَلَى حَرْزِكَ إِن كُنْتُمْ صَرِيمِينَ ﴿١٢﴾ فَاطْلُقُوا وَهُمْ يَنْتَحِنُونَ ﴿١٣﴾ أَلَا لَا يَسْتَنْقِذُونَ عَلَيْكَ نَيْبِكَ ﴿١٤﴾ وَغَدَا عَلَى حَرْزٍ قَدِيرٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُمَا قَالَ إِنَّا لَنَاقِلُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَرَأَيْتُمْ أَنزِلَ لَكُمْ مَاءً سَمِيمًا ﴿١٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْنَهُ ﴿٢٠﴾ قَالُوا يَبُولًا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢١﴾ عَسَى رَبَّنَا أَن يُبَاسِلَنَا ذُرِّيَّتَنَا إِنَّا إِلَهُ رَبَّنَا مُتَشَبِهُونَ ﴿٢٢﴾ كَذَلِكَ الْقَدَابُ وَلَتَكُنَّ الْآخِرَةُ أَكْثَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّ لِلنَّاسِ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ أَفَتَجْمَلُ السَّيِّئِينَ كَالْطَّيِّبِينَ ﴿٢٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٢٧﴾ إِذْ لَكُمْ فِيهِ لَا تَحْكُمُونَ ﴿٢٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْدِيكُمْ فَلْيُفَكِّكُنَّ إِن لَّكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ ﴿٢٩﴾ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ وَإِلَّا لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ﴾ يعني: أهل مكة، أي: ابتليانهم بالجوع، والفحط ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْكَلْبِ﴾ حين هلكت جثتهم

وهذه الإشارة إلى قصتهم

ذكر أهل التفسير أن رجلاً كان بناحية اليمن له بستان، وكان مؤمناً. وذلك بعد عيسى ابن مريم عليه السلام، وكان يأخذ منه قدر قوته، وكان يتصدق بالباقي. وقيل: كان يترك للمساكين ما تعداه المنجول، وما يسقط من رؤوس النخل، وما ينتثر عند الدّراس، فكان يجتمع من هذا شيء كثير، فمات الرجل عن ثلاث بنين، فقالوا: والله إن المال لقليل، وإن العميال لكثير، وإنما كان أبونا يفعل هذا إذ كان المال كثيراً، والعيال قليلاً، وأما الآن فلا نستطيع أن نفعل هذا. فعزموا على حرمان المساكين، وتحالفوا بينهم ليعذّبوا قبل خروج الناس، فليصرم نخلهم، فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ اتَّقَمُوا﴾ أي: جلفوا ﴿لَيْسَمَتَهُمْ﴾ أي: ليقطعن نخلهم ﴿مُصِيبِينَ﴾ أي: في أول الصباح. وقد بقيت من الليل ظلمة لثلا يبقى للمساكين شيء^(١). وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَنْقِذُونَ﴾ قولان: أحدهما: لا يقولون: إن شاء الله، قاله الأكثرون. والثاني: لا يستنون حق المساكين، قاله عكرمة. ﴿فَلَمَّا عَلَيَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: من أمر ربك. قال الفراء: الطائف لا يكون إلا بالليل. قال المفسرون: بعث الله عليها ناراً بالليل، فاحترقت، فصارت سوداء، فذلك قول تعالى: ﴿فَاصْبَحْتَ كَالْمَرِيضِ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: كالرماد الأسود، قاله ابن عباس. والثاني: كالليل المسود، قاله الفراء. وكذلك قال ابن قتيبة: أصبحت سوداء كالليل محترقة. والليل: هو الصريم، والصبح أيضاً: صريم، لأن كل واحد منهما ينصرم عن صاحبه. والثالث: أصبحت وقد ذهب ما فيها من الشر، فكانه قد صرم، أي: قطع وجُدَّ، حكاه ابن قتيبة أيضاً.

قوله تعالى: ﴿فَتَنَادَا مُّصِيبِينَ﴾ أي: نادى بعضهم بعضاً لما أصبحوا ﴿أَيْنَ أَقْدُمَا عَلَى حَرْزِكَ﴾ يعني: الثمار والزروع والأعنان ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ﴾ أي: قاطعين للنخل، ﴿فَاطْلُقُوا﴾ أي: ذهبوا إلى جثتهم ﴿وَهُمْ يَنْتَحِنُونَ﴾ قال ابن قتيبة: يتساررون بـ ﴿أَلَا لَا يَسْتَنْقِذُونَ عَلَيْكَ نَيْبِكَ﴾ و﴿غَدَا عَلَى حَرْزٍ﴾ فيه ثمانية أقوال: أحدها: على قدرة، قاله ابن عباس. والثاني: على فاقة، قاله الحسن في رواية. والثالث: على جد، قاله الحسن في رواية، وقتادة، وأبو العالية، والفراء، ومقاتل. والرابع: على أمر مجمع قد أسسوه بينهم، قاله مجاهد، وعكرمة. والخامس: أن الحرد: اسم الجنة، قاله السدي. والسادس: أنه الحق والغضب على المساكين، قاله الشعبي، وسفيان. وأنشد أبو عبيدة:

أَسْوَدُ شَرِّ لَأَقْتُ أَسْوَدَ خَفِيَّةٍ نَسَاقُوا عَلَى حَرْدٍ دِمَاءِ الْأَسَاوِدِ^(٢)

والسابع: أنه المنع، مأخوذ من حَارَدَتِ السَّيَّةُ فليس فيها مطر، وحادوت الناقة فليس لها لبن، قاله أبو عبيدة، وابن قتيبة. والثامن: أنه القصد. يقال: حَرَدْتُ حَرْدَكَ، أي: قَصَدْتُ قَصْدَكَ، حكاه الفراء، وأبو عبيدة، وابن قتيبة. وأنشدوا:

(١) ذكر هذه القصة البخوي في «تفسيره» من رواية محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وذكرها الخازن عن ابن عباس بغير سند.

(٢) البيت للأشهب بن رُمَيْلة الذي كان يهاجي الفزدق، وهو في «مجاز القرآن» ٢/٢٦٦، و«الكامل» للمبرد ٤٣٨، و«الطبري» ١٩/٣٣، و«القرطبي» ٢/١٧٧، و«السمط» ٣٥، و«معجم ما استمعج» ٣/٧٨٥، و«العيني» ١/٤٨٢، و«الخرزاة» ٢/٥٠٨، و«شري» و«خفية» مأسدتان معروفتان، و«الحرد» الغضب، من حَرَدَ يَحْرَدُ حَرْدًا، مثل غَضِبَ يَغْضَبُ غَضْبًا. والأساود: جمع أسود، وهو اسم للحيّة، ولذلك جمع كما تجمع الأسماء على «أفعال»، مثل «أرانب»، ولو كان صفة لجمع على: سود.

يَخْرُودُ الْجَنَّةِ الْمُؤَلَّةِ

قَدْ جَاءَ سَيْلٌ كَانَ مِنْ أَمْرِ اللَّيْلِ

أي: يقصد قصدها. قال ابن قتيبة: وفيها لغتان: خَرَدٌ، وَخَرْدٌ، كما يقال: الذُّرْكُ، والذُّرْكُ. وفي قوله تعالى: ﴿يَذَرِينَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: قادريين على جَنَّتِهِمْ عند أنفسهم، قاله قتادة. والثاني: قادريين على المساكين، قاله الشعبي. والثالث: أن المعنى: منعوا وهم قادرون، أي: واجدون، قاله ابن قتيبة. قالوا: ﴿لَا رَأْيَ﴾ محترقة ﴿هَلَاؤًا إِنَّا لَسَاوُونَ﴾ أي: قد ضللتنا طريق جَنَّتِنَا، فليست هذه. ثم علموا أنها عقوبة، فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ عَرَّوُونَ﴾ (١٧) أي: حُرِمْنَا فَمَرَّ جَنَّتِنَا بمنعنا المساكين ﴿هَلَا أَوْسَكُكُمْ﴾ أي: أعدلهم، وأفضلهم ﴿لَوْلَا﴾ أي: هَلَا ﴿تَسْبُحُونَ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: هَلَا تَسْتَبْشِرُونَ عند قولكم: «ليصيرمُها مصبحين» قاله ابن جريج والجمهور. والمعنى: هَلَا قلتم: إن شاء الله. قال الزجاج: إنما قيل للاستثناء: تسبح، لأن التسبيح في اللغة: تنزيه الله ﷻ عن السوء. والاستثناء تعظيم لله، وإقرار بأنه لا يقدر أحد أن يفعل فعلاً إلا بمشيئة الله. والثاني: أنه كان استثناءهم قول: «سبحان الله»، قاله أبو صالح. والثالث: هَلَا تَسْبُحُونَ الله وتشكرونه على ما أعطاكم، حكاه الثعلبي. وقوله تعالى: ﴿هَلَاؤًا سَبَّحَ رَبِّي﴾ فنزَّهوه أن يكون ظالماً فيما صنع، وأقرُّوا على أنفسهم بالظلم فقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بمنعنا المساكين ﴿فَأَنْتَبَلَّ عَنْهُمْ عَلَى بَعْضِ يَتَكُونُونَ﴾ (١٨) أي: يلوم بعضهم بعضاً في منع المساكين حقوقهم. يقول هذا لهذا: أَنْتَ أَشْرْتَ علينا، ويقول الآخر: أَنْتَ فَعَلْتَ، ثم نادَوْا على أنفسهم بالويل، فقالوا: ﴿يَرْبُّكَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ حين لم نصنع ما صنع آبائنا، ثم رجعوا إلى الله تعالى فسألوه أن يبدلهم خيراً منها، فذلك قوله: «عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْراً مِنْهَا». وقرأ قوم: «يبدلنا» بالتخفيف، وهما لغتان. وفَرَّقَ قوم بينهما، فقالوا: التبديل: تغيير حال الشيء وصفته والعين باقية. والإبدال: إزالة الشيء ووضع غيره مكانه. ونقل أن القوم أخلصوا، فبدَّلهم الله جَنَّةَ العَنُقُودِ منها وَثَرُ بَغْلٍ.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَلْقَيْنَا﴾ ما فعلنا بهم فعل بمن تعدَّى حدودنا. وهاهنا انتهت قصة أهل الجنة. ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا كُنْتُ الْأَخْرَى أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: المشركين. ثم ذكر ما للمتقين عنده بما بعد هذا، فقال المشركون: إِنَّا لَنُغْطِي فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلَ مِمَّا تُغْطُونَ، فقال تعالى مكذباً لهم: ﴿فَتَجَمَّلَ الْمُتَّقِينَ كَلْبَرِيَّةٍ﴾ (١٩) قال الزجاج: هذه ألف الاستفهام مجازها هاهنا مجاز التوبيخ، والتقرير.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: كيف تقضون بالجور ﴿إِنَّمَا لَكُمْ كِتَابٌ أَنْزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فِيهِ﴾ هذا ﴿تَدْرُسُونَ﴾ أي: تقرأون ما فيه ﴿إِنَّمَا لَكُمْ﴾ في ذلك الكتاب ﴿لَا تَحْزَنُونَ﴾ أي: ما تختارون وتشتهون. وقرأ أبو الجوزاء، وعاصم الجحدري، وأبو عمران: «أن لكم» بفتح الهمزة. وهذا تفريع لهم، وتوبيخ على ما يتمنون من الباطل ﴿سَلَّمْتُ إِلَهُكُمْ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ (٢٠) ﴿إِنَّمَا لَكُمْ أَيْتُنْ عَيْنًا بَلَاءَةً﴾ أي: ألكم عهد على الله تعالى حلف لكم على ما تَدْعُونَ بِأَيْمَانٍ بِالْعَفْوِ، أي: مُؤَكَّدَةٍ. وكل شيء متناوٍ في الجودة والصحة فهو بالغ. ويجوز أن يكون المعنى: بالغة إلى يوم القيامة، أي: تبلغ تلك الأيمان إلى يوم القيامة في لزومها وتوكيدها. ﴿إِنَّمَا لَكُمْ لَّا تَحْكُمُونَ﴾ لأنفسكم به من الخير والكرامة عند الله تعالى. قال الفراء: والقراء على رفع «بالغة» إلا الحسن فإنه نصبها على مذهب المصدر، كقوله تعالى: ﴿حَقًّا﴾ [الروم: ٤٧]. ومعنى الآية: هل لكم إيمان علينا بالغة بأن لكم ما تحكمون؟ فلما كانت اللام في جواب «إن» كسرتهَا.

قوله تعالى: ﴿سَلَّمْتُ إِلَهُكُمْ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ (٢١) فيه قولان: أحدهما: أنه الكفيل، قاله ابن عباس، وقتادة. والمعنى: أَنَّهُمْ كَفَلُ بَانَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مَا لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْخَيْرِ. والثاني: أنه الرسول، قاله الحسن.

(١) الرجز غير منسوب «مجاز القرآن» ٢/٢٦٦، و«الكامل» ٥٠، و«الطبري» ٣٣/٢٩، و«القرطبي» ١٨/٣٤٢، و«شواهد الكشاف» ٢٥٤، وفي «معاني القرآن» للفراء: والحد أيضاً: القصد كما يقول الرجل: قد أقبلت، وتصدت قصدك، وحردت حردك، وأنشدني بعضهم: وجاء سيل كان... وجاء في «الكامل» للمبرد بعد إنشاد البيت: قال أبو حاتم: هذه صنعة من لا أحسن الله ذكوره يعني قطرياً. وأبو حاتم: هو سهل بن محمد بن عثمان السجستاني من شيوخ أبي العباس، وقوله: «هذه صنعة» يريد حذف الألف من لفظ الجلالة، والأليق باسم الله أن ينطق به على أكمل وجه، والمراد بـ «قطري» قطري بن النجاء الخارجي. قال المصنفي في شرح «الكامل» ١/١٨٠: ومن الغريب من نقل عن ابن السيد شارح الكتاب أن هذا الرجز لقطرب بن المستنير تلميذ سيويه.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يعني: الأصنام التي جعلوها شركاء لله تعالى، والمعنى: ألهم أرباب يفعلون بهم هذا الذي زعموا. وقيل: يشهدون لهم بصدق ما ادَّعَوْا ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في أنها شركاء الله. وإنما أضيف الشركاء إليهم لادِّعائهم أنهم شركاء الله.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ١٢١ ﴿خَشِيتُمْ أَهْوَاءَكُمْ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُورِ وَهُمْ سَلَطُونَ﴾ ١٢٢ ﴿فَلْيَنْفِرْ بَيْنَ يَدَيْهِمْ لِيَذَلَّ الْمُؤْمِنُونَ مِمَّنْ خَلَّاهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْكُمُونَ﴾ ١٢٣ وَأَمَّا لَهُمْ إِنَّ كَيْدَ نَبِيِّ ١٢٤ أَمْ كُنْتُمْ لَأَمْرٍ أَهْوَاءَ مِنْ مَقَرٍّ مَقُوتُونَ ١٢٥ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ١٢٦

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ﴾ المعنى: فلْيأتوا بها يوم يكشف عن ساق. قرأ الجمهور: «يُكْشَفُ» بضم الباء، وفتح الشين. وقرأ ابن أبي عبله، وعاصم الجحدري، وأبو الجوزاء، بفتح الباء، ويكسر الشين. وقرأ أبي بن كعب، وابن عباس: «تُكْشِفُ» بئاء مفتوحة، وكسر الشين. وقرأ ابن مسعود، وأبو مجلز، وابن يعمر، والضحاك: «تُكْشِفُ» بنون مفتوحة مع كسر الشين. وهذا اليوم هو يوم القيامة. وقد روى عكرمة عن ابن عباس: «يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ» قال: يُكْشَفُ عَنْ شِدْوٍ^(١)، وأنشد:

وَقَامَتْ الْحَرْبُ بِنَاءً عَلَى سَاقٍ^(٢)

وهذا قول مجاهد، وقناة. قال ابن قتيبة: وأصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى معاناته والجِدِّ فيه، شتم عن ساقه، فاستعيرت الساق في موضع الشدة، هذا قول الفراء، وأبي عبيدة، واللغويين. وقد أضيف هذا الأمر إلى الله تعالى. فروي في «الصحاحين» من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه «يكشف عن ساقه»^(٣)، وهذا إضافة إليه، لأن الكل له وفعله. وقال أبو عمر الزاهد: يراد بها النفس، ومنه قول علي عليه السلام: أقاتلهم ولو تلفت ساقِي، أي: نفسي. فعلى هذا يكون المعنى: يتجلى لهم.

قوله تعالى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُورِ﴾ يعني: المنافقين: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ كان في ظهورهم سفايد الحديد. قال النقاش: وليس ذلك بتكليف لهم أن يسجدوا، وهم عجزة، ولكنه توبيخ لهم بتركهم السجود ﴿خَشِيتُمْ أَهْوَاءَكُمْ﴾ أي: خاضعة ﴿رَهَقُمْ إِلَهُ﴾ أي: تفشاهم ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُورِ﴾ يعني: بالأذان في دار الدنيا، ويؤمرون بالصلاة المكتوبة ﴿وَهُمْ سَلَطُونَ﴾ أي: معافون ليس في أصلاهم مثل سفايد الحديد. وفي هذا وعيد لمن ترك صلاة الجماعة. وكان كعب يقول: والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلفون عن الجماعات. ﴿فَلْيَنْفِرْ بَيْنَ يَدَيْهِمْ لِيَذَلَّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: القرآن. والمعنى: خل بيني وبينه. قال الزجاج: أي: لا تشغل قلبك به، كله إلي فانا أكفيك أمره. وذكر بعض الفسرين أن هذا القدر من الآية إلى قوله: «الحديث» منسوخ بآية السيف. وما بعد هذا مفسر في [الأمراء: ١٨٢ - ١٨٣] إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ لَأَمْرٍ أَهْوَاءَ﴾ فإنها مفسرة والتي قبلها في [الطور: ٣٩، ٤٠].

﴿فَأَمَّا لِلَّهِ لَوْ كَانَ كَلْبٌ فَهُوَ أَكْثَرُ فَتَنًا﴾ ١٢٧ ﴿وَلَا أَنْ تَذَكَّرَ فِتْنَةً مِنْ رَبِّهِ لَيْدٌ بِالرَّهْءِ وَهُوَ مَدْمُومٌ﴾ ١٢٨ ﴿فَأَجْنِبْنِي رَهْمَ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ١٢٩ ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَهْلٌ كَرَامًا فَذَلِكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ﴾ ١٣٠ ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ١٣١

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا لِلَّهِ لَوْ كَانَ كَلْبٌ﴾ أي: اصبر على أذاهم لقضاء ربك الذي هو آت. وقيل: معنى الأمر بالصبر منسوخ بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ كَلْبٌ لُؤْيٍ﴾ وهو يونس. وفيماذا نهي أن يكون مثله قولان: أحدهما: أنه العجلة، والغضب، قاله قناة. والثاني: الضعف عن تبليغ الرسالة، قاله ابن جرير. قال ابن الأنباري: وهذا لا يخرج يونس من

(١) قال النووي في «شرح مسلم»: فسر ابن عباس وجمهور أهل اللغة وغريب الحديث الساق هنا بالشفة، أي: يكشف عن شدة وأمر مهول.

(٢) هذا البيت من الرجز المشطور، ذكره الطبري ٣٨/٢٩ من رواية ابن حميد عن مهران عن سفيان عن المغيرة عن إبراهيم عن ابن عباس، ونص رواية عكرمة عن ابن عباس «يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ» قال: هو يوم حرب وشدة، ولم يذكر الرجز فيها.

(٣) هو جزء من حديث طويل مشهور في البخاري ٣٥٩/١٣، ومسلم ١/١٦٨، ورواه البخاري مختصراً ٥٠٨/٨ ونصه: عن أبي سعيد الخدري عليه السلام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد ليعود ظهوره طبقاً واحداً».

أولي العزم، لأنها خطيئة. ولو قلنا: إن كل مخطئ من الأنبياء ليس من أولي العزم، خرجوا كلهم إلا يحيى. ثم أخبر عن عقوبته إذ لم يصبر، فقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْشُوفٌ﴾ قال الزجاج: مملوء غمًا وكربًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْ تَذَكَّرُ﴾ وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وابن أبي عبله: «لولا أن تداركته» بناءً خفيفة، وبناءً ساكنة بعد الكاف مع تخفيف الدال. وقرأ أبو هريرة، وأبو المتكلى: «تداركه» بناءً واحدة خفيفة مع تشديد الدال. وقرأ أبي بن كعب: «تداركه» بناءً من خفيفتين. ﴿يَمْنَةً بَيْنَ رَيْبٍ﴾ فرحمه بها، وتاب عليه من معاصيه ﴿كَيْدٌ بِالرَّاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ وقد بينا معنى «البراء» في [الصفات: ١٤٥]. ومعنى الآية: أنه نَبَذَ غير مذموم لنعمة الله عليه بالتوبة والرحمة. وقال ابن جريج: نَبَذَ بالبراء، وهي: أرض المحشر، فالمعنى: أنه كَانَ يَبْقَى مكانه إلى يوم القيامة ﴿فَاجْتَنِبْ رَيْبُ﴾ أي: استخلصه واصطفاه، وخلّصه من الذم ﴿فَمَجَّلَ بَيْنَ الْقَلِيلَيْنِ﴾ فردَّ عليه الوحي، وشفعه في قومه ونفسه ﴿إِنْ يَكُذِّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَكِرَتُوكَ بِأَمْرِهِ﴾ قرأ الأكثرون بضم الياء من أزلقته، وقرأ أهل المدينة، وأبان بفتحها من زَلَقْتُهُ أزلقته، وهما لغتان مشهورتان في العرب. قال الزجاج: يقال: زلق الرجل رأسه وأزلقه: إذا حلقه. وفي معنى الآية للمفسرين قولان: أحدهما: أن الكفار قصدوا أن يصيبوا رسول الله ﷺ بالعين، وكان فيهم رجل يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل شيئاً، ثم يرفع جانب خبائه، فتمر به النعم، فيقول: لم أر كاليوم إبلاً لا غنماً أحسن من هذه، فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط منها عدة، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين، فعصم الله نبيه، وأنزل هذه الآية، هذا قول الكلبي، وتابعه قوم من المفسرين تلقفوا ذلك من تفسيره، منهم الفراء^(١). والثاني: أنهم كانوا ينظرون إليه بالعداوة نظراً شديداً يكاد يُزْلِقُهُ من شدته، أي: يلقيه إلى الأرض. وهذا مستعمل في كلام العرب. يقول القائل: نظر إليّ فلان نظراً كاد يصرعني. وأنشدوا:

يَسْتَقْبَارُضُونَ إِذَا السَّقَا فِي مَوْطِنٍ نَظَرًا يُزِيلُ مَوَاطِنَ الْأَقْدَامِ^(٢)

أي: ينظر بعضهم إلى بعض نظراً شديداً بالعداوة يكاد يزِيلُ الْأَقْدَامَ، وإلى هذا ذهب المحققون، منهم ابن قتيبة، والزجاج. ويدل على صحته أن الله تعالى قرن هذا النظر بسماع القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿لَنَا نَمِيمٌ إِلَازُكُمْ﴾ والقوم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهة، فيُجِدُّونَ النظر إليه بالبغيضاء. وإصابة العين، إنما تكون مع الإعجاب والاستحسان، لا مع البغض، فلا يُظَنُّ بالكلبي أنه فهم معنى الآية. ﴿وَمَا هُوَ﴾ يعني: القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي: موعظة.



(١) قال ابن كثير: وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله ﷻ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة. وقد روى مسلم في «صحيحه» ١٧١٩/٤ عن ابن عباس ؓ عن النبي ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا».

وروى البخاري وأصحاب «السنن» عن ابن عباس ؓ قال: كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين يقول: «أهيكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لائمه».

(٢) البيت غير منسوب في «غريب القرآن» ٤٨٢، و«مشكل القرآن» ١٣٠، و«البيان والتبيين» ١١/١، و«الصناعتين» ٢٨١، و«اللسان»: قرض، و«تفسير القرطبي» ٢٥٦/٨، و«البحر المحيط» ٣١٧/٨، و«الكشاف» ١٣٢/٤: ١٤٥.

سورة الحاقة

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ ١﴾ مَا الْخَافَةُ ٢ ﴿وَمَا أَزِيدُ ٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ ٤ بِالْقَارِعَةِ ٥ ﴿فَإِذَا ثَمُودُ قَامَ يُكْوَرُ ٦ بِالطَّغْيَةِ ٧﴾ وَتَأْتَا عَادَ ٨ قَامِلِكُورًا يَرْبِيعَ ٩ مَرَصَرٍ ١٠ عَالِيَةٍ ١١ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَنبِيلًا ١٢ آيَاتٍ ١٣ خُسُوفًا ١٤ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى ١٥ كَأَنَّهُمْ أَفْعَارٌ ١٦ نَحْلٌ ١٧ خَاوِيَةٌ ١٨ ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ١٩﴾ وَبِئْسَ فِرْعَوْنٌ ٢٠ وَمَنْ قَبْلَهُ ٢١ وَالْمُتَنَبِّئُكَ ٢٢ بِالطَّاغِيَةِ ٢٣ ﴿فَقَصَّوْا رِسَالَاتِهِمْ ٢٤ فَاذْكُرُوا ٢٥ أَنَّهُمْ رَأَوْهُ ٢٦﴾ إِنَّا لَنَّا عَلَمًا ٢٧ لِنَاذِرٍ ٢٨ ﴿لَنَجْزِلَنَّهُمْ لَكُرٍّ ٢٩ نَذِيرٍ ٣٠﴾ وَفِيهَا ٣١ أَذُنٌ ٣٢ رَءِيَّةٌ ٣٣ ﴿١﴾

﴿الْحَاقَّةُ ١﴾: القيامة. قال الفراء: إنما قيل لها: حاقة، لأن فيها حواقي الأمور. وقال الزجاج: إنما سميت الحاقة، لأنها تحق كل إنسان بعمله من خير وشر.

قوله تعالى: ﴿مَا الْخَافَةُ ٢﴾؟ هذا استفهام، معناه التفتيح لشأنها، كما تقول: زيد، وما زيد؟ على التعظيم لشأنه. ثم زاد في التهويل بأمرها، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَزِيدُ ٣﴾ أي: لأنك لم تعانها، ولم تدر ما فيها من الأحوال. ثم أخبر عن المكذبين بها، فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ ٤﴾ قال ابن عباس: القارعة: اسم من أسماء يوم القيامة. قال مقاتل: وإنما سميت بالقارعة، لأن الله تعالى يقرع أعداءه بالعذاب. وقال ابن قتيبة: القارعة: القيامة لأنها تقرع، يقال: أصابهم قوارع الدهر. وقال الزجاج: لأنها تقرع بالأحوال. وقال غيرهم: لأنها تقرع القلوب بالفرع. فأما ﴿الطَّاغِيَةِ ٢٣﴾ ففيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها طغيانهم وكفرهم، قاله ابن عباس، ومجاهد، ومقاتل، وأبو عبيدة، وابن قتيبة. قال الزجاج: ومعنى الطاغية عند أهل اللغة: طغيانهم. و «فاعلة» قد يأتي بمعنى المصادر، نحو عاقبة، وعافية. والثاني: بالصيغة الطاغية، قاله قتادة. وذلك أنها جاوزت مقدار الصياح، فأهلكتهم. والثالث: أن الطاغية: عافر الناقة، قاله ابن زيد. والريح الصرصر قد فسرناها في [آدم السجدة: ١٦]. والعاتية: التي جاوزت المقدار. وجاء في التفسير أنها عَثَّتْ على خُرَّانها يومئذ، فلم يكن لهم عليها سبيل.

قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ١١﴾ أرسلها وسلطها. والتسخير: استعمال الشيء بالاعتقاد. وفي قوله تعالى: ﴿خُسُوفًا ١٤﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: تباعاً، قاله ابن عباس. قال الفراء: الحسوم: الثباع، يقال في الشيء إذا تتابع، فلم ينقطع أوله عن آخره: حسوم. وإنما أُخِذَ - والله أعلم - من حَسَمَ الدَّاءَ: إذا كَوَّى صاحبه، لأنه يحصى ثم يكوى، ثم يتابع الكي عليه. والثاني: كاملة، قاله الضحاك. فيكون المعنى: أنها حسمت الليالي والأيام فاستوفتها على الكمال، لأنها ظهرت مع طلوع الشمس، وذهبت مع غروبها. قال مقاتل: هاجت الريح غُدُوَّةً، وسكنت بالعشي في اليوم الثامن، وقبضت أرواحهم في ذلك اليوم، ثم بعث الله طيراً أسود فالتقطهم حتى ألقاهم في البحر. والثالث: أنها حسمتهم، فلم تبق منهم أحدًا، أي: أذهبهم وأفتتهم، هذا قول ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا ١٥﴾ أي: في تلك الليالي والأيام ﴿صَرْعَى ١٥﴾ وهو جمع صريع، لأنهم صرعوا بموتهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَفْعَارٌ ١٦ نَحْلٌ ١٧﴾ أي: أصول نحل ﴿خَاوِيَةٌ ١٨﴾ أي: بالية. وقد بينا هذا في سورة [الفر: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ١٩﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: من بقاء، قاله الفراء. والثاني: من بقية، قاله أبو عبيدة. قال: وهو مصدر كالطاغية. والثالث: هل ترى لهم من أثر؟ قاله ابن قتيبة. ﴿وَبِئْسَ فِرْعَوْنٌ ٢٠ وَمَنْ قَبْلَهُ ٢١﴾ قرأ أبو عمرو، ويعقوب، والكسائي، وأبان: بكسر القاف، وفتح الباء. والباقون: بفتح القاف، وإسكان الباء. فمن كسر القاف أراد: من يليه ويحف به من جنوده وأتباعه. ومن فتحها أراد: من كان قبله من الأمم الكافرة. وفي «المؤتفكات»

ثلاثة أقوال: أحدها: قرى قوم لوط. والمعنى: وأهل المؤتفكات، قاله الأكثرون. والثاني: أنهم الذين ائتمفكوا بذنوبهم، أي: هلكوا بالذنوب التي معظمها الإفك، وهو الكذب، قاله الزجاج. والثالث: أنه قارون وقومه، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَالْحَالِظَةُ﴾ قال ابن قتيبة أي: بالذنوب، وقال الزجاج: الخاطئة: الخطأ العظيم. ﴿فَمَعَا رُسُلَ رَبِّهِمْ﴾ أي: كذبوا رسلهم ﴿فَلَنَذَعَنَّهُمْ أَفِدَةً رَابِيَةً﴾ أي: زائدة على الأحداث ﴿إِنَّا لَنَا مَعَا الْمَاءُ﴾ أي: تجاوز حدّه حتى علا على كل شيء في زمن نوح: ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ يعني: حملنا آبائكم وأنتم في أصلابهم ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ وهي: السفينة التي تجري في الماء: ﴿لِنَجْعَلَ لَكُمُ الْفَعْلَةَ﴾ التي فعلنا من إغراق قوم نوح، ونجاة من حملنا معه: ﴿لَنَذَكَّرُ﴾ أي: عبرة، وموعظة: ﴿رَبِّيَ أَذُنٌ رَبِيَّةٌ﴾ أي: أذنٌ تحفظ ما سمعت، وتعمل به. وقال الفراء: لتحفظها كل أذن، فتكون عظة لمن يأتي بعده.

﴿وَإِذَا نَفَعَ فِي الْأَرْضِ نَفْعَةً وَجِدَةً﴾ ﴿وَجَلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ نَذَكًا ذَكَّةً وَجِدَةً﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيُقَالُ عَرَضَ رَبِّكَ قَوْمَهُمْ يَوْمَئِذٍ نَبِيَّةٌ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ تُقَرَّبُونَ لَا تَخَفْنَ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَرَادَ كِتَابَ بَيْبُوتِهِ فَيَقُولُ مَا أَرَادَ كِتَابِيَّةٌ﴾ ﴿إِنِّي نَفَسْتُ أَيْ مَاتِي حَسْبِيَّةٌ﴾ ﴿نَهْوٌ فِي صِنْدُ رَابِيَةٍ﴾ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ ﴿فَقُلُوبُهُا دَائِيَةٌ﴾ ﴿كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا مَا سَأَلْتُمْ فِي الْآيَاتِ الْفَالَاةِ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ أَرَادَ كِتَابِيَّةٌ﴾ ﴿وَلَوْ أَدْرَى مَا حَسْبِيَّةٌ﴾ ﴿يَلْبَسُهَا كَانَتْ الْقَابِيَّةُ﴾ ﴿مَا أَفْرَقَ عَنِّي مَالِي﴾ ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ ﴿عُدُوهُ قُلُوبُهُ﴾ ﴿قُرْ لَنَجِيمٍ سُلُوكُهُ﴾ ﴿قُرْ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ ﴿إِنَّمَا كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿وَلَا يَحْشُرُ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِينَ﴾ ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حِسْمٌ﴾ ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَنَائِهِ﴾ ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَفَعَ فِي الْأَرْضِ نَفْعَةً وَجِدَةً﴾ وفيها قولان: أحدهما: أنها النفخة الأولى، قاله عطاء. والثاني: الأخيرة، قاله ابن السائب، ومقاتل. ﴿وَجَلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أي: حملت الأرض والجبال وما فيها ﴿نَذَكًا ذَكَّةً وَجِدَةً﴾ أي: كسرتا، ودقتا دقة واحدة، لا يشئ عليها حتى تستوي بما عليها من شيء، فتصير كالأديم الممدود. وقد أشرنا إلى هذا المعنى في [الأعراف: ١٤٣] عند قوله تعالى: ﴿جَعَلَكُمْ ذَكَاً﴾. قال الفراء: وإنما قال: فدكتا، ولم يقل: فدككن، لأنه جعل الجبال كالشيء الواحد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وأنشدوا:

هُمَا سَيِّدَانَا يَزْعُمَانِ وَإِنَّمَا

والعرب تقول: قد يسرت الغنم: إذا ولدت، أو تهيات للولادة.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ لتزول من فيها من الملائكة ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن وهيتها: ضعفها وتمزقها من الخوف، قاله مقاتل. والثاني: أنه تشققها، قاله الفراء. ﴿وَالْمَلَكُ﴾ يعني: الملائكة، فهو اسم جنس ﴿عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ أي: على جوانبها. قال الزجاج: ورجاء كل شيء: ناحيته، مقصور. والثنية: رجوان، والجمع: أرجاء. وأكثر المفسرين على أن المشار إليها السماء. قال الضحاك: إذا انشقت السماء كانت الملائكة على حافتها حتى يأمرهم الله تعالى، فينزلون إلى الأرض، فيحيطون بها، ومن عليها. وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: على أرجاء الدنيا.

(١) البيت في تفسير ابن جرير الطبري ٥٦/٢٩، ونسبه في «اللسان»: بسر، والعيني في شرح شواهد الألفية: إلى أبي أسيدة الدُبَيْرِي، وأنشد في «اللسان» قبله بيتاً آخر هو:

إِن لَنَا شَيْئَيْنِ لَا يَنْفَقَانِيَا

غَنِيَّتَيْنِ لَا يُخْبِرِي عَلَيْنَا غَنَامُ

أي: ليس فيهما من السيادة إلا كونهما قد يسرت غنماهما، أي: كثرت ألبانها ونسلها، والسودد يوجب البذل والعطاء والحراسة والحماية وحسن التدبير والحلم، وليس عندهما من ذلك شيء، واستشهد المؤلف بهذا البيت على أن الشاعر قال: غنماهما بلفظ الثنية للغنم، مع أن الغنم اسم للجمع، وليس بمفرد، ولكنه عامله معاملة المفرد، كما اعتبرت الجبال في قوله تعالى: ﴿وَجَلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ نَذَكًا ذَكَّةً وَجِدَةً﴾ في حكم المفرد كالأرض، ولذلك قال: فدكتا، ولم يقل: فدككن.

قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: فوق رؤوسهم، أي: العرش على رؤوس الحملة، قاله مقاتل. والثاني: فوق الذين على أرجائها، أي: أن حملة العرش فوق الملائكة الذين هم على أرجائها. والثالث: أنهم فوق أهل القيامة، حكاهما الماوردي. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿تَكْتَبُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ثمانية أملاك. وجاء في الحديث أنهم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أمدهم الله بأربعة أملاك آخرين، هذا قول الجمهور^(١). والثاني: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله ﷻ، قاله ابن عباس، وابن جبير، وعكرمة. والثالث: ثمانية أجزاء من الكرويين لا يعلم عددهم إلا الله، قاله مقاتل. وقد روى أبو داود في «سننه» من حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حِمْلَةِ الْعَرْشِ، أَنْ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أَذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ»^(٢).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُنْفَخُ﴾ على الله لحسابكم ﴿لَا تَحْزَنَ﴾ عليه. قرأ حمزة، والكسائي «لا يخفى» بالياء. وقرأ الباقر بالتاء. والمعنى: لا يخفى عليه ﴿مِنْكَ خَافِيَةٌ﴾ أي: نفس خافية، أو فَعْلَةٌ خافية. وفي حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدا، ومعاذير، وأما الثالثة، فعندها تطاير الصحف في الأيدي، فأخذ بيمينه، وأخذ بشماله»^(٣)، وكان عمر بن الخطاب يقول: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتزبنوا للعرض الأكبر، يومئذ لا تخفى منكم خافية. ﴿فَيَقُولُ مَاذَا قَالِ الزَّجَاجُ: هَاؤُمُ﴾ أمر من الجماعة. بمنزلة هاكم. تقول للواحد: ها يا رجل، وللثنتين: هاؤما يا رجلان. وللثلاثة: هاؤم يا رجال. قال المفسرون: إنما يقول هذا ثقة بسلامته وسروراً بنجاته. وذكر مقاتل أنها نزلت في أبي سلمة بن عبد الأسد.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَنَسْتُ﴾ أي: علمت وأيقنت في الدنيا ﴿إِنِّي لَمُنِّي حَسِيَّةٌ﴾ أي: أبعث، وأحاسب في الآخرة ﴿فَهَوُ فِي عَيْشَةٍ﴾ أي: حالة من العيش ﴿رَاضِيَةً﴾ قال الفراء: أي: فيها الرضا. وقال الزجاج: أي: ذات رضى يرضاها من يعيش فيها. وقال أبو عبيدة: مجازها مجاز مرضية ﴿فِي جَنَّةٍ عَلَيْهِ﴾ أي: عالية المنازل ﴿فَقُولُهَا﴾ أي: ثمارها ﴿دَانِيَةً﴾ أي: قريبة ممن يتناولها، وهي جمع قطف. والقطف: ما يقطف من الثمار. قال البراء بن عازب: يتناول الثمرة وهو نائم.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا﴾ أي: يقال لهم: كلوا ﴿وَأَشْرَبُوا حَيْثُ يَمَّا أَسْلَفْتُمْ﴾ أي: قدّمتم من الأعمال الصالحة ﴿فِي الْآلِئِ لَقَائِهِ﴾ الماضية، وهي أيام الدنيا. ﴿وَأَمَّا مَنْ أَرَبَ كَثِيرٌ بِشَاقِبَةٍ﴾ قال مقاتل: نزلت في الأسود بن عبد الأسد، قتله حمزة بيدر، وهو أخو أبي سلمة. وقيل: نزلت في أبي جهل.

قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُنِي لَرَأَيْتُ كَيْفِيَّةَ﴾ وذلك لما يرى فيه من القبايح ﴿وَلَرَأَيْتُ مَا جَسِيَّةٌ﴾ لأنه لا حاصل له في ذلك الحساب، إنما كلّه عليه. وكان ابن مسعود، وقتادة، ويعقوب، يحذفون الهاء من «كتابه»، و«حسابه» في الوصل. قال الزجاج: الوجه أن يوقف على هذه الهاءات، ولا توصل، لأنها أدخلت للوقف. وقد حذفها قوم في الوصل، ولا أحب مخالفة المصحف، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةٌ﴾ [القارة: ١٠].

(١) رواه الطبري من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن رسول الله ﷺ، وهو خبر مقطوع. ورواه الطبري أيضاً من طريق ابن إسحاق قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «هم اليوم أربعة» يعني حملة العرش «فإذا كانوا يوم القيامة أمدهم الله بأربعة آخرين فكانوا ثمانية» وقد قال الله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَتَنَبَّهُونَ قَبْلَهُ﴾ وهذا خبر مقطوع أيضاً. قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَتَنَبَّهُونَ قَبْلَهُ﴾ أي: يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة، قال: ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش، العرش العظيم، أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء، والله أعلم بالصواب اهـ.

(٢) رواه أبو داود في «سننه» رقم (٤٧٢٧) وسنده جيد، وذكره ابن كثير في «تفسيره» من رواية ابن أبي حاتم وقال: وهذا إسناد جيد رجاله كلهم ثقات.

(٣) رواه أحمد في «المستند»، وابن ماجه ١٤٣٠/٢ من رواية وكيع عن علي بن رفاعة عن الحسن بن أبي موسى. قال البوصيري في «الزوائد»: رجال الإسناد ثقات، إلا أنه منقطع، والحسن لم يسمع من أبي موسى، قاله علي بن المديني، وأبو حاتم، وأبو زرعة، وقد رواه الترمذي عن الحسن بن أبي هريرة وقال: لا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة. ورواه الطبري ٥٩/٢٩ من رواية مجاهد بن موسى عن زيد، عن سليمان بن حامد عن مروان الأصغر عن أبي واثل عن عبد الله نحوه، وقال ابن كثير: ورواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة مراسلاً مثله.

قوله تعالى: ﴿يَتَبَيَّنُ﴾ يعني: الموتة التي ماتها في الدنيا ﴿كَانَتْ آتِيَةً﴾ أي: القاطعة للحياة، فكانه تمنى دوام الموت، وأنه لم يَبْتَغِ للحساب ﴿هَكَكَ عَنِّي سُلَيْمِيَّةُ﴾ (١) فيه قولان: أحدهما: ضلّت عني حجتني، قاله مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والسدي. والثاني: زال عني ملكي، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿خُذُوا﴾ أي: يقول الله تعالى: ﴿خُذُوا قُلُوبَكُمْ﴾ (٢) أي: اجمعوا يده إلى عنقه ﴿قَدْ لَبِثِمُ سُلُوءُ﴾ أي: أدخلوه النار. وقال الزجاج: اجمعوه يضلّ النَّارَ ﴿قَدْ فِي سَلِيلَةٍ﴾ وهي: حلقة منتظمة ﴿ذَرَعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ قال ابن عباس: بذراع المَلَك. وقال نوّث الشامي^(١): كل ذراع سبعون باعاً، الباع أبعد مما بينك وبين مكة، وكان في رحبة الكوفة. وقال سفيان: كل ذراع سبعون ذراعاً. وقال مقاتل: ذرعها سبعون ذراعاً بالذراع الأول. ويقال: إن جميع أهل النار في تلك السلسلة.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْكُوهُمْ﴾ أي: أدخلوه. قال الفراء: وذكر أنها تدخل في دبر الكافر فتخرج من رأسه، فذلك سلكه فيها. والمعنى: ثم اسلكوا فيه السلسلة، ولكن العرب تقول: أدخلت رأسي في القنسوة، وأدخلتها في رأسي. ويقال: الخاتم لا يدخل في يدي، وإنما اليد تدخل في الخاتم، وإنما استجازوا ذلك، لأن معناه معروف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا اللَّهَ الْغَاطِيَّ﴾ (٣) أي: لا يصدق بوحدايته وعظمته ﴿وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعْمِ الْيَسِينِ﴾ (٤) أي: لا يطعمه، ولا يأمر بإطعامه ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَبِيرٌ﴾ (٥) أي: قريب ينفعه، أي: يشفع له ﴿وَلَا طَعْمُ إِلَّا مِنْ غَلِيلٍ﴾ (٦) فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه صديد أهل النار، قاله ابن عباس. قال مقاتل: إذا سال القيح، والدم، بادروا أكله قبل أن تأكله النار. والثاني: شجر يأكله أهل النار، قاله الضحاك، والربيع. والثالث: أنه غَسَالَةٌ أجوافهم، قاله يحيى بن سلام. قال ابن قتيبة: وهو «فغليل» من «غسلت» كأنه غسالة^(٧).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْغَاطِيُونَ﴾ يعني: الكافرين.

﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا تُبْعِرُونَ﴾ (٨) وَمَا لَا تُبْعِرُونَ (٩) إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٠) وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ (١١) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ (١٢) نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْغَلِيِّ (١٣)

قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسَرُ﴾ «لا» ردّ لكلام المشركين، كأنه قيل: ليس الأمر كما يقول المشركون ﴿أَقِيمُ بِمَا تُبْعِرُونَ﴾ (١٤) وَمَا لَا تُبْعِرُونَ وقال قوم: «لا» زائدة مؤكدة. والمعنى: أقسم بما ترون، وما لا ترون، فأراد جميع الموجودات. وقيل: الأجسام والأرواح، ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني: القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: محمد ﷺ، قاله الأكثرون. والثاني: جبريل، قاله ابن السائب، ومقاتل. قال ابن قتيبة: لم يرد أنه قول الرسول، وإنما أراد أنه قول الرسول عن الله تعالى، وفي الرسول ما يدل على ذلك، فاكتمى به من أن يقول عن الله ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ﴾ وقرأ ابن كثير: «يؤمنون» و «يذكرون» بالياء فيهما. قال الزجاج: «ما» مؤكدة، وهي لغو في باب الإعراب. والمعنى: قليلاً تؤمنون. وقال غيره: أراد نفي إيمانهم أصلاً. وقد بينّا معنى «الكاهن» في [الطور: ٢٩]. قال الزجاج: وقوله تعالى: «تنزيل» مرفوع بـ «هو» مضمره يدل عليها قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ﴾ هو تنزيل.

﴿وَلَوْ لَقَوْلٌ عَيْنًا بِبَعْضِ الْأَقَابِلِ﴾ (١٥) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (١٦) ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَيْتَ (١٧) فَمَا يَسْكُرُ مِنْ أَمْرِ عَنْهُ حَاجِرِينَ (١٨) وَإِنَّهُمْ لَذِكْرُ لِلْمُتَّقِينَ (١٩) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ يَسْكُرُ مُكَيِّدِينَ (٢٠) وَإِنَّهُمْ لَحَسَرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢١) وَإِنَّهُمْ لَعَنُ الْيَقِينِ (٢٢) فَسَجَّ بِأَنَسِ رَبِّكَ الْغَاطِيَّ (٢٣)

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَقَوْلٌ عَيْنًا﴾ أي: لو تكلف محمد أن يقول علينا ما لم نقله ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ (٢٤) أي: لاخذناه بالقوة والقدرة، قاله الفراء، والمبرد، والزجاج. قال ابن قتيبة: إنما أقام اليمين مقام القوة، لأن قوة كل شيء في ميامنه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَيْتَ﴾ (٢٥) وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، فإذا انقطع بطلت القوى،

(١) هو نوف بن فضالة الحميري البكالي، إمام أهل دمشق في عصره، من رجال الحديث، ورد ذكره في «الصحيحين»، وكان راوياً للقصص، وهو ابن زوجة كعب الأبحار. توفي نحو (٩٥هـ) رحمه الله.

(٢) في الأصل: الفسالة.

ومات صاحبه. قال أبو عبيدة: الوتين: نياط القلب، وأنشد الشَّماخ:

إِذَا بَبْلُغْتَنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي

عَرَابَةً فَأَشْرَقِي بِدَمِ الْوَتِينِ^(١)

وقال الزجاج: الوتين: عرق أبيض غليظ كأنه قصبه.

قوله تعالى: ﴿فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَثَرِهِ حَنِينٌ﴾^(٢) أي ليس منكم أحد يحجزنا عنه، وإنما قال تعالى: ﴿حَنِينٌ﴾ لأن أحداً يقع على الجمع، كقوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَأُ يَتُومَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، هذا قول الفراء، وأبي عبيدة، والزجاج. ومعنى الكلام: أنه لا يتكلف الكذب لأجلكم مع علمه أنه لو تكلف ذلك لعاقبناه، ثم لم يقدر على دفع عقوبتنا عنه ﴿وَأَنْتُمْ﴾ يعني: القرآن ﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ في يوم القيامة، يندمون إذ لم يؤمنوا به ﴿وَأَنْتُمْ لَعْنُ الْآلِينَ﴾^(٣) إضافة إلى نفسه لاختلاف اللفظين، كقوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩]. قال الزجاج: المعنى: وإنه لليقين حق اليقين، وقد شرحنا هذا المعنى، وما بعده في [الواقعة: ٩٥، ٩٦].



(١) البيت للشماخ بن ضرار التنلي، «ديوانه» طبع القاهرة ٩٢، و«الطبري» ٩٧/٢٩، و«القرطبي» ٢٧٦/١٨ من قصيدة يمدح بها عرابة بن أوس بن قيطي، وكان هو وأبوه من الصحابة، وكان عرابة مشهوراً بالكرم.

سورة المعارج

سورة سأل سائل، ويقال لها: سورة المعارج، ويقال لها:

سورة الواقع، وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ أَلَمِهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَنْجُو الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِذْ هِيَ فِي يَوْمٍ كَانَ بِقُدَارِهِمْ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَبِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَنْتَلِي حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴿١٠﴾ يَمْشُرُونَهُمْ يَوْمَ الْمَعْجَمِ ﴿١١﴾ لَوْ يَفْقَدُونَ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَيْنِيَّةٍ ﴿١٢﴾ وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٣﴾ وَفَصَّلَتْهُ أَلْفُ نَفْسٍ ﴿١٤﴾ وَفِي الْأَرْضِ جَبِيمًا ثُمَّ يُجْبِيهِ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَلُ ﴿١٦﴾ نَزَاجَةً لِلْفُجْورِ ﴿١٧﴾ تَدْعُو مَنْ أَذْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٨﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ قال المفسرون: نزلت في النضر بن الحارث حين قال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جَحَازَةً مِنْ السَّمَاءِ﴾^(١) [الأنفال: ٣٢]، وهذا مذهب الجمهور، منهم ابن عباس، ومجاهد. وقال الربيع بن أنس: هو أبو جهل. قرأ أبو جعفر، ونافع، وابن عامر: «سأل» بغير همز. والباقون: بالهمز^(٢). فمن قرأ: «سأل» بالهمز ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: دَعَا دَاعٍ على نفسه بعذابٍ واقع. والثاني: سأل سائل عن عذابٍ واقع لمن هو؟ وعلى من يَنْزِلُ ومتى يكون؟ وذلك على سبيل الاستهزاء، فتكون الباء بمعنى «عن»، وأنشدوا:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَلْنُزِي
خَبِيرٌ بِأَذْوَاءِ النِّسَاءِ طَلِيْبٌ^(٣)

والثالث: سأل سائل عذاباً واقعاً، والباء زائدة. ومن قرأ بلا همز ففيه قولان: أحدهما: أنه من السؤال أيضاً، وإنما لَيِّنَ الهمزة، يقال: سأل، وسال، وأنشد الفراء:

تَسَالَوْا فَسَأَلُوا يَغْلِمُ النَّاسُ أَيْنَا
لِصَاحِبِهِ فِي أَوَّلِ الدُّفْرِ تَابِعٍ

والثاني: المعنى: سأل واد في جهنم بالعذاب للكافرين، وهذا قول زيد بن ثابت، وزيد بن أسلم، وابن عبد الرحمن. وكان ابن عباس في آخرين يقرؤون «سَأَلَ سَائِلٌ» بفتح السين، وسكون الياء من غير ألف ولا همز وإذا قلنا: إنه من السؤال، فقوله تعالى: «للكافرين» جواب للسؤال، كأنه لما سأل: لمن هذا العذاب؟ قيل: للكافرين. والواقع: الكائن. والمعنى: أن العذاب للذي سأل هذا الكافر كائن لا محالة في الآخرة ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ﴾^(٤) مِنْ أَلَمِهِ قال الزجاج: المعنى: ذلك العذاب واقع من الله للكافرين.

قوله تعالى: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنها السموات، قاله ابن عباس. وقال مجاهد: هي معارج الملائكة. قال ابن قتيبة: أصل «المعارج» الدَّرَج، وهي من عَرَجَ: إِذَا صَعِدَ. قال الفراء: لما كانت الملائكة تَعْرُجُ إليه، وصف نفسه بذلك. قال الخطابي: المعارج: الدَّرَج، واحداً: مَعْرَجٌ، وهو المَصْعَدُ، فهو الذي يُصْعَدُ إليه بأعمال العباد، وبأرواح المؤمنين. فالمعارج: الطرائق التي يُصْعَدُ فيها. والثاني: أن الْمَعَارِجَ: الْفَوَاضِلُ والنعم، قاله قتادة.

(١) رواه الحاكم في «المستدرک» ٥٠٢/٢ عن سعيد بن جبیر وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وتعبه الذهبي فقال: على شرط البخاري فقط، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٦٣/٦ وزاد نسبة للقرطبي، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) قال ابن جرير الطبري: والذي هو أولى القراءتين بالصواب قراءة من قرأ بالهمز، لإجماع الحجة من القراء على ذلك، وأن عامة أهل التأويل من السلف بمعنى الهمزة تأولوه.

(٣) البيت لمعلقة بن عبدِة، وهو في «ديوانه» ١١، و «المفضليات» ٣٩٣، وأدب الكاتب ٥٠٥، والقرطبي ٢٧٩/٢٨ والشاهد فيه أن الباء في قوله «بالنساء» بمعنى «عن». والمعنى: فإن تسألوني عن النساء. والأدواء: جمع داء.

قوله تعالى: ﴿تَمُوتُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قرأ الكسائي: «يَعْرُجُ» بالياء. «وَأَرْجُحُ» في «الروح» قولان: أحدهما: جبريل، قاله الأكثرون. والثاني: رُوح الميت حين تُقبَضُ، قاله قبيصة بن ذؤيب.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي﴾ أي: إلى الله ﷻ ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه يوم القيامة، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، والقرظي، وهذا هو مقدار يوم القيامة من وقت البعث إلى أن يفصل بين الخلق. وفي الحديث: «إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَخَفُّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ»^(١). وقيل: بل لو ولي حسب الخلق سوى الله ﷻ لم يفرغ منه في خمسين ألف سنة، والحق يفرغ منه في ساعة من نهار. وقال عطاء: يفرغ الله من حساب الخلق في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا. فعلى هذا يكون المعنى: ليس دافع من الله في يوم مقداره خمسين ألف سنة. قيل: المعنى: سأل سائل بعذاب واقع في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير. والثاني: أن مقدار صعود الملائكة من أسفل الأرض إلى العرش لو صعد غيرهم قطعه في خمسين ألف سنة، وهذا معنى قول مجاهد.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا﴾ أي: اصبر على تكذيبهم إياك ﴿صَبْرًا حَسِيلًا﴾ لا جزع فيه، وهذا قبل أن يُؤْمَرَ بِقِتَالِهِمْ، ثم نسخ بآية السيف. ﴿إِنَّمَا يَرْوَنَّهُمْ﴾ يعني: العذاب ﴿بِمِيدٍ﴾ غير كائن ﴿وَرَيْنُهُ قَرِيْبًا﴾^(٢) كائناً، لأن كل ما هو آت قريب. ثم أخبر متى يكون فقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ الْمَسَكَةُ كَالَّذَلِّ﴾^(٣) وقد شرحناه في [الكهف: ٢٩] ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾^(٤) أي: كالصوف، فَصَبَّهَا فِي ضَعْفِهَا وَلَبِنَهَا بِالصُوفِ. وقيل: شَبَّهَا بِهِ فِي خِفَّتِهَا وَسَبَّحَهَا، لأنه قد نقل أنها تسير على صورها، وهي كالحباء. قال الزجاج: «العهن» الصوف. واحدته: عِهْنَةٌ، ويقال: عُهْنَةٌ، وعُهْنٌ، مثل: ضُوفٍ، وضُوفٍ. وقال ابن قتيبة: «العهن» الصوف المصبوغ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمْرٌ حِمَاً﴾ قرأ الأكثرون: «يسال» بفتح الياء. والمعنى: لا يسأل قريب عن قرابته، لا اشتغاله بنفسه. وقال مقاتل: لا يسأل الرجل قرابته، ولا يكلمه من شدة الأهوال. وقرأ معاوية، وأبو رزين، والحسن، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، وعكرمة، وابن محيصن، وابن أبي عبله، وأبو جعفر بضم الياء. والمعنى: لا يقال للحميم: أين حِمِيمُكَ؟

قوله تعالى: ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾ أي: يَعْرِفُ الْحَمِيمُ حَمِيمَهُ حَتَّى يَعْرِفَهُ، وهو مع ذلك لا يسأل عن شأنه، ولا يكلمه اشتغالاً بنفسه. يقال: بَصَّرْتُ زَيْدًا كَذَا: إِذَا عَرَفْتَهُ إِيَّاهُ. قال ابن قتيبة: معنى الآية: لا يسأل ذو قرابة عن قرابته، ولكنهم يُبْصِرُونَهُمْ، أي: يُعْرِفُونَهُمْ. وقرأ قتادة، وأبو المتوكل، وأبو عمران «يُبْصِرُونَهُمْ» بإسكان الباء، وتخفيف الصاد، وكسرها.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَذُ الْحَبَرِ﴾ يعني: يتمنى المشرك لو قُبِلَ منه الفداء ﴿بِوَيْدٍ يَبِينُ﴾^(٥) وَصَوْنَةٍ، وهي الزوجة: ﴿وَفَصِيلَةٍ﴾ قال ابن قتيبة: أي: عشيرته. وقال الزجاج: هي أدنى قبيلته منه. ومعنى: ﴿تَوْبَةٍ﴾ تضمته، فيود أن يفتدي بهذه المذكورات ﴿بِمَنْ يُبْجِي﴾ ذلك الفداء، ﴿كَلَّا﴾ لا ينجي ذلك ﴿إِنَّمَا لَظَنُ﴾ قال الفراء: هو اسم من أسماء جهنم، فلذلك لم يُجَرَّ، وقال غيره: معناها في اللغة: اللهب الخالص. وقال ابن الأنباري: سميت لظئ لشدة تَوَقُّدِهَا وتَلْهِبِهَا، يقال: هو يتلظى، أي: يتلهب ويتوقد. وكذلك النار تتلظى يراد بها هذا المعنى. وأنشدوا:

جَحِيمًا تَلْظَى لَا تَفْئِرُ سَاعَةً
وَلَا حَرٌّ مِنْهَا غَايِرَ الذَّهْرِ يَبْرُدُ

﴿نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى﴾ قرأ الجمهور «نَزَاعَةٌ للشوى» بالرفع على معنى: هي نَزَاعَةٌ. وقرأ عمر بن الخطاب، وأبو رزين، وأبو عبد الرحمن، ومجاهد، وعكرمة، وابن أبي عبله، وحفص عن عاصم «نَزَاعَةٌ» بالنصب. قال الزجاج: وهذا على أنها حال مؤكدة، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [فاطر: ٣١] ويجوز أن ينصب على معنى «إنها تتلظى نزاعة». وفي

(١) رواه الإمام أحمد عن الحسن بن موسى، عن ابن لهيعة، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري ﷺ، ولفظه: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلبها في الدنيا» ورواه ابن جرير الطبري عن يونس عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج به، ودراج وشيخه أبو الهيثم ضعيفان.

قوله تعالى: ﴿لَا أَيْ: لَا يَكُونُ ذَلِكَ﴾ **﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَلْمُونَ﴾** فيه قولان: أحدهما: من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة، فالمعنى: لا يستوجب الجنة أحد بما يدّعيه من الشرف على غيره، إذ الأصل واحد، وإنما يستوجبها بالطاعة. والثاني: إنا خلقناهم من أقدار. فيماذا يستحقون الجنة ولم يؤمنوا؟! وقد روى بشر^(١) بن جحاش عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية **﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَلْمُونَ﴾** ثم بَرَّقَ، قال: يقول الله ﷻ: أنى تعجزني، وقد خلقتك من مثل هذه؟! حتى إذا سَوَيْتُكَ، وَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ، وللأرض منك وئيد، فجمعت، ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أَتَصَدَّقُ، وَأَنْتَى أَوَانِ الصَّدَقَةِ؟^(٢).

قوله تعالى: **﴿فَلَا أُنَبِّئُ﴾** قد تكلمنا عليه في [الحاقة: ٣٨] والمراد بالمشارق، والمغارب: شرق كل يوم ومغربُه **﴿إِنَّا لَنَدِيرُ﴾** **﴿عَلَى أَنْ يُبَدِّلَ خَيْرًا مِمَّا يَكُونُ﴾** أي: نَخْلُقُ أَكْمَلَ مِنْهُمْ، وَأَطْوَعَ لَه حِينَ عَصَوْا **﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُورِينَ﴾** مفسر في [الوائدة: ٦٠] **﴿فَنَزَّلَهُمْ فِي عَمُودٍ﴾** في باطلهم **﴿وَيَلْعَبُوا﴾** أي: يلها في دنياهم **﴿حَتَّى يَكْتُفُوا﴾** وقرأ ابن محيصن **﴿يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْعِدُونَ﴾** وهو يوم القيامة. وهذا لفظ أمر، ومعناه الوعيد. وذكر المفسرون أنه منسوخ بآية السيف. وإذا قلنا: إنه وعيد بقاء يوم القيامة، فلا وجه للنسخ. **﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْنَاثِ رِجَالًا﴾** أي: يخرجون بسرعة كأنهم يَسْتَقِيمُونَ.

قوله تعالى: **﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾** قرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم بضم النون والصاد. وقال ابن جرير: وهو واحد الأنصاب، وهي ألتهم التي كانوا يعبدونها. فعلى هذا يكون المعنى: كأنهم إلى ألتهم التي كانوا يعبدونها يُسرعون. وقرأ ابن كثير، وعاصم، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي بفتح النون وسكون الصاد، وهي في معنى القراءة الأولى، إلا أنه مصدر. كقول القائل: نصبت الشيء أنصبه نصباً. قال قتادة: معناه: كأنهم إلى شيء منصوب يسرعون. وقال ابن جرير: تأويله: كأنهم إلى صنم منصوب يُسرعون. وقرأ ابن عباس، وأبو مجلز، والنخعي **﴿نُصِبَ﴾** برفع النون، وإسكان الصاد. وقرأ الحسن، وأبو عثمان النُّهدي، وعاصم الجحدري **﴿إِلَى نَصْبٍ﴾** بفتح النون والصاد جميعاً. قال ابن قتيبة: النصب، حجر يُنصب أو صنم، يقال: نُصِبَ، ونُصِبَ، ونُصِبَ. وقال الفراء: النَّصْبُ والنُّصْبُ واحد، وهو مصدر، والجمع: الأنصاب. وقال الزجاج: النَّصْبُ، والنُّصْبُ: العلم المنصوب. قال الفراء: والإيفاض: الإسراع.

قوله تعالى: **﴿رَبِّعَهُمْ ذُلًّا﴾** قرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وعمرو بن دينار **﴿ذُلَّةً ذَلِكَ الْيَوْمُ﴾** بغير تنوين، ويخفف الميم. وباقى السورة قد تقدم بيانه [المعارج: ٤٢].



- تفرقة، جمع عِرَّة، وأصلها «عزوة» فحذفت الواو وجمعت جمع السلامة على غير قياس كثيبن جمع ثبة. والحديث رواه أيضاً أحمد، وأبو داود، والسنائي، وابن جرير الطبري. وفي هذا الحديث دلالة على أن التفرقة في الأجسام تولد التفرقة في القلوب.

(١) كذا الأصل: «بشر» وقد ذكره الحافظ ابن حجر في «الإصابة» «بسر» بالسين المهملة بن جحاش قال: بكسر الميم بعدها مهملة خفيفة، قال: ويقال: يفتتحها بعدها مثقلة، ويعد الألف معجمة، قرشي نزل حصص. قال ابن مندة: أهل العراق يقولونه بالمعجمة (بشر) وقال الدارقطني وابن زيد: لا يصح بالمعجمة، وكذا ضبطه بالمهملة أبو علي الهجري في «نوادره» لكن سمي أباه جحشاً. وقال سلم وابن السكن وغيرهما: لم يرو عنه غير جبير بن نفيّر، وحديثه عند أحمد وابن ماجه والحاكم من طريقه بإسناد صحيح. قال ابن مندة: عداة في الشاميين، مات بجمص.

(٢) رواه أحمد في «المسند» ٢١٠/٤ من حديث حريز بن عثمان عن عبد الرحمن بن ميسرة عن جبير بن نفيّر عن بسر بن جحاش، وإسناده حسن، ورواه الحاكم في «المستدرک» ٥٠٢/٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعبه الذهبي فقال: صحيح. ورواه ابن ماجه رقم (٢٧٠٧)، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح. وأورده السيوطي في «الدرة» ١٦٧/١ من رواية البيهقي في «شعب الإيمان».

سورة نوح

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ إِنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ فَقَرُّهُمْ وَأَطِيعُوا ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ زَيْنَ دُؤُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ وَلَوْ فَجَأَكُمْ لَوُ كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾ أي: بأن أنذر قومك. و«العذاب الأليم» العرق.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والكسائي، وعلي بن نصر عن أبي عمرو «أَنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ» بضم النون. وقرأ عاصم، وحمزة، وعبد الوارث عن أبي عمرو «إِنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ» بكسر النون. قال أبو علي: من ضم كره الكسر.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أثبت الياء في الحالين يعقوب.

قوله تعالى: ﴿يَنْ دُؤُوبِكُمْ﴾ «من» هاهنا صلة. والمعنى: يغفر لكم ذنوبكم، قاله السدي ومقاتل. وقال الزجاج: إنما دخلت «من» هاهنا لتختص الذنوب من سائر الأشياء. ولم تدخل لتبعض الذنوب، ومثله ﴿فَأَجْتَنِبُوا زِينَةَ الدُّنْيَا﴾. [الحج: ٣٠] وذهب بعض أهل المعاني إلى أنها للتبعض. والمعنى: يغفر لكم من ذنوبكم إلى وقت الإيمان ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ أي: عن العذاب ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ وهو منتهى آجالهم. والمعنى: فتموتوا عند منتهى آجالكم غير ميتة المعدنين، ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أجل الموت، قاله مجاهد. فيكون المعنى: إن أجل الله الذي أجلكم إليه لا يؤخر إذا جاء، فلا يمكنكم حينئذ الإيمان. والثاني: أنه أجل البعث، قاله الحسن. والثالث: أجل العذاب، قاله السدي ومقاتل.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي مَعُونٌ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ مُسْمِكًا ﴿٧﴾ فَاسْتَقْبَلُوا رَسُولِي وَأَسْلَمُوا لَهُمْ وَاسْتَكْبَرُوا أَشْجَكًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَقْلَعْتُ لَهُمْ إِشْرَاقًا ﴿٩﴾ فَفُتِلَتْ أَسْتَفْهِرُوا رَيْبَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيَسْدُدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ سَعْيَكُمْ يُجَابَا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْفَرَ فِيهِنَّ نَازِقًا يُجْعَلُ الشَّمْسُ بِرُكْبَا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْتَبَرُكَ مِنَ الْأَرْضِ نَازَا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُبْدِكُمْ فِيهَا وَفَرَجَكُمْ إِخْرَاقًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا فِيهَا سُبُلًا مِثْلًا سَبُلَا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَخْلُقَ مِنِّي ذَكَرًا فَتُكَلِّمُنِي بِهَا وَتَقُولَ مِنِّي كَلِمًا مَكْرًا ﴿٢١﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَا وَالْهَكْرُ وَالْكَرُ وَلَا سَوَاقًا وَلَا يَفُوتُ وَيُفُوتُ وَشَرًّا ﴿٢٢﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: تباعدوا من الإيمان ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى الإيمان والطاعة ﴿جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ مُسْمِكًا﴾ لئلا يسمعو صوتي ﴿وَاسْتَقْبَلُوا رَسُولِي وَأَسْلَمُوا لَهُمْ﴾ أي: غطوا بها وجوههم لئلا يروني ﴿وَأَسْلَمُوا﴾ أي: كفروهم ﴿وَاسْتَكْبَرُوا أَشْجَكًا﴾ عن الإيمان بك وأتباعي ﴿ثُمَّ إِنِّي أَقْلَعْتُ لَهُمْ إِشْرَاقًا﴾ أي: معلنا لهم بالدعاء. قال ابن عباس: بأعلى صوتي ﴿ثُمَّ إِنِّي أَقْلَعْتُ لَهُمْ﴾ أي: كررت الدعاء معلنا ﴿وَاسْتَرْتُ لَهُمْ إِشْرَاقًا﴾ قال ابن عباس: يريد أكلهم الرجل بعد الرجل في السر، وأدعوه إلى توحيدك وعبادتك ﴿فُتِلَتْ أَسْتَفْهِرُوا رَيْبَهُمْ﴾ قال المفسرون: منع الله عنهم القطر، وأعظم أرحام نساءهم أربعين سنة، فقال لهم نوح: ﴿أَسْتَفْهِرُوا رَيْبَهُمْ﴾ من الشرك، أي: استدعوا مغفرته بالتوحيد ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ قد شرحناه في أول [الأنعام: ٦] ومعنى الكلام أنه أخبرهم أن الإيمان يجمع لهم خير الدنيا والآخرة^(١).

(١) قال ابن كثير: أي: إذا تبتم إلى الله واستغفرتهم وأطعتموه، كثر الرزق عليكم، وأساقم من بركات السماء، وأنت لكم من بركات الأرض، وأنت

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَكُنْ لَا تَرْجُو لِلَّهِ وَقَارًا﴾؟ فيه أربعة أقوال: أحدها: لا تَرْجُوَ لله عظمة، قاله الفراء، وابن قتيبة. والثاني: لا تخافون عظمة الله، قاله الفراء، وابن قتيبة. والثالث: لا تَرْجُوَ لله طاعة، قاله ابن زيد. والرابع: لا ترجون عاقبة الإيمان والتوحيد، قاله الزجاج: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (١) أي: وقد جعل لكم في أنفسكم آية تدل على توحيده من خلقه إياكم من نقطة، ثم من علفة شيئاً بعد شيء إلى آخر الخلق. قال ابن الأنباري: الطَّوْر: الحال، وجمعه: أطوار. وقال ابن فارس: الطَّوْر: الثَّارة، طوراً بعد طور، أي: تارة بعد تارة. وقيل: أراد بالأطوار: اختلاف المناظر والأخلاق، من طويل، وقصير، وغير ذلك، ثم قرَّروهم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَوَاتِرٍ طِبَاقًا﴾ وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبله «طَبَاقٍ» بتوئين القاف، وكسرهما من غير ألف. وقد بيَّنَّا هذا في سورة [الملك: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِ نُورًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أن وجه القمر قِبَلَ السموات، وظهره قِبَلَ الأرض، يضيء لأهل السموات، كما يضيء لأهل الأرض، وكذلك الشمس، هذا قول عبد الله بن عمرو. والثاني: أن القمر في السماء الدنيا. وإنما قال: «فيه» لأنهم كالأشياء الواحد، ذكره الأخفش والزجاج، وغيرهما. وهذا كما تقول: أتيت بني نعيم، وإنما أتيت بعضهم، وركبت السفن، ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ بِرُكْبًا﴾ يستضيء بها العالم (٢) ﴿وَاللَّهُ أَنْتَبَهُ مِنَ الْأَرْضِ﴾ يعني: أن مبتدأ خلقكم من الأرض، وهو آدم ﴿بَنَاتًا﴾ قال الخليل: معناه: فنبئتم نباتاً. وقال الزجاج: «بناتاً» محمول في المصدر على المعنى، لأن معنى أنبتكم: جعلكم تنبتون نباتاً. قال ابن قتيبة: هذا مما جاء فيه المصدر على غير المصدر، لأنه جاء على نبت. ومثله: ﴿وَيَنْتَظِلُّ إِيَّاهُ تَبَتُّلًا﴾ [الزمل: ٨] فجاء على «تَبُّلٍ». قال الشاعر:

وَحَيْرُ الْأُمْرِ مَا اسْتَقْبَلَتْ مِنْهُ
فَجَاءَ عَلَى اتَّبَعْتِ. وقال الآخر:

وإن شئتم تـمـارـدنا عـوـاداً

فجاء على «عاودنا»، وإنما تجيء المصادر مخالفة الأفعال، لأن الأفعال وإن اختلفت أبنيتها، واحدة في المعنى. قوله تعالى: ﴿سُبْحًا يَبْكَارُ﴾ قال الفراء: هي الطرق الواسعة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَبَهُمْ مِنْ لَرِّ زَيْدٍ مَا لَهُمْ وَوَلَدَهُ﴾ قرأ أهل المدينة، وابن عامر، وعاصم «وولده» بفتح اللام والواو. وقرأ الباقر «وولده» بضم الواو، وسكون اللام. قال الزجاج: وهما بمعنى واحد، مثل العَرَب، والعَرَب، والعَجَم، والعُجَم. وقرأ الحسن، وأبو العالية، وابن يعمر، والجحدري: «وولده» بكسر الواو، وإسكان اللام. قال المفسرون: المعنى: أن الأتباع، والفقراء اتَّبَعُوا رأيَ الرؤساء والكبراء.

قوله تعالى: ﴿وَنَكْرًا نَكْرًا كَبَّارًا﴾ قرأ أبو رجاء، وأبو عمران: «كُبَّارًا» برفع الكاف، وتخفيف الباء. وقرأ ابن يعمر، وأبو الجوزاء، وابن محيصن «كِبَّارًا» بكسر الكاف مع تخفيف الباء. والمعنى «كبيراً» يقال: كبير، وكبار. وقد شرحنا هذا في أول (ص). ومعنى «المكر»: السعي في الفساد. وذلك أن الرؤساء منعوا أتباعهم من الإيمان بنوح ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ أي: لا تَدَعُ عبادتها ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًا﴾ قرأ أبو جعفر، ونافع بضم الواو. والباقر بفتحها. وهذا الاسم وما بعده أسماء ألهتهم. وجاء في التفسير أن هذه أسماء قوم صالحين، كانوا بين آدم ونوح، ونشأ قوم بعدهم

لکم الزرع، وأدز لكم الضرع، وأمدکم بأموال وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وغلظها بالأنهار الجارية بينها. ثم قال: هذا مقام الدعوة بالترهيب، ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال: ﴿ثُمَّ لَكُنْ لَا تَرْجُو لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (٣)؟.

(١) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِ نُورًا﴾ يقول: وجعل القمر في السموات السبع نوراً، وجعل الشمس فيهن سراجاً. وقال ابن كثير: المقصود أن الله سبحانه وتعالى: خلق سبع سموات طباقاً، وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً، أي: فاوت بينهما في الاستارة، فجعل كلأ منهما أنموذجاً على حدة ليحرف الليل والنهار بطلع الشمس ومغيها، وقدر للقمر منازل ويروجاً، وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتناهى، ثم يشرع في النقص حتى يستسر ليلد على مضي الشهور والأعوام، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَ مَنَازِلَ لِمَسْكُونًا عَدَّةَ الْبَاقِينَ وَاللَّيْلَ مَا عَنِ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا كَالْهَيِّ بُدِيلَ الْأَنْبَاءِ لِقَوْمٍ يَتْلُونَ﴾. وقال الألوسي: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِ نُورًا﴾ منوراً لوجه الأرض في ظلمة الليل، وجعله ليمن مع أنه في إحداهن وهي السماء الدنيا، كما يقال: زيد في بغداد وهو في بقعة منها، والمرجح له الإيجاز والملابسة بالكلية والجزئية وكونها طباقاً شفاعاً.

(٢) البيت للقطامي، وهو في «ديوانه» ٣٥، و«اللسان»: تبع. وضع الأتباع موضع التبعية مجازاً، لأن تَبَتُّتْ في معنى اتَّبَعْتُ.

ياخذون بأخذهم في العبادة، فقال لهم إبليس: لو صورتم صُورَهُمْ كان أنشط لكم، وأشوق للعبادة، ففعلوا. ثم نشأ قوم يعدهم، فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم، فعبدوهم، وكان ابتداء عبادة الأوثان من ذلك الوقت. وسميت تلك الصور بهذه الأسماء، لأنهم صوروها على صور أولئك القوم المسقين بهذه الأسماء. وقيل: إنما هي أسماء لأولاد آدم، مات منهم واحد، فجاء الشيطان فقال: هل لكم أن أصور لكم صورته، فتذكرونه بها؟ فصورها. ثم مات آخر، فصور لهم صورته، إلى أن صور صوراً خمسة. ثم طال الزمان، وتركوا عبادة الله، فقال لهم الشيطان: مالكم لا تعبدون شيئاً؟ فقالوا: لمن نعبد؟ قال: هذه آلهتكم، وآلهة آبائكم، ألا ترونها مصورة في مصلاكم؟ فعبدوها. وقال الزجاج: هذه الأصنام كانت لقوم نوح، ثم صارت إلى العرب، فكان «ود» للكلب، و«سواع» لهمدان، و«يغوث» لبني غطف، وهم حي من مراد. وقيل: لما جاء الطوفان غطى على هذه الأصنام وطعمها التراب، فلما ظهرت بعد الطوفان صارت إلى هؤلاء المذكورين، قال الواقدي: كان «ود» على صورة رجل، و«سواع» على صورة امرأة، و«يغوث» على صورة أسد، و«يعوق» على صورة فرس، و«نسر» على صورة النسر من الطير.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ فيه قولان: أحدهما: وقد أضلت الأصنام كثيراً من الناس، أي: ضلوا بسببها. والثاني: وقد أضل الكبراء كثيراً من الناس. ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: الكافرين ﴿إِلَّا ضَلَالًا﴾ وهذا دعاء من نوح عليهم، لما أعلمه الله أنهم لا يؤمنون.

﴿يَمَّا خَطْبْتَهُمْ أُعْرِفُوا فَاذْكُرْهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ﴾ ﴿وَقَالَ نوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْكَافِرِينَ دِيَارًا﴾ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِراً كَفَّارًا﴾ ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾

قوله تعالى: ﴿يَمَّا خَطْبْتَهُمْ﴾ «ما»: صلة. والمعنى: من خطبتاتهم: أي: من أجلها، وسببها. وقرأ أبو عمرو «مما خطاياهم»، وقرأ أبو الجوزاء، والجحدري «خطبتتهم» من غير ألف، ﴿أُعْرِفُوا فَاذْكُرْهُمْ﴾ قال ابن السائب: المعنى: سيدخلون في الآخرة ناراً، فجاء لفظ الماضي بمعنى الاستقبال، لأن الوعد حق، هذا قول الأكثرين. وقال الضحاك: فادخلوا ناراً في الدنيا، وذلك أنهم كانوا يفرقون من جانب، ويحترقون في الماء من جانب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ أي: لم يجدوا أحداً يمنعهم من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿دِيَارًا﴾ قال ابن قتبية: أي: أحداً. يقال: ما بالنازل دياراً، أي: ما بها أحد، وهو من الدار، أي: ليس بها نازل داراً. وقال الزجاج: أصلها: «دِيَوَار» فبُعِثَ، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت إحداهما في الأخرى. ولما دعا عليهم نوح، لأن الله تعالى أوحى إليه ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ وذلك أن الرجل منه كان ينطلق بانه إلى نوح، فيحذره تصديقه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِراً كَفَّارًا﴾ قال المفسرون: إن الله تعالى أخبر نوحاً أنهم لا يلدون مؤمناً، فلذلك علم الفاجر الخارج عن الطاعة.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ﴾ قال الحسن: وذلك أنهما كانا مؤمنين. وقرأ أبو بكر الصديق، وسعيد بن المسيب، وابن جبير، والجحدري، والجوني «ولو الولدي» ساكنة الياء على التوحيد. وقرأ ابن مسعود، وأبو العالية، وابن يعمر، والزهري، والنخعي «ولو لئدي» من غير ألف على التشبيه «ولمَنْ دَخَلَ بَيْتِي» وقرأ حفص عن عاصم «بَيْتِي» بفتح الياء. وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: منزله، قاله ابن عباس. والثاني: مسجده، قاله الضحاك. والثالث: سفينة، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ هذا عام في كل من آمن، ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: الكافرين ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾ أي: هلاكاً. ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَارَكًا تَتَذَكَّرُ﴾ [الفرقان: ٣٩].

سورة الجن

كلها مكية بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ تَهْدِي إِلَى الْآرْشِدِ فَأَمَّا بِيَدٍ وَلَٰكِنْ تَشْرِكُ بِرَبِّكَ أَمَّا ۝ وَأَنَّهُ قَتَلُ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝ وَأَنَّهُ كَانَ يَظُولُ سَبِيحًا عَلَى اللَّهِ سَطَطًا ۝ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّن نَّقُولَ الْإِنشَ وَالْإِنشَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝ وَأَنَّهُ كَانَ يَكُنَّ مِنَ الْإِنسِ يُوَدُّونَ بِحَالِهِ مِنَ الْجِنِّ فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا ۝ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَمِيتَ اللَّهُ أَمَّا ۝ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلَيَّتٌ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَا كُنَّا نَقَعُدُّهَا مَقْعَدَ الشَّمْعِ لَمَسْنَا ۝ وَنَجِيعُ الْآنَ يَجِدُ لَهُمْ فِيهَا مَا رَزَقْنَا ۝ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَهَقًا ۝ وَأَنَا مِنَّا الْقَائِلُونَ وَمِنَّا ذُو الْقَلْبِ الْوَحِيدِ ۝ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّن شَجَرُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِنْ شَجَرُهُ هَاهُنَا ۝ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَىٰ مَأْمَأَ بِهِ فَمَن يُوَدُّ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْصًا وَلَا رَهَقًا ۝ وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَائِلُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝ وَأَنَا الْقَائِلُونَ فَكَانُوا لِيَجْمَعُوا حَقْلًا ۝ وَأَلَوْ اسْتَقْبَلُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً عَذًّا ۝ لَقَدْ جِئْتُمْ بِهِ وَمَن يَعْرِضُ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكُهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ قد ذكرنا سبب نزول هذه الآية في [الاحقاف: ٢٩] وبيننا هنالك سبب استماعهم. ومعنى «النفر» وعددهم، فأما قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَجَبًا﴾ فمعناه: بليغا يعجب منه بلباغته ﴿تَهْدِي إِلَى الْآرْشِدِ﴾ أي: يدعو إلى الصواب من التوحيد والإيمان ﴿وَلَٰكِنْ تَشْرِكُ بِرَبِّكَ﴾ أي: لن نعدل ربنا أحدا من خلقه. وقيل: عنوا إبليس، أي: لا نطيعه في الشرك بالله.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ قَتَلُ جَدُّ رَبِّنَا﴾ اختلف القراء في اثنتي عشرة همزة في هذه السورة، وهي: «وأنه تعالى»، «وأنه كان يقول»، «وأنه ظننا»، «وأنه كان رجال»، «وأنهم ظنوا»، «وأننا لمسننا»، «وأننا كنا»، «وأننا لا ندري»، «وأننا منا»، «وأننا ظننا أن لن نعجز الله»، «وأننا لما سمعنا»، «وأننا منا» ففتح الهمزة في هذه المواضع ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف، وحفص عن عاصم، ووافقه أبو جعفر في ثلاثة مواضع: «وأنه تعالى»، «وأنه كان يقول»، «وأنه كان رجال»، وكسر الباقيات. وقرأ الباقون بكسرهم. وقال الزجاج: والذي يختاره النحويون في هذه السورة أن ما كان من الوحي قيل فيه: «أن» بالفتح، وما كان من قول الجن قيل: «إن» بالكسر، معطوف على قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ وعلى هذا يكون المعنى: وقالوا: إنه تعالى جدُّ ربنا، وقالوا: إنه كان يقول سفيها. فأما من فتح، فذكر بعض النحويين، يعني القراء: أنه معطوف على الهاء في قوله تعالى: ﴿قَاتَمًا بِيَدٍ﴾ وبأنه تعالى جدُّ ربنا. وكذلك ما بعد هذا. وهذا رديء في القياس، لا يعطف على الهاء المتمكنة المخفوضة إلا بإظهار الخافض. ولكن وجهه أن يكون محمولاً على معنى أمّا به، فيكون المعنى: وصَدَقْنَا أَنَّهُ تعالى جدُّ ربنا. وللمفسرين في معنى ﴿قَتَلُ جَدُّ رَبِّنَا﴾ سبعة أقوال: أحدها: قُذِرَ رَبَّنَا، قاله ابن عباس. والثاني: غِنَى رَبَّنَا، قاله الحسن. والثالث: جَلَّالُ رَبَّنَا، قاله مجاهد، وعكرمة. والرابع: عَظَمَةُ رَبَّنَا، قاله قتادة. والخامس: أَمْرُ رَبَّنَا، قاله السدي. والسادس: ارتفاع ذكره وعظمته، قاله مقاتل. والسابع: مُلْكُ رَبَّنَا وثناؤه وسلطانه، قاله أبو عبيدة. ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَظُولُ سَبِيحًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه إبليس، قاله مجاهد، وقاتدة. والثاني: أنه كفارهم، قاله مقاتل. و«الشطط»: الجور، والكذب، وهو: وصفه بالشريك، والولد. ثم قالت الجن: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّن نَّقُولَ الْإِنشَ وَالْإِنشَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝﴾ وقرأ يعقوب: «أن لن نقول» بفتح القاف، وتشديد الواو. والمعنى: ظنناهم صادقين في قولهم: لله صاحبة وولد، وما ظنناهم يكذبون حتى سمعنا القرآن، يقول الله ﷻ ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَكُنَّ مِنَ الْإِنسِ يُوَدُّونَ بِحَالِهِ مِنَ الْجِنِّ﴾ وذلك أن الرجل في الجاهلية كان إذا سافر فأمسى في قفر من الأرض قال: أعود

بِسَيْدٍ هَذَا الْوَادِي مِنْ شَرِّ سُفَهَاءِ قَوْمِهِ، فَبَيَّتَ فِي جَوَارٍ مِنْهُمْ حَتَّى يَصْبَحَ. وَمِنْهُ حَدِيثُ كَرْدَمَ بْنِ أَبِي السَّائِبِ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ أَبِي إِلَى الْمَدِينَةِ فِي حَاجَةٍ، وَذَلِكَ أَوَّلُ مَا ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ، فَأَوَانَا الْمَيْتَ إِلَى رَاعِي غَنَمٍ، فَلَمَّا انْتَصَفَ اللَّيْلُ جَاءَ ذَنْبٌ، فَأَخَذَ حِمْلًا مِنَ الْغَنَمِ، فَوَثَبَ الرَّاعِي فَنَادَى: يَا عَامِرُ الْوَادِي جَارُكَ، فَنَادَى مَنَاوُ لَا نَرَاهُ: يَا سِرْحَانَ أَرْسَلَهُ. فَإِذَا الْحِمْلُ يَشْتَدُ حَتَّى دَخَلَ فِي الْغَنَمِ لَمْ تَصْبِهِ كَدَمَةً^(١)، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ﴿وَأَنْتَ كَانَ يَكُنَّ مِنَ الْإِنْسِ...﴾ الْآيَةَ^(٢). وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْإِنْسَ زَادُوا الْجَنَّ رَهَقًا لَتَعَوِّذَهُمْ بِهِمْ، قَالَهُ مِقَاتِلُ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ لَمَّا اسْتَعَاذُوا بِسَادَتِهِمْ قَالَتْ السَّادَةُ: قَدْ سَدْنَا الْجَنَّ وَالْإِنْسَ. وَالثَّانِي: أَنَّ الْجَنَّ زَادُوا الْإِنْسَ رَهَقًا، ذَكَرَهُ الزَّجَاجُ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: زَادُوهُمْ سُفَهَاءً وَطُغْيَانًا. وَقَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ: زَادُوهُمْ ضَلَالًا. وَأَصْلُ الرَّهَقِ: الْعَيْبُ. وَمِنْهُ يُقَالُ: فُلَانٌ يَرَهَقُ فِي دِينِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ ظَنُّوا﴾ يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: ظَنَّ الْجَنُّ ﴿كُنَّا ظَنَنُكُمْ﴾ أَيُّهَا الْإِنْسُ الْمَشْرُكُونَ أَنَّهُ لَا بَعَثَ. وَقَالَتِ الْجَنُّ: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ أَي: أَتَيْنَاهَا ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾ وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَحْرُسُونَهَا مِنْ اسْتِرْاقِ السَّمْعِ ﴿وَشُهْبًا﴾ جَمْعُ شُهَابٍ، وَهُوَ النُّجُومُ الْمَضْيَةُ ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ﴾ أَي: كُنَّا نَسْتَمِعُ، فَلَآنَ حِينَ حَاوَلْنَا الْإِسْتِمَاعَ بَعْدَ بَعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ زُمِينَا بِالشُّهْبِ. وَمَعْنَى ﴿رَصَدًا﴾ قَدْ أَرْصَدَ لَهُ الْمَرْمَى بِهِ ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ﴾ بِإِرْسَالِ مُحَمَّدٍ إِلَيْهِمْ، فَيَكْذِبُونَهُ، فَيَهْلِكُونَ ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ وَهُوَ أَنْ يُؤْمِنُوا فَيَهْتَدُوا، قَالَهُ مِقَاتِلُ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ قَوْلُ كُفْرَةِ الْجَنِّ، وَالْمَعْنَى: لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ بِحُدُوثِ الرَّجْمِ بِالْكَوَاكِبِ، أَمْ صَلَاحٌ؟ قَالَهُ الْفَرَاءُ. ثُمَّ أَخْبَرُوا عَنْ حَالِهِمْ، فَقَالُوا: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْأَشْلِيخُونَ﴾ وَهِيَ الْمُؤْمِنُونَ الْمَخْلُصُونَ ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ الْمَشْرُكُونَ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ أَهْلُ الشَّرِّ دُونَ الشَّرِّ. ﴿كُنَّا طَرَائِقَ يَدَدَا﴾ قَالَ الْفَرَاءُ: أَي: فِرْقًا مُخْتَلَفَةً أَهْوَاؤُنَا. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: وَاحِدُ الطَّرَائِقِ: طَرِيقَةٌ، وَوَاحِدُ الْقِدَدِ: قَدَةٌ، أَي: ضَرْبِيًّا وَأَجْنَابًا وَمِلَلًا. قَالَ الْحَسَنُ، وَالسُّدِّيُّ: الْجَنُّ مِثْلُكُمْ، فَمِنْهُمْ قَدَرِيَّةٌ، وَمَرْجِيَّةٌ، وَرَافِضَةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَا ظَنُّوا﴾ أَي: أَيْقُنَا ﴿أَنَّ لَنْ تُنْجِزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: لَنْ نَقُوتَهُ إِذَا أَرَادَ بَنَاءُ أَمْرٍ ﴿وَكِنْ تُنْجِزُهُ هَرَا﴾ أَي: أَنَّهُ يَدْرِكُنَا حَيْثُ كُنَّا ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدْعَى﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَتَى بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿هَامِنًا يَوْمَ﴾ أَي: صَدَّقْنَا أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﷻ ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَحَافُ بِحَسَا﴾ أَي: نَقَصًا مِنَ الثَّوَابِ: ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ أَي: وَلَا ظِلْمًا وَمَكْرُوهًا يَغْشَاهُ ﴿وَأَنَا مِنَّا الْأَشْلِيخُونَ﴾ قَالَ مِقَاتِلُ: الْمَخْلُصُونَ لِلَّهِ ﴿وَمِنَّا الْفَاسِقُونَ﴾ وَهِيَ الْمَرْذُوءَةُ. قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ؛ الْقَاسِطُونَ: الْجَائِرُونَ. يُقَالُ: قَسِطَ: إِذَا جَارَ، وَأَقْسَطَ: إِذَا عَدَلَ^(٣). قَالَ الْمَفْسُورُونَ: هُمُ الْكَافِرُونَ. ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أَي: تَوَخَّوْهُ، وَأَمَّوْهُ. ثُمَّ انْقَطَعَ كَلَامُ الْجَنِّ. قَالَ مِقَاتِلُ: ثُمَّ رَجَعَ إِلَى كُفْرَارِ مَكَّةَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَمُّوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ يَعْنِي: طَرِيقَةَ الْهُدَى، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ، وَالْحَسَنِ، وَمُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ، وَالسُّدِّيِّ، وَاخْتَارَهُ الزَّجَاجُ. قَالَ: لِأَنَّ الطَّرِيقَةَ هَاهُنَا بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ مَعْرِفَةٌ، فَالْأَوْجِبُ أَنْ تَكُونَ طَرِيقَةُ الْهُدَى. وَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا: طَرِيقَةُ الْكُفْرِ، قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ، وَالرَّبِيعُ، وَالْفَرَاءُ، وَابْنُ قَتَيْبَةَ، وَابْنُ كَيْسَانَ. فَعَلِيَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ يَكُونُ الْمَعْنَى: لَوْ آمَنُوا لَوَسَّعْنَا

(١) أَي: أَثَرُ عَضٍ.

(٢) ذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «التفسير» مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَفِي سَنَدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ الْكُوفِيِّ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، وَذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَالِدِ» ١٢٩/٧ وَقَالَ: رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ، وَفِيهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ الْكُوفِيِّ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَنْجَرٍ فِي «الإصابة» فِي تَرْجُمَةِ (كَرْدَمَ بْنِ أَبِي السَّائِبِ) بَعْدَمَا سَاقَ حَدِيثَهُ هَذَا مِنْ رِوَايَةِ الْعُقَيْلِيِّ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ كَرْدَمَ بْنِ أَبِي السَّائِبِ: وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَرْوَةَ فِي «التفسير» مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَأَخْرَجَ لَهُ شَاهِدًا مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ عَنْ أَبِيهِ. وَأَوْرَدَهُ السَّيْرُوطِيُّ فِي «الدراة» ٢٧١/٦ وَزَادَ نَسْبَتَهُ لِابْنِ الْمُنْدَرِ، وَأَبَى الشَّيْخُ فِي «العظمة»، وَابْنُ عَسَاكِرَ عَنْ كَرْدَمَ بْنِ أَبِي السَّائِبِ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ. قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَرَوَى عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عَمِيرٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَأَبَى الْعَالِيَةِ، وَالْحَسَنِ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ نَحْوَهُ، ثُمَّ قَالَ: وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الذَّنْبُ الَّذِي أَخَذَ الْحِمْلَ وَهُوَ وَلَدُ الشَّاةِ، كَانَ جَنِيًّا حَتَّى يَرْهَبَ الْإِنْسِي وَيَخَافُ مِنْهُ، ثُمَّ رَدَّهُ عَلَيْهِ لَمَّا اسْتَجَارَ بِهِ لِيُفْلَهُ وَيُخْرِجَهُ مِنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. اهـ.

(٣) وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صحيحه» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْمَقْسُطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ».

عليهم ﴿لَقَدْ نَبَّيْتُمْ﴾ أي: لنختبرهم ﴿يَدٌ﴾ فننظر كيف شكرهم. والماء العَذَق: الكثير. وإنما ذكر الماء مثلاً، لأن الخير كله يكون بالمطر، فأقيم مقامه إذ كان سببه. وعلى الثاني: يكون المعنى: لو استقاموا على الكفر فكانوا كفاراً كلهم، لأكثرنا لهم المال لفتنتهم فيه عقوبة واستدرجاً، ثم نعذبهم على ذلك. وقيل: لأكثرنا لهم الماء فأغرقتهم كقوم نوح، ﴿وَمَنْ يُضِرْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ يعني: القرآن ﴿يَسْلُكُهُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر «نسلكه» بالنون. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي بالياء «عَذَابًا صَعَدًا» قال ابن قتيبة: أي: عذاباً شاقاً. يقال: تصعدني الأمر: إذا شق عليّ. ومنه قول عمر: ما تصعدني شيء ما تصعدتني خطبة النكاح. ونرى أصل هذا كله من الصعود، لأنه شاق، فكني به عن المشقات. وجاء في التفسير أنه جبل في النار يكلف صعوده، وسنذكره عند قوله تعالى: ﴿سَأَرْهَقُهُمْ مُّوَدًّا ۝٧٧﴾ [المثدر: ١٧] إن شاء الله تعالى.

﴿وَأَنَّ السَّجْدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝٧٨﴾ وَأَنَّ لَّمَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدَا ۝٧٩ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝٨٠ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَحْمَةً ۝٨١ قُلْ إِنِّي لَنْ يُغَيِّرَ مِنِّي اللَّهُ أَحَدًا وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝٨٢ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً ۝٨٣ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ۝٨٤ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْجُدُونَ مِمَّنْ أَسْفَتْ نَاصِرًا وَأَقَلَّ عَدَدًا ۝٨٥ قُلْ إِن أَدْرَيْتُ أَقْرَبَ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَمْ رَبِّي أَسْمًا ۝٨٦ عَلِيمُ الْغُيُوبِ فَلَا يَهْتَفِرُ عَلَىٰ عِيبِهِ أَحَدًا ۝٨٧ إِلَّا مَن أَرَادَ مِن رَّسُولِهِ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۝٨٨ لَّيَعْلَمَنَّ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَتِي رَيْبَهُمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۝٨٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّجْدَ لِلَّهِ﴾ فيها أربعة أقوال: أحدها: أنها المساجد التي هي بيوت الصلوات، قاله ابن عباس. قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا، فأمر الله ﷺ المسلمين أن يخلصوا له إذا دخلوا مساجدهم. والثاني: الأعضاء التي يسجد عليها العبد، قاله سعيد بن جبيرة، وابن الأنباري، وذكره الفراء. فيكون المعنى، لا تسجدوا عليها لغيره^(١). والثالث: أن المراد بالمساجد هاهنا: البقاع كلها، قاله الحسن. فيكون المعنى: أن الأرض كلها مواضع للسجود، فلا تسجدوا عليها لغير خالقها. والرابع: أن المساجد: السجود، فإنه جمع مسجد. يقال: سجدت سجوداً، وسجدتاً، كما يقال: ضربت في الأرض ضرباً، ومضرباً، ثم يجمع، فيقال: المساجد، والمضارب. قال ابن قتيبة: فعلى هذا يكون واحداً: مسجداً، بفتح الجيم. والمعنى: أخلصوا له، ولا تسجدوا لغيره. ثم رجع إلى ذكر الجن فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ لَّمَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿يَدْعُوهُ﴾ أي: يعبله. وكان يصلي ببطن نخلة على ما سبق بيانه في [الاحقاف: ٢٩] ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدَا﴾ قرأ الأكثرون: «لِيَدَا» بكسر اللام، وفتح الباء. وقرأ هشام عن ابن عامر، وابن محيصن «لِيَدَا» بضم اللام، وفتح الباء مع تخفيفها. قال الفراء: ومعنى القراءتين واحد. يقال: لِيَدَة، وَلِيْدَة. قال الزجاج: والمعنى: كاد يركب بعضهم بعضاً. ومنه اشتقاق اللبد الذي يفتش. وكل شيء أضفته إلى شيء فقد لبدته. وقرأ قوم منهم الحسن، والجاحدي: «لِيَدَا» بضم اللام مع تشديد الباء. قال الفراء: فعلى هذه القراءة يكون صفة للرجال، كقولك: وَكُعًا وَرُكُوعًا، وَسُجْدًا وَسُجُودًا. قال الزجاج: هو جمع لبد، مثل راع، ورُكَّع. وفي معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إخبار الله تعالى عن الجن يحكي حالهم. والمعنى: أنه لما قام يصلي كاد الجن لازدحامهم عليه يركب بعضهم بعضاً، جزواً على سماع القرآن، رواه عطية عن ابن عباس. والثاني: أنه من قول الجن لقومهم لما رجعوا إليهم، فوصفوا لهم طاعة أصحاب محمد رسول الله ﷺ وانتمائهم به في الركوع، والسجود، فكانهم قالوا: لما قام يصلي كاد أصحابه يكونون عليه لبدًا، وهذا المعنى في رواية ابن جبيرة عن ابن عباس. والثالث: أن المعنى: لما قام رسول الله ﷺ بالدعوة تلبدت الإنس والجن، وتظاهروا عليه، ليلطوا الحق الذي جاء به، قاله الحسن، وقتادة، وابن زيد^(٢).

(١) ومنه قوله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة: (واشار بيده إلى أفقه)، واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين».

(٢) وهذا اختيار ابن جرير الطبري. قال ابن كثير: وهو الأظهر لقوله بعده: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝٨٠﴾ أي قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليلطوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته ﴿يَدْعُوا رَبِّي﴾ أي: إنما أعبد ربي وحده لا شريك له، واستجير به؛ وأتوكل عليه ﴿وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ قرأ عاصم، وحزمة ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ بغير ألف. وقرأ الباقون «قال» على الخبر عن النبي ﷺ. قال مقاتل: إن كفار مكة قالوا للنبي ﷺ: إنك جئت بأمر عظيم لم يسمع بمثله فارجع عنه، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ أي: لا أدمعه عنكم ﴿وَلَا﴾ أسوق إليكم ﴿رَشَدًا﴾ أي: خيراً، أي: إن الله تعالى يملك ذلك، لا أنا ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ أي: إن عصيته لم يعنني منه أحد، وذلك أنهم قالوا: اترك ما تدعو إليه ونحن نجبرك ﴿وَلَنْ أجدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ وقد بيناه في [الكهف: ٢٧] ﴿إِلَّا بَلَاً مِّنَ اللَّهِ﴾ فيه وجهان، ذكرهما الفراء: أحدهما: أنه استثناء من قوله تعالى: ﴿لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ إلا أن أبلغكم. والثاني: لن يجيرني من الله أحد إن لم أبلغ رسالته. وبالأول قال ابن السائب، وبالثاني قال مقاتل. وقال بعضهم: المعنى: لن يجيرني من عذاب الله إلا أن أبلغ عن الله ما أرسلت، فذلك البلاغ هو الذي يجيرني. ﴿وَمَنْ يَتَّصِلْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بترك الإيمان والتوحيد.

قوله تعالى: ﴿حَقَّ لَدَا رَبِّكَ﴾ يعني: الكفار ﴿مَا يُؤْتُونَ﴾ من العذاب في الدنيا، وهو القتل، وفي الآخرة، ﴿فَسَيَكُونُونَ مِّنْ أَصْعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلَّ عَدَدًا﴾ أي: جنداً ونصراً، أهم، أم المؤمنون؟ ﴿قُلْ إِنْ أَرَدْتُ﴾ أي: ما أدري ﴿أَقْرِبُ نَارَ عَذْرُونَ﴾ من العذاب ﴿أَمْ يَحْمِلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ أي: غاية ويعداً^(١). وذلك لأن علم الغيب لله وحده ﴿فَلَا يَظْهَرُ﴾ أي: فلا يُطْلِع ﴿عَلَى غَيْبِهِ﴾ الذي يعلمه ﴿أَمَدًا﴾ من الناس ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ لأن من الدليل على صدق الرسل إخبارهم بالغيب والمعنى: أن من ارتضاه للرسالة أطلعه على ما شاء من غيبه. وفي هذا دليل على أن من زعم أن النجوم تدل على الغيب فهو كافر. ثم ذكر أنه يحفظ ذلك الذي يطلع عليه الرسول فقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: من بين يدي الرسول ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ أي: يجعل له حَفَظَةً من الملائكة يحفظون الوحي من أن تَسْتَرِقَهُ الشياطين، فتلقه إلى الكهنة، فيتكلمون به قبل أن يخبر النبي ﷺ الناس. وقال الزجاج: يسلك من بين يدي الملك ومن خلفه رصداً. وقيل: يسلك من بين يدي الوحي. فالرُصْدُ من الملائكة يدفعون الشياطين عن أن تستمتع ما ينزل من الوحي.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: ليعلم محمد ﷺ أن جبرائيل قد بلغ إليه، قاله ابن جبير. والثاني: ليعلم محمد ﷺ أن الرسل قبله ﴿قَدْ أَتَيْنَا رُسُلًا رَّبِّهِمْ﴾ وأن الله قد حفظها فدفع عنها، قاله قتادة^(٢). والثالث: ليعلم مكذبو الرسل أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم، قاله مجاهد. والرابع: ليعلم الله ﷻ ذلك موجوداً ظاهراً يجب به الثواب، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ آلِهَ الَّذِينَ جَاهَكُوا مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٢]، قاله ابن قتيبة. والخامس: ليعلم النبي أن الرسل قد أتته ولم تصل إلى غيره، ذكره الزجاج. وقرأ رويس عن يعقوب «لَيُعْلَمَ» بضم الياء على ما لم يسم فاعله، وقال ابن قتيبة: ويُقرأ «لَتُعْلَمَ» بالثاء، يريد: لتعلم الجن أن الرسل قد بلغت عن إلههم بما رَجَّوْا من استراق السمع. ﴿وَلَمَّا بَعَثَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: علم الله ما عند الرسل ﴿وَأَخَصَّىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ فلم يفته شيء حتى الذر والخرذل.



(١) قال ابن كثير: وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذي يتداوله كثير من الجهلة من أنه عليه الصلاة والسلام لا يؤلف تحت الأرض، كذب لا أصل له، ولم نره في شيء من الكتب، وقد كان ﷺ يسأل عن وقت الساعة، فلا يجيب عنها، ولما تبلى له جبريل في صورة أعرابي، كان فيما سأل أن قال: يا محمد: فأخبرني عن الساعة؟ قال: فما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولما ناداه ذلك الأعرابي بصوت جهوري فقال: يا محمد متى الساعة؟ قال: «ويحك إنها كائنة فما أعددت لها؟» قال: أما إنني لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله، قال: فأنت مع من أحبته قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث.

(٢) هذا القول اختاره ابن جرير الطبري في «تفسيره».

سورة المزمل

وهي مكية كلها بإجماعهم

إلا أنه قد روي عن ابن عباس أنه قال: سوى آيتين منها، قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ والتي بعدها (المزمل: ١٠، ١١). وقال ابن يسار، ومقاتل: فيها آية مدنية، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ بِمَا أَنْتَ تَعْمَلُ﴾ (المزمل: ٢٠).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ ١ قُمْ أَيْلًا ٢ لَا قِيلًا ٣ يَضْمَهُ أَوْ أَنْشُ مِنْ قِيلًا ٤ أَوْ رِدَ عَلَيْهِ وَرَبِّي الْقُرْآنَ رَبِّيًا ٥ إِمَّا سَتْلَىٰ عَلَيْكَ قَوْلًا ٦ قِيلًا ٧ إِنَّ نَافِثَةَ الْإِيلِ فِي أَشْدُّ وَكَلًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ٨ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا ٩ وَادْكُرْ أَنْتَ رَبَّكَ رَبَّنَا إِلَهَ تَبْيِيكَ ١٠ رَبُّكَ الشَّرِيقَ وَالْقَرِيبَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ١١ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَعْمِرْهُمْ هَجْرًا جِيلًا ١٢ وَدَرِي وَالْمُكْدِينَ أَوَّلِي النَّعْمَةِ وَتَهْلُفُ قِيلًا ١٣ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمَا ١٤ وَكَلَمًا نَا شَعْرًا وَعَدَدًا أَيْلًا ١٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا ١٦ إِمَّا أَرْسَلَكَ إِلَىٰ رَسُولٍ شَاهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ رِجْوَةَ رَسُولًا ١٧ فَمَعَىٰ رِجْوَةَ رَسُولًا ١٨ فَتَعَمَّنِ الرَّسُولَ فَلَخَذَتْهُ أَشْدُّ ١٩ وَبِيلًا ٢٠ كَيْفَ تَنْقُورُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ٢١ أَلَسَمَاءُ شُفِيرًا بِؤْسًا ٢٢ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ٢٣﴾

وقرأ أبي بن كعب، وأبو العالية، وأبو مجلز، وأبو عمران، والأعمش «المزمل» بإظهار التاء. وقرأ عكرمة، وابن يعمر: «المزمل» بحذف التاء، وتخفيف الزاي. قال اللغويون «المُزْمَلُ» الملتف في ثيابه، وأصله «المتمزمل» فادغمت التاء في الزاي، فتقلت. وكل من التف بشوبه فقد تزمّل. قال الزجاج: وإنما ادغمت فيها لغربها منها. قال المفسرون: وكان النبي ﷺ يتزمل في ثيابه في أول ما جاء جبريل فقرأ منه حتى أنس به. وقال السدي: كان قد تزمّل للنوم. وقال مقاتل: خرج من البيت وقد لبس ثيابه، فناداه جبريل: يا أيها المُزْمَلُ. وقيل: أريد به مُتَزَمِّلُ النبوة. قال عكرمة في معنى هذه الآية: رُمِلَتْ هذا الأمر، فقم به. وقيل: إنما لم يخاطب بالنبي والرسول هاهنا، لأنه لم يكن قد بلغه. وإنما كان في بدء الوحي.

قوله تعالى: ﴿قُمْ أَيْلًا ٢ لَا قِيلًا ٣ يَضْمَهُ أَوْ أَنْشُ مِنْ قِيلًا ٤ أَوْ رِدَ عَلَيْهِ وَرَبِّي الْقُرْآنَ رَبِّيًا ٥﴾ هذا بدل من الليل، كما تقول: ضربت زيداً رأسه. فإنما ذكرت زيداً لتوكيد الكلام، لأنه أؤكد من قولك: ضربت رأس زيد. والمعنى: قم من الليل النصف إلا قليلاً ﴿أَوْ أَنْشُ مِنْ قِيلًا ٤﴾ أي: من النصف ﴿أَوْ رِدَ عَلَيْهِ وَرَبِّي الْقُرْآنَ رَبِّيًا ٥﴾ أي: على النصف. قال المفسرون: انقص من النصف إلى الثلث، أو زد عليه إلى الثلثين، فجعل له سعة في مدة قيامه، إذ لم تكن محدودة، فكان يقوم ومعه طائفة من المؤمنين، فشق ذلك عليه وعليهم، فكان الرجل لا يدري كم صلى، وكم بقي من الليل، فكان يقوم الليل كله مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب، فنسخ ذلك عنه وعنهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ بِمَا أَنْتَ تَعْمَلُ﴾ (المزمل: ٢٠). الآية، هذا مذهب جماعة من المفسرين. وقالوا: ليس في القرآن سورة تُنسخ آخرها أولها سوى هذه السورة. وذهب قوم إلى أنه يُنسخ قِيَامُ اللَّيْلِ في حقّه بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ (الإسراء: ٧٩)، ونسخ في حق المؤمنين بالصلوات الخمس. وقيل: نسخ عن الأمة، وبقي عليه فرضه أبداً. وقيل: إنما كان مفروضاً عليه دونهم. وفي مدة فرضه قولان: أحدهما: سنة، قال ابن عباس: كان بين أول: (المزمل) وآخرها سنة. والثاني: ستة عشر شهراً، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَرَبِّي الْقُرْآنَ﴾ قد ذكرنا الترتيل في (الفرقان: ٣٢).

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّي الْقُرْآنَ رَبِّيًا﴾ أي: اقرأ على تمهل فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره، قال، وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه، قالت عائشة رضي الله عنها: كان يقرأ السورة فيرثها حتى تكون أطول من أطول منها. وفي «صحيح البخاري» عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت مدّة، ثم قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ﴾ بعد ﴿الْأَكْثَرِ﴾ وبعد ﴿الرَّحِيمِ﴾. ثم قال: وروى الإمام أحمد عن -

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَلَاثًا﴾ وهو القرآن. وفي معنى ثقله ستة أقوال: أحدها: أنه كان يثقل عليه إذا أوحى إليه، وهذا قول عائشة. قالت: ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، يعني يتخلص عنه وإن جبينه ليفصد عرقاً^(١). والثاني: أن العمل به ثقل في فروضه وأحكامه، قاله الحسن، وقتادة. والثالث: أنه يثقل في الميزان يوم القيامة، قاله ابن زيد. والرابع: أنه المهيب، كما يقال للرجل العاقل: هو رزين راجح، قاله عبد العزيز بن يحيى. والخامس: أنه ليس بالخفيف ولا السفساف، لأنه كلام الرب ﷻ، قاله الفراء. والسادس: أنه قول له وزن في صحته وبيانه ونفعه، كما تقول: هذا كلام رصين، وهذا قول وزن: إذا استجدته، ذكره الزجاج^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ تَائِبَةً إِلَيْكَ﴾ قال ابن مسعود، وابن عباس: هي قيام الليل بلسان الحيشة. وهل هي في وقت مخصوص من الليل، أم في جميعه؟ فيه قولان: أحدهما: أنها في جميع الليل. وروى ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه قال: الليل كله ناشئة. وإلى هذا ذهب الغويون. قال ابن قتيبة: ناشئة الليل: ساعاته الناشئة، من نشأ: إذا ابتدأ. وقال الزجاج: ناشئة الليل: ساعات الليل، كل ما نشأ منه، أي: كل ما حدث. وقال أبو علي الفارسي: كان المعنى: إن صلاة ناشئة، أو عمل ناشئة الليل. والثاني: أنها في وقت مخصوص من الليل. ثم فيه خمسة أقوال: أحدها: أنها ما بين المغرب والعشاء، قاله أنس بن مالك، والثاني: أنها القيام بعد النوم، وهذا قول عائشة، وابن الأعرابي. وقد نص عليه أحمد في رواية المروزي. والثالث: أنها ما بعد العشاء، قاله الحسن، ومجاهد، وقتادة، وأبو مجلز. والرابع: أنها بدء الليل، قاله عطاء، وعكرمة. والخامس: أنها القيام من آخر الليل، قاله يمان، وابن كيسان.

قوله تعالى: ﴿يَا أَشَدُّ وَطْأً﴾ قرأ ابن عامر، وأبو عمرو، «وِطَاءً» بكسر الواو مع المد، وهو مصدر واطأت فلاناً على كذا مؤاطأةً، ووطاءً، وأراد أن القراءة في الليل يتواطأ فيها قلب المصلي ولسانه وسمعه على التفهيم للقرآن والإحكام لتأويله^(٣). ومنه قوله تعالى: ﴿لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [النوبة: ٣٧]. وقرأ الباقر «وِطَاءً» بفتح الواو مع القصر. والمعنى: إنه أثقل على المصلي من ساعات النهار، من قول العرب: اشتدت على القوم وِطَاءُ السلطان: إذا ثقل عليهم ما يلزمهم. ومنه قول النبي ﷺ: «اللهم اشدد وِطْأَكَ على مضر»^(٤). ذكر معنى القراءتين ابن قتيبة. وقرأ ابن محيصن «أشد وِطَاءً» بفتح الواو، والطاء، وبالمدة.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ يُسَلَى﴾ أي: أخلص للقول وأسمع له، لأن الليل تهدأ فيه الأصوات فتخلص القراءة، ويفرغ القلب لفهم التلاوة، فلا يكون دون سماعه وتفهمه حائل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا﴾ أي: فراغاً لنومك وراحتك، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك، قاله ابن عباس، وعطاء. وقرأ علي، وابن مسعود، وأبو عمران، وابن أبي عبيدة «سبْحًا» بالخاء المعجمة. قال الزجاج: ومعناها في اللغة صحيح. يقال: قد سبخت القطن بمعنى نفشته. ومعنى نَفَّسْتَهُ: وسَّعْتَهُ، فيكون المعنى: إن لك في النهار توسعاً طويلاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ أي: بالنهار أيضاً ﴿وَيَبْتَغِ إِلَيْهِ تَبَيُّلاً﴾ قال مجاهد. أخلص له إخلاصاً. وقال

= عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «يقال لقارئ القرآن: اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، لما منزلتك عند آخر آية تقرؤها» ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(١) روى البخاري في «صحيحه» عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه يفضد عرقاً.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال بالصواب في ذلك أن يقال: إن الله وصفه بأنه قول ثقل، فهو كما وصفه به ثقل محمله، ثقل العمل بحدوده وفرائضه.

(٣) في الأصل: والإحكام وتلاوته، والتصويب من «غريب القرآن». قال ابن كثير: أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس ولطف الأصوات وأوقات المعاش.

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة القنوت في صلاة الصبح.

ابن قتيبة: انقطع إليه، من قولك: بَلَغْتُ الشيءَ: إذا قطعته. وقال الزجاج: انقطع إليه في العبادة. ومنه قيل لمريم: البتول، لأنها انقطعت إلى الله تعالى في العبادة. وكذلك صدقة بتلة: متقطعة من مال المصدق. والأصل في مصدر تبَّتل تبَّتلًا. وإنما قوله تعالى: «تَبَّتْ» محمول على معنى: تبَّتل. ﴿وَبِئْسَ الْأَشْرَقُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم «ربُّ» بالرفع. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم بالكسر. وما بعد هذا قد سبق [الشعراء: ٢٨] إلى قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ من التكذيب لك والأذى ﴿وَأَهْبِزْهُمْ هَزَبًا جَمِيلًا﴾ لا جزع فيه. وهذه الآية عند المفسرين منسوخة بآية السي. ﴿وَدَرَى الْأَلْمَلُ أَنَّهَا﴾ أي: لا تهتم بهم، فأننا أفضيكمهم ﴿أَنزِلِ اللَّهُمَّ﴾ يعني: الشَّعْم. وفيمن غني بهذا ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم المطعمون يَنْدِرُ، قاله مقاتل بن حيان. والثاني: أنهم بنو المغيرة بن عبد الله، قاله مقاتل بن سليمان. والثالث: أنهم المستهزئون، وهم صناديد فريش، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿وَيَهْتَفِرُ يَلِيلًا﴾ قالت عائشة: فلم يكن إلا اليسير حتى كانت وقعة بدر، وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف، وليس بصحيح.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أُنْكَالًا﴾ وهي القيود، واحدها: نكل. وقد شرحنا معنى «الجحيم» في [البقرة: ١١٩] ﴿وَلَطَمًا فَإِنْ عَصَوْهُ﴾ وهو الذي لا يسوغ في الحلق. وفيه للمفسرين أربعة أقوال: أحدها: أنه شوك يأخذ الحلق فلا يدخل ولا يخرج، قاله ابن عباس، وعكرمة. والثاني: الرُّقُوم، قاله مقاتل. والثالث: الضُّريع، قاله الزجاج. والرابع: الرُّقُوم والغسلين والضُّريع، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ﴾ قال الزجاج: هو منصوب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أُنْكَالًا﴾ والمعنى: ينكل الكافرين ويعذبهم ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ﴾ أي: تزلزل وتتحرك أغلظ حركة.

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتَ لِكِبَالٍ﴾ قال مقاتل: المعنى: وصارت بعد الشدة، والقوة ﴿كِبَالًا﴾ قال الفراء: «الكثيب»: الرمل. و«المهيل»: الذي تحرك أسفله، فينهال عليك من أعلاه. والعرب تقول: مهيل ومهيول، ومكيل ومكيول. وقال الزجاج: الكثيب جمعه: كُثبان، وهي: القطع العظام من الرمل. وللمهيل: السائل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يعني أهل مكة ﴿رَسُولًا﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿شَاهِدًا عَلَيْكَ﴾ بالتبليغ وإيمان من آمن، وكفر من كفر ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا رِجْرَجًا رَّسُولًا﴾ وهو موسى ﷺ. والويل: الشديد. قال ابن قتيبة: هو من قولك: استوبلت المكان: [إذا استوخمته]. ويقال: كَلَّا مُسْتَوْبِلٌ أي: لا يُسْتَمَرُّ. قال الزجاج: الويل: الثقل الغليظ جداً. ومنه قيل للمطر العظيم: وابل. قال مقاتل: والمراد بهذا الأخذ الويل: الفرق. وهذا تخويف لكفار مكة أن ينزل بهم العذاب لتكذيبهم، كما نزل بفرعون.

قوله تعالى: ﴿كَفَيْتَ تَنْقُونَ إِنْ كَذَّبْتُمْ يَوْمًا﴾ أي: عذاب يوم. قال الزجاج: المعنى: بأي شيء تتحصنون من عذاب يوم من هوله يشيب الصغير من غير كبير. وقرأ أبي بن كعب، وأبو عمران «نجعل الولدان» بالنون.

قوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْطَرِفٌ بِهٍ﴾ قال الفراء: السماء تُذْكَرُ وتَوَثُّث. وهي هاهنا في وجه التذكير. قال الشاعر:
فَلَوْ رَفَعَ السَّمَاءُ إِلَيْهِ قَوْمًا
لَجِئْنَا بِالسَّمَاءِ مَعَ السَّحَابِ^(١)

قال الزجاج: وتذكير السماء على ضربين: أحدهما: على أن معنى السماء معنى السقف. والثاني: على قولهم: امرأة مُرْضِعٌ على جهة النسب. فالمعنى: السماء ذات انقطاع، كما أن المرضع ذات الرضاع. وقال ابن قتيبة: ومعنى الآية: السماء مُنْشَقٌّ به، أي: فيه، يعني في ذلك اليوم.

قوله تعالى: ﴿كَانَ رِجْدُهُ مَقُولًا﴾ وذلك أنه وعد بالبعث، فهو كائن لا محالة.
﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ فَمَنْ شَاءَ اخْتَدِ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ بِمَا أَنْتَ تَعْمَلُ آدَنُ مِنَ كُلِّ أَلِيلٍ وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾
الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يَقْدِرُ الْإِلَّ وَالْقَهَّارُ عَلِمَ أَنَّ لَنْ تُخْصَوْا فَنَابَ عَلَيْكُمْ قَاهِرًا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ بِكُمْ رَحْمَةٌ وَتُخْرَجُونَ فِي

(١) البيت من شواهد الفراء في «معاني القرآن» الورقة ٢٤٦. والشاهد فيه تذكير السماء.

الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَمَا آخَرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَهُوا مَا يَشَرُّ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا يَقْبِضُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾

﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ يعني: آيات القرآن ﴿تَذَكُّرٌ﴾ أي: تذكير وموعظة ﴿فَمَنْ شَاءَ انْخَضْ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ بالإيمان والطاعة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْهَرُكَ أَنْتَ تَقُومُ أَذَنٌ﴾ أي: أقل ﴿مِنْ ثَلَاثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ ثُلَاثُهُ﴾ وقرأ ابن كثير، وأهل الكوفة بفتح الفاء والثاء والباقون: بكسرهما.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكْفِيكَ مِنَ الْيَمِينِ مَمْلَكٌ﴾ يعني: المؤمنين ﴿وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يعلم مقاديرهما، فيعلم القدر الذي تقومون^(١) به من الليل ﴿عَلَيْهِ أَنْ لَنْ تُخْصَوْهُ﴾ وفيه قولان: أحدهما: لن تطيقوا قيام ثلثي الليل، ولا ثلث الليل، ولا نصف الليل، قاله مقاتل. والثاني: لن تحفظوا مواقيت الليل، قاله الفراء. ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عاد عليكم بالمغفرة والتخفيف ﴿فَأَقْرَهُوا مَا يَشَرُّ﴾ عليكم ﴿مِنْ الْفَرَّانِ﴾ يعني: في الصلاة، من غير أن يوقت وقتاً. وقال الحسن: هو ما يقرأ في صلاة المغرب والعشاء. ثم ذكر أعضادهم فقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضٍ﴾ فلا يطيقون قيام الليل ﴿وَمَا آخَرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المسافرون للتجارة: ﴿يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: من رزقه فلا يطيقون قيام الليل ﴿وَمَا آخَرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المجاهدون فلا يطيقون قيام الليل ﴿فَأَقْرَهُوا مَا يَشَرُّ مِنَ الْفَرَّانِ﴾ وذكروا أن هذا نسخ عن المسلمين بالصلوات الخمس، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: الصلوات الخمس في أوقاتها^(٢) ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وقد سبق بيانه [الحديد: ١٨]. قال ابن عباس: يريد سوى الزكاة في صلة الرحم، وقرى الضيف، ﴿وَمَا يَقْبِضُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي تجدوا ثوابه في الآخرة. ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ قال أبو عبيدة: المعنى: تجدوه خيراً. قال الزجاج: ودخلت «هو» فضلاً. وقال المفسرون: ومعنى «خيراً» أي: أفضل مما أعطيتكم ﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ من الذي توخَّروا إلى وقت الوصية عند الموت^(٣).



(١) في الأصل: تقوموا.

(٢) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: اقيموا صلاتكم الواجبة عليكم، وآتوا الزكاة المفروضة، قال: وهذا يدل لمن قال: إن فرض الزكاة نزل بمكة، لكن مقادير النُصَب والمخرج لم يبين إلا بالمدينة، والله أعلم. قال: وقد قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد من السلف: إن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل، واختلفوا في المدة التي بينهما على أقوال، وقد ثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل الذي سأله: ماذا فرض الله عليه من الصلوات؟ قال: «خمس صلوات في اليوم والليلة» قال: هل علي غيرها؟ قال: «لا إلا أن تطوع».

(٣) قال ابن جرير الطبري في تلمة الآية من آخر السورة ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ يقول تعالى ذكره: سلوا الله غفران ذنوبكم، يصفخ لكم عنها ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقول: إن الله ذو مغفرة للذنوب من تاب من عباده من ذنوبه، وذو رحمة أن يعاقبهم عليها من بعد توبتهم منها.

سورة المذثر

وهي مكية بإجماعهم

وقال مقاتل: فيها من المدني آية، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدَّتَهُمْ إِلَّا نَسْنَةً﴾ [المذثر: ٣١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمَذْثَرُ ۝ قُرْ فَأَنْذِرْ ۝ وَرَبِّكَ فَكْزِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَطَفِّرْ ۝ وَالْجَزْعَ فَأَفْجِرْ ۝ وَلَا تَمَنَّ شَكْزِرْ ۝ وَرَبِّكَ فَأَسْرِ ۝ فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأَقْصَرِ ۝ فَذَلِكَ يَوْمُ عِيدٍ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ عَيْرٌ يَمِيرُ ۝ ذَرَى وَمَنْ خَلَقْتَ وَجِداً ۝ وَجَعَلْتَ لَهُ مَا لَا تَمُدُّونَا ۝ وَيَبِينُ شُهُوداً ۝ وَوَهَّدْتَ لَهُ تَمِيمَا ۝ ثُمَّ تَطْمَعُ أَنْ أَرِيدَ ۝ كَلَّا إِنَّكَ كَانَ لِإِنْتِنَا عَنِينَا ۝ سَأَرْفَعُهُمْ مَعُونَا ۝ إِنَّهُمْ فَكَرَ وَقَدَّرَ ۝ فَنُقِيلُ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَقَرُ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝ فَفَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ نُوِذِرُ ۝ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝ سَأُصْلِحُهُ مَسَرَّةً ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ۝ لَا يَقَى وَلَا نَدْرُ ۝ لَوْنَهُ لِلْبَشَرِ ۝ عَلَيْهِ سِنَّعةٌ عَسَرٌ ۝ وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ الْآلِ إِلَّا مَلَكَهُ ۝ وَمَا جَعَلْنَا عَدَّتَهُمْ إِلَّا نَسْنَةً ۝ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْفُوا الْكَيْتَ ۝ وَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَوُوا ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لِيُوقَلَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَجٌ ۝ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۝ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ ۝ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۝ وَمَا يُعَذِّبُهُمْ رَبُّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ۝ كَلَّا وَالْقَمَرِ ۝ وَالْأَيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝ وَالشَّجَرِ إِذَا اتَّسَرَ ۝ إِنَّهَا لَأُحْذَى الْكَبِيرِ ۝ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ۝ لِمَنْ شَاءَ يَنْصَرُّ ۝ أَوْ يَنْتَهَرُ ۝﴾

فأما سبب نزولها، فروى^(١) البخاري ومسلم في «صحيحيهما» من حديث جابر بن عبد الله قال: حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جوارى^(٢) نزلت فاستبطنت بطن الوادي^(٣)، فتوديت، فنظرت أمامي، وخلفي، وعن يميني، وعن شمالي، فلم أرَ أحداً، ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو في الهواء (يعني: جبريل ﷺ) فأقبلت إلى خديجة، فقلت: «ذُروني ذُروني»، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَذْثَرُ ۝ قُرْ فَأَنْذِرْ ۝﴾^(٤) قال المفسرون: فلما رأى جبريل وقع مغشياً عليه، فلما أفاق دخل إلى خديجة، ودعا بماء فصبه عليه، وقال: «ذُروني، فدثروه بقطيفة، فأتاه جبريل فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَذْثَرُ﴾ وقرأ أبي بن كعب، وأبو عمران، والأعمش «المذثر» بإظهار التاء. وقرأ أبو رجاء، وعكرمة، وابن يعمر «المذثر» بحذف التاء، وتخفيف الدال. قال اللغويون: وأصل «المذثر» المذثر، فادغمت التاء، كما ذكرنا في المتزمل، وهذا في قول الجمهور من التدثير بالثياب. وقيل المعنى: يا أيها المذثر بالنبوة، وأثقالها. قال عكرمة: دُثِرَتْ هذا الأمر فقم به.

قوله تعالى: ﴿قُرْ فَأَنْذِرْ ۝﴾ كفار مكة العذاب إن لم يؤخِّدوا ﴿وَرَبِّكَ فَكْزِرْ ۝﴾ أي: عظمه عما يقول عبدة الأوثان. ﴿وَرَبَّكَ فَطَفِّرْ ۝﴾ فيه ثمانية أقوال: أحدها: لا تلبسها على معصية، ولا على غدر. قال غيلان بن سلمة الثقفي:

وَلَأَنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ لَا تَنْزُبُ فَاجِرٍ
رَوَى هَذَا الْمَعْنَى عِكْرَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. والثاني: لا تكن ثيابك من مكسب غير طاهر، روى عن ابن عباس

(١) في الأصل: روى.

(٢) أي: مجاورتي واعتكافي.

(٣) أي: جبرت في باطنه.

(٤) رواه البخاري ٥٢٠/٨، ومسلم ١٤٤/١، وأحمد في «المستد» ٣٠٦/٣، والطبري ١٤٣/٢٩، والواحدي في «أسباب النزول» ٣٣٣، وأورده السيوطي في «الدر» ٢٨٠/٦ وزاد نسبة للطيالسي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن الضريس، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن الأنباري في «المصاحف» عن جابر ﷺ.

(٥) البيت في «الطبري» ١٤٥/٢٩، و«القرطبي» ٦٢/١٩، و«البحر المحيط» ٣٧١/٨، و«ابن كثير» ٤٤١/٤، و«الدر» ٣٨١/٦، وفتح القدير للشوكاني ٣١٥/٥ منسوبة إلى غيلان بن سلمة الثقفي، وهو في «اللسان»: ثوب.

أيضاً. والثالث: طهر نفسك من الذنب، قاله مجاهد، وقتادة. ويشهد له قول عترة:

فَسَكَّكْتُ بِالرُّمُحِ الْأَصَمِّ ثِيَابَهُ
لَبَسَ الْكِرِيمَ عَلَى الْقَنَّا بِمُحَرَّمٍ^(١)
أي: نفسه، وهذا مذهب ابن قتيبة. قال: المعنى: طهر نفسك من الذنوب، فكنتى عن الجسم بالثياب، لأنها تشمل عليه. قالت ليلي الأخيلية وذكرث إبلاً:

رَمَزَهَا بِأَسْوَابٍ خِفَافٍ فَلَا تَرَى
لَهَا شَبَهًا إِلَّا الشَّعَامَ الْمُتَقَرًّا^(٢)
أي: ركبوها، فَرَمَزَهَا بأنفسهم. والعرب تقول للعفاف: إِزَارٌ، لأن العفيف كأنه استتر لما عَفَّ. والرابع: وعَمَلَكْ فَاضْلُخ، قاله الضحاک. والخامس: خُلِقَكَ فَحَسَنَ، قاله الحسن، والقرظي. والسادس: وَثِيَابَكَ فَقَصُرَ وَشَمُرُ، قاله طاووس. والسابع: قَلْبِكَ فَكَلَهْ، قاله سعيد بن جبیر. ويشهد له قول امرئ القيس:

فَإِنْ يَكْ قَدْ سَاءَتْكَ مِنِّي خَلِيقَةٌ
فَسَلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسُلِ^(٣)
أي: قلبي من قلبك. والثامن: اغسل ثيابك بالماء، ونقها، قاله ابن سيرين، وابن زيد^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَالرَّجَزَ فَأَمْهَرَ ۝﴾ قرأ الحسن، وأبو جعفر، وشيبة، وعاصم إلا أبا بكر، ويعقوب، وابن محيصن، وابن السميع «والرَّجَزَ» بضم الراء. والباقون بكسرهما. ولم يختلفوا في غير هذا الموضع. قال الزجاج: ومعنى القراءتين واحد. وقال أبو علي: قراءة الحسن بالضم، وقال: هو اسم صنم. وقال قتادة: صتمان: إساف، ونائلة. ومن كسر، فالرَّجَزُ: العذاب. فالمعنى: ذو العذاب فاهجر. وفي معنى «الرجز» للمفسرين ستة أقوال: أحدها: أنه الأصنام، والأوثان، قاله ابن عباس. ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والزهري، والسدي، وابن زيد. والثاني: أنه الإثم، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: الشرك، قاله ابن جبیر، والضحاك. والرابع: الذنب، قاله الحسن. والخامس: العذاب، قاله ابن السائب. قال الزجاج: الرَّجَزُ في اللغة: العذاب. ومعنى الآية: اهجر ما يؤدِّي إلى عذاب الله. والسادس: الشيطان، قاله ابن كيسان^(٥). ﴿وَلَا تَمَنَّيَنَّ تَسَكُّوهُ ۝﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: لا تعط عطية تلتبس بها أفضل منها، قاله ابن عباس، وعكرمة، وقتادة. قال المفسرون: معناه: أعطِ لربك وأرد به الله، فأدبه بأشرف الآداب. ومعنى «لا تمنن»: لا تعط شيئاً من مالك لتعطى أكثر منه، وهذا الأدب للنبي ﷺ خاصة، وليس على أحد من أمته إثم أن يهدي هدية يرجو بها ثواباً أكثر منها. والثاني: لا تمنن بعملك تستكثره على ربك، قاله الحسن. والثالث: لا تضعف عن الخير أن تستكثر منه، قاله مجاهد. والرابع: لا تمنن على الناس بالثبوة لتأخذ عليها منهم أجراً، قاله ابن زيد^(٦). ﴿وَرَبِّكَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: لأجل ربك. والثاني: لثواب ربك. والثالث: لأمر ربك. والرابع: لوعده ربك ﴿فَأَصْبِرْ﴾ فيه قولان: أحدهما: على طاعته وفرائضه. والثاني: على الأذى والتكذيب.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا يَفِرُّ فِي الْبُؤْسِ ۝﴾ أي: نفخ في الصور. وهل هذه النفخة هي الأولى أو الثانية؟ فيه قولان، ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝﴾ أي: يعسر الأمر فيه ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ عَذْرٌ يُبَيِّرُ ۝﴾ غير هَيْنَ ﴿ذَرْفَى﴾ قد شرحناه في [المزمل: ١١] ﴿وَمَنْ خَلَقَتْ﴾ أي: ومن خلقته ﴿وَجِدًا﴾ فيه قولان: أحدهما: خلقته وحيداً في بطن أمه لا مال له ولا ولد، قاله

(١) ديوانه ١٢٥، وشرح القصائد العشر ١٨٤، و«أمالي المرتضى» ٦٤/٢، و«مختار الشعر الجاهلي» ٣٧٧/١.

(٢) هو في «المعاني الكبير» ٤٨٦/١، و«الصناعين» ٢٧٧، و«الغائق» ٢٨/١، و«اللسان»: ثوب، غير منسوب. قال ابن قتيبة: يعني بأجسام خفاف، يريد: ركبوها.

(٣) «ديوانه» ١٣ وروايته فيه: وإن كتب قد ساءت منك خليقة... إلخ.

(٤) واختار هذا الأخير ابن جرير الطبري قال: قال ابن زيد: كان المشركون لا يطهرون، فأمره الله أن يطهر ويظهر ثيابه. وقال ابن كثير: وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب.

(٥) قال ابن كثير: وعلى كل تقدير فلا يلزم تأليه ﷺ بشيء من ذلك. كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْجُوا فِي كُفْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وقال مؤنس لأبيو مَرْثُودَ كُنْتُ فِي قَوْمٍ وَأَشْفِخَ وَلَا تَنْجِي سَبِيلَ الْكُفْرِيِّينَ.

(٦) قال ابن جرير الطبري: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال، معنى ذلك: ولا تمنن على ربك من أن تستكثر عملك الصالح، قال: وإنما قلت: ذلك أولى بالصواب، لأن ذلك في سياق آيات تقدم فيهن أمر الله نبيه ﷺ بالجهد في الدعاء إليه، والصبر على ما يلقي من الأذى فيه، قال: فهذه بأن تكون من أنواع تلك أشبه منها بأن تكون من غيرها.

مجاهد. والثاني: خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد، قاله الزجاج. قال ابن عباس: جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكانه رَقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه، فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا، فإنك أتيت محمداً تعرّض لما يَقلُّه، فقال: قد علمت قریش أني من أكثرها مالا. قال: فقل في قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، فوالله ما يشبهها الذي يقول، والله إن لقوله حلوة، وإن عليه طلاوة، وإنه لثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلَى. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فيه. فقال: هذا سحر يؤثر: يآثره عن غيره، فنزلت ﴿ذَرِ وَمَنِ خَلَقْتَ وَجِداً...﴾ الآيات كلها^(١). وقال مجاهد: قال الوليد لقریش: إن لي إليكم حاجة فاجتمعوا في دار الندوة، فقال: إنكم ذوو أحساب وأحلام، وإن العرب يأتونكم، وينطلقون من عندهم على أمر مختلف، فاجتمعوا على شيء واحد. ما تقولون في هذا الرجل؟ قالوا: نقول: إنه شاعر، فعيس عندها، وقال: قد سمعنا الشعر فما يشبه قوله الشعر. فقالوا: نقول: إنه كاهن، قال: إذن يأتونه فلا يجدونه يحدث بما يحدث به الكهنة، قالوا: نقول: إنه مجنون، قال: إذن يأتونه فلا يجدونه مجنوناً. فقالوا: نقول: إنه ساحر. قال: وما الساحر؟ قالوا: يشرب يحببون بين المتباغضين، ويبغضون بين المتحابين، قال: فهو ساحر، فخرجوا لا يلقى أحد منهم النبي إلا قال: يا ساحر، فاشتد ذلك عليه، فأنزل الله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾^(٢) وذكر بعض المفسرين أن قوله تعالى: ذَرِ وَمَنِ خَلَقْتَ وَجِداً^(٣) منسوخ بآية السيف، ولا يصح.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْتَ لَهُ مَالاً مِّنْذُورًا﴾^(٤) في معنى الممدود ثلاثة أقوال: أحدها: كثيراً، قاله أبو عبيدة. والثاني: دائماً، قاله ابن قتيبة. والثالث: غير منقطع، قاله الزجاج. وللمفسرين في مقداره أربعة أقوال: أحدها: غلّة شهر بشهر، قاله عمر بن الخطاب. والثاني: ألف دينار، قاله ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير. قال الفراء: نرى أن الممدود جُعل غاية للعدد، لأن ألف غاية للعدد يرجع في أول العدد من الألف. والثالث: أربعة آلاف، قال قتادة. والرابع: أنه بستان كان له بالطائف لا ينقطع خيره شتاء ولا صيفاً، قاله مقاتل^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَ شُبُوكَا﴾^(٦) أي: حضوراً معه لا يحتاجون إلى التصرف والسفر فيغيروا عنه. وفي عددهم أربعة أقوال: أحدها: عشرة، قاله مجاهد، وقتادة. والثاني: ثلاثة عشر، قاله ابن جبير. والثالث: إثنا عشر، قاله السدي. والرابع: سبعة، قاله مقاتل. ﴿وَمَهْدُكُمْ مِّنْهُمَا﴾^(٧) أي: بسطت له العيش، وطول العمر، ﴿ثُمَّ يَلْمَعُ أَنْ أَرِيدَ﴾^(٨) فيه قولان: أحدهما: يطمع أن أدخله الجنة، قاله الحسن. والثاني: أن أزيده من المال والولد، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾^(٩) أي: لا أفعل، فمنعه الله المال والولد حتى مات فقيراً، ﴿إِنَّهُ كَانَ لِإِكْرَامِكَ عَبْدًا﴾^(١٠) أي: معانداً. وفي المراد بالآيات هنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه القرآن، قاله ابن جبير. والثاني: الحق، قاله مجاهد. والثالث: رسول الله ﷺ، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿سَأَرْفَعُهُ سَعُودًا﴾^(١١) قال الزجاج: سأحمّله على مشقة من العذاب. وقال غيره: سأكلّفه مشقة من العذاب لا راحة له منها. وقال ابن قتيبة: «الصُّعود»: العقبة الشاقة، وكذلك «الكؤود». وفي حديث أبي سعيد عن نبي الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿سَأَرْفَعُهُ سَعُودًا﴾^(١٢) قال: جبل من نار يكلف أن يصعده، فإذا وضع رجله عليها ذابت، فإذا رفعها عادت. يصعد سبعين خريفاً، ثم يهوي فيه كذلك أبداً^(١٣). وذكر ابن السائب أنه جبل من صخرة ملساء في

(١) رواء بهذا اللفظ الواحد في «أسباب النزول» ٣٣٠ من رواية عبد الرزاق عن معمر عن أيوب السخيتي عن عكرمة عن ابن عباس، ورواه الحاكم به وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري، ولم يخرجاه. ورواه الطبري من رواية معمر عن عباد بن منصور عن عكرمة. ورواه أيضاً الطبري ينحوه من رواية عطية العوفي عن ابن عباس. قال ابن كثير: وقد ذكر محمد ابن إسحاق وغير واحد نحوه من هذا.

(٢) ذكره بنحوه وبأخصر منه الواحد في «أسباب النزول» ٣٣٠ من مجاهد بغير سند.

(٣) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله: ﴿وَجَعَلْتَ لَهُ مَالاً مِّنْذُورًا﴾ وهو الكثير الممدود عدده أو مساحته.

(٤) هذا الحديث ذكره المؤلف ملحقاً من حديثين، الأول رواء ابن جرير الطبري من رواية شريك بن عبد الله بن أبي شريك النخعي عن عمارة بن القمقاع عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري، ورواه ابن أبي حاتم من رواية شريك عن عمار الدعني عن عطية به، بلفظ ﴿سَأَرْفَعُهُ سَعُودًا﴾^(١٤) قال: هو جبل =

النار، يكلف أن يصعدهما حتى إذا بلغ أعلاهما أحدر إلى أسفلها، ثم يكلف أن يصعدهما، فذلك دأبه أبداً، يجذب من إمامه سلاسل الحديد، ويضرب من خلفه بمقامع الحديد، فيصعدهما في أربعين سنة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ تَكُنْ﴾ أي: تفكر ماذا يقول في القرآن ﴿وَقَدَّرَ﴾ القول في نفسه ﴿نَقِيلَ﴾ أي: لعن ﴿كَفَّ قَدَرُ﴾ ثم قيل كف ذلك أي: لعن على أي حال قدر ما قدر من الكلام. وقيل: «كيف» هاهنا بمعنى التعجب والإنكار والتوبيخ. وإنما كرر تأكيداً ﴿ثُمَّ نَقَرُ﴾ في طلب ما يدفع به القرآن، ويرده ﴿ثُمَّ عَسَّ وَبَسَّ﴾ قال اللغويون: أي: كرهه وجهه وقطب. يقال: بسر الرجل وجهه، أي: قبضه. وأنشدوا لتوبة:

وَقَدْ رَأَيْتِي مِنْهَا ضُدُودَ رَأَيْتُهُ وَإِعْرَاضَهَا عَنْ حَاجَتِي وَشُورُهَا^(١)

قال المفسرون: كرهه وجهه، ونظر بكراهية شديدة، كالمهتم المتفكر في الشيء ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الإيمان ﴿وَأَسْتَكْبَرَ﴾ أي: تكبر حين دعي إليه ﴿ثُمَّ قَالَ إِنَّ هَذَا﴾ أي: ما هذا القرآن ﴿إِلَّا سِرٌّ يُؤْتَى﴾ أي: يروى عن السحرة ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ أي: من كلام الإنس، وليس من كلام الله تعالى، فقال الله تعالى: ﴿سَأُخْبِرُ سَقَرُ﴾ أي: سادخله النار. وقد ذكر «سقر» في سورة [القمر: ٤٨] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا سَقَرُ﴾ لعظم شأنها ﴿لَا يَنْبِي وَلَا تَنْذَرُ﴾ أي: لا تبقي لهم لحماً إلا أكلته، ولا تذرهم إذا أعيدوا خلقاً جديداً ﴿لَتَرْثَنَّ﴾ أي: مغيرة. يقال: لأخته الشمس، أي: غيرته. وأنشدوا:

يَا ابْنَتَ عَمِّي لَا عَنِّي الْهَوَاجِرُ^(٢)

وقرأ ابن مسعود، وابن السميع، وابن أبي عبيدة «لَوَاحَةً» بالنصب. وفي «البشر» قولان: أحدهما: أنه جمع بشرة، وهي جلدة الإنسان الظاهرة، وهذا قول مجاهد، والفراء، والزجاج. والثاني: أنهم الإنس من أهل النار، قاله الأخفش، وابن قتيبة في آخرين.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ سِتَّةَ عَشَرَ﴾ وهم خزانها، مالك ومعه ثمانية عشر، أعينهم كالبرق الخاطف، وأنبياءهم كالصياحي يخرج لهب النار من أفواههم، ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة، يسع كف أحدهم مثل ربيعة ومضر. قد نزع منهم الرحمة. فلما نزلت هذه الآية قال أبو جهل: يخوفكم محمد بتسعة عشر، أما له من الجنود إلا هؤلاء! أيعجز كل عشرة منكم أن يبطش بواحد منهم، ثم يخرجون من النار! فقال أبو الأشدين^(٣) - قال مقاتل: اسمه: أسيد بن كلداء. وقال غيره: كلداء بن خلف الجمحي -: يا معشر قريش: أنا أمشي بين أيديكم فأرفع عشرة بمنكبي الأيمن، وتسعة بمنكبي الأيسر، فندخل الجنة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ الْكَافِرِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ لا آدميين، فمن يطيقهم ومن يغلبهم؟! ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ فِي هَذِهِ الْقِلَّةِ إِلَّا يَتَنَتَّ﴾ أي: ضلالة ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حتى قالوا ما قالوا ﴿لَيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُورُوا الْكِتَابَ﴾ أن ما جاء به محمد حق، لأن عِدَّتَهُمْ في التوراة تسعة عشر ﴿وَيَرْوَدُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من أهل الكتاب ﴿إِيكُنَّا﴾ أي: تصديقاً بمحمد ﷺ إذ وجدوا ما يخبرهم موافقاً لما في كتابهم ﴿وَلَا يَرْتَابُ الَّذِينَ أُورُوا الْكِتَابَ وَالَّذِينَ أُولُوا فِي عَهْدِهِ الْحَرْثَةَ﴾ ﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه النفاق، ذكره الأكثرون. والثاني: أنه الشك، قاله مقاتل. وزعم أنهم يهود أهل المدينة، وعنده أن هذه الآية مدنية. والثالث: أنه الخلاف، قاله الحسين بن الفضل. وقال: لم يكن الحكمة نفاق. وهذه مكية. فأما «الكافرون» فهم مشركو العرب، ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ﴾ أي: أي شيء أراد الله

من نار يكلف أن يصعد، فإذا وضع يده فابت، وإذا رفعها عادت، فإذا وضع رجله ذابت، وإذا رفعها عادت. وعطية العوفي ضعيف. والحديث الثاني رواه أحمد من حديث ابن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري، والطبري عن عمرو بن الحارث عن دراج به، بلفظ «الطغوت»: جبل من نار، يصعد فيه الكافر سبعين جريجاً، ثم يهوي به كلك منه أبداً ودراج عن شيخه أبي الهيثم ضعيفان. وقال ابن كثير بعدما ذكر حديث أحمد والطبري (وهو الرواية الثانية): وفي غرابة ونكارة.

(١) البيت لتوبة بن الحمير، وهو في «مجاز القرآن» ٢/ ٢٧٥، و«الأغانى» ١٠/ ٢٧٢، و«الطبري» ٢٩/ ١٥٦، و«القرطبي» ١٩/ ٧٤.

(٢) هو في «مجاز القرآن» ٢/ ٢٧٥، و«القرطبي» ١٩٦/ ٧٦، و«الآلوسي» ٢٩/ ٢٢٥.

(٣) كذا الأصل: أبو الأشدين، وهو كذلك في بعض كتب التفسير، وفي النسخة الاستنبولية: أبو الأسدين. والذي في «القرطبي»، و«البحر»، و«روح المعاني»: أبو الأشد أسيد بن كلداء الجمحي. وكان شديد البأس، وذكروا أنه كان يسطر له الأهم المكاظم فيقوم عليه ويقول: من أزالني عنه فله كذا، فلا ينزع إلا قطعاً، ويبقى موضع قلعيته، وكان من أعداء النبي ﷺ.

﴿يَهْدِي﴾ الحديث والخبر ﴿مَثَلًا﴾ والمثل يكون بمعنى الحديث نفسه. معنى الكلام: يقولون: ما هذا من الحديث ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما أضل من أنكر عند الخزنة، وهدى من صدق ﴿يَهْدِي اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وأنزل في قول أبي جهل: أما لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر: ﴿وَمَا يَنْزِلُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني: من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار. وذلك أن لكل واحد من هؤلاء التسعة عشر من الأعراف ما لا يعلمه إلا الله. وذكر الماوردي في وجه الحكمة في كونهم تسعة عشر قولاً محتملاً، فقال: التسعة عشر: عدد يجمع أكثر القليل، وأقل الكثير، لأن الأحاد أقل الأعداد، وأكثرها تسعة، وما سوى الأحاد كثير. وأقل الكثير: عشرة، فوقه الاختصار على عدد يجمع أقل الكثير، وأكثر القليل. ثم رجع إلى ذكر النار فقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَّا ذِكْرًا﴾ أي: ما النار في الدنيا إلا مذكرة لنار الآخرة ﴿كَلَّا﴾ أي: حقاً ﴿وَالْقُرْآنُ﴾ والآل إذ أنزل ﴿قُرْآنًا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم «إذا أدبر» وقرأ نافع، وحمة، وحفص، والفضل عن عاصم، ويعقوب «إذا» بسكون الدال من غير ألف بعدها «أدبر» بسكون الدال، وبهجمة قبلها. وهل معنى القراءتين واحد، أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: أنهما لغتان بمعنى واحد. يقال: دبر الليل، وأدبر. ودبر الصيف وأدبر، هذا قول الفراء، والأخفش، وثعلب. والثاني: أن «دبر» بمعنى خلف، و«أدبر» بمعنى ولى. يقال: دبرني فلان: جاء خلفي، وإلى هذا المعنى ذهب أبو عبيدة وابن قتيبة^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنتَرُ﴾ أي: أضاء وتبين ﴿إِنَّمَا﴾ يعني: سقر ﴿لَا تَحْذَرُ الْكُفْرَ﴾ قال ابن قتيبة: الكُفْر، جمع كبرى، مثل الأول، والأولى، والشُعْر والشُعْرَى. وهذا كما يقال: إنها لإحدى العظام. قال الحسن: والله ما أنذر الله بشيء أوهى منها. وقال ابن السائب، ومقاتل: أراد بالكُفْر: دركات جهنم السبعة.

قوله تعالى: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ قال الزجاج: نصب «نذيراً» على الحال. والمعنى: إنه لكبيرة في حال الإنذار. وذكر «النذير»، لأن معناه معنى العذاب. ويجوز أن يكون «نذيراً» منصوباً متعلقاً بأول السورة، على معنى: قم نذيراً للبشر.

قوله تعالى: ﴿لَنْ شَأْنُ يَنْزِلُ﴾ بدل من قوله تعالى: «البشر»، ﴿أَنْ يَنْزِلَ أَوْ يَنْزِلَ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن يتقدم في طاعة الله أو يتأخر عن معصيته، قاله ابن جريج. والثاني: أن يتقدم إلى النار، أو يتأخر عن الجنة، قاله السدي. والثالث: أن يتقدم في الخير، أو يتأخر إلى الشر، قاله يحيى بن سلام. والرابع: أن يتقدم في الإيمان، أو يتأخر عنه. والمعنى: أن الإنذار قد حصل لكل أحد ممن أقر أو كفر.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَوِيَّةٌ﴾ إِلَّا أَحْصَى الْيَتِيمَ ﴿١٨﴾ فِي جَنَّةٍ يَسْقَوْنَ ﴿١٩﴾ عَنِ الشَّجَرَيْنِ ﴿٢٠﴾ مَا سَلَكَ فِي سَفَرٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا لَوْ نَكُنَّا مِنَ الْمَلَأَيْنِ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ نَكُنَّا نَحْمُسُ مَعَ الْمَلَأَيْنِ ﴿٢٣﴾ وَكَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنَفِرَةٌ ﴿٢٤﴾ فَزَتْ مِنْ قَسْوَمٍ ﴿٢٥﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً ﴿٢٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢٧﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ تَذَكَّرُوا ﴿٢٨﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرُوا ﴿٢٩﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُرُونِ وَأَهْلُ الْقُرُونِ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَوِيَّةٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: كل نفس بالغية مرتبهة بعملها لتحاسب عليه ﴿إِلَّا أَحْصَى الْيَتِيمَ﴾ وهم أطفال المسلمين، فإنه لا حساب عليهم، لأنه لا ذنوب لهم، قاله علي، واختاره الفراء. والثاني: كل نفس من أهل النار مرتبهة في النار، إلا أصحاب اليمين، وهم المؤمنون، فإنهم في الجنة، قاله الضحاك. والثالث: كل نفس مرتبهة بعملها لتحاسب عليه إلا أصحاب اليمين، فإنهم لا يحاسبون، قاله ابن جريج.

قوله تعالى: ﴿يَسْقَوْنَ﴾ عَنِ الشَّجَرَيْنِ ﴿٢٠﴾ قال مقاتل: إذا خرج أهل التوحيد من النار قال المؤمنون لمن بقي في النار: ﴿مَا سَلَكَ فِي سَفَرٍ﴾؟ قال المفسرون: سلككم بمعنى: أدخلكم. وقال مقاتل: ما حبسكم فيها؟ ﴿قَالُوا لَوْ نَكُنَّا مِنَ الْمَلَأَيْنِ﴾ الله في دار الدنيا ﴿وَلَوْ نَكُنَّا نَحْمُسُ مَعَ الْمَلَأَيْنِ﴾ لم نتصدق لله ﴿وَكَلَّا نَحْمُسُ مَعَ الْمَلَأَيْنِ﴾ أهل

(١) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندنا أنهما قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى، فبأيهما قرأ القارئ فمصيب.

الباطل والتكذيب ﴿وَكَلَّا تَكْذِبُ يَوْمَ الَّتِي﴾ أي: يوم الجزاء والحساب ﴿حَتَّىٰ آتَيْنَا الَّتِي﴾ وهو الموت. يقول الله تعالى: ﴿فَمَا تَتْمَتُ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ﴾ وهذا إنما جرى بعد شفاعة الأنبياء والملائكة والشهداء والمؤمنين. وهذا يدل على نفع الشفاعة لمن آمن. ﴿فَمَا لَمْ عَنِ التَّكْوِينِ مُرِيدِينَ﴾ يعني: كفار قريش حين نفروا من القرآن والتذكير بمواعظه. والمعنى: لا شيء لهم في الآخرة إذ أعرضوا عن القرآن فلم يؤمنوا به، ثم شبههم في نفورهم عنه بالحمُر، فقال تعالى: ﴿كَانَهُمْ حُمُرٌ مُّشْتَبِهَةٌ﴾ قرأ أبو جعفر، ونافع، وابن عامر، والمفضل عن عاصم بفتح الفاء. والباقون بكسرهما. قال أبو عبيدة، وابن قتيبة: من قرأ بفتح الفاء أراد: مذعورة، استغفرت فغفرت. ومن قرأ بكسر الفاء أراد: نافرة. قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: حُمُرٌ مُّشْتَبِهَةٌ. وناس من العرب يكسرون الفاء. والفتح أكثر في كلام العرب. وقراءتنا بالكسر. أنشدني الكسائي:

إِخْبِسْ جِمَارَكَ إِنَّهُ مُسْتَنْفَرٌ فِي إِثْرِ أَخِيرَةٍ عَمَدَنٍ لِغُرَبٍ^(١)

و «غرب» موضع. وفي «القسورة» سبعة أقوال: أحدها: أنه الأسد، رواه يوسف بن مهرا عن ابن عباس. وبه قال أبو هريرة، وزيد بن أسلم، وابنه. قال ابن عباس: الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هزئت منه، فذلك هؤلاء المشركون إذا سمعوا النبي ﷺ هربوا منه، وإلى هذا ذهب أبو عبيدة، والزجاج. قال ابن قتيبة: كأنه من القسر والقهر. فالأسد يقهر السباع. والثاني: أن القسورة: الرماة، رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال أبو موسى الأشعري، ومجاهد، وقاعدة، والضحاك، ومقاتل، وابن كيسان. والثالث: أن القسورة: جبال الصيادين، رواه عكرمة عن ابن عباس. والرابع: أنهم غصب الرُّجَال، رواه أبو حمزة عن ابن عباس. واسم أبي حمزة: نصر بن عمران الضبيعي. والخامس: أنه رُكِرَ الناس، وهذا في رواية عطاء أيضاً عن ابن عباس. وركِرَ الناس: جُسِمَ وأصواتهم. والسادس: أنه الظُّلْمَةُ والليل، قاله عكرمة. والسابع: أنه الثُّبُل، قاله قاعدة.

قوله تعالى: ﴿يَذَرُ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ مِثْلًا شَدِيدًا﴾ فيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم قالوا للنبي ﷺ: إن سَرَكَ أن نَتَّبِعَكَ، فليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من الله تعالى إلى فلان ابن فلان يؤمر فيه بتأبئك، قاله الجمهور. والثاني: أنهم أرادوا براءة من النار أن لا يعذبوا بها، قاله أبو صالح. والثالث: أنهم قالوا: كان الرجل إذا أذنب في بني إسرائيل وجده مكتوباً إذا أصبح في رُقعة. فما بالنا لا نرى ذلك؟ فنزلت هذه الآية، قاله الفراء. فقال الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: لا يؤثرون الضَّحْف ﴿يَذَرُ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ أي: لا يَخْشَوْنَ عَذَابَهَا. والمعنى: أنهم لو خافوا النار لما اقترحوا الآيات بعد قيام الدلالة ﴿كَلَّا﴾ أي: حقاً. وقيل: معنى ﴿كَلَّا﴾: ليس الأمر كما يريدون ويقولون ﴿إِنَّهُمْ تَذَكَّرُوا﴾ أي: تذكير وموعظة ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكِّرْ﴾ الهاء عائدة على القرآن، فالمعنى: فمن شاء أن يذكر القرآن ويتعظ به ويفهمه، ذكره. ثم رد المشيئة إلى نفسه فقال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلا أن يريد لهم الهدى ﴿هُوَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ أي: أهل أن يتقوا ﴿وَأَهْلُ الْآخِرَةِ﴾ أي: أهل أن يغفروا لمن تاب. روى أنس عن رسول الله ﷺ أنه تلا هذه الآية، فقال: «قال ربكم ﷻ: أنا أهل أن اتقى، فلا يشرك بي غيري. وأنا أهل لمن اتقى أن يشرك بي غيري أن أفقر له»^(٢)



(١) البيت في «اللسان»: نفر، منسوباً لابن الأعرابي، وأوله «اربط حمارك» بدل «احبس» وهو في «الطبري» ١٦٨/٢٩ غير منسوب، و«القرطبي» ٨٧/١٩ وأوله فيهما «استك حمارك» بدل «احبس». و«غرب» كُشِّرَ: اسم موضع وجبل دون الشام في بلاد بني كلب.

(٢) رواه أحمد في «المسند»، والترمذي ١٦٨/٢، و«الحاكم» ٥٠٨/٢، وابن ماجه، والدارمي، والطبراني في «الأوسط»، وابن عدي، وأبو يعلى، والبيزار، كلهم من رواية سهيل بن أبي حزم القطعي عن ثابت بن أنس، وهو ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب». قال الترمذي: حديث حسن غريب، وسهيل ليس بالقوي في الحديث، وقد تفرد سهيل بهذا الحديث عن ثابت. قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٨٠: ورواه الحكيم الترمذي في السابح والسبعين بعد المائة بلفظ: «قال: هو أهل أن يتقى، فمن اتقى فهو أهل أن يغفر له» وله شاهد من رواية عبد الله قال: سمعت ثلاثة نفر من أصحاب رسول الله ﷺ أبا هريرة، وابن عمر، وابن عباس، يقولون: سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى... فذكره.

سورة القيامة

وهي مكية كلها بإجماعهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (١) وَلَا أَقِيمُ وَالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ (٢) ائْتَسَبَ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ يَجْعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ تُسَوَّى بَنَانَهُ (٤) بَلَى يَدُهُ الْإِنْسَانُ يُعَدِّرُ أَمَانَهُ (٥) يَسْتَلْ أَتَانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ (٦) إِنَّمَا يَرَى الْمَوْتُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجَمَعَ النَّفْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنَّ الْفَرَسَ (١٠) كَلَّا لَا دَنَّ (١١) إِنْ رَأَى يَوْمَئِذٍ لَشَرًّا (١٢) يُبَيِّنُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلَى الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْفَى مَوَادِرُهُ (١٥) ...

قوله تعالى: ﴿لَا أَقِيمُ﴾ اتفقوا على أن المعنى «أقسم» واختلفوا في «لَا» فجعلها بعضهم زائدة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَمْلِكُ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩] وجعلها بعضهم رداً على منكري البعث. ويدل عليه أنه «أقسم» «على كون البعث». قال ابن قتيبة: زيدت «لَا» على نية الرد على المكذبين، كما تقول: لا والله ما ذاك، ولو حذف جليز، ولكنه أبلغ في الرد، وقرأ ابن كثير إلا ابن فليح «لأقسم» بغير ألف بعد اللام، فجعلت لاهياً دخلت على «أقسم»، وهي قراءة ابن عباس. وأبي عبد الرحمن، والحسن، ومجاهد وعكرمة، ابن محيصن. قال الزجاج: من قرأ «لأقسم» فاللام لام القسم والتوكيد. وهذه القراءة بعيدة في العربية، لأن لام القسم لا تدخل على الفعل المستقبل إلا مع النون، تقول: لأضربن زيداً. ولا يجوز: لأضرب زيداً.

قوله تعالى: ﴿لَا أَقِيمُ وَالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ (١) قال الحسن؛ أقسم بالأولى ولم يقسم بالثانية. وقال قتادة: حكمها حكم الأولى^(١). وفي «النفس اللوامة» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها المذمومة، قاله ابن عباس. فعلى هذا: هي التي تلوم نفسها حين لا ينفعها اللوم. والثاني: أنها النفس المؤمنة، قاله الحسن. قال: لا يُرَى المؤمن إلا يلوم نفسه على كل حال. والثالث: أنها جميع النفوس. قال الفراء: ليس من نفس بررة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها، إن كانت عملت خيراً قال: هلا زدت. وإن كانت عملت سوءاً، قال: ليتني لم أفعل^(٢).

قوله تعالى: ﴿اِئْتَسَبَ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ يَجْعَ عِظَامَهُ﴾ المراد بالإنسان هاهنا: الكافر. وقال ابن عباس: يريد أبا جهل. وقال مقاتل: عدي بن ربيعة، وذلك أنه قال: أجمع الله هذه العظام؟ فقال النبي ﷺ له: «نعم»، فاستهزأ منه، فنزلت هذه الآية^(٣). قال ابن الأباري: وجواب القسم محذوف، كأنه: لَتُبْعَثُنَّ، لَتُحَاسَبُنَّ، فدل قوله تعالى: ﴿اِئْتَسَبَ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ يَجْعَ عِظَامَهُ﴾ على الجواب، فحذف^(٤).

قوله تعالى: ﴿بَلَى﴾ وقوف حسن. ثم يُتْبَدَأُ ﴿بَلَى قَدِيرِينَ﴾ على معنى: بلى نجمعها قادرين. ويصلح نصب «قادرين» على التكرير: بلى فليُحَسَّبْنَا قادرين^(٥) ﴿عَلَى أَنْ تُسَوَّى بَنَانَهُ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً

(١) قال ابن كثير: والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً، كما قاله قتادة رحمه الله، وهو المروي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، واختاره ابن جرير.

(٢) قال ابن جرير: وكل هذه الأقوال مقاربة المعنى، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر، وتندم على ما فات.

(٣) قال البغوي: نزلت في عدي بن ربيعة حليف بني زهرة ختن الأحنس بن شريق الثقفي، وكان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اكفني جزاي السوء»، يعني عدياً والأحنس، وذلك أن عدي بن ربيعة أتى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد حدثني عن القيامة متى تكون؟ وكيف أمرها وحالها؟ فأخبره رسول الله ﷺ فقال: لو عاينث ذلك اليوم لم أصبثك ولم أؤمن بك، أو يجمع الله العظام؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿اِئْتَسَبَ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ يَجْعَ عِظَامَهُ﴾ يعني الكافر «أَلَّنْ يَجْعَ عِظَامَهُ» بعد التفريق والبلو فتحيه قبل ذكر العظام، وذكره كذلك بغير سند القرطبي والخازن. والله أعلم. وفي «القرطبي» و«البحر المحيط»: وقيل: نزلت في أبي جهل.

(٤) قال ابن كثير: والمقسم عليه هاهنا، هو إثبات المعاد، والرد على ما يزعم الجبهة من البعاد من عدم بعث الأجساد.

(٥) قال ابن كثير: والظاهر من الآية أن قوله تعالى: ﴿قَدِيرِينَ﴾ حال من قوله تعالى: ﴿يَجْعَ﴾ أي أظن الإنسان أننا لا نجمع عظامه؟ ﴿بَلَى﴾ سنجمعها ﴿قَدِيرِينَ﴾ على أن تُسَوَّى بَنَانَهُ، أي قدرتنا صالحة لجمعها، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان فنجعل بَنَانَهُ وهي أطراف أصابعه مستوية.

واحدًا كَخُفَّ البعير، وحافر الحمار، فيعدم الارتفاق بالأعمال اللطيفة، كالكتابة والخياطة، هذا قول الجمهور. والثاني: تقدر على أن نسوي بنانه. كما كانت، وإن صغرت عظامها، ومن قدر على جمع صغار العظام، كان على جمع كبارها أقدر، هذا قول ابن قتيبة، والزجاج. وقد بينا معنى البنان في [الأشغال: ١٢].

قوله تعالى: ﴿يَلْزِمُ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ أَفَئَهُ ۥ﴾ فيه قولان: أحدهما: يكذب بما أمامه من البعث والحساب، قاله ابن عباس. والثاني: يقدم الذنب ويؤخر التوبة، ويقول: سوف أتوب، قاله سعيد بن جبير. فعلى هذا: يكون المراد بالإنسان: المسلم. وعلى الأول: الكافر^(١).

قوله تعالى: ﴿يَنْتَظِرُ أَكْفَانَهُ ۖ إِنَّهُ إِلَيْنَا ۙ مُرْجِعُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: متى هو؟ تكذيباً به، وهذا هو الكافر ﴿إِنَّا بِقَوْمِكَ عَلِيمٌ﴾ قرأ أهل المدينة، وأبان عن عاصم «بَرَقَ» بفتح الراء، والباقون بكسرها. قال الفراء: العرب تقول: بَرَقَ البصر يَبْرَقُ، وَيَبْرُقُ يَبْرُقُ: إذا رأى هولاً يفرغ منه. و «بَرَقَ» أكثر وأجود^(٢)، قال الشاعر:

فَنَفْسُكَ فَانَعٌ وَلَا تَنْفَعَنِي وَدَاوِ الْكُلُومَ وَلَا تَنْبَرِقِ^(٣)

بالفتح. يقول: لا تفرغ من هول الجراح التي^(٤) بك. قال المفسرون: يشخص بصر الكافر يوم القيامة، فلا يظرف لما يرى من العجائب التي كان يكذب بها في الدنيا. وقال مجاهد: برق البصر عند الموت.

قوله تعالى: ﴿وَحَسَفَ الْقَمَرُ ۚ﴾ قال أبو عبيدة: كَسَفَ: وحَسَفَ بمعنى واحد، أي: ذهب ضوءه.

قوله تعالى: ﴿رَبِّمُوعِ الْقَمَرِ ۚ﴾ إنما قال «جمع» لتذكير القمر، هذا قول أبي عبيدة. وقال الفراء: إنما لم يقل: جُمِعَتْ، لأن المعنى: جمع بينهما. وفي معنى الآية قولان: أحدهما: جمع بين ذاتيهما. وقال ابن مسعود: جمعا كالبعيرين القرنين. وقال عطاء بن يسار: يُجْمَعَانِ ثُمَّ يُفْقَدَانِ فِي الْبَحْرِ. وقيل: يُفْقَدَانِ فِي النَّارِ. وقيل: يجمعان، فيطلعان من المغرب. والثاني: جمع بينهما في ذهاب نورهما، قاله الفراء، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿يَبْذُلُونَ الْبَاقِينَ﴾ يعني: المكذَّب بيوم القيامة ﴿إِنَّ الْفُلْكَ﴾ قرأ الجمهور بفتح الميم، والفاء، وقرأ ابن عباس، ومعاوية، وأبو رزين، وأبو عبد الرحمن، والحسن، وعكرمة، والضحاك، وابن يعمر، وابن أبي عبيدة: بكسر الفاء. قال الزجاج: فمن فتح، فالمعنى: أين الفرار؟ ومن كسر، فالمعنى: أين مكان الفرار؟ تقول: جلست مجلساً بالفتح، يعني: جلوساً. فإذا قلت: مجلساً بالكسر، فانت تريد المكان.

قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ قال ابن قتيبة: لا ملجأ. وأصل الوزر: الجبل الذي يمتنع فيه ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْهِيكَ أَشْرَكَ﴾ أي: المتهنى والمرجع. ﴿يَبْهِي الْإِنْسَانَ بِمَا قَدَّمَ وَكَفَّرَ﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: بما قدَّم قبل موته، وما سَنَّ من شيء فمُئْمِل به بعد موته، قاله ابن مسعود، وابن عباس. والثاني: يَبْهِي بِأَوَّلِ عَمَلِهِ وَآخِرِهِ. قاله مجاهد. والثالث: بما قدَّم من الشرِّ، وآخر من الخير، قاله عكرمة. والرابع: بما قدَّم من فرض، وآخر من فرض، قاله الضحاك. والخامس: بما قدَّم من معصية، وآخر من طاعة. والسادس: بما قدَّم من أمواله، وما خلَّف للورثة، قاله زيد بن أسلم.

قوله تعالى: ﴿يَلْزِمُ الْإِنْسَانَ عَلَيْهِ بُؤْسُهُ ۖ﴾ قال الفراء: المعنى: بل على الإنسان من نفسه بصيرة، أي: رقباء يشهدون عليه بعمله، وهي: الجوارح. قال ابن قتيبة: فلما كانت جوارحه منه، أقامها مقامه. وقال أبو عبيدة:

(١) قال ابن كثير: وروي عن عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والسدي وغير واحد من السلف: هو الذي يجعل الذنوب ويسوّف التوبة.

(٢) قال ابن جرير الطبري: وأولى القراءتين في ذلك عندنا بالصواب كسر الراء، ﴿إِنَّا بِقَوْمِكَ عَلِيمٌ﴾ بمعنى: قَرَعَ فشقَّ وقَتَعَ من هول القيامة وفرغ الموت، قال: وبذلك جاءت أشعار العرب.

(٣) البيت لطرفة بن العبد في «ديوانه» ٢١٨، وهو في «الطبري» ١٧٩/٢٩، و«القرطبي» ٩٤/١٩، و«اللسان»: برق. وتبرق: تهذّب. يقول طرفة لعناته: إذا تأثت نفسك إلى السخريق والاستهزاء، فابعد عني واستهزئ بنفسك واحترقها، واحبس نفسك داخل لتداوي ما أصبكت به من جروح، وإياك وتهديد الأبطال مرة أخرى فليست منهم، ولا تقوى عليهم. وقوله بيت، وهو:

نَسَمَانِي عَيْنَانِي طَوَّالَةً تَسُفُكَ يَبْسِيلاً مِنَ السَّوْثَانِ

ومعنى نعتاني: شُهر بي وحاوَل أن يسيء سمعتي، طَوَّالَة: نعمة، لقبه بذلك، وهي منصوبة على الترخيم. تسف: تأكل. البيس: اليايس. السوثان: نبات معروف. ومعنى الكلام: إن حنانة قد حاول أن يسيء ويشتري، فرحمة لك أيها النعمة التي ترضى يايس المشب وأرداه.

(٤) في الأصل: الذي.

جاءت الهاء في «بصيرة» في صفة الذكر، كما جاءت في رجل «راوية»، و «طاغية»، و «علامة».

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَلْفٍ مَّائَةٍ﴾ في المعاذير قولان: أحدهما: أنه جمع عذر، فالمعنى: لو اعتذر، وجادل عن نفسه، فعليه من يكذب عذره، وهي: الجوارح، وهذا قول الأكثرين. والثاني: أن المعاذير جمع معذار، وهو: الستر. والمعاذير: السطور. فالمعنى: ولو أرخى ستوره، هذا قول الضحاک، والسدي، والزجاج. فيخرج في معنى «ألقى» قولان: أحدهما: قال، ومنه ﴿فَأَلْقَا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ [النحل: ٣٦]، وهذا على القول الأول. والثاني: أرخى، وهذا على القول الثاني.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُجِبَ بِهِ﴾ ١١. إِنْ عَلَيْنَا جَمْعٌ وَقَوْمَانِ ١٢. فَإِذَا قَرَأْتَ فَأَنْجِ قَوْمَكَ ١٣. ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٌ ١٤. لَا تَلْ تُجِيبُونَ ١٥. الْعَاجِلَةَ ١٦. وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ١٧. يُجِيبُونَ بِأَمْرٍ ١٨. إِنْ رِيَا ظَاهِرٌ ١٩. وَيُجِيبُونَ بِأَمْرٍ ٢٠. تَعْلَى أَنْ يُعَلَّ بِهَا قَاطِرٌ ٢١.﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ روى سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان يشتد عليه جفظه، وكان إذا نزل عليه الوحي يُحرّك لسانه وشفته قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي، مخافة أن لا يحفظه، فأنزل الله تعالى هذه الآية^(١). ومعناها: لا تحرك بالقرآن لسانك لتعجل بأخذه ﴿إِنْ عَلَيْنَا جَمْعٌ وَقَوْمَانِ﴾ ١٢. قال ابن قتبية: أي: ضمّه وجمعه في صدرك ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ﴾ أي: جمعناه ﴿فَأَنْجِ قَوْمَكَ﴾ أي: جمعه. قال المفسرون يعني: اقرأ إذا فرغ جبريل من قراءته. قال ابن عباس: فأنج قومه، أي: اعمل به. وقال قتادة: فاتبع حلاله وحرامه ﴿ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٌ﴾ ١٤. فيه أربعة أقوال: أحدها: نبينه بلسانك، فنقرؤه كما أقرأك جبريل. وكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب، قرأه كما وعده الله، قاله ابن عباس. والثاني: إن علينا أن نجزي به يوم القيامة بما فيه من وعده ووعد، قاله الحسن. والثالث: إن علينا بيان ما فيه من الأحكام، والحلال، والحرام، قاله قتادة. والرابع: علينا أن ننزله قرآناً عربياً، فيه بيان للناس، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قال عطاء: أي: لا يؤمن أبو جهل بالقرآن وبيانه، وقال ابن جرير: المعنى: ليس الأمر كما تقولون من أنكم لا تتعشرون، ولكن دعاكم إلى قيل ذلك مَحَبَّتِكُمْ للعاجلة.

قوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ الْعَاجِلَةَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو «بل يحبون العاجلة ويدرون» بالياء فيهما. وقرأ الباقون بالناء فيهما. المراد: كفار مكة، يحبونها ويعملون لها «ويدرون الآخرة» أي: يتركون العمل لها إشاراً للدنيا عليها.

قوله تعالى: ﴿يُجِيبُونَ بِأَمْرٍ ١٨. إِنْ رِيَا ظَاهِرٌ ١٩.﴾ روى عطاء عن ابن عباس قال: إلى الله ناظرة. قال الحسن: حق لها أن تتنظر وهي تنظر إلى الخالق، وهذا مذهب عكرمة. وروية الله ﷻ حق لا شك فيها، والأحاديث فيها صحاح، قد ذكرت جملة منها في «المغني» و «الحدائق»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَيُجِيبُونَ بِأَمْرٍ ٢٠.﴾ قال ابن قتبية: أي: عابسة مقطبة.

قوله تعالى: ﴿تَعْلَى ٢١.﴾ قال الفراء: أي: تعلم، و «الفارقة» الداهية. قال ابن قتبية: إنه من فقارة الظهر، كأنها تكسره، يقال: فقّرت الرجل: إذا كسرت فقارته، كما يقال: رأسه: إذا ضربت رأسه، وبطنته: إذا ضربت بطنه. قال ابن زيد: الفارقة: دخول النار. قال ابن السائب: هي أن تُحَجَّبَ عن ربها، فلا تنظر إليه.

﴿كَلَّا إِنْ هَلَكِ السَّائِقُ ٢٢. وَقِيلَ مَنْ رَآكَ ٢٣. وَلَوْ أَنَّهُ الْفَرَقُ ٢٤. وَاللَّيْلِ السَّائِقُ بِالسَّائِقِ ٢٥. إِنْ رَاكَ يُجِيبُ السَّائِقُ ٢٦. لَا مَكَدَ وَلَا مَكَلَّ ٢٧. وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَكَّلَ ٢٨. ثُمَّ ذَهَبَ إِلَيْهِمْ يَتَّبِعُ ٢٩. أَوَلَمْ يَكُنْ لَكَ قَوْلٌ ٣٠. ثُمَّ أَوَلَمْ يَكُنْ لَكَ قَوْلٌ ٣١. أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ٣٢.﴾

(١) روله الإمام أحمد في «المستند» من حديث سعيد بن جبیر عن ابن عباس، و«البخاري» ٣٢٥/٨، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وذكره السيوطي في «الدور» ٢٨٩/٦ وزاد نسبه للطيالسي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في «المصاحف» والطبراني، وابن مردويه، وأبي نعيم والبيهقي معاً في «الدلائل» عن ابن عباس ﷺ.

(٢) وقد ثبتت رؤية المؤمنين ﷻ في النار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها، كحديث أبي سعيد وأبي هريرة، وهما في «الصحيحين» أن ناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحب؟» قالوا: لا، قال: «إنكم ترون ربكم كذلك» وفي «الصحيحين» عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة «البدر» فقال: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا».

أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ نَذِيرٌ ۚ ثُمَّ كَانَ عَلَقَهُ فَطَلَقَ ۖ فَسُئِلَ ۖ فَعَمَلَ بَيْنَ الْوَسْطَيْنِ الْإِثْمَ وَالْإِثْمَ ۚ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ ۚ عَلَّمَ أَنْ يُخْرِجَ الْكَلِمَ ۚ ﴿١٧٠﴾
قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قال الزجاج: «كلا» ردع وتنبية. المعنى: ارتدعوا عما يؤدي إلى العذاب. وقال غيره: معنى «كلا»: لا يؤمن الكافر بهذا.

قوله تعالى: ﴿إِذَا بَلَغْتَ﴾ يعني: النفس. وهذه كناية عن غير مذكور. و«التراقي» العظام المكتنفة للثقرة النحر عن يمين وشمال. وواحدة التراقي: ترقوة، ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشفاء على الموت، ﴿فَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۚ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه قول الملائكة بعضهم لبعض: من يرقى روحه، ملائكة الرحمة، أو ملائكة العذاب؟ رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس، وبه قال أبو العالية ومقاتل. والثاني: أنه قول أهله: هل من راقٍ يرقيه بالرقى؟ وهو مروي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال عكرمة، والضحاك، وأبو قلابة، وقتادة، وابن زيد، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ﴾ أي: أيقن الذي بلغت روحه التراقي ﴿أَنَّ الْفِرَاقَ﴾ للدنيا ﴿وَالْفَتَى النَّاسَ وَالنَّاسِ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أمر الدنيا بأمر الآخرة، رواه الوالبي عن ابن عباس: وبه قال مقاتل. والثاني: اجتمع فيه الحياة والموت، قاله الحسن. وعن مجاهد كالقولين. والثالث: التفت ساقاه في الكفن، قاله سعيد بن المسيب. والرابع: التفت ساقاه عند الموت، قاله الشعبي. والخامس: الشدة بالشدة، قاله قتادة. قال الزجاج: آخر شدة الدنيا بأول شدة الآخرة^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ لَّكَاسٍ﴾ أي: إلى الله المنتهى. ﴿فَلَا سَكَنَ لَكَ مَلَأَ﴾ قال أبو عبيدة: «لا» هاهنا في موضع «لم». قال المفسرون: هو أبو جهل^(٢) ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ عن الإيمان: ﴿ثُمَّ دَخَلَ إِلَىٰ آلِهِ يَمُتُّ﴾ أي: رجع إليهم يتبختر ويختال. قال الفراء: «يتمطى»، أي: يتبختر، لأن الظهر هو المَطَا، فيلوي ظهره متبختراً. وقال ابن قتيبة: أصله يتمط، فقلبت الطاء فيه ياء، كما قيل: يتظنى، وأصله: يتظنن، ومنه المشية المَطِيطَاء. وأصل الطاء في هذا كله دال. إنما هو مد يده في المشي إذا تبختر. يقال: مَطَطْتُ وَمَدَدْتُ بمعنى.

قوله تعالى: ﴿أَنَّى لَكَ فَالُوكَ﴾ قل ابن قتيبة: هو تهديد ووعيد. وقال الزجاج: العرب تقول: أولى فلان: إذا دعت عليه بالمكروه، ومعناه: وليك المكروه يا أبا جهل.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ يعني: أبا جهل ﴿بِرَّكَ سُدَّتْ﴾ قال ابن قتيبة: أي: يهمل فلا يؤمر ولا ينهى ولا يعاقب، يقال: أسدبت الشيء، أي: أهملته. ثم دل على البعث بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ نَذِيرٌ ۚ ثُمَّ كَانَ عَلَقَهُ فَطَلَقَ ۖ فَسُئِلَ ۖ فَعَمَلَ بَيْنَ الْوَسْطَيْنِ الْإِثْمَ وَالْإِثْمَ ۚ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ ۚ عَلَّمَ أَنْ يُخْرِجَ الْكَلِمَ ۚ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وحزمة، الكسائي وأبو بكر عن عاصم: «تُمْنَى» بالتاء. وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم، ويعقوب «تُمْنَى» بالياء. وعن أبي عمرو كالقراءتين. وقد شرحنا هذا في [النجم: ٢٤] ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَهُ﴾ بعد النطفة ﴿فَطَلَقَ﴾ فيه الروح، وسَوَّى خلقه ﴿فَعَمَلَ بَيْنَ الْوَسْطَيْنِ﴾ أي: خلق من مائه أولاداً ذكوراً وإناثاً. ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ﴾ الذي فعل هذا ﴿بِقَدِيرٍ﴾؟ وقرأ أبو بكر الصديق، وأبو رجاء، وعاصم الجحدري «يقدِر» ﴿عَلَّمَ أَنْ يُخْرِجَ الْكَلِمَ﴾؟ وهذا تقرير لهم، أي: إن من قدر على الابتداء قدر على الإعادة. قال ابن عباس: إذا قرأ أحدكم هذه الآية، فليقل: اللهم بلى^(٣).



(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصحة عندي قول من قال: معنى ذلك: والتفت ساق الدنيا بساق الآخرة، وذلك من شدة كرب الموت، بشدة هول المطلع.

(٢) والصحيح أنها عامة في أبي جهل وغيره.

(٣) ذكره ابن كثير في «التفسير» من رواية ابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفاً من حديث أبي إسحاق السبيعي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وأبو إسحاق السبيعي ثقة عابد لكنه اختلط بأخرة. ورواه أبو داود والترمذي مطولاً عن أبي هريرة مرفوعاً وفي سنده أعرابي لم يسم، وعنه أخرجه أحمد ٢/٢٤٩، والترمذي ٢٣٨/٢ مختصراً وأعله بالأعرابي. ورواه الحاكم في «المستدرک» ٥١٠/٢ وصححه ووافقه الذهبي، وفي سنده يزيد بن عياض، وهو متروك كما قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف». ورواه أبو داود رقم (٤٨٤) من رواية موسى بن أبي عائشة عن رجل سمعه من النبي ﷺ قال ابن كثير: تفرد به أبو داود، ولم يسم هذا الصحابي، ولا يضر ذلك.

سورة الدهر

سورة هل أتى: ويقال لها: سورة الإنسان

وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها مدنية كلها، قاله الجمهور منهم، مجاهد وقادة. والثاني: مكية، قاله ابن يسار، ومقاتل، وحكي عن ابن عباس. والثالث: أن فيها مكيًا ومدنيًا. ثم في ذلك قولان: أحدهما: أن المكي منها آية، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِمْ يَأِينًا أَوْ كُفْرًا﴾ وباقيها جميعه مدني، قاله الحسن وعكرمة. والثاني: أن أولها مدني إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ [الإنسان: ٢٤] ومن هذه الآية إلى آخرها مكي، حكاه الماوردي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّافِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى﴾ قال الفراء: معناه: قد أتى. و«هل» تكون خبرًا، وتكون جحدًا، فهذا من الخبر، لأنك تقول: هل وعظمت؟ هل أعطيت؟ فتقرره بأنك قد فعلت ذلك. والجحد، أن تقول: وهل يقدر أحد على مثل هذا؟ وهذا قول المفسرين، وأهل اللغة. وفي هذا الإنسان قولان: أحدهما: أنه آدم ﷺ. والحين الذي أتى عليه: أربعون سنة، وكان مصورًا من طين لم يُنفَخ فيه الروح، هذا قول الجمهور. والثاني: أنه جميع الناس، روي عن ابن عباس، وابن جريج، فعلى هذا يكون الإنسان اسم جنس، ويكون الحين زمان كونه نطفة، وعلقة، ومضغة.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ المعنى: أنه كان شيئًا، غير أنه لم يكن مذكورًا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ يعني: ولد آدم ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ قال ابن قتيبة: أي: أخلاط. يقال: مشجته، فهو مشيج، يريد: اختلاط ماء المرأة بماء الرجل.

قوله تعالى: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ قال الفراء: هذا مقدم، ومعناه التأخير، لأن المعنى: خلقناه وجعلناه سميعًا بصيرًا لنبتليه. قال الزجاج: المعنى: جعلناه كذلك لنختبره. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي: بينا له سبيل الهدى نصبب الأدلة، ورضت الرسول (١) ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ أي: خلقناه إما شاكرًا ﴿وَأَمَّا كَفُورًا﴾ قال الفراء: بينا له الطريق إن شكر، أو كفر (٢).

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا وَنَارًا وَسَمِيرًا ۝٤ إِذْ الْأَبْرَارُ يَشْرُونَ مِن غَيْرِ مَا يَرَاهُمَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرِبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُؤْتُونَ بِالنَّارِ دِفَاقُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّ مَسْطَرًّا ۝٧ وَيَطْمَئِنُّونَ الْعُلَمَاءُ عَلَى حَبِّهِمْ يَشْكُرُونَ ۝٨ إِنَّا نَطْمِئُنُّ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٩ إِنَّا نَحْنُ الْغَاثُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عُيُوسًا فَطِيرًا ۝١٠ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذِكِّ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَصْرًا وَمُزِيدًا ۝١١ وَنَزَّلْنَاهُم بِمَا عَمِلُوا جَهَنَّمَ وَالْخَبِيرَ ۝١٢ فَكَيْفَ يُعْطَى عَلَى الْأَرْكَانِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شِئًا وَلَا زِينًا ۝١٣ وَنَادَيْنَا عَلَيْهِمْ إِيذَاهُمْ وَذَلَّلْنَاهُمَا قَدِيرًا ۝١٤ فَكَيْفَ يُعْطَى عَلَى الْأَرْكَانِ قَوَائِرُهَا ۝١٥ قَوَائِرُهَا مِن فَضْلِهِ فَنُزِّلُهَا نَقِيرًا ۝١٦ وَلَقَدْ رَأَيْنَا نِيمًا وَّلَمَّا كَرِهَ اللَّهُ لَهَا ذِكْرًا وَكَفَرْنَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهَا قَدِيرًا ۝١٧ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ۝١٨ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْغِ فِيهِمْ يَأِينًا أَوْ كُفْرًا ۝١٩ وَذَكَرْ أَمْرَ رَبِّكَ يُسَبِّحُكَ بِحُكْمٍ وَأُسْبَاحًا ۝٢٠ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِسْبَاحًا طَوِيلًا ۝٢١﴾

(١) قال ابن كثير: وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي بينا له ووضحناه وبصّرناه به، كقوله جل وعلا: ﴿وَأَنَّا نُرِيهِمْ هُدًى لَّهُمْ فَاصْبِرُوا لِمَقْضِي اللَّهِ﴾ وقاله جل وعلا: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ الْقُرْآنَ﴾ أي: بينا له طريق الخير وطريق الشر، وهذا قول عكرمة وعطية وابن زيد مجاهد في المشهور عنه والجمهور.

(٢) قال ابن كثير: فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل الناس يفلو فبالع نفسه فمعهها أو موبقها».

﴿إِنَّ كَذَلِكَ يَجُوزُ الْعَامِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَّيْلًا﴾ ﴿٣٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَرْحَامَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمَنَاتَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٣٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ فَمَنْ شَاءَ لَنُخَذِّدْكَ إِلَيْ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٣٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤٠﴾ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالْغَالِيِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٤١﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وحمزة «سلاسل» بغير تنوين، ووقفوا باللف. ووقف أبو عمرو باللف. قال مكي بن أبي طالب النحوي: «سلاسل» و «قوارير» أصله أن لا ينصرف، ومن صرفه من القراء، فإنها لغة لبعض العرب. وقيل: إنما صرفه لأنه وقع في المصحف بالالف، فصرفه لاتباع خط المصحف. قال مقاتل: السلاسل في اعتاقهم، والأغلال في أيديهم. وقد شرحنا معنى «السعير» في [النساء: ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْذُونَ النَّارَ﴾ ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ أي: من إناء فيه شراب ﴿كَأْسٌ مِزَاجُهَا﴾ يعني: مزاج الكأس ﴿كَأْسٌ مِزَاجُهَا﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الكافور المعروف، قاله مجاهد، ومقاتل، فعلى هذا في المراد «بالكافور» ثلاثة أقوال: أحدها: برده، قاله الحسن. والثاني: ريحه، قاله قتادة. والثالث: طعمه، قاله السدي. والثاني: أنه اسم عين في الجنة، قاله عطاء، وابن السائب. والثالث: أن المعنى: مزاجها كالكافور لطيب ريحه، أجازها القراء، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿حَبِيبًا﴾ قال القراء: هي المفسرة للكافور، وقال الأخفش: هي منصوبة على معنى: أعين عيناً. وقال الزجاج: الأجود أن يكون المعنى: من عين ﴿يَشْرَبُونَ مِنْهَا﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: يشرب منها. والثاني: يشربها، والباء صلة. والثالث: يشرب بها عباد الله الخمر يمزجونها بها. وفي هذه العين قولان: أحدهما: أنها الكافور الذي سبق ذكره. والثاني: التسليم، و ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ هاهنا: أولياؤه ﴿يَجْزِيهِمْ نَجِيرًا﴾ قال مجاهد: يقودونها إلى حيث شاؤوا من الجنة. قال القراء: حيث ما أحب الرجل من أهل الجنة فجرحها لنفسه.

قوله تعالى: ﴿يُؤْذُونَ النَّارَ﴾ قال القراء: فيه إضمار «كانوا» يؤفون بالنذر. وفيه قولان: أحدهما: يؤفون بالنذر إذا نذروا في طاعة الله، قاله مجاهد، وعكرمة. والثاني: يؤفون بما فرض الله عليهم^(١)، قاله قتادة. ومعنى «النذر» في اللغة: الإيجاب. فالمعنى: يؤفون بالواجب عليهم ﴿وَيَعْلَمُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ قال ابن عباس: فاشياً. وقال ابن قتيبة: فاشياً متشراً. يقال: استطار الحريق: إذا انتشر، واستطار الفجر: إذا انتشر الضوء. وأنشدوا للأعشى:

فَبَآنَتْ وَقَدْ أَسَارَتْ فِي الْفُؤَا
دَ صَدْعًا عَلَى نَائِيهَا مُسْتَطِيرًا^(٢)

وقال مقاتل: كان شره فاشياً في السموات، فانشقت، وتناثرت الكواكب، وفزعت الملائكة، وكوَّرت الشمس والقمر في الأرض، ونُسِقت الجبال، وغارت المياه، وتكسرت كل شيء على وجه الأرض من جبل، وبناء، وقفاً شره يوم القيامة فيهما.

قوله تعالى: ﴿وَيُعْلَمُونَ النَّعَامَ عَلَى حُدُودِهَا﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين: أحدهما: نزلت في علي بن أبي طالب. أجز نفسه ليسقي نخلاً بشيء من شعير ليلة حتى أصبح. فلما قبض الشعير طحن ثلثه، وأصلحو منه شيئاً يأكلونه، فلما استوى أتى مسكين، فأخرجوه إليه، ثم عمل الثلث الثاني، فلما تم أتى يتيماً، فأطعموه، ثم عمل الثلث الباقي، فلما استوى جاء أسير من المشركين، فأطعموه وطوَّروا يومهم ذلك، فنزلت هذه الآيات، رواه عطاء عن ابن عباس^(٣).

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَيُعْلَمُونَ النَّعَامَ عَلَى حُدُودِهَا﴾ أي: يتبعون الله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع وما أوجبه، على أنفسهم بطريق النذر. قال الإمام مالك في «الموطأ» ٤٧٦/٢: عن طلحة بن عبد الملك الأيلي عن القاسم بن محمد بن الصديق عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطعم الله فليطعمه، ومن نذر أن يمسني الله فلا يمسه» ورواه البخاري في «صحيحه» كتاب الإيمان والنذور: باب النذر في الطاعة من حديث مالك.

(٢) البيت للأعشى الكبير ميمون بن قيس، وهو في «ديوانه» ٩٣ ورواية الشطر الأول فيه: وبانت وقد أوزنت في الفؤاد... الخ وهو في «الطبري» ٢٩/٢٠٩، و«الطبري» ١٩٩/١٢٦، و«الطبري» ٢٤/٤٥٤، و«الشوكاني» ٥/٣٣٧.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٣٣٦، والبغوي من رواية عطاء عن ابن عباس بغير سند. وأورده السيوطي في «الدرة» ٢٩٩/٦ من رواية ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت في علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله ﷺ. والله أعلم.

والثاني: أنها نزلت في أبي الدحداح الأنصاري صام يوماً، فلما أراد أن يفطر جاء مسكين، ویتيم، وأسیر، فأطعمهم ثلاثة أرغفة، وبقي له ولأهله رغيف واحد، فنزلت فيهم هذه الآية، قاله مقاتل^(١). وفي هاء الكناية في قوله تعالى ﴿عَلَّ حُمِدٌ﴾ قولان: أحدهما: ترجع إلى الطعام، فكانهم كانوا يُؤثرون وهم محتاجون إليه، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، والزجاج، والجمهور^(٢). والثاني: ترجع إلى الله تعالى، قاله الداراني^(٣). وقد سبق معنى «المسكين والیتيم» [البقرة: ٨٣]. وفي الأسير أربعة أقوال: أحدها: أنه المسجون من أهل القبلة، قاله عطاء، ومجاهد، وابن جبير. والثاني: أنه الأسير المشرك، قاله الحسن، وقتادة. والثالث: المرأة، قاله أبو حمزة الثمالی. والرابع: العبد، ذكره الماوردي^(٤).

فصل

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية تضمنت مدحهم على إطعام الأسير المشرك. قال: وهذا منسوخ بآية السيف. وليس هذا القول بشيء، فإن في إطعام الأسير المشرك ثواباً، وهذا محمول على صدقة التطوع. فأما الفرض فلا يجوز صرفه إلى الكفار، ذكره القاضي أبو يعلى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَلُمُوكُمْ يَتِيمًا آلِهَ﴾ أي: لطلب ثواب الله. قال مجاهد، وابن جبير: أما إنهم ما تكلموا بهذا، ولكن علمه الله من قلوبهم، فأنى به عليهم لِيَرَّعَبَ في ذلك راغب.

قوله تعالى: ﴿لَا يُدْ يَنْكَرُ جَزَاءَ﴾ أي: بالفعل ﴿وَلَا شُكْرًا﴾ بالقول ﴿إِنَّمَا تَلُمُوكُمْ يَتِيمًا آلِهَ﴾ أي: ما في يوم ﴿يَتِيمًا﴾ قال ابن قتبية: أي: تعبس فيه الوجوه، فجعله من صفة اليوم، كقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، أراد: عاصف الريح. فأما «القمطير» فروى ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: أنه الطويل. وروى عنه العوفي أنه قال: هو الذي يقبض فيه الرجل ما بين عينيه. فعلى هذا يكن اليوم موصوفاً بما يجري فيه، كما قلنا في «العبوس» لأن اليوم لا يوصف بتقبض ما بين العينين. وقال مجاهد، وقتادة: «القمطير» الذي يقلص الوجوه، ويقبض الحياة، وما بين الأعين من شدته. وقال الفراء: هو الشديد. يقال: يوم قمطير، ويوم قماطر. وأنشدني بعضهم:

بَنِي عَمْنَا هَلْ تَذْكُرُونَ بَلَاءَنَا
عَلَيْكُمْ إِذَا مَا كَانَ يَوْمٌ قُمَاطِرٌ^(٥)

وقال أبو عبيدة: العبوس، والقمطير، والقماطر، والعصيب، والعصيب: أشد ما يكون من الأيام، وأطولها في البلاء.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ بطاعتهم في الدنيا ﴿وَلَقَدْهُمْ نَصْرٌ﴾ أي: حُسنًا وبياضاً في الوجوه ﴿وَسُرُورًا﴾ لا انقطاع له. وقال الحسن: النَّصْرَةُ في الوجوه، والسُّرُورُ في القلوب ﴿وَيَجْزِيهِمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ على طاعته، وعن معصيته

(١) ذكره البغوي عن مقاتل بغير سند قال: نزلت في رجل من الأنصار، ولم يسمه، وقال الخازن: قيل: نزلت في رجل من الأنصار يقال له: أبو الدحداح، وقال القرطبي في «تفسيره» ١٢٨/١٩: والصحيح أنها نزلت في جميع الأبرار، ومن فعل فعلاً حسناً، فهي عامة، قال: وقد ذكر النقاش، والشملي، والقشيري وغير واحد من المفسرين في قصة علي وفاطمة وجاريتهما حديثاً لا يصح ولا يثبت، قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الشكاف» ١٨٠: روى الثعلبي من رواية القاسم بن بهرام عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن ابن عباس، ومن رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتُوا مَأْوَئَكُمْ وَيُنَادِي السَّامِعُ بِكُمْ كَيْدَ شَيْطَانِهِ﴾ ﴿وَتَكُونُ أَلْسِنُكُمْ عَلَى حَبِيدٍ شَيْكَةٍ وَيَتِيمًا وَأَيُّرًا﴾ وزاد في اثنتان شعراً لعلي وفاطمة ﷺ ثم قال: قال الحكيم الترمذي: هذا حديث مزوق مقتول لا يروج إلا على أحمد ق جاهل، ورواه ابن الجوزي في «الموضوعات» من طريق أبي عبد الله السمرقندي عن محمد بن كثير عن الأصم بن نباتة، قال: مرض الحسن والحسين... إلخ. فذكره بشعره وزيادة الفاظ ثم قال: وهذا لا نشك في وضعه.

(٢) قال ابن كثير: وأظهر أن التفسير عائد على الطعام، أي: ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له، قاله مجاهد، ومقاتل، واختاره ابن جرير، كقوله تعالى: ﴿وَيَتَاكَ أَلْسَانُ عِبَادٍ حَمِيدٍ﴾ وكقوله تعالى: ﴿هَلْ تَأْتُوا آلِهَتَكُمْ تَقِيًّا وَمَا يَكُونُ﴾ ثم قال: وفي الصحيح: «أفضل الصدقة أن تصلق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخفى الفقر» أي: في حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه، ولهذا قال: ﴿وَتَكُونُ أَلْسِنُكُمْ عَلَى حَبِيدٍ شَيْكَةٍ وَيَتِيمًا وَأَيُّرًا﴾.

(٣) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المذحجي أبو سليمان الداراني، زاهد مشهور من أهل داريا (بغطة دمشق) توفي فيها رحمه الله سنة (٢١٥هـ).

(٤) قال ابن كثير: قال عكرمة: هم العبيد، واختاره ابن جرير، لعموم الآية للمسلم والمشرك، وهكذا قال سعيد بن جبير وعطاء والحسن وقتادة، وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء في غير ما حديث، حتى إنه آخر ما أوصى أن جعل يقول: «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم».

(٥) البيت في «اللسان»: قماطر، ولم ينسبه، وهو في «الطبري» ٢٩/٢١١، و«القرطبي» ١٩/٣٣٣، و«ابن كثير» ٤/٤٥٥، و«الشوكاني» ٥/٣٣٨.

﴿جَنَّةٌ وَحَرِيرٌ﴾ وهو لباس أهل الجنة ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ قال الزجاج: هو منصوب على الحال، أي: جزاهم جنة في حال اتكائهم فيها. وقد شرحنا هذا في [الكف: ٣١].

قوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾ فيؤذيهم حرُّها ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ وهو البرد الشديد. والمعنى: لا يجدون فيها الحرَّ والبرد. حكى عن ثعلب أنه قال: الزمهرير: القمر، وأنشد:

وَلَيْلَةٌ ظَلَامُهَا قَدْ اغْتَكَزَ قَطَعْتُهَا وَالزَّمْهَرِيرُ مَا زَهَرَ^(١)
أي: لم يطلع القمر.

قوله تعالى: ﴿وَدَايَةَ﴾ قال الفراء: المعنى: وجزاهم جنة، ودانية عليهم ظلالها، أي: قرية منهم ظلال أشجارها: ﴿وَذُلَّتْ قُلُوبُهُمْ قَلِيلًا﴾ قال ابن عباس: إذا همَّ أن يتناول من ثمارها تَذَلَّتْ إليه حتى يتناول ما يريد. وقال غيره: قُرِبَتْ إليهم مُذَلَّلَةٌ كيف شاؤوا، فهم يتناولونها قياماً، وقعوداً، ومضطجعين، فهو كقوله تعالى: ﴿قُلُوبُهَا دَايَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣]. فأما «الأكواب» فقد شرحناها في [الزخرف: ٧١]. ﴿كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ أي: تلك الأكواب هي قوارير، ولكنها من فضة. قال ابن عباس: لو ضَرَبَتْ فِضَّةُ الدُّنْيَا حَتَّى جَعَلَتْهَا مِثْلَ جَنَاحِ الذِّبَابِ، لَمْ يَرِ الْمَاءُ مِنْ وَرَائِهَا، وقوارير الجنة من فضة في صفاء القارورة. وقال الفراء، وابن قتيبة: هذا على التشبيه، المعنى: كأنها من فضة، أي لها بياض كبياض الفضة وصفاء كصفاء القوارير. وكان نافع، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم يقرؤون «قواريراً قواريراً» فَيَصِلُونَهُمَا جَمِيعاً بالتونين. ويقفون عليهما بالالف. وكان ابن عامر وحزمة يَصِلَانِيَهُمَا جَمِيعاً بغير تنوين، ويقفان عليهما بغير ألف. وكان ابن كثير يَصِلُ الأول بالتونين، ويقف عليه بالالف، وَيَصِلُ الثاني بغير تنوين، ويقف بغير ألف. وروى حفص عن عاصم أنه كان يقرأ «سلاسل» و «قوارير قوارير» يَصِلُ الثلاثة بغير تنوين، ويقف على الثلاثة بالالف. وكان أبو عمرو يقرأ الأول «قواريراً» فيقف عليه بالالف، ويصل بغير تنوين. وقال الزجاج: الاختيار عند النحويين أن لا يصرف «قوارير» لأن كل جمع يأتي بعد ألفه حرفان لا ينصرف. ومن قرأ «قواريراً» يصرف الأول علامة رأس آية، وترك صرف الثاني لأنه ليس بأخر آية. ومن صرف الثاني: أتبع اللفظ اللفظ، لأن العرب ربما قلبت إعراب الشيء لَتَشَبُّعِ اللفظ اللفظ، كما قالوا: جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ. وإنما الخَرِبُ مِنْ نَعْتِ الجحر.

قوله تعالى: ﴿قَدَّرُوا قَدِيرًا﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو عمران، والجحدري، وابن يعمر «قَدَّرُواها» برفع القاف، وكسر الدال، وتشديدها. وقرأ حميد، وعمر بن دينار «قَدَّرُواها» بفتح القاف، والدال، وتخفيفها. ثم في معنى الآية قولان: أحدهما: قَدَّرُواها في أنفسهم، فجاءت على ما قَدَّرُوا، قاله الحسن. وقال الزجاج: جعل الإناء على قَدَّر ما يحتاجون إليه ويريدونه على تقديرهم. والثاني: قَدَّرُواها على مقدار لا يزيد ولا ينقص، قاله مجاهد. وقال غيره: قَدَّر الكأس على قَدَّر رِيهِمْ، لا يزيد عن رِيهِمْ فَيُقِلُّ الكَفِّ، ولا ينقص منه فيطلب الزيادة، وهذا الذُّ الشراب. فعلى هذا القول يكون الضمير في «قَدَّرُوا» للسقاة والخدم. وعلى الأول للشاربين.

قوله تعالى: ﴿وَرُشَقَوْنَ رِيًّا﴾ يعني في الجنة ﴿كَأَنَّهُ زُرُبَاكَ زُرْبًا﴾ والعرب تضرب المثل بالزنجبيل والخمر ممزوجين. قال المسيب بن علس يصف فم امرأة:

فَكَأَنَّ طَعْمَ الزُّنْجَبِيلِ بِهِ إِذْ ذُقْتَهُ وَسُلَاقَةُ السَّخْمَرِ^(٢)
وقال آخر:

كَأَنَّ الْقَرْنَفُلَ وَالزُّنْجَبِيلَ لِبَاتَا بِفِيهَا وَأَزْيَا مُشَارَا^(٣)

(١) البيت غير منسوب في «القرطبي» ١٣٦/١٩، و«الألوحي» ١٥٨/٢٩.

(٢) هو في آخر «ديوان الأعشى» ابن أخت المسيب بن علس، ورويته ٣٥٢ من تصديدها مطلعها:

أَصْرَمْتُ حَبْلَ الْوَصْلِ مِنْ فَنَرٍ وَهَجَرْتُهَا وَلَجَجْتُ فِي الْهَجَرِ

(٣) رواية البيت في «ديوان الأعشى الكبير» بميمون بن قيس ٩٣:

كَأَنَّ جَنْبِيًّا مِنَ الزُّنْجَبِيلِ لِبَاتَا بِفِيهَا وَأَزْيَا مُشَارَا

الأري: العسل. والمشار: المستخرج من بيوت النحل. قال مجاهد: والزنجبيل: اسم العين التي منها شراب الأبرار. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: الزنجبيل معرّب. وقال اللّينّوري: يَنْبُثُ في أرياف عَمَّانَ، وهي عروق تسري في الأرض، وليس بشجرة تؤكل رُطْبًا، وأجود ما يحمل من بلاد الصين. قال الزجاج: وجائز أن يكون فيها طعم الزنجبيل، والكلام فيه كالکلام السابق في الكافور. وقيل: شراب الجنة على برد الكافور، وطعم الزنجبيل، وريح المسك.

قوله تعالى: ﴿يَتَنَايَا﴾ قال الزجاج: يسقون عيناً. وسلسيل: اسم العين، إلا أنه صرف لأنه رأس آية. وهو في اللغة: صفة لما كان في غاية السلاسة. فكان العين وصفت وسميت بصفته. وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: قوله تعالى: ﴿سَلْسَلٌ سَلْسِلٌ﴾ قيل: هو اسم أعجمي نكرة، فلذلك انصرف. وقيل: هو اسم معرفة، إلا أنه أخري، لأنه رأس آية. وعن مجاهد قال: حديقة الجرية. وقيل: سلسيل: سلسل ماؤها، مستقيد لهم. وقال ابن الأنباري السلسيل صفة للماء، لِسَلْسِلِهِ وسهولة مدخله في الحلق. يقال: شراب سَلْسَل، وسَلْسَال، وسَلْسِيل. وحكى الماوردي: أن عليّاً قال: المعنى: سَلْ سَيْلاً^(١) إليها، ولا يصح^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَوْلُؤُا إِذَا نثر من الخيط على البساط كان أحسن منه منظراً. وإنما شَبَّهوا باللؤلؤ المنتور، لانتشارهم في الخدمة. ولو كانوا صَفًا لَشَبَّهوا بالمنظم. ﴿وَلَوْ لَوَا رَأَيْتُمْ﴾ يعني: الجنة ﴿رَأَيْتُمْ نَيْبًا﴾ لا يوصف، ﴿وَمَلَكًا كَرِيمًا﴾ أي: عظيماً واسعاً لا يريدون شيئاً إلا قَدَرُوا عليه، ولا يدخل عليهم ملك إلا باستئذان.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ قرأ أهل المدينة، وحزمة، والمفضل عن عاصم بإسكان الياء، وكسر الهاء. وقرأ الباقر بفتح الياء، إلا أن الجعفي عن أبي بكر قرأ ﴿عَالِيَتُهُمْ﴾ بزيادة تاء مضمومة. وقرأ أنس بن مالك، ومجاهد، وقاتدة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بفتح اللام، وإسكان الياء من غير تاء، ولا ألف. قال الزجاج: فأما تفسير إعراب ﴿عَالِيَتُهُمْ﴾ بإسكان الياء، فيكون رفعه بالابتداء، ويكون الخبر ﴿يَابُ سُنْبُرٍ﴾ وأما ﴿عَالِيَتُهُمْ﴾ بفتح الياء، فنصبه على الحال من شيئين، أحدهما من الهاء والميم، والمعنى: يطوف على الأبرار وَلَدَانُ مُخَلَّدُونَ عَالِيًا للأبرار ثياب سندس، لأنه وصف أحوالهم في الجنة، فيكون المعنى: يطوف عليهم في هذه الحال هؤلاء. ويجوز أن يكون حالاً من الولدان. المعنى: إذا رأيتهم حَسِبْتَهُمْ لَوْلُؤًا منتوراً في حال غُلُو الثياب. وأما ﴿عَالِيَتُهُمْ﴾ فقد قرئت بالرفع والنصب، وأهما وجهان جَيِّدان في العربية، إلا أنهما يخالفان المصحف، فلا أرى القراءة بهما، وتفسيرها كتفسير ﴿عَالِيَتُهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَابُ سُنْبُرٍ خَضِرٌ﴾ قرأ ابن عمر، وأبو عمرو «خضر» رفعاً «وإِسْتَبْرَقٌ» خفضاً. وقرأ ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم «خَضِرٌ» خفضاً «وإِسْتَبْرَقٌ» رفعاً. وقرأ نافع، وحفص عن عاصم «خَضِرٌ» وإِسْتَبْرَقٌ كلاهما بالرفع. وقرأ حمزة، والكسائي «خَضِرٌ» وإِسْتَبْرَقٌ كلاهما بالخفض. قال الزجاج: من قرأ «خَضِرٌ» بالرفع، فهو نعت الثياب، ولفظ الثياب لفظ الجمع، ومن قرأ «خَضِرٌ» فهو من نعت السندس، والسندسُ في المعنى راجع إلى الثياب. ومن قرأ «وإِسْتَبْرَقٌ» فهو نسق على «يَابُ» المعنى: وعليهم إسترِق. ومن خفض، عطفه على السندس، فيكون المعنى: عليهم ثياب من هذين النوعين. وقد بيَّنا في [الكهف: ٣١] معنى السندس، والإسترِق، والأساور.

قوله تعالى: ﴿رَسَنَهُمْ رَبِّهِمْ سَرَكَ طَهْرًا﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يُحْدِثُونَ ولا يَبُولُونَ عن شُرْبِ خَمْرِ الْجَنَّةِ، قاله عطية. والثاني: لأن خمر الجنة طاهرة. وليست بنجس كخمر الدنيا، قاله الفراء. وقال أبو قلابة: يُؤْتَوْنَ بعد الطعام بالشَّرَابِ الطَّهْرُ فيشربون فَتَضُمُّرُ بذلك بَطُونُهُمْ، ويفيض من جلودهم عَرَقٌ مثل ريح المسك.

(١) على أنه أمر للنبي ﷺ ولأمره بسؤال السبل إليها.

(٢) قال الألوسي: وهو غير مستقيم بظاهره، إلا أن يراد أن جملة قول القائل: «سَلْ سَيْلاً» جعلت اسماً للعين؛ كما قيل: تأبط شراً، وسميت بذلك لأنه لا يشرب منها إلا من سأل إليها سَيْلاً بالعمل الصالح، وهو مع استقامته في العربية تكلف وابتداع، وعزوه إلى مثل الأمير ﷺ أبداع، ونفس بعضهم على أنه افتراء عليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ يعني: ما وصف من نعيم الجنة ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ بأعمالكم ﴿وَكَانَ سَعِيرًا﴾ أي: عملكم في الدنيا بطاعته ﴿تَشْكُرُونَ﴾ قال عطاء: يريد: شكرتكم عليه، وأثبتكم أفضل الثواب ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾، أي: فضلناه في الإنزال، فلم نُنْزِلْهُ جُمْلَةً واحدة ﴿تَأْتِيهِ لِيَنفَكَّ رِيحٌ﴾ وقد سبق بيانه في مواضع [الطور: ٤٨، والقلم: ٤٨]. والمفسرون يقولون: هذا منسوخ بآية السيف، ولا يصح، ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِمُ﴾ أي: من مشركي أهل مكة: ﴿إِنَّا أَوْ كَوُّرًا﴾ «أو» بمعنى الواو، كقوله تعالى: ﴿أَوِ الْكَوَاكِبَ﴾ [الأنعام: ١٤٦]. وقد سبق هذا. وللمفسرين في المراد بالآثم والكفور ثلاثة أقوال: أحدها: أنهما صفتان لأبي جهل. والثاني: أن الآثم: عتبة بن ربيعة، والكفور: الوليد بن المغيرة. والثالث: الآثم: الوليد. والكفور: عتبة، وذلك أنهما قالوا له: ارجع عن هذا الأمر ونحن نرضيك بالمال والتزويج. ﴿وَأَذْكُرْ أَتَمَّ رِيحٌ﴾ أي: اذكره بالتوحيد في الصلاة ﴿بُكْرَةً﴾ يعني: الفجر ﴿وَأَمْسِيًا﴾ يعني: العصر. وبعضهم يقول: صلاة الظهر والعصر ﴿وَبَيْنَ أَيْلٍ قَاسِمٌ لَمْ﴾ يعني: المغرب والعشاء. ﴿وَسَيِّئَةٌ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ وهي: صلاة الليل، كانت فريضة عليه، وهي لأتمَّ تَطْلُوعَ ﴿إِنَّ كَوَلَاةَ﴾ يعني: كفار مكة ﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ أي: الدار العاجلة، وهي الدنيا ﴿وَيَذَرُونَ وِرَاءَهُمْ﴾ أي: أمامهم ﴿يَوْمًا قَبِيلًا﴾ أي: عسيراً شديداً. والمعنى: أنهم يتركون الإيمان به، والعمل له. ثم ذكر قدرته، فقال تعالى: ﴿لَحْنٌ خَلَقْتَهُمْ وَشَدَدًا أَسْرَهُمْ﴾ أي: خلقهم، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج. قال ابن قتيبة: يقال: امرأة حسنة الأسر، أي: حسنة الخلقي، كأنها أسيرت، أي: شُدَّت. وأصل هذا من الإسار، وهو: القيد. [الذي تشد به الأتخاب] يقال: ما أحسن ما أسر قتيبة، أي: ما أحسن ما شدَّه [بالقيد]. وروي عن أبي هريرة قال: مفاصلهم. وعن الحسن قال: أوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب، ﴿وَإِذَا شَفَا بَدَلْنَا أَسْلَهُمْ﴾ أي: إن شفا أهلكتهم وأتينا بأسيانهم، فجعلناهم بدلاً منهم ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ﴾ قد شرحنا الآية في [الزميل: ١٩]. قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ إيجاد السبيل ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ذلك لكم. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، «وما يشاؤون» بالياء.

قوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ قال المفسرون: الرحمة هاهنا: الجنة، ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ المشركون. قال أبو عبيدة: نصب «الظالمين» بالجوار. المعنى: ولا يُدْخِلُ الظالمين في رحمته. وقال الزجاج: إنما نصب «الظالمين» لأن^(١) قبله منصوباً. المعنى: يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ في رحمته، ويعذب الظالمين، ويكون قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ تفسيراً لهذا المضمر، وقرأ أبو العالية، وأبو الجوزاء، وابن أبي عبيدة: «والظالمون» رفعاً.



سورة المرسلات

مكية كلها في قول الجمهور

وحكي عن ابن عباس، وقتادة، ومقاتل أن فيها آية مدنية، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾

[المرسلات: ٤٨].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا ۝١ فَالْمُصَنِّعَاتُ عَصَا ۝٢ وَالشَّيْرَتِ ذُرَا ۝٣ فَالْقُرْآنُ زَكَا ۝٤ فَالْمُؤَيَّدَاتُ زَكَا ۝٥ عَذْرَا أَوْ تَذَرَا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاعٍ ۝٧ فَإِذَا الشُّجُرُ تَلَوَّتْ ۝٨ وَإِذَا السَّمَاءُ فُجِّرَتْ ۝٩ وَإِذَا الْبُلْبَالُ سُفِّتْ ۝١٠ وَإِذَا الْأَرْضُ أُفْنِتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ۝١٢ يَوْمَ الْقَصْرِ ۝١٣ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْقَصْرِ ۝١٤ وَيَوْمَ يَوْمِ الْمَكْذِبِينَ ۝١٥ أَلَمْ تَكُنْ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نَبِّئْهُمْ الْآخِرِينَ ۝١٧ كَذَلِكَ نَقُصُّ بِالْمُجْرِمِينَ ۝١٨ وَيَوْمَ يَوْمِ الْمَكْذِبِينَ ۝١٩ أَلَمْ تَعْلَمْ مِنْ ثَمَرٍ مَهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝٢١ إِنْ قَدَرْتَ مَلَكُورَ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَائِدُونَ ۝٢٣ وَيَوْمَ يَوْمِ الْمَكْذِبِينَ ۝٢٤ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِنَانًا ۝٢٥ أُخْبَرْنَا بِمَا رَمَيْتَ مِنْهُمْ شَيْئًا ۝٢٦ وَأَسْفِكْنَا ثَمَرًا ۝٢٧ وَإِذَا تَرَى الْمَكْذِبِينَ ۝٢٨ أَتَطْلُقُوا إِلَّا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكِيدُونَ ۝٢٩ أَتَطْلُقُوا إِلَّا غُلِيٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهِ ۝٣١ إِنَّمَا تَرَى بِشَكْرِ الْوَقْصِرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُمْ يَحْتَطُّونَ سُحُرًا ۝٣٣ وَيَوْمَ يَوْمِ الْمَكْذِبِينَ ۝٣٤ هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْلِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤَدُّ لَهُمْ فَعْتَدُونَ ۝٣٦ وَيَوْمَ يَوْمِ الْمَكْذِبِينَ ۝٣٧ هَذَا يَوْمُ الْقَصْرِ جَمَعْتُمْ وَالْأَوَّلِينَ ۝٣٨ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ۝٣٩ وَيَوْمَ يَوْمِ الْمَكْذِبِينَ ۝٤٠ إِنْ أَلْمَنْتُمْ فِي ظُلُلٍ وَمُجُورٍ ۝٤١ وَكَوْنَكُمْ مِمَّا يَشْتَبُونَ ۝٤٢ كَلِمًا وَاتَّخَذُوا هَيْبَتًا بِمَا كُنْتُمْ تَمْلِكُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٤٤ وَيَوْمَ يَوْمِ الْمَكْذِبِينَ ۝٤٥ كَلِمًا وَنَسْنَعُوا قِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ ۝٤٦ وَيَوْمَ يَوْمِ الْمَكْذِبِينَ ۝٤٧ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨ وَيَوْمَ يَوْمِ الْمَكْذِبِينَ ۝٤٩ فَإِنِّي خَشِيتُ بَعْدَهُ يَوْمُؤُونَ ۝٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا﴾ (١) فيه أربعة أقوال: أحدها: أنها الرياح يتبع بعضها بعضاً، رواه أبو العبيد (١) عن ابن مسعود، والعمري عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقتادة. والثاني: أنها الملائكة التي أرسلت بالمعروف من أمر الله ونهيه، رواه مسروق عن ابن مسعود، وبه قال أبو هريرة، ومقاتل. وقال الفراء: هي الملائكة. فاما قوله تعالى: «عُرْفًا» فيقال: أُرْسِلَتْ بالمعروف، ويقال: تَتَابَعَتْ كَعُرْفِ الْفَرَسِ. والعرب تقول: يركب الناس إلى فلان عُرْفًا واحداً: إذا توجهوا إليه فأكثروا. قال ابن قتيبة: يريد أن الملائكة متتابعة بما ترسل به وأصله من عُرْفِ الْفَرَسِ، لأنه سطر مستوي بعضه في إثر بعض، فاستعير للقوم يتبع بعضهم بعضاً. والثالث: أنهم الرسل بما يعرفون به من المعجزات، وهذا معنى قول أبي صالح، ذكره الزجاج. والرابع: الملائكة والريح، قاله أبو عبيدة. قال: ومعنى «عُرْفًا»: يتبع بعضها بعضاً. يقال: جاؤني عُرْفًا (٢). وفي «تَالْمُؤَيَّدَاتُ» قولان: أحدهما: أنها الرياح الشديدة الهبوب، قاله الجمهور. والثاني: الملائكة، قاله مسلم بن صبيح. قال الزجاج: تعصف بروح الكافر. وفي «الناشرات» خمسة أقوال: أحدها: أنها الرياح تنشر السحاب، قاله ابن مسعود، والجمهور. والثاني: الملائكة تنشر الكتب، قاله أبو صالح. والثالث: الصحف تنشر

(١) أبو العبيد، بالتصغير والتثنية: هو معاوية بن شبرة يفتح السين وسكون الباء: الشواني بضم السين والمد، العامري الكوفي الأعمى. روى عن ابن مسعود. وهو ثقة، كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب».

(٢) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره أقسم بالمرسلات عُرْفًا، وقد ترسل عُرْفًا الملائكة، وترسل كذلك الرياح، ولا دالة تدل على أن المعنى بذلك أحد الحزبين دون الآخر، وقد عم جل ثاؤه بإقسامه بكل ما كانت صفة ما وصف، فكل من كانت صفة كذلك، فداخل في قسمه ذلك، ملكاً أو ريحاً أو رسلاً من بني آدم مرسلًا. وقال ابن كثير: الأظهر أن المرسلات: هي الرياح، كما قال تعالى: «وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ» وقال تعالى: «وَمَنْ أَلْوَيْتَ رِيحًا يَرْبَحْ لَوْنًا يَكُنْ بِذِي رَحْمَةٍ» وهكذا العاصفات هي الرياح، يقال: عصفت الرياح: إذا هبت بصوت، وكذا الناشرات: هي الرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء كما يشاء الرب ﷻ.

على الله تعالى بأعمال العباد، قاله الضحاك. والرابع: البعث للقيامة تنشر فيه الأرواح، قاله الربيع. والخامس: المطر ينشر النبات، حكاه الماوردي. وفي «الفارقات» أربعة أقوال: أحدها: الملائكة تأتي بما يفرق بين الحق والباطل، قاله الأكثرون. والثاني: أي القرآن فرقت بين الحلال والحرام، قاله الحسن، وقناة، وابن كيسان. والثالث: الريح تفرق بين السحاب فتبدده، قاله مجاهد. والرابع: الرسل، حكاه الزجاج. «فَالْمَلَكُوتَ ذِكْرًا» ﴿٦﴾ قولان: أحدهما: الملائكة تلقي ما حلت من الوحي إلى الأنبياء، وهذا مذهب ابن عباس، وقناة، والجمهور. والثاني: الرسل يلقون ما أنزل عليهم إلى الأمم، قاله قطرب^(١).

قوله تعالى: «عُذْرًا أَوْ نُذْرًا» ﴿٦﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم «عُذْرًا» خفيفاً «أو نُذْرًا» مثقلاً. وقرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي، وحفص، وخلف «عُذْرًا أَوْ نُذْرًا» خفيفتان. قال الفراء: وهو مصدر، مثقلاً كان أو مخففاً. ونصبه على معنى: أرسلت بما أرسلت به إذاراً من الله وإنذاراً. وقال الزجاج: المعنى: فالمليقات عُذْرًا أَوْ نُذْرًا. ويجوز أن يكون المعنى: فالمليقات ذكراً للإعذار والإنذار. وهذه المذكورات مجرورات بالقسم. وجواب القسم «إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفِّ» ﴿٧﴾ قال المفسرون: إن ما توعدون به من أمر الساعة، والبعث، والجزاء لواقع، أي: لكائن. ثم ذكر متى يقع فقال تعالى: «إِذَا الشُّجُرُ هُتِيتْ» ﴿٨﴾ أي: مُجِي نُورُهَا «وَإِذَا السَّمَاءُ فَُتِيتْ» ﴿٩﴾ أي: شُقَّتْ «وَإِذَا الْبُحُلُ شُقَّتْ» ﴿١٠﴾ قال الزجاج: أي: ذُهِبَ بها كلها بسرعة. يقال: انتسفت الشيء: إذا أخذته بسرعة.

قوله تعالى: «وَإِذَا الْأَرْضُ أُفْنِتْ» ﴿١١﴾ قرأ أبو عمرو «وُفُنَّتْ» بواو مع تشديد القاف. ووافقه أبو جعفر، إلا أنه خَفَفَ القاف. وقرأ الباقون: «أُفْنِتْ» بآلف مكان الواو مع تشديد القاف. قال الزجاج: «وُفُنَّتْ» وأُفْنِتْ بمعنى واحد. فمن قرأ «أُفْنِتْ» بالهمز، فإنه أبدل الهمزة من الواو لانضمام الواو. وكل واو انضمت، وكانت ضميتها لازمة، جاز أن تبدل منها همزة. وقال الفراء: الواو إذا كانت أول حرف، وضُمَّتْ، همزت. تقول: صلى القوم أحداناً. وهذه أجوة حسان. ومعنى «أُفْنِتْ»: جمعت لوقتها يوم القيامة. وقال ابن قتيبة: جمعت لوقت، وهو يوم القيامة. وقال الزجاج: جعل لها وقت واحد لفصل القضاء بين الأمة.

قوله تعالى: «إِنِّي يَوْمَ يُنْفَخُ الْفُتُوحُ» ﴿١٢﴾ أي: أُخْرِثُ. وَضُرِبَ الأجل لجمعهم، يعجب العباد من هول ذلك اليوم. ثم بيّنه فقال تعالى: «إِنِّي الْفُتُوحُ» ﴿١٣﴾ وهو يوم يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق. ثم عَظَّمَ ذلك اليوم بقوله: «وَمَا أَذْرَبُكَ مَا يَوْمَ الْفُتُوحِ» ﴿١٤﴾ وَنَبِيٍّ يُنْفَخُ لِلْمُكَذِّبِينَ بالبعث. ثم أخبر الله تعالى عما فعل بالأمم المكذبة، فقال: «أَنزَلْنَا إِلَيْنِ الْفُتُوحَ» ﴿١٥﴾ يعني بالعذاب في الدنيا حين كذبوا رسلهم «ثُمَّ نُنْفِخُهُمُ الْآخِرِينَ» ﴿١٦﴾ والقراء على رفع العين في «نُنْفِخُهُمُ»، وقد قرأ قوم منهم أبو حيوية بإسكان العين. قال الفراء: «نُنْفِخُهُمُ» مرفوعة. ويدل على ذلك قراءة ابن مسعود «وستنبتهم الآخرين». ولو جزمتم على معنى: ألم نقدر على إهلاك الأولين وإتباعهم الآخرين كان وجهاً جيداً. وقال الزجاج: الجزم عطف على «نُهْلِكُ»، ويكون المعنى: لمن أهلك أولاً وآخراً. والرفع على معنى: ثم تنبع الأول الآخر من كل مجرم. وقال مقاتل: ثم ننبههم الآخرين: يعني: كفار مكة حين كذبوا بالنبي ﷺ. وقال ابن جرير: الأولون: قوم نوح، وعاد، وثمود، والآخرون: قوم إبراهيم، ولوط، ومذنب.

قوله تعالى: «كَذَلِكَ» أي: مثل ذلك «فَعَمَلُ الْيَمِينِ» يعني: المكذبين. فإن قيل: ما الفائدة في تكرار قوله تعالى: «وَنَبِيٍّ يُنْفَخُ لِلْمُكَذِّبِينَ» ﴿١٥﴾؟ فالجواب: أنه أراد بكل آية منها غير ما أراد بالآخرى، لأنه كلما ذكر شيئاً قال: «وَنَبِيٍّ يُنْفَخُ لِلْمُكَذِّبِينَ» ﴿١٥﴾ بهذا.

قوله تعالى: «أَنزَلْنَا الْفُتُوحَ» قرأ قالون عن نافع بإظهار القاف. وقرأ الباقون بإدغامها.

قوله تعالى: «يَوْمَ تَأْوِيهِمْ» أي: ضعيف «نَجْمَتُهُ فِي قَرَارٍ تَكِينٍ» ﴿١٧﴾ يعني: الرحم «إِنَّ قَدَرَهُ مَعْلُومٌ» ﴿١٨﴾ وهو مدة

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: «فَالْمَلَكُوتَ ذِكْرًا» ﴿٦﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا يعني الملائكة، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، ومجاهد، وقناة، والربيع بن أنس، والسدي، والثوري، ولا خلاف ما هنا، فإنها تنزل بأمر الله على الرسل تفرق بين الحق والباطل، والهدى والغي، والحلال والحرام، وتلقي إلى الرسل وحياً فيه إذار إلى الخلق، وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره.

الحمل ﴿قَدَّرْنَا﴾ قرأ أهل المدينة، والكسائي «فَقَدَّرْنَا» بالتشديد. وقرأ الباقون: بالتخفيف. وهل بينهما فرق؟ فيه قولان: أحدهما: أنهما لغتان بمعنى واحد. قال الفراء: تقول العرب: قَدَّرَ عليه، وَقَدَّرَ عليه. وقد احتج من قرأ بالتخفيف فقال: لو كانت مشددة لقال: فنعم المقدرون، فأجاب الفراء فقال: قد تجمع العرب بين اللغتين، كقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا أَنفُسَهُمْ وَبُذِيَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ﴾ قال الشاعر:

وَأَنكَّرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكَّرْتُ
مِنَ الْحَوَادِثِ إِلَّا السَّيْبَ وَالصَّلَاةَ^(١)

يقول: ما أنكرت إلا ما يكون في الناس. والثاني: أن المخففة من القُدرة والملك، والمشددة من التقدير والقضاء. ثم بين لهم صنعه ليعتبروا فيؤخدوه، فقال تعالى: ﴿أَنزَجَلْ أَلْأَرْضَ كِنَانًا﴾ قال اللغويون: الكفت في اللغة: الضم. والمعنى: أنها تضم أهلها أحياء على ظهرها، وأمواتاً في بطنها. قال ابن قتيبة: يقال: اكفت هذا إليك، أي: ضمه. وكانوا يسمون بقيق الغرقد: كفتة، لأنه مقبرة يضم الموتى. وفي قوله تعالى: ﴿أَيَّاهُ وَأَنزَجَلْ﴾ قولان: أحدهما: أن المعنى: تكفتم أحياء وأمواتاً، قاله الجمهور. قال الفراء: وانتصب الأحياء والأموات بوقوع الكفات عليهم، كأنك قلت: ألم نجعل الأرض كفات أحياء وأموات، فإذا فَوُتَّتْ نصبت كما يقرأ ﴿أَنزَجَلْ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْبَرٍ﴾ [البلد: ١٧]. وقال الأخفش: انتصب على الحال. والقول الثاني: أن المعنى: ألم نجعل الأرض أحياءً بالنبات والعمارة، وأمواتاً بالخراب واليأس، هذا قول مجاهد، وأبي عبيدة.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِجْسًا﴾ قد سبق بيانه ﴿شَيْخَانِ﴾ أي: عاليات، ﴿وَأَنزَجَلْ﴾ قد سبق معني «أسقينا»، [الحجر: ٢٢، والجن: ١٦] ومعنى «الفرات» [الفرقان: ٥٣، واطر: ١٢] والمعنى: إن هذه الأشياء أعجب من البحث. ثم ذكر ما يقال لهم في الآخرة: ﴿أَنزَجَلْ إِلَى مَا كُتِرَ بِهِ تَكْدِيرُونَ﴾ في الدنيا، وهو النار ﴿أَنزَجَلْ إِلَى ظِلٍّ﴾ قرأ الجمهور هذه الثانية بكسر اللام على الأمر. وقرأ أبي بن كعب، وأبو عمران، ورويس عن يعقوب بفتح اللام على الخبر بالفعل الماضي. قال ابن قتيبة: «والظل» هاهنا: ظل من دخان نار جهنم سطع، ثم افترق ثلاث فرق، وكذلك شأن الدخان العظيم إذا ارتفع أن يتشعب، فيقال لهم: كونوا فيه إلى أن يفرغ من الحساب، كما يكون أولياء الله في ظل عرشه أو حيث شاء من الظل، ثم يُؤْمَرُ بكل فريق إلى مستقره من الجنة والنار. ﴿أَنزَجَلْ﴾ أي: لا يظلمكم من حر هذا اليوم بل يذنيكم من لهب النار إلى ما هو أشد عليكم من حر الشمس. قال مجاهد: تكون شعبة فوق الإنسان، وشعبة عن يمينه، وشعبة عن شماله، فتحيط به. وقال الضحاك: الشعب الثلاث: هي الضريع، والزقوم، والفلسين. فعلى هذا القول يكون هذا بعد دخول النار.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَنَبَّهْنَ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا يدفع عنكم لَهَبُ جهنم. ثم وصف النار فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَرَى بُشْكُورًا﴾، وهو جمع شررة، وهو ما يتطاير من النار متفرقاً «كَالْقَصْرِ» قرأ الجمهور بإسكان الصاد على أنه واحد القصور المبنية. وهذا المعنى في رواية ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وهو قول الجمهور. وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، ومجاهد، وأبو الجوزاء «كَالْقَصْرِ» بفتح الصاد. وفي أفراد البخاري^(٢) من حديث ابن عباس قال: كنا نرفع الخشب [بقصر] ثلاثة أذرع أو أقل [نرفعه] للشتاء، فنسميه: القصر. قال ابن قتيبة: من فتح الصاد أوداد: أصول النخل المقطوعة المقلوعة. قال الزجاج: أراد أعناق الإبل. وقرأ سعد بن أبي وقاص، وعائشة، وهكرمة، وأبو مجلز، وأبو المتوكل، وابن عمر «كَالْقَصْرِ» بفتح القاف، وكسر الصاد. وقرأ ابن مسعود، وأبو هريرة، والنخعي «كَالْقَصْرِ» برفع القاف والصاد جميعاً. وقرأ أبو الدرداء، وسعيد بن جبير «كَالْقَصْرِ» بكسر القاف، وفتح الصاد، وقرأ أبو العالية، وأبو عمران، وأبو نهيك، ومعاذ القارئ «كَالْقَصْرِ» بضم القاف وإسكان الصاد.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَمَلِكُونَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم «جمالات» باللف،

(١) البيت للأعشى الكبير ١٠١ من قصيدة يمدح بها مؤلفه بن علي المحنفي ملك اليمامة، وأنشده الفراء في «معاني القرآن» ٢٠٤. و«الطبري» ٢٩/٢٣٦، و«الطبري» ١٩/١٥٨.

(٢) زيادة من «صحيح البخاري».

(٢) ٥٢٨/٨ تفسير سورة المرسلات.

وكسر الجيم. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم «جَمَالَةً» على التوحيد. وقرأ رويس عن يعقوب «جُمَالَات» بضم الجيم. وقرأ أبو رزين، وحמיד، وأبو حيوه «جُمَالَةً» برفع الجيم على التوحيد. قال الزجاج: من قرأ «جُمَالَات» بالكسر، فهو جمع جَمَال، كما تقول: بُيوت، وبُيوتَات، وهو جمع الجمع، فالمعنى: كأن الشرارات كالجمالات. ومن قرأ «جُمَالَات» بالضم، فهو جمع «جمالة» ومن قرأ «جمالة» فهو جمع جَمَل وجمالة، كما قيل: حَجَر، وحَجَارَة. وذكر، ودُكَارَة. وقرئت «جمالة» على ما فسرناه في جُمَالَات بالضم. و «الصُّفْر» هاهنا: السود. يقال للإبل التي هي سود تضرب إلى الصفرة: إبل صُفْرٌ. وقال الفراء: الصُّفْر: سود الإبل لا يُرى الأسود من الإبل إلا وهو مُشْرَبٌ صُفْرَةً، فلذلك سَمَتُ العرب سود الإبل: صُفْرًا، كما سَمَوْا الظباء: أدمًا لما يعلوها من الظلمة في بياضها.

قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ قال المفسرون: هذا في بعض مواقف القيامة. قال عكرمة: تكلموا واختصموا، ثم ختم على أفواههم، فتكلمت أيديهم، وأرجلهم، فحينئذ لا ينطقون بحجة تَنفَعُهُمْ. وقرأ أبو رجاء، والقاسم بن محمد، والأعمش، وابن أبي عبله «هذا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ» بنصب الميم.

قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْقَضَاءِ﴾ أي: بين أهل الجنة وأهل النار ﴿جَمْعُكُمْ﴾ يعني: مكذبي هذه الأمة، ﴿وَالْآدِينَ﴾ من المكذبين الذين كذبوا أنبياءهم، ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ أثبت فيها الباء في الحاليين يعقوب، أي: إن قَدَرْتُمْ على حيلة، فاحتالوا لأنفسكم. ثم ذكر ما للمؤمنين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي ظُلُمٍ﴾ يعني: ظلال الشجر، وظلال أكنان القصور، ﴿وَعِزُّوهُمْ﴾ الماء، وهذا قد تقدّم بيانه، إلى قوله تعالى: ﴿كُلُوا﴾ أي: ويقال لهم: كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون في الدنيا بطاعة الله. ثم قال لكفار مكة: ﴿كُلُوا وَتَمَتُّوا قَلِيلًا﴾ في الدنيا إلى منتهى آجالكم ﴿إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ أي: مشركون بالله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَجَلٌ مِّنْكُمْ أَزْكَرُوا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه حين يُدْعَوْنَ إلى السجود يوم القيامة، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني: أنه في الدنيا كانوا إذا قيل لهم: اركعوا، أي صلوا ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي: لا يصلون. وإلى نحو هذا ذهب مجاهد في آخرين، وهو الأصح. وقيل: نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله ﷺ بالصلاة، فقالوا: لا نحني، فإنها سَبَّةٌ علينا، فقال: «لا خير في دين ليس فيه ركوع»^(١).

قوله تعالى: ﴿يَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن لم يصدقوا بهذا القرآن، فبأي كتاب بعده يصدقون، ولا كتاب بعده.



(١) قال المحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٨١: هكذا ذكره الثعلبي، قال: وأخرجه أبو داود ٢٢٢/٣، وأحمد ٢١٨/٤، وابن أبي شيبة، والطبراني، من رواية الحسن عن عثمان بن أبي العاص به، وأنتم منه. قلت: وفيه عنمة الحسن.

سورة النبا

ويقال لها: سورة التساؤل
وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ١ ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ ٢ ﴿الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْلَقُونَ﴾ ٣ ﴿كَلَّا سَيَمْكُونُ﴾ ٤ ﴿كَلَّا سَيَمْكُونُ﴾ ٥ ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ ٦ ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ٧ ﴿وَخَلَقَنَّاكَ أَزْوَاجًا﴾ ٨ ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْوَادِي الْأَيْلَ لِيَأْسَ﴾ ٩ ﴿وَجَعَلْنَا الْفَارَّ مَعَادًا﴾ ١٠ ﴿وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شَدِيدًا﴾ ١١ ﴿وَجَعَلْنَا بَرْكًا وَفَاجًا﴾ ١٢ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعِصِرِ مَاءً ثَجَابًا﴾ ١٣ ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ ١٤ ﴿وَجَعَلْنَا أَلْفَاكًا﴾ ١٥ ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيفَتًا﴾ ١٦ ﴿يَوْمَ يُفْعَفُ وَ الشُّرَى قَاتُونَ أَفْوَاجًا﴾ ١٧ ﴿وَيُحِبُّ السَّمَاءَ كَانَتْ أَفْوَاجًا﴾ ١٨ ﴿وَشَرِبَتْ لَلْبَابُ فَكَانَتْ صَرَاةً﴾ ١٩ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ ٢٠ ﴿لِلظَّالِمِينَ مَنَابًا﴾ ٢١ ﴿لِيُثَبِّتَ فِيهَا لَحِقَابًا﴾ ٢٢ ﴿لَا يَذْفُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ٢٣ ﴿إِلَّا حَيْثُ وَصَّوْنَاكَ﴾ ٢٤ ﴿جَزَاءً وَفَاتًا﴾ ٢٥ ﴿لَهُمْ كَأْفًا لَا يَرْجِعُونَ حِسَابًا﴾ ٢٦ ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ ٢٧ ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ ٢٨ ﴿فَذَرُونَا أَتَيْنَكُم بِآيَاتِنَا﴾ ٢٩ ﴿إِنَّ لِّلْمُتَّقِينَ مَغَارًا﴾ ٣٠ ﴿حَتَافًا وَآفَاقًا﴾ ٣١ ﴿وَوُكُوفًا أَزْوَاجًا﴾ ٣٢ ﴿وَأَنسًا وَهَاجًا﴾ ٣٣ ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾ ٣٤ ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاةً حِسَابًا﴾ ٣٥ ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ ٣٦ ﴿يَوْمَ يَوْمُ الْأُزْحِ وَالْمَلَكُوتُ سَفَا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ٣٧ ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اخْذِ إِلَىٰ رَبِّهِ مَنَابًا﴾ ٣٨ ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْقَوْمَ مَا قَدَّمْتُمْ بِذَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَكْفَتُنِي كُنْتُ ثَرِيًّا﴾ ٣٩

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ١ أصله «عن ما» فأدغمت النون في الميم، وحذفت ألف «ما» كقولهم: فيم، وبم. قال المفسرون: لما بُعِثَ رسولُ الله ﷺ جَعَلَ المشركون يتساءلون بينهم، فيقولون: ما الذي أتى به؟ ويتجادلون، ويختصمون فيما بعث به، فنزلت هذه الآية^(١). واللفظ لفظ استفهام، والمعنى: تفخيم القصة، كما يقولون: أي شيء زيد؟ إذا أردت تعظيم شأنه. ثم بين ما الذي يتساءلون عنه، فقال تعالى: ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ يعني: عن الخبر العظيم الشأن. وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: القرآن، قاله مجاهد، ومقاتل، والفراء. قال الفراء: فلما أجاب صارت «عم» كأنها في معنى: لأي شيء يتساءلون عن القرآن. والثاني: البعث، قاله قتادة. والثالث: أنه أمر النبي ﷺ، حكاه الزجاج.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْلَقُونَ﴾ ٢ من قال: إنه القرآن، فإن المشركين اختلفوا فيه، فقال بعضهم: هو سحر، وقال بعضهم: هو شعر، وقال بعضهم: أساطير الأولين، إلى غير ذلك. وكذلك من قال: هو أمر النبي ﷺ. فأما من قال: إنه البعث والقيامة، ففي اختلافهم فيه قولان: أحدهما: أنهم اختلفوا فيه لما سمعوا به، فمنهم من صدق وآمن، ومنهم من كذب، وهذا معنى قول قتادة. والثاني: أن المسلمين والمشركين اختلفوا فيه، فصَدَّقَ به المسلمون، وكذَّبَ به المشركون، قاله يحيى بن سلام.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قال بعضهم: هي ردع وزجر. وقال بعضهم: هي نفي لاختلافهم، والمعنى: ليس الأمر على ما قالوا ﴿سَيَمْكُونُ﴾ عاقبة تكذيبهم حين ينكشف الأمر ﴿كَلَّا سَيَمْكُونُ﴾ ٤ وعيد على إثر وعيد. وقرأ ابن عامر «ستعلمون» في الحرفين بالتاء. ثم ذكر صنعه ليعرفوا توحيده، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ ٦ أي: فراشاً ويساطاً ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ٧ للارض لثلاث تميد ﴿وَخَلَقَنَّاكَ أَزْوَاجًا﴾ ٨ أي: أصنافاً، وأضداداً، ذكوراً، وإناثاً، سوداً،

(١) روى ابن جرير الطبري سبب النزول هذا عن الحسن ١/٣٠، وأورده السيوطي في «الدر» ٣٠٥/٦ وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن الحسن.

وبيضاً، وحمراً ﴿وَجَعَلْنَا قُرْبُكَ سَبَكًا ۝١﴾ قال ابن قتيبة: أي: راحة لأبدانكم. وقد شرحنا هذا في [الفرقان: ٤٧] وشرحنا هناك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آيَاتٍ يَاسَا ۝٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الْآثَارَ مَنَازِلًا ۝٣﴾ أي: سبباً لمعاشكم. والمعاش: العيش، وكل شيء يُعَاشُ به، فهو مَعَاشٌ. والمعنى: جعلنا النهار مطلباً للمعاش. وقال ابن قتيبة: معاشاً، أي: عيشاً، وهو مصدر. ﴿وَبَيَّنَّا فَوْقَكُمُ سَبْعًا بِشَدَاقًا ۝٤﴾ قال مقاتل: هي السموات، غلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماء من مثل ذلك، وهي فوقكم يا بني آدم. فاحذروا أن تَغْصُوا فَتُخْرَ عليكم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا يَوْمًا﴾ يعني: الشمس ﴿يَوْمًا﴾ قال ابن عباس: هو المضيء. وقال اللغويون: الوهاج: الوقاد. وقيل: الوهاج يجمع النور والحرارة.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْزَأْنَا مِنْ أُمُوتِهِنَّ﴾ فيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها السموات، قاله أبي بن كعب، والحسن، وابن جبير. والثاني: أنها الرياح، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، ومقاتل. وقال زيد بن أسلم: هي الجنوب. فعلى هذا القول تكون «يَوْمٌ» بمعنى «الباء»، فتقديره: بالمعصرات. وإنما قيل للرياح: معصرات، لأنها تستدِرُّ المطر. والثالث: أنها السحاب، رواه الوابي عن ابن عباس، وبه قال أبو العالية، والضحاك، والربيع. قال الفراء: السحابة المعصر: التي تتحلَّبُ بالمطر ولما يجتمع، مثل الجارية المعصر، قد كادت تحيض، ولما تحض. وكذلك قال ابن قتيبة: شَبَّهَتِ السحاب بمعاصر الجوازي، والمُعْصِرُ: الجارية التي قد دنت من الحيض. وقال الزجاج: إنما قيل للسحاب: معصرات، كما قيل: أجر الزرع، فهو مُجَزٌّ، أي: صار إلى أن يُجَزَّ، فكذلك السحاب إذا صار إلى أن يُمْطِرَ، فقد أعصر.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْمَعُ﴾ قال مقاتل: أي: مطراً كثيراً مُنْصَبّاً يتبع بعضه بعضاً. وقال غيره: يقال: نَجَّ الماء يشج: إذا انصبَّ ﴿فَلَا تَجْمَعُ بِهِ﴾ أي: بذلك الماء ﴿فَلَا تَجْمَعُ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أن الحب: ما يأكله الناس، والنبات: ما تنبت الأرض مما يأكل الناس والأنعام، هذا قول الجمهور. وقال الزجاج: كُلُّ ما حُصِدَ حَبٌّ، وكُلُّ ما أَكَلَتْهُ الماشية من الكلال، فهو نبات. والثاني: أن الحب: اللؤلؤ، والنبات: العشب. قال عكرمة: ما أنزل الله من السماء قطراً، إلا أنبت به في البحر لؤلؤاً، وفي الأرض عشباً.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ يعني: بساتين ﴿لَلنَّاسِ﴾ قال أبو عبيدة: أي: متلقة من الشجر ليس بينها خلال، الواحدة: لَفَاءٌ، وجنات لَفٌ، وجمع الجمع: أَلْفَافٌ. قال المفسرون: فدلّ بذكر المخلوقات على البعث. ثم أخبر عن يوم القيامة فقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامِ﴾ أي: يوم القضاء بين الخلائق ﴿كَانَ يَوْمَئِذٍ﴾ لما وعد الله من الثواب والعقاب. ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الْأَشْوَاقِ قُلُوبُهُمْ﴾ من قبوركم ﴿فَأَرْبَابًا﴾ أي: زُمَرًا زُمَرًا من كل مكان ﴿وَنُفُوحًا أَلْمَاءَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر «وَفُتِحَتْ» بالتشديد. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي بالتخفيف، وإنما تفتح لنزول الملائكة ﴿وَكُنَّ أَبْوَابًا﴾ أي: ذات أبواب ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ عن أماكنها ﴿وَكُنَّ سَرَابًا﴾ أي: كالسراب، لأنها تصير هباءً منبثاً فيراها الناظر كالسراب بعد شدتها وصلابتها ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝١٠﴾ قال المبرد: مرصاداً يرصدون به، أي: هو مُعَدٌّ لهم يَرُصِدُ بها خزنتها الكفار. وقال الأزهري: المرصاد: المكان الذي يَرُصِدُ فيه الراصد العدو. ثم بين لمن هي مرصاد فقال تعالى: ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ قال ابن عباس: للمشركين ﴿وَنَارًا﴾ أي: مرجعاً.

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ﴾ وقرأ حمزة «لَبَّيْنِ» والمعنى فيهما واحد. يقال: هو لا يث بالمكان، ولبيث. ومثله ظامع، وطمع، وقاره، وقره. وأما الأحقاب فجمع حقب، وقد ذكرنا الاختلاف فيه في [الكهف: ٦٠]. فإن قيل: ما معنى ذكر الأحقاب، وخلودهم في النار لا نفاذ له؟ فتنه جوابان: أحدهما: أن هذا لا يدل على غاية، لأنه كلما مضى حقب تبعه حقب. ولو أنه قال «لابئين فيها عشرة أحقاب أو خمسة» دلّ على غاية، هذا قول ابن قتيبة، والجمهور. وبيانه أن زمان أهل الجنة والنار يُصَوَّرُ دخوله تحت العدد، وإن لم يكن لها نهاية^(١). والثاني: أن المعنى: أنهم يلبثون فيها أحقاباً ﴿

(١) في النسخة الإستانبولية: وإن لم يكن لها غاية.

يَذُوقُونَ فِي الْأَحْقَابِ ﴿بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ فأما خلودهم في النار فدائم. هذا قول الزجاج. ويبانه أن الأحقاب حَدٌّ لعذابهم بالحميم والغساق، فإذا انقضت الأحقاب عُذِّبُوا بغير ذلك من العذاب. وفي المراد «بالبرد» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه برد الشراب. روى أبو صالح عن ابن عباس قال: لا يذوقون فيها برد الشراب، ولا الشراب. والثاني: أنه الرُّوح والراحة، قاله الجسن، وعطاء. والثالث: أنه النوم، قاله مجاهد، والسدي، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، وأنشدوا:

فَإِنْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمْ
وَإِنْ شِئْتُ لَمْ أَطْعَمْ نُفَاخًا وَلَا بَرْدًا^(١)

قال ابن قتيبة: النفاخ: الماء، والبرد: النوم، سمي بذلك لأنه يبرد فيه الحرارة. وقال مقاتل: لا يذوقون فيها بردًا يتفعمهم من حرها، ولا شراباً يتفعمهم من عطش، ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ ﴿١٥﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر «غَسَّاقًا» بالتخفيف. وقرأ حمزة، والكسائي، والمفضل، وحفص عن عاصم بالتشديد. وقد تقدم ذكر الحميم، والغساق [ص: ٥٧] ﴿حَرَّةً وَفَنَاءً﴾ قال الفراء: وفقاً لأعمالهم. وقال غيره: جُوزُوا جزءاً وفقاً لأعمالهم على مقدارها، فلا ذنب أعظم من الشُّرك، ولا عذاب أعظم من النار. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ ﴿٧﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يخافون أن يحاسبوا، لأنهم لا يؤمنون بالبعث، قاله الجمهور. والثاني: لا يرجون ثواب حساب، لأنهم لا يؤمنون بالبعث، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ قال الفراء: الكِذَابُ بالتشديد لغة يمانية فصيحة، يقولون: كَذَّبَتْ به كِذَابًا، وخرقت القميص خِرَاقًا، وكل «فَعَلْتُ» فمصدره في لغتهم مُشَدَّد. قال لي أعرابي منهم على المروية يستفتيني: الحَلْقُ أحب إليك، أم القِصَارُ؟ وأنشدني بعض بني كلاب:

لَقَدْ طَالَ مَا نَبَطْتُنِي عَنْ صَحَابَتِي
وَعَنْ حَوْجٍ قِضَاوَهَا مِنْ شِفَائِي^(٢)

وأما أهل نجد، فيقولون: كَذَّبَتْ به تكذيباً. وقال أبو عبيدة: الكِذَابُ أشد من الكِذَابِ، وهما مصدر المكاذبة. قال الأعشى:

فَصَدَّقْتُهَا وَكَذَّبْتُهَا
وَالْمَرَّةُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهُ^(٣)

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ قال الزجاج: «كل» منصوب بفعل مضمر تفسيره: أحصيناه، والمعنى: أحصينا كل شيء، و«كَيْتَابًا». توكيد^(٤) لـ «أَحْصَيْنَاهُ» لأن معنى «أَحْصَيْنَاهُ» و«كَيْتَابًا» فيما يحصل ويثبت واحد. فالمعنى: كتبناه كتاباً. قال المفسرون: وكل شيء من الأعمال أثبتناه في اللوح المحفوظ. ﴿فَذُوقُوا﴾ أي: فيقال لهم: ذوقوا جزء فعالكم ﴿فَلَنْ نُرِيدَ لَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ ﴿٢٠﴾ إِنَّ لِلنَّاسِ الَّذِينَ لَمْ يَشْكُرُوا ﴿مَقَارًا﴾ وفيه قولان: أحدهما: متنزهًا، قاله ابن عباس، والضحاك. والثاني: فازوا بأن نجَّوا من النار بالجنة، ومن العذاب بالرحمة، قاله قتادة. قال ابن قتيبة: «مقارًا» في موضع «فوز». ﴿حَلَاكًا﴾ قال ابن قتيبة: الحداق: بساتين نخل، واحدها: حديقة.

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّابٌ﴾ قال ابن عباس: الكواعب: التَّوَاهِد. قال ابن فارس: يقال: كعبت المرأة كعابة، فهي كاعب: إذا نكأ تَذْيِهَا. وقد ذكرنا معنى «الأتراب» في [ص: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا دِهَاقًا﴾ ﴿٢١﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الملائة، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال

(١) البيت لعبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان المرحي، وهو في «ديوانه» ١٠٩، و«غريب القرآن» ١٤٦، ٥٠٩، و«شواهد الكشاف» ٣٤، والقرطبي ١٧٨/١٩، و«البحر» ٤١٤/٨.

(٢) البيت من شواهد الفراء في «معاني القرآن» (الورقة ٣٥٥) وهو في الطبري ١٦/٣٠، والقرطبي ١٧٩/١٩، و«اللسان»: قضى. والشاهد فيه تشديد «قضاوها».

(٣) البيت في ملحق «ديوان الأعشى» ٢٣٨، و«مجاز القرآن» ٢/٢٨٣، و«الكامل» للمبرد ٥٦٤. قال المبرد: وأنشد المازني للأعشى، وليس مما روت الرواة متصلاً بقصيدة:

فَصَدَّقْتُ نَفْسِي وَكُذِّبْتُهُمْ
وَالْمَرَّةُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهُ

وهو في الطبري ٢٠/٣٠، والقرطبي ١٧٩/١٩، و«اللسان» و«التاج»: صدق.

(٤) في الأصل: توكيداً.

الحسن، وقتادة، وابن زيد. والثاني: أنها المتتابعة. رواه مجاهد عن ابن عباس، وبه قال ابن جبير. وعن مجاهد كالفولين. والثالث: أنها الصافية، قاله عكرمة.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة إذا شربوها ﴿لَقُوا﴾ وقد ذكرناه في (الطور: ٢٣) وغيرها ﴿وَلَا كَذِبًا﴾ أي: لا يكذب بعضهم بعضاً، لأن أهل الدنيا إذا شربوا الخمر تكلموا بالباطل، وأهل الجنة مُتَرَهِّونَ عن ذلك. قال الفراء: وقراءة علي عليه السلام ﴿كَذِبًا﴾ بالتخفيف، كأنه - والله أعلم - لا يتكاذبون فيها. وكان الكسائي يخفف هذه ويشدد، ﴿وَكَذِبُوا بِأَيِّدِنَا كَذِبًا﴾ لأن «كذبوا» يقيد «الكذاب» بالمصدر، وهذه ليست مقيدة بفعل يصيرها مصدرًا. وقد ذكرنا عن أبي عبيدة أن الكذاب بالتشديد والتخفيف مصدر المكاذبة. وقال أبو علي الفارسي: «الكذاب» بالتخفيف مصدر «كذب»، مثل «الكتاب» مصدر «كتب».

قوله تعالى: ﴿حَرَآءَ﴾ قال الزجاج: المعنى: جازاهم بذلك جزاء، وكذلك «عطاء»، لأن معنى أعطاهم وجازاهم واحد. و«حسبًا» معناه: ما يكفيهم، أي: فيه كل ما يشتهون. يقال: أحسبني كذا بمعنى كفاني. ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والمفضل «رَبُّ السَّمَوَاتِ والأرض وما بينهما الرحمن» برفع الباء من «رب» والنون من «الرحمن» على معنى: هو ربُّ السموات. وقرأ عاصم، وابن عامر بخفض الباء والنون على الصفة من «ربك». وقرأ حمزة والكسائي بكسر الباء ورفع النون، واختار هذه القراءة الفراء، ووافقه على هذا جماعة، وعللوا بأن الربَّ قريب من المخفوض، والرحمن بعيد منه.

قوله تعالى: ﴿لَا يَكُونُ مِنْهُ خِطَابٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يملكون الشفاعة إلا بإذنه، قاله ابن السائب. والثاني: لا يقدر الخلق أن يكلموا الربَّ إلا بإذنه، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَوْمُ الْآزِفِ﴾ فيه سبعة أقوال: أحدها: أنه جند من جند الله تعالى، وليسوا بملائكة، رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ^(١). وقال مجاهد: هم خلق على صورة بني آدم يأكلون ويشربون. والثاني: أنه ملك أعظم من السموات والجبال، والملائكة، قاله ابن مسعود، ومقاتل بن سليمان^(٢). وروى عطاء عن ابن عباس قال: الروح: ملك ما خلق الله أعظم منه، فإذا كان يوم القيامة قام هو وحده صفًا، وقامت الملائكة كلهم صفًا واحدًا، فيكون عظم خلقه مثل صفوفهم. والثالث: أنها أرواح الناس تقوم مع الملائكة فيما بين الفختين قبل أن تُرَدَّ إلى الأجسام، رواه عطية عن ابن عباس. والرابع: أنه جبريل عليه السلام، قاله الشعبي، وسعيد بن جبير، والضحاك. والخامس: أنهم بنو آدم، قاله الحسن، وقتادة. والسادس: أنه القرآن، قاله زيد بن أسلم. والسابع: أنهم أشرف الملائكة، قاله مقاتل بن حيان^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَلْمَلِكُ صَفًا﴾ قال الشعبي: هما سماءان، سماء من الروح، وسماء من الملائكة. فعلى هذا يكون المعنى: يوم يقوم الروح صفاً، والملائكة صفاً. وقال ابن قتيبة: معنى قوله تعالى: ﴿صَفًا﴾ صفوفاً.

قوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ يعني: الخلق كلهم ﴿إِلَّا مَن أَدْنَىٰ لَهُ أَرْحَنٌ﴾ في الكلام ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي: قال في الدنيا صواباً، وهو الشهادة بالتوحيد عند أكثر المفسرين. وقال مجاهد: قال حقاً في الدنيا، وعمل به ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ﴾ الكائن الواقع بلا شك ﴿وَمَنْ شَاءَ أَتَىٰ رَبَّهُ سَبَابًا﴾ أي: مرجعاً إليه بطاعته. ثم حُوفَّ كَفَّار مكة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ قَرِيبًا﴾ وهو عذاب الآخرة، وكل آت قريب ﴿يَوْمَ يُنْظَرُ أَلَمْ تَأْتُوا مِمَّا قَدَّمْتُمْ لِذَلِكَ﴾ أي: يرى عمله مثبتاً في صحيفته خيراً كان أو شراً ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ يا ليتني لم أبعث. وحكى الثعلبي عن بعض أشياخه أنه رأى في بعض التفاسير أن الكافر هاهنا: إبليس، وذلك أنه عاب آدم، لأنه خلق من التراب، فتمنى يوم القيامة أنه كان بمكان آدم، فقال: يا ليتني كنت تراباً^(٤).

(١) ذكره السيوطي في «الدر» ٣٠٩/٦ من رواية ابن أبي حاتم وأبي الشيخ في «العظمة»، وابن مردويه عن ابن عباس، والله أعلم بصحة سنده. وقد ذكر ابن كثير هذا المعنى عن ابن عباس موقوفاً عليه، وذكره ابن كثير والشوكاني عن مجاهد وأبي صالح، ولعله مما تلقاه ابن عباس من الإسرائيليات، والله أعلم.

(٢) روى هذا المعنى ابن جرير الطبري في «تفسيره» ٢٢/٣٠ عن ابن مسعود. قال ابن كثير: وهذا قول غريب جداً.

(٣) توقف ابن جرير الطبري فلم يقطع بواحد من هذه الأقوال كلها، وقال ابن كثير: والأشبه عندي - والله أعلم - أنهم بنو آدم.

(٤) والصحيح أنها عامة في كل كافر، وإبليس داخل بطريق الأولى.

سورة النازعات

مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرَقًا ۝ وَالشَّيْطَانُ نَسْفًا ۝ وَالنَّبِيَّاتُ سَبًا ۝ وَالْمَلَائِكَةُ سَبًا ۝ فَالْمَلَكُوتُ ثَمَرًا ۝ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجُلَةُ ۝ تَتَّبِعُنَّ أَرْأؤُهُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَتَمْسِكُنَّاهُ خَيْمَةً ۝ يَقُولُونَ أَوَنَّا لَرَبِّهِدُونَ فِي الْخَافِرَةِ ۝ أَوَدَا كُنَّا عِظْمًا جِغَرَةً ۝ قَالُوا يَلَيْك إِذَا كَرُّ غَايِرَةٌ ۝ فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ ۝ فَلَمَّا هُمْ بِالْخَاوِرَةِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتُ﴾ فيه سبعة أقوال: أحدها: أنها الملائكة تنزع أرواح الكفار، قاله علي، وابن مسعود. وروى عطية عن ابن عباس قال: هي الملائكة تنزع نفوس بني آدم، وبه قال مسروق. والثاني: أنه الموت ينزع النفوس، قاله مجاهد. والثالث: أنها النفس حين تنزع، قاله السدي. والرابع: أنها النجوم تنزع من أفق إلى أفق تطلع ثم تغيب، قاله الحسن، وقتادة، وأبو عبيدة، والأخفش، وابن كيسان. والخامس: أنها القسي تنزع بالسهم، قاله عطاء، وعكرمة. والسادس: أنها الوحوش تنزع وتفر، حكاه الماوردي. والسابع: أنها الرماة، حكاه الثعلبي^(١).

قوله تعالى: ﴿غَرَقًا﴾ اسم أقيم مقام الإغراق. قال ابن قتيبة: والمعنى: والنازعات إغراقاً، كما يغرق النازع في القوس، يعني: أنه يبلغ به غاية المد.

قوله تعالى: ﴿وَالشَّيْطَانُ نَسْفًا﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنها الملائكة^(٢). ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: أنها حين تنشط أرواح الكفار حتى تخرجها بالكرب والغم، قاله علي عليه السلام. قال مقاتل: ينزع ملك الموت روح الكافر، فإذا بلغت ترقوته غرقها في حلقه، فيعذبه في حياته، ثم ينشطها من حلقه - أي: يجذبها - كما ينشط السفود من الصوف المبتل. والثاني: أنها تنشط أرواح المؤمنين بسرعة، كما ينشط العقال من يد البعير إذا حل عنها، قاله ابن عباس. وقال الفراء: الذي سمعته من العرب: كما أنشط من عقال بالف. تقول: إذا ربطت الحبل في يد البعير: نشطته، فإذا حللته قلت: أنشطته. والقول الثاني: أنها أنفس المؤمنين تنشط عند الموت للخروج، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً. ويانه أن المؤمن يرى منزله من الجنة قبل الموت فتنشط نفسه لذلك. والثالث: أن الناشطات: الموت ينشط نفس الإنسان، قاله مجاهد. والرابع: النجوم تنشط من أفق إلى أفق، أي: تذهب، قاله قتادة، وأبو عبيدة، والأخفش. ويقال لبقر الوحش: نواشط، لأنها تذهب من موضع إلى موضع. قال أبو عبيدة: والهموم تنشط بصاحبها. قال هيمان بن قحافة:

أَمْسَتْ مُمُومِي تَنْشِطُ الْمَنَاشِطَا الشَّامُ بِي طَوْرًا وَطَوْرًا وَاسْطَا^(٣)

والخامس: أنها النفس حين تنشط بالموت، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّبِيَّاتُ سَبًا﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: أنها الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين، قاله علي عليه السلام. قال ابن السائب: يقبضون أرواح المؤمنين كالذي يسبح في الماء. فأحياناً ينغمس، وأحياناً يرتفع، يسألونها سلاً رفيقاً،

(١) ذكر ابن كثير أن الصحيح في قوله: ﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرَقًا﴾: الملائكة، قال: يعنون حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتفرقه في نزاعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة، وكأنما حلته من نشاط، وهو قوله: ﴿وَالشَّيْطَانُ نَسْفًا﴾.

(٢) وهو الأقرب.

(٣) البيت في «اللسان»: نشط، لهيمان بن قحافة، راجز إسلامي. وهو في «مجاز القرآن» ٢/٢٨٤، والطبري ٣٠/٢٩، والقرطبي ١٩/١٩٠، وروح المعاني ٣٠/٢٤، ومعنى البيت: يقول: صارت همومي تنقلني من بلد إلى بلد، فمرة إلى الشام، ومرة إلى واسط.

ثم يَدْعُونَهَا حَتَّى تَسْتَرِيحَ. والثاني: أنهم الملائكة ينزلون من السماء مسرعين، كما يقال للفرس الجواد: سايح: إذا أسرع في جريه، قاله مجاهد، وأبو صالح، والفراء. والثالث: أنه الموت يسبح في نفوس بني آدم، روي عن مجاهد أيضاً. والرابع: أنها السفن تسبح في الماء، قاله عطاء. والخامس: أنها النجوم، والشمس، والقمر، كل في فلك يسبحون، قاله قتادة، وأبو عبيدة. والسادس: أنها الخيل، حكاه الماوردي^(١).

قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَيْنَتْ سَبَكًا﴾^(٢) فيه خمسة أقوال: أحدها: أنها الملائكة. ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أنها تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء، قاله علي، ومسروق. والثاني: أنها تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة، قاله مجاهد، وأبو رزق. والثالث: أنها سبقت بني آدم إلى الإيمان، قاله الحسن. والقول الثاني: أنها أنفس المؤمنين تسبق الملائكة شوقاً إلى لقاء الله، فيقبضونها وقد عاينت السرور، قاله ابن مسعود. والثالث: أنه الموت يسبق إلى النفوس، روي عن مجاهد أيضاً. والرابع: أنها الخيل، قاله عطاء. والخامس: أنها النجوم يسبق بعضها بعضاً في السير، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَيْنَتْ أَمْرًا﴾^(٣) قال ابن عباس: هي الملائكة. قال عطاء: وكُلْتُ بأمور عَرَفَهُمُ الله العمل بها. وقال عبد الرحمن بن سابط: يُدَبِّرُ أمر الدنيا أربعة أملاك: جبريل، وهو موكل بالرياح والجنود. وميكائيل، وهو موكل بالقطر والنبات. وملاك الموت، وهو موكل بقبض الأنفس. وإسرافيل، وهو ينزل بالأمر عليهم. وقيل: بل جبريل للوحي، وإسرافيل للصور. وقال ابن قتيبة: فالمدبرات أمراً: تنزل بالحلال والحرام. فإن قيل: أين جواب هذه الأقسام؟ فعنه جوابان: أحدهما: أن الجواب قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن يَتَفَكَّرُ﴾^(٤)، قاله مقاتل. والثاني: أن الجواب مضمرة، تقديره: لَتُبْعَثَنَّ، وَلَتَحَاسِبُنَّ، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿إِذْ كُنَّا عِظَمًا لِّخَرَّةٍ﴾^(٥)، قاله الفراء.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّايَةُ﴾^(٦)، وهي النفخة الأولى التي يموت منها جميع الخلائق. و«الراجة» صيحة عظيمة فيها تردد واضطراب كالرعد إذا تمحض. و«ترجف» بمعنى: تتحرك حركة شديدة ﴿تَبْهَمُ الرَّايَةُ﴾^(٧) وهي: النفخة الثانية ردت الأولى، أي: جاءت بعدها. وكل شيء جاء بعد شيء فهو يردفه ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾^(٨) أي: شديدة الاضطراب لما عاينت من أحوال القيامة، ﴿أَبْصَرُكُمْ خُسِئَةً﴾^(٩) أي: ذليلة لمعاينة النار. قال عطاء: وهذه أبصار من لم يمت على الإسلام. ويدل على هذا أنه ذكر منكري البعث، فقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَوْنَا لَنُرْزَقُونَا فِي كَلْبَافٍ﴾^(١٠) قرأ ابن عامر وأهل الكوفة «أنا» بهمزتين مخففتين على الاستفهام، وقرأ الباقون بتخفيف الأولى وتليين الثانية، وفصل بينهما بألف نافع وأبو عمرو. وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: أن الحافرة: الحياة بعد الموت. فالمعنى: أنرجع أحياء بعد موتنا؟ وهذا قول ابن عباس، وعطية، والسدي. قال الفراء: يعنون: أنرُدُّ إلى أمرنا الأول إلى الحياة؟ والعرب تقول: آتيت فلاناً، ثم رجعت على حافرتي، أي: رجعت من حيث جئت. قال أبو عبيدة: يقال: رجع فلان في حافرتي، وعلى حافرتي: إذا رجع من حيث جاء، وهذا قول الزجاج. والثاني: أنها الأرض التي تحفر فيها قبورهم، فسميت حافرة، والمعنى: محفورة، كما يقال: ﴿هَلْوَ دَافِي﴾ [الطارق: ٦]، و﴿يَسْئَرُ رَأْيِي﴾ [الحاقة: ٢١] وهذا قول مجاهد والخليل. فيكون المعنى: أننا لمرودون إلى الأرض خلقاً جديداً؟ قال ابن قتيبة: «في الحافرة» أي: إلى أول أمرنا. ومن قَسَرَهَا بالأرض، فلما هذا يذهب، لأننا منها بَدِئْنَا. قال الشاعر:

أَحَافِرَةٌ عَلَى صَلَعٍ وَشَيْبٍ مَعَادُ الْوَيْسِ سَفْوٍ وَعَارٍ^(١١)
[كانه قال: أأرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل والصبأ]^(١٢) «بعد ما شَبْتُ وَصَلَعْتُ»؟^(١٣). والثالث: أن الحافرة: النار، قاله ابن زيد^(١٤).

(١) والقول الأول أقرب إلى الصواب.

(٢) في الأصل: «في»، والتصحيح من «غريب القرآن».

(٣) البيت في «غريب القرآن»: ٥١٣، والطبري ٣٣/٣٠، والقرطبي ١٩/١٩٥، وهو في «اللسان»: حفر، قال: وأنشد ابن الأعرابي... فذكره.

(٤) في الأصل: أرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من القول في الصبا. والتصحيح من «لسان العرب».

(٥) زيادة من «اللسان».

(٦) ما بين المعقوفين زيادة من النسخة الاستبولية.

قوله تعالى: ﴿إِذَا كُنَّا عِظَمًا تُخْرَجُ﴾ (١١) وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم «تأخره». قال الفراء: وهما بمعنى واحد في اللغة. مثل طمع، وطامع. وخير، وحاذر. وقال الأخفش: هما لغتان. وقال الزجاج: يقال: نُخِرَ العظم يُنْخَرُ، فهو نُخْرٌ. مثل عَفِنَ الشيء يَمْعُنُ، فهو عَفِنٌ. وتأخره على معنى: عظماً فارغة، يجيء فيها من هبوب الريح كالنخير. قال المفسرون: والمراد أنهم أنكروا البعث، و ﴿تَأْتُوا﴾: تُرَدُّ أحياء إذا متنا وبلت عظامنا ١٩ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا كُنَّا عِظَمًا﴾ أي: إن رُودنا بَعْدَ الموت لنُخْسِرَنَّ بما يصيبنا مما يَعِدُنَا به محمد، فأعلمهم الله بسهولة البعث عليه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني النفخة الأخيرة ﴿زَجَرَةٌ رَزَاقُ﴾ أي: صيحة في الصور يسمعونها من إسرئيل وهم في الأرض فيخرجون ﴿يَا أَيُّهَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ (١٢) وفيها أربعة أقوال: أحدها: أن الساهرة: وجه الأرض، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، واللغويون (١). قال الفراء: كأنها سُمِّيَتْ بهذا الاسم، لأن فيها نوم الحيوان وسهرهم. والثاني: أنه جبل عند بيت المقدس، قاله وهب بن منبه. والثالث: أنها جهنم، قاله قتادة. والرابع: أنها أرض الشام، قاله سفيان.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (١٣) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٤) أَذْهَبَ إِلَيْكَ فَتَمَوَّنَ إِبْرَاهِيمَ لَطَى (١٥) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا تَزَكَّى (١٦) وَأَعْلِيكَ إِلَهٌ رَبُّكَ فَتَقَسَّى (١٧) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (١٨) فَكَذَّبَ وَعَصَى (١٩) ثُمَّ أَذَرَ بَيْتَنَ (٢٠) فَتَحَرَّ قَادَى (٢١) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْآخِلَ (٢٢) فَأَعَدَّ اللَّهُ تَكَاالْ آخِرَةَ وَالْأُولَى (٢٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَفْقَهُ (٢٤) أَنَّمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرِ اسْمُهُ بَنَاهَا (٢٥) رَغَى سَتَكُمَا فَتَوْنَهَا (٢٦) وَأَقْلَسَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ مِنْهَا (٢٧) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٢٨) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٢٩) وَالْبَالِغَ أَتْسَامًا (٣٠) مَتَا لَكُمُ الْوَيْلُ (٣١)

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (١٣) أي: قد جاءك. وقد بيَّنا هذا في [طه: ٩] وما بعده إلى قوله تعالى: ﴿طُوًى﴾ (١٤) قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو «طوى اذهب» غير مُجْرَأة. وقرأ الباقون «طوى» منونة ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا تَزَكَّى﴾ وقرأ ابن كثير، ونافع «تَزَكَّى» بتشديد الزاي، أي: تَطَهَّرَ من الشرك ﴿وَأَعْلِيكَ إِلَهٌ رَبُّكَ﴾ أي: أَدْعُوكَ إلى توحيدهِ، وعبادته ﴿فَتَقَسَّى﴾ عذابه ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ (١٨) وفيها قولان: أحدهما: أنها اليد والعصا، قاله جمهور المفسرين. والثاني: أنها اليد، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ﴾ أي بأنها من الله، ﴿وَعَصَى﴾ نبيّه ﴿ثُمَّ أَذَرَ بَيْتَنَ﴾ أي: أَعْرَضَ عن الإيمان ﴿بَيْتَنَ﴾ أي: يعمل بالفساد في الأرض ﴿فَتَحَرَّ قَادَى﴾ أي: فجمع قومه وجنوده ﴿قَادَى﴾ لما اجتمعوا ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْآخِلَ﴾ (٢٢) أي: لا ربُّ فوقِي. وقيل: أراد أن الاصنام أرباب، وأنها ربُّها وربُّكم. وقيل: أراد: أنا ربُّ السادة والقادة.

قوله تعالى: ﴿فَأَعَدَّ اللَّهُ تَكَاالْ آخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ (٢٣) فيه أربعة أقوال: أحدها: أن الأولى قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمُ مِنَّ إِلَهِ غَيْرِهِ﴾ [الفصل: ٣٨] والآخرة قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْآخِلَ﴾، قاله ابن عباس، وعكرمة، والشعبي، ومقاتل، والفراء. ورواه ابن أبي نجيح عن مجاهد. قال ابن عباس: وكان بينهما أربعون سنة. قال السدي: بقي بعد الآخرة ثلاثين سنة. قال الفراء: فالمعنى: أخذ الله أخذاً نكالاً للآخرة والأولى. والثاني: المعنى: جعله الله نكال الدنيا والآخرة، أغرقه في الدنيا، وعذَّبه في الآخرة، قاله الحسن، وقاتادة. وقال الربيع بن أنس: عذَّبه الله في أول النهار بالقرق، وفي آخره بالثَّار. والثالث: أن الأولى: تكذيبه وعصيانهِ. والآخرة قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْآخِلَ﴾، قاله أبو رزين. والرابع: أنها أول أعماله وآخرها، رواه منصور عن مجاهد. قال الزجاج: النكال: منصوب مصدر مؤكد، لأن معنى أخذه الله: نكل الله به نكال الآخرة والأولى: فأغرقه في الدنيا ويعذَّبه في الآخرة (٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي فُعل بفرعون ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: لعظة ﴿لِّمَن يَفْقَهُ﴾ الله. ثم خاطب منكري البعث، فقال تعالى: ﴿أَنَّمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرِ اسْمُهُ بَنَاهَا﴾ (٢٥) قال الزجاج: ذهب بعض النحويين إلى أن قوله تعالى: ﴿بَنَاهَا﴾ من صفة

(١) وهذا هو الصحيح كما قال ابن كثير، وبقية الأقوال غريبة.

(٢) قال ابن كثير: ﴿فَأَعَدَّ اللَّهُ تَكَاالْ آخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ (٢٣) أي: انتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين في الدنيا، ﴿وَيَوْمَ الْيَوْمِ يَفْقَهُ الْوَيْلَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَعَلَكُم مِّنْ آيَةٍ كَذُفْرَتُ إِلَى السُّكُوتِ وَيَوْمَ الْيَوْمِ لَا يَسْمَعُونَ﴾ قال: وهذا الصحيح في معنى الآية أن المراد بقوله: ﴿تَكَاالْ آخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ أي الدنيا والآخرة.

السماء، فيكون المعنى: أم السماء التي بناها. وقال قوم: السماء ليس مما توصل، ولكن المعنى: أنتم أشد خلقاً، أم السماء أشد خلقاً؟ ثم بين كيف خلقها، فقال تعالى: ﴿بَنَيْنَا﴾ قال المفسرون: أخلقكم بعد الموت أشد عندكم، أم السماء في تقديركم؟ وهما في قدرة الله واحد. ومعنى: «بناها» رفعها. وكل شيء ارتفع فوق شيء فهو بناء. ومعنى ﴿رَفَعْنَا سَنَكُمَا﴾ رفع ارتفاعها وعلوها في الهواء ﴿سَنَكُمَا﴾ بلا شقوق، ولا فطور، ولا تفاوت، يرتفع فيه بعضها على بعض ﴿وَأَغَطَّيْنَاهُمَا﴾ أي: أظلمه فجعله مظلماً. قال الزجاج: يقال: غطش الليل وأغطش، وغبش وأغبش، وغسق وأغسق، وغشي وأغشى، كله بمعنى أظلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَجْنَا سَحَابًا﴾ أي: أبرز نهارها. والمعنى: أظهر نورها بالشمس. وإنما أضاف النور والظلمة إلى السماء لأنهما عنها يصدران ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد خلق السماء ﴿دَحَنَاهَا﴾ أي: بسطها. وبعض من يقول: إن الأرض خلقت قبل السماء يزعم أن «بعد» هاهنا بمعنى «قبل»، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. وبعضهم يقول: هي بمعنى «مع»؛ كقوله تعالى: ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبِرٌ﴾ [القم: ١٣]، ولا يمتنع أن تكون الأرض خلقت قبل السماء، ثم دحيت بعد كمال السماء، وهذا مذهب عبد الله بن عمرو بن العاص. وقد أشرنا إلى هذا الخلاف في [البقرة: ٢٩] ^(١). ونصبت الأرض بمضمر تفسيره قوله تعالى: ﴿دَحَنَاهَا﴾. ﴿أَنزَجْنَا سَحَابًا﴾ أي: فجر العيون منها ﴿وَرَزَقْنَاهَا﴾ وهو ما يأكله الناس والانبعاث، ﴿وَالْيَحْيَا أَرْسَنَاهَا﴾ قال الزجاج: أي: أثبتنا ﴿سَنَكُمَا﴾ أي: للإمتاع، لأن معنى أخرج منها ماءها ومرعاها: أمتع بذلك. وقال ابن قتيبة: ﴿سَنَكُمَا﴾ أي: منفعة لكم].

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّلَافُ الْكُبْرَى﴾ (٢٢) ﴿يَوْمَ يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ (٢٣) ﴿وَرُزِقَ الْجَنَّةُ لِمَن رَزَى﴾ (٢٤) ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى﴾ (٢٥) ﴿وَوَازَى الْكِبْرَى الدُّنْيَا﴾ (٢٦) ﴿فَأَنَّ الْكَيْمَ فِي الْمَوْتَى﴾ (٢٧) ﴿وَأَمَّا مَن حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَهَمَى الْفَنَسَ عَنِ الْمَوْتَى﴾ (٢٨) ﴿فَأَنَّ الْكَيْمَ فِي الْمَوْتَى﴾ (٢٩) ﴿يَسْتَلُوكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّامَ مُرْسِنَاهَا﴾ (٣٠) ﴿فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرِنَاهَا﴾ (٣١) ﴿إِلَّا رَيْكُ سُتْنَاهَا﴾ (٣٢) ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَحْشَنَاهَا﴾ (٣٣) ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رَوْنَاهَا لَوْ يَلْبِثُونَ إِلَّا عُيَيْنَةٌ أَوْ سَحَابٌ﴾ (٣٤)

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّلَافُ الْكُبْرَى﴾ (٢٢) والطامة: الحادثة التي تطم على ما سواها، أي: تعلق فوقه. وفي المراد بها هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: النفخة الثانية التي فيها البعث. والثاني: أنها حين يقال لأهل النار: قوموا إلى النار. والثالث: أنها حين يساق أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار.

قوله تعالى: ﴿يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ (٢٣) أي: ما عمل من خير وشر ﴿وَرُزِقَ الْجَنَّةُ لِمَن رَزَى﴾ (٢٤) أي: لأبصار الناظرين. قال مقاتل: يكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق. وقرأ أبو مجلز، وابن السميع: «لمن ترى» بالثاء. وقرأ ابن عباس، ومعاذ القارئ «لمن رأى» بهزة بين الراء والالف.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى﴾ (٢٥) في كفه ﴿وَوَازَى الْكِبْرَى الدُّنْيَا﴾ (٢٦) على الآخرة ﴿فَأَنَّ الْكَيْمَ فِي الْمَوْتَى﴾ (٢٧) قال الزجاج: أي هي الماوى له. وهذا جواب ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّلَافُ﴾ فإن الأمر كذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ قد ذكرناه في سورة [الرحمن: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿وَهَمَى الْفَنَسَ عَنِ الْمَوْتَى﴾ (٢٨) أي: عما تهوى من المحارم. قال مقاتل: هو الرجل يهمل بالمعصية، فيذكر مقامه للحساب، فيتركها.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَلُوكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّامَ مُرْسِنَاهَا﴾ (٣٠) قد سبق في [الأعراف: ١٨٧] ﴿فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرِنَاهَا﴾ (٣١) أي: لست في شيء من علمها وذكرها. والمعنى: إنك لا تعلمها ﴿إِلَّا رَيْكُ سُتْنَاهَا﴾ (٣٢) أي: منتهى علمها ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَحْشَنَاهَا﴾ (٣٣) وقرأ أبو جعفر «منذر» بالتثوين. ومعنى الكلام: إنما أنت مخوف من يخافها. والمعنى: إنما ينفع إنذارك من يخافها، وهو المؤمن بها. وأما من لا يخافها فكانه لم يندر ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رَوْنَاهَا﴾ (٣٤) أي: يعاينون القيامة ﴿لَوْ يَلْبِثُونَ﴾ في الدنيا. وقيل: في قبورهم ﴿إِلَّا عُيَيْنَةٌ أَوْ سَحَابٌ﴾ أي: قدر آخر النهار من بعد العصر، أو أوله إلى أن

(١) قال ابن كثير ٩٢/٤: أما خلق الأرض، قبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس عليه السلام فيما ذكره البخاري. انظر «صحيح البخاري» ٤٢٧/٨، ٤٢٨. ثم قال ابن كثير ٤٦٨/٤: ولكن إنما دحيت الأرض بعد خلق السماء، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل، قال: وهذا معنى قول ابن عباس وغير واحد، واختاره ابن جرير.

ترتفع الشمس. قال الزجاج: والهاء والألف في «ضحاهما» عائدان^(١) إلى العشية. والمعنى: إلا عشية، أو ضحى العشية. قال الفراء: فإن قيل: للعشية ضحى، إنما الضحى لصدر النهار؟ فالجواب: أن هذا ظاهر في كلام العرب أن يقولوا: آتيك العشية، أو غدائها، أو آتيك الغداة، أو عَشِيَّتْهَا، فتكون العشية في معنى «آخر»، والغداة في معنى «أول». أنشدني بعض بني عقيل:

نَحْنُ صَبَحْنَا عَامِرًا فِي دَارِهَا عَشِيَّةَ الْهَلَالِ أَوْ سِرَارِهَا^(٢)
أراد: عشية الهلال، أو عشية سرار العشية، فهذا أشد من قولهم: آتيك الغداة أو عشيَّتها.



(١) في الأصل: عائد.

(٢) البيت لبعض بني عقيل، أنشده الفراء في «معاني القرآن» ٣٥٧ عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِيشَةُ قَوْمٍ﴾ وهو في الطبري ٥٠/٣٠، والقرطبي ٢٠٨/١٩.

سورة عبس

مكية كلها ياجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَحْمَسُ ۚ (٢) وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّكَ يَرْكُ (٣) أَوْ يَلْكَرُ فَنَنْفَعَهُ الْذِكْرُ ۚ (٤) أَنَا مَنِ اسْتَفْنَى ۚ (٥) قَالَتْ لِمَ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكُ (٧) وَأَنَا مَنِ جَاءَكَ بِسَمٍ (٨) وَهُوَ يَخْتَصِي ۚ (٩) قَالَتْ عَنْهُ لَعَلُّ (١٠) كَلَّا إِنَّا تَذَكُّرٌ (١١) قَدْ شَاءَ ذِكْرُ (١٢) فِي سُحُفٍ تَكْرَمُ (١٣) تَرْفَعُهُمْ مِثْلَهُمْ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرٍ (١٥) يَكْرُمُ يَرْكُ (١٦)﴾

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ يوماً يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام، وأمّية وأبيّ ابني خلف، ويدعوهم إلى الله تعالى، ويرجو إسلامهم، فجاء ابن أم مكتوم الأعمى، فقال: علّمني يا رسول الله مما علّمك الله، وجعل يناديه، ويكرّر النداء، ولا يدري أنه مشغل بكلام غيره، حتى ظهرت الكراهية في وجهه ﷺ لقطعه كلامه، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وأقبل على القوم يكلمهم، فنزلت هذه الآيات، فكان رسول الله ﷺ يكرمه بعد ذلك، ويقول: «مرحبا بمن عاتبني فيه ربي»^(١). وذهب قوم، منهم مقاتل، إلى أنه إنما جاء ليؤمن، فأعرض عنه النبي ﷺ اشتغالا بالرؤساء، فنزلت فيه هذه الآيات. ومعنى ﴿عَبَسَ﴾ قَطَبٌ وَكَلَجٌ ﴿وَتَوَلَّى﴾ أَعْرَضَ بوجهه ﴿أَنْ جَاءَهُ﴾ أي: لأن جاءه. وقرأ أبيّ بن كعب، والحسن، وأبو المتوكل، وأبو عمران، «أَنْ جَاءَهُ» بهمزة واحدة مفتوحة ممدودة. وقرأ ابن مسعود، وابن السميع «أَنْ» بهمزتين مقصورتين مفتوحتين. و﴿الْأَحْمَسُ﴾ هو ابن أم مكتوم، واسمه عمرو بن قيس. وقيل: اسمه عبد الله بن عمرو ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّكَ يَرْكُ﴾ أي: يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح، وما يتعلّمه منك. وقال مقاتل: لعله يؤمن ﴿أَوْ يَلْكَرُ﴾ أي: يتعظ بما يتعلمه من مواظ القرآن ﴿فَنَنْفَعَهُ الْذِكْرُ﴾ قرأ حفص عن عاصم «فَنَنْفَعَهُ» بفتح العين، والباقون برفعها. قال الزجاج: من نصب، فعلى جواب «لعل»، ومن رفع، فعلى العطف على «يَرْكُ».

قوله تعالى: ﴿أَنَا مَنِ اسْتَفْنَى﴾ قال ابن عباس: استغنى عن الله وعن الإيمان بماله. قال مجاهد: ﴿أَنَا مَنِ اسْتَفْنَى﴾: عتبة، وشيبة، ﴿قَالَتْ لِمَ تَصَدَّى﴾. قرأ ابن كثير، ونافع «تَصَدَّى» بتشديد الصاد. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي «تَصَدَّى» بفتح التاء، والصاد وتخفيفها، وقرأ أبيّ بن كعب، وأبو الجوزاء، وعمرو بن دينار: «تَصَدَّى» بتاءين مع تخفيف الصاد. قال الزجاج: الأصل: تنصدي، ولكن حذفت التاء الثانية لاجتماع تاءين. ومن قرأ «تَصَدَّى» بإدغام التاء، فالمعنى أيضاً: تنصدي، إلا أن التاء أدغمت في الصاد لقرب مخرج التاء من الصاد. قال ابن عباس: «تَصَدَّى» تقبل عليه بوجهك. وقال ابن قتيبة: تتعرض^(٢). وقرأ ابن مسعود، وابن السميع، والجدري: «تَصَدَّى» بتاء واحدة مضمومة، وتخفيف الصاد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾ أي: أي شيء عليك في أن لا يُسَلِّمَ مَنْ تدعوه إلى الإسلام؟ يعني: أنه ليس عليه إلا البلاغ. ﴿وَأَنَا مَنِ جَاءَكَ بِسَمٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: يمشي. والثاني: يعمل في الخير، وهو ابن أم مكتوم ﴿وَهُوَ يَخْتَصِي﴾ الله ﴿قَالَتْ عَنْهُ لَعَلُّ﴾ وقرأ ابن مسعود، وطلحة بن مصرف، وأبو الجوزاء «تتلهي» بتاءين. وقرأ أبيّ بن

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٣٣٣ بغير سند، وقال الحافظ في «تخريج أحاديث الكشاف» ١٨١: ذكره الثعلبي بلا إسناد، وأخرجه ابن أبي حاتم من رواية العوفي عن ابن عباس نحوه. وأخرجه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، وابن حبان عن عائشة قالت: أنزلت سورة «عبس وتولى» في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: أتري بما أقول بأساً؟ فيقول: لا، فني هذا أنزلت.

(٢) وفي «غريب القرآن»: تعرض.

كعب، وابن السميع، والجحدري: «تُلهي» بتاء واحدة خفيفة مرفوعة. قال الزجاج: أي: تشاغل عنه. يقال: لهيت عن الشيء ألهى عنه: إذا تشاغل عنه.

قوله تعالى: ﴿لَا تَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: لا تفعل ذلك. ﴿إِنَّهَا﴾ في المكني عنها قولان: أحدهما: آيات القرآن، قاله مقاتل. والثاني: هذه السورة، قاله الفراء. «والتذكرة» بمعنى التذكير ﴿فَنُتِلَّ ذَكْرًا﴾ مفسر في آخر [المندر: ٢٥٥]. ثم أخبر بجلالة القرآن عنده، فقال تعالى: ﴿فِي حُجُبٍ مَّكْرُومَةٍ﴾ أي: هو في صحف، أي: في كتب مكرومة، وفيها قولان: أحدهما: أنها اللوح المحفوظ، قاله مقاتل. والثاني: كتب الأنبياء، ذكره الثعلبي. فعلى هذا يكون معنى «مرفوعة»: عالية القدر. وعلى الأول يكون رفعها كونها في السماء. وفي معنى «المطهرة» أربعة أقوال: أحدها: مطهرة من أن تنزل على المشركين، قاله الحسن. والثاني: مطهرة من الشرك والكفر، قاله مقاتل. والثالث: لأنه لا يمسه إلا المطهرون، قاله الفراء. والرابع: مطهرة من الدنس، قاله يحيى بن سلام.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِي سَفَرٌ﴾ فيهم قولان: أحدهما: أنهم الملائكة، قاله الجمهور. والثاني: أصحاب محمد ﷺ، قاله وهب بن منبه. وفي معنى «سَفَرٌ» ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم الكُتَبَة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو عبيدة، وابن قتبية، والزجاج. قال الزجاج: واحدهم: سافر، وسَفَرَةٌ، مثل كَاتِبٍ، وكُتِبَتْ، وكَفَرَةٌ، وإنما قيل للكتاب: سفر، وللكتاب: سافر، لأن معناه أنه يبين الشيء ويوضحه. يقال: أسفر الصبح: إذا أضاء. وسفرت المرأة: إذا كشفت النقاب عن وجهها. ومنه: سفرْتُ بين القوم، أي: كشفت ما في قلب هذا، وقلب هذا، لأُصلِحَ بينهم. والثاني: أنهم القراء، قاله قتادة. والثالث: أنهم السفراء، وهم المصلحون. قال الفراء: تقول العرب: سفرْتُ بين القوم، أي: أصلحتُ بينهم، فجعلت الملائكة إذا نزلت بوحى الله، كالسفير الذي يصلح بين القوم. قال الشاعر:

وَمَا أَدْعُ السَّفَرَةَ بَيْنَ قَوْمِي وَمَا أَمْشِي بِخَشٍ إِنْ مَشَيْتُ^(١)

قوله تعالى: ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: على ربهمْ ﴿بَرٌّ﴾ أي: مطيعين. قال الفراء: واحد «البرة» في قياس العربية: بَارٌّ، لأن العرب لا تقول: فَعَلَهُ يَبُونُ به الجمع إلا والواحد منه فاعل، مثل كافر، وكَفَرَةٌ، وفاجر، وفَجَرَةٌ.

﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿بَنَ تُلْفَةً خَلَقَهُ فَقَدَّرَ﴾ ثُمَّ التَّيْلَ يَسْرُ ﴿ثُمَّ أَنَا لَهُ فَاتَكْرُمُ﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشُرْ ﴿مَلَأْنَا بَيْنَ مَا أَمَرُ﴾ فَيُنْزِلُ الْإِنْسَانُ إِلَّا طَائِفَةً ﴿أَنَا سَيِّئُ الْمَنَ﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿فَابْتَلَا فِيهَا حَمًّا﴾ وَمَعًا وَقَبًّا ﴿وَنَزَوْنَا وَفَلَا﴾ وَصَاحِبَيْنِ عَلَا ﴿وَفَكِهَةً وَأَبَا﴾ شَقًّا لَكُمُ الْوَأْتِيكُمْ ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾

قوله تعالى: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ﴾ أي: لعن. والمراد بالإنسان هاهنا: الكافر. وفيمن عنى بهذا القول ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أشار إلى كل كافر، قاله مجاهد. والثاني: أنه أمية بن خلف، قاله الضحاك. والثالث: عتبة بن أبي لهب، قاله مقاتل. وفي قوله تعالى: ﴿مَا أَكْفَرُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: ما أشد كفره، قاله ابن جريج. والثاني: أي شيء أكفره؟ قاله السدي. فعلى هذا يكون استفهام توبيخ. الثالث: أنه على وجه التعجب، وهذا التعجب يؤمر به الآدميون، والمعنى: اعجبوا أنتم من كفره، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿بَنَ تُلْفَةً خَلَقَهُ﴾ ثم فسره فقال تعالى: ﴿بَنَ تُلْفَةً خَلَقَهُ﴾. وفي معنى «تَنَدَّرَ» ثلاثة أقوال: أحدها: قدر أعضاء: رأسه، وعينه، ويديه، ورجليه، قاله ابن السائب. والثاني: قدره أطواراً: نطفة، ثم علقه، إلى آخر خلقه، قاله مقاتل. والثالث: قدره على الاستواء، قاله الزجاج. ﴿ثُمَّ التَّيْلَ يَسْرُ﴾ فيه قولان: أحدهما: سَهْلُ له العلم بطريق الحق والباطل، قاله الحسن، ومجاهد. قال الفراء: والمعنى: ثم يسره للسبيل. والثاني: يسره له السبيل في خروجه من بطن أمه، قاله السدي، وقاتل^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَاتَكْرُمُ﴾ قال الفراء: أي جعله مقبوراً، ولم يجعله ممن يلقي للسباع والطير، فكان القبر مما أُكْرِمَ به المسلم. ولم يقل: قبره؛ لأن القابر هو الدافن بيده. والمُقْبَرُ الله، لأنه صيِّره مقبوراً، فليس فعله كفعل الآدمي.

(١) البيت من شواهد الفراء في «معاني القرآن» ٣٥٨، وفي «اللسان»: سفر، وهو في الطبري ٥٤/٣٠، والقرطبي ٢١٤/١٩، وابن كثير ٤/٤٧١.

(٢) وهو الذي اختاره ابن جرير الطبري وغيره.

والعرب تقول: بَتَرْتُ ذَنْبَ البعير، والله أبتره. وَعَضَبْتُ قَرْنَ الثور، والله أَعْصَبَهُ. وطردت فلاناً عني، والله أطرده، أي: صيرته طريداً. وقال أبو عبيدة: أقبه: أي أمر أن يقبر، وجعل له قبراً. قالت بنو تميم لعمر بن هبيرة لما قتل صالح بن عبد الرحمن: أقبنا صالحاً، فقال: دونكموه. والذي يدفن بيده هو القابر. قال الأعشى:

لَوْ أَشْنَدْتُ مَمِيئاً إِلَى نَحْرِهَا عَاشَ وَلَمْ يُسَلِّمْ إِلَى قَابِرٍ^(١)
قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّا سَأَلْنَا أَهْلَ الْأَرْضِ﴾ أي: بعثه. يقال: أنشأ الله الموتى، فَتُشِيرُوا، وَنُشِرَ المِيتُ: حَيَّ [هو] بِنَفْسِهِ، وواحدهم ناشر. قال الأعشى:

حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا يَا عَجَباً لِمَيِّتِ النَّاشِرِ^(٢)
قوله تعالى: ﴿لَا﴾ قال الحسن: حقاً ﴿لَنَا يَقِصُّ مَا أَتَى﴾ به ربه، ولم يؤد ما فرض عليه. وهل هذا عام، أم خاص؟ فيه قولان: أحدهما: أنه عام. قال مجاهد: لا يقضي أحد أبداً كُلَّ ما افترض الله عليه^(٣). والثاني: أنه خاص للكفار لم يقض ما أمر به من الإيمان والطاعة، قاله يحيى بن سلام. ولما ذُكِرَ خُلُقُ ابن آدم، ذُكِرَ رِزْقُهُ ليعتبر وليستدل بالنبات على البعث، فقال تعالى: ﴿يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾^(٤) قال مقاتل: يعني به عتبة بن أبي لهب. ومعنى الكلام: فلينظر الإنسان كيف خلق الله طعامه الذي جعله سبباً لحياته؟ ثم بين فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَهِيمَةُ الْأُولَى﴾^(٥) فليفتح الهمة في الوصل وفي الابتداء، وابن عامر «إننا» بالكسر. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي «أَلَمْ يَكُنْ» بفتح الهمة في الوصل وفي الابتداء، ووافقهم رويس على فتحها في الوصل، فإذا ابتداء كسر. قال الزجاج: من كسر «إننا» فعلى الابتداء والاستئناف، ومن فتح، فعلى البدل من الطعام، المعنى: فلينظر الإنسان أنا صبينا. قال المفسرون: أراد بصب الماء: المطر ﴿ثُمَّ سَنَقِّنَا الْأَنْبُتَ﴾^(٦) بالنبات ﴿سَنَقّاً﴾^(٧) أَيَّنَا فِيهَا حَيّاً يعني به جميع الحبوب التي يُتَغَذَّى بها ﴿وَعَبَا وَفَصّاً﴾^(٨) قال الفراء: هو الرُّطْبَةُ. وأهل مكة يسمون القَتَّ: القُضْبُ^(٩). قال ابن قتيبة: ويقال: إنه سمي بذلك، لأنه يُقَضَّبُ مرة بعد مرة، أي: يقطع، وكذلك القَصِيلُ، لأنه يُقَصَّلُ، أي: يقطع.

قوله تعالى: ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾^(١٠) وَدَّيْنًا عَلَيْهِ قَالَ الفراء: كل بستان كان عليه حائط، فهو حديقة، وما لم يكن عليه حائط لم يقل: حديقة. والغُلْبُ: ما غلظ من النخل. قال أبو عبيدة: يقال: شجرة غُلْبَاء: إذا كانت غليظة. وقال ابن قتيبة: الغُلْبُ: الغِلَاطُ الأعناق. وقال الزجاج: هي المتكاثفة، العظام.

قوله تعالى: ﴿وَزَيْتُونًا﴾ يعني: ألوان الفاكهة ﴿وَأَنْبُتًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه ما ترعاه البهائم، قاله ابن عباس، وعكرمة، واللغوون. وقال الزجاج: هو جميع الكلأ التي تعتلفه الماشية. والثاني: أنه الثمار الرطبة، رواه الوالي عن ابن عباس^(١١). ﴿ثُمَّ لَكُمْ زَيْتُونٌ﴾ قد بيَّناه في السورة التي قبلها [التازعات: ٣٣].

(١) البيت للأعشى الكبير ميمون بن قيس، «ديوانه» ١٣٩ من قصيدة يهجو بها علقة بن علاثة ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما، وهو في «مجاز القرآن» ٢٨٦/٢، والطبري ٥٦/٣٠، والقرطبي ٢١٧/١٩. ورواية البيت فيها: عاش ولم يُنْقَلْ إلى قابر.

(٢) هو أيضاً للأعشى الكبير من القصيدة نفسها ١٤١، ويعد البيت السابق بلا فاصل بينهما، وهو في «مجاز القرآن» لأبي عبيد ٢٨٦/٢، والطبري ١٠/٥٦، والقرطبي ٢١٧/١٩.

(٣) قال ابن كثير: وحكاة البغوي عن الحسن البصري بنحو هذا من هذا، قال: ولم أجد للمتقدمين فيه كلاماً سوى هذا، والذي يقع لي في معنى ذلك - والله أعلم - أن المعنى: ﴿ثُمَّ إِنَّا سَأَلْنَا أَهْلَ الْأَرْضِ﴾ أي: بعثه ﴿لَنَا يَقِصُّ مَا أَتَى﴾ أي: لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب الله أن يسجد منهم ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كوناً وقدرًا، فإذا تهاهى ذلك عند الله أنشأ الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم.

(٤) القُضْبُ: الرُّطْبَةُ، ويقال لها: البُضْفِصَةُ، وهي التي تأكلها الدواب رطبةً، ويقال لها: القَتُّ أيضاً، وكلها بمعنى واحد.

(٥) وما ورد من أن أبي بكر الصديق عليه السلام سئل عن قوله تعالى: ﴿وَزَيْتُونًا﴾ فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تغلني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم، فقد رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في «فضائل القرآن»، من رواية محمد بن زيد عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي عن أبي بكر عليه السلام، وهو منقطع بين إبراهيم التيمي وبين أبي بكر عليه السلام. وقد روى ابن جرير قال: حدثنا بشار، حدثنا ابن أبي عدي، حدثنا حميد، عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب عليه السلام ﴿وَجَسَّ زَيْتُونًا﴾ حتى أتى على هذه الآية ﴿وَزَيْتُونًا﴾ قال: قد عرفنا ما الفاكهة فما الأب؟ فقال: لعمر. يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف. قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح إلى عمر بن الخطاب عليه السلام، وقد رواه غير واحد عن أنس به، ولكن هذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، ولا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض، لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَهِيمَةُ الْأُولَى﴾^(١٢) وَدَّيْنًا عَلَيْهِ^(١٣) وَنَخْلًا^(١٤) وَزَيْتُونًا^(١٥) وَنَخْلًا^(١٦) وَزَيْتُونًا^(١٧) وَنَخْلًا^(١٨) وَزَيْتُونًا^(١٩) وَنَخْلًا^(٢٠) وَزَيْتُونًا^(٢١) وَنَخْلًا^(٢٢) وَزَيْتُونًا^(٢٣) وَنَخْلًا^(٢٤) وَزَيْتُونًا^(٢٥) وَنَخْلًا^(٢٦) وَزَيْتُونًا^(٢٧) وَنَخْلًا^(٢٨) وَزَيْتُونًا^(٢٩) وَنَخْلًا^(٣٠) وَزَيْتُونًا^(٣١) وَنَخْلًا^(٣٢) وَزَيْتُونًا^(٣٣) وَنَخْلًا^(٣٤) وَزَيْتُونًا^(٣٥) وَنَخْلًا^(٣٦) وَزَيْتُونًا^(٣٧) وَنَخْلًا^(٣٨) وَزَيْتُونًا^(٣٩) وَنَخْلًا^(٤٠) وَزَيْتُونًا^(٤١) وَنَخْلًا^(٤٢) وَزَيْتُونًا^(٤٣) وَنَخْلًا^(٤٤) وَزَيْتُونًا^(٤٥) وَنَخْلًا^(٤٦) وَزَيْتُونًا^(٤٧) وَنَخْلًا^(٤٨) وَزَيْتُونًا^(٤٩) وَنَخْلًا^(٥٠) وَزَيْتُونًا^(٥١) وَنَخْلًا^(٥٢) وَزَيْتُونًا^(٥٣) وَنَخْلًا^(٥٤) وَزَيْتُونًا^(٥٥) وَنَخْلًا^(٥٦) وَزَيْتُونًا^(٥٧) وَنَخْلًا^(٥٨) وَزَيْتُونًا^(٥٩) وَنَخْلًا^(٦٠) وَزَيْتُونًا^(٦١) وَنَخْلًا^(٦٢) وَزَيْتُونًا^(٦٣) وَنَخْلًا^(٦٤) وَزَيْتُونًا^(٦٥) وَنَخْلًا^(٦٦) وَزَيْتُونًا^(٦٧) وَنَخْلًا^(٦٨) وَزَيْتُونًا^(٦٩) وَنَخْلًا^(٧٠) وَزَيْتُونًا^(٧١) وَنَخْلًا^(٧٢) وَزَيْتُونًا^(٧٣) وَنَخْلًا^(٧٤) وَزَيْتُونًا^(٧٥) وَنَخْلًا^(٧٦) وَزَيْتُونًا^(٧٧) وَنَخْلًا^(٧٨) وَزَيْتُونًا^(٧٩) وَنَخْلًا^(٨٠) وَزَيْتُونًا^(٨١) وَنَخْلًا^(٨٢) وَزَيْتُونًا^(٨٣) وَنَخْلًا^(٨٤) وَزَيْتُونًا^(٨٥) وَنَخْلًا^(٨٦) وَزَيْتُونًا^(٨٧) وَنَخْلًا^(٨٨) وَزَيْتُونًا^(٨٩) وَنَخْلًا^(٩٠) وَزَيْتُونًا^(٩١) وَنَخْلًا^(٩٢) وَزَيْتُونًا^(٩٣) وَنَخْلًا^(٩٤) وَزَيْتُونًا^(٩٥) وَنَخْلًا^(٩٦) وَزَيْتُونًا^(٩٧) وَنَخْلًا^(٩٨) وَزَيْتُونًا^(٩٩) وَنَخْلًا^(١٠٠) وَزَيْتُونًا^(١٠١) وَنَخْلًا^(١٠٢) وَزَيْتُونًا^(١٠٣) وَنَخْلًا^(١٠٤) وَزَيْتُونًا^(١٠٥) وَنَخْلًا^(١٠٦) وَزَيْتُونًا^(١٠٧) وَنَخْلًا^(١٠٨) وَزَيْتُونًا^(١٠٩) وَنَخْلًا^(١١٠) وَزَيْتُونًا^(١١١) وَنَخْلًا^(١١٢) وَزَيْتُونًا^(١١٣) وَنَخْلًا^(١١٤) وَزَيْتُونًا^(١١٥) وَنَخْلًا^(١١٦) وَزَيْتُونًا^(١١٧) وَنَخْلًا^(١١٨) وَزَيْتُونًا^(١١٩) وَنَخْلًا^(١٢٠) وَزَيْتُونًا^(١٢١) وَنَخْلًا^(١٢٢) وَزَيْتُونًا^(١٢٣) وَنَخْلًا^(١٢٤) وَزَيْتُونًا^(١٢٥) وَنَخْلًا^(١٢٦) وَزَيْتُونًا^(١٢٧) وَنَخْلًا^(١٢٨) وَزَيْتُونًا^(١٢٩) وَنَخْلًا^(١٣٠) وَزَيْتُونًا^(١٣١) وَنَخْلًا^(١٣٢) وَزَيْتُونًا^(١٣٣) وَنَخْلًا^(١٣٤) وَزَيْتُونًا^(١٣٥) وَنَخْلًا^(١٣٦) وَزَيْتُونًا^(١٣٧) وَنَخْلًا^(١٣٨) وَزَيْتُونًا^(١٣٩) وَنَخْلًا^(١٤٠) وَزَيْتُونًا^(١٤١) وَنَخْلًا^(١٤٢) وَزَيْتُونًا^(١٤٣) وَنَخْلًا^(١٤٤) وَزَيْتُونًا^(١٤٥) وَنَخْلًا^(١٤٦) وَزَيْتُونًا^(١٤٧) وَنَخْلًا^(١٤٨) وَزَيْتُونًا^(١٤٩) وَنَخْلًا^(١٥٠) وَزَيْتُونًا^(١٥١) وَنَخْلًا^(١٥٢) وَزَيْتُونًا^(١٥٣) وَنَخْلًا^(١٥٤) وَزَيْتُونًا^(١٥٥) وَنَخْلًا^(١٥٦) وَزَيْتُونًا^(١٥٧) وَنَخْلًا^(١٥٨) وَزَيْتُونًا^(١٥٩) وَنَخْلًا^(١٦٠) وَزَيْتُونًا^(١٦١) وَنَخْلًا^(١٦٢) وَزَيْتُونًا^(١٦٣) وَنَخْلًا^(١٦٤) وَزَيْتُونًا^(١٦٥) وَنَخْلًا^(١٦٦) وَزَيْتُونًا^(١٦٧) وَنَخْلًا^(١٦٨) وَزَيْتُونًا^(١٦٩) وَنَخْلًا^(١٧٠) وَزَيْتُونًا^(١٧١) وَنَخْلًا^(١٧٢) وَزَيْتُونًا^(١٧٣) وَنَخْلًا^(١٧٤) وَزَيْتُونًا^(١٧٥) وَنَخْلًا^(١٧٦) وَزَيْتُونًا^(١٧٧) وَنَخْلًا^(١٧٨) وَزَيْتُونًا^(١٧٩) وَنَخْلًا^(١٨٠) وَزَيْتُونًا^(١٨١) وَنَخْلًا^(١٨٢) وَزَيْتُونًا^(١٨٣) وَنَخْلًا^(١٨٤) وَزَيْتُونًا^(١٨٥) وَنَخْلًا^(١٨٦) وَزَيْتُونًا^(١٨٧) وَنَخْلًا^(١٨٨) وَزَيْتُونًا^(١٨٩) وَنَخْلًا^(١٩٠) وَزَيْتُونًا^(١٩١) وَنَخْلًا^(١٩٢) وَزَيْتُونًا^(١٩٣) وَنَخْلًا^(١٩٤) وَزَيْتُونًا^(١٩٥) وَنَخْلًا^(١٩٦) وَزَيْتُونًا^(١٩٧) وَنَخْلًا^(١٩٨) وَزَيْتُونًا^(١٩٩) وَنَخْلًا^(٢٠٠) وَزَيْتُونًا^(٢٠١) وَنَخْلًا^(٢٠٢) وَزَيْتُونًا^(٢٠٣) وَنَخْلًا^(٢٠٤) وَزَيْتُونًا^(٢٠٥) وَنَخْلًا^(٢٠٦) وَزَيْتُونًا^(٢٠٧) وَنَخْلًا^(٢٠٨) وَزَيْتُونًا^(٢٠٩) وَنَخْلًا^(٢١٠) وَزَيْتُونًا^(٢١١) وَنَخْلًا^(٢١٢) وَزَيْتُونًا^(٢١٣) وَنَخْلًا^(٢١٤) وَزَيْتُونًا^(٢١٥) وَنَخْلًا^(٢١٦) وَزَيْتُونًا^(٢١٧) وَنَخْلًا^(٢١٨) وَزَيْتُونًا^(٢١٩) وَنَخْلًا^(٢٢٠) وَزَيْتُونًا^(٢٢١) وَنَخْلًا^(٢٢٢) وَزَيْتُونًا^(٢٢٣) وَنَخْلًا^(٢٢٤) وَزَيْتُونًا^(٢٢٥) وَنَخْلًا^(٢٢٦) وَزَيْتُونًا^(٢٢٧) وَنَخْلًا^(٢٢٨) وَزَيْتُونًا^(٢٢٩) وَنَخْلًا^(٢٣٠) وَزَيْتُونًا^(٢٣١) وَنَخْلًا^(٢٣٢) وَزَيْتُونًا^(٢٣٣) وَنَخْلًا^(٢٣٤) وَزَيْتُونًا^(٢٣٥) وَنَخْلًا^(٢٣٦) وَزَيْتُونًا^(٢٣٧) وَنَخْلًا^(٢٣٨) وَزَيْتُونًا^(٢٣٩) وَنَخْلًا^(٢٤٠) وَزَيْتُونًا^(٢٤١) وَنَخْلًا^(٢٤٢) وَزَيْتُونًا^(٢٤٣) وَنَخْلًا^(٢٤٤) وَزَيْتُونًا^(٢٤٥) وَنَخْلًا^(٢٤٦) وَزَيْتُونًا^(٢٤٧) وَنَخْلًا^(٢٤٨) وَزَيْتُونًا^(٢٤٩) وَنَخْلًا^(٢٥٠) وَزَيْتُونًا^(٢٥١) وَنَخْلًا^(٢٥٢) وَزَيْتُونًا^(٢٥٣) وَنَخْلًا^(٢٥٤) وَزَيْتُونًا^(٢٥٥) وَنَخْلًا^(٢٥٦) وَزَيْتُونًا^(٢٥٧) وَنَخْلًا^(٢٥٨) وَزَيْتُونًا^(٢٥٩) وَنَخْلًا^(٢٦٠) وَزَيْتُونًا^(٢٦١) وَنَخْلًا^(٢٦٢) وَزَيْتُونًا^(٢٦٣) وَنَخْلًا^(٢٦٤) وَزَيْتُونًا^(٢٦٥) وَنَخْلًا^(٢٦٦) وَزَيْتُونًا^(٢٦٧) وَنَخْلًا^(٢٦٨) وَزَيْتُونًا^(٢٦٩) وَنَخْلًا^(٢٧٠) وَزَيْتُونًا^(٢٧١) وَنَخْلًا^(٢٧٢) وَزَيْتُونًا^(٢٧٣) وَنَخْلًا^(٢٧٤) وَزَيْتُونًا^(٢٧٥) وَنَخْلًا^(٢٧٦) وَزَيْتُونًا^(٢٧٧) وَنَخْلًا^(٢٧٨) وَزَيْتُونًا^(٢٧٩) وَنَخْلًا^(٢٨٠) وَزَيْتُونًا^(٢٨١) وَنَخْلًا^(٢٨٢) وَزَيْتُونًا^(٢٨٣) وَنَخْلًا^(٢٨٤) وَزَيْتُونًا^(٢٨٥) وَنَخْلًا^(٢٨٦) وَزَيْتُونًا^(٢٨٧) وَنَخْلًا^(٢٨٨) وَزَيْتُونًا^(٢٨٩) وَنَخْلًا^(٢٩٠) وَزَيْتُونًا^(٢٩١) وَنَخْلًا^(٢٩٢) وَزَيْتُونًا^(٢٩٣) وَنَخْلًا^(٢٩٤) وَزَيْتُونًا^(٢٩٥) وَنَخْلًا^(٢٩٦) وَزَيْتُونًا^(٢٩٧) وَنَخْلًا^(٢٩٨) وَزَيْتُونًا^(٢٩٩) وَنَخْلًا^(٣٠٠) وَزَيْتُونًا^(٣٠١) وَنَخْلًا^(٣٠٢) وَزَيْتُونًا^(٣٠٣) وَنَخْلًا^(٣٠٤) وَزَيْتُونًا^(٣٠٥) وَنَخْلًا^(٣٠٦) وَزَيْتُونًا^(٣٠٧) وَنَخْلًا^(٣٠٨) وَزَيْتُونًا^(٣٠٩) وَنَخْلًا^(٣١٠) وَزَيْتُونًا^(٣١١) وَنَخْلًا^(٣١٢) وَزَيْتُونًا^(٣١٣) وَنَخْلًا^(٣١٤) وَزَيْتُونًا^(٣١٥) وَنَخْلًا^(٣١٦) وَزَيْتُونًا^(٣١٧) وَنَخْلًا^(٣١٨) وَزَيْتُونًا^(٣١٩) وَنَخْلًا^(٣٢٠) وَزَيْتُونًا^(٣٢١) وَنَخْلًا^(٣٢٢) وَزَيْتُونًا^(٣٢٣) وَنَخْلًا^(٣٢٤) وَزَيْتُونًا^(٣٢٥) وَنَخْلًا^(٣٢٦) وَزَيْتُونًا^(٣٢٧) وَنَخْلًا^(٣٢٨) وَزَيْتُونًا^(٣٢٩) وَنَخْلًا^(٣٣٠) وَزَيْتُونًا^(٣٣١) وَنَخْلًا^(٣٣٢) وَزَيْتُونًا^(٣٣٣) وَنَخْلًا^(٣٣٤) وَزَيْتُونًا^(٣٣٥) وَنَخْلًا^(٣٣٦) وَزَيْتُونًا^(٣٣٧) وَنَخْلًا^(٣٣٨) وَزَيْتُونًا^(٣٣٩) وَنَخْلًا^(٣٤٠) وَزَيْتُونًا^(٣٤١) وَنَخْلًا^(٣٤٢) وَزَيْتُونًا^(٣٤٣) وَنَخْلًا^(٣٤٤) وَزَيْتُونًا^(٣٤٥) وَنَخْلًا^(٣٤٦) وَزَيْتُونًا^(٣٤٧) وَنَخْلًا^(٣٤٨) وَزَيْتُونًا^(٣٤٩) وَنَخْلًا^(٣٥٠) وَزَيْتُونًا^(٣٥١) وَنَخْلًا^(٣٥٢) وَزَيْتُونًا^(٣٥٣) وَنَخْلًا^(٣٥٤) وَزَيْتُونًا^(٣٥٥) وَنَخْلًا^(٣٥٦) وَزَيْتُونًا^(٣٥٧) وَنَخْلًا^(٣٥٨) وَزَيْتُونًا^(٣٥٩) وَنَخْلًا^(٣٦٠) وَزَيْتُونًا^(٣٦١) وَنَخْلًا^(٣٦٢) وَزَيْتُونًا^(٣٦٣) وَنَخْلًا^(٣٦٤) وَزَيْتُونًا^(٣٦٥) وَنَخْلًا^(٣٦٦) وَزَيْتُونًا^(٣٦٧) وَنَخْلًا^(٣٦٨) وَزَيْتُونًا^(٣٦٩) وَنَخْلًا^(٣٧٠) وَزَيْتُونًا^(٣٧١) وَنَخْلًا^(٣٧٢) وَزَيْتُونًا^(٣٧٣) وَنَخْلًا^(٣٧٤) وَزَيْتُونًا^(٣٧٥) وَنَخْلًا^(٣٧٦) وَزَيْتُونًا^(٣٧٧) وَنَخْلًا^(٣٧٨) وَزَيْتُونًا^(٣٧٩) وَنَخْلًا^(٣٨٠) وَزَيْتُونًا^(٣٨١) وَنَخْلًا^(٣٨٢) وَزَيْتُونًا^(٣٨٣) وَنَخْلًا^(٣٨٤) وَزَيْتُونًا^(٣٨٥) وَنَخْلًا^(٣٨٦) وَزَيْتُونًا^(٣٨٧) وَنَخْلًا^(٣٨٨) وَزَيْتُونًا^(٣٨٩) وَنَخْلًا^(٣٩٠) وَزَيْتُونًا^(٣٩١) وَنَخْلًا^(٣٩٢) وَزَيْتُونًا^(٣٩٣) وَنَخْلًا^(٣٩٤) وَزَيْتُونًا^(٣٩٥) وَنَخْلًا^(٣٩٦) وَزَيْتُونًا^(٣٩٧) وَنَخْلًا^(٣٩٨) وَزَيْتُونًا^(٣٩٩) وَنَخْلًا^(٤٠٠) وَزَيْتُونًا^(٤٠١) وَنَخْلًا^(٤٠٢) وَزَيْتُونًا^(٤٠٣) وَنَخْلًا^(٤٠٤) وَزَيْتُونًا^(٤٠٥) وَنَخْلًا^(٤٠٦) وَزَيْتُونًا^(٤٠٧) وَنَخْلًا^(٤٠٨) وَزَيْتُونًا^(٤٠٩) وَنَخْلًا^(٤١٠) وَزَيْتُونًا^(٤١١) وَنَخْلًا^(٤١٢) وَزَيْتُونًا^(٤١٣) وَنَخْلًا^(٤١٤) وَزَيْتُونًا^(٤١٥) وَنَخْلًا^(٤١٦) وَزَيْتُونًا^(٤١٧) وَنَخْلًا^(٤١٨) وَزَيْتُونًا^(٤١٩) وَنَخْلًا^(٤٢٠) وَزَيْتُونًا^(٤٢١) وَنَخْلًا^(٤٢٢) وَزَيْتُونًا^(٤٢٣) وَنَخْلًا^(٤٢٤) وَزَيْتُونًا^(٤٢٥) وَنَخْلًا^(٤٢٦) وَزَيْتُونًا^(٤٢٧) وَنَخْلًا^(٤٢٨) وَزَيْتُونًا^(٤٢٩) وَنَخْلًا^(٤٣٠) وَزَيْتُونًا^(٤٣١) وَنَخْلًا^(٤٣٢) وَزَيْتُونًا^(٤٣٣) وَنَخْلًا^(٤٣٤) وَزَيْتُونًا^(٤٣٥) وَنَخْلًا^(٤٣٦) وَزَيْتُونًا^(٤٣٧) وَنَخْلًا^(٤٣٨) وَزَيْتُونًا^(٤٣٩) وَنَخْلًا^(٤٤٠) وَزَيْتُونًا^(٤٤١) وَنَخْلًا^(٤٤٢) وَزَيْتُونًا^(٤٤٣) وَنَخْلًا^(٤٤٤) وَزَيْتُونًا^(٤٤٥) وَنَخْلًا^(٤٤٦) وَزَيْتُونًا^(٤٤٧) وَنَخْلًا^(٤٤٨) وَزَيْتُونًا^(٤٤٩) وَنَخْلًا^(٤٥٠) وَزَيْتُونًا^(٤٥١) وَنَخْلًا^(٤٥٢) وَزَيْتُونًا^(٤٥٣) وَنَخْلًا^(٤٥٤) وَزَيْتُونًا^(٤٥٥) وَنَخْلًا^(٤٥٦) وَزَيْتُونًا^(٤٥٧) وَنَخْلًا^(٤٥٨) وَزَيْتُونًا^(٤٥٩) وَنَخْلًا^(٤٦٠) وَزَيْتُونًا^(٤٦١) وَنَخْلًا^(٤٦٢) وَزَيْتُونًا^(٤٦٣) وَنَخْلًا^(٤٦٤) وَزَيْتُونًا^(٤٦٥) وَنَخْلًا^(٤٦٦) وَزَيْتُونًا^(٤٦٧) وَنَخْلًا^(٤٦٨) وَزَيْتُونًا^(٤٦٩) وَنَخْلًا^(٤٧٠) وَزَيْتُونًا^(٤٧١) وَنَخْلًا^(٤٧٢) وَزَيْتُونًا^(٤٧٣) وَنَخْلًا^(٤٧٤) وَزَيْتُونًا^(٤٧٥) وَنَخْلًا^(٤٧٦) وَزَيْتُونًا^(٤٧٧) وَنَخْلًا^(٤٧٨) وَزَيْتُونًا^(٤٧٩) وَنَخْلًا^(٤٨٠) وَزَيْتُونًا^(٤٨١) وَنَخْلًا^(٤٨٢) وَزَيْتُونًا^(٤٨٣) وَنَخْلًا^(٤٨٤) وَزَيْتُونًا^(٤٨٥) وَنَخْلًا^(٤٨٦) وَزَيْتُونًا^(٤٨٧) وَنَخْلًا^(٤٨٨) وَزَيْتُونًا^(٤٨٩) وَنَخْلًا^(٤٩٠) وَزَيْتُونًا^(٤٩١) وَنَخْلًا^(٤٩٢) وَزَيْتُونًا^(٤٩٣) وَنَخْلًا^(٤٩٤) وَزَيْتُونًا^(٤٩٥) وَنَخْلًا^(٤٩٦) وَزَيْتُونًا^(٤٩٧) وَنَخْلًا^(٤٩٨) وَزَيْتُونًا^(٤٩٩) وَنَخْلًا^(٥٠٠) وَزَيْتُونًا^(٥٠١) وَنَخْلًا^(٥٠٢) وَزَيْتُونًا^(٥٠٣) وَنَخْلًا^(٥٠٤) وَزَيْتُونًا^(٥٠٥) وَنَخْلًا^(٥٠٦) وَزَيْتُونًا^(٥٠٧) وَنَخْلًا^(٥٠٨) وَزَيْتُونًا^(٥٠٩) وَنَخْلًا^(٥١٠) وَزَيْتُونًا^(٥١١) وَنَخْلًا^(٥١٢) وَزَيْتُونًا^(٥١٣) وَنَخْلًا^(٥١٤) وَزَيْتُونًا^(٥١٥) وَنَخْلًا^(٥١٦) وَزَيْتُونًا^(٥١٧) وَنَخْلًا^(٥١٨) وَزَيْتُونًا^(٥١٩) وَنَخْلًا^(٥٢٠) وَزَيْتُونًا^(٥٢١) وَنَخْلًا^(٥٢٢) وَزَيْتُونًا^(٥٢٣) وَنَخْلًا^(٥٢٤) وَزَيْتُونًا^(٥٢٥) وَنَخْلًا^(٥٢٦) وَزَيْتُونًا^(٥٢٧) وَنَخْلًا^(٥٢٨) وَزَيْتُونًا^(٥٢٩) وَنَخْلًا^(٥٣٠) وَزَيْتُونًا^(٥٣١) وَنَخْلًا^(٥٣٢) وَزَيْتُونًا^(٥٣٣) وَنَخْلًا^(٥٣٤) وَزَيْتُونًا^(٥٣٥) وَنَخْلًا^(٥٣٦) وَزَيْتُونًا^(٥٣٧) وَنَخْلًا^(٥٣٨) وَزَيْتُونًا^(٥٣٩) وَنَخْلًا^(٥٤٠) وَزَيْتُونًا^(٥٤١) وَنَخْلًا^(٥٤٢) وَزَيْتُونًا^(٥٤٣) وَنَخْلًا^(٥٤٤) وَزَيْتُونًا^(٥٤٥) وَنَخْلًا^(٥٤٦) وَزَيْتُونًا^(٥٤٧) وَنَخْلًا^(٥٤٨) وَزَيْتُونًا^(٥٤٩) وَنَخْلًا^(٥٥٠) وَزَيْتُونًا^(٥٥١) وَنَخْلًا^(٥٥٢) وَزَيْتُونًا^(٥٥٣) وَنَخْلًا^(٥٥٤) وَزَيْتُونًا^(٥٥٥) وَنَخْلًا^(٥٥٦) وَزَيْتُونًا^(٥٥٧) وَنَخْلًا^(٥٥٨) وَزَيْتُونًا^(٥٥٩) وَنَخْلًا^(٥٦٠) وَزَيْتُونًا^(٥٦١) وَنَخْلًا^(٥٦٢) وَزَيْتُونًا^(٥٦٣) وَنَخْلًا^(٥٦٤) وَزَيْتُونًا^(٥٦٥) وَنَخْلًا^(٥٦٦) وَزَيْتُونًا^(٥٦٧) وَنَخْلًا^(٥٦٨) وَزَيْتُونًا^(٥٦٩) وَنَخْلًا^(٥٧٠) وَزَيْتُونًا^(٥٧١) وَنَخْلًا^(٥٧٢) وَزَيْتُونًا^(٥٧٣) وَنَخْلًا^(٥٧٤) وَزَيْتُونًا^(٥٧٥) وَنَخْلًا^(٥٧٦) وَزَيْتُونًا^(٥٧٧) وَنَخْلًا^(٥٧٨) وَزَيْتُونًا^(٥٧٩) وَنَخْلًا^(٥٨٠) وَزَيْتُونًا^(٥٨١) وَنَخْلًا^(٥٨٢) وَزَيْتُونًا^(٥٨٣) وَنَخْلًا^(٥٨٤) وَزَيْتُونًا^(٥٨٥) وَنَخْلًا^(٥٨٦) وَزَيْتُونًا^(٥٨٧) وَنَخْلًا^(٥٨٨) وَزَيْتُونًا^(٥٨٩) وَنَخْلًا^(٥٩٠) وَزَيْتُونًا^(٥٩١) وَنَخْلًا^(٥٩٢) وَزَيْتُونًا^(٥٩٣) وَنَخْلًا^(٥٩٤) وَزَيْتُونًا^(٥٩٥) وَنَخْلًا^(٥٩٦) وَزَيْتُونًا^(٥٩٧) وَنَخْلًا^(٥٩٨) وَزَيْتُونًا^(٥٩٩) وَنَخْلًا^(٦٠٠) وَزَيْتُونًا^(٦٠١) وَنَخْلًا^(٦٠٢) وَزَيْتُونًا^(٦٠٣) وَنَخْلًا^(٦٠٤) وَزَيْتُونًا^(٦٠٥) وَنَخْلًا^(٦٠٦) وَزَيْ

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ (٢٢) ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٢٣) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٢٤) وَصَاحِبِيهِ وَبَيْنَهُ (٢٥) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنَبِّئُهُ (٢٦) وَهُوَ يُؤْمِرُ بِشَيْئِهِ (٢٧) حَاجَتَهُ شَتَّى شَيْئاً (٢٨) وَهُوَ يُؤْمِرُ بِعَلِيٍّ عَبْرَةً (٢٩) تَعْقِبُهَا قُرَّةٌ (٣٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٣١)

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ (٢٢) وهي الصيحة الثانية. قال ابن قتبية: الصاخة تصيح صَخًا، أي: تُصيح. يقال: رجل أصخ، وأصلخ: إذا كان لا يسمع. والداهية صاخة أيضاً. وقال الزجاج: هي الصيحة التي تكون عليها القيامة، تصيح الأسماك، أي: تصتها، فلا تسمع إلا ما تدعى به لإحيائها. ثم فسّر في أي وقت تجيء، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٢٣) قال المفسرون: المعنى: لا يلتفت الإنسان إلى أحد من أقاربه، ليعظم ما هو فيه. قال الحسن: أول من يفر من أخيه هابيل، ومن أمه وأبيه إبراهيم، ومن صاحبه نوح ولوط، ومن ابنه نوح. وقال قتادة: يفر هابيل من قابيل، والنبى ﷺ من أمه، وإبراهيم من أبيه، ولوط من صاحبه، ونوح من ابنه (١).

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنَبِّئُهُ﴾ (٢٦) قال الفراء: أي: يشغله عن قرابته. وقال ابن قتبية: أي: يضربه ويصدّه عن قرابته، يقال: أغنى عني وجهك، أي: أصرفه، وأغن عني السفه. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والزهري، وأبو العالية، وابن السميع، وابن محيصن، وابن أبي عبله «يعنيه» بفتح الياء والعين غير معجمة. قال الزجاج: معنى الآية: له شأن لا يقدر مع الاهتمام به على الاهتمام بغيره. وكذلك قراءة من قرأ «يعنيه» بالعين، معناه: له شأن لا يهمه معه غيره. وقد روى أنس بن مالك قال: قالت عائشة للنبي ﷺ: أنحشر عراة؟ قال: نعم. قالت: واسوءتاه، فأنزل الله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنَبِّئُهُ﴾ (٢٦) (٢).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُؤْمِرُ بِشَيْئِهِ﴾ (٢٨) أي: مضية قد علمت ما لها من الخير ﴿حَاجَتَهُ﴾ لسرورها ﴿شَتَّى شَيْئاً﴾ أي: فرحة بما نالها من كرامة الله ﷻ ﴿وَهُوَ يُؤْمِرُ بِعَلِيٍّ عَبْرَةً﴾ (٢٩) أي: غبار. وقال مقاتل: أي: سواد وكآبة ﴿تَعْقِبُهَا﴾ أي: تنفّسها ﴿قُرَّةٌ﴾ أي: ظلمة. وقال الزجاج: يعلوها سواد كالدخان. ثم بيّن من أهل هذه الحال، فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ (٣١) وهو جمع كافر وفاجر.



(١) والصحيح أن الآية عامة. قال الخازن: وفائدة الترتيب: كأنه قيل: يوم يفر المرء من أخيه، بل من أبويه لأنهما أقرب من الإخوة، بل من صاحبه والولد، لأن تعلقه بهما أشد من تعلقه بالأبوين. قال ابن كثير: يراهم ويفرّ منهم، لأن الهول عظيم، والخطب جليل. ثم قال: وفي الحديث الصحيح في أمر الشفاعة أنه إذا طلب إلى كل من أولي العزم أن يشفع عند الله في الخلائق يقول: نفسي نفسي، لا أسألك اليوم إلا نفسي، حتى إن عيسى ابن مريم يقول: لا أسأله اليوم إلا نفسي، لا أسأله مريم التي ولدني.

(٢) روى بنحوه الطبري ٦١/٣٠ من رواية الحسين بن حريث عن الفضل بن موسى عن عائذ بن شريح عن أنس، ورواه ابن أبي حاتم من رواية أزهر بن حاتم عن الفضل بن موسى عن عائذ بن شريح به، وعائذ بن شريح، قال أبو حاتم الرازي في «الجرح والتعديل»: في حديثه ضعف. وروى الترمذي في «سننه» ١٦٨/٢ عن ابن عباس ؓ عن النبي ﷺ قال: «اتحشرون حفاة عراة خرلاء» فقالت امرأة: أيبصر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: يا فلانة ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنَبِّئُهُ﴾ (٢٦) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، قد روي من غير وجه عن ابن عباس. وروى مسلم في «صحيحه» ٤/ ٢١٩٤ عن عائشة ؓ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة خرلاء» (غير مختونين)، قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال ﷺ: «يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض».

سورة التكوير

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا الْبُحُورُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَإِذَا الْأَشْجَارُ عُثِّلَتْ ۝ وَإِذَا الْوُجُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا الْبُيُوتُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْكُتُوبُ أُزْجِرَتْ ۝ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُتِلَتْ ۝ وَإِذَا الْأَنْفُسُ هُجِرَتْ ۝ وَإِذَا الْأَشْهُفُ نُفِرَتْ ۝ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِلَتْ ۝ وَإِذَا الْجَبَرُوتُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْمَلَكَةُ أُلْفَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيََتْ ۝﴾

روى أبو عبد الله الحاكم في «صحيحه» من حديث عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝﴾»^(١). وفي قوله تعالى: ﴿كُوِّرَتْ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أظلمت، رواه الوالي عن ابن عباس، وكذلك قال الفراء: ذهب ضوءها، وهذا قول قتادة، ومقاتل. والثاني: دَهَبَتْ، رواه عطية عن ابن عباس، وكذلك قال مجاهد: اضمحلَّت. والثالث: غُوِّرَتْ، روي عن ابن عباس، وسعيد بن جبيرة وابن الأنباري، وهذا من قول الناس بالفارسية: كُورِبَكَرد^(٢). وقرأت على شيخنا أبي منصور اللخوي قال: هو بالفارسية كُورِيوز. والرابع: أنها تُكْوَرُ مثل تكوير العمامة، فتلث وتحمى، قاله أبو عبيد. قال الزجاج: ومعنى «كُوِّرَتْ» جمع ضوءها، ولُثَّتْ كما تلف العمامة. ويقال: كُوِّرَتْ العمامة على رأسي أكُوْرُها: إذا لَفَفْتُها. قال المفسرون: تُجمع الشمس بعضها إلى بعض، ثم تُلثُ ويرمى بها في البحر. وقيل: في النار^(٣). وقيل: تعاد إلى ما خلقت منه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝﴾ أي: تناثرت، وتهافت. يقال: انكدر الطائر في الهواء: إذا انقضَّ. ﴿وَإِذَا الْبُحُورُ سُيِّرَتْ ۝﴾ عن وجه الأرض، فاستوت مع الأرض ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝﴾ قال المفسرون وأهل اللغة: العشار: النوق الحوامل، وهي التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر فقبل لها: العشار لذلك، وذلك الوقت أحسن زَمَانٍ حَمْلُها، وهي تضع إذا وَضَعَتْ لتنام في سنة، فهي أنفُس ما للعرب عندهم، فلا يعطلونها، إلا لإتيان ما يَشْغَلُهُمْ عنها، وإنما خوطبت العرب بأمر العشار، لأن أكثر عيشهم ومالهم من الإبل. ومعنى «عُثِّلَتْ» سُبِّيَتْ وأُهْمِلَتْ، لاشتغالهم عنها بأحوال القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُجُوشُ حُشِرَتْ﴾ يعني: دواب البحر ﴿حُشِرَتْ﴾ وفيه قولان: أحدهما: ماتت، قاله ابن عباس. والثاني: جمعت إلى القيامة، قاله السدي. وقد زدنا هذا شرحاً في [الأنعام: ١١١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبُيُوتُ سُيِّرَتْ ۝﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو «سُجِرَتْ» بتخفيف الجيم، وقرأ الباقر بتشديدها. وفي المعنى ثلاثة أقوال: أحدها: أُوْقِدَتْ فاشتعلت ناراً، قاله علي وابن عباس. والثاني: يبست، قاله الحسن. والثالث: ملكت بأن صارت بحراً واحداً، وكثر ماؤها، قاله ابن السائب، والفراء، وابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكُتُوبُ أُزْجِرَتْ ۝﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: قرنت بأشكالها، قاله عمر رضي الله عنه. الصالح مع الصالح في الجنة، والفاجر مع الفاجر في النار، وهذا قول الحسن، وقاتدة^(٤). والثاني: رُدَّتْ الأرواح إلى الأجساد،

(١) أخرجه أحمد في «المستدرك» رقم ٤٨١٦ و ٤٩٣٤ و ٤٩٤١ و ٥٧٥٥ وإسناده صحيح، والتزمي ١٦٨/٢، والحاكم ٥١٥/٢، وصححه ووافقه الذهبي، وأورده السيوطي في «الدرر» ٣١٩/٦ وزاد نسبه لابن المنذر وابن مردويه.

(٢) أخرجه عن سعيد بن جبيرة الطبري، ونقله عنه ابن كثير، والسيوطي في «الدرر المشهور» بالفاظ مختلفة.

(٣) وقد ورد في المرفوع من حديث أبي هريرة: «الشمس والقمر ثوران مكوران في النار يوم القيامة»، رواه الطحاوي في «مشكل الآثار» وإسناده صحيح. ورواه بنحوه أبو يعلى واليزار من حديث أبي هريرة، والطائلي من حديث أنس. وذلك تبكيتاً لمن عبدهما في الدنيا.

(٤) وهو الذي اختاره ابن جرير الطبري وابن كثير، وهو الصحيح.

فَزُوِّجَتْ بِهَا، قاله الشعبي. وعن عكرمة كالقولين. والثالث: زُوِّجَتْ أَنْفُسُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحُورِ الْعِينِ، وأنفس الكافرين بالشیاطين، قاله عطاء، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سَبَتْ﴾ قال اللغويون: الموءودة: البنت تُدْفَن وهي حَيَّةٌ، وكان هذا من فعل الجاهلية. يقال: وَأَدَّ وَلَدَهُ، أي: دفنه حياً. قال الفرزدق:

وَمِنَّا الَّذِي مَنَعَ الْوَائِدَا
بِثِّ فَأَخْيَا الْوَيْبِدَ وَلَمْ يُوَادِّ^(١)

يعني: صعصعة بن صوحان، وهو جد الفرزدق. قال الزجاج: ومعنى سؤالها: تبيكت قاتليها في القيامة، لأن جوابها: قُتِلْتُ بغير ذنب. ومثل هذا التبيكت قوله تعالى: ﴿هَآءَتْ قُلْتُ لِلنَّاسِ انْجِدُونِي وَإِنِّي لِمِنَ الْهَآئِينَ﴾ ١٩ [المائدة: ١١٦]. وقرأ علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عباس، وأبو عبد الرحمن، وابن يعمر، وابن أبي عتبة، وهارون عن أبي عمرو «سَأَلْتُ» بفتح السين، وألف بعدها «بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلْتُ» بإسكان اللام، وضم التاء الأخيرة. وسؤالها هذا أيضاً تبيكت لقاتليها. قال ابن عباس: كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت، فكان أوان ولادها حفرت حفيرة، فتمخضت على رأس الحفيرة، فإن ولدت جارية رَمَتْ بِهَا في الحفيرة، وإن ولدت غلاماً حبسته.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُثُ ثُبُرَتْ﴾ ٣٠ قرأ نافع، وعاصم، وأبو جعفر، وابن عامر، ويعقوب «ثُبُرَتْ» بالتخفيف، والباقون بالتشديد. والمراد بالصحف: صحائف أعمال بني آدم تنشر للحساب، ﴿وَإِذَا النُّفُثُ كُطِبَتْ﴾ ٣١ قال القراء: نَزَعَتْ، فَطُوِيَتْ. وفي قراءة عبد الله «قُطِبَتْ» بالقاف، وهكذا تقوله قيس، وتميم، وأسد، بالقاف. وأما قریش، فتقوله بالكاف، والمعنى واحد. والعرب تقول: القافور، والكافور، والقسط، والكسط. وإذا تقارب الحرفان في المخرج تعاقبا في اللغات، كما يقال: حَدَثٌ، وَحَدَّثٌ. قال ابن قتيبة: كُطِبَتْ كما يُكُطِّطُ الْغِطَاءُ عن الشيء، فَطُوِيَتْ. وقال الزجاج: قلعت كما يقلع السقف. «سُيِّرَتْ» أوقدت. وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم «سُعِرَتْ» مشددة. قال الزجاج: المعنى واحد. إلا أن معنى المشددة: أوقدت مرة بعد مرة. و«أُنْفِثَتْ» قُرِئَتْ من المتقين. وجواب هذه الأشياء: «عَلِمَتْ نَفْسٌ ثَا أَحْضَرَتْ» ٣٢ أي: إذا كانت هذه الأشياء، علمت في ذلك الوقت كل نفس ما أحضرت من عمل، فأثبتت على قدر عملها. وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ ثَا أَحْضَرَتْ» ٣٢: لهذا جرى الحديث^(٢). وقال ابن عباس: من أول السورة إلى هاهنا اثنتا عشرة خصلة، ستة في الدنيا، وستة في الآخرة.

﴿مَلَأْ أَعْيُنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ٣٣ الجوار الكئيب ٣٤ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَسَ ٣٥ وَالْفَجْرِ إِذَا تَسَّسَ ٣٦ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ٣٧ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ٣٨ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ٣٩ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِجُنُودٍ ٤٠ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْيَدَيْنِ ٤١ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَلِيلٍ ٤٢ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ ٤٣ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ هُوَ الْإِكْرَامِيُّ الْفَخْرِيُّ ٤٤ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ٤٥ وَمَا تَشَآوَرُوا إِلَّا أَنْ يُشَآءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٤٦

قوله تعالى: ﴿مَلَأْ أَعْيُنَ﴾ لا زائدة، والمعنى: أقسم «بِالْفَجْرِ» وفيها خمسة أقوال: أحدها: أنها خمسة أنجم تُخَسُّ بالنهار فلا تُرى، وهي: زُحَل، وعُطَّارِد، والمشتري، والمريخ، والزُّهْرَة، قاله علي، وبه قال مقاتل، وابن قتيبة. وقيل: اسم المشتري: البرجس. واسم المريخ: بهرام. والثاني: أنها النجوم، قاله الحسن وقتادة على الإطلاق، وبه قال أبو عبيدة. والثالث: أنها بقرة الوحش، قاله ابن مسعود. والرابع: الظباء، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبيرة. والخامس: الملائكة، حكاه الماوردي. والأكثرون على أنها النجوم^(٣). قال ابن قتيبة: وإنما سماها خُشْنًا، لأنها تسير في البروج والمنازل، كسير الشمس والقمر، ثم تُخَسُّ، أي: ترجع، بينا يرى أحدها في آخر البروج كَرُّ راجعاً إلى أوله، وسماها كُشْنًا، لأنها تكنس، أي: تسير كما تكنس الظباء. وقال الزجاج: تخسن، أي: تغيب، وكذلك تكنس، أي: تغيب في المواضع التي تغيب فيها. وإذا كان المراد الظباء فهو يدخل الكناس، وهو الغصن من أغصان الشجر. ووقف يعقوب على «الجواري» بالياء.

(١) «ديوانه» ٢٠٣/١، وفي «الأغاني» و«الكامل» و«معاهد التخصيص» وجدي الذي منع الواصلات، وهو في «اللسان»: واد، و«معجاز القرآن» (٢/٢٨٧)،

والقرطبي (١٩/٢٣١)، وشواهد الكشاف (١٠٢).

(٢) في «تفسير ابن كثير»: أجرى الحديث.

(٣) وهو الأقرب إلى الصواب.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَسَ ۝١٧﴾ فيه قولان: أحدهما: ولَّى، قاله ابن عباس، وابن زيد، والفراء. والثاني: أقبل، قاله ابن جبير، وقتادة. قال الزجاج: يقال: سعس الليل: إذا أقبل. وسعس: إذا أدبر. واستدل من قال: إن المراد: إدباره بقوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ وأنشد أبو عبيدة لعقمة بن قوط:

حتى إذا الصُّبْحُ لها تَنَفَّسًا وانجاب عنها لَيْلُها وَعَسْعَسًا^(١)

وفي قوله تعالى: ﴿تَنَفَّسَ ۝١٧﴾ قولان: أحدهما: أنه طلوع الفجر، قاله علي وقتادة. والثاني: طلوع الشمس، قاله الضحاك. قال الزجاج: معناه: إذا امتد حتى يصير نهراً بَيِّنًا. وجواب القسم في قوله: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَقِّ ۝١٨﴾ وما بعده قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩﴾ يعني: أن القرآن نزل به جبريل. وقد بيَّنَّا هذا في [الحاقة: ٤٠]. ثم وصف جبريل بقوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ ۝٢٠﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ ۝٢١﴾ وقد شرحناه في [النجم: آية: ٦]. ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٢﴾ يعني: في المنزللة ﴿مُطَاعٍ ۝٢٣﴾ أي: في السموات تطيعه الملائكة. فَمِنْ طَاعَةِ الْمَلَائِكَةِ لَهُ: أنه أَمَرَ خازن الجنة ليلة المعراج حتى فتحها لمحمد ﷺ فدخلها ورأى ما فيها، وأمر خازن جهنم ففتح له عنها حتى نظر إليها. وقرأ أبي بن كعب، وابن مسعود، وأبو حيوة «ثُمَّ» بضم الثاء. ومعنى «أمين» على وحي الله ورسالاته. قال أبو صالح: أمين على أن يدخل سبعين سرادقاً من نور بغير إذن.

قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِبَحْوٍ ۝٢٤﴾ يعني محمداً ﷺ، والخطاب لأهل مكة. قال الزجاج: وهذا أيضاً من جواب القسم، وذلك أنه أقسم أن القرآن نزل به جبريل، وأن محمداً ليس بمجنون كما يقول أهل مكة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِثَةِ الَّذِينَ﴾ قال المفسرون: رأى محمد ﷺ جبريل على صورته بالأفق. وقد ذكرنا هذا في سورة [النجم: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ ۝٢٥﴾ يعني: محمداً ﷺ. ﴿عَلِ الْغَيْبِ﴾ أي: على خبر السماء الغائب عن أهل الأرض ﴿بِغَيْبٍ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، ورويس «بظنين» بالظاء، وقرأ الباقون بالضاد. قال ابن قتيبة: من قرأ بالظاء، فالمعنى: ما هو بمُتَّهِمٍ على ما يُخبر به عن الله، ومن قرأ بالضاد، فالمعنى: ليس ببخيل عليكم بعلم ما غاب عنكم مما يفعلكم. وقال غيره: ما يكتمه كما يكتم الكاهن لياخذ الأجر عليه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ ۝٢٦﴾ يعني: القرآن ﴿يَقُولُ سُبْحَانَ رَبِّيَ﴾ قال مقاتل: وذلك أن كفار مكة قالوا: إنما يجيء به الشيطان، فيلقيه على لسان محمد.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعْنَاهُ نَاحِيَةً ۝٢٧﴾ قال الزجاج: معناه: فأتى طريق تسلكون أَيْتَنَ من هذه الطريقة التي قد بيَّنتُ لكم؟ ﴿إِنْ هُوَ ۝٢٨﴾ أي: ما هو، يعني: القرآن ﴿إِلَّا وَكْرٌ لِلنَّاعِيَةِ﴾ أي: موعظة للخلق أجمعين ﴿لَئِنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۝٢٩﴾ على الحق والإيمان. والمعنى: أن القرآن إنما يتعظ به من استقام على الحق. وقد بيَّنا سبيل الاستقامة، فمن شاء أخذ في تلك السبيل. ثم أعلمهم أن المشيئة في التوفيق إليه بما بعد هذا؛ وقد بيَّنا هذا في سورة [الإنسان: ٣٠] قال أبو هريرة: لما نزلت ﴿لَئِنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۝٢٩﴾ قالوا: الأمر إلينا، إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٣٠﴾ وقيل: القائل لذلك أبو جهل. وقرأ أبو بكر الصديق، وأبو المتوكل، وأبو عمران: «وما يشاؤون» بالياء.

فصل

وقد زعم بعض ناقلي التفسير أن قوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۝٢٩﴾ وقوله تعالى في [عبس: ١٧]: ﴿فَتَن شَاءَ دَكْرُهُ ۝١٧﴾، وقوله تعالى في سورة [الإنسان: ٢٩] وفي سورة [المزمّل: ١٨]: ﴿فَتَن شَاءَ أَخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ كله منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۝٣٠﴾ ولا أرى هذا القول صحيحاً؛ لأنه لو جاز وقوع مشيئتهم مع عدم مشيئته توجّه النسخ. فاما إذ أخبر أن مشيئتهم لا تقع إلا بعد مشيئته، فليس للنسخ وجه.

سورة الانفطار

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَظَّتْ ② وَإِذَا الْبُيُوتُ تَبَيَّرَتْ ③ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ④ عَلِمْتَ نَفْسَ مَا قَدَّمَتْ ⑤ وَلَعَنَتْ ⑥ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ⑦ أَلَيْسَ خَلْقَكَ فَسْوَكَ ⑧ فَسَوَّكَ فَعَدَلَ ⑨ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ⑩ كَلَّا بَلْ تُكَلِّمُونَ ⑪ بِاللَّيْلِ ⑫ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑬ كِرَامًا كَثِيرِينَ ⑭ يَتْلُونَ مَا تَقُولُونَ ⑮ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَيِّبٍ ⑯ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ⑰ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ إِلَيْنِ ⑱ وَمَا مِنْ عَنْهَا يَبَالِيْنَ ⑲ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ إِلَيْنِ ⑳ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْآزِمِ ㉑ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ㉒ وَالْأَمْرُ يَوْمَهِ لِلَّهِ ㉓﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ انفطارها: انشقاقها. و﴿انْشَظَّتْ﴾ بمعنى تساقطت. و﴿تَبَيَّرَتْ﴾ بمعنى فُتِح بعضها في بعض فصارت بحرراً واحداً. وقال الحسن: ذهب ماؤها، و﴿بُيُوتٌ﴾ بمعنى أثيرت. قال ابن قتيبة: قُلِبَتْ فأخرج ما فيها. يقال: بَغَرْتُ المتاع وَبَحَرْتُهُ: إذا جعلت أسفله أعلاه.

قوله تعالى: ﴿عَلِمْتَ نَفْسَ مَا قَدَّمَتْ وَلَعَنَتْ﴾ هذا جواب الكلام. وقد شرحناه في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ يَتِيمٌ يَا قَدَّمَ وَلَعَنَ﴾ [القيامة: ١٣].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه عُيِّنَ به أبو الأشدين^(١)، وكان كافراً، قاله ابن عباس، ومقاتل. وقد ذكرنا اسمه في [المدر: ٢٠]. والثاني: أنه الوليد بن المغيرة، قاله عطاء. والثالث: أبي بن خلف، قاله عكرمة. والرابع: أنه أشار إلى كل كافر، ذكره الماوردي^(٢).

قوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ﴾ قال الزجاج: أي: ما خدعك وسوَّلَ لك حتى أضعت ما وجب عليك؟ وقال غيره: المعنى: ما الذي أُنك من عقابه وهو كريم متجاوز إذ لم يعاقبك عاجلاً؟ وقيل للفضيل بن عياض: لو أقامك الله سبحانه يوم القيامة، وقال: ما غرَّك بربك الكريم، ماذا كنت تقول؟ قال: أقول: غرني سُتُورُكَ المُرَخَاة. وقال يحيى بن معاذ: لو قال لي: ما غرَّك بي؟ قلت: برك سالفاً وآتفاً. قيل: لما ذكر الصفة التي هي الكرم ها هنا دون سائر صفاته، كان كأنه لقَّن عبده الجواب، ليقول: غرَّني كرم الكريم.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ خَلْقَكَ﴾ ولم تك شيئاً ﴿فَسَوَّكَ﴾ إنساناً تسمع وتبصر ﴿فَعَدَلَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بالتشديد. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بالتخفيف. قال الفراء: من قرأ بالتخفيف، فوجهه - والله أعلم -: فسوَّرك إلى أي صورة شاء، إما حسن، وإما قبيح، وإما طويل، وإما قصير. وقيل: في صورة أب، في صورة عم، في صورة بعض القربات تشبيهاً. ومن قرأ بالتشديد، فإنه أراد - والله أعلم -: جعلك معتدلاً، معدلاً الخلقة. وقال غيره: عدل أعضاءك فلم تفضل يد على يد، ولا رجل على رجل، وعدل بك أن يجعلك حيواناً بهيماً.

قوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ⑩﴾ قال الزجاج: يجوز أن تكون «ما» زائدة. ويجوز أن تكون بمعنى الشرط والجزاء، فيكون المعنى: في أي صورة ما شاء أن يرُكَّبَ فيها ركبك. وفي معنى الآية أربعة أقوال: أحدها: في أي صورة من صور القربات ركبك، وهو معنى قول مجاهد. والثاني: في أي صورة، من حسن، أو قبح، أو طول، أو

(١) قد تقدم الكلام عليه في سورة المدر.

(٢) وهذا هو الصواب أنه عام لكل كافر.

قصر، أو دُكِر، أو أُنْثِي، وهو معنى قول الفراء. والثالث: إن شاء أن يرْجُك في غير صورة الإنسان رَجَبك، قاله مقاتل. وقال عكرمة: إن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير. والرابع: إن شاء في صورة إنسان بأفعال الخير. وإن شاء في صورة حمار بالبلادة والبله، وإن شاء في صورة كلب بالبخل، أو خنزير بالشرة، ذكره الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿بَلْ تُكْذِبُونَ وَلِلَّيْنِ﴾ وقرأ أبو جعفر «بالياء» أي: بالجزاء والحساب، تزعمون أنه غير كائن. ثم أعلمهم أن أعمالهم محفوظة، فقال تعالى: ﴿وَلِئِنْ عَلِمْتُمْ خَوَاطِينَ﴾ (١٢) أي: من الملائكة يحفظون عليكم أعمالكم ﴿كَرَامًا﴾ على ربهم ﴿كَيْبِينَ﴾ يكتبون أعمالكم ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَقُولُونَ﴾ (١٣) من خير وشر، فيكتبونه عليكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَيْمٍ﴾ (١٤) وذلك في الآخرة إذا دخلوا الجنة ﴿وَلِئِنَّ الْفُجَّارَ﴾ وفيهم قولان: أحدهما: أنهم المشركون. والثاني: الظلمة. ونقل عن سليمان بن عبد الملك أنه قال لأبي حازم: يا ليت شعري ما لنا عند الله؟ فقال له: اعرض عملك على كتاب الله، فإنك تعلم ما لك عنده، فقال: وأين أجده؟ قال: عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَيْمٍ﴾ (١٥) وَلِئِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٦) قال سليمان: فأين رحمة الله؟ قال: قريب من المحسنين.

قوله تعالى: ﴿يَمَلَأُونَهَا﴾ يعني: يدخلون الجحيم مقاسين حرها ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾ أي: يوم الجزاء على الأعمال ﴿وَمَا تُمْ عَنَّا﴾ أي: عن الجحيم ﴿يَقَالِينَ﴾ وهذا يدل على تخليد الكفار. وأجاز بعض العلماء أن تكون «عنها» كناية عن القيامة، فتكون فائدة الكلام تحقيق البعث. ويشتمل هذا على الأبرار والفجار. ثم عظم ذلك اليوم بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الَّذِينَ﴾ (١٧) ثم كرر ذلك تفخيماً لشأنه، وكان ابن السائب يقول: الخطاب بهذا للإنسان الكافر، لا لرسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو «يوم» بالرفع، والباقون: بالفتح. قال الزجاج: من رفع «اليوم» فعلى أنه صفة لقوله تعالى: «يوم الدين». ويجوز أن يكون رفعه ^(١) بإضمار «هو» ونصبه على معنى: هذه الأشياء المذكورة تكون ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ قال المفسرون: ومعنى الآية أنه لا يملك الأمر أحدٌ إلا الله، ولم يملك أحداً من الخلق شيئاً كما ملكهم في الدنيا. وكان مقاتل يقول: لا تملك نفس لنفس كافرة شيئاً من المنفعة. والقول على الإطلاق، لأن مقاتلاً فيما أحسب خاف نفي شفاعة المؤمنين. والشفاعة إنما تكون عن أمر الله وتمليكه.



(١) في نسخة الرباط: رفعها، وفي النسخة الإسنوبولية: رفعاً.

سورة المطففين

وفيهما ثلاثة أقوال: أحدها: أنها مكية، قاله ابن مسعود، والضحاك، ويحيى بن سلام. والثاني: مدنية، قاله ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وقتادة، ومقاتل، إلا أن ابن عباس، وقتادة قالوا: فيها ثمان آيات مكية، من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُجِرُوا﴾ [المطففين: ٢٩] إلى آخرها. وقال مقاتل: فيها آية مكية، وهي قوله تعالى: ﴿إِذَا نَقَلَ عَلَيْكَ مَنَاشَا قَالَ سُبْحِيَ الَّذِينَ الْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين: ١٣]. والثالث: أنها نزلت بين مكة، والمدنية، قاله جابر بن زيد وابن السائب، وذكر هبة الله ابن سلامة^(١) المفسر أنها نزلت في الهجرة بين مكة والمدنية، نصفها يقارب مكة، ونصفها يقارب المدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [١] الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ [٢] وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ [٣] أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ [٤] لِيَوْمٍ عَظِيمٍ [٥] يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمُ الْكَلِيلِ [٦]

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [١] قال ابن عباس: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [١] فأحسنوا الكيل بعد ذلك^(٢). وقال السدي: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وبها رجل يقال له: أبو جهينة، ومعه صاعان، يكيل بأحدهما، ويكتال بالآخر، فأنزل الله هذه الآية. وقد شرحنا معنى «الويل» في [البقرة: ٧٩]. وقال ابن قتيبة: المطفف: الذي لا يوفي الكيل، يقال: إناء طَفَّانٌ: إذا لم يكن مملوءاً. وقال الزجاج: إنما قيل: مطفف، لأنه لا يكاد يسرق في الميزان والمكيال إلا الشيء الطفيف، وإنما أخذ من طَفَّ الشيء، وهو جانبه.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أي: من الناس. فـ«على» بمعنى «من» في قول المفسرين واللغويين. قال الفراء: «على»، و«من» يعقبان في هذا الموضع، لأنك إذا قلت: اكتلت عليك، فكانك قلت: أخذت ما عليك [كيلاً]، وإذا قلت: اكتلت منك، فهو كقولك: استوفيت منك [كيلاً]. قال الزجاج: المعنى: إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل، وكذلك إذا اتزنوا، ولم يذكُرْ «إِذَا اتزنوا»، لأن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع فيما يُكَالُ ويُوزَنُ، فأحدهما يدل على الآخر ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ أي: كالوا لهم ﴿أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ أي: وزنوا لهم ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي: ينقصون في الكيل والوزن. فعلى هذا لا يجوز أن يقف على «كالوا»، ومن الناس من يجعل «هم» توكيداً لما كالوا^(٣)، ويجوز أن يقف على «كالوا» والاختيار الأول. قال الفراء: سمعت أعرابية تقول: إذا صدر الناس أتينا التاجر، فيكيلنا المد والمدين إلى الموسم المقبل.

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ [٦] قال الزجاج: المعنى: لو ظنوا أنهم يُمَبَّعُونَ ما نقصوا في الكيل والوزن، ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [٥] يعني به يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾ منصوب بقوله تعالى: ﴿يَبْعَثُونَ﴾. قال المفسرون: والظن هاهنا بمعنى العلم واليقين. ومعنى: يقوم الناس، أي: من قبورهم ﴿لِرَبِّهِمُ الْكَلِيلِ﴾ أي: لأمره، أو لجزائه وحسابه. وقيل: يقومون بين يديه لفصل القضاء. وفي «الصحيحين» من حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: في

(١) في الأصل: سلام، وهو خطأ.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٧٤٨/٢)، والطبري (٩١/٣٠)، والواحدي (٣٣٣)، وقال الحافظ في «تخريج الكشاف» (١٢٨): رواه النسائي وابن حبان والحاكم من رواية يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس. وأورده السيوطي في «الدر» (٣٢٣/٦) وزاد نسبه إلى الطبراني وابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان» بسند صحيح عن ابن عباس.

(٣) قال الألوسي: «هم» ضمير مرفوع، تأكيد للضمير المرفوع وهو الواو، يعني في «كالوا».

هذه الآية: «يقوم أحدهم في رَسْحِهِ»^(١) إلى أنصاف أذنيه»^(٢). وقال كعب: يقفون ثلاثمائة عام. قال مقاتل: وذلك إذا خرجوا من قبورهم.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَئِي سَجِينَ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَتْلُو ﴿٢﴾ كِتَابَ زُرُقٍ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ يُوسِّدُ لِلْكَافِرِينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٥﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُتَذَكِّرٍ ﴿٦﴾ إِذَا تَلَّى عَلَيْهِ مَا بَشَأَ قَالَ اسْطِطِرَّ الْأَوَّلِينَ ﴿٧﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ ثُمَّ يُعَادُّونَ عَلَى الْقَرْحِ ﴿١١﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَلْبَارِ لَئِي عِلِّيِّينَ ﴿١٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٣﴾ كِتَابَ زُرُقٍ ﴿١٤﴾ يَتَّبِعُهُ الْمَلَكُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّ الْأَلْبَارِ لَئِي نَجِيٍّ ﴿١٦﴾ عَلَى الْأَكْبَافِ يَنْظُرُونَ ﴿١٧﴾ تَقَرُّوفٌ فِي رُجُومِهِمْ نَقَرَةُ الْعِيِّيرِ ﴿١٨﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيْقٍ مَشْحُومٍ ﴿١٩﴾ حَتَّمْتُ مِسْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٠﴾ وَنَزَّاجٍ مِنْ تَجَنُّبٍ ﴿٢١﴾ حِينَ يَقْرُبُ إِلَها الْمَمْرُورُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر، أي: ليس الأمر على ما هم عليه، فليرتدعوا. وهاهنا تم الكلام عند كثير من العلماء. وكان أبو حاتم يقول: ﴿كَلَّا﴾ ابتداء يتصل بما بعده على معنى «حقاً» ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ﴾ قال مقاتل: إن كتاب أعمالهم ﴿لَئِي سَجِينَ﴾ وفيها أربعة أقوال: أحدها: أنها الأرض السابعة، وهذا قول مجاهد، وقطادة، والضحاك، وابن زيد، ومقاتل. وروي عن مجاهد قال: ﴿سَجِينَ﴾ صخرة تحت الأرض السابعة، يجعل كتاب الفجار تحتها، وهذه علامة لخسارتهم، ودلالة على خسارة منزلتهم. والثاني: أن المعنى: إن كتابهم لفي سفال، قاله الحسن. والثالث: لفي خسار، قاله عكرمة. والرابع: لفي حبس، فُعِيلَ من السجن، قاله أبو عبيدة^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَتْلُو﴾ هذا تعظيم لأمرها. وقال الزجاج: أي: ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك.

قوله تعالى: ﴿كِتَابَ زُرُقٍ﴾ أي: ذلك الكتاب الذي في سجين كتاب مرقوم، أي: مكتوب. قال ابن قتيبة: والرقم: الكتاب. قال أبو ذؤيب:

عَرَفْتُ الدِّبَارَ كَرَقُمِ الدَّوَا
وَإِزْبُرُهُ الْكَاتِبُ الْجَمْبَرِي^(٤)

وأشده الزجاج: «يَذْبُرُهَا» بالذال المعجمة، وكسر الباء. قال الأصمعي: يقال: ذبر: كتب، وذبر: قرأ. وروى أبو عمرو عن ثعلب، عن ابن الأعرابي، قال: الصواب: ذبرت - بالزاي - كتبت. وذبرت - بالذال - أنقنت ما حفظت. قال: والبيت يذبرها، بالزاي والضم. وقال ابن قتيبة: يروى «يذبرها» و«يذبرها» وهو مثله، يقال: ذبر الكتاب يذبره، ويذيره. وذبره يذبره، ويذيره. وقال قتادة: رَقَمَ له بشرٌ، كأنه أعلم بعلامة يعرف بها أنه الكافر. وقيل: المعنى: إنه مثبت لهم كالرقم في الثوب، لا ينسى ولا يمحي حتى يجازوا به.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يُوسِّدُ لِلْكَافِرِينَ﴾ هذا منتظم بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْثُغُ النَّاسُ﴾، وما بينهما كلام معترض. وما بعده قد سبق بيانه إلى قوله تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر «بَلْ رَانَ» بفتح الراء مدغمة، وقرأ أبو بكر عن عاصم «بَلْ رَانَ» مدغمة بكسر الراء. وقرأ حفص عن عاصم «بَلْ» بإظهار اللام ﴿رَانَ﴾ بفتح الراء. قال اللغويون: أي: غلب على قلوبهم، يقال: الخمرة ترين على عقل السكران. قال الزجاج: قرئت بإدغام اللام في الراء، لقرب ما بين الحرفين، وإظهار اللام جائز، لأنه من كلمة، والرأس من كلمة أخرى. ويقال: ران على قلبه الذئب يرين ريناً: إذا غشي على قلبه، ويقال: غان يغين غيناً، والغين كالغيم الرقيق، والرين كالصدا يغشى على

(١) أي: هرقة، لأنه يخرج من البدن شيئاً بعد شيء، كما يرشح الإناء المحتلل الأجزاء.

(٢) رواء مالك في «الموطأ» والبخاري ٥٣٥/٨، ومسلم ٢١٩٥/٤ واللفظ لمسلم.

(٣) قال ابن كثير: والصحيح أن «سجينة» مأخوذ من السجن، وهو الضيق، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق، وكل ما تعالى منها اتسع، فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه، وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها حتى ينتهي السفول المطلق والمحل الأضيق إلى المركز في وسط الأرض السابعة، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم، وهي أسفل السافلين؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَتَقَلَّبُ سَبِيلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا إِلَهُنَّ مَأْتَرًا يَبْهَرُونَ﴾، قال هاهنا: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَئِي سَجِينَ﴾ رَانَ أَدْرَاكَ مَا يَتْلُو، وهو يجمع الضيق والسفول، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ لَكَافَرُوا﴾.

(٤) البيت لأبي ذؤيب غويلد بن خالد، جاملي إسلامي، وهو في «ديوان الهلليين» (١/٦٤)، و«غريب القرآن» (٥١٩) وفيهما: «يذبرها» بدلاً من «يذبره».

القلب. وسمعت شيخنا أبا منصور اللغوي يقول: الغين يقال: بالراء، وبالغين، ففي القرآن ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾ وفي الحديث: «إنه ليغان على قلبي»^(١)، وكذلك الراءية يقال بالراء، وبالغين، والرميصاء تكتب «بالغين»، وبالراء، لأن الرمص يكتب بهما. قال المفسرون: لما كثرت معاصيهم وذنوبهم أحاطت بقلوبهم. قال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب^(٢).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: لا يصدقون. ثم استأنف ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ قال ابن عباس: إنهم عن النظر إلى ربهم يومئذ لمحجوبون، والمؤمن لا يحجب عن رؤيته. وقال مالك بن أنس: لما حجب أعداءه فلم يَرَوْهُ تجلَّى لأوليائه حتى رآه. وقال الشافعي: لما حجب قومًا بالسُّخْطِ دلَّ على أن قومًا يَرَوْنَهُ بالرُّضَا^(٣). وقال الزجاج: في هذه الآية دليل على أن الله ﷻ يرى في القيامة. ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة، ولا خُست منزلة الكفار بأنهم يحجبون عن ربهم. ثم من بعد حجبهم عن الله يدخلون النار، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا لِكَبِيرٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَاقٌ﴾ أي: يقول لهم خزنة النار: ﴿هَذَا الْعَذَابُ الَّذِي كُنتُمْ بِكُمْ تَكْذِبُونَ كَلَّا﴾ أي: لا يؤمن بالعذاب الذي يصلاه. ثم أعلم أين محلّ ﴿كِتَابُ الْأَنْبَارِ﴾ فقال تعالى: ﴿لَنَبِيٍّ عَيْنَيْنِ﴾ وفيها سبعة أقوال: أحدها: أنها الجنة، رواه عطاء عن ابن عباس. والثاني: أنه لوح من زبرجدة خضراء معلق تحت العرش فيه أعمالهم مكتوبة، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أنها السماء السابعة، وفيها أرواح المؤمنين، قاله كعب، وهو مذهب مجاهد، وابن زيد. والرابع: أنها قائمة العرش اليمنى، قاله قتادة. وقال مقاتل: ساق العرش. والخامس: أنه سدرة المنتهى، قاله الضحاك. والسادس: أنه في علوٍ وصعود إلى الله ﷻ، قاله الحسن. وقال الفراء: في ارتفاع بعد ارتفاع. والسابع: أنه أعلى الأمكنة، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُونَ﴾ هذا، تعظيم لشأنها.

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رُؤُوسَهُمْ﴾ الكلام فيه كالکلام في الآية التي قبلها.

قوله تعالى: ﴿يَتَنَبَّأُ الْمَكْرُورُ﴾ أي: يحضر المقرَّبون من الملائكة ذلك المكتوب، أو ذلك الكتاب إذا صُعد به إلى عليين. وما بعد هذا قد سبق بيانه (الانتظار: ١٣) إلى قوله تعالى: ﴿يُنْظَرُونَ﴾ وفيه قولان: أحدهما: إلى ما أعطاهم الله من الكرامة. والثاني: إلى أعدائهم حين يعدُّون.

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ فِي سُجُودِهِمْ نَفْرَةٌ كَلْبِيَّةٌ﴾ وقرأ أبو جعفر، ويعقوب «تُعَرَّف» بضم التاء، وفتح الراء «نضرَةٌ» بالرفع. قال الفراء: بريق النعيم ونداء. قال المفسرون: إذا رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعيم، لما ترى من الحسن والنور. وفي «الرحيق» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الخمر، قاله الجمهور. ثم اختلفوا أي الخمر هي على أربعة أقوال: أحدها: أجود الخمر، قاله الخليل بن أحمد. والثانية: الخالصة من الغش، قاله الأخفش. والثالث: الخمر البيضاء، قاله مقاتل. والرابع: الخمر العتيقة، حكاه ابن قتيبة. والقول الثاني: أنه عين في الجنة مشوبة بالمسك، قاله الحسن. والثالث: أنه الشراب الذي لا غش فيه، قاله ابن قتيبة، والزجاج. وفي قوله تعالى: ﴿وَتَحْتَوِي﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: ممزوج، قاله ابن مسعود. والثاني: مختوم على إنائه، وإلى نحو هذا ذهب مجاهد. والثالث: له ختام، أي: عاقبة ربح، وتلك العاقبة هي قوله تعالى: ﴿حِثْمُكُمْ سِتْكُمْ﴾، أي: عاقبته. هذا قول أبي عبيدة. ﴿حِثْمُكُمْ سِتْكُمْ﴾ قرأ ابن كثير،

(١) روى مسلم في «صحيحه» ٢٧٧٥/٤ عن الأغر المزني رحمه الله أن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليغان على قلبي، وإنني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة».

(٢) روى الترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق عن محمد بن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت، فلذلك قول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾»، وقال الترمذي: حسن صحيح، ولفظ النسائي: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن نزع واستغفر وتاب، صقل قلبه، فإن عاد زيد فيها حتى تملو قلبه، فهو الران الذي قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾».

(٣) وقال ابن كثير: قال الإمام أبو عبد الله الشافعي: وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه ﷻ يومئذ، وهذا الذي قاله الإمام الشافعي رحمه الله في غاية الحسن، وهو استدلال بمفهوم الآية، كما دل عليه منطوق قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْكُتُبُ﴾ إلّا نيكاً كَأُولَئِكَ، وكما دلَّت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم عز وجل في الدار الآخرة رؤية بالأبصار في عرصات القيامة وفي روضات الجنات الفاخرة.

وعاصم، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحزمة ﴿يَخْتَمُّ﴾ بكسر الخاء، وفتح التاء، وبالف بعدهما، مرفوعة الميم. وقرأ الكسائي ﴿خَاتَمَهُ﴾ بخاء مفتوحة، بعدها ألف، وبعدها (١) تاء مفتوحة. وروى الشيزري ﴿خَاتِمَهُ﴾ مثل ذلك، إلا أنه يكسر التاء. وقرأ أبي بن كعب، وعروة، وأبو عالية: ﴿خَتَمَهُ﴾ بفتح الخاء والتاء ولبضم [الميم من غير ألف. وللمفسرين في قوله تعالى: ﴿يَخْتَمُّ بِسُكِّ﴾ أربعة أقوال: أحدها: خلَّطه مسك، قاله ابن مسعود، ومجاهد. والثاني: أن خَتَمَهُ الذي يختم به الإناء مسك، [قاله ابن عباس. والثالث: أن طعمه وريحه مسك، قاله علقمة. والرابع: أن آخر طعمه مسك] (٢) قاله سعيد بن جبير، والفراء، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج في آخرين.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ أي: فليجدوا في طلبه، وليحرصوا عليه بطاعة الله. والتنافس: كالتشاح على الشيء، والتنازع فيه.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَّسْنِمُ﴾ (٣) فيه قولان: أحدهما: أنه اسم عين في الجنة يشربها المقربون صرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين. والثاني: أن التسنيم الماء، قاله الضحاك. قال مقاتل: وإنما سمي تسنيماً، لأنه يتسئم عليه من جنة عدن، فينصب عليهم انصباباً، فيشربون الخمر من ذلك الماء. قال ابن قتيبة: يقال: إن التسنيم أرفع شراب في الجنة. ويقال: إنه يمتزج بماء ينزل من تسنيم، أي: من علو. وأصل هذا من سنام البعير، ومن تسنيم القبور. وهذا أعجب إليّ، لقول المسيب بن علس في وصف امرأة:

كَأَنَّ بِرَيْقَتِهَا لِمِرًّا

جَ مِنْ ثُلُجٍ تَسْنِمٍ شَيْبَتِ عَقَارًا (٣)

أراد: كأن بريقتها عقاراً شيبت للمزاج من ثلج تسنيم، يريد: جبلاً. قال الزجاج: المعنى: ومزاجه من تسنيم عيناً تأتيمهم من تسنيم، أي: من علو يتسئم عليهم من الغرف. فـ«عيناً» في هذا القول منصوبة، كما قال تعالى: ﴿أَوْ يُلَاحِظْ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَرٍ﴾ (٤) ﴿يَسْأَلُ﴾ (البلد: ١٥). ويجوز أن تكون «عيناً» منصوبة بقوله: يُسْفُونَ عيناً، أي: من عين. وقد بينا معنى ﴿يَقْتَرِبُ إِلَيْهَا﴾ في [لعل أن: ٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هُمْ يَغْتَابُونَ﴾ (٥) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ (٦) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٧) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ (٨) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٩) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (١٠) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (١١) هَلْ تُؤِثُّبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٢)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هُمْ يَغْتَابُونَ﴾ أي: أشركوا ﴿كَافَرًا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني أصحاب رسول الله ﷺ، مثل عمار، وبلال، وخباب وغيرهم ﴿يَضْحَكُونَ﴾ على وجه الاستهزاء بهم ﴿وَإِذَا مَرُّوا﴾ يعني: المؤمنين ﴿بِهِمْ﴾ أي: بالكفار ﴿يَتَغَامَرُونَ﴾ أي: يشيرون بالجفن والحاجب استهزاءً بهم ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا﴾ يعني: الكفار ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أي: متعجبين بما هم فيه يتفكّهون بذكرهم. وقرأ أبو جعفر، وحفص عن عاصم، وعبد الرزاق عن ابن عامر ﴿فَكِهِينَ﴾ بغير ألف. وقد شرحنا معنى القراءتين في [تيس: ٥٥] ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أي: رأوا أصحاب رسول الله ﷺ ﴿قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ﴾ يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ﴾ يعني الكفار ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المؤمنين ﴿حَافِظِينَ﴾ يحفظون أعمالهم عليهم، أي: لم يؤكّلوا بحفظ أعمالهم ﴿فَالْيَوْمَ﴾ يعني: في الآخرة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ إذا رأوهم يعبّون في النار. قال أبو صالح: يقال لأهل النار وهم فيها: اخرجوا، وفتح لهم أبوابها، فإذا أقبلوا يريدون الخروج، غلقت أبوابها دونهم. والمؤمنون ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ (١١) إلى عذاب عدوهم. قال مقاتل: لكل رجل من أهل الجنة ثلثة ينظرون إلى أعداء الله كيف يعبّون، فيحمدون الله على ما أكرمهم به، فهم يكلمون أهل النار ويكلمونهم إلى أن تطبق النار على أهلها، فتسد حيثذ الكوى.

قوله تعالى: ﴿هَلْ تُؤِثُّبُ الْكُفَّارَ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، وهارون عن أبي عمرو ﴿هَلْ تُؤِثُّبُ﴾ بإدغام اللام. أي: هل جوزوا وأثبوا على استهزائهم بالمؤمنين في الدنيا؟ وهذا الاستهزاء بمعنى التقرير.

(١) في الأصل: وبعده.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من نسخة الرباط، واستدركناه من النسخة الإستنبولية.

(٣) البيت في «غريب القرآن» ٥٢٠.

سورة الانشقاق

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُشَّتْ ② وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَفُطَّتْ ④ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُشَّتْ ⑤﴾ بِأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ⑥ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْتِبَ يُبَيِّدُهُ ⑦ فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَّبِيدُهُ ⑧ وَتَنقَلِبُ إِلَيْكَ أَعْيُنُهُمْ ⑨ فَتَكُونُ ⑩ مَن أَوْفَىٰ كَيْتِبَ وَرَدَّهُ ظُهُورُهُ ⑪ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ⑫ وَيَصْعَقُ سَعِيرًا ⑬ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِيهِمْ مُّشْرِكًا ⑭ إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَنْ يَحْجُوزَ ⑮﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ①﴾ قال المفسرون: انشقاقها من علامات الساعة. وقد ذكر ذلك في مواضع من القرآن: [الفرقان: ٢٢٥، الرحمن: ٣٧، الحاقة: ٤١٦]. ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ②﴾ أي: استمعت وأطاعت في الانشقاق، من الأذن، وهو الاستماع للشيء والإصغاء إليه، وأنشدوا:

صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا دُكِرَتْ بِهِ
فَإِنْ دُكِرَتْ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا^(١)
﴿وَحُشَّتْ ②﴾ أي: حق لها أن تطيع ربها الذي خلقها ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③﴾ قال ابن عباس: تُمدُّ مدَّ الأديم، ويزاد في سعتها. وقال مقاتل: لا يبقى جبل ولا بناء إلا دخل فيها.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ③﴾ من الموتى والكنوز ﴿وَفُطَّتْ ④﴾ أي: خلَّت من ذلك، فلم يبقَ في باطنها شيء. واختلفوا في جواب هذه الأشياء المذكورات على أربعة أقوال: أحدها: أنه متروك، لأن المعنى معروف قد تردَّد في القرآن. والثاني أنه ﴿بِأَيُّهَا الْإِنْسَانُ ⑥﴾ كقول القائل: إذا كان كذا وكذا، فيا أيها الناس ترون ما عملتم، فيجعل ﴿بِأَيُّهَا الْإِنْسَانُ ⑥﴾ هو الجواب، وتضمير فيه الفاء، كأن المعنى: يرى الثواب والعقاب إذا السماء انشقت، وذكر القولين الفراء. والثالث: أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: «يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقية إذا السماء انشقت» قاله المبرد. والرابع: أن الجواب مدلول عليه بقوله تعالى: ﴿فَمُلَاقِيهِ ⑥﴾. فالمعنى: إذا كان يوم القيامة لقي الإنسان عمله، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ⑥﴾ فيه قولان: أحدهما: إنك عامل لربك عملاً، قاله ابن عباس. والثاني: ساج إلى ربك سَجِيًّا، قاله مقاتل. قال الزجاج: «والكدح» في اللغة: السعي، والدأب في العمل في باب الدنيا والآخرة. قال تميم بن مقبل:

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا
أُمُوتٌ وَأُخْرَىٰ أَبْتَغِي الْعَيْشَ أَكْذَحَ^(٢)
وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ ⑥﴾ قولان: أحدهما: عامل لربك، وقد ذكرناه عن ابن عباس. والثاني: إلى لقاء ربك، قاله ابن قتيبة. وفي قوله تعالى: ﴿فَمُلَاقِيهِ ⑥﴾ قولان: أحدهما: فملاقٍ عَمَلِكَ. والثاني: فملاقٍ رَبِّكَ، كما ذكرهما الزجاج.

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَّبِيدُهُ ⑧﴾ وهو أن تعرض عليه سيئاته، ثم يغفرها الله له. وفي «الصحاحين» من حديث عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب هلك، فقلت: يا رسول الله، فإن الله يقول: ﴿فَسَوْفَ

(١) البيت لقُتَيْب بن ضمرة ابن أم صاحب أم قُتَيْب، وكان في أيام الوليد، وهو في «مجاز القرآن» ١/١٧٧، و«الطبري» ٣٠/١١٢، و«السمط» ٣٦٢، و«الانقضاء» ٢٩٢، و«شواهد الكشاف» ١٤٣، و«القرطبي» ١٩/٢٦٧، و«اللسان»: أذن، وأورد بيتاً قبله، هو:

إِنْ يَنْشَقُّوا رِيْبَةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا
يَمْتِي وَمَا عَلِمُوا مِنْ ضَالِحٍ دَفَنُوا
(٢) «ديوانه» (٢٤)، وسيبويه ١/٢٧٦، و«الكامل» ٣/٩٠٨، و«الحيوان» ٣/٤٨، و«حماة البحري» ١٨٣، و«القرطبي» ١٩/٢٦٩.

يَحْسَبُ حَسَابًا بَصِيرًا ﴿١٩﴾ قَالَ: ذَلِكَ الْعَرَضُ^(١).

قوله تعالى: ﴿وَنَقَلْنَا إِلَيْكَ آهْلِيكَ﴾ يعني: في الجنة من الحور العين والآدميات ﴿مَسْرُورًا﴾ بما أوتي من الكرامة ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْلَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ ﴿٢٠﴾ قال المفسرون: نُعِلُّ يده اليمنى إلى عنقه، وتجعل يده اليسرى وراء ظهره ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا بُرُورًا﴾ ﴿٢١﴾ قال الزجاج: يقول: يا ويلاه، يا بُرُوراه، وهذا يقوله كلُّ من وقع فيهلكة.

قوله تعالى: ﴿وَيَصَلِّي سَمِيرًا﴾ ﴿٢٢﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والكسائي: «وَيُصَلِّي» بضم الياء، وتشديد اللام. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحزمة «ويصلي» بفتح الياء خفيفة، إلا أن حمزة والكسائي يميلانها. وقد شرحناه في سورة [النساء: ١١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَانَتْ فِي آفِلَةٍ﴾ يعني في الدنيا ﴿مَسْرُورًا﴾ باتباع هواه، وركوب شهواته ﴿إِنَّكَ ظَنَنْتَ أَنَّ لَكَ يَمُورًا﴾ ﴿٢٣﴾ أي: لن يرجع إلى الآخرة، ولن يبعث وهذه صفة الكافر. قال اللغويون: الحور في اللغة: الرجوع، وأنشدوا للبيد:

وَمَا الْمَرْءُ كَالشَّهَابِ وَضَوْئِهِ
يَحُورُ زَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعٌ^(٢)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٥﴾ فَلَا أَقِيمُ بِالْشَّقِّ ﴿٢٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿٢٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا أَشَقَّ ﴿٢٨﴾ لَتَرَكُنَّ بَطِشًا عَنْ يَدِ كَيْدٍ لَا يَأْمُرُ بِكَ اللَّهُ لِمَنْ هُوَ عَنِ النَّاسِ إِذْ أَعْلَمَ بِمَا يُوْغَوْنَ ﴿٢٩﴾ وَاللَّهُ أَكْبَرُ ﴿٣٠﴾ فَتَبَيَّنَ لَكُمْ بِمَقَادِيرِ آيِهِ ﴿٣١﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال الفراء: المعنى: بلى ليحورون، ثم استأنف، فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ قال المفسرون: بصيرا به على جميع أحواله.

قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقِيمُ﴾ قد سبق بيانه. فأما «الشفق» فقال ابن قتيبة: هما شفقان: الأحمر، والأبيض؛ فالأحمر: من لدن غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء ثم غيب، ويبقى الشفق الأبيض إلى نصف الليل. وللمفسرين في المراد «بالشفق» هاهنا ستة أقوال: أحدها: الحمرة التي تبقى في الأفق بعد غروب الشمس. وقد روى ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الشفق: الحمرة»^(٣)، وهذا قول عمر، وابنه، وابن مسعود، وعبد الله، وأبي قتادة، وجابر بن عبد الله، وابن عباس، وأبي هريرة، وأنس، وابن المسيب، وابن جبير، وطاوس، ومكحول، ومالك، والأوزاعي، وأبي يوسف، والشافعي، وأبي عبيد، وأحمد، وإسحاق، وابن قتيبة، والزجاج. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول وعليه ثوب مصبوغ: كأنه الشفق، وكان أحمر. والثاني: أنه النهار. والثالث: الشمس، روي القولان عن مجاهد. والرابع: ما بقي من النهار، قاله عكرمة. والخامس: السواد الذي يكون بعد ذهاب البياض، قاله أبو جعفر محمد بن علي. والسادس: أنه البياض، قاله عمر بن عبد العزيز.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ ﴿٢٧﴾ أي: وما جمع وضم. وأنشدوا:

إِنَّ لَنَا قَلْبًا بَصِيرًا حَقَائِقًا
مُسْتَوْسِقَاتٍ لَوْ يَجِدُنَّ سَائِقًا^(٤)

قال أبو عبيدة: ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ ما علا فلم يمنع منه شيء، فإذا جَلَّ الليل الجبال، والأشجار، والبحار، والأرض، فاجتمعت له، فقد وسقها. وقال بعضهم: معنى: ﴿وَمَا وَسَقَ﴾: ما جمع مما كان منتشرًا بالنهار في تصرفه إلى ماواه.

قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا أَشَقَّ﴾ ﴿٢٨﴾ قال الفراء: اتساقه: اجتماعه واستواؤه ليلة ثلاث عشرة، وأربع عشرة، إلى ست عشرة.

(١) رواه البخاري ١٧٦/١ و ٥٣٥/٨ و ٣٤٧/١١، ومسلم ٢٢٠٤/٤، ورواه الطبري ١١٦/٣٠، والترمذي ١٦٩/٢ وقال: حديث حسن صحيح، وأورده السيوطي في «الدر» ٣٢٩/٦ وزاد نسبه لأحمد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) «ديوانه» ١٦٩.

(٣) أخرجه الدارقطني في «سننه» ١٠٠، وصححه البيهقي وقفه، وقال في «المعرفة»: روي هذا الحديث عن عمر، وعلي، وابن عباس، وعبد الله بن الصامت، وشداد بن أوس، وأبي هريرة، ولا يصح عن النبي ﷺ فيه شيء، وذكره السيوطي في «الدر» موقوفًا على ابن عمر، وعزاه إلى عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وعبد بن حميد، وابن مردويه.

(٤) الرجز في «ملحق ديوان المعاج» ٨٤، وهو في «مجاز القرآن» ٢/٢٩١، و«الطبري» ٣/١٢٠، و«القرطبي» ١٩/٢٧٥، و«اللسان» وسق.

قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ ﴿١١﴾ قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي: «لَتَرْكَبُنَّ» بفتح التاء والباء، وفي معناه قولان: أحدهما: أنه خطاب لرسول الله ﷺ، ثم في معناه قولان: أحدهما: لتركبن سماءً بعد سماءً، قاله ابن مسعود، والشعبي، ومجاهد. والثاني: لتركبن حالاً بعد حال، قاله ابن عباس، وقال: هو نبيكم. والقول الثاني: أن الإشارة إلى السماء. والمعنى: أنها تتغير ضروباً من التغيير، فتارة كالمُهَل، وتارة كالدُّهان، روي عن ابن مسعود أيضاً. وقرأ عاصم، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ بفتح التاء، وضم الباء، وهو خطاب لسائر الناس. ومعناه: لتركبن حالاً بعد حال. وقرأ ابن مسعود، وأبو الجوزاء، وأبو الأشهب: «ليركبن» بالياء، ونصب الباء. وقرأ أبو المتوكل، وأبو عمران، وابن يعمر: «ليركبن» بالياء، وضم الباء. و«عن» بمعنى «بعد». وهذا قول عامة المفسرين واللغويين، وأنشدوا للأقرع بن حابس:

إِنِّي أَمَرْتُ قَدْ حَلَبْتُ الدُّهْرَ أَشْطَرَهُ وَسَأَقْنِي طَبَقٌ مِنْهُ إِلَى طَبَقٍ^(١)

ثم في معنى الكلام خمسة أقوال: أحدها: أنه الشدائد، والأحوال، ثم الموت، ثم البعث، ثم العرض، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الرخاء بعد الشدة، والشدة بعد الرخاء، والغنى بعد الفقر، والفقر بعد الغنى، والصحة بعد السقم، والسقم بعد الصحة، [قاله الحسن. والثالث: أنه كون الإنسان رضيعاً ثم فطيماً ثم غلاماً شاباً ثم شيخاً^(٢)، قاله عكرمة. والرابع: أنه تغير حال الإنسان في الآخرة بعد الدنيا، فيرتفع من كان وضيعاً، ويتضع من كان مرتفعاً، وهذا مذهب سعيد بن جبيرة. والخامس: أنه ركوب سنن من كان قبلهم من الأولين، قاله أبو عبيدة. وكان بعض الحكماء يقول: من كان اليوم على حالة، وغداً على حالة أخرى، فليعلم أن تدبيره إلى سواء^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ يعني: كفار مكة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يؤمنون بمحمد والقرآن، وهو استفهام إنكار ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ ﴿١٢﴾ فيه قولان: أحدهما: لا يصلُّون، قاله عطاء، وابن السائب. والثاني: لا يخضعون له، ويستكينون، قاله ابن جرير، واختاره القاضي أبو يعلى. قال: وقد احتج بها قوم على وجوب سجود التلاوة، وليس فيها دلالة على ذلك، وإنما المعنى: لا يخشعون، ألا ترى أنه أضاف السجود إلى جميع القرآن، والسجود يختص بمواضع منه.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ ﴿١٣﴾ بالقرآن، والبعث، والجزاء ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ ﴿١٤﴾ في صدورهم ويضمرون في قلوبهم من التكذيب. قال ابن قتيبة: «يُوعُونَ»: يجمعون في قلوبهم. وقال الزجاج: يقال: أوعيت المتاع في الوعاء، ووعيت العلم.

قوله تعالى: ﴿تَنْبِيئُهُمْ بِمَا آيَةُ اللَّهِ﴾ ﴿١٥﴾ أي: أخبرهم بذلك. وقال الزجاج: اجعل للكفار بدل البشارة للمؤمنين بالجنة والرحمة، العذاب الأليم. و«المنون» عند أهل اللغة: المقطوع.



(١) أنشده القرطبي في «تفسيره» ٢٧٨/١٩.

(٢) زيادة سقطت من نسخة الرباط، واستدركناها من النسخة الاستنبولية.

(٣) قال ابن جرير الطبري: والصواب من التأويل قول من قال: لتركبن أنت يا محمد حالاً بعد حال، وأمرأ بعد أمر من الشدائد، والمراد بذلك - وإن كان الخطاب إلى رسول الله ﷺ موجهاً - جميع الناس، أنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأحواله أحوالاً.

سورة البروج

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلَ ذَاتَ الْبُرُوجِ ① وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ ② وَشَاهِدَ وَمَشْهُودِ ③ قِيلَ أَصْحَبُ الْأُنْدَادِ ④ أَلْقَارِ ذَاتِ الْوُفُودِ ⑤ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑥ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُعُودٌ ⑦ وَمَا نَفَعُوا مِنْهُمْ لِقَا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑧ الَّذِي لَهُ مَلَأُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑨ إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ⑩ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ⑪ إِنَّ بَلَدَكُمْ لَكَنَدِيمٌ ⑫ إِنَّكُمْ هُمْ يَدِيئُونَ وَبِئْسَ الْفَقِيرُ ⑬ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ⑭ قَالُوا لَنَا يَرْبُؤُا ⑮ هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ الْمُتَوَدِّ ⑯ فَرَعُونَ وَمُتَوَدِّ ⑰ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ⑱ وَاللَّهُ يَنْزِلُ فِي سَحَابٍ مُبِينٍ ⑲ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ⑳ فِي تِلْجٍ مُتَعَدِّ ㉑﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلَ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾ ① قد ذكرنا البروج في [الحجر: ١٦] ﴿وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ﴾ ② هو يوم القيامة بإجماعهم ﴿وَشَاهِدَ وَمَشْهُودِ﴾ ③ فيه أربعة وعشرون قولاً: أحدها: أن الشاهد: يوم الجمعة، والمشهدود: يوم عرفة، رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ^(١)، وبه قال علي، وابن عباس في رواية، وابن زيد. فعلى هذا سمي يوم الجمعة شاهداً؛ لأنه يشهد على كل عامل بما فيه، وسمي يوم عرفة مشهوداً، لأن الناس يشهدون فيه موسم الحج، وتشهده الملائكة. والثاني: أن الشاهد: يوم الجمعة، والمشهدود: يوم النحر، قاله ابن عمر. والثالث: أن الشاهد: الله ﷻ، والمشهدود: يوم القيامة، رواه الواحلي عن ابن عباس. والرابع: أن الشاهد: يوم عرفة، والمشهدود: يوم القيامة، رواه مجاهد عن ابن عباس. والخامس: أن الشاهد: محمد ﷺ، والمشهدود: يوم القيامة، رواه يوسف بن مهران عن ابن عباس، وبه قال الحسن بن علي. والسادس: أن الشاهد: يوم القيامة، والمشهدود: الناس، قاله جابر بن عبد الله. والسابع: أن الشاهد: يوم الجمعة، والمشهدود: يوم القيامة، قاله الضحاك. والثامن: أن الشاهد: يوم التروية، والمشهدود: يوم عرفة، قاله سعيد بن المسيب. والتاسع: أن الشاهد: هو الله، والمشهدود: بنو آدم، قاله سعيد بن جبيرة. والعاشر: أن الشاهد: محمد، والمشهدود: يوم عرفة، قاله الضحاك. والحادي عشر: أن الشاهد: آدم ﷺ، والمشهدود: يوم القيامة، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد. والثاني عشر: أن الشاهد: ابن آدم، والمشهدود: يوم القيامة، رواه ليث عن مجاهد، وبه قال عكرمة. الثالث عشر: أن الشاهد: آدم ﷺ، وذريته، والمشهدود: يوم القيامة، قاله عطاء بن يسار. والرابع عشر: أن الشاهد: الإنسان، والمشهدود: الله ﷻ، قاله محمد بن كعب. والخامس عشر: أن الشاهد: يوم النحر، والمشهدود: يوم عرفة، قاله إبراهيم. والسادس عشر: أن الشاهد: عيسى ﷺ، والمشهدود: أمته، قاله أبو مالك. ودليله قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [المائدة: ١١٧]. والسابع عشر: أن الشاهد: محمد ﷺ، والمشهدود: أمته، قاله عبد العزيز بن يحيى، وبيانه ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَكَ عَلَى هَذِهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. والثامن عشر: أن الشاهد: هذه الأمة، والمشهدود: سائر الناس، قاله الحسين^(٢) بن الفضل، ودليله ﴿لِنَكُونَنَّ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. والتاسع عشر: أن الشاهد: الحفظة، والمشهدود: بنو آدم، قاله محمد بن علي الترمذي، وحكي عن عكرمة نحوه. والعشرون: أن

(١) رواه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وفي سننه موسى بن عبيدة الرندي، وهو ضعيف كما قال الحافظ بن حجر في «التقريب»، وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة: يضعف في الحديث، ضعفه يحيى بن سعيد وغيره من قبل حفظه، وقال ابن كثير: وروى هذا الحديث ابن خزيمة من طرق عن موسى بن عبيدة الرندي، وهو ضعيف، وقد روي موقوفاً على أبي هريرة، وهو أشبه.

(٢) في الأصل: الحسن.

الشاهد: الحق، والمشهود: الكون، قاله الجنيد. والحادي والعشرون: أن الشاهد: الحجر الأسود، والمشهود: الحاج. والثاني والعشرون: أن الشاهد: الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والمشهود: محمد ﷺ، وبيانه ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ...﴾ الآية [آل عمران: ٤٨]. والثالث والعشرون: أن الشاهد: الله ﷻ، والملائكة، وأولو العلم، والمشهود: لا إله إلا الله، وبيانه ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، حكى هذه الأقوال الثلاثة الثعلبي. والرابع والعشرون: أن الشاهد: الأنبياء ﷺ، والمشهود: الأمم، حكاها شيخنا علي بن عبيد الله^(١). وفي جواب القسم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَلَدَكُمْ لَكَلْبٌ لَكَلْبٌ﴾ [آل عمران: ١٨]، قاله قتادة، والزجاج. والثاني: أنه قوله تعالى: ﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَعْدَادِ﴾ [١]، كما أن القسم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ أَتَقَرَّبُونَ﴾ [٢]، حكاه الفراء. والثالث: أنه متروك، وهذا اختيار ابن جرير.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَعْدَادِ﴾ [١] أي: لُعِنُوا. والأعدود: شق يشق في الأرض، والجمع: أخاديد. وهؤلاء قوم حفرُوا حفائر في الأرض وأوقدوا فيها النار، وألقوا فيها من لم يكفر. واختلف العلماء فيهم على ستة أقوال: أحدها: أنه مَلِكٌ كان له ساحر فبعث إليه غلاماً يعلمه السحر، وكان الغلام يمرُّ على راهب، فأعجبه أمره، فتبسه، فعلم به المَلِكُ، فأمره أن يرجع عن دينه، فقال: لا أفعل، فاجتهد الملك في إهلاكه، فلم يقدر، فقال الغلام: لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به: أجمع الناس في صعيد واحد، واصلبيني على جلع، وارمني بسهم من كنانتي، وقل: بسم الله رب الغلام، ففعل، فمات الغلام، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فخذ الأخاديد، وأضرم فيها النار، وقال: من لم يرجع عن دينه فاقحموه فيها، ففعلوا، وهذا مختصر الحديث، وفيه طول، وقد ذكرته في «المغني» و«الحقائق» بطوله من حديث صهيب عن رسول الله ﷺ^(٢). والثاني: أن ملكاً من الملوك سكر، فوقع على أخته، فلما أفاق قال لها: ويحك: كيف المخرج؟ فقالت^(٣) [له]: أجمع أهل مملكتك فأخبرهم أن الله ﷻ قد أحلَّ نكاح الأخوات، فإذا ذهب هذا في الناس وتناشوه، خطبتهم فحرمتهم. ففعل ذلك، فأبوا أن يقبلوا ذلك منه، فبسط فيهم السوط، ثم جرَّ السيف، فأبوا، فخذَّ لهم أخدوداً، وأوقد فيه النار، وقذف من أبي قبول ذلك، قاله علي بن أبي طالب^(٤). والثالث: أنهم ناس اقتتل مؤمنوهم وكفارهم، فظهر المؤمنون، ثم تعاهدوا أن لا يغيِّر بعضهم بعض، فنذر كفارهم، فأخذوهم، فقال له رجل من المؤمنين: أوقدوا ناراً، وارضضوا عليها، فمن تابكم على دينكم، فذاك الذي تحبون، ومن لم يتبكم أقحم النار فاسترحمتم منه، ففعلوا، فجعل المسلمون يقتحمونها، ذكره قتادة. والرابع: أن قوماً من المؤمنين اعتزلوا الناس في الفترة، فأرسل إليهم جبار من عبدة الأوثان، فعرض عليهم الدخول في دينه فأبوا، فخذَّ لهم أخدوداً، وألقاهم فيه، قاله الربيع بن أنس. والخامس: أن جماعة آمنوا من قوم يوسف بن ذي نواس بعدما رفع عيسى، فخذَّ لهم أخدوداً، وأوقد فيه النار، فأحرقهم كلهم، فأنزل الله تعالى: ﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَعْدَادِ﴾ [١] وهم: يوسف بن ذي نواس وأصحابه، قاله مقاتل. والسادس: أنهم قوم كانوا يعبدون صنماً، ومعهم قوم يكتمون إيمانهم، فعلموا بهم، فخذَّوا لهم أخدوداً، وقذفوهم فيه، حكاه الزجاج^(٥). واختلفوا في الذين أحرقوا على خمسة أقوال: أحدها: أنهم كانوا من الحبشة، قاله

(١) وقال الطبري بعد أن سرد معظم الأقوال التي ساقها المصنف: والصواب في ذلك عندنا أن يقال: إن الله أقسم بشاهد شهد، ومشهود شهد، ولم يغيرنا مع إسمائه بللك أي شاهد وأي مشهود أراد، وكل الذي ذكرنا أن العلماء قالوا هو المعنى مما يستحق أن يقال: شاهد ومشهود.

(٢) انظر الحديث بطوله في «مسند أحمد» ١٧/٦، و«صحيح مسلم» رقم ٢٠٠٥، و«سنن الترمذي» ١٦٩/٢.

(٣) من هنا وحتى قبيل تفسير سورة (الشمس) وقع نقص في نسخة الرباط، استدركاه من النسخة الإستانبولية، وقد بذلنا غاية في تقويم ما فيها من تحريف كثير، نبهنا إلى بعضه، وأغلطنا أكثره لمعم فائدته.

(٤) ذكره الطبري ١٣٢/٣٠ وفيه أن ذلك الملك كان من المجوس، وأنهم كانوا أهل كتاب، وذكر في آخره: فلم يزالوا منذ ذلك يستحلون نكاح الأخوات والبنات والأمهات.

(٥) قال ابن كثير: وقد يحتمل أن ذلك قد وقع في العالم كثيراً، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا صفوان، عن عبد الرحمن بن جبير قال: كانت الأخدود في اليمن زمان تبع، وفي القسطنطينية زمان قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم من دين المسيح والتوحيد، فأتخلوا أوثناً وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد، وفي العراق في أرض بابل يختصر الذي صنع الصنم وأمر الناس أن يسجدوا له فامتنع دانيال وصاحبه عزريا وميشائيل، فأوقد لهم أوثناً وألقى فيه الحطب والنار، ثم ألقاهما فيه، فجعلها الله تعالى عليهما برءاً وسلاماً، وأنقذهما منها، =

عليّ كرم الله وجهه. والثاني: من بني إسرائيل، قاله ابن عباس. والثالث: من أهل اليمن، قاله الحسن. وقال الضحاك: كانوا من نصارى اليمن، وذلك قبل مبعث رسول الله ﷺ بأربعين سنة. والرابع: من أهل نجران، قاله مجاهد. والخامس: من التَّبَط، قاله عكرمة. وفي عددهم ثلاثة أقوال: أحدها: اثنا عشر ألفاً، قاله وهب. والثاني: سبعون ألفاً، قاله ابن السائب. والثالث: ثمانون رجلاً، وتسعة نسوة، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ۖ﴾ هذا بدل من ﴿الْأَخْدُودِ﴾ كأنه قال: قتل أصحاب النار، و﴿الْوُقُودِ﴾ مفسر في [البقرة: ٢٤]. وقرأ أبو رزين العقيلي، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، ومجاهد، وأبو العالية، وابن يعمر، وابن أبي عبله «الْوُوقُد» بضم الواو. «إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۖ» أي: عند النار. وكان الملك وأصحابه جلوساً على الكراسي عند الأخدود يعرضون المؤمنين على الكفر، فمن أبقى ألقوه «وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۖ» أي: حضور، فأخبر الله ﷻ في هذه الآيات بقصة قوم بلغ من إيمانهم ويقينهم أن صبروا على التحريق بالنار، ولم يرجعوا عن دينهم. قوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْمُوا مِنْهُمْ﴾ قرأ ابن أبي عبله: «تَقِمُوا» بكسر القاف. قال الزجاج: أي: ما أنكروا عليهم إيمانهم، وقد شرحنا معنى تقموا في [المائدة: ٥٩] و[براءة: ٧٤] وشرحنا معنى «الْمُزِينِ الْحَمِيدِ» في [البقرة: ١٢٩، ٢٦٧].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: لم يخف عليه ما صنعوا، فهو شهيد عليهم بما فعلوا. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَلَازَمْتَهُمْ﴾ أي: أحرقوهم، وعذبوهم؛ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُنْفَتُونَ ۖ﴾ [الدَّارِيات: ١٣] «ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا» من شركهم وفعلهم ذلك بالمؤمنين «فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ» بكفرهم «وَكَمْ عَذَابٌ لِّمَنِيٍّ» بما أحرقوا المؤمنين، وكلا العذابتين في جهنم عند الأكثرين. وذهب الربيع بن أنس في جماعة إلى أن النار ارتفعت إلى الملك وأصحابه فأحرقتهم، فذلك عذاب الحريق في الدنيا. قال الربيع: وقبض الله أرواح المؤمنين قبل أن تمسهم النار. وحكى الفراء أن المؤمنين نَجُوا من النار، وأنها ارتفعت فأحرقت الكفرة. قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْقَرَارُ الْكَبِيرُ﴾ لأنهم فازوا بالجنة. وقال بعض المفسرين: فازوا من عذاب الكفار، وعذاب الآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَلَدَكُمْ رَبِّكَ﴾ قال ابن عباس: إن أخذهُ بالعذاب إذا أخذ الظلمة والجبابرة «لَكَبِيرٌ». قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ بَرُّؤٌ وَيَبِيدٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: يبدئ الخلق ويعيدهم، قاله الجمهور. والثاني: يبدئ العذاب في الدنيا على الكفار ثم يعيده عليهم في الآخرة، رواه العوفي عن ابن عباس. وقد شرحنا في [هود: ٩٠] معنى «الْوُوقُدِ».

قوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْحَكِيمُ ۖ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، والمفضل عن عاصم «المجيد» بالخفض، وقرأ غيرهم بالرفع، فمن رفع «المجيد» جعله من صفات الله ﷻ، ومن كسر جعله من صفة العرش. قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثٌ﴾ أي: قد أتاك حديث «الْمُنُودِ» وهم الذين تجندوا على أولياء الله. ثم بين من هم، فقال تعالى: ﴿وَعَوْنٌ وَقُوَّةٌ ۖ﴾ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يعني: مشركي مكة «فِي تَكْذِيبٍ» لك والقرآن، أي: لم يعتبروا بمن كان قبلهم «وَاللَّهُ يَنْزِلُ فِي رُؤْيَاهُمْ حُطًى ۖ» لا يخفى عليه شيء من أعمالهم «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۖ» أي: كريم، لأنه كلام الله، وليس كما يقولون بشعر، ولا كهانة، ولا سحر. وقرأ أبو العالية، وأبو الجوزاء، وأبو عمران، وابن السميع «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ» بغير تنوين وبخفض «مجيد» «فِي تَوْجٍ تَحْفُوظٍ ۖ» وهو اللوح المحفوظ، منه نسخ القرآن ومسائر الكتب، فهو محفوظ عند الله، محروس به من الشياطين، ومن الزيادة فيه والنقصان منه. وقرأ نافع «محفوظ» رفعا على نعت القرآن. فالمعنى: إنه محفوظ من التحريف والتبديل.



سورة الطارق

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۚ﴾ ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝﴾ ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝﴾ ﴿يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ بِمِثْقَلٍ ۝﴾ ﴿عَلَىٰ مِنْ شَوَّاقٍ ۝﴾ ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الشُّلُبِ وَالرَّكَبِ ۝﴾ ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجَيمٍ لَّاقٍ ۝﴾ ﴿يَوْمَ تَكُونُ النُّجُومُ ۝﴾ ﴿فَأَلْهَمَ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَافِرٍ ۝﴾ ﴿قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۚ﴾ قال ابن قتيبة: الطارق: النجم، سمي بذلك، لأنه يطرق، أي: يطلع ليلاً، وكل من أتاك ليلاً، فقد طرقتك. ومنه قول هند ابنة عتبة:

نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقٍ

نمشي على النمارق^(١)

تريد: إن أبانا نجم في شرفه وعلوه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۚ﴾ قال المفسرون: ذلك أن هذا الاسم يقع على كل ما طرقت ليلاً^(٢)، فلم يكن النبي ﷺ يدري ما المراد به حتى تبينه بقوله تعالى: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝﴾ يعني: المضيء، كما بينا في [الصفات: ١٠]. وفي المراد بهذا النجم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه زُحَل، قاله علي عليه السلام، وروى أبو الجوزاء عن ابن عباس عليه السلام قال: هو زحل، ومسكنه في السماء السابعة لا يسكنها غيره من النجوم، فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء، هبط، فكان معها، ثم رجع إلى مكانه من السماء السابعة، فهو طارق حين ينزل، وطارق حين يصعد. والثاني: أنه الثريا، قاله ابن زيد. والثالث: أنه اسم جنس، ذكره علي بن أحمد النسابوري.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝﴾ قرأ أبي بن كعب، وأبو المتوكل [إن] بالتشديد «كل» بالنصب ﴿لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ وقرأ أبو جعفر، وابن عامر، وعاصم الجحدري، وحمزة، وأبو حاتم عن يعقوب «لَمَّا» بالتشديد. وقرأ الباقر بالتخفيف. قال الزجاج: هذه الآية جواب القسم، ومن خفف فالمعنى: لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ و«لما» لغو. ومن شدد، فالمعنى: [لَمَّا]، قال: فاستعملت «لما» في موضع [لَمَّا] في موضعين. أحدهما: هذا. والآخر^(٣): في باب القسم. تقول: سألتك لما فعلت، بمعنى: [لَمَّا] فعلت. قال المفسرون: المعنى: ما من نفس إلا عليها حافظ، وفيه قولان: أحدهما: أنهم الحفظة من الملائكة، قاله ابن عباس. قال قتادة: يحفظون على الإنسان عمله من خير أو شر. والثاني: حافظ يحفظ الإنسان حتى حين يسلمه إلى المقادير، قاله الفراء. ثم نبه على البعث بقوله تعالى: ﴿يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ بِمِثْقَلٍ ۝﴾ أي: من أي شيء خلقه الله؟ والمعنى: فلينظر نظر التفكر والاستدلال ليعرف أن الذي ابتدأه من نطفة قادرٌ على إعادته.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مِنْ شَوَّاقٍ ۝﴾ قال الفراء: معناه: مدفوق، كقول العرب: سره^(٤) كاتم، وهم ناصب، وليل نائم، وعيشة راضية. وأهل الحجاز يجعلون المفعول فاعلاً. قال الزجاج: ومذهب سيبريه وأصحابه أن معناه النسب إلى الاندفاق، والمعنى: من ماء ذي اندفاق^(٥).

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الشُّلُبِ﴾ قرأ ابن مسعود، وابن سيرين، وابن السميع، وابن أبي عبله ﴿الشُّلُبِ﴾ بضم

(١) انظر «الأغاني» طبع دار الثقافة ٣٤٣/١٢، والقرطبي ٢٠/٢٠.

(٢) قال ابن كثير: قال قتادة وغيره: إنما سمي النجم طارِقاً، لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار، قال: ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح: نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً، أي: يأتيهم فجأة بالليل.

(٣) في الأصل: والآخرة.

(٤) في الأصل: من ماذا اندفاق.

(٥) في الأصل: لإط.

(٥) في الأصل: ستر.

الصاد، واللام جميعاً، يعني: يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة. قال الفراء: يريد يخرج من الصلب والترائب. يقال: يخرج من بين هذين الشئتين خير كثير. بمعنى: يخرج منهما. وفي «الترغيب»^(١) ثلاثة أقوال: أحدها: أنه موضع القلادة، قاله ابن عباس. قال الزجاج: قال أهل اللغة أجمعون: الترائب: موضع القلادة من الصدر، وأنشدوا لامرئ القيس:

مُهْفَهْفَةٌ بَيْضَاءُ غَيْرُ مَقَاضَةٍ تَرَائِبُهَا مَضْفُوءَةٌ كَالسَّجْنَجِلِ^(٢)

قرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: السجنجل: المرأة بالرومية. وقيل: هي سبيكة الفضة، وقيل: السجنجل: الزعفران، وقيل: ماء الذهب. ويروى: البيت «بالسجنجل». والثاني: أن الترائب: اليدان والرجلان والعينان، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. والثالث: أنها أربعة أضلاع من يمنة الصدر، وأربعة أضلاع من يسرة الصدر، حكاه الزجاج.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ﴾ الهاء كناية عن الله ﷻ ﴿عَلَىٰ نَجْوَى﴾ الرجوع: رد الشيء إلى أول حاله. وفي هذه الهاء قولان: أحدهما: أنها تعود على الإنسان، ثم فيه قولان: أحدهما: أنه على إعادة الإنسان حياً بعد موته قادر، قاله الحسن، وقادة. قال الزجاج: ويدل على هذا القول قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلَىٰ التَّوَارِثُ﴾^(٣). والثاني: أنه على رجعه من حال الكبير إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبا، ومن الصبا إلى النطفة قادر، قاله الضحاك^(٣). والقول الثاني: أنها تعود إلى الماء. ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها: رد الماء في الإحليل، قاله مجاهد. والثاني: على رده في الصلب، قاله عكرمة، والضحاك. والثالث: على حبس الماء فلا يخرج، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلَىٰ التَّوَارِثُ﴾^(٣) التي بين العبد وبين ربه حين يظهر خيرها من شرها، ومؤذيها من مضيئها، فإن الإنسان مستور في الدنيا، لا يُدرى أصله، أم لا؟ أتوضأ، أم لا؟ فإذا كان يوم القيامة أبدى الله كل سر، فكان زَيْناً في الوجه، أو شَيْئاً. وقال ابن قتيبة: تُخْتَبَرُ سرائر القلوب.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَمْ يَنْقُذْ﴾ أي: فما لهذا الإنسان المنكر للبعث من قوة يمتنع بها من عذاب الله ﴿وَلَا نَجِيءُ﴾ ينصره.

﴿وَأَنزَلْنَا ذَاتَ النَّجْوَى﴾^(١) وَالْأَرْضِ ذَاتَ الصَّنْعِ^(٢) إِنَّهُ لَنَزَّلَ فَصْلٌ^(٣) وَمَا هُوَ إِلَّا مَزَلٌ^(٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا^(٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا^(٦) فَبُهِلَ الَّذِينَ لَأْمَلَهُمْ رَبِّي^(٧)

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ذَاتَ النَّجْوَى﴾^(١) أي: ذات المطر، وسمي المطر رجعاً لأنه يجيء ويرجع ويتكرر ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتَ الصَّنْعِ﴾^(٢) أي: ذات الشق. وقيل لها هذا، لأنها تتصدع وتتشقق بالنبات، هذا قول المفسرين وأهل اللغة في الحرفين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَنَزَّلَ فَصْلٌ﴾^(٣) يعني به القرآن، وهذا جواب القسم. والفصل: الذي يفصل بين الحق والباطل بالبيان عن كل واحد منهما ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا مَزَلٌ﴾^(٤) أي: باللعب. والمعنى: إنه جد، ولم ينزل باللعب. وبعضهم يقول: الهاء في «إنه» كناية عن الوعيد المتقدم ذكره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني مشركي مكة ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [أي: يحتالون] وهذا الاحتيال المكر برسول الله ﷺ حين اجتمعوا في دار الندوة. ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾^(٦) أي: أجازيهم [على كيدهم] بأن أستدرجهم من حيث لا يعلمون، فأنقم منهم في الدنيا بالسيف، وفي الآخرة بالنار. ﴿فَبُهِلَ الَّذِينَ لَأْمَلَهُمْ رَبِّي﴾ هذا وعيد من الله لهم. ومَهْلٌ وأْمِهْلٌ لغتان جمعتا هاهنا. ومعنى الآية: مهْلهم قليلاً حتى أهلكهم، ففعل الله ذلك بِنَدْر، ونسخ الإمهال بآية السيف. قال ابن قتيبة: ومعنى ﴿رَبِّي﴾ مهلاً،

(١) في الأصل: وفي التراب.

(٢) «ديوانه» ١٥، وإحجاز القرآن للباقلائي ٢٧٠، والقرطبي ٥/٢٠، والمهفهفة: الخفيفة اللحم ليست برهلة، ولا ضخمة البطن، والمفاضة: المسترخية البطن، والترائب جمع تريبة، وهي موضع القلادة من الصدر.

(٣) واختاره ابن جرير الطبري.

ورويك بمعنى أمهل. قال تعالى: ﴿مَهَلْ الْكَافِرِينَ أَتَاهُمْ رُودًا ۝١٧﴾ أي: أمهلهم قليلاً، فإذا لم يتقدمها ﴿أَتَاهُمْ﴾ كانت بمعنى «مهلاً». ولا يتكلم بها إلا مصغرة ومأموراً بها، وجاءت في الشعر بغير تصغير في غير معنى الأمر. قال الشاعر:

كَأَنَّهَا مِثْلُ مَنْ يَمْشِي عَلَى رُودٍ^(١)

أي: على مهل.



(١) كذا أنشده ابن قتيبة في «مشكل القرآن» ٤٢٣، وتبعه ابن فارس في «الصاحبي» ١٢٤، و«مقاييس اللغة» ٤٥٨/٢، والصواب ما في «القرطبي» ١٢/٢٠، و«اللسان» مادة: رود قال الجموح الطقري:

تَكَادُ لَا تَتَلَمَّ الْبَطْحَاءُ وَطَاتِهَا كَأَنَّهَا مِثْلُ يَمْشِي عَلَى رُودِ

وفي «أساس البلاغة» ٣٧٩/١: قال الهذلي:

تَكَادُ لَا تَتَلَمَّ الْبَطْحَاءُ خَطُوتِهَا....

سورة الأعلى

وهي مكية كلها بإجماعهم^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ سَمَوَاتٍ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ وَالَّذِي أَرْخَى أَلْسِنَةً ۝ لَوْلَا أَنَّهُ بِإِذْنِ اللَّهِ لَمْ يَلْبَسْ بِالْهَبْءِ وَمَا يَخْفَى ۝ وَيُبَيِّرُكَ لِلسَّيْرِ ۝ فَذَكِّرْ ۝ إِنَّ نَعْمَ الْوَكِيلَ ۝ سَيَذَكَّرُ مَنْ يَنْشَى ۝ وَنَجْنِيَا الْأَشْقَى ۝ الَّذِي يَصَلِّ أَتَارَ الْكُفَى ۝ ثُمَّ لَا يَتُوبُ فِيهَا وَلَا يَحْتَسِبُ ۝﴾

وفي معنى «سَبِّحْ» خمسة أقوال: أحدها: قل: سبحان ربِّي الأعلى، قاله الجمهور. والثاني: عَظِّم. والثالث: صَلِّ بأمر ربك، روي القولان عن ابن عباس. والرابع: نَزَّه ربك عن السوء، قاله الزجاج. والخامس: نَزَّه اسم ربك وذكرك إياه أن تذكره وأنت معظم له، خاشع له، ذكره الثعلبي^(٢). وفي قوله تعالى: «اسْمُ رَبِّكَ» قولان: أحدهما: أن ذكر الاسم صلة، كقول لبيد بن ربيعة:

إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَبْكُ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اغْتَدَرَ^(٣)والثاني: أنه أصلي^(٤). وقال الفراء [سبح ربك، وأ^(٥)] سبح اسم ربك سواء في كلام العرب.

قوله تعالى: «الَّذِي خَلَقَ سَمَوَاتٍ ۝» أي: فَعَدَّلَ الخلق. وقد أشرنا إلى هذا المعنى في [الانفتار: ٧] «وَالَّذِي قَدَّرَ» قرأ الكسائي وحده «قَدَّرَ» بالتخفيف «فَهَدَى» فيه سبعة أقوال: أحدها: قَدَّرَ الشقاوة والسعادة، وهدى للرشد والضلالة، قاله مجاهد. والثاني: جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها إليه، قاله عطاء. والثالث: قَدَّرَ مدة الجنين في الرحم ثم هداها^(٦) للخروج، قاله السدي. والرابع: قَدَّرَهُم ذكورا وإناثا، وهدى الذكر لإتيان الأنثى، قاله مقاتل. والخامس: أن المعنى: قَدَّرَ فهدى وأضل، فحذف «وأضل»، لأن في الكلام دليلا على ذلك، حكاه الزجاج. والسادس: قَدَّرَ الأرزاق، وهدى إلى طلبها. والسابع: قَدَّرَ الذنوب، وهدى إلى التوبة، حكاها الثعلبي.

(١) روى البخاري في «صحيحه» ٥٣٧/٨ عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ (يعني بالمدينة) مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلنا يقرآن القرآن، ثم جاء عمار، وبلال، وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولاد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء، فما جاء حتى قرأت «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» في سور مثلها. وقد كان رسول الله ﷺ يقرأ بها وبسورة الفاشية في صلاة الجمعة والعيدين ووتر العشاء، وثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صليت سبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى؟».

(٢) وفي «الطبري»: نزه تسميتك يا محمد ربك الأعلى وذكرك إياه: أن تذكره إلا وأنت له خاشع متذلّل، وفي «معالم التنزيل»: نزه تسمية ربك بأن تذكره وأنت له معظم ولذكرك محترم. وروى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن عقبه بن عامر الجهني لما نزلت «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» قال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، فلما نزلت «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» قال: «اجعلوها في سجودكم» وإسناده صحيح.

(٣) تقدم تخريج البيت رقم (٦٠٠)، يقوله لبيد لابنته، في أبيات هي:

تَسْتَبِي ابْنُ عَتَايَ أَنْ يَمِيشَ أَبُوهُمَا
فَقُومَا فَقُولَا بِالَّذِي قَدْ عَلِمْتُمَا
وَقُولَا هُوَ الْمَرَّةَ الَّذِي لَا خَلِيلَ
وقوله: «إلى الحَوْلِ»، أي: إلى أن يحول الحَوْل. والحول: السنة كاملة بأسرها، وقوله: «فقد اعتدَرَ» هنا، بمعنى أعذر، أي بلغ أقصى الغاية في العذر.

(٤) قال الألويسي في «روح المعاني» ٣٤٧/٩: أي نزه أسماء عز وجل عَمَّا لَا يَلِيْق، فلا تقول مما ورد منها اسماً من غير مقتض، ولا تبقه على ظاهره إذا كان ما وضع له مما لا يصح له تعالى، ولا تطلقه على غيره سبحانه أصلاً إذا كان مختصاً به كالاسم الجليل، أو على وجه يشعر بأنه تعالى وغيره فيه سواء إذا لم يكن مختصاً، فلا تقل لمن أعطاك شيئاً مثلاً: هذا رازقي على وجه يشعر بذلك وصته عن الابتذال والتلفظ به في محل لا يليق به...

(٥) زيادة ليست في الأصل، ولكنها يقتضيه السياق. (٦) في الأصل: هدى.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الرَّعْنَ﴾ (١) أي: أنبت العشب، وما ترعاه البهائم ﴿فَجَعَلَهُ﴾ بعد الخضرة ﴿غَنَاءً﴾ قال الزجاج، أي: جفّفه حتى جعله هشيماً جافاً كالغشاء الذي تراه فوق ماء السيل^(١). وقد بينا هذا في سورة [المؤمنين: ٤١]. فاما قوله تعالى: ﴿أَحْوَى﴾ فقال الفراء: الأحوى: الذي قد اسودّ عن القدم، والعنق^(٢)، ويكون أيضاً: أخرج المرعى أحوى: أسود من الخضرة، فجعله غناء^(٣)؛ كما قال تعالى: ﴿مَذْمُومًا ثَانِيًا﴾ (٤) [الرحمن: ٦٤].

قوله تعالى: ﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنسَى﴾ (٥) قال مقاتل: سنعلّمك^(٦) القرآن، ونجمعه في قلبك فلا تنساه أبداً.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدهما: إلا ما شاء الله أن ينسخه فتنسأه، قاله الحسن، وقتادة. والثاني: إلا ما شاء الله أن تنسى شيئاً، فإنما هو كقوله تعالى: ﴿خَلِّدِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [آل عمران: ١٠٧]، فلا يشاء^(٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَمْلِكُ الْمَوْتَ﴾ من القول والفعل ﴿وَمَا يَخْفَى﴾ منهما ﴿وَيُضِلُّكَ لِلْيَمِينِ﴾ (٨) أي: يُسهِّل^(٩) عليك عمل الخير ﴿يَذَكِّرُ﴾ أي: عظ أهل مكة ﴿إِنْ نَسِيتَ الذِّكْرَ﴾ وفي ﴿إِنْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الشرطية، وفي معنى الكلام قولان، أحدهما: إن قُبِلَتْ^(١٠) الذكرى، قاله يحيى بن سلام. والثاني: إن نفعت وإن لم تنفع، قاله علي بن أحمد النيسابوري. والثاني: أنها بمعنى «قد»، فتقديره: قد نفعت الذكرى، قاله مقاتل. والثالث: أنها بمعنى «ما» فتقديره: فذكر ما نفعت الذكرى، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿سَيَذَكِّرُ﴾ سيَتَعَذَّرُ^(١١) بالقرآن ﴿مَنْ يَخْفَى وَيَنْجِبُهَا﴾ ويتجنب الذكرى ﴿الْأَنفَى الَّذِي يَصِلُ أَثَارُ الذِّكْرِ﴾ (١٢) أي: العظيمة الفظيعة لأنها أشد من نار الدنيا ﴿فَمَنْ لَا يُوْثِقُ فِيهَا﴾ فيستريح ﴿وَلَا يَجِيءُ﴾ حياة تنفعه. وقال ابن جرير: نصير نفس أحدهم في حلقه، فلا تخرج فتعارفه فيموت، ولا ترجع إلى موضعها من الجسم فيحيا. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ (١٣) وَذَكَرَ أَسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٤) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٥) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٦) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٧) صُفِّ إِنْزَاهِمَ وَمُؤَسَّى (١٨)

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ قال الزجاج: أي: صادف البقاء الدائم، والفوز ﴿مَنْ زَكَّى﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: من تطهَّر^(١٩) [من] الشرك بالإيمان، قاله ابن عباس. والثاني: من أعطى صدقة الفطر، قاله أبو سعيد الخدري، وعطاء وقتادة. والثالث: من كان عمله زاكياً، قاله الحسن، والربيع. والرابع: أنها زكوات الأموال كلّها، قاله أبو الأحوص. والخامس: تكثّر بتقوى الله. ومعنى الزاكي: النامي الكثير، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ أَسْمَ رَبِّهِ﴾ قد سبق بيانه [الأحزاب: ٣١]. وفي قوله تعالى: ﴿فَصَلَّى﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أنها الصلوات الخمس، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: صلاة العيدين، قاله أبو سعيد الخدري. والثالث: صلاة التطوّع، قاله أبو الأحوص. والقول قول ابن عباس في الآيتين، فإن هذه السورة مكية بلا خلاف، ولم يكن بمكة زكاة، ولا عيد.

قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٢٠) قرأ أبو عمرو، وابن قتيبة، وزيد عن يعقوب «بل يؤثرون» بالياء،

(١) في الأصل: السيل، وهو تصحيف.

(٢) في الأصل: والعنق، وهو تصحيف، والتصحيح من «اللسان» نقلًا عن الفراء.

(٣) نص عبارة الفراء كما في «اللسان»: وقد يكون معناه أيضاً: أخرج المرعى أحوى، أي: أخضر فجعله غناء بعد خضرته، فيكون مؤخرًا معناه التقديم والأحوى: الأسود من الخضرة.

(٤) في الأصل: سيعلمك.

(٥) عبارة الفراء كما في «القرطبي» ١٨/١٠: إلا ما شاء الله وهو لم يشأ أن ينسى شيئاً؛ كقوله تعالى: ﴿خَلِّدِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ولا يشاء.

(٦) في الأصل: لسهل.

(٧) في الأصل: قلت، والتصحيح من مجموعة تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٨) في الأصل: أسرمت ينطق، والتصحيح من «مجمع البيان» للطبرسي. (٩) في الأصل: يظهر.

والباقون بالتاء، واختار الفراء والزجاج التاء، لأنها رويت عن أبي بن كعب: «بل أنتم تؤثرون». فإن أريد بذلك الكفار، فالمعنى: أنهم يؤثرون الدنيا على الآخرة، لأنهم لا يؤمنون بها. وإن أريد به المسلمون، فالمعنى: يؤثرون الاستكثار من الدنيا على الاستحسان من الثواب. قال ابن مسعود: إن الدنيا عجّلت لنا، وإن الآخرة نُعِثَتْ^(١) لنا، وزويت عنا، فأخذنا بالعاجل [وتركتنا الآجل]^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ﴾ يعني الجنة أفضل ﴿وَالْبَقَى﴾ أي: أدوم من الدنيا. ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ في المشار إليه أربعة أقوال: أحدها: أنه قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(٣) قاله قتادة. والثاني: هذه السورة، قاله عكرمة، والسدي. والثالث: أنه لم يرد [أن معنى] السورة [في الصحف الأولى]، ولا الالفاظ^(٤) بعينها، وإنما أراد أن الفلاح لمن تزكى وذكر اسم ربه فصلّى، في الصحف الأولى، كما هو في القرآن، قاله ابن قتيبة. والرابع: أنه من قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾^(٥) إلى قوله: ﴿وَأَبْقَى﴾ قاله ابن جرير^(٦). ثم بين الصحف الأولى ما هي، فقال: ﴿صُحُفٌ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ وقد فسرناها في [النجم: ٣٦].



(١) في الأصل: نُعِيت.

(٢) زيادة لم ترد في الأصل، استدركتها من الطبري، والبخاري ومجمع البيان والقرطبي، وابن كثير. وعبارة ابن جرير الطبري في «التفسير»: عن عرقبة الثقفي قال: استقرأت ابن مسعود «سُجَّ اسْمُ رَبِّكَ الْكَلِّ» فلما بلغ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آتُوا الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه وقال: آثرنا الدنيا على الآخرة، فسكت القوم، فقال: آثرنا الدنيا لأننا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها، وزويت عنا الآخرة، فأخذنا بالعاجل وتركتنا الآجل. قال ابن كثير: وهذا منه على وجه التواضع والهضم، أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو، والله أعلم.

(٣) في الأصل: لفاظها، والتصويب من «غريب القرآن» ٥٢٤.

(٤) واختاره، وقال: وإنما قلت: ذلك أولى بالصحة من غيره، لأن «هذا» إشارة إلى حاضر، فلأن يكون إشارة إلى ما قُرِبَ منها، أولى من أن يكون إشارة إلى غيره.

سورة الغاشية

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَلَّ أَتْلَكَ حَدِيثَ الْفَنَشِيَةِ ① وَجُؤَ يَوْمَئِذٍ خَشِيمَةً ② عَامِلَةً نَّاصِبَةً ③ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ④ تَشَقَّى مِنْ عَيْنٍ مَائِيَةٍ ⑤ لَيْسَ لَكُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ ⑥ لَا يُسْتَبْنَى وَلَا يُفْنَى مِنْ جُوعٍ ⑦﴾

قوله تعالى: ﴿حَلَّ أَتْلَكَ﴾ أي: قد أتاك، قاله قطرب. وقال الزجاج: والمعنى: هذا لم يكن من علمك^(١)، ولا من علم قومك. وفي ﴿الْفَنَشِيَةِ﴾ قولان: أحدهما: أنها القيامة تغشى الناس بالأهوال، قاله ابن عباس، والضحاك، وابن قتبية. والثاني: أنها النار تغشى وجوه الكفار، قاله سعيد بن جبيرة، والقرطبي، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَجُؤَ يَوْمَئِذٍ خَشِيمَةً ②﴾ أي: ذليلة، وفيها قولان: أحدهما: أنها وجوه اليهود والنصارى، قاله ابن عباس. والثاني: أنه جميع الكفار، قاله يحيى بن سلام.

قوله تعالى: ﴿عَامِلَةً نَّاصِبَةً ③﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنهم الذين عملوا ونصبوا في الدنيا على غير دين الإسلام، كعبدة الأوثان، وكفار أهل الكتاب، مثل الرهبان وغيرهم، رواء عطاء عن ابن عباس. والثاني: أنهم الرهبان، وأصحاب الصوامع، رواء أبو الضحى عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبيرة، وزيد بن أسلم. والثالث: عاملة ناصبة في النار بمعالجة السلاسل والأغلال، لأنها [لم]^(٢) تعمل لله في الدنيا، فأعملها وأنصبها في النار، وروى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن. وقال قتادة: تكبرت في الدنيا عن طاعة الله، فأعملها وأنصبها في النار بالانتقال من عذاب إلى عذاب. قال الضحاك: يُكَلَّفُونَ ارتقاء جبل في النار. وقال ابن السائب: يَخْرُون على وجوههم في النار. وقال مقاتل: عاملة في النار تأكل من النار، ناصبة للعذاب. والرابع: عاملة في الدنيا بالمعاصي ناصبة في النار يوم القيامة، قاله عكرمة والسدي. والكلام هاهنا على الوجوه، والمراد أصحابها. وقد بينا معنى «النصب» في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَهْمُ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [الحجر: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ④﴾ قرأ أهل البصرة وعاصم إلا حفصاً «تُضَلَّى» بضم التاء. والباقون بفتحها^(٣). قال ابن عباس: قد حميت فهي تلتظى^(٤) على أعداء الله، «تَشَقَّى مِنْ عَيْنٍ مَائِيَةٍ ⑤»، أي: متناهية في الحرارة. قال الحسن: وقد [أوقدت]^(٥) عليها جهنم منذ خلقت، فدفعوا إليها [وزدا]^(٦) عطاشاً.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ ⑥﴾ فيه ستة أقوال: أحدها: أنه نبت ذو شوك لا طعم بالأرض، وتسميه قريش «الشَّوْشِق» فإذا هاج سموه: ضريعاً، رواء العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقاتدة. والثاني: أنه شجر من نار، رواء الوالبي عن ابن عباس. والثالث: أنها الحجارة، قاله ابن جبيرة. والرابع: أنه السَّكَمُ^(٧)، قاله أبو الجوزاء. والخامس: أنه في الدنيا: الشوك اليابس الذي ليس له ورق، وهو في الآخرة شوك من نار، قاله ابن زيد. والسادس: أنه طعام يضرعون إلى الله تعالى منه، قاله ابن كيسان. قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية قال المشركون:

(١) في الأصل: عملك، والتصحيح من «القرطبي».

(٢) قال في «البحر» و«روح المعاني»: وقرأ خارجة «تُضَلَّى» بضم التاء، وفتح الصاد مشدداً للام، للمبالغة.

(٣) في الأصل: تظلى.

(٤) كلمة «أوقدت» سقطت من الأصل، واستدركتها من البغوي والخازن والقرطبي.

(٥) زيادة من البغوي والخازن والقرطبي.

(٦) في الأصل: السلا.

(٧) كلمة «السَّكَم» سقطت من الأصل، واستدركتها من البغوي والخازن والقرطبي.

إن إبلنا لتسمن على الضريع، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَيْنُ وَلَا يَتْنِي مِنْ جُرْحٍ﴾ (٧) وكذبوا، فإن الإبل إنما ترعاه ما دام رطباً، وحينئذ يسمى شبرقاً، لا ضريعاً، فإذا يسى يسمى: ضريعاً لم يأكله شيء. فإن قيل: إنه (١) قد أخبر في هذه الآية: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ (٨) (٢) وفي مكان آخر: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَشَلٍ﴾ (٣١) [الحاقة: ٣٦] فكيف الجمع بينهما؟ فالجواب: أن النار دركات، وعلى قدر الذنوب تقع العقوبات، فمنهم من طَعَامُهُ الرُّقُومُ، [ومنهم] (٣) مَنْ طَعَامُهُ غَشَلٍ، ومنهم من شرابه الحميم، ومنهم مَنْ شَرَابُهُ الصَّدِيد، قاله ابن قتيبة.

﴿وَجُورٌ يَوْمَيزُ نَاعِمَةً﴾ (٨) لَسَمِيحاً رَاضِيَةً (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَئِيَّةٌ (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْوَعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْشُوعَةٌ (١٤) وَنَقَارٌ مَصْلُوعَةٌ (١٥) وَزَكَاتٌ مَبْنُوعَةٌ (١٦) أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦)

قوله تعالى: ﴿وَجُورٌ يَوْمَيزُ نَاعِمَةً﴾ (٨) أي: في نعمة وكرامة ﴿لَسَمِيحاً﴾ في الدنيا ﴿رَاضِيَةً﴾ والمعنى: رضيت بشواب عملها ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ (٩) قد فسرناه في [الحاقة: ٢٢]، ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَئِيَّةٌ﴾ (١٠) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ورويس «لا يسمع» بياء مضمومة. «لاغية» بالرفع. وقرأ نافع كذلك إلا أنه بتاء مضمومة، والباقون بتاء مفتوحة، ونصب «لاغية» والمعنى: لا تسمع فيها كلمة [لغز] (١١) ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْوَعَةٌ﴾ (١٢) قال ابن عباس: ألواحها من ذهب مكللة بالزبرجد، والدُرّ، والياقوت، مرتفعة ما لم يجى أهلها، فإذا أراد أن يجلس عليها صاحبها، تواضعت له حتى يجلس عليها، ثم ترتفع إلى موضعها ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْشُوعَةٌ﴾ (١٣) عندهم. وقد ذكرنا «الأكواب» في [الزخرف: ٧١]، ﴿وَنَقَارٌ﴾ وهي الوسائد، واحدها: نمرقة بضم النون. قال الفراء: وسمعت بعض كلب تقول: نمرقة، بكسر النون والراء ﴿مَصْلُوعَةٌ﴾ بعضها إلى جنب بعض، والزرايبي: الطنافس [التى] (١٤) لها خَمَلٌ (١٥) رقيق ﴿مَبْنُوعَةٌ﴾ كثيرة. قال ابن قتيبة: كثيرة مفرقة. قال المفسرون: لما نعت الله سبحانه ما في الجنة، عجب من ذلك أهل الكفرة، فذكروهم صنعه، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ﴾ (١٦) وقال قتادة: ذكر الله ارتفاع [سُرُرٍ] (١٧) الجنة، وفرشها، فقالوا: كيف نصعدُها، فنزلت هذه الآية (١٨). قال العلماء: وإنما خص الإبل لأن العرب لم يَرَوْا بهيمة قط أعظم منها، ولم يشاهدوا الفيل إلا الشاذ منهم، ولأنها كانت أنفَسَ أموالهم وأكثرها، لا تفارقهم ولا يفارقونها، فيلاحظون فيها العبر الدالة على قدرة الخالق، من إخراج لبنها من بين قرث ودم [و] (١٩) من عجيب خلقها، وهي على عظمها مذللة للحمل الثقيل، وتنقاد للصبي الصغير، وليس في ذوات الأربع ما يحمل عليه وقره وهو بارك فيطبق النهوض به سواها. وقرأ ابن عباس، وأبو عمران الجوني، والأصمعي عن أبي عمرو «الإبل» بإسكان الباء، وتخفيف اللام. وقرأ أبي بن كعب، وعائشة، وأبو المتوكل، والجحدري، وابن السميع، ويونس بن حبيب وهارون كلاهما عن أبي عمرو «الإبل» بكسر الباء، وتشديد اللام. قال هارون: قال أبو عمرو: «الإبل» بتشديد اللام: السحاب الذي يحمل الماء.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ وقرأ علي بن أبي طالب، وابن عباس، وأبو العالية، وأبو عمران، وابن أبي عَبلَة «خُلِقَتْ» بفتح الخاء، وضم التاء. وكذلك قرؤوا: «رُفِعَتْ» و«نُصِبَتْ» و«سُطِحَتْ».

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (١٨) من الأرض حتى لا ينالها شيء بغير عَمَلٍ ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (١٩)

(١) في الأصل: ابن.

(٢) زيادة لم ترد في الأصل.

(٣) سقطت من الأصل، واستدركتها من القرطبي نقلاً عن الفراء والأخفش.

(٤) زيادة من الطبري والقرطبي.

(٥) في الأصل: حل.

(٦) رواه ابن جرير الطبري ١٦٥/٣٠، وأورده السيوطي في «الدر» ٣٤٣/٦ وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم.

(٧) كلمة «سُرر» سقطت من الأصل، واستدركتها من البهوي والخازن.

(٨) ذكره البهوي والخازن عن قتادة بغير سند.

(٩) زيادة ليست في الأصل.

على الأرض لا تزول ولا تتغير ﴿وَلِلَّأَرْضِ كَيْفٌ سُطِحَتْ﴾^(١) أي: بُسِطَتْ. والسطح: بسط الشيء، وكل ذلك يدل على [قدرة]^(٢) خالقه ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: عَظْ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ أي: واعظ، ولم يكن حينئذ أمر بغير التذكير، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ أي: بمسلط، فتقتلهم وتكرههم على الإيمان^(٣). ثم نسختها آية السيف. وقرأ أبو رزين، وأبو عبد الرحمن، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والحلواني عن ابن عامر «بمسيطر» بالسين. وقد سبق بيان «المسيطر» في قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمُ الْمُضَيِّرُونَ﴾ [الطور: ٣٧].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى﴾ وهذا استثناء منقطع معناه: لكن من تولى ﴿وَكَفَرَ﴾ بعد التذکر. وقرأ ابن عباس، وعمر بن العاص، وأنس بن مالك، وأبو مجلز، وقتادة، وسعيد بن جبیر «ألا من تولى» بفتح الهمزة وتخفيف اللام ﴿يَمْدَبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾^(٤) وهو أن يدخله جهنم، وذلك أنهم قد عذبوا في الدنيا بالجوع، والقتل، والأسر، فكان عذاب جهنم هو الأكبر ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾^(٥) قرأ أبي بن كعب، وعائشة، وعبد الرحمن، وأبو جعفر «إيأبهم» بتشديد الياء، أي: رجوعهم ومصيرهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾^(٦) قال مقاتل: أي: جزاءهم.



(١) قال القرطبي: وقرأ الحسن وأبو حيوه وأبو رجاء «سُطِحَتْ» بتشديد الطاء وإسكان التاء.

(٢) زيادة ليست في الأصل.

(٣) روى مسلم في «صحيحه» ٥٣/١ عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله، ثم قرأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾^(١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ»، ورواه الترمذي (١٧٠/٢) وقال: حديث حسن صحيح.

سورة الفجر

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَكَانَ عَشَرَ ٢ وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ ٣ وَاللَّيْلَ إِذَا بَسَرَ ٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَاءِ ٦ إِنَّ مَاءَ ذَاتِ الْمَمَارِ ٧ الْيَ لَمْ يَخْلُقْ مِنْهَا فِي الْبَلَدِ ٨ وَتَمُودَ الَّذِي جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ ٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَرْكَانِ ١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ ١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَإِلْمَزَادٌ ١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ قال ابن عباس: الفجر: انفجار الظلمة عن الصبح، وانفجر الماء: انبجس. قال شيخنا علي بن عبيد الله: الفجر: ضوء النهار إذا انشق عنه الليل، وهو مأخوذ من الانفجار، يقال: انفجر النهر ينفجر انفجاراً: إذا انشق فيه موضع لخروج الماء، ومن هذا سمي الفاجر فاجراً، لأنه خرج عن طاعة الله. وللمفسرين في المراد بهذا الفجر ستة أقوال: أحدها: أنه الفجر المعروف الذي هو بدء النهار، قاله علي عليه السلام^(١). وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: هو انفجار الصبح كل يوم، وبهذا قال عكرمة، وزيد بن أسلم، والقرظي. والثاني: صلاة الفجر، رواه عطية عن ابن عباس. والثالث: النهار كله، فبُعث عنه بالفجر، لأنه أوله، وروى هذا المعنى أبو نصر^(٢) عن ابن عباس. والرابع: أنه فجر يوم النحر خاصة، قاله مجاهد^(٣). والخامس: أنه فجر أول يوم^(٤) من ذي الحجة، قاله الضحاك. والسادس: أنه أول يوم من المحرم تنفجر منه السنة، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَشَرَ ٢﴾ فيها أربعة أقوال: أحدها: أنه عشر ذي الحجة، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي ومقاتل^(٥). والثاني: أنها العشر الأواخر من رمضان، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس. والثالث: العشر الأول من رمضان، قاله الضحاك. والرابع: العشر الأول من المحرم، قاله يمان بن رثاب.

قوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ ٣﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف «الوتر» بكسر الواو، وفتحها الباقون، وهما لغتان. قال الفراء: الكسر لقريش وتميم وأسد، والفتح لأهل الحجاز. وللمفسرين في «الشفع والوتر» عشرون قولاً: أحدهما: أن الشفع: يوم عرفة ويوم الأضحى، والوتر: ليلة النحر، رواه أبو أيوب الأنصاري عن رسول الله ﷺ^(٦). والثاني: يوم النحر، والوتر: يوم عرفة، [رواه جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ، وبه قال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك]^(٧). والثالث: أن الشفع والوتر: الصلاة، منها الشفع، ومنها الوتر، رواه عمران بن حصين عن

(١) وهو المختار، وقد قال بذلك أيضاً ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والسدي.

(٢) في الأصل: أبو نصر، والتصحيح من «الطبري» وكتب الرجال، ولا يعرف له اسم. أخرج له البخاري في «الأدب المفرد»، وقال أبو زرعة: أبو نصر الأسدي الذي يروي عن ابن عباس هه.

(٣) وبذلك قال مسروق، ومحمد بن كعب، وهو خاتمة الليالي العشر. (٤) في الأصل: يوم أول.

(٥) وهو الذي اختاره ابن جرير الطبري، وقال: الصواب من القول في ذلك عندنا أنها عشر الأضحى، لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه. وقال ابن كثير: الليالي العشر: المراد بها عشر ذي الحجة، كما قاله ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف، قال: وقد ثبت في «صحيح البخاري» عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام» يعني عشر ذي الحجة، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء».

(٦) قال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٣٧/٧: رواه الطبراني في حديث طويل، وفيه واصل بن السائب، وهو متروك. وقال الحافظ السيوطي في «الدر» ٢٤٦/٦: أخرجه الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي أيوب الأنصاري عليه السلام.

(٧) عبارة الأصل: «رواه جابر بن عبد الله عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ، وبه قال عكرمة والضحاك» وهي خطأ، فإن جابراً عليه السلام لم يروه عن رسول الله ﷺ بواسطة ابن عباس، وإنما رواه مباشرة عن رسول الله ﷺ كما في «مسند أحمد» ٣٢٧/٣ من رواية زيد بن الحباب عن عياض بن عتبة =

رسول الله ﷺ^(١)، وبه قال قتادة. والرابع: [أن الشفع: الخلق كله، والوتر: الله تعالى]^(٢)، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد في رواية مسروق، وأبو صالح. والخامس: أن الوتر: آدم شفع بزوجه^(٣)، رواه مجاهد عن ابن عباس. والسادس: أن الشفع يومان بعد يوم النحر، وهو النفر الأول، والوتر: اليوم الثالث، وهو النفر الأخير، قاله عبد الله بن الزبير، واستدل بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَجَلَّى فِي يَوْمَيْنِ فَكَأَيْدِي اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. والسابع: أن الشفع: صلاة الغداة، والوتر: صلاة المغرب، حكاه عطية. والثامن: أن الشفع: الركعتان من صلاة المغرب، والوتر: الركعة الثالثة، قاله أبو العالية، والربيع بن أنس. والتاسع: أن الشفع والوتر: الخلق كله، منه شفع، ومنه وتر، قاله ابن زيد ومجاهد في رواية. والعاشر: أنه العدد، منه شفع، ومنه وتر، وهذا والذي قبله مرويان عن الحسن. والحادي عشر: أن الشفع: عشر ذي الحجة، والوتر: أيام [منى]^(٤) الثلاثة، قاله الضحاك. والثاني عشر: أن الشفع: هو الله، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ تَجَرٍّ لَدُنَّا إِلَّا هُوَ رَافِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٧]، والوتر: هو الله، لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٥)، قاله سفيان بن عيينة. والثالث عشر: أن الشفع: هو آدم وحواء. والوتر: الله تعالى، قاله مقاتل بن سليمان. والرابع عشر: أن الشفع: الأيام والليالي، والوتر: اليوم الذي لا ليلة [بعده]^(٦)، وهو يوم القيامة، قاله مقاتل بن حيان. والخامس عشر: الشفع: درجات الجنان، لأنها ثمان، والوتر: ذركات النار لأنها سبع، فكان الله أقسم بالجنة والنار، قاله الحسين بن الفضل. والسادس عشر: الشفع: تضاد أوصاف المخلوقين بين عزٍّ وقُدْرَةٍ، وقوة وعجز، وضعف، وعلم وجهل، وموت وحياة. والوتر: انفراد صفات الله ﷻ عزٌّ بلا ذل، وقُدْرَةٌ بلا عجز، وقوة بلا ضعف، وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت، قاله أبو بكر الورَّاق. والسابع عشر: أن الشفع: الصفا والمروة، والوتر: البيت. والثامن عشر: أن الشفع: مسجد مكة والمدينة، والوتر: بيت المقدس. والتاسع عشر: أن الشفع: القرآن بين^(٧) الحج والتمتع، والوتر: الأفراد. والعشرون: الشفع: العبادات المتكررة، كالصلاة، والصوم، والزكاة، والوتر: العبادة التي لا تتكرر، وهو الحج، حكى هذه الأقوال الأربعة الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿وَأَكْبَلِي إِذَا يَسَّرَ﴾^(٨)، وقرأ ابن كثير، ويعقوب «يسري» بياء في الوصل والوقف، وافقهما في الوصل نافع وأبو عمرو. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي «يسر» بغير ياء في الوصل والوقف. قال الفراء، والزجاج: الاختيار حذفها لمشاكلتها لرؤوس الآيات، ولأتباع المصحف^(٩). وفي قوله تعالى: ﴿وَأَكْبَلِي إِذَا يَسَّرَ﴾^(١٠) قولان: أحدهما: أن الفعل له، ثم فيه قولان: أحدهما: إذا يسري ذاهباً، قاله الجمهور، وهو اختيار الزجاج. والثاني: إذا يسري مقبلاً، قاله قتادة. والقول الثاني: أن الفعل لغيره^(١١)، والمعنى: إذا يسري فيه؛ كما يقال: ليل نائم، أي: ينام

= عن خير بن نعيم عن أبي الزبير عن جابر، وأبو الزبير، هو محمد بن مسلم بن تدرس أبو الزبير المكي، وهو صدوق من رجال مسلم، إلا أنه يدلس كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب». وقال ابن كثير: ورواه النسائي عن محمد بن رافع وعبد بن عبد الله، وكل منهما عن زيد بن الحباب به، ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث زيد بن الحباب به، قال: وهذا إسناد رجاله لا بأس بهم، وعندي أن المتن في رفعه تكارة، والله أعلم. وقال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٣٧/٧: رواه البزار، وأحمد، ورجالهما رجال الصحيح، غير عياض بن عتبة، وهو ثقة، وأما عبد الله بن عباس، فلم يروه مرفوعاً، وإنما روي هذا المعنى موقوفاً، كما في «الطبري» ١٧٠/٣٠، ولذلك قال ابن كثير بعدما أورد حديث جابر من رواية أحمد والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم، قال (أي هذا المعنى) ابن عباس، وعكرمة، والضحاك أيضاً.

(١) رواه أحمد في «المستدرك» ٤٤٢/٤ من حديث همام عن قتادة عن عمران بن عصام القبيعي أبو عمارة البصري، عن شيخ من أهل البصرة، عن عمران بن حصين رضي الله عنه. ورواه أيضاً الترمذي ١٧٠/٢ من حديث همام عن قتادة به، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة، وقد رواه خالد بن قيس أيضاً عن قتادة، ورواه ابن جرير الطبري ١٧٢/٣٠ عن خالد بن قيس عن قتادة به، والحاكم في «المستدرك» ٥٢٢/٢ من حديث همام عن قتادة به، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وفيه نظر؛ لأن الراوي عن عمران بن حصين مجهول، ولم يوثقه إلا ابن حبان، وأورده السيوطي في «الدرر» ٣٤٦/٦ وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) عبارة الأصل: «أن الشفع الوتر وله الخلق كله، والوتر: الله تعالى» والتصحيح من الطبري والقرطبي.

(٣) في الأصل: بن وجه، والتصحيح من القرطبي، وقيل: إن الشفع والوتر آدم وحواء، لأن آدم كان فرداً فشفع بزوجه حواء، فصار شفعاً بعد وتر.

(٤) سقطت من الأصل، واستدركتها من القرطبي.

(٥) سقطت من الأصل، واستدركتها من القرطبي.

(٦) في الأصل: في.

(٧) في الأصل: لميرة.

(٨) وهو اختيار ابن جرير الطبري.

فيه، قاله الأخفش، وابن قتيبة. وفي المزاد بهذا الليل ثلاثة أقوال: أحدها: أنه عام في كل ليلة، وهذا الظاهر. والثاني: أنه ليلة المزدلفة، وهي ليلة جَمْع^(١)، قاله مجاهد وعكرمة. والثالث ليلة القدر، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ﴾ أي: [هل في ذلك المذكور من الأمور التي أقسمنا بها]^(٢) ﴿قَسَمَ لِيَّ جِبْرِئِيلُ﴾ أي: لذي عقل، وسمي العقل حَجْرًا، لأنه يحجر صاحبه عن القبيح، وسمي عقلاً، لأنه يعقل عما لا يحسن، وسمي العقل النُّهْي، لأنه ينهي عما لا يحل^(٣). ومعنى الكلام: أن من كان ذا لبٍّ عَليم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء، فيه دلائل على توحيد الله وقدرته، فهو حقيق أن يقسم به لدلالته. وجواب القسم قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْكَاتِ﴾^(٤) فاعترض بين القسم وجوابه بقوله^(٥) تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَعَلْ رَبُّكَ يَمَاوُءَ﴾^(٦) فَخَوْفُ أَهْلِ مَكَّةَ بِإِهْلَاكِهَا مِنْ كَانَ أَشَدَّ مِنْهُمْ. وقرأ ابن مسعود، وابن يعمر «بعاد إرم» بكسر الدال من غير تنوين على الإضافة. وفي «إرم» أربعة أقوال: أحدها: أنه اسم بلدة، قال الفراء: ولم يُجَرَّ^(٧) «إرم» لأنها اسم بلدة ثم فيها ثلاثة أقوال، أحدها: أنها دمشق، قاله سعيد بن المسيب، وعكرمة، وخالد الزبيري. والثاني: الاسكندرية، قاله محمد بن كعب^(٨). والثالث: أنها مدينة صنعها شداد بن عاد، وهذا قول كعب. وسياطي ذكره إن شاء الله تعالى. والقول الثاني: أنه اسم أمة من الأمم، ومعناه: القديمة^(٩)، قاله مجاهد. والثالث: أنه قبيلة من قوم عاد^(١٠)، قاله قتادة ومقاتل. قال الزجاج: وإنما لم تصرف «إرم» لأنها جعلت اسماً للقبيلة ففتحت، وهي في موضع خفض. والرابع: أنه اسم لَجْدٍ عادٍ، لأنه عاد بن عَوْصِ بْنِ إرم بن سام بن نوح، قاله ابن إسحاق^(١١). قال الفراء: فإن كان اسماً لرجل على هذا القول، فإنما ترك إجراؤه^(١٢)، لأنه كالعجمي، قال أبو عبيدة: هما عادان، فالأولى: هي إرم، وهي التي قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾^(١٣) [النجم: ٥٠]، وهل قوم هود عاد الأولى، أم لا؟ فيه قولان قد ذكرناهما في [النجم]^(١٤). وفي قوله تعالى: ﴿إِرمَ كَانَتْ الْوَسَاوِ﴾^(١٥) أربعة أقوال: أحدها: لأنهم كانوا أهل عمد وخيام يطلبون الكلا حيث كان، ثم يرجعون إلى منازلهم، فلا يقيمون في موضع، روى هذا المعنى عطاء عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقاتدة، والفراء^(١٦). والثاني: أن معنى ذات العماد: ذات الطول، روى عن ابن عباس أيضاً، وبه قال مقاتل، وأبو عبيدة. قال الزجاج: يقال: رجل مُعَمَّدٌ: إذا كان طويلاً. والثالث:

(١) في الأصل: جمعة، والتصحيح من الطبري «والدر الثور»، سميت بذلك لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله تعالى.

(٢) عبارة الأصل «فيما سأله ولده» وقد قومتها كما ترى اعتماداً على كتب التفسير.

(٣) عبارة البقوي: وسمي العقل حجراً، لأنه يحجر صاحبه عما لا يحل ولا ينبغي، كما يسمى عقلاً، لأنه يعقله عن القبائح، ونهى، لأنه ينهى عما لا ينبغي.

(٤) سقطت من الأصل الباء من «بقوله»، والتصحيح من «مجمع البيان» للطبرسي.

(٥) في الأصل: ولم يجز، وهو تصحيف، والتصحيح من الطبري، ومعنى «لم يجز» لم يصرف.

(٦) علق ابن كثير رحمه الله على هذه الأقوال بقوله: ومن زعم أن المراد بقوله: ﴿إِرمَ كَانَتْ الْوَسَاوِ﴾ مدينة، إما دمشق كما روى عن سعيد بن المسيب، وعكرمة، أو إسكندرية، كما روى عن القرظي، أو غيرهما، ففيه نظر، فإنه كيف يلتم الكلام على هذا ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَعَلْ رَبُّكَ يَمَاوُءَ﴾^(١) ﴿إِرمَ كَانَتْ الْوَسَاوِ﴾ إن جعل ذلك بدلاً أو عطف بيان، فإنه لا يتسق الكلام حيثئذ. ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد، وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم، قال: وإنما نهيت على ذلك لثلاث يفتقر بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية من ذكر مدينة يقال لها: إرم ذات العماد، مبنية بلبن الذهب والفضة قصورها ودورها وبساتينها، وأن حصنها لآلئ وجواهر، وترابها ينادق المسك، وأنهارها سارحة، وثمارها ساقطة، ودورها لا أنيس بها، وسورها وأبوابها تصفر، ليس بها دأب ولا مسجيب، وأنها تنتقل، فتارة تكون بأرض الشام، وتارة باليمن، وتارة بالعراق، وتارة بغير ذلك من البلاد، فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين من وضع بعض زنادقتهم، ليختبروا بذلك عقول الجيلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك.

(٧) يعني عاداً الأولى.

(٨) قال ابن جرير الطبري: وأشبه الأقوال فيه بالصواب عندي أنها اسم قبيلة من عاد، ولذلك جاءت القراءة بترك إضافة عاد إليها وترك إجرائها، قال: ولو كانت إرم اسم بلدة أو اسم جد لعاد، لجاءت القراءة بإضافة عاد إليها، ولكنها اسم قبيلة منها فيما أرى، كما قال قتادة والله أعلم، فلذلك أجمعت القراءة فيها على ترك الإضافة وترك الإجراء.

(٩) الذي في الطبري والقرظي وابن كثير عن ابن إسحاق: عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح.

(١٠) في الأصل: ترك جازء.

(١١) في الأصل زيادة «أحدهما» بين قوله: «وقولان» «وقد». وانظر تفسير الآية (٥٠) من سورة النجم.

(١٢) واختاره ابن جرير الطبري.

ذات القوة والشدة، مأخوذ من قوة الأعمدة، قاله الضحاك. والرابع: ذات البناء المحكم بالعماد، قاله ابن زيد. وقيل: إنما سميت ذات العماد لبناء بناه بعضهم^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَمْ يَخْلُقْ يَتْلُهَا فِي الْيَلْدِ﴾ ﴿١٠﴾ وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وأبو عمران: «لم تَخْلُقْ» بناءً مفتوحة ورفع اللام «مثلها» بنصب اللام. وقرأ معاذ القارئ، وعمرو بن دينار: «لم تَخْلُقْ» بنون مفتوحة ورفع اللام «مثلها» بنصب اللام. وفي المشار إليها قولان: أحدهما: لم يَخْلُقْ مثل تلك القبيلة في الطول والقوة، وهذا معنى قول الحسن^(٢). والثاني: المدينة لم يخلق مثل مدينتهم ذات العماد، قاله عكرمة. وقد جاء في التفسير صفات تلك المدينة، وهذه الإشارة إلى ذلك: روى وهب بن منبه عن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له شردت، فبينما هو في صحاري عدن وقع على مدينة في تلك الفلوات عليها حصن، وحول الحصن قصور كثيرة. فلما دنا منها ظن أن فيها أحداً يسأله^(٣) عن إبله، فلم ير خارجاً ولا داخلاً، فنزل عن دابته، وعقلها، وسل سيفه، ودخل من باب الحصن، فلما دخل^(٤) الحصن إذا هو ببايين^(٥) عظيمين [لم ير أعظم منهما]^(٦)، والبايان مُرْصَعَان بالياقوت [الأبيض والأحمر، فلما رأى ذلك دهش^(٧)، ففتح أحد البايين، فإذا هو بمدينة لم ير أحد مثلها، وإذا قصور، كل قصر فوقه غرف^(٨) وفوق الغرف غرف مبنية بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت. ومصاريع تلك الغرف مثل مصاريع المدينة، يقابل بعضها بعضاً، مفروشة كلها باللؤلؤ، وبنادق من مسك وزعفران. فلما عين ذلك، ولم ير أحداً، هاله ذلك، ثم نظر إلى الأزقة فإذا هو في كل زقاق منها شجر قد أثمر، وتحت الشجر أنهار مطردة يجري ماؤها من قنوات من فضة. فقال الرجل: إن هذه هي الجنة، فحمل معه من لؤلؤها، ومن بنادق المسك والزعفران ورجع إلى اليمن، فأظهر ما كان معه. وبلغ الأمر إلى معاوية، فأرسل إليه، فقصص عليه ما رأى، فأرسل معاوية إلى كعب الأحبار، فلما أتاه قال له: يا أبا إسحاق! هل في الدنيا مدينة من ذهب وفضة؟ قال: نعم، أخبرك بها وبمن بناها؟ إنما بناها شداد بن عاد، والمدينة: «إرم ذات العماد»، قال: فحدثني حديثها، فقال: إن عاداً^(٩) المنسوب إليهم عاد الأولى، كان له ولدان: شديد، وشداد. فلما مات [عاد]^(١٠)، ثم مات شديد وبقي شداد، ملك الأرض، ودانت له الملوك، وكان مولعاً بقراءة الكتب، فكان إذا مر بذكر الجنة دعت نفسه إلى بناء مثلها عتواً على الله تعالى. فأمر بصنع «إرم ذات العماد»، فأمر على عملها مائة قهرمان^(١١) مع كل قهرمان ألف من الأعوان، وكتب إلى ملوك الأرض أن يمدّوه بما في بلادهم من الجواهر، فخرج القهارة^(١٢) يسرون^(١٣) في الأرض ليجدوا أرضاً موافقة، فوقفوا على صحراء^(١٤) عظيمة نقية من التلال، وإذا فيها عيون ماء ومروج^(١٥) فقالوا: هذه صفة الأرض التي أمر الملك أن يبنى بها، فوضعوا على أساسها من الجزع اليمني، وأقاموا في بنائها ثلاثمائة سنة، وكان عمر شداد تسعمائة سنة، فلما أتوه وقد فرغوا منها^(١٦) قال: انطلقوا، واجعلوا عليها حصناً، واجعلوا حول الحصن ألف قصر، عند كل قصر ألف عَلم ليكون في كل قصر من تلك القصور وزير من وزرائي، ففعلوا ذلك، فأمر الملك الوزراء - وهم ألف وزير - أن يتهيئوا للنقلة إلى «إرم ذات العماد»، وكان الملك وأهله في جهازهم عشر سنين، ثم ساروا إليها، فلما كانوا منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله

- (١) في الأصل: لبنائه بعضهم، والتصحيح من الطبري.
- (٢) في الأصل: أن فيها أحد سأل، والتصحيح من «مجمع البيان» للطبرسي.
- (٣) في الأصل: دنا، والتصحيح من «مجمع البيان».
- (٤) في الأصل: ما بين.
- (٥) زيادة من «مجمع البيان».
- (٦) في الأصل: دهن.
- (٧) في الأصل: كل قصر منها فيها غرف، والتصحيح من «مجمع البيان».
- (٨) في الأصل: عاد.
- (٩) القهرمان: من أمناه الملك وغاضته، فارسي مغرب.
- (١٠) في الأصل: فتبدوا.
- (١١) في الأصل: لتجدوا ما يوافقهم حتى وقعوا على صحرة، والتصحيح من الخازن.
- (١٢) في الأصل: وإذا هم بنون مطردة، والتصحيح من الخازن.
- (١٣) في الأصل: وقد فزعوا منه، والتصحيح من الخازن.

عليه، وعلى من كان معه صيحة من السماء فأهلكهم جميعاً، ولم يبقَ منهم أحد^(١). وروى الشعبي عن دَعْفَلٍ^(٢) الشيباني عن علماء جَمَيْرٍ قالوا: لما هلك شداد بن عاد ومن معه من الصيحة، ملكَ بعده ابنه مَرْثَدُ بن شَدَّاد، وقد كان أبوه خلَّفه بحضرموت على ملكه وسلطانه، فأمر بحمل أبيه من تلك المفازة إلى حضرموت، وأمر [بدفنه]^(٣) فَخُفِرَتْ له حفيرة في^(٤) مفازة، فاستودعه فيها على سرير من ذهب، وألقى عليه سبعين حُلَّةً منسوجة بقضبان الذهب، ووضع عند رأسه لوحاً عظيماً من ذهب وكتب عليه:

رَوُّ بِالْعَمْرِ الْمَدِيدِ^(٥)
صَاحِبُ الْحَصَنِ الْمَشِيدِ^(٦)
سَاءَ وَالْمَلِكُ الْحَشِيدِ^(٧)
لِي مَنْ خَوْفٍ وَعَيْدِي^(٨)
بِ بَسْلَطَانٍ شَدِيدِ
دَّةٍ فِيهِ وَالْعَمِيدِ
فِي ضَلَالٍ قَبْلَ هَوْدِ
هَ إِلَى الْأَمْرِ الرَّشِيدِ^(٩)
مَا لَكُمْ هَلْ مِنْ مُحِيدِ؟^(١٠)
يُوي مِنَ الْأَنْفَقِ الْبَعِيدِ
وَسَطَ بَيْنَاءِ حَصِيدِ

إِعْتَبِرِيَا أَيُّهَا الْمَغْدُورُ
أَنَا شَدَّادُ بْنُ عَادٍ
وَأَخُو الْقُوَّةِ وَالْبَاءِ
دَانُ أَهْلِ الْأَرْضِ طُورًا
وَمَلِكُ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ
وَبِفَضْلِ الْمَلِكِ وَالْعَمِيدِ
فَأَتَى هَوْدٌ وَكَتَبْنَا
فَدَعَانَا لَوْ قَبْلُنَا
فَعَصَيْنَاهُ وَنَادَى
فَأَتَيْنَا^(١١) صِيحَةً تَهْ
فَلْتَوَافِينَا كَزَرْعٍ

قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الَّذِينَ جَاءُوا الْفِتْرَةَ قِطْعَةً مِنْ مَنَاطِفٍ مِمَّا فُتِنُوا وَلَهُمْ أَلْسُنٌ نَقِيَّةٌ وَاقْبُسُ الْعُلُومِ فِي الْأَفْئِدَةِ﴾ مفسر في سورة [ص: ١٢]، ﴿الَّذِينَ طَفَوْا فِي الْبَلَدِ﴾ يعني: «بالوادي» بإثبات الياء في الحاليين. ﴿وَقَرَعُونَ ذِي الْأَرْكَانِ﴾ مفسر في سورة [ص: ١٢]، ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْكُفْرَ﴾ القتل والمعاصي «فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ» قال ابن قتيبة: وإنما قال: سوط عذاب، لأن التعذيب قد يكون بالسوط. وقال الزجاج:

(١) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٨٤ عن حديث عبد الله بن قلابة الذي ساقه المؤلف بطوله: رواه الثعلبي من طريق عثمان الدارمي عن عبد الله بن أبي صالح عن ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران عن وهب بن منبه عن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له شردت، فذكره مطولاً. قال ابن حجر: قلت: آثار الوضع عليه لائحة. وقال ابن كثير: فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صح إلى ذلك الأعرابي، فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخيال، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج، وليس كذلك، وهذا مما يقطع بعدم صحته، وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتحيلين من وجود مطالب تحت الأرض فيها قناتير الذهب والفضة، وألوان الجواهر والبراقيت، واللآلئ والإكسبر الكبير، لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها، والأخذ منها، فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء، فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقير ونحو ذلك من الهديات، ويطنزون بهم، والذي يجزم به أن في الأرض دفائن جاهلية وإسلامية، وكنوزاً كثيرة، من ظفر بشيء منها أمكنه تحويله، فأنا على الصفة التي زعموها، فكذب واقتراء وبهت، ولم يصح في ذلك شيء مما يقولون إلا عن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم، والله سبحانه وتعالى الهادي للصواب.

وقال الشوكاني في «فتح القدير» عن حديث عبد الله بن قلابة: وهذا كذب على كذب واقتراء على اقتراء، وقد أصيب الإسلام وأهله بدهاية دهياء، وفاقرة عظمى، ورزية كبرى، من أمثال هؤلاء الكذابين الذين يجتنبون على الكذب، تارة على بني إسرائيل، وتارة على الأنبياء، وتارة على الصالحين، وتارة على رب العالمين، وتضاعف هذا الشر وزاد كثره بتصنُّر جماعة من الذين لا علم لهم بصحيح الرواية في ضعفها من موضوعها للتصنيف والتفسير للكتاب العزيز، فأدخلوا هذه الخرافات المختلفة والأقايص المنحولة والأساطير المفتعلة في تفسير كتاب الله سبحانه، فحرفوا وغيروا وبدلوا، قال: ومن أراد أن يقف على بعض ما ذكرنا فلينظر في كتابي الذي سميت «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعية».

(٣) زيادة ليست في الأصل.

(٢) في الأصل: وعقل.

(٥) في الأصل: الشديد، والتصحيح من «معجم البلدان» لياقوت: إزم.

(٤) في الأصل: من.

(٧) في الأصل: الحسيد.

(٦) في الأصل: «العמיד».

(٨) البيت في الأصل: وإن أهل الأرض لي من خوف وعدي ووعيدي، والتصحيح من «معجم البلدان».

(٩) في الأصل: الشديد، وفي «معجم البلدان»: «أجيتناه» مكان قوله: «قبلناه».

(١٠) البيت في الأصل: فعصيناه وناديت ألا هل من مجيد؟ (١١) في الأصل: فأتيناه.

[أي جعل سوطهم الذي ضربهم به العذاب] ^(١) **إِنَّ رَبَّكَ لَإِلَهٌ رَّحِيمٌ** ^(٢) **﴿﴾** أي: يرصد مَنْ كفر به بالعذاب، والمرصد: الطريق، وقد شرحناه في قوله تعالى: **﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾** [النبا: ٢١].

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَنَّهُ رَبَّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ ^(٣) **﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَنَّهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾** ^(٤) **﴿وَلَا تَكْفُرُونَ الْيَتِيمَ﴾** ^(٥) **﴿وَلَا تَحْضُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾** ^(٦) **﴿وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثُ أَكْلًا لُكًّا﴾** ^(٧) **﴿وَتَحِبُّونَ الْكَلَّاءَ حُبًّا جَمًّا﴾** ^(٨) **﴿إِذَا دُكِّيَ الْأَرْضُ دُكًّا دَكًّا﴾** ^(٩) **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** ^(١٠) **﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ يَوْمَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَنْدَسُّ الْإِنْسَانُ وَأَنَّهُ لَهُ الذِّكْرُ﴾** ^(١١) **﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَاجَتِي﴾** ^(١٢) **﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾** ^(١٣) **﴿وَلَا يُؤْنِقُ وَأَقْدَمَ أَحَدٌ﴾** ^(١٤) **﴿يَأْتِيَانَا أَنْفُسُ الْمُظْلِمِينَ﴾** ^(١٥) **﴿أَنْجِيْهِ إِنْ رَبُّكَ رَاحِيَةً مَّرِيَّةً﴾** ^(١٦) **﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾** ^(١٧) **﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾** ^(١٨)

قوله تعالى: **﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾** فيمن عني به أربعة أقوال: أحدها: عتبة بن ربيعة، وأبو حذيفة بن المغيرة، رواء عطاء عن ابن عباس. والثاني: أبي بن خلف، قاله ابن السائب. والثالث: أمية بن خلف، قاله مقاتل. والرابع: أنه الكافر الذي لا يؤمن بالبعث. قال الزجاج: وإبتلاء بمعنى اختبره بالغنى ^(١٩) والبسر **﴿فَأَكْرَمَهُ﴾** بالمال **﴿وَنَعَّمَهُ﴾** بما وسع عليه من الإفضال **﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾** فتح ياء «ربي» «أكرمني» «ربي» «أهانني» ^(٢٠) أهل الحجاز، وأبو عمرو ^(٢١)، أي: فضلني بما أعطاني، ويظن أن ما أعطاه من الدنيا لكرامته عليه **﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَنَّهُ﴾** بالفقر **﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾** وقرأ أبو جعفر، وابن عامر **﴿فَقَدَرَ﴾** بتشديد الدال، والمعنى: ضيق عليه بأن جعله على مقدار البُلغة **﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾** أي: هذا الهوان ^(٢٢) منه لي حين أدلني بالفقر. واعلم أن من لا يؤمن بالبعث، فالكرامة عنده زيادة الدنيا، والهوان قلته ^(٢٣).

قوله تعالى: **﴿كَلَّا﴾** ^(٢٤) أي: ليس الأمر كما يظن. قال مقاتل: ما أعطيت [من أغنيت] ^(٢٥) هذا الغنى لكرامته علي، ولا أفقرت [من] ^(٢٦) أفقرت لهوانه علي ^(٢٧). وقال الفراء: المعنى: لم يكن ينبغي له أن يكون هكذا، إنما ينبغي أن يحمد الله على الأمرين: الفقر، والغنى ^(٢٨). ثم أخبر عن الكفار فقال تعالى: **﴿يَكُلُّ لَأْ تَكْفُرُونَ الْيَتِيمَ﴾** ^(٢٩) قرأ أهل البصرة «يَكْرُمُونَ» و«يَحْضُرُونَ» و«يَأْكُلُونَ» و«يُجْبُونَ» بآلاء فيهن، والباقون بالثاء. ومعنى الآية: إني أهنت من أهنت من أجل أنه لا يكرم اليتيم، والآية تحتل معنيين: أحدهما: أنهم كانوا لا يبرؤنه. والثاني: لا يعطونه حقه من الميراث، وكذلك كانت عادة الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان. ويدل على المعنى الأول قوله تعالى: **﴿وَلَا تَحْضُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾** قرأ أبو جعفر، وأهل الكوفة «تأحضرون» بآلف مع فتح التاء. وروى الشيرازي عن الكسائي كذلك إلا أنه ضم التاء. والمعنى: لا يأمرهم بإطعامه لأنهم لا يرجون ثواب الآخرة. ويدل على المعنى الثاني قوله تعالى: **﴿وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثُ أَكْلًا لُكًّا﴾** ^(٣٠) قال ابن قتيبة: التراث: الميراث، والتاء فيه منقلبة عن واو، كما قالوا: نُجَاه ^(٣١)، والأصل: وُجَاه، وقالوا: نُحْمَةٌ، والأصل: وُحْمَةٌ ^(٣٢). و«لُكًّا» أي: شديداً، وهو من قولك: لُمْتُ ^(٣٣) بالشيء: إذا جمعته، وقال الزجاج: هو ميراث اليتامى.

- (١) عبارة الأصل: «أحسن من هذا قد جعل سوطه الذي ضربهم به العذاب» والتصحيح من القرطبي نقلاً عن الزجاج.
- (٢) في الأصل: في العنا.
- (٣) في الأصل: أهانني.
- (٤) قال القرطبي: وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو «ربي» بفتح الياء في الموضعين، وأسكن الباقون، وأثبت الجزئي وابن محيضر ويعقوب الياء من «أكرمني» و«أهانني» في الحالين، لأنها اسم فلا تحذف، وأثبتها المندوبون في الوصل دون الوقف اتباعاً للمصحف، وغير أبو عمرو في إثباتها في الوصل أو حذفها، لأنها رأس آية، وحذفها في الوقف لخط المصحف، والباقون بحذفها، لأنها وقعت في الموضعين بغير ياء.
- (٥) في الأصل: أهون.
- (٦) قال القرطبي: وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث، وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ في الدنيا وقلته، فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه المؤدّي إلى حظ الآخرة، وإن وسع عليه في الدنيا خيله وشكره.
- (٧) زيادة ليست في الأصل.
- (٨) ونقل الطبري عن قتادة: كلا إني لا أكرم من أكرمت بكثرة الدنيا، ولا أهين من أهنت بقلتها، ولكن أكرم من أكرمت بطاعتي، وأهين من أهنت بمعصيتي.
- (٩) قال القرطبي: وقال الفراء: «كلا» في هذا الموضع بمعنى: لم يكن ينبغي للعبد أن يكون هكذا، ولكن يحمد الله عز وجل على الغنى والفقر.
- (١٠) في الأصل: نحاء، والتصحيح من «غريب القرآن» لابن قتيبة.
- (١١) في الأصل: وقالوا: تحمه والأصل وجد، والتصحيح من «غريب القرآن».
- (١٢) في الأصل: عمت، والتصحيح من «غريب القرآن».

قوله تعالى: ﴿وَنَجِئُكَ إِلَيْنَا﴾ أي: تحبون جمعه ﴿حُجَّ جَمْعًا﴾ أي: كثيراً فلا تنفقونه في خير ﴿كَلَّا﴾ أي: ما هكذا ينبغي أن يكون [الأمر^(١)]. ثم أخبر عن تلقفهم على ما سلف منهم حين لا ينفعهم، فقال تعالى: ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي: مرة بعد مرة، فتكسر كل شيء عليها، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ قد ذكرنا هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي: تأتي [ملائكة^(٢)] كل سماء صفًا صفًا^(٣) على حدة. قال الضحاك: يكونون سبعة صفوف، ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ روى مسلم في أفراد من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع [كل زمام]^(٤) سبعون^(٥) ألف ملك يجرونها». قال مقاتل: يجاء بها فتقام عن يسار العرش. قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم يجاء بهنم ﴿يَنْدَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ أي: يتعظ الكافر ويتوب. قال مقاتل: هو أمية بن خلف ﴿وَأَنَّ لَهُ الذِّكْرَى﴾ أي: كيف له بالتوبة وهي في القيامة لا تنفع ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ﴾ العمل الصالح في الدنيا ﴿يَلِيَاكِي﴾ في الآخرة التي لا موت فيها ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُدْرِي عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١٦﴾ قرأ الكسائي، ويعقوب، والمفضل «لا يعذب» بفتح الذال، والباقون بكسرهما، فمن فتح، أراد: لا يعذب عذاب الكافر أحد، ومن كسر أراد: لا يعذب عذاب الله أحد، أي كعذابه، وهذه القراءة تختص بالدنيا، والأولى تختص بالآخرة^(٦).

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿١٧﴾ اختلفوا فيمن نزلت على خمسة أقوال: أحدها: في حمزة بن عبد المطلب لما استشهد يوم أحد، قاله أبو هريرة، وبريدة الأسلمي. والثاني: في عثمان بن عفان حين أوقف بثر رومة^(٧)، قاله الضحاك. والثالث: في خبيب بن عدي لما صلبه أهل مكة، قاله مقاتل. والرابع: في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حكاه الماوردي. والخامس: [في]^(٨) جميع المؤمنين، قاله عكرمة^(٩). وفي معنى «الْمُطْمَئِنَّةُ» ثلاثة أقوال: أحدها: المؤمنة، قاله ابن عباس. وقال الزجاج: المطمئنة بالإيمان. والثاني: الراضية بقضاء الله، قاله مجاهد. والثالث: الموقنة بما وعد الله، قاله قتادة. واختلفوا في أي حين يقال لها ذلك على قولين: أحدهما: عند خروجها من الدنيا، قاله الأكثرون. والثاني: عند البعث يقال لها: ارجعي إلى صاحبك، وإلى جسدك، فيأمر الله الأرواح أن تعود إلى الأجساد، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال عطاء، وعكرمة والضحاك. وفي قوله تعالى: ﴿آتِجِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً﴾ أربعة أقوال: أحدها: ارجعي إلى صاحبك الذي كنت في جسده، وهذا المعنى في رواية العوفي عن ابن عباس، وبه قال عكرمة والضحاك. والثاني: ﴿آتِجِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ بعد الموت في الدنيا، قاله أبو صالح. والثالث: ارجعي إلى ثواب ربك، قاله الحسن. والرابع: يا أيتها النفس المطمئنة [إلى الدنيا]^(١٠)، ارجعي إلى الله تعالى بتركها، حكاه الماوردي^(١١).

(١) زيادة من البغوي.

(٢) سقطت من الأصل، واستدركتها من «صحيح مسلم» ٤/ ٢١٨٤.

(٣) في الأصل: سبعين، قال الإمام النووي في «شرح مسلم» ١٧/ ١٧٨: هذا الحديث مما استدركه الدارقطني على مسلم وقال: رفعه وهم، رواه الثوري ومروان وغيرهما عن العلاء بن خالد موقوفًا. قلت: وحفص (أحد الرواة) ثقة حافظ إمام، فزيادته الرفع مقبولة كما سبق نقله عن الأكثرين والمحققين. والحديث رواه الترمذي أيضاً مرفوعاً وموقوفاً على ابن مسعود، ورواه ابن جرير الطبري ٣٠/ ١٨٨ موقوفاً على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) والصحيح أنها عامة في كل كافر.

(٥) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندنا ما عليه قراء الأمصار، وذلك كسر الذال والشاء، لإجماع الحجة من القراء عليه. وقال الشوكاني في «فتح القدير»: والضميران على قراءة الجمهور في «يعذب» و«يؤتى» مبنيان للفاعل، لله عز وجل، قال: وقرأ الكسائي على البناء للمفعول فيها، فيكون الضميران راجعين إلى الإنسان، أي: لا يعذب كعذاب ذلك الإنسان أحد، ولا يؤتى كوثاقه أحد، والمراد بالإنسان الكافر.

(٦) هي بئر بالمدينة. (٨) زيادة ليست في الأصل.

(٩) قال القرطبي: والصحيح أنها عامة في كل نفس مؤمن مخلص طائع.

(١٠) سقطت من الأصل، واستدركتها من البغوي والخازن.

(١١) وقال الألويسي رحمه الله في «روح البيان» ٩/ ٣٧٠: ارجعي، أي: من حيث حوسبت إلى محل عنايته تعالى وموقف كرامته عز وجل لك أولاً، وهذا لأن للمعدة قبل الحساب كما يفهم من الأخبار موقفاً في المحشر مخصوصاً بكرمهم الله تعالى به لا يجدون فيه ما يجده غيرهم في مواقفهم من النصب، ومنه ينادي الواحد بعد الواحد للحساب، فمتى كان هذا القول عند تمام الحساب اقتضى أن يكون المعنى ما ذكر.

قوله تعالى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ أي: في جملة عبادي المصطفين. قال أبو صالح: يقال لها عند الموت: ارجعي إلى ربك، فإذا كان يوم القيامة قيل لها: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ وقال الفراء: ادخلي مع عبادي. وقرأ سعد بن أبي وقاص، وأبني بن كعب، وابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وأبو العالية، وأبو عمران: «في عبدي» على التوحيد^(١). قال الزجاج: فعلى هذه القراءة - والله أعلم - يكون المعنى: ارجعي إلى ربك، أي: إلى صاحبك الذي خرجت منه، فادخلي فيه^(٢).



(١) في «البحر المحيط»: وقرأ الجمهور ﴿فِي عِبَادِي﴾ جمعاً، وابن عباس، وعكرمة، والضحاك، ومجاهد، وأبو صالح، والكلبي، وأبو شيخ الهناني، واليماني «فِي عِبْدِي» على الأفراد. قال الطبري: والصواب من القراءة في ذلك ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ بمعنى: فادخلي في عبادي الصالحين، لإجماع الحجة من القراء عليه.

(٢) والظاهر الأول، قال ابن كثير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ الْعَلِيمَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿أَنِجُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته «رَائِدَةً» أي في نفسها «مَنْوِيَّةً» أي قد وضعت عن الله ورضي عنها وأرضاهها ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ أي في جملتهم «وَادْخُلِي جَنَّتِي» قال: وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضاً، كما أن الملائكة يشيرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره، فكذاك هاهنا.

سورة البلد

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَاللَّيْلِ وَمَا وَدَّ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَحَسِبْ أَنْ أَنْ يَقُولَ عَلَيْهِ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بُلْدًا (٦) أَحَسِبْ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) قوله تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ﴾ قال الزجاج: المعنى: أقسم. و﴿لَا﴾ دخلت توكيداً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْكُنُ أَهْلُ آلِكَافٍ﴾ [الحديد: ٢٩] وقرأ عكرمة، ومجاهد، وأبو عمران، وأبو العالية: «لَأَقْسِمُ» (١١) قال الزجاج: وهذه القراءة بعيدة في العربية، وقد شرحنا هذا في أول «القيامة».

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (١) فيه ثلاثة أقوال: و﴿الْبَلَدِ﴾ هاهنا: مكة (١٢). أحدها: حلٌّ لك ما صنعت في هذا البلد من قتل (١٣) أو غيره، قاله ابن عباس، ومجاهد. قال الزجاج: يقال: رجل حلٌّ، وحلال، ومُحِلٌّ. قال المفسرون: والمعنى: إن الله (١٤) تعالى وعد نبيه (١٥) أن يفتح مكة على يديه بأن يُجْلِّها له، فيكون فيها حِلًّا. والثاني: فأنت مُحِلٌّ بهذا البلد غير مُخرم في دخوله، يعني: عام الفتح، قاله الحسن، وعطاء. والثالث: أن المشركين بهذا البلد يستحلُّون إخراجك (١٦) وقتلك (١٧)، ويحرِّمون قتل الصيد، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَدَّ﴾ (٣) فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه آدم وما ولد، قاله الحسن، ومجاهد، والضحاك، وقناة. والثاني: أولاد إبراهيم، وما ولد: ذريته (١٨)، قاله أبو عمران الجوني. والثالث: أنه عامٌّ في كلِّ والدٍ وما ولد، حكاه الزجاج (١٩).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ هذا جواب القسم. وفيمن عني بالإنسان خمسة أقوال: أحدها: أنه اسم جنس، وهو معنى قول ابن عباس. والثاني: أنه أبو الأشدين الجمحي (٢٠)، وقد سبق ذكره، [المدر: ٢٩، والانفطار: ٥] قاله الحسن. والثالث: أنه الحارث بن عامر بن نوفل، وذلك أنه أذنب ذنباً، فأمره النبي ﷺ بالكفارة، فقال: لقد ذهب مالي

(١) في الأصل: لا أقسم.

(٢) قال القرطبي: أي أقسم بالبلد الحرام الذي أنت فيه لكرامتك عليّ وحتى لك. وقال ابن كثير: هذا قسم من الله تبارك وتعالى بمكة أم القرى في حال كون الساكن فيها حلالاً، ليُبَيِّنَ على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها.

(٣) في الأصل: قبل.

(٤) وعد نيته.

(٥) عبارة الأصل: «أنه حل عند المشركين بهذا البلد يستحلون إخراجك».

(٦) في الأصل: وقتلك.

(٧) في الأصل: وما ولد: محمد ﷺ، والتصريب من الطبري، والقرطبي، وابن كثير. قال الشوكاني والآلوسي: وقيل: الوالد: إبراهيم، والولد: إسماعيل ومحمد ﷺ.

(٨) وهذا الذي اختاره ابن جرير الطبري. قال ابن كثير: وقال مجاهد، وأبو صالح، وقناة، والضحاك، وسفيان الثوري، وسعيد بن جبيرة، والسدي، والحسن البصري، وخصيف، وشرحيل بن سعيد وغيرهم: يعني بالوالد: آدم، وما ولد: ولد، قال: وهذا الذي ذهب إليه مجاهد حسن قوي، لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى وهي المساكن، أقسم بعده بالسكن وهو آدم أبو البشر وولده.

(٩) وجاء في القرطبي: قال الكلبي: إن هذا نزل في رجل من بني جمح كان يقال له: أبو الأشدين. وكان يأخذ الأديم العكاظي فيجعلهُ تحت قدميه فيقول: من أزالني عنه فله كذا، فيجلبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماء، وكان من أعداء النبي ﷺ وفيه نزل ﴿أَحَسِبْ أَنْ أَنْ يَقُولَ عَلَيْهِ أَمْدٌ﴾ (١٠) يعني لقوته. وفي «الاشتقاق» لابن دريد ٢٥١: ومن رجالهم (أي: رجال بني سعد بن زيد مناة بن تميم) سنان بن خالد الأشد، وسمي الأشد، لشجاعته، وهو كذلك في «القاموس».

في الكفارات، والنفقات منذ^(١) دخلت في دين محمد، قاله مقاتل. والرابع: آدم ﷺ، قاله ابن زيد. والخامس: الوليد بن المغيرة، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿فِي كَيْدٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: في نَصَبٍ، رواه الوالي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو عبيدة، فإنهم قالوا: في شدة. قال الحسن: يكابد الشكر على السَّراء والصبر على الضَّراء، لأنه لا يخلو من أحدهما^(٢)، ويكابد مصائب الدنيا، وشدائد الآخرة. قال ابن قتيبة: في شدة غلبة ومكابدة لأمر الدنيا والآخرة^(٣)، فعلى هذا يكون من مكابدة الأمر، وهي معاناته. والثاني: أن المعنى: خلق منتصباً يمشي على رجلين^(٤)، وسائر الحيوان غير منتصب، رواه مقسم عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، والضحاك، وعطية، والفراء، فعلى هذا يكون معنى الكبد: الاستواء والاستقامة. والثالث: في وسط السماء، قال ابن زيد: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ يعني: آدم ﴿فِي كَيْدٍ﴾ أي: في وسط السماء^(٥).

قوله تعالى: ﴿أَتَحْسَبُ أَنْ نَنْقُذَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ يعني الله ﷻ أي: [أيحسب أن] لن نقدر على بعثه، ومعاقبته؟! ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا كِبَاءَ﴾ أي: كثيراً، قال أبو عبيدة: هو فعل من التَّكْبُدِ^(٦)، وهو المال الكثير بعضه على بعض. قال ابن قتيبة: وهو المال المتكبد، كأنَّ بعضه على بعض. قال الزجاج: وهو فعل للكثرة^(٧)، كما يقال: رجل حُطِمَ: إذا كان كثير الحطم. وقرأ أبو بكر الصديق ﷺ، وعائشة، وأبو عبد الرحمن، وقتادة، وأبو العالية، وأبو جعفر «لُبْدَاءُ» بضم اللام، وتشديد الباء مفتوحة. وقرأ عمر بن الخطاب ﷺ، وأبو المتوكل، وأبو عمران «لُبْدَاءُ» بفتح اللام وتسكين الباء خفيفة. وقرأ عثمان بن عفان، والحسن، ومجاهد «لُبْدَاءُ» برفع اللام والباء وتخفيفهما. وقرأ عليّ وابن أبي الجوزاء «لُبْدَاءُ» بكسر اللام، وفتح الباء مخففة. وفيما قال لأجله ذلك قولان: أحدهما: أنه أراد: أهلك ما لا كثيراً في عداوة محمد، قاله ابن السائب، فكانه استطال بما أنفق. والثاني: أنفقت في سبيل الله وفي الكفارات ما لا كثيراً، قاله مقاتل. فكانه ندم على ما أنفق^(٨).

قوله تعالى: ﴿أَتَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ يعني الله ﷻ. والمعنى: أيظن أن الله لم يرَ نفقته، ولم يُخْصِها؟! وكان قد ادعى ما لم ينفق.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَجْعَلْ لَمْ عَيْنَيْنِ﴾ والمعنى: ألم تفعل به ما يدل على أن الله قادر على بعثه؟!.

قوله تعالى: ﴿وَمَدْيَنَةَ الْعَجْلَيْنِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: سبيل الخير والشر، قاله علي، والحسن، والفراء. وقال ابن قتيبة: يريد طريق الخير والشر. وقال الزجاج: النجدان: الطريقان الواضحان. والنجد: المرتفع من الأرض،

(١) في الأصل: منه، والتصحيح من «القرطبي».

(٢) في الأصل: في شدة عليه ومكايده من أمور الدنيا والآخرة، والتصحيح من «غريب القرآن» لابن قتيبة.

(٣) في الأصل: على رجله، وما أثبتاه من «الطبري».

(٤) أصل الكبد: الشدة، ومنه تكبد اللبن: غلظ وغثُر واشتد، ومنه الكبد، لأنه دم تغلظ واشتد. ويقال: كابدت هذا الأمر: قاسيت شدته، قال ليبي يرثي أخاه:

يَا عَيْنٌ فَلَا تَكْبِي أَزِيدُ إِذْ كُنَّا وَقَامَ الْخَصْمُ فِي كَبَدٍ

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ أي: في تعب ومشقة، والله سبحانه قد جعل حياة الإنسان سلسلة من الجهاد متصلة الحلقات، وجعلها مبتدأة بالجهاد والمشقة، ومنتهية بهما أيضاً، فهو ما يزال يقاسي من المشقة ألواناً وضروباً مختلفة منذ نشأته في بطن أمه، ومن استهلاله صارخاً إلى أن يكبر ويصير رجلاً، وفي هذا العهد تزداد مشقاته، ويكثر عليه الجهد، فمن تحصيل رزقه إلى تربية أولاده، ومن جهاد نفسه ورياضتها على البر والتقوى إلى مقارعة غطوب الدهر ونوازله، ومن الصبر على البلاء إلى الخضوع إلى رب الأرض والسماء، ومن الاجتهاد في المعرفة إلى مصابرة النفس على الطاعة، ثم هو بعد ذلك كله يمرض ويموت، ويلقي في قبره وفي آخرته من المشاق والمتاعب ما لا يقدر عليه إلا بتيسير الله سبحانه، وكان هذا هو المشار إليه بـ «في» التي تدل على الظرفية في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾.

(٦) زيادة ليست في الأصل.

(٧) في الأصل: التليد، والتصحيح من «مجاز القرآن» لأبي عبيدة.

(٨) في الأصل: فعل الكثير، والتصحيح من «فتح القدير» للشوكاني نقلاً عن الزجاج.

(٩) لقد ذكر المصنف قبل قليل قول مقاتل بلفظ: لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات منذ دخلت في دين محمد، وهو كذلك في «القرطبي» وغيره. قال القرطبي: وهذا القول منه يحتمل أن يكون استطالة بما أنفق، فيكون طغياناً منه، أو أسفاً عليه، فيكون ندماً منه.

فالمعنى: ألم تُعرف طريق الخير والشر كَتَبَيْنِ الطريقين العاليتين. والثاني: سبيل الهدى والضلال، قاله ابن عباس. وقال مجاهد: هو سبيل الشقاوة والسعادة. والثالث: الشديان ليتغذى بلبنهما، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال ابن المسيب، والضحاك، وقَتادة^(١).

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿فَكُ رَقَبَةً﴾ أَوْ لَطَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَرٍ ﴿يَمِينًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أَوْ مَشَيْتَنَا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا بَيْنَهُمْ أَصْحَابُ الشَّقَةِ﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ قال أبو عبيدة: فلم يقتحم العقبة [في الدنيا]^(٢). وقال ابن قتيبة: فلا هو اقتحم العقبة. قال الفراء: لم يضم إلى قوله تعالى: فلا اقتحم العقبة كلاماً آخر فيه «لا»، والعرب لا تكاد تفرد «لا» في الكلام حتى يعيدوها^(٣) عليه في كلام آخر؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَا سَدَّ وَلَا مَكَلَ﴾ [القيامة: ٣١]، ﴿وَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]. ومعنى: «لا» مأخوذ من آخر هذا الكلام، فاكتمى بواحدة من الأخرى، ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة، فقال: ﴿فَكُ رَقَبَةً﴾. ﴿أَوْ لَطَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَرٍ﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ففسرها بثلاثة أشياء، فكانه كان في أول الكلام: فلا فعل ذا، ولا ذا. وذهب ابن زيد في آخرين إلى أن المعنى: أفلا اقتحم العقبة؟ على وجه الاستفهام، والمعنى: فهل أنفق ماله في فك الرقاب والإطعام ليجاوز بذلك العقبة؟ فأما الاقتحام^(٤) فقد بيّناه في [ص: ٥٩]. وفي العقبة سبعة أقوال: أحدها: أنه جبل في جهنم، قاله ابن عمر. والثاني: عقبة دون الجسر، قاله الحسن. والثالث: سبعون دركة^(٥) في جهنم، قاله كعب. والرابع: الصراط، قاله مجاهد، والضحاك. والخامس: نار دون الجسر، قاله قتادة. والسادس: طريق النجاة، قاله ابن زيد. والسابع: أن ذكر العقبة هاهنا مثلُ ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر، فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة. يقول: لم يحمل على نفسه المشقة بعثت الرقبة والإطعام، ذكره علي بن أحمد النيسابوري في آخرين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ قال سفيان بن عيينة: كل ما فيه ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾، فقد أخبره به، وكل ما فيه ﴿وَمَا يَدْرِيكَ﴾ فإنه لم يخبره به. قال المفسرون: المعنى: وما أدراك ما اقتحام العقبة؟ ثم بيّنه فقال تعالى: ﴿فَكُ رَقَبَةً﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، إلا عبد الوارث، والكسائي، والداجوني عن ابن ذكوان ﴿فَكُ الكاف﴾ بفتح الكاف ﴿رَقَبَةً﴾ بالنصب، «أو أطعم» بفتح الهمزة والميم وسكون الطاء من غير ألف. وقرأ عاصم، وابن عامر، ونافع، وحزمة ﴿فَكُ﴾ بالرفع «رقبة» بالخفض، «أو إطعام» بالألف. ومعنى فك الرقبة: تخليصها من أسر الرق، وكل شيء أطلقته فقد فَكَّكْتَهُ^(٦). ومن قرأ ﴿فَكُ رَقَبَةً﴾ على الفعل، فهو تفسير اقتحام العقبة بالفعل، واختاره الفراء؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال ابن قتيبة: والمسغبة: المجاعة. يقال: سَغِبَ يَسْغُبُ سَغُوبًا: إذا جاع ﴿يَمِينًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي: ذا

(١) والصواب القول الأول كما قال ابن جرير. وقال: والشديان وإن كانا سيلي اللبن، فإن الله تعالى ذكره إذ عدد على العبد نعمه بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ وَإِسْرَافُ﴾ من لَفْظَةِ أَنْشَأَ تَبْدِيلَهُ فَجَعَلَهُ سَيِّئًا بَيِّنًا ﴿إِنَّا هَدَيْنَاكَ السَّبِيلَ﴾ إنما عدد عليه هدايته إياه إلى سبيل الخير من نعمه، فكذلك قوله: ﴿وَمَقْرَبَةٌ﴾ أَلْتَبَيَّنُ ﴿٥٩﴾.

(٢) زيادة من «مجاز القرآن» لأبي عبيدة، يريد أن «لا» بمعنى «لم».

(٣) في الأصل: والعرب لا تكاد تقرر «لا» في الكلام حتى يعيدوها، والتصحيح من «القرطبي».

(٤) الاقتحام: الدخول في الأمر الشديد، وأصله القحم، وهي المهالك والأمر العظيم، يقال: قحم في الأمر قحوماً: رمى نفسه من غير روية، والقحمة: المهلكة والسنة الشديدة، يقال: أصابت الأعراب القحمة: إذا أصابهم قحط، فدخلوا الريف.

(٥) وفي الطبري وابن كثير: درجة. قال في «اللسان»: قال أبو عبيدة: جهنم دركات، أي منازل وأطباق، وقال غيره: الدركات: بعضها تحت بعض، قال الأزهري: والدرجات: منازل ومَرَاتِقُ بعضها فوق بعض، فالدرجات ضد الدرجات. وقال الزبيدي في «تاج العروس شرح القاموس»: وقال المصنف (يعني صاحب القاموس) في «البصائر»: الدَرَكَ: اسم في مقابلة الدرج، بمعنى أن الدرج مراتب باعتبار الصعود، والدرك مراتب باعتبار الهبوط، ولهذا عبروا عن منازل الجنة بالدرجات، وعن منازل جهنم بالدركات.

(٦) في الأصل: فكته، وروى مسلم في «صحيحه» ١١٤٧/٣ عن أبي هريرة ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من الثار حتى يعق فرجه بفرجه» ورواه بمعناه أحمد والبخاري.

قراءة^(١) ﴿أَوْ يَشْكِيكَذَا مَتَّيْلَ﴾ أي: ذا فقر كأنه لَصِقَ بالتراب^(٢). وقال ابن عباس: هو المطروح في التراب لا يقيه شيء. ثم بيّن أن هذه القُرْبَ إنما تنفع مع الإيمان بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ و«ثم» هاهنا بمعنى الواو، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَلَّهُ شَيْدُ﴾ [يونس: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿وَوَاصُوا بِالصَّبْرِ﴾ على فرائض الله وأمره ﴿وَوَاصُوا بِالرَّحْمَةِ﴾ أي بالتراحم بينهم. وقد ذكرنا أصحاب الميمنة والمشامة في [الواقعة: ٧، ٨]. قال الفراء: و«المؤصدة» المطبقة. قال مقاتل: يعني أبوابها عليهم مطبقة فلا يفتح لها باب، ولا يخرج منها غم، ولا يدخل فيها روح آخر الأبد. وقال ابن قتيبة: يقال: أَوْصَدْتُ الباب وأصدته: إذا أطبقته. وقال الزجاج: المعنى: أن العذاب مطبق عليهم. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم «مُوصَدَّةٌ» بغير همز هاهنا، وفي [الهمزة: ٨] وقرأ أبو عمرو، وحمزة، وحفص عن عاصم بالهمز في الموضعين.



(١) روى الإمام أحمد عن سلمان بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان، صدقة وصلّة» ورواه الترمذي والنسائي وهو حديث صحيح.

(٢) تقول: تَرَبَّ الرجل يَتَرَبُّ تَرَبًّا وتربة: إذا افتقر حتى لصق بالتراب، وتقول: أترب فلان، إذا كثر ماله حتى صار كالتراب في الكثرة.

وَقَوَّعَهَا ﴿٨﴾ الإلهام: إيقاع الشيء في النفس. قال سعيد بن جبير: ألزمتها فجورها وتقواها^(١). وقال ابن زيد: جعل ذلك فيها بتوفيقه إياها للتقوى، وخذلانه إياها للفجور^(٢).

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ﴿٩﴾ قال الزجاج: هذا جواب القسم. والمعنى: لقد أفلح، ولكن اللام حذفت لأن الكلام طال، فصار طوله عوضاً منها. قال ابن الأنباري: جوابه محذوف. وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: قد أفلحت نفس زكاها الله ﷻ، قاله ابن عباس، ومقاتل، والفراء، والزجاج. والثاني: قد أفلح من زكّى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال، قاله قتادة، وابن قتيبة. ومعنى ﴿زَكَّاهَا﴾: أصلحها وطهرها من الذنوب. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ ﴿١٠﴾ فيه قولان كالذي قبله. فإن قلنا: إن الفعل لله، فمعنى ﴿دَسَّاهَا﴾: خذلها، وأحملها، وأخفى محلها، [بالكفر والمعصية] ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح. وإن قلنا: الفعل للإنسان، فمعنى ﴿دَسَّاهَا﴾: أخفاها بالفجور. قال الفراء: ويروى أن ﴿دَسَّاهَا﴾ دَسَّاهَا لأن البخيل يخفي منزله وماله. وقال ابن قتيبة: المعنى: دسى نفسه، أي: أخفاها بالفجور والمعصية. والأصل من دَسَّستُ فقلبت السين ياءً، كما قالوا: قَصَّيتُ أطفاري، أي: قصصتها. فكان النُطْفُ^(٣) بارتكاب الفواحش دس نفسه^(٤)، وقمعها، ومُضْطَنِّعُ المعروف شهر نفسه ورفعها، وكانت أجود العرب تنزل الرُّبَا للشهرة. واللتام تنزل الأطراف لتخفي أماكنها^(٥). وقال الزجاج: معنى ﴿دَسَّاهَا﴾ جعلها قليلة خسية.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةُ اللَّهِ وَسَيِّئَةٌ ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَمَقَرُّوهُمَا فَكُذِّمَتْ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ يَذِيقُهُمْ عَذَابَهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ ﴿١١﴾ أي: كذبت رسولها بطغيانها^(٦). والمعنى: أن الطغيان حملهم على التكذيب. قال الفراء: أراد بطغواها: طغيانها، وهما مصدران، إلا أن الطغوى أشكل برؤوس الآيات، فاخترت لذلك. وقيل: كذبوا العذاب ﴿إِذِ انْبَعَثَ﴾ أي: انتدب^(٧) ﴿أَشْقَاهَا﴾ وهو: عاقر الناقة لعقرها^(٨) ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وهو

(١) بمعنى أن الله تعالى خلق في المؤمن التقوى، وفي الكافر الفجور، فالخلق لله، والإنسان قادر على سلوك أيهما شاء ومخير فيه، وبذلك الاختيار للخير أو الشر شباب أو يعاقب. قال ابن جرير الطبري: ﴿فَأَلَمَتْهَا جُورُهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ﴿١٢﴾ فبين لها ما ينبغي لها أن تأتي أو تذر من خير أو شر، أو طاعة أو معصية. وقال الشوكاني في فتح القدير: أي عرفها وأفهمها حالهما وما فيها من الحسن والقبح.

(٢) إن الله سبحانه وتعالى أودع في نفس الإنسان خصائص القدرة على إدراك الخير والشر، والهدى والضلال، والحق والباطل، ليختار أيهما شاء، ففي طبيعة هذا الاستعداد المزودج لسلوك أي الطريقين شاء، وقد منحه الله عز وجل القدرة على سلوك أيهما شاء ﴿وَمَذِيقَتَهُ النَّاسِطِينَ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ ﴿١٤﴾ شَاكِرًا وَكَافِرًا كَثُورًا، وزود الإنسان باستعدادات متساوية للخير والشر، والهدى والضلال، فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر، وقادر على توجيه نفسه إلى الخير والشر على السواء، وهذه القدرة كامنة في نفسه، يعبر عنها القرآن تارة بالإلهام ﴿فَأَلَمَتْهَا جُورُهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ﴿١٢﴾ وتارة بالهداية ﴿وَمَذِيقَتَهُ النَّاسِطِينَ﴾ ﴿١٣﴾، فهي كامنة بصورة استعدادات، والآيات القرآنية والرسائل الإلهية والتوجيهات توظف هذه الاستعدادات وتوجهها، ولكنها لا تخلق الاستعداد خلقاً جديداً، لأنها مخلوقة فطرة، وكانت طبعاً، وكانت الإلهام، أخفى إلى ذلك أن الله تعالى خلق في الإنسان قوة واعية مدركة، فمن استخدم هذه القوة في تركية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها وتغلبه على استعداد الشر فقد أفلح وأنجح، ومن ظلم هذه القوة الواعية المدركة وخيأها وأضعفها فقد خاب وخسر ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾، والله عز وجل لم ينع الإنسان لاستعداد فطرته الإلهامي، ولا للقوة الواعية، بل أعانها بالرسالات التي تضع له الموازين العادلة، وتكشف له عن موجبات الإيمان ودلائل الهدى، وتجلب عنه غواشي الهوى فيظهر له الحق في صورته الصحيحة، وبذلك يتضح له الطريق وضوحاً كاشفاً لا شبهة فيه فتصرف القوة الواعية حينئذ عن بصيرة وإدراك لحقيقة هذا الاتجاه الذي يختاره ويسير فيه. ولما كانت هذه النفس عرضة للتأثر والمغدير، فقد كان عليه الصلاة والسلام يدعو بقوله: «اللَّهُمَّ آتْ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيهَا وَمَوْلَاهَا» رواه أحمد ومسلم عن زيد بن أرقم ؓ.

(٣) النطف: المنهم كما في «اللهاج».

(٤) في الأصل: نفسها، وفي النسخة الاستنبولية: نفسه، وهو الصواب، وهو كذلك في «مشكل القرآن».

(٥) في الأصل: إمكانها، وما أنبتاه هو في النسخة الاستنبولية «مشكل القرآن».

(٦) عبارة ابن قتيبة في «غريب القرآن»: كذبت الرسول إليها بطغيانها.

(٧) تقول: ندبت إلى كذا، فاندبت، أي أمرته فامتثل، وفي الطبري: انبت: ثار، وفي القرطبي: نهض، والانبعاث هو الإسراع.

(٨) وهو قدار بن سالف. روى البخاري في «صحيحه» (٥٤٢/٨) عن عبد الله بن زعنة أنه سمع النبي ﷺ يخطب وفكر الناقة والذي عقر، فقال رسول الله ﷺ: «إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا» انبت لها وجل عزير حارم منيع في رهنه مثل أبي زعنة، ورواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم.

صالح ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ قال الفراء: نصب الناقة على التحذير، وكل تحذير فهو نصب. قال ابن قتيبة: المعنى: احذروا ناقة الله وشربها. وقال الزجاج: المعنى: دَرُوا ناقة الله ﴿و﴾ دَرُوا ﴿سَقِيَاهَا﴾. قال المفسرون: سَقِيَاهَا: شربها من الماء. والمعنى: لا تتعرضوا ليوم شربها ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في تحذيره إياهم العذاب بعقرها ﴿فَمَقَرُّوْهَا﴾ وقد بينا معنى «العقر» في [الأعراف: ١٧٧]، ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ قال الزجاج: أي: أطبق عليهم العذاب. يقال دمدمت على الشيء: إذا أطبقت فكررت الإطباق. وقال المؤرج^(١): الدمدة: إهلاك باستئصال. وفي قوله تعالى: ﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾ قولان: أحدهما: سَوَّيْنَاهُمْ في الإهلاك^(٢)، قاله السدي، ويحيى بن سلام. وقيل: سَوَّيْنَاهُمْ على قبورهم. والمعنى: أنه أهلك صغيرهم، وكبيرهم. والثاني: سَوَّيْنَاهُمْ الأرض عليهم. قال مقاتل: سَوَّيْنَاهُمْ على قبورهم. وكانوا قد حفروا قبوراً فاضطجعوا فيها، فلما صَبَحَ بهم فهلكوا زُلْزِلَتْ بيوتهم فوقت على قبورهم^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ ﴿١٥﴾ قرأ أبو جعفر، ونافع، وابن عامر، «فلا يخاف» بالفاء، وكذلك هو في مصاحف أهل المدينة والشام. وقرأ الباقر بالواو، وكذلك هي في مصاحف مكة، والكوفة، والبصرة. وفي المشار إليه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الله ﷻ، فالمعنى: لا يخاف الله من أحد تَبَعَهُ في إهلاكهم، ولا يخشى عقبي ما صنع، قاله ابن عباس، والحسن. والثاني: أنه الذي عقرها، فالمعنى: أنه لم يخف عقبي ما صنع، وهذا مذهب الضحاك والسدي، وابن السائب. فعلى هذا في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: إذ أنبث أشقاها وهو لا يخاف عقباها. والثالث: أنه نبي الله صالح لم يخف عقباها، حكاه الزجاج^(٤).



(١) في الأصل: المؤرج، وفي النسخة الاستنبولية: المؤرج، وهو تصحيف.

(٢) في الأصل: إهلاك، وما أثبتناه من النسخة الاستنبولية.

(٣) قال ابن كثير: ﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾ فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء، قال قتادة: بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، فلما اشترك القوم في عقرها، دمدم الله عليهم بذنوبهم فسواها.

(٤) والقول الأول أولى لدلالة السياق عليه، كما قال ابن كثير، والله أعلم.

سورة الليل

وهي مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَنفَنُ ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى الْقُلُوبَ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۝ وَأَمَّا مَنْ كَفَلَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۝ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَنفَنُ﴾ قال ابن عباس: يغشى بظلمته النهار. وقال الزجاج: يغشى الأفق، ويغشى جميع ما بين السماء والأرض، ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى﴾ أي: بان وظهر من بين الظلمة، ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ في «ما» قولان، وقد ذكرناهما عند قوله تعالى: ﴿وَمَا بَثَّهَا﴾ [الشمس: ٥]. وفي ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ قولان: أحدهما: آدم وحواء، قاله ابن السائب، ومقاتل. والثاني: أنه عام، ذكره الماوردي^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ هذا جواب القسم. قال ابن عباس: إن أعمالكم لمختلفة، عمل للجنة، وعمل للنار. وقال الزجاج: سعي المؤمن والكافر مختلف، بينهما بُعد^(٢). وفي سبب نزول هذه السورة قولان: أحدهما: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه اشترى بطلاً من أمية وأبي ابن خلف بزرزة عشرة أواق، فأعتقه، فأنزل الله ﷻ ﴿وَاللَّيْلُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ يعني: سعي أبي بكر، وأمية وأبي، قاله عبد الله بن مسعود^(٣). والثاني: أن رجلاً كانت له نخلة فرعها في دار رجل فقير ذي عيال، وكان الرجل إذا صعد النخلة ليأخذ منها الثمر، فربما سقطت الثمرة، فيأخذها صبيان الفقير، فينزل الرجل من نخلته حتى يأخذ الثمرة من أيديهم، فإن وجدها في فم أحدهم أدخل أصبعه حتى يخرجها، فشكا ذلك الرجل إلى النبي ﷺ، فلقي النبي ﷺ صاحب النخلة، فقال: «تعطيني نخلتك التي فرعها في دار فلان ولك بها نخلة في الجنة؟» فقال الرجل: إن لي نخلاً وما فيه نخلة أعجب إليّ منها، ثم ذهب الرجل، فقال رجل ممن سمع ذلك الكلام: يا رسول الله أنعطيني نخلة في الجنة إن أنا أخذتها؟ قال: نعم، فذهب الرجل، فلقي صاحب النخلة، فساومها منه، فقال له: أما شغرت أن محمداً أعطاني بها نخلة في الجنة؟ فقلت: ما لي نخلة أعجب إليّ منها، فقال له: أتريد بيعها؟ قال: لا، إلا أن أعطى بها ما لا أظنني أعطى، قال: ما منك؟ قال: أربعون نخلة، فقال: أنا أعطيك أربعين^(٤) نخلة، فأشهد له ناساً، ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ فقال: إن النخلة قد صارت في ملكي، وهي لك، فذهب رسول الله ﷺ إلى صاحب الدار، فقال: النخلة لك ولعيلالك، فأنزل الله ﷻ ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَنفَنُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ رواه عكرمة عن ابن عباس^(٥). وقال عطاء: الذي اشتراها

(١) قال الشوكاني: والظاهر العموم.

(٢) روى مسلم في «صحيحه» ٢٠٣/١ عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل الناس يفلتو، فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها» أي: كل إنسان يسيء بنفسه، فمنهم من يبيعها بطاعته فيعتقها من العذاب، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعها فيوبقها، أي: يهلكها.

(٣) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٣٣٥، وأورده السيوطي في «الدر» ٣٥٨/٦ من رواية ابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن عساكر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وذكره البغوي والخازن بغير سند.

(٤) في الأصل: أربعون، وهو خطأ، والتصحيح من النسخة الإستانبولية وكتب التفسير.

(٥) رواه ابن أبي حاتم والواحدي في «أسباب النزول» ٣٣٥ من طريق حفص بن عمر العدني عن الحكم بن أبان العدني عن عكرمة عن ابن عباس، وهو حديث ضعيف، لضعف حفص بن عمر، والحكم بن أبان العدني، صدوق عابد له أوهام، كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب». والحديث ذكره الحافظ ابن كثير في التفسير من رواية ابن أبي حاتم وقال في آخره: وهو حديث غريب جداً. وأورده السيوطي في «الدر» ٣٥٧/٦ من رواية ابن أبي حاتم بسند ضعيف. ومما يدل على ضعف سبب النزول هذا وعدم صحته، أن القصة كانت بالمدينة، وسورة «الليل» نزلت بمكة.

من الرجل أبو الدحداح، أخذها بحائط له، فأنزل الله تعالى هذه الآيات إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَيِّئَكَ لَشَتَّى﴾ (١) أبو الدحداح، وصاحب النخلة^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَطْعَمَ رَأْسَهُ﴾ (٣) قال ابن مسعود: يعني: أبا بكر الصديق، هذا قول الجمهور^(٤). وقال عطاء: هو أبو الدحداح. وفي المراد بهذا العطاء ثلاثة أقوال: أحدها: أعطى من فضل ماله، قاله ابن عباس. والثاني: أعطى الله الصديق من قلبه، قاله الحسن. والثالث: أعطى حق الله عليه، قاله قتادة. وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّى﴾ (٥) ثلاثة أقوال: أحدها: اتقى الله، قاله ابن عباس. والثاني: اتقى البخل، قاله مجاهد. والثالث: اتقى محارم الله التي نهى عنها، قاله قتادة. وفي «الحسنى» ستة أقوال: أحدها: أنه «لا إله إلا الله»، رواه عطية عن ابن عباس، وبه قال الضحاك. والثاني: الخلف^(٦)، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال الحسن. والثالث: الجثة، قاله مجاهد. والرابع: نعم الله عليه، قاله عطاء. والخامس: بوعده أن يشيه، قاله قتادة، ومقاتل. والسادس: الصلاة، والزكاة، والصوم، قاله زيد بن أسلم.

قوله تعالى: ﴿فَسَيِّئُ السَّرِيعِ﴾ (٧) ضم أبو جعفر سين «اليسرى» وسين «العسرى» وفيه قولان: أحدهما: للخير، قاله ابن عباس. والمعنى: يُيسر ذلك عليه. والثاني: للجنة، قاله زيد بن أسلم. ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ (٨) قال ابن مسعود: يعني بذلك أمية وأبي ابن خلف. وقال عطاء: هو صاحب النخلة. قال المفسرون: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ بالنفقة في الخير والصدقة. وقال قتادة: بحق الله ﷻ، ﴿وَأَسْتَفْتَى﴾ (٩) عن ثواب الله فلم يرغب فيه ﴿وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ (١٠) وقد سبقت الأقوال فيها. وفي «العسرى» قولان: أحدهما: النار، قاله ابن مسعود. والثاني: الشر، قاله ابن عباس. والمعنى: سنيته للشر فيؤديه إلى الأمر العسير، وهو عذاب النار^(١١). ثم ذكر أن ما أسكه من ماله لا ينفعه، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَنفَعُ عَنْهُ مَالُهُ﴾ الذي بخل به عن الخير ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾ (١٢) وفيه قولان: أحدهما: إذا تردى في جهنم، قاله ابن عباس، وقاتدة. والمعنى: إذا سقط فيها. والثاني: إذا مات تردى في قبره، قاله مجاهد.

﴿إِنَّ عَيْنًا لَّهْدَى﴾ (١٣) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴿١٤﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٥﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٦﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ وَسَيِّئُهُمَا الْأَتَقَى ﴿١٨﴾ الَّذِي يَزِيءُ مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٩﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿٢٠﴾ إِلَّا أَتَيْنَاهُ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢١﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢٢﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَيْنًا لَّهْدَى﴾ (١٣) قال الزجاج: المعنى: إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلالة ﴿وَأَنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ (١٤) أي: فليطلبنا منا ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ (١٥) أي: توقد وتوهج ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ (١٦) يعني: المشرك ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ الرسول ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الإيمان. قال أبو عبيدة: ﴿الْأَشْقَى﴾ بمعنى الشقي. والعرب تضع «أفعل» في موضع «فاعل». قال طرفة:

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» من رواية علي بن حجر عن إسحاق بن نجيع الملطي عن عطاء، وإسحاق بن نجيع الملطي قال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: كذبوه، وعطاء أرسله، وقد ورد التصريح باسم أبي الدحداح في رواية الواحدي في «أسباب النزول» حيث قال عن الشخص الذي اشتراها: ثم ذهب الرجل فلقي رجلاً هو ابن الدحداح كان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ... إلخ، وهو حديث ضعيف كما تقدم. قال الخازن: والصحيح أنها نزلت في أبي بكر الصديق وأميه بن خلف، لأن سياق الآيات يقتضي ذلك.

(٢) ونقل القرطبي قول ابن مسعود هذا عن عامة المفسرين. وروى الحاكم في «المستدرک» ٥٢٥/٢ من حديث زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن إسحاق قال: حدثني محمد بن عبد الله بن أبي عتيق عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: قال أبو حمزة لأبي بكر: أراك تمنع رقاباً ضعفاً، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت رجلاً جلدًا يمنعوك ويقومون دونك، فقال أبو بكر: يا أبت إني إنما أريد ما أريد، فأنزلت هذه الآيات ﴿فَأَمَّا مَنْ أَطْعَمَ رَأْسَهُ﴾ (٣) ﴿وَسَكَّنَ يَلْقَى﴾ (٤) ﴿فَسَيِّئُ السَّرِيعِ﴾ (٧) إلى قوله عز وجل: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ (٢٠) إِلَّا أَتَيْنَاهُ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢١﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢٢﴾ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وسكت عليه الذهبي، ورواه الواحدي في «أسباب النزول» ٣٣٦ من حديث إبراهيم بن سعد عن محمد بن إسحاق به، ورواه ابن جرير الطبري ٢٢١٠/٣٠ وأورده السيوطي في «الدرر» ٣٠٨/٦ من رواية ابن جرير وزاد نسبه لابن عساكر.

(٣) أي: بالخلف من الله تعالى على عطاء.

(٤) قال ابن كثير: والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله عز وجل يجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخلا، وكل ذلك بقدر مقدر، والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة، وذكر منها ما رواه البخاري عن علي بن أبي طالب قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعد من النار»، فقالوا: يا رسول الله أفلا نكفل؟ فقال: «اعملوا فكل ميت منكم لما خلق له» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَطْعَمَ رَأْسَهُ﴾ (٣) ﴿وَسَكَّنَ يَلْقَى﴾ (٤) ﴿فَسَيِّئُ السَّرِيعِ﴾ (٧) إلى قوله: ﴿يَلْقَى﴾ (٨).

تَمَنَّى رَجَالٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أُمُتَ
 قَالَ الزَّجَاجُ: وهذه الآية التي من أجلها زعم أهل الإرجاء^(١) أنه لا يدخل النار إلا كافر، وليس [الأمير] كما
 ظنوا. هذه نار موصوفة بعينها، ولأهل النار منازل. فلو كان [كل]^(٢) من لا يشرك لا يعذب لم يكن في قوله تعالى:
 ﴿وَيَقُولُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فائدة [وكان «ويغفر ما دون ذلك» كلاماً لا معنى له]^(٣).
 قوله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِيَنَّكَ﴾ أي: يُعْذِبُ عنها، فيجعل منها على جانب ﴿الْآلَتَيْنِ﴾ يعني: أبا بكر الصديق في قول جميع
 المفسرين ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ أي: يطلب أن يكون عنه الله زاكياً، ولا يطلب الرياء، ولا السمعة ﴿وَمَا لِأَحَدٍ
 عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ أي: لم يفعل ذلك مجازاة ليد أسويته إليه. وروى عطاء عن ابن عباس أن أبا بكر لما اشترى
 بلالاً بعد أن كان يعذب قال المشركون: ما فعل أبو بكر ذلك إلا ليد كانت لبلال عنده، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ
 عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ إلا إِيَّاهُ وَبِهِ رُؤْيُ الْآلَيْنِ^(٤) أي: إلا طلباً لشواب ربه. قال الفراء: و﴿إِلَّا﴾ بمعنى «لكن»
 ونصب ﴿إِيَّاهُ﴾ على إضمار إنفاقه. فالمعنى: وما ينق إلا ابتغاء وجه ربه.
 قوله تعالى: ﴿وَلَنُؤْتِيَ رِزْقًا﴾ أي: بما يُعْطَى في الجنة من الثواب^(٥).



- (١) هو في معجاز القرآن، لأبي عبيدة ٣٠١/٢، والطبري ٢٢٧/٣٠، والقرطبي ٨٨٠/٢٠.
- (٢) ويسمون المرجئة، وهم فرقة من فرق الإسلام يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة، وستوا مرجئة لاعتقادهم أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي، أي أخره عنهم. وقيل: المرجئة: فرقة من المسلمين يقولون: الإيمان قول بلا عمل، كأنهم قدموا القول، وأرجؤوا العمل، أي أخره، لأنهم يرون أنهم لو لم يصلوا ولم يصوموا لنجاهم إيمانهم.
- (٣) زيادة من القرطبي.
- (٤) زيادة من القرطبي، وروى البخاري في صحيحه (٢١٤/١٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لكل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي، قالوا: يا رسول الله ومن أبي؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى.
- (٥) ذكره القرطبي وغيره عن عطاء عن ابن عباس بغير سند.
- (٦) قال ابن كثير: «ولسوف يرضى» أي: ولسوف يرضى من أنصف بهذه الصفات. قال: وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بمعومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو قوله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِيَنَّكَ﴾ الذي يؤتي ماله يتزكى ١٥ ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذلاً لأمواله في طاعة مولاة ونصرة رسول الله ﷺ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده مئة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود وهو سيد تقيف يوم صلح الحديبية: أما والله لو لا يد لك عندي لم أجرك بها لأجبتك. وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل، فكيف بمن عداهم؟! ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ إلا إِيَّاهُ وَبِهِ رُؤْيُ الْآلَيْنِ^(١) وفي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله دعه خزنة الجنة: يا عبد الله هذا خير» فمن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان، فقال أبو بكر: يا رسول الله ما على أحد دعي من تلك الأبواب من ضرورة فهل يدعي منها كلها أحد؟ قال: نعم وأرجو أن تكون منهم.

سورة الضحى

وهي مكية كلها بإجماعهم

اتفق المفسرون: على أن هذه [السورة] نزلت بعد انقطاع الوحي مدة. ثم اختلفوا في سبب انقطاعه على ثلاثة أقوال: أحدها: أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن ذي القرنين، وعن أصحاب الكهف، وعن الروح، فقال: سأخبركم غداً، ولم يقل: إن شاء الله، فاحتبس عنه الوحي. والثاني: لقلّة النظافة في بعض أصحابه، وقد ذكرنا هذين القولين في سورة [مريم: ٦٥]. والثالث: لأجل جرو كان في بيته، قاله زيد بن أسلم^(١). وفي مدة احتباسه عنه أقوال قد ذكرناها في [مريم: ٦٦]. وروى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث جُنْدُب قال: قالت امرأة من قريش للنبي ﷺ: «ما أرى شيطانك إلّا قد ودّعَكَ»، فنزلت «وَالضُّحَى ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ۝٣»^(٢) جندب: هو ابن سفيان، والمرأة: يقال لها: أم جميل امرأة أبي لهب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«وَالضُّحَى ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ۝٣ وَالْأَنْفَاسُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ۝٤ وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ۝٥ أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَحَافًى ۝٦ وَوَدَّعَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١»

وفي المراد «بالضحى» أربعة أقوال: أحدها: ضوء النهار، قاله مجاهد. والثاني: صدر النهار، قاله قتادة. والثالث: أول ساعة من النهار إذا ترخّلت الشمس، قاله السدي، ومقاتل. والرابع: النهار كله، قاله الفراء. وفي معنى «سَجَى» خمسة أقوال: أحدها: أظلم. والثاني: ذهب، روي عن ابن عباس. والثالث: أقبل، قاله سعيد بن جبير. والرابع: سكن، قاله عطاء، وعكرمة، وابن زيد. فعلى هذا: في معنى «سكن» قولان: أحدهما: استقر ظلامه، قال الفراء: «سَجَى» بمعنى أظلم وركد في طوله. كما يقال: بَحَرُ سَاجٍ، وَلَيْلُ سَاجٍ، إذا ركد وأظلم. ومعنى: ركد: سكن. قال أبو عبيدة: يقال: ليلة ساجية، وساكنة، وشاكرة. قال الحادي:

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٥٤٥/٨: وجدت في «الطبري» بإسناد فيه من لا يعرف أن سبب نزولها وجود جرو كلب تحت سريره ﷺ لم يشعر به، فأبطأ عنه جبريل لذلك، وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة، لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب، بل شاذ مردود بما في «الصحيح» والله أعلم. وورد لذلك سبب ثالث، وهو ما أخرجه الطبري من طريق العوفي عن ابن عباس قال: لما نزل على رسول الله ﷺ القرآن أبطأ عنه جبريل أياماً، فتغير بذلك، فقالوا: ودعه ربه وقلاه، فأنزل الله تعالى: «مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى». ومن طريق إسماعيل مولى آل الزبير قال: فتر الوحي حتى شق ذلك على النبي ﷺ وأحزنه، فقال: فقد خشيت أن يكون صاحبي قلائب، فجاء جبريل بسورة «الضحى». وذكر سليمان التيمي في السيرة التي جمعها، ورواها محمد بن عبد الأعلى عن معتمر بن سليمان عن أبيه قال: فتر الوحي فقالوا: لو كان من عند الله لتابع، ولكن الله قلاه، فأنزل الله: «وَالضُّحَى ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝٢ بِكَمَالِهِمَا»، قال: وكل هذه الروايات لا تثبت، والحق أن الفترة المذكورة في سبب نزول «وَالضُّحَى»، غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي، فإن تلك دامت أياماً، وهذه لم تكن إلّا ليلتين أو ثلاثاً، فاختلفتا على بعض الرواة. وتحرير الأمر في ذلك ما بيته، وقد أوضحت ذلك في التعبير والله الحمد، ووقع في «سيرة ابن إسحاق» في سبب نزول «وَالضُّحَى» شيء آخر، فإنه ذكر أن المشركين لما سألوا النبي ﷺ عن ذي القرنين والروح وغير ذلك، وعدمهم بالجواب ولم يستثن، فأبطأ عليه جبريل اثنتي عشرة ليلة أو أكثر، فضاق صدره وتكلم المشركون، فنزل جبريل بسورة «وَالضُّحَى» ويجواب ما سألوا، ويقول تعالى: «وَلَا تَقْرَأُ يَتِيمَةَ إِلَى قَائِلٍ ذَلِكَ غَدَا ۝١» إلّا أن يَشَاءَ اللَّهُ، وذكر سورة «الضحى» هنا بعيد، لكن يجوز أن يكون الزمان في القصتين مقارناً، فضم بعض الرواة إحدى القصتين إلى الأخرى، وكل منهما لم يكن في ابتداء البحث، وإنما كان بعد ذلك بمدة، والله أعلم.

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» ٥٤٥/٨، ومسلم ١٤٢٣/٣، وأحمد في «المستند» ٣١٢/٤، وابن جرير الطبري ٢٣١/٣٠، والواحدي في «أسباب النزول» ٣٣٧، وأورده السيوطي في «الدر» ٣٦٠/٦، وزاد نسبته للترمذي، والنسائي، والبيهقي وأبي نعيم معاً في «الدلائل» عن جندب بن عبد الله بن سفيان الجلي.

يَا حَبِذَا الْقَمْرَاءُ وَاللَّيْلُ السَّاحِ وَطُرُقٌ وَمِثْلُ مُلَاءِ النَّسَاجِ^(١)
قال ابن قتيبة: «سَبِيٌّ» بمعنى سكن، وذلك عند تناهي ظلامه وركوده. والثاني: سكن الخلق فيه، ذكره
الماوردي. والخامس: امتد ظلامه، قاله ابن الأعرابي^(٢).

قوله تعالى: «مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ» وقرأ عمر بن الخطاب، وأنس، وعروة، وأبو العالية، وابن يعمر، وابن أبي عبلة،
وأبو حاتم عن يعقوب «مَا وَدَّعَكَ» بتخفيف الدال. وهذا جواب القسم. قال أبو عبيدة: «مَا وَدَّعَكَ» من التوديع كما
يودع المفاقر، و«مَا وَدَّعَكَ» مخففة من ودعه يدعه «وَمَا قَلَّ» أي: أبغض.

قوله تعالى: «وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى» قال عطاء: خير لك من الدنيا. وقال غيره: الذي لك في الآخرة
أعظم مما أعطاك من كرامة الدنيا.

قوله تعالى: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ» في الآخرة من الخير «فَرَضَ» بما تُعْطَى. قال عليّ والحسن: هو الشفاعة
في أمته حتى يرضى. قال ابن عباس: غُرِضَ على رسول الله ﷺ ما يُفْتَحَ على أمته من بعده كُفْرًا كُفْرًا، فَسَرَّ بذلك،
فأنزل الله ﷻ: «وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى» وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى^(٣).

قوله تعالى: «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى» فيه قولان: أحدهما: جعل لك مأوى إذا ضَمَّكَ إلى عَمِّكَ أبي
طالب، فكفاك المؤونة، قاله مقاتل. والثاني: جعل لك مأوى لنفسك أغناك عن كفالة أبي طالب، قاله ابن
السائب.

قوله تعالى: «وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى» فيه ستة أقوال: أحدها: ضالًّا عن معالم النبوة، وأحكام الشريعة، فهذا
إليها، قاله الجمهور، منهم الحسن، والضحاك. والثاني: أنه ضَلَّ وهو صبي صغير في شعاب مكة، فردَّه الله إلى جده
عبد المطلب، رواه أبو الضحى عن ابن عباس. والثالث: أنه لما خرج مع ميسرة غلام خديجة أخذ إبليس بزمام ناقته،
فعدل به عن الطريق، فجاء جبريل، ففتح إبليس نفخة وقع منها إلى الحبشة، وردَّه إلى القافلة، فمَنَّ الله عليك بذلك،
قاله سعيد بن المسيب. والرابع: أن المعنى: ووجدك في قوم ضلَّال، فهذا للتوحيد والنبوة، قاله ابن السائب.
والخامس: ووجدك نسيًّا، فهذا إلى الذكر. ومثله: «أَنْ تَبْتَغِيَ إِسْمَهُمَا فَتُكَيِّرَ لَهُمَا الْأَنْثَى» [البقرة: ٢٢٨]، قاله
ثعلب. والسادس: ووجدك خاملاً لا تُذكر ولا تُعرَف، فهذا للناس إليك حتى عرفوك، قاله عبد العزيز بن يحيى،
ومحمد بن علي الترمذي.

قوله تعالى: «وَوَجَدَكَ عَائِلًا» قال أبو عبيدة: أي: ذا فقر. وأنشد:
وَمَا يَذْرِي الْفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ وَمَا يَذْرِي الْغَنِيُّ مَتَى يَعْجِلُ^(٤)
أي: يفقر. قال ابن قتيبة: العائل: الفقير، كان له عيال، أو لم يكن. يقال: عال الرجل: إذا افتقر. وأعال: إذا
كثر عياله.

قوله تعالى: «فَأَنْقَضَ» قولان: أحدهما: رَضَّاكَ بما أعطاك من الرزق، قاله ابن السائب، واختاره الفراء. وقال:

(١) الرجز في أمجاد القرآن، لأبي عبيدة، والكامل، ١٦١، والطبري، ٣٠/٢٣٠، والقرطبي، ٩١/٢٠، واللسان: سجي.

(٢) قال الطبري: وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي في ذلك قول من قال: معناه: واللَّيْلُ إذا سكن بأمله، وثبت بظلامه، كما يقال: بحر ساج: إذا كان
ساجًا.

(٣) رواه ابن جرير الطبري ٣٠/٢٣٢ من رواية الإمام الأوزاعي عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه
عبد الله بن عباس، ورواه ابن أبي حاتم من طريقه به. قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ومثل هذا ما يقال عن توقيف. ورواه
الواحدي في «أسباب النزول» ٣٣٨، والحاكم ٥٢٦/٢ ورواه الطبراني في «الكبير». قال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٣٩/٧: وإسناد
الطبراني في «الكبير» حسن. وأوردته السيوطي في «الدر» ٣٦١/٦ وزاد نسبه لعبد بن حميد، والبيهقي وأبي نعيم كلاهما في «الدلائل»، وابن مردويه
عن ابن عباس.

(٤) البيت لأبيحة بن الجلاح الأوسي، وهو في «جمهرة أشعار العرب» ١٢٥، ومعاني القرآن للفراء ٢٥٥/١، والجمهرة ١٩٣/٢، والطبري، ٧/٥٤٩،
واللسان: عيل، وأمجاد القرآن ٣٠٢/٢، والقرطبي، ٩٩/٢٠.

لم يكن غناه عن كثرة المال، ولكن الله رضاء بما آتاه. والثاني: فأغناك بمال خديجة عن أبي طالب، قاله جماعة من المفسرين^(١).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا آلِيَمَّ فَلَا تَنْهَرُ﴾^(٢) فيه قولان: أحدهما: لا تحقر، قاله مجاهد. والثاني: لا تقهره على ماله، قاله الزجاج^(٣). ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ﴾ ففيه قولان: أحدهما: سائل البر، قاله الجمهور. والمعنى: إذا جاءك السائل، فإما أن تعطيه، وإما أن تردّه ردّاً لينا. ومعنى ﴿فَلَا تَنْهَرُ﴾ لا تنهره، يقال: نهره وانتهره: إذا استقبله بكلام يزرجه. والثاني: أنه طالب العلم، قاله يحيى بن آدم في آخرين.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْعَمَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^(٤) في النعمة ثلاثة أقوال: أحدها: النُبوة. والثاني: القرآن، روي عن مجاهد. والثالث: أنها عامة في جميع الخيرات، وهذا قول مقاتل. وقد روي عن مجاهد قال: قرأت على ابن عباس، فلما بلغت ﴿وَالضُّحَى﴾^(٥) قال: كبر إذا ختمت كل سورة حتى تختتم. وقد قرأت على أبي بن كعب فأمرني بذلك. قال علي بن أحمد النيسابوري: ويقال: إن الأصل في ذلك أن الوحي لما فتر عن رسول الله ﷺ، وقال المشركون: قد هجره شيطانه وودعه، اغتم بذلك، فلما نزل ﴿وَالضُّحَى﴾^(٦) كبر عند ذلك رسول الله ﷺ فرحاً بنزول الوحي، فاتخذته الناس سُنَّةً^(٧).



(١) روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة المرض ولكن الغنى عن النفس»، وروى مسلم في «صحيحه» عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وطمع الله بما آتاه».

(٢) وفي «صحيح البخاري» عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما قليلاً. ورواه أيضاً بمعناه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي.

(٣) قال عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير المفسر: روي من طريق أبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرئ، قال: قرأت على عكرمة بن سليمان، وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد، فلما بلغت: ﴿وَالضُّحَى﴾ قال لي: كبر حتى تختتم مع كل خاتمة كل سورة، فإنا قرأنا على ابن كثير (يريد به عبد الله بن كثير أحد القراء السبعة، المتوفى سنة ١٢٠هـ) فأمرنا بذلك، وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك، فهذه سُنَّة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي من ولد القاسم بن أبي بزة، وكان إماماً في القراءات، فأما في الحديث، فقد ضعفه أبو حاتم الرازي، وقال: لا أحدث عنه، وكذلك أبو جعفر العقيلي قال: هو منكر الحديث، لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في «شرح الشاطبية» عن الشافعي أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة فقال: أحسنت وأصبت السنة. وهذا يقتضي صحة هذا الحديث. قال ابن كثير: ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير وكيفيته، فقال بعضهم: يكبر من آخر ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَنْتَهَى﴾ وقال آخرون: من آخر ﴿وَالضُّحَى﴾ وكيفيته التكبير عند بعضهم أن يقول: الله أكبر، ومنهم من يقول: الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر. قال ابن كثير: وذكر القراء في مناسبة التكبير من أول سورة ﴿وَالضُّحَى﴾ أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ وفتر تلك المدة، ثم جاء الملك فأوحى إليه ﴿وَالضُّحَى﴾^(٨) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَنْتَهَى﴾^(٩) السورة بتمامها، كبر فرحاً وسروراً. قال: ولم يرد ذلك بإستاد يحكم عليه بصحة ولا ضعف، فإله أعلم.

سورة الانشرح

مكية كلها بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنْزَلَ نَحْنُ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ﴾ ﴿١﴾ ﴿أَلَيْسَ أَنتَقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۚ﴾ ﴿٢﴾ ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۚ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ ﴿٣﴾ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ نَحْنُ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ﴾ ﴿١﴾ الشرح: الفتح بإذهاب ما يصدّ عن الإدراك. والله تعالى فتح صدر نبيّه للهدى والمعرفة بإذهاب الشواغل التي تصدر عن إدراك الحق. ومعنى هذا الاستفهام: التقدير، أي: قد فعلنا ذلك^(١). ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ﴾ ﴿٢﴾ أي: خَطَطْنَا عَنكَ إِثْمَكَ الذي سَلَفَ في الجاهلية، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، والضحاك، والفراء، وابن قتيبة في آخرين. وقال الزجاج: المعنى: أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال ابن قتيبة: وأصل الوزر: ما حمله الإنسان على ظهره، فَشُبَّ بالحمل فجعل مكانه. ومعنى ﴿أَلَيْسَ أَنتَقَضَ ظَهْرَكَ ۖ﴾ أثقله حتى سمع نقيضه، أي: صوته. وهذا مثل، يعني: أنه لو كان حملاً يحمل لَسَمِعَ نَقِيضَ الظهر منه. وذهب قوم إلى أن المراد بهذا تخفيف أعباء النبوة التي يُثْقَلُ القيامُ بها الظَّهْرَ، فَسَهَّلَ الله له ذلك حتى تيسَّرَ عليه الأمر. وممن ذهب إلى هذا عبد العزيز بن يحيى.

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۚ﴾ ﴿٣﴾ فيه خمسة أقوال أحدها: ما روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه سأل جبريل عن هذه الآية، فقال: قال الله ﷻ: إِذَا ذُكِرْتُ [ذُكِرْتُ]^(٢) معي^(٣). قال قتادة: فليس خطيب، ولا مُشْهَدٌ، ولا صاحب صلاة إلا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وهذا قول الجمهور. والثاني: رفعنا لك ذِكْرَكَ بالنبوة، قاله يحيى بن سلام. والثالث: رفعنا لك ذكرك في الآخرة كما رفعناه في الدنيا، حكاه الماوردي. والرابع: رفعنا لك ذكرك عند الملائكة في السماء. والخامس: بأخذ الميثاق لك على الأنبياء، والزامهم الإيمان بك، والإقرار بفضلك، حكاهما الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ﴾ ﴿٤﴾ ضم سين «العُسْر»، وسين «اليسر» أبو جعفر، و«اليسر» مذكور في الآيتين بلفظ التعريف. و«اليسر» مذكور بلفظ التنكير، فدلّ على أن العسر واحد، واليسر اثنان. قال ابن مسعود، وابن عباس في هذه [الآية]^(٤): لن يغلب عُسْر يسرين. قال الفراء: العرب إذا ذُكِرَتْ نِكْرَةً ثم أعادتها بنكرة صارت اثنتين؛ كقولك: إذا كسبت درهماً فأنتق درهماً، فالثاني غير الأول، وإذا أعادتها معرفة، فهي كقولك: إذا كسبت درهماً فأنتق الدرهم، فالثاني هو الأول. ونحو هذا قال الزجاج: ذَكَرَ الْعُسْرَ بالالف واللام، ثم تُتَى ذِكْرَهُ، فصار المعنى: إن مع العسر يسرين. وقال الحسين بن يحيى الجرجاني - ويقال له: صاحب النظم -: معنى الكلام: لا يحزنك ما يُعْيِرُك به

(١) قال ابن كثير: يقول الله تعالى: ﴿أَنْزَلَ نَحْنُ لَكَ صَدْرَكَ ۖ﴾ يعني: إنا شرحنا لك صدرك، أي نورنا وجعلناه فيضاً رحباً واسعاً، كقوله: ﴿فَتَن يَزِيدُ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ إِيمَانَهُ وَيُخْرِجُهُ مِنَ الْبَيْتِ بِأَمْنٍ﴾ وكما شرح الله صدره، كذلك جعل شرعه فيضاً واسعاً سمحاً سهلاً لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق.

(٢) سقطت هذه الكلمة من الأصل، واستلركناها من الطبري وغيره.

(٣) رواه ابن جرير الطبري ٢٣٥/٣٠ من رواية يونس عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري، ودراج، وإن كان صدوقاً في حديثه فإنه في روايته عن أبي الهيثم ضعيف، كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب» ومع ذلك فقد صححه ابن حبان. وقال ابن كثير: وكذا روى الحديث ابن أبي حاتم عن يونس عن عبد الأعلى به، ورواه أبو يعلى عن طريق ابن لهيعة عن دراج. وأورده السيوطي في «الدرر» ٦/٣٦٤ وزاد نسبه لابن المنذر، وابن مردويه، وأبي نعيم في «الدلائل» عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤) زيادة من النسخة الإمتبوية.

المشركون من الفقر ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [عاجلاً في الدنيا، فأنجزه بما وعده، بما فتح عليه، ثم ابتداءً فصلاً آخر فقال: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾^(١)، والدليل على ابتدائه تعرّبه من الفاء والواو، وهو وعد لجميع المؤمنين أن مع عسر المؤمنين يسراً في الآخرة، فمعنى قولهم: لن يغلب عسر يسرين: لن يغلب عسر الدنيا اليسر الذي وعده الله المؤمنين في الدنيا، فاليسر الذي وعدهم في الآخرة، إنما يغلب أحدهما، وهو يسر الدنيا. فأما يسر الآخرة، فدائم لا ينقطع، كقوله ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾: «شهرها عيد لا ينقصان»^(٢)، أي: لا يجتمعان في النقص. وحكي عن العتبي قال: كنت ذات ليلة في البادية بحالة من العَمِّ، فألقي في روعي بيت من الشعر، فقلت:

أَزَى الْمَوْتُ لِمَنْ أَضَبَ
حَجَّ مُمْمِوْماً لَهُ أَرْوَخُ
فلما جن الليل سمعت هاتفاً يهتف:

أَلَا يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ أَلَمْ
وَقَدْ أَنْشَدَ بَيْتاً لَمْ
إِذَا اشْتَدَّ بِكَ الْمُشَرُّ
فَعُسْرَ بَيْنِ يُسْرَيْنِ
فحفظت الأبيات وقرّج الله عَمِّي.

قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾^(٣) أي: فادأب في العمل، وهو من النَّصَب، والنَّصَب: التعب، الدُّؤوب في العمل. وفي معنى الكلام خمسة أقوال: أحدها: فإذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل، قاله ابن مسعود. والثاني: فإذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء، قاله ابن عباس، والضحاك، ومقاتل. والثالث: فإذا فرغت من أمر دينك فانصب في عمل آخرتك، قاله مجاهد. والرابع: فإذا فرغت من التشهد فادع لدينك وآخرتك، قاله الشعبي، والزهري. والخامس: إذا صحَّ بدنك فاجعل صحتك نصيباً في العبادة، ذكره علي بن أبي طلحة، ﴿وَلَا رَيْبَ أَنْ يَرْجِعَ﴾^(٤) قال الزجاج: اجعل رغبتك إلى الله ﷻ وحده^(٥).



(١) زيادة من النسخة الاستبولية.

(٢) رواه البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن أبي بكرة رضي الله عنه، واللفظ لمسلم ٧٦٦/٢ وهو بتمامه: «شهرها عيد لا ينقصان: رمضان وفو الحجة» ولفظ البخاري ١٠٨/٤: «شهران لا ينقصان، شهرها عيد: رمضان وفو الحجة»، قال الإمام النووي في «شرح مسلم»: قوله ﷺ: «شهرها عيد لا ينقصان: رمضان وفو الحجة» الأصح أن معناه: لا ينقص أجرهما والثواب المرتب عليهما وإن نقص عددهما. وقيل: معناه: لا ينقصان جميعاً في سنة واحدة غالباً، وقيل: لا ينقص ثواب ذي الحجة عن ثواب رمضان، لأن فيه المناسك، حكاة الخطابي وهو ضعيف، والأول هو الصواب المعتمد. ومعناه أن قوله ﷺ: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»، وقوله ﷺ: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً...» وغير ذلك، فكل هذه الفضائل تحصل، سواء تم عدد رمضان أم نقص، والله أعلم.

وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ١٠٦/٤ ما ملخصه: وقد اختلف العلماء في معنى هذا الحديث، فمنهم من حمله على ظاهره فقال: لا يكون رمضان ولا ذو الحجة أبداً إلا ثلاثين، وهذا قول مردود معانده للموجود المشاهد، ويكفي في رده قوله ﷺ: «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن هم عليكم فأكملوا المدة»، فإنه لو كان رمضان أبداً ثلاثين لم يحتج إلى هذا، قال: ومنهم من تأوّل له معنى لانقضاء، قال أبو الحسن: كان إسحاق بن راهويه يقول: لا ينقصان في الفضيلة إذا كانا تسعة وعشرين أو ثلاثين، وقال البيهقي في «المعرفة»: إنما خُصّهما بالذكر لتعلق حكم الصوم والحجّ بهما. قال ابن حجر: والمعنى أن كل ما ورد عنهما من الفضائل والأحكام حاصل سواء كان رمضان ثلاثين أو تسعاً وعشرين.

ثم قال: وفي الحديث حجة لمن قال: إن الثواب ليس مرتباً على وجود المشقة دائماً، بل لله أن يتفضل بإلحاق الناقص بالتام في الثواب، ثم قال: وهذا الحديث يقتضي أن التسوية في الثواب بين الشهر الذي يكون تسعاً وعشرين، وبين الشهر الذي يكون ثلاثين، إنما هو بالنظر إلى جعل الثواب متعلقاً بالشهر من حيث الجملة، لا من حيث تفصيل الأيام. وأطلق على رمضان أنه شهر عيد لقربه من العيد، ونظيره قوله ﷺ: «المغرب وتر النهار» أخرجه الترمذي من حديث ابن عمر، وصلاة المغرب ليلية جهرية، وأطلق كونها وتر النهار لقربها منه، وفيه إشارة أن وقتها يدخل أول ما تغرب الشمس.

(٣) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾^(١) ﴿وَلَا رَيْبَ أَنْ يَرْجِعَ﴾^(٢) أي: إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علاقتها، فانصب إلى العبادة، وقم إليها نشاطاً فارغ البال، وأخلص لربك التوبة والرغبة، قال: ومن هذا القبيل قوله ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافعه الأغصان»، وقوله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة وحضر القشاء، فابعدوا بالعشاء».

سورة التين

وفيها قولان: أحدهما: مكة، قاله الجمهور، منهم الحسن، وعطاء^(١). والثاني: أنها مدنية، حكاه الماوردي عن ابن عباس، وقتادة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالزَّيْتُونَ وَالزَّيْتُونَ﴾ (١) وَطُورِ سِينٍ (٢) وَكَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ الْبَلَدَيْنِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ لَتَفَكِّحِينَ (٨)﴾

قوله تعالى: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالزَّيْتُونَ﴾ (١) فيهما سبعة أقوال: أحدها: أنه التين المعروف، والزيتون المعروف، قاله ابن عباس، والحسن، وعطاء، ومجاهد، وعكرمة، وجابر بن زيد، وإبراهيم. وذكر بعض المفسرين أنه إنما أقسم بالتين لأنها فاكهة مُخْلِصَة من شائب التنغيص، وهو يدل على قدرة من هيأه على تلك الصفة. وجعل الواحدة منه على مقدار اللقمة، وإنما أقسم بالزيتون لكثرة الانتفاع به. والثاني: أن التين: مسجد نوح ﷺ الذي بني على الجودي. والزيتون: بيت المقدس، رواه عطية عن ابن عباس^(٢). والثالث: التين: المسجد الحرام، والزيتون: المسجد الأقصى، قاله الضحاك. والرابع: التين: مسجد دمشق، والزيتون: بيت المقدس، قاله كعب، وقتادة، وابن زيد. والخامس: أنها جبال، قاله عكرمة في رواية. وروي عن قتادة قال: التين: الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون: الجبل الذي عليه بيت المقدس. والسادس: أن التين: مسجد أصحاب الكهف، والزيتون: مسجد إيلياء، قاله القرظي. والسابع: أن التين: جبال ما بين حلوان إلى همدان، والزيتون: جبال بالشام، حكاه الفراء^(٣). فأما ﴿وَطُورِ سِينٍ﴾ (٢) فالطور: جبل، وفيه قولان: أحدهما: أنه الجبل الذي كلم الله موسى عليه، قاله كعب الأحبار في الأكثرين. والثاني: أنه جبل بالشام، قاله قتادة. فأما ﴿سِينٍ﴾ فهو لغة في سيناء، وقد قرأ علي، وسعد بن أبي وقاص، وأبو العالية، وأبو مجلز «وطور سيناء» ممدودة مهموزة، مفتوحة السين. وقرأ ابن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو حيوة: «وطور سيناء» مثلهم إلا أنهم كسروا السين. وقرأ أبو رجاء، والجحدري «سينين» كما في المصحف، لكنهما فتحا السين. وقال ابن الأنباري: «سينين» هو سيناء. واختلفوا في معناه، ف قيل: معناه: الحسن، وقيل: المبارك، وقيل: إنه اسم للشجر الذي حوله. وقد شرحنا هذا في سورة [المؤمنين: ٢٠] قال الزجاج: وقد قرئ هاهنا «وطور سيناء» وهو أشبه لقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سِينَاءَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]. وقال مقاتل: كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين، وسيناء بلغة النبط^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (٣) يعني: مكة يأمن فيه الخائف في الجاهلية، والإسلام^(٥). قال الفراء: ومعنى ﴿الْأَمِينِ﴾ الآمن. والعرب تقول للأمين: آمن. قال الشاعر:

(١) وهو الصواب.

(٢) وعطية ضعيف.

(٣) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندنا قول من قال: التين، هو التين الذي يؤكل، والزيتون: هو الذي يعصر منه الزيت، لأن ذلك هو المعروف عند العرب.

(٤) قال أبو جعفر الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: طور سينين، جبل معروف، لأن الطور هو الجبل ذو النبات، فإضافته إلى سينين، تعريف له، ولو كان نعتاً للطور كما قال من قال: حسن أو مبارك، لكان الطور منوناً، وذلك أن الشيء لا يضاف إلى نعت غير علة تدعو إلى ذلك.

(٥) قال ابن كثير: وقال بعض الأئمة: هذه محال ثلاثة، بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار، فالأول محلة التين والزيتون، وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم ﷺ، والثاني: طور سينين، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران، والثالث: مكة، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ، قالوا: وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء - يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران - وأشرق من ساعير - يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى - واستعلن من جبال =

أَلَمْ تَغْلَمِي يَا أَسْمَ وَنَحَكَ أَتْنِي

حَلَفْتُ يَمِينًا لَا أَخُونُ أَمِينِي^(١)

يريد آمني.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ هذا جواب القسم. وفي المراد بالإنسان هاهنا خمسة أقوال: أحدها: أنه كَلْدَة بن أسيد، قاله ابن عباس. والثاني: الوليد بن المغيرة، قاله عطاء. والثالث: أبو جهل بن هشام. والرابع: عتبة، وشيبة، حكاهما الماوردي. والخامس: أنه اسم جنس، وهذا مذهب كثير من المفسرين^(٢)، وهو معنى قول مقاتل.

قوله تعالى: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: في أعدل خلق. والثاني: منتصب القامة، روى عن ابن عباس. والثالث: في أحسن صورة، قاله أبو العالية. والرابع: في شباب وقوة، قاله عكرمة^(٣). ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾^(٤) فيه قولان: أحدهما: إلى أَرْدَلِ الْعُمُر، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، وإبراهيم، وقتادة^(٥). وقال الضحاك: إلى الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة. والسافلون: هم الضعفاء، والزمنى، والأطفال، والشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعاً. قال الفراء: وإنما قال ﴿سَافِلِينَ﴾ على الجمع؛ لأن الإنسان في معنى جمع. تقول: هذا أفضل قائم، ولا تقول: قائمين، لأنك تريد واحداً، فإذا لم ترد واحداً ذكرته بالتوحيد وبالجمع. والثاني: إلى النار، قاله الحسن، وأبو العالية، ومجاهد. والمعنى: إنا نفعل هذا بكثير من الناس. تقول العرب: أنفق فلان ماله على فلان، وإنما أنفق بعضه، ومثله قوله تعالى: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾^(٦) [الليل: ١٨] لم يُرِدْ كُلَّ ماله. ثم استثنى من الإنسان فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأن معنى الإنسان الكثير. وللمفسرين في معنى الاستثناء قولان: أحدهما: إلا الذين آمنوا، فإنهم لا يُرَدُّونَ إلى الْخَرَفِ وَأَرْدَلِ الْعُمُرِ وإن عُمُرُوا طويلاً، وهذا على القول الأول. قال ابن عباس: من قرأ القرآن لم يُرَدَّ إلى أَرْدَلِ الْعُمُر. وقال النخعي: إذا بلغ المؤمن من الكِبَر ما يعجز عن العمل كُتِبَ له ما كان يعمل، وهو قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ وقال ابن قتيبة: المعنى: إلا الذين آمنوا في وقت القوة والقدرة، فإنهم حال الكِبَر غير مقوصين وإن عجزوا عن الطاعات؛ لأن الله تعالى علم أنهم لو لم يسلبهم القوة لم ينقطعوا عن أفعال الخير، فهو يجري لهم أجر ذلك. والثاني: إلا الذين آمنوا، فإنهم لا يُرَدُّونَ إلى النار. وهذا على القول الثاني^(٧). وقد شرحنا معنى «الممنون» في «ن» [آية: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالْيَدَيْنِ﴾^(٨) فيه قولان: أحدهما: فما يكذبك أيها الإنسان بعد هذه الحجة، ﴿بِالْيَدَيْنِ﴾ أي: ما الذي يجعلك مكذباً بالجزاء؟ وهذا توبيخ للكافر، وهو معنى قول مقاتل. وزعم أنها نزلت في عدي بن ربيعة. والثاني: فمن يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب بعدما تبين له خلقنا الإنسان على ما وصفنا، قاله الفراء. فاما «الذين» فهو الجزاء. والمشار بذكره إلى البعث، كأنه استدلل بتقليب الأحوال على البعث.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ الْخَائِضِينَ﴾^(٩) أي: بأقصى القاضين. قال مقاتل: يحكم بينك وبين مكذِّبك. وذكر بعض المفسرين: أن معنى هذه الآية تسليته في تركهم والإعراض عنهم، ثم نسخ هذا المعنى بآية السيف^(١٠).

= فاران - يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ، فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان، ولهذا أفسم بالأشرف، ثم الأشرف منه، ثم الأشرف منهما.

(١) البيت من شواهد الفراء ٣٧١، وهو في الطبري ٢٤١/٣٠، والقرطبي ١١٣/٢٠.

(٢) وهو الصواب.

(٣) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن معنى ذلك: لقد خلقنا الإنسان في أحسن صورة وأعدلها، لأن قوله: ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ إنما هو نعت لمحدوف، وهو في تقويم أحسن تقويم، فكانه قال: لقد خلقناه في تقويم أحسن تقويم.

(٤) واختار هذا القول ابن جرير الطبري، ورد ابن كثير، فقال: ولو كان هذا هو المراد، لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك، لأن الهرم قد يصيب بعضهم، وإنما المراد ما ذكرناه (يعني القول الثاني: النار)؛ كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهِ ۖ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا شَكِرٌ ۖ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

(٥) وهو الأقرب إلى معنى الآية، كما قال ابن كثير.

(٦) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ الْخَائِضِينَ﴾^(٩) أي: أما هو أحكم الحاكمين الذي لا يجوز ولا يظلم أحداً، ومن عدله أن يقيم القيامة فينتصف للمظلوم من الدنيا ممن ظلمه.

فانصرف إليه النبي ﷺ فزيره^(١)، فقال أبو جهل: والله إنك لتعلم ما بها نادٍ أكثر مني، فأنزل الله تعالى: ﴿فَلْيَنْعِ نَادِيَهُ﴾^(٢) قال ابن عباس: والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله^(٣). قال المفسرون: والمراد بالعبد هنا: محمد ﷺ. وقيل: كانت الصلاة صلاة الظهر.

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْمَذْكَاءِ﴾ يعني المنهي وهو النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ يعني: الناهي، وهو أبو جهل، قال الفراء: والمعنى: أرايت الذي ينهى عبداً إذا صلى، وهو كاذب متوَلِّ عن الذُّكْرِ، فأى شيء أعجب من هذا؟ قال ابن الأنباري: تقديره: أرايته مصيباً.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ﴾ يعني أبا جهل ﴿يَا أَيُّهَا اللَّهُ بَرِّئَ﴾ ذلك فيجازهه ﴿كَلَّا﴾ أي: لا يعلم ذلك، ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ عن تكذيب محمد وشتمه وإيدائه ﴿لَتَنْتَعِمُنَّ بِالْأَنَافَةِ﴾ السفع: الأخذ، والأنصية: مُقَدِّمُ الرَّأْسِ. قال أبو عبيدة: يقال: سفعُ بيده، أي: أخذتُ بها. وقال الزجاج: يقال: سفعُ الشيء: إذا قبضت عليه وجذبتة جذباً شديداً. والمعنى: لَنَجْزُونَ ناصيته إلى النار.

قوله تعالى: ﴿نَافِثَةٍ﴾ قال أبو عبيدة: هي بدل، فلذلك جرَّها. قال الزجاج: والمعنى: بنافصية صاحبها كاذبٌ خاطئ، كما يقال: نهاؤه صائم، وليله قائم، أي: هو صائم في نهاره، قائم في ليله. ﴿فَلْيَنْعِ نَادِيَهُ﴾ أي: أهل ناديه، وهم أهل مجلسه فليستنصرهم ﴿سَنَعِ الزَّبَانِيَةَ﴾ قال عطاء: هم الملائكة الغلاظ الشُّداد. وقال مقاتل: هم خَزَنَةُ جَهَنَّمَ. وقال قتادة: الزَّبَانِيَةُ في كلام العرب: الشَّرْطُ. قال الفراء: كان الكسائي يقول: لم أسمع للزَّبَانِيَةِ بواحد، ثم قال بأخرة: واحد الزَّبَانِيَةِ: زُبَيْئٌ، فلا أدري أقياساً منه أو سماعاً. وقال أبو عبيدة: واحد الزَّبَانِيَةِ: زُبَيْئَةٌ، وهو كل متمرد من إنس، أو جان. يقال: فلان زُبَيْئَةٌ عَفْرِيَّةٌ. قال ابن قتيبة: وهو مأخوذٌ من الزُّبْنِ، وهو الدَّفْعُ، كأنهم يدفعون أهل النار إليها. قال ابن دريد: الزُّبْنُ: الدَّفْعُ. يقال: ناقة زبون: إذا زَبَنَتْ حاليها، ودفعته برجلها. وَتَزَابَنَ الْقَوْمُ: تدارَوْا. واشتقاق الزَّبَانِيَةِ من الزُّبْنِ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر على ما عليه أبو جهل ﴿لَا تُطِيعُنَّ﴾ في ترك الصلاة ﴿وَأَسْبِغُوا﴾ أي: صلُّوا لله ﴿وَأَقْرَبُ﴾ إليه بالطاعة، وهذا قول الجمهور أن قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبُ﴾ خطاب للنبي ﷺ. وقد قيل: إنه خطاب لأبي جهل، ثم فيه قولان: أحدهما: أن المعنى: اسجد أنت يا محمد، واقرب أنت يا أبا جهل من النار، قاله زيد بن أسلم. والثاني: واقرب يا أبا جهل تهتداً له، رواه أبو سليمان الدمشقي عن بعض القدماء. وهذا يشرحه حديث أبي هريرة الذي قدمناه. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»^(٤).



= وعبد بن حميد، وابن مردويه، وابن المنذر، وأبي نعيم والبيهقي معاً في «الدلائل» عن ابن عباس ؓ.

(١) أي: نهى وأغلظ له.

(٢) رواه الترمذي ١٧١/٢ وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح. ورواه أحمد في «المسند» رقم ٢٣٢١ و٣٠٤٥، وابن جرير الطبري ٢٥٦/٣٠، والواحدي في «أسباب النزول» ٣٣٩، وأورده السيوطي في «الدر» ٣٦٩/٦ وزاد نسبه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، وأبي نعيم والبيهقي عن ابن عباس ؓ.

(٣) رواه مسلم في «صحيحه» ٣٥٠/١.

سورة القدر

وفيها قولان: أحدهما: أنها مكية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: مدنية، قاله الضحاك، ومقاتل. قال الماوردي: والأول قول الأكثرين^(١). وقال الثعلبي: الثاني قول الأكثرين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۚ لَيْلَةُ الْقَدْرِ حَرِيرٌ ۚ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۚ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمٍّ ۚ سَلَّمَ مِنْ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني: القرآن ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وذلك أنه أنزل جملةً في تلك الليلة إلى بيت العزة، وهو بيت في السماء الدنيا. وقد ذكرنا هذا الحديث في أول كتابنا^(٢). والهاء في ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ كناية عن غير مذكور. وقال الزجاج: قد جرى ذكره في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾ [الدخان: ٤٣]. فأما ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ ففي تسميتها بذلك خمسة أقوال: أحدها: أن القدر: العظمة، من قولك: لفلان قدر، قاله الزهري. ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١] والزر: [٦٧]. والثاني: أنه من الضيق، أي: هي ليلة تضيق فيها الأرض عن الملائكة الذين ينزلون، قاله الخليل بن أحمد، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُدْرِ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧]. والثالث: أن القدر: الحكم، كان الأشياء تُقدَّرُ فيها، قاله ابن قتيبة. والرابع: لأن من لم يكن له قدر صار بمراعاتها ذا قدر، قاله أبو بكر الوراق. والخامس: لأنه نزل فيها كتاب ذو قدر، وتنزل فيها رحمة ذات قدر، وملائكة ذوو قدر، حكاه شيخنا علي بن عبيد الله.

فصل

واختلف العلماء هل ليلة القدر باقية، أم كانت في زمن النبي ﷺ خاصة؟ والصحيح بقاؤها. وهل هي في جميع السنة، أم في رمضان؟ فيه قولان: أحدهما: في رمضان، قاله الجمهور^(٣). والثاني: في جميع السنة، قاله ابن مسعود. واختلف القائلون بأنها في شهر رمضان هل تختص ببعضه دون بعض؟ على قولين: أحدهما: أنها في العشر الأواخر، قاله الجمهور، وأكثر الأحاديث الصحيحة تدلّ عليه. وقد روى البخاري في أفرادها من حديث ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، في تاسعة تبقى، أو سابعة تبقى، أو في خامسة تبقى»^(٤). وفي حديث أبي بكره قال: ما أنا بملتمسها لشيء سمعته من رسول الله ﷺ، إلا في العشر الأواخر، فإني سمعته يقول: «التمسوها في تسع يبقين، أو سبع يبقين، أو خمس يبقين، أو ثلاث يبقين، أو آخر ليلة»^(٥). والقول الثاني: أنها في جميع رمضان، قاله الحسن البصري. واختلف القائلون بأنها في العشر الأواخر هل تختص ليالي الوتر دون الشفع؟

(١) وهو الصواب.

(٢) وهو الصواب الذي تؤيده الأدلة الصحيحة عن رسول الله ﷺ، وسيورد المصنف بعضها.

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» ٢٢٦/٤ ولفظه: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، ليلة القدر، في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى». قال ابن كثير بعدما ذكر حديث البخاري هذا: فسرّه كثيرون بليالي الأوتار، وهو أظهر وأشهر.

(٤) رواه الترمذي في «سننه» ٩٨/١ من حديث عبيدة بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي بكره وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقال الترمذي في آخر الحديث: وكان أبو بكره يصلي في العشرين من رمضان كصلاته في سائر السنة، فإذا دخل العشر يعني الأخير اجتهد. وقال الحافظ السيوطي في «الدرة» ٣٧٣/٦: أخرج الطيالسي، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن جرير والحاكم وصححه، والبيهقي عن عبد الرحمن بن جوشن قال: ذكرت ليلة القدر عند أبي بكره فقال: أما أنا فليست بملتمسها إلا في العشر الأواخر بعد حديث سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «التمسوها في العشر الأواخر، لتاسعة تبقى، أو سابعة تبقى، أو ثلاثة تبقى، أو آخر ليلة»، فكان أبو بكره ﷺ يصلي في عشرين من رمضان كما كان يصلي في سائر السنة، فإذا دخل العشر اجتهد.

على قولين: أحدهما: أنها تختص الأفراد، قاله الجمهور. والأحاديث الصحاح كلها تدلّ عليه. وقد أخرج البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «ابتغوها في العشر الأواخر في الوتر منها»^(١). والثاني: أنها تكون في الشفع كما تكون في الوتر، قاله الحسن. وروي عن الحسن ومالك بن أنس قالا: هي ليلة ثمانى عشرة^(٢). واختلف القائلون بأنها في الأفراد في أخص الليالي بها على خمسة أقوال: أحدها: أن الأخص بها ليلة إحدى وعشرين. فروى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري قال: اعتكف رسول الله ﷺ العشر الوسط، واعتكفنا معه، فلما أصبحنا صبيحة عشرين رجع، ورجعنا معه، وأري ليلة القدر، ثم أنسيتها، فقال: «إني رأيت ليلة القدر، ثم أنسيتها وأراني أسجد في ماء وطين، فمن اعتكف فليرجع إلى مُتَكَفِّه، وهاجت علينا السماء آخر تلك العشية، وكان سَقْفُ المسجد عريشاً من جريد، فوكف [المسجد]^(٣) فولذي هو أكرمهم، وأنزل عليه الكتاب لَرَأَيْتُهُ يصلي، بدأ المغرب ليلة إحدى وعشرين، وإن جبهته وأرنبة أنفه لفي الماء والطين»^(٤)، وهذا مذهب الشافعي. والثاني: أن الأخص بها ليلة ثلاث وعشرين. روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال ليلة ثلاث وعشرين: «اطلبوها الليلة»^(٥). وروى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان منكم يريد أن يقوم من الشهر شيئاً فليقم ليلة ثلاث وعشرين»^(٦). وروى مسلم في أفرادها من حديث عبد الله بن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «أريت ليلة القدر، ثم أنسيتها»^(٧)، وأراني صُبْحَهَا^(٨) أسجد في ماء وطين. قال: فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين، فصلّى بنا رسول الله ﷺ فانصرف^(٩) وإن أثر الماء والطين على جبهته وأنفه. قال: وكان عبد الله بن أنس يقول: ليلة ثلاث وعشرين^(١٠). والثالث: ليلة خمس وعشرين، روى هذا المعنى أبو بكرة عن النبي ﷺ^(١١). والرابع: ليلة سبع وعشرين، روى مسلم في أفرادها من حديث ابن عمر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كان متحرّياً فليتحزّها ليلة سبع وعشرين»، يعني: ليلة القدر^(١٢)، وهذا مذهب عليّ وأبي بن كعب. وكان أبيّ يحلف لا يستثني أنها ليلة سبع

(١) رواه البخاري ٢٢٥/٤ وهو جزء من حديث طويل، واللفظ: «... فابتغوها في العشر الأواخر، وابتغوها في كل وتر...» وهو في «مسلم» ٨٢٤/٢، ٨٢٥ بمثناء.

(٢) قال الترمذي ٩٨/١: وروي عن أبي قلابة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر. قال ابن كثير: وهذا الذي حكاه الترمذي عن أبي قلابة نصّ عليه مالك، والثوري، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور، والمزني، وأبو بكر بن خزيمة، وغيرهم، قال: وهو محكي عن الشافعي، نقله القاضي عنه، وهو الأشبه، والله أعلم.

(٣) زيادة من البخاري ومسلم، ومعنى وكف: أي: قطر ماء المطر من سقفه.

(٤) رواه البخاري ٢٣٦/٤، ٢٤٣، ٢٤٤، ومسلم ٨٢٤/٢، ٨٢٦.

(٥) قال السيوطي في «الدر» ٣٧٢/٦: وأخرج ابن زنجويه، وابن مردويه بسند صحيح عن أبي هريرة ؓ قال: ذكرنا ليلة القدر عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «كم بقي من الشهر؟ قلنا: مضت اثنتان وعشرون، وبقي ثمان، فقال رسول الله ﷺ: «مضت اثنتان وعشرون، وبقيت سبع، التمسوها الليلة، الشهر تسع وعشرون».

(٦) هذا قطعة من حديث ذكره الطبرسي في «مجمع البيان» ١٩٣/٣٠ عن عبد الله بن عمر بغير سند ولم يعزه لأحد، ولفظه عنده بتمامه: عن عبد الله بن عمر قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني رأيت في النوم كأن ليلة القدر هي ليلة سابعة تبقى، فمن كان منكم يريد أن يقوم من الشهر شيئاً فليقم ليلة ثلاث وعشرين، ولم نره عند غيره بهذا اللفظ، نعم رواه البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن عبد الله بن عمر أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر، فقال رسول الله ﷺ: «أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحرّياً فليتحزّها في السبع الأواخر». قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٢٢١/٤: والظاهر أن المراد به أواخر الشهر، ثم قال: ولمسلم من طريق عقبة بن حريث عن ابن عمر: «التمسوها في العشر الأواخر، فإن ضعف أحدكم أو عجز، فلا يغلبن على السبع البواقي»، قال: وهذا البيان يرجح الاحتمال في تفسير السبع.

(٧) في الأصل: نسيتها.

(٨) في الأصل: فأبصرته.

(٩) رواه مسلم ٨٢٧/٢ وقال الحافظ السيوطي في «الدر» ٣٧٣/٦: أخرج مالك، وابن سعد، وابن أبي شعبة، وأحمد، ومسلم، وابن زنجويه، والطحطاوي، والبيهقي عن عبد الله بن أنس أنه سئل عن ليلة القدر، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «التمسوها الليلة» وتلك الليلة ليلة ثلاث وعشرين.

(١٠) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٢٢٩/٤: حكاه ابن العربي في «المعارضة»، وعزاه ابن الجوزي في «المشكّل» لأبي بكرة.

(١٢) لفظ رواية مسلم ٨٢٢/٢: «فمن كان متحرّياً فليتحزّها في السبع الأواخر». قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٢٢٩/٤: ولابن المنذر: «من كان =

وعشرين^(١)، وبه قال ابن عباس، وعائشة، ومعاوية. واختاره أحمد رحمته الله. وروي عن ابن عباس: أنه استدلل على ذلك بشيئين: أحدهما: أنه قال: إن الله تعالى خلق الإنسان على سبعة أصناف، يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْوَءٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] الآيات^(٢). ثم جعل رزقه في سبعة أصناف يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَبَّحْنَا اللَّهَ مَكًّا ١٥﴾ [عبس: ٢٥]^(٣)، ثم بصلّى الجمعة على رأس سبعة أيام، وجعل السموات سبعا، والأرضين سبعا، والمثاني سبعا^(٤)، فلا أرى ليلة القدر إلا ليلة السابعة [وعشرين]^(٥). والثاني: أنه قال: قوله تعالى: ﴿سَلْوَءٍ﴾ هي الكلمة السابعة والعشرون، فدل على أنها كذلك. واحتج بعضهم فقال: ليلة القدر كُتِرَتْ في هذه السورة ثلاث مرات، وهي تسعة أحرف، والتسعة إذا كُتِرَتْ ثلاثاً فهي سبع وعشرون، وهذا تنبيه على ذلك. والقول الخامس: أن الأولى طلبها في أول ليلة من رمضان، قاله أبو رزين العقيلي. وروى أيوب عن أبي قلابة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر^(٦). فأئد الحكمة في إخفائها فليتحقق اجتهاد العباد في ليالي رمضان ظمعاً منهم في إدراكها، كما أخفى ساعة الجمعة^(٧)، وساعة الليل^(٨)، واسم الأعظم^(٩)، والصلاة الوسطى^(١٠)،

نصحتها للصحراء ليلة سبع وعشرين، قال: وعن جابر بن سمرة نحوه، أخرجه الطبراني في «أوسطه»، وعن معاوية نحوه، أخرجه أبو داود. وقال الحافظ السيوطي في «الدر» ٦/ ٣٧٥: أخرجه عبد بن حميد عن ابن عمر رحمتهما الله قال: قال رسول الله ﷺ: «التمسوا ليلة القدر ليلة سبع وعشرين».

(١) روى مسلم في «صحيحه» ٨٢٨/٢ من رواية عتبة وعاصم بن أبي النجود سمعا زب بن حبش يقول: سألت أبا بن كعب رحمتهما الله قلت: إن أخاك ابن مسعود يقول: من يتم الحول يصب ليلة القدر، فقال رحمه الله: أراد أن لا يتكلم الناس، أما إنه قد علم أنها في رمضان، وأنها في العشر الأواخر، وأنها ليلة سبع وعشرين، ثم حلف لا يستثني أنها ليلة سبع وعشرين، قلت: بأي شيء تقول ذلك يا أبا المنذر؟ قال: بالعلامة، أو بالآية التي أخبرنا رسول الله ﷺ أنها تطلع يومئذ لا شعاع لها. والحديث ذكره السيوطي في «الدر» ٦/ ٣٧٤: زاد نسبة لابن أبي شيبة، وأحمد، وابن زنجويه، وعبد بن حميد، والترمذي، والنسائي، وأبي داود، وابن جرير، وابن حبان، وابن مردويه، والبيهقي عن زب بن حبش عن أبي رحمتهما الله.

(٢) نصها بتمامها: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْوَءٍ مِنْ طِينٍ ١٥ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ١٦ ذُرِّيَّتًا أُنْثَقَتْ عَلَيْنَا مَرْثَةً ١٧ خُلِقْنَا مِنْ عَصَا ١٨ وَأَنفُكْنَا مِنَ الْعَصَا ١٩ فَنُفِثْنَا فِي أَسَمِ الْأُمِّ ٢٠ ثُمَّ نَحْنُ الْأَنْثَرُ ٢١﴾ [الشعراء: ١٥-٢١].

(٣) والآيات بتمامها: ﴿يُنْظَرُ الْإِنْسَانُ إِذْ يُلَاقِيهِ ١٥ أَلَمْ يَسْجُدْ لِلَّهِ سَكًّا ١٦ ثُمَّ نَحْنُ الْأَنْثَرُ ٢١﴾ [الشعراء: ١٥-٢١].

(٤) ولقمة ١٥ رحمتهما الله ﴿نَحْنُ لَكَ وَالْكَافِرُ ١٥﴾.

(٥) وهي سورة الفاتحة سبع آيات، سميت بالمثاني، لأنها تنفي في كل ركعة، أي تكرر.

(٦) كلمة «وعشرين» سقطت من الأصل، واستردكها من النسخة الاستنبولية.

(٧) انظر الصفحة ١٥٧١، التعليق رقم ٢.

(٨) روى البخاري ٣٤٤/٢، ومسلم ٥٨٢/٢ عن أبي هريرة رحمته الله أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: «فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه» وأشار بيده يقلبها. واللفظ للبخاري. وروى مسلم في «صحيحه» ٥٨٤/٢ عن أبي هريرة رحمته الله عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في الجمعة لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه» قال: وهي ساعة خفيفة. ورواه أحمد في «المسند» ٢٧٢/٢ وزاد فيه: «وهي بعد العصر». وروى مسلم في «صحيحه» ٥٨٤/٢ عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قال: قال لي عبد الله بن عمر: سمعت أباك يحدث عن رسول الله ﷺ في شأن ساعة الجمعة؟ قال: قلت: نعم، سمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هو ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة» ورجع هذا القول النووي. وقال الترمذي في «مسنده» ٣٦١/٢ بتحقيق أحمد شاكر: «ورأى بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أن الساعة التي ترجى فيها، بعد العصر إلى أن تغرب الشمس، قال: وبه يقول أحمد، وإسحاق. قال: وقال أحمد: أكثر الأحاديث في الساعة التي ترجى فيها إجابة الدعوة أنها بعد صلاة العصر، وترجى بعد زوال الشمس. ومن شاء التفصيل فليرجع إلى «فتح الباري» ٣٤٥/٢ - ٣٥٦، وشرح مسلم للنووي ١٤٠/٦، وانظر كلام أحمد شاكر على الترمذي ٣٦٣/٢ - ٣٨٤. وعلى كل فهي ساعة (أي لحظة) مغفلة تمر على الإنسان، سواء أكانت ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة، أم بعد العصر، وقد حُتِنَا رسول الله ﷺ على التماسها لما فيها من الأجر العظيم والثواب الكبير.

(٩) روى مسلم في «صحيحه» ٥٢١/١ عن جابر رحمته الله قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة». قال النووي في «شرح مسلم» ٢٦/٦: فيه إثبات ساعة الإجابة في كل ليلة، ويتضمن الحث على الدعاء في جميع ساعات الليل رجاء مصادقتها.

(١٠) روى البخاري في «صحيحه» ٦٦٢/٥، ومسلم ٢٠٣٣/٤ عن أبي هريرة رحمته الله أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة». وفي رواية لمسلم: «من حفظها دخل الجنة، والمعنى: من حفظها متفكراً في مدلولاتها معتبراً بمعانيها، عاملاً بمقتضاها، مقدساً لمسماها، دخل الجنة مع الأولين.

(١١) قال ابن كثير: اختلف السلف والخلف أي صلاة هي، فقيل: إنها الصبح، وذكر بعض الأدلة على ذلك. وقيل: إنها الظهر، وذكر أيضاً بعض الأدلة =

والمولوي في الناس^(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدَرِ﴾ هذا على سبيل التعظيم والتشويق إلى خيرها.

قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدَرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ قال مجاهد: قيامها والعمل فيها خير من قيام ألف شهر وصيامها ليس فيها ليلة القدر، وهذا قول قتادة، واختيار الفراء، وابن قتيبة، والزجاج. وروى عطاء عن ابن عباس أن النبي ﷺ ذُكر له رجل من بني إسرائيل حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر، فعجب رسول الله ﷺ لذلك، وتمنى أن يكون ذلك في أمته، فأعطاه الله ليلة القدر، وقال: هي خير من ألف شهر التي حمل فيها الإسرائيلي السلاح في سبيل الله^(٢). وذكر بعض المفسرين أنه كان الرجل فيما مضى لا يستحق أن يقال^(٣) له: عابد حتى يعبد الله ألف شهر كانوا يعبدون فيها.

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال أبو هريرة: الملائكة ليلة القدر في الأرض أكثر من عدد الحصى^(٤). وفي «الروح» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه جبريل، قاله الأكثرون. وفي حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل في كبكبة من الملائكة يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله ﷻ»^(٥). والثاني: أن الروح:

على ذلك. وقيل: إنها المصير، قال: قال الترمذي والبخاري رحمهما الله تعالى: وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم. وقال القاضي الماوردي: هو قول جمهور التابعين، وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: هو قول أكثر أهل الأثر، وقال أبو محمد بن عطية في «تفسيره»: وهو قول جمهور الناس. ثم ذكر أنه جاء التصريح بها في الأحاديث الصحيحة، منها ما رواه أحمد ومسلم بن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «اشغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملائكة قلوبهم ويوتهم ناراً». قال: وأخرجه الشيخان، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وغير واحد من أصحاب «المسانيد» و«السنن» و«الصحاح» من طرق بطول ذكرها. وذكر أقوالاً أخرى كثيرة، ثم قال: وقد ثبت السنة بأنها العصر فتعين المصير إليها هـ. وهذا يدل على أن الصلاة الوسطى أصبحت معروفة وليست خفية كما ذكر المؤلف رحمه الله.

(١) الولي لا يعرف بعينه، ولكن الله تعالى ذكر صفات الأولياء في كتابه فقال: ﴿إِنَّ إِلَهًا لَّهُ لَآ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﷻ أَمَّا وَكَذَٰلِكَ يَنْتَوُونَ فكل من كان مؤمناً تقياً كان له ولياً.

قال ابن كثير: ثم يعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين، بدليل ما رواه الإمام أحمد في «مسنده» عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: «اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، فاصفني بذلك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، ستيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه، وأبلى مكانه فرحاً، فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها؟ فقال: بلى وبنيي لكل من سمعها أن يتعلمها» وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستي بمثله، وقال: وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه «الأحاديث» في شرح الترمذي أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فالحق أعلم.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وهي كثيرة، وقد اختلف العلماء في تعيين اسمه الأعظم. وقد روى أصحاب «السنن» عن بريدة ﷺ أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: «اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله، لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فقال: «لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب، فالحق أعلم أي الأسماء من هؤلاء الأعظم، وكلها عظيمة. روى هذا الحديث البخاري في «تفسيره» من رواية عطاء عن ابن عباس بغير سند، وكذلك ذكره القرطبي في «تفسيره»، وذكره ابن كثير في «التفسير» من رواية ابن أبي حاتم عن مجاهد عن النبي ﷺ، وهو مقطوع، وكذلك ذكره السيوطي في «الدر» ٣٧١/٦ وزاد نسبه لابن المنذر، والبيهقي في «مسنده».

قال ابن كثير: وروى ابن أبي حاتم عن مجاهد: ليلة القدر خير من ألف شهر ليس في ذلك الشهر ليلة القدر، قال: هكذا قال قتادة والشافعي وغير واحد، قال: وقال عمرو بن قيس الملائي: عمل فيها خير من عمل ألف شهر، قال: وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، هو اختيار ابن جرير، وهو الصواب، لا ما عده، وهو قوله ﷺ: «رباط ليلة في سبيل الله خير من ألف ليلة فيما سواه من العتائل» رواه أحمد، وكما جاء في قاصد الجمعة بهيئة حسنة وثيقة صالحة أنه يكتب له عمل سنة أجر صيامها وقيامها، إلى غير ذلك من المعاني المشابهة لذلك. وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة ﷺ قال: لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم شهر مبارك الفرض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم غيرها فقد حرم، ثم قال: ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر، ثبت في «الصحيحين» عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه».

(٣) في الأصل: يقول، والتصحيح من النسخة الإستانبولية.

(٤) قال ابن كثير: أي يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، قال: والملائكة ينتزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما ينتزلون عند تلاوة القرآن، ويحيطون بحلق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق، تعظيماً له.

(٥) حديث أنس هذا، ذكره السيوطي في «الدر» (٣٧٧/٦) وعزاه للبيهقي، والكبكية: الجماعة.

طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة ينزلون من لدن غروب الشمس إلى طلوع الفجر، قاله كعب، ومقاتل بن حيان. والثالث: أنه ملك عظيم يفي بخلق من الملائكة، قاله الواقدي.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ أي: في ليلة القدر ﴿يَأْذِنُ رَبِّهِمْ﴾ أي: بما أمر به وقضاه ﴿بَيْنَ كُلِّ أَمْرٍ﴾ قال ابن قتبية: أي: بكل أمر. قال المفسرون: ينزلون بكل أمر قضاه الله في تلك السنة إلى قابل. وقرأ ابن عمر، وابن عباس، وأبو العالية، وأبو عمران الجوني: «من كل امرئ» بكسر الراء وبعدها همزة مكسورة منوثة. وبوصل اللام من غير همز، ولهذه القراءة وجهان: أحدهما: من كل ملك سلام. والثاني: أن تكون «من» بمعنى «على» تقديره: على كل امرئ من المسلمين سلام من الملائكة؛ كقوله تعالى: ﴿وَنَصَرْتَهُ بِنَ الْفَوْزِ الْأَزِيكِ كَذَّبُوا﴾ [الأنبياء: ٧٧]. والقراءة الموافقة لخط المصحف هي الصواب. ويكون تمام الكلام عند قوله تعالى: ﴿بَيْنَ كُلِّ أَمْرٍ﴾، ثم ابتداء فقال تعالى: ﴿سَلَّمَ هِيَ﴾ أي: ليلة القدر سلام. وفي معنى السلام قولان: أحدهما: أنه لا يحدث فيها داء ولا يُرسل فيها شيطان، قاله مجاهد. والثاني: أن معنى السلام: الخير والبركة، قاله قتادة. وكان بعض العلماء يقول: الوقف على ﴿سَلَّمَ﴾ على معنى تنزل الملائكة بالسلام.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَطْلُعَ النُّجُومُ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة «مطلع» بفتح اللام. وقرأ الكسائي بكسرها. قال الفراء: والفتح أقوى في قياس العربية، لأن المطلع بالفتح: الطلوع، وبالكسر: الموضع الذي يطلع منه، إلا أن العرب تقول: طلعت الشمس مطلوعاً، بالكسر، وهم يريدون المصدر؛ كما تقول: أكرمك كرامة، فتجتزئ بالاسم عن المصدر. وقد شرحنا هذا المعنى في [الكهف: ٩] عند قوله تعالى: ﴿تَطْلُعُ النُّجُومُ﴾ شرحاً كافياً، والله الحمد.



سورة البينة^(١)

وفيها قولان: أحدهما: مدنية، قاله الجمهور^(٢). والثاني: مكية، قاله أبو صالح عن ابن عباس، واختاره يحيى بن سلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۚ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ۚ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۚ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۚ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عِدْنُ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ أي: ومن المشركين، وهم عبدة الأوثان ﴿مُنْفَكِينَ﴾ أي: منفصلين وزائلين - يقال: فككت الشيء، فأنفك، أي: انفصل - والمعنى: لم يكونوا زائلين عن كفرهم وشركهم ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي: حتى أتتهم، فلفظه لفظ المستقبل، ومعناه الماضي. و﴿الْبَيِّنَةُ﴾ الرسول، وهو محمد ﷺ، وذلك أنه بيّن لهم ضلالهم وجهلهم. وهذا بيان عن نعمة الله على من آمن من الفريقين إذ أنقذهم. وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية: لم يختلفوا أن الله يبعث إليهم نبياً حتى بعث فافترقوا. وقال بعضهم: لم يكونوا ليتروا منفكين عن حجج الله حتى أقيمت عليهم البينة. والوجه هو الأول. والرسول هاهنا محمد ﷺ، ومعنى ﴿يَتْلُو صُحُفًا﴾ أي: ما تضمنته الصحف من المكتوب فيها، وهو القرآن. ويدل على ذلك أنه كان يتلو القرآن عن ظهر قلبه لا من كتاب. ومعنى ﴿مُطَهَّرَةً﴾ أي: من الشرك والباطل. ﴿فِيهَا﴾ أي: في الصحف ﴿كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ أي: عادلة مستقيمة تبين الحق من الباطل، وهي الآيات. قال مقاتل: وإنما قيل لها: كتب لما جمعت من أمور شتى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني: من لم يؤمن منهم ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ وفيها ثلاثة أقوال: أحدها: أنها محمد ﷺ، والمعنى: لم يزلوا مجتمعين على الإيمان به حتى بُعث، قاله الأكثرون. والثاني: القرآن، قاله أبو العالية. والثالث: ما في كتبهم من بيان نبوته، ذكره الماوردي. وقال الزجاج: وما تفرقوا في كفرهم بالنبي إلا من بعد أن بينوا أنه الذي وعدوا به في كتبهم^(٣).

(١) في الأصل: سورة لم يكن. وروى البخاري في «صحيحه» ٩٠/٦، ومسلم في «صحيحه» ١٩١٥/٤ عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن اقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾»، قال: وسماني؟ قال: نعم، فيكى. ورواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وغيرهم. وتخصيص هذه السورة بالذكر يقتضي اختصاصها وامتيازها، لما اشتملت عليه من التوحيد، والرسالة، والإخلاص، والصحف والكتب المنزلة على الأنبياء، وذكر الصلاة، والزكاة، والمعاد، وبيان أهل الجنة والنار، مع وجازتها.

(٢) وهو الصواب.

(٣) روى أبو داود في «سننه» رقم ٤٥٩٧ عن معاوية بن أبي سفيان أنه قام فقال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفرق على ثلاث وسبعين لثان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة» ورواه أحمد في «المسند» ١٠٢/٤ من حديث معاوية، وأبو داود في «سننه» رقم ٥٩٦٦ من حديث أبي هريرة، والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وهو حديث صحيح لطرقه. وروى مسلم في «صحيحه» رقم ١٣٣٧ من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «فروني ما تركتم فإنما هلك من كان قبلك بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء، فاتوا به ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء، فدعوه».

وروى مسلم في «صحيحه» ١٧/١٧ بشرح النووي عن عياض بن حمار ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله نظر إلى أهل الأرض لمعقمتهم هربهم وعصمهم إلا بقايا من أهل الكتاب... الحديث، قال النووي: المراد بهذا المقمت والنظر: ما قبل بعثة رسول الله ﷺ، والمراد بقايا الكتاب: الباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ أي: في كتبهم ﴿إِلَّا لِيُعَذِّبُوا اللَّهَ﴾ أي: إلا أن يعذبوا الله. قال الفراء: والعرب تجعل اللام في موضع «أن» في الأمر والإرادة كثيراً؛ كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، و﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: ٨]. وقال في الأمر ﴿وَأَرْسَلْنَا لِيُسْلِمَ﴾ [الأنعام: ٧١].

قوله تعالى: ﴿تَحْلِيصَ لَهُ الَّذِينَ﴾ أي: موحدين لا يعبدون سواه ﴿حُفَّةً﴾ على دين إبراهيم^(١) ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المكتوبة في أوقاتها ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ عند وجوبها ﴿وَذَلِكَ﴾ الذي أمروا به هو ﴿وَبَيْنَ الْقَتْمَةِ﴾ قال الزجاج: أي دين الأمة القيمة بالحق. ويكون المعنى: ذلك الدين دين الملة المستقيمة^(٢).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ مَرْحُومٌ لِّلَّذِينَ﴾ قرأ نافع، وابن ذكوان عن ابن عامر بالهمز بالكلمتين. وقرأ الباقون بغير همز فيهما. قال ابن قتيبة: البرية: الخلق. وأكثر العرب والقراء على ترك همزها لكثرة ما جرت على الألسنة، وهي فعيلة بمعنى مفعولة. ومن الناس من يزعم أنها مأخوذة من برئت العود، ومنهم من يزعم أنها من البرى وهو التراب [أي خلق من التراب، وقالوا: لذلك لا يهزم، وقال الزجاج: لو كان من البرى وهو التراب]^(٣) لما قرنت بالهمز، وإنما اشتقاقها من برأ الله الخلق. وقال الخطابي: أصل البرية الهمز، إلا أنهم اصططلحوا على ترك الهمز فيها. وما بعده ظاهر إلى قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ قال مقاتل: رضي الله عنهم بطاعتهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بثوابه. وكان بعض السلف يقول: إذا كنت لا ترضى عن الله، فكيف تسأله الرضا عنك؟! لا ترضى عن الله، فكيف تسأله الرضا عنك؟!

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: خافه في الدنيا، وتناهى عن معاصيه^(٤).



= فمن أدرك من أهل الكتاب محمداً ﷺ خاتم النبيين وآمن به، فذلك يؤتى أجره مرتين، وقد روى مسلم في «صحيحه» رقم ١٥٤ عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنية وأدرك النبي (يعني نفسه ﷺ) فأمن به واتبعه وصدقه فله أجران... الحديث. ومن أدرك محمداً ﷺ من أهل الكتاب ولم يؤمن فهو كافر بلا شك ولا ريب، لأن الأنبياء المتقدمين عليه ﷺ كموسى وعيسى ﷺ أخذوا العهد والميثاق على أقوامهم إن أدركوا محمداً ﷺ أن يؤمنوا به، وبشروا بمجيئه، فمن أدركه ولم يؤمن به فقد كفر بمحمد وعيسى وموسى، لأنه كذب أقوالهم. وقد روى مسلم في «صحيحه» رقم ١٥٣ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني لم يموت ولا يؤمن بي إلا كان من أصحاب النار». ولذلك قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالشُّرَكِيِّينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي الخليقة، لكفرهم وعنادهم. وذكر عن الذين أدركوا محمداً ﷺ من أهل الكتاب والمشركين فأمنوا به وسلكوا شريعته أنهم خير البرية، لأنهم آمنوا بخاتم الأنبياء والمرسلين، وصدقوا الأنبياء المتقدمين.

(١) قال القرطبي: أي: ماثلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام.

(٢) قال ابن كثير: وقد استدل كثير من الأئمة، كالزهري، والشافعي بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة في الإيمان، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا رِجْلاً مِّنْ نَّبَاتٍ لِّتَحْيِيَنَّ لَهُ الْبَرِيَّةَ حَبْلَةً وَيُؤْمِنُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ بَيْنَ الْقَتْمَةِ﴾.

(٣) زيادة سقطت من الأصل، واستدركناها من النسخة الاستنبولية.

(٤) قال ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ يقول تعالى ذكره: هذا الخير الذي وصفته ووعدته الذين آمنوا. وعملوا الصالحات يوم القيامة ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ يقول: لمن خاف الله في الدنيا في سرٍّ وعلايته، بأدائه فرائضه، واجتناب معاصيه.

وقال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي هذا الجزاء حاصل لمن غشي الله واتقاء حق تقواه، وعبده كأنه يراه، وعلم أنه إن لم يره فإنه يراه.

سورة الزلزلة

وفيها قولان: أحدهما: أنها مدنية، قاله ابن عباس، وقتادة، ومقاتل، والجمهور. والثاني: مكية، قاله ابن مسعود، وجابر، وعطاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَامًا ۝ وَالْخَرَجَتِ الْأَرْضُ أَتْفَالًا ۝ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا ۝ إِنَّ رَبَّكَ أَزْجَىٰ لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّسِرِّهِمْ أَفَعَمَلُهُمْ ۝ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةً خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةً شَرًّا يَرَهُ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَامًا ۝﴾ أي: حُرِّكَتْ حركةً شديدةً، وذلك عند قيام الساعة. وقال مقاتل: تنزل من شدة صوت إسرافيل حتى يتكسر كل ما عليها من شدة الزلزلة ولا تسكن حتى تلقى ما على ظهرها من جبل، أو بناء، أو شجر، ثم تتحرك وتضطرب، فتُخْرِجُ ما في جوفها. وفي وقت هذه الزلزلة قولان: أحدهما: تكون في الدنيا، وهي من أشراط الساعة، قاله الأكثرون. والثاني: أنها زلزلة يوم القيامة، قاله خارجه بن زيد في آخرين. قال الفراء: حدثني محمد بن مروان، قال: قلت للكلبي: رأيت قول الله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَامًا ۝﴾؟ فقال: هذه بمنزلة قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٨] فأضيف المصدر إلى صاحبه، وأنت قائل في الكلام: لَأَعْطِيَنَّكَ عَطِيَّتَكَ، تريد عطية^(١). والزَّلْزَال بالكسر المصدر، وبالفَتْح: الاسم. وقد قرأ أبو العالية، وأبو عمران، وأبو حيوة الجحدري «زَلْزَالها» بفتح الزاي.

قوله تعالى: ﴿وَالْخَرَجَتِ الْأَرْضُ أَتْفَالًا ۝﴾ فيه قولان: أحدهما: ما فيها من الموتى، قاله ابن عباس^(٢). والثاني: كنوزها، قاله عطية. وجمع الفراء بين القولين، فقال: لفظت ما فيها من ذهب، أو فضة، أو ميت.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۝﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه اسم جنس يعم الكافر والمؤمن، وهذا قول من جعلها من أشراط الساعة، لأنها حين ابتدأت لم يعلم الكل أنها من أشراط الساعة، فسأل بعضهم بعضاً حتى أيقنوا. والثاني: أنه الكافر خاصة، وهذا قول من جعلها زلزلة القيامة؛ لأن المؤمن عارف بها فلا يسأل عنها، والكافر جاحد لها لأنه لا يؤمن بالبعث، فلذلك يسأل.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا ۝﴾ قال الزجاج: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ منصوب بقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ و﴿وَالْخَرَجَتِ﴾ ففي ذلك اليوم تحدث بأخبارها، أي: تخبر بما عمل عليها. وفي حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أندرون ما أخبارها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، تقول: حمل كذا وكذا يوم كذا وكذا»^(٣).

(١) الذي في القرطبي: أي: عطيتي لك.

(٢) قال ابن كثير: قاله غير واحد من السلف، وهذه بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفَالًا يَكْفُرُ بَكُمُومًا﴾ [زلزلة: ١٢] وكقوله: ﴿وَالْأَرْضُ مَذَّتْ ۝ وَأَتَتْهَا كَايَا وَتَلَّتْ ۝ وَرَوَىٰ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» رَقْم ١٠١٣ من أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قُتِلْتُ، وبيء القاطع فيقول: في هذا قُطِعَتْ رجلي، وبيء السارق فيقول: في هذا قُطِعَتْ يدي، ثم يذخونه فلا يأخذون منه شيئاً».

(٣) رواه الترمذي في «سننه» ١٧١/٢ وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وفي آخره «فهذه أخبارها» رواه أحمد في «المستند» والحاكم في «المستدرک» ٥٣٣/٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد أورده السيوطي في «الدر» ٣٨٠/٦ وزاد نسبه لعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي هريرة ؓ. وللحديث شاهد عند الطبراني من رواية ربيعة الجريسي.

قوله تعالى: ﴿بِأَن رَّبِّكَ أَتَىٰ لَهَا ۖ﴾ قال الفراء: تحدّث أخبارها بوحي الله وإذنه لها. قال ابن عباس: أوحى لها، أي: أوحى إليها، وأذن لها أن تخبر بما عمل عليها. وقال أبو عبيدة: ﴿لَهَا﴾ بمعنى «إليها»^(١). قال العجاج: وَحَىٰ^(٢) لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ^(٣)

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُبْذَرُ النَّاسُ﴾ أي: يرجعون عن موقف الحساب ﴿أَشْنَأًا﴾ أي: فرقاً. فأهل الإيمان على حدة، وأهل الكفر على حدة، ﴿يُسْرَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾ وقرأ أبو بكر الصديق، وعائشة، والجحدري: «يُسْرَوْا» بفتح الياء. قال ابن عباس: أي ليروا جزاء أعمالهم. فالمعنى: أنهم يرجعون عن الموقف فرقاً لينزلوا منازلهم من الجنة والنار. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: تحدّث أخبارها بأن ربك أوحى لها ليروا أعمالهم يومئذ يصدر الناس أشثاً. فعلى هذا: يرون ما عملوا من خير أو شر في موقف الغرض ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ يَتَّكَالَ ذَرْوًا﴾ قال المفسرون: من يعمل في الدنيا مثقال ذرة من الخير أو الشر يره^(٤)، وقرأ أبان عن عاصم «يُره» بضم الياء في الحرفين. وقد بينّا معنى «الذرة» في سورة [النساء: ٤٠] وفي معنى هذه الرؤية قولان: أحدهما: أنه يراه في كتابه. والثاني: يرى جزاءه. وذكر مقاتل: أنها نزلت في رجلين كانا بالمدينة، كان أحدهما يستقل أن يعطي السائل الكسرة، أو التمرة. وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير، فأنزل الله ﷻ هذا يُرْعِبُهُم في القليل من الخير، ويُحَذِّرُهُم اليسير من الشر^(٥).



(١) قال ابن كثير: قال البخاري: أوحى لها، وأوحى إليها، ووحى لها، ووحى إليها، واحد.

(٢) كذا في «القرطبي» و«اللسان»، وروايته في «مجاز القرآن» و«البحر» و«روح المعاني»: أوحى، وكلاهما صواب.

(٣) الرجز في «مجاز القرآن» ٣٠٦/٢، و«القرطبي» ١٤٩/٢٠، و«البحر» ٥٠١/٨، و«روح المعاني» ١٠/٣٠، و«اللسان»: وحى.

(٤) روى البخاري في «صحيحه» ٥٥٩/٨ عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «الخيال ثلاثة: لرجل أجر، ورجل يشتر، وعلى رجل وذر، فأما الذي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها أي (حبلها الطويل) ذلك في المرج والروضة كان له حسنات، ولو أنها قطعت في طيلها فاستثقت (عدت) شرفاً أو شرفين (شوطاً أو شوطين) كانت آثارها وأرواثها حسناتٍ له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقي: كان ذلك حسنات له، فهي للرجل أجر. ورجل ربطها تنقياً وتعقفاً ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له يشتر، ورجل ربطها فخراً ورياء، وبؤاً (عداوة لأهل الإسلام) فهي على ذلك وذر»، فسنل رسول الله ﷺ عن الحُمُر، (أي عن صدقتها)، قال: «ما أنزل الله علي فيها إلّا هذه الآية الفأفة (المنفرة) الجامعة: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ يَتَّكَالَ ذَرْوًا خَيْرًا يَسْرُ ۖ وَمَنْ يَمْلِكُ يَتَّكَالَ ذَرْوًا شَرًّا يَسْرُ ۖ﴾»، ورواه مسلم في «صحيحه» بأطول منه ٦٨١، ٦٨٠/٢.

(٥) ذكر سبب النزول هذا الواحدي في «أسباب النزول» ٣٤٠، والبغوي في «التفسير» عن مقاتل بغير سند، وفكره ابن كثير في «التفسير» من رواية ابن أبي حاتم من طريق ابن لهيعة عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير، وابن لهيعة صدوق خلط بعد احتراق كتبه، وعطاء بن دينار صدوق، إلّا من روايته عن سعيد بن جبير من صحيفته، وسعيد بن جبير أرسله.

سورة العاديات

وفيها قولان: أحدهما: أنها مكية، قاله ابن مسعود، وعطاء، وعكرمة، وجابر. والثاني: مدنية، قاله ابن عباس، وقتادة، ومقاتل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمَدْيَنَ صَبَاحًا ۝ ١﴾ فَأَلْهَبَتْ قَدَمًا ۝ ٢ فَأَلْهَبَتْ صَبَاحًا ۝ ٣ فَأَرْزَنَ يَوْمَ نَعْمًا ۝ ٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمًّا ۝ ٥ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝ ٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ ٧ وَإِنَّهُ لَيَحِيطُ الْخَيْرَ لَشَدِيدٌ ۝ ٨ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَافٍ فِي الْقُبُورِ ۝ ٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝ ١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝ ١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْمَدْيَنَ صَبَاحًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنها الإبل في الحج، قاله علي، وابن مسعود، وعبيد بن عمير، والقرظي، والسدي. وروي عن علي أنه قال: ﴿وَالْمَدْيَنَ صَبَاحًا﴾ من عرفة إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى منى. وروي عن علي أنه قال هذا في صفة وقعة بدر. قال: وما كان معنا يومئذ إلا فرس، وفي بعض الحديث أنه كان معهم فرسان. والثاني: أنه الخيل في سبيل الله، قاله ابن عباس، والحسن، وعطاء، ومجاهد، وأبو العالية، وعكرمة، وقتادة، وعطية، والربيع، واللغويون^(١). وكان ابن عباس يذهب إلى أن هذا كان في سرية، فروى عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث خيلاً، فلم يأت خبرها شهراً، فنزلت ﴿وَالْمَدْيَنَ صَبَاحًا﴾ صبحت بمناخرها ﴿فَأَلْهَبَتْ قَدَمًا﴾ قدحت بحوافرها الحجارة فأورت ناراً ﴿فَأَلْهَبَتْ صَبَاحًا﴾ صبحت القوم بغارة ﴿فَأَرْزَنَ يَوْمَ نَعْمًا﴾ أثار بحوافرها التراب ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمًّا﴾ قال: صبحت الحي جميعاً^(٢). وقال مقاتل: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى حَيِّين من كنانة واستعمل عليها المنذر بن عمرو الأنصاري، فأبطأ عنه خبرها، فجعل اليهود والمنافقون إذا رأوا رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ تناجوا، فيظن الرجل أنه قد قُتِلَ أخوه أو أبوه، أو عمه، فيجد من ذلك حزناً، فنزلت: ﴿وَالْمَدْيَنَ صَبَاحًا﴾ فأخبر الله كيف فعل بهم^(٣). قال الفراء: الضبح: أصوات أنفاس الخيل إذا عَدَوْنَ. وقال ابن قتبية: الضبح: صوت حلقوها إذا عَدَتْ. وقال الزجاج: ضببحا: صوت أجوافها إذا عَدَتْ.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَبَتْ قَدَمًا﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنها الخيل تُوري النار بحوافرها إذا جرت، وهذا قول الجمهور^(٤). قال الزجاج: إذا عدت الخيل بالليل، فأصاب بحوافرها الحجارة، انقدحت منها النيران. والثاني: أنها نيران المجاهدين إذا أوقدت، روي عن ابن عباس. والثالث: مَكْرُ الرجال في الحرب، قاله مجاهد، وزيد بن أسلم^(٥). والرابع: نيران الحجاج بالمزدلفة، قاله القرظي. والخامس: أنها الألسنة إذا ظهرت بها الحجج وأقيمت بها الدلائل على الحق وفضح بها الباطل، قاله عكرمة.

(١) قال البيهقي: هذا قول أكثر المفسرين. وقال القرظي: كذا قال عامة المفسرين وأهل اللغة.

(٢) رواه الواحدي في «أسباب النزول» ٣٤١، وفي سنده حفص بن جميع، وهو ضعيف. قال ابن كثير: وقد روى أبو بكر البزار هاتنا حديثاً غريباً جداً... فذكره وذكره. الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٤٢/٦ من رواية البزار، وقال: فيه حفص بن جميع، وهو ضعيف. وأورده السيوطي في «الدر» ٦/٣٨٣ وزاد نسبه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني في «الأفراد»، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٣) هذا خبر منقطع، ومقاتل توفي سنة ١٥٠هـ. بينه وبين رسول الله ﷺ مغاوير، والحديث ذكره الطبرسي في «مجمع البيان» مصدراً لإياه بقوله: بعث رسول الله ﷺ سرية... فذكره، ولم يعزه لأحد، وذكره القرطبي وصدقه بقوله: وروي أن رسول الله ﷺ بعث سرية... فذكره، ولم يعزه لأحد. وكذلك الألويسي في «روح المعاني». والله أعلم بصحته.

(٤) ورجمه الطبري.

(٥) تقول العرب إذا أراد الرجل أن يكر بصاحبه: أما والله لأورين لك بزند واري، ولأقدحن لك.

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمِيزَاتِ سُبْحًا﴾ هي التي تغير على العدو عند الصباح، هذا قول الأكثرين. وقال ابن مسعود: فالمغيرات صبحاً حين يقبضون من جمع.

قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ بِهِ﴾ قال الفراء: يريد بالوادي ولم يذكره قبل ذلك، وهذا جائز، لأن الغبار لا يثار إلا من موضع. والتقع: الغبار، ويقال: التراب. وقال الزجاج: المعنى: فأنزل بمكان عذوهن، ولم يتقدم ذكر المكان، ولكن في الكلام دليل عليه ﴿فَوَسَّطَنَ بِهِ جَمًّا﴾ قال المفسرون: المعنى: توسطن جمعاً من العدو، فأغارت عليهم. وقال ابن مسعود: فوسطن به جمعاً، يعني مزدلفة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ هذا جواب القسم. والإنسان هاهنا: الكافر. قال الضحاك: نزلت في الوليد بن المغيرة، وقال مقاتل: نزلت في قرط بن عبد الله بن عمرو بن نوفل القرشي. وفي «الكنود» ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الذي يأكل وحده، ويمنع رفقته^(١)، ويضرب عبده، رواه أبو أمامة عن رسول الله ﷺ^(٢). والثاني: أنه الكفور، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك. والثالث: لَوَامٍ لِرَبِّهِ يَغْدُ المصيبات^(٣)، وينسى النعم، قاله الحسن. قال ابن قتية: والأرض الكنود: التي لا تثبت شيئاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنَّ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَنَهَيْدٌ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله ﷻ، [تقديره]^(٤): وإن الله على كفره لشهيد. والثاني: أنها ترجع إلى الإنسان، فتقديره: إن الإنسان شاهد على نفسه أنه كنود، روي القولان عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنَّ﴾ يعني: الإنسان ﴿يُحِبُّ الْآخِرَ﴾ يعني: المال ﴿لَشَدِيدٌ﴾. وفي معنى الآية قولان: أحدهما: وإنه من أجل^(٥) حُب المال لبخيل، هذا قول الحسن، وابن قتية، والزجاج. قال أبو عبيدة: ويقال للبخیل: شديد، ومُتَشَدِّدٌ. قال طرفة:

أَرَى الْمَوْتَ يَغْتَنَمُ الْكِرَامَ وَيَضْطَفِي عَقِيلَةَ مَالِ الْبَاحِلِ الْمُتَشَدِّدِ^(٦)

والثاني: وإنه للخير لشديد الحب، وهذا اختيار الفراء. قال: فكان الكلمة لما تقدم فيها الحب، وكان موضعه أن يضاف إليه «شديد»، حذف الحب من آخره لما جرى ذكره في أوله، ولرؤوس الآي. ومثله «أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ» [إبراهيم: ١٨] فلما جرى ذكر الريح قبل اليوم طرحت من آخره.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَمْلِكُ﴾ يعني: الإنسان المذكور ﴿إِذَا بَعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ أي: أثير وأخرج ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: مُيزَ واستخرج. والتحصيل: تميز ما يحصل. وقال ابن عباس: أبرز ما فيها. وقال ابن قتية: مُيزَ ما فيها من الخير والشر. وقال أبو سليمان الدمشقي: المعنى: لو علم الإنسان الكافر ما له في ذلك اليوم لزهده في الكفر، ويأدر إلى الإسلام. ثم ابتدأ فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ وقال غيره: إنما قرئت «إن» بالكسر لأجل اللام، ولولاها كانت مفتوحة بوقوع العلم عليها. فإن قيل: أليس الله خبيراً بهم في كل حال، فلم خص ذلك اليوم؟ فالجواب أن المعنى: أنه يجازيهم على أفعالهم يومئذ، ومثله «أَوَّلَتْكَ الْكَذِبَ يَكَلِّمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ» [النساء: ٦٣]، ومعناه: يجازيهم على ذلك، ومثله: ﴿يَوْمَ هُمْ كَبِيرٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [غافر: ١٦].

(١) الرفد، بكسر الراء: العطاء والصلة.

(٢) روى ابن جرير الطبري ٢٧٨/٣٠ وفي سننه جعفر بن الزبير، وهو متروك الحديث، وذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم من طريق جعفر بن الزبير، وقال: هو متروك، فهذا إسناد ضعيف. وقال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٤٢/٦: روى الطبراني بإسنادين، في أحدهما جعفر بن الزبير، وهو ضعيف، وفي الآخر من لا أعرفه. وقال السيوطي في «الدرر» ٢٨٤/٦: أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي، وابن عساکر، بسند ضعيف عن أبي أمامة... فذكره. ورواه الطبراني ٢٧٨/٣٠ من حديث حريز بن عثمان عن حمزة بن هانئ عن أبي أمامة موقوفاً عليه.

(٣) وفي النسخة الاستبوية، والطبري، والقرطبي: المصائب. (٤) زيادة من النسخة الاستبوية.

(٥) في الأصل: من أحب، وهو خطأ، والتصحيح من النسخة الإسنوية، ومن الطبري.

(٦) «مختار الشعر الجاهلي» ٣١٨/١ من معلقته، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة ٣٠٨/٢، والطبري ٢٧٩/٣٠، والقرطبي ١٦٢/٢٠، و«شواهد الكشاف» ٣٩. ومعنى يعتم الكرام: أي يختارهم، والمعلقة من كل شيء: أكرمه، يقول: أرى الموت يختار كرام الناس وصفوة مال البخل، أي: يأخذ النفس الذي يضر به، كما يأخذ الحفير فلا يبق شيئا.

سورة القارعة

وهي مكية بإجماعهم

قد ذكرنا تفسير فاتحتها في أول [المادة].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ فَأَثَمُهُ كَاسٍ دِيمَةٍ ٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ١١ ﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ﴾ اليوم منصوب على الظرف. المعنى: يكون يوم يكون الناس ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه غوغاء الجراد، قاله الفراء. قال ابن قتيبة: غوغاء الجراد: صغاره، ومنه قيل لعامة الناس: غوغاء^(١). والثاني: أنه طير ليس يبعوض ولا دُبَّان، قاله أبو عبيدة^(٢). والثالث: أنه ما تهافت في النار من البعوض، قاله ابن قتيبة. وكذلك قال الزجاج: ما يُرى كصغار البق تهافت في النار. وثبَّه الناس في وقت البعث به وبالجراد المنتشر، لأنهم إذا بعثوا ماج بعضهم في بعض. وذكر الماوردي: أن هذا التشبيه للكفار، فهم يتهافون في النار يوم القيامة تَهَافَّتَ الفَراش^(٣). فاما ﴿الْمَبْثُوثِ﴾ فهو المنتشر والمتفرق.

قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ الذي قد ندف. قال مقاتل: وتصير الجبال كالصوف المندوف. فإذا رأيت الجبل قلت: هذا جبل: فإذا مسسته لم تَرَشِيئًا، وذلك من شِدَّةِ الهَوْل.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦﴾، أي: رجحت بالحسنات، وقد بيَّنا هذه الآية في أول [الأعراف: ٨] وبيَّنا معنى ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ في [المادة: ٢١].

قوله تعالى: ﴿فَأَثَمُهُ كَاسٍ دِيمَةٍ ٩﴾، وقرأ ابن مسعود، وطلحة بن مصرف، والجحدري «فأمه» بكسر الهمزة. وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أم رأسه هاوية، يعني: أنه يهوي في النار على رأسه، هذا قول عكرمة، وأبي صالح. والثاني: أنها كلمة عربية كان الرجل إذا وقع في أمر شديد قالوا: هَوَتْ أُمُّهُ، قاله قتادة. والثالث: أن المعنى: فمسكرته النار. وإنما قيل لمسكرته: أُمُّهُ، لأن الأصل السكون إلى الأمهات. والثَّارُ لهذا كالأُم، إذ لا مأوى له غيرها، هذا قول ابن زيد، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج، ويدل على صحة هذا ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا مات العبد تلقى رُوحُه أرواح المؤمنين، فتقول له^(٤): ما فعل فلان؟ فإذا قال: مات، قالوا: ذُهِبَ به إلى أُمِّه الهاوية، فَبَشَّسَتْ الأُمُّ،

(١) قال في [اللسان]: أصل الغُوغَاء: الجراد حين يخف للطيَّران، ثم استعير للسُّفْل من الناس والمتسرِّعين إلى الشر، ويجوز أن يكون الغوغاء: الصوت والجلجلة، لكثرة لفظهم وصياحهم.

(٢) في مجاز القرآن: لأبي عبيدة: طير، لا بعوض ولا دُبَّاب، بالياء. ويجمع الذباب على دُبَّان، قال في [الناس]: «والذباب: معروف، وهو الأسود الذي يكون في البيوت يسقط في الإناء والطعام، وقال اللدميري في «حياة الحيوان»: سمي ذُبَّاباً، لكثرة حركته واضطرابه، أو لأنه كلما دُبَّ آتٍ، والذباب أيضاً: النحل. والواحدة من ذباب الطعام: ذُبَابَةٌ، بهاء، ولا تقل: ذُبَابَةٌ، وقال في ذباب النحل، لا يقال: ذُبَابَةٌ، والصواب: ذُبَابٌ، وهو واحد. وفي «التلهيب»: واحد الدُبَّان: ذُبَابٌ بغير هاء، قال: ولا يقال: ذُبَابَةٌ، وفي التنزيل: ﴿وَكَيْفَ يَسْتَأْذِنُ الْفَسَّادُ الْفَسَّادَ﴾ فسروه للواحد. والجمع: أذبة، مثل غراب وأغربة، ودُبَّان بكسر مثل غِرْبَان.

(٣) روى مسلم في «صحيحه» رقم ٢٢٨٥ عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مطي ومظلم كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الجَنَابِيب (كالجرار) والفراش يَفْتَشْنَ فيها وهو يُلْهِيهِمْ عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي».

(٤) في «الدر» ٦/٣٨٥ من رواية الحاكم: فيقولون له.

ويُسْتَبِ المَرِيَّةُ^(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ﴾ يعني: الهاوية. قرأ حمزة، ويعقوب «ما هي» بحذف الهاء الأخيرة في الوصل، وإثباتها في الوقف. وقرأ الباقون بإثباتها في الحالين. قال الزجاج: الهاء في «هيه» دخلت في الوقف، لتبين فتحة الباء، فالوقف «هيه» والوصل هي نار. والذي يجب اتباع المصحف. والهاء فيه ثابتة فتوقف عليها، ولا توصل. ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أي: حارة قد انتهى حرها^(٢).



(١) رواه بهذا اللفظ الحاكم في «المستدرک» ٥٣٢/٢ عن الحسن مرسلًا، وأورده السيوطي في «الدر» ٣٨٥/٦ من رواية ابن مردويه عن أنس بن مالك مرفوعًا بنحوه، وبأطول منه من رواية ابن مردويه أيضًا عن أبي أيوب الأنصاري مرفوعًا. والله أعلم بصحة سنده. وقد ذكره القرطبي بمعناه عن أبي هريرة مرفوعًا، ولم يميزه لأحد. ورواه ابن جرير الطبري موقوفًا على الأشعث بن عبد الله الأعمى. وذكره السيوطي أيضًا في «الدر» ٣٨٥/٦ من رواية ابن المبارك عن أبي أيوب الأنصاري موقوفًا عليه بأطول منه.

(٢) روى البخاري في «صحيحه» رقم ٢٣٨/٦، ومسلم في «صحيحه» رقم ٢٨٤٣ عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «تارك هذه التي يؤقّد ابن آدم، جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم»، قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: «لئن فُضِّلَتْ عليها تسعة وستين جزءًا كلها مثل حرها» واللفظ لمسلم. وروى البخاري ٢٣٨/٦، ومسلم رقم ٦١٧ عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها، فقالت: يا رب أكل بعضي بعضًا، فأذن بها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير»، واللفظ لمسلم. وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم»، واللفظ لمسلم. وفيح جهنم: سطوح حرها وانتشاره وغليانها.

سورة التكاثر

وفي سبب نزولها قولان: أحدهما: أن اليهود قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، فآلهام ذلك حتى ماتوا ضلّالاً، فنزلت هذه فيهم، قاله قتادة^(١). والثاني: أن حيين من قريش: بني عبد مناف، وبني سهم كان بينهما ليحاة^(٢)، فقال هؤلاء: نحن أكثر سيّداً، وأعزّ نفراً. وقال أولئك مثل هذا؛ فتعادوا السادة والأشراف أيهم أكثر، فكثّرهم بنو عبد مناف، ثم قالوا: نعدّ موتانا، فزاروا القبور، فعدّوا موتاهم، فكثّرهم بنو سهم، لأنهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية، فنزلت هذه فيهم، قاله ابن السائب، ومقاتل^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتَسْتَلْزَمُنَّ يَوْمَئِذٍ النَّارَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿الْهَنَكُمُ﴾ وقرأ أبو بكر الصديق، وابن عباس، والشعبي، وأبو العالية، وأبو عمران، وابن أبي عيلة: «ألهاكم» بهمزة مقصورة على الاستفهام. وقرأ معاوية، وعائشة «ألهاكم» بهمزة واحدة ممدودة استفهاماً أيضاً. ومعنى الهاكم: شغلكم عن طاعة الله وعبادته. وفي المراد بالتكاثر ثلاثة أقوال: أحدها: التكاثر بالأموال والأولاد، قاله الحسن. والثاني: التفاخر بالقبائل والعشائر، قاله قتادة. والثالث: التشاغل بالمعاش والتجارة، قاله الضحاك. وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ قولان: أحدهما: حتى أدرككم الموت على تلك الحال، حضرتم في المقابر رؤوا ترجعون منها إلى منازلكم من الجنة أو النار، كرجوع الزائر إلى منزله. والثاني: حتى زرتم المقابر فعّدتم من فيها من موتاكم^(٤).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قال الزجاج: هي ردع وتنبية. والمعنى: ليس الأمر الذي ينبغي أن يكونوا عليه التكاثر.

(١) ذكر سبب النزول هذا الواحدي في «أسباب النزول» ٣٤١ عن قتادة بغير سند، وكذا ذكره البغوي في التفسير، وذكره القرطبي عن مقاتل وفتادة بغير سند. ورواه الطبري ٢٨٣/٣٠ من طريق معمر عن قتادة ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، الهام ذلك حتى ماتوا ضلّالاً، ولم يذكر أنهم اليهود. ورواه بنحوه من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة. وأورده السيوطي في «الدر» ٣٨٧/٦ وزاد نسبتة لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٢) أي منازعة. قال في «اللسان»: ولاحيته ملاحاة وليحاة: إذا نازعه، قال: واللحاة ممدود: الملاحاة كالسباب، ولاحي الرجل ملاحاة وليحاة: شاتمه، وتلاحي الرجلان: تشاتما. ولاحي فلان فلاناً ملاحاة وليحاة: إذا استقصى عليه. قال: واللحاة: اللعن، واللحاة: العذل.

(٣) ذكر سبب النزول هذا البغوي في «التفسير» عن مقاتل والكلبي بغير سند، والكلبي هو محمد بن السائب النسابة المفسر، متهم بالكذب، وقد ضمه غير واحد، وكذلك ذكره القرطبي وأبو حيان والألوسي عن ابن عباس ومقاتل والكلبي بغير سند، وأورده ابن كثير في «التفسير» من رواية ابن أبي حاتم عن طريق صالح بن حيان عن ابن بريدة قال: نزلت في قبيلتين من الأنصار في بني حارثة وبني الحارث تفاخروا وتكاثروا، فقاتلت إحداهما: فيكم مثل فلان ابن فلان وفلان؟ وقال الآخرون مثل ذلك، تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور، فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان؟ يمشون إلى القبور، ومثل فلان، وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝﴾. وصالح بن حيان القرشي الكوفي ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر في «التريب». قال ابن كثير: والصحيح أن المراد بقوله: ﴿زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي صرتم إليها ودفنتم فيها، كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعود فقال: «لا بأس بطهور إن شاء الله»، فقال: قلت: «طهور» بل هي حمى نفور على شيخ كبير تزيره القبور، قال: «فنعنم إذن»، والآية عامة في كل من آلهة دنياه عن آخرته.

(٤) روى مسلم في «صحيحه» رقم ٢٩٥٨ عن مطرف عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، قال: «يقول ابن آدم: مالي، مالي، مالي (قال) وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأنتيت، أو لبست فألبيت، أو تصدقت فأعطيت»، وروى مسلم أيضاً رقم ٢٩٥٩ عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «يقول العبد: مالي، مالي، إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأنسى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأنسى (أذخره لأخرته) وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس». وروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يبيع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يتيمه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله».

قوله تعالى: ﴿سَوْفَ نَعْلَمُونَ﴾ عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت. وقيل: العلم الأول: يقع عند نزول الموت. والثاني: عند نزول القبر.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ المعنى: لو تعلمون الأمر علماً يقيناً لشغلكم ما تعلمون عن التكاثر، والتفاخر. وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف: وهو ما ذكرنا. ثم أوعدهم وعيداً آخر فقال: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وحزمة ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ ﴿تُرْ لَتَرَوُنَّ﴾ بفتح التاء. وقرأ مجاهد، وعكرمة، وحמיד، وابن أبي عبلة «لَتَرُونَهَا» بضم التاء فيهما من غير همز ﴿تُرْ لَتَرَوُنَّ عَنِ الْيَقِينِ﴾ أي: مشاهدة، فكان المراد بـ ﴿عَنِ الْيَقِينِ﴾ نفسه، لأن عين الشيء: ذاته.

قوله تعالى: ﴿تُرْ لَتَتَّبِعُنَّ بِوَيْحِي عَنِ النَّبِيِّ﴾ اختلفوا، هل هذا السؤال عام، أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنه خاص للكفار، قاله الحسن. والثاني: عام، قاله قتادة^(١). وللمفسرين في المراد بالنعيم عشرة أقوال: أحدها: أنه الأمن والصحة، رواه ابن مسعود عن النبي ﷺ^(٢)، وتارة يأتي موقوفاً عليه^(٣)، وبه قال مجاهد والشعبي. والثاني: أنه الماء البارد، رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ^(٤). والثالث: أنه الخبز البُرُّ والماء العَذْبُ، قاله أبو أمامة. والرابع: أنه ملاذ المأكول والمشروب، قاله جابر بن عبد الله. والخامس: أنه صحة الأبدان^(٥)، والأسماع، والأبصار، قاله ابن عباس. وقال قتادة: هو العافية. والسادس: أنه الغذاء والعشاء، قاله الحسن. والسابع: الصحة والفراغ، قاله عكرمة^(٦). والثامن: كل شيء من لذة الدنيا، قاله مجاهد^(٧). والتاسع: أنه إنعام الله على الخلق بإرسال محمد ﷺ، قاله القرظي. والعاشر: أنه صنوف النعم، قاله مقاتل. والصحيح أنه عام في كل نعيم، وعام في جميع الخلق، فالكافر يسأل توبيخاً إذا لم يشكر المنعم، ولم يوحده. والمؤمن يسأل عن شكرها. وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى: «ثلاث

(١) والصحيح أن السؤال عام، ولكن سؤال الكافر سؤال توبيخ، لأنه ترك الشكر، وسؤال المؤمن سؤال تشريف، لأنه شكر. قال ابن جرير الطبري: ﴿تُرْ لَتَتَّبِعُنَّ بِوَيْحِي عَنِ النَّبِيِّ﴾ يقول: ثم ليسألكم الله عز وجل عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا علمتم فيه؟ ومن أين وصلت إليه؟ وفيما أصبتموه؟ وماذا علمتم به؟ وقال ابن كثير: ﴿تُرْ لَتَتَّبِعُنَّ بِوَيْحِي عَنِ النَّبِيِّ﴾ أي: ثم ليسألكم يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك، ما إذا قابلتم نعمة من شكره وعبادته. وروى الترمذي عن أبي هريرة الأسلمي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قلما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه» ورواه الترمذي من حديث ابن مسعود وهو حديث حسن بشواهد.

(٢) ذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم من طريق إبراهيم بن موسى عن محمد بن سليمان ابن الأصبهاني عن ابن أبي ليلى أظنه عن عامر الشعبي عن ابن مسعود. ومحمد بن سليمان الأصبهاني، صدوق بخطي، وابن أبي ليلى، صدوق سبيح الحفاظ، وعامر الشعبي يرسل عن ابن مسعود. فالحديث ضعيف، وذكره السيوطي في «الدر» ٣٨٨/٦ وزاد نسبه لعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد»، وابن مردويه عن ابن مسعود.

(٣) رواه الطبراني ٢٨٦/٣٠ من طريق خالد الزيات عن ابن أبي ليلى عن عامر الشعبي عن ابن مسعود موقوفاً عليه. وفي سنده ضعف، وأورده السيوطي في «الدر» ٣٨٨/٦ وزاد نسبه لعبد بن حميد، وهناد، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن مسعود.

(٤) رواه الترمذي ١٧١/٢، والطبري ٢٨٨/٣٠ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يسأل عنه يوم القيامة - يعني العيد من النعيم - أن يقال له: ألم نصنع لك جسماً ونروك من الماء البارد؟» وقال: هذا حديث غريب، وأورده السيوطي في «الدر» ٣٨٨/٦ وزاد نسبه لأحمد في «زوائد الزهد»، وعبد بن حميد، وابن حبان، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٥) روى ابن جرير الطبري عن ابن عباس قال: النعيم: صحة الأبدان، والأسماع، والأبصار، قال: يسأل الله العباد فيما استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله: ﴿إِنَّ أَسْمَعَ وَآكَمَرَ وَالْقَوَادُ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئَلٌ﴾. وذكره السيوطي في «الدر» ٣٨٧/٦ وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عباس ﷺ.

(٦) روى البخاري في «صحيحه» ١٩٦/١١ عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ». قال الحفاظ ابن جبر في «الفتح» ١٩٧/١١: وقوله في الحديث: «مغبون فيهما كثير من الناس» بقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَبْذِي الشُّكْرَ﴾، فالكثير في الحديث في مقابلة القليل في الآية، ونقل عن ابن بطال أن معنى الحديث: أن المرء لا يكون فارغاً حتى يكون مكفياً صحيح البدن، فمن حصل له ذلك، فليحرص على أن لا يبين بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه، ومن شكره امتثال أوامره واجتناب نواهيه، فمن فرط في ذلك فهو المغبون. قال ابن جبر: وأشار بقوله: «كثير من الناس» إلى أن الذي يوفق لذلك قليل. ونقل عن ابن الجوزي قوله: قد يكون الإنسان صحيحاً ولا يكون مطرغاً لشغله بالعيش، وقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغيوط، ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون، لأن الفراغ يعقب الشغل، والصحة يعقب السقم.

(٧) وقول مجاهد هذا يشمل جميع الأقوال المتقدمة.

لا أسأل عبيدي عن شكرهن وأسأله عما سوى ذلك: بيت يَكْنُته، وما يقيم به صلبه من الطعام، وما يوارى به عورته من اللباس»^(١).



(١) ذكره السيوطي في «الدر» ٦/ ٢٩١ من رواية عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهدة»، عن الحسن مرسلاً، وهو ضعيف في المرفوع، ورواه الطبري في «تفسيره» ٢٨٩/ ٣٠ بنحوه عن الحسن وقتادة من كلامهما، ولم يذكره في المرفوع. وروى مسلم في «صحيحه» رقم ٢٠٣٨ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: الجوع يا رسول الله، قال: «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا! قداموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رآته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان؟» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله ما أحذ اليوم أكرم أضيافاً مني، قال: فانطلق فجاءهم بعذق (غصن) فيه بُسر وتمر وورْط، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المُدِيَّة (السكين) فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب!» فذبح لهم. فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا ورَوَّوا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتسألن من هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم».

سورة العصر

وفيها قولان: أحدهما: مكية، قاله ابن عباس، وابن الزبير، والجمهور. والثاني: مدنية، قاله مجاهد، وقتادة، ومقاتل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكْبِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِذَا الْإِنْسَانُ لَيْئٌ حَسِرَ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الدهر، قاله ابن عباس، وزيد بن أسلم، والفراء، وابن قتبية. وإنما أقسم بالدهر لأن فيه عبرة للناظر من مرور الليل والنهار على تقدير لا ينخرم. والثاني: أنه العشي، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها، قاله الحسن وقتادة. والثالث: صلاة العصر، قاله مقاتل^(١).

قوله تعالى: ﴿إِذَا الْإِنْسَانُ لَيْئٌ حَسِرَ ۝٢﴾ قال الزجاج: هو جواب القسم. والإنسان هاهنا بمعنى الناس، كما تقول: كثر الدرهم في أيدي الناس، تريد الدراهم. والخسر والخسران في معنى واحد. قال أهل المعاني: الخسر: هلاك رأس المال أو نقصه. فالإنسان إذا لم يستعمل نفسه فيما يوجب له الربح الدائم، فهو في خسران، لأنه عمل في إهلاك نفسه، وهما أكبر رأس ماله ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا ۝٣﴾ أي: صدَّقُوا الله ورسوله، وعملوا بالطاعة ﴿وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ ۝٣﴾ أي: بالتحديد، والقرآن، واتباع الرسول ﴿وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ على طاعة الله، والقيام بشريعته. وقال إبراهيم في تفسير هذه السورة: إن الإنسان إذا عُمِر في الدنيا لفي نقص وضعف، إلا المؤمنين، فإنهم يكتب لهم أجور أعمالهم التي كانوا يعملون في شبابهم وصحتهم^(٢).



(١) أقسم سبحانه وتعالى بصلاة العصر لفضلها، وهي الصلاة الوسطى عند الجمهور، لقوله عليه الصلاة والسلام: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر» متفق عليه. ولقوله ﷺ: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتر أهله وماله» رواه مسلم. والأعم من ذلك أن الله تعالى أقسم بالزمان الذي تقع فيه أعمال بني آدم من خير وشر، قاله ابن كثير.

(٢) قال الإمام الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم. وذلك لما فيها من المراتب التي باستكمالها يحصل للشخص غاية كماله، إحداهما: معرفة الحق، والثانية: عمله به، والثالثة: تعليمه من لا يحسنه، والرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

سورة الهمزة

وهي مكية بإجماعهم

قال هبة الله المفسر^(١): وقد قيل: إنها مدنية. واختلف المفسرون هل نزلت في حق شخص بعينه، أم نزلت عامة؟ على قولين: أحدهما: نزلت في حق شخص بعينه. ثم فيه ستة أقوال: أحدها: الأخنس بن شريق، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال السدي، وابن السائب. والثاني: العاص بن وائل السهمي، قاله عروة. والثالث: جميل بن عامر، قاله ابن أبي نجیح. والرابع: الوليد بن المغيرة، قاله ابن جريج، ومقاتل. والخامس: أمية بن خلف، قاله ابن إسحاق. والسادس: أبي بن خلف، حكاه الماوردي. والقول الثاني: أنها نزلت عامة لا في شخص بعينه، قاله مجاهد^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۚ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۚ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۚ كَلَّا لَيَكْبَدَنَّ فِي الْفُتُورَةِ ۚ وَمَا آدْرَاكَ مَا الْفُتُورَةُ ۚ تَأْرَأَى اللَّهُ الْوَفْدَ ۚ الَّذِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقِدِ ۚ إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ۚ فِي عَمَرٍ مُّدَدٍّ ۚ﴾
قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۚ﴾ اختلفا في الهمزة واللمزة هل هما بمعنى واحد، أم مختلفان؟ على قولين: أحدهما: أنهما مختلفان. ثم فيهما سبعة أقوال: أحدها: أن الهمزة: المغتاب، واللمزة: العيَاب، قاله ابن عباس. والثاني: أن الهمزة: الذي يهزم الإنسان في وجهه. واللمزة: يَلْمِزُهُ إذا أدبر عنه، قاله الحسن، وعطاء، وأبو العالية. والثالث: أن الهمزة: الطعان في الناس، واللمزة: الطعان في أنساب الناس، قاله مجاهد. والرابع: أن الهمزة: بالعين، واللمزة: باللسان، قاله قتادة. والخامس: أن الهمزة: الذي يهزم الناس بيده ويضربهم، واللمزة: الذي يَلْمِزُهُم بلسانه، قاله ابن زيد. والسادس: أن الهمزة: الذي يهزم بلسانه، واللمزة: الذي يلمز بعينه، قاله سفيان الثوري. والسابع: أن الهمزة: المغتاب، واللمزة: الطاعن على الإنسان في وجهه، قاله مقاتل. والقول الثاني: أن الهمزة: العيَاب الطعان، واللمزة مثله. وأصل الهمز واللمز: الدفع، قاله ابن قتيبة، وكذلك قال الزجاج: الهمزة اللُّمَزَةُ: الذي يغتاب الناس ويغضُّهم^(٣). قال الشاعر:

إِذَا لَقَيْتُكَ عَنْ كُرْهِ تَكَاثُرُنِي
وإن تَعَيَّبْتُ كُنْتُ الْهَامِزَ اللَّمَزَةَ^(٤)

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا﴾ قرأ أبو جعفر، وابن عامر، وحزمة، والكسائي، وخلف، وروح: «جَمَع» بالتشديد. والباقون بالتخفيف.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَّدَهُ﴾ قرأ الجمهور بتشديد الدال. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، وابن يعمر بتخفيفها^(٥). وللمفسرين في معنى الكلام قولان: أحدهما: أحصى عدده، قاله السدي. والثاني: أعده لما يكفيه في

(١) هو هبة الله بن سلامة بن نصر بن علي أبو القاسم الضرير المفسر، من أهل بغداد، وبها وفاته، كانت له حلقة في جامع المنصور، له مؤلفات، منها «الناسخ والمنسوخ في القرآن» مطبوع، توفي رحمه الله (سنة ٤١٠هـ).

(٢) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله عم بالقول كل همزة لمة، كل من كان بالصفة التي وصف هذا الموصوف بها، سبيله كائنًا من كان من الناس.

(٣) في الأصل: ويغضُّهم، والتصحیح من «اللسان» و«مجاز القرآن»، والطبري، والغض: الهمز والعيب.

(٤) تقدم البيت ص ٥٨٩، ورواية الشطر الأول: إذا لقيتك تبدي لي مكاشرة.

(٥) قال ابن جرير الطبري: وقد ذكر عن بعض المتقدمين بإسناد غير ثابت أنه قرأه «جمع مالا وعدده» بتخفيف الدال، بمعنى: جمع مالا، وجمع عشيرته وعدده، قال: وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها، بخلافها قراءة الأمصار، وخرجوها عما عليه الحجة مجمعة في ذلك.

السَّنين، قاله عكرمة. قال الزجاج: من قرأ «عَدَّه» بالتشديد، فمعناه: عَدَّه للدهور. ومن قرأ «عَدَّه» بالتخفيف، فمعناه: جمع مالا وعدداً، أي: وقوماً اتخذهم أنصاراً.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ (١) أخلده بمعنى يخلده، والمعنى: يظن ماله مانعاً له من الموت، فهو يعمل عمل من لا يظن أنه يموت ﴿كَلَّا﴾ أي: لا يخلده ماله ولا يبقى له ﴿لِيَكِدَنَّ﴾ أي: لِيُطْرَحَنَّ ﴿فِي الْحُطَمَةِ﴾ وهو اسم من أسماء جهنم. سبَّت بذلك لأنها تحطم ما يلقى فيها، أي: تكسره، فهي تكسر العظم بعد أكلها اللحم. ويقال للرجل الأكلول: إنه لحطمة. وقرأ أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبو عبد الرحمن، والحسن، وابن أبي عتبة، وابن محيصن: «لِينِذَانُ» بآلف ممدودة، ويكسر النون، وتشديدها، أي: هو وماله.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفِتَةِ﴾ (٢) أي: تأكل اللحم والجلود حتى تقع على الآفئة فتحرقها. قال الفراء: يبلغ ألمها الآفئة. والاطلاع والبلوغ قد يكونان بمعنى واحد، والعرب تقول: متى طلعت أرضنا؟ أي: بلغت. وقال ابن قتيبة: تَطَّلِعُ على الآفئة، أي: توفي عليها وتشرف. وخص الآفئة، لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه، فأخبر أنهم في حال من يموت، وهم لا يموتون. وقد ذكرنا تفسير «مُؤَصَّدَةٍ» في سورة [البعد: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿فِي عَذِّ﴾ قرأ حمزة، وخلف، والكسائي، وعاصم إلا حفصاً بضم العين، وإسكان الميم. قال المفسرون: وهي أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار. و«في» بمعنى الباء. والمعنى: مطبقة بعُمْدٍ. قال قتادة: وكذلك هو في قراءة عبد الله. وقال مقاتل: أطبقت الأبواب عليهم، ثم شُدَّتْ بأوتادٍ من حديد، حتى يرجع عليهم غَمُّهَا وَحَرُّهَا. و«مُئَدَّدَةٍ» صفة العُمْد، أي: أنها ممدودة مطوّلة، وهي أرسخ من القصيرة. وقال قتادة: هي عُمْدٌ يعدُّون بها في النار^(١). وقال أبو صالح: ﴿فِي عَذِّ مُئَدَّدَةٍ﴾ (٣) قال: القيود الطوال.



(١) واختار هذا القول الطبري في تفسيره.

سورة الفيل

مكية بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِي قَرَّبَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن يَّسِينٍ ۝﴾ ﴿الَّذِي قَرَّبَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن يَّسِينٍ ۝﴾ ﴿الَّذِي قَرَّبَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن يَّسِينٍ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِي قَرَّبَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أَلَمْ تُخَيِّرْ، قاله الفراء. والثاني: أَلَمْ تُعَلِّمْ، قاله الزجاج. ومعنى الكلام معنى التعجب. وأصحاب الفيل هم الذين قصدوا تخريب الكعبة. وفي سبب قصدهم لذلك قولان: أحدهما: أن أبرهة بنى بيعة^(١) وقال: لست منتهاً حتى أضيف إليها حجَّ العرب، فسمع بذلك رجل من بني كنانة، فخرج، فدخلها ليلاً، فأحدث فيها، فبلغ ذلك أبرهة، فحلف ليسيرن إلى الكعبة فيهدمها، قاله ابن عباس. والثاني: أن قوماً من قريش خرجوا في تجارة إلى أرض النجاشي فنزلوا في جنب بيعة، فأوقدوا ناراً، وشوَّروا لحماً، فلما رَحَلُوا هَبَّتْ الرِّيحُ، فاضطرم المكان ناراً، فغضب النجاشي لأجل البيعة، فقال له كبراء أصحابه: منهم حجر بن شراحيل، وأبو يكسوم -: لا تحزن، فنحن نهديم الكعبة، قاله مقاتل. وقال ابن إسحاق: أبو يكسوم اسمه أبرهة بن الأشرم. وقيل: وزيره، وجنير من قُوَّاده.

ذكر الإشارة إلى القصة

ذكر أهل التفسير أن أبرهة لما سار بجنوده إلى الكعبة ليهدمها خرج معه بالفيل، فلما دنا من مكة أمر أصحابه بالغارة على نَعَم الناس، فأصابوا إبلاً لعبد المطلب، وبعث بعض جنوده، فقال: سَلْ عن شريف مكة، وأخبره أنني لم آت لقتال، وإنما جئت لأهديم هذا البيت، فانطلق حتى دخل مكة، فلقي عبد المطلب بن هاشم، فقال: إن الملك أرسلني إليك لأخبرك أنه لم يأت لقتال إلا أن تقاتلوه، إنما جاء لهدم هذا البيت، ثم يتصرف عنكم، فقال عبد المطلب: ما له عندنا قتال، وما لنا به يد، إنا سنخلي بينه وبين ما جاء له، فإن هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، فإن يمنعه، فهو بيته وحرمة، وإن يخل بينه وبين ذلك، فوالله ما لنا به قوَّة. قال: فانطلق معي إلى الملك، فلما دخل عبد المطلب على أبرهة أعظمه، وكرمه، ثم قال لترجمانه: قل له: ما حاجتك إلى الملك؟ فقال له الترجمان، فقال: حاجتي أن يرُدَّ عليَّ مائتي بعير أصابها. فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبني حين رأيتك، ولقد زهدت الآن فيك، جئت إلى بيت هو دينك لأهدمه، فلم تكلمني فيه، وكلمتني لإبل أصبتها. فقال عبد المطلب: أنا ربُّ هذه الإبل، ولهذا البيت ربُّ سيمنه. فأمر بإبله فَرُدَّتْ عليه، فخرج، فأخبر قريشاً، وأمرهم أن يتفرَّقوا في الشعاب ورووس الجبال خوفاً من مَعَرَّة الجيش إذا دخل، فأتى عبد المطلب الكعبة، فأخذ بحلقة الباب، وجعل يقول:

يَا رَبِّ قَامَنْعَ مِنْهُمْ جَمَاكَ

امْنَعُهُمْ أَنْ يُخْرِبُوا قُرَاكَ

يَا رَبِّ لَا أَرْجُو لَهُمْ سِوَاكَ

إِنَّ عُدُوَّ الْبَيْتِ مَنْ عَادَاكَ

وقال أيضاً:

(١) البيعة بكسر الباء: كنيسة النصارى، وقيل: كنيسة اليهود، والجمع: بيعة.

لَا هُمْ^(١) إِنَّ الْمَرَّةَ يَمْنَعُ
لَا يَفْلِحُ بَنُّ صَالِبُهُمْ
جَرُّوا جَمِيعَ بِلَادِهِمْ
عَمِدُوا حِمَاكَ بِكَيْدِهِمْ
إِنْ كُنْتَ تَارِكُهُمْ وَكُفُّ

نَحُّ رَحْلَهُ فَا مَنَعَ جَلَالَكَ^(٢)
وَمَحَالُهُمْ غَدُوا وَمَحَالَكَ^(٣)
وَالْفِيلَ كَيْ يَسْبُوا عِيَالَكَ
جَهْلًا وَمَا رَقُبُوا جَلَالَكَ
بَيْنَنَا قَامُرٌ مَا بَدَالَكَ

ثم إن أبرهة أصبح متهيباً للدخول، فبرك الفيل، فبعثوه فأبى، فضربوه، فأبى، فوجهوه إلى اليمن راجعاً، فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، وإلى المشرق ففعل مثل ذلك، فوجهوه إلى الحرم، فأبى، فأرسل الله طيراً من البحر. واختلفوا في صفتها، فقال ابن عباس: كانت لهم خراطيم كخراطيم الطير، وأكفت كأكفت الكلاب. وقال عكرمة: كانت لها رؤوس كرووس السباع. وقال ابن إسحاق: كانت أمثال الخطاطيف. واختلفوا في ألوانها على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها كانت خضراء، قاله عكرمة، وسعيد بن جبيرة. والثاني: سوداء، قاله عبيد بن عمير. والثالث: بيضاء، قاله قتادة. قال: وكان مع كل طير ثلاثة أحجار، حَجَرَانِ في رجله، وحجر في منقاره. واختلفوا في صفة الحجارة فقال بعضهم: كانت كأمثال الحمص والعدس. وقال عبيد بن عمير: بل كان الحجر كراس الرجل والجمال، فلما غشيت القوم أرسلتها عليهم، فلم تصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك. وكان الحجر يقع على رأس الرجل، فيخرج من دبره. وقيل: كان على كل حجر اسم الذي وقع عليه، فهلكوا ولم يدخلوا الحرم، وبعث الله على أبرهة داءً في جسده، فتساقطت أنامله، وانصدع صدره قطعتين عن قلبه، فهلك، ورأى أهل مكة الطير وقد أقبلت من ناحية البحر، فقال عبد المطلب: إن هذه الطير غريبة. ثم إن عبد المطلب بعث ابنه عبد الله على فرس ينظر إلى القوم، فرجع يركض ويقول: هلك القوم جميعاً، فخرج عبد المطلب وأصحابه فغنموا أموالهم. وقيل: لم ينج من القوم إلا أبو يكسوم، فسار، وطائر يطير من فوقه، ولا يشعر به حتى دخل على النجاشي، فأخبره بما أصاب القوم، فلما أتم كلامه رماه الطائر فمات، فأرى الله تعالى النجاشي كيف كان هلاك أصحابه^(٤). واختلفوا كم كان بين مولد رسول الله ﷺ وبين هذه القصة على ثلاثة أقوال: أحدها: أن رسول الله ﷺ ولد عام الفيل، وهو الأصح^(٥). والثاني: كان بينهما ثلاث وعشرون سنة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: أربعون سنة، حكاه مقاتل.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ وهو ما أرادوا من تخريب الكعبة ﴿فِي تَمْلِيلٍ﴾ أي: في ذهاب. والمعنى: أن كيدهم ضلَّ عما قصدوا له، فلم يصلوا إلى مرادهم ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبْيَلَ﴾. وفي «الآبائيل» خمسة أقوال: أحدها: أنها المتفرقة من هاهنا وهاهنا، قاله ابن مسعود، والأخفش. والثاني: أنها المتتابعة التي يتبع بعضها بعضاً،

(١) لاهم: أصلها: اللهم، والعرب تحذف الألف واللام منها وتكتفي بما بقي، كما تقول: لا أبوك، وهي تريد: لا أبوك، وكما قالوا أيضاً: أجنك تفعل كذا وكذا، أي: من أجل أنك تفعل كذا وكذا. والجلال: بكسر الحاء جمع حلة، وهي جماعة البيوت، ويريد هنا: القوم الحلول، والجلال أيضاً: متاع البيت، وجاز أن يكون هذا المعنى الثاني مراداً هنا.

(٢) البيت في الأصل:

لاههم إن المرء يَمْنَعُ رحله وحلاله فامنع حلالك

لاههم إن المرء يَمْنَعُ رحله وحلاله فامنع حلالك وهو خطأ، والتصحيح من سيرة ابن هشام: وكب الضير.

(٣) غنوا، أي غداً، وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك، فحذفت لاهم، ولم يستعمل تاماً إلا في الشعر. واليجال بكسر الميم: القوة والشدّة.

(٤) ذكر الخبر بنحوه البغوي من رواية ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن سعيد بن جبيرة وعكرمة عن ابن عباس، وفي سنده جهالة، ومن رواية الواقدي والله أعلم.

قال ابن كثير: هذه من النعم التي امتنَّ الله بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود فأبادهم الله وأرغم آثافهم وخيب سعيهم وأضل عملهم وردهم بشرّ خيبة، وكانوا قوماً نصاري، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرخاض والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدر يقول: لم تنصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي محمّد صلوات الله عليه وسلامه على خاتم الأنبياء.

(٥) قال ابن كثير: ولد في ذلك العام على أشهر الأقوال.

قاله ابن عباس، ومجاهد، ومقاتل. والثالث: الكثيرة، قاله الحسن، وطاووس. والرابع: أنها الجمع بعد الجمع، قاله عطاء، وأبو صالح، وكذلك قال أبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج: «الآبائيل»: جماعات في تفرقة. والخامس: المختلفة الألوان، قاله زيد بن أسلم. قال الفراء، وأبو عبيدة: «الآبائيل» لا واحد لها.

قوله تعالى: ﴿تَرْمِيهِمْ﴾ قرأ أبو عبد الرحمن السلمي «يرميهم» بالياء، وقد بينا معنى ﴿يَسْجِلُ﴾ في [مرد: ٨٢]، ومعنى «العصف» في سورة [الرحمن: ١٢]. وفي معنى ﴿مَأْكُولٍ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن يكون أراد أنه أخذ ما فيه من الحب فأكل، وبقي هو لا حب فيه. والثاني: أن يكون أراد أن العصف مأكول البهائم، كما يقال للحنطة: هذا المأكول ولمّا يؤكل. وللماء: هذا المشروب ولمّا يشرب، يريد أنهما مما يؤكل ويشرب، ذكرهما ابن قتيبة. والثالث: أن المأكول هاهنا: الذي وقع فيه الأكال. فالمعنى: جعلهم كورق الزرع الذي جفّ وأكل، أي: وقع فيه الأكال، قاله الزجاج.



سورة قریش

ويقال لها: سورة لإيلاف

وفيها قولان: أحدهما: مكية، قاله الجمهور. والثاني: مدنية، قاله الضحاك، وابن السائب. واختلف القراء في «الإيلاف» فقرأ ابن عامر «الإلاف» بغير ياء بعد الهمزة، مثل: لعلاف. وقرأ أبو جعفر بياء ساكنة من غير همز. وروى حماد بن أحمد عن الشموني بهمزتين مخففتين، الأولى: مكسورة، والثانية: ساكنة على وزن لعِلاف. وقرأ الباقر بعد ياء ساكنة، مثل لعِلاف^(١). وفي لام «الإيلاف» ثلاثة أقوال: أحدها: موصولة بما قبلها، المعنى: فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قریش، أي أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قریش. وما قد ألفوا من رحلة الشتاء، والصيف [هذا قول القراء والجمهور. والثاني: أنها لام التعجب، كأن المعنى: اعجبوا لإيلاف قریش رحلة الشتاء والصيف]^(٢)، وتركهم عبادة رب هذا البيت، قاله الأعمش، والكسائي. والثالث: أن معناها متصل بما بعدها. المعنى: فليعبدوا رب هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف، لأنهم كانوا في الرحلتين آمنين، فإذا عَرَضَ لهم عارض قالوا: نحن أهل حرم الله فلا يَتَعَرَّضُ لهم، قال الزجاج: وهذا الوجه قول النحويين الذين ترضى أقوالهم. وقال ابن قتيبة: بعض الناس يذهب إلى أن هذه السورة وسورة الفيل واحدة، وأكثر الناس على أنهما سورتان، وإن كانتا متصلتي الألفاظ^(٣). والمعنى: إن قریشاً كانت بالحرم آمنة من الأعداء. والحرم وإد جديب لا زرع فيه ولا شجر، وإنما كانت قریش تعيش فيه بالتجارة وكانت لهم رحلتان في كل سنة، رحلة في الشتاء، ورحلة في الصيف إلى الشام. ولولا هاتان الرحلتان لم يكن به مقام. ولولا أنهم بمجاورة البيت لم يقدروا على التصرف، فلما قصد أصحاب الفيل هدم الكعبة أهلكهم الله لتقيم قریش بالحرم، فذكَّروهم الله نعمته بالسورتين. والمعنى: أنه أهلك أولئك ليؤلف قریشاً هاتين الرحلتين اللتين بهما^(٤) معاشهم، ومقامهم بمكة. تقول: ألفت موضع كذا: إذا لزمته، وألفنيه الله، كما تقول: لزمتم موضع كذا وكذا، وألزمنيه الله، وكرر ﴿إِلَافِينَ﴾ للتوكيد، كما تقول: أعطيتك المال لصيانة وجهك صيانة عن كل الناس. قال الزجاج: يقال: ألفت المكان إلَافاً، وألفته إيلافاً بمعنى واحد. وأما قریش فهم ولد النضر بن كنانة، وكل من لم يلد له النضر فليس بقرشي. وقيل: هم من ولد فهر بن مالك بن النضر، فمن لم يلد له فهر فليس بقرشي. وإنما سموا قریشاً لتجارتهما وجمعهم المال. والقرش: الكسب. يقال: هو يقرش لعياله، ويقترش، أي: يكتسب. وقد سأل معاوية ابن عباس رضي الله عنه: لم سميت قریش قریشاً؟ فقال ابن عباس: بدابة تكون في البحر يقال لها: القریش لا تمر بشيء من العَثِّ^(٥) والسمين إلا أكلته. وأنشد:

وَقَرِيشُ هِيَ الَّتِي تَسْكُنُ الْبَحْرَ
رَبِّهَا سُمِّيَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشًا^(٦)

(١) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القراءة في ذلك عندي من قرأه ﴿إِلَافِينَ قُرَيْشٍ﴾ بِأَلِفَاتِ الْيَاءِ فِيهِمَا بَعْدَ الْهَمْزَةِ مِنْ أَلَفَتِ الشَّيْءَ أَوْ لَفَهُ إِيلَافًا، لِإِجْمَاعِ الْحُجَّةِ مِنَ الْقِرَاءَةِ عَلَيْهِ.

(٢) زيادة سقطت من الأصل، واستدركتها من النسخة الإستانبولية. وصوب ابن جرير هذا القول، وقال: ذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان.

(٣) قال ابن كثير: هذه السورة منفصلة عن التي قبلها في المصحف، كتبوا بينهما سطر «بسم الله الرحمن الرحيم»، وإن كانت متعلقة بما قبلها كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، لأن المعنى عندهما: حبسنا عن مكة الفيل، وأهلكنا أهله لإيلاف قریش، أي لانتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين.

(٤) في الأصل: التي بها.

(٥) القَثُّ: الرديء من كل شيء.

(٦) البيت في البغوي ٢٤٧/٧ استشهد به ابن عباس ونسبه للجمعي، وهو في «الدر المنثور» ٣٩٨/٦، و«روح البيان» ٢٣٩/٣٠، وأورده القرطبي ونسبه إلى تبع.

سورة الماعون

ويقال لها: سورة ارايت

وفيهما قولان، أحدهما: مكية، قاله الجمهور. والثاني: مدنية، روي عن ابن عباس، وقتادة. وقال هبة الله المفسر: نزل نصفها بمكة في العاص بن وائل، ونصفها بالمدينة في عبد الله بن أبي المنافق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۚ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْصُ عَلَىٰ طَعَامِ الْيَتِيمِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاكِبُونَ ﴿٦﴾ وَيَسْتَعُونَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۚ﴾ ﴿١﴾ اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على ستة أقوال: أحدها: نزلت في رجل من المنافقين، قاله ابن عباس. والثاني: نزلت في عمرو بن عائذ، قاله الضحاك. والثالث: في الوليد بن المغيرة، قاله السدي. والرابع في العاص بن وائل، قاله ابن السائب. والخامس: في أبي سفيان بن حرب، قاله ابن جريج. والسادس: في أبي جهل، حكاه الماوردي. وفي «الدين» أربعة أقوال: أحدها: أنه حكم الله ﷻ، قاله ابن عباس. والثاني: الحساب، قاله مجاهد، وعكرمة. والثالث: الجزاء، حكاه الماوردي. والرابع: القرآن، حكاه بعض المفسرين، و﴿يَدْعُ﴾ بمعنى يدفع. وقد ذكرناه في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَىٰ تَارِ جَهَنَّمَ﴾ [الطور: ١٣]. والمعنى: أنه يدفع اليتيم عن حقه دفعاً عنيفاً ليأخذ ماله. وقد بينّا فيما سبق أنهم كانوا لا يؤثرون الصغير، وقيل: يدفع اليتيم إبعاداً له، لأنه لا يرجو ثواب إطعامه ﴿وَلَا يَحْصُ عَلَىٰ طَعَامِ الْيَتِيمِ﴾ ﴿٣﴾ أي: لا يطعمه، ولا يأمر بإطعامه لأنه مكذب بالجزاء.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۚ﴾ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ نزل هذا في المنافقين الذين لا يرجون لصلاتهم ثواباً، ولا يخافون على تركها عقاباً. فإن كانوا مع النبي ﷺ صلّوا رياءً، وإن لم يكونوا معه لم يصلوا، فذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاكِبُونَ﴾ ﴿٥﴾ وقال ابن مسعود: والله ما تركوها البتة ولو تركوها البتة كانوا كفاراً، ولكن تركوا المحافظة على أوقاتها. وقال ابن عباس: يؤخّرونها عن وقتها. ونقل عن أبي العالية أنه قال: هو الذي لا يدري عن كم انصرف، عن شفع، أو عن وتر. وردّ هذا بعض العلماء فقال: هذا ليس بشيء، لأن رسول الله ﷺ قد سها في صلاته، ولأنه قال تعالى: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾ ولم يقل: في صلاتهم، ولأن ذاك لا يكاد يدخل تحت طوق ابن آدم. قال الشيخ رحمه الله: قلت: ولا أظن أن أبا العالية أراد السهو النادر، وإنما أراد السهو الدائم، وذلك يثبت عن الثقات القلب عن احترام الصلاة، فيتوجّه الذم إلى ذلك لا إلى السهو^(١). وفي «الكَافِرِينَ» ستة أقوال: أحدها: أنه الإبرة، والماء، والنار، والفأس، وما يكون في البيت من هذا النحو، رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ^(٢)، وإلى نحوه ذهب ابن مسعود^(٣)

(١) قال ابن كثير: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۚ﴾ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ إما عن فعلها بالكلية، كما قاله ابن عباس، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعاً فيخرجها عن وقتها بالكلية، كما قاله مسروق وأبو الضحى، وإما عن وقتها الأول فيؤخّرونها إلى آخره دائماً أو غالباً، وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور بها، وإما عن الخسوف فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل ذلك كله، ولكل من أتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية.

(٢) قال السيوطي في «الدر» ٤٠٠/٦: أخرج أبو نعيم، والدلمي، وابن عساكر، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيَسْتَعُونَ الْكَافِرِينَ﴾ قال: ما يتجاوز الناس بينهم: الفأس، والقدر، والدلو وأشباهه.

(٣) قال السيوطي في «الدر» ٤٠٠/٦: أخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأبو داود، والنسائي، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في «الأوسط»، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه» من طرق عن ابن مسعود قال: كنّا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارئةً الدلو، والقدر، والفأس، والميزان وما تتعاطون بينهم.

وابن عباس في رواية. وروى عنه أبو صالح أنه قال: الماعون: المعروف كله حتى ذُكِرَ القِدْر، والقصعة، والفأس. وقال عكرمة: ليس الويل لمن منع هذا، إنما الويل لمن جمعهن، فراءى في صلاته، وسها عنها^(١)، ومنع هذا. قال الزجاج: والماعون في الجاهلية: كل ما كان فيه منفعة كالفأس، والقدر، والدلو، والقداحة، ونحو ذلك، وفي الإسلام أيضاً. والثاني: أنه الزكاة، قاله علي، وابن يعمر، والحسن، وعكرمة، وقتادة. والثالث: أنه الطاعة، قاله ابن عباس في رواية. والرابع: المال، قاله سعيد بن المسيب، والزهري. والخامس: المعروف، قاله محمد بن كعب. والسادس: الماء، ذكره الفراء عن بعض العرب^(٢) قال: وأنشدني:

يَمَجَّ صَبِيرُهُ السَّمَاعُونَ صَبَاً^(٣)

والصبير: السحاب.



(١) في الأصل: وسها هذا، والتصحيح من النسخة الإستانبولية.

(٢) قال ابن كثير: وقال عكرمة: رأس الماعون: زكاة المال، وأدناه: المنخل، والدلو، والإبرة. رواه ابن أبي حاتم. قال ابن كثير: وهذا الذي قاله عكرمة حسن، فإنه يشمل الأقوال كلها، وترجع كلها إلى شيء واحد، وهو: ترك المعاونة بمال أو بمنفعة.

(٣) ذكره القرطبي ٢٠/٢١٤.

سورة الكوثر

وفيها قولان: أحدهما: مكة، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: مدنية، قاله الحسن، وعكرمة، وقتادة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَىكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝ إِنَّكَ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾

وفي «الكوثر» ستة أقوال: أحدها: أنه نهر في الجنة. روى البخاري في أفراده من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «بينا أنا أسير في الجنة»^(١) إذا بنهر حافتاه قباب الدرّ المجوّف. قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك ﷻ، فإذا طينه، أو طيبه مسك أذفر»^(٢). وروى مسلم أيضاً في أفراده من حديث أنس قال: أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة»^(٣)، ثم رفع رأسه متبسماً إما قال لهم، وإما قالوا له: لِمَ ضَجَّكَ؟ فقال: «إنه أنزل عليّ الآن أنفاً» سورةً فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَىكَ الْكَوْثَرَ ۝﴾ حتى ختمها. وقال: «هل تدرون ما الكوثر؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هو نهر أعطانيه ربي ﷻ في الجنة عليه خير كثير تردّ عليه أمّتي يوم القيامة آتيته عدد كواكب السماء، يخلّج العبد منهم، فأقول: يا رب إنه من أمّتي، فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»^(٤). والثاني: أن الكوثر: الخير الكثير الذي أُعطي نبيّنا ﷺ، قاله ابن عباس. والثالث: العلم والقرآن، قاله الحسن. والرابع: النبوة، قاله عكرمة. والخامس: أنه حوض رسول الله ﷺ الذي يكثر الناس عليه، قاله عطاء. والسادس: أنه كثرة أتباعه وأمته، قاله أبو بكر بن عياش.

قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ في هذه الصلاة ثلاثة أقوال: أحدها: صلاة العيد. وقال قتادة: صلاة الأضحى. والثاني: صلاة الصبح بالمزدلفة، قاله مجاهد. والثالث: الصلوات الخمس، قاله مقاتل. وفي قوله تعالى: ﴿وَانْحَرْ﴾ خمسة أقوال: أحدها: اذبح يوم النحر، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال عطاء ومجاهد والجمهور. والثاني: وضع اليمين على اليسرى عند النحر في الصلاة. والثالث: أنه رفع اليدين بالتكبير إلى النحر، قاله أبو جعفر محمد بن علي. والرابع: أن المعنى: صلّ لله، وانحر لله، فإن ناساً يصلون لغيره، وينحرون لغيره، قاله القرظي»^(٥). والخامس: أنه استقبال القبلة بالنحر، حكاه الفراء»^(٦).

(١) أي ليلة الإسراء، كما في رواية البخاري في «التفسير» ٥٦٢/٨ عن أنس رضي الله عنه قال: لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «وأتيت على نهر حافتاه قباب للؤلؤ مجوّف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر».

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» بهذا اللفظ في كتاب الرقاق، باب الحوض ٤١٢/١١ وشك الراوي في آخره، وهو (هبة بن خالد) في رواية: «فإذا طينه أو طيبه»، قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٤١٢/١١: أراد بذلك أن أبا الوليد لم يشك في روايته، أنه بالنون، وهو المعتمد. قال: وتقدم في تفسير سورة الكوثر من طريق شيخان عن قتادة: فأهوى الملك بيده فاستخرج من طينه مسكاً أذفر. والأذفر: طيب الريح.

(٣) أي: نام نومة. (٤) أي: قريباً.

(٥) رواه مسلم في «صحيحه» ٣٠٠/١، واللفظ الذي أورده المصنف هنا لفظ أحمد في «المسند»، ورواية مسلم تختلف يسيراً عن رواية أحمد. قال ابن كثير: وقد استدل به كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية، وكثير من الفقهاء على أن البسمة من السورة، وأنها منزلة معها.

(٦) قال ابن كثير: أي كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك النهر الذي تقدم صفته، فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والثالثة، ونحرك، فأهبطه وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ سَأَلْتُمْ عَنِ السَّلَاحِ وَسَأَلْتُمْ عَنِ رَبِّ السَّعِيرِ ۝ لَا شَرِيكَ لََّ وَبِذَلِكَ بُرِّئَ رَبِّيَ أَزَلُّ الشُّبُهَاتِ﴾ قال ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، يعني بذلك نحر البدن ونحوها. وكلما قال قتادة، ومحمد بن كعب القرظي، والضحك، والربيع، وعطاء الخراساني، والحكم، وسعيد بن أبي خالد، وغير واحد من السلف، وهذا بخلاف ما كان عليه المشركون من السجود لغير الله، والذبح على غير اسمه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا زَرَعَ يَدَايُكَ إِنَّهُ لَشَيْءٌ مُّسْتَقَرٌّ ۝﴾ الآية.

(٧) قال ابن جرير الطبري: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال: معنى ذلك: فأجعل صلاتك كلها لربك خالصاً دون ما سواه من الأنداد =

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ شَايَكُ﴾ اختلفوا فيمن عنى بذلك على خمسة أقوال: أحدها: أنه العاص بن وائل السهمي، قال ابن عباس: نزلت في العاص بن وائل، لقي رسول الله ﷺ على باب المسجد فوقف يحدثه حتى دخل العاص المسجد، وفيه أناس من صناديد قريش، فقالوا له: مَنْ الذي كُنْتَ تُحَدِّثُ؟ قال: ذاك الأبر، يعني النبي ﷺ، وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله ابن رسول الله ﷺ، وكانوا يسمون من ليس له ابن: أبر، فأنزل الله ﷻ هذه السورة. وممن ذهب إلى أنها نزلت في العاص: سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة. والثاني: أنه أبو جهل، روي عن ابن عباس أيضاً. والثالث: أبو لهب، قاله عطاء. والرابع: عقبة بن أبي معيط، قاله شمر بن عطية. والخامس: أنه عنى به جماعة من قريش، قاله عكرمة^(١). والثاني: المبغض، والأبر: المنقطع عن الخير^(٢).



والآلهة، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان، شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير الذي لا كفه له، وخَصَّك به من إعطائه إياك الكوثر. قال ابن كثير: وهذا الذي قاله ابن جرير في غاية الحسن، وقد سبقه إلى هذا المعنى، محمد بن كعب القرظي، وعطاء.

(١) قال ابن كثير: قال البزار: حدثنا زياد بن يحيى الحساني، حدثنا ابن أبي عدي، عن داود، عن عكرمة عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت سيدهم، ألا ترى إلى الصنبر المنبر من قومه؟ يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة، وأهل السقاية، فقال: أنتم خير منه، فنزلت ﴿إِنَّكَ شَايَكُ هُوَ الْأَبَرُ﴾. قال ابن كثير: هكذا رواه البزار، وهو إسناد صحيح. وجاء في «اللسان» مادة (صنبر) أصل الصنبر: سعة تنبت في جلع النخلة، لا في الأرض، قال أبو عبيدة: الصنبر: النخلة تبقى منفردة ويدق أسفلها وينقشر، يقال: صنبر أسفل النخلة. ومراد كفار قريش: أنه إذا قلع انقطع ذكره كما يذهب أصل الصنبر لأنه لا عقب له. وقال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن مبغض رسول الله ﷺ هو الأقل الأذل المنقطع عقبه، فذلك صفة كل من أبغضه من الناس، وإن كانت الآية نزلت في شخص بعينه.

(٢) قال ابن كثير: قال السدي: كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا: بتر، فلما مات أبناء رسول الله ﷺ قالوا: بتر محمد، فأنزل الله ﴿إِنَّكَ شَايَكُ هُوَ الْأَبَرُ﴾ قال: وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبر: الذي إذا مات، انقطع ذكره، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره، وحاشا وكلاً، بل قد أبى ذكره على رؤوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب المباد، مستمراً على دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد.

سورة الكافرون^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَتَّبِعُ عِبِيدَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَتَّبِعُ عِبِيدَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾

وفيها قولان: أحدهما: مكية، قاله ابن مسعود، والحسن، والجمهور. والثاني: مدنية، روي عن قتادة.

ذكر سبب نزولها. اختلفوا على ثلاثة أقوال: أحدها: أن رهطاً من قريش منهم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث لقوا العباس بن عبد المطلب، فقالوا: يا أبا الفضل، لو أن ابن أخيك أسلم بعض آلهتنا لصدقناه بما يقول ولا ممناً بإلهه، فأتاه العباس فأخبره، فنزلت هذه السورة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن عتبة بن ربيعة، وأمّية بن خلف لقيا رسول الله ﷺ فقالا: يا محمد، لا ندعك حتى تتبع ديننا، وتبّع دينك، فإن كان أمرنا رشداً كنت قد أخذت بحظك منه، وإن كان أمرك رشداً كنا قد أخذنا بحظنا منه، فنزلت هذه السورة، قاله عبيد بن عمير. والثالث: أن قريشاً قالوا للنبي ﷺ: إن سرّك أن تتبع دينك عاماً، وترجع إلى ديننا عاماً، فنزلت هذه السورة، قاله وهب. قال مقاتل في آخرين: نزلت هذه السورة في أبي جهل وفي المستهزئين، ولم يبق^(٢) من الذين نزلت فيهم أحد^(٣). وأما قوله: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ فهو في موضع «مَنْ» ولكنه جعل مقابلاً لقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ وهي الأصنام. وفي تكرار الكلام قولان: أحدهما: لتأكيد الأمر، وحسم أطماعهم فيه، قاله الفراء. وقد أنعمنا^(٤) شرح هذا في سورة الرحمن: ١١٣. والثاني: أن المعنى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ في حالي هذه ﴿وَلَا أَتَّبِعُ﴾ في حالكم ﴿عِبِيدَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ فيما استقبل، وكذلك أنتم، نفى عنه وعنهم ذلك في الحال والاستقبال، وهذا في قوم بأعيانهم، أعلمه الله ﷻ أنهم لا يؤمنون، كما ذكرنا عن مقاتل، فلا يكون حيث ذكرنا، هذا قول ثعلب، والزجاج^(٥). وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فتح ياء ﴿وَلِيَ﴾ نافع، وحفص، وأبان عن عاصم. وأثبت ياء «ديني» في الحاليين يعقوب. وهذا منسوخ عند المفسرين بآية السيف^(٦).



- (١) ويقال لها أيضاً: المشقة، أي: المبرقة من النفاق.
- (٢) قال ابن كثير: هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه، فقله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهون بهذا الخطاب هم كفار قريش. وقيل: إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة، وأمر رسوله ﷺ فيها أن يترأ من دينهم بالكلمة.
- (٣) أي: زدنا، يقال: أنعم أن يحسن أو يسيء، أي: زاد، وأنعم فيه: بالغ وفعل كذا، وأنعم أي: زاد. ويقال: أنعم النظر في الشيء: إذا أطال الفكرة فيه.
- (٤) قال ابن كثير: وثم قول نصره أبو العباس ابن تيمية في بعض كتبه، وهو أن المراد بقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ نفى الفعل، لأنها جملة فعلية ﴿وَلَا أَتَّبِعُ عِبِيدَ مَا أَعْبُدُ﴾ نفى قبوله للملك بالكلية، لأن النفي بالجملة الاسمية أكد، فكانه نفى الفعل وكونه قابلاً لذلك، ومعناه: نفى الوقوع، ونفي الإمكان الشرعي أيضاً، قال ابن كثير: وهو قول حسن أيضاً، والله أعلم.
- (٥) قال ابن كثير: إن العابد لا بد له من معبود يعبد، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول ﷺ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه، ولهذا كان كلمة الإسلام: لا إله إلا الله محمد رسول الله، أي لا معبود إلا الله، ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله، ولهذا قال لهم الرسول ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ كَذِبُكَ قُلُّ لِي عَنِّي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ رِيشُونَ وَمَا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ وَمِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قال: ﴿لَا أَهْتَكُ وَلَكُمْ أَهْتَكُ﴾.
- (٦) وقد ثبت في «صحيح مسلم» عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة ﴿وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعتي الطواف، وفي «صحيح مسلم» أيضاً من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر (أي في سنة الفجر).

سورة النصر

وهي مدنية بإجماعهم

وفي أفراد مسلم من حديث ابن عباس أنها آخر سورة نزلت جميعاً^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ أي: معونته على الأعداء. ﴿وَالْفَتْحُ﴾: فتح مكة. قال الحسن: لما فتح رسول الله ﷺ مكة قالت العرب: أما إذا ظفر محمد بأهل الحرم، وقد أجارهم الله من أصحاب القيل، فليس لكم به يدان^(٢) فدخلوا في دين الله أفواجاً. قال أبو عبيدة: والأفواج: جماعات في تفرقة.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الصلاة، قاله ابن عباس. والثاني: التسبيح المعروف، قاله جماعة من المفسرين. قال المفسرون: نُعِيَتْ إليه نفسه بنزول هذه السورة، وأُغْلِمَ أنه قد اقترب أجله^(٣)، فأمر بالتسبيح والاستغفار ليختم له عمره بالزيادة في العمل الصالح^(٤). قال ابن عباس: إذا جاء نصر الله والفتح: داغ من الله، ووداع من الدنيا. قال قتادة: وعاش بعد نزول هذه السورة ستين.

(١) روى مسلم في صحيحه رقم ٣٠٢٤ عن عبيد الله بن عتبة: قال: قال لي ابن عباس: تعلم (وقال هارون: تدري) آخر سورة نزلت من القرآن، نزلت جميعاً؟ قلت: نعم ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال: صدقت. قال مسلم: وفي رواية ابن أبي شيبه (أحد الرواة): تعلم أي سورة، ولم يقل: آخر. قال الحافظ في الفتح ٥٦٤/٨: وأخرج النسائي من حديث ابن عباس أنها آخر سورة نزلت من القرآن. قال: وقد تقدم في تفسير (براءة) أنها آخر سورة نزلت، والجمع بينهما أن آخرة سورة النصر، نزولها كاملة، بخلاف (براءة)، فالمراد بنزول بعضها أو معظمها، وإلا ففيها آيات كثيرة نزلت قبل سنة الوفاة النبوية، وأوضح من ذلك أن أول (براءة) نزل عقب فتح مكة في سنة تسع عام حج أبي بكر، وقد نزل ﴿أَيُّكُمْ أَحْتَلَّتْ لَكُمْ وَيَكُنْكُمْ﴾ وهي في (المائدة) في حجة الوداع سنة عشر، فالظاهر أن المراد معظمها، ولا شك أن غالبها نزل في غزوة تبوك، وهي آخر غزوات النبي ﷺ.

هذا بالنسبة للسورة، وأما بالنسبة لآخر آية نزلت، فقد روى البخاري عن ابن عباس: آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا، وفي الفتح: وجاء عن ابن عباس أيضاً من وجه آخر: «آخر آية نزلت على النبي ﷺ: ﴿وَأَقْرَأُوا يَوْمَ تُنْفَخُ الْبُيُوتُ إِلَى اللَّهِ﴾ أخرجه الطبري من طرق. قال الحافظ: وطريق الجمع بين هذين القولين أن هذه الآية ختام الآيات المنزل في الربا، وهي معطوفة عليهن، ثم قال: وأما ما سيأتي في آخر سورة (النساء) من حديث البراء: آخر آية نزلت ﴿يَسْتَنْزِلُكَ عَلَى اللَّهِ يُبَيِّنُ لَكُمْ فِي الْكَلَامِ﴾ فيجمع بينه وبين قول ابن عباس، بأن الآيتين نزلتا جميعاً، فيصدق أن كلا منهما آخر بالنسبة لما عدهما. قال: ويحتمل أن تكون الأخيرة في آية (النساء) مقيدة بما يتعلق بالمواريث مثلاً، بخلاف آية (البقرة)، ويحتمل عكسه، والأول أرجح لما في آية (البقرة) من الإشارة إلى معنى الوفاة المستلزمة لخاتمة النزول. قال: وأصح الأقوال في آخرة الآية قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَأُوا يَوْمَ تُنْفَخُ الْبُيُوتُ إِلَى اللَّهِ﴾ ونقل ابن عبد السلام: آخر آية نزلت آية الكلاله، فعاش بعدها خمسين يوماً، ثم نزلت آية البقرة ﴿وَأَقْرَأُوا يَوْمَ تُنْفَخُ الْبُيُوتُ إِلَى اللَّهِ﴾ وحكى ابن عبد السلام أن النبي ﷺ عاش بعد نزول هذه الآية (بمعنى آية البقرة) أحدًا وعشرين يوماً، والله أعلم.

(٢) أي طاعة.

(٣) روى البخاري في صحيحه ٥٦٥/٨: عن ابن عباس ﷺ، قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم يجحد في نفسه، فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رثيت أنه دعاني يومئذ إلا ليربهم، قال: ما تقولون في قوله الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وفي الحديث فضيلة ظاهرة لابن عباس، وتأثير لإجابة دعوة النبي ﷺ أن يعلمه الله التأويل ويفقهه في الدين، وفيه جواز تحديث المرء عن نفسه بمثل هذا، لإظهار نعمة الله عليه، وإعلام من لا يعرف قدره لينزله منزلته، وغير ذلك من المقاصد الصالحة، لا للمفاخرة والمباهاة، وفيه جواز تأويل القرآن ما يفهم من الإشارات، وإنما يتكمن من ذلك من رسخ قدمه في العلم، ولهذا قال علي ﷺ: أو فهماً بوتيته الله رجلاً في القرآن.

(٤) روى البخاري في صحيحه ٥٦٤/٨، من حديث عائشة ﷺ قالت: ما صلى النبي ﷺ بعد أن نزلت عليه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلا يقول فيها: -

سورة تبت

وهي مكية بإجماعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَآتَرَأْتُمُ حَسَكَةَ الْخَلَطِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾

وسبب نزولها ما روى البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزل ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [النمراء: ٢١٤] صعد رسول الله ﷺ على الصفا فقال: «يا صباحاه». فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: «أرايتكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم، أو ممسبكم، أما كنتم تصدقوني؟» قالوا: بلى. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». قال أبو لهب: تباً لك، ألهذا دعوئنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾^(١). ومعنى: «تَبَّتْ»: خسرت يدا أبي لهب ﴿وَتَبَّ﴾ أي: خسر هو. قال الفراء: الأول: دعاء، والثاني: خبر؛ كما يقول الرجل: أهلكك الله وقد أهلكك، وجعلك الله صالحاً وقد جعلك. وقيل: ذكر يديه، والمراد نفسه، ولكن هذا عادة العرب يعبرون ببعض الشيء عن جميعه؛ كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]. وقال مجاهد: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ولد أبي لهب. فأما أبو لهب فهو عم رسول الله ﷺ. وقيل: إن اسمه عبد العزى. وقرأ ابن كثير وحده «أبي لهب» بإسكان الهاء. قال أبو علي: يشبه أن يكون لغة كالتشع، والتشع^(٢) والنهر، والنهر. فإن قيل: كيف كناه الله ﷻ، وفي الكنية نوع تعظيم؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنه إن صح أن اسمه عبد العزى، فكيف يذكره الله بهذا الاسم وفيه معنى الشرك؟ والثاني: أن كثيراً من الناس اشتبهوا بكنائهم، ولم يعرف لهم أسماء. قال ابن قتيبة: خبرني غير واحد عن الأصمعي أن أبا عمرو بن العلاء، وأبا سفيان بن العلاء أسماؤهما كناههما، فإن كان اسم أبي لهب كنيته، فإنما ذكره بما لا يعرف إلا به.

قوله تعالى: ﴿مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾ قال ابن مسعود: لما دعا رسول الله ﷺ أقربيه إلى الله ﷻ، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً، فإني أفندي بمالي، ولدي، فقال الله ﷻ: ﴿مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾^(٣). قال الزجاج: ﴿مَّا﴾ في موضع رفع. المعنى: ما أغنى عنه ماله وكسبه، أي: ولده. وكذلك قال المفسرون: المراد بكسبه هاهنا: ولده. و﴿أَغْنَىٰ﴾ بمعنى يغني ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي: تلتهب عليه من غير دخان ﴿وَآتَرَأْتُمُ حَسَكَةَ﴾ أي: ستصلى امرأته، وهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان. وفي هذا دلالة على صحة نبوة نبينا عليه الصلاة والسلام، لأنه أخبر بهذا المعنى أنه وزوجته يموتان على الكفر، فكان كذلك. إذ لو قالوا بالسستهما: قد أسلمنا، لوجد الكفار متعلقاً في الرد على رسول الله ﷺ، غير أن الله علم أنهما لا يسلمان باطناً ولا ظاهراً، فأخبره بذلك.

= سبحانه ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي.

(١) رواه البخاري ٥٦٧/٨، ورواه مسلم ١٩٤/١ بمعناه. وقوله: يا صباحاه: كلمة يخاطونها عند وقوع أمر عظيم، فيقولونها ليجمعوا ويتأهبوا له. ورواه ابن جرير الطبري ٣٣٦/٣٠، وأوردته السيوطي في «الدر» ٤٠٨/٦ وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه. وإنما كني بأبي لهب لإشراق وجهه، وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغضة له، والازدراء به، والتقص له ولذاته.

(٢) في الأصل: كالتشع والسمع، والتصحيح من «اللسان».

(٣) ذكره البغوي وكثير من المفسرين عن ابن مسعود بغير سند، وذكره القرطبي عن ابن عباس أيضاً بغير سند، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿حَمَلَةَ الْحَطَبِ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنها كانت تمشي بالنميمة، قاله ابن عباس، ومجاهد، والسدي، والفراء. وقال ابن قتيبة: فسبّوها النميمة بالحطب، والعداوة والشحناء بالنار، لأنهما يقعان بالنميمة، كما تلهب النار بالحطب. والثاني: أنها كانت تحتطب الشوك، فتلقيه في طريق رسول الله ﷺ ليلاً، رواه عطية عن ابن عباس. وبه قال الضحاك، وابن زيد^(١). والثالث: أن المراد بالحطب: الخطايا، قاله سعيد بن جبيرة. والرابع: أنها كانت تُعَيِّرُ رسول الله ﷺ بالفقر، وكانت تحتطب فُعَيِّرَتْ بذلك، قاله قتادة. وليس بالقوي، لأن الله تعالى وصفه بالمال^(٢). وقرأ عاصم وحده «حمالة الحطب» بالنصب. قال الزجاج: من نصب «حمالة» فعلى الدَّم. والمعنى: أعني: حمالة الحطب. والجيد: العُتُق. والمَسْدُ في لغة العرب: الحَبْل إذا كان من ليف المُقْل. وقد يقال لما كان من أوبار الإبل من الحبال: المَسْد. قال الشاعر:

وَمَسْدٍ أَمِيرٌ مِنْ أَيْئَانِي [صُهِبَ عَنَّا ذَاتُ مُخٍّ زَاهِي^(٣)]

وقال ابن قتيبة: المَسْد عند كثير من الناس: اللَّيْف دون غيره، وليس كذلك، إنما المَسْد: كُلُّ مَا صُفِّرَ وَقِيلَ مِنَ اللَّيْفِ وَغَيْرِهِ. واختلف المفسرون في المراد بهذا الحبل على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها حبال كانت تكون بمكة، رواه العوفي عن ابن عباس. وقال الضحاك: حبل من شجر كانت تحتطب به. والثاني: أنه قلادة من وَدَع، قاله قتادة. والثالث: أنه سلسلة من حديد دَزَعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً، قاله عروة بن الزبير. وقال غيره: المراد بهذا الحبل: السلسلة التي ذكرها الله تعالى في النار، طولها سبعون ذراعاً. والمعنى: أن تلك السلسلة قد فتلت فتلاً مُحْكَمًا، [فهي] في عنقها تعذب بها في النار^(٤).



(١) ورجحه الطبري.

(٢) قال ابن كثير: «وَأَمَّا حَمَلَةُ الْحَطَبِ» كانت عوناً لزوجها على كفره وجوده وعناؤه، فلماذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم، ولهذا قال تعالى: «وَأَمَّا حَمَلَةُ الْحَطَبِ ﴿١﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ نَسِمٍ» يعني تحمل الحطب فتلقني على زوجها ليزداد على ما هو فيه وهي مهينة لذلك مستعدة له. قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد، وأحمد بن إسحاق، قالوا: حدثنا أبو أحمد، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿بَشِّرْ هَذَا أَيْ لَهَبٍ﴾ جاءت امرأة أبي لهب ورسول الله ﷺ جالساً معه أبو بكر، فقال له أبو بكر: لو تنحيت لا تؤذي بشيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه سيحال بيني وبينها»، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر وقالت: يا أبا بكر هجانا صاحبك، فقال أبو بكر: لا ورب هذه البنية، ما ينطق بالشعر ولا ينفّوه به، فقالت: إنه لمصدق، فلما ولّت، قال أبو بكر: ما رأيتك، قال: «ما زال ملكٌ يسترني حتى ولّت»، ثم قال البزار: لا تعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد عن أبي بكر ﷺ. وحسن إسناده أيضاً الحافظ في «الفتح» ٥٦٧/٨.

(٣) الرجز لعمارة بن طارق، وقال أبو عبيدة: لعقبة الهجيمي، وهو في «مجاز القرآن» ٣١٥/٢، والطبري ٣٤١/٣٠، والقرطبي ٢٤٢/٢٠، و«اللسان»: مسد. وقوله «أبَرُّ» أي فتل فتلاً شديداً، والأياتق، جمع ناقة، والصهب، جمع الأصهب، وهو بعير ليس بشديد البياض، والعناق جمع عتيق، وهو الكريم. وزعم المخ: إذا اكتنز (اجتمع) لحمه، فهو زاهق.

(٤) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: هو حبل جمع من أنواع مختلفة. قال ابن كثير: وقال بعض أهل العلم في قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ نَسِمٍ﴾ في عنقها حبل من نار جهنم ترفع به إلى شفيرها ثم ترمى إلى أسفلها، ثم كذلك دائماً.

سورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾

وفيها قولان: أحدهما: أنها مكية، قاله ابن مسعود، والحسن، وعطاء، وعكرمة، وجابر. والثاني: مدنية، روي عن ابن عباس، وقتادة، والضحاك. وقد روى البخاري في أفراده من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده إنها لتُعَدُّ ثَلَاثُ الْقُرْآنِ»^(١). وروى مسلم في أفراده من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إنها تعدل ثلث القرآن»^(٢). وفي سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن المشركين قالوا: يا محمد انسب لنا ربك، فنزلت هذه السورة، قاله أبي بن كعب^(٣). والثاني: أن عامر بن الطفيل قال لرسول الله ﷺ: إلام تدعوننا يا محمد؟ قال: إلى الله ﷻ. قال: صفه لي، أمن ذهب هو، أو من فضة، أو من حديد، فنزلت هذه السورة، قاله ابن عباس^(٤). والثالث: أن الذين قالوا هذا، قوم من أحبار اليهود قالوا: من أي جنس هو، وممن ورث الدنيا، ولمن يورثها؟ فنزلت هذه السورة، قاله قتادة، والضحاك^(٥). قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي «أَحَدُ اللَّهِ» وقرأ أبو عمرو «أَحَدُ اللَّهِ» بضم الدال، ووصلها باسم الله. قال الزجاج: هو كناية عن ذكر الله ﷻ. والمعنى: الذي سألتهم تبين نسبته هو الله. و«أَحَدٌ» مرفوع على معنى: هو أحد، فالجواب: هو الله، وهو أحد. وقرئت «أَحَدُ اللَّهِ الصَّمَدُ» بتنوين أحد. وقرئت «أَحَدُ اللَّهِ» بترك التنوين، وقرئت بإسكان الدال «أَحَدُ اللَّهِ» وأجودها الرفع بإثبات التنوين، وكُسِرَ التنوين لسكونه وسكون اللام في «أَلَّهُ»، ومن حذف التنوين، فلا لقاء الساكنين أيضاً، ومن أسكن أراد الوقف ثم ابتداء «أَلَّهُ الصَّمَدُ» وهو أردوها. فأما «الأحد» فقال ابن عباس، وأبو عبيدة: هو الواحد. وفرّق قوم بينهما. وقال أبو سليمان الخطابي: [الواحد]: هو المنفرد بالذات، فلا يضاهيه أحد. والأحد: هو المنفرد بالمعنى، فلا يشاركه فيه

(١) روى البخاري في «صحيحه» ١٠٥/٦ باب فضل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ولفظه بتمامه: عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يركدها، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقأها، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن».

(٢) روى مسلم في «صحيحه» ٥٥٧/١ ولفظه بتمامه: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أحسدوا (اجتمعوا) فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فحَسَدٌ مَنْ حَسَدَ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثُمَّ دَخَلَ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: إِنِّي أَرَى هَذَا خَيْرٌ جَاءَ مِنَ السَّمَاءِ، فَذَلِكَ الَّذِي أَدْخَلَهُ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ: سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ، أَلَا إِنَّهَا تَعْدِلُ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ».

(٣) روى أحمد في «المسند» ١٣٣/٥، والترمذي ١٧٢/٢، والطبري ٣٤٢/٣٠، والواحدي في «أسباب النزول» ٣٤٦ من حديث أبي سعد الصغاني عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب وفي سنده ضعف. ورواه الحاكم في «المستدرک» ٥٤٠/٣ أيضاً من حديث أبي سعد الصغاني به، وصححه، ووافقه الذهبي. وأورده السيوطي في «الدر» ٤٠٩/٦ وزاد نسبته للبخاري في «تاريخه»، وابن خزيمة، وابن أبي حاتم في «السنن»، والبيهقي في «المعجم»، وابن المنذر في «المعجم»، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن أبي بن كعب ﷺ. ورواه الترمذي ١٧٢ عن عبد بن حميد عن عبيد الله بن موسى عن أبي جعفر عن الربيع عن أبي العالية فذكره مرسلًا، ولم يذكر فيه عن أبي بن كعب، وقال: وهذا أصح من حديث أبي سعد الصغاني. ورواه الطبراني عن محمد بن عوف عن شريح عن إسماعيل بن مجالد عن مجالد عن الشعبي عن جابر. وذكره ابن كثير من رواية أبي يعلى الموصلي من طريق مجالد بن سعيد عن الشعبي عن جابر، وأورده الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٤٦/٧ من رواية الطبراني في «الأوسط» وأبي يعلى. قال ابن كثير: وقد أرسله غير واحد من السلف، قال: وروى عبيد بن إسحاق المطار عن قيس بن الربيع عن أبي عاصم عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: قالت قریش لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فنزلت هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قال: قال الطبراني: ورواه الفريابي وغيره عن قيس عن أبي عاصم عن أبي وائل مرسلًا، قال: ثم روى الطبراني من حديث عبد الرحمن بن عثمان الطراقي عن الوازع بن مانع عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لكل شيء نسبة، ونسبة الله: قل هو الله أحد. فهذه الروايات كلها شواهد لحديث أبي ﷺ.

(٤) ذكره البيهقي والخازن عن ابن عباس بغير سند.

(٥) روى الطبراني ٣٤٣/٣٠ عن قتادة مرسلًا، وذكره السيوطي في «الدر» ٤١٠/٦ من رواية الطبراني في «السنن» عن الضحاك مرسلًا.

أحد. وأصل «الأحد» عند النحويين: الوجد، ثم أبدلوا من الواو الهمزة. وفي «الضُمَّد» أربعة أقوال: أحدها: أنه السيد الذي يُضَمَّدُ إليه في الحوائج، رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ^(١). وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: الصمد: السيد الذي قد كمل في سُؤْدِهِ^(٢). قال أبو عبيدة: هو السيد الذي ليس فوقه أحد. والعرب تسمي أشرافها: الصمد. قال الأسدي:

لَقَدْ بَغَّرَ النَّاعِي بِخَيْرِي بَنِي أَسَدٍ
بِعَمْرٍو بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدِ^(٣)

وقال الزجاج: هو الذي ينتهي إليه السُّؤْدُ، فقد صمد له كل شيء قصد قصده. وتأويل صمود كل شيء له: أن في كل شيء أثر صنعه. وقال ابن الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد: السيد الذي ليس فوقه أحد يصمد إليه الناس في أمورهم وحوائجهم. والثاني: أنه الذي لا جوف له، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وابن جبير، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، والسدي. وقال ابن قتيبة: فكان الدال من هذا التفسير مبدلة من تاء، والمصمت من هذا. والثالث: أنه الدائم. والرابع: الباقي بعد فناء الخلق، حكاهما الخطابي وقال: أصح الوجوه الأول، لأن الاشتقاق يشهد له، فإن أصل الصمد: القصد. يقال: اصمد صمد فلان، أي اقصد قصده. فالصمد: السيد الذي يصمد إليه في الأمور، ويقصد في الحوائج.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ بَكِيذٌ﴾ قال مقاتل: لم يلد فيورث ﴿وَلَمْ يُوَكِّدْ﴾ فيشارك، وذلك أن مشركي العرب قالوا: الملائكة بنات الرحمن. وقالت اليهود: عزيز ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، فبرأ نفسه من ذلك. قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ كُفْؤًا أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ قرأ الأكثرون بالثقل والهمز. ورواه حفص بالثقل وقلب الهمز واواً. وقرأ حمزة بسكون الفاء. والكفء: المثل المكافئ. وفيه تقديم وتأخير، تقديره: ولم يكن له أحد كُفْؤًا، فقدَّم وأخَّر لتفق رؤوس الآيات.



(١) ذكره الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٣٠٨/٦ من تفسير ابن عباس موقوفاً عليه، وهو جزء من حديث طويل في باب: كيف يفسر القرآن بالقرآن، قال الحافظ الهيثمي: رواه الطبراني وفي إسناده جوير، وهو متروك.

(٢) وهو في الطبري ٣٤٦/٣٠ بلفظ: الصمد: السيد الذي قد كمل في سُؤْدِهِ، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسُّؤْد، وهو الله سبحانه، هذه صفة لا تتبني إلا له.

(٣) البيت لسيرة بن عمرو الأسدي، وهو في «مجاز القرآن» ٣١٦/٢، و«تهذيب الألفاظ» ٢٧٠، و«السمط» ٩٣٣، والطبري ٣٤٧/٣، والقرطبي ٢٠/٢٤٥، و«اللسان»: صمد.

سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴿

وفيها قولان: أحدهما: مدنية، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال قتادة في آخرين. والثاني: مكية، رواه كريب عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وعطاء، وعكرمة، وجابر. والأول أصح، ويدل عليه أن رسول الله ﷺ سحر وهو مع عائشة، فنزلت عليه المعوذتان. فذكر أهل التفسير في نزولهما: أن غلاماً من اليهود كان يخدم رسول الله ﷺ، فلم يزل به اليهود حتى أخذ مُشَاطَةً رَأْسِ رسول الله ﷺ، وعدَّة أسنانٍ من مُشْطِهِ، فأعطاهم اليهود فسحروه فيها. وكان الذي تولَّى ذلك لبيد بن أعصم اليهودي. ثم دَسَمَها في بئر لبني زريق، يقال لها: بئر ذروان. ويقال: ذي أروان^(١)، فمرض رسول الله ﷺ، وانتشر شعر رأسه، وكان يرى أنه يأتي النساء وما يأتين، ويخيل إليه أنه يفعل الشيء، وما يفعل، فبينما هو ذات يوم نائم أتاه مَلَكُان، فقعد أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجله، فقال أحدهما للآخر: ما بال الرجل؟ قال: طُبَّ، قال: وما طُبُّ؟ قال: سُحِر. قال: ومن سَحَره؟ قال: لبيد بن أعصم. قال: وبم طَبُّه؟ قال: بِمُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ. قال: وأين هو؟ قال: فِي جُفِّ طَلْعَةٍ^(٢) تحت راعوفة في بئر ذروان - والجف: قشر الطلع. والراعوفة: صخرة ترك في أسفل البئر إذا حفرت^(٣) - فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المتقي عليها، فأنشبه رسول الله ﷺ فقال: «يا عائشة أما شعرت أن الله أخبرني بدائي»، ثم بعث علياً، والزبير، وعمار بن ياسر، فنزحوا ماء تلك البئر، ثم رفعوا الصخرة، وأخرجوا الجُفَّ، وإذا فيه مُشَاطَةٌ رأسه، وأسنان مشطه، وإذا وتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة [مغروزة بالإبرة، فأنزل الله تعالى المعوذتين، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة^(٤)]. ووجد رسول الله ﷺ خِفَّةً حين انحلت العُقْدَةُ الأخيرة. وجعل جبريل ﷺ يقول: بسم الله أرقبك من كل شيء يؤذيك، ومن حاسد وعين، والله يشفيك. فقالوا: يا رسول الله، أفلا نأخذ الخبيث فنقتله؟ فقال: «أما أنا فقد شفاني الله، وأكره أن أثير على الناس شراً^(٥)». وقد أخرج البخاري ومسلم في «الصحيحين» من حديث عائشة حديث سحر رسول الله ﷺ^(٦)، وقد بينّا معنى «أعوذ» في أوّل كتابنا^(٧). وفي «الْفَلَقِ» ستة أقوال: أحدها: أنه الصبح، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والقرظي، وابن زيد، واللغويون قالوا: ويقال: هذا أبين من فَلَقَ الصبح وفَرَّقَ الصبح. والثاني: أنه الخَلْق، رواه الوالي عن ابن عباس. وكذلك قال الضحاك: الْفَلَقُ: الْخَلْقُ كُلُّهُ. والثالث: ميخن في جهنم، روي عن ابن عباس أيضاً. وقال وهب والسدي: جُبُّ في جهنم. وقال ابن السائب: وإد في جهنم. والرابع: شجرة في النار، قاله

(١) في الأصل: ويقال: أروان، والتصحيح من «القرظي». وهي بئر بالمدينة في بستان بني زريق.

(٢) الجف - بضم الجيم وتشديد الفاء: الغشاء الذي يكون على الطلع. (٣) في النسخة الإستانبولية: إذا احتفرت.

(٤) زيادة سقطت من الأصل، واستدركناها من النسخة الإستانبولية.

(٥) ذكره ابن كثير بنحوه من رواية الثعلبي في «تفسيره» بلا إسناد، قال: وفيه غرابة، وفي بعضه نكارة شديدة، ولبعضه شواهد، والله أعلم. ويغني عن هذه الرواية رواية الصحيحين التي بعدها.

(٦) رواه البخاري في «صحيحه» ١٩٢/١٠ - ١٩٩، ومسلم ١٧١٩/٤ عن عائشة ؓ، وهو حديث ثابت عند أهل العلم بالحديث، متلقى بالقبول بينهم، وقد رواه أيضاً أحمد في «المسند» عن زيد بن أرقم وعائشة ؓ، ورواه النسائي عن زيد بن أرقم، وابن ماجه عن عائشة، وابن مردويه والبيهقي عن عائشة، وابن مردويه عن ابن عباس، وغيرهم.

وانظر أقوال العلماء مفضلة في سحر رسول الله ﷺ في تعليقتنا على هذا الكتاب (صفحة ٩١١ - ٩١٢).

(٧) (صفحة ٣١).

عبد الله بن عمرو^(١). والخامس: أنه كُلُّ ما انفلق عن شيء كالصبح، والحَبُّ، والنَّوى، وغير ذلك، قاله الحسن. قال الزجاج: وإذا تأملت الخلق بَانَ لك أن أكثره عن انفلاق، كالأرض بالنبات، والسحاب بالمطر. والسادس: أنه اسم من أسماء جهنم، قاله أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد الحبلي^(٢).

قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ﴿١﴾ وقرأ ابن السميع، وابن يعمر: «خُلِقَ» بضم الخاء، وكسر اللام. وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه عام، وهو الأظهر. والثاني: أن شر ما خُلِقَ: إبليس وذُرِّيته، قاله الحسن. والثالث: جهنم، حكاه الماوردي. وفي «عَاسِقٍ» أربعة أقوال: أحدها: أنه القمر، روت عائشة قالت: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر، فقال: «استعيلني بالله من شره فإنه الغاسق إذا وَقَبَ»، رواه الترمذي، والنسائي في كتابيهما^(٣). قال ابن قتيبة: ويقال: الغاسق: القمر إذا كسف فاسودَّ. ومعنى «وَقَبَ» دخل في الكسوف. والثاني: أنه النجم، رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ^(٤). والثالث: أنه الليل، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والقرظي، والفراء، وأبو عبيد، وابن قتيبة، والزجاج. قال اللغويون: ومعنى «وَقَبَ» دخل في كل شيء فأظلم. و«الغسق» الظلمة. وقال الزجاج: الغاسق: البارد، فقيل لليل: غاسق، لأنه أبعد من النهار. والرابع: أنه الثريا إذا سقطت، وكانت الأسقام، والطواعين تكثر عند وقوعها، وترتفع عند طلوعها، قاله ابن زيد^(٥). فأما «الْفَلَقُ» فقال ابن قتيبة: هن السواحر ينفثن، أي: يَتَفَلَّنَ إذا سحرن، ورَقَّتَيْن. قال الزجاج: يَتَفَلَّنَ بلا ريق، كأنه نفخ. وقال ابن الأنباري: قال اللغويون: تفسير نَفَثَ: نَفَخَ نفخاً ليس معه ريق، ومعنى تفل: نفخ نفخاً معه ريق. قال ذو الرُّمَّة:

ومن جَوْفِ ماءٍ عَرْمَضُ الحَوْلِ فَرَوْهُ
مَتَى يَخْسُ مِنْهُ مَائِحُ القَوْمِ يَشْفُلُ^(٦)

وقد روى ابن أبي سريج^(٧) «النافثات» بألف قبل الفاء مع كسر الفاء وتخفيفها^(٨). وقال بعض المفسرين: المراد بالنافثات هاهنا: بنات لبيد بن أعصم اليهودي سحرن رسول الله ﷺ. «وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ» يعني: اليهود حسداً رسول الله ﷺ. وقد ذكرنا حدَّ الحسد في [البقرة: ١٠٩]. والحسد: أخس الطبايع. وأوَّلُ معصية عُصِيَّ الله بها في السماء حَسَدُ إبليس لآدم، وفي الأرض حَسَدُ قَايِلَ هَابِيلَ^(٩).



(١) في النسخة الاستنبولية «عبد الله بن عمر» وهو كذلك في «القرطبي».

(٢) قال ابن جرير: والصواب القول الأول: أنه فلُق الصبح. وقال ابن كثير: وهذا هو الصحيح، وهو اختيار البخاري في «صحيحه» رحمه الله تعالى.

(٣) الترمذي ١٧٢/٢ وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه أحمد في «المستدرك» ٦١/٦، وابن جرير الطبري ٣٥٢/٣٠، والحاكم في «المستدرك» ٢/٥٤١ وصححه، وواقفه الذهبي. وأورده السيوطي في «الدر» ٤١٨/٦ وزاد نسبه لابن المنذر، وأبي الشيخ في «العظمة»، وابن مردويه عن عائشة ر.ه.

(٤) رواء ابن جرير الطبري ٣٥٢/٣٠ من رواية محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن أبي سلمة عن أبي هريرة. قال ابن كثير: وهذا الحديث لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ.

(٥) قال الشوكاني في «فتح القدير»: وهذا محتاج إلى نقلي عن العرب أنهم يصفون الثريا بالنسوق.

(٦) «ديوانه» طبع المكتب الإسلامي صفحة (٦٠٠). والجوف: المغطى من الأرض، والعرمض: الخضرة التي تعلو الماء، وهي الرمض، والعلق، والطحلب، والشبا. والماتح: الذي ينزل البثر فيملاً الدلو. والماتح: الذي يجذب الدلو. وفي «الأساس»: وذاق ماء البحر فظله، أي: مجه كراهة له.

(٧) ابن أبي سريج، هو أحمد بن الصباح، أبو جعفر الرازي، الثقة الثبت، وهو شيخ البخاري، وأحد أصحاب الشافعي، قرأ على الكسائي.

(٨) قال القرطبي: وقرأ عبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن سابط، وعيسى بن عمر، ورويس عن يعقوب «النافثات» في وزن «فاعلات» ورويت عن عبد الله بن القاسم مولى أبي بكر ر.ه.

(٩) وانظر قصتهما في [سورة المائدة: ٢٧].

سورة الناس

وفيهما قولان: أحدهما: أنها مدنية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أنها مكية، رواه أبو كريب عن ابن عباس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّكَاسِ ⑥﴾

فإن قيل: لم خصّ الناس هاهنا بأنه ربهم، وهو ربّ كل شيء؟ فعنه جوابان: أحدهما: لأنهم معظّمون متميّنون على غيرهم. والثاني: لأنه لما أمر بالاستعاذة من شرهم أعلم أنه ربهم، ليعلم أنه هو الذي يعيذ من شرهم. ولما كان في الناس ملوك قال تعالى: ﴿مَلِكِ النَّاسِ ②﴾ ولما كان فيهم من يعبد غيره قال تعالى: ﴿إِلَهِ النَّاسِ ③﴾. و﴿الْوَسْوَاسِ﴾ الشيطان، وهو ﴿الْخَنَّاسِ﴾ يوسوس في الصدور، فإذا ذكر الله، خَشَسَ، أي: كفّ وأقصر. قال الزجاج: الوسواس هنا: ذو الوسواس. وقال ابن قتيبة: الصدور هاهنا: القلوب. قال ابن عباس: الشيطان جائم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل، وسوس، فإذا ذكر الله، خَشَسَ.

قوله تعالى: ﴿مِنْ الْغِيَةِ وَالنَّكَاسِ ⑤﴾ الغيئة: الجنّة. وفي معنى الآية قولان: أحدهما: يوسوس في صدور الناس جتّهم وناسهم، فسمى الجن هاهنا ناساً، كما سمّاهم رجالاً في قوله تعالى: ﴿يُودُونَ رِجَالًا مِنْ الْجِنِّ ①﴾ [الجن: ٦]، وسمّاهم نفراً بقوله تعالى: ﴿اسْتَفْعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ②﴾ [الجن: ١]، هذا قول الفراء. وعلى هذا القول يكون الوسواس موسوساً للجن، كما يوسوس للإنس. والثاني: أن الوسواس: الذي يوسوس في صدور الناس، هو من الجنّة، وهم من الجن. والمعنى: من شر الوسواس الذي هو من الجن. ثم عطف قوله تعالى: ﴿وَالنَّكَاسِ ⑥﴾ على ﴿الْوَسْوَاسِ ⑤﴾. والمعنى: من شر الوسواس، ومن شر الناس، كأنه أمر أن يستعيذ من الجن والإنس، هذا قول الزجاج (٢).

قال الشيخ رحمه الله: فهذا آخر «زاد المسير»، والحمد لله على الإنعام الغزير، وإذ قد بلغنا بحمد الله مرادنا مما أملنا، فلا يعتدّن من رأى اختصارنا أنّا أقللنا، فإننا قد أشرنا بما ذكرنا إلى ما تركنا ودلّلنا، فليكن الناظر في كتابنا متيقظاً لما أغفلنا، فإننا ضمنا الاختصار مع نبيل المراد، وقد فعلنا. ومن أراد زيادة بسط في التفسير، فعليه بكتابنا «المعني في التفسير». فإن أراد مختصراً، فعليه بكتابنا المسمى بـ «تذكرة الأريب في تفسير الغريب». والحمد لله رب

(١) قال ابن كثير: هذه ثلاث صفات من صفات الربّ عزّ وجلّ: الربوبية، والملك، والإلهية، فهو رب كل شيء، ومليكه، وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة، عبيد له، فأمر المستعبد أن يتموّذ بالمتصّف بهذه الصفات، من شر الوسواس الخناس، وهو الشيطان الموكّل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش، ولا يألوه جهداً في الخيال، والممعصم من عصمه الله. وروى مسلم في «صحيحه» ٢١٦٧/٤ أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «إياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير». وقوله: «فأسلم» برفع الميم وقتحه، وهذا روايتان مشهورتان، فمن رفع قال: معناه: أسلم أنا من شره وقتته، ومن فتح قال: إن القرين أسلم من الإسلام، وصار مؤمناً لا يأمرني إلا بخير. قال القاضي عياض: وأعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه، وفي هذا الحديث إشارة إلى التحذير من فتنة القرنين وسوسته وإغوائه، فأعلمنا بأنه معنا، لنحتز منه بحسب الإمكان. وثبت في «الصحيحين» عن أنس في قصة زيارة صفية للنبي ﷺ وهو معتكف وخروجه منها ليلاً ليردّها إلى منزلها، فلقى رجلاً من الأنصار، فلما رآها النبي ﷺ أسرع، فقال رسول الله ﷺ: «على وسلكما إنها صفية بنت حيي»، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، فقال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يلقف في قلوبكما شيئاً» - أو قال: شيئاً -.

(٢) روى مسلم في «صحيحه» ١١٦/١ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلّموا أو يعملوا».

العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آبيه آدم، وذريته الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

تم بمون الله تعالى وتوفيقه طبع هذا التفسير القيم
وقد قام بمقابلة أصوله الخطية، وتصحيحه
وتفصيله وترقيمه، وتخريج نصوصه،
والتعليق عليه، والإشراف على طبعه
الأساتذة

محمد زهير الشاويش، وشعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

دمشق

الأربعاء ١٧ رجب الفرد ١٣٨٨ هـ

الموافق ٩ تشرين الأول ١٩٦٨ م





الفهارس

- * فهرس الآيات
- * فهرس الأحاديث
- * فهرس الأشعار



فهرس السور

الصفحة	رقم	السورة	الصفحة	رقم	السورة
١١١٢	٣٣	سورة الأحزاب	٣٣	١	سورة الفاتحة
١١٤٢	٣٤	سورة سبأ	٣٧	٢	سورة البقرة
١١٥٧	٣٥	سورة فاطر	١٧٧	٣	سورة آل عمران
١١٦٧	٣٦	سورة يس	٢٥٣	٤	سورة النساء
١١٨٢	٣٧	سورة الصافات	٣٥٠	٥	سورة المائدة
١٢٠٠	٣٨	سورة ص	٤٢٤	٦	سورة الأنعام
١٢٢٣	٣٩	سورة الزمر	٤٨٣	٧	سورة الأعراف
١٢٣٩	٤٠	سورة غافر (المؤمن)	٥٣٩	٨	سورة الأنفال
١٢٥٢	٤١	سورة فصلت أو السجدة	٥٦٥	٩	سورة التوبة
١٢٦٣	٤٢	سورة الشورى	٦١٥	١٠	سورة يونس
١٢٧٤	٤٣	سورة الزخرف	٦٤١	١١	سورة هود
١٢٨٧	٤٤	سورة الدخان	٦٧٩	١٢	سورة يوسف
١٢٩٣	٤٥	سورة الجاثية	٧٢٤	١٣	سورة الرعد
١٢٩٨	٤٦	سورة الأحقاف	٧٤٠	١٤	سورة إبراهيم
١٣٠٨	٤٧	سورة محمد ﷺ	٧٥٣	١٥	سورة الحجر
١٣١٦	٤٨	سورة الفتح	٧٧٠	١٦	سورة النحل
١٣٣٨	٤٩	سورة الحجرات	٨٠١	١٧	سورة الإسراء
١٣٣٨	٥٠	سورة ق	٨٣٧	١٨	سورة الكهف
١٣٤٧	٥١	سورة الذاريات	٨٧٦	١٩	سورة مريم
١٣٥٤	٥٢	سورة الطور	٨٩٩	٢٠	سورة طه
١٣٦٠	٥٣	سورة النجم	٩٢٤	٢١	سورة الأنبياء
١٣٦٩	٥٤	سورة القمر	٩٤٧	٢٢	سورة الحج
١٣٧٦	٥٥	سورة الرحمن	٩٦٩	٢٣	سورة المؤمنون
١٣٨٥	٥٦	سورة الواقعة	٩٨٤	٢٤	سورة النور
١٣٩٦	٥٧	سورة الحديد	١٠١٠	٢٥	سورة الفرقان
١٤٠٤	٥٨	سورة المجادلة	١٠٢٦	٢٦	سورة الشعراء
١٤١٢	٥٩	سورة الحشر	١٠٤٠	٢٧	سورة النمل
١٤٢٣	٦٠	سورة الممتحنة	١٠٥٧	٢٨	سورة القصص
١٤٣٠	٦١	سورة الصف	١٠٧٦	٢٩	سورة العنكبوت
١٤٣٣	٦٢	سورة الجمعة	١٠٨٩	٣٠	سورة الروم
١٤٣٨	٦٣	سورة المنافقون	١٠٩٩	٣١	سورة لقمان
١٤٤١	٦٤	سورة التغابن	١١٠٦	٣٢	سورة السجدة

الصفحة	رقم	السورة	الصفحة	رقم	السورة
١٥٥١	٩٠	سورة البلد	١٤٤٤	٦٥	سورة الطلاق
١٥٥٥	٩١	سورة الشمس	١٤٥٠	٦٦	سورة التحريم
١٥٥٨	٩٢	سورة الليل	١٤٥٦	٦٧	سورة الملك
١٥٦١	٩٣	سورة الضحى	١٤٥٩	٦٨	سورة القلم (ن)
١٥٦٤	٩٤	سورة الانشراح	١٤٦٦	٦٩	سورة الحاقة
١٥٦٦	٩٥	سورة التين	١٤٧١	٧٠	سورة المعارج
١٥٦٨	٩٦	سورة العلق	١٤٧٥	٧١	سورة نوح
١٥٧٠	٩٧	سورة القدر	١٤٧٨	٧٢	سورة الجن
١٥٧٥	٩٨	سورة البينة	١٤٨٢	٧٣	سورة المزمل
١٥٧٧	٩٩	سورة الزلزلة	١٤٨٦	٧٤	سورة المدثر
١٥٧٩	١٠٠	سورة العاديات	١٤٩٢	٧٥	سورة القيامة
١٥٨١	١٠١	سورة القارعة	١٤٩٦	٧٦	سورة الإنسان (الدهر)
١٥٨٣	١٠٢	سورة التكاثر	١٥٠٢	٧٧	سورة المرسلات
١٥٨٦	١٠٣	سورة العصر	١٥٠٦	٧٨	سورة النبأ
١٥٨٧	١٠٤	سورة الهمزة	١٥١٠	٧٩	سورة النازعات
١٥٨٩	١٠٥	سورة الفيل	١٥١٥	٨٠	سورة عبس
١٥٩٢	١٠٦	سورة قريش	١٥١٩	٨١	سورة التكويد
١٥٩٤	١٠٧	سورة الماعون	١٥٢٢	٨٢	سورة الانفطار
١٥٩٦	١٠٨	سورة الكوثر	١٥٢٤	٨٣	سورة المطففين
١٥٩٨	١٠٩	سورة الكافرون	١٥٢٨	٨٤	سورة الانشقاق
١٥٩٩	١١٠	سورة النصر	١٥٣١	٨٥	سورة البروج
١٦٠٠	١١١	سورة تبت	١٥٣٤	٨٦	سورة الطارق
١٦٠٢	١١٢	سورة الإخلاص	١٥٣٧	٨٧	سورة الأعلى
١٦٠٤	١١٣	سورة الفلق	١٥٤٠	٨٨	سورة الفاشية
١٦٠٦	١١٤	سورة الناس	١٥٤٣	٨٩	سورة الفجر

فهرس الأحاديث مرتباً على الحروف الهجائية

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
٢٣٦	اذهب فناد في الناس	٩٨٨	حرف الهمزة - همزة الوصل
٥٠١	أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً	١٥٧١	اثنتي بأربعة شهداء وإلا فحد في ظهرك
٧٢٩	ارجع إليه فادعه	٤٦١	ابتغوها في العشر الأواخر في الوتر منها
٣٦٣	ارجع فأحسن وضوءك	١٤١٧	اتركهم حتى يتوب تائبهم
١٣٣	استحيوا إن الله لا يستحي من الحق	١٠٣٩	اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم
١٦٠٥	استعيزي بالله من شره فإنه الغاسق إذا وقب	٧٦٤	اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة
٥٩٩ ، ٢٥١	استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل	١١٢٦	اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله
٦٧٦	استقم ولتحسن خلقك	٦٧٦	اتق الله حشما كنت
٢٥٣	استوصوا بالنساء خيراً	١٣٠٥	اجتمعوا إليّ في قتل كان بينهم
٢٩٧	إلى جارك	٩٩٢ ، ٢٧٥ ، ١٦٩	اجتنبوا السبع الموقبات
٨٦٤ ، ٢٩٧	اسق يا زبير، ثم اجس الماء حتى يبلغ الجدر	١٥٣٧ ، ١٣٩٥	اجعلوها في ركوعكم
٧٨٥	اسقه عسلاً	١٥٣٧ و ١٣٩٥	اجعلوها في سجودكم
١٥٨٢	اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً	٥٩٣	اجسوا عليّ الركب
١٣٦٩	اشهدوا	١٣٣٤	احترسوا من الناس بسوء الظن
٩٦٠	اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال	١٦٠٢	احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن
٩٩٤	اصرف بصرك	٢٧٠	اختر أيتهما شئت
١٣١	اصنعوا كل شيء إلا النكاح	٢٥٥	اختر منهن أربعة
١٥٧١	اطلبوها الليلة، أي في ليلة ثلاث وعشرين	٥٤٩	اخرجوا إليه واكنموا
٢٥٤	اعبد الله كأنك تراه	٣٨٠	اخرجوا باسم الله تقاتلون في سبيل الله
٦٧٦	اعبد الله ولا تشرك به شيئاً	٥٦٦	اخرج بهذه القصة من صدر براءة
٣٨٠	اغزوا باسم الله في سبيل الله	٨٢٦	اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس
١٤٥٢	اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر	١١٣٩	اخرج يا فلان من المسجد فإنك منافق
٢٨٣	اقرأ عليّ القرآن	١٠٨	ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة
٣٧	أقرؤوا الزهراوين: البقرة وآل عمران	١٤٥٢	ادعي لي أباك وأخاك
٣٨٢	أقطعوا يدها	١١٢٧	اذكروها عليّ
١٥٧١	التمسوها في تسع يبين	١٣١٧	اذهب إلى قريش فأخبرهم أننا لم نأت لقتال أحد
١٥٧١	التمسوها في العشر الأواخر من رمضان		اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة
١٥٧٠	التمسوا ليلة القدر ليلة سبع وعشرين	١٣٣٠	
	حرف الهمزة - همزة القطع	١١٢٨	اذهب فاذكروها علي
٩٨٩	أبشري فقد أنزل الله براءتك	٥٣٩	اذهب فاطرحه في القبض
٨٩١	أبطأت علي حتى ساء ظني	٥٣٩	اذهب فخذ سيفك
٥٦١	أبيك للذي عرض علي أصحابك من الفداء		اذهب فسلهم عما كانوا يضحكون منه، وقل لهم:
١٤٥٢	أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة	٥٩٣	أحرقكم الله

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
١٣٣٢	إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب	٤١١	أبوك حذافة
٣٥٤	إذا رميت بالمعراض فمزق فكله	١١٧٨	أنجعل نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة
٧١٨	إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب	٢٠٤	احلف
٨٧٣	إذا سألتهم الله الجنة فاسألوه الفردوس	١٥٧٧	أندرون ما أخبرها
١٤٣٦	إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة	١٠١٩	أندرون ماذا قال ربكم
١١٣٨	إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد الله عز وجل والثناء عليه	١٣٣٥	أندرون ما الغيبة
١٦٩	إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله	٩٢١	أندرون ما المعيشة الضنك
٣٥	إذا قال الإمام «غَيْرِ الْمَضْرُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الْفُكَايِنَ»	١٧٥	أثريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتائب من قبلكم
٥٣٨	إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان	١٢٠٢	أتعطوني كلمة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم
	إذا قضى الله عز وجل الأمر في السماء ضربت الملائكة	١٥٩٦	أثيت على نهر حافاة قباب اللؤلؤ مجوف
١١٤٩	بأجنتها	٩٣٨	أجدني مغموماً
١١٣٤	إذا كانت عند الرجل امرأتان فلم يعدل بينهما	٩٣٨	أجدني مكروباً
٣٥٨	إذا لم تصطحبوا ولم تغتبقوا ولم تحفثوا بقلأ فشأنكم	٣٤٨	أجورهم يدخلهم الجنة
١١٦٩، ١٠٢٥	إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث	١٠٢١	أحب حبيبك هوناً ما
١٥٨١	إذا مات العبد تلقى روحه أرواح المؤمنين	١٢٠٥	أحب الصيام إلى الله صيام داود
٧٣٧	إذا مضت على النطفة خمس وأربعون ليلة	٣٥٤	أحل لكم ميتان ودمان
٣٣٩	إذا نزلتم بقوم فأمرؤا لكم بما ينبغي للضيف	٥٢٧	أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان
٣٥٦	إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة	٣٣٩	أخرج متاعك فضعه على الطريق
١٤٥١	أراء من شرب شرابه عند سودة والله لا أشربه	١٣٥٩	إدبار السجود الركعتان بعد المغرب
١٦٠٠	أرايتكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم	٢٩٤	أُ الأمانة إلى من ائتمنك
١٥٧١	أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر	١٦٠٢	أدعوكم إلى الله عز وجل
١١٥٤	أرايتكم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم	١٣٣٦	إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجه
١٤٣٠	أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً	١٠٢١	إذا أتيت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون
٢١٠	أربعون سنة	٧٥٤	إذا اجتمع أهل النار في النار
٢٩٣	أرني المفتاح إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر	٨٩٨	إذا أحب الله عبداً قال: يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبوه
١١١٦	أريت دار هجرتكم أرض بين حرتين	٩١٢	إذا أخذتم الساحر فاقتلوه
١٥٧١	أريت ليلة القدر ثم أنسيته	٦٧٦	إذا أسأت فأحسن
٤٩١	الأزم دواء والمعدة داء	٩٩٣	إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليصرف
٣٦٣	أسفوا الوضوء ويل للآعقاب من النار	١٥٨٢	إذا اشتد الحر فأبردوا
٣٧٨	الإسلام يهدم ما كان قبله	١٢٢٨	إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت ذنوبه
٦٠٧	أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً	١٥٦٥	إذا أقيمت الصلاة وحضر القشاء فايدؤوا بالشاء
١٠٧٦	أشد الناس بلاء الأنبياء	١٤١٦	إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم
١٣٢٧	أصحابي أمنة	١٥٥٦	إذا انبعث أشقاها انبعث لها رجل عزيز عارم
٥٦٢	أضعفوا على العباس الفداء	١١٤٩	إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء
٣١٣	أظنه قد أحدث حدثاً	٣٦٤	إذا ترضأ العبد المسلم أو المؤمن
	أعذر الله عز وجل إلى امرئ آخر عمره حتى بلغ ستين سنة	١٤٣٧	إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين
١١٦٤	أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي	١٣٧٤	إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة
٢٦١	أعطي الثمن وأمهما الثمن	١٣٣٤	إذا حسدت فاستغفر
١١٥١، ٢٢٩	أعوذ بك من دعا ولا يسمع	١٣٠٩	إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار
٨٨	أعذكما بكلمات الله التامة	٦٢٢	إذا دخل أهل الجنة الجنة
١٤٦٥	أفشوا السلام وأطعموا الطعام	٨٨٦	إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
٢٣١	إني عباد الله، أنا رسول الله	١٤٩٨	أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح
٣٢٢	أما إذا قلتما فاذعبا فاقتما	١٤١٦	أفضل الصدقة جهد المقل
١٠٢١	أما إن ملكاً بينكما يذب عنك	١٣٢	أقبل وأدبر وأثق الدبر والحيضة
١٦٠٤	أما أنا فقد شفاني الله وأكره أن أثير على الناس شراً	٣١٥	أقتله بعدما قال: أمنت؟!
٥٧٨	أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم	١٥٦٩	أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد
١١٢٤	أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر	١٣٣٦	أكرمهم عند الله أتقاهم
٥٩٦	أما ترضى أن تكون مثل نبي الله	٧٤٦	أكرموا عمتكم النخلة
١١٦٣	أما السابق فيدخل الجنة بغير حساب	٢٠٤	ألك بيعة؟
٥٥٣	أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله	٢٣٦	ألم أعهد إليكم ألا تبرحوا
١١٠٢	أما ما ظهر فالإسلام وما سوى الله من خلقك	١١١٠	ألم أنه عن القتال
٧٠٢	أما نقصان العقل	١٥٨٤	ألم نصيخ لك جسمك ونروك من الماء البارد
١٤٨٠	أمرت أن أسجد على سبعة أعظم	٥٤٧	السم يقلل الله: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا
١٥٤٢	أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله	١١٣٠	بَيْنَكُمْ﴾
٣٩٢	أمرني خليلي ﷺ بسبع	١٠٢٤، ٢٧٦	ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم
٨٤٤	أمرني رسول الله ﷺ أن أتخذ أنفاً من ذهب	١٤٦١	ألا أنبئكم بأكبر الكبائر
١١٢٦	أمسك عليك زوجك	٦٩٨	ألا أنبئكم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف
١٤٢٣	أمسلمة جثت	١٤٦١	ألا احتطت فإن البضع ما بين السبع والتسع
١٠٢٢، ٢٧٦	أن تجعل لله نداً وهو خلقك	١٤٣٥	ألا أحدثك عن يوم الجمعة؟ لا يتطهر رجل مسلم ثم
١٠٢٢، ٢٧٦	أن تزاني حليلة جارك	١٤٣٥	يمشي إلى المسجد...
٢٠٨	أن تصدق وأنت صحيح شحيح	٨٨٤	ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأنبيائهم
١٠٢٢	أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك	٢٢٥	ألا أخبركم بخير من ذلك
٢١٣	أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى	٢٥٢	ألا أخبركم بما يحو الله به الخطايا
٣٥٩	إن أرسلت كلبك وسميت فأخذ قتل فكل	١٣٦٦	ألا أخبركم لم سمي الله إبراهيم خليله ﴿الَّذِي وَكَّلَ﴾
٤٢٣	إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز	٧٦٢	ألا أراكم تضحكون
٨٣١	الحكيم	٩٩٥	ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا لا يدخلن عليكم
٨٥٤	إن عجزتم عن الليل أن تكابدوه	١٠٩٥	ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم
١١٠٨	إن شئت أنبأتك بآبواب الخير	٥٨٢	ألا إن الزمان قد استدار
٤٦١	إن فعلت تصدقوني	١٥٧٥	ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين
١٣٦٩	إن فعلت تؤمنون	٣٢٢	وسبعين ملة
١٣٣٥	إن كان فيه ما تقول فقد اغتبه	١٦٠٢	ألا إنما أنا بشر وإنما أقضي بنحو مما أسمع
١٠٩	إن كان وسادك إذا لعريض	٢٩٤	ألا إنها تعدل ثلث القرآن
٧٠٤	أنا أكرم ولد آدم على ربه	٣٩٧	ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه
٣٦٩	أنا أولى الناس بعيسى	١٦٩	ألا رجل صالح يحرسني الليلة
٥٩٩	أنا بين خيرتين استغفر لهم أو لا تستغفر لهم	٥٦٧	ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع
١٣١٨	أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره	٥٦٦	ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب
٧٢٧	أنا المنذر	٥٦٦	ألا لا يحج بعد العام مشرك
١٤٢١	أنا عند ظن عبدي بي	٥٦٧	ألا هل بلغت؟
١١٧٨	أنا النبي لا أكذب أنا ابن عبد المطلب	٤٢٢	ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم
١٥٦٣	أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا	٥٦٧	أليست البلدة؟
١٢٥	أنت أبصر	٥٦٧	أليس ذا الحجة؟
٧٢٧	أنت الهادي يا علي بك يهتدى من بعدي	٥٦٧	أليس يوم النحر؟
		٣٥١	إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
	إن الله تعالى في ثلاث ساعات يبيِّن من الليل ينظر في	١١٢٠	أنت يا طلحة ممن قضى نجه
٧٣٨	الكتاب	١٥٤	أنتم بعدة أصحاب طالوت يوم لقاء جالوت
١٠٨٧	إن الله لم يأمرني بكثر الدنيا ولا باتباع الشهوات	١٣٧٤	أنتم خصماء الله
٧٦٠	إن الله لم يمسح شيئاً فيدع له نسلأ	٤٥٣	أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى
٣٩٤	إن الله لم يمسح قوماً أو يهلك قوماً فيجعل لهم نسلأ	٣٥٣	انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً
	إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة	٦٠٥	انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه واحرقوه
٨٠٢	فيحمد الله عليها	١١٥٣	أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلأ
١١٨٤	إن الله عز وجل ليعجب من الشاب ليست له صبوة	١٢٥	أنفق على نفسك
٥٩٦	إن الله معني أن أقبل منك صدقتك	١٣٦٦	إن أبي أدركته فريضة الحج شيخأ كبيرأ
	إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا	١٢٤٨	إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي
١٥٧٥	بقايا	١٤٤١، ٩٤٩	إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة
١٧٥	إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه	٣٣٧	إن أقتل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر
١٠٢١	إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار	١٦٩	إن أربى الربا عرض الرجل المسلم
١٣٥٥	إن الله تعالى يجعل البحار كلها نارأ		إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في
٣٥٨	إن الله يحب أن تؤتى رخصه	١٣٩٤، ٩٥	الجنة
١٤٠٩	إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامأ ويضع به آخرين	١٣٢٦	إن أمتي يأتون يوم القيامة غراً محجلين
	إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس	٩٥٠	إن الإسلام لا يقال
٤٨٥	الناس	٩٣٢	إن الجنة لا يدخلها العجائز
١١٣٠	إن الله يسلم على أهل الجنة	١٢٥٠	إن الدعاء هو العبادة
١٥٠	إن الله يضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة	٥٦٧	إن الزمان قد استدار كهيته يوم خلق السموات والأرض
١٠١٥	إن الله تعالى يطوي السموات بيمنه	١٦٠٦	إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم
٩٤٤	إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين	١٥٢٩	إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء
٢٦٦	إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغفر	٩٩١	إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها
	إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم	٨٦٦	إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً
١٣٥٢	تعذني		إن الكريم بن الكريم بن الكريم [ابن الكريم] يوسف بن
٢٨٣	إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة	٧٠١	يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم
٨٣٠	إن الله لا يقبض العلم انتزاعأ ينتزعه من العباد	٨٩٨	إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلانأ
٤١١	إن الله لا يقبل إلا الطيب	١٣٢٨	إن الله أعطاني السبع الطول مكان التوراة
١١٥٢، ١٣٣٦	إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم	١٥٧٥	إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿يَكُنِ اللَّيْلُ كَفَرأ﴾
	إن الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادر على أن يمشيه	١١٢٢	إن الله بعثني مبلغأ ولم يعثني متعتأ
٨٣٣	على وجهه يوم القيامة	١٧٤	إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به نفسها
١٤٧٩، ١٣٣٢، ٢٥٥	إن للملائين عند الله على منابر من نور		إن الله تعالى حاط حائط الجنة لبنة من ذهب ولبنة من
	إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجني أينها الروح	٩٦٩	فضة
١٢٥٧	الطيبة	٤٠٩	إن الله حرم مكة فلم تحل لأحد قبلي
٤١٤	إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه		إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع
٢٥١	إن أول ثلة تدخل الجنة لقراء المهاجرين	٥٣	الأرض
١٣٨٢	إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر	١٣١٢	إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم
١٦٩	إن أول دم أضح من دماننا دم ابن ربيعة بن الحارث	١٠٠٥، ٥٧٩	إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها
٥٧٦	إن أول ما نبأ به في يومنا هذا أن نصلي	٨٧٥	إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب
١٥٨٤	إن أول ما يسأل عنه يوم القيامة	١٣٣٦	إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية
٤٢٥	إن بعدكم قوماً يخونون ولا يؤمنون	١٣٦٥	إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا
٦٩٠	إن ثلاثة خرجوا فلجؤوا إلى غار، فانطبقت عليهم صخرة	٤١١	إن الله كتب عليكم الحج

الحدث	الحدث	الحدث	الحدث
١٤٩٤	إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر	٣٥٨	إن جبريل كان واعدني أن يلقاني
٢١٦	إنكم توفون سبعين أمة أنتم خيرها	١٤٣	إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة
١٣٤٥	إنكم سترون ربكم عياناً	١٦٩	إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا
٨٧٧	إنكم لا تدعون أصم	٥٠	إن ربكم حيي كريم
٧٠٢	إنكن أكثر أهل النار	١١٥٨	إن ربكم يقول كل يوم: أنا العزيز
١٠٨٩	إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع	١٢٧٢	إن روح القدس نفث في روعي
٨٦١	إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء	٨٧٨	إن زكريا كان نجاراً
٩٥٦	إنما سعى الله البيت: المتيق، لأن الله أعطفه من الجبابرة		إن سورة في القرآن ثلاثون آية شفعت ل صاحبها حتى
١٠٤٤	إن ميا رجل من العرب	١٤٥٦	غفر له
١٣٣٠	إنما ذلكم الله	١٢١٥	إن عفريتاً من الجن ثقلت علي البارحة ليقطع علي صلاتي
١٤٢٨	إنما قولي لامرأة واحدة قولي لمائة امرأة		إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا
١٣٩٤	إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة	١٣٨٨	يقطعها
٣٨١	إنما هلك من كان قبلكم أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه	٣١٦	إن في الجنة مائة درجة أعددها الله للمجاهدين
١٣٧١	إنما هو شيء دسره البحر	١٥٧٢	إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم
	إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير	٩٣٢	إن في المعارض لتندوحة عن الكذب
١٠٥١	هاتين المرتين	٨٤٧	إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين
٤٥١	إنما هو الشرك	١٥٧٢	إن لله تسعة وتسعين اسماً
١٢٩٩	إنما هو شيء وأيته في مناعي	٥٢٢	إن لله مائة وحة أنزل منها رحمة واحدة
١٢٤٧	إنما يفتن يهود	١٣٨٤	إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة
١٣٠٥	إنه أثنائي داعي الجن	٣٠٥٥	إن لهذه البهائم أوابد كأوابد الوحش
١٠٧٤	إنه أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد	١١٢٩	إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد
١٥٩٦	إنه أنزل علي الآن آتفا سورة	١١٢٩	إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً
٣٧٣	إنه أول من سن القتل	١٣٤١	إن مقعد ملكك على نيتيك
١٦٠١	إنه سيحال بيني وبينها	٣٣٩	إن ملكاً كان يجيب عنك
١١٩٩	إنه قد بلغني أنكم تريدون أن تستقلوا قرب المسجد	١٤٣٥	إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة
٨٧٣، ٤٨٥	إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة	١١٧٩	إن من البيان سحراً
١٥٢٦، ١٣١١	إنه ليغان على قلبي	٧٤٥	إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها
٨٦٦	إنه كان ذهباً ونفضة		إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم
١٦٠٢	إنها تعدل ثلث القرآن	٦٣٠	الأنبياء والشهداء
١٢٢١	إنها حق فادرسوها وتعلموها	١٣٨٩	إن من المنشآت اللاتي كن في الدنيا عجائز عسماً رمصاً
٧٩	إنها فتنت ملكين	٨٥٩	إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل
١١٠٣	إنها في علم الله قليل	١١٤٠	إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً
٧٤٥	إنها النحلة	١٢٨٠	إن هذا الأمر في قریش
٩٤٦١	إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير	١٠٥٦	إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض
٧٠٢	إنني أرى أكثر أهل النار	٣٦٥	إن هذا اخترط سفي وأنا نائم
١٣٠٥	إنني أمرت أن أقرأ على الجن	٨٧١	إن يأجوج ليحفرون السد كل يوم
٩٣٣	إنني حاكمك على ولد الناقة	٣٩٦	إن يمين الله ملأى لا يفيضها نفقة
١٠٩٤	إنني خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالهم الشياطين	٨٦٣	أن الأولى كانت نسياناً من موسى
١٥٧١	إنني رأيت ليلة القدر ثم أنسيتها	٩٣٣	إنما حاكمك على ولد الناقة
١٢٢١	إنني سأخذنكم ما حبست عنكم الفتاة	٣٥٨	إننا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة
	إنني قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام مخلقين	٥٦٣	إنك قلت لها: إنني لا أدري ما يصيبني في وجهي
١٣٢٤	روؤسكم ومقصرين	٣٢٢	إنكم تختصمون إلي وإنما أنا بشر

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
١٤٢٩	اللهم اشهد	١٦٠٢	إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن
٩٧٩	اللهم أعني عليهم يسبح كسبح يوسف	١٠٢٣	إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة
٩٧٩	اللهم أعني على قریش بسنتين كسني يوسف	٩٤٠	إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج الله عنه
١٣٢٥	اللهم اغفر للمحللين	١١٧٨	إني لست بشاعر ولا ينبغي لي
٧٢٩	اللهم اكفنيهما بما شئت	٧٦٢	إني لما خرجت، جاء جبريل عليه السلام
١٤٩٢	اللهم اكفني جاري السوء	٩٤٥	إني لم أبعث لعناً
٢٢٣	اللهم أنج الوليد بن الوليد	٣٤٦	إني والله أعلم أنكم لتعلمون أني رسول الله
٥٤٢	اللهم أنجز ما وعدتني	١١٧٨	إني والله ما أنا بشاعر
٣١٢	اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد	١٤٥٢	إني لا أدري ما بقائي فيكم؟
١٥٧٣	اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك أنت الله	١٤٢٨	إني لا أصفح النساء
٨٨	اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع	٥٧٥	انهزموا ورب الكعبة
١٢٧٥	اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى	٤٤٢	أرني نبينكم ﷺ مفاتيح كل شيء
٣٨٢	اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه	٢٩٨	أو غير ذلك؟ ... فأعني على نفسك بكثرة السجود
١١٣٨	اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد	١٦٩	أول ربا أضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب
١٣٩٦	اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم	١٤٥٩	أول ما خلق الله القلم
١٤٤٨	اللهم رب السموات السبع وما أظللن	٣٤٩	أوليس قد بين الله تعالى ذلك
١١٩٥	اللهم صل على آل أبي أوفى	١٧٢	أوليس قد ابتعته منك؟
٩٩٧	اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض	١٠١٢	أول من يكسى من أهل النار يوم القيامة إبليس
٨١	اللهم لا نفيها	٢٤٦	أيا سعد ألم تسبح ما قال أبو حباب
٢٢٦	اللهم لا يعلون علينا	٩٩٤	إياكم والجلوس على الطرقات
٥٤٧	اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك	١١٣٦ ، ٩٩٥	إياكم والدخول على النساء
١١٢١	اللهم منزل الكتاب سريع الحساب	١٣٦٤ ، ١٣٣٤	إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث
١٩٩	اللهم هؤلاء أهلي	١٥٨٥	إياك والخلوب
	اللهم هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا	٤٦١	أي شيء تحبون؟
١١٣٤ ، ٣٣٢	أملك	١٠٦٨ ، ٦٠٨	أي عم قل معي: لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله
٩٠٠	اللهم هل بلغت	٦٤٣	أيكم أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله عز وجل
	حرف الباء	١٢٠	أيكم يحتمل خيباً عن خشية وله الجنة
٣١٤ و ٢٩٠	بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً	٢٧٩	أيما حلف كان في الجاهلية
٧٦٨	بش عبد الله	٣٣٩	أي مسلم ضاف قوماً فأصبح الضيف محروماً
٢٠٩	بغ يخ ذاك مال رابع	٦٥٩	أيما رجل أعمر عمرى له ولعقبه
١٤١٧	برئ من الشح من أدى الزكاة	٥٦٣	أين الذهب الذي تركته عند أم الفضل
٥٨٠	بشر الكافرين بك في ظهورهم	٩٧٦	أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً
١٨٤	بعثت إلى الأحمر والأسود	٥٣٨	أيها الناس أربعوا على أنفسكم
١٣١١	بعثت أنا والساعة كهاتين	٤١١	أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا
٩٢٣	بعتي كذا وكذا من الدقيق	٣٩٧	الله
١٢١١	بل أنت زيد الخير	٥٦٣	الله أخيرني
١٨٥	بل إلى كتاب الله	١٤١٣ ، ١١٩٩	الله أكبر خربت خير
٩٣٨	بل أنا وأرأساه	١٥٥٦	اللهم آت نفسي تقواها
١٧٢	بل قد ابتعته منك	١٠٩٧	اللهم اجعلها رحمةً ولا تجعلها عذاباً
٦٧٥	بل هي للمسلمين عامة	١٠٩٧	اللهم اجعلها رباحاً ولا تجعلها ربحاً
١١٢٥	بلى فانكحني فإنني قد رضيت لك	٣٦٤	اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين
		٥٩٦	اللهم ارزق ثعلبة

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
١٦٢	ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة: المنان بما أعطى	٦٠٩	بلى والله لاستغفرن لأبي
١٥٧٦، ١٤٠٢، ١٠٦٧	ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين	١٧٢	يَمَّ تشهد؟
٢١٠	ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد	١٥٩٦	بيننا أنا أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب الدر
٨٠١	ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين	٨٠١	بيننا أنا في الحطيم
٨٦٤	ثم دع الماء يرجع إلى الجدر	١٠٧٣	بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خسف به
١٤٥٩	ثم قال له: اكتب	١٠٥٣	بينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون
٢٣٥	الطيب أحق بنفسها من وليها	٤٦٤	البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك
	حرف الجيم	٤٩١	البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء
٨٢٩	جاء الحق وزهق الباطل	٩٨٥	البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام
١٤٨٨	جبل من نار يكلف أن يصعده	٢٣٥	البكر تُستأمر في نفسها
٨٦١	جلس في فروة يضاء فاخضرت		حرف اللام
٨٧٣	جنان الفردوس أربع	١١٦٣، ٩٥٣	تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء
١٣٨٣	جنتان من ذهب وجنتان من فضة	١٠٥٣	تخرج الدابة معها خاتم سليمان وعصا موسى
١٣٨١، ٨٧٣	جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما	٦١٠	تحب ذلك؟
١٦٦	الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة	١٥١٨	تحشرون حفاة عراة غرلاً
٦٢٢	الجنة	٩٤٧	تدرون أي يوم ذلك؟
٨٧٣	الجنة مائة درجة	١٣٦	تدع الصلاة أيام أقرانها
	حرف الهاء	٩٩٦	تزوجوا الولود تناسلوا فإني مباء بكم
٤٧٤	حرم رسول الله ﷺ لحوم الحمر الأهلية	٢٧٦	تسع أعظمهن الإشراك بالله
٩٣٤	حسبنا الله ونعم الوكيل	١٠٥٣	تسم المؤمن بين عينيه وتكتب بين عينيه مؤمن
٩٣٤	حسيبي من سؤالي علمه بحالي	٢٢١	تسوموا فإن الملائكة قد تسومت
١١٦	الحج عرفة	٩٨١	تشويه النار فتقلص شفته العليا
٤٤٠	الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام	١٢٥	تصدقوا
٨٤٨	الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر	١٢٥	تصدق به على خادمك
	حرف الخاء	١٢٥	تصدق به على زوجك
٩٨٥، ٢٦٥	خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً	١٢٥	تصدق به على نفسك
٥٣	خلق الله آدم بعد العصر يوم الجمعة	١٢٥	تصدق به على ولدك
٥٣	خلق الله تعالى آدم طوله ستون ذراعاً	٢٥٤	تصدق رجل من ديناره
١٢٥٣، ٤٩٩	خلق الله عز وجل التربة يوم السبت	١٢٨٧	تقطع الأجال من شعبان إلى شعبان
١٤٤١	خلق الله يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً	٨٢٧	تفضل صلاة في الجميع على صلاة الرجل وحده خمساً
١٤٤١	خلق فرعون في بطن أمه كافراً	١٥٧٧	وعشرين درجة
٩٢٧، ٧٦٠	خلقت الملائكة من نور	٧٠٢	تقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانات
١٤٨٥	خمس صلوات في اليوم والليلة	٦٧٩	تكثر اللعن وتكفرن العشير
٤٠٨	خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم	٣٣٧	تلك الأحاديث التي تقدرون الانتفاع بها
٢٨١	خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه	٦٧٥	تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق
٤٢٥	خير أممي قرني	٢٨٧	توضأ وضوءاً حسناً ثم قم فصل
٤٢٥	خير الناس قرني ثم الذين يلونهم		التيتم ضربة للوجه والكفين
١٤٣٥	خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة		حرف الثاء
١٣٨٣	خيرات الأخلاق حسان الوجوه	١٥٨٥	ثلاث لا أسأل عبيدي عن شكرهم
٤٢٥	خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم	١٣٣٤	ثلاث لازمات لأمتي، الطيرة والحسد وسوء الظن
		٩٩٦	ثلاثة حق على الله عونهم

الحدث	الحدث	الحدث	الحدث
الخيل ثلاثة، لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر	١٥٧٨	سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله	١٦٦
حرف الدال		سبق المفردون	١١٣٠
درهم ربا يأكل الرجل وهو يعلم أشد من ستة وثلاثين زنية	١٦٩	ستمته صلاته	١٠٨٣
دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى	٨٩	سلاني	١٨٣
دعوة ذي النون إذ دعا ربه وهو في بطن الحوت	٩٤١	سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء ما دمت في مقام هذا	
دنا ألجبار رب العزة فتدلى	١٣٦١	إلا بيته لكم	٤١١
ذية المعاهد نصف ذية المسلم	٣١٢	سوف أستغفر لهم أكثر من سبعين، لعل الله يغفر لهم	٥٩٧
حرف الذال		سوموا فإن الملائكة قد سومت	٢٢١
ذروني ما ترككم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم	١٥٧٥، ٤١١	سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي	١٣١١
ذكاة الجنين ذكاة أمه	٣٥٠	سيتها ما تقول	١٠٨٣
ذكرك أخاك بما يكره	١٣٣٥	حرف الشين	
ذلك إلى الله عز وجل	٨٣١	شاعت الوجوه	٥٤٥
ذلك المرض	١٥٢٩	شجر بالشام طول الشجرة عشرون ومائة ذراع	٨٧٠
حرف الراء		شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة	٧٣٤
رايت جبريل وله ستمائة جناح	١٠٥١	شغلوا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر	١٥٧٣، ١٤٦
رايت جهنم يحطم بعضها بعضاً	٤١٢	شهرًا عيد لا يتقصان	١٥٦٥
رايت ربي عز وجل فقال لي: فيم يختصم الملا الأعلى؟	١٢٢١	شيتي هود وأخوانها	٦٤١
رايت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار	٤١٢	الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة	١٥٣١
رايت الليلة رجلين أتياني فأخرجاني	١٦٩	الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين	٢٧٦
راجعها فإنها صوامة قوامه	١٤٥٢	الشفق الحمرة	١٥٢٩
رباط ليلة في سبيل الله خير من ألف ليلة فيما سواه	١٥٧٣	الشمس والقمر نوران مكوران في النار	١٥١٩
رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها	٢٥٢	حرف الصاد	
رحم الله أخي يوسف	٧٠٤	صدق الله وكذب بطن أخيك	٧٨٥
رحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد	٦٦٦	صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة	٢٢٢
رحمة الله على موسى، لقد أوفى بأكثر من هذا فصير	١٤٣١	صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً	٧٦٩، ٢٤٩
ردوا عليّ الرجل	٢٤١	صليت؟ قال: لا، قال: فصل ركعتين	١٤٣٧
رفع القلم عن ثلاثة	٢٥٨	صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته	١٥٦٥
الربا ثلاثة وسبعون باباً	١٦٩	الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم ثنتان	١٥٥٤
الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله	١٣١٢	الصعود: جبل من نار	١٤٨٨
الريح الجنوب من الجنة	١٧٥٨	الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم	١٤٩٨، ٢٨٢
حرف الزاي		الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن	٨١
الزاد والراحلة	٢١٢	الصور قرن ينفع فيه ثلاث نفثات	٤٤٨
الزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل	٦٢٢	الصوم جنة والصدقة تطفى الخطيئة	١١٠٨
حرف السين		حرف الضاد	
سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني اثنين، ومنعني واحدة	٤٤٥	ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً	٦٢٢، ٤٧٨
سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها	٤٢٣	ضموا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا	٥٦٥
سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له	١١٦٢	حرف الطاء	
سيحان مقلب القلوب	١١٢٦	طلق إحداهما	٢٧٠
سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي	١٥٩٩	طلق رسول الله ﷺ حفصة ثم راجعها	١١٣٥
		طولها ستون ذراعاً	١٠٥٣

الحدث	الحدث	الحدث	الحدث
١١٩٩	فضلنا على الناس ثلاث	٣٦٤	الظهور شطر الإيمان
١١٥٨	فكذلك يحيي الله الموتى وتلك آية في خلقه		حرف العين
٨٨٤	فما رأيت عبدياً يفري فري عمر	١١٨٤	عجب ربك من شاب ليست له صبوة
٨٣٤	فما منعكم أن تتبعوني؟	٢١٧	عجب الله عز وجل من قوم يدخلون الجنة في السلاسل
١٥٧١	فمن كان متحريراً فليتحررها في السبع الأواخر	٤٣٧	عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير
١٤٢٨	فيما استطعتن وأطقتن	١١٣٨	عجل هذا
٨٧١	فيشفون الماء ويحصن الناس منهم في حصونهم	٢٤٣	عرضت علي أمي وأعلمت من يؤمن بي ومن يكفر
٢٨٣	فيقول الله عز وجل: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه شئقال ذرة	٦٩٠	عفي لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل
١٥٧٢	فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يعني يوم الجمعة	١٤١٠	علام تشمتني؟
	حرف القاف	١٦٠٦	على رسلكما إنها صفة
٣٢٩	قاربوا وسددوا	١٣٢١	على ما استطعتن
١٠١٩	قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر	١٢٦٨	علي وفاطمة ولولدهما
١٤٩١	قال ربكم عز وجل: أنا أهل أن أتقى	٣٥٩	عليكم بالأسود البهيم
١٧٤	قال الله تعالى: إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه	١١٦٩	عليكم منازلكم فإنما نكتب أثاركم
١٠٩٤	قال الله عز وجل: إني خلقت عبادي حنفاء	٣٦١	عمداً فقلته يا عمر
٦٣٠	قال الله عز وجل: المتحابون في جلالي	١٤٢١	العز إزاره والكبرياء رفاؤه
٣٧٥	قتل الصبر لا يمر بذنب إلا محاه	١٢٠٤	القيادة فواقي ناقة
١٨٤	قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً	١٤٦٥	العين حق
٥٨٧	قد أذنت لك		حرف القين
١٤٢٨	قد أفلح من أسلم وورق كفافاً قد بابتك كلاماً	٨٤٧	غداً أخبركم
١٥٧٣	قد جاءكم شهر مبارك افترض الله عليكم صيامه	٣٢٩	غفر الله لك يا أبا بكر، ألت تمرض؟ ألت تحزن؟
٣٣٠	قد سمع الله ما تقول، فإن شاء أجابك	١٦٠٤	الغاسق النجم
٧١٩	قد قال أخي يعقوب: سوف أستغفر لكم ربي		حرف الفاء
١١٢٦	قد قبلتك	١٣٥٤	فأتينا السماء السابعة، قيل: من هذا؟ قيل: جبريل
١٠٢٢	قد كنت أحب أن أراك على غير جوار	١٤٥٢	فأنتي أبا بكر
٣٥٨	قد كنت وعدتني أن تلقاني البارحة		فأسجد لله تعالى فيدعني ما شاء الله أن يدعني ويفتح علي
٧٦٥	قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين	١١٤٩	بمحمداً لا أحصياها الآن
١٢٥٧	قل آمنت بالله ثم استقم	٥٦٧	فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام
١٠٦٨	قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة		فإن ربكم يقول: هل جزاء من أنعمنا عليه بالتوحيد إلا
٥٩٣	قلتم كذا وكذا	١٣٨٢	الجنة
١١٣٩	قم يا فلان فإنك منافق	٧٨٠	فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربه
٨٨٥	قول عيسى عليه السلام: ﴿وَجَمَلَنِي مَبَارَكًا إِنَّ مَا كُنْتُ﴾	٧٥٦	فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته
١٤٠٩	قوموا إلى سيدكم	٤٥٣	فأنت الحبر السمين
١١٠٨	قيام العبد من الليل	١١٥٤	فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد
١١٣٨	قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد	٣٠	فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء
١٢٤٧	القبر كقطع الليل المظلم	٦٣	فدخلوا يزحفون على أستاههم
	حرف الكاف	٨٠١	فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء
١٣٤٠	كاتب الحسنات على يمين الرجل	٨٠١	فركبته حتى أتيت بيت المقدس
٥٦٢	كاد يصيبنا في خلافتك بلاء	٩٦٧	فضلت سورة على مائر القرآن بسجديتين
		١١٢٩	فضلت على الأنبياء بست

الحدث	الحدث	الحدث	الحدث
كان ذو الكفل رجلاً لا ينزع عن ذنب	٩٣٩	الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين	٢٧٦
كان زجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار	٣١٤	الكبائر سبع الإشراك بالله أولهن	٢٧٥
كان رسول الله ﷺ إذا استراب الخبر تمثل فيه ببيت طرفه		الكبائر الشرك بالله وقتل النفس	٢٧٥
(ويأتيك بالأخبار من لم تزود)	١١٧٨	الكثود الذي يأكل وحده ويمنع رفده ويضرب عبده	١٥٨٠
كان رسول الله ﷺ بعد يستعيز من عذاب القبر	١٢٤٧		
كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل	١٢٨٠	حرف اللام	
كان ليعقوب أخ مواخ	٧١٤	لأستغفرن لك ما لم أنه عنك	٦٠٨
كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض	٤٣٤	لئن ظفرت بقاتل حمزة لأملن به	٨٠٠
كانت الأولى من موسى نسياناً	٨٥٩	لثودن الحقوق إلى أهلها	٤٣٦ ، ٢٩٤
كانت الملائكة تجح إلى البيت قبل آدم	٨٨	لتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما	٥٣٢
كانوا أهل قرية لناماً	٨٦٤	لُسراذيق النار أربعة جُدر	٨٤٩
كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض	٩٦٥	لئن رسول الله أكل الربا وموكله وكتبه وشاهديه	١٦٨
كتافة كل سماء مسيرة خمسمائة عام	١٤٤٨	لئن العاضة والمستعضة	٩١٢ ، ٧٦٧
كذا أنزلت علي فاكبتها	٤٥٤	لئن الله الراشحات والمستوشحات	٣٢٧
كذب إبراهيم ثلاث كذبات	٩٣٢ ، ٧٠٩	لقد أنزلت علي الليلة سورة لمهي أحب إلي مما طلعت	
كذبت يهودية	١٢٤٧	عليه الشمس	١٠٢٣
كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً	١١٧٨	لقد أنزلت علينا عشر آيات من أقامهن دخل الجنة	٩٦٩
كفى بها حماقة قوم أو ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاء به		لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود	١١٩٥ ، ١١٤٣
نبيهم	١٠٨٥	لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة	١١٢٢
كل أمي يدخلون الجنة	١٥٦٠	لقد ختمت بما تكلمت به يا ابن الخطاب	٩٧١
كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من		لقد خشيت أن يكون صاحبي قلاني	١٥٦١
يحيى بن زكريا	١٩٢	لقد دخل بوجه كافر وخرج بعقبى غادر	٣٥١
كل ذي ناب من السباع حرام	٤٧٤	لقد ذهبتم فيها عريضة	٢٢٤
كل شيء بقدر حتى العجز والكيس	١٣٧٤	لقريش	١٢٨٠
كل عين زانية	٩٩٥	لكل نبي حرم وحرمة المدينة	١٣٨٨
كل من مال يتيحك غير مسرف	٢٥٨	للمملوك طعامه وكسوته	٢٨٢
كل مولود يولد على الفطرة	١٠٩٤ ، ٤٢٧	لم أوامر بذلك	٤٠٢
كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في		لم نأت لقتال أحد إنما جئنا لنطوف بهذا البيت	١٣١٧
سبيل الله	٢٥٢	لم يكذب إبراهيم النبي قط إلا ثلاث كذبات	١١٩٠ ، ٩٣٢
كل الناس يقدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها	١٥٥٨ ، ١٤٩٦	لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف	
كلمتان خفيفتان على اللسان	١٣٩٥	طير خضر	٢٣٩
كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته	٢٤٥٤	لما بعثني الله برسائه ضقت بها ذرعاً	٣٩٧
كلهم في الجنة	١١٦٢	لما غشيتها عن أمر الله ما غشيتها تغيرت	١٣٦٢
كلا إني رأيته في النار في بردة غلها	٢٣٦	لئن عمل بها من أمتي	٩٧٥
كما أنتم على مصافكم	١٢٢١	لكن الله يدري وسيقضي بينهما	٤٣٦
كمل من الرجال كثير	١٤٥٥	لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة	١٤٠٠
كم بقي من الشهر؟	١٥٧١	لو أعطاني لأوفيته إني لأمين في السماء أمين في الأرض	٢٥١
كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح	١٥٠	لو أنكم تولكون على الله حق توكله لوفقكم كما يرزق	
كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث	١١١٥	الطير	١٤٤٥
كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد	١١١٥	لو أن يوسف قال: إني حفيظ عليم إن شاء الله، لملك من	
كيف يأتيك الوحي	١٤٨٣	وقته	٧٠٤
كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم	٢٢٣	لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً	١٣٦٧

الحدث	الصفحة	الحدث	الصفحة
لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف	٢٩٤	ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة	٢٨٢
لو رأيتم الطير تخطفنا فلا تبرحوا من مكانكم	٢٣٠	ما الذي أثنى الله به عليكم؟	٦٠٦
لو شئت لأجري الله معي جبال الذهب والفضة	١٠١٤	ما المسؤول عنها بأعلم من السائل	١٤٨١
لو فعله لأخذته الملائكة	١١٦٨	ما أمرت أن أأخذ من أموالكم شيئاً	٦٠٤
لو فعل لأخذته الملائكة عياناً	١٥٦٨	ما أنا بالذي يسأل ربه هذا	٨٣١
لو قالها لجاهدوا في سبيل الله	١١٢٨	ما أنزل الله عليّ فيها إلا هذه الآية الفاذة	١٥٧٨
لو قلت نعم لوجبت	٤١١	ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا	٣٥٥
لو كان الإيمان عند الثريا لئاله رجال من هؤلاء	١٣١٥، ١٤٣٣	ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم	٩٧٦
لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب	١٤٥٢	ما بالشعر بعثت ولا بالفخار أمرت	١٣٣٠
لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة	١٢٧٨	ما بهذا بعثت وقد أبلغتكم ما أرسلت به	٨٣١
لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجل من فارس	١٣١٥	ما بين التفختين أربعون	١١٧٥، ٤٤٨
لو كان على أبيك دين قضيته أما كان ذلك يجزئ عنه؟	١١٩	ما تجدون في التوراة في شأن الزنا	١٨٥
لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي	٧٠١	ما تجرع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها	٢٢٤
لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد	٧٦٢	ما ترى يا ابن الخطاب	٥٦١
لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم عند كل صلاة يوضوء	٣٦١	ما توضع عبد فأحسن الوضوء ثم قام إلى الصلاة، إلا غفر له	٣٦٣
لولا أن تحزن النساء، أو تكون سنة بعدي لتركته	٧٩٩	ما خلأت ولكن حبسها حابس الفيل	١٣١٧
لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها	٣٥٩	ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه	
ليؤتين يوم القيامة بالعظيم الطويل	٨٧٣	في اليوم	٧٣٣
ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار	٥٧٩	ما زال جبريل يوصيني بالجار	٢٨١
ليراجعها ثم ليمسكها حتى تظهر	١٤٤٤	ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة	١٥٦
ليس أحد أحب إليّ المذبح من الله عز وجل	٣٤٦	ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم	١٦٢
ليس بأرض ولا امرأة ولكنه رجل ولد عشرة من الولد	١٠٤٤	ما ظنك باثنين الله ثالثهما	٥٨٤
ليس الغنى عن كثرة العرض	١٥٦٣	ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية	٧٥٦
ليس لبني النضير على بني قريظة فضل في عقل ولا دم	٣٩٠	ما لي أراكم سكوتاً؟	١٣٧٨
ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرة	١٦٧	ما لي أراكم عزين!	١٤٧٣
ليس من مولود يولد إلا على هذه الفطرة	٤٢٧	ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار	٤٩٦
ليلة الضيف واجبة على كل مسلم	٣٣٩	ما من أحد لا يؤدي زكاة ماله	٢٤٤
ليلني منكم أولو الأحلام والنهى	٢٣٤	ما من أحد يلقى الله تعالى إلا وقد همّ بخطيئة أو عملها	٦٩١
ليهنك العلم يا أبا المنذر	١٥٦	ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه	
الآن حمي الوطيس	٥٧٥	الأيام	١٥٤٣، ٩٥٥
الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه	١٧٤	ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا مثل له يوم القيامة	
الذي في عينه بياض	٩٣٣	شجاع أقرع	٢٤٤
الذي يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى	١٣٣	ما من صاحب كثر لا يؤدي زكاته	٥٨١
حرف الميم		ما من عبد قال: لا إله إلا الله ثم مات على ذلك	٢٩٠
ما أبقيت لأهلك	١٤١٦	ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به	١١١٤
ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة	١٥٨٥	ما من امرئ يتوضأ فيحسن وضوءه	٣٦٤
ما أردت بما أرى	٦٠٥	ما من مسلم إلا وله في السماء بابان	١٢٩٠
ما أدري تبعاً، نبي أو غير نبي	١٢٩١	ما من مسلم دعا الله تعالى بدعوة ليس فيها قطيعة رحم	
ما اسمك؟	١٢١١	ولا إثم	١٠٧
ما أصاب عبداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك	١٥٧٣	ما من مسلم يذنب ذنباً ثم يتوضأ فيصلي	٣٢٣
ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة	٢٢٥	ما من مولود إلا يولد على الفطرة	١٠٩٤، ٤٢٧
		ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان	١١٥٣

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
١٠٠٠	من بنى مسجداً لله كمفحص قطاة	١٥٥٩	ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعه من النار
٣٦٤	من توضأ فأحسن الوضوء	١٦٠٦	ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن
٦٧٦	من توضأ وضوئي، ثم صلى الظهر غفر له ما كان بينهما وبين صلاة الصبح	٤٩٦	ما منكم من أحد إلا وله منزلان
٣١٧	من جهز جيش العسرة فله الجنة	٣٦٤	ما منكم من أحد يتوضأ فليبلغ الوضوء أو فيسبغ
١٦٢	من حفر رومة فله الجنة	٣٧٢	ما فنعني مال قط ما فنعني مال أبي بكر
٨٣٧	من حفظ عشر آيات من أول سورة البقرة	٣٤٠	ما نقصت صدقة من مال
٢٥٣	من حلف بغير الله فقد أشرك	٥٤٤	ما هزم قوم إذا بلغوا اثني عشر ألفاً من قلة
١٢٠٤	من حلف على يمين وهو فيها فاجر	٧٧٥	ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب
٣٥٣	من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه	٥٩٩	ما ينبغي عنه قميصي من عذاب الله تعالى
٣٥٣	من دل على خير فله مثل أجر فاعله	١١٢٧	ما ينبغي لئني أن تكون له خاتنة الأعين
١٢٢١	من رأى منكم الليلة رؤيا	١٤٥	متبعها ولو بقلنسوتك
٤٠٣	من رغب عن سني فلوس متي	٥٤٨	مثل القائم على حدود الله والواقع فيها
٢٤٧	من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار	١١٣٠	مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت
١١٦٠	من سره أن يسقط له في رزقه ونسأ له في أثره	١٣٢٢، ١٣٢٥	مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم
١٢٠٠	من سره أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار	١٥٨١، ١٠٠٩	مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً
١١١٦	من سعى المدينة يثرب فليستغفر الله تعالى	١٥١٥	مرحباً بمن عاتبني فيه ربي
١١٦٩	من سن في الإسلام سنة حسنة	٥٩٦	مُرّاً بعلبة ويغلان
١٥٦٥	من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه	٦٠٩	مُرّت بقر أمي فصليت ركعتين
٢١١	من طاف بالبيت لم يرفع قدماً ولم يضع أخرى إلا كتب الله له بها حسنة	١٤٥٣	مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين
١٤٤٨	من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين	١١٧٢	مسقرها تحت العرش فخر ساجدة
٥٠٥	من عقر جواده	١٥٧١	قضت اثنتان وعشرون وبقيت سبع التمسوها الليلة، الشهر
١٠٠٩	من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد	٤٤٢	تسع وعشرون
١١٦٩	من غسل يوم الجمعة واغتسل وبكر وابتكر	١٣٣	مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله
١٥٨٦	من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله	٢٤٤	ملعون من أتى النساء في أباهاهن
١٤٠٩	من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به	١٣٣	من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته
١٥٧٣	من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه	١٣١٢	من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها
١٧٤	من قرأ بالآيتين من سورة البقرة في ليلة كفتاه	٢٤٦	من أحب أن يسقط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره
٥٣٩	من قتل قتيلاً فله كذا وكذا	٢٤٦	من أحب أن يزحزح عن النار
٢٧٤	من قتل نفسه بحلiday فحلiday بيده	١٢١١	من أحب أن يمثل له عباد الله قياماً فليتبوأ مقعده من النار
٨٣٧	من قرأ ثلاث آيات من أول الكهف	١٥١٩	من أحب أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ ﴿إِذَا الْكَلْبُ
٨٣٧	من قرأ عشر آيات من آخر الكهف	١٣٩٤	من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه
١١٣٠	من قعد مقعداً لم يذكر الله تعالى فيه كانت عليه من الله ترة	٥٥٣	من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ في الجاهلية
٢٥٣	من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله	٣٠٤	من أطاعني فقد أطاع الله
١٥٧١	من كان متحرراً فليتحرها ليلة سبع وعشرين يعني ليلة القدر	١٥٥٣	من اعتق رقبة مؤمنة اعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار
٢٨١	من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره	١١١٠	من أغلق بابيه فهو آمن
٣٣٦	من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر	١٥٦٠	من أتق زوجين في سبيل الله
١٥٧١	من كان منكم يريد أن يقوم من الشهر شيئاً فليقيم ليلة ثلاث وعشرين	٥٠٥	من أعزق دمه وعقر جواده
		١٠٠٠	من بنى لله مسجداً يتبعني به وجهه لله

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
١٤٩٢	نعم يجمع الله هذه العظام	١١٦٣	من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة
١٥٠	نعم أي يريد منا القرض	من لم تنته صلواته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله	
١٥٦٠	نعم وأرجو أن تكون منهم	إلا بعداً	
٩٦٧	نعم ومن لم يسجد لهما فلا يقرأهما	١٠٨٣	من مات على ذلك كان مع النبيين
١١٨٠	نعم يمتك الله ثم يحييكم ثم يدخلك نار جهنم	٢٩٨	من نذر أن يطعم الله فليطعمه
١٥٨٤	نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس	١٤٩٧	من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها
١٥٨٣	النعيم الأمن والصحة	٩٠١	من هلا
١٥٨٣	النعيم الماء البارد	٦٠٣	من وجد الزاد والراحلة
٨٨٥	تقاعاً حيثما توجهت	٢١٢	موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها
١٠٨٢	نهى رسول الله ﷺ عن الخذف	٢٤٦	من الكبار شتم الرجل والديه
٤٧٤	نهى رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من السباع	٤٦٠	من مخاطبة العبد ربه
	حرف الهاء	١٢٥٥	مه يا عائشة فإن الله لا يحب الفحش ولا التضحش
١١٦٢	هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة	١٤٠٧	المؤمن أكرم على الله عز وجل من يعض ملائكته
٢٩٣	هات المفتاح	٨٢٣	المؤمن للمؤمن كالبيان يشد بعضه بعضاً
٤٧٥	هنا ما أوحى إلي أنه محرم على المسلمين وعلى اليهود	١٣٣٣، ١٣٢٥	المؤمن مع من أحب
٥٩٦	هنا عملك، قد أمرتك فلم تطعني	٢٩٨	المستبان ما قالاً فعلى المبادئ منها
٥٦٩	هنا ما اصطاح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو	٣٣٩	المسجد الأقصى
١٠٨٥	هنا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله	٢١٠	المسجد الحرام
١٣٩٥	هنا وقومه والذي نفسي بيده لو أن هذا الدين معلق بالثريا	١٣٣٢	المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه
٥٣١	هنا قوله رجال من فارس	١٦٦	المغرب وتر النهار
٥٣١	هنا أمي بالحق يأخذون	٢٥٥	المقسطون في الدنيا على منابر من نزل يوم القيامة
٣٩٢	هنا لكم وقد أعطي القوم مثلها	١٠٧٩	الموت
١١٧٩	هل أعطاك أحد شيئاً؟		حرف التاء
١٣٩٣، ١٣٨٢	هل أنت إلا أصبح دمي؟	٥٧٤	ناد يا معشر الأنصار يا أصحاب المسرة
١٥٩٦	أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر	١٥٨٢، ٧٦٠	ناوكم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم
١٢٥٥	هل تدرن ما الكوثر؟	٥٧٥	ناولني حصيات
	هل تدرن مم أضحك؟	٥٤٥	ناولني كفاً من حصياء
١٤٩٤	هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس فوئهما	٣٦٩	نبي ضيمه قومه
١٣٢٣	هل جئتم في عهد أو هل جعل لكم أحد أماناً؟	٩٥٨	تخرفنا مع رسول الله ﷺ البدينة عن سبعة والبقرة عن سبعة
١١٥٨	هل مرت بوادي أهلك محلاً ثم مررت به يهتو خضراً؟	٣٨٨	نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات
١٥٣٧	قلت: نعم	٨٧٧	نحن معاشر الأنبياء لا نورث
	هلا صليت بـ «سبح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها»؟	٣٣٩	نزل ملك من السماء يكذب
	هلا قلت: إن أبي هارون وإن عمي موسى وإن زوجي محمد	١٢٥٨	نزلت في المؤذنين
١٣٣٣	هلك المصرون	٢٤٠	نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة
٦٩٠	هم إخوانكم خولكم	١٣٥١، ١١١٥، ٥٥٦	نُصِرْتُ بِالْغَيْبِ وأهلك عاد بالدينور
٢٨٢	هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأرض	٨٢٥	نعم
٨٧٠	هم الجن وإن الشيطان لا يخبل أحداً في داره فرس اعتيق	٨٧٢	نعم إذا كثر الخبث
٥٦٠	هم قوم تحايروا بروح الله	١٨٣	نعم أي أنا محمد
٦٣٥		١٤٢٥	نعم صلي أمك
		١٢٤٧	نعم عذاب القبر حق
		١١٢	نعم، أي: نهي عن القتال في الشهر الحرام

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
	والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه	٣٩١	هم قوم هذا
١١١٤	من نفسه	١٤٦٨	هم اليوم أربعة
	والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به	١٤١٢	هنت يهود بالغدر
١٣١٨	حرمت الله إلا . .	١٤٩١	هو أهل أن يتقى
١٥٧٦، ١٨٤	والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة	١٤٨٨	هو جيل من نار يكلف أن يصعبه
	والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا	٣٥٤	هو الطهور ماؤه الحل ميتته
٣٣	في الزبور ولا في الفرقان مثلها	٤٤٨	هو قرن ينفخ فيه
١٣٣	وما الذي أهلكك	٦٠٦	هو مشجدي هذا
١٤٢٣	وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر	١٥٩٦	هو نهر أعطانيه ربي عز وجل
١١٢٥	(ومم ذلك) قاله لأسماء بنت عميس	١١٢٣	من حولي كما ترى يسألني الثقة
١٤٥٢	وبأبي الله والمؤمنون إلا أبا بكر	٦٧٦	من لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر
١٤٨١	ويحك إنها كانت فما أعددت لها؟	٧٤٥	هي النحلة
٥٩٦	ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه	١٥٧٢	هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة
٣٦٣	ويل للأعقاب من النار		حرف الواو
٧١	ويل: واد في جهنم	٥٦٠	وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة إلا وإن القوة الرمي
٨٩٣	الورود: الدخول لا يبقى بُز ولا فاجر إلا دخلها	١٣٢٤	وألزمهم كلمة التقوى لا إله إلا الله
٨١٩	الولد ثمرة القلب وإنه مجيبة مبخلة	٦٠٣	وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعنهم
	حرف لا	١٥٨٥	وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما
٣٨١	لا أراك تكلمني في حد من حدود الله	١١٢٤	وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي
٦٠٠	لا أجد ما أحملكم عليه	١٣٩٣	وتجعلون رزقكم قال: شكركم
١٢٨٠	لا أسأل قد اكتفيت	٧٧٢	وجندي في أهل غنيمة يشق
١٠١٥	لا أكل حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله	١١٠٨	وصلاة الرجل في جوف الليل
٢٣٦	لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء	١٣٦٦	وئى عمل يوم أربع ركعات في أول النهار
١١٢١	لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده	١٠٨٤	وللذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه
٨٧٢	لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب	١٠٦٨	والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك
١٠٧٤	لا، إن الله جميل يحب الجمال	٧٩٩	والله لأمثلن بسجين منهم
١٥٨٣	لا بأس ظهور إن شاء الله	١٢٩٤	والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله
٩٤٤	لا، بل لكل من عبد من دون الله	١٣٣٢	والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه
٦٧٥	لا، بل للناس كافة	٤٣٤	والله ليتمن الله هذا الأمر
٩٧٧	لا، بل هم الذين يصلون وهم مشفقون	٩٢٣	والله لو باعني أو أسلفني لقصيته
١٣٣	لا تأتوا النساء في أعجازهن	١٥٦	والله ليهنك العلم أبا المنذر
٩٩٥	لا تبأشر المرأة المرأة تنعتها لزوجها		والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه
١٦٦	لا تصدقوا إلا على أهل دينكم	٥٨٣	هذه في اليم
٦٠١	لا تجالسوه ولا تكلموه	١٢١٢	والله ما صليتها
٣٧	لا تجعلوا بيوتكم مقابر	٨٧١	والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن
٢٦٩	لا تحرم الإملاجة والإملاجات	١٦٠٢	والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن
٢٦٩	لا تحرم الرضعة أو الرضعتان	١٣٥٨، ٩٨٥	والذي نفسي بيده لأقضي بينكم بكتاب الله
٢٦٩	لا تحرم المصاة أو المصتان	١٥٨٥	والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة
٢٥٣	لا تحلفوا بآبائكم		والذي نفسي بيده لو تابعتكم حتى لم يبق منكم أحد لसार
١٤٥٠	لا تخبري أحداً، وإن أم إبراهيم علي حرام	١٤٣٧	بكم الوادي ناراً
١٤٥٢	لا تخبري عائشة	١٥٦٨	والذي نفسي بيده لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
٥٥٤	لا يتم بعد حلم	٤٨٠	لا تزال الثوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من مغربها
٢٧١	لا يجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها	١٥٨٤	لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه
١٣٣	لا يحل أن تأتوا النساء في حوشهن	١١٢٣	لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها
٥٦٠	لا يغبل بيت فيه عتيق من الخيل	٣٣٨	لا تسبخي عنه
١٤٦١	لا يدخل الجنة قتات	١٣٢٧	لا تسبوا أصحابي
٩٩٥	لا يدخلن هذا عليك	١٢٩٦	لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر
٥٧٩	لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى		لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق
١١٣٠	لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله تعالى	٨٣٤	لا تشربوا في آية الذهب والفضة
١٣٣	لا يستحيي الله من الحق	١٢٧٨	لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم
١١٧٨	لا يضرك بأيهما بدأت	١٠٨٤	لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً
٢٦٨	لا يترك مؤمن مؤمنة	٣٨١، ٣٨٠	لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها
١٠٨	لا يقبل الله دعاء من قلب غافل لاه	٣٧٥، ٣٧٣	لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها
١٤٠٩	لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه	٤٨٠	لا تقوم الساعة حتى يبعث ذجالون كذابون
١٣٩٣	لا ينس القرآن إلا طاهر	١١٢٩	لا تكهرن أحداً من أصحابك على المسير معك
١٣٣٤، ١١٢٥٦	لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل	١٢٧	لا تنحن...
٧٢٠	لا ينحني له، ولا يلتزمه ولا يقبله	١٤٢٩	لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة
٨٣٣	لا ينظر الله إلى رجل أتى امرأة من الدبر	٩٨٤	لا حاجة لي فيه
	حرف الياء	١٤٥١	لا خلف في الإسلام
٢٨١	يا أبا ذر إذا طبخت مرقة	٢٧٩	لا خير في دين ليس فيه ركوع
٧٨٠	يا أبا ذر تدري أين ذهبت الشمس؟	١٥٠٥	لا صلاة بحضرة طعام
٤٣٦	يا أبا ذر أتدري فيما انتطحتا؟	١٥٦٥	لا طلاق قبل النكاح
٣١٦	يا أبا سعيد من رضي الله رباً وبالإسلام ديناً	١١٣١	لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك
١٥٦	يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟	١١٣١	لا، فإنه لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله
١١٥٣	يا ابن آدم أتفق أتفق عليك	٢٠٥	لا فضل لعربي على أعجمي
١٠٨٧	يا ابن عمر ما لك لا تأكل؟	١٣٣٦	لا قطع على الخائن
٨٧٧	يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة	٣٨١	لا، ما زال ملك يسترني حتى ولت
١٣٣٦	يا أيها الناس ألا إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض	١٦٠١	لا نبرح حتى نناجزهم
١١٢	يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله خفاة	١٣١٧	لا نورث ما تركنا صدقة
٩٤٥	يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة	٨٧٧	لا هجرة بعد الفتح
٩٤٦	يا أيها الناس إني قد كنت أذنت في الاستمتاع	١٣١٦	لا، وإنه قد أوحى إلي أنكم تقتنون في قبوركم
٢٧٣	يا أيها الناس أي يوم هذا؟	١٢٤٧	لا، ولكن لا يبلغ عني إلا رجل مني
٩٠٠	يا ثوبان ما غير وجهك؟	٥٦٦	لا والله لا يلقي حبيبه في النار
٢٩٨	يا جابر لا أراك ميتاً من وجعك هذا	٣٦٩	لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك
٣٤٩	يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا	١١١٤	لا يأمن حيث وجد
٨٩١	يا جد هل لك في جلد بني الأصفر؟	٩١٢	لا يؤلف تحت الأرض
٥٨٧	يا رب كيف أصنع إنما أنا وحدي يجتمع علي الناس	١٤٨١	لا يبقى على رأس مائة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد
٣٩٧	يا سليك قم فأركع ركعتين	٨٦٢	لا يبقى على ظهر الأرض مدر ولا وير إلا أدخله الله كلمة الإسلام
١٤٣٧	يا صباحاه	٥٧٩	لا يولن أحدكم في الماء الدائم
١٦٠٠، ١١٥٤	يا عائشة أشعرت أن الله أفناني فيما استغفنيته فيه	١٤٧٣	

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
١٥١٨ ، ٩٤٥	يحشر الناس يوم القيامة حفاة غرلاً	١١٢٣	يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً
٩١٢	يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله	١٥١٨ ، ٩٤٥	يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض
	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	٦٦٠٤	يا عائشة أما شعرت أن الله أخبرني بدائي
٤٩٦	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	٥٥٨	يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي
٨٣٠	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	٩٩٤	يا علي لا تتبع النظرة النظرة
١٧٤	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	٣٩٧	يا حمزة إن الله قد عصمني من الجن والإنس
١٢٣٥	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	١٣٠٣	يا حمزة إن أولئك قوم عجبت لهم طياتهم
١١٥٥	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	٢٧٥	يا حمزة صليت بأصحابك وأنت جنب؟
١٢٣٥	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	١٢٩٤	يا عمر ضع سيفك
٢٦١	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	١٤٤٥	يا غلام إني أعلمك كلمات
١٤٨٣	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	٦٠٣	يا غيلان اخرج فراك مناق
٢٠٨	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	١٣٦٩	يا فلان يا فلان اشهدوا
١٥٨٣	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	١٣٠	يا مرثد الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة
١١٣٠	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	٩٩٦	يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج
١٥٨٣	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	١٠٣٧	يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله
٧٧٦	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	١٨٨	يا معشر قريش لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم
	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	٧٠٢	يا معشر النساء تصدقن
٦٩٠	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	٥٤٧	يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك
	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	٥٩٦	يا وبع ثعلبة
١١٠٨	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	٩٥٠	يا يهودي إن الإسلام يسبك الرجال
١٥٥٥	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	٨٧٠	يا أجيح أمة وما أجيح أمة
١٠١٤	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	١٢٤٤	يا أقر الله عز وجل إسرائيل بالفضة الأولى
٩٤٧	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	٨٧٣ ، ٤٨٥	يؤتى بالرجل الطويل الأكل والشروب العظيم فيوزن
	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	١٠٢٣	يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه
٤٨١	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	١٢٩٢	يؤتى بالموت في صورة كبش أملح
٥٩٤	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	٨٨٦	يؤتى يوم القيامة بناس إلى الجنة
١٢٩٦	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	٧٥١	يسطها ويمدها مد الأديم
١٥٢٥	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	١٥٨٣	يتبع الميت ثلاثة
١٤٦٤	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	١٣٤٤	يتجلى لهم الرب
١٣٩٤	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	٧٢٨	يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار
٤٤٨	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	١١٨٧	يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح
١٩٨	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	٥٤٩	يجوز لك الثلث
١٨٢	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	٩٢	يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل
١٠١٩	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	٢٦٩	يحرم من الرضاة ما يحرم من الولادة
	يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	١١٨٥	يحشر صاحب الرضا مع صاحب الرضا

فهرس الشعر

الصفحة	الثامن	القافية	صدر البيت
		حرف الهمزة	
٢٠٠	زهير بن أبي سلمى	السيـمـاء	أروني خطة
٢٠٠	زهير بن أبي سلمى	بـقـاء	فإن تدعو
٦١	زهير بن أبي سلمى	نـمـاء	ومنا أدري
٢٩٦	زهير بن أبي سلمى	لـمـاء	وقد أغدو
٧٧	حسان بن ثابت	ليس له كفاء	وجبريل
٧٥٠	حسان بن ثابت	نـخـبـاء	ألا أبلغ
٣٠٤	الحارث بن حلزة	لهم فـروءاء	أجمعوا أمرهم
٥٠٥		مـبـوءاء	ويؤثني
١٣٧٥	قيس بن الخطيم	ما وراءها	ملكته بها
١٨٦	عدي بن الرعلاء	ميت الأحياء	ليس من
٤٩٧		أعراف البناء	ورثت بناء
٥٥٩		إلى السمـاء	فاضرب وجوه

حرف الباء

٨٥١	بشر بن أبي خازم	مسلم والمهلب	بأي بلاء أم
٢٤١، ٤٤	كعب بن سعد الغنوي	ذاك مجيب	وداع دعسا
١٤٧١، ١٠٢٠	علقمة بن عبيدة	النساء طبيب	فإن تسألوني
١٣٧٥، ٢٩٩، ١٥٨	علقمة بن عبيدة	فصليب	بها جيف الحسرى
٧٤٣	الناطقة الذبياني	للمرء ملهيب	حلفت فلم
٤٩	الناطقة الذبياني	يتذبذب	ألم تر أن الله
٧٦٠	ذو الرمة	ولا نلدب	تريك سنة
٧٥٦	ذو الرمة	منقضب	كانه كوكب
١٩٢	الكميت	ولا ريب	أنسى ومن
١٢٣٩	الكميت	وئثر رب	وجدنا لكم
٤٣٤	الكميت	ومذنب	فطائفة قد
٢٢٨		وعقرب	وكائن ترى
٣٥١	مضروب بن كعب	ذاك لبيب	نقلت لها
٧٧٧	الأخنس بن شهاب	فهو سارب	أرى كل قوم
٧٤٢		لست أرغب	وأرغب فيها
٤٦	علقمة بن عبيدة ^(١)	دبيب	كانهم صابت
٥٢		يصوب ^(٢)	فلت لأنسى

(١) وهو في «ديوانه» ص ٣٤، و«مجاز القرآن» ١/ ٣٣، و«الطبري» ١/ ٣٣٣.

(٢) وهو في «الكتاب» ٢/٤٢٠، و«الطبري» ١/٣٣٣ و٤٤٥، و«أمالي ابن الشجري» ٢/٢٠، و«القرطبي» ٩/١٨٣، و«شرح شواهد الشافعية» ٢٨٧، و«الصالح» و«اللسان» و«التاج»: صوب.

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
فإن تكن الأيام	لهن ذنوب	١٢٣، ٥٠٧
ومن لم يغمض	وهو عاتب	٢٦٨
ومن يتتبع	الدهر صاحب	٢٦٨
فمن يك	بها لغريب	٥٨٠
تمززتها	فتصويروا	٥٣٥
تقول ابنتي	طبيب	٤٩٢
تتابع أحداث	والخطوب ثيب	٤٩٢
ما نغم الناس	إن غضبوا	٥٩٥
وأنهم سادة	عليهم العرب	٥٩٥
ولقد طمنت	أن يغضبوا	٦٤٨
طلباً لعرفك	دونك الأسباب	٦٩٠
ليس في الحق	ما يقول الكذوب	٣٩
لنا ذنوب	قلنا القليب	١٣٥٣
تميم بن قيس	علي جوابها	٢٤٧، ٦٧٠
وقفت على	وأخاطبُه	٧٥٩
وأسقيه حتى	وملاعِبُه	٧٥٩
وكائن أصابت	ومنه ثوابها	٢٢٨
فقلت اتجروا	وغارِبُه	٣٢٤
أضواء لهم	ثاقِبُه ^(١)	٤٤
عصبت إليها	أرشد طلابها	٢١٨
فصدقتها	كذابُه	١٥٠٨
ألم تر أن الدهر	لغاريه دائبا	٥٨٤
أرى رجلاً	كفامخضبا	٨٣٨
فما أذكر	منها قريبا	٥١٢
جريمة ناهض	صليباً	٣٥٣
لا أبتغي	واصباً	٧٨١
يمج صبيره	الماعون صبا	١٥٩٥
فانقض كالدرية	تخاله طنبا	٧٥٧
خليلي مرابي	الفؤاد المعذب	١٣٤٢
ألم تر أنني	وإن لم تطيب	١٣٤٢
كليني لهم	بطيء الكواكب	٧٨١
ولا عيب فيهم	قراع الكتائب	٥٩٥
كان نقيق	أو نقيق العقارب	٤٧٥
أتاني كلام	أنك عائبني	٢٨٠
فقلنا السلام	وموها بالحواجب	٦٦١
يا صاح بلغ	عري الذئب	٥٥
لعمري أبيها	ابن أبي كعب	٩٤٣
أرانا مرصدين	وبالشراپ	٨١٥

(١) وهو في «الكامل» للمبرد ٤٦، ٤٧، وأما في المرتضى ١/١٨٦، و«اللسان» ٩/٢، ونسبه في «الحيوان» ٣/٩٣، و«الشعر والشعراء» للقيط بن زرار

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
لقد نقيبت	بالإياب	امرؤ القيس	١٣٤٤
كطود يلاذ	المزاعم والمذاهب	الناطقة الجعدي	٣١٨
أمرتك الخير	وذا نشيب	عمرو بن معد يكرب	٦٥٩ ، ١٦٥
يسومان يوم	إلى الأعداء تأويب	سلامة بن جندل	١١٦٤
لن يذهب	والياقوت والذهب	مالك بن نويرة	١٣٨٢
فلو رفع السماء	مع السحاب		١٤٨٤
أحبس حمامك	عمدن لغروب		١٤٩١
متبذلاً تبدو	مواضع القنب	دريد بن الصمة	٣٦٦
امتكتاً تصفق	العبد بالكوب	عدي بن زيد	١٢٨٣
والغير يرهقها	انقضاض الكواكب	بشر بن أبي حازم	٧٥٧
جناؤوا بصيد	طوال الذنب		١٢٠٢

حرف التاء

إذا خلدت	ودعـوـت	قيس بن ذريح	٧٤٠
دعوت التي	وقضيـت	قيس بن ذريح	٧٤٠
ولكنهم بانوا	يفجؤك البغـت	يزيد بن ضبة	٤٣٢
ومـا أـدع	إن مشـيـت		١٥١٦
ألي الفضل	الحساب مقيـت	السموـل	٣٠٧
وليلة ذات	سراها ليـت	رؤبة	١٣٢٧
ومنهل فيه	واستقيـت		١٨٦
وذي ضفـن	مساءته مقيـتاً	أحيحة بن الجلاح	٣٠٧
أبلغ أمير	إذا أنـيـنا		٦٨٩
إن المـراق	فهيت هيتا		٦٨٩
قد رابني	بهالـهيتا		٦٨٩
قليل الأليـا	الأليـة برئت	كثير	١٣٥
أسيئي بنا	إن تقـلـت	كثير	٥٨٨
صفوحاً فما	الوصل ملئت	كثير	١٢٧٤
أمين ومن أعطاك	فانفعـلت		٣٦
أترجو بنو مروان	سمعي وطاعتي		٧١٦
من اللواتي	كبرت لداتي		٢٦٤
حلفت بالسبع	قد أمـثـيت		١٢٣٩
ويـمـثـان	ثـلـت		١٢٣٩
وبالحواميم	فـلـت		١٢٣٩

حرف الجيم

بأرعن مثل	تهمـلج	الناطقة الجعدي	١٠٥٥
مثنى تائننا	وناراً تاججا		١٠٢٣
نحن بنو جمعة	ونرجو بالفـرج		١٤٦٠ ، ٨٨٢
يا حبذا القمرء	ملاء النساج		١٥٦٢

حرف الحاء

إذا غير النأي	مـية يـبرح	ذو الرمة	٤٧
---------------	------------	----------	----

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
بلدت مثل قرن في العيين أملحُ	ذو الرمة	٨١ ، ٤٦
وما السدمر المميش أكلحُ	تميم بن مقبل	١٥٢٨ ، ٢٨٨
ليبك يزيد طوحته الطوائحُ	نهشل بن حري	٧٥٨
وكلثامها قد المميش أرواحُ		٨٥١
إنسي أرقست الصاب ملبوخُ	أبو ذؤيب	٨٥٠
إنسي لأرجو وأستريحُ		٥٠٢
وانضح جوانب وذئائحُ		٧٠٨
أقارض أقواماً علي كشوحها	النعم بن تولب	٢٢٢
علي طرق كنعور المصروحا	أبو ذؤيب	١٠٤٩
فقلت لصاحبي واجتز شبحا	مضرس بن ريمي	١٣٤٢
يا ليت بملك سيفاً ورمحاً		١٣٨٨ ، ٣٦٢
فمن بنجوته يمشي بقرواح	عبيد بن الأبرص	٣٢٥
ونحن على جوانبه كالإبل القماح	بشر بن أبي خازم	١١٦٨
ألتئم غير بطون راح	جرير	١٠٠٣ ، ٥٣
سأشكر إن في جناحي	جرير	١٠٦٣
وأعبد أن وبني رزاح		١٢٨٥
أضمه للصدر والجناح		٩٠٣
ألا يا أيها به برحُ		١٥٦٥
أرى الموت لسه أروحُ		١٥٦٥

حرف الدال

وأنت زعيم القلح الفردُ	حسان بن ثابت	١٤٦١
فبان ثواب الله فيها يخلدُ	حسان بن ثابت	٨٧٤
ألا حبذا هند والبيعدُ	الحطيئة	٣٨٨
فكيف ولم أديكم قلدوا	الحطيئة	٥٧٠
تمز أمير المؤمنين ويولدُ		٥٣٠
عشية لا عفراء منك بعيذُ	عروة	٥٠١
أنا ابن النبي فسوف تعودُ		٩٣٣
تبرى الناس حولها وقعودُ		٩٣٣
أما الفقير له سببُ	الراعي	٥٩٠
حتى إذا ما ملوي ومحصولُ		١١٧٨ ، ٦٢٣
تعد والذي وأذكرك المجلودُ		٦٨٥
فما أجشمت والأكباد سودُ	الأعشى	٢٢٢
كل حي انقضى أمه	الطرماح	١٨٧
فأليت لا أرثي تزور محمداً	الأعشى	٢٦٤
إذا ما انتبنا بها نبداً	زائدة بن صمعة	٣٥٣
فإن شئت ولا بسرردا	العرجي	١٥٠٨ ، ٤٠٦
أريني جواداً أو بخيلاً مخلداً	حطاط بن يعفر	٦٦٠
إذا كنت عزهاة جلمداً	الأحوص	٨١٦
فقلت له أموننا وجدداً		٣٦
أمين وأغننا تبارحه جهداً		٣٦

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
تباعد مني	ما بيننا بعدا		٣٥
لا تترجحي حين	أم واحدا		٣٢١
تسمع في	جُساء وبدا		٧٧٣
من البيض لا	الحلي جدها		٦٦٥
وإن شئت تعاودنا	عوادا		١٤٧٦
أعاذل ما يدريك	أو في ضحى الغد	عدي بن زيد	٤٦١
وإني لعبد الضيف	شيمة العبد	المفتح الكتبي	٥٣٤
فإن الذي حانت	يا أم خالد	الأشهب بن رميلة	١٢٣١ ، ٤٥
بودي لو أني	طريف وتاليد	متمم بن نويرة	٢٤٣
فأصبحت مما كان	الماء باليد		٧٣٠
أعاذل إن اللوم	غيك المتردد	عدي بن زيد	٩٠١
ألا أيهلنا الزاجري	أنت مخلدي	طرفة	١٠٩٢
تمنى رجال	فيها بأوحد	طرفة	١٥٦٠ ، ١٠٩٣
أرى السموت	الباعل المتشد	طرفة	١٥٨٠
منى تأته	خير موقد	الحطبة	١٢٧٩
أسود ثرى	دماء الأساود	الأشهب بن رميلة	١٤٦٢
أنحوي هذا العصر	جرهم وثمرود		٤٧
إذا نفيت	مقام جحود		٤٧
تكباد لا تثلج	على رود		١٥٣٦
يا صاحبي	من أمر بمردود	هانئ بن شكيم	٧١٩
ولقد غنوا	ثابت الأوتاد	الأسود بن يعفر	١٢٠٣
ولو أنها عرضت	صرورة متهدد	النايفة الذبياني	٨٢٧
لرنا لبهجتها	وإن لم يرشد	النايفة الذبياني	٨٢٧
أبترت عليه	جامد البرد	النايفة الذبياني	٦٦٦
ثكلتك أمك	عقوبة المتعمد		٩٠٩
نجوت مجالدا	قديم عهد		٣٢٥
ومن يتق	مؤتاب وغادي		٨٨
على ما قام	فسي رماد	حسان بن ثابت	١٠٤٧
فإن تدفنوا	الحرب لانتقم	امرؤ القيس	٩٠٢
ومنا الذي	ولم يواد	الفرزدق	١٥٢٠
ألا ليتما	أو نصفه فقي	النايفة الذبياني	٥١
صادياً يستغيث	عصرة المنجود	أبو زيد الطائي	٧٠١
اعتبر أيها	بالعمر المديد		١٥٤٧
قلني من نصر	بالشحيح الملهد	حميد الأرقط	١١٩٦
ضنت بخد	أصمدي		٥٥٢
فقمنا ولما يضح	عند حيداما	الأعشى	١٠٩
لقيد بكر الناعي	وبالسيد الصمذ	سيرة بن عمرو	١٦٠٣
وشباب حسن	نزار بن ميمد	الجارث بن دوس	١٣٧٠
إن بني الأرد	ليسوا من أسد ^(١)	منظور الوبري	١٩٨

(١) وهو في معجم الترانة ١٣٢/٢، وفهرس القرآن ٣٤٦.

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
إلى أمير	الممناذ	رؤية	٤١٩
لم يؤذها	باقليذ		١٢٣٥
وطباب	ويبرذ		٧٨٣
حرف الراء			
أما وي	وضاق بها الصدر	حاتم الطائي	١٣٩٣
بني عمنا	يوم قماطر		١٤٩٨
غنيينا زماناً	بكأسيهما الدهر	حاتم الطائي	٥٠٨
فما زادنا	بأحبابنا الفقر	حاتم الطائي	٥٠٨
ألا أيهذا الباخع	يليه المقادير	ذو الرمة	٨٣٨
فلا يدعني	وتسلم عامر		٦٩٠
فما عصمة الأعراب	يُعمصر		٧٠١
إذا قلت	يطلع الفجر	أبو صخر الهذلي	٧١٨
ولا عائد	ولك الشكر	أبو صخر الهذلي	٩٤٠
وإن فؤاداً	الهوى لصبور		٧٤٨
ولو أن نفسي	يُعد كثير		٧٨٦
ولكنها نفس	اللثام قنور		٧٨٦
وصاحب صدق	عامداً أجر ^(١)		٥٥
أخو رغائب	النفوس الزفر	أعشى باهلة	٢١٥
تكفيه حزة	شربه الخمر	أعشى باهلة	١٣٩٠
إن امـرءاً	لمفرود		١٨٠
لا يغمز الساق	شروقه الصغر	أعشى باهلة	١٦٧
الله يعلم	إلى جيراننا صور		١٦٦
لولا ابن جمعة	ينفخ الصور		٤٤٨
نغالي اللحم	نضج القودر		٦٤٨ ، ٥٦٨ ، ٨٩
فقلنا أسلموا	الإحـ الصدور	العباس بن مرداس	٦٣٤ ، ٢٩٩
فيوم علينا	ويوم نسر	النمر بن تولب	٣٥٦
ما ضر جارا	لبابه ستر	مسكين الدارمي ^(٢)	٤٥
أعمى إذا ما	جارتني الخدر	مسكين الدارمي	٤٥
وتصم عما	كأنه وقر	مسكين الدارمي	٤٥
يا رسول المليك	إذ أنا بسور	عبد الله بن الزبير	١٠١٣
وقد رابني	ويسورها	توبة	١٤٨٩
وقاسمها بالله	إذا ما نشورها	خالد بن زهير	٦٢
وشر المنايا	الحي حاضر	الحطيئة	٧٦
المرء يهوى	قد يضـر	النايفة الجعدي	٦٥٨ ، ٢٣٤
ثفني بشائته	العميش مرء	النايفة الجعدي	٦٥٨
وتصرف الأيام	شيئاً يسر	النايفة الجعدي	٦٥٨
يا ابنة عمي لاحني	الهواجر		١٤٨٩
فأنت أعاليه	البسر أحـرا	امرؤ القيس	٤٥٧

(١) البيت غير منسوب في «مجالس ثعلب» ٨٥/١، و«اللسان» ٢٦٨/١٥.

(٢) الأبيات الثلاثة في «الشعر والشعراء» ٥٣٠/١، و«معجم الأدباء» ٢٠٦/٤، و«أمالي المرتضى» ١٢٠/٢، و«لباب الأدب» ٢٦٥.

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
ألا هل أتاهما	تملك بيقرا	امرؤ القيس	١٣٥٨
جزى ربه	جزاء موفرا		٦٩٠
ولمما رأى	كان أضمرأ	الفرزدق	٦٢٨
أبا حاضر	يصبح مسكرا	الفرزدق	٨١١
تمنى حصين	أذل وأقهرأ	المخبل السعدي	١١٩٠
لعمري لئن	أكل أبجرأ	الأبيرد الرياحي	١١٨٦
رموهما	النعام المنفرا	ليلي الأخيلية	١٤٨٧
أحقاً عباد الله	الأراك به خضرا		١٣٨٤
نأتي النساء	أكبرن إكبارأ		٦٩٥
الشمس طالعة	والقمرأ	جرير	١٢٩٠
له قنبر	ووقــــــــــــــــارأ	أبو عريف الكلبي	٥٧٥
ألف الصفون	الثلاث كسيرا		١٢١١
أصبحت لا	إن نـفـرأ		١١٧٩
رعته أشهرا	واستغفارأ	الراعي	٤٧٨
ولا ينسيني	الفرح الإزارأ	ابن أحمر	٦٤٤
مجدوا الله	أمس كبيرأ	أمية بن أبي الصلت	٥٠٠
بالبناء الأعلى	السما سريرا	أمية بن أبي الصلت	٥٠٠
شرجعاً لا يناله	صــــــــــــــــورا	أمية بن أبي الصلت	٥٠٠
نشرب الإثم	بيننا مستعارأ		٦٩٤ ، ٤٩٢
وبيت قولي	عبداً كفورا	الأسود بن عامر	٣٠٤
أكل امرئ	بالليل نارأ	أبو دؤاد الأيادي	٢٧٩
وأعـددت	وخيلاً ذكورأ	الأعشى	١٣٠٩
كان القرنفل	وأريأ مشارأ	الأعشى	١٤٩٩ ، ٢٣٥
فبانت وقد	نأيها مستطيرأ	الأعشى	١٤٩٧
لا أرى الموت	الغنى والفقيرأ		١٢٣
قللت له	كهرة وزبرا		٥٥٢
فتولى غلامهم	أم حمـارأ		٢١٣
جعلت عيب الأكرمين سكرا			٧٨٤
إن كنت ربحاً فقد لاقت إعصارأ			١٦٤
ألم تر أن	وذا ظُلفـر		٤٧٥
نحل بلادأ	عاد وحمير	ليبد	٤٠
إذا أدبـر	أرض عامـر	الراعي	٩٥١
تمنى كتاب	حنمام المقادر		٩٦٢
فإن حرامأ	على عمرو		٩٤٢
ألا رب	منتصح الصنـر		٨٩٧
بأرض فضاء	غير منكر	عبيد بن وهب العبسي	٨٤٣
فإن تسألينا	الأنام المسـر	ليبد	٨١٥
ألا إن خير الناس	في العرف والنكر		١٤٢١
لكم قدم	طمت على البحر	ذو الرمة	٦١٦
كان فؤادي	نهضأ إلى وكر		٧٤٨
فما فتئت	بني صخر		٧١٤

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
بحيش	سجداً للحوافر	زيد الخيل	٧٨٠
هنالك لا	مبسلاً بالجرائر	الشفري	٤٤٧
لقد كنت ذا	ولا ظفري		٤٧٥
سقى الله	المدجنات المواطير		٣٥
أمين وأدى	حمام المقادر		٣٥
فلما التقت	واعترينا لعامر	الراعي	٤٩
يبرى طاعة الله	جاحم الجمر	عمران بن حطان	٨٥
ولا تبك ميتاً	وأك أبي بكر		١٥٣
مستقبلين	القنطن منشور	الفرزدق	٨٢٢
ما بين لقمته	قيد أظفوري		٤٧٥
بيات حواطب	ولا دعري	تميم بن مقبل	١٠٦٣
نازعته طيب	وقعة الكاري	الأخطل	١٣٥٦
لو ما الحياء	عبثا عوري	تميم بن مقبل	٧٥٤
هين الحرائر	لا يقرآن بالسري		٩٥٤
إنني ضمننت	غير غلوري		٥٨٠
من كان مروراً	بوجه نهاري	الربيع بن زياد	٢٠٢
فلت تُلماً	بتسليم الأمير		١٢٠٨
أحيافرة	سفه وعاري		١٥١١
هما استويا	بغير زور		٥٠٠
ألا أبلغ	ثقة إزاري	بقيلة الأشجعي	١٠٨
شهد الحطينة	بالملر	الحطينة	٧٧
لمن الديار	ومن شهي	زهير	٧٧٣ ، ٦٠٦
ولانت تفري	ثم لا يفري	زهير	٩٧١
سألثاني	جثمانني بنكر	زيد بن عمرو بن نفيل	١٠٧٣
ويستك أن	عيش ضر	زيد بن عمرو بن نفيل	١٠٧٣
لسو أمندت	إلى قابر	الأعشى	١٥١٧
حيثي يقول	للميت الناشئ	الأعشى	١٥١٧ ، ٥٠٢
فكان طعم	وسلافة الخمر	المسيب بن علس	١٤٩٩
أبلغ النعمان	وانتظاري	علي بن زيد	٥٢
لو بغير الماء	بالماء اعتصاري	علي بن زيد	٧٠١
لا يبعدن	وأفة الجزر	الخرق بنت هفان	٣٤٤
التنازلين	معاقدا الأزر	الخرق بنت هفان	٣٤٤
من كمي	في القنود		١٧٨
أزمان عيناء	المين الحير		١٢٩٢
عرفت الديار	الكاتب الحميري		١٥٢٥
نحن صبحنا	أو سرارها		١٥١٤
تمنى ابتثاي	ربيعاً أو مفر	ليد	٤٦
إلى الحولي	فقد اعتنر	ليد	١٥٣٧ ، ٦٠٠٠
سلام الإله	وسماء يرز	النمر بن توبل	١٣٧٧
أثني لسان	قول نكسر		٨٠٥

الصفحة	الشاعر	القافية	صلو البيت
٧٤٨ ، ١٧٨	امرؤ القيس	فلم أنتصر	وشتني بسهم
١٢١		فعل الضجر	أخذته عزة
٣٠٤	عبيدة بن همام	بشيء نكر	أتوني قلم أرض
٧٧٣		اللحم ضرر	يعلفها اللحم
١٤٩٩		ما زهر	وليلة غلامها
٧٠١		معتصر	وإنما العيش
حرف الزاي			
١٥٨٧ ، ٥٨٩	زياد الأعاجم	الهامر اللمزه	إذا لقيتكم
٦١٨ ، ٣٣٥	الخنساء	عزُّ بـ	كان لم يكونوا
٨٣٩		الأجـراز	قد جرفتنهن
٦٣	رؤية	بالرجز	حتى وقمنا
حرف السين			
٩٤٣		هامنا رأس	بشوب ودينار
٨٤٣		أيمانهن الفوارس	إلى غـمـن
٨٢٥ ، ٧٦	علي بن ربيعة	يا كليب المجلس	نبئت أن
٦٩		النساء المجلس	خير من
٤٤	النايفة الجعدي	بالقواد التباسا	أضاءت لنا
١٠٨	النايفة الجعدي	عليه لباسا	إذا ما الضجيع
١٣٨٠	النايفة الجعدي	فيه نحاسا	تفسي كضوء
٥٢٥	ذو الأصبع العدواني	أثراً بشيـا	جنتاً علي
٤٣٧	العجاج	وأبلسا	يا صاح هل
١٥٢١	علقمة بن قرط	وعـمـا	حتى إذا
١٣٨٥		بـ	لا تخبزوا
٧٨٠	جرير	جلد الجواميس	الواردون وتيم
١٢٧٩	الخنساء	لقتل نفسي	ولسولا كثرة
١٢٧٩	الخنساء	عنه بالتاسي	وما يكون مثل
٨٥٠		كلون السندس	وليلة من
٤٣٨	رؤية	صفرة وإيلاس	وحضرت يوم
حرف الشين			
١٥٩٤		قريشا	وقريش هي
حرف الصاد			
١٢٠٢	امرؤ القيس	وتبـوصـ	أمن ذكر سلمى
٤٩٧		حـريـصـ	أكبائره
١٣٧٥ ، ٧٨٠ ، ٥٠٥ ، ٤٠		زمن خميص	كلوا في
حرف الضاد			
١٧٠		وأدت بمعضا	داينت أدوى
٨٧٩	طرفة	أهون من بعض	أبنا منذر
٦٩١		وانعمي تبقيضي	إن شكلي
٦٨٢		وطوين عرضي	ظنول الليالي

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
وليس	بالمعصى	رؤية	٧٦٧
أمت همومي	وطوراً واسطاً	هيمان قحافة	١٥١٠
وقد حال هم	تبتغيه الأصابع	الناطقة الذبياني	٦٩٣
خطاطيف حجن	إليك نوازغ	الناطقة الذبياني	٤٧
توهمت آيات	وذا العام سابع	الناطقة الذبياني	٥٧
فبانوا فلولاً	لعينك مَدْمَع		٣٤٨
فيا رب ليلى	في رحمة الله أطمع		٥٢٦
مننا الذي	الرياح الزعازع		٥٢١
أرى الخطفنى	كليب مجاشع		٤٨٨
أليس ورائي	عليها الأصابع	ليد	٧٤٣
وما المرء إلا	إذ هو ساطع	ليد	١٥٢٩، ١٠٧٥، ١٢٣
فما فتئت	وتقطّطع		٧١٤
أراجمة يا لبن	ما لهن رجوع	قيس بن ذريح	٦٣٣
وفينا رسول الله	من الصبح طالع	عبد الله بن رواحة	٩٣٣
يبيت يجافي	بالكافرين المضاجع	عبد الله بن رواحة	٩٣٣
إذا أنست	أفرحتك الودائع	بيس العذري	٨٦٠
أخذنا بآفاق	والنجوم الطوالع		١٢٧٩
وإني بحمد الله	غدرّة أنقنع	غيلان بن سلمة الثقفي	١٤٨٦
تعالوا فالوا	الدمر تابع		١٤٧١
لما أتى	والجبال الخشع	جرير	٦٨٣
ولقد حرصت	لا تدفع	أبو ذؤيب	١٥٥
فتخالسا	التي لا تزقّع	أبو ذؤيب	٣٨٠
وعليهما مسرودتان	السوابغ تُبّع	أبو ذؤيب	١٢٥٤
وخيل قد	ضرب وجيع		٣٣٥
كان بياض غرقه صديق			٧٦٨
يا ليت شعري	وأمرى مجمع		٩١٠، ٦٣١
تذكر أياماً	إليك رجوعها	الأحوص	٩٧٤
تسجدون عقر	الكمي المقنعا	جرير	٣٠١
فأقسم لو	لك مدفعا	امرؤ القيس	٦٤٦، ٣٠٣
فدى لبني	كواكب أشعنا	مسهر بن النعمان	٤٤٤
فأدركت من	القصائد مصنعا		٧٠٨
فان تزجراني	عرضاً ممنعا		١٣٤٢
عليك مثل	المرء مضطجعا	الأعشى	
فأنكرتني وما	الشيّب والصلعا	الأعشى	١٥٠٤، ٦٦١
ما كنت	الخليل خدوعا		٢٠٣
وخير الأمر	تبعه اتباعا		١٤٧٦
إليك إليك ضاق بهم ذراعاً			٦٦٤
في قباب	قد ينمعا		٤٥٨

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
انغض نحوي	شينا أطمعا		٧٤٩
لا تذلل الفقير	قد رفعه	الأضبط بن قريع	٣٩٢
ونقفي وليد	ليس بجائع		٢٥٩
ولست أبالي	مصرعي	خبيب	١٢٠
وذلك في	ثلوممزع	خبيب	١٢٠
نصيبهم	عن ربيع	الشماخ	٤٨٢
لنمال الممر	من القنوع	الشماخ	٩٥٩
ويحرم سر	أنف القصاع	الحطينة	١٤٤
يا ليتني فيها	وأضغ	عمرو بن معديكرب	٥١٥
أبيض اللون	الريق خدغ	سويد بن كاهل	٤١
ساجد المنخر	أصم المستغ	سويد بن كاهل	٥٤
وحبيب لي	لحمي رتغ	سويد بن كاهل	٦٨٣
لما جف	صاعاً بصاغ		٦٩٠

حرف القاء

وما زودوني	قسي وزائف	مزرد	٨٤٧
ولما دنا	القلوب الرواجف		١٥٩٣
وعض زمان	أو مجلف	الفرزدق	٩٠٩
وبيتان بيت	إيلياء مشرك	الفرزدق	٣٧٠
وليس صرير	قوم تقصف		٧١٨
وليس فتيق	الثناء المخلف		٧١٨
ويضحك عرفان	الشمس كامف		٧٤٤
ونحن أناس	حين نزاحف		١٩٧
جماجمنا يوم	فيما تخالف		١٩٧
ألم تـران	الخروج المتقصف		١٣٦١
بني المهلب	ولا طـرك		٩٣١
نحن بما عندنا	والرأي مختلف		١٣٤٠ ، ١١٥٢ ، ٥٨٠
تنام عن	تكاد تنفر		٩٩٠
لمن الظعائن	سيرهن تزحف		٥٤٤
يردون في	علي الأكفا		٧٤١
قد أفنى	علي الوظيفا		٧٤٢
نـاج طواه	زلفاً فزلفا	العجاج	٦٧٥
والشمس قد	كي تزحلفا	العجاج	٨٢٦
إذا نهـي	إلى خلاف		٢٤٤
كل كـناز	على الأعراف		٤٩٧
قلنا لها	الإيجاف	الوليد بن عقبة	١٣٣٨ ، ٣٨

حرف القاف

فلا الظل	نـبـذوق	حميد بن ثور	٧٣١ ، ١٩٣
ولو أن لقمان	كاذـ يبرق	ذومة الرمة	٤٧
فديت بنفسه	ما أطيق		١٠٧١
ودعا بالصبح	بـمينها إـريق	عدي بن زيد	١٣٨٧

الصفحة	الشاعر	للقافية	صدر البيت
١٠٢٨		دموعها شرقي	لئس أنس
١٠٢٨		وتبطنلني	وقولها والركاب
١١٧٣		وأمله الغرق	بل نطفة
٨٤٩	الفرزدق	السرادقا	تمنيتهم حتى
١٥٢٩		لو يجلد سائقاً	إنا لنا
٨٨		خادماً لبيقا	قتلت سليمي
٨٠٨		لم تفطنني	قضت أموراً
٤٧٤		لم تشفقني	سأمنعها
٤٨		كل موثق ^(١)	وقلتم لنا
٤٨		في الملا متألتي	فلما كففتنا
١٥٣٠	الأقربح بن حابس	إلى طبعني	إنني امرؤ
١٤٩٢	طرفة	ولا تبقرني	فنفسك فانع
٣٩٨		في شقائي	وإلا فاعلموا
٤٤٦	عوف بن الأحوص	بدم مراقبي	وإيالي بني
٥٠٠		ودم مهراق	حتى استوى
١٦٠١		مخ زاهقي	وميلد
٨٦٤		أطعني وانطلق	قد كنت
٨٦٥		لما نطق	ضحكوا والدمر
١٠٢٥		له بالمضيئ	من شاء
١٥٣٤		على النمارق	نحن بنات
١٤٦٤		على ساق	وقامت
٩٩٠		تلق	جاءت به

حرف الكاف

٢٨	تخلف بن لدية	أنا ذلكا	أقول له والرمح
٩١		من مثلكا	بنا عاذلي
٣١		به إثاركا	والله أسماك
١٥٨٩	عبد المطلب	منهم حماكا	يأرب لا
١٣٢٣		مذحجاً وعكا	يما مكة الفاجر
٨٢٦	ذو الرمة	الدوالك	مضايح ليست
١٥٩٠	عبد المطلب	فامنع حلالك	لامهم إن

حرف اللام

١٤٠٥	أبو خراش	واستراح العواذل	وعاد الفتى
١٤٠٥		لها رحل	ركاب حبل
١٣٨٤	زهير	ينالوا فيستعملوا	بخيل عليها
٣٧٩		والوسائل	إذا غفل الراشون
١٠٩٣، ٥٤٠	معن بن أوس	المنية أول	لعمرك ما أدري
٥٣٥	عبد بن الطيب	قرو معازيل	إذا أشرف
٧٣١		أظلالكن طويل	أيا أثلات القاع

(١) البيتان غير منسوبين في «الطبري» ٣٦٤/١، و«أمالى ابن الشجري» ٥١/١.

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
فإن سأل الواثون	للوثة جزيل		٦٢٣
ملم بليلي	بعدها فمطيل		٦٢٣
رأيت ذوي	أنبت النبتيل	زهير	٩٧٢
ومن جوف	القوم يتفيل	ذو الرمة	١٦٠٥
وجبريل يأتيه	الصندر مخزول	ورقة بن نوفل	٧٦
ثلاثة أحباب	هو القنيل		٧٣
أنلت قليلاً	كذلك قلبيل		١٦٢
يذمون للدنيا	لها ثفل ^(١)	ابن همام السلولي	٢٠٣
أملت خيرك	تلقائك الأمل	الراعي	١٠٦١
قد يدرك	المستعجل الرل	القطامي	١٢٤٤
ما روضة	مبل فطل	الأعشى	١٠٩١
يوماً بأطيب	إذ دنا الأضل	الأعشى	١٠٩١
في فتية	يحفى ويتفيل	الأعشى	٤٩٧
كان مشيتها	لا ريت ولا فجول	الأعشى	١٣٥٥
إن السذي	أعز وأطول	الفرزدق	١٠٩٣ ، ٥١٨
أصبحت أمحك	الصدود لأميل	الأحوص	١٠٩٣
دعوت الله	ما أقول	شمير بن الحارث الضبي	٥٠٩ ، ٨٨
وما يدري	متى يعيل	أخيرة بن الجلاح	١٥٦٢ ، ٥٧٦
تضحك الضبع	لها يسهل		٦٦٢
لم يثمر	ما حملوا		٧١٤
تالله أنسى	حنينها الإبل		٧١٤
فإن السذي	يتبيلها	الفرزدق	٥٥
لسانك معسول	صديقكم مائل		٢٠٥
نصالحكم	قبيلها	الأعشى	٨٣٢
همت ولم أفعل	تبكي حلائله	ضابن البرجمي	٩٠١
وأيهات أيهات	بالعقيق نواصله		٩٧٤
وأهل خباء	أنا أجله	توبة بن مضر	٣٧٦
وجدنا الوليد	الخلافة كاهله	الرماح	٤٥٢
وإني وإياكم	نسقه أنامله		٧٣٠
اليوم يبدو	فلا أجله		٤٩١
مبثل	حوامله		٧٨٣
كذبتك عينك	الرباب خيالا		١٣٥٧ ، ٤٥٠
لييك على	الليل أرملا		٧١٦
خرجنا من	اللقاح المطافلا		٥٧
ضخم تعلق	فوقه حملا	الأخطل	٧٨٨
وجاعل الشمس	قد فصلا	عدي بن زيد	٦٥
تلتك المكارم	بمد أبوالا	أمية بن أبي الصلت	١٢٣
عبدوا الصليب	وكذبوا ميكالا	جزير	٧٧

(١) البيت في «مجالس ثعلب» ١/ ٥١٥، وقد أسفده المحقق فزراء: يذمون لي الدنيا.

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
حتى إذا	معمقولا		٦٨٥
أخضبت فعلك	لتخضب الأبطالا	الفرزدق	٨١١
إن الفرزدق	تنالها الأوعالا	الفرزدق	٦٩
في جنان	ولا تحويلا	عبد الله بن راحة	٨٧٣
فواعديه	أسهلا	عمر بن أبي ربيعة	٣٤٧
فلا تبعد	تلك السبيل ^(١)		٢١٣
تحنن علي	مقام مقالا	الحطينة	٨٧٩
بشرهما	الطلع والجبالا		١٣٨٨
يروم عصب	السلم الطوالا		٦٦٤
الراهب المائة	خلفها أطفالها	الأعشى	٧١٦
وإذا تجوزها	إليك حبالها	الأعشى	٢١٤
وقافيه	من قالها	الخنساء	٢٠٠
تقد الذؤابة	أوعالها	الخنساء	٢٠٠
نطقت	أمثالها	الخنساء	٢٠٠
فأقسمت	نائحة مألها	الخنساء	٧١٤
فلا مزنة	أبقل إيقالها	عامر بن جوين الطائي	٨٠٦ ، ٧٠٠
أغرك منسي	القلب يفعل	أمرؤ القيس	٦٣٣
فقبلت يمين	لديك وأوصالي	أمرؤ القيس	٧١٣ ، ٣٧٥
فلما تنازعنا	شمارخ ميال	أمرؤ القيس	٦٢٢
مهفهفة	كالسجنجل	أمرؤ القيس	١٥٣٥
فلإن تسك	ثيابك تنسل	أمرؤ القيس	١٤٨٧
فقلت له	وتاء بكلكل	أمرؤ القيس	١٧٨
أيقتلني	كأنياب أغوال	أمرؤ القيس	١١٨٨
ألا زعمت	السر أمثالي	أمرؤ القيس	١٤٤
وما ذرفت	قلب مقتل	أمرؤ القيس	١٧٨
فصرنا إلى	أي إذلال	أمرؤ القيس	٦٢٢ ، ١٩٠
فقلت يمين	الغواية تنجلي	أمرؤ القيس	٦٧٠
خرجت بها	مرط مرحسل	أمرؤ القيس	٦٧٠
ولست بمفراح	صرفه المتحول	هدبة بن خشم الفارسي	١٠٧١
فظلوا ومنهم	العين بالمهل	ذو الرمة	١٠١٣
تمنى كتاب الله	على رسل		٩٦٢ ، ٧١
لقد كذب	أرسلتهم برسل	كثير عزة	١٠٢٧
وترمينني بالطرف	إياك لا أفلسي		٨٥٢
كأن ببلاد الله	كفة حابل		٢٢٤
جزيتك ضعف	من أحد قبلي	أبو ذؤيب	٧٤٢
إذا لسمته	نوب عوامل	أبو ذؤيب	٣٢١
لعمري لانت	بالأصائل	أبو ذؤيب	٥٣٨
فإن أنا يوماً	العشيرة والأهل	المتنخل	٦٨٢
لما رأى	كالفقير الأعزل	ليد	٥٩٠

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
أزهرير إن	لنفت بهيضل	أبو كبير الهذلي	٧٥٣
وإذا لقيت	لقاع ممجل	عبد قيس	١٩٢
فأعنتهم	بضنك فانزلي	عبد قيس	١٩٢
إن يلحقوا	بضنك فانزلي	عترة	٩٢١
وبما تجزع	كحل العقالي		٧٥٤
فرع نبع	شديد المحالي	الأعشى	٧٣٠
إن يعاقب	فلانه لا يبالى	الأعشى	٧٣٠
أيما شاطن	السجن والأغلال	أمية بن أبي الصلت	٤٣
إنني زارد	سوابغ الأذيال	أمية بن أبي الصلت	٥٧
لا أرى ممن	بنني إسرائي	أمية بن أبي الصلت	٥٧
رأت ممر	من الهلالي	جرير	١٠٢٦ ، ٦٨٢
كمنية جابر	بعض مالي	زيد الخيل	٦٦٠
شريت الإثم	تذهب بالعقول		٤٩٢
سقى قومي	من هلال	ليبد	٧٥٩
يريد الرمح	بنني عقيل	ليبد	٨٦٥
ومارمت	العبد الذليل		١٢٥
وأغضيت	قيل وقالي		١٢٥
ثم أضحوا	يسودي بالرجال	عدي بن زيد	١١٨٤
إنك والجور	بدم القتيلى	عترة بن عكيرة الطائي	٥٥٢
تبقلت في	مالك ونهشل	أبو النجم	٦٤
فظلنا	من قلله	جميل بن معمر	٦٩٤
والله لولا	من هزله	أم الأحف	٩٠
ويذهبل	عن خليله	ابن رواحة	٩٤٨
فلق لا فنان	منها وحائل	الطرماح	٧٥٨
فتدليت	غيايات الطفل	ليبد	٣٧
وغلأم أرسلته	فبذلنا ما سأل	ليبد	٥٢
قال هجدنا	الدهر عَقَل	ليبد	٨٢٧
بينما الظل	فاضمحَل	ليبد	٧٣١
إن تقوى ربنا	ريثي وعجل	ليبد	٥٣٩

حرف الميم

فلا ينبسط	وأنفك راغم	الأعشى	٦٣٥
إذا اتصلت	والأنوف رواغم	الأعشى	٣٠٩
يعدون للهيجاء	والموت جاحم	الأعشى	٨٥
ألا من لنفس	لهاطعم		٩١٣
فمتي علينا	ودر منظم		١٦٢
أفاطم إنني	النساء يتيم		٧٢
إنني أمرؤ	شفني السقم	المرجي	٧١٤
فبصرة الأزد	مصر والحرم		١٢٧٩
ولقد أبيت	ولا مخروم		٨٩٣
عبدك	والحترم		٧١٧

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
ولا يبقى	عليهن السلام		٧٧٢
ومركضة	والسلام	أوسى بن خلفاء	١٩٣
ألا يا نخلة	شاعكم السلام		٤٨٠
تبكي هاشماً	الفنن الحمام		١٧٨
أطوف في	بي حكيم		٥٥٩
وأقاموا حتى	وكلهم مذؤوم	حسان بن ثابت	٤٨٧
فسأي امرئ	من يُفْئِدُ		٧٤٧
وكيف يظلم	اللين والرؤم		٨٦٦
عذت بما	وهو قائم	عبد المطلب	٨٦
عقم النساء	بمثله عقم		٩٦٣
تراك أمكنة	النفوس جمائها	ليد	١٢٤٤
باسم الذي	سورة يئمه		٣١
وعامنا أعجينا	وقرصاب سئمه		٣١
وهبت له	المياه نسيئها		٥٠٢
ومر بغاف الترب عقيمها			٧٥٨
يسرب الذي	زاد وتما		٣٣
عجبت لها	بمنطقها فما		١٧٩
لملي إن	أن يتنلما		٢١٩
يرى الخمص	الهم مبهما	حاتم الطائي	٣٥٧
ولوغير	العراتين ميسما	المتلمس	٨٣٣
فأطرق إطرارق	الشجاع لصمما	المتلمس	٩٠٩
فهل لي أم	لها ابنمما	المتلمس	٥٧٩
فلما كشفن	غيلاً موثما	حميد بن ثور	٤٨٩
إن الوثاة	ولا ذممما		٥٧٠
طاق الخيال	بالسلام سلاما	هند بنت عتبة	٦٩
من حس لي	أو من رأهما	هند بنت عتبة	١٢٠٨
أبيدين في	عرواهما	هند بنت عتبة	١٢٠٨
صقريين	جمامما	هند بنت عتبة	١٢٠٨
رمحين	تراهما	هند بنت عتبة	١٢٠٨
ألا أبلغ	يحبون الطعاما		٥٧
أنا سيف	تذريت السنما		٨٥٣
نعمد معاذراً	فقد ألاما	أم عمير	١١٩٧
ريائي منكم	زيارتكم الحاما	جرير	٤٨٩
فإن المنية	تصادفه أينما	النمر بن قزلب	٣٠٣
ويوم الفساد	وكان غراما	بشر بن أبي خازم	١٠٢١
رسة محراب	أو أرتقي سلما	وضاح اليمن	١٢٠٧، ١٩١
كفناك كف	بالسيف الدما		٦٧٢
مشين كما	الرياح السنواسم	ذو الرمة	٤٢
هم وسط	الليالي بمعظم		٩٢
دعوت خليلي	للهجين المذم	الأعشى	١٢١
وكانن أرينا	أو أصر لمائهم		٢٢٨

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
وكائن ترى في التكلم		٢٢٨
أقول لهم فاسر زهدم	سحيم بن وثيل اليربوعي	٧٣٥
وتشرق بالقول من الدم	الأعشى	٦٨٣
وما الحرب بالحديث المرجم	زهير	٨٤٥
فلما وردن الحاضر المتخيم	زهير	٨٩٤
بها العين كل فجئ	زهير	١٠١٢
لقد لمتنا المطي بنائم		٦٣١
أولئك قوم تميم بدارم	الفرزدق	١٢٨٥
فيه الرماح نسج سلام	الحطية	٧٨
أبلغ أبا بين أقوام ^(١)		١٠٣
لا يدرك المجد عزوا لأقوام		٢٢٥
ويشتتموا صفح أحلام		٢٢٥
هزمت عليك بالحوال وأنعم		١٥٤
لولا الحياء أم القاسم	عدي بن الرقاع	٣٠١ ، ٦٤
وكانها بين جاذر جامم	عدي بن الرقاع	١٥٦
وسنان أقصده وليس بنائم	عدي بن الرقاع	١٥٦
شططت مزار ابنة مخرم	عترة	٨٩٣ ، ٦٢١ ، ٥٦٧
فشكت بالرمح القشا بمحرم	عترة	١٤٨٧
لو كان يسدي الكلام مكلمي	عترة	١٤٠٤
بأشاة ما لم تحرم	عترة	١٢٠٨
 بعد أم الهيثم	عترة	٦١
ذم المنازل أولئك الأيام	جرير	٨١٣
ترى للمؤمنين الرؤف الرحيم	جرير	٦١٣ ، ٩٣
لقد لمتنا المطي بنائم	جرير	١١٥١
ثلاث واثنتان إلى شمامي	الفرزدق	١١٥
ندمت على جوف عكهم	الحطية	٢٠٥
وايقنت التفرق أريد بالسهم	ليد	٢٤٢
لعمرك إن رال النعمام	حسان بن ثابت	٥٧٠
لا والله ولم تكلم		٨٥٨
كان فريضة فريضة الرجم		٨١١ ، ١٠٠
حارث قد وتجلي غمي	رؤبة	٤٤
أرسلني والأداهم		٥٠٧
الريح تبكي في غمايه		١٢٩٠
يقوم على أو يننقم	الأعشى	٢٠٤
وكان دها قد صرم	الأعشى	٦٣٥
عكم تغشى قبل اليوم		٩٣٢
وكلام سي من صمم	المنقب العبدى	٤٣٠
قد لفها ولا غنم	الحطيم	٣٥١

(١) البيت غير منسوب في «مشكل القرآن» ٥، و«اللسان» ١٤/١٨، وهو في أمالي يزيد بن أبيات لبعض المتقدمين، وفي «صيون الأخبار» لأبي القمقام الأسدي ٩١/١، وفي «المقد الفريد» لهشام الرقاشي، وفي «البيان والتبيين» لهشام الرقاشي ٣١٦/٢ و٢٠٢/٣ و٨٥/٤.

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
ولا بـجـزار	لـم يـنـم	الحطم	٣٥١
بات يقاسيها	ممسوح القدم	الحطم	٣٥١
نـحـن آل الله	على إسرهم		٨٦
حرف النون			
وللموت تغذو	تبنى المساكن		٦٣٥
إذا مـذـلـت	الخليط المباين		٦٩٥
نأت بسعاد	بها فيهون	كثير	٤٨٤
أتيتك عارياً	بها رهين	الناقة الذبياني	٤٣
صـمـم إذا	بي الظنون	الناقة الذبياني	٦٥٨
قـد كـنـت	عندهم أذنوا	قعب بن ضمرة	١٥٢٨
والروح جبريل	مخاصم ميزائه		٤٨٥
يـسـار رب	عند الله مأمونا	عمران بن حطان	٧٧
باتت تشكي	قال آمينا		٣٦
الحمـد لله	بعد سبعينا	ليد	٣٤
إنـي كـأنـي	رسي ومسانا	أمية بن أبي الصلت	٥٨٩
ورجلة يضربون	القوم عريانا		٤٩٠
أو كـامـتـراز	الأبطال سجيناً	تميم بن مقبل	٦٦٧
وللمنايا نربي	متنه لينا	تميم بن مقبل	٢١٥
إن أجـزأت	الناس عمرانا		٦٣٥
والله لـنـ	المذكرا أحياناً		١٢٧٥
فاصدع بأمرك	التراب دفيناً	أبو طالب	٤٣١
وعرضت ديناً	منك عيوناً	أبو طالب	٤٣١
لولا الملامة	البرية ديتنا	أبو طالب	٤٣١
فلـو حـبـلا	بذاك مبيتنا	أبو طالب	٤٣١
تنحي فاجلسي	حبلا متينا		٢١٤
ألا لا يجهلن	منك العالمينا	الحطينة	٣٣
كأن سيوفنا	جهل الجاهلينا	عمرو بن كلثوم	٤٣
ذراعي عيطل	بأيدي لاعبيناً	عمر بن كلثوم	٤٦
بيوم كـريـهـة	لم تقرأ جنينا	عمر بن كلثوم	٣٠٥
تـذـكـر حـب	مراليك العيوناً	عمر بن كلثوم	٨٨٣
إذا ما الغانيات	قطع القرينا		١٢٠١
إن شـرخ	الحواجب والعيونا		٨٨٣
ينطق صائب	كذباً ومينا	عدي بن زيد	٦١
هـلا سـألت	كان جنوناً	حسان بن ثابت	٥٨٠
تسال جـواري	ما كان لحنا	مالك بن أسماء	١٣١٣
عجبت من	أين أيننا	عبيد بن الأبرص	١٣٧٨ ، ١١٥
يقول أهل	اسماعيلنا		٨٧
	إذ يوصينا		٨٢
	إسرائينا		٥٧

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
سريت بهم	وقد شجينا		١٣٧٥، ٩٤٩، ٢٩٩
بواد يمان	بأرسان		٦٦٦
فليت لنا	والشبهان		٩٥٤
ألم تعلمي	على طهين	الأحول الكندي	٨٤٢ و ٤١٧
رماني بأمر	لا أخون أميني		١٥٦٧
لا والسذي	الطوي رماني		١٣٤٠، ١٠
ما مرني	الرزء والحزن		١٤٠١
ومخلدات	الورى يكن		١٤٠١
ومما أدري	أقارز الكشبان		١٣٨٧
أالخير الذي	أيهما يليني	المثقب العبدى	١١٦٨، ٦٤٩ و ٢١٨، ١٠٥
إذا ما قمت	هو يبتغيني	المثقب العبدى	٢١٨، ١٠٥
ذمرت به	الرجل الحزين	المثقب	٦٠٩
إذا بلغتني	كالرجل اللعين	الشمخ	٩٧
وكلل أخ	بدم الوتين	الشمخ	١٤٨٠
أبالموت	إلا الفرقدان		٣١١
كانك من	تخوفيني	أبر حية النميري	١٠٧٣
بورك الميت	رجليه بشن	الناقة الذبياني	١٣٤٩، ٥٥٨
إن دهرراً	الرمان والزيتون		٤٥٧
ووجج	يهم بالإحسان		٨٦٥
قد جعلت	حقان		٦٧٤
يسأوي إلى	تبع القرين		٦٢٤
تيممت قيساً	ومجد باني		٦٦٥
وإن تستضيفوا	ذي شـزن	الأعشى	١٦٤
ومن شأنى	قد عـذن	الأعشى	٥٩٤
نحن نطحنهم	له أنكرن	الأعشى	١٨٤
	غبار النقمين	الأعشى	٤٤٨
حرف الهاء			
لله در	من تألهي	رؤية	٣٢
ومخفق من	في مهمه	رؤية	٤٣
ويقلن شيب	فقلت إنه	عبد الله بن قيس الرقيات	٩١٠
والموت أعظم	على الجيلة		١٠٣٦
قد جاء سيل	الجنة المغلة		١٤٦٣
أقتلهم ولا	العظيم الحاوية		٤٧٥
وشريت بردا	كنت هامة	يزيد بن مفرغ	٣٠٠
حرف الياء			
ألا أبلغ	فتاخركم غني		٥٠٨
أطرباً وأنت	دواري	المعاج ^(١)	٥٢
أترجو بنو	والفلاة ورائيا	سوار بن المضرب	٧٤٣

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
هنا تنفلافي	أشد لجاميا	الفرزدق	٦٩١
رايت نفسيلا	حتى بدا ليا	عبد الله بن معاوية	٢٢٧
نتى كملت	من المال باقيا	الناطقة الجمدي	٥٥٢
ألا قاتل	الستين الخواليا	عترة	٦٤٣
وقولك للشيء	ليت ذاليا	عترة	٦٤٣
فانبت يقطينا	ألني ضاحيا		١١٩٧
عنميرة ودع	للمرء ناهيا	سحيم بن الحساس	١١٧٨
لننقد طال	من شفايا		١٥٠٨
أمتوالنا لنوي	الدهر نبنيا		٥٣٠
أوردنهمسرها	والموت لاقيا	حسان بن ثابت	٦٤٧
أما ابن طوق	النجم حاديا	طليل الغنوي	٥٨
إنسي إذا ما	أعناقهم كالأرثيا		٧١٧
حرف الألف المقصورة			
يظن سعيد	به أرغى		٦٤٩
هما سيدانا	يسرت غناهما	أبو أسيلة الديبيري	١٤٦٧
شفاها من	الغنة سقاها	ليلى الأخيلية	٨٦٣ ، ١٤١
كادت وكدت	ما مضى		٩٠٢
أبيض لا	ولا يخون إلى		٥٠٤
نأذوهم	الانفنا		٣٨
بالخير خيرات	إلا أن تننا		٣٨
يا عصمتي	ويا يدي اليمني		١٠٦٤
لاصنت وجهاً	في الشري يبلى		١٠٦٤
وإن اللآله	خفتها قلاما	يزيد بن الصمق	٢١٦
على مطالهم	هو ابتنها		١٠٨٣
يشكرو إلي	فكلانا مبتلى		٨٦٥
نم جزاك	السموات العلى		٤٢٢
علفتها تبنا	همالة عينها		١٣٨٨ ، ٣٦٢

